الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الخامس والعشرون

الاجزاء من ٤٧٢ الى ٤٩٣

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
472	سورة الاسراء	الآية 32 الى الآية 46	2
473	=	الآية 47 الى الآية 50	388
474	=	الآية 51 الى الآية 59	882
475	=	الآية 60 الى الآية 70	1188
476	=	الآية 71 الى الآية 78	1519
477	=	الآية 79 الى الآية 82	1853
478	=	الآية 83 الى الآية 98	2137
479	=	الآية 99 الى الآية 106	2560
480	=	الآية 107 الى الآية 110	2747
481	سورة مريم	فصول مهمة	3292
482	=	الآية 1 الى الآية 6	3769
483	=	الآية 7 الى الآية 15	4073
484	=	الآية 16 الى الآية 29	4352
485	=	الآية 30 الى الآية 33	4759
486	=	الآية 34 الى الآية 40	4985
487	=	الآية 41 الى الآية 53	5193
488	=	الآية 54 الى الآية 58	5431
489	=	الآية 59 الى الآية 65	5673
490	=	الآية 66 الى الآية 72	6003
491	=	الآية 73 الى الآية 84	6238
492	=	الآية 85 الى الآية 98	6533
493	سورة طه	فصول مهمة	7240

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 32 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 46 ﴾ من نفس السورة

(4/472)

قوله تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان إنما محط حال المشركين العاجل ، وكان قد تقدم قولهم ﴿ أو يكون لك جنة من نخيل وعنب ﴾ [الإسراء : 91] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ [الكهف : 7] الآية ، وقوله تعالى : في حق فقراء المؤمنين الذين تقذروهم ﴿ ولا

تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 28] الآية واستمر إلى أن ختم بأن جنات المؤمنين عظيم حسنها من جهة الارتفاق ، عطف على قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ [الكهف : 29] قوله تعالى كاشفاً بضرب المثل أن ما فيه الكفار من الارتفاق العاجل ليس أهلاً لأن يفتخر به لأنه إلى زوال : ﴿ واضرب لهم ﴾ أي لهؤلاء الضعفاء والمتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين ، ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم :

﴿ مثلاً ﴾ لما آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا ، فاعتمدوا عليهم وركنوا إليه ولم يشكروا من آتاهم إياه عليه ، بل أداهم إلى الافتقار والتكبر على من زوى ذلك عنه إكراماً له وصيانة عنه ﴿ رجلين ﴾ فكأنه قيل : فما مثلهما ؟ فقيل : ﴿ جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لأحدهما ﴾ وهو المجعول مثلاً لهم ﴿ جنتين ﴾ أي بساتين يستر ما فيهما من الأشجار من يدخلهما على أي وضع من الأوضاع كانتا ، ومن جملة الأوضاع أن تكون إحداهما من السهل والأخرى في الجبل ، ليبعد عموم عاهة لهما لأنها إما من برد أو حر ﴿ من أعناب ﴾ لأنها من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر ، وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ﴿ وحففناهما ﴾ أي حططناهما بعظمتنا ﴿ بنخل ﴾ لأنها من أشجار البلاد الحارة ، وتصبر على البرد ، وربما منعت عن الأعناب بعض أسباب العاهات ، وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكأن النخل كالإكليل من وراء العنب ، وهو مما يؤثره الدهاقين لأنه في غاية البهجة والمنفعة ﴿ وجعلنا بينهما ﴾ أي أرضي الجنتين

﴿ زرعاً ﴾ لبعد شمول الآفة للكل ، لأن زمان الزرع ومكانه غير زمان أثمار الشجر المقدم ومكانه ، وذلك هو العمدة في القوت ،

(5/472)

فكانت الجنتان أرضاً جامعة لخير الفواكه وأفضل الأقوات ، وعمارتهما متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها ، مع سعة الأطراف ، وتباعد الأكناف ، وحسن الهيئات والأوصاف .

ولما كان الشجر قد يكون فاسداً من جهة أرضه ، نفى ذلك بقوله تعالى ؛ جواباً لمن كأنه قال : ما حال أرضهما المنتج لزكاء ثمرهما ؟ : ﴿ كلتا ﴾ أي كل واحدة من ﴿ الجنتين ﴾ المذكورتين ﴿ ءاتت أكلها ﴾ أي ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب ، كاملاً غير منسوب شيء منهما إلى نقص ولا رداءة ، وهو معنى : ﴿ ولم تظلم ﴾ أي تنقص حساً ولا معنى كمن يضع الشيء في غير موضعه ﴿ منه شيئاً ﴾ .

(6/472)

ولما كان الشجر ربما أضر بدوامه قلة السقي قال تعالى : ﴿ وفجرنا ﴾ أي تفجيراً يناسب عظمتنا ﴿ خلالهما نهراً ﴾ أي يمتد فيتشعب فيكون كالأنهار لتدوم طراوة الأرض ويستغني عن المطر عند القحط ؛ ثم زاد في ضخامة هذا الرجل فبين أن له غير هاتين الجنتين والزرع بقوله تعالى : ﴿ وكان له ﴾ أي صاحب الجنتين ﴿ ثمر ﴾ أي مال مثمر غير ما تقدم كثير ، ذو أنواع ليكون متمكناً من العمارة بالأعوان والآلات وجميع ما يريد ﴿ فقال ﴾ أي هذا الكافر ﴿ لصاحبه ﴾ أي المسلم المجعول مثلاً لفقراء المؤمنين ﴿ وهو ﴾ أي صاحب الجنان ﴿ يحاوره ﴾ أي يراجعه الكلام ، من حار يحور – إذا رجع افتخاراً عليه وتقبيحاً لحاله بالنسبة إليه ، والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون إلى الدنيا : ﴿ أنا أكثر منك مالاً ﴾ لما ترى من جناني وثماري ﴿ وأعز نفراً ﴾ أي ناساً يقومون معي في المهمات ، وينفرون عند الضرورات ، لأن ذلك لازم لكثرة المال ﴿ ودخل جنته ﴾ وحد لإرادة الجنس ودلالة على ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة ، وإشارة إلى أنه لا جنة له غيرها لأنه لا حظ له في الآخرة ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ ظالم لنفسه ﴾ بالاعتماد على ماله والإعراض عن ربه ؛ ثم استأنف بيان ظلمه بقوله : ﴿ قال ﴾ لما استولى عليه من طول أمله وشدة حرصه وتمادي غفلته واطراحه للنظر في العواقب بطول المهلة وسبوغ النعمة : ﴿ ما أظن أن تبيد ﴾ أي تهلك هلاكاً ظاهراً

مستولياً ﴿ هذه أبداً ﴾ ثم زاد في الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فقال : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ استلذاذاً بما هو فيه وإخلاداً إليه واعتماداً عليه .

(7/472)

ولما كان الإنسان مجبولاً على غلبة الرجاء عليه ، فإذا حصل له من دواعي الغنى وطول الراحة وبلوغ المأمول والاستدراج بالظفر بالسؤال ما يربيه ، ويثبت أصوله ويقويه ، اضمحل الخوف فلم يزل يتضاءل حتى لا يتلاشى فكان عدماً ، فقال تعالى حاكياً عن هذا الكافر ما أثمر له الرجاء من أمانه من سوء ما يأتي به القدر مقسماً : ﴿ ولئن رددت ﴾ أي ردني راد ﴿ إلى ربي ﴾ المحسن إلي في هذه الدار ، في السعة على تقدير قيامها الذي يستعمل في فرضه أداة الشك ﴿ لأجدن خيراً منها ﴾ أي هذه الجنة ؛ وقرأ ابن كثير وابن عامر بالتثنية للجنتين ﴿ منقلباً ﴾ أي من جهة الانقلاب وزمانه ومكانه ، لأنه ما أعطاني ذلك إلا باستحقاقي ، وهو وصف لي غير منفك في الدارين ، وإن لم يقولوا نحو هذا بألسنة مقالهم فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به ، فكأنه قيل : إن هذا لفي عداد البهائم حيث قصر النظر على الجزئيات ، ولم يجوز أن يكون التمويل استدراجاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 466 . 468 ﴾

(8/472)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) ﴾

(9/472)

اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغني فقيراً ، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية فقال : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ أي مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين في بني إسرائيل أحدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران في سورة الصافات في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ

مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ [الصافات : 51] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر أرضاً فقال المؤمن اللهم إني أشتري منك أرضاً في الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه داراً بألف فقال المؤمن : اللهم إني اشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال المؤمن اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحور العين ثم اشترى أخوه خدماً وضياعاً بألف فقال المؤمن : اللهم إني اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به ثم أصابه حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله وقوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ ، فاعلم أن الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات : الصفة الأولى : كونها جنة وسمى البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار وأصل الكلمة من الستر والتغطية ، والصفة الثانية : قوله : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أي وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين نظيره قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ [الزمر : 75] أي واقفين حول العرش محيطين به ، والحفاف جانب الشيء والأحفة جمع فمعنى قول القائل حف به القوم أي صاروا في أحفته وهي جوانبه قال الشاعر :

له لحظات في حفافي سريره . . إذا كرها فيها عقاب ونائل

قال صاحب "الكشاف" : حفوه إذا طافوا به ، وحففته بهم أي جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقوله : غشيته وغشيته به ، قال : وهذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين في كرومهم وهي أن يجعلوها محفوفة بالأشجار المثمرة ، وهو أيضاً حسن في المنظر .

الصفة الثالثة : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ والمقصود منه أمور .

أحدها : أن تكون تلك الأرض جامعة للأقوات والفواكه .

وثانيها : أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض .

وثالثها : أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة .

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان ، وكلتا اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان .

وإذا أضيفا إلى المظهر كانا بالألف في الأحوال الثلاثة كقولك جاءني كلا أخويك ، ورأيت كلا أخويك ، ومررت بكلا أخويك .

وجاءني كلتا أختيك ، ورأيت كلتا أختيك ، ومررت بكلتا أختيك ، وإذا أضيفا إلى

المضمر كانا في الرفع بالألف ، وفي الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالألف في الأحوال الثلاثة أيضاً .

وقوله : ﴿ أَتَتْ أُكُلَهَا ﴾ حمل على اللفظ لأن كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل أتتا على المعنى لجاز ، وقوله : ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أي لم تنقص والظلم النقصان ، يقول الرجل : ظلمني حقي أي نقصني .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ أي كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين .

وفي قراءة يعقوب وفجرنا مخففة وفي قراءة الباقين وفجرنا مشددة والتخفيف هو الأصل لأنه نهر واحد والتشديد على المبالغة لأن النهر يمتد فيكون كأنهار و ﴿ خلالهما ﴾ أي وسطهما وبينهما .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خلالكم ﴾ [التوبة : 47] .

(11/472)

ومنه يقال خللت القوم أي دخلت بين القوم .

الصفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ قرأ عاصم بفتح الثاء والميم في الموضعين

وهو جمع ثمار أو ثمرة ، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم في الحرفين والباقون بضم الثاء والميم في الحرفين ذكر أهل اللغة : أنه بالضم أنواع الأموال من الذهب والفضة وغيرهما ، وبالفتح حمل الشجر قال قطرب : كان أبو عمرو بن العلاء يقول : الثمر المال والولد ، وأنشد للحارث بن كلدة :

ولقد رأيت معاشرا . . قد أثمروا مالاً وولدا

وقال النابغه :

مهلاً فداء لك الأقوام كلهم . . ما أثمروه أمن مال ومن ولد

وقوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ أي أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثر .

(12/472)

وعن مجاهد الذهب والفضة : أي كان مع الجنتين أشياء من النقود ، ولما ذكر الله تعالى هذه الصفات قال بعده : ﴿ فَقَالَ لَهُ صاحبه وَهُوَ يحاوره أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾

والمعنى أن المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله وبالبعث والمحاورة مراجعة الكلام من قولهم : حار إذا رجع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ بلى ﴾ [الانشقاق : 14 ، 15] ، فذكر تعالى أن عند هذه المحاورة قال الكافر : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ

نَفَراً ﴾ والنفر عشيرة الرجل وأصحابه الذين يقومون بالذب عنه وينفرون معه ، وحاصل الكلام أن الكافر ترفع على المؤمن بجاهه وماله ، ثم إنه أراد أن يظهر لذلك المسلم كثرة ماله فأخبر الله تعالى عن هذه الحالة فقال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ وأراه إياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور وأخبره بصنوف ما يملكه من المال ، فإن قيل : لم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلنا : المراد أنه ليس له جنة ولا نصيب في الجنة التي وعد المتقون المؤمنون وهذا الذي ملكه في الدنيا هو جنته لا غير ولم يقصد الجنتين ولا واحداً منهما ، ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وهو اعتراض وقع في أثناء الكلام ، والمراد التنبيه على أنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى الكفران والجحود لقدرته على البعث كان واضعاً تلك النعم في غير موضعها ، ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ فجمع بين هذين ، فالأول قطعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبيد أبداً مع أنها متغيرة متبدلة .

(13/472)

فإن قيل : هب أنه شك في القيامة فكيف قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً مع أن الحدس يدل على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبة باطلة غير باقية ؟ قلنا : المراد أنها لا تبيد مدة

حياته ووجوده ، ثم قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة وانتصابه على التمييز ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ وقوله : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] والسبب في وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقاً له ، والاستحقاق باق بعد الموت فوجب حصول العطاء .

والمقدمة الأولى كاذبة فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتملية ، قرأ نافع وابن كثير خيراً منهما ، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين ، والباقون منها ، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التي دخلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 105.107 ﴾

(14/472)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين ﴾

الجنة : البستان ، فإذا جمع العنب والنخل وكان تحتها زرع فهي أجمل الجنان وأجداها نفعاً ، لثمر أعاليها وزرع أسافلها ، وهو معنى قوله ﴿ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ .

﴿ كلتا الجَنتين آتت أكلُها ﴾ أي ثمرها وزرعها ، وسماه أُكلاً لأنه مأكول .

﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي استكمل جميع ثمارها وزرعها .

﴿ وفجرنا خِلالهما نهراً ﴾ يعني أن فيهما أنهاراً من الماء ، فيكون ثمرها وزرعها بدوام الماء فيهما أوفي وأروى ، وهذه غاية الصفات فيما يجدي ويغل .

وفي ضرب المثل في هاتين الجنتين قولان :

أحدهما : ما حكاه مقاتل بن سليمان أنه إخبار الله تعالى عن أخوين كانا في بني إسرائيل ورثا عن أبيهما مالاً جزيلاً ، قال ابن عباس ثمانية آلاف دينار . فأخذ أحدهما حقه وهو مؤمن فتقرب به إلى الله تعالى ، وأخذ الآخر حقه منه وهو كافر فتملك به ضياعاً منها هاتان الجنتان ، ولم يتقرب إلى الله تعالى بشيء منه ، فكان من حاله ما ذكره الله من بعد ، فجعله الله تعالى مثلاً لهذه الأمة .

والقول الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، ليزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً .

قوله عز وجل : ﴿ وكان له ثمرٌ ﴾ قرأ عاصم بفتح الثاء والميم ، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم ، وقرأ الباقون ثُمُر بضم الثاء والميم . وفي اختلاف هاتين القراءتين بالضم والفتح قولان :

أحدهما : معناهما واحد ، فعلى هذا فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه الذهب والفضة ، قاله قتادة ، لأنها أموال مثمرة .

الثاني : أنه المال الكثير من صنوف الأموال ، قاله ابن عباس لأن تثميره أكثر

الثالث : أنه الأصل الذي له نماء ، قاله ابن زيد ، لأن في النماء تثميراً .

والقول الثاني : أن معناهما بالضم وبالفتح مختلف ، فعلى هذا في الفرق . بينهما ، أربعة أوجه :

(15/472)

أحدها : أنه بالفتح جمع ثمرة ، وبالضم جمع ثمار .

الثاني : أنه بالفتح ثمار النخيل خاصة ، وبالضم جميع الأموال ، قاله ابن بحر .

الثالث : أنه بالفتح ما كان ثماره من أصله ، وبالضم ما كان ثماره من غيره .

الرابع : أن الثمر بالضم الأصل ، وبالفتح الفرع ، قاله ابن زيد .

وفي هذا الثمر المذكور قولان :

أحدهما : أنه ثمر الجنتين المتقدم ذكرهما ، وهو قول الجمهور .

الثاني : أنه ثمر ملكه من غير جنتيه ، وأصله كان لغيره كما يملك الناس ثماراً لا يملكون أصولها ، قاله ابن عباس ، ليجتمع في ملكه ثمار أمواله وثمار غير أمواله فيكون أعم مِلكا .

﴿ فقال لصاحبه ﴾ يعني لأخيه المسلم الذي صرف ماله في القُرب طلباً للثواب في الآخرة ، وصرف هذا الكافر ماله فيما استبقاه للدنيا والمكاثرة .

﴿ وهو يحاوره ﴾ أي يناظره ، وفيما يحاوره فيه وجهان :

أحدهما : في الإيمان والكفر .

الثاني : في طلب الدنيا وطلب الآخرة ، فجرى بينهما ما قصة الله تعالى من قولهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(16/472)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾

(17/472)

الضمير في ﴿ لهم ﴾ عائد على الطائفة المتجبرة التي أرادت من النبي عليه السلام أن يطرد فقراء المؤمنين ﴿ الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ [الكهف : 28] وعلى أولئك

الداعين أيضاً ، فالمثل مضروب للطائفتين ، إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبر في قريش أو بني تميم على الخلاف المذكور أولاً ، والرجل المؤمن المقر بالربوبية ، هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم ﴿ وحففناهما ﴾ بمعنى وجعلنا ذلك لها من كل جهة ، تقول حفك الله بخير : أي عمك به من جهاتك ، و" الحفاف " الجانب من السرير والفدان ونحوه ، وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان موجوداً ، وعلى ذلك فسره أكثر أهل هذا التأويل ، ويحتمل أن يكون مضروباً بمن هذه صفته وإن لم يقع ذلك في وجود قط ، والأول أظهر ، وروي في ذلك أنهما كانا أخوين من بني إسرائيل ، ورثا أربعة آلاف دينار فصنع أحدهما بماله ما ذكر واشترى عبيداً وتزوج وأثرى ؛ وأنفق الآخر ماله في طاعات الله عز وجل حتى افتقر ، والتقيا ففخر الغني ووبخ المؤمن ، فجرت بينهما هذه المحاورة ، روي أنهما كانا شريكين حدادين ، كسبا مالاً كثيراً وصنعا نحو ما روي في أمر الأخوين ، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه ، وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد ، أن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين ، فباع أحدهما نصيبه من الآخر ، وأنفق في طاعة الله حتى عيره الآخر ، وجرت بينهما هذه المحاورة ، قال : فغرقها الله في ليلة وإياها عنى بهذه الآية ، وفي بسط قصصهما طول فاختصرته واقتصرت على معناه لقلة صحته ، ولأن في هذا ما يفي بفهم الآية ، وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله ، فإن المرء لا يكاد يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس : جنتا عنب أحاط بهما نخل ،

بينهما فسحة ، هي مزدرع لجميع الحبوب ، والماء الغيل يسقى جميع ذلك من النهر الذي قد جمل هذا المنظر ، وعظم النفع ، وقرب الكد ، وأغنى عن النواضح

(18/472)

وغيرها . وقرأ الجمهور "كلتا " ، وفي مصحف عبد الله "كلا " ، والتاء في "كلتا " منقلبة من واو عند سيبويه وهو بالتاء أو بغير التاء اسم مفرد واقع على الشيء المثنى ، وليس باسم مثنى ، ومعناه كل واحدة منهما و" الأكل " ثمرها الذي يؤكل منها ، قال الفراء : وفي قراءة ابن مسعود "كل الجنتين آتى أكله " ، وقوله ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي لم تنقص عن العرف الأتم الذي يشبه فيها ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

تظلمني مالي كذا لوى يدي . . . لوى يده الله الذي هو غالبه

وقرأ الجمهور " وفجّرنا " بشد الجيم ، وقرأ سلام ، ويعقوب وعيسى بن عمر .

" وفجَرنا " بفتح الجيم دون شد ، وقرأ الجمهور " نهْراً " بفتح الهاء . وقرأ أبو السمال ، والفياض بن غزوان ، وطلحة بن سليمان : " نهْراً " بسكون الهاء ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي وابن عباس ومجاهد وجماعة قراء المدينة ومكة " ثُمُر " و" بثُمُره " [الكهف : 42] بضم الثاء والميم ، جمع ثمار وقرأ أبو عمرو والأعمش وأبو رجاء

بسكون الميم فيهما تخفيفاً ، وهي في المعنى كالأولى ، ويتجه أن يكون جمع ثمرة كبدنة وبدن ، وقرأ عاصم " ثَمَر " وبثمره يفتح الميم والثاء فيهما ، وهي قراءة أبي جعفر والحسن وجابر بن زيد والحجاج ، واختلف المتأولون في " الثُمُر " بضم الثاء والميم ، فقال ابن عباس وقتادة : " الثُّمُر " جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، ويستشهد لهذا القول ببيت النابغة الذبياني : [البسيط]

وما أثّمر من مال ومن ولد . . . وقال مجاهد يراد بها الذهب والفضة خاصة ، وقال ابن زيد " الثُمُر " هي الأصول التي فيها الثمر .

(19/472)

قال القاضي أبو محمد : كأنها ثمار وثمر ككتاب وكتب ، وأما من قرأ بفتح الثاء والميم ، فلا إشكال في أن المعنى ما في رؤوس الشجر من الأكل ، ولكن فصاحة الكلام تقتضي أن يعبر إيجازاً عن هلاك الثمر والأصول بهلاك الثمر فقط ، فخصصها بالذكر إذ هي مقصود المستغل ، وإذ هلاك الأصول إنما يسوء منه هلاك الثمر الذي كان يرجى في المستقبل كما يقتضي قوله إن له " ثمراً " ، إن له أصولاً كذلك تقتضي الإحاطة المطلقة بالثمر ، ان الأصول قد هلكت ، وفي مصحف أبي " وآتيناه ثمراً كثيراً " وقرأ أبو رجاء " وكان له ثَمر " بفتح

الثاء وسكون الميم ، والمحاورة مراجعة القول ، وهو من حار يحور . واستدل بعض الناس من قوله ﴿ وأعز نفراً ﴾ على أنه لم يكن أخاه ، وقال المناقض أراد ب " النفر " العبيد والخول ، إذ هم الذين ينفرون في رغائبه ، وفي هذا الكلام من الكبر والزهو والاغترار ما بيانه يغني عن القول فيه ، وهذه المقالة بإزاء قول عيينة والأقرع للنبي صلى الله عليه وسلم نحن سادات العرب وأهل الوبر والمدر ، فنح عنا سلمان وقرناءه .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) ﴾

(20/472)

أفرد الجنة من حيث الوجود كذلك ، إذ لا يدخلهما معاً في وقت واحد ، و" ظلمه لنفسه " : كفره وعقائده الفاسدة في الشك في البعث ، فقد نص على ذلك قتادة وابن زيد ، وفي شكه في حديث العالم إن كانت إشارته ب ﴿ هذه ﴾ إلى الهيئة من السماوات والأرض وأنواع المخلوقات ، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط ، فإنما في الكلام تساخف واغترار مفرط وقلة تحصيل ، وكأنه من شدة العجب بل والسرور أفرط في وصفها بهذا القول ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنيا ، وظن أنه لم يمل له في دنياه إلا لكرامة يستوجبها في نفسه ، قال : فإن كان ثم رجوع كما يزعم فستكون حالي كذا وكذا ، وليست مقالة العاصي بن وائل

لخباب على حد هذه ، بل قصد العاصي الاستخفاف على جهة التصميم على التكذيب وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وابن الزبير ، وثبت في مصاحف المدينة " منهما " يريد الجنتين المذكورتين أولاً ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي والعامة ، وكذلك هو مصحف أهل البصرة " منها " يريد الجنة المدخولة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(21/472)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مَثَلاً رجلين ﴾

روى عطاء عن ابن عباس ، قال : هما ابنا ملك كان في بني إِسرائيل توفِّي وتركهما ، فاتخذ أحدهما الجِنان والقصور ، وكان الآخر زاهداً في الدنيا ، فكان إِذا عمل أخوه شيئاً من زينة الدنيا ، أخذ مثل ذلك فقدَّمه لآخرته ، حتى نَفِد ماله ، فضربهما الله عز وجل مثلاً للمؤمن والكافر الذي أبطرته النعمة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن المسلم لما احتاج ، تعرَّض لأخيه الكافر ، فقال الكافر : أين ما ورثتَ عن أبيك ؟ فقال : أنفقتُه في سبيل الله ، فقال الكافر : لكني ابتَعت به جِناناً

وغنماً وبقراً ، والله لا أعطيتك شيئاً أبداً حتى تتبع ديني ، ثم أخذ بيد المسلِم فأدخله جِنانه يطوف به فيها ، ويرغِّبه في دينه .

وقال مقاتل : اسم المؤمن يمليخا ، واسم الكافر قرطس ، وقيل : قطرس ، وقيل : هذا المَثَل [ضُرِبَ] لعيينة بن حصن وأصحابه ، ولسلمان وأصحابه .

قوله تعالى : ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ الحَفّ : الإِحاطة بالشيء ، ومنه قوله : ﴿ حافِّين من حول العرش ﴾ [الزمر : 75] .

والمعنى : جعلنا النخل مُطِيفاً بها .

وقوله : ﴿ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ إِعلام أن عمارتهما كاملة .

(22/472)

قوله تعالى : ﴿ كِلتا الجنتين آتت أُكُلَها ﴾ قال الفراء : لم يقل : آتتا ، لأن "كلتا" ثنتان لا تُفرد واحدتُهما ، وأصله : "كُلٌّ" ، كما تقول للثلاثة : "كُلٌّ" ، فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع ، وجاز توحيده على مذهب "كُلّ" ، وتأنيثه جائز للتأنيث الذي ظهر في "كلتا" ، وكذلك فافعل ب "كلا" و "كلتا" و "كُلّ" ، إذا أضفتَهُنَّ إلى مَعْرِفة وجاء الفعل بعدهن ، فوحِّد واجمع ، فمن التوحيد قوله تعالى : ﴿ وكُلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم : 96]

، ومن الجمع : ﴿ وكُلٌّ أَتَوه داخرين ﴾ [النمل : 87] ، والعرب قد تفعل ذلك أيضاً في "أي" فيؤنّثون ويذكِّرون ، قال الله تعالى : ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ [لقمان : 34] ، ويجوز في الكلام "بأيت أرض" ، وكذلك ﴿ في أيِّ صورة ما شاء ركّبَك ﴾ [الانفطار : 8] ، ويجوز في الكلام "في أيَّت" ، قال الشاعر :

بأي بلاءٍ أم بأيَّة نعمةٍ . . .

تقدَّم قبلي مسلمٌ والمهلَّب

قال ابن الأنباري : "كلتا" وإن كان واقعاً في المعنى على اثنتين ، فإن لفظه لفظ واحدة مؤنثة ، فغلب اللفظ ، ولم يستعمل المعنى ثقةً بمعرفة المخاطَب به ؛ ومن العرب من يؤثر المعنى على اللفظ ، فيقول : "كلتا الجنتين آتت أُكُلَها" ، ويقول آخرون : "كلتا الجنتين آتى أُكُلَه" ، لأن "كلتا" تفيد معنى "كُلّ" ، قال الشاعر :

وكلتاهما قد خطَّ لي في صَحيفتي . . .

فلا الموت أهواه ولا العيش أروح

يعني : وكلُّهما قد خط لي ، وقد قالت العرب : كلكم ذاهب ، وكلكم ذاهبون .

فوحَّدوا لِلَفظ "كُلّ" وجمعوا لتأويلها .

وقال الزجاج : لم يقل "آتتا" ، لأن لفظ "كلتا" لفظ واحدة ، والمعنى : كل واحدة منهما آتت

أكلها ﴿ ولم تظلم ﴾ أي : لم تنقص ﴿ منه شيئاً وفجرنا خلالهما نَهَراً ﴾ فأعلمَنَا أن شربهما كان من ماء نهر ، وهو من أغزر الشرب .

(23/472)

وقال الفراء : إنما قال : "فجَّرنا" بالتشديد ، وهو نَهَر واحد ، لأن النهر يمتد ، فكان التفجُّر فيه كلّه .

قرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : "وفَجَرْنا" بالتخفيف .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو المتوكل : "خِللهما" .

وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : "نهْراً" بسكون الهاء .

قوله تعالى : ﴿ وكان له ﴾ يعني : للأخ الكافر ﴿ ثَمَر ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "وكان له ثُمُر" ، "وأُحيط بثُمُره" بضمتين .

وقرأ عاصم : "وكان له ثَمَر" ، "وأُحيط بثَمَره" بفتح التاء والميم فيهما .

وقرأ أبو عمرو : "ثُمْر" و"بثُمْره" بضمة واحدة وسكون الميم .

قال الفراء : الثَّمَر ، بفتح الثاء والميم : المأكول ، وبضمها : المال .

وقال ابن الأنباري : الثَّمر ، بالفتح : الجمع الأول ، والثُّمُر ، بالضم : جمع الثَّمَر ، يقال : ثَمَر ،

وثُمُر ، كما يقال : أسَد ، وأُسُد ، ويصلح أن يكون الثُّمُر جمع الثِّمار ، كما يقال : حِمار وحُمُر ، وكِتاب وكُتُب ؛ فمن ضَمَّ ، قال : الثُّمُر أعم ، لأنها تحتمل الثمار المأكولة ، والأموال المجموعة .

قال أبو علي الفارسي : وقراءة أبي عمرو : "ثُمُر" يجوز أن تكون جمع ثمار ، ككتاب ، وكُتُب ، فتخفف ، فيقال : كُتْب ، ويجوز أن يكون "ثُمْر" جمع ثَمَرة ، كبَدَنة وبُدْن ، وخَشَبة ، وخُشْب .

ويجوز أن يكون ﴿ ثُمُر ﴾ واحداً ، كعُنُق ، وطُنُب .

وقد ذكر المفسرون في قراءة من ضم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المال الكثير من صنوف الأموال ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الذهب ، والفضة ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه جمع ثمرة ، قال الزجاج : يقال : ثَمَرة ، وثِمار ، وثمر .

فإن قيل : ما الفائدة في ذِكْر الثّمر بعد ذِكْر الجنَّتين ، وقد عُلم أن صاحب الجنة لا يخلو من ثمر ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لم يكن أصل الأرض ملكاً له ، وإنما كانت له الثمار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن ذِكْر الثّمر دليل على كثرة ما يملك من الثمار في الجنّتين وغيرهما ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : إنا قد ذكرنا أن المراد بالثمر الأموال من الأنواع ، وذكرنا أنها الذهب ، والفضّة ، وذلك يخالف الثمر المأكول ؛ قال أبو علي الفارسي : من قال : هو الذهب ، والوَرِق ، فإنما قيل لذلك : ثُمُر على التفاؤل ، لأن الثمر نماء في ذي الثمر ، وكونه هاهنا بالجَنى أشبه من الذهب والفضة .

ويقوي ذلك : ﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلّب كفَّيه على ما أنفق فيها ﴾ ، والإنفاق من الوَرِق ، لا من الشجر .

قوله تعالى : ﴿ فقال ﴾ يعني الكافر ﴿ لصاحبه ﴾ المؤمن ﴿ وهو يحاوره ﴾ أي : يراجعه الكلام ويجاوبه .

وفيما تحاورا فيه قولان .

أحدهما : أنه الإيمان والكفر .

والثاني : طلب الدنيا ، وطلب الآخرة .

فأما "النفر" فهم الجماعة ، ومثلهم : القوم والرهط ، [ولا واحد لهذه الألفاظ من لفظها .

وقال ابن فارس اللغوي] : النفر : عدة رجال من ثلاثة إلى العشرة .

وفيمن أراد بنَفَره ثلاثة أقوال .

أحدها : عبيده ، قاله ابن عباس .

والثاني : ولده ، قاله مقاتل .

والثالث : عشيرته ورهطه ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : ﴿ ودخل جنَّته ﴾ يعني : الكافر ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ بالكفر ؛ وكان قد أخذ بيد أخيه فأدخله معه ، ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ أنكر فَناء الدنيا ، وفَناء جنته ، وأنكر البعث والجزاء بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمةً ﴾ وهذا شك [منه] في البعث ، ثم قال : ﴿ ولئن رُدِدْتُ إلى ربّي ﴾ أي : كما تزعُم أنت .

قال [ابن عباس] : يقول : إن كان البعث حقاً ﴿ لأجدنَّ خيراً منها ﴾ قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "خيراً منها" ، وكذلك هي في مصاحف أهل البصرة والكوفة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : "خيراً منهما" بزيادة ميم على التثنية ، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والمدينة والشام .

(25/472)

قال أبو علي : الإِفراد أولى ، لأنه أقرب إِلى الجَنَّة المفردة في قوله : ﴿ ودخل جنته ﴾ ، والتثنية لا تمتنع ، لتقدم ذِكْر الجَنَّتين .

قوله تعالى : ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ أي : كما أعطاني هذا في الدنيا ، سيعطيني في الآخرة أفضل منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(26/472)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾

هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متّصل بقوله ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ .

واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما ؛ فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران في سورة "الصافات" في قوله ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات : 51] ، وَرِث كل واحد منهما

أربعة آلاف دينار ، فأنفق أحدُهما مالَه في سبيل الله وطلب من أخيه شيئاً فقال ما قال .

. .

؛ ذكره الثعلبيّ والقُشَيرِيّ .

وقيل : نزلت في النبيّ صلى الله عليه وسلم وأهل مكة .

وقيل : هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر .

وقيل : هو مَثَل لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابه ؛ شبّههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ؛ في قول ابن عباس .

وقال مقاتل : اسمه تمليخا .

والآخر كافر واسمه قرطوش .

وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات .

وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرىء قال : اسم الخَيِّر منهما تمليخا ، والآخر قرطوش ، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم ، وبالألف الثانية ثياباً فكسا العُراة ، وبالألف الثالثة طعاماً فأطعم الجُوّع ، وبنى أيضاً مساجد ، وفعل خيراً .

وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار ، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فنمَت له نماء مُفْرِطاً ، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى ؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ ، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي ، فجاءه فلم يَكدَ يصل إليه من غِلَظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ! فما صنعتَ بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى .

فقال : أئنك لمن المصدّقين ، ما أظن الساعة قائمة وما أراك إلا سفيهاً ، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان ، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال ، وذلك أني كَسَبْت وسفهت أنت ، أخرج عني .

ثم كان من قصة هذا الغنيّ ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسْبان .

وقد ذكر الثعلبيّ هذه القصة بلفظ آخر ، والمعنى متقارب .

قال عطاء : كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار .

وقيل : ورِثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها ، فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار ، فقال صاحبه : اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضا بألف دينار وإني اشتريت منك أرضا في

الجنة بألف دينار فتصدقَ بها ، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال : اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني أشتري منك داراً في الجنة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينار ، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار ، فقال : اللهم إن فلاناً تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينار .

ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار ، وإني أشتري منك خَدَماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينار .

(28/472)

ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لعلّ صاحبي ينالُني معروفه فأتاه فقال : ما فعل مالُك ؟ فأخبره قصته فقال : وإنك لمن المصدّقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئاً ثم قال له : أنت تعبد إله السماء ، وأنا لا أعبد إلا صنماً ؛ فقال صاحبه : والله لأعظَنّه ، فوعظه وذكّره وخوّفه .

فقال : سِرْ بنا نصطد السمك ، فمن صاد أكثر فهو على حق ؛ فقال له : يا أخي ! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن أو عقاباً لكافر .

قال : فأكرهه على الخروج معه ، فابتلاهما الله ، فجعل الكافرُ يرمي شبكته ويسمّي باسم

صنمه ، فتطلع متدفّقة سمكاً .

وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلُع له فيها شيء ؛ فقال له : كيف ترى أنا أكثر منك في الدنيا نصيباً ومنزلة ونَفَراً ، كذلك أكون أفضلَ منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقًّا .

قال : فضَجّ المَلَك الموكَّل بهما ، فأمر الله تعالى جبريلَ أن يأخذه فيذهب به إلى الجِنان فيرِيَه منازل المؤمن فيها ، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزّتك لا يضرّه ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا ؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال : وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا .

ثم إن الله تعالى توفّى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده ، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون ، فقال : ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يقول أئنّك لِمن المصَدّقِين ﴾ [الصافات : 51-52] " الآية ؛ فنادى منادٍ : يأهل الجنة ! هل أنتم مطَّلِعون فاطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم ؛ فنزلت ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً ﴾ .

بيّن الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة ، وبين حالهما في الآخرة في سورة "الصافات" في قوله "إني كان لي قرين .

يقول أئنك لِمن المصدِقِين إلى قوله لمثل هذا فليعمل العاملون" .

قال ابن عطية : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرةِ تنّيس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عيّره الآخر ، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى في ليلة ، وإياها عنى بهذه الآية .

وقد قيل : إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً ؛ ذكره الماوردي .

وسياق الآية يدلّ على خلاف هذا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما بنخل .

والحِفاف الجانب ، وجمعه أحِفّة ؛ ويقال : حَفَّ القوم بفلان يَحُفُّون حَفًّا ، أي طافوا به ؛ ومنه ﴿ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ [الزمر : 75] .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ أي جعلنا حول الأعناب النخل ، ووسط الأعناب الزرع ﴿ كِلْتَا الجنتين ﴾ أي كلّ واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ تامّا ، ولذلك لم يقل آتتا .

واختلف في لفظ "كِلْتا وكِلاَ" هل هو مفرد أو مثنّى ؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد ؛ لأن كِلا وكلتا في توكيد الاثنين نظير "كُلٍّ" في المجموع ، وهو اسم مفرد غير مثنى ؛ فإذا وليَ اسما ظاهراً كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة ، تقول : رأيت كِلا الرجلين

وجاءني كِلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين ؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب ، تقول : رأيت كِلَيْهما ومررت بكليهما ، كما تقول عليهما .

وقال الفراء : هو مثنًّى ، وهو مأخوذ من كُلٍّ فخفّفت اللام وزيدت الألف للتثنية .

وكذلك كلتا للمؤنث ، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد ، ولو تكلم به لقيل : كِلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان .

واحتج بقول الشاعر :

في كِلْتِ رجْليها سُلاَمى واحدَهْ . . .

كِلتاهما مَقْرونةٌ بزائدهْ

أراد في إحدى رجليها فأفرد .

(30/472)

وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة ؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياءً مع الاسم الظاهر ، ولأن معنى "كِلا" مخالف لمعنى "كل" لأن "كُلاًّ" للإحاطة و "كِلاَ" يدل على شيء مخصوص ، وأما هذا الشاعر فإنما حذف الألف للضرورة وقدّر أنها زائدة ، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة ، فثبت أنه اسم مفرد كَمِعَى ، إلا أنه وُضع

ليدل على التثنية ، كما أن قولهم "نحن" اسم مفرد يدل على اثنين فما فوقهما ، يدل على ذلك قول جرير :

كِلاَيَوْمَيْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ . . .

وإن لم نأتها إلاِ لِماما

فأخبر عن "كلا" بيوم مفرد ، كما أفرد الخبر بقوله "آتت" ولو كان مثنى لقال آتتا ، ويوما .

واختلف أيضاً في ألف "كلتا" ؛ فقال سيبويه : ألف "كلتا" للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كِلْوا ، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علَم التأنيث ، والألف "في كلتا" قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث ، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث .

وقال أبو عمر الجَرْمِيّ : التاء ملحقة والألف لام الفعل ، وتقديرها عنده : فِعْتَلٌ ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كِلْتَوِيّ ، فلما قالوا كِلَوِيّ وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مُجْرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أَخَوِيّ ؛ ذكره الجوهري .

قال أبو جعفر النحاس : وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى ، وأن تقول : كلتا الجنتين آتتا أكلهما ؛ لأن المعنى المختار كلتاهما آتتا .

وأجاز الفراء : كلتا الجنتين آتى أكله ، قال : لأن المعنى كل الجنتين .

قال : وفي قراءة عبد الله "كلّ الجنتين آتى أكله" .

والمعنى على هذا عند الفراء : كل شيء من الجنتين آتى أكله .

والأُكُل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر .

وكل ما يؤكل فهو أُكُل ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ [الرعد : 35] وقد تقدم .

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً ﴾ أي لم تنقص .

(31/472)

قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ﴾ أي أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر .

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق "ثَمَر" بفتح الثاء والميم ، وكذلك قوله ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ جمع ثمرة .

قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر والثمرات ، وجمع الثمر ثمار ؛ مثل جبل وجبال .

قال الفراء : وجمع الثمار ثُمُر ؛ مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر أثمار ؛ مثل أعناق وعنق .

والثمر أيضاً المال المُثَمَّر ؛ يخفف ويثقّل .

وقرأ أبو عمرو "وكان له ثُمْر" بضم الثاء وإسكان الميم ، وفسره بأنواع المال .

الباقون بضمها في الحرفين .

قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال .

وقد مضى في "الأنعام" نحو هذا مبيّناً .

وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال أخبرنا هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال : لو سمعت أحداً يقرأ "وكان له ثُمُر" لقطعت لسانه ؛ فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك ؟ فقال : لا ولاَ نِعْمَةَ عينٍ .

فكان يقرأ "ثُمُر" ويأخذه من جمع الثمر .

قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار ، ثم جمع ثمار على ثمر ؛ وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم ؛ لأن قوله ﴿ كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ يدل على أن له ثمراً .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه .

والمحاورة المجاوبة ، والتحاورُ التجاوب .

ويقال : كلمته فما أحار إليّ جواباً ، وما رجع إليّ حَوِيراً ولا حَوِيرة ولا مَحُورة ولا حِوَاراً ؛ أي ما ردّ جواباً .

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ النفر : الرهط وهو ما دون العشرة .

وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد ، حسبما تقدّم بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾

قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُرِيه إيّاها .

﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أي بكفره ، وهو جملة في موضع الحال .

ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه .

﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾ أنكر فناء الدار .

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي لا أحسب البعث كائناً .

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي ﴾ أي وإن كان بعثٌ فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه ؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر .

وفي مصاحف مكة والمدينة والشام "منهما" .

وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة "منها" على التوحيد ، والتثنية أولى ؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(33/472)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾

حفه : طاف به من جوانبه .

قال الشاعر :

يحفه جانباً نيق ويتبعه . . .

مثل الزجاجة لم يكحل من الرمد

وحففته به : جعلته مطيفاً به ، وحف به القوم صاروا في حفته ، وهي جوانبه .

كلتا : اسم مفرد اللفظ عند البصريين مثنى المعنى ومثنى لفظاً ، ومعنى عند البغداديين وتاؤه عند البصريين غير الجرمي بدل من واو فاصله كلوى ، والألف فيه للتأنيث وزائدة عند الجرمي ، والألف منقلبة عن أصلها ووزنها عنده فعيل .

المحاورة : مراجعة الكلام من حار إذا رجع .

البيدودة الهلاك ، ويقال منه : باد يبيد بيوداً وبيدودة .

قال الشاعر :

فلئن باد أهله . . .

لبما كان يوهل

﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا

بينهما زرعاً كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ .

قيل نزلت في أخوين من بني مخزوم الأسود بن عبد الأسود بن عبد ياليل وكان كافراً ، وأبي سلمة عبد الله بن الأسود كان مؤمناً .

وقيل : اخوان من بني إسرائيل فرطوس وهو الكافر وقيل : اسمه قطفير ، ويهوذا وهو المؤمن في قول ابن عباس .

وقال مقاتل : اسمه تمليخا وهو المذكور في الصافات في قوله ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ وعن ابن عباس أنهما ابنا ملك من بني إسرائيل أنفق أحدهما ماله في سبيل الله وكفر الآخر واشتغل بزينة الدنيا وتنمية ماله .

وعن مكي أنهما رجلان من بني إسرائيل اشتركا في مال كافر ستة آلاف فاقتسماها .

وروي أنهما كانا حدادين كسبا مالاً .

(34/472)

وروي أنهما ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار ، فاشترى الكافر أرضاً بألف وبني داراً بألف وتزوج امرأة بألف واشترى خدماً ومتاعاً بألف ، واشترى المؤمن أرضاً في الجنة بألف فتصدق به ، وجعل ألفاً صداقاً للحور فتصدق به ، واشترى الولدان المخلدين بألف فتصدق به ، ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله .

والضمير في ﴿ لهم ﴾ عائد على المتجبرين الطالبين من الرسول (صلى الله عليه وسلم) طرد الضعفاء المؤمنين ، فالرجل الكافر بإزاء المتجبرين والرجل المؤمن بإزاء ضعفاء المؤمنين ، وظهر بضرب هذا المثل الربط بين هذه الآية والتي قبلها إذ كان من أشرك إنما افتخر بماله وأنصاره ، وهذا قد يزول فيصير الغني فقيراً ، وإنما المفاخرة بطاعة الله والتقدير ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ قصة ﴿ رجلين ﴾ وجعلنا تفسير للمثل فلا موضع له من الإعراب ، ويجوز أن يكون موضعه نصباً نعتاً لرجلين .

وأبهم في قوله ﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ وتبين أنه هو الكافر الشاك في البعث ، وأبهم تعالى مكان الجنتين إذ لا يتعلق بتعيينه كبير فائدة .

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين وكانتا الأخوين ، فباع أحدهما نصيبه من الآخر وأنفقه في طاعة الله حتى عيره الآخر ، وجرت بينهما هذه المحاورة قال : فغرقها الله في ليلة وإياهما عنى بهذه الآية .

قال ابن عطية : وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله فإن المرء لا يكاد يتخيل أجل منهما في مكاسب الناس جنتا عنب أحاط بهما نخل بينهما فسحة هي مزدرع لجميع الحبوب والماء المعين ، يسقى جميع ذلك من النهر .

وقال الزمخشري : ﴿ جنتين من أعناب ﴾ بساتين من كروم ، ﴿ وحففناهما ﴾ ﴿ بنخل وجعلنا ﴾ النخل محيطاً بالجنتين ، وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة انتهى .

(35/472)

وقرأ الجمهور ﴿ كلتا الجنتين ﴾ وفي مصحف عبد الله كلا الجنتين ، أتى بصيغة التذكير لأن تأنيث الجنتين مجازي ، ثم قرأ ﴿ آتت ﴾ فأنث لأنه ضمير مؤنث ، فصار نظير قولهم طلع الشمس وأشرقت .

وقال الفراء في قراءة ابن مسعود : كل الجنتين آتى أكله انتهى فأعاد الضمير على كل .

وقال الزمخشري : جعلها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه ، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينهما مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق ، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب ، فجعله

أفضل ما يسقى به وهو السيح بالنهر الجاري فيها والأكل الثمر .

وقرأ الجمهور ﴿ وفجرّنا ﴾ بتشديد الجيم .

وقال الفراء : إنما شدد ﴿ وفجرّنا ﴾ وهو نهر واحد لأن النهر يمتد فكان التفجر فيه كله أعلم الله تعالى أن شربهما كان من نهر واحد وهو أغزر الشرب .

وقرأ الأعمش وسلام ويعقوب وعيسى بن عمر بتخفيف الجيم وكذا قرأ الأعمش في سورة القمر ، والتشديد في سورة القمر أظهر لقوله ﴿ عيوناً ﴾ وقوله هنا ﴿ نهراً ﴾ وانتصب ﴿ خلالهما ﴾ على الظرف أي وسطهما ، كان النهر يجري من داخل الجنتين .

وقرأ الجمهور ﴿ نهراً ﴾ بفتح الهاء .

وقرأ أبو السمال والفياض بن غزوان وطلحة بن سليمان بسكون الهاء .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن عامر وحمزة والكسائي وابن كثير ونافع وجماعة قراء المدينة : ﴿ ثمر ﴾ وبثمره بضم الثاء والميم جمع ثمار .

وقرأ الأعمش وأبو رجاء وأبو عمرو بإسكان الميم فيهما تخفيفاً أو جمع ثمرة كبدنة وبدن .

وقرأ أبو جعفر والحسن وجابر بن زيد والحجاج وعاصم وأبو حاتم ويعقوب عن رويس عنه بفتح الثاء والميم فيهما .

وقرأ رويس عن يعقوب ﴿ ثمر ﴾ بضمهما وبثمره بفتحهما فيمن قرأ بالضم .

قال ابن عباس وقتادة الثمر جميع المال من الذهب والحيوان وغير ذلك .

وقال النابغة :

مهلاً فداء لك الأقوام كلهم . . .

وما أثمروا من مال ومن ولد

(36/472)

وقال مجاهد : يراد بها الذهب والفضة خاصة .

وقال ابن زيد : هي الأصول فيها الثمر .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الثمر المال ، فعلى هذا المعنى أنه كانت له إلى الجنتين أموال كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما ، فكان متمكناً من عمارة الجنتين .

وأما من قرأ بالفتح فلا إشكال أنه يعني به حمل الشجر .

وقرأ أبو رجاء في رواية ﴿ ثمر ﴾ بفتح الثاء وسكون الميم ، وفي مصحف أُبيّ وآتيناه ثمراً كثيراً ، وينبغي أن يجعل تفسيراً .

ويظهر من قوله ﴿ فقال لصاحبه ﴾ أنه ليس أخاه ، ﴿ وهو يحاوره ﴾ جملة حالية ، والظاهر أن ذا الحال هو القائل أي يراجعه الكلام في إنكاره البعث ، وفي إشراكه بالله .

وقيل : هي حال من صاحبه أي المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء إلى الله وإلى الإيمان

بالبعث ، والظاهر كون أفعل للتفضيل وأن صاحبه كان له مال ونفر ولم يكن سبروتاً كما ذكر أهل التاريخ ، وأنه جاء يستعطيه ويدل على ذلك كونه قابله بقوله ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴾ وهذا على عادة الكفار في الافتخار بكثرة المال وعزة العشيرة والتكبر والاغترار بما نالوه من حطام الدنيا ، ومقالته تلك لصاحبه بإزاء مقالة عيينة والأقرع للرسول (صلى الله عليه وسلم) : نحن سادات العرب وأهل الوبر والمدر ، فنحِّ عنا سلمان وقرناءه .

وعنى بالنفر أنصاره وحشمه .

وقيل : أولاداً ذكوراً لأنهم ينفرون معه دون الإناث ، واستدل على أنه لم يكن أخاه بقوله : ﴿ وأعز نفراً ﴾ إذ لو كان أخاه لكان نفره وعشيرته نفر أخيه وعشيرته ، وعلى التفسيرين السابقين لا يرد هذا .

أما من فسر النفر بالعشيرة التي هي مشتركة بينهما فيرد ، وأفرد الجنة في قوله ﴿ ودخل جنته ﴾ من حيث الوجود كذلك لأنه لا يدخلهما معاً في وقت واحد .

(37/472)

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلت : معناه ودخل ما هو جنته ما له جنة غيرها ، يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المتقون فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما انتهى .

ولا يتصور ما قال لأن قوله ودخل جنته إخبار من الله تعالى بدخول ذلك الكافر جنته فلا بد أن قصد في الإخبار أنه دخل إحدى جنتيه إذ لا يمكن أن يدخلهما معاً في وقت واحد ، والمعنى ﴿ ودخل جنته ﴾ يري صاحبه ما هي عليه من البهجة والنضارة والحسن .

﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ جملة حالية أي وهو كافر بنعمة ربه مغتر بما ملكه شاك في نفاد ما خوله .

وفي البعث الذي حاوره فيه صاحبه ، والظاهر أن الإشارة بقوله ﴿ هذه ﴾ إلى الجنة التي دخلها ، وعنى بالأبد أبد حياته وذلك لطول أمله وتمادي غفلته ، ولحسن قيامه عليها بما أوتي من المال والخدم فهي باقية مدة حياته على حالها من الحسن والنضارة ، والحس يقتضي أن أحوال الدنيا بأسرها غير باقية أو يكون قائلاً بقدم العالم ، وأن ما حوته هذه الجنة إن فنيت أشخاص أثمارها فتخلفها أشخاص أخر ، وكذا دائماً .

ويبعد قول من قال : يحتمل أن يشير بهذه إلى الهيئة من السموات والأرض وأنواع المخلوقات ، ودل كلامه على أن المحاورة التي كانت بينهما هي في فناء هذا العالم الذي هذه الجنة جزء منه ، وفي البعث الأخروي أن صاحبه كان تقرر له هذان الأمران وهو يشك فيهما .

ثم أقسم على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وقياس الأخرى على الدنيا وكما يزعم صاحبه ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا تطمعاً ، وتمنياً على الله ، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده ، وأنه ما أولاه الجنتين في الدنيا إلاّ لاستحقاقه ، وأن معه هذا الاستحقاق أين توجه كقوله ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ وأما ما حكى الله تعالى عما قاله العاص بن وائل لأوتين مالاً وولداً فليس على حد مقالة هذا لصاحبه لأن العاصي قصد الاستخفاف وهو مصمم على التكذيب ، وهذا قال ما معناه إن كان ثم رجوع فسيكون حالي كذا وكذا .

وقرأ ابن الزبير وزيد بن عليّ وأبو بحرية وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد وابن مناذر ونافع وابن كثير وابن عامر منهما على التثنية وعود الضمير على الجنتين ، وكذا في مصاحف مكة والمدينة والشام .

وقرأ الكوفيون وأبو عمرو ﴿ منها ﴾ على التوحيد وعود الضمير على الجنة المدخولة وكذا في مصاحف الكوفة والبصرة ، ومعنى ﴿ منقلباً ﴾ مرجعاً وعاقبة أي منقلب

الآخرة لبقائها خير من منقلب الدنيا لزوالها ، وانتصب ﴿ منقلباً ﴾ على التمييز المنقول من المبتدأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(39/472)

وقال أبو السعود :

﴿ واضرب لَهُم ﴾ أي للفريقين الكافر والمؤمن ﴿ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ مفعولان لاضربْ أولُهما ثانيهما لأنه المحتاجُ إلى التفصيل والبيان أي اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث أحوالُهما المستفادةُ مما ذكر آنفاً من أن للأولين في الآخرة كذا بل من حيث عصيانُ الأولين مع تقلبهم في نعم الله تعالى وطاعةِ الآخرين مع مكابدتهم مشاقَّ الفقر مثلاً حالَ رجلين مقدرَين أو محققَين هما أخوان من بني إسرائيل أو شريكان : كافرٌ اسمُه قطروس ومؤمنٌ اسمه يهوذا اقتسما ثمانيةَ آلافِ دينار فاشترى الكافرُ بنصيبه ضِياعاً وعَقاراً وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبارِّ فآل أمرُهما إلى ما حكاه الله تعالى ، وقيل : هما أخوان من بني مخزومٍ كافرٌ هو الأسودُ بن عبد اللَّه بن عبد الأسد زوجُ أم سلمة رضي الله عنها أولاً ﴿ جَعَلْنَا لِاحَدِهِمَا ﴾ وهو الكافر ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ بساتين ﴿ مِّنْ أعناب ﴾ من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيانٌ للتمثيل أو صفةٌ لرجلين ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أي جعلنا النخل

محيطةً بهما مؤزَّراً بها كرومُهما ، يقال : حفّه القومُ إذا طافوا به وحففتُه بهم جعلتُهم حافّين حوله فيزيده الباء مفعولاً آخر كقولك : غشّيتُه به ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا ﴾ وسطهما ﴿ زَرْعًا ﴾ ليكون كلٌّ منهما جامعاً للأقوات والفواكهِ متواصلَ العِمارة على الهيئة الرائقةِ والوضعِ الأنيق .

(40/472)

﴿ كِلْتَا الجنتين اتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ثمرَها وبلغت مبلغاً صالحاً للأكل ، وقرىء بسكون الكاف ، وقرىء كلُّ الجنتين آتى أكُله ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ ﴾ لم تنقُص من أُكُلها ﴿ شَيْئاً ﴾ كما يعهد ذلك في سائر البساتينِ فإن الثمارَ غالباً تكثُر في عام وتقِلُّ في آخر ، وكذا بعضُ الأشجارِ يأتي بالثمر في بعض الأعوامِ دون بعض ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما ﴾ فيما بين كلَ من الجنتين ﴿ نَهَراً ﴾ على حِدَة ليدوم شربُهما ويزيد بهاؤهما ، وقرىء بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجيرِ النهر عن ذكر إيتاءِ الأكلِ مع أن الترتيب الخارجيَّ على العكس للإيذان باستقلال كلَ من إيتاء الأكل وتفجيرِ النهر في تكميل محاسنِ الجنتين كما في قصة البقرة ونحوها ، ولو عُكس لانفهم أن المجموعَ خَصلةٌ واحدة بعضُها مترتبٌ على بعض فإن إيتاءَ الأكلِ متفرِّعٌ على السقْي عادةً ، وفيه إيماءٌ إلى أن إيتاء الأكلِ لا يتوقف على السقى كقوله تعالى : ﴿

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ لصاحب الجنتين ﴿ ثَمَرٌ ﴾ أنواعٌ من المال غيرُ الجنتين ، من ثمر ماله إذا كثّره ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو جميعُ المال من الذهب والفضة والحيوانِ وغير ذلك ، وقال مجاهد : هو الذهبُ والفضة خاصة ﴿ فَقَالَ لصاحبه ﴾ المؤمن ﴿ وَهُوَ ﴾ أي القائلُ ﴿ يحاوره ﴾ أي صاحبَه المؤمنَ وإن جاز العكسُ أي يراجعه في الكلام من حار إذا رجع ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ حشَماً وأعواناً أو أولاداً ذُكوراً لأنهم الذين ينفِرون معه .

(41/472)

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ التي شُرحت أحوالُها وعَدَدُها وصفاتُها وهيآتُها ، وتوحيدها إما لعدم تعلق الغرَضِ بتعددها ، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى ، وإما لأن الدخولَ يكون في واحدة فواحدة ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ ضارٌّ لها بعُجبه وكفره ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من ذكر دخولِ جنته حالَ ظلمِه لنفسه ، كأنه قيل : فماذا قال إذ ذاك ؟ فقيل قال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه ﴾ الجنةُ أي تفنى ﴿ أَبَدًا ﴾ لطول أمِله وتمادي غفلتِه واغترارِه بمُهلته ، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظةِ صاحبِه وتذكيرِه بفناء جنّتيه ونهيِه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات .

﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ كائنةً فيما سيأتي ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾ بالبعث عند قيامها كما تقول ﴿ إلى ربّى لاجِدَنَّ ﴾ يومئذ ﴿ خَيْراً مّنْهَا ﴾ أي من هذه الجنةِ ، وقرىء منهما أي من الجنتين ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ مرجعاً وعاقبةً ، ومدارُ هذا الطمعِ واليمينِ الفاجرةِ اعتقادٌ أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامتِه عليه سبحانه ولم يدرِ أن ذلك استدراجٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(42/472)

وقال الآلوسى :

﴿ واضرب لَهُم ﴾

للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي والكفرة الذين طلبوا طردهم ﴿ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ مفعولان لاضرب ثانيهما أولهما لأنه المحتاج إلى التفصيل والبيان قاله بعضهم ، وقد مر تحقيق هذا المقام فتذكر ، والمراد بالرجلين إما رجلان مقدران على ما قيل وضرب المثل لا يقتضي وجودهما وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه ، فقيل هما أخوان من بني إسرائيل أحدهما كافر اسمه فرطوس ، وقيل اسمه قطفير والآخر مؤمن اسمه يهوذا في قول ابن عباس .

وقال مقاتل : اسمه يمليخا ، وعن ابن عباس أنهما ابنا ملك من بني إسرائيل أنفق أحدهما ماله في سبيل الله تعالى وكفر الآخر واشتغل بزينة الدنيا وتنمية ماله ، وروي أنهما كانا حدادين كسبا مالاً ؛ وروي أنهما ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فاشترى الكافر أرضاً بألف فقال المؤمن : اللهم أنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه داراً بألف فقال : اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال : اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحور فتصدق به ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف فقال : اللهم إني أشتري منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله ، وقيل : هما أخوان من بني مخزوم كافر هو الأسود بن الأسد ومؤمن هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والمراد ضربهما مثلاً للفريقين المؤمنين والكافرين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفاً من أن للمؤمنين في الآخرة كذا وللكافرين فيها كذا بل من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله تعالى وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر أي اضرب لهم مثلاً من حيثية العصيان مع النعمة والطاعة مع الفقر حال رجلين ﴿

جَعَلْنَا لِاحَدِهِمَا ﴾ وهو الكافر ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ بستانين لم يعين سبحانه مكانهما إذ لا يتعلق بتعيينه كبير فائدة .

(44/472)

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه عجائب البلاد أن بحيرة تينس كانت هاتين الجنتين فجرى ما جرى ففرقهما الله تعالى في ليلة واحدة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يعلم منه قول آخر ، والجملة بتمامها تفسير للمثل فلا موضع لها من الإعراب ، ويجوز أن تكون في موضع الصفة لرجلين فموضعها النصب ﴿ مِّنْ أعناب ﴾ من كروم متنوعة فالكلام على ما قيل إما على تقدير مضاف وإما الأعناب فيه مجاز عن الكروم وهي أشجار العنب ، والمفهوم من ظاهر كلام الراغب أن العنب مشترك بين الثمرة والكرم وعليه فيراد الكروم من غير حاجة إلى التقدير أو ارتكاب المجاز ، والداعي إلى إرادة ذلك أن الجنة لا تكون من ثمر بل من شجر ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أي جعلنا النخل محيطة بهما مطيفة بجفافيهما أي جانبيهما مؤزراً بها كرومهما يقال حفه القوم إذا طافوا به وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولاً آخر كقولك غشيته به ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا ﴾ وسطهما ﴿ زَرْعًا ﴾ لتكونا جامعتين للأقوات والفواكه متواصلتي العمارة على الهيئة

الرائقة والوضع الأنيق .

﴿ كِلْتَا الجنتين أَتَتْ أُكُلَهَا ﴾

ثمرها وبلغ مبلغاً صالحاً للأكل ، و﴿ كِلْتَا ﴾ اسم مفرد اللفظ مثنى المعنى عند البصريين وهو المذهب المشهور ومثنى لفظاً ومعنى عند البغداديين وتاؤه منقلبة عن واو عند سيبويه فاصلة كلوى فالألف فيه للتأنيث .

ويشكل على هذا إعرابه بالحروف بشرطه ، ويجاب بما أجيب به عن الإشكال في الأسماء الخمسة .

وعند الجرمي الألف لام منقلبة عن أصلها والتاء زائدة للتأنيث .

ويرد عليه أنه لا يعرف فعتل وأن التاء لا تقع حشواً ولا بعد ساكن صحيح ؛ وعلى المشهور يجوز في ضميره مراعاة لفظه ومراعاة معناه وقد روعي الأول هنا والثاني فيما بعد .

(45/472)

وفي مصحف عبد الله ﴿ كَلاَّ الجنتين اِتى ﴾ بصيغة التذكير لأن تأنيث الجنتين مجازي ثم قرأ ﴿ اتَتْ ﴾ فأنث لأنه ضمير مؤنث ، ولا فرق بين حقيقية ومجازية فالتركيب نظير قولك : طلع الشمس وأشرقت وقال : إن عبد الله قرأ ﴿ كُلُّ الجنتين أتى أَكَلَهُ ﴾ فذكر

وأعاد الضمير على كل .

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ ﴾ أي لم تنقص من أكلها ﴿ شَيْئاً ﴾ من النقص على خلاف ما يعهد في سائر البساتين فإن الثمار غالباً تكثر في عام وتقل في عام وكذا بعض الأشجار تأتي بالثمار في بعض الأعوام دون بعض ، وجوز أن يكون ﴿ تَظْلِم ﴾ متعدياً و ﴿ شَيْئاً ﴾ مفعوله والمآل واحد ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما ﴾ أي فيما بين كلتا الجنتين ﴿ نَهَراً ﴾ ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما ، قال يحيى بن أبي عمرو الشيباني : وهذا النهر هو المسمى بنهر أبي فرطس وهو على ما قال ابن أبي حاتم نهر مشهور في الرملة ، وقيل المعنى فجرنا فيما بين كل من الجنتين نهراً على حدة فيكون هناك نهران على هذا ولا يخفى أنه خلاف الظاهر ، وتشديد فجر قيل للمبالغة في سعة التفجير ، وقال الفراء : لأن النهر ممتد فكأنه أنهار .

وقرأ الأعمش .

وسلام .

ويعقوب .

وعيسى بن عمر ﴿ فجرنا ﴾ بالتخفيف على الأصل ، وأقر أبو السمال .

والعياض ابن غزوان .

وطلحة بن سليمان ﴿ خلالهما نَهَراً ﴾ بسكون الهاء وهو لغة جارية فيه وفي نظائره ، ولعل تأخير ذكر التفجير عن ذكر الإيتاء مع أن الترتيب الخارجي على العكس للإيذان

باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين كما في قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة ، وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي كقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ [النور : 35] قاله شيخ الإسلام :

﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ أي للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين ﴿ ثَمَرٌ ﴾ أنواع المال كما في "القاموس" .

(46/472)

وغيره ويقال : ثمر إذا تمول ، وحمله على حمل الشجر كما فعل أبو حيان .

وغيره غير مناسب للنظم .

وقرأ ابن عباس .

ومجاهد .

وابن عامر .

وحمزة .

والكسائي .

وابن كثير .

ونافع .

وقراء المدينة ﴿ ثَمَرٌ ﴾ بضم الثاء والميم ، وكذا في ﴿ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] الآتي وهو جمع ثمار بكسر الثاء جمع ثمر بفتحتين فهو جمع الجمع ومعناه على نحو ما تقدم أي أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغيرها ، وبذلك فسره ابن عباس .

وقتادة وغيرهما ، وقال مجاهد .

يراد به الذهب والفضة خاصة ، وقرأ الأعمش .

وأبو رجاء .

وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم تخفيفاً هنا وفيما بعد والمعنى على ما سمعت ، وقرأ أبو رجاء في رواية ﴿ ثَمَرٌ ﴾ بالفتح والسكون .

وفي مصحف أبي وحمل على التفسير ﴿ وَءاتَيْنَاهُ خَيْراً كَثِيراً ﴾ ﴿ فَقَالَ لصاحبه ﴾ المؤمن ، والمراد بالصاحب المعنى اللغوي فلا ينافي هذا العنوان القول بأنهما كانا أخوين خلافاً لمن وهم ﴿ وَهُوَ ﴾ أي القائل ﴿ يحاوره ﴾ أي يحاور صاحبه فالجملة في موضع الحال من القائل ، والمحاورة مراجعة الكلام من حار إذا رجع أي يراجعه الكلام في إنكاره البعث وإشراكه بالله تعالى ، وجوز أن تكون الجملة حالاً من صاحبه فضمير ﴿ هُوَ ﴾ عائد عليه وضمير صاحبه عائد على القائل أي والصاحب المؤمن يراجع بالوعظ والدعوة

إلى الله عز وجل ذلك الكافر القائل له ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ حشماً وأعواناً ، وقيل : أولاداً ذكوراً ، وروي ذلك عن قتادة .

(47/472)

ومقاتل ، وأيد بمقابلته بأقل منك مالاً وولداً وتخصيص الذكور لأنهم الذين ينفرون معه لمصالحه ومعاونته ، وقيل : عشيرة ومن شأنهم أنهم ينفرون مع من هو منهم ، واستدل بذلك على أنه لم يكن أخاه لأن العشيرة مشتركة بينهما وملتزم الاخوة لا يفسر بذلك ، ونصب ﴿ مالاف ونفراً ﴾ على التمييز وهو على ما قيل محول عن المبتدأ ، والظاهر أن المراد من أفعل التفضيل معناه الحقيقي وحينئذٍ يرد بذلك ما في بعض الروايات من أن الأخ المؤمن بقي بعد التصدق بماله فقيراً محتاجاً فسأل أخاه الكافر ولم يعطه ووبخه على التصدق .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾

أي كل ما هو جنة له يتمتع بها بناءاً على أن الإضافة للاستغراق والعموم فتفيد ما أفادته التثنية مع زيادة وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير ذلك ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون وإلى هذا ذهب الزمخشري وهو معنى لطيف دق تصوره على أبي حيان فتعقبه بما

تعقبه .

واختار أن الإفراد لأن الدخول لا يمكن أن يكون في الجنتين معاً في وقت واحد وإنما يكون في واحدة واحدة وهو خال عما أشير إليه من النكتة .

وكذا ما قيل إن الإفراد لاتصال إحداهما بالأخرى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال في قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لِاحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ [الكهف : 32] الخ الجنة البستان فكان له بستان واحد وجدار واحد وكان بينهما نهر فلذلك كان جنتين وسماه سبحانه جنة من قبل الجدار المحيط به وهو كما ترى ، والذي يدل عليه السياق والمحاورة أن المراد ودخل جنته مع صاحبه ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ جملة حالية أي وهو ضار لنفسه بكفره حيث عرضها للهلاك وعرض نعمتها للزوال أو واضع الشيء في غير موضعه حيث كان اللائق به الشكر والتواضع لا ما حكى عنه .

(48/472)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال إذ ذاك ؟ فقيل قال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ أي تهلك وتفنى يقال باد يبيد بيدا وبيودا وبيدودة إذا هلك ﴿ هذه ﴾ أي الجنة ﴿ أَبَدًا ﴾ أي طول الحياة فالمراد بالتأبيد

طول المكث لا معناه المتبادر ، وقيل يجوز أن يكون أراد ذلك لأنه لجهله وإنكاره قيام الساعة ظن عدم فناء نوعها وإن فنى كل شخص من أشجارها نحو ما يقوله الفلاسفة القائلون بقدم العالم في الحركات الفكلية وليس بشيء ، وقيل ما قصد إلا أن هذه الجنة المشاهدة بشخصها لا تفنى على ما يقوله الفلاسفة على المشهور في الأفلاك أنفسها وكأن حب الدنيا والعجب بها غشي على عقله فقال ذلك وإلا فهو مما لا يقوله عاقل وهو مما لا يرتضيه فاضل ، وقيل ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى الأجرام العلوية والأجسام السفلية من السموات والأرض وأنواع المخلوقات أو إشارة إلى الدنيا والمآل واحد والظاهر ما تقدم ، وأياً ما كان فلعل هذا القول كان منه بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الصالحات الباقيات ، ولعله خوفه أيضاً بالساعة فقال له : ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ أي كائنة فيما سيأتي فالقيام الذي هو من صفات الأجسام مجاز عن الكون والتحقق لكنه جار في العرف مجرى الحقيقة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّى ﴾ بالبعث عند قيامها كما زعمت ﴿ لاجِدَنَّ ﴾ حينئذٍ ﴿ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ أي من هذه الجنة .

وقرأ ابن الزبير .

وزيد بن علي .

وأبو بحرية .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وابن محيصن .

وحميد .

وابن مناذر ونافع .

وابن كثير .

(49/472)

وابن عامر ﴿ مِنْهُمَا ﴾ بضمير التثنية وكذا في مصاحف مكة والمدينة والشام أي من الجنتين ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة لفناء الأولى وبقاء الأخرى على زعمك ، وهو تمييز محول من المبتدأ على ما نص عليه أبو حيان ، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه وهذا كقوله تعالى حكاية ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصلت : 50] ولم يدر أن ذلك استدراج ، وكأنه لسبق ما يشق عليه فراقه وهي الجنة التي ظن أنها لا تبيد جاء هنا ﴿ رُّدِدتُّ ﴾ ولعدمه فيما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى من آية حم المذكورة

جاء ﴿ رُّجِّعْتُ ﴾ [فصلت : 50] فليتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(50/472)

وقال القاسمى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً ﴾

أي : للمؤمن والكافر : ﴿ رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ وهي أعز ما يؤثره أولئك في تأزير كرومهم بالأشجار : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعناب : ﴿ زَرْعاً ﴾ أي : فحصل منهما الفواكه والأقوات ، فكانتا منشأ الثروة والجاه .

﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أي : ثمرها كاملة : ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ ﴾ أي : لم تنقص : ﴿ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا ﴾ أي : فيما بينهما : ﴿ نَهَراً ﴾ أي : يسقي الأشجار والزروع ، ويزيد في بهجة مرآهما ، تتميماً لحسنهما .

﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ أي : لصاحب الجنتين : ﴿ ثَمَرٌ ﴾ أي : أنواع من المال غير الجنتين . من

ثَمَّرَ ماله إذا كَثَّره : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي : يراجعه الكلام ، تعييراً له بالفقر ، وفخراً عليه بالمال والجاه : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ أي : أنصاراً وحشماً .

(51/472)

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ أي : بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها . كما يدل عليه السياق ومحاورته له . وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر ، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها ، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى ، وإما لأن الدخول يكون في واحدة فواحدة . قيل : الإضافة تأتي لمعنى اللام . فالمراد بها العموم والاستغراق . أي : كل ما هو جنة له يتمتع بها . فيفيد ما أفادته التثنية مع زيادة . وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : بما يوجب سلب النعمة ، وهو الكفر والعجب . وفي " العناية " ظُلْمُهُ لها إما بمعنى تنقيصها وضررها ، لتعريض نعمته للزوال ونفسه للهلاك ، أو بمعنى وضع الشيء في غير موضعه . لأن مقتضى ما شاهده التواضع المبكي ، لا العجب بها وظنها أنها لا تبيد أبداً . والكفر بإنكار البعث كما يدل عليه قوله : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ ﴾ أي : تهلك وتفنى : ﴿ هَذِهِ ﴾ أي : الجنة : ﴿ أَبَداً ﴾ لاعتقاده أبدية الدهر ، وأن لا كون سوى ما تقع عليه مشاعره . ولذا قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي : كائنة ،

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ إقسام منه على أنه ، إن رد إلى ربه ، على سبيل الفرض والتقدير ، كما يزعم صاحبه ، ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا ، تطمعاً وتمنياً على الله ، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده . وإنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله . وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه . كقوله : ﴿ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصلت : 50] : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] . و : ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ أي : مرجعاً وعاقبة . أفاده الزمخشريّ .

قال المهايمي : فكفر بالقول بقدم العالم ونفي حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ والقول بقدم العالم ينفي اختيار الصانع وإرادته . وبإنكار حشر الأجساد ينفي قدرته على الإعادة . وبعكس الجزاء ينفي الحكمة الإلهية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 34.36 ﴾

(52/472)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾

عطف على جملة ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ الآيات ؛ فإنه بعد أن بين لهم ما أعد لأهل

الشرك وذكر ما يقابله مما أعده للذين آمنوا ضرب مثلاً لحال الفريقين بمثل قصة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر ، فكان لذلك المَثل شَبَه بمَثل قصة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعلم المخاطبين مِن عصر أهل الكهف ، فضرب مثلاً للفريقين للمشركين وللمؤمنين بمَثل رجلين كان حال أُحدهما معجباً مؤنِقاً وحال الآخر بخلاف ذلك ؛ فكانت عاقبة صاحب الحال المونقة تَبَاباً وخسارة ، وكانت عاقبة الآخر نجاحاً ، ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء ، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسُنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرضاً للصلاح والنجاح .

واللام في قوله : ﴿ لهم ﴾ يجوز أن يتعلق بفعل ﴿ واضرب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ [الروم : 28] .

ويجوز أن يتعلق بقوله : مثلاً ﴾ تعلق الحال بصاحبها ، أي شبها لهم ، أي للفريقين كما في قوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ [النحل : 74] ، والوجهُ أن يكون متنازعاً فيه بين ضَرب ، ومثَلاً .

والضمير في قوله : لهم ﴾ يعود إلى المشركين من أهل مكة على الوجه الأول ولم يتقدم لهم ذكر ، ويعود إلى جماعة الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني .

ثم إن كان حال هذين الرجلين الممثل به حالاً معروفاً فالكلام تمثيل حال محسوس بحال محسوس .

فقال الكلبي : المعنيُّ بالرجلين رجلان من بني مخزوم من أهل مكة أخوان أحدهما كافر وهو الأسود بن عبد الأشد بشين معجمة وقيل بسين مهملة بن عبد يالِيل ، والآخر مسلم وهو أخوه : أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل .

ووقع في "الإصابة" : بن هلال ، وكان زوجَ أم سلمة قبل أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(53/472)

ولم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان ، ولعلهما كانتا بالطائف فإن فيه جنات أهل مكة .

وعن ابن عباس : هما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالاً فاشترى أحدهما أرضاً وجعل فيها جنتين ، وتصدق الآخر بماله فكان من أمرهما في الدنيا ما قصه الله تعالى في هذه السورة ، وحكى مصيرهما في الآخرة بما حكاه الله في سورة الصافات (50 52) في قوله : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول إنك لمن المصدقين ﴾ الآيات .

.

فتكون قصتهما معلومة بما نزل فيها من القرآن في سورة الصافات قبل سورة الكهف .

وإن كان حال الرجلين حالاً مفروضاً كما جَوّزه بعض المفسرين فيما نقله عنه ابن عطية فالكلام على كل حال تمثيل محسوس بمحسوس لأن تلك الحالة متصورة متخيلة .

قال ابن عطية : فهذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى لا يكاد المرء يتخيل أجملَ منها في مكاسب الناس ، وعلى هذا الوجه يكون هذا التمثيل كالذي في قوله تعالى:

﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة ﴾ [البقرة : 265] الآيات .

والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب مثل قوله : ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾ [الكهف : 37] الخ فقد جاء (قال) غير مقترن بفاء وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة ، ومثل قوله : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ﴾ [الكهف : 43] أن يكون هذا المثل قصة معلومة ولأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية .

ومعنى جعلنا لأحدهما ﴾ قدرنا له أسباب ذلك .

وذِكر الجنة والأعناب والنخل تقدم في قوله تعالى : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ﴾ في سورة البقرة (266) .

ومعنى حففناهما ﴾ أحطناهما ، يقال : حفّه بكذا ، إذا جعله حافاً به ، أي محيطاً ، قال تعالى : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ [الزمر : 75] ، لأن (حف) يتعدى إلى مفعول واحد فإذا أريد تعديته إلى ثانٍ عدي إليه بالباء ، مثل : غشيه وغشاه بكذا .

ومن محاسن الجنات أن تكون محاطة بالأشجار المثمرة .

ومعنى وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ ألهمناه أن يجعل بينهما .

وظاهر الكلام أن هذا الزرع كان فاصلاً بين الجنتين : كانت الجنتان تَكْتَنِفان حَقْل الزرع فكان المجموع ضيعة واحدة .

وتقدم ذكر الزرع في سورة الرعد .

و﴿ كلتا ﴾ اسم دال على الإحاطة بالمثنى يفسره المضاف هو إليه ، فهو اسم مفرد دال على شيئين نظير زَوج ، ومذكره (كلا) .

قال سيبويه : أصل كلا كِلَو وأصل كلتا كِلْوا فحذفت لام الفعل من كلتا وعُوضت التاء عن اللام المحذوفة لتدل التاء على التأنيث .

ويجوز في خبر كلا وكلتا الإفراد اعتباراً للفظه وهو أفصح كما في هذه الآية .

ويجوز تثنيته اعتباراً لمعناه كما في قول الفرزدق :

كِلاهما حين جدّ الجري بينهما

قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي . . .

و﴿ أُكْلها ﴾ قرأه الجمهور بضم الهمزة وسكون الكاف .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الهمزة وضم الكاف وهو الثمر ، وتقدم .

وجملة ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ معترضة بين الجمل المتعاطفة .

والمعنى : أثمرت الجنتان إثماراً كثيراً حتى أشبهت المعطي من عنده .

ومعنى ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ لم تَنقُصْ منه ، أي من أُكُلها شَيئاً ، أي لم تنقصه عن مقدار ما تُعطيه الأشجار في حال الخِصب .

ففي الكلام إيجاز بحذف مضاف .

والتقدير : ولم تظلم من مقدار أمثاله .

(55/472)

واستعير الظلم للنقص على طريقة التمثيلية بتشبيه هيئة صاحب الجنتين في إتقان خَبْرِهما وترقب إثمارهما بهيئة من صار له حق في وفرة غلتها بحيث إذا لم تَأت الجنتان بما هو مترقب

منهما أشبَهتا من حَرم ذاَ حق حقه فظَلمه ، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال ، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار .

والتفجير تقدم عند قوله تعالى : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ في سورة الإسراء (90) .

والنهَر بتحريك الهاء لغة في النَهْر بسكونها .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾ في سورة البقرة (249) .

وجملة وكان له ثمر ﴾ في موضع الحال من ﴿ لأحدهما ﴾ .

والثمر بضم الثاء والميم : المال الكثير المختلف من النقدين والأنعَام والجنات والمزارع .

وهو مأخوذ من ثُمر ماله بتشديد الميم بالبناء للنائب ، يقال : ثَمّر الله ماله إذا كَثُر .

قال النابغة :

فلما رأى أن ثَمّر الله ماله

وأثّل مَوْجُوداً وسَدَّ مفاقِرَه . . .

مشتقاً من اسم الثمرة على سبيل المجاز أو الاستعارة لأن الأرباح وعفو المال يُشبهان ثمر الشجر .

وشَاع هذا المجاز حتى صار حقيقة .

قال النابغة :

مَهلا فداءٌ لك الأقوامُ كلّهُمُ

ومَا أُثّمّر من مال ومِنْ وَلَد . . .

وقرأ الجمهور ﴿ ثُمُر ﴾ بضم المثلثة وضم الميم .

وقرأه أبو عمرو ويعقوب بضم المثلثة وسكون الميم .

وقرأه عاصم بفتح المثلثة وفتح الميم .

فقالوا : إنه جمع ثِمار الذي هو جمع ثَمر ، مثل كُتُب جمع كِتاب فيكون دالاً على أنواع كثيرة مما تنتجه المكاسب ، كما تقدم آنفاً في جمع أساور من قوله : ﴿ أساور من ذهب ﴾ [الكهف : 31] .

وعن النحاس بسنده إلى ثعلب عن الأعمش : أن الحجاج قال : لو سمعت أحداً يقرأ وكان له ثمر ﴾ (أي بضم الثاء) لقطعت لسانه .

قال ثعلب : فقلت للأعمش : أنأخذ بذلك .

قال : لا ولا نعمة عَين ، وكان يقرأ : ثُمُر ، أي بضمتين .

والمعنى : وكان لصاحب الجنتين مالٌ ، أي غير الجنتين .

(56/472)

والفاء لتفريع جملة ﴿ قال ﴾ على الجُمل السابقة ، لأن ما تضمنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس يَنطق ربه عن مثل ذلك القول .

و(الصاحب) هنا بمعنى المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثَل ، أو أريد به الملابس المخاصم ، كما في قول الحجاج يخاطب الخوارج "ألستم أصحابي بالأهواز" .

والمراد بالصاحب هنا الرجل الآخر من الرجلين ، أي فقال : مَن ليس له جناتٌ في حوار بينهما .

ولم يتعَلق الغرض بذكر مكان هذا القول ولا سببه لعدم الاحتياج إليه في الموعظة .

وجملة ﴿ وهو يحاوره ﴾ حال من ضمير ﴿ قال ﴾ .

والمحاورة : مراجعة الكلام بين متكلميْن .

وضمير الغيبة المنفصل عائد على ذي الجنتين .

والضمير المنصوب في ﴿ يحاوره ﴾ عائد على صاحب ذي الجنتين ، وربُّ الجنتين يحاور صاحبَه .

ودل فعل المحاورة على أن صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح ، فراجعه الكلام بالفخر عليه والتطاول شأن أهل الغَطْرسة والنقائص أن يعدلوا عن المجادلة بالتي هي أحسن إلى إظهار العظمة والكبرياء .

و﴿ أعز ﴾ أشد عزة .

والعزة : ضد الذل .

وهي كثرة عدد عشيرة الرجل وشجاعته .

والنفَر : عَشيرة الرجل الذين ينفرون معه .

وأراد بهم هنا ولده ، كما دل عليه مقابلته في جواب صاحبه بقوله : ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴾ [الكهف : 40] .

وانتصب نفراً ﴾ على تمييز نسبة ﴿ أعز إلى ضمير المتكلم .

وجملة ودخل جنته ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ قال ﴾ ، أي قال ذلك وقد دخل جنته مرافقاً لصاحبه ، أي دخل جنته بصاحبه ، كما يدل عليه قوله : ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ ، لأن القول لا يكون إلا خطاباً لآخر ، أي قال له ، ويدل عليه أيضاً قوله : ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره ﴾ [الكهف : 37] .

ووقوع جواب قوله : ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ في خلال الحوار الجاري بينهما في تلك الجنة .

ومعنى ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ وهو مشرك مكذب بالبعث بطر بنعمة الله عليه .

(57/472)

وإنما أفرد الجنة هنا وهما جنتان لأن الدخول إنما يكون لإحداها لأنه أول ما يدخل إنما يدخل إحداهما قبل أن ينتقل منها إلى الأخرى ، فما دخل إلا إحدى الجنتين .

والظن بمعنى : الاعتقاد ، وإذا انتفى الظن بذلك ثبت الظن بضده .

وتبيد : تهلك وتفنى .

والإشارة بهذا إلى الجنة التي هما فيها ، أي لا أعتقد أنها تنتقض وتضمحل .

والأَبد : مراد منه طول المدة ، أي هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها .

وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حولَه ، من مياه وظلال .

وانتقل من الإخبار عن اعتقاده دوامَ تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة . ولا تلازم بين المعتقَدَيْن .

ولكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن تخطئة إياه ، ولذلك عقب ذلك بقوله : ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ تهكماً بصاحبه .

وقرينة التهكم قوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ .

وهذا كقول العاصي بن وائل السهمي لخباب بن الأرت "ليكونن لي مال هنالك فأقضيكَ دينك منه" .

وأكد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكم .

وانتصب ﴿ منقلباً ﴾ على تمييز نسبة الخبر .

والمنقلب : المكان الذي يُنقلب إليه ، أي يُرجع .

وضمير ﴿ منهما ﴾ للجنتين عوداً إلى أول الكلام تفننا في حكاية كلامه على قراءة الجمهور ﴿ منهما بالتثنية ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف منها ﴾ بالإفراد جرياً على قوله : ﴿ ودخل جنته ﴾ وقولِه : ﴿ أن تبيد هذه ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(58/472)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن هذا الرجل الكافر الظالم لنفسه ، الذي ضربه مثلاً مع الرجل المؤمن في هذه الآيات لرؤساء الكفار ، الذين افتخروا بالمال والجاه على ضعفاء المسلمين الفقراء كما تقدم – أنه دخل جنته في حال كونه ظالماً لنفسه وقال : إنه ما يظن أن تهلك جنته ولا تفنى : لما رأى من حسنها ونضارتها ؟ وقال : إنه لا يظن الساعة قائمة ،

وإنه إن قدر أنه يبعث ويرد إلى ربه ليجدن عنده خيراً من الجنة التي أعطاه في الدنيا .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة : من جهل الكفار واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا ، وظنهم أن الآخرة كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد ، كما أنعم عليهم في الدنيا – جاء مبيناً في آيات أخر ، كقوله في " فصلت " : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصلت : 50] ، وقوله في " مريم " : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] وقوله في " سبأ " : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : 35] . وقوله في هذه السورة الكريمة : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ [الكهف : 34] .

(59/472)

وبين جل وعلا كذبهم واغترارهم فيما ادعوه : من أنهم يجدون نعمه الله في الآخرة كما أنعم عليهم بها في الدنيا في مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55-56] ، وقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف :

182-183] ، وقوله ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَّنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ [سبأ : 37] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : 2] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة . وانتصابه على التمييز . وقوله : ﴿ لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ قرأه ابن عامر ونافع وابن كثير " منهما " بصيغة تثنية الضمير . وقرأه الباقون " منها " بصيغة إفراد هاء الغائبة . فالضكير على قراءة تثنيته راجع إلى الجنتين في قوله ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ [الكهف : 32] وقوله : ﴿ كِلْتَا الجنتين ﴾ [الكهف : 33] . وعلى قراءة الإفراد راجع إلى الجنة في قوله : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ الآية .

فإن قيل : ما وجه إفراد الجنة مع أنهما جنتان ؟ فالجواب - أ ، ه قال ما ذكره الله عنه حين دخل إحداهما ، إذ لا يمكن دخوله فيهما معاً في وقت واحد . وما أجاب به الزمخشري عن هذا السؤال ظاهر السقوط ، كما نبه عليه أبو حيان في البحر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(60/472)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين يدعُونَ ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسميْن : قسم مُتكبّر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراق آياته استطراقاً يشمل الجميع ، ويُسوِّي بينهم .

لذلك ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثَلاً موجوداً في الحياة ، ففي الناس الكافر الغني والمؤمن الفقير ، وعليك أنْ تتأمل موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ . . ﴾ [الكهف : 32] قلنا : إن الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشيء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بُدّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربتَ بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربتَ نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

ويَا ضَارِباً بِعَصَاهُ الحَجَر . . . ضربْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَر ؟

وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس ، فيُخرجك من حالة إلى أخرى ، كذلك المثَل : الشيء الغامض الذي لا تفهمه ولا تعيه ، فيضرب الحق سبحانه له مثلاً يُوضِّحه ويُنبِّهك إليه ؛ لذلك قال : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً . . ﴾ [الكهف : 32] وسبق أن

أوضحنا أن الأمثال كلام من كلام العرب ، يردُ في معنى من المعاني ، ثم يشيع على الألسنة ، فيصير مثلاً سائراً ، كما نقول : جود حاتم ، وتقابل أي جَوّاد فتناديه : يا حاتم ، فلما اشتهر حاتم بالجود أُطلِقَتْ عليه هذه الصفة . وعمرو بن معد اشتُهِر بالشجاعة والإقدام ، وإياس اشتُهِر بالذكاء ، وأحنف بن قيس اشتهر بالحلم . لذلك قال أبو تمام في مدح الخليفة :

إِقْدامُ عَمْرٍو في سَمَاحَةِ حَاتِم . . . في حِلْمِ أحنَفَ فِي ذَكَاءِ إياس

(61/472)

فأراد خصوم أبي تمام أن يُحقّروا قوله ، وأن يُسقِطوه من عين الخليفة ، فقالوا له : إن الخليفة فوق مَنْ وصفتَ ، وكيف تُشبّه الخليفة بهؤلاء وفي جيشه ألفُ كعمرو ، وفي خُزّانه ألف كحاتم فكيف تشبهه بأجلاف العرب ؟ كما قال أحدهم :

وَشبَّهه المدّاحُ في البَاسِ والغِنَى . . . بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أَصْغر خَادِمِ

فَفِي جيْشِه خَمْسُونَ أَلْفاً كعنْتَرٍ . . . وَفي خُزَّانِه أَلْفُ حَاتِمِ

فألهمه الله الردَّ عليهم ، وعلى نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :

لاَ تُنكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَه . . . مثَلاً شَرُوداً في النَّدَى وَالبَاس

فاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأقلّ لنُوره . . . مَثَلاً مِنَ المشْكَاةِ والنّبْراسِ

إذن : فالمثل يأتي ليُنَبّه الناس ، وليُوضّح القضية غير المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . ﴾ [البقرة : 26]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالاً كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 41]

وكذا قوله تعالى عن نقض الوعد وعدم الوفاء به : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً ﴾

[النحل : 92]

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : 17]

ومنه قوله تعالى مُصوّراً حال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ [الكهف : 45]

فالمثل يُوضِّح لك الخفيّ بشيء جَلِيٍّ ، يعرفه كل مَنْ سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر الذي أراد أنْ يصفَ لنا الأحدب فيُصوّره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُرَتْ أَخَادعه وَغَاص قَذَالُه . . . فكأنه مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنما صُفِعْتَ قَفَاهُ مرةً . . . وأَحسَّ ثانيةً لَهَا فتجمَّعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكافر إذا استغنى ، والفقير إذا رَضِى بالإيمان .

وقوله : ﴿ رَّجُلَيْنِ . . ﴾ [الكهف : 32] أي : هما مَحَلُّ المثل : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ [الكهف : 32] لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود فِعليّ في التاريخ ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بني إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقَصْراً يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ، فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه ، وأن يشتري به أرضاً في الجنة وقصراً في الجنة وفضَّل الحور العين والولدان في جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترَّ به ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسان ليطغى

* أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعِم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرةُ جهدك وعملك ، ونتيجة سعْيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص : 78]

فتركه اللهِ لعلْمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض . . ﴾ [القصص : 81] ولم ينفعه ماله أو علمه .

(63/472)

إذن : هاتان صورتان واقعيتان في المجتمع : كافر يستكبر ويستغني ويستعلي بغناه ، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية في قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ [الكهف : 32]

فقد علَّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزرع الذي منه القوت الضروري ، كما ذكر من قبل الأساور من ذهب ، وهي للزينة قبل الثياب ، وهي

من الضروريات .

وقوله : ﴿ جَنَّتَيْنِ . . ﴾ [الكهف : 32] نراها إلى الآن فيمَنْ يريد أن يحافظ على خصوصيات بيته ؛ لأن للإنسان مسكناً خاصاً ، وله عموميات أحباب ، فيجعل لهم مسكناً آخر حتى لا يطَّلع أحد على حريمه ؛ لذلك يسمونه السلاملك والحرملك .

وكذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ واشكروا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : 15] ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ كِلْتَا الجنتين ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً . . ﴾ .

أي : أعطتْ الثمرة المطلوبة منها ، والأُكُل : هو ما يُؤكل ، ونعرف أن الزراعات تتلاحق ثمارها فتعطيك شيئاً اليوم ، وشيئاً غداً ، وشيئاً بعد غد وهكذا .

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً . . ﴾ [الكهف : 33] كلمة ﴿ تَظْلِم ﴾ تعطينا إشارة إلى عمل الخير في الدنيا ، فالأرض وهي جماد لا تظلم ، ولا تمنعك حقاً ، ولا تهدِر لك تعباً ، فإنْ أعطيتَها جهدك وعملك جادتْ عليك ، تبذر فيها كيلة تعطيك إردباً ، وتضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليك الآلاف .

إذن : فهي كريمة جوادة شريطة أن تعمل ما عليك من حَرْثٍ وبَذْر ورعاية وسُقْيا ، وقد تريحك السماء ، فتسقى لك .

لذلك ، لما أراد الحق سبحانه أنْ يضرب لنا المثل في مضاعفة الأجر ، قال : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة : 261]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق الأرض ؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 261]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أنْ تعطيك على قَدْر تعبك وكَدّك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدّر لك هذا التعب ، ويشكر لك هذا المجهود ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى أحد الصحابة وقد تشققت يداه من العمل قال : " هذه يَدٌ يحبها الله ورسوله " .

يحبها الله ورسوله ؛ لأنها تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملتْ لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته ، فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل ؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم ، ويكفي العاجزين عن العمل ،

وهَبْ أنك لن تتصدّق بشيء للمحتاج ، لكنك ستبيع الفائض عنك ، وهذا في حد ذاته نوعٌ من التيسير على الناس والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض في عطائها وسخائها بالأم التي تُجزِل لك العطاء إنْ بررْتَ بها ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإنْ كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألاَ تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه ؟ فكيف إذا أنت أكرَمتها بالبر ؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

(65/472)

والحقيقة أن الأرض ليست أُمّنا على وجه التشبيه ، بل هي أُمّنا على وجه الحقيقة ؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على كل الناس لا تتحمله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إن مات وصار جيفة يأنف منه كل أخ محب وكل قريب ، في حين تحتضنه الأرض ، وتمتص كل ما فيه ، وتستره في يوم هو أحوج ما يكون إلى الستر . ثم يقول تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً . . ﴾ [الكهف : 33] ذلك لأن الماء هو أَصْل الزرع ، فجعل الله للجنتين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج ، فيحجبه أحد عنهما .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ . . . ﴾ .

أي : لم يقتصر الأمر على أنْ كان له جنتان فيهما النخيل والأعناب والزرع الذي يُؤتي أُكُله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أي : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد ؛ لأن الولد ثمرة أبيه ، وسوف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً .

ثم تدور بينهما هذه المحاورة : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ [الكهف : 34]

دليل على أن ما تقدم ذِكْره من أمر الجنتين وما فيهما من نِعَم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء هو سبب القول ﴿ لِصَاحِبِهِ ﴾ ، والصاحب هو : مَنْ يصاحبك ولو لم تكن تحبه ﴿ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي : يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة . فماذا قال صاحبه ؟ قال : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً . . ﴾ [الكهف : 34] يقصد الجنتين وما فيهما من نعم ﴿ وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ [الكهف : 34] داخلة في قوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ [الكهف : 34] وهكذا استغنى هذا بالمال والولد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ . . . ﴾ .

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35)

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ . . ﴾ [الكهف : 35] نقول : لأن الإنسان إنْ كان له جنتان فلنْ يدخلهما معاً في وقت واحد ، بل حَالَ دخوله سوف يواجه جنةً واحدة ، ثم بعد ذلك يدخل الأخرى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ . . ﴾ [الكهف : 35] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو ؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرخِي لها عنان الشهوات ، فيحرمها من مشتهيات أخرى ، ويُفوِّت عليها ما هو أبقى وأعظم ، وظلم الإنسان يقع على نفسه ؛ لأن النفس لها جانبان : نفسٌ تشتهي ، ووجدان يردع بالفطرة .

فالمسألة إذن جدل بين هذه العناصر ؛ لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، فإنْ قلت : كيف وأنا ونفسي شيء واحد ؟ لو تأملتَ لوجدتَ أنك ساعة تُحدِّث نفسك بشيء ثم تلوم نفسك عليه ؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحوازية شهوانية ، فإنْ مَالتْ النفس الشهوانية أو انحرفتْ قَوَّمتها النفس الفطرية وعَدلَت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهي في جميع الديانات كان إذا عَمَّتْ المعصية في الناس ، ولم يَعُدْ هناك مَنْ ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولاً يرشدهم ويُذكِّرُهم ، إلا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سبحانه حَمَّلهم رسالة نبيهم ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم

مَنْ يحملون راية الدعوة إلى الله ؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل .

وكأنه سبحانه يطمئننا إلى أن الفساد لن يَعُمْ ، فإنْ وُجِد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها أيضاً الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساسٌ يقوم عليه المجتمع الإسلامي .

(67/472)

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً ﴾ [الكهف : 35]

فهل معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول ؟ لا ، لأنها جنتُه يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره ، وما حَدَّث نفسه به حالَ دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغِنَى ، والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه النعمة ، أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غَرَّهُ واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه أن يزول عنه كل هذا النعيم ، ليس هذا وفقط ، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً . . . ﴾ .

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإنْ قُبِلَتْ منه : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً ﴾ [الكهف :

35] فلا يُقبَل منه ﴿ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً . . ﴾ [الكهف : 36] لذلك لما أنكر قيام الساعة هَزَّته الأوامر الوجدانية ، فاستدرك قائلا : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي . . ﴾ [الكهف : 36] أي : على كل حال إنْ رُددتُ إلى ربي في القيامة ، فسوف يكون لي أكثر من هذا وأعظم وكأنه ضمن أن الله تعالى أَعدَّ له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لنتأمل قَوْل هذا الجاحد المستعلي بنعمة الله عليه المفتون بها : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي . . ﴾ [الكهف : 36] حيث يعرف أن له رباً سيرجع إليه ، فإنْ كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لا تُناقِض نفسك ، فما حدَث منك من استعلاء وغرور وشَكٍّ في قيام الساعة يتنافى وقولك ﴿ رَبِّي ﴾ ولا يناسبه .

و﴿ مُنْقَلَباً ﴾ أي : مرجعا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(68/472)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى في قصة صاحب الجنة : (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (الكهف : 36) ، وفي سورة حم السجدة : (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى

) (فصلت : 50) ، للسائل أن يسأل عن اختصاص آية الكهف بقوله : (وَلَئِنْ رُدِدْتُ) واختصاص آية السجدة بقوله : (وَلَئِنْ رُجِعْتُ) (مع) أن الظاهر اتحاد المقصود في الآيتين ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم ، أن الآيتين وإن اتحدتا في الغاية الحاصل منها

(69/472)

وصف حال الكافر المنكر للبعث الوارد في كل واحدة منهما في قوله : (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) (الكهف : 36 ، فصلت : 50) ، إن آية الكهف منهما أقوى تعريفاً ببعد الكافر المضروب به المثل عن حال الإيمان . وأما آية السجدة فصالحة لاتصاف الكافر والمؤمن بحال المفتتحة بها من قوله : (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) (فصلت : 49) ، من حيث إن هذا الوصف وصف يعم المؤمن والكافر ، ولهذا قال ابن عطية بعد أن ذر أن المراد بها الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة : فإن أكثرها يعطي أن الآية نزلت في كفار ، ثم قال : وإن تضمن أولها خلقاً ربما يشارك فيه بعض المؤمنين ، فحصل من كلامه أن هذا التعريف بحال المضروب به المثل في هذه الآية أرجأ من حال المضروب به المثل في آية الكهف ، ألا ترى أن آية الكهف لا يكاد شيء من كلمها يجري في وصف المؤمنين ، ألا ترى ابتداء

مطلع وصف المذكور فيها مخبراً عنه بقوله : (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) (الكهف : 35) ، وبقوله : (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) (الكهف : 35-36) ، ثم حكم لنفسه بعد إنكاره العبث باستحقاق ما عجل له من جعل الجنتين كما وصفتا ، فقال : (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (الكهف : 36) ، فتأمل ما بين هذه الكلم الواردة في وصف هذا الكافر والوادة في قوله في آية سورة السجدة (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) (فصلت : 49) ، أي من أن يدعو بالخير لنفسه ويستزيد منه ، وهذه صفة توجد في المؤمنين ، وبها افتتح الوصف المضروب به المثل في هذه الآية ، ثم قال بعد ما ذكر من كلامه : (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) (فصلت : 50) ، فقوله : (إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) ليس في موازنة قول

(70/472)

الآخر في آية الكهف : (لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (الكهف : 36) وإن خفي ما بينهما . فلما افترقت الآيتان فيما ذكر ، ناسب آية الكهف قوله : (وَلَئِنْ رُدِدْتُ) ، لما يشعر لفظ رددت ويحتمله من القهر والتعنيف وقوعاً أكثرياً لا بالوضع ، بخلاف لفظ رجع إذا قلت منه : رجعته أو رجع فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله ردّ ، ألا ترى

وروده في مثل قوله : (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا) (الكهف : 87) ، وقوله : (ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) (التوبة : 94) ، وقوله بعد : (وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) (التوبة : 105) ، وفي الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم في الشيطان حين تعرض (له) في صلاته ، قال صلى الله عليه وسلم : (فرده الله خاسئاً) ، ففي كثرة ورود هذا حيث يراد هذا المعنى أدل دليل على ما أشير إليه . أما رجع وما تصرف منه فقل ما يرد لهذا ، وإن ورد فليس ككثرة رد . فأما قوله تعالى : (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)

(البقرة : 281) ، فهذا عام للمؤمن والكافر وإن كان أظهر في المؤمن ، فلا معنى تعنيف فيه ، فوضح التناسب في الآيتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 318.320 ﴾

(71/472)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾

قوله : ﴿ رَّجُلَيْنِ ﴾ : قد تقدَّم أنَّ " ضَرَبَ " مع المَثَلِ ، يجوز أن يتعدَّى لاثنين في سورةِ

البقرة . وقال أبو البقاء : التقدير : مثلاً مَثَل رجلين ، و " جَعَلْنَا " تفسيرٌ ل " مَثَل " فلا موضعَ له ، ويجوز أن يكونَ موضعُه نصباً نعتاً ل " رَجُلِيْن " كقولك : مررت برجلين جُعِلَ لأحدِهما جنةٌ " .

قوله : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا ﴾ يقال : حَفَّ بالشيءِ : طاف به من جميع جوانبه ، قال النابغة :

3158- يَحُفُّه جانِباً نِيْقٍ وتُتْبِعُهُ . . . مِثْلَ الزجاجة لم تُكْحَلْ مِن الرَّمَدِ

وحَفَّ به القومُ : صاروا طائفين بجوانبه وحافَّته ، وحَفَفْتُه به ، أي : جَعَلْتُه مُطِيْفاً به .

قوله : ﴿ كِلْتَا ﴾ : قد تقدَّم في السورة قبلها حكمُ "كلتا " وهي مبتدأ ، و " آتَتْ " خبرُها . وجاء هنا على الكثير : وهو مراعاةُ لفظِها دونَ معناها .

وقرأ عبد الله – وكذلك هي في مصحفِه – "كلا الجَنَّتين " بالتذكير لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ . ثم قرأ " آتَتْ " بالتأنيث اعتباراً بلفظ " الجنتين " فهو نظيرُ " طَلَعَ الشمسُ وأشرقَتْ " وروى الفراء عنه قراءةً أخرى : "كلُّ الجنتين آتى أُكُلَه " أعادَ الضميرَ على لفظِه .

قوله : " وفجَّرْنا " العامَّةُ على التشديد وإنما كان كذلك ، وهو نهر واحد مبالغةٌ فيه . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر بالتخفيفِ وهي قراءةُ الأعمش في سورة القمر ، والتشديدُ هناك أظهرُ لقولِه " عيوناً " .

والعامَّةُ على فتحِ هاء " نَهَر " وأبو السَّمال والفياض بسكونها .

قوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ فيه في الأنعام مستوفى ، وتقدَّم أنَّ " الثُّمُرَ "

بالضم المالُ . فقال ابنُ عباس : جميع المال مِنْ ذهبٍ وفِضَّةٍ وحيوانٍ وغير ذلك . قال النابغة :

(72/472)

3159- مَهْلاً فداءً لك الأقوامُ كلُّهمُ . . . وما أُثَمِّرُ مِنْ مالٍ ومِنْ وَلَدِ

وقيل : هو الذهب والفضة خاصةٍ .

وقرأ أبو رجاء " بِثَمْرِه " بفتحة وسكون .

قوله : " وهو يحاوِرُه " جملةٌ حالية مُبَيِّنة إذ لا يَلْزَمُ مِنَ القول المحاوَرَةُ ؛ إذ المحاوَرَةُ مراجعةُ الكلامِ مِنْ حار ، أي : رَجَعَ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق : 14] .

وقال امرؤ القيس :

3160- وما المرءُ إلا كالشِّهابِ وضَوئِه . . . يَحُوْرُ رَماداً بعد إذ هُوَ ساطِعُ

ويجوز أَنْ تكونَ حالاً مِنَ الفاعل أو من المفعول .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (35) ﴾

قوله : ﴿ جَنَّتَهُ ﴾ : / إنما أفرد بعد ذِكْرِ التثنية اكتفاءً بالواحدِ للعِلْمِ بالحال . قال أبو البقاء : " كما اكْتُفِيَ بالواحدِ عن الجمعِ في قولِ الهُذَلِيّ :

3161- فالعينُ بعدَهُمُ كأنَّ حِداقَها . . . سُمِلَتْ بشَوْكٍ فَهْيَ عُورٌ تَدْمَعُ

ولقائلٍ أن يقول : إنما جاز ذلك لأنَّ جمعَ التكسيرِ يجري مَجْرى المؤنثة ، فالضمير في " سُمِلَتْ " وفي " فهي " يعود على الحِداق لا على حَدَقة واحدة كما تَوَهَّم .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : لِمَ أَفْرَدَ الجنَّة بعد التثنية ؟ قلت : معناه : ودخل ما هو جنتُه ، ماله جنةٌ غيرُها ، بمعنى : أنَّه ليس له نصيبٌ في الجنة التي وُعِدَ المتقون . فما ملكه في الدنيا هو جَنَّتَه لا غير ، ولم يَقْصِدْ الجنتين ولا واحدةً منهما " .

(73/472)

قال الشيخ : " ولا يُتَصَوَّر ما قال ؛ لأنَّ قوله : " ودخل جَنَّته " إخبارٌ من الله تعالى بأنَّ هذا الكافرَ دَخَلَ جَنَّته فلا بُدَّ أَنْ قَصَدَ في الإخبار أَنَّه دَخَلَ إحدى جنتيه إذ لا يمكن أَنْ يَدْخُلَهما معاً في وقتٍ واحد : " . قلت : ومتى أَدَّعَى دخولهما في وقتٍ واحدٍ يُلْزِمَه بهذا المستحيل في البداية . وأمَّا قوله " ولم يَقْصِدِ الجنتين ولا واحدةً " معناه لم يَقْصِدْ تعيينَ مفردٍ ولا مثنى لا أنه لم يَقْصِدْ الإخبارَ بالدخول " .

وقال أبو البقاء : " إنما أَفْرَدَ لأنهما جميعاً مِلْكُه فصارا كالشيء الواحد " .

قوله : " وهو ظالمٌ " حالٌ مِنْ فاعل " دَخَلَ " ، و " لنفسِه " مفعولُ " ظالمٌ " واللام مزيدةٌ فيه

لكونِ العامل فرعاً .

" قال له صاحبُه " يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ في " ظالم " ، أي : وهو ظالمٌ في حالِ كونِه قائلاً ، ويجوز أن يكونَ مستأنفاً بياناً لسبب الظلمِ ، وهو الأحسن .

قوله : " أَنْ تبيد " ، أي : تَهْلَكَ ، قال :

3162- فَلَئِنْ باد أهلُه . . . لبما كان يُوْهَلُ

ويقال : باد يبيدُ بُيُوداً وبَيْدُودة ، مثل " كَيْنُونة " والعملُ فيها معروفٌ وهو أنه حُذِفَت إحدى الياءين ، ووزنُها فَيْعَلُولة .

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) ﴾

قوله : ﴿ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ : قرأ أبو عمرو والكوفيون " منها " بالإفراد نظراً إلى أقربِ مذكورٍ ، وهو قولُه : " جَنَّته " وهي في مصاحفِ العراق دونَ ميمٍ . والباقون " منهما " بالتثنية نظراً إلى الأصل في قوله : " جَنَّتَيْن " و " كِلْتَا الجنتين " ورُسِمَتْ في مصاحف الحرمين والشام بالميم ، فكلٌّ قد وافق رَسْمَ مصحفِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 490.486 ﴾

(74/472)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأكل)

الأَكْل تناول المَطْعَم .

وعلى طريق التشبيه [به] يقال : أَكلت النارُ الحطب .

والأُكُلْ – بالضمّ [وبضمّتين] – اسم لما يؤكل .

والأَكْلَة للمرة .

والأُكْلة – بالضمّ – اللُقمة .

وأَكِيلة الأَسد : فريسته .

وفلان ذو أَكْل من الزَّمان : ذو نصِيب وحَظّ .

واستوفى أُكْلَه : كناية عن بلوغ الأَجل وأَكل فلاناً : اغتابه .

وقد ورد فى نصّ القرآن على تسعة أَوجه .

الأَوّل : بمعنى الفواكه والثمرات ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ .

الثانى : بمعنى تناول المطعم : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ .

الثالث : بمعنى الإِحراق : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ .

الرّابع : بمعنى الابتلاع : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أَى يبتلعنّ .

الخامس : بمعنى الإبطال : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ .

السّادس : بمعنى الافتراس : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أَى يفترسه .

السّابع : بمعنى الانتفاع بالمأْكول والمشروب والملبوس : ﴿ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ .

الثامن : بمعنى أَخْذ الأَموال بالباطل : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ﴾ .

التاسع : بمعنى الرّزق المأْكول : ﴿ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أَى لجاءَتهم الأَمطار من السّماءِ ، والثمار من الأَرض .

وقد يعبّر بالأَكْل عن الفساد ؛ ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ وتَأَكَّل الشئ : فسد ، وأَصابه أُكال فى رأْسه وتأَكّل أَى فساد .

وكذا فى أَسنانه .

وهُمْ أَكَلة رأْس : عبارة عن ناس مِن قلّتهم يُشبعهم رأْسٌ مَشْوىّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 81.82 ﴾

(75/472)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) ﴾

أخبر أنه خَلَقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذَكَرَه فَشَكَرَ أحدُهما لخالِقه وكَفَرَ الآخرُ برازقه ، فأصبح الكافرُ وجنَّتُه أصابتها جائحةٌ ، وندم على ما ضيَّعَه من الشكر ، وتوجَّه عليه اللومُ .

وفي الإشارة يخلق عَبْدَينَ يُطَيِّبُ لهما الوقت ، ويُمَهِّدُ لهما بساط اللطف ، ويمكِّن لهما من البسْط . . فيستقيم أَحَدهُما في الترقي إلى النهاية من مقامات البداية بحُسْن المنازلة وصدق المعاملة ، فتميز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالجها بحسنِ الاستقامة ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يُخْتَطَفُ عنها بما يُكاشفُ به من حقائق التوحيد ، ويصبح مُنْتفىً عن جملته باستهلاكه في وجود ما بان له من الحقائق .

والثاني لا يُقَدِّرُ قَدْرَ ما أَهَّلَ له من حُسْن البداية فيرجعُ إلى مألوفاته ، فينتكِسُ أمرُه ، بانحطاطه إلى ذميم عاداته ، فيرتدُّ عن سلوك الطريقة ويتردّى في ظُلْمَةِ الغفلة ؛ فيصيرُ وقتُه ليلاً مظلماً ، ويتطوحُ في أودية التفرقة ، ويُوسَمُ الطرد ، ويُسْقى شرابَ الإهانة ، وينخرطُ في سلك الهَجْرِ . . . وذلك جزاءُ مَنْ لم يَرَهُم الحقُّ لو صلته أَهْلاً ، ولم يجعل لولائهم في

التحقيق والقبول أَصْلاً :

تبدَّلَتْ وتبدلنا يا حسرةٌ لِمَنْ . . . ابتغى عوضاً لسلمى فلم يَجِدِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 396 ﴾

(76/472)

قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فما قال له الآخر ؟ فقيل : ﴿ قال له صاحبه وهو ﴾ أي والحال إن ذلك الصاحب ﴿ يحاوره ﴾ منكراً عليه : ﴿ أكفرت ﴾ .

ولما كان كفره بإنكار البعث ، دل عليه بقوله تعالى : ﴿ بالذي خلقك من تراب ﴾ بخلق

أصلك ﴿ ثم من نطفة ﴾ متولدة من أغذية أصلها تراب ﴿ ثم سواك ﴾ بعد أن أولدك وطورك في أطوار النشأة ﴿ رجلاً ﴾ حيث نفيت إعادته لمن ابتدأ خلقهم على هذا الوجه تكذيباً للرسل واستقصاراً للقدرة ، ولم تثبت لها في الإعادة ما ثبت لها بعلمك في الابتداء ، ثم لم تجوزها بعد القطع بالنفي إلا على سبيل الفرض بأداة الشك ، وهي من دعائم أصول الدين الذي لا يقتنع فيه إلا بالقطع ، ونسبته إلى العبث الذي لا يرضاه عاقل إذ جعلت غاية هذا الخلق البديع في هذا التطوير العظيم الموت الذي لو كان غاية كما زعمت – لفوّت على المطيع الثواب ، وعلى العاصي العقاب .

ولما أنكر على صاحبه ، أخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه ، فقال مؤكداً لأجل إنكار صاحبه مستدركاً لأجل كفرانه : ﴿ لكنا ﴾ لكن أنا .

ولما كان سبحانه لا شيء أظهر منه ولا شيء أبطن منه ، أشار إلى ذلك جميعاً بإضماره قبل الذكر فقال تعالى : ﴿ هو ﴾ أي الظاهر أتم ظهور فلا يخفى أصلاً ، ويجوز أن يكون الضمير للذي خلقك ﴿ الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ ربي ﴾ وحده ، لم يحسن إليّ خلقاً ورزقاً أحد غيره ، هذا اعتقادي في الماضي والحال ﴿ ولا أشرك بربي ﴾ المحسن إليّ في عبادتي ﴿ أحداً ﴾ كما لم يشاركه في إحسانه إليّ أحد ، فإن الكل خلقه وعبيده ، وأنى يكون العبد شريكاً للرب ! فإني لا أرى الغنى والفقر إلا منه ، وأنت – لما اعتمدت على مالك – كنت مشركاً به .

ولما كان المؤمنون على طريق الأنبياء في إرادة الخير والإرشاد إلى سبيل النجاة وعدم الحقد على أحد بشر أسلفه وجهل قدمه ، قال له مصرحاً بالتعليم بعد أن لوح له به فيما ذكره عن نفسه مما يجب عليه : ﴿ ولولا إذ ﴾ أي وهلا حين ﴿ دخلت جنتك قلت ﴾ ما يدل على تفويضك الأمر فيها وفي غيرها إلى الله تعالى كما تقدم الإرشاد إليه في آية ﴿ ولا تقولن لشي ﴾ [الكهف : 23] تاركاً للافتخار بها ، ومستحضراً لأن الذي وهبكها قادر على سلبك إياها ليقودك ذلك إلى التوحيد وعدم الشرك ، فلا تفرح بها ولا بغيرها مما يفنى لأنه لا ينبغي الفرح إلا بما يؤمن عليه بالزوال ﴿ ما شاء الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ، كان ، سواء كان حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً ، ولذلك أعراها عن الجواب ، لا ما يشاؤه غيره ولا يشاؤه هو سبحانه ؛ ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ لا قوة ﴾ أي لأحد على بستان وغيره ﴿ إلا بالله ﴾ أي المتوحد بالكمال ، فلا شريك له ، وأفادت هذه الكلمة إثبات القوة لله وبراءة العبد منها ، والتنبيه على أنه لا قدرة لأحد من الخلق إلا بتقديره ، فلا يخاف من غيره ، والتنبيه على فساد قول الفلاسفة في الطبائع من أنها مؤثرة بنفسها .

ولما قدم ما يجب عليه في نفسه منبهاً به لصاحبه ، ثم ما يجب عليه من التصريح بالإرشاد

في أسلوب مقرر أن الأمر كله لله ، لا شيء لأحد غيره ، أنتج قوله تعالى : ﴿ إن ترن ﴾ أي أيها المفتخر بما له عليّ ! ﴿ أنا ﴾ ولما ذكر ضمير الفصل ، ذكر مفعول (ترى) الثاني فقال : ﴿ أقل منك ﴾ وميز القليل بقوله : ﴿ مالاً وولداً ﴾ أي من جهة المال والولد الذي هو أعز نفر الإنسان .

(78/472)

ولما أقر هذا المؤمن بالعجز والافتقار ، في نظير ما أبدى الكافر من التقوى والافتخار ، سبب عن ذلك ما جرت به العادة في كل جزاء ، داعياً بصورة التوقع فقال تعالى : ﴿ فعسى ربي ﴾ المحسن إليّ ﴿ أن يؤتين ﴾ من خزائن رزقه ﴿ خيراً من جنتك ﴾ فيحسن إليّ بالغنى كما أحسن إليّ بالفقر المقترن بالتوحيد ، المنتج للسعادة ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي جنتك ﴿ حسباناً ﴾ أي مرامي من الصواعق والبرد الشديد ﴿ من السماء ﴾ .

ولما كانت المصابحة بالمصيبة أنكى ما يكون ، قال تعالى : ﴿ فتصبح ﴾ بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الأشجار والزروع ﴿ صعيداً زلقاً ﴾ أي أرضاً يزلق عليها لملاستها باستئصال نباتها ، فلا ينبت فيها نبات ، ولا يثبت فيها قدم ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾

وصف بالمصدر لأنه أبلغ ﴿ فلن تستطيع ﴾ أنت ﴿ له طلباً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 468 . 470 ﴾

(79/472)

فصل

قال الفخر :

ثم ذكر تعالى جواب المؤمن فقال جل جلاله : ﴿ قَالَ لَهُ صاحبه وَهُوَ يحاوره أَكَفَرْتَ بالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أن الإنسان الأول قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ وهذا الثاني كفره حيث قال : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ وهذا يدل على أن الشاك في حصول البعث كافر .

البحث الثاني : هذا الاستدلال يحتمل وجهين : الأول : يرجع إلى الطريقة المذكورة في القرآن وهو أنه تعالى لما قدر على الابتداء وجب أن يقدر على الإعادة فقوله : ﴿ خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ إشارة إلى خلق الإنسان في الابتداء .

الوجه الثاني : أنه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثاً ، وإنما خلقك للعبودية وإذا خلقك لهذا

المعنى وجب أن يحصل للمطيع ثواب وللمذنب عقاب وتقريره ما ذكرناه في سورة يس ، ويدل على هذا الوجه قوله : ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ أي هيأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهل يجوز في العقل مع هذه الحالة إهماله أمرك ثم قال المؤمن : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قال أهل اللغة لكنا أصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فاجتمعت النونان فادغمت نون لكن في النون التي بعدها ومثله :

وتقلينني لكن إياك لا أقلى . . أي لكن أنا لا أقليك وهو في قوله : ﴿ هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾ ضمير الشأن وقوله : ﴿ اللهُ رَبِّى ﴾ جملة من المبتدأ والخبر واقعة في معرض الخبر لقوله : هو فإن قيل قوله : ﴿ لَكِنَّا ﴾ استدراك لماذا ؟ قلنا لقوله : ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ كأنه قال لأخيه : أكفرت بالله لكني مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر .

والبحث الثاني : قرأ ابن عامر ويعقوب الحضرمي ونافع في رواية : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾ في الوصل بالألف .

(80/472)

وفي قراءة الباقين : ﴿ لَّكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾ بغير ألف والمعنى واحد ثم قال المؤمن : ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ ذكر القفال فيه وجوهاً : أحدها : إني لا أرى الفقر والغنى إلا منه فأحمده إذا أعطى وأصبر إذا ابتلي ولا أتكبر عندما ينعم علي ولا أرى كثرة المال والأعوان من نفسي وذلك لأن الكافر لما اعتز بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكاً في إعطاء العز والغنى .

وثانيها : لعل ذلك الكافر مع كونه منكراً للبعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله بإثبات الشركاء .

وثالثها : أن هذا الكافر لما عجز الله عن البعث والحشر فقد جعله مساوياً للخلق في هذا العجز وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ فأمره أن يقول هذين الكلامين الأول قوله : ﴿ مَا شَاء اللهُ ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن تكون (ما) شرطية ويكون الجزاء محذوفاً والتقدير أي شيء شاء الله كان .

والثاني : أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف وتقديره الأمر ما شاء الله ، واحتج أصحابنا بهذا على أن كل ما أراده الله وقع وكل ما لم يرده لم يقع وهذا يدل على أنه ما أراد الله الإيمان من الكافر وهو صريح في إبطال قول المعتزلة أجاب الكعبي عنه بأن تأويل قولهم : ما شاء مما تولى فعله لا مما هو فعل العباد كما قالوا : لا مرد لأمر الله لم يرد ما أمر به العباد ثم قال : لا يمتنع أن يحصل في سلطانه ما لا يريده كما يحصل فيه ما نهى عنه ، واعلم أن الذي ذكر الكعبي ليس جواباً عن الاستدلال بل هو التزام المخالفة لظاهر النص وقياس الإرادة على الأمر ، باطل لأن هذا النص دال على أنه لا يوجد إلا ما أراده الله وليس في النصوص ما يدل على أنه لا يدخل في الوجود إلا ما أمر به فظهر الفرق وأجاب القفال عنه بأن قال : هلا إذا دخلت بستانك قلت ما شاء الله كقول الإنسان هذه الأشياء الموجودة في هذا البستان ما شاء الله ، ومثله قوله :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] وهم ثلاثة وقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة : 58] أي قولوا هذه حطة وإذا كان كذلك كان المراد من هذا الشيء الموجود في البستان شيء شاء الله تكوينه وعلى هذا التقدير لم يلزم أن يقال كل ما شاء الله وقع لأن هذا الحكم غير عام في الكل بل مختص بالأشياء المشاهدة في البستان وهذا التأويل الذي ذكره القفال أحسن بكثير مما ذكره الجبائي والكعبي ، وأقول : إنه على جوابه لا يدفع الإشكال على المعتزلة لأن عمارة ذلك البستان ربما حصلت بالغصوب والظلم الشديد فلا

يصح أيضاً على قول المعتزلة أن يقال : هذا واقع بمشيئة الله .

اللهم إلا أن نقول المراد أن هذه الثمار حصلت بمشيئة الله تعالى إلا أن هذا تخصيص لظاهر النص من غير دليل .

(82/472)

والكلام الثاني : الذي أمر المؤمن الكافر بأن يقوله هو قوله : ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي لا قوة لأحد على أمر من الأمور إلا بإعانة الله وإقداره .

والمقصود إنه قال المؤمن للكافر : هلا قلت عند دخول جنتك الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله اعترافاً بأنها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فإن أمرها بيده إن شاء تركها وإن شاء خربها ، وهلا قلت لا قوة إلا بالله إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو بمعونة الله وتأييده لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله ثم إن المؤمن لما علم الكافر الإيمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ من قرأ أقل بالنصب فقد جعل أنا فصلاً وأقل مفعولاً ثانياً ومن قرأ بالرفع جعل قوله : ﴿ أَنَا ﴾ مبتدأ وقوله ﴿ أَقَلَّ ﴾ خبر والجملة مفعولاً ثانياً لترن واعلم أن ذكر الولد ههنا يدل على أن المراد بالنفر المذكور في قوله : ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ الأعوان والأولاد كأنه يقول له :

إن كنت تراني : ﴿ أَقَلَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ وأنصاراً في الدنيا الفانية : ﴿ فعسى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ إما في الدنيا ، وإما في الآخرة .

ويرسل على جنتك : ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ السماء ﴾ أي عذاباً وتخريباً والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب أي مقداراً قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها .

قال الزجاج : عذاب حسبان وذلك الحسبان حسبان ما كسبت يداك وقيل حسباناً أي مرامي الواحد منها حسبانة وهي الصواعق : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي فتصبح جنتك أرضاً ملساء لا نبات فيها والصعيد وجه الأرض ، زلقاً أي تصير بحيث تزلق الرجل عليها زلقاً ثم قال : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي يغوص ويسفل في الأرض : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ أي فيصير بحيث لا تقدر على رده إلى موضعه .

(83/472)

قال أهل اللغة في قوله : ﴿ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي غائراً وهو نعت على لفظ المصدر كما يقال : فلان زور وصوم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ويقال نساء نوح أي نوائح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 107 . 109 ﴾

(84/472)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ ﴾ قِيلَ فِي مَا شَاءَ اللَّهُ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : " مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ " فَحُذِفَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ فَحُذِفَ مِنْهُ " فَافْعَلْ " .

وَالثَّانِي : " هُوَ مَا شَاءَ اللَّهُ " .

وَقَدْ أَفَادَ أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ مِنَّا " مَا شَاءَ اللَّهُ " يَنْتَظِمُ رَدَّ الْعَيْنِ وَارْتِبَاطَ النِّعْمَةِ وَتَرْكَ الْكِبْرِ ؛ لِأَنَّ فِيهِ إخْبَارًا أَنَّهُ لَوْ قَالَ ذَلِكَ لَمْ يُصِبْهَا مَا أَصَابَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(85/472)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فعسى ربّي أن يؤتين خيراً مِنْ جنتك ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : خيراً من جنتك في الدنيا فأساويك فيها .

الثاني : وهو الأشهر خيراً من جنتك في الآخرة ، فأكون أفضل منك فيها .

﴿ ويرسل عليها حُسْباناً من السماء ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يعني عذاباً ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : ناراً .

الثالث : جراداً .

الرابع : عذاب حساب بما كسبت يداك ، قاله الزجاج ، لأنه جزاء الآخرة . والجزاء من الله تعالى بحساب .

الخامس : أنه المرامي الكثيرة ، قاله الأخفش وأصله الحساب وفي السهام التي يرمى بها في طلق واحد ، وكان من رَمي الأساورة .

﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ يعني أرضاً بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم ، وهي أضر أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض .

﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ يعني ويصبح ماؤها غوراً ، فأقام أو مقام الواو ، و ﴿ غوراً ﴾ يعني غائراً ذاهباً فتكون أعدم أرض للماء بعد أن كان فيها .

﴿ فلن تستطيع له طلباً ﴾ ويحتمل وجهين :

أحدهما : فلن تستطيع رد الماء الغائر . الثاني : فلن تستطيع طلب غيره بدلاً منه وإلى هذا الحد انتهت مناظرة أخيه وإنذاره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(86/472)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ قال له صاحبه ﴾

(87/472)

حكاية أن المؤمن من الرجلين لما سمع كلام الكافر وقفه على جهة التوبيخ على كفر بالله تعالى ، وقرأ أبي بن كعب : " وهو يخاصمه " ، وقرأ ثابت البناني ، " ويلك أكفرت " ، ثم جعل يعظم الله تعالى عنده بأوصاف تضمنت النعم والدلائل على جواز البعث من القبور ، وقوله ﴿ من تراب ﴾ إشارة إلى آدم عليه السلام ، وقوله ﴿ سواك رجلاً ﴾ كما تقول سواك شخصاً أو حياً ، أو نحو هذا من التأكيدات ، وقد يحتمل أن قصد تخصيص الرجولة ، على وجه تعديد النعمة ، في أن لم يكن أنثى ولا خنثى ، وذكر الطبري نحو هذا ، واختلف القراءة في قوله ﴿ لكنا ﴾ فقرأ ابن عامر ونافع في رواية المسيبي " لكنا " في الوصل والوقف ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي " لكن " في الوصل و " لكنا " في

الوقف ، ورجحها الطبري ، وهي رواية ورش وقالون عن نافع ، وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب والحسن " لكن أنا هو الله ربي " ، وقرأ عيسى الثقفي والأعمش بخلاف " لكن هو الله ربي " فأما هذه الأخيرة فبين على الأمر والشأن ، وأما الذي قبلها فعلى معنى لكن أنا أقول ومن هذه الفرقة ، من قرأ " لكننا " ، على حذف الهمزة وتخفيف النونين ، وفي هذا نظر ، وأما من قرأ " لكننا " ، فأصله عنده لكن أنا : حذفت الهمزة على غير قياس ، وأدغمت النون في النون ، وقد قال بعض النحويين : نقلت حركة الهمزة إلى النون فجاء لكننا ، ثم أدغمت بعد ذلك فجاء " لكنا " ، فرأى بعض القراء أن بالإدغام استغني عن الألف الأخيرة ، فمنهم من حذفها في الوصل ، ومنهم من أثبتها في الوصل والوقف ، ليدل على أصل الكلمة ، ويتوجه في " لكنا " أن تكون لكن لحقتها نون الجماعة التي في " خرجنا وضربنا " ، ووقع الإدغام لاجتماع المثلين ، ثم وجد في ﴿ ربي ﴾ على المعنى ، ولو اتبع اللفظ لقال ربنا ذكره أبو علي ، ويترجح بهذا التعليل قول من أثبت الألف في حال الوصل ، والوقف ، ويتوجه في ﴿ لكنا ﴾ أن تكون المشهورة من أخوات إن ، المعنى

: لكن قولي : هو ﴿ الله ربي ﴾ ، أما أني لا أعرف من يقرأ بها وصلاً ووقفاً ، وذلك يلزم من يوجه هذا الوجه ، وروى هارون عن أبي عمرو " ولكنه هو الله ربي " بضمير لحق " لكن " وباقي الآية بين ، وقوله ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك ﴾ الآية : وصية من المؤمن للكافر ، ﴿ ولولا ﴾ تحضيض ، بمعنى هلا و﴿ ما ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الذي ، بتقدير الذي إن شاء الله كائن ، وفي ﴿ شاء ﴾ ضمير عائد ، ويحتمل أن تكون شرطية ، بتقدير ما شاء الله كان ، ويحتمل أن تكون خبر ابتداء محذوف تقديره هو ما شاء الله ، أو الأمر ما شاء الله ، وقوله ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ تسليم وضد لقول الكافر ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي هريرة

" ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة ؟ قال بلى يا رسول الله ، قال ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم " ، وفي حديث أبي موسى : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له " يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ " قال افعل يا رسول الله ، قال " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " ، واختلفت القراءة في حذف الياء من ﴿ ترن ﴾ وإثباتها فأثبتها ابن كثير وصلاً ووقفاً ، وحذفها ابن عامر وعاصم وحمزة فيهما ، وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل فقط ، وقرأ الجمهور " أقلَّ " بالنصب على المفعول الثاني ، وقوله ﴿ أنا ﴾ فاصلة ملغاة وقرأ عيسى بن عمر : " أقلُّ " بالرفع ، على أن يكون ﴿ أنا ﴾ مبتدأ و" أقل " خبره ، والجملة في موضع المفعول الثاني ،

والرؤية ، رؤية القلب في هذه الآية .

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) ﴾

(89/472)

هذا الترجي ب " عسى " يحتمل أن يريد به في الدنيا ، ويحتمل أن يريد به في الآخرة ، وتمني ذلك في الآخرة أشرف مقطعاً ، وأذهب مع الخير والصلاح ، وأن يكون ذلك يراد به الدنيا أذهب في نكاية المخاطب ، وأشد إيلاماً لنفسه ، و" الحسبان " العذاب كالبرد والصر ونحوه ، واحد الحسبان : حسبانة ، وهي المرامي من هذه الأنواع المذكورة ، وهي أيضاً سهام ترمى دفعة بآلة لذلك ، و" الصعيد " وجه الأرض و" الزلق " الذي لا تثبت فيه قدم ، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته ، ويبقى أرضاً قد ذهبت منافعها ، حتى منفعة المشي فيها ، فهي وحل لا تنبت ولا تثبت فيه قدم ، و" الغور " مصدر يوصف به الماء المفرد والمياه الكثيرة ، كقولك رجل عدل وامرأة عدل ونحوه ، ومعناه ذاهباً في الأرض لا يستطاع تناوله وقرأت فرقة " غَوراً " ، وقرأ فرقة " غُوراً " ، بضم الغين ، وقرأت فرقة " غُؤُراً " ، بضم الغين وهمز الواو ، و" غور " مثل نوح ، يوصف به الواحد والجمع المذكر والمؤنث ، ومنه قول

الشاعر : [الوافر]

تظل جيادها نوحاً عليه . . . مقلدة أعنتها صفونا

وهذا كثير ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(90/472)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال له صاحبه ﴾

يعني : المؤمن ﴿ وهو يحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ﴾ يعني : خلق أباك آدم ﴿ ثم من نطفة ﴾ يعني : ما أنشىء هو منه ، فلما شَكَّ في البعث كان كافراً .

قوله تعالى : ﴿ لكنَّا هو الله ربِّي ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وقالون عن نافع : "لكنَّ هو الله ربِّي" ، باسقاط الألف في الوصل ، وإِثباتها في الوقف .

وقرأ نافع في رواية المُسَيّبي بإثبات الألف وصلاً ووقفاً .

وأثبت الألف ابن عامر في الحالين .

وقرأ أبو رجاء : "لكنْ" بإسكان النون خفيفة من غير ألف في الحالين .

وقرأ ابن يعمر : "لكنَّ" بتشديد النون من غير ألف في الحالين .

وقرأ الحسن : "لكنْ أنا هو اللهُ ربِّي" باسكان نون "لكنْ" وإثبات "أنا" .

قال الفراء : فيها ثلاث لغات : لكنّا ، ولكنّ ، ولكنّه بالهاء ، أنشدني أبو ثروان :

وترْميني بالطَّرْف أي أنت مذنب . . .

وتَقْلِينَنِي لكنّ إيّاكِ لا أَقْلِي

وقال أبو عبيدة : مجازه : لكن أنا هو الله ربي ، ثم حُذفت الألف الأولى ، وأُدغمت إحدى النونين في الأخرى فشدّدت .

قال الزجاج : وهذه الألفُ تُحذف في الوصل ، وتُثبت في الوقف ، فأما من أثبتها في الوصل كما تثبت في الوقف ، فهو على لغة من يقول : أنا قمتُ ، فأثبت الألف ، قال الشاعر :

أنا سَيْفُ العَشِيرَة فاعْرِفُونِي . . .

[حُمَيداً قد تَذَرَّيْتُ السَّنَاما]

وهذه القراءة جيدة ، لأن الهمزة قد حذفت من "أنا" ، فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة .

قوله تعالى : ﴿ ولولا إذ دخلتَ جنتك ﴾ أي : وهلاّ ؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

قال الفراء : ﴿ ما شاء الله ﴾ في موضع رفع ، إن شئت رفعته بإضمار هو ، يريد : [هو] ما شاء الله ؛ وإن شئتَ أضمرتَ فيه : ما شاء الله كان ؛ وجاز طرح جواب الجزاء ، كما

جاز في قوله : ﴿ فإن استطعت أن تبتغيَ نفقاً في الأرض ﴾ [الانعام : 35] ، ليس له جواب ، لأنه معروف .

(91/472)

قال الزجاج : وقوله : ﴿ لا قوَّةَ إلا بالله ﴾ الاختيار النصب بغير تنوين على النفي ، كقوله : ﴿ لا ريب فيها ﴾ [الكهف : 21] ، ويجوز : "لا قوة إلا بالله" على الرفع بالابتداء ، والخبر "بالله" ، المعنى : لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى ، ولا يكون له إلا ما شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ إن ترنِ ﴾ قرأ ابن كثير : "إن ترني أنا" و"يؤتيني خيراً" بياء في الوصل والوقف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو بياءٍ في الوصل .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، بحذف الياء فيهما وصلاً ووقفاً .

﴿ أنا أقَلَّ ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة : "أنا أقَلُّ" برفع اللام .

قال الفراء : "أنا" هاهنا عماد إن نصبتَ "أقلَّ" ، واسم إذا رفعت "أقلُّ" ، والقراءة بهما جائز .

قوله تعالى : ﴿ فعسى ربِّي أن يؤتيَني خيراً من جنتك ﴾ أي : في الآخرة ، ﴿ ويرسلَ عليها حسباناً ﴾ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه العذاب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : ناراً من السماء .

والثاني : قضاءً من الله يقضيه ، قاله ابن زيد .

والثالث : مراميَ من السماء ، واحدها : حسبانة ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة قال النَّضْر ابن شُمَيل : الحُسبان : سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تُنزع في القوس ، ثم يرمي بعشرين منها دفعة ، فعلى هذا القول يكون المعنى : ويرسل عليها مراميَ من عذابه ، إما حجارة أو بَرَداً أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب .

والرابع : أن الحسبان : الحساب ، كقوله : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ [الرحمن : 5] أي : بحساب ، فيكون المعنى : ويرسل عيها عذابَ حسابِ ما كسبت يداه ، هذا قول الزجاج .

(92/472)

قوله تعالى : ﴿ فتصبحَ صعيداً زَلَقاً أو يُصْبِحَ ماؤها غَوراً ﴾ قال ابن قتيبة : الصعيد : الأملس المستوي ، والزَّلَق : الذي تَزِلُّ عنه الأقدام ، والغَور : الغائر ، فجعل المصدر صفة ، يقال : ماءٌ غَوْر ، ومياه غَوْرٌ ، ولا يثنَّى ، ولا يجمع ، ولا يؤنَّث ، كما يقال : رجلٌ نَوْمٌ ، ورجلٌ صَوْمٌ ، ورجلٌ فِطْر ، ورجالٌ نُوْمٌ ، [ونساءٌ نَوْمٌ] ، ونساءٌ صَوْمٌ .

ويقال : للنساء إذا نُحْنَ : نَوْح ، والمعنى : يذهب ماؤها غائراً في الأرض ، أي : ذاهباً فيها .

﴿ فلن تستطيع له طلباً ﴾ فلا يبقى له أثر تطلبه به ، ولا تناله الأيدي ولا الأَرْشية .

وقال ابن الأنباري : "غَوْراً" إذا غوَّر ، فسقط المضاف ، وخلَفه المضاف إليه ، والمراد بالطلب ها هنا : الوصول ، فقام الطلب مقامه لأنه سببه .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو المتوكل : "غُؤُوراً" برفع الغين والواو [الأولى] جميعاً ، [وواو بعدها] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(93/472)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾

يهوذا أو تمليخا ؛ على الخلاف في اسمه .

﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ وعظه وبيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة .

و"سوّاك رجلا" أي جعلك معتدل القامة والخَلْق ، صحيحَ الأعضاء ذكراً .

﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِي وأبو العالية .

وروي عن الكسائي ﴿ لَّكِنَّ هُوَ اللهُ ﴾ بمعنى لكن الأمر هو الله ربي ، فأضمر اسمها فيها .

وقرأ الباقون "لكنا" بإثبات الألف .

قال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : لكن الله هو ربي أنا ، فحذفت الهمزة من "أنا" طلباً للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين في الأخرى وحذفت ألف "أنا" في الوصل وأثبتت في الوقف .

وقال النحاس : مذهب الكسائي والفرّاء والمازِنيّ أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون في النون فالوقف عليها لكنا وهي ألف أنا لبيان الحركة .

وقال أبو عبيد : الأصل لكن أنا ، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك ، وأنشدنا الكسائي :

لَهنّكِ من عَبْسِيَّة لَوَسِيَمةٌ . . .

على هَنَوَاتٍ كاذب من يقولها

أراد : لله إنك (لوسيمة) ، فأسقط إحدى اللامين من "لله" وحذف الألف من إنك .

وقال آخر فجاء به على الأصل :

وترميني بالطَّرْف أي أنت مذنب . . .

وتَقْلِينني لكنّ إيّاكِ لا أَقْلِي

أي لكن أنا .

وقال أبو حاتم : ورووْا عن عاصم "لكنا هو الله ربي" وزعم أن هذا لحن ، يعني إثبات الألف في الإدراج .

قال الزجاج : إثبات الألف في "لكنا هو الله ربي" في الإدراج جيد ؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عِوضاً .

قال : وفي قراءة أُبَيّ "لكن أنا هو الله ربي" .

وقرأ ابن عامر والمَسِيلِيّ عن نافع ورُويس عن يعقوب "لكنا" في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف .

وقال الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفوني . . .

حُمَيْداً قد تَذَرَّيْتُ السِّناما

وقال الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوافي . . .

بعد المشيب كفى ذاك عاراً

ولا خلاف في إثباتها في الوقف .

﴿ هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ "هو" ضمير القصة والشأن والأمر ؛ كقوله ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء : 79] وقوله "قل هو الله أحد" .

﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره .

ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه ، وأعلم أنه لو أراد أن يسْلُب صاحب الدنيا دنياه قَدَر عليه ؛ وهو الذي آتاني الفقر .

ويحتمل أنه أراد جحودُك البعث مصيرهُ إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه ، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى ، ومَن عجّزه سبحانه وتعالى شبّهه بخلقه ؛ فهو إشراك .

قوله تعالى : ﴿ ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾

فِيهِ مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ أي بالقلب ، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر وردّ عليه ، إذ قال "مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذه أَبداً" و "ما" في موضع رفع ، تقديره : هذه الجنة هي ما شاء الله .

وقال الزجاج والفراء : الأمر ما شاء الله ، أو هو ما شاء الله ؛ أي الأمر مشيئة الله تعالى .

وقيل : الجواب مضمر ، أي ما شاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون .

﴿ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك ، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع .

الثانية قال أشهب قال مالك : ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا .

وقال ابن وهب قال لي حفص بن مَيْسرة : رأيت على باب وهب بن منبِّه مكتوباً "ما شاء الله لا قوّة إلا بالله" .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي هريرة : " ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة " قلت : بلى يا رسول الله ، قال " لا حول ولا قوّة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم " أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى .

وفيه : فقال : " "يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدُلُّك على كلمة من كنز الجنة في رواية على كنز من كنوز الجنة " قلت : ما هي يا رسول الله ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وعنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة قلت : بلى ؛ فقال "لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم" " وروي أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات .

وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قال المَلَك هُديت ، وإذا قال : ما شاء الله قال المَلك : كُفِيت ، وإذا قال : لا قوة إلا بالله قال المَلك وُقيت .

خرجه الترمذيّ من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال يعني إذا خرج من بيته باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفِيت ووُقِيت وتنّحى عنه الشيطان "

هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

خرجه أبو داود أيضاً وزاد فيه فقال له : " هُدِيت وكُفيت ووُقيت " وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه مَلَكان موكَّلان به فإذا قال باسم الله قالا هُديت وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قالا وقُيت وإذا قال توكّلت على الله قالا كفيت قال فيلقاه قَرِيناه فيقولان ماذا تريدان من رجل قد هُدِيَ ووُقِي وكُفِي " وقال الحاكم أبو عبد الله في علوم الحديث : سئل محمد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تحاجّت الجنة والنار فقالت هذه يعني الجنة يدخلني الضعفاء " من الضعيف ؟ قال : الذي يبرىء نفسه من الحول والقوّة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة .

وقال أنس بن مالك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين " وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شيء إلا رَضِيَ به .

وروي أن من قال أربعاً أَمِنَ من أربع : من قال هذه أَمِن من العين ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمن من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمري إلى الله أمن مكر الناس ، ومن قال لا

إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين أمن من الغم .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ﴾ "إنْ" شرط "تَرَنِ" مجزوم به ، والجواب "فعسى رَبِّي" و "أنا" فاصلة لا موضع لها من الإعراب .

ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيداً للنون والياء .

وقرأ عيسى بن عمر "إن ترنِ أنا أقلُ منك" بالرفع ؛ يجعل "أنا" مبتدأ و "أقل" خبره ، والجملة في موضع المفعول الثاني ، والمفعول الأول النون والياء ؛ إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها ، وإثباتها جيّد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة .

و ﴿ فعسى ﴾ بمعنى لعل ، أي فلعلّ ربي .

﴿ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أي في الآخرة .

وقيل في الدنيا .

(97/472)

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أي على جنتك .

﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي مرامي من السماء ، واحدها حُسْبانة ؛ قاله الأخفش والقُتَبِيّ وأبو عبيدة .

وقال ابن الأعرابي : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوِسادة ، والحسبانة الصَّاعقة .

وقال الجوهري : والحسبان (بالضم) : العذاب .

وقال أبو زياد الكلابي : أصاب الأرض حسبان أي جراد .

والحسبان أيضاً الحساب ، قال الله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا .

قال الزجاج : الحسبان من الحساب ؛ أي يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما اكتسبت يداك ؛ فهو من باب حذف المضاف .

والحسبان أيضاً : سهام قصار يرمى بها في طَلْق واحد ، وكان من رَمْي الأكاسرة .

والمرامي من السماء عذاب .

﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ يعني أرضاً بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم ، وهي أضَرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض ؛ و "زلقا" تأكيد لوصف الصعيد ؛ أي تزل عنها الأقدام لملاستها .

يقال : مكان زلَق (بالتحريك) أي دَحْض ، وهو في الأصل مصدر قولك : زلِقت رجله تَزْلَقَ زلَقا ، وأزلقها غيره .

والزلق أيضاً عجز الدابة .

قال رُؤْبة :

كأنها حَقْباءُ بُلْقاء الزَّلَق . . .

والمَزْلَقَة والمُزْلقة : الموضع الذي لا يثبت عليه قدم .

وكذلك الزَّلاّقة .

والزَّلْق الحَلْق ، زلَق رأسَه يَزْلِقُه زلْقا حلقه ؛ قاله الجوهري .

والزَّلَق المحلوق ، كالنَّقْض والنَّقَض .

وليس المراد أنها تصير مزلقة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلق لا يبقى عليه شعر ؛ قاله القشَيْرِيّ .

﴿ أَوْيُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً ﴾ أي غائراً ذاهباً ، فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء .

والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم ؛ كما يقال : رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورِضاً وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نوحٌ ؛ ويستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع .

قال عمرو بن كُلثوم :

تظَلّ جياده نَوْحاً عليه . . .

مقلَّدة أعنّتها صُفُونا

وقال آخر :

هَرِيقي من دموعهما سجاما . . .

ضُباع وجاوبي نوحاً قياماً

أي نائحات .

وقيل : أو يصبح ماؤها ذا غَوْر ؛ فحذف المضاف ؛ مثلُ ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] ذكره النحاس .

وقال الكسائي : ماءٌ غَوْرٌ .

وقد غار الماء يَغُور غَوْراً وغُؤُوراً ، أي سفَل في الأرض ، ويجوز الهمز لانضمام الواو .

وغارت عينه تَغُور غَوْراً وغُؤُوراً ؛ دخلت في الرأس .

وغارت تَغار لغة فيه .

وقال :

أغارتْ عينهُ أم لم تَغَارَا . . .

وغارت الشمس تغور غِيارا ، أي غربت .

قال أبو ذُؤيب :

هل الدهر إلاّ ليلة ونهارُها . . .

وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ أي لن تستطيع ردّ الماء الغائر ، ولا تقدر عليه بحيلة .

وقيل : فلن تستطيع طلب غيره بدلاً منه .

وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(99/472)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) ﴾

النطفة القليل من الماء ، يقال ما في القربة من الماء نطفة ، المعنى ليس فيها قليل ولا كثير ،

وسمّي المني نطفة لأنه ينطف أي يقطر قطرة بعد قطرة .

وفي الحديث : " جاء ورأسه ينطف ماء " أي يقطر .

الحسبان في اللغة الحساب ، ويأتي أقوال أهل التفسير فيه .

الزلق : ما لا يثبت فيه القدم من الأرض .

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً وأحيط بثمرة فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً ﴾ .

﴿ وهو يحاوره ﴾ حال من الفاعل وهو صاحبه المؤمن .

وقرأ أُبيّ وهو يخاصمه وهي قراءة تفسير لا قراءة رواية لمخالفته سواد المصحف ، ولأن الذي روي بالتواتر ﴿ هو يحاوره ﴾ لا يخاصمه .

و ﴿ أكفرت ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ حيث أشرك مع الله غيره .

وقرأ ثابت البناني : ويلك ﴿ أكفرت ﴾ وهو تفسير معنى التوبيخ والإنكار لا قراءة ثابتة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم نبهه على أصل نشأته وإيجاده بعد العدم وأن ذلك دليل على جواز البعث من القبور ، ثم تحتم ذلك بإخبار الصادقين وهم الرسل عليهم السلام .

وقوله ﴿ خلقك من تراب ﴾ إما أن يراد خلق أصلك ﴿ من تراب ﴾ وهو آدم عليه السلام وخلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقاً له ، أو أريد أن ماء الرجل يتولد من أغذية راجعة إلى التراب ، فنبهه أولاً على ما تولد منه ماء أبيه ثم ثانيه على النطفة التي هي ماء أبيه .

وأما ما نقل من أن ملَكاً وكلّ بالنطفة يلقي فيها قليلاً من تراب قبل دخولها في الرحم فيحتاج إلى صحة نقل .

ثم نبهه على تسويته رجلاً وهو خلقه معتدلاً صحيح الأعضاء ، ويقال للغلام إذا تمّ شبابه قد استوى .

وقيل : ذكره بنعمة الله عليه في كونه رجلاً ولم يخلقه أنثى ، نبهه بهذه التنقلات على كمال قدرته وأنه لا يعجزه شيء .

قال الزمخشري : ﴿ سواك ﴾ عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال ، جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول كافراً انتهى .

وانتصب ﴿ رجلاً ﴾ على الحال .

وقال الحوفي ﴿ رجلاً ﴾ نصب بسوى أي جعلك ﴿ رجلاً ﴾ فظاهره أنه عدى سوى إلى اثنين ، ولما لم يكن الاستفهام استفهام استعلام وإنما هو استفهام إنكار وتوبيخ فهو في الحقيقة تقرير على كفره وإخبار عنه به لأن معناه قد كفرت بالذي استدرك هو مخبراً عن نفسه ، فقال ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ إقرار بتوحيد الله وأنه لا يشرك به غيره .

وقرأ الكوفيون وأبو عمرو وابن كثير ونافع في رواية ورش وقالون لكن بتشديد النون بغير ألف في الوصل وبألف في الوقف وأصله ، ولكن أنا نقل حركة الهمزة إلى نون ﴿ لكن ﴾ وحذف الهمزة فالتقى مثلان فأدغم أحدهما في الآخر .

وقيل : حذف الهمزة من أنا على غير قياس فالتقت نون ﴿ لكن ﴾ وهي ساكنة مع نون أنا فأدغمت فيها ، وأما في الوقف فإنه أثبت ألف أنا وهو المشهور في الوقف على أنا ، وأما في الوصل فالمشهور حذفها وقد أبدلها ألفاً في الوقف أبو عمر وفي رواية فوقف لكنه ذكره ابن خالويه .

وقال ابن عطية : وروى هارون عن أبي عمر ولكنه ﴿ هو الله ربي ﴾ بضمير لحق ﴿ لكن ﴾ .

(101/472)

وقرأ ابن عامر ونافع في رواية المسيلي وزيد بن عليّ والحسن والزهري وأبو بحرية ويعقوب في رواية وأبو عمر وفي رواية وكردم وورش في رواية وأبو جعفر بإثبات الألف وقفاً ووصلاً ، أما في الوقف فظاهر ، وأما في الوصل فبنو تميم يثبتونها فيه في الكلام وغيرهم في الاضطرار فجاء على لغة بني تميم .

وعن أبي جعفر حذف الألف وصلاً ووقفاً وذلك من رواية الهاشمي ، ودل إثباتها في الوصل أيضاً على أن أصل ذلك ﴿ لكن ﴾ أنا .

وقال الزمخشري : وحسن ذلك يعني إثبات الألف في الوصل وقوع الألف عوضاً من حذف الهمزة انتهى .

ويدل على ذلك أيضاً قراءة فرقة لكننا بحذف الهمزة وتخفيف النونين .

وقال أيضاً الزمخشري ونحوه يعني ونحو إدغام نون ﴿ لكن ﴾ في نون أما بعد حذف الهمزة قول القائل :

وترميني بالطرف أي أنت مذنب . . .

وتقلينني لكن إياك لا أقلي

أي لكن أنا لا أقليك انتهى .

ولا يتعين ما قاله في البيت لجواز أن يكون التقدير لكنني فحذف اسم لكن وذكروا أن حذفه فصيح إذا دل عليه الكلام ، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر :

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي . . .

ولكن زنجي عظيم المشافر

أي ولكنك زنجي ، وأجاز أبو علي أن تكون لكن لحقتها نون الجماعة التي في خرجنا وضربنا ووقع الإدغام لاجتماع المثلين ثم وحد في ﴿ ربي ﴾ على المعنى ، ولو اتبع اللفظ لقال ربنا انتهى .

وهو تأويل بعيد .

وقال ابن عطية : ويتوجه في لكنا أن تكون المشهورة من أخوات إن المعنى لكن قولي ﴿ هو الله ربي ﴾ إلاّ أني لا أعرف من يقرأ بها وصلاً ووقفاً انتهى .

وذكر أبو القاسم يوسف بن عليّ بن جبارة الهذلي في كتاب الكامل في القراءات من تأليفه ما نصه : يحذفها في الحالين يعني الألف في الحالين يعني الوصل والوقف حمصي وابن عتبة وقتيبة غير الثقفي ، ويونس عن أبي عمر ويعني بحمصي ابن أبي عبلة وأبا حيوة وأبا بحرية .

(102/472)

قرأ أبيّ والحسن ﴿ لكن ﴾ أنا ﴿ هو الله ﴾ على الانفصال ، وفكه من الإدغام وتحقيق الهمز ، وحكاها ابن عطية عن ابن مسعود .

وقرأ عيسى الثقفي ﴿ لكن هو الله ﴾ بغير أنا ، وحكاها ابن خالويه عن ابن مسعود ، وحكاها الأهوازي عن الحسن .

فأما من أثبت ﴿ هو ﴾ فإنه ضمير الأمر والشأن ، وثم قول محذوف أي ﴿ لكن ﴾ أنا أقول ﴿ هو الله ربي ﴾ ويجوز أن يعود على الذي ﴿ خلقك من تراب ﴾ ، أي أنا أقول : ﴿ هو ﴾ أي خالقك ﴿ الله ربي ﴾ و ﴿ ربي ﴾ نعت أو عطف بيان أو بدل ، ويجوز أن لا يقدر .

أقول محذوفة فيكون أنا مبتدأ ، و ﴿ هو ﴾ ضمير الشأن مبتدأ ثان و ﴿ الله ﴾ مبتدأ ثالث ، و ﴿ ربي ﴾ خبره والثالث خبر عن الثاني ، والثاني وخبره خبر عن أنا ، والعائد عليه هو الياء في ﴿ ربي ﴾ ، وصار التركيب نظير هند هو زيد ضاربها .

وعلى رواية هارون يجوز أن يكون هو توكيد الضمير النصب في لكنه العائد على الذي خلقك ، ويجوز أن يكون فصلاً لوقوعه بين معرفين ، ولا يجوز أن يكون ضمير شأن لأنه لا عائد على اسم لكن من الجملة الواقعة خبراً .

وفي قوله و ﴿ لا أشرك بربي أحداً ﴾ تعريض بإشراك صاحبه وأنه مخالفه في ذلك ، وقد صرح بذلك صاحبه في قوله يا ليتني لم أشرك بربي أحداً .

وقيل : أراد بذلك أنه لا يرى الغنى والفقر إلاّ منه تعالى ، يفقر من يشاء ويغني من يشاء .

وقيل : لا أعجز قدرته على الإعادة ، فأسَوِّي بينه وبين غيره فيكون إشراكاً كما فعلت

أنت .

ولما وبخ المؤمن الكافر أورد له ما ينصحه فحضه على أن كان يقول إذا دخل جنته ﴿ ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله ﴾ أي الأشياء مقذوفة بمشيئة الله إن شاء أفقر ، وإن شاء أغنى ، وإن شاء نصر ، وإن شاء خذل .

(103/472)

ويحتمل أن تكون ما شرطية منصوبة بشاء ، والجواب محذوف أي أي شيء شاء الله كان ، ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذي موفوعة على الابتداء ، أي الذي شاءه الله كائن ، أو على الخبر أي الأمر ما شاء الله ﴿ ولولا ﴾ تحضيضية ، وفصل بين الفعل وبينها بالظرف وهو معمول لقوله ﴿ قلت ﴾ .

ثم نصحه بالتبرىء من القوة فيما يحاوله ويعانيه وأن يجعل القوة لله تعالى .

وفي الحديث " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لأبي هريرة : "ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة" ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : "لا قوة إلاّ بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم" " ونحوه من حديث أبي موسى وفيه إلاّ بالله العلي العظيم .

ثم أردف تلك النصيحة بترجية من الله ، وتوقعه أن يقلب ما به وما بصاحبه من الفقر

والغنى .

فقال : ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴾ أي إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يمنحني جنة خيراً من جنتك لإيماني به ، ويزيل عنك نعمته لكفرك به ويخرب بستانك .

وقرأ الجمهور : ﴿ أقل ﴾ بالنصب مفعولاً ثانياً لترني وهي علمية لا بصرية لوقوع ﴿ أنا ﴾ فصلاً ، ويجوز أن يكون توكيداً للضمير المنصوب في ترني ، ويجوز أن تكون بصرية و ﴿ أنا ﴾ توكيد للضمير في ترني المنصوب فيكون ﴿ أقل ﴾ حالاً .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ أقل ﴾ بالرفع على أن تكون أنا مبتدأ ، و ﴿ أقل ﴾ خبره ، والجملة في موضع مفعول ترني الثاني إن كانت علمية ، وفي موضع الحال إن كانت بصرية .

ويدل قوله ﴿ وولداً ﴾ على أن قول صاحبه ﴿ وأعز نفراً ﴾ عنى به الأولاد إن قابل كثرة المال بالقلة وعزة النفر بقلة الولد .

والحسبان ، قال ابن عباس وقتادة : العذاب .

وقال الضحاك : البرد .

وقال الكلبي : النار .

وقال ابن زيد : القضاء .

وقال الأخفش : سهام ترمي في مجرى فقلما تخطىء .

وقيل : النبل .

وقيل : الصواعق .

وقيل : آفة مجتاحة .

(104/472)

وقال الزجاج : عذاب حسبان وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك ، وهذا الترجي إن كان ذلك أن يؤتيه في الدنيا فهي أنكى للكافر وآلم إذ يرى حاله من الغنى قد انتقلت إلى صاحبه ، وإن كان ذلك أن يؤتيه في الآخرة فهو أشرف وأذهب مع الخير والصلاح ﴿ فتصبح صعيداً ﴾ أي أرضاً بيضاء لا نبات فيها لا من كرم ولا نخل ولا زرع ، قد اصطلم جميع ذلك فبقيت يباباً قفراً يزلق عليها لإملاسها ، والزلق الذي لا تثبت فيه قدم ذهب غراسه وبناؤه وسلب المنافع حتى منفعة المشي فيه فهو وحل لا ينبت ولا يثبت فيه قدم .

وقال الحسن : الزلق الطريق الذي لا نبات فيه .

وقيل : الخراب .

وقال مجاهد : رملاً هائلاً .

وقيل : الزلق الأرض السبخة وترجِّي المؤمن لجنة هذا الكافر آفة علوية من السماء أو آفة سفلية من الأرض ، وهو غور مائها فيتلف كل ما فيها من الشجر والزرع ، وغور مصدر

خبر عن اسم أصبح على سبيل المبالغة و﴿ أو يصبح ﴾ معطوف على قوله ﴿ ويرسل ﴾ لأن غؤور الماء لا يتسبب على الآفة السماوية إلاّ إن عنى بالحسبان القضاء الإلهي ، فحينئذ يتسبب عنه إصباح الجنة ﴿ صعيداً زلقاً ﴾ أو إصباح مائها ﴿ غوراً ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ غوراً ﴾ بفتح الغين .

وقرأ البرجمي : ﴿ غوراً ﴾ بضم الغين .

وقرأت فرقة بضم الغين وهمز الواو يعنون وبواو بعد الهمزة فيكون غؤوراً كما جاء في مصدر غارت عينه غؤوراً ، والضمير في ﴿ له ﴾ عائد على الماء أي لن يقدر على طلبه لكونه ليس مقدوراً على ردّ ما غوره الله تعالى .

وحكى الماوردي أن معناه : لن تستطيع طلب غيره بدلاً منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(105/472)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ لَهُ صاحبه ﴾

استئناف كما سيق ﴿ وَهُوَ يحاوره ﴾ جملةٌ حاليةٌ كما مر فائدتُها التنبيهُ من أول الأمرِ

على أن ما يتلوه كلامٌ معنًى بشأنه مسوقٌ للمحاورة ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ حيث قلت : ما أظن الساعةَ قائمةً ﴿ بالذى خَلَقَكَ ﴾ أي في ضمن خلقِ أصلِك ﴿ مّن تُرَابٍ ﴾ فإن خلْقَ آدمَ عليه السلام منه متضمّنٌ لخلقه منه لما أن خلقَ كل فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرتُه الشريفةُ مقصورةً على نفسه ، بل كانت أُنموذجاً منطوياً على فطرة سائرِ أفرادِ الجنسِ انطواءً إجمالياً مستتبِعاً لجريان آثارِها على الكل ، فكان خلْقُه عليه السلام من التراب خَلْقاً للكل منه ، وقيل : خلقَك منه لأنه أصلُ مادتِك إذ به يحصُل الغذاءُ الذي منه تحصل النطفةُ فتدبر ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ هي مادتُك القريبة فالمخلوقُ واحدٌ والمبدأُ متعددٌ ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ أي عَدلك وكمّلك إنساناً ذكراً أو صيّرك رجلاً ، والتعبيرُ عنه تعالى بالموصول للإشعار بعلية ما حيز الصلة لإنكار الكفرِ والتلويحِ بدليل البعثِ الذي نطق به قولُه عز من قائل : ﴿ السعير يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مّنَ البعث فَإِنَّا خلقناكم مّن تُرَابٍ ﴾ الخ .

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبّى ﴾ أصله لكنْ أنا وقد قرىء كذلك فحُذفت الهمزةُ فتلاقت النونان فكان الإدغامُ ، و (هو) ضميرُ الشأن وهو مبتدأٌ خبرُه الله ربي وتلك الجملةُ خبرُ أنا والعائدُ منها إليه الضميرُ ، وقرىء بإثبات ألفِ أنا في الوصل والوقف جميعاً وفي الوقف خاصة ، وقرىء لكنه بالهاء ولكن بطرح أنا ولكن أنا لا إله إلا هو ربي ، ومدارُ الاستدراك قوله تعالى : ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ كأنه قال : أنت كافرٌ لكني مؤمنٌ موحّد ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبّى

أَحَدًا ﴾ فيه إيذانٌ بأن كفرَه كان بطريق الإشراك .

﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ﴾

(106/472)

أي هلاّ قلت عندما دخلتَها ، وتقديمُ الظرف على المحضَّض عليه للإيذان بتحتّم القولِ في آن الدخولِ من غير ريث لا للقصر ﴿ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ أي الأمرُ ما شاء الله أو ما شاء الله كائنٌ على أن ما موصولةٌ مرفوعةُ المحلِّ ، أو أيَّ شيء شاء الله كان على أنها شرطيةٌ منصوبةٌ والجوابُ محذوفٌ ، والمرادُ تحضيضُه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ أي هلا قلت ذلك اعترافاً بعجزك وبأن ما تيسر لك من عِمارتها وتدبيرِ أمرِها إنما هو بمعونته تعالى وإقداره عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئاً فأعجبه فقال : ما شاء الله لا قوةَ إلا بالله لم يضُرَّه " ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ أنا إما مؤكدٌ لياء المتكلمِ أو ضميرُ فصْلٍ بين مفعولي الرؤيةِ إن جُعلت عِلْميةً ، وأقلَّ ثانيهما ، وحالٌ إن جُعلت بصَريةً فيكون أنا حينئذ تأكيداً لا غيرُ لأن شرطَ كونِه ضميرَ فصلٍ توسطُه بين المبتدأ والخبر أو ما أصلُه المبتدأُ والخبر ،

وقرىء أقلُّ بالرفع خبراً لأنا والجملةُ مفعولٌ ثانٍ للرؤية أو حالٌ وفي قوله تعالى : ﴿ وَوَلَدًا ﴾ نُصرةٌ لمن فسر النفرَ بالولد .

(107/472)

﴿ فعسى ربّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مّن جَنَّتِكَ ﴾ هو جوابُ الشرط والمعنى إن ترنِ أفقرَ منك فأنا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلِبَ ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزُقني لإيماني جنةً خيراً من جنتك ويسلُبَك لكفرك نعمتَه ويُخْرِب جنتك ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا ﴾ هو مصدرٌ بمعنى الحِساب كالبُطلان والغفران أي مقداراً قدره تعالى وحسَبه ، وهو الحكمُ بتخريبها ، وقيل : عذابَ حُسبانٍ وهو حسابُ ما كسبت يداه ، وقيل : مَراميَ جمعُ حُسبانة وهي الصواعقُ . ومساعدة النظمِ الكريم فيما سيأتي للأولين أكثر ﴿ مّنَ السماء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ مصدر أريد به المفعولُ مبالغةً أي أرضاً ملساء يُزْلَق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحُ ﴾ ، وعلى الوجه الثالث على يرسلَ ﴿ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي غائراً في الأرض أُطلق عليه المصدرُ مبالغة ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ

﴿ أبداً ﴿ لَهُ ﴾ أي للماء الغائرِ ﴿ طَلَبًا ﴾ فضلاً عن وجدانه وردّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(108/472)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ لَهُ صاحبه ﴾

استئناف كما سبق ﴿ وَهُوَ يحاوره ﴾ جملة حالية كالسابقة ، وفائدتها التنبيه من أول الأمر على أن ما يتلوها كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة .

وقرأ أبي وحمل ذلك على التفسير ﴿ وَهُوَ ﴾ ﴿ يحاوره أَكَفَرْتَ بالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي في ضمن خلق أصلك منه وهو آدم عليه السلام لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجمالياً مستتبعاً لجريان آثارها على الكل فإسناد الخلق من تراب إلى ذلك الكافر حقيقة باعتبار أنه مادة أصله ، وكون ذلك مبنياً على صحة قياس المساواة خيال واه ، وقيل خلقك منه لأنه أصل مادتك إذ ماء الرجل يتولد من أغذية راجعة إلى التراب فالإسناد مجاز من إسناد ما للسبب إلى المسبب

فتدبر .

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ هي مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد ، ونقل أنه ما من نطفة قدر الله تعالى أن يخلق منها بشراً إلا وملك موكل بها يلقى فيها قليلاً من تراب ثم يخلق الله تعالى منها ما شاء من ذكر أو أنثى .

وتعقبه في "البحر" بأنه يحتاج إلى ثبوت صحته ، وأنا أقول : غالب ظني أني وقفت على تصحيحه لكن في تخريج الآية عليه كلام لا يخفى ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ عدلك وكملك إنساناً ذكراً ؛ وأصل معنى التسوية جعل الشيء سواء أي مستوياً كما فيما ﴿ تسوى بِهِمُ الأرض ﴾ [النساء : 42] ثم إنه يستعمل تارة بمعنى الخلق والإيجاد كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] فإذا قرن بالخلق والإيجاد كما هنا فالمراد به الخلق على أتم حال وأعدله حسبما تقتضيه الحكمة بدون إفراط ولا تفريط ، ونصب ﴿ رَجُلاً ﴾ على ما قال أبو حيان على الحال وهو محوج إلى التأويل .

(109/472)

وقال الحوفي : نصب على أنه مفعول ثان لسوى ، والمراد ثم جعلك رجلاً ، وفيه على ما قيل تذكير بنعمة الرجولية أي جعلك ذكراً ولم يجعلك أنثى .

والظاهر أن نسبة الكفر بالله تعالى إليه لشكه في البعث وقوله : ﴿ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [الكهف : 36] والشاك في البعث كما في "الكشف" كافر من أوجه الشك في قدرته تعالى وفي أخباره سبحانه الصدق وفي حكمته ألا ترى إلى قوله عز وجل ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] وهذا هو الذي يقتضيه السياق لأن قوله : ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ الخ وقع رداً لقوله : ﴿ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [الكهف : 36] ولذلك رتب الإنكار بخلقه من تراب ثم من نطفة الملوح بدليل البعث وعليه أكثر المفسرين ونوقشوا فيه .

وقال بعضهم : الظاهر إنه كان مشركاً كما يدل عليه قول صاحبه تعريضاً به ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : 38] وقوله : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : 42] وليس في قوله : ﴿ لَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي ﴾ [الكهف : 36] ما ينافيه لأنه على زعم صاحبه كما مر مع أن الإقرار بالربوبية لا ينافي الإشراك فعبدة الأصنام مقرون بها وهم مشركون فالمراد بقوله : ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ أأشركت اه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بعض ما يتعلق به .

وقرأ ثابت البناني وحمل ذلك على التفسير كنظائره المتقدمة ويلك أكفرت .

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾

أصله لكن أنا وقد قرأ به أبي .

والحسن ، وحكى ابن عطية ذلك عن ابن مسعود فنقل حركة همزة أنا إلى نون لكن فحذفت الهمزة ثم حذفت الحركة ثم ادغمت النون في النون ، وقيل حذفت الهمزة مع حركتها ثم أدغم أحد المثلين في الآخر وهو أقرب مسافة إلا أن الحذف المذكور على خلاف القياس ، وقد جاء الحذف والإدغام في قوله :

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب . . .

وتقلينني لكن إياك لا أقلي

(110/472)

فإنه أراد لكن أنا لا أقليك ، وهو أولى من جعلهم التقدير لكنه إياك على حذف ضمير الشأن ، وأبعد منه جعل الأصل لكنني إياك على حذف اسم لكن كما في قوله :

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي . . .

ولكن زنجي عظيم المشافر

أي لكنك مع نون الوقاية ، وبإثبات الألف آخراً في الوقف وحذفها في الوصل كما هو الأصل في أنا وقفاً ووصلاً قرأ الكوفيون .

وأبو عمرو .

وابن كثير .

ونافع في رواية ورش .

وقالون ، وأبدلها هاء في الوقف أبو عمرو في رواية فقال : ﴿ لكنه ﴾ ذكره ابن خالويه ، وقال ابن عطية : روى هارون عن أبي عمرو ﴿ لَّكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾ بضمير لحق لكن .

وقرأ ابن عامر .

وزيد بن علي .

والحسن .

والزهري بإثبات الألف وقفاً ووصلاً وهو رواية عن نافع .

ويعقوب .

وأبي عمرو .

وورش .

وأبي جعفر .

وأبي بحرية ، وجاء ذلك على لغة بني تميم فإنهم يثبتون ألف أنا في الأصل اختياراً وأما غيرهم فيثبتها فيه اضطراراً ، وقال بعضهم : إن إثباتها في الوصل غير فصيح لكنه حسن هنا لمشابهة أنا بعد حذف همزته لضميرنا المتصل ولأن الألف جعل عوضاً عن الهمزة المحذوفة فيه .

وقيل أثبتت إجراء للوصل مجرى الوقف وفي إثباتها دفع اللبس بلكن المشددة ، ومن إثباتها وصلاً قول الشاعر :

أنا شيخ العشيرة فاعرفوني . . .

حميداً قد تذريت السناما

وفي رواية الهاشمي عن أبي جعفر حذفها وصلاً ووقفاً ، وروي ذلك أيضاً عن أبي عبلة . وأبي حيوة .

(111/472)

وأبي بحرية ، وقرأ ﴿ لكننا ﴾ بحذف الهمزة وتخفيف النونين ، و ﴿ المهاد لَكِنِ ﴾ في جميع هذه القراءات حرف استدراك لا عمل له وأنا مبتدأ أول و ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن مبتدأ ثان و ﴿ اللهُ رَبِّى ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة خبر ضمير الشأن وهي غنية عن الرابط وجملة ضمير الشأن وخبره خبر المبتدأ الأول والرابط ضمير المتكلم المضاف إليه ، والتركيب نظير قولك : هند هو زيد ضاربها ، وجوز أن يكون ﴿ هُوَ ﴾ مبتدأ ثانياً والاسم الجليل بدلاً منه و ﴿ رَبِّى ﴾ خبره والجملة خبر المبتدأ الأول والرابط الياء أيضاً . وفي "البحر" أن ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن وثم قول محذوف أي لكن أنا أقول هو الله ربي ،

ويجوز أن يعود على

﴿ الذى خَلَقَكَ ﴾ [الكهف : 37] أي لكن أنا أقول الذي خلقك الله ربي فخبره الاسم الجليل و﴿ ربّى ﴾ نعت أو عطف بيان أو بدل انتهى ، ثم جوز عدم تقدير القول واقتصر على جعل ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن حينئذٍ حسبما سمعت ، ولا يخفى أن احتمال تقدير القول بعيد في هذه القراءة ولعل احتمال كون الاسم الجليل بدلاً أقرب معنى من كونه خبراً وعود الضمير على الذي خلقك ، وجوز أبو علي كون ن ضمير الجماعة كالتي في خرجنا وضربنا ووقع الإدغام لاجتماع المثلين إلا أنه أريد بها ضمير المعظم نفسه فوحد ﴿ ربّى ﴾ على المعنى ولو اتبع اللفظ لقيل ربنا ولا يخفى ما فيه من البعد ، وقال ابن عطية في الآية : يجوز أن تكون لكن هي العاملة من أخوات إن واسمها محذوف وحذفه فصيح إذا دل عليه الكلام والتقدير لكن قولي هو الله ربي ، لكن ذلك إنما يتم لو قرىء بحذف الألف وقفاً ووصلاً وأنا لا أعرف أحداً قرأ بذلك انتهى ، وأنت قد عرفت من قرأ به ، وقد ذكر غيرهم قرؤا أيضاً أبو القاسم يوسف بن علي الهذلي في كتابه الكامل في القراءات لكن لا أظنك تستحسن التخريج على ذلك .

وقرأ عيسى الثقفي ﴿ لَّكِنَّ هُوَ الله ﴾ بسكون نون لكن ، وحكاه ابن خالويه عن ابن مسعود .

والأهوازي عن الحسن وءعرابه ظاهر جداف .

وقرىء "لكن أنا هو الله لا إله إلا هو ربي" ويعلم إعرابه مما مر ، وخرج أبو حيان قراءة أبي عمرو على رواية هارون على أن يكون "هو" تأكيداً لضمير النصب في "لكنه" وجعله عائداً على ﴿ الذي خلقك ﴾ [الكهف : 37] ثم قال : ويجوز أن يكون فصلاً لوقوعه بين معرفتين ، ولا يجوز أن يكون ضمير شأن لأنه لا عائد حينئذٍ على اسم لك من الجملة الواقعة خبراً انتهى ، ويا ليت شعري ما الذي منعه من تجويز أن يكون ضمير لكنه للشأن ويكون ﴿ هُوَ ﴾ مبتدأ عائداً على ﴿ الذى خَلَقَكَ ﴾ [الكهف : 37] والاسم الجليل خبره و ﴿ رَبّى ﴾ نعتاً أو عطف بيان أو بدل والجملة خبر ضمير الشأن المنصوب بلكن أو يكون ﴿ هُوَ ﴾ مبتدأ والاسم الجليل بدلاً منه و ﴿ رَبّى ﴾ خبراً والجملة خبر الضمير .

هذا وقوله : ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبّى أَحَدًا ﴾ عطف على إحدى الجملتين والاستدراك على ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ [الكهف : 37] وملخص المعنى لمكان الاستفهام الذي هو للتقرير على سبيل الإنكار أنت كافر بالله تعالى لكني مؤمن موحد .

وللتغاير الظاهر بين الجملتين وقعت لكن موقعها فقد قالوا : إنها تقع بين كلامين متغايرين نحو زيد حاضر لكن عمرو غائب ، وإلى كون المعنى ما ذكر ذهب الزمخشري وغيره ، وذكر في

"الكشف" أن فيه إشارة إلى أن الكفر بالله تعالى يقابله الإيمان والتوحيد فجاز أن يستدرك بكل منهما وبهما معاً أي كما هنا فءن الإيمان مفاد أنا هو الله ربي والتوحيد مفاد ﴿ لا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ وأنت تعلم أيضاً أن الشرك كثيراً ما يطلق على مطلق الكفر وجعلوا منه قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] وأنه يمكن أن يكون الغرض من مجموع الكلام إثبات الإيمان على الوجه الأكيد ، ولعل شرك صاحبه الذي عرض به في الجملة الثانية كما صرح به غير واحد بهذا المعنى .

(113/472)

وقيل الشرك فيه بالمعنى المتبادر وإثباته لصاحبه تعريضاً باعتبار أنه لما أنكر البعث فقد عجز الباري جل جلاله ومن عجزه سبحانه وتعالى فقد سواه بخلقه تعالى في العجز وهو شرك ، وقيل باعتبار أنه لما اغتر بدنياه وزعم الاستحقاق الذاتي وأضاف ما أضاف لنفسه كان كأنه أشرك فعرض به المؤمن بما عرض فكأنه قال : لكن أنا مؤمن ولا أرى الغنى والفقر إلا من الله تعالى يفقر من يشاء ويغني من يشاء ولا أرى الاستحقاق الذاتي على خلاف ما أنت عليه ؛ والإنصاف أن كلاً من القولين تكلف ، وقيل في الكلام تعريض بشرك

صاحبه ولا يلزم أن يكون مدلولاً عليه بكلامه السابق بل يكفيه ثبوت كونه مشركاً في نفس الأمر وفيما بعد ما هو ظاهر فيه فتأمل ، ثم اعلم أن ما تضمنته الآية ذكر جليل ، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن عند الكرب الله ربي لا أشرك به شيئاً .

﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ﴾

حض على القول وتوبيخ على تركه ، وتقديم الظرف على المحضض عليه للإيذان بتحتم القول في آن الدخول من غير ريث للقصر ، وجاز تقديمه لذلك وجعله فاصلاً بين ﴿ لَوْلاَ ﴾ وفعلها لتوسعهم في الظروف أي هلا قلت عندما دخلتها ﴿ مَا شَاء الله ﴾ أي الأمر ما شاء الله أو ما شاء الله تعالى كائن على أن ما موصولة مرفوعة المحل إما على أنها خبر مبتدأ محذوف أو على أنها مبتدأ محذوف الخبر .

(114/472)

ويجوز أن تكون شرطية في محل نصب بشاء والجواب محذوف أي أي شيء شاء الله تعالى كان ، وأياً ما كان فالمراد تحضيضه على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها ، ودلالة الجملة على العموم الداخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً

على التقدير الأول لأن تعريف الأمر للاستغراق ، والجملة على هذا تفيد الحصر وأما على غيره فقيل لأن ما شرطية أو موصولة وهي في معنى الشرط والشرط وما في معناه يفيد توقف وجود الجزاء على ما في حيزه فيفيد عدمه عند عدمه فيكون المعنى ما شاء كان وإن لم يشأ لم يكن ، ولا غبار على ذلك عند من يقول بمفهوم الشرط ، وقدر بعضهم في الثاني من احتمالي الموصولة ما شاء الله هو الكائن حتى تفيد الجملة ما ذكر وليس بشيء كما لا يخفى .

وزعم القفال من المعتزلة أن التقدير هذا ما شاءه الله تعالى والإشارة إلى ما في الجنة من الثمار ونحوها ، وهذا كقول الإنسان إذا نظر إلى كتاب مثلاً : هذا خط زيد ، ومراده نفي دلالة الآية على العموم ليسلم له مذهب الاعتزال ، وكذلك فعل الكعبي .

والجبائي حيث قالا : الآية خاصة فيما تولى الله تعالى فعله ولا تشمل ما هو من فعل العباد ولا يمتنع أن يحصل في سلطانه سبحانه ما لا يريد كما يحصل فيه ما ينهى عنه ، ولا يخفى على من له ذوق سليم وذهن مستقيم أن المنساق إلى الفهم العموم وكم للمعتزلة عدول عن ذلك ﴿ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ من مقول القول أيضاً أي هلا قلت ذلك اعترافاً بعجزك وإقراراً بأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته تعالى وإقداره جل جلاله ، وقد تضمنت هذه الآية ذكراً جليلاً أيضاً ، فقد أخرج أحمد عن أبي هريرة قال : " قال لي نبي الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قلت : نعم قال .

أن تقول لا قوة إلا بالله قال عمرو بن ميمون : قلت لأبي هريرة : لا حول ولا قوة إلا بالله فقال : لا إنها في سورة الكهف ولولا إذ دخلت "

الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة قال : "إن من أفضل الدعاء قول الرجل ما شاء الله" ، وأخرج أبو يعلى .

وابن مردويه .

والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أنعم الله تعالى على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله تعالى عنه كل آفة حتى تأتيه منيته وقرأ لولا إذ دخلت " الخ .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن أنس قال : من رأى شيئاً من ماله فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يصب ذلك المال آفة أبداً وقرأ الآية ، وأخرجه البيهقي في الشعب عن أنس مرفوعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مطرف قال : كان مالك إذا دخل بيته يقول : ما شاء الله قلت

لمالك : لم تقول هذا ؟ قال : ألا تسمع الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ ونقل عن ابن العربي أن مالكاً يستدل بالآية على استحباب ما تضمنته من الذكر لكل من دخل منزله .

وأخرج سعيد بن منصور .

وابن أبي حاتم .

(116/472)

والبيهقي في الشعب عن عروة أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه أو دخل حائطاً من حيطانه قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ويتأول قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ ﴾ الآية ، ويفهم من بعض الروايات استحباب قول ذلك عند رؤية ما يعجب مطلقاً سواء كان له أو لغيره وإنه إذا قال ذلك لم تصبه عين الإعجاب ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ الخ ﴿ أَنَاْ ﴾ توكيد للضمير المنصوب على المفعولية في ﴿ ترني ﴾ وقد أقيم ضمير الرفع مقام ضمير النصب ، والرؤية إن كانت علمية فأقل مفعول ثان وإن كانت بصرية فهو حال من المفعول ، ويجوز أن يكون ﴿ الجن أَنَاْ ﴾ فصلاً وحينئذٍ يتعين أن تكون الرؤية علمية لأن الفصل إنما يقع بين مبتدأ وخبر في الحال أو في الأصل .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ أَقُلْ ﴾ بالرفع فيكون ﴿ أَنَاْ ﴾ مبتدأ و ﴿ أَقُلْ ﴾ خبره والجملة في موضع المفعول الثاني على الأول من احتمالي الرؤية أو الحال على الثاني منهما و ﴿ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ تمييز على القراءتين وما فيهما من الاحتمال ، وقوله :

﴿ فعسى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

قائم مقام جواب الشرط أي إن ترن كذلك فلا بأس عسى ربي الخ ، وقال كثير : هو جواب الشرط ، والمعنى إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنيع الله تعالى أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة خيراً من جنتك ويسلبك بكفرك نعمته ويخرب جنتك ، وقيد بعضهم هذا الإيتاء بقوله : في الآخرة ، وقال آخر : في الدنيا أو في الآخرة ، وظاهر ما ذكر أنه في الدنيا كالإرسال في قوله : ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السماء ﴾ أي عذاباً كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس .

وأخرج الطستي عنه أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ حُسْبَاناً ﴾ فقال : ناراً وأنشد له قول حسان :

بقية معشر صبت عليهم . . .

شآبيب من الحسبان شهب

وأخرج ذلك ابن أبي شيبة .

وابن أبي حاتم عن الضحاك أيضاً ، وقال الزمخشري : هو مصدر كالبطلان والغفران بمعنى الحساب والمراد به المحسوب والمقدر أي مقدراً قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها ، والظاهر أن إطلاقه على الحكم المذكور مجاز .

والزجاج جعل الحسبان بمعنى الحساب أيضاً إلا أنه قدر مضافاً أي عذاب حساب وهو حساب ما كسبت يداه ، ولا يخفى أنه يجوز أن يراد من الحسبان بهذا المعنى العذاب مجازاً فلا يحتاج إلى تقدير مضاف .

وظاهر عبارة القاموس وكذا ما روى أولاً عن ابن عباس أن إطلاق الحسبان على العذاب حقيقة ، ويمكن على ما قيل أن يكون إطلاقه على النار باعتبار أنها من العذاب أو من المقدر ، ونقل الزمخشري أن ﴿ حُسْبَاناً ﴾ جمع حسبانة وهي المرماة أي ما يرمي به كالسهم والصاعقة وأريد بها هنا الصواعق ، وقيل أعم من ذلك أن يرسل عليها مرامي من عذابه إما برداً وإما حجارة وإما غيرهما مما يشاء ﴿ فَتُصْبِحُ ﴾ لذلك ﴿ صَعِيداً ﴾ أي أرضاً ﴿ زَلَقًا ﴾ ليس فيها نبات قاله الحسن وأخرجه ابن أبي حاتم عن السدي ؛ قيل وأصل معنى الزلق الزلل في المشي لوحل ونحوه لكن لما كان ذلكم فيما لا يكون فيه نبت ونحوه مما يمنع منه تجوز به أو كنى عنه ، وعبر بالمصدر عن المزلقة مبالغة ، وقيل الزلق من زلق رأسه بمعنى حلقه والكلام على التشبيه أي فتصبح أرضاً ملساء ليس فيها شجر ولا

نبات كالرأس الذي حلق وفيه بعد ، وقيل المراد بالزلق المزلقة بالمعنى الحقيقي الظاهر ، والمعنى فتصبح أرضاً لا نبات فيها ولا يثبت فيها قدم ، وحاصله فتصبح مسلوبة المنافع حتى منفعة المشي عليها فتكون وحلاً لا تنبت ولا يثبت عليها قدم ، وظاهر صنيع أبي حيان اختياره ، وقال مجاهد : أي فتصبح رملاً هائلاً

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾

أي غائراً في الأرض ، والتعبير بالمصدر للمبالغة نظير ما مر .

(118/472)

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ ﴾ أي للماء الغائر ﴿ طَلَبًا ﴾ تحركاً وعملاً في رده وإخراجه ، والمراد نفي استطاعة الوصول إليه فعبر عنه بنفي الطلب إشارة إلى أنه غير ممكن والعاقل لا يطلب مثله ، وقيل ضمير ﴿ لَهُ ﴾ للماء مطلقاً لا للماء المخصوص أي فلن ستطيع لماء لها بدل ذلك الماء الغائر طلباً ، وهو الذي يقتضيه كلام الماوردي إلا أنه خلاف الظاهر .

والظاهر أن ﴿ يُصْبِحَ ﴾ عطف على ﴿ تصبح ﴾ [الكهف : 40] وحينئذ لا بد أن يراد بالحسبان ما يصلح ترتب الأمرين عليه عادة كالحكم الإلهي بالتخريب إذ ليس كل آفة سماوية يترتب عليها إصباح الجنة صعيداً زلقاً يترتب عليها إصباح مائها غوراً .

وجوز أن يكون العطف على ﴿ يُرْسِلُ ﴾ [الكهف : 40] وحينئذ يجوز أن يراد بالحبسان أي معنى كان من المعاني السابقة ، وعلى هذا يكون المؤمن قد ترجى هلاك جنة صاحبه الكافر إما بآفة سماوية أو بآفة أرضية وهو غور مائها فيتلف كل ما فيها من الشجر والزرع لكنه لم يصرح بما يترتب على الغور من الضرر والخراب ، ولعل ذلك لظهوره والاكتفاء بالإشارة إليه بقوله ﴿ فَلَنْ ﴾ الخ .

(119/472)

وتعقب بأنه لا يخفى أنه لا فساد في هذا العطف لا لفظاً ولا معنى إلا أنه كان الظاهر أن يقال : أو يجعل ماءها غوراً أو نحو ذلك مما فيه إسناد الفعل إلى الله تعالى ولا يظهر للعدول إلى ما في النظم الكريم وجه فتأمل ، ثم أن أكثر العلماء على أن قوله ﴿ إِن تَرَنِ ﴾ [الكهف : 39] الخ في مقابلة قول الكافر ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً ﴾ [الكهف : 34] الخ وكأنه عنوا المقابلة في الجملة لا المقابلة التامة أما إذا لم يتحد المراد بالنفر والولد فظاهر ، وأما إذا اتحد بأن فسر النفر بالولد فلأن هناك أمرين أكثرية واعزية ولم يذكر هنا إلا مقابل أحدهما وهو الأقلية المنسوبة في المعنى إلى المال والولد ، نعم قيل : إن أقلية الولد قد تستلزم الأذلية والأكثرية قد تستلزم الأعزية كما يشاهد في عرب البادية .

هذا وكان الظاهر أن يتعرض في الجزاء لأمر الولد كما تعرض لأمر المال بأن يقال وعسى أن يؤتيني خيراً من ولدك ويصيبهم ببلاء فيصبحوا هلكى أو نحو ذلك الكافر وأنه يكفي في نكايته وإغاظته تلف جنته وإعطاء احبه المؤمن خيراً منها .

وقيل : إنما لم يتعرض لذلك لما فيه من ترجي هلاك من لم يصدر منه مكالمة ومحاورة ولم ينقل عنه مقاومة ومفاخرة لمجرد إغاظة كافر حاور وكاثر وفاخر وتركه أفضل للكامل وأكمل للفاضل ، والدعاء على الكفرة وذراريهم الصادر من بعض الأنبياء عليهم السلام ليس من قبيل هذا الترجي كما لا يخفى على المتأمل ؛ وحيث أراد ترك هذا الترجي ترك ترجي الولد لنفسه تبعاً له أو لكونه غير مهم له ، وقيل : إنه ترجاه في قوله :

﴿ خَيْرًا مّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف : 40] لأن المراد شيئاً خيراً من جنتك والنكرة قد تعم بمعونة المقام فيندرج الولد وليس بشيء .

(120/472)

وقيل : أراد ما هو الظاهر أي جنة خيراً من جنتك إلا أن الخيرية لا تتم من دون الولد إذ لا تكمل لذة بالمال لمن لا ولد له فترجى جنة خير من تلك الجن متضمن لترجى ولد خير من أولئك الولد ولم يترج هلاك ولده ليكون بقاؤهم بعد هلاك جنته حملاً عليه ، ولا يخفى أنه لا

يتبادر إلى الذهن من خيرية الجنة الجنة إلا خيريتها فيما يعود إلى كونها جنة من كثرة الأشجار وزيادة الثمار وغزارة مياه الأنهار ونحو ذلك ، وفي قوله : ليكون الخ منع ظاهر ، وقيل : لم يترك الولد اكتفاءاً بما عنده منهم فإن كثرة الأولاد ليس مما يرغب فيه الكاملون وفيه نظر ، وقيل : إنه لم يقرن ترجي إيتاء الولد مع ترجي إيتاء الجنة لأن ذلك الإيتاء المترجي في الآخرة وهي ليست محلاً لايتاء الولد لانقطاع التولد هناك ، ولا يخفى أن هذا بعد تسليم أنه لا يؤتي الولد لمن شاءه في الآخرة ليس بشيء ، وقيل : يمكن أن يكون ترجي الولد في قوله : ﴿ خَيْرًا مّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف : 40] بناءاً على أنه أراد من جنته جميع ما متع به من الدنيا وتكون الضمائر بعدها عائدة عليها بمعنى البستان على سبيل الاستخدام وهو كما ترى فتدبر ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وأخبر .

وقرأت فرقة ﴿ غؤوراً ﴾ بضم الغين وهمزة بعدها وواو بعدهما . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعاني حـ 15 صـ ﴾

(121/472)

وقال القاسمي :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ أي : الذي عيّره بالفقر ، تعييرا له على كفره : ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾

أي : يراجعه كلام التعيير على الكفر ، محاورته كلام التعيير على الفقر ، في ضمن النكر عليه : ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي : يجعل التراب نباتاً ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة : ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ أي : عدّلك وكمّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال . قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالموصول ، للإشعار بعليّة ما في حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذي نطق به قوله تعالى عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] ، وكما قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة : 28] . قال ابن كثير : أي : كيف تجحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء . من المخلوقات ، لأنه بمثابته . فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء . ولهذا قال صاحبه المؤمن :

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ أي : لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر : ﴿ لكنَّا ﴾ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً . الباقون بحذفها وصلاً ، وبإثباتها وقفاً ، فالوقف [في المطبوع : قالوقف] وفاق . وأصله لكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها فصار لكن ثم ألحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف . لأن

الوقف على أنا بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل لكن أنا وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين لكن المشددة . قال الزمخشري : ونحوه قول القائل :

~وتَرْمِيْنَنِي بِالطرف أي : أَنْتَ مُذْنِبٌ وتقلينني لكنّ إِيَّاكِ لا أُقْلِي

أي لكن أنا لا أقليك .

(122/472)

ويقرب منه قول الآخر :

~ولو كنتَ ضبّيّاً عرفتَ قَرَابتي ولكنّ زَنجيٌّ عظيم المَشَافِرِ

أي ولكنك .

﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي : هلا قلت عند دخولها ذلك . قال الزمخشري : يجوز أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل ، على أنها خبر مبتدأ محذوف . تقديره الأمر ما شاء الله أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى أي : شيء شاء الله كان ونظيرها في حذف الجواب لو في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ [الرعد : 31] ، والمعنى : هلا قلت عند دخولها ، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله ، اعترافاً بأنها وكل خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده .

إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها . وقلت: ﴿ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمامتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونته وتأييده . إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده، إلا بالله تعالى . والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة، إسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه بأن تعييره إياه بالفقر، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر، بقوله:

﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ ﴾ أي: في الدنيا أيضاً: ﴿ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً ﴾ أي: مقداراً قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية: ﴿ مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ أي: تراباً أملس لا تثبت فيها قدم، لملاستها

﴿ أَوْ ﴾ يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن: ﴿ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً ﴾ أي: غائراً في الأرض: ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ أي: حيلة تدركه بها، بالحفر أو بغيره .

تنبيه:

كل من قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَرَنِ ﴾ وقوله: ﴿ أَنْ يُؤْتِيَنِ ﴾ رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما في النطق، فبعض السبعة يثبتها وبعضهم يحذفها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 36. 38 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) ﴾

حُكي كلام صاحبه بفعل القول بدون عطف للدلالة على أنه واقع موقع المحاورة والمجاوبة ، كما قدمناه غير مرة .

والاستفهام في قوله : ﴿ أكفرت بالذي خلقك ﴾ مستعمل في التعجب والإنكار ، وليس على حقيقته ، لأن الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله له : ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ .

فالمراد بالكفر هنا الإشراك الذي من جملة معتقداته إنكار البعث ، ولذلك عُرّف بطريق الموصولية لأن مضمون الصلة من شأنه أن يصرف من يدركه عن الإشراك به ، فإنهم يعترفون بأن الله هو الذي خلق الناس فما كان غير الله مستحقاً للعبادة .

ثم إن العلم بالخلق الأول من شأنه أن يصرف الإنسان عن إنكار الخلق الثاني ، كما قال تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] ، وقال : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] ، فكان مضمون الصلة تعريضاً بجهل المخاطب .

وقوله : من تراب ﴾ إشارة إلى الأجزاء التي تتكون منها النطفة وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ [يس : 36] .

والنطفة : ماء الرجل ، مشتقة من النطف وهو السيلان .

وسواك ﴾ عدل خلقك ، أي جعله متناسباً في الشكل والعمل .

و(من) في قوله : ﴿ من تراب ثم من نطفة ﴾ ابتدائية ، وقوله : ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ كتب في المصحف بألف بعد النون .

واتفق القراء العشرة على إثبات الألف في النطق في حال الوقف ، وأما في حال الوصل فقرأه الجمهور بدون نطق بالألف ، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بإثبات النطق بالألف في حال الوصل ، ورسمُ المصحف يسمح بكلتا الروايتين .

(124/472)

ولفظ ﴿ لكنا ﴾ مركب من (لكنْ) بسكون النون الذي هو حرف استدراك ، ومن ضمير المتكلم (أنا) .

وأصله : لكن أنا ، فحذفت الهمزة تخفيفاً كما قال الزجاج ، أي على غير قياس لا لعلة

تصريفية ، ولذلك لم يكن للهمزة حكم الثابت فلم تمنع من الإدغام الذي يمنع منه ما هو محذوف لعلة بناءً على أن المحذوف لعلةٍ بمنزلة الثابت ، ونقلت حركتها إلى نون (لكنْ) الساكنة دليلاً على المحذوف فالتقى نونان متحركتان فلزم إدغامهما فصار (لكنا) .

ولا يجوز أن تكون (لكِنّ) المشددة النون المفتوحتها أشبعت فتحتها ، لأن لكن المشددة من أخوات إنّ تقتضي أن يكون الاسم بعدها منصوباً وليس هنا ما هو ضمير نصب ، ولا يجوز اعتبار ضمير (أنا) ضمير نصب اسم (لكنّ) لأن ضمير المتكلم المنصوب يجب أن يكون بياء المتكلم ، ولا اعتبارهُ ضميرَ المتكلم المشارك لمنافاته لإفراد ضمائره بعده في قوله : ﴿ هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ﴾ .

(فأنا) مبتدأ ، وجملة ﴿ هو الله ربي ﴾ ضمير شأن وخبرُه ، وهي خبر (أنا) ، أي شأني هو الله ربي .

والخبر في قوله : ﴿ هو الله ربي ﴾ مستعمل في الإقرار ، أي أعترف بأنه ربي خلافاً لك .

وموقع الاستدراك مضادةُ ما بعد (لكن) لما قبلها ، ولا سيما إذا كان الرجلان أخوين أو خليلين كما قيل فإنه قد يتوهم أن اعتقادهما سواء .

وأكد إثبات اعترافه بالخالق الواحد بمؤكدات أربعة ، وهي : الجملتان الاسميتان ، وضمير الشأن في قوله : ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ ، وتعريف المسند والمسند إليه في قوله : ﴿ الله ربي ﴾ المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم قصراً إضافياً بالنسبة لمخاطبه ،

أي دونك إذ تعبد آلهة غير الله ، وما القصر إلا توكيد مضاعف ، ثم بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله : ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ .

وعطف جملة ﴿ ولولا إذ دخلت ﴾ على جملة ﴿ أكفرت ﴾ عطف إنكار على إنكار .

(125/472)

و (لولا) للتوبيخ ، كشأنها إذا دخلت على الفعل الماضي ، نحو ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ [النور : 13] ، أي كان الشأن أن تقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ عوض قولك : ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ﴾ [الكهف : 36] .

والمعنى : أكفرت بالله وكفرت نعمته .

و(ما) من قوله : ما شاء الله ﴾ أحسن ما قالوا فيها إنها موصولة ، وهي خبر عن مبتدأ محذوف يدل عليه ملابسة حال دخول الجنة ، أي هذه الجنة مَا شاء الله ، أي الأمر الذي شاء الله إعطاءه إياي .

وأحسن منه عندي : أن تكون (ما) نكرة موصوفة .

والتقدير : هذه شيء شاء الله ، أي لي .

وجملة ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ تعليل لكون تلك الجنة من مشيئة الله ، أي لا قوة لي على إنشائها ، أو لا قوة لمن أنشأها إلا بالله ، فإن القوى كلها موهبة من الله تعالى لا تؤثر إلا بإعانته بسلامة الأسباب والآلات المفكرة والصانعة .

فما في جملة ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ من العُموم جعلها كالعلة والدليلِ لكون تلك الجنة جزئياً من جزئيات منشآت القوى البشرية الموهوبة للناس بفضل الله .

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ ﴿ للهِ فعسى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السمآء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ .

جملة ابتدائية رَجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله : ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ [الكهف : 34] ، وعظه فيها بأنه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلة أو إلى اضمحلال ، وأن يصير القليلُ مالُه ذا مال كثير .

وحذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية تخفيفاً وهو كثير .

و(أنا) ضمير فصل ، فلذلك كان أقل ﴾ منصوباً على أنه مفعول ثانٍ ل ﴿ ترن ﴾ ولا اعتداد بالضمير .

و(عسى) للرجاء ، وهو طلب الأمر القريب الحصول .

ولعله أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه .

والحسبان : مصدر حسب كالغفران .

وهو هنا صفة لموصوف محذوف ، أي هلاكاً حسباناً ، أي مقدراً من الله ، كقوله تعالى : ﴿ عطاء حساباً ﴾ [النبأ : 36] .

وقيل : الحسبان اسم جمع لسهام قصار يرمى بها في طلق واحد وليس له مفرد .

وقيل : اسم جمع حُسبانة وهي الصاعقة .

وقيل : اسم للجراد .

والمعاني الأربعة صالحة هنا ، والسماء : الجو المرتفع فوق الأرض .

والصعيد : وجه الأرض .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ [المائدة : 6] .

وفسروه هنا بذلك فيكون ذكره هنا توطئة لإجراء الصفة عليه وهي زلقاً ﴾ .

وفي "اللسان" عن الليث "يقال للحَديقة ، إذا خربت وذهب شجراؤها : قد صارت صعيداً ، أي أرضاً مستوية لا شجر فيها" ا ه .

وهذا إذا صح أحسن هنا ، ويكون وصفه بـ ﴿ زلقاً ﴾ مبالغة في انعدام النفع به بالمرة .

لكني أظن أن الليث ابتكر هذا المعنى من هذه الآية وهو تفسير معنى الكلام وليس تبييناً لمدلول لفظ صعيد .

ونظيره قوله : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ [الكهف : 8] في أول هذه السورة .

والزلق : مصدر زلقت الرجل ، إذا اضطربت وزلت على الأرض فلم تستقر .

ووصف الأرض بذلك مبالغة ، أي ذات زلق ، أي هي مزْلَقَة .

والغَور : مصدر غار الماء ، إذا ساخ الماء في الأرض .

ووصفه بالمصدر للمبالغة ، ولذلك فرع عليه فلن تستطيع له طلباً ﴾ .

وجاء بحرف توكيد النفي زيادة في التحقيق لهذا الرجاء الصادر مصدر الدعاء . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(127/472)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن ذلك الرجل المؤمن المضروب مثلاً للمؤمنين ، الذيت تتكبر عليهم أولو المال والجاه من الكفار ، قال لصاحبه الآخر الكافر المضروب مثلاً لذوي المال والجاه من الكفار ، منكراً عليه كفره – أكفرت بالذي خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلاً ، لأن خلقه إياه من تراب ثم من نطفة ، ثم تسويته إياه رجلاً ، كل ذلك يقتضي إيمانه بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود . وهذا المعنى المبين هنا بينه في مواضع أخر ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 28] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 22] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 75-81] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : 26-27] إلى غير ذلك من الآيات . وقد قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على أن ضابط من يستحق العبادة وحده دون غيره – أن يكون هو الذي يخلق المخلوقات ، ويظهرها من العدم إلى الوجود بما أغنى عن إعادته هنا .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ معنى خلقه من تراب ، اي خلق آدم الذي هو أصله من التراب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] الآية . ونظير الآية التي نحن بصددها قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] الآية .

وقوله : ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي بعد أن خلق آدم من التراب ، وخلق حواء من ضلعه ، وجعلها زوجاً له – كانت طريق إيجاد الإنسان بالتناسل . فبعد طور التراب طور النطفة ، ثم طور العلقة إلى آخر أطواره المذكورة في قوله ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح : 14] ، وقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴾ [الزمر : 6] وقد أوضحها تعالى إيضاحاً تاماً في قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 12–14] .

ومما يبين خلق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، قوله تعالى في " السجدة " : ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ

جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(129/472)

[السجدة : 7-9] . وقوله في هذه الآية : ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ كقوله ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 4] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : 77] اي بعد أن كان نطفة سار إنساناً خصيماً شديد الخصومة في توحيد ربه . قوله ﴿ سواك ﴾ أي خلقك مستوي الأجزاء ، معتدل القامة والخلق ، صحيح الأعضاء في أكمل صورة ، وأحسن تقويم . كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ، وقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : 64] ، وقوله : ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : 8] ، وقوله " رجلاً " أي ذكراً بالغاً مبلغ الرجال ، وربما قالت العرب للمرأة : رجلة ، ومنه قول الشاعر :

ككل جار مغتبطاً . . . جيران بني جبلة

مزقوا ثوب فتاتهم . . . لم يراعوا حرمة الرجلة

وانتصاب " رجلاً " على الحال . وقيل مفعول ثان لسوى على تضمينه معنى جعلك أو صيرك رجلاً . وقيل : هو تمييز . وليس بظاهر عندي ، والظاهر أن الإنكار المدلول عليه بهمزة الإنكار في قوله ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ مضمن معنى الاستبعاد ، لأنه يستبعد جداً كفر المخلوق بخالقه ، الذي أبرزه من العدم إلى الوجود ، ويستبعد إنكار البعث ممن علم الله أن الله خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواه رجلاً . كقوله : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] الآية . ونظير الآية في الدلالة على الاستبعاد لوجود موجبة قول الشاعر :

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة . . . يرى غمرات الموت ثم يزورها

لأن من عاين غمرات الموت يستبعد منه اقتحامها .

(130/472)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَّكِنَّ هُوَ الله رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ بين فيه أن هذا الرجل المؤمن قال لصاحبه الكافر : أنت كافر ! لكن لست بكافر ! بل مخلص عبادتي لربي الذي خلقني . أي لأنه هو الذي يستحق مني أن أعبده ، لأن المخلوق محتاج مثلي إلى خالق يخلقه ، تلزمه عبادة خالقه كما تلزمني . ونظير قول هذا المؤمن ما قدمنا عن الرجل

المؤمن المذكور في "يس" في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ [يس: 22] اي ابدعني وخلقني وإليه ترجعون. وما قدمنا عن إبراهيم في قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 77-78] الآية، وقوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: 26-27] الآية.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ [الكهف: 37] بعد قوله: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ [الكهف: 36] يدل على أن الشك في البعث كفر بالله تعالى. وقد صرح بذلك في أول سورة "الرعد" في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أولئك الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾

[الرعد: 5].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ لكنا ﴾ اصله "لكن أنا" فحذفت همزة "أنا" وأدغمت نون "لكن" في نون "أنا" بعد حذف الهمزة. وقال بعضهم: نقلت حركة الهمزة إلى نون "لكن" فسقطت الهمزة بنقل حركتها، ثم أدغمت النون في النون! ونظير ذلك من كلام العرب قوله الشاعر:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب... وتقلينني لكنا إياك لم أقل

أي لكن أن إياك لم أقل . وقال بعضهم : لا يتعين في البيت ما ذكر . لجواز أن يكون المقصود لكنني فحذف اسم " لكن " كقول الآخر :

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي . . . ولكن زنجي عظيم المشافر

أي لكنك زنجي في رواية زنجي بالرفع . وأنشد الكسائي لنحو هذا الحذف من " لكن أنا " قول الآخر :

لهنك من عبسية لوسيمة . . . على منوات كاذب من يقولها

قال : أراد بقوله " لهنك " لله إنك . فحذف إحدى اللامين من " لله " ، وحذف الهمزة من " إنك " نقله القرطبي عن ابي عبيد .

وقوله تعالى : ﴿ لَّكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ .

قرأه جماهير القراء في الوصل " لكن " بغير ألف بعد النون المشددة . وقرأه ابن عامر من السبع " لكنا " بالألف في الوصل . ويروى ذلك عن عاصم ، ورواه المسيلي عن نافع ، ورويس عن يعقوب . واتفق الجمع على إثبات الألف في الوقف . ومد نون " أنا " لغة تميم إن كان بعدها همزة . وقال أبو حيان في البحر : إن إثبات ألف " أنا " مطلقاً في الوصل لغة بني تميمن وغيرها يثبتونها على الاضطرار . قال فجاءت قراءة " لكنا " بإثبات الألف في الوصل على لغة تيمي . ومن شواهد مد " أنا " قبل غير الهمزة قول الشاعر :

ان سيف العشيرة فاعرفوني . . . حميداً قد تذريت السناما

وقول الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوافي . . . بعد المشيب كفى ذاك عارا

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ [الكهف : 34] جملة حالية . والمحاورة : المراجعة في الكلام : ومنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة : 1] ، وقول عنترة في معلقته :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى . . . ولكان لو علم الجواب مكلمي

وكلام المفسرين في الرجلين المذكورين هنا في قصتهما كبيان أسمائهما ، ومن اي الناس هما – أعرضنا عنه لما ذكرنا سابقاً من عدم الفائدة فيه ، وعدم الدليل المقنع عليه . والعلم عند الله تعالى .

(132/472)

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) ﴾

بين قوله : " غوراً " أي غائراً . فهو من الوصف بالمصدر . كما قال فيا لخلاصة :

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكيرا

والغائر : ضد النابع . وقوله : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ لأن الله إذا أعدم ماءها بعد وجوده ، لا تجد من يقدر على أن يأتيك به غيره جل وعلا . وأشار إلى نحو هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] ولا شك أن الجواب الصحيح : لا يقدر على أن يأتينا به إلا الله وحده . كما قال هنا : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(133/472)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ﴾

هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمن مُحَاوراً ومُجادلاً ليجُلِّيَ له وَجْه الصواب : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ . . ﴾ [الكهف : 37] أي : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشأك من تراب الذي هو أصل خَلْقك ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ . . ﴾ [الكهف : 37] وهي أصل التناسل ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف " 37] أي : كاملاً مُسْتوياً (ملوهدومك) .

و ﴿ سَوَّاكَ . . ﴾ [الكهف : 37] التسوية : هي إعداد الشيء إعداداً يناسب

مهمته في الحياة ، وقلنا : إن العود الحديد السَّويّ مستقيم ، والخطاف في نهايته أعوج ، والاعوجاج في الخطاف هو عَيْن استقامته واستواء مهمته ؛ لأن مهمته أن نخطف به الشيء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمته المرادة .

والهمزة في ﴿ أَكَفَرْتَ . . ﴾ [الكهف : 37] ليست للاستفهام ، بل هي استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْر ونسيان لحقيقة أمره وبداية خَلْقه .

والتراب هو أَصْل الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقه ؛ لأن الله تعالى ذكر في خلق الإنسان مرة ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ [السجدة : 8] ومرة ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] ، [الروم : 20] ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ [الرحمن : 14] .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة في خَلْق الإنسان ، والحقيقة أنها شيء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإنْ أضفْتَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطْتَ الطين بعضه ببعض صار حمأ مسنوناً ، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صَلْصَالاً ، إذن : فهي مرحليات لشيء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال : ﴿ لكنا هُوَ الله رَبِّي . . . ﴾ .

قوله : ﴿ لكنا . . ﴾ [الكهف : 38] أي : لكن أنا ، فحذفت الهمزة وأُدغمت النون في النون . ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : أنا لستُ مثلك فيما تذهب إليه ، فإنْ كنت قد كفرتَ بالذي خلقك من تراب ، ثم من نطفة . ثم سوَّاك رجلاً ، فأنا لم أكفر بمَنْ خلقني ، فقَوْلي واعتقادي الذي أومن به : ﴿ هُوَ اللهُ رَبِّي . . ﴾ [الكهف : 38]

وتلاحظ أن الكافر لم يَقُلْ : الله ربي ، إنما جاءتْ ربي على لسانه في معرض الحديث ، والفرْق كبير بين القولين ؛ لأن الربّ هو الخالق المتولّي للتربية ، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشكّ في الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف ؛ لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وأنكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول : ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [الكهف : 38]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أبانَ لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أنْ يُعدّي إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أنْ يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أنْ أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يُعلِّم صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأيضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدي الكافر ؛ لأن المؤمن صُحح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أنْ تدعوَ على عدوك أن تدعو له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وها هو يدعو صاحبه ، فيقول : ﴿ ولولا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله . . . ﴾ .

(135/472)

يريد أنْ يُعلمه سبيل الإيمان في استقبال النعمة ، بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التي يتقلّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها ؟ إنها الأرض التي خلقها الله لك ، وعندما حرثْتها حرثْتها بآلة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا دَخْلَ لك فيه ، والقوة التي أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك في أيِّ وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شيء .

إذن : حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهيةً إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خُذْ هذا المقعد الذي تجلس عليه مستريحاً وهو في غاية الأناقة وإبداع الصَّنْعة ، من أين أتى الصُّنَّاع بمادته ؟ لو تتبعتَ هذا لوجدته قطعةَ خشب من إحدى الغابات ، ولو سألتَ الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتْك من الله .

لذلك يُعلّمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب في نعمته علينا ، بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ *

أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [الواقعة : 63-64]

هذه الحبة التي بذرتها في حقلك ، هل جلستَ بجوارها تنميها وتشدّها من الأرض ، فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخّر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوُسْعك أنْ تُطوّعها لهذا العمل لولا أنْ سخرها الله لك ، وذلّلها لخدمتك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 72]

ما استطعت أنت تسخيرها .

(136/472)

إذن : لو حلَّلْتَ أيَّ نعمة من النعم التي لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويُزهر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفةٌ أو تحلُّ به جائحة فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : 65-67]

كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ [

القلم : 17-20]

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الماء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ [الواقعة : 68-69]

هذا الماء الذي تشربونه عَذْباً زلالاً ، هل تعرفون كيف نزل ؟ هل رأيتم بخار الماء الصاعد إلى الجو ؟ وكيف ينعقد سحاباً تسوقه الريح ؟ هل دريْتُم بهذه العملية ؟ ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . ﴾ [الواقعة : 70]

أي : مِلْحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتنُّ الله على عبيده بأيّ نعمة يُذكِّرهم بما ينقضها ، فهي ليست من سَعْيهم ، وعليهم أنْ يشكروه تعالى عليها لتبقى أمامهم ولا تزول ، وإلاَّ فَلْيحافظوا عليها هم إنْ كانت من صُنْع أيديهم !

وكذلك في مسألة خَلْق الإنسان يوضح سبحانه وتعالى أنه يمنع الحياة وينقضها بالموت ، قال تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة : 58-60] فإنْ كنتم أنتم الخالقين ، فحافظوا عليه وادفعوا عنه الموت . فذكر سبحانه النعمة في الخَلْق ، وما ينقض النعمة في أَصْل الخَلْق .

أما في خَلْق النار ، فالأمر مختلف ، حيث يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ [الواقعة : 71-72]

فذكر سبحانه قدرته في خَلْق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقُلْ : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خَلْق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخَلْق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخَلْق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا في النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريدها مشتعلة مضطرمة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيّل الآية بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة : 73]

كما نقف في هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودِقَّة الأداء القرآني ؛ لأن المتكلم ربٌّ يتحدث عن كل شيء بما يناسبه ، ففي الحديث عن الزرع ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرْث والبذْر والسَّقْي وغيره نراه يؤكد الفعل الذي ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . ﴾ [الواقعة : 65] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما في الحديث عن الماء وليس للإنسان دخل في تكوينه فلا حاجةَ إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . ﴾ [الواقعة : 70] دون توكيد ؛ لأن الإنسان لا يدعي أن له فضلاً في هذا الماء الذي ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذي ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلِّمه كيف يستقبل نعمة الله عليه : ﴿

ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ . . ﴾ [الكهف : 39] ﴿ لولا ﴾ بمعنى : هلاَّ وهي للحثِّ والتحضيض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه في مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه في المرآة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

(138/472)

وفي الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت " .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلهيكَ النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أي : أن هذا كله ليس بقوتي وحيلتي ، بل فضل من الله فتردّ النعمة إلى خالقها ومُسديها ، وما دُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها ، وضمنْتَ بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعتريها من تقلُّبات تعكر عليه صَفْو الحياة من خوف أو قلق أو همٍّ أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضي الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن فكان يقول في

الخوف : " عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 174] وعجبتُ لمن اغتمَّ لأن الغمَّ انسداد القلب وبلبلة الخاطر من شيء لا يعرف سببه وعجبتُ لمن اغتمَّ ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم ﴾ [الأنبياء : 88] ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] وكأنها (وصْفة) عامة لكل مؤمن ، وليست خاصة بنبيّ الله يونس عليه السلام .

(139/472)

فقوْل المؤمن الذي أصابه الغم : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ . . ﴾ [الأنبياء : 87] أي : لا مفزع لي سواك ، ولا ملجأ لي غيرك ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين . . ﴾ [الأنبياء : 87] اعتراف بالذنب والتقصير ، فلعل ما وقعتُ فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسي هو سبب هذا الغم الذي أعانيه .

وعجبتُ لمن مُكر به ، كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله . . ﴾ [

غافر : 44] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ . . ﴾ [غافر : 45] فالله تبارك وتعالى هو الذي سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها صاحب الطموحات في الدنيا المتطلع إلى زخرفها كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ . . ﴾ [الكهف : 39] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف : 40] فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونَمتْ ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .

والعجيب أن المؤمن الفقير الذي لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذي يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلّب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير في الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : ﴿ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ . . ﴾ [الكهف : 39] ويستطرد المؤمن ، فيُبيّن لصاحبه ما عَيَّره به من أنه فقير وهو غني ، وما استعلى عليه بماله وولده : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [الكهف : 39]

ثم ذكّره بأن الله تعالى قادر على أنْ يُبدّل هذا الحال ، فقال : ﴿ فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ . . . ﴾ .

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شكَّ فيه ؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْت الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7]

فقوله : ﴿ فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف : 40] أي : ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوّلها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرةَ لك على جَلْبها من البداية . إذن : يمكن أنْ يعطيني ربي نعمة مثل نعمتك ، في حين تظل نعمتك كما هي ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها : ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السمآء ﴾ [الكهف : 40] هذه النعمة التي تعتز بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يرسلَ الله عليها حُسْباناً .

والحُسْبان : الشيء المحسوب المقدَّر بدقّة وبحساب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [يونس : 5] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطةً على نظام دقيق لا يختلّ ، مثل الساعة

لا تستطيع أنْ تعرفَ بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة ، والشيء لا يكون حسباناً لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشأ على حُسْبان .

(141/472)

وحَسب حُسْباناً مثل غفر غفراناً ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التي اغترَّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقدَّرة على قَدْر هذه الجنة لا تتعدَّاها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة أصابتني كما أصابت غيري . . لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ [الكهف : 40] أي : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار ، المليئة بالنخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحتْ صَعيداً أي : جدباء يعلُوها التراب ، ومنه قوله تعالى في التيمُّم : ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ﴾ [النساء : 43] ليس هذا وفقط ، بل ﴿ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ [الكهف : 40] أي : تراباً مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشيء ، حتى المشي عليه .

أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41)

﴿ غَوْراً ﴾ أي : غائراً في الأرض ، فإنْ قُلْت : يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً ، ونستطيع

إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمله في أيِّ حيلة يفكر فيها : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ [الكهف : 41] أي : لن تصل إليه بأيِّ وسيلة من وسائلك ، ومن ذلك قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : ﴿ فعسى رَبِّي . . ﴾ [الكهف : 40] رجاء لم يحدث بَعْد ، ولم يصل إلى إيقاعيات القدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(142/472)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ قُلْتَ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ [39]

أي ما شاء الله في سابق علمه ، لا يقف عليه أحد إلا الله تعالى ، ﴿ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ [39] أي لا قوة لنا على أداء ما أمرتنا به في الأصل ، والسلامة منه في الفرع ، والخاتمة المحمودة إلا بمعونتك ، وكذا تفسير قوله صلى الله عليه وسلم : « لا حول ولا قوة إلا بالله » أي لا حول عن السلامة من الجهل في الأصل ، ومن الإصرار في الفرع إلا بعصمتك ولا قوة لنا

على أداء ما أمرتنا به في الأصل والسلامة منه في الفرع والخاتمة المحمودة إلا بمعونتك .

وسئل سهل : ما أفضل ما أعطي العبد ؟ قال : علم يستزيد به افتقاراً إلى الله عزَّ وجلَّ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 98 ﴾

(143/472)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) ﴾

قوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ : النُّطْفَةُ في الأصل : القطرةُ من الماء الصافي يقال : نَطَفَ يَنْطِف ، أي : قَطَرَ يَقْطُر . وفي الحديث : " فخرجَ ورأسُه يَنْطِفُ " وفي رواية : يَقْطُر ، وهي مفسِّرةٌ ، وأُطْلِق على المَنِيِّ " نُطْفَةٌ " تشبيهاً بذلك .

قوله : " رَجُلاً " فيه وجهان ، أحدهما : أنه حال ، وجاز ذلك وإنْ [كان] غير منتقلٍ ولا مشتقٍ لأنه جاء بعد " سَوَّاك " إذ كان مِنَ الجائز أَنْ يُسَوِّيَه غيرَ رجلٍ وهو كقولِهم : " خَلَقَ اللهُ الزَّرافةَ يَدَيْها أطولَ من رجليها " وقول الآخر :

3163- فجائت به سَبْطَ العظام كأنما . . . عِمامتُه بين الرِّجالِ لواءُ

والثاني : أنه مفعولٌ ثانٍ ل " سَوَّاك " لتضمُّنِه معنى صَيَّرك وجعلك ، وهو ظاهرُ قول الحوفي

.

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) ﴾

قوله : ﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ : قرأ ابنُ عامر بإثباتِ الألفِ وَصْلاً ووَقْفاً ، والباقون بحذفِها وصلاً وبإثباتها وقفاً . فالوَقْفُ وِفاقٌ .

(144/472)

والأصلُ في هذه الكلمةِ " " لكنْ أنا " فَنَقَلَ حركةَ همزةِ " أنا " إلى نون " لكن " وحَذَفَ الهمزةَ ، فالتقى مِثْلان فأدغم . وهذا أحسنُ الوجهين في تخريجِ هذا . وقيل : حَذَفَ همزةَ " أنا " اعتباطاً فالتقى المِثْلان فَأَدْغَمَ ، وليس بشيءٍ لجَرْيِ الأولِ على القواعدِ ، فالجماعةُ جَرَوْا على مُقْتَضَى قواعدِهم في حَذْفِ اَلفِ " أنا " وَصْلاً وإثباتِها وَقْفاً ، وكان تقدَّم لك : أنَّ نافعاً يُثْبت ألفَه وَصْلاً قبلَ همزةٍ مضمومةٍ أو مكسورة أو مفتوحة بتفصيلٍ مذكورٍ في البقرة ، وهنا لم يُصادِفْ همزةً ، فهو على أصلِه أيضاً ، ولو أثبتَ الألفَ هنا لكان أقربَ مِنْ إثباتِ غيرِه لأنه أثبتها في الوصلِ في الجملةِ .

وأمَّا ابنُ عامرٍ ، فإنه خَرَجَ عن أصلِه في الجملة ؛ إذ ليس من مذهبِه إثباتُ/ هذه الألفِ وَصْلاً في موضعٍ ما ، وإنما اتَّبَعَ الرسمَ . وقد تقدَّم أنها لغةُ تميمٍ أيضاً .

وإعرابُ ذلك : أن يكونَ " أنا " مبتدأ و " هو " مبتدأ ثانٍ ، و " هو " ضمير الشأن ، و " اللهُ " مبتدأ ثالث . و " ربي " خبر الثالث ، والثالث وخبره خبرُ الثاني ، والثاني وخبرُه خبر الأول . والرابطُ بين الأولِ وبين خبرِه الياءُ في " ربي " . ويجوز أَنْ تكونَ الجلالةُ بدلاً مِنْ " هو " أو نعتاً أو بياناً إذا جُعِلَ " هو " عائداً على ما تقدَّمَ مِنْ قولِه ﴿ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ لا على أَنَّه ضميرُ الشأنِ ، وإن كان أبو البقاء أطلق ذلك ، وليس بالبيِّن . ويجوز أَنْ يكونَ " هو " مبتدأً ، وما بعده خبرُه ، وهو خبرُه خبرُ " لكنَّ " . ويجوز أَنْ يكونَ تأكيداً للاسم ، وأَنْ يكونَ فصلاً . ولا يجوز أَنْ يكونَ ضميرَ شأنٍ ، لأنه حينئذٍ لا عائدَ على اسمِ " لكنَّ " من هذه الجملةِ الواقعةِ خبراً .

(145/472)

وقرأ أبو عمرٍو " لكنَّهْ " بهاءِ السكت وقفاً ؛ لأن القَصْدَ بيانُ حركةِ نون " أنا " ، قتارةً تُبَيِّنُ بالألفِ وتارةً بهاءِ السكتِ . وعن حاتم الطائي : " هكذا فَرْدِي أَنَّهْ " .

وقال ابنُ عطية عن أبي عمرو : " رَوَى عنه هارون " لكنَّه هو الله " بضمير لَحِقَ " لكن " .

قلت : فظاهر هذا أنه ليس بهاءِ السكتِ ، بل تكون الهاءُ ضميراً اسماً ل " لكن " وما بعدها الخبرُ . وخَرَّجه الفارسيُّ على وجهٍ غريبٍ : وهو أَنْ تكونَ " لكنَّا " لكنَّ واسمَها وهو " ن " ، والأصل : " لكنَّنا " فحذف إحدى النونات نحو : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ وكان حقُّ التركيبِ أن يكون " ربنا " ، " ولا نُشرك بربِّنا " قال : " ولكنه اعتبر المعنى فأفرد " . وهو غريب جداً .

وأمَّا في قراءةِ العامَّة : فلا يجوز أَنْ تكونَ " لكنَّ " مشددةً عاملةً لوقوعِ الضمير بعدها بصيغةِ المرفوع .

وقرأ عبدُ الله " لكنْ أنا هو " على الأصلِ من غير نَقْلٍ ولا إدغامٍ . ورَوَى عنه ابن خالويه " لكنْ هو الله " بغير " أنا " . وقرئ أيضاً " لكنَنَا " .

وقال الزمخشري : وحَسَّن ذلك –يعني إثباتَ الألفِ في الوصلِ– وقوعُ الألفِ عوضاً مِنْ حَذْفِ الهمزةِ " . [وقال :] " ونحوُه –يعني إدغامَ نون " لكن " في نون " ن " بعد حَذْفِ الهمزة – قولُ القائل :

3164– وتَرْمِيْنَنِيْ بالطَّرْفِ أَيْ أنت مُذْنِبٌ . . . وتَقْلِيْنني لكنَّ إياكِ لا أَقْلِيْ

الأصل : لكنَّ أنا ، فَنَقَلَ وحَذَفَ وأَدْغم . قال الشيخ : " ولا يتعيَّنُ ما قاله في البيت لجوازِ أَنْ يكونَ حَذَفَ اسمَ " لكنَّ " ، وحَذْفُه لدليلٍ كثيرٌ ، وعليه :

3165– فلو كنتَ ضَبِّيّاً عَرَفْتَ قَرابتي . . . ولكنَّ زَنْجِيٌّ عظيمُ المَشافِرِ

أي : ولكنَّك ، وكذا هنا : ولكنَني إياك " . قلت : لم يَدَّعِ الزمخشريُّ تعيُّنَ ذلك في البيت حتى يَرُدَّ عليه بما ذكره .

(146/472)

ويَقْرُبُ مِنْ هذا ما خَرَّجه البصريون في بيتٍ استدل به الكوفيون عليهم في جوازِ دخولِ لامِ الابتداء في خبر " لكنَّ " وهو :

3166- . . . . . ولكنَّني مِنْ حُبِّها لَعَمِيْدُ

فأدخل اللامَ في خبر " لكنَّ " . وَخَرَّجه البصريون على أن الأصل : ولكنْ إني مِنْ حُبِّها ، ثم نَقَلَ حركةَ همزةِ " إنِّي " إلى نون " لكن " بعد حذف الهمزة ، وأَدْغَمَ على ما تقدَّم ، فلم تدخلِ اللامُ إلا في خبر " إنَّ " ، هذا على تقديرِ تسليمِ صحةِ الروايةِ ، وإلا فقالوا : إنَّ البيتَ مصنوعٌ ، ولا يُعرف له قائلٌ .

والاستدراكُ مِنْ قوله " أكفرْتَ " ، كأنَّه قال لأخيه : أنت كافرٌ ؛ لأنه استفهامُ تقريرٍ ، لكنني أنا مؤمنٌ نحو قولِك : " زيدٌ غائبٌ لكنَّ عمراً حاضرٌ " لأنه قد يُتَوَهَّمُ غَيْبَةُ عمروٍ أيضاً .

قوله : ﴿ ولولا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ﴾ : " لولا " تحضيضة داخلةٌ على " قلتَ " و " إذا

دَخَلْتَ " منصوبٌ ب " قلتَ " فُصِلَ به بين " لولا " وما دَخَلَتْ عليه ، ولم يُبالَ بذلك لأنه ليس بأجنبي ، وقد عَرَفْتَ أنَّ حرف التحضيض إذا دخل على الماضي كان للتوبيخ .

قوله : ﴿ مَا شَآءَ اللهُ ﴾ يجوزُ في " ما " وجهان ، أحدُهما : أَنْ تكونَ شرطيةً ، فتكونَ في محلِّ نصبٍ مفعولاً مقدماً وجوباً ب " شاء " أي : أيَّ شيءٍ شاء اللهُ . والجواب محذوف ، أي : ما شاء الله كان ووقَعَ . والثاني : أنها موصولةٌ بمعنى الذي ، وفيها حينئذٍ وجهان ، أحدهما : أن تكونَ مبتدأةً ، وخبرُها محذوفٌ ، أي : الذي شاءه اللهُ كائنٌ وواقعٌ . والثاني : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ تقديرُه : الأمرُ الذي شاءه الله . وعلى كلِّ تقديرٍ : فهذه الجملة في محلِّ نصب بالقول .

قوله : ﴿ إِلَّا بِاللهِ ﴾ خبرُ " لا " التبرئةِ ، والجملةُ أيضاً منصوبةٌ بالقولِ ، أي : لولا قُلْتَ هاتين الجملتين .

(147/472)

قوله : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ ﴾ يجوز في " أنا " وجهان . أحدُهما : أنْ يكونَ مؤكِّداً لياء المتكلم . والثاني : أنه ضميرُ الفصلِ بين المفعولين . و " أَقَلَّ " مفعولٌ ثانٍ أو حالٌ بحسب الوجهين في الرؤية : هل هي بَصَرِيةٌ أو عِلْمِيةٌ ؟ إلا أنَّك إذا جعلتَها بَصَرِيةً تعيَّن في " أنا " أَنْ

تكونَ توكيداً لا فصلاً ؛ لأنَّ شرطَه أَنْ يقع بين مبتدأ وخبرٍ ، أو ما أصلُه المبتدأُ والخبرُ .

وقرأ عيسى بن عمرَ " أَقَلَّ " بالرفع ، ويَتَعَيَّن أن يكونَ " أنا " مبتدأ ، و " أقلُّ " خبرُه .

والجملةُ : إمَّا في موضعِ المفعولِ الثاني ، وإمَّا في موضع الحال على ما تقدَّم في الرؤية .

و ﴿ مَالاً وَوَلَداً ﴾ تمييز . وجوابُ الشرطِ قولُه ﴿ فعسى ربِّي ﴾ .

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) ﴾

قوله : ﴿ حُسْبَاناً ﴾ : الحُسْبانُ/ مصدرُ حَسَبَ الشيءَ يَحْسُبه ، أي : أَحْصاه . قال الزجاج : " أي عذابَ حُسْبان ، أي : حسابَ ما كسبت يداك " . وهو حسن . وقال الراغب : " قيل : معناه ناراً وعذاباً ، وإنما هو في الحقيقة ما يُحاسَبُ عليه فيُجَازَى بحَسَبِه " وهذا موافقٌ لما قاله أبو إسحاق ، والزمخشري نحا إليه أيضاً ، فقال : " والحُسْبانُ مصدرٌ كالغُفْرانِ والبُطْلانِ بمعنى الحِساب ، أي : مقداراً حَسَبَه اللهُ وقَدَّرَه ، وهو الحُكْمُ بتخريبِها " . وقيل : هو جمع حُسْبانة وهي السَّهْمُ . وفي التفسير : أنها قِطَعٌ مِنْ نارٍ . وفيه : هي الصواعِقُ .

قوله : ﴿ أَوْيُصْبِحَ ﴾ : عطفٌ على "يُرْسِلَ" قال الشيخ : " و "أويُصْبِحَ" عطفٌ على قوله : "ويُرْسِلَ" لأنَّ غُؤُوْرَ الماءِ لا يَتَسَبَّبُ عن الآفةِ السماويةِ ، إلا إنْ عَنَى بالحُسْبانِ القضاءَ الإلهيَّ ، فحينئذٍ يتسَبَّبُ عنه إصباحُ الجنة صعيداً زلَقاً ، أو إصباحُ مائِها غَوْراً .

والزَّلَقُ والغَوْرُ في الأصلِ : مصدران وُصِف بهما مبالغةً .

والعامَّة على فتحِ الغين . غار الماءُ يغورُ غَوْراً ، غاض وذهب في الأرض . وقرأ البرجميُّ بضمِّ الغين لغةً في المصدر . وقرأتْ طائفةٌ "غُؤْوراً" بضمِّ الغينِ والهمزةِ وواوٍ ساكنة . وهو مصدرٌ أيضاً يُقال : غار الماءُ غُؤْوراً مثل : جَلَسَ جُلوساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 490. 497 ﴾

(149/472)

قوله تعالى ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من المعلوم أن هذا المؤمن المخلص بعين الرضى ، كان من المعلوم أن التقدير : فاستجيب لهذا الرجل المؤمن ، أو : فحقق له ما توقعه فخيب ظن المشرك ، فعطف عليه قوله : ﴿ وأحيط ﴾ أي أوقعت الإحاطة بالهلاك ، بني للمفعول لأن الفكر حاصل بإحاطة الهلاك من غير نظر إلى فاعل مخصوص ، وللدلالة على سهولته ﴿ بثمرة ﴾ أي الرجل المشرك ، كله فاستؤصل هلاكاً ما في السهل منه وما في الجبل ، وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ ندماً ، ويضرب إحداهما على الأخرى تحسراً ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ لعمارتها ونمائها ﴿ وهي خاوية ﴾ أي ساقطة مع الخلو ﴿ على عروشها ﴾ أي دعائمها التي كانت تحملها فسقطت على الأرض وسقطت هي فوقها ﴿ ويقول ﴾ تمنياً لرد ما فات لحيرته وذهول عقله ودهشته : ﴿ يا ليتني ﴾ تمنياً لاعتماده على الله من غير إشراك بالاعتماد على الفاني ﴿ لم أشرك بربي أحداً ﴾ كما قال له صاحبه ، فندم حيث لم ينفعه الندم على ما فرط في الماضي لأجل ما فاته من الدنيا ، لا حرصاً على الإيمان لحصول الفوز في العقبى ، لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدات ﴿ ولم تكن له فئة ﴾ أي جماعة لا من نفره الذين اعتز بهم ولا من غيرهم ﴿ ينصرونه ﴾ مما وقع فيه ﴿ من دون الله ﴾ أي بغير عون من الملك الأعظم ﴿ وما كان ﴾ هو ﴿ منتصراً ﴾ بنفسه ، بل ليس الأمر في ذلك إلا لله وحده .

ولما أنتج هذا المثل قطعاً أنه لا أمر لغير الله المرجو لنصر أوليائه بعد ذلهم ، ولإغنائهم بعد

فقرهم ، ولإذلال أعدائه بعد عزهم وكبرهم ، وإفقارهم بعد إغنائهم وجبرهم ، وأن غيره إنما هو كالخيال لا حقيقة له ، صرح بذلك في قوله تعالى : ﴿ هنالك ﴾ أي في مثل هذه الشدائد العظيمة ﴿ الولاية ﴾ أي النصرة – على قراءة الفتح ، والسلطان – على الكسر ، وهي قراءة حمزة والكسائي ، والفتح لغيرهما ، وهما بمعنى واحد ، وهو المصدر كما صدر به في القاموس .

(150/472)

﴿ لله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ الحق ﴾ أي الثابت الذي لا يحول يوماً ولا يزول ، ولا يغفل ساعة ولا ينام ، ولا ولاية لغيره بوجه – هذا على قراءة الجماعة بالجر على الوصف وهو في قراءة أبي عمرو والكسائي بالرفع على الاستئناف والقطع تقليلاً ، تنبيهاً على أن فزعهم في مثل هذه الأزمات إليه دون غيره برهان قاطع على أنه الحق وما سواه باطل ، وأن الفخر بالعرض الزائل من أجهل الجهل ، وأن المؤمنين لا يعيبهم فقرهم ولا يسوغ طردهم لأجله ، وأنه يوشك أن يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة .

ولما علم من ذلك من أنه آخذ بأيدي عبيدة الأبرار وعلى أيدي عصاته الأشرار ، قال تعالى : ﴿ هو خير ثواباً ﴾ لمن أثابه ﴿ وخير عقباً ﴾ أي عاقبة عظيمة ، فإن فعلا – بضمه

وبضمتين – من صيغ جموع الكثرة فيفيده ذلك مبالغة وإن لم يكن جمعاً ، والمعنى أنه أي ثوابه لأوليائه خير ثواب وعقباه خير عقبى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 471.470 ﴾

(151/472)

فصل

قال الفخر :

ثم أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية وأصله من إحاطة العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف : 66] ومثله قولهم : أتى عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ وهو كناية عن الندم والحسرة فإن من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى ، وقد يمسح إحداهما على الأخرى ، وإنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنة التي وعظه أخوه فيها وعذله : ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة على عروشها فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم فهذه

العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها ويمكن أن يراد من العروش السقوف وهي سقطت على الجدران .

(152/472)

وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ياليتنى لَمْ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ والمعنى أن المؤمن لما قال : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ فهذا الكافر تذكر كلامه وقال : ﴿ ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ فإن قيل هذا الكلام يوهم أنه إنما هلكت جنته بشؤم شركه وليس الأمر كذلك لأن أنواع البلاء أكثرها إنما يقع للمؤمنين قال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل " وأيضاً فلما قال : ﴿ ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد فوجب أن يصير مؤمناً فلم قال بعده : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ والجواب عن السؤال الأول : أنه لما عظمت حسرته لأجل أنه أنفق عمره في تحصيل الدنيا وكان معرضاً في كل عمره عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي الحرمان عن

الدنيا والدين عليه .

فلهذا السبب عظمت حسرته والجواب عن السؤال الثاني : أنه إنما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحداً غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو إنما رغب في التوحيد والرد عن الشرك لأجل طلب الدنيا فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولاً عند الله ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قرأ حمزة والكسائي : (ولم يكن له فئة) بالياء لأن قوله : ﴿ فِئَةٌ ﴾ جمع فإذا تقدم على الكناية جاز التذكير ، ولأنه رعاية للمعنى .

والباقون بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق لأن الكناية عائدة إلى اللفظة وهي الفئة .

(153/472)

البحث الثاني : المراد من قوله : ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ هو أنه ما حصلت له فئة يقدرون على نصرته من دون الله أي هو الله تعالى وحده القادر على نصرته ولا يقدر أحد غيره أن ينصره ثم قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًى ﴾ .

المسألة الأولى :

اختلف القراء في ثلاثة مواضع من هذه الآية .

أولها : في لفظ الولاية ففي قراءة حمزة والكسائي بكسر الواو وفي قراءة الباقين بالفتح وحكى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : كسر الواو لحن قال صاحب " الكشاف " : الولاية بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك .

وثانيها : قرأ أبو عمرو والكسائي قوله : الحق بالرفع والتقدير هنالك الولاية الحق لله وقرأ الباقون بالجر صفة لله .

وثالثها : قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائي وابن عامر عقباً بضم القاف وقرأ عاصم وحمزة عقبى بتسكين القاف .

المسألة الثانية :

﴿ هُنَالِكَ الولايةِ للَّهِ ﴾ فيه وجوه .

الأول : أنه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ما ذكر علمنا أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر وعرفنا أن الأمر هكذا يكون في حق كل مؤمن وكافر فقال : ﴿ هُنَالِكَ الولايةِ للَّهِ الحق ﴾ أي في مثل ذلك الوقت وفي مثل ذلك المقام تكون الولاية لله يوالي أولياءه فيغلبهم على أعدائه ويفوض أمر الكفار إليهم فقوله هنالك إشارة إلى الموضع والوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه وإذلال أعدائه (فيهما) .

والوجه الثاني : في التأويل أن يكون المعنى في مثل تلك الحالة الشديدة يتولى الله ويلتجيء

إليه كل محتاج مضطر يعني أن قوله : ﴿ ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ كلمة ألجيء إليها ذلك الكافر فقالها جزعاً مما ساقه إليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها .

(154/472)

والوجه الثالث : المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم يعني أنه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله في قوله : ﴿ فعسى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السماء ﴾ ويعضده قوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عقبى ﴾ أي لأوليائه .

والوجه الرابع : أن قوله هنالك إشارة إلى الدار الآخرة أي في تلك الدار الآخرة الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم لله ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أي في الآخرة لمن آمن به والتجأ إليه : ﴿ وَخَيْرٌ عقبى ﴾ أي هو خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه وقد ذكرنا أنه قرىء عقبى بضم القاف وسكونها وعقبى على فعلى وكلها بمعنى العاقبة . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 109 . 110 ﴾

---

(1) عقبى رسمت في المصحف هكذا عُقْباً بالألف وهي ترسم إملاء (عقبى) بالياء إذا

سكنت القاف في قراءة عاصم وحمزة على زنة فعلى ، وأما إذا ضمت القاف فتكون جمع عقبي وترسم بالألف حينئذ في قراءة الباقين .

(155/472)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وأحيط بثمرِه ﴾

أي أهلك ماله ، وهذا أول ما حقق الله به إنذار أخيه . ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يقلب كفيه ندماً على ما أنفق فيها وأسفاً على ما تلف .

الثاني : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق وهلك ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد ، من قولهم في يده مال ، أي في ملكه .

﴿ وهي خاويةٌ على عروشِها ﴾ أي منقلبة على عاليها فجمع عليه بين هلاك الأصل والثمر ، وهذا من أعظم الجوائح مقابلة على بغيه .

قوله عز وجل : ﴿ ولم تكُنْ له فِئَة ينصرونه منْ دونِ الله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الفئة الجند ، قاله الكلبي .

الثاني : العشيرة ، قاله مجاهد .

﴿ وما كان منتصراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وما كان ممتنعاً ، قاله قتادة .

الثاني : وما كان مسترداً بدل ما ذهب منه .

قال ابن عباس : هما الرجلان ذكرهما الله تعالى في سورة الصافات حيث يقول :

﴿ إني كان لي قرين ﴾ إلى قوله ﴿ في سواء الجحيم ﴾ وهذا مثل قيل إنه ضرب لسلمان وخباب وصهيب مع أشراف قريش من المشركين .

قوله تعالى : ﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ يعني القيامة . وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أنهم يتولون الله تعالى في القيامة فلا يبقى مؤمن لا كافر إلا تولاه ، قاله الكلبي .

الثاني : أن الله تعالى يتولى جزاءهم ، قاله مقاتل .

الثالث : أن الولاية مصدر الولاء فكأنهم جميعاً يعترفون بأن الله تعالى هو الوليّ قاله الأخفش .

الرابع : أن الولاية النصر ، قاله اليزيدي .

وفي الفرق بين الولاية بفتح الواو وبين الولاية بكسرها وجهان :

أحدهما : أنها بفتح الواو : للخالق ، وبكسرها : للمخلوقين ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : أنها بالفتح في الدين ، وبكسرها في السلطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(156/472)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ وأحيط بثمره ﴾ الآية ،

هذا خبر من الله عن إحاطة العذاب بحال هذا المثل به ، وقد تقدم القول في الثمر ، غير أن الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد ، و ﴿ يقلب كفيه ﴾ يريد يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى ، وذلك فعل المتلهف المتأسف على فائت وخسارة ونحوها ، ومن عبر بيصفق فلم يتقن ، وقوله ﴿ خاوية على عروشها ﴾ يريد أن السقوف وقعت ، وهي العروش ، ثم تهدمت الحيطان عليها ، فهي خاوية ، والحيطان على العروش ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ قال بعض المفسرين : هي حكاية عن قول الكافر هذه المقالة في الآخرة ، ويحتمل أن يريد أنه قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حلول المصيبة ويكون فيها زجر للكفرة من قريش أو غيرهم ، لئلا تجيء لهم حال يؤمنون فيها بعد نقم تحل بهم ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو والحسن وأبو جعفر وشيبة : " ولم تكن "

بالتاء على لفظة الفئة ، وقرأ حمزة والكسائي ومجاهد وابن وثاب " ولم يكن " بالياء على المعنى ، " الفئة " الجماعة التي يلجأ إلى نصرها ، قال مجاهد هي العشيرة .

(157/472)

قال القاضي أبو محمد : وهي عندي من فاء يفيء وزنها فئة ، حذفت العين تخفيفاً ، وقد قال أبو علي وغيره : هي من فاوت وليست من فاء ، وهذا الذي قالوه أدخل في التصريف ، والأول أحكم في المعنى ، وقرأ ابن أبي عبلة : " فئة تنصره " ، وقوله ﴿ هنالك ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله ﴿ منتصراً ﴾ ويحتمل أن تكون ﴿ الولاية ﴾ مبتدأ ، و ﴿ هنالك ﴾ خبره ، وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب " الوِلاية " بكسر الواو ، وهي بمعنى الرياسة والزعامة ونحوه ، وقرأ الباقون " الوَلاية " بفتح الواو وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه ، ويحكى عن أبي عمرو والأصمعي أن كسر الواو هنا لحن ، لأن فعالة ، إنما تجيء فيما كان صنعة أو معنى متقلداً ، وليس هنا تولي أمر الموالاة ، وقرأ أبو عمرو والكسائي " الحق " بالرفع على جهة النعت ل ﴿ الولاية ﴾ ، وقرأ الباقون " الحقِّ " بالخفض على النعت ﴿ لله ﴾ عز وجل ، وقرأ أبو حيوة " لله الحقَّ " بالنصب وقرأ الجمهور " عُقُباً " بضم العين والقاف وقرأ عاصم وحمزة والحسن " عُقْباً " بضم العين

وسكون القاف وتنوين الباء ، وقرأ عاصم أيضاً " عقبى " بياء التأنيث ، والعُقُب والعُقْب بمعنى العاقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(158/472)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأحيط بثمره ﴾

أي : أحاط اللهُ العذابَ بثمره ، وقد سبق معنى الثمر .

﴿ فأصبح يقلِّب كفيه ﴾ أي : يضرب بيد على يد ، وهذا فعل النادم ، ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ أي : في جنته ، و"في" هاهنا بمعنى "على" .

﴿ وهي خاوية ﴾ أي : خالية ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ والعُروش : السقوف ، والمعنى : أن حيطانها قائمة والسقوف قد تهدَّمت فصارت في قرارها ، فصارت الحيطان كأنها على السقوف ، ﴿ ويقول يا ليتني لم أُشرك بربِّي أحداً ﴾ فأخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه ، وحقق ما أنذره [به] أخوه في الدنيا ، ندم على شِركه حين لا تنفعة الندامة .

وقيل : إنما يقول هذا في القيامة .

﴿ ولم تكن له فئة ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: "ولم تكن" بالتاء.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: "ولم يكن" بالياء.

والفئة: الجماعة ﴿ ينصرونه ﴾ أي: يمنعونه من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿ هنالك الوَلاية ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: "الوَلاية" بفتح الواو و ﴿ للهِ الحقِّ ﴾ خفضاً.

وقرأ حمزة: "الوِلاية" بكسر الواو، و"لله الحقّ" بكسر القاف أيضاً.

وقرأ أبو عمرو بفتح الواو، ورفع "الحقُّ"، ووافقه الكسائيُّ في رفع القاف، لكنه كسر "الوِلاية"، قال الزجاج: معنى الولاية في [مثل] تلك الحال: تبيين نصرة وليِّ الله.

وقال غيره: هذا الكلام عائد إلى ما قبل قصة الرجلين.

فأما من فتح واو "الوَلاية" فإنه أراد الموالاة والنصرة، ومن كسر، أراد السلطان والملك على ما شرحنا في آخر [الأنفال: 72].

فعلى قراءة الفتح، في معنى الكلام قولان.

أحدهما: أنهم يتولَّون الله تعالى في القيامة، ويؤمنون به، ويتبرَّؤون مما كانوا يعبدون، قاله ابن قتيبة.

والثاني: هنالك يتولَّى اللهُ أمرَ الخلائق، فينصر المؤمنين ويخذل الكافرين.

وعلى قراءة الكسر، يكون المعنى: هنالك السُّلطان لله.

قال أبو علي : من كسر قاف "الحقِّ" ، جعله من وصف الله عزَّ وجلَّ ، ومن رفعه جعله صفة للولاية .

فإن قيل : لم نُعتت الولاية وهي مؤنثة بالحقِّ وهو مصدر ؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أن تأنيثها ليس حقيقياً ، فحُملت على معنى النصر ؛ والتقدير : هنالك النصر لله الحقُّ ، كما حُملت الصيحة على معنى الصياح في قوله : ﴿ وأخذَ الذين ظلموا الصيحةُ ﴾ [هود : 67] .

والثاني : أن الحقَّ مصدر يستوي في لفظه المذكَّر والمؤنث والاثنان والجمع ، فيقال : قولك حق ، وكلمتك حق ، وأقوالكم حق .

ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية ، وعلى المدح لله تعالى بإضمار "هو" .

قوله تعالى : ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي : هو أفضل ثواباً ممن يُرجى ثوابه ، وهذا على تقدير أنه لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل .

قوله تعالى : ﴿ وخير عُقبا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي

: "عُقُباً" مضمومة القاف .

وقرأ عاصم ، وحمزة : "عُقْباً" ساكنة القاف .

قال أبو علي : ما كان [على] "فُعُل" جاز تخفيفه ، كالعُنُق ، والطُّنُب ، قال أبو عبيدة : العُقُب ، والعُقْب ، والعُقْبى ، والعاقبة ، بمعنى ، وهي الآخرة ، والمعنى : عاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(160/472)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾

اسم ما لم يسم فاعله مضمر ، وهو المصدر .

ويجوز أن يكون المخفوض في موضع رفع .

ومعنى "أُحِيط بثمره" أي أهْلِك مالهُ كله .

وهذا أوّل ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه .

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً ؛ لأن هذا يصدر من النادم .

وقيل : يقلِّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ؛ وهذا لأن المِلك قد يعبَّر عنه باليد ، من قولهم : في يده مال ، أي في مِلكه مال .

ودلّ قوله "فأصبح" على أن هذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ ويقال : أنفقتُ في هذه الدار كذا وأنفقت عليها .

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ أي خالية قد سقط بعضها على بعض ؛ مأخوذ من خَوَتِ النجوم تخوى خَيًا أمْحَلَتْ ، وذلك إذا سقطت ولم تُمْطر في نَوْئها .

وأخْوَت مثله .

وخَوّت الدار خَواء أقْوَت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا ﴾ ويقال ساقطة ؛ كما يقال فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها ؛ فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل ، وهذا من أعظم الجوائح ، مقابلةً على بَغْيه .

﴿ وَيَقُولُ ياليتني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ أي يا ليتني عرفت نعم الله عليّ ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به .

وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله ﴾

"فِئَةٌ" اسم "تكن" و "له" الخبر .

"يَنْصُرونه" في موضع الصفة، أي فئة ناصرة.

ويجوز أن يكون.

"ينصرونه" الخبر.

والوجه الأوّل عند سيبويه أوْلى لأنه قد تقدّم "له".

وأبو العباس يخالفه، ويحتج بقول الله عز وجل: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 4].

وقد أجاز سيبويه الآخرَ.

(161/472)

و "ينصرونه" على معنى فئة؛ لأن معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره؛ أي فرقة وجماعة يلتجىء إليهم.

﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ [القلم: 19-20] أي ممتنعاً؛ قاله قتادة.

وقيل: مسترِدًّا بدل ما ذهب منه.

وقد تقدم اشتقاق الفئة في "آل عمران".

والهاء عوض من الياء التي نقصت من وسطه، أصله فِيءٌ مثل فِيع؛ لأنه من فاء، ويجمع

على فِئون وفِئات ، مثل شِيَات وِلدَات ومئات .

أي لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله ، وضلّ عنه مَن افتخر بهم من الخدم والولد .

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الولايةِ للَّهِ الحق ﴾

اختلف في العامل في قوله "هنالك" وهو ظرف ؛ فقيل : العامل فيه "ولم تكن له فئة" ولا كان هنالك ؛ أي ما نُصر ولا انتصر هنالك ، أي لما أصابه من العذاب .

وقيل : تم الكلام عند قوله "منتصِراً" .

والعامل في قوله "هنالك" : "الولاية" وتقديره على التقديم والتأخير : الولاية لله الحقِّ هنالك ، أي في القيامة .

وقرأ أبو عمرو والكسائي "الحقُّ" بالرفع نعتاً للولاية .

وقرأ أهل المدينة وحمزة "الحقِّ" بالخفض نعتاً لله عز وجل ، والتقدير : لله ذي الحق .

قال الزجاج : ويجوز "الحقَّ" بالنصب على المصدر والتوكيد ؛ كما تقول : هذا لك حقاً .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي "الوِلاية" بكسر الواو ، الباقون بفتحها ، وهما بمعنًى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة .

وقيل : الوَلاية بالفتح من الموالاة ؛ كقوله ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمَنُواْ ﴾ [محمد : 11] .

وبالكسر يعني السلطان والقدرة والإمارة ؛ كقوله ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار : 19

] أي له الملك والحكم يومئذ ، أي لا يُردّ أمره إلى أحد ؛ والملك في كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتّوَهّمات يوم القيامة .

وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق .

(162/472)

﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً ﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وليس ثَمّ غير يُرْجَى منه ، ولكنه أراد في ظن الجهال ؛ أي هو خير مَن يُرجى .

﴿ وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى "عُقْبا" ساكنة القاف ، الباقون بضمها ، وهما بمعنًى واحد ؛ أي هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به .

يقال : هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعَقْبُه ، أي آخره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(163/472)

وقال أبو حيان :

وبلغ الله المؤمن ما ترجاه من هلاك ما بيد صاحبه الكافر وإبادته على خلاف ما ظنّ في قوله ما أظن أن تبيد هذه أبداً فأخبر تعالى أنه ﴿ أحيط بثمره ﴾ وهو عبارة عن الإهلاك وأصله من أحاط به العدّو وهو استدارته به من جوانبه ، ومتى أحاط به ملكه واستولى عليه ثم استعملت في كل إهلاك ومنه

﴿ إلاّ أن يحاط بكم ﴾ وقال ابن عطية : الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد انتهى .

والظاهر أن الإحاطة كانت ليلاً لقوله ﴿ فأصبح ﴾ على أن أنه يحتمل أن يكون معنى ﴿ فأصبح ﴾ فصار فلا يدل على تقييد الخبر بالصباح ، وتقليب كفيه ظاهره أنه ﴿ يقلب كفيه ﴾ ظهراً لبطن وهو أنه يبدي باطن كفه ثم يعوج كفه حتى يبدو ظهرها ، وهي فعلة النادم المتحسر على شيء قد فاته ، المتأسف على فقدانه ، كما يكنى بقبض الكف والسقوط في اليد .

وقيل : يصفق بيده على الأخرى و ﴿ يقلب كفيه ﴾ ظهر البطن .

وقيل : يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ، ولما كان هذا الفعل كناية عن الندم عداه تعدية فعل الندم فقال ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ كأنه قال : فأصبح نادماً على ذهاب ما أنفق في عمارة تلك الجنة ﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ تقدم الكلام على هذه الجملة

في أواخر البقرة .

وتمنيه انتفاء الشرك الظاهر أنه صدر منه ذلك في حالة الدنيا على جهة التوبة بعد حلول المصيبة ، وفي ذلك زجر للكفرة من قريش وغيرهم لئلا يجيء لهم حال يؤمنون فيها بعد نقم تحل بهم ، قيل : أرسل الله عليها ناراً فأكلتها فتذكر موعظة أخيه ، وعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركاً .

(164/472)

وقال بعض المفسرين : هي حكاية عن قول الكافر هذه القالة في الآخرة ، ولما افتخر بكثرة ماله وعزة نفره أخبر تعالى أنه لم تكن ﴿ له فئة ﴾ أي جماعة تنصره ولا كان هو منتصراً بنفسه ، وجمع الضمير في ﴿ ينصرونه ﴾ على المعنى كما أفرده على اللفظ في قوله ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله ﴾ واحتمل النفي أن يكون منسحباً على القيد فقط ، أي له فئة لكنه لا يقدر على نصره .

وأن يكون منسحباً على القيد ، والمراد انتفاؤه لانتفاء ما هو وصف له أي لا فئة فلا نصر وما كان منتصراً بقوة عن انتقام الله .

وقرأ الأخوان ومجاهد وابن وثاب والأعمش وطلحة وأيوب وخلف وأبو عبيد وابن

سعدان وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير ولم يكن بالياء لأن تأنيث الفئة مجاز .

وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبة بالتاء .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ فئة ﴾ تنصره على اللفظ والحقيقة في هنالك أن يكون ظرف مكان للبعد ، فالظاهر أنه أشير به لدار الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله كقوله ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ قيل : لما نفى عنه الفئة الناصرة في الدنيا نفى عنه أن ينتصر في الآخرة ، فقال ﴿ وما كان منتصراً هنالك ﴾ أي في الدار الآخرة ، فيكون ﴿ هنالك ﴾ معمولاً لقوله ﴿ منتصراً ﴾ .

وقال الزجّاج : أي ﴿ وما كان منتصراً ﴾ في تلك الحال و ﴿ الولاية لله ﴾ على هذا مبتدأ وخبر .

وقيل : ﴿ هنالك الولاية لله ﴾ مبتدأ وخبر ، والوقف على قوله ﴿ منتصراً ﴾ .

وقرأ الأخوان والأعمش وابن وثاب وشيبة وابن غزوان عن طلحة وخلف وابن سعدان وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير ﴿ الولاية ﴾ بكسر الواو وهي بمعنى الرئاسة والرعاية .

وقرأ باقي السبعة بفتحها بمعنى الموالاة والصلة .

وحُكِي عن أبي عمرو والأصمعي أن كسر الواو هنا لحن لأن فعالة إنما تجيء فيما كان صنعة أو معنى متقلداً وليس هنالك تولي أمور .

وقال الزمخشري : ﴿ الولاية ﴾ بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك ، وقد قرىء بهما والمعنى هنالك أي في ذلك المقام ، وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقريراً لقوله ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ أو ﴿ هنالك ﴾ السلطان والملك ﴿ لله ﴾ لا يغلب ولا يمتنع منه ، أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعني إن قوله ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ كلمة ألجىء إليها فقالها فزعاً من شؤم كفره ، ولولا ذلك لم يقلها .

ويجوز أن يكون المعنى ﴿ هنالك الولاية لله ﴾ ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم ، يعني أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن .

وصدق قوله عسى ﴿ ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴾ ويعضده قوله ﴿ هو خير ثواباً وخير عقباً ﴾ أي لأوليائه انتهى .

وقرأ النحويان وحميد والأعمش وابن أبي ليلى وابن مناذر واليزيدي وابن عيسى الأصبهاني ﴿ الحق ﴾ برفع القاف صفة للولاية .

وقرأ باقي السبعة بخفضها وصفاً لله تعالى .

وقرأ أُبيّ ﴿ هنالك الولاية ﴾ الحق لله برفع الحق للولاية وتقديمها على قوله ﴿ لله ﴾ .

وقرأ أبو حيوة وزيد بن عليّ وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال ويعقوب عن عصمة عن أبي عمرو ﴿ لله الحق ﴾ بنصب القاف .

قال الزمخشري : على التأكيد كقولك هذا عبد الله الحق لا الباطل وهي قراءة حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد رحمة الله عليه ورضوانه من أفصح الناس وأنصحهم انتهى .

وكان قد قال الزمخشري : وقرأ عمرو بن عبيد رحمه الله انتهى .

فترحم عليه وترضى عنه إذ هو من أوائل أكابر شيوخه المعتزلة ، وكان على غاية من الزهد والعبادة وله أخبار في ذلك إلاّ أن أهل السنة يطعنون عليه وعلى أتباعه ، وفي ذلك يقول أبو عمرو الداني في أرجوزته التي سماها المنبهة :

وابن عبيد شيخ الاعتزال . . .

وشارع البدعة والضلال

(166/472)

وقرأ الحسن والأعمش وعاصم وحمزة ﴿ عقباً ﴾ بسكون القاف والتنوين ، وعن عاصم عقبى بألف التأنيث المقصورة على وزن رجعى ، والجمهور بضم القاف والتنوين والثلاث بمعنى العاقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(167/472)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾

أُهلك أمواله المعهودةُ من جنتيه وما فيهما ، وأصلُه من إحاطة العدوِّ ، وهو عطفٌ على مقدر ، كأنه قيل : فوقع بعضُ ما توقع من المحذور وأُهلك أمواله ، وإنما حُذف لدِلالة السباقِ والسياقِ عليه كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ظهراً لبطن وهو كنايةٌ عن الندم ، كأنه قيل : فأصبح يندم ﴿ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ أي في عِمارتها من المال ، ولعل تخصيصَ الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما أنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية ولأن ما أنفق في عِمارتها كان مما يمكن صيانتُه عن طوارق الحدَثانِ وقد صرفه إلى مصالحها رجاءَ أن يتمتعَ به ، وكان يرى أنه لا تنالها أيدي الردَى ، ولذلك قال : ما أظن أن تبيدَ هذه أبداً ، فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاكُ ندم على ما صنع بناءً على الزعم

الفاسدِ من إنفاق ما يمكن ادخارُه في مثل هذا الشيءِ السريع الزوال .

﴿ وَهِىَ ﴾ أي الجنةُ من الأعناب المحفوفةِ بنخل ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ ساقطةٌ ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ أي دعائمها المصنوعةِ للكروم لسقوطها قبل سقوطِها ، وتخصيصُ حالها بالذكر دون النخل والزرعِ إما لأنها العُمدةُ وهما من متمماتها ، وإما لأن ذكرَ هلاكِها مغنٍ عن ذكر هلاك الباقي لأنها حيث هلكت وهي مُشيَّدةٌ بعروشها فهلاكُ ما عداها بالطريق الأولى ، وإما لأن الإنفاقَ في عمارتها أكثرُ ، وقيل : أرسل الله تعالى عليها ناراً فأحرقها وغار ماؤُها ﴿ وَيَقُولُ ﴾ عطف على يقلّب أو حالٌ من ضميره أي وهو يقول : ﴿ ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ كأنه تذكر موعظةَ أخيه وعلم أنه إنما أُتيَ من قِبل شِرْكه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يُصبْه ما أصابه . قيل : ويحتمل أن يكون ذلك توبةً من الشرك وندَماً على ما فرَط منه .

(168/472)

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ ﴾ وقرىء بالياء التحتانية ﴿ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ ﴾ يقدِرون على نصره بدفع الإهلاكِ أو على رد المهلِك أو الإتيانِ بمثله ، وجمعُ الضميرِ باعتبار المعنى كما في قوله عز وعلا : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ ﴾ ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ فإنه القادرُ على ذلك وحده ﴿ وَمَا كَانَ

﴿ في نفسه ﴿ مُنْتَصِراً ﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقامه سبحانه .

﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المقامِ وفي تلك الحال ﴿ الولايةِ للَّهِ الحق ﴾ أي النُصرة له وحده لا يقدِر عليها أحدٌ فهو تقريرٌ لما قبله ، أو ينصُر فيها أولياءَه من المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمنَ ، ويعضُده قوله تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي لأوليائه ، وقرىء الوِلاية بكسر الواو ومعناها الملكُ والسلطانُ له عز وجل لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه أو لا يُعبد غيرُه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ فيكون تنبيهاً على أن قوله : يا ليتني لم أشرِك الخ ، كان عن اضطرار وجزَعٍ عمّا دهاه على أسلوب قوله تعالى : ﴿ ءالئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ وقيل : هنالك إشارةٌ إلى الآخرة كقوله تعالى : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ وقرىء برفع الحقّ على أنه صفةٌ للولاية وبنصبه على أنه مصدرٌ مؤكد ، وقرىء عقُباً بضم القاف وعُقْبى كرُجعى والكلُّ بمعنى العاقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(169/472)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾

أهلك أمواله المعهودة من جنتيه وما فيهما ، وهو مأخوذ من إحاطة العدو وهي استدارته به من جميع جوانبه استعملت في الاستيلاء والغلبة ثم استعملت في كل هلاك ، وذكر الخفاجي أن في الكلام استعارة تمثيلية شبه إهلاك جنتيه بما فيهما بإهلاك قوم حاط بهم عدو وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم ، ويحتمل أن تكون الاستعارة تبعية ، وبعض يجوز كونها تمثيلية تبعية انتهى .

وجعل ذلك من باب الكناية أظهر ؛ والعطف على مقدر كأنه قيل : فوقع بعض ما ترجى وأحيط الخ وحذف لدلالة السابق والسياق عليه ، واستظهر أن الإهلاك كان ليلاً لقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ويحتمل أن تكون أصبح بمعنى صار فلا تدل على تقييد الخبر بالصباح ، ويجري هذان الأمران في ﴿ تصبح ﴾ [الكهف : 40] و﴿ يصبح ﴾ [الكهف : 41] السابقين ، ومعنى تقليب الكفين على ما استظهره أبو حيان أن يبدي بطن كل منهما ثم يعوج يده حتى يبدو ظهر كل يفعل ذلك مراراً ، وقال غير واحد : هو أن يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ثم يعكس الأمر ويكرر ذلك ، وأياً ما كان فهو كناية عن الندم والتحسر وليس ذلك من قولهم : قلبت الأمر ظهراً لبطن كما في قول عمرو بن ربيعة :

وضربنا الحديث ظهراً لبطن . . .

وأتينا من أمرنا ما اشتهينا

فإن ذلك مجاز عن الانتقال من بعض الأحاديث إلى بعض ، ولكونه كناية عن الندم عدي بعلي في قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ فالجار والمجرور ظرف لغو متعلق بيقلب كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق ، ومنه يعلم أنه يجوز في الكناية أن تعدى بصلة المعنى الحقيقي كما في قولهم : بنى عليها وبصلة المعنى الكنائي كما هنا فيجوز بنى بها ويكون القول بنه غلط غلط .

(170/472)

ويجوز أن يكون الجار والمجرور ظرفاً مستقراً متعلقة خاص وهو حال من ضمير ﴿ يُقَلِّبُ ﴾ أي متحسراً على ما أنفق وهو نظراً إلى المعنى الكنائي حال مؤكدة على ما قيل لأن التحسر والندم بمعنى ، وقال بعضهم : إن التحسر الحزن وهو أخص من الندم فليراجع ، وأياً ما كان فلا تضمين في الآية كما توهم .

وقرىء ﴿ تَقَلَّبُ ﴾ أي تتقلب ، ولا يخفى عليك أمر الجار والمجرور على هذا ، وما إما مصدرية أي على إنفاقه في عمارتها ، وإما موصولة أي على الذي أنفقه في عمارتها من المال ، ويقدر على هذا مضاف إلى الموصول من الأفعال الاختيارية إذا كان متعلق الجار ﴿ بالابصار يُقَلِّبُ ﴾ مراداً منه يندم لأن الندم إنما يكون على الأفعال الاختيارية ، ويعلم

من هذا وجه تخصيص الندم على ما أنفق بالذكر دون هلالك الجنة ، وقيل : لعل التخصيص لذلك ولأن ما أنفق في عمارتها كان ما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه إلى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى أنه لا تنالها أيدي الردى ولذلك قال :

﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً ﴾ [الكهف : 35] فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاك ندم على ما صنع بناء على الزعم الفاسد من إنفاق ما يمكن إدخاره في مثل هذا الشيء السريع الزوال انتهى ، والظاهر أن إهلاكها واستئصال نباتها وأشجارها كان دفعياً بآفة سماوية ولم يكن تدريجياً بإذهاب ما به النماء وهو الماء ، فقد قال الخفاجي : إن الآية تدل على وقوع استئصال نباتها وأشجارها عاجلاً بآفة سماوية صريحاً لقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ بالفاء التعقيبية والتحسر إنما يكون لما وقع بغتة فتأمل ﴿ وَهِىَ ﴾ أي الجنة من الأعناب المحفوفة بنخل ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ أي ساقطة ، وأصل الخواء كما قيل الخلاء يقال خوى بطنه من الطعام يخوي خوى وخواء إذا خلا .

(171/472)

وفي "القاموس" خوت الدار تهدمت وخوت وخويت خياً وخوياً وخواء وخواسة خلت من أهلها ، وأريد السقوط هنا لتعلق قوله تعالى : ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ بذلك ، والعروش جمع عشر وهو هنا ما يصنع من الأعمدة لتوضع عليه الكرم ، وسقوط الجنة على العروش لسقوطها قبلها ، ولعل ذلك لأنه قد أصاب الجنة من العذاب ما جعلها صعيداً زلقاً لا يثبت فيها قائم ، ولعل تخصيص حال الكروم بالذكر دون النخل والزرع إما لأنها العمدة وهما من متمماتها وإما لأن ذكر هلاكها على ما قيل مغنى عن ذكر هلاك الباقي لأنها حيث هلكت وهي مسندة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأولى وإما لأن الانفاق في عمارتها أكثر ، ثم هذه الجملة تبعد ما روى من أن الله تعالى أرسل عليها ناراً فأحرقتها وغار ماؤها إلا أن يراد منها مطلق الخراب ، وحينئذ يجوز أن يراد من ﴿ هِيَ ﴾ الجنة بجميع ما اشتملت عليه ﴿ وَيَقُولُ ﴾ عطف على ﴿ يُقَلِّبُ ﴾ وجوز أبو البقاء وغيره أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه بتقدير وهو يقول لأن المضارع المثبت لا يقترن بالواو الحالية إلا شذوذاً .

(172/472)

﴿ وَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه إنما أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يصبه ما أصابه ، قيل ويحتمل أن يكون توبة من الشرك

وندماً عليه فيكون تجديداً للايمان لأن ندمه على شرخ فيما مضى يشعء بأنه آمن في الحال فكأنه قال : آمنت بالله تعالى الآن وليت ذلك كان أولاً ، لكن لا يخفى أن مجرد الندم على الكفر لا يكون إيماناً وإن كان الندم على المعصية قد يكون توبة إذا عزم على أن لا يعود وكان الندم عليها من حيث كونها معصية كما صرح به في المواقف ، وعلى فرض صحة قياسه بها لم يتحقق هنا من الكافر ندم عليه من حيث هو كفر بل بسبب هلاك جنتيه ، والآية فيما بعد ظاهرة أيضاً في أنه لم يتب عما كفر به وهو إنكار البعد ، والقول بأنه إنما لم تقبل توبته عن ذلك لأنها كانت عند مشاهدة البأس والايمان إذ ذاك غير مقبول غير مقبول إذ غاية ما في الباب أنه إيمان بعد مشاهدة إهلاك ماله وليس في ذلك سلب الاختيار الذي هو مناط التكليف لا سيما إذا كان ذلك الإهلاك للإنذار ، نعم إذا قيل إن هذا حكاية لما يقوله الكافر يوم القيامة كما ذهب إليه بعض المفسرين كان وجه عدم القبول ظاهراً إذ لا ينفع تجديد الايمان هناك بالاتفاق .

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ ﴾

وقرأ الأخوان . ومجاهد . وابن وثاب . والأعمش . وطلحة . وأيوب .

وخلف .

وأبو عبيد .

وابن سعدان .

وابن عيسى الأصبهاني .

وابن جرير ﴿ يَكُنِ ﴾ بالياء التحتية لأن المرفوع به أعني قوله تعالى : ﴿ فِئَةٌ ﴾ غير حقيق التأنيث والفعل مقدم عليه وقد فصل بينهما بالمنصوب ، وقد روعي في قوله سبحانه ﴿ يَنصُرُونَهُ ﴾ المعنى فاتي بضمير الجمع .

(173/472)

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ﴾ مراعاة للفظ فقط ، والمراد من النصرة لازمها وهو القدرة عليها أي لم تكن له فئة تقدر على نصره إما بدفع الهلاك قبل وقوعه أو برد المهلك بعينه على القول بجواز إعادة المعدوم بعينه أو برد مثله على القول بعدم جواز ذلك ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ﴾ فإنه سبحانه وتعالى القادر على نصره وحده ، وارتكاب المجاز لأنه لو أبقى ذلك على ظاهره لاقتضى نصرة الله تعالى إياه لأنه إذا قيل : لا ينصر زيداً أحد دون بكر فهم منه نصرة بكر له في العرف وليس ذلك بمراد بل المراد ما سمعت ، وحاصله لا يقدرون على نصره إلا الله تعالى القدير ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ في نفسه ﴿ مُنْتَصِراً ﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى منه

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال التي وقع فيها الإهلاك ﴿ الولاية لِلَّهِ الحق ﴾

أي النصرة له تعالى وحده لا يقدر عليها أحد فالجملة تقرير وتأكيد لقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ ﴾ [الكهف : 43] الخ ، أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر سبحانه بما فعل بالكافر أخاه المؤمن فالولاية بمعنى النصرة على الوجهين إلا أنها على الأول مطلقة أو مقيدة بالمضطر ومن وقع به الهلاك وعلى هذا مقيدة بغير المضطر وهم المؤمنون ، ويعضد أن المراد نصرتهم قوله تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي عاقبه لأوليائه ، ووجه ذلك أن الآية ختمت بحال الأولياء فيناسب أن يكون ابتداؤها كذلك .

وقرأ الأخوان .

والأعمش .

وابن وثاب .

وشيبة .

وابن غرزوان عن طلحة .

وخلف .

وابن سعدان .

وابن عيسى الأصبهاني .

وابن جرير ﴿ الولاية ﴾ بكسر الواو وهي الولاية بالفتح بمعنى واحد عند بعض أهل اللغة كالوكالة والوكالة والوصاية والوصاية ، وقال الزمخشري : هي بالفتح النصرة والتولي بالكسر السلطان والملك أي هنالك السلطان له عز وجل لا يغلب ولا يمتنع منه ولا يعبد غيره كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [العنكبوت : 65] فتكون الجملة تنبيهاً على أن قوله : ﴿ ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ ﴾ [الكهف : 42] الخ كان عن اضطرار وجزع عما دهاه ولم يكن عن ندم وتوبة ، وحكى عن أبي عمرو .

والأصمعي أنهما قالا : إن كسر الواو لحن هنا لأن فعالة إنما تجيء فيما كان صنعة ومعنى متقلداً كالكتابة والإمارة والخلافة وليس هنا تولي أمر إنما هي الولاية بالفتح بمعنى الدين بالكسر ولا يعول على ذلك .

واستظهر أبو حيان كون ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إشارة إلى الدار الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله الحق ويناسب قوله تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ ويكون كقوله تعالى : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] والظاهر على جميع ذلك أن الوقف على ﴿ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف : 43] وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ الخ ابتداء كلام ، وحينئذ فالولاية مبتدأ و ﴿ لِلَّهِ ﴾ الخبر والظرف معمول الاستقرار والجملة مفيدة للحصر لتعريف المسند إليه واقتران الخبر بلام الاختصاص كما قرر في ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ [

الفاتحة : 2] وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون ﴿ هُنَالِكَ ﴾ خبر ﴿ الولاية ﴾ أو الولاية مرفوعة به و ﴿ لِلَّهِ ﴾ يتعلق بالظرف أو بالعامل فيه أبو بالولاية ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً منها .

وقال بعضهم : إن الظرف متعلق بمنتصراً والإشارة إلى الدار الآخرة ، والمراد الإخبار بنفي أن ينتصر في الآخرة بعد نفي أن تكون له فئة تنصره في الدنيا .

(175/472)

والزجاج جعله متعلقاً بمنتصراً أيضاً إلا أنه قال : وما كان منتصراً في تلك الحالة ، و ﴿ الحق ﴾ نعت للاسم الجيل .

وقرأ الاخوان .

وحميد .

والأعمش .

وابن أبي ليلى .

وابن منذر .

واليزيدي .

وابن عيسى الأصبهاني ﴿ الحق ﴾ بالرفع على أنه صفة ﴿ الولاية ﴾ وجوز أبو البقاء أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هي أو هو الحق وأن يكون مبتدأ وهو خبره .

وقرأ أبي ﴿ هُنَالِكَ الولاية الحق لِلَّهِ ﴾ بتقديم ﴿ الحق ﴾ ورفعه وهو يرجح كون ﴿ الحق ﴾ نعتاً للولاية في القراءة السابقة .

وقرأ أبو حيوة .

وزيد بن علي .

وعمرو بن عبيد .

وابن أبي عبلة .

وأبو السمال .

ويعقوب عن عصمة عن أبي عمرو ﴿ الحق ﴾ بالنصب على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة والناصب له عامل مقدر كما في قولك : هذا عبد الله حقاً ، ويحتمل أنه نعت مقطوع .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

وحمزة .

وعاصم .

وخلف ﴿ عُقْبًا ﴾ بسكون القاف والتنوين ، وعن عاصم ﴿ عقبى ﴾ بألف التأنيث المقصور على وزن رجعي ، والجمهور بضم القاف والتنوين ؛ والمعنى في الكل ما تقدم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(176/472)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) ﴾

قوله : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزّز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله : ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ .

وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدّران أو محققان ؟ فقال بالأوّل : بعض المفسرين .

وقال بالآخر : بعض آخر .

واختلفوا في تعيينهما ، فقيل : هما أخوان من بني إسرائيل ، وقيل : هما أخوان مخزوميان من أهل مكة : أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، وقيل : هما المذكوران في سورة الصافات في قوله : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ [الصافات : 51] .

وانتصاب ﴿ مثلاً ﴾ و ﴿ رجلين ﴾ على أنهما مفعولا ﴿ اضرب ﴾ ، قيل : والأوّل هو الثاني والثاني هو الأوّل ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ هو الكافر ، و ﴿ مّنْ أعناب ﴾ بيان لما في الجنتين أي : من كروم متنوعة ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ الحفّ : الإحاطة ، ومنه ﴿ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ [الزمر : 75] ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفاً أي : أطافوا به ، فمعنى الآية : وجعلنا النخل مطيفاً بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أي : بين الجنتين ، وهو وسطهما ، ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات والفواكه .

ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدّي حملها وما فيها ، فقال : ﴿ كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أخبر عن ﴿ كلتا ﴾ ب ﴿ آتت ﴾ ، لأن لفظه مفرد ، فراعى جانب اللفظ .

وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثنى .

وقال الفراء : هو مثنى .

وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية .

وقال سيبويه : ألف كلتا للتأنيث ، والتاء بدل من لام الفعل ، وهي واو ، والأصل كلوا .

وقال أبو عمرو : التاء ملحقة ، وأكلهما هو : ثمرهما ، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحاً للأكل .

وقرأ عبد الله بن مسعود (كل الجنتين آتى أكله) .

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أي : لم تنقص من أكلها شيئاً ، يقال : ظلمه حقه ، أي : نقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فإنها في الغالب تكثر في عام ، وتقلّ في عام ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ أي : أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهراً ليسقيهما دائماً من غير انقطاع ، وقرىء ﴿ فجرنا ﴾ بالتشديد للمبالغة ، وبالتخفيف على الأصل .

﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ أي : لصاحب الجنتين ﴿ ثَمَرٌ ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق ﴿ ثمر ﴾ بفح الثاء والميم .

وكذلك قرؤوا في قوله : ﴿ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم فيهما .

وقرأ الباقون بضمهما جميعاً في الموضعين .

قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر ، وجمع الثمر : ثمار ، مثل : جبل وجبال .

قال الفراء : وجمع الثمار : ثمر ، مثل : كتاب وكتب ، وجمع الثمر : أثمار ، مثل : عنق

وأعناق ، وقيل : الثمر : جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وقيل : هو الذهب والفضة خالصة ﴿ فَقَالَ لصاحبه ﴾ أي : قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿ وَهُوَ يحاوره ﴾ أي : والكافر يحاور المؤمن ، والمعنى : يراجعه الكلام ويجاوبه ، والمحاورة : المراجعة ، والتحاور التجاوب ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ النفر : الرهط ، وهو ما دون العشرة ، وأراد ها هنا الأتباع والخدم والأولاد .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ أي : دخل الكافر جنة نفسه .

(178/472)

قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم ، فأدخله جنته يطوف به فيها ، ويريه عجائبها ، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه : كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما ، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة ، أو لأنه أدخله في واحدة ، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما . وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف : أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون ، وجملة : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ في محل نصب على الحال أي : وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾ أي : قال الكافر لفرط غفلته وطول أمله : ما أظن أن تفنى هذه الجنة التي تشاهدها .

﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته .

قال الزجاج : أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والمعنى : أنه إن يردّ إلى ربه فرضاً وتقديراً كما زعم صاحبه ، واللام في ﴿ لأَجِدَنَّ ﴾ جواب القسم ، والشرط أي : لأجدنّ يومئذٍ خيراً من هذه الجنة .

في مصاحف مكة والمدينة والشام (خيراً منهما) وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة ﴿ خيراً منها ﴾ على الإفراد ، و ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ منتصب على التمييز أي : مرجعاً وعاقبة ، قال هذا قياساً للغائب على الحاضر ، وأنه لما كان غنياً في الدنيا ، سيكون غنياً في الأخرى ، اغتراراً منه بما صار فيه من الغنى الذي هو استدراج له من الله .

(179/472)

﴿ قَالَ لَهُ صاحبه ﴾ أي : قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكراً عليه ما قاله ﴿ أَكَفَرْتَ بالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ بقولك ﴿ مَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ وقال خلقك : من تراب أي : جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه ، وهو أصلك ، وأصل البشر فلكل فرد حظ من ذلك ، وقيل : يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه من

الكفر ، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهي المادّة القريبة ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ أي : صيرك إنساناً ذكراً ، وعدّل أعضاءك وكملك ، وفي هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، وانتصاب ﴿ رجلاً ﴾ على الحال أو التمييز .

﴿ لَكنا هُوَ الله ربّى ﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكنّ المشددة .

وأصله : لكن أنا ، حذفت الهمزة وألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا ، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت الثانية ، وضمير هو للشأن ، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا ، والراجع ياء الضمير ، وتقدير الكلام : لكن أنا الشأن الله ربي .

قال أهل العربية : إثبات ألف أنا في الوصل ضعيف .

قال النحاس : مذهب الكسائي والفراء والمازني أن الأصل : لكن أنا ، وذكر نحو ما قدّمنا .

وروي عن الكسائي أن الأصل : لكن الله هو ربي أنا .

قال الزجاج : إثبات الألف في لكنا في الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا ، فجاءوا بها عوضاً ، قال : وفي قراءة أبيّ (لكن أنا هو الله ربي) وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع ، وورش عن يعقوب ﴿ لكنا ﴾ في حال الوصل والوقف معاً بإثبات الألف ، ومثله

قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفوني . . . فإني قد تذربت السناما

ومنه قول الأعشى :

فكيف أنا وألحان القوافي . . . وبعد الشيب كفى ذاك عارا

(180/472)

ولا خلاف في إثباتها في الوقف ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية ، وروي عن الكسائي (لكن هو الله ربي) ثم نفى عن نفسه الشرك بالله ، فقال : ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركاً ، ثم أقبل عليه يلومه فقال : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء الله ﴾ لولا للتحضيض ، أي : هلاّ قلت عندما دخلتها هذا القول .

قال الفراء والزجاج : " ما " في موضع رفع على معنى الأمر ما شاء الله ، أي : هلاّ قلت حين دخلتها : الأمر بمشيئة الله ، وما شاء الله كان ، ويجوز أن تكون " ما " مبتدأ والخبر مقدّر ، أي : ما شاء الله كائن ، ويجوز أن تكون " ما " شرطية والجواب محذوف ، أي : أيّ شيء شاء الله كان ﴿ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله ﴾ أي : هلا قلت : ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله ،

تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوّته وقدرته .

قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا بالله ، ولا يكون إلا ما شاء الله .

ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ المفعول الأوّل : ياء الضمير ، و " أنا " : ضمير فصل ، و ﴿ أقلّ ﴾ : المفعول الثاني للرؤية إن كانت علمية ، وإن جعلت بصرية كان انتصاب أقلّ على الحال ، ويجوز أن يكون ﴿ أنا ﴾ تأكيد لياء الضمير ، وانتصاب ﴿ مالاً ﴾ و ﴿ ولداً ﴾ على التمييز .

(181/472)

﴿ فعسى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ هذا جواب الشرط ، أي : إن ترني أفقر منك ، فأنا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة خيراً من جنتك في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا ﴾ أي : ويرسل على جنتك حسباناً ، والحسبان مصدر ، بمعنى : الحساب كالغفران ، أي : مقداراً قدّره الله عليها ، ووقع في حسابه سبحانه ، وهو الحكم

بتخريبها .

قال الزجاج : الحسبان من الحساب أي : يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما كسبت يداك .

وقال الأخفش : حسباناً : أي مرامي ﴿ مّنَ السماء ﴾ واحدها حسبانه ، وكذا قال أبو عبيدة والقتيبي .

وقال ابن الأعرابي : الحسبانة : السحابة ، والحسبانة : الوسادة ، والحسبانة : الصاعقة ، وقال النضر بن شميل : الحسبان : سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تنزع في قوس ، ثم يرمي بعشرين منها دفعة ، والمعنى : يرسل عليها مرامي من عذابه : إما برد ، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب .

ومنه قول أبي زياد الكلابي :

أصاب الأرض حسبان . . . أي : جراد ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي : فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسباناً صعيداً ، أي : أرضاً لا نبات بها وقد تقدّم تحقيقه ﴿ زلقاً ﴾ أي : تزلّ فيها الأقدام لملاستها ، يقال : مكان زلق بالتحريك أي : دحض ، وهو في الأصل مصدر قولك زلقت رجله تزلق زلقاً وأزلقها غيره ، والمزلقة : الموضع الذي لا يثبت عليه قدم ، وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة ، أو أريد به المفعول ، وجملة : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها ، والغور :

الغائر .

وصف الماء بالمصدر مبالغة ، والمعنى : أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له ، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً ، ويجيء الغور بمعنى : الغروب ، ومنه قول أبي ذوئيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها . . . وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

(182/472)

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ أي : لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده وردّه ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل ، وقيل : المعنى : فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه .

ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ قد قدّمنا اختلاف القراء في هذا الحرف وتفسيره ، وأصل الإحاطة من إحاطة العدوّ بالشخص كما تقدّم في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف : 66] ، وهي عبارة عن إهلاكه وإفنائه ، وهو معطوف على مقدّر كأنه قيل : فوقع ما توقعه المؤمن وأحيط بثمره ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أي : يضرب إحدى يديه على الأخرى وهو كناية عن الندم ، كأنه قيل : فأصبح يندم ﴿ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ أي : في عمارتها وإصلاحها

من الأموال ، وقيل : المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم : في يده مال ، وهو بعيد جداً ، وجملة ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمهم التي تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض ، مأخوذ من خوت النجوم تخوى : إذا سقطت ولم تمطر في نوئها ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ [النمل : 52] قيل : وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل ، وأيضاً إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقي ، وجملة : ﴿ وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ معطوفة على ﴿ يقلب كفيه ﴾ ، أو حال من ضميره ، أي : وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك ، أو كان هذا القول منه على حقيقته ، لا لما فاته من الغرض الدنيوي ، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه .

(183/472)

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ ﴿ فئة ﴾ اسم كان و ﴿ له ﴾ خبرها ، و ﴿ ينصرونه ﴾ صفة لفئة ، أي : فئة ناصرة ، ويجوز أن تكون ﴿ ينصرونه ﴾ الخبر ،

ورجح الأوّل سيبويه ، ورجح الثاني المبرّد ، واحتج بقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] والمعنى : أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجىء إليها وينتصر بها ، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ في نفسه ﴿ مُنْتَصِراً ﴾ أي : ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته ، وانتقامه منه .

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي " الحق " بالرفع نعتاً للولاية ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة ﴿ الحق ﴾ بالجرّ نعته لله سبحانه .

قال الزجاج : ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقاً .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي : " الولاية " بكسر الواو ، وقرأ الباقون بفتحها ، وهما لغتان بمعنى ، والمعنى : هنالك ، أي : في ذلك المقام ، النصرة لله وحده لا يقدر عليها غيره ، وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أي : الولاية لله الحق هنالك ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي : هو سبحانه خير ثواباً لأوليائه في الدنيا والآخرة ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي : عاقبة ، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة ﴿ عقباً ﴾ بسكون القاف ، وقرأ الباقون بضمها ، وهما بمعنى واحد ، أي : هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به ، يقال : هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه : أي أخراه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ قال : الجنة : هي البستان ، فكان له بستان واحد وجدار واحد ، وكان بينهما نهر ، فلذلك كانا

جنتين ، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي عليها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال : نهر أبي قرطس نهر الجنتين .

قال ابن أبي حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة .

(184/472)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ قال : لم تنقص ، كل شجر الجنة أطعم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عنه ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ يقول : مال .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة ، قال : قرأها ابن عباس " وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ " بالضم ، وقال : هي أنواع المال .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ قال : ذهب وفضة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ يقول : كفور لنعمة ربه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهنّ عند الكرب : " الله الله ربي لا أشرك به شيئاً " وأخرج عبد الله بن

أحمد في زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفي عمن ذكره قال : "طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال : ما شاء الله ، فإذا حاجته بين يديه ، فقال : يا رب إني أطلب حاجتي منذ كذا وكذا أعطيتها الآن ، فأوحى الله إليه : يا موسى ، أما علمت أن قولك ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج" .

وأخرج أبو يعلى ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوّة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته ، وقرأ : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ " ، وفي إسناده عيسى بن عون ، عن عبد الملك بن زرارة ، عن أنس .

قال أبو الفتح الأزدي : عيسى بن عون ، عن عبد الملك بن زرارة ، عن أنس لا يصح حديثه .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر ، عن أنس نحوه موقوفاً .

وأخرج البيهقي في الشعب عنه نحوه مرفوعاً .

(185/472)

وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال : قال لي نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قلت : نعم ، قال : أن تقول : لا قوّة إلا بالله " وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : " ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله " ، وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف في فضل هذه الكلمة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ قال : مثل الجرز .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ السماء ﴾ قال : عذاباً ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي : قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي : ذاهباً قد غار في الأرض ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ قال : يصفق ﴿ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ متلهفاً على ما فاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(186/472)

وقال القاسمي :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾

أي : بإهلاكه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزمخشري : أحيط به عبارة عن إهلاكه . وأوصله من " من أحاط به العدو " لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف : 66] .

(187/472)

و مثله قولهم : أتى عليه إذا أهلكه . من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم . يعني أنه استعارة تمثيلية . شبه إهلاك جنتيه بما فيهما ، بإهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن أتى عليهم بمعنى أهلكهم ، استعارة أيضا ، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ أي : فعيّر نفسه أكثر من تعييره صاحبه وتعيير صاحبه إياه . قال الزمخشري : تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن . كما كني عن ذلك بعضِّ الكف ، والسقوط في اليد . ولأنه في معنى الندم , عدّي تعديته بعلى كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق فيها ، أي : في عمارتها . فيكون ظرفاً لغواً . ويجوز كونه ظرفاً مستقرّاً

متعلقه خاص ، وهو حال . أي : متحسراً . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه – كما قال الراغب – الغم على ما فات : ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أي : ساقطة عليها . والعروش جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه الشيء . فإذا سقط سقط ما عليه . يعني أن كرومها المعروشة , سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم ، بحيث قاربت أن تصير صعيداً زلقاً : ﴿ وَيَقُولُ ﴾ عطف على يقلب : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ أي : من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتي من جهة شركه وطغيانه . فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه .

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ ﴾ أي : منعة وقوم : ﴿ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : يقدرون على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه : ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ أي : ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله .

(188/472)

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾

أي : في ذلك المقام وتلك الحالة التي وقع فيها الإهلاك . الولاية بفتح الواو أي : النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجملة مقررة ومؤكدة لقوله : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ

يَنْصُرُونَهُ ﴾ لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه المؤمن ، وصدّق قوله : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [الكهف : 40] ويعضده قوله تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ أي : لأوليائه . فلا ينقص لمؤمن درجة ، في الدنيا ، ولا يترك لكافر عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ الولاية بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أي : هنالك السلطان له والملك . لا يغلب ولا يمتنع منه . أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر . يعني أن : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [الكهف : 42] ، كلمة ألجئ إليها فقالها ، جزعاً مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : 84] [في المطبوع خطأ في كتابة الآية] . وكقوله إخباراً عن فرعون : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : 90 - 91] ، أو هنالك إشارة إلى الآخرة . أي : في تلك الدار الولاية لله . كقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر : 16] ويناسبه قوله :

﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ . وهنالك على الأوجه المتقدمة ، خبر مقدم والولاية مبتدأ مؤخر . والوقف على منتصراً . وجوز بعضهم كون هنالك معمولاً لمنتصراً وإن الوقف عليه . أي : على هنالك وإن الولاية لله جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة . أي : وما كان منتصراً في ذلك الوطن الذي حل به عذاب الله . فلم يكن منقذ له منه .

وأقول : هذا الثاني ركيك جدّاً ، مفكك لرؤوس الآي في السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربيةً . وما كل جائز عربية رقيق الحواشي بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشري ومن تابعه . والحق قرئ بالرفع صفة للولاية وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بعامل مقدر . وبالجر صفة للفظ الجلالة . عقباً قرئ بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالعُشُر والعُشْر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجها في هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيه كانا موجودين ولهما قصة . ولا دليل في ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشيء لا يقتضي وجوده . وجوّز في هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير اضرب مثلاً ، مثل رجلين ، من غير تشبيه واستعارة . وقد عني بأن الرجلين في التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ

بخولهم ، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى ، سيكون الأمر في الآخرة أعلى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : 21] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 38 . 41 ﴾

(190/472)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾

كان صاحبه المؤمن رجلاً صالحاً فحقق الله رجاءه ، أو كان رجلاً محدّثاً من محدّثي هذه الأمة ، أو من محدّثي الأمم الماضية على الخلاف في المعنيّ بالرجلين في الآية ، ألهمهُ الله معرفة ما قدره في الغيب من عقاب في الدنيا للرجل الكافر المتجبر .

وإنما لم تعطف جملة ﴿ وأحيط ﴾ بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلق الغرض في هذا المقام بالإشارة إلى الرجل المؤمن ، وإنما المهم التنبيه على أن ذلك حادث حل بالكافر عقاباً له على كفره ليعلم السامعون أن ذلك جزاء أمثاله وأن ليس بخصوصية لدعوة الرجل المؤمن .

والإحاطة : الأخذ من كل جانب ، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم .

وقد تقدمت في قوله تعالى : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ في سورة يوسف (66) وقوله : ﴿ إن ربك أحاط بالناس ﴾ في سورة الإسراء (60) .

والمعنى : أُتلف ماله كله بأن أُرسل على الجنة والزرع حُسبانٌ من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً وهلكت أنعامه وسُلبت أمواله ، أو خسف بها بزلزال أو نحوه .

وتقدم اختلاف القراء في لفظ ثُمر ﴾ آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ وكان له ثمر ﴾ [الكهف : 34] .

وتقليب الكفين : حركة يفعلها المتحسر ، وذلك أن يقلبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته تحسراً على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنة .

فهو كناية عن التحسر ، ومثله قولهم : قرَع السن من نَدم ، وقوله تعالى : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ [آل عمران : 119] .

والخاوية : الخالية ، أي وهي خالية من الشجر والزرع ، والعُروش : السُقُف .

و(على) للاستعلاء .

وجملة على عروشها ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ خاوية ﴾ .

وهذا التركيب أرسله القرآن مثلاً للخرَاب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ﴾ في سورة البقرة (259) ، على أن الضمير مراد به جدران القرية بقرينة مقابلته بعروشها ، إذ القرية هي المنازل المركبة من جدران وسُقف ، ثم جعل ذلك مثلاً لكل هلاك تام لا تبقى معه بقية من الشيء الهالك .

وجملة ويقول ﴾ حكاية لتندمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العذاب .

والمضارع للدلالة على تكرر ذلك القول منه .

وحرف النداء مستعمل في التلهف .

و(ليتني) تمنٍ مراد به التندم .

وأصل قولهم (يا ليْتِنِي) أنه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل ، كأنه يخاطب كلمة (ليت) يقول : احضُري فهذا أوانك ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ سورة الزمر (56) .

وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذٍ .

وقوله : ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ موعظة وتنبيه على جزاء قوله : ﴿ وأعز نفراً ﴾ [الكهف : 34] .

والفئة : الجماعة .

وجملة ﴿ ينصرونه ﴾ صفة ، أي لم تكن له فئة هذه صفتها ، فإن فئته لم تغن عنه من عذاب الله .

وقوله : ﴿ وما كان منتصراً ﴾ أي ولا يكون له انتصار وتخلص من العذاب .

وقرأه الجمهور ﴿ ولم تكن ﴾ بمثناة فوقية اعتداداً بتأنيث ﴿ فئة ﴾ في اللفظ .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف "يكن" بالياء التحتية .

والوجهان جائزان في الفعل إذا رفَع ما ليس بتحقيقي التأنيث .

وأحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر ، لأن الله قد يمتع كافرين كثيرين طول حياتهم ويملي لهم ويستدرجهم .

وإنما أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير ، فإنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى التكذيب بوعد الله استحق عقاب الله بسلب تلك النعم عنه كما سلبت النعمة عن قارون حين قال : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ [القصص : 78] .

(192/472)

وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة لأنها تجمع قوماً يرونهم أحط منهم وطلبوا من النبي طردهم عن مجلسه كما تقدم .

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) ﴾

تذييل للجمل قبلها لما في هذه الجملة من العموم الحاصل من قصر الولاية على الله تعالى المقتضي تحقيق جملة ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ [الكهف : 42] ، وجملة ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ [الكهف : 43] ، وجملة ﴿ وما كان منتصراً ﴾ [الكهف : 43] ، لأن الولاية من شأنها أن تبعث على نصر المولى وأن تطمِع المولى في أن وليه ينصره .

ولذلك لما رأى الكافر ما دهاه من جراء كفره التجأ إلى أن يقول : ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ [الكهف : 42] ، إذ علم أن الآلهة الأخرى لم تغن وَلايتُهم عنه شيئاً ، كما قال أبو سفيان يوم أسلم لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنَى عني شيئاً .

فاسم الإشارة مبتدأ والولاية لله ﴾ جملة خبر عن اسم الإشارة .

واسم إشارة المكان البعيد مستعار للإشارة إلى الحال العجيبة بتشبيه الحالة بالمكان لإحاطتها بصاحبها ، وتشبيه غرابتها بالبعد لندرة حصولها .

والمعنى : أن في مثل تلك الحالة تقصر الولاية على الله .

فالولاية : جنس معرف بلام الجنس يفيد أن هذا الجنس مختص باللام على نحو ما قرر في

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] .

والوَلاية بفتح الواو مصدر وَلِي ، إذا ثبت له الوَلاء .

وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ في سورة الأنفال (72) .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف الوِلاية ﴾ بكسر الواو وهي اسم للمصدر أو اسم بمعنى السلطان والمُلك .

و ﴿ الحق ﴾ قرأه الجمهور بالجر ، على أنه وصف لله تعالى ، كما وصف بذلك في قوله تعالى : ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ في سورة يونس (30) .

(193/472)

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف الحقُّ ﴾ بالرفع صفة للولاية ، ف ﴿ الحق ﴾ بمعنى الصِدق لأن ولاية غيره كذب وباطل .

قال حجة الإسلام : "والواجب بذاته هو الحق مطلقاً ، إذ هو الذي يستبين بالعقل أنه موجود حقاً ، فهو من حيث ذاته يسمى موجوداً ومن حيث إضافته إلى العقل الذي أدركه على ما هو عليه يسمى حقاً" ا ه .

وبهذا يظهر وجه وصفه هنا بالحق دون وصف آخر ، لأنه قد ظهر في مثل تلك الحال أن غير الله لا حقيقة له أو لا دوام له .

﴿ وخَير ﴾ يجوز أن يكون بمعنى أخْيَر ، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقُب غيره ، فإن ما يأتي من ثواب من غيره ومن عقبى إما زائف مفضضٍ إلى ضر وإما زائل ، وثواب الله خالصٌ دائم وكذلك عقباه .

ويجوز أن يكون ﴿ خير ﴾ اسماً ضَد الشر ، أي هو الذي ثوابه وعُقُبه خير وما سواه فهو شر .

والتمييز تمييز نسبة الخير إلى الله .

و"العقب" بضمتين وبسكون القاف بمعنى العاقبة ، أي آخرة الأمر .

وهي ما يرجوه المرء من سعيه وعمله .

وقرأ الجمهور ﴿ عُقُباً ﴾ بضمتين وبالتنوين .

وقرأه عاصم وحمزة وخلف بإسكان القاف وبالتنوين .

فكان ما ناله ذلك المشرك الجبار من عطاء إنما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيراً وكانت عاقبته شراً عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾

اعلم أن في هذه الآية الكريمة : قراءات سبعية ، وأقوالاً لعلماء التفسير ، بعضها يشهد له قرآن ، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : ان الآية قد تكون فيها مذاهب للعلماء ، يشهد لكل واحد منها قرآن . فنذكر الجميع وأدلته في القرآن فإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ﴾ قرأه السبعة ما عدا حمزة الكسائي بالتاء المثناة الفوقية . وقرأه حمزة والكسائي " ولم يكن له فئة " بالياء المثناة التحتية . وقوله ﴿ الولايةِ للَّهِ الحق ﴾ قرأة السبعة ما عدا أبا عمرو والكسائي بالخفض نعتاً " لله " وقرأه أبو عمرو والكسائي بالرفع نعتاً للولاية . فعلى قراءة من قرأ " الولاية لله " بفتح الواو – فإن معناها : الموالاة والصلة ، وعلى هذه القراءة ففي معنى الآية وجهان :

الأول – أن معنى ﴿ هُنَالِكَ الولايةِ للَّهِ ﴾ أي في ذلك المقام ، وتلك الحال تكون الولاية من كل أحد لله ، لأن الكافر إذا رأى العذاب رجع إلى الله . وعلى هذا المعنى فالآية كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : 84] ، وقوله في فرعون : ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ

بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 90-91] ونحو ذلك من الآيات .

(195/472)

الوجه الثاني - أن الولاية في مثل ذلك المقام وتلك الحال لله وحده ، فيوالى فيه المسلمين ولا ية رحمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] الآية ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] . وله على الكافرين ولاية الملك والقهر ، كما في قوله : ﴿ وردوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحق وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 30] . وعلى قراءة حمزة والكسائي فالولاية بالكسر بمعنى الملك والسلطان ، والآية على هذه القراءة كقوله : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] وقوله ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 26] الآية ، وقوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الحج : 56] . وعلى قراءة " الحق " بالجر نعتاً لله ، فالآية كقوله ﴿ وردوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ [يونس : 30] الآية . وقوله ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحق ﴾ [يونس : 32] الآية ، وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحق وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحق المبين ﴾ [النور : 25] إلى غير ذلك من الآيات . وعلى قراءة " الحق "

بالرفع نعتاً للولاية ، على أن الولاية بمعنى الملك ، فهو كقوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 26] .

وما ذكره جل وعلا عن هذا الكافر : من أنه لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله – ذكر عن غيره من الكفار ، كقوله في قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ [القصص : 81] ، وقوله :

(196/472)

﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : 10] ، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً . وقوله ﴿ هُنَالِكَ ﴾ قال بعض العلماء . هو متعلق بما بعده ، والوقف تام على قوله ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف : 43] . وقال بعضهم : هو متعلق بما قبله ، فعلى القول الأول فالظرف الذي هو " هنالك " عامله ما بعده ، أي الولاية كائنة هنالك . وعلى الثاني فالعامل في الظرف اسم الفاعل الذي هو " منتصراً " اي لم يكن انتصاره واقعاً هنالك .

وقوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً ﴾ اي جزاء كما تقدم . وقوله " عقباً " بضم العين وسكون القاف والمعنى واحد . وقوله " ثواباً " وقوله " عقباً " كلاهما منصوب على التمييز بعد صيغة التفضيل التي هي " خير " كما قال في الخلاصة :

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا . . . مفضلاً كأنت أعلى منزلا

ولفظة – خير وشر – كلتاهما تأتي صيغة تفضيل حذفت منها الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، قال ابن مالك في الكافية .

وغالباً أغناهم خير وشر . . . عن قوله أخير منه وأشر

تنبيه

قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ فئة ﴾ محذوف منه حرف بلا خلاف ، إلا أن العلماء اختلفوا في الحرف المحذوف . هل هو ياء أو واو ، وهل هو العين أو اللام ؟ قال بعضهم : المحذوف العين ، وأصله ياء . وأصل المادة ف ي أ ، من فاء يفي : إذا رجع ، لأن فئة الرجل طائفته التي يرجع إليها في أموره ، وعلى هذا فلاتاء عوض عن العين المحذوفة ، ووزنه بالميزان الصرفي " فلة " وقال بعضهم : المحذوف اللام . وأصله واو ، من فأوت راسه : إذا شققته نصفين . وعليه فالفئة الفرقة من الناس . وعلى هذا فوزنه بالميزان الصرفي " فعة " والتاء عوض عن اللام . وكلا القولين نصره بعض أهل العلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(197/472)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكأن الله تعالى استجاب للرجل المؤمن ولم يكذب توقعه ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] أحيط : كأنْ جعل حول الثمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ [يونس : 22] وتلاحظ أنه سبحانه قال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] ولم يقُلْ مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله ؛ لأن الإحاطة قد تكون بالشيء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجَنْي قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع . ثم يُصوِّر الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأَسَفه عليها : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 42] أي : يضرب كَفّاً بكفٍّ ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوتاً لا يدري ما يقول ، فيضرب كفّاً بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة ودَهْشتها . ويُقلِّب كفَّيْه على أيِّ شيء ؟ يُقلِّب كفيه ندماً على ما أنفق فيها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ [الكهف : 42] خاوية : أي خَربة جَرْداء جَدْباء ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة : 259]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليها الصاعقة من السماء دكَّتْ عروشها ، وجعلت عاليها سافلها ، فوقع العرش أولاً ، ثم تهدَّمتْ عليه الجدران .

(198/472)

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [الكهف : 42] بعد أن ألجمتْه الدهشة عن الكلام ، فراحَ يضرب كفّاً بكفٍّ ، أفاق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القوليّ الفوري : ﴿ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [الكهف : 42] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً ؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ . . . ﴾ .

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43)

أي : ليس لديه أعوان ونُصراء يدفعون عنه هذا الذي حَلّ به ، ويمنعون عنه الخراب الذي حاقَ بجنته ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف : 43] أي : ما كان ينبغي له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . . . ﴾ .

هنالك : أي في وقت الحالة هذه ، وقتَ أنْ نزلتْ الصاعقة من السماء فأتتْ على الجنة ،

وجعلتها خاوية على عروشها ، هناك تذكّر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله ، فقوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي : في الوقت الدقيق وقت القمة ، قمة النكَد والكَدَر .

و﴿ هُنَالِكَ ﴾ جاءت في القرآن في الأمر العجيب ، ويدعو إلى الأمر الأعجب ، من ذلك قصة سيدنا زكريا عليه السلام لما دخل على السيدة مريم ، فوجد عندها رزقاً : ﴿ قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37]

(199/472)

وكان زكريا عليه السلام هو المتكفّل بها ، الذي يُحضِر لها الطعام والشراب ، فلما رأى عندها أنواعاً من الطعام لم يَأْتِ بها سألها من أين ؟ فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فأطمع هذا القول زكريا في فضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقراً فقال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : 38]

و﴿ الولاية ﴾ أن يكون لك ولي ينصرك ، فالولي هو الذي يليك ، ويدافع عنك وقت الشدة ، وفي قراءة أخرى : (هُنَالِكَ الْوِلاَيَةُ) بكسر الواو يعني الملك ، كما في قوله : ﴿ لِّمَنِ الملك

اليومِ للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16]

وقوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً . . ﴾ [الكهف : 44] لأنه سيجازى على العمل الصالح بثواب ، هو خير من الدنيا وما فيها ﴿ وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ [الكهف : 44] أي : خير العاقبة بالرزق الطيب في جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنيّ الكافر ، والفقير المؤمن ، وبيَّن لنا أن الإنسان يجب ألاّ تخدعه النعمة ولا يغره النعيم ؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعِمَ سبحانه دائماً على بالك ، كي يحافظ لك على نعمتك وإلا لَكُنْتَ مثل هذا الجاحد الذي استعلى واغترّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رأيت .

وهذا مثل في الأمر الجزئي الذي يتعلق بالمكلّف الواحد ، ولو نظرتَ إليه لوجدتَه يعمُّ الدنيا كلها ؛ فهو مثال مُصغَّر لحال الحياة الدنيا ؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئيّ إلى المثل العام ، فقال تعالى : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ . . . ﴾ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(200/472)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴾ قال : إن الجنة هي البستان ، فكان له بستان واحد وجدار واحد ، وكان بينهما نهر ولذلك كان جنتين ، فلذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي يليها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال : نهر أبي فرطس نهر الجنتين .

قال ابن أبي حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾ قال : لم تنقص ، كل شجر الجنة أطعم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ يقول : وسطهما .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وكان له ثمر ﴾ يقول : مال .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه قال :

قرأها ابن عباس ﴿ وكان له ثمر ﴾ بالضم، يعني أنواع المال.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ وكان له ثمر ﴾ قال: ذهب وفضة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن بشير بن عبيد، أنه كان قرأ ﴿ وكان له ثمر ﴾ برفع الثاء، وقال: الثمر، المال والولدان والرقيق. والثمر: الفاكهة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي يزيد المدني، أنه كان يقرؤها ﴿ وكان له ثمر ﴾ قال: الأصل والثمر، الثمرة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ يقول كفور لنعمة ربه.

(201/472)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله: ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ يقول: تهلك ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن ﴾ كانت قائمة ثم ﴿ رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾.

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا

قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39)

أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن عند الكرب : " الله الله ربي لا أشرك به شيئاً " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عروة أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه ، أو دخل حائطاً من حيطانه قال : ﴿ ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ ويتأول قول الله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن زياد بن سعد قال : كان ابن شهاب إذا دخل أمواله قال : ﴿ ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ ويتأول قوله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مطرف قال : كان مالك إذا دخل بيته قال : ﴿ ما شاء الله ﴾ قلت لمالك لم تقول هذا ؟ قال : ألا تسمع الله يقول : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن حفص بن ميسرة قال : رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً ﴿ ما شاء الله ﴾ وذلك قول الله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عمر بن مرة قال : إن من أفضل الدعاء قول الرجل : ﴿ ما شاء الله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن إبراهيم بن أدهم قال : ما سأل رجل مسألة أنجح من أن يقول : ﴿ ما شاء الله ﴾ .

(202/472)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن يحيى بن سليم الطائفي ، عمن ذكره قال : طلب موسى عليه السلام من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال : ﴿ ما شاء الله ﴾ فإذا حاجته بين يديه فقال : يا رب أنا أطلب حاجتي منذ كذا وكذا أعطيتنيها الآن ؟ فأوحى الله إليه يا موسى ، أما علمت أن قولك : ﴿ ما شاء الله ﴾ أنجح ما طلبت به الحوائج .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي ، عن معاذ بن جبل : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أدلك على باب من أبواب الجنة ؟ قال : ما هو ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذي وصححه والنسائي ، " عن قيس بن سعد بن عبادة أن أباه دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخدمه قال : فخرج عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم - وقد صليت ركعتين واضطجعت ، فضربني برجله وقال : " ألا أدلك على باب من أبواب الجنة ؟ قلت : بلى . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله " " .

وأخرج أحمد ، عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر :

" يا أبا ذر ، ألا أعلمك كلمة من كنز الجنة ؟ قال : بلى . قال : " قل لا حول ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ، عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي أيوب الأنصاري قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أكثر من قول " لا حول ولا قوة إلا بالله " فإنه كنز من كنوز الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن زيد بن ثابت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " ألا أدلكم على كنز من كنوز الجنة ؟ تكثرون من لا حول ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة " .

(203/472)

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته " وقرأ ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما

شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر ، عن أنس رضي الله عنه قال : من رأى شيئاً من ماله فأعجبه فقال : ﴿ ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ لم يصب ذلك المال آفة أبداً ، وقرأ ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك ﴾ الآية . وأخرجه البيهقي في الشعب ، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن مردويه ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها ، فليكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ .

وأخرج أحمد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قلت : نعم . قال : أن تقول : ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ " قال عمرو بن ميمون : قلت لأبي هريرة – رضي الله عنه – " لا حول ولا قوة إلا بالله " فقال : لا إنها في سورة الكهف ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ .

(204/472)

وأخرج ابن منده في الصحابة من طريق حماد بن سلمة ، عن سماك ، عن جرير قال : خرجت إلى فارس فقلت : ﴿ ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ فسمعني رجل فقال : ما هذا الكلام الذي لم أسمعه من أحد منذ سمعته من السماء ؟ فقلت : ما أنت وخبر السماء ؟ قال : إني كنت مع كسرى فأرسلني في بعض أموره ، فخرجت ثم قدمت ، فإذا شيطان خلفني في أهلي على صورتي ، فبدأ لي ، فقال : شارطني على أن يكون لي يوم ولك يوم ، وإلا أهلكتك ، فرضيت بذلك ، فصار جليسي يحادثني وأحادثه ، فقال لي ذات يوم : إني ممن يسترق السمع والليلة نوبتي ، قلت : فهل لك أن أختبئ معك ؟ قال : نعم .

فتهيأ ثم أتاني فقال : خذ بمعرفتي ، وإياك أن تتركها فتهلك ، فأخذت بمعرفته فعرج بي حتى لمست السماء ، فإذا قائل يقول : " ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله " فسقطوا على وجوههم وسقطت ، فرجعت إلى أهلي فإذا أنا به يدخل بعد أيام ، فجعلت أقول : " ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله " قال : فيذوب لذلك حتى يصير مثل الذباب . ثم قال لي : قد حفظته فانقطع عنا .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن يحيى بن سليم الطائفي ، عن شيخ له قال : الكلمة التي تزجر بها الملائكة الشياطين حتى يسترقون السمع ﴿ ما شاء الله ﴾ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، عن صفوان بن سليم قال : ما نهض ملك من الأرض حتى يقول : " لا حول ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم " .

وأخرج ابن مردويه والخطيب والديلمي من طرق ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم قال : " أخبرني جبريل أن تفسير ﴿ لا حول ولا قوة إلا بالله ﴾ أنه لا حول عن معصية الله ، إلا بقوة الله ، ولا قوة على طاعة الله ، إلا بعون الله " .

(205/472)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنها في " لا حول ولا قوّة إلا بالله " قال : لا حول بنا على العمل بالطاعة إلا بالله ، ولا قوة لنا على ترك المعصية إلا بالله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زهير بن محمد أنه سئل ، عن تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله قال : لا تأخذ ما تحب إلا بالله ، ولا يمتنع مما تكره إلا بعون الله .

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) ﴾

أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الحسبان العذاب .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ حسباناً من السماء ﴾ قال : ناراً . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت حسان بن ثابت وهو يقول :

بقية معشر صبت عليهم . . . شآبيب من الحسبان شهب

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ حسباناً من السماء ﴾ قال : ناراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ قال : مثل الجزر .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ حسباناً من السماء ﴾ قال : عذاباً ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ أي ذاهباً قد غار في الأرض ﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه ﴾ قال يصفق ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ متلهفاً على ما فاته .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ صعيداً زلقاً ﴾ قال : الصعيد الأملس ، والزلق التي ليس فيها نبات ﴿ وأحيط بثمره ﴾ قال : بثمر الجنتين فأهلكت ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ يقول : ندامة عليها ﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ قال : قلب أسفلها أعلاها .

وأخرج ابن المنذر ، عن الضحاك في قوله : ﴿ أحيط بثمره ﴾ قال : أحاط به أمر الله فهلك .

(206/472)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ولم تكن له فئة ﴾ قال : عشيرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولم تكن له فئة ﴾ قال : عشيرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولم تكن له فئة ﴾ أي جند يعينونه ﴿ من دون الله وما كان منتصراً ﴾ أي ممتنعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مبشر بن عبيد قال : ﴿ الولاية ﴾ الدين والولاية ما أتولى .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن صهيب أن – النبي صلى الله عليه وسلم – لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : " اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾

قوله : ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ : قُرِئ " تَقَلَّبُ كَفَّاه " ، أي : تتقلَّب كفَّاه . و " أصبح " : يجوز أَنْ تكونَ على بابِها ، وأَنْ تكونَ بمعنى صار ، وهذا كنايةٌ عن الندمِ لأنَّ النادمَ يَفْعل ذلك .

قوله : ﴿ عَلَى مَا أَنْفَقَ ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب "يُقَلِّب" ، وإنما عُدِّيَ ب " على " لأنَّه ضُمِّن معنى يَنْدَمُ .

وقوله : " فيها " ، أي : في عِمارتها . ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ مِنْ فاعلِ " يُقَلِّبُ " ، أي : مُتَحَسِّراً . كذا قَدَّره أبو البقاء . وهو تفسيرُ معنى . والتقديرُ الصناعيُّ إنما هو كونٌ مطلقٌ .

قوله : " ويقولُ " يجوز أَنْ يكونَ معطوفاً على "يُقَلِّبُ" ، ويجوز أَنْ يكونَ حالاً .

قوله : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ﴾ : قرأ الأخَوان "يَكُنْ" بالياء مِنْ تحتُ . والباقون مِنْ فوقُ ، وهما واضحتان ؛ إذ التأنيثُ مجازيٌّ ، وحَسَّن التذكيرَ الفصلُ .

قوله : "يَنْصُرُونه " يجوز أَنْ تكونَ هذه الجملةُ خبراً وهو الظاهرُ ، وأَنْ تكونَ حالية ، والخبرُ الجارُّ المتقدِّمُ ، وسوَّغ مجيءَ الحالِ من النكرة تقدُّمُ النفيِ . ويجوز أَنْ تكونَ صفةً ل " فئة " إذا جَعَلْنا الخبرَ الجارَّ .

وقال : "يَنْصُرونه " حَمْلاً على معنى " فِئَة " لأنهم في قوةِ القوم والناس ، ولو حُمِل على لفظِها لأُفْرِد كقولِه تعالى : ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وأخرى كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : 13] .

وقرأ ابن أبي عبلة : " تَنْصُرُه " على اللفظ . قال أبو البقاء : " ولو كان " تَنْصُره " لكان على اللفظ " . قلت : قد قرئ بذلك كما عَرَفْتَ .

(208/472)

قوله : ﴿ هُنَالِكَ الولايةِ للَّهِ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ الكلامُ تَمَّ على قوله " منتصراً " وهذه جملةٌ منقطعةٌ عمَّا قبلَها ، وعلى هذا فيجوز في الكلامِ أوجهٌ ، أحدُها : أَنْ يكونَ " هنالك الوَلايةُ " مقدَّراً بجملةٍ فعليةٍ ، فالولايةُ فاعلٌ بالظرف قبلها ، أي : استقرَّتِ الولايةُ لله ، و " لله " متعلقٌ بالاستقرار ، أو بنفسِ الظرفِ لقيامِه مَقامَ العاملِ أو بنفسِ الوَلاية ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ من " الولاية " ، وهذا إنما يتأَتَّى على رَأْيِ الأخفش من حيث إنَّ الظرفَ يرفعُ

الفاعلَ مِنْ غيرِ اعتماد .

والثاني : أَنْ يكونَ " هنالك " منصوباً على الظرف متعلقاً بخبر " الولاية " وهو " لله " أو بما تعلَّق به " لله " أو بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ منها ، والعاملُ الاستقرار في " لله " عند مَنْ يُجيز تقدُّمَ الحالِ على عامِلِها المعنويِّ ، أو يتعلَّق بنفس " الولاية " .

والثالث : أَنْ يُجْعَلَ " هنالك " هو الخبر ، و " لله " فَضْلَةٌ ، والعاملُ فيه ما تقدَّم في الوجه الأول .

ويجوز أن يكونَ " هنالك " مِنْ تتمة ما قبلها فلم يَتِمَّ الكلامُ دونَه ، وهو معمولٌ لـ " منتصِراً " ، أي : وما كان منتصراً في الدار الآخرة ، و " هنالك " إشارةٌ إليها . وإليه نحا أبو إسحاق . وعلى هذا فيكون الوقفُ على " هنالِك " تامّاً ، والابتداءُ بقولِه " الوَلايةُ لله " فتكونُ جملةً مِنْ مبتدأ وخبر .

والظاهرُ في " هنالك " : أنَّه على موضوعِه مِنْ ظرفيةِ المكان كما تقدَّم معناه . وتقدَّم أنَّ الأَخَوين يَقْرآن " الوِلاية " بالكسرِ ، والفرقُ بينها وبين قراءةِ الباقين بالفتح في سورة الأنفال فلا معنى لإعادتِه .

وحُكي عن أبي عمرٍو والأصمعيِّ أنَّ كسرَ الواوِ هنا لحنٌ . قالا : لأنَّ فِعالة إنما تجيءُ فيما كان صنعةً أو معنى متقلداً ، وليس هناك تَوَلِّي أمورٍ .

قوله : " الحق " قرأ أبو عمرو والكسائيُّ برفع " الحقُّ " والباقون بجرّه ، والرفعُ ، من ثلاثةِ أوجهٍ ، أحدُها : أنه صفةٌ للوَلاية . الثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو ، أي : ما أَوْحيناه إليك . الثالث : أنه مبتدأٌ ، وخبرُه مضمرٌ ، أي : الحقُّ ذلك . وهو ما قُلْناه . والجرُّ على أنه صفةٌ للجلالةِ الكريمة .

وقرأ زيدُ بن علي وأبو حيوة وعمرو بن عبيد ويعقوب " الحقَّ " نصباً على المصدرِ المؤكِّد لمضمونِ الجملة كقولك : هذا عبدُ اللهِ الحقَّ لا الباطلَ " .

قوله : " عُقباً " عاصمٌ وحمزةُ بسكونِ القافِ ، والباقون بضمها . فقيل : لغتان كالقُدُس والقُدْس . وقيل : الأصل الضمُّ ، والسكونُ تخفيفٌ . وقيل : بالعكس كالعُسْر واليُسْر ، وهو عكسُ معهودِ اللغةِ . ونصبُها ونصبُ " ثواباً " و " أملاً " على التمييز لأفعل التفضيل قبلها . ونقل الزمخشري أنه قُرئ " عُقْبى " بالألف وهي مصدرٌ أيضاً كبُشْرى ، وتُروى عن عاصم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 497 . 500 ﴾

(210/472)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) ﴾

إذا ظَهَرَ خسرانُ مَنْ آثر حظَّه على حقِّ الله ، قَرَعَ بابَ ندامته ، ثم لا ينفعه .

ولو قرع باب كَرَمِه في الدنيا – حين وقَعتْ له الفترةُ – لأشكاه عند ضرورته ، وأنجاه من ورطته . . ولكنه رُبط بالخذلان ، ولُبِّسَ عليه الأمرُ بحُكْمِ الاستدراج .

قوله : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ ﴾ : مَنْ اشْتَهَرَ أمرُهُ بسُخْطِ السلطانِ عليه لم ينظر إليه أحدٌ من الجُنْدِ والرعية ، كذلك مَنْ وَسَمَه الحقُّ بكيِّ الهَجْرِ لم يَرْثِ له مَلَكٌ ولا نبيٌّ ، ولم يَحْمِه صديقٌ ولا وليٌّ .

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) ﴾

هو الحقُّ المتفرِّدُ بنعتِ ملكوته ، لا يشرك في جلال سلطانه من الحدثان أحداً ، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيما هنالك لحدثان ولا خطر ، كلاَّ . . بل هو الله الخلاَّق الواحد القهار .

هنالك الوِلاية لله أي القدرة – والواو هنا بالكسر .

وهنالك الوَلاية لله أي النصرة – والواو هنا بالفتح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 357 ﴾

(211/472)

قوله تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أبطرتهم ، فكانت سبب إشقائهم وهم يحسبون أنها عين إسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة بقائها وسرعة فنائها ، وأن من تكبر بها كان أخس منها فقال تعالى : ﴿ واضرب لهم ﴾ أي لهؤلاء الكفار المغترين بالعرض الفاني ، المفتخرين بكثرة الأموال والأولاد وعزة النفر ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ أي التي صفتها – التي هم بها ناطقون – تدل على أن ضدها الأخرى ، في ينوعها ونضرتها ، واختلابها للنفوس ببهجتها ، واستيلائها على الأهواء بزهرتها ، واختداعها لذوي

الشهوات بزينتها ، ثم اضمحلالها وسرعة زوالها ، أفرح ما كانوا بها ، وأرغب ما كانوا فيها مرة بعد أخرى ، على مر الأيام وكر الشهور ، وتوالي الأعوام وتعاقب الدهور ، بحيث نادت على نفسها بالتحذير منها والتنفير عنها للعاقل اللقن ، والكيس الفطن ، رغبة إلى الباقي الذي يدوم سروره ، ويبقى نعيمه وحبوره ، وذلك المثل ﴿ كماء أنزلناه ﴾ بعظمتنا واقتدارنا بعد يبس الأرض وجفاف ما فيها وزواله ، وبقلعه كما تشاهدونه واستئصاله ، وقال : ﴿ من السماء ﴾ تنبيهاً على بليغ القدرة في إمساكه في العلو وإنزاله في وقت الحاجة على الوجه النافع ﴿ فاختلط ﴾ أي فتعقب وتسبب عن إنزاله أنه اختلط ﴿ به نبات الأرض ﴾ أي التراب الذي كان نباتاً ارفت بطول العهد في بطنها ، فاجتمع بالماء والتفّ وتكاثف ، فهيأناه بالتخمير والصنع الذي لا يقدر عليه سوانا حتى أخرجناه من الأرض أخضر يهتز على ألوان مختلفة ومقادير متفاوتة ثم أيبسناه ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ أي يابساً مكسراً مفتتاً ﴿ تذروه ﴾ أي تثيره وتفرقه وتذهب به ﴿ الرياح ﴾ حتى يصير عما قليل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن ﴿ وكان الله ﴾ أي المختص بصفات الكمال ﴿ على كل شيء ﴾ من ذلك وغيره إنشاء وإفناء وإعادة ﴿ مقتدراً ﴾ أزلاً وأبداً ، فلا تظنوا أن ما تشاهدونه من قدرته حادث .

ولما تبين بهذين المثلين وغيرهما أن الدينا – التي أوردت أهلها الموارد وأحلتهم أودية المعاطب – سريعة الزوال ، وشيكة الارتحال ، مع كثرة الأنكاد ، ودوام الأكدار ، من الكد والتعب ، والخوف والنصب كالزرع سواء ، تقبل أولاً في غاية النضرة والبهجة ، تتزايد نضرتها وبهجتها شيئاً فشيئاً ، ثم تأخذ في الانتقاص والانحطاط إلى أن تنتهي إلى الفناء ، فهي جديرة لذلك بالزهد فيها والرغبة عنها ، وأن لا يفتخر بها عاقل فضلاً عن أن يكاثر بها غيره ، قال تعالى : ﴿ المال والبنون ﴾ الفانيان الفاسدان وهما أجلّ ما في هذه الدار من متاعها ﴿ زينة الحياة الدنيا ﴾ التي لو عاش الإنسان جميع أيامها لكان حقيقاً لصيرورة ما هو في منها إلى زوال بالإعراض عنها والبغض لها ، وأنتم تعلمون ما في تحصيلهما من التعب ، وما لهما بعد الحصول من سرعة العطب ، وهما مع ذلك قد يكونان خيراً إن عمل فيهما بما يرضي الله ، وقد يكونان شراً ويخيب الأمل فيهما ، وقد يكون كل منهما سبب هلاك صاحبه وكدره ، وسوء حياته وضرره ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ وهي أعمال الخير المجردة التي يقصد بها وجه الله تعالى التي رغبنا فيها بقولنا

﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ [الكهف : 7] وما بعده ﴿ خير ﴾ أي من الزينة الفانية .

ولما كان أهم ما إلى من حصل النفائس لكفايته من يحفظها له لوقت حاجته قال : ﴿ عند

ربك ﴾ أي الجليل المواهب ، العالم بالعواقب ، وخير من المال والبنين في العاجل والآجل ﴿ ثواباً وخير ﴾ من ذلك كله ﴿ أملاً ﴾ أي من جهة ما يرجو فيها من الثواب ويرجو فيها من الأمل ، لأن ثوابها إلى بقاء ، وأملها كل ساعة في تحقيق وعلو وارتقاء ، وأمل المال والبنين يختان أحوج ما يكون إليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 471.473 ﴾

(213/472)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

اعلم أن المقصود : اضرب مثلاً آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين فقال : ﴿ واضرب لَهُم ﴾ أي لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين : ﴿ مَثَلُ الحياة الدنيا ﴾ ثم ذكر المثل فقال : ﴿ كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ وحينئذ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [الحج : 5] ثم إذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيماً ، وهو النبت المتكسر

المتفتت .

ومنه قوله : هشمت أنفه وهشمت الثريد .

وأنشد :

عمرو الذي هشم الثريد لأهله . . ورجال مكة مسنتون عجاف

وإذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ بتكوينه أولاً وتنميته وسطاً وإبطاله آخراً وأحوال الدنيا أيضاً كذلك تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلاً قليلاً ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء ؛ ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به .

والباء في قوله : ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾ فيه وجوه .

الأول : التقدير فاختلط بعض أنواع النبات بسائر الأنواع بسبب هذا الماء وذلك لأن عند نزول المطر يقوي النبات ويختلط بعضه بالبعض ويشتبك بعضه بالبعض ويصير في المنظر في غاية الحسن والزينة .

والثاني : فاختلط ذلك الماء بالنبات واختلط ذلك النبات بالماء حتى روى ورف رفيفاً .

وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الأرض ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منها بصفة صاحبه .

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) ﴾

لما بين تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل وسنعقد منه قياس الإنتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض ينتج إنتاجاً بديهياً أن المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض.

ومن المقتضى البديهي أن ما كان كذلك فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزناً فهذا برهان باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد ثم ذكر ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الأغنياء فقال: ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ وتقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة، لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيسة حقيرة وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة، لأن خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية والعقلية أشرف من الحسية بكثير بالدلائل المذكورة في تفسير قوله

تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] في بيان أن الإدراكات العقلية أفضل من الحسية وإذا كان كذلك كان مجموع السعادات العقلية والحسية هي السعادات الأخروية فوجب أن تكون أفضل من السعادات الحسية الدنيوية ، والله أعلم .

(215/472)

والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالاً قيل إنها قولنا : "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" وللشيخ الغزالي رحمه الله في تفسير هذه الكلمات وجه لطيف ، فقال : روي أن من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر مرات ، فإذا قال والحمد لله صارت عشرين ، فإذا قال : ولا إله إلا الله صارت ثلاثين ، فإذا قال والله أكبر صارت أربعين .

قال وتحقيق القول فيه أن أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق في معرفة الله وفي محبته فإذا قال سبحان الله فقد عرف كونه سبحانه منزهاً عن كل ما لا ينبغي فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فإذا قال مع ذلك والحمد لله فقد أقر بأن الحق سبحانه مع كونه منزهاً عن كل ما لا ينبغي فهو المبدأ لإفادة كل ما ينبغي ولإفاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة فلا جرم قلنا تضاعف الثواب فإذا قال مع ذلك ولا إله إلا الله

فقد أقر بأن الذي تنزه عن كل ما لا ينبغي فهو المبدأ لكل ما ينبغي وليس في الوجود موجود هكذا إلا الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فإذا قال والله أكبر معناه أنه أكبر وأعظم من أن يصل العقل إلى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة لا جرم صارت درجات الثواب أربعة .

والقول الثاني : أن الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس .

والقول الثالث : أنها الطيب من القول كما قال تعالى : ﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ [الحج : 24] .

والقول الرابع : أن كل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بمعرفة الله وبمحبته وخدمته فهو الباقيات الصالحات وكل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك وذلك أن كل ما سوى الحق سبحانه فهو فإن لذاته هالك لذاته فكان الاشتغال به والالتفات إليه عملاً باطلاً وسعياً ضائعاً .

(216/472)

أما الحق لذاته فهو الباقي لا يقبل الزوال لا جرم كان الاشتغال بمعرفة الله ومحبته وطاعته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولا يفنى ثم قال تعالى : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي

كل عمل أريد به وجه الله فلا شك أن ما يتعلق به من الثواب وما يتعلق به من الأمل يكون خيراً وأفضل ، لأن صاحب تلك الأعمال يؤمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 111.112 ﴾

(217/472)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الماء اختلط بالنبات حين استوى .

الثاني : أن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء حتى نما .

﴿ فأصبح هشيماً تذروهُ الرياحُ ﴾ يعني بامتناع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه ، والهشيم ما تفتت بعد اليبس من أوراق الشجر والزرع ، قال الشاعر :

فأصبحت نيّماً أجسادهم . . . يشبهها من رآها الهشيما

واختلف في المقصود بضرب هذا المثل على قولين :

أحدهما : أن الله تعالى ضربه مثلاً للدنيا ليدل به على زوالها بعد حسنها وابتهاجها :

الثاني : أن الله تعالى ضربه مثلاً لأحوال أهل الدنيا أن مع كل نعمة نقمة ومع كل فرحة ترحة .

قوله عز وجل : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ لأن في المال جمالاً ونفعاً وفي ﴿ البنين ﴾ قوة ودفعاً فصارا زينة الحياة الدنيا .

﴿ والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ فيها أربعة تأويلات :

أحدها : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير .

الثاني : أنها الأعمال الصالحة ، قاله ابن زيد .

الثالث : هي الكلام الطيب . وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، وقاله عطية العوفي .

الرابع : هو قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قاله عثمان بن عفان رضي الله عنه . وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هي الباقيات الصالحات

" . وفي ﴿ الصالحات ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها بمعنى الصالحين لأن الصالح هو فاعل الصلاح .

الثاني : أنها بمعنى النافعات فعبر عن المنفعة بالصلاح لأن المنفعة مصلحة . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لما عُرج بي إلى السماء أريت إبراهيم فقال : مر أمتك أن يكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة ، فقلت وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

" . ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ يعني في الآخرة ، ﴿ وخير أملاً ﴾ يعني عند نفسك في الدنيا ، ويكون معنى قوله ﴿ وخيرٌ أملاً ﴾ يعني أصدق أملاً ، لأن من الأمل كواذب وهذا أمل لا يكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(219/472)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

قوله ﴿ الحياة الدنيا ﴾ يريد حياة الإنسان بما يتعلق بها من نعم وترفه ، وقوله ﴿ كماء ﴾ يريد هي كماء ، وقوله ﴿ فاختلط به ﴾ أي فاختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء ، فالباء في ﴿ به ﴾ باء السبب ، فأصبح عبارة عن صيرورته إلى ذلك ، لا أنه أراد

اختصاصاً بوقت الصباح، وهذا كقول الشاعر الربيع بن ضبع: [المنسرح]

أصبحت لا أحمل السلاح ولا . . . أملك رأس البعير إن نفرا

(220/472)

و "الهشيم" المتفتت من يابس العشب، ومنه قوله تعالى ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ [القمر: 31] ومنه هشم الثريد، و﴿ تذروه ﴾، بمعنى تفرقه، وقرأ ابن عباس: "تذريه"، والمعنى: تقلعه وترمي به، وقرأ الحسن "تذروه الريح" بالإفراد، وهي قراءة طلحة والنخعي والأعمش وقوله: ﴿ وكان الله ﴾ عبارة للإنسان عن أن الأمر قبل وجود الإنسان هكذا كان، إذ نفسه حاكمة بذلك في حال عقله، هذا قول سيبويه، وهو معنى صحيح وقال الحسن ﴿ كان ﴾: إخبار عن الحال قبل إيجاد الموجودات، أي إن القدرة كانت، وهذا أيضاً حسن، فمعنى هذا التأويل تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وزهوه وبطره بالنبات الذي خضرة ونضرة عن المطر النازل، ثم يعود بعد ذلك ﴿ هشيماً ﴾ ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح، يبقى في الآخرة فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء والخضرة، والنضارة بمنزلة النعيم والعزة، ونحوه. وقوله ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ لفظ الخبر، لكن معه قرينة الضعة للمال والبنين لأنه في المثل، قبل حقر أمر الدنيا

وبنيه ، فكأنه يقول في هذه : إنما المال والبنون زينة هذه الحياة المحقرة ، فلا تتبعوها نفوسكم ، وقوله ﴿ زينة ﴾ مصدر ، وقد أخبر به عن أشخاص فإما أن يكون على تقدير محذوف ، وتقديره مقر زينة الحياة الدنيا ، وما أن نضع المال والبنين بمنزلة الغنى والكثرة ، واختلف الناس في ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل : هي الصلوات الخمس وقال الجمهور هي الكلمات المأثور فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، روي في هذا حديث : " أكثروا من الباقيات الصالحات " ، وقاله أيضاً ابن عباس ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق أبي هريرة وغيره أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات ، وقال ابن عباس أيضاً ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ : كل

(221/472)

عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة ورجحه الطبري ، وقال ابن عباس بكل الأقوال دليل على قوله بالعموم ، وقوله ﴿ خير ثواباً وخير أملاً ﴾ صاحبها ينتظر الثواب وينبسط على خير من حال ذي المال والبنين دون عمل صالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا ﴾

أي : في سرعة نفادها وذهابها ، وقيل : في تصرُّف أحوالها ، إذ مع كلِّ فرحة تَرْحة ، وهذا مفسر في سورة [يونس : 24] إلى قوله : ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ .

قال الفراء : الهشيم : كل شيء كان رطباً فيبس .

وقال الزجاج : الهشيم : النبات الجافّ .

وقال ابن قتيبة : الهشيم من النبت : المتفتّت ، وأصله من هشمتُ الشيء : إذا كسرتَه ، ومنه سمّي الرجل هاشماً .

و ﴿ تذروه الرياح ﴾ تنسفه .

وقرأ أُبيّ ، وابن عباس ، وابن أبي عبلة : "تُذْرِيْهِ" برفع التاء وكسر الراء بعدها ياء ساكنة وهاء مكسورة .

وقرأ ابن مسعود كذلك ، إلا أنه فتح التاء .

والمقْتَدِر : مُفْتَعِل ، من قَدَرْتُ .

قال المفسرون ﴿ وكان الله على كل شيء ﴾ من الإِنشاء والإِفناء ﴿ مقتدراً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ المالُ والبنونَ زينة الحياة الدنيا ﴾

هذا ردٌّ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد ، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتزيَّن به في الدنيا ، [لا] مما ينفع في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ فيها خمسة أقوال .

أحدها : أنها "سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إِله إِلا الله ، والله أكبر" ؛ روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إِن عجزتم عن الليل أن تكابدوه ، وعن العدوِّ أن تجاهدوه ، فلا تعجِزوا عن قول : "سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إِله إِلا الله ، والله أكبر ، فقولوها ، فإِنَّهن الباقيات الصالحات" " ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك .

وسئل عثمان بن عفان رضي الله عنه عن الباقيات الصالحات ، فقال هذه الكلمات ، وزاد فيها : "ولا حول ولا قوّة إِلا بالله" .

وقال سعيد بن المسيب ، ومحمد بن كعب القرظي مثله سواء .

(223/472)

والثاني : "أنها لا إِله إِلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، ولا قوة إِلا بالله" ، رواه علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثالث : أنها الصلوات الخمس ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم .

والرابع : الكلام الطيِّب ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والخامس : هي جميع أعمال الحسنات ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ خير عند ربِّك ثواباً ﴾ أي : أفضل جزاءً ﴿ وخير أملاً ﴾ أي : خير مما تؤمِّلون ، لأن آمالكم كواذب ، وهذا أمل لا يكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(224/472)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا ﴾

أي صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَلَ الحياة الدنيا ، أي شبهها .

﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ ﴾ أي بالماء .

﴿ نَبَاتُ الأرض ﴾ حتى استوى .

وقيل : إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء ؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر .

وقد تقدّم هذا المعنى في "يونس" مبيَّناً .

وقالت الحكماء : إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع ، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها ، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْبِتاً ، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً ، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ .

وفي حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : قال له رجل : يا رسول الله ، إني أريد أن أكون من الفائزين ؛ قال : " ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفي والكثير منها يُطغي " .

وفي صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه " .

﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أي النبات ﴿ هَشِيماً ﴾ أي متكسّراً من اليُبس متفتّتاً ، يعني بانقطاع

الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه .

والهَشْم : كسر الشيء اليابس .

والهشيم من النبات اليابس المتكسر ، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء .

ومنه قولهم : ما فلانٌ إلا هشِيمةُ كَرْمٍ ؛ إذا كان سَمْحا .

ورجل هَشِيم : ضعيف البدن .

وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف .

واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه .

ويقال : هَشَمَ الثَّرِيد ؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو ، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبعْرَى :

(225/472)

عَمْرُو العُلاَ هَشَمَ الثريدَ لقومه . . .

ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عجافُ

وكان سبب ذلك أن قريشاً أصابتهم سِنونَ ذهبْن بالأموال فخرج هاشم إلى الشأم فأمر بخبز كثير فخبز له ، فحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة ، وهشم ذلك الخبز ، يعني

كسره وثَردَه ، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا ، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة ؛ فكان ذلك أول الحِباء بعد السنة التي أصابتهم ؛ فسمِّيَ بذلك هاشماً .

﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ أي تفرقه ؛ قاله أبو عبيدة .

ابن قتيبة : تنسفه .

ابن كَيْسان : تذهب به وتجيء .

ابن عباس : تديره ؛ والمعنى متقارب .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "تذريه الريح" .

قال الكسائي : وفي قراءة عبد الله "تُذريه" .

يقال : ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْوًا و (تَذرِيه) ذَرْيا وأذرته تُذْريه إذْراء إذا طارت به .

وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته .

وأنشد سيبويه والفراء :

فقلت له صَوِّبْ ولا تَجهدَنَّهُ . . .

فَيُذْرِكَ من أُخْرَى القَطاةِ فَتَزْلَقِ

قوله تعالى : ﴿ وكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء ، سبحانه !

قوله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾

ويجوز "زينتا" وهو خبر الابتداء في التثنية والإفراد .

وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً ، وفي البنين قوّة ودفعاً ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، لكن معه قرينة الصفة للمال والبنين ؛ لأن المعنى : المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة فلا تُتبعوها نفوسكم .

وهو رَدٌّ على عُيينة بن حِصْن وأمثاله لما افتخروا بالغنى والشرف ، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، كالهشيم حين ذرته الريح ؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة .

(226/472)

وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المال لأنه فَيْءٌ ذاهب ، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك ، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك .

ويكفي في هذا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : 15] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ [التغابن : 14] .

قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي ما يأتي به سلْمان وصُهيب وفقراء المسلمين من الطاعات ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ أي أفضل ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي أفضل أملا من

ذي المال والبنين دون عمل صالح ، وليس في زينة الدنيا خير ، ولكنه خرج مخرج قوله ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان : 24] .

وقيل : خير في التحقيق مما يظنّه الجهال أنه خير في ظنّهم .

واختلف العلماء في "الباقيات الصالحات" ؛ فقال ابن عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة وعمرو بن شُرَحْبِيل : هي الصلوات الخمس .

وعن ابن عباس أيضاً : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة .

وقاله ابن زيد ورجّحه الطبري .

وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا .

وقال عليّ رضي الله عنه : الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون ؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام .

وقال الجمهور : هي الكلمات المأثور فضلها : سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم .

خرّجه مالك في موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيِّب أنه سمعه يقول في الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

أسنده النَّسائيّ عن أبي سعيد الخُدْريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " استكثروا من الباقيات الصالحات قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : المسألة : وقيل ما هي يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوّة إلا بالله " صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله .

وروى قتادة :

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْناً فخرطه حتى سقط ورقه وقال : إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات " ذكره الثعلبي ، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال : " إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة " قال : هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس ، إلا أنه قد رآه ونظر إليه .

وخرج الترمذي أيضاً عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَقِيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسْرِيَ بي فقال يا محمد أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غِراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " قال : حديث حسن غريب ، خرّجه الماوردي بمعناه .

وفيه فقلت : وما غراس الجنة ؟ قال : " لا حول ولا قوة إلا بالله " وخرّج ابن ماجه " عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يَغرس غَرْساً فقال : يا أبا هريرة ما الذي تغرس قلت غِراساً .

(228/472)

قال ألا أدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة " وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهمّات ؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع ؛ قاله الحسن .

وقال عُبيد بن عُمير : هن البنات ؛ يدل عليه أوائل الآية ؛ قال الله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ ثم قال "والباقيات الصالحات" يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثواباً ، وخير أملاً في الآخرة لمن أحسن إليهن .

يدّل عليه ما روته عائشة رضي الله عنها قالت : دخلتْ عليّ امرأة مسكينة . . . الحديث ، وقد ذكرناه في سورة النحل في قوله ﴿ يتوارى مِنَ القوم ﴾ [النحل : 59] الآية .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لقد رأيت رجلاً من أمتي أمِر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربِّ إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن " .

وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ قال : أبدلهما منه ابنة فتزوجها نبيّ فولدت له اثني عشر غلاماً كلهم أنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(229/472)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

الهشيم اليابس قاله الفرّاء واحده هشيمة .

وقال الزجّاج وابن قتيبة : كل شيء كان رطباً ويبس ، ومنه كهشيم المحتظر وهشيم الثريد ، وأصل الهشيم المتفتت من يابس العشب .

ذرى وأذرى لغتان فرّق قاله أبو عبيدة .

وقال ابن كيسان : تذروه تجيء به وتذهب .

وقال الأخفش : ترفعه .

غادر ترك من الغدر ، ومنه ترك الوفاء ، ومنه الغدير ، وهو ما تركه السيل .

الصف الشخص بإزاء الآخر إلى نهايتهم وقوفاً أو جلوساً أو على غيرهاتين الحالتين طولاً أو تحليقاً يقال منه : صف يصف والجمع صفوف .

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

لما بين تعالى في المثل الأول حال الكافر والمؤمن وما آل إليه ما افتخر به الكافر من الهلاك ، بيّن في هذا المثل حال ﴿ الحياة الدنيا ﴾ واضمحلالها ومصير ما فيها من النعيم والترفه

إلى الهلاك و﴿ كماء ﴾ قدره ابن عطية خبر مبتدأ محذوف ، أي هي أي ﴿ الحياة الدنيا كماء ﴾ .

(230/472)

وقال الحوفي : الكاف متعلقة بمعنى المصدر أي ضرباً ﴿ كماء أنزلناه ﴾ وأقول إن ﴿ كماء ﴾ في موضع المفعول الثاني لقوله ﴿ واضرب ﴾ أي وصيِّر ﴿ لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ أي صفتها شبه ماء وتقدم الكلام على تفسير نظير هذه الجمل في قوله ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴾ في يونس ﴿ فأصبح ﴾ أي صار ولا يراد تقييد الخبر بالصباح فهو كقوله :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا . . .

أملك رأس البعير إن نفرا

وقيل : هي دالة على التقييد بالصباح لأن الآفات السماوية أكثر ما تطرق ليلاً فهي كقوله ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ وقرأ ابن مسعود : تذريه من أذرى رباعياً .

وقرأ زيد بن عليّ والحسن والنخعي والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وابن محيصن وخلف وابن عيسى وابن جرير : الريح على الإفراد .

والجمهور ﴿ تذروه الرياح ﴾ .

ولما ذكر تعالى قدرته الباهرة في صيرورة ما كان في غاية النضرة والبهجة إلى حالة التفتت والتلاشي إلى أن فرقته الرياح ولعبت به ذاهبة وجائية ، أخبر تعالى عن اقتداره على كل شيء من الإنشاء والإفناء وغيرهما مما تتعلق به قدرته تعالى .

ولما حقر تعالى حال الدنيا بما ضربه من ذلك المثل ذكر أن ما افتخر به عيينه وأضرابه من المال والبنين إنما ذلك ﴿ زينة ﴾ هذه ﴿ الحياة الدنيا ﴾ المحقرة ، وإن مصير ذلك إنما هو إلى النفاد ، فينبغي أن لا يكترث به ، وأخبر تعالى بزينة المال والبنين على تقدير حذف مضاف أي مقر ﴿ زينة ﴾ أو وضع المال والبنين منزلة المعنى والكثرة ، فأخبر عن ذلك بقوله ﴿ زينة ﴾ ولما ذكر مآل ما في الحياة الدنيا إلى الفناء اندرج فيه هذا الجزئي من كون المال والبنين زينة ، وأنتج .

(231/472)

أن زينة الحياة الدنيا فإن إذ ذاك فرد من أفراد ما في الحياة الدنيا ، وترتيب هذا الإنتاج أن يقال ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ وكل ما كان ﴿ زينة الحياة الدنيا ﴾ فهو سريع الانقضاء فالمال والبنون سريع الانقضاء ، ومن بديهة العقل أن ما كان كذلك بقبح بالعاقل أن

يفتخر به أو يفرح بسببه ، وهذا برهان على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال الجمهور هي الكلمات المأثور فضلها سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .

وقال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل هي الصلوات الخمس .

وعن ابن عباس أنه كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة ، ورجحه الطبري وقول الجمهور مروي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من طريق أبي هريرة وغيره .

وعن قتادة : كل ما أريد به وجه الله .

وعن الحسن وابن عطاء : أنها النيات الصالحة فإنّ بها تتقبل الأعمال وترفع ، ومعنى ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ أنها دائمة باقية وخيرات الدنيا منقرضة فانية ، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي .

﴿ وخير أملاً ﴾ أي وخير رجاء لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة دون ذي المال والبنين العاري من الباقيات الصالحات فإنه لا يرجو ثواباً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا ﴾

يريد حياة الإنسان ، كما أنزلناه من السماء ﴿ فاختلط بِهِ ﴾ ، أي : فاختلط النبات بعضه ببعض بسبب النماءِ ، ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ أصبح عبارة عن صيرورته إلى ذلك ، و «الهَشِيم» المتفتّت من يابس العُشْب ، و ﴿ تَذْرُوهُ ﴾ بمعنى تفرّقه ، فمعنى هذا المَثَل تشبيهُ حالِ المَرْء في حياته ومالِهِ وعزّته وبَطَره ، بالنّبات الذي له خُضْرة ونَضْرة عن الماءِ النازل ، ثم يعودُ بعد ذلك هشيماً ، ويصير إلى عُدْم ، فمن كان له عَمَلٌ صالح يبقى في الآخرةِ ، فهو الفَائِزُ .

وقوله سبحانه : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ لفظه الخبر ، لكنْ معه قرينة الصّفة للمال والبنين ؛ لأنه في المَثَل قَبْلُ حَقَّر أمْرَ الدنيا وبيَّنه ؛ فكأنه يقول : المال والبنون زينةُ هذه الحياة الدنيا المحقَّرة ، فلا تُتْبِعُوهَا نُفُوسَكُمْ ، والجمهور أنَّ ﴿ الصالحات ﴾ . هي الكلماتُ المذكورُ فضْلُها في الأحاديث : " سُبْحَانِ اللَّهِ ، وَالحَمْدُ للَّهِ ، ولاَ إله إلاَّ اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ» ، وقد جاء ذلك مصرَّحاً به من لفظ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَهُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ " . وقوله سبحانه : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي : صاحبها ينتظرُ الثَّواب ، وينبسط أُمله ، فهو خَيْرٌ من حال ذي

المَالِ والبنينَ ، دون عَمَلٍ صالحٍ ، وعن أبي سعيد الخدريّ ؛ أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ : " اسْتَكْثِرُوا مِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ » قيلَ : وَمَا هُنَّ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قالَ : « التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ والتَّسْبِيحُ وَالحَمْدُ للهِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّه " رواه النسائيُّ وابنُ حِبَّان في «صحيحه» انتهى من «السلاح» .

(233/472)

وفي «صحيح مسلم» عن سَمُرة بن جُنْدُب ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : " أَحَبُّ الكَلاَمِ إلى اللَّهِ تَعَالى أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، والحَمْدُ للهِ ، ولا إله إلاَّ اللَّهُ ، واللَّهُ أَكْبَرُ لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ " ، وفي «صحيح مُسْلِم» ، عن أبي مالكٍ الأشعريّ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ والحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ ، وسُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ للَّهِ تَمْلآنِ أَو تَمْلأُ مَا بَيْنَ السموات والأَرْضِ . . . " الحديث انتهى .

قال ابن العربيّ في «أحكامه» : وروى مالكٌ عن سعيد بن المسيَّب ، أنَّ الباقيات الصالحات قولُ العبْدِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، وسبحانَ اللَّهِ ، والحمدُ للَّهِ ، ولا إله إلا اللَّه ، ولا حَوْلَ ولاَ قوَّةَ إلا باللَّه» وروي عن ابْنِ عباس وغيره ؛ أن الباقياتِ الصَّالحات الصَّلواتُ الخَمْس . انتهى .

* ت * : وما تقدَّم أولى ، ومن كلام الشيْخِ الوليِّ العارف أبي الحَسن الشَّاذِليِّ رضي اللَّه عنه قال : عليك بالمطهرّات الخمس في الأقوال ؛ والمطهِّرات الخمس في الأفعال ، والتبرِّي من الحول والقُّوة في جميع الأحوال ، وغُصْ بعقلك إلى المعاني القائمة بالقَلْب ، واخرج عنها وعنه إلى الرَّبّ واحفظِ اللَّه يحفظْك ، واحفظ اللَّه تجدْهُ أمامك واعبد اللَّه بها ، وكُنْ من الشاكرين ، فالمطهِّراتُ الخمس في الأقوالِ : سُبْحَانَ اللَّه ، والحمدُ للَّهِ ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّهُ أَكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه ، والمطهِّراتُ الخَمْسُ في الأفعال : الصلواتُ الخمْسُ ، والتبرِّي من الحول والقوة : هو قولُكَ : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللَّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(234/472)

وقال أبو السعود :

﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا ﴾

أي واذكر لهم ما يُشبهها في زَهْرتها ونَضارتها وسرعةِ زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكُفوا عليها ولا يَضربوا عن الآخرة صفحاً بالمرة ، أو بيِّنْ لهم صفتَها العجيبة التي هي في الغرابة كالمثَل ﴿ كَمَاء ﴾ استئنافٌ لبيان المثَل أي هي كماء ﴿ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ ويجوز

كونُه مفعولاً ثانياً لاضْربْ على أنه بمعنى صيّر ﴿ فاختلط بِهِ ﴾ اشتبك بسببه ﴿ نَبَاتُ الأرض ﴾ فالتفّ وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ، أو نجَع الماءُ في النبات حتى رويَ ورفّ ، فمقتضى الظاهرِ حينئذ فاختلط بنبات الأرض ، وإيثارُ ما عليه النظمُ الكريمُ عليه للمبالغة في الكثرة فإن كلاًّ من المختلِطَين موصوفٌ بصفة صاحبه ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ ذلك النباتُ الملتفُّ إثرَ بهجتها ورفيفِها ﴿ هَشِيمًا ﴾ مهشوماً مكسوراً ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ تفرّقه ، وقرىء تُذْريه من أذراه وتذروه الريحُ ، وليس المشبَّهُ به نفسَ الماء بل هو الهيئةُ المنتزَعةُ من الجملة ، وهي حالُ النبات المُنبَتِ بالماء ، يكون أخضرَ وارفاً ثم هشيماً تطيّره الرياحُ كأن لم يغْنَ بالأمس ﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاءُ والإفناءُ ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ قادراً على الكمال .

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)

(235/472)

﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ بيانٌ لشأن ما كانوا يفتخِرون به من محسّنات الحياة الدنيا ، كما قال الأخُ الكافرُ : أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفراً إثرَ بيانِ شأن نفسها بما مر من

المثَل . وتقديمُ المال على البنين مع كونهم أعزَّ منه كما في الآية المحكية آنفاً وقولِه تعالى : ﴿ وأمددناكم بأموال وَبَنِينَ ﴾ وغيرِ ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمدادِ وغيرِ ذلك وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات ، فإنه زينةٌ ومُمِدٌّ لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين ، وأما البنون فزينتُهم وإمدادُهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغَ الأبوّة ، ولأن المالَ مناطٌ لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ، ولأن الحاجةَ إليه أمسُّ من الحاجة إليهم ، ولأنه أقدرُ منهم في الوجود ، ولأنه زينةٌ بدونهم من غير عكس فإن من له بنونَ بلا مال فهو في ضيقِ حالٍ ونكال . وإفرادُ الزينة مع أنها مسنَدةٌ إلى الإثنين لما أنها مصدرٌ في الأصل أطلق على المفعول مبالغةً كأنهما نفسُ الزينة ، والمعنى أن ما يفتخرون به من المال والبنين شيءٌ يُتزيّن به في الحياة الدنيا وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوالِ وقُربِ الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التي شأنُها أن تزول قبل زوالِها . ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ هي أعمالُ الخير ، وقيل : هي الصلواتُ الخمسُ ، وقيل : سبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبرُ ، وقيل : كلُّ ما أريد به وجهُ الله تعالى ، وعلى كل تقدير يدخُل فيها أعمالُ فقراءِ المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهَه دخولاً أولياً ، أما صلاحُها فظاهرٌ وأما بقاءُ عوائدِها عند فناءِ كلِّ ما تطمح إليه النفسُ من حظوظ الدنيا ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي مما نُعت شأنُه من المال والبنين ، وإخراجُ بقاءِ تلك الأعمالِ وصلاحِها مُخرجَ الصفات المفروغِ عنها مع أن حقَّهما أن يكونا مقصودَي الإفادةِ لا سيما في

مقابلة إثباتِ الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ للإيذان بأن بقاءَها أمرٌ محقّقٌ لا حاجة إلى بيانه بل لفظُ الباقياتِ اسمٌ لها وصفٌ ، ولذلك لم يُذكر الموصوفُ وإنما الذي يُحتاج إلى التعرض له خيريتُها ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي في الآخرة وهو بيانٌ لما يظهر فيه آثارُ خيريّتها بمنزلة إضافة الزينةِ إلى الحياة الدنيا لا لأفضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكلِّ في الأصل إذ لا مشاركةَ لهما في الخيرية في الآخرة ﴿ ثَوَاباً ﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ حيث ينال بها صاحبُها في الآخرة كلَّ ما كان يؤمله في الدنيا ، وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أملٌ يناله ، وتكريرُ خيرٌ للإشعار باختلاف حيثيَّتي الخيرية والمبالغةِ فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

أي اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يغتروا بها ولا يضربوا عن الآخرة صفحاً بالمرة أو اذكر لهم صفتها العجيبة التي هي في الغرابة كالمثل وبينها لهم .

﴿ كَمَاء ﴾ استئناف لبيان المثل أي هي كماء ﴿ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ وجوزوا أن يكون مفعولاً ثانياً لأضرب على أنه بمعنى صير .

وتعقب بأن الكاف تنبو عنه إلا أن تكون مقحمة .

ورد بأنه مما لا وجه لأن المعنى صير المثل هذا اللفظ فالمثل بمعنى الكلام الواقع فيه التمثيل .

وقال الحوفي : الكاف متعلقة بمحذوف صفة لمصدر محذوف أي ضرباً كماء وليس بشيء .

﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ أي فاشتبك وخالط بعضه بعضاً لكثرته وتكاثفه بسبب كثرية سقي الماء إياه أو المراد فدخل الماء في النبات حتى روى ورف ، وكان الظاهر في هذا المعنى افختلط بنبات الأرض لأن المعروف في عرف اللغة والاستعمال دخول الباء على الكثير الغير الطارىء وإن صدق بحسب الوضع على كل من التداخلين أنه مختلط ومختلط به إلا أنه اختير ما في النظم الكريم للمبالغة في كثرة الماء حتى كأنه الأصل الكثير ففي الكلام قلب مقبول ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ ذلك النبات الملتف إثر بهجته ونضارته ﴿

هَشِيمًا ﴾ أي يابساً متفتتاً ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وقيل جمع هشيم وأصبح بمعنى صار فلا يفيد تقييد الخبر بالصباح كما في قوله :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا . . .

أملك رأس البعير إن نفراً

وقيل هي على ظاهرها مفيدة لتقييد الخبر بذلك لأن الآفات السماوية أكثر ما تطرق ليلاً .

(238/472)

وتعقب بأنه ليس في الآية ما يدل على أن اتصافه بكونه هشيماً لآفة سماوية بل المراد بيان ما يؤول إليه بعد النضارة من اليبس والتفتت كقوله تعالى : ﴿ والذى أَخْرَجَ المرعى فَجَعَلَهُ غُثَاء أحوى ﴾ [الأعلى : 4 ، 5] ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ أي تفرقه كما قال أبو عبيدة ، وقال الأخفش : ترفعه ، وقال ابن كيسان : تجيء به وتذهب ، وقرأ ابن مسعود ﴿ تذريه ﴾ من أذرى رباعياً وهو لغة في ذري .

وقرأ زيد بن علي .

والحسن .

والنخعي .

والأعمش .

وطلحة .

وابن أبي ليلى .

وابن محيصن .

وخلف .

وابن عيسى وابن جرير ﴿ تَذْرُوهُ الرِيح ﴾ بالافراد ، وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر مهتزاً ثم يصير يابساً تطيره الرياح حتى كأنه لم يكن ، وعبر بالفاء في الآية للإشعار بسرعة زواله وصيرورته بتلك الصفة فليست فصيحية ، وقيل هي فصيحية والتقدير فزها ومكث مدة فأصبح هشيماً ﴿ وَكَانَ الله على كُلّ شَىْء ﴾ من الأشياء التي من جملتها الانشاء والافناء ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ كامل القدرة .

﴿ الْمَالُ والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾

بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما افتخر الأخ الكافر بما افتخر به من ذلك إثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل ، وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه عند أكثر الناس لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك .

وعمومه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات فإنه زينة وممد لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وإمدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ الأبوة ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنون لبقاء النوع ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ولأنه أقدم منهم في الوجود ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بلا مال فهو في أضيق حال ونكال كذا في إرشاد العقل السليم ، والزينة مصدر وأطلق على ما يتزين به للمبالغة ولذلك أخبره به عن أمرين وإضافتها إلى الحياة الدنيا اختصاصية ، وجوز أن تكون على معنى في والمعنى أن ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة وقد علم شأنها في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فما الظن بما هو من أوصافها التي شأنها أن تزول قبل زوالها .

وذكر أن هذا إشارة إلى ما يرد افتخارهم بالمال والبنين كأنه قيل : المال والبنون زينة الحياة الدنيا وكل ما كان زينة الحياة الدنيا فهو سريع الزوال ينتج المال والبنون سريعاً الزوال ، أما الصغرى فبديهية وأما الكبرى فدليلها يعلم مما مر من بيان شأن نفس الحياة الدنيا ثم يقال : المال والبنون سريعاً الزوال وكل ما كان سريع الزوال يقبح بالعاقل أن يفتخر به ينتج المال والبنون يقبح بالعاقل أن يفتخر بهما وكلتا المتقدمين لا خفاء فيها .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أخرج سعيد بن منصور .

وأحمد .

وأبو يعلى .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم وابن مردويه .

والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله " وأخرج الطبراني .

وابن شاهين في "الترغيب" .

(240/472)

وابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله هن الباقيات الصالحات وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهن من كنوز الجنة " وجاء تفسيرها بما ذكر في غير ذلك من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي شيبة عن ابن عباس تفسيرها بما ذكر أيضاً لكن بدون الذكر الأخير .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن المنذر في رواية أخرى عنه تفسيرها بالصلوات الخمس ، وأخرج ابن مردويه وابن المنذر .

وابن أبي حاتم في رواية أخرى عنه أيضاً تفسيرها بجميع أعمال الحسنات ، وفي معناه ما أخرجه ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن قتادة أنها كل ما أريد به وجه الله تعالى ، وعن الحسن .

وابن عطاى أنها النيات الصالحة ؛ واختار الطبري .

وغيهر ما في الرواية الأخيرة عن ابن عباس ويندرج فيها ما جاء في ما ذكر من الروايات وغيرها .

(241/472)

وادعى الخفاجي أن كل ما ذكر في تفسيرها غير العام ذكر على طريق التمثيل ، ويبعد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم وهن الباقيات المفيد للحصر بعد التنصيص على ما لا عموم فيه فتأمل ، وأياً ما كان فالباقيات صفة لمقدر كالكلمات أو الأعمال وإسناد الباقيات إلى ذلك مجاز أي الباقي ثمرتها وثوابها بقرينة ما بعد فهي صفة جرت على غير ما هي له بحسب الأصل أو هناك مقدر مرفوع بالوصف مضاف إلى ضمير الموصوف استتر الضمير المجرور

وارتفع بعد حذفه وكذا تدخل أعمال فقراء المؤمنين الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه دخولاً أولياً فإن لهم من كل نوع من أنواع الخيرات الحظ الأوفر ، والكلام متضمن للتنويه بشأنهم وحط قدر شانئهم فكأنه قيل ما افتخر به أولئك الكفرة من المال والبنين سريع الزوال لا ينبغي أن يفتخر به وما جاء به أولئك المؤمنين ﴿ خَيْرٌ ﴾ من ذلك ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي في الآخرة ، وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة إضافة الزينة إلى الحياة الدنيا لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركة الكل في الأصل إذ لا مشاركة لهما في الخيرية في الآخرة ، وقيل : معنى عند ربك في حكمه سبحانه وتعالى : ﴿ ثَوَاباً ﴾ جزاء وأجراً ، وقيل : نفعاً .

﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة ما يؤمله بها في الدنيا وأما المال والبنون فليس لصاحبهما ذلك ، وتكرير ﴿ خَيْرٌ ﴾ للمبالغة ، وقيل : لها وللإشعار باختلاف جهتي الخيرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(242/472)

وقال الشوكانى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا ﴾ أي : اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها ، وقد تقدّم هذا المثل في سورة يونس ، ثم بيّن سبحانه هذا المثل فقال : ﴿ كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثاني ﴿ لقوله ﴾ اضرب على جعله بمعنى : صير ﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ أي : اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى ؛ وقيل : المعنى إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء ، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر ، فتكون الباء في ﴿ به ﴾ سببية ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ النبات ﴿ هَشِيمًا ﴾ الهشيم : الكسير ، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ، ورجل هشيم : ضعيف البدن ، وتهشم عليه فلان : إذا تعطف .

واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده ، ومنه قول ابن الزبعري :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه . . . ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ تفرقه .

قال أبو عبيدة وابن قتيبة : تذروه : تنسفه .

وقال ابن كيسان : تذهب به وتجيء ، والمعنى متقارب .

وقرأ طلحة بن مصرّف (تذريه الريح) قال الكسائي : وفي قراءة عبد الله (تذريه) يقال : ذرته الريح تذروه ، وأذرته تذريه .

وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أي : قلبته ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي : على كل شيء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ هذا ردّ على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزين به في الدنيا لا مما ينفع في الآخرة ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : 15] .

وقال : ﴿ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوًّا لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ [التغابن : 14] .

ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي : أعمال الخير ، وهي ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي : أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثواباً ، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي أفضل أملاً ، يعني : أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين ، لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا ، وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرّج مخرج قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ [الفرقان : 24] .

والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث بما سيأتي لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال : ﴿ المال والبنون ﴾ حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

(244/472)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوّة إلا بالله " ، وأخرج الطبراني وابن

شاهين وابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ : " سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، هنّ الباقيات الصالحات " وأخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الصغير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً : " خذوا جِنَّتَكم ، قيل : يا رسول الله من أيّ عدوّ قد حضر ؟ قال : بل جِنَّتَكم من النار قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإنهنّ يأتين يوم القيامة مقدّمات معقبات ومجنبات ، وهي الباقيات الصالحات " وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، وابن مردويه عن النعمان بن بشير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا وإن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، الباقيات الصالحات " وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعاً ، وزاد التكبير وسماهنّ الباقيات الصالحات .

وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبي هريرة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعاً نحوه ، وزادت : " ولا حول ولا قوة إلا بالله " وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من حديث عليّ مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً فذكر نحوه دون الحوقلة .

وأخرج الطبراني عن سعد بن جنادة مرفوعاً نحوه .

(245/472)

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه .

وكل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات ، وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة في ذكرها هنا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كل شيء من طاعة الله ، فهو من الباقيات الصالحات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(246/472)

وقال القاسمى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

أي : اذكر لهم ما تشبهه في زهرتها وسرعة زوالها : ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أي : فالتف بسببه وتكاثف ، حتى خالط بعضه بعضاً ، فشب وحسن

وعلاه الزهر والنور والنضرة : ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أي : بعد ذلك الزهو : ﴿ هَشِيماً ﴾ أي : جافاً يابساً مكسوراً : ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أي : تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذي حصل للنبات من شرف النمو . ثم يزولون زوال النبات : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾ أي : على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المُثُل وأبدعها ، ضرب كثيراً في التنزيل ، كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ [يونس : 24] . وفي الزمر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ [الزمر : 21] الآية . وفي الحديد : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد : 20] الآية . ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

وذلك لإعانتهما فيها ، ووجود الشرف بهما ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروي ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي : والأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الرباني والنعيم الأبدي ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

1 – تقديم المال على البنين لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمسّ . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

2 – إفراد الزينة مع أنها مسندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر في الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية ، لأن زينتها مختصة بها .

3 – إخراج بقاء الأعمال وصلاحها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودي الإفادة ، لا سيما في مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] ، للإيذان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة إلى بيانه . بل لفظ الباقيات اسم لها لا وصف . ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما

الذي يحتاج إلى التعرض له خيريّتها .

4 - تكرير خير للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة . كذا يستفاد من أبي السعود ، مع زيادة .

(248/472)

---

5 - وقع في كلام السلف تفسير الباقيات الصالحات بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق وقوله " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " والكلام الطيب ، وبغيرهما ، مما روي مرفوعا وموقوفا . والمرفوع من ذلك كله لم يخرّج في الصحيحين . وكله على طريق التمثيل . وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 42.41 ﴾

(249/472)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها ، والغرور الذي غر طغاة أهل الشرك وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد والبعث كما قال تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ﴾ [المزمل : 11] ، وقال : ﴿ أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ [القلم : 14 15] .

وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

وما كان أحد الرجلين اللذين تقدمت قصتهما إلا واحداً من المشركين إذ قال : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ [الكهف : 36] .

فأمر الله رسوله بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها .

والحياة الدنيا : تطلق على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض وبقاء الأرض على حالتها .

فإطلاق اسم الحياة الدنيا ﴾ على تلك المدة لأنها مدة الحياة الناقصة غير الأبدية لأنها مقدر زوالها ، فهي دُنيا .

وتطلق الحياة الدنيا على مدة حياة الأفراد ، أي حياة كل أحد .

ووصفُها بـ (الدنيا) بمعنى القريبة ، أي الحاضرة غير المنتظرة ، كنى عن الحضور بالقرب ، والوصف للاحتراز عن الحياة الآخرة وهي الحياة بعد الموت .

والكاف في قوله : ﴿ كماء ﴾ في محل الحال من (الحياة) المضاف إليه (مثل) .

أي اضرب لهم مثلاً لها حال أنها كماء أنزلناه .

وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها ، فهما مرادان منه .

وضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى المشركين كما دل عليه تناسق ضمائر الجمع الآتية في قوله :

﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم وعرضوا بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾ [الكهف : 47 48] .

واختلاط النبات : وفرته والتفاف بعضه ببعض من قوة الخِصب والازدهار .

(250/472)

والباء في قوله : (به) باء السببية .

والضمير عائد إلى (ماءٍ) أي فاختلط النبات بسبب الماء ، أي اختلط بعض النبات ببعض .

وليست البَاء لتعدية فعل اختلط ﴾ إلى المفعول لعدم وضوح المعنى عليه ، وفي ذكر الأرض بعد ذكر السماء محسن الطباق .

و(أصبح) مستعملة بمعنى صار ، وهو استعمال شائع .

والهشيم : اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول ، أي مَهْشوماً محطماً .

والهَشْم : الكسر والتفتيت .

و﴿ تذروه الرياح ﴾ أي تفرقه في الهواء .

والذرو : الرمي في الهواء .

شبهت حالة هذا العالم بما فيه بحالة الروضة تبقى زماناً بَهِجة خَضِرة ثم يصير نبتُها بعد حين إلى اضمحلال .

ووجه الشبه : المصير من حال حسن إلى حال سَيّء .

وهذا تشبيه معقول بمحسوس لأن الحالة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر تَقلص بهجة الحياة ، وأيضاً شبهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجِدة وزخرف العيش لأهله ، ثم تَقلصُ ذلك وزوال نفعه ثم انقراضُه أشتاتاً بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأتِه عنه ونضارتِه ووفرتِه ثم أخذِه في الانتقاص وانعدام التمتع به ثم تطَايره أشتاتاً في الهواء ، تشبيهاً لمركب محسوس بمركب محسوس ووجه الشبه كما علمت .

وجملة ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ جملة معترضة في آخر الكلام .

موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها ، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها ، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء ، وذلك اقتدار عجيب .

وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله : ﴿ على كل شيء ﴾ وهو بذلك

العموم أشبه التذييل .

والمقتدر : القوي القدرة .

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(251/472)

اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأن ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنها إلى زوال ، كقوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ [آل عمران : 196] وأن ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملاً .

والاغتباط بالمال والبنين شنشنة معروفة في العرب ، قال طرفة :

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم

ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد . . .

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي

بنون كرام سادة لمسوّد . . .

ووالباقيات الصالحات ﴾ صفتان جرتا على موصوف محذوف ، أي الأعمال الصالحات

الباقيات ، أي التي لا زوال لها ، أي لا زوال لخيرها ، وهو ثوابها الخالد ، فهي خيرٌ من زينة الحياة الدنيا التي هي غير باقية .

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفين أن يقدم ﴿ الصالحات ﴾ على ﴿ والباقيات ﴾ لأنهما وإن كانا وصفين لموصوف محذوف إلا أن أعرفهما في وصفية ذلك المحذوف هو الصالحات ، لأنه قد شاع أن يقال : الأعمال الصالحات ولا يقال الأعمال الباقيات ، ولأن بقاءها مترتب على صلاحها ، فلا جرم أن الصالحات وصف قام مقام الموصوف وأغنى عنه كثيراً في الكلام حتى صار لفظ (الصالحات) بمنزلة الاسم الدال على عمل خير ، وذلك كثير في القرآن قال تعالى : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ [الكهف : 107] ، وفي كلامهم قال جرير :

كيف الهجاء وما تنفك صالحةٌ . . .

من آل لأم بِظَهر الغيب تأتيني

(252/472)

ولكن خولف مقتضى الظاهر هنا ، فقدم (الباقيات) للتنبيه على أن ما ذكر قبله إنما كان مفصولاً لأنه ليس بباقٍ ، وهو المال والبنون ، كقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة

إلا متاع ﴾ [الرعد : 26] ، فكان هذا التقديم قاضياً لحق الإيجاز لإغنائه عن كلام محذوف ، تقديره : أن ذلك زائل أو ما هو بباق والباقيات من الصالحات خير منه ، فكان قوله : ﴿ فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾ [الكهف : 45] مفيداً للزوال بطريقة التمثيل وهو من دلالة التضمن ، وكان قوله : والباقيات ﴾ مفيداً زوال غيرها بطريقة الالتزام ، فحصل دلالتان غير مطابقتين وهما أوقع في صناعة البلاغة ، وحصل بثانيتهما تأكيد لمفاد الأولى فجاء كلاماً مؤكداً موجزاً .

ونظير هذه الآية آية سورة مريم قوله : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً ﴾ [مريم : 76] فإنه وقع إثر قوله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾ [مريم : 73 74] الآية .

وتقديم المال على البنين في الذكر لأنه أسبق خطوراً لأذهان الناس ، لأنه يرغَب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه ولذلك أيضاً قدم في بيت طرفة المذكور آنفاً .

ومعنى وخير أملاً ﴾ أن أمل الآمل في المال والبنين إنما يأمل حصول أمر مشكوك في حصوله ومقصور على مدته .

وأما الآمل لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد ، ويأمل

شيئاً تحصل منه منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] .

فلا جرم كان قوله : وخير أملاً ﴾ بالتحقق والعموم تذييلاً لما قبله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(253/472)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، وأن الباقيات الصالحات خير عند الله ثواباً وخير أملاً .

(254/472)

والمراد من الآية الكريمة – تنبيه الناس للعمل الصالح . لئلا يشتغلوا بزينة الحياة الدنيا من المال والبنين عما ينفعهم في الآخرة عند الله من الأعمال الباقيات الصالحات . وهذا المعنى الذي ار له هنا جاء مبيناً في آيات أخر . كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذلكم لِلَّذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [آل عمران : 14-15] الآية ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [المنافقون : 9] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : 15] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [سبأ : 37] الآية ، وقوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 88-89] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإنسان لا ينبغي له الاشتغال بزينة الحياة الدنيا عما ينفعه في آخرته .

وأقوال العلماء في الباقيات الصالحات كلها راجعة إلى شيء واحد ، وهو الأعمال التي ترضي الله ، سواء قبنا : إنها الصولات الخمس ، كما هو مروي عن جماعة من السلف . منهم ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبو ميسرة ، وعمرو بن شرحبيل . أو أنها : سبحان

الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وعل هذا القول جمهور العلماء ، وجاءت دالة عليه احاديث مرفوعة عن

(255/472)

أبي سعيد الخدري ، وأبي الدرداء ، وأبي هريرة ، والنعمان بن بشير ، وعائشة رضي الله عنهم .

قال مقيده عفا الله عنه : التحقيق أن " الباقيات الصالحات " لفظ عام ، يشمل الصلوات الخمس ، والكلمات الخمس المذكورة ، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله تعالى : لأنها باقية لصاحبها غير زائلة . ولا فانية كزينة الحياة الدنيا ، وئلنها ايضاً صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله تعالى . وقوله ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ تقدم معناه . وقوله ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي الذي يؤمل من عواقب الباقيات الصالحات ، خير مما يؤمله أهل الدنيا من زينة حياتهم الدنيا وأصل الأمل : طمع الإنسان بحصول ما يرجوه في المستقبل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى في " مريم " : ﴿ وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [مريم : 76] والمرد : المرجع إلى الله يوم القيامة .

وقال بعض العلماء : " مرداً " مصدر ميمي ، اي وهير رداً للثواب على فاعلها ، فليست

كأعمال الكفار التي لا ترد ثواباً على صاحبها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(256/472)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يوضح المجهول لنا بما عُلِم لدينا . وأهل البلاغة يقولون : في هذه الآية تشبيه تمثيل ؛ لأنه سبحانه شبّه حال الدنيا في قِصَرها وسرعة زوالها بالماء الذي نزل من السماء ، فارتوتْ به الأرض ، وأنبتتْ ألواناً من الزروع والثمار ، ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيماً مُتفتتاً تذهب به الريح .

وهذه صورة كما يقولون منتزعة من مُتعدّد . أي : أن وجه الشبه فيها ليس شيئاً واحداً ، بل عِدّة أشياء ، فإن كان التشبيه مُركّباً من أشياء متعددة فهو مَثَل ، وإنْ كان تشبيه شيء مفرد بشيء مفرد يُسمُّونه مِثْل ، نقول : هذا مِثْل هذا ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ [النحل : 74] لأن لله تعالى المثل الأعلى .

وهكذا الدنيا تبدو جميلة مُزهِرة مُثمِرة حُلْوة نَضِرة ، وفجأة لا تجد في يديك منها شيئاً ؛

لذلك سماها القرآن دُنْيا وهو اسم يُوحي بالحقارة ، وإلا فأيّ وصف أقل من هذا يمكن أن يصفها به ؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : كما ضربتُ لهم مَثَل الرجلين وما آل إليه أمرهما اضرب لهم مثل الحياة الدنيا وأنها تتقلّب بأهلها ، وتتبدل بهم ، واضرب لهم مثلاً للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى ﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ [الكهف : 45] أي : اختلط بسببه نبات الأرض ، وتداخل بعضُه في بعض ، وتشابكتْ أغصانه وفروعه ، وهذه صورة النبات في الأرض الخِصْبة ، أما إنْ كانت الأرض مالحة غير خِصْبة فإنها تُخرِج النبات مفرداً ، عود هنا وعود هناك .

(257/472)

لكن ، هل ظل النبات على حال خُضْرته ونضارته ؟ لا ، بل سرعان ما جفَّ وتكسر وصار هشيماً تطيح به الريح وتذروه ، هذا مثلٌ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتتزيَّن ، كما قال تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً . . ﴾ [يونس : 24]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ [الكهف : 45] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشيء إلى ضِدّه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 18]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعزَّ وأذلَّ ، وقبض وبسط ، وضرَّ ونفع . .

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذي اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ .

تلك هي العناصر الأساسية في فتنة الناس في الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعزُّ أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام في المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرِم منها .

(258/472)

كما أن البنين لا تأتي إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكي يتناسل ويُنجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهي : ﴿ المال

والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا . . ﴾ [الكهف : 46] كلمة ﴿ زِينَةُ ﴾ أي : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضي بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقَى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كَدِراً مهموماً ؛ لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعِزّة ، وربما يُزَرق الولد ويرى الذُّلَّ على يديه ، وكم من المشاكل تُثار في البيوت ؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السَّلْب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : 49-50]

إذن : فالعُقْم في ذاته نعمة وهِبَة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لَعوَّضه الله عن عُقْمه بأنْ يجعل كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أبٌ لهم ، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء دون أن يتعب في تربية أحد ، أو يحمل هَمَّ أحد .

وكذلك ، الذي يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذي قال الله فيه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : 58]

إنه يريد الولد ليكون عِزْوة وعِزّة . ونسى أن عزة المؤمن بالله لا بغيره ، ونقول : والله لو استقبلت البنت بالفرح والرضا على أنها هِبَة من الله لكانتْ سبباً في أن يأتي لها زوج أبرّ بك من ولدك ، ثم قد تأتي هي لك بالولد الذي يكون أعزّ عندك من ولدك .

إذن : المال والبنون من زينة الحياة وزخرفها ، وليسا من الضروريات ، وقد حدد لنا النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا ، فقال : " من أصبح مُعَافىً في بدنه ، آمناً في سِرْبه أي : لا يهدد أمنه أحد وعنده قوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها "

فما زاد عن ذلك فهو من الزينة ، فالإنسان إذن يستطيع أن يعيش دون مال أو ولد ، يعيش بقيم تعطي له الخير ، ورضاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46]

لأن المال والبنين لن يدخلا معك القبر ، ولن يمنعاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات . والنبي صلى الله عليه وسلم حينما أُهديَتْ إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف ؛ لأنه لَحْم رقيق خفيف ؛

لذلك احتفظتْ لرسول الله بالكتف وتصدّقت بالباقي ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم قال : " ماذا صنعتِ في الشاة " ؟ قالت : ذهبتْ كلها إلا كتفها ، فضحك صلى الله عليه وسلم وقال : " بل بقيت كلها إلا كتفها " .

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم : " هل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبسْتَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ " .

وهذا معنى : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ . . ﴾ [الكهف : 46]

(260/472)

والسؤال الذي يتبادر إلى الذِّهْن الآن : إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات في الحياة إذن ؟ الضروريات في الحياة هي كُلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهي أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهي النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات إذن هي الدين ومنهج الله والقِيَم التي تُنظم حركة الحياة على وَفْق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿ والباقيات ﴾ [الكهف : 46] ما دام قال ﴿ والباقيات ﴾ فمعنى هذا أن

ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التي يخلدون بها في النار .

﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ . . ﴾ [الكهف : 46] خير عند مَنْ ؟ لأن كل مضاف إليه يأتي على قوة المضاف إليه ، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46]

والأمل : ما يتطلع إليه الإنسان مما لم تكُنْ به حالته ، فإنْ كان عنده خير تطلَّع إلى أعلى منه ، فالأمل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كُلُّ هذا يُبيّن لنا أن هذه الدنيا زائلة ، وأننا ذاهبون إلى يوم بَاقٍ ؛ لذلك أردف الحق سبحانه بعد الباقيات الصالحات ما يناسبها ، فقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(261/472)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

قوله : ﴿ كَمَآءٍ ﴾ : فيه ثلاثة أوجه ، أحدُها : أن تكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، فقدَّره ابنُ عطية هي : أي : الحياة الدنيا . والثاني : أنه متعلقٌ بمعنى المصدر ، أي : ضرباً كماء . قاله الحوفي . وهذا بناءً منهما على أن " ضَرَب " هذه متعديةٌ لواحدٍ فقط . والثالث : أنه في موضعِ المفعول الثاني ل " اضْرِبْ " لأنها بمعنى صَيِّرَ . وقد تقدَّم .

قال الشيخ بعد ما نقل قولَيْ ابن عطية والحوفي : " وأقولُ : إنَّ " كماء " في موضعِ المفعولِ الثاني لقولِه " واضربْ " ، أي : وصَيِّرْ لهم مَثَلَ الحياة ، أي : صفتَها شبهَ ماء " . قلت : وهذا قد سبقه إليه أبو البقاء .

و " أَنْزَلْناه " صفةٌ ل " ماء " .

قوله : ﴿ فاختلط بِهِ ﴾ يجوز في هذه الباءِ وجهان أحدهما : أن تكونَ سببيةً . الثاني : أَنْ تكونَ معدِّية . قاله الزمخشري : " فالتفَّ بسببه وتكاثف حتى خالط بعضُه بعضاً . وقيل : نَجَعَ الماءُ في النبات حتى رَوِيَ ورَفَّ رَفِيْفاً . وكان حقُّ اللفظِ على هذا التفسيرِ : فاختلط بنباتِ الأرضِ . ووجه صحتِه : أنَّ كلَّ مختلطَيْنِ موصوفٌ كلُّ واحدٍ منهما بصفةِ الآخرَ " .

قوله : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً ﴾ " أصبح " يجوز أَنْ تكونَ على بابِها ؛ فإنَّ أكثرَ ما يَطْرُقُ مِن الآفاتِ صباحاً ، كقولِه : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ [الكهف : 42] ويجوز أَنْ تكونَ

بمعنى صار مِنْ غير تقيُّدٍ بصَباحٍ كقوله :

3167- أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السلاحَ ولا . . . امْلِكُ رَأْسَ البعيرِ إنْ نَفَرا

(262/472)

والهَشِيمُ : واحدُه هَشِيْمَة وهو اليابس . وقال الزجاج وابن قتيبة : كل ما كان رطباً فَيَبِسَ . ومنه ﴿ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ [القمر : 31] . ومنه : هَشَمْتُ الفتَّ . ويقال : هَشَمَ الثَّريدَ : إذا فَتَّه .

قوله : " تَذْرُوْه " صفةٌ لـ " هَشيماً " والذَّرْوُ : التفريقُ ، وقيل : الرفْعُ .

قوله : " تَذَرُوْه " بالواو . وقرأ عبد الله " تَذْرِيه " من الذَّرْي ، ففي لامه لغتان : الواوُ والياءُ . وقرأ ابنُ عباس " تُذْرِيه " بضم التاء من الإِذْراء . وهذه تحتمل أَنْ تكونَ من الذَّروِ وأَنْ تكونَ من الذَّرْيِ . والعامَّةُ على " الرياح " جمعاً . وزيد بن علي والحسن والنخعي في آخرين " الرِّيحُ " بالإِفراد .

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

قوله : ﴿ زِينَةُ الحياة ﴾ : إنما افرد " زينة " وإن كانت خبراً عن بَنِين لأَنَّها مصدرٌ ، فالتقدير : ذوا زِيْنة ، إذ جُعلا نفسَ المصدر مبالغةً ؛ إذ بهما تَحْصُلُ الزينة ، أو بمعنى مُزَيِّنَتَيْنِ .

وقرئ شاذاً " زينتا الحياة " على التثنية ، وسقطت ألفها لفظاً لالتقاء الساكنين فيُتَوَهَّمُ أنه قرئ بنصب " زينة الحياة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 500. 502 ﴾

(263/472)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

منْ وَطَّنَ النَّفْسَ على الدنيا وبهجتها غرَّته بأمانيها ، وخدعته بالأطماع فيها . ثم إنها تُخْفى الصَّابَ في شرابها ، والحنظل في عَسَلها ، والسرابَ في مآربها ؛ تَعِدُ ولا تفي بِعِدَاتِها ، وتُوفِي آفاتُها على خيراتها . . نِعمُها مشوبةٌ بِنقَمِها ، وبؤسُها مصحوبٌ بمأفوسها ، وبلاؤها في ضمن عطائها . المغرورُ مَنْ اغترَّ بها ، والمغبونُ مَنْ انخدع فيها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

مَنْ اعتضد بعتاده ، واغترَّ بأولاده ، ونَسيَ مولاه في أوان غَفَلاَتِهِ . . خَسِرَ في حاله ، ونَدِمَ على ما فاته في مآله .

ويقال زينةُ أهل الغفلة في الدنيا بالمال والبنين ، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين . .

فهؤلاء رُتَبُهم لظواهرهم . . . وهؤلاء زينتهم لعبوديته ، وأفتخارهم بمعرفة ربوبيته .

ويقال ما كان للنَّفْس فيه حُظٌّ فهو منزينة الحياة الدنيا ، ويدخل في ذلك الجاهُ وقبول المدح ، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها .

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول : إن شئت في عاجله وإن شئت في آجله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ .

وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق .

ويقال : ﴿ والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ : ما كان خالصاً لله تعالى غيرَ مُشوب بطمعٍ ، ولا مصحوب بغَرَضٍ .

ويقال : ﴿ والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ : ما يلوح في السرائر من تحلية العبد بالنعوت ، ويفوح نَشْرُه في سماءِ الملكوت .

ويقال هي التي سبقت من الغيب له بالقربة وشريف الزلفة .

ويقال هي ضياءُ شموسِ التوحيد المستكِنّ في السرائر مما لا يتعرَّضُ لكسوف الحجبة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 398 . 399 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) ﴾

التفسير : لما أجب عن سؤالهم بما أجاب أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه وعلى الصبر مع الفقراء الذين آمنوا بما أنزل عليه ، واحتمل أن يكون ﴿ اتل ﴾ أمراً من التلو لا من التلاوة أي اتبع ما أوحي إليك والزم العمل بمقتضاه وقوله : ﴿ من كتاب ربك ﴾ بيان للذي أوحي إليه .

(265/472)

ثم بين سبب اللزوم فقال : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا يقدر أحد على تغييرها وإنما يقدر على ذلك هو وحده فليس لك ولا لغيرك إلا المواظبة على العلم والعمل به يؤكده قوله : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ أي ملجأ تعدل إليه إن هممت بذلك فرضاً : وأصل اللحد الميل كما مر في قوله : ﴿ يلحدون في أسمائه ﴾ [الأعراف : 18] نهى رسول الله صلى

الله عليه وسلم في سورة الأنعام عن طرد فقراء المؤمنين بقوله : ﴿ ولا تطرد الذين ﴾ [الآية : 52] الآية وأمره في هذه السورة بحبس النفس معهم وبمراقبة أحوالهم بقوله : ﴿ ولا تعد عيناك ﴾ قال جار الله : إنما لم يقل ولا تعدهم عيناك من عداه إذا جاوزه لأنه ضمن عدا معنى نبا وفيه مبالغة من جهة تحصيل المعنيين جميعاً كأنه قيل : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم . ثم نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء الكفرة الذين التمسوا منه طرد الفقراء حتى يؤمنوا به فقال : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه ﴾ قال أهل السنة : معنى الإغفال إيجاد الغفلة وخلقها فيهم ، أو هو من أغفلها إذا تركها بغير سمة أي لم نسمه بالذكر ولم نجعله من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان ، ويؤيد هذا المعنى أن الغفلة عن الذكر لو كانت بإيجاد العبد والقصد إلى إيجاد الغفلة عن الشي لا يتصور إلا مع الشعور بذلك الشيء لزم اجتماع الضدين . وقالت المعتزلة : معنى أغفلناه وجدناه غافلاً بالخذلان والتخلية بينه وبين الأسباب المؤدية إلى الغفلة يؤيده قوله : ﴿ واتبع هواه ﴾ بالواو دون الفاء إذ لو كان اتباع الهوى من نتيجة خلق الغفلة في القلب لقيل " فاتبع " بالفاء . ويمكن أن يجاب بأنه لا يلزم من كون الشيء في نفس الأمر نتيجة لشيء أن يعتبر كونه نتيجة له والفاء من لوازم الثاني دون الأول ، على أن الملازمة بين الغفلة عن ذكر الله وبين متابعة الهوى غير كلية ، فقد يكون الإنسان غافلاً عن ذكر الله ومع ذلك لا يتبع هواه بل يبقى متوقفاً متحيراً ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ أي

متجاوزاً عن حد الاعتدال من قولهم " فرس فرط " إذا كان متقدماً للخيل ، ويلزم منه أن يكون نابذاً للحق وراء ظهره . وأنت إذا تأملت وجدت حال الأغنياء المتحيرين بخلاف الفقراء المؤمنين ، لأن هؤلاء الفقراء يدعون ربهم بالغداة والعشى ابتغاء وجه الله وطلباً لمرضاته فأقبلوا على الحق وشغلوا عن الخلق ، والأغنياء قد أعرضوا عن المولى وأقبلوا على الدنيا فوقعوا في ظلمة الهوى وبقوا في تيه الجهل والعمى . وإنما لم يجز طرد الفقراء لأجل إيمان الأغنياء لأن إيمان من ترك الإيمان احترازاً من مجالسة الفقراء كلا إيمان فوجب أن لا يلتفت إليه .

ثم بين أن الحق ما هو ومن أين هو قائلاً ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ أي الدين الحق حصل ووجد من عند الله ، ويحتمل أن يراد بالحق الصبر مع الفقراء .

وقال في الكشاف : الحق خبر مبتدأ محذوف والمعنى جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختيار الإيمان أو الكفر ، وفيه دليل على أن الإيمان والكفر والطاعة والمعصية كلها مفوّضة إلى مشيئة العبد واختياره . وحمله الأشاعرة على أمر التهديد وقالوا : إن الفعل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد إليه ، ثم ذلك القصد لا بد أن يقع بالاختيار والقصد فنقل الكلام إليه ولا يتسلسل فلا بد أن ينتهي إلى قصد واختيار يخلقه الله فيه . فالإنسان مضطر في صورة مختار وفي صورة هذا التخيير دلالة على أنه سبحانه لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين . ثم بين وعيد الظالمين الذين وضعوا الكفر موضع الإيمان وتحقير المؤمنين لأجل فقرهم مكان تعظيمهم لأجل إيمانهم فقال : ﴿ إنا أعتدنا ﴾ أي أعددنا وهيأنا ﴿ للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط فأثبت تعالى للنار شيئاً شبيهاً بذلك يحيط بهم من جميع الجهات ، والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرج . وقيل : هو حائط من نار يطبق بهم . وقيل : هو دخان محيط بالكفار قبل دخولهم النار وهو المراد بقوله ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ [المرسلات : 30] وقوله : ﴿ يغاثوا بماء ﴾ وارد على سبيل التهكم كقولهم " عتابك السيف " . والمهل كل ما أذيب من المعدنيات كالذهب والفضة والنحاس قاله أبو عبيدة والأخفش . وقيل في حديث مرفوع إنه دردي الزيت . وقيل : الصديد والقيح أو ضرب من القطران . وهذه الاستغاثة إما لطلب الشراب كقوله : ﴿ تسقى في عين آنية ﴾ [الغاشية : 5] وإما لدفع

الحر ولأجل التبريد كقوله حكاية عنهم ﴿ أفيضوا علينا من الماء ﴾ [الأعراف : 50] ويروى أنهم إذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذي يعم كل أبدانهم كالقميص ، وقد يفسر بهذا قوله : ﴿ سرابليهم من قطران ﴾ [إبراهيم : 50] عن النبي صلى الله عليه وسلم " هو - يعني المهل - كعكر الزيت إذا قرب إليه سقطت فروة وجهه " وهذا

(268/472)

معنى قوله : ﴿ يشوي الوجوه بئس الشراب ﴾ ذلك لأن المقصود من الشراب إراحة الأحشاء وهذا يحرقها ويشويها ﴿ وساءت ﴾ أي النار ﴿ مرتفقاً ﴾ متكئاً لأهلها ومنه المرفق لأنه يتكأ عليه . قال جار الله : هذا لمشاكلة قوله في أهل الجنة ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار إلا أن يقال : معنى ارتفق أنه نصب مرفقه ودعم به خده كعادة المغتمين . وقال قائلون : إن الشياطين رفقاء أهل النار من الإنس والمعنى ساءت النار مجتمعاً لأولئك الرفقاء .

ثم شرع في وعد المؤمنين فقال : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية فإن جعلت ﴿ إنا لا نضيّع ﴾ اعتراضاً فظاهر وإن جعلته خبراً و ﴿ أولئك ﴾ خبراً آخر أو كلاماً مستأنفاً للأجر أو

بياناً لمبهم فمعنى العموم في ﴿ من أحسن ﴾ يقوم مقام الرابط المحذوف والتقدير ﴿ من أحسن عملاً ﴾ منهم.

(269/472)

وتفسير جنات عدن قد مر في سورتي "التوبة" و "الرعد". ولأهل الجنة لباسان: لباس التحلي والباس الستر. ولم يسم فاعل ﴿ يحلون ﴾ للتعظيم وهو الله جل وعلا، أو الملائكة بإذن. و "من" في ﴿ من أساور ﴾ للابتداء وفي ﴿ من ذهب ﴾ للتبيين. وتنكير أساور لإبهام أمرها في الحسن، وأساور أهل الجنة بعضها ذهب لهذه الآية، وبعضها فضة لقوله: ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ [الدهر: 21] وبعضها لؤلؤ لقوله في الحج ﴿ ولؤلؤاً ﴾ [الحج: 23] وجمع في لباس الستر بين السندس - وهو ما رق من الديباج - وبين الاستبرق - وهو الغليظ منه - جمعاً بين النوعين والاستبرق عند بعضهم معرب استبره. قيل: إنما لم يسم فاعل ﴿ يحلون ﴾ إشارة إلى أن الحلي تفضل الله بها عليهم كرماً وجوداً ونسب اللبس إليهم تنبيهاً على أنهم استوجبوه بعملهم، ثم وصفهم بهيئة المتنعمين والملوك من الاتكاء على أسرتهم. والأرائك جمع أريكة وهو السرير المزين بالحجلة، أما السرير وحده فلا يسمى أريكة. ثم إن الكفار كانوا يفتخرون بخدمهم

وحشمهم وأموالهم وأصناف تمتعاتهم على الفقراء المؤمنين فضرب الله مثلاً للطائفتين تنبيهاً على أن متاع الدنيا لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الغني فقيراً والفقير غنياً إنما الفخر بالأعمال الصالحات . والمراد مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين من بني إسرائيل أحدهما كافر - اسمه فطروس - والآخر مؤمن - اسمه يهوذا - وقيل : هما المذكوران في سورة " والصافات " في قوله : ﴿ قال قائل منهم أني كان لي قرين ﴾ [الصافات : 51] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراهما ، فاشترى الكافر أرضاً بألف فقال المؤمن : اللَّهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف فتصدق به . ثم بنى أخوه داراً بألف فقال : اللَّهم إن أخي بنى داراً بألف وإني أشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدق به . ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال : اللَّهم إني

(270/472)

جعلت ألفاً صداقاً للحور . ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف فقال : اللَّهم إني إشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به . ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده وبخسه على التصدق بماله . وقيل : هما مثل لأخوين من بني مخزوم مؤمن وهو عبد الله بن الأشد زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد .

أما قوله : ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ فقال صاحب الكشاف : إنه يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء ومعناه جعلنا النخيل محيطاً بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار ولا سيما المثمرة منها وخاصة النخيل إذا أمكن . ﴿ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ فهما جامعتان للأقوات والفواكه . وفيه أنهما مع سعة أطرافهما وتباعد أكنافهما لم يتوسطهما بقعة معطلة ، وفيه أنهما أتاني كل وقت بمنعفة أخرى متواصلة متشابكة وكل منهما منعوتة بوفاء الثمار لتمام الأكل .

﴿ وآتت ﴾ محمول على لفظ ﴿ كلتا ﴾ لأن لفظه مفرد . ولو قيل : " آتتا " . على المعنى لجاز . والظلم أصله النقصان وهو المراد ههنا . ﴿ وفجرنا ﴾ من قرأ بالتخفيف فظاهر لأنه نهر واحد ، ومن قرأ بالتشديد فللمبالغة لأن النهر ممتد في وسطهما فهو كالأنهار ﴿ وكان له ثمر ﴾ قال الكسائي : الثمرة اسم الواحد والثمر جمع وجمعه ثمار ثم ثمر ككتاب وكتب بالحركة أو بالسكون . وذكر أهل اللغة أن الثمر بالضم أنواع الأموال من الذهب والفضة وغيرهما ، والثمر بالفتح حمل الشجر . وقال قطرب : كان أبو عمرو بن العلاء يقول : الثمر المال والولد أي كان يملك مع الجنتين أشياء من النقود وغيرها وكان متمكناً من عمارة الأرض ومن سائر التمتعات كيف شاء . والمحاورة مراجعة الكلام من حار إذا

رجع . والنفر الأنصار والحشم الذين يقومون بالذب عنه . وقيل : الأولاد الذكور لأنهم ينفرون معه دون الإناث .

(271/472)

ثم إن الكافر كأنه أخذ بيد المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه وذلك قوله سبحانه ﴿ ودخل جنته ﴾ فقال جار الله : معنى أفراد الجنة بعد التثنية أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون ، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما . قلت : لا يبعد أن يكون قد دخل مع أخيه جنة واحدة منهما أو جعل مجموع الجنتين في حكم جنة واحدة منهما يؤيده توحيد الضمير على أكثر القراءات في قوله : ﴿ لأجدن خيراً منها ﴾ وإنما وصفه بقوله : ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ لأنه لما اغتر بتلك النعم ولم يجعلها وسيلة إلى الإيمان بالله والاعتراف بالبعث وسائر مقدورات الله كان واضعاً للنعم في غير موضعها ، على أن نعمة الجنة بخصوصها مما يجب أن يستدل بها على أحوال النشور كقوله عز من قائل : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ [الحج : 5] عكس الكافر القضيتين زعم دوام جنته التي هي بصدد الزوال قائلاً ﴿ ما أظن أن تبيد ﴾ أي تهلك ﴾

هذه ﴿ الجنة ﴿ أبداً ﴾ وذلك لطول أمله واستيلاء الحرص عليه واغتراره بالمهلة حتى أنكر المحسوس وادعى غلبة الظن بامتناع النشور مع قيام الدلائل العقلية والحسية على إمكانه ووجود الدلائل الشرعية على وجوبه قائلاً ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ ثم أقسم على أنه إن رد إلى ره فرضاً وتقديراً وكما يزعم صاحبه أن له رباً وأنه سيرد إليه وجد خيراً من جنته في الدنيا كأنه قاس الغائب على الشاهد أو ادعى أن النعم الدنيوية لن تكون استدراجية أصلاً وإنما تكون استحقاقاً وكرامة . ﴿ منقلباً ﴾ نصب على التمييز أي مرجع تلك وعاقبتها لكونها باقية بزعمكم خير من هذه لكونها فانية حساً أو في اعتقادكم .

(272/472)

قال بعض العلماء : الرد يتضمن كراهة المردود إليه فلهذا قال : ﴿ ولئن رددت ﴾ أي عن جنتي هذه التي أظن أن لا تبيد أبداً إلى ربي ، ولما لم يسبق مثل هذا المعنى في " حم " قال هناك : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي ﴾ [فصلت : 50] ، قوله : ﴿ أكفرت ﴾ زعم الجمهور أن أخاه إنما حكم بكفره لأنه أنكر البعث . وأقول : يحتمل أن يكون كافراً بالله أيضاً بل مشركاً لقوله بعد ذلك : ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ ولقول أخيه معرضاً به ﴿

لكنا هو الله ربي ﴾ وليس في قوله : ﴿ ولئن رددت إلى ربي ﴾ دلالة على أنه كان عارفاً بربه لاحتمال أن يكون قد قال ذلك بزعم صاحبه كما أشرنا إليه . وقوله : ﴿ خلقك من تراب ﴾ أي خلق أصلك وهو إشارة إلى مادته البعيدة . وقوله : ﴿ من نطفة ﴾ إشارة إلى مادته القريبة . ومعنى ﴿ سوّاك رجلاً ﴾ عدلك وكلك حال كونك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال المكلفين ويجوز أن يكون ﴿ رجلاً ﴾ تمييزاً .

(273/472)

ولعل السر في تخصيص الله سبحانه في هذا المقام بهذا الوصف هو أن يكون دليلاً على وجود الصانع أولاً ، لأن الاستدلال على هذا المطلوب بخلق الإنسان أقرب الاستدلالات ، وفيه أيضاً إشارة إلى إمكان البعث لأن الذي قدر على الإبداء أقدر على الإعادة ، وفيه أنه خلقه فقيراً لا غنياً علم منه أنه خلقه للعبودية والإقرار لا للفخر والإنكار ، ثم استدرك لقوله ﴿ أكفرت ﴾ كأنه قال لأخيه : أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد . وأصل ﴿ لكنا ﴾ " لكن أنا " حذفت الهمزة بعد إلقاء حركتها على ما قبلها ، ثم استثقل اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت في الثانية وضمير الغائب للشأن ، والجملة بعده خبر للشأن ، والمجموع خبر " أنا " والراجع ياء الضمير وتقدير الكلام : لكن أنا الشأن الله ربي . قال أهل

العربية : إثبات ألف " أنا " في الوصل ضعيف ، ولكن قراءة ابن عامر قوية بناء على أن الألف كالعوض عن حذف الهمزة ﴿ ولولا ﴾ للتخفيض وفعله . قلت : ﴿ وإذ دخلت ﴾ ظرف وقع في البين توسعاً . وقوله : ﴿ ما شاء الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو جملة شرطية محذوفة الجزاء تقدير الكلام الأمر ما شاء الله أو أي شيء شاء الله كان . استدل أهل السنة بالآية في أنه لا يدخل في الوجود شيء إلا بأمر الله ومشيئته . وأجاب الكعبي بأن المراد ما شاء الله مما تولى فعله لا ما هو من فعل العباد . والجواب أن هذا التقدير مما يخرج الكلام عن الفائدة فإنه كقول القائل " السماء فوقنا " . وأجاب القفال بأنه أراد ما شاء الله من عمارة هذا البستان ويؤيده قوله ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ أي ما قويت به على عمارته وتدبير أمره فهو بمعونة الله ، وزيف بأنه تخصيص للظاهر من غير دليل على أن عمارة ذلك البستان لعلها حصلت بالظلم والعدوان ، فالتحقيق أنه لا قوة لأحد على أمر من الأمور إلا بإعانة الله وإقداره .

(274/472)

عن عروه بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب فيدخل من يشاء ، وكان إذا دخله ردد هذه الآية حتى يخرج . ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمر إلى مشيئة الله أجابه عن افتخاره

بالمال والنفر فقال : ﴿ إن ترن أنا أقل ﴾ ف " أنا " فصل و ﴿ أقل ﴾ مفعول ثان ﴿ مالاً وولداً ﴾ نصب على التمييز ﴿ فعسى ربي أن يؤتيني ﴾ في الدنيا أو في الآخرة جنة ﴿ خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً ﴾ هو مصدر كالغفران بمعنى الحساب أي مقداراً وقع في حساب الله وهو الحكم بتخريبها . وعن الزجاج : عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداك . وقيل : هو جمع حسبانة وهو السهم القصير يعني الصواعق . ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أرضاً بيضاء يزلق عليها زلقاً لملاستها . وزلقاً وغوراً كلاهما بالمصدر كقولهم " فلان زور وصوم " .

(275/472)

ثم أخبر سبحانه عن تحقيق ما قدر المؤمن فقال : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه وإفنائه بالكلية من إحاطة العدوّ بالشخص كقوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ [يوسف : 66] ، ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ أي يندم ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ لأن النادم يفعل كذلك غالباً كما قد يعض أنامله . ﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ أي سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم وقد مر في البقرة في قصة عزير . وقوله : ﴿ يا ليتني لم أشرك ﴾ تذكر لموعظة أخيه وفيه دلالة ظاهرة على ما قلنا من أنه كان غير

عارف بالله بل كان عابد صنم ، ومن ذهب إلى أنه جعل كافراً لإنكاره البعث فسره بأن الكافر لما اغتر بكثرة الأموال والأولاد فكأنه أثبت لله شريكاً في إعطاء العز والغنى ، أو أنه لما عجز الله عن البعث فقد جعله مساوياً لخلقه في هذا الباب وهو نوع من الإشراك .

وليس هذا الكلام منه ندماً على الشرك ورغبة في التوحيد المحض ولكنه رغب في الإيمان رغبة في جنته وطمعاً في دوام ذلك عليه ، فلهذا لم يصر ندمه مقبولاً ووصفه بعد ذلك بقوله : ﴿ ولم يكن له فئة ﴾ طائفة ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ لأنه وحده قادر على نصرة العباد . ﴿ وما كان منتصراً ﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقام الله . ولما علم من قصة الرجلين أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر علم أن الأمر هكذا يكون في حق كل مؤمن وكافر فقيل ﴿ هنالك ﴾ أي في مثل ذلك الوقت والمقام والولاية الحق لله أو ﴿ الولاية لله الحق ﴾ والولاية بالفتح النصرة والتولي ، وبالكسر السلطان والملك ، أو المراد في مثل تلك الحالة الشديدة يتوب إلى الله ويلتجىء إليه كل مضطر يعني أن قول الكافر ﴿ يا ليتني ﴾ إنما صدر عنه إلجاءً واضطراراً وجزعاً ومما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها .

وقيل : ﴿ هنالك ﴾ إشارة إلى الآخرة كقوله ﴿ لمن الملك اليوم لله ﴾ [غافر : 16] ﴿ عقباً ﴾ بضم القاف وسكونها بمعنى العاقبة لأن من عمل لوجه الله لم يخسر قط .

ثم ضرب مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال ﴿ واضرب لهم ﴾ الآية . وقد مر مثله في أوائل " يونس " ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء ﴾ ومعنى ﴿ فاختلط به ﴾ التف بسببه . وقيل : معناه روى النبات ورف لاختلاط الماء به وذلك لأن الاختلاط يكون من الجانبين .

والهشيم ما تهشم وتحطم ، والذر والتطيير والإذهاب . تقول : ذرت الريح التراب وغيره تذروه وتذريه ذرواً وذرياً . ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ من تكوينه أوّلاً وتنميته وسطاً وإذهابه آخراً . ولا ريب أن أحوال الدنيا أيضاً كذلك تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة ، ثم تتزايد إلى أن تتكامل ، ثم تنتهي إلى الزوال والفناء ، ومثل هذا ليس للعاقل أن يبتهج به . وحين مهد القاعدة الكلية خصصها بصورة جزئية فقال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات ﴾ هي أعمال الخير التي تبقى ثمرتها ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ أي تعلق ثواب وخير أملاً لأن الجواد المطلق أفضل مسؤول وأكرم مأمول . وقيل : هن الصلوات الخمس . وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ففي التسبيح تنزيه له عن كل مالاً ينبغي ، وفي الحمد إقرار له بكونه مبدأ لإفادة كل ما ينبغي ، وفي التهليل اعتراف بأنه لا شيء في الإمكان متصفاً بالوصفين إلا هو ، وفي التكبير إذعان لغاية عظمته وأنه أجلّ من أن يعظم . وقيل : الطيب من القول . والأصح كل عمل

أريد به وجه الله وحده قاله قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 427 . 433 ﴾

(277/472)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

هذا الدرس كله تقرير للقيم في ميزان العقيدة . إن القيم الحقيقية ليست هي المال ، وليست هي الجاه ، وليست هي السلطان . كذلك ليست هي اللذائذ والمتاع في هذه الحياة . . إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة . والإسلام لا يحرم الطيب منها ؛ ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان . فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع ، ولكن ليذكر الله الذي أنعم بها . وليشكره على النعمة بالعمل الصالح ، فالباقيات الصالحات خير وأبقى .

وهو يبدأ بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه مع الذين يتجهون إلى الله ؛ وأن يغفل ويهمل الذين يغفلون عن ذكر الله . ثم يضرب للفريقين مثلاً رجلين : أحدهما يعتز بما أوتي من مال وعزة ومتاع . والآخرة يعتز بالإيمان الخالص ، ويرجو عند ربه ما هو خير .

ثم يعقب بمثل يضرب للحياة الدنيا كلها ، فإذا هي قصيرة زائلة كالهشيم تذروه الرياح .

وينتهي من ذلك كله بتقرير الحقيقة الباقية : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ . .

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل : الحق من ربكم . فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر ﴾ . .

يروي أنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود إذا كان يطمع في إيمان رؤوس قريش . أو أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس هؤلاء النفر ، لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، فتؤذي السادة من كبراء قريش !

(278/472)

ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم طمع في إيمانهم فحدثته نفسه فيما طلبوا إليه .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . . ﴾

انزلها تلعن عن القيم الحقيقية ، وتقيم الميزان الذي لا يخطئ . وبعد ذلك ﴿ فمن شاء

فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ فالإسلام لا يتملق أحداً ، ولا يزن الناس بموازين الجاهلية الأولى ، ولا أية جاهلية تقيم للناس ميزاناً غير ميزانه .

﴿ واصبر نفسك ﴾ . . لا تمل ولا تستعجل ﴿ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ . . فالله غايتهم ، يتجهون إليه بالغداة والعشي ، لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه . وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة .

اصبر نفسك مع هؤلاء . صاحبهم وجالسهم وعلمهم . ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات . فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ؛ ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ؛ ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً ، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه .

﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ . . ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة . فهذه زينة الحياة ﴿ الدنيا ﴾ لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه .

(279/472)

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ . . لا تطعهم فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء . فلو ذكروا الله لطامنوا من كبريائهم ، وخففوا من غلوائهم ، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة ، واستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله الرؤوس ؛ وأحسوا رابطة العقيدة التي يصبح بها الناس إخوة . ولكنهم إنما يتبعون أهواءهم . أهواء الجاهلية . ويحكمون مقاييسها في العباد . فهم وأقوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله .

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله . فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه . فهذه قيم زائفة ، وقيم زائلة . إنما التفاضل بمكانها عند الله . ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له . وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان .

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ . . أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته ، وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته ، فلم يعد في قلبه متسع لله . والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل ، ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله ، فيزيده الله غفلة ، ويملي له فيما هو فيه ، حتى تفلت الأيام من بين يديه ، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ، ويظلمون غيرهم :

﴿ وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ . .

بهذه العزة ، وبهذه الصراحة ، وبهذه الصرامة ، فالحق لا ينثني ولا ينحني ، إنما يسير في

طريقه قيماً لا عوج فيه ، قوياً لا ضعف فيه ، صريحاً لا مداورة فيه . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن لم يعجبه الحق فليذهب ، ومن لم يجعل هواه تبعاً لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة ؛ ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه امام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه .

(280/472)

إن العقيدة ليست ملكاً لأحد حتى يجامل فيها . إنما هي ملك لله ، والله غني عن العالمين . والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة ، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير . والذي يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

ثم يعرض ما أعد للكافرين ، وما أعد للمؤمنين في مشهد من مشاهد القيامة :

﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ؛ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه .

بئس الشراب وساءت مرتفقاً . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من

ذهب ؛ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ .

﴿ أنا أعتدنا للظالمين ناراً ﴾ . . أعددناها وأحضرناها . . فهي لا تحتاج إلى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمناً لإعدادها ! ومع أن خلق أي شيء لا يقتضي إلا كلمة الإرادة : كن . فيكون . إلا أن التعبير هنا بلفظ ﴿ أعتدنا ﴾ يلقي ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد ، والأخذ المباشر إلى النار المعدة المهيأة للاستقبال !

وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلا سبيل إلى الهرب ، ولا أمل في النجاة والإفلات . ولا مطمع في منفذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح !

فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا . . أغيثوا بماء كدردي الزيت المغلي في قول ، وكالصديد الساخن في قول ! يشوي الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطون التي تتجرعه ﴿ بئس الشراب ﴾ الذي يغاث به الملهوفون من الحريق ! ويا لسوء النار وسرادقها مكاناً للارتفاق والاتكاء . وفي ذكر الارتفاق في سرادق النار تهكم مرير . فما هم هنالك للارتفاق ، إنما هم للاشتواء ! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك في الجنان . . وشتان شتان !

وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن . للإقامة . تجري من تحتهم الأنهار بالري وبهجة المنظر واعتدال النسيم . وهم هنالك للارتفاق حقاً ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ وهم رافلون في ألوان من الحرير . من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف . تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع : ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ !

ومن شاء فليختر . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن شاء فليجالس فقراء المؤمنين ، وجبابهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفر . فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباب ، التي تضم القلوب الزكية بذكر الله ، فليرتفق في سرادق النار ، وليهنأ بدردي الزيت أو القيح يغاث به من النار . .

ثم تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله . وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس : صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة . ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه . وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم . موجبة لحمده وذكره ، لا لجحود وكفره .

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة :

﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعاً .

كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر ﴾ . .

فهما جنتان مثمرتان من الكروم ، محفوفتان بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر . . إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال :

(282/472)

﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾ . . ويختار التعبير كلمة ﴿ تظلم ﴾ في معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر ، وازدهى وتكبر .

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما ، ويزدهيه النظر إليهما ، فيحس بالزهو ، وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير : ﴿ فقال لصاحبه – وهو يحاوره – أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ . .

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ؛ وقد نسي

الله ، ونسي أن يشكره على ما أعطاه ؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً ، أنكر قيام الساعة أصلاً ، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار ! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظاً في الآخرة !

﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة . ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلباً ﴾ !

إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء ، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى ! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ !

فأما صاحبه الذي لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر . . فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى . معتز بعقيدته وإيمانه . معتز بالله الذي تعنو له الجباه ؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكراً عليه بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم . وينذره عاقبة البطر والكبر . ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار :

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟ لكنا هو الله ربي ، ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً . فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴾ . .

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تبالي المال والنفر ، ولا تداري الغنى والبطر ، ولا تتلعثم في الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال . وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله .

وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين .

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار . ومن هيئة البطر ، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار . فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن :

﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ويقول : يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ . .

وهو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء . والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة . وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله

الضائع وجهده الذاهب . وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته .

ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضيه غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن ، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان .

هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة : فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره . وثوابه هو خير الثواب ، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى :

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثواباً وخير عقباً ﴾ . .

(284/472)

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها ، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً وجلال الله يظلل الموقف ، حيث تتوارى قدرة الإنسان . .

وأمام هذا المشهد يضرب مثلاً للحياة الدنيا كلها . فإذا هي كتلك الجنة المضروبة مثلاً قصيرة قصيرة ، لا بقاء لها ولا قرار :

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ . .

هذا المشهد يعرض قصيراً خاطفاً ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال . فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض . والنبات لا ينمو ولا ينضج ، ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح . وما بين ثلاث جمل قصار ، ينتهي شريط الحياة .

ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد . بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء : ﴿ كماء أنزلناه من السماء ﴾ ف ﴿ اختلط به نبات الأرض ﴾ ف ﴿ أصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾ فما أقصرها حياة ! وما أهونها حياة !

وبعد أن يلقي مشهد الحياة الذاهبة ظله في النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التي يتعبدها الناس في الأرض ، والقيم الباقية التي تستحق الاهتمام :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ، وخير أملاً ﴾ . .

المال والبنون زينة الحياة ؛ والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات . ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد .

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة .

فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على اساسهما في الحياة . إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات .

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثواباً وخير

أملا . عند ما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء .

(285/472)

وهكذا يتناسق التوجيه الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم في أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم في الغداة والعشي يريدون وجهه . مع إيحاء قصة الجنتين . مع ظل المثل المضروب للحياة الدنيا . مع هذا التقرير الأخير للقيم في الحياة وما بعد الحياة . . وتشترك كلها في تصحيح القيم بميزان العقيدة . وتتساوى كلها في السورة وفق قاعدة التناسق الوجداني في القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2267 . 2272 ﴾

(286/472)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واتل ﴾ على نفسك ﴿ وما أوحي إليك من كتاب ﴾ كتبه ﴿ ربك ﴾ في

الأزل ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ إلى الأبد مع الدين ﴿ يدعون ربهم ﴾ وهم القلب والسر والروح والخفى في غداة الأزل إلى عشي الأبد فإنهم مجبولون على طاعة الله كما أن النفس جبلت على طاعة الهوى وطلب الدنيا . ﴿ ولا تعد ﴾ عينا همتك ﴿ عنهم ﴾ فإنك إن لم تراقب أحوالهم تصرف فيهم النفس الأمارة ﴿ ولا تطع من أغفلنا ﴾ يعني : النفس ناراً هي نار القهر والغضب ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ يعني سرادق العزة ﴿ بماء كالمهل ﴾ كل ما هو لأهل اللطف أسباب لسهولة العيش وفراغ البال فإنه سبحانه جعل لأهل القهر سبباً لصعوبة الأمر وشدة التعلق حتى شوت الوجوه أي أحرقت مواد التفاتهم إلى عالم الأرواح ، وفسدت استعداداتهم فبقوا في أسفل سافلين الطبيعة ﴿ يحلون فيها من أساور ﴾ والتحلية بالأساور إشارة إلى ظهور آثار الملكات عليهم وقوله : ﴿ من ذهب ﴾ رمز إلى أنها ملكات مستحسنة معتدلة راسخة ﴿ يلبسون ثياباً ﴾ فيه أن أنوار العبادات تلوح عليهم وتشتمل بهم . وقوله : ﴿ خضراً ﴾ إشارة إلى أنها أنوار غير قاهرة و ﴿ من سندس ﴾ إشارة إلى ما لطف من الرياضات ﴿ واستبرق ﴾ إلى ما شق منها ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ لأنهم فرغوا بها وكلفوا وقضوا ما عليهم من المجاهدات وبقي ما لهم من المشاهدات ﴿ مثلاً رجلين ﴾ هما النفس الكافرة والقلب المؤمن .

﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ وهو النفس ﴿ جنتين ﴾ هما الهوى والدنيا ﴿ من أعناب ﴾ الشهوات ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ حب الرياسة ﴿ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ من التمتعات البهيمية ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ من القوى البشرية والحواس. ﴿ وكان له ثمر ﴾ من أنواع الشهوات ﴿ وهو يحاوره ﴾ يجاذب النفس والقلب ﴿ أنا أكثر منك مالاً ﴾ أي ميلاً ﴿ وأعز نفراً ﴾ من أوصاف المذمومات ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ في الاستمتاع بجنة الدنيا على وفق الهوى ﴿ لأجدن خيراً منها ﴾ لأنه غر بالله وكرمه فلا جرم يقال له ما غرك بربك الكريم، هلا قلت ﴿ ما شاء الله ﴾ أي أتصرف في جنة الدنيا كما شاء الله ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ من العمر وحسن الاستعداد ﴿ كما أنزلناه ﴾ هو الروح العلوي الذي نزل إلى أرض الجسد ﴿ فاختلط ﴾ الروح بالأخلاق الذميمة ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ تلاشت منه نداوة الأخلاق الروحانية ﴿ تذروه ﴾ رياح الأهوية المختلفة فيكون حاله خلاف روح أدركته العناية الأزلية فبعث إليه دهقان من أهل الكمال فرباه بماء العلم والعمل حتى يصير شجرة طيبة. ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي ما فني منك وبقي بربك والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 434.433 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 47 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 50 ﴾ من نفس السورة

(4/473)

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر المبدأ ونبه على زواله ، وختم بأن المقصود منه الاختبار للرفعة بالثواب أو الضعة بالعقاب ، وكان الخزي والصغار ، أعظم شيء ترهبه النفوس الكبار ، لا سيما إذا عظم الجمع واشتد الأمر ، فكيف إذا انضم إليه الفقر فيكف إذا صاحبهما الحبس وكان يوم

الحشر يوماً يجمع فيه الخلائق ، فهو بالحقيقة المشهود ، وتظهر فيه العظمة فهو وحده المرهوب ، عقب ذكر الجزاء ذكره ، لأنه أعظم يوم يظهر فيه ، فقال تعالى عاطفاً على ﴿ واضرب ﴾ : ﴿ ويوم ﴾ أي واذكر لهم يوم ﴿ نسير الجبال ﴾ عن وجه الأرض بعواصف القدرة كما يسير نبات الأرض - بعد أن صار هشمياً - بالرياح ﴿ فترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ [النحل : 88] ﴿ وترى الأرض ﴾ بكمالها ﴿ بارزة ﴾ لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت ولا شجر ولا ظل ﴿ و ﴾ الحال أنا قد ﴿ حشرناهم ﴾ أي الخلائق بعظمتنا قبل التسيير بتلك الصيحة ، قهراً إلى الموقف الذي ينكشف فيه المخبآت ، وتظهر الفضائح والمغيبات ، ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير ، والنافذ فيه بصير ، فينظرون ويسمعون زلازل الجبال عند زوالها ، وقعاقع الأبنية والأشجار في هدها وتباين أوصالها ، وفنائها بعد عظيم مرآها واضمحلالها ﴿ فلم نغادر ﴾ أي نترك بما لنا من العظمة ﴿ منهم ﴾ أي الأولين والآخرين ﴿ أحداً ﴾ لأنه لا ذهول ولا عجز .

(5/473)

ولما ذكر سبحانه حشرهم ، وكان من المعلوم أنه للعرض ، ذكر كيفية ذلك العرض ، فقال بانياً الفعل للمفعول عل طريقة كلام القادرين ، ولأن المخوف العرض لا كونه من معين :

﴿ وعرضوا على ربك ﴾ أي المحسن إليك برفع أوليائك وخفض أعدائك ﴿ صفاً ﴾ لاتساع والمسايقة إلى داره ، لعرض أذل شيء وأصغره ، وأطوعه وأحقره ، يقال لهم تنبيهاً على مقام العظمة : ﴿ لقد جئتمونا ﴾ أحياء سويين حفاة عراة غرلاً ﴿ كما خلقناكم ﴾ بتلك العظمة ﴿ أول مرة ﴾ منعزلين من كل شيء كنتم تجمعونه وتفاخرون به منقادين مذعنين فتقولون ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ [يس : 52] فيقال لكم : ﴿ بل زعمتم ﴾ أي ادعيتم جهلاً بعظمتنا ﴿ أن ﴾ أي أنا ﴿ لن نجعل لكم ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ موعداً ﴾ أي مكاناً ووقتاً نجمعكم فيه هذا الجمع فننجز ما وعدناكم به على ألسنة الرسل ﴿ ووضع ﴾ بأيسر أمر بعد العرض المستعقب للجمع بأدنى إشارة ﴿ الكتاب ﴾ المضبوط فيه دقائق الأعمال وجلائلها على وجه بيِّن لا يخفى على قارىء ولا غيره شيء منه ﴿ فترى المجرمين ﴾ لتقر عينك منهم بشماتة لا خير بعدها ﴿ مشفقين مما فيه ﴾ من قبائح أعمالهم ، وسيىء أفعالهم وأقوالهم أي خائفين دائماً خوفاً عظيماً من عقاب الحق والفضيحة عند الخلق ﴿ ويقولون ﴾ أي يجددون ويكررون قولهم :

﴿ ياويلتنا ﴾ كناية عن أنه لا نديم لهم إذ ذاك إلا الهلاك ﴿ مال هذا الكتاب ﴾ أي أي شيء له حال كونه على غير حال الكتب في الدنيا ، ورسم لام الجر وحده إشارة إلى أنهم

صاروا من قوة الرعب وشدة الكرب يقفون على بعض الكتب ، وفسروا حال الكتاب التي أفظعتهم وسألوا عنها بقولهم : ﴿ لا يغادر ﴾ أي يترك أي يقع منه غدر ، أي عدم الوفاء وهو من غادر الشيء : تركه كأن كلاًّ منهما يريد غدر الآخر ، أي عدم الوفاء به ، من الغدير – لقطعة من الماء يتركها السيل كأنه لم يوف لهما بأخذ ما معه ، وكذا الغديرة لناقة تركها الراعي ﴿ صغيرة ﴾ أي من أعمالنا .

(6/473)

ولما هالهم إثبات جميع الصغائر ، بدؤوا بها ، وصرحوا بالكبائر – وإن كان إثبات الصغائر يفهمها – تأكيداً لأن المقام للتهويل وتعظيم التفجع ، وإشارة إلى أن الذي جرهم إليها هو الصغائر – كما قال الفضيل بن عياض ـ رضى الله عنهم ـ – فقالوا : ﴿ ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ ولما كان الإحصاء قد لا يستلزم اطلاع صاحب الكتاب وجزاءه عليه ، نفى ذلك بقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ كتابة وجزاء من غير أن يظلمهم سبحانه أو يظلم من عادوهم فيه ﴿ ولا يظلم ربك ﴾ الذي رباك بخلق القرآن ﴿ أحداً ﴾ منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب ، بل يجازى الأعداء بما يستحقون ، تعذيباً لهم وتنعيماً لأوليائه الذين عادوهم فيه للعدل بينهم ؛ روى الإمام أحمد في المسند

عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أنه سافر إلى عبد الله بن أنيس ـ رضى الله عنهم ـ مسيرة شهر فاستأذن عليه قال : فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، قلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في القصاص ، فخشيت أن تموت قبل أن أسمعه ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : " يحشر الله عز وجل الناس – أو قال : العباد – حفاة عراة بهما قلت : وما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة ، قال : قلنا : كيف وإنما نأتي الله حفاة عراة بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 473 . 475 ﴾

(7/473)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ تسير الجبال ﴾ على بناء الفعل للمفعول ورفع الجبال : ابن كثير وابن عامر

وأبو عمرو . الآخرون على بناء الفعل للفاعل ونصب الجبال . ما أشهدناهم يزيد .

الآخرون ﴿ ما أشهدتهم ﴾ ﴿ وما كنت ﴾ على الخطاب روى ابن وردان عن يزيد .

الباقون على التكلم ﴿ ويوم نقول ﴾ بالنون : حمزة الباقون على الغيبة ﴿ قبلاً ﴾ بضمتين : عاصم وحمزة والكسائي . الباقون بكسر القاف وفتح الباء . ﴿ لمهلكهم ﴾ بفتح الميم وكسر اللام : حفص ﴿ لمهلكهم ﴾ بفتحهما ، يحيى وحمو المفضل . الباقون بضم الميم وفتح اللام .

الوقوف : ﴿ بارزة ﴾ لا لأن التقدير وقد حشرناهم قبل ذلك ﴿ أحداً ﴾ 5 ج للآية مع العطف ﴿ صفاً ﴾ ط للعدول والحذف أي يقال لهم لقد جئتمونا ﴿ أول مرة ﴾ ز لأن " بل " قد يبتدأ به مع أن الكلام متحد ﴿ موعداً ﴾ 5 ﴿ أحصاها ﴾ ج لاستئناف الواو بعد تمام الاستفهام مع احتمال الحال بإضمار " قد " ﴿ حاضراً ﴾ 5 ط ﴿ أحداً ﴾ 5 ﴿ إلا إبليس ﴾ ط ﴿ أمر ربه ﴾ ط ﴿ عدواً ﴾ ط ﴿ بدلاً ﴾ 5 أنفسهم ص ﴿ عضداً ﴾ 5 ﴿ موبقاً ﴾ 5 ﴿ مصرفاً ﴾ 5 ﴿ مثل ﴾ ط ﴿ جدلاً ﴾ 5 ﴿ قبلاً ﴾ 5 ﴿ ومنذرين ﴾ ج لاحتمال ما بعده الحال والاستئناف ﴿ هزواً ﴾ 5 ﴿ يداه ﴾ ط ﴿ وقراً ﴾ ، ط لاختلاف الجملتين مع ابتداء الشرط ﴿ أبداً ﴾ 5 ﴿ الرحمة ﴾ ط ﴿ العذاب ﴾ ط ﴿ موئلاً ﴾ 5 ﴿ موعداً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 435 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين خساسة الدنيا وشرف القيامة أردفه بأحوال القيامة فقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ والمقصود منه الرد على المشركين الذي افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأعوان واختلفوا في الناصب لقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ على وجوه :

أحدها : أنه يكون التقدير واذكر لهم : ﴿ يَوْمٍ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ عطفاً على قوله : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 45] .

الثاني : أنه يكون التقدير : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ حصل كذا وكذا يقال لهم : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ لأن القول مضمر في هذا الموضع فكان المعنى أنه يقال لهم : هذا في هذا الموضع .

الثالث : أن يكون التقدير ﴿ خَيْرٌ أَمَلاً ﴾ في ﴿ يَوْمٍ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ والأول أظهر .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه ذكر في الآية من أحوال القيامة أنواعاً .

النوع الأول : قوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير على فعل ما لم يسم فاعله الجبال بالرفع بإسناد تسير إليه اعتباراً بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 3] والباقون نسير باسناد فعل التسيير إلى نفسه (تعالى و) الجبال بالنصب لكونه مفعول نسير ، والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتباراً بقوله : ﴿ وحشرناهم فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ والمعنى واحد لأنها إذا سيرت فمسيرها ليس إلا الله سبحانه .

ونقل صاحب " الكشاف " قراءة أخرى وهي تسير الجبال بإسناد تسير إلى الجبال .

(9/473)

البحث الثاني : قوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ ليس في لفظ الآية ما يدل على أنها إلى أين تسير ، فيحتمل أن يقال : إنه تعالى يسيرها إلى الموضع الذي يريده ولم يبين ذلك الموضع لخلقه والحق أن المراد أنه تعالى يسيرها إلى العدم لقوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴾ [طه : 105 107] ولقوله : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 5 ، 6] والنوع الثاني : من أحوال القيامة قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ وفي تفسيره

وجوه : أحدها : أنه لم يبق على وجهها شيء من العمارات ، ولا شيء من الجبال ، ولا شيء من الأشجار ، فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها ، وهو المراد من قوله : ﴿ لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴾ .

وثانيها : أن المراد من كونها بارزة أنها أبرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فهي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : 4] وقوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] وقوله : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وثالثها : أن وجوه الأرض كانت مستورة بالجبال والبحار ، فلما أفنى الله تعالى الجبال والبحار فقد برزت وجوه تلك البقاع بعد أن كانت مستورة .

(10/473)

والنوع الثالث : من أحوال القيامة قوله : ﴿ وحشرناهم فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ والمعنى جمعناهم للحساب فلم نغادر منهم أحداً ، أي لم نترك من الأولين والآخرين أحداً إلا وجمعناهم لذلك اليوم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] ومعنى لم نغادر لم نترك ، يقال : غادره وأغدره

إذا تركه ومنه الغدر ترك الوفاء ، ومنه الغدير لأنه ما تركته السيول ، ومنه سميت ضفيرة المرأة بالغديرة لأنها تجعلها خلفها .

ولما ذكر الله تعالى حشر الخلق ذكر كيفية عرضهم ، فقال : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبّكَ صَفًّا ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في تفسير الصف وجوه .

أحدها : أنه تعرض الخلق كلهم على الله صفاً واحداً ظاهرين بحيث لا يحجب بعضهم بعضاً ، قال القفال : ويشبه أن يكون الصف راجعاً إلى الظهور والبروز ، ومنه اشتق الصفصف للصحراء .

وثانيها : لا يبعد أن يكون الخلق صفوفاً يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي يكون بعضها خلف بعض ، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله صفاً صفوفاً كقوله : ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [غافر : 67] أي أطفالاً .

وثالثها : صفاً أي قياماً ، كما قال تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ [الحج : 36] قالوا قياماً .

المسألة الثانية :

قالت المشبهة قوله تعالى : ﴿ وَجَاء رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان وتعرض عليه أهل القيامة صفاً ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان ، وأجيب عنه بأنه تعالى جعل وقوفهم في الموضع الذي يسألهم فيه عن أعمالهم ويحاسبهم عليها عرضاً عليه ، لا على أنه تعالى يحضر في مكان وعرضوا عليه ليراهم بعد أن لم يكن يراهم ، ثم قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وليس المراد حصول المساواة من كل الوجوه ، لأنهم خلقوا صغاراً ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد أنه قال للمشركين المنكرين للبعث المفتخرين في الدنيا على فقراء المؤمنين بالأموال والأنصار : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ عراة حفاة بغير أموال ولا أعوان ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا * فرادى كَمَا خلقناكم أول مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتنا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] - إلى قوله - ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ [مريم : 80] ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ أي كنتم مع التعزز على المؤمنين بالأموال والأنصار تنكرون البعث والقيامة فالآن قد تركتم الأموال والأنصار في الدنيا وشاهدتم أن البعث والقيامة حق ، ثم قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ والمراد أنه يوضع في هذا اليوم كتاب كل إنسان في يده إما في اليمين أو في الشمال ،

والمراد الجنس وهو صحف الأعمال : ﴿ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي خائفين مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة وخائفين من ظهور ذلك لأهل الموقف فيفتضحون ، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون يا ويلتنا ينادون

(12/473)

هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات : ﴿ مَّالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ وهي عبارة عن الإحطاة بمعنى لا يترك شيئاً من المعاصي سواء كانت أو كبيرة إلا وهي مذكورة في هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِرَاماً كاتبين * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : 10 12]

وقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] وإدخال تاء التأنيث في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة : ﴿ إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ إلا ضبطها وحصرها ، قال بعض العلماء : ضجوا من الصغائر قبل الكبائر . (1)

لأن تلك الصغائر هي التي جرتهم إلى الكبائر فاحترزوا من الصغائر جداً : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ في الصحف عتيداً أو جزاء ما عملوا : ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ معناه أنه لا يكتب عليه ما لم يفعل ، ولا يزيد في عقابه المستحق ، ولا يعذب أحداً بجرم غيره ، بقي

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الجبائي : هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في مسائل : أحدها : أنه لو عذب عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالماً .

وثانيها : أنه لا يعذب الأطفال بغير ذنب .

وثالثها : بطلان قولهم لله أن يفعل ما يشاء ويعذب من غير جرم لأن الخلق خلقه إذ لو كان كذلك لما كان لنفي الظلم عنه معنى لأن بتقدير أنه إذا فعل أي شيء أراد لم يكن ظلماً منه لم يكن لقوله إنه لا يظلم فائدة فيقال له .

أما الجواب عن الأولين فهو المعارضة بالعلم والداعي ، وأما الجواب عن هذا الثالث فهو أنه تعالى قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم : 35] ولم يدل هذا على أن اتخاذ الولد صحيح عليه فكذا ههنا .

المسألة الثانية :

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحاسب الناس في القيامة على ثلاثة يوسف ، وأيوب ، وسليمان .

---

(1) نظير هذا

قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم وقد سئل : أيحاسب الإنسان على ما يتكلم به ؟

فقال له : «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم»

والحصائد جمع حصيدة : وهي الكلمة الهينة .

(13/473)

فيدعو بالمملوك ويقول له : ما شغلك عني فيقول جعلتني عبداً للآدمي فلم تفرغني ، فيدعو يوسف عليه السلام ، ويقول : كان هذا عبداً مثلك فلم يمنعه ذلك عن عبادتي فيؤمر به إلى النار ، ثم يدعو بالمبتلي فإذا قال شغلتني بالبلاء دعا بأيوب عليه السلام فيقول : قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك عن عبادتي فيؤمر به إلى النار ، ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله من الغنى والسعة فيقول : ماذا عملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى بسليمان عليه السلام فيقول : هذا عبدي سليمان آتيته أكثر ما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به إلى النار "

وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لن يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن جسده فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه كيف عمل به "

المسألة الثالثة :

دلت الآية على إثبات صغائر وكبائر في الذنوب ، وهذا متفق عليه بين المسلمين إلا أنهم اختلفوا في تفسيره فقالت المعتزلة : الكبيرة ما يزيد عقابه على ثواب فاعله ، والصغيرة ما ينقص عقابه عن ثواب فاعله ، واعلم أن هذا الحد إنما يصح لو ثبت أن الفعل يوجب ثواباً وعقاباً وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة ذكرناها في سورة البقرة ، في إبطال القول بالإحباط والتكفير بل الحق عندنا أن الطاعات محصورة في نوعين : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فكل ما كان أقوى في كونه جهلاً بالله كان أعظم في كونه كبيرة ، وكل ما كان أقوى في كونه إضراراً بالغير كان أكثر في كونه ذنباً أو معصية فهذا هو الضبط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 113.115 ﴾

(14/473)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ويوم نُسَيِّر الجبال ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يسيرها من السير حتى تنتقل عن مكانها لما فيه من ظهور الآية وعظم الإعتبار .

الثاني : يسيرها أي يقللها حتى يصير كثيرها قليلاً يسيراً .

الثالث : بأن يجعلها هباء منثوراً .

﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه بروز ما في بطنها من الأموات بخروجهم من قبورهم .

الثاني : أنها فضاء لا يسترها جبل ولا نبات .

﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات .

أحدها : يعني فلم نخلف منهم أحداً ، قاله ابن قتيبة ، قال ومنه سمي الغدير لأنه ما تخلفه السيول .

الثاني : فلم نستخلف منهم أحداً ، قاله الكلبي .

الثالث : معناه فلم نترك منهم أحداً ، حكاه مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ وعُرِضوا على ربّك صَفّاً ﴾ قيل إنهم يُعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة ، وقيل إنهم يحشرون عراة حفاة غرلاً ، فقالت عائشة رضي الله عنها فما يحتشمون يومئذ ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ " [عبس : 37] .

قوله عز وجل : ﴿ ووضع الكتابُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها كتب الأعمال في أيدي العباد ، قاله مقاتل .

الثاني : أنه وضع الحساب ، قاله الكلبي ، فعبر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على

أعمالهم المكتوبة .

﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ لأنه أحصاه الله ونسوه .

﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ﴾

وفي الصغيرة تأويلان :

أحدهما : أنه الضحك ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها صغائر الذنوب التي تغفر باجتناب كبائرها .

وأما الكبيرة ففيها قولان :

أحدهما : ما جاء النص بتحريمه .

الثاني : ما قرن بالوعيد والحَدِّ .

ويحتمل قولاً ثالثاً : أن الصغيرة الشهوة ، والكبيرة العمل .

قال قتادة : اشتكى القوم الإحْصاء وما اشتكى أحد ظلماً ، وإياكم المحقرات من الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه .

(15/473)

﴿ ووجَدوا ما عَملوا حاضِراً ﴾ يحتمل تأويلين :

أحدهما : ووجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً في الكتاب .

الثاني : ووجدوا جزاء ما عملوا عاجلاً في القيامة .

﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ يعني من طائع في نقصان ثوابه ، أو عاص في زيادة عقابه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(16/473)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ الآية

التقدير : واذكر يوم ، وهذا أفصح ما يتأول في هذا هنا ، وقرأ نافع والأعرج وشيبة وعاصم وابن مصرف وأبو عبد الرحمن " نسير " بنون العظمة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن وشبل وقتادة وعيسى : " تسيَّر " بالتاء ، وفتح الياء المشددة " الجبالُ " رفع ، وقرأ الحسن : " يُسيَّر " بياء مضمونة ، والثانية مفتوحة مشددة ، " الجبال " رفعاً ، وقرأ ابن محيصن " تَسِير " : بتاء مفتوحة وسين مكسورة ، أسند الفعل إلى " الجبال " ، وقرأ أبي بن كعب " ويوم سيرت الجبال " .

وقوله ﴿ بارزة ﴾ إما أن يريد أن الأرض ، لذهاب الجبال والظراب والشجر ، برزت وانكشفت ، وإما أن يريد : بروز أهلها ، والمحشورين من سكان بطنها ﴿ وحشرناهم ﴾ أي أقمناهم من قبورهم ، وجعلناهم لعرضة القيامة ، وقرأ الجمهور " نغادر " بنون العظمة ، وقرأ قتادة : " تغادر " على الإسناد إلى القدرة أو إلى الأرض ، وروى أبان بن يزيد عن عاصم : " يغادَر " بياء وفتح الدال " أحدُ " بالرفع ، وقرأ الضحاك " فلم نُغْدِر " بنون مضمومة وكسر الدال وسكون الغين ، والمغادرة : الترك ، ومنه غدير الماء ، وهو ما تركه السيل ، وقوله ﴿ صفاً ﴾ إفراد نزل منزلة الجمع ، أي صفوفاً ، وفي الحديث الصحيح يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، الحديث بطوله ، وفي حديث آخر " أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفاً ، أنتم منها ثمانون صفاً " ، وقوله تعالى : ﴿ لقد جئتمونا ﴾ إلى آخر الآية مقاولة للكفار المنكرين للبعث ، ومضمنها التقريع والتوبيخ ، والمؤمنون المعتقدون في الدنيا أنهم يبعثون يوم القيامة ، لا تكون لهم هذه المخاطبة بوجه وفي الكلام حذف ويقتضيه القول ويحسنه الإيجاز تقديره : يقال للكفرة منهم ، ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ يفسره قول النبي صلى الله عليه وسلم

إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾

(18/473)

﴿ الكتاب ﴾ اسم جنس ، يراد به كتب الناس التي أحصاها الحفظة لواحد واحد ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً ، و" إشفاق المجرمين " : فزعهم من كشفه لهم وفضحه فشكاية المجرمين إنما هي من الإحصاء لا من ظلم ولا حيف ، وقدم الصغيرة اهتماماً بها ، لينبه منها ، ويدل أن الصغيرة إذا أحصيت ، فالكبيرة أحرى بذلك ، والعرب أبداً تقدم في الذكر الأقل من كل مقترنين ، ونحو هذا هو قولهم : القمران والعمران ، سموا باسم الأقل تنبيهاً منهم ، وقال ابن عباس : " الصغيرة " الضحك ، وهذا مثال ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(19/473)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويوم تُسَيَّر الجبال ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "ويوم تُسَيَّر" بالتاء "الجبالُ" رفعاً .

وقرأ نافع .

وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "نُسَيِّرُ" بالنون "الجبالَ" نصباً .

وقرأ ابن محيصن : "ويوم تَسِيْرُ" بفتح التاء وكسر السين وتسكين الياء "الجبالُ" بالرفع .

قال الزجاج : "ويوم" منصوب على معنى : اذكر ، ويجوز أن يكون منصوباً على : والباقيات الصالحات خير يومَ تَسِيرُ الجبال .

قال ابن عباس : تُسيَّر الجبال عن وجه الأرض ، كما يُسيَّر السحاب في الدنيا ، ثم تكسّر فتكون في الأرض كما خرجت منها .

قوله تعالى : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ وقرأ عمرو بن العاص ، وابن السميفع ، وأبو العالية : "وتُرى الأرضُ بارزةً" برفع التاء والضاد .

وقرأ أبو رجاء العطاردي كذلك ، إلا أنه فتح ضاد "الأرضَ" .

وفي معنى "بارزة" قولان .

أحدهما : [ظاهرة] فليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناءٍ ، قاله الأكثرون .

والثاني : بارزاً أهلها من بطنها ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ وحشرناهم ﴾ يعني المؤمنين والكافرين ﴿ فلم نُغادِر ﴾ قال ابن قتيبة : أي : فلم نُخَلِّف ، يقال : غادرتُ كذا : إذا خلّفته ، ومنه سمي الغَدِير ، لأنه ماءٌ تُخَلِّفُه السيول .

وروى أبان : "فلم تغادر" بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ وعُرضوا على ربك صفاً ﴾ إن قيل : هذا أمر مستقبل ، فكيف عُبِّر [عنه] بالماضي ؟ فالجواب : أن ما قد علم الله وقوعه ، يجري مجرى المعايَن ، كقوله : ﴿ ونادى أصحاب الجنة ﴾ [الأعرف : 43] .

وفي معنى قوله : ﴿ صفاً ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى : جميعاً ، كقوله : ﴿ ثم ائتوا صفاً ﴾ [طه : 64] ، قاله مقاتل .

والثاني : أن المعنى : وعُرضوا على ربِّك مصفوفين ، هذا مذهب البَصريين .

والثالث : أن المعنى : وعُرضوا على ربِّك صفوفاً ، فناب الواحد عن الجميع ، كقوله : ﴿ ثم نُخْرِجُكم طفلاً ﴾ [الحج : 5] .

(20/473)

والرابع : أنه لم يَغِبْ عن الله منهم أحد ، فكانوا كالصف الذي تسهل الإِحاطة بجملته ، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري .

وقد قيل : إِن كلَّ أمة وزمرة صفٌّ .

قوله تعالى : ﴿ لقد جئتمونا ﴾ ، فيه إِضمار "فيقال لهم" .

وفي المخاطبين بهذا قولان .

أحدهما : أنهم الكُلّ .

والثاني : الكُفار ، فيكون اللفظ عامّاً ، والمعنى خاصّاً .

وقوله : ﴿ كما خلقناكم أول مَرَّة ﴾ مفسر في [الأنعام : 94] .

وقوله : ﴿ بل زعمتم ﴾ خطاب الكفار خاصة ، والمعنى : زعمتم في الدنيا ﴿ أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ للبعث ، والجزاء .

قوله تعالى : ﴿ ووُضع الكتاب ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الكتاب الذي سُطِر فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الحساب ، قاله ابن السائب .

والثالث : كتاب الأعمال ، قاله مقاتل .

وقال ابن جرير : وُضع كتاب أعمال العباد في أيديهم ، فعلى هذا ، الكتاب اسم جنس .

قوله تعالى : ﴿ فترى المجرمين ﴾ قال مجاهد : [هم] الكافرون .

وذكر بعض أهل العلم أن كل مجرم ذُكر في القرآن ، فالمراد به : الكافر .

قوله تعالى : ﴿ مشفقين ﴾ أي : خائفين ﴿ مما فيه ﴾ من الأعمال السيئة ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ هذا قول كل واقع في هَلَكة .

وقد شرحنا هذا المعنى في قوله : ﴿ يا حسرتنا ﴾ [الأنعام : 31] .

قوله تعالى : ﴿ لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ﴾ هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها ؛ وقد روى عكرمة عن ابن عباس ، قال : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : القهقهة .

وقد يُتوهَّم أن المراد بذلك صغائر الذنوب وكبائرها ، وليس كذلك ، إذ ليس الضحك والتبسم ، مجرَّدهما من الذنوب ، وإنما المراد أن التبسم من صغار الأفعال ، والضحك فعل كبير ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس ، قال : الصغيرة : التبسم والاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة : القهقهة بذلك ؛ فعلى هذا يكون ذنباً من الذنوب لمقصود فاعله ، لا لنفسه .

(21/473)

ومعنى "أحصاها" : عدَّها وأثبتها ، والمعنى : وُجدتْ مُحصاةً .

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي : مكتوباً مُثْبَتاً في الكتاب ، وقيل : رأوا جزاءه

حاضراً .

وقال أبو سليمان : الصحيح عند المحققين أن صغائر المؤمنين الذين وُعدوا العفو عنها إذا اجتنبوا الكبائر ، إنما يعفى عنها في الآخرة بعد أن يراها صاحبها .

قوله تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ قال أبو سليمان : لا تنقص حسنات المؤمن ، ولا يزاد في سيئات الكافر .

وقيل : إن كان للكافر فعل خير ، كعتق رقبة ، وصدقة ، خُفّف عنه به من عذابه ، وإن ظلمه مسلم ، أخذ الله من المسلم ، فصار الحق لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(22/473)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾

قال بعض النحويين : التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال .

قال النحاس : وهذا غلط من أجل الواو .

وقيل : المعنى واذكر يوم نسيّر الجبال ، أي نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض ،

ونسيرها كما نسير السحاب ؛ كما قال في آية أخرى ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

ثم تكسر فتعود إلى الأرض ؛ كما قال ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 5] .

وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر "ويوم تُسَيَّر" بتاء مضمومة وفتح الياء .

و"الجبالُ" رفعا على الفعل المجهول .

وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد "ويوم تسير الجبال" بفتح التاء مخففاً من سار .

"الجبال" رفعا .

دليل قراءة أبي عمرو ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 3] .

ودليل قراءة ابن محيصِن ﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ [الطور : 10] .

واختار أبو عبيد القراءة الأولى "نسيّر" بالنون لقوله "وحشرناهم" .

ومعنى ﴿ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة ، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ؛ أي قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها ، وهدم بنيانها ؛ فهي بارزة ظاهرة .

وعلى هذا القول أهل التفسير .

وقيل : "وترى الأرض بارزة" أي برز ما فيها من الكنوز والأموات ؛ كما قال ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : 4] وقال ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2]

وهذا قول عطاء .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أي إلى الموقف .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ أي لم نترك ؛ يقال : غادرت كذا أي تركته .

قال عنترة :

غَادَرْتُه مُتَعَفِّرا أوصالهُ . . .

والقومُ بين مُجَرَّحٍ ومُجَدَّلِ

أي تركته .

والمغادرة الترك ؛ ومنه الغَدْر ؛ لأنه ترك الوفاء .

وإنما سمي الغدير من الماء غديراً لأن الماء ذهب وتركه .

ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها .

(23/473)

يقول : حشرنا بَرّهم وفاجرَهم وجنّهم وإنسهم .

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾

"صفًّا" نصب على الحال .

قال مقاتل : يعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة ، كل أمة وزمرة صفا ؛ لا أنهم صفّ واحد .

وقيل جميعاً ؛ كقوله ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ [طه : 64] أي جميعاً .

وقيل قياماً .

وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْدَه في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أَحْضِروا حجتكم ويسّروا جواباً فإنكم مسؤولون محاسبون .

يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

قلت : هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية ، ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كتبناه في كتاب التذكرة ، ومنه نقلناه والحمد لله .

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي يقال لهم : لقد جئتمونا حُفاةً عُراة ، لا مالَ معكم ولا ولداً .

وقيل فرادَى ؛ دليله قوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] .

وقد تقدم.

وقال الزجاج: أي بعثناكم كما خلقناكم.

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث؛ أي زعمتم في الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعداً للبعث.

(24/473)

وفي صحيح مسلم "عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً قلت: يا رسول اللها الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض" "غُرْلاً" أي غير مختونين.

وقد تقدم في "الأنعام" بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ﴾

"الكتاب" اسم جنس، وفيه وجهان: أحدهما أنها كتب الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مُقاتل.

الثاني أنه وضْع الحساب ؛ قاله الكَلْبِيّ ، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة .

(25/473)

والقول الأوّل أظهر ؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم شكّ نَعيم عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بني أسد قال قال عمر لكعْب : ويْحك يا كعب ! حدّثِنا من حديث الآخرة ؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله قال ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنثر حول العرش ، وذلك قوله تعالى ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ قال الأسدي : الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك ، إلا أحصاها قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته بادِيات للناس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول كانت لي حسنات فلم تذكر فأحبّ الله أن يُريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخر ذلك كلّه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يُقبِل إلى أصحابه ثم يقول ﴿ هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 20] ثم يدعى

بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يُلَفّ فيجعل من وراء ظهره ويُلْوَى عنقه ؛ فذلك قولُه ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ [الانشقاق : 10] فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات .

وكان الفُضيل بن عِيَاض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويلتاه ! ضِجوًّا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر .

قال ابن عباس : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعني ما كان من ذلك في معصية الله عز وجل ؛ ذكره الثعلبيّ .

وحكى الماوَرْدِيّ عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

(26/473)

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية ، فإن الضحك من المعصية رِضاً بها والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة ، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم .

أو يُحمل الضحك فيما ذكر الماورديّ على التبسم ، وقد قال تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل : 19] وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللَّمَمُ كالمسيس والقُبَل ، والكبيرة المواقعة والزِّنى .

وقد مضى في "النساء" بيان هذا .

قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء ، وما اشتكى أحد ظلماً ، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه .

وقد مضى .

ومعنى "أحصاها" عدّها وأحاط بها ؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسُّعاً .

﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً .

وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً .

﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ أي لا يأخذ أحداً بجرم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمله ؛ قاله الضحاك .

وقيل : لا ينقص طائعاً من ثوابه ولا يزيد عاصياً في عقابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(27/473)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى ما يؤول إليه حال الدنيا من النفاد أعقب ذلك بأوائل أحوال يوم القيامة فقال

﴿ ويوم تسير الجبال ﴾ كقوله ﴿ يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً ﴾ وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب ﴾ وقال ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً ﴾ وقال ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ والمعنى أنه ينفك نظام هذا العالم الدنيوي ويؤتى بالعالم الأخروي ، وانتصب ﴿ ويوم ﴾ على إضمار اذكر أو بالفعل المضمر عند قوله ﴿ لقد جئتمونا ﴾ أي قلنا يوم كذا لقد .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي والأعرج وشيبة وعاصم وابن مصرّف وأبو عبد الرحمن ﴿ نسير ﴾ بنون العظمة الجبال بالنصب ، وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو والحسن وشبل وقتادة وعيسى والزهري وحميد وطلحة واليزيدي والزبيري عن رجاله عن يعقوب بضم التاء وفتح الياء المشددة مبنياً للمفعول ﴿ الجبال ﴾ بالرفع وعن الحسن كذلك إلاّ أنه بضم الياء باثنتين من تحتها ، وابن محيصن ومحبوب عن أبي عمر وتسير من سارت الجبال .

وقرأ أبيّ سيرت الجبال ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي منكشفة ظاهرة لذهاب الجبال والظراب والشجر والعمارة ، أو ترى أهل الأرض بارزين من بطنها .

وقرأ عيسى ﴿ وتُرى الأرض ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ وحشرناهم ﴾ أي أقمناهم من قبورهم وجمعناهم لعرصة القيامة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد تسير وترى ؟ قلت : للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال والعظائم ، كأنه قيل : ﴿

وحشرناهم ﴾ قبل ذلك انتهى .

والأولى أن تكون الواو واو الحال لا واو العطف ، والمعنى وقد ﴿ حشرناهم ﴾ أي يوقع التسيير في حالة حشرهم .

وقيل : ﴿ وحشرناهم ﴾ ﴿ وعرضوا ﴾ ﴿ ووضع الكتاب ﴾ مما وضع فيه الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوعه .

(28/473)

وقرأ الجمهور : نغادر بنون العظمة وقتادة تغادر على الإسناد إلى القدرة أو الأرض ، وأبان بن يزيد عن عاصم كذلك أو بفتح الدال مبنياً للمفعول واحد بالرفع وعصمة كذلك ، والضحاك نغدر بضم النون وإسكان الغين وكسر الدال ، وانتصب ﴿ صفاً ﴾ على الحال وهو مفرد تنّزل منزلة الجمع أي صفوفاً .

وفي الحديث الصحيح : " يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعي وينفذهم البصر " الحديث بطوله وفي حديث آخر : " أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفاً أنتم منها ثمانون صفاً " أو انتصب على المصدر الموضوع موضع الحال أي مصطفين .

وقيل : المعنى ﴿ صفاً ﴾ صفاً فحذف صفاً وهو مراد ، وهذا التكرار منبيء عن استيفاء الصفوف إلى آخرها ، شبه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان مصطفين ظاهرين يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً .

﴿ لقد جئتمونا ﴾ معمول لقول محذوف أي وقلنا و ﴿ كما خلقناكم ﴾ نعت لمصدر محذوف أي مجيئاً مثل مجيء خلقكم أي "حفاة عراة غرلاً" كما جاء في الحديث ، وخالين من المال والولد و ﴿ أنْ ﴾ هنا مخففة من الثقيلة .

وفصل بينها وبين الفعل بحرف النفي وهو ﴿ لن ﴾ كما فصل في قوله ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع ﴾ و ﴿ بل ﴾ للإضراب بمعنى الانتقال من خبر إلى خبر ليس بمعنى الإبطال ، والمعنى أن لن نجمع لإعادتكم وحشركم ﴿ موعداً ﴾ أي مكان وعد أو زمان وعد لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور ، والخطاب في ﴿ لقد جئتمونا ﴾ للكفار المنكرين البعث على سبيل تقريعهم وتوبيخهم .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ وقرأ زيد بن عليّ ﴿ ووضع ﴾ مبنياً للفاعل ﴿ الكتاب ﴾ بالنصب .

(29/473)

و ﴿ الكتاب ﴾ اسم جنس أي كتب أعمال الخلق ، ويجوز أن تكون الصحائف كلها جعلت كتاباً واحداً ووضعته الملائكة لمحاسبة الخلق وإشفاقهم خوفهم من كشف أعمالهم السيئة وفضحهم وما يترتب على ذلك من العذاب السرمدي ، ونادوا هلكتهم التي هلكوا خاصة من بين الهلكات فقالوا يا ويلنا والمراد من بحضرتهم كأنهم قالوا يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا ، وكذا ما جاء من نداء ما لا يعقل كقوله

﴿ يا أسفي على يوسف ﴾ ﴿ يا حسرتي على ما فرطت ﴾ ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ وقول الشاعر :

يا عجباً لهذه الفليقة . . .

فيا عجباً من رحلها المتحمل

إنما يراد به تنبيه من يعقل بالتعجب مما حل بالمنادي .

و ﴿ لا يغادر ﴾ جملة في موضع الحال .

وعن ابن عباس : الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة .

وعن ابن جبير : القبلة والزنا وعن غيره السهو والعمد .

وعن الفضيل صبحوا والله من الصغائر قبل الكبائر ، وقدمت الصغيرة اهتماماً بها ، وإذا أحصيت فالكبيرة أحرى ﴿ إلاّ أحصاها ﴾ ضبطها وحفظها ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ في الصحف عتيداً أو جزاء ما عملوا .

﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ فيكتب عليه ما لم يعمل أو يزيد في عقابه الذي يستحقه أو يعذبه بغير جرم .

قال الزمخشري : كما يزعم من ظلم الله في تعذيب أطفال المشركين انتهى .

ولا يقال : إن ذلك ظلم منه تعالى لأنه تعالى كل مملوكون له فله أن يتصرف في مملوكيه بما يشاء ، لا يسأل عما يفعل ، والصحيح في أطفال المشركين أنهم يكونون في الجنة خدماً لأهلها نص عليه في البخاري عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(30/473)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾

منصوبٌ بمضمر أي اذكرْ حين نقلَعُها من أماكنها ونسيّرها في الجو على هيئاتها كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ أو نسير أجزاءَها بعد أن نجعلها هباءً مُنْبَثّاً ، والمرادُ بتذكيره تحذيرُ المشركين مما فيه من الدواهي ، وقيل : هو معطوفٌ على ما قبله من قوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي الباقياتُ الصالحات

خيرٌ عند الله ويومَ القيامة . وقرىء تُسيَّر على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جرياً على سنن الكِبرياءِ وإيذاناً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيُّنه ، وقرىء تَسِير ﴿ وَتَرَى الأرض ﴾ أي جميعَ جوانبها والخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحدٍ ممن يتأتّى منه الرؤيةُ ، وقرىء تُرَى على صيغة البناء للمفعول ﴿ بَارِزَةً ﴾ أما بروزُ ما تحت الجبال فظاهرٌ ، وأما ما عداه فكانت الجبالُ تحول بينه وبين الناظرِ قبل ذلك ، فالآن أضحى قاعاً صفْصِفاً لا ترى فيها عِوَجاً أَمْتاً ﴿ وحشرناهم ﴾ جمعناهم إلى الموقف من كل أَوْب . وإيثارُ صيغةِ الماضي بعد نسيّر وتَرى للدِلالة على تحقق الحشْرِ المتفرّعِ على البعث الذي يُنكره المنكرون ، وعليه يدورُ أمرُ الجزاءِ وكذا الكلام فيما عطف عليه منفياً وموجَباً ، وقيل : هو للدّلالة على أن حشْرهم قبل التسيير والبروزِ ليعاينوا تلك الأهوالَ ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ أي لم نترُك ﴿ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ يقال : غادره إذا تركه ومنه الغدْرُ الذي هو تركُ الوفاءِ والغديرُ الذي هو ماءٌ يتركه السيلُ في الأرض الغائرة ، وقرىء بالياء وبالفوقانية على إسناد الفعل إلى ضمير الأرض كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ ﴾ شُبّهت حالُهم بحال جندٍ عُرضوا على السلطان ليأمُر فيهم بما يأمُر ، وفي الالتفات إلى الغَيبة وبناءِ الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان

الربوبية والإضافةِ إلى ضميره عليه السلام من تربية المهابةِ والجَرْي على سَنن الكبرياءِ وإظهار اللطفِ به عليه السلام ما لا يخفى ﴿ صَفًّا ﴾ أي غيرَ متفرّقين ولا مختلِطين فلا تعرّض فيه لوَحدة الصفِّ وتعدّدِه ، وقد ورد في الحديث الصحيح : "يجمع الله الأولين والآخِرين في صعيد واحد صُفوفاً " ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ على إضمار القولِ على وجه يكون حالاً من ضمير عُرضوا أي مقولاً لهم أو وقلنا لهم ، وأما كونُه عاملاً في يومَ نسيّر كما قيل فبعيدٌ من جزالة التنزيل الجليلِ ، كيف لا ويلزم منه أن هذا القولَ هو المقصودُ بالأصالة دون سائر القوارعِ مع أنه خاصُّ التعلق بما قبله من العَرض والحشر دون تسييرِ الجبال وبروزِ الأرض ﴿ كَمَا خلقناكم ﴾ نعتٌ لمصدر مقدّرٍ أي مجيئاً كائناً كمجيئكم عند خلْقِنا لكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أو حال من ضمير جئتمونا أي كائنين كما خلقناكم أولَ مرة حُفاةً عُراة غُرْلاً أو ما معكم شيءٌ مما تفتخرون به من الأموال والأنصار كقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من كلام إلى كلامٍ كلاهما للتوبيخ والتقريعِ ، أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعلَ لكم أبداً وقتاً نُنْجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه ، وأنْ مخففةٌ من المثقلة فُصِل بحرف النفي بينها وبين خبرِها لكونه جملةً فعليةً متصرّفةً

غيرَ دعاءٍ ، والظرفُ إما مفعولٌ ثانٍ للجعل وهو بمعنى التصييرِ والأولُ هو موعداً ، أو حال من موعداً وهو بمعنى الخلق والإبداعِ .

(32/473)

﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ عطف على عُرضوا داخلٌ تحت الأمورِ الهائلة التي أريد تذكيرُها بتذكير وقتِها أُورد فيه ما أورد في أمثاله من صيغة الماضي دَلالةً على التقرر أيضاً ، أي وُضع صحائفُ الأعمالِ ، وإيثارُ الإفرادِ للاكتفاء بالجنس ، والمرادُ بوضعها إما وضعُها في أيدي أصحابِها يميناً وشمالاً وإما في الميزان ﴿ فَتَرَى المجرمين ﴾ قاطبةً فيدخل فيهم الكفرةُ المنكِرون للبعث دخولاً أولياً ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الجرائم والذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند وقوفِهم على ما في تضاعيفه نقيراً وقِطْميراً ﴿ ياويلتنا ﴾ منادين لِهلَكتهم التي هلكوها من بين الهلَكات مستدْعين لها ليهلِكوا ولا يرَوا هولَ ما لاقَوه ، أي يا ويلتَنا احضُري فهذا أوانُ حضورك ﴿ مَا لهذا الكتاب ﴾ أي أيُّ شيء له ، وقولُه تعالى : ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ أي حواها وضبطَها ، جملةٌ حاليةٌ محقّقةٌ لما في الجملة الاستفهاميةِ من التعجب ، أو استئنافيةٌ مبنيةٌ على سؤال نشأ من التعجب ، كأنه قيل : ما شأنُه حتى يُتعجَّب منه ؟ فقيل : لا يغادر سيئةً صغيرةً ولا كبيرة

إلا أحصاها ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ ﴾ في الدنيا من السيئات ، أو جزاءَ ما عملوا ﴿ حَاضِرًا ﴾ مسطوراً عتيداً ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فيكتب ما لم يُعمَل من السيئات أو يزيد في عقابه المستحَقِ فيكون إظهاراً لِمَعْدلة القلمِ الأزلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(33/473)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾

منصوب باذكر مضمراً أي اذكر يوم نقلع الجبال من أماكنها ونسيرها في الجو كالسحاب كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] ، وقيل : نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثاً والكلام على هذا على حذف مضاف ، وجوز أن يكون التسيير مجازاً عن الأذهان والأفناء بذكر السبب وإرادة المسبب أي واذكر يوم نذهب بها وننسفها نسفاً فيكون كقوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 5 ، 6] ، واعترض كلا الأمرين بأن صيرورة الجبال هباء منبثاً وإذهابها بعد تسييرها فقد ذكر بعض المحققين أخذاً من الآيات أنه أولاً تنفصل

الجبال عن الأرض وتسير في الجو ثم تسقط فتصير كثيباً مهيلاً ثم هباء منبثاً ، والظاهر هنا أول أحوال الجبال ولا مقتضى للصرف عن الظاهر ، ثم المراد بذكر ذلك تحذير المشركين ما فيه من الدواهي التي هي أعظم من ثالثة الأثافي ، وجوز أبو حيان وغيره كون ﴿ يَوْمٍ ﴾ ظرفاً للفعل المضمر عند قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ [الكهف : 48] الخ أي قلنا يوم كذا لقد جئتمونا ، وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى هناك ، وغير واحد كونه معطوفاً على ما قبله من قوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الكهف : 46] فهو معمول ﴿ خَيْرٌ ﴾ [الكهف : 46] أي الباقيات الصالحات خير عند ربك ويوم القيامة وحينئذ يتعين أن يكون المراد من ﴿ عند ربك ﴾ [الكهف : 46] في حكمه تعالى كما قيل به ، وقرأ ابن

عامر .

وابن كثير .

وأبو عمرو .

والحسن .

وشبل .

وقتادة .

وعيسى .

والزهري .

وحميد .

وطلحة .

واليزيدي .

(34/473)

والزبيري عن رجاله عن يعقوب ﴿ مِنْهُ الجبال ﴾ برفع الجبال وبناء تسير بالتاء ثالثة الحروف للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعينه ، وعن الحسن أنه قرأ كذلك إلا أنه جاء بالياء آخر الحروف بدل التاء ، وقرأ أبي سيرت الجبال بالماضي المبني للمفعول ورفع الجبال ، وقرأ ابن محيصن .

ومحبوب عن أبي عمرو ﴿ مِنْهُ الجبال ﴾ بالمضارع المفتتح بالتاء المثناة من فوق المبني للفاعل ورفع الجبال ﴿ وَتَرَى الأرض ﴾ خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية أي وترى جميع جوانب الأرض ﴿ بَارِزَةً ﴾ بادية ظاهرة أما ظهور ما كان منها تحت الجبال فظاهر ، وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك أو تراها بارزة لذهاب جميع ما عليها من الجبال والبحار والعمران والأشجار وإنما اقتصر على زوال الجبال لأنه يعلم منه زوال ذلك بطريق الأولى ، وقيل :

إسناد البروز إلى الأرض مجاز ، والمراد ترى أهل الأرض بارزين من بطنها وهو خلاف الظاهر .

وقرأ عيسى ﴿ وَتَرَى الأرض ﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفع الأرض ﴿ وحشرناهم ﴾ أي جمعناهم إلى الموقف من كل أوب بعد أن أقمناهم من قبورهم ولم يذكر لظهور إرادته ، وعلى ما قبل يكون ذلك مذكوراً ، وإيثار الماضي يعد ﴿ نُسَيّرُ وَتَرَى ﴾ للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذي ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفياً وموجباً ، وقال الزمخشري هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال والعظائم كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك اه .

(35/473)

واعترض بأن في بعض الآيات مع الأخبار ما يدل على أن التسيير والبروز عند النفخة الأولى وفساد نظام العالم والحشر وما عطف عليه عند النفخة الثانية فلا ينبغي حمل الآية على معنى وحشرناهم قبل ذلك لئلا تخالف غيرها فليتأمل ، ثم لا يخفى أن التعبير بالماضي على الأول مجاز وعلى هذا حقيقة لأن المضي والاستقبال بالنظر إلى الحكم المقارن له لا بالنسبة لزمان التكلم ، والجملة عليه كما في "الكشف" وغيره تحتمل العطف والحالية من

فاعل ﴿ نُسَيِّرُ ﴾ .

وقال أبو حيان : الأولى : جعلها حالاً على هذا القول ، وأوجبه بعضهم وعلله بأنها لو كانت معطوفة لم يكن مضى بالنسبة إلى التسيير والبروز بل إلى زمان التكلم فيحتاج إلى التويل الأول ، ثم قال : وتحقيقه أن صيغ الأفعال موضوعة لأزمنة التكلم إذا كانت مطلقة فإذا جعلت قيوداً لما يدل على زمان كان مضيها وغيره بالنسبة إلى زمانه اه وليس بشيء ، والحق عدم الوجوب ، وتحقيق ذلك أن الجمل التي ظاهرها التعاطف يجوز فيها التوافق والتخالف في الزمان فإذا كان في الواقع كذلك فلا خفاء فيه وإن لم يكن فلا بد للعدول من وجه ، فإن كان أحدهما قيداً للآخر وهو ماض بالنسبة إليه فهو حقيقة ووجهه ما ذكر ولا تكون الجملة معطوفة حينئذ ، فإن عطفت وجعل المضي بالنسبة لأحد المتعاطفين فلا مانع منه وهل هو حقيقة أو مجاز محل تردد ، والذي يحكم به الانصاف اختيار قول أبي حيان من أولوية الحالية على ذلك ، والقول بأنه لا وجه له لا وجه له ، وحينئذ يقدر قد عند الأكثرين أي وقد حشرناهم ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ أي لم نترك ، يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر الذي هو ترك الوفاء ، والغدير الذي هو ماء يتركه السيل في الأرض .

وقرىء ﴿ يُغَادِرُ ﴾ بالياء التحتية على أن الضمير لله تعالى على طريق الالتفات .

وقرأ قتادة ﴿ تغادر ﴾ بالتاء الفوقية على أن الضمير للأرض كما في قوله تعالى : ﴿ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الإنشقاق : 4] وجوز أبو حيان كونه للقدرة .

وقرأ أبان بن يزيد عن عاصم كذلك أو بفتح الدال مبنياً للمفعول ورفع ﴿ أَحَدٌ ﴾ على النيابة عن الفاعل .

وقرأ الضحاك ﴿ نغدر ﴾ بضم النون وإسكان الغين وكسر الدال .

﴿ وَعُرِضُواْ على ربّكَ ﴾

أحضروا محل حكمه وقضائه عز وجل فيهم ﴿ صَفًّا ﴾ مصطفين أو مصفوفين .

فقد أخرج ابن منده في التوحيد عن معاذ بن جمبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى ينادي يوم القيامة يا عبادي أن الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين أحضروا حجتكم ويسروا جواباً فانكم مسؤولين محاسبون يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنأمل أقدامهم للحساب " وفي الحديث الصحيح " يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعي وينفذهم البصر " الحديث بطوله ، وقيل تقام كل أمة وزمرة صفا .

وفي بعض الأخبار أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفا أنتم منها ثمانون ، وقيل لا عرض بالمعنى المعروف ولا اصطفاف والكلام خارج مخرج الاستعارة التمثيلية شبهت حالهم في

حشرهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر ، وقيل إن فيه استعارة تبعية بتشبيه حشرهم بعرض هؤلاء ، ومعنى ﴿ صَفًّا ﴾ سواء كان داخلاً في الاستعارة التمثيلية أو كان ترشيحاً غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده .

(37/473)

ولا حاجة إلى أن يقال : إنه مفرد أريد به الجمع لكونه مصدراً أي صفوفاً أو يقال : أن الأصل صفاصفا ، على أن هذا مع بعده عليه أن ما يدل على التعدد بالتكرار كباباً باباً وصفاصفا لا يجوز حذفه ، هذا والحق أن إنكار الاصطفاف مما لا وجه له بعد إمكانه وصحة الأخبار فيه ، ولعل ما فسرنا به الآية مما لا غبار عليه ، وفي الالتفات إلى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء وإظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ على رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى غضب الله تعالى عليهم وطردهم عن ديوان القبول بعدم جريهم على معرفتهم لربوبيته عز وجل ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ خطاب للكفار المنكرين للبعث على إضمار القول ، ويكون حالاً مما تقدم فيقدر قائلين أو نقول إن كان حالاً من فاعل ﴿ حشرنا ﴾ أو قائلاً أو يقول إن كان من ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ أو مقولاً لهم

أو يقال لهم إن كان من ضمير ﴿ عرضوا ﴾ .

وقد يقدر فعلاً كقلنا أو نقول لا محل لجملته ، وجوز تعلق ﴿ يوم ﴾ [الكهف : 47] السابق به على هذا التقدير دون تقدير الحالية .

(38/473)

قال الخفاجي : لأنه يصير كغلام زيد ضارباً على أن ضارباً حال من زيد ناصباً لغلام ومثله تعقيد غير جائز لا لأن ذلك قبل الحشر وهذا بعده ولا لأن معمول الحال لا يتقدم عليها كما يتوهم ، ثم قال : وأما ما أورد على تعلقه بالفعل في التقدير الثاني من أنه يلزم منه أن هذا القول هو المقصود إصالة فتخيل أغني عن الرد أنه لا محذور فيه اه ، والحق أن تعلقه بالقول المقدر حالاً أو غيره مما لا يرتضيه الطبع السليم والذهن المستقيم ، ولا يكاد يجوز مثل هذا التركيب على تقدير الحالية وإن قلنا بجواز تقدم معمول الحال عليها فتدبر ، والمراد من مجيئهم إليه تعالى مجيئهم إلى حيث لا حكم لأحد غيره سبحانه من المعبودات الباطلة التي تزعم فيها عبدتها النفع والضر وغير ذلك نظير ما قالوا في قوله تعالى :

﴿ الرحيم مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] ﴿ كَمَا خلقناكم ﴾ نعت لمصدر محذوف أي مجيئاً كائناً كمجيئكم عند خلقنا لكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أو حال من الضمير المرفوع في ﴿

جِئْتُمُونَا ﴾ أي كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرلا أو ما معكم شيء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] .

(39/473)

وجوز أن يكون المراد أحياء كخلقتكم الأولى ، والكلام عليه إعرابا كما تقدم لكن يخالفه في وجه التشبيه وذاك كما قيل أوفق بما قبل وهذا بقوله تعالى : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ وهو إضراب وانتقال من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع ، والموعد اسم زمان وأن مخففة من المثقلة فصل بينها وبين خبرها بحرف النفي لكونه جملة فعلية فعلها متصرف غير دعاء وفي ذلك يجب الفصل بأحد الفواصل المعلومة إلا فيما شذ ، والجعل إما بمعنى التصيير فالجار والمجرور مفعوله الثاني و ﴿ مَّوْعِدًا ﴾ مفعوله الأول ، وإما بمعنى الخلق والإيجاد فالجار والمجرور في موضع الحال من مفعوله وهو ﴿ مَّوْعِدًا ﴾ أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعل لكم وقتاً ينجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه .

﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ عطف على ﴿ عرضوا ﴾ [الكهف : 48] داخل تحت الأمور الهائلة التي أريد بذكر وقتها تحذير المشركين كما مر ، وإيراد صيغة الماضي للدلالة على

التقرر .

والمراد من الكتاب كتب الأعمال فأل فيه للاستغراق ، ومن وضعه إما جعل كل كتاب في يد صاحبه اليمين أو الشمال وإما جعل كل في الميزان ، وجوز أن يكون المراد جعل الملائكة تلك الكتب في البين ليحاسبوا المكلفين بما فيها ، وعلى هذا يجوز أن يكون المراد بالكتاب كتاباً واحداً بأن تجمع الملائكة عليهم السلام صحائف الأعمال كلها في كتاب وتضعه في البين للمحاسبة لكن لم أجد في ذلك أثراً ، نعم قال اللقاني في شرح قوله في " جوهرة التوحيد " :

وواجب أخذ العباد الصحفا . . .

كما من القرآن نصا عرفا

(40/473)

جزم الغزالي بما قيل إن صحف العباد ينسخ ما في جميعها في صحيفة واحدة انتهى ، والظاهر أن جزم الغزالي وأضرا به بذلك لا يكون إلا عن أثر لأن مثله لا يقال من قبل الرأي كما هو الظاهر ، وقيل : وضع الكتاب كناية عن إبراز محاسبة الخلق وسؤالهم فإنه إذ أريد محاسبة العمال جيء بالدفاتر ووضعت بين أيديهم ثم حوسبوا فأطلق الملزوم وأريد لازمه ،

ولا يخفى أنه لا داعي إلى ذلك عندنا وربما يدعو إليه إنكار وزن الأعمال .

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما ﴿ مَّوْعِدًا وَوُضِعَ الكتاب ﴾ ببناء ﴿ وُضِعَ ﴾ للفاعل وإسناده إلى ضميره تعالى على طريق الالتفات ونصب ﴿ الكتاب ﴾ على المفعولية أي ووضع الله الكتاب ﴿ فَتَرَى المجرمين ﴾ قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولاً أولياً ، والخطاب نظير ما مر ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي الكاتب من الجرائم والذنوب لتحققهم ما يترتب عليها من العذاب ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند وقوفهم على ما في تضاعيفه نقيراً وقطميراً ﴿ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ نداء لهلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات فإن الويلة كالويل الهلاك ونداؤها على تشبيهها بشخص يطلب إقباله كأنه قيل يا هلاك أقبل فهذا أوانك ففيه استعارة مكنية تخييلية وفيه تقريع لهم وإشارة إلى أنه لا صاحب لهم غير الهلاك وقد طلبوه ليهلكوا ولا يروا العذاب الأليم .

وقيل : المراد نداء من بحضرتهم كأنه قيل : يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا ، وفيه تقدير يفوت به تلك النكتة .

﴿ مَّالِ هذا الكتاب ﴾ أي أي شيء له ؟ والاستفهام مجاز عن التعجب من شأن الكتاب ، ولام الجر رسمت في الإمام مفصولة ، وزعم الطبرسي أنه لا وجه لذلك ،

وقال البقاعي : إن في رسمها كذلك إشارة إلى أن المجرمين لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة ، وفي لطائف الإشارات وقف على ﴿ مَا ﴾ أبو عمرو .

والكسائي .

ويعقوب والباقون على اللام والأصح الوقف على ما لأنها كلمة مستقلة ، وأكثرهم لم يذكر فيها شيئًا اه .

(41/473)

وأنت تعلم أن الرسم العثماني متبع ولا يقاس عليه ولا يكاد يعرف وجهه وفي حسن الوقف على أو اللام توقف عندي .

وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُغَادِرُ ﴾ أي لا يترك ﴿ صَغِيرَةً ﴾ أي هنة صغيرة ﴿ وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ ﴾ أي إلا عدها وهو كناية عن الإحاطة جملة حالة محققة لما في الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأن هذا الكتاب حتى يتعجب منه ؟ فقيل : ﴿ الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً ﴾ الخ .

وعن ابن جبير تفسير الصغيرة بالمسيس والكبيرة بالزنا ، وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية : الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين والكبيرة القهقهة بذلك ، وعلى هذا يحمل إطلاق ابن مردويه في الرواية عنه رضي الله تعالى عنه

تفسير الصغيرة بالتبسم والكبيرة بالضحك ويندفع استشكال بعض الفضلاء ذلك ويعلم منه أن الضحك على الناس من الذنوب .

(42/473)

وعن عبد الله بن زمعة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب ويعظهم في ضحكهم من الريح الخارج بصوت وقال : علام يضحكم أحدكم مما يفعل ؟ بل ذكر بعض علمائنا أن من الضحاك ما يكفر به الضاحك كالضحك على كلمة كفر ، وقيده بعضهم بما إذا قدر على أن يملك نفسه وإلا فلا يكفر ، وتمام الكلام في ذلك في محله ، وكان الظاهر لا يغادر كبيرة ولا صغيرة بناء على ما قالوا من أن الترقي في الإثبات يكون من الأدنى إلى الأعلى وفي النفي على عكس ذلك إذ لا يلزم من فعل الأدنى فعل الأعلى بخلاف النفي لكن قال المحققون : هذا إذا كان على ظاهره فإن كان كناية عن العموم كما هنا وقولك ما أعطاني قليلاً ولا كثيراً جاز تقديم الأدنى على الأعلى في النفي كما فصله ابن الأثير في المثل السائر ، وفي البحر قدمت الصغيرة اهتماماً بها ، وروي عن الفضيل أنه كان إذا قرأ الآية قال : ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر ، وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية :

اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء ولم يشتك أحدا ظلماً فإياكم والمحقرات من الذنوب فإنها تجمع على صاحبها حتى تهلكه .

(43/473)

﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ ﴾ في الدنيا من السيئات أو جزاء ذلك ﴿ حَاضِرًا ﴾ مسطوراً في كتاب كل منهم أو عتيداً بين أيديهم نقداً غير مؤجل ، واختير المعنى الأخير وإن كان فيه ارتكاب خلاف الظاهر لأن الكلام عليه تأسيس محض ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ بما لم يعمله أي منهم أو منهم ومن غيرهم ، والمراد أنه عز وجل لا يتجاوز الحد الذي حده في الثواب والعقاب وإن لم يجب ذلك عليه تعالى عقلاً ، وتحقيقه أنه تعالى وعد بإثابة المطيع والزيادة في ثوابه وبتعذيب العاصي بمقدار جرمه من غير زيادة وأنه قد يغفر له ما سوى الكفر وأنه لا يعذب بغير جناية فهو سبحانه وتعالى لا يجاوز الحد الذي حده ولا يخالف ما جرت عليه سنته الالهية فلا يعذب أحداً بما لم يعمله ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله الذي نهى عنه ولم يرتضه ، وهذا مما أجمع عليه المسلمون وان اختلفوا في أن امتناع وقوع ما نفى هل هو سمعي أو عقلي فذهب إلى الأول أهل السنة وإلى الثاني المعتزلة ، وهل تمسية تلك المجاوزة ظلماً حقيقة أم لا ؟ قال الخفاجي

: الظاهر أنها حقيقة ، وعليه لا حاجة إلى أن يقال : المراد بالآية أنه سبحانه لا يفعل باحد ما يكون ظلماً لو صدر من العباد كالتعذيب بلا ذنب فإنه لو صدر من العباد يكون ظلماً ولو صدر منه سبحانه لا يكون كذلك لأنه جل شأنه مالك الملك متصرف في ملكه كيف يشاء فلا يتصور في شأنه تعالى شأنه ظلم أصلاً بوجه من الوجوه عند أهل السنة ، وأنت تعلم أن هذا هو المشهور لدى الجمهور لا ما اقتضاه التحقيق فتأمل والله تعالى ولي التوفيق .

واستدل بعموم الآية على أن أطفال المشركين لا يعذبون وهو القول المنصور وقد أسلفنا ولله تعالى الحمد ما يؤيده من الأخبار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(44/473)

وقال القاسمى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾

أي : اذكر يوم نقلعها من أماكنها ونسيّرها في الجو . كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل : 88] ، أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباءاً منبثاً : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ لبروز ما تحت الجبال ، أي : ظهوره ، بنسفها وبروز ما عداه بزوال الجبال والكثب . حتى تبدو للعيان سطحاً مستوياً ، لا بناء

ولا شجر ولا معلم ولا ما سوى ذلك : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أي : جمعناهم إلى موقف الحساب : ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ أي : نترك : ﴿ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ أي : لا صغيراً ولا كبيراً . كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 49 - 50] ، وقال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً ﴾ أي : مصطفين مترتبين في المواقف ، لا يحجب بعضهم بعضاً كل في رتبته ، قاله القاشاني .

وقال أبو السعود : صَفّاً أي : غير متفرقين ولا مختلطين . فلا تعرّض فيه لوحدة الصف وتعدّده .

قال الزمخشري : شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ، مصطفين ظاهرين . يرى جماعتهم كما يرى كل واحد . لا يحجب أحدٌ أحداً : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : بلا مال ولا بنين . أو لقد بعثناكم كما أنشأناكم . والكلام على إضمار القول . أي : وقلنا . تقريعاً للمنكرين للمعاد ، وتوبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ أي : بإنكاركم البعث : ﴿ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ أي : وقتاً لإنجاز ما وعدناكم من البعث والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلاً ، بل عملوا ما يزدادون به افتضاحاً . وبل للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقالي ، لا إبطالي .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أي : صحائف الأعمال بين يدي الله بحضرة الخلائق : ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ أي : خائفين أن يفتضحوا : ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي : من أعمالهم السيئة المسطرة : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ أي : هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا في أعمارنا . قال القاشاني : يدعون الهلكة التي هلكوا بها ، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة : ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أي : أي : شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب في إحصائه كل المعاصي ، وعدّه مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه في شيء منها .

قال البقاعي عليه الرحمة إن لام الجر رسمت مفصولة يعني : في الرسم العثمانيّ ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ أي : مكتوباً في الصحف تفصيلاً ، من خير وشر . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ﴾ [آل عِمْرَان : 13] الآية . وقال : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : 13] .

﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ أي : فيكتب عليه ما لم يعمله ، أو يزيد في عقابه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 43.44 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾

عطف على جملة ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 45] .

فلفظ (يومَ) منصوب بفعل مضمر ، تقديره : اذكر ، كما هو متعارف في أمثاله .

فبعد أن بين لهم تعرض ما هم فيه من نعيم إلى الزوال على وجه الموعظة ، أعقبه بالتذكير بما بعد ذلك الزوال بتصوير حال البعث وما يترقبهم فيه من العقاب على كفرهم به ، وذلك مقابلة لضده المذكور في قوله : ﴿ والباقيات الصالحات خير ﴾ [الكهف : 46] .

ويجوز أن يكون الظرف متعلقاً بمحذوف غير فعل (اذكر) يدل عليه مقام الوعيد مثل : يَرون أمراً مفظعاً أو عظيماً أو نحو ذلك مما تذهب إلى تقديره نفس السامع .

ويقدر المحذوف متأخراً عن الظرف وما اتصل به لقصد تهويل اليوم وما فيه .

ولا يجوز أن يكون الظرف متعلقاً بفعل القول المقدر عند قوله : لقد جئتمونا ﴾ إذ لا يناسب موقعَ عطف هذه الجملة على التي قبلها ، ولا وجه معه لتقديم الظرف على عامله .

وتسيير الجبال : نقلها من مواضعها بزلزال أرضي عظيم ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ وإذا

الجبال سيرت ﴾ [التكوير : 3] وقوله تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ [النّمل : 88] .

وقيل : أطلق التسيير على تناثر أجزائها .

فالمراد : ويوم نسير كل جبل من الجبال ، فيكون كقوله : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] وقوله : ﴿ وبست الجبال بساً فكانت هباءً منبثاً ﴾ [الواقعة : 5 6] وقوله : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ [النبأ : 20] .

والسبب واحد ، والكيفيتان متلازمتان ، وهو من أحوال انقراض نظام هذا العالم ، وإقبال عالم الحياة الخالدة والبعث .

وقرأ الجمهور نسير ﴾ بنون العظمة .

وقرأ ابن كثير وابن عامر ، وأبو عمرو ﴿ ويوم تُسيّر الجبال ﴾ بمثناة فوقية ببناء الفعل إلى المجهول ورفع ﴿ الجبال ﴾ .

والخطاب في قوله : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ لغير معين .

والمعنى : ويرى الرائي ، كقول طرفة :

ترى جُثْوَتَيْن من تراب عليهما

صفائحُ صمٌّ من صَفيح مُنَضد . . .

وهو نظير قوله : ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ [الكهف : 49] .

والبارزة : الظاهرة ، أي الظاهر سطحها ، إذ ليس عليها شيء يستر وجهها من شجر ونبات أو حيوان ، كقوله تعالى : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 14] .

وجملة وحشرناهم ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تُسير ﴾ على قراءة من قرأ بنون العظمة ، أو من الفاعل المنوي الذي يقتضيه بناء الفعل للنائب على قراءة من قرأ ﴿ تُسير الجبالُ بالبناء للنائب .

ويجوز أن نجعل جملة وحشرناهم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ نسير الجبال ﴾ على تأويله بـ (نحشرهم) بأن أطلق الفعل الماضي على المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه .

والمغادرة : إبقاء شيء وتركه من تعلق فعل به ، وضمائر الغيبة في ﴿ حشرناهم ﴾ و ﴿ منهم ﴾ ﴿ وعُرضوا ﴾ عائدة إلى ما عاد إليه ضمير الغيبة في قوله : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 45] .

وعَرض الشيء : إحضاره ليُرى حاله وما يحتاجه .

ومنه عرض الجيش على الأمير ليرى حالهم وعدتهم .

وفي الحديث "عُرضت عليّ الأمم" وهو هنا مستعار لإحضارهم حيث يعلمون أنهم سيتلقون ما يأمر الله به في شأنهم .

والصف : جماعة يقفون واحداً حذو واحد بحيث يبدو جميعهم لا يحجب أحد منهم أحداً .

وأصله مصدر (صفهم) إذا أوقفهم ، أطلق على المصفوف .

وانتصب ﴿ صفاً ﴾ على الحال من واو ﴿ عُرضوا ﴾ .

وتلك الحالة إيذان بأنهم أحضروا بحالة الجناة الذين لا يخفى منهم أحد إيقاعاً للرعب في قولبهم .

وجملة ﴿ وعرضوا على ربك ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وحشرناهم ﴾ ، فهي في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿ حشرناهم ﴾ ، أي حشرناهم وقد عرضوا تنبيهاً على سرعة عرضهم في حين حشرهم .

(48/473)

وعدل عن الإضمار إلى التعريف بالإضافة في قوله : ﴿ على ربك ﴾ دون أن يقال (علينا) لتضمن الإضافة تنويهاً بشأن المضاف إليه بأن في هذا العرض وما فيه من التهديد نصيباً

من الانتصار للمخاطب إذ كذبوه حين أخبرهم وأنذرهم بالبعث .

وجملة ﴿ لقد جئتمونا ﴾ مقولٌ لقول محذوف دل عليه أن الجملة خطاب للمعروضين فتعين تقدير القول ، وهذه الجملة في محل الحال .

والتقدير : قائلين لهم لقد جئتمونا .

وذلك بإسماعهم هذا الكلام من جانب الله تعالى وهم يعلمون أنه من جانب الله تعالى .

والخطاب في قوله : ﴿ لقد جئتمونا ﴾ موجه إلى معاد ضمير ﴿ عُرضوا ﴾ .

والخبر في قوله : ﴿ لقد جئتمونا ﴾ مستعمل في التهديد والتغليظ والتنديم على إنكارهم البعث .

والمجيء : مجاز في الحضور ، شبهوا حين موتهم بالغائبين وشبهت حياتهم بعد الموت بمجيء الغائب .

وقوله : ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ واقع موقع المفعول المطلق المفيد للمشابهة ، أي جئتمونا مجيئاً كخلقكم أول مرة .

فالخلق الثاني أشبه الخلق الأول ، أي فهذا خلق ثانٍ .

و(ما) مصدرية ، أي كخلقنا إياكم المرة الأولى ، قال تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] .

والمقصود التعريض بخطئهم في إنكارهم البعث .

والإضراب في قوله : بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً ﴾ انتقال من التهديد وما معه من التعريض بالتغليط إلى التصريح بالتغليط في قالب الإنكار ؛ فالخبر مستعمل في التغليط مجازاً وليس مستعملاً في إفادة مدلوله الأصلي .

والزعم : الاعتقاد المخطىء ، أو الخبر المعرَّض للكذب .

والموعد أصله : وقت الوعد بشيء أو مكان الوعد .

وهو هنا الزمن الموعود به الحياة بعد الموت .

والمعنى : أنكم اعتقدتم باطلاً أن لا يكون لكم موعد للبعث بعدا لموت أبداً .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾

(49/473)

جملة ﴿ ووضع الكتاب ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وعرضوا على ربك ﴾ [الكهف : 48] ، فهي في موضع الحال ، أي وقد وضع الكتاب .

والكتاب مراد به الجنس ، أي وضعت كتب أعمال البشر ، لأن لكل أحد كتاباً ، كما دلت عليه آيات أخرى منها قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك ﴾ [الإسراء : 13 14] الآية .

وإفراد الضمير في قوله : مما فيه ﴾ لمراعاة إفراد لفظ (الكتاب) .

وعن الغزالي : أنه قال : يكون كتاب جامع لجميع ما هو متفرق في الكتب الخاصة بكل أحد .

ولعله انتزعه من هذه الآية .

وتفرع على وضع الكتاب بيان حال المجرمين عند وضعه .

والخطاب بقوله : ﴿ فترى ﴾ لغير معين .

وليس للنبيء صلى الله عليه وسلم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يومئذٍ في مقامات عالية عن ذلك الموضع .

والإشفاق : الخوف من أمر يحصل في المستقبل .

والتعبير بالمضارع في ﴿ يقولون ﴾ لاستحضار الحالة الفظيعة ، أو لإفادة تكرر قولهم ذلك وإعادته شأن الفزعين الخائفين .

ونداء الويل : نُدبة للتوجع من الويل .

وأصله نداء استعمل مجازاً بتنزيل ما لا ينادى منزلة ما ينادى لقصد حضوره ، كأنه يقول : هذا وقتك فاحضري ، ثم شاع ذلك فصار لمجرد الغرض من النداء وهو التوجع ونحوه .

والويلة : تأنيث الويل للمبالغة ، وهو سوء الحال والهلاكُ .

كما أُنثت الدارُ على دَارة ، للدلالة على سعة المكان ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال

يا وليتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ﴾ في سورة العقود المائدة (31) .

والاستفهام في قولهم : مال هذا الكتاب ﴾ مستعمل في التعجب .

(فما) اسم استفهام ، ومعناها : أي شيء ، و ﴿ هذا الكتاب ﴾ صفة ل (ما)

الاستفهامية لما فيها من التنكير ، أي ما ثبت لهذا الكتاب .

واللام للاختصاص مثل قوله : ﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ [يوسف : 11] .

(50/473)

وجملة لا يغادر ﴾ في موضع الحال ، هي مثار التعجب ، وقد جرى الاستعمال بملازمة

الحال لنحو ﴿ ما لك ﴾ فيقولون : ما لك لا تفعل وما لك فاعلاً .

والمغادرة : الترك ، وتقدم آنفاً في قوله : ﴿ فلم نغادر منهم أحداً ﴾ [الكهف : 47] .

والصغيرة والكبيرة : وصفان لموصوف محذوف لدلالة المقام ، أي فعلة أو هَنَة .

والمراد بالصِغر والكبر هنا الأفعال العظيمة والأفعال الحقيرة .

والعظم والحقارة يكونان بحسب الوضوح والخفاء ويكونان بحسب القوة والضعف .

وتقديم ذكر الصغيرة لأنها أهم من حيث يتعلق التعجب من إحصائها .

وعطفت عليها الكبيرة لإرادة التعميم في الإحصاء لأن التعميم أيضاً مما يثير التعجب ، فقد

عجبوا من إحاطة كاتب الكتاب بجميع الأعمال .

والاستثناء من عموم أحوال الصغيرة والكبيرة ، أي لا يبقي صغيرة ولا كبيرة في جميع أحوالهما إلا في حال إحصائه إياها ، أي لا يغادره غير محصي .

فالاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده لأنه إذا أحصاه فهو لم يغادره ، فآل إلى معنى أنه لا يغادر شيئاً ، وانتفت حقيقة الاستثناء .

فجملة أحصاها ﴾ في موضع الحال .

والرابط بينها وبين ذي الحال حرف الاستثناء .

والإحصاء : العد ، أي كانت أفعالهم معدودة مفصلة .

وجملة ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يقولون ﴾ .

أي إنما قالوا ذلك حين عرضت عليهم أعمالهم كلها عند وضع ذلك الكتاب عرضاً سريعاً حصل به علم كلَ بما في كتابه على وجهٍ خارق للعادة .

وجملة ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ عطف على جملة ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ لما أفهمته الصلة من أنهم لم يجدوا غير ما عملوا ، أي لم يحمل عليهم شيء لم يعملوه ، لأن الله لا يظلم أحداً فيؤاخذه بما لم يقترفه ، وقد حدد لهم من قبل ذلك ما ليس لهم أن يفعلوه وما أمروا بفعله ، وتوعدهم ووعدهم ، فلم يكن في مؤاخذتهم بما عملوه من المنهيات بعد ذلك ظلم لهم .

(51/473)

والمقصود : إفادة هذا الشأن من شؤون الله تعالى ، فلذلك عطفت الجملة لتكون مقصودة أصالة .

وهي مع ذلك مفيدة معنى التذييل لما فيها من الاستدلال على مضمون الجملة قبلها ، ومن العموم الشامل لمضمون الجملة قبلها وغيره ، فكانت من هذا الوجه صالحة للفصل بدون عطف لتكون تذييلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(52/473)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

قوله " ويوم " منصوب باذكر مقدراً . أوبفعل المحذوف قبل قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ [الأنعام : 94] أي قلنا لهم يوم نسير الجبال : لقد جئتمونا فرادى . وقول من زعم أن العامل فيه " خير " يعني والباقيات الصالحات خير يوم نسير الجبال – بعيد جداً كما ترى .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : كم أن يوم القيامة يختل فيه نظام هذا العالم الدنيوي ، فتسير جباله ، وتبقى أرضه بارزة لا حجر فيها ولا شجر ، ولا بناء ولا وادي ولا علم - ذكره في مواضع أخر كثيرة ، فذكر أنه يوم القيامة يحمل الأرض والجبال من أماكنهما ، ويدكهما دكة واحدة ، وذلك في قوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ [الحاقة : 13-15] الآية . وما ذكره من تسيير الجبال في هذه الآية الكريمة ذكره أيضاً في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ [الطور : 9-10] ، وقوله : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 3] ، وقوله : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] الآية .

(53/473)

ثم ذكر في مواضع أخر - أنه جل وعلا يفتتها حتى تذهب صلابتها الحجرية وتلين ، فتكون في عدم صلابتها ولينها كالعهن المنفوش ، وكالرمل المتهايل ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ [المعارج : 8-9] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ

الناس كالفراش المبثوث وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 4-5] والعهن : الصوف . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ [المزمل : 14] ، وقوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 5] أي فتتت حتى صارت كالبسيبة ، وهي دقيق متلوت بسمن ، على أشهر التفسيرات .

ثم ذكر جل وعلا أنه يجعلها هباء وسراباً . قال : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 5-6] وقال : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] .

وبين في موضع آخر - أن السراب عبارة عن لا شيء . وهو قوله ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور : 39] - إلى قوله - ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو " تسير الجبال " بالتاء المثناة الفوقية وفتح الياء المشددة منقوله " تسير " مبنياً للمفعول . و ﴿ الجبال ﴾ بالرفع نائب فاعل ﴿ نسير ﴾ والفاعل المحذوف ضمير يعود إلى الله جل وعلا . وقرأه باقي السبعة " نسير " بالنون وكسر الياس المشددة مبنياً للفاعل ، و " الجبال " منصوب مفعول به ، والنون في قوله " نسير " للتعظيم .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ البروز : الظهور . أي ترى الأرض ظاهر منكشفة لذهاب الجبال والظراب والآكام ، والشجر والعمارات التي كانت عليها . وهذا المعنى الذي ذكره هنا – بينه أيضاً في غير هذا الموضع . كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾ [طه : 105-107] . وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى شيء واحد ، وهو أنها أرض مستوية لا نبات فيها ، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار . وقول من قال : إن معنى ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي بارزاً ما كان في بطنها من الأموات والكنوز – بعيداً جداً كما ترى . وبروز ما في بطنها من الأموات والكنوز دلت عليه آيات أخر . كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : 4] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ [العاديات : 9-10] ، وقوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : 4] .

(55/473)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وحشرناهم ﴾ أي جمعناهم للحساب والجزاء . وهذا الجم المعبر عنه بالحشر هنا – جاء مذكوراً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 49–50] ، وقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ [النساء : 87] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ [التغابن : 9] ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] . وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأنعام : 22] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وبين في مواضع آخر – أن هذا الحشر المذكور شامل للعقلاء وغيرهم من أجناس المخلوقات ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ اي لم نترك . والمغادرة : الترك . ومنه الغدر . لأنه ترك الوفاء والأمانة . وسمي الغدير من الماء غديراً ، لأن السيل ذهب وتركه . ومن المغادرة بمعنى الترك قول عنترة في مطلع معلقته :

هل غادر الشعراء من متردم . . . أم هل عرفت الدار بعد توهم

وقوله ايضاً :

غادرته متعفراً أوصاله . . . والقوم بين مجرح ومجدل

وما ذكره في هذه الآية الكريمة – من أنه حشرهم ولم يترك منهم أحداً – جاء مبيناً في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأنعام : 22] الآية ، ونحوها من الآيات ، لأن حشرهم جميعاً هو معنى أنه لم يغادر منهم أحداً .

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾ .

(56/473)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أن الخلائق يوم القيامة يعرضون على ربهم صفاً ، أي في حال كونهم مصطفين . قال بعض العلماء : صفاً بعد صف . وقال بعضهم : صفاً واحداً وقال بعض العلماء " صفاً " أي جميعاً ، كقوله ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ [طه : 64] على القول فيه بذلك . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : وخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مندة في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل – أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادي ، أن الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين . يا عبادي ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسؤولون محاسبون . يا ملائكتي ، أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " قلت : هذا

الحديث غاية في البيان في تفسير الآية . ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كتبناه في كتاب التذكرة ومنه نقلناه ، والحمد لله . انتهى كلام القرطبي . والحديث المذكور يدل على أن " صفا " في هذه الآية يراد به صفوفاً . كقوله في الملائكة : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] . ونظير الآية قوله في الملائكة : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 38] .

(57/473)

فإذا علمت أن الله جل وعلا ذكر في هذه الآية حالاً من أحوال عرض الخلائق عليه يوم القيامة – فاعلم أنه بين في مواضع أخر أشياء أخر من أحوال عرضهم عليه . كقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 18] . وبين في مواضع أخر ما يلاقيه الكفار ، وما يقال لهم عند ذلك العرض على ربهم . كقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أولئك يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [هود : 18-19] .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ صفاً ﴾ أصله مصدر ، والمصدر المنكر قد يكون حالاً

على حد قوله في الخلاصة :

ومصدر منكر حالاً يقع . . . بكثر كبغتة زيد طلع

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الآية .

هذا الكلام مقول قول محذوف . وحذف القول مطرد في اللغة العربية ، كثير جداً في القرآن الكريم العظيم . والمعنى : يقال لهم يوم القيامة لقد جئتمونا ، أي والله لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، اي حفارة عراة غرلاً ، أي غير مختونين ، كل واحد منكم فرد لا مال معه ولا ولد ، ولا خدم ولا حشم .

وقد أوضح هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله :

(58/473)

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 94] ، وقوله : ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ [مريم : 94-95] وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا ﴾ [الأنبياء : 104] الآية ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29

] تقدم .

وقوله فيه هذه الآية الكريمة : ﴿ كما خلقناكم ﴾ " ما " مصدرية ، والمصدر المنسبك منها ومن صلتها نعت لمصدر محذوف على حذف مضاف . وإيضاح تقريره : ولقد جئتمونا كما خلقناكم ، أي مجيئاً مثل مجيء خلقكم ، اي حفاة عراة غرلاً كما جاء في الحديث ، وخالين من المال والولد . وهذا الأعراب هو مقتضى كلام أبي حيان في البحر . ويظهر لي أنه يجوز إعرابه أيضاً حالاً ، اي جئتمونا في حال كونكم مشابهين لكم في حالتكم الأولى ، لأن التشبيه يؤول بمعنى الوصف ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

ويكثر الجمود في سعر وفي . . . مبدي تأول بلا تكلف

كبعه مدا بكذا يداً بيد . . . وكر زيد أسداً أي كأسد

فقوله " وكر زيد أسداً أي كأسد " مثال لمبدي التأول ، لأنه في تأويل كر في حال كونه مشابهاً للأسد كما ذكرنا – واعلم أن حذف القول وإثبات مقوله مطرد في اللغة العربية ، وكثير في القرآن العظيم كما ذكرنها آنفاً . لكن عكسه وهو إثبات القول وحذف مقوله قليل جداً ، ومنه قول الشاعر :

لنحن الألى قلتم فأني ملئتم . . . برؤيتنا قبل اهتمام بكم رعبا

لأن المراد لنحن الألى قلتم نقاتلهم ، فحذف جملة نقاتلهم التي هي مقول القول . وقوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ [الأنعام : 94] عبر فيه بالماضي وأراد المستقبل ، لأن تحقيق وقوع ذلك ينزله منزلة الواقع بالفعل . والتعبير بصيغة الماضي عن المستقبل لما ذكرنا كثيراً جداً في القرآن العظيم ، ومنه قوله هنا : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ [الكهف : 47] ، وقوله : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ ﴾ [الكهف : 48] ، وقوله : ﴿ ﴾ . ومنه قوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] ، وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ [الكهف : 99] ، وقوله : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا ﴾ [الزمر : 71] ، وقوله : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : 73] ونحو ذلك كثير في القرآن لما ذكرنا

قوله تعالى : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أن الكفار زعموا أن الله لن يجعل لهم موعداً .

والموعد يشمل زمان الوعد ومكانه . والمعنى : أنهم زعموا أ ، الله لم يجعل وقتاً ولا مكاناً لإنجاز ما وعدهم على ألسنة رسله من البعث والجزاء والحساب . . وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من إنكارهم البعث – جاء مبيناً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ [التغابن : 7] الآية . وقوله عنهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [

الأنعام : 29] ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان : 35] ونحو ذلك من الآيات .

وقد بين الله تعالى كذبهم في إنكارهم للبعث في آيات كثيرة . كقوله في هذه السورة الكريمة :

(60/473)

﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ [الكهف : 58] ، وقوله ﴿ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [التغابن : 7] الآية ، وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ [النحل : 38] ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 104] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً . وقد قدمنا في سورة " البقرة " وسورة " النحل " – البراهين التي يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ بل زعمتم ﴾ إضراب انتقالي من خبر إلى خبر آخر ، لا إبطالي كما هو واضح . وأن في قوله ﴿ أَن لَّن نَّجْعَلَ ﴾ . مخففة من الثقيلة ، وجملة الفعل الذي بعدها خبرها ، والاسم ضمير الشأن المحذوف . على حد قوله في الخلاصة : وإن تخفف أن . . البيت والفعل المذكور متصرف وليس بدعاء ، ففصل بينه وبينها بالنفي . على حد قوله في الخلاصة : وإن يكن فعلاً ولم يكن دعا . . البيتين .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مالِ هذَا الْكِتَابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكتاب يوضع يوم القيامة . والمراد بالكتاب : جنس الكتب . فيشمل جميع الصحف التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا . وأن المجرمين يشفقون مما فيه . أي يخافون منه ، وأنهم يقولون ﴿ يا ويلتنا مالِ هذَا الْكِتَابِ لا يُغادِرُ ﴾ . أي لا يترك ﴿ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ من المعاصي التي عملنا ﴿ إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ أي ضبطها وحصرها .

(61/473)

وهذا المعنى الذي دت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع أخر . كقوله : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 13-14] وبين أن بعضهم يؤتى كتابه بيمينه . وبعضهم يؤتاه بشماله . وبعضهم يؤتاه وراء ظهره . قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ياليتني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 25] الآية ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ويصلى سَعِيراً ﴾ [الانشقاق : 7-12] وقد قدمنا هذا في سورة " بني إسرائيل " . وما ذكره من وضع الكتاب هنا ذكره في " الزمر " في قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق ﴾ [الزمر : 69] الآية .

(62/473)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فترى المجرمين ﴾ تدم معنى مثله في الكلام على قوله : ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت ﴾ [الكهف : 17] الآية . والمجرمون : جمع المجرم ، وهم اسم فاعل الإجرام . والإجرام : ارتكاب الجريمة ، وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبة عليه النكال . ومعنى كونهم " مشفقين مما فيه " : أنهم خائفون مما في ذلك الكتاب من كشف أعمالهم السيئة ، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، وما يترتب على ذلك العذاب السرمدي . وقولهم ﴿ ياويلتنا ﴾ الويلة : الهلكة ، وقد نادوا هلتكهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات فقالوا : يا ويلتنا ! أي يا هلكتنا احضري فهذا أوان حضورك ! وقال أبو حيان في البحر : المراد من بحضرتهم : كلا أنهم قالوا : يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا . وكذا ما جاء من نداء ما لا يعقل كقوله ﴿ ياأسفا عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف :

84] ، ﴿ ياحسرتا على مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] ، ﴿ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] ، وقوله : يا عجباً لهذه الفليقة ، فيا عجباً من رحلها المتحمل ، إنما يراد به تنبيه من يعقل بالتعجب مما حل بالمنادى انتهى كلام أبي حيان .

وحاصل ما ذكره : أن أداة النداء في قوله " ياويلتنا " ينادة لها محذوف ، وأن ما بعدها مفعول فعل محذوف ، والتقدير كما ذكره : يما من يحضرتنا انظروا هلكتنا . ومعلوم أن حذف المنادى مع إثبات أداة النداء ، ودلالة القرينة على المنادى المحذوف مسموع في كلام العرب .

منه قول عنترة في معلقته :

يا شاة ما قنص لمن حلت له . . . حرمت على وليتها لم تحرم

يعنيك يا قوم انظروا شاة قنص . وقول ذي الرمة :

ألا يا اسلمي يا دارمي على البلا . . . ولا زال منهلا بجرعائك القطر

(63/473)

يعني : يا هذه أسلمي . وقوله تعالى : ﴿ مَا لهذا الكتاب ﴾ أي أي شيء ثبت لهذا الكتاب ﴿ لا يغادر ﴾ أي لا يترك ﴿ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ أي من المعاصي . وقول من

قال : الصغير القبلة ، والكبيرة الزنى ، ونحو ذلك من الأقوال في الآية – إما هو على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر . وللعلماء اختلاف كثير في تعريف الكبيرة معروف في الأصول . وقد صرح تعالى بأن النمهيات منها كبائر . ويفهم من ذلك أن منها صغائر . وبين أن اجتناب الكبائر يكفر الله به الصغائر . وذلك في قوله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : 31] الآية . ويروى عن الفضيل بن عياض في هذه الآية أنه قال : جوا من الصغائر قبل الكبائر . وجملة " لا يغادر " حال من " الكتاب " .

تنبيه

هذه الآية الكريمه يفهم منها – أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة . لأنهم وجدوا في كتاب أعمالهم صغائر ذنوبهم محصاة عليهم ، فلو كانوا غير مخاطبين بما لما سجلت عليهم في كتاب أعمالهم . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أنهم في يوم القيامة يجدون أعمالهم التي عملوها في الدنيا حاضرة محصاة عليهم . وأوضح هذا أيضاً في غير هذا الموضع ، كقوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ [آل عمران : 30] ، وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : 30] الآية ، وقوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : 13] ،

وقوله : ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ [الطارق : 9] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ .

(64/473)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أنه لا يظلم أحداً ، فلا ينقص من حسنات محسن ، ولا يزيد من سيئات مسيئ ، ولا يعاقب على غير ذنب .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء : 40] ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] ، وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ولكن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 33] ، وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] والآيات بمثل ذلك كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(65/473)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

أي : اذكر جيداً يوم نُسيِّر الجبال وتنتهي هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسيِّر الجبال التي تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها ، وقوتها وصلابتها ، وهي باقية على حالها .

ومعنى تسيير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20]

وقال في آية أخرى ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 3]

وقال : ﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ [المرسلات : 10] وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل * وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ [المعارج : 8-9]

ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت في الحياة الدنيا ، وإلا ففي الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ، والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويُزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أَوْلَى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47]

الأرض : كُلّ ما أقلَّك من هذه البسيطة التي نعيش عليها ، وكل ما يعلوك ويُظِلُّك فهو سماء ، ومعنى : ﴿ بَارِزَةً ﴾ البَرَازُ : هو الفضاء ، أي : وترى الأرض فضاءً خالية مما كان عليها من أشكال الجبال والمباني والأشجار ، حتى البحر الذي يغطي جزءاً كبيراً من الأرض . كل هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها ، فكأن الأرض بَرزَتْ بعد أنْ كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المباني ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحتْ فضاء واسعاً ، ليس فيه مَعْلَمٌ لشيء .

(66/473)

ومن ذلك ما نُسمّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لي بره) أي : في مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتمي به ، أو حائطاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أي : صارعه .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ [الكهف : 47] أي : جمعناهم ليوم الحساب ؛ لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذي يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 47] أي : لم نترك منهم واحداً ، الكلُّ معرض

على الله ، وكلمة ﴿ نُغَادِرْ ﴾ [الكهف : 47] ومادة (غدر) تؤدي جميعها معنى الترْك ، فالغدر مثلاً تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة ، حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمّي غديراً ؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً في المواطئ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً . . ﴾ [الكهف : 48] العرض : أن يستقبل العارض المعروضَ استقبالاً مُنظّماً يدلّ على كُلِّ هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود في العرض العسكري مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده ﴿ صَفّاً ﴾ أي : صُفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتي صُفوفاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22]

أي : أنها عملية مُنظمة لا يستطيع فيها أحد التخفي ، ولن يكون لأحد منها مفرٌّ ، وهي صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفي فيها صَفٌّ الصفَّ الذي يليه ، فالجميع واضح بكل أحواله .

وفي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يَحشر الله الخَلْق ثم ينادي : يا عبادي أحضروا حُجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحَاسَبُون مَسْئولون ، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

ولك أنْ تتصوَّر المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميْه ؛ لأن ثقل الجسم يُوزَّع على القدمين في حال الوقوف ، وعلى المقعدة في حال الجلوس ، وعلى الجسم كله في حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التي هو عليها ، فإنْ تركّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين ، فلا شَكَّ أنه وَضْع مؤلم وشاقّ ، يصعُب على الناس حتى إنهم ليتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ﴾ [الكهف : 48]

أي : على الحالة التي نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فُصِّل هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 94]

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً ﴾ [الكهف : 48] والخطاب هنا مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب ﴿ زَعَمْتُمْ ﴾ [الكهف : 48] والزعْم

مطيّة الكذب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ [الكهف : 49] أي : وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهي إذن صور متعددة ، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال :

(68/473)

﴿ هَآؤُمُ اقرءوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 19] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه ؛ لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل ؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالتلميذ الذي حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .

وهذا بخلاف مَنْ أوتي كتابه بشماله فإنه يقول : ﴿ ياليتني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * ياليتها كَانَتِ القاضية * مَا أَغنى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة : 25-29]

إنه الخزي والانكسار والندم على صحيفة مُخْجِلة .

﴿ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] أي : خائفين يرتعدون ، والحق

سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه لِيُفزع عباده ويُحذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون في وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

فحالتهم الأولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتي نزوع القول : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ [الكهف : 49] يا : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوانُك فاحضري .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابني آدم عليه السلام لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت في ذرية آدم ؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه ، فقال : ﴿ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي . . ﴾ [المائدة : 31] ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ [المائدة : 31] يا هلاكي كأن يتحسَّر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة ؛ لكي لا نظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تَفهم ، والحقيقة : ليتنا مثلهم .

(69/473)

قوله تعالى : ﴿ مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] أي : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾

[الكهف : 49] فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطّر في كُتبهم ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(70/473)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والخطيب ، عن سفيان الثوري قال : كان يقال إنما سمي المال ، لأنه يميل بالناس ، وإنما سميت الدنيا لأنها دنت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عياض بن عقبة أنه مات له ابن يقال له يحيى ، فلما نزل في قبره قال له رجل : والله إن كان لسيد الجيش فاحتسبه . فقال : وما يمنعني أن أحتسبه ؟ وكان أمس من زينة الدنيا ، وهو اليوم من الباقيات الصالحات .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب قال : ﴿ المال والبنون ﴾ حرث الدنيا ،

والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله . والله أكبر .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " " استكثروا من الباقيات الصالحات " قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : " التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله " " .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه ، عن النعمان بن بشير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا وأن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر من الباقيات الصالحات " .

(71/473)

وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الصغير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " خذوا جنتكم " قيل : يا رسول الله أمن عدوّ قد حضر قال : لا . " بل جنتكم من النار قول :

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات محسنات وهن الباقيات الصالحات " " .

وأخرج الطبراني وابن شاهين في الترغيب في الذكر وابن مردويه ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله هن الباقيات الصالحات وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهن من كنوز الجنة " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس بن مالك قال : " مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بشجرة يابسة ، فتناول عوداً من أعوادها فتناثر كل ورق عليها فقال : " والذي نفسي بيده ، إن قائلاً يقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لتتناثر الذنوب عن قائلها ، كما يتناثر الورق عن هذه الشجرة "

قال الله في كتابه : هن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ .

وأخرج أحمد ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن سمرة بن جندب : ما من الكلام شيء أحب إلى الله من الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر هن أربع فلا تكثر علي لا يضرك بأيهن بدأت .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه ، والعدوّ ، أن تجاهدوه ، فلا تعجزوا عن قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن الباقيات الصالحات " .

(72/473)

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذوا جنتكم من النار ، قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن المقدمات ، وإنهن المؤخرات ، وهن المنجيات ، وهن الباقيات الصالحات " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر وابن مردويه ، عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه " " خذوا جنتكم " مرتين ، أو ثلاثاً ، قالوا : من عدوّ حضر ؟ قال : " بل من النار . قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن يجئن يوم القيامة مقدمات ومحسنات ومعقبات وهن الباقيات الصالحات " " .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الباقيات الصالحات من قال : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله

" .

وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يثبطكم الليل فلم تقوموه ، وعجزتم عن النهار ، فلم تصوموه ، وبخلتم بالمال فلم تعطوه ، وجبنتم عن العدوّ فلم تقاتلوه . فأكثروا من سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإنهن الباقيات الصالحات " .

وأخرج الطبراني ، " عن سعد بن جنادة قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم فأسلمت وعلمني ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ إذا زلزلت ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وقال : " هن الباقيات الصالحات " " .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر ، عن عثمان بن عفان أنه سئل عن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ قال : هي لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(73/473)

وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ قال : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : هي ذكر الله ، لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وتبارك الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله وأستغفر الله وصلى الله على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصلاة والصيام والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد ، عن سعيد بن المسيب قال : كنا عند سعد بن أبي وقاص ، فسكت سكتة فقال : لقد قلت في سكتتي هذه خيراً مما سقى النيل والفرات . قلنا له : وما قلت ؟ قال : قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : الكلام الطيب .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوي كدوي النحل ، يذكرن بصاحبهن ، أو لا يحب أحدكم أن لا يزال عند الرحمن شيء يذكر به " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن أبي أوفى قال : " أتى رجل النبي صلى الله عليه

وسلم فذكر أنه لا يستطيع أن يأخذ من القرآن شيئاً ، وسأله شيئاً يجزئ من القرآن ؟ فقال له : " قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله " " .

(74/473)

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم ، عن موسى بن طلحة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلمات إذا قالهن العبد وضعهن ملك في جناحه ، ثم عرج بهن فلا يمر على ملأ من الملائكة إلا صلوا عليهن ، وعلى قائلهن ، حتى يوضعن بين يدي الرحمن ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله وسبحان الله أبرئه عن السوء " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن البصري قال : رأى رجل في المنام ، أن منادياً نادى في السماء ، أيها الناس خذوا سلاح فزعكم ، فعمد الناس وأخذوا السلاح حتى إن الرجل ليجيء وما معه عصا ، فنادى مناد من السماء ليس هذا سلاح فزعكم ، فقال رجل من الأرض ما سلاح فزعنا ؟ فقال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ من أتصدق بعددها

دنانير" .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن عمرو قال : لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ من أن أحمل على عدتها من خيل بأرسانها .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن أبي هريرة قال : من قال من قبل نفسه الحمد لله رب العالمين كتب الله له ثلاثين حسنة ، ومحا عنه ثلاثين سيئة ، ومن قال : الله أكبر ، كتب الله له بها عشرين حسنة ، ومحا عنه بها عشرين سيئة ، ومن قال : لا إله إلا الله ، كتب الله له عشرين حسنة ، ومحا عنه بها عشرين سيئة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس أنه قال : في قوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ ﴿ والحسنات يذهبن السيئات ﴾ الصلوات الخمس .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : كل شيء من طاعة الله فهو من الباقيات الصالحات .

(75/473)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن قتادة أنه سئل ، عن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ فقال : كل ما أريد به وجه الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ قال : خير جزاء من جزاء المشركين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وخير أملاً ﴾ قال : إن لكل عامل أملاً يؤمله ، وإن المؤمن خير الناس أملاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ قال : لا عمران فيها ولا علامة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ قال : ليس عليها بناء ولا شجرة .

وأخرج ابن منده في التوحيد ، عن معاذ بن جبل : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله ينادي يوم القيامة يا عبادي ، أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ويسروا جواباً ، فإنكم مسؤولون مُحَاسَبُون ، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾

أخرج البزار ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان فيه العمل الصالح ، وديوان فيه ذنوبه ، وديوان فيه النعم من الله عليه " .

وأخرج الطبراني ، عن سعد بن جنادة قال : " لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من

غزوة حنين نزلنا قفرا من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اجمعوا من وجد عوداً فليأت ، ومن وجد عظماً أو شيئاً فليأت به " قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أترون هذا ؟ فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل لا يذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها محصاة عليه " " .

(76/473)

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ قال : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في الآية قال : الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة القهقهة بذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ الآية . قال : يشتكي القوم كما تسمعون . الإحصاء ، ولم يشتك أحد ظلماً ، فإياكم والمحقرات من الذنوب ،

فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في الآية . قال : سئلوا حتى عن التبسم ، فقيل فيم تبسمت يوم كذا وكذا ؟ ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(77/473)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ﴾ : " يومَ " منصوبٌ بقولٍ مضمرٍ بعده تقديرُه : نقول لهم نُسَيِّر الجبال : لقد جِئْتمونا . وقيل : بإضمار اذكر . وقيل : هو معطوفٌ على " عند ربك " فيكونُ معمولاً لقولِه " خيرٌ " .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضمِّ التاء وفتح الياء مبنياً للمفعول . " الجبالُ " بالرفع لقيامِه مَقامَ الفاعل ، وحَذَفَ الفاعلَ للعِلْمِ به وهو الله ، أو مَنْ يأمرُه من الملائكة . وهذه القراءةُ موافقةٌ لِما اتُّفق عليه في قوله ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ [النبأ : 20] ، ويؤيِّدها قراءةُ عبدِ الله هنا ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول .

والباقون " نُسَيِّر " بنون العظمة ، والياءُ مكسورةٌ مِنْ " سَيَّر " بالتشديد ؛ " الجبالَ "

بالنصب على المفعول به ، وهذه القراءةُ مناسِبةٌ لِما بعدها مِنْ قولِه ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ .

وقأ الحسنُ كقراءةِ/ ابنِ كثير ومَنْ ذُكِرَ معه إلا أنه بالياءِ مِنْ تحتُ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ . وقرأ ابن محيصن ، ورواها محبوبٌ عن أبي عمرو : " تَسِيْر " بفتحِ التاءِ من فوقُ ساكن الياء مِنْ سارَتْ تسيرُ ، و " الجبالُ " بالرفع على الفاعليةِ .

قوله : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ " بارزةً " حالٌ ؛ إذ الرؤيةُ بَصَرِيةٌ . وقرأ عيسى " وتُرى الأرضُ " مبنياً للمفعول ، و " الأرضُ " قائمةٌ مقامَ الفاعل .

(78/473)

قوله : " وحَشَرْناهم " فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ماضٍ مُرادٌ به ، المستقبلُ ، أي : ونَحْشُرهم ، وكذلك ﴿ وَعُرِضُواْ ﴾ [الكهف : 48] ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ [الكهف : 49] . والثاني : أن تكونَ الواوُ للحالِ ، والجملةُ في محلِّ النصب ، أي : نفعل التسييرَ في حال حَشْرِهم ليشاهدوا تلك الأهوالَ . والثالث : قال الزمخشري : " فإن قلتَ : لِمَ جِيْءَ ب " حَشَرْناهم " ماضياً بعد " نُسَيِّر " و " تَرَى " ؟ قلت : للدلالة على أنَّ حَشْرَهم قبل التَّسْيِيرِ وقبل البروزِ ليعاينوا تلك الأهوالَ العِظامَ ، كأنه قيل : وحَشَرناهم قبل

ذلك " .

قال الشيخ : " والأَوْلَى أَنْ تكونَ الواوُ للحال " فَذَكَرَ نحواً مِمَّا قدَّمْتُه .

قوله : " فلم نغادِر " عطفٌ على " حَشَرْناهم " فإنه ماضٍ معنى . والمغادَرَةُ هنا : بمعن الغَدْر وهو الترك ، أي : فلم نترك . والمفاعلةُ هنا ليس فيها مشاركةٌ . وسُمِّيَ الغَدْرُ غَدْراً لأنَّ به تُرِكَ الوفاءُ . وغَديرُ الماء مِنْ ذلك لأنَّ السيلَ غادَرَه ، أي : تَرَكَه فلم يَجِئْهُ أو ترك فيه الماءَ ، ويُجْمع على " غُدُر " و " غُدْران " كَرَغِيف ورُغْفان ، واسْتَغْدَرَ الغَدِيرَ : صار فيه الماء . والغَدِيْرة : الشَّعْرُ الذي تُرِكَ حتى طالَ . والجمع غَدائِر . قال امرؤ القيس :

3168- غَدائِرُه مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا . . . . . .

. . . . . .

وقرأ قتادة " فلم تُغادِرْ " بالتاءِ من فوقُ ، والفاعلُ ضميرُ الأرض ، أو الغَدْرَةِ المفهومةِ من السياق . وأبان " يُغادَرْ " مبنياً للمفعول ، " أحدٌ " بالرفع . والضحاك : " نُغْدِرْ " بضم النونِ وسكونِ العينِ وكسرِ الدالِ مِنْ " أَغْدَرَ بمعنى غَدَرَ .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

قوله : ﴿ صَفّاً ﴾ : حالٌ من مرفوعِ " عُرِضوا " وأصلُه المصدرية . يُقال منه : صَفَّ يَصِفُّ صَفّاً ، ثم يُطْلَقُ على الجماعة المُصطَفِّين . واخْتُلِف هنا في " صَفّاً " : هل هو مفردٌ وقع مَوْقع الجمعِ ، إذ المرادُ صفوفاً ، ويَدُلُّ عليه الحديث الصحيح : " يَجْمَع اللهُ الأوَّلين والآخرين في صَعيدٍ واحدٍ صُفوفاً " وفي حديث آخر : " أهل الجنةِ مئةٌ وعشرون صَفّاً ، أنتم منهم ثمانون " وقيل : ثَمَّ حَذْفٌ ، أي : صَفّاً صَفّاً . ومثلُه قولُه في موضع : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] . وقال في آخرَ : ﴿ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] يريد : صفاً صفاً ، بدليل الآيةِ الأخرى فكذلك هنا . وقيل : بل كلُّ الخلائقِ يكونون صفاً واحداً ، وهو أبلغُ في القُدرة . وأمَّا الحديثان فيُحملان على اختلافِ أحوال ، لأنه يومٌ طويلٌ كما شهد له بقولِه ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] فتارةً يكونون فيه صَفّاً واحداً وتارةً صفوفاً .

قوله : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ على إضمارِ قولٍ ، أي : وقُلْنا لهم : كيت وكيت . وتقدَّم أنَّ هذا القولَ هو العاملُ في ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ [الكهف : 47] . ويجوز ان يُضمر هذا القولُ حالاً من مرفوعِ " عُرِضُوا " ، أي : عُرِضُوا مَقُولاً لهم كذا .

قوله : ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ، أي : مجيئاً مُشْبِهاً لخلقِكم الأول حفاةً عُراةً غُرْلاً ، لا مالَ ولا ولدَ معكم . وقال الزمخشري : " لقد بَعَثْناكم كما أَنْشَأْناكم أولَ مرة " فعلى هذين التقديرين ، يكونُ نعتاً للمصدرِ المحذوفِ ، وعلى رأي سيبويه يكون حالاً مِنْ ضميرِه .

قوله : ﴿ أَلَّن نَّجْعَلَ ﴾ "أَنْ" هي المخففةُ ، وفُصِل بينها وبين خبرِها لكونِه جملةً متصرفةً غيرَ دعاءٍ بحرفِ النفي . و "لكم" يجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً للجعل بمعنى التصيير . و "مَوْعِداً" هو الأول . ويجوز أَنْ يكونَ مُعَلَّقاً بالجَعْل ، أو يكونَ حالاً مِنْ "مَوْعداً" إذا لم يُجعل الجَعْلُ تصييراً ، بل بمعنى لمجردِ الإيجاد .

و "بل" في قولِه : "بل زَعَمْتُمْ" لمجردِ الانتقال من غيرِ إبطالٍ .

قوله : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ : العامَّةُ على بنائه للمفعول . وزيد بن علي على بنائِه للفاعل ، وهو اللهُ أو المَلَك . و "الكتابَ" منصوبٌ مفعولاً به . و "الكتابُ" جنسٌ للكتب ؛ إذ من المعلوم أنَّ لكلِّ إنسانٍ كتاباً يَخُصُّه . وقد تقدَّم الوقفُ على ﴿ مَالِ هذا الكتاب ﴾ وكيف فُصِلَتْ لامُ الجرِّ مِنْ مجرورِها خطاً في سورة النساء عند ﴿ فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 78] .

و "لا يغادِرُ" جملةٌ/ حالية من "الكتاب" . والعاملُ الجارُّ والمجرورُ لقيامِه مَقامَ الفعلِ ، أو الاستقرارُ الذي تعلَّق به الحالُ .

قوله : "إلا أحْصاها" في محلِّ نصب نعتاً لصغيرة وكبيرة . ويجوز أن تكونَ الجملةُ في موضعِ

المفعول الثاني ؛ لأنَّ يُغَادِرُ بمعنى يترك ، و " يترك " قد يتعدَّى لاثنين كقوله :

3169- . . . . . فقد

تَرَكْتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

في أحدِ الوجهين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 502. 507 ﴾

(81/473)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

كما تُسيَّرُ جبالُ الأرض يوم القيامة فإنها تُقْتَلَعَ بموت الأبدال الذين يديم بهم الحقُّ – اليومَ – إمساك الأرض ، فهؤلاء السادَة – في الحقيقة – أوتادُ العالَم .

قوله : ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدَاً ﴾ : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأسَ المنية ، ولا يغادر الحقُّ أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه ، وإنَّ شَرَفَهم في الدرجات في تَوَقِّيهم عن مساكنة الدنيا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً ﴾ .

يقيم كُلَّ واحدٍ يومَ العَرْضِ في شاهد مخصوص ، ويُلْبِسُ كُلاً ما يُؤَهّله له ؛ فَمِنْ لباسِ تقوى ، ومن قميصِ هوى ، ومن صِدَارِ وَجْدٍ ، ومن صُدْرَةِ محبة ، ومن رداءِ شوقٍ ، ومن حُلَّة وُصْلَة .

ويقال يجرّدهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة وينادي المنادي على أجسادهم : هذا الذي أَتَى وَوَجَدَ ، وهذا الذي أَبَى وَجَحَدَ وهذا الذي خالَفَ فأَصَرَّ ، وهذا الذي أنعمنا عليه فَشَكَرَ ، وهذا الذي أَحْسَنَّا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذي أسقيناه شرابَنا ، ورزقناه محابَّنا ، وشَوَّقناه إلى لقائنا ، ولَقَّيْنَاه خصائص رِعَائِنا .

وهذا الذي وَسَمْناه بحجتنا ، وحرمناه وجُوهَ قربتنا . وألبسناه نطاق فراقنا ، ومنعناه ، توفيق وفاقنا ، وهذا ، وهذا . . .

واخجلتي من وقوفي وَسْطَ دارِهِمُ ! . . . وقال لي مُغْضَباً : مَنْ أنت يا رجلُ ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً ﴾ .

جئتمونا بلا شفيعٍ ولا ناصر ، ولا مُعينٍ ولا مُظاهِر .

قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم . . . . كيف أنتم ؟ وكيف وَجَدتُم مقيلَكم ؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم !

وقوم يُقال لهم : ما صنعتُم ، وما ضَيَّعْتُم ؟ ما قدَّمتُم ، وما أخرتم ؟ ما أعلنتم ، وما أسررتُم ؟

قُلْ لي بألسنةِ التنفُّسِ . . . كيف أنت وكيف حالك ؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفْصِحون عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ما هم به من أحوالٍ مع محبوبهم . وأخرون تملكهم الحيرة وتُسْكِتُهم الدهشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قالت سكينةُ مَنْ هذا فقلتُ لها : . . . أنا الذي أنتِ من أعدائه زَعمُوا

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ .

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المحفوظ ، لا ما في الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم نَسَخَه ما في اللوح المحفوظ .

ويقال إنْ عامَلَ عبداً بما في الكتاب الذي أثبته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما في كتاب المَلِكِ – سبحانه ، وفرقٌ بين من يُعَامَل بما في كتاب الحقّ من الرحمة . والشفقة وبين مَنْ يحاسبه بما كَتَبَ عليه المَلَكُ من الزّلة .

ويقال إذا حسابهم في القيامة يتصور لهم كأنهم في الحال ، ما فارقوا الزَّلة ، وإن كانت مباشرةُ الزّلةِ قد مَضَت عليها سنون كثيرة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ .

يملك الحزنُ قلبَه لأنه يرى في عمله سيئةٌ فهو في موضع الخجل لتقصيره وإنْ رأى حسنةٍ فهو في موضع الخجل أيضاً لِقِلَّةِ توقيره ؛ فَخَجْلَةُ أَهلِ الصدقِ عند شهود حسناتهم توفي وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زَلاَّتهم .

(83/473)

ويقال أصحابُ الطاعةِ إذا وجدوا ما قدَّموا من العبادات فمآلهم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة ، وأمَّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدَّموا مجاوزة الحدّ ونقضَ العهْدِ ، وما في هذا الباب من الزَّلة وسوء القصد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 399. 401 ﴾

(84/473)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر البعث وختمه بإحسانه بالعدل المثمر لإعطاء كل أحد ما يستحقه ، أتبعه – بما له من الفضل – بابتداء الخلق الذي هو دليله ، في سياق مذكر بولايته الموجبة للإقبال عليه ، وعداوة الشيطان الموجبة للإدبار عنه ، مبين لما قابلوا به عدله فيهم وفي عدوهم من الظلم بفعلهم كما فعل من التكبر على آدم عليه السلام بأصله ، فتكبروا على فقراء المؤمنين بأصلهم وأموالهم وعشائرهم ، فكان فعلهم فعله سواء ، فكان قدوتهم وهو عدوهم ، ولم يقتدوا بخير خلقه وهو وليهم وهو أعرف الناس به ، فقال تعالى عاطفاً على

﴿ واضرب ﴾ : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكر لهم إذ ﴿ قلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ للملائكة ﴾ الذين هم أطوع شيء لأوامرنا وإبليس فيهم ، قال ابن كثير : وذلك أنه كان قد ترسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك ، ولهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة

﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أبيهم نعمة منا عليه يجب عليهم شكرنا فيها ﴿ فسجدوا ﴾ كلهم ﴿ إلا إبليس ﴾ فكأنه قيل : ما له لم يسجد ؟ فقيل : ﴿ كان ﴾ أي لأنه كان ﴿ من الجن ﴾ المخلوقين من نار ، ولعل النار لما كانت نيرة وإن كانت نورانيتها مشوبة بكدورة

وإحراق ، عد من الملائكة لاجتماع العنصرين في مطلق النور ، مع ما كان غلب عليه من العبادة ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة ـ رضى الله عنهم ـ ا قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان – وفي رواية : إبليس – من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " وفي مكائد الشيطان لابن أبي الدنيا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن الجن كانت قبيلة من الملائكة .

(85/473)

ولما كان أكثر الجن مفسداً ، رجوعاً إلى الأصل الذي هو النار المحرقة لما لاصقها ، المفسدة له ، سبب فسقه عن كونه منهم فقال تعالى : ﴿ ففسق ﴾ أي خرج ، يقال : فسقت الفأرة من حجرها – إذا خرجت للعيث والفساد .

﴿ عن أمر ربه ﴾ أي سيده ومالكه المحسن إليه بإبداعه ، وغير ذلك من اصطناعه ، في شأن أبيكم ، إذ تكبر عليه فطرده ربه من أجلكم ، فلا تستنوا به في الافتخار والتكبر على الضعفاء ، فإن من كانت خطيئته في كبر لم يكن صلاحه مرجواً ، ومن كانت خطيئته في معصية كان صلاحه مرجواً ، ثم سبب عن هذا ما هو جدير بالإنكار فقال تعالى في أسلوب الخطاب لأنه أدل على تناهي الغضب وأوجع في التبكيت ، والتكلم لأنه أنص على

المقصود من التوحيد : ﴿ أفتتخذونه ﴾ أي أيفسق باستحقاركم فيطرده لأجلكم فيكون ذلك سبباً لأن تتخذوه ﴿ وذريته ﴾ شركاء لي ﴿ أولياء ﴾ لكم ﴿ من دوني ﴾ أي اتخاذاً مبتدئاً من غيري أو من أدنى رتبة من رتبتي ، ليعم الاتخاذ استقلالاً وشركة ، ولو كان المعنى : من دون – أي غير – اتخاذي ، لأفاد الاستقلال فقط ، ولو كان الاتخاذ مبتدئاً منه بأن كان هو الآمر به لم يكن ممنوعاً ، وأنا وليكم المفضل عليكم ﴿ وهم لكم ﴾ ولما كان بناء فعول للمبالغة ولا سيما وهو شبيه بالمغالاة في نحو القول ، أغنى عن صيغة الجمع فقال : ﴿ عدو ﴾ إشارة إلى أنهم في شدة العداوة على قلب واحد .

ولما كان هذا الفعل أجدر شيء بالذم ، وصل به قوله تعالى : ﴿ بئس ﴾ وكان الأصل : لكم ، ولكنه أبرز هذا الضمير لتعليق الفعل بالوصف والتعميم فقال تعالى : ﴿ للظالمين بدلاً ﴾ إذا استبدلوا من ليس لهم شيء من الأمر وهم لهم عدو بمن له الأمر كله وهو لهم ولي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 475 . 476 ﴾

(86/473)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى ، وذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه وقال : خلقتني من نار وخلقته من طين فأنا أشرف منه في الأصل والنسب فكيف أسجد وكيف أتواضع لها وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا : كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع أنا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيهاً على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة إبليس ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها في قوله : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء ﴾ فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر ، وذكر القاضي وجهاً آخر فقال : إنه تعالى لما ذكر من قبل أمر القيامة وما يجري عند الحشر ووضع الكتاب وكأن الله تعالى يريد أن يذكر ههنا أنه ينادي المشركين ويقول لهم أين شركائي الذي زعمتم وكان قد علم تعالى أن إبليس هو الذي يحمل الإنسان على إثبات هؤلاء الشركاء ، لا جرم قدم قصته في هذه الآية إتماماً لذلك الغرض ثم قال القاضي : وهذه القصة

وإن كان تعالى قد كررها في سور كثيرة إلا أن في كل موضع منها فائدة مجددة .

المسألة الثانية :

أنه تعالى بين في هذه الآية أن إبليس كان من الجن وللناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال : الأول : أنه من الملائكة وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن ولهم فيه وجوه .

الأول : أن قبيلة من الملائكة يسمون بذلك لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [الصافات : 158] ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [الأنعام : 100] .

(87/473)

والثاني : أن الجن سموا جناً للاستتار والملائكة كذلك فهم داخلون في الجن .

الثالث : أنه كان خازن الجنة ونسب إلى الجنة كقولهم كوفي وبصري وعن سعيد بن جبير أنه كان من الجنانين الذين يعملون في الجنات حي من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنة مذ خلقوا رواه القاضي في تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير .

والقول الثاني : أنه من الجن الذين هم الشياطين والذين خلقوا من نار وهو أبوهم .

والقول الثالث : قول من قال كان من الملائكة فمسخ وغير .

وهذه المسألة قد أحكمناها في سورة البقرة وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة أنه

تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية وهو قوله : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي ﴾ والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة .

بقي أن يقال : إن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن إبليس من الملائكة فكيف تناوله ذلك الأمر ، وأيضاً لو لم يكن من الملائكة فكيف يصح استثناؤه منهم ، وقد أجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء ثم قال تعالى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ وفي ظاهره إشكال لأن الفاسق لا يفسق عن أمر ربه ، فلهذا السبب ذكروا فيه وجوهاً .

الأول : قال الفراء : ففسق عن أمر ربه أي خرج عن طاعته .

والعرب تقول فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت ، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها من البابين وقال رؤبة :

يهوين في نجد وغور غائرا . . فواسقا عن قصدها جوائرا

الثاني : حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه أنه قال : لما أمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الأمر ، والمعنى أنه لولا ذلك الأمر السابق لما حصل الفسق ، فلأجل هذا المعنى حسن أن يقال : فسق عن أمر ربه .

الثالث : قال قطرب : فسق عن أمر ربه رده كقوله واسأل القرية واسأل العير قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المقصود من هذا الكلام أن إبليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون هو أشرف من آدم ، فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم ، إنكم في هذا القول اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم فلما علمتم أن إبليس عدو لكم فكيف تقتدون به في هذه الطريقة المذمومة .

هذا هو تقرير الكلام .

فإن قيل : إن هذا الكلام لا يتم إلا بإثبات مقدمات .

فأولها : إثبات إبليس .

وثانيها : إثبات ذرية إبليس .

وثالثها : إثبات عداوة بين إبليس وذريته وبين أولاد آدم .

ورابعها : أن هذا القول الذي قاله أولئك الكفار اقتدوا فيه بإبليس .

وكل هذه المقدمات الأربعة لا سبيل إلى إثباتها إلا بقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

فالجاهل بصدق النبي جاهل بها .

إذا عرفت هذا فنقول المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبياً صادقاً أو ما عرفوا ذلك ؟ فإن عرفوا كونه نبياً صادقاً قبلوا قوله في كل ما يقوله فكلما نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن قول انتهو عنه ، وحينئذ فلا حاجة إلى قصة إبليس وإن لم يعرفوا كونه نبياً جهلوا كل هذه المقدمات الأربعة ولم يعرفوا صحتها فحينئذ لا يكون في إيرادها عليهم فائدة والجواب أن المشركين كانوا قد سمعوا قصة إبليس وآدم من أهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا أن إبليس إنما تكبر على آدم بسبب نسبه ، فإذا أوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجراً لهم عما أظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع .

المسألة الثانية :

قال الجبائي في هذه الآية دلالة على أنه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه في العبد ، إذ لو أراده وخلقه فيه ثم عاقبه عليه لكان ضرر إبليس أقل من ضرر الله عليهما فكيف يوبخهم بقوله : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ ! ؟ تعالى الله عنه علواً كبيراً .

بل على هذا المذهب لا ضرر ألبتة من إبليس بل الضرر كله من الله .

والجواب : المعارضة بالداعي والعلم .

(89/473)

المسألة الثالثة :

إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله ، لأن الداعي لهم إلى ترك دين محمد صلى الله عليه وسلم هو النخوة وإظهار العجب .

فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعي فهو متبع لإبليس حتى أن من كان غرضه في إظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتد بإبليس وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق فنسأل الله الخلاص منه ثم قال تعالى : ﴿ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾ أي بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله به فأطاعه بدل طاعته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 116. 117 ﴾

(90/473)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا إبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنّ ﴾

فِيهِ بَيَانٌ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ الْجِنّ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ فَهُوَ جِنْسٌ غَيْرُ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ جِنْسٌ غَيْرُ

جِنْسِ الْجِنّ .

وَرُوِيَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَصْلُهُمْ مِنْ الرِّيحِ كَمَا أَنَّ أَصْلَ بَنِي آدَمَ مِنْ الْأَرْضِ وَأَصْلُ الْجِنِّ مِنْ النَّارِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(91/473)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجنّ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه كان من الجن على ما ذكره الله تعالى . ومنع قائل هذا بعد ذلك أن يكون من الملائكة لأمرين :

أحدهما : أن له ذرية ، والملائكة لا ذرية لهم .

الثاني : أن الملائكة رسل الله سبحانه ولا يجوز عليهم الكفر ، وإبليس قد كفر ، قال الحسن : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس .

الثاني : أنه من الملائكة ، ومن قالوا بهذا اختلفوا في معنى قوله تعالى ﴿ كان من الجن ﴾ على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما قاله قتادة أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجن .

الثاني : ما قاله ابن عباس ، أنه كان من الملائكة من خزان الجنة ومدبر أمر السماء الدنيا فلذلك قيل من الجن لخزانة الجنة ، كما يقال مكي وبصري .

الثالث : أن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر الملائكة من نور ، قاله سعيد من جبير ، قاله الحسن : خلق إبليس من نار وإلى النار يعود .

الثالث : أن إبليس لم يكن من الإنس ولا من الجن ، ولكن كان من الجان ، وقد مضى من ذكره واشتقاق اسمه ما أغنى .

﴿ ففسق عن أمر ربه . . . ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الفسق الاتساع ومعناه اتسع في محارم الله تعالى :

الثاني : أن الفسق الخروج أي خرج من طاعة ربه ، من قولهم فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من حجرها قال رؤبة بن العجاج :

يهوين من نجدٍ وغورٍ غائرا . . . فواسقاً عن قصدها جوائرا

وفي قوله تعالى : ﴿ . . . بئس للظالمين بدلاً ﴾ وجهان :

أحدهما : بئس ما استبدلوا بطاعة الله طاعة إبليس ، قاله قتادة .

الثاني : بئس ما استبدلوا بالجنة النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ الآية ،

هذه الآية مضمنها تقريع الكفرة وتوقيفهم على خطاياهم في ولايتهم العدو دون الذي أنعم بكل نعمه على العموم ، صغيرها وكبيرها ، وتقدير الكلام : واذكر إذ قلنا وتكررت هذه العبارة حيث تكررت هذه القصة ، إذ هي توطئة النازلة فأما ذكر النازلة هنا فمقدمة للتوبيخ ، وذكرها في البقرة إعلام بمبادىء الأمور ، واختلف المتأولون في السجود لآدم فقالت فرقة هو السجود المعروف ، ووضع الوجه بالأرض ، جعله الله تعالى من الملائكة عبادة له وتكرمة لآدم ، فهذا كالصلاة للكعبة ، وقالت فرقة بل كان إيماء منهم نحو الأرض ، وذلك يسمى سجوداً لأن السجود في كلام العرب عبارة عن غاية التواضع ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

(93/473)

ترى الأكم فيه سجداً للحوافر . . . وهذا جائز أن يكلفه قوم ، فمنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " قوموا إلى سيدكم " ، ومنه تقبيل أبي عبيدة بن الجراح يد عمر بن الخطاب

حين تلقاه في سفرته إلى الشام ذكره سعيد بن منصور في مصنفه ، وقوله ﴿ إلا إبليس ﴾ قالت فرقة هو استثناء منقطع ، لأن ﴿ إبليس ﴾ ليس من الملائكة ، بل هو من الجن ، وهم الشياطين المخلوقين من مارج من نار ، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور ، واختلفت هذه الفرقة فقال بعضها إبليس من الجن ، وهو أولهم ، وبدءتهم ، كآدم من الإنس ، وقالت فرقة بل كان إبليس وقبيله جناً ، لكن جميع الشياطين اليوم من ذريته ، فهو كنوح في الإنس ، احتجوا بهذه الآية ، وتعنيف ﴿ إبليس ﴾ على عصيانه يقتضي أنه أمر مع الملائكة ، وقالت فرقة إن الاستثناء متصل ، وإبليس من قبيل الملائكة خلقوا من نار ، فإبليس من الملائكة وعبر عن الملائكة بالجن من حيث هم مستترون ، فهي صفة تعم الملائكة والشياطين ، وقال بعض هذه الفرقة كان في الملائكة صنف يسمى الجن وكانوا في السماء الدنيا وفي الأرض ، وكان إبليس مدبر أمرهم ولا خلاف أن إبليس كان من الملائكة في المعنى ، إذ كان متصرفاً بالأمر والنهي ، مرسلاً ، والملك مشتق من المالكة ، وهي الرسالة ، فهو في عداد الملائكة يتناوله قول ﴿ اسجدوا ﴾ وفي سورة البقرة وسورة الأعراف استيعاب هذه الأمور ، وقوله ﴿ ففسق ﴾ معناه فخرج وانتزح ، وقال رؤبة : [الرجز]

تهوين في نجد وغوراً غائراً . . . فواسقاً عن قصدها جوائرا

ومنه قال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، وفسقت النواة إذا خرجت عن الثمرة ، وفسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها ، وجميع هذا الخروج المستعمل في هذه الأمثلة ، إنما هو في فساد ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " خمس فواسق يقتلن في الحرم إنما هن مفسدات " وقوله ﴿ عن أمر ربه ﴾ يحتمل أن يريد خرج عن أمر ربه إياه ، أي فارقه كما فعل الخارج عن طريق واحد ، أي منه ، ويحتمل أن يريد فخرج عن الطاعة بعد أمر ربه بها ، و ﴿ عن ﴾ قد تجيء بمعنى بعد في مواضع كثيرة ، كقولك أطعمتني عن جوع ، ونحوه ، فكأن المعنى : فسق بعد أمر ربه بأن يطيع ويحتمل أن يريد فخرج بأمر ربه أي بمشيئته ذلك له ويعبر عن المشيئة ب " الأمر " ، إذ هي أحد الأمور ، وهذا كما تقول فعلت ذلك عن أمرك أي بجدك وبحسب مرادك ، وقال ابن عباس في قصص هذه الآية : كان إبليس من أشرف صنف ، وكان له سلطان السماء وسلطان الأرض ، فلما عصى صارت حاله إلى ما تسمعون ، وقال بعض العلماء إذا كانت خطيئة المرء من الخطأ فلترجه ، كآدم ، وإذا كانت من الكبر ، فلا ترجه ، كإبليس ، ثم وقف عز وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله ﴿ أفتتخذونه ﴾ يريد أفتتخذون إبليس ، وقوله ﴿ وذريته ﴾ ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين الذين يأمرون بالمنكر ويحملون على الأباطيل ، وذكر الطبري أن مجاهداً قال : ذرية إبليس الشيطان ، وكان يعدهم : زلنبور صاحب الأسواق ، يضع رايته

في كل سوق ، وتبن صاحب المصائب ، والأعور صاحب الربا ، ومسوط صاحب الأخبار ، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس ، ولا يجدون لها أصلاً ، وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع .

(95/473)

قال القاضي أبو محمد : وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح فلذلك اختصرته ، وقد طول النقاش في هذا المعنى ، وجلب حكايات تبعد من الصحة ، فتركتها إيجازاً ، ولم يمر بي في هذا صحيح إلا ما في كتاب مسلم من أن للوضوء والوسوسة شيطاناً يسمى خنزت ، وذكر الترمذي أن للوضوء شيطاناً يسمى الولهان والله العليم بتفاصيل هذه الأمور لا رب غيره ، وقوله ﴿ وهم لكم عدو ﴾ أي أعداء ، فهو اسم جنس ، وقوله ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ أي بدل ولاية لله عز وجل بولاية إبليس وذريته ، وذلك هو التعوض من الجن بالباطل ، وهذا هو نفس الظلم ، لأنه وضع الشيء في غير موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(96/473)

وقال ابن الجوزى :

ثم إِن الله تعالى أمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يذكِّر هؤلاء المتكبِّرين عن مجالسة الفقراء قصةَ إِبليس وما أورثه الكِبْر ، فقال : ﴿ وإِذ قلنا ﴾ أي : اذكر ذلك .

وفي قوله : ﴿ كان من الجن ﴾ قولان .

أحدهما : أنه من الجن حقيقة ، لهذا النص ؛ واحتج قائلو هذا بأن له ذريةً وليس للملائكة ذريةٌ وأنه كَفَرَ ، والملائكة رسل الله ، فهم معصومون من الكفر .

والثاني : أنه كان من الملائكة ، وإِنما قيل : "من الجن" ، لأنه كان من قَبِيلٍ من الملائكة يقال لهم : الجن ، قاله ابن عباس ؛ وقد شرحنا هذا في [البقرة : 34] .

قوله تعالى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : خرج عن طاعة ربه ، تقول العرب : فسَقت الرُّطَبة من قشرها : إِذا خرجت منه ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أتاه الفسق لما أُمر فعصى ، فكان سبب فسقه عن أمر ربه ، قال الزجاج : وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وهو الحق عندنا .

والثالث : ففسق عن ردِّ أمر ربِّه ، حكاه الزجاج عن قطرب .

قوله تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذُرِّيَّته أولياء من دوني ﴾ [أي] : توالونهم بالاستجابة

لهم ؟ ! قال الحسن ، وقتادة : ذريته : أولاده ، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم .

قال مجاهد : ذريته : الشياطين ، ومن ذريته زَلَنْبُور صاحب راية إبليس بكل سوق ، وثبْر ، وهو صاحب المصائب ، والأعور صاحب الرياء ، ومِسْوَط صاحب الأخبار يأتي بها فيطرحها على أفواه الناس ، فلا يوجد لها أصل ، وداسم صاحب الإنسان إذا دخل بيته ولم يسلِّم ولم يذكر اسم الله ، فهو يأكل معه إذا أكل .

قال بعض أهل العلم : إذا كانت خطيئة الإنسان في كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت في شهوة فارجه ، فإن معصية إبليس كانت بالكِبْر ، ومعصية آدم بالشهوة .

قوله تعالى : ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بئس الاتخاذ للظالمين بدلاً .

والثاني : بئس الشيطان .

والثالث : بئس الشيطان والذرِّيَة ، ذكرهنَّ ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(97/473)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

تقدم في "البقرة" هذا مستوفًى .

قال أبو جعفر النحاس : وفي هذه الآية سؤال ، يقال : ما معنى "فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه" ففي هذا قولان : أحدهما وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أُمِر فعَصَى ، فكان سببَ الفسق أمْرُ ربه ؛ كما تقول : أطعمته عن جوع .

والقول الآخر وهو مذهب محمد بن قُطْرب أن المعنى : ففسق عن ردّ أمر ربه .

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي ﴾ وقّف عز وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله : أفتتخذونه يا بني آدم وذرّيته أولياء وهم لكم عدوّ ؛ أي أعداء ، فهو اسم جنس .

﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله .

أو بئس إبليس بدلاً عن الله .

واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ؛ فقال الشعبيّ : سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة ؟ فقلت : إن ذلك عُرْس لم أشهده ، ثم ذكرت قوله ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم .

وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات ؛ فهذا أصل

ذريته .

وقيل : إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً وفي اليسرى فرجاً ؛ فهو ينكح هذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة ، فهو يَخْرج وهو يطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة .

وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية ، وذرّيته أعوانه من الشياطين .

قال القشيري أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرّية ، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم ، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس ، فيتوقّف الأمر فيه على نقل صحيح .

(98/473)

قلت : الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبي بكر البَرْقانِي أنه خرج في كتابه مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان " عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكن أوّلَ من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ " وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه ، والله أعلم .

قال ابن عطية : وقوله "وذرِّيَّتَه" ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين ، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل .

وذكر الطبري وغيره أن مجاهداً قال : ذرية إبليس الشياطين ، وكان يعدّهم : زَلَنْبُور صاحبُ الأسواق ، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض ، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق .

وثبر صاحب المصائب ، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب ، والدعاءِ بالويل والحرب .

والأعور صاحب أبواب الزنى .

ومسوط صاحب الأخبار ، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلاً .

وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلّم ولم يذكر اسم الله بصّرَه من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه ، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه .

قال الأعمش : وإني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم ، فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا هذه ! وخاصمتهم ، ثم أذكر فأقول : داسم داسم ! أعوذ بالله منه ! زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد : والأبيض ، وهو الذي يوسوس للأنبياء .

وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام .

والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها .

والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها .

ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكْنَى .

والهفاف يكون بالصحارى يُضلّ الناس ويتيههم .

ومنهم الغيلان .

وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الهفاف هو صاحب الشراب ، ولقوس صاحب التحريش ، والأعور صاحب أبواب السلطان .

(99/473)

قال وقال الدّارانيّ : إن لإبليس شيطاناً يقال له المتقاضي ، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرّ منذ عشرين سنة ، فيحدّث به في العلانية .

قال ابن عطية : وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح ، وقد طوّل النقاش في هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة ، ولم يمرّ بي في هذا صحيح إلا ما كان في كتاب مسلم من : أن للصلاة شيطاناً يسمى خُنْزب .

وذكر الترمذي : أن للوضوء شيطاناً يسمى الولهان .

قلت : أما ما ذُكر من التعيين في الاسم فصحيح ؛ وأما أن له أتباعاً وأعواناً وجنوداً فمقطوع به ، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن له أولاداً من صلبه ، كما قال مجاهد وغيره .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدّثهم بالحديث من الكذب فيتفرّقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدّث .

وفي مسند البَزّار " عن سلمان الفارسي قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لا تكونن إن استطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصِب رايته " وفي مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ عن أبي موسى الأشعري قال : إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلماً ألبستُه التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق زوجته ، قال : يوشِك أن يتزوّج .

ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى عَقّ ؛ قال : يوشِك أن يَبَرّ .

قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شَرِب ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل ؛ قال : أنت أنت ! وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(100/473)

" إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلتُ كذا وكذا فيقول ما صنعتَ شيئاً قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين أهله قال فيُدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت " .

وقد تقدّم .

وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثَغْر الإسكندرية يقول : إن شيطاناً يقال له البيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنّون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(101/473)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

العضد العضو من الإنسان وغيره معروف وفيه لغتان ، فتح العين وضم الضاد وإسكانها وفتحها وضم العين والضاد وإسكان الضاد ، ويستعمل في العون والنصير .

قال الزجاج : والإعضاد التقوّي وطلب المعونة يقال : اعتضدت بفلان استعنت به .

الموبق المهلك يقال : وبق يوبق وبقاً ووبق يبق وبوقاً إذا هلك فهو وابق ، وأوبقته ذنوبه أهلكته .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ .

ذكروا في ارتباط هذه الآية بما قبلها أنه تعالى لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بمجالسة الفقراء وكان أولئك المتكبرون قد تأنفوا عن مجالستهم ، وذكروا للرسول (صلى الله عليه وسلم) طردهم عنه وذلك لما جبلوا عليه من التكبر والتكثر بالأموال والأولاد وشرف الأصل والنسب ، وكان أولئك الفقراء بخلافهم في ذلك ناسب ذكر قصة إبليس بجامع ما اشتركا فيه من التكبر والافتخار بالأصل الذي خلق منه وهذا الذي ذكروه في الإرتباط هو ظاهر بالنسبة للآيات السابقة قبل ضرب المثلين ، وإما أنه واضح بالنسبة لما بعد المثلين فلا والذي يظهر في ارتباط هذه الآية بالآية التي قبلها هو أنه لما ذكر يوم القيامة والحشر وذكر خوف المشركين مما سطر في ذلك الكتاب ، وكان إبليس هو الذي حمل المجرمين على معاصيهم واتخاذ شركاء مع الله ناسب ذكر إبليس والنهي عن اتخاذ ذريته أولياء من دون الله تبعيداً عن المعاصي ، وعن امتثال ما يوسوس به .

وتقدم الكلام في استثناء إبليس أهو استثناء متصل أم منقطع ، وهل هو من الملائكة أم ليس

منهم في أوائل سورة البقرة فأغني عن إعادته ، والظاهر من هذه الآية أنه ليس من الملائكة وإنما هو من الجن .

قال قتادة : الجن حي من الملائكة خلقوا من نار السموم .

(102/473)

وقال شهر بن حوشب : هو من الجن الذين ظفرت بهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء .

وقال الحسن وغيره : هو أول الجن وبداءتهم كآدم في الإنس .

وقالت فرقة : كان إبليس وقبيله جناً لكن الشياطين اليوم من ذريته فهو كنوح في الإنس .

وقال الزمخشري : كان من الجن كلام مستأنف جارٍ مجري التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين كأن قائلاً قال : ما له لم يسجد فقيل ﴿ كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ والفاء للتسبيب أيضاً جعل كونه من الجن سبباً في فسقه ، يعني إنه لو كان ملكاً كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله لأن الملائكة معصومون ألبتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس كما قال :

﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ وهذا الكلام المعترض تعمد من الله عز وعلا

لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم ، فما أبعد البون بين ما تعمده الله وبين قول من ضادّه فزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة فعصى فلُعن ومُسخ شيطاناً ، ثم وركه على ابن عباس انتهى .

والظاهر أن معنى ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ فخرج عما أمره ربه به من السجود .

قال رؤبة :

يهوين في نجد وغوراً غائراً . . .

فواسقاً عن قصدها حوائرا

وقيل : ﴿ ففسق ﴾ صار فاسقاً كافراً بسبب أمر ربه الذي هو قوله ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ حيث لم يمتثله .

قيل : ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ ففسق ﴾ بأمر ربه أي بمشيئته وقضائه لأن المشيئة يطلق عليها أمر كما تقول : فعلت ذلك عن أمرك أي بحسب مرادك ، والهمزة في ﴿ أفتتخذونه ﴾ للتوبيخ والإنكار والتعجب أي أبعد ما ظهر منه من الفسق والعصيان تتخذونه وذريته أولياء من دوني مع ثبوت عداوته لكم تتخذونه ولياً .

وقرأ عبيد الله بن زياد على المنبر وهو يخطب ﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ بفتح الذال ، والظاهر أن لإبليس ذرية وقال بذلك قوم منهم قتادة والشعبي وابن زيد والضحاك والأعمش .

قال قتادة : ينكح وينسل كما ينسل بنو آدم .

وقال الشعبي : لا يكون ذرية إلاّ من زوجة .

(103/473)

وقال ابن زيد : إن الله قال لإبليس إني لا أخلق لآدم ذرية إلاّ ذرأت لك مثلها ، فليس يولد لولد آدم ولد إلاّ ولد معه شيطان يقرن به .

وقيل للرسول (صلى الله عليه وسلم) : " ألك شيطان ؟ قال : "نعم إلا أنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم" " وسمي الضحاك وغيره من ذرية إبليس جماعة الله أعلم بصحة ذلك ، وكذلك ذكروا كيفيات في وطئه وإنساله الله أعلم بذلك ، وذهب قوم إلى أنه ليس لإبليس ولد وإنما الشياطين هم الذين يعينونه على بلوغ مقاصده ، والمخصوص بالذم محذوف أي ﴿ بئس الظالمين بدلاً ﴾ من الله إبليس وذريته وقال ﴿ للظالمين ﴾ لأنهم اعتاضوا من الحق بالباطل وجعلوا مكان ولايتهم إبليس وذريته ، وهذا نفس الظالم لأنه وضع الشيء في غيره موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(104/473)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة ﴾

أي اذكر وقتَ قولنا لهم : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ سجودَ تحيةٍ وتكريم وقد مر تفصيلُه ﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ جميعاً امتثالاً بالأمر ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ فإنه لم يسجُد بل أبى واستكبر وقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق مساقَ التعليلِ لما يفيده استثناءُ اللعين من الساجدين ، كأنه قيل : ما له لم يسجُد ؟ فقيل : كان أصلُه جنيًّا ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أي خرج عن طاعته كما ينبىء عنه الفاءُ ، أو صار فاسقاً كافراً بسببِ أمرِ الله تعالى إذ لولاه لما أبى . والتعرضُ لوصف الربوبيةِ المنافية للفسق لبيان كمالِ قبحِ ما فعله ، والمرادُ بتذكير قصّتِه تشديدُ النكيرِ على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالِهم المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراءِ المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليسَ وأنهم في ذلك تابعون لتسويله كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ ﴾ الخ ، فإن الهمزةَ للإنكار والتعجبِ والفاءَ للتعقيب أي أعَقيبَ علمِكم بصدور تلك القبائحِ عنه تتخذونه ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ أي أولادَه وأتباعَه ، جعلوا ذريتَه مجازاً . قال قتادة : يتوالدون كما يتوالد بنو آدمَ ، وقيل : يُدخل ذنبَه في دُبُره فيبيض فتنفلق البيضةُ عن جماعة من الشياطين ﴿ أَوْلِيَاء مِن دُونِى ﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدَل طاعتي ﴿ وَهُمْ ﴾ أي والحال أن إبليسَ وذريته ﴿ لَكُمْ

عَدُوٌّ ﴾ أي أعداءٌ كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُمُ العدو ﴾ وإنما فُعل به ذلك تشبيهاً له بالمصادر نحو القَبول والوُلوع وتقييد الاتخاذِ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكارِ وتشديدِه ، فإن مضمونَها مانعٌ من وقوع الاتخاذِ ومنافٍ له قطعاً ﴿ بِئْسَ للظالمين ﴾ أي الواضعين للشيء في غير موضعِه ﴿ بَدَلاً ﴾ من الله سبحانه إبليسُ وذريتُه ، وفي الالتفات إلى الغَيبة مع وضع الظالمين موضعَ الضمير من الإيذان بكمال

السُخطِ والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلمٌ قبيح ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(105/473)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾

أي اذكر وقت قولنا ﴿ للملائكة ﴾ كلهم كما هو الظاهر ، واستثنى بعض الصوفية الملائكة المهيمين ، وبعض آخر ملائكة السماء مطلقاً وزعم أن المقول له ملائكة الأرض .

﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ سجود تحية وإكرام أو اسجدوا لجهته على معنى اتخذوه قبلة

لسجودكم لله تعالى ، وقد مر تمام الكلام في ذلك ﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ كلهم أجمعون امتثالاً للأمر ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ لم يكن من الساجدين بل أبى واستكبر ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين ، وقيل : حال من المستثنى وقد مقدرة والرابط الضمير وهو اختيار أبى البقاء ، والأول الصق بالقلب فكأنه قيل ما له لم يسجد ؟ فقيل كان أصله جنياً ، وهذا ظاهر في أنه ليس من الملائكة .

نعم كان معهم ومعدوداً في عدادهم ، فقد أخرج ابن جرير عن سعد بن مسعود قال : كانت الملائكة تقاتل الجن فسبى إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة فتعبد بالسجود معهم .

وأخرج نحوه عن شهر بن حوشب ، وهو قول كثير من العلماء حتى قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر .

وابن أبي حاتم : قاتل الله تعالى أقواماً زعموا أن إبليس من الملائكة والله تعالى يقول : ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ وأخرج عنه ابن جرير .

وابن الأنبياري في كتاب الأضداد .

وأبو الشيخ في العظمة أنه قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس ، وفيه دلالة على أنه لم يكن قبله جن كما لم يكن قبل آدم عليه

السلام انس ، وفي القلب من صحته ما فيه .

وأقرب منه إلى الصحة ما قاله جماعة من أنه كان قبله جن إلا أنهم هلكوا ولم يكن لهم عقب سواه فالجن والشياطين اليوم كلهم من ذريته فهو في الجن كنوح عليه السلام في الإنس على ما هو المشهور ، وقيل : كان من الملائكة والجن قبيلة منهم ، وقد أخرج هذا ابن جرير .

وابن المنذر .

وأبو الشيخ وأبو الشيخ في العظمة .

(106/473)

والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه رضي الله تعالى عنهما أن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وكان له مجمع البحرين بحر الروم وبحر فارس وسلطان الأرض فرأى أن له بذلك عظمة وشرفاً على أهل السماء فوقع في نفسه كبر لم يعلم به أحد إلا الله تعالى فلما أمر بالسجود ظهر كبره الذي في نفسه فلعنه الله تعالى إلى يوم القيامة ، وكان على ما رواه عنه قتادة يقول : لو لم يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود .

وأجيب عن هذا بما أشرنا إليه آنفاً وبغيره مما لا يخفى ، وإلى ذلك ذهب ابن جبير ، وقد

روي عنه جماعة أنه قال : الجن في الآية حي من الملائكة لم يزالوا يصوغون حلى أهل الجنة حتى تقوم الساعة ، وفي رواية أخرى عنه أن معنى ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ كان من خزنة الجنان وهو تأويل عجيب ، ومثله ما أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن قتادة أن معنى كونه من الجن أنه أجن عن طاعة الله تعالى أي ستر ومنع ، ورواية الكثير عنه أنه قائل بما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : هو من الملائكة ومعنى ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ صار منهم بالمسخ ، وقيل : معنى ذلك أنه عد منهم لموافقته إياهم في المعصية حيث أنهم كانوا من قبل عاصين فبعثت طائفة من الملائكة عليهم السلام لقتالهم ، وأنت تعلم أنه يشق الجواب على من ادعى أن إبليس من الملائكة مع دعواه عصمتهم ، ولا بد أن يرتكب خلاف الظاهر في هذه الآية ، نعم مسألة عصمتهم عليهم السلام خلافية ولا قاطع في العصمة كما قال العلامة التفتازاني .

(107/473)

وقد ذكر القاضي عياض أن طائفة ذهبوا إلى عصمة الرسل منهم والمقربين عليهم السلام ولم يقولوا بعصمة غيرهم ، وإذا ذهب مدعي كون إبليس من الملائكة إلى هذا لم يتخلص من الاعتراض إلا بزعم أنه لم يكن من المقربين ولا تساعده الآثار على ذلك ، ويبقى عليه أيضاً

أن الآية تأبى مدعاه ، وكذا لو ذهب إلى ما نقل عن بعض الصوفية من أن ملائكة الأرض لم يكونوا معصومين وكان إبليس عليه اللعنة منهم ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أي فخرج عن طاعته سبحانه كما قال الفراء ، وأصله من فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، وسموا الفأرة فاسقه لخروجها من جحرها من البابين ولهذا عدي بعن كما في قول رؤبة :

يهوين في نجد وغوراً غائرا . . .

فواسقا عن قصدها جوائراً

والظاهر أن الفسق بهذا المعنى مما تكلمت به العرب من قبل ، وقال أبو عبيدة : لم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها وإنما تكلم به العرب بعد نزول القرآن ، ووافقه المبرد على ذلك فقال : الأمر على ما ذكره أبو عبيدة ، وهي كلمة فصيحة على ألسنة العرب ، وكأن ما ذكره الفراء بيان لحاصل المعنى إذ ليس الأمر بمعنى الطاعة أصلاً بل هو إما بمعنى المأمور به وهو السجود وخروجه عنه بمعنى عدم اتصافه به ، وإما قوله تعالى : ﴿ اسجدوا ﴾ وخروجه عنه مخالفته له ، وكون حاصل المعنى ذلك على المعنيين ظاهر ، وقيل : ﴿ عَنْ ﴾ للسببية كما في قولهم كسوته عن عرى وأطعمته عن جوع أي فصار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله تعالى الملائكة المعدود هو في عدادهم إذ لولا ذلك الأمر ما تحقق إباء .

وإلى ذلك ذهب قطرب إلا أنه قال : أي ففسق عن رده أمر ربه ، ويحتمل أن يكون تقدير

معنى وأن يكون تقدير إعراب ؛ وجوز على تقدير السببية أن يراد بالأمر المشيئة أي ففسق بسبب مشيئة الله تعالى فسقه ولولا ذلك لأطاع .

والأظهر ما ذكر أولاً .

(108/473)

والفاء سببية عطفت ما بعدها على قوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ وأفادت تسبب فسقه عن كونه من الجن إذ شأنهم التمرد لكدورة مادتهم وخباثة ذاتهم والذي حبث لا يخرج إلا نكدا وإن كان منهم من أطاع وآمن ، وجوز أن يكون العطف على ما يفهم من الاستثناء كأنه قيل : فسجدوا إلا إبليس أبى عن السجود ففسق ، وتفيد حينئذ تسبب فسقه عن آبائه وتركه السجود .

وقيل : إنها هنا غير عاطفة إذ لا يصح تعليل ترك السجود وآبائه عنه بفسقه عن أمر ربه تعالى .

قال الرضى : والفاء التي لغير العطف وهي التي تسمى فاء السببية لا تخلو أيضاً من معنى الترتيب وتختص بالجمل وتدخل على ما هو جزاء مع تقدم كلمة الشرط وبدونها انتهى .

وليس بشيء لأنه يكفي لصحة ترتب الثاني تسببه كما في ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه

﴿ [القصص : 15] كما صرح به في التسهيل وهنا كذلك .

والتعرض لعنوان الربوبية المنافية للفسق لبيان قبح ما فعله .

والمراد من الأمر بذكر وقت القصة ذكر القصة نفسها لما فيها من تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بانسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليس وأنهم في ذلك تابعون لتسويله كما ينبىء عنه ما يأتي إن شاء الله تعالى ، ومنه يعلم وجه الربط ، وجوز أن يكون وجه أنه تعالى لما بين حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان زهده سبحانه أولاً بزخارف الدنيا بأنها عرضة الزوال وشيكة الانتقال والباقيات الصالحات خير ثواباً وأحسن أملا من أنفسها وأعلاها ثم نفرهم عن الشيطان بتذكير ما بينهم من العداوة القديمة ، واختار أبو حيان في وجهه أنه سبحانه لما ذكر يوم القيامة والحشر وذكر خوف المجرمين مما سطر في كتبهم وكان إبليس اللعين هو الذي حملهم على المعاصي واتخاذ الشركاء ناسب ذكر إبليس والتنفير عنه تبعيداً عن المعاصي وعن امتثال ما يوسوس به ويدعو إليه .

(109/473)

وأياً ما كان فلا يعد ذكر هذه القصة هنا مع ذكرها قبل تكراراً لأن ذكرها هنا لفائدة غير الفائدة التي ذكرت لها فيما قبل وهكذا ذكرها في كل موضع ذكرت فيه من الكتاب الجليل .

ومثل هذا يقال في كل ما هو تكرار بحسب الظاهر فيه .

ولا يخفى أن أكثر المكررات ظاهراً مختلفة الأساليب متفاوتة الألفاظ والعبارات وفي ذلك من الأسرار الإلهية ما فيه فلا يستزلنك الشيطان .

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي ﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب والفاء للتعقيب ، والمراد إما إنكار أن يعقوب اتخاذه وذريته أولياء العلم بصدور ما صدر منه مع التعجب من ذلك ، وإما تعقيب إنكار الاتخاذ المذكور والتعجيب منه أعلام الله تعالى بقبح صنيع اللعين فتأمل ، والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد فتكون الآية دالة على أنه له أولاداً وبذلك قال جماعة ، وقد روي عن ابن زيد أن الله تعالى قال لابليس : أتى لا أخلق لآدم ذرية إلا ذرأت لك مثلها فليس يولد لآدم ولد إلا ولد معه شيطان يقرن به ، وعن قتادة أنه قال : إنه ينكح وينسل كما ينسل بنو آدم .

وذكر في البحر أن من القائلين بذلك أيضاً الضحاك .

والأعمش .

والشعبي .

ونقل عن الشعبي انه قال : لا تكون ذرية إلا من زوجة فيكون قائلاً بالزوجة ، والذي في الدر

المنثور برواية ابن المنذر عنه أنه سئل عن إبليس هل له زوجة ؟ فقال : إن ذلك لعرس ما سمعت به ، وأخرج ابن أبي الدنيا في المكائد .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : ولد إبليس خمسة ثبر وهو صاحب المصائب والأعور وداسم لا أدري ما يعملان ومسوط وهو صاحب الصخب وزلبنور وهو الذي يفرق بين الناس ويبصر الرجل عيوب أهله .

(110/473)

وفي رواية أخرى عنه أن الأعور صاحب الزنا ومسوط صاحب أخبار الكذب يلقيها على أفواه الناس ولا يجدون لها أصلاً وراسم صاحب البيوت إذا دخل الرجل بيته ولم يسم دخل معه وإذا أكل ولم يسم أكل معه وزلبنور صاحب الأسواق وكان هؤلاء الخمسة من خمس بيضات باضها اللعين ، وقيل إنه عليه اللعنة يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أن جميع ذريته من خمس بيضات باضها قال : وبلغني أنه يجتمع على مؤمن واحد أكثر من ربيعة ومضر والله تعالى أعلم بصحة هذه الأخبار ، وقال بعضهم : لا ولد له ، والمراد من الذرية الاتباع من الشياطين ، وعبر عنهم بذلك مجازاً

تشبيهاً لهم بالأولاد ، وقيل ولعله الحق إن له أولاداً واتباعاً ، ويجوز أن يراد من الذرية مجموعهما معاً على التغليب أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يراه أو عموم المجاز .

وقد جاء في بعض الأخبار أن ممن ينسب إليه بالولاد من آمن بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا صلى الله عليه وسلم وهو هامة رضي الله تعالى عنه وسبحان من يخرج الحي من الميت ، ولا يلزمنا أن نعلم كيفية ولادته فكثير من الأشياء مجهول الكيفية عندنا ونقول به فليكن من هذا القبيل إذا صح الخبر فيه .

واستدل نافي ملكيته بظاهر الآية حيث أفادت أنه له ذرية والملائكة ليس لهم ذلك .

ولمدعيها أن يقول : بعد تسليم حمل الذرية على الأولاد .

(111/473)

إنه بعد أن عصى مسخ وخرج عن الملكية فصار له أولاد ولم تفد الآية أن له أولاداً قبل العصيان والاستدلال بها لا يتم إلا بذلك ، وقوله تعالى : ﴿ مِن دُونِى ﴾ في موضع الحال أي أفتتخذونهم أولياء مجاوزين عني إليهم وتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي ﴿ وَهُمْ ﴾ أي والحال أن إبليس وذريته ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أي أعداء كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلَّا رَبَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 77] وقوله تعالى : ﴿ هُمُ العدو ﴾ [

المنافقون : 4] وإنما فعل به ذلك تشبيهاً بالمصادر نحو القبول والولوع ، وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكار وتشديده فإن مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعاً :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى . . .

عدوا له ما من صداقته بد

﴿ بِئْسَ للظالمين ﴾ الواضعين للشيء في غير موضعه ﴿ بَدَلاً ﴾ أي من الله سبحانه ، وهو نصب على التمييز وفاعل ﴿ بِئْسَ ﴾ ضمير مستتر يفسره هو والمخصوص بالذم محذوف أي بئس البدل من الله تعالى للظالمين إبليس وذريته ، وفي الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظالمين موضع ضمير المخاطبين من الإيذان بكمال السخط والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(112/473)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾

عطف على جملة ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ [الكهف : 47] بتقدير : واذكر إذ قلنا

للملائكة ، تفننا لغرض الموعظة الذي سيقت له هذه الجمل ، وهو التذكير بعواقب اتباع الهوى والأعراضُ عن الصالحات ، وبمداحض الكبرياء والعُجب واحتقار الفضيلة والابتهاج بالأعراض التي لا تكسب أصحابها كمالاً نفسياً .

6 وكما وُعظوا بآخر أيام الدنيا ذُكروا هنا بالموعظة بأول أيامها وهو يوم خلق آدم ، وهذا أيضاً تمهيد وتوطئة لقوله : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ الآية [الكهف : 52] ، فإن الإشراك كان من غرور الشيطان ببني آدم .

ولها أيضاً مناسبة بما تقدم من الآيات التي أنحت على الذين افتخروا بجاههم وأموالهم واحتقروا فقراء أهل الإسلام ولم يميزوا بين الكمال الحق والغرور الباطل ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ [الكهف : 28] ، فكان في قصة إبليس نحو آدم مَثل لهم ، ولأن في هذه القصة تذكيراً بأن الشيطان هو أصل الضلال ، وأن خسران الخاسرين يوم القيامة آيل إلى اتباعهم خُطواتِ الشيطان وأوليائه .

ولهذا فرع على الأمرين قوله تعالى : أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾ .

وهذه القصة تكررت في مواضع كثيرة من القرآن ، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر ، ولها في كل موضع ذُكرت فيه عبرة تخالف عِبرة غيره ، فذكرها في

سورة البقرة (مَثلاً) إعلام بمبادىء الأمور ، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ ، وقس على ذلك .

وفَسق : تجاوز عن طاعته .

وأصله قولهم : فسقت الرُّطبَة ، إذا خرجت من قشرها فاستعمل مجازاً في التجاوز .

قال أبو عبيدة .

والفسق بمعنى التجاوز عن الطاعة .

(113/473)

قال أبو عبيدة : "لم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها وإنما تكلم به العرب بعد نزول القرآن" ، أي في هذه الآية ونحوها .

ووافقه المبرد وابن الأعرابي .

وأطلق الفسق في مواضع من القرآن على العصيان العظيم ، وتقدم في سورة البقرة (26) عند قوله تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين .

والأمر في قوله : عن أمر ربه ﴾ بمعنى المأمور ، أي ترك وابتعد عما أمره الله به .

والعدول في قوله : ﴿ عن أمر ربه ﴾ إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير لتفظيع

فسق الشيطان عن أمر الله بأنه فسق عبد عن أمر من تجب عليه طاعته لأنه مالكه .

وفرع على التذكير بفسق الشيطان وعلى تعاظمه على أصل النوع الإنساني إنكار اتخاذه واتخاذ جنده أولياء لأن تكبره على آدم يقتضي عداوته للنوع ، ولأن عصيانه أمر مالكه يقتضي أنه لا يرجى منه خير وليس أهلاً لأن يُتبع .

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتوبيخ للمشركين ، إذ كانوا يعبدون الجن ، قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [الأنعام : 100] .

ولذلك علل النهي بجملة الحال وهي جملة وهم لكم عدو ﴾ .

والذرية : النسل ، وذرية الشيطان الشياطين والجن .

والعدو : اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ [الممتحنة : 1] وقال : ﴿ هم العدو ﴾ [المنافقون : 4] .

عومل هذا الاسم معاملة المصادر لأنه على زنة المصدر مثل القبول والوَلُوع ، وهما مصدران .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم ﴾ في سورة النساء (92) .

والولي : من يُتولَّى ، أي يتخذ ذا وَلاية بفتح الواو وهي القرب .

والمراد به القرب المعنوي ، وهو الصداقة والنسب والحلف .

و(من) زايدة للتوكيد ، أي تتخذونهم أولياء مباعدين لي .

وذلك هو إشراكهم في العبادة ، فإن كل حالة يعبدون فيها الآلهة هي اتخاذٌ لهم أولياء من دون الله .

(114/473)

والخطاب في أتتخذونه ﴾ وما بعده خطاب للمشركين الذين اتخذوه ولياً ، وتحذير للمسلمين من ذلك .

وجملة ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ مستأنفة لإنشاء ذم إبليس وذريته باعتبار اتخاذ المشركين إياهم أولياء ، أي بئس البَدل للمشركين الشيطان وذريته ، فقوله : ﴿ بدلاً ﴾ تمييز مفسر لاسم (بئس) المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز على طريقة الإجمال ثم التفصيل .

والظالمون هم المشركون .

وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم ، ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذم لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(115/473)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

قدمنا في سورة " البقرة " أن قوله تعالى : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ [البقرة : 34] محتم لأن يكون أمرهم بذلك قبل وجود آدم أمراً معلقاً على وجوده . ومحتمل لأنه أمرهم بذلك تنجيزاً بعد وجود آدم . وأنه جل وعلا بين في سورة " الحجر " وسورة " ص " أن أصل الأمر بالسجود متقدم على خلق آدم معلق عليه . قال في " الحجر " ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 28-29] وقال في " ص " : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : 71-72] ولا ينافي هذا أنه بعد وجود آدم جَدَّدَ لهم الأمر بالسجود له تنجيزاً .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فسجدوا ﴾ محتمل لأن يكونوا سجدوا كلهم أو بعضهم ، ولكنه بين في مواضع أخر أنهم سجدوا كلهم ، كقوله : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : 30] ونحوها من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة ، ﴿ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن . وقد تقرر في الأصول في " مسلك النص " وفي " مسلك الإيماء والتنبيه " : أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل ، كقولهم : سرق فقطعت يده ، أي لأجل سرقته . وسها فسجد ، أي لأجل سهوه ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] اي لعلة سرقتهما . وكذلك قوله هنا ﴿ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ ﴾ اي لعله كينونته من الجن ، لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة ، لأنهم امتثلوا الأمر وعصا هو .

ولأجل ظاهر هذه الآية الكريمة ذهبت جماعة من العلماء إلى أن إبليس ليس من الملائكة في الأصل بل من الجن ، وا ، ه كان يتعبد معهم ، فأطلق عليهم اسمهم لأنه تبع لهم ، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها . والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل وقد مسخه الله شيطاناً ، أو ليس في الأصل بملك ، وإنما شمله لفظ الملائكة لدخوله فيهم وتعبده معهم – مشهور عند أهل العلم . وحجة من قال : إن أصله ليس من الملائكة أمران : أحدهما – عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس . كما قال تعالى عنهم : ﴿ لاَّ

يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] ، وقال تعالى : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 27] . والثاني - : أن الله صرح في هذه الآية الكريمة بأنه من الجن ، والجن غير الملائكة . قالوا : وهو نص قرآني في محل النزاع . واحتج من قال : إنه ملك في الأصل بما تكرر في الآيات القرآنيه من قوله : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾

(117/473)

[الحجر : 30-31] قالوا : فأخرجه بالاستثناء من لفظ الملائكة دليل على أنهمنهم . وقال بعضهم : والظظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص . ومن المعلوم أن الأصل في الاستثناء الاتصال لا الانقطاع . قالوا : ولا حجة لمن خالفنا في قوله تعالى ﴿ كان من الجن ﴾ لأن الجن قبيلة من الملائكة ، خلقوا من بين الملائكة من نار السموم كما روي عن ابن عباس . والعرب تعرف في لغتها إطلاق الجن على الملائكة . ومنه قول الأعشى في سليمان بن داود :

وسخر من جن الملائك تسعة . . . قياماً لديه يعملون بلا أجر

قالوا : ومن إطلاق الجن على الملائكة قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [

الصافات : 158] عند من يقول : بأن المراد بذلك قولهم : الملائكة بنات الله . سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً ! وومن جزم بأنه ليس من الملائكة في الأصل لظاهر هذه الآية الكريمة : الحسن البصرس ، وقصره الزمخشري في تفسيره . وقال القرطبي في تفسير سورة " البقرة " : إن كونه من الملائكة هو قول الجمهور : ان عباس ، وابن مسعود ، وابن جريج ، وابن المسيب ، وقتادة وغيرهم . وهو اختيار الشيخ أبي احسن ، ورجحه الطبري ، وهو ظاهر قوله " إلا إبليس " اه وما يذكره المفسرون عن جماعة من السلف كابن عباس وغيره : من أن كان من أشراف الملائكة ، ومن خزان الجنة ، وأنه كان يدبر أمر السماء الدنيا ، وأنه كان اسمه عزازيل – كله من الإسرائيليات التي لا معول عليها . وأظهر الحجج في المسألة – حجة من قال : إنه غير ملك . لأن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ ﴾ [الكهف : 50] الآية ، وهو أظهر شيء في الموضوع من نصوص الوحي . والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أي خرج عن طاعة أمر ربه . والفسق في اللغة : الخروج . ومنه قول رؤبة بن العجاج :

يهوين في نجد وغوراً غائرا . . . فواسقا عن قصدها جوائرا

وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه . فلا حاجة لقول من قال : إن " عن " سببية ، كقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود : 53] أي بسببه وأن المعنى : ففسق عن أمر ربه ، أي بسبب أمره حيث لم يمتثله ، ولا غير ذلك من الأقوال .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ الهمزة فيه للإنكار والتوبيخ ، ولا شك أن فيها معنى الاستبعاد كما تقدم نظيره مراراً ز اي أبعد ما ظه منه من الفسق والعصيان ، وشدة العداوة لكم ولأبويكم آدم وحواء – تتخذونه وذريته أولياء من دون خالقكم جل وعلا ! بئس للظالمين بدلاً من الله إبليس وذريته ! وقال ﴿ للظاليمن ﴾ لأنهم اعتاضوا الباطل من الحقن وجعلوا مكان ولايتهم لله ولا يتهم لإبليس وذريته . وها من أشنع الظلم الذي هو في اللغة : وضع الشيء في غير موضعه .

كما تقدم مراراً . والمخصوص بالذم في الآية محذوف دل عليه المقامن وتقديره : بئس البدل من الله إبليس وذريته . وفاعل طبئس " ضمير محذوف يفسره التمييز الذي هو " بدلاً " على حد قوله له في الخلاصة :

ويعرفان مضمراً يفسره . . . مميز كنعم قوماً معشره

والبدل : العوض من الشيء ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من عداوة الشيطان

لبني آدم جاء مبيناً في آيات أخر . كقوله : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ [فاطر : 6] . وكذلك الأبوان ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يا آدم إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] .

(119/473)

وقد بين في غير هذا الموضع : أن الذين اتخذوا الشياطين أولياء بدلاً من ولاية الله يحسبون أنهم في ذلك على حق . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30] . وبين في مواضع أخر أن الكفار أولياء الشيطان . كقوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطاغوت ﴾ [النساء : 76] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 27] ، وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت ﴾ [البقرة : 257] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 175] ، إلى غير ذلك من الآيات .

(120/473)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وذريته ﴾ دليل على أن للشيطان ذرية . فادعاء أن لا ذرية له مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة كما ترى . وكا ما ناقض صريح القرآن فهو باطل بلا شك ! ولكن طريقة وجود نسله هل هي عن تزويج أو غيره . لا دليل عليها من نص صريح ، والعلماء مختلفون فيها . وقال الشعبي : سالني الرجل : هل لإبليس زوجة ؟ فقلت : إن ذلك عرس لم أشهدع ! ثم ذكرت قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زجة فقلت : نعم . وما فهمه الشعبي من هذه الآبة من أن الذرية تستلزم الزوجة روي مثله عن قادة . وقال مجاهد : إن كيفية وجود النسب منه أنه أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات : قال : فهذا أصل ذريته . وقال بعض أهل العلم : إن الله تعالى خلق له في فخده اليمنى ذكراً ، وفي اليسرى فرجاً ، فهو ينكح هذا بهذا فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة . ولا يخفى أن هذه الأقوال ونحوها لا معول عليها لعدم اعتضادها بدليل من كتاب أو سنة . فقد دلت الآية الكريمة على أن له ذرية . أما كيفية ولادة تلك الذرية فلم يثبت فيه نقل صحيح ، ومثله لا يعرف بالرأي . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية : قلت : الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميري في الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبي بكر البرقاني : أنه خرج في كتابه مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ ، من رواية عاصم ، عن

أبي عثمان ، عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لاتكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها ، فيها باض الشيطان وفرخ " وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه .

(121/473)

قال مقيدة عفا الله عنه : هذا الحديث إنما يدل على أنه يبيض ويفرخ ، ولكن لا دلالة فيه على ذلك . هل هي من أنثى هي زوجة له ، أو من غير ذلك . مع أن دلالة الحديث على ما ذكرنا لا تخلوا من احتمال . لأنه يكثر في كلام العرب إطلاق باض وفرخ على سبيل المثل . فيحتمل معنى باض وفرخ على سبيل المثل ؛ فيحتمل معنى باض وفرخ أنه فعل بها ما شاء من إضلال وإغواء ووسوسة ونحو ذلك على سبيل المثل ، لأن الأمثال لا تغير ألفاظها . وما يذكره كثير من المفسرين وغيرهم من تعيين أسماء أولاده ووظائفهم التي قلدهم إياها ؛ كقوله : زلنبور صاحب الأسواق . وتبر صاحب المصائب يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب ونحو ذلك . والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوط صاحب الأخبار يلقيها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلاً . وداسم هو الشيطان الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره ما لم يرفع من المتاع ما ملم يحسن موضعه يثير شره على أهله .

وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . والولهان صاحب الطهارة يوسوس فيها والأقيس صاحب الصلاة يوسوس فيها ومرة صاحب المزامير وبه كان يكنى إبليس ، إلى غير ذلك من تعيين أسمائهم ووزائفهم – كله لا معول عليه ؛ إلا ما ثبت منه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . ومما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من تعيين وظيفة الشيطان واسمه ما رواه مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن خلف الباهلي ، حدثنا عبد الأعلى عن سعيد الجريري عن أبي العلاء : أن عثمان بن أبي العاص أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : : يا رسول الله ، إن الشطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي ! ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطتن يقال له خنرب . فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثاً " قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عني .

(122/473)

وتحريس الشيطان بين الناس وكون إبليس يضع عرشه على البحر ، ويبعث سرايا فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة – كل ذلك معروف ثابت في الصحيح . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(123/473)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾

تكررتْ قصة سجود الملائكة لآدم عليه السلام كثيراً في القرآن الكريم ، وفي كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطةً معينة ، والحق سبحانه في هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أنْ تذكّروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أنْ يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تتنبهوا لهذه العداوة ، فإذا حدّثكم بشيء فاذكروا عداوته لكم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يُحذّرنا من إبليس فإنه يُربّي فينا المناعة التي نُقاومه بها ، والمناعة أنْ تأتيَ بالشيء الذي يضرُّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضعه في الجسم في صورة مكروب خامد ، وهذا هو التطعيم الذي يُعوِّد الجسم على مدافعة المرض وتغلَّب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكّرنا ما كان منه لأبينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 62]

فانتبهوا ما دُمنا سنُسيّر الجبال ، ونُسوِّي الأرض ، ونحصر لكلٍّ كتابه ، فاحذروا أنْ تقفوا

موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفَاجأوا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أُذكّركم من الآن في وقت السَّعة والتدارك ، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

والأمر هنا جاء للملائكة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة . . ﴾ [الكهف : 50] لأنهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤمَرُون . وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعني الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذي آمُركُم أنْ تكونوا في خدمته .

(124/473)

لذلك سمَّاهم : المدبّرات أمراً ، وقال تعالى عنهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [الرعد : 11] فكأن مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفي خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جنَّد هؤلاء الملائكة وهم أشرفُ المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن باب أَوْلى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعلَه في خدمته ، إنما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أهو من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحَسَمَتْه ، فقال تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن . . ﴾ [الكهف : 50] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذي يُوضّح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

وما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار في أنْ يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألاَّ يفعل : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . ﴾ [الكهف : 50] أي : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ . . ﴾ [الكهف : 50] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذي خلقكم ورزقكم ، فكان أَوْلَى بهذه الولاية .

و ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ . . ﴾ [الكهف : 50] تدل على تناسل إبليس ، وأن له أولاداً ، وأنهم يتزاوجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل مَنْ كان على طريقته في الضلال والإغواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . ﴾ [الأنعام : 112]

(125/473)

﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : 50] أي : بئس البدل أن تتخذوا إبليس الذي أبى واستكبر أنْ يسجدَ لأبيكم وَلياً ، وتتركوا ولاية الله الذي أمر الملائكة أنْ تسجدَ لأبيكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(126/473)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن ، فكان إبليس منهم ، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى فسخط الله عليه ، فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ قال : كان خازن الجنان فسمي بالجن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة ، عن الضحاك قال : اختلف ابن

عباس وابن مسعود في إبليس فقال أحدهما : كان من سبط من الملائكة يقال لهم الجن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس قال : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان السماء الدنيا ، وكان له مجمع البحرين ، بحر الروم وفارس ، أحدهما قبل المشرق ، والآخر قبل المغرب ، وسلطان الأرض ، وكان مما سولت نفسه مع قضاء الله ، أنه يرى أن له بذلك عظمة وشرفاً على أهل السماء ، فوقع في نفسه من ذلك كبر لم يعلم ذلك أحد إلا الله ، فلما كان عند السجود لآدم حين أمره الله أن يسجد لآدم ، استخرج الله كبره عند السجود ، فلعنه إلى يوم القيامة ﴿ وكان من الجن ﴾ قال ابن عباس : إنما سمي بالجنان ، لأنه كان خازناً عليها .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ قال : كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن ، وكان ابن عباس يقول : لو لم يكن من الملائكة ، لم يؤمر بالسجود ، وكان على خزانة السماء الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ في العظمة ، عن الحسن قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس .

(127/473)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن قال : قاتل الله أقواماً يزعمون أن إبليس كان من ملائكة الله ، والله تعالى يقول : ﴿ كان من الجن ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ كان من الجن ﴾ قال : من خزنة الجنان .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن الأنباري في الأضداد من وجه آخر ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ كان من الجن ﴾ قال : هم حي من الملائكة لم يزالوا يصوغون حلي أهل الجنة حتى تقوم الساعة .

وأخرج البيهقي في الشعب ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ كان من الجن ﴾ قال : من الجنانين الذين يعملون في الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن شهاب في قوله : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ قال : إبليس أبو الجن ، كما أن آدم أبو الإنس ، وآدم من الإنس وهو أبوهم .

وإبليس من الجن وهو أبوهم ، وقد تبين للناس ذلك حين قال الله : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : كان إبليس رئيساً من الملائكة في سماء الدنيا .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن منصور قال : كانت الملائكة تقاتل الجن ، فسبي إبليس ،

وكان صغيراً فكان مع الملائكة فتعبد معها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن شهر بن حوشب قال : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة ، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن قتادة في قوله : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ قال : أجن من طاعة الله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير قال : لما لعن إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، فجزع لذلك فرن رنة ، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة من رنته .

وأخرج أبو الشيخ ، عن نوف قال كان إبليس رئيس سماء الدنيا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ قال : في السجود لآدم .

(128/473)

وأخرج ابن المنذر ، عن الشعبي أنه سئل عن إبليس هل له زوجة ؟ فقال : إن ذلك العرس ما سمعت به .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿

أفتتخذونه وذريته ﴾ قال : ولد إبليس خمسة : ثبر والأعور وزلنبور ومسوط وداسم ، فمسوط صاحب الصخب ، والأعور وداسم لا أدري ما يفعلان ، والثبر صاحب المصائب ، وزلنبور الذي يفرق بين الناس ، ويبصر الرجل عيوب أهله .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ قال : باض إبليس خمس بيضات : زلنبور وداسم وثبر ومسوط والأعور ، فأما الأعور ، فصاحب الزنا ، وأما ثبر فصاحب المصائب ، وأما مسوط فصاحب أخبار الكذب ، يلقيها على أفواه الناس ولا يجدون لها أصلاً ، وأما داسم فهو صاحب البيوت إذا دخل بيته ولم يسلم دخل معه ، وإذا أكل أكل معه ويريه من متاع البيت ما لا يحصى موضعه ، وأما زلنبور فهو صاحب الأسواق ويضع رأسه في كل سوق بين السماء والأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة في قوله : ﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ قال : هم أولاده يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عدداً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان قال : باض إبليس خمس بيضات : وذريته من ذلك . قال : وبلغني أنه يجتمع على مؤمن واحد أكثر من ربيعة ومضر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ قال بئسما استبدلوا بعبادة ربهم إذ أطاعوا إبليس لعنه الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ

﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ : أي : اذْكُرْ .

قوله : ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ فيه وجهان ، أظهرهما : أنه استئنافٌ يفيد التعليلَ جواباً لسؤالٍ مقدَّر . والثاني : أنَّ الجملةَ حاليةٌ ، و " قد " معها مرادةٌ . قاله أبو البقاء وليس بالجليِّ .

قوله : " فَفَسَقَ " السببيةُ في الفاءِ ظاهرةٌ ، تَسَبَّبَ عن كونِه من الجنِّ الفِسْقُ . وقال أبو البقاء : إنما أدخل الفاءَ هنا لأنَّ المعنى : " إلا إبليس امتنع ففَسَق " . قلت : إنْ عَنَى أنَّ قولَه ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ وُضِعَ موضعَ قولِه " امتنع " فيُحتمل مع بُعْدِه ، وإنْ عنَى أنه حُذِفَ فِعْلٌ عُطِفَ عليه هذا فليس بصحيحٍ للاستغناءِ عنه .

قوله : " عَنْ أمر " " عن " على بابها من المجاوزة ، وهي متعلِّقةٌ ب " فَسَق " ، أي : خرج مجاوزاً أمرَ ربِّه . وقيل : هي بمعنى الباء ، أي : بسببِ أمرِه ، فإنه فعَّالٌ لِما يريدُ .

قوله : " وذُرِّيَّتَه " يجوز في الواو أَنْ تكونَ عاطفةً وهو الظاهرُ ، وأنْ تكونَ بمعنى مع . و " مِنْ دوني " يجوز تعلُّقُه بالاتخاذ ، وبمحذوفٍ على أنه صفةٌ لأَوْلياء .

قوله : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ جملةٌ حاليةٌ مِنْ مفعولِ الاتخاذِ أو فاعِله ؛ لأنَّ فيها مصحّحاً لكلٍ من الوجهين وهو الرابطُ .

قوله : " بِئْسَ " فاعُلها مضمرٌ مفسَّرٌ بتمييزه . والمخصوص بالذمّ محذوفٌ تقديرُه : بِئْسَ البَدَلُ إبليسُ وذريتُه و " للظالمين " متعلّقٌ بمحذوفٍ حالاً مِنْ " بَدَلاً " . وقيل : متعلّقٌ بفعل الذَّمِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 507.508 ﴾

(130/473)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لأدم فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ .

أَظْهَرَ للملائكة شَظِيَّةً مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسيرٍ من الله – سبحانه ، وسَكَّرَ بَصَرَ اللعين فما شهد منه غير الْعَيْنِ ففسق عن أمر ربه ، ولا صدق في قوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ لَمَا فَسَقَ عن الأمر ، ولكن أَدركته الشقَّاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً

﴾ .

في الآية إشارة إلى أَنَّ مَنْ يُفْرِدْه بالولاية فلا يقتفي غَيْرَه ولا يخافُ غيرَه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 401.402 ﴾

(131/473)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَك قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ إنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْك مَالًا وَوَلَدًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الذِّكْرُ مَشْرُوعٌ لِلْعَبْدِ فِي كُلِّ حَالٍ عَلَى النَّدْبِ ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ اللَّهَ كُلَّ أَحْيَانِهِ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَقُضِيَ بَيْنَهَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا ﴾ .

وَمِنْ جُمْلَةِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ إذَا دَخَلَ أَحَدُنَا مَنْزِلَهُ أَوْ مَسْجِدَهُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَلَوْلَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ أَيْ مَنْزِلَك قُلْت : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

قَالَ أَشْهَبُ : قَالَ مَالِكٌ : يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ مَنْزِلَهُ أَنْ يَقُولَ هَذَا .

وَقَالَ ابْنُ وَهْب : قَالَ لِي حَفْصُ بْنُ مَيْسَرَةَ : رَأَيْت عَلَى بَابِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ مَكْتُوبًا ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

(132/473)

وَرُوِيَ أَنَّ مَنْ قَالَ أَرْبَعًا أَمِنَ مِنْ أَرْبَعٍ ، مَنْ قَالَ هَذِهِ أَمِنَ مِنْ هَذَا ، وَمَنْ قَالَ : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ أَمِنَ مِنْ كَيْدِ النَّاسِ لَهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

وَمَنْ قَالَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إلَى اللَّهِ أَمَّنَهُ اللَّهُ مِنْ الْمَكْرِ .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ الْعَبْدِ الصَّالِحِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلَى اللَّهِ إنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .

وَمَنْ قَالَ : ﴿ لَا إلَهَ

إلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْت مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أَمِنَ مِنْ الْغَمِّ ، وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ : مَا مِنْ أَحَدٍ يَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ إلَّا رَضِيَ بِهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مَا عَدَا اللَّهَ وَصِفَاتِهِ الْعُلَا لَهُ أَوَّلٌ ، فَإِنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مَا عَدَا نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَعَذَابَ أَهْلِ النَّارِ لَهُ آخِرٌ ، وَكُلُّ مَا لَا آخِرَ لَهُ فَهُوَ الْبَاقِي حَقِيقَةً .

وَلَكِنَّ الْبَاقِيَ بِالْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْأَمَدِ .

(133/473)

فَأَمَّا نَعِيمُ الْجَنَّةِ فَأُصُولٌ مُذْ خُلِقَتْ لَمْ تَفْنَ وَلَا تَفْنَى بِخَبَرِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَفُرُوعٌ وَهِيَ النِّعَمُ ، هِيَ أَعْرَاضٌ إنَّمَا تُوصَفُ بِالْبَقَاءِ عَلَى مَعْنَى أَنَّ أَمْثَالَهَا يَتَجَدَّدُ مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعٍ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ وَغَيْرِهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَعَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ قَبْلُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ بِقَوْلِهِ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا

غَيْرَهَا ﴾ فَهَذَا فَنَاءٌ وَتَجْدِيدٌ ، فَيَجْعَلُهُ بَقَاءً مَجَازًا بِالْإِضَافَةِ إلَى غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ يَفْنَى فَلَا يَعُودُ ، فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَالْأَعْمَالُ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْ الْخَلْقِ مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ لَا بَقَاءَ لَهَا ، وَلَا تَجَدُّدَ بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ ، فَهِيَ بَاقِيَاتٌ صَالِحَاتٌ وَطَالِحَاتٌ ، حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ فِي الْحَقِيقَةِ ، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ الْأَعْمَالُ أَسْبَابًا فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَكَانَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ دَائِمَيْنِ لَا يَنْقَطِعَانِ ، وَبَاقِيَيْنِ لَا يَفْنَيَانِ ، كَمَا قَدَّمْنَا بَيَانَهُ ، وُصِفَتْ الْأَعْمَالُ بِالْبَقَاءِ ، حَمْلًا مَجَازِيًّا عَلَيْهَا ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ مِنْ وَجْهِ تَسْمِيَةِ الْمَجَازِ . وَأَمَّا تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِسَبَبِهِ الْمُتَقَدِّمِ عَلَيْهِ ، أَوْ تَسْمِيَتُهُ بِفَائِدَتِهِ

(134/473)

الْمَقْصُودَةِ بِهِ ، فَنَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّهَا خَيْرُ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ ، وَعَمَلٍ وَحَالٍ فِي الْمَآلِ ، فَقَالَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّك ثَوَابًا مِنْ الْمَالِ وَالْبَنِينَ ، وَخَيْرٌ أَمَلًا فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ إرَادَتَهُ ، وَاقْتَضَى ذَلِكَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : أَنْ يَكُونَ بِهَذَا الْعُمُومِ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ ، وَهُوَ الَّذِي وَعَدَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ ، إلَّا أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ عَيَّنُوا فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا ، وَرَوَوْا فِيهِ أَحَادِيثَ ، وَاخْتَارُوا مِنْ ذَلِكَ أَنْوَاعًا يَكْثُرُ تَعْدَادُهَا ، وَيَطُولُ إيرَادُهَا ، أُمَّهَاتُهَا أَرْبَعَةٌ : الْأَوَّلُ : رَوَى

مَالِكٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيّبِ ، ﴿ أَنَّ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ قَوْلُ الْعَبْدِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

الثَّانِي : رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِثْلَهُ .

الثَّالِثُ : مِثْلُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ ؛ وَبِهِ أَقُولُ ، وَإِلَيْهِ أَمِيلُ ، وَلَيْسَ فِي الْبَابِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ ، أَمَّا أَنَّ فَضْلَ التَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالْحَوْقَلَةِ مَشْهُورٌ فِي الصَّحِيحِ كَثِيرٌ ، وَلَا مِثْلَ لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي ذَلِكَ بِحِسَابٍ وَلَا تَقْدِيرٍ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(135/473)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾

أي صف لأَهل مكة صفة رجلين أخوين من بني مخزوم ، أحدهما مؤمن واسمه أبو مسلمة بن عبد الأسد ، والآخر كافر ويقال له أسود بن عبد الأسد ؛ وهما من هذه الأمة .

وآخرين أيضاً من بني إسرائيل مؤمن وكافر ، فالمؤمن اسمه تمليخا ، ويقال يهوذا ، والكافر اسمه أبو قطروس .

هكذا روي عن ابن عباس ؛ ويقال : هذا المثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر به ؛ وروي عن ابن مسعود أنه قال : كانا مشركين من بني إسرائيل : أَحدهما مؤمن والآخر كافر ، فاقتسما فأصاب كل واحد منهما أربعين ألف درهم ؛ وروي عن ابن عباس أنه قال : كانا أَخوين ورث كل واحد منهما من أبيه أربعة آلاف دينار ، فالكافر أنفق ماله في زينة الدنيا ، نحو شراء المنازل والخدم والحيوان ؛ وأنفق المؤمن ماله في طاعة الله تعالى ، وتصدق على الفقراء والمساكين .

وذلك قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لِاِحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعناب ﴾ ، أي بساتين .

قال السدي : كان بستاناً واحداً عليه جرار واحد ، وكان في وسطه نهر ؛ فلذلك قال : جنتين لمكان النهر الذي بينهما ، وسماه جنة للمكان الدائر الذي عليه .

﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ ، يعني : الجنتين .

ثم قال ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ ، أي مزرعاً يقال : كان حول البستان نخيل وأشجار ، وداخل الأشجار كروم ، وداخل الكروم موضع الزرع والرطاب ونحو ذلك .

﴿ كِلْتَا الجنتين اتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ، أي أعطت وأَخرجت حملها وثمارها .

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ ، أي لم تنقص من ثمر الجنتين شيئاً .

وقال الزجاج: ﴿ كِلْتَا الجنتين اتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ، لأن لفظ كلتا واحد ، والمعنى أن كل واحدة منهما آتت أكلها ، يعني : أعطت وَأَخْرَجَتْ حَمْلَهَا وَثَمَرَتَهَا ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ ، يعني : لم ينقص من ثمر الجنتين شيئاً ، ولو قال : أتت ، لكان جائزاً .

(136/473)

﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما ﴾ ، أي أجرينا وسطها ﴿ نَهَراً ﴾ ، والنهر بنصب الهاء والجزم بمعنى واحد في اللغة إلا أن قراءة النصب أصح .

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو ﴿ ثُمُرٌ ﴾ بضم الثاء وجزم الميم ، وقرأ الباقون غير عاصم بضم الثاء والميم ، ومعناهما واحد ، وقرأ عاصم بنصب الثاء والميم .

فمن قرأ بالنصب ، فهو ما يخرج من الشجر ؛ ومن قرأ بالضم ، فهو المال .

يقال : قد أثمر فلان مالاً ، ويقال : الثمر جمع ثمار ؛ ويقال : ثمرة وثمار ، وجمع الثمار ثمر .

﴿ فَقَالَ لصاحبه ﴾ ، يعني : قال الكافر للمؤمن ﴿ وَهُوَ يحاوره ﴾ ، أي يفاخره ويراجعه ، وذلك أن أخاه احتاج فأتاه يسأله منه شيئاً ، فلم يعطه شيئاً ، وعاتبه بدفع ماله ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لصاحبه وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ : ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ ، يعني : وأكثر خدماً .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ وهو آخذ بيد أخيه المسلم.

﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ بالشرك، فمن كفر بالله فهو ظالم لنفسه، لأنه أوجب لها العذاب الدائم.

﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾، لأن أخاه المؤمن عرض عليه الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، فأجابه الكافر: فَ ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾، يعني: لن تفنى هذه أبداً.

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾، أي كائنة.

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي ﴾، أي إن كان الأمر كما يقول، ورجعت إلى ربي في الآخرة، ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾ في الآخرة، أي مرجعاً.

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ﴿ خَيْرًا مِّنْهُمَا ﴾ لأنها كناية عن الجنتين، وقرأ الباقون ﴿ مِنْهَا ﴾، لأنه كناية عن قوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾، أي أخاه المسلم، ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾، أي يكلمه ويعظه في الله تعالى: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾، يعني: آدم.

عليه السلام ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ ، يعني : خلقك معتدل .

قوله : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ ؛ قرأ ابن عامر ونافع في إحدى الروايتين ﴿ لَكِنَّا ﴾ بالألف وتشديد النون ، لأن أصله لكن أنا ، فأدغم فيه ؛ وقرأ الباقون ﴿ لَكِنِ ﴾ ، وفي مصحف الإمام ﴿ لَكِنِ أَنَاْ هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ ، فهذا هو الأصل في اللغة ، ومعناه لكن أنا أقول : هو الله ربي .

﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ ، يقول : فهلا إذ دخلت بستانك ، ﴿ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ ، يعني : بقوة الله أعطانيها لا بقوتي .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ أُعْطِيَ خَيْراً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ ، فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ، لَمْ يرَ فِيهِ مَا يَكْرَهُ " .

﴿ إِن تَرَنِ ﴾ ، يعني : إن رأيتني ﴿ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ في الدنيا ، ﴿ فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ هذه في الآخرة ، ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي على جنتك ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ السماء ﴾ ، أي ناراً من السماء .

وهذا قول الكلبي أيضاً ومقاتل ، وقال القتبي : ﴿ حُسْبَاناً ﴾ ، أي مرامي واحدها حسبانة ؛ وقال الزجاج : الحسبان أصله الحساب كقوله : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] ، أي بحساب ، وهكذا قال هنا حسباناً أي حساباً بما كسبت يداك ؛ وقال بعض أهل اللغة : الحسبان في اللغة سهم فارق وهو ما يرقى به .

ثم قال : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ ، أي فتصير تراباً أملس لا نبات فيها .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ ، أي غائراً ، يقال : غار ماؤها فلم يقدر عليه ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ ، أي حِيلَةً .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ ، أي فأهلك جميع ماله ، والاختلاف في الثمر كما ذكرنا .

(138/473)

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أي يصفق يده على الأخرى ندامة ﴿ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ من المال ، ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ ؛ أي ساقطة على سقوفها ، ﴿ وَيَقُولُ ﴾ في الآخرة : ﴿ وَيَقُولُ يا ليتني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ في الدنيا .

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، أي جنداً وقوماً وأعواناً يمنعونه من عذاب الله .

، أي جنداً وقوماً وأعواناً يمنعونه من عذاب الله .

﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ، أي ممتنعاً هو بنفسه ؛ قرأ حمزة والكسائي ﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ بالياء بلفظ التذكير ، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث وقال الزجاج : لو قال نصره ، لجاز وإنما ينصره على المعنى أي أقواماً ينصرونه .

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ، أي عند ذلك وهو يوم القيامة ، يعني : السلطان والحكم لله لا ينازعه أحد في ملكه يومئذٍ ؛ وهذا كقوله : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار : 19] .

فمن قرأ ﴿ الحق ﴾ بكسر القاف جعله نعتاً لله ؛ ومن قرأ بالضم جعله نعتاً للولاية .

قرأ حمزة ﴿ هُنَالِكَ الْوِلَايَةُ ﴾ بكسر الواو وضم القاف ، وقرأ الباقون ﴿ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ، وقال بعضهم : الولاية بالكسر والنصب لغتان ، وقيل بالكسر مصدر الوالي ، يقال : والي بين الولاية وبالنصب مصدر الولي بين الولاية .

﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ ، أي خير من أثاب العبد ؛ ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ ، أي خير من أعقب .

قرأ حمزة وعاصم ﴿ عُقْبًا ﴾ بجزم القاف ، وقرأ الباقون بضم القاف ، ومعناهما واحد وهو العاقبة ، فبيّن الله تعالى حال الأخوين في الدنيا وبيّن حالهما في الآخرة ، في سورة الصافات في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات : 51] إلى قوله : ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : 55] .

(139/473)

ثم قال : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا ﴾ ، أي للمشركين شبه ما في الدنيا من الزينة والزهرة .

﴿ كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ ، وهو المطر .

﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ ، أي اختلط الماء بالنبات ، لأن الماء إذا دخل في الأرض ينبت به النبات ، فكأنه اختلط به ، ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرياح ﴾ .

وفي الآية مضمر ، ومعناه فاختلط الماء بنبات الأرض فنبت وحسن ، حتى إذا بلغ أرسل الله آفة فأيبسته فصار هشيماً ، أي صار يابساً متكسراً بعد حسنه .

قال القتبي : وأَصْلُهُ من هشمت الشيء إذا كسرته ؛ ومنه سمي الرجل هاشماً ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ ، أَي ذرته الرياح كالرماد ولم يبق منه شيء ، فكذلك الدنيا في فنائها وزوالها تهلك إذا جاءت الآخرة وما فيها من الزهرة .

﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ ، أي قادراً من البعث وغيره .

قرأ حمزة والكسائي : الريح بلفظ الوحدان ، وقرأ الباقون الرياح بلفظ الجماعة .

﴿ الْمَالُ والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ ، أي غروراً لا يبقى كما لا يبقى الهشيم حين ذرته الريح ، وإنما يبقى في الآخرة .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ ، أي الصلوات الخمس .

هكذا روي عن أبي الهيثم ومسروق ؛ وقال مسروق : ﴿ يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ هي

الخمس صلوات ، وهي الحسنات يذهبن السيئات ، وكذلك قال ابن أبي مليكة : وروى سفيان الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد في قوله ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ وَقَالَ خُذُوا جُنَّتَكُمْ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ ، قَالَ : لاَ بَلْ مِنَ النَّارِ .

قَالُوا : وَمَا جُنَّتُنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَال : سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ واللهُ أَكْبَرُ .

(140/473)

ويقال : كل طاعة يبقى ثوابها ، فهي الباقيات الصالحات : الصلاة والصدقة والتسبيح وجميع الطاعات .

﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ ، أي خير من هذه الزينة والغرور عند الله تعالى ، وخير ما يثبت الله العبد ، وخير أملاً أي خير ما يوصل العبد الصلاة والتسبيح ، أي أفضل رجاء مما يرجو الكافر ، لأن ثواب الكافر النار ومرجعه إلى النار .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ ، أي نزيلها عن وجه الأرض ونسيرها كما نسير السحاب كقوله : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ الله الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ

خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : 88] .

﴿ وَتَرَى الأَرض بَارِزَةً ﴾ ، أي ظاهرة من تحت الجبال ، ويقال : بارزة أي خالية مما فيها من الكنوز والأموات ، كما قال : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ وَيَوْمَ مِنْهُ الجبال ﴾ بالتاء مع الضمة ونصب الياء وضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله ، وقرأ الباقون ﴿ نُسَيِّرُ ﴾ بالنون ونصب اللام ، كما قال : ﴿ وحشرناهم فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ ، أي لم نترك منهم أحداً ولا نخلف منهم أحداً .

﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ، يقول : جميعاً ، كقوله : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائتوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ [طه : 64] ، أي جميعاً .

يقول الله تعالى ذكره : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ فرادى عراة حفاةً ، ﴿ كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بلا أهل ولا مال .

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ ، أي قد قلتم في الدنيا : ﴿ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ ، أي لن نبعثكم في الآخرة .

﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ أي وضع كتاب كل امرىء منهم بيمينه أو بشماله ، ﴿ فَتَرَى المجرمين ﴾ ؛ أي المشركين والمنافقين والعاصين .

﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ ، أي خائفين مما في الكتاب من الإحصاء .

﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ ، يا ندامتنا ﴿ مَّالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ ؟ يعني : الزلل والكبائر ويقال : تبسماً وضحكاً ، ﴿ إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ ؛ يقول : حفظها عليهم ، ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ ﴾ في الكتاب ﴿ حَاضِرًا ﴾ من خير أو شر مكتوباً .

﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ، أي لا ينقص من ثواب أعمالهم ولا يزيد في سيّئاتهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة ﴾ الذين كانوا في الأرض مع إبليس : ﴿ اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن ﴾ ، قال بعضهم : كان أصله من الجن فلحق بالملائكة وجعل يتعبد معهم ، وقال مقاتل : كان من الجن وهو جنس من الملائكة يقال لهم الجن .

روي عن ابن عباس أنه كان من الملائكة الذين هم خزان الجنان ، ويقال : كان من الجن أي صار من الجن ، كقوله : ﴿ قَالَ سآوى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ المآء قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ [هود : 43] .

﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ ، أي تعظم من طاعة ربه وخرج عن طريق ربه ؛ يقال : فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرها .

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِى ﴾ ؟ أفتطيعونه وتتركون أمر الله ، ﴿ وَهُمْ لَكُمْ

عَدُوٌّ ﴾ ؟ أي أعداء ، كقوله : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامهم وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العدو فاحذرهم قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : 4] ﴿ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾ ، أي بئس ما استبدلوا عبادة الشيطان بعبادة الله ، ويقال : بئس ما استبدلوا بولاية الله تعالى ولاية الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 346.350 ﴾

(142/473)

وقال الثعلبى :

﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ الآية

﴿ رَّجُلَيْنِ ﴾ منصوب مفعول ، على معنى : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً ﴾ كمثل رجلين . نزلت في أخوين من أهل مكّة من بني مخزوم ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل كان زوج أمّ سلمة قبل النبّي صلى الله عليه وسلم والآخر كافر ، وهو الأسود بن عبد الأسد بن عبد ياليل . وقيل نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وفي مشركي مكّة . وهذا مثل لعيينة ابن حصين وأصحابه ، وفي سلمان وأصحابه شبّههما برجلين من بني إسرائيل أخوين : أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس ، وقال مقاتل

: تمليخا ، والآخر كافر ، واسمه فطروس ، قال وهب قطفر . وهما اللّذان وصفهما الله في سورة (الصافات) ، وكانت قصتهما [ما أخبرنا أبو عمرو الفراتي : حدثنا محمد بن عمران : حدثنا الحسن بن سفيان : حدثنا حيّان بن موسى : حدثنا عبد الله بن المبارك عن] . معمر عن عطاء الخراساني قال : كان رجلان شريكين ، وكان لهما ثمانية آلاف دينار ، وقيل : إنهما ورثاه عن أبيهما ، وكانا أخوين فاقتسماها ، فعمد أحدهما فاشترى أرضاً بألف دينار ، فقال صاحبه : اللهم إن كان فلان قد اشترى أرضاً بألف دينار ، فإني أشتري منك أرضاً في الجنة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينار .

ثمّ إن صاحبه بنى داراً بألف دينار ، فقال هذا : إن فلانَ بنى داراً بألف دينار ، وإني اشتريت منك داراً في الجنة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينار . ثمّ تزوج بامرأة وأنفق عليها ألف دينار فقال : إنّ فلانَ تزوّج امرأة بألف دينار ، وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينار . ثمّ اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار ، فقال : إن فلانَ اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار ، وإني اشتري منك خدماً ومتاعاً في الجنة بألف دينار فتصدّق بألف دينار .

(143/473)

ثمّ أصابته حاجة شديدة فقال : لو أتيت صاحبي هذا لعلّه ينالني منه معروف . فجلس له على طريقه حتى مرّ به في حشمه ، فقام إليه ، فنظر إليه الآخر فعرفه فقال : فلان ؟ قال : نعم . قال ما شأنك ؟ قال : أصابتني حاجة بعدك ، فأتيتك لتصيبني بخير . فقال : فما فعل مالك فقد اقتسمنا مالاً واحداً فأخذت شطره وأنا شطره ؟ فقصّ عليه قصته ، فقال : وإنك لمن المصدّقين بهذا ، أي بأنك تبعث وتجازى ؟ اذهب فوالله لا أُعطيك شيئاً . فطرده ، فقضي لهما أن توفيا ، فنزل فيهما : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فاطلع فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ [الصافات : 5055] ، ونزلت ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ : بستانين ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا ﴾ : أحطناهما ﴿ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ ، يعني : جعلنا حول الأعنابِ النخلَ ووسط الأعنابِ الزرعَ .

﴿ كِلْتَا الجنتين آتَتْ ﴾ : أعطت ، يعني : آتت كل واحدة من الجنتين ، فلذلك لم يقل : آتتا ﴿ أُكُلَهَا ﴾ : ثمرها تامّاً ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً ﴾ ، أي لم ينقص ، ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ﴾ ، يعني : شققنا وأخرجنا وسطهما نهراً .

﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ ، يعني : لفطروس ﴿ ثَمَرٌ ﴾ ، يعني : المال الكثير المثمر من كل صنف ، جمع ثمار . ومن قرأ : (ثُمْر) فهو جمع ثمرة . مجاهد : ذهب وفضة . ابن عباس : أنواع المال . قتادة : من كلّ المال . وقال ابن زيد : الثمر الأصل . ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ﴾ المؤمن

﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ : يجاوبه ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ ، يعني عشيرة ورهطاً . قال قتادة : خدماً وحشماً . وقال مقاتل : ولداً ، تصديقه قوله تعالى ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ﴾ .

(144/473)

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ ، يعني : فطروس ، أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به ويريه إيّاها ويعجبه منها ، ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ بكفره ، فلّما رأى ما فيها من الأنهار والأشجار والأزهار والثمار قال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ ﴾ : القيامة ﴿ قَائِمَةً ﴾ : آتية كائنة . ثمّ تمّنى على الله أُمنية أُخرى مع شكّه وشركه فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾ : صرفت ﴿ إِلَى رَبِّي ﴾ ، فرجعت إليه في المعاد ﴿ لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ ، أي من الجنة التي دخلها . وقرأ أهل الحجاز والشام (منهما) على لفظ التثنية ، يعني الجنتين ، وكذلك هو في مصاحفهم . ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ ، أي منزلاً ومرجعاً . يقول : لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلاّ ولي عنده أفضل في الآخرة .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ المسلم ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴾ يعني خلق أباك وأصلك ﴿ مِن تُرَابٍ ثُمَّ ﴾ خلقك ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يعني ماء الرجل والمرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ

رَجُلاً ﴾ ، أي عدلك بشراً سويّاً ذكراً . ﴿ لكنا هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ ، يقول : أما أنا فلا أكفر بربي ، ولكنا هو الله ربي . قال الكسائي : فيه تقديم وتأخير مجازه : لكن الله هو ربّي . وقال الآخرون : أصله (لكن أنا) فحذفت الهمزة طلباً للخفة ؛ لكثرة استعماله ، وأُدغمت إحدى النونين في الآخرى ، وحذفت ألف (أنا) في الوصل . وقرأ ابن عامر ويعقوب : (لكنا) ، بإتيان الألف بالوصل ، كقول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفوني . . . حميداً قد تذريت السناما

(145/473)

ولا خلاف في إثباتها في الوقف . ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً * ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللهُ ﴾ ، ﴿ مَا ﴾ في موضع رفع ، يعني : هي ما شاء الله ، ويجوز أن تكون في موضع النصب بوقوع ﴿ شَآءَ ﴾ عليه . وقيل : جوابه مضمر مجازه : ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون . [أخبرنا أبو عمرو الفراتي : القاسم بن كليب : العباس بن محمد الدوزي : حجاج : أبو بكر الهذلي عن يمامة بن عبد الله بن أنس] عن أنس بن مالك أن النبّي صلى الله عليه وسلم قال : " من رأى شيئاً فأعجبه فقال : ﴿ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ لم يضرّه " .

ثمّ قال : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ﴾ ، ﴿ أَنَاْ ﴾ عماد ولذلك نصب . ﴿ فعسى ﴾ : فلعّل ﴿ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ ﴾ في الآخرة ﴿ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ : يبعث على جنتك ﴿ حُسْبَاناً مِّنَ السمآء ﴾ ، قال قتادة والضّحاك : عذاباً .

وقال ابن عباس : ناراً . وقال ابن زيد : قضاء من الله عزّ وجلّ يقضيه . قال الأخفش والقتيبي : مرام من السماء واحدتها حسبانة ، ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ ، قال قتادة : يعني صعيداً أملس لا نبات عليه . وقال مجاهد : رملاً هايلاً وتراباً . قال ابن عباس : هو مثل الحَزَن . ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً ﴾ أي غائراً منقطعاً ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي ولا الرشا والدلاء . والغور مصدرٌ وُضع موضع الاسم ، كما يقال : صوم وزور وعدل ، ونساء نوح يستوي فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث . قال عمرو بن كلثوم :

تظل جياده نوحاً عليه . . . مقلّدة أعنتها صفونا

وقال آخر :

هريقي من دموعهما سجاما . . . ضباع وجاوبي نوحاً قياما

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ بعد ما ذهب ونصب .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ أي أحاط الهلاك بثمر جنّتيه ، وهي جميع صنوف الثمار . وقال مجاهد : هي ذهب وفضة ؛ وذلك أن الله أرسل عليها ناراً فأهلكها وغار ماؤها ، ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ صاحبها الكافر ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ : يصفق يده على الأُخرى ، وتقليب كفيه ظهراً لبطن ؛ تأسفاً وتلهّفاً ﴿ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ يعني : عليها كقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي عليها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ ساقطة على سقوفها ، خالية من غرسها وبنائها ﴿ وَيَقُولُ ياليتني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ .

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ﴾ أي جماعة ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله ﴾ : يمنعونه من عذاب الله ، ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ : ممتنعاً منتقماً .

﴿ هُنَالِكَ ﴾ يعني : في القيامة ﴿ الولاية لِلَّهِ الحق ﴾ ، قرأ الأعمش وحمزة والكسائي (الولاية) بكسر الواو يعني : السلطان والأمر . وقرأ الباقون بفتح الواو ، من الموالاة كقوله : ﴿ الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الذين آمَنُواْ ﴾ [محمد : 11] .

قال القتيبي : يريد : يتولون الله يومئذ ، ويؤمنون به ويتبرّؤون مما كانوا يعبدون . وقوله : ﴿ الحق ﴾ رفعه أبو عمرو والكسائي على نعت الولاية ، وتصديقه قراءة أُبيّ : (هنالك الولاية الحق لله) . وقرأ الآخرون بالكسر على صفة الله كقوله : ﴿ ثُمَّ رُدوا إلى الله مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ [الأنعام : 62] ، وتصديقه قراءة عبد الله : (هنالك الولاية لله وهو الحق

) فجعله من نعت الله . ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً ﴾ لأوليائه وأهل طاعته ﴿ وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ لهم في الآخرة إذا صاروا إليه . والعُقب : العاقبة ، يقال : هذا عاقبة أمره كذا ، وعقباه وعقبه أي آخرة قوله .

(147/473)

﴿ واضرب ﴾ يا محمد ﴿ لَهُم ﴾ : لهؤلاء المتكبرين المترفين الذين سألوا طرد الفقراء المؤمنين ﴿ مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ ، يعني : المطر . قالت الحكماء : شبّه الله تعالى الدنيا بالماء ؛ لأن الماء لا يستقر في موضع وحال ، كذلك الدنيا لا تبقى لأحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة وكذلك الدنيا ، ولأن الماء يفنى كذلك الدنيا تفنى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ ، فكذلك الدنيا لا يسلم من آفاتها وفتنتها أحد ، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً مبقياً وإذا جاوز الحد المُقدّر كان ضارّاً مهلكاً ، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع ، وفضولها يضرّ . ﴿ فاختلط بِهِ ﴾ : بالماء ﴿ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ ﴾ عن قريب ﴿ هَشِيماً ﴾ ، قال ابن عباس : يابساً . قال الضحّاك : كسيراً . قال الأخفش : متفتّتاً ، وأصله الكسر . ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ ، قال ابن عباس : تديره . قال ابن كيسان : تجيء به وتذهب . قال الأخفش : ترفعه . وقال أبو عبيدة :

تُفرّقه . القتيبي : تنسفه . وقرأ طلحة بن مصرف : الآية فقال : ذرته الريح تذروه ذروا ، وتذريه ذرياً وأذرته إذراءً إذا أطارت به ، ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ ، قادراً .

(148/473)

﴿ المال والبنون ﴾ التي يفخر بها عيينة وأصحابه من الأشراف والأغنياء ﴿ زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ ، وليست من زاد القبر ولا من عُدد الآخرة ، ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ التي يعملها سلمان وأصحابه من الموالي والفقراء ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي خير ما يأمله الإنسان . واختلفوا في ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ ما هي ؛ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحّاك : هي قول العبد : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر) . يدل عليه ما روى مسلم بن إبراهيم عن أبي هلال عن قتادة أن النبّي صلى الله عليه وسلم أخذ غصناً فحركه حتى سقط ورقه ، وقال : " إن المسلم إذا قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، تحاتّت عنه الذنوب . خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن ؛ فهنّ من كنوز الجنّة وصفايا الكلام ، وهنّ الباقيات الصالحات " .

وقال عثمان (رضي الله عنه) وابن عمر وسعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح : هي (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، ولا حول ، ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم) . يدل عليه (ما) روى القاسم بن عبد الله العمري ، ومحمد بن عجلان عن عبد الجليل بن حميد عن خالد ابن عمران " أن النبّي صلى الله عليه وسلم خرج على قومه ، فقال : "خذوا جُنّتكم" . قالوا : يا رسول الله ، من عدوّ حضر ؟ قال : "بل من النار" . قالوا : وما جنتنا من النار ؟ قال : " الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مقدّمات مجنّبات ومعقّبات ، وهنّ الباقيات الصالحات " " .

(149/473)

وعن أبي سعيد الخدري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " استكثروا من الباقيات الصالحات " . فقيل : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : "الملّة" . قال : وما هي ؟ قال : " التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله " " .

وقال عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبد الله : أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي فقال : قل له : القني عند زاوية القبر ؛ فإن لي إليك حاجة . قال : فالتقيا ، فسلّم

أحدهما على الآخر ، ثمّ قال سالم : ما تعدّ الباقيات ؟ فقال : لا إله إلاّ الله ، والحمد لله ، وسبحان الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله . فقال له سالم : متى جعلت : ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله ؟ قال : ما زلت أجعله فيها . قال فراجعه مرتين وثلاثاً فلم ينزع ، فقال سالم : أجّل . فأتيت أبا أيّوب الأنصاري فحدّث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " عُرج بي إلى السماء فأُريت إبراهيم (عليه السلام) فقال : يا جبرئيل ، من هذا معك ؟ فقال : محمد . فرحّب بي وسهّل ، ثمّ قال : مر أُمّتك فليكثروا من غراس الجنّة ، فإن تربتها طيبة ، وإن أرضها واسعة . فقلت وما غراس الجنّة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلاّ بالله " .

وقال سعيد بن جبير وعمرو بن شرحبيل ومسروق وإبراهيم : هي الصلوات الخمسة ، وهي ﴿ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114] .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هي الأعمال الصالحة : لا إله إلاّ الله ، وأستغفر الله وصلى الله على محمد ، والصلاة والصوم والحج والصدقة والعتق والجهاد والصّلة وجميع الحسنات التي تبقى لأهلها في الجنّة ما دامت السماوات والأرض .

وروى عطية عن ابن عباس قال : هي الكلام الطيب . وقال عوف : سألت الحسن عن الباقيات الصالحات ، قال : النيّات والهمّات ؛ لأن بها تُقبل الأعمال وترفع . قال قتادة : هي كل ما أُريد به وجه الله . والله أعلم .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ : نزيلها عن أماكنها . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : (تُسيَّر) بالتاء وفتح الياء (الجبال) رفعاً على المجهول ، ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ ظاهرة كرأي العين ليس عليها شجر ولا جبل ولا ثمر ولا شيء يسترها . وقال عطاء : ترى باطن الأرض ظاهراً قد برز الذين كانوا في بطنها فصاروا على ظهرها ، ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ : جمعناهم إلى الموقف للحساب ، ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ : نترك ونخلف ﴿ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾ يعني : صفاً صفاً ؛ لأنهم صفٌّ واحد . وقيل قياماً ، يقال لهم يعني للكفار ، لفظه عام ومعناه خاص : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني : أحياء . وقيل : عراة . وقيل : عُزّلاً . وقيل : فرادى . ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً ﴾ يعني : القيامة .

(151/473)

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ يعني كتب أعمال الخلق ، ﴿ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ ﴾ : خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الأعمال السيئة ، ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إذا رأوها : ﴿ ياويلتنا مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ من ذنوبنا ؟ قال ابن عباس : الصغيرة :

التبسّم ، والكبيرة : القهقهة . وقال سعيد بن جبير : الصغيرة اللمم والتخميش والقبل والمسيس ، والكبيرة : الزنا ، والمواقعة ، ﴿ إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ ، قال ابن عباس : عملها . وقال السّدي : كتبها وأثبتها . وقال مقاتل بن حيان : حفظها . وقيل : عدّها . وقال إبراهيم ابن الأشعث : كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية قال : ضجّوا والله من الصغار قبل الكبار . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لصغائر الذنوب مثلاً فقال : "كمثل قوم انطلقوا يسيرون حتى نزلوا بفلاة من الأرض فانطلق كل رجل منهم يحتطب ، فجعل الرجل منهم يأتي بالعود ويجيء الآخر بعودين حتى جمعوا سواداً وأجّجوا . وإن الذنب الصغير يجتمع على صاحبه حتى يهلكه" .

﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ مكتوباً مثبتاً في كتابهم ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ يعني : لا ينقص ثواب أحد عمل خيراً . قال الضحّاك : لا يأخذ أحداً بجرم لم يعمله ولا يورّث ذنب أحد على غيره .

(152/473)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ يقول جلّ ذكره مذكّراً لهؤلاء المتكبرين ما أورث الكبر إبليس ، ويعلّمهم أنه من العداوة والحسد لهم على مثل الذي كان لأبيهم : واذكر يا

محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، ﴿ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن ﴾ ؛ اختلفوا فيه فقال ابن عباس : كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن ، خُلقوا من نار السّموم ، وخلق الملائكة من نور غير هذا الحي . وكان اسمه بالسريانية عزازيل وبالعربية الحرث ، وكان من خزان الجنّة ، وكان رئيس ملائكة الدنيا ، وكان له سلطان سماء الدنيا وسلطان الأرض ، وكان من أشد الملائكة حلماً وأكثرهم علماً ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض فرأى بذلك لنفسه شرفاً وعظمة فذلك الذي دعاه إلى الكبر ، فعصى فمسخه الله شيطاناً رجيماً ملعوناً . فإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجُه ، وإن كانت خطيئته في معصية فارجُه ، وكانت خطيئة آدم معصية ، وخطيئة إبليس كبراً .

وقال ابن عباس في رواية أُخرى : كان من الجن [و] إنما سُمي بالجنان ، لأنه كان خازناً عليها فنُسب إليها ، كما يقال للرجل : مكي وكوفي ومدني وبصري . [أخبرنا عبد الله بن حامد : أخبرنا محمد ابن يعقوب السّري عن يحيى بن عثمان بن زفر قال] : روى يعقوب القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير في قوله عزّ وجلّ : ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ قال : كان من الجنانيين الذين يعملون في الجنّة . وقال الحسن : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأصل الجنّ كما أن آدم أصل الأنس . وقال شهر ابن حوشب : كان إبليس من الجنّ الذين ظفر بهم الملائكة فأسره بعض الملائكة ، فذهب به إلى السماء .

وقال قتادة : جنّ عن طاعة الله تعالى ، ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ يعني : خرج عن طاعة ربه . تقول العرب : فسقت الرطبّة إذا خرجت من قشرها ، وفسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها ، ولذلك قيل لها : الفويسقة . وقيل : هي من الفُسوق ، وهي الاتّساع ، تقول العرب : فسق فلان في النفقة إذا اتسع فيها ، وما أصاب مالاً إلاّ فسقه ، أي أهلكه وبذّره . والفاسق سمّي فاسقاً ؛ لأنه اتّسع في محارم الله عزّ وجلّ ، وهوّنها على نفسه . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ ﴾ ، يعني يا بني آدم ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ : أعداء . وقال الحسن : الإنس من آخرهم من ذرّية آدم ، والجن من آخرهم من ذرّية إبليس . قال مجاهد : فمن ذرّية إبليس لافيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة ، والهفّان ومرّة وبه يُكنّى إبليس وزيلنون وهو صاحب الأسواق يضع رايته بكل سوق من السّماء والأرض ، والدثر وهو صاحب المصائب يأمر بضرب الوجه وشقّ الجيوب والدعاء بالويل والحرب ، والأعور وهو صاحب أبواب الزّنا ، ومبسوط وهو صاحب الأخبار يأتي بها فيلقيها في أفواه النّاس فلا يجدون [لها] أصلاً ، وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله عزّ وجلّ ، بصّره من المقابح ما لم يرفع أو لم يحسن موضعه ، فإذا أكل ولم يذكر اسم الله عليه أكل معه .

وقال الأعمش : ربما دخلت البيت ، ولم أذكر اسم الله ولم أُسلّم فرأيت مطهره فقلت : ارفعوا ، وخاصمتهم ، ثمّ أذكر فأقول : داسم ، داسم .

(154/473)

وروى مخلد عن الشعبي قال : إني لقاعد يوماً إذ أقبل حمال ومعه دن حتى وضعه ، ثمّ جاءني فقال : أنت الشعبي ؟ قلت : نعم . فقال : أخبرني هل لإبليس زوجة ؟ قلت : إن ذلك لعرس ما شهدته . قال : ثمّ ذكرت قول الله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي ﴾ ، فعلمت أنه لا يكون ذرية إلاّ من زوجة ، قلت : نعم . فأخذ دنّه وانطلق ، قال : فرأيت أنه مختاري . قال ابن زيد : إبليس أبو الجن كما إنّ آدم (عليه السلام) أبو الإنس . قال الله تعالى لإبليس : إني لا أخلق لآدم ذرية إلاّ ذرأت لك مثلها ، [كلما] ولد لآدم . قال قتادة : إنهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ، وما ولد لآدم ذرّية إلاّ ولد له مثله ، فليس من ولد آدم أحد إلاّ له شيطان قد قرن به . ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ ، أي بئس البدل لإبليس وذرّيته من الله .

قال قتادة : بئس ما استبدلوا بعبادة ربهم : طاعة إبليس وذرّيته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 169 . 177 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32) ﴾

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أى ومثل حال الكافرين والمؤمنين ، بحال رجلين وكانا أخوين في بنى إسرائيل : أحدهما كافر اسمه قطروس ، والآخر مؤمن اسمه يهوذا . وقيل : هما المذكوران في سورة والصافات في قوله قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار ، فتشاطراها . فاشترى الكافر أرضا بألف ، فقال المؤمن : اللهم إن أخى اشترى أرضا بألف دينار ، وأنا أشترى منك أرضا في الجنة بألف ، فتصدّق به . ثم بنى أخوه دارا بألف ، فقال : اللهم إنى أشترى منك دارا في الجنة بألف فتصدّق به . ثم تزوّج أخوه امرأة بألف ، فقال : اللهم إنى جعلت ألفا صداقا للحور . ثم اشترى أخوه خدما ومتاعا بألف ، فقال : اللهم إنى اشتريت منك الولدان المخلدين بألف ، فتصدّق به ثم أصابته حاجة ، فجلس لأخيه على طريقه فمرّ به في حشمه ، فتعرّض له ، فطرده ووبخه على التصدّق بماله . وقيل :

هما مثل لأخوين من بنى مخزوم : مؤمن وهو أبو سلمة عبد اللّه بن عبد الأشد ، وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد جَنَّتَيْنِ مِنْ

(156/473)

أَعْنابٍ

بستانين من كروم وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وجعلنا النخل محيطا بالجنتين ، وهذا مما يؤثره الدهاقين «1» في كرومهم : أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة . يقال : حفوه ، إذا أطافوا به : وحففته بهم . أى جعلتهم حافين حوله ، وهو متعدّ إلى مفعول واحد «فتزيده الباء مفعولا ثانيا ، كقولك : غشيه ، وغشيته به وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً جعلناها أرضا جامعة للأقوات والفواكه . ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها ، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق ، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص ، ثم بما وهو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به ، وهو السيح بالنهر الجاري فيها .

والأكل : الثمر . وقرئ بضم الكاف وَلَمْ تَظْلِمْ ولم تنقص . وآتت : حمل على اللفظ ، لأنّ كِلْتَا

لفظه لفظ مفرد ، ولو قيل : آتتا على المعنى ، لجاز . وقرئ : وفجرنا ، على التخفيف .

وقرأ عبد اللّه : كل الجنتين آتى أكله بردّ الضمير على كل وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ أى أنواع من المال ، من ثمر ماله «2» إذا كثر . وعن مجاهد : الذهب والفضة ، أى : كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة «3» من الذهب والفضة وغيرهما ، وكان وافر اليسار من كل وجه ، متمكنا من عمارة الأرض كيف شاء وَأَعَزُّ نَفَراً يعنى أنصارا وحشما . وقيل : أولادا ذكورا ، لأنهم ينفرون معه دون الإناث . يحاوره : يراجعه الكلام ، من حار يحور إذا رجع ، وسألته فما أحار كلمة .

[سورة الكهف (18) : الآيات 35 إلى 36]

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36)

يعنى قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما ويفاخره بما ملك من المال دونه . فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلت : معناه ودخل ما هو جنته ما له جنة غيرها ، يعنى أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون ، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وهو معجب بما أوتى مفتخر به كافر لنعمة ربه ، معرّض بذلك نفسه لسخط اللّه ، وهو أفحش الظلم . إخباره عن نفسه

(1) . قوله «الدهاقين» واحدة دهقان . (ع)

(2) . قوله «من تمر ماله» الذي في الصحاح : أن الثمر جمع ثمار ، ككتب وكتاب . وأن الثمر أيضا : المال المثمر ، ويخفف ويثقل . وأثمر الرجل : إذا كثر ماله ، وثمر اللّه ماله ، أى : كثره . وعبارة الخازن : وكان له ثمر . قرئ بالفتح جمع ثمرة ، وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما . وفي النسفي : له ثمر ، وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء وبضم الثاء وسكون الميم ، وبضمهما . (ع)

(3) . قوله «الأموال الدثرة» الكثيرة . أفاده الصحاح . (ع)

بالشك في بيدودة جنته : لطول أمله واستيلا الحرص عليه وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وإطراحه النظر في عواقب أمثاله . وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه ، ليجدنّ في الآخرة خيرا من جنته في الدنيا ، تطمعا وتمنيا على اللّه ، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده ، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله ، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه ،

كقوله إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى ، لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً . وقرئ : خيرا منهما ، ردّا على الجنتين مُنْقَلَباً مرجعا وعاقبة .

وانتصابه على التمييز ، أى : منقلب تلك ، خير من منقلب هذه ، لأنها فانية وتلك باقية .

[سورة الكهف (18) : آية 37]

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (37)

خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ أى خلق أصلك ، لأنّ خلق أصله سبب في خلقه ، فكان خلقه خلقا له سَوَّاكَ عدلك وكملك إنسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال . جعله كافرا بالله جاحدا لأنعمه لشكه في البعث ، كما يكون المكذب بالرسول صلى الله عليه وسلم كافرا

[سورة الكهف (18) : آية 38]

لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38)

لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي أصله لكن أنا ، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن ، فتلاقت النونان فكان الإدغام . ونحوه قول القائل :

وترميننى بالطّرف أى أنت مذنب وتقلينني لكنّ إيّاك لا أقلى «1»

أى : لكن أنا لا أقليك وهو ضمير الشأن ، والشأن الله ربى ، والجملة خبر أنا ، والراجع منها إليه ياء الضمير . وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعا ، وحسن

ذلك وقوع الألف عوضا من حذف الهمزة. وغيره لا يثبتها إلا في الوقف. وعن أبى عمرو أنه وقف بالهاء:

---

(1). يقول: وترميننى يا محبوبة بطرفك، أى: تشيرين إلى به. فالرمى: استعارة مصرحة، لأنه شبه إطلاق البصر بإطلاق الحجر. ويجوز أن الباء للالة، فالمرمى محذوف فسره بقوله: أى أنت مذنب، فأى تفسيرية، يعنى أن ما رمته به هو ادعاؤها أنه مذنب. وقلاه يقليه، وقليه يقلاه. وقد يقال: قلاه يقلاه بمعنى بغضه أشد البغض، ولكن أصله: ولكن أنا، فنقلت حركة الهمزة إلى النون ثم حذفت، ثم أدغمت النون في النون بعدها، وحذفت الألف الأخيرة في الرسم كاللفظ. ولو أجرى الوصل مجرى الوقف لثبتت، وقدم المفعول وهو «إياك» للاهتمام ببراءتها من فلاء وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء.

(158/473)

لكنه. وقرئ: لكن هو اللّه ربى، بسكون النون وطرح أنا. وقرأ أبىّ بن كعب: لكن أنا على الأصل. وفي قراءة عبد اللّه: لكن أنا لا إله إلا هو ربى. فإن قلت: هو استدراك لما ذا؟

قلت: لقوله أَكَفَرْتَ قال لأخيه: أنت كافر باللّه، لكنى مؤمن موحد، كما تقول: زيد

غائب ، لكن عمرا حاضر .

[سورة الكهف (18) : الآيات 39 إلى 41]

وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً (39) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41)

ما شاءَ اللَّهُ يجوز أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدإ محذوف تقديره : الأمر ما شاء اللّه . أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف ، بمعنى : أى شيء شاء اللّه كان . ونظيرها في حذف الجواب لَوْ في قوله وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ والمعنى : هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك اللّه منها الأمر ما شاء اللّه ، اعترافا بأنها وكلّ خير فيها إنما حصل بمشيئة اللّه وفضله ، وأن أمرها بيده : إن شاء تركها عامرة وإن شاء خرّبها ، وقلت لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده ، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا باللّه تعالى . وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب ، فيدخل من شاء . وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج . من قرأ أَقَلَّ بالنصب فقد جعل أنا فصلا ، ومن رفع جعله مبتدأ وأقلّ خبره ، والجملة مفعولا .

ثانيا لترنى . وفي قوله وَوَلَداً نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله وَأَعَزُّ نَفَراً والمعنى إن ترني

أفقر منك فأنا أتوقع من صنع اللّه أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى ، فيرزقنى لإيمانى جنة خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك . والحسبان : مصدر كالغفران والبطلان ، بمعنى الحساب ، أى : مقدارا قدره اللّه وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها وقال الزجاج : عذاب حسبان ، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك . وقيل حسبانا مرامي الواحدة حسبانة وهي الصواعق صَعِيداً زَلَقاً أرضا بيضاء يزلق عليها لملامتها زلقا .

وغَوْراً كلاهما وصف بالمصدر .

(159/473)

[سورة الكهف (18) : الآيات 42 إلى 43]

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (43)

وَأُحِيطَ به عبارة عن إهلاكه . وأصله من أحاط به العدوّ ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك . ومنه قوله تعالى إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ ومثله قولهم :

أتى عليه ، إذا أهلكه ، من أتى عليهم العدوّ : إذا جاءهم مستعليا عليهم . وتقليب الكفين : كناية عن الندم والتحسر ، لأنّ النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن ، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد ، ولأنه في معنى الندم عدّى تعديته بعلى ، كأنه قيل : فأصبح يندم عَلى ما أَنْفَقَ فِيها أى أنفق في عمارتها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها يعنى أنّ كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض ، وسقطت فوقها الكروم . قيل : أرسل اللّه عليها نارا فأكلتها يا لَيْتَنِي تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه ، فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك اللّه بستانه . ويجوز أن يكون توبة من الشرك ، وندما على ما كان منه ، ودخولا في الإيمان . وقرئ : وَلَمْ تَكُنْ بالياء والتاء ، وحمل يَنْصُرُونَهُ على المعنى دون اللفظ ، كقوله فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ . فإن قلت : ما معنى قوله يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قلت : معناه يقدرون على نصرته من دون اللّه ، أى : هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل وَما كانَ مُنْتَصِراً وما كان ممتنعا بقوّته عن انتقام اللّه .

[سورة الكهف (18) : آية 44]

هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً (44)

الْوَلايَةُ بالفتح النصرة والتولي ، وبالكسر السلطان والملك ، وقد قرئ بهما . والمعنى هنالك ، أى : في ذلك المقام وتلك الحال النصرة للّه وحده ، لا يملكها غيره ، ولا يستطيعها أحد

سواه ، تقريرا لقوله وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أو : هنالك السلطان والملك للّه لا يغلب ولا يمتنع منه . أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى اللّه ويؤمن به كل مضطرّ . يعنى أنّ قوله يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً كلمة ألجئ إليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره ، ولولا ذلك لم يقلها . ويجوز أن يكون المعنى : هنالك الولاية للّه ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ، ويشفى صدورهم من أعدائهم ، يعنى : أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن ، وصدّق قوله فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ ويعضده قوله خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً أى لأوليائه . وقيل هُنالِكَ إشارة إلى الآخرة أى في تلك الدار

(160/473)

الولاية للّه ، كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . وقرئ «الحق» بالرفع والجرّ صفة للولاية واللّه «1» . وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد ، كقولك : هذا عبد اللّه الحق لا الباطل ، وهي قراءة حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم . وقرئ عُقْباً بضم القاف وسكونها ، وعقبى على فعلى ، وكلها بمعنى العاقبة .

[سورة الكهف (18) : آية 45]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45)

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا . وقيل : نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روى ورف «2» رفيفا ، وكان حق اللفظ على هذا التفسير :

فاختلط بنبات الأرض . ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه .

والهشيم : ما تهشم وتحطم ، الواحدة هشيمة . وقرئ : تذروه الريح . وعن ابن عباس : تذريه الرياح ، من أذرى : شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء ، بحال النبات يكون أخضر وارفا «3» ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ من الإنشاء والإفناء مُقْتَدِراً .

[سورة الكهف (18) : آية 46]

الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (46)

الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتفنى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا . وقيل هي الصلوات الخمس . وقيل : سبحان اللّه والحمد للّه ولا

إله إلا اللّه واللّه أكبر . وعن قتادة : كل ما أريد به وجه اللّه خَيْرٌ ثَوابا ًأى ما يتعلق بها من

---

(1) . قال محمود : «قرئ بالرفع والجر صفة الولاية واللّه تعالى . . . الخ» قال أحمد : وقد تقدم الإنكار عليه في مثل هذا القول فانه يوهم أن القراآت موكولة إلى رأى الفصحاء واجتهاد البلغاء ، فتتفاوت في الفصاحة لتفاوتهم فيها ، وهذا منكر شنيع . والحق : أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلا بفلق إليه صلى اللّه عليه وسلم منزلا كذلك من السماء ، فلا وقع لفصاحة الفصيح ، وإنما هو ناقل كغيره ، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة ، فان عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر وهلم جرا إلى سائر البدع الاعتزالية ، فمن ثم أثنى عليه .

(2) . قوله «ورف رفيفا «في الصحاح : رف لونه رفا ورفيفا : برق وتلألأ . وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه . (ع)

(3) . قوله «بجال النبات يكون أخضر وارفا» في الصحاح : ورف النبت ، أى : اهتز من نضارته ، فهو وارف ، أى : ناضر رفاف شديد الخضرة . (ع)

الثواب وما يتعلق بها من الأمل ، لأنّ صاحبها يأمل في الدنيا ثواب اللّه ، ويصيبه في الآخرة .

[سورة الكهف (18) : الآيات 47 إلى 48]

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48)

قرئ : تسير ، من سيرت – ونسير ، من سيرنا . وتسير ، من سارت ، أى : تسير في الجو . أو يذهب بها ، بأن تجعل هباء منبثا . وقرئ : وترى الأرض على البناء للمفعول بارِزَةً ليس عليها ما يسترها مما كان عليها وَحَشَرْناهُمْ وجمعناهم إلى الموقف . وقرئ : فلم نغادر ، بالنون والياء ، يقال :

غادره وأغدره إذا تركه . ومنه الغدر . ترك الوفاء . والغدير : ما غادره السيل . وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان فاً

مصطفين ظاهرين ، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحدا لَقَدْ جِئْتُمُونا

أى قلنا لهم : لقد جئتمونا . وهذا المضمر هو عامل النصب في يوم نسير . ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر . والمعنى لقد بعثناكم كما أنشأناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ

وقيل جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أوّلا ، كقوله وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى . فإن قلت لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى ؟ قلت : للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك وَعِداً

وقتا لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور .

[سورة الكهف (18) : آية 49]

وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49)

الْكِتابُ للجنس وهو صحف الأعمال يا وَيْلَتَنا ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً هنة صغيرة ولا كبيرة ، وهي عبارة عن الإحاطة ، يعنى : لا يترك شيئا من المعاصي إلا أحصاه ، أى : أحصاها كلها كما تقول : ما أعطانى قليلا ولا كثيرا ، لأن الأشياء إما صغار وإما كبار . ويجوز أن يريد : وإما كان عندهم صغائر وكبائر . وقيل : لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم الصغائر وهي المناقشة . وعن ابن عباس : الصغيرة التبسم ، والكبيرة القهقهة . وعن سعيد بن جبير : الصغيرة المسيس ، والكبيرة الزنا .

وعن الفضيل : كان إذا قرأها قال : ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر إِلَّا أَحْصاها

إلا ضبطها وحصرها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً في الصحف عتيدا . أو جزاء ما عملوا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً فيكتب عليه ما لم يعمل . أو يزيد في عقاب المستحق ، أو يعذبه بغير جرم ، كما يزعم من ظلم اللّه «1» في تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم .

[سورة الكهف (18) : الآيات 50 إلى 51]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (50) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51)

كانَ مِنَ الْجِنِّ كلام مستأنف «2» جار مجرى التقليل بعد استثناء إبليس من الساجدين ، كأن قائلا قال : ما له لم يسجد ؟ فقيل : كان من الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ والفاء للتسبيب أيضا ، جعل كونه من الجن سببا في فسقه ، لأنه لو كان ملكا كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر اللّه ، لأنّ الملائكة معصومون ألبتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس ، كما قال لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ وهذا الكلام المعترض تعمد من اللّه تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم . فما أبعد البون بين ما تعمده اللّه ، وبين قول من ضادّه وزعم أنه كان ملكا ورئيسا على الملائكة ، فعصى ، فلعن ومسخ شيطانا ، ثم وركّه «3» على ابن عباس . ومعنى فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ خرج عما أمره به ربه من السجود . قال : فواسقا عن قصدها جوائرا «4»

أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر ربه الذي هو قوله اسْجُدُوا لِآدَمَ. أَفَتَتَّخِذُونَهُ الهمزة للإنكار والتعجيب، كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وتستبدلونهم بي، بئس البدل من اللّه إبليس لمن استبدله، فأطاعه بدل طاعته. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 720. 727﴾

---

(1). قوله «كما يزعم من ظلم اللّه» لعله بالتشديد، أي: نسب إليه الظلم. (ع)

(2). قال محمود: «قوله تعالى كان من الجن مستأنف تعليل لفسوقه . . . الخ» قال أحمد: والحق معه في هذا الفعل غير أن قوله «تعمده اللّه تعالى» لفظة لا تروق ولا تليق، فان التعمد إنما يوصف به عرفا من يفعل في بعض الأحيان خطأ وفي بعضها تعمدا، فاجتنابها في حق اللّه تعالى واجب، واللّه الموفق.

(3). قوله «ثم وركّه» أي اتهمه به. (ع) [. . . . .]

(4). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 119 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(163/473)

وقال النسفي:

﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾

ومثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل ، أحدهما كافر اسمه قطروس ، والآخر مؤمن اسمه يهوذا .

وقيل : هما المذكوران في "والصافات" في قوله : ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ [الصافات : 51] ورثاً من أبيهما ثمانية آلاف دينار فجعلاها شطرين ، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار فقال المؤمن : اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف فتصدق به ، ثم بنى أخوه داراً بألف فقال : اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدق به ، ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال : اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحور ، ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال : اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق ، به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعناب ﴾ بساتين من كروم ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة .

يقال حفوه إذا أطافوا به ، وحففته بهم أي جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيد الباء مفعولاً ثانياً ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه ، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق

﴿ كِلْتَا الجنتين اتَتْ ﴾ أعطت حمل على اللفظ لأن اللفظ "كلتا" مفرد ولو قيل "آتتا" على المعنى لجاز ﴿ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ ﴾ ولم تنقص من أكلها ﴿ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ نعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو النهر الجاري فيها .

(164/473)

﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ لصاحب الجنتين ﴿ ثَمَرٌ ﴾ أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثره أي كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما له ثمر .

﴿ وأحيط بثمره ﴾ بفتح الميم والثاء : عاصم ، وبضم الثاء وسكون الميم : أبو عمرو ، وبضمهما : غيرهما ﴿ فَقَالَ لصاحبه وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع ، يعني قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ أنصاراً وحشماً ، أو أولاداً ذكوراً لأنهم ينفرون معه دون الإناث .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ إحدى جنتيه أو سماها جنة لاتحاد الحائط ، وجنتين للنهر الجاري بينهما ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ ضار لها بالكفر ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً ﴾ أي

أن تهلك هذه الجنة ، شك في بيد ودة جنته لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة ، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا إدعاء لكرامته عليه ومكانته عنده ﴿ منقلباً ﴾ تمييز أي مرجعاً وعاقبة ﴿ قَالَ لَهُ صاحبه وَهُوَ يحاوره أَكَفَرْتَ بالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي خلق أُصلك لأن خلق أصله سبب في خلقه وكان خلقه خلقاً له ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي خلقك من نطفة ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال جعله كافراً بالله لشكه في البعث .

(165/473)

﴿ لَكِنَّا ﴾ بالألف في الوصل : شامي ، الباقون بغير ألف ، وبالألف في الوقف اتفاق ، وأصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فأدغمت الأولى في الثانية بعد أن سكنت ﴿ هُوَ الله رَبِّى ﴾ هو ضمير الشأن والشأن الله ربي والجملة خبر "أنا" والراجع منها إليه ياء الضمير ، وهو استدراك لقوله ﴿ أكفرت ﴾ قال لأخيه أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد كما تقول : زيد غائب لكن عمراً حاضر ، وفيه

حذف أي أقول هو الله بدليل عطف ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا وَلَوْلاَ ﴾ وهلا ﴿ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ "ما" موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره : الأمر ما شاء الله ، أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف يعني أي شيء شاء الله كان والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر ما شاء الله ، اعترافا بأنها وكل ما فيها إنما حصل بمشيئة الله ، وأن أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها ، ﴿ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده .

من قرأ ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً ﴾ بنصب ﴿ أقل ﴾ فقد جعل ﴿ أنا ﴾ فصلاً ومن رفع وهو الكسائي جعله مبتدأ و ﴿ أقل ﴾ خبره والجملة مفعولاً ثانياً ل "ترني" وفي قوله : ﴿ وَوَلَدًا ﴾ نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله : ﴿ وأعز نفرا ﴾ .

(166/473)

﴿ فعسى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ في الدنيا أو في العقبي ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا ﴾ عذاباً ﴿ مِّنَ السماء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ غائراً أي ذاهباً في الأرض ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا

﴿ فلا يتأتى منك طلبه فضلاً عن الوجود ، والمعنى إن ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة خيراً من جنتك ، ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بساتينك .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ هو عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل إهلاك ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أي الكافر ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ يضرب إحداهما على الآخر ندماً وتحسراً وإنما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن كما كنى عن ذلك بِعَضِّ الكف والسقوط في اليد ، ولأنه في معنى الندم عُدي تعديته ب "على" كأنه قيل : فأصبح يندم ﴿ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ أي في عمارتها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ يعني أن المعرشة سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتي من جهة كفره وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمني ، ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما كان منه ودخولاً في الإيمان

.

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ ﴾ يقدرون على نصرته ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ أي هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لحكمة ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله ﴿ هُنَالِكَ الولايةِ لِلَّهِ الحق ﴾ ﴿ يكن ﴾ بالياء و ﴿ الولاية ﴾ بكسر الواو : حمزة وعلي فهي بالفتح النصرة والتولي ، وبالكسر السلطان والملك ، والمعنى هنالك أي في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقريراً لقوله ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ أو هنالك السلطان والملك صلى الله عليه وسلم لا يغلب ، أو في مثل تلك الحالة الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعني أن قوله ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ كلمة ألجيء إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها .

أو هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم يعني أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله ﴿ فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴾ ويؤيده قوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقباً ﴾ أي لأوليائه ، أو ﴿ هنالك ﴾ إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله كقوله : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] ﴿ الحق ﴾ بالرفع : أبو عمرو وعلي صفة ل ﴿ الولاية ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي هي الحق أو هو الحق .

غيرهما بالجر صفة لله .

و﴿ عقبا ﴾ بسكون القاف : عاصم وحمزة ، وبضمها : غيرهما ، وفي الشواذ "عقبى" على وزن "فعلى" وكلها بمعنى العاقبة .

(168/473)

﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَاء أنزلناه مِنَ السماء ﴾ أي هي كماء أنزلناه ﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضاً أو أثر في النبات الماء فاختلط به حتى روى ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يابساً متكسراً الواحدة هشيمة ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ تنسفه وتطيره .

﴿ الريح ﴾ حمزة وعلي ﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ قادراً ، شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والإفناء بحال النبات يكون أخضر ثم يهيج فتطيره الريح كأن لم يكن .

﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ لا زاد القبر وعدة العقبى ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان ، أو الصلوات الخمس ، أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ جزاء ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ لأنه وعد

صادق وأكثر الآمال كاذبه يعني أن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيبه في الآخرة ﴿ وَيَوْمَ ﴾ واذكر يوم ﴿ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ ﴿ تُسيَّر الجبال ﴾ مكي وشامي وأبو عمرو أي تسير في الجو، أو يذهب بها بأن تجعل هباء منثوراً منبثاً ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال والأشجار ﴿ وحشرناهم ﴾ أي الموتى ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ أي فلم نترك.

غادره أي تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ما غادره السيل ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبّكَ صَفًّا ﴾ مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً، شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ أي قلنا لهم لقد جئتمونا، وهذا المضمر يجوز أن يكون عامل النصب في ﴿ يوم نسير ﴾ ﴿ كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي لقد بعثناكم كما أنشأناكم أول مرة، أو جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولاً.

(169/473)

وإنما قال: ﴿ وحشرناهم ﴾ ماضياً بعد ﴿ نسير ﴾ و ﴿ ترى ﴾ للدلالة على حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال.

كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور أو مكان وعد للمحاسبة .

﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ أي صحف الأعمال ﴿ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ ياويلتنا مَّالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ أي لا يترك شيئاً من المعاصي ﴿ إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ حصرها وضبطها ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ في الصحف عتيداً أو جزاء ما عملوا ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فيكتب عليه ما لم يعمل أو يزيد في عقابه أو يعذبه بغير جرم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ فسجود تحية أو سجود انقياد ﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن ﴾ وهو مستأنف كأن قائلاً قال : ما له لم يسجد ؟ فقيل : كان من الجن ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ خرج عما أمره ربه به من السجود وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ الهمزة للإنكار والتعجب كأنه قيل : أعقيب ما وجد منه تتخذونه وذريته ﴿ أَوْلِيَاء مِن دُونِى ﴾ وتستبدلونهم بي ؟ ومن ذريته "لاقيس" موسوس الصلاة و"الأعور" صاحب الزنا و"بتر" صاحب المصائب ومطوس صاحب الأراجيف و"داسم" يدخل ويأكل مع من لم يسم الله تعالى ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أعداء ﴿ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾ بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 12 . 16 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً ﴾

للكافر والمؤمن . ﴿ رَّجُلَيْنِ ﴾ حال رجلين مقدرين أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيل كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا ، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا ، فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً وصرفها المؤمن في وجوه الخير ، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى . وقيل الممثل بهما أخوان من بني مخزوم كافر وهو الأسود بن عبد الأشد ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ بستانين . ﴿ مِّنْ أعناب ﴾ من كروم والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة للرجلين . ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ وجعلنا النخل محيطة بهما مؤزراً بها كرومهما ، يقال حفه القوم إذا أطافوا به وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك : غشيته به . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا ﴾ وسطهما . ﴿ زَرْعًا ﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق . ﴿ كِلْتَا الجنتين اتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها ، وإفراد الضمير لإفراد ﴿ كِلْتَا ﴾ وقرىء "كل

الجنتين آتى أكله" . ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ ﴾ ولم تنقص من أكلها . ﴿ شَيْئاً ﴾ يعهد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً . ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بها ؤهما ، وعن يعقوب "وَفَجرنَا" بالتخفيف .

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين من ثمر ماله إذا كثره . وقرأ عاصم بفتح الثاء والميم ، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم والباقون بضمهما وكذلك في قوله ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ ﴿ فَقَالَ لصاحبه وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ يراجعه في الكلام من حار إذا رجع . ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ حَشَماً وأعواناً . وقيل أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفرون معه .

(171/473)

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها ، وإفراد الجنة لأن المراد ما هو جنته وما متع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون ، أو لاتصال كل واحد من جنتيه بالأخرى ، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة . ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ ضار لها بعجبه وكفره ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ أن تفنى . ﴿ هذه ﴾ الجنة . ﴿ أَبَدًا ﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته .

﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ كائنة . ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى ربّى ﴾ بالبعث كما زعمت .

﴿ لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ من جنته ، وقرأ الحجازيان والشامي "منهما" أي من الجنتين .

﴿ مُنْقَلَباً ﴾ مرجعاً وعاقبة لأنها فانية وتلك باقية ، وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه لاستئهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه .

﴿ قَالَ لَهُ صاحبه وَهُوَ يحاوره أَكَفَرْتَ بالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ لأنه أصل مادتك أو مادة أصلك . ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فإنها مادتك القريبة . ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ ثم عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال . جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأه الشك في كمال قدرة الله تعالى ، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب فإن من قدر على بدء خلقه منه قدر أن يعيده منه .

(172/473)

﴿ لَكِنَّا هُوَ الله رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ أصله لكن أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة أو دونه فتلاقت النونان فكان الإدغام ، وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة أو لإجراء الوصل مجرى الوقف ، وقد قرىء "لكن أنا" على الأصل وهو ضمير الشأن وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبر "أنا" أو ضمير ﴿ الله ﴾ و ﴿ الله ﴾

بدله وربي خبره والجملة خبر "أنا" والاستدراك من أكفرت كأنه قال : أنت كافر بالله لكني مؤمن به ، وقد قرىء "لكن هو الله ربي ولكن أنا لا إله إلا هو ربي" .

﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ﴾ وهلا قلت عند دخولها . ﴿ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن على أن ما موصولة ، أو أي شيء شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها . ﴿ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ وقلت لا قوة إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله ، وإن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها بمعونته وإقداره . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره " ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ يحتمل أن يكون فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأول ، وقرىء ﴿ أَقُلْ ﴾ بالرفع على أنه خبر ﴿ أَنَاْ ﴾ والجملة مفعول ثاني ل ﴿ تَرَنِ ﴾ ، وفي قوله ﴿ وَوَلَدًا ﴾ دليل لمن فسر النفر بالأولاد .

﴿ فعسى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني وهو جواب الشرط . ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ على جنتك لكفرك . ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ السماء ﴾ مرامي جمع حسبانة وهي الصواعق . وقيل هو مصدر بمعنى الحساب والمراد به التقدير بتخريبها أو عذاب حساب الأعمال السيئة . ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أرضاً ملساء يزلق عليها باستئصال نباتها وأشجارها .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي غائراً . في الأرض مصدر وصف به كالزلق . ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ للماء الغائر ترددا في رده .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ وأهلك أمواله حسبما توقعه صاحبه وأنذره منه ، وهو مأخوذ من أحاط به العدو فإنه إذا أحاط به غلبه وإذا غلبه أهلكه ، ونظيره أتى عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ظهراً لبطن تلهفاً وتحسراً . ﴿ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ في عمارتها وهو متعلق ب ﴿ يُقَلِّبُ ﴾ لأن تقليب الكفين كناية عن الندم فكأنه قيل : فأصبح يندم ، أو حال أي متحسراً على ما أنفق فيها . ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ ساقطة . ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ بأن سقطت عروشها على الأرض وسقطت الكروم فوقها عليها . ﴿ وَيَقُولُ ﴾ عطف على ﴿ يُقَلِّبُ ﴾ أو حال من ضميره . ﴿ ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بستانه ، ويحتمل أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما سبق منه .

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدمه . ﴿ يَنصُرُونَهُ ﴾ يقدرون على

نصره بدفع الإهلاك أو رد المهلك أو الإتيان بمثله . ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده . ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه .

(174/473)

﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المقام وتلك الحال . ﴿ الولاية لِلَّهِ الحق ﴾ النصرة له وحدة لا يقدر عليها غيره تقديراً لقوله ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ ﴾ أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي لأوليائه . وقرأ حمزة والكسائي بالكسر ومعناه السلطان والملك أي هنالك السلطان له لا يغلب ولا يمنع منه ، أو لا يعبد غيره كقوله تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ فيكون تنبيهاً على أن قوله ﴿ ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ ﴾ كان عن اضطرار وجزع مما دهاه . وقيل ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إشارة إلى الآخرة وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿ الحق ﴾ بالرفع صفة للولاية ، وقرىء بالنصب على المصدر المؤكد ، وقرأ عاصم وحمزة "عُقْبًا" بالسكون ، وقرىء "عقبى" وكلها بمعنى العاقبة .

﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا ﴾ واذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها أو صفتها الغريبة . ﴿ كَمَاء ﴾ هي كماء ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً ل ﴿ اضرب

﴿ على أنه بمعنى صير . ﴿ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ فالتفت بسببه وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ، أو نجع في النبات حتى روى ورف وعلى هذا كان حقه فاختلط بنبات الأرض لكنه لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته . ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ مهشوماً مكسوراً . ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ تفرقه ، وقرىء "تذريه" من أذرى والمشبه به ليس الماء ولا حاله بل الكيفية المنتزعة من الجملة ، وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفاً ثم هشيماً تطيره الرياح فيصير كأن لم يكن . ﴿ وَكَانَ الله على كُلّ شَىْء ﴾ من الإنشاء والإفناء . ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ قادراً .

(175/473)

﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ يتزين بها الإنسان في دنياه وتفنى عنه عما قريب . ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ وأعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الآباد ، ويندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وأعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والكلام الطيب . ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ﴾ من المال والبنين . ﴿ ثَوَاباً ﴾ عائدة . ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يؤمل بها في الدنيا .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ واذكر يوم نقلعها ونسيرها في الجو ، أو نذهب بها فنجعلها هباء منبثاً . ويجوز عطفه على ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بالتاء والبناء للمفعول وقرىء "تسير" من سارت . ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ بادية برزت من تحت الجبال ليس عليها ما يسترها ، وقرىء "وترى" على بناء المفعول . ﴿ وحشرناهم ﴾ وجمعناهم إلى الموقف ، ومجيئه ماضياً بعد ﴿ نُسَيِّرُ ﴾ ﴿ وَتَرَى ﴾ لتحقق الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وعد لهم ، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد . ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ فلم نترك . ﴿ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر لترك الوفاء والغدير لما غادره السيل ، وقرىء بالياء .

(176/473)

﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ ﴾ شبه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان لا ليعرفهم بل ليأمر فيهم . ﴿ صَفًّا ﴾ مصطفين لا يحجب أحد أحد . ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ على إضمار القول على وجه يكون حالاً أو عاملاً في يوم نسير . ﴿ كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ عراة لا شيء معكم من المال والولد كقوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ أو أحياء كخلقتكم

الأولى لقوله : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ وقتاً لإنجاز الوعد بالبعث والنشور وأن الأنبياء كذبوكم به ، وبل للخروج من قصة إلى أخرى .

﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ صحائف الأعمال في الأيمان والشمائل أو في الميزان وقيل هو كناية عن وضع الحساب . ﴿ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين . ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الذنوب . ﴿ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا ﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات . ﴿ مَّالِ هذا الكتاب ﴾ تعجباً من شأنه . ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً ﴾ هنة صغيرة . ﴿ وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ إلا عددها وأحاط بها . ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ مكتوباً في الصحف . ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فيكتب عليه ما لم يفعل أو يزيد في عقابه الملائم لعمله .

(177/473)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ كرره في مواضع لكونه مقدمة للأمور المقصود بيانها في تلك المحال ، وها هنا لما شنع على المفتخرين واستقبح صنيعهم قرر ذلك بأنه من سنن إبليس ، أو لما بين حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان . زهدهم أولاً في زخارف الدنيا بأنها

عرضة الزوال والأعمال الصالحة خير وأبقى من أنفسها وأعلاها ، ثم نفرهم عن الشيطان بتذكير ما بينهم من العدواة القديمة وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن . ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ حال بإضمار قد أو استئناف للتعليل كأنه قيل : ما له لم يسجد فقيل كان من الجن . ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ فخرج عن أمره بترك السجود والفاء للسبب ، وفيه دليل على أن الملك لا يعصى أَلبتة وإنما عصى إبليس لأنه كان جنياً في أصله والكلام المستقصى فيه في سورة "البقرة" . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ ﴾ أعقيب ما وجد منه تتخذونه والهمزة للإنكار والتعجب . ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ أولاده أو أتباعه ، وسماهم ذرية مجازاً . ﴿ أَوْلِيَاء مِن دُونِى ﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي . ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾ من الله تعالى إبليس وذريته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 495 . 504 ﴾

(178/473)

وقال ابن جزى :

﴿ واضرب لهُمْ ﴾

(179/473)

الضمير للكفار الذين قالوا : أطرد فقراء المسلمين ، وللفقراء الذين أرادوا طردهم : أي مثل هؤلاء وهؤلاء كمثل هذين الرجلين ، وهما أخوان من بني إسرائيل : أحدهما مؤمن ، والآخر كافر : ورثا مالاً عن أبيهما ، فاشترى الكافر بماله جنتين ، وأنفق المؤمن ماله في طاعة الله حتى افتقر ، فعيره الكافر بفقره فأهلك الله مال الكافر ، وروي أن اسم المؤمن تمليخا ، واسم الكافر فطروس ، وقيل : كانا شريكين اقتسما المال ، فاشترى أحدهما بماله جنتين وتصدق الآخر بماله ﴿ أُكُلَهَا ﴾ بضم الهمزة اسم لما يؤكل ، ويجوز ضم الكاف وإسكانها ﴿ وَلَمْ تَظْلِم ﴾ أي لم تنقص ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ بضم الثاء والميم ، أصناف المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقيل : هو الذهب والفضة خاصة ، وهو من ثمّر ماله إذا أكثره ويجوز إسكان الميم تخفيفاً ، وأما بفتح الثاء والميم ، فهو المأكول من الشجر ، ويحتمل المعنى الآخر ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي يراجعه في الكلام ﴿ وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ يعني الأنصار والخدم ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ أفرد الجنة هنا ، لأنه إنما دخل الجنة الواحدة من الجنتين ، إذ لا يمكن دخول الجنتين دفعة واحدة ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ إما بكفره وإما بمقابلته لأخيه ، فإنها تتضمن الفخر والكبر والاحتقار لأخيه ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى السموات والأرض وسائر المخلوقات ، فيكون قائلاً ببقاء هذا الوجود ؛ كافراً بالآخرة أو تكون الإشارة إلى جنته ،

فيكون قوله إفراطاً في الاغترار وقلة التحصيل ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّى ﴾ إن كان هذا على سبيل الفرض والتقدير كما يزعم أخي : لأجدن في الآخرة خيراً من جنتي في الدنيا ، وقرئ خيراً منهما . بضمير الاثنين للجنتين ، وبضمير الواحد للجنة ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ أي مرجعاً ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي خلق منه أباك

(180/473)

آدم ، وإنما جعله كافراً لشكه في البعث ﴿ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ كما تقول سوّاك إنساناً ، ويحتمل أن يقصد الرجولية على وجه تعديد النعمة في أن لم يكن أنثى .

﴿ لكنا هُوَ الله رَبِّي ﴾ قرأ الجمهور بإثبات الألف في الوقف وحذفها في الوصل ، والأصل على هذا لكن أنا ، ثم ألقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها ، وحذفت ثم أدغمت النون في النون ، وقرأ ابن عامر بإثبات الألف في الوصل والوقف ، ويتوجه ذلك بأن تكون لحقتها نون الجماعة التي في خرجنا وضربنا ، ثم أدغمت النون في النون ﴿ ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ الآية : وصية من المؤمن للكافر ، ولولا تحضيض ﴿ فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ ﴾ يحتمل أن يريد في الدنيا أو الآخرة ﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي أمراً مهلكاً كالحر والبرد ونحو ذلك ﴿ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ الصعيد : وجه الأرض ، والزلق الذي لا يثبت فيه قدم يعني

أنه تذهب أشجاره ونباته .

﴿ غَوْراً ﴾ أي غائراً ذاهباً وهو مصدر وصف به ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ عبارة عن هلاكها ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ عبارة عن تلهفه وتأسفه وندمه ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ يريد أن السقف وقعت وهي العروش ، ثم تهدمت الحيطان عليها ، والحيطان على العروش وقيل : إن كرومها المعروشة سقطت على عروشها ، ثم سقطت الكروم عليها ﴿ وَيَقُولُ يا ليتني لَمْ أُشْرِكْ ﴾ قال ذلك على وجه التمني لما هلك بستانه ، أو على وجه التوبة من الشرك ﴿ هُنَالِكَ ﴾ ظرف يحتمل أن يكون العامل فيه منتصراً ، أو يكون في موضع خبر ﴿ الولايةِ لِلَّهِ ﴾ بكسر الواو بمعنى الرياسة والملك ، وبفتحها من الموالاة والمودة ﴿ وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ أي عاقبة .

(181/473)

﴿ فاختلط ﴾ الباء سببية ، والمعنى : صار به النبات مختلطاً : أي ملتفاً بعضه ببعض من شدة تكاثفه ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً ﴾ أي متفتتاً ، وأصبح هنا بمعنى صار ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ أي تفرقه ومعنى المثل : تشبيه الدنيا في سرعة فنائها بالزرع في فنائه بعد خضرته

.

﴿ المال والبنون ﴾ الآية : هذا من الجمع بين شيئين في خبر واحد ، وذلك من أدوات البيان ، وقرئ زينتا بالتثنية لأنه خبر عن اثنين ، وأما قراءة الجمهور فأفردت فيه الزينة لأنها مصدر ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذا قول الجمهور ، وقد روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل الصلوات الخمس ، وقيل : الأعمال الصالحات على الإطلاق .

﴿ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ أي نحملها ، ومنه قوله : وهي تمر مر السحاب ، وبعد ذلك تصير هباء ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ أي ظاهرة لزوال الجبال عنها ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ قال الزمخشري : إنما جاء حشرناهم بلفظ الماضي بعد قوله : نسير للدلالة على أن حشرناهم قبل تسيير الجبال ليعاينوا تلك الأهوال ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ أي لم نترك ﴿ صَفًّا ﴾ أي صفوفاً فهو إفراد تنزل منزلة الجمع ، وقد جاء في الحديث : إن أهل الجنة مائة وعشرون صفا أنتم منها ثمانون صفا ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ يقال هذا للكفار على وجه التوبيخ ﴿ كَمَا خلقناكم ﴾ أي حفاة عراة غرلا [غير مختونين] .

(182/473)

﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ﴾ يعني صحائف الأعمال ، فالكتاب اسم جنس ﴿ كَانَ مِنَ الجِنِّ ﴾ كلام مستأنف جرى مجرى التعليل لإباية إبليس عن السجود ، وظاهر هذا الموضع يقتضي أن إبليس لم يكن من الملائكة ، وأن استثناءه منهم استثناء منقطع ، فإن الجن صنف غير الملائكة ، وقد يجيب عن ذلك من قال : إنه كان من الملائكة بأن كان هنا بمعنى صار : أي خرج من صنف الملائكة إلى صنف الجن ، أو بأن الملائكة كان منهم قوم يقال لهم الجن وهم الذين خلقوا من نار ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ : أي خرج عن ما أمر به ، والفسق في اللغة : الخروج ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ ﴾ هذا توبيخ ووعظ ، وذرية إبليس هم الشياطين واتخاذهم أولياء بطاعتهم في عصيان الله والكفر به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 2 صـ 188.190 ﴾

(183/473)

وقال الخازن :

قوله ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾

قيل نزلت في أخوين من أهل مكة من بين مخزوم وهما أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل وكان مؤمناً وأخوه الأسود بن عبد الأسود وكان كافراً وقيل هذا مثل لعيينة بن

حصن وأصحابه وسلمان وأصحابه وشبههما برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه قطروس وهما اللذان وصفهما الله سبحانه وتعالى في سورة الصافات وكانت قصتهما على ما ذكره عطاء الخراساني قال : كان رجلان شريكان لهما ثمانية آلاف دينار ، وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار فقال صاحبه اللهم إن فلاناً قد شترى أرضاً بألف وإني قد اشتريت منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها ، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني اشتريت منك داراً في الجنة بألف دينار فتصدق بها ، ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال اللهم إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ، ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال اللهم إني اشتريت منك خدماً ومتاعاً بألف دينار في الجنة فتصدق بها ، ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي لعل ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في خدمه وحشمه فقام إليه فنظر إليه صاحبه فعرفه فقال فلان ، قال نعم قال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعلت بمالك وقد قاسمتك مالاً وأخذت شطره ، فنص عليه قصته فقال وإنك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيئاً فطرده ، فقضي لهما فتوفيا فنزل فيهما قوله

﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ وروي أنه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أمواله فنزل فيهما ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين ﴾ أي وجعلنا بساتين ﴿ من أعناب وحففناهما ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما ﴿ بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ أي بين النخل والأعناب الزرع وقيل بينهما أي بين الجنتين ، يعني لم يكن بين الجنتين خراب بغير زرع ﴿ كلتا الجنتين آتت ﴾ أي أعطت كل واحدة من الجنتين ﴿ أكلها ﴾ أي ثمرها تماماً ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلالهما ﴾ شققنا وسطهما ﴿ نهراً ﴾ .

(185/473)

﴿ وكان له ﴾ أي لصاحب البستان ﴿ ثمر ﴾ قرىء بالفتح جمع ثمرة وقرىء بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما ﴿ فقال ﴾ يعني صاحب البستان ﴿ لصاحبه ﴾ يعني المؤمن ﴿ وهو يحاوره ﴾ أي يخاطبه ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي عشيرة ورهطاً وقيل خدماً وحشماً ﴿ ودخل جنته ﴾ يعني الكافر أخذاً بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه إياها ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره

فتوهم أنها لا تفنى أبداً وأنكر البعث فقال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة ﴿ ولئن رددت إلى ربي ﴾ فإن قلت كيف قال ولئن رددت إلى ربي وهو منكر للبعث قلت معناه ولئن رددت إلى ربي على ما نزعم من أن الساعة آتية ﴿ لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي يعطيني هناك خيراً منها لأنه لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها ﴿ قال له صاحبه ﴾ يعني المؤمن ﴿ وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾ أي خلق أصلك من تراب لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقاً له ﴿ ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ أي عداك بشراً سوياً وكملك إنساناً ذكراً بالغ مبلغ الرجال ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ مجازه لكن أنا هو الله ربي ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ولولا ﴾ أي هلا ﴿ إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴾ والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها ما شاء الله اعترافاً بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله تعالى وفضله وأن أمرها بيده وأنه إن شاء تركها عامرة وإن شاء تركها خراباً ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ أي وقلت لا قوة إلا بالله إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها بمعونة الله وتأييده ولا أقدر على حفظ مالي ودفع شيء عنه إلا بالله .

(186/473)

روي عن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه أو دخل حائطاً من حيطانه قال ما شاء الله لا قوة إلا بالله الحائط البستان ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴾ أي لأجل ذلك تكبرت علي وتعظمت ﴿ فعسى ربي ﴾ أي فلعل ربي ﴿ أن يؤتين ﴾ أي يعطيني ﴿ خيراً من جنتك ﴾ يعني في الآخرة ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك ﴿ حسباناً ﴾ قال ابن عباس : ناراً ، وقيل مرامي ﴿ من السماء ﴾ وهي الصواعق فتهلكها ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي أرضاً جرداء ملساء لا نبات فيها وقيل تزلق فيها الأقدام وقيل رملاً هائلاً ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ غائراً ذاهباً لا تناله الأيدي ولا الدلاء ﴿ فلن تستطيع له طلباً ﴾ يعني إن طلبته لم تجده ﴿ وأحيط بثمره ﴾ يعني أحاط العذاب بثمر جنته وذلك أن الله تعالى أرسل عليها من السماء ناراً فأهلكها وغار ماؤها ﴿ فأصبح ﴾ يعني صاحبها الكافر ﴿ يقلب كفيه ﴾ يصفق بكف على كف ويقلب كفيه ظهراً لبطن تأسفاً وتلهفاً ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ المعنى فأصبح يندم على ما أنفق في عمارتها ﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ أي ساقطة سقوفها وقيل إن كرومها المعرشة سقطت عروشها في الأرض ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ يعني أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركاً ﴿ ولم تكن له فئة ﴾ أي جماعة ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ أي يمنعونه من عذاب الله ﴿ وما كان منتصراً ﴾ أي ممتنعاً لا يقدر على الانتصار لنفسه وقيل معناه لا يقدر على رد ما

ذهب منه .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ هنالك الولاية ﴾ قرىء بكسر الواو يعني السلطان في القيامة ﴿ لله الحق ﴾ وقرىء بفتحها من الموالاة والنصرة ، يعني أنهم يتولونه يومئذٍ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون من دونه في الدنيا ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب ﴿ وخير عقباً ﴾ يعني عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير إثابة وعاقبة .

(187/473)

قوله : ﴿ واضرب لهم ﴾ أي اضرب يا محمد لقومك ﴿ مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾ يعني المطر ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي خرج منه كل لون وزهرة ﴿ فأصبح ﴾ أي عن قريب ﴿ هشيماً ﴾ قال ابن عباس : يابساً ﴿ تذروه الرياح ﴾ قال ابن عباس : تذريه تفرقه وتنسفه ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي قادراً قوله سبحانه وتعالى ﴿ المال والبنون ﴾ يعني التي يفتخر بها عيينة وأصحابه الأغنياء ﴿ زينة الحياة الدنيا ﴾ يعني ليست من زاد الآخرة ، قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعهما لأقوام ﴿

والباقيات الصالحات ﴾ قال ابن عباس : هي قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (م) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لأن أقول سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت الشمس" عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله علي وسلم أنه قال " استكثروا من قول الباقيات الصالحات .

قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله " عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "إذا مررتم برياض الجنة فارتفعوا .

قلت : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد .

قلت : وما الرتع ؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " أخرجه الترمذي .

وقال حديث غريب عن سعيد بن المسيب أن الباقيات الصالحات هي قول العبد الله أكبر وسبحان الله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله أخرجه مالك في الموطأ موقوفاً عليه وعن ابن عباس أن الباقيات الصالحات الصلوات الخمس وعنه أنها الأعمال الصالحة ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ أي جزاء ﴿ وخير أملاً ﴾ أي ما يؤمله الإنسان .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ أي نذهب بها وذلك أن تجعل هباء منثوراً كما يسير السحاب ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا بناء وقيل هو بروز ما في بطنها من الموتى وغيرهم فيصير باطن الأرض ظاهرها ﴿ وحشرناهم ﴾ يعني جميعاً إلى موقف الحساب ﴿ فلم نغادر منهم أحداً ﴾ أي لم نترك منهم أحداً ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ أي صفاً صفاً وفوجاً فوجاً لأنهم صف واحد وقيل قياماً كل أمة وزمرة صف ثم يقال لهم ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ يعني أحياء وقيل حفاة عراة غرلاً ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ يعني القيامة يقول ذلك لمنكر البعث (ق) عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بموعظة فقال :

" أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين إلا إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم إلى قوله العزيز الحكيم قال : فيقال لي إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .

زاد في رواية فأقول سحقاً سحقاً " قوله غرلاً أي قلفاً والغرلة القلفة التي تقع من جلد الذكر

وهو موضع الختان ، وقوله سحقاً أي بعداً ، قال بعض العلماء : إن المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة بعد (ق) عن عائشة قالت : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " يحشر الناس حفاة عراة غرلاً .

قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك " زاد النسائي في رواية ﴿ لكل امرىء يومئذٍ شأن يغنيه .

﴾

(189/473)

قوله : ﴿ ووضع الكتاب ﴾ يعني صحائف أعمال العباد توضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم ، وقيل توضع بين يدي الله تعالى ﴿ فترى المجرمين مشفقين ﴾ أي خائفين ﴿ مما فيه ﴾ يعني من الأعمال السيئة ﴿ ويقولون ﴾ يعني إذا رأوها ﴿ يا ويلتنا ﴾ أي يا هلاكنا وكل من وقع في هلكة دعا بالويل ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر ﴾ أي لا يترك ﴿ صغيرة ولا كبيرة ﴾ إي من ذنوبنا الصغيرة ﴿ إلا أحصاها ﴾ أي عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها ، قال ابن عباس : الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة .

وقال سعيد بن جبير : الصغيرة اللمم واللمس والقبلة والكبيرة الزنا عن سهل بن سعد قال :

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا في بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فانضجوا خبزهم وإن محقرات الذنوب لموبقات " الحقير الشيء الصغير التافه وقوله لموبقات أي مهلكات .

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي مكتوباً أي مثبتاً في كتابهم ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي لا ينقص ثواب أحد عمل خيراً ولا يؤاخذ أحداً بجرم لم يعمله عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه سلم : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله " أخرجه الترمذي .

وقال لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى .

(190/473)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإذ قلنا ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قلنا ﴿ للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ قال ابن عباس : كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن ، خلقوا من نار السموم وقال الحسن : كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن

، كما أن آدم أصل الإنس وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، وذلك أن قريشاً قالت الملائكة بنات الله ، فهذا يدل على أن الملك يسمى جناً ويعضده اللغة لأن الجن مأخوذ من الاجتنان ، وهو الستر فعلى هذا تدخل الملائكة فيه فكل الملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة ، ووجه كونه من الملائكة أن الله سبحانه وتعالى استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل ويصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال إنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة قوله كان من الجن والجن جنس مخالف للملائكة قوله أفتتخذونه وذريته فأثبت له ذرية والملائكة لا ذرية لهم ، وأجيب عن الاستثناء أنه استثناء منقطع وهو مشهور في كلام العرب قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ وقال تعالى ﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ﴾ قيل إنه كان من الملائكة فلما خالف الأمر مسخ وغير وطرد ولعن .

وقوله تعالى ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أي خرج عن طاعة ربه ﴿ أفتتخذونه ﴾ يعني يا بني آدم أفتتخذون إبليس ﴿ وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾ يعني أعداء روي مجاهد عن الشعبي قال : إني لقاعد يوماً إذ أقبل رجل فقال أخبرني هل لإبليس زوجة قلت إن ذلك العرس ما شهدته ثم ذكرت قول الله ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾

فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم ، قيل يتوالدون كما يتوالد ابن آدم .

وقيل إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين .

(191/473)

قال مجاهد : من ذرية إبليس لاقيس وولها وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف ومره وبه يكنى ، وزلنبور وهو صاحب الأسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع وبتر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب ، والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجيزة المرأة ، ومطموس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلاً ، وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحسن موضعه وإذا أكل ولم يسم أكل معه ، قال الأعمش : ربما دخلت البيت ولم أذكر أسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر فأقول داسم داسم أعوذ بالله منه ، روى أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء " أخرجه الترمذي .

(م) عن عثمان بن أبي العاص قال : قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بين وبين

صلاتي وبين قراءتي يلبسها علي فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ذلك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً " قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني (م) عن جابر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت " قال الأعمش أراه قال فليتزمه .

وقوله ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ يعني بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم وطاعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 211.217 ﴾

(192/473)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما افتخر الكفار بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين بيّن الله تعالى أنّ ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغنيّ فقيراً وأمّا الذي يجب الافتخار به فطاعة الله تعالى وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبيّن ذلك بضرب هذا المثل المذكور بقوله تعالى:

﴿ واضرب لهم ﴾ ، أي : لهؤلاء الأغنياء المتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم ﴿ مثلاً ﴾ لما آتاهم الله من زينة الحياة والدنيا واعتمدوا عليه وركنوا إليه ولم يشكروا من آتاهم إياه عليه بل أدّاهم إلى الافتخار والتكبر على من زوي ذلك عنه إكراماً له وصيانة عنه ﴿ رجلين ﴾ إلى آخر الآية . واختلف في سبب نزولها فقيل نزلت في رجلين من أهل مكة من بني مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الأسود بن عبد ياليل ، وهما ابنا عبد الأسد بن عبد ياليل .

(193/473)

وقيل مثال لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه شبههما برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس ، وقال مقاتل : تمليخا والآخر كافر واسمه فطروس وقال وهب قطفر ، وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة والصافات وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال : كانا رجلين شركين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار فقال صاحبه : اللهمّ إنّ

فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني مشتر منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدّق بها ، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال صاحبه : اللهمّ إنّ فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني اشتريت منك داراً في الجنة بألف دينار فتصدّق بها ، ثم تزوّج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا : اللهمّ إني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدّق بها ثم إنّ صاحبه اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال هذا : اللهمّ إني أشتري خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار فتصدّق بها ، ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لو أتيت صاحبي لعل ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مرّ به في حشمه فقام إليه فنظر إليه الآخر فعرفه فقال له : فلان ؟ قال : نعم . قال : ما شأنك ؟ قال : أصابتني حاجة بعدك فأتيت لتعينني بخير قال : فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالاً وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال : وإنك لمن المصدّقين بهذا إذهب

(194/473)

فلا أعطيك شيئاً فطرده . وروي أنه لما أتاه أخذ بيده فجعل يطوف به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ ، أي : اذكر لهم خبر رجلين ؛ ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين ﴾ ، أي : بساتين يسر ما فيهما من الأشجار من يدخلهما ﴿ من

أعناب ﴾ لأنها من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ، ثم إنه تعالى وصف الجنتين بصفات الصفة الأولى قوله تعالى : ﴿ وحففناهما ﴾ ، أي : اطفناهما من جوانبهما ﴿ بنخل ﴾ لأنها من أشجار البلاد الحارّة ، وتصبر على الحرور بما منعت عن الأعناب بعض أسباب العاهات وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخلّ ، فكان النخل كالأكليل من وراء العنب .

تنبيه : الحفاف الجانب وجمعه أحفة يقال : أحف به القوم ، أي : أطافوا بجوانبه . الصفة الثانية قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهما ﴾ ، أي : أرضي الجنتين ﴿ زرعاً ﴾ لبعد شمول الآفة للكل لأنّ زمان الزرع ومكانه غير زمان ثمار الشجر ومكانه وذلك هو العمدة في القوت فكانت الجنتان أرضاً جامعة لخير الفاكهة وأفضل الأقوات وعمارتهما متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة الأطراف وتباعد الأكناف وحسن الهيئات والأوصاف . الصفة الثالثة:

قوله تعالى : ﴿ كلتا ﴾ ، أي : كل واحدة من ﴿ الجنتين ﴾ المذكورتين ﴿ آتت أكلها ﴾ ، أي : ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب كاملاً غير منسوب شيء منهما إلى نقص ولا رداءة وهو بمعنى ﴿ ولم تظلم ﴾ ، أي : ولم تنقص ﴿ منه شيئاً ﴾ يعهد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً والظلم النقصان تقول الرجل ظلمني حقي أي نقصني .

تنبيه : كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد ومعرفة يؤكد به مؤنثان معرفتان وإنما إذا أضيفا إلى المظهر كانا بالألف في الأحوال الثلاثة كقولك جاءني كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءني كلتا أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك . وإذا أضيفا إلى المضمر كانا في الرفع بالألف وفي الجرّ والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالألف في الأحوال الثلاثة أيضاً فقوله تعالى : ﴿ آتت أكلها ﴾ حمل على اللفظ لأنّ كلتا لفظ مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز . الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ ، أي : وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى : ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ (التوبة ،)

ومنه يقال خللت القوم ، أي : دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيا عن المطر عند القحط ويزيد بهاؤهما . الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وكان له ﴾ ، أي : صاحب الجنتين ﴿ ثمر ﴾ ، أي : أنواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس : من ذهب وفضة وغير ذلك من أثمر ماله إذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة ، أي : كان مع الجنتين أشياء من الأموال ليكون متمكناً من العمار بالأعوان والآلات وجميع ما يريد وقرأ أبو عمرو وثمر

هنا وثمره الآتي بسكون الميم فيهما بعد ضم الثاء المثلثة ، وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر أهل اللغة أنّ الضم أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب : وكان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن حلزة:

*ولقد رأيت معاشراً

** قد أثمروا مالاً وولدا

وقال النابغة:

*مهلاً فداء لك الأقوام كلهم

** وما أثمر من مال ومن ولد

(196/473)

﴿ فقال ﴾ ، أي : هذا الكافر ﴿ لصاحبه ﴾ ، أي : المسلم المجعول مثلاً للفقراء المؤمنين ﴿ وهو ﴾ ، أي : صاحب الجنتين ﴿ يحاوره ﴾ ، أي : يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع افتخاراً عليه وتقبيحاً لحاله بالنسبة إليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون إلى الدنيا ﴿ أنا أكثر منك مالاً ﴾ لما ترى من جناتي وثماري ، وقرأ نافع بمد الألف بعد النون

والباقون بالقصر هذا في الوصل ، وأمّا في الوقف فبالألف للجميع ، وسكن قالون وأبو عمرو والكسائي هاء وهو وضمها الباقون ورقق ورش راء يحاوره ﴿ وأعز نفراً ﴾ ، أي : ناساً يقومون معي في المهمات وينفعون عند الضرورات لأنّ ذلك لازم لكثرة المال غالباً وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فإنّ ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه .

﴿ ودخل جنته ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخرهُ بها وأفرد الجنة لإرادة الجنس ودلالة ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة وإشارة إلى أنه لا جنة له غيرها لأنه لا حظّ له في الآخرة ﴿ وهو ﴾ ، أي : والحال أنه ﴿ ظالم لنفسه ﴾ لاعتماده على ماله والإعراض عن ربه ، ثم استأنف بيان ظلمه بقوله تعالى : ﴿ قال ما أظنّ أن تبيد ﴾ ، أي : تنعدم ﴿ هذه ﴾ ، أي : الجنة ﴿ أبداً ﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بجهله ثم زاد في الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فأنكر البعث بقوله:

(197/473)

﴿ وما أظنّ الساعة قائمة ﴾ ، أي : كائنة استلذاذاً بما هو فيه وإخلاداً إليه واعتماداً عليه وقوله : ﴿ ولئن رددت إلى ربي ﴾ المحسن إليّ في هذه الدار في الساعة إقسام منه

على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وعلى ما يزعم صاحبه أنّ الساعة قائمة ﴿ لأجدنّ خيراً منها ﴾ ، أي : من هذه الجنة ﴿ منقلباً ﴾ ، أي : مرجعاً لأنه لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها قال ذلك طمعاً وتمنياً على الله وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده ، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله : أنّ لي عنده الحسنى لأوتين مالاً وولداً .

﴿ قال له صاحبه ﴾ ، أي : المؤمن ﴿ وهو ﴾ ، أي : والحال أنّ ذلك الصاحب ﴿ يحاوره ﴾ ، أي : يراجعه منكراً عليه ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾ ، أي : خلق أصلك آدم من تراب لأنّ خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقاً له ﴿ ثم من نطفة ﴾ متولدة من أغذية أصلها تراب هي مادّتك القريبة ﴿ ثم سوّاك ﴾ ، أي : عدلك بعد أن أولدك وطورك في أطوار النشأة ﴿ رجلاً ﴾ ، أي : كملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى لأنّ منشأه الشك في كمال قدرة الله تعالى ولذلك ترتب الإنكار على خلقه إياه من التراب ، فإنّ من قدر على بدء خلقه مرّة قدر على أن يعيده منه ، ولما أنكر على صاحبه أخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه ، فقال مؤكداً لأجل إنكار صاحبه مستدركاً لأجل كفرانه .

﴿ لكنا ﴾ أصله لكن أنا نقلت حركة الهمزة إلى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها كما قال القائل :

*وترميني بالطرف ، أي : أنت مذنب

**وتقلينني لكنّ إياك لا أقلي

(198/473)

أي لكن أنا لا أقليك . ولما كان سبحانه وتعالى لا شيء أظهر منه ولا شيء أبطن منه أشار إلى ذلك جميعاً بإضماره قبل الذكر فقال : ﴿ هو ﴾ ، أي : الظاهر أتم ظهور فلا يخفى أصلاً ويجوز أن يكون الضمير للذي خلقك ﴿ الله ﴾ ، أي : المحيط بصفات الكمال ﴿ ربي ﴾ وحده لم يحسن إليّ خلقاً ورزقاً أحد غيره وهذا اعتقادي في الماضي والحال . وقرأ ابن عامر بإثبات الألف بعد النون وقفاً ووصلاً لاتباع المرسوم والباقون بإثبات الألف بعد النون وقفاً وحذفها وصلاً . فإن قيل : قوله لكنا استدراك لماذا ؟

أجيب : بأنه لقوله ﴿ أكفرت ﴾ فكأنه قال لأخيه : أكفرت بالله لكني مؤمن موحد ، كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر .

وذكر القفال في قول المؤمن : ﴿ ولا أشرك بربي ﴾ ، أي : المحسن إليّ في عبادتي ﴿ أحداً ﴾ وجوهاً أحدها : أني لا أرى الفقر والغنى إلا منه فأحمده إذا أعطى وأصبر إذا ابتلى ، ولا أكفر عندما ينعم عليّ ولا أرى كثرة الأموال والأعوان من نفسي وذلك لأنّ

الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكاً في إعطاء العز والغنى . وثانيها : لعل ذلك الكافر مع كونه منكراً للبعث كان عابد صنم فبيّن هذا المؤمن فساد قوله بإثبات الشركاء . وثالثها : أنّ هذا الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر فقد جعله مساوياً للخلق في هذا العجز ، وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر :

(199/473)

﴿ ولولا إذ ﴾ ، أي : وهلا حين ﴿ دخلت جنتك قلت ﴾ عند إعجابك بها ما يدل على تفويضك الأمر فيها وفي غيرها إلى الله تعالى وهو ﴿ ما شاء الله ﴾ ، أي : الأمر ما شاء الله أو ما شاء الله كائن على أنّ ما موصولة ، أي : وأي شيء شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف ، أي : إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أهلكها ، وقرأ ابن ذكوان وحمزة بالإمالة والباقون بالفتح وإذا وقف حمزة وهشام على شاء أبدل الهمزة ألفاً مع المدّ والتوسط والقصر ، وأظهر إذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالإدغام وهلا قلت : ﴿ لا قوّة إلا بالله ﴾ اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله وأنّ ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونة الله تعالى وإقداره أو لا يقوى

أحد في بدنه ولا في غير ذلك إلا بالله . وفي الحديث "من أعطى خيراً من أهل أو مال فيقول عند ذلك ما شاء الله لا قوّة إلا بالله لم ير فيه مكروهاً" ثم إنّ المؤمن لما أعلم الكافر بالإيمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفس فقال : ﴿ إن ترني أنا أقلّ منك مالاً وولداً ﴾ أي : من جهة المال والولد ، ويحتمل أن يكون أنا فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأوّل . وقرأ قالون وأبو عمرو بإثبات الياء وصلاً وحذفها وقفاً ، وابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً ، والباقون بالحذف وقفاً ووصلاً وقوله تعالى:

﴿ فعسى ربي ﴾ ، أي : المحسن إليّ ﴿ أن يؤتيني ﴾ من خزائن رزقه ﴿ خيراً من جنتك ﴾ إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة لإيماني جواب الشرط ﴿ ويرسل عليها ﴾ ، أي : جنتك ﴿ حسباناً ﴾ جمع حسبانة ، أي : صواعق ﴿ من السماء فتصبح ﴾ بعد كونها قرّة للعين بما تهتز به من الأشجار والزروع ﴿ صعيداً زلقاً ﴾ ، أي : أرضاً ملساء باستئصال بنيانها وأشجارها فلا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم وقوله:

(200/473)

﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ ، أي : غائراً في الأرض لا تناله الأيدي والدلاء مصدر وصف به كالزلق ﴿ فلن تستطيع ﴾ أنت ﴿ له ﴾ ، أي : للماء الغائر ﴿ طلباً ﴾ يصير بحيث لا

تقدر على ردّه إلى موضعه ، ثم إنه أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدّره هذا المؤمن فقال: ﴿ وأحيط ﴾ ، أي : وقعت الإحاطة بالهلاك وبني للمفعول لأنّ النكد حاصل بإحاطة الهلاك من غير نظر إلى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته ﴿ بثمره ﴾ ، أي : الرجل المشرك كله واستؤصل هالكاً ما في السهل منه وما في الجبل وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر . قال بعض المفسرين : إنّ الله تعالى أرسل عليها ناراً فأهلكتها وغار ماؤها ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ ندماً ويضرب أحداهما على الأخرى تحسراً فتقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر لأنّ النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد لأنه في معنى الندم فعدى تعديته كأنه قيل فأصبح يندم ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ ، أي : في عمارتها ونمائها ﴿ وهي خاوية ﴾ ، أي : ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ ، أي : دعائمها التي كانت تحتها فسقطت على الأرض وسقطت هي فوقها . وقوله تعالى : ﴿ ويقول ﴾ عطف على يقلب أو حال من ضميره ﴿ يا ﴾ للتنبيه ﴿ ليتني ﴾ تمنياً لرد ما فاته لحيرته وذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير إشراك بالاعتماد على الفاني ﴿ لم أشرك بربي أحداً ﴾ كما قال له صاحبه فندم حيث لا ينفعه الندم على ما فرّط في الماضي لأجل ما فاته على الدنيا لا حرصاً على الإيمان لحصول الفوز في العقبى لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة . فإن قيل : إنّ هذا الكلام يوهم أن جنته إنما هلكت بشؤم شركه وليس مراداً لأنّ أنواع البلاء أكثرها إنما يقع للمؤمنين قال تعالى :

﴿ ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ (الزخرف ،)

(201/473)

. وقال صلى الله عليه وسلم "خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل" . وأيضاً لما قال : ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد فوجب أن يصير مؤمناً فلم قال تعالى بعده:

﴿ ولم تكن له فئة ﴾ ، أي : جماعة من نفره الذين اغتر بهم ولا من غيرهم ﴿ ينصرونه ﴾ مما وقع فيه ﴿ من دون الله ﴾ عند هلاكها ﴿ وما كان ﴾ هو ﴿ منتصراً ﴾ بنفسه بل ليس الأمر في ذلك إلا لله وحده . أجيب : عن الأوّل بأنه لما عظمت حسراته لأجل أنه أنفق عمره في تحصيل الدنيا وكان معرضاً في عمره كله عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي محروماً من الدنيا والدين ، وعن الثاني بأنه إنما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحداً غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو إنما رغب في ذلك لأجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده . وقرأ حمزة والكسائي يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث . ولما أنتج هذا المثل قطعاً أنه لا أمر لغير الله تعالى المرجو لنصر أوليائه بعد

ذلهم ولإغنائهم بعد فقرهم ولإذلال أعدائهم بعد عزهم وكبرهم وإفقارهم بعد إغنائهم وحده وإن غيره إنما هو كالخيال لا حقيقة له ، صرّح بذلك في قوله تعالى:

(202/473)

﴿ هنالك ﴾ ، أي : في مثل هذه الشدائد العظيمة ﴿ الولاية لله ﴾ ، أي : الذي له الكمال كله ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الواو وأي الملك والباقون بفتحها ، أي : النصرة وقوله تعالى : ﴿ الحق ﴾ قرأه أبو عمرو والكسائي برفع القاف على الاستئناف والقطع تعليلاً تنبيهاً على أنّ فزعهم في مثل هذه الأزمان إليه تعالى دون غيره برهان قاطع على أنه الحق وما سواه باطل وأنّ الفخر بالعرض الزائل من أجهل الجهل ، وأنّ المؤمنين لا يصيبهم فقر ولا يسوغ طردهم لأجله وأنه يوشك أن يعود فقرهم غنى وضعفهم قوّة وقرأه الباقون بخفضها على الوصف ، أي : الثابت الذي لا يحول يوماً ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه ﴿ هو خير ثواباً ﴾ من ثواب غيره لو كان يثيب ﴿ وخير عقباً ﴾ ، أي : عاقبة للمؤمنين ، وقرأ عاصم وحمزة بسكون القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز .

ولما تمّ المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أنظرتهم فكانت سبباً لشقاوتهم وهم يحسبون أنها عين إسعادهم ضرب لدار الدنيا العامّة لجميع الناس في قلة ثوابها وسرعة فنائها وأنّ من

تكبر كان أخس منها فقال:

﴿ واضرب ﴾ ، أي : صير ﴿ لهم ﴾ ، أي : لهؤلاء الكفار المغترّين بالعرض الفاني المفتخرين بكثرة ذكر الأموال والأولاد وعزة النفر . وقوله تعالى : ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ مفعول أوّل ثم ذكر المثل بقوله تعالى : ﴿ كماء ﴾ وهو المفعول الثاني ﴿ أنزلناه ﴾ بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى : ﴿ من السماء ﴾ تنبيهاً على بليغ القدرة في إمساكه في العلو وإنزاله في وقت الحاجة ﴿ فاختلط ﴾ ، أي : فتعقب وتسبب عن إنزاله أنه اختلط ﴿ به نبات الأرض ﴾ ، أي : التف بسببه حتى خالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ (الحج ،)

(203/473)

. وقيل : اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روى واهتز ونما وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الأرض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته ثم إذا انقطع ذلك بالمطر مدّة جف ذلك النبات ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ أي يابساً متفرّقة أجزاؤه ﴿ تذروه ﴾ ، أي : تنثره وتفرّقه ﴿ الرياح ﴾ فتذهب به والمعنى أنه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرّقته الرياح حتى يصير عما

قليل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرأ حمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع ﴿ وكان الله ﴾ ، أي : المختص بصفات الكمال ﴿ على كل شيء ﴾ من دون ذلك وغيره إنشاءً وإفناءً وإعادةً . ﴿ مقتدراً ﴾ أزلاً وأبداً بتكوينه اوّلا وتنميته وسطاً وإبطاله آخراً فأحوال الدنيا أيضاً كذلك تظهر أوّلاً في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلاً قليلاً ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن ينتهي إلى الهلاك والفناء ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ فأصبح ﴾ يجوز أن يكون على بابه فإنّ أكثر ما يطرق من الآفات صباحاً كقوله تعالى : ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ ويجوز أن يكون بمعنى صار من غير تقييد كقول القائل:

*أصبحت لا أحمل السلاح ولا

**أملك رأس البعير إن نفرا

ولما بيّن سبحانه وتعالى أنّ الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بيّن بقوله تعالى:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحياةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا * وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ إدخال هذا الجزئيّ تحت هذا الكلي فينعقد به قياس بين الإنتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض أنتج إنتاجاً بديهياً أنّ المال والبنون سريع الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فإنه ينتج بالعقل أن لا يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزناً وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال. ثم ذكر تعالى ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الأغنياء فقال: ﴿ والباقيات الصالحات خير ﴾، أي: من الزينة الفانية لأنّ خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة لا سيما وقد ثبت أنّ خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وأنّ خيرات الآخرة رفيعة شريفة.

والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالاً أحدها أنها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوّة إلا بالله. وللغزالي في تفسير وجه لطيف فقال: روي أنّ من قال: سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فإذا قال: الحمد لله صارت عشرين فإذا قال: ولا إله إلا الله صارت ثلاثين فإذا قال: والله أكبر صارت أربعين وتحقيق القول فيه أنّ مراتب الثواب أعظمها هو الاستغراق في معرفة الله تعالى وفي

محبته فإذا قال : سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزهاً عن كل ما لا يليق به وكل ما لا ينبغي فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فإذا قال مع ذلك الحمد لله فقد أقرّ بأنّ الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزهاً عن كل ما لا ينبغي فهو المبتدئ لكل ما ينبغي ولإفاضة كل

(205/473)

فقد تضاعفت درجات المعرفة فلا جرم قلنا بمضاعفة الثواب فإذا قال مع ذلك : لا إله إلا اللّه فقد أقر بأن الذي تنزه عن كل ما لا ينبغي وهو المبتدئ لكل ما ينبغي ليس في الوجود موجود هكذا إلا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فإذا قال العبد : واللّه أكبر فمعنى أنه أكبر أنه أعظم من أن يصل العقل إلى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة فلا جرم صارت درجات الثواب أربعة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "لأن أقول سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس" . وعن أبي سعيد الخدري أنه قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل : وما هنّ يا رسول اللّه قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد للّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه" ،

ثانيها أنها الصلاة الخمس ، ثالثها أنها الطيب من القول ، رابعها وهو أعمها ، وأولاها أنها أعمال الخيرات التي تبقى ثمراتها أبد الآباد فيندرج في ذلك الصلاة وأعمال الحج وصيام رمضان وسبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعاك لمحبة اللّه تعالى ومعرفته وخدمته ، وأما ما دعاك من قول أو عمل إلى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك لأن كل ما سوى الحق فهو فانٍ لذاته فكان الاشتغال به والانفاق عليه باطلاً وسعياً ضائعاً ، وأما الحق لذاته فهو الباقي الذي لا يقبل الزوال ، لا جرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولما كان أهم ما إلي من حصل البقاء ليس لكفايته بل لمن يحفظها له لوقت حاجته قال تعالى : ﴿ عند ربك ﴾ أي : الجليل المواهب العالم بالعواقب وخير من المال والبنين في العاجل والآجل ﴿ ثواباً وخير ﴾ من ذلك كله ﴿ أملاً ﴾ أي : من جملة ما يرجوه فيها من

(206/473)

الثواب

ويرجوه فيها من الأمل لأن ثوابها إلى بقاء آملها كل ساعة في تحقق وعلوّ وارتقاء وآمل المال

والبنين يخان أحوج ما يكون إليهما ، وعن قتادة كل ما أريد به وجه اللّه تعالى خير ثواباً أي : ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الأمل لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب اللّه ونصيبه في الآخرة . ولما بيّن سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال يوم القيامة وذكر منها أنواعاً النوع الأوّل قوله تعالى:

﴿ ويوم ﴾ أي : واذكر لهم يوم ﴿ نسير ﴾ بأيسر أمر ﴿ الجبال ﴾ عن وجه الأرض بعواصف القدرة كما نسير نبات الأرض بعد أن صار هشيماً بالرياح كما قال تعالى :

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ﴾ (النمل ،)

تنبيه : ليس في لفظ الآية ما يدل إلى أين تسير ، قال الرازي : ويحتمل أن يقال : إن اللّه يسيرها إلى الموضع الذي يريده ولم يبين ذلك لخلقه ، والحق أنّ المراد أنّ اللّه تعالى يسيرها إلى العدم لقوله تعالى : ﴿ ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (طه ، ،)

ولقوله : ﴿ وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً ﴾ (الواقعة ، ،)

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم التاء الفوقية وفتح الياء التحتية بعد السين على فعل ما لم يسم فاعله ورفع الجبال بإسناد تسير إليها كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ (التكوير ،)

والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين بإسناد فعل التسيير إليه تعالى

نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتباراً بقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم ﴾ والمعنى واحد لأنها إذا سيرت فمسيرها ليس إلا اللّه تعالى . النوع الثاني قوله تعالى : ﴿ وترى الأرض ﴾ بكمالها ﴿ بارزة ﴾ لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت ولا شجر ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (طه ،)

(207/473)

وقيل : إنها أبرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فإذا هي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف كما قال تعالى : ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (الانشقاق ،)

وقال تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ (الزلزلة ،)

. النوع الثالث قوله تعالى : ﴿ وحشرناهم ﴾ أي : الخلائق قهراً إلى الوقت الذي تنكشف فيه المخبآت وتظهر القبائح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد فيه بصير ﴿ فلم نغادر ﴾ أن نترك ﴿ منهم ﴾ أي : الأوّلين والآخرين ﴿ أحداً ﴾ لأنه لا ذهول ولا عجز ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ (الواقعة : ،)

فإن قيل : لم جيء فحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى ؟

أجيب : بأن ذلك يقال للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم ، كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك . ولما ذكر تعالى حشرهم وكان من المعلوم أنه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانياً الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين ولأن المخوف العرض لا لكونه من معين

﴿ وعرضوا على ربك ﴾ المحسن إليك برفع أوليائك وخفض أعدائك ، وقوله تعالى : ﴿ صفاً ﴾ حال أي : مصطفين واختلف في تفسيره على وجوه ؛ الأوّل : أن تعرض الخلق كلهم صفاً واحداً لاتساع الأرض ظاهرين لا يحجب بعضهم بعضاً ، ثانيها : لا يبعد أن يكونوا صفاً يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى : صفاً صفوفاً كقوله تعالى : ﴿ يخرجكم طفلاً ﴾ (غافر ،)

أي : أطفالاً ، ثالثها : المراد بالصف القيام كما في قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم اللّه عليها صواف ﴾ (الحج ،)

أي : قياماً وقيل : كل أمّة صف ويقال لهم : ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرّة ﴾ أي : فرادى حفاةً عراةً غرلاً وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لأنهم خلقوا صغاراً ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مرّ ويقال لمنكري البعث : ﴿ بل زعمتم أن ﴾ أي : أنا ﴿ لن نجعل لكم موعداً ﴾ أي : مكاناً ووقتاً نجمعكم فيه هذا الجمع فننجز لكم ما وعدناكم به على ألسنة رسلنا فكنتم مع التعزز على المؤمنين بالأموال والأنصار منكرين البعث والقيامة فالآن قد تركتم الأموال والأنصار في الدنيا وشاهدتم أن القيامة والبعث حق . m

(209/473)

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : قام فينا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : "أيها الناس إنكم تحشرون إلى اللّه حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ألا وإن أوّل خلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا وإنه سيجاء برجال من أمّتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم إلى قوله العزيز الحكيم ، قال : فيقال لي إنهم لم يزالوا مدبرين على أعقابهم منذ فارقتهم" وفي

رواية فأقول : "سحقاً سحقاً" وقوله : غرلاً أي : قلفا الغرلة القلفة التي تنقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله : سحقاً أي : بعداً . قال بعض العلماء : المراد بهؤلاء الذين ارتدوا من العرب بعده ، وعن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت : سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : "يحشر الناس حفاة عراة غرلاً ، فقلت : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال : الأمر أشدّ من أن يهمهم ذلك" زاد النسائي في رواية لكم امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وعن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه : "يحشر الناس على ثلاث طوائف راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا"

(210/473)

﴿ ووضع ﴾ بعد العرض المستعقب للجمع بأدنى إشارة ﴿ الكتاب ﴾ المضبوط فيه دقائق الأعمال وجلائلها على وجه بيّن لا يخفي على قارئ ولا غيره شيء منه ، فيوضع كتاب كل إنسان في يده ، إما في اليمن وإما في الشمال والمراد الجنس وهو صحف الأعمال ﴿ فترى المجرمين مشفقين ﴾ أي : خائفين خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة من

الخلق ﴿مما فيه﴾ من قبائح أعمالهم وسيء أفعالهم وأقوالهم ﴿ويقولون﴾ عند معاينتهم ما فيه من السيآت وقولهم ﴿يا﴾ للتنبيه ﴿ويلتنا﴾ أي: هلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه كناية عن أنه لا نديم لهم إذ ذاك إلا الهلاك ﴿مال هذا الكتاب﴾ أي: أيّ شيء له حال كونه على غير حال الكتب في الدنيا ﴿لا يغادر﴾ أي: لا يترك ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة، وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا ﴿إلا أحصاها﴾ أي: عدّها وأثبتها في هذا الكتاب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ (الإنفطار: ، ،)

وقوله تعالى: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ (الجاثية،)

(211/473)

تنبيه: إدخال التاء في الصغيرة والكبيرة على تقدير أنّ المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة، قال بعض العلماء: احتجبوا من الصغائر قبل الكبائر لأن الصغائر هي التي جرتهم إلى الكبائر واحترزوا من الصغائر حذراً من أن تقعوا في الكبائر، وعن سهل بن سعد قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا

بطن وادٍ فجاء هذا بعود فطبخوا خبزهم وإن محقرات الذنوب لموبقات ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي : مثبتاً في كتابهم ﴿ ولا يظلم ربك ﴾ أي : الذي رباك بخلق القرآن ﴿ أحداً ﴾ منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازي الأعداء بما يستحقونه تعذيباً لهم ويجازي أولياءه الذين عادوهم بما يستحقون تنعيماً لهم ، روى الإمام أحمد في المسند عن جابر بن عبد اللّه أنه سافر إلى عبد اللّه بن أنيس مسيرة شهر يستأذن فاستأذن عليه قال : فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته قلت حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في القصاص فخشيت أن تموت قبل أن أسمعه فقال : سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : "يحشر اللّه عز وجل الناس أو قال العباد حفاة عراة بهما قلت : وما بهما قال : ليس معهم شيء ثم ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه حق حتى أقتص منه حتى اللطمة ، قال : فقلنا كيف وإنا نأتي حفاة عراة بهما قال : بالحسنات والسيآت" وروى الرازي عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يحاسب اللّه الناس في القيامة على ملة يوسف وأيوب وسليمان فيدعوا المملوك فيقال : ما شغلك عني فيقول : جعلتني عبداً لآدمي فلم يفرغني فيدعو يوسف فيقول : كان هذا عبداً مثلك فلم يمنعه ذلك أن عبدني فيؤمر به إلى النار ثم يدعو المبتلى ، فإذا قال

: شغلتني

بالبلاء دعا أيوب فيقول : قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك من عبادتي ، ثم يؤتى بالملك في الدينا مع ما آتاه اللّه تعالى من الغنى والسعة فيقول : ما عملت فيما آتيتك ؟ فيقول : شغلني الملك عن ذلك فيدعي سليمان فيقول : هذا عبدي آتيته أكثر مما آتيتك فلم يشلغه ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به إلى النار" ، وعن معاذ عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لن يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ؛ عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به" . ولما كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ قلنا للملائكة ﴾ الذين هم أطوع شيء لأوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لإن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه وقال : خلقتني من نار وخلقته من طين وأنا أشرف منه في الأصل والنسب فكيف أسجد له وكيف أتواضع له ، وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بمعنى هذه المعاملة فقالوا : كيف نجالس هؤلاء الفقراء مع أنّا أناس من أنساب شريفة وهم من أنساب باذلة ونحن أغنياء وهم فقراء ، ذكر اللّه تعالى هذه القصة تنبيهاً على أن هذه الطريقة هي نفسها طريقة إبليس حين أمره اللّه تعالى في جملة الملائكة بقوله تعالى : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ سجود انحناء بلا وضع جبهة تحية له ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ قيل : هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل ، وقيل : هو منقطع وإبليس أبو الجن فله ذرّية ذكرت معه بعد ، والملائكة لا ذرّية لهم وكرّرت هذه القصة لهذا المقصود المذكور . قال البيضاوي : وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن أي : إنما يكرّر لمناسبة ذلك المحل الذي يذكر فيه ﴿ ففسق ﴾ أي : خرج بتركه السجود ﴿ عن أمر ربه ﴾ أي : سيده ومالكه المحسن إليه والفاء للسببية وفيه دليل على أنّ الملك لا يعصي البتة وربما عصى إبليس لأنه كان خبيثاً في أصله والكلام المستقصى فيه تقدّم في سورة البقرة ثم أنه تعالى حذر عن أتباعه بقوله تعالى :

﴿ أفتتخذونه ﴾ الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما سيأتي لإبليس والهمزة للإنكار والتعجب أي : يفسق باستحقاركم فنطرده لأجلكم فيكون ذلك سبباً لأن تتخذوه

﴿ وذريته ﴾ شركاء لي ﴿ أولياء ﴾ لكم ﴿ من دوني ﴾ تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى : ﴿ وهم لكم عدوّ ﴾ أي : أعداء حال ولما كان هذا الفعل أجدر شيء بالذم وصل به قوله تعالى : ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ من اللّه إبليس وذريته ، وكان الأصل لكم ولكنه أبرز الضمير ليعلق الفعل بالوصف لإفادة التعميم . روى مجاهد عن الشعبي قال : إني لقاعد يوماً إذ أقبل جمال فقال : أخبروني هل

(214/473)

لإبليس زوجة قلت :

إنّ ذلك لعرس ما شهدته ثم ذكرت قوله تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ فعلمت أن لا تكون ذرّية إلا من زوجة فقلت : نعم وقال قتادة : يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ، وقيل : إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين ، قال مجاهد من ذرية إبليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الأسواق يزين اللغو والأيمان الكاذبة ومدح السلع ونبز وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب ، والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجز المرأة ، ومطوس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه

الناس لا يجدون لها أصلاً ، وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسم اللّه ولم يذكر اللّه دخل معه ، وإذا أكل ولم يسم اللّه أكل معه ، قال الأعمش : ربما دخلت البيت ولم أذكر اللّه ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا وخاصمتهم ثم اذكر فأقول داسم داسم . وعن عثمان بن أبي العاص قال : قلت يا رسول اللّه إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "ذلك شيطان يقال له خترب فإذا أحسسته فتعوّذ باللّه واتفل عن يسارك ثلاثاً قال ففعلت ذلك فأذهبه اللّه عني" ، وعن أبيّ بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء" ، وعن جابر قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت" ، قال الأعمش : أراه قال : فيلتزمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿السراج المنير جـ 4 صـ 41.56﴾

(215/473)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة الكهف

[سورة الكهف (18) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (4)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (5)

الإعراب :

(الحمد) مبتدأ مرفوع (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (أنزل) فعل ماض ، والفاعل هو (على عبده) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الكتاب) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (يجعل) مضارع مجزوم ، والفاعل هو (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (عوجا) مفعول به أوّل منصوب .

جملة : " الحمد للّه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذي) .

وجملة : " لم يجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

2 - (قيّما) مفعول به لفعل محذوف تقديره جعله " 2 " ، منصوب (اللام) للتعليل (ينذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو ، والمفعول الأول محذوف تقديره الكافرين (بأسا) مفعول به ثان منصوب (شديدا) نعت لـ (بأسا) منصوب (من) حرف جرّ (لدن) اسم مبنيّ على السكون في محلّ جرّ متعلّق بنعت ثان لـ (بأسا) " 3 " و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن ينذر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزل) .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا من الكتاب بعد واو الحال . . أو أن تكون اعتراضيّة بين الحال - قيّما - وصاحبها .

(2) أو حال والعامل الفعل المقدّر . . أو حال مؤكّدة من الضمير في (له) ، والعامل لم يجعل . . أو حال من الكتاب ، وجملة لم يجعل اعتراضيّة أو حال .

(3) أو متعلّق بـ (ينذر) ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في (شديدا) .

(الواو) عاطفة (يبشّر) مثل ينذر معطوف عليه (المؤمنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للمؤمنين (يعملون) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع ثبوت النون . . و(الواو) فاعل (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (إنّ) حرف توكيد ونصب (لهم) مثل له متعلّق بخبر أنّ (أجرا) اسم أنّ منصوب (حسنا) نعت لـ (أجرا) منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّ لهم أجرا . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (يبشّر) " 1 " .

جملة : " ينذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يبشّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينذر .

وجملة : " يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

3 – 4 – (ماكثين) حال منصوبة من الضمير في (لهم) والعامل فيها الاستقرار (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ماكثين) ، (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ماكثين) . (الواو) عاطفة (ينذر) مثل الأول ومعطوف عليه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل (اتّخذ) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ولدا) مفعول به ثان ، والأول محذوف تقديره عيسى أو عزير . .

وجملة : " ينذر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينذر (الأولى) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اتّخذ اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أي : يبشّرهم بأن لهم أجرا . . ويجوز أن يكون المصدر المؤوّل في محلّ نصب مفعولا به ثانيا لفعل يبشّر بتضمينه معنى يبلّغ .

(217/473)

---

5 - (ما) نافية (لهم) مثل له متعلّق بخبر مقدّم (به) مثل فيه متعلّق بحال من علم (من) حرف جرّ زائد (علم) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (لآبائهم) معطوف على الجارّ لهم ويتعلّق بما تعلّق به . . و(هم) ضمير مضاف إليه (كبرت) فعل ماض لانشاء الذمّ ، و(التاء) للتأنيث ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هي (كلمة) تمييز

للضمير الفاعل ، منصوب " 1 " ، (تخرج) مضارع مرفوع ، والفاعل هي (من أفواههم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تخرج) ، (إن) حرف نفي (يقولون) مثل يعملون (إلّا) أداة حصر (كذبا) مفعول به منصوب " 2 " .

وجملة : " ما لهم به من علم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "كبرت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تخرج . . . " في محلّ نصب نعت لكلمة .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(ماكثين) ، جمع ماكث ، اسم فاعل من الثلاثيّ مكث ، وزنه فاعل .

البلاغة

1 - التكرير في قوله تعالى : " وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً قَيِّماً " .

نفي العوج عنه معناه إثبات الاستقامة له ، وقد جنح إلى التكرير لفائدة وهي التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح .

2 - المطابقة فقد طابق سبحانه جل جلاله بين العوج والاستقامة ، فكان رائعا لا مجال فيه لمنتقد .

---

(1) والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره : مقالتهم المذكورة .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي قولا كذبا .

3 – نفي الشيء بإيجابه :

في قوله تعالى : " قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ " لهذا الفن تسمية أخرى وهي : عكس الظاهر .

(219/473)

وهو أن تذكر كلاما ، يدل ظاهره على أنه نفي لصفة موصوف ، وهو نفي للموصوف أصلا . فاتخاذ اللّه ولدا في نفسه محال ، فكيف قيل " ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ " .

معنى ذلك : ما لهم به من علم ، لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وانتفاء العلم بالشيء وإمّا للجهل بالطريق الموصل ، وإمّا لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به . فقد ورد الكلام على سبيل التهكم والاستهزاء بهم .

الفوائد

للمفعول لأجله خمسة شروط :

أ – كونه مصدرا .

ب – كونه فعله من أفعال النفس ، وهو مصدر قلبي ، نحو التعظيم والاحترام والإجلال والخوف والرغبة والرهبة والحياء والشفقة والعلم ونحوها .

ج - كونه علة ، فهو الباعث على الفعل .

ء - اتحاده مع المعلّل به في الزمان .

ه - اتحاده مع المعلل به في الفاعل .

فلا يصح " جئتك محبة إياي " .

ومتى فقد شرط من شروطه الخمسة وجب جرّه بحرف تعليل " كاللام ومن والباء وفي "

نحو :

- وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ .

- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ .

فجئت وقد نضّت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

[سورة الكهف (18) : الآيات 6 إلى 8]

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (6) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7) وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لعلّك) حرف ترجّ ونصب . . و(الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (باخع) خبر لعلّ مرفوع (نفسك) مفعول به لاسم الفاعل باخع منصوب . . و(الكاف) مضاف إليه (على آثارهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (باخع) و(هم) ضمير مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (لم) حرف نفي (يؤمنوا) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يؤمنوا) ، (الحديث) بدل من اسم الإشارة – أو عطف بيان – مجرور (أسفا) مفعول لأجله منصوب " 1 " .

جملة : " لعلّك باخع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لم يؤمنوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه قوله لعلّك باخع . .

7 – (إنّا) حرف مشبّه بالفعل . . و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ

---

(1) أو مصدر في موضع الحال من الضمير في باخع .

(جعلنا) فعل ماض وفاعله (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (على الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (زينة) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (زينة) (اللام) للتعليل (نبلوهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (أيّهم) اسم استفهام مبتدأ مرفوع " 2 " ، و(هم) مضاف إليه (أحسن) خبر المبتدأ " 3 " مرفوع (عملا) تمييز منصوب وجملة : " إنّا جعلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – وجملة : " جعلنا ما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نبلوهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن نبلوهم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلنا) .

---

(1) أو حال إذا كان الفعل متعدّيا لواحد بمعنى خلقنا .

(2) يجوز أن يكون موصولا مبنيّا على الضمّ في محلّ نصب بدل من الضمير في (نبلوهم) .

(3) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو – وأيّ اسم موصول – والجملة لا محلّ لها صلة الموصول . [. . . . .]

وجملة : " أيّهم أحسن . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تفسير للبلاء 8 – (الواو) عاطفة (إنّا) مثل الأول (اللام) المزحلقة للتوكيد (جاعلون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو (ما) مثل الأول (على) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة ما (صعيدا) مفعول به ثان منصوب لاسم الفاعل جاعلون (جرزا) نعت لـ (صعيدا) منصوب .

وجملة : " إنّا لجاعلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا جعلنا .

الصرف :

(باخع) ، اسم فاعل من (بخع) الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(جرزا) ، اسم جامد بمعنى الأرض التي قطع نباتها ، ثمّ استعمل اللفظ هنا للوصف على سبيل المجاز . يقال أرض جرز بضمتين وأرضون أجراز .

البلاغة

– الاستعارة التمثيلية :

في قوله تعالى " فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا " فقد مثل حاله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، في شدّة الوجد ، على إعراض القوم وتوليهم عن الإيمان بالقرآن وكمال الحزن عليهم ، بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه ، إثر فوت ما يحبه عند مفارقة

أحبته ، تأسفا على مفارقتهم ، وتلهفا على مهاجرتهم .

[سورة الكهف (18) : الآيات 9 إلى 12]

(223/473)

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (10) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (12)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (حسبت) فعل ماض وفاعله (أنّ) حرف مشبّه بالفعل (أصحاب) اسم أنّ منصوب (الكهف) مضاف إليه مجرور (الرقيم) معطوف على الكهف بالواو مجرور (كانوا) فعل ماض ناقص . . و(الواو) اسم كان (من آياتنا) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (عجبا) على حذف مضاف أي من جملة آياتنا (عجبا) خبر كان منصوب ، وجاء بلفظ المفرد لأنّه مصدر .

والمصدر المؤوّل (أنّ أصحاب الكهف) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي حسبت .

جملة : " حسبت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كانوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

10 - (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بـ (عجبا) " 1 " ، (أوى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (الفتية) فاعل مرفوع (إلى الكهف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوى) ، (الفاء) عاطفة (قالوا) فعل ماض وفاعله (ربّنا) منادى مضاف منصوب . . و(نا) ضمير مضاف إليه (آتنا) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة . . و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (من) حرف جرّ (لدنك) اسم مبنيّ على السكون في محلّ جرّ متعلّق بحال من رحمة . . و(الكاف) مضاف إليه (رحمة) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (هيّئ) مثل آت مبنيّ على السكون (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (هيّئ) ، (من أمرنا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هيّئ) " 2 " ، و(نا) ضمير مضاف إليه (رشدا) مفعول به منصوب .

وجملة : " أوى الفتية . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) أو هو اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر .

(2) ومن تبعيضيّة أو لابتداء الغاية . . ويجوز أن يتعلّق الجارّ بحال من (رشدا) .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أوى الفتية .

وجملة : " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آتنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " هيّئ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتنا .

(الفاء) عاطفة (ضربنا) فعل ماض وفاعله (على آذانهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ضربنا) بتضمينه معنى وضعنا " 1 " ، و(هم) ضمير مضاف إليه (في الكهف) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الضمير في آذانهم (سنين) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ضربنا) ، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (عددا) نعت لسنين بمعنى معدودة أو على حذف مضاف أي ذوات عدد وهو حينئذ مصدر " 2 " .

وجملة : " ضربنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قالوا . .

12 - (ثمّ) حرف عطف (بعثناهم) مثل ضربنا . . و(هم) ضمير مفعول به (اللام) للتعليل (نعلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل نحن للتعظيم (أيّ) اسم استفهام مبتدأ مرفوع (الحزبين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (أحصى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف " 3 " ، والفاعل هو (اللام) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ ظرفيّ (لبثوا) مثل قالوا (أمدا) مفعول به منصوب عامله أحصى .

والمصدر المؤوّل (ما لبثوا . . .) في محلّ نصب على الظرفية الزمانية متعلّق بحال من (أمدا) " 4 " .

وجملة : " بعثناهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ضربنا .

وجملة : " نعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

(1) ومفعول ضربنا محذوف أي حجابا . .

(2) ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف أي تعدّ عددا .

(3) وهو اختيار أبي عليّ والزمخشريّ . . وجعله الزجّاج والتبريزي اسم تفضيل وليس بسديد لأنّ التفضيل من غير الثلاثيّ ليس قياسيّا .

(4) يجوز تعليقه بفعل أحصى ، ويجوز أن يكون (ما) موصولا مفعولا لـ (أحصى) ، و(أمدا) تمييز واللام زائدة .

والمصدر المؤوّل (أن نعلم . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (بعثناهم) .

وجملة : " أيّ الحزبين أحصى . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي نعلم الذي تعلّق عمله بالاستفهام (أيّ) .

وجملة : " أحصى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أيّ) .

وجملة : " لبثوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(الكهف) ، اسم جامد لمطلق الغار ، وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه كهوف وأكهف .

(الرقيم) ، اسم جامد للوح الذي كتبت فيه أسماء أهل الكهف ، وقيل هو اسم الوادي الذي فيه أصحاب الكهف ، وقيل هو اسم القرية التي خرجوا منها ، وقيل هو اسم الجبل ، وقيل هو الدراهم التي كانت مع أهل الكهف ، وقيل هو الكلب الذي كان معهم . . وزنه فعيل وهو بمعنى مفعول إذا كان بمعنى اللوح .

(رشدا) ، مصدر سماعيّ لفعل رشد يرشد باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين .

(عددا) ، هو صفة مشتّقة وزنه فعل بفتحتين بمعنى مفعول ، أو هو مصدر لفعل عدّ الثلاثيّ بمعنى الإحصاء .

(الحزبين) ، مثنّى الحزب ، وهو اسم جمع لمجموعة الناس وزنه فعل بكسر فسكون ، جمعه أحزاب زنة أفعال .

(أحصى) ، فيه إعلال بالقلب أصله أحصي – بالياء – جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه أفعل .

البلاغة

1 - الاستعارة التبعية :

في قوله تعالى " فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ " شبه الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان ، كما تضرب الخيمة على السكان .

وجوز بعضهم أن تكون من باب الاستعارة التمثيلية .

2 - التعليق :

(226/473)

في قوله تعالى " ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً " ليس المراد أن يعلم اللّه شيئا هو داخل في نطاق علمه ، ولكنه أراد ما تعلق العلم به من ظهور الأمر لهم ، ليزدادوا إيمانا واعتبارا ، وليكون ذلك من الألطاف الخفية على المؤمنين في زمانهم ، أو ليحدث تعلق علمنا تعلقا حاليا ، أي نعلم أن الأمر واقع في الحال بعد أن علمنا قبل أنه سيقع في مستقبل الزمان .

الفوائد

1 - ذهب كثير من النحاة إلى أن " أحصى " فعل ماض وأمدا مفعوله :

والسليقة العربية ترجح كونه اسم تفضيل ، وأن أمدا تمييز ، رغم أن الصناعة اللفظية على

زعم بعضهم ترجح الفعل ، ولكن ما اعتمدناه من رأي أيده بعض أساطين هذه الصناعة كالزجاج والتبريزي وغيرهما . فتبصر واختر هداك اللّه الصواب .

2 - ذهب المبرد إلى أن معنى " أي " في هذه الآية " هل هذا أم هذا " ؟

والذي قصده المبرد أن أدوات الاستفهام ، إذا كانت أسماء امتنعت مما قبلها فتبصّر .

[سورة الكهف (18) : الآيات 13 إلى 15]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً (14) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (15)

الإعراب :

(نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (نقصّ) مضارع مرفوع والفاعل نحن للتعظيم (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقصّ) ، (نبأهم) مفعول به منصوب . . و(هم) ضمير مضاف إليه (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الفاعل أو

المفعول . (إنّهم) حرف مشبّه بالفعل . . و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (فتية) خبر مرفوع (آمنوا) فعل ماض وفاعله (بربّهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنوا) ، و(هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (زدناهم) فعل ماض وفاعله ، و(هم) ضمير مفعول به أوّل (هدى) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

جملة : " نحن نقصّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نقصّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن) .

وجملة : " إنّهم فتية . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " آمنوا . . . " في محلّ رفع نعت لفتية .

وجملة : " زدناهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة آمنوا . .

14 – (الواو) عاطفة (ربطنا) مثل زدنا (على قلوبهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ربطنا) . . و(هم) مضاف إليه (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (ربطنا) ، (قاموا) مثل آمنوا (الفاء) عاطفة (قالوا) مثل آمنوا (ربّنا) مبتدأ مرفوع . . و(نا) ضمير مضاف إليه (ربّ) خبر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (لن) حرف نفي ونصب (ندعو) مضارع منصوب ، والفاعل نحن (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (إلها) ، و(الهاء) مضاف إليه (إلها) مفعول به منصوب (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (قلنا) مثل زدنا (إذا) – بالتنوين

- حرف جواب لا عمل له (شططا) مفعول به منصوب " 1 " .

وجملة : " ربطنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " قاموا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قاموا .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا عن المصدر فهو صفته . . كما يجوز أن يكون حالا من ضمير المصدر على حذف مضاف أي قولا ذا شطط .

وجملة : " ربّنا ربّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لن ندعو . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ مبيّن حكم الجملة قبل .

وجملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّرة جواب لشرط مقدّر عبّرت عنه (إذا) أي : إن دعوناه فو اللّه لقد قلنا شططا .

15 - (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (قومنا) بدل من الإشارة - أو عطف بيان - مرفوع (اتّخذوا) فعل ماض وفاعله (من دونه) مثل الأول متعلّق بمفعول به ثان " 1 " ، (آلهة) مفعول به أوّل منصوب (لولا) حرف

تحضيض (يأتون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من سلطان " 2 " ، (بسلطان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتون) ، (بيّن) نعت لسلطان مجرور (الفاء) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) ، خبر مرفوع (من) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أظلم) (افترى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو وهو العائد (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 3 " فهو مرادفه .

وجملة : " هؤلاء قومنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز قول الفتية .

وجملة : " اتّخذوا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هؤلاء) .

وجملة : " لولا يأتون عليهم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز قول الفتية .

وجملة : " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز قول الفتية .

وجملة : " افترى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(شططا) ، مصدر سماعيّ لفعل شطّ فلان في حكمه جار وظلم وزنه فعل بفتحتين ، والفعل من باب ضرب .

البلاغة

- الاستعارة التصريحية التبعية :

---

(1) يجوز أن يتعلّق بمحذوف حال من آلهة . . أو يتعلّق بـ (اتّخذوا) إذا ضمّن معنى عملوا .

(2) ويجوز أن يكون فيه حذف مضاف أي عبادتهم . .

(3) انظر الآية (117) من سورة يونس و(18) من هود .

(229/473)

في قوله تعالى : " وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ " .

الربط هو الشد بالحبل . والمراد قوينا قلوبهم بالصبر على هجر الأوطان والفرار بالدين إلى الكهف ، وجسرناهم على قول الحق والجهر به أمام الجبارين .

[سورة الكهف (18) : آية 16]

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ متعلّق بفعل محذوف تقديره قال بعضهم لبعض في محلّ نصب (اعتزلتموهم) فعل ماض وفاعله و(الواو) زائدة لإشباع حركة الميم

. . و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على ضمير المفعول " 1 " ، (يعبدون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل ، والعائد محذوف (إلّا) أداة استثناء (اللّه) لفظ الجلالة مستثنى منصوب من ما أو من العائد (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ائووا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . و(الواو) فاعل (إلى الكهف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ائووا) ، (ينشر) مضارع مجزوم جواب الطلب (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينشر) ، (ربّكم) فاعل مرفوع . . و(كم) مضاف إليه (من رحمته) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينشر) ، و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يهيّئ) مضارع مجزوم معطوف على (ينشر) ، والفاعل هو (من أمركم مرفقا) مثل من أمرنا رشدا " 2 " ، والجارّ متعلّق بـ (يهيّئ) " 3 " .

---

(1) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل معطوف على الضمير المفعول .

(2) في الآية (10) من السورة .

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من (مرفقا)

جملة : " اعتزلتموهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه ، وجملة : " يعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " ائووا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن اعتزلتم الكافرين وما يعبدون فأووا .

وجملة : " ينشر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء " 1 " أي : إن تأووا ينشر . .

وجملة : " يهيّئ لكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينشر .

الصرف :

(فأووا) ، فيه حذف همزة الوصل ، أصله ائووا ، فلمّا تقدمته الفاء حذفت همزة الوصل وأصبحت الهمزة الثانية مرسومة على ألف كأنّها في أول الكلمة . وفيه أيضا إعلال بالحذف لأنّ المضارع يأوي ، والأمر المسند إلى واو الجماعة حقّه أن يكون ائويوا . . ثمّ نقلت حركة الياء إلى الواو قبلها ، فلمّا التقى ساكنان حذفت الياء ، وزنه افعوا .

(مرفقا) ، هو ما يرتفق به أي يتكأ عليه ويستعان به كعضو الإنسان من يده أو ما ينتفع به من طعام وشراب وزنه مفعل بكسر الميم وفتح العين ، وهو مستعمل كاسم جامد ، فإذا فتحت الميم كان مصدرا ميميّا .

---

(1) يجعل بعضهم مثل هذه الجملة استئنافا بيانيّا للأمر المتقدّم . [. . . . .]

[سورة الكهف (18) : الآيات 17 إلى 18]

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (18)

(231/473)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ترى) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل أنت (الشمس) مفعول به منصوب (إذا) ظرف للزمن المستقبل غير متضمّن معنى الشرط " 1 " ، في محلّ نصب متعلّق بـ (ترى) ، (طلعت) فعل ماض ، و(التاء) للتأنيث ، والفاعل هي (تزاور) مضارع مرفوع - حذف منه إحدى التاءين - والفاعل هي (عن كهفهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تزاور) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (ذات) ظرف منصوب متعلّق بـ (تزاور) ، (اليمين) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (إذا غربت تقرضهم ذات الشمال) مثل نظيرها المتقدّمة ، والضمير (هم) في الفعل مفعول به (الواو) واو الحال (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (في فجوة) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ هم (من)

حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (فجوة) (ذلك) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى التزاور والقرض ، و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (من آيات) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ ذلك (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (يهد) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) مثل هم (المهتد) خبر هو مرفوع وعلامة

---

(1) يجوز أن يكون الظرف متضمّنا معنى الشرط فيتعلّق بـ (تزاور) الجواب .

(232/473)

الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة للتخفيف مراعاة للفظ في الوقف (الواو) عاطفة (من يضلل) مثل من يهد ، وعلامة الجزم السكون (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لن) حرف نفي ونصب (تجد) مضارع منصوب ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (وليّا) مفعول به أوّل منصوب (مرشدا) نعت لـ (وليّا) منصوب مثله .

جملة : " ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " طلعت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تزاور . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ترى .

وجملة : " غربت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تقرضهم . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ترى .

وجملة : " هم في فجوة . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " ذلك من آيات اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يهد اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " هو المهتدي " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يضلل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يهد اللّه .

وجملة : " لن تجد . . . " في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء .

18 - (الواو) عاطفة (تحسبهم) مضارع مرفوع . . و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (أيقاظا) مفعول به ثان منصوب (الواو) حالية (هم) ضمير مبتدأ (رقود) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (نقلّبهم) مضارع مرفوع . . و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم

(ذات اليمين) مثل الأولى في الآية السابقة متعلّق بـ (نقلّبهم) ، (ذات الشمال) مثل ذات اليمين ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (كلبهم) مبتدأ مرفوع . . و(هم) مضاف إليه (باسط) خبر مرفوع

(ذراعيه) مفعول به لاسم الفاعل باسط " 1 " ، منصوب وعلامة النصب الياء . .

و(الهاء) مضاف إليه (بالوصيد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (باسط) ، (لو) حرف شرط غير جازم (اطّلعت) فعل ماض وفاعله (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اطّلعت) ، (اللام) واقعة في جواب لو (ولّيت) مثل اطّلعت (منهم) مثل عليهم متعلّق بـ (وليت) ، (فرارا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه " 2 " ، (الواو) عاطفة (اللام) مثل الأولى (ملئت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و(التاء) نائب الفاعل (منهم) مثل عليهم متعلّق بـ (ملئت) ، ومن سببيّة (رعبا) تمييز منصوب " 3 " ، منصوب .

وجملة : " تحسبهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى الشمس .

وجملة : " هم رقود " في محلّ نصب حال .

وجملة : " نقلّبهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تحسبهم . .

وجملة : "كلبهم باسط . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تحسبهم . .

وجملة : " اطّلعت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ولّيت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(تزاور) ، فيه حذف إحدى التاءين ، أصله تتزاور بمعنى تميل .

(فجوة) ، اسم جامد بمعنى المتّسع من الكهف ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، جمعه فجاء بكسر الفاء وفجوات . . كقصعة وقصاع وقصعات .

(مرشدا) ، اسم فاعل من الرباعيّ أرشد ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

---

(1) وهو ، وإن كان ماضيا ، في حكم الحال فهو محكيّ ، أي كلبهم يبسط ذراعيه .

(2) أو هو مصدر في موضع الحال المؤكّدة من فاعل ولّيت . . أو مفعول لأجله .

(3) أو مفعول به ، وكان مفعولا ثانيا للمعلوم ،

(أيقاظا) ، جمع يقظ صفة مشبّهة من فعل يقظ يقظ باب فرح وزنه فعل بفتح فكسر ، ووزن أيقاظ أفعال .

(رقود) ، جمع راقد ، اسم فاعل من رقد الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، ووزن رقود فعول بضمّ الفاء .

(كلبهم) ، اسم جامد للحيوان المعروف ، وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه كلاب بكسر

الكاف وأكلب بضمّ اللام وجمع الجمع أكالب بكسر اللام وكلابات .

(ذراعيه) ، مثنّى ذراع ، اسم جامد للعضو المعروف ، وزنه فعال بكسر الفاء .

(الوصيد) ، اسم للفناء أو عتبة الباب ، وقيل هو التراب ، وزنه فعيل .

(اطّلعت) ، فيه إبدال تاء الافتعال طاء لمجيئها بعد الطاء ، وزنه افتعلت وأصله اطتلعت .

(فرارا) ، مصدر سماعيّ لفعل فرّ الثلاثيّ ، وفيه ضابط تقريبيّ كونه على وزن فعال بكسر الفاء فهو يدلّ على إباء وامتناع .

البلاغة

1 – الطباق :

في قوله تعالى " أَيقاظاً . . . رُقُودٌ " .

2 – التشبيه :

في قوله تعالى " وَتَحْسَبُهُمْ أَيقاظاً " .

(235/473)

في الكلام تشبيه ، جاءت فيه الأداة فعلا من أفعال الشك واليقين ، تقول :

حسبت زيدا في جرأته الأسد ، وعمرا في جوده الغمام . فحاصل ذلك تشبيه زيد بالأسد

، وعمرو بالغمام . وفي الآية حاصلة تشبيه أهل الكهف في حال نومهم بالأيقاظ ، في بعض صفاتهم ، لأنه قيل : إنهم كانوا مفتحي العيون في حال نومهم .

الفوائد

استمع إلى هذا الحوار المفيد بين البصريين والكوفيين :

يقول الكسائي : إن اسم الفاعل يعمل على فعله ، ولو كان في الزمن الماضي .

واستدل على صحة زعمه بقوله تعالى : " وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ " وردّ البصريون كلام الكسائي وقالوا : إن الحادثة وإن وقعت في الزمن الماضي ، إنما الآية وردت على حكاية الحال . واستدلوا على صحة قولهم بدليلين الأول : أن الواو في " وَكَلْبُهُمْ " واو الحال والثاني : أن اللّه عبّر بصيغة الحاضر بقوله تعالى : ونقلبهم ولم يقل " و قلبناهم " .

[سورة الكهف (18) : الآيات 19 إلى 20]

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (20)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الكاف) حرف جرّ " 1 " ، (ذلك) اسم إشارة في محلّ جرّ متعلّق

بمحذوف مفعول مطلق عامله بعثناهم ، و(اللام) للبعد

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر عامله بعثناهم .

و (الكاف) للخطاب (بعثناهم) ماض مبنيّ على السكون ، و(نا) ضمير فاعل ، و(هم) ضمير مفعول به (اللام) لام التعليل " 1 " ، (يتساءلوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يتساءلوا) . . و(هم) مضاف إليه (قال) فعل ماض (قائل) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لقائل (كم) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانيّة ، وتمييزه مقدّر أي كم يوما (لبثتم) مثل بعثنا (قالوا) فعل ماض وفاعله (لبثنا) مثل بعثنا (يوما) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لبثنا) ، (أو) حرف عطف (بعض) معطوف على (يوما) منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أن يتساءلوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (بعثناهم) .

(قالوا) مثل الأول (ربّكم أعلم) مثل ربّنا ربّ " 2 " ، (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (لبثتم) مثل بعثنا .

والمصدر المؤوّل (ما لبثتم) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) .

(الفاء) عاطفة (ابعثوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (أحدكم) مفعول به منصوب . . و(كم) ضمير مضاف إليه (بورقكم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من أحدكم . . و(كم) مثل الأخير (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ عطف بيان - أو بدل - من ورقكم (إلى المدينة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ابعثوا) ، (الفاء) عاطفة (اللام) لام الأمر

---

(1) أو للصيرورة .

(2) في الآية (14) من هذه السورة .

(ينظر) مضارع مجزوم ، والفاعل هو (أيها) اسم موصول مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (ها) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (أزكى) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (طعاما) تمييز منصوب (الفاء) عاطفة (ليأتكم) مثل لينظر ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة . . و(كم) ضمير مفعول به (برزق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتكم) " 2 " ، (منه) مثل منهم متعلّق بنعت لـ (رزق)

(الواو) عاطفة (ليتلطّف) مثل لينظر (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (يشعرنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم . . و(النون) نون التوكيد ، والفاعل هو (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يشعرنّ) ، (أحدا) مفعول به منصوب .

جملة : " بعثناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتساءلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " قال قائل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كم لبثتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لبثنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالوا . . (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ربّكم أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لبثتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " ابعثوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي اهتمّوا بأمر طعامكم فابعثوا . .

---

(1) أو هو اسم استفهام مبتدأ مرفوع خبره (أزكى) ، والجملة الاسميّة معمولة لفعل ينظر

المعلّق بالاستفهام بحذف الجارّ (إلى) . .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل يأتكم .

(238/473)

وجملة : " لينظر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ابعثوا .

وجملة : " (هو) أزكى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (أيّها) .

وجملة : " ليأتكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لينظر .

وجملة : " ليتلطّف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لينظر .

وجملة : " يشعرنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ليتلطّف .

20 - (إنّهم) حرف مشبّه بالفعل . . و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (إن) حرف شرط جازم (يظهروا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يظهروا) ، (يرجموكم) مثل يظهروا جواب الشرط . . و(كم) مفعول به (أو) حرف عطف (يعيدوكم) مثل يرجموكم ومعطوف عليه (في ملّتهم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من ضمير المفعول " 1 " . . و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لن) حرف نفي ونصب (تفلحوا) مضارع منصوب

وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (إذا) – بالتنوين – حرف جواب لا عمل له (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تفلحوا) .

وجملة : " إنّهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " إن يظهروا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ " 2 " .

وجملة : " يرجموكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يعيدوكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " لن تفلحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) وقيل إنّ فعل يعيدوكم هنا ناصب لمفعولين لأنّه بمعنى يجعلونكم في ملّتهم ، فالجارّ متعلّق بمفعول ثان .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

الصرف :

(ورقكم) ، اسم جامد بمعنى الفضّة المضروبة ، وزنه فعل بفتح فكسر .

الفوائد

- كَمْ لَبِثْتُمْ :

تقدم معنا الحديث عن كم الاستفهامية والخبرية . وكم هذه هي الاستفهامية .

وهي في محلّ نصب مفعول به ، لأن الفعل بعدها متعدّ ولم يستوف مفعوله ، وتمييز "كم" محذوف وتقديره : "كم يوما لبثتم" بدليل أن الجواب جاء "يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ" .

[سورة الكهف (18) : آية 21]

(240/473)

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (21)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كذلك أعثرنا) مثل كذلك بعثنا " 1 " ، (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعثرنا) ، (ليعلموا) مثل ليتساءلوا " 2 " ، (أنّ) حرف مشبّهة بالفعل (وعد) اسم أنّ منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (حقّ) خبر مرفوع

(الواو) عاطفة (أنّ الساعة) مثل

(1 ، 2) في الآية (19) من هذه السورة .

أنّ وعد (لا) نافية للجنس (ريب) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر لا (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ(أعثرنا) " 1 " ، (يتنازعون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بحال من أمرهم . . و(هم) ضمير مضاف إليه (أمرهم) مفعول به منصوب . . و(هم) مثل الأخير .

والمصدر المؤوّل (أن يعلموا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ(أعثرنا) .

والمصدر المؤوّل (أنّ وعد اللّه حقّ) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلموا .

والمصدر المؤوّل (أنّ الساعة . . في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل أنّ وعد . .)

(الفاء) عاطفة (قالوا) فعل ماض وفاعله ، وهم الكفّار ، (ابنوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (عليهم) مثل الأول متعلّق بـ(ابنوا) ، (بنيانا) مفعول به منصوب " 2 " ، (ربّهم أعلم) ربّنا ربّ " 3 " ، (بهم) مثل عليهم متعلّق بـ(أعلم) (قال) فعل ماض

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (غلبوا) مثل قالوا (على أمرهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (غلبوا) . . و(هم) مضاف إليه (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نتّخذنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) للتوكيد ، والفاعل نحن (عليهم) مثل الأول متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 4 " ، (مسجدا) مفعول به .

---

(1) أو متعلّق بـ (يعلموا) .

(2) أو مفعول مطلق لأنّه يحتمل أن يكون مصدرا ، والمفعول به مقدّر . [. . . . .]

(3) في الآية (21) من هذه السورة .

(4) أو متعلّق بـ (نتّخذنّ) بتضمينه معنى نقيمنّ . . وفي (عليهم) حذف مضاف أي على كهفهم .

وجملة : " أعثرنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " لا ريب فيها . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الثاني) .

وجملة : " يتنازعون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يتنازعون .

وجملة : " ابنوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ربّهم أعلم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – " 1 " .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " غلبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " نتّخذنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة في محلّ نصب مقول القول .

البلاغة

– الاستعارة المكنية في قوله تعالى " يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ " .

---

(1) وهي داخلة ضمن كلامهم . . أمّا إذا كانت من كلام اللّه تعالى من غير سياق الكلام فهي اعتراضيّة .

في الكلام استعارة مكنية حيث شبه أمرهم بشيء كثر النزاع حوله ، ثم حذف ذلك الشيء ، وأستعير النزاع القائم حوله .

[سورة الكهف (18) : الآيات 22 إلى 24]

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (23) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (24)

الإعراب :

(السين) حرف استقبال (يقولون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل (ثلاثة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم (رابعهم) مبتدأ مرفوع . .

و(هم) ضمير مضاف إليه (كلبهم) خبر مرفوع . . و(هم) مثل الأول (الواو) عاطفة في الموضعين (يقولون . . كلبهم) مثل الأولى (رجما) مصدر في موضع الحال من ضمير الفاعل في الفعلين المتقدّمين " 1 " ، (بالغيب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رجما) ، (يقولون . . كلبهم) مثل الأولى ، و(الواو) زائدة قبل ثامنهم " 2 " ، (قل) فعل أمر والفاعل أنت (ربّي أعلم) مثل ربّنا ربّ " 3 " وعلامة رفع ربّي الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، (بعدّتهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أعلم) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (يعلمهم) مضارع مرفوع . . و(هم) ضمير مفعول به ، (إلّا) أداة حصر (قليل) فاعل يعلمهم مرفوع (الفاء) رابطة

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف ، أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنّه نعت له أي قولا

رجما ، أو مرادفه . .

(2) إمّا من غير التوكيد ، وإمّا لإفادة توكيد لصوق الصفة بالموصوف . . وقيل هي عاطفة غير زائدة . . وقال بعض المفسّرين هي واو الحال أي : يقولون ذلك حال كونهم ثامنهم كلبهم ، ورفض ابن هشام أن تكون واو الثمانية كما نص على ذلك بعض النحاة .

(3) في الآية (14) من هذه السورة .

(244/473)

لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تمار) فعل مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة . . والفاعل أنت (في) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تمار) ، (إلّا) مثل الأولى (مراء) مفعول مطلق منصوب (ظاهرا) نعت لمراء منصوب (الواو) عاطفة (لا تستفت) مثل لا تمار (فيهم) مثل الأول متعلّق بحال من (أحدا) ، (منهم) مثل فيهم متعلّق بـ (تستفت) ، (أحدا) مفعول به منصوب .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (هم) ثلاثة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " رابعهم كلبهم . . . " في محلّ رفع نعت لثلاثة .

وجملة : " يقولون (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " (هم) خمسة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سادسهم كلبهم . . . " في محلّ رفع نعت لخمسة .

وجملة : " يقولون (الثالثة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " (هم) سبعة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ثامنهم كلبهم . . . " في محلّ رفع نعت لسبعة " 1 " .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ربّي أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يعلمهم إلّا قليل " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا تمار . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن حدّثت عنهم فلا تمار .

وجملة : " لا تستفت . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تمار .

---

(1) أو معطوفة على جملة هم سبعة .

23 – (الواو) عاطفة (لا تقولنّ) مثل لا يشعرنّ " 1 " ، والفاعل أنت (لشيء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقولنّ) ، و(اللام) بمعنى من أجل ، (إنّ) حرف مشبّهة بالفعل و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (فاعل) خبر إنّ مرفوع (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (غدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (فاعل) .

وجملة : " لا تقولنّ . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تمار .

وجملة : " إنّي فاعل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(إلّا) أداة استثناء (أن) حرف مصدريّ ونصب (يشاء) مضارع منصوب (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أن يشاء اللّه . .) في محلّ نصب على الاستثناء على حذف مضاف أي إلّا وقت مشيئة اللّه " 2 " .

24 – (الواو) عاطفة (اذكر) فعل أمر ، والفاعل أنت (ربّك) مفعول به منصوب .

و(الكاف) ضمير مضاف إليه (إذا) ظرف مجرّد من الشرط متعلّق بـ (اذكر) ، (نسيت) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (قل) مثل اذكر (عسى) فعل ماض تامّ (أن يهدين) مثل أن يشاء . . و(النون) للوقاية ، و(الياء) المحذوفة رسما مفعول به (ربّي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يهدين . .) في محلّ رفع فاعل عسى .

---

(1) الآية (19) .

(2) يجوز أن تكون إلا أداة حصر ، والمصدر المؤوّل بعدها في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء متعلّق بحال أي الّا ملتبسا بمشيئة اللّه .

(246/473)

(لأقرب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يهدي) ، وعلامة الجرّ الفتحة للوصفيّة ووزن أفعل (من) حرف جرّ (ها) للتنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أقرب) ، (رشدا) تمييز منصوب " 1 " .

وجملة : " يشاء اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقولنّ . . في الآية السابقة .

وجملة : " نسيت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اذكر .

وجملة : " عسى أن يهدين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يهدين ربّي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(رابعهم) ، هو عدد جاء على وزن فاعل دالّا على الترتيب .

(خمسة) ، لفظ يدلّ على العدد ، اسم مؤنث لأن معدوده مذكّر ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(سادسهم) ، عدد على وزن فاعل فهو دالّ على الترتيب .

(رجما) ، مصدر رجم الثلاثيّ ، وأصله رمى بالحجارة ثمّ أستعير للكلام غير الثابت وغير المعتمد على الحقائق ، فعله من باب قتل ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(سبعة) اسم للعدد – مؤنّث لأنّ المعدود مذكّر – وزنه فعلة بفتح فسكون .

(ثامنهم) عدد جاء على وزن فاعل لأنّه دالّ على الترتيب .

(تمار) ، فيه إعلال لمناسبة البناء مضارعه تماري – بالياء – ووزن تمار تفاع .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه أي يهديني رشدا ، أى هداية .

(مراء) ، مصدر سماعيّ لفعل ماري الرباعيّ ، وزنه فعال بكسر الفاء ، وفيه إعلال

بالقلب - أو إبدال - أصله مراي - بالياء - فلمّا جاءت الياء متطرّفة بعد ألف ساكنة قلبت همزة.

(تستفت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم فهو في الرفع تستفتي ، حذف حرف العلّة للجزم ، وزنه تستفع.

البلاغة

- الاستعارة المكنية في قوله تعالى " رَجْماً بِالْغَيْبِ " .

فقد شبه ذكر أمر ، من غير علم يقيني ، واطمئنان قلب ، بقذف الحجر الذي لا فائدة في قذفه ، ولا يصيب مرماه ، ثم أستعير له ، ووضع الرجم موضع الظن ، حتى صار حقيقة عرفية فيه.

[سورة الكهف (18) : آية 25]

(248/473)

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لبثوا) فعل ماض وفاعله (في كهفهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (لبثوا) . .

و(هم) مضاف إليه (ثلاث) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لبثوا) ، (مائة) مضاف إليه مجرور (سنين) بدل من ثلاثمائة – أو عطف بيان – منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر " 1 " ، (الواو) عاطفة (ازدادوا) فعل ماض وفاعله (تسعا) تمييز منصوب " 2 " .

---

(1) لا يجوز أن يكون (سنين) تمييزا للمائة لأنّ تمييزها مفرد مجرور بالإضافة ، وتنوين (ثلاثمائة) يمنع الإضافة .

(2) جعله العكبريّ مفعولا به ، وتبعه الجمل ، وقال : زاد إذا بني على افتعل تعدّى إلى واحد . ولكن جاء في لسان العرب : " زاد الشيء بمعنى ازداد " أي هو لازم ليس غير .

جملة : " لبثوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ازدادوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(ازدادوا) ، فيه إبدال تاء الافتعال دالا بعد الزاي ، وفيه إعلال بقلب الياء ألفا أصله

ازديدوا . .

(تسعا) ، اسم للعدد جاء مذكّرا لأنّ معدوده مؤنّث وهو السنة ، وزنه فعل بكسر فسكون .

الفوائد

1 – تذكير العدد وتأنيثه :

أ – العدد من ثلاثة إلى تسعة : تكون على عكس المعدود في التذكير والتأنيث .

سواء أكانت مفردة كقوله تعالى " سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً " أو مركبة نحو : خمسة عشر قلما ، وسبع عشرة محبرة أو معطوفا ، نحو : ثلاثة وعشرين يوما ، وأربعا وعشرين ساعة وأما " واحد واثنان " فهما وفق المعدود في الأحوال الثلاثة .

وأما مائة وألف ، فلا يتغير لفظهما في التذكير والتأنيث ، ومثلهما ألفاظ العقود من عشرين إلى تسعين .

العشرة : فهي على عكس معدودها مفردة ، ووفق معدودها مركبة .

2 – اسم العدد :

يصاغ من اسم العدد وصف على وزن فاعل ، مطابق لموصوفه .

وإذا كان العدد مضافا ، وعرفناه ، فتدخل " ال " التعريف على المضاف إليه .

وإذا كان مركبا ، تدخل ال على جزئه الأول ، وإذا كان معطوفا تدخل ال على الجزئين معا .

3 – إعراب العدد :

أ– من واحد إلى عشرة المفردة : يعرب بالحركات ، باستثناء " اثنان واثنتان " فهما ملحقان بالمثنى ويعربان إعرابه .

وكذلك العدد مائة وألف يعربان بالحركات .

ب – اثنان للمذكر ، واثنتان للمؤنث ، والعقود من عشرين إلى تسعين : تعرب بالأحرف .

ج – الأعداد المركبة من أحد عشر إلى تسعة عشر ، ومن الحادي عشر إلى التاسع عشر ، فتعرب " جزءان مركبان مبنيان على الفتح " يستثني من المركب " الجزء الأول من اثني عشر " فهو ملحق بالمثنى كما ذكرنا . فتبصّر . . . !

[سورة الكهف (18) : آية 26]

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26)

الإعراب :

(قل اللّه أعلم) مثل قلّ ربّي أعلم " 1 " ، (بما لبثوا) مثل بما لبثتم " 2 " ، (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (غيب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور .

والمصدر المؤوّل (ما لبثوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) .

(أبصر) فعل ماض لإنشاء التعجّب أتى على صورة الأمر مبنيّ على الفتح المقدّر لمجيئه على صورة الأمر (الباء) حرف جرّ زائد و(الهاء) ضمير محلّه القريب الجرّ بالباء ومحلّه البعيد الرفع على الفاعليّة (الواو) عاطفة ، (أسمع)

---

(1) في الآية (22) من هذه السورة .

(2) في الآية (19) من هذه السورة . [. . . . .]

مثل أبصر وبه مقدّر " 1 " ، (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من وليّ . . و(الهاء) مضاف إليه (من) حرف جرّ زائد (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) نافية (يشرك) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (في حكمه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يشرك) ،

و(الهاء) مضاف إليه (أحدا) مفعول به منصوب.

جملة: "قل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اللّه أعلم . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لبثوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أما).

وجملة: "له غيب السموات . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "أبصر به . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "أسمع (به) . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أبصر به.

وجملة: "ما لهم من دونه من وليّ . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "لا يشرك . . . "لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة الأخيرة.

[سورة الكهف (18): الآيات 27 إلى 29]

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27)
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28)
وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ
سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً
(29)

(1) قيل : أبصر به وأسمع هما أمر حقيقي لا تعجّب ، والهاء تعود على الهدى المفهوم من الكلام .

(252/473)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اتل) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (أوحي) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوحي) ، (من كتاب) جارّ ومجرور متعلّق بحال من نائب الفاعل (ربّك) مضاف إليه مجرور . .

و(الكاف) مضاف إليه (لا) نافية للجنس (مبدّل) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (لكلماته) جارّ ومجرور متعلّق بخبر لا . . و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لن) حرف نفي ونصب (تجد) مضارع منصوب ، والفاعل أنت (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان ، و(الهاء) مضاف إليه (ملتحدا) مفعول به أوّل منصوب .

جملة : "اتل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوحي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا مبدّل لكلماته " في محلّ نصب حال من كتاب .

وجملة : " لن تجد . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا مبدّل . .

28 - (الواو) عاطفة (اصبر) مثل اتل (نفسك) مفعول به منصوب . .

(253/473)

و(الكاف) مضاف إليه (مع) ظرف منصوب متعلّق بفعل اصبر (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (يدعون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (ربّهم) مفعول به منصوب . . و(هم) مضاف إليه (بالغداة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدعون) ، (العشيّ) معطوف على الغداة بالواو مجرور (يريدون) مثل يدعون (وجهه) مفعول به منصوب . . و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تعد) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (عيناك) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف . . و(الكاف) مضاف إليه (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تعد) ، (تريد) مضارع مرفوع ، والفاعل أنت (زينة) مفعول به منصوب (الحياة) مضاف إليه مجرور (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (لا تطع) مثل لا تعد ،

وعلامة الجزم السكون (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (أغفلنا) فعل ماض وفاعله (قلبه) مفعول به منصوب . .

و(الهاء) مضاف إليه (عن ذكرنا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أغفلنا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (اتّبع) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (هواه) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف . .

و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (كان) فعل ماض ناقص (أمره) اسم كان مرفوع . .

و(الهاء) مضاف إليه (فرطا) خبر كان منصوب .

وجملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتل .

وجملة : " يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يريدون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يدعون .

وجملة : " لا تعد عيناك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " تريد . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في (عيناك) " 1 " .

وجملة : " لا تطع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تعد .

وجملة : " أغفلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " اتّبع هواه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " كان أمره فرطا " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

29 - (الواو) عاطفة (قل) مثل اتل (الحقّ) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (من ربّكم) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ . . و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة " 3 " ، (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شاء) فعل ماض " 4 " ، والفاعل هو ، والمفعول محذوف (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) لام الأمر (يؤمن) مضارع مجزوم بلام الأمر ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (من شاء فليكفر) مثل نظيرتها السابقة (إنّا) حرف مشبّهة بالفعل . .

و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ ، (أعتدنا) مثل أغفلنا (للظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أعتدنا) ، وعلامة الجرّ الياء (نارا) مفعول به منصوب (أحاط) ، فعل ماض (الباء) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحاط) ، (سرادقها) فاعل مرفوع . .

و(ها) مضاف إليه (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (يستغيثوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (يغاثوا) مضارع مبنيّ للمجهول مجزوم جواب الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون . .

و(الواو) نائب الفاعل (بماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يغاثوا) ، (كالمهل) جارّ

(1) صحّ مجيء الحال من المضاف إليه لأنّ المضاف جزء من المضاف إليه.

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا القرآن، والجارّ والمجرور حال من الحقّ والعامل فيه الإشارة.

(3) أو رابطة لجواب شرط مقدّر.. أو استئنافيّة.

(4) في محلّ جزم فعل الشرط.

(255/473)

و مجرور متعلّق بنعت لـ (ماء)، (يشوى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هو (الوجوه) مفعول به منصوب (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (الشراب) فاعل مرفوع، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هو أي الماء الذي كالمهل (الواو) عاطفة (ساءت) فعل ماض لإنشاء الذمّ..

و(التاء) للتأنيث. والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هي، أي النار، (مرتفقا) تمييز منصوب.

وجملة: "قل... "لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر.

وجملة: "الحقّ من ربّكم... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " من شاء . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 1 " .

وجملة : " شاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يؤمن . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من شاء (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على " على من شاء " (الأولى) .

وجملة : " شاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثانية .

وجملة : " يكفر . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّا أعتدنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليل لما سبق – وجملة : " أعتدنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أحاط بهم سرادقها " في محلّ نصب نعت لـ (نارا) .

وجملة : " إن يستغيثوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أحاط ، والرابط محذوف أي إن يستغيثوا فيها " 2 " .

---

(1) أو جواب شرط مقدّر أي إن جاءكم الحقّ فمن شاء فليؤمن . . ويجوز أن تكون استئنافيّة .

(2) يجوز قطعها على الاستئناف فلا محلّ لها .

وجملة : " يغاثوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يشوي . . . " في محلّ جرّ نعت ثاني لماء " 1 " .

وجملة : " بئس الشراب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ساءت مرتفقا " لا محلّ لها معطوفة على جملة بئس الشراب .

الصرف :

(ملتحدا) ، اسم مكان من فعل التحد الخماسيّ بمعنى التجأ وهو على وزن اسم المفعول مفتعل بضم الميم وفتح العين .

(فرطا) ، وهو مصدر بمعنى التفريط أو الإفراط أي اسم مصدر من أفرط في الأمر أي جاوز الحدّ . . أو هو صفة مشتقّة على وزن فعل بضمّتين أي متقدّم على الحقّ .

(سرادق) ، اسم لما يحيط بالشيء كالخباء والمضرب ، وقيل هو الحجرة وقيل هو ما يمدّ على صحن الدار . قال الراغب : السرادق فارسيّ معرّب وليس في كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه ألف بعدها حرفان إلّا هذا . وفي المختار :

السرادق مفرد جمعه سرادقات . . وكلّ بيت من كرسف أي قطن هو سرادق .

وزنه فعالل بضم الفاء .

(المهل) ، اسم يجمع معدنيات الجواهر من فضّة وحديد ونحاس وما كان منها ذائبا ، وقيل

هو القطران الرقيق والزيت الرقيق . . وزنه فعل ، بضمّ الفاء .

(مرتفقا) اسم مفعول من الخماسيّ ارتفق بمعنى اتّكأ واعتمد ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين .

---

(1) يجوز أن تكون حالا من المهل في محلّ نصب .

البلاغة

1 - الطباق :

في قوله تعالى " بِالْغَداةِ . . . وَالْعَشِيِّ " .

2 - الاستعارة التصريحية :

في قوله تعالى " إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ نارا أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها " حيث شبه النار المحيط بهم من لهبها ، المنتشر منها في الجهات ، بالسرادق المضروب على من يحتويهم ، ثم أستعير له استعارة مصرحة ، والاضافة قرينة ، والاحاطة ترشيح .

3 - التشبيه المرسل :

في قوله تعالى " بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ " .

فقد شبه الماء الذي يعاقبون به أنه مثل المهل ، والمهل : ما أذيب من جواهر الأرض ويسمى مرسلا مفصلا ، لذكر الأداة ووجه الشبهة .

4 – التهكم :

في قوله تعالى "يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ " .

فقد سمى أعلى أنواع العذاب إغاثه ، والإغاثة هي الإنقاذ من العذاب ، تهكما بهم ، وتشفيا منهم .

(258/473)

والتهكم فن طريف من فنون البلاغة ، مأخوذ من تهكمت البئر إذا تهدمت ، أو من التهكم بمعنى الغضب الشديد ، أو الندم على أمر فائت فالبشارة فيه إنذار ، والوعد معه وعيد ، والإجلال للمخاطب المتهكم به تحقير وهذه الآية من أحسن شواهده ، إذ جعل الإغاثة ضد الإغاثة نفسها ، ففيه إلى جانب التهكم مشاكلة أيضا .

الفوائد

1 – تعريف لفظ " الدنيا " وتنكيرها :

القياس أن نذكر " الدنيا " معرفة بالألف واللام ، لأنها صفة على وزن " فعلى " فمن حقها المطابقة كما وردت في الآية المذكورة . ومع ذلك فقد استعملوها استعمال الأسماء ، فهم لا يكادون يذكرون معها الموصوف ، وأكثروا ذكرها مجردة من الألف واللام كسائر الأسماء ، كقول الشاعر :

وان دعوت إلى جلّى ومكرمة يوما سراة كرام الناس فادعينا

فأورد جلّى بدون تعريف ، وأجراها مجرى " دنيا " . فتبصّر . . . !

[سورة الكهف (18) : الآيات 30 إلى 31]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (30) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّهة بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (آمنوا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (عملوا) مثل آمنوا (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (إنّا) مثل إنّ ، و(نا) ، اسم إنّ (لا) نافية (نضيع) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (أجر) مفعول به منصوب (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه

(أحسن)

فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (عملا) مفعول به منصوب .

(259/473)

جملة : " إنّ الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " إنّا لا نضيع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الأوّل) بتقدير الرابط أي لا نضيع أجرهم . . . " 1 " .

وجملة : " لا نضيع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) .

وجملة : " أحسن عملا " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

31 - (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و(الكاف) للخطاب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (جنّات) مبتدأ مؤخّر مرفوع (عدن) مضاف إليه مجرور (تجري) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) " 2 " ، و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه

(الأنهار) فاعل مرفوع (يحلّون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . و(الواو) نائب الفاعل (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يحلّون) ، (من أساور) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحلّون) " 3 " ، وعلامة الجرّ الفتحة ممنوع من الصرف فهو على صيغة منتهى الجموع (من ذهب) جارّ ومجرور نعت لأساور (الواو) عاطفة (يلبسون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل (ثيابا) مفعول به منصوب (خضرا) نعت لـ (ثيابا) منصوب (من سندس) جارّ ومجرور نعت ثان لـ (ثيابا) ، (الواو) عاطفة (إستبرق)

---

(1) يجوز أن يكون الخبر مقدّرا أي سنجازيهم . . وجملة إنّا لا نضيع هي تعليل للخبر .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من الأنهار .

(3) أو هو نعت لمحذوف أي شيئا من أساور .

معطوف على سندس مجرور (متّكئين) حال من فاعل يلبسون منصوبة وعلامة النصب الياء (فيها) مثل الأول متعلّق بحالّ من الضمير في متّكئين (على الأرائك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (متّكئين) ، (نعم) فعل ماض لإنشاء المدح (الثواب) فاعل مرفوع ، والمخصوص

بالمدح محذوف تقديره هي أي الجنّة (الواو) عاطفة (حسنت مرتفقا) مثل ساءت مرتفقا " 1 " .

وجملة : " أولئك لهم جنّات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " لهم جنات . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (أولئك) .

وجملة : " يحلّون . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ (أولئك) " 3 " .

وجملة : " يلبسون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يحلّون .

وجملة : " نعم الثواب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حسنت مرتفقا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(يحلّون) فيه إعلال بالحذف ، أصله يحلّاون ، التقى ساكنان فحذفت ألف الفعل ، وفتح ما قبل الواو دلالة عليها ، وزنه يفعّون .

(أساور) ، جمع أسورة وهذا جمع سوار ، اسم جامد للحلية المعروفة وزنه فعال بكسر الفاء ، ووزن أسورة أفعلة – وهو من جموع القلّة – وزن أساور أفاعل .

(سندس) ، جمع سندسة ، وقيل ليس جمعا بل اسم لنوع من نسيج الديباج أو الحرير ، وزنه فعلل بضمّ الفاء و(اللام) الأولى .

(إستبرق) ، اسم لما غلظ من الديباج ، قيل هو عربيّ الأصل مشتقّ من

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون الجملة خبرا لـ (إنّ) الأول ، وما بينهما اعتراض .

(3) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من الضمير في (لهم) عامله الاستقرار . [. . . . .]

(261/473)

البريق فوزنه استفعل ، وقيل هو معرّب عن أعجميّ أصله استبره .

(متّكئين) ، جمع متّكئ ، اسم فاعل من اتّكأ الخماسيّ ، و(التاء) الأولى مبدلة من واو ، أصله موتكئ ، فلمّا جاءت الواو قبل تاء الافتعال قلبت تاء وأدغمت مع تاء الافتعال ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

(الأرائك) ، جمع أريكة ، اسم جامد للسرير يكون في الغرفة أو كلّ ما يتّكأ عليه ، وزنه فعيلة .

الفوائد

- ورد في هذه الآيات أنماط من فن البلاغة ما يدعونا إلى التنويه به ، ولو بذكر بعضه فقد أراد سبحانه " التهكم " بأهل النار ، فذكر بأنهم حينما يستغيثون يغاثون بماء كالمهل فما

رأيكم بهذا الضرب من الإغاثة. ومثل ذلك المشاكلة، في قوله تعالى، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً فقد شاكل قوله تعالى: وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً، علما أن الارتفاق لا يكون في شؤون البؤس والشقاء، وإنما يكون في مجال السعاد والهناءة. وقد ألمحنا إلى هذين الوجهين من بلاغة التنزيل، لما في هذه الآيات من روعة التعبير وفنون الأدب.

[سورة الكهف (18): الآيات 32 إلى 33]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اضرب) فعل أمر، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اضرب)، (مثلا) مفعول به

منصوب (رجلين) بدل من مثلا منصوب " 1 "، وعلامة النصب الياء (جعلنا) فعل ماض وفاعله (لأحدهما) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول ثان..

و(هما) ضمير مضاف إليه (جنّتين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (من أعناب) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لجنّتين (الواو) حاليّة (حففناهما) مثل جعلنا، و(هما) ضمير مفعول به (بنخل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (حففنا)، (الواو) عاطفة (جعلنا بينهما زرعا) مثل جعلنا لأحدهما جنتين، والظرف بين متعلّق بمحذوف مفعول ثان.

جملة : " اضرب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ نصب نعت لرجلين " 2 " .

وجملة : " حففناهما . . . " في محلّ نصب حال من جنّتين بتقدير (قد) .

وجملة : " جعلنا . . (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة حففناهما .

33 – (كلتا) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف لأنّه أضيف إلى ظاهر (الجنّتين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (آتت) فعل ماض ، و(التاء) للتأنيث ، وأفرد مراعاة للفظ كلتا ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي ، (أكلها) مفعول به منصوب . . و(ها) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (تظلم) مضارع مجزوم ، والفاعل هي ، (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تظلم) بتضمينه معنى تنقص ، والضمير يعود على الأكل (شيئًا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (فجرّنا) مثل جعلنا (خلالهما) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (فجّرنا) ، و(هما) ضمير مضاف إليه (نهرا) مفعول به منصوب .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا ثانيا لفعل (اضرب) بتضمينه معنى اجعل ، وهو على حذف مضاف أي مثل رجلين .

(2) يجوز أن تكون استئنافا بيانيّا فلا محلّ لها .

وجملة : "كلتا الجنّتين آتت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " آتت . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلتا) . .

وجملة : " لم تظلم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة آتت وجملة : " فجّرنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة آتت " 1 " .

الصرف :

(كلتا) ، اسم دالّ على التثنية ولفظه مفرد ويستعمل للتوكيد في المؤنث مضافا .

البلاغة

- التتميم والاحتراس والكناية :

في قوله تعالى " وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ " .

ففي هذا الكلام يحتمل أن تكون الجنتان مجرد اجتماع شجر متكاثف يستر بظل غصونه

الأرض ، كما تقتضيه الدلالة اللغوية على معنى الجنة ، ثم تمم ذلك أيضا بقوله " وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً " ، لئلا يتوهم أن الانتفاع قاصر على النخيل والأعناب ، ولتكون كل من الجنتين جامعة للأقوات والفواكه ، متواصلة العمار على الشكل الحسن والترتيب الأنيق . ثم تمم ذلك بقوله " وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً " للدلالة على ديمومة الانتفاع بهما ، فإن الماء هو سر الحياة . وإذن فقد استكمل هذا الرجل كل الملاذّ ، واستوفى ضروب النعم ثم تمم ذلك بقوله " كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها " لاستحضار الصورة التامة للانتفاع بالموارد ، واحترس بقوله " وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً " من أن يكون ثمة نقص في الأكل الذي آتته ، وليكون كناية عن تمام الجنتين ونموهما دائما وأبدا فقد استوفى وصف الجنتين الفنون الثلاثة جميعا .

---

(1) يجوز أن تكون حالا بتقدير (قد) في محلّ نصب .

[سورة الكهف (18) : الآيات 34 إلى 36]

وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر كان (ثمر) اسم كان مؤخّر مرفوع (الفاء) عاطفة (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (لصاحبه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال) ، و(الهاء) مضاف إليه (الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (يحاوره) مضارع مرفوع ، و(الهاء) مفعول به والفاعل هو (أنا) ضمير منفصل مبتدأ (أكثر) خبر مرفوع (من) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أكثر) (مالا) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (أعزّ نفرا) مثل أكثر مالا ومعطوف عليه .

جملة : "كان له ثمر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هو يحاوره . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يحاوره . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " أنا أكثر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

35 – (الواو) عاطفة (دخل) مثل قال (جنّته) مفعول به منصوب ، و(الهاء) مضاف إليه (الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (ظالم) خبر مرفوع (اللام) زائدة للتقوية " 1 " ، (نفسه) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لاسم الفاعل ظالم . .

و(الهاء) مضاف إليه (قال) مثل الأول (ما) نافية (أظنّ) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (أن) حرف مصدريّ ونصب (تبيد) مضارع منصوب ، (ها) للتنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع فاعل (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل تبيد .

والمصدر المؤوّل (أن تبيد) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّ " 2 " .

وجملة : " دخل جنّته . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان له ثمر .

وجملة : " هو ظالم . . . " في محلّ نصب حال من فاعل دخل .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما أظنّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تبيد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (أن) .

36 – (الواو) عاطفة (ما أظنّ) مثل الأولى (الساعة) مفعول به أوّل منصوب (قائمة) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (اللام) موّطئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (رددت) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . .

و(التاء) ضمير نائب الفاعل (إلى ربّي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رددت) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . و(الياء) مضاف إليه (اللام) لام القسم (أجدنّ) مضارع مبنيّ على الفتح . . و(النون) للتوكيد ، والفاعل أنا (خيرا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خيرا) ، (منقلبا) تمييز منصوب .

---

(1) أو حرف جرّ أصليّ متعلّق بظالم . . وأجاز الجمل تعليقه بحال من الضمير في ظالم أي هو ظالم قائلا لنفسه . .

(2) أو هو المفعول الأول ، والمفعول الثاني مقدّر أي أظنّ بيد هذه حاصلة .

(265/473)

وجملة : " ما أظنّ الساعة . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " رددت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ما أظنّ الساعة .

وجملة : " أجدنّ " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب الشرط .

الصرف :

(أعزّ) ، اسم تفضيل من عزّ الثلاثيّ وزنه أفعل .

(نفرا) ، اسم جمع بمعنى الجماعة من الرجال أو الرهط ، جمعه أنفار .

(منقلبا) ، اسم مكان من فعل انقلب الخماسيّ ، وزنه منفعل بضمّ الميم وفتح العين .

[سورة الكهف (18) : الآيات 37 إلى 41]

(266/473)

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً (37) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً (39) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41)

الإعراب :

(قال) فعل ماض (له) مثل السابق متعلّق بـ (قال)

(صاحبه) فاعل مرفوع . . و(الهاء) مضاف إليه (وهو يحاوره) مرّ إعرابها " 1 " ،

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (كفرت) فعل ماض وفاعله (الباء) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (كفرت) ، (خلقك) فعل ماض . . و(الكاف) مفعول به ، والفاعل هو وهو العائد (من تراب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلقك) ، (ثمّ) حرف عطف (من نطفة) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به الجارّ قبله فهو معطوف عليه (ثمّ) مثل الأول (سوّاك) مثل خلقك ، والبناء على الفتح المقدّر (رجلا) مفعول به ثان منصوب " 2 " .

جملة : " قال له صاحبه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو يحاوره . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يحاوره . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " كفرت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خلقك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " سوّاك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

38 - (لكن) حرف استدراك - ساكن النون - أنا - حذف الهمزة في الوصل وإثباتها في الوقف - ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (هو) ضمير الشأن مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ثان (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ ثالث " 3 " مرفوع (ربّي) خبر المبتدأ اللّه مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) نافية (أشرك) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (بربّي) جارّ

---

(1) في الآية (34) من هذه السورة .

(2) أو هو حال وإن كان غير منتقل ولا مشتقّ لأنه جاء بعد سواك إذا كان من الجائز أن يسوّيه غير رجل .

(3) يجوز أن يكون بدلا من الضمير هو - أو عطف بيان - على أن يكون الضمير عائدا على الكلام المتقدّم أي الذي خلقك .

ومجرور متعلّق بـ (أشرك) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . .

و(الياء) مضاف إليه (أحدا) مفعول به منصوب .

وجملة : " لكن أنا هو . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " هو اللّه ربّي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنا) .

وجملة : " اللّه ربّي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " لا أشرك . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة اللّه ربّي .

(268/473)

---

39 - (الواو) عاطفة (لولا) حرف تحضيض للتوبيخ (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (قلت) ، (دخلت) فعل ماض وفاعله (جنّتك) مفعول به منصوب . .

و(الكاف) مضاف إليه (قلت) مثل دخلت (ما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم " 1 " ، (شاء) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لا) نافية للجنس (قوّة) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (إلّا) أداة حصر (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر لا (إن) حرف شرط جازم (ترن) مضارع مجزوم فعل

الشرط ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير في محلّ نصب مفعول به (أنا) ضمير فصل " 2 " ، (أقلّ) مفعول به ثان منصوب (من) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أقلّ) (مالا) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (ولدا) معطوف على (مالا) منصوب .

وجملة : " دخلت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه

---

(1) أو اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر ، والجملة مقول القول ، وجملة شاء صلة الموصول .

(2) أو مستعار لمحلّ النصب توكيد للضمير المتّصل المحذوف في (ترني) ، ويجوز في (أقلّ) أن تكون حالا والرؤية بصريّة .

وجملة : " قلت . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف السابق بالواو قبل لولا .

وجملة : " ما شاء اللّه " في محلّ نصب مقول القول . . وجواب الشرط محذوف تقديره كان أو وقع .

وجملة : " لا قوّة إلّا باللّه " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " إن ترن . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول . . والجواب آت .

40 - (الفاء) رابطة لجواب الشرط (عسى) فعل ماض جامد ناقص (ربّي) اسم عسى مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) مضاف إليه (أن) حرف مصدريّ ونصب (يؤتين) مضارع منصوب . .

(270/473)

و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير في محلّ نصب مفعول به - محذوفة للتخفيف - (خيرا) مفعول به ثان منصوب (من جنّتك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خيرا) ، و(الكاف) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يؤتين . .) في محلّ نصب خبر عسى .

(الواو) عاطفة (يرسل) مضارع معطوف على يؤتي منصوب (على) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يرسل) " 1 " ، (حسبانا) مفعول به منصوب (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (حسبانا) ، (الفاء) عاطفة " 2 " (تصبح) مضارع ناقص - ناسخ - منصوب معطوف على يرسل ، واسمه ضمير

---

(1) الضمير في (عليها) يعود على الجنّة الخاصّة بالكافر ، أي يرسل على جنّتك حسبانا .

(2) أو فاء السببيّة ، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة بعدها ، والمصدر المؤوّل معطوف على مصدر متصيّد من الكلام السابق أي عسى إرسال حسبان عليها حاصلا فإصباحها صعيدا زلقا .

(271/473)

مستتر تقديره هي (صعيدا) خبر الناقص منصوب (زلقا) نعت لـ (صعيدا) منصوب .

وجملة : " عسى ربّي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط – إن ترن – وجملة : " يؤتيني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يرسل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤتين .

وجملة : " تصبح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل .

41 – (أو) حرف عطف (يصبح) مثل تصبح ومعطوف عليه (ماؤها) اسم يصبح مرفوع و(ها) مضاف إليه (غورا) خبر يصبح منصوب (الفاء) عاطفة (لن) حرف نفي ونصب (تستطيع) مضارع منصوب ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (طلبا) " 1 " .

وجملة : " يصبح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تصبح . .

وجملة : " لن تستطيع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصبح ماؤها . .

الصرف :

(أقلّ) ، اسم تفضيل من فعل قلّ الثلاثيّ ، وزنه أفعل ، وجاءت عينه ساكنة للتضعيف .

---

(1) أو متعلّق بحال من (طلبا) - نعت تقدّم على المنعوت - .

(حسبانا) ، هو إمّا مصدر حسب يحسب باب نصر بمعنى الحساب أي مقدارا قدّره اللّه وحسبه وهو الحكم بتخريبها - وقد مرّ في الآية (96) من سورة الأنعام - أو هو جمع حسبانة اسم للصاعقة ، وزنه فعلانة بضمّ الفاء ، وقيل هو اسم جنس وزنه فعلان بضمّ الفاء واحدته حسبانه .

(زلقا) ، صفة مشبّهة من زلق الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتحتين .

(غورا) ، مصدر غار ، جاء صفة بمعنى غائر مبالغة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(طلبا) ، مصدر سماعيّ للفعل طلب الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتحتين .

البلاغة

- المبالغة :

في قوله تعالى " أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً " .

حيث أطلق المصدر على اسم الفاعل في " غورا " أي غائر .

[سورة الكهف (18) : آية 42]

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (42)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أحيط) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بثمره) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أحيط) بتضمينه معنى فجع " 1 " ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أصبح) ماض ناقص ناسخ واسمه ضمير مستتر تقديره هو (يقلّب) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (كفّيه) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء . و(الهاء) مضاف إليه (على) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يقلّب) " 2 " بمعنى يندم (أنفق) ماض والفاعل هو (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنفق) ، (الواو) حاليّة (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ

---

(1) أو متعلّق بحال من نائب الفاعل أي مفجوعا بثمره . [. . . . .]

(2) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ ويجوز أن يتعلّق الجارّ بمحذوف حال أي متحسّرا .

(خاوية) خبر مرفوع (على عروشها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خاوية) . . و(ها) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يقول) مثل يقلّب (يا) للتنبيه (ليتني) حرف تمنّ ونصب ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير اسم ليت في محلّ نصب (لم) حرف نفي وجزم (أشرك) مضارع مجزوم ، والفاعل أنا (بربّي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أشرك) ، و(الياء) مضاف إليه (أحدا) مفعول به منصوب .

جملة : " أحيط . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أصبح . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يقلّب . . . " في محلّ نصب خبر أصبح .

وجملة : " أنفق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " هي خاوية . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (فيها) .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يقلّب .

وجملة : " ليتني لم أشرك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم أشرك . . . " في محلّ رفع خبر ليت .

البلاغة

- الكناية :

في قوله تعالى "يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" .

في الكلام كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله .

[سورة الكهف (18) : آية 43]

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (43)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لم) حرف نفي وجزم (تكن) مضارع

مجزوم (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (فئة) اسم تكن

مرفوع (ينصرونه) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل ، و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو)

عاطفة (ما) نافية (كان) ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (منتصرا) خبر كان

منصوب .

جملة : " لم تكن له فئة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينصرونه . . . " في محلّ رفع نعت لفئة .

وجملة : " ما كان منتصرا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 1 " ،

الصرف :

(منتصرا) ، اسم فاعل من فعل انتصر الخماسيّ ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة الكهف (18) : آية 44]

هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوابا وَخَيْرٌ عُقْبا (44)

الإعراب :

(هنالك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بخبر مقدّم " 2 " ، (الولاية) مبتدأ مؤخّر مرفوع " 3 " ، (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الولاية عامله الاستقرار (الحقّ) نعت للفظ الجلالة مجرور (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (خير) خبر مرفوع (ثوابا) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (خير) معطوف على الأول (عقبا) تمييز منصوب .

جملة : " هنالك الولاية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون حالا من ضمير الغائب في (ينصرونه) .

(2) يجوز أن يتعلّق بـ (منتصرا) ، والوقف عند الظرف .

(3) أو مبتدأ خبره الجارّ والمجرور للّه .

وجملة : " هو خير . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(عقبا) ، الاسم من عقب يعقب من بابي نصر وضرب بمعنى العاقبة والجزاء ، وزنه فعل بضمّ فسكون أو بضمّتين .

الفوائد

1 - مثل وحوار :

بعد أن طلب الله إلى نبيّه " أن يصبر نفسه " ضرب له مثلا " رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ " وقد اختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما فقيل :

إنها نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة ، زوج أم سلمة قبل النبي / صلّى اللّه عليه وسلّم / والآخر كافر ، وهو الأسود بن عبد الأسد وهما الأخوان المذكوران في سورة الصافات .

ورث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار ، فأنفق أحدهما ماله في سبيل اللّه ، وطلب من أخيه شيئا ، فقال له ما قال :

وقيل : هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر . . وقيل : هما رجلان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن ، والثاني كافر اسم المؤمن " تمليخا " واسم الكافر " قرطوش " وقد كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل منهما ثلاثة آلاف دينار فاشترى المؤمن عبيدا بألف وأعتقهم ، واشترى ثيابا بألف فكسا العراة ، واشترى طعاما بألف فأطعم الجياع ، وبنى مساجد ، وفعل خيرا أما الكافر فنكح نساء ذات يسار ، واشترى دوابا وبقرا واستنتجها فنمت له نماء مفرطا ، حتى فاق أهل زمانه غنى .

وأدركت المؤمن الحاجة ، فقال : لو أذهب إلى أخي ، فأعمل حارسا في احدى جنانه ، ولكن الكافر ردّه ردّا شنيعا وحرمه وأعلن كفره وجحوده .

ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره اللّه من الإحاطة بثمره ، وذهاب أصول أشجارها ، بما أرسل عليها من السماء من الحسبان .

وقد ضرب اللّه هذا المثل ، مشفوعا بالحوار الذي أضفى على القصة بهاء ورونقا وعذوبة وإشراقا وسحرا .

2 - كلا وكلتا :

هما لفظان يعربان اعراب المثنى ، بشرط إضافتهما إلى ضمير . فإذا أضيفا إلى الاسم الظاهر ، أعربا اعراب الاسم المقصور ، بحركات مقدرة على الألف . ولفظاهما مفرد ، ومعناهما مثنى ، ولذلك يجوز الاخبار عنهما بضمير المفرد وضمير المثنى ، نحو :

كلاهما حين جدّ الجدّ بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي

إلا أن مراعاة اللفظ أرجح ، وبه جاء القرآن الكريم في الآيات التي نحن بصددها ، قوله تعالى "كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها " فقد ورد الإخبار عنهما بالإفراد .

[سورة الكهف (18) : آية 45]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45)

الإعراب :

(276/473)

(الواو) استئنافيّة (اضرب لهم مثل) مرّ إعرابها " 1 " ، (الحياة) مضاف إليه مجرور (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدرة على الألف (كماء) جارّ ومجرور متعلّق بمفعول به ثان عامله اضرب بمعنى اجعل " 2 "

---

(1) في الآية (32) من هذه السورة .

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف أي هو كماء . . والجملة في محلّ نصب حال من مثل ، والفعل بمعنى فعل متعدّ لواحد مثل اذكر . .

(أنزلناه) فعل ماض وفاعله ومفعوله (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزلناه) ، (الفاء) عاطفة (اختلط) فعل ماض (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اختلط) ، (نبات) فاعل مرفوع (الأرض) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة (أصبح) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي النبات (هشيما) خبر أصبح منصوب (تذروه) مضارع مرفوع (الرياح) فاعل مرفوع . . و(الهاء) في (تذروه) ضمير مفعول به (الواو) استئنافيّة (كان) مثل أصبح (اللّه) لفظ الجلالة اسم كان (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مقتدرا) وهو خبر كان منصوب .

جملة : " اضرب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزلناه . . . " في محلّ جرّ نعت لـ (ماء) .

وجملة : " اختلط . . نبات . . . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أنزلناه .

وجملة : " أصبح . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة اختلط .

وجملة : " تذروه الرياح . . . " في محلّ نصب نعت لـ (هشيما) .

وجملة : " كان اللّه . . . مقتدرا " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(هشيما) ، اسم جامد ، هو فعيل بمعنى مفعول ، اسم جمع واحدته هشيمة .

(مقتدرا) ، اسم فاعل من فعل اقتدر الخماسيّ ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

- التشبيه التمثيلي المقلوب :

في قوله تعالى " وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ

(278/473)

نَباتُ الْأَرْضِ "

.

شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء ، بحال النبات يكون أخضر ناضرا شديد الخضرة ، ثم ييبس ويجف ويذبل ، ثم يصبح هشيما فتطيره الرياح كأن لم يكن .

وهو تشبيه مقلوب ، لأنه كان الظاهر في هذا المعنى أن يقول : فاختلط بنبات الأرض ، لأن المعروف في عرف اللغة والاستعمال دخول الباء على الكثير غير الطارئ ، وإن صدق

بحسب الوضع على كل من المتداخلين أنه مختلط ومختلط به ، إلا أنه اختير ما في النظم الكريم للمبالغة في كثرة الماء ، حتى كأنه الأصل الكثير .

[سورة الكهف (18) : الآيات 46 إلى 49]

الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48) وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49)

الإعراب :

(المال) مبتدأ مرفوع (البنون) معطوف على المال بالواو وعلامة الرفع الواو (زينة) خبر مرفوع (الحياة) مضاف إليه مجرور (الدنيا) مثل السابق " 1 " ، (الواو) عاطفة (الباقيات) مبتدأ مرفوع (الصالحات) نعت للباقيات مرفوع (خير) خبر مرفوع (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (خير) (ربّك) مضاف إليه مجرور . . و(الكاف) ضمير مضاف إليه (ثوابا وخير أملا) مرّ إعراب نظيرها " 2 " .

جملة : " المال . . زينة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الباقيات . . خير . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

47 - (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 3 " ، (نسيّر) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (الجبال) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (ترى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل أنت (الأرض) مفعول به منصوب (بارزة) حال منصوب (الواو) حاليّة (حشرناهم) فعل ماض وفاعله ، و(هم) ضمير مفعول به (الفاء) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (نغادر) مضارع مجزوم ، والفاعل نحن للتعظيم (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من (أحدا) وهو مفعول به منصوب .

وجملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نسيّر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) في الآية السابقة (45) .

(2) في الآية (44) من هذه السورة .

(3) أو هو معطوف على الظرف (عند ربّك) ، فيتعلّق بما تعلّق به .

وجملة : " ترى . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نسيّر .

وجملة : " حشرناهم " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " نغادر . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة حشرناهم .

48 – (الواو) عاطفة (عرضوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، و(الواو) نائب الفاعل (على ربّك) جارّ ومجرور متعلّق بفعل عرضوا . . و(الكاف) مضاف إليه (صفّا) حال منصوبة من نائب الفاعل " 1 " ، (اللام) واقعة في جواب قسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (جئتم) فعل ماض وفاعله و(الواو) زائدة إشباع حركة الميم و(نا) ضمير مفعول به (الكاف) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (خلقنا) مثل جئتم . . و(كم) ضمير مفعول به (أوّل) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر فهو صفته أي خلقناكم خلقا أوّل .

والمصدر المؤوّل (ما خلقناكم . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله جئتمونا . . أي بعثناكم بعثنا كإنشائنا لكم أوّل مرّة .

(بل) حرف للإضراب الانتقالي (زعمتم) مثل جئتم (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (لن) حرف نفي ونصب (نجعل) مضارع منصوب ، والفاعل نحن للتعظيم (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (موعدا) مفعول به أوّل منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن لن نجعل . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي زعمتم .

وجملة : " عرضوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نسيّر .

---

(1) وهو في الأصل مصدر على تأويل مشتقّ أي مصطفّين ، وإمّا على حذف مؤكّده أي صفّا صفّا .

(280/473)

وجملة : " جئتمونا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " زعمتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لن نجعل . . . " في محلّ رفع خبر أن – المخفّفة – .

49 – (الواو) عاطفة (وضع) فعل ماض مبنيّ للمجهول (الكتاب) نائب الفاعل مرفوع (الفاء) عاطفة (ترى) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل أنت (المجرمين) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء (مشفقين) حال منصوبة ، وعلامة النصب الياء (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (مشفقين) ، (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (يقولون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (يا) حرف نداء وتحسّر (ويلتنا) منادى متحسّر به مضاف منصوب . . و(نا) مضاف إليه (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ

رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و(ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الكتاب) بدل من ذا - أو عطف بيان - مجرور (لا) نافية (يغادر) مضارع مرفوع، والفاعل هو (صغيرة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (كبيرة) معطوف على صغيرة منصوب و(لا) زائدة لتأكيد النفي (إلّا) للحصر (أحصاها) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر . .

(281/473)

و(ها) ضمير مفعول به، والفاعل هو أي الكتاب (الواو) حاليّة (وجدوا) فعل ماض وفاعله (ما) حرف مصدريّ " 1 " (عملوا) مثل وجدوا (حاضرا) مفعول به ثان منصوب عامله (وجدوا) .

والمصدر المؤوّل (ما عملوا . .) في محلّ نصب مفعول به أوّل .

---

(1) أو اسم موصول مبنيّ مفعول به، والعائد محذوف أي عملوه، والجملة صلة .

(282/473)

(الواو) استئنافيّة (لا) نافية (يظلم) مثل يغادر (ربّك) فاعل مرفوع . .

و(الكاف) مضاف إليه (أحدا) مفعول به منصوب .

وجملة : " وضع الكتاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة زعمتم . .

وجملة : " ترى المجرمين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وضع الكتاب .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ نصب معطوفة على الحال (مشفقين) .

وجملة : " التحسّر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما لهذا الكتاب . . . " لا محلّ لها جواب التحسّر .

وجملة : " لا يغادر . . . " في محلّ نصب حال من الكتاب .

وجملة : " أحصاها . . . " في محلّ نصب نعت لصغيرة وكبيرة " 1 " .

وجملة : " وجدوا . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يقولون بتقدير (قد) " 2 " .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " لا يظلم ربّك . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ .

الصرف :

(بارزة) ، مؤنّث بارز ، اسم فاعل من برز الثلاثيّ ، على وزن فاعل .

(صفّا) ، مصدر سماعيّ لفعل صفّ الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(مشفقين) ، جمع مشفق ، اسم فاعل من فعل أشفق الرباعيّ ، وزن مفعل بضمّ الميم وكسر

العين .

(حاضرا) ، اسم فاعل من الثلاثيّ حضر وزنه فاعل .

---

(1) أو هي مفعول به ثان لفعل يغادر – بمعنى يترك – الذي يتعدّى لمفعولين .

(2) يجوز أن تكون مقطوعة على الاستئناف فلا محلّ لها .

(283/473)

البلاغة

1 – فن الجمع في قوله تعالى " الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا " .

وهذا الفن هو : أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم واحد ، وهذا الذي هو واضح في الآية الكريمة ، حيث جمع المال والبنون في حكم واحد ، وهو زينة الحياة الدنيا .

2 – الاستعارة المكنية التخييلية :

في قوله تعالى : " يا وَيْلَتَنا " .

نداء لهلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات ، فإن الويلة كالويل الهلاك ، ونداؤها على تشبيهها بشخص يطلب إقباله ، كأنه قيل : يا هلاك أقبل فهذا أوانك .

3 – استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات :

في قوله تعالى " مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها " .

فإن وجود المؤاخذة على الصغيرة ، يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة فكان الظاهر لا يغادر كبيرة ولا صغيرة ، بناء على ما قالوا من أن الترقي في الإثبات يكون من الأدنى إلى الأعلى ، وفي النفي على عكس ذلك ، إذ لا يلزم من فعل الأدنى فعل الأعلى ، بخلاف النفي . لكن قال المحققون : هذا إذا كان على ظاهره ، فإن كان كناية عن العموم كما هنا - وقولك ما أعطاني قليلا ولا كثيرا - جاز تقديم الأدنى على الأعلى في النفي .

[سورة الكهف (18) : آية 50]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (50)

الإعراب :

(284/473)

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قلنا) فعل ماض وفاعله (للملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قلنا) ، (اسجدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (لآدم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اسجدوا) ، وعلامة

الجرّ الفتحة (الفاء) عاطفة (سجدوا) فعل ماض وفاعل (إلّا) أداة استثناء (إبليس) مستثنى منصوب " 1 " ، (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من الجنّ) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كان (الفاء) عاطفة (فسق) فعل ماض ، والفاعل هو (عن أمر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فسق) بتضمينه معنى خرج عن الطاعة (ربّه) مضاف إليه مجرور . و(الهاء) مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة – أو عاطفة – (تتّخذون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (ذرّيته) معطوف على الضمير الغائب المفعول . . و(الهاء) مضاف إليه (أولياء) مفعول به ثان منصوب (من دوني) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لأولياء (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من (عدوّ) " 2 " ، وهو خبر المبتدأ ، مرفوع (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (للظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (بدلا) " 3 " ، وهو تمييز للضمير الفاعل منصوب ، والمخصوص بالذمّ

---

(1) على الاستثناء المنقطع أو المتّصل بحسب علاقة إبليس بالملائكة وجنسيهما .

[. . . . .]

(2) أو متعلّق بعدوّ.

(3) أو متعلّق بـ (بدلا).

(285/473)

محذوف تقديره هو أي إبليس.

جملة: " (اذكر) إذ قلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " قلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة: " اسجدوا . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " سجدوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قلنا وجملة: " كان من الجنّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: " فسق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان من الجنّ وجملة: " تتّخذونه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " وجملة: " وهم لكم عدوّ . . . " في محلّ نصب حال وجملة: " بئس للظالمين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(بدلا)، الاسم من بدل يبدل باب نصر، وهو العوض أو الخلف بمعنى البديل، وزنه فعل بفتحتين. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 15 صـ 137. 206﴾

(286/473)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(18) سورة الكهف

مكية وآياتها عشر ومائة

[سورة الكهف (18) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (4)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (5) فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (6) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7) وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8)

اللغة :

(عِوَجاً) : جاء في القاموس وغيره من معاجم اللغة : عوج بكسر الواو يعوج بفتحها عوجا العود ونحوه انحنى ، والإنسان ساء خلقه فهو أعوج والعوج بكسر ففتح الاسم من عوج والالتواء وعدم الاستقامة ولم تفرق هذه المعاجم بينهما وفي الأساس : " يقال في العود عوج

وفي الرأي عوج " ففرق بينهما وهذا هو الحق بدليل الآية .

فالعوج بكسر ففتح في المعاني كالعوج بفتحتين في الأعيان ، وقال الشهاب في حاشيته على البيضاوي : " يعني أن المكسور يكون فيما لا يدرك بالبصر بل بالبصيرة والمفتوح فيما يدرك به " وقال في الكشاف : والعوج بكسر ففتح في المعاني كالعوج بفتحتين في الأعيان .

وسيأتي المزيد عنه في باب البلاغة .

)

(287/473)

قَيِّماً) : مستقيما معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط أو قيما بمصالح العباد فيكون وصفا للكتاب بالتكميل بعد وصفه بالكمال أو قيما على الكتب السابقة مصدقا لها شاهدا بصحتها وفي القاموس والتاج واللسان : القيم على الأمر متوليه كقيم الوقف وغيره وقيم المرأة زوجها وأمر قيم مستقيم والديانة القيمة : المستقيمة وفي التنزيل " ذلك دين القيمة " أي دين الأمة القيمة ويتعدى بالباء وبعلى .

(باخِعٌ نَفْسَكَ) : مهلكها وقاتلها يقال : بخع الرجل نفسه يبخعها من باب نفع بخعا وبخوعا أهلكها وجدا وسيأتي مزيد بيان لها في باب البلاغة .

(صَعِيداً) : ترابا أو فتاتا يضمحل بالريح لا اليابس الذي يرسب .

(جُرُزاً) بضمتين والجرز الذي لا نبات فيه فهو حائل البهجة باطل الزينة يقال سنة جرز وسنون أجراز وجرز الجراد الأرض : أكل ما فيها والجروز المرأة الأكول قال الراجز :

إن العجوز حية جروزا تأكل كل ليلة فقيزا

وجرزه الزمان اجتاحه . قال تبع :

لا تسقني بيديك إن لم ألقها جرزا كأن أشاءها مجروز

وفي أمثال العرب : "لن ترضى شانئة إلا بجرزة" وهو يضرب في العداوة وان المبغض لا يرضى إلا باستئصال من يبغضه .

الاعراب :

)

(288/473)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً) الحمد مبتدأ ولله متعلقان بمحذوف تقديره ثابت لله فهو الخبر والذي نعت وجملة أنزل صلة وعلى عبده متعلقان بأنزل والكتاب مفعول به والواو يجوز أن تكون عاطفة فالجملة معطوفة على أنزل داخلة في

حيز الصلة ويجوز أن تكون اعتراضية فالجملة معترضة بين الحال وهي قيما وصاحبها وهو الكتاب ويجوز أن تكون حالية فالجملة حال من الكتاب فتكون قيما حالا متداخلة كما سيأتي . (قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ) اضطربت أقوال النحاة والمفسرين في اعراب قيما اضطرابا شديدا وقد وقع اختيارنا على أن تكون حالا من الكتاب وجملة ولم يجعل معترضة واختار أبو البقاء أن تكون حالا من الهاء في له والحال مؤكدة واختار الزمخشري أن تكون منصوبة بفعل مقدر

تقديره جعله قيما وننقل عبارته لأهميتها : " فإن قلت بم انتصب قيما ؟

قلت : الأحسن أن ينتصب بمضمر ولا يجعل حالا من الكتاب لأن قوله ولم يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة ، وتقديره ولم يجعل له عوجا جعله قيما لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة " وقد فطن حفص إلى هذا الاضطراب في إعراب قيما فوقف على تنوين عوجا مبدلا له ألفا سكتة لطيفة من غير قطع نفس إشعارا بأن قيما ليس متصلا بعوجا وإنما هو من صفة الكتاب . وصرح أبو حيان في البحر بأن المفرد يبدل من الجملة كقوله تعالى " ولم يجعل له عوجا قيما " فقيما بدل من جملة ولم يجعل له عوجا لأنها في معنى المفرد أي جعله مستقيما . وهناك أعاريب أخرى ضربنا عنها صفحا لأنها لا تخرج عن هذا النطاق .

و لينذر اللام للتعليل وينذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بأنزل وينذر ينصب مفعولين وحذف أولهما وتقديره الكافرين وبأسا مفعول به ثان وشديدا صفة ومن لدنه صفة ثانية أو متعلقان بقوله لينذر . (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً) ويبشر عطف على لينذر والفاعل مستتر تقديره هو والمؤمنين مفعول به وجملة يعملون الصالحات صلة وأن وما في حيزها قيل هو مصدر مؤول مفعول به ثان ليبشر على رأي من يرى أن يبشر تتعدى لمفعولين وقيل هو مصدر مؤول منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بيبشر ولهم خبر ان المقدم وأجرا اسمها المؤخر وماكثين حال من الهاء في لهم أي مقيمين فيه وفيه متعلقان بماكثين وأبدا ظرف متعلق بماكثين أيضا . (وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً)

(290/473)

وينذر عطف على لينذر الأولى والذين مفعول ينذر الأول وحذف الثاني وهو الغرض المنذر به لأنه سبق ذكره وهو البأس فيكون في الكلام احتباك وجملة قالوا صلة وجملة اتخذ مقول القول والله فاعل وولدا مفعول به . (ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ) جملة مستأنفة

مسوقة لتقرير جهالتهم وانهم يقولون مالا يعرفون وما نافية ولهم خبر مقدم وبه متعلقان بعلم ومن حرف جر زائد وعلم مبتدأ مؤخر ولا الواو عاطفة ولا نافية ولآبائهم عطف على لهم . (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً) كبرت فعل ماض لانشاء الذم والتاء علامة التأنيث والفاعل ضمير مستتر يعود على مقالتهم المختلقة وهي قولهم اتخذ اللّه ولدا أي كبرت مقالتهم وكلمة تمييز والكلام مبني على أسلوب التعجب كأنه قيل : ما أكبرها كلمة وجملة تخرج نعت لكلمة ومن أفواههم متعلقان بتخرج ويجوز أن يكون الفاعل ضميرا مفسرا بنكرة وهي كلمة المنصوبة على التمييز فيكون الكلام للذم المحض ويكون المخصوص بالذم محذوفا تقديره هي أي الكلمة وكلا الوجهين مستقيم سائغ ، وإن نافية ويقولون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل وإلا أداة حصر وكذبا فيه وجهان أظهرهما أنه نعت لمصدر محذوف أي إلا قولا كذبا ، ويجوز أن يكون مفعولا به لأنه يتضمن جملة وعليه يتمشى قول دعبل :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم اللّه يعلم اني لم أقل فندا

إني لأغمض عيني ثم أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

(فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) الفاء استئنافية ولعل حرف ترج ونصب وهي من أخوات ان والكاف اسمها وباخع خبرها ونفسك مفعول به وعلى آثارهم متعلقان بباخع

و سيأتي مزيد بيان عنه في باب البلاغة وإن شرطية ولم يؤمنوا فعل الشرط وبهذا متعلقان بيؤمنوا والحديث بدل من اسم الاشارة وأسفا مفعول لأجله أو على انه مصدر في موقع الحال وجواب الشرط محذوف دل عليه الترجي والتقدير فلا تحزن ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

(إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ان واسمها والجملة تعليل للنهي المقصود من الترجي وجملة جعلنا خبر إنا وما موصول مفعول به أول لجعلنا إن كانت بمعنى التصيير وعلى الأرض صلة ما وزينة مفعول به ثان لجعلنا وان كانت بمعنى خلقنا فتكون زينة حالا ومن العجيب أن يعربها بعضهم مفعولا لأجله مع أن الزينة ليست من المصادر القلبية مهما أسرفنا في التأويل ، ولها صفة لزينة ولنبلوهم اللام للتعليل ونبلوهم منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بجعلنا وأيهم اسم استفهام مبتدأ والهاء مضاف إليه وأحسن خبر وعملا تمييز والجملة في محل نصب سادة مسد مفعولي نبلو لأنه في معنى نعلم وقد علق عن العمل بأي الاستفهامية ويجوز أن تكون أي موصولة بمعنى الذي وتعرب بدلا من الهاء في نبلوهم ، والتقدير : لنبلو الذي هو أحسن ،

وأحسن خبر لمبتدأ محذوف أي هو أحسن والجملة صلة للموصول وتكون الضمة في أي للبناء لأن شرطه موجود وهو أن تضاف ويحذف صدر صلتها أو تكون ضمتها ضمة إعراب على رأي بعض النحاة والضمير في نبلوهم يعود على سكان الأرض كما يفهم من سياق الكلام أو على ما ولكنه بعيد لأنه يحتاج إلى تأويل ما بأنها خاصة بالعقلاء . (وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وجاعلون خبرها وما مفعول به ثان لجاعلون وعليها صلة وصعيدا مفعول به ثان لجاعلون وجرزا نعت لصعيدا ويجوز اعتبار الكلمتين بمعنى واحد نحو الرمان حلو حامض أي مز ، فهما

بمثابة المفعول الثاني ولعله أولى وسيأتي تحقيقه في موضعه من هذا الكتاب .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على أفانين متعددة من فنون البلاغة نذكرها فيما يلي :

1 - التكرير :

1 - التكرير وقد تقدم ذكره في قوله تعالى " ولم يجعل له عوجا قيما " فإن نفي العوج معناه إثبات الاستقامة وإنما جنح إلى التكرير لفائدة منقطعة النظير وهي التأكيد والبيان ، فرب

مستقيم مشهود له بالاستقامة ، مجمع على استقامته ومع ذلك فإن الفاحص المدقق قد يجد له أدنى عوج فلما أثبت له الاستقامة أزال شبهة بقاء ذلك الأدنى الذي يدق على النظرة السطحية الاولى .

2- المطابقة :

فقد طابق سبحانه بين العوج والاستقامة فجاء الكلام حسنا لا مجال فيه لمنتقد كما حدث لأبي الطيب الذي أهمل المطابقة في قصيدة من أبدع قصائده وذلك انه أنشد في مجلس سيف الدولة قوله :

نظرت إلى الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم في محال

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فقيل له : إن المحال لا يطابق الاستقامة ولكن القافية ألجأتك إلى ذلك ولكن لو فرض أنك قلت : كأنك مستقيم في اعوجاج كيف كنت تصنع في البيت الثاني ؟ فقال ولم يتوقف : " فإن البيض بعض دم الدجاج " فاستحسن هذا من بديهته .

نقول : إنما يستحسن هذا في سرعة البديهة وإلا أين قوله : فإن المسك بعض دم الغزال من قوله : فإن المسك بعض دم الدجاج .

ولما كنا نريد أن ننصف النقد نورد ما أخذه أحد خصوم المتنبي عليه من أنه كان لا يقيم للمطابقة وزنا وان ديدنه عدمها وذلك رغم إعجابنا الشديد بشاعر الخلود وتفضيلنا إياه

على جميع شعراء العربية في القديم والحديث ، قال الناقد القديم :

وأما عدم المطابقة في شعر أبي الطيب المتنبي فكثير جدا من ذلك قوله :

ولكل عين قرة في قربه حتى كأن مغيبه الأقذاء

القرة ضدها السخنة والاقذاء ليست ضدها وقوله أيضا :

ولم يعظم لنقص كان فيه ولم يزل الأمير ولن يزالا

(293/473)

العظم ضد الحقارة والنقص ضد الكمال فلو قال : ولم يكمل لنقص كان فيه ، لكان أمنع .

وكذلك قوله رغم سموه وابداعه :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو اساءة مجرم

وليس المجرم ضد المحب ولا السرور ضد الإساءة وإنما المجرم ضد المحسن والمحب ضد المبغض والاساءة ضد الإحسان .

وكذا قوله :

وانه المشير عليك فيّ بضدّه فالحر ممتحن بأولاد الزنا

والحرّ ضد اللئيم .

3- نفي الشيء بايجابه :

وذلك في قوله تعالى " وقالوا اتخذ اللّه ولدا ما لهم به من علم " وقد تقدم ذكر هذا الفن وله تسمية أخرى وهي عكس الظاهر وهو من مستطرفات علم البيان وذلك أن تذكر كلاما يدل ظاهره على أنه نفي لصفة موصوف وهو نفي للموصوف أصلا فإن لقائل أن يقول : ان اتخاذ اللّه ولدا هو في حد ذاته محال فكيف ساغ قوله " ما لهم به من علم " ؟

وهو يشبه الاعتراض في قوله تعالى " وان تشركوا باللّه ما لم ينزل به سلطانا " فإن ذلك كله وارد على سبيل التهكم وإلا فلا سلطان على الشرك حتى ينزل ، والولد في حد ذاته محال لا يستقيم تعلق العلم ولكنه ورد على سبيل التهكم والاستهزاء بهم ، ونظيره كما تقدم قوله صلى اللّه عليه وسلم : " لا تثنى فلتاته " أي لا تذاع سقطاته وليس ثمة فلتات فتثنى وقول الشاعر يصف فلاة :

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضبّ بها ينجحر

فإن ظاهر هذا المعنى أنه كان هناك ضب ولكنه غير منجحر وليس ذلك كذلك بل المعنى انه لم يكن ثمة ضب أصلا .

4- التشبيه التمثيلي البليغ المصون عن الابتذال :

وذلك في قوله تعالى " فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " فقد شبهه تعالى وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وأصروا على المكابرة والعناد واللجاج بالسفسطة الباطلة ثم ما تداخله من جراء ذلك من وجد وأسف على توليهم وإشفاق عليهم لسوء المغاب التي تؤول إليها أمورهم . شبه ذلك سبحانه برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم وأتى بهذه الصورة الفريدة صيانة لتشبيهه من الابتذال فإن التلهف على فراق الأحبة ، واستشعار الوجد أمر شائع تناوله الشعراء في أشعارهم ، وتحدثوا في قصائدهم عن لواعجهم ، وهذا مقياس يقاس به البليغ يترفع في تشبيهه المألوف عن العادي من التشبيه بتزاويقه وتحاسينه ويفيض عليه من روائه وكان المتنبي ، بنوع خاص ، يتفطن لذلك ويصون تشبيهه الذي لا مندوحة له عنه من الابتذال وسنورد لك نماذج من شعره لتعلم إلى أي مدى بلغ هذا الشاعر الخالد .

فقد صور أبو الطيب موقفا من مواقف الغزل اضطر فيه إلى تشبيه نفسه بالميت المتكلم ومحبوبته بالبدر المبتسم وكلا هذين التشبيهين وارد تناولته الشعراء فابتذل وذهبت جدته وإذن فليجعل من الحوار وسيلة إلى تصوير موقف رائع يحلو فيه التشبيه ويبدو معه جديدا كل الجدة قال :

نرى عظما بالبين والصد أعظم ونتهم الواشين والدمع منهم

ومن لبّه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم

ولما التقينا والنوى ورقيبنا غفولان عنا ظلت أبكي و

تبسم فلم أر بدرا ضاحكا قبل وجهها ولم تر قبلي ميتا يتكلم

(295/473)

فهو بعد أن قرر أثر الصدّ وأن مسافته لا تقرب ولا تقطع لأن البين قد يقرب وقد تقطع مسافته اعترف بأنه غير قادر على كتمان رسيس هواه لأنه إذا كان عقلك مع غيرك فكيف يكون حالك ؟ وإذا كان سرك في جفنك فكيف تقدر على كتمانه ؟ يريد أن الدمع يظهره ثم صور الموقف فجعل حسناءه عابثة ازدهاها الدّل ، واستخف بها النعيم ، فهي عابثة لاهية تبتسم وهو يحرق الأرم ، ويتكوى بنار الهجران على حد قولهم " ويل للشجي من الخلي " وهذا من أروع الشعر وأعذبه .

ونعود إلى الآية فنقول ان اللّه تعالى أراد أن يسلي نبيه وأن يهدهد عنه ما ألم به من جوى وارتماض فعرض الموقف بصيغة الترجي وان كان المراد به النهي أي لا تبخع نفسك ولا تهلكها من أجل غمك على عدم إيمانهم وأتى بهذا التشبيه التمثيلي البديع والأسف

المبالغة في الحزن .

الفوائد :

1- نصب المفعول لأجله :

اشترط النحاة لنصب المفعول لأجله خمسة أمور وهي :

1- كونه مصدرا .

2- كونه قلبيا من أفعال النفس الباطنة كالتعظيم والاحترام والإجلال والتحقير والخشية والخوف والجرأة والرغبة والرهبة

والحياء والوقاحة والشفقة والعلم والجهل ونحوها ويقابل أفعال الجوارح أي الحواس الظاهرة وما يتصل به كالقراءة والكتابة والقيام والقعود والوقوف والجلوس والمشي والنوم واليقظة وغيرها وذلك لأن العلة هي الحاملة على إيجاد الفعل والحامل على الشيء متقدم عليه وأفعال الجوارح ليست كذلك .

3- كونه علة لأنه الباعث على الفعل .

4- اتحاده مع الفعل المعلل به في الزمان فلا يجوز : تأهبت اليوم السفر غدا لأن زمن التأهب غير زمن السفر .

5- اتحاده مع الفعل المعلل به في الفاعل فلا يجوز : جئتك محبتك إياي لأن فاعل المجيء المتكلم وفاعل المحبة المخاطب .

ومتى فقد شرطا من هذه الشروط وجب جره بحرف تعليل كاللام ومن والباء وفي ، وفيما يلي أمثلة لكل شرط مفقود :

(296/473)

1- " والأرض وضعها للأنام " فالأنام علة للوضع ولكنه ليس مصدرا فلذلك جر باللام .

2- " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق " فإملاق هو علة القتل ولكنه ليس مصدرا قلبيا فلذلك جر بمن .

3- قتلته صبرا ، فصبرا مصدرا ولكنه ليس علة فامتنع نصبه مفعولا لأجله وامتنع جره باللام لأن اللام تفيد العلية .

4- قول امرئ القيس :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

فالنوم وإن كان علة لخلع الثياب لكن وقت الخلع سابق على وقت النوم فلذلك جر باللام ، هذا والنوم ليس مصدرا قلبيا أيضا ففي الاستشهاد به على عدم اتحاد الزمن فقط تسامح .

5- قول أبي صخر الهذلي :

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلّله القطر

فالذكرى علة عن الهزة ففاعل العرو الهزة وفاعل الذكرى هو المتكلم فلذلك جر باللام .

ونعود إلى الآية فقوله " زينة لها " علة للجعل ولكنه ليس قلبيا لأنها من اعمال اليد ، فلذلك استغربنا اعراب بعضهم لها مفعولا لأجله إلا بتقدير فعل الإرادة أي إرادة الزينة ولكن هذا التكلف لا يجوز وفيه مندوحة باعرابها مفعولا ثانيا لجعلنا كما تقدم أو حالا .

ابدال المفرد من الجملة :

قلنا في الاعراب ان أبا حيان اختار اعراب قيما بدلا من جملة لم يجعل لها عوجا لأنها في معنى المفرد . وأقول ان النحاة صرحوا بابدال الجملة من المفرد بدل كل كقول الفرزدق :

إلى اللّه أشكو بالمدينة حاجة وبالشام أخرى كيف يلتقيان

أبدل جملة كيف يلتقيان من حاجة وأخرى وهما مفردان وانما صح ذلك لرجوع الضمير إلى مفرد فهل يجوز العكس ؟ ومعنى البيت إلى اللّه أشكو هاتين الحالين تعذر التقائهما فتعذر مصدر مضاف إلى فاعله وهو بدل من هاتين قال الدماميني ويحتمل أن يكون كيف يلتقيان جملة مستأنفة نبه بها على سبب الشكوى وهو استبعاد اجتماع

هاتين الحاجتين والشام بلاد سميت بشام بن نوح فإنه بالشين المعجمة بالسريانية أو لأن أرضها شامات بيض وحمر وسود وعلى هذا لا يهمز وقد يذكر ، كذا في القاموس .

[سورة الكهف (18) : الآيات 9 إلى 12]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (10) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (12)

اللغة :

(الْكَهْفِ) الغار في الجبل قيل : مطلق الغار وقيل : هو ما اتسع في الجبل فإن لم يتسع فهو غار والجمع كهوف وفي القاموس : " الكهف هو كالبيت المنقور في الجبل فاذا صغر فهو الغار ، الملجأ والجمع كهوف " وفي الأساس : " لجئوا إلى كهف والى كهوف وهي الغيران وتكهّف الجبل : صارت فيه كهوف ومن المجاز فلان كهف قومه :

ملجؤهم وتقول : أولئك معاقلهم وكهوفهم " .

(الرَّقِيمِ) في القاموس : الرقيم : الكتاب ، المرقوم ورقم يرقم من باب نصر الكتاب بينه وأعجمه بوضع النقط والحركات وغير ذلك ورقم الثوب خططه والبعير : كواه ، والخبز : نقشه ويقولون : فلان يرقم على الماء لمن يكون ذا حذق في الأمور " قيل هو لوح كتب فيه

أسماء أهل الكهف وقصتهم ثم وضعوه على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة . وعن ابن عباس ان الرقيم اسم الوادي الذي فيه أصحاب الكهف وقيل اسم للقرية التي خرجوا منها وقيل اسم للجبل الذي فيه أصحاب الكهف وقيل هو اسم كلبهم ، قال أمية بن أبي الصلت :

وليس بها إلا الرقيم مجاورا وصيدهم والقوم في الكهف همد

(298/473)

و الوصيد فناء البيت وبابه وعتبته والبيت يحتملها والهمد جمع هامد أي راقد يقول : ليس في تلك الصحراء إلا الكلب حالة كونه مجاورا لفناء غارهم وإلا القوم حال كونهم رقودا في الكهف .

وقال الزجاج : إن الفتية لما هربوا من أهلهم خوفا على دينهم ففقدوهم فخبروا الملك خبرهم فأمر بلوح من رصاص فكتبت فيه أسماءهم وألقاه في خزانته وقال : انه سيكون له شأن فذلك اللوح هو الرقيم .

وقال في أماليه : اعلم أن في الرقيم خمسة أقوال أحدها هذا الذي روي عن ابن عباس رحمه اللّه أنه لوح كتب فيه أسماؤهم والآخر ان الرقيم هو الدواة يروى ذلك عن مجاهد وقال هو

بلغة الروم وحكى ذلك ابن دريد قال ولا أدري ما صحته والثالث ان الرقيم القرية وهو يروى عن كعب والرابع أن الرقيم الوادي والخامس ما روي عن الضحاك وقتادة انهما قالا الرقيم الكتاب والى هذا يذهب أهل اللغة ويقولون : هو فعيل بمعنى مفعول يقال رقمت الكتاب أي كتبته فهو مرقوم ورقيم كما قال عز وجل "كتاب مرقوم" .

الاعراب :

)

(299/473)

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً) أم منقطعة وقد تقدم ذكرها والغالب أن تفسر ببل والهمزة وتفسر ببل وحدها وبالهمزة وحدها أي أظننت أن قصة أهل الكهف عجب في بابها أو لا تظن أنها أعجب الآيات بل من الآيات ما هو أعجب منها . وحسبت فعل وفاعل وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي حسبت وأن واسمها والرقيم عطف على الكهف وجملة كانوا خبر أن ومن آياتنا حال وعجبا خبر كانوا والاستفهام هنا للانكار والنفي وليس المراد نفي العجب عن قصة أهل الكهف فهي عجب كما ذكرنا ولكن القصد نفي كونها أعجب الآيات ثم شرع في سرد قصتهم فقال :

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ) الظرف الماضي يتعلق باذكر محذوفا وجملة أوى في محل جر باضافة الظرف إليها والفتية فاعل أوى والى الكهف متعلقان بأوى خائفين على أنفسهم من الكفار لأنهم كانوا مؤمنين وقصتهم مستفيضة في جميع المطولات وقد صنف الكاتب القصصي المعاصر توفيق الحكيم مسرحية أهل الكهف فارجع إليها لأنها من أمتع القصص .

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) فقالوا عطف على أوى وربنا منادى وآتنا فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت ونا مفعول به ومن لدنك حال لأنه كان صفة لرحمة وتقدم عليها ورحمة مفعول به وهيء عطف على آتنا ولنا متعلقان بهيئ ومن أمرنا حال ورشدا مفعول به .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) الفاء عاطفة وضربنا فعل وفاعل وعلى آذانهم متعلقان بضربنا ومفعول ضربنا محذوف تقديره

حجابا مانعا لهم من السماع وفي الكهف حال وسنين ظرف لضربنا وعددا نعت لسنين أو مفعول مطلق لفعل محذوف فهو إما مصدر فيجوز فيه الوجهان واما فعل بمعنى مفعول فلا يجوز فيه إلا النعت .

)

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً) ثم حرف عطف للتراخي وبعثناهم فعل وفاعل ومفعول به ولنعلم يجوز أن تكون اللام للتعليل أو للعاقبة وعلى كل حال نعلم مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها وسيأتي في باب البلاغة معنى العلم بإحصائهم والله عالم بذلك وأيّ اسم استفهام مبتدأ ولهذا علق نعلم عن العمل والحزبين مضاف اليه وأحصى فعل ماض وفاعله يعود على أي الحزبين ولما لبثوا اللام حرف جر وما مصدرية ولبثوا فعل وفاعل وما وما بعدها مصدر مؤول مجرور باللام والجار والمجرور متعلقان بأحصى وأمدا مفعول به واختلف النحاة هل يجوز أن يكون أحصى اسم تفضيل أم لا ، أما القائلون بالجواز فأعربوا أحصى خبر أي ، وأمدا تمييز ، أو مفعول لفعل محذوف أي أحصى أمدا وستأتي مناقشة هذه الآراء في باب الفوائد .

البلاغة :

في هذه الآيات أفانين من البلاغة تذهل العقول وتكشف النقاب عن بيان القرآن البديع وهذا هو التفصيل :

1- الاستعارة التصريحية :

في قوله تعالى " فضربنا على آذانهم " فقد استعار الحجاب المانع على آذانهم للزوم النوم

وخص الآذان لأنه بالضرب عليها يحصل عليها ، فالصور البيانية لا تتجسد إلا باعتمادها على أسس جمالية ونفسية قريبة

(301/473)

من البحوث الحديثة وقد ذكر الجماليون الإحساسات التي يصح نعتها بالجمال على أتم وجه هي الإحساسات البصرية حتى لقد عرف ديكارت الجمال بقوله : " هو ما يروق في العين فالعين حاسة النور وحاجة الإنسان إلى النور راجع إلى حاجته إلى الحياة إذ تتعلق به بعض العناصر التي تمد الجسم بالحياة والنشاط والحركة والمتعة والسرور " وسيأتي ما اعتمده القرآن من الصور البصرية ولا يقف الأمر عند حاسة البصر بل حاسة السمع هي التي أوجدت أرفع الفنون : الشعر والموسيقى والبلاغة قال الرماني في كتابه " النكت في إعجاز القرآن " : " واحساس السمع في قوله تعالى " فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا " وحقيقته منعناهم الاحساس بآذانهم من غير صمم " فكأن الاستعارة قصدت إلى هذا التصوير السمعي وإبراز فقدان حاسة السمع دون سائر الحواس ودون الدلالة على الصمم النهائي وستأتي تتمة هذه الصورة المهولة صورة الضرب على الآذان في قوله تعالى في سورة يس " يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا " .

2- التعليق :

وذلك في قوله : " ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا " ليس المراد أن يعلم اللّه شيئا هو داخل في نطاق علمه ولكنه أراد ما تعلق العلم به من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيمانا واعتبارا وليكون ذلك من الألطاف الخفية على المؤمنين في زمانهم أو ليحدث تعلق علمنا نعلقا حاليا أي نعلم أن الأمر واقع في الحال بعد أن علمنا قبل أنه سيقع في مستقبل الزمان أما المراد بالحزبين اللذين اختلفا فقال الفراء : إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم

وقيل المراد بالحزبين نفس أصحاب الكهف لأنهم اختلفوا فيما بينهم في المدة التي لبثوها نائمين وروي عن ابن عباس : أن المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك ، وأصحاب الكهف إلى غير ذلك من أقوال لا يتسع المجال لإيرادها .

الفوائد :

(302/473)

1- رجحنا أن تكون " أحصى " في قوله تعالى " لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا " فعلا ماضيا لأن بناء اسم التفضيل من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس اما نحو أعدى من

الجرب وأفلس من ابن المذاق فشاذ والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع فكيف به كما أن اعراب أمدا لا يصح إلا بكون " أحصى " فعلا ماضيا وإذا جعلناه اسم تفضيل احتجنا إلى تقدير فعل لأن اسم التفضيل لا يعمل على أن بعض النحاة جعل بناء اسم التفضيل من المزيد في الهمزة قياسا فتقول في أكرم فعلا فلان أكرم من فلان على رأيهم وزعم هؤلاء النحاة أن سيبويه قال به وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة وانما هو تعويض همزة بهمزة ، هذا وقد اختار كون أحصى للتفضيل الزجاج والتبريزي واختار أبو علي الفارسي والزمخشري كونه فعلا ماضيا وعليه درجنا .

2- ما يقوله المبرد عن أي :

قال المبرد في حديثه عن أيّ " ألا ترى أن معناها أذا أم ذا ، وقال عز وجل " لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا " لأن معناها أهذا أم هذا وقال تعالى : " فلينظر أيها أزكى طعاما " على ما فسرت لك وتقول : أعلم أيهم ضرب زيدا ، وأعلم أيهم ضرب زيد تنصب أيا بضرب لأن زيدا

فاعل فانما هذا لما بعده وكذلك ما أضيف إلى اسم من هذه الأسماء المستفهم بها نحو قد علمت غلام أيهم في الدار وقد عرفت غلام من في في الدار وقد علمت غلام من ضربت فتنصبه بضربت فعلى هذا مجرى الباب " وخلاصة ما أراد المبرد أن يقوله في هذه اللمحة المفيدة أن أدوات الاستفهام إذا كانت أسماء امتنعت مما قبلها .

وقال ابن هشام في المغني انه وهم أي كونه اسم تفضيل لأن شرط التمييز المنصوب بعد أفعل أن يكون كونه فاعلا في المعنى كزيد أكثر مالا بخلاف مال زيد أكثر مال ففي المثال الأول فاعل الكثرة في المعنى المال لا زيد وقال في الخلاصة :

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا مفضلا كأنت أعلى منزلا

]

(303/473)

سورة الكهف (18) : الآيات 13 إلى 15]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)

الاعراب :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) نحن مبتدأ وجملة نقص خبر وعليك متعلقان بنقص ونبأهم مفعول به وبالحق حال من فاعل نقص أو من مفعوله وهو النبأ فالباء للملابسة . (إِنَّهُمْ

فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) الجملة مستأنفة مسوقة لسرد قصتهم وان واسمها وخبرها وجملة آمنوا بربهم خبر وزدناهم فعل وفاعل ومفعول به أول وهدى مفعول به ثان أو تمييز .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وربطنا عطف على زدناهم وعلى قلوبهم متعلقان بربطنا وإذ ظرف ماض متعلق بربطنا وجملة قاموا مضاف إليها الظرف فقالوا عطف على قاموا وربنا مبتدأ ورب السموات والأرض خبره .

)

(304/473)

لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) لن حرف نفي ونصب واستقبال وندعو منصوب بلن ومن دونه حال لأنه كان صفة لإلها وتقدم عليه ولقد اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وقلنا فعل وفاعل وإذن حرف جواب وجزاء مهمل وشططا مفعول مطلق أي قولا ذا شطط فهو نعت للمصدر المحذوف بتقدير المضاف ويجوز أن يكون مفعولا به لأن الشطط فيه معنى الجملة وقال سيبويه ما نصه بالحرف " نصبه على الحال من ضمير مصدر قلنا " والشطط هو الافراط في الظلم والإبعاد فيه من شط إذا بعد فقول سيبويه له وجه كبير من الصحة ، قالوا ذلك وهم قيام بين يدي الملك الجبار دقيانوس .

(هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) هؤلاء مبتدأ وقومنا بدل من اسم الاشارة أو عطف بيان وجملة اتخذوا خبر ومن دونه حال وآلهة مفعول به ومعنى الخبر هنا الإنكار ويجوز أن تعرب هؤلاء مبتدأ وقومنا هو الخبر وجملة اتخذوا في موضع نصب على الحال.

(لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) لولا حرف تحضيض ويأتون فعل مضارع وفاعل والجملة مستأنفة وعليهم أي على عبادتهم متعلقان بمحذوف حال وبسلطان متعلقان بيأتون وبيّن صفة فمن أظلم الفاء استئنافية ومن اسم استفهام معناه النفي والإنكار مبتدأ وأظلم خبره وممن متعلقان بأظلم وجملة افترى صلة وعلى اللّه متعلقان بافترى وكذبا مفعول به.

البلاغة:

في قوله تعالى " وربطنا على قلوبهم " استعارة تصريحية تبعية تشبه " فضربنا على آذانهم " لأن الربط هو الشد بالحبل والمراد قوينا قلوبهم بالصبر على هجر الأوطان والفرار بالدين إلى الكهوف والغيران وافتراش صعيدها وجسرناهم على قول الحق والجهر به أمام دقيانوس الجبار.

[سورة الكهف (18) : الآيات 16 إلى 18]

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (18)

اللغة :

(مِرفَقاً) : بكسر الميم وفتح الفاء وبالعكس وقد قرىء بهما ما ترتفقون به من غداء وعشاء أي تنتفعون قال في أساس البلاغة : " وارتفقت به :

انتفعت ومالي فيه مرفق ومرفق وما فيها مرفق من مرافق الدار نحو المتوضأ والمطبخ "

وقيل بالكسر في الميم هو لليد وبالفتح للأمر وقد يستعمل كل منهما موضع الآخر حكاه الأزهري عن ثعلب وقال بعضهم :

هما لغتان فيما يرتفق به فأما الجارحة فبكسر الميم فقط وفي القاموس والتاج وغيرهما : " المرفق بكسر الميم وفتح الفاء والمرفق بفتح الميم وكسر الفاء الموصل بين الساعد والعضد وما ارتفقت به فهما لغتان " .

(تزاور) : أي تمايل أصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها وقد قرىء بهما وقرىء تزورّ وتزوارّ وكلها من الزور وهو الميل ومنه زاره إذا مال اليه والزور الميل عن الصدق .

(تَقْرِضُهُمْ) : تقطعهم وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم البتة مأخوذ من معنى القطيعة والصرم قال ذو الرمة :

إلى ظعن يقرضن أجواز مشرف شمالا وعن أيمانهن الفوارس

وقبله :

(306/473)

نظرت بجرعاء السبية نظرة ضحى وسواد العين في الماء شامس

وجرعاء السبية اسم موضع وسواد العين إلخ جملة حالية أي الدمع كثير الحركة والاضطراب من شمس الفرس إذا جمح وساء خلقه والظعن جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج ويقرضن أي يقطعن وأجواز جمع جوز وهو المجاز والطريق أي يفصلنه عنهن والفوارس اسم موضع لا جمع فارس .

وقال الفارسي : ومعنى تقرضهم تعطيهم من ضوئها شيئا كالقرض ثم يسترد بعد حين

وهي تزول بسرعة أيضا .

(فَجْوَةٍ) : متسع من الفجاء وهو تباعد ما بين الفخذين يقال رجل أفجى وامرأة فجواء والجمع فجاء كقصعة وقصاع وفي القاموس :

" الفجوة : الفرجة بين الشيئين وساحة الدار وما اتسع من الأرض والجمع فجوات وفجاء "

.

(الوصيد) تقدم شرحه ونضيف اليه ما قاله صاحب القاموس :

الوصيد العتبة فناء الدار ، الكهف وقال غيره والباب أيضا وأنشد :

بأرض فضاء لا يسد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر

والبيت لزهير يقول : نزلت في أرض خالية من البناء ليس فيها بناء له وصيد أي باب يسد علي ويحجب عني الضيفان كأهل الحضر فنفي السد كناية عن نفي الوصيد من أصله فهو من باب نفي الشيء بإيجابه واحساني بها معروف لا ينكره أحد من الناس .

الاعراب :

)

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) خطاب من بعضهم لبعض حين صمموا على الفرار بدينهم فإذ منصوب بمضمر تقديره قال بعضهم لبعض وجملة اعتزلتموهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وهي فعل وفاعل ومفعول به وما يعبدون : الواو حرف عطف وما معطوف على الهاء أي اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم فما موصولية أو مصدرية فيقدر وعبادتهم وإلا أداة استثناء والله مستثنى متصل على تقدير كونهم مشركين ومنقطع على تقدير تمحضهم في عبادة الأوثان وقيل الواو اعتراضية وما نافية والجملة معترضة وهي إخبار من الله عن الفتية انهم لم يعبدوا غير الله ولا مانع من ذلك . قال الفراء هو جواب إذ كما تقول إذ فعلت فافعل كذا وهو قول ضعيف لأنه يعني أن إذ تفيد الشرطية والمعروف انها لا تفيدها إلا مقترنة مع ما . (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) الفاء هي الفصيحة أي ان شئتم النجاة بدينكم فأووا وأووا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والى الكهف متعلقان به .

(يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً) ينشر فعل مضارع مجزوم لوقوعه جوابا للطلب ولكم متعلقان بينشر وربكم فاعل ينشر ومن رحمته صفة لمفعول ينشر المحذوف أي ينشر لكم نجاحا من رحمته ويهيىء عطف على ينشر ولكم متعلقان بيهيىء ومن أمركم حال لأنه كان

صفة لمرفقا ومرفقا مفعول به . (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ) في الكلام إيجاز بحذف عدة جمل وتقدير الكلام فأووا إلى الكهف كما قرروا بينهم وشعروا بالتعب فناموا واسترسلوا في النوم ، وأجاب اللّه دعاءهم إذ قالوا : " ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا " فالواو استئنافية وترى فعل مضارع وفاعله أنت والشمس مفعول به وإذا ظرف مستقبل متعلق بتزاور وهو الجواب وتزاور فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هي والجملة لا محل لها وعن كهفهم متعلقان بتزاور وذات اليمين ظرف متعلق بتزاور (وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ) عطف على الجملة السابقة وهي مماثلة لها في اعرابها . (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ) الواو للحال وهم مبتدأ ، وفي فجوة خبر ومنه صفة لفجوة وذلك مبتدأ ومن آيات اللّه خبر .

)

(309/473)

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً) من شرطية في محل نصب مفعول مقدم ويهد فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاء رابطة للجواب لأنه

جملة اسمية وهو مبتدأ والمهتدي خبره وحذفت الياء بخط المصحف ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا عطف على ما تقدم والجملة مماثلة لسابقتها . (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ) الواو استئنافية وتحسبهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول وأيقاظا مفعول به ثان وهم الواو حالية وهم مبتدأ ورقود خبر والجملة في محل نصب حال . (وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) ونقلبهم الواو عاطفة ونقلبهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وذات اليمين ظرف متعلق بنقلبهم وذات الشمال عطف على ذات اليمين وكلبهم الواو للحال وكلبهم مبتدأ وباسط خبر وذراعيه مفعول به وبالوصيد متعلقان بباسط . (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً) لو شرطية واطلعت فعل وفاعل

وعليهم متعلقان باطلعت ولوليت اللام واقعة في جواب لو ووليت فعل وفاعل ومنهم متعلقان بفرارا وفرارا مفعول مطلق مطلق من معنى الفعل قبله لأنه مرادفه ويجوز أن يعرب مصدر في موضع الحال أي فارا ، ولملئت عطف على لوليت ومنهم متعلقان برعبا ورعبا تمييز ورجح أبو حيان أن يكون مفعولا ثانيا لملئت .

البلاغة :

في قوله تعالى " وتحسبهم أيقاظا وهم رقود تشبيه وطباق أما الطباق فهو ظاهر بين أيقاظ ورقود وأما التشبيه فهو قسم من أقسام التشبيه جاءت فيه الأداة فعلا من أفعال الشك واليقين تقول حسبت زيدا في جرأته الأسد وعمرا في جوده الغمام فحاصل ذلك تشبيه زيد بالأسد وعمرو بالغمام وفي الآية حاصلة تشبيه أهل الكهف في حال نومهم بالايقاظ في بعض صفاتهم لأنه قيل انهم كانوا مفتحي العيون في حال نومهم .

الفوائد :

استدل الكسائي بقوله " وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد " على أن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل ولو كان بمعنى الماضي ومنع البصريون ذلك وقالوا لا حجة للكسائي ومن تبعه في أن اسم الفاعل هنا بمعنى الماضي وعمل في ذراعيه النصب وانه على ارادة حكاية الحال الماضية أي انه يقدر الهيئة الواقعة في الزمن الماضي واقعة في حال التكلم والمعنى يبسط ذراعيه فيصح وقوع المضارع موقعه بدليل أن الواو في وكلبهم واو الحال ولذا قال سبحانه ونقلبهم بالمضارع الدال على الحال ولم يقل وقلبناهم بالماضي .

[سورة الكهف (18) : الآيات 19 إلى 20]

وَكَذَلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ

بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (20)

اللغة :

)

(311/473)

بِوَرِقِكُمْ) الورق بفتح الواو وكسر الراء الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ومنه الحديث أن عرفجة أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفا من ورق فأنتن فأمره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يتخذ أنفا من ذهب " والكلاب بالضم اسم ماء كانت عنده الوقعة كما في الصحاح قال :

أعطيتني ورقا لم تعطني ورقا قل لي بلا ورق ما ينفع الورق ؟

(أَزْكى) : أطيب وفي القاموس : زكا يزكو زكاء وزكوّا الزرع فما والأرض طابت والزكي ما كان ناميا طيبا صالحا .

الاعراب :

(وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ) الكاف نعت لمصدر محذوف

أي كما أنمناهم هذه النومة الطويلة كذلك بعثناهم ، وبعثناهم فعل وفاعل ومفعول به ، ليتساءلوا اللام للتعليل ويتساءلوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والظرف متعلق بمحذوف حال . (قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) قال قائل فعل وفاعل وكم اسم استفهام في محل نصب على الظرفية والمميز المنصوب محذوف تقديره كم يوما بدليل الجواب عليه ومنهم صفة لقائل ، قالوا فعل وفاعل وجملة لبثنا مقول القول ويوما ظرف متعلق بلبثنا أو حرف عطف ، بعض يوم عطف على يوما وأو هنا للشك منهم . (قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ) قالوا فعل وفاعل وربكم مبتدأ وأعلم خبره ، بما جار ومجرور متعلقان بأعلم ولبثتم صلة ما وما أجمل تفويضهم أمر العلم بمدة اللبث إلى اللّه ، وما ينطوي عليه هذا التفويض من حسن الأدب فقد استرابوا في أمرهم بعد أن راعوا إلى أنفسهم ونظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم .

)

(312/473)

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً) الفاء عاطفة على محذوف أي فدعوا التساؤل وخذوا فيما هو أهم وأجدى لنا في موقفنا هذا فابعثوا ،

وأحدكم مفعول به وبورقكم متعلقان بابعثوا أو بمحذوف حال من أحدكم والباء للملابسة أي ملتبسا بها ومصاحبا لها وهذه نعت لورقكم وإلى المدينة متعلقان بابعثوا ، فلينظر الفاء عاطفة واللام لام الأمر وينظر مضارع مجزوم بلام الأمر وأيها يجوز أن تكون استفهامية ويجوز أن تكون موصولة وقد تقدم ذلك في قوله " أيهم أحسن عملا " فجدد به عهدا وهي مبتدأ خبره أزكى وطعاما تمييز محول عن المضاف اليه أي أيّ أطعمة المدينة أزكى وأحلّ وأرخص وأطيب . (فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً) الفاء عاطفة واللام لام الأمر ويأت مجزوم بلام الأمر والفاعل مستتر تقديره هو والكاف مفعول به وبرزق متعلقان بيأتكم ومنه صفة لرزق

(313/473)

وليتلطف عطف على فليأتكم ولا الواو عاطفة ولا ناهية ويشعرن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية والفاعل مستتر تقديره هو وبكم متعلقان بيشعرن واحدا مفعول به . (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ) إن واسمها وإن شرطية ويظهروا فعل الشرط والواو فاعل وعليكم متعلقان بيظهروا ويرجموكم جواب الشرط أو يعيدوكم عطف على يرجموكم وفي ملتهم متعلقان بيعيدوكم

أي يردوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم اللّه أو المراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير انهم لم يكونوا على ملتهم وإيثار كلمة " في " على كلمة " إلى " للدلالة على الاستقرار .

(وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً) الواو عاطفة ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتفلحوا فعل مضارع منصوب بلن والواو فاعل وإذن حرف جواب وجزاء مهمل وأبدا ظرف متعلق بتفلحوا .

[سورة الكهف (18) : الآيات 21 إلى 26]

(314/473)

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (21) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (23) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (24) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدادُوا تِسْعاً (25)

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ

وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26)

اللغة :

(أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ) : أطلعنا عليهم قومهم والمؤمنين وفي الأساس :

" وعثر على كذا اطلع عليه وأعثره على كذا أطلعه وأعثره على أصحابه :

دله عليهم ويقال للمتورط " وقع في عاثور " وفلان يبغي صاحبه العواثين وأصله : حفرة

تحفر للأسد وغيره يعثر بها فيطيح فيها " .

)

رَجْماً بِالْغَيْبِ) رميا بالخبر الخفي وإتيانا به وفي المصباح : الرجم بفتحتين الحجارة ورجمته

رجما من باب قتل ضربته بالرجم وهي الحجارة الصغار ورجمته بالقول رميته بالفحش قال

تعالى : " رجما بالغيب " أي ظنا من غير دليل ولا برهان كقول زهير بن أبي سلمى يصف

الحرب :

(315/473)

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

أي المظنون وسيرد في باب البلاغة مزيد من البحث حول هذا التعبير .

(تُمارِ) : تجادل وفي القاموس : " ماري مراء ومماراة : جادل ونازع ولاجّ وتماريا تجادلا وامترى في الشيء : شك والمرية بكسر الميم والمرية بضمها : الجدل يقال ما في ذلك مرية أي جدل وشك " .

الاعراب :

(

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) الكاف نعت لمصدر محذوف أي وكما أنمناهم وبعثناهم أطلعنا عليهم قومهم والمؤمنين ، وأعثرنا فعل وفاعل والمفعول به محذوف كما قدرناه في باب اللغة وعليهم متعلقان بأعثرنا وليعلموا اللام للتعليل ويعلموا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي ليعلموا وأن واسمها وحق خبرها وأن الساعة عطف وان واسمها ولا نافية للجنس وريب اسمها وفيها خبرها وجملة لا واسمها وخبرها في محل رفع خبر أن والمراد بوعد اللّه البعث لأن من قدر على إنامتهم هذه النومة الطويلة وبعثهم بعدها قادر على أن يحييهم بعد الموت . (إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) الظرف متعلق بأعثرنا أي أعثرنا عليهم قومهم حين يتنازعون ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول : تبعث الأرواح دون الأجساد وبعضهم يقول : تبعث الأجساد مع الأرواح وجملة يتنازعون في محل جر باضافة الظرف إليها وبينهم ظرف مكان متعلق بيتنازعون وأمرهم نصب بنزع الخافض أي في

أمرهم وقيل تنازعوا تنصب مفعولا إذا كانت بمعنى التجاذب فيكون في الكلام استعارة .

(فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً) الفاء عاطفة وقالوا فعل

(316/473)

و فاعل وجملة ابنوا مقول القول وهو فعل أمر وفاعل وعليهم متعلقان بابنوا وبنيانا مفعول به أي قالوا ذلك حين توفى اللّه أصحاب الكهف وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدث تمليخا حامل الورق حديثهم موتا حقيقيا ورجع من كان يساوره الشك في بعث الأجساد إلى اليقين أي ابنوا عليهم بنيانا ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وجملة ابنوا عليهم بنيانا مقول قولهم . (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) الجملة إما تتمة لمقولهم قالوا ذلك تفويضا للعلم إلى اللّه سبحانه وقيل هو مقول كلام للّه سبحانه ردا لقول المتنازعين فيهم أي دعوا ما أنتم فيه من التنازع فإني أعلم بهم منكم والكلام مبتدأ وخبر وبهم متعلقان بأعلم . (قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً) قال الذين فعل وفاعل وجملة غلبوا صلة الموصول وعلى أمرهم متعلقان بغلبوا وهم المؤمنون وكانت الكلمة لهم آنذاك ولنتخذن اللام موطئة للقسم ونتخذن فعل مضارع مبني على الفتح وفاعله مستتر تقديره نحن وعليهم حال ومسجدا مفعول به .

(سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ) السين للاستقبال اشارة إلى أن النزاع في أمرهم حصل في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلم أي في المستقبل البعيد بالنسبة لقصتهم ويقولون فعل مضارع وفاعل والضمير يعود إلى الخائضين في قصتهم زمن النبي من أهل الكتاب والمؤمنين . قال أبو حيان : " وجاء بسين الاستقبال لأنه كأنه في الكلام طي وإدماج ، والتقدير فإذا أجبتهم عن سؤالهم وقصصت عليهم قصة أهل الكهف فسلهم عن عددهم فإنهم إذا سألتهم سيقولون ولم يأت بالسين فيما بعده لأنه معطوف على المستقبل فدخل في الاستقبال أو لأنه أريد به معنى الاستقبال الذي هو صالح له .

وثلاثة خبر لمبتدأ محذوف أي هم ثلاثة أشخاص وانما قدرنا أشخاصا لأن رابعهم اسم فاعل أضيف إلى الضمير والمعنى أنه ربعهم أي جعلهم

(317/473)

أربعة وصيرهم إلى هذا العدد فلو قدر ثلاثة رجال استحال أن يصير ثلاثة رجال أربعة لاختلاف الجنسين ، ورابعهم مبتدأ وكلبهم خبر وجملة ثلاثة مقول القول وجملة رابعهم كلبهم في محل نصب على الحال أي حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضامه إليهم ويقولون خمسة

سادسهم كلبهم عطف على الجملة السابقة وهي مماثلة في اعرابها ورجما منصوب على المصدرية بفعل محذوف أي يرجمون رجما والمعنى يرمون رميا بالخبر الخفي المظنون أو على الحال بمعنى راجمين وبالغيب متعلقان برجما . (وَيَقُولُونَ : سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) الواو عاطفة ويقولون فعل وفاعل وسبعة خبر لمبتدأ محذوف والواو فيها أقوال تربو على الحصر وقد شغلت العلماء والأدباء فصنّفوا فيها المطولات وسنأتي على ذكرها وخلاصة ما قيل فيها في باب الفوائد وأولى ما يقره المنطق أن تكون هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة تشبيها لها بالجملة الواقعة حالا بعد المعرفة نحو جاء زيد ومعه رجل آخر وذلك لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف بمعنى أن اتصافه بها أمر مستقر راسخ في الأذهان وهذا ما اختاره الزمخشري وابن هشام وانتظر التفاصيل وجملة ثامنهم كلبهم صفة لسبعة وقد ردّ أبو حيان هذا القول وعبارته :

" وكون الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة دالة على لصوق الصفة بالموصوف وعلى ثبوت اتصاله بها شيء لا يعرفه النحويون بل قرروا انه لا تعطف الصفة التي ليست بجملة على صفة أخرى إلا إذا اختلفت المعاني حتى يكون العطف دالا على المغايرة وأما إذا لم يختلف فلا يجوز العطف في هذه الأسماء المفردة وأما الجمل التي تقع صفة فهي أبعد من أن يجوز ذلك فيها وقد ردوا على من ذهب إلى أن قول سيبويه :

وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل هو على ان وليس باسم ولا فعل صفة لقوله لمعنى وان الواو دخلت في الجملة بأن ذلك ليس من كلام

(318/473)

العرب مررت برجل ويأكل على تقدير الصفة واما قوله تعالى : " إلا ولها كتاب معلوم " فالجملة حالية " . (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) ربي مبتدأ وأعلم خبره والجملة مقول القول وبعدتهم متعلقان بأعلم وجملة ما يعلمهم حالية وما نافية ويعلمهم فعل مضارع ومفعول به وإلا أداة حصر وقليل فاعل يعلمهم والتفضيل بالنسبة للكيفية لأن مراتب اليقين متفاوتة في القوة وليس التفضيل بالنسبة إلى الطائفتين الأولين الذين جنحا إلى الرجم بالغيب والحدس والتخمين دون الحقيقة والاطلاع على الواقع . (فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذا وحق لك أن تعرفه فلا تجادل ، ولا ناهية وتمار مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف حرف العلة وإلا أداة حصر ومراء مفعول مطلق وظاهرا صفة . (وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً) الواو عاطفة ولا ناهية وتستفت مجزوم بها وعلامة جزمه حذف حرف العلة أيضا والفاعل مستتر تقديره أنت وفيهم متعلقان بتستفت ومنهم حال

لأنه كان في الأصل صفة لأحدا وأحدا مفعول به لأن فيما أوحي إليك مندوحة لك عن السؤال . (

(319/473)

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذِلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ) الواو حرف عطف ولا ناهية وتقولن فعل مضارع مبني للفتح لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت ولشيء متعلقان بتقولن أي لأجل شيء تقدم عليه وتهتم به وقيل اللام بمعنى في وقد تقدم ذكر ذلك وكسرت همزة إن لسبقها بالقول وان واسمها مقول القول وفاعل خبر إن وذلك مفعول لفاعل وغدا ظرف متعلق بفاعل وإلا أن يشاء اللّه استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تقل لشيء في حال من الأحوال إلا في حال تلبسك بالمشيئة والتعليق عليها فأن وما بعدها حال والتقدير لا تقولن أفعل غدا إلا قائلا إن شاء اللّه وقيل التقدير إلا بأن يشاء اللّه فالمصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور في موضع

النصب على الحال أي إلا متلبسا بقول إن شاء اللّه وقيل إن الاستثناء منقطع وموضع أن يشاء اللّه نصب على الاستثناء .

(320/473)

و قد أجاد في إعراب هذه الآية أبو البقاء العكبري ونصه : " في المستثنى منه ثلاثة أوجه أحدها هو من النهي والمعنى لا تقولن افعل غدا إلا أن يؤذن لك في القول والثاني هو من فاعل تقولن أي لا تقولن اني فاعل غدا حتى تقرن به قول إن شاء اللّه والثالث انه منقطع وموضع أن يشاء اللّه نصب على وجهين أحدهما على الاستثناء والتقدير لا تقولن ذلك في وقت إلا وقت أن يشاء اللّه أي يأذن فحذف الوقت وهو مراد والثاني هو حال والتقدير لا تقولن افعل غدا إلا قائلا إن شاء اللّه فحذف القول وهو كثير وجعل قوله أن يشاء في معنى إن شاء وهو مما حمل على المعنى وقيل : التقدير إلا بأن يشاء اللّه أي متلبسا بقول إن شاء اللّه " والخلاصة ان الغرض من هذا النهي عن هذا القول هو عدم اقترانه بقول المشيئة وهذا نهي تأديب حين قالت اليهود لقريش سلوا محمدا عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه فقال ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش ، وسيأتي في باب الفوائد ذكر انقطاع الوحي .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً) واذكر عطف على ما تقدم وربك مفعول به ولا بد من حذف مضاف أي مشيئة ربك وإذا ظرف متعلق باذكر أي إذا فرط منك نسيان وجملة نسيت في محل جر بإضافة الظرف إليها وجوابها محذوف دل عليه ما قبله أي فاذكر وقل عطف على اذكر وعسى من أفعال الرجاء واسمها

مستتر تقديره هو وأن يهديني أن وما في حيزها هي الخبر وربي فاعل يهديني ولأقرب متعلق بيهديني ومن هذا متعلقان بأقرب ورشدا تمييز

(321/473)

أو مفعول مطلق أي يهديني هداية فيكون ملاقيا لعامله بهذا المعنى والأول أقرب أي لشيء أقرب إرشادا للناس ودلالة على ذلك والاشارة في قوله هذا لما تقدم من نبأ أصحاب الكهف وقصتهم العجيبة التي اختتمت الآن . (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً) ولبثوا عطف على ما تقدم حسما للخلاف وإماطة للشبهة الناجمة عن الاختلاف في أمرهم ومدة لبثهم وفي كهفهم متعلقان بلبثوا وثلاث ظرف ومائة مضاف اليه وسنين عطف بيان لثلاثمائة أو بدل ولا يصح أن يكون تمييزا لأن تمييز المائة مجرور وجره بالإضافة والتنوين مانع منها وسيأتي بحث العدد مفصلا في باب الفوائد وازدادوا فعل وفاعل وتسعا مفعول به أي تسع سنين . (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا) اللّه مبتدأ وأعلم خبر والجملة مقول القول وبما متعلقان بأعلم وجملة لبثوا صلة الموصول أي بالزمن الذي لبثوه . (لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) له خبر مقدم وغيب السموات والأرض مبتدأ مؤخر وأبصر صيغة تعجب وهو فعل ماض أتى على صيغة الأمر ومعناه الخبر والباء مزيدة في الفاعل

إصلاحا للفظ وسيأتي البحث في صيغتي التعجب في باب البلاغة واسمع عطف على ابصر . (ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً) ما نافية ولهم خبر مقدم ومن دونه حال ومن حرف جر زائد وولي مبتدأ مؤخر محلا ولا الواو عاطفة ولا نافية ويشرك فعل مضارع وفاعل مستتر وفي حكمه متعلقان بيشرك وأحدا مفعول به .

البلاغة :

الكلام يطول جدا على هذه الآيات وما اشتملت عليه من فنون بلاغية وسنجنح إلى الاختصار ما أمكن فنقول :

1- الاستعارة المكنية :

في قوله تعالى " يتنازعون بينهم أمرهم " استعارة مكنية فقد شبه أمرهم بشيء كثر النزاع حوله ثم حذف ذلك الشيء واستعير النزاع القائم حوله .

وفي قوله تعالى " رجما بالغيب " استعارة مكنية أيضا فقد شبه الغيب والخفاء بشيء يرمى بالحجارة واستعير الرجم له .

2- واو الثمانية والخلاف المشتجر حولها :

وعدناك بأن نأتي بالأقوال حول الواو الداخلة على ثامنهم في قوله تعالى " ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم " وقد قدمنا في الاعراب ما اخترناه من هذه الأقوال فقال عدد من كبار الأدباء انها واو الثمانية قال ابن هشام : " واو الثمانية ذكرها جماعة من الأدباء كالحريري ومن النحويين الضعفاء كابن خالويه ومن المفسرين كالثعلبي وزعموا أن العرب إذا عدوا قالوا ستة سبعة وثمانية إيذانا بأن السبعة عدد تام وان ما بعده عدد مستأنف واستدلوا على ذلك بآيات احداها " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم " إلى قوله سبحانه " وثامنهم كلبهم " وقيل هي في ذلك لعطف جملة على جملة إذ التقدير هم سبعة ثم قيل الجميع كلامهم وقيل العطف من كلام اللّه تعالى والمعنى نعم هم سبعة وثامنهم كلبهم وان هذا تصديق لهذه المقالة كما ان رجما بالغيب تكذيب لتلك المقالة " وبعد كلام طويل قال : " وأقول لو كان لواو الثمانية حقيقة لم تكن الآية منها إذ ليس فيها ذكر عدد البتة وانما فيها ذكر الأبواب وهي جمع لا يدل على عدد خاص ثم الواو ليست داخلة عليه بل على جملة هو فيها " .

(323/473)

و قال آخرون في الرد على من زعم وجود واو الثمانية : وهو أن في اللغة واوا تصحب الثمانية وتختص بها فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو

وربما عدوا من ذلك " والناهون عن المنكر " وهو الثامن من قوله تعالى " التائبون " وهذا مردود أيضا بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي الآمرون بالمعروف لما بينهما من التناسب والربط ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما وموارديهما كقوله : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وكقوله : وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، وربما عد بعضهم من ذلك الواو في ثيبات وأبكارا لأنه وجدها مع الثامن وهذا غلط فاحش فإن هذه واو التقسيم ولو ذهبت تحذفها فتقول ثيبات أبكارا لم يستدل الكلام فقد وضح أن المراد في جميع هذه المواضع المعدودة وراده لغير ما زعمه هؤلاء .

قلت : لو سقطت الواو من أبكار لاختل المعنى لأنهن لا يكنّ ثيبات أبكارا في وقت معا فاضطر إلى الواو لتدل على المغايرة . هذا وقد كان القاضي الفاضل صاحب الطريقة المصنوعة في الإنشاء يعتقد زيادة الواو في هذه الآية ويتبجح باستخراجها ويقول هي واو الثمانية إلى أن ذكر ذلك بحضرة الشيخ أبو الجود المقري فبين له أنه وأهم وان الضرورة تدعو إلى دخولها وإلا فسد المعنى بخلاف واو الثمانية فانه يؤتى بها لا لحاجة فقال أرشدتنا يا أبا الجود .

هذا وممن أيد وجود واو الثمانية الإمام فخر الدين الرازي وقال العلامة الكافيجي قولا طريفا منصفا في هذا الصدد نورده بنصّه :

" هي في التحقيق واو العطف لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص وتضمنت أمرا غريبا واعتبارا لطيفا ناسب أن تسمى باسم غير جنسها

(324/473)

فسميت واو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة وذلك لأن السبعة عندهم عقد تام كعقود العشرات لاشتمالها على أكثر مراتب أصول الأعداد فان الثمانية عقد مستأنف فكان بينهما اتصال من وجه وانفصال من وجه وهذا هو المقتضي للعطف وهذا المعنى ليس موجودا بين السبعة والستة .

وأقول : ان توجيه تمام السبعة هو أن العدد إما فرد وإما مركب من فردين وهو الزوج أو من زوج وفرد أو من زوجين والثلاثة الأول من الثلاثة فان في ضمنها الواحد والاثنين والآخر من الأربعة . ومجموع الثلاثة والأربعة سبعة فتمت بها الأصول وما يأتي تكرار فالثمانية زوج وزوج قد مضى والتسعة زوج وفرد وهكذا .

هذا وسيأتي المزيد من هذا البحث عند الكلام على " وفتحت أبوابها " وعلى " ثيبات وأبكارا " فقد طال البحث جدا .

الفوائد :

1- أحكام العدد وتمييزه :

مميز العدد على ضربين منصوب ومجرور فالمجرور على ضربين مفرد ومجموع فالمفرد مميز المائة والألف والمجموع مميز الثلاثة إلى العشرة والمنصوب مميز أحد عشر إلى تسعة وتسعين ولا يكون إلا مفردا ومما شذ عن ذلك قولهم ثلاثمائة إلى تسعمائة اجتزءوا بلفظ الواحد عن الجمع وقد رجع إلى القياس من قال :

ثلاث مئين للملوك وفي بها ردائي وجلت عن وجوه الاهاتم

فجاء بتمييز الثلاث جمعا من لفظ المائة على ما يقتضيه القياس وإن كان شاذا في الاستعمال ويجوز في التمييز حينئذ وجهان أحدهما الاتباع على البدل نحو ثلاثة أثواب والنصب على التمييز نحو ثلاثة أثوابا وقوله تعالى ثلاثمائة سنين نصب على البدل أو عطف البيان لثلاثمائة .

(325/473)

هذا رأي أبي اسحق الزجاج قال : ولا يجوز أن يكون تمييزا لأنه لو كان تمييزا لوجب أن يكون أقل ما لبثوا تسعمائة سنة لأن المفسر يكون لكل واحد من العدد وكل واحد سنون وهو جمع والجمع أقل ما يكون ثلاثة فيكونون قد لبثوا تسعمائة سنة وأجاز الفراء أن يكون

سنين تمييزا على حد قوله :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأعصم

قال وذلك انه جاء في التمييز سودا وهو جمع لأن الصفة والموصوف شيء واحد والمذهب الأول لأن الثواني يجوز فيها مالا يجوز في الأوائل ألا ترى أنك تقول يا زيد الطويل ولو قلت يا الطويل لم يجز .

هذا والبيت لعنترة من معلقته التي مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم

وقبل البيت المستشهد به :

ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم

وراعني أفزعني والحمولة : الإبل التي يحمل عليها ووسط ظرفه وإذا لم يكن ظرفا حركت السين فقلت وسط الدار واسع ، وتسف :

(326/473)

تأكل يقال : سففت الدواء أسفه ، والحلوبة المحلوبة تستعمل في الواحد والجمع على لفظ واحد ، والخوافي أواخر ريش الجناح مما يلي الظهر ، والأسحم الأسود ، واثنتان مرفوع

بالابتداء وأربعون معطوف عليه وقوله سودا نعت لحلوبة لأنها في معنى الجمع والمعنى من الحلائب والكاف في قوله كخافية في موضع نصب والمعنى سودا مثل خافية الغراب الأسحم ومما ذكرناه في تفسير الحلوبة وصلاحيتها للاطلاق على الواحد والجمع تعلم ما في قولهم ان الشاهد في هذا البيت جواز وصف المميز المفرد بالجمع وادعائهم ان حلوبة مفرد مميز للعدد وانه وصف بالجمع وهو سود الذي هو جمع سوداء وزعم الأعلم ان قوله سودا ليس بوصف وانما هو حال من قوله اثنتان وأربعون قال : " وهو حال من نكرة ويجوز رفعه على النعت ولا يكون نعتا لحلوبة لأنها مفردة إذا كانت تمييزا للعدد وسودا جمع ولا ينعت الواحد بالجمع " وليس بشيء لأنهم غفلوا عن السر وهو إطلاق حلوبة على الواحد والجمع .

هذا ونلخص فيما يلي أحكام العدد عامة :

ألفاظ العدد من ثلاثة إلى تسعة تكون على عكس المعدود في التذكير والتأنيث سواء كانت مفردة كقوله تعالى " سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما " أو مركبة كخمسة عشر قلما وست عشرة ورقة أو معطوفا كثلاثة وعشرين يوما وأربع عشرين ساعة ، وأما واحد واثنان منهما على وفق المعدود في الأحوال الثلاثة ، وأما مائة وألف فلا يتغير لفظهما في التذكير والتأنيث ، وكذلك ألفاظ العقود كعشرين وثلاثين إلا عشرة فهي على عكس معدودها إذا كانت مفردة ، وعلى وفقه إذا كانت مركبة .

هذا ويصاغ من اسم العدد وصف على وزن فاعل مطابق لموصوفه ، أما تعريف العدد ، فالمضاف تدخل ال على المضاف إليه ، والمركب تدخل ال على جزئه الأول ، والمعطوف تدخل ال على الجزأين .

واما اعراب الاعداد فعلى ثلاثة أشكال :

(327/473)

1- بالحركات من واحد إلى عشرة على أن تكون هذه مفردة غير مركبة ويستثنى منها العدد اثنان للمذكر واثنتان للمؤنث فانهما لفظان ملحقان بالمثنى .

وكذلك العددان مائة وألف .

2- بالحروف وهو العدد اثنان للمذكر واثنتان للمؤنث والعقود .

3- بالبناء على الفتح وهي الأعداد المركبة أي من أحد عشر إلى تسعة عشر ومن الحادي عشر إلى التاسع عشر ما عدا الجزء الاول من اثني عشر لأنه يلحق بالمثنى كما تقدم .

اسم الفاعل المشتق من العدد :

يستعمل اسم الفاعل المشتق من العدد على معنيين :

أحدهما : أن يكون المراد به واحدا من جماعة .

وثانيهما : أن يكون فاعلا كسائر أسماء الفاعلين .

فالأول نحو ثاني اثنين وثالث ثلاثة قال اللّه تعالى : " لقد كفر الذين قالوا : إن اللّه ثالث ثلاثة " وقال عز وجل : " إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين " فما كان من هذا الضرب فإضافة محضة لأن معناه أحد

(328/473)

ثلاثة وبعض ثلاثة فكما أن إضافة هذا صحيحة فكذلك ما هو في معناه ولا يجوز فيه أن ينون وينصب في قول أكثر النحويين لأنه ليس مأخوذا من فعل عامل وأما الثاني وهو ما يكون فاعلا كسائر أسماء الفاعلين نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة وخامس أربعة فهذا غير الوجه الأول إنما معناه هو الذي جعل الاثنين ثلاثة بنفسه فمعناه الفعل كأنه قال الذي ثلثهم وربعهم وخمسهم وعلى هذا قوله تعالى : " ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم " ومثله : " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم . . . . رجما بالغيب " ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم وعلى هذا الوجه يجوز أن ينون وينصب ما بعده فتقول : هذا ثالث اثنين ورابع ثلاثة لأنه مأخوذ ثلثهم وربعهم فهو بمنزلة هذا ضارب زيدا والأول أكثر قال سيبويه :

قلما تريد العرب هذا يعني خامس أربعة فإن أضفته فهو بمنزلة ضارب زيد فتكون الاضافة غير محضة هذا إذا أريد به الحال أو الاستقبال فان أريد به الماضي لم يجز فيه إلا حذف التنوين والإضافة كما كان كذلك في قولك هذا ضارب زيد أمس .

2- التعجب وصيغة في العربية :

التعجب انفعال يحدث في النفس عند الشعور بأمر خفي سببه ولهذا يقال : إذا ظهر السبب بطل العجب ولا يطلق على اللّه انه متعجب إذ لا شيء يخفى عليه وما وقع مما ظاهره ذلك في القرآن فمحمول على انه مصروف إلى المخاطب نحو قوله تعالى فما أصبرهم على النار أي أن حالهم في ذلك اليوم ينبغي لك أيها المخاطب أن تتعجب وقيل التعجب هو استعظام فعل فاعل ظاهر المزية فيه ، وقوله تعالى هنا " أبصر به وأسمع " ذهب العلماء فيه ثلاثة مذاهب :

1- انه بلفظ الأمر ومعناه الخبر والباء مزيدة في الفاعل إصلاحا للفظ فإن قلت كيف تكون الهاء فاعلا وهي ضمير نصب أو جر قلت إنما هو اصطلاح وساغ ذلك لوجود الباء لفظا قبلها ولأن الباء إنما زيدت ليصير على صورة المفعول .

2- ان الفاعل ضمير المصدر .

3- ان الفاعل ضمير المخاطب واحتج القائلون بذلك على انه لا يعهد استعمال الأمر في الماضي وانما التزم إفراده وتذكيره فلم يثن ولم يجمع ولم يؤنث لأنه كلام جرى مجرى المثل وهذه إحدى صيغ التعجب القياسية .

والثانية ما أفعله وهاتان الصيغتان هما المبوب لهما في كتب النحو وهما القياسيتان ومعنى ما كما قال سيبويه انها نكرة تامة بمعنى شيء وابتدئ بها لتضمنها معنى التعجب وما بعدها من الجملة الفعلية في موضع رفع خبرها وهذا هو المذهب الصحيح لأن قصد المتعجب الإعلام بأن المتعجب منه ذو مزية إدراكها جلي وسبب الاختصاص بها خفي فاستحقت الجملة المعبر بها عن ذلك أن تفتح بنكرة غير مختصة ليحصل بذلك إبهام متلو بافهام .

وهنالك صيغ أخرى للتعجب واردة في الكتاب والحديث ولسان العرب فمن الكتاب " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم " ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة " سبحان الله ان المؤمن لا ينجس " ومن كلام العرب " لله دره فارسا " ولكن النحاة لم يبوبوا لهذه الصيغ لأنها لم تدل على التعجب بالوضع بل بالقرينة .

مسائل هامة :

1- لا يتعجب الا من معرفة أو نكرة مختصة فلا يقال ما أسعد رجلا لأنه لا فائدة من ذلك .

2- يجوز حذف المتعجب منه إذا كان ضميرا كقول علي بن أبي طالب كما قيل :

جزى اللّه عني والجزاء بفضله ربيعة خيرا ما أعف وأكرما

أي ما أعفها وأكرمها وإنما قلنا كما قيل لأن هذا البيت لم يثبت لعلي وفي القاموس في مادة "

ودق " نقلا عن المازني وصوبه الزمخشري انه لم يصح انه تكلم بشيء من الشعر غير بيتين

وهما قوله :

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك لا برّوا ولا ظفروا

وإن هلكت فرهن ذمتي لهم بذات ودقين لا يعفو لها أثر

(330/473)

وفي باب أفعل به إن كان معطوفا على آخر مذكور معه كما في الآية : " أبصر به وأسمع "

وانما حذف مع كونه فاعلا لأن لزومه للجر كساه صورة الفضلة وشذ حذفه دون أن

يعطف على مثله كقول عروة ابن الورد :

فذلك إن يلق المنية يلقها حميدا وإن يستغن يوما فأجدر

فحذف المتعجب منه ولم يكن معطوفا على مثله .

هذا ولا يبنى هذان الفعلان إلا مما اجتمعت فيه ثمانية شروط :

1- أن يكون فعلا وشذ قولهم ما أذرع المرأة بنوه من قولهم امرأة ذراع والذراع كسحاب : الخفيفة اليدين بالغزل وروى ابن القطاع في الأفعال ذرعت المرأة خفت يدها في العمل فهي ذراع وعلى هذا لا شذوذ في قولهم ما أذرع المرأة ومن ذلك قولهم ما أجدره بكذا وما أقمنه بكذا فالأول بنوه من قولهم هو قمين بكذا والثاني من قولهم هو جدير بكذا والمعنى فيهما ما أحقه بكذا ولا فعل لهما ولكن قال في القاموس " وقد جدر ككرم جدارة وإنه لجدرة أن يفعل ومجدور أي مخلقة وجدره جعله جديرا " وطاح كلام النحاة من أساسه .

2- أن يكون الفعل ثلاثيا فلا يبنيان من رباعي مجرد ولا مزيد فيه ولا ثلاثي مزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة إلا وزن أفعل فقيل يجوز بناؤهما منه سواء كانت الهمزة فيه للنقل أم لا نحو ما أظلم الليل وما أفقر هذا المكان وقيل هو شاذ يحفظ ما سمع منه كما تقدم ولا يقاس عليه وقالوا : ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف وما أتقاه اللّه وشذا كذلك ما أخصره لأنه من اختصر .

3- أن يكون الفعل متصرفا لأن التصرف فيما لا يتصرف نقض لوضعه وشذ ما أعساه وأعسى به .

4- أن يكون معناه قابلا للتفاضل أو التفاوت فلا يبنيان من نحو فني ومات وغرق لأنه لا مزية فيه لبعض فاعليه على بعض حتى يتعجب منه .

5- أن يكون مبنيا للمعلوم فلا يبنيان من المبني للمجهول وبعضهم استثنى ما كان ملازما للبناء على المجهول نحو عنيت بحاجتك وزهي علينا فيجيز التعجب لعدم اللبس فتقول ما أعناه بحاجتك وما أزهاه علينا .

6- أن يكون تاما فلا يبنيان من نحو كان وكاد وصار لأنهن نواقص وحكى ابن السراج والزجاج : ما أكون زيدا قائما .

7- أن يكون مثبتا فلا يبنيان من منفي سواء كان ملازما للنفي نحو ما عاج بالدواء أي ما انتفع به ومضارعه يعيج ملازم للنفي أيضا

كذا قال النحاة وطاح كلامهم بوروده غير منفي ، روى أبو علي القالي في نوادره : أنشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي :

ولم أر شيئًا بعد ليلى ألذه ولا مشربا أروى به فأعيج

أي أنتفع به أم غير ملازم للنفي لئلا يلتبس المنفي بالمثبت .

8- أن لا يكون اسم فاعله على وزن أفعل فعلاء فلا يبنيان من نحو عرج فهو أعرج من العيوب وشهل فهو أشهل من المحاسن وخضر الزرع فهو أخضر من الألوان ولمي فهو ألمى من

الحلي لأن الألوان والعيوب والمحاسن الظاهرة جرت مجرى الخلق الثابتة التي لا تزيد ولا تنقص كاليد والرجل وسائر الأعضاء في عدم التعجب منها .

شرط تاسع :

وهناك شرط تاسع أغفله الكثير من النحاة مع أنه مهم جدا وهو أن لا يستغنى عنه بالمصوغ من غيره نحو قال من القائلة فانهم لا يقولون ما أقيله استغناء بقولهم ما أكثر قائلته ، ذكره سيبويه ونحو سكر وقعد وجلس فانهم لا يقولون ما أسكره وأقعده وأجلسه استغناء بقولهم ما أشد سكره وأكثر قعوده وجلوسه وزادّ ابن عصفور قام وغضب ونام ، وحكى سيبويه ما أنومه وقالوا أنوم من فهد .

كيف يتم التوصل إلى التعجب مما فقد بعض الشروط :

(332/473)

و يتوصل إلى التعجب من الزائد على الثلاثي ومما وصفه على أفعل فعلاء بما أشد ونحوه وبنصب مصدرهما بعده وبأشدد ونحوه وبجر مصدرهما بعده فتقول ما أشد انطلاقه أو حمرته وأشدد بانطلاقه وحمرته والمنفي والمبني للمجهول يكون مصدرهما مؤولا لا صريحا نحو ما أكثر أن لا يقوم وما أشد ما ضرب واشدد بهما وأما الناقص فيؤتى بمصدره إن كان

له مصدر على نحو ما تقدم نحو ما أشد صيرورته جميلا وأما الجامدة وغير القابل للتفاوت فلا يتعجب منهما البتة .

3- القول في أحد ، والفرق بين الأحد والواحد :

أحد أكمل من الواحد ألا ترى أنك إذا قلت : فلان لا يقوم له واحد جاز في المعنى أن يقوم له اثنان فأكثر بخلاف قولك لا يقوم له أحد وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد تقول ليس في الدار أحد فيجوز أن يكون من الدواب والطير والوحش والإنس فيعم الناس وغيرهم بخلاف ليس في الدار واحد فإنه مخصوص بالآدميين .

ويأتي الأحد في كلام العرب بمعنى الواحد فيستعمل في النفي والإثبات نحو " قل هو اللّه أحد " أي واحد ، وأول " فابعثوا أحدكم بورقكم " وبخلافهما فلا يستعمل إلا في النفي تقول ما جاءني من أحد ومنه قوله تعالى : " أيحسب أن لن يقدر عليه أحد " وواحد يستعمل فيهما مطلقا وأحد يستعمل في المذكر والمؤنث قال تعالى " لستنّ كأحد من النساء " بخلاف الواحد فلا يقال كواحد من النساء بل كواحدة ، وأحد يصلح للأفراد والجمع ولهذا وصف به في قوله " من أحد عنه حاجزين " بخلاف الواحد والأحد له جمع من لفظه وهو الأحدون والآحاد وليس للواحد جمع من لفظه فلا يقال واحدون بل اثنان وثلاثة ، والأحد ممتنع من الدخول في شيء من الحساب بخلاف الواحد فتلخص من ذلك سبعة

فروق .

4- قصة انقطاع الوحي لفترة محدودة :

(333/473)

ولا بد هنا من تفصيل قصة انقطاع الوحي فقد ذكر الرواة أن قريشا لجأت إلى وسيلة رهيبة لتكافح بها تأثير القرآن فأوفدت إلى يهود يثرب فدا يسألها عن الوسائل التي تستطيع أن تقاوم بها هذا الذي جاء به محمد فطلب منهم اليهود أن يسألوا النبي عن أمور فلما عادوا إلى مكة ذهبوا اليه وقالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ فقال لهم النبي :

- أخبركم عما سألتم غدا .

وكان رسول اللّه ينتظر أن ينزل عليه وحي فيه جواب ما سألت عنه قريش ولكن الوحي أبطأ على النبي خمسة عشر يوما وطارت قريش فرحا بعجزه عن الجواب وقالت وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه وقد أحزن النبي انقطاع الوحي عنه حزنا شديدا وزاد في قلقه ما كان يتكلم به أهل مكة وفي ختام هذا

اليوم نزل جبريل فابتدره بقوله :

- لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظنا فرد عليه جبريل بالآية الكريمة : " وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا " ثم أخذ جبريل يلقن النبي سورة " الكهف " وفيها - كما سيأتي - رد على ما سألت قريش وتفصيل رائع لكثير من الأمور التي تشغل الأذهان إذ ذاك وقد أخذت عليهم إجابات سورة الكهف السبيل فلم يحيروا ردا ولا جوابا .

[سورة الكهف (18) : الآيات 27 إلى 28]

(334/473)

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27)
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28)

اللغة :

(مُلْتَحَداً) : ملتجأ تجنح اليه لائذا إن هممت بالتبديل للقرآن وفي المصباح : " قال أبو عبيدة : ألحد إلحادا جادل وماري ولحد جار وظلم وألحد في الحرم استحل حرمته وانتهكها

والملتحد بالفتح اسم الموضع وهو الملجأ " وفي القاموس : " التحد عن الدين بمعنى ألحد والتحد إلى كذا مال والتحد إلى فلان التجأ " .

(وَلا تَعْدُ عَيْناكَ) لا تنصرف يقال عداه إذا جاوزه ومنه قولهم عدا طوره وجاءني القوم عدا زيد فحق الكلام أن يقال بالنصب أي لا تعد عينيك وانما عدل إلى الرفع لأنه أراد صاحب العينين فهو من المجاز وسيأتي مزيد شرح له في باب البلاغة .

(فُرُطاً) : بضمتين أي مجاوزا الحد وقد تقدم شرح هذه المادة مفصلا .

الاعراب :

(وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ) الواو عاطفة واتل فعل أمر مني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت وما مفعول به وجملة أوحي صلة وإليك متعلقان بأوحي ومن كتاب ربك حال من ما .

)

(335/473)

لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً) لا نافية للجنس ومبدل اسمها مبني على الفتح ولكلماته خبر والجملة حالية ولن تجد عطف ومن دونه حال وملتحدا مفعول به . (وَاصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) واصبر عطف وهو فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت ونفسك مفعول به ومعنى الصبر هنا حبس النفس وتثبيتها وفي المختار : الصبر حبس النفس عن الجزع وبا به ضرب وصبره حبسه قال تعالى : " واصبر نفسك " وقال أبو ذؤيب يرثي ابنه :

فصبرت عارفة لذلك جسرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

أي حبست نفسا عارفة لذلك البلاء وضمّن عارفة معنى صابرة فعداه باللام وجسرة أي قوية صلبة ويروى حرة تسكن إذا طلعت نفس الجبان من مستقرها وطارت شعاعا . ومع الذين ظرف مكان متعلق باصبر وجملة يدعون ربهم صلة وربهم مفعول به وبالغداة والعشي متعلقان بيدعون وجملة يريدون وجهه حال . (وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا) عطف على واصبر ولا ناهية وتعد مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف حرف العلة وعيناك فاعل وعنهم متعلقان بتعد وجملة تريد زينة الحياة الدنيا حال والدنيا صفة وسيأتي القول مفصلا عنها في باب الفوائد . (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) الواو عاطفة على ما تقدم ولا ناهية وتطع مجزوم بها والفاعل مستتر ومن مفعول به وجملة أغفلنا صلة وقلبه مفعول به وعن

ذكرنا متعلقان بأغفلنا واتبع هواه فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به والواو عاطفة وكان واسمها وخبرها .

البلاغة :

المجاز العقلي :

(336/473)

في قوله " ولا تعد عيناك " مجاز عقلي لأنه أسند فعل عدا أي تجاوز إلى العينين ومن حقه أن يسندهما إليه لأن عدا متعد بنفسه كما تقدم وانما جنح إلى المجاز لأنه أبلغ من الحقيقة فكأن عينيه ثابتتان في الرنو إليهم وكأنما أدركتا ما لا تدركان وأحستا بوجوب النظر إلى هؤلاء وصبر النفس ورياضتها على ملازمتهم .

وقيل هو من باب التضمين فقد ضمن عدا معنى نبا وعلا من قولهم نبت عينه عنه إذا اقتحمته ولم تعلق به والغرض من هذا التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى مفرد أي لا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم وهو جميل أيضا .

الفوائد :

القاعدة في اسم التفضيل انه إذا كان مقترنا بأل امتنع وصله بمن الجارة فلا يقال فلان الأفضل من فلان ووجبت مطابقته لما قبله إفرادا وتثنية وجمعا وتذكيرا وتأنيثا وقد شذ وصله بمن في قول الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

وإذا تجرد من أل والاضافة فلا بد من إفراده وتذكيره في جميع

أحواله وأن تتصل به من الجارة ولو تقديرا نحو قوله تعالى " وللآخرة خير وأبقى " .

وإذا أضيف إلى نكرة وجب إفراده وتذكيره وامتنع وصله بمن الجارة .

وإذا أضيف إلى معرفة امتنع وصله بمن الجارة وجاز فيه وجهان :

الإفراد والتذكير كالمضاف إلى نكرة ومطابقته لما قبله وقد ورد الاستعمالان في القرآن فمن الأول " ولتجدنهم أحرص الناس على حياة " ولم يقل أحرصي الناس ومن الثاني " وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها " .

حكم الدنيا : هذا والقياس أن تأتي الدنيا بالألف واللام لأنها صفة في الأصل على وزن فعلى والمذكر الأدنى له فمن حقها المطابقة كما أتت في الآية التي نحن بصددها على أنهم استعملوها استعمال الأسماء فهم لا يكادون يذكرون معها الموصوف فاستعملوها بغير ألف ولام كسائر الأسماء قال العجاج :

يوم ترى النفوس ما أعدت من نزل إذا الأمور غبت

في سعي دنيا طالما قد مدت حتى انقضى قضاؤها فأدت

وقال بشامة بن حزن النهشلي وقيل للمرقش الأكبر :

وإن دعوت إلى جلى ومكرمة يوما سراة كرام الناس فادعينا

فقيل جلى مؤنث أجل على حد الأكبر والكبرى وبذلك يجري مجرى دنيا في سيرورة الاستعمال استعمال الأسماء وقيل هو مصدر

كالرجعى والبشرى بمعنى الرجوع والبشارة فأما قول أبي نواس الحسن ابن هانىء يصف الخمر :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

فقد عابه بعضهم لكونه استعملها نكرة وهذا الضرب من الصفات لا يستعمل إلا معرفة والاعتذار عنه انه استعملها استعمال الأسماء لكثرة ما يجيء منه بغير تقدم موصوف ويجوز أن يكون لم يرد فيه التفضيل بل معنى الفاعل كأنه قال كأن صغيرة وكبيرة من فواقعها على حد قوله تعالى " وهو أهون عليه " وقيل ان " من " المذكورة زائدة وكبرى مضافة إلى فواقعها لكن يرد على هذا أن زيادة من في الموجب لا تجوز .

وقال ابن الأثير في المثل السائر : " ألا ترى أن أبا نواس كان معدودا في طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه فقال في صفة الخمر :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وهذا لا يخفى على أبي نواس فإنه من ظواهر علم العربية وليس من غوامضه في شيء لأنه أمر نقلي يحمله ناقله فيه على النقل من غير تصرف وقول أبي نواس " صغرى وكبرى " غير جائز فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها وانما يجوز حذفها من فعلي التي لا أفعل لها نحو حبلى إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة وها هنا قد عريت عن الاضافة وعن الألف واللام فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته " .

(338/473)

ورد ابن أبي حديد في كتاب " الفلك الدائر " على هذا القول بأن قال : " لا ينكر أن كثيرا من أئمة العربية طعن في هذا البيت ولكن انتصر لأبي نواس كثير منهم فقالوا : وجدنا فعلى أفعل في غير موضع واردة بغير لام ولا إضافة ولا من مثل دنيا في قول الراجز : في سعي دنيا طالما قد مدت ، وقول الآخر : وإن دعوت إلى جلى ومكرمة ، وقول الآخر لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة ، وقالوا : طوبى لك . وفي البيت وجه آخر وهو أن تكون من في قوله من فواقعها زائدة على مذهب أبي الحسن الأخفش في زيادة من في الواجب فإنه يذهب إلى ذلك ويحتج بقوله تعالى : " فيها من برد " أي فيها برد وهذا يرجح أن يكون صغرى وكبرى في

البيت مضافتين " .

وقال الشيخ بهاء الدين بن النحاس : هذا عجيب من مثل هذا الرجل الفاضل أما إيراده دنيا وأخواتها فكل وجوهها مذكورة في كتب النحاة بما يغني عن الإطالة بذكره بخلاف صغرى وكبرى ، وأما قوله بزيادة من فكأنه يظن أن من إذا كانت زائدة كان الجر بالإضافة أو كانت الإضافة باقية وهذا لا وجه له وإنما الجر بحرف الجر لأن حروف الجر لا تعلق وأما زيادة حرف الجر بين المتضايفين فلم يقل به إلا في مثل لا أبا لك على شذوذ وليس هذا منه ولا يريد الأخفش بقوله ان من تزاد في الواجب ما أراد ابن أبي الحديد " ومثله قول العروضيين فاصلة صغرى وفاصلة كبرى أي صغيرة وكبيرة لا يريدون التفضيل وانما يريدون الاسم وقول أبي تمام يصف الربيع :

دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هي منظر

غلبت الاسمية عليها حتى لم يعد يلمح لأصل التفضيل فيها .

وننتهز الفرصة لنورد أبياتا من القصيدة التي منها هذا البيت لأبي نواس لحسنها ، ومطلعها :

ساع بكأس إلى ناس على طرب كلاهما عجب في منظر عجب

قامت تريني وستر الليل منسدل صبحا تولد بين الماء والعنب

كأن صغرى وكبرى . . . . البيت وبعده

كأن تركا صفوفا في جوانبها تواتر الرمي بالنشاب من كثب

في كف ساقية ناهيك ساقية في حسن قدّ وفي ظرف وفي أدب

[سورة الكهف (18) : الآيات 29 إلى 31]

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (30) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31)

اللغة :

(أَعْتَدْنا) : أعددنا وهيأنا وفي القاموس " عتّد وأعتد الشيء :

هيأه وأعده وعتد الشيء يعتد من باب ظرف وجمل عتادا تهيأ ، وتعتد في صنعته تأنّق فيها والعتاد : ما أعد لأمر ما ، وكل ما هيء من سلاح وآلة حرب والجمع أعتد وعتد وأعتدة " .

(سُرادِقُها) : السرادق بضم السين وكسر الدال : الفسطاط الذي يمد فوق صحن البيت والخيمة والغبار والدخان المرتفع المحيط بالشيء والجمع سرادقات وفي الكشاف : " شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط وبيت مسردق ذو سرادق وقيل هو دخان يحيط بالكفار قبل دخول النار وقيل حائط من نار يطيف بهم "

وقال الراغب : " السرادق : فارسي معرب وليس في كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه ألف بعدها حرفان إلا هذا وفي المختار : السرادق مفرد والجمع سرادقات الذي يمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف أي قطن فهو سرادق ويقال بيت مسردق .

قال الجوهري : والسرادق واحد السرادقات وهي التي تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف فهو سرادق ومنه قول رؤبة :

(340/473)

يا حكم بن المنذر بن جارود سرادق المجد عليك ممدود

وقال الشاعر :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان ابن المنذر تحت أرجل الفيلة .

(المهل) : بضم الميم اسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد والصفر ، ما كان منها ذائبا ، القطران الرقيق ، الزيت الرقيق ، السم ، القيح أو صديد الميت خاصة ، ما يتحات عن الخبز من الرماد وقيل هو كعكر الزيت أي ما بقي في الإناء منه والخلاصة هو اسم جامع لكل المستقذرات التي تغثى منها النفس وتتألم وتنفر .

(مُرْتَفَقاً) : تقدم ذكر هذه المادة في هذه السورة وهي هنا متكأ من المرفق وهذا لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا الآتي وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء وقد يكون من وادي قوله :

إني أرقت فبت الليل مرتفقا كأن عيني فيها الصاب مذبوح

والارتفاق الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد وهي هيئة المتحزن المتحسّر ، والصاب نبت مرّ كالحنظل ، والمذبوح المشقوق وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع والبيت لأبي ذؤيب الهذلي .

(السندس) : ما رقّ من الديباج .

(الاستبرق) : ما غلظ من الديباج والإستبرق يونانية والسندس فارسية وقيل هندية وقد تقدم ذكرهما في جدول أحصينا فيه الألفاظ الأعجمية .

الاعراب :

)

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) الحق خبر لمبتدأ محذوف ومن ربكم حال ويجوز أن يكون الحق مبتدأ ومن ربكم خبره ، فمن شاء الفاء استئنافية ومن شرطية مبتدأ وشاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاعل مستتر تقديره هو والفاء رابطة للجواب لأن الجملة طلبية واللام لام الأمر ويؤمن مضارع مجزوم بلام الأمر ومن شاء فليكفر عطف على سابقتها . (إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ نارا أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها) إن واسمها وجملة أعتدنا خبرها وللظالمين متعلقان بأعتدنا ونارا مفعول به وأحاط بهم سرادقها الجملة صفة لنار ، وأحاط فعل ماض وبهم متعلقان بأحاط وسرادقها فاعل أحاط . . (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ) الواو عاطفة وإن شرطية ويستغيثوا فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل ويغاثوا جواب الشرط وبماء متعلقان بيغاثوا وكالمهل صفة لماء وجملة يشوي الوجود صفة ثانية أو حال والوجوه مفعول به . (بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً) بئس فعل ماض جامد من أفعال الذم ، والشراب فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي هي وساءت عطف على بئس ومرتفا تمييز محول عن الفاعل أي مرتفقها ولا تلتفت لمن أعربها مصدرا . (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) إن واسمها وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على

آمنوا ، إنا لا نضيع يجوز أن تكون هذه الجملة خبر إن أو يجوز أن تجعلها معترضة وان واسمها وجملة لا نضيع خبرها وفاعل نضيع مستتر تقديره نحن وأجر مفعول

(342/473)

به ومن موصول مضاف اليه وجملة أحسن صلة وعملا تمييز ويجوز أن يكون مفعولا به وفاعل أحسن ضمير هو الرابط إذا جعلت إنا لا نضيع خبر إن الذين أو الرابط هو تكرر الظاهر بمعناه . (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ) الجملة خبر ثان لإن الذين أو خبر إذا جعلت جملة إنا لا نضيع معترضة وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وجنات عدن مبتدأ مؤخر والمبتدأ الثاني وخبره خبر أولئك وجملة تجري من تحتهم الأنهار حال من جنات أو صفة لها فصار لهم بذلك نوعان من الثواب من خمسة أنواع والثلاثة الباقية هي : (يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيابًا خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ) يحلون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وفيها حال أي حال كونهم في الجنة أو متعلقان بيحلون ومن أساور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول محذوف أي حليا من ذهب ، ومن ذهب صفة لأساور ويلبسون عطف على يحلون والواو فاعل وثيابا مفعول به وخضرا صفة ومن سندس صفة أو حال من ثيابا وإستبرق عطف على

سندس ومتكئين حال من أولئك وفيها حال أيضا فهي متداخلة وعلى الأرائك متعلقان بمتكئين فتمت بذلك النعم السوابغ الخمس . (نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) تقدم اعراب نظيرتها فجدد به عهدا .

البلاغة :

في هذه الآيات فنون كثيرة من البلاغة تقدم ذكر معظمها فنكتفي بالاشارة إليها :

1- التهكم :

في قوله تعالى " يغاثوا بماء كالمهل " فقد سمى أعلى أنواع العذاب

إغاثة والإغاثة هي الإنقاذ من العذاب تهكما بهم وتشفيا منهم والتهكم فن طريف من فنونهم من تهكمت البئر إذا تهدمت أو من التهكم بمعنى الغضب الشديد أو الندم على أمر فائت فالبشارة فيه إنذار والوعد معه وعيد والإجلال للمخاطب المتهكم به تحقير وهذه الآية من أحسن شواهده إذ جعل الإغاثة ضد الإغاثة نفسها ففيه إلى جانب التهكم مشاكلة أيضا وقد افتتن الشعراء بهذا المعنى وأخذه بعضهم بلفظه فأجاد من جهة وأسف من جهة التركيب وذلك بقوله يهجو بخيلا :

أبات الضيوف على سطحه فبات يريهم نجوم السماء

وقد فتت الجوع أكبادهم وان يستغيثوا يغاثوا بماء

وقد برع فيه من شعرائنا ابن الرومي وأوردنا نماذج من تهكمه ونورد الآن أبياتا له يتهكم فيها بصاحب لحية طويلة :

ارع فيها الموسى فإنك منها يشهد اللّه في اثام كبير

أيما كوسج يراها فيلقى ربه بعدها صحيح الضمير

هو أحرى بأن يشك ويغرى باتهام الحكم في التقدير

لحية أهملت فسالت وفاضت فإليها تشير كف المشير

ما رأتها عين امرئ ما رآها قط إلا أهلّ بالتكبير

روعة تستخفه لم يرعها من رأى وجه منكر ونكير

فاتق اللّه ذا الجلال وغيّر منكرا فيك ممكن التغيير

أو فقصّر منها فحسبك منها نصف شبر علامة التذكير

ومغالطته بادية من دخيلة إحساسه بهيبة اللحية حتى البحتري لم تسلم لحيته من هجوه إذ يقول :

البحتري ذنوب الوجه تعرفه وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

2- التشبيه المؤكد :

في قوله تعالى " إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها " فقد شبه النار المحيطة بهم بالسرادق المضروب على من يحتويهم وأضيف السرادق إلى النار فذلك هو التشبيه المؤكد وهو أن يضاف المشبه إلى المشبه به كقول بعضهم :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

(344/473)

فقد أضاف الأصيل وهو المشبه إلى الذهب وهو المشبه به كما أضاف الماء الذي هو المشبه إلى اللجين الذي هو المشبه به وقد رمقه شوقي فقال في وصف دمشق :

دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان

والمراد بالتشبيه المؤكد قوله لجين الماء أما حواشيها زمردة والشمس عقيان فهو من التشبيه البليغ المضمر الأداة .

3- المشاكلة :

وذلك في قوله " وساءت مرتفقا " فقد ذكر الارتفاق مشاكلة لقوله فيما بعد في وصف أهل الجنة " وحسنت مرتفقا " لأن ارتفاق

اليد في النار لا يصح بل فيها العذاب والضرر وقد ذكرنا في باب اللغة انه يجوز أن يكون

الارتفاق ناشئا عن الهم والعذاب كقول الهذلي المتقدم فلا مشاكلة ومن طريف المشاكلة قول بعضهم وقد دعاه إخوانه إلى صبوح وليس لديه ثياب يلبسها فكتب إليهم :

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة وأتى رسولهم إليّ خصيصا

قالوا التمس شيئا نجد لك طبخة قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

ومن المفيد أن نشير إلى تأنيث حسنت وساءت وذلك على المعنى أي ساءت النار مرتفقا وحسنت الجنة مرتفقا .

4- الاستتباع :

وهو فن جميل يتقصى الشيء الذي تتصدى للكتابة عنها باستقصاء الأوصاف المحيطة به والملائمة له فلا يكاد المتكلم يذكر معنى من المعاني أو يتناول غرضا من الأغراض حتى يستتبع معنى آخر من جنسه يقتضي زيادة في وصفه فقد ذكر تعالى الجنة جزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات فوصفها بأن الأنهار تجري خلالها من تحتهم ثم ذكر الأساور حلية لهم ونكرها لإبهام أمرها في الحسن وجمع بين السندس والإستبرق وهما ما رقّ وغلظ من ألبسة الحرير على عادة المترفين الذين يعدون ثيابا للصيف تصلح له وللشتاء لباسا أخرى تلائم حالات البرد الشديد وخص الاتكاء بالذكر لأنه هيئة المنعّمين المترفين المسترخين على المقاعد والسرر في الابهاء الممتعة والقصور المنيفة فسبحان قائل هذا الكلام .

و من الاستتباع في الشعر قول المتنبي :

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

فقد استتبع مدحه بالشجاعة مدحه بأنه سبب لصلاح الدنيا حيث جعلها مهنأة بخلوده لأنه سبب عمرانها ومثله قوله أيضا :

الى كم ترد الرسل عما أتوا به كأنهم فيما وهبت ملام

فقد مدح سيف الدولة بالشجاعة أيضا واستتبع في باقي البيت مدحه بالكرم لعصيان الملام في الهبات والمعنى انك تردهم عما يطلبون من الهدنة ردك لوم اللائمين لك في العطاء أي كما انك لا تصغي إلى ملامة لائم في سخائك فكذلك لا تقبل الهدنة وهذا من أروع ما تبتكره الأذهان ومن الفائدة أن نورد أبياتا مختارة من هذه القصيدة التي قالها في مديح سيف الدولة وقد وردت عليه رسل الروم يطلبون الهدنة في سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وأولها :

أراع كذا ؟ كل الملوك همام وسح له رسل الملوك غمام ؟

يقول هل راع ملك جميع الملوك كما أرى من روعك إياهم وهل تقاطرت الرسل على ملك كما تقاطرت عليك جعل توالي الرسل عليه كسح الغمام وفي البيت براعة استهلال لأنه أشار فيه وهو مطلع القصيدة إلى موضوع الرسل ، ثم قال :

ودانت له الدنيا فأصبح جالسا وأيامها فيما يريد قيام

إذا زار سيف الدولة الروم غازيا كفاها لمام لو كفاه

لمام فتى يتبع الأزمان في الناس خطوه لكل زمان في يديه

زمام تنام لديك الرسل أمنا وغبطة وأجفان رب الرسل ليس

تنام حذارا لمعروري الجياد فجاءة إلى الطعن قبلا ما لهن

لجام تعطف فيه والأعنة شعرها وتضرب فيه والسياط

كلام إلى كم ترد الرسل عما أتوا به كأنهم فيما وهبت

ملام وإن كنت لا تعطي الذمام طواعة فعوذ الأعادي بالكريم

ذمام وإن نفوسا أممتك منيعة وإن دماء أملتك حرام

وفيها يقول :

وشر الحمامين الزؤامين عيشة يذل الذي يختارها ويضام

فلو كان صلحا لم يكن بشفاعة ولكنه ذل لهم وغرام

[سورة الكهف (18) : الآيات 32 إلى 44]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36)

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (37) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً (39) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41)

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (43) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً (44)

اللغة :

(أَعْنابٍ) : جمع عنب والعنبة الحبة وفي القاموس وغيره :

عنّب الكرم : صار ذا عنب والعنب ثمر الكرم وجمعه أعناب والحبة منه عنبة .

(وَحَفَفْنَاهُمَا) : جعلنا النخل محيطا بكل منهما . يقال : حفه القوم إذا طافوا به وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولا ثانيا كقولك غشيه وغشيته به وفي الأساس : " حفّوا به واحتفّوا أطافوا وهم حافون به وحففته بالناس : جعلتهم حافّين به و" حفّت الجنة بالمكاره " " وحففناهما بنخل " ودخلت عليه وهو محفوف بخدمه ، وهودج محفف بالديباج ، قال امرؤ القيس :

رفعن حوايا واقتعدن قعائدا وحفّفن من حوك العراق المنمّق

وجلسوا حفافيه وحفافي سريره وهما جانباه وركبت في محفتها ، وهو رجل محفوف بثوب ، وما بقي في شعر رأسه إلا حفاف وهو طرّة حول رأسه وحفّت المرأة وجهها واحتفّته : أخذت شعره ، وحفّ الفرس والريح والطائر والسهم حفيفا وهو صوت مروره والأغصان الشجرة حفيف " .

(ثَمَرٌ) : أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثره بالتشديد وفي المصباح : الثمر بفتحتين والثمرة مثله فالأول مذكر ويجمع على ثمار مثل جبل وجبال ثم يجمع على ثمر ككتاب وكتب ثم يجمع على أثمار مثل عنق وأعناق والثاني مؤنث والجمع ثمرات مثل قصبة وقصبات والثمر

هو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أو لا فيقال ثمر الأراك وثمر العوسج وثمر الدوم وهو المقل كما يقال ثمر النخل وثمر العنب ، قال الأزهري : وأثمر الشجر أطلع ثمره أول ما يخرجه فهو مثمر ومن هنا قيل لما لا نفع فيه : ليس له ثمرة وفي الأساس : " وكان له ثمر " أي مال وانظر ثمر مالك ونماءه ومال ثمر : مبارك فيه وأثمر القوم وثمروا ثمورا : كثر مالهم وثمر ماله يثمر كثر وفلان مجدود ما يثمر له مال " والمراد في الآية انه كان إلى جانب الجنتين الموصوفتين الأموال الداثرة من الذهب والفضة وغيرهما وكان وافر اليسار من كل وجه .

(348/473)

(حُسْبَاناً) : إما أن تكون مصدرا كالغفران والبطلان فإن لحسب مصادر عديدة تقول حسبه بفتح السين يحسبه بضمها حسبا وحسابا وحسبانا وحسبانا وحسبة وحسابة : عده ، وتقول : حسبه بكسر السين يحسبه بكسرها وفتحها حسبانا ومحسبة ومحسبة : ظنه ، وتقول حسب بضم السين يحسب بضمها أيضا حسبا وحسابة :

كان ذا حسب وذا كرم فهو حسيب ، فإلى أي الفروع ينتمي هذا المصدر ؟ واضح مما تقدم أنه ينتمي إما إلى حسب يحسب بمعنى العد والمعنى عندئذ يرسل عليها مقدارا من العذاب قدره اللّه وحسبه وهو تخريبها والإطاحة بها وذلك الحسبان حساب ما كسبت

يداه واما إن تكون حسبانا جمع حسبانة بضم الحاء وهي السهم أو الصاعقة وقال الزجاج عذاب حسبان وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك .

(زَلَقاً) : صفة لصعيدا أي ملساء لا تثبت عليه القدم وفي القاموس : الزلق بفتحتين والزلق بفتح فسكون أرض ملساء ليس بها شيء وصيرورتها كذلك لاستئصال نباتها .

(غَوْراً) : مصدر غار في الأرض أي ذهب فلا سبيل اليه فهو بمعنى الفاعل أي غائرا في الأرض لا يدرك وزاد أبو نصر غئورا وغارت عينه تغور غئورا وغارت الشمس تغور غئورا أيضا والغور الاسم يقال : سقطت في الغور يعني الشمس وغار الرجل يغور غورا إذا أتى الغور وزاد اللحياني : وأغار أيضا وأنشد بيت الأعشى :

نبيّ يرى مالا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا

فهذا على ما قال اللحياني وكان الكسائي يقول : هو من الاغارة وهي السرعة وكان الأصمعي يقول : أغار ليس هو من الغور إنما هو بمعنى عدا وقال اللحياني : يقال للفرس إنه لمغوار أي شديد العدو والجمع مغاوير والتفسير الأول الوجه لأنه قال وأنجدا فانه أراد أن الغور وأتى نجدا والغور تهامة وغار فلان على أهله يغار غيره ورجل عيور من قوم غير وامرأة غيرى من نساء غيارى وقال الأصمعي :

فلان شديد الغار على أهله أي شديد الغيرة وزاد اللحياني والغير ، وقال أبو نصر : أغار فلان على بني فلان يغير إغارة وقال اللحياني يقال للرجل : إنه لمغوار أي شديد الإغارة والجمع مغاوير وقال أبو نصر :

يقال غارهم يغيرهم إذا مارهم والغيار المصدر قال عبد مناف بن ربعي الهذلي :

ما ذا يضير ابنتي ربع عويلهما لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقدا

يريد انه لا يغني بكاؤهما على أبيهما من طلب ثأره شيئا .

وقال أبو نصر : الغاران البطن والفرج يقال المرء يسعى لغاريه أي لبطنه وفرجه وقال أبو عبيدة : يقال لفم الإنسان وفرجه الغاران ، وقال أبو نصر : الغار كالكهف في الجبل ويقال في أمثالهم " عسى الغوير أبؤسا " وأصله انه كان غار فيه ناس فانهار عليهم أو أتاهم فيه عدو فقتلوهم فيه فصار مثلا لكل ما يخاف منه الشر وقيل ان الغوير اسم ماء بناحية السماوة قالته الزباء لما رأت قصيرا الذي جاء يأخذ بثأر جذيمة الأبرش عن طريق الغوير والغوير تصغير غار وخلاصة معنى المثل عسى أن يكون جاء البأس من الغار وحسبنا ما تقدم فهذه المادة لا يدرك غورها .

(خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها) : العروش في المصباح : " العرش شبه بيت من جريد يجعل فوقه الثمام والجمع عروش " فهو في الأصل صنع ليوضع عليه الكرم فإذا سقط سقط ما عليه

وقد تقدم تقريره .

(الْوَلَايَةُ) : بفتح الواو وبكسرها الملك والقهر والسلطة .

الاعراب :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ) تقدم في سورة البقرة أن ضرب مع المثل يجوز أن يتعدى لاثنين لأنه بمعنى الجعل فاضرب فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولهم متعلقان باضرب ومثلا مفعول به ورجلين لك أن تجعلها بدلا من مثلا فيكون لهم بمثابة المفعول الثاني ومثلا هو المفعول الأول ولك أن تجعل رجلين هي المفعول الثاني وسيأتي حديث الرجلين . (جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا

(350/473)

بَيْنَهُما زَرْعاً)

جملة جعلنا صفة لرجلين ولأحدهما مفعول ثان لجعلنا وجنتين مفعول أول ومن أعناب صفة لجنتين وحففناهما عطف على جعلنا وهو فعل وفاعل ومفعول به وبنخل متعلقان بحففناهما وجعلنا بينهما زرعا عطف على ما تقدم وقد تقدم إعراب نظيرتها . (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً) كلتا مبتدأ وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف

لأنه اسم مقصور وسيأتي حكم كلا وكلتا في باب الفوائد وجملة آتت أكلها خبر كلتا وقد روعي لفظها فأتى الخبر مفردا ولم تظلم عطف على آتت ومنه حال لأنه كان صفة لشيئا وشيئا إما مفعول به على أن تظلم بمعنى تنقص أو مفعول مطلق وقد تقدم تحقيق ذلك .

ومن نوادر كلام العرب : قيل لأعرابي : أتأكل العنب ؟ قال : ما ظلمني أن آكله أي ما منعني قال أبو عثمان سعيد بن هارون الاشناندانى : ومنه قول اللّه عز وجل : " ولم تظلم منه شيئا " أي لم تمنع . (وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً) فجرنا فعل وفاعل وخلالهما ظرف متعلق بفجرنا ونهرا مفعول به .

)

(351/473)

وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ) الواو عاطفة وكان فعل ماض ناقص وله خبر كان المقدم وثمر اسمها المؤخر فقال عطف على وكان ولصاحبه متعلقان بقال والواو للحال وهو مبتدأ وجملة يحاوره خبر والجملة حالية والمراد به أحدهما . (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَراً) الجملة مقول القول وسيأتي أنه قال ثلاث قولات منافية للحق في باب البلاغة وأنا مبتدأ وأكثر خبر ومنك متعلقان بأكثر ومالا تمييز وأعز نفرا عطف على أكثر مالا . (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ

وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً) ودخل جنته فعل وفاعل ومفعول به على السعة وهو الواو للحال وهو مبتدأ وظالم خبر والجملة حالية ولنفسه متعلقان بظالم ، وقال فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو وجملة ما أظن مقول القول وان وما بعدها سدت مسد مفعولي أظن وهذه فاعل تبيد وأبدا

طرف زمان متعلق بتبيد . (وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً) وما أظن عطف على ما أظن الأولى والساعة مفعول به أول وقائمة مفعول به ثان وأراد وهو منكر للبعث : ما أحسب الساعة قائمة كما تزعم ، كما أن شكه في بيدودة جنته وأمواله ناشىء عن طول اغتراره وهيمنة الحرص عليه ، ولئن الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وان شرطية ورددت فعل ماضي مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط والتاء نائب فاعل ولأجدن اللام واقعة في جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم كما هي القاعدة على حد قول صاحب الخلاصة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

و خيرا مفعول به لأجدن ومنها متعلقان بخيرا ومنقلبا تمييز أي مرجعا فهو مصدر ويجوز أن نعرب خيرا حال ومنقلبا مفعول أي منقلبا خيرا من منقلب هذه الدنيا . (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) قال فعل ماض وله متعلقان به وصاحبه فاعل والواو للحال وهو مبتدأ وجملة يحاوره خبر والهمزة للاستفهام التوبيخي والتقريعي وكفرت فعل وفاعل وبالذي متعلقان بكفرت وجملة خلقك صلة ومن تراب جار ومجرور متعلقان بخلقك وثم من نطفة عطف ، وثم حرف عطف وسواك فعل ماض وفاعل مستتر والكاف مفعول به ورجلا حال وإنما ساغ مجيئه حالا وهو غير مشتق لأنه بعد سواك إذ كان من الجائز أن يسويه غير رجل وسيأتي بحث ذلك مفصلا في باب الفوائد ويجوز أن يعرب مفعولا

ثانيا لسواك ، وأعربه بعضهم تمييز . (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) لكنا الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة المحذوفة على النون وأدغمت النون في النون والجيد حذف الألف في الوصل وإثباتها في الوقف لأن أنا كذلك والألف فيه زائدة لبيان الحركة وانا مبتدأ وهو أي ضمير الشأن مبتدأ ثان والله مبتدأ ثالث وربي الخبر والياء عائدة على المبتدأ الأول ولا يجوز أن تكون لكن المشددة لعاملة نصبا إذ لو كان كذلك لم يقع بعدها هو لأنه ضمير مرفوع ويجوز أن يكون اسم الله بدلا من هو ومثل هذا التركيب قول القائل :

وترميني بالطرف أي أنت مذنب وتقلينني لكن إياك لا أقلى

و لكن أصله لكن أنا فنقلت حركة الهمزة إلى النون ثم حذفت ثم أدغمت النون في النون بعدها وحذفت الألف الأخيرة في الرسم كاللفظ ولو أجرى الوصل مجرى الوقف لثبتت وقدم المفعول وهو إياك للاهتمام ببراءتها من قلاه وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء وواضح ان قوله ترميني بالطرف استعارة تصريحية لأنه شبه اطلاق البصر بإطلاق الحجر . والواو استئنافية ولا نافية وأشرك فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وبربي متعلقان بأشرك وأحدا مفعول به .

(وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) ولو لا الواو عاطفة ولو لا حرف تحضيض أي هلا وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بقلت وما شاء اللّه ما موصولة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أي هذا الذي شاءه اللّه من بدائع الجمال وتهاويل النعم وتعاجيب المنن والآلاء أو نعرب ما مبتدأ والخبر محذوف تقديره كان والجملة مقول القول وجملة شاء

اللّه صلة والعائد محذوف كما قدرناه ويجوز أن تكون شرطية منصوبة الموضع بفعل الشرط والجواب محذوف أي كان والمعنى أي شيء شاءه اللّه كان والجملة كلها مقول القول

ولا نافية للجنس وقوة اسمها المبني على الفتح وإلا أداة حصر وبالله خبر لا . (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَوَلَداً) إن شرطية وترني فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والنون للوقاية والياء مفعول به وحذفت في رسم المصحف وأنا ضمير فصل وأقل مفعول به ثان لترني ويجوز أن تعرب أنا توكيدا للياء ومنك متعلقان بأقل ومالا تمييز وولدا عطف عليه . (فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ) الفاء رابطة لجواب الشرط لأنه اقترن بفعل الرجاء وهو جامد وقد تقدمت مواضع وجوب ربط الجواب بالفاء المجموعة في قول بعضهم :

اسمية طلبية وبجامد وبما ولن وبقد وبالتنفيس

(354/473)

و ربي اسم عسى وان وما في حيزها في محل نصب خبرها وخيرا مفعول ثان ليؤتيني ومن جنتك متعلقان بخير . (وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً) ويرسل عطف على يؤتيني والفاعل مستتر تقديره هو وعليها متعلقان بيرسل وحسبانا مفعول به فتصبح الفاء عاطفة على ما تقدم وتصبح فعل مضارع منصوب لأنه عطف على ما تقدم واسم تصبح مستتر تقديره هي وصعيدا خبر تصبح وزلقا نعت لصعيد من باب الوصف بالمصدر . (أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً) أو حرف عطف ويصبح معطوف

على ما قبله وماؤها اسم يصبح وغورا خبرها والفاء عاطفة ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويستطيع منصوب بلن والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت وله متعلقان

(355/473)

بطلبا وطلبا مفعول به . (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها) الواو عاطفة على محذوف يقدر بحسب مدلول الكلام أي فانقضت الصواعق على جنته وغارت الأمواه فيها وأحيط بثمره بالهلاك أيضا وأحيط فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر وبثمره متعلقان بأحيط فأصبح عطف واسمها مستتر تقديره هو وجملة يقلب كفيه خبرها وعلى ما متعلقان بيقلب لأنه ضمن معنى يندم وسيأتي سر هذا التعبير في باب البلاغة ويجوز أن يتعلق الجار والمجرور بمحذوف على أنه حال من فاعل كفيه أي نادما . (وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ : يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً) الواو للحال وهي مبتدأ وخاوية خبر وعلى عروشها خبر ثان وقد تقدم إعرابه ويقول عطف على يقلب أو الواو للحال وجملة يقول حال من فاعل يقلب وجملة يا ليتني لم أشرك مقول القول ولم حرف نفي وقلب وجزم وبربي متعلقان بأشرك وأحدا مفعول به وقوله يا ليتني تقدم بحثه مرارا وهو أن تكون يا للتنبيه أو للنداء والمنادى محذوف . (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ

مُنْتَصِراً) الواو للعطف ولم حرف نفي وقلب وجزم وتكن فعل مضارع ناقص مجزوم وله خبرها المقدم وفئة اسمها المؤخر وجملة ينصرونه صفة لفئة وذكّرت الصفة وجمعت لأن الفئة تتضمن الجمع وهو يتضمن الذكور والإناث ومن دون اللّه حال والواو حرف عطف وما نافية وكان واسمها المستتر ومنتصرا خبرها . (

(356/473)

هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً) هنالك اسم اشارة في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم والولاية مبتدأ مؤخر وللّه متعلقان بما في معنى اسم الاشارة أو بمتعلقه والحق صفة للّه ويجوز أن يتعلق اسم الاشارة بمعنى الاستقرار في للّه والولاية مبتدأ وللّه خبره أي مستقرة للّه ويجوز أن يتعلق بالولاية نفسها لأنها مصدر بمعنى النصرة وهو مبتدأ

وخير خبر وثوابا تمييز وخير عقبا عطف على خير ثوابا وعقبا بمعنى عاقبة .

البلاغة :

حفلت هذه الآية بأفانين متعددة من فنون البلاغة وهذا هو التفصيل :

1- التتميم والاحتراس والكناية :

التتميم أو التمام وقد تقدم بحثه مستوفى في سورة البقرة عند قوله تعالى : " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب " الآية وهو هنا في وصف الجنتين فإن قوله تعالى " واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين " يحتمل أن تكون الجنتان مجرد اجتماع شجر متكانف يستر بظل غصونه الأرض كما تقتضيه الدلالة اللغوية على معنى الجنة أو يكون النفع منها ضئيلا كشجر الأثل والخمط ونحوهما فيكون أسفه عليها أقل من أن تكون الجنتان من نخيل وأعناب ينتفع بما تثمرانه عليه ثم تمم ذلك أيضا بقوله " وجعلنا بينهما زرعا " لئلا يتوهم أن الانتفاع قاصر على النخيل والأعناب ولتكون كل من الجنتين جامعة للأقوات والفواكه متواصلة العمار على الشكل الحسن والترتيب الأنيق ثم تمم ذلك بقوله " وفجرنا خلالهما نهرا " للدلالة على ديمومة الانتفاع بهما فإن الماء هو سر الحياة وعامل النمو الاول في النباتات وإذن فقد استكمل هذا الرجل كل الملاذّ واستوفى ضروب النعم ، ثم تمم ذلك بقوله " كلتا الجنتين آتت أكلها " لاستحضار الصورة التامة للانتفاع بالموارد واحترس بقوله " ولم تظلم منه شيئا " من أن يكون

ثمة نقص في الأكل الذي آتته وليكون كناية عن تمام الجنتين ونموهما دائما وأبدا وانهما ليستا على عادة الأشجار حيث يتم ثمرها فتؤتيه ببعض السنين دون بعض أو تأتي بالثمر ناقصا عاما بعد عام فهي فيّاضة المورد في كل حين فقد استوفى وصف الجنتين هذه الفنون الثلاثة جميعا .

2- اللف والنشر المشوش :

وذلك في قوله تعالى : " فقال لصاحبه وهو يحاوره " الآية وحاصل ما قاله هذا الكافر ثلاث مقالات شنيعة وهي : 1- أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، 2- عند ما دخل جنته متكبرا مزهوا ظالما لنفسه قال وقد رنحه الغرور " ما أظن أن تبيد هذه أبدا " ، 3- والثالثة : بادئا بالآخرة لأنها الأهم قائلا " أكفرت بالذي خلقك " وثنى بالثانية ناصحا لأنها تأتي في المرتبة بعدها فقال : " ولولا إذا دخلت جنتك " إلخ وثلث بالأولى مقرعا فقال " فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك " فهو لف ونشر مشوش وقد تقدم ذكره .

3- عودة إلى التتميم والكناية :

ثم عاد إلى التتميم فصور الاطاحة بالجنتين وبالثمر معا فقال " وأحيط بثمره " ثم وصف حالته فقال " فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها " وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لأن النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما كنى عن ذلك بعض الأنامل والسقوط في اليد .

قصة الرجلين الأخوين :

وهو أن أحد الرجلين اللذين ضرب بهما المثل وقد رويت قصتهما على طرق شتى وخلاصتها أن رجلين أخوين من بني إسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فاشترى الكافر أرضا بألف فقال المؤمن : اللهم إن أخي اشترى أرضا بألف دينار وأنا أشتري منك أرضا في الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه دارا بألف دينار ، فقال المؤمن : اللهم اني أشتري منك دارا في الجنة فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال :

(358/473)

اللهم إني جعلت ألفا صداقا للحور ثم اشترى أخوه خدما ومتاعا بألف فقال : اللهم إني اشتريت الولدان المخلدين بألف فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله وقيل غير ذلك وإنما أوردنا القصة على خلاف شرطنا في هذا الكتاب لطرافتها ولتكون نبراسا للمبدعين من الكتاب .

4- المبالغة :

وفي قوله تعالى " أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا " فن يقال له المبالغة والإفراط في الصفة كما سماها ابن المعتز والتسمية الأولى لقدامة وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده وقد جاءت المبالغة في الكتاب العزيز على ضروب نذكر ما ورد منها فيه :

أولا – فمنها المبالغة في الصفة المعدولة وقد جاءت على ستة أمثلة :

آ – فعلان كرحمن ، عدل عن راحم للمبالغة ولا يوصف به إلا اللّه ولم تنعت العرب به أحدا في جاهلية ولا إسلام إلا مسيلمة الكذاب

نعتوه به مضافا فقالوا رحمان اليمامة وأنشد شاعر من بني حنيفة يمدح به مسيلمة :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

ب – فعّال معدول عن فاعل للمبالغة كقوله تعالى " وإني لغفار لمن تاب " .

ج – وفعول عدل عن فاعل للمبالغة كغفور وشكور .

د – فعيل عدل عن فاعل للمبالغة كعليم وحكيم .

وهذه الصيغ الأربع وردت في القرآن وهناك صيغتان : مفعل كمطعن ومفعال كمطعام ومبطار .

ثانيا – إخراج الكلام مخرج الاخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة والاخبار عنه مجاز وقد جاء منه في القرآن قوله تعالى " وجاء ربك والملك صفا صفا " فجعل مجيء جلائل آياته

مجيئًا له للمبالغة .

ثالثا – إخراج الممكن من الشرط إلى الممتنع ليمتنع وقوع المشروط وقد تقدم ذكر هذا النوع في قوله تعالى " ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط " .

(359/473)

رابعا – ما كان مجازا فصار بالقرينة حقيقة كقوله تعالى " يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار " فإن قتران هذه الجملة بيكاد يصرفها إلى الحقيقة فانقلبت من الامتناع إلى الحقيقة والإمكان .

خامسا – وقسم أتى بصيغة اسم التفضيل وهو محض الحقيقة من غير قرينة كقوله تعالى " أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا " وهو الذي نحن في صدده .

سادسا – ما بولغ بصفته على طريق التشبيه كقوله تعالى " إنها نرمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر " .

المبالغة في الشعر :

هذا ما ورد من المبالغة وضروبها في الكتاب العزيز . أما هي في الشعر ففنون تتشعب وأنواع اختلفت مقاييسها ومعاييرها كما اختلفت آراء الناس فيها فمنهم من يستجيدها

ويراها الغاية القصوى في الجودة ومنهم نابغة بني ذبيان وهو القائل : " أشعر الناس من استجيد كذبه ، وضحك من رديئه " وقد أورد صاحب العمدة مثالا على ذلك ما جرى بين النابغة وحسان بن ثابت ومطالبته حسان بن ثابت بالمبالغة واتهامه بالتقصير في قوله :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وهي مشهورة مستفيضة في كتب الأدب وأورد صاحب العمدة من أبيات المبالغة التي اختلفت الآراء فيها قول امرئ القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

يعلّ به برد أنيابها إذا غرد الطائر المستحرّ

فوصف فاها بهذه الصفة سحرا عند تغير الأفواه بعد النوم فكيف تظنها أول النوم ؟ وفي أول الليل ، وقال امرؤ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

وبين المكانين بعد أيام .

وقال أيضا يصف نارها :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشبّ لقفّال

يقول : نظرت إلى نار هذه المرأة تشب لقفال والنجوم كأنها مصابيح رهبان وانما يرجع القفال من الغزو والغارات وجه الصباح فإذا رأوها من مسافة أيام وجه الصباح وقد خمد سناها وكل موقدها فكيف كانت أول الليل ؟ وشبه النجوم بمصابيح الرهبان لأنها في السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع فربما نعسوا في ذلك الوقت .

تعريف آخر للمبالغة :

وذهب قوم إلى أن المبالغة افراط في وصف الشيء الممكن عادة القريب وقوعه وسنورد من بديع المبالغة ما يستهوي الألباب فمن ذلك ما رواه أحمد بن حمدون قال : كان الفتح بن خاقان يأنس بي ويطلعني على الخاص من أموره فقال لي مرة : يا أبا عبد اللّه لما دخلت البارحة إلى

منزلي استقبلتني جارية من جواريّ فلم أتمالك دون أن قبلتها فوجدت بين شفتيها هواء لو رقد فيه المخمور صحا فكان ذلك مما يستظرف ويستملح من الفتح بن خاقان وقد اقتبسه بعضهم فقال :

سقى اللّه ليلا طاب إذ زار طيفه فأنحلته حتى الصباح عناقا

بطيب نسيم منه يستجلب الكرى ولو رقد المخمور فيه أفاقا

وذهب أبو تمام في المبالغة مذهبا عجيبا فقال وأبدع متغزلا :

تلقّاه طيفي في الكرى فتجنّبا وقبلت يوما ظله فتغضّبا

وخبر أني قد مررت ببابه لأخلس منه نظرة فتحجّبا

ولو مرت الريح الصبا عند أذنه بذكري لسب الريح أو لتعتّبا

ولم تجرمني خطرة بضميره فتظهر إلا كنت فيه مسببا

وما زاده عندي قبيح فعاله ولا الصدّ والإعراض إلا تحببا

وله أيضا :

قد قصرنا دونك الأبصار خوفا أن تذوبا

كلما زدناك لحظا زدتنا حسنا وطيبا

مرضت ألحاظ عينيك فأمرضت القلوبا

الفوائد :

1- كلا وكلتا :

كلا وكلتا لفظان يعربان إعراب المثنى إن أضيفا إلى الضمير فإن

أضيفا إلى الاسم الظاهر أعربا إعراب الاسم المقصور أي بحركات مقدرة على الألف على كل حال وهما اسمان ملازمان للاضافة ولفظهما مفرد ومعناهما مثنى ولذلك يجوز الإخبار عنهما بما يحمل ضمير المفرد باعتبار لفظهما وضمير المثنى باعتبار معناهما وقد اجتمعا في قول الشاعر :

كلاهما حين جدّ الجري بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي

إلا أن اعتبار اللفظ أكثر وبه جاء القرآن الكريم قال تعالى :

"كلتا الجنتين آتت أكلها " قال ابن هشام في مغني اللبيب : " وقد سئلت قديما عن قول القائل : زيد وعمر كلاهما قائم أو كلاهما قائمان فكتبت إن قدر كلاهما توكيد قيل قائمان لأنه خبر عن زيد وعمرو وإن قدر مبتدأ فالوجهان ، والمختار الافراد ويتعين مراعاة اللفظ في نحو :

كلاهما محب لصاحبه لأن معناه كل واحد منهما وقوله :

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

ومن الأبيات التي أتى فيها ذكر "كلتا " قول حسان بن ثابت :

إن التي ناولتني فرددتها قتلت ، قتلت ، فهاتها لم تقتل

كلتاهما حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل

أخبر عن التي بالمفرد فوحد ثم قال كلتاهما فثنى ، وما معنى كلتاهما حلب العصير ولم يذكر

إلا خمرة واحدة وأخبر عن كلتاهما بأرخاهما والصحيح الإخبار عنهما بمفرد لأنهم لحنوا من قال : كلا الرجلين قاما وكلتا المرأتين حضرتا على اللغة الفصيحة ويدل على ذلك قوله تعالى "كلتا الجنتين آتت أكلها " وأيضا فالرواية صحت في المفصل انه بكسر الميم وفتح الصاد وانما يقال مفصل بفتح الميم وكسر الصاد .

وأجاب الحريري وغيره عن هذه الاعتراضات بأن قال : أما قوله :

(362/473)

ان التي ناولتني فرددتها قتلت فانه خاطب به الساقي الذي كان ناوله كأسا ممزوجة لأنه يقال : قتلت الخمرة إذا مزجتها فكأنه أراد أن يعلمه أنه فطن لما فعله ثم انه دعا عليه بقوله : قتلت وقوله أرخاهما للمفصل يعني به اللسان وسمي مفصلا لأنه يفصل به بين الحق والباطل .

وقال أبو بكر محمد بن القاسم الانباري : اجتمع قوم على شراب فغناهم المغني البيتين المتقدمين فقال بعضهم امرأتي طالق إن لم أسأل الليلة القاضي عبيد اللّه بن الحسن عن علة هذا الشعر لم قال إن التي فوحّد ثم قال كلتاهما فثنّى فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه ومضوا يتخطون القبائل حتى انتهوا إلى بني شقرة وعبيد اللّه يصلي فلما أتم صلاته

شرحوا له وسألوه الجواب عن ذلك فقال لهم : إن التي عنى بها الخمر الممزوجة بالماء ثم قال من بعد : كلتاهما حلب العصير يريد الخمر المتحلبة من العنب ، والماء المتحلب من السحاب المكنى عنه بالمعصرات في قوله تعالى : " وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا " .

2- الحال الثابتة :

الأصل في الحال أن تكون منتقلة لأنها مأخوذة من التحول وهو التنقل وتقع ثابتة في مواضع يرجع إليها في المطولات ومنها أن يدل عاملها على تجدد ذات صاحبها وحدوثه أو تجدد صفة له : نحو " ثم سوّاك رجلا " إذ كان من الجائز أن يسويه غير رجل وقولهم خلق اللّه الزرافة يديها أطول من رجليها فيديها بدل من الزرافة بدل بعض من كل وأطول حال ملازمة من يديها ومن رجليها متعلقان بأطول لأنه اسم تفضيل وعامل الحال خلق وهو يدل على تجدد المخلوق .

[سورة الكهف (18) : الآيات 45 إلى 51]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45) الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ

الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48) وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49)

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (50) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51)

اللغة :

(هَشِيماً) : يابسا متفرق الأجزاء وقال الزمخشري الهشيم :

(364/473)

ما تهشم وتحطم الواحدة هشيمة ، وقال ابن قتيبة : كل ما كان رطبا ويبس فهو هشيم ، ويقال صارت الأرض هشيما أي صار ما عليها من النبات والشجر قد يبس وتكسّر وللهاء مع الشين فاء وعينا خاصة التكسر والتحطيم والرخاوة وكل ما هو غير مقاوم

فالهش الرخو اللين من كل شيء وخبزة هشة : رخوة المكسر ويقال فلان هشّ المكسر أي سهل الجانب فيما يطلب عنده من الحوائج يكون ذلك مدحا وذما والهشيش كالهشيم وهشر الناقة حلب ما في ضرعها أجمع وشجرة هشرة وهشور : يسقط ورقها سريعا والهيشر من الرجال الرخو الضعيف الطويل والهشم من الجبال الرخوة وتهشمت الأرض أجدبت لانقطاع المطر عنها .

(تَذْرُوهُ) : تفرقه وتنثره وذرت الريح التراب وأذرت العين دمعها وعيناه تذريان الدموع وطعنته فأذريته عن فرسه وأذراه الفرس عن ظهره رمى به وذرا حدّ نابه : انسحقت أسنانه وسقطت أعاليها ، وبلغني عنه ذرو من قول أي طرف منه وأخذ في ذرو من الحديث إذا عرّض ولم يصرح قال صخر بن حبناء :

أتاني عن مغيرة ذرو قول وعن عيسى فقلت له كذاك

(نُغادِرْ) : نترك يقال غادر وأغدره إذا تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ما غادره السيل والغديرة الشعر الذي نزل حتى طال والجمع غدائر .

الاعراب :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ) الواو استئنافية واضرب فعل أمر ولهم متعلقان باضرب ومثل الحياة الدنيا مفعول به أول والكاف مفعول به ثاني وجملة أنزلناه من السماء صفة لماء ويجوز أن تكون اضرب بمعنى اذكر فينصب مفعولا واحدا فتكون

الكاف خبرا لمبتدأ محذوف أو متعلقة بمعنى المصدر أي ضربا كماء .

)

(365/473)

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ) الفاء حرف عطف واختلط فعل ماض وبه متعلقان باختلط ونبات الأرض فاعل وسيأتي سر هذا التشبيه في في باب البلاغة . (فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) فأصبح عطف على اختلط واسم أصبح مستتر يعود على نبات الأرض وهشيما خبر أصبح وجملة تذروه الرياح صفة لقوله هشيما وكان الواو استئنافية أو حالية وكان واسمها ومقتدرا خبرها وعلى كل شيء متعلقان بمقتدرا .

(الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا) المال مبتدأ والبنون عطف على المال وزينة الحياة مضاف اليه والدنيا صفة .

(وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا) الواو استئنافية والباقيات مبتدأ والصالحات صفة وخير خبر الباقيات والتفضيل ليس على بابه لأن زينة الدنيا ليس فيها خير أو هو على بابه في زعم الجاهلين والمغرورين وعند ربك متعلقان بمحذوف حال وثوابا تمييز وخير أملا عطف على خير ثوابا . (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً)

الظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وجملة نسير مضاف إليها الظرف والفاعل مستتر تقديره نحن والجبال مفعول به وترى الأرض عطف على ما تقدم وفاعل ترى مستتر تقديره أنت والأرض مفعول به وبارزة حال لأن الرؤية بصرية . (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

الواو هنا للحال وحشرناهم فعل وفاعل ومفعول به والجملة في محل نصب حال أي نفعل التسيير في حال حشرهم ليشاهدوا بأعينهم تلك الأهوال أو الواو عاطفة وأريد بالماضي المستقبل أي ونحشرهم ومن المفيد أن نورد هنا ما قاله الزمخشري بهذا الصدد وهو : " فإن قلت لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى قلت للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظام " فلم الفاء حرف عطف ولم حرف نفي وقلب وجزم ونغادر فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره نحن ومنهم حال لأنه كان صفة لأحدا وأحدا مفعول به (عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا)

الواو عاطفة على وحشرناهم داخلة في حيزها وعرضوا فعل ماضي مبني للمجهول والواو نائب فاعل وعلى ربك متعلقان بعرضوا وصفا حال من الواو في وعرضوا . (لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجئتمونا فعل وفاعل ومفعول به ، وكما نعت لمصدر محذوف أو حال ، وخلقناكم فعل وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها وأول مرة نصب على الظرف متعلق بخلقناكم وجملة لقد جئتمونا حالية أو مقول لقول محذوف .

لَ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً)

بل حرف إضراب وزعمتم فعل وفاعل وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولن حرف نفي ونصب واستقبال ونجعل مضارع منصوب بلن وفاعله مستتر تقديره نحن والجملة خبر أن ولكم مفعول به ثان وموعدا مفعول به أول لنجعل وموعدا يحتمل الزمان والمكان وإذا كان الجعل مجرد الإيجاد كانت لكم متعلقة به وموعدا هي المفعول به .

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ

(367/473)

مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ)

الواو عاطفة ووضع فعل ماض مبني للمجهول والكتاب نائب فاعل فترى الفاء عاطفة وترى فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره أنت والمجرمين مفعول به أول ومشفقين مفعول به ثان والرؤية هنا علمية ولك أن تجعلها بصرية فتكون مشفقين حالا ومما متعلقان بمشفقين

وفيه متعلقان بمحذوف صلة الموصول .

(وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها) ويقولون عطف ويا حرف نداء وويلتنا منادى ينادون هلكتهم التي هلكوها وسيأتي مزيد بيان لهذا النداء في باب البلاغة وما اسم استفهام مبتدأ ولهذا خبره والكتاب بدل وجملة لا يغادر حالية وصغيرة مفعول به ولا كبيرة عطف على صغيرة وإلا أداة حصر وجملة أحصاها صفة لصغيرة ويجوز أن تكون مفعولا ثانية ليغادر لأنها بمعنى ترك وهي تنصب مفعولين والمراد بالاستفهام هنا مجرد التعجب من الكتاب في هذا الإحصاء الدقيق . (وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) الواو عاطفة ووجدوا فعل وفاعل وما مفعول به وجملة عملوا صلة أو ما مصدرية والمصدر المؤول مفعول به أي وجدوا عملهم وحاضرا مفعول به ثان ولا يظلم الواو حالية ولا نافية ويظلم ربك أحدا فعل وفاعل ومفعول به والجملة في محل نصب على الحال .

(وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وجملة قلنا مضافة للظرف وللملائكة متعلقان بقلنا واسجدوا فعل أمر وفاعل ولآدم متعلقان باسجدوا فسجدوا فعل وفاعل وإلا أداة استثناء وإبليس مستثنى والاستثناء منقطع وقيل متصل وقد تقدم تقرير ذلك . (كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) الجملة

مستأنفة مسوقة لبيان التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين كأنه جواب سؤال مقدر وهو لم لم يسجد فقيل : كان ، واسم كان مستتر

(368/473)

تقديره هو يعود على إبليس ومن الجن خبر ففسق عطف على كان وعن أمر ربه متعلقان بفسق (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) الهمزة للاستفهام الانكاري التعجبي وتتخذونه فعل مضارع وفاعل ومفعول به وذريته يجوز أن تكون الواو عاطفة وذريته عطف على الهاء ويجوز أن تكون بمعنى مع وذريته مفعول معه وأولياء مفعول به ثان ومن دوني متعلقان بمحذوف صفة لأولياء أو بتتخذونه وهم الواو للحال وهم مبتدأ ولكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان صفة لعدو وعدو خبرهم والجملة حال من مفعول تتخذونه أو فاعله وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم وفاعله مضمر مفسر بنكرة وللظالمين متعلقان ببدلا وبدلا تمييز ويجوز أن يتعلق للظالمين بمحذوف حال والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس البدل إبليس وذريته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 528.618﴾

(369/473)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 51 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 59 ﴾ من نفس السورة

(4/474)

قوله تعالى ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الشريك لا يستأثر بفعل أمر عظيم في المشترك فيه من غير علم لشريكه به ، قال معللاً للذم على هذا الظلم بما يدل عل حقارتهم عن هذه الرتبة ، عادلاً في أسلوب التكلم إلى التجريد عن مظهر العظمة لئلا يتعنت من أهل الإشراك متعنت كما عدل في ﴿ دوني ﴾ لذلك : ﴿ ما أشهدتهم ﴾ أي إبليس وذريته ﴿ خلق السماوات والأرض ﴾ نوعاً من أنواع الإشهاد ﴿ ولا خلق أنفسهم ﴾ إشارة إلى أنهم مخلوقون وأنه لا

يصح في عقل عاقل أن يكون مخلوق شريكاً لخالقه أصلاً ﴿ وما كنت ﴾ أي أزلاً وأبداً متخذهم ، هكذا الأصل ولكنه أبرز إرشاداً إلى أن المضل لا يستعان به ، لأنه مع عدم نفعه يضر ، فقال تعالى : ﴿ متخذ المضلين عضداً ﴾ إشارة إلى أنه لا يؤسف على فوات إسلام أحد ، فإن من علم الله فيه خيراً أسمعه ، ومن لم يسمعه فهو مضل ليس أهلاً لنصرة الدين .

(5/474)

ولما أقام البرهان القاطع على بعد رتبتهم عن المنزلة التي أحلوهم بها من الشرك ، أتبعه التعريف بأنهم مع عدم نفعهم لهم في الدنيا يتخلون عنهم في الآخرة أحوج ما يكونون إليهم تخييباً لظنهم أنهم يقربونهم إلى الله زلفى ، فقال تعالى عاطفاً على ﴿ إذ قلنا ﴾ عادلاً إلى مقام الغيبة ، إشارة إلى بعدهم عن حضرته الشماء وتعاليه عما قد يتوهم من قوله تعالى ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا ﴾ [الكهف : 48] في حجب الجلال والكبرياء ، وجرى حمزة في قراءته بالنون على أسلوب التكلم الذي كان فيه مع زيادة العظمة : ﴿ ويوم ﴾ أي واذكر يوم ﴿ يقول ﴾ الله لهم تهكماً بهم : ﴿ نادوا شركاءي ﴾ وبين أن الإضافة ليست على حقيقتها ، بل هي توبيخ لهم فقال تعالى : ﴿ الذين زعمتم ﴾

أنهم شركاء ﴿ فدعوهم ﴾ تمادياً في الجهل والضلال ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي لم يطلبوا ويريدوا أن يجيبوهم إعراضاً عنهم استهانة بهم واشتغالاً بأنفسهم فضلاً عن أن يعينوهم .

(6/474)

ولما كانوا في غاية الاستبعاد لأن يحال بينهم وبين معبوداتهم ، قال في مظهر العظمة :

﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أي المشركين والشركاء ﴿ موبقاً ﴾ أي هلاكاً أو موضع هلاك ، فاصلاً حائلاً بينهم ، مهلكاً قوياً ثابتاً حفيظاً ، لا يشذ عنه منهم أحد ، وإنما فسرته بذلك لأنه مثل قوله تعالى ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ [يونس : 28] أي بالقلوب أي جعلنا ما كان بينهم من الوصلة عداوة ، ومثل قوله تعالى ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ [الأعراف : 38] ﴿ هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ [النحل : 86] ونحوه ، لأن معنى ذلك كله أنه يبدل ما كان بينهم من الود في الدنيا والوصلة ببغض وقطيعة كما قال تعالى ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ [العنكبوت : 25] وأن كل فريق يطلب للآخر الهلاك ، فاقتضى ذلك اجتماع الكل فيه ، هذا ما يرشد إلى المعنى من آيات الكتاب ، ونقل ابن كثير عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أنه

قال : هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة ، وقال الحسن البصري : عداوة .

(7/474)

وأما أخذه من اللفظ فلأن مادة وبق – يائية وواوية مهموزة وغير مهموزة ، ولها أحد عشر تركيباً : واحد يائي : بقي ، وستة واوية : قبو ، قوب ، بقو ، بوق ، وقب ، وبق ، وأربعة مهموزة : قبأ ، قأب ، بأق ، أبق – كلها تدور على الجمع ، وخصوصاً ترتيب وبق يدور على الحائل بين شيئين ، ويلزمه القوة والثبات والحفظ والهلاك قوة أو فعلاً ، لأن من حيل بينه وبين شيء فقد هلك بفقد ذلك الشيء بالفعل إن كان الحائل موتاً ، وبالقوة إن كان غيره ، يقال : قبل الشيء : جمعه بأصابعه ، والبناء : رفعه ، والزعفران : جناه ، والقبا – بالقصر : نبت – لأنه سبب الاجتماع لرعيه والانتفاع به وهو يجمع أيضاً ، والقبا : تقويس الشيء – لأنه أقرب إلى اجتماع بعض أجزائه ببعض ، والقبوة : انضمام ما بين الشفتين ، ومنه القباء من الثياب ، وقباه تقبية : عباه ، أي جمعه حتى صار كأنه في مكان مقبو ، وقبى عليه تقبية : عدا عليه في أمره – لأنه كان كأنه أوقعه في حفرة ، والثوب : جعل منه قباء ، وتقبى القباء : لبسه ، وزيداً : أتاه من قفاه – لأن من يريد رمي أحد في حفرة كذلك يأتيه مخاتلة ، وتقبى

الشيء : صار كالقبة ، وامرأة قابية : تلقط العصفر وتجمعه ، والقابياء : اللئيم – لأنه بناء مبالغة ، فيدل على كثرة الجمع والحرص اللازمين للؤم ، وبنو قابياء : المجتمعون لشرب الخمر – لأنها حالة تظهر لؤم اللئام ، وقباء – بالضم ويذكر ويقصر – موضع قرب المدينة الشريفة ، وموضع بين مكة والبصرة ، وانقبى : استخفى ، وقبى قوسين وقباء قوسين – ككساء : قاب قوسين ، والمقبي : الكثير الشحم – كأنه جمع لنفسه منه بالراحة ما صار كالبناء ، والقباية : المفازة – لأنها تجمع ما فيها كما تجمع القبة والقباء والوقبة ما فيها .

ومن مهموزة : قبأ الطعام – كجمع : أكله ، ومن الشراب : امتلأ ، والقباءة : حشيشة ترعى – لأن المال يجتمع على رعيها .

(8/474)

ومن الواوي : قاب الأرض يقوبها وقوّبها : حفر فيها شبه التقوير – لأن الدائرة أجمع ما يكون لغيرها وفي نفسها ، لأنه لا زوايا فيها فاصلة ، وقوبت الأرض : آثرت فيها ، والقوبة : ما يظهر في الجسد ويخرج عليه – لأنه يكون غالباً على هيئة الدائرة ، وتقوب جلده : تقلع عنه الجرب ، وانحلق عنه الشعر – إما من الإزالة ، وإما لأن آثاره تكون كالدوائر ، وقوب الشيء : قلعه من أصله – لأن أثره إذا انقلع يكون حفراً مستديراً ، وتقوب هو : تقلع ،

والقائبة والقابة : البيضة – لأنها لتدويرها تشبه ذلك الحفر ، والقوب – بالفتح : فلق الطير بيضه ، وبالضم : الفرخ – لأنه منها ، وفي المثل : تخلصت قائبة من قوب – يضرب لمن انفصل من صاحبه ، والقوبيّ : المولع بأكل الأقواب أي الفراخ ، والقوب – كصرد : قشور البيض ، وتقوبت البيضه : انقابت أي انحفرت ، وأم قوب : الداهية – لجمعها ما تأتي عليه كأنه ابتلعه حفر ، وقاب : قرب – لأن القرب مبدأ الجمع ، وقاب : هرب ، أي سلب القرب – ضد ، وقاب : فلق ، أي شق الجمع فهو من الإزالة أيضاً ، وقاب قوس وقيبه ، أي قدره – لأن القوس شبه نصف دائرة من ذلك الحفر ، والقاب : ما بين المقبض والسية – لأنه بعض ذلك ، ولكل قوس قابان ، والأسود المتقوب : الذي انسلخ جلده من الحيات – لتدوّر ذلك الجلد وشبهه بالحفرة ، واقتاب الشيء : اختاره ، أي جمعه إليه ، ورجل مليء قوبة – كهمزة : ثابت الدار مقيم – من الثبات الذي هو لازم الجمع ، وقوب من الغبار : اغبر – إما لأن من يحفر ذلك بغير ، وإما لأن الغبار كثر عليه حتى غطاه فصار له مثل تلك الحفرة .

ومن مهموزه : قأب الطعام – كمنع : أكله ، والماء : شربه كقئبه – كفرح ، أو شرب كل ما في الإناء ، وقئب من الشراب : تملأ ، وهو مقأب – كمنبر : كثير الشرب للماء ، وإناء قَوأب : كثير الأخذ للماء – فهو كما ترى جمع مخصوص بالأكل والشرب ، أو أنه جمعه في وقبة بطنه .

ومن الواوي : بقاه بعينه : نظر إليه – فهو من الحفظ اللازم للجمع ، وابقُه بَقْوَتَك مالَك ، وبقاوتك مالك أي احفظه حفظك مالك ، وبقوته : انتظرته – وهو يرجع إلى الثبات والمراقبة التي ترجع إلى الحفظ ، ويلزم الحفظ الثبات .

ومن اليائي : بقي الشيء بقاء : ثبت ودام ضد فني ، والاسم البقوى – كدعوى ، ويضم ، والبقيا – بالضم والبقية ، وقد توضع الباقية موضع المصدر .

(10/474)

ومن واويّه : البوقة : الجمع والدفعة من المطر الشديد أو المنكرة تنباق – أنها نزلت من وقبة لشدتها ، والبوائق : العوائد – لأنها جامعة لمن اعتادها ، والبوائق : الشر – لأنه مهلك ، فكأنه موقع في المهالك ، والبوق – بالضم : شبه منقاب ينفخ فيه الطحان ، أو الذي ينفخ فيه مطلقاً ويرمز – لأنه لتجويفه يشبه الوقبة ، والبوق أيضاً : الباطل والزور – لأن صوته أشبع شيء بذلك ، والمبوق – كمعظم : الكلام الباطل ، والبوق – بالفتح : من لا يكتم السر – لأن البوق متى نفخ فيه صوّت ، والبوقة : شجرة دقيقة – لأنها لدقتها يسرع إليها الهلاك كمن وقع فيه وقبة ، والبائقة : الداهية – كأنها تدفع من أتته في الوقبة ، وانباقت عليه بائقة

: انفتقت ، وباق : جاء بالشر والخصومات – من ذلك ، وكذا باق ، أي تعدى على إنسان ، وانباق به : ظلمه ، والبائقةُ القومَ : أصابتهم ، كانباقت عليهم ، أي خرجت لشدتها من وقبة ، والباقة : الحزمة من بقل – لاجتماعها ، وباق بك : طلع عليك من غيبة – كأنه كان في حفرة فخرج ، ومنه باق فلان : هجم على قوم بغير إذنهم ، وباق القوم : سرقهم ، وباق به : حاق به ، أي – أحاط كما تحيط الوقبة ، وباق القوم عليه : اجتمعوا فقتلوه ظلماً ، وباق المال : فسد وبار – كحال من وقع في حفرة ، ومنه متاع بائق : لا ثمن له ، وتبوّق في الماشية : وقع فيها الموت وفشا ، والحاق باق : صوت الفرج عند الجماع – لأنه من الجمع ، ولأن الفرج وقبة ، ومن مهموزه : بأقتهم الداهية بؤوقاً : أصابتهم ، وانبأق عليهم الدهر : هجم عليهم بالداهية .

(11/474)

ومن الواوي ، الوقبة : كوة عظيمة فيها ظل ، والوقب والوقبة : نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء ، وقيل : هي نحو البئر في الصفا تكون قامة أو قامتين يستنقع فيها ماء السماء ، وكل نقر في الجسد وقب كنقر العين والكتف ، والوقبان من الفرس : هزمتان فوق عينيه ، ووقب المحالة : الثقب الذي يدخل فيه المحور ، ووقبة الدهن : أنقوعته ، وكذا وقبة الثريد ،

ووقب الشيء : دخل في الوقب ، وأوقب الشيء : أدخله فيه ، وركية وقباء : غامرة الماء ، وامرأة ميقاب : واسعة الفرج وبنو الميقاب نسبوا إلى أمهم ، يريدون سبهم بذلك ، والميقاب : الرجل الكثير الشرب للماء ، والحمقاء أوالمحمقة ، وسير الميقاب : أن تواصل سير يوم وليلة – كأن ذلك سير الأحمق الذي لا يبقى على ظهره ، ووقب القمر وقوباً : دخل في الظل الذي يكسفه – كأنه حفرة ابتلعته ، ووقبت الشمس وقوباً : غابت كذلك ، وقيل : كل ما غاب فقد وقب ، ووقب الظلام ، أقبل .

(12/474)

أي فصار كالوقبة ، فابتلع الضياء أو ابتلع ما في الكون فحجبه عن الضياء ، ورجل وقب : أحمق – كأنه وعاء لكل ما يسمع ، لا أهلية له في تمييز جيده من رديئه ، والأنثى : وقبة ، وقال ثعلب : الوقب : الدنيء ، أي لأنه يتبع نفسه هواها فيصير كأنه الوقبة لا ترد شيئاً مما يلقي فيها ، ووقب الفرس وقباً وهو صوت قنبه ، أي وعاء قضيبه ، وقيل : صوت تقلقل جردان الفرس في قنبه – لأن وعاء جردانه كالوقبة ، فهو من اطلاق اسم المحل على ما فيه ، والقبة – كعدة : الإنفحة إذا عظمت من الشاة ، قال ابن الأعرابي : ولا يكون ذلك في غير الشاء – لأن شبه الإنفحة بالوقبة ظاهر ، والوقباء : موضع يمد ويقصر ، والوقبى : ماء لبني

مازن – لأنه يجمعهم كما تجمع الوقبة ما فيها ، والأوقاب : قماش البيت كالبرمة والرحيين والعمد – لأن البيت لها كالوقبة لجمعها أو لأنها جامعة لشمل من فيه ، والميقب : الودعة ، وأوقب القوم : جاعوا ، أي تهيؤوا لإدخال الطعام في وقبة الجوف ، وذكر أوقب : ولاّج في الهنات – لأنها كالأوقاب أي الحفر ، والوقب : الإقبال والمجيء ، وهو سبب الجمع .

ووبق – كوعد ووجل وورث وبوقاً وموبقاً : هلك ، أي وقع فيه وقبة ، أي حفرة كاستوبق ، وكمجلس : المهلك والمحبس ، وواد في جهنم ، وكل شيء حال بين شيئين – لأن الوقبة تحول بين ما فيها وبين غيره .

ومنه قيل للموعد : موبق ، وأوبقه : حبسه أو أهلكه .

(13/474)

ومن مهموزه : أبق العبد – كسمع وضرب ومنع – أبقاً ويحرك – وإباقاً – ككتاب : ذهب بلا خوف ولا كد عمل ، أو استخفى ثم ذهب – وكل ذلك يوجع إلى جعله كأنه نزل في وقبة ، ومن شأنه حينئذ أن يخفى ، ومنه تأبق : استتر أو احتبس ، وتأبق الشيء : أنكره – لأن سبب الإنكار الخفاء ، وتأبق : تأثم ، أي جانب الإثم ، فهو لسلب الجمع أو لسلب الهلاك في الوقبة ، والأبق – محركة : القنب – لشبهه لتجويفه بالوقبة ، والأبق : قشره –

لقوته اللازمة للجمع أو لأنه خيوط مجتمعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 480.476 ﴾

(14/474)

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ إلى من يعود ؟ فيه وجوه : أحدها : وهو الذي ذهب إليه الأكثرون أن المعنى ما أشهدت الذي اتخذتموهم أولياء خلق السموات والأرض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله : ﴿ اقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 66] يعني ما أشهدتهم لأعتضد بهم والدليل عليه قوله : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ أي وما كنت متخذهم فوضع الظاهر موضع المضمر بياناً لإضلالهم وقوله : ﴿ عَضُداً ﴾ أي أعواناً .

وثانيها : وهو أقرب عندي أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال : إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل قوله تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة ، بل هم قوم كسائر الخلق ، فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد ؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له لست بسلطان البلد ولا ذرية المملكة حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة ، فلم تقدم عليها والذي يؤكد هذا أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات .

وفي هذه الآية المذكورة الأقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله تعالى : ﴿ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾ والمراد بالظالمين أولئك الكفار .

وثالثها : أن يكون المراد من قوله : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الأزل من أحوال السعادة والشقاوة .

(15/474)

فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته في الأزل والشقي من حكم الله بشقاوته في الأزل ، وأنتم غافلون عن أحوال الأزل كأنه تعالى قال : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ وإذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة والذل ، بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" قرىء وما كنت بالفتح ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغي لك أن تعتز بهم .

وقرأ علي رضوان الله عليه : ﴿ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ بالتنوين على الأصل .

وقرأ الحسن : ﴿ عَضُداً ﴾ بسكون الضاد ونقل ضمتها إلى العين ، وقرىء : ﴿ عَضُداً ﴾ بالفتح وسكون الضاد ﴿ وعضداً ﴾ بضمتين ﴿ وعضداً ﴾ بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد من عضده إذا قواه وأعانه ، واعلم أنه تعالى لما قرر أن القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتداء بإبليس عاد بعده إلى التهويل بأحوال يوم القيامة فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَائِىَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : قرأ حمزة : (نقول) بالنون عطفاً على قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ و ﴿ أَوْلِيَاء مِن دُونِى ﴾ و ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض ﴾ ﴿ وَمَا

كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ والباقون قرأوا بالياء .

البحث الثاني : واذكر يوم نقول عطفاً على قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا ﴾ .

(16/474)

البحث الثالث : المعنى واذكر لهم يا محمد أحوالهم وأحوال آلهتهم يوم القيامة إذ يقول الله لهم : ﴿ نَادُواْ شُرَكَائِيَ ﴾ أي ادعوا من زعمتم أنهم شركاء لي حيث أهلتموهم للعبادة ، ادعوهم يشفعوا لكم وينصروكم والمراد بالشركاء الجن فدعوهم ولم يذكر تعالى في هذه الآية أنهم كيف دعوا الشركاء لأنه تعالى بين ذلك في آية أخرى وهو أنهم قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ [غافر : 47] ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ أي لم يجيبوهم إلى ما دعوهم إليه ولم يدفعوا عنهم ضرراً وما أوصلوا إليهم نفعاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ وفيه وجوه :

الأول : قال صاحب "الكشاف" : الموبق المهلك من وبق يبق وبوقاً ووبقاً .

إذا هلك وأوبقه غيره فيجوز أن يكون مصدراً كالمورد والموعد وتقرير هذا الوجه أن يقال : إن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة وعيسى دعوا هؤلاء فلم يستجيبوا لهم ثم حيل بينهم وبينهم فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركين جهنم وأدخل عيسى

الجنة وصار الملائكة إلى حيث أراد الله من دار الكرامة وحصل بين أولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق وهو ذلك الوادي في جهنم .

الوجه الثاني : قال الحسن : (موبقاً) أي عداوة والمعنى عداوة هي في شدتها هلاك .

ومنه قوله : لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .

الوجه الثالث : قال الفراء البين المواصلة أي جعلنا مواصلتهم في الدنيا هلاكاً في يوم القيامة .

الوجه الرابع : الموبق البرزخ البعيد أي جعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخاً بعيداً يهلك فيه الساري لفرط بعده ، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 117.119 ﴾

(17/474)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : ما أشهدت إبليس وذريته .

الثاني : ما أشهدت جميع الخلق خلق السموات والأرض .

وفيه وجهان :

أحدهما : ما أشهدتهم إياها استعانة بهم في خلقها .

الثاني : ما أشهدتهم خلقها فيعلموا من قدرتي ما لا يكفرون معه .

ويحتمل ثالثاً : ما أشهدتهم خلقها فيحيطون علماً بغيبها لاختصاص الله بعلم الغيب دونه خلقه .

﴿ ولا خلق أنفسهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما استعنت ببعضهم على خلق بعض .

الثاني : ما أشهدت بعضهم خلق بعض .

ويحتمل ثالثاً : ما أعلمتم خلق أنفسهم فكيف يعلمون خلق غيرهم .

﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني أولياء .

الثاني : أعواناً ، ووجدته منقولاً عن الكلبي .

وفيما أراد أنه لم يتخذهم فيه أعواناً وجهان :

أحدهما : أعواناً في خلق السموات والأرض .

الثاني : أعواناً لعبدة الأوثان ، قاله الكلبي .

وفي هؤلاء المضلين قولان :

أحدهما : إبليس وذريته .

الثاني : كل مضل من الخلائق كلهم .

قال بعض السلف : إذا كان ذنب المرء من قبل الشهوة فارْجُه ، وإذا كان من قبل الكبر فلا ترْجه ، لأن إبليس كان ذنبه من قبل الكبر فلم تقبل توبته ، وكان ذنب آدم من قبل الشهوة فتاب الله عليه . وقد أشار بعض الشعراء إلى هذا المعنى فقال :

إذا ما الفتى طاح في غيّه . . . فَرَجِّ الفتى للتُّقى رَجّه

فقد يغلط الركب نهج الط . . . ريق ثم يعود إلى نهجه

قوله عز وجل : ﴿ . . . وجعلنا بينهم موبقاً ﴾

فيه ستة أقاويل :

أحدها : مجلساً ، قاله الربيع .

الثاني : مهلكاً ، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ، قال الشاعر :

استغفر الله أعمالي التي سلفت . . . من عثرةٍ إن تؤاخذني بها أبق

أي أهلك ، ومثله قول زهير :

ومن يشتري حسن الثناء بماله . . . يصن عرضَه من كل شنعاء موبق

قال الفراء : جعل تواصلهم في الدنيا مهلكاً في الآخرة .

الثالث : موعداً ، قاله أبو عبيدة .

الرابع : عداوة ، قاله الحسن .

(18/474)

الخامس : أنه واد في جهنم ، قاله أنس بن مالك .

السادس : أنه واد يفصل بين الجنة والنار ، حكاه بعض المتأخرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(19/474)

وقال ابن عطية :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) ﴾

الضمير في ﴿ أشهدتهم ﴾ عائد على الكفار ، وعلى الناس بالجملة ، فتتضمن الآية الرد

على طوائف من المنجمين ، وأهل الطبائع ، والمتحكمين من الأطباء ، وسواهم من كل من يتخوض في هذه الأشياء .

(20/474)

قال القاضي أبو محمد : وحدثني أبي رضي الله عنه ، قال : سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاد المهدوي بالمهدية ، يقول سمعت عبد الحق الصقلي يقول هذا القول ويتأول هذا التأويل في هذه الآية ، وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين ، وقيل الضمير في ﴿ أشهدتهم ﴾ عائد على ذرية إبليس ، فهذه الآية ، على هذا تتضمن تحقيرهم ، والقول الأول أعظم فائدة ، وأقول : إن الغرض المقصود أولاً بالآية ، هم إبليس وذريته ، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون أعوذ بعزيز هذا الوادي ، إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته ، وهم أضلوا الجميع ، فهم المراد الأول ب ﴿ المضلين ﴾ ، وتندرج هذه الطوائف في معناهم ، وقرأ الجمهور ، " وما كنتُ " وقرأ أبو جعفر والجحدري والحسن بخلاف " وما كنتَ " ، والصفة ب ﴿ المضلين ﴾ ، تترتب في الطوائف المذكورة ، وفي ذرية إبليس لعنه الله ، و" العضد " استعارة للمعين المؤازر ، وهو تشبيه بالعضد للإنسان الذي

يستعين به ، وقرأ الجمهور " عَضُداً " بفتح العين وضم الضاد ، وقرأ أبو عمرو والحسن بضمهما ، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عكرمة " عُضْداً " بضم العين وسكون الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر " عَضَداً " بفتح العين والضاد ، وفيه لغات غير هذا لم يقرأ بها ، وقوله ﴿ ويوم يقول ﴾ الآية وعيد ، المعنى واذكر يوم ، وقرأ طلحة ويحيى والأعمش وحمزة " نقول " بنون العظمة ، وقرأ الجمهور بالياء أي " يقول " الله تعالى للكفار الذين أشركوا به من الدنيا سواه : ﴿ نادوا شركائي ﴾ أي على وجه الاستغاثة بهم ، وقوله ﴿ شركائي ﴾ أي على دعواكم أيها المشركون وقد بين هذا بقوله ﴿ الذين زعمتم ﴾ وقرأ ابن كثير وأهل مكة " شركاي " بياء مفتوحة ، وقرأ الجمهور : " شركائي " بهمزة . فمنهم من حققها ، ومنهم من خففها ، و " الزعم " إنما هو مستعمل أبداً

(21/474)

في غير اليقين ، بل أغلبه في الكذب ، ومنه هذه الآية ، وأرفع موضعه أن يستعمل " زعم " بمعنى أخبر ، حيث تبقى عهدة الخبر على المخبر ، كما يقول سيبويه رحمه الله : زعم الخليل . وقوله ﴿ فدعوهم ﴾ فلم يستجيبوا لهم ظاهره أن ذلك يقع حقيقة ، ويحتمل أن يكون استعارة ، كأن فكرة الكفار ونظرهم في أن تلك الجمادات ، لا تغني شيئاً ولا تنفع ،

هي بمنزلة الدعاء وترك الإجابة ، والأول أبين ، واختلف المتأولون في قوله ﴿ موبقاً ﴾ قال عبد الله ابن عمرو وأنس بن مالك ومجاهد : هو واد في جهنم يجري بدم وصديد ، قال أنس : يحجز بين أهل النار وبين المؤمنين ، فقوله على هذا ﴿ بينهم ﴾ ظرف ، وقال الحسن ﴿ موبقاً ﴾ معناه عداوة و﴿ بينهم ﴾ على هذا ظرف ، وبعض هذه الفرقة ، يرى أن الضمير في قوله ﴿ بينهم ﴾ يعود على المؤمنين والكافرين ، ويحتمل أن يعود على المشركين ومعبوداتهم ، وقال ابن عباس ﴿ موبقاً ﴾ معناه مهلكاً بمنزلة موضع وهو من قولك وبق الرجل وأوبقه غيره إذا أهلكه ، فقوله ﴿ بينهم ﴾ على هذا التأويل ، يصح أن يكون ظرفاً ، والأظهر فيه أن يكون اسماً ، بمعنى جعلنا تواصلهم أمراً مهلكاً لهم ، ويكون ﴿ بينهم ﴾ مفعولاً أولاً ل ﴿ جعلنا ﴾ ، وعبر بعضهم عن الموبق بالموعد وهذا ضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(22/474)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ما أشهدتُهم خَلْق السموات والأرضِ ﴾

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة : "ما أشهدناهم" بالنون والألف .

وفي المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : إبليس وذريته .

والثاني : الملائكة .

والثالث : جميع الكفار .

والرابع : جميع الخلق ؛ والمعنى : إني لم أشاورهم في خلقهن ؛ وفي هذا بيان للغَناء عن الأعوان ، وإظهار كمال القدرة .

قوله تعالى : ﴿ ولا خَلْقَ أنفسهم ﴾ أي : ما أشهدت بعضَهم خَلْقَ بعض ، ولا استعنت ببعضهم على إيجاد بعض .

قوله تعالى : ﴿ وما كنتُ مُتَّخذَ المضِلّين ﴾ [يعني : الشياطين] ﴿ عَضُداً ﴾ أي : أنصاراً وأعواناً .

والعَضُد يستعمل كثيراً في معنى العون ، لأنه قِوام [اليد] ، قال الزجاج : والاعتضاد : التقوّي وطلب المعونة ، يقال : اعتضدت بفلان ، أي : استعنت به .

وفي ما نفى اتخاذهم عضداً فيه قولان .

أحدهما : أنه الولايات ، والمعنى : ما كنت لأولي المضلّين ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه خَلْق السموات والأرض ، قاله مقاتل .

وقرأ الحسن ، والجحدري ، وأبو جعفر : "وما كنتَ" بفتح التاء .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يقول ﴾

وقرأ حمزة : "نقول" بالنون ، يعني : يوم القيامة ﴿ نادوا شركائيَ ﴾ أضاف الشركاء إليه على زعمهم ، والمراد : نادوهم لدفع العذاب عنكم ، أو الشفاعة لكم ، ﴿ الذين زعمتم ﴾ أي : زعمتموهم شركاء ﴿ فدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي : لم يجيبوهم ، ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم المشركون والشركاء .

والثاني : أهل الهدى وأهل الضلالة .

وفي معنى ﴿ مَوْبِقاً ﴾ ستة أقوال .

أحدها : مَهْلِكاً ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك .

وقال ابن قتيبة : مَهْلِكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم ، ومنه يقال : أَوبَقَتْه ذنوبُه ، [أي : أهلكتْه] .

(23/474)

قال الزجاج : [المعنى] : جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم ، أي : يهلكهم ، فالمَوْبِق : المهلك ، يقال : وَبِق ، يَيْبَقُ ، ويابَق ، وبَقاً ، ووَبَق ، يَبِق ، وُبُوقاً ، فهو وابق ؛ وقال الفراء :

جعلنا تواصُلهم في الدنيا مَوْبِقاً ، أي : مَهْلِكاً لهم في الآخرة ، فالبَيْن ، على هذا القول ، بمعنى التواصل ، كقوله تعالى : ﴿ لقد تَقَطَّع بينُكم ﴾ [الأنعام : 94] على قراءة من ضمن النون .

والثاني : أن المَوْبِق : وادٍ عميق يُفرَّق به بين أهل الضلالة وأهل الهدى ، قاله عبد الله بن عمرو .

والثالث : أنه وادٍ في جهنم ، قاله أنس بن مالك ، ومجاهد .

والرابع : أن معنى المَوْبِق : العدواة ، قاله الحسن .

والخامس : أنه المَحْبِس ، قاله الربيع بن أنس .

والسادس : أنه المَوْعِد ، قاله أبو عبيدة .

قال ابن الأنباري : إن قيل : لم قال : "مَوْبِقاً" ولم يقل : "مُوبِقاً" ، بضم الميم ، إذ كان معناه عذاباً مُوبقاً ؟

فالجواب : أنه اسم موضوع لمَحْبِس في النار ، والأسماء لا تؤخذ بالقياس ، فيُعلم أن "مَوْبِقاً" : مَفْعِل ، من أوبقه الله : إذا أهلكه ، فتنفتح الميم ، كما تنفتح في "مَوْعِد" و "مَوْلِد" و "مَحْتِد" إذا سمّيت الشخوص بهنَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(24/474)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾

قيل : الضمير عائد على إبليس وذريته ؛ أي لم أشاورهم في خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، بل خلقتهم على ما أردت .

وقيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض "ولا خلق أنفسهم" أي أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دوني ؟ .

وقيل : الكناية في قوله : "مَا أَشْهَدْتُهُمْ" ترجع إلى المشركين ، وإلى الناس بالجملة ، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجّمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من يتخوّض في هذه الأشياء .

وقال ابن عطية : وسمعت أبي رضي الله عنه يقول : سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدويّ بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقليّ يقول هذا القول ، ويتأوّل هذا التأويل في هذه الآية ، وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين .

قال ابن عطية وأقول : إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذريته ؛ وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة ، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن ؛ حين يقولون : أعوذ بعزيز هذا الوادي ؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع ،

فهم المراد الأوّل بالمضلّين ؛ وتندرج هذه الطوائف في معناهم .

قال الثعلبي : وقال بعض أهل العلم "مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" ردّ على المنجّمين أن قالوا : إنّ الأفلاك تُحدث في الأرض وفي بعضها في بعض ، وقوله : "والأرضِ" ردّ على أصحاب الهندسة حيث قالوا : إن الأرض كرّية والأفلاك تجري تحتها ، والناس ملصَقون عليها وتحتها ، وقوله : "ولا خلق أنفسهم" ردّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هي الفاعلة في النفوس .

وقرأ أبو جعفر "ما أشهدناهم" بالنون والألف على التعظيم .

الباقون بالتاء بدليل قوله : "وما كنت متخذ" يعني ما استعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم .

(25/474)

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ يعني الشياطين .

وقيل : الكفار .

﴿ عَضُداً ﴾ أي أعواناً .

يقال : اعتضدتُ بفلان إذا استعنتَ به وتقويتَ .

والأصل فيه عضد اليد ، ثم يوضع موضع العون ؛ لأن اليد قوامها العضد .

يقال : عَضَده وعَاضَدَه على كذا إذا أعانه وأعزّه .

ومنه قوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : 35] أي سنعينك بأخيك .

ولفظ العضد على جهة المثَل ، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد .

وخصّ المضلّين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ .

وقرأ أبو جعفر الجَحْدَريّ "وَمَا كُنْتَ" بفتح التاء ؛ أي وما كنت يا محمد متخذ المضلّين عضدا .

وفي عضد ثمانية أوجه : "عَضُداً" بفتح العين وضم الضاد وهي قراءة الجمهور ، وهي أفصحها .

و"عَضْداً" بفتح العين وإسكان الضاد ، وهي لغة بني تميم .

و"عُضُداً" بضم العين والضاد ، وهي قراءة أبي عمرو والحسن .

و"عُضْداً" بضم العين وإسكان الضاد ، وهي قراءة عكرمة .

و"عِضَداً" بكسر العين وفتح الضاد ، وهي قراءة الضحاك .

و"عَضَداً" بفتح العين والضاد وهي قراءة عيسى بن عمر .

وحكى هارون القارىء "عَضِداً" .

واللغة الثامنة "عِضْدا" على لغة من قال : كِتْف وفِخْذ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ أي اذكروا يوم يقول الله : أين شركائي ؟ أي ادعوا الذين اشركتموهم بي فليمنعوكم من عذابي .

وإنما يقول ذلك لعبدة الأوثان .

وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر "نقول" بنون .

الباقون بالياء ؛ لقوله : "شركائي" ولم يقل : شركائنا .

﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أي افعلوا ذلك .

﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ أي لم يجيبوهم إلى نصرهم ، ولم يكفّوا عنهم شيئاً .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ قال أنس بن مالك : هو وادٍ في جهنم من قيح ودم .

وقال ابن عباس : أي وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزاً .

(26/474)

وقيل : بين الأوثان وعبدتها ، نحو قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : 28] قال ابن الأعرابي : كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق .

وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى : "مَوْبِقا" قال وادٍ في جهنم يقال له مَوْبِق .

وكذلك قال نَوْف البِكَالِيّ إلا أنه قال : يحجز بينهم وبين المؤمنين .

عِكرمة : هو نهر في جهنم يسيل ناراً ، على حافتيه حيات مثل البغال الدّهم ، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا منها بالاقتحام في النار .

وروى زيد بن درهم عن أنس بن مالك قال : "مَوْبقا" وادٍ من قيح ودم في جهنم .

وقال عطاء والضحاك : مَهْلِكا في جهنم ؛ ومنه يقال : أوبقته ذنوبه إِيباقا .

وقال أبو عبيدة : موعداً للهلاك .

الجوهري : وَبَق يبِق وبوقا هَلَك ، والمَوْبِق مثل الموعد مَفعِل من وعد يعِد ، ومنه قوله تعالى : "وجعلنا بينهم موبقا" .

وفيه لغة أخرى : وَبِق يَوْبُق وَبَقاً .

وفيه لغة ثالثة : وَبِق يَبِق بالكسر فيهما ، وأوبقه أي أهلكه .

وقال زهير :

ومن يشتري حُسنَ الثَّناءِ بمالِهِ . . .

يَصُنْ عِرضَه من كلّ شَنْعاء مُوبِقُ

قال الفرّاء : جعل تواصلهم في الدنيا مَهلِكا لهم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(27/474)

وقال أبو حيان :

وقرأ الجمهور ﴿ ما أشهدتهم ﴾ بتاء المتكلم .

وقرأ أبو جعفر وشيبة والسبختياني وعون العقيلي وابن مقسم : ما أشهدناهم بنون العظمة ، والظاهر عود ضمير المفعول في ﴿ أشهدتهم ﴾ على إبليس وذريته أي لم أشاورهم في ﴿ خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ بل خلقتهم على ما أردت ، ولهذا قال ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ .

وقال الزمخشري : يعني إنكم اتخذتم شركاء لي في العبادة وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية فنفي مشاركتهم في الإلهية بقوله : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ لا أعتضد بهم في خلقها ﴿ ولا خلق أنفسهم ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله

﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ وما كنت متخذهم أعواناً فوضع ﴿ المضلين ﴾ موضع الضمير ذماً لهم بالإضلال فإذا لم يكونوا لي ﴿ عضداً ﴾ في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء في العبادة انتهى .

وقيل : يعود على الملائكة والمعنى أنه ما أشهدهم ذلك ولا استعان بهم في خلقها بل خلقتهم ليطيعوني ويعبدوني فكيف يعبدونهم .

وقيل : يعود على الكفار .

وقيل : على جميع الخلق .

وقال ابن عطية : الضمير في ﴿ أشهدتهم ﴾ عائد على الكفار وعلى الناس بالجملة ، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين والأطباء وسواهم من كل من يتخرص في هذه الأشياء ، وقاله عبد الحق الصقلي وتأول هذا التأويل في هذه الآية وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين انتهى .

وقرأ أبو جعفر والجحدري والحسن وشيبة ﴿ وما كنت ﴾ بفتح التاء خطاباً للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

قال الزمخشري : والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغي لك أن تعتز بهم انتهى .

(28/474)

والذي أقوله أن المعنى إخبار من الله عن نبيه وخطاب منه تعالى له في انتفاء كينونته متخذ عضد من المضلين ، بل هو مذ كان ووجد عليه السلام في غاية التبرّي منهم والبعد عنهم لتعلم أمته أنه لم يزل محفوظاً من أول نشأته لم يعتضد بمضل ولا مال إليه (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ عليّ بن أبي طالب متخذاً المضلين أعمل اسم الفاعل .

وقرأ عيسى ﴿ عضداً ﴾ بسكون الضاد خفف فعلاً كما قالوا : رجل وسبع في رجل وسبع وهي لغة عن تميم ، وعنه أيضاً بفتحتين .

وقرأ شيبة وأبو عمر وفي رواية هارون وخارجة والخفاف ﴿ عضداً ﴾ بضمتين ، وعن الحسن ﴿ عضداً ﴾ بفتحتين وعنه أيضاً بضمتين .

وقرأ الضحاك ﴿ عضداً ﴾ بكسر العين وفتح الضاد .

وقرأ الجمهور ﴿ ويوم يقول ﴾ بالياء أي الله .

وقرأ الأعمش وطلحة ويحيى وابن أبي ليلى وحمزة وابن مقسم : نقول بنون العظمة أي للذين أشركوا به في الدنيا ﴿ نادوا شركائي ﴾ وليس المعنى أنه تعالى أخبر أنهم شركاؤه ولكن ذلك على زعمكم ، والإضافة تكون بأدنى ملابسة ومفعولاً ﴿ زعمتم ﴾ محذوفان لدلالة المعنى عليهما إذ التقدير زعمتموهم شركائي والنداء بمعنى الاستغاثة ، أي استغيثوا بشركائكم والمراد نادوهم لدفع العذاب عنكم أو للشفاعة لكم ، والظاهر أن الضمير في ﴿ بينهم ﴾ عائد على الداعين والمدعوين وهم المشركون والشركاء .

وقيل : يعود على أهل الهدى وأهل الضلالة ، والظاهر وقوع الدعاء حقيقة وانتفاء الإجابة .

وقيل : يحتمل أن يكون استعارة كأن فكرة الكافر ونظره في أن تلك الجمادات لا تغني شيئاً

ولا تنفع هي بمنزلة الدعاء وترك الإجابة .

وقرأ الجمهور ﴿ شركائي ﴾ ممدوداً مضافاً للياء ، وابن كثير وأهل مكة مقصوراً مضافاً لها أيضاً ، والظاهر انتصاب ﴿ بينهم ﴾ على الظرف .

وقال الفراء : البين هنا الوصل أي ﴿ وجعلنا ﴾ نواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة ، فعلى هذا يكون مفعولاً أول لجعلنا ، وعلى الظرف يكون في موضع المفعول الثاني .

(29/474)

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : الموبق المهلك .

وقال الزجاج : جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم .

وقال عبد الله بن عمر وأنس ومجاهد : واد في جهنم يجري بدم وصديد .

وقال الحسن : عداوة .

وقال الربيع بن أنس : إنه المجلس .

وقال أبو عبيدة : الموعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(30/474)

وقال أبو السعود :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ استئنافٌ مَسوق لبيان عدمِ استحقاقِهم للاتخاذ المذكورِ في أنفسهم بعد بيانِ الصوارفِ عن ذلك من خباثة المَحتِد والفسق والعداوة ، أي ما أحضَرْتُ إبليسَ وذريتَه ﴿ خُلِقَ السموات والأرض ﴾ حيث خلقتُهما قبل خلقِهم ﴿ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدتُ بعضَهم خلقَ بعض كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ هذا ما أجمع عليه الجمهورُ حِذاراً من تفكيك الضميرين ومحافظةً على ظاهر لفظ الأنفس ، ولك أن تُرجع الضميرَ الثانيَ إلى الظالمين وتلتزمَ التفكيكَ بناءً على قَوْد المعنى إليه ، فإن نفيَ إشهادِ الشياطين خلقَ الذين يتولَّونهم هو الذي يدور عليه إنكارُ اتخاذهم أولياءَ بناء على أن أدنى ما يصحح التوليَ حضورُ الوليِّ خلقَ المتولى ، وحيث لا حضورَ لا مصحّحَ للتولي قطعاً ، وأما نفيُ وإشهادِ بعضِ الشياطينِ خلقَ بعض منهم فليس من مدارية الإنكارِ المذكور في شيء ، على أن إشهادَ بعضهم خلقَ بعض إن كان مصحّحاً لتولي الشاهدِ بناءً على دِلالته على كماله باعتبار أن له مدخلاً في خلق المشهودِ في الجملة فهو مُخِلٌّ بتولي المشهودِ بناء على قصوره عمّن شهِد خلقَه فلا يكون نفيُ الإشهادِ المذكورِ متمحّضاً في نفي الكمالِ المصحّحِ للتولي عن الكل وهو المناطُ للإنكاء المذكور ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ أي متّخذَهم ، وإنما وُضع موضعَه المظهُر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيداً

لما سبق من إنكار اتخاذِهم أولياءَ ﴿ عَضُداً ﴾ أعواناً في شأن الخلقِ أو في شأن من شؤوني حتى يُتوهّم شِرْكتُهم في التولي بناء على الشركة في بعض أحكامِ الربوبية ، وفيه تهكمٌ بهم وإيذانٌ بكمال ركاكةِ عقولِهم وسخافةِ آرائِهم حيث لا يفهمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُلْه والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به ، وإيثارُ نفي الإشهاد على نفي شهودِهم ونفي اتخاذِهم أعواناً على نفي كونهم كذلك

(31/474)

للإشعار بأنهم مقهورون تحت قدرتِه تعالى تابعون لمشيئته وإرادتِه فيهم ، وأنهم بمعزل من استحقاق الشهودِ والمعونة من تلقاء أنفسِهم من غير إحضارٍ واتخاذ وإنما قُصارى ما يتوهم في شأنهم أن يبلُغوا ذلك المبلغَ بأمر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون ، وقيل : الضميرُ للمشركين والمعنى ما أشهدتُهم خلقَ ذلك وما أطلعتُهم على أسرار التكوينِ وما خصَصْتُهم بفضائلَ لا يَحويها غيرُهم حتى يكونوا قدوةً للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعُمون فلا يُلتفت إلى قولهم طمعاً في نُصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضِدَ بالمُضِلّين ، ويعضُده القراءةُ بفتح التاءِ خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ما صح لك الاعتضادُ بهم . ووصفُهم بالإضلال لتعليل نفي الاتخاذِ ، وقرىء متّخِذاً المُضلّين على الأصل ، وقرىء

عُضْداً بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع وبفتحتين على أنه جمع عاضد كرَصَد وراصد .

(32/474)

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ أي الله عز وجل للكافرين توبيخاً وتعجيزاً ، وقرىء بنون العظمة ﴿ نَادُواْ شُرَكَائِيَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم ، والمرادُ بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى ، وقيل : إبليسُ وذرِّيتُه ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أي نادَوهم للإغاثة ، وفيه بيانٌ لكمال اعتنائِهم بإعانتهم على طريقة الشفاعةِ إذ معلومٌ أن لا طريقَ إلى المدافعة ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ فلم يُغيثوهم إذ لا إمكان لذلك وفي إيراده مع ظهوره تهكمٌ بهم وإيذانٌ بأنهم في الحماقه بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم ﴾ بين الداعين والمدعوّين ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ اسمُ مكانٍ أو مصدرٌ من وبَق وُبوقاً كوثب وثوباً وبِق وبَقاً كفرح فرحاً إذا هلَك أي مهلِكاً يشتركون فيه وهو النارُ ، أو عداوةً وهي في الشدة نفسُ الهلاك كقول عمر رضي الله عنه : " لا يكن حبُّك كلَفاً ولا بغضُك تلَفاً " وقيل : البينُ الوصل أي وجعلنا تواصلَهم في الدنيا هلاكاً في الآخرة ، ويجوز أن يكون المرادُ بالشركاء الملائكةَ وعزيراً وعيسى عليهم السلام ومريمَ ، وبالمَوْبِق البرزخَ البعيدَ أي جعلنا بينهم أمداً بعيداً يُهلِك فيه الأشواطُ لفرْط

بُعده لأنهم في قعر جهنمَ وهم في أعلى الجنان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(33/474)

وقال الآلوسى :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ ﴾

استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق إبليس وذريته للاتخاذ المذكر في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة الأصل والفسق والعداوة أي ما أحضرت إبليس وذريته . ﴿ خَلِقَ السموات والأرض ﴾ حيث خلقتهما قبل خلقهم ﴿ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] فكلا ضميري الجمع المنصوب والمجرور عائد على إبليس وذريته وهم المراد بالمضلين في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ وإنما وضع ذلك موضع ضميرهم ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء ، والعضد في الأصل ما بين المرفق إلى الكتف ويستعار للمعين كاليد وهو المراد هنا ولكونه نكرة في سياق النفي عم ، وفسر بالجمع والإفراد لرؤوس الآي ، وقيل إنما لم يجمع لأن الجميع في حكم

الواحد في عدم الصلاحية للاعتضاد أي وما كنت متخذهم أعواناً في شأن الخلق أو في شأن من شؤوني حتى يتوهم شركتهم في التولي فضلاً عن الاستبدال الذي لزم فعلهم بناء على الشركة في بعض أحكام الربيوبية ، وارجاع ضمير ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ إلى إبليس وذريته قد قال به كل من ذهب إلى إرجاع ضمير ﴿ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ إليهم ، وعلل ذلك العلامة شيخ الإسلام بقوله حذراً من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس ثم قال : ولك أن ترجع الضمير الثاني إلى الظالمين ويلتزم التفكيك بناء على عود المعنى إليه فإن نفى إشهاد الشياطين الذين يتولونهم هو الذي يدور عليه إنكار اتخاذهم أولياء بناء على أن أدنى ما يصحح التولى حضور الولي خلق المتولي ويحث لا حصول لا مصحح للتولي قطعاً ، وأما إشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مداراته الإنكار المذكور في شيء على أن اشهاد بعضهم خلق بعض إن كان مصححاً لتولي الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلاً في خلق المشهود في الجملة فهو مخل بتولي المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا يكون نفي الإشهاد المذكور متمحضاً في نفي الكمال المصحح للتولي عن الكل وهو المناط للإنكار المذكور .

(34/474)

وفي الآية تهكم بالكفار وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلي الذي لا يكاد يشتبه على البلة والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به ، وإيثار نفي الاشهاد على نفس شهودهم ونفي اتخاذهم أعواناً على نفي كونهم كذلك للاشعار بأنهم قهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته سبحانه وإرادته عز وجل بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير احضار واتخاذ وإنما قصارى ما يتوهم فيهم أن يبلغوا ذلك المبلغ بأمر الله جل جلاله ولم يكد ذلك يكون اه .

وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق لكن قيل عليه يجوز أن يراد من السموات والأرض ما يشمل أهلها وكثيراً ما يراد منهما ذلك فيدخل فيه الكفار فتفيد الآية نفي إشهاد الشياطين خلقهم الذي من مداراته الإنكار المذكور من غير حاجة إلى التزام التفكيك الذي هو خلاف المتبادر ، وظاهر كلامه وكذا كلام كثير حمل الإشهاد المنفي على حقيقته .

وجوز أن يراد به المشاورة مجازاً وهو الذي يقتضيه ظاهر ما في البحر ولا مانع على هذا أن يراد من السموات والأرض ما يشمل أهلهما فكأنه قيل ما شاورتهم في خلق أحد لا الكفار ولا غيرهم فما بال هؤلاء الكفار يتولونهم وأدنى ما يصحح التولي كون الولي ممن يشاور في أمر المتولي أو أمر غيره ويكون نفى اتخاذهم أعواناً مطلقاً في شيء من الأشياء بعد نفي مشاورتهم في الخلق ليؤدي الكلام ظاهراً عموم نفي مدخليتهم بوجه من الوجوه رأياً وإيجاد ﴿ أَيُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] من وجه ، وقيل قد يراد

من نفي الاشهاد في جانب المعطوف نفي المشاورة ومنه نفى أن يكونوا خلقوا حسب مشيئتهم ومنه نفى أن يكونوا خلقوا كاملين فإنه يقال خلق كما شاء بمعنى كاملاً قال الشاعر :

خلقت مبرأ من كل عيب . . .

كأنك قد خلقت كما تشاء

(35/474)

وعلى هذا يكون في الخلق من أشهد خلق نفسه بمعنى أنه خلق كاملاف ، ولا يخفى ما فيه ، وقد يكتفي بدلالة ذلك على أن نفي الكمال بأقل من هذه المؤنة فافهم .

وزعم أن الكاملين شهدوا حقيقة خلق أنفسهم بمعنى أنهم رأوا وهم أعيان ثابتة خلقهم أي إفاضة الوجود الخارجي الذي لا يتصف به المعدوم عليهم لا أرى أن كاملاً يقدم عليه أو يصغي إليه ، وقال الإمام بعد حكاية القول برجوع الضميرين إلى الشياطين : الأقرب عندي عودهما على الكفار الذين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم إن لم تطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال : إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق السموات

والأرض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم كسائر الخلق فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد ؟ ، ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له لست بسلطان البلد حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة فلم تقدم عليها ، والذي يؤكد هذا أن الضمير يجب عوده على أقرب المذكورات وهو في الآية أولئك الكفار لأنهم المراد بالظالمين في قوله تعالى : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : 50] انتهى .

وقيل المعنى على تقدير عود الضميرين على أولئك الكفرة إن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل من أحوال السعادة وضدها لأنهم لم يكونوا شاهدين خلق العالم فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله تعالى وبشرفهم ورفعتهم عند الخلق وبأضداد هذه الأحوال للفقراء ، وقيل المعنى عليه ما أشهدتهم خلق ذلك وما أطلعتهم على أسرار التكوين وما خصصتهم بخصائص لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون فلا تلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد لديني بالمضلين ، ويعضده قراءة أبي جعفر .

والجحدري .

والحسن .

(36/474)

وشيبة ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ بفتح التاء خطاباً له صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ما صح لك الاعتضاد بهم ، ولعل وصف أولئك الظالمين بالإضلال لما أن قصدهم بطرد الفقراء تنفير الناس عنه صلى الله عليه وسلم وهو إضلال ظاهر ، وقيل كل ضال مضل لأن الإضلال إما بلسان القال أو بلسان الحال والثاني لا يخلو عنه ضال ، وقيل الضميران للملائكة ، والمعنى ما أشهدتهم ذلك ولا استعنت بهم في شيء بل خلقتهم ليعبدوني فكيف يعبدون ، ويرده ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ إلا أن يقال : هو نفي لاتخاذ الشياطين أعواناً فيستفاد من الجملتين نفى صحة عبادة الفريقين ، وقال ابن عطية : الضميران عائدان على الكفار وعلى الناس بالجملة فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والأطباء ومن سواهم ممن يخوض خوضهم ، وإلى هذا ذهب عبد الحق الصقلي وذكره بعض الأصوليين انتهى .

ويقال عليه في الجملة الأخيرة نحو ما قيل فيها آنفاً .

واستدل بها على أنه لا ينبغي الاستعانة بالكافر وهو في أمور الدين كجهاد الكفار وقتال أهل البغي مما ذهب إليه بعض الأئمة ولبعضهم في ذلك تفصيل ، وأما الاستعانة بهم في أمور الدنيا فالذي يظهر أنه لا بأس بها سواء كانت في أمر ممتهن كنزح الكنائف أو في غيره كعمل المنابر والمحاريب والخياطة ونحوها ، ولعل افرض اليهودي أو الكلب قد مات في كلام

الفاروق رضي الله تعالى عنه لعد ما استخدم فيه من الأمور الدينية أو هو مبني على اختيار تفصيل في الأمور الدنيوية أيضاً .

وقد حكى الشيعة أن علياً كرم الله تعالى وجهه قال حين صمم على عزل معاوية وأشار عليه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بإبقائه على عمله إلى أن يستفحل أمر الخلافة : يمنعني من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ فلا اتخذ معاوية عضداً أبداً ، وهو كذب لا يعتقده إلا ضال مضل .

وقرأ أبو جعفر .

وشيبة .

والسختياني .

وعون العقيلي .

(37/474)

وابن مقسم ﴿ مَا ﴾ بنون العظمة : وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ على أعمال اسم الفاعل .

وقرأ الحسن .

وعكرمة ﴿ عَضُداً ﴾ بسكون الضاد ونقل حركتها إلى العين .

وقرأ عيسى ﴿ عَضُداً ﴾ بسكون الضاد للتخفيف كما قالوا في رجل وسبع رجل وسبع بالسكون وهي لغة عن تميم ، وعنه أيضاً أنه قرأ بفتحتين .

وقرأ شيبة .

وأبو عمرو في رواية هارون .

وخارجة .

والخفاف .

وأبي زيد ﴿ عَضُداً ﴾ بضمتين ، وروي ذلك عن الحسن أيضاف ، وكذا روي عنه أيضاً أنه قرأ بفتحتين ، وهو على هذا إما لغة في العضد كما في "البحر" ولم يذكره في "القاموس" وإما جمع عاضد كخدم جمع خادم من عضده بمعنى قواه وأعانه فحينئذٍ لا استعارة .

وقرأ الضحاك ﴿ عَضُداً ﴾ بكسر العين وفتح الضاد ولم نجد ذلك من لغاته ، نعم في "القاموس" عد عضد ككتف منها وهو عكس هذه القراءة .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾

أي الله تعالى للكفار توبيخاً وتعجيزاً بواسطة أو بدونها .

وقرأ الأعمش .

وطلحة ويحيى .

وابن أبي ليلى .

وحمزة .

وابن مقسم ﴿ نَّقُولُ ﴾ بنون العظمة ، والكلام على معنى اذكر أيضاً أي واذكر يوم يقول : ﴿ نَادُواْ ﴾ للشفاعة لكم ﴿ شُرَكَائِىَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ أي زعمتموهم شفعاء ، والإضافة باعتبار ما كانوا يزعمون أيضاً فإنهم كانوا يزعمون أنهم شركاء كما يزعمون أنهم شفعاء ، وقد جوز غير واحد هنا أن يكون فعل عبدتهم المطيعين لهم فيما وسوسوا به أو كل ما عبد من دون الله تعالى .

وقرأ ابن كثير ﴿ شركاى ﴾ مقصوراً مضافاً إلى الياء ﴿ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أي نادوهم للإغاثة ، وفيه بيان بكمال اعتنائهم بإغاثتهم على طريق الشفاعة إذ معلوم أن لا طريق إلى المدافعة ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ فلم يغيثوهم إذ لا إمكان لذلك ؛ قيل وفي إيراده مع ظهوره تهكم بهم وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به .

(38/474)

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم ﴾ أي بين الداعين والمدعوين ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ اسم مكان من وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا إذا هلك أي مهلكاً يشتركون فيه وهو النار ، وجاء عن

ابن عمر .

وأنس .

ومجاهد أنه واد في جهنم يجري بدم وصديد ، وعن عكرمة أنه نهر في النار يسيل ناراً على حافتيه حيات أمثال البغال الدهم فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا بالاقتحام في النار منها ، وتفسير الموبق بالمهلك مروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعن مجاهد وغيرهما ، وعن الحسن تفسيره بالعداوة فهو مصدر أطلق على سبب الهلاك وهو العداوة كما أطلق التلف على البغض المؤدي إليه في قول عمر رضي الله تعالى عنه : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً .

وعن الربيع بن أنس تفسيره بالمحبس ، ومعنى كون الموبق على سائر تفاسيره بينهم شموله لهم وكونهم مشتركين فيه كما يقال جعلت المال بين زيد وعمرو فكأنه ضمن ﴿ جَعَلْنَا ﴾ معنى قسمنا وحينئذٍ لا يمكن إدخال عيسى .

وعزير .

والملائكة عليهم السلام ونحوهم في الشركاء على القول الثاني .

وقال بعضهم : معنى كون الموبق أي المهلك أو المحبس بينهم أنه حاجز واقع في البين ، وجعل ذلك بينهم حسماً لأطماع الكفرة في أن يصل إليهم ممن دعوه للشفاعة .

وجاء عن بعض من فسره بالوادي أنه يفرق الله تعالى به بين أهل الهدى وأهل الضلالة ،

وعلى هذا لا مانع من شمول المعنى الثاني للشركاء لأولئك الأجلة .

وقال الثعالبي في فقه اللغة : الموبق بمعنى البرزخ البعيد على أن وبق بمعنى هلك أيضاً أي جعلنا بينهم أمداً بعيداً يهلك فيه الأشواط لفرط بعده ، وعليه أيضاً يجوز الشمول المذكور لأن أولئك الكرام عليهم السلام في أعلى الجنان وهؤلاء اللئام في قعر النيران ، ولا يخفى على من له أدنى تأمل الحال فيما إذا أريد بالموبق العداوة .

(39/474)

و ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ على جميع ما ذكر طرف وهو مفعول ثان لجعل إن جعل بمعنى صير و ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ مفعوله الأول ، وإن جعل بمعنى خلق كان الظرف متعلقاً به أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله قدم عليه لرعاية الفواصل فتحول حالاً .

وقال الفراء .

والسيرافي : البين هنا بمعنى الوصل فإنه يكون بمعناه كما يكون بمعنى الفراق وهو مفعول أول لجعلنا و ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ بمعنى هلاكاً مفعوله الثاني ، والمعنى جعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(40/474)

وقال القاسمي :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور في أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك ، من خباثة المحتد والفسق والعداوة . أي : ما أحضرت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض ، حين خلقتهما : ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : وما أشهدت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفي الإشهاد كناية عن نفي الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر – أبلغ . إذ من لم يشهد فأنَّى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكاً ؟ ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ أي : وما كنت متخذهم أعواناً لخلق ما ذكر ، بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أي : وإذا لم يكونوا عضداً في الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء في العبادة ؟ واستحقاقُ العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفي لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المضلون ، فلا يكونون أرباباً . إنما وضع المضلين موضع الضمير ، ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال ، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : 22 - 23] .

(41/474)

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ أي : الحق تعالى : ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي : في دار الدنيا ، أنهم شركاء لينقذوكم مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريعاً وتوبيخاً لهم : ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أي : فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم : ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أي : فلم يعينوهم ، لعجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفي إيراده ، مع ظهوره ، تهكم بهم وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين الكفار وآلهتهم : ﴿ مَوْبِقاً ﴾ أي : مهلكاً يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هي في الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضي الله عنه : " لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً " ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 81 - 82] ، قال ابن كثير : وأما إنْ جعل الضمير في قوله : ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ عائدا إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عَمْرو : " إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به " فهو كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ

﴿ [الروم : 14] ، وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] ، وقال تعالى : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : 59] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 28 - 30] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 46.45 ﴾

(42/474)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾

تنزل هذه الجملة منزلة التعليل للجملتين اللتين قبلها وهما ﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ إلى قوله : ﴿ بدلاً ﴾ [الكهف : 50] ، فإنهم لما لم يشهدوا خلق السماوات والأرض لم يكونوا شركاء لله في الخلق بطريق الأولى فلم يكونوا أحقاء بأن يعبدوا .

وهذا احتجاج على المشركين بما يعترفون به فإنهم يعترفون بأن الله هو المتفرد بخلق السماوات والأرض وخلق الموجودات .

والإشهاد : جعل الغير شاهداً ، أي حاضراً ، وهو هنا كناية عن إحضار خاص ، وهو

إحضار المشاركة في العمل أو الإعانة عليه .

ونفي هذا الشهود يستلزم نفي المشاركة في الخلق والإلهية بالفحوى أي ، بالأولى ، فإن خلق السماوات كان قبل وجود إبليس وذريته ، فهو استدلال على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم .

وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القِدم ، والقدم من لوازم الإلهية .

وضمائر الغيبة في قوله : أشهدتهم ﴾ وقوله : ﴿ أنفسهم ﴾ عائدة إلى المتحدث عنه ، أي إبليس وذريته كما عاد إليهم الضمير في قوله : ﴿ وهم لكم عدوّ ﴾ .

ومعنى ﴿ أنفسهم ﴾ ، أنفس بعضهم بقرينة استحالة مشاهدة المخلوق خلق نفسه ، فإطلاق الأنفس هنا نظير إطلاقه في قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] وفي قوله : ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ [البقرة : 84] ، أي أنفس بعضكم .

فعلى هذا الوجه تتناسق الضمائر ويتقوم المعنى المقصود .

(43/474)

واعلم أن الله تعالى خلق السماوات والأرض قبل أن يخلق لهما سكانهما كما دل عليه قوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ [فصّلت : 129] .

وكان أهل الجاهلية يعتقدون في الأرض جنّا متصرفين فكانوا إذا نزلوا وادياً مخوفاً قالوا : أعوذ بعزيز هذا الوادي ، ليكونوا في أمن من ضره .

وقرأ أبو جعفر ما أشهدناهم ﴾ بنون العظمة ، وقرأ ﴿ وما كنتَ ﴾ بفتح التاء على الخطاب ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو خبر مستعمل في النهي .

والمراد بـ ﴿ المضلّين ﴾ الشياطين ، لأنهم أضلوا الناس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ [الأنعام : 121] .

وجملة وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ تذييل لجملة ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ .

والعدول عن الإضمار بأن يقال : وما كنت متخذهم إلى ﴿ المضلين ﴾ لإفادة الذم ، ولأن التذييل ينبغي أن يكون كلاماً مستقلاً .

والعضد بفتح العين وضم الضاد المعجمة في الأفصح ، و بالفتح وسكون الضاد في لغة تميم .

وفيه لغات أخرى أضعف .

ونسب ابن عطية أن أبا عمرو قرأه بضم العين وضم الضاد على أنها لغة في عَضد وهي رواية هارون عن أبي عمرو وليست مشهورة .

وهو : العظم الذي بين المرفق والكتف ، وهو يطلق مجازاً على المعين على العمل ، يقال : فلان عَضدي واعتضدت به .

(44/474)

والمعنى : لا يليق بالكمال الإلهي أن أتخذ أهل الإضلال أعواناً فأشركهم في تصرفي في الإنشاء ، فإن الله مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصَادر الضلالة ، أي لا يعين المُعين إلا على عمل أمثاله ، ولا يكون إلا قريناً لأشكاله .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ [الكهف : 50] فيقدر : واذكر يوم يقول نادوا شركائي ، أو على جملة ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ [الكهف : 51] ، فالتقدير : ولا أشهدت شركاءهم جميعاً ولا تنفعهم شركاؤهم يوم

الحشر ، فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذٍ .

وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية بانتفاء لوازمها ، فإنه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها استلزم ذلك انتفاء إلهيتها ، وحصل بذلك تشخيص خيبتهم ويأسهم من النجاة .

وقرأ الجمهور يقول ﴿ بياء الغيبة وضمير الغائب عائد إلى الله تعالى لدلالة المقام عليه ، وقرأ حمزة ﴿ نقول ﴾ بنون العظمة .

واليوم الذي يقع فيه هذا القول هو يوم الحشر .

والمعنى : يقول للمشركين ، كما دل عليه قوله : ﴿ الذين زعمتم ﴾ ، أي زعمتموهم شركائي .

وقدم وصفهم بوصف الشركاء قبل فعل الزعم تهكماً بالمخاطبين وتوبيخاً لهم ، ثم أردف بما يدل على كذبهم فيما ادعوا بفعل الزعم الدال على اعتقاد باطل .

والنداء : طلب الإقبال للنصرة والشفاعة .

والاستجابة : الكلام الدال على سماع النداء والأخذُ في الإقبال على المنادي بنحو قول : لبيكم .

وأمره إياهم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمه وهو إظهار باطلهم بقرينة فعل

الزعم .

ولذلك لم يسعهم إلا أن ينادوهم حيث قال ﴿ فدعوهم ﴾ لطمعهم ، فإذا نادوهم تبين لهم خيبة طمعهم .

(45/474)

ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب .

وأتي به في صيغة المضي للدلالة على تعجيل وقوعه حينئذٍ حتى كأنه قد انقضى .

والموبق : مكان الوُبوق ، أي الهلاكِ .

يقال : وبَق مثل وَعَد ووجل وورِث .

والموبق هنا أريد به جهنم ، أي حين دعوا أصنامهم بأسمائهم كوّن الله فيما بين مكانهم ومكان أصنامهم فَوهات جهنم ، ويجوز أن تكون جملة ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ جملة حال أي وقد جعلنا بينهم موبقاً تمهيداً لما بعده من قوله : ﴿ ورأى المجرمون النار ﴾ [الكهف : 53] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(46/474)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) ﴾

التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة – أن الله يقول : ما اشهدت إبلي وجنوده ؛ أي ما أحضرتم خلق السموات والأرض ، فأستعين لهم على خلقها ولا خلق أنفسهم ، أي ولا أشهدتهم خلق أنفسهم ، أي ما أشهدت بعضهم خلق بعضهم فأستعين به على خلقه ، بل تفردت لخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير ! فكيف تصرقوه لهم حقي وتتخذونهم أولياء من دوني وأنا خالق كل شيء ! ؟

وهذا المعنى الذي أشارت له الآية من أن الخالق هو المعبود وحده – جاء مبيناً في آيات كثيرة ، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة ، كقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] ، وقوله : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد : 16] ، وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان : 11] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ [فاطر : 40] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا

تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ﴾ [الأحقاف : 4] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمناه مراراً . وقال بعض العلماء ﴿ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : ما أشهدتهم خلق أنفسهم ؛ بل خلقتهم على ما أرادت وكيف شئت .

(47/474)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] فيه الإظهار في محل الإضمار ، لأن الأصل الظاهر . وما كنت متخذهم عضداً ، كقوله : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ والنكتة البلاغية في الأظهار في محل الإضمار في ذمه تعالى لهم بلفظ الإضلال . وقوله " عَضُداً " اي أعواناً .

وفي هذه الآية الكريمة – التنبيه على أن الضاليم المضلين لا تنبغي الاستعانة بهم ، والعبرو بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب . والمعنى المذكور أشير له في مواضع أخر ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : 17] والظهير : المعين . والمضلون : الذين يضلون أتباعهم عن طريق الحق . وقد قدمنا الضلاض وإطلاقاته في القرآن بشواهده العربية .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) ﴾

(48/474)

أي واذكر يوم يقول الله جل وعلا للمشركين الذين كانوا يشركون معه الآلهة والأنداد من الأصنام وغيرها من المعبودات من دون رجمه الله توبيخاً لهم وتقريعاً : نادوا شركائي الذي زعمتم أنهم شركاء معي ، فالمفعولان محذوفان : أي زعمتموهم شركاء لي كذباً وافتراء . أي ادعوهم واستغيثوا بهم لينصروكم ويمنعوكم من عذابي ، فدعوم فلم يستجيبوا لهم ، أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم . وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من عدم استجابتهم لهم إذا دعوهم يوم القيامة جاء موضحاً في مواضع أخر ، كقوله تعالى في سورة " القصص " : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : 62-64] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ

بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: 13-14]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: 5-6]، وقوله: ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم: 81-82]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا

(49/474)

فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: 94]، والآيات في تبرئهم منهم يوم القيامة، وعدم استجابتهم لهم كثيرة جداً. وخطبة الشيطان المذكورة في سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم: 22] -إلى قوله- ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: 22] من قبيل ذلك المعنى المذكور في الآيات المذكورة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ اختلف العلماء فيه من ثلاث

جهات :

الأولى - في المراد بالظرف الذي هو " بين " . والثانية - في مرجع الضمير . والثالثه - في المراد بالموبق .

وسنذكر هنا أقوالهم ، وما يظهر لنا رجحانه منها إن شاء الله تعالى .

أما الموبق : فقيل : المهلك . وقيل واد في جهنم . وقيل الموعد . قال صاحب الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ يقول : مهلكاً . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في قوله " موبقاً " يقول : مهلكاً . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في قوله " موبقاً " قال ؟ واد في جهنم .

(50/474)

وأخرج عبد اله بن أحمد في زائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن أنس في قوله ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ قال : واد في جهنم من قيح ودم . وأخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن ابن عمر في قوله ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ قال : هو واد عميق في النار ، فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى

والضلالة . وأخرج ابن النذر وابن أبي حاتم عن عمرو البكالي قال : الموبق الذي ذكر الله : واد في النار ، بعيد العقر ، يفرق الله به يوم القيامة بين أهل الأسلام وبين من سواهم من الناس . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله تعالى ﴿ موبقاً ﴾ قال : هو نهو يسيل ناراً على حافتية حيات أمثال البغال الدهم ، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا بالاقتحام في النار منها . وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال : إن في النار أربعة أودية يعذب الله بها أهلها : غليظ ، وموبق ، وأثام ، وغي . انتهى كلام صاحب الدر المنثور . ونقل ابن جرير عن بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة : أن المربق : الموعد ، واستدل لذلك بقوله : الشاعر :

وحاد شروري والستار فلم يدع . . . تعاراً له والواديين بموبق

يعني بموعد . والتحقيق : أن المربق المهلك ، من قولهم وبق يبق ، كوعد يعد : إذا هلك . وفيه لغة أخرى وهي وبق يوبق كرجل يوجل . ولغة ثالثة ايضاً وهي : وبق يبق كورث يرث . ومعنى كل ذلك : الهلاك . والمصدر من وبق – بالفتح – الوبوق على القياس ، والوبق . ومن وبق – بالكسر – الوبق بفتحتين على القياس . وأوبقته ذنوبه : أهلكته ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [الشورى : 34] أي يهلكهن ، ومنه الحديث ، " فموبق نفسه أو بائعها فمعتقها " وحديث " السبع الموبقات " أي المهلكات ،

ومن هذا المعنى قول زهير :

ومن يشتري حسن الثناء بماله . . . يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

(51/474)

وقول من قال ، إن الموبق العداوة ، وقول من قال : إنه المجلس - كلاهما ظاهر السقوط . والتحقيق فيه هو ما قدمنا . واما أقوال العلماء في المراد بلفظة " بين " فعلى قول الحسن ومن وافقه : أن الموبق العداوة - فالمعنى واضح ؛ أي وجعلنا بينهم عداوة ؛ كقوله : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الزخرف : 67] الآية ، وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت : 25] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . ولكن تفسير الموبق بالعداوة بعيد كما قدمنا . وقال بعض العلماء : المراد بلابين في الآيي : الوصل ؛ أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا ملكاً لهم يوم القيامة ؛ كما قال تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ﴾

(52/474)

[البقرة : 166] أي المواصلات التي كانت بينهم في الدنيا . وكما قال : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] ، وكما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت : 25] ونحو ذلك من الآيات . وقال بعض العلماء : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ : جعلنا الهلاك بينهم ؛ لأن كلاً منهم معين على هلاك الآخر لتعاونهم على الكفر والمعاصي فهم شركاء في العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : 39] ، وقوله : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 38] ومعنى هذا القول مروي عن ابن زيد . وقال بعض العلماء ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ : أي بين المؤمنين والكافرين مربقاً ، أي مهلكاً يفصل بينهم ، فالداخل فيه ، في هلاك ، والخارج عنه في عافية . وأظهر الأقوال عندي وأجرها على ظاهر القرآن ، أن المعنى : وجعلنا بين الكفار وبين من كانوا يعبدونه ويشركونهم مع الله موبقاً أي مهلكاً ، لأن الجميع يحيط بهم الهلاك من كل جانب ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] الآية ، وقوله : ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] الآية ، وقوله : ﴿ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] الآية . وقال ابن الأعرابي : كل شي حاجز بين شيئين يسمى موبقاً ، نقله عنه القرطبي . وبما

ذكرنا تعلم أن الضمير في قوله " بينهم " قيل راجع إلى أهل النار . وقيل راجع إلى أهل الجنة وأهل النار معاً . وقيل راجع للمشركين وما كانوا يعبدونه من دون الله . وهذا هو أظهرها لدلالة ظاهره السياق عليه ، لأن الله يقول : ﴿

(53/474)

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [الكهف : 52] قال مخبراً عن العابدين والمعبودين : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ [الكهف : 52] اي مهلكاً يفصل بينهم ويحيط بهم . وهذا المعنى كقوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : 28] الآية . أي فرقنا بينهم . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ ويوم يقول ﴾ قراه عامة السبعة ما عدا حمزة بالساؤ المثناة التحتية ، وقرأه حمزة " نقول " بنون العظمة ، وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله ، أي يقول هو اي الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(54/474)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

إن هذا الشيطان الذي واليتموه من دون الله ، وأعطيتموه الميْزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خَلْق السماوات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خَلْق السماوات والأرض كان قبل خَلْقهم ، وكذلك ما شَهِدوا خَلْق أنفسهم ؛ لأنهم ساعة خَلْقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكي يخبروكم .

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] أي : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخَلْق وما عاونوني فيه .

والعَضُد : هو القوة التي تُسعفك وتسندك ، وهو مأخوذ من عَضُد الإنسان ، حيث يزاول أغلب أعماله بيده ، وحين يزاول أعماله بيده تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضاً وبَسْطاً واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكُلُّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظِّم أو موتور هو العضد ، وفي حركة اليد ودقتها في أداء مهمتها آياتٌ عُظْمى تدلُّ على دِقَّة الصَّنْعة .

وحينما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً يقوم بعدة حركات لكي يُحرِّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرِّك يدك كما شئْتَ دون أن تعرف ماذا يحدث ؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفكِّر فيها دون جهد

منك أو تدبير ؟

فكل أجزائك مُسخَّرة لإرادتك ، فإنْ أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور ؛ لذلك إياك أنْ تظن أنك خَلْق ميكانيكي ، بل أنت صَنْعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقِف جزءاً منك أمر المخ أنْ يقطعَ صِلَته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دَفْعَه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . ﴾ [القصص : 35] أي : نُقوِّيك ونُعطيك السَّنَد والعَوْن .

(55/474)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ . . . ﴾ .

يعني : واذْكر يا محمد ، ولتذْكُرْ معك أمتك هذا اليوم : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ . . ﴾ [الكهف : 52] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائي الذين اتخذتموهم من دوني . وزعمتم : أي : كذبتم في ادعائكم أنهم آلهة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . ﴾ [الكهف : 52]

وهذا من سماجتهم وتبجُّحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من

الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذَّبوه ، لكنهم تمادَوْا ﴿ فَدَعَوْهُمْ . . ﴾ [الكهف : 52] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم مَنْ قالوا : عيسى . ومنهم مَنْ قالوا : العزير ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم ؟

ومنهم مَنِ اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم مَنْ عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهم ونادوهم : تعالوا ، جادلوا عنّا ، وأخرجونا مما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طَوْعَ أمركم ، كما قال تعالى عنهم :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى . . ﴾ [الزمر : 3]

ولكن ، أَنَّى لهم ما يريدون ؟ فقد تقطعتْ بينهم الصلات ، وانقطعت حجتهم ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . ﴾ [الكهف : 52] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعي والمدعو وادياً سحيقا : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً . . ﴾ [الكهف : 52]

والمَوْبِق : المكان الذي يحصل فيه الهلاك ، وهو وَادٍ من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعي والمدعو مكاناً مُهْلكاً ، فلا الداعي يستطيع أنْ يلوذَ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أنْ ينتَصرَ للداعي ويُسعفه ، لأن بينهم منبعَ هلاك .

(56/474)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 34] يعني : يهلكهن .

ومن العجيب أن تكون هذه أول إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ . . ﴾ [الكهف : 52] استجابوا لهذا الأمر ، في حين أنهم لم يطيعوا الأوامر الأخرى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(57/474)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ قال : يقول ما أشهدت الشياطين الذين اتخذتم معي هذا ﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ قال : الشياطين ﴿ عضداً ﴾ قال : ولا اتخذتهم عضداً على شيء

عضدوني عليه فأعانوني .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ قال : أعواناً .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ قال : أعواناً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ يقول : مهلكاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ موبقاً ﴾ يقول : مهلكاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ موبقاً ﴾ قال : واد في جهنم .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن أنس في قوله : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ قال : واد في جهنم من قيح ودم .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي ، عن ابن عمر في قوله : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ قال : هو واد عميق في النار ، فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى والضلالة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عمرو البكالي قال : الموبق الذي ذكر الله ، واد في النار بعيد القعر يفرق به يوم القيامة بين أهل الإسلام ، وبين من سواهم من الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة في قوله : ﴿ موبقاً ﴾ قال : هو نهر في النار يسيل ناراً ، على حافتيه حيات أمثال البغال الدهم ، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا بالإقتحام في النار منها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن كعب قال : إن في النار أربعة أودية يعذب الله بها أهلها : غليظ ، وموبق ، وأثام ، وغي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(58/474)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ : أي : إبليسَ وذريتَه ، أو ما أشهدْتُ الملائكةَ فكيف تعبدونهم ؟ أو ما أشهدْتُ الكفارَ فكيف تَنْسُبون إليَّ ما لا يليق بجلالي ؟ أو ما أشهدْتُ جميعَ الخَلْقِ .

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ والسختياني في آخرين : " أشهَدْناهم " على التعظيم .

قوله : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ وُضع الظاهرُ موضعَ المضمر ؛ إذ المراد بالمُضِلِّين مَنْ نفى عنهم إشهادَ خَلْقِ السماواتِ ، وإنما نبَّه بذلك على وَصْفِهم القبيحِ .

وقرأ العامَّةُ "كُنْتُ" بضمِّ التاء إخباراً عنه تعالى . وقرأ الحسن والجحدري وأبو جعفر بفتحها خطاباً لنبيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم . وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ نوَّن اسمَ الفاعلِ ونَصَبَ به ، إذ المرادُ به الحالُ أو الاستقبالُ .

وقرأ عيسى "عَضْداً" بفتح العين وسكون الضاد ، وهو تخفيفٌ شائعٌ كقولِ تميم : سَبْع ورَجْل في : سَبَع ورَجُل . وقرأ الحسن "عُضْداً" بالضم والسكون : وذلك أنه نَقَل حركةَ الضادِ إلى العينِ بعد سَلْبِ العينِ حركتَها . وعنه أيضاً "عَضَداً" بفتحتين و "عُضُداً" بضمتين . والضحاك "عِضَداً" بكسر العين وفتحِ الضاد . وهذه لغاتٌ في هذا الحرفِ . والعَضُدُ من الإنسانِ وغيرِه معروفٌ . ويُعَبَّر به عن العونِ والنصير فيقال : فلان عَضُدي . ومنه ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : 35] أي : سنُقَوِّي نُصْرَتَك ومعونَتك .

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ : معمولٌ ل "اذكر" أي : ويوم نقولُ يجري كيت وكيت . وقرأ حمزة "نقولُ" بنون العظمة مراعاةً للتكلم في قوله : "ما أَشْهَدْتُهم" إلى أخره . والباقون بياءِ الغَيْبَةِ لتقدُّمِ اسمِ الشريفِ الظاهر .

قوله : " مَوْبِقاً " مفعولٌ أول للجَعْلِ ، والثاني الظرفُ المُقَدَّم . ويجوز أن تكونَ متعدّيةً لواحدٍ ، فيتعلَّق الظرفُ بالجَعْلِ أو بمحذوفٍ على الحال مِنْ " مَوْبِقا " .

والمَوْبِقُ : المَهْلَكُ ، يقال : وَبِقَ يَوْبِق وَبَقاً ، أي : هَلَكَ ووَبَقَ يَبِقُ وُبُوقاً أيضاً : هَلَكَ وأَوْبَقه ذنبُه . وعن الفراء : " جَعَلَ اللهُ تواصُلَهم هَلاكاً " فجعل البَيْنَ بمعنى الوَصْلِ ، وليس بظرفٍ كقولِه : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] في وجهٍ . وعلى هذا فيكون " بينَهم " مفعولاً أولَ ومَوْبِقاً " مفعولاً ثانياً . والمَوْبِقُ هنا : يجوز أَنْ يكونَ مصدراً وهو الظاهر . ويجوز أَنْ يكونَ مكاناً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 508.510 ﴾

(60/474)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ .

أكذب المنجمين والأطباء الذين يتكلمون في الهيئات والطبائع بقوله : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ : وبيّنَ أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه

الكائنات لا أصلَ له في التحقيق .

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ : أي لم أجعل للذين يُضِلُّون الناسَ عن دينهم بِشُبَهِهِمْ في القول بالطبائع حجةً ، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تقاصرت علومُ الخَلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومُهم بحقائق الصمدية ، واستحقاقِه لنعوته إلا بمقدار ما يخصُّهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً ؟

ويقال أخبر أَنَّ علومَهم تتقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كُلِّ ما في الكون ، ولا سبيلَ لهم إلى ذلك ؛ ولا حاجةَ بهم إلى الوقوفَ على ما قَصَرَتْ علومُهم عنه ، إذ لا يتعلَّق بذلك شيء من الأمور الدينية . فالإشارة في هذا أن يَصْرِفُوا عنايتَهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه ، فإنه لا بُدَّ لهم – بحكم الديانة – من التحقق بها ؛ إذ الواجبُ على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه في تفاصيل مسائل الصفات والأحكام .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) ﴾

عِلمَ الحقُّ – سبحانه – أَنَّ الأصنامَ لا تغني ولا تنفع ولا تضر ، ولكن يعرِّفهم في العاقبة بما يُصَيِّر معارفَهم ضرورية حَسْماً لأوهام القوم ؛ حيث توهموا أنّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] .

فإذا تحققوا بذلك صدقوا في الندم ، وكان استيلاء الحسة عليهم ، وذلك من أشد العقوبات لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 402 . 403 ﴾

(62/474)

قوله تعالى ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر سبحانه ما لهم مع شركائهم ، ذكر حالهم في استمرار جهلهم ، فقال تعالى :

﴿ ورءا المجرمون ﴾ أي العريقون في الإجرام ﴿ النار ﴾ أي ورأوا ، ولكنه أظهر للدلالة على تعليق الحكم بالوصف ﴿ فظنوا ﴾ ظناً ﴿ أنهم مواقعوها ولم ﴾ أي والحال أنهم لم ﴿ يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي مكاناً ينصرفون إليه ، فالموضع موضع التحقق ، ولكن ظنهم جرياً على عادتهم في الجهل كما قالوا ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ [الكهف : 4] بغير علم ﴿ وما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ [الكهف : 35] ، ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ [الكهف : 36] ، ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] مع قيام الأدلة التي لا ريب فيها .

ولما كان الكلام في قوة أن يقال : صرفنا هذه الأخبار بما أشارت إليه من الأسرار الكبار ، فقامت دلائل الشريعة الجلائل ، وأضاءت بها جواهر المعاني الزواهر ، عطف على ذلك :

﴿ ولقد صرفنا ﴾ أي بما لنا من العظمة .

ولما كانت هذه السورة في وصف الكتاب ، اقتضى الاهتمام به تقديمه في قوله تعالى :

﴿ في هذا القرءان ﴾ أي القيم الذي لا عوج فيه ، مع جمعه للمعاني ونشره الفارق بين الملبسات ﴿ للناس ﴾ أي المزلزلين فضلاً عن الثابتين ﴿ من كل مثل ﴾ أي حوّلنا الكلام وطرقناه في كل وجه من وجوه المعاني وألبسناه من العبارات الرائقة ، والأساليب المتناسقة ، ما سار بها في غرابته كالمثل ، يقبله كل من يسمعه ، وتضرب به آباط الإبل في سائر البلاد ،

بين العباد ، فتبشر به قلوبهم ، وتلهج به ألسنتهم ، فلم يتقبلوه وجادلوا فيه ؛ ثم نبه على الوصف المقتضي لذلك بقوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان ﴾ الذي جعل خصيماً وهو آنس بنفسه جبلة وطبعاً ﴿ أكثر شيء ﴾ وميز الأكثرية بقوله تعالى : ﴿ جدلاً ﴾ لأنه لم ينته عن الجدل بعد هذا البيان ، الذي أضاء جميع الأكوان .

ولما بين إعراضهم ، بين موجبه عندهم فقال : ﴿ وما منع ﴾ ولما كان الناس تبعاً لقريش قال : ﴿ الناس ﴾ أي الذين جادلوا بالباطل ، الإيمان - هكذا كان الأصل ، ولكنه عبر عن هذا المفعول الثاني بقوله تعالى : ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ليفيد التجديد وذمهم على الترك ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ جاءهم الهدى ﴾ بالكتاب على لسان الرسول ، وعطف على المفعول الثاني - معبراً بمثل ما مضى لما مضى - قوله تعالى : ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ أي المحسن إليهم .

(63/474)

ولما كان الاستثناء مفرغاً ، أتى بالفاعل فقال تعالى : ﴿ إلا أن ﴾ أي طلب أن ﴿ تأتيهم سنة الأولين ﴾ في إجابتهم إلى ما اقترحوه على رسلهم ، المقتضي للاستئصال لمن استمر على الضلال ، ومن ذلك طلبهم أن يكون النبي ملكاً ، وذلك نقمة في صورة نعمة وإتيان بالعذاب دبراً ، أي مستوراً ﴿ أو ﴾ طلب أن ﴿ يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي مواجهة

ومعاينة ومشاهدة من غير ستر له ، هو في قراءة من كسر القاف وفتح الباء واضح ، من قولهم : لقيت فلاناً قبلاً ، أي معاينة ، وكذا في قراءة من ضمهما ، من قولهم : أنا آتيك قبلاً لا دبراً ، أي مواجهة من جهة وجهك لا من جهة قفاك ، قال تعالى :

﴿ إن كان قميصه قدَّ من قبل ﴾ [يوسف : 26] ، ويصح أن يراد بهذه القراءة الجماعة ، لأن المراد بالعذاب الجنس أي يأتيهم أصنافاً مصنفة صنفاً ونوعاً نوعاً ، وقد مضى في الأنعام بيانه ، وهذا الشق قسيم الإتيان بسنة الأولين ، فمعناه : من غير أن يجابوا إلى ما اقترحوا كما تقدم في التي قبلها ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً وقالوا لن نؤمن لك ﴾ [الإسراء : 89-90] - إلى قوله تعالى : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ [الإسراء : 92] الآية وهذه الآية من الاحتباك : ذكر ﴿ سنة الأولين ﴾ أولاً يدل على ضدها ثانياً ، وذكر المكاشفة ثانياً يدل على المساترة أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 481.482 ﴾

(64/474)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار فَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾

وفي هذا الظن قولان :

الأول : أن الظن ههنا بمعنى العلم واليقين .

والثاني : وهو الأقرب أن المعنى أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة ، لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها . كما قال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] وقوله : ﴿ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي مخالطوها فإن مخالطة الشيء لغيره إذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ أي لم يجدوا عن النار معدلاً إلى غيرها لأن الملائكة تسوقهم إليها .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) ﴾

اعلم أن أولئك الكفرة لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم وبين تعالى بالوجوه الكثيرة أن قولهم فاسد وشبهتهم باطلة وذكر فيه المثلين المتقدمين ، قال بعده : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ وهو إشارة إلى ما سبق والتصريف يقتضي التكرير والأمر كذلك لأنه تعالى أجاب عن شبهتهم التي ذكروها من وجوه كثيرة ومع تلك الجوابات الشافية والأمثلة المطابقة فهؤلاء الكفار لا يتركون المجادلة الباطلة فقال وكان

الإنسان أكثر شيء جدلاً أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل وانتصاب قوله جدلاً على التمييز قال بعض المحققين والآية دالة على أن الأنبياء عليهم السلام جادلوهم في الدين حتى صاروا هم مجادلين لأن المجادلة لا تحصل إلا من الطرفين وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ثم قال : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الهدى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ وفيه بحثان :

(65/474)

البحث الأول : قالت المعتزلة : الآية دالة على أنه لم يوجد ما يمنع من الإقدام على الإيمان وذلك يدل على فساد قول من يقول إنه حصل المانع .

قال أصحابنا : العلم بأنه لا يؤمن مضاد لوجود الإيمان .

فإذا كان ذلك العلم قائماً كان المانع قائماً .

وأيضاً حصول الداعي إلى الكفر قائم وإلا لما وجب لأن الفعل الاختياري بدون الداعي محال ، ووجود الداعي إلى الكفر مانع من حصول الإيمان .

وإذا ثبت هذا ظهر أن المراد مقدار الموانع المحسوسة .

البحث الثاني : المعنى أنه لما جاءهم الهدى وهو الدليل الدال على صحة الإسلام ، وثبت

أنه لا مانع لهم من الإيمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة .

والأعذار زائلة فلم لم يقدموا على الإيمان ثم قال تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ وهو عذاب الاستئصال ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائي قبلاً بضم القاف والباء جميعاً وهو جمع قبيل بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء وقيل مقابلة وعياناً والباقون قبلاً بكسر القاف وفتح الباء أي عياناً أيضاً ، وروى صاحب الكشاف قبلاً بفتحتين أي مستقبلاً .

والمعنى أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا ، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا ، واعلم أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا على هذين الشرطين ، لأن العاقل لا يرضى بحصول هذين الأمرين إلا أن حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 119 . 120 ﴾

(66/474)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ورأى المجرمون النّار ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم عاينوا في المحشر .

الثاني : أنهم علموا بها عند العرض .

﴿ فظنُّوا أنهم مُواقعوها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم أمّلوا العفو قبل دخولها فلذلك ظنوا أنهم مواقعوها

الثاني : علموا أنهم مواقعوها لأنهم قد حصلوا في دار اليقين وقد يعبر عن العلم بالظن لأن الظن مقدمة العلم .

﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ملجأ ، قاله الكلبي .

الثاني : معدلاً ينصرفون إليه ، قاله ابن قتيبة ، ومنه قول أبي كبير الهذلي :

أزهير هل عن شيبةٍ من مصرِف . . . أم لا خلود لباذل متكلفِ

وفي المراد وجهان :

أحدهما : ولم يجد المشركون عن النار مصرفاً .

الثاني : ولم تجد الأصنام مصرفاً للنار عن المشركين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كلِّ مثَل ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : ما ذكره لهم من العبر في القرون الخالية .

الثاني : ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية ، فيكون على الوجه الأول جزاء ، وعلى الثاني بياناً .

﴿ وكان الإنسان أكثر شيءٍ جَدلاً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : عناداً ، وهو مقتضى الوجه الأول .

الثاني : حجاجاً وهو مقتضى القول الثاني . روي أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عليّ وفاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان فقال : " الصلاة ، ألا تصليان " فقال علي رضي الله عنه : إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثها بعثها ، فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف : 54] .

قوله عز وجل : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءَهم الهُدى ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : وما منع الناس أنفسهم أن يؤمنوا .

الثاني : ما منع الشيطان الناس أن يؤمنوا .

وفي هذا الهدي وجهان :

أحدهما : حجج الله الدالة على وحدانيته ووجوب طاعته .

الثاني : رسول الله صلى الله عليه وسلم المبعوث لهداية الخلق .

﴿ إلاّ أن تأتيهم سنةُ الأولين ﴾ أي عادة الأولين في عذاب الإستئصال .

﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ قُبُلاً ﴾ بضم القاف والباء

وفيه وجهان :

أحدهما : تجاه ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه جمع قبيل معناه ضروب العذاب .

ويحتمل ثالثاً : أن يريد : من أمامهم مستقبلاً لهم فيشتد عليهم هول مشاهدته .

وقرأ الباقون قِبَلاً بكسر القاف ، وفيه وجهان :

أحدهما : مقابلة .

الثاني : معاينة .

ويحتمل ثالثاً : من قبل الله تعالى بعذاب من السماء ، لا من قبل المخلوقين ، لأنه يعم ولا يبقى

فهو أشد وأعظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ثم أخبر عز وجل عن رؤية المجرمين النار ، ومعاينتهم لها ، ووقوع العلم لهم بأنهم مباشروها ، وأطلق الناس أن الظن هنا بمعنى اليقين ، ولو قال بدل ﴿ ظنوا ﴾ وأيقنوا لكان الكلام متسقاً ، على مبالغة فيه ، ولكن العبارة بالظن لا تجيء أبداً في موضع يقين تام قد قاله الحسن ، بل أعظم درجاته أن يجيء في موضع علم متحقق ، لكنه لم يقع ذلك المظنون ، وإلا ، فقد يقع ويحسن ، لا يكاد توجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن وتأمل هذه الآية ، وتأمل قول دريد :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج . . . وقرأ الأعمش " فظنوا أنهم ملاقوها " ، وكذلك في مصحف ابن مسعود ، وحكى أبو عمرو الداني عن علقمة ، أنه قرأ : " ملافوها " بالفاء مشددة من لففت ، وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة " و " المصرف " المعدل ، والمرغ ، ومنه قول أبي كبير الهذلي : [الكامل]

أزهير هل عن شيبة بن مصرف . . . أم لا خلود لباذل متكلف

(69/474)

وهو مأخوذ من الانصراف من شيء إلى شيء ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا ﴾ الآية ، المعنى : ولقد خوفنا ورجينا وبالغنا في البيان ، وهذا كله بتمثيل وتقريب للأذهان ، وقوله : ﴿ من كل مثل ﴾ أي من كل مثال له نفع في الغرض المقصود بهم ، وهو الهداية ، وقوله ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ خبر مقتضب في ضمنه ، فلم ينفع فيهم تصريف الأمثال ، بل هم منحرفون يجادلون بالباطل وقوله ﴿ الإنسان ﴾ يريد الجنس ، وروي أن سبب هذه الآية هو النضر بن الحارث ، وقيل ابن الزبعرى . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد نام عن صلاة الليل ، فأيقظه ، فقال له علي إنما نفسي بيد الله ، ونحو هذا ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضرب خده بيده ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ فقد استعمل الآية على العموم في جميع الناس ، و" الجدل " الخصام والمدافعة بالقول ، فالإنسان أكثر جدلاً من كل ما يجادل من ملائكة وجن وغير ذلك إن فرض وفي قوله ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ تعليم تفجع ما على الناس ، ويبين فيما بعد .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) ﴾

هذه آية : تأسف عليهم وتنبيه على فساد حالهم ، لأن هذا المنع لم يكن بقصد منهم أن يمتنعوا ليجيئهم العذاب ، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنهم مصيبون ، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا ، فكأن حالهم تقتضي التأسف عليهم ، و﴿ الناس ﴾ يراد به كفار عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين تولوا دفع الشريعة وتكذيبها ، و﴿ الهدى ﴾ هو شرع الله والبيان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، و" الاستغفار " هنا طلب المغفرة على فارط الذنب كفراً وغيره ، و﴿ سنة الأولين ﴾ هي عذاب الأمم المذكورة من الغرق والصيحة والظلمة والريح وغير ذلك ، ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي مقابلة عياناً ، والمعنى عذاباً غير المعهود ، فتظهر فائدة التقسيم وكذلك صدق هذا الوعيد في بدر ، وقال مجاهد : ﴿ قبلاً ﴾ معناه فجأة وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ومجاهد وعيسى بن عمر " قِبَلا " بكسر القاف وفتح الباء ، وقرأ عاصم والكسائي وحمزة والحسن والأعرج " قُبُلاً " بضم القاف والباء ، ويحتمل معنيين أحدهما أن يكون بمعنى قبل ، لأن أبا عبيدة حكاهما بمعنى واحد في المقابلة ، والآخر أن يكون جمع قبيل ، أي يجيئهم العذاب أنواعاً وألواناً ، وقرأ أبو رجاء والحسن أيضاً : " قُبْلاً " بضم القاف وسكون الباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار ﴾

أي : عاينوها وهي تتغيَّظ حنقاً عليهم .

والمراد بالمجرمين : الكفار .

﴿ فَظَنُّوا ﴾ أي : أيقنوا ﴿ أنهم مُواقِعُوها ﴾ أي : داخلوها .

ومعنى المواقعة : ملابسة الشيء بشدَّة ﴿ ولم يجدوا عنها مَصْرِفا ﴾ أي : مَعْدِلاً ؛

والمَصْرِف : الموضع الذي يُصْرَف إليه ، وذلك أنها أحاطت بهم من كل جانب ، فلم يقدروا على الهَرَب .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صَرَّفْنا في هذا القرآن ﴾

قد فسرناه في [بني إسرائيل : 41] .

قوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ فيمن نزلت قولان .

أحدهما : أنه النَّضْر بن الحارث ، وكان جِداله في القرآن ، قاله ابن عباس .

والثاني : أُبيّ بن خلف ، وكان جِداله في البعث حين أتى بعظم قد رَمَّ ، فقال : أيقدر الله

على إِعادة هذا ؟ ! قاله ابن السائب .

قال الزجاج : كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل ، والإِنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً .

قوله تعالى : ﴿ وما منع الناسَ أن يؤمنوا ﴾ قال المفسرون : يعني : أهل مكة ﴿ إِذ جاءهم الهدى ﴾ وهو : محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ، والإِسلام ﴿ إِلا أن تأتيَهم سُنَّةُ الأوَّلين ﴾ وهو : أنهم إِذا لم يؤمنوا عذِّبوا .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : ما منعهم من الإِيمان إِلا طلب أن تأتيهم سُنَّة الأولين ، قاله الزجاج .

والثاني : وما منع الشيطانُ الناس أن يؤمنوا إِلا لأَن تأتيهم سُنَّة الأولين ، أي : منعهم رُشْدَهُم لكي يقع العذاب بهم ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : ما منعهم إِلا أَنِّي قد قدَّرت عليهم العذاب .

وهذه الآية فيمن قُتل ببدر وأُحُد من المشركين ، قاله الواحدي .

قوله تعالى : ﴿ أو يأتيَهم العذاب ﴾ ذكر ابن الأنباري في "أو" [هاهنا] ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى الواو .

والثاني : أنها لوقوع أحد الشيئين ، إِذ لا فائدة في بيانه .

والثالث أنها دخلت للتبعيض ، أي : أن بعضهم يقع به هذا ، وهذه الأقوال الثلاثة قد أسلفنا بيانها في قوله عز وجل : ﴿ أو كصيّب من السماء ﴾ [البقرة : 19] .

قوله تعالى : ﴿ قُبُلاً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "قِبَلاً" بكسر القاف وفتح الباء .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "قُبُلاً" بضم القاف والباء .

وقد بيّنّا عِلّة القراءتين في [الأنعام : 111] .

وقرأ أُبيّ ابن كعب ، وابن مسْعود : "قَبيلاً" بوزن فَعِيل .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو المتوكل "قَبَلاً" بفتح القاف من غير ياء ، قال ابن قتيبة : أراد استئنافاً .

فإن قيل : إذا كان المراد بسُنَّة الأولين العذاب ، فما فائدة التكرار بقوله : ﴿ أو يأتيَهم العذاب ﴾ ؟

فالجواب : أن سُنَّة الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته ، وتختلف أنواعه ، وإتيان العذاب قُبُلاً أفاد القتل يوم بدر .

قال مقاتل : "سُنَّة الأولين" : عذاب الأمم السالفة ؛ "أو يأتيَهم العذاب قِبَلاً" ، أي : عِياناً قتلاً بالسيف يوم بدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾

"رأى" أصله رَأَيَ ؛ قلبت الياء ألفاً لانفتاحها وانفتاح ما قبلها ؛ ولهذا زعم الكوفيون أن "رأى" يكتب بالياء ، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين .

فأما البصريون الحذّاق ، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف .

قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف ، ولا فرق بين ذوات الياء وبين (ذوات) الواو في الخط ، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو ، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء ورماه بالألف ، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء ، ثم يكتبون ضُحاً جمع ضَحْوة ، وكُساً جمع كِسوة ، وهما من ذوات الواو بالياء ، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل .

﴿ فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ "فظنّوا" هنا بمعنى اليقين والعلم ، كما قال :

فَقلْتُ لهمْ ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّج . . .

أي أيقنوا ؛ وقد تقدّم .

قال ابن عباس : أيقنوا أنهم مواقعوها .

وقيل : رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها ، وظنوا أنها تأخذهم في الحال .

وفي الخبر : "إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة" .

والمواقعة ملابسة الشيء بشدّة .

(وعن علقمة أنه قرأ) "فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلاَفُّوها" أي مجتمعون فيها ، واللَّفَف الجمع .

﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي مَهْرَباً لإحاطتها بهم من كل جانب .

وقال القتبي : مَعْدِلا ينصرفون إليه .

وقيل : ملجأ يلجأون إليه ؛ والمعنى واحد .

وقيل : ولم تجد الأصنام مصرِفاً للنار عن المشركين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآنِ للنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

يحتمل وجهين : أحدهما : ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية .

الثاني : ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في "سبحان" ؛ فهو على الوجه الأوّل زجر ، وعلى الثاني بيان .

﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ أي جدالاً ومجادلة ، والمراد به النضر بن الحارث وجداله في القرآن .

وقيل : الآية في أبيّ بن خلف .

وقال الزجاج : أي الكافر أكثر شيء جدلاً ؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله : "وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ" .

وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له : ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك فيقول : رب آمنتُ بك وصدّقت برسلك وعملتُ بكتابك فيقول الله له : هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك فيقول : يا رب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول : ولا أقبلهم يا رب وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي فيقول الله تعالى : هذا اللوح المحفوظ أمّ الكتاب قد شهد بذلك فقال : يا رب ألم تُجرني من الظلم قال : بلى فقال : يا رب لا أقبل إلا شاهداً عليّ من نفسي فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهداً من نفسك فيتفكر من ذا الذي يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإنّ بعضه ليلعن بعضاً يقول لأعضائه : لعنكنّ الله فعنكنّ كنتُ أناضل

فتقول أعضاؤه : لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكْتَم حديثاً فذلك قوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ " أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضاً .

وفي صحيح مسلم " عن عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً فقال : "ألا تصلّون" فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك ، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ " .

(75/474)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي سنتنا في إهلاكهم ؛ أي ما منعهم عن الإيمان إلا حكمي عليهم بذلك ؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا .

وسنة الأوّلين عادة الأوّلين في عذاب الاستئصال .

وقيل : المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيهم سنة الأوّلين فحذف .

وسنة الأوّلين معاينة العذاب ، فطلب المشركون ذلك ، وقالوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ

الحق مِنْ عِندِكَ ﴾

[الأنفال : 32] الآية .

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ﴾ نصب على الحال ، ومعناه عِيانا ؛ قاله ابن عباس .

وقال الكلبيّ : هو السيف يوم بَدْر .

وقال مقاتل : فجأة .

وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمزة ويحيى والكسائي "قُبُلاً" بضمتين أرادوا به أصناف العذاب كلّه ؛ جمع قبيل نحو سَبِيل وسُبُل .

النحاس : ومذهب الفراء أن "قُبُلا" جمع قَبِيل أي متفرّقاً يتلو بعضه بعضاً .

ويجوز عنده أن يكون المعنى عِيانا .

وقال الأعرج : وكانت قراءته "قُبُلاً" معناه جميعاً .

وقال أبو عمرو : وكانت قراءته "قِبَلاً" ومعناه عِيانا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(76/474)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ ورأى المجرمون النار ﴾

هي رؤية عين أي عاينوها ، والظن هنا قيل : على موضوعه من كونه ترجيح أحد الجانبين . وكونهم لم يجزموا بدخولها رجاء وطمعاً في رحمة الله .

وقيل : معنى ﴿ فظنوا ﴾ أيقنوا قاله أكثر الناس ، ومعنى ﴿ مواقعوها ﴾ مخالطوها واقعون فيها كقوله ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ﴾ ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ وقال ابن عطية : أطلق الناس أن الظن هنا بمعنى التيقن ، ولو قال بدل ظنوا أيقنوا لكان الكلام متسقاً على مبالغة فيه ، ولكن العبارة بالظن لا تجيء أبداً في موضع يقين تام قد ناله الحسن بل أعظم درجاته أن يجيء في موضع علم متحقق ، لكنه لم يقع ذلك المظنون وإلاّ فمن يقع ويحس لا يكاد يوجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن .

وتأمل هذه الآية وتأمل قول دريد :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج . . .

انتهى .

وفي مصحف عبد الله ملاقوها مكان ﴿ مواقعوها ﴾ وقرأه كذلك الأعمش وابن غزوان عن طلحة ، والأولى جعله تفسيراً لمخالفة سواد المصحف .

وعن علقمة أنه قرأ ملافوها بالفاء مشددة من لففت .

وفي الحديث : " إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة " ومعنى ﴿ مصرفاً ﴾ معدلاً ومراعاً .

ومنه قول أبي كبير الهذلي :

أزهير هل عن شيبة من مصرف . . .

أم لا خلود لباذل متكلف

وأجاز أبو معاذ ﴿ مصرفاً ﴾ بفتح الراء وهي قراءة زيد بن عليّ جعله مصدراً كالمضرب لأن مضارعه يصرف على يفعل كيصرف .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) ﴾

أدحض الحق أرهقه قاله ثعلب ، وأصله من إدحاض القدم وهو إزلاقها قال الشاعر :

وردت ويجيّ اليشكري حذاره . . .

وحاد كما حاد البعير عن الدّحض

وقال آخر :

أبا منذر رمت الوفاء وهبته . . .

وحدت كما حاد البعير المدحض

والدحض الطين الذي يزهق فيه .

الموئل قال الفراء : المنجي يقال والت نفس فلان نجت .

وقال الأعشى :

وقد أخالس رب البيت غفلته . . .

وقد يحاذر مني ثم ما يئل

أي ما ينجو .

وقال ابن قتيبة : الملجأ يقال : وأل فلان إلى كذا ألجأ ، يئل وألاً ووؤولاً .

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدّمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا

لمهلكهم موعداً ﴾ .

تقدّم تفسير نظير صدر هذه الآية : و﴿ شيء ﴾ هنا مفرد معناه الجمع أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال إن فصلتها واحداً بعد واحد .

﴿ جدلاً ﴾ خصومة ومماراة يعني إن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء ونحوه ، فإذا هو خصيم مبين .

وانتصب ﴿ جدلاً ﴾ على التمييز .

قيل : ﴿ الإنسان ﴾ هنا النضر بن الحارث .

وقيل : ابن الزبعري .

وقيل : أبيّ بن خلف ، وكان جداله في البعث حين أتى بعظم فذره ، فقال : أيقدر الله على إعادة هذا ؟ قاله ابن السائب .

قيل : كل من يعقل من ملك وجنّ يجادل و﴿ الإنسان أكثر ﴾ هذه الأشياء ﴿ جدلاً ﴾ انتهى .

وكثيراً ما يُذكر الإنسان في معرض الذمّ وقد تلا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ حين عاتب علياً كرم الله وجهه على النوم عن صلاة الليل ، فقال له عليّ : إنما نفسي بيد الله ، فاستعمل ﴿ الإنسان ﴾ على العموم .

وفي قوله ﴿ وما منع الناس ﴾ الآية تأسف عليهم وتنبيه على فساد حالهم لأن هذا المنع لم يكن بقصد منهم أن يمتنعوا ليجيئهم العذاب ، وإنما امتنعوا هم مع اعتقاد أنهم مصيبون لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا فكان حالهم يقتضي التأسف عليهم .

و ﴿ الناس ﴾ يراد به كفار عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذين تولوا دفع الشريعة وتكذيبها قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : إن الأولى نصب والثانية رفع وقبلهما مضاف محذوف تقديره ﴿ وما منع الناس ﴾ الإيمان ﴿ إلا ﴾ انتظار ﴿ أن تأتيهم سنّة الأولين ﴾ وهي الإهلاك ﴿ أو ﴾ انتظار ﴿ أن يأتيهم العذاب ﴾ يعني عذاب الآخرة انتهى .

وهو مسترق من قول الزجاج .

قال الزجاج : تقديره ما منعهم من الإيمان ﴿ إلاّ ﴾ طلب ﴿ أن تأتيهم سنّة الأولين ﴾ .

وقال الواحدي : المعنى ما منعهم إلاّ أني قد قدّرت عليهم العذاب ، وهذه الآية فيمن قتل ببدر وأُحد من المشركين ، وهذا القول نحو من قول من قال التقدير ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾ إلاّ ما سبق في علمنا وقضائنا أن يجري عليهم ﴿ سنّة الأولين ﴾ من عذاب الاستئصال من المسخ والصيحة والخسف والغرق وعذاب الظلة ونحو ذلك ، وأراد بالأولين من أهلك من الأمم السالفة .

وقال صاحب الغنيان : إلاّ إرادة أو انتظار أن تأتيهم سنتنا في الأولين ، ومن قدر المضاف هذا أو الطلب فإنما ذلك لاعتقادهم عدم صدق الأنبياء فيما وعدوا به من العذاب كما قال حكاية عن بعضهم ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ وقيل : ﴿ ما ﴾ هنا استفهامية لا نافية ، والتقدير وأي شيء ﴿ منع الناس ﴾ أن ﴿ يؤمنوا ﴾ و ﴿ الهدى ﴾ الرسول أو القرآن قولان .

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش وابن أبي ليلى وخلف وأيوب وابن سعدان وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير والكوفيون بضم القاف والباء ، فاحتمل أن يكون بمعنى ﴿ قبلاً ﴾ لأن أبا عبيدة حكاهما بمعنى واحد في المقابلة ، وأن يكون جمع قبيل أي يجيئهم العذاب أنواعاً وألواناً .

(79/474)

وقرأ باقي السبعة ومجاهد وعيسى بن عمر ﴿ قبلاً ﴾ بكسر القاف وفتح الباء ومعناه عياناً .

وقرأ أبو رجاء والحسن أيضاً بضم القاف وسكون الباء وهو تخفيف قبل على لغة تميم .

وذكر ابن قتيبة أنه قرىء بفتحتين وحكاه الزمخشري وقال مستقبلاً .

وقرأ أُبيّ بن كعب وابن غزوان عن طلحة قبيلاً بفتح القاف وباء مكسورة بعدها ياء على وزن فعيل .

﴿ وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ﴾ أي بالنعيم المقيم لمن آمن ﴿ ومنذرين ﴾ أي بالعذاب الأليم لمن كفر لا ليجادلوا ولا ليتمنى عليهم الاقتراحات ﴿ ليدحضوا ﴾ ليزيلوا ﴿ واتخذوا آياتي ﴾ يجمع آيات القرآن وعلامات الرسول قولاً وفعلاً ﴿ وما أنذروا ﴾ من عذاب الآخرة ، واحتملت ﴿ ما ﴾ أن تكون بمعنى الذي ، والعائد محذوف أي ﴿ وما ﴾ أنذروه وأن تكون مصدرية أي وإنذارهم فلا تحتاج إلى عائد على الأصح ﴿ هزواً ﴾ أي سخرية واستخفافاً لقولهم أساطير الأولين .

لو شئنا لقلنا مثل هذا وجداً لهم للرسل (صلى الله عليه وسلم) قولهم و ﴿ ما أنتم إلاّ بشر مثلنا ﴾ ولو شاء الله لأنزل ملائكة وما أشبه ذلك ، والآيات المضاف إلى الرب هو القرآن ولذلك عاد الضمير مفرداً في قوله ﴿ أن يفقهوه ﴾ وإعراضه عنها كونه لا يتذكر حين ذكر ولم يتدبر ونسي عاقبة ما قدّمت يداه من الكفر والمعاصي غير مفكر فيها ولا ناظر في أن المحسن والمسيء يجزيان بما عملا .

(80/474)

وتقدم تفسير نظير قوله ﴿ إنّا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ ثم أخبر تعالى أن هؤلاء لا يهتدون أبداً وهذا من العام والمراد به الخصوص ، وهو من طبع الله على قلبه وقضى عليه بالموافاة على الكفر إذ قد اهتدى كثير من الكفرة وآمنوا ، ويحتمل أن يكون ذلك حكماً على الجميع أي ﴿ وإن تدعهم ﴾ أي ﴿ إلى الهدى ﴾ جميعاً ﴿ فلن يهتدوا ﴾ جميعاً ﴿ أبداً ﴾ وحمل أولاً على لفظ من فأفرد ثم على المعنى في قوله ﴿ إنّا جعلنا على قلوبهم ﴾ فجمع وجعلوا دعوة الرسول إلى الهدى وهي التي تكون سبباً لوجود الاهتداء ، سبباً لانتفاء هدايتهم ، وهذا الشرط كأنه جواب للرسول عن تقدير قوله مالي لا أدعوهم إلى الهدى حرصاً منه عليه الصلاة والسلام على حصول إيمانهم ، فقيل : ﴿ وإن تدعهم ﴾ وتقييده بالأبدية مبالغة في انتفاء هدايتهم .

و ﴿ الغفور ﴾ صفة مبالغة و ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي الموصوف بالرحمة ، ثم ذكر دليل رحمته وهو كونه تعالى ﴿ لا يؤاخذهم ﴾ عاجلاً بل يمهلهم مع إفراطهم في الكفر وعداوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والموعد أجل الموت ، أو عذاب الآخرة ، أو يوم بدر ، أو يوم أحد ، وأيام النصر أو العذاب إما في الدنيا وإما في الآخرة أقوال .

والموئل قال مجاهد : المحرز .

وقال الضحاك : المخلص والضمير في ﴿ من دونه ﴾ عائد على الموعد .

وقرأ الزهري موّلاً بتشديد الواو من غير همز ولا ياء .

وقرأ أبو جعفر عن الحلواني عنه مولاً بكسر الواو خفيفة من غير همز ولا ياء .

وقرأ الجمهور بسكون الواو وهمزة بعدها مكسورة ، وأشارة تعالى بقوله ﴿ وتلك القرى ﴾ إلى القرى المجاورة أهل مكة والعرب كقرى ثمود وقوم لوط وغيرهم ، ليعتبروا بما جرى عليهم وليحذروا ما يحل بهم كما حل بتلك القرى .

(81/474)

﴿ وتلك ﴾ مبتدأ و﴿ القرى ﴾ صفة أو عطف بيان والخبر ﴿ أهلكناهم ﴾ ويجوز أن تكون ﴿ القرى ﴾ الخبر و﴿ أهلكناهم ﴾ جملة حالية كقوله ﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ ويجوز أن تكون ﴿ تلك ﴾ منصوباً بإضمار فعل يفسره ما بعده أي وأهلكنا ﴿ تلك القرى أهلكناهم ﴾ و﴿ تلك القرى ﴾ على إضمار مضاف أي وأصحاب تلك القرى ، ولذلك عاد الضمير على ذلك المضمر في قوله ﴿ أهلكناهم ﴾ .

وقوله ﴿ لما ظلموا ﴾ إشعار بعلَّة الإهلاك وهي الظلم ، وبهذا استدل الأستاذ أبو الحسن بن عصفور على حرفية ﴿ لما ﴾ وأنها ليست بمعنى حين لأن الظرف لا دلالة فيه على العلية .

وفي قوله ﴿ لما ظلموا ﴾ تحذير من الظلم إذ نتيجته الإهلاك وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً

، وهو الموعد واحتمل أن تكون مصدراً أو زماناً .

وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام ، واحتمل أن يكون مصدراً مضافاً إلى المفعول وأن يكون زماناً .

وقرأ حفص وهارون عن أبي بكر بفتحتين وهو زمان الهلاك .

وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام مصدر هلك يهلك وهو مضاف للفاعل .

وقيل : هلك يكون لازماً ومتعدياً فعلى تعديته يكون مضافاً للمفعول ، وأنشد أبو عليّ في ذلك :

ومهمه هالك من تعرجاً . . .

ولا يتعين ما قاله أبو عليّ في هذا البيت ، بل قد ذهب بعض النحويين إلى أن هالكاً فيه لازم وأنه من باب الصفة المشبهة أصله هالك من تعرجاً .

فمن فاعل ثم أضمر في هالك ضمير مهمه ، وانتصب ﴿ من ﴾ على التشبيه بالمفعول ثم أضاف من نصب ، وقد اختلف في الموصول هل يكون من باب الصفة المشبهة ؟

والصحيح جواز ذلك وقد ثبت في أشعار العرب .

قال الشاعر وهو عمر بن أبي ربيعة :

أسيلات أبدان دقاق خصورها . . .

وثيرات ما التفت عليها الملاحف

وقال آخر :

فعجتها قبل الأخيار منزلة . . .

والطيبي كل ما التاثت به الأُزُر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(82/474)

وقال أبو السعود :

﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾

وُضع المظهرُ مقام المُضمر تصريحاً بإجرامهم وذماً لهم بذلك ﴿ فَظَنُّواْ ﴾ أي فأيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعةَ ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ انصرافاً أو معدِلاً ينصرفون إليه .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرةٍ من النظم ﴿ فِى هذا القرءان لِلنَّاسِ ﴾ لمصلحتهم ومنفعتِهم ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من جملته ما مر مِن مَثَل الرجلين ومثَل الحياةِ الدنيا أو من كل نوعٍ من أنواع المعاني البديعةِ الداعيةِ إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحسنِ واستجلاب النفس كالمثل ليتلقَّوْه بالقَبول فلم يفعلوا ﴿ وَكَانَ الإنسان ﴾ بحسب جِبلَّته ﴿ أَكْثَرَ شَىء جَدَلاً ﴾ أي أكثرَ الأشياءِ التي يتأتى منها الجدلُ وهو ها هنا شدةُ

الخُصومةِ بالباطل والمماراةِ ، من الجدْل الذي هو الفتْلُ ، والمجادلةُ الملاواةُ لأن كلاًّ من المجادِلَين يلتوي على صاحبه ، وانتصابُه على التمييز والمعنى أن جدَله أكثرُ من جدَل كلِّ مجادل .

(83/474)

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس ﴾ أي أهلَ مكةَ الذين حُكيت أباطيلُهم ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الإشراك ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ أي القرآنُ العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبةِ له ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ عما فرَط منهم من أنواع الذنوبِ التي من جملتها مجادلتُهم للحق بالباطل ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ أي إلا طلبُ إتيانِ سُنّتهم أو إلا انتظارُ إتيانِها ، أو إلا تقديرُه فحذفُ المضافُ وأقيم المضافُ إليه مُقامَه وسنتُهم الاستئصالُ ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب ﴾ أي عذابُ الآخرة ﴿ قُبُلاً ﴾ أي أنواعاً ، جمعُ قَبيل أو عِياناً كما في قراءة قِبَلاً بكسر القاف وفتحِ الباء ، وقرىء بفتحتين أي مستقبَلاً ، يقال : لقِيتُه قُبُلاً وقَبَلاً وقِبَلاً ، وانتصابُه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى أن ما تضمنه القرآنُ الكريم من الأمور المستوجبةِ للإيمان بحيث لو لم يكن

مثلَ هذه الحكمةِ القوية لما امتنع الناسُ من الإيمان وإن كانوا مجبولين على الجدَل المفْرِط .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(84/474)

وقال الآلوسى :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾

وضع المظهر في مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم وذماً لهم بذلك ، والرؤية بصرية ، وجاء عن أبي سعيد الخدري كما أخرجه عنه أحمد .

وابن جرير .

والحاكم وصححه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن الكافر ليرى جهنم من مسير أربعين سنة " ﴿ فَظَنُّواْ ﴾ أي علموا كما أخرجه عبد الرزاق ، وجماعة عن قتادة ، وهو الظاهر من حالهم بعد قول الله تعالى ذلك واستغاثتهم بشركائهم وعدم استجابتهم لهم وجعل الموبق بينهم .

وقيل الظن على ظاهره وهم لم يتيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي مخالطوها واقعون فيها لعدم يأسهم من رحمة الله تعالى قبل دخولهم فيها ، وقيل إنهم لما رأوها من بعيد كما سمعت في

الحديث ظنوا أنها تخطفهم في الحال فإن اسم الفاعل موضوع للحال فالمتيقن أصل الدخول والمظنون الدخول حالاً .

وفي مصحف عبد الله ﴿ ملاقوها ﴾ وكذلك قرأ الأعمش .

وابن غزوان عن طلحة ، واختير جعلها تفسيراً لمخالفتها سواد المصحف ، وعن علقمة أنه قرأ ﴿ ملافوها ﴾ بالفاء مشددة من لف الشيء ﴿ مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي مكاناً ينصرفون إليه .

قال أبو كبير الهذلي

أزهير هل عن شيبة بن مصرف . . .

أم لا خلود لباذل متكلف

فهو اسم مكان ، وجوز أن يكون اسم زمان ، وكذا جوز أبو البقاء وتبعه غيره أن يكون مصدراً أي انصرافاً ، وفي "الدر المصون" أنه سهو فإنه جعل مفعل بكسر العين مصدراً من صحيح مضارعه يفعل بالكسر وقد نصوا على أن مصدره مفتوح العين لا غير واسم زمانه ومكانه مكسورها ، نعم إن القول بأنه مصدر مقبول في قراءة زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ مَصْرِفًا ﴾ بفتح الراء .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾

كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿ فِى هذا القرءان ﴾ الجليل الشأن ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي كل مثل على أن من سيف خطيب على رأي الأخفش والمجرور مفعول ﴿ صَرَفْنَا ﴾ أو مثلاً من كل مثل على أن من أصلية والمفعول موصوف الجار والمجرور المحذوف ، وقيل المفعول مضمون ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بعض كل جنس مثل ، وأياً ما كان فالمراد من المثل إما معناه المشهور أو الصفة الغريبة التي هي في الحسن واستجلاب النفس كالمثل ، والمراد أنه تعالى نوع ضرب الأمثال وذكر الصفات الغريبة وذكر من كل جنس محتاج إليه داع إلى الإيمان نافع لهم مثلاً لا أنه سبحانه ذكر جميع أفراد الأمثال ، وكأن في الآية حذفاً أو هي على معنى ولقد فعلنا ذلك ليقبلوا فلم يفعلوا .

﴿ وَكَانَ الإنسان ﴾ بحسب جبلته ﴿ أَكْثَرَ شَىء جَدَلاً ﴾ أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل ، وهو كما قال الراغب وغيره المنازعة بمفاوضة القول ، والأليق بالمقام أن يراد به هنا الخصومة بالباطل والمماراة وهو الأكثر في الاستعمال .

وذكر غير واحد أنه مأخوذ من الجدل وهو الفتل والمجادلة الملاواة لأن كلاً من المتجادلين يلتوي على صاحبه ، وانتصابه على التمييز ، والمعنى أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل

مجادل وعلل بسعة مضطربة فإنه بين أوج الملكية وحضيض البهيمية فليس له في جانبي التصاعد والتسفل مقام معلوم .

والظاهر أنه ليس المراد إنساناً معيناً ، وقيل المراد به النضر بن الحرث ، وقيل ابن الزبعري ، وقال ابن السائب : أبي بن خلف وكان جداله في البعث حين أتى بعظم قد رم فقال : أيقدر الله تعالى على إعادة هذا وفته بيده ؟ والأول أولى ، ويؤيده ما أخرجه الشيخان . وابن المنذر .

(86/474)

وابن أبي حاتم عن علي كرم الله تعالى وجهه "أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً فقال : ألا تصليان فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى إن شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئاً ثم سمعته يضرب فخذه ويقول وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً فإنه ظاهر في حمل الإنسان على العموم ، ولا شبهة في صحة الحديث إلا أن فيه إشكالاً يعرف بالتأمل ، ولا يدفعه ما ذكره النووي حيث قال : المختار في معناه أنه صلى الله عليه وسلم تعجب من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا ولهذا ضرب فخذه ، وقيل قال صلى الله عليه وسلم ذلك تسليماً لعذرهما وأنه لا عتب اه

فتأمل .

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس ﴾ قال ابن عطية .

وغيره : المراد بهم كفار قريش الذين حكيت أباطيلهم ، وما نافية .

وزعم بعضهم وهو من الغرابة بمكان أنها استفهامية أي أي شيء منعهم ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ أي من إيمانهم بالله تعالى وترك ما هم فيه من الإشراك ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ أي القرن العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإطلاق الهدى على كل للمبالغة ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ بالتوبة عما فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جملتها مجادلتهم الحق بالباطل ، وفائدة ذكر هذا بعد الإيمان التعميم على ما قيل .

واستدل به من زعم أن الإيمان إذا لم ينضم إليه الاستغفار لا يجب ما قبله وهو خلاف ما اقتضته الظواهر .

(87/474)

وقال بعضهم : لا شك أن الإيمان مع الاستغفار أكمل من الإيمان وحده فذكر معه لتفيد الآية ما منعهم من الاتصاف بأكمل ما يراد منهم ، ولا يخفى أنه ليس بشيء ، وقيل ذكر

الاستغفار بعد الإيمان لتأكيد أن المراد منه الإيمان الذي لا يشوبه نفاق فكأنه قيل ما منعهم أن يؤمنوا إيماناً حقيقياً ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الاولين ﴾ وهم من أهلك من الأمم السالفة ، وإضافة السنة إليهم قيل لكونها جارية عليهم وهي في الحقيقة سنة الله تعالى فيهم ، والمراد بها الإهلاك بعذاب الاستئصال ، وإذا فسرت السنة بالهلاك لم تحتج لما ذكر ، وأن وما بعدها في تأويل المصدر وهو فاعل ﴿ مَنَعَ ﴾ والكلام بتقدير مضاف أي ما منعهم من ذلك إلا طلب الهلاك في الدنيا قاله الزجاج ، وجوز صاحب الفينان تقدير انتظار أي ما منعهم إلا انتظار الهلاك ، وقدر الواحدي تقدير أي ما منعهم إلا تقدير الله تعالى إتيان الهلاك عليهم ، وقال : إن الآية فيمن قتل ببدر وأحد من المشركين ، ويأباه بحسب الظاهر كون السورة مكية إلا ما استثنى ، والداعي لتقدير المضاف أنه لو كان المانع من إيمانهم واستغفارهم نفس إتيان الهلاك كانوا معذورين وأن عذاب الآخرة المعد للكفار المراد من قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ﴾ منتظر قطعاً ، وقيل لأن زمان إتيان العذاب متأخر عن الزمان الذي اعتبر لإيمانهم واستغفارهم فلا يتأتى ما نعيته منهما .

واعترض تقدير الطلب بأن طلبهم سنة الأولين لعدم إيمانهم وهو لمنعهم عن الإيمان فلو كان منعهم للطلب لزم الدور .

ودفع بأن المراد بالطلب سببه وهو تعنتهم وعنادهم الذي جعلهم طالبين للعذاب بمثل قولهم

: ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 23] الخ .

(88/474)

وتعقب بأن فيهم من ينكر حقية الإسلام كما أن فيهم المعاند ، ولا يظهر وجه كون الطلب ناشئاً عن إنكار الحقية وكذا لا يظهر كونه ناشئاً عن العناد .

واعترض أيضاً بأن عدم الإيمان متقدم على الطلب مستمر فلا يكون الطلب مانعاً .

وأجيب بأن المتقدم على الطلب هو عدم الإيمان السابق وليس الطلب بمانع منه بل هو مانع مما تحقق بعد وهو كما ترى ، وقيل المراد من الطلب الطلب الصوري اللساني لا الحقيقي القلبي فإن من له أدنى عقل لا يطلب الهلاك والعذاب طلباً حقيقياً قلبياً ومن الطلب الصوري منشؤه وما هو دليل عليه وهو تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم بما أوعد به من العذاب والهلاك من لم يؤمن بالله عز وجل فكأنه قيل ما منعهم من الإيمان بالله تعالى الذي أمر به النبي عليه الصلاة والسلام إلا تكذيبهم إياه بما أوعد على تركه ، ولا يخلو عن دغدغة .

وقيل الحق أن الآية على تقدير الطلب من قولك لمن يعصيك أنت تريد أن أضربك وهو على تنزيل الاستحقاق منزلة الطلب فكأنه قيل ما منعهم من ذلك إلا استحقاق الهلاك الدنيوي

أو العذاب الأخروي .

وتعقب بأن عدم الإيمان والاتصاف بالكفر سبب للاستحقاق المذكور فيكون متقدماً عليه ومتى كان الاستحقاق مانعاً منه انعكس أمر التقدم والتأخر فيلزم اتصاف الواحد بالشخص بالتقدم والتأخر وأنه باطل .

(89/474)

وأجيب بمنع كون عدم الإيمان سبباً للاستحقاق في الحقيقة وإنما هو سبب صوري والسبب الحقيقي سوء استعداداتهم وخباثة ماهياتهم في نفس الأمر ، وهذا كما أنه سبب للاستحقاق كذلك هو سبب للاتصاف بالكفر ، وإن شئت فقل : هو مانع من الإيمان ، ومن هنا قيل ءن المراد من الطلب الطلب بلسان الاستعداد وإن مآل الآية ما منعهم من ذلك إلا استعداداتهم وطلب ماهياتهم لضده ، وذلك لأن طلب استعداداتهم للهلاك أو العذاب المترتب على الضد استعداد للضد وطلب له ، وربما يقال بناءً على هذا أن المفهوم من الآيات أن الكفار لو لم يأتهم رسول ينبههم من سنة الغفلة يحتجون لو عذبوا بعدم إتيانه فيقولون منعنا من الإيمان أنه لم يأتنا رسول ومآله منعنا من ذلك الغفلة ولا يجدون حجة أبلغ من ذلك وأنفع في الخلاص ، وأما سوء الاستعداد وخباثة الذات فبمراحل من أن

يحتجوا به ويجعلوه مانعاً فلا بعد في أن يقدر الطلب ويراد منه ظاهره وتكون الآية من قبيل

قوله

ولا عيب فيهم . . .

البيت .

والمراد نفى أن يكون لهم مانع من الإيمان والاستغفار بعد مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم يصلح أن يكون حجة لهم أصلاً كأنه قيل لا مانع لهم من أن يؤمنوا أو يستغفروا ربهم ولا حجة بعد مجيء الرسول الذي بلغ ما بلغ من الهدى إلا طلب ما أوعدوا به من إتيان الهلاك الدنيوي أو العذاب الأخروي وحيث أن ذلك على فرض تحققه منهم لا يصلح للمانعية والحجية لم يبق مانع وحجة عندهم أصلاً انتهى .

(90/474)

ولا يخفى أنه بعد الإغضاء عما يرد عليه بعيد وإنكار ذلك مكابرة ، والأولى تقدير التقدير وهو مانع بلا شبهة إلا أن القائلين بالاستعداد حسبما تعلم يجعلون منشأه الاستعداد ، وفي معناه تقدير الإرادة أي إرادته تعالى وعليه اقتصر العز بن عبد السلام ، ودفع التنافي بين الحصر المستفاد من هذه الآية والحصر المستفاد من قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا

إِذْ جَاءهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] بأن الحصر الأول في المانع الحقيقي فإن إرادة الله تعالى هي المانعة على الحقيقة والثاني في المانع العادي وهو استغراب بعث رسول لأن المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا استغراب ذلك ، وقد تقدم في الإسراء ما ينفعك في الجمع بين الحصرين فتذكر فما في العهد من قدم .

وادعى الإمام تعدد الموانع وأن المراد من الآية فقدان نوع منها فقال : قال الأصحاب إن العلم بعدم إيمانهم مضاد لوجود إيمانهم فإذا كان ذلك العلم قائماً كان المانع قائماً ، وأيضاً حصول الداعي إلى الكفر قائم وإلا لما حصل لأن حصول الفعل الاختياري بدون الداعي محال ووجود الداعي إلى الكفر مانع من حصول الإيمان فلا بد أن يقال : المراد فقدان الموانع لمحسوسة انتهى فليتأمل فيه .

والقبل بضمتين جمع قبيل وهو النوع أي أو يأتيهم العذاب أنواعاً وألواناً أو هو بمعنى قبلاً بكسر القاف وفتح الباء كما قرأ به غير واحد أي عياناً فإن أبا عبيدة حكاهما معاً بهذا المعنى ؛ وأصله بمعنى المقابلة فإذاً دل على المعاينة ، ونصبه على الحال فإن كان حالاً من الضمير المفعول فمعناه معاينين بكسر الياء أو بفتحها أو معاينين للناس ليفتضحوا ، وإن كان من العذاب فمعناه معايناً لهم أو للناس .

وقرأت طائفة ﴿ قُبُلاً ﴾ بكسر القاف وسكون الباء وهو كما في "البحر" تخفيف قبل

على لغة تميم .

وذكر ابن قتيبة .

(91/474)

والزمخشري أنه قرىء ﴿ قُبُلاً ﴾ بفتحتين أي مستقبلاً .

وقرأ أبي بن كعب .

وابن غزوان عن طلحة ﴿ قَبِيلاً ﴾ بقاف مفتوحة وباء مكسورة بعدها ياء ساكنة أي عياناً ومقابلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(92/474)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : " تسير " بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول ، ورفع الجبال على النيابة عن

الفاعل .

وقرأ ابن محيصن ومجاهد (تسير) بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل .

وقرأ الباقون (نسير) بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية ، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 3] ، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ [الطور : 10] ، واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله : ﴿ وحشرناهم ﴾ قال بعض النحويين : التقدير : والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال ، وقيل : العامل في الظرف فعل محذوف ، والتقدير : واذكر يوم نسيّر الجبال ، ومعنى تسيير الجبال : إزالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] ، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 65] .

والخطاب في قوله : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للرؤية ، ومعنى بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان .

وقيل : المعنى ببروزها : بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا

فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الإنشقاق: 4]، وقال: ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: 2].

(93/474)

فيكون المعنى: وترى الأرض بارزاً ما في جوفها ﴿ وحشرناهم ﴾ أي: الخلائق، ومعنى الحشر الجمع أي: جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ فلم نترك منهم أحداً، يقال: غادره وأغدره إذا تركه، قال عنترة:

غادرته متعفراً أوصاله . . . والقوم بين مجرّح ومجندل

أي: تركته، ومنه الغدر، لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور، قالوا: وإنما سمي الغدير غديراً، لأن الماء ذهب وتركه، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا ﴾ انتصاب ﴿ صفاً ﴾ على الحال أي: مصفوفين كل أمة وزمرة صف، وقيل: عرضوا صفاً واحداً كما في قوله: ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ [طه: 64] أي جميعاً، وقيل: قياماً.

وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هو على إضمار القول، أي: قلنا لهم لقد جئتمونا، والكاف في ﴿

كما خلقناكم ﴾ نعت مصدر محذوف ، أي : مجيئاً كائناً كمجيئكم عند أن خلقناكم أوّل مرّة ، أو كائنين كما خلقناكم أوّل مرّة ، أي : حفاة عراة غرلاً ، كما ورد ذلك في الحديث .

قال الزجاج أي : بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم ، لأن قوله ﴿ لقد جئتمونا ﴾ معناه : بعثناكم ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكري البعث ، أي : زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا ، وأن لن نجعل لكم موعداً نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب .

وجملة : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ معطوفة على ﴿ عرضوا ﴾ ، والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس ، والوضع إما حسي بأن يوضع صحيفة كل واحد في يده : السعيد في يمينه ، والشقيّ في شماله ، أو في الميزان .

(94/474)

وإما عقلي ، أي : أظهر عمل كل واحد من خير وشرّ بالحساب الكائن في ذلك اليوم ﴿ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي : خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع ، والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك ، ومعنى هذا النداء قد تقدّم تحقيقه في المائدة ﴿

مَّالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ أي : أي شيء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ ﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة ، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿ حَاضِرًا ﴾ مكتوباً مثبتاً ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي : لا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب ، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه .

ثم إنه سبحانه عاد إلى الردّ على أرباب الخيلاء من قريش ، فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ أي : واذكر وقت قولنا لهم اسجدوا سجود تحية وتكريم ، كما مرّ تحقيقه ﴿ فجسدوا ﴾ طاعة لأمر الله وامتثالاً لطلبه السجود ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ، وجملة ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجنّ ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى .

ومعنى ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ : أنه خرج عن طاعة ربه .

قال الفراء : العرب تقول : فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه .

قال النحاس : اختلف في معنى ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ على قولين : الأوّل مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى : أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه ، كما تقول : أطعمه عن جوع .

والقول الآخر قول قطرب : أن المعنى على حذف المضاف أي : فسق عن ترك أمره .

ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس في الكفر والمعاصي وخالف أمر الله فقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء ﴾ كأنه قال : أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه وتتخذون ذريته ، أي : أولاده ؛ وقيل : أتباعه مجازاً ﴿ أولياء مِن دُونِى ﴾ فتطيعونهم بدل طاعتي وتستبدلونهم بي ، والحال أنهم أي : إبليس وذريته ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أي : أعداء .

وأفرده لكونه اسم جنس ، أو لتشبيهه بالمصادر كما في قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى ﴾ [الشعراء : 77] .

وقوله : ﴿ هُمُ العدو ﴾ [المنافقون : 4] أي : كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم ؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط ، بل هو عدوّ لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت ﴿ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾ أي : الواضعين للشيء في غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان ، فبئس ذلك البدل الذي استبدلوه بدلاً عن الله سبحانه .

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض ﴾ قال أكثر المفسرون : إن الضمير للشركاء ،

والمعنى : أنهم لو كانوا شركاء لي في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه ، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لي بشركاء .

(96/474)

وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوي على انتفاء اللازم ، وقيل : الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين ، والمراد : أنهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ : ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق ، وقيل : المعنى أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل ، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم ، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، والأوّل من هذه الوجوه أولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور ، وقرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) وقرأ الباقون (ما أشهدتهم) ويؤيده ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ والعضد يستعمل كثيراً في معنى العون ، وذلك أن العضد قوام اليد ، ومنه قوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : 35] أي : سنعينك ونقوّيك به ، ويقال : أعضدت بفلان : إذا استعنت به ، وذكر

العضد على جهة المثل ، وخصّ المضلين بالذكر لزيادة الذمّ والتوبيخ .

والمعنى : ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعواناً ، ووحد العضد لموافقة الفواصل ، وقرأ أبو جعفر الجحدري (وما كنت) بفتح التاء على أن الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي : وما كنت يا محمد متخذاً لهم عضداً ولا صح لك ذلك ، وقرأ الباقون بضم التاء .

وفي عضد لغات ثمانٍ أفصحها فتح العين وضمّ الضاد ، وبها قرأ الجمهور .

وقرأ الحسن : "عضد" بضم العين والضاد .

وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد ، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما ، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد .

(97/474)

ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَائِيَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر " نقول " بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية أي : اذكر يوم يقول الله عزّ وجلّ للكفار توبيخاً لهم وتقريعاً : نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم ، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جرياً على ما يعتقده

المشركون ، تعالى الله عن ذلك ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أي : فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ إذ ذاك ، أي : لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم ، فضلاً عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ أي : جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقاً ، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم وادٍ عميق فرق الله به تعالى بينهم ، وعلى هذا فهو اسم مكان .

قال ابن الأعرابي : كل حاجز بين شيئين فهو موبق .

وقال الفراء : الموبق : المهلك .

والمعنى : جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة ، يقال : وبق يوبق فهو وبق .

هكذا ذكره الفراء في المصادر .

وحكى الكسائي : وبق يبق وبوقاً فهو وابق ، والمراد بالمهلك على هذا : هو عذاب النار يشتركون فيه .

والأوّل أولى ، لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح ، فالموبق : هو المكان الحائل بينهم .

وقال أبو عبيدة : الموبق هنا : الموعد للهلاك ، وقد ثبت في اللغة أوبقه بمعنى : أهلكه ، ومنه قول زهير :

ومن يشتري حسن الثناء بماله . . . يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

ولكن المناسب لمعنى الآية : هو المعنى الأوّل .

﴿ وَرَأَى المجرمون النار فَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ : ﴿ المجرمون ﴾ موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذمّ لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به ، والظن هنا بمعنى اليقين .

(98/474)

والمواقعة : المخالطة بالوقوع فيها ، وقيل : إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظناً ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي : معدلاً يعدلون إليه ، أو انصرافاً ، لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب .

قال الواحدي : المصرف : الموضع الذي ينصرف إليه .

وقال القتيبي : أي معدلاً ينصرفون إليه ، وقيل : ملجأً يلجأون إليه .

والمعنى متقارب في الجميع .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ قال : ليس عليها بناء ولا شجر .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ قال : الصغيرة

التبسم ، والكبيرة : الضحك .

وزاد ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عنه قال : الصغيرة : التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة : القهقهة بذلك .

وأقول : صغيرة وكبيرة نكرتان في سياق النفي ، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر ، وكل ذنب يتصف بالكبر ، فلا يبقى من الذنوب شيء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبساً بين كونه صغيراً أو كبيراً ، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم : الجنّ ، فكان إبليس منهم ، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ كَانَ مِنَ الجن ﴾ قال : كان خازن الجنان ، فسمي بالجانّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً قال : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن قال : قاتل الله أقواماً زعموا أن إبليس كان من الملائكة ، طرفة عين ، إنه لأصل الجنّ كما أن آدم أصل الإنس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض ﴾ قال : يقول : ما أشهدت الشياطين الذين اتخذتم معي هذا ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ قال : الشياطين عضداً ، قال : ولا اتخذتهم عضداً على شيء عضدوني عليه فأعانوني .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ يقول : مهلكاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد مثله .

وأخرج أبو عبيد ، وهناد ، وابن المنذر عنه قال : وادٍ في جهنم .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن أنس في الآية قال : وادٍ في جهنم من قيح ودم .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن ابن عمرو قال : هو وادٍ عميق في النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة ، وأخرج عبد الرزاق ،

وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فَظَنُّواْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ قال : علموا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(100/474)

وقال القاسمي :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾

أي : جهنم [في المطبوع : جهنهم] المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم ، وذماً لهم بذلك : ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا ﴾ أي : أيقنوا بأنهم واقعون فيها :

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ أي : معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : نوّعنا في هذا القرآن الجامع للمهمات وأنواع السَّعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل ، ينبه على مراقي السعادات ومهاوي الضلالات لينذروا به : ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ أي : مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ ﴾ أي : أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شاكلهم : ﴿ أَنْ

يُؤْمِنُوا ﴾ أي : من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك : ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي : القرآن والحق الواضح النيّر : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ﴾ أي : عن المعاصي السالفة : ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : طلب إتيانها ، أو انتظار إتيانها ، وهي عذاب الاستئصال : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ أي : يرونه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . والقبل بضمتين بمعنى العيان كما في قراءة قِبلا بكسر القاف وفتح الباء . أو قُبُلاً بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع قبيل وقرئ بفتحتين أي : مستقبلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 46. 47 ﴾

(101/474)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) ﴾

عطف على جملة ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ [الكهف : 52] ، أي جعلنا الموبق وراآه المجرمون ، فذكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للدلالة على ما يفيده المجرمون من تلبسهم بما استحقوا به عذاب النار .

وكذلك عُبر بـ (النار) في مقام الإضمار للموبق للدلالة على أن المَوبق هو النار فهو شبيه

بعطف البيان .

والظن مستعمل هنا في معنى التحقق وهو من استعمالاته .

ولعل اختياره هنا ضرب من التهكم بهم ؛ بأنهم رجحوا أن تلك النار أعدت لأجلهم في حين أنهم موقنون بذلك .

والمواقعة : مفاعلة من الوقوع ، وهو الحصول لقصد المبالغة ، أي واقعون فيها وقوع الشيء الحاصل في موقع يتطلبه فكأنه يقع هو فيه .

والمصرف : مكان الصرف ، أي التخلص والمجاوزة .

وفي الكلام إيجاز ، تقديره : وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفاً ، أي مخلصاً .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) ﴾

عطف على الجمل السابقة التي ضربت فيها أمثال من قوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ [الكهف : 32] وقوله : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 45] .

ولما كان في ذلك لهم مقنع وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدي القرآن عودا ناظراً إلى قوله : ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك ﴾ [الكهف : 27] وقوله : ﴿ وقل الحق من

ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : 29] ؛ فأشار لهم أن هذه الأمثال التي قرعت أسماعهم هدي من جملة هدي القرآن الذي تبرمُوا منه .

(102/474)

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية عند قوله : ﴿ ولقد صرفا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ في سورة الإسراء (89) ؛ سوى أنه يتجه هنا أن يُسأل لم قُدم في هذه الآية أحد متعلِقي فعل التصريف على الآخر إذ قدم هنا قوله : في هذا القرآن ﴾ على قوله : ﴿ للناس ﴾ عكس آية سورة الإسراء .

وهو ما أشرنا إليه عند الآية السابقة من أن ذكر القرآن أهم من ذكر الناس بالأصالة ، ولا مقتضي للعدول عنه هنا بل الأمر بالعكس لأن الكلام جار في التنويه بشأن القرآن وأنه ينزل بالحق لا بهوى الأنفس .

والناس : اسم عام لكل من يبلغه القرآن في سائر العصور المستقبلة ، والمقصود على الخصوص المشركون ، كما دل عليه جملةُ ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ ، فوزانه وزان قوله : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ [الإسراء : 89] ، وسيجيء قوله : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق

﴾ [الكهف : 56] .

وهذا يشبه العام الوارد على سبب خاص وقرائن خاصة .

وجملة وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ تذييل ، وهو مؤذن بكلام محذوف على وجه الإيجاز ، والتقدير : فجَادلوا فيه وكان الإنسان أكثر جدلاً ، فإن الإنسان اسم لنوع بني آدم ، وحرف (ال) فيه لتعريف الحقيقة فهو أوسع عموماً من لفظ الناس .

والمعنى : أنهم جادلوا .

والجدال : خلق ، منه ذميم يصد عنه تأديب الإسلام ويبقى في خلق المشركين ، ومنه محمود كما في قوله تعالى : ﴾ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ [هود : 74 75] ، فأشار بالثناء على إبراهيم إلى أن جداله محمود .

(103/474)

وليس المراد بالإنسان الإنسان الكافر كما في قوله تعالى : ﴾ يقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ [مريم : 66] ولا المراد بالجدل الجدل بالباطل ، لأن هذا سيجيء في قوله تعالى : ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ الآية ، فقوله هنا : ﴾ وكان الإنسان أكثر

شيء جدلاً ﴾ تمهيد لقوله بعده ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ [الكهف : 56] .

و(شيء) اسم مفرد متوغل في العموم .

ولذلك صحت إضافة اسم التفضيل إليه ، أي أكثر الأشياء .

واسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة مثل قوله : ﴿ رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه ﴾

[يوسف : 33] ، وإنما أتي بصيغته لقصد المبالغة في شدة جدل الإنسان وجنوحه إلى المماراة والنزاع حتى فيما تَرْك الجدال في شأنه أحسن ، بحيث إن شدة الوصف فيه تشبه تفوقه في الوصف على كل من يعرض أنه موصوف به .

وإنما ألجئنا إلى هذا التأويل في اسم التفضيل لظهور أن غير الإنسان من أنواع ما على الأرض لا يتصور منه الجَدل .

فالجدل خاص بالإنسان لأنه من شُعب النطق الذي هو فَصْل حقيقة الإنسانية ، أما الملائكة فجدلهم محمود مثل قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها إلى قوله : ﴿ ونقدس لك ﴾ [البقرة : 30] .

وأما الشياطين فهم أكثر جدلاً من الإنسان ، ولكن لما نبا المقام عن إرادتهم كانوا غير مرادين بالتفضيل عليهم في الجدل .

وجدلاً ﴾ تمييز لنسبة الأكثرية إلى الإنسان .

والمعنى : وكان الإنسان كثيراً من جهة الجدل ، أي كثيراً جدله .

(104/474)

ويدل لهذا المعنى ما ثبت في "الصحيح" عن علي : " أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمةَ ليلاً فقال : ألاَ تصليان ؟ فقال علي : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثَنا ، قال : فانصرف رسول الله حين قلت له ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ، ثم سمعته يَضرب فخذه ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ " يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأولى بعلي أن يحمد إيقاظ رسول الله إياه ليقوم من الليل وأن يحرص على تكرر ذلك وأن يُسَرّ بما في كلام رسول الله من مَلام ، ولا يستدل بما يحبذ استمرار نومه ، فذلك محل تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جواب علي رضي الله عنه .

ولا يحسن أن يحمل التفضيل في الآية على بابه بأن يرد أن الإنسان أكثر جدلاً من الشياطين والجن مما يجوز على حقيقته الجدل لأنه محمل لا يراد مثله في مثل هذا .

ومن أنبأنا أن للشياطين والجن مقدرة على الجدل ؟ .

والجدل : المنازعة بمعاوضة القول ، أي هو الكلام الذي يحاول به إبطال ما في كلام

المخاطب من رأي أو عزم عليه : بالحجة أو بالإقناع أو بالباطل ، قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [العنكبوت : 46] ، وقال : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ﴾ [المجادلة : 1] ، وقال : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] ، وقال : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ [النساء : 107] ، وقال : ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴾ [الأنفال : 6] .

والمراد هنا مطلق الجدل وبخاصة ما كان منه بباطل ، أي أن كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف بأحقية معتقده أو عمله .

وسياق الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ عطف على جملة ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ﴾ [الكهف : 54] الخ .

(105/474)

ومعناها متصل تمام الاتصال بمعنى الجملة التي قبلها بحيث لو عطفت عليها بفاء التفريع لكان ذلك مقتضى الظاهر وتعتبر جملة ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف : 54] معترضة بينهما لولا أن في جعل هذه الجملة مستقلة بالعطف اهتماماً بمضمونها في

ذاته ، بحيث يعدّ تفريعه على مضمون التي قبلها يحيد به عن الموقع الجدير هُو به في نفوس السامعين إذ أريد أن يكون حقيقة مقررة في النفوس .

ولهذه الخصوصية فيما أرى عُدل في هذه الجملة عن الإضمار إلى الإظهار بقوله : وما منع الناس ﴾ وبقوله : ﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾ دون أن يقول : وما منعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى قصداً لاستقلال الجملة بذاتها غير مستعانة بغيرها ، فتكون فائدة مستقلة تستأهل توجه العقول إلى وعيها لذاتها لا لأنها فرع على غيرها .

على أن عموم ﴿ الناس ﴾ هنا أشمل من عموم لفظ ﴿ الناس ﴾ في قوله : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس ﴾ [الكهف : 54] فإن ذلك يعم الناس الذين يسمعون القرآن في أزمان ما بعد نزول تلك الآية ، وهذا يعم الناس كلهم الذين امتنعوا من الإيمان بالله .

وكذلك عموم لفظ الهدى ﴾ يشمل هدى القرآن وما قبله من الكتب الإلهية وأقوال الأنبياء كلها ، فكانت هذه الجملة قياساً تمثيلياً بشواهد التاريخ وأحوال تلقي الأمم دعوات رسلهم .

فالمعنى : ما منع هؤلاء المشركين من الإيمان بالقرآن شيء يَمنع مثلُه ، ولكنهم كالأمم الذين قبلهم الذين جاءهم الهدى بأنواعه من كتب وآيات وإرشاد إلى الخير .

والمرد بـ ﴿ الأولين ﴾ السابقون من الأمم في الضلال والعناد .

ويجوز أن يراد بهم الآباء ، أي سنة آبائهم ، أي طريقتهم ودينهم ، ولكل أمة أمةٌ سبقتها .

و﴿ أن تأتيهم ﴾ استثناء مفرغ هو فاعل ﴿ وما منع ﴾ .

"ولن يؤمنوا" منصوب على نزع الخافض ، أي من أن يؤمنوا .

ومعنى ﴿ تأتيهم سنة الأولين ﴾ تحل فيهم وتعتريهم ، أي تُلقى في نفوسهم وتسول إليهم .

(106/474)

والمعنى : أنهم يُشبهون خلق من كانوا قبلهم من أهل الضلال ويقلدونهم ، كما قال تعالى : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 53] .

وسنة الأولين : طريقتهم في الكفر .

وإضافة (سنة) إليهم تشبه إضافة المصدر إلى فاعله ، أي السنة التي سَنّها الأولون .

وإسناد مَنْعهم من الإيمان إلى إتيان سنة الأولين استعارة .

والمعنى : ما منع الناس أن يؤمنوا إلا الذي منع الأولين قبلهم من عادة العناد والطغيان وطريقتهم في تكذيب الرسل والاستخفاف بهم .

وذكر الاستغفار هنا بعد ذكر الإيمان تلقين إياهم بأن يبادروا بالإقلاع عن الكفر وأن يتوبوا إلى الله من تكذيب النبي ومكابرته .

و(أو) هي التي بمعنى (إلى) ، وانتصاب فعل يأتيهم العذاب ﴾ (بأن) مضمرة بعد (أو) .

و(أو) متصلة المعنى بفعل ﴿ منع ﴾ ، أي منعهم تقليدُ سنة الأولين من الإيمان إلى أن يأتيهم العذاب كما أتى الأولين .

هذا ما بدا لي في تفسير هذه الآية وأراه أليق بموقع هاته الآية من التي قبلها .

فأما جميع المفسرين فقد تأولوا الآية على خلاف هذا على كلمة واحدة فجعلوا المراد بالناس عينَ المراد بهم في قوله : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ﴾ [الكهف : 54] ، أي ما منع المشركين من الإيمان بالله ورسوله .

وجعلوا المراد بالهدى عين المراد بالقرآن ، وحملوا سنة الأولين على معنى سنة الله في الأولين ، أي الأمم المكذبين الماضين ، أي فإضافة ﴿ سنة ﴾ إلى ﴿ الأولين ﴾ مِثل إضافة المصدر إلى مفعوله ، وهي عادة الله فيهم ، أي يعذبهم عذاب الاستيصال .

وجعلوا إسناد المنع من الإيمان إلى إتيان سنة الأولين ، بتقدير مضاف ، أي انتظار أن تأتيهم سنة الله في الأولين ، أي ويكون الكلام تهكماً وتعريضاً بالتهديد بحلول العذاب بالمشركين ، أي لا يؤمنون إلا عند نزول عذاب الاستيصال ، أي على معنى قوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا ﴾ [يونس : 102] .

وجعلوا قوله : أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ قسيماً لقوله : ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ ، فحرف (أو) للتقسيم ، وفعل ﴿ يأتيهم ﴾ منصوب بالعطف على فعل ﴿ أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ بالاستيصال المفاجىء أو يأتيهم العذاب مواجهاً لهم .

وجعلوا ﴿ قِبلاً ﴾ حالاً من ﴿ العذاب ﴾ ، أي مقابلاً .

قال الكلبي : وهو عذاب السيف يوم بدر .

ولعله يريد أنه عذاب مقابلةٍ وجهاً لوجه ، أي عذاب الجلاد بالسيوف .

ومعناه : أن المُشركين منهم من ذاق عذاب السيف في غزوات المسلمين ، ومنهم من مات فهو يرى عذاب الآخرة .

وعلى هذا التفسير الذي سلكوه ينسلخ من الآية معنى التذييل ، وتُقصر على معنى التهديد .

والإتيان : مجاز في الحصول في المستقبل ، لوجود (أن) المصدرية التي تخلص المضارع للاستقبال ، وهو استقبال نسبي فلكل أمة استقبال سنة من قبلها .

والسنة : العادة المألوفة في حال من الأحوال .

وإسناد منعهم الإيمان إلى إتيان سنة الأولين أو إتيان العذاب إسناد مجاز عقلي .

والمراد : ما منعهم إلا سبب إتيان سنة الأولين لهم أو إتيان العذاب .

وسبب ذلك هو التكبر والمكابرة والتمسك بالضلال ، أي أنه لا يوجد مانع يمنعهم الإيمان يخولهم المعذرة به ولكنهم جروا على سنن من قبلهم من الضلال .

وهذا كناية عن انتفاء إيمانهم إلى أن يحل بهم أحد العذابين .

وفي هذه الكناية تهديد وإنذار وتحذير وحث على المبادرة بالاستغفار من الكفر .

وهو في معنى قوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : 96 97] .

وقِبَلاً ﴾ حال من العذاب .

وهو بكسر القاف وفتح الباء في قراءة الجمهور بمعنى المقابل الظاهر .

وقرأ حمزة ، وعاصم ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف ﴿ قبلاً ﴾ بضمتين وهو جمع قبيل ، أي يأتيهم العذاب أنواعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(108/474)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المجرمين يرون النار يوم القيامو ، ويظنون أنهم

مواقعوها ، اي مخالطوها وواقعون فيها . والظن في هذه الآية بمعنى اليقين ؛ لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوا الواقع . وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أ ، هم موقنون بالواقع ؛ كقوله عنهم : [السجدة : 12] ، وقوله : [ق : 22] ، وقوله تعالى : [مريم : 38] الآية . ومن إطلاق الظن على اليقين قوله تعالى : [البقرة : 45-46] اي يقونون أنهم ملاقوا ربهم . وقوله تعالى : [البقرة : 249] . وقوله تعالى : [الحاقة : 19-20] فالظن في هذه الآيات كلها بمعنى اليقين . والعرب تطلق الظن على اليقين وعلى الشك . ومن إطلاقه على اليقين في كلام العرب قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق :

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم . . . وأجعل مني الظن غيبا مرجما

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : ان المجرمين يرون النار ، وبين في موضع آخر أنها هي تراهم أيضاً ، وهو قوله تعالى : [الفرقان : 11-12] . وما جرى على ألسنة العلماء من أن الظن جل الاعتقاد اصطلاح للأصوليين والفقهاء . ولا مشاحة في الاصطلاح . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ ﴾ المصرف : المعدل ، اي ولم يجدوا عن النار مكاناً ينصرفون إليه ويعدلون إليه ، ليتخذوه ملجأ ومعتصماً ينجون فيه من عذاب الله . ومن إطلاق المصرف على المعدل بمعن مكان الانصراف للاعتصام بذلك المكان – قوله أبي

كبير الهذلي :

أزهير هل عن شيبة من مصرف . . . أم لا خلود لباذل متكلف

(109/474)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾ من رأى البصرية ، فهي تتعدى لمفعول واحد ، والتعبير بالماضي عن المستقبل نظراً لتحق الوقوع ، فكان ذلك لتحقق وقوعه كالواقع بالفعل ، كما تقدم مراراً . والعلم عند الله تعالى .

(110/474)

قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي رددنا وكثرنا تصريف الأمثال بعبارات مختلفة ، وأساليب متنوعة في هذا القرآن للناس . ليهتدوا إلى الحق ، ويتعظوا . فعارضوا بالجدل والخصومة والمثل : هو القول الغريب السائر في الآفاق . وضرب الأمثال كثير في القرآن جداً . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : 26] ومن أمثلة ضرب المثل فيه ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله

لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ [الحج : 73] الآية ، وقوله : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 41] ، وقوله : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذِلكَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ [الأعراف : 177] الآية ، وكقوله : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ [الجمعة : 5] الآية ، وقوله : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ [الكهف : 45] الآية ، وقوله : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ على شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 75] ، وقوله : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ على شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ

(111/474)

بالعدل وَهُوَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : 76] ، وقوله : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ

كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الروم : 28] الآية . والآيات بمثل هذا كثيرة جداً . وفي هذه الأمثال واشباهها في القرآن عبر ومواعظ وزواجر عظيمه جداً ، لا لبس في الحق معها . إلا أنها لا يعقل معانيها إلا أهل العلم . كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] . ومن حكم ضرب المثل : ان يتذكر الناس . كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : 21] .

وقد بين تعالى فيمواضع أخر : أن الأمثال مع إيضاحها للحق يهدي بها الله قوماً ، ويضل بها قوما آخرين . كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ﴾ [البقرة : 26] ، وأشار إلى هذا المعنى في سورة " الرعد " . لأنه لما ضرب المثل بقوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾

(112/474)

[الرعد : 17] - أتبع ذلك بقوله : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أولئك لَهُمْ سواء الحساب وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [الرعد : 18] . ولا شك أن الذين استجابوا لربهم هو العقلاء الذين علقوا معنى الأمثال ، انتفعوا بما تضمنت من بيان الحق . وأن الذين لم يستجيبوا له هم الذين لم يعقلوها ، ولم يعرفوا ما أوضحته من الحقائق . فالفريق الأول - هو الذين قال الله فيهم ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ ، والفريق الثاني - هم الذين قال فيهم أيضاً ﴿ يضل به كثيراً ﴾ وقال فيهم ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ .

(113/474)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاً ﴾ قال بعض العلماء : مفعول " صرفنا " محذوف ، تقديره : البينات والعبر . وعلى هذا ف " من " لابتداء الغاية اي ولقد صرفنا الآيات والعبر من أنواع ضرب المثل للناس في هذا القرآن ليذكروا ، فقابلوا ذلك بالجدال والخصام . ولذا قال : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ وهذا هو الذس ستظهره أبو حيان في البحر ، ثم قال : وقال ابن عطية يجوز أن تكون " من " زائدة للتوكيد . فالتقدير : ولقد صرفنا كل مثل . فيكون مفعول " صرّفْنَا " : " كل مثل " وهذا التخريج هو على

مذهب الكوفيين والأخفش ، لا على مذهب جمهور البصريين . انتهى الغرض من كلام صاحب البحر المحيط . وقال الزمخشري : " من كل مثل " من كل معنى هو كالمثل في غاربته وحسنى اه وضابط ضرب المثل الذي يرجع إليه كل معانيه التي يفسر بها : هو إيضاح معنى النظير بذكر نظيره . لأن النظير يعرف بنظيره . وهذا المعنى الذي ذكره في هذه الآية الكريمة جاء مذكوراً في آيات أخر . كقوله في " الإسراء " : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء : 89] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ [الإسراء : 41] ، وقوله : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [طه : 113] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : 27-28] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ

(114/474)

﴾ [الروم : 58] . والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

وقوله في هذه الآية : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ اي أكثر الأشياء التي من

شأنها الخصومة إن فصلتها واحداً بعد واحد . "جدلاً" أي خصومة ومماراة بالباطل لقصد إدخاص الحق . ومن الآيات الدالة على خصوم الإنسان بالباطل لإدخاص الحق – قوله هنا : ﴿ وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾

(115/474)

[الكهف : 56] ، وقوله تعالى : ﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِي الله مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى : 16] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : 77] ، إلى غير ذلكمن الآيات . وما فسّرنا به قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : 54] من أن معناه كثرة خصومه الكفار ومماراتهم بالباطل ليحضوا به الحق هو السباق الذي نزلت فيه الآية الكريمة ، لأن قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي ليذكروا ويتعظوا وينيبوا إلى ربهم : بدليل قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ [الإسراء : 41] ، وقوله [الحشر : 21] فلما أتبع ذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ – علمنا من سياق الآية ان الكفار أكثروا الجدل والخصومة المراء لأدحاض الحق الذي أوضحه الله الله بما ضربه في هذا القرآن من كل مثل . ولكن كونه هذا

هو ظاهر القرآن وسبب النزل لا ينافي تفسير الآية الكريمة بظاهر عمومها . لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما بيناه بأدلته فيما مضى . ولأجل هذا لما طرق النَّبي صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة رضي الله عنهما ليلة فقال : " ألا تصليان ؟ " وقال علي رضي الله عنه : يا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . انصرف النَّبي صلى الله عليه وسلم راجعاً وهو يضرب فخذه ويقول : " وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً " والحديث مشهور متفق عليه . فإيراده صلى الله عليه وسلم الآية على قول علي رضي الله عنه " إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا " – دليل على عموم الآيو الكريمة ، وشمولها لكل خصام وجدل ، لكنه قد دلت آيات أخر على أن من الجدل ما هو محمود مأمور به

(116/474)

لإظهار الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] . وقوله " جدلاً " منصوب على التمييز ، على حد قوله في الخلاصة :

والفاعل المعمى انصبن بافعلا . . . مفضلاً كانت أعلى منزلا

وقوله ﴿ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل جدلاً كما تقدم.

وصيغة التفضيل إذا أضيفت إلى نكرة كما في هذه الآية، أو جردت من الإضافة والتعريف بالألف واللام – لزم إفرادها وتذكيرها كما عقده في الخلاصة بقوله:

وإن لمنكور يضف أو جردا . . . الزم تذكيراً أن يوحدا

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة مبيناً بعض الآيات المبينة للمراد بجدل الإنسان في الآية الكريمة، بعد أن ساق سنده إلى ابن زيد في قوله ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ قال: الجدل الخصومة – خصومة القوم لأنبيائهم وردهم عليهما جاؤوا به. وقرأ ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾

(117/474)

[المؤمنون: 33] وقرأ: ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: 24]، وقرأ "حتى توفى" الآية، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: 7]، وقرأ: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: 14-15] انتهى من تفسير الطبري. ولا شك أن هذه الآيات التي ذكر عن ابن زيد أنها مفسرة لجدل

الإنسان المذكور في الآية أنها كذلك ، كما قدمنا أن ذلك هو ظاهر السياق وسبب النزول ، والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة في القرآن العظيم . والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) ﴾

في هذه الآية الكريمه وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم ، وكلاهما تدل على مقتضاه آيات من كتاب الله تعالى ، وأحد الوجهين أظهر عندي من الآخر .

(118/474)

الأول منهما – أن معنى الآية : وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إذ جاءتهم الرسل بالبينات الوضحات ، إلا ما سبق في علمنا : من أنهم لا يؤمنون ، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين أي سنتنا في إهلاكهم بالعذاب المستأصل . أو يأتيهم العذاب قبلاً . والظاهر أن " أو " في هذه الاية مانعة خلو ، فهي تجوز الجمع لإمكان إهلاكهم بالعذاب المستأصل في الدنيا كسنة الله في الأولين من الكفار ، وإتيان العذاب إياهم يوم القيامة قبلاً . وعلى هذا القول فالآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم

﴾ [يونس : 96-97] ، وقوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل : 37] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً أولئك الذين لَمْ يُرِدِ الله أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 41] . والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة .

القول الثاني – أن في الآية الكريمة مضافاً محذوفاً ، تقديره : وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلاً .

(119/474)

والآيات الدالة على طلبهم الهلاك والعذاب عن عناداص وتعنتاً كثيرة جداً ، كقوله عن قوم شعيب : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الشعراء : 187] ، وكقوله عن قوم هود : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأحقاف : 22] ، وكقوله عن قوم صالح : ﴿ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ [الأعراف : 77] وكقوله عن قوم لوط : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [العنكبوت : 29]

وكقوله عن قوم نوح : ﴿ قَالُواْ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [هود : 32] .

فهذه الآيات وأمثالها في القرآن – ذكر الله فيها شيئاً من سنة الأولين : أنهم يطلبون تعجيل العذاب عناداً وتعنتاً . وبين تعالى أنه أهلك جميعهم بعذاب مستأصل ، كإهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم صالح بالصيحة ، وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة ، وقوم هود بالرح العقيم ، وقوم لوط بجعل عالى قراهم سافلها . وإرسال حجارة السجيل عليهم ، كما هو مفصل في الآيات القرآنية .

وبين في آيات كثيرة : أن كفار هذه الأمة كمشركي قريش سالوا العذاب كما سأله من قبلهم ، كقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(120/474)

[الأنفال : 32] ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 16]

وأصل القط ، كتاب الملك الذي فيه الجائزة ، وصار يطلق على النصيب : فمعنى ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ أي نصيبنا المقدر لنا ن العذاب الذي تزعم وقوعه بنا إن لم نصدقك

ونؤمن بك ، كالنصيب الذي يقدره الملك في القط الذي هو كتاب الجائزة ، ومنه قول الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته . . . بغبطته يعطي القطوط ويأفق

(121/474)

وقوله " يأفق " أي يفضل بعضاً على بعض في العطاء . والآيات بمثل ذلك كثيرة . والقول الأول أظهر عندي ، لأن مالا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير إلا بحجة الرجوع إليها تثبت المحذوف المقدر . والله تعالى أعلم . وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين قوله تعالى هنا : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الكهف : 55] الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] بما حاصله باختصار : أن المانع المذكور في سورة " الإسراء " مانع عادي يجوز تخلفه ، لأن استغرابهم بعث رسول من البشر مانع عادي يجوز تخلفه لإمكان أن يستغرب الكافر بعث رسول من البشر ثم يؤمن به مع ذلك الاستغراب . فالحصر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ حصر في

المانع العادي . واما لحصر في قوله هنا ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ فهو حصر في المانع الحقيقي ، لأن إرادته جل وعلا عدم إيمانهم ، وحكمه عليهم بذلك ، وقضاءه به مانع حقيقي من وقوع غيره .

(122/474)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ قرأه الكوفيون : وهم عاصم وحمزة والكسائي " قبلاً " بضم القاف والباء . وقرأه الأربعة الباقون من السبعة : وهم نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر " قبلاً بكسر القاف وفتح الباء . أما على قراءة الكوفيين فقوله " قبلاً " بضمتين جمع قبيل . والفعيل إذا كان اسماً يجمع على فعل كسرير وسرر ، وطريق وطرق ، وحصير وحصر ، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله :

وفعل لاس رباعي بمد . . . قد زيد قبل لام اعلالاً فقد

ما لم يضاعف في الأعم ذو الألف . . إلخ .

وعلى هذا ، فمعنى الآية ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ أي أنوا مختلفة ، يتلو بعضها بعضاً .

وعلى قراءة من قرأوا " قبلاً " كعنب ، فمعناه عياناً ، اي أو يأتيهم العذاب عياناً . وقال

مجاهد رحمه الله " قبلاً " أي فجأة . والتحقيق : أن معناه عياناً وأصله من المقابلة ، لأن المتقابلين بعاين كل واحد منهما الآخر .

وذكر أو عبيدك أن معنى القراءتين واحد ، وأن معناهما عياناً ، وأصله من المقابلة .

وانتصاب " قبلاً " على الحال على كلتا القراءتين . وهو على القولين المذكورين في معنى " قبلاً " إن قدرنا أنه بمعنى عياناً ، فهو مصدر منكر حال كما قدمنا مراراً . وعلى أنه جمع قبيل : فهو اسم جامد مؤول بمشتق ، لأنه في تأويل : أو يأتيهم العذاب في حال كوه أنواعاً وضروباً مختلفة . والمصدر المنسبك من " أن " وصلتها في قوله ﴿ أن يؤمنوا ﴾ في محل نصب . لأنه مفعول " منع " الثاني ، والمنسبك من " أَنْ " وصلتها في قوله ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ في محل رفع ، لأنه فاعل " منع " لأن الاستثناء مفرغ ، وما قبل " إلا " عامل فيما بعدها ، فصار التقدير : منع الناس الإيمان إتيان سنة الأولين ، على حد قوله في الخلاصة :

وإن يفرغ سابق إلا لما . . . بعد يكن كما لو إلا عدما

(123/474)

والاستغفار في قوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ هو طلب المغفرة منه جل وعلا لجميع الذنوب السالفة بالإنابة إليه ، والندم على ما فات ، والعزم المصمم على عدم العود إلى الذنب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(124/474)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) ﴾

رأى : الرؤية : وقوع البصر على المرئيّ ، والرؤية هنا مِمّن سيُعذّب في النار ، وقد تكون الرؤية من النار التي ستعذبهم ؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] أي : ها أنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم ؟

والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله . إذن : فالرؤية هنا متَبَادلة : المعذِّب والمعذَّب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا . . ﴾ [الكهف : 53] الظن هنا يُراد منه اليقين . أي : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء في قول الحق سبحانه : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم

ملاقوا رَبِّهِمْ . . ﴾ [البقرة : 46]

أي : يوقنون .

﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً . . ﴾ [الكهف : 53] أي : في حين أن بينهما مَوْبِقاً ، وأيضاً لا يجدون مفرّاً يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النار ، فالمَوْبِق موجود ، والمصْرِف مفقود .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآنِ للنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . . ﴾ .

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشيء إلى أشياء متعددة ، كما يصرّف الله الرياح مثلاً ، فلا تأتي من ناحية واحدة ، بل تأتي مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صَرّف الله الأمثال . أي : أتى بأحوال متعددة وصُور شتى منها . والحق سبحانه يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائباً عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسٍّ ليتفهموه تفهّماً دقيقاً .

(125/474)

وما دام أن الحق سبحانه صرّف في هذا القرآن من كل مثَل ، فلا عُذْر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتّى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم ؛ لذلك ترى الأمي

يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته ، بل وأكثر من ذلك ، فالمتخصص في أيِّ علم من العلوم يجد في كتاب الله أدقّ التفاصيل ؛ لأن الحق سبحانه بيَّن فيه كل شيء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : 54] أي : كثير الخصومة والتنازع في الرأي ، والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه ، والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبرر مذهبك ولو خطأً ، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البنّاء الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيّز للهوى أو الأغراض .

ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [العنكبوت : 46]

وقال : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [النحل : 125] " والنبي صلى الله عليه وسلم لما مرَّ على عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبدو أنهما كانا مستغرقيْن في نوم عميق ، فنادى عليهما صلى الله عليه وسلم " ألا تصلون ؟ " فردَّ الإمام علي قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن

شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ " [الكهف : 54]

(126/474)

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أنْ يُدلّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويراوغ . ولو دققتَ في رأيه لوجدتَ له هوىً يسعى إليه ويميل إلى تحقيقه ، وترى ذلك واضحاً إذا اخترتَ أحد الطرق تسلكه أنت وصاحبك مثلاً لأنه أسهلها وأقربها ، فإذا به يقترح عليك طريقاً آخر ، ويحاول إقناعك به بكل السُّبل ، والحقيقة أن له غرضاً في نفسه وهوىً يريد الوصول إليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ . . . ﴾ .

ما الذي منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل عليهم القرآن ، وصرّفنا فيه من الآيات والأمثال ، بعد أن جاءهم مطابقاً لكل الأحوال ؟

وفي آية أخرى ، أوضح الحق سبحانه سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً * وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ

حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء: 89-93]

(127/474)

فكُلُّ هذه التعنّتات وهذا العناد هو الذي حال بينهم وبين الإيمان بالله، والحق سبحانه وتعالى حينما يأتي بآية طلبها القوم، ثم لم يؤمنوا بها يُهلكهم؛ لذلك قال بعدها: ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين . . ﴾ [الكهف: 55] فهذه هي الآية التي تنتظرهم: أن تأتيهم سُنَّة الله في إهلاك مَنْ كذَّب الرسل.

فقبل الإسلام، كانت السماء هي التي تتدخل لنُصْرة العقيدة، فكانت تدكُّ عليهم قُراهم ومساكنهم، فالرسول عليه الدعوة والبلاغ، ولم يكن من مهمته دعوة الناس إلى الحرب والجهاد في سبيل نَشْر دعوته، إلا أمة محمد فقد أَمِنها على أن تحمل السيف لتُؤدِّب الخارجين عن طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ . . ﴾ [الكهف: 55] أي: على ما فات من

المهاترات والتعنُّتات والاستكبار على قبول الحق ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين . . ﴾ [الكهف : 55] أي : بهلاك المكذبين ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً . . ﴾ [الكهف : 55] أي مُقابِلاً لهم ، وعياناً أمامهم ، أو ﴿ قُبُلاً ﴾ جمع قبيل ، وهي ألوان متعددة من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . ﴾ [الطور : 47] أي : لهم عذاب غير النار ، فألوان العذاب لهم متعددة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(128/474)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) ﴾

قوله : ﴿ مَصْرِفاً ﴾ : المَصْرِفُ : المَعْدِل . قال الهذلي :

3170- أزهيرُ هل عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ . . . أم لا خُلُوْدَ لباذِلٍ متكلِّفِ

ويجوز أَنْ يكونَ اسمَ مكانٍ أو زمانٍ . وقال أبو البقاء : " مَصْرِفاً : أي انْصِرافاً ، ويجوز أَنْ يكونَ مكاناً " . قلت : وهذا سَهْوٌ فإنه جَعَلَ المَفْعِل بكسرِ العينِ مصدراً لما مضارعُه يَفْعِل

بالكسرِ من الصحيح ، وقد نصُّوا على أنَّ اسمَ مصدر هذا النوعِ مفتوحُ العين ، واسمَ زمانِه ومكانِه مكسوراها نحو : المَضْرَب والمَضْرِب .

وقرأ زيدُ بن عليّ رضي الله عنه " مَصْرِفاً " بفتح الراء جعله مصدراً ؛ لأنَّه مكسور العين في المضارع فهو كالمَضْرَب بمعنى الضَّرْب ، وليت أبا البقاءِ ذكر هذه القراءةَ ووَجَّهَها بما ذكره قبلُ .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) ﴾

قوله : ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ " مِنْ كلِّ " صفةً لموصوفٍ محذوفٍ ، وهو مفعولٌ " صَرَّفنا " ، أي : صَرَّفنا مَثَلاً مِنْ كلِّ مَثَل . ويجوز أَنْ تكونَ " مِنْ " مزيدةً على رأْيِ الأخفش والكوفيين .

(129/474)

قوله : " جَدَلاً " منصوبٌ على التمييز . وقوله : " أكثرَ شيءٍ " ، أي : أكثر الأشياء التي يتأتَّى منها الجدال إنْ فَصَّلْتها واحداً واحداً ، يعني أنَّ الإنسانَ أكثرُ جدلاً مِنْ كلِّ شيءٍ يُجادل ، فوَضَعَ " شيءٍ " مَوْضِعَ الأشياء . وهل يجوز أَنْ يكونَ جَدَلاً منقولاً مِنْ اسم كان

إذ الأصل : وكان جَدَلُ الإنسانِ أكثرَ شيء ؟ فيه نظرٌ . وكلامُ أبي البقاء مُشْعِرٌ بجوازِه فإنه قال : " فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ شيئاً هنا في معنى مُجادِل ؛ لأنَّ أَفْعل يُضافُ إلى ما هو بعضٌ له ، وتمييزُه ب " جَدَلاً " يَقْتَضي أَنْ يكونَ الأكثرَ مُجادلاً . وهذا مِنْ وَضْعِ العامِّ موضعَ الخاصِّ . والثاني : أنَّ في الكلام محذوفاً تقديره : وكان جَدَلُ الإنسانِ أكثرَ شيءٍ ، ثم مَيَّزه " . فقوله : " تقديرُه : وكان جَدَلُ الإنسانِ " يفيد أنَّ إسنادَ " كان " إلى الجَدَلِ جائزٌ إلى الجملة ، إلا أنه لا بُدَّ من تتميمٍ لذلك : وهو أَنْ تَتَجَوَّزَ فتجعلَ للجَدَلِ جَدَلاً كقولِهم : " شِعْرٌ شاعرٌ " يعني أنَّ لجدل الإنسانِ جَدَلاً وهو أكثرُ من جَدَلِ سائرِ الأشياءِ .

قوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ ﴾ : وقد تقدَّم في آخرِ السورة قبلها . وقوله : " قُبُلاً " قد تقدَّم خلافُ القراء فيه وتوجيهُ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 510.512 ﴾

(130/474)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) ﴾

إذا صارت الأوهامُ منقطعة ، والمعارفُ ضروريةً ، والنارُ مُعَاينَةً استيقنوا أنهم واقعون في

النار ، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ ، ولا تنفع له حيلةٌ ، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل . . لقد استمكنت الخيبةُ ، وغَلَبَ اليأسُ ، وحَصَلَ القنوط ، وهذا هو العذاب الأكبر .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) ﴾

أوضح للكافة الحججَ ، ولكن لَبَّسَ على قوم النهج فوقعوا في العِوَج .

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شيءٍ جَدَلاً ﴾ الجَدَلُ في الله محمود مع أعدائه ، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرْفٌ إلى مخالفةٍ تُوهِمُ أن أحداً يعارض التقدير ، وتجويزُ ذلك انسلاخ عن الدِّين . ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه ، وإغلاقُ بابِ الجدل دونه .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) ﴾

لا عُذرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وتركِ المبادرة إلى المأمور ، ولا توفيقَ يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعي إلى عزم الفعل ، فَهُمْ – وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ما ليسوا يفعلونه – ليسوا عاجزين عن ذلك ؛ ولكنهم بحيث لو أن العبدَ منهم أراد ما أُمِرَ به لَتَأَبَّى منه ذلك ، وتعذَّر عليه ؛ ففي الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله

ولا هو عاجزٌ عنه ، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهي واسطة بين القدرة والعجز .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 403 . 404 ﴾

(131/474)

قوله تعالى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك ليس إلى الرسول ، إنما هو إلى الإله ، بينه بقوله تعالى : ﴿ وما نرسل ﴾ على ما لنا من العظمة التي لا أمر لأحد معنا فيها ﴿ المرسلين إلا مبشرين ﴾ بالخير على أفعال الطاعة ﴿ ومنذرين ﴾ بالشر على أفعال المعصية ، فيطلب منهم الظالمون من أممهم ما ليس

إليهم من فصل الأمر ﴿ ويجادل الذين كفروا ﴾ أي يجددون الجدال كلما أتاهم أمر من قبلنا ﴿ بالباطل ﴾ من قولهم : لو كنتم صادقين لأتيتم بما نطلب منكم ، مع أن ذلك ليس كذلك لأنه ليس لأحد غير الله من الأمر شيء ﴿ ليدحضوا ﴾ أي ليزلقوا فيزيلوا ويبطلوا ﴿ به الحق ﴾ الثابت من المعجزات المثبتة لصدقهم .

(132/474)

ولما كان لكل مقام مقال ، ولكل مقال حد وحال ، فأتى في الجدال بصيغة الاستقبال ، وكان اتخاذ الاستهزاء أمراً واحداً ، أتى به ماضياً فقال تعالى : ﴿ واتخذوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم أن أخذوا ﴿ ءاياتي ﴾ بالبشارات التي هي المقصودة بالذات لكل ذي روح ﴿ وما أنذروا ﴾ من آياتي ، بني للمفعول لأن الفاعل معروف والمخيف الإنذار ﴿ هزواً ﴾ مع بعدهما جداً عن ذلك ، فلا بالرغبة أطاعوا ، ولا للرهبة ارتاعوا ، فكانوا شراً من البهائم .

ولما حكي عنهم هذا الجدال ، والاستهزاء والضلال ، وصفهم بما يوجب الخزي فقال – عاطفاً على ما تقديره : فكانوا بذلك أظلم الظالمين : ﴿ ومن أظلم ﴾ منهم – استفهاماً على سبيل التقرير ، ولكنه أظهر للتنبيه على الوصف الموجب للإنكار على من شك في أنهم أظلم .

فقال تعالى : ﴿ممن ذكر﴾ أي من أيّ مذكر كان ﴿بأيات﴾ أي علامات ﴿ربه﴾ المحسن إليه بها ؛ قال الأصبهاني : وهذا من أفصح التقرير أن يوقف الرجل على ما لا جواب فيه إلا الذي يريد خصمه .

(133/474)

ولما كان التذكير سبباً للإقبال فعكسوا فيه قال تعالى : ﴿فأعرض عنها﴾ تاركاً لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجبه ذلك الإحسان من الشكر ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ من الفساد الذي هو عارف - لو صرف عقله إلى الفكر فيما ينفعه - أن الحكمة تقتضي جزاءه عليه ، وأفرد الضمير في جميع هذا على لفظ ﴿من﴾ إشارة إلى أن من فعل مثل هذا - ولو أنه واحد - كان هكذا ، والأحسن أن يقال : إنهم لما كانوا قد سألوا اليهود عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما أشير إليه عند ﴿ويسألونك عن الروح﴾ [الإسراء : 85] فأمروهم بسؤاله عما جعلوه أمارة على صدقه ، فلم يؤثر ذلك فيهم ، واستمروا بعد إخباره بالحق على التكذيب ، شرح حالهم بالتعقيب بالفاء ، فكان المعنى : من أظلم منهم ، لأنهم ذكروا فأعرضوا ونسوا ما اعتقدوا أنه دليل الصدق ، وأنه لا جدال بعده ، وسيأتي لموقع الفاء في آخر السجدة مزيد بيان ، وإسناد الفعل في الإعراض وما

بعده إليهم حقيقة مما لهم من الكسب كما أن إسناد الجعل وما بعده إلى الله حقيقة بما له من الخلق .

(134/474)

ولما كان كأنه قيل : ما لهم فعلوا ذلك ؟ أيجهل قبح هذا أحد ؟ قيل : ﴿ إنا جعلنا ﴾ بما لنا من القدرة على إعماء البصائر والأبصار ﴿ على قلوبهم ﴾ فجمع رجوعاً إلى أسلوب ﴿ واتخذوا ءاياتي ﴾ لأنه أنص على ذم كل واحد ﴿ أكنة ﴾ أي أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لا يدع شيئاً من الحيز يصل إليها ، فهي لا تعي شيئاً من آياتنا ، ودل بتذكير الضمير على أن المراد بالآيات القرآن فقال تعالى : ﴿ أن ﴾ أي كراهة أن ﴿ يفقهوه ﴾ أي يفهموه ﴿ وفي ءاذانهم وقراً ﴾ أي ثقلاً فهم لا يسمعون حق السمع ، ولا يعون حق الوعي ﴿ وإن تدعهم ﴾ أي تكرر دعاءهم كل وقت ﴿ إلى الهدى ﴾ لتنجيهم بما عندك من الحرص على ذلك والجد ﴿ فلن يهتدوا ﴾ أي كلهم بسبب دعائك ﴿ إذاً ﴾ أي إذا دعوتهم ﴿ أبداً ﴾ لأن من له العظمة التامة – وهو الذي إذا عبر عن نفسه بنونها كانت على حقيقتها – حكم عليها بالضلال ، أي أنه لا يكون الدعاء وحده هادياً لأكثرهم ، بل لا بد معه من السيف كما سنأمرك به فتقطع الرؤوس فيذل غيرهم ، وقد يكون المراد

أن من كان هكذا معانداً على هذا الوجه مؤبد الشقاء ، وقد نفى آخر هذه الآية الفعل عن العباد وأثبته لهم أولها ، وقلما نجد في القرآن آية تسند الفعل إليهم إلا قارنتها أخرى تثبته لله وتنفيه عنهم ، ابتلاء من الله لعباده ليتميز الراسخ – الذي ينسب للمكلفين الكسب المفيد لأثر التكليف ، ولله الخلق المفيد لأنه سبحانه لا شريك له في خلق ولا غيره – من الطائش الذي يقول بالجبر أو التفويض .

(135/474)

ولما كان هذا مقتضياً لأخذهم ، عطف على ما اقتضاه السياق مما ذكرته من العلة قولَه تعالى : ﴿ وربك ﴾ مشيراً بهذا الاسم إلى ما اقتضاه الوصف من الإحسان بأخذ من يأخذ منهم وإمهال غيره لحكم دبرها ؛ ثم أخبر عنه بما ناسب ذلك من أوصافه فقال : ﴿ الغفور ﴾ أي هو وحده الذي يستر الذنوب إما بمحوها وإما بالحلم عنها إلى وقت ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي الذي يعامل – وهو قادر – مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالإكرام ؛ ثم استشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ لو يؤاخذهم ﴾ أي هؤلاء الذين عادوك وآذوك ، وهو عالم بأنهم لا يؤمنون لو يعاملهم معاملة المؤاخذ ﴿ بما كسبوا ﴾ حين كسبهم ﴿ لعجل لهم العذاب ﴾ واحداً بعد واحد ، ولكنه لا يعجل لهم ذلك ﴿ بل لهم موعد ﴾

يحله بهم فيه ، ودل على أن موعده ليس كموعد غيره من العاجزين بقوله دالاً على كمال قدرته : ﴿ لن يجدوا من دونه ﴾ أي الموعد ﴿ موئلاً ﴾ أي ملجأ ينجيهم منه ، فإذا جاء موعدهم أهلكناهم فيه بأول ظلمهم وآخره .

(136/474)

ولما كانت هذه سنته في القرون الماضية والأمم الخالية ، قال تعالى عاطفاً على قوله " لهم موعد " مروعاً لهم بالإشارة إلى ديارهم المصورة لدمارهم : ﴿ وتلك القرى ﴾ أي الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وأشكالهم ﴿ أهلكناهم ﴾ أي حكمنا بإهلاكهم بما لنا من العظمة ﴿ لما ظلموا ﴾ أي أول ما ظلموا ، أو أهلكناهم بالفعل حين ظلمهم لكن لا في أوله ، بل أمهلناهم إلى حين تناهيه وبلوغه الغاية ، فليحذر هؤلاء مثل ذلك ﴿ وجعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لمهلكهم ﴾ أي إهلاكهم بالفعل ﴿ موعداً ﴾ أي وقتاً نحله بهم فيه ومكاناً لم نخلفه ، كما أنا جعلنا لهؤلاء موعداً في الدنيا بيوم بدر والفتح وحنين ونحو ذلك ، وفي الآخرة لن نخلفه ، وكذا كل أمر يقوله نبي من الأنبياء عنا لا يقع فيه خلف وإن كان يجوز لنا ذلك ، بخلاف ما يقوله من نفسه غير مسند إلينا فإنه يمكن وقوع الخلف فيه ، كما وقع في الوعد بالإخبار عن هذه المسائل التخلف أربعين ليلة أو ما دونها

على حسب فهمهم أن ﴿ غدا ﴾ على حقيقته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 485.482 ﴾

(137/474)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

ثم بين تعالى أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعاً وبين مع هذه الأحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق .

وهذا يدل على أن الأنبياء كانوا يجادلونهم لما بينا أن المجادلة إنما تحصل من الجانبين وبين تعالى أيضاً أنهم اتخذوا آيات الله وهي القرآن وإنذارات الأنبياء هزواً وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة .

قال النحويون ما في قوله : ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ يجوز أن تكون موصولة ويكون العائد من الصلة محذوفاً ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إنذارهم .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار جدالهم بالباطل وصفهم بعده بالصفات الموجبة للخزي والخذلان .

الصفة الأولى : قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أي لا ظلم أعظم من كفر من ترد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ما قدمت يداه أي مع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم .

الصفة الثانية : (قوله) : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ وقد مر تفسير هذه الآية على الاستقصاء في سورة الأنعام ، والعجب أن قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ متمسك القدرية ، وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية وقلما نجد في القرآن آية لأحد هذين الفريقين إلا ومعها آية للفريق الآخر ، والتجربة تكشف عن صدق قولنا .

(138/474)

وما ذاك إلا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين ثم قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة ﴾ الغفور البليغ المغفرة وهو إشارة إلى

دفع المضار ذو الرحمة الموصوف بالرحمة ، وإنما ذكر لفظ المبالغة في المغفرة لا في الرحمة ، لأن المغفرة ترك الإضرار وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادراً عليها ، أما فعل الرحمة فهو متناه لأن ترك ما لا نهاية له ممكن ، أما فعل ما لا نهاية له فمحال ويمكن أن يقال : المراد أنه يغفر كثيراً لأنه ذو الرحمة ولا حاجة به إليها فيهبها من المحتاجين كثيراً ثم استشهد بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إمهال مع إفراطهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ وهو إما يوم القيامة ، وإما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح (وقوله) : ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ (أي) منجى ولا ملجأ ، يقال وأل إذا لجأ ، ووأل إليه إذا لجأ إليه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ القرى ﴾ يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم أشار إليها ليعتبروا ، وتلك مبتدأ ، والقرى صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأصناف الأجناس وأهلكناهم خبر والمعنى ، وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم أهل مكة : ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر ، والمهلك الإهلاك أو وقته ، وقرىء لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة ، أي لهلاكهم أو وقت هلاكهم ، والموعد وقت أو مصدر ، والمراد إنا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم ندع أن نضرب له وقتاً ليكونوا إلى التوبة أقرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 120 . 121 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . ليُدحضوا به الحقّ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ليذهبوا به الحق ، ويزيلوه ، قاله الأخفش .

الثاني : ليبطلوا به القرآن ويبدلوه ، قاله الكلبي .

الثالث : ليهلكوا به الحق .

والداحض الهالك ،

مأخوذ من الدحض وهو الموضع المزلق من الأرض الذي لا يثبت عليه خف ولا حافر ولا قدم ، قال الشاعر :

ردَيت ونجَى اليشكري حِذارُه . . . وحادَ كما حادَ البعير عن الدحض

﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا هُزُواً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الآية البرهان ، وما أنذروا القرآن .

الثاني : الآيات القرآن وما أنذروا الناس .

ويحتمل قوله : ﴿ هزواً ﴾ وجهين :

أحدهما : لعباً .

الثاني : باطلاً .

قوله عز وجل : ﴿ وربُّكَ الغفور ﴾

يعني للذنوب وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة .

﴿ ذو الرّحمة . . . ﴾ فيها أربعة أوجه :

أحدها : ذو العفو .

الثاني : ذو الثواب ، وهو على هذين الوجهين مختص بأهل الإيمان دون الكفرة .

الثالث : ذو النعمة .

الرابع : ذو الهدى ، وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمان وأهل الكفر لأنه ينعم في الدنيا على الكافر كإنعامه على المؤمن ، وقد أوضح هذه للكافر كما أوضحه للمؤمن ، وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر .

﴿ بل لهم موعدٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أجل مقدر يؤخرون إليه .

الثاني : جزاء واجب يحاسبون عليه .

﴿ لن يجدوا مِن دونه مَوْئلاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : ملجأ ، قاله ابن عباس وابن زيد .

الثاني : محرزاً ، قاله مجاهد .

الثالث : ولياً ، قاله قتادة .

الرابع : منجى ، قاله أبو عبيدة . قال والعرب تقول : لا وأَلَت نفسه ، أي لا نجت ، ومنه قول الشاعر :

لا وألت نفسك خلّيْتها . . . للعامريّين ولم تُكْلَمِ

أحدهما : أهلكناهم بالعذاب لما ظلموا بالكفر .

الثاني : أهلكناهم بأن وكلناهم إلى سوء تدبيرهم لما ظلموا بترك الشكر .

﴿ وجعلنا لمهلكهم مَوْعِداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أجلا يؤخرون إليه ، قاله مجاهد .

(140/474)

الثاني : وقتاً يهلكون فيه . وقرىء بضم الميم وفتحها ، فهي بالضم من أُهلك وبالفتح من هَلَك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(141/474)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وما نرسل المرسلين ﴾ الآية ،

كأنه لما تفجع عليهم وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخسار ، قال : وليس الأمر كما يظنوا ، والرسل لم نبعثهم ليجادلوا ، ولا لتتمنى عليهم الاقتراحات ، وإنما بعثناهم مبشرين من آمن بالجنة ومنذرين من كفر بالنار ، و﴿ يدحضوا ﴾ معناه يزهقوا ، و" الدحض " الطين الذي يزهق فيه ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

وردت ونجى اليشكريّ نجاؤه . . . وحاد كما حاد البعير عن الدحض

(142/474)

وقوله ﴿ واتخذوا ﴾ إلى آخر الآية توعيد ، و" الآيات " تجمع آيات القرآن والعلامات التي ظهرت على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ وما أنذروا هزواً ﴾ يريد من عذاب الآخرة ، والتقدير ما أنذروه فحذف الضمير و" الهزاء " : السخر والاستخفاف ، كقولهم أساطير الأولين ، وقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا وقوله ﴿ ومن أظلم ﴾ استفهام بمعنى التقرير ، وهذا من أفصح التقرير أن يوقف الأمر على ما لا جواب له فيه إلا الذي يريد خصمه ، فالمعنى لا أحد ﴿ أظلم ممن ﴾ هذه صفته ، أن يعرض عن الآيات بعد الوقوف

عليها بالتذكير ، وينسى ويطرح كبائره التي أسلفها هذه غاية الانهمال ، ونسب السيئات إلى اليدين ، من حيث كانت اليدان آلة التكسب في الأمور الجرمية ، فجعلت كذلك في المعاني ، استعارة ، ثم أخبر الله عز وجل عنهم وعن فعله بهم ، جزاء على إعراضهم وتكسبهم القبيح ، فإنه تعالى : ﴿ جعل على قلوبهم أكنة ﴾ وهي جمع كنان ، وهو كالغلاف الساتر واختلف الناس في هذا وما أشبهه من الختم والطبع ونحوه ، هل هو حقيقة أو مجاز ، والحقيقة في هذا غير مستحلية ، والتجوز أيضاً فصيح ، أي لما كانت هذه المعاني مانعة في الأجسام وحاملة ، استعيرت للقلوب التي قد أقساها الله تعالى وأقصاها عن الخير ، وأما " الوقر " في الآذان ، فاستعارة بينة لأنا نحس الكفرة يسمعون الدعاء إلى الشرع سماعاً تاماً ، ولكن لما كانوا لا يؤثر ذلك فيهم إلا كما يؤثر في الذي به وقر ، فلا يسمع ، وشبهوا به ، وكذلك العمى والصم والبكم ، كلها استعارات ، وإنما الخلاف في أوصاف القلب ، هل هي حقيقة أو مجاز ، و" الوقر " : الثقل في السمع ، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ، وإن دعوا إلى الهدى فإنهم لا يهتدون أبداً ، وهذا يخرج على أحد تأويلين : أحدهما أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاص ، ممن حتم الله عليه أن لا يؤمن ولا يهتدي أبداً ، ويخرج عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حال ، والآخر أن

يريد : وإن تدعهم إلى الهدى جميعاً فلن يؤمنوا جميعاً أبداً ، أي إنهم ربما آمن الأفراد ، ويضطرنا إلى أحد هذين التأويلين ، أنا نجد المخبر عنهم بهذا الخبر قد آمن منهم واهتدى كثير .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾

لما أخبر تعالى عن القوم الذين حتم بكفرهم ، أنهم لا يهتدون أبداً ، عقب ذلك بأنه للمؤمنين ، ﴿ الغفور ذو الرحمة ﴾ ، ويتحصل للكفار من صفته تعالى بالغفران والرحمة ، ترك المعاجلة ، ولو أخذوا بحسب ما يستحقونه لبادرهم بالعذاب المبيد لهم ، ولكنه تعالى أخرهم إلى موعد لا يجدون عنه منجي ، قالت فرقة هو أجل الموت ، وقالت فرقة هو عذاب الآخرة ، وقال الطبري هو يوم بدر ، والحشر و" الموئل " المنجى يقال : وأل الرجل يئل إذا نجا . ومنه قول الشاعر :

لا وألت نفسك خيلتها . . . للعامريين ولم تكلم

ومنه قول الأعشى : [البسيط]

وقد أخالس رب البيت غفلته . . . وقد يحاذر مني ثم ما يئل

ثم عقب تعالى توعدهم بذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها ما توعد هؤلاء بمثله ، وفي قوله ﴿ وتلك القرى ﴾ حذف مضاف تقديره ﴿ وتلك ﴾ أهل ﴿ القرى ﴾ يدل على ذلك قوله ﴿ أهلكناهم ﴾ فرد الضمير على أهل القرى ، و ﴿ القرى ﴾ : المدن ، وهذه الإشارة إلى عاد وثمود ومدين وغيرهم . ﴿ وتلك ﴾ ابتداء ، و ﴿ القرى ﴾ صفته ، و ﴿ أهلكناهم ﴾ خبر ، ويصح أن يكون ﴿ تلك ﴾ منصوباً بفعل يدل عليه ﴿ أهلكناهم ﴾ . وقرأ الجمهور " لَمُهلكهم " بضم الميم وفتح اللام ، من أهلك ، ومفعل في مثل هذا يكون لزمن الشيء ، ولمكانه ، ويكون مصدراً فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " لَمَهلكهم " بفتح الميم واللام وقرأ في رواية حفص " لِمَهلكهم " بفتح الميم وكسر اللام ، وهو مصدر من هلك ، وهو في مشهور اللغة غير متعد ، فالمصدر على هذا مضاف إلى الفاعل ، لأنه بمعنى : وجعلنا لأن هلكوا موعداً ، وقالت فرقة إن هلك يتعدى ، تقول أهلكت الرجل وهلكته بمعنى واحد ، وأنشد أبو علي في ذلك : [الرجز]

ومَهْمَهٍ هالك من تعرجا . . . فعلى هذا يكون المصدر في كل وجه مضافاً إلى المفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾

قال ابن عباس : يريد : المستهزئين والمقتسمين وأتباعهم .

وجدالُهم بالباطل : أنهم ألزموه أن يأتيَ بالآيات على أهوائهم ﴿ ليُدْحِضُوا به الحق ﴾ أي : ليُبْطِلوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : جدالُهم : قولُهم : ﴿ أإذا كُنّا عظاماً ورُفاتاً ﴾ [الإسراء 49] ، ﴿ أإذا ضللنا في الأرض ﴾ [السجدة : 10] ، ونحو ذلك ليبطلوا به ما جاء في القرآن من ذِكْر البعث والجزاء .

قال أبو عبيدة : ومعنى "ليُدْحِضوا" : ليُزيلوا ويذهبوا ، يقال : مكان دَحْض ، أي : مَزَلٌّ لا يثبت فيه قدم ولا حافر .

قوله تعالى : ﴿ واتَّخَذُوا آياتي ﴾ يعني القرآن .

﴿ وما أُنْذِروا ﴾ أي : خُوِّفوا به من النار والقيامة ﴿ هُزُواً ﴾ أي : مهزوءاً به .

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ﴾ قد شرحنا هذه الكلمة في [البقرة : 114] .

و﴿ ذُكِّر ﴾ بمعنى : وُعِظ .

وآياتُ رَبِّه : القرآن ، وإعراضُه عنها : تهاونُه بها .

﴿ ونسي ما قدَّمت يداه ﴾ أي : ما سلف من ذنوبه ؛ وقد شرحنا ما بعد هذا في [الأنعام : 21] إلى قوله : ﴿ وإن تدعُهم إلى الهُدى ﴾ وهو : الإيمان والقرآن ﴿ فلن يهتدوا ﴾ هذا إخبار عن عِلْمه فيهم .

قوله تعالى : ﴿ وربُّك الغفور ذو الرحمة ﴾ إذ لم يعاجلهم بالعقوبة .

﴿ بل لهم موعد ﴾ للبعث والجزاء ﴿ لن يجدوا من دونه موئلا ﴾ قال الفراء : الموئل : المنجى ، وهو الملجأ في المعنى ، لأن المنجى ملجأٌ .

والعرب تقول : إنه لَيُوائل إلى موضعه ، أي : يذهب إلى موضعه ، قال الشاعر :

لاوَاءَلَتْ نَفْسُكَ خَلَّيْتَها . . .

للعامِرِيِّيْن ، ولَمْ تُكْلَمِ

يريد : لا نجت نفسك ، وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وَقَدْ أُخالِسُ رَبَّ البَيْتِ غَفْلَتَهُ . . .

وقَدْ يُحاذِرُ مِنّي ثَمَّ مَايَئِلُ

أي : ما ينجو .

وقال ابن قتيبة : الموئل : الملجأ .

يقال : وأل فلان إلى كذا : إذا لجأ .

(146/474)

فإن قيل : ظاهر هذه الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله ، ومعلوم أنه لا نصيب لهم في رحمته .

فعنه جوابان .

أحدهما : [أن] الرحمة هاهنا بمعنى النعمة ، ونعمة الله لا يخلو منها مؤمن ولا كافر .

فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى ، فليس للكافر فيها نصيب .

والثاني : أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة ، فأما في الدنيا ، فإنهم ينالون منها العافية والرزق .

قوله تعالى : ﴿ وتلك القرى ﴾ يريد : التي قصصنا عليكَ ذِكْرها ، والمراد : أهلها ، ولذلك قال : ﴿ أهلكناهم ﴾ والمراد : قوم هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب .

قال الفراء : قوله : ﴿ لَمّا ظَلَموا ﴾ معناه : بعدما ظَلَموا .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا لمهلكهم ﴾ قرأ الأكثرون بضم الميم وفتح اللام ؛ قال الزجاج : وفيه

وجهان .

أحدهما : أن يكون مصدراً ، فيكون المعنى : وجعلنا لإِهلاكهم .

والثاني : أن يكون وقتاً ، فالمعنى : لوقت هلاكهم .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر مثل الهلاك .

وقرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام ، ومعناه : لوقت إِهلاكهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(147/474)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ ﴾

أي بالجنة لمن آمن .

﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي مخوّفين بالعذاب من كفر .

وقد تقدّم .

﴿ وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ قيل : نزلت في المقتسمين ، كانوا يجادلون في الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما

تقدّم .

ومعنى "يُدحِضوا" يزيلوا ويبطلوا .

وأصل الدَّحْض الزَّلَق .

يقال : دَحَضتْ رِجلُه أي زَلِقت ، تَدْحَض دَحْضاً ، ودَحَضِتِ الشمسُ عن كبد السماء زالت ، ودَحَضَت حُجّته دُحوضاً بَطلت ، وأدحضها الله .

والإدحاض الإزلاق .

وفي وصف الصراط : " ويُضرَب الجِسرُ على جهنم وتَحِلُّ الشفاعةُ فيقولون اللهم سَلِّم سَلِّم" قيل : يا رسول الله وما الجِسر ؟ قال : "دَحْضٌ مَزْلَقة " أي تَزلَق فيه القدم .

قال طَرَفة :

أبا منذِرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهِبتَهُ . . .

وحِدْتَ كما حَادَ البعِيرُ عن الدَّحْضِ

﴿ واتخذوا آيَاتِي ﴾ يعني القرآن ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ من الوعيد ﴿ هُزُواً ﴾ .

و"ما" بمعنى المصدر أي والإنذار .

وقيل : بمعنى الذي ؛ أي اتخذوا القرآن والذي أنذروا به من الوعيد هزواً أي لعباً وباطلاً ؛

وقد تقدّم في "البقرة" بيانه .

وقيل : هو قول أبي جهل في الزُّبد والتمّر هذا هو الزقّوم .

وقيل : هو قولهم في القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأوّلين ، وقالوا للرسول : "هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ" ، ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] و ﴿ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ [البقرة : 26] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه ، فتهاون بها وأعرض عن قبولها .

(148/474)

﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها ؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك .

وقيل : المعنى نسي ما قدّم لنفسه وحصّل من العذاب ؛ والمعنى متقارب .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ بسبب كفرهم ؛ أي نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم .

﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى ﴾ أي إلى الإيمان ﴿ فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً ﴾ نزل في قوم معينين ، وهو يردّ على القَدَرية قولهم ؛ وقد تقدّم معنى هذه الآية في "سبحان" وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة ﴾ أي للذنوب .

وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليل قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] .

"ذو الرحمة" فيه أربع تأويلات : أحدها : ذو العفو .

الثاني : ذو الثواب ؛ وهو على هذين الوجهين مختص بأهل الإيمان دون الكفر .

الثالث : ذو النعمة .

الرابع : ذو الهدى ؛ وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمان والكفر ، لأنه ينعِم في الدنيا على الكافر كإنعامه على المؤمن .

وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر .

ومعنى قوله : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي من الكفر والمعاصي ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ ولكنه يمهل .

﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ أي أجل مقدّر يؤخرون إليه .

نظيره ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : 67] ، ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38] أي إذا حلّ لم يتأخر عنهم إما في الدنيا وإما في الآخرة .

﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أي ملجأ ؛ قاله ابن عباس وابن زيد ، وحكاه الجوهريّ في الصحاح .

وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلاً وَوُءُولاً على فُعول أي لجأ ، ووَءَلَ منه على فاعل أي طلب النجاة .

وقال مجاهد : مَحْرِزاً .

قتادة : وليًّا .

أبو عبيدة : مَنْجًى .

وقيل : مَحيصاً ؛ والمعنى واحد .

(149/474)

والعرب تقول : لا وَأَلتْ نفسُه أي لا نَجَت ؛ ومنه قول الشاعر :

لا وَأَلتْ نفسُك خَلَّيْتَهَا . . .

للعامِرِيَّيْنِ ولم تُكْلَم

وقال الأعشى :

وقد أخَالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ . . .

وقد يُحاذِرُ منّي ثم ما يَئِلُ

أي ما ينجو .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ القرى أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ "تلك" في موضع رفع بالابتداء .

"القرى" نعت أو بدل .

و"أهلكناهم" في موضع الخبر محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أهل القرى .

ويجوز أن تكون "تلك" في موضع نصب على (قول) من قال : زيداً ضربته ؛ أي وتلك القرى التي قصصنا عليك نبأهم ، نحو قُرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا وكفروا .

﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً ﴾ أي وقتاً معلوماً لم تَعْدُه .

و"مُهْلَك" من أُهلِكوا .

وقرأ عاصم "مَهْلَكِهِم" بفتح الميم واللام وهو مصدر هَلَك .

وأجاز الكسائي والفراء "لِمَهْلِكِهِم" بكسر اللام وفتح الميم .

النحاس : (قال الكسائي) وهو أحبّ إليّ لأنه من هلك .

الزجاج : مَهْلكْ اسم للزمان والتقدير : لوقت مَهْلِكهم ، كما يقال : أتت الناقة على مَضْرِبِها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(150/474)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين ﴾ إلى الأمم ملتبسين بحال من الأحوال ﴿ إِلا ﴾ حال كونهم ﴿

مُبَشّرِينَ ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل ﴾ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزاتِ والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهفِ ونحوها تعنّتاً ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ﴾ أي بالجدال ﴿ الحق ﴾ أي يُزيلوه عن مركزه ويُبْطلوه من إدحاض القدمِ وهو إزلاقُها ، وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاء الله لاَنزَلَ ملائكة ﴾ ونحوُهما ﴿ واتخذوا ءاياتى ﴾ التي تخِرُّ لها صمُّ الجبال ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ أي أُنذروه من القوارع الناعيةِ عليهم العقابَ والعذابَ أو إنذارهم ﴿ هُزُواً ﴾ استهزاءً ، وقرىء بسكون الزاي وهو ما يستهزأ به .

(151/474)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكّرَ بئايات رَبّهِ ﴾ وهو القرآنُ العظيم ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ ولم يتدبرها ولم يتذكرْ بها ، وهذا السبكُ وإن كان مدلولُه الوضعيُّ نفيَ الأظلمية من غير تعرّضٍ لنفي المساواة في الظلم إلا أن مفهومَه العُرْفيَّ أنه أظلمُ من كل ظالم ، وبناءُ الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض عن القرآن للإشعار بأن ظلمَ من يجادل فيه ويتخذُه هزواً خارجٌ عن الحد ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي عملَه من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاءِ بالحق ولم يتفكر في عاقبتها ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

﴿ أغطيةً كثيرة جمع كِنان ، وهو تعليلٌ لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ مفعولٌ لما دل عليه الكلام أي منعناهم أن يفقوا على كُنهه ، أو مفعولٌ له أي كراهةَ أن يفقهوه ﴿ وَجَعَلْنَا على ﴾ أي جعلنا فيها ﴿ وِقْراً ﴾ ثِقَلاً يمنعهم من استماعه ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَن يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً ﴾ أي فلن يكون منهم اهتداءٌ ألبتةَ مدةَ التكليف ، وإذن جزاءٌ للشرط وجوابٌ عن سؤال النبي عليه الصلاة والسلام المدلولِ عليه بكمال عنايتِه بإسلامهم ، كأنه قال عليه الصلاة والسلام : " ما لي لا أدعوهم ؟ " فقيل : إن تدعهم الخ ، وجمعُ الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظِه .

(152/474)

﴿ وَرَبُّكَ ﴾ مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ الغفور ﴾ خبرُه وقوله تعالى : ﴿ ذُو الرحمة ﴾ أي الموصوفُ بها ، خبرٌ بعد خبرٍ ، وإيرادُ المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ، ولأن المغفرةَ تركُ المضارّ وهو سبحانه قادرٌ على ترك ما لا يتناهى من العذاب ، وأما الرحمةُ فهي فعل وإيجادٌ ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى ، وتقديمُ الوصف الأولِ لأن التخليةَ قبل التحلية أو لأنه أهمُّ بحسب الحال إذ المقامُ مقامُ بيانِ العقوبة

عنهم بعد استيجابهم لها كما يُعرب عنه قوله عز وجل : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم ﴾ أي لو يريد مؤاخذتهم ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ من المعاصي التي من جملتها ما حُكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربهم وعدمِ المبالاة بما اجترحوا من المُوبقات ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ لاستيجاب أعمالِهم لذلك ، وإيثارُ المؤاخذةِ المنبئة عن شدة الأخذِ بسرعة على التعذيب والعقوبةِ ونحوهما للإيذان بأن النفيَ المستفادَ من مقدَّم الشرطية متعلقٌ بوصف السرعة كما ينبىء عنه تاليها ، وإيثارُ صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضيّ لإفادة أن انتفاءَ تعجيلِ العذاب لهم بسبب استمرار عدمِ إرادة المؤاخذة فإن المضارعَ الواقعَ موقعَ الماضي يفيد استمرارَ انتفاءِ الفعل فيما مضى كما حُقق في موضعه ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ اسمُ زمان هو يومُ القيامة ، والجملةُ معطوفةٌ على مقدر كأنه قيل : لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتةً ﴿ لَّن يَجِدُواْ ﴾ ألبتةَ ﴿ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ منْجى أو ملجأً ، يقال : وأل أي نجا ووأل إليه أي لجأ إليه .

(153/474)

﴿ وَتِلْكَ القرى ﴾ أي قرى عاد وثمودَ وأضرابِها ، وهي مبتدأٌ على تقدير المضافِ أي وأهلُ تلك القرى خبرُه قوله تعالى : ﴿ أهلكناهم ﴾ أو مفعولٌ مضمرٌ مفسر به ﴿ لَمَّا

ظَلَمُواْ ﴾ أي وقت ظلمِهم كما فعلت قريشٌ بما حُكي عنهم من القبائح ، وتركُ المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلةَ اللازم أي لما فعلوا الظلم ، ولمّا إما حرفٌ كما قال ابنُ عصفور ، وإما ظرفٌ استعمل للتعليل وليس المرادُ به الوقتَ المعين الذي عملوا فيه الظلم بل زمانٌ ممتدٌ من ابتداء الظلم إلى آخره ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم ﴾ أي عيّنّا لهلاكهم ﴿ مَّوْعِدًا ﴾ أي وقتاً معيناً لا محيدَ لهم عن ذلك ، وهذا استشهاد على ما فُعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب ، وقرىء بضم الميم وفتح اللام أي إهلاكهم وبفتحهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(154/474)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ ﴾

إلى الأمم متلبسين بحال من الأحوال ﴿ إِلا ﴾ حال كونهم ﴿ مُبَشِّرِينَ ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ولم نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد ظهور المعجزات ويعاملوا بما لا يليق بشأنهم ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل ﴾ باقتراح ذلك والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً وقولهم لهم " مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا "

[يس : 15] ﴿ وَلَوْ شَاء الله لأَنزَلَ ملائكة ﴾ [المؤمنون : 24] إلى غير ذلك ، وتقييد الجدال بالباطل لبيان المذموم منه فإنه كما مر غير بعيد عام لغة لا خاص بالباطل ليحمل ما ذكر على التجريد ، والمراد به هنا معناه اللغوي وما يطلق عليه اصطلاحاً مما يصدق عليه ذلك ﴿ لِيُدْحِضُواْ ﴾ أي ليزيلوا ويبطلوا ﴿ بِهِ ﴾ أي بالجدال ﴿ الحق ﴾ الذي جاءت به الرسل عليهم السلام ، وأصل الإدحاض الإزلاق والدحض الطين الذي يزلق فيه قال الشاعر :

وردت ونجى اليشكري حذاره . . .

وحاد كما حاد البعير عن الدحض

وقال آخر :

أبا منذر رمت الوفاء وهبته . . .

وحدت كما حاد البعير المدحض

واستعماله في إزالة الحق قيل من استعمال ما وضع للمحسوس في المعقول ، وقيل لك أن تقول فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره كقول الخفاجي :

أتانا بوحل لأفكاره . . .

ليزلق أقدام هدى الحجج

﴿ واتخذوا ءاياتي ﴾ التي أيدت بها الرسل سواء كانت قولاً أو فعلاً ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾

أي والذي أنذروه من القواع الناعية عليهم العقاب والعذاب أو إنذارهم ﴿ هُزُواً ﴾ أي استهزاء وسخرية .

وقرأ حمزة ﴿ هزأ ﴾ بالسكون مهموزاً .

وقرأ غيره وغير حفص من السبعة بضمتين مهموزاً ؛ وهو مصدر وصف به للمبالغة وقد يؤول بما يستهزأ به .

(155/474)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات ربِّهِ ﴾

الأكثرون على أن المراد بها القرآن العظيم لمكان ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ فالإضافة للعهد .

وجوز أن يراد بها جنس الآيات ويدخل القرآن العظيم دخولاً أولياً ، والاستفهام إنكاري في قوة النفي ، وحقق غير واحد أن المراد نفى أن يساوي أحد في الظلم من وعظ بآيات الله تعالى ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فلم يتدبرها ولم يتعظ بها ، ودلالة ما ذكر على هذا بطريق الكناية وبناء الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض للأشعار بأن ظلم من يجادل في الآيات ويتخذها هزواً خارج عن الحد ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي عمله من الكفر والمعاصي التي من جملتها المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ، ونسيان ذلك كناية عن عدم

التفكر في عواقبه ، والمراد ﴿ مِمَّنْ ﴾ عند الأكثرين مشركو مكة .

وجوز أن يكون المراد منه المتصف بما في حيز الصلة كائناً من كان ويدخل فيه مشركو مكة دخولاً أولياً ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ لهم على الوجهين ، ووجه الجمع ظاهر ، والجملة استئناف بياني كأنه قيل ما علة الإعراض والنسيان ؟ فقيل علته أنا جعلنا على قلوبهم ﴿ أَكِنَّةً ﴾ أي أغطية جمع كنان ، والتنوين على ما يشير إليه كلام البعض للتكثير ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ الضمير المنصوب عند الأكثرين للآيات ، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى المراد منها وهو القرآن .

(156/474)

وجوز أن يكون للقرآن لا باعتبار أنه المراد من الآيات وفي الكلام حذف والتقدير كراهة أن يفقهوه ، وقيل لئلا يفقهوه أي فقهاً نافعاً ﴿ وَفِى ءاذَانِهِمْ ﴾ أي وجعلنا فيها ﴿ وِقْراً ﴾ ثقلاً أن يسمعوه سماعاً كذلك ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً ﴾ أي مدة التكليف كلها ، و ﴿ أَذِنَ ﴾ جزاء وجواب كما حقق المراد منه في موضعه فتدل على نفي اهتدائهم لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه ، وعلى أنه جواب للرسول عليه الصلاة والسلام على تقدير

قوله صلى الله عليه وسلم مالي لا أدعوهم حرصاً على اهتدائهم وإن ذكر له صلى الله عليه وسلم من أمرهم ما ذكر رجاء أن تنكشف تلك الأكنة وتمزق بيد الدعوة فقيل وإن تدعهم الخ قاله الزمخشري .

وفي "الكشف" في بيان ذلك أما الدلالة فصريح تخلل ﴿ أَذِنَ ﴾ يدل على ذلك لأن المعنى إذن لو دعوت وهو من التعكيس بلا تعسف ، وأما إنه جواب على الوجه المذكور فمعناه أنه صلى الله عليه وسلم نزل منزلة السائل مبالغة في عدم الاهتداء المرتب على كونهم مطبوعاً على قلوبهم فلا ينافي ما آثروه من أنه على تقدير سؤال لم لم يهتدوا ؟ فإن السؤال على هذا الوجه أوقع اه ، وهو كلام نفيس به ينكشف الغطا ويؤمن من تقليد الخطأ ويستغني به المتأمل عما قيل : إن تقدير مالي لا أدعوهم يقتضي المنع من دعوتهم فكأنه أخذ من مثل قوله تعالى :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ [النجم : 29] وقيل أخذ من قوله تعالى : ﴿ على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ وقيل من قوله سبحانه : ﴿ إِن تَدْعُهُمْ ﴾ هذا ولا يخفى عليك المراد من الهدى وقد يراد منه القرآن فيكون من إقامة الظاهر مقام الضمير ، ولعل إرادة ذلك هنا ترجح إرادة القرآن في الهدى السابق ، والله تعالى أعلم .

(157/474)

والآية في أناس علم الله تعالى موافاتهم على الكفر من مشركي مكة حين نزولها فلا ينافي الأخبار بالطبع وأنهم لا يؤمنون تحقيقاً ولا تقليداً إيمان بعض المشركين بعد النزول ، واحتمال أن المراد جميع المشركين على معنى وإن تدعهم إلى الهدى جميعاً فإن يهتدوا جميعاً وإنما يهتدي بعضهم كما ترى .

واستدلت الجبرية بهذه الآية على مذهبهم والقدرية بالآية التي قبلها ، قال الإمام : وقل ما تجد في القرآن آية لأحد هذين الفريقين إلا ومعها آية للفريق الآخر وما ذاك إلا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه الله تعالى على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين .

﴿ وَرَبُّكَ الغفور ﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى : ﴿ ذُو الرحمة ﴾ أي صاحبها والموصوف بها خبر بعد خبر ، قال الإمام : وإنما ذكر لفظ المبالغة في المغفرة دون الرحمة لأن المغفرة ترك الإضرار والرحمة إيصال النفع وقدرة الله تعالى تتعلق بالأول لأنه ترك مضار لا نهاية لها ولا تتعلق بالثاني لأن فعل ما لا نهاية له محال .

وتعقبه النيسابوري بأنه فرق دقيق لو ساعده النقل على أن قوله تعالى : ﴿ ذُو الرحمة ﴾ لا يخلو عن مبالغة وفي القرآن ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 173] بالمبالغة في الجانبين كثيراً ؛ وفي تعلق القدرة بترك غير المتناهي نظر لأن مقدراته تعالى متناهية لا فرق بين المتروك وغيره اه ، وقيل عليه إنهم فسروا الغفار بمريد إزالة العقوبة عن مستحقها والرحيم

بمريد الأنعام على الخلق وقصد المبالغة من جهة في مقام لا ينافي تركها في آخر لعدم اقتضائه لها ، وقد صرحوا بأن مقدوراته تعالى غير متناهية وما دخل منها في الوجود متناه ببرهان التطبيق اه ، وهو كلام حسن اندفع به ما أورد على الإمام .

(158/474)

وزعمت الفلاسفة أن ما دخل في الوجود من المقدورات غير متناه أيضاً ولا يجري فيه برهان التطبيق عندهم لاشتراطهم الاجتماع والترتب ، ولعمري لقد قف شعري من ظاهر قول النيسابوري أن مقدوراته تعالى متناهية فإن ظاهره التعجيز تعالى الله سبحانه عما يقوله الظالمون علواً كبيراً ولكن يدفع بالعناية فتدبر ، ثم إن تحرير نكتة التفرقة بين الخبرين ههنا على ما قاله الخفاجي أن المذكور بعد عدم مؤاخذتهم بما كسبوا من الجرم العظيم وهو مغفرة عظيمة وترك التعجيل رحمة منه تعالى سابقة على غضبه لكنه لم يرد سبحانه إتمام رحمته عليهم وبلوغها الغاية إذ لو أراد جل شأنه ذلك لهداهم وسلمهم من العذاب رأساً ، وهذه النكتة لا تتوقف على حديث التناهي وعدم التناهي الذي ذكره الإمام وإن كان صحيحاً في نفسه كما قيل ، والاعتراض عليه بأنه يقتضي عدم تناهي المتعلقات في كل ما نسب إليه تعالى بصيغ المبالغة وليس بلازم إذ يمكن أن تعتبر المبالغة في المتناهي بزيادة

الكمية وقوة الكيفية ولو سلم ما ذكر لزم عدم صحة صيغ المبالغة في الأمور الثبوتية كرحيم ورحمن ولا وجه له مدفوع بأن ما ذكره نكتة لوقوع التفرقة بين الأمرين هنا بأنه اعتبرت المبالغة في جانب الترك دون مقابلة لأن الترك عدمي يجوز فيه عدم التناهي بخلاف الآخر ألا ترى أن ترك عذابهم دال على ترك جميع أنواع العقوبات في العاجل وإن كانت غير متناهية كذا قيل وفيه نظر .

(159/474)

وربما يقال في توجيه ما قاله النيسابوري من أن ذو الرحمة يخلو عن المبالغة : إن ذلك إما لاقتران الرحمة بأل فتفيد الرحمة الكاملة أو الرحمة المعهودة التي وسعت كل شيء وإما لذو فإن دلالته على الاتصاف في مثل هذا التركيب فوق دلالة المشتقات عليه ولا يكاد يدل سبحانه على اتصافه تعالى بصفة بهذه الدلالة إلا وتلك الصفة مرادة على الوجه الأبلغ وإلا فما الفائدة في العدول عن المشتق الأخصر الدال على أصل الاتصاف كالراحم مثلاً إلى ذلك ، ولا يعكر على هذا أن المبالغة لو كانت مرادة فلم عدل عن الأخصر أيضاً المفيد لها كالرحيم أو الرحمن إلى ما ذكر لجواز أن يقال : إن أريد أن لا تقيد الرحمة المبالغ فيها بكونها في الدنيا أو في الآخرة وهذان الإسمان يفيدان التقييد على المشهور ولذا عدل عنهما إلى

ذو الرحمة ، وإذا قلت : هما مثله في عدم التقييد قيل : إن دلالته على المبالغة أقوى من دلالتهما عليها بأن يدعى أن تلك الدلالة بواسطة أمرين لا يعد لهما في قوة الدلالة ما يتوسط في دلالة الإسمين الجليلين عليها ، وعلى هذا يكون ذو الرحمة أبلغ من كل واحد من الرحمن والرحيم وإن كانا معاً أبلغ منه ولذا جيء بهما في البسملة دونه ، ومن أنصف لم يشك في أن قولك فلان ذو العلم أبلغ من قولك فلان عليم بل ومن قولك فلان العليم من حيث أن الأول يفيد أنه صاحب ماهية العلم ومالكها ولا كذلك الأخيران ، وحينئذ يكون التفاوت بين الخبرين في الآية بأبلغية الثاني ووجه ذلك ظاهر فإن الرحمة أوسع دائرة من المغفرة كما لا يخفى ، والنكتة فيه ههنا مزيد إيناسه صلى الله عليه وسلم بعد أن أخبره سبحانه بالطبع على قلوب بعض المرسل إليهم وآيسه من اهتدائهم مع علمه جل شأنه بمزيد حرصه عليه الصلاة والسلام على ذلك ؛ وهو السر في إيثار عنوان الربوبية مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم انتهى .

(160/474)

وهو كلام واقف في أعراف الرد والقبول في النظر الجليل ، ومن دقق علم ما فيه من الأمرين ، وإنما قدم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية أو لأنه أهم بحسب الحال والمقام إذ المقام

على ما قاله المحققون مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم ﴾ أي لو يريد مؤاخذتهم ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي فعلوا ، وكسب الأشعري لا تفهمه العرب ، وما إما مصدرية أي بكسبهم وإما موصولة أي بالذي كسبوه من المعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك ، قيل وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأن النفي المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبى عنه تاليها ، وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضي لإفادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة فإن المضارع الواقع موقع الماضي يفيد استمرار الفعل فيما مضى ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ وهو يوم بدر أو يوم القيامة على أن الموعد اسم زمان ، وجوز أن يكون اسم مكان والمراد منه جهنم ، والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا مؤاخذين بغتة بل لهم موعد ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ قال الفراء : أي منجا يقال وألت نفس فلان نجت وعليه قول الأعشى :

وقد أخالس رب الدار غفلته . . .

وقد يحاذر مني ثم ما يئل

وقال ابن قتيبة : هو الملجأ يقال وأل فلان إلى كذا يئل وألا ووؤولاً إذا لجأ والمعنى واحد والفرق إنما هو بالتعدي بإلى وعدمه ، وتفسيره بالملجأ مروي عن ابن عباس ، وفسره مجاهد بالمحرز ، والضحاك بالمخلص والأمر في ذلك سهل ، وهو على ما قاله أبو البقاء : يحتمل أن يكون اسم زمان وأن يكون اسم مكان ، والضمير المجرور عائد على الموعد كما هو الظاهر ، وقيل : على العذاب وفيه من المبالغة ما فيه لدلالته على أنهم لا خلاص لهم أصلاً فإن من يكون ملجأه العذاب كيف يرى وجه الخلاص والنجاة .

وأنت تعلم أن أمر المبالغة موجود في الظاهر أيضاً ؛ وقيل : يعود على الله تعالى وهو مخالف للظاهر مع الخلو عن المبالغة ، وقرأ الزهري ﴿ مولاً ﴾ بتشديد الواو من غير همز ولا ياء ، وقرأ أبو جعفر عن الحلواني عنه ﴿ مولاً ﴾ بكسر الواو خفيفة من غير همز ولا ياء أيضاً .

﴿ وَتِلْكَ القرى ﴾ أي قرى عاد . وثمود . وقوم لوط .

(162/474)

وأشباههم ، والكلام على تقدير مضاف أي أهل القرى لقوله تعالى : ﴿ أهلكناهم ﴾ والإشارة لتنزيلهم لعلمهم بهم منزلة المحسوس ، وقدر المضاف في البحر قبل ﴿ تِلْكَ ﴾

وكلا الأمرين جائز ، وتلك يشار بها للمؤنث من العقلاء وغيرهم ، وجوز أن تكون القرى عبارة عن أهلها مجازاً ، وأياً ما كان فاسم الإشارة مبتدأ و ﴿ القرى ﴾ صفته والوصف بالجامد في باب الإشارة مشهور والخبر جملة ﴿ أهلكناهم ﴾ واختار أبو حيان كون ﴿ القرى ﴾ هو الخبر والجملة حالية كقوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [النمل : 52] وجوز أن تكون ﴿ تِلْكَ ﴾ منصوباً بإضمار فعل يفسره ما بعده أي وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي حين ظلمهم كما فعل مشركو مكة ما حكى عنهم من القبائح ، وترك المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أي لما فعلوا الظلم ، و ﴿ لَمَّا ﴾ عند الجمهور ظرف كما أشير إليه وليس المراد به الحين المعين الذي عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم إلى آخره .

وقال أبو الحسن بن عصفور : هي حرف ، ومما استدل به على حرفيتها هذه الآية حيق قال : إنها تدل على أن علة الإهلاك الظلم والظرف لا دلالة له على العلية ، واعترض بأن قولك أهلكته وقت الظلم يشعر بعلية الظلم وإن لم يدل الظرف نفسه على العلية ، وقيل لا مانع من أن يكون ظرفاً استعمل للتعليل .

﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم ﴾ لهلاكهم ﴿ مَّوْعِدًا ﴾ وقتاً معيناً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فمفعل الأول مصدر والثاني اسم زمان ، والتعيين من جهة أن الموعد لا يكون إلا معيناً وإلا فاسم الزمان مبهم والعكس ركيك .

وزعم بعضهم أن المهلك على هذه القراءة وهي قراءة حفص في الرواية المشهورة عنه أعني القراءة بفتح الميم وكسر اللام من المصادر الشاذة كالمرجع والمحيض وعلل ذلك بأن المضارع يهلك بكسر اللام وقد صرحوا بأن مجيء المصدر الميمي مكسوراً فيما عين مضارعه مكسورة شاذ .

(163/474)

وتعقب بأنه قد صرح في "القاموس" بأن هلك جاء من باب ضرب ومنع وعلم فكيف يتحقق الشذوذ فالحق أنه مصدر غير شاذ وهو مضاف للفاعل ولذا فسر بما سمعت ، وقيل : إن هلك يكون لازماً ومتعدياً فعن تميم هلكني فلان فعلى تعديته يكون مضافاً للمفعول ، وأنشد أبو علي في ذلك :

ومهمه هالك من تعرجا . . .

أي مهلكه ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يتعين ذلك في البيت بل قد ذهب بعض النحويين إلى إن هالكاً فيه لازم وأنه من باب الصفة المشبهة والأصل هالك من تعرجاً بجعل من فاعلاً لهالك ثم أضمر في هالك ضمير مهمه وانتصب من على التشبيه بالمفعول ثم أضيف من نصب ، والصحيح جواز استعمال الموصول في باب الصفة المشبهة ، وقد ثبت في أشعار العرب قال

عمرو بن أبي ربيعة :

أسيلات أبدان دقاق خصورها . . .

وثيرات ما التفت عليها الملاحف

وقرأ حفص .

وهرون .

وحماد .

ويحيى عن أبي بكر بفتح الميم واللام ، وقراءة الجمهور بضم الميم وفتح اللام وهو مصدر أيضاً ، وجعله اسم مفعول على معنى وجعلنا لمن أهلكناه منهم في الدنيا موعداً ننتقم فيه منه أشد انتقام وهو يوم القيامة أو جهنم لا يخفى ما فيه ، والظاهر أن الآية استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ليعتبروا ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم ، وهي ترجح حمل الموعد فيما سبق على يوم بدر فتدبر والله تعالى أعلم وأخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(164/474)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) ﴾

لما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم ، وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي : كرّرنا ورددنا ﴿ فِى هذا القرآن للناس ﴾ أي لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من الأمثال التي من جملتها الأمثال المذكورة في هذه السورة ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة بني إسرائيل ، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدال بالباطل ، ختم الآية بقوله ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَىء جَدَلاً ﴾ قال الزجاج : المراد بالإنسان : الكافر ، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى : ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل ﴾ وقيل : المراد به في الآية : النضر بن الحارث ، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال جدلاً ، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عليّ : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً ، فقال : " ألا تصليان ؟ " فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَىء جَدَلاً ﴾ ، وانتصاب جدلاً على التمييز .

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الهدى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ قد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة بني إسرائيل ، وذكرنا أنّ (أن) الأولى في محل نصب ، والثانية في محل رفع ، والهدى : القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والناس هنا هم أهل مكة ، والمعنى على حذف مضاف ، أي : ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأوّلين ، أو انتظار إتيان سنة الأوّلين ، وزاد الاستغفار في هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأوّلين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال .

قال الزجاج : سنّتهم هو قولهم : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية [الأنفال : 2] ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب ﴾ أي : عذاب الآخرة ﴿ قُبُلاً ﴾ قال الفراء : إن قبلاً جمع قبيل ، أي : متفرقاً يتلو بعضه بعضاً ، وقيل : عياناً ، وقيل : فجأة .

ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبي جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي ويحيى بن وثاب وخلف ﴿ قُبُلاً ﴾ بضمتين فإنه جمع قبيل ، نحو سبيل وسبل ، والمراد : أصناف العذاب ، ويناسب التفسير الثاني ، أي : عياناً ، قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الباء أي

: مقابلة ومعاينة ، وقرىء بفتحتين على معنى : أو يأتيهم العذاب مستقبلاً ، وانتصابه على الحال .

فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم ، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين ﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿ إِلا ﴾ حال كونهم ﴿ مُبَشّرِينَ ﴾ للمؤمنين ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ للكافرين .

(166/474)

فالاستثناء مفرّغ من أعمّ العام ، وقد تقدّم تفسير هذا ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ أي : ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلوه وأصل الدحض : الزلق يقال : دحضت رجله ، أي : زلقت تدحض دحضاً ، ودحضت الشمس عن كبد السماء : زالت ، ودحضت حجته دحوضاً .

بطلت ، ومن ذلك قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاء فهبته . . . وحدت كما حاد البعير عن الدحض

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا ﴾ [الشعراء :

154].

ونحو ذلك : ﴿ واتخذوا ءاياتى ﴾ أي : القرآن ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿ هزؤا ﴾ أي : لعباً وباطلاً ، وقد تقدّم هذا في البقرة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِئَايَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي : لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها ، ولم يتدبرها حقّ التدبر ويتفكر فيها حق التفكر ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من الكفر والمعاصي ، فلم يتب عنها .

قيل : والنسيان هنا بمعنى الترك ، وقيل : هو على حقيقته ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي : أغطية ، والأكنة : جمع كنان ، والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم .

قال الزجاج : أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿ وفي آذنهم وقرا ﴾ أي : وجعلنا في آذانهم ثقلاً يمنع من استماعه ، وقد تقدّم تفسير هذا في الأنعام ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَن يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً ﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم .

(167/474)

﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة ﴾ أي : كثير المغفرة ، وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي : بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿ بَلِ ﴾ جعل ﴿ لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ أي : أجل مقدّر لعذابهم ، قيل : هو عذاب الآخرة ، وقيل : يوم بدر ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أي : ملجأً يلجئون إليه .

وقال أبو عبيدة : منجاً ، وقيل : محيصاً ، ومنه قول الشاعر :

لا وا ألت نفسك خليتها . . . للعامريين ولم تكلم

وقال الأعشى :

وقد أخالس ربّ البيت غفلته . . . وقد يحاذر مني ثم ما يئل

أي ما ينجو .

﴿ وَتِلْكَ القرى ﴾ أي : قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿ أهلكناهم ﴾ هذا خبر اسم الإشارة و ﴿ القرى ﴾ صفته ، والكلام على حذف مضاف ، أي : أهل القرى أهلكناهم ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي : وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي : وقتاً معيناً ، وقرأ عاصم مهلكهم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر هلك ، وأجاز الكسائي والفراء كسر اللام وفتح الميم ، وبذلك قرأ حفص ، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام .

وقال الزجاج مهلك : اسم للزمان ، والتقدير : لوقت مهلكهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ قال : عقوبة الأولين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله : ﴿ قُبُلاً ﴾ قال : جهاراً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : فجأة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ قال : نسي ما سلف من الذنوب الكثيرة .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ يقول : بما عملوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ قال : الموعد يوم القيامة .

(168/474)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ مَوْئِلاً ﴾ قال : ملجأ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ مَوْئِلاً ﴾ قال : محرزاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

أي : وما نرسلهم ، قبل إنزال العذاب ، إلا لتبشر من آمن بالزلفى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتيه سنة من مضى : ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ كاقتراح الآيات : ﴿ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أي : ليزيلوا بالجدال ، الحق الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . وأصل الإدحاض : إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحق المعقول .

قال الشهاب ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره . ثم أنشد لنفسه :

~أتانا بوَحْلٍ لإنكارِهِ ليُزْلِقَ أقدامَ هَذي الحُجَجْ

﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا ﴾ أي : وإنذارهم . أو والذي أنذروا به من العقاب : ﴿ هُزُواً ﴾ أي : استهزاء وسخرية وهو أشد التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ كناية عن عدم تدبرها والاتعاظ بها ، بأبلغ أسلوب : ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي : ما عمله من الكفر والمعاصي ، وصرف

ما أنعم به ، إلى غير ما خلقت له ، فلم يتفكر في عاقبة ذلك : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أي : جعلنا عليها حجباً وأغطيةً كثيرةً ، كراهة أن يفقهوه ، أي : يقفوا على كنه ما خلقت النعم من أجله : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ أي : وجعلنا فيها ثقلاً يمنعهم من استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] .

﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ أي : فلا يكون منهم اهتداء ألبتة .

(170/474)

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ .

الآيات في هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : 6] ، و : ﴿ رَبُّكَ ﴾ مبتدأ و : ﴿ الْغَفُورُ ﴾ خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد

استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله عز وجل : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ والموعد المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه في كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والكل لا حق بهم . والموئل الملجأ والمنجى . أي : ليس لهم عنه محيص ولا مفر .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى ﴾ أي : قرى عاد وثمود وأضرابهم : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ بالكفر والطغيان : ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾ أي : وقتاً معيّناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يغتروا بتأخر العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 47.49 ﴾

(171/474)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

بعْد أن أشار إلى جدالهم في هدى القرآن بما مهد له من قوله : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف : 54] .

وأشار إلى أن الجدال فيه مجرد مكابرة وعناد ، وأنه لا يحف بالقرآن ما يمنع من الإيمان به كما لم يحف بالهدى الذي أرسل إلى الأمم ما يمنعهم الإيمان به ، أعقب ذلك بأن وظيفة الرسل

التبليغ بالبشارة والنذارة لا التصدي للجادلة ، لأنها مجادلة لم يقصد منها الاسترشاد بل الغاية منها إبطال الحق .

والاستثناء من أحوال عامة محذوفة ، أي ما نرسل المرسلين في حال إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين .

والمراد بالمرسلين جميع الرسل .

وجملة ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ عطف على جملة ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ .

وكلتا الجملتين مرتبط بجملتي ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف : 54] .

وترتيب هذه الجمل في الذكر جار على ترتيب معانيها في النفس بحيث يشعر بأن كل واحدة منها ناشىء معناها على معنى التي قبلها ، فكانت جملة ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ مفيدة معنى الاستدراك ، أي أرسلنا الرسل مبشرين ومنذرين بما فيه مقنع لطالب الهدى ، ولكن الذين كفروا جادلوه بالباطل لإزالة الحق لا لقصد آخر .

واختيار فعل المضارعة للدلالة على تكرر المجادلة ، أو لاستحضار صورة المجادلة .

والمجادلة تقدمت في قوله تعالى : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ في سورة هود (74) .

والإدحاض : الإزلاق ، يقال : دَحَضَتْ القدم ، إذا زلّت ، وهو مجاز في الإزالة ، لأن الرجل

إذا زلقت زَالت عن موضع تخطيها ، قال تعالى : ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ [الصافات : 141] .

وجملة واتخذوا آياتي ﴾ عطف على جملة ﴿ ويجادل ﴾ فإنهم ما قصدوا من المجادلة الاهتداء ، ولكن أرادوا إدحاض الحق واتخاذ الآيات كلها وبخاصة آيات الإنذار هزؤا .

(172/474)

والهُزُو : مصدر هَزَا ، أي اتخذوا ذلك مستهزأً به .

والاستهزاء بالآيات هو الاستهزاء عند سماعها ، كما يفعلون عند سماع آيات الإخبار بالبعث وعند سماع آيات الوعيد والإنذار بالعذاب .

وعطفُ ﴿ وما أنذروا ﴾ على "الآيات" عطف خاص على عام لأنه أبلغ في الدلالة على توغل كفرهم وحماقة عقولهم .

﴿ وما أنذروا ﴾ مصدرية ، أي وإنذارهم والإخبار بالمصدر للمبالغة .

وقرأ الجمهور ﴿ هزءاً ﴾ بضم الزاي .

وقرأه حمزة ﴿ هُزْءاً ﴾ بسكون الزاي .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾

لما بين حالهم من مجادلة الرسل لسوء نية ، ومن استهزائهم بالإنذار ، وعَرّض بحماقتهم أتبع ذلك بأنه أشد الظلم .

ذلك لأنه ظلم المرء نفسه وهو أعجب الظلم ، فالذين ذُكِروا ما هم في غفلة عنه تذكيراً بواسطة آيات الله فأعرضوا عن التأمل فيها مع أنها تنذرهم بسوء العاقبة .

وشأن العاقل إذا سمع مثل ذلك أن يتأهب للتأمل وأخذ الحذر ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش " إذا أخبرتكم أن العدو مصبحكم غداً أكنتم مُصدّقِي ؟ فقالوا : ما جربنا عليك كذباً " فقال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " .

و(مَنْ) المجرورةُ موصولة .

وهي غير خاصة بشخص معين بقرينة قوله : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ .

والمراد بها المشركون من العرب الذين ذكروا بالقرآن فأعرضوا عنه .

وعطف إعراضهم عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب إشارة إلى أنهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمل .

ومعنى نسيان ما قدمتْ يداه أنه لم يَعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم : أهي صالحة لا تخشى عواقبها أم هي سيئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة ، والصلاحُ بَيّنٌ والفساد بينٌ ، ولذلك سمي الأول معروفاً والثاني منكَراً ، ولا سيما بعد أن جاءتهم الذكرى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهم بمجموع الحالَين أشد الناس ظلماً ، ولو تفكروا قليلاً لعلموا أنهم غير مفلَتين من لقاء جزاء أعمالهم .

ف (مَن) استفهام مستعمل في الإنكار ، أي لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدث عنهم .

والنسيان : مستعمل في التغاضي عن العمل .

وحقيقة النسيان تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ في سورة البقرة (106) .

ومعنى ما قدمت يداه ﴾ ما أسلفه من الأعمال .

وأكثر ما يستعمل مثل هذا التركيب في القرآن في العمل السيء ، فصار جارياً مَجرى المثل ، قال تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ ، وقال : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما قدمت أيديكم ﴾ .

والآية مصوغة بصيغة العموم ، والمقصود الأول : منها مشركو أهل مكة .

وجملة ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ مستأنفة بيانية نشأت على جملة ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ ، أي إن لم تعلم سبب نسيانه ما قدمت يداه فأعلم أنا جعلنا على قلوبهم

أكنة .

وهو يفيد معنى التعليل بالمآل ، وليس موقع الجملة موقع الجملة التعليلية .

والقلوب مرادُ بها : مَدارك العلم .

والأكنة : جمع كِنان ، وهو الغِطاء ، لأنه يُكن الشيء ، أي يَحجبه .

و ﴿ أن يفقهوه ﴾ مجرور بحرف محذوف ، أي مِنْ أن يفقهوه ، لتضمين ﴿ أكنة ﴾ معنى الحائل أو المانع .

والوقر : ثقل السمع المانع من وصول الصوت إلى الصماخ .

والضمير المفرد في ﴿ يفقهوه ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من المقام والمعبر عنه بالآيات .

(174/474)

وجملة ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى ﴾ عطف على جملة ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم ﴾ ، وهي متفرعة عليها ، ولكنها لم تعطف بالفاء لأن المقصود جعل ذلك في الإخبار المستقل .

وأكد نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو (لن) ، وبلفظ (أبدا) المؤكد لمعنى (لن) ، وبحرف الجزاء المفيد تسبب الجواب على الشرط .

وإنما حصل معنى الجزاء باعتبار تفرع جملة الشرط على جملة الاستئناف البياني ، أي

ذلك مسبب على فطر قلوبهم على عدم قبول الحق .

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58)

جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكسسِ ، فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريضَ بالتذكير بالمغفرة لعلهم يتفكرون في مرضاته ، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد فيؤخر ما توعدهم به إلى حد معلوم إمهالاً للناس لعلهم يرجعون عن ضلالهم ويتدبرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلهم يشكرون ، موجهاً الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم مفتتحاً باستحضار الجلالة بعنوان الربوبية للنبيء صلى الله عليه وسلم إيماءً إلى أن مضمون الخبر تكريم له ، كقوله : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : 33] .

والوجه في نظم الآية أن يكون الغفور ﴾ نعتاً للمبتدأ ويكون ﴿ ذو الرحمة ﴾ هو الخبر لأنه المناسب للمقام ولما بعده من جملة ﴿ لو يؤاخذهم ﴾ ، فيكون ذكر ﴿ الغفور ﴾ إدماجاً في خلال المقصود .

فخُص بالذكر من أسماء الله تعالى اسم ﴿ الغفور ﴾ تعريضاً بالترغيب في الاستغفار .

والغفور : اسم يتضمن مبالغة الغفران لأنه تعالى واسع المغفرة إذ يغفر لمن لا يُحصَون ويغفر

ذنوباً لا تُحصى إن جاءه عبده تائباً مقلعاً منكسراً ، على أن إمهاله الكفارَ والعصاةَ هو أيضاً من أثر المغفرة إذ هو مغفرة مؤقتة .

(175/474)

وأما قوله : ﴿ ذو الرحمة ﴾ فهو المقصود تمهيداً لجملة ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا ﴾ ، فلذلك كانت تلك الجملة بياناً لجملة ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ باعتبار الغفور الخبر وهو الوصف الثاني .

والمعنى : أنهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة لكن الله يمهلهم إلى أمد معلوم مقدر .

وفي ذلك التأجيل رحمة بالناس بتمكين بعضهم من مهلة التدارك وإعادة النظر ، وفيه استبْقاؤهم على حالهم زمناً .

فوصف ﴿ ذو الرحمة ﴾ يساوي وصف (الرحيم) لأن (ذو) تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه .

وإنما عدل عن وصف (الرحيم) إلى ﴿ ذو الرحمة ﴾ للتنبيه على أنه خبر لا نعت تنبيهاً بطريقة تغيير الأسلوب ، فإن اسم (الرحيم) صار شبيهاً بالأسماء الجامدة ، لأنه صيغ

بصيغة الصفة المشبهة فبعُد عن ملاحظة الاشتقاق فيه واقترب من صنف الصفة الذاتية .

و(بل) للإضراب الإبطالي عن مضمون جواب (لو) ، أي لم يعجل لهم العذاب إذْ لهم موعد للعذاب متأخرٌ ، وهذا تهديد بما يحصل لهم يوم بدر .

والموْئل : مَفْعل من وَأَلَ بمعنى لَجَأَ ، فهو اسم مكان بمعنى الملْجأ .

وأكد النفي بـ (لن) رداً على إنكارهم ، إذ هم يحسبون أنهم مفلتون من العذاب حين يرون أنه تأخر مدةً طويلة ، أي لأن لا ملجأ لهم من العذاب دون وقت وَعده أو مكان وَعده ، فهو مَلجؤهم .

وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، أي هم غير مُفلَتِين منه .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59) ﴾

بعد أن أزيل غرُورهم بتأخر العذاب ، وأبطل ظنهم الإفلات منه ببيان أن ذلك إمهال من أثر رحمة الله بخلقه ، ضرب لهم المثل في ذلك بحال أهل القرى السالفين الذين أُخر عنهم العذاب مدة ثم لم ينجوا منه بأخَرة ، فالجملة معطوفة على جملة ﴿ بل لهم موعد ﴾ [الكهف : 58] .

والإشارة بـ تلك إلى مقدر في الذهن ، وكاف الخطاب المتصلة باسم الإشارة لا يراد به مخاطب ولكنها من تمام اسم الإشارة ، وتجري على ما يناسب حال المخاطب بالإشارة من واحد أو أكثر ، والعرب يعرفون ديار عاد وثمود ومدين ويسمعون بقوم لوط وقوم فرعون فكانت كالحاضرة حين الإشارة .

والظلم : الشرك وتكذيب الرسل .

والمُهلك بضم الميم وفتح اللام مصدر ميمي من أهلك ، أي جعلنا لإهلاكنا إياهم وقتاً معيناً في علمنا إذا جاء حلَّ بهم الهلاك .

هذه قراءة الجمهور .

وقرأه حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام على أنه اسم زمان على وزن مَفعل .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللام على أنه مصدر ميمي لِهَلَك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(177/474)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة ، ومنذرين من عصاهم بالنار . وكرر هذا المهنى في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام : 84] . وقد أوضحنا معنى البشارة والإنذار في أول هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله تعالى ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف : 2] الآية ، وانتصاب قوله " مبشرين " على الحال ، اس ما نرسلهم إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين .

قوله تعالى : ﴿ وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الذين كفروا يجادلون بالباطل ، اي يخاصمون الرسل بالباطل ، كقولهم في الرسل : ساحر ، شاعر ، كاهن . وكقولهم في القرآن : اساطير الأولين ، سحر ، شعر ، كهانة . وكسؤالهم عن أصحاب الكهف ، وذي القرنين . وسؤالهم عن الروح عناداً وتعنتاً ، ليبطلوا الحق بجدالهم وخصامهم بالباطل ، فلاجدال : المخاصمة . ومفعول " يجادل " محذوف دل ما قبله عليه ، لأن قوله ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين ﴾ [الكهف : 56] يدل على أن الذين يجادلهم الكفار بالباطل هم المرسلون المذكورون آنفاً ، وحذف الفضلة إذا دل المقام عليها جائز ، واقع كثيراً في القرآن وفي كلام العرب : كما

عقده في الخلاصة بقوله :

وحذف فضلة أجز إن لم يضر . . . كحذف ما سيق جواباً أو حصر

والباطل : ضد الحق وكل شيء زائل مضمحل تسميه العرب : باطلاً ، ومنه قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . . وكل نعم لا محالة زائل

ويجمع اباطل كثيراً على أباطيل على غير القياس ، فيدخل في قول ابن مالك في الخلاصة :

(178/474)

وحائد عن القياس كل ما . . . خالف في البابين حكماً رسما

ومنه قول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً . . . وما مواعيده إلا أباطيل

ويجمع أيضاً على البواطل قياساً . والحق : ضد الباطل . وكل شيء ثابت غير زائل ولا مضمحل تسميه العرب حقاً . وقوله تعالى : ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ [الكهف : 56] أي ليبطلوه ويزيلوه به زأصله من إخاص القدم ، وهو إزلاقها وإزالتها عن موضعها . تقول العرب ، دحضت رجله : إذا زلقت ، وأدحضها الله ، أزلقها ودحضت حجته إذا بطلت ، وأدحضها الله أبطلها ، والمكان الدحض : هو الذي تزل فيه الأقدام ؟ منه قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاء فهبته . . . وحدت كما حاد البعير عن الرحض

وهذا الذي ذكره هنا من مجادلة الكفار للرسل بالباطل أوضحه في مواضع أخر : كقوله : ﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى : 16] الآية . وقوله جل وعلا : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [التوبة : 32] ، وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [الصف : 8] وإرادتهم إطفاء نور الله بأفواههم ، إنما هي بخاصمهم وجدالهم بالباطل .

(179/474)

وقد بين تعالى في مواضع أخر . أنا ما أراده الكفار من إدحاض الحق بالباطل لا يكون ، وأنهم لا يصلون إلى ما أرادوا ، بل الذي سيكون هو عكس ما أرادوه – فيحق ويبطل الباطل ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [التوبة : 33] . وكقوله : ﴿ ويأبى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ، وقوله : ﴿ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الويل مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء :

18] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء : 81] ، وقوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [الرعد : 17] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الحق سيظهر ويعلو ، وأن الباطل سيضمحل ويزهق ويذهب جفاء . وذلك هو نقيض ما كان يريدخ الكفار من إبطال الحق وإدخاصه بالباطل عن طريق الخصام والجدال .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُواْ هُزُواً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الفار اتخذوا آياته التي أنزلها على رسوله ، وإنذاره لهم هزؤا ، أي سخرية واستخفافاً ، والمصدر بمعنى اسم المفعول ، أي اتخذوها مهزوءاً بها مستخفاً : كقوله : ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] .

(180/474)

وهذا المعنى المذكورة هنا جاء مبيناً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتخذها هُزُواً أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [الجاثية : 9] وكقوله تعالى : ﴿ ياحسرة

عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس : 30] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : 10] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : 65-66] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . " ما " في قوله " ما أنذروا " مصدرية ، كما قررنا ، وعليه فلا ضمير محذوف . وقيل هي موصوله والعائد محذوف . تقديره : وما أنذروا بهه هزؤا .

وحذف العائد المجرور بحرف إنما يطرد بالشروط التي ذكرها في الخلاصة بقوله :

كذاك الذي جر بما الموصول جر . . . كمر بالذي مررت فهو بر

وفي قوله " هزؤا " ثلاث قراءات سبعيه قرأه حمزة بإسكان الزاي في الوصل . وبقية السبعة بضم الزاي وتحقيق الهمزة . إلا حفصاً عن عاصم فإنه يبدل الهمزة واواً ، وذلك مروي عن حمزة في الوقف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ . الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمه : أنه لا أحد أظلم . اي أكثر ظلماً لنفسه ممن ذكر . أي وعظ بآيات ربه ، وهي هذا القرآن العظيم " فأعرض عنها " اي تولى وصد عنها . وإنما قلنا : إن المراد بالآيات هذا القرآن العظيم لقرينة تذكير الضمير العائد إلى الآيات في قوله ﴿ أن يفقهوه ﴾ ، أي القرآن المعبر عنه بالآيات . ويحتمل شمول الآيات للقرآن وغيره ، ويكون الضمير في قوله ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي ما ذكر من الآيات ، كقول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق . . . كأنه في الجلد توليع البهق

ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ [البقرة : 68] اي ذلك الذي ذكر من الفارض والبكر . ونظيره من كلام العرب قول ابن الزبعري :

إن للخير وللشر مدى . . . وكلا ذلك وجه وقبل

(182/474)

اي كلا ذلك المذكور من خير وشر . وقد قدمنا إيضاح هذا . وقوله ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي من المعاصي والكفر ، مع أن الله لم ينسه بل هو محصيه عليه ومجازيه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: 6]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم: 64]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه: 52]. وقال بعض العلماء في قوله ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ اي تركه عمداً ولم يتب منه. وبه صدر القرطبي رحمه الله تعالى. وما ذكره هنا من أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً. ومن نتائجه السيئة جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق، ودم الاهتداء أبداً كما قال هنا مبيناً بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ [الكهف: 57] ومنها انتقام الله جل وعلا من المعرض عن التذكره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: 22]. ومنها كون المعرض كالحمار، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر: 49-50] الآية. ومنها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: 13] الآية. ومنها المعيشية الضنك والعمى، كما قال تعالى: ﴿

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124] . ومنها سلكه العذاب الصعد ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾

[الجن : 17] ومنها تقييض القرناء من الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] إلى غير ذلك من النتائج السيئة ، والعواقب الوخيمة ، الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله جل وعلا . وقد أمر تعالى في موضع آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره ، القاصر نظره على الحياة الدنيا . وبين أن ذلك هو مبلغه من العلم ، فلا علم عنده بما ينفعه في معاده ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ [النجم : 29-30] . وقد نهى جل وعلا عن طاعة مثل ذلك المتولي عن الذكر الغافل عنه في قوله : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف : 28] كما تقدم ايضاحه .

وقوله في هذه الآية : ﴿ ما قدمت يداه ﴾ اي ما قدم من أعمال الكفر . ونسبة التقديم إلى خصوص اليد لأن اليد أكثر مزاولة للأعمال من غرها من الأعضاء ، فنسبت الأعمال إليها على عادة العرب في كلامهم ، وإن كانت الأعمال التي قدمها منها ما ليس باليد كالكفر باللسان والقلب ، وغير ذلك من الأعمال التي لا تزوال باليد كالزنى . وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ الآية ، وقوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ [الأنعام : 21] ونحو ذلك من الآيات . وأشهر أوجه الجمع في ذلك وجهان : أحدهما – أن كل من قال الله فيه : ومن أظلم ممن فعل كذا ، لا أحد أظلم من واحد منهم . وإذاً فهم متساوون في الظلم لا يفوق بعضهم فيه بعضاً ، فلا إشكال في كون كل واحد منهم لا أحد أظلم منه . والثاني – أن صلة الموصول تعين كل واحد في محله . وعليه فالمعنى في قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ . لا أحد أظلم ممن ذكر فأعرض أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها . وفي قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ [الأنعام : 21] ، لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً ، وهكذا . والأول أولى . لأنه جار على ظاهر القرآن ولا إشكال فيه . ممن اختاره أبو حيان في البحر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله

إذا ذكروا بها - أكنة أي أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به . وواحد الأكنة كنان ، وهو الغطاء . وأنه جعل في آذانهم وقراً ، أي ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات التي ذكروا بها .

(185/474)

وهذا المعنى أوضحه الله تعالى في آيات أخر . كقوله : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ [البقرة : 7] ، وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [الجاثية : 23] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ [الإسراء : 45-46] ، وقوله : ﴿ أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : 23] ، وقوله : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : 20] . والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

فإن قيل : إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون ، لأن الله جعل الأكنة المانعة

من الفهم على قلوبهم . والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم فهم مجبورون . فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره ؟ !

(186/474)

فالجواب – أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيمك أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعم وابصارهم ، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة ، ونحو ذلك – إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك ، جزاء على كفرهم ، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] أي بسبب كفرهم ، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم . وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] وهو دليل أيضاً واضح على أن سبب إزاغة الله قلوبهم هو زيغهم السابق . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون : 3] وقوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة : 10] الآية ، وقوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : 110] ، وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [

المطففين : 14] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب ومنعها من فهم ما ينفع عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك . وهذا الذي ذكرنا هو وجه رد شبه الجبرية التي يتمسكون بها في هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم . وبهذا الذي قررنا يحصل الجواب أيضاً عن سؤال يظهر لطالب العلم فيما قررنا : وهو أن يقول : قد بينتم في الكلام على الآية التي قبل هذه أن جعل الأكنة على القلوب من نتائج الإعراض عن آيات الله عند التذكير بها ، مع أن ظاهر الآية يدل عكس ذلك من الإعراض المذكور سببه هو جعل الأكنة على القلوب ، لأن " إن " من حروف التعليل كما تقرر في

(187/474)

الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه ، كقولك : اقطعه إنه سارق ، وعاقبه إنه ظالم ، فالمعنى : اقطعه لعلة سرقته ، وعاقبه لعلة ظلمة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [الكهف : 57] أي أعرض عنها لعلة جعل الأكنة على قلوبهم . لأن الآيات الماضية دلت على أن الطبع الذي يعبر عنه تارة بالطبع ، وتارة بالختم ، وتارة بالأكنة ، ونحو ذلك – سببه الأول الإعراض عن آيات الله والكفر بها كما تقدم إيضاحه .

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان : الأول – أن يقال : ما مفسر الضمير في قوله : ﴿ ان يفقهوه ﴾ وقد قدمنا أنه الآيات في قوله ﴿ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ بتضمني الآيات معنى القرآن . فقوله ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي القرآن المعبر عنه بالآيات كما تقدم إيضاحه قريباً .

السؤال الثاني – أن يقال : ما وجه إفراد الضمير في قوله ﴿ ذكر ﴾ وقوله : ﴿ أعرض عنها ﴾ وقوله ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ مع الإتيان بصيغة الجمع في الضمير في قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ مع أن مفسر جميع الضمائر المذكورة واحد ، وهو الاسم الموصول في قوله : ﴿ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ الآية .

(188/474)

والجواب – هو أن الإفراد باعتبار لفظ " من " والجمع باعتبار معناها ، وهو كثير في القرآن العظيم . والتحقيق في مثل ذلك جواز مراعاة اللفظ تارة ، ومراعاة المعنى تارة أخرى مطلقاً خلافاً لمن زعم أن مراعاة اللفظ بعد مراعة المعنى لا تصح . والدليل على صحة قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ [الطلاق : 11] فإنه في هذه الآية الكريمة راعى لفظ " من " أولاً فأفرد الضمير في قوله ﴿ يؤمن ﴾ وقوله " ويعمل " وقوله " يُدْخِلْهُ "

وروعى المعنى في قوله : ﴿ خالدين ﴾ فأتى فيه بصيغة الجمع ، ثم راعى اللفظ بعد ذلك في قوله : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ وقوله : ﴿ أن يفقهوه ﴾ فيه وفي كل من يشابهه من الألفاظ وجهان معروفان لعماء التفسير : أحدهما – أن المعنى جعلنا على قلوبهم أكنة لئلا يفقهوه . وعليه فلا النافية محذوفة دل المقام عليها . وعلى هذا القول هنا اقتصر ابن جرير الطبري . والثاني – أن المعنى جعلنا على قلوبهم أكنة كراهة أن يفقهوهن وعلى هذا فالكلام على تقدير مضاف ، وأمثال هذه الاية في القرآن كثيرة . وللعلماء في كلها الوجهان المذكوران كقوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] اي لئلا تضلوا ، أو كراهة أن تضلوا . وقوله : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فتبينوا أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ﴾ [الحجرات : 6] أي لئلا تصيبوا ، أو كراهة أن تصيبوا ، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن العظيم .

وقوله تعلى : ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي يفهموه . فالفقه : الفهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 78] أي يفهمونه ، وقوله تعالى ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ﴾

[هود : 91] أي ما نفهمه . والوقر : الثقل . وقال الجوهري في صحاحه : الوقر – بالفتح ، الثقل في الأذن . والوقر – بالكسر : الحمل ، يقال جاء يحمل وقره ، أوقر بعيره وأكثر ما يستعمل الوقر في حمل البغال والحمال اه وهذا الذي ذكره الجوهري وغيره جاء به القرآن ، قال في ثقل الأذن : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ وقال في الحمل : ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ [الذاريات : 2] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبداً ﴾ الآية .

بين في هذه الآية الكريمة : أن الذين جعل الله على قلوبه أكنة تمنعهم أن يفقهوا ما ينفعهم من آيات القرآن التي ذكروا بها لا يهتدون أبداً ، فلا ينفع فيه دعاؤك إياهم إلى الهدى . وهذا المعنى الذي اشار له هنا من أن من اشقاهم الله لا يب\نفع فيهم التذكير جاء مبيناً في مواضع أخر ، كقوله ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 96-97] ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الشعراء : 200-201] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 100] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل : 37] .

وهذه الآية وأمثالها في القرآن فيه وجهان معروفان عند العلماء .

أحدهما – أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء ، عياذاً بالله تعالى .

(190/474)

والثاني – أن المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر . فإن هداهم الله إلى الإيمان وأنابوا زال ذلك المانع ، والأول أظهر والعلم عند الله تعالى . والفاء في قوله : ﴿ فلن يهتدوا ﴾ لأن الفعل الذي بعد " لن " لا يصلح أن يكون شرطاً " إن " ونحوها . والجزاء إذا لم يكن صالحاً " لأن " يكون شرطاً ل " إن " ونحوها – لزم اقترانه بالفاء . كما عقده في الخلاصة بقوله :

واقرن بفا حتما جواباً لو جعل . . . شرطاً لأن أو غيرها لم ينجعل

وقوله في هذه الآية الكريمة " إذا " جزاء وجواب . فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبباً للاهتداء سبباً لانتفائه . لأن المعنى : فلن يهتدوا إذا دعوتهم – ذكر هذا المعنى الزمخشري ، وتبعه أبو حيان في البحر . وهذا المعنى قد غلطا فيه ، وغلط فيه خلق لا يحصى كثرة من البلاغيين وغيرهم .

وأيضاح ذلك – أن الزمخشري هنا وأبا حيان ظنا أن قوله : ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ

يهتدوا إِذاً أَبداً ﴾ شرط وجزاء ، وأن الجزاء مرتب على الشرط كترتيب الجزاء على ما هو شرط فيه . ولذا ظنا أن الجزاء الذي هو عدم الاهتداء المعبر عنه في الآية بقوله : ﴿ فَلَنْ يهتدوا ﴾ مرتب على الشرط الذي هو دعاؤه إياهم المعبر عنه في الآية بقوله : ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى ﴾ المشار إليه أيضاً بقوله " إذاً " فصار دعاؤه إياهم سبب انتفاء اهتدائهم وهذا غلط .

(191/474)

لأن هذه القضية الشرطية في هذه الآية الكريمة ليست شرطية لزومية ، حتى يكون بين شرطها وجزائها ارتباط ، بل هي شرطية اتفاقية ، والشرطية الاتفاقيه لا ارتباط أصلاً بين طرفيها ، فليس أحدهما سبباً في الآخر ، ولا ملزوماً ولا لازماً له ، كما لو قلت : إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل – فلا ربط بين الطرفين ، لأن الجزاء في الاتفاقية له سبب آخر غير مذكور ، كقولك : لو لم يخف الله لم يعصه ، لأن سبب انتفاء العصيان ليس هو عدم الخوف الذي هو الشرط ، بل هو شيء آخر غير مذكور ، وهو تعظيم الله جل وعلا ، ومحبته المانعة من معصيته . وكذلك قوله هنا : ﴿ فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبداً ﴾ سببه الحقيقي غير مذكور معه فليس هو قوله " وإن تدعهم " كما ظنه الزمخشري وأبو حيان وغيرهما . بل

سببه هو إرادة الله جل وعلا انتفاء اهتدائهم على وفق ما سبق في علمه أزلاً .

ونظير هذه الآية الكريمة في عدم الارتباط بين طرفي الشرطية قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتل إلى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران : 154] لأن سبب بروزهم غلى مضاجعهم شيء آخر غير مذكور في الآية ، وهو ما سبق في علم الله من أن بروزهم إليها لا محالة واقع ، وليس كينونتهم في بيوتهم المذكورة في الآية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر ﴾ [الكهف : 109] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وقد أوضحت الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية في أرجوزتي في المنطق وشرحي لها في قولي :

مقدم الشرطية المتصلة . . . مهما تكن صحبة ذلك التال له

لموجب قد اقتضاها كسبب . . . فهي اللزومية ثم إن ذهب

موجب الاصطحاب ذا بينهما . . . فالاتفاقية عند العلما

(192/474)

ومثال الشرطية المتصلة اللزومية قولك : كلما كانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً ، لظهور التلازم بين الطرفين ، ويكفي في ذلك حصول مطلق اللازمية دون التلازم من الطرفين ،

كقولك : كلما كان الشيء إنساناً كان حيواناً ، إذا لا يصدق عكسه .

فلو قلت : كلما كان الشيء حيواناً كان إنساناً لم يصدق ، لأن اللزوم في أحد الطرفين لا يقتضي الملازمة في كليهما ، ومطلق اللزوم تكون به الشرطية لزومية ، أما إذا عدم اللزوم من أصله بين طرفيها فهي اتفاقية . ومثالها : كما كان اللإنسان ناطقاً كان الحمار ناهقاً .

وبسبب عدم التنبه للفرق بين الشرطية اللزومية ، والشرطية الاتفاقية – ارتبك خلق كثير من النحويين والبلاغيين في الكلام على معنى " لو " لأنهم أرادوا أن يجمعوا في المعنى بين قولك : لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً . ولبين قولك : لو لم يخف الله لم يعصه ، مع أن الشرط سبب في الجزاء في الأول ، لأنها شرطية لزومية ، ولا ربط بينهما في الثاني لأنها شرطية اتفاقية . ولا شك أن من أراد أن يجمع بين المفترقين ارتبك ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه غفور ، اي كثير المغفرة ، وانه ذز الرحمة يرحم عباده المؤمنين يوم القيامة ، ويرحم الخلائق في الدنيا .

وبين في مواضع أخر : أنه ههذا المغفرة شاملة لجميع الذنوب بمشيئته جل وعلا إلا الشرك .

كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48] ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجنة ﴾ [المائدة : 72] .

وبين في موضع آخر : أن رحمته واسعة، وأنه سيكتبها للمتقين . وهو قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة ﴾ [الأعراف : 156] الآية .

(193/474)

وبين في مواضع أخر سعة مغفرته ورحمته : كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة ﴾ [النجم : 32] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] . ونحو ذلك من الآيات .

وبين في مواضع أخر أنه مع سعة رحمته ومغفرته : شديد العقاب . كقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ [الرعد : 6] وقوله : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ﴾ [غافر : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ [الحجر : 49-50] ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ الآية .

بين في هذه الآية الكريمة : أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعصي لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه ، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة . فهو يمهل ولا يهمل .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مسمى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : 61] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] وقد قدمنا هذا في سورة " النحل " مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ الآية .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه وإن لم يجعل لهم العذاب في الحال فليس غافلاً عنهم ولا تاركاً عذابهم ، بل هو تعالى جاعل لهم موعداً يعذبهم فيه ، لا يتأخر العاذاب عنه ولا يتقدم .

(194/474)

وبين هذا في مواضع أخر ، كقوله في " النحل " : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مسمى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : 61] ، وقوله في آخر سورة " فاطر " : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ [فاطر : 45] ، وكقوله : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ

الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب ﴾

[العنكبوت : 53] الآية .

وقد دلت آيات كثيرة على أن الله لا يؤخر شيئاً عن وقته الذي عين له ولا يقدمه عليه ، كقوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ الله نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ ﴾ [المنافقون : 11] ، وقوله : ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : 4] الآية ، وقوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38] ، وقوله : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : 67] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أي ملجأ يلجؤون إليه فيعتصمون به من ذلك العذاب المجعول له الموعد المذكور . وهو اسم مكان ، من وأل يئل وإلا ووؤلا بمعنى لجأ . ومعلوم في فن الصرف أن واوي الفاء من الثلاثي ينقاس مصدره الميمي واسم مكانه وزمانه – على المفعل بكسر العين كما هنا ، ما لم يكن معتل اللام فالقياس فيه الفتح كالمولى . والعرب تقول : لا وألت نفسه ، اي لا وجدت منجى تنجو به ، ومنه قول الشاعر :

لا وألت نفسك خليتها . . . للعامرين ولم تكلم

وقال الأعشى :

وقد أخالس رب البيت غفلته . . . وقد يحاذر مني ثم ما يئل

أي ما ينجو .

وأقوال المفسرين في " الموئل " راجعة إلى ما ذكرنا ، كقول بعضهم : مؤلاً محيصاً ، وقوله بعضهم منجى . وقول بعضهم محرزاً ، إلى غير ذلك بمعنى ما ذكرنا .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59) ﴾

بين في هذه الآية الكريمة : أن القرى الماضية لما ظلمت بتكذيب الرسل واللجاج في الكر والمعاصي أهلكهم الله بذنوبهم .

وهذا الأجمال في تعيين هذه القرى وأسباب هلاكها ، وأنواع الهلاك التي وقعت بها – جاء مفصلاً في آيات أخر كثيرة ، كما جاء في القرآن من قصة قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وقوم موسى ، كما تقدم بعض تفاصيله . والقرى : جمع قرية على غير قياس ، لأن جمع التكسير على " فعل " – بضم ففتح – لا ينقاس إلا في جمع " فعلة " – بالضم – اسماً كغرفة وقربة . أو " فعلى " إذا كانت أنثى الأفعل خاصة ، كالكبرى والكبر ، كما أشار لذلك في الخلاصة بقوله :

وفعل جمعاً لعفلة عرف . . . ونحو كبرى . . الخ

أي وأما في غير ذلك فسماع يحفظ ولا يقاس عليه . وزاد في التسهيل نوعاً ثالثاً ينقاس فيه " فعل " بضم ففتح ، وهو الفعلة بضمتين إن كان اسماً كجمعة وجمع . واسم الإشارة في قوله : ﴿ وتلك القرى ﴾ إنما أشير به لهم لأنهم يمرون عليه في أسفارهم ، كقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137-138] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 76] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 79] ونحو ذلك من الآيات .

(196/474)

وقوله " وتلك " مبتدأ و " القرى " صفة هل . أو عطف بيان . وقوله : " أهلكناهم " هو الخبر . ويجوز أن يكون الخبر هو " القرى " وجملة " أهلكناهم " في محل حال ، كقوله : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا ﴾ [النمل : 52] . ويجوز أن يكون قوله : " وتلك " في محل نصب بفعل محذوف يفسره العامل المشتغل بالضمير ، على حد قوله في الخلاصة :

إن مضمر اسم سابق فعلا شغل . . . عنه بنصب لفظه أوا لمحل

فالسابق انصبه بفعل أضمرا . . . حتما موافق لما قد أظهرا

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وِلِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً ﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا عاصماً بضم الميم وفتح اللام على صيغة اسم المفعول . وهو محتمال على هذه القراءة أن يكون مصدراً ميمياً ، أي جعلنا لإهلاكهم موعداً . وأن يكون اسم زمان ، أي وجعلنا لوقت إهلاكهم موعداً . وقد تقرر في فن الصرف أن كل فعل زاد ماضيه على ثلاثة أحرف مطلقاً فالقياس في مصدره الميمي واسم مكانه واسم زمانه – أن يكون الجميع بصيغة اسم المفعول . والمهلك – بضم الميم – من أهلكه الرباعي . وقرأه حفص عن عاصم " لمهلكهم " بفتح الميم وكسر اللام . وقرأه شعبة عن عاصم " لمهلكهم " بفتح الميم واللام معاً . والظاهر أنه على قراءة حفص اسم زمان ، أي وجعلنا لوقت هلاكهم موعداً . لأنه من هلك يهلك بالكسر . وما كان ماضيه على " فعل " بالفتح ومضارعة " يفعل " مصدره الميمي المفعل بالفتح .

تقول هذا منزلة – بالكسر – اي مكان نزوله أو وقت نزوله ، وهذا " منزله " بفتح الزاي . أي نزوله ، وهكذا . منه قول الشاعر :

أأن ذكرتك الدار منزلها جمل . . . بكيت فدمع العين منحدر سجل

فقوله " منزلها جمل " بالفتح . اي نزول جمل إياها وبه تعلم أنه على قراءة شعبة " لمهلكهم " بفتح الميم واللام أنه مصدر ميمي . اي وجعلنا لهلاكهم موعداً . والموعد : الوقت المحدد لوقوع ذلك فيه .

تنبيه

لفظة " لما " ترد في القرآن وفي كلام العرب على ثلاثة أنواع :

(197/474)

الأول – لما النافية الجازمة للمضارع . نحو قوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة : 214] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ [آل عمران : 142] الآية . وهذه حرف بلا خلاف ، وهي مختصة بالمضارع . والفوارق المعنوية بينها وبين لم النافية مذكورة في علم العربية ، وممن أوضحها ابن هشام وغيره .

الثاني – أن تكون حرف استثناء بمعنى إلا . فتدخل على الجملة الاسمية . كقوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق : 4] في قراءة من شدد " لما " اي ما كل نفس إلا عليها حافظ . ومن هذا النوع قول العرب : أنشدك الله لما فعلت . أي ما أسألك إلا فعلك . ومنه قول الراجز :

قالت له لله يا ذا البردين . . . لما غنثا نفساً أو نفسين

فقولها " غنثت " بعين معجمة ونون مكسورة وثاء مثلثة مسنداً لتاء المخاطب . والمراد

بقولها " غنث " تنفست في الشرب . كنت بذلك عن الجماع ، تريد عدم متابعته لذلك ، وأن يتنفس بين ذلك . وهذا النوع حرف أيضاً بلا خلاف . وبعض أهل العلم يقول : إنه لغة هذيل .

(198/474)

الثالث – من أنواع " لما " هو النوع المختص بالماضي المقتضي جملتين ، توجد ثانيتهما عند وجود أولاهما ، كقوله : ﴿ لما ظلموا ﴾ أي لما ظلموا أهلكناهم ، فما قبلها دليل على الجملة المحذوفة . وهذا النوع هو الغالب في القرآن وفي كلام العرب . " ولما " هذه التي تقتضي ربط جملة بجملة اختلف فيها النحويون : هل هي حرف ، أو اسم ، وخلافهم فيها مشهور ، وممن انتصر لأنها حرف ابن خروف وغيره . ومن انتصر لأنها اسم ابن السراج والفارسي وابن جني وغيرهم . وجواب " لما " هذه يكون فعلاً ماضياً بلا خلاف . كقوله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : 67] الآية ، ويكون جملة اسمية مقرونة ب " إذا " الفجائية . كقوله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] ، أو مقرونة بالفاء كقوله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ [لقمان : 32] الآية ، ويكون جوابها فعلاً مضارعاً كما قاله ابن عصفور . كقوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ

إِبْرَاهِيمَ الروع وَجَآءَتْهُ البشرى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 74] الآية . وبعض ما ذكرنا لا يخلو من مناقشة عند علماء العربية ، ولكنه هو الظاهر .

هذه الأنواع الثلاثة ، هي التي تأتي لها " لما " في القرآن وفي كلام العرب .

(199/474)

أما " لما " المتركبة من كلمات أو كلمتين – فليست من " لما " التي كلامنا فيها ، لأنها غيرها . فالمركبة من كلمات قوله بعض المفسرين في معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ﴾ [هود : 111] فقي قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديد نون " إن " وميم " لما " على قل من زعم أن الأصل على هذه القراءة : لمن ما بمن التبعيضية ، وما بمعنى من ، أي وإن كلا لمن جملة ما يوفيهم ربك أعمالهم ، فأبدلت نون " من " ميما وادغمت في ما ، فلما كثرت الميمات حذفت الأولى فصار لما . وعلى هذا القول : ف " لما " مركبة من ثلاث كلمات : الأولى الحرف الذي هو اللام ، والثانية من ، والثالثة ما ، وهذا القول وإن قال بعض أهل العلم – لا يخفى ضعفه وبعده ، وأنه لا يجوز حمل القرآن عليه . وقصدنا مطلق التمثيل ل " لما " المركبة من كلمات على قول من قال بذلك . وأما المركبة من كلمتين فكقول الشاعر .

لما رأيت أبا يزيد مقاتلاً . . . أدع القتال وأشهد الهيجاء

لأن قوله " لما " في هذا البيت ، مركبة من " لن " النافية الناصبة للمضارع و " ما " المصدرية الظرفية ، اي لن أدع القتال ما رأيت أبا يزيد مقاتلاً ، أي مدة رؤيتي له مقاتلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(200/474)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يأبه لعمل الكفار ، ولا يهلك نفسه أَسَفاً على إعراضهم ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ . . . ﴾ .

قلنا : إن الجدل قد يكون بالحق ، وقد يكون بالباطل كما يفعل الذين كفروا هنا ، فيجادلون بالباطل ويستخدمون كل الحِيَل لدحْضِ الحق أي : ليُعطّلوه ويزيلوه ﴿ واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُواْ هُزُواً ﴾ [الكهف : 56] أي : الآيات الكونية التي جاءت لتصديق الرسل ، وكذلك آيات القرآن ، وآيات الأحكام اتخذوها سُخْرية واستهزاءً ، ولم يعبأوا بما فيها من نذارة .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا . . . ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ . . ﴾ [الكهف : 57] جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام ، كأنْ يدَّعي صاحبك أنك لم تصِلْه ، ولم تصنع معه معروفاً ، فمن الممكن أن تقول له : صنعتُ معك كذا وكذا على سبيل الخبر منك ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . إنما لو عرضْتَ المسألة على سبيل الاستفهام فقُلْتَ له : ألم أصنع معك كذا ؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك ، وتقيم عليه الحجة من كلامه هو ، وأنت لا تستفهم عن شيء من خَصْم إلا وأنت واثق أن جوابه لا يكون إلا بما تحب .

وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ . . ﴾ [الكهف : 57] ؟ وترك لنا الجواب لنقول نحن : لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ فعل ذلك ، والإقرار سيد الأدلة .

(201/474)

وقوله ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا . . ﴾ [الكهف : 57] تركها ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ . . ﴾ [الكهف : 57] نسى السيئات ، وكان من الواجب أن ينتبه إلى هذه الآيات فيؤمن بها ، لعل الله يتوب عليه بإيمانه ، فيُبدِّل سيئاته حسنات .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ . . ﴾ [الكهف : 57]

أكنة : أغطية جمع كِنّ ، فجعل الله على قلوبهم أغطية ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده ، تعالى الله عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه ؛ لأنه رَبٌّ يعطي عبده ما يريد .

كما قال عنهم في آية أخرى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : 10]

وقال تعالى في هذا المعنى : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة : 7]

ومعنى ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ . . ﴾ [الكهف : 57] أي : يفهموه ، يفهموا آيات الله ؛ لأنهم سبق أنْ ذُكِّرُوا بها فأعرضوا عنها ، فحرَمهم الله فقهها وفهمها .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً . . ﴾ [الكهف : 57] أي : صمم فلا يسمعون ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً ﴾ [الكهف : 57] وهذا أمر طبيعي ، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وسد عليهم منافذ العلم والهداية ؛ لأن الهدى ناشئ من أن تسمع كلمة الحق ، فيستقبلها قلبك بالرضا ، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام ، فتسمع بالأذن ، وتقبل بالقلب ، وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أُمِرَتْ به .

وما دام في الأذن وَقْر وصَمَمٌ فلن تسمع ، وإنْ سمعتْ شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلا بما شُحِن به القلب من عقائد .

(202/474)

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة . . . ﴾ .

فمن رحمة الله بالكفار أنه لم يعاجلهم بعذاب يستأصلهم ، بل أمهلهم وتركهم ؛ لأن لهم موعداً لن يهربوا منه ، ولن يُفلِتوا ، ولن يكون لهم مَلْجأ يحميهم منه ، ولا شكَّ أن في إمهالهم في الدنيا حكمة لله بالغة ، ولعل الله يُخرِج من ظهور هؤلاء مَنْ يؤمن به ، ومَنْ يحمل راية الدين ويدافع عنه ، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ الإسلام ، فمِنْ ظَهْر أبي جهل جاء عكرمة ، وأمهل الله خالد بن الوليد ، فكان أعظمَ قائد في الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ . . . ﴾ .

تلك : أداة إشارة لمؤنث هي القرى ، والكاف للخطاب ، والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأمتُه مُنْضوية في خطابه ؛ لأن خطابَ الرسول خطاب لأمته . لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسٍّ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17]

فأين هذه القُرَى ؟ وهل كان لها وجود على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

نعم ، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراها النبي صلى الله عليه وسلم ويراها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل : قُرَى ثمود قوم صالح ، وقرى قوم لوط ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137-138]

إذن : فتلك إشارة إلى موجود مُحَسٍّ دَالٍّ بما تبقّى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله ، وما حلَّ بها من بَأْسِه الذي لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين .

(203/474)

وكلمة ﴿ القرى ﴾ جمع قرية ، وتُطلَق على المكان الذي تتوفّر فيه مُقوّمات الحياة وضرورياتها ، بل بها ما يزيد على الضروريات ومُقوّمات الحياة العادية ؛ لأن القرية لا تُطلَق إلا على مكان تتسع فيه مُقوّمات الحياة اتساعاً يكفي لمن يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قِرَى . فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أُمٌّ ، نسميها (أم القرى) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(204/474)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) (الكهف : 57) ، وفي سورة سجدة لقمان : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة : 22) ، للسائل أن يسأل عن ورود آية الكهف بفاء التعقيب وآية السجدة بثم المقتضية المهلة ؟ والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن سورة الكهف مكية ، والخطاب فيها من أولها إلى الآية المتكلم فيها لم يخرج إلى غير العرب ، أعني أنه لم يتعرض فيها إلى إخبار بحال غيرهم ، إلا ما عرفوه من قصة أهل الكهف وخبرهم ، وهو من سؤالات قريش بتنبيه يهود إياهم حسبما وقع في الحديث ، فقوله في الآية المذكورة : (بِآيَاتِ رَبِّهِ) ، والمراد بالآيات القرآن ودلائله الواضحة ، وإن كان اللفظ مقتضياً كل ما يسمى آية إلا أن آية القرآن أعمد ما قصد هنا ، ويشهد لذلك قوله عز وجل : (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) (الكهف : 57) ، وما تقدم الآية من قوله : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) (الكهف : 54) الآية من قوله : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى) (الكهف : 55) ، والمراد به القرآن ، قال تعالى : (هَذَا هُدًى) (الجاثية : 11) ، والحجة قائمة عليهم عقب سماعهم وتدبرهم ، فورد بالفاء المقتضية التعقيب على ما يجب .

وأما آية السجدة ، وإن كانت السورة مكية أيضاً ، فإن الآية عامة في حق العرب وغيرهم ، والإخبار فيها إنما هو عن جميع من شاهد آية بينة وكذب ، ودليل هذا ما تقدمة مما هو على إطلاقه في العرب وغيرهم من قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) (السجدة : 18) ، هذا عام في المكلفين ، ثم فصل حالهم فيما بعد ، ثم قال معلماً بحال الجميع على ما تورده العرب عند التعجب ، ليباعد بين الأحوال : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة : 22) ، فالمراد بهذه الآيات كل ما قامت به الدلالة ووضح منه الشاهد ، كناقة صالح ، عليه السلام ، وانفلاق صخرة عنها ، وانقلاب العصا حية ، وغير ذلك من آيات موسى ، عليه السلام ، وبينات عيسى ، عليه السلام ، كإبراء الأكمة والأبرص ، وإحياء الموتى ، وانشقاق القمر لنبينا صلى الله عليه وسلم ، ونبع الماء من (بين الأصابع) ، وتكليم الجمادات ، ونطق الحيوان إليه ، وانقلاب الأعيان ، وتكثير الطعام القليل ، إلى آيات الكتاب العزيز المتلوة قرآناً ، إلى ما لا يحصى

من آيات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلما انطوت (الآيات) في قوله : (بِآيَاتِ رَبِّهِ) من التعميم بحسب الشاهد مما اقترن بها على ما لا يتوقف فيه ذو عقل إلا أن يمنعه مانع من ذلك ، عظم مرتكب المعرض فعطف بثم ، قال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة : 22) استبعاداً للتوقف عن الإيمان والتصديق عند مشاهدة ما لاغبار عليه من الدلائل ، ولا إشكال فيه . قال الزمخشري : (ثم) في قوله : (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) للاستعباد قال : والمعنى أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز العظيم بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل ، كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز ، وقال : ومنه (ثم) في بيت الحماسة :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

قال استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها .

انتهى نص كلامه إلا في لفظة أسقطها لجريها فيما لا يكاد ينفك عنه في إحراز مذهبه الخبيث ، فتركها وإجحاضها لا يخل بشيء من المعنى ، قلت والمراد أن ما ذكرنا من الاستبعاد والاستعظام الذي تقتضيه ثم هنا قائم مقام المهلة ، فلتكاثر الآيات وتنويعها مستوضحة عظمت جريمة المتوقف عنها ، فأشارت ثم لذلك ، فافترق القصدان ، وجاء كل على ما يناسب ، والله أعلم .

وجواب ثان ، وهو أنه لما ذكر في آية الكهف إرسال الرسل ، عليهم السلام ، في قوله تعالى : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (الكهف : 56) ، فذكر إرسالهم وتكذيب قومهم إياهم ، وإنما وقع تكذيب المكذبين عند دعاء الرسل إياهم معقباً به دعاءهم ، فجرى مع هذا وناسبه قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) (الكهف : 57) ، لأنهم إنما أعرضوا عقب دعاء الرسل إياهم وعند جدالهم المذكور في قوله : (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (الكهف : 56) ، إنما ارتكبوا الجدال جواباً للرسل ليدحضوا الحق بباطلهم ، فالتعقيب هنا بين ، فورد بالفاء .

وأما آية السجدة فلم يقع فيها ذكر إرسال الرسل ، ولا جرى في الآية (ذكر تكذيب) ولا دعاء وإن كانت آيها عامة في العرب ، وإنما ورد فيها انقسام المكلفين بحسب السوابق في إشارة قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) (السجدة : 18) ، ثم

ذكر تعالى مآل الفريقين ، وأن الفاسقين مأواهم النار ، وأن حالهم فيها كما ذكر تعالى : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) (السجدة : 20) ، ولا شك أن استحقاق جزائهم بذلك إنما هو تماديهم على الكفر مدى حياتهم إلى الوفاة ، ولم يقع هنا إشارة إلى مباشرتهم الرسل بالتكذيب ، فلما لم يكن في الكلام ذكر مباشرة الرسل والمواجهة بالتكذيب ، فلما لم يكن في الكلام ذكر مباشرة الرسل والمواجهة بالتكذيب صار إعراضهم وتكذيبهم كأنه إنما علم وتحصل بذكر الجزاء ، وإن كان المؤمنون قد علموا ذلك بالخبر الصادق ، وأما بتأخر العلم به (للمكذب) حتى يباشر الجزاء ، والجزاء متأخر ، فناسب ذلك العطف بثم المقتضية للمهلة ، فقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة : 22) فورد كل على ما يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 320 . 322 ﴾

(209/474)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فظنوا أنهم مواقعوها ﴾ قال : علموا .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه ابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا ، وأن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة والله أعلم " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن علي رضي الله عنه : أن النبي – صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً فقال : " " ألا تصليان " فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا . وانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ قال : الجدل الخصومة ، خصومة القوم لأنبيائهم ، وردهم عليهم ما جاؤوا به ، وكل شيء في القرآن من ذكر الجدل ، فهو من ذلك الوجه ، فيما يخاصمونهم من دينهم ، يردون عليهم ما جاؤوا به ، والله أعلم .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأوّلين ﴾ قال : عقوبة الأولين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد أنه قرأ ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ قال : قبائل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ قال : فجأة .

(210/474)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة أنه قرأ ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي عياناً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الأعمش في قوله : ﴿ قبلاً ﴾ قال : جهاراً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ قال : مقابلهم فينظرون إليه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ أي نسي ما سلف من الذنوب الكثيرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ بما كسبوا ﴾ يقول : بما علموا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ بل لهم موعد ﴾ قال : الموعد يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ قال : ملجأ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ قال : مجوزاً . وفي قوله : ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ قال : أجلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن العباس بن عزوان أسنده في قوله : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ قال : قضى الله العقوبة حين عصي ، ثم أخرها حتى جاء أجلها ، ثم أرسلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(211/474)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾

قوله : ﴿ لِيُدْحِضُواْ ﴾ : متعلِّقٌ ب "يُجَادِل " والإِدْحاض : الإِزْلاق يقال : أَدْحَضَ قدمَه

، أي : أَزْلَقَها وأَزَلَّها عن موضعِها ، والحجة الداحضة التي لا ثباتَ لها لزلزلةِ قدَمِها .

والدَّحْضُ : الطينُ لأنه يَزْلَقُ فيه . قال :

3171- أبا مُنْذِرٍ رُمْتَ الوفاءَ وهِبْتَه . . . وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ الدَّحْضِ

وقال آخر :

3172- وَرَدْتُ ونَجَّى اليَشْكرِيِّ حِذارُه . . . وحادَ كما حادَ البَعيرُ عن الدَّحْضِ

و " مكانٌ دَحْضٌ " مِنْ هذا .

قوله : ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ يجوزُ في " ما " هذه أَنْ تكونَ مصدريةً ، وأَنْ تكونَ بمعنى الذي والعائد محذوف . وعلى التقديرين فهي عطفٌ على " آياتي " . و " هُزُوا " مفعولٌ ثانٍ أو حالٌ . وتقدَّم الخلافُ في " هُزُوا " . وتقدَّم إعرابُ ما بعد هذه الآية في الأنعام .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (58) ﴾

قوله : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ : يجوز في " المَوْعِد " أَنْ يكونَ مصدراً أو زماناً أو مكاناً .

والمَوْئِلُ : المَرْجِعُ مِنْ وَأَلَ يَئِلُ ، أي : رَجَعَ ، وهو من التأويل . وقال الفراء : " المَوْئِلُ : المَنْجى ، وَأَلَتْ نَفْسُه ، أي : نَجَتْ " . قال الأعشى :

3137- وقد أُخَالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ . . . وقد يُحاذِرُ مِنّي ثم ما يَئِلُ

أي : ما يَنْجُو . وقال ابن قتيبة : " المَوْئل : المَلْجَأ " . يقال : وَأَلَ فلان إلى فلان يَئِل وأَلاً ، ووُؤُوْلاً ، إذا لَجَأ إليه وهو هنا مصدرٌ .

(212/474)

و " مِنْ دونِه " متعلِّقٌ بالوِجْدان لأنه متعدٍّ لواحدٍ ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " مَوْئلاً " .

وقرأ أبو جعفر " مَولا " بواوٍ مسكورةٍ فقط . والزُّهْري : بواوٍ مشددة فقط . والأُوْلَى أقيسُ تخفيفاً .

قوله : ﴿ وَتِلْكَ القرى ﴾ : يجوز أَنْ يكونا مبتدأ وخبراً ، و " أهلكناهم " حينئذ : إمَّا خبرٌ ثانٍ أو حالٌ . ويجوز أن تكونَ " تلك " مبتدأ ، و " القرى " صفتها أو بيان لها أو بدل منها و " أَهْلكناها " الخبرُ . ويجوز أن يكون " تلك " منصوبَ المحل بفعلٍ مقدر على الاشتغال .

والضميرُ في " أَهْلَكْناهم " عائدٌ على " أهل " المضافِ إلى القرى ، إذ التقديرُ : وأهل تلك القُرى ، فراعى المحذوفَ فأعاد عليه الضميرَ . وتقدَّم ذلك في أول الأعراف .

و ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ يجوُ أَنْ يكونَ حرفاً ، وأن يكونَ ظرفاً وقد عُرِف ما فيها .

قوله : " لِمَهْلِكِهِمْ " قرأ عاصم " مَهْلَك " بفتح الميم ، والباقون بضمها ، وحفصٌ بكسر اللام . والباقون بفتحها . فتحصَّل مِنْ ذلك ثلاثُ قراءاتٍ ، لعاصم قراءتان : فتحُ الميم/ مع فتحِ اللامِ ، وهي روايةُ أبي بكرٍ عنه . والثانية فتح الميم مع كسر اللام وهي روايةُ حفصٍ عنه . والثالثةُ : ضمُّ الميمِ وفتحُ اللام ، وهي قراءةُ الباقين .

فأمَّا قراءةُ أبي بكر ف " مَهْلَك " فيها مصدرٌ مضافٌ لفاعِله . وجوَّز أبو عليّ أن يكونَ مضافاً لمفعوله . وقال : " إنَّ " هَلَك " يتعدَّى دون همز وأنشد :

(213/474)

3174- ومَهْمَهٍ هالكٍ مَنْ تعرَّجا . . . ف " مَنْ " معمولٌ ل " هالكٍ " وقد مَنَع الناسُ ذلك وقالوا : لا دليلَ في البيتِ لجواز أن يكونَ مِنْ بابِ الصفةِ المشبهةِ . والأصل : هالك مَنْ تعرَّجا . ف " مَنْ تعرَّج " فاعلٌ بهالك ، ثم أُضْمر في " هالِك " ضميرَ " مَهْمه " ونَصَبَ " مَنْ تعرَّج " نَصْبَ " الوجهَ " في قولِك : " مَرَرْتُ برجلٍ حَسَنِ الوجهَ " ثم أضاف الصفة وهي " هالك " إلى معمولها ، فالإضافةُ مِنْ نصبٍ ، والنصبُ مِنْ رفعٍ . فهو كقولك : " زيدٌ منطلقُ اللسان ومنبسط الكفّ " ، ولولا تقديرُ النصبِ لامتنعَتِ الإضافةُ ؛ إذ اسمُ الفاعلِ لا يُضاف إلى مرفوعِه . وقد يُقال : لا حاجةَ إلى تقديرِ النصب ، إذ هذا جارٍ مَجْرَى الصفةِ

المشبهة ، والصفةُ المشبهةُ تُضافُ إلى مرفوعها ، إلا أنَّ هذا مبنيٌّ على خلافٍ آخر وهو : هل يقعُ الموصولُ في بابِ الصفة أم لا ؟ والصحيح جوازه . قال الشاعر :

3175- فَعُجْتُها قِبَلَ الأخيار منزلةً . . . والطيِّبي كلِّ ما التاثَتْ به الأُزُرُ

وقال الهذلي :

3176- أَسِيْلاتُ أبدانٍ دِقاقٌ خُصورُها . . . وَثِيراتُ ما التفَّتْ عليها الملاحِفُ

وقال الشيخ في قراءة أبي بكر هذه : " إنه زمانٌ " ولم يذكرْ غيرَه . وجوَّز غيرُه فيه الزمانَ والمصدرَ . وهو عجيبٌ ؛ فإنَّ الفعلَ متى كُسِرَتْ عينُ مضارعِهِ فُتِحَتْ في المَفْعَل مراداً به المصدرُ ، وكسِرَتْ فيه مراداً به الزمانُ والمكانُ ، وكأنه اشتبهَتْ عليه بقراءةِ حفصٍ فإنَّه بكسرِ اللام كما تقدَّم ، فالمَفْعِلُ منه للزمانِ والمكان .

وجوَّز أبو البقاء في قراءته أَنْ يكونَ المَفْعِل فيها مصدراً . قال : " وشَذَّ فيه الكسرُ كالمَرْجِعِ " . وإذا قلنا إنه مصدرٌ فهل هو مضافٌ لفاعِله أو مفعولِه ؟ يجيءُ ما تقدَّم في قراءةِ رفيقِه . وتخريجُ أبي عليّ واستشهادُه بالبيت والردُّ عليه ، كلُّ ذلك عائدٌ هنا .

(214/474)

وأمَّا قراءةُ الباقين فواضحةٌ . و " مُهْلَك " فيها يجوز أن يكونَ مصدراً مضافاً لمفعولِه ، وأَنْ يكون زماناً ، ويَبْعُدُ أن يُرادَ به المفعولُ ، أي : وجَعَلْنا للشخصِ أو الفريقِ المُهْلِكِ منهم . والمَوْعِدُ : مصدرٌ أو زمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 512.

517 ﴾

(215/474)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

أرسل الرسل – عليهم السلام – تترى ، وأَيَّدَهم بالحجج والبراهين ، وأمرهم بالإنذار والتخويف ، والتشريف في عين التكليف ، وتضمين ذلك بالتحقيق ، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم ، وشَقِيَ آخرون بخلافهم .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾

لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ ووُعِظَ بما لوَّح له من الآيات ، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أُصْلِحَ أو شُغِل كُفِيَ أو دعاءٍ أُجِيب له ، أو سوءِ أدبٍ حصل منه ، فأُدِّبَ بما يكون تنبيهاً له ، أو

حصلت منه طاعة وكوفئ في العاجل إمَّا بمعنى وَجَدَه في قلبه من بَسْطٍ أو حلاوةٍ أو أُنْسٍ ، وإما بكفاية شُغْلٍ أو إصلاح أمرٍ . . . ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عُومل به ، أو أعرض عن تَذَكُّره ، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يداه من خيره وشرِّه ، فوجدَ في الوقت موجبه . . . ومَنْ كانت هذه صِفَتُه جعل على قلبه ستراً وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركاتُ ما وُهِبَهَ .

ويقال مَنْ أظلم من يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَرَبِه فَيَتَّهِمُ ربَّه ، ويشكو مما يلاقيه ، ويْنسَى حُرْمة الذي بسببه أصابه ما أصابه ؟ وكما قيل :

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لفُرصته . . . حتى إذا فاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾

﴿ الغَفُورُ ﴾ لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجَبَتْ المغفرة لهم .

ويقال ﴿ الغَفُورُ ﴾ : للعاصين من عباده ، و ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ بجميعهم فَيُصلح أحوالَ كافتهم .

(216/474)

﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ : لعجَّل لهم العذابَ ؛ أي عَامَلَهم بما استوجبوه من عصيانهم ، فعجَّلَ لهم العقوبة ، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته ، ثم في العاقبة يفعل ما يفعل

على قضية إرادته وحكمه .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59) ﴾

لَمَّا لم يشكروا النِّعم ولم يصبروا في المحن عَجَّلنا لهم العقوبة .

ويقال لَمَّا غَفَلُوا عن شهود التقدير ، وحُرِمُوا رَوْحَ الرضا وَكَلْناهم إلى ظُلُماتِ تدبيرهم ، فطاحوا في أودية غفلاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 404 . 405 ﴾

(217/474)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

التفسير : لما بين خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال يوم القيامة وأهواله ، وفيه رد على أغنياء المشركين الذين افتخروا بكثرة الأموال والأولاد على فقراء المسلمين والتقدير : واذكر يوم كذا عطفاً على وأضرب . ويجوز أن ينتصب بالقول المضمر قبل ﴿ ولقد جئتمونا ﴾ وفاعل التسيير هو الله تعالى إلا أنه سمي على إحدى القراءتين ولم يسم في

الأخرى ، فتسييرها إما إلى العدم لقوله : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ [طه : 105] ، ﴿ وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ﴾ [الواقعة : 5 ، 6] وإما إلى موضع لا يعلمه إلا الله ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ لأنه لا يبقى على وجهها شيء يسترها من العمارات ولا من الجبال والأشجار ، وإما لأنها أبرزت ما في بطنها من الأموات لقوله : ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ [الانشقاق : 4] فيكون الإسناد مجازياً أي بارزاً ما في جوفها ﴿ وحشرناهم ﴾ الضمير للخلائق المعلوم حكماً ﴿ فلم نغادر منهم أحداً ﴾ من الأوّلين والآخرين . يقال : غادره وأغدره إذا تركه والترك غير لائق ومنه الغدر ترك الوفاء . والغدير ما غادره السيل لأن اللائق بحال السيل أن يذهب بالماء كله . ولا يخفى أن اللائق بحال رب العزة أن لا يترك أحداً من خلقه غير محشور وإلا كان قدحاً في عمله وحكمته وقدرته . قالت المشبهة : في قوله : ﴿ وعرضوا على ربك ﴾ دليل على أنه سبحانه في مكان يمكن أن يعرض عليه أهل القيامة وكذلك في قوله : ﴿ لقد جئتمونا ﴾ وأجيب بأنه تعالى شبه وقوفهم في الموضع الذي يسألهم فيه عن أعمالهم بالعرض عليه وبالمجيء إلى حكمه كما يعرض الجند على السلطان .

وانتصب ﴿ صفاً ﴾ على الحال أي مصطفين ظاهرين ترى جماعاتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً . والصف إما واحد وإما جمع كقوله ﴿ يخرجكم طفلاً ﴾ [غافر : 67] أي أطفالاً . وقيل : صفاً أي قياماً وبه فسر قوله : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ [الحج : 36] . وقال القفال : يشبه أن يكون الصف راجعاً إلى الظهور والبروز ومنه الصفصف للصحراء وهذا قريب من الأول . وقد مر في " الأنعام " أن وجه التشبيه في قوله ﴿ خلقناكم ﴾ أنهم يبعثون عراة لا شيء معهم ، أو المراد بعثناكم كما أنشأناكم وزعمهم أن لن يجعل الله لهم موعداً . أي وقتاً لإنجاز ما وعدوا على ألسنة الأنبياء إما أن يكون حقيقة وإما لأن أفعالهم تشبه فعل من يزعم ذلك . ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي جنسه وهو صحف الأعمال . والوضع إما حسي وهو أن يوضع كتاب كل إنسان في يده إما في اليمين أو في الشمال ، وإما عقلي ومعناه النشر والاعتبار . ﴿ فترى المجرمين مشفقين ﴾ خائفين مما في الكتاب لأن الخائن خائف خوف العقاب وخوف الافتضاح . ومعنى النداء في ﴿ يا ويلتنا ﴾ قد مر في " المائدة " في ﴿ يا ويلتي أعجزت ﴾ [الآية : 31] وقوله : ﴿ صغيرة ولا كبيرة ﴾ صفتان للهيئة أو المعصية أو الفعلة وهي عبارة عن الإحاطة وضبط كل ما صدر عنهم ، لأن الأشياء إما صغار وإما كبار ، فإذا حصر الصنفين فقد حصر الكل . وعن الفضيل : ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر . قلت : وذلك أن تلك الصغائر هي التي جرأتهم على الكبائر . وعن ابن عباس : الصغير التبسم

والكبيرة القهقهة . وعن سعيد بن جبير : الصغيرة المسيس والكبيرة الزنا . وجوّز في الكشاف أن يريد ما كان عندهم صغائر وكبائر . وتمام البحث في المسألة أسلفناه في أوائل سورة النساء في تفسير قوله : ﴿ أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ [النساء : 31] فتذكر ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ في الصحف مثبتاً فيها أو وجدوا أجزاء ما عملوا ظاهراً على صفحات أحوالهم ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ استدل

(219/474)

الجبائي به على بطلان مذهب الأشاعرة في أن الأطفار يجوز أن تعذب بذنوب آبائهم فإن ذلك ظلم . والجواب أن الظلم إنما يتصوّر في حق من تصرف في غير ملكه قالوا : لو ثبت أن له بحكم المالكية أن يفعل ما يشاء من غير اعتراض عليه لم يكن لهذا الإخبار فائدة . وأجيب بأن تلك القضية بعد الدلائل العقلية علمت من مثل هذه الآية . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحاسب الناس في القيامة على ثلاثة : يوسف وأيوب وسليمان يدعو المملوك فيقول له : ما شغلك عني ؟ فيقول جعلتني عبد الآدمي فلم تفرغني فيدعو يوسف فيقول : كان هذا عبداً مثلك ثم يمنعه ذلك أن عبدني فيؤمر به إلى النار . ثم يدعى بالمبتلى فإذا قال : أشغلتني بالبلاء دعا بأيوب فيقول : قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم

يمنعه ذلك عن عبادتي ويؤمر به إلى النار ، ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع آتاه الله من الغنى والسعة فيقول : ماذا عملت فيما آتيتك فيقول : شغلني الملك عن ذلك فيدعى بسليمان فيقول : هذا عبدي سليمان آتيته أكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك فيؤمر به إلى النار "

(220/474)

ثم إنه سبحانه عاد على أرباب الخيلاء من قريش فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه . قال جار الله : قوله : ﴿ كان من الجن ﴾ كلام متسأنف جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين كأن قائلاً قال : ما له لم يسجد فقيل : ﴿ كان من الجن ففسق ﴾ والفاء للتسبيب أي كونه من الجن سبب في فسقه ولو كان ملكاً لم يفسق لثبوت عصمة الملائكة . وقال آخرون : اشتقاق الجن من الاستتار عن العيون فيشمل الملائكة والنوع المسمى بالجن . ثم من لم يوجب عصمة الملك فظاهر ، ومن أوجب قال : "كان " بمعنى " صار " أي مسخ عن حقيقة الملائكة إلى حقيقة الجن ، وقد سلف هذا البحث بتمامه في أول سوة البقرة . ومعنى ﴿ فسق عن أمر ربه ﴾ خرج عن طاعته . وحكى الزجاج عن الخليل وسيبويه أنه لما أمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الأمر ولولا ذلك الأمر الشاق لما

حصل ذلك الفسق فلهذا حسن أن يقال : ﴿ فسق عن أمر ربه ﴾ . وقال قطرب : هو على حذف المضاف أي فسق عن ترك أمره . ثم عجب من حال من أطاع إبليس في الكفر . والمعاصي وخالق أمر الله فقال : ﴿ أفتتخذونه ﴾ كأنه قيل أعقيب ما وجد منه من إلا باء والفسق تتخذونه ﴿ وذريته أولياء من دوني ﴾ وتستبدلونهم بي وقصة آدم وإبليس سمعها قريش من أهل الكتاب وعرفوا صحتها فلذلك صح الاحتجاج بها عليهم وإن لم يعتقدوا كون محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ أي بئس البدل من الله . إبليس لمن استبدل به فأطاعه بدل طاعته . قال الجبائي . في الآية دلالة على أنه لا يريد الكفر ولا يخلقه في العبد وإلا لم يصح هذا الذم والتوبيخ ، وعورض بالعلم والداعي كما مر مراراً . قال أهل التحقيق : إن الداعي لكفار قريش إلى ترك دين محمد صلى الله عليه وسلم هو النخوة والعجب والترفع والتبكر ، وهذا شأن إبليس ومن تابعه . فكل غرضه من العلم أو العمل الفخر على الأقران والترفع على أبناء الزمان فإنه مقتدٍ بإبليس وذريته وهذا مقام صعب نسأل الله الخلاص منه . ثم

دل على فساد عقيدة أهل الشرك وبطلان طريقتهم بقوله : ﴿ ما أشهدتهم ﴾ فالأكثرون على أن الضمير للشركاء والمراد أنهم لو كانوا شركاء لي في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم يعني لو كان بعضهم شاهدين خلق بعض مشاركين لي فيه كقوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ لأمكن أن يكونوا شركاء لي في العبادة لكن الملزوم المساوي منتف فاللازم مثله يؤيد هذا التفسير قوله : ﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ أي متخذهم ﴿ عضداً ﴾ أعواناً فوضع المضلين موضع الضمير نعياً عليهم بالإضلال .

(222/474)

وقيل : الضمير للمشركين الذي التمسوا طرد فقراء المؤمنين ، والمراد أنهم ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة ، بل هم قوم كسائر الخلق نظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له : لست سلطان البلد ولا مدبر المملكة حتى تقبل منك كل اقتراحاتك . وقيل : أراد أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل من أحوال السعادة وضدّها لأنهم لم يكونوا شاهدين خلق العالم ، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله وبشرفهم ورفعتهم عند الخلق وبأضداد هذه الأحوال للفقراء . ومن قرأ

﴿ وما كنت ﴾ بفتح التاء فالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم وما ينبغي لك أن تغترّ بهم ، ثم عاد إلى تهويلهم بأحوال يوم القيامة وأضاف الشركاء إلى نفسه على معتقدهم توبيخاً لهم وفحوى الكلام : اذكر يا محمد أحوالهم وأحوال آلهتهم يوم القيامة إذ ﴿ يقول ﴾ الله لهم ﴿ نادوا ﴾ أي ادعوا من زعمتم أنهم ﴿ شركائي ﴾ فأهلتموهم للعبادة . قال المفسرون : أراد الجن ﴿ فدعوهم ﴾ لم يذكر في هذه الآية أنهم كيف دعوا تلك الشركاء ولعل المراد بما في الآية الأخرى ﴿ إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا ﴾ [إبراهيم : 21] ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ ولم يدفعوا عنهم ضرراً ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ عن الحسن ﴿ موبقاً ﴾ عداوة والمعنى عداوة هي في شدتها الهلاك كقولهم " لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفا " . وقال الفراء : البين الوصل والمراد جعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة . وفي الكشاف : الموبق المهلك وهو مصدر كالمورد أي جعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم مشتركاً هو مكان الهلاك والعذاب الشديد يهلكون فيه جميعاً . وجوز أن يريد بالشركاء الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم . وبالموبق البرزخ أي وجعلنا بينهم أمداً بعيداً يهلك فيه السائرون لفرط بعده لأنهم في

قعر جهنم وهم في أعلى الجنان . قوله : ﴿ فظنوا ﴾ قيل : علموا وأيقنوا : والأقرب أن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيغلب على ظنونهم أنهم مخالطوها واقعون فيها في تلك الساعة من غير تأخير ولا مهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها نظيره ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ [الفرقان : 12] ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي معدلاً إلى غيرها لأن الملائكة يسوقونهم إليها آخر الأمر . ولما ذكر أن الكفرة افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم ومتصرفاتهم وأجاب عن شبههم وأقوالهم الفاسدة وضرب الأمثال النافعة وحكى أهوال الآخرة قال : ﴿ ولقد صرفنا ﴾ وقد مر تفسيره في السورة المتقدمة .

(224/474)

وحين لم يترك الكفار جدالهم وكانوا أبداً يتعللون بالأعذار الواهية ختم الآية بقوله : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ يعني أن الأشياء التي يتأتى منها الجدل ان فصلتها واحداً بعد واحد فإن الإنسان أكثرها خصومة فقوله : ﴿ أكثر شيء ﴾ كقوله ﴿ أول مرة ﴾ وقد مر في " الأنعام " . وكثرة جدل الإنسان لسعة مضطربه فيما بين أوج الملكية إلى حضيض البهيمية ، فليس له في جانبي التصاعد والتسافل مقام معلوم . قال أهل البرهان :

قوله تعالى في سورة " بني إسرائيل " : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ [الاسراء : 94] وقال في هذه السورة بزيادة ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ لأن المعنى هناك ما منعهم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا قولهم : " أبعث الله بشراً رسولاً ، هلا بعث ملكاً " وجهلوا أن التجانس يورث التوانس . ومعناه في هذا الموضع ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا الإتيان بسنة الأوّلين وانتظار ذلك . وعن الزجاج : إلا طلب سنتهم وهو قولهم " إن كان هذا هو الحق " وزاد في هذه السورة ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ لأن قوم نوح أمروا بالاستغفار ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ [نوح : 10] وكذا قوم هود ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ [هود : 52] وقوم صالح ﴿ فاسغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾ [هود : 62] وقوم شعيب ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ [هود : 90] فلما خوفهم سنة الأوّلين أجرى المخاطبين مجراهم . والحاصل أنهم لا يقدمون على الإيمان والاستغفار إلا عند نزول عذاب الاستئصال أو عند تواصل أصناف البلاء عياناً . ومن قرأ بضمتين أراد أنواعاً جمع قبيل . قالت المعتزلة : في الآية دلالة على أنه لا مانع من الإيمان أصلاً . وقالت الأشاعرة : العلم بأنه لا يؤمن والداعي الذي يخلقه الله في الكافر يمنعانه ، فالمراد فقدان الموانع المحسوسة . ثم بين أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب

على المعصية لكي يؤمنوا طوعاً وبين أن مع هذه الأحوال ﴿ يجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا ﴾ ويزيلوا ويبطلوا ﴿ به الحق ﴾ من إدحاض القدم وهو إزلاقها ﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا ﴾ أي الذي أنذروا من العقاب أو إنذارهم ﴿ هزواً ﴾ موضع استهزاء . قال جار الله : جدالهم قولهم للرسل ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [يس : 15] ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ [المؤمنون : 24] وما أشبه ذلك . قال أهل العرفان : قوله : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ﴾ أي بالقرآن بدليل قوله : ﴿ أن يفقهوه ﴾ وبتذكير الضمير . ﴿ فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه ﴾ من الكفر والمعاصي فلم يتفكروا في عاقبتها ولم يتدبروا في جزائها متمسك القدرية . وإنما قال في السجدة ﴿ ثم أعرض عنها ﴾

(226/474)

[الآية : 22] لأن ما في هذه السورة في الكفار الأحياء الذين إيمانهم متوقع بعد ، أي ذكروا فأعرضوا عقب ذلك . وما في السجدة في الكفار الأموات بدليل قوله : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم ﴾ [السجدة : 12] أي ذكروا مرة بعد أخرى وزماناً بعد

زمان ثم أعرضوا عنها بالموت فلم يؤمنوا وانقطع رجاء إيمانهم . وقوله ﴿ إنا جعلنا ﴾ وقد مر تفسيره في " الأنعام " إلى قوله : ﴿ فلن يهتدوا إذا أبداً ﴾ متمسك الجبرية وقلما تجد في القرآن دليلاً لأحد الفريقين إلا ومعه دليل للفريق الآخر فهذا شبه ابتلاء من الله ، ولعله أراد بذلك إظهار مغفرته . ورحمته على عباده كما قال : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ قال المفسرون الضمير في قوله : ﴿ لو يؤاخذهم ﴾ لأهل مكة الذين أفرطوا في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والموعد يوم بدر . وأقول : لا يبعد أن يكون الضمير للناس في قوله : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس ﴾ والموعد القيامة ، والموئل الملجأ يقال وأل إذا نجا ، ووأل إليه إذا لجأ إليه . قال الإمام فخر الدين الرازي : إنا ذكر لفظ المبالغة في المغفرة دون الرحمة لأن المغفرة ترك الإضرار ، والرحمة إيصال النفع ، وقدرة الله تعالى تتعلق بالأول ، لأن ترك أضرار لا نهاية لها ممكن ولا تتعلق بالثاني لأن فعل ما لا نهاية له محال . أقول : هذا فرق دقيق لو ساعده النقل على أن قوله ذو الرحمة أيضاً لا يخلو عن مبالغة ، وكثيراً ما ورد في القرآن إنه غفور رحيم بلفظ المبالغة في الجانبين . وفي تعلق القدرة بترك غير المتناهي أيضاً نظر ، لأن مقدورات الله متناهية لا فرق في ذلك بين المبقي والمتروك . ثم أشار إلى قرى الأولين اعتباراً لغيرهم فقال : ﴿ وتلك القرى ﴾ فاسم الإشارة مبتدأ وفيه تعظيم لشأنهم أو تبعيد لزمانهم ومكانهم ، والقرى صفة وما بعده

خبره ولا يخفى حذف المضاف أي وتلك أصحاب القرى ﴿ أهلكناهم ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ تلك القرى ﴾ منصوباً بإضمار أهلكنا على

(227/474)

شريطة التفسير. ﴿ وجعلنا ﴾ لزمان إهلاكهم أو لإهلاكهم أو وقت هلاكم ﴿ موعداً ﴾ وعداً أو وقت وعد لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر، والمراد أنا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم ندع أن نضرب له وقتاً يمكنهم التوبة قبل ذلك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 435. 441 ﴾

(228/474)

وقال الشيخ سيد قطب:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

انتهى الدرس السابق بالحديث عن الباقيات الصالحات؛ فهنا يصله بوصف اليوم الذي يكون للباقيات الصالحات وزن فيه وحساب، يعرضه في مشهد من مشاهد القيامة.

ويتبعه في السياق بإشارة إلى ما كان من إبليس يوم أمر بالسجود لآدم ففسق عن أمر ربه للتعجيب من ابناء آدم الذين يتخذون الشياطين أولياء ، وقد علموا أنهم لهم أعداء ، وبذلك ينتهون إلى العذاب في يوم الحساب . ويعرج على الشركاء الذين لا يستجيبون لعبادهم في ذلك اليوم الموعود .

هذا وقد صرف الله في القرآن الأمثال للناس ليقوا أنفسهم شر ذلك اليوم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، وطلبوا أن يحل بهم العذاب أو أن يأتيهم الهلاك الذي نزل بالأمم قبلهم . وجادلوا بالباطل ليغلبوا به الحق ، واستهزأوا بآيات الله ورسله . ولولا رحمة الله لعجل لهم العذاب . .

هذا الشوط من مشاهد القيامة ، ومن مصارع المكذبين يرتبط بمحور السورة الأصيل في تصحيح العقيدة ، وبيان ما ينتظر المكذبين ، لعلهم يهتدون .

﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً . وعرضوا على ربك صفاً . لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ؛ ويقولون : يا ويلتنا ! مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟ ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب . مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير ، فكيف بالقلوب ، وتتبدى فيه الأرض عارية ،

وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد ، ولا جبال فيها ولا وديان . وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية .

(229/474)

ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التي لا تخبئ شيئاً ، ولا تخفي أحداً : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .

ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحداً إلى العرض الشامل : ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ . . هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد ، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة . . هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، لم يتخلف منها أحد ، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفي أحداً .

وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب . فكأنما المشهد حاضر اللحظة ، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه . ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه : ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ .

هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه . كأنما هو حاضر اللحظة ، لا مستقبل في ضمير الغيب في يوم الحساب .

وإننا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه ، والذل في الملامح .

وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب : ﴿ ولقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون : ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ !

وبعد إحياء المشهد واستحضاره بهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يعود إلى وصف ما هناك :

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق . وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة : ﴿ يقولون : يا ويلتنا . مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها ؟ ﴾ وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب ، وقد ضبط مكشوفاً لا يملك تفلتا ولا هرباً ، ولا مغالطة ولا مداورة : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ ولاقوا جزاء عادلاً : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ . .

(230/474)

هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم ، ولكنهم تولوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب . فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس :

﴿ وإذا قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ، وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجيء هنا للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون ذرية إبليس أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم .

واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل في تلبية دواعي المعصية والتولي عن دواعي الطاعة .

ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء ، وليس لديهم علم ولا لهم قوة . فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه . والله لا يتخذهم عضداً فتكون لهم قوة :

﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ . .

إنما هو خلق من خلق الله ، لا يعلمون غيبه ، ولا يستعين بهم سبحانه . .

﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ فهل يتخذ الله سبحانه غير المضلين عضداً ؟

وتعالى الله الغني عن العالمين ، ذو القوة المتين . . إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين

لتتبعها واستئصالها . فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنما يسلكون هذا المسلك توهماً منهم أن للشيطان علماً خفياً ، وقوة خارقة . والشيطان مضل ، والله يكره الضلال والمضلين . فلو أنه على سبيل الفرض والجدل كان متخذاً له مساعدين ، لما اختارهم من المضلين !

وهذا هو الظل الذي يراد أن يلقيه التعبير . .

ثم يعرض مشهد من مشاهد القيامة يكشف عن مصير الشركاء ومصير المجرمين :

﴿ ويوم يقول : نادوا شركائي الذين زعمتم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم . وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

.

(231/474)

إنهم في الموقف الذي لا تجدي فيه دعوى بلا برهان . والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ، ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا . . وإنهم لفي ذهول ينسون انها الآخرة ، فينادون . لكن الشركاء لا يجيبون ! وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً في الموقف المرهوب . وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها

هؤلاء ولا هؤلاء . . إنها النار ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ .

ويتطلع المجرمون ، فتمتلئ نفوسهم بالخوف والهلع ، وهم يتوقعون في كل لحظة أن يقعوا فيها .

وما أشق توقع العذاب وهو حاضر ، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص :

﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

ولقد كان لهم عنها مصرف ، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ، ولم يجادلوا في الحق الذي جاء به ، وقد ضرب الله لهم فيه الأمثال ونوعها لتشمل جميع الأحوال :

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ . .

ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بانه ﴿ شيء ﴾ وأنه أكثر شيء جدلا . ذلك كي يطامن الإنسان من كبريائه ، ويقلل من غروره ، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة .

وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً . بعد ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل .

ثم يعرض الشبهة التي تعلق بها من لم يؤمنوا وهم كثرة الناس على مدار الزمان والرسالات :

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ . .

فلقد جاءهم من الهدى ما يكفي للاهتداء . . ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم من هلاك استبعاداً لوقوعه واستهزاء أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم . وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون !

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل . فأخذ المكذبين بالهلاك كما جرت سنة الله في الأولين بعد مجيء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب . . كله من أمر الله . أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون :

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق . واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ﴾ .

والحق واضح . ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه . وهم حين يبطلون الخوارق ، ويستعجلون بالعذاب لا يبتغون اقتناعاً ، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون .

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه . إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ . .

فهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن ، ولا أن ينتفعوا به .

لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه ، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون

إليه . وقدر عليهم الضلال بسبب استهزائهم وإعراضهم فلن يهتدوا إذن ابداً . فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي .

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴾ . .

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم ، ويؤخر عنهم الهلاك الذي يستعجلون به ، ولكنه لن يهملهم :

﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ . .

موعد في الدنيا يحل بهم فيه شيء من العذاب . وموعد في الآخرة يوفون فيه الحساب .

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم . لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم ، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم ، فلم يأخذهم أخذ القرى ؛ بل جعل لهم موعداً آخر لا يخلفونه :

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا . وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ . .

فلا يغرنهم إمهال الله لهم ، فإن موعدهم بعد ذلك آت . وسنة الله لا تتخلف . والله لا يخلف الميعاد . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2273 . 2276 ﴾

(233/474)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ وهي الأبدان الجامدة عن السلوك ، وترى أرض النفوس بارزة خالية عن موانع الطريق ، وحشرنا جميع القوى البشرية ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ لكل قوة ولكل جوهر رتبة تليق بها ، فالروح في صف الأرواح ، والقلب في صف القلوب ، وكذا النفس وقواها . ﴿ ولقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ على هيئة الفطرة ، وقيل الأنبياء في صف ، والأولياء في صف ، والمؤمنون في صف ، والكافرون والمنافقون في الصف الأخير ﴿ لا يغادر صغيرة ﴾ هي كل تصرف في شيء بالشهوة النفسانية وإن كان من المباحات .

﴿ ولا كبيرة ﴾ هي التصرف في الدنيا على حبها فحب الدنيا رأس كل خطيئة ﴿ ما أشهدتهم ﴾ لأني لا أشهد إلا أوليائي كما قلت ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [الكهف : 53] ﴿ ورأى المجرمون النار ﴾ رأوا في الدنيا أسباب النار من الشهوات والآثام فوقعوا فيها ولم يجدوا ما يصرفهم عنها من الديانة والإيمان الحقيقي ، فإذا رأوا النار في الآخرة أيقنوا أنهم مواقعوها ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ فتارة مجادل في التوحيد وأخرى في النبوة ومرة في الأصول ومرة في الفروع ، ولهذا كثرت المذاهب والأديان والملل والنحل

ونسأل الصواب من ملهمه ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم ﴾ أسباب الهداية ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ إن كانوا مذنبين ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ من الأنبياء والأولياء والمؤمنين وهو جذبات العناية لأهل الهداية كقوله في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم " والله لولا الله ما اهتدينا " ﴿ أو ما يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ كقوله : " أنا نبي السيف أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " والله أعلم . (م) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 441 ﴾

(234/474)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشى ﴾ [الكهف : 28] أمر بصحبة الفقراء الذين انقطعوا لخدمة مولاهم ، وفائدتها منه عليه الصلاة والسلام تعود عليهم وذلك لأنهم عشاق الحضرة وهو صلى الله عليه وسلم مرآتها وعرش تجليها ومعدن أسرارها ومشرق أنوارها فمتى رأوه صلى الله عليه وسلم عاشوا ومتى غاب عنهم كئبوا وطاشوا ، وأما صحبة الفقراء بالنسبة إلى غيره صلى الله عليه وسلم ففائدتها تعود إلى من صحبهم فيهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، وقال عمرو المكي :

صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عيش أهل الجنة يتقلب معهم جليسيهم من الرضا إلى اليقين ومن اليقين إلى الرضا .

ولأبي مدين من قصيدته المشهورة التي خمسها الشيخ محيى الدين قدس سره :

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا . . .

هم السلاطين والسادات والأمرا

فأصحبهم وتأدب في مجالسهم . . .

وخل حظك مهما قدموك ورا

واستغنم الوقت واحضر دائماً معهم . . .

واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل . . .

لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

إلى أن قال :

وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم . . .

وجه اعتذارك عما فيك منك جرا

وقل عبيدكم أولى بصفحكم . . .

فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا

هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم . . .

فلا تخف دركاً منهم ولا ضرر

(235/474)

وعنى بهؤلاء السادة الصوفية وقد شاع إطلاق الفقراء عليهم لأن الغالب عليهم الفقر بالمعنى المعروف وفقرهم مقارن للصلاح وبذلك يمدح الفقر ، وأما إذا اقترن بالفساد فالعياذ بالله تعالى منه فمتى سمعت الترغيب في مجالسة الفقير فاعلم أن المراد منه الفقير الصالح ، والآثار متظافرة في الترغيب في ذلك فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما موقوفاً تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبار عبيد الله تعالى وتخرجوا من الكبر ، وفي "الجامع" الجلوس مع الفقراء من التواضع وهو من أفضل الجهاد ، وفي رواية أحبوا الفقراء وجالسوهم ، ومن فوائد مجالستهم إن العبد يرى نعمة الله تعالى عليه ويقنع باليسير من الدنيا ويأمن في مجالستهم من المداهنة والتملق وتحمل المن وغير ذلك ، نع إن مجالستهم خلاف ما جبلت عليه النفس ولذا عظم فضلها ، وقيل : إن في قوله تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين ﴾ الخ دون ودم مع الذين الخ إشارة إلى ذلك ولكن ذلك بالنسبة إلى غيره

صلى الله عليه وسلم فإن نفسه الشريعة فطرت على أحسن فطرة وطبعت على أحسن طبيعة .

(236/474)

وقال بعض أهل الأسرار : إنما قيل : واصبر نفسك دون واصبر قلبك لأن قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم كان مع الحق فأمر صلى الله عليه وسلم بصحبة الفقراء جهراً بجهر واستخلص سبحانه قلبه له سراً بسر ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ أي تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا وهي مذمومة مع الميل إليهم والتواضع لغناهم ، وقد جاء في الحديث " مِنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكاذبين لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر " ومضار مجالستهم كثيرة ، ولا تخفى على من علم فوائد مجالسة الفقراء ، وأدناها ضرراً تحمل منهم فإنه قلما يسلم الغني من المن على جليسه الفقير ولو بمجرد المجالسة وهو حمل لا يطاق ، ومن نوابغ الزمخشري طعم الآلاء أحلى من المن وهي أمر من الآلاء عند المن ، وقال بعض الشعراء :

لنا صاحب ما زال يتبع بره . . .

بمن وبذل المن بالبر لا يسوي

تركناه لا بغضاً ولا عن ملالة . . .

ولكن لأجل المن يستعمل السلوى

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : 28]

نهى عن إطاعة المحجوبين الغافلين وكانوا في القصة يريدون طرد الفقراء وعدم مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم لهم لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فلا يطاع عند أهل الإشارة الغافل المحجوب في كل شيء فيه هوى النفس ، وعدوا من إطاعته التواضع له فإنه يطلبه حالاً وإن لم يفصح به مقالاً ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] قالوا : فيه إشارة إلى عدم كتم الحق وإن أدى إلى إنكار المحجوبين وإعراض الجاهلين ، وعدم من ذلك في أسرار القرآن كشف الأسرار الإلهية وقال : إن العاشق الصادق لا يبالي تهتك الأسرار عند الأغيان ولا يخاف لومة لائم ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارهم فإن لذة العشق بذلك أتم ألا ترى قول القائل :

(237/474)

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر . . .

ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

وبح باسم من أهوى ودعني من الكنى . . .

فلا خير في اللذات من دونها ستر

ولايخفى أن هذا خلاف المنصور عند الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم فإنهم حافظوا على كتم الأسرار عن الأغيار وأوصوا بذلك ، ويكفي حجة في هذا المطلب ما نسب إلى زين العابدين رضي الله تعالى عنه وهو :

إني لأكتم من علمي جواهره . . .

كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقد تقدم في هذا أبو حسن . . .

إلى الحسين ووصى قبله الحسنا

فرب جوهر علم لو أبوح به . . .

لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمى . . .

يرون أقبح ما يأتونه حسناً

نعم المغلوب وكذا المأمور معذور وعند الضرورة يباح المحظور ، وما أحسن قول الشهاب القتيل :

وارحمتا للعاشقين تكلفوا . . .

ستر المحبة والهوى فضاح

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم . . .

وكذا دماء البائحين تباح

وإذا هم كتموا يحدث عنهم . . .

عند الوشاة المدمع السحاح

وما ذكر أولاً يكون مستمسكاً في الذب عن الشيخ الأكبر قدس سره وأضرابه فإنهم لم يبالوا في كشف الحقائق التي يدعونها بكونه سبباً لضلال كثير من الناس وداعياً للإنكار عليهم ، وقد استدل بعض الآية في الرد عليهم بناء على أن المعنى الحق ما يكون من جهته تعالى وما جاؤا به ليس من جهته سبحانه لأنه لا تشهد له آية ولا يصدقه حديث ولا يؤيده أثر .

وأجيب بأن ذلك ليس إلا من الآيات والأحاديث إلا أنه لا يستنبط منها إلا بقوة قاسية وأنوار إلهية فلا يلزم من عدم فهم المنكرين لها من ذلك لحرمانهم تلك القوة واحتجابهم عن هاتيك الأنوار عدم حقيتها فكم من حق لم تصل إليه أفهامهم .

واعترض بأن لو كان الأمر كذلك لظهر مثل تلك الحقائق في الصدر الأول فإن أرباب القوى القدسية والأنوار الإلهية فيه كثيرون والحرص على إظهار الحق أكثر .

وأجيب بأنه يحتمل أن يكون هناك مانع أو عدم مقتض لإظهار ما أظهر من الحقائق ، وفهي نوع دغدغة ولعله سيأتيك إن شاء الله تعالى ما عسى أن ينفعك هنا ، وبالجملة أمر الشيخ الأكبر وإضرابه قدس الله تعالى أسرارهم فيما قالوا ودونوا عندي مشكل لا سيما أمر الشيخ فإنه أتى بالداهية الدهياء مع جلالة قدره التي لا تنكر ، ولذا ترى كثيراً من الناس ينكروه عليه ويكرون ، وما ألطف ما قاله فرق جنين العصابة الفاروقية والراقي في مراقي التنزلات الموصلية في قصيدته التي عقد اكسيرها في مدح الكبريت الأحمر فغدا شمساً في آفاق مدائح الشيخ الأكبر وهو قوله :

ينكر المرء منه أمراً فينها . . .

ه نهاه فينكر الإنكارا

تنثني عنه ثم تثنى عليه . . .

ألسن تشبه الصحاة سكارى

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ قيل هي إشارة إلى أنهم يحلون حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الأحدية ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ إشارة إلى أنهم متصفون بصفات بهيجة حسنة نضرة موجبة للسرور ﴿ مِن سُندُسٍ ﴾ الأحوال

والمواهب وعبر عنها بالسندس لكونها ألطف ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ الأخلاق والمكاسب ، وعبر عنها بالاستبرق لكونها أكثف

(239/474)

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الارائك ﴾ [الكهف : 31] قيل أي أرائك الأسماء الإلهية ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ الخ فيه من تسلية الفقراء المتوكلين على الله تعالى وتنبيه الأغنياء المغرورين ما فيه ، وقال النيسابوري : الرجلان هما النفس الكافرة والقلب المؤمن ﴿ جَعَلْنَا لِاحَدِهِمَا ﴾ وهو النفس ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ هما الهوى والدنيا ﴿ مِّنْ أعناب ﴾ الشهوات ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ حب الرياسة ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف : 32] من التمتعات البهيمية ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ [الكهف : 33] من القوى البشرية والحواس ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ من أنواع الشهوات ﴿ وَهُوَ يحاوره ﴾ أي يجاذب النفس ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً ﴾ أي ميلاً " وَأَعَزُّ نَفَراً " [الكهف : 34] من الأوصاف المذمومة ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [الكهف : 35] في الاستمتاع بجنة الدنيا على وفق الهوى ﴿ لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ [الكهف : 36] قال ذلك غروراً بالله تعالى وكرمه ﴿

فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 42] من العمر وحسن الاستعداد انتهى .

(240/474)

وقد التزم هذا النمط في أكثر الآيات ولا بدع فهو شأن كثير من المؤولين ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ قال ابن عطاء : للطالبين له سبحانه لا للجنة ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف : 44] للمريدين ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ [الكهف : 46] قيل هي المحبة الدائمة والمعرفة الكاملة والأنس بالله تعالى والإخلاص في توحيده سبحانه والانفراد به جل وعلا عن غيره فهي باقية للمتصف بها وصالحة لا إعوجاج فيها وهي خير المنازل ، وقد تفسر بما يعمها وغيرها من الأعمال الخالصة والنيات الصادقة ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] قال ابن عطاء : دل سبحانه بهذا على إظهار جبروته وتمام قدرته وعظيم عزته ليتأهب العبد لذلك الموقف ويصلح سريرته وعلانيته لخطاب ذلك المشهد وجوابه ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ إخبار عن جميع بني آدم وإن كان المخاطب في قوله سبحانه ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ الخ بعضهم ، ذكر أنه يعرض كل صنف صفاً ، وقيل الأنبياء عليهم السلام صف والأولياء صف وسائر المؤمنين صف والمنافقون

والكافرن صف وهم آخر الصفوف فيقال لهم : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف : 48] على وصف الفطرة الأولية عاجزين منقطعين إليه سبحانه ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ أي الكتب فيوضع كتاب الطاعات للزهاد والعباد وكتاب الطاعات والمعاصي للعموم وكتاب المحبة والشوق والعشق للخصوص ، ولبعضهم :

وأودعت الفؤاد كتاب شوق . . .

سيشر طيه يوم الحساب

(241/474)

﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ [الكهف : 49] قال أبو حفص : أشد آية في القرآن على قلبي هذه الآية ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : 51] قيل أي ما أشهدتهم أسرار ذلك والدقائق المودعة فيه وإنما أشهد سبحانه ذلك أحباءه وأولياءه ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : 54] لأنه مظهراً الأسماء المختلفة والعالم الأصغر الذي انطوى فيه العالم الأكبر ، هذا والله تعالى أعلم بأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(242/474)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/475)

الجزء الخامس والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 60 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 70 ﴾ من نفس السورة

(4/475)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم الكلام على البعث ، واستدل عليه بابتداء الخلق ، ثم ذكر بعض أحواله ، ثم عقبه بما ضرب لذلك وغيره من الأمثال ، وصرف من وجوه الاستدلال ، وختم ذلك بأنه يمهل عند المساءة ، عقب ذلك بأنه كذلك يفعل عند المسرة ، فلكل شيء عنده كتاب ، وكل

قضاء بقدر وحساب ، فذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام وما اتفق له في طلبه ، وجعله سبحانه له الحوت آية وموعداً للقائه ، ولو أراد سبحانه لقرب المدى ولم يحوج إلى عناء ، مع ما فيها من الخارق الدال على البعث ، ومن الدليل على أن من ثبت فضله وعلمه لا يجوز أن يعترض عليه إلا من كان على ثقة مما يقوله من ربه ولا أن يمتحن ، ومن الإرشاد إلى ذم الجدل بغير علم ، ووجوب الانقياد للحق عند بيانه ، وظهور برهانه ، ومن إرشاد من استنكف أن يجالس فقراء المؤمنين بما اتفق لموسى عليه السلام من أنه – وهو كليم الله – أتبع الخضر عليه السلام ليقتبس من علمه ، ومن تبكيت اليهود بقولهم لقريش لما أمروهم بسؤال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم " إن لم يخبركم فليس بنبي " الموهم للعرب الذين لا يعلمون شيئاً أن من شرط النبي أن لا يخفى عليه شيء ، مع ما يعلمون من أن موسى عليه السلام خفي عليه جميع ما فعله الخضر عليه السلام ، وإلى نحو هذا أشار الخضر عليه السلام بقوله إذ وقع العصفور على حرف السفينة ونقر من البحر نقرة أو نقرتين " ما نقص علمي وعلمك يا موسى من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر "

(5/475)

وبإعلامهم بما يعلمونه من أن موسى عليه السلام جعل نفسه تابعاً للخضر عليه السلام ، تكذيباً لهم في ادعائهم أنه ليس أحد أعلى من موسى عليه السلام في وصف من الأوصاف ، وأنه لا ينبغي لأحد اتباع غيره ، ومن جوابهم عما لعلهم يقولون للعرب بهتاً وحسداً " لو كان نبياً ما قال : أخبركم غداً ، وتأخر عن ذلك " بما اتفق لموسى في وعده الخضر عليهما السلام بالصبر ، وبما خفي عليه مما اطلع عليه الخضر عليهما السلام ، فقال تعالى عاطفاً على قوله سبحانه ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكر لهم حين ﴿ قال موسى ﴾ أي ابن عمران المرسل إلى بني إسرائيل ، أي قوله الذي كان في ذلك الحين ﴿ لفتاه ﴾ يوشع بن نون عليهما السلام : ﴿ لا أبرح ﴾ أي لا أزال سائراً في طلب العبد الذي أعلمني ربي بفضله – كما دل عليه ما يأتي ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أي ملتقاهما وموضع اختلاطهما الذي سبق إليه فهمي ، فتعينت البداءة به فألقاه ثَمّ ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ إن لم أظفر بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعداً لي في لقائه ؛ والحقب – قال في القاموس – ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة أو السنون – انتهى .

وما أنسب التوقيت بمجمع بحري الماء بمجمع بحري العلم وتزودهما بالنون الذي قرنه الله بالقلم وما يسطرون ، وعين الحياة لأن العلم حياة القلوب ، فسارا وتزودا حوتاً مشوياً في مكتل كما أمر به ، فكانا يأكلان منه إلى أن بلغا المجمع ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما ﴾ أي البحرين ، فلم يكن هناك بين أصلاً لصيرورتهما شيئاً واحداً ﴿ نسيا حوتهما ﴾ فلم يعلم

موسى عليه السلام شيئاً من حاله ونسي أن يسأل عنه ، وعلم يوشع عليه السلام بعض حاله فنسي أن يذكر ذلك له ﴿ فاتخذ ﴾ أي الحوت معجزة في معجزة ﴿ سبيله ﴾ أي طريقه الواسع الواضح ﴿ في البحر سرباً ﴾ أي خرقاً في الماء غير ملتئم ، من السرب الذي هو جحر الوحشي ، والحفير تحت الأرض ، والقناة يدخل منها الماء الحائط .

(6/475)

وقد ورد في حديثه في الصحيح أن الله تعالى أحياه وأمسك عن موضع جريه في الماء ، فصار طاقاً لا يلتئم .

ويوشع عليه السلام ينظر ذلك ، وكأن المجمع كان ممتداً ، فظن موسى عليه السلام أن المطلوب أمامه أو ظن أن المراد مجمع آخر فسار ﴿ فلما جاوزا ﴾ أي موسى وفتاه عليهما السلام ذلك الموضع من المجمع تعب ، ولم يتعب حتى جاوز المكان الذي أمر به معجزةً أخرى ، فلما جاع وتعب ﴿ قال لفتاه ءاتنا ﴾ أي أحضر لنا ﴿ غداءنا ﴾ أي لنتقوى به على ما حصل لنا من الإعياء ، ولذلك وصل به قوله تعالى : ﴿ لقد لقينا من سفرنا ﴾ أي الذي سافرناه في هذا اليوم خاصة ، ولذلك أشار إليه بأداة القرب فقال تعالى : ﴿ هذا نصباً ﴾ وكان الحوت زادهم فلم يكن معه ، فكأنه قيل : فما كان عن أمره ؟ فقيل :

﴿ قال ﴾ لموسى عليه السلام معجباً له : ﴿ أرءيت ﴾ ما دهاني ؟ ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ التي بمجمع البحرين ﴿ فإني ﴾ أي بسبب أني ﴿ نسيت الحوت ﴾ أي نسيت أن أذكر لك أمره الذي كان هناك ؛ ثم زاد التعجيب من هذا النسيان بالاعتراض بين الإخبار به مجملاً وبين تفصيل أمره وبإيقاع النسيان عليه ثم على ذكره فقال تعالى : ﴿ وما أنسانيه ﴾ مع كونه عجيباً ﴿ إلا الشيطان ﴾ بوساوسه .

(7/475)

ولما كان المقام للتدريب في عظيم تصرف الله تعالى في القلوب بإثبات العلم ونفيه وإن كان ضرورياً ، ذكر نسيانه ، ثم أبدل من ضميره قوله تعالى : ﴿ أن أذكره ﴾ لك فإنه عاش فانساب من المكتل في البحر ﴿ واتخذ سبيله ﴾ أي طريقه الذي ذهب فيه ﴿ في البحر عجباً ﴾ وذكره له الآن مانع من أن يكون للشيطان عليه سلطان على أن هذا الإنساء ليس مفوتاً لطاعة ، بل فيه ترقية لهما في معارج المقامات العالية لوجدان التعب بعد المكان الذي فيه البغية ، وحفظ الماء منجاباً على طول الزمان وغير ذلك من آيات الإيقان ، وقوله تعالى ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ [النحل : 100] مبين أن السلطان الحمل على المعاصي ، وقد كان في هذه القصة خوارق حياة الحوت وإيجاد ما كان أكل منه ، وإمساك

الماء عن مدخله ، وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم نفسه أو أتباعه ببركته مثل ذلك .

(8/475)

أما إعادة ما أكل من الحوت المشوي – وهو جنبه – فقد روى البيهقي في أواخر دلائل النبوة عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ ، قال : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الحجة التي حجها حتى إذا كنا ببطن الروحاء – فذكر قصة المرأة التي أبرأ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولدها من الجنون إلى أن قال : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حجته انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها ، فأمر بأخذ تلك الشاة منها ثم قال : يا أسيم – وكان إذا دعاه رخمه ! ناولني ذراعاً ، وكان أحب الشاة إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقدمها ، ثم قال : يا أسيم ! ناولني ذراعاً ! فناولته ، ثم قال : يا أسيم ! ناولني ذراعاً ! فقلت : يا رسول الله ! إنما هما ذراعان وقد ناولتك ، فقال : والذي نفسي بيده لو سكتَّ ما زلت تناولني ذراعاً ما قلت لك : ناولني ذراعاً " فقد أخبر ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لو سكت

أوجد الله لها ذراعاً ثم ذراعاً وهكذا ، وقوله الحق الذي لا فرق بينه وهو في عالم الغيب وبين ما وجد في عالم الشهادة .

(9/475)

وأما حياة الحوت المشوي فقد مضى عند ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] ما هو أكبر من ذلك في قصة الشاة المشوية المسمومة ، وهو أن ذراعها أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه مسموم فهو أعظم من عود الحياة من غير نطق ، وكذا حنين الجذع ، وسلام الحجر ، وتسبيح الحصا ، وتأمين أسكفة الباب وحوائط البيت ونحو ذلك أعظم من عود الحياة إلى ما كان حياً ، فقد روى البيهقي في الدلائل عن عمرو بن سواد قال : قال لي الشافعي : ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقلت : أعطى عيسى عليه السلام إحياء الموتى ؟ فقال : أعطى محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم الجذع - الذي كان يخطب إلى جنبه حتى هيىء له المنبر ، فلما هيىء له المنبر حن الجذع حتى سمع صوته - فهذا أكبر من ذاك - انتهى .

على أنه قد تقدم في آل عمران وفي آخر البقرة في قصة إبراهيم عليه السلام أشياء من إحياء الموتى له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولبعض أمته .

وأما آية الماء فمرجعها إلى صلابته ، ولا فرق بين جموده بعدم الالتئام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق ، وقد روى البيهقي في ذلك ما فيه آية من الإحياء بسند منقطع عن أنس ـ رضى الله عنهم ـ قال : كنا في الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأتته امرأة مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ فأضاف المرأة إلى النساء وأضاف ابنها إلينا ، فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة فمرض أياماً ثم قبض فغمضه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأمر بجهازه ، فلما أردنا أن نغسله قال : ائت أمه فأعلمها ، فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ، ثم قالت : اللهم إني أسلمت لك طوعاً ، وخلعت الأوثان زهداً ، وهاجرت إليك رغبة ، اللهم لا تشمت بي عبدة الأوثان ، ولا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحملها ، قال : فوالله ما تقضي كلامها حتى حرك قدميه ، وألقى الثوب عن وجهه ، وعاش حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى هلكت أمه ؛ ثم جهز عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهم ـ – يعني جيشاً ، واستعمل عليه العلاء بن الحضرمي ، قال : وكنت في غزاته ، فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد تدروا بنا ، فعفوا آثار الماء ، قال : وكان حر شديد ، فجهدنا العطش ودوابنا ، وذلك

يوم الجمعة فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ، ثم مد يده وما نرى في السماء شيئاً ، فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً فأفرغت حتى ملأت الغدر والشعاب ، فشربنا وسقينا واستقينا ثم أتينا عدونا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة ، فوقف على الخليج وقال : يا علي يا عظيم يا حليم يا كريم ! ثم قال : أجيزوا باسم الله ! فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا ، فأصبنا العدو غيلة فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا .

(11/475)

وأخبرنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل الصفار ن الحسن بن علي بن عفان أنبأنا ابن نمير عن الأعمش عن بعض أصحابه ، قال : انتهينا إلى دجلة وهي مادة ، والأعاجم خلفها ، فقال رجل من المسلمين : بسم الله ، ثم أقحم فرسه فاندفع على الماء ، فقال الناس : بسم الله بسم الله ، ثم اقتحموا فارتفعوا على الماء ، فلما نظر إليهم الأعاجم قالوا : ديوان ديوان ، ثم ذهبوا على وجوههم ، فما فقدوا إلا قدحاً كان معلقاً بعذبة سرج ، فلما خرجوا أصابوا الغنائم فاقتسموها .

أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي أنا أبو محمد عبد الله بن محمد السمذي ثنا أبو العباس

السراج ثنا الفضل بن سهل وهارون بن عبد الله قالا : ثنا سليمان بن المغيرة أن أبا مسلم الخولاني جاء إلى الدجلة وهي ترمي بالخشب من مدها ، فمشى على الماء والتفت إلى أصحابه وقال : هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعو الله – قال البيهقي : هذا إسناد صحيح .

(12/475)

وفي هذا الأمر من هذه القصة قاصمة للسائلين والآمرين لهم بالسؤال ، لأن المراد – والله أعلم – أن هذا الأمر وقع لنبي هؤلاء المضلين ، فمر قريشاً أن يسألوهم عن هذه القصة ، فإن أخبروهم عنها بمثل ما أخبرتهم فصدقوهم ، لزمهم أن يؤمنوا بالبعث لأمر هذا الحوت الذي أحياه الله بعد أن كان مشوياً وصار كثير منه في البطون ، وإن لم يصدقوهم في هذا وصدقوهم في غيره مما يتعنتون به عليك فهو تحكم ، وإن كانوا يتهمونهم في كل أمر كان سؤالهم لهم عبثاً ، ليس من أفعال من يعقل ، فكأنه قيل : فما قال موسى حينئذ ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ منبهاً على أن ذلك ليس من الشيطان ، وإنما هو إغفال من الله تعالى بغير واسطة ليجدا العلامة التي أخبره الله بها كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " إني لأنسى – أي ينسيني الله تعالى – لأسن " ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من فقد الحوت

﴿ ما كنا نبغ ﴾ أي نريد من هذا الأمر المغيب عنا ، فإن الله تعالى جعله موعداً لي في لقاء الخضر ﴿ فارتدا على ءاثارهما ﴾ يقصانها ﴿ قصصاً ﴾ وهذا يدل على أن الأرض كانت رملاً ، لا علم فيها ، فالظاهر – والله أعلم – أنه مجمع النيل والملح الذي عند دمياط ، أو رشيد من بلاد مصر ، ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركبا في سفينته للتغذية – كما في الحديث ، فإن الطير لا يشرب من الملح ، ومن المشهور في بلاد رشيد أن الأمر كان عندهم ، وأن عندهم سمكاً ذاهب الشق يقولون : أنه من نسل تلك السمكة – والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 485. 490 ﴾

(13/475)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أنسانيه ﴾ بضم الهاء حفص والمفضل ، وقرأ عليّ بالإمالة مع كسر الهاء : ﴿ نبغي ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير وسهل ويعقوب ، وافق أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وعلي في الوصل . الباقون بحذف الياء في الحالين اتباعاً لخط المصحف . ﴿ رشداً ﴾ بفتحتين : أبو عمرو ويعقوب . بضمتين : ابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان . الباقون ﴿

رشداً ﴾ بضم الراء وسكون الشين . ﴿ معي ﴾ بفتح الياء : حفص ﴿ ستجدني إن ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع ﴿ فلا تسألني ﴾ بنون التأكيد الثقيلة وإثبات الياء : أبو جعفر ونافع وابن عامر . بحذف الياء : ابن مجاهد عن ابن ذكوان والأحسن إثباتها لأنه شاذ عن أهل الشام . الآخرون بنون الوقاية وحذف الياء . ﴿ ليغرق أهلها ﴾ بياء الغيبة وفتحها مع فتح الراء ورفع الأهل : حمزة وعلي وخلق . الباقون بتاء الخطاب مضمومة وكسر الراء من الإغراق وبنصب الأهل ﴿ زاكية ﴾ على " فاعله " : أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب . الآخرون ﴿ زكية ﴾ على " فعيلة " ﴿ نكراً ﴾ بضمتين حيث كان : أبو جعفر ونافع غير إسماعيل وبان ذكوان وسهل ويعقوب وأبو بكر وحماد ﴿ فلا تصحبني ﴾ من الصحبة : روح وزيد . الآخرون من المصاحبة . ﴿ من لدني ﴾ خفيفاً : أبو جعفر ونافع وأبو بكر وحماد والمفضل . ﴿ يضيفوهما ﴾ من الإضافة : المفضل ﴿ لتخذت ﴾ من التخذ مدغماً : أبو عمرو وسهل ويعقوب ، وقرأ ابن كثير بالإظهار . الباقون : ﴿ لاتخذت ﴾ من الاتخاذ . وقرأ حفص والمفضل والأعشى والبرجمي مظهراً ﴿ يبدلهما ﴾ من التبديل وكذلك في سورة التحريم ونون والقلم : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو . الآخرون من الإبدال ﴿ رحماً ﴾ بضمتين : ابن عامر ويزيد وعباس وسهل ويعقوب . الباقون بسكون الحاء .

الوقوف : ﴿ حقباً ﴾ 5 ﴿ سرباً ﴾ 5 ﴿ غداءنا ﴾ ز لانقطاع النظم مع صدق اتصال المعنى ﴿ نصباً ﴾ 5 ﴿ الحوت ﴾ ز لتمام استفهام التعجب مع اتحاد الكلام وكون الواو حالاً ﴿ أن أذكره ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال في البحر وقفة . قيل : عليه تم كلام يوشع ثم ابتدأ موسى فقال عجباً أي أعجب لذلك عجباً والوصل أجوز أي سبيلاً عجباً أو اتخاذاً ﴿ عجباً ﴾ 5 ﴿ نبغ ﴾ قف قد قيل : لتمام قول أحدهما وابتداء فعلهما والوجه الوصل لعطف اللفظ وسرعة الرجوع على الفور ﴿ قصصاً ﴾ 5 لا لاتصال النظم واتحاد الحال ﴿ علماً ﴾ 5 ﴿ رشداً ﴾ 5 ﴿ صبراً ﴾ 5 ﴿ خبراً ﴾ 5 ﴿ أمراً ﴾ 5 ﴿ ذكراً ﴾ 5 ﴿ فانطلقا ﴾ وقفة لأن حتى إذا للابتداء ﴿ حرقها ﴾ ط ﴿ أهلها ﴾ ج لانقطاع النظم واتحاد القائل ﴿ إمراً ﴾ 5 ﴿ صبراً ﴾ 5 ﴿ عسراً ﴾ 5 ﴿ فانطلقا ﴾ وقفة لما مر ﴿ فقتله ﴾ لا لأن " قال " جواب " إذا " ﴿ لغير نفس ﴾ ط للفصل بين الاستخبار والإخبار ﴿ نكراً ﴾ 5 ﴿ صبراً ﴾ 5 ﴿ فلا تصاحبني ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ عذراً ﴾ 5 ﴿ فانطلقا ﴾ وقفة ﴿ فأقامه ﴾ ط ﴿ أجراً ﴾ 5 ﴿ وبينك ﴾ ج ﴿ صبراً ﴾ 5 ﴿ غصباً ﴾ 5 ﴿ وكفراً ﴾ ، ج للعطف مع الآية ﴿ رحماً ﴾ 5 ﴿ صالحاً ﴾ ج لما قلنا ﴿ من ربك ﴾ ج ﴿ عن أمري

﴿ ط ﴿ صبراً ﴾ ، لانقطاع القصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 443.442 ﴾

(15/475)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي أن موسى عليه السلام ذهب إلى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم ، وهذا وإن كان كلاماً مستقلاً في نفسه إلا أنه يعين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين .

أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار ، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر ، وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا ، وهذا ليس بشيء لأنه لا

يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع ، كما أن كون موسى عليه السلام نبياً صادقاً من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمتين .

المسألة الثانية :

أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة .

(16/475)

وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس : إن نوفا ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس صاحب موسى بن عمران ، وإنما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب ، وقيل هو كان نبياً قبل موسى بن عمران فقال ابن عباس كذب عدو الله ، واعلم أنه كان ليوسف عليه السلام ولدان أفرائيم وميشا فولد افرائيم نون وولد نون يوشع بن نون وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته ، وأما ولد ميشا فقيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران ، ويزعم أهل التوراة أنه هو الذي طلب هذا العلم ليتعلم والخضر هو الذي خرق

السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، وموسى بن ميشا معه ، هذا هو قول جمهور اليهود ، واحتج القفال على صحة قولنا إن موسى هذا هو صاحب التوراة ، قال إن الله تعالى ما ذكر موسى في كتابه إلا وأراد به صاحب التوراة فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ، ولو كان المراد شخصاً آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وإزالة الشبهة ، كما أنه لما كان المشهور في العرف من أبي حنيفة رحمه الله هو الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم وأردنا به رجلاً سواء لقيدناه مثل أن نقول قال أبو حنيفة الدينوري ، وحجة الذين قالوا : موسى هذا غير صاحب التوراة أنه تعالى بعد أن أنزل التوراة عليه وكلمه بلا واسطة وحج خصمه (1) بالمعجزات القاهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر أكابر الأنبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك لتعلم الاستفادة ، وأجيب عنه بأنه لا يبعد أن العالم الكامل في أكثر العلوم يجهل بعض الأشياء فيحتاج في تعلمها إلى من دونه وهذا أمر متعارف معلوم .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في فتى موسى فالأكثرون على أنه يوشع بن نون ، وروى القفال عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي هريرة عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فتاه يوشع بن نون .

والقول الثاني : أن فتى موسى أخو يوشع وكان صاحباً لموسى عليه السلام في هذا السفر .

---

(1) قوله وحج خصمه يريد بخصمه فرعون وما ذكره اللّه تعالى في كتابه من الآيات في محاجة فرعون . هذا ولموسى عليه السلام محاجة مع آدم عليه السلام في الأكل من الشجرة ولكن كانت الحجة لآدم على موسى ولذلك

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «فحج آدم موسى» .

(17/475)

والقول الثالث : روى عمرو بن عبيد عن الحسن في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لفتاه لا أَبْرَحُ ﴾ قال يعني عبده ، قال القفال واللغة تحتمل ذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ، وليقل فتاي وفتاتي " وهذا يدل على أنهم كانوا يسمون العبد فتى والأمة فتاة .

المسألة الرابعة :

قيل إن موسى عليه السلام لما أعطي الألواح وكلمه الله تعالى قال : من الذي أفضل مني واعلم ؟ فقيل عبد لله يسكن جزائر البحر وهو الخضر ، وفي رواية أخرى أن موسى عليه السلام لما أوتي من العلم ما أوتي ظن أنه لا أحد مثله فأتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال : يا موسى انظر إلى هذا الطير الصغير يهوي إلى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع

فأنت فيما أوتيت من العلم دون قدر ما يحمل هذا الطير بمنقاره من البحر ، قال الأصوليون : هذه الرواية ضعيفة لأن الأنبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لا نهاية لها وأن يعلموا أن معلومات الخلق يجب كونها متناهية وكل قدر متناه فإن الزائد عليه ممكن فلا مرتبة من مراتب العلم إلا وفوقها مرتبة ولهذا قال تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ وإذا كانت هذه المقدمات معلومة فمن المستبعد جداً أن يقطع العاقل بأنه لا أحد أعلم مني (1) لا سيما موسى عليه السلام مع علمه الوافر بحقائق الأشياء وشدة براءته عن الأخلاق الذميمة كالعجب والتيه والصلف .

والرواية الثالثة : قيل إن موسى عليه السلام سأل ربه : أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني ، قال فأي عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى .

قال : فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردي ، فقال موسى عليه السلام : إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه ، فقال : اعلم منك الخضر ، قال فأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة .

---

(1) يعني أنه لا يجرأ إنسان على ادعاء انتهاء العلم إليه إلا إذا سلب نعمة العقل ، وكان الأنسب أن يقول (منه) .

قال يا رب : كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك .

فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر إلى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر فرجع من ذلك الموضع إلى الموضع الذي طفر الحوت فيه إلى البحر فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال : وأني بأرضك السلام ! فعرفه نفسه ، فقال : يا موسى أنا على علم علمني الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمك الله لا أعلمه أنا ، فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر : ما ينقص علمي وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر أقول نسبة ذلك القدر القليل الذي أخذه ذلك العصفور من ذلك الماء إلى كلية ماء البحر نسبة متناه إلى متناه ونسبة معلومات جميع المخلوقات إلى معلومات الله تعالى نسبة متناه إلى غير متناه ، فأين إحدى النسبتين من الأخرى والله العالم بحقائق الأمور ، ونرجع إلى التفسير ، أما قوله تعالى : ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ قال الزجاج قوله : ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ ليس معناه لا أزول ، لأنه لو كان كذلك لم يقطع أرضاً ، أقول يمكن أن يجاب عنه بأن الزوال عن الشيء عبارة عن تركه والإعراض عنه ، يقال : زال فلان

عن طريقته في الجود أي تركها ، فقوله : لا أبرح بمعنى لا أزول عن السير والذهاب بمعنى لا أترك هذا العمل وهذا الفعل وأقول المشهور عند الجمهور أن قوله لا أبرح معناه لا أزول ، والعرب تقول : لا أبرح ولا أزال ولا انفك ولا افتأ بمعنى واحد .

قال القفال : وقالوا أصل قولهم لا أبرح من البراح كما أن أصل لا أزال من الزوال .

(19/475)

يقال : زال يزال ويزول كما يقال دام يدام ويدوم ومات يمات ويموت إلا أن المستعمل في هذه اللفظة يزال فقوله : لا أبرح أي أقيم لأن البراح هو العدم فقوله لا أبرح يكون عدماً للعدم فيكون ثبوتاً ، فقوله : لا أزال ولا أبرح يفيد الدوام والثبات على العمل فإن قيل : إذا كان قوله لا أبرح بمعنى لا أزال فلا بد من الخبر ، قلنا : حذف الخبر لأن الحال والكلام يدلان عليه ، أما الحال فلأنها كانت حال سفر ، وأما الكلام فلأن قوله : ﴿ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ غاية مضروبة تستدعي شيئاً هي غاية له فيكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ويحتمل أن يكون المعنى لا أبرح مما أنا عليه يعني ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول لا أبرح المكان .

وأما مجمع البحرين فهو المكان الذي وعد فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو

ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وقيل غيره وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فإن صح بالخبر الصحيح شيء فذاك وإلا فالأولى السكوت عنه ، ومن الناس من قال : البحران موسى والخضر لأنهما كانا بحري العلم وقرىء مجمع بكسر الميم ثم قال أو أمضى حقباً أي أسير زماناً طويلاً وقيل الحقب : ثمانون سنة وقد تكلمنا في هذا اللفظ في قوله تعالى :

(20/475)

﴿ لابثين فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ [النبأ : 23] وحاصل الكلام أن الله عز وجل كان أعلم موسى حال هذا العالم ، وما أعلمه موضعه بعينه ، فقال موسى عليه السلام : لا أزال أمضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحراً واحداً أو أمضي دهراً طويلاً حتى أجد هذا العالم ، وهذا إخبار من موسى بأنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لأجل طلب العلم وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ والمعنى فانطلقا إلى أن بلغا مجمع بينهما والضمير في قوله بينهما إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان ، الأول : مجمع بينهما أي مجمع البحرين وهو كأنه إشارة إلى (قول) موسى لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أي فحقق (الله

) ما قاله .

والقول الثاني : أن المعنى فلما بلغ الموضع الذي يجتمع (فيه) موسى وصاحبه الذي كان يقصده لأن ذلك الموضع الذي وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذي كان يسكنه الخضر أو يسكن بقربه ولأجل هذا المعنى لما رجع موسى وفتاه بعد أن ذكر الحوت صار إليه وهو معنى حسن ، والمفسرون على القول الأول ، ثم قال تعالى : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : الروايات تدل على أنه تعالى بين لموسى عليه السلام أن هذا العالم موضعه مجمع البحرين إلا أنه تعالى جعل انقلاب الحوت حياً علامة على مسكنه المعين كمن يطلب إنساناً فيقال له : إن موضعه محلة كذا من الري فإذا انتهيت إلى المحلة فسل فلاناً عن داره وأين ما ذهب بك فاتبعه فإنك تصل إليه فكذا ههنا قيل له إن موضعه مجمع البحرين فإذا وصلت إليه رأيت الحوت انقلب حياً وطفر إلى البحر ، فيحتمل أنه قيل له فهنالك موضعه ويحتمل أنه قيل له فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت فإنك تجده .

(21/475)

إذا عرفت هذا فنقول : إن موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة إلى البحر وسارت وفي كيفية طفرها روايات أيضاً قيل إن الفتى كان يغسل السمكة لأنها كانت مملحة فطفرت وسارت وقيل إن يوشع توضأ في ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب في الماء وقيل انفجر (ت) هناك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين إلى السمكة فحييت وطفرت إلى البحر فهذا هو الكلام في صفة الحوت .

البحث الثاني : المراد من قوله : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ أنهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول إلى المطلوب ، فإن قيل انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلاً على الوصول إلى المطلوب فكيف يعقل حصول النسيان في هذا المعنى ؟ أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيراً فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم فجاز حصول النسيان .

وعندي فيه جواب آخر وهو أن موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضروري تنبيهاً لموسى عليه السلام على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر ، أما قوله : ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر سَرَباً ﴾ ففيه وجوه .

الأول : أن يكون التقدير سرب في البحر سرباً إلا أنه أقيم قوله فاتخذ مقام قوله سرب والسرب هو الذهاب ومنه قوله : ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ [الرعد : 10] .

(22/475)

الثاني : أن الله تعالى أمسك إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق والكوة حتى سرى الحوت فيه فلما جاوز أي موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول إلى الصخرة بسبب النسيان المذكور وذهبا كثيراً وتعبا وجاعا : ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً قَالَ ﴾ الفتى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة ﴾ الهمزة في أرأيت همزة الاستفهام ورأيت على معناه الأصلي وقد جاء هذا الكلام على ما هو المتعارف بين الناس فإنه إذا حدث لأحدهم أمر عجيب قال لصاحبه أرأيت ما حدث لي ؟ كذلك ههنا كأنه قال : أرأيت ما وقع لي منه إذ أوينا إلى الصخرة ، فحذف مفعول أرأيت لأن قوله : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت ﴾ يدل عليه ثم قال : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : أنه اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير فإني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجباً ، والسبب في وقوع هذا الاعتراض ما يجري مجرى العذر

والعلة لوقوع ذلك النسيان .

البحث الثاني : قال الكعبي : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ يدل على أنه تعالى ما خلق ذلك النسيان وما أراده وإلا كانت إضافته إلى الله تعالى أوجب من إضافته إلى الشيطان لأنه تعالى إذا خلقه فيه لم يكن لسعي الشيطان في وجوده ولا في عدمه ، أثر قال القاضي : والمراد بالنسيان أن يشتغل قلب الإنسان بوساوسه التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد الذكر لأن ذلك لا يصح أن يكون إلا من قبل الله تعالى .

البحث الثالث : قوله ﴿ أن اذكره ﴾ بدل من الهاء في ﴿ أنسانيه ﴾ أي : وما أنساني ذكره إلا الشيطان ثم قال : ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ وفيه وجوه : الأول : أن قوله عجباً صفة لمصدر محذوف كأنه قيل واتخذ سبيله في البحر اتخاذاً عجباً ووجه كونه عجباً انقلابه من المكتل وصيرورته حياً وإلقاء نفسه في البحر على غفلة منهما .

(23/475)

والثاني : أن يكون المراد منه ما ذكرنا أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب .

الثالث : قيل إنه تم الكلام عند قوله : ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر ﴾ ثم قال بعده : عجباً والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبة التي رآها ومن نسيانه لها وقيل إن قوله عجباً حكاية

لتعجب موسى وهو ليس بقوله ، ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي قال موسى ذلك الذي كنا نطلبه لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر وقوله نبغ أصله نبغي فحذفت الياء طلباً للتخفيف لدلالة الكسرة عليه ، وكان القياس أن لا يحذف لأنهم إنما يحذفون الياء في الأسماء وهذا فعل إلا أنه قد يجوز على ضعف القياس حذفها لأنها تحذف مع الساكن الذي يكون بعدها كقولك ما نبغي اليوم ؟ فلما حذفت مع الساكن حذفت أيضاً مع غير الساكن ثم قال فارتدا على آثارهما أي فرجعا وقوله : ﴿ قَصَصًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه مصدر في موضع الحال أي رجعا على آثارهما مقتصين آثارهما .

والثاني : أن يكون مصدراً لقوله فارتدا على آثارهما ، لأن معناه فاقتصا على آثارهما . وحاصل الكلام أنهما لما عرفا أنهما تجاوزا عن الموضع الذي يسكن فيه ذلك العالم رجعا وعادا إليه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 122 .

126 ﴾

(24/475)

وقال الجصاص :

قَوْله تعَالَى : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾

وَالنَّاسِي لَهُ كَانَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ ، فَأَضَافَ النِّسْيَانَ إلَيْهِمَا كَمَا يُقَالُ : نَسِيَ الْقَوْمُ زَادَهُمْ ، وَإِنَّمَا نَسِيَهُ أَحَدُهُمْ ، وكَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ وَلِابْنِ عَمٍّ لَهُ : ﴿ إذَا سَافَرْتُمَا فَأَذِّنَا وَأَقِيمَا وَلْيَؤُمَّكُمَا أَحَدُكُمَا ﴾ ، وَإِنَّمَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ أَحَدُهُمَا ، وَقَالَ : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ وَإِنَّمَا هُمْ مِنْ الْإِنْسِ .

قَوْله تعَالَى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ يَدُلُّ عَلَى إبَاحَةِ إظْهَارِ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ عِنْدَمَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ نَصَبٌ أَوْ تَعَبٌ فِي سَعْيٍ فِي قُرْبَةٍ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِشِكَايَةٍ مَكْرُوهَةٍ .

وَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الْخَضِرِ فِيهِ بَيَانُ أَنَّ فِعْلَ الْحَكِيمِ لِلضَّرَرِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَنْكَرَ إذَا كَانَ فِيهِ تَجْوِيزُ فِعْلِهِ عَلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إلَى الْمَصْلَحَةِ ، وَأَنَّ مَا يَقَعُ مِنْ الْحَكِيمِ مِنْ ذَلِكَ بِخِلَافِ مَا يَقَعُ مِنْ السَّفِيهِ ، وَهُوَ مِثْلُ الصَّبِيِّ الَّذِي إذَا حُجِمَ أَوْ سُقِيَ الدَّوَاءَ اسْتَنْكَرَ ظَاهِرَهُ وَهُوَ غَيْرُ عَالِمٍ بِحَقِيقَةِ مَعْنَى النَّفْعِ وَالْحِكْمَةِ فِيهِ ، فَكَذَلِكَ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ مِنْ الضَّرَرِ أَوْ مَا يَأْمُرُ بِهِ غَيْرُ جَائِزٍ اسْتِنْكَارُهُ بَعْدَ قِيَامِ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ إلَّا مَا هُوَ صَوَابٌ وَحِكْمَةٌ ، وَهَذَا أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي هَذَا الْبَابِ .

وَالْخَضِرُ لَمْ يَحْتَمِلْ مُوسَى أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ جَائِزٌ لِلْعَالِمِ احْتِمَالُ مَنْ يَتَعَلَّمُ

مِنْهُ الْمَرَّتَيْنِ وَالثَّلَاثَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُ جَائِزٌ لَهُ بَعْدَ الثَّلَاثِ تَرْكُ احْتِمَالِهِ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(25/475)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾

يعني يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى وسمي فتاهُ لملازمته إياه ، قيل في العلم ، وقيل في الخدمة ، وهو خليفة موسى على قومه من بعده .

وقال محمد بن إسحاق : إن موسى الذي طلب الخضر هو موسى بن منشى بن يوسف ، وكان نبياً في بني إسرائيل قبل موسى بن عمران .

والذي عليه جمهور المسلمين أنه موسى بن عمران .

﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني بحر الروم وبحر فارس ، أحدهما قبل المشرق ، والآخر قبل المغرب وحكى الطبري أنه ليس في الأرض مكان أكثر ماء منه .

والقول الثاني : هو بحر أرمينية مما يلي الأبواب .

الثالث : الخضرُ وإلياس ، وهما بحران في العلم ، حكاه السدي .

﴿ أو أمضي حُقباً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن الحقب ثمانون سنة ، قاله عبد الله بن عمر .

الثاني : سبعون سنة ، قاله مجاهد .

الثالث : أن الحقب الزمان ، قاله قتادة .

الرابع : أنه الدهر ، قاله ابن عباس ، ومنه قول امرىء القيس :

نحن الملوك وأبناء الملوك ، لنا . . . مِلكٌ به عاش هذا الناس أحقابا

الخامس : أنه سنة بلغة قيس ، قاله الكلبي . وفي قوله ﴿ لا أبْرحُ ﴾ تأويلان :

أحدهما : لا أفارقك ، ومنه قول الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانةً . . . وتحمل أُخرى أثقلتك الودائع

الثاني : لا أزال ، قاله الفراء ، ومنه قول الشاعر :

وأبرح ما أدام اللهُ قومي . . . بحمد الله منتطقاً مجيداً

أي لا أزال . وقيل إنه قال ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ لأنه وعد أن يلقى عنده الخضر عليه السلام .

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حُوتَهما ﴾ قيل إنهما تزودا حوتاً مملوحاً وتركاه حين جلسا ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه ضل عنهما حتى اتخذ سبيله في البحر سرباً ، فسمي ضلاله عنهما نسياناً منهما .

الثاني : أنه من النسيان له والسهو عنه .

ثم فيه وجهان :

(26/475)

أحدهما : أن الناسي له أحدهما وهو يوشع بن نون وحده وإن أضيف النسيان إليهما ، كما يقال نسي القوم زادهم إذا نسيه أحدهم .

الثاني : أن يوشع نسي أن يحمل الحوت ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء ، فصار كل واحد منهما ناسياً لغير ما نسيه الآخر .

﴿ فاتّخذ سبيله في البحر سَرَباً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : مسلكاً ، قاله مجاهد وابن زيد .

الثاني : يبساً ، قاله الكلبي .

الثالث : عجباً ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ فلما جاوَزا ﴾ يعني مكان الحوت .

﴿ قال لفَتاهُ ﴾ يعني موسى قال لفتاه يوشع بن نون .

﴿ آتِنا غداءَنا ﴾ والغداء الطعام بالغداة كما أن العشاء طعام العشي والإنسان إلى الغداء أشد حاجة منه إلى العشاء .

﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه التعب .

الثاني : الوهن .

﴿ قال أرأيت إذ أوينا الى الصخرة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : قاله مقاتل ، إن الصخرة بأرض تسمى شرهان على ساحل بحر أيلة ، وعندها عين تسمى عين الحياة .

الثاني : أنها الصخرة التي دون نهر الزيت على الطريق .

﴿ فإني نسيت الحُوت ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فإني نسيت حمل الحوت .

الثاني : فإني نسيت أن أخبرك بأمر الحوت .

﴿ وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن اذكُره ﴾ أي أنسانية بوسوسته إليّ وشغله لقلبي .

﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : انه كان لا يسلك طريقاً في البحر إلا صار ماؤه صخراً فلما رآه موسى عجب من مصير الماء صخراً .

الثاني : أن موسى لما أخبره يوشع بأمر الحوت رجع إلى مكانه فرأى أثر الحوت في البحر ودائرته التي يجري فيها فعجب من عود الحوت حياً .

﴿ قال ذلك ما كُنّا نبغِ ﴾ أي نطلب ، وذلك أنه قيل لموسى إنك تلقى الخضر في موضع تنسى فيه متاعك ، فعلم أن الخضر بموضع الحوت .

﴿ فارتدّا على آثارهما قَصصاً ﴾ أي خرجا إلى آثارهما يقصان أثر الحوت ويتبعانه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(27/475)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وإذ قال موسى ﴾ الآية ابتداء قصة ليست من الكلام الأول ، المعنى : اذكر واتل ، و ﴿ موسى ﴾ هو موسى بن عمران بمقتضى الأحاديث والتواريخ وبظاهر القرآن ، إذ ليس في القرآن موسى غير واحد ، وهو ابن عمران ولو كان في هذه الآية غيره لبينه ، وقالت فرقة منها نوف البكالي أنه ليس موسى بن عمران ، وهو موسى بن مشنى ، ويقال ابن منسى ، وأما " فتاه " فعلى قول من قال موسى بن عمران ، فهو يوشع بن نون بن إفرايبل بن يوسف بن يعقوب ، وأما من قال هو موسى بن مشنى فليس الفتى يوشع بن نون ، ولكنه قول

غير صحيح ، رده ابن عباس وغيره و" الفتي " في كلام العرب الشاب ، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتياناً ، قيل للخادم فتى ، على جهة حسن الأدب ، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم :

" لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي " ، فهذا اندب إلى التواضع ، و" الفتى " في الآية هو الخادم ، ويوشع بن نون يقال هو ابن أخت موسى عليه السلام ، وسبب هذه القصة فيما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل ، وخطب فأبلغ ، فقيل له هل تعلم أحداً أعلم منك قال لا ، فأوحى الله إليه بلى : عبدنا خضر ، فقال يا رب دلني على السبيل إلى لقيه ، فأوحى الله إليه أن يسير بطول سيف البحر حتى يبلغ ﴿ مجمع البحرين ﴾ فإذا فقدت الحوت فإنه هنالك ، وأمر أن يتزود حوتاً ، ويرتقب زواله عنه ، ففعل موسى ذلك وقال لفتاه على جهة إمضاء العزيمة ﴿ لا أبرح ﴾ أسير ، أي لا أزال ، وإنما قال هذه المقالة وهو سائر ، ومن هذا قول الفرزدق : [الطويل]

فما برحوا حتى تهادت نساؤهم . . . ببطحاء ذي قار عياب اللطائم

(28/475)

وذكر الطبري عن ابن عباس : قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه بمصر ، فلما استقرت الحال خطب يوماً ، فذكر بآلاء الله وأيامه عند بني إسرائيل ، ثم ذكر نحو ما تقدم ، وما مر بي قط أن موسى عليه السلام أنزل قومه بمصر إلا في هذا الكلام ، وما أراه يصح ، بل المتظاهر أن موسى مات بفحص التيه قبل فتح ديار الجبارين ، وفي هذه القصة من الفقه الرحلة في طلب العلم ، والتواضع للعالم ، وقرأ الجمهور " مَجمَع " بفتح الميمين ، وقرأ الضحاك " مَجمِع " بكسر الميم الثانية ، واختلف الناس في ﴿ مجمع البحرين ﴾ أين هو ؟ فقال مجاهد وقتادة هو مجتمع بحر فارس وبحر الروم .

(29/475)

قال القاضي أبو محمد : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى الجنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام ، هو ﴿ مجمع البحرين ﴾ هو عند طنجة وهو حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه السائر من دبور إلى صبا . وروي عن أبي بن كعب أنه قال ﴿ مجمع البحرين ﴾ بإفريقية ، وهذا يقرب من الذي قبله ، وقال بعض أهل العلم هو بحر الأندلس من البحر المحيط ، وهذا كله واحد حكاه النقاش وهذا مما يذكر كثيراً ، ويذكر أن القرية التي أبت أن تضيفهما هي

الجزيرة الخضراء ، وقالت فرقة ﴿ مجمع البحرين ﴾ يريد بحراً ملحاً وبحراً عذباً ، فعلى هذا إنما كان الخضر عند موقع نهر عظيم في البحر ، وقالت فرقة البحران إنما هما كناية عن موسى والخضر ، لأنهما بحرا علم ، وهذا قول ضعيف والأمر بين من الأحاديث أنه إنما رسم له ماء بحر ، وقوله ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ معناه أو أمضي على وجهي زماناً ، واختلف القراء ، فقرأ الحسن والأعمش وعاصم " حقباً " بسكون القاف ، وقرأ الجمهور " حقباً " بضمه ، وهو تثقيل حقب ، وجمع الحقب أحقاب ، واختلف في الحقب ، فقال عبد الله بن عمرو ثمانون سنة ، وقال مجاهد سبعون ، وقال الفراء " الحقب " سنة واحدة وقال ابن عباس وقتادة أزمان غير محدودة وقالت فرقة " الحقب " جمع حقبة ، وفي السنة كأنه قال أو أمضي سنين .

(30/475)

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)

الضمير في قوله ﴿ بينهما ﴾ للبحرين ، قاله مجاهد ، وقيل هو لموسى والخضر ، والأول أصوب ، وقرأ عبيد الله بن مسلم " مجمِع " بكسر الميم الثانية ، وقال ﴿ نسيا ﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده ، نسي أن يعلم موسى بما رأى من حاله من حيث كان لهما زاداً ، وكانا بسبب منه فنسب فعل الواحد فيه إليهما ، وهذا كما تقول فعل بنو فلان لأمر إنما فعله منهم بعض ، وروي في الحديث أن يوشع رأى الحوت قد حش من المكتل إلى البحر فرآه قد اتخذ السرب ، وكان موسى نائماً فأشفق أن يوقظه ، وقال أوخر حتى يستيقظ ، فلما استيقظ نسي يوشع أن يعلمه ، ورحلا حتى جاوزا " والسبيل " : المسلك و" السرب " : المسلك في جوف الأرض ، فشبه به مسلك الحوت في الماء حين لم ينطبق الماء بعده ، بل بقي كالطاق وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاله جمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً ، وقال قتادة ، صار موضع سلوكه حجراً صلداً . وقال ابن زيد إنما اتخذ ﴿ سبيله سرباً ﴾ في البر حتى وصل إلى البحر ثم عام على العادة .

(31/475)

قال القاضي أبو محمد : وهؤلاء يتأولون ﴿ سرباً ﴾ بمعنى تصرفاً وجولاناً من قولهم فحل سارب ، أي مهمل يرعى حيث شاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وسارب بالنهار ﴾ [الرعد : 10] ، أي متصرف وقالت فرقة اتخذ ﴿ سرباً ﴾ في التراب من المكتل إلى البحر ، وصادف في طريقه حجراً فثقبه ، وظاهر الأمر أن السرب ، إنما كان في الماء ، ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس من قصص هذه الآية أن الحوت إنما حيي لأنه مسه ماء عين هنالك تدعى عين الحياة ما مست قط شيئاً إلا حيي ، ومن غريبه أيضاً أن بعض المفسرين ذكر أن موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً ، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت حتى أفضى ذلك الطريق إلى الجزيرة في البحر وفيها وجد الخضر ، وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ وروي في قوله ﴿ فلما جاوزا ﴾ أن موسى عليه السلام نزل عند صخرة عظيمة في ضفة البحر ، فنسي يوشع الحوت هنالك ، ثم استيقظ موسى ورحلا مرحلة بقية الليل وصدر يومهما ، فجاع موسى ولحقه تعب الطريق ، فاستدعى الغداء ، قال أبي رضي الله عنه سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام ، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم ، و" النصب " التعب والمشقة ، وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير " نُصُباً " بضم النون والصاد ، ويشبه أن يكون جمع نصب وهو تخفيف نصب وقوله ﴿ أرأيت ﴾ الآية حكى الطبري عن فرقة

أنهة قالت الصخرة هي الشام عند نهر الذيب ، وقد تقدم ذكر الخلاف في موضع هذه القصة ، وقوله ﴿ نسيت الحوت ﴾ يريد نسيت ذكر ما جرى فيه لك ، وأما الكسائي وحده " أنسانيه " ، وقرأت فرقة " أنسانيه " وقرأ ابن كثير في الوصل " أنسانيهي " بياء بعد الهاء ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود " وما أنسانيه أن أذكركه إلا الشيطان " .

(32/475)

وقوله ﴿ أن أذكره ﴾ بدل من ﴿ الحوت ﴾ بدل اشتمال ، وقوله ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى أي اتخذ الحوت سبيله عجباً للناس ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ واتخذ سبيله في البحر ﴾ تام الخبر ، فاستأنف التعجب فقال من قبل نفسه : ﴿ عجباً ﴾ لهذا الأمر ، وموضع العجب أن يكون حوت قد مات وأكل شقه الأيسر ثم حيي بعد ذلك ، قال أبو شجاع في كتاب الطبري رأيته ، أتيت به فإذا هو شقة حوت ، وعين واحدة وشق آخر ليس فيه شيء .

قال القاضي أبو محمد : وأنا رأيته والشق الذي فيه شيء عليه قشرة رقيقة يشق تحتها شوكة وشقة الآخر ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ واتخذ سبيله ﴾ الآية إخبار من الله تعالى ، وذلك على وجهين : إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البرح عجباً أي

تعجب منه ، وإما أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجباً للناس ، وقرأ أبو حيوة " واتخاذ سبيله " فهذا مصدر معطوف على الضمير في ﴿ أذكره ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قال ذلك ﴾ الآية ، المعنى قال موسى لفتاه أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب ، فإن الرجل الذي جئنا له ثم ، فرجعا يقصان أثرهما لئلا يخطئان طريقهما ، وقرأ الجمهور " نبغي " بثبوت الياء ، وقرأ عاصم وقوم " نبغ " دون ياء ، وكان الحسن يثبتها إذا وصل ويحذفها إذا وقف ، و" قص الأثر " اتباعه وتطلبه في موضع خفائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(33/475)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذ قال موسى لفتاه . . . ﴾ ، الآية ،

سبب خروج موسى عليه السلام في هذا السفر ، ما روى ابن عباس عن أُبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِن موسى قام خطيباً في بني إِسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عز وجل عليه إِذ لم يَرُدَّ العِلْم إِليه ، فأوحى الله إِليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ؛ قال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ

معك حوتاً فتجعله في مِكتل ، فحيثما فقَدتَ الحوت فهو ثَمَّ .

فانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة ، وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المِكْتَل فخرج منه فسقط في البحر ، فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً ، وأمسك الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً ، قال : ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، فقال فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة .

. .

(34/475)

﴿ إلى قوله : ﴿ عجبا ﴾ ، قال : فكان للحوت سَرَباً ، ولموسى ولفتاه عجباً ، فقال موسى : ﴿ ذلك ما كنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال : رجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجّىً بثوب ، فسلَّم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال موسى : بني إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلّمني مما علِمت رُشْداً ، قال : إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى ، إني على عِلْم

مِنْ عِلْم الله لا تعلمُه علَّمَنِيه ، وأنت على عِلْم من عِلْم الله علَّمَكهُ لا أعلمه ؛ فقال موسى : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ؛ فقال له الخضر : فإن اتَّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدِث لك منه ذِكْراً ، فانطلقا يمشيان على الساحل ، فمرَّت سفينة فكلَّموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْلٍ ؛ فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدوم ، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نَوْل عمدتَ إلى سفينتهم ﴿ فخرقتها لتُغْرِقَ أهلها . . .

﴾ إلى قوله : ﴿ عُسْراً ﴾ ؟ ! قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كانت الأُولى من موسى نسياناً" ، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما عِلْمي وعِلْمك من عِلم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ إلى قوله : ﴿ يريد أن ينقضَّ ﴾ فقال الخضر بيده [هكذا] ، فأقامه ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيِّفونا ﴿ لو شئتَ لاتَّخذتَ عليه أجراً ﴾ ! ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك . . .

﴾ الآية"

(35/475)

هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم في "الصحيحين" ، وقد ذكرنا إِسناده في كتاب "الحدائق" فآثرنا الاختصار هاهنا .

فأما التفسير ، فقوله تعالى : ﴿ وإِذ قال موسى ﴾ المعنى : واذكر ذلك .

وفي موسى قولان .

أحدهما : أنه موسى بن عمران ، قاله الأكثرون .

ويدل عليه ما روي في "الصحيحين" من حديث سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إِن نَوْفاً البِكاليّ يزعم أن موسى بني إِسرائيل هو موسى صاحب الخضر ، قال : كذب عدو الله ، أخبرني أُبيّ بن كعب . . .

فذكر الحديث الذي قدمناه آنفاً .

والثاني : أنه موسى بن ميشا ، قاله ابن إِسحاق ، وليس بشيء ، للحديث الصحيح الذي ذكرناه .

فأما فتاه فهو يوشع بن نون من غير خلاف .

وإِنما سمي فتاه ، لأنه كان يلازمه ، ويأخذ عنه العلم ، ويخدمه .

ومعنى ﴿ لا أبرح ﴾ : لا أزال .

وليس المراد به : لا أزول ، لأنه إِذا لم يُزل لم يقطع أرضاً ، فهو مثل قولك : ما برحت أناظر

عبد الله ، أي : ما زلت ، قال الشاعر :

إِذا أنتَ لم تبرحْ تؤدّي أمانَةً . . .

وتحملُ أُخرى أفرحتْك الودائعُ

أي : أثقلتك ، والمعنى : لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ، أي : ملتقاهما ، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخَضِر فيه ، قال قتادة : بحر فارس ، وبحر الروم ، فبحر الروم نحو المغرب ، وبحر فارس نحو المشرق .

وفي اسم البلد الذي بمجمع البحرين قولان .

أحدهما : إِفريقية ، قاله أُبيّ بن كعب .

والثاني : طنجة ، قاله محمد بن كعب القرظي .

قوله تعالى : ﴿ أو أمضيَ حُقُباً ﴾ وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وأبو مجلز ، وقتادة ، والجحدري ، وابن يعمر : "حُقْباً" بإسكان الكاف .

(36/475)

قال ابن قتيبة : الحُقُب : الدّهر ، والحِقَب : السّنون ، واحدتها حِقْبة ، ويقال : حُقْبٌ وحُقُب ، كما يقال : قُفْل وقُفُل ، وهُزْؤ وهُزُؤ ، وكُفْؤ وكُفُؤ ، وأُكْل وأُكُل ، وسُحْت

وسُحُت ، ورُعْب ورُعُب ، ونُكْر ونُكُر ، وأُذْن وأُذُن ، وسُحْق وسُحُق ، وبُعْد وبُعُد ، وشُغْل وشُغُل ، وثُلْث وثُلُث ، وعُذْر وعُذُر ، ونُذْر ونُذُر ، وعُمْر وعُمُر .

وللمفسرين في المراد بالحُقُب هاهنا ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الدَّهر ، قاله ابن عباس .

والثاني : ثمانون سنة ، قاله عبد الله بن عمرو ، وأبو هريرة .

والثالث : سبعون ألف سنة ، قاله الحسن .

والرابع : سبعون سنة ، قاله مجاهد .

والخامس : سبعة عشر ألف سنة ، قاله مقاتل بن حيان .

والسادس : أنه ثمانون ألف سنة ، كل يوم ألف سنة من عدد الدنيا .

والسابع : أنه سنة بلغة قيس ، ذكرهما الفراء .

والثامن : الحُقُب عند العرب وقت غير محدود ، قاله أبو عبيدة .

ومعنى الكلام : لا أزال أَسيرُ ، ولو احتجت أن أسير حُقُباً .

قوله تعالى : ﴿ فلما بلغا ﴾ يعني : موسى وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِما ﴾ يعني : البحرين ﴿ نسيا حوتهما ﴾ وكانا قد تزوَّدا حوتاً مالحاً في زَبيل فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء ، فلما انتهيا إِلى الصخرة على ساحل البحر وضع فتاه المكتلَ ، فأصاب الحوتَ بللُ البحر .

وقيل : توضأ يوشع من عين الحياة فانتضح على الحوت الماءُ ، فعاش ، فتحرك في المِكْتَل ، فانسرب في البحر ، وقد كان قيل لموسى : تزوَّدْ حوتاً مالحاً ، فإذا فقَدته وجدتَ الرجل .

وكان موسى حين ذهب الحوت في البحر قد مضى لحاجة ، فعزم فتاه أن يخبره بما جرى فنسي .

وإنما قيل : "نسيا حوتهما" توسعاً في الكلام ، لأنهما جميعاً تزوَّداه ، كما يقال : نسي القوم زادهم ، وإنما نسيه أحدهم .

قال الفراء : ومثله قوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : 22] ، وإنما يخرج ذلك من الملح ، لا من العذب .

(37/475)

وقيل : نسي يوشع أن يحمل الحوت ، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء ، فلذلك أُضيف النسيان إليهما .

قوله تعالى : ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ أي : مسلكاً ومذهباً .

قال ابن عباس : جعل الحوت لا يمسُّ شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة .

وقال قتادة : جعل لا يسلك طريقاً إلا صار الماء جامداً .

وقد ذكرنا في حديث أُبيّ بن كعب أن الماء صار مثل الطاق على الحوت .

قوله تعالى : ﴿ فلما جاوزا ﴾ ذلك المكان الذي ذهب فيه الحوت ، أصابهما ما يصيب المسافر من النَّصَب ، فدعا موسى بالطعام ، فقال : ﴿ آتنا غداءنا ﴾ وهو الطعام الذي يؤكل بالغداة .

والنَّصَب : الإعياءِ .

وهذا يدل على إباحة إظهار مثل هذا القول عندما يلحق الإنسانَ من الأذى والتعب ، ولا يكون ذلك شكوى .

﴿ قال ﴾ يوشع لموسى ﴿ أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ أي : حين نزلنا هناك ﴿ فإني نسيتُ الحوت ﴾ فيه قولان .

أحدهما : نسيتُ أن أخبرك خبر الحوت .

والثاني : نسيت حمل الحوت .

قوله تعالى : ﴿ وما أنسانيه ﴾ قرأ الكسائي : "أنسانيه" بامالة السين [مع كسر الهاء] .

وقرأ ابن كثير : "أنسانيهي" بإثبات ياء في الوصل بعد الهاء .

وروى حفص عن عاصم : "أنسانيهُ إلا" بضم الهاء [في الوصل] .

قوله تعالى : ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ الهاء في السبيل ترجع إلى الحوت .

وفي المُتَّخِذ قولان .

أحدهما : أنه الحوت ، ثم في المخبر عنه قولان .

أحدهما : أنه الله عز وجل ، ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : فاتخذ سبيله في البحر يُري عجباً ، ويُحدث عجباً .

والثاني : أنه لما قال الله تعالى : ﴿ واتخذ سبيله في البحر ﴾ ، قال : اعجبوا لذلك عجباً ، وتنَبهوا لهذه الآية .

والثالث : أن إِخبار الله تعالى انقطع عند قوله : "في البحر" فقال موسى : عجباً ، لِما شوهد من الحوت .

ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري .

والثاني : [أن] المُخْبِر عن الحوت يوشع ، وصف لموسى ما فعل الحوت .

(38/475)

والقول الثاني : أن المتخِذ موسى ، اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً ، فدخل في المكان الذي مَرَّ فيه الحوت ، فرأى الخَضِر .

وروى عطية عن ابن عباس قال : رجع موسى إِلى الصخرة فوجد الحوت ، فجعل الحوت يضرب في البحر ، ويتبعه موسى ، حتى انتهى به إِلى جزيرة من جزائر البحر ، فلقي الخضر .

قوله تعالى : ﴿ قال ﴾ يعني : موسى ﴿ ذلك ما كُنَّا نبغي ﴾ أي : ذلك الذي نطلب من العلامة الدَّالة على مطلوبنا .

قرأ ابن كثير : "نبغي" بياء في الوصل والوقف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، بياء في الوصل .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، بحذف الياء في الحالين .

قوله تعالى : ﴿ فارتدا على آثارهما ﴾ قال الزجاج : أي : رجعا في الطريق الذي سلكاه ، يقصَّان الأثر والقَصَص : اتِّباع الأثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(39/475)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ ﴾ الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عِمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره .

وقالت فرقة منها نَوْف البِكَالِيّ : إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن

يعقوب وكان نبياً قبل موسى بن عمران .

وقد ردّ هذا القول ابن عباس في صحيح البخاري وغيره .

وفتاه : هو يوشع بن نون .

وقد مضى ذكره في "المائدة" وآخر "يوسف" .

ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون .

"لاَ أَبْرَحُ" أي لا أزال أسِير ؛ قال الشاعر :

وأَبرحُ ما أدامَ اللَّهُ قَومِي . . .

بحمد الله مُنْتَطِقاً مُجِيدَا

وقيل : "لاَ أَبْرَحُ" لا أفارقك .

﴿ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ أي ملتقاهما .

قال قتادة : وهو بحر فارس والروم ؛ وقاله مجاهد .

قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أَذْرَبِيجان ، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بَرّ الشام هو مجمع البحرين على هذا القول .

وقيل : هما بحر الأَرْدُنّ وبحر القُلْزُم .

وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ؛ قاله محمد بن كعب .

وروي عن أبيّ بن كعب أنه بأفريقية .

وقال السدي : الكُرّ والرَّسُّ بأرمينية .

وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط ؛ حكاه النقاش ؛ وهذا مما يذكر كثيراً .

وقالت فرقة : إنما هما موسى والخضر ؛ وهذا قول ضعيف ؛ وحكي عن ابن عباس ، ولا يصح ؛ فإن الأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما وُسِم له بحر ماء .

(40/475)

وسبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال : أنا فعتَب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى : يا رب فكيف لي به قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكتَل فحيثما فَقدتَ الحُوت فهو ثَمَّ " وذكر الحديث ، واللفظ للبخاري .

وقال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر ، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكّرهم بأيام الله ، فخطب قومه فذكّرهم ما آتاهم الله من الخير

والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوّهم ، واستخلفهم في الأرض ، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليما ، واصطفاه لنفسه ، وألقى عليّ محبة منه ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، فجعلكم أفضل أهل الأرض ، ورزقكم العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والتوراة بعد أن كنتم جهالا ؛ فقال له رجل من بني إسرائيل : عَرَفنا الذي تقول ، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟ قال : لا ؛ فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه ، فبعث إليه جبريل : أن يا موسى وما يدريك أين (أضع) علمي ؟ بلى إن لي عبداً بمجمع البحرين أعلم منك ؛ وذكر الحديث .

قال علماؤنا : وقوله في الحديث " هو أعلم منك " أي بأحكام وقائع مفصَّلة ، وحُكم نوازل معينة ، لا مطلقاً ، بدليل قول الخضر لموسى : إنك على علم علّمكه الله لا أعلمه أنا ، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت ، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه واحد منهما ولا يعلمه الآخر ، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة ؛ وهمته العالية ، لتحصيل علم ما لم يعلم ، وللقاء من قيل فيه : إنه أعلم منك ؛ فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل ، فأمر بالارتحال على كل حال .

(41/475)

وقيل له احمل معك حوتاً مالحا في مِكْتل وهو الزنبيل فحيث يحيا وتفقده فثَمَّ السبيل ، فانطلق مع فتاه لما واتاه ، مجتهداً طالباً قائلاً : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ .

﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ بضم الحاء والقاف وهو الدهر ، والجمع أحقاب .

وقد تسكن قافه فيقال : حُقْب .

وهو ثمانون سنة .

ويقال : أكثر من ذلك .

والجمع حِقاب .

والحِقْبة بكسر الحاء واحدة الحقُب وهي السنون .

الثانية : في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب ، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم ، وذلك في دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح ، وحصلوا على السعي الناجح ، فرسخت لهم في العلوم أقدام ، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام ، قال البخاري : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ للعلماء فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كان معه يخدمه ، والفتى في كلام العرب الشاب ، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتياناً قيل

للخادم فتى على جهة حسن الأدب ، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فَتَايَ وفتاتي " فهذا ندبٌ إلى التواضع ؛ وقد تقدم هذا في "يوسف" .

والفتى في الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفراثيم بن يوسف عليه السلام .

ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام .

وقيل : إنما سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حراً ؛ وهذا معنى الأوّل .

(42/475)

وقيل : إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجعلوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف : 62] وقال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : 30] قال ابن العربي : فظاهر القرآن يقتضي أنه عبد ، وفي الحديث : أنه كان يوشع بن نون .

وفي "التفسير" أنه ابن أخته ، وهذا كله مما لا يُقطع به ، والتوقف فيه أسلم .

الرابعة : قوله تعالى : "أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً" قال عبد الله بن عمرو : الحُقب ثمانون سنة .

مجاهد : سبعون خريفاً .

قتادة : زمان .

النحاس : الذي يعرفه أهل اللغة أن الحُقب والحِقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود ؛ كما أن رهطاً وقوماً مبهم غير محدود : وجمعه أحقاب .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً ﴾

الضمير في قوله : "بينهما" للبحرين ؛ قاله مجاهد .

والسَّرَب المسلك ؛ قاله مجاهد أيضاً .

وقال قتادة : جَمَد الماء فصار كالسَّرَب .

وجمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً ، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت ، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر ، وفيها وجد الخضر .

وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر .

وقوله : "نسيا حوتهما" وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل : المعنى ؛ نسي أن يُعلِم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهما للصحبة ، كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] وإنما يخرج من الملح ، وقوله : ﴿ يا معشر الجِن والإنس ألم يأتِكم رسل مِنكم ﴾ وإنما الرسل من الإنس لا من الجن .

وفي البخاري ؛ فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلَّفتَ كبيراً ؛ فذلك قوله عز وجل : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ يوشع بن نون ليست عن سعيد قال : فبينا هو في ظل صخرة في مكانٍ ثَرْيَانَ إذ تضرَّب الحوتُ وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقظه ؛ حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتى كأنّ أثرَه في حَجَر ؛ قال لي عمرو : هكذا كأنّ أثره في حَجَر وحَلَّقَ بين إبهاميه واللتين تَلِيانِهما .

وفي رواية : وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذي أمر الله به ، فقال له فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ .

وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : "نسِيا" فنسب النسيان إليهما ؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذي أمر به ، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا ؛ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ يعني الحوت هناك منسياً أي متروكاً فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة ، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ

مجمع البحرين وهو الصخرة ، فقد كان موسى شريكاً في النسيان ؛ لأن النسيان التأخير ؛ من ذلك قولهم في الدعاء : أنسأ الله في أجلِك .

فلما مضيا من الصخرة أخّرا حوتهما عن حمله فلم يحمله واحد منهما ، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت .

(44/475)

قوله تعالى : ﴿ آتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار ، وهو ردٌّ على الصوفية الجهلة الأغمار ، الذين يقتحمون المهامه والقِفار ، زعماً منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار ؛ هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه ، وتوكله على رب العباد .

وفي صحيح البخاري : إن ناساً من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوّدون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُواْ ﴾ [البقرة : 197] .

وقد مضى هذا في "البقرة" .

واختلف في زاد موسى ما كان ؛ فقال ابن عباس : كان حوتاً مملوحاً في زنبيل ، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء ، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر ، وضع فتاه المِكتل

، فأصاب الحوت جري البحر فتحرك الحوت في المكتل ، فقلب المكتل وانسرب الحوت ، ونسي الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى .

وقيل : إنما كان الحوت دليلاً على موضع الخضر لقوله في الحديث : " احمل معك حوتاً في مِكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثَمَّ " ، على هذا فيكون تَزوَّدا شيئاً آخر غير الحوت ، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس واختاره .

وقال ابن عطية : قال أبي رضي الله عنه ، سمعت أبا الفضل الجوهريّ يقول في وعظه : مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام ، ولما مشى إلى بَشَر لحقه الجوع في بعض يوم .

وقوله : "نَصَباً" أي تعباً ، والنصب التعب والمشقة .

وقيل : عنى به هنا الجوع ، وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض ، وأن ذلك لا يقدح في الرضا ، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط .

(45/475)

وفي قوله : ﴿ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر ، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في "أنسانيه" وهو بدل الظاهر من المضمر ، أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان ؛ وفي مصحف عبد الله "وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان" .

وهذا إنما ذكره يوشع في معرض الاعتذار لقول موسى : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ؛ فقال : ما كلّفتَ كبيراً ؛ فاعتذر بذلك القول .

قوله تعالى : ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً ﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى ؛ أي اتخذ الحوت سبيله عجباً للناس .

ويحتمل أن يكون قوله : "واتخذ سبيله في البحر" تمام الخبر ، ثم استأنف التعجيب فقال من نفسه : "عجباً" لهذا الأمر .

وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقّه الأيسر ثم حيي بعد ذلك .

قال أبو شجاع في كتاب "الطبري" : رأيته أتيت به فإذا هو شقّ حوت وعين واحدة ، وشق آخر ليس فيه شيء .

قال ابن عطية : وأنا رأيته والشقّ الذي ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ ﴾ إخباراً من الله تعالى ، وذلك على وجهين : إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجباً ، أي تعجب منه ، وإمّا أن

يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجباً للناس .

ومن غريب ما روي في البخاريّ عن ابن عباس من قصص هذه الآية : أن الحوت إنما حَيِيَ لأنه مسّه ماء عين هناك تدعى عين الحياة ، ما مست قط شيئاً إلا حَيِيَ .

وفي "التفسير" : إن العلامة كانت أن يحيا الحوت ؛ فقيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك الماء فَحَيِيَ .

وقال الترمذي في حديثه قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة ، ولا يصيب ماؤها شيئاً إلا عاش .

قال : وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش .

(46/475)

وذكر صاحب كتاب "العروس" أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيي ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِى ﴾ أي قال موسى لفتاه أمرُ الحوت وفقدُه هو الذي كنا نطلب ، فإن الرجل الذي جئنا له ثَمَّ ؛ فرجعا يقصّان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما .

وفي البخاري : فوجدا خضراً على طنْفِسة خضراء على كَبِد البحر مُسَجًّى بثوبه ، قد

جعل طَرَفَه تحت رجليه ، وَطَرَفه تحت رأسه ، فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام ؟! من أنت ؟ قال : أنا موسى .

قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم .

قال : فما شأنك ؟ قال : جئتُ لتعلّمني مما علّمت رشدا ؛ الحديث .

وقال الثعلبيّ في كتاب "العرائس" : إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طِنْفِسة خضراء على وجه الماء وهو مُتَّشِح بثوب أخضر فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه فقال : وأَنَّى بأرضنا السلام ؟! ثم رفع رأسه واستوى جالساً وقال : وعليك السلام يا نبيّ بني إسرائيل ، فقال له موسى : وما أدراك بي ؟ ومن أخبرك أنّي نبيّ بني إسرائيل ؟ قال : الذي أدراك بي ودَلَّك عليّ ؛ ثم قال : يا موسى لقد كان لك في بني إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدّثان ، فجاءت خُطَّافة وحملت بمنقارها من الماء ؛ وذكر الحديث على ما يأتي . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(47/475)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾

نصب بإضمار فعل ، أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿ لفتاه ﴾ وهو يوشعُ بن نونٍ بنِ أفرايمَ بنِ يوسفَ عليه السلام ، سُمّي فتاه إذ كان يخدُمه ويتبعه ، وقيل : كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتًى وإن كان شيخاً ، ولعل المرادَ بتذكيره عَقيب بيانِ أن لكل أمة موعداً تذكيرُ ما في القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافعِ الجليلة ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ من برِح الناقصِ كزال يزال ، أي لا أزال أسير فحُذف الخبر اعتماداً على قرينة الحالِ إذْ كان ذلك عند التوجه إلى السفر واتكالاً على ما يعقُبه من قوله : ﴿ حتى أَبْلُغَ ﴾ فإن ذلك غايةٌ تستدعي ذا غايةٍ يؤدّي إليها ، ويجوز أن يكون أصلُ الكلام لا يبرَح مسيري حاصلاً حتى أبلُغ فيُحذف المضافُ ويقام المضافُ إليه مُقامَه فينقلب الضمير البارزُ المجرورُ المحلِّ مرفوعاً مستكنًّا ، والفعلُ من صيغة الغَيبة إلى التكلم .

(48/475)

ويجوز أن يكون من برِح التامِّ كزال يزول أي لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿ مَجْمَعَ البحرين ﴾ هو ملتقى بحرِ فارسَ والروم مما يلي المشرِق ، وقيل : طَنْجَةُ ، وقيل : هما الكر

والرس بإرْمِيْنِيةَ ، وقيل : إفْرِيقِيَّة ، وقرىء بكسر الميم كمشرق ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ أسير زماناً طويلاً أتيقن معه فواتَ المطلب والحُقب الدهرُ أو ثمانون سنة ، وكان منشأُ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بني إسرائيلَ واستقروا بها بعد هلاكِ القِبْط أمره الله عز وجل أن يذكّر قومَه النعمةَ فقام فيهم خطيباً بخطبة بديعةٍ رقت بها القلوبُ وذرَفت العيون ، فقالوا له : مَنْ أعلمُ الناس ؟ قال : أنا . فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ العلم إليه عز وجل فأوحى إليه : " بل أعلمُ منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخِضْرُ عليه السلام " . وكان في أيام أفريذون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدّمة ذي القرنين وبقي إلى أيام موسى . وقيل : (إن موسى عليه السلام سأل ربه : أيُّ عبادِك أحبُّ إليك ؟ قال : " الذي يذكرُني ولا ينساني " قال : فأيُّ عبادك أقضى ؟ قال : " الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى " قال : فأيُّ عبادك أعلمُ ؟ قال : " الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمةً تدله على هدى ، أو تردّه عن ردَى " فقال : إن كان في عبادك من هو أعلمُ مني فدلَّني عليه ، قال : " أعلمُ منك الخِضْرُ " قال : أين أطلبه ؟ قال : " على ساحل البحر عند الصخرة " قال : يا رب كيف لي به ؟ قال : " تأخذ حوتاً في مِكْتل فحيثما فقَدته فهو هناك " . فأخذ حوتاً فجعله في مِكتل ، فقال لفتاه : إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرني فذهبا يمشيان) .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ الفاءُ فصيحة كما أشير إليه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي مجمعَ البحرين ، وبينِهما ظرفٌ أضيف إليه اتساعاً أو بمعنى الوصل ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الذي جُعل فقدانُه أمارةَ وُجدانِ المطلوب أي نسيا تفقّد أمره وما يكون منه ، وقيل : نسي يوشع أن يقدّمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشيء ، روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرةُ وعينُ الحياة التي لا يصيب ماؤها ميْتاً إلا حيِيَ وضعا رؤوسَهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوتَ بردُ الماء ورَوحُه عاش ، وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام ، وقيل : توضأ عليه السلام من تلك العينِ فانتضح الماءُ على الحوت فعاش فوقع في الماء ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر سَرَباً ﴾ مسلكاً كالسرب وهو النفق ، قيل : أمسك الله عز وجل جريةَ الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزةً لموسى أو للخضر عليهما السلام ، وانتصابُ سَرباً على أنه مفعولٌ ثانٍ لاتخذ وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي مجمعَ البحرين الذي جُعل موعداً للملاقاة ، قيل : أدلجا وسارا الليلةَ والغدَ إلى الظهر وأُلقي على موسى عليه السلام الجوعُ فعند ذلك ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ أي ما نتغدى به وهو الحوتُ كما ينبىء عنه الجواب ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا ﴾ إشارةٌ إلى ما سارا بعد مجاوزةِ الموعد ﴿ نَصَباً ﴾ تعباً وإعياءً ، قيل : لم ينصَبْ ولم يجُعْ

قبل ذلك ، والجملةُ في محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء إما باعتبار أن النصَبَ إنما يعتري بسبب الضعفِ الناشىء عن الجوع وإما باعتبار ما في أثناء التغدي من استراحة ما .

(50/475)

﴿ قَالَ ﴾ أي فتاه عليه السلام : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة ﴾ أي التجأنا إليها وأقمنا عندها . وذكرُ الإِواءِ إليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغُ مجمعِ البحرين لزيادة تعيينِ محلِّ الحادثة ، فإن المجمَع محلٌ متسعٌ لا يمكن تحقيقُ المراد المذكور بنسبة الحادثةِ إليه ولتمهيد العذر فإن الإِواءَ إليها والنومَ عندها مما يؤدي إلى النسيان عادة ، والرؤيةُ مستعارةٌ للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملةِ ، ومرادُه بالاستفهام تعجيبُ موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى ، وقد جُعل فقدانُه فقدانُه علامةً لوجدان المطلوب وهذا أسلوبٌ معتادٌ فيما بين الناس ، يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب : أرأيتَ ما نابني ؟ يريد بذلك تهويلَه وتعجيبَ صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعُه لا استخبارُه عن ذلك كما قيل ، والمفعولُ محذوفٌ اعتماداً على ما يدل عليه من قوله عز وجل : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت ﴾ وفيه تأكيدٌ للتعجيب وتربيةٌ لاستعظام المنسيِّ ، وإيقاعُ النسيان على اسم الحوتِ دون ضمير الغَداءِ مع أنه المأمورُ

بإتيانه للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيلِ نسيان المسافرِ زادَه في المنزل وأن ما شاهده ليس من قبيل الأحوالِ المتعلقة بالغداء من حيث هو غَداءٌ وطعامٌ ، بل من حيث هو حوتٌ كسائر الحِيتان مع زيادة أي نسِيتُ أن أذكر لك أمرَه وما شاهدتُ منه من الأمور العجيبة ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ بوسوسته الشاغلةِ عن ذلك وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدلُ اشتمال من الضمير أي ما أنساني أن أذكرَه لك ، وفي تعليق الإنساء بضمير الحوتِ أولاً وبذكره له ثانياً على طريق الإبدالِ المنبىء عن تنحية المبدَل منه إشارةٌ إلى أن متعلَّقَ النسيان أيضاً ليس نفسَ الحوتِ بل ذكرُ أمره ، وقرىء أن أذكّره ، وإيثارُ أن أذكُرَه على المصدر للمبالغة فإن مدلوله نفسُ الحدث

(51/475)

عند وقوعه ، والحالُ وإن كانت غريبةً لا يُعهد نسيانُها لكنه لما تعوّد بمشاهدة أمثالِها عند موسى عليه السلام وأَلِفَها قل اهتمامه بالمحافظة عليها ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ بيانٌ لطرف من أمر الحوتِ منبىءٌ عن طرف آخرَ منه ، وما بينهما اعتراضٌ قُدم عليه للاعتناء بالاعتذار ، كأنه قيل : حَيِيَ واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً ، فعجباً ثاني مفعولَي اتخَذ والظرفُ حالٌ من أولهما أو ثانيهما ، أو هو المفعولُ الثاني

وعجباً صفةُ مصدرٍ محذوفٍ أي اتخاذاً عجباً وهو كونُ مسلَكه كالطاق والسرَب ، أو مصدرُ فعلٍ محذوف أي أتعجب منه عجباً ، وقد قيل : إنه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك .

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرتَ من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ وقرىء بإثبات الياء ، والضميرُ العائد إلى الموصول محذوفٌ ، أصلُه نبغيه أي نطلبه لكونه أَمارةً للفوز بالمرام ﴿ فارتدا ﴾ أي رجعا ﴿ على ءاثَارِهِمَا ﴾ طريقِهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصًا ﴾ يقُصان قَصصاً أي يتّبعان آثارَهما اتباعاً أو مقتصّين حتى أتيا الصخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(52/475)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾

هو ابن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام على الصحيح ، فقد أخرج الشيخان .

والترمذي .

والنسائي .

وجماعة من طريق سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما : إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل فقال : كذب عدو الله ثم ذكر حديثاً طويلاً فيه الإخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو نص في أنه موسى بني إسرائيل ، وإلى إنكار ذلك ذهب أيضاً أهل الكتاب وتبعهم من تبعهم من المحدثين والمؤرخين وزعموا أن موسى هنا هو موسى بن ميشا بالمعجمة ابن يوسف بن يعقوب ، وقيل : موسى بن افراثيم بن يوسف وهو موسى الأول ، قيل وإنما أنكره أهل الكتاب لإنكارهم تعلم النبي من غيره .

وأجيب بالتزام أن التعلم من نبي ولا غضاضة في تعلم نبي من نبي .

وتعقب بأنه ولو التزموا ذلك وسلموا نبوة الخضر عليه السلام لا يسلمون أنه موسى بن عمران لأنهم لا تسمح أنفسهم بالقول بتعلم نبيهم الأفضل ممن ليس مثله في الفضل فإن الخضر عليه السلام على القول بنبوته بل القول برسالته لم يبلغ درجة موسى عليه السلام ، وقال بعض المحققين : ليس إنكارهم لمجرد ذلك بل لذلك ولقولهم إن موسى عليه السلام بعد الخروج من مصر حصل هو وقومه في التيه وتوفي فيه ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته ؛ والقصة تقتضي خروجه علي السلام من التيه لأنها لم تكن وهو في مصر بالإجماع ، وتقتضي أيضاف الغيبة أياماً ولو وقعت لعلمها كثير من بني إسرائيل الذين كانوا معه ولو علمت لنقلت لتضمنها أمراً عريباً تتوفر الدواعي على نقله فحيث لم يكن لم تكن .

وأجيب بأن عدم سماح نفوسهم بالقول بتعلم نبيهم عليه السلام ممن ليس مثله في الفضل أمر لا يساعده العقل وليس هو إلا كالحمية الجاهلية إذ لا يعبد عقلاً تعلم الأفضل الأعلم شيئاً ليس عنده ممن هو دونه في الفضل والعلم .

ومن الأمثال المشهورة قد يوجد في الإسقاط ما لا يوجد في الاسفاط .

(53/475)

وقالوا : قد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل .

وقال بعضهم : لا مانع من أن يكون قد أخفى الله سبحانه وتعالى علم المسائل التي تضمنتها القصة عن موسى عليه السلام على مزيد علمه وفضله لحكمة ولا يقدح ذلك في كونه أفضل وأعلم من الخضر عليه السلام وليس بشيء كما لا يخفى ، وبأنه سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً القول بأن القصة كانت بعد أن ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بني إسرائيل واستقر بعد هلاك القبط فلا إجماع على أنها لم تكن بمصر ، نعم اليهود لا يقولون باستقرارهم في مصر بعد هلاك القبط وعليه كثير منا وحينئذ يقال : إن عدم خروج موسى عليه السلام من التيه غير مسلم ، وكذلك اقتضاء ذلك الغيبة أياماً لجواز أن يكون على وجه خارق للعادة كالتيه الذي وقعوا فيه وكنتق الجبل عليهم وغير ذلك من الخوارق التي وقت فيهم ،

وقد يقال : يجوز أن يكون عليه السلام خرج وغاب أياماً لكن لم يعلموا أنه عليه السلام ذهب لهذا الأمر وظنوا أنه ذهب يناجي ويتعبد ولم يوقفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع لعلمه بقصور فهمهم فخاف من حط قدره عندهم فهم القائلون

(54/475)

﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] و﴿ أرِنا الله جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] وأوصى فتاه بكتم ذلك عنهم أيضاً ، ويجوز أن يكون غاب عليه السلام وعلموا حقيقة غيبته لكن لم يتناقلوها جيلاً بعد جيل لتوهم أن فيها شيئاً مما يحط من قدره الشريف عليه السلام فلا زالت نقلتها تقل حتى هلكوا في وقت بختنصر كما هلك أكثر حملة التوراة ، ويجوز أن يكون قد بقى منهم أقل قليل إلى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم فتواصوا على كتمها وإنكارها ليوقعوا الشك في قلوب ضعفاء المسلمين ثم هلك ذلك القليل ولم تنقل عنه ، ولا يخفى أن باب الاحتمال واسع ؛ وبالجملة لا يبالي بإنكارهم بع جواز الوقوع عقلاً وإخبار الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم فإن الآية ظاهرة في ذلك ، ويقرب من هذا الإنكار إنكار النصارى تكلم عيسى عليه السلام في المهد وقد قدمنا أنه لا يلتفت إليه بعد إخبار الله تعالى به فعليك بكتاب الله تعالى ودع عنك الوساوس .

و ﴿ إِذْ ﴾ نصب على المفعولية باذكر محذوفاً والمراد قل قال موسى ﴿ لفتايه ﴾ يوضع بن نون بن افراثيم بن يوسف عليه السلام فإنه كان يخدمه ويتعلم منه ولذا أضيف إليه ، والعرب تسمى الخادم فتى لأن الخدم أكثر ما يكونون في سن الفتوّة ، وكان فيما يقال ابن أخت موسى عليه السلام ، وقيل : هو أخو يوشع عليه السلام ، وأنكر اليهود أن يكون له أخ ، وقيل : لعبده فالإضافة للملك وأطلق على العبد فتى لما في الحديث الصحيح ﴿ ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي ﴾ وهو من آداب الشريعة ، وليس إطلاق ذلك بمكروه خلافاً لبعض بل خلاف الأولى ، وهذا القول مخالف للمشهور وحكم النووي بأنه قول باطل وفي حل تملك النفس في بني إسرائيل كلام ، ومثله في البطلان القول الثاني لمنافاة كل الأخبار الصحيحة ﴿ ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا وَإِذْ قَالَ موسى لفتاه لا أَبْرَحُ ﴾ من برح الناقص كزال يزال أي لا أزال أسير فحذف الخبر اعتماداً على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجه إلى السفر واتكالاً على ما يعقبه من قوله ﴿ حتى أَبْلُغَ ﴾ إذ الغاية لا بد لها من مغيا والمناسب لها هنا السير وفيما بعد أيضاً ما يدل على ذلك ؛ وحذف الخبر فيها قليل كما ذكره الرضي ، ومنه قول الفرزدق :

فما برحوا حتى تهادت نساؤهم . . .

ببطحاء ذي قار عياب اللطائم

وقال أبو حيان : نص أصحابنا على أن حذف خبر كان وأخواتها لا يجوز وإن دل الدليل

على حذفه إلا ما جاء في الشعر من قوله :

لهفي عليك كلهفة من خائف . . .

يبغي جوارك حين ليس مجير

أي حين ليس في الدنيا ، وجوز الزمخشري .

(56/475)

وأبو البقاء أن يكون الأصل لا يبرح سيري حتى أبلغ فالخبر متعلق حتى مع مجرورها فحذف المضاف إليه وهو سير فانقلب الضمير من البروز والجر إلى الرفع والاستتار وانقلب الفعل من الغيبة إلى التكلم ، قيل وكذا الفعل الواقع في الخبر وهو ﴿ أَبْلُغُ ﴾ كأن أصله يبلغ ليحصل الربط ؛ والإسناد مجازي وإلا يخل الخبر من الرابط إلا أن يقدر حتى أبلغ به أو يقال إن الضمير المستتر في كائن يكفي للربط أو أن وجود الربط بعد التغيير صورة يكفي فيه وإن كان المقدر في قوة المذكور ، وعندي لألطف في هذا الوجه وإن استلطفه الزمخشري .

وجوز أيضاً أن يكون ﴿ أَبْرَحَ ﴾ من برح التام كزال يزول فلا يحتاج إلى خبر ، نعم قيل لا بد من تقدير مفعول ليتم المعنى أي لا فارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿ مَجْمَعَ البحرين ﴾ وتعقبه في البحر بأنه يحتاج إلى صحة نقل .

والمجمع الملتقى وهو اسم مكان ، وقيل مصدر وليس بذاك ، والبحران بحر فارس والروم كما روى عن مجاهد .

وقتادة .

وغيرهما ، وملتقاهما مما يلي المشرق ، ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما وإلا فهما لا يلتقيان إلا في البحر المحيط وهما شعبتان منه .

وذكر أبو حيان أن مجمع البحرين على ما يقتضيه كلام ابن عطية مما يلي بر الشام ، وقالت فرقة منهم محمد بن كعب القرظي : هو عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه من دبور إلى صبا ، وعن أبي أنه بافريقية ، وقيل البحران الكر والرس بأرمينية وروى ذلك عن السدي ، وقيل بحر القلزم وبحر الأزرق ، وقيل هما بحر ملح وبحر عذب وملتقاهما في الجزيرة الخضراء في جهة المغرب ، وقيل هما مجاز عن موسى والخضر عليهما السلام لأنهما بحراً علم ، والمراد بملتقاهما مكان يتفق فيه اجتماعهما ، وهو تأويل صوفي والسياق ينبو عنه وكذا قوله تعالى : ﴿ حتى أَبْلُغَ ﴾ إذ الظاهر عليه أن يقال حتى يجتمع

البحران مثلاً .

وقرأ الضحاك .

(57/475)

وعبد الله بن مسلم بن يسار ﴿ مَجْمَعَ ﴾ بكر الميم الثانية ، والنضر عن ابن مسلم ﴿ مَجْمَعَ ﴾ بالكسر لكلا الحرفين وهو شاذ على القراءتين لأن قياس اسم المكام والزمان من فعل يفعل بفتح العين فيهما الفتح كما في قراءة الجمهور ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ عطف على ﴿ أَبْلُغُ ﴾ وأو لأحد الشيئين ، والمعنى حتى يقع إما بلوغي المجمع أو مضى حقباً أي سيري زماناً طويلاً .

وجوز أن تكون أو بمعنى إلا والفعل منصوب بعدها بأن مقدرة والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا زلت أسير في كل حال حتى أبلغ إلا أن أمضي زماناً أتيقن معه فوات المجمع ، ونقل أبو حيان جواز أن تكون بمعنى إلى وليس بيء لأنه يقتضي جزمه ببلوغ المجمع بعد سيره حقباً وليس بمراد ، والحق بضمتين ويقال بضم فسكون وبذلك قرأ الضحاك اسم مفرد وجمعه كما في "القاموس" أحقب وأحقاب ، وفي "الصحاح" أن الحقب بالضم يجمع على حقاب مثل قف وقفاف ، وهو على ما روى عن ابن عباس وجماعة من اللغويين الدهر

وروى عن ابن عمر .

وأبي هريرة أنه ثانون سنة ، وعن الحسن أنه سبعون ، وقال الفراء : إنه سنة بلغة قريش وقال أبو حيان : الحقب السنون واحدها حقبة قال الشاعر :

فإن تنأ عنها حقبة لا تلاقها . . .

فإنك مما أحدثت بالمجرب

اه .

وما ذكره من أن الحقب السنون ذكره غير واحد من اللغويين لكن قوله واحدها حقبة فيه نظر لأن ظاهر كلامهم أنه اسم مفرد وقد نص على ذلك الخفاجي ولأن الحقبة جمع حقب بكسر ففتح ، قال في "القاموس" : الحقبة بالكسر من الدهر مدة لا وقت لها والسنة وجمعه حقب كعنب وحقوب كحبوب ، واقتصر الراغب .

والجوهري على الأول ، وكان منشأ عزيمة موسى عليه السلام على ما ذكر ما رواه الشيخان .

(58/475)

وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبي ابن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه سبحانه فأوحى الله تعالى إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك " الحديث ، وفي رواية أخرى عنه عن أبي أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى بني إسرائيل سأل ربه فقال : أي رب إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلني عليه فقال له : نعم في عبادي من هو أعلم منك ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والخطيب .

وابن عساكر من طريق هارون عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى عليه السلام ربه سبحانه فقال : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني قال : فأي عبادك أقضي ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال : فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى قال : وكان حدث موسى نفسه أنه ليس أحد أعلم منه فلما أن قيل له الذي يبتغي علم

الناس إلى علمه قال : يا رب فهل في الأرض أحد أعلم مني ؟ قال : نعم قال : فأين هو ؟ قيل له : عند الصخرة التي عندها العين فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله تعالى .

ثم إن هذه الأخبار لا دلالة فيها على وقوع القصة في مصر أو في غيرها ، نعم جاء في بعض الروايات التصريح بكونها في مصر ، فقد أخرج ابن جرير .

(59/475)

وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى عليه السلام وقومه على مصر أنزل قومه بمصر فلما استقرت بهم البلد أنزل الله تعالى أن ذكرهم بأيام الله تعالى فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله تعالى من الخير والنعم وذكرهم إذ أنجاهم الله تعالى من آل فرعون وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله سبحانه في الأرض وقال : كلم الله تعالى نبيكم تكليماً واصطفاني لنفسه وأنزل على محبة منه وآتاكم من كل شيء ما سألتموه فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرؤن التوراة فلم يترك نعمة أنعمها الله تعالى عليهم إلا عرفهم إياها فقال له رجل من بني إسرائيل : فهل على الأرض أعلم منك يا نبي الله ؟ قال : لا فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى موسى عليه السلام فقال : إن الله تعالى يقول وما يدريك أين أضع علمي بلى إن على ساحل البحر رجلاً أعلم منك ثم كان ما قص الله

سبحانه ، وأنكر ذلك ابن عطية فقال : ما يرى قط أن موسى عليه السلام أنزل قومه بمصر إلا في هذا الكلام وما أراه يصح بل المتظافر أن موسى عليه السلام توفي في أرض التيه قبل فتح ديار الجبارين اه وما ذكره من عدم إنزال موسى عليه السلام قومه بمصر هو الأقرب إلى القبول عندي وإن تعقب الخفاجي كلامه بعد نقله بقوله فيه نظر ، ثم أن الأخبار المذكورة ظاهرة في أن العبد الذي أرشد إليه موسى عليه السلام كان أعلم منه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك .

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61)

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ الفاء فصيحة أي فذهبا يمشيان إلى مجمع البحرين فلما بلغا ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي البحرين ، والأصل في بين النصب على الظرفية .

(60/475)

وأخرج عن ذلك بجره بالإضافة اتساعاً والمراد مجمعهما ، وقيل : مجمعاً في وسطهما فيكون كالتفصيل لمجمع البحرين ، وذكر أن هذا يناسب تفسير المجمع بطنجة أو إفريقية إذ يراد بالمجمع متشعب بحر فارس والروم من المحيط وهو هناك ، وقيل : بين اسم بمعنى الوصل .

وتعقب بأن فيه ركاكة إذ لا حسن في قولك مجمع وصلهما ، وقيل إن فيه مزيد تأكيد كقولهم جد جده ؛ وجوز أن يكون بمعنى الافتراق أي موضع اجتماع افتراق البحرين أي البحرين المفترقين ، والظاهر أن ضمير التثنية على الاحتمالين للبحرين .

وقال الخفاجي : يحتمل على احتمال أن يكون بمعنى الافتراق عوده لموسى والخضر عليهما السلام أي وصلاً إلى موضع وعد اجتماع شملهما فيه ، وكذا إذا كان بمعنى الوصل انتهى ، وفيه ما لا يخفى ، و ﴿ مَجْمَعَ ﴾ على سائر الاحتمالات اسم مكان ، واحتمال المصدرية هنا مثله فيما تقدم ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الذي جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب ، فقد صح أن الله تعالى حين قال لموسى عليه السلام : إن لي بمجمع البحرين من هو أعلم قال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً وجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه حتى إذا أتيا الصخرة وكانت عند مجمع البحرين وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر ، والظاهر نسبة النسيان إليهما جميعاً وإليه ذهب الجمهور ، والكلام على تقدير مضاف أي نسيا حال حوتهما إلا أن الحال الذي نسيه كل منهما مختلف فالحال الذي نسيه موسى عليه السلام كونه باقياً في المكتل أو مفقوداً والحال الذي نسيه يوشع عليه السلام ما رأى من حياته ووقوعه في البحر ، وهذا قول بأن يوشع شاهد حياته وفيه خبر صحيح ، ففي حديث رواه الشيخان .

وغيرهما أن الله تعالى قال لموسى : خذ نوناً ميتاً فهو حيث ينفخ فيه الروح فأخذ ذلك فجعله في مكتل فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت قال : ما كلفت كثيراً فبينما هما في ظل صخرة إذا اضطرب الحوت حتى دخل البحر وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره .

وفي حديث رواه مسلم .

وغيره أن الله تعالى قال له : آية ذلك أن تزود حوتاً مالحاً فهو حيث تفقده ففعل حتى إذا انتهيا إلى الصخرة انطلق موسى يطلب ووضع فتاه الحوت على الصخرة فاضطرب ودخل البحر فقال فتاه : إذا جاء نبي الله تعالى حدثته فأنساه الشيطان ، وزعم بعض أن الناسي هو الفتى لا غير نسي أن يخبر موسى عليه السلام بأمر الحوت ، ووجه نسبة النسيان إليهما بأن الشيء قد ينسب إلى الجماعة وإن كان الذي فعله واحداً منهم ، وما ذكر هنا نظير نسي القوم زادهم إذا نسيه متعهد أمرهم ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي نسي أحدهما والمراد به الفتى وهو كما ترى ، وسبب حياة هذا الحوت على ما في بعض الروايات عن ابن عباس أنه كان عند الصخرة ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه ميت

إلا حي فأصاب شيء منه الحوت فحي ، وروي أن يوشع عليه السلام توضأ من ذلك الماء فانتضح شيء منه على الحوت فعاش ، وقيل : إنه لم يصبه سوى روح الماء وبرده فعاش بإذن الله تعالى ، وذكر هذا الماء وأنه ما أصاب منه شيء إلا حي وأن الحوت أصاب منه جاء في "صحيح البخاري" فيما يتعلق بسورة الكهف أيضاً لكن ليس فيه أنه من شرب منه خلد كما في بعض الروايات السابقة .

(62/475)

ويشكل على هذا البعض أنه روى أن يوشع شرب منه أيضاً مع أنه لم يخلد اللهم إلا أن يقال : إن هذا لا يصح والله تعالى أعلم ، ثم إن هذا الحوت كان على ما سمعت فيما مر مالحاً وفي رواية مشوياً ، وفي بعض أنه كان في جملة ما تزوداه وكانا يصيبان منه عند العشاء والغداء فأحياه الله تعالى وقد أكلا نصفه ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر سَرَباً ﴾ مسلكاً كالسرب وهو النفق فقد صح من حديث الشيخين والترمذي .

والنسائي .

وغيرهم أن الله تعالى أمسك عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، والمراد به البناء المقوس كالقنطرة .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن الحبر جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة ، وهذا وكذا ما سبق من الأمور الخارقة للعادة التي يظهرها سبحانه على من شاء من أنبيائه وأوليائه ، ونقل الدميري بقاء أثر الخارق الأول قال : قال أبو حامد الأندلسي رأيت سمكة بقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذي تزوده موسى وفتاه عليهما السلام وأكلا منه وهي سمكة طولها أكثر من ذراع وعرضها شبر واحد جنبيها شوك وعظام وجلد رقيق على أحشائها ولها عين واحدة ورأسها نصف رأس من رآها من هذا الجانب استقذرها وحسب أنها مأكولة ميتة ونصفها الآخر صحيح والناس يتبركون بها ويهدونها إلى الأماكن البعيدة انتهى .

وقال أبو شجاع في كتاب الطبري : أتيت به فرأيته فإذا هو شق حوت وليس له إلا عين واحدة ، وقال ابن عطية : وأنا رأيته أيضاً وعلى شقه قشرة رقيقة ليس تحتها شوكة ، وفيه مخالفة لما في كلام أبي حامد ، وأنا سألت كثيراً من راكبي البحار ومتتبعي عجائب الآثار فلم يذكروا أنهم رأوا ذلك ولا أهدي إليهم في مملكة من الممالك فلعل أمره إن صح كل من الإثبات والنفي صار اليوم كالعنقاء كانت فعدمت والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

(63/475)

والفاء على ما يقتضيه كلامهم فصيحة أي فحي وسقط في البحر فاتخذ ، وقدر بعضهم المعطوف عليه الذي تفصح عنه الفاء بالواو على خلاف المألوف ليدفع به الاعتراض على كون الحال الذي نسيه يوشع ما رأى من حياته ووقوعه في البحر بأن الفاء تؤذن بأن نسيانه عليه السلام كان قبل حياته ووقوعه في البحر واتخاذه سرباً فلا يصح اعتبار ذلك في الحال المنسي .

وأجيب بأن المعتبر في الحال هو الحياة والوقوع في البحر أنفسهما من غير اعتبار أمر آخر والواقع بعدهما من حيث ترتب عليهما الاتخاذ المذكور فهما من حيث أنفسهما متقدمان على النسيان ومن حيث ترتب الاتخاذ متأخران وهما من هذه الحيثية معطوفان على نسيا بالفاء التعقيبية ، ولا يخفى أنه سيأتي في الجواب إن شاء الله تعالى ما يأبى هذا الجواب إلا أن يلتزم فيه خلاف المشهور بين الأصحاب فتدبر ، وانتصاب ﴿ سَرَباً ﴾ على أنه مفعول ثان لاتخذ و ﴿ فِى البحر ﴾ حال منه ولو تأخر كان صفة أو من السبيل ، ويجوز أن يتعلق باتخذ ، و ﴿ فِى ﴾ في جميع ذلك ظرفية .

وربما يتوهم من كلام ابن زيد حيث قال : إنما اتخذ سبيله في البر حتى وصل إلى البحر فعام على العادة أنها تعليلية مثلها في أن امرأة دخلت النار في هرة فكانه قيل فاتخذ سبيله في البر سرباً لأجل وصوله إلى البحر ، ووافقه في كون اتخاذ السرب في البر قوم ، وزعموا أنه

صادف في طريق في البر حجراً فنقبه ، ولا يخفى أن القول بذلك خلاف ما ورد في "الصحيح" مما سمعت والآية لا تكاد تساعده ، وجوز أن يكون مفعولاً اتخذ ﴿ سَبِيلِهِ وَفِى البحر ﴾ وسرباً حال من السبيل وليس بذاك ، وقيل حال من فاعل اتخذ وهو بمعنى التصرف والجولان من قولهم فحل سارب أي مهمل يرعى حيث شاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ [الرعد : 109] وهو في تأويل الوصف أي اتخذ ذلك في البحر متصرفاً ، ولا يخفى أنه نظير سابقه .

(64/475)

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62)

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي ما فيه المقصد من مجمع البحرين ، صح أنهما انطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغد وارتفع النهار أحس موسى عليه السلام بالجوع فعند ذلك ﴿ قَالَ لفتاه ءاتِنَا غَدَاءنَا ﴾ وهو الطعام الذي يؤكل ، أول النهار والمراد به الحوت على ما ينبىء عنه ظاهر الجواب وقيل سارا ليلتهما إلى الغد فقال ذلك .

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ أي تعباً وإعياءً ، و ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى سفرهم الذي هم ملتبسون به ولكن باعتبار بعض أجزائه ، فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال

: " لم يجد موسى شيئاً من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به " وذكر أنه يفهم من الفحوى ، والتخصيص بالذكر أنه لم ينصب في سائر أسفاره والحكمة في حصول الجوع والتعب له حين جاوز أن يطلب الغداء فيذكر الحوت فيرجع إلى حيث يجتمع بمراده ، وعن أبي بكر غالب بن عطية والد أبي عبد الحق المفسر قال : سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه : مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام ؛ ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم ، والجملة في محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء إما باعتبار أن النصب إنما يعتري بسبب الضعف الناشىء عن الجوع ، وإما باعتبار ما في أثناء التغدي من استراحة ما ، وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير ﴿ نَصَباً ﴾ بضمتين ، قال صاحب اللوامح : وهي إحدى اللغات الأربع في هذه الكلمة .

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)

(65/475)

﴿ قَالَ ﴾ أي فتاه ، والاستئناف بياني كأنه قيل فما صنع الفتى حين قال له موسى عليه السلام ما قال ؟ فقيل قال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة ﴾ أي التجأنا إليها وأقمنا

عندها ، وجاء في بعض الروايات الصحيحة أن موسى عليه السلام حين قال لفتاه : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ [الكهف : 62] قال : قد قطع الله عنك النصب ، وعلى هذا فيحتمل أنه بعد أن قال ذلك قال : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الخ ، قال شيخ الإسلام : وذكر الاواء إلى الصخرة مع أن المذكور فيما سبق بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فإن المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد بنسبة الحادثة إليه ولتمهيد العذر فإن الاواء إليها والنوم عندها مما يؤدي إلى النسيان عادة انتهى .

(66/475)

وهذا الأخير إنما يتم على بعض الروايات من أنهما ناما عند الصخرة ، وذكر أن هذه الصخرة قريبة من نهر الزيت وهو نهر معين عنده كثير من شجر الزيتون ، و ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ قيل بمعنى أخبرني ؛ وتعقبه أبو حيان بأنها إذا كانت كذلك فلا بد لها من أمرين كون الاسم المستخبر عنه معها ولزوم الجملة التي بعدها الاستفهام وهما مفقودان هنا ، ونقل هو ناظر الجيش في شرح التسهيل عن أبي الحسن الأخفش أنه يرى أن أرأيت إذا لم ير بعدها منصوب ولا استفهام بل جملة مصدرة بالفاء كما هنا مخرجة عن بابها ومضمنة معنى اما أو تنبه فالفاء جوابها لا جواب إذ لأنها لا تجازي إلا مقرونة بما بلا خلاف فالمعنى إما أو تنبه إذ

أوينا إلى الصخرة ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت ﴾ وقال شيخ الإسلام : الرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ، ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى ، وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد بين الناس يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب : أرأيت ما نابني يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل ، والمفعول محذوف اعتماداً على ما يدل عليه من قوله ﴿ فَإِنِّي ﴾ الخ وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسي اه .

وفيه من القصور ما فيه .

(67/475)

والزمخشري جعله استخباراً فقال : إن يوشع عليه السلام لما طلب منه موسى عليه السلام الغداء ذكر ما رأى من الحوت وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية فدهش فطفق يسأل عن سبب ذلك كأنه قال : أرأيت ما دهاني إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت فحذف ذلك اه ، وفيه إشارة إلى أن مفعول ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ محذوف وهو إما الجملة الاستفهامية إن

كانت ما في ما دهاني للاستفهام وإما نفس ما إن كانت موصولة ، وإلى أن إذ ظرف متعلق بدهاني وهو سبب لما بعد الفاء في ﴿ فَإِنِّي ﴾ وهي سببية ، نظير ذلك قوله تعالى :

(68/475)

﴿ وَإِذَا لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 11] فإن التقدير وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون الخ وهو قول بأن أرأيت بمعنى أخبرني وقد سمعت ما قيل عليه ، وفي تقديره أيضاً على الاحتمال الثاني ما في حذف الموصول مع جزء الصلة بناءً على أن ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ﴾ من تتمتها ، وعلى العلات ليس المراد من الاستخبار حقيقته بل تهويل الأمر أيضاً ، ثم لا يخفى إن رأى إن كانت بصرية أو بمعنى عرف احتاجت إلى مفعول واحد والتقدير عند بعض المحققين أأبصرت أو أعرفت حالي إذ أوينا وفيه تقليل للحذف ولا يخفى حسنه ، وإن كانت علمية احتاجت إلى مفعولين وعلى هذا قال أبو حيان : يمكن أن تكون مما حذف منه المفعولان اختصاراً والتقدير أرأيت أمرنا إذ أوينا ما عاقبته ، وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور بإيتائه قيل للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان زاده في المنزل وأن ما شاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر

الحيتان مع زيادة ؛ وقيل للتصريح بما في فقده إدخال السرور على موسى عليه السلام مع حصول الجواب فقد تقدم رواية أنه قال له : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، ثم الظاهر أن النسيان على حقيقته وهو ليس متعلقاً بذات الحوت بل بذكره .

وجوز أن يكون مجازاً عن الفقد فيكون متعلقاً بنفس الحوت ، والأكثرون على الأول أي نسيت أن أذكر لك أمر الحوت وما شاهدت من عجيب أمره ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ لعله شغله بوساوس في الأهل ومفارقة الوطن فكان ذلك سبباً للنسيان بتقدير العزيز العليم وإلا فتلك الحال مما لا تنسى .

وقال بعضهم : إن يوشع كان قد شاهد من موسى عليه السلام المعجزات القاهرات كثيراً فلم يبق لهذه المعجزة وقع عظيم لا يؤثر معه الوسوسة فنسي .

(69/475)

وقال الإمام : إن موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله تعالى عن قلب صاحبه هذا العلم الضروري تنبيهاً لموسى عليه السلام على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله تعالى وحفظه على القلب والخاطر ، وأنت تعلم أنه لو جعل الله تعالى المشاهد الناسي هو موسى عليه السلام كان أتم في التنبيه ، وقد يقال : إنه أنسي تأديباً له بناءً على ما تقدم

من أن موسى عليه السلام لما قال له : لا أكلفك الخ قال له ما كلفت كثيراً حيث استسهل الأمر ولم يظهر الالتجاء فيه إلى الله تعالى بأن يقول : أخبرك إن شاء الله تعالى ، وفيه أيضاً عتاب لموسى عليه السلام حيث اعتمد عليه في العلم بذهاب الحوت فلم يحصل له حتى نصب ، ثم إن هذه الوسوسة لا تضر بمقام يوشع عليه السلام وإن قلنا أنه كان نبياً وقت وقوع هذه القصة .

وقال بعض المحققين : لعله نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما اعتراه من مشاهدة الآيات الباهرة ، وإنما نسبه إلى الشيطان مع أن فاعله الحقيقي هو الله تعالى والمجازي هو الاستغراق المذكور هضماً لنفسه بجعل ذلك الاستغراق والانجذاب لشغله عن التيقظ للموعد الذي ضربه الله تعالى بمنزلة الوساوس ففيه تجوز باستعارة الشيطان لمطلق الشاغل ، وفي الحديث " إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة " أو لأن عدم احتمال القوة للجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يعد من نقصان صاحبها وتركه المجاهدات والتصفية فيكون قد تجوز بذلك عن النقصان لكونه سببه ، وضم حفص الهاء في ﴿ أَنسَانِيهُ ﴾ وهو قليل في مثل هذا التركيب قلة النسيان في مثل هذه الواقعة ، والجمهور على الكسر وأمال الكسائي فتحة السين .

(70/475)

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدل اشتمال من الهاء أي ما أنساني ذكره لك إلا الشيطان ، قيل وفي تعليق الفعل بضمير الحوت أولاف وبذكره له ثانياً على طريق الإبدال المنبىء عن تنحيته المبدل منه إشارة إلى أن متعلق النسيان ليس نفس الحوت بل ذكر أمره .

وفي مصحف عبد الله وقراءته ﴿ إن ﴾ ، وفي إيثار أن والفعل على المصدر نوع مبالغة لا تخفى .

(71/475)

﴿ أَذْكُرَهُ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ الظاهر الذي عليه أكثر المفسرين أن مجموعه كلام يوشع وهو تتمة لقوله : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت ﴾ وفيه إنباء عن طرف آخر من أمره وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حي واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً ، فسبيله مفعول أول لاتخذ و ﴿ فِى البحر ﴾ حال منه و ﴿ عَجَبًا ﴾ مفعول ثان ، وفي ذكر السبيل ثم إضافته إلى ضمير الحوت ثم جعل الظرف حالاً من المضاف تنبيه إجمالي على أن المفعول الثاني من جنس الأمور الغريبة ، وفيه تشويق للمفعول الثاني وتكرير مفيد للتأكيد المناسب للمقام ، فهذا التركيب في إفادة المراد

أو في لحق البلاغة من أن يقال واتخذ في البحر سبيلاً عجباً ، وجوز أن يكون ﴿ فِى البحر ﴾ حالاً من ﴿ عَجَبًا ﴾ وأن يكون متعلقاً باتخذ ، وأن يكون المفعول الثاني له و ﴿ عَجَبًا ﴾ صفة مصدر محذوف أي اتخاذاً عجباً وهو كون مسلكه كالطاق والسرب ، وجوز أيضاً على اهتمال كون الظرف مفعولاً ثانياً أن ينصب ﴿ عَجَبًا ﴾ بفعل منه مضمر أي أعجب عجباً ، وهو من كلام يوشع عليه السلام أيضاً تعجب من أمر الحوت بعد أن أخبر عنه ، وقيل إن كلام يوشع عليه السلام قد تم عند ﴿ البحر ﴾ وقول أعجب عجباً كلام موسى عليه السلام كأنه قيل : وقال موسى : أعجب عجباً من تلك الحال التي أخبرت بها ، وأنت تعلم أنه لو كان كذلك لجيء بالجملة الآتية بالواو والعاطفة على هذا المقدر ، وقيل يحتمل أن يكون المجموع من كلامه عز وجل وحينئذٍ يحتمل وجهين ، أحدهما أن يكون إخباراً منه تعالى عن الحوت بأنه اتخذ سبيله في البحر عجباً للناس ، وثانيهما أن يكون إخباراً منه سبحانه عن موسى عليه السلام بأنه اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً يتعجب منه ، و ﴿ عَجَبًا ﴾ على هذا مفعول ثان ولا ركاكة في تأخير ﴿ قَالَ ﴾ [الكهف : 64] الآتي عنه على هذا لأنه استئناف لبيان ما صدر منه عليه السلام بعد ،

ويؤيد كونه من كلام يوشع عليه السلام قراءة أبي حيوة ﴿ واتخاذ ﴾ بالنصب على أنه معطوف على المنصوب في ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ .

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرت من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي الذي كنا نطلبه من حيث أنه أمارة للفوز بما هو المطلوب بالذات ، وقرىء ﴿ نَبْغِ ﴾ بغير ياء في الوصل وإثباتها أحسن وهي قراءة أبي عمرو والكسائي .

ونافع ، وأما الوقف فالأكثر فيه طرح الياء اتباعاً لرسم المصحف ، وأثبتها في الحالين ابن كثير ﴿ فارتدا ﴾ أي رجعا ﴿ على ءاثَارِهِمَا ﴾ الأولى ، والمراد طريقهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يقصانه قصصاً أي يتبعانها اتباعاً فهو من قص أثره إذا اتبعه كما هو الظاهر ، ونصبه على أنه مفعول لفعل مقدر من لفظه ، وجوز أن يكون حالاً مؤولاً بالوصف أي مقتصين حتى أتيا الصخرة التي فقد الحوت عندها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(73/475)

وقال القاسمي :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾

أي : اذكر وقت قول موسى لفتاه ، لا أبرح ، أي : لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أي : المكان الذي فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر . أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة ، فأتيقن فوات المطلب .

قال المهايمي : أي : اذكر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولست أقل من الخضر في الهداية بل أعظم . لأنها هداية في الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هي في الباطن . ولا تحتاجون في تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . والفتى الشاب . قال الشهاب : العرب تسمي الخادم فتى ، لأن الغالب استخدام من هو في سن الفتوة ، وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومحباً له ، وذا غيرة على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . وصار خليفة من بعده على بني إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي : البحرين : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ أي : خبر حوتهما ، وتفقد أمره ، وكانا تزوداه .

﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴾ أي : طريقه : ﴿ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾ أي : مثل السرب في الأرض ، واضح المسلك ، معجزة جعلت علامة للمطلوب .

(74/475)

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي : مجمع بينهما ، وهو المكان الذي نسيا فيه الحوت : ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ أي : ما نتغدى به : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ أي : تعباً ومشقة .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ أي : خبر الحوت . وإسناد النسيان إليهما ، أولاً ، إما بمعنى نسيان طلبه ، والذهول عن تفقده ، لعدم الحاجة إليه . وإما للتغليب ، بناءً على أن الناسي إنما كان يوشع وحده . فإنه نسي أن يخبر موسى بشأنه العجيب ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] ، وإنما يخرج من المالح : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ أي : لك . وأن أذكره بدل من الهاء في أنسانيه أي : وما أنساني ذكره إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصلاً ، والباقون بكسرها : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾ أي : أمراً عجيباً ، إذ صار الماء عليه سرباً .

﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : المكان الذي اتخذ فيه سبيله هرباً : ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي : نطلب فيه الخضر . لأنه أمارة المطلوب . وقرئ في السبع بإثبات الياء بعد الغين ، وصلاً لا وقفاً . وبإثباتها في الحالين . وبحذفها كذلك : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا ﴾ أي : رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها : ﴿ قَصَصاً ﴾ أي : اتباعاً لئلا يفوتهما الموضع ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 49.50 ﴾

(75/475)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60) ﴾

التفسير :

فى هذه الآيات ، وما بعدها ، قصة عجيبة ، وحدث عجب ، بين موسى ، والعبد الصالح . . حيث تجرى الأحداث فى متّجه على غير مألوف الحياة ، وما اعتاد الناس أن يجروا أمورهم عليها . .

وقبل أن نلتقى بآيات اللّه ، وما تحدث به عن تلك القصة ، نودّ أن نشير إلى أمور :

أولها : أن هذه القصة لم تذكرها التوراة . . ومن ثمّ فقد أنكرها اليهود وأنكروا أن يكون «

موسى » المذكور فيها هو موسى بن عمران رسول اللّه . . ! ! وهذا ما جعل كثيرا من المفسّرين يقيمون لهذا الإنكار من اليهود وزنا ، ويجعلون من مقولاتهم عن « موسى » هذا ، أنه رجل آخر غير موسى ابن عمران ، ثم يحاولون أن يجعلوا له نسبا لا يتفقون عليه . . فهو عند بعضهم موسى بن مشيا بن يوسف بن يعقوب ، وعند آخرين ، هو موسى بن أفرائيم بن يوسف . . إلى كثير من تلك المقولات التي لا حدود لها . .

وهذا كله مردود على أهله ، سواء اليهود ، أو من جعل لمقولاتهم حسابا فى هذا المقام . .

(76/475)

فليس فى القرآن الكريم أىّ ذكر فى غير هذا الموضع لموسى ، غير موسى رسول اللّه ، فإذا ذكر « موسى » فى أي موضع من القرآن ، فهو « موسى » رسول اللّه ، ما دام ذكره مجردا من كل وصف خاص ، يفرّق بينه وبين موسى رسول اللّه .

وليس إنكار اليهود حجة على القرآن ، وليس عدم ذكر هذه القصة فى التوراة حجة على القرآن كذلك . . وذلك :

1 ـ أن القرآن مصدّق للكتب السابقة ـ ومنها التوراة ـ ومهيمن عليها . . فهى جميعها تبع له

، وليس هو تابعا لها . .

2 ـ أن التوراة قد دخلها كثير من التحريف ، والتبديل ، والحذف ، والإضافة . . وقد ذهب بهذا ما لها من حجة على أنها هى كتاب اللّه ، الذي يلتزم المؤمنون بكل ما جاء فيه . .

3 ـ ليس كل ما جاء فى القرآن عن موسى وقومه قد ذكرته التوراة ، وما ذكرته التوراة لا يتفق أكثره مع ما جاء فى القرآن . . ومن ثمّ فلا وجه لاختصاص هذه الحادثة بالإنكار . . من جهة اليهود . . فقد أنكروا كثيرا مما جاء فى القرآن من أحداث ، بل لقد أنكروا ما هو موجود فعلا فى التوراة مما تحدّث به القرآن من رجم الزاني ، وقد أشرنا إلى هذا عند تفسير قوله تعالى :

« وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ » (43 : المائدة) . وأكثر من هذا ، فإنهم أنكروا ما فى التوراة من وصف لرسول اللّه ، كما يقول تعالى :

« الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ » (157 : الأعراف)

4 ـ هذه الحادثة أمر خاص بموسى ، ودرس من دروس العلم العالي ، الواقع على مستوى فوق مستوى الحياة الإنسانية . . وهو حدث يمكن أن يقع لموسى ، أو لغيره من الناس ، نبيا كان أو وليّا من أولياء اللّه ، أو عبدا من عباده الصالحين . . ومع هذا ، فإن ذكر « موسى » مجردا من كل صفة ، لا يعنى إلا موسى الذي له ذكر فى القرآن . .

وثانيها : هذه المقدّمة التي تمهد بها الآيات القرآنية لهذا اللقاء ، الذي وقع بين موسى والعبد الصالح ، يثير بعض التساؤلات ، كأن يقال :

ما داعية هذا الحوار الذي بين موسى وفتاه ؟ وما شأن هذا الحوت ؟

وما متعلّق القصة به ؟ وما هذه الصخرة التي جاوزها موسى وفتاه ثم عادا إليها ؟ .

وأخيرا : ما ذا لو خلت القصة من كل هذا ، ووقع اللقاء بين موسى والعبد الصالح من غير هذه المقدّمات ؟ أفي ذلك ما يذهب بشيء من مواقع العبرة والعظة التي جاءت القصة من أجلهما ؟

والجواب على هذا :

أولا : أن القصة ـ كما قلنا ، وكما سنرى ـ تجرى أحداثها فى اتجاه على غير الاتجاه المألوف للناس ، حسب تقديرهم وتفكيرهم . . وإذ كان موسى سيدخل فى هذه التجربة ، وسيجرى مع هذا الأحداث على صورة يرى فيها أنه يسير فى وضع مقلوب ، حيث أنه يمشى القهقرى ، على حين أنه يريد أن يتجه إلى الأمام لغاية يقصدها ـ إذ كان ذلك كذلك ، فقد كان من الطبيعي أن يعانى شيئا من هذه التجربة بنفسه ، ومع إنسان يفكر على

مستوى تفكيره ، ويجرى فى الحياة على ما اعتاد الناس منها ، وهو فتاه الذي كان رفيق رحلته . .

فموسى مع فتاه . . يسيران سيرا مجهدا إلى غاية يقصدانها ، وهى الصخرة ، التي سيلتقى عندها موسى مع العبد الصالح . . ومع هذا يمرّان بتلك الصخرة ، ويأويان إليها ، ثم يجاوزانها ، حتى يجهدهما السفر . . ثم ينكشف لهما فيما بعد ، أن هذه الصخرة ، هى الصخرة المطلوبة ، فيعودان إليها مرة أخرى . . ولو كان لموسى شىء من هذا العلم الذي سيكشفه له العبد الصالح لما دار هذه الدورة الطويلة ولما بذل كل هذا الجهد الضائع ! إن موسى هنا يبحث عن حقيقة مادّية وهى « الصخرة » ومع أن الصخرة كانت تحت قدميه ، فإنه لم يرها ، ولم يتعرف عليها . . ولو رفع عنه حجاب الغيب للزم مكانه ، ولما سعى هذا السّعى المجهد .

(78/475)

وفى هذا درس بليغ للإيمان بالقدر المتحكّم فى مصائر الناس . . وأنه لو انكشف للناس ما قدّر لهم لما سعوا ، ولما تحركوا ، ولجمدت الحياة بالناس حيث هم . . لا يعملون ، ولا يتحركون ! وخذ مثلا « الغلام » الذي قتله العبد الصالح . . أ ترى لو انكشف لأبويه منه ما

انكشف للعبد الصالح . . أكانا يبغيان الولد ؟ بل أكانا يتزوجان ؟ . .

وقل مثل هذا فى كل شأن من شئون الحياة ، خيرها وشرها . . أكان أحد يتحرك إلى غاية أبدا ؟ وكيف والغايات ـ بحكم القدر ـ تطلب الناس ، ولا يطلبونها ؟ أما ونحن محجوبون عن أقدارنا ، فإننا ـ بحكم الرغبة فينا ـ نسعى إلى أقدارنا ، ونسلك إليها مسالك مستقيمة أو معوجة . . حتى نبلغها . .

وتلك هى سنة الحياة فينا ، والقوة الدافعة لنا إلى السعى والكفاح . .

يتحرك الناس ويتحركون . . ثم ينتهى بهم المطاف إلى ما يحمدون أو ما لا يحمدون . . ولو انكشفت لهم عواقب الأمور لوقفوا حيث هم ، ولما ركبوا المخاطر والأهوال . . ولكنهم ـ مع هذا ـ مدفوعون إلى أقدارهم ، يركبون إليها كل هول وخطر . . يقول ابن الرومي :

أقدّم رجلا رغبة فى رغيبة وأمسك أخرى رهبة للمعاطب

أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب اللّه دون العواقب

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ! ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب ؟

وثانيا : أن موسى يريد أن يحصّل علما . . والعلم هو أعظم وأكرم ما يطلبه الإنسان فى الحياة . . وشأن العلم وتحصيله ، شأن كل ثمرة طيبة ، يريد الإنسان الحصول عليها . . لا بد من مجهود يبذل ، وإنه على قدر الجهد المبذول ، تكون الثمرة التي تقع ليد الطالب .

ومن هنا كان على موسى إذن أن يبذل من جهده هذا الذي بذله ، حتّى يصل إلى النبع الذي يريد أن يروى منه ظمأه ، ويشفى عنده غليله ، وينال طلبته . . !

(79/475)

أما الحوت ، فهو حدث عارض من أحداث هذا الموقف ، ولون من ألوانه ، حتى تكتمل الصورة ، شأنه فى هذا شأن الفتى الذي صحب موسى ، وشأن الصخرة ، وشأن البحر . . ولو لم يكن الحوت لكان هناك شىء آخر يقوم مقامه .

ونعود إلى الآيات ، وسينكشف لنا عند النظر فيها ، ما يزداد به هذا القول .

بيانا ووضوحا .

قوله تعالى .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآيات السابقة قد نعت على المشركين عنادهم وضلالهم ، وتأبيهم عن الهدى ، وقد جاءهم عفوا صفوا من غير أن يسعوا إليه ، ويبذلوا الجهد فى طلبه ، وقد كان جديرا بهم ، أن يطلبوا الهدى لأنفسهم ، وأن يبذلوا فى ذلك الجهد والمال . . ولكنهم لم يفعلوا . . سفها ، وغفلة ! فإذا جاءهم الهدى ، وطلبهم قبل أن يطلبوه ، ثم

زهدوا فيه ، وردوه ردا منكرا ، كان ذلك سفها فوق سفه ، وغفلة فوق غفلة . .

وهذا بنى كريم من أنبياء اللّه ، هو موسى عليه السلام ، قد كلمه ربه ، وأنزل عليه آياته وكلماته ، ومع هذا ، فهو لا يزال يطلب العلم ، ويجدّ فى تحصيله ويبتغى المعرفة ، ويسعى للاستزادة منها . .

وفى هذا ما يكشف عن مدى ما ركب سفهاء قريش وحمقاها ، من جهل فاضح ، وكبر صبيانى غشوم ! إذ كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى علم ، حتى ولو كان هذا العلم يطرق أبوابهم ، ويدخل عليهم بيوتهم ! .

.وقول موسى لفتاه : « لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ » . . يريد به أنه على نية صادقة ، وعزم وثيق ، من أمره هذا الذي هو متجه إليه ، وأنه لا ينقطع عن السير إليه حتى يبلغه . . فمعنى لا أبرح أي لا أزال ، وهو فعل من أفعال الاستمرار ، وخبره محذوف ، تقديره لا أبرح سائرا . . ومجمع البحرين ملتقاهما . .

وقد اختلف فى البحرين . . ما هما ؟ وأين ملتقاهما ، أو مجمعهما ؟

والذي أميل إليه ، أنهما خليج السويس ، وخليج العقبة ، وأن ملتقاهما هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبي ، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالا ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء . . فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما . . أي هو مجمعهما ، وهو مجمع البحرين . .

ويقوّى هذا الرأى عندنا ، أنّ تحرّك موسى بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء ، حيث ضرب فيها التيه على بنى إسرائيل أربعين سنة .

ومن جهة أخرى ، فإن رأس شبه الجزيرة الجنوبىّ صخرى ، تكثر فيه الصخور ، والآكام ، وتتشابه فيه معالم تلك الصخور ، الأمر الذي اختلط به على موسى وجه الصخرة التي كانت موعدا له مع هذا العبد الصالح ، الذي جدّ فى طلبه . .

أما ما يذهب إليه بعض المفسرين من أنه « طنجة » حيث يلتقى البحر الأبيض بالبحر المحيط ، فهو بعيد إلى حد الاستحالة !

وأيا ما كان الأمر ، فإنه ليس للبحرين ، أو لمجمعهما شأن فى كبير مضمون القصة ومحتواها . .

. وقوله تعالى : « أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً » هو حكاية لقول موسى لفتاه ، وتتمة لما قاله له . . من أنه لا يزال هكذا سائرا حتى يبلغ مجمع البحرين وأنه إذا لم يبلغ مجمع البحرين ، ولم يهتد السبيل إليه ، فسيظل ماضيا فى سيره ، لا يتوقف أبدا . . وفى هذا ما يشير إلى أن

موسى ـ عليه السلام ـ وهو يطلب مجمع البحرين ، لم يكن يعلم على سبيل القطع واليقين أين يجتمع هذان البحران ، وإنما هو يتظنّى ذلك ظنا . .

(81/475)

وهذا ما يكشف عنه قوله « لا أَبْرَحُ » التي تفيد أنه لا يكفّ عن الطلب والبحث . . وأما قوله : « أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً » فهو يكشف عن حرصه الشديد على تحقيق هذه الرغبة ، حتى أنه إذا لم يبلغها فى المدى الذي قدره ، فإنه لن يكف عن السعى ، بل يظل هكذا طول حياته ، راصدا لهذه الغاية ، ساعيا إليها . . شأن من تتسلط عليه رغبة ، ويستولى عليه أمل ، فيعيش حياته كلها ساعيا لهذه الرغبة ، جاريا وراء هذا الأمل ، إلى أن يتحقق أو يموت دونه .

والحقب : الأزمان المتقطعة ، تجىء زمنا بعد زمن ، والحقبة : القطعة من الزمن ، وجمعها القياسي : حقب لا حقب . . ولكن النظم القرآنى أصل يقاس عليه ، ولا يقاس هو على ما ضبط من مقاييس اللغة .

وقوله تعالى :

« فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً » .

هذه حادثة وقعت فى طريقهما إلى مجمع البحرين . . لقد بلغاه فعلا ، ولكنهما لم يكونا يدريان أن هنا هو مجمع البحرين . . !

ويظهر أن موسى وفتاه لم يكونا قد سارا سيرا طويلا ، حسبما كان ذلك

(82/475)

فى تقديرهما ، شأن من يطلب أمرا عظيما ، ويسعى وراء أمل ضخم ، فيرصد له من كيانه عزما وثيقا ، ويهيىء نفسه ـ سلفا ـ لملاقاة الشدائد والأهوال فى سبيله . . فإذا عرض له المطلوب من قريب ، أو لاحت له بعض أماراته ، لم يلتفت إليه ، ولم يقع فى ظنه أنه هو الذي يجدّ فى طلبه ! ! إنه أبعد من هذا ، وإن الثمن المطلوب له لأغلى مما بذل له ! ! وهنا يستكثر المفسرون من الأقوال فى « الحوت » الذي كان معهما ، والذي نسياه عند مجمع البحرين ! والذي نؤثر أن نقول به ، هو أن هذا الحوت ليس إلا سمكة من أسماك البحر ، وحوتا من حيتانه ، وأنهما قد اصطاداه ، أو صيد لهما ، وحملاه حيا معهما ، ليمكث أطول مدة ، دون أن يتعفن ، حتى يعدّاه طعاما لهما . . والحوت أكثر أنواع السمك احتمالا للحياة خارج الماء . . ولعلّ هذا هو السرّ فى اختيارهما لهذا النوع من السمك ، ليكون زادا لهما يتزودان به فى رحلتهما .

ولقد غفل الفتى عن أمر هذا الحوت ، فانسرب منه إلى البحر . . إذ كانا يمشيان على الشاطئ ويتخذانه دليلا لهما إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين . .

فهما يسيران على شاطىء أحد البحرين إلى أن يلتقى بشاطئ البحر الآخر . .

حيث يكون مجمعهما ، وحيث توجد الصخرة ! .

« فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ! وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً » .

أي فلما جاوزا مكانهما الذي كانا فيه عند مجمع البحرين ، وسارا حتى أجهدهما السير ، وهما يطلبان هذا المجمع ، قال موسى لفتاه : « آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً »

(83/475)

أي تعبا شديدا ، نحتاج معه إلى شىء من الراحة ، وشىء من الطعام ، حتى نقوى على مواصلة السير . . وقد أسرع الفتى ليعدّ الطعام ، ويهيىء الحطب والنار ، ليشوى عليها الحوت الذي معهما .

وبحث الفتى عن الحوت فلم يجده . . وهنا تذكر أنه نسى الحوت عند ما أويا إلى الصخرة ،

واستراحا قليلا عندها . . فقال لموسى فى أسف ، وعجب من أمره : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ ؟ . فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ! ! وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » وأحمله معى فيما أحمل من زاد ومتاع . . ثم إنه لم يمهل موسى ، وينتظر رأيه فى هذا الأمر ، بل اندفع إلى البحر ، ليصطاد شيئا يجعلانه غذاء لهما . . « وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً » أي أنه اتجه إلى البحر فى قوة وعزم حتى يكفّر عن فعلته تلك ، التي عدّها إهمالا منه ، ولا يجبره إلا أن يسدّ هذا النقص ، ويأتى بحوت كهذا الحوت الذي ضاع ، أو بشىء يغنى غناءه . . !

ولهذا كان منه هذا الأسلوب العجب فى الاندفاع نحو البحر . !

وقوله تعالى : « قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً » .

القصص : تتبع الأثر . .

وهنا يتذكر موسى أمارة من تلك الأمارات التي يتعرف بها إلى المكان الذي يلتقى عنده بالعبد الصالح . . فالعبد الصالح هناك عند صخرة ، عند ملتقى البحرين . . ولكن عند ملتقى البحرين صخور لا حصر لها ، تمتد إلى مسافات بعيدة ، قد تبلغ مسيرة أيام . . فأى الصخور هى ؟ إنها صخرة يفقد موسى عندها شيئا من متاعه ، على غير قصد منه ، وإلّا ما عدّ هذا فقدا . . هكذا كانت الأمارة الدالة على التقائه بالعبد الصالح . . وقد تكون هذه الأمارة وحيا تلقاه من ربّه ، أو رؤيا رآها فى منامه . .

وأما وقد فقد الحوت عند تلك الصخرة التي أويا إليها . . فتلك إذن هى

الصخرة المقصودة . . ولهذا ، لم يلتفت موسى إلى فتاه ، ولا إلى ما كان من نسيان الحوت ، بل اتجه إلى المكان الذي عنده الصخرة ، قائلا : « ذِلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ » أي ذلك هو المقصد الذي كنا نقصده ، والموضع الذي نبحث عنه . .

« فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً » أي فعادا إلى الوراء ، يتبعان آثارهما التي تنتهى بهما إلى حيث أويا إلى الصخرة ، التي نسى الحوت عندها . .

ذلك - فى تقديرنا - هو أقرب مفهوم إلى تلك الآيات ، وما ضمّت عليه من أسماء ، ومسمّيات . . أما ما ذهب إليه المفسّرون من مقولات ، لا يحتملها النظم القرآنى على أية صورة من صور الاحتمال ، فذلك ما رأينا أن نصرف النظر عنه ، فهو أقرب إلى الأساطير والخرافات منه إلى أي شىء آخر ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 8 صـ 650.641 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

لما جرى ذكر قصة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له ، وما عرض للشيطان من الكبر والاعتزاز بعنصره جهلاً بأسباب الفضائل ومكابرةً في الاعتراف بها وحسداً في الشرف والفضل ، فَضرب بذلك مثلاً لأهل الضلال عبيد الهوى والكبر والحسد ، أعقبَ تلك القصة بقصة هي مَثل في ضدها لأن تطلب ذي الفضل والكمال للازدياد منهما وسعيه للظفر بمن يبلغه الزيادة من الكمال ، اعترافاً للفاضل بفضيلته .

وفي ذلك إبداء المقابلة بين الخُلُقين وإقامة الحجة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين المؤمنين والكافرين ، وفي خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى ، وتربية للمتقين .

ولأن هذه السورة نزلت بسبب ما سأل المشركون والذين أمْلَوا عليهم من أهل الكتاب عن قصتين قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين .

وقد تقضى الجواب عن القصة الأولى وما ذيلت به ، وآن أن ينتقل إلى الجواب عن القصة الثانية فتختم بذلك هذه السورة التي أنزلت لبيان القصتين .

قدمت لهذه القصة الثانية قصة لها شبه بها في أنها تَطواف في الأرض لطلب نفع صالح ، وهي قصة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى .

وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى لهم أن يدُلوا الناس على أخبار أنبياء

إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان .

فجملة ﴿ وإذ قال موسى ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ [الكهف : 50] عطف القصة على القصة .

والتقدير : واذكر إذ قال موسى لفتاه ، أي اذكر ذلك الزمن وما جرى فيه .

وناسبها تقدير فعل اذكر لأن في هذه القصة موعظة وذكرى كما في قصة خلق آدم .

فانتصب (إذ) على المفعولية به .

والفتى : الذكَر الشاب ، والأنثى فتاة ، وهو مستعمل مجازاً في التابع والخادم .

(86/475)

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ تراود فتاها ﴾ في سورة [يوسف : 30] .

وفتى موسى : خادمه وتابعه ، فإضافة الفتى إلى ضمير موسى على معنى الاختصاص ، كما يقال : غُلامه .

وفتى موسى هو يوشع بن نون من سبط أفرايم .

وقد قيل : إنه ابن أخت موسى ، كان اسمه الأصلي هُوشع فدعاه موسى حين بعثه للتجسس في أرض كنعان يوشع .

ولعل ذلك التغير في الاسم تلطف به ، كما قال رسول الله لأبي هريرة يا أبا هِرّ .

وفي التوراة : أن إبراهيم كان اسمه أبرام فلما أمره الله بخصال الفطرة دعاه إبراهَام .

ولعل هذه التغييرات في العبرانية تفيد معاني غير معاني الأسماء الأولى فتكون كما دعا النبي زَيْد الخَيل زيدَ الخير .

ويوشع أحد الرجال الإثني عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام ليتجسسوا في أرض كنعان في جهات حلب وحبرون ويختبروا بأس أهلها وخيرات أرضها ومكثوا أربعين يوماً في التجسس .

وهو أحد الرجلين اللذين شجعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان اللذين ذكرهما القرآن في آية ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ [المائدة : 23] .

كان ميلاد يوشع في حدود سنة 1463 قبل المسيح ووفاته في حدود سنة 1353 وعمَّر مائة وعشر سنين ، وكان موسى عليه السلام قد قربه إلى نفسه واتخذه تلميذاً وخادماً ، ومثل ذلك الاتخاذ يوصف صاحبه بمِثل فتى أو غلام .

ومنه وصفهم الإمام محمد بن عبد الواحد المطرز النحْوي اللغوي غلامَ ثعلب ، لشدة اتصاله بالإمام أحمد بن يحيى الشيباني الملقب بثعلب .

وكان يوشع أحد الرجلين اللذين عهد إليهما موسى عليه السلام بأن يقسما الأرض بين

أسباط بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام .

وأمر الله موسى بأن يعهد إلى يوشع بتدبير أمر الأمة الإسرائيلية بعد وفاة موسى عليه السلام فعهد إليه موسى بذلك فصار نبيئاً من يومئذٍ .

ودبر أمر الأمة بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

وكتاب يوشع هو أول كتب الأنبياء بعد موسى عليه السلام .

(87/475)

وابتدئت القصة بحكاية كلام موسى عليه السلام المقتضي تصميماً على أن لا يزول عما هو فيه ، أي لا يشتغل بشيء آخر حتى يبلغ مجمع البحرين ، ابتداء عجيباً في باب الإيجاز ، فإن قوله ذلك يدل على أنه كان في عَمل نهايته البلوغ إلى مكان ، فعلم أن ذلك العلم هو سَيْرُ سَفر .

ويدل على أن فتاهُ استعظم هذه الرحلة وخشي أن تنالهما فيها مشقة تعوقهما عن إتمامها ، أو هو بحيث يستعظمها للعلم بأنها رحلة بعيدة ، وذلك شأن أسباب الأمور المهمة ، ويدل على أن المكان الذي يسير إليه مكان يجد عنده مطلبه .

وأبرح ﴾ مضارع بَرِح بكسر الراء ، بمعنى زال يزول .

وتقدم في سورة يوسف عليه السلام .

واستعير ﴿ لا أبرح ﴾ لِمعنى : لا أترك ، أو لا أكف عن السير حتى أبلغ مجمع البحرين .

ويجوز أن يكون مضارع بَرِح الذي هو فعل ناقص لا يستعمل ناقصاً إلا مع النفي ويكون الخبر محذوفاً بقرينة الكلام ، أي لا أبرح سائراً .

وعن الرضيّ أن حذف خبرها قليل .

وحُذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى عليه السلام لأنه سيُذكر بعدُ ، وهو حذف إيجاز وتشويق ، له موقع عظيم في حكاية القصة ، لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحِكم والأمثال قضاءِ لحق بلاغة الإعجاز .

وتفصيل هذه القصة وارد في "صحيح البخاري" من حديث : " عمرو بن دينار ويعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبَيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا .

فعتَب الله عليه إذ لمْ يَردّ العلمَ إليه .

فأوحى الله إليه : بلى عبدُنا خَضِرٌ هو أعلم منك .

قال : فأين هو ؟ قال : بمجمع البحرين .

قال موسى عليه السلام : يا رب اجعل لي علَماً أعلم ذلك به .

قال : تَأخذ معك حُوتاً في مِكتَل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمّ ، فأخذ حوتاً فجعله في مِكتل وقال لفتاه يوشع بن نون : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال (أي فتاه) : ما كلّفتَ كثيراً .

ثم انطلق وانطلق بفتاه حتى إذا أتيا الصخرة وضعَا رؤوسهما فنامَا واضطرب الحوت في المِكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سَرَبَا وموسى نائم ، فقال فتاه (وكان لم ينم) : لا أوقظه وأمسك اللّهُ عن الحوت جَرية الماء فصار الماء عليه مثلَ الطاق ، فلما استيقظ (موسى) نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه : آتنا غداءَنا لقد لَقينا من سفرنا هذا نصبَاً .

قال : ولم يجد موسى النصَب حتى جاوزَ المكان الذي أمره الله به (أي لأن الله ميسر أسباب الامتثال لأوليائه : فقال له فتاه : أرأيتَ إذ أَوَيْنا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجباً .

قال : فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً .

فقال موسى : ذلك ما كنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصاً ، قال : رجعا يَقُصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى ثوباً فسَلّم عليه موسى .

فقال الخَضر : وأنى بأرضك السلام . . .

الحديث .

قوله : "وأنى بأرضك السلام" استفهام تعجب ، والكاف خطاب للذي سلم عليه فكانَ الخضر يظن ذلك المكان لا يوجد به قوم تحيتهم السلام ، إما لكون ذلك المكان كان خلاء وإما لكونه مأهولاً بأمة ليست تحيتهم السلام .

وإنما أمسك الله عن الحوت جَرية الماء ليكون آية مشهودة لموسى عليه السلام وفتاه زيادة في أسباب قوة يقينهما ، ولأن المكان لما كان ظرفاً لظهور معجزات عِلم النبوءة ناسب أن يحف به ما هو خارق للعادة إكراماً لنزلاء ذلك المكان .

ومجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين .

(89/475)

والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه .

وكانت تسمى عند الإسرائيليين بحر الجليل ، فإن موسى عليه السلام بلغ إليه بعد مسير يوم وليلة راجلاً فعلمنا أنه لم يكن مكاناً بعيداً جداً .

وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان لأن الله أوحى إليه أن يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه

فجعله ميقاتاً له .

ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنه يعلم علوماً من معاملة الناس لم يعلّمها الله لموسى .

فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم ، وهو تفاوت نسبي .

والخضر : اسم رجل صالح .

قيل : هو نبيء من أحفاد عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام .

فهو الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابر ، فيكون ابن عم الجد الثاني لإبراهيم عليه السلام .

وقيل : الخضر لقبه .

وأما اسمه فهو (بليا) بموحِدة أو إيليا بهمزة وتحتية .

واتفق الناس على أنه كان من المعمرين ، ثم اختلفوا في أنه لم يزل حياً اختلافاً لم يبن على أدلة مقبولة متعارفة ولكنه مستند إلى أقوال بعض الصوفية ، وهي لا ينبغي اعتمادها لكثرة ما يقع في كلامهم من الرموز والخلط بين الحياتين الروحية والمادية ، والمشاهدات الحسية والكشفية ، وقد جعلوه رمز العلوم الباطنية كما سيأتي .

وزعم بعض العلماء أن الخضر هو جرجس : وقيل : هو من ذرية عيسو بن إسحاق .

وقيل : هو نبيء بعث بعد شعيب .

وجرجس المعني هو المعروف باسم مَار جرجس .

والعرب يسمونه : مارَ سَرجس كما في "كتاب سيبويه" .

وهو من أهل فلسطين ولد في الرملة في النصف الآخر من القرن الثالث بعد مولد عيسى عليه السلام وتوفي سنة 303 وهو من الشهداء .

وهذا ينافي كونه في زمن موسى عليه السلام .

والخضر لقب له ، أي الموصوف بالخضرة ، وهي رمز البركة ، قيل : لقب خضراً لأنه كان إذا جلس على الأرض اخضرَّ ما حوله ، أي اخضرَّ بالنبات من أثر بركته .

(90/475)

وفي "دائرة المعارف الإسلامية" ذكرت تخرصات تُلصق قصة الخضر بقصص بعضها فارسية وبعضها رومانية وما رَائدهُ في ذلك إلا مجرد التشابه في بعض أحوال القصص ، وذلك التشابه لا تخلو عنه الأساطير والقصص فلا ينبغي إطلاق الأوهام وراء أمثالها .

والمحقق أنّ قصة الخضر وموسى يهودية الأصل ولكنّها غير مسطورة في كتب اليهود المعبر عنها بالتوراة أو العهد القديم .

ولعل عدم ذكرها في تلك الكتب هو الذي أقدم نَوفاً البِكالي على أن قال : إن موسى المذكور في هذه الآيات هو غير موسى بني إسرائيل كما ذكر ذلك في "صحيح البخاري"

وأن ابن عباس كذب نَوفاً ، وسَاق الحديث المتقدم .

وقد كان سبب ذكرها في القرآن سؤال نفر من اليهود أو من لقنهم اليهودُ إلقاء السؤال فيها على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : 85] .

واختلف اليهود في أن صاحب الخضر هو موسى بن عمران الرسول وأن فتاه هو يوشع بن نون ، فقيل : نعم ، وقد تأيد ذلك بما رواه أبي بن كعب عن النبي وقيل : هو رجل آخر اسمه موسى بن ميشا (أو مِنسه) ابن يوسف بن يعقوب .

وقد زعم بعض علماء الإسلام أن الخضر لقي النبي وعُدّ من صحابته .

وذلك توهم وتتبع لخيال القصاصين .

وسمي الخضر بليا بن ملكان أو إيليا أو إلياس ، فقيل : إن الخضر هو إلياس المذكور في سورة يس .

ولا يصح أن يكون الخضر من بني إسرائيل إذ لا يجوز أن يكون مكلفاً بشريعة موسى ويقره موسى على أفعال لا تبيحها شريعته .

بل يتعين أن يكون نبيئاً موحى إليه بوحي خاص ، وعَلِم موسى أنه من أمة غير مبعوث موسى إليها .

ولما علم موسى ذلك مما أوحى الله إليه من قوله : بلَى عبدنا خضر هو أعلم منك .

كما في حديث أَبي بن كعب ، لمَ يَصرفه عنه ما رأى من أعماله التي تخالف شريعة التوراة لأنه كان على شريعة أخرى أمةً وحده .

(91/475)

وأما وجوده في أرض بني إسرائيل فهو من السياحة في العبادة ، أو أمره الله بأن يحضر في المكان الذي قدره للقاء موسى رفقاً بموسى عليه السلام .

ومعنى أو أمضي ﴾ أو أسير .

والمضي : الذهاب والسير .

والحُقُب بضمتين اسم للزمان الطويل غير منحصر المقدار ، وجمعه أحقاب .

وعطف ﴿ أمضي ﴾ على ﴿ أبلغ ﴾ بـ (أو) فصار المعطوف إحدى غايتين للإقلاع عن السير ، أي إما أن أبلغ المكان أو أمضي زمناً طويلاً .

ولما كان موسى لا يخامره الشك في وجود مكان هو مجمع للبحرين وإلفاء طلبته عنده ، لأنه علم ذلك بوحي من الله تعالى ، تعين أن يكون المقصود بحرف الترديد تأكيد مضيه زمناً يتحقق فيه الوصول إلى مجمع البحرين .

فالمعنى : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين بسير قريب أو أسير أزماناً طويلة فإني بالغ مجمع

البحرين لا محالة ، وكأنه أراد بهذا تأييس فتاه من محاولة رجوعهما ، كما دل عليه قوله بعد ﴿ لقد لَقِينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ [الكهف : 62] .

أو أراد شحْذ عزيمة فتاه ليساويه في صحة العزم حتى يكونا على عزم متحد .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) ﴾

الفاء للتفريع والفصيحة لأنها تفصح عن كلام مقدر ، أي فسارا حتى بلغا مجمع البحرين .

وضمير ﴿ بينهما ﴾ عائد إلى البحرين ، أي محلا يجمع بين البحرين .

وأضيف (مجمع) إلى (بين) على سبيل التوسع ، فإن (بين) اسم لمكان متوسط شيئين ، وشأنه في اللغة أن يكون ظرفاً للفعل ، ولكنه قد يستعمل لمجرد مكان متوسط إما بالإضافةِ كما هنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ [المائدة : 106] ، وهو بمنزلة إضافة المصدر أو اسم الفاعل إلى معمولة ؛ أو بدون إضافة توسعاً كقوله تعالى : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : 94] في قراءة من قرأ برفع بينكم .

(92/475)

والحوت هو الذي أمر الله موسى باستصحابه معه ليكون له علامة على المكان الذي فيه الخضر كما تقدم في سياق الحديث .

والنسيان تقدم في قوله تعالى : ﴿ أو ننسها ﴾ في سورة البقرة (106) .

ومعنى نسيانهما أنهما نسيا أن يراقبا حاله أباقٍ هو في مِكتله حينئذٍ حتى إذا فقداه في مقامهما ذلك تحققا أن ذلك الموضع الذي فقداه فيه هو الموضع المؤقت لهما بتلك العلامة فلا يزيدا تعباً في المشي ، فإسناد النسيان إليهما حقيقة ، لأن يوشع وإن كان هو الموكل بحفظ الحوت فكان عليه مراقبته إلا أن موسى هو القاصد لهذا العمل فكان يهمه تعهده ومراقبته .

وهذا يدل على أن صاحب العمل أو الحاجة إذا وَكَله إلى غيره لا ينبغي له ترك تعهده .

ثم إن موسى عليه السلام نام وبقي فتاه يقظان فاضطرب الحوت وجعل لنفسه طريقاً في البحر .

والسرَب : النفق .

والاتخاذ : الجعل .

وقد انتصب سرباً ﴾ على الحال من ﴿ سبيله ﴾ مراداً بالحال التشبيه ، كقول امرىء القيس :

إذا قامتا تضوّع المسك منهما

نسيمَ الصبا جاءت بِريّا القرَنفل . . .

وقد مر تفسير كيف اتخذ البحر سرباً في الحديث السابق عن أُبيّ بن كعب .

وحذف مفعول ﴿ جاوزا ﴾ للعلم ، أي جاوزا مجمع البحرين .

والغداء : طعام النهار مشتق من كلمة الغدوة لأنه يُؤكل في وقت الغَدوة ، وضده العشاء ، وهو طعام العشي .

والنصب : التعب .

والصخرة : صخرة معهودة لهما ، إذ كانا قد أويا إليها في سيرهما فجلسا عليها ، وكانت في مجمع البحرين .

قيل : إن موضعها دون نهر يقال له : نهر الزيت ، لكثرة ما عنده من شجر الزيتون .

وقوله : ﴿ نسيت الحوت ﴾ أي نسيت حفظه وافتقاده ، أي فانفلت في البحر .

وقوله : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ .

هذا نسيان آخر غير النسيان الأول ، فهذا نسيان ذكر الإخبار عنه .

وقرأ حفص عن عاصم ﴿ وما أنسانيه ﴾ بضم هاء الضمير على أصل الضمير وهي لغة .

والكسر أشهر لأن حركة الكسرة بعد الياء أخف .

(93/475)

و ﴿ أن أذكره ﴾ بدل اشتمال من ضمير ﴿ أنسانيه ﴾ لا من الحوت ، والمعنى : ما أنساني أن أذكره لك إلا الشيطان .

فالذكر هنا ذكر اللسان .

ووجه حصره إسناد هذا الإنساء إلى الشيطان أن ما حصل له من نسيان أن يخبر موسى بتلك الحادثة نسيان ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدة الاهتمام بالأمر المنسي وشدة عنايته بإخبار نبيئه به .

ومع كون المنسي أعجوبة شأنها أن لا تنسى يتعين أن الشيطان ألهاه بأشياء عن أن يتذكر ذلك الحادث العجيب وعلم يوشع أن الشيطان يَسوءه التقاء هذين العبدين الصالحين ، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة فهو يصرف عنها ولو بتأخير وقوعها طمعاً في حدوث العوائق .

وجملة ﴿ واتخذ سبيله في البحر ﴾ عطف على جملة ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ وهي بقية كلام فتى موسى ، أي وأنه اتخذ سبيله في البحر ، أي سبح في البحر بعد أن كان ميتاً زمناً طويلاً .

وقوله : ﴿ عجباً ﴾ جملة مستأنفة ، وهي من حكاية قول الفتى ، أي أعجبُ له عجباً ، فانتصب على المفعول المطلق الآتي بدلاً من فعله .

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) ﴾

﴿ قال ذلك ﴾ الخ .

.

جواب عن كلامه ، ولذلك فصلت كما بيناه غير مرة .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقْد الحوت .

ومعنى كونه المبتغى أنه وسيلة المبتغى .

وإنما المبتغى هو لقاء العبد الصالح في المكان الذي يفقد فيه الحوت .

وكتب ﴿ نبغ ﴾ في المصحف بدون ياء في آخره ، فقيل : أراد الكاتبون مراعاة حالة الوقف ، لأن الأحسن في الوقف على ياء المنقوص أن يوقف بحذفها .

وقيل : أرادوا التنبيه على أنها رويت محذوفة في هذه الآية .

والعرب يميلون إلى التخفيف .

فقرأ نافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو جعفر بحذف الياء في الوقف وإثباتها في الوصل ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، وابن عامر بحذف الياء في الوصل والوقف .

وقرأ ابن كثير ، ويعقوب بإثباتها في الحالين ، والنون نون المتكلم المشارك ، أي ما أبغيه أنا وأنت ، وكلاهما يبغي ملاقاة العبد الصالح .

والارتداد : مطاوع الرد كأن راداً رَدّهما .

وإنما ردتهما إرادتهما ، أي رجعا على آثار سيرهما ، أي رجعا على طريقهما الذي أتيا منه .

والقصص : مصدر قص الأثر ، إذا توخى متابعته كيلا يخطئا الطريق الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(95/475)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن موسى وفتاه نصبا حوتهما لما بلغ مجمع البحرين ، ولكنه تعالى أوضح أن النسيان واقع من فتى موسى ، لأنه هو الذي كان تحت يده الحوت ، وهو الذي نسيه . وإنما أسند النسيان إليهما ، لأن إطلاق المجموع مراداً بعضه – أسلوب عربي كثير في القرآن وفي كلام العرب . وقد أوضحنا أن من أظهر أدلته قراءة حمزة

والكسائي ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم ﴾ [البقرة : 191] من القتل في الفعلين لا من القتال ، اي فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر . والدليل على أن النسيان إنما وقع من فتى موسى دون موسى قوله تعالى عنهما : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : 62-63] الآية ، لأن قول موسى : " آتنا غداءنا " يعني به الحوت – فهو يظن أ ، فتاه لم ينسه ، كما قاله غير واحد . وقد صرح فتاه : بأنه نسيه بقوله : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ الآية .

وقوله في هذه الآية الكريمه : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ دليل على أن النسيان من الشيطان كما دلت عليه آيات أخر . كقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : 68] وقوله تعالى : ﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله ﴾ [المجادلة : 19] الآية .

(96/475)

وفتى موسى هو يوشع بن نون . والضمير في قوله تعالى : ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ عائد إلى " البحرين " المذكورين في قوله تعالى : ﴿ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ [الكهف :

60] الآية . والكجمع : اسم مكان على القياس ، أي مكان اجتماعهما .

والعلماء مختلفون في تعيين " البحرين " المذكورين . فذهب أكثرهم إلى أنهما بحر فارس مما يليل المشرق ، بحر الروم مما يلي المغرب . وقال ممد بن كعب القرظي : " مجمع البحرين " عند طنجة في أقصى بلاد المغرب وروى ابن أبي حاتم من طريق السدى قال : هما الكر والرأس حيث يصبان في البحر . وقال ان عطية : " مجمع البحرين " ذراع في أرض فارس من جهة أذربيجان ، يخرج من البحر المحيط من شماله إلى جنوبه ، وطرفيه مما يلي بر الشام . وقيل : عما بحر الأردن والقلزم . وعن ابن المبارك قال : قال بعضهم بحر أرمينية . وعن أبي بن كعب قالك بإفريقية . إلى غير ذلك من الأقوال . ومعلوم أن تعيين " البحريم " من النوع الذي دمنا أنه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ، وليس في معرفته فائدة ، فالبحث عنه تعب لا طائل تحته ، وليس عليه دليل يجب الرجوع إليه . وزعم بعض الملاحدة الكفرة المعاصرين : أن موسى لم يسافر إلى مجمع البحرين ، بدعوى أنه لم يعرف ذلك في تاريخه – زعم في غاية الكذب والبطلان .

ويكفي في القطع بذلك أنه مناقض لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ الآية . مع التصريح بأنه سفر فيه مشقة وتعب ، وذلك لا يكون غلا في بعيد السفر ، ولذا قال تعالى عن موسى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ [الكهف : 62] . ومعلوم أن ما ناقض القرآن فهو باطل ، لأن نقيض الحق باطل بإجماع العقلاء لاستحالة صدق النقيضين معاً .

(97/475)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ [الكهف : 63] قرأه عامة القراء ما عداً حفصاً " أنسانيه " بكسر الهاء . وقرأة حفص عن عاصم " أنسانيه " بضم الهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(98/475)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ . . ﴾ [الكهف : 60] أي : اذكر يا محمد وقت أنْ قال موسى لفتاه ، وفتى موسى هو خادمه يوشع ابن نون ، وكان من نَسْل يوسف عليه السلام وكان يتبعه ويخدمه ليتعلم منه .

﴿ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين . . ﴾ [الكهف : 60]

لكن ، ما حكاية موسى مع فتاه ؟ وما مناسبتها للكلام هنا ؟

مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود المدينة يسألونهم عن خبر النبي صلى الله

عليه وسلم ؛ لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء ، فأرادوا رأيهم في محمد : أهو مُحِقٌّ أم لا ؟

فقال اليهود لوفد مكة : اسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو نبي : اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر ، والرجل الطواف الذي طاف البلاد ، وعن الروح ، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله هذه الأسئلة ، فقال لهم : " في الغد أجيبكم " .

إذن : إجابة هذه الأسئلة ليست عنده ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابهم ، لكنه سكت إلى أن يأتي الجواب من الله تعالى ، وهذا من أدبه صلى الله عليه وسلم مع ربه الذي أدبه فأحسن تأديبه .

ومرَّتْ خمسة عشر يوماً دون أن يُوحَى لرسول الله في ذلك شيء ، حتى شق الأمر عليه ، وفرح الكفار والمنافقون ؛ لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذاً فاهتبلوا هذه الفرصة ليندوا برسول الله ، إنما أدب الله لرسوله فوق كل شيء ليبين لهم أن رسول الله لن يتكلم في هذه المسألة إلا بوحي من الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رأيه .

ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطْءَ في هذه المسألة دليل صِدق النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك جاءت قصة موسى هنا لتردَّ على مهاترات القوم ، وتُبيِّن لهم أن النبي لا يعلم كل شيء ، وهل المفروض فيه أن يجيبكم عن كل شيء ؟ وهل يقدح في مكانته أنه لا يعرف مسألة ما ؟

جاءت هذه الآيات لتقول لليهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهم من كفار مكة : أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية ، وها هو موسى يتعلم ليس من الله ، بل يتعلم من عبد مثله ، ويسير تابعاً له طلباً للعلم .

جاءت الآيات لتقول لهم : يا مَنْ لقنتم كفار مكة هذه الأسئلة وأظهرتم الشماتة بمحمد حينما أبطأ عليه الوحي ، اعلموا أن إبطاء الوحي لتعلموا أن محمداً لا يقول شيئاً من عند نفسه ، فكان من الواجب أنْ تلفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته ، وما هو على الغيب بضنين .

وسبب قصة موسى عليه السلام يُقال : إنه سأل الله وكان له دلال على ربه :

﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ . . ﴾ [الأعراف : 143] والذي أطمعه في هذا المطلب أن الله كلَّمه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] فأطال موسى الكلام مع ربه ، ومَنْ الذي يكلمه الله ولا يطيل أمد الأُنْس بكلام الله ؟ لذلك قال موسى : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18]

وهكذا أطال موسى مدة الأنس بالله والحديث معه سبحانه ، لذلك سأله : يا ربّ ، أيوجد في الأرض أعلم مني ؟ فأجابه ربُّه تبارك وتعالى : نعم في الأرض مَنْ هو أعلم منك ، فاذهب إلى مجمع البحرين ، وهناك ستجد عبداً من عبيدي هو أعلم منك ، فأخذ موسى

فتاه وذهب إلى مَجْمع البحرين .

وقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام خطب مرة فسُئِل : مَنْ أعلم ؟ فقال : أنا يعني من البشر ، فأخبره الله تعالى : لا بل في الأرض من هو أعلم منك من البشر حتى لا يغترَّ موسى عليه السلام بما أعلمه الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ [الكهف : 60]

(100/475)

لا أبرح : أي لا أترك ، والبعض يظن أن لا أبرح تعني : لا أترك مكاني الذي أنا فيه ، لكنها تعني : لا أترك ما أنا بصدده ، فإنْ كنتُ قاعداً لا أترك القعود ، وإنْ كنتُ ماشياً لا أترك المشي ، وقد قال موسى عليه السلام هذا القول وهو يبتغي بين البحرين ، ويسير متجهاً إليه ، فيكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقد وردت مادة (برح) في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتى يَأْذَنَ لي أبي . . ﴾ [يوسف : 80] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم ، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذي أخذ عليهم العهد والميثاق أنْ يأتوا به ويُعيدوه إليه .

و" مجْمَع البحرين " أي : موضع التقائهما ، حيث يصيران بحراً واحداً ، كما يلتقي مثلاً دجلة والفرات في شَطِّ العرب .

وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ [الكهف : 60]

الحُقُب : جمع حِقْبة ، وهي الفترة الطويلة من الزمن ، وقد قدَّروها بحوالي سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا كان أقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن يسير موسى عليه السلام مائتين وعشرة سنين ، على اعتبار أن الحِقْبة سبعون سنة .

ويكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان ولو سِرْتُ مائتين وعشرة سنين ؛ لأن موسى عليه السلام كان مَشُوقاً إلى رؤية هذا الرجل الأعلم منه ، كيف وهو النبي الرسول الذي أوحى الله إليه ؛ لذلك أخبره ربه أن عِلْم هذا الرجل علم من لدنا ، علم من الله لا من البشر .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا . . . ﴾ .

(101/475)

﴿ بَلَغَا ﴾ أي : موسى وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي : مجمع البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ أي : حدث النسيان منهما معاً ، وإنْ كان حمل الحوت منوطاً بفتى موسى وقد نسيه ،

فكان على موسى أنْ يُذكِّره به ، فرئيس القوم لا بُدَّ أن يتنبه لكل جزئية من جزئيات الرَّكْب ، وكانت العادة أنْ يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقده وينظر لعل واحداً نسى شيئاً ، إذن : كان على موسى أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير ، ويُذكِّر فتاهُ بما معهم من لوازم الرحلة .

والحوت : نوع من السمك معروف ، وفي بعض البلاد يُطلِقون على كل سمك حُوتاً ، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاعوا أثناء السير ، وكان الفتى يحمله وهو مشوي في مكتل .

وقوله تعالى : ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً ﴾ [الكهف : 61] أي : خرج الحوت المشوي من المكتل ، وتسرَّب نحو البحر ، والسَّرَب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القِرْبة مثلاً ؛ ذلك لأن مستوى الماء في القِرْبة أعلى فيتسرَّب منها ، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المشويّ ، وتعود له الحياة ، ويتوجّه نحو البحر ؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا . . . ﴾ .

أي : جاوزا في سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى عليه السلام لفتاه : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنَّصَب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب ؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان

الحوت .

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)

(102/475)

هذا كلام فتى موسى : أرأيت : أخبرني إِذْ لجأنا إلى الصخرة عند مَجْمع البحرين لنستريح ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت . . ﴾ [الكهف : 63] ونلحظ أنه قال هنا ﴿ نَسِيتُ ﴾ وقال في الآية السابقة ﴿ نَسِيَا . . ﴾ [الكهف : 61] ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلُّنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه ليتصرف في كل شيء ؛ لأن تابعه قد لا يهمه أمر المسير في شيء ، وقد ينشغل ذِهْنه بأشياء أخرى تُنسِيه ما هو مَنُوط به من أمر الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما بَدَر منه من نسيان الحوت ، ويقول : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : 63] فالشيطان هو الذي لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكْر الحوت .

وقوله تعالى : ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً ﴾ [الكهف : 63] أي : اتخذ الحوتُ طريقه في البحر عَجَباً ، في الآية السابقة قال : ﴿ سَرَباً ﴾ [الكهف : 61] وهذه حال الحوت ، وهنا يقول ﴿ عَجَباً ﴾ لأنه يحكي ما حدث ويتعجب منه ، وكيف أن الحوت المشويّ تدبّ فيه الحياة حتى يقفز من المكتل ، ويتجه صَوْبَ الماء ، فهذا حقاً عجيبة من العجائب ؛ لأنها خرجتْ عن المألوف .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ . . ﴾ .

أي : قال موسى عليه السلام ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ . . ﴾ [الكهف : 64] أي : نطلب ، فهذا المكان الذي فُقِد فيه الحوت هو المكان المراد ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف عنوان المكان ، وهو مَجْمع البحرين ، حتى يلتقي البحران فيصيران بحراً واحداً .

وهذه الصورة لا توجد إلاَّ في مسرح بني إسرائيل في سيناء . وهناك خليج العقبة وخليج السويس ، ويلتقيان في بحر واحد عند رأس محمد .

(103/475)

ثم يقول تعالى : ﴿ فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ [الكهف : 64] أي : عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر ، ومعنى : ﴿ قَصَصاً ﴾ [الكهف : 64] أي : بدقة إلى أنْ وصلاَ إلى المكان الذي تسرَّب فيه الحوت ، وهو الموعد الذي ضربه الله تعالى لموسى – عليه السلام – حيث سيجد هناك العبد الصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(104/475)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾ : " إذ " منصوبٌ ب اذكر ، أو وقتَ قال لفتاه جرى ما قَصَصْنا عليك مِنْ خبرِه .

قوله : " لا أَبْرَحُ " يجوز فيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ تكونَ ناقصةً فتحتاجَ إلى خبر . والثاني : أن تكونَ تامةً فلا تحتاج إليه . فإن كانَتِ الناقصةَ ففيها تخريجان ، أحدُهما : أن يكونَ الخبرُ محذوفاً للدلالةِ عليه تقديرُه : لا أبرحُ أسيرُ حتى أبلغَ ، إلا انَّ حَذْفَ الخبرِ في هذا البابِ نَصَّ بعضُ النَّحْويين على أنه لا يجوزُ ولو بدليلٍ ، إلا في ضرورة كقوله :

3177- لَهَفي عليكَ لِلهْفَةٍ مِنْ خائفٍ . . . يَبْغي جوارَكَ حينَ ليس مُجيْرُ

أي : حين ليس في الدنيا مُجير . والثاني : أنَّ في الكلام حَذْفَ مضافٍ تقديرُه : لا يَبْرَحُ مسيري حتى أبلغَ ، ثم حذف " مسير " وأقيمت الياء مُقامَه ، فانقلبَتْ مرفوعةً مستترة بعد أن كانت مخفوضةَ المحلِّ بارزةً ، وبقي " حتى أَبْلُغَ " على حالِه هو الخبر .

وقد خَلَطَ الزمخشريُّ هذين الوجهين فجَعَلَهما وجهاً واحداً ، ولكنْ في عبارةٍ حسنةٍ جداً ، فقال : " فإن قلت " " لا أبرح " إن كان بمعنى " لا أَزُوْل " مِنْ بَرِحَ المكانَ فقد دلَّ على الإقامة لا على السفر . وإن كان بمعنى " لا أزال " فلا بُدَّ من خبر . قلت : هي بمعنى لا أزال ، وقد حُذِفَ الخبرُ لأنَّ الحالَ والكلامَ معاً يَدُلاَّن عليه : أمَّا الحالُ فلأنها كانت حالَ سَفَرٍ ، وأمَّا الكلامُ فإنَّ قولَه " حتى أَبْلُغَ " غايةٌ مضروبةٌ تَسْتدعي ما هي غايةٌ له ، فلا بد أن يكون المعنى : [لا أبرح أسير حتى أبلغَ . ووجهٌ آخرُ وهو أَنْ يكونَ المعنى :] لا يبرح مسيري حتى أبلغَ على أنَّ " حتى أبلغَ " هو الخبرُ ، فلمَّا حُذِفَ المضافُ أُقيم المضافُ إليه مُقامه وهو ضميرُ المتكلم ، فانقلب الفعلُ مِنْ ضمير الغائبِ إلى لفظِ المتكلم وهو وجهٌ لطيفٌ " .

(105/475)

قلت : وهذا على حُسْنِه فيه نظرٌ لا يخفى وهو : خلوُّ الجملةِ الواقعةِ خبراً عن " مسيري " في الأصل مِنْ رابط يَرْبِطُها به . ألا ترى أنه ليس في قوله " حتى أبلغ " ضميرٌ يعودُ على " مَسيري " إنما يعودُ على المضافِ إليه المستتر ، ومِثْلُ ذلك لا/ يُكتفى به .

ويمكن أَنْ يُجابَ عنه : بانَّ العائدَ محذوفٌ ، تقديرُه حتى أبلغَ به ، أي : بمسيري .

وإن كانت التامةَ كان المعنى : لا أبرح ما أنا عليه ، بمعنى ألزمُ المسيرَ والطَّلَبَ ، ولا أفارقه ولا أتركه ، حتى أبلغَ ، كما تقول : لا أبرحُ المكانَ . قلت : فعلى هذا يُحتاجُ أيضاً إلى حَذْفِ مفعولٍ به كما تقدَّمَ تقريرُه ، فالحذفُ لا بُدَّ منه على تقديرَيْ التمامِ والنقصانِ في أحدِ وجهَيْ النقصان .

وقرأ العامَّة " مَجْمَعَ " بفتح الميمِ وهو مكانُ الاجتماع ، وقيل : مصدر . وقرأ الضحاك وعبد الله بن مسلم بن يسار بكسرها ، وهو شاذ ، لفتحِ عينِ مضارعِه .

قوله : " حُقُبا " منصوبٌ على الظرفِ وهو بمعنى الدهر . وقيل : ثمانون سنة . وقيل : سنةٌ واحدة بلغة قريش . وقيل : سبعون . وقرأ الحسن . " حُقْباً " بإسكان القاف فيجوز أَنْ يكونَ تخفيفاً ، وأن يكونَ لغةً مستقلة . ويُجمع على " أَحْقاب " كعُنُق وأَعْناق . وفي معناه الحِقْبَةُ بالكسر . قال امرؤ القيس :

3178- فإنْ تَنْأَ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِها . . . فإنَّك ممَّا أَحْدَثَتْ بالمُجَرِّبِ

والحُقْبَة بالضمِّ أيضاً . وتُجمع الأُولى على حِقَب بكسر الحاء كِقِرَب ، والثانيةُ على حُقَب

بضمّها كقُرَب .

وقوله : " أو أَمْضِيَ " فيه وجهان ، أظهرُهما : أنَّه منسوقٌ على " أَبْلُغَ " يعني بأحد أمرين : إمَّا ببلوغِه المَجْمَعَ ، أو بمضيّه حُقُباً . والثاني : انه تَغْيِيَةٌ لقوله لا أَبْرَحُ ، فيكون منصوباً بإضمارِ ، " أَنْ " بعد " أو " بمعنى " إلى " نحو " لأَلْزَمَنَّكَ أو تقضيَني حقي " .

(106/475)

قال الشيخ : " فالمعنى : لا أبرحُ حتى أبلغَ مَجْمَعَ البحرَيْنِ ، إلى أن اَمْضِيَ زماناً أتيقَّنُ معه فواتَ مجمعِ البحرَيْن " قلت : فيكونُ الفعلُ المنفيُّ قد غُيِّيَ بغايَتَيْن مكاناً وزماناً ، فلا بُدَّ من حصولِهما معاً نحو : " لأسيرَنَّ إلى بيتِك إلى الظهر " فلا بُدَّ من حصولِ الغايتين . والمعنى الذي ذكره الشيخُ يقتضي أنه يمضي زماناً يتيقَّنُ فيه فواتَ مجمعِ البحرين .

وجَعَلَ أبو البقاء " أو " هنا بمعنى " إلاَّ " في أحدِ الوجهين ، قال : " والثاني : أنَّها بمعنى : إلا أَنْ اَمْضِيَ زماناً أتيقَّنُ معه فواتَ مجمعِ البحرين " . وهذا الذي ذكره أبو البقاء معنىً صحيحٌ ، فأخذ الشيخ هذا المعنى ، ركَّبه مع القولِ بأنها بمعنى " إلى " المقتضيةِ للغايةِ ، فمِنْ ثَمَّ جاء الإشكالُ .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) ﴾

قوله : ﴿ نَسِيَا ﴾ الظاهرُ نسبةُ النّسْيانِ إلى موسى وفتاه ، يعني نَسِيا تفقُّدَ أَمْرِه ، فإنه كان علامةً لهما على ما يَطْلبانه . وقيل : نَسِي موسى ان يأمرَه بالإتيانِ به ونسيَ يوشع أَنْ يفكّرَه بأمرِه . وقيل : الناس يوشع فقط ، وهو على حذفِ مضافٍ ، أي : نَسِيَ أحدُهما كقولِه : "يَخْرُجُ منهما اللؤلؤُ والمَرْجان" .

قوله : ﴿ فِي البحر سَرَباً ﴾ "سَرَبا" مفعولٌ ثانٍ ل "اتَّخذ" . و "في البحر" يجوز أن يتعلَّق ب "اتَّخَذَ" ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من المفعولِ الأولِ أو الثاني . والهاءُ في "سبيلَه" تعودُ على الحُوْت . وكذا المرفوع في "اتَّخَذَ" .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) ﴾

قوله : ﴿ جَاوَزَا ﴾ : مفعولُه محذوفٌ ، أي : جاوزا الموعدَ . وقيل : جاوزا مجمعَ البحرَيْن .

(107/475)

قوله : "هذا" إشارةٌ إلى السَّفَر الذي وقع بعد مجاوزتِهما المَوْعِدَ ، أو مجمعَ البحرين . و "نَصَبا" هو المفعول ب "لَقِيْنا" . والعامَّةُ على فتح النون والصاد . وعبد الله بن عبيد بن عمير بضمّهما . وهما لغتان من لغاتٍ أربعٍ في هذه اللفظة . كذا قال أبو الفضلِ الرازي في "

لوامحه " .

قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ فيها مُشْبعاً في الأنعام . وقال أبو الحسن الأخفش هنا فيها كلاماً حسناً رأيت نَقْلَه وهو " أنَّ العربَ اَخْرَجَتْها عن معناها بالكلية ، فقالوا : أَرَأَيْتَك وأَرَيْتَكَ بحذفِ الهمزة إذا كانت بمعنى اَخْبِرْني ، وإذا كانت بمعنى اَبْصَرْتَ لم تُحْذَفْ همزتُها . وشَذَّت أيضاً فألزَمْتَها الخطابَ على هذا المعنى ، ولا تقولُ فيها أبداً : " أراني زيداً عمراً ما صَنَعَ " وتقولُ هذا على معنى " اعلَمْ " . وشذَّتْ أيضاً فَأَخْرَجْتَها عن موضعِها بالكلية بدليلِ دخولِ الفاءِ ألا ترى قولَه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة فَإِنِّي ﴾ فما دخلتِ الفاءُ إلا وقد اُخْرِجَتْ إلى معنى : أمَّا أو تنبَّهْ . والمعنى : أمَّا إذا أَوَيْنا إلى الصخرة فإنِّي نَسِيْتُ الحوتَ . وقد أَخْرَجْتَها أيضاً إلى معنى أخبرني كما قدَّمْنا . وإذا كانت / بمعنى أخبِرْني فلا بُدَّ بعدها من الاسمِ المستخبَرِ عنه ، وتلزَمُ الجملةُ التي بعدها الاستفهامَ ، وقد تَخْرُجُ لمعنى " أمَّا " ، ويكون أبداً بعدها الشرطُ وظروفُ الزمان ، فقوله : " فإنِّي نَسِيْتُ " معناه : أمَّا إذ أَوَيْنا فإنِّي ، أو تَنَبَّه إذ أوينا ، وليستِ الفاءُ إلا جواباً لأَرَأَيْتَ لأنَّ " إذْ " لا يَصِحُّ أَنْ يُجازي بها إلا مقرونةً ب " ما " بلا خلافٍ " .

(108/475)

وقال الزمخشري : " أرأيتَ بمعنى أخبِرْني . فإن قلتَ : ما وجهُ التئامِ هذا الكلامِ ، فإنّ كلَّ واحدٍ مِنْ " أرأيت " ومِنْ " إذ أَوَيْنا " ، ومِنْ " فإنّي نَسِيْتُ الحوتَ " [لا متعلّقَ له] ؟ قلت : لَمَّا طَلَب موسى الحوتَ ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه مِنْ نسيانه إلى تلك الغايةِ ، ودُهِش فَطَفِقَ يسأل موسى عن سبب ذلك كأنَّه قال : أرأيتَ ما دهاني إذ أَوَيْنا إلى الصخرة فإنّي نسيتُ الحوت . فحذف ذلك " .

قال الشيخ : " وهذان مَفْقودانِ في تقديرِ الزمخشري " أرأيتَ بمعنى أخبرني " . يعني بهذين ما تقدَّم في كلام الأخفش مِنْ أنَّه لا بُدَّ بعدها من الاسم المستخبَرِ عنه ولزومِ الاستفهامِ الجملةَ التي بعدها .

قوله : ﴿ وَمَآ أَنسَانِيهُ ﴾ قرأ حفص بضمِّ الهاء . وكذا في قوله : ﴿ عَلَيْهُ اللهَ ﴾ [الآية : 10] في سورة الفتح . قيل : لأنَّ الياءَ هنا أصلُها الفتح ، والهاءُ بعد الفتحةِ مضمومةٌ فنظر هنا إلى الأصل . وأمَّا في سورة الفتح فلأنَّ الياءَ عارضةٌ إذ اصلُها الألفُ ، والهاءُ بعد الألف مضمومةٌ فنظر إلى الأصلِ أيضاً ؟

والباقون بالكسر نظراً إلى اللفظِ ، فإنها بعد ياءٍ ساكنة . وقد جمع حفص في قراءتِه بين اللغات في هاء الكناية : فإنه ضمَّ الهاء في " أنسانِيْه " في غيرِ صلةٍ ، ووصَلَها بياءٍ في قوله : ﴿ فِيهِ مُهَاناً ﴾ [الفرقان : 69] على ما سيأتي إنْ شاء الله تعالى . وقرأ كأكثرِ القراء فيما سوى ذلك .

قوله : ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ في محلِّ نصبٍ على البدلِ مِنْ هاء " أنسانِيْه " بدلِ اشتمال ، أي : أُنساني ذكرَه .

قوله : " عَجَباً " فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مفعولٌ ثانٍ ل " اتَّخذ " . و " في البحرِ " يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بالاتخاذِ ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ من المفعولِ الأولِ أو الثاني .

وفي فاعل " اتَّخذ " وجهان ، أحدُهما : هو الحوت ، كما تقدَّم في " اتَّخذ " الأولى . والثاني : هو موسى .

(109/475)

الوجهُ الثاني مِنْ وجهَيْ " عَجَباً " أنه مفعولٌ به ، والعاملُ فيه محذوفٌ ، فقال الزمخشري : " أو قال : عَجَباً في آخرِ كلامِه تَعَجُّباً مِنْ حاله . وقوله : ﴿ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه " . فظاهرُ هذا أَنَّه مفعولٌ ب " قال " ، أي : قال هذا اللفظَ .

الثالث : أنه مصدر ، فالعاملُ فيه مقدَّرٌ تقديرُه : فتعجَّب مِنْ ذلك عَجَباً .

الرابع : أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، ناصبُه " اتَّخذ " ، أي : اتخذ سبيلَه في البحر اتِّخاذاً عَجَباً . وعلى هذه الأقوالِ الثلاثةِ يكون " في البحر " مفعولاً ثانياً ل " اتَّخَذَ " إن عَدَّيناها

لمفعولين .

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) ﴾

قوله : ﴿ نَبْغِ ﴾ : حذفَ نافع وأبو عمرو والكسائي ياء " نَبْغي " وقفاً ، وأثبتوها وصلاً . وابن كثير أثبتها في الحالين . والباقون حَذَفوها في الحالين اتّباعاً للرسم . وكان مِنْ حَقِّها الثبوتُ ، وإنما حُذِفت تشبيهاً بالفواصلِ ، أو لأنَّ الحَذْفَ يُؤْنِسُ بالحذفِ فإنَّ " ما " موصولةٌ حُذِفَ عائدُها ، وهذه بخلافِ التي في يوسف فإنها ثابتةٌ عند الجميعِ ، وقد تقدَّم ذلك في مَوْضِعِه .

قوله : " قَصَصاً " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّه مصدرٌ في موضعِ الحالِ ، أي : قاصِّيْن . الثاني : أنه مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ مِنْ لفظِه مقدَّرٍ ، أي : يَقُصَّان قَصَصاً . الثالث : أنه منصوبٌ ب " ارتَدَّا " لأنه في معنى فَقَصَّا .

وقرأ الكسائيُّ " أنسانِيْهِ " بالإِمالة .

وعبد الله " أَنْ أذكرَكه " . وأبو حيوة " واتخاذَ سبيلِه " عَطَفَ هذا المصدرَ على مفعول " اذكره " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 517.525 ﴾

(110/475)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى فتى)

الفَتى : الشاب ، والسخىّ الكريم ، وهما فَتَيَان وفَتَوَان ، والجمع ، فِتْيانٌ وفِتْوة وفُتُوّ وفُتىّ ، وهى فتاة ، والجمع : فَتَيَات .

والفُتُوَّة نهاية الكَرَم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ : يوشع .

والفُتُوَّة منزلة حقيقتها منزلة الإِحسان وكفّ الأَذَى عن الغير وَاحتمال الأَذى منهم .

فهى فى الحقيقة نتيجة حُسْن الخُلُق وغايته .

وقيل : الفرق بينها وبين المروءَة أَعمّ ، والفتوّة نوع من أَنواعها ؛ فإِنَّ المروءَة استعمال ما يجمّل ويزين ممّا هو مختصّ بالعبد ، أَو متعدّ إِلى غيره ، وترك ما يدنّس ويَشين ممّا هو مختصّ به أَو متعلّقٌ بغيره .

والفتوّة إِنَّما هى استعمال الأَخلاق الكريمة مع الخَلْق .

وهى منزلة شريفة لم يعبَّر عنها [فى] الشريعة باسم الفتوّة ، بل عُبّر عنها باسم مكارم الأَخلاق ؛ كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم : "إِنَّ اللهَ بعثنى لتمام مكارم الأَخلاق ، ومحاسن الأَفعال" رواه جابر .

وأَصل الفتوّة من الفَتى وهو الشاب الطرىّ الحديث السِّنّ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقال عن قوم إبراهيم إنهم : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وقال تعالى عن يوسف عليه السّلام : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ ، ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ ﴾ .

فاسم / الفتى لا يُشعر بمدح ولا ذمّ كاسم الشابِّ والحَدَث .

ولذلك لم يجئ لفظ الفتوّة فى الكتاب والسنَّة ولا فى كلام السّلف ، وإنما استعمله مَنْ بعدهم فى مكارم الأَخلاق .

قيل : أَقدمُ من

تكلَّم فى الفتوّة جعفر الصّادق ، ثمّ الفُضَيل بن عِياض ، والإِمام أَحمد ، وسهل بن عبد الله التُسْتَرىّ ، والجُنَيْد ، ثم طائفة .

سئل جعفر عنها وقال للسّائل ما تقول ؟ قال .

إن أُعطيت شكرت ، وإن مُنِعت صبرت .

فقال : الكلاب عندنا كذلك .

(111/475)

فقال : يا ابن رسول الله فما الفتوّة عندكم ؟ قال : إن أُعطينا آثرنا ، وإن مُنِعنا شكرنا .

وقال الفضيل : الفتوّة : الصّفح عن عَثَرَات الإخوان .

وسئل الإمام أَحمد عن الفتوّة ، فقال ، ترك ما تهوَى لما تخشى .

وسئل الجنيد عنها فقال : أَلاَّ تنافِر فقيراً ، ولا تعارض غنيًّا .

وقال الحارث المحاسبىّ : الفتوة أَن تُنْصف ولا تَنْتصف .

وقال عمرو ابن عثمان المكىّ : الفتوة حُسْن الخلق .

وقال محمّد بن على الترمذىّ : الفتوة أَن تكون خصيماً لربّك على نفسك .

وقيل : الفتوة أَلاَّ ترى لنفسك فضلاً على غيرك .

وقال الدقَّاق : هذا الخُلُق لا يكون كمالُه إلاَّ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فإنَّ كلَّ أَحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ، وهو يقول : أُمَّتى أُمَّتى .

وقيل الفتوّة : كسر الصّنم الذى بينك وبين الله وهو نفسك ؛ فإنَّ الله تعالى حكى عن قصة إبراهيم أَنَّه جعل الأَصنام جُذَاذاً فكسر الأَصنام له ، فالفتى من كسر صنماً واحد لله .

وقيل : الفتوّة أَلاَّ تكون خصماً لأَحد يعنى فى حظِّ نفسك ، وأَمّا فى حق الله فالفتوّة أَن تكون خصماً لكل أَحد ولو كان الحبيب المصافيا .

وقال الثورىّ : أَن يستوى عندك المقيم والطَّارىءُ .

وقال بعضهم : أَلاَّ يميز بين أَن يأْكل عنده وَلىّ أَو كافر .

وقال الجُنَيْد أَيضاً : الفتوة كفُّ الأَذى ، وبذل الندَى .

وقال سهل : هى اتّباع السنَّة .

وقيل : الوفاءُ والحفَاظ .

وقيل : فضيلة تأْتيها ولا ترى نفسك فيها .

وقال : أَلا تحتجب ممّن قصدك .

وقيل : أَلاَّ تهرُب إِذا أَقبل العافى ، يعنى طالب المعروف .

وقيل : إِظهار النعمة ، وإِسرار المحنة .

وقيل : أَلاَّ تدّخر ولا تعتذر .

وقيل : تزوّج رجل امرأَة فلمّا دخل

عليها رأَى بها الجُدرىّ فقال : عينى ثم قال : عمِيتُ .

فبعد عشر سنين ماتت ولم تعلم أَنه بصير .

وقيل : ليس من الفتوّة أَن تَرْبح على صديق .

(112/475)

ويذكر أَن رجلا نام من الحاجّ بالمدينة ففقد هِمْيانًا فيه أَلف دينار .

فقام فزِعاً فوجد جعفر بن محمّد رضى الله عنه فتعلَّق به وقال : أَخذتَ هِيْمانى .

فقال أَيش كان فيه ؟ فقال : أَلف دينار .

فأَدخله داره ووزن له أَلف دينار ، ثمّ إِنه وجد هِيْمانه فجاءَ معتذراً إِلى جعفر بالمال ، فأَبى أَن يقبله ، وقال : شىءٌ أَخرجته من يدى لا أَستردّه أَبدًا .

وقال الشيخ عبد الله الأَنصارى : نكتة الفتوة أَلاَّ تَشهد لك فضلاً ، ولا ترى لك حقًّا ؛ يشير إِلى أَن قلب الفتوّة وإِنسان عينها أَن تغيب بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك ، وتغيب بشهادة حقوق الخَلْق عليك عن شهادة حقوقك عليهم ، والنَّاس فى هذا على مراتب ، فأَشرفهم أَهل هذه المرتبة ، وأَخسّهم عكسهم .

وأَوّل الفتوّة ترك الخصومة باللسان / والقلب فى حقّ نفسه لا فى حقّ ربّه ، والتغافل عن الزلاَّت الَّتى لم يُوجب الشرع أَخذه بها ، ونسيان أَذيّة مَن نالك بأَذًى ليصفو قلبُك له ، ونسيانك إِحسانك إِلى من أَحسنتَ إِليه حتّى كأَنَّه لم يَصدر منك إِحسان .

وهذا أَكمل ممّا قبله ، وفيه يقول :

*ينسى صنائعه والله يُظهرها * إِنّ الجميل إِذا أَخفيته ظهرا *

وثانيها : أَن تقرّب من يُبعدك ، وتعتذر إِلى من يجنى عليك ، سماحة لا كَظْماً ، وتحسن إِلى من أَساءَ إِليك وتعتذر إِليه أَيضاً .

ومعنى هذا أَنَّك تُنزل نفسك منزلة الجانى والمسىءِ ، وكلّ منهما خليق بالعذر .

والذى يُشهدك هذا المشهد أَن تعلم أَنه إِنَّما سُلّط عليك بذنب صدر منك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ، فإِذا علمت أَنك بدأت بالجناية وانتقم الله منك على يده كنتَ فى الحقيقة أَولى بالاعتذار .

(113/475)

وقال بعض أَهل الخصوص : من طلب نور الحقيقة على قدَم الاستدلال لم تحِلّ له دعوة الفتوّة أَبدا ، كأَنه يقول : إِذا لم تُحوجِ يا فتى عدوّك إِلى العُذر والشفاعة ، ولم تكلّفه طلب الاستدلال على صحّة عذره ، فكيف تحوج وليّك وحبيبك إِلى أَن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة ، ولا تسير إِليه حتى يقيم لك دليلا على وجود وحدانيته وقدرته ومشيئته ، فأَين هذا من درجة الفتوّة ! وهل هذا إِلاَّ خلاف الفتوّة من كلّ وجه ؟ !

*وليس يصحّ فى الأَذهان شىءٌ * إِذا احتاج النهار إِلى دليل*

(بصيرة فى فتئ وفج وفجر وفجو وفحش وفخر)

أَبو زيد : ما فتأْت أَكره ، وما فتئت أَذكره .

وما فتُؤت أَذكره وهذه عن الفرّاءِ ، أَى ما زلت أَذكره وما برِحت .

وقوله تعالى : ﴿ تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ ﴾ أَى ما تفتأ .

وما أَفتأت أَذكره لغة فى ذلك .

والفجُّ : شُقَّةٌ يكتنفها جبلان .

ويستعمل فى الطَّريق الواسع ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

ويقال : قطعوا سُبُلاً فِجَاجًا ، حتى أَتوكَ حُجَّاجًا .

والفَجْر : شقُّ الشىء شَقًّا واسعاً كَفَجْرِك سِكْر النهر .

فجَرْته فانفجر ، وفجّرته فتفجَّر .

وفَجَر الله الفَجْر : أَظهره ، سُمِّى به لأَنَّه يشق اللَّيل قال تعالى : ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ .

والفجْر فجران : كاذب وهو كذَنَب السِّرحان ، وصادق وهو المستطير الذى يتعلَّق به الصلاة والصيام .

والفَجَر : الكَرَم .

وفلان يتفجَّر بالمعروف .

والفَجْوة والفجواءُ : الفُرْجة وما اتَّسع من الأَرض ، قال تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ ﴾ أَى ساحة واسعة .

والفَجْوة : ساحة الدّار ، والجمع : فَجَوَات وفِجاء .

وفَجَا بابَهُ : فتحه فانفجى ، وقوسَه : رفع وترها عن كبِدها .

وأَفْجَى : وسّع النفقة على عياله .

والفَجَا : تباعُد ما بين الفخذين أَو الرّكبتين أَو السّاقين .

(114/475)

والفُحْش والفَحْشَاءُ والفاحشة : ما عظُم قُبْحه من الأَقوال والأَفعال .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ .

الفخر : المباهاة بالأَشياء الخارجة عن الإِنسان كالمال والجاه .

رجل فاخر وفَخُور وفِخّير كسكّيت .

وفَخَرْتُ فلاناً على صاحبه - كمنعت - : حكمت له بفضل عليه .

ويعبّر عن كلّ نفيس بالفاخر .

والفَخَّار : الجرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 170 . 174 ﴾

(115/475)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

لما صَحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقَّ اسم الفتوة ، ولذا قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ وهو اسم كرامة لا اسم علامة .

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك ، ثم أدخل النسيان عليهما ليكون أبلغَ في الآية ، وأَبْعَدَ من اختيار البَشَر .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) ﴾

كان موسى في هذا السَّفرِ مُتَحَمّلاً ، فقد كان سَفَر تأديب واحتمالِ مشقةٍ ، لأنه ذهب لاستكثار العلم . وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تحمُّلٍ للمشقة ، ولهذا لَحِقَهُ الجوعُ ، فقال : ﴿ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ .

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلحقه الجوعُ ولا المشقةُ ، لأن ذهابَه في هذا السفر كان إلى الله ، فكان محمولاً .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصرافِ إلى مكانهما ، ثم قال يوشع : ﴿ وَمَا

أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ : الله – سبحانه – أَدْخَلَ عليه النسيانَ ليكونَ الصَّيْدُ من تكلفِه ، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ : يعني دخول السمك الماء وكان مشوياً ؛ فصار ذلك معجزة له ، فلما انتهينا إلى الموضع الذي دخل السمك فيه الماء لَقِيَا الخضر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 406. 407 ﴾

(116/475)

قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فاستمرا يقصان حتى انتهيا إلى موضع فقد الحوت ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ مضافاً إلى حضرة عظمتنا وهو الخضر عليه السلام ﴿ ءاتيناه ﴾ بعظمتنا ﴿ رحمة ﴾ أي وحياً

ونبوة ، وكونه نبياً قول الجمهور ﴿ من عندنا ﴾ أي مما لم يجر على قوانين العادات غير أنه ليس بمستغرب عند أهل الاصطفاء ﴿ وعلمناه من لدنا ﴾ أي من الأمور المستبطنة المستغربة التي عندنا مما لم يحدث عن الأسباب المعتادات ، فهو مستغرب عند أهل الاصطفاء ﴿ علماً ﴾ قذفناه في قلبه بغير واسطة ؛ وقال الأستاذ أبو الحسن الحرالي : " عند " في لسان العرب لما ظهر ، و " لدن " لما بطن ، فيكون المراد بالرحمة ما ظهر من كراماته ، وبالعلم الباطن الخفي المعلوم قطعاً أنه خاص بحضرته سبحانه ، فأهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة العلم اللدني ، فإذا سعى العبد في الرياضيات يتزين الظاهر بالعبادة ، وتتخلى النفس عن الأخلاق الرذيلة ، وتتحلى بالأخلاق الجميلة ، وتصير القوى الحسية والخيالية والوهمية في غاية القوة ، وحينئذ تصير القوة العقلية قوية صافية ، وربما كانت النفس بحسب أصل الفطرة نورانية إلهية علوية قليلة التعلق بالحوادث البدنية ، شديدة الاستعداد لقبول الأمور الإلهية ، فتشرق فيها الأنوار الإلهية وتفيض عليها من عالم القدس على وجه الكمال فتحصل المعارف والعلوم من غير تفكر وتأمل ، فهذا هو العلم اللداني .

(117/475)

ثم أورد سبحانه وتعالى القصة على طريق الاستئناف على تقدير سؤال سائل عن كل كلام يرشد إليه ما قبله ، وذلك أنه من المعلوم أن الطالب للشخص إذا لقيه كله ، لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال لمن كأنه سأل عن ذلك : ﴿ قال له موسى ﴾ طالباً منه على سبيل التأدب والتلطف بإظهار ذلك في قالب الاستئذان : ﴿ هل أتبعك ﴾ أي اتباعاً بليغاً حيث توجهت ؛ والاتباع : الإتيان لمثل فعل الغير لمجرد كونه آتياً به ؛ وبين أنه لا يطلب منه غير العلم بقوله : ﴿ على أن تعلمن ﴾ وزاد في التلطف بالإشارة إلى أنه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها إلى باقيه فقال : ﴿مما علمت ﴾ وبناه للمفعول لعلم المخاطبين – لكونهم من الخلص – بأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى ، وللإشارة إلى سهولة كل أمر على الله عز وجل ﴿ رشداً ﴾ أي علماً يرشدني إلى الصواب فيما أقصده ، ولا نقص في تعلم نبي من نبي حتى يدعي أن موسى هذا ليس موسى بن عمران عليه السلام فإنه قد ثبت كونه ابن عمران في الصحيح ، وأتى صلى الله عليه وعلى آله وسلم في سؤاله له بهذه الأنواع من الآداب والإبلاغ في التواضع لما هو عليه من الرسوخ في العلم ، لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر ، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر ، فكان طلبه لها أشد ، فكان تعظيمه لأرباب العلوم أكمل .

ولما أتم العبارة عن السؤال ، استأنف جوابه له بقوله تعالى : ﴿ قال ﴾ أي الخضر عليه السلام : ﴿ إنك لن تستطيع ﴾ يا موسى ﴿ معي صبراً ﴾ أي هو من العظمة على ما أريد لما يحثك على عدم الصبر من ظاهر الشرع الذي أمرت به ، فالتنوين للتعظيم بما تؤذن به تاء الاستفعال ، وأكد لما في سؤال موسى عليه السلام من التلطف المؤذن بأنه يصبر عليه ولا يخالفه في شيء أصلاً ، ويؤخذ منه أن العالم إن رأى في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعاً وإرشاداً إلى الخير كان عليه ذكره ، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور والنخوة ، وذلك يمنعه من التعلم .

(119/475)

ولما كان المقام صعباً جداً لأنه بالنسبة إلى أوامر الله تعالى ، بينه على وجه أبلغ من نفي الأخص ، وهو الصبر البليغ ، بالتعجيب من مطلق الصبر معتذراً عن موسى في الإنكار ، وعن نفسه في الفعل ، بأن ذلك بالنسبة إلى الظاهر والباطن ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فكيف تتبعني الاتباع البليغ : ﴿ وكيف تصبر ﴾ يا موسى ﴿ على ما لم تحط به خبراً ﴾ أي من جهة العلم به ظاهراً وباطناً ، فأشار بالإحاطة إلى أنه كان يجوز أن يكون على

صواب ، ولكن تجويزاً لا يسقط عنه وجوب الأمر ، ويجوز أن يكون هذا تعليلاً لما قبله ، فيكون الصبر الثاني هو الأول ، والمعنى أنك لا تستطيع الصبر الذي أريده لأنك لا تعرف فعلي على ما هو عليه فتراه فاسداً ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه السلام ، آتياً بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه ، إرشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل الله له والنفع به : ﴿ ستجدني ﴾ فأكد الوعد بالسين ؛ ثم أخبر عنه سبحانه أنه قوى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الأمر على الوجه الذي تقدم الحث عليه في هذه السورة في قوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ﴾ الآية ليعلم أنه منهاج الأنبياء وسبيل الرسل ، فقال تعالى : ﴿ إن شاء الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ صابراً ﴾ على ما يجوز الصبر عليه ؛ ثم زاد التأكيد بقوله عطفاً بالواو على " صابراً " لبيان التمكن في كل من الوصفين : ﴿ ولا أعصي ﴾ أي وغير عاص ﴿ لك أمراً ﴾ تأمرني به غير مخالف لظاهر أمر الله ﴿ قال ﴾ أي الخضر عليه السلام : ﴿ فإن اتبعتني ﴾ يا موسى اتباعاً بليغاً ﴿ فلا تسألني عن شيء ﴾ أقوله أو أفعله ﴿ حتى أحدث لك ﴾ خاصة ﴿ منه ذكراً ﴾ يبين لك وجه صوابه ، فإني لا أقدم على شيء إلا وهو صواب جائز في نفس الأمر وإن كان ظاهره غير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 490 . 492 ﴾

(120/475)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبياً واحتجوا عليه بوجوه .

الأول : أنه تعالى قال : ﴿ آتيناه رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ والرحمة هي النبوة بدليل قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : 86] والمراد من هذه الرحمة النبوة ، ولقائل أن يقول نسلم أن النبوة رحمة أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة .

الحجة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى علمه لا بواسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد وكل من علمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحي من الله .

وهذا الاستدلال ضعيف لأن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله وذلك لا يدل

على النبوة .

الحجة الثالثة : أن موسى عليه السلام قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تعلمني ﴾ [الكهف : 66] والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم وهذا أيضاً ضعيف ، لأن النبي لا يتبع غير النبي في العلوم التي باعتبارها صار نبياً أما في غير تلك العلوم فلا .

الحجة الرابعة : أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى حيث قال له : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ وأما موسى فإنه أظهر التواضع له حيث قال : ﴿ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ وكل ذلك يدل على أن ذلك العالم كان فوق موسى ، ومن لا يكون نبياً لا يكون فوق النبي وهذا أيضاً ضعيف لأنه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها .

فلم قلتم إن ذلك لا يجوز فإن قالوا لأنه يوجب التنفير .

(121/475)

قلنا فارسال موسى إلى التعلم منه بعد إنزال الله عليه التوراة وتكليمه بغير واسطة يوجب التنفير ، فإن قالوا : إن هذا لا يوجب التنفير فكذا القول فيما ذكروه .

الحجة الخامسة : احتج الأصم على نبوته بقوله في أثناء القصة : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾

ومعناه فعلته بوحي الله ، وهو يدل على النبوة .

وهذا أيضاً دليل ضعيف وضعفه ظاهر .

الحجة السادسة : ما روي أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال السلام عليك ، فقال وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل .

فقال موسى عليه السلام من عرفك هذا ؟ قال : الذي بعثك إلي .

قالوا وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون إلا مع النبوة ، ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والإلهامات .

البحث الثاني : قال الأكثرون إن ذلك العبد هو الخضر ، وقالوا إنما سمي بالخضر لأنه كان لا يقف موقفاً إلا أخضر ذلك الموضع ، قال الجبائي قد ظهرت الرواية أن الخضر إنما بعث بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل .

فإن صح ذلك لم يجز أن يكون هذا العبد هو الخضر .

وأيضاً فبتقدير أن يكون هذا العبد هو الخضر ، وقد ثبت أنه يجب أن يكون نبياً فهذا يقتضي أن يكون الخضر أعلى شأناً من موسى صاحب التوراة ، لأنا قد بينا أن الألفاظ المذكورة في هذه الآيات تدل على أن ذلك كان يترفع على موسى ، وكان موسى يظهر التواضع له إلا أن كون الخضر أعلى شأناً من موسى غير جائز لأن الخضر إما أن يقال إنه كان

من بني إسرائيل أو ما كان من بني إسرائيل ، فإن قلنا : إنه كان من بني إسرائيل (فقد) كان من أمة موسى لقوله تعالى : حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون :

(122/475)

﴿ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسرائيل ﴾ [الشعراء : 17] والأمة لا تكون أعلى حالاً من النبي ، وإن قلنا إنه ما كان من بني إسرائيل لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] وهذه الكلمات تقوي قول من يقول : إن موسى هذا غير موسى صاحب التوراة .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة ، والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية ، وللشيخ أبي حامد الغزالي رسالة في إثبات العلوم اللدنية ، وأقول تحقيق الكلام في هذا الباب أن نقول : إذا أدركنا أمراً من الأمور وتصورنا حقيقة من الحقائق فإما أن نحكم عليه بحكم وهو التصديق أو لا نحكم وهو التصور ، وكل واحد من هذين القسمين فإما أن يكون نظرياً حاصلاً من غير كسب وطلب ، وإما أن يكون كسبياً ، أم العلوم النظرية فهي تحصل في

النفس والعقل من غير كسب وطلب ، مثل تصورنا الألم واللذة ، والوجود والعدم ، ومثل تصديقنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وأن الواحد نصف الإثنين .

وأما العلوم الكسبية فهي التي لا تكون حاصلة في جوهر النفس ابتداء بل لا بد من طريق يتوصل به إلى اكتساب تلك العلوم ، وهذا الطريق على قسمين .

أحدهما : أن يتكلف الإنسان تركب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركبها إلى استعلام المجهولات .

وهذا الطريق هو المسمى بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل والتروي والاستدلال ، وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذي لا يتم إلا بالجهد والطلب .

(123/475)

والنوع الثاني : أن يسعى الإنسان بواسطة الرياضات والمجاهدات في أن تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة فإذا ضعفت قويت القوة العقلية وأشرقت الأنوار الإلهية في جوهر العقل ، وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل ، وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ، إذا عرفت هذا فنقول : جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية فقد تكون النفس نفساً مشرقة نورانية إلهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع

الجسمانية فلا جرم كانت أبداً شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والأنوار الإلهية ، فلا جرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار على سبيل الكمال والتمام ، وهذا هو المراد بالعلم اللدني وهو المراد من قوله : ﴿ آتيناه رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وأما النفس التي ما بلغت في صفاء الجوهر وإشراق العنصر فهي النفس الناقصة البليدة التي لا يمكنها تحصيل المعارف والعلوم إلا بمتوسط بشري يحتال في تعليمه وتعلمه والقسم الأول بالنسبة إلى القسم الثاني كالشمس بالنسبة إلى الأضواء الجزئية وكالبحر بالنسبة إلى الجداول الجزئية وكالروح الأعظم بالنسبة إلى الأرواح الجزئية .

فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ ، ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ رَشَدًا ﴾ بفتح الراء والشين وعن ابن عباس رضي الله عنهما بضم الراء والشين والباقون بضم الراء وتسكين الشين قال القفال وهي لغات في معنى واحد يقال رَشَد ورُشْد مثل نكر ونكر كما يقال سقم وسقم وشغل وشغل وبخل وبخل وعدم وعدم وقوله ﴿ رَشَدًا ﴾ أي علماً ذا رشد قال القفال قوله : ﴿ رَشَدًا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون الرشد راجعاً إلى الخضر أي مما علمك الله وأرشدك به .

والثاني : أن يرجع ذلك إلى موسى ويكون المعنى على أن تعلمني وترشدني مما علمت .

المسألة الثانية :

اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر .

فأحدها : أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ .

وثانيها : أن استأذن في إثبات هذا التبعية فإنه قال هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك وهذا مبالغة عظيمة في التواضع .

وثالثها : أنه قال على أن : ﴿ تعلمني ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم .

ورابعها : أنه قال : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله ، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك ، بل أطلب منك أن تعطيني جزأً من أجزاء علمك ، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزأً من أجزاء ماله .

وخامسها : أن قوله : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم .

وسادسها : أن قوله : ﴿ رَشَدًا ﴾ طلب منه للإرشاد والهداية والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال .

وسابعها : أن قوله : ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم ولهذا المعنى قيل أنا عبد من تعلمت منه حرفاً .

(125/475)

وثامنها : أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير ، فإنا إذا قلنا : لا إله إلا الله فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة ، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها ، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ثبت هذا فنقول قوله : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها .

وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض .

وتاسعها : أن قوله : ﴿ اتبعك ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء .

وعاشرها : أنه ثبت بالإخبار أن الخضر عرف أولاً أنه نبي بني إسرائيل وأنه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة وهذا هو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد .

والحادي عشر : أنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تعلمني ﴾ فأثبت كونه تبعاً له أولاً ثم طلب ثانياً أن يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم .

(126/475)

والثاني عشر : أنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تعلمني ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً كان قال لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم ثم إنه تعالى حكى عن الخضر أنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن المتعلم على قسمين متعلم ليس عنده شيء من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض ، ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض . ثم إنه يريد أن يخالط إنساناً أكمل منه ليبلغ درجة التمام والكمال والتعلم في هذا القسم الثاني شاق شديد ، وذلك لأنه إذا رأى شيئاً أو سمع كلاماً فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكراً إلا أنه كان في الحقيقة حقاً صواباً ، فهذا المتعلم لأجل أنه ألف القيل والقال وتعود الكلام والجدال يغتر ظاهره ولأجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته ، وحينئذ يقدم على النزاع والاعتراض والمجادلة ، وذلك مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر فإذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة ، وهذا هو الذي أشار إليه الخضر بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ إشارة إلى أنه ألف الكلام وتعود الإثبات والإبطال والاستدلال والاعتراض ، وقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ إشارة إلى كونه غير عالم بحقائق الأشياء كما هي ، وقد ذكرنا أنه متى

حصل الأمران صعب السكوت وعسر التعليم وانتهى الأمر بالآخرة إلى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ على أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل .

(127/475)

قالوا : لو كانت الاستطاعة على الفعل حاصلة قبل حصول الفعل لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة لموسى عليه السلام قبل حصول الصبر فيلزم أن يصير قوله : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ كذباً ، ولما بطل ذلك علمنا أن الاستطاعة لا توجد قبل الفعل .

أجاب الجبائي عنه : أن المراد من هذا القول أنه يثقل عليه الصبر لا أنه لا يستطيعه ، يقال في العرف : إن فلاناً لا يستطيع أن يرى فلاناً و (لا) أن يجالسه إذا كان يثقل عليه ذلك ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ أي كان يشق عليهم الاستماع ، فيقال له : هذا عدول عن الظاهر من غير دليل وإنه لا يجوز .

وأقول مما يؤكد هذا الاستدلال الذي ذكره الأصحاب قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا

لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ استبعد حصول الصبر على ما لم يقف الإنسان على حقيقته ، ولو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكانت القدرة على العلم حاصلة قبل حصول ذلك العلم ، ولو كان كذلك لما كان حصول الصبر عند عدم ذلك العلم مستبعداً لأن القادر على الفعل لا يبعد منه إقدامه على ذلك الفعل ، ولما حكم الله باستبعاده علمنا أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل .

ثم حكى الله تعالى عن موسى أنه قال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج الطاعنون في عصمة الله الأنبياء بهذه الآية فقالوا : إن الخضر قال لموسى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ وقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ وكل واحد من هذين القولين يكذب الآخر فيلزم إلحاق الكذب بأحدهما وعلى التقديرين فيلزم صدور الكذب عن الأنبياء عليهم السلام ، والجواب أن يحمل قوله : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ على الأكثر الأغلب وعلى هذا التقدير فلا يلزم ما ذكروه .

المسألة الثانية :

لفظة إن كان كذا تفيد الشك فقوله : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا ﴾ معناه ستجدني صابراً إن شاء الله كوني صابراً ، وهذا يقتضي وقوع الشك في أن الله هل يريد كونه صابراً أم لا .

ولا شك أن الصبر في مقام التوقف واجب ، فهذا يقتضي أن الله تعالى قد لا يريد من العبد ما أوجبه عليه ، وهذا يدل على صحة قولنا : إن الله تعالى قد يأمر بالشيء مع أنه لا يريده ، قالت المعتزلة : هذه الكلمة إنما تذكر رعاية للأدب فيما يريد الإنسان أن يفعله في المستقبل فيقال لهم هذا الأدب إن صح معناه فقد ثبت المطلوب ، وإن فسد فأي أدب في ذكر هذا الكلام الباطل ؟

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب لأن تارك المأمور به عاص بدلالة هذه الآية ، والعاصي يستحق العقاب لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [الجن : 23] وهذا يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب .

المسألة الرابعة :

قول الخضر لموسى عليه السلام : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ نسبة إلى قلة

العلم والخبر ، وقول موسى له : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاء اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ تواضع شديد وإظهار للتحمل التام والتواضع الشديد ، وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات ، وأما المعلم فإن رأى أن في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعاً وإرشاداً إلى الخير .

فالواجب عليه ذكره فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم ثم قال : ﴿ فَإِنِ اتبعتنى فَلاَ تَسْأَلْنى عَن شَىء حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي لا تستخبرني عما تراه مني مما لا تعلم وجهه حتى أكون أنا المبتدىء لتعليمك إياه وإخبارك به ، وفي قراءة ابن عامر فلا تسألن محركة اللام مشددة النون بغير ياء .

وروى عنه لا تسألني مثقلة مع الياء وهي قراءة نافع ، وفي قراءة الباقين لا تسألن خفيفة والمعنى واحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 21 صـ 126 . 131 ﴾

(129/475)

وقال الماوردى :

﴿ فَوَجدا عَبْداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : النبوة ، قاله مقاتل :

الثاني : النعمة .

الثالث : الطاعة .

الرابع : طول الحياة .

﴿ وعلّمناه من لدُنا عِلْماً ﴾ قال ابن عباس لما اقتفى موسى أثر الحوت انتهى إلى رجل راقد وقد سجي عليه ثوبه ، فسلم عليه موسى ، فكشف ثوبه عن وجهه وردّ عليه السلام وقال : من أنت ؟ قال : موسى . قال صاحب بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : وما لك في بني إسرائيل شغل ، قال : أمرت أن آتيك وأصحبك .

واختلفوا في الخضر هل كان مَلَكاً أو بشراً على قولين :

أحدهما : أنه كان ملكاً أمر الله تعالى موسى أن يأخذ عنه مما حمّله إياه من علم الباطن .

الثاني : أنه كان بشراً من الإنس .

واختلف من قال هذا على قولين :

أحدهما : كان نبياً لأن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من هو فوقه ؛ ولا يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي ، قال مقاتل : هو ليسع لأنه وسع علمه ست سموات وست أرضين .

الثاني : أنه لم يكن نبياً وإنما كان عبداً صالحاً أودعه الله تعالى مِن علْم باطن الأمور ما لم يودع غيره ، لأن النبي هو الداعي ، والخضر كان مطلوباً ولم يكن داعياً طالباً ، وقد ذكر أن سبب

تسميته بالخضر لأنه كانه إذا صلى في مكان اخضرّ ما حوله .

قوله عز وجل : ﴿ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رُشْداً ﴾

في الرشد هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه العلم ، قاله مقاتل ويكون تقديره على أن تعلمني مما علمت علماً .

الثاني : معناه على أن تعلمني مما علمت لإرشاد الله لك .

الثالث : ما يرى في علم الخضر رشداً يفعله وغياً يجتنبه ، فسأله موسى أن يعلمه من الرشد الذي يفعله ، ولم يسأله أن يعلمه الغيّ الذي يجتنبه لأنه عرف الغي الذي يجتنبه ولم يعرف ذلك الرشد .

﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : صبراً عن السؤال .

الثاني : صبراً عن الإنكار .

(130/475)

﴿ وكيف تصبر على ما لم تُحِطْ به خُبراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لم تجد له سبباً .

الثاني : لم تعرف له علماً ، لأن الخضر علم أن موسى لا يصبر إذا رأى ما ينكر ظاهره .

﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فوعد بالصبر والطاعة ثم استثنى بمشيئة الله تعالى حذراً مما يلي فأطاع ولم يصبر . وفي قوله : ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ وجهان :

أحدهما : لا ابتدىء بالإنكار حتى تبدأ بالإخبار .

الثاني : لا أفشي لك سراً ولا أدل عليك بشراً . فعلى الوجه الأول يكون مخالفاً . على الوجه الثاني : يكون موافقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(131/475)

وقال ابن عطية :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾

و" العبد " هو الخضر في قول الجمهور بمقتضى الأحاديث ، وخالف من لا يعتد بقوله فقال ليس ، صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر ، والخضر نبي عند الجمهور ، وقيل هو عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي الله ، وروي في الحديث أن موسى عليه السلام وجد الخضر مسجى في ثوبه مستلقياً على الأرض فقال له

السلام عليك ، فرفع الخضر رأسه وقال وأنى بأرضك السلام ؟ ثم قال له من أنت ؟ قال أنا موسى ، قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم ، قال له ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا ؟ قال بلى ، ولكني أحببت لقاءك ، وأن أتعلم منك ، قال له إني على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه أنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أنا .

قال القاضي أبو محمد : كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها . وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم . وروي أن موسى وجد الخضر قاعداً على تيح البحر ، وسمي الخضر خضراً لأنه جلس على فروة يابسة فاهتزت تحته خضراء ، روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، و" الرحمة " في هذه الآية النبوءة ، وقد ذكرنا الحديث المضمن أن سبب هذه القصة أن موسى عليه السلام ، قيل له تعلم أحداً أعلم منك ، قال : لا ، وحكى الطبري حديثاً آخر ، مضمنه : أن موسى عليه السلام قال : من قبل نفسه : أي رب ، أي عبادك أعلم ؟ قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة خير تهديه ، قال رب فهل في الأرض أحد ؟ قال نعم فسأل السبيل إلى لقيه ، والحديث الأول في صحيح البخاري ، وقرأ الجمهور " من لدنّا " بتشديد النون وقرأ أبو عمرو من " لدُنا " بضم الدال وتخفيف النون ، قال أبو حاتم هما لغتان .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) ﴾

هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حسن الأدب ، المعنى : هل يتفق لك ويخف عليك ، وهذا كما في الحديث " هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ " وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة ﴾ [المائدة : 112] وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم " رُشُداً " بضم الراء والشين ، وقرأ أبو عمرو " رَشَداً " بفتح الراء والشين ، ونصبه على وجهين : أحدهما : أن يكون مفعولاً ثانياً ب ﴿ تعلمني ﴾ والآخر أن يكون حالاً من الضمير في قوله ﴿ أتبعك ﴾ ثم قال الخضر ، ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ أي إنك يا موسى ، لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي ، لأن الظواهر التي علمك لا تعطيه ، ﴿ وكيف تصبر على ﴾ ما تراه خطأً ، ولم تخبر بوجه الحكمة فيه ولا طريق الصواب ، فقرب له موسى المر بوعده أنه سيجده ، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر فقوى الخضر وصاته وأمره بالإمساك عن السؤال والإكتان لما يراه حتى يبتدئه الخضر لشرح ما يجب شرحه ، وقرأ نافع فلا " تسألَّني " بفتح اللام ، وتشديد النون وإثبات الياء وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الياء فقال " تسألَنّ " ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي " تسألني " بسكون اللام وثبوت الياء ، وقرأ الجمهور

" خبْراً " بسكون الباء ، وقرأ الأعرج " خبُراً " بضمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(133/475)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾

يعني الخضر .

وفي اسمه أربعة أقوال .

أحدها : اليسع ، قاله وهب ، ومقاتل .

والثاني : الخَضِر بن عاميا .

والثالث : أرميا بن حلفيا ، ذكرهما ابن المنادي .

والرابع : بليا بن ملكان ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

فأما تسميته بالخضر ، ففيه قولان .

أحدهما : أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرَّت ، رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفروة : الأرض اليابسة .

والثاني : أنه كان إذا جلس اخضرَّ ما حوله ، قاله عكرمة .

وقال مجاهد : كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله .

وهل كان الخضر نبياً ، أم لا ؟ فيه قولان ، ذكرهما أبو بكر بن الأنباري ، وقال : كثير من الناس يذهب إلى أنه كان نبيّاً ، وبعضهم يقول : كان عبداً صالحاً .

واختلف العلماء هل هو باقٍ إلى يومنا هذا ، على قولين حكاهما الماوردي ، وكان الحسن يذهب إلى أنه مات ، وكذلك كان ابن المنادي من أصحابنا يقول ، ويقبّح قول من يرى بقاءه ، ويقول : لا يثبت حديث في بقائه .

وروى أبو بكر النقاش أن محمد بن إسماعيل البخاري سئل عن الخضر وإلياس : هل هما في الأحياء ؟ فقال : كيف يكون ذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ؟ ! " .

قوله تعالى : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ في هذه الرحمة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها النبوَّة ، قاله مقاتل .

والثاني : الرِّقة والحُنُوُّ على من يستحقه ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : النِّعمة ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ وعلَّمناه من لدنا ﴾ أي : من عندنا ﴿ علماً ﴾ قال ابن عباس : أعطاه

عِلْماً من عِلْم الغيب .

قوله تعالى : ﴿ أن تعلِّمني ﴾ قرأ ابن كثير : "تعلمني مما" بإثبات الياء في الوصل والوقف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو بياء في الوصل .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم بحذف الياء في الحالين .

(134/475)

قوله تعالى : ﴿ مما عُلِّمْتَ رشداً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "رُشداً" بضم الراء ، [وإسكان الشين] خفيفة .

وقرأ أبو عمرو : "رَشَداً" بفتح الراء والشين .

وعن ابن عامر بضمهما .

والرُّشْد ، والرَّشَد : لغتان ، كالنُّخْل والنَّخَل ، والعُجْم والعَجَم ، والعُرْب والعَرَب ، والمعنى : أن تعلمني عِلْماً ذا رشد .

وهذه القصة قد حرَّضت على الرحلة في طلب العلم ، واتِّباع المفضول للفاضل طلباً للفضل ، وحثَّت على الأدب والتواضع للمصحوب .

قوله تعالى : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال ابن عباس : لن تصبر على صنعي ،

لأني علمت من غيب علم ربي .

وفي هذا الصبر وجهان .

أحدهما : على الإِنكار .

والثاني : عن السؤال .

قوله تعالى : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبْراً ﴾ الخُبْر : عِلْمك بالشيء ؛ والمعنى : كيف تصبر على أمر ظاهره مُنْكر ، وأنت لا تعلم باطنه ؟ !

قوله تعالى : ﴿ ستجدني إِن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ قال ابن الأنباري : نفي العصيان منسوق على الصبر .

والمعنى : ستجدني صابراً ولا أعصي إِن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ فلا تسألني ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "فلا تسأْلني" ساكنة اللام .

وقرأ نافع : "فلا تسأَلّنِي" مفتوحة اللام مشددة النون .

وقرأ ابن عامر في رواية الداجوني : "فلا تسأَلَنّ عن شيء" بتحريك اللام من غير ياء ، والنون مكسورة .

والمعنى : لا تسألني عن شيء مما أفعله ﴿ حتى أحدث لك منه ذِكْراً ﴾ أي : حتى أكون

أنا الذي أُبيِّنه لك ، لأن عِلْمه قد غاب عنك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ

﴾

(135/475)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾

العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور ، وبمقتضى الأحاديث الثابتة .

وخالف من لا يعتد بقوله ، فقال : ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر .

وحكى أيضاً هذا القول القشيريّ ، قال : وقال قوم هو عبد صالح ، والصحيح أنه كان الخضر ؛ بذلك ورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال مجاهد : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله .

وروى الترمذيّ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سُمّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء "

هذا حديث صحيح غريب .

الفروة هنا وجه الأرض ؛ قاله الخطّابي وغيره .

والخضر نبيّ عند الجمهور .

وقيل : هو عبد صالح غير نبيّ ، والآية تشهد بنبوّته ؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي .

وأيضاً فإن الإنسان لا يتعلم ولا يَتَّبع إلا من فوقه ، وليس يجوز أن يكون فوق النبيّ من ليس بنبيّ .

وقيل : كان مَلَكاً أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن .

والأوّل الصحيح ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ الرحمة في هذه الآية النبوة .

وقيل : النعمة .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ أي علم الغيب .

ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه ، لا تُعطى ظواهرُ الأحكام أفعاله بحسبها ؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : "قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ" هذا سؤال الملاطِف ، والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب ، المعنى : هل يتفق لك ويخفّ عليك ؟ وهذا كما في الحديث : هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء ﴾ [المائدة : 112] حسب ما تقدم بيانه في "المائدة" .

الثانية : في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضّله الله ؛ فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه ، لأنه نبيّ والنبي أفضل من الوليّ ، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة .

والله أعلم .

"ورشداً" مفعول ثان ب"تعلمني" .

﴿ قَالَ ﴾ الخضر : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تُعطيه ، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه ، ولا طريق الصواب ؛ وهو معنى قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ والأنبياء لا يُقِرّون على منكر ، ولا يجوز لهم التقرير .

أي لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحُكمك .

وانتصب "خُبْراً" على التمييز المنقول عن الفاعل .

وقيل : على المصدر الملاقي في المعنى ، لأن قوله : "لَمْ تُحِطْ" معناه لم تَخْبُرْهُ ، فكأنه قال : لم تَخبره خُبراً ؛ وإليه أشار مجاهد .

والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً ﴾ أي سأصبر بمشيئة الله .

﴿ وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ أي قد ألزمت نفسي طاعتك .

(137/475)

وقد اختلف في الاستثناء ، هل هو يشمل قوله : ﴿ وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ أم لا ؟ فقيل : يشمله كقوله : ﴿ والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب : 35] .

وقيل : استثنى في الصبر فصبَرَ ، وما استثنى في قوله : ﴿ وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ فاعترض وسأل .

قال علماؤنا : إنما كان ذلك منه ؛ لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدري كيف يكون حاله فيه ، ونفيُ المعصية معزوم عليه حاصل في الحال ، فالاستثناء فيه ينافي العزم عليه .

ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسباً لنا بخلاف فعل المعصية وتركها ، فإن ذلك

كله مكتسب لنا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتبعتني فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيءٍ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي حتى أكون أنا الذي أفسره لك ، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة ، فلو صَبَر ودَأَب لرأى العجب ، لكنه أكثر من الاعتراض ، فتعين الفراق والإعراض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(138/475)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

برح : زال مضارع يزول ، ومضارع يزال فتكون من أخوات كان الناقصة .

الحِقب : السنون واحدها حقبة .

قال الشاعر :

فإن تنأ عنها حقبة لاتلاقها . . .

فإنك مما أحدثت بالمحرب

وقال الفراء : الحقب سنة ، ويأتي قول أهل التفسير فيه .

السرب : المسلك في جوف الأرض .

النصب : التعب والمشقة .

الصخرة معروفة وهي حجر كبير .

﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ .

﴿ موسى ﴾ المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران عليه السلام ، ولم يذكر الله في كتابه موسى غيره ، ومن ذهب إلى أنه غيره وهو موسى بن ميشا بن يوسف ، أو موسى بن افراثيم بن يوسف فقول لا يصح ، بل الثابت في الحديث الصحيح وفي التواريخ أنه موسى بن عمر نبيّ إسرائيل ، والمرسل هو وأخوه هارون إلى فرعون ، وفتاه هو يوشع بن نون بن إفراثيم

بن يوسف بن يعقوب عليهم الصلاة والسلام ، والفتى الشاب ولما كان الخدم أكثر ما يكونون فتياناً قيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب ، وندبت الشريعة إلى ذلك .

(139/475)

ففي الحديث : " لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي " ﴿ لفتاه ﴾ لأنه كان يخدمه ويتبعه .

وقيل : كان يأخذ منه العلم .

ويقال : إن يوشع كان ابن اخت موسى عليه السلام وسبب هذه القصة أن موسى عليه السلام جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل وخطب فأبلغ ، فقيل له هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ قال : لا ، فأوحى الله إليه أن يسير بطول سيف البحر حتى يبلغ ﴿ مجمع البحرين ﴾ أسير أي لا أزال .

قال ابن عطية : وإنما قال هذه المقالة وهو سائر .

ومن هذا قول الفرزدق :

فما برحوا حتى تهادت نساؤهم . . .

ببطحاء ذي قار عباب اللطائم

انتهى .

وهذا الذي ذكره فيه حذف خبر ﴿ لا أبرح ﴾ وهي من أخوات كان ، ونص أصحابنا على أن حذف خبر كان وأخواتها لا يجوز وإن دل على حذفه إلاّ ما جاء في الشعر من قوله :

لهفي عليك للهفة من خائف . . .

يبغي جوارك حين ليس مجير

أي حين ليس في الدنيا .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ﴿ لا أبرح ﴾ إن كان بمعنى لا أزول من برح المكان فقد دل على الإقامة على السفر ، وإن كان بمعنى لا أزال فلا بد من الخبر قلت : هو بمعنى لا أزال وقد حذف الخبر لأن الحال والكلام معاً يدلان عليه ، أما الحال فلأنها كانت حال سفر ، وأما الكلام فلأن قوله ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ غاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له ، فلا بد أن يكون المعنى لا يبرح مسيري ﴿ حتى أبلغ ﴾ على أن ﴿ حتى أبلغ ﴾ هو الخبر ، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم ، فانقلب الفعل عن ضمير الغائب إلى لفظ المتكلم وهو وجه لطيف انتهى .

وهما وجهان خلطهما الزمخشري : أما الأول : فجعل الفعل مسنداً إلى المتكلم لفظاً

وتقديراً وجعل الخبر محذوفاً كما قدره ابن عطية و﴿ حتى أبلغ ﴾ فضلة متعلقة بالخبر المحذوف وغاية له .

(140/475)

والوجه الثاني جعل ﴿ لا أبرح ﴾ مسنداً من حيث اللفظ إلى المتكلم ، ومن حيث المعنى إلى ذلك المقدر المحذوف وجعله ﴿ لا أبرح ﴾ هو ﴿ حتى أبلغ ﴾ فهو عمدة إذ أصله خبر للمبتدأ لأنه خبر ﴿ أبرح ﴾ .

وقال الزمخشري .

أيضاً : ويجوز أن يكون المعنى ﴿ لا أبرح ﴾ ما أنا عليه بمعنى ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه ﴿ حتى أبلغ ﴾ كما تقول لا أبرح المكان انتهى .

يعني إن برح يكون بمعنى فارق فيتعدى إذ ذاك إلى مفعول ويحتاج هذا إلى صحة نقل ، وذكر الطبري عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه بمصر ، فلما استقرت الحال خطب يوماً فذكَّر بآلاء الله وأيامه عند بني إسرائيل ، ثم ذكر ما هو عليه من أنه لا يعلم أحداً أعلم منه .

قال ابن عطية : وما يرى قط أن موسى عليه السلام أنزل قومه بمصر إلاّ في هذا الكلام ، وما

أراه يصح بل المتظاهر أن موسى مات بفحص التيه قبل فتح ديار الجبارين ، وهذا المروي عن ابن عباس ذكره الزمخشري فقال : روي أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بعد هلاك القبط أمره الله أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله ، وقال : إن الله اصطفى نبيكم وكلمه فقالوا له : قد علمنا هذا فأي الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله فأوحى الله إليه بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر ، كان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى ، وذكر أيضاً في أسئلة موسى أنه قال : إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه ، قال : أعلم منك الخضر انتهى .

وهذا مخالف لما ثبت في الصحيح من أنه قيل له هل أحد أعلم منك ؟ قال : لا .

و﴿ مجمع البحرين ﴾ قال مجاهد وقتادة : هو مجتمع بحر فارس وبحر الروم .

(141/475)

قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان ، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو مجتمع البحرين على هذا القول .

وقالت فرقة منهم محمد بن كعب القرظي : هو عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه من دبور إلى صبا .

وعن أبيّ بإفريقية .

وقيل : هو بحر الأندلس والقرية التي أبت أن تضيفهما هي الجزيرة الخضراء .

وقيل : ﴿ مجمع البحرين ﴾ بحر ملح وبحر عذب فيكون الخضر على هذا عند موقع نهر عظيم في البحر .

وقالت فرقة : البحران كناية عن موسى والخضر لأنهما بحرا علم .

وهذا شبيه بتفسير الباطنية وغلاة الصوفية ، والأحاديث تدل على أنهما بحرا ماء .

وقال الزمخشري : من بدع التفاسير أن البحرين موسى والخضر لأنهما كانا بحرين في العلم انتهى .

وقيل : بحر القلزم .

وقيل : بحر الأزرق .

وقرأ الضحاك وعبد الله بن مسلم بن يسار ﴿ مجمع ﴾ بكسر الميم الثانية والنضر عن ابن مسلم في كلا الحرفين وهو شاذ ، وقياسه من يفعل فتح الميم كقراءة الجمهور .

والظاهر أن ﴿ مجمع البحرين ﴾ هو اسم مكان جمع البحرين .

وقيل : مصدر .

قال ابن عباس : الحقب الدهر .

وقال عبد الله بن عمرو وأبو هريرة : ثمانون سنة .

وقال الحسن : سبعون .

وقيل : سنة بلغة قريش ذكره الفراء .

وقيل : وقت غير محدود قاله أبو عبيدة .

والظاهر أن قوله ﴿ أو أمضي ﴾ معطوف على ﴿ أبلغ ﴾ فغيا بأحد الأمرين إما ببلوغه المجمع وإما بمضيه ﴿ حقباً ﴾ .

وقيل : هي تغيية لقوله ﴿ لا أبرح ﴾ كقولك لا أفارقك أو تقضيني حقي ، فالمعنى ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ إلى أن أمضي زماناً أتيقن معه فوات مجمع البحرين .

وقرأ الضحاك ﴿ حقباً ﴾ بإسكان القاف والجمهور بضمها .

(142/475)

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما ﴾ ثم جملة محذوفة التقدير فسار ﴿ فلما بلغا ﴾ أي موسى وفتاه ﴿ مجمع بينهما ﴾ أي بين البحرين ﴿ نسيا حوتهما ﴾ وكان من أمر الحوت وقصته أن موسى عليه السلام حين أوحي إليه أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك .

قال موسى : يا رب فيكف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فنام موسى واضطرب الحوت في المكتمل فخرج منه فسقط ﴿ في البحر سرباً ﴾ وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق .

قيل : وكان الحوت مالحاً .

وقيل : مشوياً .

وقيل : طرياً .

وقيل : جمع يوشع الحوت والخبز في مكتل فنزلا ليلة على شاطىء عين تسمى عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت .

وروي أنهما أكلا منها .

وقيل : توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء ، والظاهر نسبة النسيان إلى موسى وفتاه .

وقيل : كان النسيان من أحدهما وهو فتى موسى نسي أن يعلم موسى أمر الحوت إذ كان نائماً ، وقد أحس يوشع بخروجه من المكتل إلى البحر وراآه قد اتخذ السرب فأشفق أن يوقظ موسى .

وقال أؤخر إلى أن يستيقظ ثم نسي أن يعلمه حتى ارتحلا و﴿ جاوزا ﴾ وقد يسند

الشيء إلى الجماعة وإن كان الذي فعله واحد منهم .

وقيل : هو على حذف مضاف أي نسي أحدهما .

وقال الزمخشري : أي ﴿ نسيا ﴾ تفقد أمره وما يكون منه مما جعل إمارة على الظفر بالطلبة .

وقيل : نسي يوشع أن يقدمه ، ونسي موسى أن يأمر فيه بشيء انتهى .

وشبه بالسرب مسلك الحوت في الماء حين لم ينطبق الماء بعده بل بقي كالطاق ، هذا الذي ورد في الحديث .

وقال الجمهور : بقي موضع سلوكه فارغاً .

وقال قتادة : ماء جامداً وعن ابن عباس : حجراً صلداً .

(143/475)

وقال ابن زيد : إنما اتخذ سبيله سرباً في البر حتى وصل إلى البحر ثم عام على العادة كأنه يعني بقوله ﴿ سرباً ﴾ تصرفاً وجولاناً من قولهم : فحل سارب أي مهمل يرعى حيث شاء .

ومنه قوله تعالى ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أي متصرف .

وقال قوم : اتخذ ﴿ سرباً ﴾ في التراب من المكتمل ، وصادف في طريقه حجراً فنقبه .

والظاهر أن السرب كان في الماء ولا يفسر إلاّ بما ورد في الحديث الصحيح أن الماء صار عليه كالطاق وهو معجزة لموسى عليه السلام أو الخضر إن قلنا أنه نبي وإلاّ تكن كرامة .

وقيل : عاد موضع سلوك الحوت حجراً طريقاً وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت حتى أفضى به ذلك إلى جزيرة في البحر وفيها وجد الخضر ﴿ فلما جاوزا ﴾ أي مجمع البحرين .

وقال الزمخشري : الموعد وهو الصخرة .

قيل : سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوزا لموعد ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك فتذكر الحوت وطلبه .

وقوله ﴿ من سفرنا ﴾ هذا إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة .

وقرأ الجمهور ﴿ نصباً ﴾ بفتحتين وعبد الله بن عبيد بن عمير بضمتين .

قال صاحب اللوامح وهي إحدى اللغات الأربع التي فيها .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى لكونه إمارة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها ولكونه معجزتين بينتين وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها وقيل : ما كانت إلاّ شق سمكة وقيام الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب ، ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد ، وحتى

طلب موسى عليه السلام الحوت قلت : قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان ، وانضم إلى ذلك أنه ضري بمشاهدة أمثاله عند موسى من العجائب ، واستأنس بأخواته فأعان الإلف على قلة الإهتمام انتهى .

(144/475)

قال أبو بكر غالب بن عطية والداني عبد الحق المفسر : سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظة : مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام ، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم .

وقال الزمخشري : ﴿ أرأيت ﴾ بمعنى أخبرني فإن قلت : فما وجه التئام هذا الكلام فإن كل واحد من ﴿ أرأيت ﴾ و ﴿ إذ أوينا ﴾ و ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ لا متعلق له ؟ قلت : لما طلب موسى الحوت ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية فدهش فطفق يسأل موسى عن سبب ذلك ، كأنه قال : ﴿ أرأيت ﴾ ما دهاني ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ﴾ فحذف ذلك انتهى .

وكون أرأيتك بمعنى أخبرني ذكره سيبويه : وقد أمعّنا الكلام في ذلك في سورة الأنعام وفي شرحنا لكتاب التسهيل .

وأما ما يختص بأرأيت في هذا الموضع فقال أبو الحسن الأخفش : إن العرب أخرجتها عن معناها بالكلية فقالوا : أرأيتك وأريتك بحذف الهمزة إذا كانت بمعنى أخبرني ، وإذا كانت بمعنى أبصرت لم تحذف همزتها قال : وشذت أيضاً فألزمتها الخطاب على هذا المعنى ، ولا تقول فيها أبداً أراني زيد عمراً ما صنع ، وتقول هذا على معنى أعلم .

وشذت أيضاً فأخرجتها عن موضعها بالكلية بدليل دخول الفاء ألا ترى قوله ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ﴾ فما دخلت الفاء إلاّ وقد أخرجت لمعنى إما أو تنبه ، والمعنى أما ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ فالأمر كذا ، وقد أخرجتها أيضاً إلى معنى أخبرني كما قدمنا ، وإذا كانت بمعنى أخبرني فلا بد بعدها من الاسم المستخبر عنه وتلزم الجملة التي بعدها الاستفهام ، وقد يخرج لمعنى أما ويكون أبداً بعدها الشرط وظرف الزمان فقوله ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ معناه أما ﴿ إذ أوينا ﴾ ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ أو تنبه ﴿ إذ أوينا ﴾ وليست الفاء إلاّ جواباً لأرأيت ، لأن إذ لا يصح أن يجازى بها إلاّ مقرونة بما بلا خلاف انتهى كلام الأخفش .

(145/475)

وفيه إن ﴿ أرأيت ﴾ إذا كانت بمعنى أخبرني فلا بد بعدها من الاسم المستخبر عنه ، وتلزم الجملة التي بعدها الاستفهام وهذان مفقودان في تقدير الزمخشري ﴿ أرأيت ﴾ هنا بمعنى أخبرني ، ومعنى ﴿ نسيت الحوت ﴾ نسيت ذكر ما جرى فيه لك .

وفي قوله ﴿ وما أنسانيه إلاّ الشيطان ﴾ حسن أدب سبب النسيان إلى المتسبب فيه بوسوسته و ﴿ أن أذكره ﴾ بدل اشتمال من الضمير العائد على الحوت ، والظاهر أن الضمير في ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ عائد على الحوت كما عاد في قوله ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ وهو من كلام يوشع .

وقيل : الضمير عائد على موسى أي اتخذ موسى .

ومعنى ﴿ عجباً ﴾ أي تعجب من ذلك أو اتخاذاً ﴿ عجباً ﴾ وهو أن أثره بقي إلى حيث سار .

وقدره الزمخشري ﴿ سبيله ﴾ ﴿ عجباً ﴾ وهو كونه شبيه السرب قال : أو قال ﴿ عجباً ﴾ في آخر كلام تعجباً من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها ، أو مما رأى من المعجزتين وقوله : ﴿ وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه .

وقيل : إن ﴿ عجباً ﴾ حكاية لتعجب موسى وليس بذلك انتهى .

وقال ابن عطية : ﴿ واتخذ في سبيله في البحر عجباً ﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع

لموسى أي اتخذ الحوت سبيلاً عجباً للناس ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ واتخذ سبيله في البحر ﴾ تمام الخبر ثم استأنف التعجب فقال من قبل نفسه ﴿ عجباً ﴾ لهذا الأمر ، وموضع العجب أن يكون حوت قد مات وأكل شقه ثم حيي بعد ذلك .

قال أبو شجاع في كتاب الطبري رأيته أتيت به فإذا هو شق حوت وعين واحدة وشق آخر ليس فيه شيّ .

قال ابن عطية : وأنا رأيته والشق الذي فيه شيّ عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة ، ويحتمل أن يكون ﴿ واتخذ سبيله ﴾ الآية إخباراً من الله تعالى وذلك على وجهين : إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر ﴿ عجباً ﴾ أي تعجب منه ، وإما أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله ﴿ عجباً ﴾ للناس انتهى .

(146/475)

وقرأ حفص : ﴿ وما أنسانيه ﴾ بضم الهاء وفي الفتح عليه الله وذلك في الوصل وأمال الكسائي فتحة السين ، وفي مصحف عبد الله وقراءته ﴿ أن أذكره ﴾ ﴿ إلاّ الشيطان ﴾ .

وقرأ أبو حيوة : واتخاذ سبيله عطف على المصدر على ضمير المفعول في ﴿ أذكره ﴾

والإشارة بقوله ذلك إلى أمر الحوت وفقده واتخاذه سبيلاً في البحر لأنه إمارة الظفر بالطلبة من لقاء ذلك العبد الصالح و﴿ ما ﴾ موصولة والعائد محذوف أي نبغيه .

وقرىء نبغ ياء في الوصل وإثباتها أحسن وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ونافع ، وأما الوقف فالأكثر فيه طرح الياء اتباعاً لرسم المصحف ، وأثبتها في الحالين ابن كثير .

﴿ فارتدا ﴾ رجعاً على أدراجهما من حيث جاءا .

﴿ قصصاً ﴾ أي يقصان الأثر ﴿ قصصاً ﴾ فانتصب على المصدرية بإضمار يقصان ، أو يكون في موضع الحال أي مقتصين فينصب بقوله ﴿ فارتدا ﴾ ﴿ فوجدا ﴾ أي موسى والفتى ﴿ عبداً من عبادنا ﴾ هذه إضافة تشريف واختصاص ، وجداه عند الصخرة التي فقد الحوت عندها وهو مسجى في ثوبه مستلقياً على الأرض فقال : السلام عليك فرفع رأسه ، وقال : أنى بأرضك السلام ثم قال له ، من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال له : ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا ؟ قال : بلى ، ولكن أحببت لقاءك وأن أتعلم منك ، قال له : إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أنا .

والجمهور على أنه الخضر وخالف من لا يعتد بخلافه فزعم أنه عالم آخر .

وقيل : اليسع .

وقيل : الياس .

وقيل : خضرون ابن قابيل بن آدم عليه السلام .

قيل : واسم الخضر بليا بن ملكان ، والجمهور على أن الخضر نبي وكان علمه معرفة بواطن قد أوحيت إليه ، وعلم موسى الأحكام والفتيا بالظاهر .

وروي أنه وجد قاعداً على ثبج البحر .

وفي الحديث سمي خضراً لأنه جلس على فروة بالية فاهتزت تحته خضراء .

وقيل : كان إذا صلى اخضّر ما حوله .

(147/475)

وقيل : جلس على فروة بيضاء وهي الأرض المرتفعة .

وقيل : الصلبة واهتزت تحته خضراء .

وقيل : كانت أمه رومية وأبوه فارسي .

وقيل : كان ابن ملك من الملوك أراد أبوه أن يستخلفه من بعده فلم يقبل منه ولحق بجزائر البحر فطلبه أبوه فلم يقدر عليه .

والجمهور على أنه مات .

وقال شرف الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي : أما خضر موسى بن عمران

فليس بحي لأنه لو كان حياً للزمه المجيء إلى النبيّ (صلى الله عليه وسلم) والإيمان به واتّباعه .

وقد روي عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " لو كان موسى وعيسى حيين لم يسعهما إلاّ اتباعي " انتهى هكذا ورد لحديث ومذهب المسلمين أن عيسى حي وأنه ينزل من السماء ، ولعل الحديث : " لو كان موسى حياً لم يسعه إلاّ اتباعي " .

والرحمة التي آتاه الله إياها هي الوحي والنبوة .

وقيل : الرزق .

﴿ وعلمناه من لدنّا علماً ﴾ أي من عندنا أي مما يختص بنا من العلم وهو الإخبار عن الغيوب .

وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو ﴿ من لدنّا ﴾ بتخفيف النون وهي لغة في لدن وهي الأصل .

قيل : وقد أولع كثير ممن ينتمي إلى الصلاح بادعاء هذا العلم ويسمونه العلم اللدني ، وأنه يلقى في روع الصالح منهم شيء من ذلك حتى يخبر بأن من كان من أصحابه هو من أهل الجنة على سبيل القطع ، وأن بعضهم يرى الخضر .

وكان قاضي القضاة أبو الفتح محمد بن عليّ بن مطيع القشيري المعروف بابن دقيق العيد يخبر عن شيخ له أنه رأى الخضر وحدثه ، فقيل له : من أعلمه أنه الخضر ؟ ومن أين عرف ذلك ؟ فسكت .

وبعضهم يزعم أن الخضرية رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر ، وسمعنا الحديث عن شيخ يقال له عبد الواحد العباسي الحنبلي وكان أصحابه الحنابلة يعتقدون فيه أنه يجتمع بالخضر .

(148/475)

﴿ قال له موسى ﴾ في الكلام محذوف تقديره فلما التقيا وتراجعا الكلام وهو الذي ورد في الحديث الصحيح ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ وفي هذا دليل على التواضع للعالم ، وفي هذه القصة دليل على الحث على الرحلة في طلب العلم وعلى حسن التلطف والاستنزال والأدب في طلب العلم .

بقوله ﴿ هل أتبعك ﴾ وفيه المسافرة مع العالم لاقتباس فوائده ، والمعنى هل يخف عليك ويتفق لك وانتصب ﴿ رشداً ﴾ على أنه مفعول ثانٍ لقوله ﴿ تعلمني ﴾ أو على أنه مصدر في موضع الحال ، وذو الحال الضمير في ﴿ أتبعك ﴾ .

وقال الزمخشري : ﴿ علماً ﴾ ذا رشد أرشد به في ديني ، قال : فإن قلت : أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه كما قيل موسى بن ميشا لا موسى بن عمران لأن النبيّ يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين ؟ قلت : لا

غضاضة بالنبيّ في أخذ العلم من نبيّ قبله ، وإنما يغض منه أن يأخذ ممن دونه .

وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس : إن نوفاً ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى ، وأن موسى هو موسى بن ميشا فقال : كذب عدو الله انتهى .

وقرأ الحسن والزهري وأبو بحرية وابن محيصن وابن مناذر ويعقوب وأبو عبيد واليزيدي ﴿ رشداً ﴾ بفتحتين وهي قراءة أبي عمرو من السبعة .

وقرأ باقي السبعة بضم الراء وإسكان الشين ، ونفى الخضر استطاعة الصبر معه على سبيل التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم ، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها ينكرها الرجل الصالح فكيف النبيّ فلا يتمالك أن يشمئز لذلك ، ويبادر بالإنكار ﴿ وكيف تصبر ﴾ أي إن صبرك على ما لا خبرة لك به مستبعد ، وفيه إبداء عذر له حيث لا يمكنه الصبر لما يرى من منافاة ما هو عليه من شريعته .

وانتصب ﴿ خبراً ﴾ على التمييز أي مما لم يحط به خبرك فهو منقول من الفاعل أو على أنه مصدر على غير الصدر لأن معنى ﴿ على ما لم تحط به ﴾ لم تخبره .

وقرأ الحسن وابن هرمز ﴿ خبراً ﴾ بضم الباء .

(149/475)

﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ وعده بوجدانه ﴿ صابراً ﴾ وقرن ذلك بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، إذ لا يصبر إلاّ على ما ينافي ما هو عليه إذ رآه ﴿ ولا أعصي ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ صابراً ﴾ أي ﴿ صابراً ﴾ وغير عاص فيكون في موضع نصب عطف الفعل على الاسم إذا كان في معناه كقوله ﴿ صافات ويقبضن ﴾ أي وقابضات ، ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ ستجدني ﴾ فلا محل له من الإعراب ولا يكون مقيداً بالمشيئة لفظاً .

وقال القشيري : وعد موسى من نفسه بشيئين : بالصبر وقرنه بالاستثناء بالمشيئة فصبر حين وجد على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل ، وبأن لا يعصيه فأطلق ولم يقرنه بالاستثناء فعصاه حيث قال له ﴿ فلا تسألني ﴾ فكان يسأله فما قرن بالاستثناء لم يخالف فيه وما أطلقه وقع فيه الخلف انتهى .

وهذا منه على تقدير أن يكون ﴿ ولا أعصي ﴾ معطوفاً على ﴿ ستجدني ﴾ فلم يندرج تحت المشيئة .

﴿ قال فان اتبعتني ﴾ أي إذا رأيت مني شيئاً خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك فلا تفاتحني بالسؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك ، وهذا من أدب المتعلم مع العالم المتبوع .

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ فلا تسألني ﴾ وعن أبي جعفر بفتح السين واللام من غير همز

مشددة النون وباقي السبعة بالهمز وسكون اللام وتخفيف النون .

قال أبو علي .

كلهم بياء في الحالين انتهى .

وعن ابن عامر في حذف الياء خلاف غريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(150/475)

وقال أبو السعود :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾

التنكيرُ للتفخيم والإضافةُ للتشريف والجمهور على أنه الخِضْرُ واسمُه بَلْيَا بنُ مَلْكَان ، وقيل : اليسع ، وقيل : إلياس عليهم الصلاة والسلام ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ ﴾ هي الوحيُ والنبوةُ كما يُشعِرُ به تنكيرُ الرحمة واختصاصُها بجناب الكبرياء ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ خاصاً لا يُكتنه كُنهُه ولا يقادر قدرُه وهو علمُ الغيوب .

﴿ قَالَ لَهُ موسى ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من السباق ، كأنه قيل : فماذا جرى بينهما من الكلام ؟ فقيل : قال له موسى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ استئذاناً منه

في اتّباعه له على وجه التعلم ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ أي علماً ذا رُشدٍ أرشُد به في ديني ، والرشدُ إصابةُ الخير ، وقرىء بفتحتين وهو مفعولُ تعلّمن ومفعول عُلّمت محذوفٌ وكلاهما منقولٌ من عِلم المتعدي إلى مفعول واحد ، ويجوز كونُه علةً لأتبعُك أو مصدراً بإضمار فعله ، ولا ينافي نبوتَه وكونَه صاحبَ شريعةٍ أن يتعلم من نبي آخرَ ما لا تعلقَ له بأحكام شريعتِه من أسرار العلومِ الخفية ، ولقد راعى في سَوق الكلام غايةَ التواضع معه عليهما السلام .

﴿ قَالَ ﴾ أي الخِضْر : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ نفى عنه استطاعةَ الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصِحّ ولا يستقيم وعلله بقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ إيذاناً بأنه يتولى أموراً خفيةَ المدارِ مُنْكَرَةَ الظواهرِ ، والرجلُ الصالح لا سيما صاحبِ الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها . وفي صحيح البخاري قال : " يا موسى إني على علمٍ من علم الله تعالى علَّمنيه لا تعلَمُه وأنت على علمٍ من علم الله علّمكه الله لا أعلمه " وخبراً تمييز أي لم يحط به خبرك .

(151/475)

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا ﴾ معك غيرَ معترضٍ عليك ، وتوسيطُ الاستثناء بين مفعولَي الوُجدان لكمال الاعتناءِ بالتيمّن ولئلا يُتوهّم بالصبر ﴿ وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ عطف على صابراً أي ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ ، وفي وعد هذا الوُجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبرِ وتركِ العصيان ، أو على ستجدني فلا محلَّ له من الإعراب والأولُ هو الأولى لما عرفته ولظهور تعلقِه بالاستثناء حينئذ ، وفيه دليلٌ على أن أفعالَ العبادِ بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتبعتنى ﴾ أذِن له في الاتّباع بعد اللتيا والتي ، والفاءُ لتفريع الشرطيةِ على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنى عَن شَىْءٍ ﴾ تشاهده من أفعالي أي لا تفاتحْني بالسؤال عن حكمته فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي حتى أبتدىء ببيانه ، وفيه إيذانٌ بأن كلَّ ما صدر عنه فله حكمةٌ وغايةٌ حميدةٌ ألبتةَ ، وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابعِ مع المتبوع ، وقرىء فلا تسألَنّي بالنون المثقلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(152/475)

وقال الآلوسى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾

الجمهور على أنه الخضر بفتح الخاء وقد تكسر وكسر الضاد وقد تسكن ، وقيل اليسع ، وقيل الياس ، وقيل ملك من الملائكة وهو قول غريب باطل كما في شرح مسلم ، والحق الذي تشهد له الأخبار الصحيحة هو الأول ، والخضر لقبه ولقب به كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء .

وأخرج ابن عساكر .

وجماعة عن مجاهد أنه لقب بذلك لأنه إذا صلى اخضر ما حوله ، وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أن ذلك لأنه كان إذا جلس في مكان أخضر ما حوله وكانت ثيابه خضراً ، وأخرج عن السدي أنه إذا قام بمكان نبت العشب تحت رجليه حتى يغطي قدميه ، وقيل لإشراقه وحسنه ، والصواب كما قال النووي الأول ، وكنيته أبو العباس واسمه بليا بموحدة مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية ، وفي آخره ألف قيل ممدودة ، وقيل إبليا بزيادة همزة في أوله ، وقيل عامر ، وقيل أحمد .

ووهاه ابن دحية بأنه لم يسم قبل نبينا صلى الله عليه وسلم أحد من الأمم السالفة بأحمد ، وزعم بعضهم أن اسم الخضر اليسع وأنه إنما سمي بذلك لأن علمه وسع ست سموات

وست أرضين ووهاه ابن الجوزي ، وأنت تعلم أنه باطل لاواه ، ومثله القول بأن اسمه الياس ، واختلفوا في أبيه فأخرج الدارقطني في الإفراد .

(153/475)

وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس أنه ابن آدم لصلبه ، وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أن أمه رومية وأباه فارسي ، ولم يذكر اسمه وذكر أن الياس أخوه من هذه الأم وهذا الأب ، وأخرج أيضاً عن أسباط عن السدي أنه ابن ملك من الملوك وكان منقطعاً في عبادة الله تعالى وأحب أبوه أن يزوجه فأبى ثم أجاب فزوجه بامرأة بكر فلم يقربها سنة ثم بثيب فلم يقربها ثم فر فطلبه فلم يقدر عليه ثم تزوجت امرأته الأولى وكانت قد آمنت وهي ماشطة امرأة فرعون ، ولم يذكر أيضاً اسم أبيه ، وقيل إنه ابن فرعون على ما قيل أنه أبوه وسبحان من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وأخرج أبو الشيخ في العظمة .

وأبو نعيم في الحلية عن كعب الأحبار أنه ابن عامل وأنه ركب في نفر من أصحابه حتى بلغ بحر الهند وهو بحر الصين فقال : يا أصحابي دلوني فدلوه في البحر أياماً وليالي ثم صعد فقال : استقبلني ملك فقال لي : أيها الآدمي الخطاء إلى أين ومن أين ؟ فقلت : أردت أن

أنظر عمق هذا البحر فقال لي : كيف وقد أهوى رجل من زمان داود عليه السلام ، ولم يبلغ ثلث قعره حتى الساعة وذلك ثلثمائة سنة ، وأظنك لا تشك بكذب هذا الخبر وإن قيل حدث عن البحر ولا حرج ، وقيل هو ابن العيص .

وقيل هو ابن كليان بكاف مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية بعدها ألف ونون .

وقال ابن قتيبة في "المعارف" : قال وهب بن منبه أنه ابن ملكان بفتح الميم وإسكان اللام ابن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح عليه السلام .

ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال بيد أن صنيع النووي عليه الرحمة في شرح مسلم يشعر باختيار أنه بليا بن ملكا وهو الذي عليه الجمهور والله تعالى أعلم .

وصح من حديث البخاري وغيره أنهما رجعا إلى الصخرة وإذا رجل مسجى بثوب قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه الآخر تحت رأسه .

(154/475)

وفي "صحيح مسلم" فأتيا جزيرة فوجد الخضر قائماً يصلي على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وقال الثعلبي : انتهيا إليه وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو مسجى بثوب أخضر .

وقيل إن سبيل الحوت عاد حجراً فلما جاءا إليه مشيا عليه حتى وصلا إلى جزيرة فيها الخضر .

وصح أنهما لما انتهيا إليه سلم موسى فقال الخضر : وإني بأرضك السلام .

فقال : أنا موسى .

فقال : موسى بني إسرائيل قال : نعم ، وروي أنه لما سلم عليه وهو مسجى عرفه أنه موسى فرفع رأسه فاستوى جالساً وقال : وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل فقال موسى : وما أدراك بي ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل ؟ فقال : الذي أدراك بي ودلك علي ثم قال : يا موسى أما يكفيك أن التوراة بيدك وأن الوحي يأتيك ؟ قال موسى : إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، والتنوين في ﴿ عَبْداً ﴾ للتفخيم والإضافة في ﴿ عِبَادِنَا ﴾ للتشريف والاختصاص أي عبداً جليل الشأن ممن اختص بنا وشرف بالإضافة إلينا .

﴿ ءاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ قيل المراد بها الرزق الحلال والعيش الرغد ، وقيل العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم وقيل طول الحياة مع سلامة البنية ، والجمهور على أنها الوحي والنبوة وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن ، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وهذا قول من يقول بنبوته عليه السلام وفيه أقوال ثلاثة ، فالجمهور على أنه عليه السلام نبي وليس برسول ، وقيل هو رسول ، وقيل هو ولي وعليه القشيري وجماعة ، والمنصور ما عليه الجمهور .

وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة وبمجموعها يكاد يحصل اليقين ، وكما وقع الخلاف في نبوته وقع الخلاف في حياته اليوم فذهب جمع إلى أنه ليس بحي اليوم ، وسئل البخاري عنه وعن إلياس عليهما السلام هل هما حيان ؟ فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أي قبل وفاته بقليل

(155/475)

" لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " والذي في "صحيح مسلم" عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذٍ حية وهذا أبعد عن التأويل ، وسئل عن ذلك غيره من الأئمة فقرأ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ [الأنبياء : 34] .

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : لو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر " اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " فكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذٍ ؟ .

وسئل إبراهيم الحربي عن بقائه فقال : من أحال على غائب لم ينتصف منه وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان .

ونقل في "البحر" عن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي القول بموته أيضاً .

ونقله ابن الجوزي عن علي بن موسى الرضا رضي الله تعالى عنهما أيضاً .

وكذا عن إبراهيم بن إسحاق الحربي ، وقال أيضاً : كان أبو الحسين بن المنادي يقبح قول من يقول إنه حي .

وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب محمد .

(156/475)

وكيف يعقل وجود الخضر ولا يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة والجماعة ولا يشهد معه الجهاد مع قوله عليه الصلاة والسلام " والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني " وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاق النبيين لَمَا ءاتَيْتُكُم مّن كتاب وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران : 81] وثبوت أن عيسى عليه السلام إذا نزل إلى الأرض يصلي خلف إمام هذه الأمة ولا

يتقدم عليه في مبدأ الأمر ، وما أبعد فهم من يثبت وجود الخضر عليه السلام وينسى ما في طي إثباته من الإعراض عن هذه الشريعة ثم قال : وعندنا من المعقول وجوه على عدم حياته ، أحدها أن الذي قال بحياته قال إنه ابن آدم عليه السلام لصلبه وهذا فاسد لوجهين ، الأول : أنه يلزم أن يكون عمره اليوم ستة آلاف سنة أو أكثر ومثل هذا بعيد في العادات في حق البشر .

والثاني : أنه لو كان ولده لصلبه أو الرابع من أولاده كما زعموا أنه وزير ذي القرنين لكان مهول الخلقة مفرط الطول والعرض ، ففي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خلق آدم طوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص بعده " وما ذكر أحد ممن يزعم رؤية الخضر أنه رآه على خلقة عظيمة وهو من أقدم الناس ، والوجه الثاني أنه لو كان الخضر قبل نوح عليه السلام لركب معه في السفينة ولم ينقل هذا أحد .

الثالث : أن العلماء اتفقوا على أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة مات من معه ولم يبق غير نسله ودليل ذلك قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] .

(157/475)

الرابع : أنه لو صح بقاء بشر من لدن آدم إلى قرب خراب الدنيا لكان ذلك من أعظم الآيات والعجائب وكان خبره في القرآن مذكوراً في مواضع لأنه من آيات الربوبية وقد ذكر سبحانه عز وجل من استحياه ألف سنة إلا خمسين عاماً وجعله آية فكيف لا يذكر جل وعلا من استحياه أضعاف ذلك ، الخامس : أن القول بحياة الخضر قول على الله تعالى بغير علم وهو حرام بنص القرآن ، أما المقدمة الثانية فظاهرة ، وأما الأولى فون حيات لو كانت ثابتة لدل عليها القرآن أو السنة أو إجماع الأمة فهذا كتاب الله تعالى فأين فيه حياة الخضر ؟ وهذه سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فأين فيها ما يدل على ذلك بوجه ، وهؤلاء علماء الأمة فمتى أجمعوا على حياته ، السادس : إن غاية ما يتمسك به في حياته حكايات منقولة يخبر الرجل بها أنه رأى الخضر فيا لله تعالى العجب هل للخضر علامة يعرفه بها من رآه ؟ وكثير من زاعمي رؤيته يغتر بقوله أنا الخضر ومعلوم أنه لا يجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله تعالى فمن أين للرائي أن المخبر له صادق لا يكذب ؟ السابع : أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن ولم يصاحبه وقال : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] فكيف يرضى لنفسه بمفارقة مثل موسى عليه السلام ثم يجتمع بجهلة العباد الخارجين عن الشريعة الذين لا يحضرون جمعة ولا جماعة ولا مجلس علم وكل منهم يقول : قال لي الخضر جاءني الخضر أوصاني الخضر فيا عجباً له يفارق الكليم ويدور على صحبة جاهل لا يصحبه إلا شيطان رجيم سبحانك هذا بهتان عظيم .

(158/475)

الثامن : أن الأمة مجمعة على أن الذي يقول أنا الخضر لو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كذا وكذا لم يلتفت إلى قوله ولم يحتج به في الدين ولا مخلص للقائل بحياته عن ذلك إلا أن يقول : إنه لم يأت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ولا بايعه أو يقول : إنه لم يرسل إليه وفي هذا من الكفر ما فيه ، التاسع : أنه لو كان حياً لكان جهاده الكفار ورباطه في سبيل الله تعالى ومقامه في الصف ساعة وحضوره الجمعة والجماعة وإرشاد جهلة الأمة أفضل بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات إلى غير ذلك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ماله وما عليه .

(159/475)

وشاع الاستدلال بخبر لو كان الخضر حياً لزارني وهو كما قال الحفاظ خبر موضوع لا أصل له ولو صح لأغنى عن القبيل والقال ولانقطع به الخصام والجدال ؛ وذهب جمهور العلماء إلى أنه حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند الصوفية قدست أسرارهم قاله النووي ،

ونقل عن الثعلبي المفسر أن الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محجوب عن أبصار أكثر الرجال ، وقال ابن الصلاح : هو حي اليوم عند جماهير العلماء والعامة معهم في ذلك ؛ وإنما ذهب إلى إنكار حياته بعض المحدثين واستدلوا على ذلك باخبار كثيرة منها ما أخرجه الدارقطني في الأفراد وابن عساكر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال ومثله لا يقال من قبل الرأي ، ومنها ما أخرجه ابن عساكر عن ابن إسحاق قال : حدثنا أصحابنا أن آدم عليه السلام لما حضره الموت جمع بنيه فقال : يا بني إن الله تعالى منزل على أهل الأرض عذاباً فليكن جسدي معكم في المغارة حتى إذا هبطتم فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام فكان جسده معهم فلما بعث الله تعالى نوحاً ضم ذلك الجسد وأرسل الله تعالى الطوفان على الأرض فغرقت زماناً فجاء نوح حتى نزل بابل وأوصى بنيه الثلاثة أن يذهبوا بجسده إلى المغار الذي أمرهم أن يدفنوه به فقالوا : الأرض وحشة لا أنيس بها ولا نهتدي الطريق ولكن كف حتى يأمن الناس ويكثروا فقال لهم نوح : إن آدم قد دعا الله تعالى أن يطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه فانجز الله تعالى له ما وعده فهو يحيا إلى ما شاء الله تعالى له أن يحيى ، وفي هذا سبب طول بقائه وكأنه سبب بعيد وإلا فالمشهور فيه أنه شرب من عين الحياة حين دخل الظلمة مع ذي القرنين وكان على مقدمته ، ومنها ما أخرجه الخطيب .

وابن عساكر عن علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه قال : بينا أنا أطوف بالبيت إذا رجل متعلق بأستار الكعبة يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ويا من لا تغلطه المائل ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قلت : يا عبد الله أعد الكلام قال : أسمعته ؟ قال : نعم قال : والذي نفس الضر بيده وكان هو الخضر لا يقولهن عبد دبر الصلاة المكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر .

ومنها ما نقله الثعلبي عن ابن عباس قال : قال علي كرم الله تعالى وجهه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع فلما وضعته على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لا تغسلوا محمداً فإنه طاهر طهر فوقع في قلبي شيء من ذلك وقلت : ويلك من أنت فإن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أمرنا وهذه سنته وإذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته غسلوا محمداً فإن الهاتف الأول كان إبليس الملعون جسد محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدخل قبره مغسولاً فقلت : جزاك الله تعالى خيراً قد أخبرتني بأن ذلك إبليس فمن أنت ؟ قال أنا الخضر حضرت جنازة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما أخرجه الحاكم في

"المستدرك" عن جابر قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى ثم التفت إلى الصحابة فقال : إن في الله تعالى عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا وإليه تعالى فارغبوا ونظره سبحانه إليكم في البلاء فانظروا فإنما المصاب من لم يجبر فقال أبو بكر .

وعلي رضي الله تعالى عنهما : هذا الخضر عليه السلام ؛ ومنها ما أخرجه ابن عساكر أن الياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس ويحجان في كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من قابل ، ومنها ما أخرجه ابن عساكر أيضاً .

والعقيلي .

(161/475)

والدارقطني في الأفراد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يلتقي الخضر والياس كل عام في الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هذه الكلمات باسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله .

ومنها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن المنكدر قال : بينما عمر بن الخطاب

يصلي على جنازة إذا بهاتف يهتف من خلفه لا تسبقنا بالصلاة يرحمك الله تعالى فانتظره حتى لحق بالصف الأول فكبر عمر وكبر الناس معه فقال الهاتف : إن تعذبه فكثيراً عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك فنظر عمر وأصحابه إلى الرجل فلما دفن الميت وسوى عليه التراب قال : طوبى لك يا صاحب القبران لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً فقال عمر : خذوا لي الرجل نسأله عن صلاته وكلامه هذا عمن هو فتوارى عنهم فنظروا فإذا أقر قدمه ذراع فقال عمر : هذا والله الذي حدثنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

والاستدلال بهذا مبني على أنه عنى بالمحدث عنه الخضر عليه السلام إلى غير ذلك .

وكثير مما ذكر وإن لم يدل على أنه حي اليوم بل يدل على أنه كان حياً في زمنه صلى الله عليه وسلم ولا يلزم من حياته إذ ذاك حياته اليوم إلا أنه يكفي في رد الخصم إذ هو ينفي حياته إذ ذاك كما ينفي حياته اليوم ، نعم إذا كان عندنا من يثبتها إذ ذاك وينفيها الآن لم ينفع ما ذكر معه لكن ليس عندنا من هو كذلك ، وحكايات الصالحين من التابعين والصوفية في الاجتماع به والأخذ عنه في سائر الأعصار أكثر من أن تحصر وأشهد من أن تذكر .

نعم أجمع المحدثون القائلون بحياته عليه السلام على أنه ليس له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم كما صرح به العراقي في تخريج أحاديث الأحياء .

وهذا خلاف ما عند الصوفية فقد ادعى الشيخ علاء الدين استفادة الأحاديث النبوية عنه بلا واسطة .

(162/475)

وذكر السهروردي في السر المكتوم أن الخضر عليه السلام حدثنا بثلثمائة حديث سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم شفاها ، واستدل بعض الذاهبين إلى حياته الآن بالاستصحاب فإنه قد تحققت من قبل بالدليل فتبقى على ذلك إلى أن يقوم الدليل على خلافها ولم يقم .

وأجابوا عما استدل به الخصم مما تقدم .

فإجابوا عما ذكره البخاري من الحديث الذي لا يوجب نفي حياته في زمانه صلى الله عليه وسلم وإنما يوجب بظاهره نفيها بعد مائة سنة من زمان القول بأنه لم يكن حينئذ على ظهر الأرض بل كان على وجه الماء .

وبأن الحديث عام فيما يشاهده الناس بدليل استثناء الملائكة عليهم السلام وإخراج الشيطان ، وحاصله انخرام القرن الأول ، نعم هو نص في الرد على مدعي التعمير كرتن بن عبد الله الهندي التبريزي الذي ظهر في القرن السابع وادعى الصحبة وروى الأحاديث .

وفيه أن الظاهر ممن على ظهر الأرض من هو من أهل الأرض ومتوطن فيها عرفاً ولا شك أن

هذا كامل لمن كان في البحر ولو لم يعد من في البحر ممن هو على ظهر الأرض لم يكن الحديث نصاً في الرد على رتن وإضرابه لجواز أن يكونوا حين القول في البحر بل متى قبل هذا التأويل خرج كثير من الناس من عموم الحديث ، وضعف العموم في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَّا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] ولينظر في قول من قال : يحتمل أنه كان وقت القول في الهواء ففيه أيضاً ما لا يخفى على الناظر .

ويرد على الجواب الثاني أن الخضر لو كان موجوداً لكان ممن يشاهده الناس كما هو الأمر المعتاد في البشر .

وكونه عليه السلام خارجاً عن ذلك لا يثبت إلا بدليل وأنى هو فتأمل .

(163/475)

وأجابوا عما قاله الشيخ ابن تيمية بأن وجوب الإتيان ممنوع فكم من مؤمن به صلى الله عليه وسلم في زمانه لم يأته عليه الصلاة والسلام فهذا خير التابعين أويس القرني رضي الله تعالى عنه لم يتيسر له الإتيان والمرافقة في الجهاد ولا التعلم من غير واسطة وكذا النجاشي رضي الله تعالى عنه .

على أنا نقول : إن الخضر عليه السلام كان يأتيه ويتعلم منه صلى الله عليه وسلم لكن على

وجه الخفاء لعدم كونه مأموراً بإتيان العلانية لحكمة إلهية اقتضت ذلك .

وأما الحضور في الجهاد فقد روى ابن بشكوال في كتاب المستغيثين بالله تعالى عن عبد الله بن المبارك أنه قال : كنت في غزوة فوقع فرسي ميتاً فرأيت رجلاً حسن الوجه طيب الرائحة قال : أتحب أن تركب فرسك ؟ قلت : نعم فوضع يده على جبهة الفرس حتى انتهى إلى مؤخره وقال : أقسمت عليك أيتها العلة بعزة عزة الله وبعظمة عظمة الله وبجلال جلال الله وبقدرة قدرة الله وبسلطان سلطان الله وبلا إله إلا الله وبما جرى به القلم من عند الله وبلا حول ولا قوة إلا بالله إلا انصرفت فوثب الفرس قائماً بإذن الله تعالى وأخذ الرجل بركابي وقال : اركب فركبت ولحقت بأصحابي فلما كان من غداة غد وظهرنا على العدو فإذا هو بين أيدينا فقلت : ألست صاحبي بالأمس ؟ قال : بلى فقلت : سألتك بالله تعالى من أنت ؟ فوثب قائماً فاهتزت الأرض تحته خضراء فقال : أنا الخضر فهذا صريح في أنه قد يحضر بعض المعارك .

(164/475)

وأما قوله صلى الله عليه وسلم في بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " فمعناه لا تعبد على وجه الظهور والغلبة وقوة الأمة وإلا فكم من مؤمن كان بالمدينة وغيرها

ولم يحضر بدراً ، ولا يخفى أن نظم الخضر عليه السلام في سلك أويس القرني والنجاشي واضرابهما ممن لم يمكنه الإتيان إليه صلى الله عليه وسلم بعيد عن الانصاف وإن لم نقل بوجوب الإتيان عليه عليه السلام ، وكيف يقول منصف بإمامته صلى الله عليه وسلم لجميع الأنبياء عليهم السلام واقتداء جميعهم به ليلة المعراج ولا يرى لزوم الإتيان على الخضر عليه السلام والاجتماع معه صلى الله عليه وسلم مع أنه لا مانع له من ذلك بحسب الظاهر ، ومتى زعم أحد أن نسبته إلى نبينا صلى الله عليه وسلم كنسبته إلى موسى عليه السلام فليجدد إسلامه ، ودعوى أنه كان يأتي ويتعلم خفية لعدم أمره بذلك علانية لحكمة إلهية مما لم يقم عليها الدليل ، على أنه لو كان كذلك لذكره صلى الله عليه وسلم ولو مرة وأين الدليل على الذكر ؟ وأيضاً لا تظهر الحكمة في منعه عن الإتيان مرة أو مرتين على نحو إتيان جبريل عليه السلام في سورة دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه ، وإن قيل إن هذه الدعوى مجردا احتمال ، قيل لا يلتفت إلى مثله إلا عند الضرورة ولا تتحقق إلا بعد تحقق وجوده إذ ذاك بالدليل ووجوده كوجود عندنا ، وأما ما روى عن ابن المبارك فلا نسلم ثبوته عنه ، وأنت إذا أمعنت النظر في ألفاظ القصة استبعدت صحتها ، ومن أنصف يعلم أن حضوره عليه السلام يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد رضي الله تعالى عنه : ارم فداك أبي وأمي كان أهم من حضوره مع ابن المبارك ، واحتمال أنه حضر ولم يره أحد شبه شيء بالسفسطة ، وأما ما ذكروه في معنى الحديث فلقائل أن يقول : إنه بعيد فإن الظاهر منه نفي

أن يعبد سبحانه إن أهلك تلك العصابة مطلقاً على معن أنهم إن أهلكوا والإسلام غض ارتد الباقون ولم يكد يؤمن أحد بعد فلا يعبده

(165/475)

سبحانه أحد من البشر في الأرض حينئذ ، وقد لا يوسط حديث الارتداد بأن يكون المعنى اللهم إن تهلك هذه العصابة الذين هم تاج رأس الإسلام استولى الكفار على سائر المسلمين بعدهم فأهلكوهم فلا يعبدك أحد من البشر حينئذ ، وأياً كان فالاستدلال بالحديث على عدم وجود الخضر عليه السلام له وجه ، فإن أجابوا عنه بأن المراد نفى أن يشاهد من يعبده تعالى بعد والخضر عليه السلام لا يشاهد ورد عليه ما تقدم .

وأجابوا عن الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ [الأنبياء : 34] بأن المراد من الخلد الدوام الأبدي والقائلون بوجوده اليوم لا يقولون بتأبيده بل منهم من يقول : إنه يقاتل الدجال ويموت ، ومنهم من يقول : إنه يموت زمان رفع القرآن ، ومنهم من يقول : إنه يموت في آخر الزمان ومراده أحد هذين الأمرين أو ما يقاربهما .

وتعقب بأن الخلد بمعنى الخلود وهو على ما يقتضيه ظاهر قوله تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ [النساء : 57] حقيقة في طول المكث لا في دوام البقاء فإن الظاهر التأسيس لا

التأكيد ، وقد قال الراغب : كل ما يتباطأ عنه التغير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوامها وبقائها انتهى .

وأنت تعلم قوة الجواب لأن المكث الطول ثبت لبعض البشر كنوح عليه السلام .

(166/475)

وأجابوا عما نقل عن ابن الجوزي من الوجوه العقلية ، ما عن الأول من وجهي فساد القول بأنه ابن آدم عليه السلام بعد تسليم صحة الرواية فبأن البعد العادي لا يضر القائل بتعميه هذه المدة المديدة لأن ذلك عنده من خرج العادات ، وأما على الثاني فبأن ما ذكر من عظم خلقة المتقدمين خارج مخرج الغالب وإلا فيأجوج ومأجوج من صلب يافث بن نوح وفيهم من طوله قدر شبر كما روى في الآثار ، على أنه لا بدع في أن يكون الخضر عليه السلام قد أعطى قوة التشكل والتصور بأي صورة شاء كجبريل عليه الصلاة والسلام ، وقد أثبت الصوفية قدست أسرارهم هذه القوة للأولياء ولهم في ذلك حكايات مشهورة ، وأنت تعلم أن ما ذكر عن يأجوج ومأجوج من أن فيهم من طوله قدر شبر بعد تسليمه لقائل أن يقول فيه : إن ذلك حين يفتح السد وهو في آخر الزمان ولا يتم الاستناد بحالهم إلا إذا ثبت أن فيهم من هو كذلك في الزمن القديم ، وما ذكر من إعطائه من قوة التشكل احتمال بعيد وفي ثبوته

للأولياء خلاف كثير من المحدثين .

وقال بعض الناس : لو أعطى أحد من البشر هذه القوة لأعطيها صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة فاستغنى بها عن الغار وجعلها حجاباً له عن الكفار ، وللبحث في هذا مجال .

وعن الثاني من الوجوه بأنه لا يلزم من عدم نقل كونه في السفينة إن قلنا بأنه عليه السلام كان قبل نوح عليه السلام عدم وجوده لجواز أنه كان ولم ينقل مع أنه يحتمل أن يكون قد ركب ولم يشاهد وهذا كما ترى .

(167/475)

وقال بعض الناس : إذا كان احتمال إعطاء قوة التشكل قائماً عند القائلين بالتعمير فليقولوا يحتمل أنه عليه السلام قد تشكل فصار في غاية من الطول بحيث خاض في الماء ولم يحتج إلى الركوب في السفينة على نحو ما يزعمه أهل الخرافات في عوج بن عوق ، وأيضاً هم يقولون : له قدرة الكون في الهواء فما منعهم من أن يقولوا بأنه يحتمل أنه لم يركب وتحفظ عن الماء بالهواء كما قالوا باحتمال أنه كان في الهواء في الجواب عن حديث البخاري .

وأيضاً ذكر بعضهم عن العلامي في تفسيره أن الخضر يدور في البحار يهدي من ضل فيها والياس يدور في الجبال يهدي من ضل فيها هذا دأبهما في النهار وفي الليل يجتمعان عند سد

يأجوج ومأجوج يحفظانه فلم لم يقولوا : إنه عليه السلام بقي في البحر حين ركب غيره السفينة ولعلهم إنما لم يقولوا ذلك لأن ما ذكر قد روى قريباً منه الحرث بن أبي أسامة في مسنده عن أنس مرفوعاً ولفظه : " إن الخضر في البحر والياس في البر يجتمعان كل ليلة عند الردم الذي بناه ذو القرنين " الخبر ، وقد قالوا : إن سنده واه أو لأنهم لا يثبتون له هذه الخدمة الإلهية في ذلك الوقت ، ويوشك أن يقولوا في إعطائه قوة التشكل والكون في الهواء كذلك .

وعن الثالث بأنه لا نسلم الاتفاق على أنه مات كل أهل السفينة ولم يبق بعد الخروج منها غير نسل نوح عليه السلام والحصر في الآية إضافي بالنسبة إلى المكذبين بنوح عليه السلام .

وأيضاً المراد أنه مات كل من كان ظاهراً مشاهداً غير نسله عليه السلام بدليل أن الشيطان كان أيضاً في السفينة .

وأيضاً المراد من الآية بقاء ذريته عليه السلام على وجه التناسل وهو لا ينفي بقاء من عداهم من غير تناسل ونحن ندعي ذلك في الخضر .

على أن القول بأنه كان قبل نوح عليهما السلام قول ضعيف والمعتمد كونه بعد ذلك ولا يخفى ما في بعض ما ذكر من الكلام .

(168/475)

وعن الرابع : بأنه لا يلزم من كون تعميره من أعظم الآيات أن يذكر في القرآن العظيم كرات ، وإنما ذكر سبحانه نوحاً عليه السلام تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم بما لاقى من قومه في هذه المدة مع بقائهم مصرين على الكفر حتى أغرقوا ولا توجد هذه الفائدة في ذكر عمر الخضر عليه السلام لو ذكر ، على أنه قد يقال : من ذكر طول عمر نوح عليه السلام تصريحاً يفهم تجويز عمر أطول من ذلك تلويحاً .

وتعقب بأن لنا نعود فنقول : لا أقل من أن يذكر هذا الأمر العظيم في القرآن العظيم مرة لأنه من آيات الربوبية في النوع الإنساني ، وليس المراد أنه يلم عقلاً من كونه كذلك ذكره بل ندعي أن ذكر ذلك أمر استحساني لا سيما وقد ذكر تعمير عدو الله تعالى إبليس عليه اللعنة فإذا ذكر يكون القرآن مشتملاً على ذكر معمر بن الجن مبعد وذكر معمر من الإنس مقرب ولا يخفى حسنه ، وربما يقال : إن فيه أيضاً إدخال السرور على النبي صلى الله عليه وسلم ، وبأن التجويز المذكور في حيز العلاوة مما لا كلام فيه إنما الكلام في الوقوع ودون إثباته الظفر بماء الحياة ، وأجاب بعضهم بأن في قوله تعالى : ﴿ آتيناه رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ إشارة إلى طول عمره عليه السلام على ما سمعت عن بعض في تفسيره .

ورد بأن تفسيره بذلك مبني على القول بالتعمير فإن قبل قبل وإلا فلا ، وعن الخامس : بأنا نختار أنه ثابت بالسنة وقد تقدم لك طرف منها .

وتعقب بما نقله عن القارىء عن ابن قيم الجوزية أنه قال : إن الأحاديث التي يذكر فيها

الخضر عليه السلام وحياته كلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد ومن ادعى الصحة فعليه البيان ، وقيل : يكفي في ثبوته إجماع المشايخ العظام وجماهير العلماء الأعلام .

وقد نقد هذا الاجماع ابن الصلاح .

والنووي .

وغيرهما من الأجلة الفخام .

(169/475)

وتعقب بأن إجماع المشايخ غير مسلم فقد نقل الشيخ صدر الدين إسحاق القونوي في تبصرة المبتدى وتذكرة المنتهى أن وجود الخضر عليه السلام في عالم المثال .

وذهب عبد الرزاق الكاشي إلى أن الخضر عبارة عن البسط والياس عن القبض ، وذهب بعضهم إلى أن الخضرية رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمان موسى عليهما السلام ، ومع وجود هذه الأقوال لا يتم الإجماع وكونها غير مقبولة عند المحققين منهم لا يتممه أيضاً ، وإجماع جماهير العلماء على ما نقل ابن الصلاح .

والنووي مسلم لكنه ليس الاجماع الذي هو أحد الأدلة الشرعية والخسم لا يقنع إلا به وهو

الذي نفاه فإني بإثباته ، ولعل الخصم لا يعتبر أيضاً إجماع المشايخ قدست أسرارهم إجماعاً هو أحد الأدلة ، وعن السادس : بأن له علامات عند أهله ككون الأرض تخضر عند قومه وإن طول قدمه ذراع وربما يظهر منه بعض خوارق العادات بما يشهد بصدقه ، على أن المؤمن يصدق بقوله بناء على حسن الظن به ، وقد شاع بين زاعمي رؤيته عليه السلام أن من علاماته أن إبهام يده اليمنى لا عظم فيه وإن بؤبؤ إحدى عينيه يتحرك كالزئبق ، وتعقب بأنه بأي دليل ثبت أن هذه علاماته قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

(170/475)

والذي ثبت في الحديث الصحيح أنه إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء وأين فيه ثبوت ذلك له دائماً ، وكون طول قدمه ذراعاً إنما جاء في خبر محمد بن المنكدر السابق عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ولا نسلم صحته ، على أن زاعمي رؤيته يزعمون أنهم يرونه في صور مختلفة ولا يكاد يستقر له عليه السلام قدم على صورة واحدة ، وظهور الخوارق مشترك بينه وبين غيره من أولياء الأمة فيمكن أن يظهر ولي خارقاً ويقول : أنا الخضر مجازاً لأنه على قدمه أو لاعتبار آخر ويدعوه لذلك داع شرعي ، وقد صح في حديث الهجرة أنه صلى الله عليه وسلم لما قيل له ممن القوم ؟ قال :

من ما فظن السائل إن ما اسم قبيلة ولم يعن صلى الله عليه وسلم إلا أنهم خلقوا من ماء دافق ، وقد يقال للصوفي : إن أنا الخضر مع ظهور الخوارق لا تيقن منه أن القائل هو الخضر بالمعنى المتبادر في نفس الأمر لجواز أن يكون ذلك القائل ممن هو فإن فيه لاتحاد المشرب ، وكثيراً ما يقول الفاني في شيخه أنا فلان ويذكر اسم شيخه ، وأيضاً متى وقع من بعضهم قول : أنا الحق وما في الجبة إلا الله لم يبعد أن يقع أنا الخضر ، وقد ثبت عن كثير منهم نظماً ونثراً قول : أنا آدم أنا نوح أنا إبراهيم أنا موسى أنا عيسى أنا محمد إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك وذكروا له محملاً صحيحاً عندهم فليكن قول : أنا الخضر ممن ليس بالخضر على هذا الطرز ، ومع قيام هذا الاحتمال كيف يحصل اليقين ؟ وحسن الظن لا يحصل منه ذلك .

(171/475)

وعن السابع : بأنا لا نسلم اجتماعه بجهلة العباد الخارجين عن الشريعة ولا يلتفت إلى قولهم فالكذابون الدجالون يكذبون على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم فلا يبعد أن يكذبوا على الخضر عليه السلام ويقولوا قال وجاء إنما القول باجتماعه بأكابر الصوفية والعباد المحافظين على الحدود الشرعية فإنه قد شاع اجتماعه بهم حتى أن منهم من طلب

الخضر مرافقته فأبى ، وروى ذلك عن علي الخواص رحمة الله تعالى عليه في سفر حجه ، وسئل عن سبب آبائه فقال : خفت من النقص في توكلي حيث اعتمدت على وجوده معي .

وتعقب بأن اجتماعه بهم واجتماعهم به يحتمل أن يكون من قبيل ما يذكرونه من اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم واجتماعه عليه الصلاة والسلام بهم ، وذلك أن الأرواح المقدسة قد تظهر متشكلة ويجتمع بها الكاملون من العباد ، وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم رأى موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره ورآه في السماء ورآه يطوف بالبيت .

وادعى الشيخ الأكبر قدس سره الاجتماع مع أكثر الأنبياء عليهم السلام لا سيما مع إدريس عليه السلام فقد ذكر أنه اجتمع به مراراً وأخذ منه علماً كبيراً بل قد يجمع الكامل بمن لم يولد بعد كالمهدي ، وقد ذكر الشيخ الأكبر أيضاً اجتماعه مه ، وهذا ظاهر عند من يقول : إن الأزل والأبد نقطة واحدة والفرق بينهما بالاعتبار عند المتجردين عن جلابيب أبدانهم ، ولعل كثرة هذا الظهور والتشكل من خصوصيات الخضر عليه السلام ، ومع قيام هذا الاحتمال لا يحصل يقين أيضاً بأن الخضر المرئي موجود في الخارج كوجود سائر الناس فيه كما لا يخفى .

ومما يبني على اجتماعه عليه السلام بالكاملين من أهل الله تعالى بعض طرق إجازتنا بالصلاة البشيشية فإني أرويها من بعض الطرق عن شيخي علاء الدين علي أفندي الموصلي عن شيخه ووالده صلاح الدين يوسف أفندي الموصلي عن شيخه خاتمة المرشدين السيد علي البندينجي عن نبي الله تعالى الخضر عليه السلام عن الولي الكامل الشيخ عبد السلام بن بشيش قدس سره .

وعن الثامن : بأنا لا نسلم أن القول بعدم إرساله صلى الله عليه وسلم إليه عليه السلام كفر ، وبفرض أنه ليس بكفر هو قول باطل إجماعاً ، ونختار أنه أتى وبايع لكن باطناً حيث لا يشعر به أحد ؛ وقد عده جماعة من أرباب الأصول في الصحابة ، ولعل عدم قبول روايته لعدم القطع في وجوده وشهوده في حال رؤيته وهو كما ترى .

وعن التاسع : بأنه مجازفة في الكلام فإنه من أين يعلم نفي ما ذكره من حضور الجهاد وغيره عن الخضر عليه السلام مع أن العالم بالعلم اللدني لا يكون مشتغلاً إلا بما علمه الله تعالى في كل مكان وزمان بحسب ما يقتضي الأمر والشأن .

وتعقب بأن النفي مستند إلى عدم الدليل فنحن نقول به إلى أن يقوم الدليل ولعله لا يقوم حتى يقوم الناس لرب العالمين ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في العلم اللدني والعالم به ، وبالجملة قد ظهر لك حال معظم أدلة الفريقين وبقي ما استدل به البعض من الاستصحاب

، وأنت تعلم أنه حجة عند الشافعي .

والمزني .

(173/475)

وأبي بكر الصيرفي في كل شيء نفياً وإثباتاً ثبت تحققه بدليل ثم وقع الشك في بقائه إن لم يقع ظن بعدمه ، وأما عندنا وكذا عند المتكلمين فهو من الحجج القاصرة التي لا تصلح للإثبات وإنما تصلح للدفع بمعنى أن لا يثبت حكم وعدم الحكم مستند إلى عدم دليله والأصل في العدم الاستمرار حتى يظهر دليل الوجود فالمفقود يرث عنده لا عندنا لأن الإرث من باب الاثبات فلا يثبت به ولا يورث لأن عدم الإرث من باب الدفع فيثبت به ، ويتفرع على هذا الخلاف فروع أخر ليس هذا محل ذكرها ، وإذا كان حكم الاستصحاب عندنا ما ذكر فاستدلال الحنفي به على إثبات حياة الخضر عليه السلام اليوم وأنها متيقنة لا يخلو عن شيء بل استدلال الشافعي به على ذلك أيضاً كذلك بناء على أن صحة الاستدلال به مشروط بعدم وقوع ظن بالعدم فإن العادة قاضية بقاء الآدمي تلك المدة المديدة والأحقاب العديدة ، وقد قيل : إن العادة دليل معتبر ولولا ذلك لم يؤثر خرق العادة بالمعجزة في وجوب الاعتقاد والاتباع فإن لم تفد يقيناً بالعدم فيما نحن فيه أفادت الظن به فلا يتحقق شرط

صحة الاستدلال ، وعلى هذا فالمعول عليه الخالص من شوب الكدر الاستدلال بأحد الأدلة الأربعة وقد علمت حال استدلالهم بالكتاب والسنة وما سموه إجماعاً ، وأما الاستدلال بالقياس هنا فمما لا يقدم عليه عاقل فضلاً عن فاضل ثم اعلم : بعد كل حساب أن الأخبار الصحيحة النبوية والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته عليه السلام أي مساعدة وتعاضدهم على دعواهم أي معاضدة ، ولا مقتضي للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلا مراعاة ظواهر الحكايات المروية والله تعالى بصحتها عن بعض الصالحين الأخبار وحسن الظن ببعض السادة الصوفية فإنهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجه لا يقبل التأويل السابق ، ففي الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية اعلم أن لله تعالى في كل نوع من المخلوقات خصائص وصفوة ، وأعلى الخواص فيه من العباد الرسل

(174/475)

عليهم السلام ولهم مقام الرسالة والنبوة والولاية والايمان فهم أركان بيت هذا النوع ، والرسول أفضلهم مقاماً وأعلاهم حالاً بمعنى أن المقام الذي أرسل منه أعلى منزلة عند الله تعالى من سائر المقامات وهم الأقطاب .

والأئمة .

والأوتاد الذين يحفظ الله تعالى بهم العالم ويصون بهم بيت الدين القائم بالأركان الأربعة الرسالة والنبوية والولاية والايمان ، والرسالة هي الركن الجامع وهي المقصودة من هذا النوع فلا يخلو من أن يكون فيه رسول كما لا يزال دين الله تعالى ، وذلك الرسول هو القطب الذي هو موضع نظر الحق وبه يبقى النوع في هذه الدار ولو كفر الجميع ، ولا يصح هذا الاسم على إنسان إلا أن يكون ذا جسم طبيعي وروح ويكون موجوداً في هذا النوع في هذه الدار بجسده وروحه يتغذى ، وهو مجلى الحق من آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ، ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما قرر الدين الذي لا ينسخ والشرع الذي لا يبدل ، ودخل الرسل كلهم عليهم السلام في ذلك الدين وكانت الأرض لا تخلو من رسول حسي بجسمه لأنه قطب العالم الإنساني وإن تعدد الرسل كان واحد منهم هو المقصود أبقى الله تعالى بعد وفاته عليه الصلاة والسلام من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار أربعة

إدريس .

واليأس .

وعيسى .

والخضر عليهم السلام ، والثلاثة الأول متفق عليهم والأخير مختلف فيه عند غيرنا لا عندنا ؛ فأسكن سبحانه ادريس في السماء الرابعة ، وهي سائر السموات السبع من الدار الدنيا لأنها تتبدل في الدار الأخرى كما تتبدل هذه النشأة الترابية منا بنشأة أخرى ، وأبقى الآخرين في الأرض فهم كلهم باقون باجسامهم في الدار الدنيا ، وكلهم الأوتاد ، وإثنان منهم الامامان ، وواحد منهم القطب الذي هو موضع نظر الحق من العالم ، وهو ركن الحجر الأسود من أركان بيت الدين ، فما زال المرسلون ولا يزالون في هذه الدار إلى يوم القيامة وإن كانوا على شرع نبينا صلى الله عليه وسلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بالواحد منهم يحفظ الله تعالى الإيمان وبالثاني الولاية وبالثالث النبوة وبالرابع الرسالة وبالمجموع الدين الحنيفي ، والقطب من هؤلاء لا يموت أبداً أي لا يصعق .

وهذه المعرفة لا يعرفها من أهل طريقتنا إلا الافراد الأمناء ، ولكل واحد منهم من هذه الأمة في كل زمان شخص على قلبه مع وجودهم ويقال لهم النواب ، وأكثر الأولياء من عامة أصحابنا لا يعرفون إلا أولئك النواب ولا يعرفون أولئك المرسلين ، ولذا يتطاول كل واحد من الأمة لنيل مقام القطبية والإمامية والوتدية فإذا خصوا بها عرفوا أنهم نواب عن أولئك المرسلين عليهم السلام .

ومن كرامة نبينا صلى الله عليه وسلم أن جعل من أمته وأتباعه رسلاً وإن لم يرسلوا فهم من

أهل هذا المقام الذي منه يرسلون وقد كانوا أرسلوا ، فلهذا صلى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بالأنبياء عليهم السلام لتصح له الإمامة على الجميع حيا بجسمانيته وجسمه ، فلما انتقل عليه الصلاة والسلام بقي الأمير محفوظاً بهؤلاء الرسل عليهم السلام ، فثبت الدين قائماً بحمد الله تعالى وإن ظهر الفساد في العالم إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، وهذه نكتة فاعرف قدرها فإنك لا تراها في كلام أحد غيرنا .

(176/475)

ولولا ما ألقى عندي من إظهارها ما أظترتها لسر يعلمه الله تعالى ما أعلمنا به .

ولا يعرف ما ذكرناه إلا نوابهم دون غيرهم من الأولياء .

فاحمدوا الله يا اخواننا حيث جعلكم الله تعالى ممن قرع سمعه أسرار الله تعالى المخبوءة في خلقه التي اختص بها من شاء من عباده .

فكونوا لها قابلين وبها مؤمنين ولا تحرموا التصديق بها فتحرموا خيرها انتهى .

وعلم منه القول برسالة الخضر عليه السلام وهو قول مرجوح عند جمهور العلماء والقول بحياته وبقائه إلى يوم القيامة وكذا بقاء عيسى عليه السلام ، والمشهور أنه بعد نزوله إلى الأرض يتزوج ويولد له ويتوفى ويدفن في الحجرة الشريفة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

، ولينظر ما وجه قوله قدس سره بإبقاء عيسى عليه السلام في الأرض وهو اليوم في السماء كإدريس عليه السلام ، ثم إنك إن اعتبرت مثل هذه الأقوال وتلقيتها بالقبول لمجرد جلالة قائلها وحسن الظن فيه فقل بحياة الخضر عليه السلام إلى يوم القيامة ، وإن لم تعتبر ذلك وجعلت الدليل وجوداً وعدماً مداراً للقبول والرد ولم تغرك جلالة القائل إذ كل أحد يؤخذ من قوله ويرد ما عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : لا تنظر إلى من قال وانظر ما قال فاستفت قلبك بعد الوقوف على أدلة الطرفين وما لها وما عليها ثم اعمل بما يفتيك .

وأنا أرى كثيراً من الناس اليوم بل في كثير من الأعصار يسمون من يخالف الصوفية في أي أمر ذهبوا إليه منكراً ويعدونه سيء العقيدة ويعقدون بمن يوافقهم ويؤمن بقولهم الخير ، وفي كلام الصوفية أيضاً نحو هذا فقد نقل الشيخ الأكبر قدس سره في الباب السابق عن أبي يزيد البسطامي قدس سره أنه قال لأبي موسى الدبيلي : يا أبا موسى إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة فقل له يدعو لك فإنه مجاب الدعوة .

(177/475)

وذكر أيضاً أنه سمع أبا عمران موسى بن عمران الاشبيلي يقول لأبي القاسم بن عفير الخطيب وقد أنكر ما يذكر أهل الطريقة يا أبا القاسم لا تفعل فإنك إن فعلت هذا جمعنا بين حرمانين لا ندري ذلك من نفوسنا ولا نؤمن به من غيرنا وما ثم دليل يرده ولا قادح يقدح فيه شرعاً أو عقلاً انتهى .

ويفهم منه أن ما يرده الدليل الشرعي أو العقلي لا يقبل وهو الذي إليه أذهب وبه أقول ، واسأل الله تعالى أن يوفقني وإياك لكل ما هو مرضى لديه سبحانه ومقبول ، والتنوين في قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً ﴾ للتفخيم وكذا في قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ أي علماً لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب وأسرار العلوم الخفية ، وذكر ﴿ لَّدُنَّا ﴾ قيل لأن العلم من أخص صفاته تعالى الذاتية وقد قالوا : إن القدرة لا تتعلق بشيء ما لم تتعلق الإرادة وهي لا تتعلق ما لم يتعلق العلم فالشيء يعلم أولا فيراد فتتعلق به القدرة فيوجد .

(178/475)

وذلك أنه يفهم من فحوى ﴿ مّن لَّدُنَّا ﴾ أو من تقديمه على ﴿ عِلْمًا ﴾ اختصاص ذلك بالله تعالى كأنه قيل علماً يختص بنا ولا يعلم إلا بتوقيفنا ، وفي اختيار ﴿ علمناه ﴾ على

آتيناه من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم ما فيه ، وهذا التعليم يحتمل أن يكون بواسطة الوحي المسموع بلسان الملك وهو القسم الأول من أقسام الوحي الظاهري كما وقع لنبنا صلى الله عليه وسلم في أخباره عن الغيب الذي أوحاه الله تعالى إليه في القرآن الكريم ، وأن يكون بواسطة الوحي الحاصل بإشارة الملك من غير بيان بالكلام وهو القسم الثاني من ذلك ويسمى بالنفث كما في حديث إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله تعالى واجملوا في الطلب والإلهام على ما يشير إليه بعض عبارات القوم من هذا النوع ، ويثبتون له ملكاً يسمونه ملك الإلهام ، ويكون للأنباء عليهم السلام ولغيرهم بالإجماع ، ولهم في الوقوف على المغيبات طرق تتشعب من تزكية الباطن .

(179/475)

والآية عندهم أصل في إثبات العلم اللدني ، وشاع اطلاق علم الحقيقة والعلم الباطن عليه ولم يرتض بعضهم هذا الإطلاق ، قال العارف بالله تعالى الشيخ عبد الوهاب الشعراني عليه الرحمة في كتابة المسمى بالدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة ما لفظه : وأما زبدة علم التصوف الذي وضع القوم فيه رسائلهم فهو نتيجة العمل بالكتاب والسنة فمن عمل بما علم تكلم بما تكلموا وصار جميع ما قالوه بعض ما عنده لأنه كلما ترقى العبد في

باب الأدب مع الله تعالى دق كلامه على الافهام ، حتى قال بعضهم لشيخه : إن كلام أخى فلان يدق على فهمه فقال : لأن لك قميصين وله قميص واحد فهو أعلى مرتبة منك ، وهذا هو الذي دعا الفقهاء ونحوهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بالعلم الباطن وليس ذلك بباطن إذ الباطن إنما هو علم الله تعالى وأما جميع ما علمه الخلق على اختلاف طبقاتهم فهو من العلم الظاهر لأنه ظهر للخلق فاعلم ذلك انتهى .

والحق أن اطلاق العلم الباطن اصطلاحاً على ما وقفوا عليه صحيح ولا مشاحة في الاصطلاح ، ووجه أنه غير ظاهر على أكثر الناس ويتوقف حصوله على الوقة القدسية دون المقدمات الفكرية وإن كان كل علم يتصف بكونه باطناً وكونه ظاهراً بالنسبة للجاهل به والعالم به ، وهذا كاطلاق العلم الغريب على علم الأوفاق والطلسمات والجفر وذلك لقلة وجوده والعارفين به فاعرف ذلك .

وزعم بعضهم أن أحكام العلم الباطن وعلم الحقيقة مخالفة لأحكام الظاهر وعلم الشريعة وهو زعم باطل عاطل وخيال فاسد كاسد ، وسيأتي أن شاء الله تعالى نقل نصوص القوم فيما يرده وانه لا مستند لهم في قصة موسى والخضر عليهما السلام .

وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو ﴿ لَّدُنَّا ﴾ بتخفيف النون وهي إحدى اللغات في لدن .

﴿ قَالَ لَهُ موسى ﴾

استئناف مبني على سؤال نشأ من السياق كأنه قيل فما جرى بينهما من الكلام؟ فقيل: قال له موسى عليه السلام: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ استئذان منه عليه السلام في اتباعه له بشرط التعليم، ويفهم ذلك من ﴿ على ﴾ فقد قال الأصوليون: إن على قد تستعمل في معنى يفهم منه كون ما بعدها شرطاً لما قبلها كقوله تعالى: ﴿ يُبَايِعْنَكَ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ ﴾ [الممتحنة: 12] أي بشرط عدم الإشراك، وكونها للشرط بمنزلة الحقيقة عند الفقهاء كما في التلويح لأنها في أصل الوضع للالزام والجزاء لازم للشرط، ويلوح بهذا أيضاً كلام الفناري في بدائع الأصول وهو ظاهر في أنها ليست حقيقة في الشرط، وذكر السرخسي أنه معنى حقيقي لها لكن النحاة لم يتعرضوا له، وقد تردد السبكي في وروده في كلام العرب، والحق أنه استعمال صحيح يشهد به الكتاب حقيقة كان أو مجازاً ولا ينافي انفهام الشرطية تعلق الحرف بالفعل الذي قبله كما قالوا فيما ذكرنا من الآية كما أنه لا ينافيه تعلقه بمحذوف يقع حالاً كما قيل به هنا فيكون المعنى هل اتبعك باذلا تعليمك إياي ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ أي علماً ذا رشد وهو إصابة الخير.

وقرأ أبو عمرو.

والحسن.

والزهري.

وأبو بحرية .

وابن محيصن .

وابن مناذر ويعقوب .

وأبو عبيد .

(181/475)

واليزيدي ﴿ رَشَدًا ﴾ بفتحتين ؛ وأكثر السبعة بالضم والسكون وهما لغتان كالبخل والبخل ، ونصبه في الأصل على أنه صفة للمفعول الثاني لتعلمني ووصف به للمبالغة لكن أقيم مقامه بعد حذفه والمفعول الثاني لعلمت الضمير العائد على ما الموصولة أي من الذي علمته ، والفعلان مأخوذان من علم المتعدي إلى مفعول واحد ، وجوز أن يكون ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ هو المفعول الثاني لتعلمني و"رشدا" بدل منه وهو خلاف الظاهر ، وان يكون ﴿ رَشَدًا ﴾ مفعولاً له لأتبعك أي هل أتبعك لأجل إصابة الخير فيتعين أن يكون المفعول الثاني لتعلمني ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ لتأويله ببعض ما علمت أو علما مما علمت ، وأن يكون مصدراً باضمار فعله أي أرشد رشداً والجملة استئنافية والمفعول الثاني ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ أيضاً .

واستشكل طلبه عليه السلام التعليم بأنه رسول من أولي العزم فكيف يتعلم من غيره والرسول لا بد أن يكون أعلم أهل زمانه ، ومن هنا قال نوف واضرابه : إن موسى هذا ليس هو ابن عمران وإن كان ظاهر اطلاقه يقتضي أن يكون إياه .

وأجيب بأن اللازم في الرسول أن يكون أعلم في العقائد وما يتعلق بشريعته لا مطلقاً ولذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم : " أنتم اعلم بأمور دنياكم " فلا يضر في منصبه أن يتعلم علوماً غيبية وأسراراً خفية لا تعلق لها بذلك من غيره لا سيما إذا كان ذلك الغير نبيا أو رسولاً أيضاً كام قيل في الخضر عليه السلام ، ونظير ما ذكر من وجه تعلم عالم مجتهد كأبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما علم الجفر مثلا ممن دونه فإنه لا يخل بمقامه ، وإنكار ذلك مكابرة .

(182/475)

ولا يرد على هذا أن علم الغيب ليس علماً ذا رشد أي إصابة خير وموسى عليه السلام كان بصدد تعلم علم يصيب به خيراً لقوله تعالى : ﴿ ولَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السوء ﴾ [الأعراف : 188] وقال بعضهم : اللازم كون الرسول أعلم من أمته والخضر عليه السلام نبي لم يرسل إليه ولا هو مأمور باتباع شريعته فلا ينكر تفرده بما

لم يعلمه غيره ، ولا يخفى أنه على هذا ليس الخضر عليه السلام من بنى إسرائيل لأن الظاهر إرسال موسى عليه السلام إليهم جميعاً كذا قيل : ثم إن الذي أميل إليه أن لموسى عليه السلام علماً بعلم الحقيقة المسمى بالعلم الباطن والعلم اللدني إلا أن الخضر أعلم به منه وللخضر عليه السلام سواء كان نبياً أو رسولاً علماً بعلم الشريعة المسمى بالعلم الظاهر إلا أن موسى عليه السلام أعلم به منه فكل منهما أعلم من صاحبه من وجه ، ونعت الخضر عليه السلام في الأحاديث السابقة بأنه أعلم من موسى عليه السلام ليس على معنى أنه أعلم منه من كل وجه بل على معنى أنه أعلم من بعض الوجوه وفي بعض العلوم لكن لما كان الكلام خارجاً مخرج العتب والتأديب أخرج على وجه ظاهره العموم ، ونظير هذا آيات الوعيد على ما قيل من أنها مقيدة بالمشيئة لكنها لم تذكر لمزيد الإرهاب ، وافغل التفضيل وإن كان للزيادة في حقيقة الفعل إلا أن ذلك على وجه يعم الزيادة في فرد منه ، ويدل على ذلك صحة التقييد بقسم خاص كما تقول زيد أعلم من عمرو في الطب وعمرو أعلم منه في الفلاحة ، ولو كان معناه الزيادة في مطلق العلم كان قولك زيد أعلم من عمرو مستلزماً لأن لا يكون عمرو أعلم منه في شيء من العلوم فلا يصح تفضيل عمرو عليه في علم الفلاحة ، وإنكار صدق الأعلم المطلق مع صدق المقيد التزام لصدق المقيد بدون المطلق ، وقد جاء إطلاق افعل التفضيل والمراد منه التفضيل من وجه على ما ذكره الشيخ ابن الحاجب في أمالي القرآن ضمن عداد الأوجه في

حل الاشكال المشهور في قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف : 48] من أن المراد إلا هي أكبر من أختها من وجه ثم قال : وقد يكون الشيئان كل واحد منهما أفضل من الآخر من وجه ، وقد أشبع الكلام في هذا المقام مولانا جلال الدين الدواني فيما كتبه على الشرح الجديد للتجريد وحققه بما لا مزيد عليه ، ومما يدل على أن لموسى عليه السلام علماً ليس عند الخضر عليه السلام ما أخرجه البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي من حديث ابن عباس مرفوعاً أن لخضر عليه السلام قال يا موسى : إني على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله تعالى علمك لله سبحانه لا أعلمه ، وأنت تعلم أنه لو لم يكن قوله تعالى لموسى عليه السلام المذكور في الأحاديث السابقة إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك على معنى أعلم في بعض العلوم بل كان على معنى أعلم في كل العلوم أشكل الجمع بينه بين ما ذكرنا من كلام الخضر عليه السلام ، ثم على ما ذكرنا ينبغي أن يراد من العلم الذي ذكر الخضر أنه يعلمه هو ولا

بعلمه موسى عليهما السلام بعض علم الحقيقة ومن العلم الذي ذكر أنه يعلمه موسى ولا يعلمه هو عليهما السلام بعض علم لشريعة ، فلكل من موسى والخضر عليهما السلام علم بالشريعة والحقيقة إلا أن موسى عليه السلام أزيد بعلم الشريعة والخضر عليه السلام أزيد بعلم الحقيقة ، ولكن نظراً للحالة الحاضرة كما ستعلم وجهه إن شاء الله تعالى وعدم علم كل ببعض ما عند صاحبه لا يضر بمقامه .

(184/475)

وينبغي أن يحمل قول من قال كالجلال السيوطي ما جمعت الحقيقة والشريعة إلا نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يكن للأنبياء إلا أحدهما على معنى أنها ما جمعت على الوجه الأكمل إلا له صلى الله عليه وسلم ولم يكن للأنبياء عليهم السلام على ذلك الوجه إلا أحدهما ، والحمل على أنهما لم يجمعا على وجه الأمر بالتبليغ إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام مأمور بتبليغ الحقيقة كما هو مأمور بتبليغ الشريعة لكن للمستعدين لذلك لا يخلو عن شيء .

ويفهم من كلام بعض الأكابر أن علم الحقيقة من علوم الولاية وحينئذ لا بد أن يكون لكل نبي حظ منه ولا يلزم التساوي في علومها .

ففي الجواهر والدرر قلت للخواص عليه الرحمة : هل يتفاضل الرسل في العلم ؟ فقال : العلم تابع للرسالة فإنه ليس عند كل رسول من العلم إلا بقدر ما تحتاج إليه أمته فقط فقلت له : هذا من حيث كونهم رسلاً فهل حالهم من حيث كونهم أولياء كذلك ؟ فقال : لا قد يكون لأحدهم من علوم الولاية ما هو أكثر من علوم ولاية أولي العزم ان الرسل الذين هم أعلى منهم انتهى ، وانا أرى أن ما يحصل لهم من علم الحقيقة بناء على القول بأنه من علوم لولاية أكثر مما يحصل للأولياء الذين ليسوا بأنبياء .

ولا تراني أفضل وليا ليس بنبي في علم الحقيقة على ولي هو نبي ؛ ولا أقول بولاية الخضر عليه السلام دون نبوته .

وقائلوا ذلك يلزمهم ظاهراً القول بأن ما عنده من علم الحقيقة مع كونه ولياً أكثر مما عند موسى عليه السلام منه إن أثبتوا له عليه السلام شيئاً من ذلك مع كونه نبياً ولكنهم لا يرون في ذلك حطا لقدر موسى عليه السلام .

وظاهر كلام بعضهم أنه عليه السلام لم يؤت شيئاً من علم الحقيقة أصلاً ومع هذا لا ينط قدره عن قدر الخضر عليهما السلام إذ له جهات فضل أخر ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ما يقوله الذاهبون إلى ولايته عليه السلام .

ثم ما أراه أنا ولله تعالى الحمد أبعد عن القول بما نقل عن بعض الصوفية من أن الولاية مطلقاً أفضل من النبوة وإن كان الولي لا يبلغ درجة النبي .

وهو مردود عند المحققين بلا تردد .

نعم قد يقع تردد في نبوة النبي وولايته أيهما أفضل ؟ فمن قائل بان نبوته أفضل من ولايته ، ومن قائل بان ولايته أفضل .

واختار هذا بعض العرفاء معللاً له بأن نبوة التشريع متعلقة بمصلحة الوقت والولاية لا تعلق لها بوقت دون وقت وهي في النبي على غاية الكمال .

والمختار عندي الأول .

وقد ضل الكرامية في هذا المقام فزعموا أو الولي قد يبلغ درجة النبي بل أعلى .

ورده ظاهر .

والاستدلال له بما فيه هذه القصة بناء على القول بولاية الخضر عليه السلام ليس بشيء كما لا يخفى .

هذا ولا يخفى على من له أدنى ذوق بأساليب الكلام ما راعاه موسى عليه السلام في سوق كلامه على علو مقامه من غاية التواضع مع الخضر عليه السلام ونهاية الأدب واللطف ،

وقد عد الإمام من ذلك أنواعاً كثيرة أوصلها إلى اثني عشر نوعاً أن أردتها فارجع إلى

تفسيره .

وسيأتي إن شاء الله عز وجل ما تدل عليه هذه الآية في سرد ما تدل عليه آيات القصة بأسرها مما ذكر في كتب الحديث وغيرها .

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) ﴾

﴿ قال ﴾ أي الخضر لموسى عليهما السلام ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ نفي لأن يصبر معه

على أبلغ وجه حيث جيء بإن المفيدة للتأكيد وبلن ونفيها آكد من نفي غيرها ، وعدل عن لن تصبر

إلى ﴿ لن تستطيع ﴾ المفيد لنفي الصبر بطريق برهاني لأن الاستطاعة مما يتوقف عليه الفعل فيلزم

من نفيه نفيه .

ونكر ﴿ صبراً ﴾ في سياق النفي وذلك يفيد العموم أي لا تصبر معي أصلاً شيئاً من الصبر ، وعلل ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾

إيذاناً بأنه عليه السلام يتولى أموراً خفية المراد منكرة الظواهر والرجل الصالح لا سيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها وكأنه علم مع ذلك حدة موسى عليه السلامومزيد غيرته التي أوصلته إلى أن أخذ برأس أخيه يجره ، ونصب ﴿ خُبْراً ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل والأصل ما لم يحط به خبرك ، وهو من خبر الثلاثي من باب نصر وعلم ومعناه عرف ، وجوز أن يكون مصدراً وناصبه ﴿ تُحِطْ ﴾ لأنه يلاقيه في المعنى لأن الإحاطة تطلق اطلاقاً شائعاً على المعرفة فكأنه قيل لم تخبره خبرا .

وقرأ الحسن .

وابن هرمز ﴿ خُبْراً ﴾ بضم الباء .

واستدلوا بالآية كما قال الإمام وغيره على أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل قالوا : لو كانت الاستطاعة حاصلة قبل حصول الفعل لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة قبل حصول الصبر فيكون نفيها كذباً وهو باطل فتعين أن لا تكون قبل الفعل .

وأجاب الجبائي بأن المراد من هذا القول أنه يثقل عليك الصبر كما يقال في العرف إن فلاناً لا يستطيع أن يرى فلاناً وأن يجالسه إذا كان يثقل عليه ذلك .

وتعقبه الإمام بأنه عدول عن الظاهر وأيد الاستدلال بما أيد ، والانصاف أن الاستدلال بها على ما ذكر غير ظاهر لأن المراد ليس الأنفي الصبر بنفي ما يتوقف هو عليه أعني

الاستطاعة وهذا حاصل سواء كانت حاصلة قبل أو مقارنة ، ثم أن القول بأن الاستطاعة قبل الفعل ليس خاصاً بالمعتزلة بل المفهوم من كلام الشيخ إبراهيم الكوراني أنه مذهب السلف أيضاً وتحقيق ذلك في محله .

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) ﴾

(187/475)

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا ﴾ معك غير معترض عليك ﴿ وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ عطف على ﴿ صَابِراً ﴾ والفعل يعطف على المفرد المشتق كما في قوله تعالى : ﴿ صافات وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك : 19] بتأويل أحدهما بالآخر ، والأولى فيما نحن فيه التأويل في جانب المعطوف أي ستجدني صابراً وغير عاص ، وفي وعد هذا الوجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أو على ﴿ سَتَجِدُنِى ﴾ والجملة على الأول في محل نصب لأنها معطوفة على المفعول الثاني للوجدان ، وعلى الثاني لا محل لها من الإعراب على ما في الكشاف .

واستشكل بأن الظاهر أن محلها النصب أيضاً لتقدم القول .

وأجيب بأن مقول القول هو مجموع المعطوف والمعطوف عليه فلا يكون لأجزائه محل باعتبار

الأصل ، وقيل : مراد الزمخشري بيان حال العطف في القول المحكي عن موسى عليه السلام ، وقيل : مراده أنه ليس مؤولا بمفرد كما في الأول ، وقيل : إنه مبني على أن مقول القول محذوف وهذه الجملة مفسرة له ، والظاهر الجواب الأول ، وأول الوجهين في العطف هو الأولى لما عرفت ولظهور تعلق المعطوف بالاستثناء عليه .

وذكر المشيئة إن كان للتعليق فلا اشكال في عدم تحقق ما وعد به .

ولا يقال : إنه عليه السلام أخلف وعده وإن كان للتيمن ، فإن قلنا : إن الوعد الكوعيد إنشاء لا يحتمل الصدق والكذب أو إنه مقيد بقيد يعلم بقرينة المقام كان أردت أو إن لم يمنع مانع شرعي أو غيره فكذلك لا إشكال ، وإن قلنا : إنه خبر وإنه ليس على نية التقييد جاء الاشكال ظاهراً فإن الخلف حينئذ كذب وهو غير لائق بمقام النبوة لمنافاته العصمة .

وأجيب بأن ما صدر منه عليه السلام في المرتين الأخيرتين كانا نسياناً كما في المرة الأولى ولا يضر مثل هذا الخلف بمقام النبوة لأن النسيان عذر .

(188/475)

وتعقب بأنه لا نسلم النسيان في المرتين الأخيرتين ففي البخاري وشرحه لابن حجر وكانت الأولى نسياناً والثانية شرطاً والثالثة عمدا ، وفي رواية والثانية عمداً والثالثة فراقاً ، وقال

بعضهم : لك أن تقول : لم يقع منه عليه السلام ما يخل بمقامه لأن الخلف في المرة الأولى معفو عنه وحيث وقع لم تكن الأخيرتان خلفا وفيه تأمل ، وقال القشيري : إن موسى عليه السلام وعد من نفسه بشيئين بالصبر وقرنه بالمشيئة فصبر فيما كان من الخضر عليه السلام من الفعل وبان لا يعصيه فاطلق ولم يقرنه بالمشيئة فعصاه حيث قال : فلا تسألني فكان يسأله فما قرنه بالاستثناء لم يخلف فيه وما أطلقه وقع فيه الخلف انتهى ، وهو مبني على أن العطف على ﴿ سَتَجِدُنِى ﴾ وقد علمت أنه خلاف الأولى ، وأيضاً المراد بالصبر الثبات والإقرار على الفعل وعدم الاعتراض كما ينبىء عنه المحاورة الآتية وهو لم يتحقق منه عليه السلام ، وأيضاً يبقى الكلام في الخلف كما لا يخفى ، وأنت تعلم أنه يبعد من حال موسى عليه السلام القطع بالصبر وعدم عصيان الأمر بعد أن أشار له الخضر عليه السلام أنه سيصدر منه أمور منكرة مخالفة لقضية شريعته فلا يبعد منه اعتبار التعليق في الجملتين ، ولم يأت به بعدهما بل وسطه بين مفعولي الوجدان من الجملة الأولى لمزيد الاعتناء بشأنه ، وبه يرتفع الإشكال من غير احتياج إلى القيل والقال ، وفيه دليل على أن أفعال العبد بمشيئته تعالى لأنه إذا صدر بعض الأفعال الاختيارية بمشيئته سبحانه لزم صدور الكل بها إذ لا قائل بالفرق .

والمعتزلة اختاروا أن ذكر المشيئة للتيمن وهو لا يدل على ما ذكر ، وقال بعض المحققين : إن الاستدلال جار أيضاً على احتمال التيمن لأنه لا وجه للتيمن بما لا حقيقة له ، وقد أشار إلى ذلك الإمام أيضاً فافهم ، وقد استدل بالآية على أن الأمر للوجوب وفيه نظر ، ثم إن الظاهر أنه لم يرد بالأمر مقابل النهي بل أريد مطلق الطلب وحاصل الآية نفي أن يعصيه في كل ما يطلبه .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام ﴿ فَإِنِ اتبعتنى ﴾ إذن له عليه السلام في الاتباع بعد اللتيا والتي ، والفاء لتفريع الشرطية على ما مر من وعد موسى عليه السلام بالصبر والطاعة : ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنى عَن شَىء ﴾ تشاهده من أفعالي فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي حتى ابتدئك ببيانه ، والغاية على ما قيل مضروبة لما يفهم من الكلام كأنه قيل أنكر بقلبك على ما أفعل حتى أبينه لك أو هي لتأبيد ترك السؤال فإنه لا ينبغي السؤال بعد البيان بالطريق الأولى ، وعلى الوجهين فيها إيذان بأن كل ما يصدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة ، وقيل : حتى للتعليل وليس بشيء .

وقرأ نافع .

وابن عامر ﴿ قلا تسئلني ﴾ بالنون المثقلة مع الهمز ، وعن أبي جعفر ﴿ فَلا ﴾ بفتح

السين واللام والنون المثقلة من غير همز ، وكل القراء كما قال أبو بكر بياء في آخره ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في حذف الياء خلاف غريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(190/475)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

الظرف في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ متعلق بفعل محذوف هو أذكر .

قيل : ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة : أن اليهود لما سألوا النبيّ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا : إن أخبركم فهو نبيّ وإلا فلا .

ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبيّ لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأخبار .

وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبيّ المرسل إلى فرعون ، وقالت فرقة لا التفات إلى ما تقوله منهم نوف البكالي : إنه ليس ابن عمران ، وإنما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب ، وكان نبياً قبل موسى بن عمران ، وهذا باطل قد ردّه

السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما في صحيح البخاري وغيره ، والمراد بفتاه هنا هو : يوشع بن نون .

قال الواحدي : أجمعوا على أنه يوشع بن نون ، وقد مضى ذكره في المائدة ، وفي آخر سورة يوسف ، ومن قال : إن موسى هو ابن ميشى قال : إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون .

قال الفراء : وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازماً له يأخذ عنه العلم ويخدمه ، ومعنى ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ لا أزال ، ومنه قوله : ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عاكفين ﴾ [طه : 91] .

ومنه قول الشاعر :

وأبرح ما أدام الله قومي . . . بحمد الله منتطقاً مجيداً

(191/475)

وبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة ، وخبره هنا محذوف اعتماداً على دلالة ما بعده وهو ﴿ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ قال الزجاج : لا أبرح بمعنى لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ، ولأن قوله : ﴿ حتى أَبْلُغَ ﴾ غاية مضروبة ، فلا بدّ لها من ذي غاية ، فالمعنى : لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد : لا يبرح مسيري حتى أبلغ ، وقيل : معنى ﴿ لا أبرح ﴾ : لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين ، وقيل : يجوز أن

يكون من برح التام ، بمعنى : زال يزال ، ومجمع البحرين : ملتقاهما .

قيل : المراد بالبحرين : بحر فارس والروم ؛ وقيل : بحر الأردن وبحر القلزم ، وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ، وقيل : بإفريقية .

وقالت طائفة : المراد بالبحرين موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان .

وقد حكي عن ابن عباس ولا يصح .

﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ أي : أسير زماناً طويلاً .

قال الجوهري : الحقب بالضم : ثمانون سنة .

وقال النحاس : الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة : زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطاً وقوماً منهم غير محدود ، وجمعه أحقاب .

وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روي أنه سئل موسى من أعلم الناس ؟ فقال : أنا ، فأوحى الله إليه : إنّ أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ أي : موسى وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي : بين البحرين ، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعاً وقيل : البين : بمعنى الافتراق أي : البحران المفترقان يجتمعان هناك ، وقيل : الضمير لموسى والخضر ، أي : وصلا الموضع الذي فيه اجتماع شملهما ، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل ، لأنه من الأضداد ، والأوّل أولى ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ قال

المفسرون : إنهما تزوّدا حوتاً مملحاً في زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام ، وكان قد جعل الله فقدانه أمارة لهما على وجدان المطلوب .

(192/475)

والمعنى أنهما نسيا بفقد أمره ، وقيل : الذي نسي إنما هو فتى موسى ، لأنه وكل أمر الحوت إليه ، وأمره أن يخبره إذا فقده ، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذي فيه الحوت فأحياه الله ، فتحرّك واضطرب في المكتل ، ثم انسرب في البحر ، ولهذا قال : ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر سَرَباً ﴾ انتصاب ﴿ سرباً ﴾ على أنه المفعول الثاني لاتخذ ، أي اتخذ سبيلاً سرباً ، والسرب : النفق الذي يكون في الأرض للضبّ ونحوه من الحيوانات ، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذي هو الكوّة المحفورة في الأرض .

قال الفراء : لما وقع في الماء جمد مذهبه في البحر فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذي كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا ، فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذي فيه الخضر ، ولهذا قال

سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي : مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة ﴿ قَالَ لفتاه ءاتِنَا غَدَاءنَا ﴾ وهو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذي حملاه معهما ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ أي : تعباً وإعياء ، قال المفسرون : الإشارة بقوله ﴿ سفرنا هذا ﴾ إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور ، فإنهما لم يجدا النصب إلا في ذلك دون ما قبله ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة ﴾ أي : قال فتى موسى لموسى ، ومعنى الاستفهام : تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى ، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة ، ومفعول ﴿ أرأيت ﴾ محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه ، والتقدير : أرأيت ما دهاني ، أو نابني في ذلك الوقت والمكان .

(193/475)

وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد ، وإنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان ، لاحتمال أن يكون المجمع مكاناً متسعاً يتناول مكان الصخرة وغيره ، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي تقدّم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذي جعلاه زاداً لهما ، وأمارة لوجدان مطلوبهما .

ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع ذلك النسيان فقال : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ بما يقع منه من الوسوسة ، و ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدل اشتمال من الضمير في أنسانيه ، وفي مصحف عبد الله : وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ انتصاب ﴿ عجباً ﴾ على أنه المفعول الثاني كما مرّ في ﴿ سرباً ﴾ ، والظرف في محل نصب على الحال ، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجباً للناس ، وموضع التعجب : أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه ، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت ، فيكون ما بين الكلامين اعتراضاً .

﴿ قَالَ ذلك مَا كُنَّا نبغ ﴾ أي ، قال موسى لفتاه : ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع هو الذي كنا نطلبه ، فإن الرجل الذي نريده هو هنالك ﴿ فارتدا على ءاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ أي : رجعا على الطريق التي جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما ، وانتصاب ﴿ قصصاً ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أو على الحال ، أي : قاصين أو مقتصين ، والقصص في اللغة اتباع الأثر ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مّنْ عِبَادِنَا ﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين ، وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة ، وخالف في ذلك من لا يعتدّ بقوله ، فقال : ليس هو الخضر بل عالم آخر ؛ قيل : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرّ ما حوله ، قيل واسمه بليا بن ملكان .

ثم وصفه الله سبحانه فقال : ﴿ آتيناه رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ قيل : الرحمة هي النبوّة ، وقيل : النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذي استأثر به ، وفي قوله ﴿ من لدنا ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم ، وتعظيم له .

قال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم ، والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته ، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه .

ثم قصّ الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال : ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في حسن الأدب ، لأنه استأذنه أن يكون تابعاً له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم .

والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب ، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ ل ﴿ تعلمني ﴾ أي : علماً ذا رشد أرشد به ، وقرىء " رشداً " بفتحتين ، وهما لغتان كالبخل والبخل .

وفي الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، وليس في ذلك ما يدل على أن

الخضر أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن .

(195/475)

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي : قال الخضر لموسى : إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ، لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك ، ثم أكد ذلك مشيراً إلى علة عدم الاستطاعة ، فقال : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ أي : كيف تصبر على علم ظاهره منكر ، وأنت لا تعلم ، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه ، و ﴿ خبراً ﴾ منتصب على التمييز ، أي : لم تحط به خبرك ، والخبر : العلم بالشيء ، والخبير بالأمور هو : العالم بخفاياها ، وبما يحتاج إلى الاختبار منها .

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله صَابِرًا ﴾ أي : قال موسى للخضر : ستجدني صابراً معك ، ملتزماً طاعتك ﴿ وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ فجملة : ﴿ ولا أعصي ﴾ معطوفة على ﴿ صابراً ﴾ ، فيكون التقييد بقوله ﴿ إن شاء الله ﴾ شاملاً للصبر ونفي المعصية

، وقيل : إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر ، لأنه أمر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه ، ونفي المعصية معزوم عليه في الحال ، ويجاب عنه بأن الصبر ، ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوم عليه في الحال ، وفي كون كل واحد منهما لا يدري كيف حاله فيه في المستقبل .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتبعتنى فَلاَ تَسْأَلْنى عَن شَىء ﴾ مما تشاهده من أفعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به ﴿ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي : حتى أكون أنا المبتدىء لك بذكره ، وبيان وجهه وما يئول إليه ، وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفة ، لأنها جوابات عن سؤالات مقدّرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها .

وقد أخرج الدارقطني في الإفراد ، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال .

(196/475)

وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء " وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن مجاهد : إنما سمي الخضر لأنه إذا صلى اخضرّ ما حوله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ قال : حتى أنتهي .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ مَجْمَعَ البحرين ﴾ قال : بحر فارس والروم ، وهما نحو المشرق والمغرب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس مثله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبيّ بن كعب قال : ﴿ مَجْمَعَ البحرين ﴾ إفريقية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب قال : طنجة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ قال : سبعين خريفاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه قال : دهراً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ قال : كان مملوحاً مشقوق البطن .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر سَرَباً ﴾ قال : أثره يابس في

البحر كأنه في حجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فارتدا على ءاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قال : عودهما على بدئهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ قال : أعطيناه الهدى والنبوّة .

واعلم أنها قد رويت في قصة الخضر مع موسى المذكورة في الكتاب العزيز أحاديث كثيرة ، وأتمها وأكملها ما روي عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه ، وبعضها في الصحيحين وغيرهما ، وبعضها في أحدهما ، وبعضها خارج عنهما .

(197/475)

وقد رويت من طريق العوفي عنه كما أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، ومن طريق هارون بن عنترة ، عن أبيه ، عنه عند ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والخطيب ، وابن عساكر ، فلنقتصر على الرواية التي هي أتمّ الروايات الثابتة في الصحيحين ، ففي ذلك ما يغني عن غيره ، وهي : قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالي

يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدوّ الله .

حدّثنا أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل .

فسئل أيّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل .

ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ قال : فكان للحوت سرباً ، ولموسى وفتاه عجباً ، فقال موسى : ﴿ ذلك مَا كُنَّا فارتدا على ءاثَارِهِمَا

قَصَصًا ﴾ " قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتاً إلا عاش ، قال : وكان الحوت قد أكل منه .

(198/475)

فلما قطر عليه الماء عاش ، قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنيّ بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى .

قال : موسى نبي إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ، قال : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى ، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه ، قال موسى : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فقال له الخضر : ﴿ فَإِنِ اتبعتنى فَلاَ تَسْأَلْنى عَن شَىء حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فكانت الأولى من موسى نسياناً " .

قال : " وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذي وقع على حرف السفينة من هذا البحر .

(199/475)

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : وهذه أشدّ من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فانطلقا حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعما أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ قال : مائل ، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه ، فقال موسى : قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصّ الله علينا من خبرهما " .

قال سعيد بن جبير : وكان ابن عباس يقرأ " وَكَانَ أمامهم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً " وكان يقرأ : " وَأَمَّا الغلام فَكَانَ كافراً وكان أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ " وبقية روايات سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب هي موافقة لهذه الرواية في المعنى وإن تفاوتت الألفاظ في بعضها فلا فائدة في الإطالة بذكرها ، وكذلك روايات غير سعيد عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(200/475)

وقال القاسمي :

﴿ فَوَجَدَا ﴾

أي : فأتيا الموضع المنسيّ فيه الحوت ، فوجدا : ﴿ عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا ﴾ التنكير للتفخيم ، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر . وسنتكلم على جملة من نبئه ، بعونه تعالى ، بعد تمام القصة : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي : آتيناه رحمة لدنيّة ، اختصصناه بها : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ أي : علماً جليلاً آثرناه . وهو علم لدنّي يكون بتأييد ربانيّ . وسنذكر إن شاء الله تعالى العلم اللدنيّ في آخر هذا النبأ .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ أي : أصحبكَ : ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ أي :

من لدن ربك : ﴿ رُشْداً ﴾ أي : علماً ذا رشد . أي : هدى وإصابة خير .

قال القاضي : وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجهل نفسه ، واستأذن أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه . أي : وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي : بوجه من الوجوه . ثم علل معتذراً بقوله ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ أي : من أمور ستراها . إن صحبتني ، ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك .

(201/475)

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ أي : لا أخالفك في شيء .

قال الزمخشري : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبيّ المعصوم ، الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، بريء من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين . وأنه لا بد ، لما يستسمج ظاهره ، من باطن

حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي : لا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرته منّي ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه . وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 52.51 ﴾

(202/475)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) ﴾

والمراد بالعبد : الخضر ، ووصف بأنه من عباد الله تشريفاً له ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] .

وعدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنه لم يسبق ما يقتضي تعريفه ، وللإشارة إلى أن هذا الحال الغريب العظيم الذي ذكر من قصته ما هو إلا من أحوال عباد كثيرين لله تعالى . وما منهم إلا له مقام معلوم .

وإيتاء الرحمة يجوز أن يكون معناه : أنه جُعل مرحوماً ، وذلك بأن رفق الله به في أحواله .

ويجوز أن يكون جعلناه سبب رحمة بأن صرفه تصرفاً يجلب الرحمة العامة .

والعلم من لدن الله : هو الإعلام بطريق الوحي .

و(عند) و (لدن) كلاهما حقيقته اسمُ مكان قريب .

ويستعملان مجازاً في اختصاص المضاف إليه بموصوفهما .

و(من) ابتدائية ، أي آتيناه رحمةً صدرت من مكان القُرب ، أي الشرف وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله ، وعلماً صدر منه أيضاً .

وذلك أن ما أوتيه من الولاية أو النبوءة رحمة عزيزة ، أو ما أوتيه من العلم عزيز ، فكأنهما مما يدخر عند الله في مكان القرب التشريفي من الله فلا يُعطى إلا للمصطفَين .

والمخالفة بين من عندنا ﴾ وبين ﴿ من لدنا ﴾ للتفنن تفادياً من إعادة الكلمة .

وجملة ﴿ قال له موسى ﴾ ابتداء محاورة ، فهو استئناف ابتدائي ، ولذلك لم يقع التعبير بـ (قال) مجردة عن العاطف .

والاستفهام في قوله : ﴿ هل أتبعك ﴾ مستعمل في العَرْض بقرينة أنه استفهام عن عمل نَفس المستفهم .

والاتباع : مجاز في المصاحبة كقوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ [النّجم : 28] .

و(على) مستعملة في معنى الاشتراط لأنه استعلاء مجازي .

جعل الاتباع كأنه مستعمل فوق التعليم لشدة المقارنة بينهما .

فصيغة : أَفْعَل كُذا على كذا ، من صيغ الالتزام والتعاقد .

(203/475)

ويؤخذ من الآية جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم ، كما في حديث تزويج المرأة التي عرضت نفسها على النبي فلم يقبلها ، فزوجها مَن رغب فيها على أن يعلمها ما معه من القرآن .

وفيه أنه التزام يجب الوفاء به .

وقد تفرع عن حكم لزوم الالتزام أن العرف فيه يقوم مقام الاشتراط فيجب على المنتصب للتعليم أن يعامل المتعلمين بما جرى عليه عرف أقاليمهم .

وذكر عياض في باب صفة مجلس مالك للعلم من كتاب المدارك : أن رجلاً خراسانياً جاء من خراسان إلى المدينة للسماع من مالك فوجد الناس يعرِضون عليه وهو يسمع ولا يسمعون قراءة منه عليهم ، فسأله أن يَقرأ عليهم فأبى مالك ، فاستعدى الخراساني قاضيَ المدينة .

وقال : جئت من خراسان ونحن لا نرى العرض وأبى مالك أن يقرأ علينا .

فحكم القاضي على مالك : أن يقرأ له ، فقيل لمالك : أأصاب القاضي الحق ؟ قال : نعم .

وفيه أيضاً إشارة إلى أن حق المعلم على المتعلم اتباعه والاقتداء به .

وانتصب رشداً ﴿ على المفعولية ل ﴿ تعلمن ﴾ أي ما به الرشد ، أي الخير .

وهذا العلم الذي سأل موسى تعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع للأمة الإسرائيلية ، فإن موسى مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلا من وحي الله إليه مباشرة ، لأنه لذلك أرسله وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الذين وجدهم يؤبّرون النخل " أنتم أعلم بأمور دنياكم " .

ورجع يوم بدر إلى قول المنذر بن الحارث في أن المنزل الذي نزله جيشُ المسلمين ببدر أولَ مرة ليس الأليقَ بالحرب .

وإنما رام موسى أن يَعلم شيئاً من العِلم الذي خص الله به الخضر لأن الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير .

وقد قال الله تعالى تعليماً لنبيه ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ [طه : 114] .

(204/475)

وهذا العلم الذي أوتيه الخضر هو علم سياسة خاصة غيرِ عامة تتعلق بمعينينِ لجلب مصلحة أو دفع مفسدة بحسب ما تهيئه الحوادث والأكوان لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة .

فلعل الله يسره لنفع معينين من عنده كما جعل محمداً رحمة عامة لكافة الناس ، ومن هنا فارق سياسةَ التشريع العامة .

ونظيره معرفة النبي أحوال بعض المشركين والمنافقين ، وتحققه أن أولئك المشركين لا يؤمنون وهو مع ذلك يدعوهم دوماً إلى الإيمان ، وتحققه أن أولئك المنافقين غيرُ مؤمنين وهو يعاملهم معاملة المؤمنين ، وكان حذيفة بن اليمان يعرفهم بأعيانهم بإخبار النبي إياه بهم .

وقرأ الجمهور رشداً ﴾ بضم الراء وسكون الشين .

وقرأه أبو عمرو ، ويعقوب بفتح الراء وفتح الشين مثل اللفظين السابقين ، وهما لغتان كما تقدم .

وأكد جملة ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ بحرف (إن) وبحرف (لَن) تحقيقاً لمضمونها من توقع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه ، لأنه علم أنه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف .

ولما كان موسى عليه السلام من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجرء الأحكام على الظاهر علم أنه سينكر ما يشاهده من تصرفاته لاختلاف المشربين لأن الأنبياء لا يقرون المنكر .

وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يُقدم على متابعته إن شاء على بصيرة وعلى غير اغترار ، وليس المقصود منه الإخبار .

فمناط التأكيدات في جملة ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ إنما هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تتحمل ، ولو كان خبراً على أصله لم يقبل فيه المراجعة ولم يجبه موسى بقوله : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ .

وفي هذا أصل من أصول التعليم أن ينبِه المعلمُ المتعلمَ بعوارض موضوعات العلوم الملقنة لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقة .

(205/475)

وزادها تأكيداً عموم الصبر المنفي لوقوعه نكرةً في سياق النفي ، وأن المنفي استطاعته الصبر المفيد أنه لو تجشم أن يصبر لم يستطع ذلك ، فأفاد هذا التركيبُ نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه .

وزيادة ﴿ معي ﴾ إيماء إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره فانتفاء الصبر على أعماله أجدر .

وجملة ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ في موضع الحال من اسم (إن) أو من

ضمير ﴿ تستطيع ﴾ ، فالواو واو الحال وليست واو العطف لأن شأن هذه الجملة أن لا تعطف على التي قبلها لأن بينهما كمال الاتصال إذ الثانية كالعلة للأولى .

وإنما أوثر مجيئها في صورة الجملة الحالية ، دون أن تفصل عن الجملة الأولى فتقع علة مع أن التعليل هو المراد ، للتنبيه على أن مضمونها علة ملازمةٍ لمضمون التي قبلها إذ هي حال من المسند إليه في الجملة قبلها .

و(كيف) للاستفام الإنكاري في معنى النفي ، أي وأنت لا تصبر على ما لم تحط به خُبراً .

والخُبر بضم الخاء وسكون الباء : العِلم .

وهو منصوب على أنه تمييز لنسبة الإحاطة في قوله : ﴿ ما لم تحط به ﴾ ، أي إحاطة من حيث العلم .

والإحاطةُ : مجاز في التمكن ، تشبيهاً لقوة تمكن الاتصاف بتمكن الجسم المحيط بما أحاط به .

وقوله : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ أبلغ في ثبوت الصبر من نحو : سأصبر ، لأنه يدل على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه .

وظاهر أن متعلق الصبر هنا هو الصبر على ما من شأنه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في المتابعة ، ومن مشاهدة ما لا يتحمله إدراكه ، ومن ترقب بيان الأسباب والعلل والمقاصد .

ولما كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمِر فيما يأمره به عطف عليه ما يفيد الطاعة إبلاغاً في الاتسام بأكمل أحوال طالب العلم .

فجملة ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ستجدني ﴾ ، أو هو من عطف الفعل على الاسم المشتق عطفاً على ﴿ صابراً ﴾ فيؤوَّل بمصدر ، أي وغير عاص .

(206/475)

وفي هذا دليل على أن أهم ما يتسم به طالب العلم هو الصبر والطاعة للمعلم .

وفي تأكيده ذلك بالتعليق على مشيئة الله استعانةً به وحرصاً على تقدم التيْسير تأدباً مع الله إيذانٌ بأن الصبر والطاعة من المتعلم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج ، لأن خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب ، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها ، فالمتعلم الذي له نصيب من العلم وجاء طالباً الكمال في علومه إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرر في علمه يبادر إلى الاعتراض والمنازعة .

وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذ ، فلتجنب ذلك خشي الخضر أن يلقَى من موسى هذه

المعاملة فقال له : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ ، فأكد له موسى أنه يصبر ويطيع أمره إذا أمره .

والتزام موسى ذلك مبني على ثقته بعصمة متبوعه لأن الله أخبره بأنه آتاه علماً .

والتاء في قوله : ﴿ فإن اتبعتني ﴾ تفريع على وعد موسى إياه بأنه يجده صابراً ، ففرع على ذلك نهيه عن السؤال عن شيء مما يشاهده من تصرفاته حتى يبينه له من تلقاء نفسه .

وأكد النهي بحرف التوكيد تحقيقاً لحصول أكمل أحوال المتعلم مع المعلم ، لأن السؤال قد يصادف وقت اشتغال المسؤول بإكمال عمله فتضيق له نفسه ، فربما كان الجواب عنه بدون شَرَهِ نفس ، وربما خالطه بعض القلق فيكون الجواب غير شافٍ ، فأراد الخضر أن يتولى هو بيان أعماله في الإبان الذي يراه مناسباً ليكون البيان أبسط والإقبال أبهج فيزيد الاتصال بين القرينين .

والذكر ، هنا : ذكر اللسان .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ﴾ في سورة البقرة (40) .

أعني بيان العلل والتوجيهات وكشف الغوامض .

وإحداث الذكر : إنشاؤه وإبرازه ، كقول ذي الرمة :

أَحْدَثْنا لخالقهَا شُكراً

وقرأ نافع فَلَا تَسْأَلَنِّي ﴾ بالهمز وبفتح اللام وتشديد النون على أنه مضارع سأل المهموز مقترناً بنون التوكيد الخفيفة المدغمة في نون الوقاية وبإثبات ياء المتكلم.

وقرأ ابن عامر مثله، لكن بحذف ياء المتكلم.

وقرأ البقية ﴿ تسألني ﴾ بالهمز وسكون اللام وتخفيف النون.

وأثبتوا ياء المتكلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(208/475)

وقال الشيخ الشنقيطي:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) ﴾

هذا العبد المذكور في هذه الآية الكريمة هو الخضر عليه السلام بإجماع العلماء، ودلالة النصوص الصحيحة على ذلك من كلم النَّبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الرحمة والعلم اللدني اللذان ذكر الله امتنانه عليه بهما لم يبين هنا هل هما رحمة النبوة وعلمها، أو رحمة الولاية وعلمها. والعلماء مختلفون في الخضر: هل هو نبي، أو رسول أو ولي. كما قال الزاجر:

واختلفت في خضر العقول . . . قيل نبي أو ولي أو رسول

وقيل ملك . ولكنه يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة . وأن هذا العلم اللدي علم ودي ، مع العلم بأن في الاستدلال بها على ذلك مناقشات معروفة عند العلماء .

(209/475)

اعلم أولاً – أن رحمة تكرر إطلاقها على النبوة في القرآن . وكذلك العلم المؤتى من الله تكرر إطلاقه فيه على علم الوحي . فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله تعالى في " الزخرف " : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 31–32] الآية . أي نبوته حتى يتحكموا في إنزال القرآن على رجل عظيم من القريتين . وقوله تعالى في سورة " الدخان " : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : 4] ﴿ أَمْراً مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الدخان : 5–6] الآية ، وقوله تعالى في آخر " القصص " ﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : 86] الآية . ومن إطلاق إيتاء العلم على النبوة قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الكتاب والحكمة وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء

: 113] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف : 68] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . ومعلوم أ الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من كون أعم من كون ذلك عن طريق النبوة وغيرها . والاستدلال بالأعم على الأخص فيه أن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف . ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني اللذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى عنه : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : 82] أي وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا . وأمر الله إنما يتحقق عم طريق الوحي ، إذ لا طريق تعرف لها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل و علا . ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر ، وتعييب سفن الناس بخرقها . لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى . وقد حصر

(210/475)

تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء : 45] و " إنما " صيغة حصر . فإن قيل : قد يكون ذل عن طريق الإلهام – فلاجواب – ان المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به ، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق المهم دون غبره ، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من

الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ [الأنعام : 125] ، وبخبر " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " كله باطل لا يعول عليه ، لعدم اعتضاده بدليل . وغير معصوم لا ثقة بخواطره ، لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان . وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع ، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات . والإلهام في الاصطلاح : إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحي ولا نظر في حجة عقلية ، يختص الله به من يشاء من خلقه . إما مما يلهمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كالإلهام غيرهم ، لأنهم معصومون بخلاف غيرهم . قال في مراقي السعود في كتاب الاستدلال :

وينبذ الإلهام بالعراء . . . أعني به إلهام الأولياء

وقد رآه بعض من تصوفا . . . وعصمة النَّبي توجب اقتفا

(211/475)

وبالجمله ، فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الآسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه ، وما يتقرب إليه به من فعل وترك –إلا عن طريق الوحي . فمن ادعى أنه غني في

الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل ، ما جاؤوا به ولو في مسألة واحدة – فلا شك في زندقته . والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] ولم يقل حتى نلقي في القلوب إلهاماً . وقال تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] . قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ [طه : 134] الآية . والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جداً . وقد بينا طرفا من ذلك في سورة " بني إسرائيل " في الكلام على قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] . وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع ، كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى – زندقة ، وذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام ، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره .

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره ما نصه : قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة . وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص . بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم . ويحكم عليها بما يغلب عليهم من خواطرهم .

وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوها عن الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزيئات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم . وقد جاء فيما ينقلون " استفت قلبك وإن افتاك المفتون " . قال شيخنا رضي الله عنه : وهذا القول زندقة وكفر ، ويقتل قائله ولا سيتتاب . لأنه إنكار ما علم من الشرائع ، فإن الله تعالى قد أجرى سنته ، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه ، وهم المبلغون عنه رسالتهم وكلامه ، المبينون شرائعه وأحكامه ، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 75] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة : 213] ، إلى غير ذلك من الآيات . وعلى الجملة ، فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري ، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل . فمن قال إن هناك طريقاً أخرى يعرف بها

أمره ونهيه غير الرسل حيث يستغنى عن الرسل - فهو كافر يقتل ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب . ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم . الذي جعله الله خاتم أنبيائه ورسله ، فلا نبي بعده ولا رسول .

وبيان ذلك - أن من قال : يأخذ عن قلبه . وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى ، وأنه يعمل بمقتضاه ، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة - فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة . فإن هذا نحو ما قاله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القدس نفث في روعي . . " الحديث . انتهى من تفسير القرطبي .

(213/475)

وما ذكره في كلام شيخه المذكور من أن الزنديق لا يتستتاب هو مذهب مالك ومن وافقه ، وقد بينا أقوال العلماء في ذلك وأدلتهم ، وما يرجحه الدليل في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة " آل عمران " . وما يستدل له بعض الجهلة ممن يدعي التصوف على اعتبار الإلهام من ظواهر بعض النصوص كحديث " استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك " - لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهام : لأنه لم يقل أحد ممن يعتد به أن المفتي الذي تتلقى الأحكام الشرعية من قبله القلب ، بل من الحديث : التحذير من الشبه ، لأن الحرام

والحلال بين ، وبينهما أمور مشتبهة لا يعملها كل الناس . فقد يفتيك المفتي بحلية شيء وأنت تعلم من طريق أخرى أنه يحتمل أن يكون حراماً ، وذلك باستناد إلى الشرع ، فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة ، والحديث ، كقوله " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " وقوله صلى الله عليه وسلم :

(214/475)

" البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس " رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه ، وحديث وابصة بن معبد رضي الله عنه المشار إليه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " جئت تسال عن البر ؟ " قلت : نعم قال : " استفت قلبك . البر ما اطمأنت إليه نفسك واطمأنت إليه القلب . والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك " قال النووي في (رياض الصالحين) : حديث حسن ، وراه أحمد والدارمي في مسنديهما . ولا شك أن المراد بهذا الحديث ونحوه – الحث على الورع وترك الشبهات ، فلو التبست مثلاً ميتة بمذكاة ، أو امرأة محرم بأجنبية ، وافتاك بعض المفتين بحلية إحداهما لاحتمال أن تكون هي المذكاة في الأول ، والأجنبية في الثاني . فإنك إذا استفتيت قلبك علمت أنه يحتمل أن تكون هي الميتة أو

الأخت ، وأن ترك الحرام والاستبراء للدين والعرض – لا يتحقق غلا بتجنيب الجميع ، لأن ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركه واجب . فهذا يحيك في النفس ولا تنشرح له ، لاحتمال الوقوع في الحرام فيه كما ترى . وكل ذلك مستند لنصوص الشرح لا للالهام .

(215/475)

ومما يدل على ما ذكرنا من كلام أهل الصوفية المشهود لهم بالخير والدين والصلاح – قول الشيخ أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري رحمه الله : (مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) ، نقله عنه غير واحد ممن ترجمه رحمه الله ، كابن كثير وابن خلكان وغيرهما . ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق ، فلا أمر ولا نهي إلى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام وبهذا كله تعلم أن قتل الخضر للغلام وخرقه للسفينة وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف82] دليل ظاهر على نبوته . وعزا الفخر الرازي في تفسيره القول بنبوته للأكثرين ، وما سيتأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله : ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ [الكهف : 66] ، وقوله : ﴿ ستجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ [الكهف : 69] مع قوله الخضر له ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ [الكهف : 68] .

مسألة

اعلم أن العلماء اختلفوا في الخضر : هو هو حي إلى الآن ، او هو غير حي ، بل ممن مات فيما مضى من الزمان ؟ فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه حي ، وأنه شرب من عين تسمى عين الحياة . وممن نصر القول بحياته القرطبي في تفسيره ، والنووي في شرح مسلم وغيره ، وابن الصلاح ، والنقاش وغيرهم . قال ابن عطية : وأطنب النقاش له هذا المعنى ، ويعني حياة الخضر وبقاءه إلى يوم القيامة .

وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب وغيره ، وكلها لا تقوم على ساق – انتهى بواسطة نقل القرطبي في تفسيره .

وحكايات الصالحين عن الخضر أكثر من أن تحصر . ودعواهم أنه يحج هو وإلياس كل سنة ، ويروون عنهما بعض الأدعية . كل ذلك معروف . ومستند القائلين بذلك ضعيف جداً . لأن غالبه حكايات عن بعض من يظن به الصلاح . ومنامات وأحاديث مرفوعة عن أنس وغيره ، وكلها ضعيف لا تقوم به حجة .

(216/475)

ومن أقواه عند القائلين به – آثار التعزية حين توفي النَّبي صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر ابن عبد البر في تمهيده عن علي رضي الله عه قال : لما توفي النَّبي صلى الله عليه وسلم وسجى بثوب هتف ها تف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . السلام عليكم أهل البيت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [العنكبوت : 57] الآية . إن في الله خلقاً من كل هالك ، وعوضاً من كل تالف ، وعزاء من كل مصيبة – فبالله فثقوا ، وإياه فارجو . فإن المصاب من حرم الثواب . فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام . يعني أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم . انتهى بواسطة نقل القرطبي في تفسيره .

قال مقيده عفا الله عنه : والاستدلال على حياة الخضر بآثار التعزية كهذا الأثر الذي ذكرنا آنفاً – مردود من وجهين :

الأول – أنه بم يثبت ذلك بسند صحيحز قال ابن كثير في تفسيره : وحكى النووي وغيره في بقاء الخضر إلى الآن ، ثم إلى يوم القيامة قولين ، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه . وذكروا في ذلك حكايات عن السلف وغيرهم . وجاء ذكره في بعض الأحاديث ، ولا يصح شيء من ذلك . وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف اه . منه .

الثاني – أنه على فرض أن حديث التعزية صحيح لا يلزم من ذلك عقلاً ولا شرعاً ولا عرفاناً أن يكون ذلك المعزي هو الخضر . بل يجوز أن يكون غير الخضر من مؤمني الجن . لأن

الجن هم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : 27] . ودعوى أن ذلك العزي هو الخضر تحكم بل دليل . وقولهم : كانوا يون أنه الخضر ليس حجة يجب الرجوع إليها . لاحتمال أن يخطؤوا في ظنهم ، ولا يدل ذلك على إجماع شرعي معصوم ، ولا متمسك لهم في دعواهم أنه الخضر كما ترى .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر لي رجحانه بالدليل في هذه المسالة أن الخضر ليس بحي بل توفي ، وذلك لعدة أدلة :

(217/475)

الأول – ظاهر عموم قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] ، فقوله " لبشر " نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر من قبله .

والخضر بشر من قبله . فلو كان شرب من عين الحيان وصار حياً خالداً إلى يوم القيامة لكان الهل قد جعل لذلك البشر الذي هو الخضر من قبله الخلد .

(218/475)

الثاني – قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تبعد في الأرض " فقد قال مسلم في صحيحه : حدثنا هناد بن السري ، حدثنا ابن المبارك عن عكرمة بن عمار ، حدثني سماك الحنفي قال : سمعت ابن عباس يقول : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر – (ح) وحدثنا زهير بن حرب واللفظ له ، حدثنا عمر بن يونس الحنفي ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثني أبو زميل هو زميل الحنفي ، حدثني عبد الله بن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة رجلاً . فاستقبل النَّبي صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يده فجعل يعتف بربه : " اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبله حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله ! كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : 9] فأمده الله بالملائكة . . الحديث . ومحل الشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تعبد في الأرض " فعل سياق النفي فهو بمعنى : لا تقع عبادة لك في الأرض ، لأن الفعل ينحل عن مصدر وزمن عند النحويين . وعن مصدر ونسبة وزمن عند كثير من البلاغيين . فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً ، فيتسلط عليه النفي

فيؤول إلى النكرة في سياق النفي ، وهو من صيغ العموم كما تقدم إيضاحه في سورة " بني إسرائيل " وإلى كون الفعل في سياق النفي والشرط من صيغ العموم أشار في مراقي السعود بقوله عاطفاً على ما يفيد العموم :

ونحو لا شربت أو إن شربا . . . واتفقوا إن مصدر قد جلبا

(219/475)

فإذا علمت أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " إن تهلك هذه العصابة لا تبعد في الأرض " أي لا تقع عبادة لك في الأرض .

فاعلم أن ذلك النفي يشمل بعمومه وجود الخضر حياً في الأرض ، لأنه على تقدير وجوده حياً في الأرض فإن الله يعبد في الأرض . ولو على فرض هلاك تلك العصابة من أهل الإسلام . لأن الخضر ما دام حياً فهم يعبد الله في الأرض . وقال البخاري في صحيحه : حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر :

" اللهم أنشدك عهدك ووعدك . اللهم إن شئت لم تعبد في الأرض " فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك ! فخرج وهو يقول : " سيهزم الجمع ويولون الدبر " فقوله صلى الله عليه وسلم في

هذه الحديث : " اللهم إن شئت لم تبعد في الأرض " أي إن شئت إهلاك هذه الطائفة من أهل الإسلام لم تعبد في الأرض . فيرجع معناه إلى الرواية التي ذكرنا عن مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقد بينا وجه الاستدلال بالحديث عن وفاة الخضر .

(220/475)

الثالث – إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه على راس مائة سنة من الليلة التي تكلم فيها بالحديث لم يبق على وجه الأرض أحد ممن هو عليها تلك الليلة ، فلو كان الخضر حياً في الأرض لما تأخر بعد المائة المذكورة . قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا محمد بن رافع . وعبد بن حميد ، قال محمد بن رافع : حدثنا ، وقال عبد : أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري ، أخبرني سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان : أن عبد الله بن عمر قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته . فلما سلم قال فقال : " أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على راس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهرها أحد " قال ابن عمر : فوهل الناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة . وإنما قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " لا يبقي ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " ، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن حدثني عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب ، ورواه الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، كلاهما عن الزهري بإسناد معمر كمثل حديثه ، حدثني هارون بن عبد الله ، وحجاج بن الشاعر قالا : حدثنا حجاج بن محمد ، قال : قال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بشهر : " تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله . وأقسم الله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة " حدثنيه محمد بن حاتم ، حدثنا محمد بن بكر ، أخبرنا ابن جريج بهذا الإسناد ولم يذكر " قبل موته بشهر " . حدثني يحيى بن حبيب ، ومحمد بن عبد الأعلى ، كلاهما عن المعتمر قال ابن حبيب ، حدثنا معتمر بن سليمان ، قال : سمعت أبي حدثنا أبة نضرة عن جابر بن عبد الله عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك قبل موته بشهر أو نحو ذلك :

(221/475)

" ما من نفس منفوسة اليوم تأتي علها مائة سنة وهي حية يومئذ " وعن عبد الرحمن صاحب السقاية ، عن جابر بن عبد الله عن النَّبي صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك .

وفسرها عبد الرحمن قال : نقص العمر . حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا سليمان التيمي بالإسنادين جميعاً مثله . حدثنا ابن نمير ، حدثنا أبو خالد عن داود واللفظ له (ح) وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا سليمان بن حيان عن داود عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : لما رجع النَّبي صلى الله عليه وسلم من تبوك سألوه عن الساعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تأتي مائة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم " حدثني إسحاق بن منصور ، أخبرنا أبو الوليد ، أخبرنا أو عوانة عن حصين عن سالم عن جابر بن عبد الله قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " ما من نفس منفوسة تبلغ مائة سنة " فقال سالم : تذاكرنا ذلك عندهك إنما هي كل نفس مخلوقة يومئذ اه – منه بلفظه .

(222/475)

فهذا الحديث الصحيح الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمر ، وجابر ، وأبو سعيد – فيه تصريح النَّبي صلى الله عليه وسلم بأنه لا تبقى نفس منفوسة حية على وجه الأرض بعد مائة سنة . فقوله " نفس منفوسة " ونحوها من الألفاظ في روايات الحديث نكرة في سياق النفي فهي تعم كل نفس مخلوقة على الأرض . ولا شك أن ذلك العموم بمقتضى

اللفظ يشمل الخضر ، لأنه نفس منفوسة على الأرض . وقال البخاري في صحيحهك حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري قال : حدثني سالم بن عبد الله بن عمر ، وأبو بكر بن أبي حثمة أن عبد الله بن عمر قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قال النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن راس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " فوهل الناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة : وإنما قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " لا يبقى من هو اليوم على ظهر الأرض " يريد بذلك أنها تخرم ذلك القرن – انتهى منه بلفظه . وقد بينا وجه دلالته على المراد قريباً .

الرابع – أن الخضر لو كان حياً إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم لكان من أتباعه ، ولنصره وقاتل معه ، لأنه مبعوث إلى جميع الثقلين الإنس والجن .

(223/475)

والآيات الدالة على عموم رسالته كثيرة جداً ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً

لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : 28] ويوضح هذا أنه تعالى بين في سورة " آل عمران " : أنه أخذ على جميع النَّبيين الميثاق المؤكد أنهم إن جاءهم نبينا صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما معهم أن يؤمنوا به وينصوره ، وذلك في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين فَمَنْ تولى بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 81-82] .

(224/475)

وهذه الآية الكريمة على القول بأن المراد بالرسول فيها نبينا صلى الله عليه وسلم ، كما قاله ابن العباس وغيره – فالأمر واضح . وعلى أنها عامة فهو صلى الله عليه وسلم يدخل في عمومها دخولاً أولياً . فلو كان الخضر حياً في زمنه لجاءه ونصره وقاتل تحت رايته . ومما يوضح أنه لا يدركه نبي إلا اتبعه ما رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة والبزار من حديث جابر رضي الله عنه : أن عمر رضي الله عنه أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم بكتاب اصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب وقال : " لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، او بباطل فتصدقوا به . والذي نفسي

بيده ، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني " اه قال ابن حجر في الفتح : ورجاله موثوقون ، إلا أن في مجالد ضعفاً . وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تاريخه بعد أن ساق آية " آل عمران " المذكورة آنفاً مستدلا بها على أن الخضر لو كان حياً لجاء النَّبي صلى الله عليه وسلم ونصره – ما نصه : قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيّاً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذها على أمته الميثاق لئن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهم أحياء ليؤمنن به وينصرونه – ذكره البخاري عنه اه .

فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق . فو كان حياً في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه ، يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه . لأنه إن كان ولياً فالصديق أفضل منه . وإن كان نبياً فموسى أفضل منه .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" والذي نفسي بيده ، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني " وهذا الذي يقطع به ويعلم م الدين علو الضرورة . .

وقد دلت هذه الآية الكريمة : أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفوه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكانوا كلهم أتباعاً له وتحت أوامره ، وفي عموم شرعه . كما صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع بهم الإسراء رفع فوقهم كلهم ، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم . فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم . فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجل المقدم – صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجميعن .

فإذا علم هذا ، وهو معلوم عند كل مؤمن – علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وممن يقتدى بشرعه لا يسعه إلا ذلك . هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة ، لا يخرج منها ولا يحيد عنها ، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين ، وخاتم أنبياء بني اسرائيل . والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه – أنه اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد . وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به ربه عز وجل واستنصره واستفتحه على من كفره : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تبعد بعدها في الأرض " وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين

يومئذ ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام . كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال بأنه أفخر بيت قالته العرب :

وببئر بدر إذ يرد وجوههم . . . جبريل تحت لوائنا ومحمد

(226/475)

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته ، وأعظم غزواته . قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفرء الحنبلي : سئل بعض أصحابنا عن الخضر ها مات ؟ فقال : نعم . قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن العبادي قال : وكان يحتج بانه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – نقله ابن الجوزي في العجالة . فإن قيل : فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولك لم يكم أحد يراه ؟ فالجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات . ثم ما الحامل له على هذه الاختفاء ؟ وظهوره أعظم لأجره ، وأعلى في مرتبته ، وأظهر لمعجزته . ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة ، والروايات المقلوبة ، والآراء البدعية ، والأهواء العصبية ، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم ، وشهوده جمعهم

وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ، و دفعه الضرر عنهم مما شواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقريره الأدلة والأحكام – أفضل مما يقال من كونه في الأمصار ، وجوبه الفيافي والأقطار ، واجتماعه بعباد لا تعرف أحوال كثير منهم ، وجعله كالنقيب المترجم عنهم ؟ !

وهذا الذي ذكرته لا يتوقف أحد فيه بعد التفهم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيمز انتهى من البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله تعالى .

فتحصل أن الأحاديث المرفوعة التي تدل على وجود الخضر حياً باقياً لم يثبت منها شيء .

وأنه قد دلت الأدلة المذكورة على وفاته ، كما قدمنا إيضاحه .

(227/475)

وممن بين ضعف الأحايث الدالة على حيان الخضر ، وبقائه – ابن كثير في تاريخه وتفسيره .

وبين كثيراً من أوجه ضعفها ابن حجر في الأصابة . وقال ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن ساق الأحاديث والحكايات الواردة في حياة الخضر : وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم . وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً ، لا تقوم بمثلها حجة في الدين .

والحكايات لا يخلو أكثرها من ضعف في الإسناد . وقصاراها أنها صحيحة غلى من ليس

بمعصوم من صحابي أو غيره . لأه يجوز عليه الخطأ (والله أعلم) ، إلى أن قال رحمه الله :

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه (عجلة المنتظر في شرح حالة الخضر) للأحاديث الواردة في ذلك المرفوعات – فبين أنها موضوعات ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم . فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها ، وجهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد – اه منه .

واعلم أن جماعة من أهل العلم ناقشوا الأدلة التي ذكرنا أنها تدل على وفاته . فزعموا أنه لا يشمله عموم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ [الأنبياء : 34] ولا عموم حديث : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنة لم يبق على على وظهر الأرض أحد ممن هو عليها اليوم " كم تقدم . قال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره رحمه الله تعالى : ولا حجة لمن استدل به – يعني الحديث المذكور على بطلان من يقول : إن الخضر حي لعموم قوله " ما من نفس منفوسة . . " لأن العموم وإن كان مءكد الاستغراق ليس نصاً فيه ، بل هو قابل للتخصيص ، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام فإنه لم يمت ولم يقتل ، ب هو حي بنص القرآن ومعناه . ولا يتناول الدجال مع أنه حي بدليل حديث الجساسة : فكذلك مخاطبة بعضهم بعضاً ، فمثل هذا العموم لا يتناوله . وقيل : إن أصحاب الكهف أحياء ، ويحجون مع عيسى عليه السلام كما تقدم . وكذلك فتى موسى في قول ابن عباس كما ذكرنا اه منه .

قال مقيده عفا الله وغفر له : كلام القرطبي ظاهر السقوط كما لا يخفى على من له إلمام بعلوم الشرع ، فإنه اعترف بأن حديث النَّبي صلى الله عليه وسلم عام في كل نفس منفوسة عموماً مؤكداً ، لأن زيادة " من " قبل النكرة في سياق النفي تجعلها نصاً صريحاً في العموم لا ظاهراً فيه كما هو مقرر في الأصول . وقد اوضحنا في سورة " المائدة " .

ولو فرضنا صحة ما قاله – القرطبي رحمه الله تعالى من أنه ظاهر في العموم – لا نص فيه ، وقررنا أنه قابل للتخصيص كما هو الحث في كل عام ، فإن العلماء مجمعون على وجوب استصحاب عموم العام حتى يرد دليل مخصص صالح للتخصيص سنداً ومتناً . فالدعوى المجردة عن دليل من كتاب أوسنة لا يجوز أن يخصص بها نص من كتاب أو سنة إجماعاً .

وقوله : " إن عيسى لم يتناوله عوم الحديث " فيه أن لفظ الحديث من أصله لم يتناوله عيسى ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : " لم يبق على ظهر الأرض ممن هو بها اليوم أحد " فخصص ذلك بظهر الأرض فلم يتناول اللفظ من في السماء ، وعيسى قد رفعه الله من الأرض كما صرح بذلك في قوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : 158] وهذا واضح جداً كما ترى .

ودعوى حياة أصحاب الكهف ، وفتى موسى ظاهرة السقوط ولو فرضنا حياتهم فإن الحديث يدل على موتهم عند المائة كما تقدم ، ولم يثبت شيء يعارضه .

وقوله " إن الخضر ليس مشاهداً للناس ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضاً " يقال فيه : إن الاعتراض يتوجه عليه من جهتين :

الأولى – أن دعوى كون الخضر محجوباً عن أعين الناس كالجن والملائكة – دعوى لا دليل عليها والأصل خلافها ، لأن الأصل أن بني أدم يرى بعضهم بعضاً لاتفاقهم في الصفات النفسية ، ومشابهتهم فيما بينهم .

(229/475)

الثانية – أنا لو فرضنا أنه لا يراه بنو آدم ، فالله الذي أعلم النَّبي بالغيب الذي هو " هلاك كل نفس منفوسة في تلك المائة " عالم بالخضر ، وبأنه نفس منفوسة . ولو سلمنا جدلياً ان الخضر فرد نادر لا تراه العيون . وأن مثله لم يقصد بالشمولي في العموم – فاصح القولين عند علماء الأصول شمول العام والمطلق للفرد النادر والفرد غير المقصود . خلافاً لمن زع أن الفرد النادر وغير المقصود لا يشملهما العام ولا المطلق .

قال صاحب جمع الجوامع في " مبحث العام " ما نصه : والصحيح دخول النادرة وغير المقصودة تحته . فقوله : " النادرة وغير المقصودة " ، يعني الصورة النادرة وغير المقصودة . وقوله : " تحته " يعني العام . والحق أن الصورة النادرة ، وغير المقصودة صورتان لا واحدة ،

وبينهما عموم وخصوص من وجه على التحقيق .

لأن الصورة النادرة قد تكون مقصودة وغير مقصودة . والصورة غير المقصودة قد تكون نادرة وغير نادرة . ومن الفروع التي تبنى على دخول الصورة النادرة في العام والمطلق وعدم دخولها – فيهما اختلاف العلماء في جواز دفع السبق – بفتحتين – في المسابقة على الفيل . وإيضاحه – أنه جاء في الحديث الذي رواه اصحاب السنن والإمام أحمد م حديث أبي هريرة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر " ولم يذكر فيه ابن ماجه " أو نصل " والفيل ذو الخف ، وهو صورة نادرة . فعلى القول بدخول الصورة النادرة في العام يجوز دفع السبق – بفتحتين – في المسابقة على الفيلة . والسبق المذكور هو المال المجعول للسابق . وهذا الحديث جعله بعض علماء الأصول مثالاً لدخول الصورة النادرة في المطلق لا العام . قال : لأن قوله : " إلا في خف " نكة في سياق الإثبات . لأن ما بعد " إلا " مثبت ، والنكرة في سياق الإثبات إطلاق لا عموم . وجلعه بعض أهل الأصول مثالاً لدخول الصورة النادرة في العام .

(230/475)

قال الشيخ زكريا : وجه عمومه مع أنه نكرة في الإثبات أنه في حيز الشرط معنى ، إذا التقدير : إلا إذا كان في خف . والنكرة في سياق الشرط تعم ، وضابط الصورة النادرة عند أهل الأصول هي : أن يكون ذلك الفرد لا يخطر غالباً ببال المتكلم لندرة وقوعه . ومن أمثلة الاختلاف في الصورة النادرة : هل تدخل في العام والمطلق أولاً – اختلاف العلماء في وجوب الغسب من خروج المني الخارج بغير لذة ، كما تلدغه عقرب في ذكره فينزل منه المني . وكذلك الخارج بلذة غير معتادة ؛ كالذي ينزل في ماء حار ، أو تهزه دبة فينزل منه المني فنزول المني بغير لذة ، أو بلذة غير معتادة صورة نادرة ، ووجوب الغسل منه يجري على الخلاف المذكور في دخول الصور النادرة في العام والمطلق وعدم دخولها فيهما . فعلى دخول تلك الصورة النادرة في عموم " إنما الماء من الماء " فالغسل واجب ، وعلى العكس فلا . ومن أمثلة ذلك في المطلق ما لو أوصى رجل براس من رقيقه ، فهل يجوز دفع الخنثى أولاً . فعلى دخول الصورة النادرة في المطلق يجوز دفع الخنثى ، وعلى العكس فلا . ومن أمثلة الاختلاف في دخول الصورة غير المقصودة في الإطلاق . ما لو وكل آخر على أن يشتري له عبداً ليخدمه ، فاشترى الوكيل عبداً يعتق على الموكل ، فالموكل لم يقصد من يعتق عليه ، وإنما أراد خادماً يخدمه ، فعلى دخول الصورة غير المقصودة في المطلق يمضي البيع ويعتق العبد ، وعلى العكس فلا . وإلى هاتين المسألتين أشار في المراقي بقوله :

هل نادر في ذي العموم يدخل . . . ومطلق أولاً خلاف ينقل

فما لغير لذة والفيل . . . ومشبه فيه تنافي القيل

وما من القصد خلا فيه اختلف . . . وقد يجيء بالمجاز متصف

وممن مال إلى عدم دخول الصور النادرة وغير المقصودة في العام والمطلق أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى .

(231/475)

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر رجحانه بحسب المقرر في الأصول – شمول العام والمطلق للصور النادرة ، لأن العام ظاهر في عمومه حتى يرد دليل مخصص من كتاب أوسنة . وإذا تقرر أن العام ظاهر في عمومه وشموله لجميع الأفراد فحكم الظاهر أنه لا يعدل عنه ، بل يجب العمل به إلا بدليل يصلح للتخصيص . وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعملون بشمول العمومات من غير توقف في ذلك . وبذلك تعلم أن دخول الخضر في عموم قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ [الأنبياء : 34] الآية وعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد " هو الصحيح ، ولا يمكن خروجه من تلك العمومات إلا بمخصص صالح للتخصيص .

ومما يوضح ذلك : أن الخنثى صورة نادرة جداً ، مع أنه داخل في عموم آيات المواريث والقصاص والعتق ، وغير ذلك من عمومات أدلة الشرع . وما ذكره القرطبي من خروج الدجال من تلك العمومات بدليل حديث الجساسة لا دليل فيه ، لأن الدجال أخرجه دليل صالح للتخصيص ، وهو الحديث الذي أشار له القرطبي ، وهو حديث ثابت في الصحيح من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : إنه حدثه به تميم الداري ، وأنه أعجبه حديث تميم المذكور ، لأنه وافق ما كان يحدث به أصحابه من خبر الدجال . قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحهك حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث ، وحجاج بن الشاعر كلاهما عن عبد الصمد واللفظ لعبد الوارث بن عبد الصمد ، حدثنا أبي عن جدي عن الحسين بن ذكوان ، حدثنا ابن بريدة حدثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسنديه إلى أحد غيره . فقالت لئن شئت لأفعلنّ ؟ فقال لها : أجل ؟ حديثيني . فقالت " . . ثم ساق الحديث وفيه طول . ومحل الشاهد منه قول تميم الداري : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رايناه قط خلقاً ، وأشده وثاقاً ، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين

ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك ! ما لك ! الحديث بطوله – إلى قوله – وإني مخبركم عني ، إني أنا المسيح ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة ، فهما محرمتان عليّ كلتاهما .

. الحديث .

(233/475)

فهذا نص صريح في أن الدجال حي موجود في تلك الجزيرة البحرية المذكورة في حديث تميم الدارمي المذكور ، وإنه باق وهي حي حتى يخرج في آخر الزمان . وهذا نص صالح للتخصيص يخرج الدجال من عموم حديث موت كل نفس في تلك المائة . والقاعدة المقررة في الأصول : أن العموم يجب إبقاؤه على عمومه ، فما أخرجه نص مخصص خرج من العموم وبقي العام حجة في بقية الأفراد التي لم يدلّ على إخراجها دليل ، كما قدمناه مراراً وهو الحق ومذهب الجمهور ، وهو غالب ما في الكتاب والسنة من العمومات يخرج منها بعض الأفراد بنص مخصص ، ويبقي العام حجة في الباقي ، وإلى ذلك أشار في مراقي السعود في مبحث التخصيص بقوله :

وهو حجة لدى الأكثر إن . . . مخصص له معيناً بين

وبهذا كله يتبين أن النصوص الدالة على موت كل إنسان على وجه الأرض في ظرف تلك المائة ، ونفي الخلد عن كل بشر قبله – تتناول بظواهرها الخضر ولم يخرج منها نص صالح للتخصيص كما رأيت . والعلم عند الله تعالى .

واعلم أن العلماء اختلفوا اختلافاً كثيراً في نسب الخضر ، فقيل : هو ابن آدم لصلبه . وقال ابن حجر في الإصابة : وهذا قول رواه الدار قطني في الأفراد من طريق رواد بن الجراح عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس ، ورواد ضعيف ، ومقاتل متروك ، والضحاك لم يسمع من ابن عباس . وقيل : إنه ابن قابيل بن آدم قال ابن حجر : ذكره أبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرين . ثم ساق سنده وقال : هو معضلل وحكى صاحب هذا القول : إنه اسمه خضرون وهو الخضر . وقيل : اسمه عامر ، ذكره أبو الخطاب بن دحية عن ابن حبيب البغدادي . وقيل : إن اسمه بليان بن ملكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح . ذكر هذا القول ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه . قاله ابن كثير ، وغيره . وقيل : إن اسمه المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد ، وهذا قول إسماعيل بن أبي أويس ، نقله عنه ابن كثير وغيرهما .

(234/475)

وقيل : خضرون بن عمايل من ذرية العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل : وهذا القول حكاه ابن قتيبة أيضاً ذكره عنه ابن حجر . وقيل : إنه من سبط هاورن أخي موسى ، وروي ذلك عن الكلبي عن أبي صالح عن أبي هريرة عن ابن عباس ، ذكره ابن حجر أيضاً ثم قال : وهو بعيد ، وأعجب منه قول ابن إسحاق : إنه أرمياً بن حلقيا ، وقد رد ذلك أبو جعفر بن جرير ، وقيل : إنه ابن بنت فرعون ، حكاه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة .

وقيل : ابن فرعون لصلبه ، حكاه النقاش . وقيل : إنه اليسع ، حكى عن مقاتل . وقال ابن حجر : إنه بعيد .

وقيل : إنه من ولد فارس . قال ابن حجر : جاء جاء ذلك عن ابن شوذب أخرجه الطبري بسند جيد من رواية ضمرة بن ربيعة عن ابن شوذب . وقيل : إنه من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم وهاجر معن من أرض بابل ، حكاه ابن جرير الطبري في تاريخه . وقيل : كان أبوه فارسياً ، وأمه رومية . وقيل عكس ذلك اه . والله أعلم بحقيقة الواقع . وقد ثبت في الصحيح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة أنه قال : إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء . والفروة البيضاء : ما علو وجه الأرض من الحشيش الأبيض وشبهه من الهشيم . وقيل . الفروة : الأرض البيضاء التي لا نبات فيها . وقيل : هي الهشيم اليابس .

ومن ذلك القبيل تسمية جلدة الرأس فروة ، كما قدمنا في سروة " البقرة " في قول الشاعر :

دنس الثياب كأن فروة راسه . . . غرست فأنبت جانباها فلفلا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(235/475)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) ﴾

سبق أن تحدثنا عن العبودية ، فإنْ كانت لله تعالى فهي العزّ والشرف ، وإنْ كانت لغير الله فهي الذلُّ والهوان ، وقلنا : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبد لله ، كما قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . ﴾ [الإسراء : 1]

كما أن العبودية لله يأخذ فيه العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فيأخذ السيد خَيْر عبده .

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا . . ﴾ [الكهف : 65] وقد تكلم العلماء في معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردتْ في القرآن بمعنى النبوة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ

﴾ [الزخرف: 31]

فكان رَدُّ الله عليهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . ﴾ [الزخرف: 32]

أي: النبوة، ومطلق الرحمة تأتي على يد جبريل عليه السلام وعلى يد الرسل، أما هذه الرحمة، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملَك؛ لذلك قال تعالى: ﴿ آتَيْنَاهُ . . ﴾ [الكهف: 65] نحن، وقال: ﴿ مِّنْ عِندِنَا . . ﴾ [الكهف: 65]

فالإتيان والعندية من الله مباشرة.

ثم يقول بعدها: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً . . ﴾ [الكهف: 65] أي: من عندما لا بواسطة الرسل: لذلك يسمونه العلم اللدني، كأنه لا حرجَ على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده، ويُنعِم عليه بعلم خاص من وراء النبوة.

(236/475)

إذن: علينا أنْ نُفرِّق بين علم وفيوضات تأتي عن طريق الرسول وتوجيهاته، وعلم وفيوضات تأتي من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده؛ لأن الرسول يأتي بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف: افعل كذا ولا تفعل كذا، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها عِلَل باطنة فوق العِلل الظاهرية، وهذه هي التي اختصَّ الله بها هذا العبد الصالح (

الخضر) كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم .

والدليل على ذلك أن النبي يأتي بأحكام تُحرّم القتل وتحرم إتلاف مال الغير ، فأتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى عليه السلام على هذه الأعمال ؛ لأنه لا عِلْم له بعلتها ، ولو أن موسى عليه السلام علم العلّة في خَرْق السفينة لبادر هو إلى خرقها .

إذن : فعلم موسى غير علم الخضر ؛ لذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ [الكهف : 67-68]

فهذا عِلْم ليس عندك ، فعِلْمي من كيس الولاية ، وعلمك من كيس الرسل ، وهما في الحقيقة لا يتعارضان ، وإنْ كان لعلم الولاية عِلَل باطنة ، ولعلم الرسالة عِلَل ظاهرة .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ . . . ﴾ .

كأن موسى عليه السلام يُعلّمنا أدب تلقّي العلم وأدب التلميذ مع معلمه ، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر ، فلم يقُل له مثلاً : إن الله أمرني أن أتبعك ، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ . . ﴾ [الكهف : 66]

والرشد : هو حُسْن التصرّف في الأشياء ، وسداد المسلك في علة ما أنت بصدده ، وسبق أن قلنا : إن الرُّشْد يكون في سنّ البلوغ ، لكن لا يعني هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشداً ، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشد ، فقد يكون سفيهاً .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن اليتامى قال : ﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ [النساء : 6] أي : اختبروهم ، واختبار اليتيم يكون حال يُتْمه وهو ما يزال في كفالتك ، فعليك أنْ تكلّفه بعمل لإصلاح حاله ، وتعطيه جزءاً من ماله يتصرَّف فيه تحت عينك وفي رعايتك ، لترى كيف سيكون تصرفه .

عليك أنْ تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله في مَعْزل عنها إلى أنْ يبلغَ الرشْد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإنْ فشل كانت التجربة في ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتمُّ وهو ما يزال في ولايتك ، وتحت سمعك وبصرك رعاية لحقه . ﴿ حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ . . ﴾ [النساء : 6] وهو سن البلوغ ، ولم يقُلْ بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم ؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً . . ﴾ [النساء : 6] فعلى الوصيّ أنْ يُراعِيَ هذا الترتيب :

أنْ تُراعي اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به في مُعْتَرَك الحياة وتجاربها حتى يتمكن من مواجهة الحياة ولا يتخبط في ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإن علمت رشده بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرف فيه ، فإن لم تأنس منه الرشد وحسن التصرف فلا تترك له المال يبدده بسوء تصرفه . لذلك يقول تعالى في هذا المعنى : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ . . ﴾ [

النساء : 5] ولم يقُلْ : أموالهم ؛ لأن السفيه لا مالَ له حال سَفَهه ، بل هو مالكم لتُحسِنوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكد من رُشْده .

إذن : فالرشد الذي طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة في تناول الأشياء ، لكن هل يعني ذلك أن موسى عليه السلام لم يكن راشداً ؟ لا ، بل كان راشداً في مذهبه هو كرسول ، راشداً في تبليغ الأحكام الظاهرية .

(238/475)

أما الرشد الذي طلبه فهو الرشد في مذهب العبد الصالح ، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح في مكانة النبوة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114]

لذلك يقول الشاعر :

كُلّما ازْدَدْتُ عُلوماً . . . زِدْتُ إيقَانَاً بجَهْلي

لأن معنى أنه ازداد عِلْماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلمَ غداً .

والإنسان حينما يكون واسعَ الأفق محباً للعلم ، تراه كلما عَلِم قضية اشتاق لغيرها ، فهو في

نَهمٍ دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال " .

والشاعر الذي تنَّبه لنفسه حينما دَعَتْه إلى الغرور والكبرياء والزَّهْو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قالتِ النفْسُ قَدْ عِلمْتُ كَثِيراً . . . قُلْتُ هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يسيرُ

ثم جاء بمثل توضيحي :

تَمْلأُ الكُوزَ غَرْفَةٌ من مُحيط . . . فَيَرى أَنَّهُ المحيطُ الكَبيرُ

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ .

هنا يبدأ العبد الصالح يُملي شروط هذه الصُّحْبة ويُوضّح لموسى عليه السلام طبيعة عِلْمه ومذهبه ، فمذهبُك غير مذْهبي ، وعلمي من كيس غير كيسك ، وسوف ترى مني تصرفات لن تصبر عليها ؛ لأنه لا عِلْم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عُذْراً على عدم صَبْره معه ؛ لذلك يقول : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ .

فلا تحزن لأني قُلت : لن تستطيع معي صبراً ؛ لأن التصرفات التي ستعترض عليها ليس لك خُبر بها ، وكيف تصبر على شيء لا عِلْمَ لك به ؟

ونلحظ في هذا الحوار بين موسى والخضر عليهما السلام أدبَ الحوار واختلافَ الرأي بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلاً منهما يقبَل رأْيَ الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو يُنكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويُكفِّر بعضهم بعضاً ، فإذا رأَوْا مثلاً عبداً مَنْ عباد الله اختاره الله بشيء من الفيوضات ، فكانت له طريقة وأتباع نرى من ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد تجلى في قول الخضر : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ [الكهف : 68] مظهر من مظاهر أدب المعلّم مع المتعلِّم ، حيث احترم رأيه ، والتمس له العُذْر إن اعترض عليه ، فلكُلٍّ منهما مذهبه الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخَر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط ؟ ﴿ قَالَ سَتجدني إِن شَآءَ الله . . ﴾ .

أي : أنا قابل لشروطك أيُّها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلك ولن أعارضك في شيء . وقدّم المشيئة فقال : ﴿ إِن شَآءَ الله . . ﴾ [الكهف : 69] ليستميله إليه ويُحنّن قلبه عليه ﴿ صَابِراً . . ﴾ [الكهف : 69] على ما تفعل مهما كان ﴿ وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ [الكهف : 69] وهكذا جعل نفسه مأموراً ، فالمعلم آمراً ، والمتعلّم مأمور .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) ﴾

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التي يجب اتباعها في مصاحبته : إنْ تبعتني فلا تسألْني حتى أخبرك ، وكأنه يُعلِّمه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حِدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(240/475)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) ﴾

قوله : ﴿ عِلْماً ﴾ : مفعولٌ ثان ل " عَلَّمْناه " ، قال أبو البقاء : " ولو كان مصدراً لكان تعليماً " يعني لأنَّ فعلَه على فَعَّل بالتشديد ، وقياسُ مصدرِه التفعيلُ .

و ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ يجوز أن يتعلَّقَ بالفعلِ قبلَه ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " عِلْماً " .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) ﴾

قوله : ﴿ على أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ : في موضعِ / الحال من الكاف في " أَتَّبِعُك " ، أي : أَتَّبِعُك باذلاً لي علمَك .

قوله : " رُشْداً " مفعولٌ ثانٍ ل " تُعَلِّمَني " ، لا لِقوله : "مِمَّا عُلِّمْتَ" . قال أبو البقاء : " لأنَّه لا عائد إذن على الذي " يعني أنه إذا تعدَّى لمفعولٍ ثانٍ غيرِ ضميرِ الموصولِ لم يَجُزْ أَنْ يتعدَّى لضميرِ الموصولِ ؛ لئلاَّ يتعدَّى إلى ثلاثةٍ ، ولكن لا بُدَّ مِنْ عائدٍ على الموصول .

وقد تقدَّم خلافُ القرَّاء في " رُشْدا " في سورة الأعراف . وهل هما بمعنى واحدٍ أم لا ؟

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) ﴾

قوله : ﴿ خُبْراً ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه تمييزٌ لقوله " تُحِطْ " وهو منقولٌ مِنَ الفاعليةِ ، إذ الأصل : مما لم يُحِطْ به خَبَرُك . والثاني : أنه مصدرٌ لمعنى لم تُحِط ، إذ هو في قوة : لم يُخْبِرْه خُبْراً . وقرأ الحسن " خُبُراً " بضمتين .

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) ﴾

(241/475)

قوله : ﴿ وَلَا أَعْصِي ﴾ : فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّها لا محلَّ لها من الإعراب لاستئنافِها . وفيه بُعْدٌ . الثاني : أنها في محلِّ نصبٍ عطفاً على " سَتَجِدُني " لأنَّها منصوبةُ المحلِّ بالقول . وقال الشيخ : " ويجوز أَنْ يكونَ معطوفاً على " سَتَجِدُني " فلا يكونُ له محلٌّ من الإعراب ؟ وهذا سَهْوٌ ؛ فإنَّ " ستجِدُني " منصوبُ المحلِّ لأنه منصوبٌ

بالقول ، فكذلك ما عُطِفَ عليه ، ولكن الذي غرَّ الشيخَ أنَّه رأى كلامَ الزمخشري كذلك ، ولم يتأمَّلْه فتبعه في ذلك ، فمن ثَمَّ جاء السهو . قال الزمخشري : ولا أَعْصِي : في محلِّ النصبِ عطفاً على " صابراً " ، أي : ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ . أو " لا " في محلِّ عطفاً على " سَتَجِدُني " .

الرابع : أنَّه في محلِّ نصبٍ عطفاً على " صابراً " كما تقدَّم تقريرُه .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) ﴾

قوله : ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِي ﴾ : قد تقدَّم خلافُ القُرَّاء في هذا الحرفِ في سورة هود : وقرأ أبو جعفر هنا بفتحِ السينِ واللامِ وتشديدِ النونِ من غيرِ همزٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 525.527 ﴾

(242/475)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الاتباع)

وقد ورد فى التَّنزيل على سبعة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الصّحبة : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ أَى أَصحَبُك ، ﴿ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ أَى صَحِبك .

الثانى : بمعنى الاقتداءِ والمتابعة : ﴿ اتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ : اقتدروا به .

الثَّالث : بمعنى الثبات والاستقامة : ﴿ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ أَى دُم واثْبتْ عليها .

الرّابع : بمعنى الاختيار والموافقة : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

الخامس : بمعنى العمل : ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أَى عمِلوا به .

السّادس : بمعنى التَّوجُّه إلى الكعبة ، أَو إلى بيت المقدس فى الصّلاة ﴿ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ .

السّابع : بمعنى الطاعة ﴿ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أَى لأَطعتم .

والمادّة موضوعة للقَفْو ، تبعه واتَّبعه أَى قفا أَثره .

وذلك تارة بالجسم ، وتارة بالارتسام والائتمار .

وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ .

ويقال أَتبعه إذا لحِقه ؛ كقوله – تعالى – ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ ويقال : أُتْبع فلا بملئ أَى أحيل عليه .

وتُبّع كانوا رءوساً ، سُمّوا بذلك لاتِّباع بعضهم بعضا فى الرّياسة والسياسة .

والتَّبَع : الظِّل .

والمُتْبع من البهائم : التى يتبعها ولدها .

والتّبيع خُصّ بولد البقرة إذا اتَّبع أُمّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 100.99 ﴾

(243/475)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) ﴾

إذا سَمَّى الله إنساناً بأنه عَبْدُه جَعَلَه من جملة الخواص ؛ فإذا قال : " عبدي " جعله من خاص الخواص .

﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ : أي صار مرحوماً من قِبَلنا بتلك الرحمة التي خصصناه بها من عندنا ، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً ، ويكون بها راحماً على عبادنا .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ : قيل العلم من لدن الله ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتّطَلُّب .

ويقال ما يُعرَّف به الحقُّ – سبحانه – الخواصَ من عباده .

ويقال ما يعرِّف به الحق أولياءَه فيما فيه صلاح عباده .

وقيل هو ما لا يعود منه نَفْعٌ إلى صاحبه ، بل يكون نفعُه لعباده مِمَّا فيه حقُّ الله – سبحانه .

ويقال هو ما لا يَجِد صاحبُه سبيلاً إلى جحده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ؛

فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) ﴾

تَلَطَّفَ في الخطاب حيث سَلَكَ طريق الاستئذان ، ثم صَرَّح بمقصوده من الصحبة بقوله :

﴿ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ .

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمَه من أستاذ ولا من شخص ، فما لم يكن بتعليم أحد إياه . . متى كان يعلمه غيره ؟

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68)
قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) ﴾

سؤال بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف !

(244/475)

ثم ندارك قلبَه بقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ ؟ ، فأجابه موسى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي . . . . ﴾ وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يعصيَه فيما يأمر به ، فأمَّا الصبر فقَرَنَه بالاستثناء بمشيئة الله فقال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِراً ﴾ فصبر حتى وُجِدَ صابراً ، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل ، والثاني قوله : ﴿ وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ : أطلقه ولم يُقْرِنْه بالاستثناء ، فما استنشأ لأَجْله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخُلْفُ .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) ﴾

فإنه ليس للمريد أن يقول " لا " لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العاميّ للعالِم المفتي فيما يفتي ويحكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 407 . 409 ﴾

(245/475)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/476)

الجزء السادس والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 71 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 78 ﴾ من نفس السورة

(4/476)

قوله تعالى ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تشارطا وتراضيا على الشرط سبب قوله تعالى : ﴿ فانطلقا ﴾ أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل ، يطلبان سفينة يركبان فيها واستمرا ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة ﴾ وأجاب الشرط بقوله تعالى : ﴿ خرقها ﴾ وعرفها لإرشاد السياق بذكر مجمع البحرين إلى أن انطلاقهما كان لطلب سفينة ، فكانت لذلك كأنها مستحضرة في الذهن ، ولم يقرن " خرق " بالفاء لأنه لم يكن مسبباً عن الركوب ولا كان في أول أحيانه ؛ ثم استأنف قوله تعالى : ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه السلام ، منكراً لذلك لما في ظاهره من الفساد بإتلاف المال المفضي إلى فساد أكبر منه بإهلاك النفوس ، ناسياً لما عقد على نفسه لما دهمه مما عنده من الله – وهو الإله العظيم – من العهد الوثيق المكرر في جميع أسفار التوراة بعد إثباته في لوحي الشهادة في العشر كلمات التي نسبتها من التوراة كنسبة الفاتحة من القرآن بالأمر القطعي أنه لا يقر على منكر ، ومن المقرر أن النهي واجب على الفور ، على أنه لا يقر

على منكر ، ومن المقرر أن النهي واجب على الفور ، على أنه لو لم ينس لم يترك الإنكار ، كما فعل عند قتل الغلام ، لأن مثل ذلك غير داخل في الوعد ، لأن المستثنى شرعاً كالمستثنى وضعاً ، ففي الأولى نسي الشرط ، وفي الثانية نسي - لما دهمه من فظاعة القتل الذي لم يعلم فيه من الله أمراً - أنه ينبغي تقليده لثناء الله تعالى عليه : ﴿ أخرقتها ﴾ وبين عذره في الإنكار بما في غاية الخرق من الفظاعة فقال : ﴿ لتغرق أهلها ﴾ والله ! ﴿ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ أي عظيماً منكراً عجيباً شديداً ﴿ قال ﴾ أي الخضر عليه السلام : ﴿ ألم أقل إنك ﴾ يا موسى ! ﴿ لن تستطيع معي صبراً ﴾ فذكره بما قال له عند الشرط ﴿ قال ﴾ موسى : ﴿ لا تؤاخذني ﴾ يا خضر ﴿ بما نسيت ﴾ من ذلك الاشتراط ﴿ ولا ترهقني ﴾ أي تلحقني بما لا أطيقه وتعجلني عن مرادي باتباعك على وجه القهر ناسباً لي إلى السفه والخفة وركوب الشر ﴿ من أمري عسراً ﴾ بالمؤاخذة على النسيان ، فكل منهما صادق

(5/476)

فيما قال ، موف بحسب ما عنده ، أما موسى عليه السلام فلأنه ما خطر له قط أن يعاهد على أن لا ينهى عما يعتقده منكراً ، وأما الخضر فإنه عقد على ما في نفس الأمر لأنه لا يقدم

على منكر ، ومع ذلك فما نفي إلا الصبر البليغ الذي دل عليه بزيادة تاء الاستفعال ، وقد حصل ما يطلق عليه صبر .

لأنه لما ذكره كف عنه لما تذكر بثناء الله عليه أنه لا يفعل باطلاً ، ولم يحصل الصبر البليغ الذي في نفس الخضر بالكسوت في أول الأمر وآخره ﴿ فانطلقا ﴾ بعد نزولهما من السفينة وسلامتها من الغرق والغصب ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً ﴾ لم يبلغ الحلم وهو في غاية القوة ﴿ فقتله ﴾ حين لقيه – كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط .

ثم أجاب الشرط بقوله مشعراً بأن شروعه في الإنكار في هذه أسرع : ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه السلام : ﴿ أقتلت ﴾ يا خضر ﴿ نفساً زكية ﴾ بكونها على الفطرة الأولى من غير أن تدنس بخطيئة توجب القتل ﴿ بغير نفس ﴾ قتلتها ليكون قتلك لها قوداً ؛ وهذا يدل على أنه كان بالغاً حتى إذا قتل قتيلاً أمكن قتله به إلا أن يكون شرعهم لا يشترط البلوغ ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ لقد جئت ﴾ في قتلك إياها ﴿ شيئاً ﴾ وصرح بالإنكار في قوله : ﴿ نكراً ﴾ لأنه مباشرة .

والخرق تسبب لا يلزم منه الغرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 492 .

493 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) ﴾

اعلم أن موسى وذلك العالم لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا فانتهيا إلى موضع احتاجا فيه إلى ركوب السفينة فركباها وأقدم ذلك العالم على خرق السفينة ، وأقول لعله أقدم على خرق جدار السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب فلا يتسارع الغرق إلى أهلها فعند ذلك قال موسى له : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قرأ حمزة والكسائي : ﴿ ليغرق أَهْلِهَا ﴾ بفتح الياء على إسناد الغرق إلى الأهل والباقون لتغرق أهلها على الخطاب ، والتقدير : لتغرق أنت أهل هذه السفينة .

البحث الثاني : أن موسى عليه السلام لما شاهد ذلك الأمر المنكر بحسب الظاهر نسي الشرط المتقدم فلهذا المعنى قال ما قال ، واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجهين .

الأول : أنه ثبت بالدليل أن ذلك العالم كان من الأنبياء ، ثم قال موسى عليه السلام :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فإن صدق موسى في هذا القول دل ذلك على صدور الذنب العظيم عن ذلك النبي ، وإن كذب دل على صدور الكذب عن موسى عليه السلام .

الثاني : أنه التزم أن لا يعترض على ذلك العالم .

وجرت العهود المؤكدة لذلك ، ثم إنه خالف تلك العهود وذلك ذنب .

والجواب عن الأول : أنه لما شاهد موسى عليه السلام منه الأمر الخارج عن العادة قال هذا الكلام ، لا لأجل أنه اعتقد فيه أنه فعل قبيحاً ، بل لأنه أحب أن يقف على وجهه وسببه ، وقد يقال في الشيء العجيب الذي لا يعرف سببه إنه أمر يقال أمر الأمر إذا عظم وقال الشاعر :

داهية دهياء . . وعلى الثاني : أنه فعل بناء على النسيان ، ثم إنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه لما خالف الشرط لم يزد على أن قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ فعند هذا اعتذر موسى عليه السلام بقوله : ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي بشيء : ﴿ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ يقال : رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه أي ولا تغشني من أمري عسراً ، وهو اتباعه إياه يعني ولا تعسر على

متابعتك ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة ، وقرىء : ﴿ عُسْراً ﴾ بضمتين .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) ﴾

اعلم أن لفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ بدليل أنه يقال رأى الشيخ خير من مشهد الغلام جعل الشيخ نقيضاً للغلام وذلك يدل على أن الغلام هو الشاب وأصله من الاغتلام وهو شدة الشبق وذلك إنما يكون في الشباب ، وأما تناول هذا اللفظ للصبي الصغير فظاهر ، وليس في القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان الصبيان أو كان منفرداً ؟ وهل كان مسلماً أو كان كافراً ؟ وهل كان منعزلاً ؟ وهل كان بالغاً أو كان صغيراً ؟ وكان اسم الغلام بالصغير أليق وإن احتمل الكبير إلا أن قوله : ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أليق بالبالغ منه بالصبي لأن الصبي لا يقتل وإن قتل ، وأيضاً فهل قتله بأن حز رأسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس في لفظ القرآن ما يدل على شيء من هذه الأقسام فعند هذا قال موسى عليه السلام : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾

وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو زاكية بالألف والباقون زكية بغير ألف قال الكسائي : الزاكية والزكية لغتان ومعناهما الطاهرة ، وقال أبو عمرو الزاكية التي لم تذنب والزكية التي أذنبت ثم تابت .

البحث الثاني : ظاهر الآية يدل على أن موسى عليه السلام استبعد أن يقتل النفس إلا لأجل القصاص بالنفس وليس الأمر كذلك لأنه قد يحل دمه بسبب من الأسباب ، وجوابه أن السبب الأقوى هو ذلك .

البحث الثالث : النكر أعظم من الإمر في القبح ، وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة لأن ذلك ما كان اتلافاً للنفس لأنه كان يمكن أن لا يحصل الغرق ، أما ههنا حصل الإتلاف قطعاً فكان أنكر وقيل إن قوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أي عجباً والنكر أعظم من العجب وقيل النكر ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس فهو أبلغ في تقبيح الشيء من الإمر ومنهم من قال : الإمر أعظم .

قال : لأن خرق السفينة يؤدي إلى إتلاف نفوس كثيرة وهذ القتل ليس إلا إتلاف شخص واحد وأيضاً الإمر هو الداهية العظيمة فهو أبلغ من النكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 131.132 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ﴾

لأنه أراد أن يعبر في البحر إلى أرض أخرى فركب في السفينة وفيها ركاب ، فأخذ الخضر فأساً ومنقاراً فخرق السفينة حتى دخلها الماء وقيل إنه قلع منها لوحين فضج ركابها من الغرق .

ف ﴿ قال ﴾ له موسى ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ وإن كان في غرقها غرق جميعهم لكنه أشفق على القوم أكثر من إشفاقه على نفسه لأنها عادة الأنبياء .

ثم قال بعد تعجبه وإكباره ﴿ لقد جئت شيئاً إمْراً ﴾ فأكبر ثم أنكر ، وفي الإمر ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني منكراً ، قاله مجاهد .

الثاني : عجباً ، قاله مقاتل .

الثالث : أن الإمر الداهية العظيمة ، قاله أبو عبيدة وأنشد :

قد لقي الأقران مِنّي نُكْرا . . . داهيةً دهياء إدّاً إمْرا

وهو مأخوذ من الإمر وهو الفاسد الذي يحتاج إلى الصلاح ، ومنه رجل إمر إذا كان ضعيف الرأي لأنه يحتاج أن يؤمر حتى يقوى رأيه ، ومنه أَمِر القومُ إذا أكثروا لأنهم يحتاجون

إلى من يأمرهم وينهاهم .

قوله عز وجل : ﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيتُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بما نسيته وغفلت عنه فلم أذكره ، وقد رفعه أبي بن كعب .

الثاني : بما كأني نسيته ، ولم أنسه في الحقيقة . حكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : لم ينس ولكنها معاريض الكلام .

الثالث : بما تركته من عهدك ، قاله ابن عباس ، مأخوذ من النسيان الذي هو الترك لا من النسيان الذي هو من السهو .

﴿ ولا تُرهقني مِنْ أمري عُسْراً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : لا تعنفني على ما تركت من وصيتك ، قاله الضحاك .

الثاني : لا يغشني منك العسر ، من قولهم غلام مراهق إذا قارب أن يغشاه البلوغ ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ارهقوا القبلة " أي اغشوها واقربوا منها .

الثالث : لا تكلفني ما لا أقدر عليه من التحفظ عن السهو والنسيان ، وهو معنى قول مقاتل :

الرابع : لا يلحقني منك طردي عنك .

قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ يعني انطلق موسى والخضر فاحتمل أن يكون يوشع تأخر عنهما ، لأن المذكور انطلاق اثنين وهو الأظهر لاختصاص موسى بالنبوة واجتماعه مع الخضر عن وحي ، واحتمل أن يكون معهما ولم يذكر لأنه تابع لموسى ، فاقتصر على ذكر المتبوع دون التابع لقول موسى : ﴿ ذلك ما كنا نبغي ﴾ فكان ذلك منه إشارة إلى فتاه يوشع .

واختلف في الغلام المقتول هل كان بالغاً ، فقال ابن عباس : كان رجلاً شاباً قد قبض على لحيته لأن غير البالغ لا يجري عليه القلم بما يستحق به القتل ، وقد يسمى الرجل غلاماً ، قالت ليلى الأخيلية في الحجّاج :

شفاها من الداء العُضال الذي بها . . . غُلامٌ إذا هزَّ القَناةَ سقاها

وقال الأكثرون : كان صغيراً غير بالغ وكان يلعب مع الصبيان ، حتى مر به الخضر فقتله .

وفي سبب قتله قولان :

أحدهما : لأنه طبع على الكفر .

الثاني : لأنه أصلح بقتله حال أبويه . وفي صفة قتله قولان :

أحدهما : أنه أخذه من بين الصبيان فأضجعه وذبحه بالسكين ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أنه أخذ حجراً فقتل به الغلام ، قاله مقاتل فاستعظم موسى ما فعله الخضر من قتل

الغلام من غير سبب .

ف ﴿ قال أقتلت نَفْساً زَكيةً بغير نفْسٍ ﴾ فاختلف هل قاله استخباراً أو إنكاراً على قولين :

أحدهما : أنه قال ذلك استخباراً عنه لعلمه بأنه لا يتعدى في حقوق الله تعالى .

الثاني : أنه قاله إنكاراً عليه لأنه قال ﴿ لقد جئت شيئاً نُكراً ﴾

قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير ﴿ زاكية ﴾ وقرأ حمزة وابن عامر وعاصم والكسائي زكّية بغير ألف .

واختلف في زاكية – وزكية على قولين : أحدهما : وهو قول الأكثرين أن معناهما واحد ، فعلى هذا اختلف في تأويل ذلك على ستة أوجه :

أحدها : أن الزاكية التائبة ، قاله قتادة .

الثاني : أنها الطاهرة ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أنها النامية الزائدة ، قاله كثير من المفسرين ، قال نابغة بني ذبيان :

وما أخرتَ من دُنياك نقص . . . وإن قدّمْتَ عادَ لَك الزّكاءُ

يعني الزيادة .

الرابع : الزاكية المسلمة ، قاله ابن عباس لأن عنده أن الغلام المقتول رجل .

الخامس : أن الزاكية التي لم يحل دمها ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

السادس : أنها التي لم تعمل الخطايا ، قاله سعيد بن جبير . والقول الثاني : أن بين الزاكية والزكية فرقاً ، وفيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن الزاكية في البدن ، والزكية في الدين ، وهذا قول أبي عبيدة .

الثاني : أن الزكية أشد مبالغة من الزاكية ، قاله ثعلب .

الثالث : أن الزاكية التي لم تذنب ، والزكية التي أذنبت ثم تابت فغفر لها ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : شيئاً منكراً ، قاله الكلبي .

الثاني : أمراً فظيعاً قبيحاً ، وهذا معنى قول مقاتل .

الثالث : أنه الذي يجب أن ينكر ولا يفعل .

الرابع : أنه أشد من الإِمْر ، قاله قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ فانطلقا ﴾

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهما انطلقا ماشيين على سيف البحر حتى مرت بهما سفينة ، فعرف الخضر فحملا بغير قول إلى مقصد أمه الخضر ، وعرفت ﴿ السفينة ﴾ بالألف واللام تعريف الجنس لا لعهد عينها ، فلما ركبا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب في جنب السفينة حتى قلع به ، فيما روي لوحين من ألواحها فذلك هو معنى ﴿ خرقها ﴾ فلما رأى ذلك موسى غلبه ظاهر الأمر على الكلام حين رأى فعلاً يؤدي إلى غرفة جميع من في السفينة ، فوقفه بقوله ﴿ أخرقتها ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم " لتغرق أهلها " بالتاء وقرأ أبو رجاء " لتغَرِّق " بشد الراء وفتح الغين ، وقرأ حمزة والكسائي " ليغرق أهلُها " برفع الأهل ، وإسناد الفعل إليهم و" الإمر " الشنيع من الأمور كالداهية والإد ونحوه ، ومنه أمر إمْر ابن أبي كبشة ومنه أمر القوم إذا كثروا ، وقال مجاهد " الإمر " المنكر .

قال القاضي أبو محمد : والامر أخص من المنكر ، فقال الخضر مجاوباً لموسى : ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ فتنبه موسى لما أتى معه ، فاعتذر بالنسيان ، وذلك أنه

نسي العهد الذي كان بينهما ، هذا قول الجمهور ، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(13/476)

"كانت الأولى من موسى نسياناً " ، وفيه عن مجاهد أنه قال "كانت الأولى نسياناً " ، والثانية شرطاً ، والثالثة عمداً ، وهذا كلام معترض لأن الجميع شرط ولأن العمد يبعد على موسى عليه السلام ، وإنما هو التأويل إذ جنب صيغة السؤال أو النسيان ، وروى الطبري عن أبي بن كعب أنه قال : إن موسى عليه السلام لم ينس ، ولكن قوله هذا من معاريض الكلام ، ومعنى هذا القول صحيح ، والطبري لم يبينه ، ووجهه عندي أن موسى عليه السلام إنما رأى العهد في أن يسأل ولم ير إنكار هذا الفعل الشنيع سؤالاً بل رآه واجباً ، فلما رأى الخضر قد أخذ العهد على أعم وجوهه فضمنه السؤال والمعارضة والإنكار وكل اعتراض إذ السؤال أخف من هذه كلها أخذ معه في باب المعاريض ، التي هي مندوحة عن الكذب ، فقال له ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ ولم يقل له : إني نسيت العهد ، بل قال لفظاً يعطي للمتأول أنه نسي العهد ، ويستقيم أيضاً تأويله وطلبه ، مع أنه لم ينس العهد لأن قوله ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ كلام جيد طلبه ، وليس فيه للعهد ذكر هل نسيه أم لا ، وفيه

تعريض أنه نسي العهد ، فجمع في هذا اللفظ بين العذر والصدق وما يخل بهذا القول إلا أن الذي قاله وهو أبي بن كعب روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كانت الأولى من موسى نسياناً " و﴿ ترهقني ﴾ معناه تكلفني وتضيف علي ومما قص من أمرهما ، أنهما لما ركبا السفينة وجرت ، نزل عصفور على جنب السفينة ، فنقر في الماء نقرة ، فقال الخضر لموسى ، ماذا ترى هذا العصفور نقص من ماء البحر ؟ فقال موسى قليلاً ، فقال : يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من ماء البحر .

(14/476)

قال القاضي أبو محمد : فقيل معنى هذا الكلام وضع العلم موضع المعلومات ، وإلا فعلم الله تعالى يشبه بمتناه إذ لا يتناهى ، والبحر لو فرضت له عصافير على عدد نقطه لانتهى ، وعندي أن الاعتراض باق لأن تناهي معلومات الله محال ، إذ يتناهى العلم بتناهي المعلومات ، وقيل فراراً عن هذا الاعتراض ، يحتمل أن يريد من علم الله الذي أعطاه العلماء قبلهما ، وبعدهما إلى يوم القيامة ، فتجيء نسبة علمهما إلى البشر نسبة تلك النقطة إلى البحر ، وهذا قول حسن لولا أن في بعض طرق الحديث " ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كنقرة هذا العصفور " ، فلم يبق مع هذا إلا أن يكون التشبيه بتجوز ،

إذ لا يوجد في المحسوسات أقوى في القلة من نقطة بالإضافة إلى البحر ، فكأنها لا شيء إذ لا يوجد لها إلى البحر نسبة معلومة ، ولم يعن الخضر لتحرير موازنة بين المثال وبين علم الله تعالى .

﴿ فانطلقا ﴾ في موضع نزولهما من السفينة ، فمرا بغلمان يلعبون ، فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيء ، فاقتلع رأسه ، ويقال رضه بحجر ، ويقال ذبحه وقال بعض الناس كان الغلام لم يبلغ الحلم ، ولذلك قال موسى ﴿ زكية ﴾ أي لم تذنب ، وقالت فرقة بل كان بالغاً شاباً ، والعرب تبقي على الشاب اسم الغلام ، ومنه قول ليلى الأخيلية : [الطويل]

(15/476)

غلام إذا هز القناة سقاها . . . وهذا في صفة الحجاج ، وفي الخبر أن هذا الغلام ، كان يفسد في الأرض ويقسم لأبويه أنه ما فعل فيقسمان على قسمه ، ويحميانه ممن يطلبه ، وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو جعفر ونافع والجمهور " زاكية " ، وقرأ الحسن وعاصم والجحدري " زكية " والمعنى واحد ، وقد ذهب القوم إلى الفرق وليس ببين ، وقوله ﴿ بغير نفس ﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس ، وهذا يدل على كبر الغلام وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ، ولا بغير نفس وقرأ الجمهور " نكراً " وقرأ ابن عامر وأبو

بكر عن عاصم وأبو جعفر وشيبة "نكُراً" بضم الكاف واختلف عن نافع ، ومعناه : شيئاً ينكر ، واختلف الناس أيهما أبلغ قوله ﴿ إمراً ﴾ [الكهف : 71] أو قوله ﴿ نكراً ﴾ فقالت فرقة هذا قتل بين ، وهناك مترقب ف ﴿ نكراً ﴾ أبلغ وقالت فرقة هذا قتل واحد ، وذلك قتل جماعة ف ﴿ إمراً ﴾ [الكهف : 71] أبلغ وعندي أنهما المعنيين ، قوله ﴿ إمراً ﴾ [الكهف : 71] أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم ، و ﴿ نكراً ﴾ أبين في الفساد لأن مكروهه قد وقع ونصف القرآن بعد الحروف انتهى إلى النون من قوله ﴿ نكراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(16/476)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ خرقها ﴾ أي : شقَّها .

قال المفسرون : قلع منها لوحاً ، وقيل : لوحين مما يلي الماء ، فحشاها موسى بثوبه وأنكر عليه ما فعل بقوله : ﴿ أخرقتَها لتُغرق أهلَها ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : "لتُغرِق" بالتاء "أهلَها" بالنصب .

وقرأ حمزة والكسائي : "ليَغرَق" بالياء "أهلُها" برفع اللام .

﴿ لقد جئتَ شيئاً إِمراً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : منكراً ، قاله مجاهد .

وقال الزجاج : عظيماً من المنكر .

والثاني : عجباً ، قاله قتادة ، وابن قتيبة .

والثالث : داهية ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيتُ ﴾ في هذا النسيان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على حقيقته ، وأنه نسي ، روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن الأولى كانت نسياناً من موسى " " .

والثاني : أنه لم ينس ، ولكنه من معاريض الكلام ، قاله أُبيّ بن كعب ، وابن عباس .

والثالث : أنه بمعنى التَّرك ، فالمعنى : لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُرهقني ﴾ قال الفراء : لا تُعجلني .

وقال أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج : لا تُغْشِني .

قال أبو زيد : يقال : أرهقتُه عسراً : إذا كلفتَه ذلك .

قال الزجاج : والمعنى : عاملني باليُسْرِ ، لا بالعُسْرِ .

قوله تعالى : ﴿ فانطلقَا ﴾ يعني : موسى والخضر .

قال الماوردي : يحتمل أن يوشع تأخر عنهما ، لأن الإِخبار عن اثنين ، ويحتمل أن يكون معهما ولم يذكر لأنه تَبَعٌ لموسى ، فاقتصر على حكم المتبوع .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذا لقيا غلاماً ﴾ اختلفوا في هذا الغلام هل كان بالغاً ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : أنه لم يكن بالغاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والأكثرون .

والثاني : أنه كان شابّاً قد قبض على لحيته ، حكاه الماوردي عن ابن عباس أيضاً ، واحتج بأن غير البالغ لم يَجْرِ عليه قلم ، فلم يستحق القتل .

(17/476)

وقد يُسمَّى الرجلُ غلاماً ، قالت ليلى الأخيلية تمدح الحجاج :

[شَفَاها من الدَّاءِ العُضَالِ الذي بها] . . .

غُلامٌ إِذا هزّ القناةَ سقاها

وفي صفة قتله له ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اقتلع رأسه ، وقد ذكرناه في حديث أُبَيٍّ .

والثاني : كسر عنقه ، قاله ابن عباس .

والثالث : أضجعة وذبحه بالسكين ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : ﴿ أقتلت نفساً زاكية ﴾ قرأ الكوفيون ، وابن عامر : "زكيَّة" بغير ألف ، والياء مشددة .

وقرأ الباقون بالألف من غير تشديد .

قال الكسائي : هما لغتان بمعنى واحد ، وهما بمنزلة القاسية ، والقَسيّة .

وللمفسرين فيها ستة أقوال .

أحدها : أنها التائبة ، روي عن ابن عباس أنه قال : الزكية : التائبة ، [وبه] قال الضحاك .

والثاني : أنها المسلمة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها الزكية التي لم تبلغ الخطايا ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنها الزكية النامية ، قاله قتادة .

وقال ابن الأنباري : القويمة في تركيبها .

والخامس : أن الزكية : المطهرة ، قاله أبو عبيدة .

والسادس : أن الزكية : البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها ، قاله الزجاج .

وقد فَرَّق بعضهم بين الزاكية ، والزكيَّة ، فروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : الزاكية : التي لم تذنب قطُّ ، والزكية : التي أذنبت ثم تابت .

وروي عن أبي عبيدة أنه قال : الزاكية في البدن ، والزكية في الدِّين .

قوله تعالى : ﴿ بغير نفس ﴾ أي : بغير قتل نفس ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "نكْراً" خفيفة في كل القرآن ، إلا قوله ﴿ إِلى شيءٍ نُكُر ﴾ [القمر : 6] ، وخفف ابن كثير أيضاً "إِلى شيء نُكْر" .

وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "نُكُراً" و"إِلى شيء نُكْر" .

مثقل .

والمخفف إِنما هو من المثقل ، كالعُنْق ، والعُنُق ، والنُكْر ، والنُكُر .

قال الزجاج : والمعنى : لقد أتيت شيئاً نكراً .

(18/476)

ويجوز أن يكون معناه : جئت بشيء نكر ، فلما حذف الباء ، أفضى الفعل فنصب نكراً ، و"نكراً" أقل منكراً من قوله : "إِمراً" لأن تغريق مَنْ في السفينة كان عنده أنكر من قتل نفس واحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(19/476)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إِذَا رَكِبَا فِي السفينة خَرَقَهَا ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : في صحيح مسلم والبخاري : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْل ، فلما ركبا في السفينة لم يَفْجأ (موسى) إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نَوْل عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ قال ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وكانت الأولى من موسى نسياناً " قال : وجاء عصفور فوقع على حَرْف السفينة فنقر نَقْرة في البحر ، فقال له الخضر : ما عِلمي وعِلمك من علم الله إلا مثل ما نَقَص هذا العصفورُ من هذا البحر .

قال علماؤنا : حَرْف السفينة طرفها وحَرْف كل شيء طرفه ، (ومنه حرْف الجبل) وهو أعلاه المحدّد .

والعِلم هنا بمعنى المعلوم ، كما قال : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : 255] أي من معلوماته ، وهذا من الخضر تمثيل ؛ أي معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله ، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر ، وإنما مثّل له

ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا ، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوّز قصد به التمثيل والتفهيم ، إذ لا نقص في علم الله ، ولا نهاية لمعلوماته .

وقد أوضح هذا المعنى البخاري فقال : والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر .

وفي "التفسير" عن أبي العالية : لم ير الخضر حين خرق السفينة غيرُ موسى وكان عبداً لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه ، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة .

(20/476)

وقيل : خرج أهل السفينة إلى جزيرة ، وتخلف الخضر فخرق السفينة .

وقال ابن عباس : لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية ، وقال في نفسه : ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل ! كنت في بني إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشيّة فيطيعوني ! قال له الخضر : يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدّثتَ به نفسك ؟ قال : نعم . قال : كذا وكذا .

قال : صدقت ؛ ذكره الثعلبي في كتاب "العرائس" .

الثانية : في خرق السفينة دليل على أن للوليّ أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحاً ، مثل أن

يخاف على رَيْعه ظالماً فيخرّب بعضَه .

وقال أبو يوسف : يجوز للوليّ أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض .

وقرأ حمزة والكسائي "لِيَغْرَقَ" بالياء "أَهْلُهَا" بالرفع فاعل يغرَق ، فاللام على قراءة الجماعة في "لتُغرِقَ" لام المآل مثل

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] .

وعلى قراءة حمزة لام كي ، ولم يقل لتغرقني ؛ لأن الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم ، ومراعاة حقهم .

و"إِمْراً" معناه عجباً ؛ قاله القتبيّ .

وقيل : منكَراً ؛ قاله مجاهد .

وقال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة ؛ وأنشد :

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنّي نُكْرَا . . .

داهِيةً دَهْيَاءَ إِدّاً إِمْرَا

وقال الأخفش : يقال أَمِرَ أَمْرُهُ يَأْمَر (أَمْراً) إذا اشتدّ ، والاسم الإِمْر .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ في معناه قولان : أحدهما : يروى عن ابن عباس ، قال : هذا من معاريض الكلام .

والآخر : أنه نسي فاعتذر ؛ ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة ، وأنه لا

يدخل تحت التكليف ، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره ؛ وقد تقدّم .

ولو نسي في الثانية لاعتذر .

قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ ﴾

(21/476)

في البخاري قال يَعْلَى قال سعيد : وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ لم تعمل بالحِنْثِ .

وفي الصحيحين وصحيح الترمذي : ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، قال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى .

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ .

لفظ البخاري : وفي "التفسير" : إن الخضر مرّ بغلمان يلعبون فأخذ بيده غلاماً ليس فيهم أضوأ منه ، وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دَمَغه ، فقتله .

قال أبو العالية : لم يره إلا موسى ، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام .

قلت : ولا اختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة ، فإنه يحتمل أن يكون دَمَغه أوّلاً بالحجر ، ثم أضجعه فذبحه ، ثم اقتلع رأسه ؛ والله أعلم بما كان من ذلك ؛ وحسبك بما جاء في الصحيح .

وقرأ الجمهور : "زَاكِيَةً" بالألف .

وقرأ الكوفيون وابن عامر "زَكِيَّةً" بغير ألف وتشديد الياء ؛ قيل : المعنى واحد ؛ قاله الكسائي .

وقال ثعلب : الزكية أبلغ .

قال أبو عمرو : الزاكية التي لم تذنب قط ، والزكية التي أذنبت ثم تابت .

قوله تعالى : "غلاماً" اختلف العلماء في الغلام هل كان بالغاً أم لا ؟ فقال الكلبي : كان بالغاً يقطع الطريق بين قريتين ، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين ، وأمه من عظماء القرية الأخرى ، فأخذه الخضر فصرعه ، ونزع رأسه عن جسده .

قال الكلبي : واسم الغلام شمعون .

وقال الضحاك : حيْسون .

وقال وهب : اسم أبيه سلاس واسم أمه رُحْمَى .

وحكى السهيليّ أن اسم أبيه كازير واسم أمه سهوى .

وقال الجمهور : لم يكن بالغاً ؛ ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب .

وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام ؛ فإن الغلام في الرجال يقال على من لم يبلغ ، وتقابله الجارية في النساء .

وكان الخضر قتله لِما علم من سِرّه ، وأنه طُبع كافراً كما في صحيح الحديث ، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفراً .

وقتلُ الصغير غير مستحيل إذا أذن الله في ذلك ؛ فإن الله تعالى الفعّال لما يريد ، القادر على ما يشاء .

وفي كتاب "العرائس" إن موسى لما قال للخضر : "أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً" الآية غضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر ، وقشر اللحم عنه ، وإذا في عظم كتفه مكتوب : كافر لا يؤمن بالله أبداً .

وقد احتج أهل القول الأوّل بأن العرب تبقي على الشاب اسم الغلام ، ومنه قول ليلى الأخيلية :

شَفَاها من الدَّاءِ العُضالِ الذِي بِها . . .

غُلام إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا

وقال صفوان لحسان :

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيفِ عَنّي فإنَّني . . .

غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بشاعِرِ

وفي الخبر : إن هذا الغلام كان يفسد في الأرض ، ويقسم لأَبويه أنه ما فعل ، فيقسمان على قسمه ، ويحميانه ممن يطلبه ، قالوا وقوله : "بِغَيْرِ نَفْسٍ" يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس ، وهذا يدل على كبرَ الغلام ، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغاً عاصياً .

قال ابن عباس : كان شاباً يقطع الطريق .

وذهب ابن جبير إلى أنه بلغ سنّ التكليف لقراءة أبيّ وابن عباس "وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين" والكفر والإيمان من صفات المكلَّفين ، ولا يطلق على غير مكلَّف إلا بحكم التبعية لأبويه ، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه اسم الكافر إلا بالبلوغ ، فتعين أن يصار إليه .

والغلام من الاغتلام وهو شدة الشَّبَق .

(23/476)

قوله تعالى : ﴿ نُّكْرًا ﴾ اختلف الناس أيهما أبلغ "إمراً" أو قوله "نكراً" فقالت فرقة : هذا قَتْلٌ بيّن ، وهناك مُترقَّب ؛ ف"نكرا" أبلغ ، وقالت فرقة : هذا قَتْلُ واحدٍ وذاك قتلُ جماعة ف"إمرا" أبلغ .

قال ابن عطية : وعندي أنهما لمعنيين وقوله : "إِمراً" أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم ، و"نُكْراً" بيّن في الفساد لأن مكروهه قد وقع ؛ وهذا بيّن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(24/476)

وقال أبو السعود :

﴿ فانطلقا ﴾

أي موسى والخضِرُ عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينةَ ، وأما يوشعُ فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيلَ ، قيل : إنهما مرا بسفينة فكلّما أهلها فعرفوا الخضِرَ فحملوهما بغير نَول ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة ﴾ استعمالُ الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة في مع تجريده عنها في مثل قوله عز وجل : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ على ما يقتضيه تعديتُه بنفسهِ لما أشرنا إليه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا ﴾ لا لما

قيل : من أن في ركوبها معنى الدخول ﴿ خَرَقَهَا ﴾ قيل : خرقها بعد ما لججوا حيث أخذ فأساً فقلع من ألواحها لوحين مما يلي الماء ، فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ من الإغراق ، وقرىء بالتشديد من التغريق وليغرَقَ أهلُها من الثلاثي ﴿ لَقَدْ جِئْتَ ﴾ أتيت وفعلت ﴿ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أي عظيماً هائلاً من أمرِ الأمرُ إذا عظُم ، قيل : الأصل أَمِراً فخفف .

(25/476)

﴿ قَالَ ﴾ أي الخضِرُ عليه السلام : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ تذكيرٌ لما قاله من قبلُ وتحقيقٌ لمضمونه متضمنٌ للإنكار على عدم الوفاء بوعده ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ بنيساني أو بالذي نسِيتُه أي بشيء نسيتُه وهو وصيتُه بأن لا يسأَله عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفيةِ الأسبابِ قبلَ بيانه ، أراد أنه نسِيَ وصيته ولا مؤاخذةَ على الناسي كما ورد في صحيح البخاريّ من أن الأولَ كان من موسى نسياناً ، أو أَخْرج الكلامَ في معرِض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسِيَ ليبسُطَ عذرَه في الإنكار ، وهو من معاريض الكلام التي يتقى بها الكذبُ مع التوصل إلى الغرض ، أو أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي ﴾ أي لا

تُغشّني ولا تحمّلني ﴿ مِنْ أَمْرِى ﴾ وهو اتباعه إياه ﴿ عُسْراً ﴾ أي لا تعسّرْ عليّ متابعتك ويسّرها عليّ بالإغضاء وتركِ المناقشة ، وقرىء عُسُراً بضمتين .

(26/476)

﴿ فانطلقا ﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي فقبل عذرَه فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿ حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ ﴾ قيل : كان الغلامُ يلعب مع الغلمان ففتل عُنقَه ، وقيل : ضرب برأسه الحائطَ ، وقيل : أضجعه فذبحه بالسكين ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ طاهرةً من الذنوب ، وقرىء زاكيةً ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير قتلِ نفسٍ محرمة ؟ وتخصيصُ نفْي هذا المبيحِ بالذكر من بين سائرِ المبيحات من الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصانِ لأنه الأقربُ إلى الوقوع نظراً إلى حال الغلام ، ولعل تغييرَ النظمِ الكريم بجعل ما صدر عن الخضِر عليه الصلاة والسلام ها هنا من جملة الشرطِ ، وإبرازِ ما صدر عن موسى عليه الصلاة والسلام في معرض الجزاءِ المقصودِ إفادتُه مع أن الحقيقَ بذلك إنما هو ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفسِ إلى ورود خبرِها لقلة وقوعِها في نفس الأمر ونُدرة وصولِ خبرها إلى الأذهان ، ولذلك روعيت تلك النكتةُ في الشرطية الأولى لما أن صدورَ الخوارقِ منه عليه الصلاة

والسلام خرج بوقوعه مرة مَخرجَ العادة ، فانصرفت النفسُ عن ترقّبه إلى ترقب أحوالِ موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطِه بموجب وعدِه الأكيدِ عند مشاهدةِ خارقٍ آخرَ ، أو يسارع إلى المناقشة كما مر في المرة الأولى ؟ فكان المقصودُ إفادةَ ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام ففعل ما فعل ولله درُّ شأنِ التنزيل .

(27/476)

وأما ما قيل من أن القتلَ أقبحُ والاعتراضَ عليه أدخلُ فكان جديراً بأن يُجعل عمدةً في الكلام فليس من دفع الشبهةِ في شيء بل هو مؤيدٌ لها ، فإن كونَ القتل أقبحَ من مبادي قلة صدورِه عن المؤمن العاقلِ ونُدرةِ وصولِ خبره إلى الأسماع ، وذلك مما يستدعي جعلَه مقصوداً بالذات وكونَ الاعتراضِ عليه أدخلَ من موجبات كثرة صدورِه عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضي جعله كذلك ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ قيل : معناه أنكرُ من الأول إذا لا يمكن تداركه كما يمكن تداركُ الأول بالسدّ ونحوِه ، وقيل : الأمرُ أعظمُ من النُّكر لأن قتلَ نفس واحدةٍ أهونُ من إغراق أهلِ السفينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(28/476)

وقال الآلوسى :

﴿ فانطلقا ﴾

أي موسى والخضر عليهما السلام ولم يضم يوشع عليه السلام لأنه في حكم التبع ، وقيل رده موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ، أخرج البخاري .

ومسلم .

وغيرهما عن ابن عباس مرفوعاً أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ، وفي رواية أبي حاتم عن الربيع بن أنس أن أهل السفينة ظنوا أنهم لصوص لأن المكان كان مخوفاً فأبوا أن يحملوهم فقال كبيرهم : إني أرى رجالاً على وجوههم النور لأحملنهم فحملهم ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة ﴾ أل فيها لتعريف الجنس إذ لم يتقدم عهد في سفينة مخصوصة ، وكانت على ما في بعض الروايات سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما من السفن سفينة أحسن منها ولا أجمل ولا أوثق ، وكانت أيضاً على ما يدل عليه بعض الروايات الصحيحة من سفن صغار يحمل بها أهل هذا الساحل إلى أهل الساحل الآخر ، وفي رواية أبي حاتم أنها كانت ذاهبة إلى أيلة ، وصح أنهما حين ركبا جاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر في البحر فقال له الخضر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله تعالى الأمثل ما نقص هذا العصفور من

الحبر ، وهو جار مجرى التمثيل ؛ واستعمال الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة ﴿ فِى ﴾ مع تجريده عنها في مثل قوله تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] على ما يقتضيه تعديته بنفسه قد مرت الإشارة إلى وجهه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ [هود : 41] وقيل إن ذلك لإرادة معنى الدخول كأنه قيل حتى إذا دخلا في السفينة ﴿ خَرَقَهَا ﴾ صح أنهما لما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواحها بالقدوم فقال له موسى عليه السلام : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، وصح أيضاً أنه عليه السلام خرقها ووتد فيها وتدا .

وقيل قلع لوحين مما يلي الماء .

(29/476)

وفي رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً أنهما لما ركبا وأطمأنا فيها ولجت بهما مع أهلها أخرج مثقاباً له ومطرقة ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها ثم جلس عليها يرقعها .

وهذه الرواية ظاهرة في أن خرقه إياها كان حين وصولها إلى لج البحر وهو معظم مائه ، وفي الرواية عن الربيع أن أهل السفينة حملوهما فساروا حتى إذا شارفوا على الأرض خرقها ،

ويمكن الجمع بأن أول العزم كان وهي في اللج وتمام الفعل كان وقد شارفت على الأرض ، وظاهر الأخبار يقتضي أنه عليه السلام خرقها وأهلها فيها وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ سواء كانت اللام للعاقبة بناء على أن موسى عليه السلام حسن الظن بالخضر أو للتعليل بناء على أنه الأنسب بمقام الإنكار ، وبعضهم لم يجوز هذا توهماً منه أن فيه سوء أدب وليس كذلك بل يوشك أن يتعين كونها للتعليل لأن الظاهر بناء الجواب عليه كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى .

وفي حديث أخرجه عبد بن حميد .

ومسلم .

وابن مردويه قال : فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة فخرج من كان فيها وتخلف ليخرقها فقال له موسى : تخرقها لتغرق أهلها فقال له الخضر ما قص الله تعالى .

وهذا ظاهر في أنه عزم على الخرق فاعترض عليه موسى عليه السلام وهو خلاف ما تقتضيه الآية .

(30/476)

فإن أول بأنه بتقدير وتخلف ليخرقها فخرقها وأن تعبير موسى عليه السلام بالمضارع استحضاراً للصورة أو قيل بأنه وقع من الخضر عليه السلام أولا تصميم على الخرق وتهيئة لأسبابه وثانياً خرق بالفعل ووقع من موسى عليه السلام اعتراض على الأول أولا وعلى الثاني ثانياً فنقل في الحديث أول ما وقع من كل هذه المادة وفي الآية ثاني ما وقع من كل فيها بقي بين ظاهر الحديث وظاهر الآية مخالفة أيضاً على ما قيل من حيث أن الأول يقتضي أن أهل السفينة لم يكونوا فيها إذ خرقت والثاني يقتضي أنهم كانوا فيها حينئذ .

وأجيب أنه ليس في الحديث أكثر من أنهم خرجوا منها وتخلف للخرق وليس فيه إنهم خرجوا فخرقها فيمكن أن يكون عليه السلام تخلف للخرق إذ خرجوا لكنه لم يفعله إلا بعد رجوعهم إليه وحصولهم فيها .

وأنت تعلم أنه ينافي هذا ما قيل في وجه الجمع بين الرواية عن سعيد والرواية عن الربيع ؛ وبالجملة الجمع بين الأخبار الثلاثة وبينها وبين الآية صعب ، وقال بعضهم في ذلك : إنه يحتمل أن السفينة لما لججت بهم صادفوا جزيرة في اللج فخرجوا لبعض حوائجهم وتخلف الخضر عازماً على الخرق ومعه موسى عليه السلام فاحس منه ذلك فعجل بالاعتراض ثم رجع أهلها وركبوا فيها والعزم هو العزم فأخذ عليه السلام في مباشرة ما عزم عليه ولم يشعر موسى عليه السلام حتى تم وقد شارفت على الأرض ، ولا يخفى ما في ذلك من البعد ، وذكر بعضهم أن ظاهر الآية يقتضي أن خرقه إياها وقع عقب الركوب لأن الجزاء يعقب

الشرط.

وأجيب بأن ذلك ليس بلازم وإنما اللازم تسبب الجزاء عن الشرط ووقوعه بعده ألا تراك تقول: إن خرج زيد على السلطان قتله وإذا أعطيت السلطان قصيدة أعطاك جائزة مع أنه كثيراً ما لا يعقب القتل الخروج والإعطاء الاعطاء؛ وقد صرح ابن الحاجب بأنه لا يلزم وقوع الشرط والجزاء في زمان واحد فيقال: إذا جئتني اليوم أكرمك غدا، وعلى ذلك قوله تعالى:

(31/476)

﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ [مريم: 66] ومن التزم ذلك كالرضى جعل الزمان المدلول عليه بإذا ممتداً وقدر في الآية المذكورة ﴿ أئذا ما مت وصرت رميما، وعليه أيضاً لا يلزم التعقيب، نعم قال بعضهم: إن خبر لما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواحها يدل على تعقيب الخرق للركوب، وأيضاً جعل غاية انطلاقهما مضمون الجملة الشرطية يقتضي ذلك إذ لو كان الخرق متراخياً عن الركوب لم يكن غاية الانطلاق مضمون الجملة لعدم انتهائه به.

وأجيب بأن المبادرة التي دل عليها الخبر عرفته بمعنى أنه لم تمض أياماً ونحوه، وبأنه لا مانع

من كون الغاية أمراً ممتداً ويكون انتهاء المغيا با تبدائه كقولك : ملك فلأن حتى كانت سنة كذا ملكه فتأمل .

ثم إن في القلب من صحة رواية الربيع شيئاً والله تعالى أعلم بصحتها ، والظاهر أن أهل السفينة لم يروه لما باشر خرقها وإلا لما مكنوه وقد نص على ذلك على القاري .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن أبي العالية من طريق حماد بن زيد عن شعيب بن الحبحاب ءنه قال : كان الخضر عبداً لا تراه إلا عين من أراد الله تعالى أن يريه إياه فلم يره من القوم إلا موسى عليه السلام ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وكذا بينه وبين قتل الغلام ، وليس هذا بالمرفوع والله تعالى أعلم بصحته ، نعم سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً عن الربيع أيضاً أنهم علموا بعد ذلك أنه الفاعل ، والظاهر أيضاً أن موسى عليه السلام لم يرد إدراج نفسه الشريفة في قوله : ﴿ لتغرق أهلها ﴾ وإن كان صالحاً لأن يدرج فيه بناءً على أن المراد من أهلها الراكبين فيها .

وقرأ الحسن .

وأبو رجاء ﴿ لِتُغْرِقَ ﴾ بالتشديد لتكثير المفعول .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وزيد بن علي .

والأعمش .

وطلحة .

وابن أبي ليلى .

وخلف .

وأبو عبيد .

وابن سعدان .

(32/476)

وابن عيسى الأصبهاني ﴿ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا ﴾ على إسناد الفعل إلى الأهل ، وكون اللام على هذه القراءة للعاقبة ظاهر جداً ﴿ لَقَدْ جِئْتَ ﴾ أتيت وفعلت ﴿ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أي داهياً منكراً من أمر الأمر بمعنى كثر قاله الكسائي فاصله كثير ، والعرب كما قال ابن جني في سر الصناعة تصف الدواهي بالكثرة ، وهو عند بعضهم في الأصل على وزن كبد فخفف قيل ولم يقل أمراً إمراً مع ما فيه من التجنيس لأنه تكلف لا يلتفت إلى مثله في الكلام البليغ كما صرح به الإمام المرزوقي في شرح قول السموأل :

يقرب حب الموت آجالنا لنا . . .

وتكرهه آجالهم فتطول

رداً لاختيار بعضهم رواية يقصر حب الموت ، وأيد ذلك بقول أبي ذؤيب الهذلي :

وشيك الفصول بعيد القفول . . .

حيث أمكن له أن يقول بطيء القفول ولم يقل ، وربما يقال هنا : إنه لم يقل ذلك لما ذكر مع إيهامه خلاف المراد وقصوره عن درجة ما في النظم الجليل من زيادة التفظيع ، وفي الرواية عن الربيع أن موسى عليه السلام لما رأى من الخضر ما رأى امتلأ غضباً وشد عليه ثيابه وأراد أن يقذف الخضر عليه السلام في البحر فقال أردت هلاكهم فستعلم أنك أول هالك وجعل كلما ازداد غضباً استعر البحر وكلما سكن كان البحر كالدهن ، وأن يوشع بن نون قال له : ألا تذكر العهد والميثاق الذي جعلت على نفسك ، وأن الخضر عليه السلام أقبل عليه يذكره ما قاله من قبل :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾

وهو متضمن للإنكار على عدم وقوع الصبر منه عليه السلام فأدركه عند ذلك الحلم .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾

اعتذار بنسيان الوصية على أبلغ وجه كأن نسيانه أمر محقق عند الخضر عليه السلام لا يحتاج أن يفيده إياه استقلالاً وإنما يلتمس منه ترك المؤاخذة به ؛ فما مصدرية والباء صلة المؤاخذة أي لا تؤاخذ بنسياني وصيتك في ترك السؤال عن شيء حتى تحدث لي منه ذكراً ، والتمس ترك المؤاخذة بالنسيان لأن الكامل قد يؤاخذ به وهي مؤاخذة بقلة التحفظ التي أدت إليه كما وقعت لأول ناس وهو أول الناس وإلا فالمؤاخذة به نفسه لا تصح لأنه غير مقدور ، وقيل : الباء للسببية وهي متعلقة بالفعل ، والنسيان وإن لم يكن سبباً قريباً للمؤاخذة بل السبب القريب لها هو ترك العمل بالوصية لكنه سبب بعيد لأنه لولاه لم يكن الترك ، وجوز أن تكون متعلقة بمعنى النهي كما قيل في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 2] إنه متعلق بمعنى النفي فيكون النسيان سبباً للنهي عن المؤاخذة بترك العمل بالوصية .

وزعم بعضهم تعين كونها للملابسة ، ويجوز في ما أن تكون موصولة وأن تكون موصوفة أي لا تؤاخذني بالذي أو بشيء نسيته وهو الوصية لكن يحتاج هذا ظاهراً إلى تقدير مضاف أي بترك ما نسيته لأن المؤاخذة بترك الوصية أي ترك العمل بها لا بنفس الوصية .

وقيل قد لا يحتاج إلى تقدير المضاف فإن الوصية سبب للمؤاخذة إذ لولاهما لم يكن ترك العمل ولا المؤاخذة ، ونظير ذلك ما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف

: 50] ثم كون ما ذكر اعتذاراً بنسيان الوصية هو الظاهر وقد صح في البخاري أن المرة الأولى كانت نسياناً .

وزعم بعضهم أنه يحتمل أنه عليه السلام لم ينس الوصية وإنما نهى عن مؤاخذته بالنسيان موهماً أن ما صدر منه كان عن نسيانها مع أنه إنما عنى نسيان شيء آخر ، وهذا من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوسل إلى الغرض كقول إبراهيم عليه السلام : هذه أختي .

(34/476)

و﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] ، وروى هذا ابن جرير عن أبي بن كعب وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وجوز أن يكون النسيان مجازاً عن الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ وَلاَ تُرْهِقْنِى ﴾ لا تغشني ولا تحملني ﴿ مِنْ أَمْرِى ﴾ وهو اتباعه إياه ﴿ عُسْراً ﴾ أي صعوبة وهو مفعول ثان لترهقني ، والمراد لا تعسر على متابعتك ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة .

وقرأ أبو جعفر ﴿ عُسْراً ﴾ بضمتين .

﴿ فانطلقا ﴾ الفاء فصيحة أي فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا يمشيان على الساحل كما في "الصحيح" ، وفي رواية أنهما مرا بقرية ﴿ حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا ﴾ يزعمون كما قال البخاري أن اسمه جيسور بالجيم وروى بالحاء ، وقيل اسمه جنبتون وقيل غير ذلك ، وصح أنه كان يلعب مع الغلمان وكانوا على ما قيل عشرة وأنه لم يكن فيهم أحسن ولا أنظف منه فأخذه ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ أخرج البخاري في رواية أنه عليه السلام أخذ برأسه من أعلاه فاقتلعه بيده ، وفي رواية أخرى أنه أخذه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، وقيل ضرب رأسه بالجدار حتى قتله ، وقيل رضه بحجر ، وقيل ضربه برجله فقتله ، وقيل أدخل أصبعه في سرته فاقتلعها فمات ، وجمع بين الروايات الثلاثة الأول بأنه ضرب رأسه بالجدار أولاً ثم أضجعه وذبحه ثم اقتلع رأسه ، وربما يجمع بين الكل وفي كلا الجمعين بعد ، والظاهر أن الغلام لم يكن بالغاً لأنه حقيقة الغلام الشائعة في الاستعمال وإلى ذلك ذهب الجمهور ، وقيل كان بالغاً شاباً ، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز أنه كان ابن عشرين سنة ، والعرب تبقى على الشاب اسم الغلام ، ومنه قول ليلى الأخيلية في الحجاج :

شفاها من الداء الذي قد أصابها . . .

غلام إذا هز القناة سقاها

وقوله :

تلق ذباب السيف عني فإنني . . .

غلام إذا هوجيت لست بشاعر

(35/476)

وقيل هو حقيقة في البالغ لأن أصله من الاغتلام وهو شدة الشبق وذلك إنما يكون فيمن بلغ الحلم ، وإطلاقه على الصبي الصغير تجوز من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ، ويؤيد قول الأولين قوله تعالى : ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي طاهرة من الذنوب فإن البالغ قلما يزكو من الذنوب .

وقد جاء في حديث عن ابن جبير عن ابن عباس مرفوعاً تفسير زكية بصغيرة وهو تفسير باللازم ، ومن قال كان بالغاً قال : وصفه عليه السلام بذلك لأنه لم يره أذنب فهو وصف ناشىء من حسن الظن ، واستدل على كونه بالغاً بقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير حق قصاص لك عليها فإن الصبي لا قصاص عليه .

وأجاب النووي .

والكرماني بأن المراد التنبيه على أنه قتله بغير حق إلا أنه خص حق القصاص بالنفي لأنه الأنسب بمقام القتل أو أن شرعهم كان إيجاب القصاص على الصبي ، وقد نقل المحدثون

كالبيهقي في كتاب المعرفة أنه كان في شرعنا كذلك قبل الهجرة .

وقال السبكي : قبل أحد ثم نسخ ، والجار والمجرور قال أبو البقاء متعلق بقتلت كأنه قيل أي قتلت نفساً بلا حق ، وجوز أن يتعلق بمحذوف أي قتلاً بغير نفس ، وأن يكون في موضع الحال أي قتلتها ظالماً لها أو مظلومة .

وقرأ ابن عباس .

والأعرج .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وابن محيصن .

وحميد .

والزهري .

ونافع .

واليزيد .

وابن مسلم .

وزيد .

وابن بكير عن يعقوب .

ورويس عنه أيضاً .

وأبو عبيد .

وابن جبير الأنطاكي وابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ زاكية ﴾ بتخفيف الياء وألف بعد الزاي ، و﴿ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ بالتشديد من غير ألف كما قرأ زيد بن علي .

والحسن .

والجحدري .

وابن عامر .

والكوفيون أبلغ من ذلك لأنه صفة مشبهة دالة على الثبوت مع كون فعيل المحول من فاعل كما قال أبو حيان يدل على المبالغة ، وفرق أبو عمرو بين زاكية وزكية بأن زاكية بالألف هي التي لم تذنب قط وزكية بدون الألف هي التي أذنبت ثم غفرت .

(36/476)

وتعقب بأنه فرق غير ظاهر لأن أصل معنى الزكاة النمو والزيادة فلذا وردت للزيادة المعنوية وأطلقت على الطهارة من الآثام ولو بحسب الخلقة والابتداء كما في قوله تعالى : ﴿ لِاَهَبَ

لَكِ غلاما زَكِيّاً ﴾ فمن أين جاءت هذه الدلالة ثم وجه ذلك بأنه يحتمل أن تكون لكون زاكية بالألف من زكى اللازم وهو يقتضي أنه ليس بفعل آخر وأنه ثابت له في نفسه وزكية بمعنى مزكاة فإن فعيلاً قد يكون من غير الثلاثي كرضيع بمعنى مراضع ، وتطهير غيره له من الذنوب إنما يكون بالمغفرة وقد فهمه من كلام العرب فإنه أمام العربية واللغة فتكون بهذا الاعتبار زاكية بالألف أبلغ وأنسب بالمقام بناءً على أنه يرى أن الغلام لم يبلغ الحلم ولذا اختار القراءة بذلك وإن كان كل من القراءتين متواتراً عنه صلى الله عليه وسلم ، وهذا على ما قيل لا ينافي كون زكية بلا ألف أبلغ باعتبار أنها تدل على الرفع وهو أقوى من الدفع فافهم ، وأياً ما كان فوصف النفس بذلك لزيادة تفظيع ما فعل .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب أن الخضر عليه السلام لما قتل الغلام ذعر موسى عليه السلام ذعرة منكرة وقال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ منكراً جداً ، قال الإمام : المنكر ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس وهو أبلغ في تقبيح الشيء من الأمر ، وقيل بالعكس ، وقال الراغب : المنكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف ، ولهذه الأبلغية قال بعضهم .

المراد شيئاً أنكر من الأول ، واختار الطيبي أنه دون الأمر وقال : إن الذي يقتضيه النظم أنه ذكر الأغلظ ثم تنزل إلى الأهون فقتل النفس أهون من الخرق لما فيه من إهلاك جماعة وأغلظ من إقامة الجدار بلا أجرة ، وقال في "الكشف" : الظاهر أبلغية النكر أما بحسب

اللفظ فظاهر ألا ترى كيف فسر الشاعر أي في قوله :

لقد لقى الأقران مني نكرا . . .

داهية دهياء إدا إمرا

(37/476)

النكر بداهية من صفتها كيت وكيت وجعل الإمر بعض أوصافها ، وأما بحسب الحقيقة فلأن خرق السفينة تسبب إلى الهلاك وهذا مباشرة على أن ذلك لم يكن سبباً مفضياً ، وقول من قال : إنه تنزل استدلالاً بأن إقامة الجدار أهون من القتل ليس بشيء لأنه حكى على ترتيب الوجود لا تنزل فيه ولا ترقى وإنما يلاحظ ذلك بالنسبة إلى ما ذيل انتهى ، وروي القول بالأبلغية عن قتادة ، ومما يؤيد ذلك ما حكاه القرطبي عن صاحب العرس والعرائس أن موسى عليه السلام حين قال للخضر عليه السلام ما قال غضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه وإذا مكتوب فيه كافر لا يؤمن بالله تعالى أبداً ، وبنى وجه تغيير النظم الجليل على أقبحية القتل فقيل : إنما غير النظم إلى ما ترى لأن القتل أقبح والاعتراض عليه ادخل وأحق فكان الاعتراض جديراً بأن يجعل عمدة الكلام ، وهو مبني على أن الحكم في الكلام الشرطي هو الجزاء والشرط قيد له بمنزلة الحال عند أهل

العربية ، وتحقيق ذلك في المطول وحواشيه .

وكان العطف بالفاء التعقيبية ليفيد أن القتل وقع عقيب اللقاء من غير ريث كما يشعر به الاعتراض إذ لو مضى زمان بين اللقاء والقتل أمكن نظراً للأمور العادية إطلاع الخضر فيه من حاله على ما لم يطلع عليه موسى عليه السلام فلا يعترض عليه هذا الاعتراض ، ولا يضر في هذا ادعاء أن الخرق أيضاً كذلك لأن المقصود توجيه اختيار الفاء دون الواو أو ثم بعد توجيه اختيار أصل العطف بأن ذلك يتأتى جعل الاعتراض عمدة ، والحاصل أنه لما كان الاعتراض في القصة الثانية معتنى بشأنه وأهم جعل جزاء لإذا الشرطية وبعد أن تعين للجزائية لذلك لم يكن بد من جعل القتل من جملة الشرط بالعطف ، واختيرت الفاء من بين حروفه ليفاد التعقيب ، ولما لم يكن الاعتراض في القصة الأولى مثله في الثانية جعل مستأنفاً وجعل الخرق جزاء .

(38/476)

وزعم التاشكندي جواز كون الاعتراضين في القصتين مستأنفين والجزاء فيهما فعل الخضر عليه السلام إلا أنه لا بد من تقدير قد في الجزاء الثاني لأن الماضي المثبت الغير المقترن بها لفظاً أو تقديراً لا يصل للجزائية .

واعتبر هذا في الثانية ولم يعتبر مثله في الأول لأن القتل أقبح فهو جدير بأن يؤكد ولا كذلك الخرق .

وتعقبه بعض الفضلاء بأن الفاء الجزائية لا يجوز أن تدخل على الماضي المثبت إلا بتقدير قد لتحقق تأثير حرف الشرط فيه بأن يقلب معناه إلى الاستقبال فلا حاجة إلى الرابطة في كونه جواباً ، وأما بتقدير قد فتدخل الفاء لعدم تأثير حرف الشرط فيه فهو محتاج إلى الرابطة فقوله تعالى : ﴿ خَرَقَهَا ﴾ وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فقلته ﴾ لكونهما مستقبلين بالنسبة إلى ما قبلهما يقعان جزاءً بلا حاجة إلى ربط الفاء الجزائية فلا مجال في الثاني لجعل الفاء جزائية وكذا لا مجال في الأول لفرض تقدير قد لاصطلاح إدخال الفاء عليه فتدبر فإنه لا يخلو عن شيء .

(39/476)

وقال مير بادشاه في الرد على ذلك : إن الذوق السليم يأبي عن تقدير قد لو جعل القتل جزاء لعدم اقتضاء المقام إياه كيف وقد سبق الخرق جزاء بدونها وقد علم أنه يصدر عن الخضر عليه السلام ما لا يستطيع المتشرع أن يصبر عليه وما المحتاج إلى التحقيق إلا اعتراض موسى عليه السلام ثانياً بعد ما سلف منه من الكلام وكونه عليه السلام مرسلاً

منه تعالى للتعلم ، وفيه إعراض عن بيان النكتة في التحقيق وعدم التفات إليها وغفلة على ما قال بعض الفضلاء عن موضع الفاء الجزائية وتقدير قد ، ولعل الحق أن يقال : إن التقدير وإن جاز خلاف الظاهر جداً ، وزعم أيضاً أنه يمكن أن يقال في بيان إخراج القصتين على ما أخرجنا عليه أن لقاء الغلام سبب للشفقة والرفق لا القتل فلذا لم يحسن جعله جزاءً وجعل جزاء الشرط وركوب السفينة قد يكون سبباً لخرقها فلذا جعل جزاء ، وفيه أن للخصم أن يمنع الفرق ويقول : كما أن لقاء الغلام سبب للرفق لا القتل كذلك ركوب السفينة سبب لحفظها وصيانتها لا الخرق كيف وسلامتها سبب لسلامة الخضر عليه السلام ظاهراً ، ومن الأمثال العامية لا ترم في البئر التي تشرب منها حجراً ، وإذا سلم له أن يقول : إن لقاء الغلام سبب للرفق لا للقتل فالقتل أغرب والاعتراض عليه أدخل فالاعتراض جدير بأن يجعل جزاء فيؤول الأمر في بيان النكتة إلى نحو ما تقدم والأمر في هذا سهل كما لا يخفى .

وقال شيخ الإسلام في وجه التغيير : إن صدور الخوارق عن الخضر عليه السلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة واستأنست النفس به كاستئناسها بالأمور العادية فانصرفت عن ترقب سماعه إلى ترقب سماع حال موسى عليه السلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع إلى المناقشة كما في المرة الأولى فكان

المقصود إفادة ما صدر عنه عليه السلام فجعل الجزاء اعتراضه دون ما صدر عن الخضر عليهما السلام ولله تعالى در شأن التنزيل .

(40/476)

وأما ما قيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام فليس من رفع الشبهة في شيء بل هو مؤيد لها فإن كون القتل أقبح من مبادىء قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره إلى الأسماع وذلك مما يستدعي جعله مقصوداً وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل فضلاً عن النبي وذلك لا يقتضي جعله كذلك انتهى ، وتعقب بأن ما ذكره من النكتة على تقدير تسليمه لا يضر من بينها بما تقدم إذ لا تزاحم في النكات ، وأما اعتراضه فقوله مما يستدعي جعله مقصوداً إن أراد أنه مقصود في نفسه فليس بصحيح وإن أراد أنه مقصود بأن يعترض عليه ويمنع منه فهذا يقتضي جعل الاعتراض جزاء كما مر ، وأما كونه من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل فمقتض للاهتمام بالاعتراض عليه .

(41/476)

وأنت تعلم أن الشيء كلما ندر كان الإخبار به وإفادته السامع أوقع في النفس وأن الأخبار الغريبة يهتم بإفادتها ما لا يهتم بإفادة غير الغريبة إذ العالم بالغريب قليل بخلاف العالم بغيره وإنكار ذلك مكابرة فمراد الشيخ أن كون القتل أقبح من مبادىء قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره إلى الأسماع وذلك مما يستدعي جعله مقصوداً بالإفادة كما هو شأن الأمور القليلة الصدور النادرة الوقوع وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة الصدور وذلك لا يقتضي أن يعامل كذلك ، وعلى هذا لا غبار على ما ذكره عند المنصف ، ثم إن ما ذكره من النكتة يتأتى على القول بأن القتل أقبح من الخرق وعلى القول بالعكس أيضاً وهذا بخلاف ما تقدم فإنه كان مبنياً على أقبحية القتل فمن لا يقول بها يحتاج في بيان النكتة إلى غير ذلك ، وقد رجح بذلك على ما تقدم ، واستأنس له أيضاً بأن مسلق الكلام من أوله لشرح حال موسى عليه السلام فجعل اعتراضه عمدة الكلام أوفق بالمساق إلا أنه عدل عن ذلك في قصة الخرق وجعل ما صدر عن الخضر عليه السلام عمدة دون اعتراضه لأن النفس لما سمعت وصف الخضر ظمأت لسماع ما يصدر منه فبل غليلها وجعل ما صدر عنه مقصوداً بالإفادة لأنه مطلوب للنفس وهي منتظرة إياه ثم بعد أن سمعت ذلك وسكن أوامها سلك بالكلام مسلكه الأول وقصد بالإفادة حال من سيق الكلام من أوله لشرح حاله ، ولا يخفى أن هذا قول بأن الأصل نظراً إلى السوق أن تكون

القصة الأولى على طرز القصة الثانية إلا أنه عدل عن ذلك لما ذكر ، والخروج عن الأصل يتقدر بقدر الحاجة ﴿ اللهفَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 173] وهو مخالف لما يفهم من كلام الشيخ في الجملة فافهم والله تعالى أعلم .

وقرأ نافع .

وأبو بكر .

وابن ذكوان .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وطلحة .

ويعقوب .

وأبو حاتم ﴿ نُّكْراً ﴾ بضمتين حيث كان منصوباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(42/476)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾

أي فعقِب تلك المحاورة أنهما انطلقا .

والانطلاق : الذهاب والمشي ، مشتق من الإطلاق وهو ضد التقييد ، لأن الدابة إذا حُلّ عقالها مشت .

فأصله مطاوع أطلقه .

و(حتى) غاية للانطلاق .

أي إلى أن ركبا في السفينة .

و(حتى) ابتدائية ، وفي الكلام إيجاز دل عليه قوله : ﴿ إذا ركبا في السفينة ﴾ .

أصل الكلام : حتى استأجرا سفينة فركباها فلما ركبا في السفينة خرقها .

وتعريف ﴿ السفينة ﴾ تعريف العهد الذهني ، مثل التعريف في قوله تعالى : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ [يوسف : 13] .

وإذا ﴾ ظرف للزمان الماضي هنا ، وليست متضمنة معنى الشرط .

وهذا التوقيت يؤذن بأخذه في خرق السفينة حين ركوبهما .

وفي ذلك ما يشير إلى أن الركوب فيها كان لأجل خرقها لأن الشيء المقصود يبادِر به قاصده لأنه يكون قد دبره وارتآه من قبل .

وبني نظم الكلام على تقديم الظرف على عامله للدلالة على أن الخرق وقع بمجرد الركوب في السفينة ، لأن في تقديم الظرف اهتماماً به ، فيدل على أن وقت الركوب مقصود لإيقاع الفعل فيه .

وضمن الركوب معنى الدخول لأنه ركوب مجازي ، فلذلك عدي بحرف (في) الظرفية نظير قوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ [هود : 41] دون نحو قوله : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ [النحل : 8] .

وقد تقدم ذلك في سورة هود .

والخرق : الثقب والشق ، وهو ضد الالتئام .

والاستفهام في أخرقتها ﴾ للإنكار .

ومحل الإنكار هو العلة بقوله : ﴿ لتغرق أهلها ﴾ ، لأن العلة ملازمة للفعل المستفهم عنه .

6 ولذلك توجه أن يغير موسى عليه السلام هذا المنكَر في ظاهر الأمر ، وتأكيد إنكاره بقوله : ﴿ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ .

والإمر بكسر الهمزة : هو العظيم المفظع .

يقال : أَمِر كفرح إِمراً ، إذا كثر في نوعه .

ولذلك فسره الراغب بالمنكر ، لأن المقام دال على شيء ضارّ .

ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدة وصراحة .

ولم يجعله نكراً كما في الآية بعدها لأن العلم الذي عمله الخضر ذريعة للغرق ولم يقع الغرق بالفعل .

وقرأ الجمهور ﴿ لتغرق ﴾ بمثناة فوقية مضمومة على الخطاب .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف ﴿ ليَغرق ﴾ بتحتية مفتوحة ورفع ﴿ أهلها ﴾ على إسناد فعل الغرق للأهل .

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72)

استفهام تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم ، أي أُتَقِرّ أني قلتُ إنك لا تستطيع معي صبراً .

و﴿ معي ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ تستطيع ﴾ ، فاستطاعة الصبر المنفية هي التي تكون في صحبته لأنه يرى أموراً عجيبة لا يدرك تأويلها .

وحُذف متعلق القول تنزيلاً له منزلة اللازم ، أي ألم يقع مني قول فيه خطابك بعدم الاستطاعة .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) ﴾

اعتذر موسى بالنسيان وكان قد نسي التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره .

والنهي مستعمل في التعطف والتماس عدم المؤاخذة ، لأنه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذةَ من لا يَصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر .

فالحَزامة الاحتراز من صحبة من يطرأ عليه النسيان ، ولذلك بني كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يبن على الاعتذار بالنسيان ، كأنه رأى نفسه محقوقاً بالمؤاخذة ، فكان كلاماً بديع النسيج في الاعتذار .

والمؤاخذة : مفاعلة من الأخذ ، وهي هنا للمبالغة لأنها من جانب واحد كقوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ [النحل : 61] .

و(ما) مصدرية ، أي لا تؤاخذني بنسياني .

والإرهاق : تعدية رهق ، إذا غشِي ولحق ، أي لا تُغشِّني عسراً .

وهو هنا مجاز في المعاملة بالشدة .

والإرهاق : مستعار للمعاملة والمقابلة .

والعسر : الشدة وضد اليسر .

والمراد هنا : عسر المعاملة ، أي عدم التسامح معه فيما فعله فهو يسأله الإغضاء والصفح .

والأمر : الشأن .

و (مِن) يجوز أن تكون ابتدائية ، فكون المراد بأمره نسيانه ، أي لا تجعل نسياني منشئاً لإرهاقي عُسراً .

ويجوز أن تكون بيانية فيكون المراد بأمره شأنه معه ، أي لا تجعل شأني إرهاقك إياي عسراً .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾

يدل تفريع قوله : ﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً ﴾ عن اعتذار موسى ، على أن الخضر قبل عذره وانطلقا مصطحبين .

والقول في نظم قوله : ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً ﴾ كالقول في قوله : ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة ﴾ [الكهف : 71] .

وقوله : فقتله ﴾ تعقيب لفعل ﴿ لقيا ﴾ تأكيداً للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف ، فكانت المبادرة بقتل الغلام عند لقائه أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها .

وكلام موسى في إنكار ذلك جرى على نسق كلامه في إنكار خرق السفينة سوى أنه وصف هذا الفعل بأنه نكُر ، وهو بضمتين : الذي تنكره العقول وتستقبحه ، فهو أشد من الشيء الإمْر ، لأن هذا فساد حاصل والآخر ذريعة فساد كما تقدم .

ووصف النفس بالزاكية لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم فلم يقترف ذنباً فكان زكياً طَاهراً .

والزكاء : الزيادة في الخير .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ورويس عن يعقوب ﴿ زَاكية ﴾ بألف بعد الزاي اسم فاعل من زكا .

وقرأ الباقون ﴿ زكية ﴾ ، وهما بمعنى واحد .

قال ابن عطية : النون من قوله : ﴿ نكراً ﴾ هي نصف القرآن ، أي نصف حروفه .

وقد تقدم أن ذلك مخالف لقول الجمهور : إن نصف القرآن هو حرف التاء من قوله تعالى : ﴿ وليتلطف ﴾ في هذه السورة (19) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(45/476)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فانطلقا ﴾ سارا معاً ، حتى ركبا سفينة ، وكانت مُعَدَّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أنْ بادر إلى خَرْقها وإتلافها ، عندها لم يُطِق موسى هذا الأمر ، وكبُرت هذه المسألة في نفسه فلم يصبر عليها فقال : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ [الكهف : 71]

أي : أمراً عجيباً أو فظيعاً . ونسى موسى ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كأن الحقَّ تبارك وتعالى يريد أن يُعلِّمنا أن الكلام النظري شيء ، والعمل الواقعي شيء آخر ، فقد تسمع من أحدهم القول الجميل الذي يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ؛ لأن الكلام قد يُقَال في أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمن يقول لك : أنا رَهْن أمرك ورقبتي لك ، فإذا ما أحوجك الواقع إليه كنت كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يكتف بالاستفهام : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا . . ﴾ [الكهف : 71] بل تعدَّى إلى اتهامه بأنه أتى أمراً منكراً فظيعاً ؛ لأن كلام موسى النظري شيء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شيء آخر ؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعي إتلاف مال الغير ، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72)

وهذا درس آخر من الخضر لموسى عليهما السلام يقول : إن كلامي لك كان صادقاً ، وقد حذرتُك أنك لن تصبرَ على ما ترى من تصرفاتي ، وها أنت تعترض عليَّ ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألاَّ تسألني عن شيء حتى أُخبرك أنا به .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ . . . ﴾ .

يعتذر موسى عليه السلام عما بدر منه لمعلمه ، ويطلب منه مسامحته وعدم مؤاخذته ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ [الكهف : 73] أي : لا تُحمّلني من أمر اتباعك عُسْراً ومشقة . فسامحه الخضر وعاود السير .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه ، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفس زكية دون حق ، فبأيِّ جريرة يُقتل هذا الغلام الذي لم يبلغ رُشْده ؟ لذلك قال في الأولى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ [الكهف : 71] أي عجيباً أما هنا فقال : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 74] أي : مُنكَراً ؛ لأن الجريمة كبيرة .

والنفس الزكية : الطاهرة الصافية التي لم تُلوِّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية .

وكذلك يأتي الرد من الخضْر مخالفاً للرد الأول ، ففي المرة الأولى قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف : 72]

أي : قلت كلاماً عاماً ، أما هنا فقال : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى مخبراً عن قول موسى للخضر ، عليهما السلام ، حين خرق السفينة : (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (الكهف : 71) ، وقوله له عند قتل الغلام : (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (الكهف : 74) ، للسائل أن يسأل عن الفرق بين الموضعين الموجب لوصف كل من هذين الفعلين بما وصف به ؟

والجواب ، والله أعلم : أن خرق السفينة لم يبلغ بحيث يتلفها ، وإنما قصد به الخضر عيبها ليزهد فيها مريد غصبها بدليل قوله بعد : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (الكهف : 79) ، فإنما أراد إبقاءها على مالكها ودفع هذا الغاصب إذا رأى ما بها من العيب المانع من الرغبة فيها ، وهذا لا يبلغ ظاهره مبلغ ظاهر قتل الغلام بغير سبب ظاهر فوصف بإمر في قوله : (شَيْئًا إِمْرًا) ، وهو دون النكر . وأما البادي الظاهر من قتل الغلال عند من يغيب عنه ما علمه من الخضر فشيء نكر ، ومرتكب عند من لحظه بظاهره وغاب عنه ما في طيه شنيع ووزر ، فوقع التعبير في الموضعين بما يناسب كلا

الفلعلين ، وعن قتادة رحمه الله : ((النكر أشد من الإمر)) فجاء كل على ما يلائم ، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في اموضع الآخر ، والله أعلم . .

قوله تعالى في حكاية قول الخضر لموسى ، عليهما السلام : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) ﴾ [الكهف : 72] ، ثم قوله بعد ذلك في قصة قتل الغلام : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لزيادة "لك" في هذا القول الثاني ؟ .

والجواب : أن الخضر قد كان قال ملوسى حين قال له موسى ، عليه السلام : (هَلْ

(48/476)

أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) (الكهف : 6-67) فلما كان من موسى عند خرق السفينة ما كان من الإنكار بقوله : (خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (الكهف : 71) ، ذكره الخضر بما كان قد قاله له ، من غير أن يزيده على إيراد ما كان قد قاله ، فقال : (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) (الكهف : 72) . فاعتذر موسى ، عليه السلام ، بقوله : (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) (الكهف : 73) ، فلما وقع منه بعد ذلك إنكار قتل

الغلام بقوله : (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) (الكهف : 74) ، وأبلغ في وصف الفعلة بقوله : (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (الكهف : 74) ، قابل الخضر ذلك بتأكيد الكلام المتقدم ، فقال : (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) ، فالضمير المجرورة بيان جيء به تأكيداً ، ليقابل بالكلام ما وقع جواباً له من قوله موسى ، عليه السلام ، زيادة للتناسب ، وتعلق المجرور الواقع بياناً مختلف فيه ، فمنهم من يعلقه بفعل مضمر ، ومنهم من يجري حرف الجر الذي فيه كحرف الجر الزائد فلا يعلقه بشيء ، وقوله : (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) على هذا لا مأذخ معمولاً للقول من قوله : (أَلَمْ أَقُلْ) .

ويمكن عندي فيه وجه آخر ، وهو أن يكون قوله : (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) كلاماً مستقلاً ، محذوفاً منه معمول القول ، وكأنه في تقدير : ألم أقل لك ما قلت ، ثم استأنف المقالة فقال : (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) على هذا ليس معمولاً للقول من قوله : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) ، إنما معمول (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) ،

(49/476)

محذوف مقدر ، كما حذف معمول القول من قوله تعالى : (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا) (يونس : 77) ومعمول القول محذوف تقديره : أتقولون للحق لما

جاءكم سحر مبين ، ثم قال لهم تقريعاً وتوبيخاً : (أَسِحْرٌ هَذَا) فسحر مبين المقد معمول للقول ، وهو من قولهم ، وقوله : (أَسِحْرٌ هَذَا) من قول موسى ، عليه السلام ، توبيخاً لهم كما ذكرنا . فكذا حذف من قوله : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) ، كما تقدم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 322 . 323 ﴾

(50/476)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) ﴾

قوله : ﴿ لِتُغْرِقَ ﴾ : في اللام وجهان ، أحدُهما : هي لامُ العلة . والثاني : هي لامُ الصَّيْرورة . وقرأ الأخَوان : " لِيَغْرَقَ " بفتح الياء مِنْ تحتُ وسكونِ الغين وفتحِ الراء ، " أهلُها " بالرفع فاعلاً . والباقون بضمِّ التاءِ مِنْ فوقُ وكسرِ الراء ، أي : لتُغْرِق أنت أهلَها بالنصب مفعولاً به . والحسن وأبو رجاء كذلك ، إلا أنَّهما شَدَّدا الراءَ .

والسفينة معروفةٌ ، وتُجمع على سُفُن وسَفائن نحو : صحيفة وصُحُف وصحائف .

وتُحذف منها التاءُ مراداً بها الجمعُ، فتكونُ اسمَ جنسٍ نحو: ثَمَرَ وبَلَح. إلا أنه هذا المصنوع قليلٌ جداً نحو: جَرَّة وجَرّ، وعِمامة وعِمام. قال الشاعر:

3179- متى تَأْتيه تأتي لُجَ بَحْرٍ . . . تقاذَفُ في غواربه السَّفينُ

واشتقاقها مِن السَّفْن وهو القَشْر؛ لأنها تقشُر الماءَ. كما سُمِّيَتْ "بِنْتَ مَخْرٍ" لأنها تَمْخُر الماء، أي: تَشُقُّه.

قوله: "إمْراً" شيئاً عظيماً، يقال: أَمِرَ الأَمْرُ، أي: عَظُم وتفاقَمَ. قال:

3180- داهِيَةً دَهْياءَ إمْراً . . .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) ﴾

قوله: ﴿ عُسْراً ﴾: كفعولٌ ثانٍ ل "تُرْهِقْني" مِنْ أَرْهَقَه كذا إذا حَمَّله إياه وغشَّاه به. و "ما" في "بما نَسِيْتَ" مصدريةٌ أو بمعنى الذي، والعائدُ محذوفٌ.

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) ﴾

(51/476)

قوله : ﴿ زَاكِيَةً ﴾ : قرأ " زاكية " بألفٍ وتخفيفِ الياءِ نافعٌ وابنُ كثير وابو عمرو . وبدون الألف وتشديد الياء الباقون . فَمَنْ قَرَأَ " زاكية " فهو أسمُ فاعلٍ على أصلِه . ومَنْ قرأ " زَكِيَّة " فقد أخرجه إلى فَعِيلة للمبالغة .

والغُلام : مَنْ لم يَبْلُغْ . وقد يُطْلق على البالغِ الكبيرِ . فقيل : مجازاً باعتبارِ ما كان . ومنه قولُ ليلى :

3181- شَفاها مِنَ الدَّاءِ الذي قد أصابها . . . غُلامٌ إذا هَزَّ القناةَ شَفاها

وقال آخر :

3182- تَلَقَّ ذُبابَ السَّيْفِ عني فإنني . . . غلامٌ إذا هُوجِيْتُ لَسْتُ بشاعرِ

وقيل : بل هو حقيقةٌ لأنه مِن الإغلام وهو السَّبْق ، وذلك إنما يكونُ في الإنسانِ المحتلِم . وقد تقدَّم ترتيبُ أسماءِ الآدمي مِنْ لَدُن هو جنينٌ إلى أن يصير شيخاً ولله الحمد / .

قال الزمخشري : " فإن قلت : لِمَ قيل : " حتى إذا ركِبا في السفينةِ خَرَقَها " بغير فاءٍ ، و " حتى إذا لَقِيا غلاماً فَقَتَلَه " بالفاء ؟ قلت " جَعَل " خَرَقَها " جزاءً للشرطِ ، وجَعَل " قَتَلَه " من جملةِ الشرط معطوفاً عليه ، والجزاءُ " قال : أَقَتَلْتَ " . فإنْ قلت : لِمَ خُولف بينهما ؟ قلت : لأنَّ الخَرْقَ لم يتعقَّبِ الركوبَ ، وقد تعقَّبَ القتلُ لقاءَ الغلامِ " .

قوله : ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : انها متعلقةٌ ب " قَتَلْتَ " . الثاني : أنها متعلقةٌ بمحذوفٍ على أنها حالٌ مِنَ الفاعلِ أو من المفعولِ ، أي : قَتَلْتَه ظالماً أو مظلوماً ،

كذا قَدَّرَه أبو البقاء . وهو بعيدٌ جداً . الثالث : أنها صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : قَتْلاً بغيرِ نفسٍ .

(52/476)

قوله : " نُكْراً " قرأ نافع وأبو بكر وابن ذكوان بضمتين ، والباقون بضمة وسكون . وهما لغتان ، أو أحدهما أصل . و " شيئاً " : يجوز أن يُراد به المصدرُ ، أي : مَجيئاً نُكْرا ، وأن يُراد به المفعولُ به ، أي : جِئْتَ أمراً مُنْكَراً . وهل النُّكْرُ أَبْلَغُ من الإِمرِ أو بالعكس . فقيل : الإِمْرُ أبلغُ ؛ لأنَّ قَتْلَ أَنْفُسٍ بسبب الخَرْقِ أعظمُ مِنْ قَتْلِ نفسٍ واحدة . وقيل : بل النُّكْرُ أبلغُ لأن معه القَتْلَ الحَتْمَ ، بخلاف خَرْقِ السفينة فإنه يمكن تداركُه ، ولذلك قال : " ألم أَقُلْ لك " ولم يأتِ ب " لك " مع " إمراً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 527. 530﴾

(53/476)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) ﴾

لما ركبوا الفُلْكَ خرقها وكان ذلك إبقاءً على صاحبها لئلا يرغبَ في السفينةِ المخروقةِ المَلِكُ الطامعُ في السفن .

وقوله : ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ أي لتؤديَ عاقبةُ هذا الأمر إلى غرَقِ أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قَصَدَ إغراقَ أهلِ السفينة .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) ﴾

أي أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإنّا نُجْزِيه من حيث الحُكْم .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) ﴾

طالبَه بما هو شرط العلم حيث قال : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ ؛ لأن الناسيَ لا يدخل تحت التكليف ، وأَيَّدَ ذلك بما قَرَنَ به قوله : ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ فالمُتَمَكِّنُ من حقه التكليف ومن لا يصحُّ منه الفعلُ والتَرْكُ لا يتوجه (. . . .) والناس من جملتهم .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا

(74) ﴾

كان بِخُلُقِ العلم واجباً على موسى – عليه السلام – قَصْرُه حيث يرى في الظاهر ظُلْماً ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمَّ بمحظورٍ أو مُباحٍ، ففي ذلك الوقت كان قلب العادة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 409. 410 ﴾

(54/476)

قوله تعالى ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما كانت هذه ثانية ﴿ قال ﴾ الخضر عليه السلام: ﴿ ألم أقل ﴾ وزاد قوله: ﴿ لك

إنك ﴾ يا موسى ﴿ لن تستطيع معي ﴾ أي خاصة ﴿ صبراً قال ﴾ موسى عليه السلام حياء منه لما أفاق بتذكر مما حصل من فرط الوجد لأمر الله فذكر أنه ما تبعه إلا بأمر الله : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ يا أخي ! وأعلم بشدة ندمه على الإنكار بقوله : ﴿ فلا تصاحبني ﴾ بل فارقني ؛ ثم علل ذلك بقوله ﴿ قد بلغت ﴾ وأشار إلى أن ما وقع منه من الإخلال بالشرط من أعظم الخوارق التي اضطر إليها فقال : ﴿ من لدني عذراً ﴾ باعتراضي مرتين واحتمالك لي فيهما .

وقد أخبرني الله بحسن حالك في غزارة علمك ﴿ فانطلقا ﴾ بعد قتله ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ عبر عنها هنا بالقرية دون المدينة لأنه أدل على الذم ، لأن مادة قرا تدور على الجمع الذي يلزمه الإمساك كما تقدم في آخر سورة يوسف عليه السلام ؛ ثم وصفها ليبين أن لها مدخلاً في لؤم أهلها بقوله تعالى : ﴿ استطعما ﴾ وأظهر ولم يضمر في قوله : ﴿ أهلها ﴾ لأن الاستطعام لبعض من أتوه ، أو كل من الإتيان والاستطعام لبعض ولكنه غير متحد ، وهذا هو الظاهر ، لأنه هو الموافق للعادة .

قال الإمام أبو الحسن الحرالي في كتابه مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل : ولتكرار الأسماء بالإظهار والإضمار بيان سنين الأفهام في القرآن : اعلم أن لوقوع الإظهار والإضمار في بيان القرآن وجهين : أحدهما يتقدم فيه الإظهار وهو خطاب المؤمنين بآيات الآفاق

وعلى نحوه هو خطاب الخلق بعضهم لبعض لا يضمرون إلا بعد أن يظهروا ، والثاني يتقدم فيه الإضمار وهو خطاب الموقنين بآية الأنفس ، ولم يصل إليه تخاطب الخلق .

(55/476)

فإذا كان البيان عن إحاطة ، تقدم الإضمار ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وإذا كان عن اختصاص ، تقدم الإظهار ﴿ الله الصمد ﴾ وإذا رد عليه بيان على حدة أضمر ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ أي هذا الذي عم بأحديته وخص بصمديته ، وإذا أحاط البيان بعد اختصاص استؤنف له إحاطة باستئناف إظهار محيط أو بإضمار ، أو بجمع المضمر والمظهر ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ [الحجرات : 1] ﴿ إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ [البروج : 12] ﴿ هو الله لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ [الحشر : 22] والتفطن لما اختص به بيان القرآن عن بيان الإنسان من هذا النحو من مفاتيح أبواب الفهم ، ومن نحوه ﴿ أتيا أهل قرية استطعما أهلها ﴾ استأنف للمستطعمين إظهاراً غير إظهار المأتيين - انتهى .

وجعل السبكي الإتيان للبعض ، والاستطعام للكل ، لأنه أشد ذماً لأهل القرية وأدل على شر طبعها ، ومن قال بالأول مؤيد بقول الشافعي في كتاب الرسالة في باب ما نزل من الكتاب

عاماً يراد به العام ويدخلها الخصوص وهو بعد البيان الخامس في قول الله عز وجل ﴿ حتى إذا أتيا قرية استطعما أهلها ﴾ : وفي هذه الآية أدل دلالة على أنه لم يستطعما كل أهل القرية وفيها خصوص – انتهى ، وبيان ذلك أن نكرة إذا أعيدت كانت الثانية غير الأولى ، وإذا أعيدت معرفة كانت عيناً في الأغلب .

ولما أسند الإتيان إلى أهل القرية كان ظاهره تناول الجميع ، فلو قيل : استطعماهم لكان المراد بالضمير عين المأتيين ، فلما عدل عنه – مع أنه أخصر – إلى الظاهر ولا سيما إن جعلناه نكرة كان غير الأولى وإلا لم يكن للعدول فائدة ، وقد كان الظاهر أن الأول للجميع فكان الثاني للبعض ، وإلا لم يكن غيره ولا كان للعدول فائدة .

(56/476)

﴿ فأبوا ﴾ أي فتسبب عن استطعامهما أن أبى المستطعمون من أهل القرية ﴿ أن يضيفوهما ﴾ أي ينزلوهما ويطعموهما فانصرفا عنهم ﴿ فوجدا فيها ﴾ أي القرية ، ولم يقل : فيهم ، إيذاناً بأن المراد وصف القرية بسوء الطبع ﴿ جداراً ﴾ مشرفاً على السقوط ، وكذا قال مستعيراً لما لا يعقل صفة ما يعقل : ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أي يسقط سريعاً فمسحه الخضر بيده ﴿ فأقامه ﴾ .

ولما انقضى وصف القرية وما تسبب عنه أجاب " إذا " بقوله : ﴿ قال ﴾ أي له موسى عليه السلام : ﴿ لو شئت لتخذت ﴾ لكوننا لم يصل إلينا منهم شيء ﴿ عليه ﴾ أي على إقامة الجدار ﴿ أجراً ﴾ نأكل به ، فلم يعترض عليه في هذه المرة لعدم ما ينكر فيها ، وإنما ساق ما يترتب عليها من ثمرتها مساق العرض والمشورة غير أنه يتضمن السؤال ﴿ قال ﴾ الخضر عليه السلام : ﴿ هذا ﴾ أي الوقت أو السؤال .

(57/476)

ولما كان ذلك سبب الفراق أو محله ، سماه به مبالغة فقال : ﴿ فراق بيني وبينك ﴾ يا موسى بعد أن كان البينان بيناً واحداً لاتصالهما فلا بين ، فهو في الحقيقة فوق ما كان متصلاً من بينهما ، أو فراق التقاول الذي كان بيننا ، أي الفراق الذي سببه السؤال ، وإذا نزل على الاحتباك ازداد ظهوراً ، تقديره : فراق بيني وبينك كما أخبرت ، وفراق بينك من بيني كما شرطت ، وقد أثبتت هذه العبارة الفراق على أبلغ وجه ، وذلك أنه إذا وقع فراق بيني من بينك بحائل يحول بينهما فقد وقع منك بطريق الأولى ، وحقيقته أن البين هو الفراغ المنبسط الفاصل بين الشيئين وهو موزع بينهما ، فبين كل منهما من منتصف ذلك الفراغ إليه ، فإذا دخل في ذلك الفراغ شيء فصل بينهما ، وصار بين كل منهما ينسب إليه ، لأنه صار بين ما

ينسب إلى كل منهما من البينين ، وحينئذ يكون بينهما مباينة ، أي أن بين كل منهما غير بين الآخر ومن قال : إن معنى " هذا فراق بيننا " زوال الفصل ووجود الوصل ، كذبه أن معنى " هذا اتصال بيننا " المواصلة ، فلو كان هذا معنى ذاك أيضاً لاتحد معنى ما يدل على الوصل بمعنى ما يدل على الفصل ، وقد نبه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام – كما في تفسير الأصبهاني وغيره – بما فعل الخضر عليه السلام على ما وقع له هو من مثله سواء بسواء ، فنبهه – بخرق السفينة الذي ظاهره هلك وباطنه نجاة من يد الغاصب – على التابوت الذي أطبق عليه وألقي في اليم خوفاً عليه من فرعون الغاصب فكان ظاهره هلكاً وباطنه نجاة ، وبقتل الغلام على أنه كان معصوم الحركة في نفس الأمر في قتله القبطي وإن لم يكن إذ ذاك يعلمه لكونه لم ينبأ ، وبأقامة الجدار من غير أجر على سقيه لبنات شعيب عليهم السلام من غير أجر مع احتياجه لذلك .

(58/476)

ولما كان من المعلوم شدة استشراف موسى عليه السلام إلى الوقوف في باطن هذه الأمور ، قال مجيباً له عن هذا السؤال : ﴿ سأنبئك ﴾ يا موسى بوعد لا خلف فيه إنباء عظيماً ﴿ بتأويل ﴾ أي بترجيع ﴿ ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ لمخالفته عندك الحكمة إلى الحكمة

وهو أن عند تعارض الضررين يجب ارتكاب الأدنى لدفع الأقوى بشرط التحقق ، وأثبت تاء الاستفعال هنا وفيما قبله إعلاماً بأنه ما نفى إلا القدرة البليغة على الصبر ، إشارة إلى صعوبة ما حمل موسى من ذلك ، لا مطلق القدرة على الصبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 494.496 ﴾

(59/476)

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه ما زاد على أن ذكره ما عاهده عليه فقال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ وهذا عين ما ذكره في المسألة الأولى إلا أنه زاد ههنا لفظة لك لأن هذه اللفظة تؤكد التوبيخ فعند هذا قال موسى : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته وهذا كلام نادم شديد الندامة ثم قال : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ والمراد منه أنه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولاً وثانياً ، مع قرب المدة وبقي مما يتعلق بالقراءة في هذه الآية ثلاثة مواضع : الأول : قرأ نافع برواية ورش وقالون وابن عامر وأبو بكر عن عاصم نكراً بضم الكاف في جميع

القرآن والباقون ساكنة الكاف حيث كان وهما لغتان .

الثاني : الكل قرأوا : ﴿ لا تُصَاحِبْنِى ﴾ بالألف إلا يعقوب فإنه قرأ : (لا تصحبني) من صحب والمعنى واحد الثالث : في ﴿ لدني ﴾ قراءات .

الأولى : قراءة نافع وأبي بكر في بعض الروايات عن عاصم : ﴿ من لدني ﴾ بتخفيف النون وضم الدال .

الثانية : قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم : ﴿ لدني ﴾ مشددة النون وضم الدال .

الثالثة : قرأ أبو بكر عن عاصم بالإشمام وغير إشباع .

الرابعة : ﴿ من لدني ﴾ بضم اللام وسكون الدال في بعض الروايات عن عاصم وهذه القراءات كلها لغات في هذه اللفظة .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

اعلم أن تلك القرية هي أنطاكية وقيل هي الأيلة وههنا سؤالات : الأول : إن الاستطعام ليس من عادة الكرام فكيف أقدم عليه موسى وذلك العالم لأن موسى كان من عادته عرض الحاجة وطلب الطعام ألا ترى أنه تعالى حكى عنه أنه قال في قصة موسى عند ورود ماء مدين : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] .

الجواب : أن إقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعما أَهْلَهَا ﴾ وكان من الواجب أن يقال استطعما منهم ، والجواب أن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر :

ليت الغراب غداة ينعب دائما . . كان الغراب مقطع الأوداج

السؤال الثالث : إن الضيافة من المندوبات فتركها ترك للمندوب وذلك أمر غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذي لأجله ترك العهد الذي التزمه مع ذلك العالم في قوله : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى ﴾ وأيضاً مثل هذا الغضب لأجل ترك الأكل في ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلاً عن كليم الله .

الجواب : أما قوله الضيافة من المندوبات قلنا : قد تكون من المندوبات ، وقد تكون من الواجبات بأن كان الضيف قد بلغ في الجوع إلى حيث لو لم يأكل لهلك وإذا كان التقدير ما ذكرناه لم يكن الغضب الشديد لأجل ترك الأكل يوماً ، فإن قالوا : ما بلغ في الجوع إلى حد الهلاك بدليل أنه قال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ وكان يطلب على إصلاح ذلك الجدار أجرة ، ولو كان قد بلغ في الجوع إلى حد الهلاك لما قدر على ذلك العمل فكيف يصح

منه طلب الأجرة قلنا لعل ذلك الجوع كان شديداً إلا أنه ما بلغ حد الهلاك ، ثم قال تعالى :

﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : يضيفوهما يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وحقيقته مال إليه من ضاف السهم عن الغرض .

ونظيره : زاره من الإزورار ، وأضافه وضيفه أنزله ، وجعله ضيفه ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم "كانوا أهل قرية لئاماً .

(61/476)

" البحث الثاني : رأيت في كتب الحكايات أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا : يا رسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء تاءاً حتى تصير القراءة هكذا : فأتوا أن يضيفوهما .

أي أتوا لأن يضيفوهما ، أي كان إتيان أهل تلك القرية إليهما لأجل الضيافة ، وقالوا : غرضنا منه أن يندفع عنا هذا اللؤم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

" إن تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام الله ، وذلك يوجب القدح في الإلهية .

" فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ، ثم قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ أي فرأيا في القرية حائطاً مائلاً ، فإن قيل كيف يجوز وصف الجدار بالإرادة مع أن الإرادة من صفات الأحياء قلنا هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة ، وله نظائر في الشعر قال :

يريد الرمح صدر أبي براء . . ويرغب عن دماء بني عقيل

وأنشد الفراء :

إن دهراً يلف شملي بجمعل . . لزمان يهم بالإحسان

وقال الراعي

في مهمة فلقت به هاماتها . . فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

ونظيره من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾ وقوله : ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وقوله : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وقوله : ﴿ أَن يَنقَضَّ ﴾ يقال انقض إذا أسرع سقوطه من انقضاض الطائر وهو انفعل مطاوع قضضته .

وقيل : انقض فعل من النقض كأحمر من الحمرة ، وقرىء أن ينقض من النقض ، وأن ينقاض من انقاضت العين إذا انشقت طولاً ، وأما قوله : ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ قيل نقضه ثم بناه ، وقيل : أقامه بيده ، وقيل : مسحه بيده فقام واستوى وكان ذلك من معجزاته ، واعلم أن ذلك العالم لما فعل ذلك .

وكانت الحالة حالة اضطرار وافتقار إلى الطعام فلأجل تلك الضرورة نسي موسى ما قاله من قوله : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى ﴾ فلا جرم قال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي طلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات ، وقرىء : ﴿ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ والتاء تخذت أصل كما في تبع ، واتخذ افتعل منه كقولنا اتبع من قولنا تبع ، واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذا الكلام قال العالم : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ وههنا سؤالات .

السؤال الأول : قوله : هذه إشارة إلى ماذا ؟ والجواب من وجهين : الأول : أن موسى عليه السلام قد شرط أنه إن سأله بعد ذلك سؤالاً آخر يحصل الفراق حيث قال : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى ﴾ فلما ذكر هذا السؤال فارقه ذلك العالم وقال : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ أي هذا الفراق الموعود .

الثاني : أن يكون قوله هذا إشارة إلى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض هو سبب الفراق .

السؤال الثاني : ما معنى قوله : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ ؟ الجواب : معناه هذا فراق حصل بيني وبينك ، فأضيف المصدر إلى الظرف ، حكى القفال عن بعض أهل العربية أن

البين هو الوصل لقوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ فكان المعنى هذا فراق بيننا ، أي اتصالنا ، كقول القائل : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، أي أحدنا هكذا قاله الزجاج ، ثم قال العالم لموسى عليه السلام : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة ، وأصل التأويل راجع إلى قولهم آل الأمر إلى كذا أي صار إليه ، فإذا قيل : ما تأويله فالمعنى ما مصيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 134.132 ﴾

(63/476)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : فلا تتابعني .

الثاني : فلا تتركني أصحبك ، قاله الكسائي .

الثالث : فلا تصحبني .

الرابع : فلا تساعدني على ما أريد .

﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذراً ﴾ قد اعتذرت حين أنذرت .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾

اختلف في هذه القرية على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها أنطاكية ، قاله الكلبي .

الثاني : أنها الأبلة ، قاله قتادة .

الثالث : أنها باجروان بإرمينية ، قاله مقاتل .

﴿ فَأَبَوْا إِنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ يقال أضفت الرجل إذا نزل عليك فأنت مضيف . وضفت الرجل إذا نزلت عليه فأنت ضيف . وكان الطلب منهما الفاقة عُذراً فيهما . والمنع من أهل القرية لشحٍ أثموا به .

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي كاد أن ينقض ؛ ذلك على التشبيه بحال من يريد أن يفعل في التالي ، كقول الشاعر :

يريد الرمح صدر أبي براءٍ . . . . . ويرغب عن دماءِ بني عقيل

ومعنى ينقض يسقط بسرعة ، ويناقض ينشق طولاً . وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَصَّ ﴾ بالصاد غير المعجمة ، من النقصان .

﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ قال سعيد بن جبير : أقام الجدار بيده فاستقام ، وأصل الجدر الظهور ومنه الجدري لظهوره .

وعجب موسى عليه السلام وقد ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ فأقام لهم الجدار ف ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ قال قتادة : شر القرى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هذا الذي قلته ﴿ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾

الثاني : هذا الوقت ﴿ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾

﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لم تستطع على المشاهدة له صبراً .

الثاني : لم تستطع على الإمساك عن السؤال عنه صبراً . فروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى لَو صَبَرَ لاَقْتَبَسَ مِنْهُ أَلْفَ بَابٍ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ألم أقل لك ﴾

زجر وإغلاظ ليس في قوله أولاً ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ وقوله بعد هذا ﴿ يريد ﴾ بعدها القصة ، فأعاد الضمير عليها وإن كانت لم يتقدم لها ذكر صريح ، من حيث كانت في ضمن القول ، وقرأ الجمهور " فلا تصاحبني " ورواها أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عيسى ويعقوب " فلا تصحبني " ، وقرأ عيسى أيضاً " فلا تُصحبني " بضم التاء وكسر الحاء ورواها سهل عن أبي عمرو ، والمعنى فلا تصحبني علمك ، وقرأ الأعرج " فلا تَصحبنّي " : بفتح التاء والباء وشد النون ، وقوله ﴿ قد بلغت من لدني عذراً ﴾ أي قد أعذرت إلي ، وبلغت إلى العذر من قبلي ، ويشبه أن تكون هذه القصة أيضا أصلاً للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة ، وأيام التلوم ثلاثة فتأمله ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم من " لَدُنّي " بفتح وضم الدال وشد النون .

(66/476)

وهي " لدن " اتصلت بها نون الكناية التي في ضربني ونحوه ، فوقع الإدغام ، وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ نافع وعاصم " لَدُني " كالأولى إلا أن النون مخففة ، فهي " لدن " اتصلت بها ياء المتكلم التي في غلامي وفرسي ، وكسر ما قبل الياء كما كسر في هذه ، وقرأ أبو بكر عن عاصم " لَدْني " بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون وهي تخفيف " لدني " التي ذكرناها قبل هذه وروي عن عاصم " لُدْني " بضم اللام وسكون الدال قال ابن مجاهد وهي غلط قال أبو علي هذا التغليظ يشبه أن يكون من جهة الرواية فأما على قياس العربية فهي صحيحة ، وقرأ الحسن " لَدْني " بفتح اللام وسكون الدال ، وقرأ الجمهور " عذْراً " وقرأ أبو عمرو وعيسى " عذُراً " بضم الدال ، وحكى الداني أن أبي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم " عذري " بكسر الراء وياء بعدها وأسند الطبري ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه ، فقال يوماً رحمة الله علينا ، وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، ولكنه قال ﴿ فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ وفي البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر ، حتى يقص علينا من أمرهما " ، وروي في تفسير هذه الآية أن الله جعل هذه الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر ، حجة على موسى وعجباً له ، وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة ، نودي يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم ، فلما أنكر أمر الغلام ، قيل له أين إنكارها هذا من وكرك للقبطي وقضائك عليه ؟

فلما أنكر إقامة الجدار نودي أين هذا من رفعك حجر البير لبنات شعيب دون أجر ؟

وقوله : ﴿ فانطلقا ﴾ يريد انطلق الخضر وموسى يمشيان لارتياد الخضر أمراً ينفذ فيه ما عنده من علم الله فمرا بقرية فطلبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا ، وفي حديث : أنهما كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم ، وهذه عبرة مصرحة بهوان

(67/476)

الدنيا على الله ، واختلف الناس في " القرية " : فقال محمد بن سيرين هي الأبلة . وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء ، وقالت فرقة هي أنطاكية ، وقالت فرقة هي برقة ، وقالت فرقة هي بجزيرة الأندلس ، روي ذلك عن أبي هريرة وغيره ، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء ، وقالت فرقة هي أبو حوران ، وهي بناحية أذربيجان .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى والله أعلم بحقيقة ذلك ، وقرأ الجمهور " يضَيِّفوهما " بفتح الضاد وشد الياء ، وقرأ أبو رجاء " يضيفوهما " ، بكسر الضاد وسكون الياء وهي قراءة ابن محيصن ، وابن الزبير ، والحسن وأبي رزين ، والضيف مأخوذ من ضاف إلى المكان إذا مال إليه ، ومنه الإضافة ، وهي إمالة شيء إلى شيء ، وقرأ الأعمش " فأبوا أن يطعموهما " ، وقوله في الجدار ﴾

يريد ﴾ استعارة ، وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة ، أي لو كان مكان الجماد إنسان لكان ممتثلاً لذلك الفعل ، فمن ذلك قول الأعشى : [البسيط]

أتنتهون ولا ينهى ذوي شطط . . . كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

فأسند النهي إلى الطعن . ومن ذلك قول الشاعر : [الوافر]

يريد الرمح صدر أبي براء . . . ويرغب عن دماء بني عقيل

ومنه قول عنترة : [الكامل]

(68/476)

وشكا إلي بعبرة وتحمحم . . . وقد فسر هذا المعنى بقوله لو كان يدري ما المحاورة البيت ، ومنه قول الناس : داري تنظر إلى دار فلان ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تتراءى نارهما ، وهذا كثير جداً وقرأ الجمهور " ينقض " أي يسقط ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه " أن يُنقض " بضم الميم وتخفيف الضاد وهي قراءة أبي ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعكرمة " أن يناقص " ، بالصاد غير منقوطة بمعنى ينشق طولاً ، يقال انقاص الجدار وطي البير ، وانقاصت السن ، إذا انشقت طولاً ، وقيل

إذا تصدعت كيف كان ، ومنه قول أبي ذؤيب : [الطويل]

فراق كقيص السن فالصبر انه . . . لكل أناس عبرة وحبور

ويروى عثرة وجبور بالثاء والجيم ، وقرأ ابن مسعود والأعمش " يريد لينقض " واختلف المفسرون في قوله ﴿ فأقامه ﴾ فقالت فرقة هدمه وقعد يبنيه ، ووقع هذا في مصحف ابن مسعود ، ويؤيد هذا التأويل قول ، ﴿ لو شئت لتخذت عليه أجراً ﴾ لأنه فعل يستحق أجراً ، وقال سعيد بن جبير مسحه بيده وأقامه فقام .

قال القاضي أبو محمد : وروي في هذا الحديث وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم السلام فقال موسى للخضر : ﴿ لو شئت لتخذت عليه أجراً ﴾ أي طعاماً تأكله ، وقرأ الجمهور " لتخذت " وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " لتخذت " وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة وأدغم بعض القراء الذال في التاء ، ولم يدغمها بعضهم ، ومن قولهم تخذ قول الشاعر : [المزق] : [الطويل]

وقد تخذت رجلي إلى جنب غرزها . . . نسيقاً كأفحوص القطاة المطرق

وفي حرف أبي بن كعب : " لو شئت لأوتيت عليه أجراً " ، ثم قال الخضر لموسى بحسب شرطهما ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ واشترط الخضر ، وأعطاه موسى أن لا يقع سؤال عن شيء ، والسؤال أقل وجوه الاعتراضات ، فالإنكار والتخطئة أعظم منه ، وقوله ﴿ لو شئت لتخذت عليه أجراً ﴾ وإن لم يكن سؤالاً ففي ضمنه الإنكار لفعله ، والقول بتصويب أخذ الأجر ، وفي ذلك تخطئة ترك الأجر ، والبين الصلاح ، الذي يكون بين المصطحبين ونحوهما ، وذلك مستعار فيه من الظرفية ، ويستعمل استعمال السماء ، وأما فصله ، وتكريره ﴿ بيني وبينك ﴾ وعدوله عن بيننا ، فلمعنى التأكيد ، والسين في قوله ﴿ سأنبئك ﴾ مفرقة بين المحاورتين والصحبتين ، ومؤذنة بأن الأولى قد انقطعت ، ثم أخبره في مجلسه ذلك وفي مقامه ﴿ بتأويل ﴾ تلك القصص والتأويل هنا المآل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(70/476)

فائدة من كتاب فتاوى السبكى :

كَتَبَ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ صَلَاحُ الدِّينِ الصَّفَدِيُّ إلَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ : أَسَيِّدَنَا قَاضِي الْقُضَاةِ وَمَنْ إذَا بَدَا وَجْهُهُ اسْتَحْيَا لَهُ الْقَمَرَانِ وَمَنْ كَفُّهُ يَوْمَ النَّدَى وَيَرَاعُهُ عَلَى

طِرْسِهِ بَحْرَانِ يَلْتَقِيَانِ وَمَنْ إِنْ دَجَتْ فِي الْمُشْكِلَاتِ مَسَائِلُ جَلَاهَا بِفِكْرٍ دَائِمِ اللَّمَعَانِ

رَأَيْت كِتَابَ اللَّهِ أَكْبَرَ مُعْجِزٍ لِأَفْضَلِ مَنْ يَهْدِي بِهِ الثَّقَلَانِ وَمِنْ جُمْلَةِ الْإِعْجَازِ كَوْنُ اخْتِصَارِهِ

بِإِيجَازِ أَلْفَاظٍ وَبَسْطِ مَعَانٍ وَلَكِنَّنِي فِي الْكَهْفِ أَبْصَرْت آيَةً بِهَا الْكُفْرُ فِي طُولِ الزَّمَانِ عَنَانِي

وَمَا هِيَ إلَّا ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ فَقَدْ يُرَى اسْتَطْعَمَا هُمْ مِثْلَهُ بِبَيَانٍ فَأَرْشِدْ عَلَى عَادَاتِ

فَضْلِك حَيْرَتِي فَمَالِي بِهَا عِنْدَ الْبَيَانِ يَدَانِ كَتَبَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ : رَحِمَهُ اللَّهُ .

الْجَوَابُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ .

قَوْله تَعَالَى ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ مُتَعَيَّنٌ وَاجِبٌ .

وَلَا يَجُوزُ مَكَانَهُ اسْتَطْعَمَا هُمْ لِأَنَّ " اسْتَطْعَمَا " صِفَةٌ لِلْقَرْيَةِ فِي مَحَلِّ خَفْضٍ جَارِيَةٌ عَلَى

غَيْرِ مَنْ هِيَ لَهُ كَقَوْلِك أَتَيْت أَهْلَ قَرْيَةٍ مُسْتَطْعِمٍ أَهْلَهَا .

لَوْ حَذَفْت أَهْلَهَا هُنَا وَجَعَلْت مَكَانَهُ ضَمِيرًا لَمْ يَجُزْ فَكَذَلِكَ هَذَا .

وَلَا يَجُوزُ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَيْءٌ غَيْرُ ذَلِكَ إذَا جَعَلْت " اسْتَطْعَمَا " صِفَةً لِقَرْيَةٍ وَجَعْلُهُ

صِفَةً لِقَرْيَةٍ سَائِغٌ عَرَبِيٌّ لَا تَرُدُّهُ الصِّنَاعَةُ وَلَا الْمَعْنَى ، بَلْ أَقُولُ إنَّ الْمَعْنَى عَلَيْهِ .

أَمَّا كَوْنُ الصِّنَاعَةِ لَا تَرُدُّهُ فَلِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ إلَّا وَصْفُ نَكِرَةٍ بِجُمْلَةٍ كَمَا تُوصَفُ سَائِرُ النَّكِرَاتِ

بِسَائِرِ الْجَمَلِ .

وَالتَّرْكِيبُ مُحْتَمِلٌ لِثَلَاثَةِ أَعَارِيبَ أَحَدُهَا هَذَا وَالثَّانِي أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبِ

صِفَةٍ لِأَهْلِ .

وَالثَّالِثُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ جَوَابَ " إذَا " وَالْأَعَارِيبُ الْمُمْكِنَةُ مُنْحَصِرَةٌ فِي الثَّلَاثَةِ لَا رَابِعَ لَهَا

.

وَعَلَى الثَّانِي وَالثَّالِثِ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ " اسْتَطْعَمَاهُمْ " وَعَلَى

(71/476)

الْأَوَّلِ لَا يَصِحُّ لِمَا قَدَّمْنَاهُ فَمَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْ الْآيَةَ كَمَا تَأَمَّلْنَاهَا ظَنَّ أَنَّ الظَّاهِرَ وَقَعَ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ وَغَابَ عَنْهُ الْمَقْصُودُ وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ وُفِّقْنَا لِلْمَقْصُودِ وَلَمَحْنَا بِعَيْنِ الْإِعْرَابِ الْأَوَّلَ مِنْ جِهَةِ مَعْنَى الْآيَةِ وَمَقْصُودِهَا .

وَأَنَّ الثَّانِيَ وَالثَّالِثَ وَإِنْ احْتَمَلَهُمَا التَّرْكِيبُ بَعِيدَانِ عَنْ مَعْنَاهَا أَمَّا الثَّالِثُ وَهُوَ كَوْنُهُ جَوَابَ " إذَا " فَلِأَنَّهُ يُصَيِّرُ الْجُمْلَةَ الشَّرْطِيَّةَ مَعْنَاهَا الْإِخْبَارُ بِاسْتِطْعَامِهِمَا عِنْدَ إتْيَانِهِمَا وَأَنَّ ذَلِكَ تَمَامُ مَعْنَى الْكَلَامِ وَنُجِلُّ مِقْدَارَ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَنْ تَجْرِيدِ قَصْدِهِمَا إلَى أَنْ يَكُونَ مُعْظَمُهُ أَوْ هُوَ طَلَبُ طُعْمَةٍ ؛ أَوْ شَيْئًا مِنْ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ بَلْ كَانَ الْقَصْدُ مَا أَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَ الْيَتِيمَانِ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّك وَإِظْهَارَ تِلْكَ الْعَجَائِبِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَوَابُ " إذَا " قَوْلُهُ ﴿ قَالَ لَوْ شِئْت ﴾ إلَى تَمَامِ الْآيَةِ وَأَمَّا الثَّانِي وَهُوَ

كَوْنُهُ صِفَةً لِأَهْلِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ فَلَا يُصَيِّرُ الْعِنَايَةَ إلَى شَرْحِ حَالِ الْأَهْلِ مِنْ حَيْثُ هُمْ هُمْ ، وَلَا يَكُونُ لِلْقَرْيَةِ أَثَرٌ فِي ذَلِكَ وَنَحْنُ نَجِدُ بَقِيَّةَ الْكَلَامِ مُشِيرًا إلَى الْقَرْيَةِ نَفْسِهَا ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " عِنْدَهُمْ " وَإِنَّ الْجِدَارَ الَّذِي قُصِدَ إصْلَاحُهُ وَحِفْظُهُ وَحِفْظُ مَا تَحْتَهُ جُزْءٌ مِنْ قَرْيَةٍ مَذْمُومٍ أَهْلُهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ سُوءُ صَنِيعٍ مِنْ الْآبَاءِ عَنْ حَقِّ الضَّيْفِ مَعَ بَيَانِ طَلَبِهِ ، وَلِلْبِقَاعِ تَأْثِيرٌ فِي الطِّبَاعِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْقَرْيَةُ حَقِيقَةً بِالْإِفْسَادِ وَالْإِضَاعَةِ فَقُوبِلَتْ بِالْإِصْلَاحِ بِمُجَرَّدِ الطَّاعَةِ فَلَمْ يَقْصِدْ إلَّا الْعَمَلَ الصَّالِحَ ، وَلَا مُؤَاخَذَةَ بِفِعْلِ الْأَهْلِ الَّذِينَ مِنْهُمْ غَادٍ وَرَائِحٌ فَلِذَلِكَ قُلْت : إنَّ الْجُمْلَةَ يَتَعَيَّنُ مِنْ جِهَةِ

(72/476)

الْمَعْنَى جَعْلُهَا صِفَةً لِقَرْيَةٍ .

وَيَجِبُ مَعَهَا الْإِظْهَارُ دُونَ الْإِضْمَارِ ، وَيَنْضَافُ إلَى ذَلِكَ مِنْ الْفَوَائِدِ أَنَّ " الْأَهْلَ " الثَّانِي يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا هُمْ الْأَوَّلَ أَوْ غَيْرُهُمْ أَوْ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ، وَالْغَالِبُ أَنَّ مَنْ أَتَى قَرْيَةً لَا يَجِدُ جُمْلَةَ أَهْلِهَا دَفْعَةً ، بَلْ يَقَعُ بَصَرُهُ أَوَّلًا عَلَى بَعْضِهِمْ ثُمَّ قَدْ يَسْتَقْرِيهِمْ فَلَعَلَّ هَذَيْنِ الْعَبْدَيْنِ الصَّالِحَيْنِ لَمَّا أَتَيَاهَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُمَا كَمَا يَظْهَرُ لَهُمَا مِنْ حُسْنِ صُنْعِهِ اسْتِقْرَاءَ جَمِيعِ أَهْلِهَا عَلَى التَّدْرِيجِ لِيُبَيِّنَ بِهِ كَمَالَ رَحْمَتِهِ وَعَدَمَ مُؤَاخَذَتِهِ بِسُوءِ صَنِيعِ بَعْضِ عِبَادِهِ .

وَلَوْ عَادَ الضَّمِيرُ فَقَالَ اسْتَطْعَمَاهُمْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْأَوَّلَيْنِ لَا غَيْرُ ، فَأَتَى بِالظَّاهِرِ إِشْعَارًا بِتَأْكِيدِ الْعُمُومِ فِيهِ وَأَنَّهُمَا لَمْ يَتْرُكَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا حَتَّى اسْتَطْعَمَاهُ وَأَبَى وَمَعَ ذَلِكَ قَابَلَاهُمْ بِأَحْسَنِ الْجَزَاءِ فَانْظُرْ هَذِهِ الْمَعَانِيَ وَالْأَسْرَارَ كَيْفَ غَابَتْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ وَاحْتَجَبَتْ حَتَّى كَأَنَّهَا تَحْتَ الْأَسْتَارِ حَتَّى ادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ تَأْكِيدٌ وَادَّعَى بَعْضُهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ وَتَرَكَ كَثِيرٌ التَّعَرُّضَ لِذَلِكَ رَأْسًا وَبَلَغَنِي عَنْ شَخْصٍ أَنَّهُ قَالَ : اجْتِمَاعُ الضَّمِيرَيْنِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مُسْتَثْقَلٌ فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ " اسْتَطْعَمَاهُمْ " هَذَا شَيْءٌ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ النُّحَاةِ وَلَا لَهُ دَلِيلٌ وَالْقُرْآنُ وَالْكَلَامُ الْفَصِيحُ مُمْتَلِئٌ بِخِلَافِهِ .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي بَقِيَّةِ الْآيَةِ ﴿ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا) فِي قِرَاءَةِ الْحَرَمِيِّينَ وَابْنِ عَامِرٍ وَأَلْفُ مَوْضِعٍ هَكَذَا .

وَهَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ بِشَيْءٍ .

وَلَيْسَ هُوَ قَوْلًا حَتَّى يُحْكَى وَإِنَّمَا لَمَّا قِيلَ نَبَّهْت عَلَى رَدِّهِ وَمِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ أَنَّ (اسْتَطْعَمَا) إِذَا جُعِلَ جَوَابًا فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْ الْإِتْيَانِ

(73/476)

؛ وَإِذَا جُعِلَ صِفَةً احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ اتِّفِقَ قَبْلَ الْإِتْيَانِ وَذُكِرَ تَعْرِيفًا وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُمَا عَلَى عَدَمِ الْإِتْيَانِ لِقَصْدِ الْخَيْرِ ، وَقَوْلُهُ (فَوَجَدَا) مَعْطُوفٌ عَلَى (أَتَيَا) .

وَكَتَبْته فِي لَيْلَةِ الثُّلَاثَاءِ ثَالِثِ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ بِدِمَشْق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 65. 67 ﴾

(74/476)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال ألم أقل لك ﴾ .

إن قيل : لم ذكر "لك" ها هنا ، واختزله من الموضع الذي قبله ؟

فالجواب : أن إثباته للتوكيد ، واختزاله لوضوح المعنى ، وكلاهما معروف عند الفصحاء .

تقول العرب : قد قلت لك : اتق الله .

وقد قلت لك : يا فلان اتق الله ، وأنشد ثعلب :

قد كنتُ حَذَّرْتُكَ آلَ المصْطَلِقْ . . .

وقلتُ : يا هَذا أَطِعْنِي وَانْطَلِقْ

فقوله : يا هذا ، توكيد لا يختل الكلام بسقوطه .

وسمعت الشيخ أبا محمد الخشاب يقول : وقَّره في الأول ، فلم يواجهه بكاف الخطاب ، فلما خالف في الثاني ، واجهه بها .

قوله تعالى : ﴿ إِن سألتك عن شيء ﴾ أي : سؤال توبيخ وإِنكار ﴿ بعدها ﴾ أي : بعد هذه المسألة ﴿ فلا تصاحبني ﴾ وقرأ كذلك معاذ القارىء ، وأبو نهيك ، وأبو المتوكل ، والأعرج ، إِلا أنهم شدَّدوا النون .

قال الزجاج : ومعناه : إِن طلبتُ صحبتك فلا تُتَابعني على ذلك .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : "فلا تَصحبني" بفتح التاء من غير ألف .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، والأعمش كذلك ، إِلا أنهم شددوا النون .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو عثمان النهدي ، والنخعي ، والجحدري : "تُصْحِبْني" بضم التاء ، وكسر الحاء ، وسكون الصاد والباء .

قال الزجاج : فيهما وجهان .

أحدهما : لا تتابعني في شيء ألتمسه منك .

يقال : قد أصحب المهر : إِذا انقاد .

والثاني : لا تصحبني علماً من علمك .

﴿ قد بلغت من لدني ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "من لدنِّي" مثقل .

وقرأ نافع : "من لدُني" بضم الدال مع تخفيف النون .

وروى أبو بكر عن عاصم : "من لَدْني" بفتح اللام مع تسكين الدال .

وفي رواية أخرى عن عاصم : "لُدْني" بضم اللام وتسكين الدال .

(75/476)

قال الزجاج : وأجودها تشديد النون ، لأن أصل "لدن" الإِسكان ، فإذا أضفتها إِلى نفسك زدت نوناً ، ليسلم سكون النون الأولى ، تقول : من لدن زيد ، فتسكِّن النون ثم تضيف إِلى نفسك ، فتقول : من لدنِّي ، كما تقول : عن زيد وعنِّي .

فأما إِسكان دال "لَدْني" فإنهم أسكنوها ، كما تقول في عضُد : عَضْد ، فيحذفون الضم .

قال ابن عباس : يريد : إِنك قد أُعذرت فيما بيني وبينك ، يعني : أنك قد أخبرتني أني لا أستطيع معك صبراً .

قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إِذا أتيا أهل قرية ﴾ فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها أنطاكية ، قاله ابن عباس .

والثاني : الأُبُلَّة ، قاله ابن سيرين .

والثالث : باحروان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ استطعما أهلها ﴾ أي : سألاهم الضيافة ﴿ فأَبَوْا أن يضيّفوهما ﴾ روى المفضل عن عاصم : "يُضيفوهما" بضم الياء الأولى وكسر الضاد وتخفيف الياء الثانية .

وقرأ أبو الجوزاء كذلك ، إلا أنه فتح الياء [الأولى] .

وقرأ الباقون : "يضيّفوهما" بفتح الضاد وتشديد الياء الثانية وكسرها .

قال أبو عبيدة : ومعنى يضيّفوهما : ينزلوهما منزل الأضياف ، يقال : ضِفت أنا ، وأضافني الذي يُنزلني .

وقال الزجاج : يقال : ضِفتُ الرجل : إذا نزلتَ عليه ، وأضفته : إذا أنزلته وقَرَيْتَهُ .

وقال ابن قتيبة : [يقال] : ضيفت الرجل : إذا أنزلتَه منزلة الأضياف ، ومنه هذه الآية ، وأضفته : أنزلته ، وضِفته : نزلت عليه .

وروى أُبيُّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "كانوا أهل قرية لئاماً" " .

قوله تعالى : ﴿ فوجدا فيها جداراً ﴾ أي : حائطاً .

قال ابن فارس : وجمعه جُدُر ، والجَدْر : أصل الحائط .

ومنه حديث الزبير : " ثم دع الماء يرجع إلى الجَدْر " ، والجيدر : القصير .

قوله تعالى : ﴿ يريد أن ينقضَّ ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو رجاء : "ينقاض" بألف ممدودة ، وضاد معجمة ؛ وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وأبو عثمان النهدي : "ينقاص" بألف ومدة وصاد غير معجمة ، وكلُّه بلا تشديد .

قال الزجاج : فمعنى : ينقضَّ : يسقط بسرعة ، وينقاص ، غير معجمة : ينشق طولاً ، يقال : انقاصت سِنُّه : إذا انشقَّت .

قال ابن مقسم : انقاصت سِنُّه ، وانقاضت بالصاد ، والضاد على معنى واحد .

فإن قيل : كيف نسبت الإرادة إلى ما لا يعقل ؟

فالجواب : أن هذا على وجه المجاز تشبيهاً بمن يعقل ، ويريد : لأن هيأته في التهيؤ للوقوع قد ظهرت كما يظهر من أفعال المريدين القاصدين ، فوصف بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة ، وقد أضافت العرب الأفعال إلى ما لا يعقل تجوُّزاً ، قال الله عز وجل : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضبُ ﴾ [الأعراف : 154] ، والغضب لا يسكت ، وإنما يسكت صاحبه ، وقال :

﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ [محمد : 21] ، وأنشدوا من ذلك :

إنَّ دهْراً يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ . . .

لَزَمَانٌ يَهُمُّ بالإحْسانِ

وقال آخر :

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ . . .

وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عقيلِ

وقال آخر :

ضحكوا والدهرُ عنهم سَاكتٌ . . .

ثم أبكاهم دماً لَمَّا نَطَقْ

وقال آخر :

يشْكُو إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى . . .

[صَبْراً جَمِيلاً فَكِلانا مُبْتَلَى]

وهذا كثير في أشعارهم .

قوله تعالى : ﴿ فأقامه ﴾ أي : سوّاه ، لأنه وجده مائلاً .

وفي كيفية ما فعل قولان .

أحدهما : أنه دفعه بيده فقام .

والثاني : هدمه ثم قعد يبنيه ، روي القولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ لو شئتَ لَتَخِذْتَ عليه أجراً ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : "لَتَخِذْتَ" بكسر الخاء ، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال ، وابن كثير يظهرها .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "لاتَّخَذْتَ" وكلُّهم أدغموا ، إلا حفصاً عن عاصم ، فإنه لم يدغم مثل ابن كثير .

قال الزجاج : يقال : تَخِذ يَتْخَذُ في معنى : اتَّخَذَ يتَّخِذُ .

وإنما قال له هذا ، لأنهم لم يضيّفوهما .

قوله تعالى : ﴿ قال ﴾ يعني : الخضر ﴿ هذا ﴾ يعني : الإنكار عَلَيَّ ﴿ فراق بيني وبينك ﴾ أي : هو المفرّق بيننا .

قال الزجاج : المعنى : هذا فراقُ بيننا ، أي : فراق اتصالنا ، وكرر "بين" توكيداً ، ومثله في الكلام : أخزى اللهُ الكاذب مني ومنك .

وقرأ أبو رزين ، وابن السميفع ، وأبو العالية ، وابن أبي عبلة : "هذا فِراقٌ" بالتنوين "بيني وبينَك" بنصب النون .

قال ابن عباس : كان قول موسى في السفينة والغلام ، لربّه ، وكان قوله في الجدار ، لنفسه ، لطلب شيء من الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(78/476)

وقال القرطبى :

قوله : ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾

شرط وهو لازم ، والمسلمون عند شروطهم ، وأحقّ الشروط أن يُوفَّى به ما التزمه الأنبياء ، والتُزِم للأنبياء .

وقوله : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ يدل على قيام الاعتذار بالمرة الواحدة مطلقاً ، وقيامِ الحجة من المرة الثانية بالقطع ؛ قاله ابن العربي .

ابن عطية : ويشبه أن تكون هذه القصة أيضاً أصلاً للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة ، وأيام المتلوّم ثلاثة ؛ فتأمله .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ كذا قرأ الجمهور ؛ أي تتابعني .

وقرأ الأعرج "تَصْحَبَنِّي" بفتح التاء والباء وتشديد النون .

وقرىء "تَصْحَبْنِي" أي تتبعني .

وقرأ يعقوب "تُصْحِبْنِي" بضم التاء وكسر الحاء ؛ ورواها سهل عن أبي عمرو ؛ قال الكسائي : معناه فلا تتركني أصحبك .

﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ أي بلغت مبلغاً تُعذر به في ترك مصاحبتي .

وقرأ الجمهور : "مِنْ لَدُنِّي" بضم الدال ، إلا أن نافعاً وعاصماً خفّفا النون ، فهي "لدن" اتصلت بها ياء المتكلم التي في غلامي وفرسي ، وكُسر ما قبل الياء كما كُسر في هذه .

وقرأ أبو بكر عن عاصم "لَدِْني" بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون .

وروي عن عاصم "لُدِْني" بضم اللام وسكون الدال ؛ قال ابن مجاهد : وهي غلط ؛ قال أبو علي : هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فهي صحيحة .

وقرأ الجمهور "عُذْراً" .

وقرأ عيسى "عُذُراً" بضم الذال .

وحكى الداني أن أبيًّا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "عُذْرِي" بكسر الراء وياء بعدها .

(79/476)

مسألة : أسند الطبريّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه ، فقال يوماً : " رحمة الله علينا وعلى موسى لو صَبَر على صاحبه لرأى العجب ولكنه قال : ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ " والذي في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجَّل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذَمَامة ولو صَبَر لرأى العجب " قال : وكان إذا ذَكَر أحداً من الأنبياء

بدأ بنفسه : رحمة الله علينا وعلى أخي كذا .

وفي البخاري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله موسى لودِدْنَا أنه صَبَر حتى يقص علينا من أمرهما " الذَّمامة بالذال المعجمة المفتوحة ، وهو بمعنى المَذَمَّة بفتح الذال وكسرها ، وهي الرقة والعار من تلك الحرمة : يقال أخذتني منك مَذَمَّة ومَذِمَّة وذَمَامة . وكأنه استحيا من تكرار مخالفته ، ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ في صحيح مسلم عن أبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لئام " ؛ فطافا في المجلس ف ﴿ استطعما أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يقول : مائل قال : ﴿ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ الخضر بيده قال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيّفونا ، ولم يطعمونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله موسى لوَدِدْتُ أنه كان صَبَر حتى يقصَّ علينا من أخبارهما " .

الثانية : واختلف العلماء في القرية ؛ فقيل : هي أُبُلَّة ؛ قاله قتادة ، وكذلك قال محمد بن سيرين ، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء .

وقيل ؛ أَنْطاكية .

وقيل : بجزيرة الأندلس ؛ روي ذلك عن أبي هريرة وغيره ، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء .

وقالت فرقة : هي بَاجَرْوان وهي بناحية أذَربيجان .

وحكى السهيليّ وقال : إنها برقة .

الثعلبي : هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة ، وإليها تنسب النصارى ؛ وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى .

والله أعلم بحقيقة ذلك .

الثالثة : كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر ، ولم يسأل قوتاً بل سقى ابتداء ، وفي القرية سألا القوت ؛ وفي ذلك للعلماء انفصالات كثيرة ؛ منها أن موسى كان في حديث مَدْين منفرداً وفي قصة الخضر تبعاً لغيره .

قلت : وعلى هذا المعنى يتمشى قوله في أوّل الآية لفتاه : ﴿ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع ؛ والله أعلم .

وقيل : لما كان هذا سفر تأديب وُكِل إلى تكلّف المشقة ، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى

العون والنصرة بالقوت .

الرابعة : في هذه الآية دليل على سؤال القوت ، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يردّ جوعه خلافاً لجهال المتصوفة .

والاستطعام سؤال الطعام ، والمراد به هنا سؤال الضيافة ، بدليل قوله : "فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا" فاستحق أهل القرية لذلك أن يُذمّوا ، وينسبوا إلى اللؤم والبخل ، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام .

قال قتادة في هذه الآية : شر القُرَى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقّه .

ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة ، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة ، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء ، ومنصب الفضلاء والأولياء .

وقد تقدّم القول في الضيافة في "هود" والحمد لله .

(81/476)

ويعفو الله عن الحريريّ حيث استخف في هذه الآية وتَمجَّن ، وأتى بخطل من القول وزلّ ؛ فاستدل بها على الكُدْية والإلحاح فيها ، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله ، ولا منقصة عليه ؛ فقال :

وإِنْ رُدِدْتَ فما في الردِّ مَنقصةٌ . . .

عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والْخَضِرُ

قلت : وهذا لعب بالدين ، وانسلال عن احترام النبيين ، وهي شِنْشِنَة أدبية ، وهفوة سخافية ؛ ويرحم الله السلف الصالح ، فلقد بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح ، فقالوا : مهما كنت لاعباً بشيء فإياك أن تلعب بدينك .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ جِدَاراً ﴾ الجِدار والجَدْر بمعنًى ؛ وفي الخبر : "حتى يبلغ الماء الجدر" .

ومكان جَدِيرٌ بُني حواليه جدار ، وأصله الرفع .

وأجدرت الشجرةُ طلعت ؛ ومنه الجدريّ .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي قرب أن يسقط ، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحديث بقوله : "مائل" فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن ، وهو مذهب الجمهور .

وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحيّ الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة ، أي لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلاً لذلك الفعل ، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير ؛ فمن ذلك قول الأعشى :

أَتنتَهون ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ . . .

كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ

فأضاف النهى إلى الطعن .

ومن ذلك قول الآخر :

يُرِيدُ الرمحُ صدر أَبِي بَرَاءٍ . . .

ويرغبُ عن دماء بني عقيل

وقال آخر :

إنَّ دهراً يلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ . . .

لزَمَانٌ يَهُمُّ بالإِحسان

وقال آخر :

في مهمه فُلِقت به هاماتُها . . .

فَلْقَ الفؤوس إذا أردن نُصُولاً

أي ثبوتاً في الأرض ؛ من قولهم ؛ نَصَلَ السيفُ إذا ثَبَتَ في الرميّة ؛ فشبَّه وقع السيوف على رؤوسهم بوقع الفؤوس في الأرض ، فإن الفأس يقع فيها ويثبت لا يكاد يخرج .

وقال حسان بن ثابت :

لَوْ ان اللُّؤْمَ يُنسبُ كان عَبْداً . . .

قبيحَ الوجهِ أَعْوَرَ من ثَقِيفِ

وقال عَنْتَرة :

فازْوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ . . .

وشَكَا إليّ بعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ

وقد فَسَّر هذا المعنى بقوله :

لو كان يَدْرِي ما الْمُحَاوَرةُ اشتكى . . .

وهذا في هذا المعنى كثير جداً .

ومنه قول الناس : إن داري تنظر إلى دار فلان .

وفي الحديث : " اشتكت النارُ إلى ربّها " وذهب قوم إلى منع المجاز في القرآن ، منهم أبو إسحاق الإِسْفَراييني وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني وغيرهما ، فإن كلام الله عز وجل وكلام رسوله حمله على الحقيقة أولى بذي الفضل والدِّين ؛ لأنه يقصّ الحق كما أخبر الله تعالى في كتابه .

ومما احتجوا به أن قالوا : لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجوز أيضاً ، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضي العجز عن الحقيقة ، وهو على الله تعالى محال ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور :

24] وقال تعالى : ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] وقال تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] وقال تعالى : ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتولى ﴾ [المعارج : 17] و " اشتكت النار إلى ربها "

و : " احتجت النار والجنة " وما كان مثلها حقيقة ، وأن خالقها الذي أنطق كل شيء أنطقها .

وفي صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذُه ولحمه وعظامه بعمله وذلك لِيُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يَسخط الله عليه " هذا في الآخرة .

(83/476)

وأمّا في الدنيا ؛ ففي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لا تقومُ الساعةُ حتى تكلم السباع الإنسَ وحتى تُكلِّم الرجلَ عذَبَةُ سَوْطِهِ وشراكُ نعله وتُخبره فخذُه بما أَحدثَ أهلهُ مِنْ بعدِه " (قال أبو عيسى) : وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حديث حسن غريب .

السابعة : قوله تعالى : "فَأَقَامَهُ" قيل : هدمه ثم قعد يبنيه ، فقال موسى للخضر : ﴿ لَوْ

شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ لأنه فعلٌ يستحق أجراً .

وذكر أبو بكر الأنباري عن ابن عباس عن أبي بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ " فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه " قال أبو بكر : وهذا الحديث إن صح سنده فهو جارٍ من الرسول عليه الصلاة والسلام مجرى التفسير للقرآن ، وأن بعض الناقلين أدخل (تفسير) قرآن في موضع فَسَرى أن ذلك قرآن نَقصَ من مصحف عثمان ؛ على ما قاله بعض الطاعنين .

وقال سعيد بن جبير : مسحه بيده وأقامه فقام ، وهذا القول هو الصحيح ، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل والأولياء .

وفي بعض الأخبار : إن سُمْك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن ، وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعاً ، فأقامه الخضر عليه السلام أي سوّاه بيده فاستقام ؛ قاله الثعلبي في كتاب "العرايس" .

فقال موسى للخضر : "لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً" أي طعاماً نأكله ، ففي هذا دليل على كرامات الأولياء ، وكذلك ما وصف من أحوال الخضر عليه السلام في هذا الباب كلها أمور خارقة للعادة ؛ هذا إذا تنزلنا على أنه وليّ لا نبيّ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : 82] يدل على نبوّته وأنه يوحى إليه

بالتكاليف والأحكام ، كما أوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول ؛ والله أعلم .

(84/476)

الثامنة : واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه ، بل يسرع في المشي إذا كان ماراً عليه ؛ لأن في حديث النبي عليه الصلاة والسلام : " إذا مرّ أحدكم بطِرْبالٍ مائل فليُسرِعِ المشي " قال أبو عبيد القاسم بن سلام : كان أبو عبيدة يقول : الطِّرْبال شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة ؛ والبناء المرتفع ؛ قال جرير :

أَلْوَى بها شَذْبُ العُرُوقِ مُشَذَّبٌ . . .

فكأنما وَكَنَتْ على طِرْبالِ

يقال منه : وكَنَ يَكِن إذا جلس .

وفي الصحاح : الطِّرْبال القطعة العالية من الجدار ، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل ، وطَرَابيل الشام صوامعها .

ويقال : طَرْبل بَوْله إذا مدّه إلى فوق .

التاسعة : كرامات الأولياء ثابتة ، على ما دلت عليه الأخبار الثابتة ، والآيات المتواترة ،

ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد ، أو الفاسق الحائد ؛ فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف ، والصيفية في الشتاء على ما تقدم وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهي ليست بنبيّة ؛ على الخلاف .

ويدل عليها ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار .

قال بعض العلماء : ولا يجوز أن يقال كان نبياً ؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار الآحاد ، لا سيما وقد روي من طريق التواتر من غير أن يحتمل تأويلاً بإجماع الأمة قوله عليه الصلاة والسلام : " لا نبيّ بعدي " وقال تعالى : ﴿ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ والخضر و (إلياس) جميعاً باقيان مع هذه الكرامة ، فوجب أن يكونا غير نبيين ، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ ، إلا ما قامت الدلالة في حديث عيسى أنه ينزل بعده .

قلت : الجمهور أنّ الخضر كان نبياً على ما تقدم وليس بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ ، أي يدعي النبوّة بعده ابتداءً ؛ والله أعلم .

(85/476)

العاشرة : اختلف الناس هل يجوز أن يعلم الوليّ أنه وليّ أم لا ؟ على قولين : أحدهما : أنه لا يجوز ؛ وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر ، لأنه لا يأمن أن يكون مكراً واستدراجاً له ؛ وقد حكي عن السَّريّ أنه كان يقول : لو أن رجلاً دخل بستاناً فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح : السلام عليك يا وليّ الله ؛ فلو لم يخف أن يكون ذكر مكراً لكان ممكوراً به ؛ ولأنه لو علم أنه وليّ لزال عنه الخوف ، وحصل له الأمن .

ومن شرط الوليّ أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة ، كما قال عز وجل : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : 30] ولأن الوليّ من كان مختوماً له بالسعادة ، والعواقب مستورة ولا يدري أحد ما يختم له به ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالخواتيم " القول الثاني : أنه يجوز للوليّ أن يعلم أنه وليّ ؛ ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه وليّ ، ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه وليّ الله تعالى ، فجاز له أن يعلم ذلك .

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام من حال العَشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة ، ثم لم يكن في ذلك زوال خوفهم ، بل كانوا أكثر تعظيماً لله سبحانه وتعالى ، وأشد خوفاً وهيبة ؛ فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم .

وكان الشبليّ يقول : أنا أَمَانُ هذا الجانب ؛ فلما مات ودُفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم ، واستولوا على بغداد ، ويقول الناس : مصيبتان موت الشبليّ وعبور الديلم .

ولا يقال : إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجاً لأنه لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبيّ ووليّ الله ، لجواز أن يكون ذلك استدراجاً ، فلما لم يجز ذلك لأن فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا ، لأن فيه إبطال الكرامات .

(86/476)

وما روي من ظهور الكرامات على يدي بَلْعَام وانسلاخه عن الدين بعدها لقوله : ﴿ فانسلخ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : 175] فليس في الآية أنه كان ولياً ثم انسلخت عنه الولاية . وما نقل أنه ظهر على يديه ما يجري مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم ؛ والله أعلم .

والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الاستتار ، والمعجزة من شرطها الإظهار .

وقيل : الكرامة ما تظهر من غير دعوى ، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء ، فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك .

وقد تقدم في مقدّمة الكتاب شرائط المعجزة ، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له .

(87/476)

وأما الأحاديث الواردة في الدلالة على ثبوت الكرامات ، فمن ذلك ما خرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رَهْط سَرِيَّةً عَيْناً وأَمَّر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاريّ وهو جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدْأَة وهي بين عُسفان ومكة ذُكِروا لحيٍّ من هُذَيْل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا إليهم قريباً من مائتي راجل كلهم رام ، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزودوه من المدينة ، فقالوا : هذا تمر يثرب ؛ فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فَدْفَد ، وأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا فأعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحداً ؛ فقال عاصم بن ثابت أمير السريّة : أما فوالله لا أنزل اليوم في ذمة الكافر ، اللهم أخبر عنا نبيّك ، فَرَموا بالنّبل فقتلوا عاصماً في سبعة ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق ، وهم خُبَيْب الأنصاريّ وابن الدِّثِنة ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أوّل الغدر والله لا أصحبكم ؛ إن لي في هؤلاء لأسوة يريد القتلى فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ؛ فانطلقوا بخُبيب وابن الدِّثِنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خُبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خُبيب عندهم أسيراً ؛ فأخبر عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته

أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يَسْتَحِدُّ بها فأعارته ، فأخذ ابنٌ لي وأنا غافلة حتى أتاه ، قالت : فوجدته مُجلسَه على فخذه والموسى بيده ، قالت : ففزعتُ فزعة عرفها خُبيب في وجهي ؛ فقال : أتخشَيْن أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك .

(88/476)

قالت : والله ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خُبيب ؛ والله لقد وجدته يوماً يأكل من قِطْف عنب في يده ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر ؛ وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله تعالى خُبيباً ؛ فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحلّ قال لهم خُبيب : دعوني أركع ركعتين ؛ فتركوه فركع ركعتين ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بي جزع من الموت لزدت ؛ ثم قال : اللهمَّ أَحْصِهِم عدداً ، واقتلهم بَدَداً ، ولا تُبق منهم أحداً ؛ ثم قال :

ولست أبالي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً . . .

على أيِّ شِقٍّ كان لله مَصْرَعِي

وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ . . .

يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فقتله بنو الحرث ، وكان خُبيب هو الذي سنّ الركعتين لكل امرىء مسلم قُتل صَبْراً ؛

فاستجاب الله تعالى لعاصم يوم أصيب ؛ فأُخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أصيبوا .

وبعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصم حين حُدّثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرفونه ، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر ؛ فبعث الله على عاصم مثل الظُّلَّة من الدَّبْر فحمته من رُسلهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً .

وقال ابن إسحاق في هذه القصة : وقد كانت هذيل حين قتلِ عاصم بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلاَفة بنت سعد بن شُهَيْد ، وقد كانت نذرت حين أصاب ابنيها بأُحُد لئن قَدَرتْ على رأسه لتشرَبنَّ في قَحْفِهِ الخمر فمنعهم الدَّبْر ، فلما حالت بينه وبينهم قالوا : دعوه حتى يُمسِي فتذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله تعالى الوادي فاحتمل عاصماً فذهب ، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهداً ألاَّ يمسَّ مشركاً ولا يمسَّه مشركٌ أبداً في حياته ، فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما امتنع منه في حياته .

(89/476)

وعن عمرو بن أمية الضَّمْريّ : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه عيناً وحده فقال : جئت إلى خشبة خُبَيب فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون فأطلقته ، فوقع في الأرض ، ثم

اقتحمت فانتبذت قليلاً ، ثم التفت فكأنما ابتلعته الأرض .

وفي رواية أخرى زيادة : فلم نذكر لخبيب رِمّة حتى الساعة ؛ ذكره البيهقي .

الحادية عشرة : ولا ينكر أن يكون للوليّ مال وضَيْعة يصون بها وجهه وعياله ، وحسبك بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم ، وهم الحجة على غيرهم .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابةٍ اسقِ حديقةَ فلان فتنحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه في حَرَّةٍ فإذا شَرْجَة من تلك الشِّراجِ قد استوعبت ذلك الماء كلَّه فتتبع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحوِّل الماءَ بمسحاته فقال : يا عبد الله ما اسمك قال فلان الاسم الذي سمعه في السّحابة فقال له : يا عبد الله لم سألتني عن اسمي قال : إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها قال : أمّا إذ قلتَ هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثاً وأرد فيها ثلثه "

وفي رواية " وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل " .

قلت : وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تتخذوا الضيْعة فتركنوا إلى الدنيا " خرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن ؛ فإنه محمول على من اتخذها مستكثراً أو متنعماً ومتمتعاً بزهرتها ، وأما من اتخذها معاشاً يصون بها دينه وعياله فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال ، وهي من أفضل الأموال ؛ قال عليه

الصلاة والسلام : " نعم المال الصالح للرجل الصالح " وقد أكثر الناس في كرامات الأولياء وما ذكرناه فيه كفاية ؛ والله الموفق للهداية .

(90/476)

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ فيه دليل على صحة جواز الإجارة ، وهي سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانه في سورة "القصص" إن شاء الله تعالى .

وقرأ الجمهور "لاَتَّخَذْتَ" وأبو عمرو "لَتَخِذْتَ" وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة ، وهما لغتان بمعنى واحد من الأخذ ، مثل قولك : تَبِع واتّبع ، وتَقي واتّقى .

وأدغم بعض القراء الذال في التاء ، ولم يدغمها بعضهم .

وفي حديث أبيّ بن كعب : لو شئت لأوتيت أجراً .

وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العَرْض لا الاعتراض ، فعند ذلك قال له الخضر : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ بحكم ما شرطت على نفسك .

وتكريره "بيني وبينك" وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد .

قال سيبويه : كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك ؛ أي منّا .

وقال ابن عباس : وكان قول موسى في السفينة والغلام لله ، وكان قوله في الجدار لنفسه

لطلب شيء من الدنيا ، فكان سبب الفراق .

وقال وهب بن مُنَبِّه : كان ذلك الجدار جداراً طوله في السماء مائة ذراع .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ تأويل الشيء مآله ؛ أي قال له : إني أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ .

وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر : إنها حُجّة على موسى ، لا عجباً له .

وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم ! فلما أنكر أمر الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(91/476)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) ﴾

السفينة معروفة وتجمع على سفن وعلى سفائن ، وتحذف التاء فيقال سفينة وسفين وهو مما بينه وبين مفردة تاء التأنيث وهو كثير في المخلوق نادر في المصنوع ، نحو عمامة وعمام .

وقال الشاعر :

متى تأته تأت لج بحر . . .

تقاذف في غوار به السفين

الأمر البشع من الأمور كالداهية والأد ونحوه .

الجدار معروف ويجمع على جدر وجدران .

انقض سقط ، ومن أبيات معاياة الأعراب :

مرّ كما انقضّ على كوكب . . .

عفريت جن في الدجى الأجدل

عاب الرجل ذكر وصفاً فيه يذم به ، وعاب السفينة أحدث فيها ما تنقص به .

﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال ألم أقل لك أنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن

يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

﴿ فانطلقا ﴾ أي موسى والخضر وكان معهم يوشع ولم يضمر لأنه في حكم التبع .

وقيل : كان موسى قد صرفه وردّه إلى بني إسرائيل .

والألف واللام في ﴿ السفينة ﴾ لتعريف الجنس إذ لم يتقدم عهد في سفينة مخصوصة .

(92/476)

وروي في كيفية ركوبهما السفينة وخرقها وسدها أقوال ، والمعتمد ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما قالا : " "فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها ﴾ إلى قوله ﴿ عسراً ﴾ " قال : وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "وكان الأول من موسى نسياناً قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله إلاّ مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر" " واللام في ﴿ لتغرق أهلها ﴾ .

قيل : لام العاقبة .

وقيل : لام العلة .

وقرأ زيد بن عليّ والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وحمزة والكسائي وخلف وأبو عبيد وابن سعدان وابن عيسى الأصبهاني ليغرق بفتح الياء والراء وسكون الغين ﴿ أهلها ﴾ بالرفع .

وقرأ باقي السبعة بضم تاء الخطاب وإسكان الغين وكسر الراء ونصب لام ﴿ أهلها ﴾ .

وقرأ الحسن وأبو رجاء كذلك إلاّ أنهما فتحا الغين وشددا الراء .

ثم ذكره الخضر بما سبق له من نفي استطاعته الصبر لما يرى فقال ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ والظاهر حمل النسيان على وضعه .

وقد قال عليه السلام : "كانت الأولى من موسى نسياناً " والمعنى أنه نسي العهد الذي كان بينهما من عدم سؤاله حتى يكون هو المخبر له أولاً وهذا قول الجمهور .

وعن أُبيّ ابن كعب أنه ما نسي ولكن قوله هذا من معاريض الكلام .

قال الزمخشري : أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي ، أو أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان توهمه أنه نسي ليبسط عذره في الإنكار وهو من معاريض الكلام التي ينفي بها الكذب مع التوصل إلى الغرض كقول إبراهيم عليه السلام .

هذه أختي وإني سقيم : أو أراد بالنسيان الترك أي ﴿ لا تؤاخذني ﴾ بما تركت من وصيتك أول مرة انتهى .

(93/476)

وقد بيَّن ابن عطية كلام أبيّ بكلام طويل يوقف عليه في كتابه ، ولا يعتمد إلاّ قول الرسول : " كانت الأَولى من موسى نسياناً " .

﴿ ولا ترهقني ﴾ لا تغشني وتكلفني ﴿ من أمري ﴾ وهو اتباعك ﴿ عسراً ﴾ أي شيئاً صعباً ، بل سهِّل عليّ في متابعتك بترك المناقشة .

وقرأ أبو جعفر ﴿ عسراً ﴾ بضم السين حيث وقع فانطلقا في الكلام حذف تقديره فخرجا من السفينة ولم يقع غرق بأهلها ، فانطلقا فبينما هما يمشيان على الساحل إذا بصر الخضر ﴿ غلاماً ﴾ يلعب مع الصبيان وفي بعض الروايات فمر بغلمان يلعبون فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيء الوجه فاقتلع رأسه .

وقيل : رضه بحجر .

وقيل : ذبحه .

وقيل : فتل عنقه .

وقيل : ضرب برأسه الحائط .

قيل : وكان هذا الغلام لم يبلغ الحلم ولهذا قال : ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ .

وقيل : كان الغلام بالغاً شاباً ، والعرب تبقي على الشاب اسم الغلام .

ومنه قول ليلى الأخيلية في الحجاج :

شفاها من الداء الذي قد أصابها . . .

غلام إذا هز القناة سقاها

وقال آخر :

تلق ذباب السيف عني فإنني . . .

غلام إذا هوجيت لست بشاعر

وقيل : أصله من الاغتلام وهو شدّة الشبق ، وذلك إنما يكون في الشباب الذين قد بلغوا الحلم ويتناول الصبي الصغير تجوّزاً تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه .

(واختلف في اسم هذا الغلام واسم أبيه واسم أمه) ولم يرد شيء من ذلك في الحديث .

وفي الخبر أن هذا الغلام كان يفسد ويقسم لأبويه أنه ما فعل فيقسمان على قسمه ويحميانه ممن يطلبه .

وحكى القرطبي عن صاحب العرس والعرائس أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿

أقتلت نفساً زكية ﴾ غضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه ، وإذا في عظم كتفه مكتوب كافر لا يؤمن بالله أبداً .

(94/476)

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل ﴿ خرقها ﴾ بغير فاء و ﴿ فقتله ﴾ بالفاء ؟ قلت : جعل خرقها جزاء للشرط ، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء قال ﴿ أقتلت ﴾ : فإن قلت : فلم خولف بينهما ؟ قلت : لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام انتهى .

ومعنى ﴿ زكية ﴾ طاهرة من الذنوب ، ووصفها بهذا الوصف لأنه لم يرها أذنبت ، قيل أو لأنها صغيره لم تبلغ الحنث .

وقوله ﴿ بغير نفس ﴾ يرده ويدل على كبر الغلام وإلاّ فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ولا بغير نفس .

وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد والزهري ونافع واليزيدي وابن مسلم وزيد وابن بكير عن يعقوب والتمار عن رويس عنه وأبو عبيد وابن جبير الأنطاكي وابن كثير وأبو عمرو زاكية بالألف .

وقرأ زيد بن عليّ والحسن والجحدري وابن عامر والكوفيون ﴿ زكية ﴾ بغير ألف وبتشديد الياء وهي أبلغ من زاكية لأن فعيلا المحول من فاعل يدل على المبالغة .

وقرأ الجمهور ﴿ نكراً ﴾ بإسكان الكاف .

وقرأ نافع وأبو بكر وابن ذكوان وأبو جعفر وشيبة وطلحة ويعقوب وأبو حاتم برفع الكاف حيث كان منصوباً .

والنكر قيل : أقل من الأمر لأن قتل نفس واحدة أهون من إعراق أهل السفينة .

وقيل : معناه شيئاً أنكر من الأول ، لأن الخرق يمكن سده والقتل لا سبيل إلى تدارك الحياة معه .

وفي قوله ﴿ لك ﴾ زجر وإغلاظ ليس في الأول لأن موقعه التساؤل بأنه بعد التقدم إلى ترك السؤال واستعذار موسى بالنسيان أفظع وأفظع في المخالفة لما كان أخذ على نفسه من الصبر وانتفاء العصيان .

﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ أي بعد هذه القصة أو بعد هذه المسألة ﴿ فلا تصاحبني ﴾ أي فأوقع الفراق بيني وبينك .

وقرأ الجمهور ﴿ فلا تصاحبني ﴾ من باب المفاعلة .

وقرأ عيسى ويعقوب فلا تصحبني مضارع صحب وعيسى أيضاً بضم التاء وكسر الحاء مضارع أصحب ، ورواها سهل عن أبي عمرو أي فلا تصحبني علمك وقدره بعضهم فلا تصحبني إياك وبعضهم نفسك .

وقرأ الأعرج بفتح التاء والباء وشد النون .

ومعنى ﴿ قد بلغت من لدني عذراً ﴾ أي قد اعتذرت إليّ وبلغت إلى العذر .

وقرأ الجمهور ﴿ من لدني ﴾ بإدغام نون لدن في نون الوقاية التي اتصلت بياء المتكلم .

وقرأ نافع وعاصم بتخفيف النون وهي نون لدن اتصلت بياء المتكلم وهو القياس ، لأن أصل الاسماء إذا أضيفت إلى ياء المتكلم لم تلحق نون الوقاية نحو غلامي وفرسي ، وأشم شعبة الضم في الدال ، وروي عن عاصم سكون الدال .

قال ابن مجاهد : وهو غلط وكأنه يعني من جهة الرواية ، وأما من حيث اللغة فليست بغلط لأن من لغاتها لد بفتح اللام وسكون الدال .

وقرأ عيسى ﴿ عذراً ﴾ بضم الذال ورويت عن أبي عمرو وعن أبي عذري بكسر الراء مضافاً إلى ياء المتكلم .

وفي البخاري قال : " يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما "

وأسند الطبري قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا دعا لأحد بدأ بنفسه

فقال : " رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب " ولكنه قال ﴿ فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ .

والقرية التي أتيا أهلها إنطاكية أو الأبلة أو بجزيرة الأندلس وهي الجزيرة الخضراء ، أو برقة أو أبو حوران بناحية أذربيجان ، أو ناصرة من أرض الروم أو قرية بأرمينية أقوال مضطربة بحسب اختلافهم في أي ناحية من الأرض كانت قصة والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفي الحديث أنهما كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم وهذه عبرة مصرحة بهوان الدنيا على الله تعالى .

(96/476)

وتكرر لفظ ﴿ أهل ﴾ على سبيل التوكيد ، وقد يظهر له فائدة عن التوكيد وهو أنهما حين ﴿ أتيا أهل القرية ﴾ لم يأتيا جميع أهل القرية إنما أتيا بعضهم ، فلما قال ﴿ استطعما ﴾ احتمل أنهما لم يستطعما إلاّ ذلك البعض الذي أتياه فجيء بلفظ أهلها ليعم جميعهم وأنهم يتبعونهم واحداً واحداً بالاستطعام ، ولو كان التركيب استطعماهم لكان عائداً على البعض المأتي .

وقرأ الجمهور ﴿ يضيّفوهما ﴾ بالتشديد من ضيف .

وقرأ ابن الزبير والحسن وأبو رجاء وأبو رزين وابن محيصن وعاصم في رواية المفضل وأبان بكسر الضاد وإسكان الياء من أضاف ، كما تقول ميّل وأمال ، وإسناد الإرادة إلى الجدار من المجاز البليغ والاستعارة البارعة وكثيراً ما يوجد في كلام العرب إسناد أشياء تكون من أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل من الحيوان وإلى الجماد ، أو الحيوان الذي لا يعقل مكان العاقل لكان صادراً منه ذلك الفعل .

وقد أكثر الزمخشري وغيره من إيراد الشواهد على ذلك ومن له أدنى مطالعة لكلام العرب لا يحتاج إلى شاهد في ذلك .

قال الزمخشري : ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة ، فتمحل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح ، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز أدخل في الإعجاز انتهى .

وما ذكره أهل أصول الفقه عن أبي بكر محمد بن داود الأصبهاني من أنه ينكر المجاز في القرآن لعله لا يصح عنه ، وكيف يكون ذلك وهو أحد الأدباء الشعراء الفحول المجيدين في النظم والنثر .

وقرأ الجمهور ﴿ ينقض ﴾ أي يسقط من انقضاض الطائر ، ووزنه انفعل نحو انجر .

قال صاحب اللوامح : من القضة وهي الحصى الصغار ، ومنه طعام قضض إذا كان فيه

حصى ، فعلى هذا ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أي يتفتت فيصير حصاة انتهى .

وقيل : وزنه أفعّل من النقض كاحمر .

(97/476)

وقرأ أبي ﴿ ينقض ﴾ بضم الياء وفتح القاف والضاد مبنياً للمفعول من نقضته وهي مروية عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) .

وفي حرف عبد الله وقراءة الأعمش يريد لينقض كذلك إلاّ أنه منصوب بأن المقدرة بعد اللام .

وقرأ علي وعكرمة وأبو شيخ خيوان بن خالد الهنائي وخليد بن سعد ويحيى بن يعمر ينقاص بالصاد غير معجمة مع الألف ، ووزنه ينفعل اللازم من قاص يقيص إذا كسرته تقول : قصيته فانقاص .

قال ابن خالويه : وتقول العرب انقاصت السنّ إذا انشقت طولاً .

قال ذو الرمة : منقاص ومنكثب .

وقيل : إذا تصدعت كيف كان .

ومنه قول أبي ذؤيب :

فراق كقص السن فالصبر إنه . . .

لكل أناس عشرة وحبور

وقرأ الزهري : ينقاض بألف وضاد معجمة وهو من قولهم : قضته معجمة فانقاض أي هدمته فانهدم .

قال أبو عليّ : والمشهور عن الزهري بصاد غير معجمة .

﴿ فأقامه ﴾ الظاهر أنه لم يهدمه وبناه كما ذهب إليه بعضهم من أنه هدمه وقعد يبنيه .

ووقع هذا في مصحف عبد الله وأيد بقوله ﴿ لتخذت عليه أجراً ﴾ لأن بناءه بعد هدمه يستحق عليه أجراً .

وقال ابن جبير : مسحه بيده وأقامه فقام .

وقيل : أقامه بعمود عمده به .

وقال مقاتل : سوّاه بالشيد أي لبسه به وهو الجيار .

وعن ابن عباس : دفعه بيده فاستقام وهذا أليق بحال الأنبياء .

قال الزمخشري : كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة فلم يجدا مواسياً ، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن ﴿ قال : لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ وطلبت على عملك جعلاً حتى تنتعش به وتستدفع الضرورة انتهى .

قال ابن عطية : وقوله ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ وإن لم يكن سؤالاً ففي ضمنه الإنكار لفعله ، والقول بتصويب أخذ الأجر وفي ذلك تخطئة ترك الأجر انتهى .

(98/476)

وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وابن بحرية ولتخذت بتاء مفتوحة وخاء مكسورة ، يقال تخذ واتخذ نحو تبع واتبع ، افتعل من تخذ وأدغم التاء في التاء .

قال الشاعر :

وقد تخذت رجلي إلى جنب غرزها . . .

نسيفاً كأفحوص القطاة المطرق

والتاء أصل عند البصريين وليس من الأخذ ، وزعم بعضهم أن الاتخاذ افتعال من الأخذ وأنهم ظنوا التاء أصلية فقالوا في الثلاثي تخذ كما قالوا تقي من اتقى .

والظاهر أن هذا إشارة إلى قوله ﴿ لو شئت ﴾ أي هذا الإعراض سبب الفراق ﴿ بيني وبينك ﴾ على حسب ما سبق من ميعاده .

أنه قال ﴿ إن سألتك ﴾ وهذه الجملة وإن لم تكن سؤالاً فإنها تتضمنه ، إذ المعنى ألم تكن تتخذ عليه أجراً لاحتياجنا إليه .

وقال الزمخشري : قد تصور فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول : هذا أخوك فلا يكون هذا إشارة إلى غير الأخ انتهى .

وفيما قاله نظر .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ فراق بيني ﴾ بالتنوين والجمهور على الإضافة .

والبين قال ابن عطية : الصلاح الذي يكون بين المصطحبين ونحوهما ، وذلك مستعار فيه من الظرفية ومستعمل استعمال الأسماء ، وتكريره ﴿ بيني وبينك ﴾ وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد .

﴿ سأنبئك ﴾ أي سأخبرك ﴿ بتأويل ﴾ ما رأيت من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ، أي بما آل إليه الأمر فيما كان ظاهره أن لا يكون .

وقرأ ابن وثاب سأنبيك بإخلاص الياء من غير همز .

وعن ابن عباس : كان قول موسى في السفينة وفي الغلام لله ، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا فكان سبب الفراق .

(99/476)

وقال أرباب المعاني : هذه الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وإعجاله ، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم ؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكز القبطي وقضائك عليه ؟ فلما أنكر إقامة الجدار نودي أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجرة ؟ ﴿ سأنبئك ﴾ في معاني هذا معك ولا أفارقك حتى أوضح لك ما استبهم عليك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(100/476)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾

زيد (لك) لزيادة المكافحةِ بالعتاب على رفض الوصيةِ وقلة التثبّتِ والصبرِ لمّا تكرر منه الاشمئزازُ والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتى زاد النكير في المرة الثانية ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي بعد هذه المرة ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ وقرىء من الإفعال أي لا تجعلني صاحبك ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ أي قد أعذرتَ ووجدتَ من قِبلي عُذراً حيث خالفتُك ثلاثَ مرات . عن النبي صلى

الله عليه وسلم : " رحم الله أخي موسى استحْيى فقال ذلك ، لو لبث مع صاحبه لأبصرَ أعجبَ الأعاجيب " وقرىء لدُني بتخفيف النون ، وقرىء بسكون الدال كعضْد في عضُد .

﴿ فانطلقا حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ هي أنطاكيةُ ، وقيل : أَيْلةُ وهي أبعدُ أرض الله من السماء ، وقيل : هي برقة ، وقيل : بلدة بأندلس . عن النبي صلى الله عليه وسلم : "كانوا أهلَ قرية لئاما " وقيل : شرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيفُ ولا يُعرف لابن السبيل حقُّه ، وقوله تعالى : ﴿ استطعما أَهْلَهَا ﴾ في محل الجرِّ على أنه صفةٌ لقرية ، ولعل العدولَ عن استطعامهم على أن يكون صفةً للأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعِهم فإن الإباءَ من الضيافة وهم أهلُها قاطنون بها أقبحُ وأشنع . روي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ بالتشديد ، وقرىء بالتخفيف من الإضافة ، يقال : ضافه إذا كان له ضيفاً وأضافه وضيّفه أنزله وجعله ضيفاً له ، وحقيقةُ ضاف مال إليه من ضاف السهمُ عن الغرَض ونظيرُه زاره من الازورار .

(101/476)

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي يداني أن يسقُط فاستعيرت الإرادةُ للمشارفة للدِلالة على المبالغة في ذلك ، والانقضاضُ الإسراعُ في السقوط وهو انفعالٌ من القضّ ، يقال : قتُه فانقضّ ، ومنه انقضاضُ الطير والكوكبِ لسقوطه بسرعة ، وقيل : هو افْعِلالٌ من النقض كاحمرّ من الحُمرة ، وقرىء أن ينقُض من النقْض وأن ينقاض من انقاضّت السن إذا انشقت طولاً ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ قيل : مسحه بيده فقام ، وقيل : نقضه وبناه ، وقيل : أقامه بعمود عمَده به ، قيل : كان سَمكُه مائةَ ذراع ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ تحريضاً له على أخذ الجُعْل لينتعشا به أو تعريضاً بأنه فضولٌ لما في لو من النفي ، كأنه لما رأى الحِرمانَ ومِساسَ الحاجة واشتغالَه بما لا يعنيه لم يتمالك الصبرَ ، واتخذ افتعل من تخِذ بمعنى أخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين ، وقرىء لتَخِذْتَ أي لأخذت ، وقرىء بإدغام الذال في التاء .

﴿ قَالَ ﴾ أي الخَضِر عليه الصلاة والسلام : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ على إضافة المصدرِ إلى الظرف اتساعاً وقد قرىء على الأصل ، والمشارُ إليه إما نفسُ الفِراق كما في هذا أخوك ، أو الوقتُ الحاضرُ أي هذا الوقتُ وقتُ فراق بيني وبينِك ، أو السؤالُ الثالث ، أي هذا سببُ ذلك الفراقِ حسبما هو الموعودُ ﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ السين للتأكيد لعدم تراخي التنبئة

﴿ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾

التأويلُ رجْعُ الشيءِ إلى مآله والمرادُ به هاهنا المآلُ والعاقبةُ إذ هو المنبَّأُ به دون التأويل وهو خلاصُ السفينة من اليد العادِيَة ، وخلاصُ أبوَي الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسنِ واستخراجُ اليتيمين للكنز ، وفي جعل صلةِ الموصول عدمَ استطاعةِ موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال : بتأويل ما فعلتُ أو بتأويل ما رأيتَ ونحوِهما نوعُ تعريضٍ به عليه الصلاة والسلام وعتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(103/476)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً ﴾

زيادة ﴿ لَكَ ﴾ لزيادة المكافحة على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد في النكير في المرة الثانية .

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ ﴾ تفعله من الأعاجيب ﴿ بَعْدَهَا ﴾ أي بعد هذه المرة أو بعد هذه المسألة ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِى ﴾ وقرأ عيسى .

ويعقوب ﴿ فَلا ﴾ بفتح التاء من صحبه أي فلا تكن صاحبي ، وعن عيسى أيضاً ﴿ فَلا ﴾ بضم التاء وكسر الحاء من أصحبه ورواها سهل عن أبي عمرو أي فلا تصحبني إياك ولا تجعلني صاحبك ؛ وقدر بعضهم المفعول الثاني علمك وليس بذاك .

وقرأ الأعرج ﴿ فَلا ﴾ بفتح التاء والباء وشد النون ، والمراد المبالغة في النهي أي فلا تكن صاحبي البتة ، وهذا يؤيد كون المراد من النهي فيما لا تأكيد فيه التحريم ، والمراد به الحزم بالترك والمفارقة لا الترخيص على معنى إن سألتك بعد فأنت مرخص في ترك صحبتي ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْراً ﴾ أي وجدت عذراً من قبلي ، وقال النووي : معناه قد بلغت إلى الغاية التي تعذر بسببها في فرافي حيث خالفتك مرة بعد مرة .

وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأي العجب لكن أخذته من صاحبه ذمامة فقال ذلك ، وقرأ نافع .

وعاصم ﴿ مِن لَّدُنِّى ﴾ بتخفيف النون وهي حجة على س في منعه ذلك ، والأكثرون على أنه حذف نون الوقاية وأبقى النون الأصلية المكسورة على ما هو القياس في الأسماء المضافة من أنها لا تلحقها نون الوقاية كوطني ومقامي ، وقيل : إنه يحتمل أن يكون المذكور نون الوقاية والمضاف إنما هو لد بلا نون لغة في لدن فلا حذف أصلاً ؛ وتعقب بأن نون الوقاية إنما هي في المبنى على السكون لتقيه الكسر ولد بلا نون مضموم .

ورد بأنه لا مانع من أن يقال : إنها وقته من زوال الضم ؛ وأشم شعبة الضم في الدال وروي عن عاصم أنه سكنها ، وقال مجاهد : سوء غلط ، ولعله أراد رواية وإلا فقد ذكروا أن لد بالفتح والسكون لغة في لدن ، وقرأ عيسى ﴿ عُذْراً ﴾ بضم الذال ورويت عن أبي عمرو .

وعن أبي ﴿ عذري ﴾ بالإضافة إلى ياء المتكلم .

﴿ فانطلقا حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾

الجمهور على أنها إنطاكية وحكاه الثعلبي عن ابن عباس ، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة عنه أنها برقة وهي كما في "القاموس" اسم لمواضع ، وفي "المواهب" أنها قرية بأرض الروم والله تعالى أعلم ، وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن السدي أنها باجروان وهي أيضاً اسم لمتعدد إلا أنه ذكر بعضهم أن المراد بها قرية بنواحي أرمينية ، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين أنها الأبلة بهمزة وباء موحدة ولا مشددة ، وقيل : قرية على ساحل البحر يقال لها ناصرة وإليها تنسب النصارى قال في مجمع البيان وهو المروى عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ، وقيل : قرية في الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس ، قال ابن حجر : والخلاف هنا كالخلاف في "مجمع البحرين" ولا يوثق بشيء منه ، وفي الحديث أتيا أهل قرية لئاماً ﴿ استطعما أَهْلَهَا

﴿ في محل الجر على أنه صفة لقرية ، وجواب إذا ﴿ قَالَ ﴾ [الكهف : 78] الآتي إن شاء الله تعالى وسلك بذلك نحو ما سلك في القصة الثانية من جعل الاعتراض عمدة الكلام للنكتة التي ذكرها هناك شيخ الإسلام ، وذهب أبو البقاء .

وغيره إلى أنه هو الجواب والآتي مستأنف نظير ما في القصة الأولى ، والوصفية مختار المحققين كما ستعلمه إن شاء الله تعالى .

وههنا سؤال مشهور وقد نظمه الصلاح الصفدي ورفعه إلى الإمام تقي الدين السبكي فقال :

أسيدنا قاضي القضاة ومن إذا . . .

بدا وجهه استحيى له القمران

ومن كفه يوم المندى ويراعه . . .

على طرسه بحران يلتقيان

ومن إن دجت في المشكلات مسائل . . .

(105/476)

جلاها بفكر دائم اللمعان

رأيت كتاب الله أعظم معجز . . .

لأفضل من يهدي به الثقلان

ومن جملة الإعجاز كون اختصاره . . .

بإيجاز ألفاظ وبسط معاني

ولكنني في الكهف أبصرت آية . . .

بها الفكر في طول الزمان عناني

وما هي إلا استطعما أهلها فقد . . .

نرى استطعما هم مثله ببيان

فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر . . .

مكان ضمير إن ذاك لشان

فارشد على عادات فضلك حيرتي . . .

فما لي إلى هذا الكلام يدان

فأجاب السبكي بأن جملة ﴿ استطعما ﴾ محتملة لأن تكون في محل جر صفة لقرية وأن تكون في محل نصب صفة لأهل وأن تكون جواب إذا ولا احتمال لغير ذلك ، ومن تأمل علم أن الأول متعين معنى وأن الثاني والثالث وأن احتملتهما الآية بعيدان عن مغزاها ، أما

الثالث فلأنه يلزم عليه كون المقصود الإخبار بالاستطعام عند الإتيان وأن ذلك تمام معنى الكلام ، ويلزمه أن يكون معظم قصدهما أو هو طلب الطعام مع أن القصد هو ما أراد ربك مما قص بعد وإظهار الأمر العجيب لموسى عليه السلام ، وأما الثاني فلأنه يلزم عليه أن تكون العناية بشرح حال الأهل من حيث هم هم ولا يكون للقرية أثر في ذلك ونحن نجد بقية الكلام مشيراً إليها نفسها فيتعين الأول ويجب فيه ﴿ استطعما أَهْلَهَا ﴾ ولا يجوز استطعماهم أصلاً لخلو الجملة عن ضمير الموصوف .

(106/476)

وعلى هذا يفهم من مجموع الآيات أن الخضر عليه السلام فعل ما فعل في قرية مذموم أهلها وقد تقدم منهم سوء صنيع من الإباء عن حق الضيف مع طلبه وللبقاع تأثير في الطباع ولم يهم فيها مع أنها حرية بالإفساد والإضاعة بل باشر الإصلاح لمجرد الطاعة ولم يعبأ عليه السلام بفعل أهلها اللئام ، ويضاف إلى ذلك من الفوائد أن الأهل الثاني يحتمل أن يكون هم الأولون أو غيرهم أو منهم ومن غيرهم ، والغالب أن من أتى قرية لا يجد جملة أهلها دفعة بل يقع بصره أولاً على البعض ثم قد يستقريهم فلعل هذين العبدين الصالحين لما أتيا قدر الله تعالى لهما استقراء الجميع على التدريج ليتبين به كمال رحمته سبحانه وعدم مؤاخذته

تعالى بسوء صنيع بعض عباده ، ولو قيل استطعماهم تعين إرادة الأولين فأتى بالظاهر إشعاراً بتأكيد العموم فيه وأنهما لم يتركا أحداً من أهلها حتى استطعماه وأبي ومع ذلك قوبلوا بأحسن الجزاء ، فانظر إلى هذه الأسرار كيف احتجبت عن كثير من المفسرين تحت الأستار حتى أن بعضهم لم يتعرض لشيء ، وبعضهم ادعى أن ذلك تأكيد ، وآخر زعم ما لا يعول عليه حتى سمعت عن شخص أنه قال : إن العدول عن استطعماهم لأن اجتماع الضميرين في كلمة واحدة مستثقل وهو قول يحكي ليرد فان القرآن والكلام الفصيح مملوء من ذلك ومنه ما يأتي في الآية ، ومن تمام الكلام فيما ذكر أن استطعما إن جعل جواباً فهو متأخر عن الإتيان وإذا جعل صفة احتمل أن يكون الإتيان قد اتفق قبل هذه المرة وذكر تعريفاً وتنبيهاً على أنه لم يحملهما على عدم الإتيان لقصد الخير فهذا ما فتح الله تعالى علي والشعر يضيق عن الجواب وقد قلت :

لأسرار آيات الكتاب معاني . . .

تدق فلا تبدو لكل معاني

وفيها لمرتاض لبيب عجائب . . .

سناً برقها يعنو له القمران

إذا بارق منها لقلبي قد بدا . . .

هممت قرير العين بالطيران

سروراً وإبهاجاً وصولاً على العلا . . .

كأني علا فوق السماك مكاني

فما الملك والأكران ما البيض ما القنا . . .

(107/476)

وعندي وجوه أسفرت بتهاني

وها تيك منها قد أبحتك سرها . . .

فشكراً لمن أولاك حسن بياني

أرى استطعما وصفاً على قرية جرى . . .

وليس لها والنحو كالميزان

صناعته تقضي بأن استتار ما . . .

يعود عليه ليس في الإمكان

وليس جواباً لا ولا صف أهلها . . .

فلا وجه للإضمار والكتمان

وهذي ثلاث ما سواها بممكن . . .

تعين منها واحد فسباني

ورضت بها فكري إلى أن تمحضت . . .

به زبدة الأحقاب منذ زمان

وإن حياتي في تموج أبحر . . .

من العلم في قلبي يمد لساني

إلى آخر ما تحمس به ، وفيه من المناقشة ما فيه .

وقد اعترض بعضهم بأنه على تقدير كون الجملة صفة للقرية يمكن أن يؤتي بتركيب أخصر مما ذكر بأن يقال : فلما أتيا قرية استطعما أهلها فما الداعي إلى ذكر الأهل أولاً على هذا التقدير ، وأجيب بأنه جيء بالأهل للإشارة إلى أنهم قصدوا بالإتيان في قريتهم وسألوا فمنعوا ولا شك أن هذا أبلغ في اللؤم وأبعد عن صدور جميل في حق أحد منهم فيكون صدور ما صدر من الخضر عليه السلام غريباً جداً ، لا يقال : ليكن التركيب كذلك وليكن على الإرادة الأهل تقديراً أو تجوزاً كما في قوله تعالى : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] لأنا نقول : إن الإتيان ينسب للمكان كأتيت عرفات ولمن فيه كأتيت أهل بغداد فلو لم يذكر كان فيه تفويتاً للمقصود ، وليس ذلك نظير ما ذكر من الآية لامتناع سؤال نفس القرية عادة ، واختار الشيخ عز الدين على الموصلي في جواب الصفدي أن تكرار الأهل والعدول عن استطعماهم إلى ﴿ استطعما أَهْلَهَا ﴾ للتحقير وهو أحد نكات

إقامة الظاهر مقام الضمير وبسط الكلام في ذلك نثيراً ؛ وقال نظماً :

سألت لماذا استطعما أهلها أتى . . .

عن استطعماهم إن ذاك لشان

وفيه اختصار ليس ثم ولم تقف . . .

على سبب الرجحان منذ زمان

فهاك جواباً رافعاً لنقابه . . .

يصير به المعنى كرأي عيان

إذا ما استوى الحالان في الحكم . . .

رجح الضمير وأما حين يختلفان

بأن كان في التصريح إظهار حكمة . . .

كرفعة شأن أو حقارة جاني

(108/476)

كمثل أمير المؤمنين يقول ذا . . .

وما نحن فيه صرحوا بأمان

وهذا على الإيجاز والبسط جاء في . . .

جوابي منثوراً بحسن بيان

وذكر في النثر وجهاً آخر للعدول وهو ما نقله السبكي ورده ، وقد ذكره أيضاً النيسابوري وهو لعمري كما قال السبكي ، ويؤول إلى ما ذكر من أن الإظهار للتحقير قول بعض المحققين : إنه للتأكيد المقصود منه زيادة التشنيع وهو وجه وجيه عند كل نبيه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة : 59] الآية ومثله كثير في الفصيح ، وقال بعضهم : إن الأهلين متغايران فلذا جيء بهما معاً ، وقولهم : إذا أعيد المذكور أولاً معرفة كان الثاني عين الأول غير مطرد وذلك لأن المراد بالأهل الأول البعض إذ في ابتداء دخول القرية لا يتأتى عادة إتيان جميع أهلها لا سيما على ما روي من أن دخولهما كان قبل غروب الشمس وبالأهل الثاني الجميع لما ورد أنهما عليهما السلام كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم فلو جيء بالضمير لفهم أنهما استطعما البعض ، وعكس بعضهم الأمر فقال : المراد بالأهل الأول الجميع ومعنى إتيانهم الوصول إليهم والحلول فيما بينهم ؛ وهو نظير إتيان البلد وهو ظاهر في الوصول إلى بعض منه والحلول فيه وبالأهل الثاني البعض إذ سؤال فرد فرد من كبار أهل القرية وصغارهم وذكورهم وإناثهم وأغنيائهم وفقرائهم مستبعد جداً والخبر لا يدل عليه ولعله ظاهر في أنهما استطعما الرجال ، وقد روي عن أبي هريرة والله تعالى أعلم بصحة الخبر أنه

قال : أطعتهما امرأة من بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم فلذا جيء بالظاهر دون الضمير ، ونقل مثله عن الإمام الشافعي عليه الرحمة في الرسالة .

(109/476)

وأورد عليهما أن فيهما مخالفة لما هو الغالب في إعادة الأول معرفة ، وعلى الثاني أنه ليس في المغايرة المذكورة فيه فائدة يعتد بها ، ولا يورد هذا على الأول لأن فائدة المغايرة المذكورة فيه زيادة التشنيع على أهل القرية كما لا يخفى .

واختار بعضهم على القول بالتأكيد أن المراد بالأهل في الموضعين الذين يتوقع من ظاهر حالهم حصول الغرض منهم ويحصل اليأس من غيرهم باليأس منهم من المقيمين المتوطنين في القرية ، ومن لم يحكم العادة يقول : إنهما عليهما السلام أتوا الجميع وسألوهم لما أنهما على ما قيل قد مستهما الحاجة ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ بالتشديد وقرأ ابن الزبير .

والحسن .

وأبو رجاء .

وأبو رزين .

وأبو محيصن .

وعاصم في رواية المفضل .

وأبان بالتخفيف من الإضافة يقال ضافه إذا كان له ضيفاً وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفاً ، وحقيقة ضاف مال من ضاف السهم عن الهدف يضيف ويقال أضافت الشمس للغروب وتضيفت إذا مالت ، ونظيره زاره من الازورار ، ولا يخفى ما في التعبير بالإباء من الإشارة إلى مزيد لؤم القوم لأنه كما قال الراغب شدة الامتناع ، ولهذا لم يقل : فلم يضيفوهما مع أنه أخصر فإنه دون ما في "النظم الجليل" في الدلالة على ذمهم ، ولعل ذلك الاستطعام كان طلباً للطعام على وجه الضيافة بأن يكونا قد قالا : إنا غريبان فضيفونا أو نحو ذلك كما يشير إليه التعبير بقوله تعالى : ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ دون فأبوا أن يطعموهما مع اقتضاء ظاهر ﴿ استطعما أَهْلَهَا ﴾ إياه ، وإنما عبر باستطعما دون استضافا للإشارة إلى أن جل قصدهما الطعام دون الميل بهما إلى منزل وإيوائهما إلى محل .

(110/476)

وذكر بعضهم أن في ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ من التشنيع ما ليس في أبوا أن يطعموهما لأن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب كما إذا رد غريباً استضافه بل لا يكاد يرد

الضيف إلا لئيم ، ومن أعظم هجاء العرب فلان يطرد الضيف ، وعن قتادة شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه .

وقال زين الدين الموصلي إنما خص سبحانه الاستطعام بموسى والخضر عليهما السلام والضيافة بالأهل لأن الاستطعام وظيفة السائل والضيافة وظيفة المسؤول لأن العرف يقضي بذلك فيدعو المقيم القادم إلى منزله يسأله ويحمله إليه انتهى ، وهو كما ترى .

ومما يضحك منه العقلاء ما نقله النيسابوري وغيره أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من ذهب فقالوا : يا رسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء من ﴿ أبوا ﴾ تاء فأبى عليه الصلاة والسلام ، وبعضهم يحكي وقوع هذه القصة في زمن علي كرم الله تعالى وجهه ولا أصل لشيء من ذلك ، وعلى فرض الصحة يعلم منه قلة عقول أهل القرية في الإسلام كما علم لؤمهم من القرآن والسنة من قبل ﴿ قَصَصًا فَوَجَدَا ﴾ عطف كما قال السبكي على ﴿ أَتَيَا ﴾ ﴿ فِيهَا جِدَاراً ﴾ روى أنهما التجآ إليه حيث لم يجدا مأوى وكانت ليلتهما ليلة باردة وكان على شارع الطريق ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي يسقط وماضيه انقض على وزن انفعل نحو انجر والنون زائدة لأنه من قضضته بمعنى كسرته لكن لما كان المنكسر يتساقط قيل الانقضاض السقوط ، والمشهور أنه السقوط بسرعة كانقضاض الكوكب والطير ، قال صاحب اللوامح : هو من القضة وهي الحصى الصغار ، ومنه طعام قضض إذا كان فيه حصى فعلى

هذا المعنى يريد أن يتفتت فيصير حصى انتهى .

وذكر أبو علي في الإيضاح أن وزنه افعل من النقض كأحمر ، وقال السهيلي في "الروض" هو غلط وتحقيق ذلك في محله .

(111/476)

والنون على هذا أصلية ، والمراد من إرادة السقوط قربه من ذلك على سبيل المجاز المرسل بعلاقة تسبب إرادة السقوط لقربه أو على سبيل الاستعارة بأن يشبه قرب السقوط بالإرادة لما فيهما من الميل ، ويجوز أن يعتبر في الكلام استعارة مكنية وتخييلية ، وقد كثر في كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم ومن ذلك قوله :

يريد الرمح صدر أبي براء . . .

ويعدل عن دماء بني عقيل

وقول حسان رضي الله تعالى عنه :

إن دهراً يلف شملي بجمل . . .

لزمان يهم بالإحسان

وقول الآخر :

أبت الروادف والثدي لقمصها . . .

مس البطون وإن تمس ظهورا

وقول أبي نواس :

فاستنطق العود قد طال السكوت به . . .

لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

إلى ما لا يحصى كثرة حتى قيل : إن من له أدنى اطلاع على كلام العرب لا يحتاج إلى شاهد على هذا المطلب .

ونقل بعض أهل أصول الفقه عن أبي بكر محمد بن داود الأصبهاني أنه ينكر وقوع المجاز في القرآن فيؤول الآية بأن الضمير في يريد للخضر أو لموسى عليهما السلام ، وجوز أن يكون الفاعل الجدار وأن الله تعالى خلق فيه حياة وإرادة والكل تكلف وتعسف تغسل به بلاغة الكلام .

وقال أبو حيان : لعل النقل لا يصح عن الرجل وكيف يقول ذلك وهو أحد الأدباء الشعراء الفحول المجيدي في النظم والنثر ، وقرأ أبي ﴿ يَنقَضَّ ﴾ بضم الياء وفتح القاف والضاد مبنياً للمفعول ، وفي حرف عبد الله وقراءة الأعمش ﴿ يُرِيدُ ﴾ كذلك إلا أنه منصوب بأن المقدرة بعد اللام .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وعكرمة .

وخليد بن سعد .

ويحيى بن يعمر ﴿ ينقاص ﴾ بالصاد المهملة مع الألف ووزنه ينفعل اللازم من قصته

فانقاص إذا كسرته فانكسر ، وقال ابن خالويه : تقول العرب : انقاصت السن إذا انشقت

طولاً ، قال ذو الرمة يصف ثور وحش :

يغشى الكناس بروقيه ويهدمه . . .

من هائل الرمل منقاص ومنكثب

وفي "الصحاح" قيص السن سقوطها من أصلها وأنشد قول أبي ذؤيب :

فراق كقيص السن فالصبر أنه . . .

(112/476)

لكل أناس عثرة وحبور

وقال الأموي : انقاصت البر انهارت ، وقال الأصمعي : المناقص المنقعر والمنقاض بالضاد

المعجمة المنشق طولاً ، وقال أبو عمرو : هما بمعنى واحد .

وقرأ الزهري ﴿ ينقاض ﴾ بألف وضاد معجمة ، والمشهور تفسيره بينهدم .

وذكر أبو علي أن المشهور عن الزهري أنه ينقاص بالمهملة ﴿ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ مسحه بيده فقام كما روي عن ابن عباس .

وابن جبير ، وقال القرطبي .

إنه هو الصحيح وهو أشبه بأحوال الأنبياء عليهم السلام ؛ واعترض بأنه غير ملائم لما بعد إذ لا يستحق بمثله الأجر ، ورد بأن عدم استحقاق الأجر مع حصول الغرض غير مسلم ولا يضره سهولته على الفاعل ، وقيل : أقامه بعمود عمده به ، وقال مقاتل : سواه بالشيد ، وقيل هدمه وقعد يبنيه .

(113/476)

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ وكان طول هذا الجدار إلى السماء على ما نقل النووي عن وهب بن منبه مائة ذراع ، ونقل السفيري عن الثعلبي أنه كان سمكه مائتي ذراع بذراع تلك القرية وكان طوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع وكان عرضه خمسين ذراعاً وكان الناس يمرون تحته على خوف منه ﴿ مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ تحريضاً للخضر عليه السلام

وحثاً على أخذ الجعل والأجرة على فعله ليحصل لهما بذلك الانتعاش والتقوى بالمعاش فهو سؤال له لم لم يأخذ الأجرة واعتراض على ترك الأخذ فالمراد لازم فائدة الخبر إذ لا فائدة في الإخبار بفعله ، وقيل : لم يقل ذلك حثاً وإنما قاله تعريضاً بأن فعله ذلك فضول وتبرع بما لم يطلب منه من غير فائدة ولا استحقاق لمن فعل له مع كمال الاحتياج إلى خلافه ، وكان الكليم عليه السلام لما رأى الحرمان ومساس الحاجة والاشتغال بما لا يعني لم يتمالك الصبر فاعترض ، واتخذ افتعل فالتاء الأولى أصلية والثانية تاء الافتعال أدغمت فيها الأولى ومادته تخذ لا أخذ وإن كان بمعناه لأن فاء الكلمة لا تبدل إذا كانت همزة أو ياء مبدلة منها ، ولذا قيل إن ايتزر خطأ أو شاذ وهذا شائع في فصيح الكلام ، وأيضاً إبدالها في الافتعال لو سلم لم يكن لقولهم تخذ وجه وهذا مذهب البصريين ، وقال غيرهم : إنه الاتخاذ افتعال من الأخذ ولا يسلم ما تقدم ، ويقول : المدة العارضة تبدل تاء أيضاً ، ولكثرة استعماله هنا أجروه مجرى الأصلي وقالوا تخذ ثلاثياً جرياً عليه وهذا كما قالوا : تقى من اتقى .

وقرأ عبد الله .

والحسن .

وقتادة .

وأبو بحرية .

وابن محيصن .

وحميد .

واليزيدي .

ويعقوب .

وأبو حاتم .

وابن كثير .

(114/476)

وأبو عمرو ﴿ لتخذت ﴾ بتاء مفتوحة وخاء مكسورة أي لأخذت ، وأظهر ابن كثير .

ويعقوب .

وحفص الذال وأدغمها باقي السبعة .

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتساعاً ، وأين الحاجب يجعل الإضافة في مثله على معنى في وقد تقدم ما ينفعك هنا فتذكر .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ فِرَاقُ بَيْنِى ﴾ بالتنوين ونصب بين على الظرفية ، وأعيد بين وإن كان

لا يضاف إلا لمتعدد لأنه لا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ، قال أبو حيان : والعدول عن بيننا لمعنى التأكيد والإشارة إلى الفراق المدلول عليه بقوله قبل : ﴿ لا تُصَاحِبْنِى ﴾ [الكهف : 76] والحمل مفيد لأن المخبر عنه الفراق باعتبار كونه في الذهن والخبر الفراق باعتبار أنه في الخارج كما قيل أو إلى الوقت الحاضر أي هذا الوقت وقت فراقنا أو إلى الاعتراض الثالث أي هذا الاعتراض سبب فراقنا حسبما طلبت ، فوجه تخصيص الفراق بالثالث ظاهر .

وقال العلامة الأول : إنما كان هذا سبب الفراق دون الأولين لأن ظاهرهما منكر فكان معذوراً بخلاف هذا فإنه لا ينكر الإحسان للمسيء بل يحمد .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في وجهه أن قول موسى عليه السلام في السفينة والغلام كان لله تعالى ، وفي هذا لنفسه لطلب الدنيا فكان سبب الفراق ، وحكى القشيري نحوه عن بعضهم .

(115/476)

ورد ذلك في "الكشف" بأنه لا يليق بجلالتهما ولعل الخبر عن الحبر غير صحيح ، ونقل في "البحر" عن أرباب المعاني أن هذه الأمور التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى

عليه السلام وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم ؟ ولما أنكر قتل الغلام قيل له أين إنكارك هذا ووكز القبطي والقضاء عليه ؟ ولما أنكر إقامة الجدار نودي أين هذا من رفعك الحجر لبنتي شعيب عليه السلام بدون أجرة ؟ ورأيت أنا في بعض الكتب أن الخضر عليه السلام قال : يا موسى اعترضت علي بخرق السفينة وأنت ألقيت ألواح التوراة فتكسرت واعترضت علي بقتل الغلام وأنت وكزت القبطي فقضى عليه واعترضت علي بإقامة الجدار بلا أجر وأنت سقيت لبنتي شعيب أغنامهما بلا أجر فمن فعل نحو ما فعلت لن يعترض علي ، والظاهر أن شيئاً من ذلك لا يصح والفرق ظاهر بين ما صدر من موسى عليه السلام وما صدر من الخضر وهو أجل من أن يحتج على صاحب التوراة بمثل ذلك كما لا يخفى .

وأخرج ابن أبي الدنيا .

والبيهقي في شعب الإيمان .

وابن عساكر عن أبي عبد الله وأظنه الملطي قال لما أراد الخضر أن يفارق موسى قال له : أوصني قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً كن بشاشياً ولا تكن غضباناً ارجع عن اللجاجة ولا تمش من غير حاجة ولا تعير امرأ بخطيئته وابك على خطيئتك يا ابن عمران .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن عساكر عن يوسف بن أسباط قال بلغني : أن الخضر قال لموسى لما أراد أن يفارقه : يا

موسى تعلم العلم لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به ، وبلغني أن موسى قال للخضر : ادع لي فقال الخضر : يسر الله تعالى عليك طاعته والله تعالى أعلم بصحة ذلك أيضاً .

(116/476)

﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ وقرأ ابن أبي وثاب ﴿ سانبيك ﴾ بإخلاص الياء من غير همز ، والسين للتأكيد لعدم تراخي الإنباء أي أخبرك البتة ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ والظاهر أن هذا لم يكن عن طلب من موسى عليه السلام ، وقيل : إنه لما عزم الخضر على فراقه أخذ بثيابه وقال : لا أفارقك حتى تخبرني بما أباح لك فعل ما فعلت ودعاك إليه فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ والتأويل رد الشيء إلى مآله ، والمراد به هنا المآل والعاقبة إذ هو المنبأ به دون التأويل بالمعنى المذكور ، وما عبارة عن الأفعال الصادرة من الخضر عليه السلام وهي خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ، ومآلها خلاص السفينة من اليد الغاصبة وخلاص أبوي الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز ، وفي جعل الموصول عدم استطاعة موسى عليه السلام للصبر دون أن يقال بتأويل ما فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه السلام وعتاب ، ويجوز أن يقال : إن ذلك

لاستشارة مزيد توجهه وإقباله لتلقي ما يلقى إليه ، و﴿ صَبْراً ﴾ مفعول تستطع وعليه متعلق به وقدم رعاية للفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(117/476)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾

تأكيد في التذكار بالشرط الأول . ونكتة زيادة : ﴿ لَكَ ﴾ هو - كما قال الزمخشري : زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية . كما لو أتى إنسان بما نهيته عنه ، فلمته وعنفته ، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد في تعنيفه . قال في " المثل السائر " : وهذا موضع تدق عن العثور عليه مبادرة النظر .

﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي : بعد هذه المرة : ﴿ فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴾ أي وجدت من جهتي عذراً . إذ أعذرتَ إليّ مرة بعد مرة ، فخالفتك ثلاث مرات ، بمقتضى طبع الاستعجال .

(118/476)

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ اختلف في تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : الخلاف فيها كالخلاف في مجمع البحرين . ولا يوثق بشيء منه : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ أي : امتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذي هو حق ضيافتهما عليهم . وقرئ : ﴿ يُضِيفُوهُمَا ﴾ من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به ، وأضافه وضيّفه : أنزله ليطعمه في منزله ، على وجه الإكرام : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ أي : ينهدم بقرب . من انقض الطائر إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة للمداناة والمشارفة . لما فيهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هي مجاز لغويّ مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشريّ ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره : ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ أي : عمّره وأصلحه ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي : لو طلبت على عملك جعلاً حتى تنتعش به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله : ﴿ فَلا تُصَاحِبْنِي ﴾ أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي : بمآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبعاقبته . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوي الغلام من شرّه ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين

للكنز . قال أبو السعود : وفي جعل صلة الموصول . عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال بتأويل ما فعلتُ أو بتأويل ما رأيتَ ونحوهما ، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 53.55 ﴾

(119/476)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) ﴾

كان جواب الخضر هذا على نسق جوابه السابق إلا أنه زاد ما حكي في الآية بكلمة ﴿ لَكَ ﴾ وهو تصريح بمتعلّق فعل القول .

وإذ كان المقول له معلوماً من مقام الخطاب كان في التصريح بمتعلق فعل القول تحقيق لوقوع القول وتثبيت له وتقوية ، والداعي لذلك أنه أهمل العمل به .

واللام في قوله ﴿ لَكَ ﴾ لام التبليغ ، وهي التي تدخل على اسم أو ضمير السامع لقولٍ أو ما في معناه ، نحو : قلت له ، وأذنت له ، وفسّرت له ؛ وذلك عندما يكون المقول له الكلام معلوماً من السياق فيكون ذكر اللام لزيادة تقوي الكلام وتبليغه إلى السامع ، ولذلك سميت لام التبليغ .

ألا ترى أن اللام لم يحتج لذكره في جوابه أول مرة ﴿ ألم أقل أنّك لن تستطيع معي صبراً ، فكان التقرير والإنكار مع ذكر لام تعدية القول أقوى وأشدّ .

وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان : إما لأنه لم يكن نَسِي ، ولكنه رجّح تغيير المنكر العظيم ، وهو قتل النفس بدون موجب ، على واجب الوفاء بالالتزام ؛ وإما لأنّه نسي وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرر الاعتذار به ، وعلى الاحتمالين فقد عدل إلى المبادرة باشتراط ما تطمئن إليه نفس صاحبه بأنه إن عاد للسؤال الذي لا يبتغيه صاحبه فقد جعل له أن لا يصاحبه بعدَه .

وفي الحديث عن النبي : كانت الأولى من موسى نسياناً ، والثانية شرطاً ﴾ ، فاحتمل كلام النبي الاحتمالين المذكورين .

وأنْصف موسى إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنباً لإحراجه .

وقرأ الجمهور : ﴿ لَدُنّي ﴾ بتشديد النون قال ابن عطية : وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم يعني أن فيها سنداً خاصاً مروياً فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير .

(120/476)

وقرأ نافع ، وأبو بكر ، وأبو جعفر ﴿ مِنْ لَدُنِي بتخفيف النون على أنه حذف منه نون الوقاية تخفيفاً ، لأن (لدنْ) أثقل من (عَن) (ومَن) فكان التخفيف فيها مقبولاً دونهما .

ومعنى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَّدُنّي عُذراً ﴾ قد وصلت من جهتي إلى العذر .

فاستعير ﴿ بَلَغْتَ ﴾ لمعنى (تحتّم وتعين) لوجود أسبابه بتشبيه العذر في قَطع الصحبة بمكان ينتهي إليه السائر على طريقة المكنية .

وأثبت له البلوغ تخييلاً ، أو استعار البلوغ لتَعيُّن حصول الشيء بعد المماطلة .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

نظم قوله ﴿ فانطَلَقا حَتَّى إذا أَتَيَا أهْلَ قَرْيَةٍ استَطْعَمَا أهْلَهَا ﴾ كنظم نظيريه السابقين .

والاستطعام : طلب الطعام .

وموقع جملة ﴿ استَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ كموقع جملة (خرقها) وجملة (فقتله) ، فهو متعلق (إذَا) .

وإظهار لفظ ﴿ أَهْلَهَا ﴾ دون الإتيان بضميرهم بأن يقال : استطعماهم ، لزيادة التصريح ، تشنيعاً بهم في لؤمهم ، إذ أبوا أن يضيفوهما .

وذلك لؤم ، لأنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام وهي من المواساة المتبعة عند الناس .

ويقوم بها من ينتدب إليها ممن يمر عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة ، أو من أعدّ نفسه

لذلك من كرام القبيلة ؛ فإباية أهل قرية كلهم من الإضافة لؤم لتلك القرية .

وقد أورد الصفدي على الشيخ تقي الدين السبكي سؤالاً عن نكتة هذا الإظهار في أبيات .

وأجابه السبكي جواباً طويلاً نثراً ونظماً بما لا يقنع ، وقد ذكرهما الآلوسي .

وفي الآية دليل على إباحة طلب الطعام لعابر السبيل لأنه شَرْع من قبلنا ، وحكاه القرآن ولم يرد ما ينسخه .

ودلّ لَوْم موسى الخضرَ ، على أن لم يأخذ أجر إقامة الحائط على صاحبه من أهل القرية ، على أنه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة بحرمانهم من إقامة الجدار في قريتهم .

(121/476)

وفي الآية مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الحيّ أو القرية .

وفي حديث "الموطأ" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِم ضيفَه جائزَتَه يومٌ وليلة (أي يُتحفه ويبالغ في بره) وضيافته ثلاثة أيام (أي إطعامٌ وإيواء بما حضر من غير تكلّف كما يتكلف في أول ليلة) فما كان بعد ذلك فهو صدقة " .

واختلف الفقهاء في وجوبها فقال الجمهور : الضيافة من مكارم الأخلاق ، وهي مستحبة

وليست بواجبة .

وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي .

وقال سحنون : الضيافة على أهل القُرى والأحياء ، ونسب إلى مالك .

قال سحنون : أما الحضر فالفندق ينزل فيه المسافرون .

وقال الشافعي ومحمد بن عبد الحكم من المالكية : الضيافة حق على أهل الحضر والبوادي .

وقال الليث وأحمد : الضيافة فرض يوماً وليلة .

ويقال : ضَيّفه وأضافه ، إذا قام بضيافته ، فهو مضيّف بالتشديد .

ومُضيف بالتخفيف ، والمتعرض للضيافة : ضَائف ومُتَضيّف ، يقال : ضِفته وتضيّفته ، إذا نزل به ومال إليه .

والجدار : الحائط المبني .

ومعنى ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أشرف على الانقضاض ، أي السقوط ، أي يكاد يسقط ، وذلك بأن مال ، فعبر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة المصرحة التبعية بتشبيه قرب انقضاضه بإرادة من يعقل فعل شيء فهو يوشك أن يفعله حيث أراده ، لأن الإرادة طلب النفس حصول شيء وميل القلب إليه .

وإقامة الجدار : تسوية مَيله ، وكانت إقامته بفعل خارق للعادة بأن أشار إليه بيده كالذي

يسوي شيئاً ليّناً كما ورد في بعض الآثار .

وقول موسى : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ لَوْم ، أي كان في مكنتك أن تجعل لنفسك أجراً على إقامة الجدار تأخذه ممن يملكه من أهل القرية ولا تقيمه مجاناً لأنهم لم يقوموا بحق الضيافة ونحن بحاجة إلى ما ننفقه على أنفسنا ، وفيه إشارة إلى أن نفقة الأتباع على المتبوع .

(122/476)

وهذا اللوم يتضمن سؤالاً عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر ، وليس هو لوماً على مجرد إقامته مجاناً ، لأن ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم .

وقرأ الجمهور ﴿ لاتّخذتَ بهمزة وصل بعد اللام وبتشديد المثناة الفوقية على أنه ماضي (اتخذ) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عَمرو ، ويعقوب لتَخِذْتَ بدون همزة على أنه ماضي (تَخِذ) المفتتح بتاء فوقية على أنه ماضي (تخذ) أوله فوقية ، وهو من باب علم .

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾

المشار إليه بلفظ ﴿ هذا ﴾ مقدر في الذهن حاصل من اشتراط موسى على نفسه أنه إن

سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما ، أي هذا الذي حصل الآن هو فراق بيننا ، كما يقال : الشرط أُمْلَك عليك أمْ لك .

وكثيراً ما يكون المشار إليه مقدراً في الذهن كقوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ [القصص : 83] .

وإضافة ﴿ فراق ﴾ إلى ﴿ بيني ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة .

وأصله : فراقٌ بيني ، أي حاصل بيننا ، أو من إضافة المصدر العامل في الظرف إلى معموله ، كما يضاف المصدر إلى مفعوله .

وقد تقدم خروج (بين) عن الظرفية عند قوله تعالى : ﴿ فلما بلغا مجمع بينِهما ﴾ [الكهف : 61] .

وجملة ﴿ سأُنبِئُك ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، تقع جواباً لسؤال يهجس في خاطر موسى عليه السلام عن أسباب الأفعال التي فعلها الخضر عليه السلام وسأله عنها موسى فإنه قد وعده أن يُحدث له ذكراً مما يفعله .

والتأويل : تفسير لشيء غير واضح ، وهو مشتق من الأول وهو الرجوع .

شبه تحصيل المعنى على تكلف بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه .

وقد مضى في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير ، وأيضاً عند قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم يقولون ﴾ الخ . . من أول سورة آل عمران (7) .

(123/476)

وفي صلة الموصول من قوله ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عليه صَبْراً ﴾ تعريض باللوم على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده بقوله ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(124/476)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ .

هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون : بأن المجاز في القرآن . زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة ، وإنما هي مجاز . وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة ، لأن الله تعالى يعلم للجمادات أرادات وافعالاً وأقوالاً لا يدركها الخلق كما صرح تعالى بأنه يعلمن ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله جل وعلا : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [

الإسراء : 44] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها . وأمثال ذلك مثيرة في القرآن والسنة .

فمن الآيات الدالة على ذلك – قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة : 74] الآية . فتصريحه تعالى بأن بعض الحجارة يهبط من خشية الله دليل واضح في ذلك . لأن تلك الخشية بإدارك يعلمه الله ونحن لا نعلمه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان ﴾ [الأحزاب : 72] الآية . فتصريحه جل وعلا بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفقت أي خافت – دليل عن أن ذك واقع بإرادة وإدراك يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه .

(125/476)

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأعرف حجراً كان يسلم علي بمكة " وما ثبت في صحيح البخاري من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه صلى الله عليه وسلم جزعاً لفراقه – فتسليم ذلك الحجر ، وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه ، كما صرح بمثله في قوله :

﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء : 44] . وزعم من لا علم عنده أنه هذه الأمور لا حقيقة لها ن وإنما هي ضرب أمثال – زعم باطل ، لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها الواضح المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه . وأمثال هذا كثيرة جداً . وبذلك تعلم أنه لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون الله علم منه أرادة الانقضاض ، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة . وهذا واضح جداً كما ترى . مع أنه من الأساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل إلى الشيء . كما في قوله الشاعر :

في مهمه قلقت به هامها . . . قلق الفؤوس إذا أردن نضولا

فقول : " إذا أردن نضولا " أي قاربنه وقول الآخر :

يريد الرمح صدر أبي براء . . . ويعدل عن دماء بني عقيل

أي يميل إلى صدر أبي براء . وكقول راعي نمير :

إن دهراً يلف شملي بجمل . . . لزمان يهم بالإحسان

فقوله " لزمان يهم بالإحسان " أي يقع الإحسان فيه . وقد بينا في رسالتنا المسماه (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) – أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز أن ذلك لا يتعين في شيء منها . وبينا أدلة ذلك . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) ﴾

وأكَّدها وأرده بالكلام أي : قُلْت لك أنت .

ثم بعد المرة الثانية التي يقاطع فيها موسى معلمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) ﴾

وهكذا قطع موسى عليه السلام الطريق على نفسه ، وأعطى لها فرصة واحدة يتم بعدها الفراق ؛ لذلك في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رحمنا الله ، ورحم أخي موسى لو صبر لعرفنا الكثير " .

فهذه هي الثالثة ، وليس لموسى عذر بعد ذلك .

ومعنى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ [الكهف : 76] أي : قد فعلت معي كل ما يمكن فعله ، وليس لي عُذْر بعد ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ . . . ﴾ .

استطعم : أي طلب الطعام ، وطلَبُ الطعام هو أصدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا

جائع محتاج ، فلو سأل مالاً لقلنا : إنه يدخره ، إنما الطعام لا يعترض عليه أحد ، ومنْعُ الطعام عن سائله دليل بُخْل ولُؤْم متأصل في الطباع ، وهذا ما حدث من أهل هذه القرية التي مَرّا بها وطلبَا الطعام فمنعوهما .

والمتأمل في الآية يجد أن أسلوب القرآن يُصوّر مدى بُخْل هؤلاء القوم ولُؤْمهم وسُوء طباعهم ، فلم يقُلْ مثلاً : فأبوا أن يطعموهما ، بل قال : ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا . . ﴾ [الكهف : 77] وفرْق بين الإطعام والضيافة ، أَبَوْا الإطعام يعني منعوهما الطعام ، لكن أَبَوْا أن يُضيّفوهما ، يعني كل ما يمكن أنْ يُقدَّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال ، وهذا مُنْتَهى ما يمكن تصوُّره من لُؤْم هؤلاء الناس .

(127/476)

وتلحظ أيضاً تكرار كلمة ﴿ أَهْلَ ﴾ فلما قال : ﴿ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ [الكهف : 77] فكان المقام للضمير فيقول : استطعموهم ، لكنه قال : ﴿ استطعما أَهْلَهَا . . ﴾ [الكهف : 77] لأنهم حين دخلوا القرية : هل قابلوا كل أهلها ، أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول ؟

بالطبع قابلوا بعضهم ، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً ، كأنهما مرّا على كل بيت في

القرية وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى ، كأنهم مجمعون على البُخْل ولُؤْم الطباع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ . . ﴾ [الكهف : 77]

أي : لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وَجَدا جداراً يريد أنْ ينقضّ ، ونحن نعرف أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل ، فإنْ جاءت لغير العاقل فهي بمعنى : قَرُب . أي : جداراً قارب أنْ ينهار ، لما نرى فيه من علامات كالتصدُّع والشُّروخ مثلاً .

وهذا الفهم يتناسب مع أصحاب التفكير السطحي وضَيِّقي الأفق ، أما أصحاب الأفق الواسع الذين يعطون للعقل دوره في التفكير والنظر ويُدققون في المسائل فلا مانع لديهم أنْ يكون للجدار إرادة على أساس أن لكل شيء في الكون حياةً تناسبه ، ولله تعالى أن يخاطبه ويكون بينهما كلام .

ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض . . ﴾ [الدخان : 29]

فإذا كانت السماء تبكي فقد تعدَّتْ مجرد الكلام ، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقوله : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض . . ﴾ [الدخان : 29] دليل على أنها تبكي على فَقْد الصالحين .

وقد سُئِل الإمام علي رضي الله عنه عن هذه المسألة فقال : " نعم ، إذا مات المؤمن بكى

عليه موضعان : موضع في السماء وموضوع في الأرض ، أما موضعه في الأرض فموضع مُصلاَّه ، أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله " .

(128/476)

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكَوْن من حوله ، فالكون ساجد لله مُسبِّح لله طائع لله يحب الطائعين وينُبو بالعاصين ويكرههم ويلعنهم ؛ لذلك العرب تقول : (نَبَا به المكان) أي : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاصٍ ، والمكان مُسبِّح وهو غافل .

وعلى هذا الفهم فقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ . . ﴾ [الكهف : 77] قول على حقيقته .

إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث " .

ورُوِي في السيرة حنين الجذع إلى رسول الله ، وتسبيح الحصى في يده صلى الله عليه وسلم . وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا : لا ينبغي أن نقول : سَبَّح الحصى في يد رسول الله ؛ لأن الحصى يُسبِّح أيضاً في يد أبي جهل ، لكن نقول : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسبيح الحصى في يديه .

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الأشياء ، فقد رأينا العلماء في العصر الحديث يبحثون في لغة للأسماك ، ولغة للطير ، ولغة للوطاويط التي أخذوا منها فكرة الرادار ، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلزال وخاصة الحمار ، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلزال مباشرة . إذن : فلهم وسائل إدراك ، ولهم لغة يتفاهمون بها ، ولهم منطق يعبرون به .

ثم يقول الحق سبحانه عن فِعْل الخضر مع الجدار الذي قارب أن ينقض ﴿ فَأَقَامَهُ . . ﴾ [الكهف : 77] أي : أصلحه ورمَّمه ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . . ﴾ [الكهف : 77]

هذا قول موسى عليه السلام لما رأى لُؤْمَ القوم وخِسّتهم ، فقد طلبنا منهم الطعام فلم يُطْعمونا ، بل لم يقدموا لنا مجرد المأوى ، فكيف نعمل لهم مثل هذا العمل دون أجرة ؟ وجاء هذا القول من موسى عليه السلام لأنه لا يعلم الحكمة من وراء هذا العمل .

(129/476)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . . . ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ أي : العبد الصالح ﴿ هذا ﴾ أي : ما حدث منك من قولك : ﴿ قَالَ لَوْ

شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [الكهف : 77] وقد سبق أن اشترط موسى عليه السلام على نفسه إن اعترض على معلمه هذه المرة يكون الفِراقُ بينهما ، وكأن العبد الصالح لم يَأْتِ بشيء من عنده ، لقد قال موسى : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ [الكهف : 76] وها هو يسأله ، إذن : فليس إلا الفراق : ﴿ قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . . ﴾ [الكهف : 78]

قوله : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . . ﴾ [الكهف : 78] تُعد دُستوراً من الحق سبحانه وتعالى ودليلاً على أن هذين المذهبين لا يلتقيان ، فيظل كل منهما له طريقه : المرتاض له طريقه ، وغير المرتاض له طريقه ، ولا ينبغي أن يعترض أحدهما على الآخر ، بل يلزم أدبه في حدود ما علَّمه الله .

ثم يقول تعالى على لسان الخضر : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف : 78] أي : لن أتركك وفي نفسك هذه التساؤلات ، حتى لا يكون في نفسك مني شيء ، سوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال التي اعترضْتَ عليها لتعلم أن الله لم يخدعْكَ ، بل أرسلك إلى مَنْ يُعلّمك شيئاً لم تكُنْ تعلمه .

ثم أخذ العبد الصالح يكشف لموسى الحكمة من هذه الأفعال واحداً تِلْو الآخر ، كما لو عتبَ عليك صاحبك في أمر ما ، وأنت حريص على مودّته فتقول له : أمهلني حتى أوضح

لك ما حدث ، لقد فعلتُ كذا من أجل كذا ، لتريح قلبه وتُزيل ما التبس عليه من هذا الأمر

.

(130/476)

وقالوا : إن هذا من أدب الصُّحْبة ، فلا يجوز بعد المصاحبة أنْ نفترقَ على الخلاف ، ينبغي أن نفترق على وِفَاق ورضا ؛ لأن الافتراق على الخلاف يُنمِّي الفجوة ويدعو للقطيعة ، إذن : فقبل أنْ نفترق : المسألة كيت وكيت ، فتتضح الأمور وتصفو النفوس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(131/476)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) ﴾

قوله : ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ : العامَّةُ على " تصاحِبْني " من المفاعلة . وعيسى ويعقوب :

" فلا تَصْحَبَنّي " مِنْ صَحِبَه يَصْحَبُه . وأبو عمرو في روايةٍ وأُبَيٌّ بضمّ التاءِ مِنْ فوقُ وكسرِ الحاء ، مِنْ أصحب يُصْحِب ، ومفعولُه محذوفٌ تقديره : فلا تُصْحِبْني نفسك . وقرأ أُبَيٌّ " فلا تُصْحِبْني عِلْمَك " فأظهر المفعول .

قوله : ﴿ مِن لَّدُنِّي ﴾ العامَّةُ على ضَمِّ الدالِ وتشديد النون . وذلك أنَّهم ادْخلوا نونَ الوقايةِ على " لَدُن " لِتَقِيَها من الكسرِ محافَظَةً على سكونِها ، كما حُوْفِظَ على سكونِ نون " مِنْ " و " عَنْ " فأُلْحِقَتْ بهما نونُ الوقايةِ فيقولون : مِنّي وعَنّي بالتشديد .

ونافعٌ بتخفيف النون . والوجهُ فيه : أنه لم يُلْحِقْ نونَ الوقاية ل " لَدُن " . إلا أنَّ سيبويه منع مِنْ ذلك وقال : " لا يجوز أَنْ تأتيَ ب " لَدُنْ " مع ياء المتكلم دون نونِ وقاية " . وهذه القراءةُ حجةٌ عليه . فإنْ قيل : لِمَ لا يُقال : إن هذه النونَ نونُ الوقايةِ ، وإنما اتصلَتْ ب " لَدُ " لغةً في " لَدُن " حتى يتوافَقَ قولُ سيبويه مع هذه القراءة ؟ قيل : لا يَصِحُّ ذلك من وجهين ، أحدهما : أَنَّ نونَ الوقايةِ إنما جيءَ بها لتقيَ الكلمةَ الكسرَ محافظةً على سكونها . ودون النون لا يُسَكِّنون ؛ لأنَّ الدالَ مضمومةٌ ، فلا حاجةَ إلى النون .

والثاني : أنَّ سيبويهِ يمنع أَنْ يُقال : " لَدُني " بالتخفيف .

وقد حُذِفَتِ النونُ مِنْ " عَنْ " و " مِنْ " في قوله :

3183- أيُّها السَّائِلُ عنهم وعِنِيْ . . . لستُ من قيسٍ ولا قيسٌ مِنِيْ

ولكن تَحْتمل هذه القراءةُ أن تكون النونُ فيها أصليةً ، وأن تكونَ للوقاية على أنها دخلَتْ على " لَدْ " الساكنة الدال ، لغةً في " لدن " فالتقى ساكنان فكُسِرَتْ نونُ الوقاية على أصلها . وإذا قلنا بأنَّ النونَ أصليةٌ فالسكونُ تخفيفٌ كتسكين ضاد " عَضْد " وبابه .

وقرأ أبو بكرٍ بسكونِ الدال وتخفيفِ النون أيضاً ، ولكنه أَشَمَّ الدالَ الضَّمَّ مَنْبَهة على الأصل . واختلف القرَّاء في هذا الإِشمامِ ، فقائلٌ : هو إشارةٌ بالعضوِ مِنْ غيرِ صوتٍ كالإِشمام الذي في الوقف ، وهذا هو المعروف . وقائلٌ : هو إشارةٌ للحركةِ المُدْرَكةِ بالحسِّ فهو كالرَّوْم في المعنى ، يعني : أنه إتيانٌ ببعض الحركةِ . وقد تقدَّم هذا محرَّراً في يوسف عند قولِه ﴿ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ [الآية : 11] ، وفي قوله في هذه السورةِ " مِنْ لدنه " في قراءة شعبة أيضاً ، وتقدَّم لك بحثٌ يعودُ مثلُه هنا .

وقرأ عيسى وأبو عمروٍ في روايةٍ " عُذُراً " بضمتين . وعن أبي عمرو أيضاً " عُذْرِي " مضافاً لياءِ المتكلم .

و﴿ مِن لَّدُنِّي ﴾ متعلقٌ ب " بَلَغْتَ " ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " عُذْرا " .

قوله : ﴿ استطعما أَهْلَهَا ﴾ : جواب " إذا " ، أي : سألاهم الطعامَ . وفي تكريرِ " أهلَها " وجهان ، أحدهما : أنه توكيدٌ من بابِ إقامةِ الظاهر مُقامِ المضمر كقوله :

3184- لا أرى الموتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ . . . نغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

والثاني : أنَّه للتأسيسِ ؛ وذلك أنَّ الأهلَ المَأْتِيّين ليسوا جميعَ الأهل ، إنما هم البعضُ ، إذ لا يمكن أَنْ يأتيا جميعَ الأهلِ في العادة في وقتٍ واحد ، فلمَّا ذَكَرَ الاستطعامَ ذكره بالنسبة إلى جميع الأهل كأنهما تَتَبَّعا الأهلَ واحداً واحداً ، فلو قيل : استطعماهم لاحتمل أنَّ الضميرَ/ يعودُ على ذلك البعضِ المأتيِّ دونَ غيرِه ، فكرَّر الأهلَ لذلك .

(133/476)

قوله : ﴿ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ مفعولٌ به لقولِه " أبَوْا " . والعامَّة على التشديد مِنْ ضَيَّفَه يُضَيِّفه . والحسن وأبو رجاء وأبو رزين بالتخفيف مِنْ : أضافَه يُضيفه وهما مثل : مَيَّله وأماله .

قوله : ﴿ أَن يَنقَضَّ ﴾ مفعولُ الإرادة . و " انقَضَّ " يُحتمل أن يكونَ وزنُه انْفَعَلَ ، من انقِضاضِ الطائرِ أو مِنْ القِضَّة وهي الحَصَى الصِّغار . والمعنى : يريدُ أنْ يتفتَّتَ كالحصى ، ومنه طعامٌ قَضَضٌ إذا كان فيه حَصَى صِغارٌ . وأن يكونَ وزنُه افْعَلَّ كاحْمَرَّ مِن النَّقْضِ يقال : نَقَضَ البناءَ يَنْقُضُه إذا هَدَمه . ويؤيِّد هذا ما في حرفِ عبدِ الله وقراءةِ الأعمش " يريد لِيُنْقَضَ " مبنياً للمفعول واللامِ ، كهي في قولِه ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] . وما قرأ به أُبَيٌّ كذلك إلا أنَّه ﴿ يُرِيدُ أَن يُنقَضَ ﴾ بغير لام كي .

وقرأ الزُّهْري "أنْ يَنْقَاضَ" بألفٍ بعد القاف . قال الفارسيُّ : "هو مِنْ قولهم قِضْتُه فانقاضَ" أي : هَدَمْتُه فانهدم" . قلت : فعلى هذا يكونُ وزنُه يَنْفَعِل . والأصل انْقَيَض فَأُبْدِلَت الياءُ ألفاً . ولمَّا نَقَل أبو البقاء هذه القراءةَ قال : "مثل : يَحْمارّ" ومقتضى هذا التشبيه أن يكونَ وزنُه يَفْعالَّ . ونقل أبو البقاء أنه قُرِئ كذلك بتخفيفِ الضاد قال : "وهو مِنْ قولِك : انقاضَ البناءُ إذا تهدَّم" .

وقرأ عليٌّ أميرُ المؤمنين رضي الله عنه وعكرمة في آخرين "يَنْقاص" بالصاد مهملةً ، وهو مِنْ قاصَه يَقِيْصُه ، أي : كسره . قال ابنُ خالويه : "وتقول العرب "انقاصَتِ السِّنُّ : إذا انشقَّتْ طولاً" . وأُنْشِدُ لذي الرُّمَّة :

3185- . . . . . .

. . . . . مُنْقاصٌ ومُنْكِثبُ

وقيل : إذا تَصَدَّعَتْ كيف كان . وأُنْشِد لأبي ذؤيب :

(134/476)

3186 فِراقٌ كَقَيْصِ السِّنِّ ، فالصَّبْرَ إنَّه . . . لكلِّ أُناسٍ عَثْرَةٌ وجُبورُ

ونسبةُ الإرادةِ إلى الجدارِ مجازٌ وهو شائعٌ جداً . ومِنْ أنكر المجازَ مطلقاً أو في القرآنِ

خاصةً تأَوَّلَ ذلك على أنه خُلِقَ للجدار حياةٌ وإرادة كالحيوانات . أو أنَّ الإرادةَ صدرت من الخَضِرِ ليَحْصُلَ له ولموسى من العَجَبِ . وهو تَعَسُّفٌ كبيرٌ . وقد أنحى الزمخشريُّ على هذا القائِل إنحاءً بليغاً .

قوله : "لاتَّحّذْتَ" قرأ ابن كثير وأبو عمرو "لتَخِذْتَ" بفتح التاءِ وكسرِ الخاءِ مِنْ تَخِذَ يَتْخَذُ كتَعِبَ ويتعَبُ . والباقون : : لاتَّخَذْتَ" بهمزةِ الوصلِ وتشديدِ التاءِ وفتحِ الخاءِ مِنَ الاتِّخاذ . واختُلِفَ : هل هما مِن الأَخْذ ، والتاءُ بدلٌ من الهمزة ، ثم تُحْذَفُ التاءُ الأولى فيُقال : تَخِذَ ، كتَقِيَ مِنْ اتَّقَى نحو :

3187- . . . . . تَقِ اللهَ

فينا والكتابَ الذي تَتْلُوْ

أم هما مِنْ تَخِذَ والتاءُ أصيلةٌ ، ووزنُهما فَعِل وافْتَعَل ؟ قولان تقدَّم تحقيقُهما في هذا الموضوع . والفِعْلُ هنا على القراءتين متعدٍّ لواحدٍ لأَنَّه بمعنى الكسب .

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) ﴾

قوله : ﴿ فِرَاقُ بَيْنِي ﴾ : العامَّةُ على الإضافةِ اتِّساعاً في الظرف . وقيل : هو بمعنى الوَصْلِ . ومِثْلُه قولُه :

3188- . . . . . وجِلْدَةُ بين العَيْنِ والأَنْفِ سالِمُ

(135/476)

وقرأ ابنُ أبي عبلة "فِراقٌ" بالتنوين على الأصل . وتكريرُ المضافِ إليه عطفاً بالواو هو الذي سَوَّغَ إضافةَ "بَيْنَ" إلى غيرِ متعدّدٍ ، ألا ترى أنَّك لو اقتصَرْتَ على قولك : "المالُ بيني" لم يكن كلاماً حتى تقولَ : بيننا ، أو بيني وبين فلان . وقرأ ابن وثاب "سَأُنْبِيْكَ" بإخلاص الياء بدلَ الهمزة . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 530.536﴾

(136/476)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) ﴾

كرَّر قوله : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ . . . ﴾ لأنه واقف بشرط العلم ، وأمَّا في محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال :

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) ﴾ .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) ﴾ .

بلغ عصيانه ثلاثاً ؛ والثلاثة آخِرُ حَدّ آخِرُ حَدّ القِلَّة ، وأوّلُ حَدّ الكثرة ، فلم يَجِدْ المُسامَحَةَ بعد ذلك .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

كان واجباً في ملتهم على أهل القرية إطعامهما ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم ؛ ولو كان أَغْضَى على ذلك منهم لكان أحسن .

فلمَّا أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى أنك قُمْتَ بمحظور ، ولكنه قال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أَخْذُكَ خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وَجَبَ حقُّهم فَلِمَ أخللتَ بحقنا ؟

ويقال إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب فَرُدَّ إلى تَحَمُّلِ المشقة ، وإلاَّ فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعبِ وما كان فيه من الجوع كان أكثر ، ولكنه كان في ذلك الوقت محمولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمّلاً . فلما قال موسى هذا قال له الخضر :

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) ﴾

أي بعد هذا فلا صحبة بيننا .

ويقال قال الخضر إِنَّك نبيٌّ . . وإنما أؤاخذك بما قُلْتَ ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط ؛ وقلتَ : إِنْ سألْتُك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، وإنما أعاملك بقولك .

ويقال لمّا لم يصبر موسى معه في تَرْكِ السؤال لم يصبر الخضرُ أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأله لأجل الغير – في أمر السفينة التي كانت للمساكين ، وقَتْلِ النَّفْس بغير الحق – لم يفارقه الخضر ، فلمَّا صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌّ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة ، فقال الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ .

ويقال كما أن موسى – عليه السلام – كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزاده من العلم فإن الخضر كان يحب تَرْكَ صحبة موسى عليه السلام إيثاراً للخلوة بالله عن المخلوقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 410 . 411 ﴾

(138/476)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض ﴾

أي ما استعنت بهم على خلق السموات والأرض ، يعني : إبليس وذريته ﴿ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، أي ولا استعنت بهم على خلق .

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ ، أي ما كنت أتخذ الذين يضلون الناس عرفاً يعني : الشياطين ، ﴿ عَضُداً وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَائِىَ ﴾ ، أي لعباد الأوثان وهو يوم القيامة ، نادوا شركائي أي ادعوا آلهتكم ، ﴿ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ في الدنيا أنهم لي شركاء ، ليمنعوكم مني من عذابي .

﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ ، يعني : الآلهة ، ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ ؛ أي لم يجيبوهم .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ ؛ قال مجاهد : وادٍ في جهنم ، وهكذا قال مقاتل ، وقال القتبي : أي مهلكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم ، ومنه يقال : أَوبقته ذنوبه ويقال : موعداً ، وقال الزجاج : وجعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم ، أي وجعلنا بينهم وبين شركائهم الذين أضلوهم موبقاً أي مهلكاً .

قرأ حمزة ويوم ﴿ نَّقُولُ ﴾ بالنون وقرأ الباقون بالياء .

﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾ ، أي رآها المشركون من مكان بعيد ، ﴿ فَظَنُّواْ ﴾ ؛ أي علموا واستيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ ، أي داخلوها ، ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ؛ أي معدلاً ولا ملجأً ولا مفراً يرجعون إليه .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ ، أي بيّنا ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءانِ لِلنَّاسِ مِن ﴾ ، أي من كل وجه ونوع ليتعظوا فلم يتعظوا ، ويقال : بينا من كل وجه يحتاجون إليه .

﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَىء جَدَلاً ﴾ من أمر الباطل ، يعني : من أمر البعث مثل أبيّ بن خلف وأصحابه .

(139/476)

قال الفقيه : حدثنا الخليل بن أحمد قال : حدثنا يحيى بن محمد الصاعد قال : حدثنا العباس بن محمد الدوري قال : حدثنا محمد بن بشر قال ، للحجاج بن دينار قال ، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ " .

والدليل على أن الإنسان أراد به الكافر ما قال في سياق الآية ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل ﴾ الآية .

ثم قال : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ ؛ يقول : لم يمنع المشركون أن يصدقوا .

﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ ، يعني : الرسول والكتاب والدلائل والحجج .

قوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ ، أي وما منعهم من الاستغفار والرجوع عن شركهم ، ﴿ إِلاَّ

أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الاولين ﴾ ، أي عذاب الأمم الخالية .

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ﴾ ، أي عياناً بالسيف .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ قُبُلاً ﴾ بضم القاف والباء ، وقرأ الباقون بكسر القاف ونصب الباء .

فمن قرأ بالضم فهو بمعنى فعل من قبل ، أي مما يقابلهم ، ويجوز أن يكون جمع قبيل هو أن يأتيهم العذاب أنواعاً ، ومن قرأ بالكسر معناه عياناً .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشّرِينَ ﴾ ، أي للمؤمنين بالجنة ، ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ ؛ أي للكافرين بالنار ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل ﴾ أي يخاصموا بالباطل ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ﴾ أي ليزيلوا ويذهبوا به ﴿ الحق ﴾ ومنه يقال : حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ إذا زالت عن الحجة وقال مقاتل : ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ﴾ أي ليبطلوا به الحقَّ ، يعني : القرآن والإسلام ، يعني : يريدون أن يفعلوا إن قدروا عليه .

﴿ واتخذوا ءاياتى ﴾ ، يعني : القرآن ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ ، أي وما خوفوا به ﴿ هُزُواً ﴾ أي سخرية .

(140/476)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي فلا أحد أظلم ؛ ويقال : أشد في كفره ﴿ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ ، أي وعظ بالقرآن ، ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ .

يقول : فكذب بها ولم يؤمن بها ، ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ؛ أي نسي ذنوبه التي أسلفها .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ ، أي جعلنا أعمالهم على قلوبهم أكنة ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ، أي لكيلا يعرفوه ولا يفهموه .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ، أي صمماً وثقلاً مجازاة لكفرهم .

﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ ، أي إلى الإسلام ، ﴿ فَلَن يَهْتَدُوا ﴾ ؛ أي لن يؤمنوا .

﴿ إِذًا أَبَدًا وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ﴾ ، أي المتجاوز إن رجعوا .

﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ ، أي بتأخير العذاب عنهم ، ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ ؛ أي لو يعاقبهم بكفرهم ، ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ في الدنيا ، ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ ، أي أجلاً .

﴿ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ ، أي ملجأً يلجؤون إليه ولا منجى منه .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى ﴾ ، أي أهلها يعني : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ ، يعني : القرون الماضية حين أقاموا وثبتوا على كفرهم .

﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ ، أي لهلاكهم أجلاً يهلكون فيه قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ لِمَهْلِكِهِم ﴾ بنصب الميم واللام ، وقرأ عاصم في رواية حفص بنصب الميم وكسر اللام

، وقرأ الباقون بضم الميم ونصب اللام ، ومعنى ذلك كله واحد قال الزجاج : يكون للمصدر ويجوز للوقت وإن كان مصدراً ، فمعناه جعلنا لوقت هلاكهم أجلاً .

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لفتاه ﴾ ، أي لتلميذه وهو يوشع بن نون ؛ وقال أَهل الكتاب : إنما هو موسى بن إفراتيم بن يوسف بن يعقوب ، وذكر عن القتبي أنه قال : زعم أهل التوراة أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب ، وقال عامة المفسرين : هو موسى بن عمران الذي هو أخو هارون .

(141/476)

قال الفقيه رضي الله عنه : حدثنا الخليل بن أحمد قال : حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا الأوزاعي ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن منبه ، أن ابن عباس تمارى هو وقيس ، وجبر بن قيس الفزاري في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إليه قال ابن عباس : هو الخضر إذ مر أبي بن كعب ، فناداه ابن عباس فقال : تماريت أنا وهذا في صاحب موسى ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم "بَيْنَا مُوسَى فِي مَلإِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ فَقَالَ لا ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بَلْ عَبْدِي الخَضِرُ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لِقَائِهِ ، فَجَعَلَ

اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً .

فَقَالَ : إذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا ما قَصَّ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ " .

وروى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوف البكالي زعم أن موسى نبي بني إسرائيل .

ليس هو موسى صاحب الخضر ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله .

أخبرنا أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قَامَ مُوسَى خَطِيباً فِي بَنِي إسْرَائِيلَ " وذكر نحو الحديث الأول .

وروى أسباط ، عن السدي قال : بلغنا أن موسى بن عمران نبي الله خطب خطبة فأبلغ فيها ، فدخله بعض العجب وتعجبت بنو إسرائيل لبلاغته فقالوا : يا نبي الله هل تعلم أحداً أبلغ منك فأوحى الله تعالى إليه أن لي عبداً في الأرض هو أعلم منك فاطلبه قال : وما علامته ؟ قال : تنطلق معك بزاد ، فإذا تعبت في سفرك أي أعييت وفقدت زادك ، فعند ذلك تلقاه .

فانطلق موسى وفتاه يوشع بن نون وحملا معهما خبزاً وحوتاً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لفتاه لا أَبْرَحُ ﴾ .

قال الكلبي : وإنما سماه موسى فتًى لأنه كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه ، وكان يوشع من أشراف بني إسرائيل ، وهو الذي استخلفه موسى على بني إسرائيل .

وقال مقاتل : كان فتاه يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى من سبط يوسف .

﴿ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ ، أي بحر الملح وهو بحر فارس وبحر الروم والبحر العذب ؛ وقد قيل : معناه آتي الموضع الذي يجتمع فيه بين العالمين يعني : موسى والخضر ، وهما بحران في العلم .

﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ، أي أصحبك ﴿ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ ، أي هدى وصواباً .

قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ رَشَدًا ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقون بالضم عن عاصم ونافع ، ومعناهما واحد .

فقال له الخضر : إن لك فيما في التوراة كفاية من طلب العلم في بني إسرائيل وفضل أنت سترى مني أشياء تنكرها ولا ينبغي للرجل الصالح أن يرى شيئاً منكراً لا يغيره ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ ، يعني : إنك ترى مني أشياء لا تصبر عليها .

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ ؟ أي ما لم تعلم به علماً .

ويقال : معناه كيف تصبر على ما ظاهره منكر ؟ ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاء اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ ، أي لا أترك أمرك فيما أمرتني .

﴿ قَالَ ﴾ الخضر : ﴿ فَإِنِ اتبعتنى ﴾ ، أي صحبتني ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِى عَن شَىْء ﴾ فعلت ، ﴿ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ ؛ أي حتى أخبرك منه خبراً ، يعني : إن أنكرته فلا تعجل عليّ بالمسألة .

فأمر موسى يوشع أن يرجع إلى بني إسرائيل وأقام موسى مع الخضر .

(143/476)

قرأ نافع ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِى ﴾ بتشديد النون مع إثبات الياء والتقدير للتأكيد للنهي ، وقرأ ابن عامر ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِى ﴾ بتشديد النون بغير ياء لأن الكسرة تدل عليه ، وقرأ الباقون ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِى ﴾ بالتخفيف وإثبات الياء ، وقرأ بعضهم بالتخفيف بغيره .

﴿ فانطلقا ﴾ ، يعني : موسى والخضر ، وذلك أن موسى رد يوشع إلى بني إسرائيل وذهب موسى مع الخضر .

﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة ﴾ ؛ وذلك أنهما لما أتيا السفينة ، قال أهل السفينة ؛ لا يدخل علينا هذان الرجلان ، فإنا لا نعرفهما ونخاف على متاعنا منهما .

فقال الملاح؛ بل سيماهما سيما الزهاد ، فحملهما في السفينة بغير نول أي مجاناً .

فأخذ الخضر فأساً لما ركب السفينة ، وجعل يثقب السفينة ويخرقها ، فقال أهل السفينة ؛ الله الله لا تخرق سفينتنا فتغرق .

فقال موسى ؛ حملنا بغير نول وتخرق السفينة وتغرق أهلها ؟ فذلك قوله ؛ ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة ﴾ ﴿ خَرَقَهَا ﴾ ، أي ثقبها .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ؛ ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ لِيُغْرِقَ ﴾ بالياء والنصب ﴿ أَهْلَهَا ﴾ بضم اللام ، وقرأ الباقون بالتاء والضم وكسر الراء والنصب في اللام ؛ فمن قرأ برفع التاء فالأهل هو المفعول .

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ ، أي منكراً شديداً .

قال القتبي : ﴿ أمْراً ﴾ أي داهية وكذلك ﴿ نُّكْراً ﴾ ، إلا أن النكر أشد استعظاماً بالعين وإنكاراً بالقلب .

﴿ قَالَ ﴾ له الخضر : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً ﴾ .

روي عن ابن عباس أنه قال : قال له موسى : يا عبد الله ، إنه لا يحل لك أن تخرق سفينة القوم فتغرقهم .

فلم يكلمه الخضر ، وجعل يخرق السفينة حتى خرقها ، فتنحى موسى وجلس فقال : وما كنت أمنع أن أتبع هذا الرجل يظلم هؤلاء القوم ، وقد كنت في بني إسرائيل أقرأ عليهم كتاب الله غدوة وعشية ، ويقبلون مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم .

فقال الخضر : يا موسى ، أتدري ما حدثت به نفسك ؟ فقال موسى : ما هو ؟ قال الخضر : قلت : كنت في بني إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية ، يقبلونه مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم .

قال له : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ .

قال : فجاء عصفور فوقع على جانب السفينة ، فنقر من البحر نقرة من الماء ثمّ طار فقال الخضر : والله ما ذهبت أنا وأنت من العلم في علم الله تعالى ، إلا مثل ما يغرف هذا العصفور من الماء من هذا البحر .

﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ ، أي بما تركت من وصيتي .

وقال ابن عباس : هذا من معاريض الكلام ، لأن موسى لم ينس ولكن قال : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ يقول إذا كان مني نسيان فلا تؤاخذني به .

﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ ، يعني : لا تكلفني من أمري شدة .

﴿ فانطلقا ﴾ ، أي خرجا من السفينة ومضيا ، ﴿ حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا ﴾ ؛ قال

الكلبي : كان اسمه خشنوذ .

وقال غيره : كان اسمه خربث بن كاذري فقتله ، أي أخذ برأسه قرعة .

قال ابن عباس في رواية أبي صالح : كان رجلاً إلا أنه لم يهتك بعد ، وكان كافراً يقطع الطريق ؛ وقال سعيد بن جبير في رواية ابن عباس : كان صبياً غير مدرك فمر بغلمان يلعبون ، فأخذ برأس غلام منهم فقطعه ؛ وقال في بعض الروايات : خنقه ؛ فذلك قوله : ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ .

وروي أن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس أن النبي نهى عن قتل الصبيان في دار العرب ، وأن صاحب موسى قد قتل صبيّاً فكتب إليه ابن عباس : إنك لو علمت من الصبيان ما علم صاحب موسى ، جاز لك أن تقتله .

(145/476)

﴿ قَالَ ﴾ له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ، أي طاهرة بغير ذنب ؟ ويقال : زكية لم تجن عليك بغير نفس ، يقول : بغير دم وجب عليها .

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ زَاكِيَةً ﴾ بالألف ، وقرأ الباقون بغير ألف ؛ ومعناهما واحد مثل قاسية وقسية ، وقال القتبي الزكية المطهرة التي لم تذنب قط .

﴿ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ ، أي منكراً أي أمراً فظيعاً .

قال القتبي : إنما قال ها هنا نكراً ، لأن قتل النفس أشد استعظاماً من خرق السفينة ؛ وقال الزجاج : نكراً أقل من إمراً ، لأن إغراقه من في السفينة كان أعظم عنده من قتل النفس الواحدة .

﴿ قَالَ ﴾ الخضر : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ؛ وقد زاد هنا لك للتأكيد .

قيل : لأنه قد سبق منه الزجر مرة .

﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ ، يعني : إن طلبت صحبتك فلا تبايعني ؛ وقد قرىء ﴿ فَلَا ﴾ أبداً .

﴿ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ ؛ يقول : قد أعذرت فيما بيني وبينك في الصحبة .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ ؛ قال ابن عباس : وهي أنطاكية ، ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ ، أي : استضافاً ، قال بعضهم : سألاهم ؛ وقال بعضهم : لم يسألاهم ولكن كان نزولهما بين ظهرانيهم بمنزلة السؤال منهما .

﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ ، يعني : لم يطعموهما .

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾ ، يعني : في تلك القرية .

﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ ؛ وهذا كلام مجاز لأن الجدار لا يكون له إرادة ، ومعناه كاد أن يسقط ، ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ ؛ يعني : سواه الخضر .

﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ، أي جعلاً خبزاً تأكله .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لَتَخِذْتُ ﴾ بغير ألف وكسر الخاء ؛ والباقون ﴿ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ ﴾ ومعناهما واحد .

(146/476)

وقرأ نافع ﴿ مِن لَّدُنِّى ﴾ بنصب اللام وضم الدال وتخفيف النون ؛ وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو ﴿ مِن لَّدُنِّى ﴾ بتشديد النون وهي اللغة المعروفة ، والأول لغة لبعض العرب : واختلف الروايات عن عاصم .

﴿ قَالَ ﴾ الخضر : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ ، أي هذا شرط الفراق بيني وبينك وأنت حكمت على نفسك .

﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ ، أي بتفسير ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي تعلم ما رأيتني أصنع فأنكرت لتغرق أهلها وتأويله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 351 .

357 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾

ما أحضرتهم ، يعني إبليس وذريته . وقيل : يعني الكافرين أجمع . قال الكلبي : يعني ملائكة السماوات . وقرأ أبو جعفر : (ما أشهدناهم) بالنون والألف على التعظيم ، ﴿ خَلْقَ السماوات والأرض ﴾ فأستعين بهم على خلقها ، وأُشاورهم وأُوامرهم فيها ، ﴿ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ : أنصاراً وأعواناً .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ ﴾ قرأ حمزة بالنون . الباقون بالياء لقوله : ﴿ شُرَكَآئِيَ ﴾ ولم يقل : شركاءنا . ﴿ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم شركائي ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم ﴾ يعني بين الأوثان وعبدتها . وقيل : بين أهل الهدى والضلالة ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ ، قال عبد الله بن عمر : هو واد عميق في جهنم يفرق به يوم القيامة بين أهل لا إله إلاّ الله ، وبين من سواهم . وقال ابن عباس : هو واد في النار . وقال مجاهد : واد من حميم . وقال عكرمة : هو نهر في النار يسيل ناراً ، على حافتيه حيّات مثل البغال الدهم ، فإذا بادرت إليهم لتأخذوهم استغاثوا بالاقتحام في النّار منها . وقال الحسن : عداوة . وقال

الضحّاك وعطاء : مهلكاً . وقال أبو عبيد : موعداً ، وأصله الهلاك ، يقال : أوبقه يوبقه إيباقاً ، أي أهلكه ، ووبق يبق وبقاً ، أي هلكة ، ويقال : وبق يوبق ويبق ويأبق ، وهو وابق ووبق ، والمصدر : وبق ، ووبُوق .

﴿ وَرَأَى المجرمون ﴾ : المشركون ﴿ النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ : داخلوها . وقال مجاهد : مقتحموها وقيل : نازلوها وواقعون فيها . وقرأ الأعمش : (ملاقوها) ، يعني مجتمعين فيها ، والهاء الجمع ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ .

وروى أبو سعيد الخدري عن النبّي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنه مواقعها من مسيرة أربعين سنة " .

(148/476)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ : بيّنا ﴿ فِي هذا القرآنِ للنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ليتذكروا ويتّعظوا ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ : خصومة في الباطل ، يعني أُبي بن خلف الجمحي ، وقيل : إنه عام ليس بخاص ، واحتجّوا بما روى " الحسن بن علي بن أبي طالب عن أبيه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه هو وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تصلّون ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله تعالى ، فإذا شاء أن

يبعثنا بعثنا . فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك له ولم يرجع شيئاً ، فسمعته وهو يضرب فخذه ويقول : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ " .

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا ﴾ يعني من أن يؤمنوا ، ﴿ إِذْ جَآءَهُمُ الهدى ﴾ : القرآن والإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ ﴾ : ومن أن يستغفروا ربهم ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ يعني سنتنا في إهلاكهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ﴾ ، قال ابن عباس : عياناً .

قال الكلبي : هو السّيف يوم بدر . قال مجاهد : فجأة . ومن قرأ ﴿ قبلا ﴾ ، بضمتين ، أراد به : أصناف العذاب .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ ﴾ : يبطلوا ويزيلوا ﴿ بِهِ الحق ﴾ ، قال السّدي : ليفسدوا ، وأصل الدّحض : الزلق ، يقال : دحضت رجله أي زلقته . وقال طرفة :

أبا منذر رمت الوفاء فهبته . . . وحدت كما حاد البعير عن الدحض

﴿ واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ ، فيه إضمار يعني : وما أُنذروا وهو القرآن ﴿ هُزُواً ﴾ : استهزاءً .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ : لم يؤمن بها ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ، أي عملت يداه من الذنوب ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ، يعني القرآن ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ : ثقلاً وصمماً ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَى الْهُدَى ﴾ يعني إلى الدين ﴿ فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ : لن يرشدوا ولن يقبلوه .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ ﴾ من الذنوب ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ في الدنيا ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ وهو يوم الحساب ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ : معدلاً ومنجىً ، قال الأعشى :

وقد أُخالس ربّ البيت غفلته . . . وقد يحاذر منّي ثمّ ما يئل

أي لا ينجو .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ : كفروا ، ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً ﴾ : أجلاً .

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ ﴾ الآية قال ابن عباس : لما ظهر موسى (عليه السلام) وقومه على مصر أنزل قومه مصر ، فلّما استقرت بهم الدار أنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ [إبراهيم : 5] فخطب قومه وذكر بما آتاهم الله عزّ وجلّ من الخير والنّعمة ؛ إذ نجّاهم من آل فرعون وأهلك عدوّهم واستخلفهم في الأرض ، فقال : " وكلّم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وألقى عليّ محبّة منه ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، ونبيّكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة " . فلم يترك نعمة أنعمها الله عزّ وجلّ عليهم إلاّ ذكرها وعرّفها إيّاهم ، فقال له رجل من بني إسرائيل : قد عرفنا الذي تقول ، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟ قال : " لا " . فعتب الله عزّ وجلّ عليه حين لم يرد العلم إليه ، فبعث إليه جبرئيل ، فقال : " يا موسى وما يدريك أين أضع علمي ؟ بل إن لي عبداً بمجمع البحرين أعلم منك " . فسأل موسى ربّه أن يريه إيّاه ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن : " ايت البحر فإنك تجد على شط البحر حوتاً ، فخذه فادفعه إلى فتاك ، ثمّ الزم شط البحر إذا نسيت الحوت وهلك منك فثمّ تجد العبد الصالح " .

وقال ابن عباس في رواية أُخرى : سأل موسى ربّه فقال : " ربّ أي عبادك أحبّ إليك ؟ " . قال : " الذي يذكرني فلا ينساني " . قال : " فأي عبادك أقضى ؟ " . قال : " الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى " . قال : " ربّي فأي عبادك أعلم ؟ " . قال : " الذي يبغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدًى أو ترده عن ردًى " . قال : " إن كان

في عبادك أحد هو أعلم منّي فادللني عليه " . فقال له : " نعم ، في عبادي من هو أعلم منك " . قال : " من هو ؟ " . قال : " الخضر " . قال : " وأين أطلبه ؟ " . قال : " على الساحل عند الصخرة " . وجعل الحوت له آية ، وقال : " إذا حيّ هذا الحوت ، وعاش ، فإن صاحبك هناك " .

(151/476)

وكانا قد تزودا سمكاً مالحاً فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾ بن عمران ﴿ لِفَتَاهُ ﴾ : صاحبه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف . وقيل : فتاه أخو يوشع ، كان معه في سفره . وقيل : فتاه عبده ومملوكه : ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ : لا أزال أسير ﴿ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ ، قال قتادة : بحر فارس والروم مما يلي المشرق . وقال محمد بن كعب : طنجة . وقال أُبي بن كعب : أفريقية ، ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ وجمعه أحقاب : دهراً أو زماناً . وقال عبد الله بن عمر : والحقب ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون سنة . وقيل : البحران هما موسى والخضر ، كانا بحرين في العلم .

فحملا خبزاً وسمكة مالحة وسارا حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين ليلاً ، وعندها عين تسمى ماء الحياة ، لا يصيب ذلك الماء شيئاً إلاّ حيّ ، فلما أصاب السمكة

روح الماء وبرده اضطربت في المكتل وعاشت ودخلت البحر ، فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ ، يعني : موسى وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ يعني : بين البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ : تركا حوتهما ، وإنما كان الحوت مع يوشع ، وهو الذي نسيه فصرف النسيان إليهما ، والمراد به : أحدهما كما قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] وإنما يخرج من المالح دون العذب . وإنما جاز ذلك ؛ لأنهما كانا جميعا تزوّدا لسفرهما ، فجاز إضافته إليهما ، كما يقال : خرج القوم إلى موضع كذا ، وحملوا معهم من الزاد كذا ، وإنما حمله أحدهم ، لكنه لمّا كان ذلك من أمرهم ورأيهم أُضيف إليهم . ﴿ فاتخذ ﴾ الحوت ﴿ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً ﴾ ، أي مسلكاً ومذهباً يسرب ويذهب فيه .

واختلفوا في كيفية ذلك ؛ فروى أُبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " انجاب الماء عن مسلك الحوت فصارت كوّة لم تلتئم ، فدخل موسى الكوّة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر (عليه السلام) " .

(152/476)

وقال ابن عباس : رأى أثر جناحه في الطين حين وقع في الماء ، وجعل الحوت لا يمس شيئاً إلاّ يبس حتى صار صخرة . وروى ابن عباس عن أُبي بن كعب عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : " لمّا انتهيا إلى الصخرة وضعا رأسيهما فناما واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا ، أمسك الله عزّ وجلّ عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى (عليه السلام) نسي فتاه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما . حتى إذا كان من الغد ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ ﴾ موسى ﴿ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ " .

وقال قتادة : رد الله عزّ وجلّ إلى الحوت روحه فسرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ، ثمّ سلك فجعل لا يسلك منه طريقاً إلاّ صار ماء جامداً طريقاً يبساً . وقال الكلبي : توضّأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المالح في المكتل من ذلك الماء فعاش ، ثمّ وثب في ذلك الماء ، فجعل يضرب بذنبه الماء ، ولا يضرب بذنبه شيئاً من الماء وهو ذاهب إلاّ يبس . ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ ، يعني ذلك الموضع ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا ﴾ : أعطنا ﴿ غَدَآءَنَا ﴾ : طعامنا وزادنا ، وذلك أن يوشع بن نون حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى ليخبره بأمر الحوت ، فنسي أن يخبره فمكثا يومهما ذلك حتى صلّيا الظهر من الغد ، ولم ينصب موسى في سفره ذلك إلاّ يومئذ حين جاوز الموضع الذّي أُمر به ، فقال لفتاه حين مل وتعب : ﴿ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ ، أي شدة وتعباً ، وذلك أنه أُلقي على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ، ليتذكر الحوت ، ويرجع إلى موضع مطلبه ،

فقال له فتاه وتذكر : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ ﴾ : رجعنا ﴿ إِلَى الصخرة ﴾ ، قال مقاتل : هي الصخرة التي دون نهر الزيت ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت ﴾ ؟ أي تركته وفقدته .

(153/476)

وقيل : فيه إضمار معناه : نسيت أن أذكر أمر الحوت ، ثمّ قال : ﴿ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ ، يعني : أنسانيه ألاّ أذكره . وقيل : فيه تقديم وتأخير مجازه : وما أنسانيه أن أذكره إلاّ الشيطان ، ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً ﴾ ، يجوز أن يكون هذا من قول يوشع ، يقول : اتخذ الحوت سبيله في البحر عجباً . وقيل : إن يوشع يقول : إن الحوت طفر إلى البحر فاتّخذ فيه مسلكاً ، فعجبت من ذلك عجباً . ويجوز أن يكون هذا من قول موسى ، قال له يوشع : ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر ﴾ ، فأجابه موسى : ﴿ عَجَباً ﴾ كأنه قال : أعجب عجباً .

وقال ابن زيد : أي شيء أعجب من حوت ، كان دهراً من الدهور يؤكل منه ثمّ صار حيّاً حتى حشر في البحر . قال : وكان شق حوت . وقال ابن عباس : اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً . قال وهب : ظهر في الماء من أثر جري الحوت شق وأُخدود شبه نهر من حيث دخلت إلى حيث انتهت . فرجع موسى حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، فإذا

هو بالخضر (عليه السلام) ، فذلك قوله : ﴿ قَالَ ﴾ موسى لفتاه : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي نطلب ، يعني الخضر ﴿ فارتدا ﴾ : فرجعا ﴿ على آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ : يقصان الأثر : يتبعانه .

﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ يعني الخضر واسمه بليا بن ملكان بن يقطن ، والخضر لقب له ، سمّي بذلك ، لما [أخبرنا عبد الله بن حامد عن مكّي بن عبدان : أخبرنا أبو الأزهر عن عبد الرزاق عن] معمر عن همام بن منبّه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما سُمي الخضر خضراً ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزت تحته خضراء ".

(154/476)

[قال عبد الرزاق : فروة بيضاء يعني : حشيشة يابسة ، [و] فروة : قطعة من الأرض فيها نبات] . وقال مجاهد : إنما سمي الخضر ؛ لأنه إذا صلّى اخضرّ ما حوله . وروى عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عثمان بن أبي سلمان قال : رأى موسى الخضر (عليه السلام) على طنفسة خضراء على وجه الماء ، فسلّم عليه . وقال ابن عباس عن أُبيّ بن كعب عن النبّي صلى الله عليه وسلم قال : " انتهى موسى إلى الخضر (عليه السلام) وهو نائم

عليه ثوب مسجىً ، فسلّم عليه ؛ فاستوى جالساً قال : وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل . قال موسى : وما أدراك بي ؟ ومن أخبرك أني نبيّ بني إسرائيل ؟ قال الذي أدراك بي ودلّك عليّ " .

وقال سعيد بن جبير : وصل إليه وهو يصلي ، فلما سلّم عليه قال : وأنّى بأرضنا السلام ؟ ثمّ جلسا يتحدّثان فجاءت خطّافة وحملت بمنقارها من الماء ، قال الخضر : يا موسى خطر ببالك أنّك أعلم أهل الأرض ، ما علمك وما علم الأولين والآخرين في جنب الله إلاّ أقلّ من الماء الذي حملته الخطافة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ ﴾ : للعالم ﴿ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ : صواباً ؟ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ ؛ لأني أعمل بباطن علم علّمنيه ربّي عزّ وجلّ ، ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ ﴾ يا موسى ﴿ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ ، يعني على ما لم تعلم ؟ وقال ابن عباس : وذلك أنه كان رجلاً يعمل على الغيب .

(155/476)

﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ ستجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ . قال : ﴿ فَإِنِ اتبعتني فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيءٍ ﴾ مما تنكر ﴿ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ : حتى ابتدئ لك بذكره ، وأُبيّن لك شأنه . ﴿ فانطلقا ﴾ يسيران يطلبان سفينة يركبانها ﴿ حتى إِذَا ﴾ أصابها ﴿ رَكِبَا فِي السفينة ﴾ ، فقال أهل السفينة : هؤلاء لصوص ، فأمروهما بالخروج منها ، فقال صاحب السفينة : ما هم بلصوص ولكنّي أرى وجوه الأنبياء . وقال أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما دخلوا إلى البحر أخذ الخضر فأساً فخرق لوحاً من السفينة حتّى دخلها الماء فحشاها موسى ثوبه وقال له : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ " وقرأ أهل الكوفة (ليغرق) بالياء المفتوحة (أهلها) برفع اللام على أن الفعل لهم ، وهي قراءة ابن مسعود ، ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أي منكراً . قال القتيبي : عجباً . والإمر في كلام العرب الداهية ، قال الراجز :

قد لقيَ الأقران منّي نُكْراً . . . داهية دهياء إدّاً إمرا

وأصله : كل شيء شديد كثير ، يقال : أمر القوم ، إذا كثروا واشتدّ أمرهم .

قال العالم ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ ﴾ موسى : ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ [أخبرنا أبو عبد الله بن حامد الورّاق عن حامد بن محمد قال : قال أبو سعد

بن موسى المروَروذي ببغداد ، وأخبرنا محمد بن أبي ناجية الاسكندراني عن سفيان بن عيينة عن عمر بن دينار عن] عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كانت الأُولى من أمر النسيان ، والثانية القدر ، ولو صبر موسى لقص الله علينا أكثر مما قص " .

وقال أُبي بن كعب : أما إنه لم ينسَ ، ولكنه من معاريض الكلام .

(156/476)

وقال ابن عباس : معناه بما تركت من عهدك ، ﴿ وَلاَ تُرْهِقْنِي ﴾ : تعجلني : وقيل : لا تغشني ﴿ مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ ، يقول : لا تضيّق عليّ أمري وصحبتي معك .

﴿ فانطلقا حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً ﴾ ، قال سعيد بن جبير : وجد الخضر غلماناً يلعبون ، وأخذ غلاماً ظريفاً وضيء الوجه ، فأضجعه ثمّ ذبحه بالسكين . وقال ابن عباس : كان لم يبلغ الحلم . وقال الضحّاك : كان غلاماً يعمل بالفساد ، وتأذّى منه أبواه : وكان اسمه خش بوذ . وقال شعيب الحيّاني : اسمه حيشور ، وقال وهب بن منبّه كان اسم أبيه ملاسَ ، واسم أمه رُحمى . وقال الكلبي كان فتى يقطع الطريق ، ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه ويحلفان دونه ، فأخذه الخضر فصرعه ثمّ نزع من جسده رأسه . وقال قوم : رفسه برجله

فقتله . وقال آخرون : ضرب رأسه بالجدار فقتله . [أخبرنا عبد الله بن حامد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن عبد الله بن سليمان عن يحيى بن قيس عن أبي إسحاق عن] سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبي بن كعب قال : سمعت النبّي صلى الله عليه وسلم يقول : " الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً فلمّا قتله قال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ﴾ ؟ " . أي طاهرة . وقيل : مسلمة . قال الكسائي : الزاكية والزكية لغتان مثل القاسية والقسيّة . قال أبو عمرو : الزاكية : التي لم تذنب قط ، والزكية : التي أذنبت ثمّ تابت . ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي من غير أن قتلت نفساً أوجب عليها القود ، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴾ : منكراً ؟ وقال قتادة وابن كيسان : النكر : أشد وأعظم من الإمر .

(157/476)

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي هذه المرّة ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ : فارقني ؛ ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ في فراقي . [أخبرنا عبد الله بن حامد عن مكّي بن عبدان عن عبد الرحمن بن بشير عن حجاج بن محمد : أخبرنا حمزة الزّيات عن أبي إسحاق عن] سعيد بن جبير عن ابن عباس ، عن أُبي بن كعب قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه ،

فقال ذات يوم : " رحمة الله علينا وعلى أخي موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب [العجاب] ، ولكنه قال : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ " " .

﴿ فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني أنطاكية . وقال ابن سيرين : أيلة ، وهي أبعد أرض الله من السّماء ﴿ استطعما أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ ، أي ينزّلوهما منزلة الأضياف ؛ وذلك أنهما استطعماهم فلم يطعموهما ، واستضافاهم فلم يضيفوهما . [أخبرنا عبد الله بن حامد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن عبد الله بن سلمان عن يحيى بن قيس عن أبي إسحاق عن] سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبي بن كعب أنه سمع

" رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ قال : كانوا أهل قرية لئاماً " .

وقال قتادة في هذه الآية : شر القرى التي لا تُضيف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقّه .

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا ﴾ ، أي في القرية ﴿ جِدَاراً ﴾ ، قال وهب : كان جداراً طوله في السماء مئة ذراع ، ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ هذا من مجاز الكلام ، لأن الجدار لا إرادة له ، وإنما معناه : قرب ودنا من ذلك ، كقول الله تعالى : ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ [مريم : 90] . قال ذو الرمّة :

قد كاد أو [قد] هم بالبيود . . . وقال بعضهم : إنما رجع إلى صاحبه ، لأن هذه الحالة إذا كانت من ربّه فهو إرادته ، كقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾ [الأعراف : 154] وإنما يسكت صاحبه . وقال : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ [محمد : 21] وإنما يعزم أهله . قال الحارثي :

يريد الرمح صدر أبي براء . . . ويرغب عن دماء بني عقيل

وقال عقيل :

إنّ دهراً يلف شمل سليمى . . . لزمان يهّم بالإحسان

﴿ أَن يَنقَضَّ ﴾ ، أي يسقط وينهدم ، ومنه انقضاض الكواكب ، وهو سقوطها وزوالها عن أماكنها . وقرأ يحيى بن عمر : (يريد أن ينقاض) أي ينقلع وينصدع ، يقال : انقاضّت السنّ : انصدعت من أصلها . وقال بعض الكوفيين : الانقياض : الشق طولاً ، يقال : انقاض الحائط والسن وطيّ البئر ، إذا انشقت طولاً . ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ : سوّاه . قال ابن عباس : هدمه ثمّ قعد يبنيه . وقال سعيد بن جبير : مسح الجدار ودفعه بيده ، فاستقام . قال موسى : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ ﴾ ، وقرأ أبو عمرو : (لتَخذت) وهما لغتان مثل

قولك : (اتّبع) و (تبِع) ، و (اتّقى) و (تقى) ، قال الشاعر :

وقد تخدت رحلي إلى جنب غرزها . . . نسيفاً كأفحوص القطاة المطرّق

وأنشد الزجاج في قوله : (لتخذت) قول أبي شمام الصبابي :

تخذوا الحديد من الحديد معاولاً . . . سكانها الأرواح والأجساد

﴿ عَلَيْهِ ﴾ ، أي على إصلاحه وإقامته ﴿ أَجْراً ﴾ ، أي جَعْلاً وأُجرة . وقيل : قرىً وضيافة . فقال الخضر (عليه السلام) : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ قرأ لاحق بن حميد : (فراق) بالتنوين ، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 177.186 ﴾

(159/476)

وقال الزمخشرى :

﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ ﴾

وقرئ : ما أشهدناهم ، يعنى : أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة ، وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية ، فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لأعتضد بهم في خلقها « 1 » وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ أى ولا أشهدت بعضهم

خلق بعض كقوله وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ . وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ بمعنى وما كنت متخذهم عَضُداً أى أعوانا ، فوضع المضلين موضع الضمير ذمّا لهم بالإضلال ، فإذا لم يكونوا عضدا لي في الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة ؟ وقرئ : وما كنت ، بالفتح : الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، والمعنى : وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغي لك أن تعتز بهم . وقرأ على رضى اللّه عنه : وما كنت متخذا المضلين ، بالتنوين على الأصل . وقرأ الحسن : عضدا ، بسكون الضاد ، ونقل ضمتها إلى العين . وقرئ : عضدا ، بالفتح وسكون الضاد . وعضدا ، بضمتين وعضدا بفتحتين : جمع عاضد ، كخادم وخدم ، وراصد ورصد ، من عضده : إذا قواه وأعانه ،

[سورة الكهف (18) : الآيات 52 إلى 53]

وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (53)

يَقُولُ بالياء والنون . وإضافة الشركاء إليه على زعمهم : توبيخا لهم وأراد الجن .

والموبق : المهلك ، من وبق يبق وبوقا ، ووبق يوبق وبقا : إذا هلك . وأوبقه غيره . ويجوز أن يكون مصدرا كالمورد والموعد ، يعنى : وجعلنا بينهم واديا من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعا . وعن الحسن مَوْبِقاً عداوة . والمعنى : عداوة هي في شدتها هلاك ، كقوله : لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا . وقال الفراء :

البين الوصل أى :

وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكا يوم القيامة . ويجوز أن يريد الملائكة وعزيرا وعيسى ومريم ، وبالموبق : البرزخ البعيد ، أى : وجعلنا بينهم أمدا بعيدا تهلك فيه الأشواط لفرط بعده ، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان فَظَنُّوا فأيقنوا مُواقِعُوها مخالطوها واقعون فيها مَصْرِفاً معدلا . قال .

أزهير هل عن شيبة من مصرف «2»

---

(1) . قوله «لأعتضد بهم في خلقها» أى لأستعين بهم . (ع)

(2) أزهير هل عن شيبة من مصرف أم لا خلود لباذل متكلف

لأبى كبير الهذلي . والهمزة للنداء . وزهير ترخيم زهيرة اسم امرأة . والاستفهام إنكارى ، أى : لا انصراف عن الشيب أولا مهرب ولا مفر منه . وأم للاضراب الانتقالى والاستفهام الإنكاري ، أى : بل لا ينتفي خلود الكريم الباذل لما عنده المتكلف غير طاقته في قرى الضيفان ، لأن البذل لا يمنع الخلود كأنها كانت لامته على البذل مع الشيب والعقر ، فأجابها بذلك . وفيه دلالة على غاية الكرم .

[سورة الكهف (18) : آية 54]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54)

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدا بعد واحد ، خصومة ومماراة بالباطل . وانتصاب جَدَلًا على التمييز ، يعنى : أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء . ونحوه فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

[سورة الكهف (18) : آية 55]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (55)

أَنْ الأولى نصب . والثانية رفع ، وقبلها مضاف محذوف تقديره وَما مَنَعَ النَّاسَ الإيمان والاستغفار إِلَّا انتظار أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ وهي الإهلاك أَوْ انتظار أن يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ يعنى عذاب الآخرة قُبُلًا عيانا . وقرئ «قبلا» أنواعا : «1» جمع قبيل . و«قبلا» بفتحين : مستقبلا .

[سورة الكهف (18) : آية 56]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (56)

لِيُدْحِضُوا ليزيلوا ويبطلوا ، من إدحاض القدم وهو إزلاقها وإزالتها عن ، موطئها وَما أُنْذِرُوا

يجوز أن تكون ما موصولة ، ويكون الراجع من الصلة محذوفا ، أى :

وما أنذروه من العذاب . أو مصدرية بمعنى : وإنذارهم . وقرئ : هزأ ، بالسكون ، أى :

اتخذوها موضع استهزاء . وجدالهم : قولهم للرسل ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً وما أشبه ذلك .

[سورة الكهف (18) : آية 57]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57)

بِآياتِ رَبِّهِ بالقرآن ، ولذلك رجع إليها الضمير مذكرا في قوله أَنْ يَفْقَهُوهُ .

---

(1) . قوله «قبلا عيانا . وقرئ قبلا أنواعا» هذه القراءة بكسر ففتح . والثانية بضمتين ، كما يفيده الصحاح . (ع)

فَأَعْرَضَ عَنْها فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر وَنَسِيَ عاقبة ما قَدَّمَتْ يَداهُ من الكفر والمعاصي ، غير مفكر فيها ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء . ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وجمع بعد الافراد حملا على لفظ من ومعناه

فَلَنْ يَهْتَدُوا فلا يكون منهم اهتداء البتة ، كأنه محال منهم لشدة تصميمهم أَبداً مدة التكليف كلها . وإِذاً جزاء وجواب ، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سببا في انتفائه ، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله : مالى لا أدعوهم حرصا على إسلامهم ؟ فقيل : وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا .

[سورة الكهف (18) : آية 58]

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58)

الْغَفُورُ البليغ المغفرة ذُو الرَّحْمَةِ الموصوف بالرحمة ، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلا من غير إمهال ، مع إفراطهم في عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ وهو يوم بدر لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا منجى ولا ملجأ . يقال : «وأل» إذا نجا ، و«وأل إليه» إذا لجأ إليه .

[سورة الكهف (18) : آية 59]

وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59)

وَتِلْكَ الْقُرى يريد قرى الأوّلين من ثمود وقوم لوط وغيرهم : أشار لهم إليها ليعتبروا . تِلْكَ مبتدأ ، والْقُرى صفة ، لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس ، وأَهْلَكْناهُمْ خبر . ويجوز أن يكون تِلْكَ الْقُرى نصبا بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير . والمعنى :

وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا مثل ظلم أهل مكة وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً وضربنا لإهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر. والمهلك: الإهلاك ووقته. وقرئ لِمَهْلِكِهِمْ بفتح الميم، واللام مفتوحة أو مكسورة، أى: لهلاكهم أو وقت هلاكهم. والموعد: وقت، أو مصدر.

[سورة الكهف (18): الآيات 60 إلى 65]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (61) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (62) قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (63) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (64)

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65)

لِفَتاهُ لعبده. وفي الحديث: ليقل أحدكم فتاي وفتاتي، ولا يقل: عبدى «1» وأمتى.

وقيل: هو يوشع ابن نون. وإنما قيل: فتاه، لأنه كان يخدمه ويتبعه. وقيل: كان يأخذ منه

العلم. فإن قلت: لا أَبْرَحُ إن كان بمعنى لا أزول - من برح المكان - فقد دل على الإقامة لا على السفر. وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بد من الخبر. قلت: هو بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر، لأنّ الحال والكلام معا يدلان عليه. أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر. وأمّا الكلام فلأن قوله حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ غاية مضروبة تستدعى ما هي غاية له، فلا بد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن حتى أبلغ هو الخبر، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم، وهو وجه لطيف. ويجوز أن يكون.

المعنى: لا أبرح ما أنا عليه، بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ، كما تقول: لا أبرح المكان. ومجمع البحرين: المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلي المشرق. وقيل: طنجة. وقيل: إفريقية. ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر، لأنهما كانا بحرين في العلم.

وقرئ مَجْمَعَ بكسر الميم، وهي في الشذوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً أو أسير زمانا طويلا.

والحقب ثمانون سنة. وروى أنه لما ظهر موسى على مصر مع بنى إسرائيل واستقرّوا بها بعد هلاك القبط، أمره اللّه أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيبا فذكر نعمة اللّه وقال:

إنه اصطفى نبيكم وكلمه . فقالوا له : قد علمنا هذا ، فأى الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتب اللّه عليه حين لم يردّ العلم إلى اللّه ، فأوحى إليه : بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر ، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام ، وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر ، وبقي إلى أيام موسى . وقيل : إنّ موسى سأل ربه : أىّ عبادك أحب إليك ؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني . قال : فأىّ عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : فأىّ عبادك

(1) . متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه به وأتم منه .

أعلم ؟ قال : الذي يبتغى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى ، أو تردّه عن ردى . فقال : إن كان في عبادك من هو أعلم منى فادللني عليه . قال : أعلم منك الخضر . قال :

أين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة . قال : يا رب ، كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتا في مكتل ، فحيث فقدته فهو هناك . فقال لفتاه : إذا فقدت الحوت فأخبرنى ، فذهبا يمشيان ، فرقد موسى ، فاضطرب الحوت ووقع في البحر ، فلما جاء وقت الغداء طلب

موسى الحوت ، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر ، فأتيا الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوبه ، فسلم عليه موسى ، فقال :

وأنى بأرضنا السلام ، فعرّفه نفسه ، فقال : يا موسى ، أنا على علم علمنّيه اللّه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه اللّه لا أعلمه أنا . فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر : ما ينقص علمى وعلمك من علم اللّه مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر نَسِيا حُوتَهُما أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة . وقيل :

نسى يوشع أن يقدّمه ، ونسى موسى أن يأمره فيه بشيء . وقيل : كان الحوت سمكة مملوحة . وقيل :

إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل ، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة ، ونام موسى ، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت . وروى : أنهما أكلا منها . وقيل : توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء سَرَباً أمسك اللّه جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق ، وحصل منه في مثل السرب « 1 » معجزة لموسى أو للخضر فَلَمَّا جاوَزا الموعد وهو الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه .

ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر . وقيل : سارا بعد

مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر ، وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد ، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك ، فتذكر الحوت وطلبه . وقوله مِنْ سَفَرِنا هذا إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة . فإن قلت : كيف نسى يوشع ذلك ، ومثله لا ينسى «2» لكونه أمارة لهما على الطلبة التي

---

(1) . قوله «في مثل السرب» في الصحاح «السرب» بيت في الأرض . تقول منه . انسرب الوحش في سربه .

وانسرب الثعلب في جحره . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت كيف نسى يوشع ذلك ومثله لا ينسى . . . الخ» ؟ قال أحمد : وقد ورد في الحديث :

أن موسى عليه السلام لم ينصب ولم يقل لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، إلا منذ جاوز الموضع الذي حده اللّه تعالى له ، فلعل الحكمة في إنساء اللّه تعالى ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام لمنة اللّه تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه ، وتلك سنة اللّه الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات : أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة ، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته بونا بينا ، واللّه أعلم . وإن كان موسى عليه السلام متيقظا لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام إذا

قص عليهم القصة ، فما أورد اللّه تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس ، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها عاجلا وآجلا ، واللّه أعلم .

(164/476)

تناهضا من أجلها ولكونه معجزتين ثنتين : وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها - وقيل :

ما كانت إلا شق سمكة - وقياء الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب منه ؟ ثم كيف استمرّ به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد ، وحتى طلب موسى عليه السلام الحوت ؟ قلت : قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب ، حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب ، واستأنسا بإخوانه فأعان الإلف « 1 » على قلة الاهتمام أَرَأَيْتَ بمعنى أخبرني . فإن قلت :

ما وجه التئام هذا الكلام ؟ فإن كل واحد من أَرَأَيْتَ وإِذْ أَوَيْنا وفَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ لا متعلق له ؟ قلت : لما طلب موسى عليه السلام الحوت ، ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية ، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك ، كأنه

قال : أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة ؟ فإني نسيت الحوت ، فحذف ذلك . وقيل : هي الصخرة التي دون نهر الزيت . وأَنْ أَذْكُرَهُ بدل من الهاء في أَنْسانِيهُ أى : وما أنسانى ذكره إلا الشيطان . وفي قراءة عبد اللّه : أن أذكركه . وعَجَباً ثانى مفعولي اتخذ ، مثل سَرَباً يعنى : واتخذ سبيله سبيلا عجبا ، وهو كونه شبيه السرب . أو قال : عجبا في آخر كلامه ، تعجبا من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين ، وقوله وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه . وقيل : إن عَجَباً حكاية لتعجب موسى عليه السلام ، وليس بذاك ذِلكَ إشارة إلى اتخاذه سبيلا ، أى : ذلك الذي كنا نطلب ، لأنه أمارة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام . وقرئ نَبْغِ بغير ياء في الوصل ، وإثباتها أحسن ، وهي قراءة أبى عمرو ، وأمّا الوقف ، فالأكثر فيه طرح الياء اتباعا لخط المصحف فَارْتَدَّا فرجعا في أدراجهما «2» قَصَصاً يقصان قصصا ، أى : يتبعان آثارهما اتباعا . أو فارتدّا مقتصين رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا هي الوحى والنبوة مِنْ لَدُنَّا مما يختص بنا من العلم ، وهو الإخبار عن الغيوب .

[سورة الكهف (18) : آية 66]

قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66)

رُشْداً قرئ بفتحتين ، وبضمة وسكون ، أى : علما ذا رشد ، أرشد به في دينى . فإن قلت :

أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه - كما قيل - موسى بن ميشا ، لا موسى بن عمران

---

(1) . قوله «فأعان الالف على قلة الاهتمام» لعل المراد إلف يوشع ، لرؤيته العجائب عند موسى . (ع)

(2) . قوله «فرجعا في أدراجهما» الدرج : الطريق ، والجمع الأدراج . ومنه قولهم : رجعت أدراجي ، أي :

رجعت في الطريق الذي جئت منه ، كذا في الصحاح . (ع)

(165/476)

لأنّ النبيّ يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين ؟ قلت : لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبيّ مثله : وإنما بغض منه أن يأخذه ممن دونه . وعن سعيد ابن جبير أنه قال لابن عباس : إنّ نوفا ابن امرأة كعب يزعم أنّ الخضر ليس بصاحب موسى ، وأنّ موسى هو موسى بن ميشا ، فقال : كذب عدوّ اللّه «1» .

[سورة الكهف (18) : الآيات 67 إلى 68]

قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68)

نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد ، «2» كأنها مما لا يصح ولا يستقيم ، وعلل ذلك بأنه يتولى أمورا هي في ظاهرها مناكير . والرجل الصالح - فكيف إذا كان نبيا - لا يتمالك أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار . وخُبْراً تمييز ، أى : لم يحط به خبرك بمعنى لم تخبره ، فنصبه نصب المصدر .

[سورة الكهف (18) : آية 69]

قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69)

وَلا أَعْصِي في محل النصب ، عطف على صابِراً أى : ستجدني صابرا وغير عاص . أولا في محل ، عطفا على ستجدني . رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبرا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلقا بمشيئة اللّه ، علما منه بشدّة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق ، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره اللّه بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، بريّ من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين ، وأنه لا بد لما يستسمج ظاهره من باطن حسن جميل ، فكيف إذا لم يعلم .

[سورة الكهف (18) : آية 70]

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70)

---

(1) . أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن الحسن بن عمارة عن الحاكم عن سعيد بن جبير

بهذا . وساق القصة كلها في الصحيحين بغير هذا اللفظ من رواية عمرو بن دينار عن سعيد .

(2) . قال محمود : «نفى الاستطاعة على وجه التأكيد . . . الخ» قال أحمد : ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق : أنه قال حين خرق السفينة : أخرقتها لتغرق أهلها ، ولم يقل لتغرقنا ، فنسي نفسه واشتغل بغيره ، في الحالة التي كل أحد فيها يقول نفسي نفسي ، لا يلوى على مال ولا ولد ، وتلك حالة الغرق ، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم ، صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين .

(166/476)

قرئ فَلا تَسْئَلِنِي بالنون الثقيلة ، يعنى : فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت منى شيئا - وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت «1» وأنكرت في نفسك - أن لا تفاتحنى بالسؤال ولا تراجعني فيه ، حتى أكون أنا الفاتح عليك . وهذا من آداب المتعلم مع العالم ، والمتبوع مع التابع .

[سورة الكهف (18) : الآيات 71 إلى 72]

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72)

فَانْطَلَقَا على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فلما ركبا قال أهلها : هما من اللصوص ، وأمروهما بالخروج ، فقال صاحب السفينة : أرى وجوه الأنبياء . وقيل : عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسدّ الخرق بثيابه ويقول أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا وقرئ : لتغرّق ، بالتشديد . وليغرق أهلها .

من غرق وأهلها مرفوع جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا أتيت شيئا عظيما ، من أمر الأمر : إذا عظم ، قال :

داهية دهياء إدّا إمرا «2»

[سورة الكهف (18) : آية 73]

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73)

بِمَا نَسِيتُ بالذي نسيته ، أو بشيء نسيته ، أو بنسياني : أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسي . أو أخرج الكلام في معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان ، يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره في الإنكار ، وهو من معاريض الكلام التي يتقى بها الكذب ، مع التوصل إلى الغرض ، كقول إبراهيم : هذه أختى ، وإنى سقيم . أو أراد بالنسيان : الترك ،

أى : لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرّة . يقال : رهقه إذا غشيه ، وأرهقه إياه .

أى : ولا تغشني عُسْراً من أمرى ، وهو اتباعه إياه ، يعنى : ولا تعسر علىّ متابعتك ، ويسرها علىّ بالإغضاء وترك المناقشة . وقرئ : عسرا ، بضمتين .

---

(1) . قوله «فحميت» في الصحاح «حميت عليه» بالكسر . غضبت . (ع)

(2) لقد لقى الأقوام منى نكرا داهية دهياء إدا إمرا

النكر : المنكر . والداهية : الحادثة المكروهة من شدائد الدهر . والدهياء : مبالغة في شدتها . والاد : المنكر كل الإنكار . والامر : الشيء العظيم . يقال : أمر الشيء - بالكسر - : عظم ، يصف نفسه بشدة النكاية للأعداء .

ويجوز أن الكلام من قبيل التجريد .

(167/476)

[سورة الكهف (18) : الآيات 74 إلى 75]

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (75)

فَقَتَلَهُ قيل : كان قتله قتل عنقه . قيل : ضرب برأسه الحائط ، وعن سعيد بن جبير :

أضجعه ثم ذبحه بالسكين. فإن قلت: لم قيل حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها بغير فاء؟ وحَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ بالفاء؟ قلت: جعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه، والجزاء قال أَقَتَلْتَ. فإن قلت: فلم خولف بينهما؟ قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. وقرئ: زاكية، وزكية، وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث بِغَيْرِ نَفْسٍ يعنى لم تقتل نفسا فيقتص منها. وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل «1» نُكْراً وقرئ بضمتين وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. وقيل:

معناه جئت شيئا أنكر من الأوّل، لأن ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسدّ، وهذا لا سبيل إلى تداركه. فإن قلت: ما معنى زيادة لَكَ؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

[سورة الكهف (18): آية 76]

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (76)

بَعْدَها بعد هذه الكرة أو المسألة فَلا تُصاحِبْنِي فلا تقاربنى، وإن طلبت صحبتك فلا

تتابعني على ذلك . وقرى «فلا تصحبنى» فلا تكن صاحبي . وقرئ «فلا تصحبنى» أى فلا تصحبنى إياك ولا تجعلني صاحبك مِنْ لَدُنِّي عُذْراً قد أعذرت . وقرئ : لدنى ، بتخفيف النون . ولدني ، بسكون الدال وكسر النون ، كقولهم في عضد : عضد . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

رحم اللّه أخى موسى استحيا فقال «2» ذلك ، وقال : رحمة اللّه علينا وعلى أخى موسى ، لو لبث

---

(1) . أخرج ابو يعلى نحوه وقال في آخره «و كان لك ذلك» وفي رواية له «فقلت ولكنك لا تعلم» فاجتنبهم وأصله في مسلم بغير هذا السياق . وأوله : كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن قتل الولدان – الحديث» وفيه «و سألتنى عن قتل الوالدان ، فان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يقتلهم إلا أن يعلم منهم ما علم صاحب موسى من الغلام الذي قتله . [. . . . .]

(2) . أخرجه ابن مردويه من رواية داود بن أبى هند عن عبد اللّه بن عمير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكر القصة . وفيها «رحمة اللّه علينا وعلى موسى استحيا عند ذلك . فقال إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصاحِبْنِي – الآية» .

مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب «1» .

[سورة الكهف (18) : آية 77]

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77)

أَهْلَ قَرْيَةٍ هي أنطاكية . وقيل : الأبلة ، وهي أبعد أرض اللّه من السماء أَنْ يُضَيِّفُوهُما وقرئ : يضيفوهما . يقال : ضافه إذا كان له ضيفا . وحقيقته : مال إليه ، من ضاف السهم عن الغرض ، ونظيره : زاره ، من الازورار . وأضافه وضيفه : أنزله وجعله ضيفه .

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : كانوا أهل قرية لئاما «2» . وقيل شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة ، كما استعير الهمّ والعزم لذلك . قال الراعي :

في مهمه قلقت به هاماتها قلق الفئوس إذا أردن نصولا «3»

وقال :

يريد الرّمح صدر أبى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل «4»

وقال حسان :

إنّ دهرا يلفّ شملى بجمل لزمان يهمّ بالإحسان «5»

(1) . أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان . من رواية حمزة الزيات . عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى . في أثناء حديث . وأصله في مسلم .

(2) . أخرجه النسائي من رواية إسرائيل عن ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما . قال «كانوا أهل قرية لئاما» وهو في مسلم بلفظ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ لئاما .

(3) . للراعي يصف الإبل بأنها في مهمه : أى مفازة ، قلقت : أى تحركت فيه هاماتها : أى رءوسها . قلق الفئوس : أى كتحرك الفئوس جمع فأس وهي آلة الحفر ، إذا أردن : أى الفئوس ، نصولا : أى قربن منه ، فالارل مجاز مرسل ، ونصولها : خروج الحديدة من المقبض . والنصول في كل شيء : الخروج ، والانصال : الإخراج ، ولقد شبه رءوس الإبل مع أعناقها بالفئوس .

(4) . الارادة هنا مجاز عن التوجه . ويجوز أن الاسناد مجاز ، لأن المريد صاحب الرمح . والأوجه أنه شبه الرمح بإنسان على طريق المكنية ، وإسناد الارادة والعدول إليه تخييل ، أى : يريد أن يشرب من صدر أبى براء ، لا من دماء هؤلاء .

(5) . لحسان بن ثابت ، ولففت الشيء : طويته وأدرجته ، من باب رد . والشمل . المتفرق ، ويطلق على المجتمع من الأمور . وجمل : اسم محبوبته . ويروى : بسعدى . يقول : إن الدهر الذي يجمع شملى بمحبوبتى لدهريهم بالإحسان ويريده ، وهم من باب رد أيضا ،

أى : دهر يريد الإحسان لا الاساءة كعادة الدهر ، فشبه الزمان بإنسان يصح منه إرادة الإحسان على طريق المكنية ، والهم تخييل . ويحتمل أن إسناد الهم له مجاز عقلى كاسناد اللف ، وهما في الحقيقة للّه .

(169/476)

وسمعت من يقول : عزم السراج أن يطفأ ، وطلب أن يطفأ . وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل ، فما بال الإرادة ؟ قال :

إذا قالت الأنساع للبطن الحق «1»

تقول سنّى للنّواة طنّى

لا ينطق اللّهو حتّي ينطق العود «2»

وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم «3»

فإن يك ظنّى صادقا وهو صادقي «4»

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة 181 من الجزء الأول فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) فاستنطق العود قد طال السكوت به لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

لأبي نواس ، شبه صوت العود على وجه الاستقامة والحسن بالنطق بالغناء على طريق التصريحية . أو شبه العود بإنسان على طريق المكنية والنطق تخييل ، والسين والتاء للطلب ، والسكوت ترشيح لذلك ، لأنه ضد التكلف . والمراد بنطق اللهو زيادته وحسنه ، فهو من باب المشاكلة ، وهل هي حقيقة أو مجاز أو كناية أو قسم رابع ؟ خلاف بين القوم بين في البيان .

(3) فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

لعنترة بن شداد من معلقته ، يصف فرسه بأنه ازور أى مال من وقوع الرماح بلبانه ، وهو موضع اللبب من صدره ، وشبهه بالعاقل على طريق المكنية والشكاية تخييل ، والعبرة : البكاء . والحمحمة : صوت الصهيل يشبه الحنين ، لو كان يعلم ما هي المحاورة والمخاطبة لاشتكى إلىّ وخاطبني حقيقة ، وإنما يشكو إلى بالعبرة والتحمحم فقط .

وفسره بقوله : ولكان مكلما لي لو علم الكلام ، وذلك مبالغة في شدة الحرب .

(4) لهفي على القوم الذين تجمعوا بذي السيد لم يلقوا عليا ولا عمرا

فان يك ظنى صادقا وهو صادقي بشملة يحبسهم بها محبسا وعرا

لكنز أم شملة بن برد المنقري ، وذو السيد – بالكسر – : موضع المعركة ، والسيد :

الذئب. وقولها «وهو صادقي» اعتراض. وبشملة: متعلق بظنى. تقول: يا تلهفى على القوم الذين اجتمعوا في ذلك الموضع ولم يلاقهم أحد هذين الفارسين، فقتلوا بردا أبا شملة. فان يك ظنى به صادقا مع أن عادته يصدقني، يحبسهم شملة في تلك المعركة حبسا صعبا فيأخذ ثأر أبيه. ويجوز أن محبسا ظرف يدل من بها. وشبهت الظن بمن يصح منه الصدق في الخبر على طريق الكناية، والصدق تخييل لذلك. أو المعنى: فان يك ظنى مطابقا للواقع.

(170/476)

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ

تمرّد مارد وعزّ الأبلق «1»

ولبعضهم:

يأبى على أجفانه إغفاءه همّ إذا انقاد الهموم تمرّدا»

أبت الرّوادف والثّدىّ لقمصها مسّ البطون وأن تمسّ ظهورا «3»

قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام اللّه تعالى ممن لا يعلم، كان يجعل الضمير للخضر، لأنّ ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة،

فتحمل ليردّه إلى ما هو عنده أصح وأفصح ، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز .

وانقض : إذا أسرع سقوطه ، من انقضاض الطائر وهو يفعلّ ، مطاوع قضضته . وقيل : افعلّ

---

(1) وقد قالت الزبا لحصن سموأل تمرد مارد وعز الأبلق

مارد : هو حصن دومة الجندل . والأبلق : حصن سموأل ، قصدتهما الزبا ملكة الجزيرة فاستصعبا عليها ، فقالت ذلك ، وصار يضرب مثلا . وقوله : لحصن سموأل ، أى : ولحصن دومة الجندل . تمرد : صار أملس ناعما ، ومرد مردا ومرودة ، إذا كان أملس لا شعر فيه والمكان لا نبات فيه ، أو تمرد بمعنى تشيطن ، وفعل أهله فعل المردة من الجن ، فهو لا يستطيع أحد طلوعه . وعز إن كان مضارعه بضم العين كان متعديا بمعنى غالب ، وإن كان بكسرها كان لازما بمعنى امتنع . والمعنى : أنها لم تقدر على بلوغ مرادها منهما لشجاعة أهلهما .

(2) . للزمخشري . والهم : ما يهتم به ، وهو فاعل . والاغفاء . النوم الخفيف ، وهو مفعول ، وذلك مجاز عن تسبب الهم في منع النوم . وانقياد الهموم : مجاز عن سكونها ، وتمرد الهم مجاز عن تزايده وكثرة خطوره بالبال .

أو شبه الهموم بحيوانات يصح منها الانقياد والتمرد على طريق المكنية ، والتمرد ضد

الانقياد ، وهما تخييل .

(3) أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشى تناوحت نيهن حاسدة وهجن غيورا

الاباء : المنع الاختياري فشبه الروادف والثدي لكبرها بمن يصح منه ذلك على طريق المكنية والاباء تخييل .

والأقرب أنه مجاز مرسل ، والمراد به مطلق المنع ، والكلام بعد ذلك كناية عن نهود ثدييها وكبر رد فيها وضمور خصريها . وفيه لف ونشر غير مرتب ، لأن مس البطون يرجع للثدي ، ومس الظهور يرجع للروادف . وعبر بالجمع عن غيره مجازا . أو اعتبر الأجزاء ، فالتجوز في مفرد الجمع . والثدي بالتشديد : جمع ثدي بالتخفيف .

والقمص : جمع قميص . وتناوح الجبلان . تقابلا ، فالمراد بالتناوح : التقابل ، بحيث يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضها من خلفها ، فتظهر روادفها ونهودها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضموره ، فتنبه الحاسدة لها ، ويهيج الغيور لكراهة ذلك من الرياح . وهاج الشيء : هام ، وهاجه : هيمه ، وهيجه : هيمه . وما هنا من الوسط . ويجوز أنه شبه على طريق المكنية . أو شبه أصواتها اللينة بالتناوح على طريق التصريحية ، ثم جعل ذلك كناية عن تقابلها لأنها إنما يكون لها أصوات إذا تقابلت فاضطربت ، ومع : بمعنى في .

من النقض ، كاحمرّ من الحمرة . وقرئ : أن ينقض من النقض ، وأن ينقاص ، من انقاصت السن إذا انشقت طولا . قال ذو الرمة :

. . . . . منقاص ومنكثب «1»

بالصاد غير معجمة فَأَقامَهُ قيل : أقامه بيده . وقيل : مسحه بيده فقام واستوى . وقيل : أقامه بعمود عمده به . وقيل : نقضه وبناه . وقيل كان طول الجدار في السماء مائة ذراع ، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم ، وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة ، فلم يجدا مواسيا ، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن قال لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً وطلبت على عملك جعلا حتى ننتعش ونستدفع به الضرورة وقرئ : لتخذت ، والتاء في تخذ ، أصل كما في تبع ، واتخذ افتعل منه ، كاتبع من تبع ، وليس من الأخذ في شيء .

[سورة الكهف (18) : آية 78]

قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78)

فإن قلت : هذا إشارة إلى ما ذا ؟ قلت : قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه ، كما تقول : هذا أخوك ، فلا يكون «هذا» إشارة إلى غير الأخ ويجوز أن

يكون إشارة إلى السؤال الثالث ، أى : هذا الاعتراض سبب الفراق ، والأصل : هذا فراق بيني وبينك . وقد قرأ به ابن أبى عبلة ، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 727.740 ﴾

---

(1) يغشى الكناس بروقيه ويهدمه من هائل الرمل منقاض ومنكثب

لذي الرمة يصف ثورا وحشيا . والكناس : بيت الوحش . وروقاه : قرناه . والمنقاض – كالمختار – : المتساقط من جانب طول الكناس . والمنكثب – بالمثلاثة – : المجتمع . وروى : منقاض ، بالمعجمة . والمعنى واحد ، أى :

يحفر الكناس بقرينه ، ليستتر من المطر ، ويهدمه المتساقط المجتمع من الرمل الرخو الهايل .

[. . . . .]

(172/476)

وقال النسفى :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ ﴾

أي إبليس وذريته ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ يعني أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة وإنما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية فنفى مشاركتهم الإلهية بقوله ﴿

ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ﴾ لأعتضد بهم في خلقها أو أشاورهم فيه أي تفردت بخلق الأشياء فأفردوني في العبادة ﴿ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين ﴾ أي وما كنت متخذهم ﴿ عَضُداً ﴾ أي أعواناً فوضع ﴿ المضلين ﴾ موضع الضمير ذمًّا لهم بالإضلال ، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق فمالكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة ؟

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ الله للكفار ، وبالنون : حمزة ﴿ نَادُواْ ﴾ ادعوا بصوت عالٍ ﴿ شُرَكَائِيَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم فيكم شركائي ليمنعوكم من عذابي ، وأراد الجن وأضاف الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ مهلكا من وبق يبق وبوقاً إذا هلك ، أو مصدر كالموعد أي وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً ، أو الملائكة وعزيراً وعيسى .

(173/476)

والموبق البرزخ البعيد أي وجعلنا بينهم أمداً بعيداً لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان ﴿ وَرَأَى المجرمون النار فَظَنُّواْ ﴾ فأيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ مخالطوها واقعون فيها ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا ﴾ عن النار ﴿ مَصْرِفًا ﴾ معدلاً ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءان لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاجون إليه ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾ تمييز أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل يعني أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ أي سببه وهو الكتاب والرسول ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب ﴾ "أن" الأولى نصب ، والثانية رفع ، وقبلها مضاف محذوف تقديره : وما منع الناس الإيمان والاستغفار إلا انتظار أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ، أو انتظار أن يأتيهم العذاب أي عذاب الآخرة ﴿ قُبُلاً ﴾ كوفي أي أنواعاً جمع قبيل .

الباقون ﴿ قِبلا ﴾ أي عياناً .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ يوقف عليه ويستأنف بقوله : ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل ﴾ هو قولهم للرسل ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [يس : 15] و ﴿ لو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ [المؤمنون : 24] ونحو ذلك ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة ﴿ واتخذوا ءاياتى ﴾ القرآن ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ "ما" موصولة والراجع من الصلة محذوف أي وما أنذروه من العقاب ، أو مصدرية أي وإنذارهم ﴿ هُزُواً

﴿ موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة : حمزة ، وبإبدال الهمزة واوا : حفص ، وبضم الزاي والهمزة : غيرهما .

(174/476)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ بالقرآن ولذلك رجع الضمير إليها مذكراً في قوله أن ﴿ يفقهوه ﴾ ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ عاقبة ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي غير متفكر فيها ولا ناظر في أن المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء .

ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم بقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية جمع كنان وهو الغطاء ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ ثقلاً عن استماع الحق وجمع بعد الإفراد حملاً على لفظ من ومعناه ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَى الْهُدَى ﴾ إلى الإيمان ﴿ فَلَن يَهْتَدُواْ ﴾ فلا يكون منهم اهتداء ألبتة ﴿ إِذاً ﴾ جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه ، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله ما لي لا أدعوهم حرصاً

على إسلامهم ؟ فقيل ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً ﴾ ﴿ أَبَدًا ﴾ مدة التكليف كلها .

(175/476)

﴿ وَرَبُّكَ الغفور ﴾ البليغ المغفرة ﴿ ذُو الرحمة ﴾ الموصوف بالرحمة ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ أي ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلاً مع فرط عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ وهم يوم بدر ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ منجى ولا ملجأ يقال : وآل إذا نجا ووأل إليه إذا لجأ إليه ﴿ وَتِلْكَ ﴾ مبتدأ ﴿ القرى ﴾ صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس والخبر ﴿ أهلكناهم ﴾ أو ﴿ تلك القرى ﴾ نصب بإضمار "أهلكنا" على شريطة التفسير ، والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم والمراد قوم نوح وعاد وثمود ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الإهلاك ووقته .

وبفتح الميم وكسر اللام : حفص ، وبفتحهما : أبو بكر أي لوقت هلاكهم أو لهلاكهم والموعد وقت أو مصدر .

﴿ وَإِذْ ﴾ واذكر إذ ﴿ قَالَ موسى لفتاه ﴾ هو يوشع بن نون .

وإنما قيل ﴿ فتاه ﴾ لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ لا أزال وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه ، أما الأولى فلأنها كانت حال سفر وأما الثاني فلأن قوله : ﴿ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ غاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له فلا بد أن يكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحر فارس والروم .

وسمي خضراً لأنه أينما يصلي يخضر ما حوله ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ أو أسير زماناً طويلاً قيل ثمانون سنة .

رُوي أنه لما ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه : أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني .

(176/476)

قال : فأي عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ، فقال : إن كان في عبادك من هو أعلم مني فدلني عليه .

قال : أعلم منك الخضر .

قال : أين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة قال : يا رب كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك .

فقال لفتاه : إذا فقدت الحوت فأخبرني ، فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع في البحر ، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر فأتيا الصخرة فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال : وإني بأرضنا السلام : فعرفه نفسه فقال : يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ مجمع البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ أي نسي أحدهما وهو يوشع لأنه كان صاحب الزاد دليله ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ وهو كقولهم "نسوا زادهم" وإنما ينساه متعهد الزاد .

قيل : كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا ليلة على شاطئ عين الحياة ونام موسى .

(177/476)

فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت في الماء ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر ﴾ أي اتخذ طريقاً له من البر إلى البحر ﴿ سَرَباً ﴾ نصب على المصدر أي سرب فيه سرباً يعني دخل فيه واستر به ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ مجمع البحرين ثم نزلا وقد سارا ما شاء الله ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لفتاه ءاتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة ﴾ هي موضع الموعد ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت ﴾ ثم اعتذر فقال : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ ﴾ وبضم الهاء : حفص ﴿ إِلاَّ الشيطان ﴾ بإلقاء الخواطر في القلب ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدل من الهاء في ﴿ أنسانيه ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ وهو أن أثره بقي إلى حيث سار ﴿ قَالَ ذلك مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ نطلب .

وبالياء : مكي ، وافقه أبو عمرو وعلي ومدني في الوصل ، وبغير ياء فيهما : غيرهما اتباعاً لخط المصحف و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلاً أي ذلك الذي كنا نطلب لأن ذهاب الحوت كان علماً على لقاء الخضر عليه السلام ﴿ فارتدا على ءاثَارِهِمَا ﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه ﴿ قَصَصًا ﴾ يقصان قصصاً أي يتبعان آثارهما اتباعاً .

قال الزجاج : القصص اتباع الأثر ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ أي الخضر راقداً تحت ثوب أو جالساً في البحر ﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ هي الوحي والنبوة أو العلم أو طول

الحياة ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ يعني الإخبار بالغيوب .

وقيل : العلم اللدني ما حصل للعبد بطريق الإلهام .

(178/476)

﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ أي علماً ذا رشد أرشد به في ديني ﴿ رشَدا ﴾ أبو عمرو وهما لغتان كالبخل والبخل ، وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وأن كان قد بلغ نهايته وإن يتواضع لمن هو أعلم منه .

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ ﴾ وبفتح الياء : حفص ، وكذا ما بعده في هذه السورة ﴿ صَبْراً ﴾ أي عن الإنكار والسؤال ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ تمييز ، نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزع إذا رأى ذلك فيكف إذا كان نبياً ! ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِى إِن شَاء الله صَابِرًا ﴾ من الصابرين عن الإنكار والإعراض ﴿ وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ في محل النصب عطف على ﴿ صابراً ﴾ أي ستجدني صابراً وغير عاص ، أو هو عطف على ﴿ ستجدني ﴾ ولا محل له ﴿ قَالَ فَإِنِ اتبعتنى فَلاَ تَسْأَلْنى ﴾ بفتح اللام وتشديد النون : مدني وشامي ، وبسكون اللام وتخفيف النون : غيرهما ، والياء ثابتة

فيهما إجماعاً ﴿ عَن شَىء حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً وقد علمت أنه صحيح إلا أنه خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك أن لا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك ، وهذا من أدب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

(179/476)

﴿ فانطلقا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة خَرَقَهَا ﴾ فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركباها قال أهلها : هما من اللصوص ، وقال صاحب السفينة : أرى وجوه الأنبياء فحملوهما بغير نول ، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ثم ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ﴿ لِيَغرق ﴾ حمزة وعلي من غرق ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أتيت شيئاً عظيماً من أمر الأمر إذا عظم .

﴿ قَالَ ﴾ أي الخضر ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ فلما رأى موسى أن الخرق لا يدخله الماء ولم يفر من السفينة ﴿ قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ بالذي نسيته أو بشيء نسيته أو بنسياني أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي ، أو أراد

بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه أي ولا تغشني عسراً من أمري وهو اتباعه إياه أي ولا تعسر على متابعتك ويسرها عليَّ بالإغضاء وترك المناقشة ﴿ فانطلقا حتى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ قيل : ضرب برأسه الحائط .

وقيل : أضجعه ثم ذبحه بالسكين .

وإنما قال : ﴿ فقتله ﴾ بالفاء وقال : ﴿ خرقها ﴾ بغير فاء ، لأن ﴿ خرقها ﴾ جعل جزاء للشرط وجعل ﴿ قتله ﴾ من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ وإنما خولف بينهما لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام ﴿ زَكِيَّةً ﴾ ﴿ زاكية ﴾ حجازي وأبو عمرو وهي الطاهرة من الذنوب ، إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت أو لأنها صغيرة لم يبلغ الحنث ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي لم تقتل نفساً فيقتص منها .

(180/476)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن نجدة الحروري كتب إليه كيف جاز قتله وقد نهى رسول صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن علمت من حال

الولدان ما علمه موسى فلك أن تقتل .

﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ وبضم الكاف حيث كان : مدني وأبو بكر وهو المنكر .

وقيل : النكر أقل من الإمر لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفنية ، أو معناه جئت شيئاً أنكر من الأول لأن الخرق يمكن تداركه بالسد ولا يمكن تدارك القتل

.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ زاد ﴿ لك ﴾ هنا لأن النكر فيه أكثر

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ بعد هذه الكرة أو المسألة ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق .

و﴿ لدني ﴾ بتخفيف النون : مدني وأبو بكر .

﴿ فانطلقا حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ هي أنطاكية أو الأيلة وهي أبعد أرض الله من السماء ﴿ استطعما أَهْلَهَا ﴾ استضافاً ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ ضيفه أنزله وجعله ضيفه قال عليه السلام : "كانوا أهل قرية لئاماً " وقيل : شر القرى التي تبخل بالقرى ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا ﴾ في القرية ﴿ جِدَاراً ﴾ طوله مائة ذراع ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يكاد يسقط استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ بيده أو مسحه بيده فقام واستوى ، أو نقضه وبناه كان الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسائلة فلم يجدا مواسياً ، فلما أقام الجدار لم

يتمالك موسى لما رآى من الحرمان ومساس الحاجة أن ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفع به الضرورة .

(181/476)

﴿ لتخذت ﴾ بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الذال : بصري ، وبإظهارها : مكي ، وبتشديد التاء وفتح الخاء وإظهار الذال : حفص ، وبتشديد التاء وفتح الخاء وإدغام الذال في التاء : غيرهم .

والتاء في "تخذ" أصل كما في "تبع" ، و"اتخذ" افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ في شيء .

﴿ قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ هذا إشارة إلى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض سبب الفراق ، والأصل هذا فراق بيني وبينك ، وقد قرىء به فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 16 . 21 ﴾

(182/476)

وقال البيضاوى :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾

نفي إحضار إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، وإحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ أي أعواناً رداً لاتخاذهم أولياء من دون الله شركاء له في العبادة ، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها ، فوضع ﴿ المضلين ﴾ موضع الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضاد بهم . وقيل الضمير للمشركين والمعنى : ما أشهدتهم خلق ذلك وما خصصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتى لو آمنوا اتبعهم الناس كما يزعمون ، فلا تلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد بالمضلين لديني . ويعضده قراءة من قرأ ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقرىء ﴿ مُتَّخِذاً المضلين ﴾ على الأصل و ﴿ عَضُداً ﴾ بالتخفيف و ﴿ عَضُداً ﴾ بالاتباع و ﴿ عَضُداً ﴾ كخدم جمع عاضد من عضده إذا قواه .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ أي الله تعالى للكافرين وقرأ حمزة بالنون . ﴿ نَادُواْ شُرَكَائِيَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم شركائي وشفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي ، وإضافة الشركاء على زعمهم للتوبيخ والمراد ما عبد من دونه ، وقيل إبليس وذريته . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ فنادوهم للإغاثة . ﴿

فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ فلم يغيثوهم . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم ﴾ بين الكفار وآلهتهم . ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ مهلكاً يشتركون فيه وهو النار ، أو عداوة هي في شدتها هلاك كقول عمر رضي الله عنه : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً .

و ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ اسم مكان أو مصدر من وبق يوبق وبقا إذا هلك . وقيل البين الوصل أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة .

(183/476)

﴿ وَرَأَى المجرمون النار فَظَنُّواْ ﴾ فأيقنوا . ﴿ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ مخالطوها واقعون فيها .

﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ انصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليه .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل جنس يحتاجون إليه . ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَىْءٍ ﴾ يتأتى منه الجدل . ﴿ جَدَلاً ﴾ خصومة بالباطل وانتصابه على التمييز .

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ من الإيمان . ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ ومن الاستغفار من الذنوب . ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ إلا طلب أو انتظار أو تقدير أن تأتيهم سنة الأولين ، وهي

الاستئصال فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب ﴾ عذاب الآخرة. ﴿ قُبُلاً ﴾ عياناً . وقرأ الكوفيون ﴿ قُبُلاً ﴾ بضمتين وهو لغة فيه أو جمع قبيل بمعنى أنواع ، وقرىء بفتحتين وهو أيضاً لغة يقال لقيته مقابلة وقبلاً وقبلاً وقبلياً ، وانتصابه على الحال من الضمير أو ﴿ العذاب ﴾ .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ للمؤمنين والكافرين . ﴿ ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ، والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً . ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ﴾ ليزيلوا بالجدال . ﴿ الحق ﴾ عن مقره ويبطلوه ، من إدحاض القدم وهو إزلاقها وذلك قولهم للرسل ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاء الله لأَنزَلَ ملائكة ﴾ ونحو ذلك . ﴿ واتخذوا ءاياتى ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ وإنذارهم أو والذي أنذروا به من العقاب . ﴿ هُزُواً ﴾ استهزاء . وقرىء "هزأ" بالسكون وهو ما يستهزأ به على التقديرين .

(184/476)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكّرَ بئايات رَبّهِ ﴾ بالقرآن . ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فلم يتدبرها ولم يتذكر بها . ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتهما . ﴿

إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم . ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفقهوه ، وتذكير الضمير وإفراده للمعنى . ﴿ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ يمنعهم أن يستمعوه حق استماعه . ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَن يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً ﴾ تحقيقاً ولا تقليداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون وإذا كما عرفت جزاء وجواب للرسول صلى الله عليه وسلم على تقدير قوله ما لي لا أدعوهم ، فإن حرصه صلى الله عليه وسلم على إسلامهم يدل عليه .

﴿ وَرَبُّكَ الغفور ﴾ البليغ المغفرة . ﴿ ذُو الرحمة ﴾ الموصوف بالرحمة . ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ استشهاد على ذلك بإمهال قريش مع إفراطهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ وهو يوم بدر أو يوم القيامة . ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ منجاً ولا ملجأ ، يقال وأل إذا نجا ووأل إليه إذا لجأ إليه .

﴿ وَتِلْكَ القرى ﴾ يعني قرى عاد وثمود وأضرابهم ، ﴿ وَتِلْكَ ﴾ مبتدأ خبره . ﴿ أهلكناهم ﴾ أو مفعول مضمر مفسر به ، و﴿ القرى ﴾ صفته ولا بد من تقدير مضاف في أحدهما ليكون مرجع الضمائر . ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ كقريش بالتكذيب والمراء وأنواع المعاصي . ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ لإهلاكهم وقتاً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم ، وقرأ أبو بكر ﴿ لِمَهْلِكِهِم ﴾

بفتح الميم واللام أي لهلاكهم ، وحفص بكسر اللام حملاً على ما شذ من مصادر يفعل كالمرجع والمحيض .

(185/476)

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾ مقدر باذكر . ﴿ لفتاه ﴾ يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام فإنه كان يخدمه ويتبعه ولذلك سماه فتاه وقيل لعبده . ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ أي لا أزال أسير فحذف الخبر لدلالة حاله وهو السفر وقوله : ﴿ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ من حيث إنها تستدعي ذا غاية عليه ، ويجوز أن يكون أصله لا يبرح مسيري حتى أبلغ على أن حتى أبلغ هو الخبر ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فانقلب الضمير والفعل وأن يكون ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ هو بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبر ، و ﴿ مَجْمَعَ البحرين ﴾ ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وُعِدَ لقاء الخضر فيه . وقيل البحران موسى وخضر عليهما الصلاة والسلام فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن . وقرىء "مِجْمَعَ" بكسر الميم على الشذوذ من يفعل كالمشرق والمطلع ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ أو أسير زماناً طويلاً ، والمعنى حتى يقع إما بلوغ المجمع أو مضي الحقب أو حتى أبلغ إلا أن أمضي زماناً أتيقن معه

فوات المجمع ، والحقب الدهر وقيل ثمانون سنة وقيل سبعون . روي : أن موسى عليه الصلاة والسلام خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبة بليغة فأعجب بها فقيل له : هل تعلم أحداً أعلم منك فقال : لا ، فأوحى الله إليه بل أعلم منك عبدنا الخضر وهو بمجمع البحرين ، وكان الخضر في أيام افريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى . وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك قال الذي يذكرني ولا ينساني ، قال فأي عبادك أقضى ، قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى ، قال فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ، فقال إن كان في عبادك أعلم مني فادللني عليه ، قال أعلم منك الخضر قال : أين أطلبه ، قال على الساحل عند الصخرة ، قال كيف لي به قال تأخذ

(186/476)

حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك ، فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي مجمع البحرين و ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ ظرف أضيف إليه على الاتساع أو بمعنى الوصل . ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ نسي موسى عليه الصلاة والسلام أن

يطلبه ويتعرف حاله ، ويوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر . روي : أن موسى عليه السلام رقد فاضطرب الحوت المشوي ووثب في البحر معجزة لموسى أو الخضر . وقيل توضأ يوشع من عين الحياة فانتضح الماء عليه فعاش ووثب في الماء . وقيل نسيا تفقد أمره وما يكون منه أمارة على الظفر بالمطلوب ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر سَرَباً ﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً من قوله ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ وقيل أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه ، ونصبه على المفعول الثاني وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز تعلقه باتخذ .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ مجمع البحرين . ﴿ قَالَ لفتاه ءاتِنَا غَدَاءنَا ﴾ ما نتغذى به . ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ قيل لم ينصب حتى جاوز الموعد فلما جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقي عليه الجوع والنصب . وقيل لم يعي موسى في سفر غيره ويؤيده التقييد باسم الإشارة .

(187/476)

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا ﴾ أرأيت ما دهاني إذ أوينا . ﴿ إِلَى الصخرة ﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى . وقيل هي الصخرة التي دون نهر الزيت . ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت

﴿ فقدته أو نسيت ذكره بما رأيت منه . ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان فإن ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدل من الضمير ، وقرىء "أن أذكركه" . وهو اعتذار عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساوسه ، والحال وإن كانت عجيبة لا ينسى مثلها لكنه لما ضرى بمشاهدة أمثالها عند موسى وألفها قل اهتمامه بها ، ولعله نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما عراه من مشاهدة الآيات الباهرة ، وإنما نسبه إلى الشيطان هضماً لنفسه أو لأن عدم احتمال القوة للجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يعد من نقصان . ﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسرب أو اتخاذ عجباً ، والمفعول الثاني هو الظرف وقيل هو مصدر فعله المضمر أي قال في آخر كلامه ، أو موسى في جوابه عجباً تعجباً من تلك الحال . وقيل الفعل لموسى أي اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً .

﴿ قَالَ ذَلِكَ ﴾ أي أمر الحوت . ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ نطلب لأنه أمارة المطلوب . ﴿ فارتدا على ءاثَارِهِمَا ﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه . ﴿ قَصَصًا ﴾ يقصان قصصاً أي يتبعان آثارهما اتباعاً ، أو مقتصين حتى أتيا الصخرة .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ الجمهور على أنه الخضر عليه السلام واسمه بليا بن ملكان . وقيل اليسع . وقيل إلياس . ﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ هي الوحي والنبوة . ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ مما يختص بنا ولا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب .

﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ على شرط أن تعلمني ، وهو في موضع الحال من الكاف . ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ علماً ذا رشد وهو إصابة الخير ، وقرأ البصريان بفتحتين وهما لغتان كالبخل والبخل ، وهو مفعول ﴿ تُعَلِّمني ﴾ ومفعول ﴿ عَلِمَتِ ﴾ العائد المحذوف وكلاهما منقولان من علم الذي له مفعول واحد ، ويجوز أن يكون رشداً علة لأتبعك أو مصدراً بإضمار فعله ، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين ، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه فيما بعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً ، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب ، فاستجهل نفسه واستأذن أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه .

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم وعلل ذلك واعتذر عنه بقوله .

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك ، وخبراً تمييز أو مصدر لأَن لم تحط به

بمعنى لم تخبره .

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا ﴾ معك غير منكر عليك . ﴿ وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ عطف على صابراً أي ستجدني صابراً وغير عاص ، أو على ستجدني . وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمن وخلفه ناسياً لا يقدح في عصمته أو لعلمه بصعوبة الأمر ، فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد فلا خلف ، وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله تعالى .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتبعتنى فَلاَ تَسْأَلْنى عَن شَىءٍ ﴾ فلا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرته مني ولم تعلم وجه صحته . ﴿ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ حتى أبتدئك ببيانه ، وقرأ نافع وابن عامر "فَلاَ تَسْأَلْنِي" بالنون الثقيلة .

(189/476)

﴿ فانطلقا ﴾ على الساحل يطلبان السفينة ، ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة خَرَقَهَا ﴾ أخذ الخضر فأساً فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها . ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها . وقرىء "لِتُغَرِّقَ" بالتشديد للتكثير . وقرأ حمزة والكسائي "ليغرق أهلها" على إسناده إلى الأهل . ﴿ لَقَدْ

جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أتيت أمراً عظيماً من أمر الأمر إذا عظم .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ تذكير لما ذكره قبل .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ بالذي نسيته أو بشيء نسيته ، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه أو بنسياني إياها ، وهو اعتذار بالنسيان أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذة مع قيام المانع لها . وقيل أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة . وقيل إنه من معاريض الكلام والمراد شيء آخر نسيه . ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ ولا تغشني عسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على المنسي ، فإن ذلك يعسر على متابعتك و ﴿ عُسْراً ﴾ مفعول ثان لترهق فانه يقال : رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه ، وقرىء ﴿ عُسُراً ﴾ بضمتين .

(190/476)

﴿ فانطلقا ﴾ أي بعد ما خرجا من السفينة . ﴿ حتى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ قيل قتل عنقه ، وقيل ضرب برأسه الحائط ، وقيل أضجعه فذبحه والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتله من غير ترو واستكشاف حال ولذلك : ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي طاهرة من الذنوب ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ورويس عن يعقوب "زاكية" والأول أبلغ

، وقال أبو عمرو الزاكية التي لم تذنب قط والزكية التي أذنبت ثم غفرت ، ولعله اختار الأول لذلك فإنها كانت صغيرة ولم تبلغ الحلم أو أنه لم يرها قد أذنبت ذنباً يقتضي قتلها ، أو قتلت نفساً فتقاد بها ، نبه به على أن القتل إنما يباح حداً أو قصاصاً وكلا الأمرين منتف ، ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء ، واعتراض موسى عليه الصلاة والسلام مستأنفاً في الأولى وفي الثانية قتله من جملة الشرط واعتراضه جزاء ، لأن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام ولذلك فصله بقوله : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ أي منكراً ، وقرأ نافع في رواية قالون وورش وابن عامر ويعقوب وأبو بكر ﴿ نُّكْرًا ﴾ بضمتين .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ زاد فيه ﴿ لَكَ ﴾ مكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، ووسماً بقلة الثبات والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة حتى زاد في الاستنكار ثاني مرة .

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ وإن سألت صحبتك ، وعن يعقوب "فلا تصحبني" أي فلا تجعلني صاحبك . ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ قد وجدت عذراً من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب " وقرأ نافع "مِن لَّدُنِّي" بتحريك النون والاكتفاء بها عن نون الدعامة كقوله :

قِدْنِي مِنْ نَصْرِ الخَبِيبَيْنِ قُدى . . . وأبو بكر ﴿ لَّدُنّى ﴾ بتحريك النون وإسكان الضاد من عضد .

﴿ فانطلقا حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ أنطاكية وقيل أبلة البصرة .

وقيل باجروان أرمينية . ﴿ استطعما أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيّفُوهُمَا ﴾ وقرىء ﴿ يُضَيّفُوهُمَا ﴾ من أضافه يقال ضافه إذا نزل به ضيفاً وأضافه وضيفه أنزله ، وأصل التركيب للميل يقال ضاف السهم عن الغرض إذا مال . ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يداني أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم قال :

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ . . . وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

وقال :

إِنَّ دَهْراً يَلُمُّ شَمْلِي بجمل . . . لزمانٌ يَهُمُّ بِالإِحْسَانِ

وانقض انفعل من قضضته إذا كسرته ، ومنه انقضاض الطير والكواكب لهويه ، أو أفعل من النقض . وقرىء "أَن يَنقَضَ" و"أن ينقاص" بالصاد المهملة من انقاصت السن إذا انشقت طولاً . ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ بعمارته أو بعمود عمده به ، وقيل مسحه بيده فقام . وقيل نقضه

وبناه . ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ تحريضاً على أخذ الجعل لينتعشا به ، أو تعريضاً بأنه فضول لما في ﴿ لَوْ ﴾ من النفي كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه ، واتخذ افتعل من تخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين ، وقرأ ابن كثير والبصريان "لتخذت" أي لأخذت وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الدال وأدغمه الباقون .

(192/476)

﴿ قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ أو إلى الاعتراض الثالث ، أو الوقت أي هذا الاعتراض سبب فراقنا أو هذا الوقت وقته ، وإضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع ، وقد قرىء على الأصل . ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 515.504 ﴾

(193/476)

وقال ابن جزى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾

الضمير للشياطين على وجه التحقير لهم أو للكفار أو لجميع الخلق ، فيكون فيه ردّ على المنجمين وأهل الطبائع وسائر الطوائف المتخرصة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ أي معيناً ومعنى المضلين : الذين يضلون العباد وذلك يقوّي أن المراد الشياطين ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ ﴾ يقول هذا للكفار على وجه التوبيخ لهم ، وأضاف تعالى الشركاء إلى نفسه على زعمهم ، وقد بين هذا بقوله : الذين زعمتم ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ أي مهلكاً ، وهو اسم موضع أو مصدر من : وبق الرجل إذا هلك ، وقد قيل : إنه واد من أودية جهنم ، والضمير في بينهم للمشركين وشركائهم ﴿ فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين ﴿ مَصْرِفاً ﴾ أي معدلاً ينصرفون إليه ﴿ جَدَلاً ﴾ أي مخاصمة ومدافعة بالقول ويقتضي سياق الكلام ذم الجدل ، وسببها فيما قيل مجالة النضر بن الحارث ، على أن الإنسان هنا يراد به الجنس .

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا ﴾ الآية : معناها أن المانع للناس من الإيمان والاستغفار هو القضاء عليهم بأن يأتيهم سنة الأمم المتقدمة ، وهي الإهلاك في الدنيا ، أو يأتيهم العذاب

يعني عذاب الآخرة ، ومعنى (قبلا) معاينة وقرئ بضمتين وهو جمع قبيل : أي أنواعاً من العذاب .

(194/476)

﴿ لِيُدْحِضُواْ ﴾ أي ليبطلوا ﴿ وَمَا أُنذِرُواْ هُزُواً ﴾ يعني العذاب وما موصلة ، والضمير محذوف تقديره : أنذروه أو مصدرية ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ هذه عقوبة على الإعراض المحكي عنهم ، أو تعليل لهم والأكنة جمع كنان وهو الغطاء ، والوقر الصمم وهما على وجه الاستعارة ، في قلة فهمهم للقرآن وعدم استجابتهم للإيمان ﴿ فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً ﴾ يريد به من قضى الله أنه لا يؤمن ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم ﴾ الضمير لكفار قريش أو لسائر الناس لقوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس ﴾ [النحل : 61] والجملة خبر المبتدأ والغفور ذو الرحمة صفتان اعترضتا بين المبتدأ والخبر توطئة لما ذكر بعد من ترك المؤاخذة ، ويحتمل أن يكون الغفور هو الخبر ، ويؤاخذهم بيان لمغفرته ورحمته ، والأول أظهر ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ قيل : هو الموت وقيل : عذاب الآخرة وقيل : يوم بدر ﴿ مَوْئِلاً ﴾ أي ملجأ يقال : وئل الرجل إذا لجأ .

﴿ وَتِلْكَ القرى ﴾ يعني : عادا وثمود وغيرهم من المتقدمين ، والمراد هنا : أهل القرى

ولذلك قال : أهلكناهم وفي ضمن هذا الإخبار تهديد لكفار قريش ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً ﴾ أي وقتاً معلوماً ، والمهلك هنا بضم الميم وفتح اللام اسم مصدر من أهلك ، فالمصدر على هذا مضاف للفاعل .

(195/476)

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ ﴾ هذا ابتداء قصة موسى مع الخضر ، وهو موسى بن عمران نبي الله ، وفتاه هو يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى وهو من ذرية يوسف عليه السلام ، والفتى هنا بمعنى الخديم وسبب القصة فيما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : " أن موسى عليه السلام خطب يوماً في بني إسرائيل فقيل له : هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ فقال لا : فأوحى الله إليه أن بل عبدنا الخضر أعلم منك فقال : يا رب دلني على السبيل إلى لقائه فأوحى الله إليه أن يحمل حوتاً في مكتل ويسير بطول سيف البحر حتى يبلغ مجمع البحرين ، فإذا فقد الحوت فإن الخضر هناك ، ففعل موسى ذلك حتى لقيه " ﴿ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ قال موسى هذا الكلام وهو سائر أي : لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ، فحذف خبر لا أبرح اختصاراً لدلالة المعنى عليه ، ومعنى لا أبرح هنا لا أزال ، لأن حقيقة لا أبرح تقتضي الإقامة في الموضع ، وكان موسى

حين قالها على سفر لا يريد إقامة ، ومجمع البحرين : عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه ، وهو بحر الأندلس وقيل : هو مجمع بحر فارس وبحر الروم في المشرق ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ أي زماناً طويلاً ، والحقب بضم القاف وإسكانها ثمانون سنة ، وقيل زمان غير محدود وقيل : هي جمع حقبة وهي السنة ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ الضمير في بلغا لموسى وفتاه والضمير في بينهما للبحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ نسب النسيان إليهما ، وإنما كان النسيان من الفتى وحده كما تقول فعل بنو فلان كذا : إذا فعله واحد منهم وقيل : نسي الفتى أن يقدمه ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء ﴿ فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً ﴾ فاعل اتخذ الحوت ، والمعنى أنه سار في البحر فقيل : إن الحوت كان ميتاً مملوحاً ثم صار حياً بإذن الله ، ووقع في الماء فسار فيه .

(196/476)

وقال ابن عباس : إنما حيي الحوت لأنه مسه ماء عين يقال لها عين الحياة ما مست قط شيئاً إلا حيي ، وفي الحديث أن الله أمسك جرية الماء عن الحوت فصار مثل السراب ، وهو المسلك في جوف الأرض ، وذلك معجزة لموسى عليه السلام وقيل : اتخذ الحوت سبيله في البحر سرباً حتى وصل إلى البحر فعام على العادة ، ويريد هذا ما ورد في الحديث .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي جاوزا الموضع الذي وصف له ، وهو الصخرة التي نام عندها فسار الحوت في البحر ، بينما كان موسى نائماً وكان ذهاب الحوت أمارة لقائه للخضر ، فلما استيقظ موسى أصابه الجوع ، فقال لفتاه : آتنا غداءنا ﴿ نَصَباً ﴾ أي تعباً ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة ﴾ قال الزمخشري : أرأيت هنا بمعنى أخبرني ثم قال ، فإن قلت ما وجه التئام هذا الكلام ، فإن كل واحد من أرأيت وإذ أوينا بمعنى أخبرني ثم قال ، فإن قلت ما وجه التئام هذا الكلام ، فإن كل واحد من أرأيت وإذ أوينا وفإني نسيت الحوت لا متعلق له ؟ فالجواب أنه لما طلب موسى الحوت ذكر يوشع ما رأى منه ، وما اعتراه ومن نسيانه ، فدهش فطفق يسأل موسى عن سبب ذلك فكأنه قال : أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت فحذف بعض الكلام ﴿ نَسِيتُ الحوت ﴾ أي نسيت أن أذكر لك ما رأيت من ذهابه في البحر وتقديره : نسيت ذكر الحوت ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدل من الهاء في أنسانيه وهو بدل اشتمال .

(197/476)

﴿ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أي اتخذ الحوت سبيله في البحر عجباً للناس أو اتخذ موسى سبيل الحوت عجباً أي تعجب هو منه

وإعراب عجباً مفعول ثان لاتخذ مثل سرباً وقيل : إن الكلام تم عند قوله في البحر ثم ابتدأ التعجب فقال عجباً وذلك بعيد ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي فقد الحوت هو ما كنا نطلب ؛ لأنه أمارة على وجدان الرجل ﴿ فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ أي رجعا في طريقهما يقصان أثرهما الأول لئلا يخرجا عن الطريق ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ هو الخضر ﴿ آتيناه رَحْمَةً ﴾ يعني النبوة على قول من قال : إن الخضر نبيّ . وقيل : إنه ليس بنبّي ولكنه وليّ ، وتظهر نبوته من هذه القصة أنه فعل أشياء لا يعملها إلا بوحي ، واختلف أيضاً هل مات أو هو حيّ إلى الآن ؟ ويذكر كثير من الصلحاء أنهم يرونه ويكلمهم ﴿ وعلمناه مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ في الحديث أن موسى وجد الخضر مسجّى بثوبه فقال له : السلام عليك فرفع رأسه وقال : وأنى بأرضك السلام قال له : من أنت ؟ قال : أنا موسى قال قال : بلى . ولكني أحببت لقاءك وأن أتعلم منك . قال : إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه لا أعلمه أنا ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ الآية : مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿ رُشْداً ﴾ قرئ بضم الراء وإسكان الشين وبفتحها والمعنى واحد ، وانتصب على أنه مفعول ثانٍ بتعلمني أو حال من الضمير في أتبعك .

﴿ فانطلقا ﴾ الضمير لموسى والخضر . وفي الحديث أنهما انطلقا ماشيين على سيف البحر ، حتى مرت بهما سفينة فعرفها الخضر فحمل فيها بغير نوال أي بغير أجرة ﴿ خَرَقَهَا ﴾ روي أن الخضر أزال لوحين من ألواحها ﴿ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أي عظيماً وقيل : منكراً ﴿ فانطلقا ﴾ يعني بعد نزولهما من السفينة فمرا بغلمان يلعبون ، وفيهم غلام وضيء الصورة فاقتلع الخضر رأسه ، وروي أن اسم الغلام جيسورا بالجيم ، وقيل بالحاء المهملة قال الزمخشري : إن قلت لم قال خرقها بغير فاء ، وقال فقتله بالفاء ؛ والجواب أن خرقها جواب الشرط ، وقتله من جملة الشرط معطوف عليه والخبر : قال أقتلت نفساً ، فإن قيل : لم خولف بينهما ؟ فالجواب : أن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام ﴿ نَفْساً زَكِيَّةً ﴾ قيل : إنه كان لم يبلغ ، فمعنى زكية ليس له ذنب وقيل : إنه كان بالغاً ، ولكنه لم ير له الخضر ذنباً ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ يقتضي أنه لو كان قد قتل نفساً لم يكن بقتله بأس على وجه القصاص ، وهذا يدل على أن الغلام كان بالغاً فإن غير البالغ لا يقتل وإن قتل نفساً ﴿ شَيْئاً نُّكْراً ﴾ أي منكراً وهو أبلغ من قوله : إمراً ويجوز ضم الكاف وإسكانها ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ ﴾ بزيادة لك فيه من الزجر والإغلاظ ما ليس في قوله أولاً : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴿ بَعْدَهَا ﴾ الضمير للقصة وإن لم يتقدم لها ذكر ، ولكن سياق الكلام يدل عليها ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ أي قد أعذرت إليّ فأنت معذور عندي

، وفي الحديث كانت الأولى من موسى نسياناً .

﴿ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ قيل : هي أنطاكية ، وقيل برقة .

(199/476)

وقال أبو هريرة وغيره : هي بالأندلس ويذكر أنها الجزيرة الخضراء ولك على قول أن مجمع البحرين عند طنجة وسبتة ﴿ استطعما آَهْلَهَا ﴾ أي طلبا منهم طعاماً ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أن يسقط وإسناده الإرادة إلى الجدار مجاز ، ومثل ذلك كثير في كلام العرب ، وحقيقته أنه قارب أن ينقضّ ووزن ينقضّ ينفعل وقيل : يفعلّ بالتشديد كيحمرّ ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ قيل : إنه هدمه ثم بناه وقيل مسحه بيده وأقامه فقام ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي قال موسى للخضر : لو شئت لاتخذت عليه أجراً أي طعاماً نأكله ﴿ قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ إنما قال له هذا لأجل شرطه في قوله : " إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني " على أن قوله : " لو شئت لاتخذت عليه أجراً " ليس بسؤال ولكن في ضمنه أمر بأخذ الأجرة عليه لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام ، والبين هنا ليس بظرف وإنما معناه الوصلة والقرب ، وقال الزمخشري : الأصل هذا فراق بيني وبينك بتنوين فراق ونصب بيني

على الظرفية ، ثم أضيف المصدر إلى الظرف والإشارة بقوله هذا إلى السؤال الثالث ، الذي أوجب الفراق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 190 . 194 ﴾

(200/476)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ما أشهدتهم ﴾

أي ما أحضرتهم يعني إبليس وذريته وقيل الكفار وقيل الملائكة ﴿ خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ والمعنى ما أشهدتهم خلقها فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها ﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ يعني الشياطين الذين يضلون الناس ﴿ عضداً ﴾ يعني أنصاراً وأعواناً .

قوله : ﴿ ويوم يقول نادوا ﴾ يعني يقول الله تعالى يوم القيامة نادوا ﴿ شركائي ﴾ يعني الأصنام ﴿ الذين زعمتم ﴾ يعني أنهم شركائي ﴿ فدعوهم ﴾ أي فاستغاثوا بهم ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينصروهم ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ يعني بين الأصنام وعبدتها وقيل بين أهل الهدى وبين أهل الضلال ﴿ موبقاً ﴾ يعني مهلكاً قال ابن عباس : هو واد في النار وقيل نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل كل

حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك ﴿ ورأى المجرمون ﴾ أي المشركون ﴿ النار فظنوا ﴾ أي أيقنوا ﴿ أنهم مواقعوها ﴾ أي داخلوها وواقعون فيها ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي معدلاً لأنها أحاطت بهم من كل جانب وقيل لأن الملائكة تسوقهم إليها .

(201/476)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد صرفنا ﴾ أي بينا ﴿ في هذا القرآن للناس من كل مثل ﴾ أي ليتذكروا ويتعظوا ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ أي خصومة في الباطل قال ابن عباس : أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن وقيل أراد به أبي بن خلف وقيل أراد به جميع الكفار وقيل الآية على العموم وهو الأصح (ق) عن علي بن أبي طالب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) طرقه وفاطمة ليلاً فقال : " ألا تصليان " فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئاً ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخذه بيده ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ قوله ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ يعني القرآن وأحكام الإسلام والبيان من الله تعالى وقيل إنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ والمعنى أنه لا مانع من الإيمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية

حاصلة والأعذار زائلة فلم لم يقدموا على الإيمان والاستغفار ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ يعني سنتنا بإهلاك الأولين إن لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ قال ابن عباس : أي عياناً من المقابلة وقيل فجأة .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ﴾ أي بالثواب على الطاعة ﴿ ومنذرين ﴾ بالعقاب لمن عصى ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ هو قولهم ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ وقولهم للرسل ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ وشبه ذلك ﴿ ليدحضوا ﴾ أي ليبطلوا ﴿ به الحق ﴾ ويزيلوه ﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً ﴾ فيه إضمار يعني اتخذوا ما أنذروا به وهو القرآن استهزاء .

(202/476)

قوله ﴿ ومن أظلم ممن ذكر ﴾ أي وعظ ﴿ بآيات ربه فأعرض عنها ﴾ أي تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ أي ما عمل من المعاصي من قبل ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ أي أغطية ﴿ أن يفقهوه ﴾ يريد لئلا يفهموه ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي ثقلاً وصماً ﴿ وإن تدعهم ﴾ يا محمد ﴿ إلى الهدى ﴾ أي الدين ﴿ فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿ وربك الغفور ﴾ أي البليغ

المغفرة ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي الموصوف بالرحمة ﴿ لو يؤآخذهم ﴾ أي يعاقب الكفار ﴿ بما كسبوا ﴾ من الذنوب ﴿ لعجل لهم العذاب ﴾ أي في الدنيا ﴿ بل لهم موعد ﴾ يعني البعث والحساب ﴿ لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي ملجأ ﴿ وتلك القرى ﴾ قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿ أهلكناهم لما ظلموا ﴾ أي كفروا ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ أي أجلاً لإهلاكهم.

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ الآيات أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران من سبط لاوي بن يعقوب صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة.

وعن كعب الأحبار أنه موسى بن ميشا من أولاد يوسف بن يعقوب وكان قد تنبأ قبل موسى بن عمران.

(203/476)

والقول الأول أصبح بدليل أن الله سبحانه وتعالى في كتابه لم يذكر العزيز موسى إلا أراد به صاحب التوراة فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ولو أراد شخصاً آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة علمنا أنه موسى بن

عمران صاحب التوراة وأما فتاه فالأصح أنه يوشع ابن نون بن أفراً ثم ابن يوسف وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته ، وقيل إنه أخو يوشع وقيل فتاة يعني بده بدليل قوله (صلى الله عليه وسلم) " لا يقل أحدكم عبده وأمتي وليقل فتاي وفتاتي " (ق) عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس أن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بين إسرائيل فقال ابن عباس : كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسأل أي الناس أعلم فقال أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب فكيف لي به قال : فخذ معك حوتاً فاجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما ، فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به .

فقال له فتاه ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً فقال موسى ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على أثارهما قصصاً ﴾ قال رجعا فقصا آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب أبيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمني ما علمت رشداً ، قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله لا أعلمه فقال موسى : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً فقال له الخضر : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها " لقد جئت شيئاً إمراً قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً : قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً " قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كانت الأولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة

فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى : " أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً " قال وهذه أشد من الأولى قال " إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً .

(205/476)

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض " أي مائلا فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا " لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يرحم الله موسى ، لوددت أنه صبر يقص علينا من أخبارهما " قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ : وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً ، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين .

وفي رواية عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قام موسى عليه

السلام ذكر الناس يوماً حتى إذا ما فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال : أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ ؟ قال : لا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى .

فقال بلى قال أي رب وأين هو قال بمجمع البحرين قال خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح .

وفي رواية تزود حوتاً مالحاً فإنه حيث يفقد الحوت زاد في رواية وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ورجعنا إلى التفسير .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ لا أبرح ﴾ أي لا أزال أسير ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قيل أراد بحر فارس والروم مايلي المشرق وقيل طنجة وقيل إفريقية ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ يعني أو أسير دهراً طويلاً .

والحقب ثمانون سنة فحمل خبزاً وسمكة مالحة في المكتل وهو الزنبيل الذي يسع خمسة عشر صاعاً ومضيا حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين وعندها عين تسمى عين الحياة لا تصيب شيئاً إلا حيي فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت في المكتل وهاجت ودخلت في البحر .

﴿ فلما بلغا ﴾ يعني موسى وفتاه ﴿ مجمع بينهما ﴾ أي بين البحرين ﴿ نسيا ﴾ أي تركا ﴿ حوتهما ﴾ .

(206/476)

وإنما كان الحوت مع يوشع بن نون ، وهو الذي نسيه وإنما أضاف النسيان إليهما تزواده لسفرهما وقيل المراد من قوله نسيا حوتهما أي نسيا كيفيه الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب .

﴿ فاتخذ ﴾ أي الحوت ﴿ سبيله في البحر سرباً ﴾ أي مسلكاً .

وروى أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه سلم أنه قال " أنجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر " قال ابن عباس : جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى صخرة ، وقد روينا أنهما لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى إذا كان من الضد وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلما جاوزوا ﴾ يعني ذلك الموضع وهو مجمع البحرين ﴿ قال ﴾ يعني موسى

﴿ لفتاه آتنا غداءنا ﴾ أي طعامنا ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ أي تعباً وشدة وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع في طلبه .

﴿ قال ﴾ يعني يوشع ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ وهي صخرة كانت بالموضع الموعود ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ أي تركته وفقدته ، وذلك أن يوشع حين رأى من الحوت ذلك قام ليدرك موسى فيخبره فنسي أن يخبره ، فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم قال ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ أي وما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان ، قيل المراد من النسيان شغل قلب الإنسان بوساوس الشيطان التي هي فعله دون النسيان الذي يضاد الفكر لأن ذلك لا يصح إلا من قبل الله تعالى ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قيل هذا من قول يوشع بن نون يعني وقع الحوت في البحر فاتخذ سبيله فيه مسلكاً .

(207/476)

وروي في الخبر كان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً وقيل أي شيء أعجب من حوت يؤكل منه دهراً ثم صار حياً بعد ما أكل بعضه .

قوله ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ نطلب ﴿ فارتدا على أثارهما قصصاً

﴿ أي رجعا يقصان الذي جاءا منه ويتبعانه ﴾ ﴿ فوجدوا عبداً من عبادنا ﴾ قيل كان ملكاً من الملائكة والصحيح الذي ثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجاء في التواريخ أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس ، قيل كان من بني إسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب له ، سمي به لأنه جلس على فروة بيضاء فاخضرت .

(خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إنما سمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء " ، الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضراً لأنه كان إذا صلّى اخضر ما حوله .

وروينا أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام قال أنا موسى أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً .

ومعنى مسجى أي مغطى بثوب وقوله وأنى بأرضك السلام معناه من أين بأرضك التي أنت فيها الآن السلام .

وروي أنه لقيه على طنفسه خضراء على جانب البحر فذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة ﴾ أي نعمة ﴿ من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ أي علم الباطن إلهاماً ولم يكن الخضر نبياً عند أكثر أهل العلم .

فإن قلت ظاهر الآيات يدل على أن الخضر كان أعلى شأناً من موسى وكان موسى يظهر

التواضع له والتأدب معه .

قلت لا يخلو إما أن يكون الخضر من بني إسرائيل أو من غيرهم فإن كان من بني إسرائيل فهو من أمة موسى ، ولا جائز أن يكون أحد الأمة أفضل من نبيها أو أعلى شأناً منه ، وإن كان من غير بني إسرائيل فقد قال الله تعالى لبني إسرائيل

(208/476)

﴿ وإني فضلتكم على العالمين ﴾ أي على عالمي زمانكم ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ معناه جئت لأصحبك وأتبعك ﴿ على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ أي صواباً وقيل علماً ترشدني به .

وفي بعض الأخبار قال الخضر لموسى : كفى بالتوراة علماً وبني إسرائيل شغلاً ، فقال له موسى : إن الله أمرني بهذا فحينئذٍ ﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أموراً منكرة ولا يجوز للأنبياء الصبر مع المنكرات ثم بين عذره في ترك الصبر فقال ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ أي علماً ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ إنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ أي أخالفك فيما تأمرني به قال ﴿ فإن اتبعتني ﴾ إي

فإن صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار إليه شرط عليه ثم شرطاً فقال ﴿ فلا تسألني عن شيء ﴾ أي مما أعلمه مما تنكره ولا تعترض عليه ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ معناه حتى أبتدأ بذكره فأبين لك شأنه .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ فانطلقا ﴾ أي يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها ، فوجدا سفينة فركباها فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص ، وأمروهما بالخروج فقال صالح السفينة ما هم بلصوص ولكن أرى وجوه الأنبياء .

وروينا عن أبي بن كعب عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، أي بغير عوض ولا عطاء ، فلما لججوا في البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحاً من ألواح السفينة فذلك " قوله تعالى ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال ﴾ يعني موسى له ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ أي أتيت شيئاً عظيماً منكراً .

روي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروي أن موسى لما رآى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق .

﴿ قال ﴾ العالم وهو الخضر ﴿ ألم أقل أنك لن تستطيع معي صبراً قال ﴾ يعني موسى ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ .

قال ابن عباس : لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيئاً آخر .

وقيل معناه بما تركت من عهدك النيسان الترك وقال أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "كانت الأولى من موسى نسياناً والثانية شرطاً والثالثة عمداً " ﴿ ولا ترهقني ﴾ أي لا تغشني ﴿ من أمري عسراً ﴾ والمعنى لا تعسر علي متابعتك وسيرها بالأغضاء وترك المناقشة وقيل لا تكلفني مشقة ولا تضيق علي أمري .

﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان ، يلعبون فأخذ الخضر غلاماً ظريفاً وضيء الوجه كان وجهه يتوقد حسناً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه .

وروى عبد الرزاق هذا الخبر وفيه أشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه .

وروي أن رضخ رأسه بحجر وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله .

قال ابن عباس : كان غلاماً لم يبلغ الحنث ولم يكن نبي الله موسى يقول أقتلت نفساً زاكية ، إلا وهو صبي لم يبلغ الحنث ، وقيل : كان رجلاً وقيل كان اسمه حيسور وقيل كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه .

وقيل كان غلاماً يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه .

(ق) عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً " لفظ مسلم ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ أي لم تذنب قط وقرىء زكية وهي التي أذنبت ثم تابت ﴿ بغير نفس ﴾ أي لم تقتل نفساً حتى يجب عليها القتل ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ أي منكراً عظيماً ، وقيل النكر أعظم من الأمر لأنه حقيقة الهلاك ، وفي خرق السفينة خوف الهلاك ، وقيل الأمر أعظم لأن فيه تغريق جمع كثير ، وقيل معناه لقد جئت شيئاً أنكر من الأول لأن ذاك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه ﴿ قال ﴾ يعني الخضر ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قيل زاد في هذه الآية قوله لك لأنه نقض العهد مرتين ، وقيل إن هذه اللفظة توكيد للتوبيخ فعند هذا ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ قيل إن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه ، قال موسى إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني ، أي فارقني لا تصاحبني ﴿ قد بلغت من لدني عذراً ﴾ قال ابن عباس : أي قد أعذرت فيما بيني وبينك ، وقيل معناه اتضح لك العذر في مفارقتي والمعنى أنه مدحه بهذه الطريقة من حيث

أنه احتمله مرتين أولاً وثانياً مع قرب المدة (ق) عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" رحمة الله علينا وعلى وموسى وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب ، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فلو صبر لرأى العجب " قوله ذمامة هو بذال معجمة أي حياء وإشفاق من الذم واللوم ، يقال ذممته ذمامة لمته ملامة ويشهد له قول الخضر هذا فراق بيني وبينك .

(211/476)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ قال ابن عباس : يعني أنطاكية وقيل الأيلة وهي أبعد الأرض من السماء وقيل هي بلدة بالأندلس ﴿ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ﴾ قال أبي بن كعب عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " أتيا أهل قرية لئاماً فطافا في المجلس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما " وروي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فلم يضيفوهما .

وعن أبي هريرة قال : أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما

فدعا لنسائهم ولعن رجالهم .

وعن قتادة قال : شر القرى التي لا تضيف الضيف ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض أي يسقط وهذا من مجاز الكلام لأن الجدار لا إرادة له ، وإنما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها ، فاستعير لها النظر كما أستعير للجدار الإرادة .

﴿ فأقامه ﴾ أي سواه ، وفي حديث أبي بن كعب عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " فقال الخضر بيده هكذا فأقامه " وقال ابن عباس : هدمه وقعد يبنيه .

﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ يعني على إصلاح الجدار جعلاً والمعنى أنك قد علمت أنا جياع ، وأن أهل القرية لم يطعمونا فلو اتخذت على عملك أجراً .

﴿ قال ﴾ يعني الخضر ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ يعني هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل إن هذا الإنكار على ترك أخذ الأجر هو المفرق بيننا ﴿ سأنبئك ﴾ أي سوف أخبرك ﴿ بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ وقيل إن موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني فقال الخضر ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 217 . 226 ﴾

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) ﴾

واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى : ﴿ ما أشهدتهم ﴾ على وجوه :

أحدها وهو الذي ذهب إليه الأكثرون أن المعنى ما أشهدت الذين اتخذوهم أولياء ﴿ خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ أي : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى : ﴿ اقتلوا أنفسكم ﴾ (النساء ،)

(213/476)

نفى إحضار إبليس وذريته خلق السماوات والأرض وإحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى : ﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ أي : الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر إظهاراً لإضلالهم وذمّاً لهم ﴿ عضداً ﴾ أي : أعواناً ، وثانيها قال الرازي : وهو الأقوى عندي إن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن لم تطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء من

عندك فلا تؤمن بك فكأنه تعالى قال : إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا على الاقتراح الفاسد قال : والذي يؤكد هذا أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات فالأقرب في هذه الآية هو أولئك الكفار وهو قوله تعالى : ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ والمراد بالظالمين أولئك الكفار ، وثالثها أن يكون المراد من قوله ما أشهدتهم إلى آخره دون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الأزل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم اللّه بسعادته والشقي من حكم اللّه بشقاوته في الأزل وأنتم غافلون عن أحوال الأزل فإنه تعالى قال : ما أشهدتهم إلى آخره وإذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلوّ والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس مما حكمتم به . ولما قرّر تعالى أن القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتدوا فيه بإبليس عاد بعده إلى التهويل بأهوال القيامة فقال:

﴿ ويوم ﴾ التقدير واذكر لهم يا محمد يوم عطفاً على قوله وإذ قلنا للملائكة ﴿ يقول ﴾ أي : اللّه يوم القيامة لهؤلاء الكفار تهكماً بهم وقرأ حمزة بالنون والباقون بالياء ﴿ نادوا شركائي ﴾ أي : ما عبد من دوني وقيل : إبليس وذرّيته ثم بيّن تعالى أن الإضافة ليست على حقيقتها بل توبيخ لهم فقال تعالى : ﴿ الذين زعمتم ﴾ أنهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي ﴿ فدعوهم ﴾ تمادياً في الجهل والضلال ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي : فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالاً بأنفسهم فضلاً عن أن يعينوهم ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أي : المشركين والشركاء ﴿ موبقاً ﴾ أي : وادياً من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، وهو من وبق بالفتح هلك ، نقل ابن كثير عن عبد اللّه بن عمر أنه قال : هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلال ، وقال الحسن البصري : عداوة أي : يؤل بهم إلى الهلاك والتلف كقول عمر رضي اللّه تعالى عنه : لا يكون حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً أي : لا يكن حبك يجر إلى الكلف ولا بغضك يجر إلى التلف ، وقيل : الموبق البرزخ البعيد أي : وجعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخاً بعيداً يهلك فيه الساري لفرط بعده لأنهم في قعر جهم وهم في أعلى الجنان .

ولما قرر سبحانه وتعالى ما لهم مع شركائهم ذكر حالهم في استمرار جهلهم فقال تعالى: ﴿ ورأى المجرمون ﴾ أي : العريقون في الإجرام ﴿ النار ﴾ من مكان بعيد ﴿ فظنوا ﴾ ظناً ﴿ أنهم مواقعوها ﴾ أي : مخالطوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدّة ما

يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال تعالى : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ (الفرقان ،)

(215/476)

فإن مخالطة الشيء لغيره إذا كانت قوية تامّة يقال لها : مواقعة ﴿ ولم ﴾ أي : والحال أنهم لم ﴿ يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي : مكاناً ينصرفون إليه لأن الملائكة تسوقهم إليها والموضع موضع التحقق ولكن ظنهم جرياً على عادتهم في الجهل كما قالوا : اتخذوا اللّه ولداً بغير علم وما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة إن نظنّ إلا ظناً وما نحن بمستيقنين مع قيام الأدلة التي لا شك فيها ، وقيل : الظن هنا بمعنى العلم واليقين .

ولما افتخر هؤلاء الكفار على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم وبيّن اللّه تعالى الوجوه الكثيرة أن قولهم فاسد وشبههم باطلة ذكر فيه المثلين المتقدّمين ثم قال بعده:

(216/476)

﴿ ولقد صرّفنا ﴾ وأظهر نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم الدال وأدغمها الباقون ﴿ في هذا القرآن ﴾ أي : القيم الذي لا عوج فيه مع جمعه للمعاني ﴿ للناس ﴾ أي : المزلزلين والثابتين وقوله : ﴿ من كل مثل ﴾ صفة لمحذوف أي : مثلاً من جنس كل مثل ليتعظوا أو أنّا حولنا الكلام وصرّفناه في كل وجه من وجوه المعاني وألبسناه من العبارات الرائقة والأساليب المتناسقة ما صار بها في غرابته كالمثل يقبله كل من سمعه وتضرب به آباط الأبل في سائر البلاد بين العباد فتسر به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء ﴾ يتأتى منه الجدال وميز الأكثرية بقوله تعالى : ﴿ جدلاً ﴾ أي : خصومة ، قال بعض المحققين والآية دالة على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جادلوهم في الدين لأنّ المجادلة لا تحصل إلا من الطرفين ولهذا قيل : أراد بالإنسان الكافر ، وقيل الآية على العموم ، قال ابن الخازن : وهو الأصح وكذا قال البغوي فعن عليّ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنها ليلة فقال : ألا تصليان ؟ فقلت : يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول : وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ، وقال ابن عباس أراد النضر بن الحارث

وجداً له في القرآن ، وقال الكلبي : أراد به خلفاً الجمحي .

ولما بيّن سبحانه وتعالى إعراضهم بيّن موجبه عندهم فقال تعالى:

(217/476)

﴿ وما منع الناس ﴾ أي : الذين جادلوا بالباطل الإيمان هكذا كان الأصل ولكنه عبر عن هذا المفعول الثاني بقوله : ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ليفيد التجديد وذمّهم على الترك ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ جاءهم الهدى ﴾ أي : القرآن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثاني معبراً بمثل ما مضى لما مضى قوله تعالى : ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ أي : لا مانع لهم من الإيمان ولا من الاستغفار والتوبة .

ولما كان الاستثناء مفرغاً أتى بالفاعل فقال : ﴿ إلا أن ﴾ أي : طلب أن ﴿ تأتيهم سنة الأوّلين ﴾ أي : سنتنا فيهم وهي الإهلاك المقدّر عليهم ﴿ أو ﴾ طلب أن ﴿ يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي : مقابلة وعياناً وهو القتل يوم بدر ، وقيل عذاب الآخرة وقرأ الكوفيون برفع القاف والباء الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء الموحدة .

ولما كان ذلك ليس إلى الرسول وإنما هو إلى اللّه تعالى نبه بقوله تعالى:

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ﴾ بالثواب على أفعال الطاعة ﴿ ومنذرين ﴾ بالعقاب

على أفعال المعصية فيطلب منهم الظالمون من أممهم ما ليس إليهم ﴿ ويجادل الذين كفروا ﴾ أي : يجدّدون الجدال كلما أتاهم أمر من قبلنا ﴿ بالباطل ﴾ من قولهم ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو كنتم صادقين لأتيتم بما يطلب منكم مع أن ذلك ليس كذلك إذ ليس لأحد غير اللّه من الأمر شيء ﴿ ليدحضوا به ﴾ أي : ليبطلوا بجدالهم ﴿ الحق ﴾ أي : القرآن والمعجزات المثبتة لصدقهم ﴿ واتخذوا آياتي ﴾ أي : القرآن ﴿ وما أنذروا ﴾ أي : وإنذارهم أو والذي أنذروا به من العقاب ﴿ هزوا ﴾ أي : استهزاء وقرأ حفص بالواو وقفاً ووصلاً وحمزة بالواو ووقفاً لا وصلاً وسكن الزاي حمزة ورفعها الباقون ولحمزة في الوقف أيضاً النقل .

ولما حكى اللّه تعالى عن الكفار أحوالهم الخبيثة وصفهم بما يوجب الخزي بقوله تعالى:

(218/476)

﴿ ومن أظلم ﴾ أي : لا أحد أظلم وهو استفهام على سبيل التقرير ﴿ ممن ذكر بآيات ربه ﴾ أي : المحسن إليه بها وهي القرآن ﴿ فأعرض عنها ﴾ تاركاً لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجب ذلك الإحسان من الشاكر ﴿ ونسي ما قدّمت يداه ﴾ من الكفر والمعاصي فلم يتفكر في عاقبتها ثم علل تعالى ذلك الإعراض بقوله تعالى : ﴿ أنا

جعلنا على قلوبهم ﴾ فجمع رجوعاً إلى أسلوب واتخذوا آياتي لأنه أنص على ذم كل واحد ﴿ أكنة ﴾ أي : أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لا يدع شيئاً من الخير يصل إليها فهي لا تعي شيئاً من آياتنا ، ودلّ تذكير الضمير وإفراده على أنّ المراد بالآيات القرآن فقال : ﴿ أن ﴾ أي : كراهة أن ﴿ يفقهوه ﴾ أي : يفهموه ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي : ثقلاً فهم لا يسمعون حق السمع ولا يعون حق الوعي ﴿ وإن تدعهم ﴾ أي : تكرّر دعاءهم كل وقت ﴿ إلى الهدى ﴾ لتنجيهم بما عندك من الحرص والجد على ذلك ﴿ فلن يهتدوا ﴾ أي : بسبب دعائك ﴿ إذا ﴾ أي : إذا دعوتهم ﴿ أبداً ﴾ لأن اللّه تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع منهم إيمان ثم قال تعالى:

﴿ وربك ﴾ مشيراً بهذا الاسم إلى ما اقتضاه حال الوصف من الإحسان ﴿ الغفور ﴾ أي : البليغ المغفرة الذي يستر الذنوب إمّا بمحوها وإما بالحلم عنها إلى وقت آخر ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي : الموصوف بالرحمة الذي يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالإكرام ، ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى : ﴿ لو يؤاخذهم ﴾ أي : هؤلاء الذين عادوك وهو عالم أنهم لا يؤمنون أو يعاملهم معاملة المؤاخذة ﴿ بما كسبوا ﴾ من الذنوب ﴿ لعجل لهم العذاب ﴾ أي : في الدنيا ﴿ بل لهم موعد ﴾ وهو إمّا يوم القيامة وإمّا في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح ﴿ لن يجدوا من دونه ﴾ أي : الموعد ﴿ موئلاً ﴾ أي : ملجأ ينجيهم منه فإذا جاء موعدهم أهلكناهم فيه بأوّل ظلمهم وآخره وقوله تعالى:

(219/476)

﴿ وتلك ﴾ مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ القرى ﴾ أي : الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وأشكالهم صفته لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس والخبر ﴿ أهلكناهم ﴾ والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم ﴿ لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ أي : وقتاً معلوماً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، وقرأ شعبة بفتح الميم واللام أي : لهلاكهم ، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام أي : لإهلاكهم ، ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ (الكهف ،)

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر لهم حين ﴿ قال موسى لفتاه ﴾ يوشع بن نون بن افراثيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام وإنما قال فتاه لأنه كان يخدمه ويتبعه ، وقيل : كان يأخذ منه العلم وقيل فتاه عبده ، وفي الحديث : "ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي" .

(220/476)

تنبيه : أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة ، وعن كعب الأحبار أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبياً قبل موسى بن عمران ، قال البغوي : والأول أصح واحتج له القفال بأن اللّه تعالى لم يذكر في كتابه موسى إلا أراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ، ولو كان المراد شخصاً آخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وإزالة الشبهة كما أنه لما كان المشهور في العرف عن أبي حنيفة هذا الرجل المعين ، فلو ذكرنا هذا الاسم وأردنا به رجلاً سواه لقيدناه مثل أن نقول : قال أبو حنيفة الدينوري : وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدوّ اللّه ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميريّ الشامي البكالي ، ويقال : إنه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الأحبار نقله ابن كثير ، وحجة الذين قالوا : موسى هذا غير صاحب التوراة أنه يقال بعد أن أنزل عليه التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكبر أكابر الأنبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك إلى التعلم والاستفادة وأجيب : بأنه لا يبعد أن يكون العالم الكامل في كثرة العلوم يجهل بعض العلوم فيحتاج في تعلمها إلى من هو دونه وهو أمر متعارف .

روى البخاري حديث أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي : الناس أعلم قال : أنا فعتب اللّه تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى اللّه تعالى إليه أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال : يا رب فكيف لي به قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم قال : ﴿ لا أبرح ﴾ أي : لا أزال أسير في طلب العبد الذي أعلمني ربي بفضله ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أي : ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي الشرق قاله قتادة أي : المكان الجامع لذلك فألقاه هناك ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أي : دهراً طويلاً في بلوغه إن لم أظفر به بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعد إليّ في لقائه والحقب ، قال في "القاموس" ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فسارا وتزوّدا حوتاً مشوياً في مكتل كما أمر به فكانا يأكلان منه إلى أن بلغا المجمع كما قال تعالى: ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما ﴾ أي : بين البحرين قال لفتاه : إذا فقدت الحوت فأخبرني وناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج وسقط في البحر فلما استيقظا ﴿ نسيا حوتهما ﴾ أي : نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي موسى عليه السلام تذكيره وقيل : الناسي يوشع فقط وهو على حذف مضاف أي : نسي أحدهما كقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن ،)

﴿ فاتخذ ﴾ الحوت ﴿ سبيله في البحر ﴾ أي : جعله بجعل اللّه ﴿ سرباً ﴾ أي : مثل

السرب وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك أنّ اللّه تعالى أمسك عن الحوت جري الماء فانجاب عنه فبقي كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته ، وقد ورد في حديثه في الصحيح أنّ اللّه تعالى أحياه وأمسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقاً لا يلتئم وكأنّ المجمع كان ممتداً فظن عليه السلام أنّ المطلوب أمامه أو ظنّ المراد مجمع البحرين آخراً فسارا

(222/476)

﴿ فلما جاوزا ﴾ ذلك المكان بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرّا إلى وقت الغداء من ثاني يوم ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام ﴿ لفتاه آتنا ﴾ أي : أحضر لنا ﴿ غداءنا ﴾ وهو ما يؤكل أوّل النهار لنقوى به على ما حصل لنا من الإعياء ولذلك وصل به قوله : ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ أي : تعباً ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره اللّه تعالى به فقوله هذا إشارة إلى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما الموعد أو مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا

﴿ قال ﴾ له فتاه ﴿ أرأيت ﴾ أي : ما دهاني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه آخر وهو إبدالها حرف مدّ وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ التي بمجمع البحرين ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ أي : نسيت أن أذكر

لك أمره ثم علل عدم ذكره بقوله : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ بوسواسه ، وقرأ حفص بضم الهاء وأمال الألف الكسائي محضة وورش بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله : ﴿ أن أذكره ﴾ لك في محل نصب على البدل من هاء أنسانيه بدل اشتمال أي : أنساني ذكره ﴿ واتخذ سبيله ﴾ أي : طريقه الذي ذهب فيه ﴿ في البحر عجباً ﴾ وهو كونه كالسرب معجزة لموسى أو الخضر وذكره له الآن مانع من أن يكون للشيطان عليه سلطان على أن هذا النسيان ليس مفوتاً لطاعة بل فيه ترقية لهما في معراج المقامات العالية لوجدان التعب بعد المكان الذي فيه البغية وحفظ الماء منجاباً على طول الزمان وغير ذلك من الآيات الظاهرة وقوله تعالى : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ (النحل ،)

(223/476)

مبين ، أن السلطان الحمل على المعاصي وقوله : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وقد كان في هذه القصة خوارق منها حياة الحوت ومنها إيجاد ما كان أكل منه ومنها إمساك الماء عن مدخله وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم نفسه وأتباعه ببركته مثل ذلك ، أمّا إعادة ما أكل من الحوت المشوي وهو جنبه ، فقد روى البيهقي في أواخر دلائل النبوّة عن أسامة بن زيد رضي اللّه تعالى عنه "أنه صلى الله

عليه وسلم أتي بشاة مشوية فقال لبعض أصحابه : "ناولني ذراعها" وكان أحب الشاة إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقدّمها ثم قال : "ناولني ذراعها" فناوله ثم قال : "ناولني ذراعها" فقال : يا رسول اللّه إنما هما ذراعان وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده لو سكت ما زلت تناولني ذراعاً ما قلت لك ناولني ذراعاً" فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لو سكت أوجد اللّه تعالى ذراعاً ثم ذراعاً وهكذا ، وأمّا حياة الحوت المشوي ففي قصة الشاة المشوية المسمومة أنّ ذراعها أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه مسموم فهذا أعظم من عود الحياة من غير نطق وكذا حنين الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصى ونحو ذلك أعظم من عود الحياة إلى ما كان حياً .

(224/476)

وروى البيهقي في "الدلائل" عن عمرو بن سواد قال : قال الشافعي : ما أعطى اللّه تعالى نبياً ما أعطى محمداً صلى الله عليه وسلم قلت : أعطى عيسى عليه السلام إحياء الموتى ، فقال : أعطى محمد صلى الله عليه وسلم إحياء الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حين هيئ له المنبر وحنّ الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك انتهى ، وقد ورد أشياء كثيرة من إحياء الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض أمّته ، وروي عن أنس رضي اللّه تعالى

عنه أنه قال : كنا في الصفة عند رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأتته امرأة ومعها ابن لها فأضاف المرأة إلى النساء وأضاف ابنها إلينا فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة فمرض أياماً ثم قبض فغمضه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا أن نغسله قال : "ائت أمّه فأعلمها" فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت : اللهم إني أسلمت لك تطوّعاً وخلعت الأوثان زهداً وهاجرت إليك رغبة ، اللهم لا تشمت بي عبدة الأوثان ولا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحملها ، قال : فواللّه ما انقضى كلام المرأة حتى حرّك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض اللّه رسول صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت أمّه ، وأمّا آية الماء فمرجعها إلى صلابته ولا فرق بين جموده بعدم الالتئام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق ، وقد جهز عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه جيشاً واستعمل عليه العلاء بن الحضرمي فحصل لهم حرّ شديد وجهدهم العطش ، قال بعض الجيش : فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مدّ يده وما نرى في السماء شيئاً فواللّه ما حط يده حتى بعث اللّه تعالى ريحاً وأنشأ سحاباً فأفرغت حتى ملأت القدور والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ثم أتينا عدوّنا وقد جاوزنا خليجاً في البحر إلى جزيرة فوقف على الخليج وقال : "يا عليّ يا عظيم يا حليم يا كريم" ثم قال : "أجيزوا بسم اللّه" فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فأصبنا

العدوّ عليه

فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته فأجزنا وما بل الماء حوافر دوابنا والأخبار في ذلك كثيرة.

(226/476)

ولما قال فتاه ذلك كأنه قيل فما قال موسى عليه السلام حينئذٍ ؟ ﴿ قال ﴾ له ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من فقد الحوت ﴿ ما كنا نبغ ﴾ أي : نريد من هذا الأمر المغيب عنا فإن اللّه تعالى جعله موعداً في لقاء الخضر ، وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء وصلا لا وقفاً وابن كثير يثبتها وصلاً ووقفاً والباقون بالحذف ﴿ فارتدّا على آثارهما ﴾ أي : فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه يقصانها ﴿ قصصاً ﴾ أي : يتبعان أثرهما إتباعاً أو مقتصين حتى يأتيا الصخرة ، قال البقاعي : يدل على أنّ الأرض كانت رملاً لا علم فيها فالظاهر واللّه أعلم أنه مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركب في سفينته للتعدية كما في الحديث ، فإن الطير لا يشرب من الملح ومن المشهور في بلاد رشيد أنّ الأمر كان عندهم وأن عندهم سمكاً ذاهب الشق

يقولون : إنه من نسل تلك السمكة والله أعلم انتهى . وتقدم عن قتادة أنه ملتقى بحر فارس والروم ، وقال محمد بن كعب طنجة ، وقال أبيّ بن كعب : إفريقية ، وقيل : البحران موسى والخضر لأنهما كانا بحري علم ، قال ابن عادل : وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فإن صح في الخبر الصحيح شيء فذاك وإلا فالأولى السكوت عنه انتهى . ثم استمرا يقصان حتى انتهيا إلى موضع فقد الحوت ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ مضافاً إلى حضرة عظمتنا قيل : كان ملكاً من الملائكة والصحيح الذي جاء في التواريخ ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس ، قيل : كان من بني إسرائيل وقيل : من أبناء الملوك الذين تنزهوا وتركوا الدنيا ، والخضر لقب سمي بذلك لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة ، وقيل : سمي خضراً لأنه كان إذا صلى اخضرّ ما

(227/476)

حوله ، روي أن موسى عليه السلام رأى الخضر مسجى موكأ فسلم عليه فقال الخضر : وأني بأرضك السلام ، قال : أنا موسى أتيتك تعلمني مما علمت رشداً ، وفي رواية لقيه وهو مسجى بثوب مستلقياً على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه ، وفي رواية

لقيه وهو يصلي ، ويروى لقيه وهو على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وروي أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل ، فقال موسى : ما عرّفك هذا ؟ فقال : الذي بعثك إليّ ، وكان الخضر في أيام أفريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى ، وقيل : إن موسى سأل ربه أيّ عبادك أحب إليك ؟ قال : "الذي يذكرني ولا ينساني" ، قال : فأي عبادك أقضى ؟ قال : "الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى" فقال : فأي عبادك أعلم ؟ قال : "الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى" ، فقال : إن كان في عبادك أفضل مني فادللني عليه قال : أعلم منك الخضر ، قال : أين أطلبه ؟ قال : على ساحل عند الصخرة ، قال كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك ﴿ آتيناه ﴾ بعظمتنا ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي : وحياً ونبوة وكونه نبياً هو قول الجمهور ، وقيل : إنه ليس بنبي . قال البغوي : عند أهل العلم أي : فعندهم أنه وليّ ﴿ وعلمناه من لدنا ﴾ أي : مما لم يجر على قوانين العادات على أنه ليس بمستغرب عند أهل الاصطفاء ﴿ علماً ﴾ قذفناه في قلبه بغير واسطة ، وأهل التصوّف سموا العلم بطريق المكاشفة العلم اللدني فإذا سعى العبد في الرياضات بتزين الظاهر بالعبادات وتخلي النفس عن العلائق وعن الأخلاق الرذيلة بتحليتها بالأخلاق الجميلة صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة فإذا ضعفت قويت القوى العقلية وأشرقت الأنوار الإلهية في جوهرة العقل

وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمّل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ، ثم أورد سبحانه وتعالى

(228/476)

القصة على

طريق الاستئناف على تقدير

سؤال سائل عن كل كلام يرشد إليه ما قبله وذلك أنه من المعلوم أنّ الطالب للشخص إذا لقيه كمله لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال : لمن ؟ كأنه سأل عن ذلك

﴿ قال له موسى ﴾ طالباً منه على سبيل التأدّب والتلطف بإظهار ذلك في قالب الاستئذان ﴿ هل أتبعك ﴾ أي : اتباعاً بليغاً حيث توجهت والاتباع الإتيان بمثل فعل الغير لمجرّد كونه آتياً به وبين أنه لا يطلب منه غير العلم بقوله : ﴿ على أن تعلمني ﴾ أثبت الياء نافع وأبو عمرو وصلاً لا وقفاً وابن كثير وصلاً ووقفاً والباقون بالحذف وزاد في التعطف بالإشارة إلى أنه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها إلى باقيه فقال : ﴿ مما علمت ﴾ وبناه للمفعول لعلم المتخاطبين لكونهما من المخلصين بأن الفاعل هو اللّه تعالى وللإشارة إلى سهولة كل أمر إلى اللّه تعالى ﴿ رشداً ﴾ أي : علماً

يرشدني إلى الصواب فيما أقصده ، وقرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين .

ولما أتم موسى عليه السلام العبارة عن السؤال .

﴿ قال ﴾ له الخضر عليه السلام ﴿ إنك ﴾ يا موسى ﴿ لن تستطيع معي صبراً ﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها لا تصح ولا تستقيم وفتح الياء من معي صبراً في المواضع الثلاثة هنا حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه واعتذر عنه بقوله:

﴿ وكيف تصبر ﴾ يا موسى ﴿ على ما لم تحط به خبراً ﴾ أي : وكيف تصبر على أمور وأنت نبيّ ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يصبر إذا رأى ذلك بل يبادر ويأخذ في الإنكار وخبراً مصدر لمعنى لم تحط به أي : لم تخبر حقيقته .

(229/476)

﴿ قال ﴾ له موسى عليه السلام آتياً بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه إرشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل اللّه تعالى له النفع به ﴿ ستجدني ﴾ فأكد الوعد بالسين ثم أخبر تعالى أنه قوّي تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الأمر على الوجه الذي تقدّم الحق

عليه في هذه السورة في قوله تعالى ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء اللّه ليعلم أنه منهاج الأنبياء فقال : ﴿ إن شاء اللّه ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ صابراً ﴾ على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد التأكيد بقوله : عطفاً بالواو على صابراً لبيان التمكن في كل من الموضعين ﴿ ولا أعصي ﴾ أي : وغير عاص ﴿ لك أمراً ﴾ تأمرني به غير مخالف لظاهر أمر اللّه تعالى .

(230/476)

تنبيه : دلت هذه الآية الكريمة على أنّ موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر ، منها أنه جعل نفسه تبعاً له بقوله : هل أتبعك ومنها أنه استأذن في إثبات هذه التبعية كأنه قال : هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك ؟ وهذه مبالغة عظيمة في التواضع ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم "على أن تعلمني" وهذا اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم ، ومنها قوله : ﴿مما علمت ﴾ وصيغة من للتبعيض وطلب منه تعليم بعض ما علم ، وهذا أيضاً اقرار بالتواضع كأنه يقول : لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً لك في العلم بل أطلب منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء ما علمت ، ومنها أن قوله : مما علمت اعتراف منه بأن اللّه تعالى علمه ذلك العلم ، ومنها قوله

: ﴿ رشداً ﴾ طلب منه الإرشاد والهداية ، ومنها قوله : ﴿ ستجدني إن شاء اللّه صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ ، ومنها أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولاً أن موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه اللّه من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع ، وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أبواب المبالغة في التواضع وذلك يدل على أن هذا هو اللائق به ، لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم التي علم ما فيها من البهجة والسعادة أكثر كان طلبه لها أشدّ ، فكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأرشد ، وكل ذلك يدل على أنّ الواجب على المتعلم إظهار التواضع بكل الغايات ، وأمّا المعلم فإن رأى أن في التغليظ على المتعلم ما يفيد نفعاً وإرشاداً إلى الخير فالواجب عليه ذكره فإنّ السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور وذلك يمنعه من التعلم . وروي أن موسى عليه السلام لما قال : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ؟ قال له الخضر : كفى بالتوراة علماً وببني إسرائيل شغلاً ، فقال له موسى : اللّه

(231/476)

أمرني بهذا

﴿ قال ﴾ له الخضر : ﴿ فإن اتبعتني ﴾ أي : صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار إليه إلا أنه شرط عليه شرطاً فقال : ﴿ فلا تسألني عن شيء ﴾ أقوله أو أفعله ﴿ حتى أحدث لك ﴾ خاصة ﴿ منه ذكراً ﴾ أي : حتى أبدأك بوجه صوابه فإني لا أقدم على شيء إلا وهو صواب جائز في نفس الأمر ، وإن كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم من العالم ، ولما تشارطا وتراضيا على الشرط تسبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فانطلقا ﴾ أي : موسى والخضر عليهما السلام على الساحل فانتهيا إلى موضع احتاجا فيه إلى ركوب السفينة فما زالا يطلبان سفينة يركبان فيها واستمرّا ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة ﴾ التي مرت بهما وأجاب الشرط بقوله : ﴿ خرقها ﴾ أي : أخذ الخضر فأساً فخرق السفينة بأن قلع لوحاً أو لوحين من ألواحها من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يقترن خرق بالفاء لأنه لم يكن مسبباً عن الركوب ، ثم استأنف قوله : ﴿ قال ﴾ أي : موسى عليه السلام منكراً لذلك لما في ظاهره من الفساد بإتلاف المال المفضي إلى فساد أكبر منه بإهلاك النفوس ناسياً لما عقد على نفسه على أنه لو لم ينسَ لم يترك الإنكار كما فعل عند قتل الغلام لأن مثل ذلك غير داخل في الوعد ، لأنّ المستثنى شرعاً كالمستثنى وضعاً ﴿ أخرقتها ﴾ وبين عذره في الإنكار لما في غاية الخرق من الفظاعة فقال : ﴿ لتغرق أهلها ﴾ فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها ، وقرأ حمزة

والكسائي بالياء التحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من أهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الراء ونصب لام أهلها ، ثم قال له موسى : والله ﴿ لقد جئت شيئاً أمراً ﴾ أي : عظيماً منكراً .

﴿ قال ﴾ الخضر : ﴿ ألم أقل إنك ﴾ يا موسى ﴿ لن تستطيع معي صبراً ﴾ فذكره بما قال له عند الشرط .

(232/476)

﴿ قال ﴾ موسى : ﴿ لا تؤاخذني ﴾ يا خضر ﴿ بما نسيت ﴾ أي : غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك ، قال ابن عباس : إنه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام أي : وهي التورية بالشيء عن الشيء ، وفي المثل : إنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، أي : سعة فكأنه نسي شيئاً آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً" ﴿ ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ أي : لا تكلفني مشقة يقال : أرهقه عسراً وأرهقته عسراً أي : كلفته ذلك ، يقول : لا تضيق علي أمري ولا تعسر متابعتك علي ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر ، وعسراً

مفعول ثان لترهقني من أرهقه كذا إذا حمله إياه وغشاه به وما في بما نسيت مصدرية أو بمعنى الذي والعائد محذوف . وروي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء ، وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق ، وروي أن الخضر أخذ قدحاً من زجاج ورقع به خرق السفينة فإن قيل : قول موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها إن كان صادقاً في هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم من الخضر إن كان نبياً ، وإن كان كاذباً دل ذلك على صدور الذنب من موسى وأيضاً فقد التزم موسى أن لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم إنه خالف تلك العهود وذلك ذنب أجيب : بأن كلاً منهما صادق فيما قال موف بحسب ما عنده ، أما موسى عليه السلام فإنه ما خطر له قط أن يعاهد على أن لا ينهى بما يعتقده منكراً ، وأما الخضر فإنه عقد على ما في نفس الأمر أنه لا يقدم على منكر .

(233/476)

﴿ فانطلقا ﴾ بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً ﴾ قال ابن عباس : لم يبلغ الحنث ﴿ فقتله ﴾ حين لقيه كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط ، قال البغوي في القصة : إنهما خرجا من البحر يمشيان فمرّ بغلمان يلعبون

فأخذ غلاماً ظريفاً وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، قال السدي : كان أحسنهم وجهاً كان وجهه يتوقد حسناً ، قال البقوي : وروينا أنه أخذ رأسه فاقتلعه بيده ، وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بيده بأصابعه الثلاثة الإبهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه ، وروي أنه رضخ رأسه بالحجارة ، وقيل : ضرب رأسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الأكثرين .

(234/476)

وقال الحسن : كان رجلاً ، قال شعيب الحياني : وكان اسمه جيسور ، وقال الكلبي : كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلتجئ إلى أبويه ، وقال الضحاك : كان غلاماً يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه ، وعن أبيّ بن كعب قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً" . قال الرازي : وليس في القرآن كيف لقياه ، هل كان يلعب مع جمع من الغلمان أو كان منفرداً ؟ وهل كان مسلماً أو كافراً ؟ وهل كان بالغاً أو صغيراً ؟ وكان اسم الغلام بالصغير أليق وإن احتمل الكبير إلا أن قوله بغير نفس أليق بالبالغ منه بالصبيّ لأن الصبي لا يقتل وإن قتل ، قال البقاعي : إلا أن يكون شرعهم لا يشترط البلوغ ، وقال ابن عباس : ولم يكن نبي اللّه يقول : أقتلت نفساً زاكية

بغير نفس إلا وهو صبيّ ، قال الرازي أيضاً : وكيفية قتله هل قتله بأن حزّ رأسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأقسام انتهى . ثم أجاب الشرط بقوله مشعراً بأن شروعه في الإنكار في هذه أسرع ﴿ قال ﴾ موسى : ﴿ أقتلت ﴾ يا خضر ﴿ نفساً زاكية بغير نفس ﴾ قتلتها ليكون قتلها لها قوداً ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بألف بعد الزاي وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير ألف بعد الزاي وتشديد التحتية ، قال الكسائي : الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذه الطهارة ، وقال أبو عمرو : الزاكية التي لم تذنب والزكية التي اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله : ﴿ لقد ﴾ أظهر الدال نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون ﴿ جئت ﴾ في قتلك إياها ﴿ شيئاً ﴾ وصرح بالإنكار في قوله : ﴿ نكراً ﴾ لأن مباشرة الخرق سبب ، ولهذا قال بعضهم : النكر أعظم من الأمر في القبح لأن قتل الغلام أعظم من خرق السفينة لأنه يمكن أن لا يحصل الغرق ، وأمّا هنا فقد حصل الإتلاف قطعاً ، والنكر ما أنكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو أبلغ في القبح من الأمر ، وقيل : الأمر

أعظم لأن خرق

السفينة يؤدي إلى إتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس إلا إتلاف شخص واحد ، وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بكسونها .

ولما كانت هذه ثانية .

﴿ قال ﴾ له الخضر : ﴿ ألم أقل لك إنك ﴾ يا موسى ﴿ لن تستطيع معي صبراً ﴾ وهذا عين ما ذكره في المسألة الأولى إلا أنه هنا زاد لفظه لك ﴿ فإن قيل ﴾ لم زادها هنا ؟

أجيب : بأنه زادها مكافحة بالعقاب على رفض الوصية ووسماً بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستكبار ولم يرعو بالتذكير أول مرّة ، قال ابن الأثير : المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل أي : انقبض قلبه ، قال البغوي : وفي القصة أن يوشع كان يقول لموسى يا نبيّ اللّه اذكر العهد الذي أنت عليه

(236/476)

﴿ قال ﴾ موسى حياءً منه لما أفاق بتذكيره ما حصل من فرط الوجد لأمر اللّه تعالى فذكر أنه ما تبعه إلا بأمر اللّه تعالى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ أي : بعد هذه المرّة وأعلم بشدّة ندمه على الإنكار بقوله : ﴿ فلا تصاحبني ﴾ أي : لا تتركني أتبعك بل فارقني ثم

علل ذلك بقوله : ﴿ قد بلغت ﴾ وأشار إلى أن ما وقع منه من الإخلال بالشرط من أعظم الخوارق التي اضطر إليها فقال : ﴿ من لدني ﴾ أي : من قبلي ﴿ عذراً ﴾ باعتراضي مرّتين واحتمالك لي فيهما ، وقد أخبر اللّه بحسن حالك في غزارة عملك فمدحه بهذه الطريقة من حيث أنه احتمله مرّتين أوّلاً وثانياً مع قرب المدّة روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "رحم اللّه أخي موسى استحيا فقال ذلك ، ولو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب" وعن أبيّ بن كعب قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "رحمة اللّه علينا وعلى موسى ـ وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه ـ لولا أن عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة أي : حياء واشفاق ، فقال : إن سألتك إلى آخره" ، وقرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون ، وقرأ شعبة كذلك إلا أنه يشم الدال فتصير ساكنة قريبة من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون .

(237/476)

﴿ فانطلقا ﴾ أي : موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر أمراً ينفذ فيه ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على أصله بعد قتل الغلام ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ ، قال ابن عباس : هي انطاكية ، وقال ابن سيرين : هي الأيلة وهي أبعد أرض اللّه من السماء

وعبر عنها بالقرية دون المدينة لأنه أدل على الذمّ ، وقيل : برقة ، وعن أبي هريرة بلدة بالأندلس ﴿ استطعما أهلها ﴾ أي : طلبا من أهل القرية أن يطعموهما ، وفي الحديث أنهما كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ أي : أن ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه إذا كان له ضيفاً وحقيقته مال إليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه وأضافه أنزله وجعله ضيفاً فإن قيل : الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف قدم عليه موسى والخضر وقد حكى اللّه تعالى عن موسى أنه قال عند ورود ماء مدين ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ؟

أجيب : بأن إقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من الضرر الشديد فإن قيل : لم قال : حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ولم يقل استطعماهم ؟

أجيب : بأن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر :

*ليت الغراب غداة يبعث دائباً

**كان الغراب مقطع الأوداج"

وعن قتادة شر القرى التي لا تضيف الضيف .

فائدة : قال الرازي : وفي كتب الحكايات أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا : يا رسول اللّه جئناك بهذا الذهب لتجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما أي : أتيناهم لأجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فامتنع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وقال : "تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام اللّه تعالى وذلك يوجب القدح في الإلهية" فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية . ولما أبوا أن يضيفوهما انصرفا ﴿ فوجدا فيها ﴾ أي : القرية ولم يقل فيهم إيذاناً بأن المراد وصف القرية بسوء الطبع ﴿ جداراً ﴾ أي : حائطاً مائلاً مشرفاً على السقوط ولذا قال : مستعيراً لما لم يعقل صفة من يعقل ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أي : يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لأنّ الجدار لا إرادة له وإنما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها فاستعير الإرادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم في قوله:

*يريد الرمح صدر أبي براء

** ويعدل عن دماء بني عقيل"

وقول الآخر:

*إنّ دهراً يلف صدري بجمل

**لزمان يهم بالإحسان"

ففي البيت الأوّل دليل على استعارة الإرادة للمشارفة ، وفي الثاني دليل على استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته يقول : إن دهراً يجمع بيني وبينها زمان قصده الإحسان لا الإساءة ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ (الأعراف ،) وقوله تعالى : ﴿ أن يقول له كن فيكون ﴾ (يس ،)

(239/476)

وقوله تعالى : ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ (فصلت ،) ، قال الزمخشري ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام اللّه تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر ، وقيل : إن اللّه تعالى خلق للجدار حياة وإرادة كالحيوان ﴿ فأقامه ﴾ أي : سواه ، وفي حديث أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم "فقال الخضر بيده فأقامه" ، وقال ابن عباس : هدمه وقعد يبنيه ، وقال سعيد بن جبير : مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته ، وقال السدي : بلّ طيناً وجعل يبني الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام فإن قيل : الضيافة من المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذي لأجله ترك العهد الذي

التزمه في قوله : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ وأيضاً مثل الغضب لأجل ترك الأكل في ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلاً عن كليم اللّه تعالى أجيب : بأن تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار إلى الطعام فلأجل تلك الضرورة نسي موسى عليه السلام ما قاله فلا جرم ﴿ قال ﴾ موسى : ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ أي : لطلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف التاء بعد اللام وكسر الخاء ، وأظهر ابن كثير الذال عند التاء على أصلها ، وأدغمها أبو عمرو والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء ، وأظهر حفص الذال على أصله وأدغمها الباقون .

ولما كان كلام موسى هذا متضمناً للسؤال .

﴿ قال ﴾ له الخضر : ﴿ هذا ﴾ أي : هذا الإنكار على ترك الأجر ﴿ فراق بيني وبينك ﴾ وقيل : إن موسى عليه السلام لما شرط أنه إن سأله بعد ذلك سؤالاً آخر حصل به الفراق حيث قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، فلما ذكر هذا السؤال فارقه وهذا فراق بيني وبينك أي : هذا الفراق المعهود الموعود فإن قيل : كيف ساغ إضافة بين إلى غير متعدّد ؟

أجيب : بأنّ مسوّغ ذلك تكريره بالعطف بالواو ، ألا ترى أنك لو اقتصرت على قولك المال بيني لم يكن كلاماً حتى تقول : بيننا أو بيني وبين فلان ثم قال له الخضر : ﴿ سأنبئك ﴾ أي : سأخبرك يا موسى قبل فراقي لك ﴿ بتأويل ﴾ أي : بتفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ لأن هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد وهو أن أحكام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى الله عليه وسلم "نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر" والخضر ما كانت أموره وأحكامه مبنية على ظواهر الأمور بل كانت مبنية على الأسباب الخفية الواقعة في نفس الأمر ، وذلك لأن الظاهر في أموال الناس وفي أرواحهم أنه يحرم التصرّف فيها ، والخضر تصرف في أموال الناس وفي أرواحهم في المسألة الأولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لأن الإقدام على خرق السفينة وقتل الإنسان من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف محرّم ، والإقدام على إقامة ذلك الجدار المائل في المسألة الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 56 . 73 ﴾

(241/476)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/477)

الجزء السابع والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 79 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 82 ﴾ من نفس السورة

(4/477)

قوله تعالى ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ أما السفينة ﴾ التي أحسن إلينا أهلها فخرقتها ﴿ فكانت لمساكين ﴾ وهو دليل للشافعي على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ، لأن هؤلاء يملكون سفينة ﴿ يعملون في

البحر ﴾ ليستعينوا بذلك على معاشهم .

ولما كان التعييب من فعله ، أسنده إليه خاصة ، تأدباً مع الله تعالى فقال : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ فإن تفويت منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكليف أهلها لوحاً يسدونها به أخف ضرراً من تفويتهم منفعتها أخذاً ورأساً بأخذ الملك لها ، ولم أرد إغراق أهلها كما هو المتبادر إلى الفهم ؛ ثم عطف على ذلك علة فعله فقال : ﴿ وكان وراءهم ﴾ أي أمامهم ، ولعله عبر بلفظ (وراء) كناية عن الإحاطة بنفوذ الأمر في كل وجهة وارتهم و واروها ، وفسره الحرالي في سورة البقرة بأنه وراءهم في غيبته عن علمهم وإن كان أمامهم في وجهتهم ، لأنه فسر الوراء بما لا يناله الحس ولا العلم حيثما كان من المكان ، قال : فربما اجتمع أن يكون الشيء ، وراء من حيث إنه لا يعلم ، ويكون أماماً في المكان .

﴿ ملك يأخذ ﴾ في ذلك الوقت ﴿ كل سفينة ﴾ ليس فيها عيب ﴿ غصباً ﴾ من أصحابها ولم يكن عند أصحابها علم به .

ولما كان كل من الغصب والمسكنة سبباً لفعله ، قدمها على الغصب ، إشارة إلى أن أقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين ﴿ وأما الغلام ﴾ أي الذي قتلته ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ وكان هو مطبوعاً على الكفر - كما يأتي في حديث أبيّ - رضى الله عنه .

ولما كان يحتمل عند الخضر عليه السلام أن يكون هذا الغلام مع كفره في نفسه سبباً لكفر أبويه إن كبر ، وكان أمر الله له بقتله مثل فعل من يخشى ذلك ، أسند الفعل إليهما في قوله : ﴿ فخشينا أن يرهقهما ﴾ أي يغشيهما ويلحقهما إن كبر بمحبتهما له أو بجراءته وقساوته ﴿ طغياناً ﴾ أي تجاوزاً في الظلم وإفراطاً فيه ﴿ وكفراً ﴾ لنعمتهما فيفسد دنياهما أو يحملهما حبهما له على الطغيان والكفر بالله طاعة فيفسد دينهما ، روى مسلم في القدر وأبو داود في السنة والترمذي في التفسير عن ابن عباس عن أبي بن كعب ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً " وهذا حديث : " الله أعلم بما كانوا عاملين " يدل على أن العذاب – على ما لو وجد شرطه لوقع – إنما يكون على ما كان جبلة وطبعاً ، لا ما كان عارضاً ، وإلا لعذب الأبوان على تقدير أن يكون المعلوم من الكفر منهما .

ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد سبب عنه قوله : ﴿ فأردنا ﴾ أي بقتله وإراحتهما من شره ، ولما كان التعويض عن هذا الولد لله وحده ، أسند الفعل إليه في قوله : ﴿ أن يبدلهما ربهما ﴾ أي المحسن إليهما بإعطائه وأخذه ﴿ خيراً منه زكاة ﴾ طهارة وبركة ، أي من جهة كونه كان ظاهر الزكاء في الحال ، وأما في المآل فلو عاش كان فيه خبيثاً ظاهر الخبث ، وهذا البدل يمكن أن يكون الصبر ، ويمكن أن يكون ولداً آخر ، وهو المنقول

وأنها كانت بنتاً ﴿ وأقرب رحماً ﴾ براً بهما وعطفاً عليهما ورحمة لهما فكان الضرر اللاحق لهما بالتأسف عليه أدنى من الضرر اللاحق لهما عند كبره بإفساد دينهما أو دنياهما ﴿ وأما الجدار ﴾ الذي أشرت بأخذ الأجر عليه ﴿ فكان لغلامين ﴾ ودل على كونهما دون البلوغ بقوله ﴿ يتيمين ﴾ .

(6/477)

ولما كانت القرية لا تنافي التسمية بالمدينة ، وكان التعبير بالقرية أولاً أليق ، لأنها مشتقة من معنى الجمع ، فكان أليق بالذم في ترك الضيافة لإشعاره ببخلهم حالة الاجتماع وبمحبتهم للجمع والإمساك ، وكانت المدينة بمعنى الإقامة ، فكان التعبير بها أليق للإشارة به إلى أن الناس يقيمون فيها ، فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز ، قال : ﴿ في المدينة ﴾ فلذلك أقمته احتساباً ﴿ وكان تحته كنز ﴾ أي مال مدخور ﴿ لهما ﴾ لو وقع لكان أقرب إلى ضياعه ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ ينبغي مراعاته وخلفه في ذريته بخير .

ولما كان الإبلاغ إلى حد البلوغ والاستخراج فعل الله وحده ، أسند إليه خاصة فقال : ﴿ فأراد ربك ﴾ أي المحسن إليك بهذه التربية ، إشارة إلى ما فعل بك من مثلها قبل النبوة كما بين ﴿ أن يبلغا ﴾ أي الغلامان ﴿ أشدهما ﴾ أي رشدهما وقوتهما ﴿ ويستخرجا

كنزهما ﴾ لينتفعا به وينفعا الصالحين ﴿ رحمة ﴾ بهما ﴿ من ربك ﴾ أي الذي أحسن تربيتك وأنت في حكم اليتيم فكان التعب في إقامة الجدار مجاناً أدنى من الضرر اللازم من سقوطه لضياع الكنز وفساد الجدار ، وقد دل هذا على أن صلاح الآباء داعٍ إلى العناية بالأبناء ، روي عن الحسن بن علي رضي الله عهنما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما : بم حفظ الله كنز الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما ، قال فأبي وجدي خير منه ، قال أنبأنا الله أنكم قوم خصمون .

﴿ وما فعلته ﴾ أي شيئاً من ذلك ﴿ عن أمري ﴾ بل عن أمر من له الأمر ، وهو الله .

(7/477)

ولما بان سر تلك القضايا ، قال مقدراً للأمر : ﴿ ذلك ﴾ أي لشرح العظيم ﴿ تأويل ما لم تسطع ﴾ يا موسى ﴿ عليه صبراً ﴾ وحذف تاء الاستطاعة هنا لصيرورة ذلك – بعد كشف الغطاء – في حيز ما يحمل فكان منكره غير صابر أصلاً لو كان عنده مكشوفاً من أول الأمر ، وسقط – ولله الحمد – بما قررته في هذه القصة ما يقال من أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر في قول سليمان عليه السلام المخرج في الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ " لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تلد فارساً يجاهد في

سبيل الله ، فلم تلد منهن إلا واحدة جاءت بشق آدمي أنه لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا فرساناً أجمعون " فأفهم ذلك أن ذلك كل نبي استثنى في خبره صدقه الله تعالى كما وقع للذبيح أنه قال : ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ [الصافات : 102] فوفى ، فما لموسى عليه السلام – وهو من أولي العزم – فعل مع الاستثناء ما فعل ؟ فإن الذبيح صبر على ما هو قاطع بأنه بعينه أمر الله ، بخلاف موسى عليه السلام فإنه كان ينكر ما ظاهره منكر قبل العلم بأنه من أمر الله ، فإذا نبه صبر ، وأما قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " يرحم الله أخي موسى ! وددنا لو أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما " فمعناه : صبر عن الإذن للخضر عليه السلام في مفارقته في قوله ﴿ فلا تصاحبني ﴾ ويدل عليه أن في رواية لمسلم " رحمة الله علينا وعلى موسى ! لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة "

﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ .

(8/477)

فتحرر أنه وفى بمقام الشرع الذي أقامه الله فيه فلم يخل بمقام الصبر الذي ليس فيه ما يخالف ما يعرف ويستحضر من الشرع ، وكيف لا وهو من أكابر أولي العزم الذين قال الله تعالى

لأشرف خلقه في التسليك بسيرهم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] وقال عليه السلام فيما خرجه الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنهم - أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أوذي من بعض من كان معه في حنين فتلوّن وجهه وقال : " يرحم الله أخي موسى ! لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر " وعلم أن في قصته هذه حثاً كثيراً على المجاهرة بالمبادرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمصابرة عليه ، وأن لا يراعى فيه كبير ولا صغير إذا كان الإمرء على ثقة من أمره في الظاهر بما عنده في ذلك من العلم عن الله ورسوله وأئمة دينه ، وتنبيهاً على أنه لا يلزم من العلم اللدني - سواء كان صاحبه نبياً أو ولياً - معرفة كل شيء كما يدعيه أتباع بعض الصوفية ، لأن الخضر سأل موسى عليهما السلام : من أنت ؟ وهل هو موسى نبي بني إسرائيل - كما سيأتي .

(9/477)

روى البخاري في التفسير من روايات مختلفة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن أبي بن كعب - رضى الله عنهم - حدثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " موسى رسول الله - - صلى الله عليه وسلم - - ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون

ورقت القلوب ولّى فأدركه رجل فقال : أي رسول الله ! هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال : لا ! فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى إليه : بلى ! عبد من عبادي بمجمع البحرين ، قال : أي رب ! كيف السبيل إليه ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث ما فقدته فاتبعه – وفي رواية : خذ نوناً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح – فخرج ومعه فتاه يوشع بن نون حتى انتهيا إلى الصخرة ، فوضع موسى رأسه فنام في ظل الصخرة في مكان ثريان إذ تضرب الحوت – وفي رواية : وفي أصل تلك الصخرة عين يقال له الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين فانسل من المكتل فدخل البحر – فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر ، فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، فذكر سفرهما وقول موسى عليه السلام ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ قال : قد قطع الله عنك النصب ، فرجعا فوجدا خضراً على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضي من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى ! قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ! قال : فما شأنك ؟ قال : جئت لتعلمني ، قال : أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك ؟ يا موسى ! إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه – أي لا ينبغي لك أن تعمل بالباطن ولا ينبغي لي أنا أن أقف مع الظاهر ، أطلق العلم على العمل لأنه سببه – فانطلقا يمشيان على الساحل ،

فوجدوا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل الساحل الآخر ، فعرف الخضر فقالوا : عبد الله الصالح ! لا تحمله

(10/477)

بأجر ، فحملوهم في سفينتهم بغير نول : بغير أجر – فركبا السفينة ، ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر ؛ وفي رواية : فأخذ بمنقاره من البحر ، وفي رواية : فنقر نقرة أو نقرتين فقال : والله ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا من البحر ، فلم يفجأ موسى إلا الخضر عمد إلى قدوم فخرق السفينة ووتد فيها وتداً فذكر إنكاره وجوابه ثم قال : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، والوسطى شرطاً ، والثالثة عمداً – فذكر القصة ، وقال في آخرها : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 500.496 ﴾

(11/477)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد وهو أن أحكام الأنبياء صلوات الله عليهم مبنية على الظواهر كما قال عليه السلام : " نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر " وهذا العالم ما كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور بل كانت مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر وذلك لأن الظاهر أنه يحرم التصرف في أموال الناس وفي أرواحهم في المسألة الأولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لأن تخريق السفينة تنقيص لملك الإنسان من غير سبب ظاهر ، وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة من غير سبب ظاهر ، والإقدام على إقامة ذلك الجدار المائل في المسألة الثالثة تحمل التعب والمشقة من غير سبب ظاهر ، وفي هذه المسائل الثلاثة ليس حكم ذلك العالم فيها مبنياً عن الأسباب الظاهرة المعلومة ، بل كان ذلك الحكم مبنياً على أسباب معتبرة في نفس الأمر ، وهذا يدل على أن ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع بها على حقائق الأشياء فكانت مرتبة موسى عليه السلام في معرفة الشرائع

والأحكام بناء الأمر على الظواهر وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الأشياء وحقائق الأمور والاطلاع على أسرارها الكامنة ، فبهذا الطريق ظهر أن مرتبته في العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام .

إذا عرفت هذا فنقول : المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد وهو أن عند تعارض الضررين يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ؛ فهذا هو الأصل المعتبر في المسائل الثلاثة .

أما المسألة الأولى :

(12/477)

فلأن ذلك العالم علم أنه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها ذلك الملك ، وفاتت منافعها عن ملاكها بالكلية فوقع التعارض بين أن يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها ، وبين أن لا يخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها ، ولا شك أن الضرر الأول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثاني الذي هو أعظمهما .

وأما المسألة الثانية :

فكذلك لأن بقاء ذلك الغلام حياً كان مفسدة للوالدين في دينهم وفي دنياهم ، ولعله علم بالوحي أن المضار الناشئة من قتل ذلك الغلام أقل من المضار الناشئة بسبب حصول تلك

المفاسد للأبوين ، فهلذا السبب أقدم على قتله .

والمسألة الثالثة :

أيضاً كذلك لأن المشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة ذلك الجدار ضررها أقل من سقوطه لأنه لو سقط لضاع مال تلك الأيتام .

وفيه ضرر شديد ، فالحاصل أن ذلك العالم كان مخصوصاً بالوقوف على بواطن الأشياء وبالاطلاع على حقائقها كما هي عليها في أنفسها ، وكان مخصوصاً ببناء الأحكام الحقيقية على تلك الأحوال الباطنة ، وأما موسى عليه السلام فما كان كذلك بل كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور فلا جرم ظهر التفاوت بينهما في العلم ، فإن قال قائل فحاصل الكلام أنه تعالى أطلعه على بواطن الأشياء وحقائقها في نفسها ، وهذا النوع من العلم لا يمكن تعلمه ، وموسى عليه السلام إنما ذهب إليه ليتعلم منه العلم فكان من الواجب على ذلك العالم أن يظهر له علماً يمكن له تعلمه ، وهذه المسائل الثلاثة علوم لا يمكن تعلمها فما الفائدة في ذكرها وإظهارها .

والجواب : أن العلم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة ، وأما العلم ببواطن الأشياء فإنما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية ، ولهذا قال تعالى في صفة علم ذلك العالم :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : 65] ، ثم إن موسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ليعلم موسى عليه السلام أن كمال الدرجة في أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على البواطن والتطلع على حقائق الأمور .

المسألة الثانية :

اعلم أن ذلك العالم أجاب عن المسألة الأولى بقوله : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ وفيه فوائد .

الفائدة الأولى : أن تلك السفينة كانت لأقوام محتاجين متعيشين بها في البحر والله تعالى سماهم مساكين ، واعلم أن الشافعي رحمه الله احتج بهذه الآية على أن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين لأنه تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة .

الفائدة الثانية : أن مراد ذلك العالم من هذا الكلام أنه ما كان مقصودي من تخريق تلك السفينة تغريق أهلها بل مقصودي أن ذلك الملك الظالم كان يغصب السفن الخالية عن العيوب فجعلت هذه السفينة معيبة لئلا يغصبها ذلك الظالم فإن ضرر هذا التخريق أسهل من الضرر الحاصل من ذلك الغصب ، فإن قيل وهل يجوز للأجنبي أن يتصرف في ملك الغير

لمثل هذا الغرض ، قلنا هذا مما يختلف أحواله بحسب اختلاف الشرائع فلعل هذا المعنى كان جائزاً في تلك الشريعة ، وأما في شريعتنا فمثل هذا الحكم غير بعيد ، فإنا إذا علمنا أن الذين يقطعون الطريق ويأخذون جميع ملك الإنسان ، فإن دفعنا إلى قاطع الطريق بعض ذلك المال سلم الباقي فحينئذ يحسن منا أن ندفع بعض مال ذلك الإنسان إلى قاطع الطريق ليسلم الباقي وكان هذا منا يعد إحساناً إلى ذلك المالك .

(14/477)

الفائدة الثالثة : أن ذلك التخريق وجب أن يكون واقعاً على وجه لا تبطل به تلك السفينة بالكلية إذ لو كان كذلك لم يكن الضرر الحاصل من غصبها أبلغ من الضرر الحاصل من تخريقها ، وحينئذ لم يكن تخريقها جائزاً .

الفائدة الرابعة : لفظ الوراء على قوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم ﴾ فيه قولان : الأول : أن المراد منه وكان أمامهم ملك يأخذ ، هكذا قاله الفراء وتفسيره قوله تعالى :

﴿ مّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية : 10] أي أمامهم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان : 27] وتحقيقه أن كل ما غاب عنك فقد توارى عنك وأنت متوار عنه ، فكل ما غاب عنك فهو وراءك وأمام الشيء وقدامه إذا كان غائباً عنه

متوارياً عنه فلم يبعد إطلاق لفظ وراء عليه .

والقول الثاني : يحتمل أن يكون الملك كان من وراء الموضع الذي يركب منه صاحبه وكان مرجع السفينة عليه .

وأما المسألة الثانية :

وهي قتل الغلام فقد أجاب العالم عنها بقوله : ﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ قيل : إن ذلك الغلام كان بالغاً وكان يقطع الطريق ويقدم على الأفعال المنكرة ، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشيء من المنكرات وكان يصير ذلك سبباً لوقوعهما في الفسق .

(15/477)

وربما أدى ذلك الفسق إلى الكفر ، وقيل : إنه كان صبياً إلا أن الله تعالى علم منه أنه لو صار بالغاً لحصلت منه هذه المفاسد ، وقوله : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طغيانا وَكُفْراً ﴾ الخشية بمعنى الخوف وغلبة الظن والله تعالى قد أباح له قتل من غلب على ظنه تولد مثل هذا الفساد منه ، وقوله : ﴿ أَن يُرْهِقَهُمَا طغيانا ﴾ فيه قولان : الأول : أن يكون المراد أن ذلك الغلام يحمل أبويه على الطغيان والكفر كقوله : ﴿ وَلاَ تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً ﴾ [الكهف

: 73] أي لا تحملني على عسر وضيق وذلك لأن أبويه لأجل حب ذلك الولد يحتاجان إلى الذب عنه ، وربما احتاجا إلى موافقته في تلك الأفعال المنكرة .

(16/477)

والثاني : أن يكون المعنى أن ذلك الولد كان يعاشرهما معاشرة الطغاة الكفار ، فإن قيل : هل يجوز الإقدام على قتل الإنسان لمثل هذا الظن ؟ قلنا : إذا تأكد ذلك الظن بوحي الله جاز ثم قال تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زكواة ﴾ أي أردنا أن يرزقهما الله تعالى ولداً خيراً من هذا الغلام زكاة أي ديناً وصلاحاً ، وقيل : إن ذكره الزكاة ههنا على مقابلة قول موسى عليه السلام : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زكية بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ [الكهف : 74] فقال العالم : أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين خيراً بدلاً عن ابنهما هذا ولداً يكون خيراً منه كما ذكرته من الزكاة ، ويكون المراد من الزكاة الطهارة فكأن موسى عليه السلام قال : أقتلت نفساً طاهرة لأنها ما وصلت إلى حد البلوغ فكانت زاكية طاهرة من المعاصي فقال العالم : إن تلك النفس وإن كانت زاكية طاهرة في الحال إلا أنه تعالى علم منها أنها إذا بلغت أقدمت على الطغيان والكفر فأردنا أن يجعل لهما ولداً أعظم زكاة وطهارة منه وهو الذي يعلم الله منه أنه عند البلوغ لا يقدم على شيء من هذه المحظورات ومن قال إن ذلك الغلام

كان بالغاً قال : المراد من صفة نفسه بكونها زاكية أنه لم يظهر عليه ما يوجب قتله ثم قال : ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي يكون هذا البدل أقرب عطفاً ورحمة بأبويه بأن يكون أبر بهما وأشفق عليهما والرحم الرحمة والعطف .

روي أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة عظيمة .

بقي من مباحث هذه الآية موضعان في القراءة .

الأول : قرأ نافع وأبو عمرو يبدلهما بفتح الباء وتشديد الدال وكذلك في التحريم : ﴿ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا ﴾ وفي القلم : ﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا ﴾ والباقون ساكنة الباء خفيفة الدال وهما لغتان أبدل يبدل وبدل يبدل .

(17/477)

الثاني : قراءة ابن عامر في إحدى الروايتين عن أبي عمرو رحماً بضم الحاء والباقون بسكونها وهما لغتان مثل نكر ونكر وشغل وشغل .

وأما المسألة الثالثة :

وهي إقامة الجدار فقد أجاب العالم عنها بأن الداعي له إليها أنه كان تحت ذلك الجدار كنز وكان ذلك ليتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحاً ولما كان ذلك الجدار مشرفاً على

السقوط ولو سقط لضاع ذلك الكنز فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لحق صلاح أبيهما فأمرني بإقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح ، وفي الآية فوائد .

الفائدة الأولى : أنه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال : ﴿ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وسماه أيضاً مدينة حيث قال : ﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لغلامين يَتِيمَيْنِ فِى المدينة ﴾ .

الفائدة الثانية : اختلفوا في هذا الكنز فقيل : إنه كان مالاً وهذا هو الصحيح لوجهين .

الأول : أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال .

والثاني : أن قوله : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ يدل على أن ذلك الكنز هو المال وقيل إنه كان علماً بدليل أنه قال : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال إذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى : ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : 34] وقيل : كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء وعن الحسن بن علي أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما : بم حفظ الله مال الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما قال فأبي وجدي خير منه ؟ قال : قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون . وذكروا أيضاً أن ذلك الأب الصالح كان الناس يضعون الودائع إليه فيردها إليهم بالسلامة ، فإن قيل : اليتيمان هل عرف أحد منهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار أو ما عرف أحد منهما ؟ فإن كان الأول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار .

(19/477)

وإن كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به ؟ الجواب : لعل اليتيمين كانا جاهلين به إلا أن وصيهما كان عالماً به ثم (إن) ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط ولما قرر العالم هذه الجوابات قال : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما قررناه ثم قال : ﴿ وَمَا

فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي وإنما فعلته بأمر الله ووحيه لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع بقي في الآية سؤال ، وهو أنه قال : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقال : ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زكواة ﴾ وقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ كيف اختلفت الإضافة في هذه الإرادات الثلاث وهي كلها في قصة واحدة وفعل واحد ؟ والجواب : أنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه فقال : أردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية ، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى ، لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 135.138 ﴾

(20/477)

وقال الجصاص :

الْكَنْزِ مَا هُوَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : " عِلْمٌ " . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : " مَالٌ " .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مَا كَانَ بِذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ وَإِنَّمَا كَانَ عِلْمًا صُحُفًا " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " صُحُفٌ مِنْ عِلْمٍ " .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ ﴿ : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ قَالَ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ ﴾ وَلَمَّا تَأَوَّلُوهُ عَلَى الصُّحُفِ وَعَلَى الْعِلْمِ وَعَلَى الذَّهَبِ وَعَلَى الْفِضَّةِ دَلَّ عَلَى أَنَّ اسْمَ الْكَنْزِ يَقَعُ عَلَى الْجَمِيعِ ، لَوْلَاهُ لَمْ يَتَأَوَّلُوهُ عَلَيْهِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فَخَصَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّ سَائِرَ الْأَشْيَاءِ إذَا كَثُرَتْ لَا تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ وَإِنَّمَا تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ إذَا كَانَتْ مُرْصَدَةً لِلنَّمَاءِ وَالذَّهَبُ .

وَالْفِضَّةُ تَجِبُ فِيهِمَا وَإِنْ كَانَا مَكْسُورَيْنِ غَيْرَ مُرْصَدَيْنِ لِلنَّمَاءِ .

(21/477)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ الْآيَةَ ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُ الْأَوْلَادَ لِصَلَاحِ الْآبَاءِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَيَحْفَظُ الْمُؤْمِنَ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَفِي الدُّوَيْرَاتِ حَوْلَهُ ﴾ ، وَنَحْوُهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ

عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فَأَخْبَرَ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْ الْكُفَّارِ لِكَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ ، وَنَحْوُهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/477)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾

وفي تسميتهم مساكين أربعة أوجه :

أحدها : لفقرهم وحاجتهم .

الثاني : لشدة ما يعانونه في البحر ، كما يقال لمن عانى شدة قد لقي هذا المسكين جهداً .

الثالث : لزمانة كانت بهم وعلل .

الرابع : لقلة حيلتهم وعجزهم عن الدفع عن أنفسهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " مِسْكِينٌ رَجُلٌ لَا امرأة له " فسماه مسكيناً لقلة حيلته وعجزه عن القيام بنفسه لا لفقره ومسكنته .

وقرأ بعض أئمة القراء " لِمَسَّاكِينَ " بتشديد السين ، والمساكون هم الممسكون ، وفي تأويل

ذلك وجهان :

أَحدهما : لممسكون لسفينتهم للعمل فيها بأنفسهم .

الثاني : الممسكون لأموالهم شحاً فلا ينفقونها .

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي أن أُحْدِثَ فيها عيباً .

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ في قوله ﴿ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه خلفهم ، وكان رجوعهم عليه ولم يعلموا به ، قاله الزجاج .

الثاني : أنه كان أمامهم . وكان ابن عباس يقرأ : ﴿ وَكَانَ أَمَامَهُم مَّلِكٌ ﴾

واختلف أهل العربية في استعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقاويل :

أحدها : يجوز استعماله بكل حال وفي كل مكان وهو من الأضداد ، قال الله تعالى ﴿ مِن وَرَائِهِم جَهَنَّمُ ﴾ أي من أمامهم وقدامهم جهنم قال الشاعر :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . . وقومي تميم والفلاة ورائيا

يعني أمامي .

الثاني : أن وراء يجوز أن يستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان لأن الإنسان قد يجوزها فتصير وراءه ولا يجوز في غيرها .

الثالث : أنه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ، ولا يجوز في غيره قاله ابن عيسى .

﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ قرأ ابن مسعود : يأخذ كل سفينة صالحة غصباً . وهكذا كان الملك يأخذ كل سفينة جيدة غصباً ، فلذلك عباها الخضر لتسلم من الملك . وقيل إن اسم الملك هُدَد بن بُدَد ، وقال مقاتل : كان اسمه مندلة بن جلندى بن سعد الأزدي .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنَ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾

قال سعيد بن جبير : وجد الخضر غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً ظريفاً فأضجعه وذبحه ، وقيل كان الغلام سداسياً وقيل أنه أراد بالسداسي ابن ست عشرة سنة ، وقيل بل أراد أن طوله ستة أشبار ، قاله الكلبي : وكان الغلام لصاً يقطع الطريق بين قرية أبيه وقرية أمه فينصره أهل القريتين ويمنعون منه .

قال قتادة : فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما . قيل كان اسم الغلام جيسور . قال مقاتل وكان اسم أبيه كازير ، واسم أمه سهوى .

﴿ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْياناً وَكُفْراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : علم الخضر أن الغلام يرهق أبويه طغياناً وكفراً لأن الغلام كان كافراً قال قتادة : وفي قراءة أُبي ﴿ وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ كَافِراً وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ فعبر عن العلم بالخشية .

الثاني : معناه فخاف ربك أن يرهق الغلام أبويه طغياناً وكفراً ، فعبر عن الخوف بالخشية قال مقاتل : في قراءة أبي ﴿ فَخَافَ رَبُّكَ ﴾ والخوف ها هنا استعارة لانتفائه عن الله تعالى .

الثالث : وكره الخضر أن يرهق الغلام أبويه بطغيانه وكفره إثماً وظلماً فصار في الخشية ها هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها العلم .

الثاني : أنها الخوف .

الثالث : الكراهة .

وفي ﴿ يُرْهِقَهُمَا ﴾ وجهان :

أحدهما : يكفلهما ، قاله ابن زيد .

الثاني : يحملهما على الرهق وهو الجهد . ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا ربهما خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : خيراً منه إسلاماً ، قاله ابن جريج .

الثاني : خيراً منه علماً ، قاله مقاتل .

الثالث : خيراً منه ولداً .

وكانت أمه حبلى فولدت ، وفي الذي ولدته قولان :

أحدهما : ولدت غلاماً صالحاً مسلماً ، قاله ابن جريج .

الثاني : ولدت جارية تزوجها نبي فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم .

﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : يعني أكثر براً بوالديه من المقتول ، قاله قتادة ، وجعل الرحم البر ، ومنه قول الشاعر :

طريدٌ تلافاه يزيد برحمةٍ . . . فلم يُلْف من نعمائه يتعذَّرُ

الثاني : أعجل نفعاً وتعطفاً ، قال أبو يونس النحوي وجعل الرحم المنفعة والتعطف ، ومنه قول الشاعر :

وكيف بظلم جارية . . . . . ومنها اللين والرحم

الثالث : أقرب أن يرحما به ، والرُّحم الرحمة ، قاله أبو عَمْرو بن العلاء ، ومنه قول الشاعر :

أحنى وأرحمُ مِن أمٍّ بواحدِها . . . رُحْماً وأشجع من ذي لبدةٍ ضاري

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾

زعم مقاتل أن اسم الغلامين صرم وصريم ، واسم أبيهما كاشخ ، واسم أمهما رهنا ، وأن

المدينة قرية تسمى عيد شى .

وحقيقة الجدار ما أحاط بالدار حتى يمنع منها ويحفظ بنيانها ، ويستعمل في غيرها من حيطانها مجازاً .

﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ وفي هذا الكنز ثلاثة أقاويل : أحدها : صحف علم ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد .

(25/477)

الثاني : لوح من ذهب مكتوب فيه حِكَم ، قاله الحسن ، وروى ابن الكلبي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ ، كَانَ الكَنزُ لَوحاً مِن ذَهَبٍ مَكْتُوباً فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ عَجَبٌ لِمَن يُؤمِنُ بالمَوتِ كَيْفَ يَفْرَحُ ، عَجَبٌ لِمَن يُوقِنُ بالْقَدَرِ كَيْفَ يَحْزَنُ ، عَجَبٌ لِمَن يُوقِنُ بِزَوالِ الدُّنيَا وَتَقَلُّبِهَا بِأَهْلِهَا كَيفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

" . الثالث : كنز : مال مذخور من ذهب وفضة ، قاله عكرمة وقتادة .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ قيل إنهما حفظا لصلاح أبيهما السابع ، قال محمد بن المنكدر : إن الله تعالى يحفظ عبده المؤمن في

ولده وولد ولده وفي ذريته وفي الدويرات حوله . وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله .

واختلف أهل العلم في بقاء الخضر عليه السلام إلى يوم ، فذهب قوم إلى بقائه لأنه شرب من عين الحياة . وذهب آخرون إلى أنه غير باقٍ لأنه لو كان باقياً لعرف ، ولأنه لا يجوز أن يكون بعد نبينا صلى الله عليه وسلم نبي وهذا قول من زعم أن الخضر نبي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(26/477)

وقال ابن عطية :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾

قرأ الجمهور " لمساكين " بتخفيف السين ، جمع مسكين ، واختلف في صفتهم ، فقالت فرقة كانت لقوم تجار ، ولكنهم من حيث هم مسافرون على قلة ، وفي لجة بحر ، وبحال ضعف عن مدافعة غصب جائر ، عبر عنهم ب " مساكين " ، إذ هم في حالة يشفق عليهم بسببها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كما تقول لرجل غني إذا وقع في وهدة وخطب مسكين

وقالت فرقة : كانوا عشرة إخوة : أهل عاهات خمسة منهم : عاملون بالسفينة لا قدرة بهم على العمل ، وقرأت فرقة " لمسّاكين " بتشديد السين . واختلف في تأويل ذلك فقالت فرقة أراد ب " المساكين " ملاحي السفينة وذلك أن المساك هو الذي يمسك رجل المركب وكل الخدمة يصلح لإمساكه ، فسمي الجميع " مساكين " ، وقالت فرقة : أراد " المسّاكين " دبغة المسوك ، وهي الجلود واحدها مسك .

قال القاضي أبو محمد : والأظهر في ذلك القراءة الأولى وأن معناها أن السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق لهم ، واحتج الناس بهذه الآية في أن المسكين الذي له البلغة من العيش كالسفينة لهؤلاء ، وأنه أصلح حالاً من الفقير ، واحتج من يرى خلاف هذا بقول الشاعر : [البسيط]

أما الفقير الذي كانت حلوبته . . . وفق العيال فلم يترك له سبد

(27/477)

وتحرير هذا عندي أنهما لفظان يدلان على ضعف الحال جداً ، ومع المسكنة انكشاف وذل وسؤال ، ولذلك جعلها الله صنفين ، في قسم الصدقات ، فأما حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو : " ليس المسكين بهذا الطواف " فجعل المساكين في اللغة أهل الحاجة

الذين قد كشفوا وجوههم ، وأما قول الله تعالى : ﴿ للفقراء الذين أحصروا ﴾ [البقرة : 273] . فجعل الفقراء أهل الحاجة الذين لم يكشفوا وجوههم ، وقد تقدم القول في هذه المسألة بأوعب من هذا . وقوله ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ قال قوم معناه أمامهم ، وقالوا وراء من الأضداد ، وقرأ ابن جبير وابن عباس : " وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة " صحيحة وقرأ عثمان بن عفان " وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة " .

قال القاضي أبو محمد : وقوله ﴿ وراءهم ﴾ هو عندي على بابه وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعاً بها الزمن ، وذلك أن الحادث المقدم الوجود هو الإمام ، وبين اليد : لما يأتي بعده في الزمن ، والذي يأتي بعد : هو الوراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر ببادي الرأي ، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد ، فهذه الآية معناها : أن هؤلاء وعملهم ، وسعيهم ، يأتي بعده في الزمن غصب هذا الملك ، ومن قرأ " أمامهم " ، أراد في المكان ، أي إنهم كانوا يسيرون إلى بلده ، وقوله تعالى في التوراة والإنجيل إنها بين يدي القرآن ، مطرد على ما قلنا في الزمن ، وقوله

﴿ من وراءهم جهنم ﴾ [الجاثية : 10] مطرد كما قلنا مراعاة الزمن وقول النبي صلى الله عليه وسلم " الصلاة أمامك " يريد في المكان ، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمن وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ ، ووقع لقتادة في كتاب الطبري ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ قال قتادة أمامهم ، ألا ترى أنه يقول ﴿ من وراءهم جهنم ﴾ [الجاثية : 10] وهي بين أيديهم . وهذا القول غير مستقيم وهذه هي العجمة التي كان الحس بن أبي الحسن يضج منها قاله الزجاج ويجوز إن كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب ، فكان وراءهم حقيقة ، وقيل اسم هذا الغاصب هدد بن بدد ، وقيل اسمه الجلندا ، وهذا كله غير ثابت ، وقوله ﴿ كل سفينة ﴾ عموم معناه الخصوص في الجياد منها الصحاح المارة به .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) ﴾

(29/477)

تقدم القول في ﴿ الغلام ﴾ ، والخلاف في بلوغه أو صغره ، وفي الحديث : أن ذلك الغلام طبع يوم طبع كافراً ، وهذا يؤيد ظاهره أنه كان غير بالغ ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه ، مع كونه بالغاً . وقيل اسم الغلام جيسور بالراء ، وقيل جيسون بالنون ، وهذا أمر كله غير

ثابت ، وقرأ أبي بن كعب : " فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين " ، وقرأ أبو سعيد الخدري " فكان أبواه مؤمنان " فجعلها كان التي فيها الأمر والشأن ، وقوله ﴿ فخشينا ﴾ قيل هو في جملة الخضر ، فهذا متخلص . والضمير عندي للخضر وأصحابه الصالحين الذين أهمهم الأمر وتكلموا فيه ، وقيل هو في جهة الله تعالى ، وعنه عبر الخضر قال الطبري معناه فعلمنا وقال غيره معناه فكرهنا والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل ، وإن كان اللفظ يدافعه ، أنها استعارة ، أي على ظن المخلوقين والمخاطبين ، لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين ، وقرأ ابن مسعود " فخاف ربك " وهذا بين في الاستعارة وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة الله تعالى من لعل وعسى : فإن جميع ما في هذا كله ، من ترج وتوقع ، وخوف ، وخشية ، إنما هو بحبكم أيها المخاطبون ، و ﴿ يرهقهما ﴾ معناه يحثهما ويكلفهما بشدة ، والمعنى أن يلقيهما حبه في اتباعه ، وقرأ الجمهور " أن يبَدّلهما " بفتح الباء وشد الدال ، وقرأ ابن محيصن والحسن وعاصم " يبدلهما " بسكون الباء وتخفيف الدال ، و " الزكاة " : شرف الخلق ، والوقار والسكينة المنطوية على خير ونية ، و " الرحم " الرحمة ، والمراد عند فرقة أي يرحمهما ، وقيل أي يرحمانه ، ومنه قول رؤبة بن العجاج : [الرجز]

يا منزل الرحم على إدريسا . . . ومنزل اللعن على إبليسا

وقرأ ابن عامر " رحُماً " بضم الحاء ، وقرأ الباقون " رحْماً " بسكونها ، واختلف عن أبي عمرو ، وقرأ ابن عباس " ربهما أزكى منه " و ﴿ أقرب رحماً ﴾ وروي عن ابن جريج أنهما بدلا غلاماً مسلماً ، وروي عن ابن جريج أنهما بدلا جارية ، وحكى النقاش أنها ولدت هي وذريتها سبعين نبياً ، وذكره المهدوي عن ابن عباس .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد ، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل ، وهذه المرأة لم تكن فيهم ، وروي عن ابن جريج أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملاً بغلام مسلم ، وقوله ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين ﴾ هذان الغلامان صغيران ، بقرينة وصفهما باليتم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم " لا يتم بعد بلوغ " هذا الظاهر ، وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ أي كانا يتيمين على معنى التشفق عليهما ، واختلف الناس في " الكنز " : فقال عكرمة وقتادة كان مالاً جسيماً ، وقال ابن عباس كان علماً في مصحف مدفونة ، وقال عمر مولى غفرة كان لوحاً من ذهب قد كتب فيه عجباً للموقن بالرزق كيف يتعب ، وعجباً للموقن بالحساب كيف يغفل ، وعجباً للومقن بالموت كيف يفرح ، وروي نحو هذا مما هو في معناه ، قوله ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أن والدهما دنيّة ، وقيل هو الأب السابع ، وقيل العاشر ، فحفظا فيه وإن لم يذكرا بصلاح ، وفي الحديث

" إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته " ، وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ [الكهف : 79] وفي الثانية ﴿ فأردنا أن يبدلهما ﴾ وفي الثالثة ﴿ فأراد ربك أن يبلغا ﴾ وإنما انفرد أولاً في الإرادة لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿ وإذا مرضت فهو يشفيني ﴾ [الشعراء : 80] ، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى ، وأسند المرض إلى نفسه ، إذ هو معنى نقص ومصيبة ، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً ، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله ﴾ [الصف : 5] ، وتقديم فعل الله تعالى في قوله ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ [التوبة : 118] ، وإنما قال الخضر في الثانية ﴿ فأردنا ﴾ لأنه أمل قد كان رواه هو وأصحابه الصالحون ، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين ، وتمنى البديل لهما ، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى . لأنها في أمر مستأنف في الزمن طويل غيب من الغيوب ، فحسن إفادة هذا الموضع بذكر الله تعالى ، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله أنه يريده ، فهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصر ، والله أعلم ، و" الأشد "كما الخلق والعقل

واختلف الناس في قدر ذلك من السن ، فقيل خمس وثلاثون ، وقيل ست وثلاثون ، وقيل أربعون ، وقيل غير هذا مما فيه ضعف ، وقول الخضر ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ يقتضي أن الخضر نبي ، وقد اختلف الناس فيه : فقيل هو نبي ، وقيل هو عبد صالح وليس بنبي ، وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم ، وتقول فرقة إنه حي ، لأنه شرب من عين الحياة ، وهو باق في الأرض ، وأنه يحج البيت ، وغير هذا ، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى ، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره ، كلها لا يقوم على ساق ، ولو كان الخضر عليه

(32/477)

السلام حياً يحج لكان له في ملة الإسلام ظهور والله العليم بتفاصيل الأشياء لا رب غيره ، ومما يقضي بموت الخضر الآن قول النبي صلى الله عليه وسلم " أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد "

، وقوله ذلك تأويل أي مآل ، وقرأت فرقة " تستطع " ، وقرأ الجمهور " تسطع " قال أبو حاتم كذا نقرأ " نتبع " المصحف ، وانتزع الطبري من اتصال هذه القصة بقوله تعالى : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يأخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه

موئلاً ﴾ [الكهف : 58] إن هذه القصة إنما جلبت على معنى المثل للنبي صلى الله عليه وسلم في قومه ؛ أي لا تهتم بإملاء الله لهم وإجراء النعم لهم على ظاهرها ، فإن البواطن سائرة إلى الانتقام منهم ، ونحو هذا مما هو محتمل لكن بتعسف ما فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(33/477)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فكانت لمساكين ﴾

في المراد بمسكنتهم قولان .

أحدهما : أنهم كانوا ضعفاءَ في أكسابهم .

والثاني : في أبدانهم .

وقال كعب : كانت لعشرةِ إخوة ، خمسةٍ زمْنى ، وخمسةٍ يعملون في البحر .

قوله تعالى : ﴿ فأردتُ أن أعيبَها ﴾ أي : أجعلها ذات عيب ، يعني بخرقها ، ﴿ وكان وراءهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أمامهم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن مسعود : "وكان أمامَهم مَلِك" .

والثاني : خلفهم ؛ قال الزجاج : وهو أجود الوجهين .

فيجوز أن يكون رجوعهم في طريقهم كان عليه ، ولم يعلموا بخبره ، فأعلم الله تعالى الخضرَ خَبَرَه .

قوله تعالى ﴿ يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ أي : كل سفينة صالحة .

وفي قراءة أُبيِّ [بن كعب] : "كلَّ سفينة صحيحة" .

قال الخضر : إنما خرقتها ، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقعها أهلُها فانتفعوا بها .

قوله تعالى : ﴿ وأما الغلام ﴾ روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ : "وأما الغلام فكان كافراً" .

وروى أُبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " "إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً " قال الربيع بن أنس : كان الغلام على الطريق لا يمرُّ به أحدٌ إلا قتلَه أو غصبه ، فيدعو ذلك عليه وعلى أبويه .

وقال ابن السائب : كان الغلام لصّاً ، فإذا جاء من يطلبه حلف أبواه أنه لم يفعل .

قوله تعالى : ﴿ فخشينا ﴾ في القائل لهذا قولان .

أحدهما : الله عز وجل .

ثم في معنى الخشية المضافة إليه قولان .

أحدهما : أنها بمعنى : العلم .

قال الفراء : معناه : فعلمنا .

وقال ابن عقيل : المعنى : فعلنا فعل الخاشي .

والثاني : الكراهة ، قاله الأخفش ، والزجاج .

والثاني : أنه الخضر ، فتكون الخشية بمعنى الخوف للأمر المتوهم ، قاله ابن الأنباري .

وقد استدل بعضهم على أنه من كلام الخضر بقوله : ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما ﴾ .

(34/477)

قال الزجاج : المعنى : فأراد الله ، لأن لفظ الخبر عن الله تعالى هكذا أكثر من أن يحصى .

ومعنى ﴿ يرهقهما ﴾ : يحملهما على الرَّهَق ، وهو الجهل .

قال أبو عبيدة : "يُرْهِقَهُما" : يغشِيَهما .

قال سعيد بن جبير : خشينا أن يحملَهما حُبُّه على أن يدخلا في دينه .

وقال الزجاج : فرحا به حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فرضي امرؤٌ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره ، خير له من قضائه فيما يحب .

قوله تعالى : ﴿ فأردنا أن يبدلَهما ربهما ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم : "أن يُبْدِلَهُما" بالتخفيف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو بالتشديد .

قوله تعالى : ﴿ خيراً منه زكاةً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ديناً ، قاله ابن عباس .

والثاني : عملاً ، قاله مقاتل .

والثالث : صلاحاً ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ وأقربَ رُحْماً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "رُحْماً" ساكنة الحاء ، وقرأ ابن عامر : "رُحُماً" مثقلة .

وعن أبي عمرو كالقراءتين .

وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، وأبو رجاء : "رَحِماً" بفتح الراء ، وكسر الحاء .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أوصل للرحم وأبَرّ للوالدين ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

وقال الزجاج : أقرب عطفاً ، وأمسّ بالقرابة .

ومعنى الرُّحْم والرُّحُم في اللغة : العطف والرحمة ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جَاريةٍ . . .

ومنها اللِّينُ والرُّحُم

والثاني : أقرب أن يُرحَما به ، قاله الفراء .

وفيما بُدِّلا به قولان .

أحدهما : جارية ، قاله الأكثرون .

وروى عطاء عن ابن عباس ، قال : أبدلهما به جارية ولدت سبعين نبيّاً .

والثاني : غلام مسلم ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ يعني : القريةَ المذكورة في قوله : ﴿ أتيا أهل قرية ﴾ ، قال مقاتل : واسمهما : أصرم ، وصريم .

قوله تعالى : ﴿ وكان تحته كنزٌ لهما ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

(35/477)

أحدها : أنه كان ذهباً وفضة ، رواه أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الحسن ، وعكرمة ، وقتادة : كان مالاً .

والثاني : أنه كان لوحاً من ذهب ، فيه مكتوب : عجباً لمن أيقن بالقدر ثم هو يَنْصَب ، عجباً لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجباً لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجباً لمن يوقن

بالرزق كيف يتعب ، عجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفُل ، عجباً لمن رأى الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئن إليها ، أنا الله الذي لا إله إلا أنا ، محمد عبدي ورسولي ، وفي الشّق الآخر : أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، خلقتُ الخير والشَّر ، فطوبى لمن خلقتُه للخير وأجريتُه على يديه ، والويل لمن خلقتُه للشر وأجريتُه على يديه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

قال ابن الأنباري : فسُمِّي كنزاً من جهة الذَّهب ، وجعل اسمه هو المغلَّب .

والثالث : كنز علم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وقال مجاهد : صُحُف فيها عِلْم ، وبه قال سعيد بن جبير ، والسدي .

قال ابن الأنباري : فيكون المعنى على هذا القول : كان تحته مثل الكنز ، لأنه يُتعجَّل من نفعه أفضل مما يُنال من الأموال .

قال الزجاج : والمعروف في اللغة : أن الكنز إذا أُفرد ، فمعناه : المال المدفون المدَّخَر ، فإذا لم يكن المال ، قيل : عنده كنز علم ، وله كنز فهم ، والكنز هاهنا بالمال أشبه ، وجائز أن يكون الكنز كان مالاً ، مكتوب فيه علم ، على ما روي ، فهو مال وعِلْم عظيم .

قوله تعالى : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ قال ابن عباس : حُفِظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر منهما صلاحاً .

وقال جعفر بن محمد عليه السلام : كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء .

وقال مقاتل : كان أبوهما ذا أمانة .

(36/477)

قوله تعالى : ﴿ فأراد ربُّك ﴾ قال ابن الأنباري : لما كان قوله : "فأردتُ" و"وأردنا" كل واحد منهما يصلح أن يكون خبراً عن الله عز وجل ، وعن الخضر ، أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه ، ويزيلها عن غيره ، ويكشف البُغية من اللفظتين الأولَيين .

وإنما قال : "فأردتُ" "فأردنا" "فأراد ربُّك" ، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتّفاقه مع تساوي المعاني ، لأنه أعذب على الألسن ، وأحسن موقعاً في الأسماع ، فيقول الرجل : قال لي فلان كذا ، وأنبأني بما كان ، وخبَّرني بما نال .

فأما "الأَشُدُّ" فقد سبق ذكره في مواضع [الأنعام : 152 ، ويوسف : 22 ، والإسراء : 34] ولو أن الخضر لم يُقِم الحائط لنُقض وأُخِذ ذلك الكنز قبل بلوغهما .

قوله تعالى : ﴿ رحمةً من ربك ﴾ أي : رحمهما الله بذلك .

﴿ وما فعلتُه عن أمري ﴾ قال قتادة : كان عبداً مأموراً .

فأما قوله ﴿ تَسْطِع ﴾ فإن "استطاع" و"اسطاع" بمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(37/477)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾

استدل بهذا من قال : إن المسكين أحسن حالاً من الفقير ، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة "براءة" .

وقد قيل : إنهم كانوا تجاراً ولكن من حيث هم مسافرون عن قلّة في لجة بحر ، وبحال ضعف عن مدافعة خطب عُبِّر عنهم بمساكين ؛ إذ هم في حالة يُشفَق عليهم بسببها ، وهذا كما تقول لرجل غنيّ وقع في وَهْلَة أو خَطْب : مسكينٌ .

وقال كعب وغيره : كانت لعشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم ؛ خمسة زَمْنى ، وخمسة يعملون في البحر .

وقيل : كانوا سبعة لكل واحد منهم زَمَانة ليست بالاخر .

وقد ذكر النقاش أسماءهم ؛ فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوماً ؛ والثاني أعور ،

والثالث أعرج، والرابع آدَر، والخامس محموماً لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم؛ والخمسة الذين لا يطيقون العمل: أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم؛ ذكره الثعلبي.

وقرأت فرقة: "لِمَسَّاكِينَ" بتشديد السين، واختلف في ذلك فقيل: هم مَلاَّحو السفينة، وذلك أن المسّاك هو الذي يمسك رجل السفينة، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمى الجميع مسّاكين.

وقالت فرقة: أراد بالمسّاكين دبغة المُسُوك وهي الجلود واحدها مَسْك.

والأظهر قراءة "مساكين" بالتخفيف جمع مسكين، وأن معناها: إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم.

والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي أجعلها ذات عيب، يقال: عِبتُ الشيء فعاب إذا صار ذا عَيب، فهو معِيب وعائب.

وقوله: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير "صحيحةٍ" وقرأ أيضاً ابن عباس وعثمان بن عفان "صالحةٍ".

و"وراء" أصلها بمعنى خلف؛ فقال بعض المفسرين: إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه.

والأكثر على أن معنى "وراء" هنا أمام؛ يَعضُده قراءة ابن عباس وابن جبير "وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْباً".

قال ابن عطية: "وراءهم" هو عندي على بابه؛ وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان، وذلك أن الحدث المقدّم الموجود هو الأمام، والذي يأتي بعده هو الوراء وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بادي الرأي، وتأمّل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، فهذه الآية معناها: إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك؛ ومن قرأ "أمامهم" أراد في المكان، أي كأنهم يسيرون إلى بلد، وقوله عليه الصلاة والسلام: "الصلاة أمامك" يريد في المكان، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان؛ وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ؛ ووقع لقتادة في كتاب الطبري "وكان وراءهم ملك" قال قتادة: أمامهم ألا تراه يقول: "مِن ورائِهم جهنم" وهي بين أيديهم؛ وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسن بن أبي الحسن يضجّ منها؛ قاله الزجاج.

قلت: وما اختاره هذا الإمام قد سبقه إليه في ذلك ابن عرفة؛ قال الهَرويّ قال ابن عرفة: يقول القائل كيف قال "من ورائه" وهي أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو عليّ قُطْرُب أن هذا من الأضداد، وأن وراء في معنى قدام، وهذا غير محصّل؛ لأن أمام ضد وراء، وإنما يصلح

هذا (في الأماكن) والأوقات ، كقولك للرجل إذا وعد وعداً في رجب لرمضان ثم قال : ومن ورائك شعبان لجاز وإن كان أمامه ، لأنه يخلفه إلى وقت وعده ؛ وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيري وقال : إنما يقال هذا في الأوقات ، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك ؛ قال الفراء : وجوزه غيره ؛ والقوم ما كانوا عالمين بخبر الملك ، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عَيَّب السفينة ؛ وذكره الزجاج .

(39/477)

وقال الماورديّ : اختلف أهل العربية في استعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال :

أحدها : يجوز استعمالها بكل حال وفي كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية : 10] أي من أمامهم : وقال الشاعر :

أَترجو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِي وطاعَتي . . .

وقَوْمِي تَميمٌ والفَلاَةُ وَرَائِيَا

يعني أمامي .

والثاني : أن وراء تستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان لأن الإنسان قد يَجُوزها فتصير وراءه ولا يجوز في غيرها .

الثالث : أنه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز في غيرهما ؛ وهذا قول علي بن عيسى .

واختلف في اسم هذا الملك فقيل : هُدَد بن بُدَد .

وقيل : الجَلَنْدي ؛ وقاله السهيلي .

وذكر البخاري اسم الملك الآخذ لكل سفينة غصباً فقال : هو (هُدَد بن بُدَد والغلام المقتول) اسمه جَيْسور ، وهكذا قيدناه في "الجامع" من رواية يزيد المَرْوزيّ ، وفي غير هذه الرواية حَيْسور بالحاء وعندي في حاشية الكتاب رواية ثالثة : وهي حَيْسون .

وكان يأخذ كل سفينة جيدة غصباً فلذلك عابها الخضر وخرقها ؛ ففي هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق وجهها ، وجواز إصلاح كل المال بإفساد بعضه ، وقد تقدّم .

وفي صحيح مسلم وجه الحكمة بخرق السفينة وذلك قوله : فإذا جاء الذي يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها ، فأصلحوها بخشبة ؛ الحديث .

وتحصّل من هذا الحضُّ على الصبر في الشدائد ، فكم في ضمن ذلك المكروه من الفوائد ، وهذا معنى قوله : ﴿ وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 216] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ جاء في صحيح الحديث : " أنه طُبع يوم طُبع كافراً " وهذا يؤيّد ظاهره أنه غير بالغ ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً ؛ وقد تقدّم هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ قيل : هو من كلام الخضر عليه السلام ، وهو الذي يشهد له سياق الكلام ، وهو قول كثير من المفسرين ؛ أي خفنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، وكان الله قد أباح له الاجتهاد في قتل النفوس على هذه الجهة .

وقيل : هو من كلام الله تعالى وعنه عبَّر الخضر ؛ قال الطبريّ : معناه فعلمنا ؛ وكذا قال ابن عباس أي فعلمنا ، وهذا كما كنى عن العلم بالخوف في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَخَافَآ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله ﴾ [البقرة : 229] .

وحكي أن أُبيًّا قرأ "فَعَلِمَ ربك" .

وقيل : الخشية بمعنى الكراهة ؛ يقال : فرّقت بينهما خشية أن يقتتلا ؛ أي كراهية ذلك .

قال ابن عطية : والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها استعارة ، أي على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين .

وقرأ ابن مسعود "فخاف ربك" وهذا بين في الاستعارة ، وهذا نظير ما وقع في القرآن في جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما في هذا كله من ترجٍّ وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون .

و"يرهقهما" يجشّمهما ويكلّفهما ؛ والمعنى أن يلقيهما حبُّه في اتّباعه فيضلاَّ ويتدينا بدينه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال .

وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال ؛ أي أن يرزقهما الله ولداً .

﴿ خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ أي ديناً وصلاحاً ؛ يقال : بدّل وأبدل مثل مَهَّل وأمهل ونَزَّل وأنزل .

﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ قرأ ابن عباس "رُحُماً" بالضم ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جاريةٍ . . .

ومنها اللِّينُ والرُّحُمُ

الباقون بسكونها ؛ ومنه قول رؤبة بن العَجَّاج :

يا مُنْزِلَ الرُّحْمِ على إدريسَا . . .

ومُنْزِلَ اللَّعْنِ على إبليسَا

واختلف عن أبي عمرو .

(41/477)

و"رحما" معطوف على "زكاة" أي رحمة ؛ يقال : رَحِمه رحمة ورحما ؛ وألفه للتأنيث ، ومذكره رُحْم .

وقيل : إنّ الرُّحم هنا بمعنى الرَّحِم ؛ قرأها ابن عباس "وأَوْصَلَ رُحْماً" أي رَحِما ، وقرأ أيضاً "أزكى منه" .

وعن ابن جبير وابن جريج أنهما بُدِّلا جارية ؛ قال الكلبيّ فتزوّجها نبيّ من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم .

قتادة : ولدت اثني عشر نبياً ، وعن ابن جريج أيضاً أنّ أمّ الغلام يوم قتل كانت حاملاً بغلام مسلم وكان المقتول كافراً .

عن ابن عباس : فولدت جارية ولدت نبياً ؛ وفي رواية : أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبياً ؛ وقاله جعفر بن محمد عن أبيه ؛ قال علماؤنا : وهذا بعيد ولا تُعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل ، وهذه المرأة لم تكن فيهم ؛ ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكباد ، ومن سَلَّم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء .

قال قتادة : لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزِنا عليه حين قُتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فالواجب على كل امرىء الرضا بقضاء الله تعالى ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتم ، واسمهما أصرم وصريم .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : " لا يُتْم بعد بلوغ " هذا هو الظاهر .

وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين ، على معنى الشفقة عليهما .

وقد تقدم أن اليتم في الناس من قِبل فقد الأب ؛ وفي غيرهم من الحيوان من قبل فَقْد الأم .

ودل قوله : "في المدينة" على أن القرية تسمى مدينة ؛ ومنه الحديث : " أُمرتُ بقرية تأكل القُرَى " وفي حديث الهجرة " "لمن أنت" فقال الرجل : من أهل المدينة " ؛ يعني مكة .

(42/477)

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ اختلف الناس في الكنز ؛ فقال عِكرِمة وقتادة : كان مالا جسيماً وهو الظاهر من اسم الكنز إذ هو في اللغة المال المجموع ؛ وقد مضى القول فيه .

وقال ابن عباس : كان عِلماً في صحف مدفونة .

وعنه أيضاً قال : كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة ، ورواه عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دِنْيَةً .

وقيل : هو الأب السابع ؛ قاله جعفر بن محمد .

وقيل : العاشر فَحُفِظا فيه وإن لم يُذْكَر بصلاح ؛ وكان يسمى كاشحاً ؛ قاله مقاتل .

واسم أمهما دنيا ؛ ذكره النقاش .

ففيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه .

وقد روي أن الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذريته ؛ وعلى هذا يدل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتاب وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين ﴾ [الأعراف : 196] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ يقتضي أن الخضر نبي ؛ وقد تقدم الخلاف في ذلك .

﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ ﴾ أي تفسير .

﴿ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ قرأت فرقة "تَسْتَطِعْ" .

وقرأ الجمهور "تَسْطِعْ" قال أبو حاتم : كذا نقرأ كما في خط المصحف .

وهنا خمس مسائل :

الأولى : إن قال قائل لم يسمع لفتى موسى ذكر في أوّل الآية ولا في آخرها ، قيل له : اختلف في ذلك ؛ فقال عكرمة لابن عباس : لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه ؟ فقال : شرب الفتى من الماء فخلّد ، وأخذه العالِم فطبّق عليه سفينة ثم أرسله في البحر ، وإنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب منه .

قال القشيريّ : وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون ؛ فإن يوشع بن نون قد عُمّر بعد موسى وكان خليفته ؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقي الخضر .

وقال شيخنا الإمام أبو العباس : يحتمل أن يكون اكتفى بذكر المتبوع عن التابع ؛ والله أعلم .

الثانية : إن قال قائل : كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى ، وقال في خرق السفينة : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فأضاف العيب إلى نفسه ؟ قيل له : إنما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى لأنها في أمر مستأنف في زمن طويل غيب من الغيوب ، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى ، وإن كان الخضر قد أراد ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنّه يريده .

وقيل : لما كان ذلك خيراً كله أضافه إلى الله تعالى ، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب ، لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] فأسند

الفعل قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى ، وأسند إلى نفسه المرض ، إذ هو معنى نقص ومصيبة ، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ [آل عمران : 26] واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه ، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع ، إذ هو على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء خبير .

(44/477)

ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة : " يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْني واستطعمتُك فلم تُطعمني واستسقيتك فلم تَسقني " فإن ذلك تَنزُّلٌ في الخطاب ، وتلطُّف في العتاب ، مقتضاه التعريف بفضل ذي الجلال ، وبمقادير ثواب هذه الأعمال .

وقد تقدّم هذا المعنى .

والله تعالى أعلم .

ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء ، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة ، والأفعال الشريفة .

جل وتعالى عن النقائص والآفات علواً كبيراً .

وقال في الغلام : "فأردنا" فكأنه أضاف القتل إلى نفسه ، والتبديل إلى الله تعالى .

والأشد كمال الْخَلْق والعقل .

وقد مضى الكلام فيه في "الأنعام" والحمد لله .

الثالثة : قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هدم الأحكام الشرعية ، فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم .

وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوها عن الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر ؛ فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم ، عما كان عند موسى من تلك الفُهوم .

وقد جاء فيما ينقلون :

استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتون .

قال شيخنا رضي الله عنه : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ؛ لأنه إنكار ما عُلم من الشرائع ؛ فإن الله تعالى قد أجرى سنّته ، وأنفذ حكمته ، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه ، وهم المبلّغون عنه رسالته وكلامه ، المبيّنون شرائعه وأحكامه ؛ اختارهم لذلك ، وخصّهم بما هنالك ؛ كما قال تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 75] وقال تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] وقال تعالى : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة : 213] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي ، واليقين الضروري ، وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل ، فمن قال : إن هناك طريقاً آخر يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر ، يُقتل ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله ، فلا نبيّ بعده ولا رسول .

وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى ، وأنه يعمل بمقتضاه

، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة ، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوّة ، فإن هذا نحو ممّا قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام : " إن روح القدس نَفَثَ في رَوْعي " الحديث .

الرابعة : ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم .

وقالت فرقة : إنّه حيّ لأنه شرب من عين الحياة ، وأنه باق في الأرض ، وأنه يحج البيت .

(46/477)

قال ابن عطية : وقد أطنب النقَّاش في هذا المعنى ، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره ، وكلها لا تقوم على ساق .

ولو كان الخضر عليه السلام حياً يحج لكان له في ملة الإسلام ظهور ؛ والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربّ غيره .

ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة والسلام : " أرأيتكم ليلتَكم هذه فإنه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ " .

قلت : إلى هذا ذهب البخاري واختاره القاضي أبو بكر بن العربي ، والصحيح القول الثاني وهو أنه حيّ على ما نذكره .

وهذا الحديث خرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : صلّى بنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلّم قام فقال :

" أرأيتكم ليلتَكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ "

قال ابن عمر : فَوَهَل الناسُ في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدّثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة ؛ وإنما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : " لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " يريد بذلك أن يَنْخرِم ذلك القَرْن .

ورواه أيضاً من حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر : " تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس مَنْفُوسة تأتي عليها مائة سنة " وفي أخرى قال سالم : تذاكرنا أنها " هي مخلوقة يومئذٍ " وفي أخرى : " ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذٍ " وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال : نقص العمر .

وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث .

(47/477)

قال علماؤنا : وحاصل ما تضمنه هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن كل من كان من بني آدم موجوداً في ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة ؛ لقوله عليه

الصلاة والسلام : " ما من نفس مَنْفوسة " وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهم كذلك ، ولا الحيوان غير العاقل ؛ لقوله : "ممن هو على ظهر الأرض أحد " وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل ، فتعين أن المراد بنو آدم .

وقد بين ابن عمر هذا المعنى ؛ فقال : يريد بذلك أن يَنْخرم ذلك القَرْن .

ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول : إن الخضر حي لعموم قوله : "ما من نفس منفوسة" لأن العموم وإن كان مؤكّد الاستغراق فليس نَصًّا فيه ، بل هو قابل للتخصيص ، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام ، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حيّ بنص القرآن ومعناه ، ولا يتناول الدجال مع أنه حيّ بدليل حديث الجَسّاسة ، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهداً للناس ، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضاً ، فمثل هذا العموم لا يتناوله .

وقد قيل : إن أصحاب الكهف أحياء ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام ، كما تقدّم .

وكذلك فتى موسى في قول ابن عباس كما ذكرنا .

وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتاب "العرائس" له : والصحيح أن الخضر نبيّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار ؛ وروى محمد بن المتوكل عن (ضمرة بن ربيعة) عن عبد الله بن (شوذب) قال : الخضر عليه السلام من ولد فارس ، وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان كل عام

في الموسم .

وعن عمرو بن دينار قال : إن الخضر وإلياس لا يزالان حيين في الأرض ما دام القرآن على الأرض ، فإذا رفع ماتا .

(48/477)

وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللخمي في شرح الرسالة له للقشيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه ، يفيد مجموعها غلبة الظن بحياته مع ما ذكره النقاش والثعلبي وغيرهما .

وقد جاء في صحيح مسلم : " أن الدجال ينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذٍ رجل هو خير الناس أو من خير الناس " الحديث ؛ وفي آخره قال أبو إسحاق : يعني أن هذا الرجل هو الخضر .

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب "الهواتف" بسند يرفعه إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه لقي الخضر وعلمه هذا الدعاء ، وذكر أن فيه ثواباً عظيماً ومغفرة ورحمة لمن قاله في أثر كل صلاة ، وهو : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يتبرم من إلحاح الملحين ، أذقني بَرْد عفوك ، وحلاوة مغفرتك .

وذكر أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الدعاء بعينه نحواً مما ذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في سماعه من الخضر .

وذكر أيضاً اجتماع إلياس مع النبي عليه الصلاة والسلام .

وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر ، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت في كل حول ، وأنهما يقولان عند افتراقهما : ما شاء الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله ، ما شاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

وأما خبر إلياس فيأتي في "والصافات" إن شاء الله تعالى .

(49/477)

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب "التمهيد" عن علي رضي الله تعالى عنه قال : لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وسُجِّي بثوب هتف هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، السلام عليكم أهل البيت ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] الآية إن في الله خَلَفاً من كل هالك ، وعوضاً من كل تالف ، وعَزاء من كل مصيبة ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِم

الثواب ؛ فكانوا يرون أنه الخضر عليه الصلاة والسلام .

يعني أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام .

والألف واللام في قوله : "على الأرض" للعهد لا للجنس وهي أرض العرب ، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالباً دون أرض يأجوج ومأجوج ، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه ، ولا يُعلَم علمه .

ولا جواب عن الدجال .

قال السهيلي : واختلف في اسم الخضر اختلافاً متبايناً ؛ فعن ابن منبه أنه قال : أَيْلَيا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

وقيل : هو ابن عاميل بن سماقحين بن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحاق ، وأن أباه كان مَلِكاً ، وأن أمه كانت بنت فارس واسمها ألمى ، وأنها ولدته في مغارة ، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه في كل يوم من غنم رجل من القرية ، فأخذه الرجل فربّاه ، فلما شَبَّ وطلب المِلكُ أبوه كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التي أنزلت على إبراهيم وشيث ، كان ممن أقدم عليه من الكتاب ابنه الخضر وهو لا يعرفه ، فلما استحسن خطه ومعرفته ، وبحث عن جلية أمره عرف أنه ابنه ، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس ، ثم إن الخضر فرّ من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها ، فهو حيّ إلى

أن يخرج الدجال ، وأنه الرجل الذي يقتله الدجال ويقطعه ثم يحييه الله تعالى .

وقيل : لم يدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا لا يصح .

(50/477)

وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : إنه مات قبل انقضاء المائة ، من قوله عليه الصلاة والسلام : " إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد " يعني من كان حياً حين قال هذه المقالة .

قلت : قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه ، وبَيَّنا حياة الخضر إلى الآن ، والله أعلم .

الخامسة : قيل : إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني ؛ قال : كن بَسَّاماً ولا تكن ضَحَّاكاً ، ودع اللَّجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تعب على الخطّائين خطاياهم ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(51/477)

وقال أبو حيان :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾

روي أن موسى عليه السلام لما عزم الخضر على مفارقته أخذ بثيابه ، وقال : لا أفارقك حتى تخبرني بم أباح لك فعل ما فعلت ، فلما التمس ذلك منه أخذ في البيان والتفصيل ، فقال : ﴿ أما السفينة ﴾ فبدأ بقصة ما وقع له أولاً .

قيل : كانت لعشرة إخوة ، خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر .

وقيل : كانوا أجراء فنسبت إليهم للاختصاص .

وقرأ الجمهور : مساكين بتخفيف السين جمع مسكين .

وقرأ عليّ كرم الله وجهه بتشديد السين جمع مساك جمع تصحيح .

فقيل : المعنى ملاحين ، والمساك الذي يمسك رجل السفينة وكل منهم يصلح لذلك .

وقيل : المساكون دبَغَة المسوك وهي الجلود واحدها مسك ، والقراءة الأولى تدل على أن السفينة كانت لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم ، واحتج بهذه الآية على أن المسكين هو الذي له بلغة من العيش كالسفينة لهؤلاء ، وأنه أصلح حالاً من الفقير .

وقوله ﴿ فأردت ﴾ فيه إسناد إرادة العيب إليه .

وفي قوله : فأراد ربك أن يبلغا لما في ذكر العيب ما فيه فلم يسنده إلى الله ، ولما في ذلك من فعل الخير أسنده إلى الله تعالى .

قال الزمخشري : فإن قلت : قوله ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدم عليه ؟ قلت : النية به التأخير ، وإنما قدم للعناية ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها ﴿ لمساكين ﴾ فكان بمنزلة قولك : زيد ظني مقيم .

وقيل في قراءة أبيّ وعبد الله كل سفينة صالحة انتهى .

ومعنى ﴿ أن أعيبها ﴾ بخرقها .

وقرأ الجمهور ﴿ وراءهم ﴾ وهو لفظ يطلق على الخلف وعلى الأمام ، ومعناه هنا أمامهم .

وكذا قرأ ابن عباس وابن جبير .

(52/477)

وكون ﴿ وراءهم ﴾ بمعنى أمامهم قول قتادة وأبي عبيد وابن السكيت والزجاج ، ولا خلاف عند أهل اللغة أن وراء يجوز بمعنى قدام ، وجاء في التنزيل والشعر قال تعالى ﴿ من ورائه جهنم ﴾ وقال ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ وقال ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ وقال لبيد :

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . .

لزوم العصا يحني عليها الأصابع

وقال سوار بن المضرب السعدي :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . .

وقومي تميم والفلاة ورائيا

وقال آخر :

أليس ورائي أن أدب على العصا . . .

فتأمن أعداء وتسأمني أهلي

وقال ابن عطية : وقوله ﴿ وراءهم ﴾ عندي هو على بابه ، وذلك أن هذه الالفاظ إنما تجيء يراعى بها الزمن ، والذي يأتي بعد هو الوراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر بادي الرأي ، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد ، فهذه الآية معناها أن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمن غصب هذا الملك ، ومن قرأ أمامهم أراد في المكان أي إنهم كانوا يسيرون إلى بلده وقوله تعالى في التوراة والإنجيل .

إنها بين يدي القرآن ، مطرد على ما قلناه في الزمن .

وقوله ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ مطرد كما قلنا من مراعاة الزمن .

وقول النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " الصلاة أمامك " يريد في المكان ، وإلاّ فكونهم في

ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمن .

وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ ووقع لقتادة في كتب الطبري ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ .

قال قتادة : أمامهم ألا ترى أنه يقول ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ وهي من بين أيديهم ، وهذا القول غير مستقيم وهذه هي العجة التي كان الحسن بن أبي الحسن يضج منها قاله الزجّاج .

ويجوز أن كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب فكان وراءهم حقيقة انتهى .

وهو كلام فيه تكثير وكأنه ينظر إلى ما قاله الفراء .

(53/477)

قال الفراء : لا يجوز أن يقال للرجل بين يديك هو وراءك ، إنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي والأيام والدهر تقول : وراءك برد شديد ، وبين يديك برد شديد جاز الوجهان لأن البرد إذا لحقك صار من ورائك ، وكأنك إذا بلغته صار بين يديك .

قال : إنما جاز هذا في اللغة لأن ما بين يديك وما قدامك إذا توارى عنك فقد صار وراءك .

وقال أبو علي : إنما جاز استعمال وراء بمعنى أمام على الاتساع لأنها جهة مقابلة لجهة

فكانت كل واحدة من الجهتين وراء الأخرى إذا لم يرد معنى المواجهة ، ويجوز ذلك في الأجرام التي لا وجه لها مثل حجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ، وأكثر أهل اللغة على أن وراء من الأضداد انتهى .

قيل : واسم هذا الملك هدد بن بدد وكان كافراً .

وقيل : الجلندي ملك غسان ، وقوله ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ في هذا حذف وهو أن المعنى وكان كافراً وكذا وجد في مصحف أبيّ .

وقرأ ابن عباس : ﴿ وأما الغلام فكان ﴾ كافراً وكان ﴿ أبواه مؤمنين ﴾ ونص في الحديث على أنه كان كافراً مطبوعاً على الكفر ، ويراد بأبويه أبوه وأمه ثنى تغليباً من باب القمرين في القمر والشمس ، وهي تثنية لا تنقاس .

وقرأ أبو سعيد الخدري والجحدري : فكان أبواه مؤمنان ، فخرجه الزمخشري وابن عطية وأبو الفضل الرازي على أن في كان ضمير الشأن ، والجملة في موضع خبر لكان ، وأجاز أبو الفضل الرازي على أن في كل ضمير الشأن والجملة في موضع خبر لكان ، وأجاز أبو الفضل الرازي أن يكون مؤمنان على لغة بني الحارث بن كعب ، فيكون منصوباً ، وأجاز أيضاً أن يكون في كان ضمير الغلام والجملة خبر كان .

﴿ فخشينا ﴾ أي خفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين ﴿ طغياناً ﴾ عليهما ﴿ وكفراً ﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ، ويلحق بهما شراً وبلاءً ، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفرة ،

فيجتمع في بيت واحد مؤمنان ، وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان .

(54/477)

وإنما خشي الخضر منه ذلك لأن الله عز وعلا أعلمه بحاله وأطلعه على سرائر أمره وأمره بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته .

وفي قراءة أُبيّ فخاف ربك ، والمعنى فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره .

ويجوز أن يكون قوله ﴿ فخشينا ﴾ حكاية لقول الله عز وجل بمعنى فكرهنا كقوله ﴿ لأهب لك ﴾ قاله الزمخشري .

وفي قوله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته مذهب المعتزلة في قولهم بالأجلين ، والظاهر إسناد فعل الخشية في خشينا إلى ضمير الخضر وأصحابه الصالحين الذين أهمهم الأمر وتكلموا .

وقيل : هو في جهة الله وعنه عبر الخضر وهو الذي قال فيه الزمخشري ، ويجوز أن يكون إلى آخر كلامه .

قال الطبري : ومعناه وقال : معناه فكرهنا .

قال ابن عطية : والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها استعارة أي على ظن المخلوقين ، والمخاطب لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للوالدين .

وقرأ ابن مسعود فخاف ربك ، وهذا بين الاستعارة في القرآن في جهة الله تعالى من لعل وعسى فإن جميع ما في هذا كله من ترج وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون .

و ﴿ يرهقهما ﴾ معناه يجشمهما ويكلفهما بشدة ، والمعنى أن يلقيهما حبه في اتّباعه .

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة وحميد والأعمش وابن جرير ﴿ أن يبدلهما ﴾ بالتشديد هنا وفي التحريم والقلم .

وقرأ باقي السبعة والحسن وابن محيصن بالتخفيف ، والزكاة هنا الطهارة والنقاء من الذنوب وما ينطوي عليه من شرف الخلق والسكينة ، والرحم والرحمة العطف مصدران كالكثر والكثرة ، وافعل هنا ليست للتفضيل لأن ذلك الغلام لا زكاة فيه ولا رحمة .

والظاهر أن قوله ﴿ وأقرب رحماً ﴾ أي رحمة والديه وقال ابن جريج : يرحمانه .

وقال رؤبة بن العجاج :

يا منزل الرحم على إدريسا . . .

ومنزل اللعن على إبليسا

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر في رواية ويعقوب وأبو حاتم ﴿ رحماً ﴾ بضم الحاء .

وقرأ ابن عباس ﴿ رحماً ﴾ بفتح الراء وكسر الحاء .

وقيل الرحم من الرحم والقرابة أي أوصل للرحم .

قيل : ولدت غلاماً مسلماً .

وقيل : جارية تزوجها نبي فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم .

وقيل : ولدت سبعين نبياً .

رُوي ذلك عن ابن عباس .

قال ابن عطية : وهذا بعيد ولا تعرف كثرة الأنبياء إلاّ في بني إسرائيل ، ولم تكن هذه المرأة منهم انتهى .

ووصف الغلامين باليتم يدل على أنهما كانا صغيرين .

وفي الحديث : " لا يتم بعد بلوغ " أي كانا ﴿ يتيمين ﴾ على معنى الشفقة عليهما .

قيل : واسمهما أصرم وصريم ، واسم أبيهما كاشح واسم أمهما دهنا ، والظاهر في الكنز أنه مال مدفون جسيم ذهب وفضة قاله عكرمة وقتادة .

وقال ابن عباس وابن جبير : كان علماً في مصحف مدفونة .

وقيل : لوح من ذهب فيه كلمات حكمة وذكر ، وقد ذكرها المفسرون في كتبهم ولا نطول بذكرها ، والظاهر أن أباهما هو الأقرب إليهما الذي ولدهما دنية .

وقيل : السابع .

وقيل : العاشر وحفظ هذان الغلامان بصلاح أبيهما .

وفي الحديث : " إن الله يحفظ الرجل الصالح في ذريته " وانتصب ﴿ رحمة ﴾ على المفعول له وأجاز الزمخشري أن ينصب على المصدر بأراد قال : لأنه في معنى رحمهما ، وأجاز أبو البقاء أن ينتصب على الحال وكلاهما متكلف .

﴿ وما فعلته ﴾ أي وما فعلت ما رأيت من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار عن اجتهاد مني ورأي ، وإنما فعلته بأمر الله وهذا يدل على أنه نبيّ أوحي إليه .

و﴿ تسطع ﴾ مضارع اسطاع بهمزة الوصل .

قال ابن الكسيت : يقال ما استطيع وما اسطيع وما استتيع واستيع أربع لغات ، وأصل اسطاع استطاع على وزن استفعل ، فالمحذوف في اسطاع تاء الافتعال لوجود الطاء التي هي أصل ولا حاجة تدعو إلى أن المحذوف هي الطاء التي هي فاء الفعل ، ثم أبدلوا من تاء الافتعال طاءً ، وأما استتيع ففيه أنهم أبدلوا من الطاء تاء ، وينبغي في تستيع أن يكون المحذوف تاء الافتعال كما في تسطيع .

وفي كتاب التحرير والتحبير ما نصه : تعلق بعض الجهال بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام على أن الخضر أفضل من موسى وطردوا الحكم ، وقالوا : قد يكون بعض الأولياء أفضل من آحاد الأنبياء ، واستدلوا أيضاً بقول أبي يزيد خضت بحراً وقف الأنبياء على ساحله وهذا كله من ثمرات الرعونة والظنة بالنفس انتهى .

وهكذا سمعنا من يحكي هذه المقالة عن بعض الضالين المضلين وهو ابن العربي الطائي الحاتمي صاحب الفتوح المكية ، فكان ينبغي أن يسمي بالقبوح الهلكية وأنه كان يزعم أن الوّلي خير من النبيّ قال : لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة ، والنبيّ يأخذ بواسطة عن الله ، ولأن الولي قاعد في الحضرة الألهية والنبيّ مرسل إلى قوم ، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة إلى أشياء من هذه الكفريات والزندقة ، وقد كثر معظّمو هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة نسأل الله السلام في أدياننا وأبداننا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(57/477)

وقال أبو السعود :

﴿ أَمَّا السفينة ﴾ التي خرقتُها ﴿ فَكَانَتْ لمساكين ﴾ لضعفاءَ لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة ، وقيل : كانت لعشرة إخوةٍ خمسةٌ زمنى وخمسة ﴿ يَعْمَلُونَ فِى البحر ﴾ وإسنادُ العمل إلى الكل حينئذ إنما هو بطريق التغليب أو لأن عملَ الوكلاءِ عمل الموكِّلين ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي أجعلها ذاتَ عيب ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ أي أمامَهم وقد قرىء به أو خلفَهم وكان رجوعُهم عليه لا محالة واسمه جَلَندَي بنُ كركر ، وقيل : منولة بن جلندي الأزْدي ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ أي صالحةٍ وقد قرىء كذلك ﴿ غَصْباً ﴾ من أصحابها وانتصابُه على أنه مصدرٌ مبينٌ لنوع الأخذ ، ولعل تفريعَ إرادةِ تعييب السفينةِ على مسكنة أصحابِها قبل بيان خوفِ الغصْب مع أن مدارَها كلا الأمرين ، للاعتناء بشأنها إذ هي المحتاجةُ إلى التأويل ، وللإيذان بأن الأقوى في المدارية هو الأمرُ الأولُ ولذلك لا يبالي بتخليص سفنِ سائرِ الناس مع تحقق خوفِ الغصبِ في حقهم أيضاً ، ولأن في التأخير فصلاً بين السفينة وضميرِها مع توهم رجوعِه إلى الأقرب .

(58/477)

﴿ وَأَمَّا الغلام ﴾ الذي قتلتُه ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ لم يصرح بكفرانه أو بكفره إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر لظهوره ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ فخِفنا أن يغْشَى الوالدَين المؤمنَين ﴿ طُغْيَانًا ﴾ عليهما ﴿ وَكُفْراً ﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعِه ويُلحق بهما شراً وبلاءً ، أو يُقرَنَ بإيمانهما طغيانُه وكفره فيجتمَع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافرٌ ، أو يُعدِيَهما بدائه ويُضلّهما بضلاله فيرتدّا بسببه ، وإنما خشِيَ الخَضِر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمرِه ، وقرىء فخاف ربك أي كره سبحانه كراهةَ مَن خاف سوء عاقبة الأمر فغيّره ، ويجوز أن تكون القراءةُ المشهورة على الحكاية بمعنى فكرِهنا كقوله تعالى : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً ﴾ منه بأن يرزُقهما بدلَه ولداً خيراً ﴿ مِنْهُ ﴾ وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ والإضافةِ إليهما ما لا يخفى من الدِلالة على إرادة وصولِ الخير إليهما ﴿ زكواة ﴾ طهارةً من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي رحمةً وعطفاً ، قيل : وُلدت لهما جاريةٌ تزوجها نبي فولدت نبياً هدى أي تعالى على يده أمةً من الأمم ، وقيل : ولدت سبعين نبياً ، وقيل : أبدلهما ابناً مؤمناً مثلَهما ، وقرىء رُحُماً بضم الحاء أيضاً وانتصابُه على التمييز مثلُ زكوة .

﴿ وَأَمَّا الجدار ﴾ المعهودُ ﴿ فَكَانَ لغلامين يَتِيمَيْنِ فِى المدينة ﴾ هي القريةُ المذكورة فيما سبق ، ولعل التعبيرَ عنها بالمدينة لإظهار نوعِ اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالحِ ، قيل : اسماهما أصرم وصريم واسمُ المقتول جيسور ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ من فضة وذهب كما رُوي مرفوعاً . والذمُّ على كنزهما في قوله عز وجل : ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة ﴾ لمن لا يؤدي زكاتَهما وسائرَ حقوقهما . وقيل : كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه : (عجبْتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزَن ، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعَب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفُل ، وعجبت لمن يعرِف الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله) . وقيل : صحفٌ فيها علم . ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ تنبيهٌ على أن سعيَه في ذلك كان لصلاحه ، قيل : كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعة آباء ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ أي مالكُك ومدبرُ أمورك ، ففي إضافة الربِّ إلى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيهٌ له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمالِ الانقيادِ والاستسلامِ لإرادته سبحانه ووجوبِ الاحترازِ عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة ﴿ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أي حُلُمَهما وكمالَ رأيهما ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا ﴾ بالكلية ﴿ كَنزَهُمَا ﴾ من تحت الجدار ولولا أني أقمتُه لانقضّ وخرج الكنزُ من تحته قبل اقتدارهما على حفظ

المال وتنميتِه وضاع ﴿ رَحْمَةً مّن رَّبّكَ ﴾ مصدرٌ في موقع الحال أي مرحومَين منه عز وجل ، أو مفعولٌ له أو مصدرٌ مؤكدٌ لأراد فإن إرادةَ الخير رحمةٌ ، وقيل : متعلقٌ بمضمر أي فعلتُ ما فعلتُ من الأمور التي شاهدتَها رحمةً من ربك ، ويعضُده إضافةُ الرب إلى ضمير المخاطبِ دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ

(60/477)

أَمْرِى ﴾ أي عن رأيي واجتهادي تأكيداً لذلك ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومةِ في سلك البيان ، وما فيه معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتِها في الفخامة ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع ﴾ أي لم تستطع فحُذف التاء للتخفيف ﴿ عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ من الأمور التي رابتْه أي مآلُه وعاقبتُه فيكون إنجازاً للتنبئة الموعودةِ ، أو إلى البيان نفسه فيكون التأويلُ بمعناه ، وعلى كل حالٍ فهو فذلكةٌ لما تقدم ، وفي جعل الصلة عينَ ما مر تكريرٌ للنكير وتشديدٌ للعتاب .

تنبيه : اختلفوا في حياة الخضر عليه الصلاة والسلام ، فقيل : إنه حيٌّ وسببُه أنه كان على مقدمة ذي القرنين فلما دخل الظلماتِ أصاب الخضرُ عينَ الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريقَ فعاد ، قالوا : وإلياسُ أيضاً في الحياة يلتقيان كلَّ سنة

بالموسم ، وقيل : إنه ميتٌ لما رُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى العشاءَ ذاتَ ليلة ، ثم قال : " أرأيتَكم ليلتَكم هذه فإن رأسَ مائةِ سنة منها لا يبقي ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ ولو كان الخضرُ حينئذ حيًّا لما عاش بعد مائة عام " . رُوي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه ، قال له : أوصِني ، قال : لا تطلب العلمَ لتحدّث به واطلبُه لتعمل به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(61/477)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمَّا السفينة ﴾

التي خرقها ﴿ فَكَانَتْ لمساكين ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة جمع مسكين بكسر الميم وفتحها ويجمع على مساكين ومسكينون وهو الضعيف العاجز ، ويشمل هذا ما إذا كان العجز لأمر في النفس أو البدن ومن هنا قيل سموا مساكين لزمانتهم وقد كانوا عشرة خمسة منهم زمني وإطلاق مساكين عليهم على هذا من باب التغليب ، وهذا المعنى للمسكين غير ما اختلف الفقهاء في الفرق بينه وبين الفقير وعليه لا تكون الآية حجة لمن يقول : إن المسكين من يملك شيئاً ولا يكفيه لأن هذا المعنى مقطوع فيه النظر عن المال

وعدمه .

وقد يفسر بالمحتاج وحينئذ تكون الآية ظاهرة فيما يدعيه القائل المذكور ، وادعى من يقول : إن المسكين من لا شيء له أصلاً وهو الفقير عند الأول أن السفينة لم تكن ملكاً لهم بل كانوا أجراء فيها ، وقيل : كانت معهم عارية واللام للاختصاص لا للملك ولا يخفى أن ذلك خلاف الظاهر ولا يقبل بلا دليل ، وقيل : إنهم نزلوا منزلة من لا شيء له أصلاً وأطلق عليهم المساكين ترحماً .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ لمساكين ﴾ بتشديد السين جمع تصحيح لمساك فقيل : المعنى لملاحين ، وقيل : المساك من يمسك رجل السفينة وكانوا يتناوبون ذلك ، وقيل : المساكون دبغة المسوك وهي الجلود واحدها مسك ولعل إرادة الملاحين أظهر ﴿ يَعْمَلُونَ فِى البحر ﴾ أي يعملون بها فيه ويتعيشون بما يحصل لهم ، وإسناد العمل إلى الكل على القول بأن منهم زمني على التغليب أو لأن عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي اجعلها ذات عيب بالخرق ولم أرد إغراق من بها كما مسبت ولإرادة هذا المعنى جيء بالإرادة ولم يقل فأعبتها .

وهذا ظاهر في أن اللام في الاعتراض للتعليل ويحتاج حملها على العاقبة إلى ارتكاب خلاف الظاهر هنا كما لا يخفى على المتأمل ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ أي أمامهم وبذلك قرأ ابن

عباس .

وابن جبير .

(62/477)

وهو قول قتادة .

وأبي عبيد .

وابن السكيت .

والزجاج ، وعلى ذلك جاء قول لبيد :

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . .

لزوم العصا تحني عليها الأصابع

وقول سوار بن المضرب السعدي :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . .

وقومي تميم والفلاة ورائياً

وقول الآخر :

أليس ورائي أن أدب على العصا . . .

فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي

وفي القرآن كثير أيضاً ، ولا خلاف عند أهل اللغة في مجيء وراء بمعنى أمام وإنما الخلاف في غير ذلك ، وأكثرهم على أنه معنى حقيقي يصح إرادته منها في أي موضع كان وقالوا : هي من الأضداد ، وظاهر كلام البعض أن لها معنى واحداً يشمل الضدين فقال ابن الكمال نقلاً عن الزمخشري : إنها اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام ، وقال البيضاوي ما حاصله : إنه في الأصل مصدر ورا يرئى كقضا يقضي وإذا أضيف إلى الفاعل يراد به المفعول أعني المستور وهو ما كان خلفاً وإذا أضيف إلى المفعول يراد به الفاعل أعني الساتر وهو ما كان قداماً .

ورد عليه بقوله تعالى : ﴿ ارجعوا وَرَاءكُمْ ﴾ [الحديد : 13] فإن وراء أضيفت فيه إلى المفعول والمراد بها الخلف .

وقال الفراء : لا يجوز أن يقال للرجل بين يديه هو وراءك وكذا في سائر الأجسام وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي والأيام ؛ وقال أبو علي : إنما جاز استعمال وراء بمعنى أمام على الاتساع لأنها جهة مقابلة لجهة فكانت كل واحدة من الجهتين وراء الأخرى إذا لم يرد معنى المواجهة ويجوز ذلك في الأجرام التي لا وجه لها مثل حجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ، وقيل : أي خلفهم كما هو المشهور في معنى وراء .

واعترض بأنه إذا كان خلفهم فقد سلموا منه .

وأجيب بأن المراد أنه خلفهم مدرك لهم ومار بهم أو بان رجوعهم عليه واسمه على ما يزعمون هدد بن بدد وكان كافراً ، وقيل .

جلندي بن كركر ملك غسان ، وقيل .

(63/477)

مفواد بن الجلند بن سعيد الأزدي وكان بجزيرة الأندلس ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ أي صالحة وقد قرأ كذلك أبي بن كعب ، ولو أبقى العموم على ظاهره لم يكن للتعييب فائدة ﴿ غَصْباً ﴾ من أصحابها ، وانصابه على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ ، والظاهر أنه كان يغصب السفن من أصحابها ثم لا يردها عليهم ، وقيل .

كان يسخرها ثم يردها ، والفاء في ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ للتفريع فيفيد أن سبب إرادة التعييب كونها لقوم مساكين عجزة لكن لما كانت مناسبة هذا السبب للمسبب خفية بين ذلك بذكر عادة الملك في غصب السفن ، وما آل المعنى أما السفينة فكانت لقوم مساكين عجزة يكتسبون بها فأردت بما فعلت أعانتهم على ما يخافونه ويعجزون عن دفعه من غصب ملك وراءهم عادته غصب السفن الصالحة ، وذكر بعضهم أن السبب مجموع الأمرين المسكنة والغصب إلا أنه وسط التفريع بين الأمرين وكان الظاهر تأخيره عنهما

للغاية به من حيث أن ذلك الفعل كان هو المنكر المحتاج إلى بيان تأويله وللإيذان بأن الأقوى في السببية هو الأمر الأول ولذلك لم يبال بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق الجزء الأخير من السبب ولأن في تأخيره فصلاً بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه إلى الأقرب فليفهم ، وظاهر الآية أن موسى عليه السلام ما علم تأويل هذا الفعل قبل .

ويشكل عليه ما جاء عن الربيع أن الخضر عليه السلام بعد أن خرق السفينة وسلمت من الملك الظالم أقبل على أصحابها فقال : إنما أردت الذي هو خير لكم فحمدوا رأيه وأصلحها لهم كما كانت فإنه ظاهر في أنه عليه السلام أوقفهم على حقيقة الأمر ، والظاهر أن موسى عليه السلام كان حاضراً يسمع ذلك ، وقد يقال : إن هذا الخبر لا يعول عليه واحتمال صحته مع عدم سماع موسى عليه السلام مما لا يلتفت إليه .

﴿ وَأَمَّا الغلام ﴾ الذي قتله ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ ﴾ أي أبوه وأمه ففيه تغليب .

(64/477)

واسم الأب على ما في الاتقان كازير والأم سهواً ، وفي مصحف أبي وقراءة ابن عباس ﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ والمعنى على ذلك في قراءة السبعة إلا أنه ترك التصريح بكفره إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر لظهوره .

واستدل بتلك القراءة من قال : إن الغلام كان بالغاً لأن الصغير لا يوصف بكفر وإيمان حقيقيين .

وأجاب النووي عن ذلك بوجهين ، الأول : أن القراءة شاذة لا حجة فيها ، الثاني : أنه سماع بما يؤل إليه لو عاش .

وفي صحيح مسلم : أن الغلام طبع يوم طبع كافراً وأول بنحو هذا وكذا ما مر من خبر صاحب العرس والعرائس لكن في صحته توقف عندي لأنه ربما يقتضي بظاهره علم موسى عليه السلام بتأويل القتل قبل الفراق ، وعلى ما سمعت من التأويل لا يرد شيء مما ذكر على القول المنصور في الأطفال وهو أنهم مطلقاً في الجنة على أنه قيل الكلام في غير من أخبر الصادق بأنه كافر ، وقرأ أبو سعيد الخدري .

والجحدري ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ ﴾ وخرجه الزمخشري .

وابن عطية .

وأبو الفضل الرازي على أن في كان ضمير الشأن ، والجملة في موضع الخبر لهما ، وأجاز أبو الفضل أن يكون ﴿ مؤمنان ﴾ على لغة بني الحرث بن كعب فيكون منصوباً ، وأجاز أيضاً أن يكون في كان ضمير ﴿ وَأَمَّا الغلام ﴾ والجملة في موضع الخبر .

﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ فخفنا خوفاً شديداً أن يغشى الوالدين المؤمنين لو بقي حياً ﴿ طُغْيَانًا ﴾ مجاوزة للحدود الإلهية ﴿ وَكُفْرًا ﴾ بالله تعالى وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته كما روى عن ابن جبير ، ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره ، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ليتأتى هذا التفظيع أو ليكون المعنى فخشينا أن يدنس إيمانهم أولاً ويزيله آخراً ، ويلتزم هذا القول بأن ذلك أشنع وأقبح من إزالته بدون سابقية تدنيس ؛ وفسر بعد شراح البخاري الخشية بالعلم فقال : أي علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر فيجيبانه ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما إياه ، وقيل : المعنى خشينا أن يغشيهما طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما عليه من تربيتهما إياه وكونهما سبباً لوجوده بسبب عقوقه وسوء صنيعه فيلحقهما شر وبلاء ، وقيل : المعنى خشينا أن يغشيهما ويقرين بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر ، وفي بعض الآثار أن الغلام كان يفسد وفي رواية يقطع الطريق ويقسم لأبويه أنه ما فعل فيقسمان على قسمه ويحميانه ممن يطلبه .

(66/477)

واستدل بذلك من قال : إنه كان بالغاً ، والذاهب إلى صغره يقول إن ذلك لا يصح ولعل الحق معه ، والظاهر أن هذا من كلام الخضر عليه السلام أجاب به موسى عليه السلام من جهته ، وجوز الزمخشري أن يكون ذلك حكاية لقول الله عز وجل والمراد فكر هنا بجعل الخية مجازاً مرسلاً عن لازمها وهو الكراهة على ما قيل ، قال في "الكشف" : وذلك لاتحاد مقام المخاطبة كان سؤال موسى عليه السلام منه تعالى والخضر عليه السلام بإذن الله تعالى يجيب عنه وفي ذلك لطف ولكن الظاهر هو الأول انتهى ، وقيل : هو على هذا الاحتمال بتقدير فقال الله : خشينا والفاء من الحكاية وهو أيضاً بعيد ولا يكاد يلائم هذا الاحتمال الآية بعد إلا أن يجعل التعبير بالظاهر فيها التفاتاً ، وفي مصحف عبد الله وقراءة أبي فخاف ربك والتأويل ما سمعت .

وقال ابن عطية : إن الخوف والخشية كالترجي بلعل ونحوها الواقع في كلامه تعالى مصروف إلى المخاطبين وإلا فالله جل جلاله منزه عن كل ذلك .

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81)

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ ﴾ بأن يرزقهما بدله ولداً خيراً منه ﴿ زكواة ﴾ قال ابن عباس : أي ديناً وهو تفسير باللازم ؛ والكثير قالوا : أي طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة ، وفي التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي رحمة ، قال رؤبة بن العجاج :

يا منزل الرحم على إدريسا . . .

ومنزل اللعن على إبليسا

وهما مصدران كالكثر والكثرة ، والمراد أقرب رحمة عليهما وبراً بهما واستظهر ذلك أبو حيان ، ولعل وجهه كثرة استعمال المصدر مبنياً للفاعل مع ما في ذلك هنا من موافقة المصدر قبله ، وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر .

(67/477)

وابن أبي حاتم عن عطية أن المعنى هما به أرحم منهما بالغلام ، ولعل المراد على هذا أنه أحب إليهما من ذلك الغلام إما لزيادة حسن خلقه أو خلقه أو الاثنين معاً ، وهذا المعنى أقرب للتأسيس من المعنى الأول على تفسير المعطوف عليه بما سمعت إلا أنه يؤيد ذلك التفسير ما أخرجه ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهما أبدلا جارية ولدت نبياً ، وقال الثعلبي : إنها أدركت يونس بن متى فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت نبياً هدى الله تعالى على يده أمة من الأمم ، وفي رواية ابن المنذر عن يوسف بن عمر أنها ولدت نبيين ، وفي رواية أخرى عن ابن

عباس .

وجعفر الصادق رضي الله تعالى عنهما أنها ولدت سبعين نبياً ، واستبعد هذا ابن عطية وقال : لا يعرف كثرة الأنبياء عليهم السلام إلا في بني إسرائيل ولم تكن هذه المرأة منهم وفيه نظر ظاهر ، ووجه التأييد أن الجارية بحسب العادة تحب أبويها وترحمهما وتعطف عليهما وتبر بهما أكثر من الغلام قيل : أبدلهما غلاما مؤمناً مثلهما ، وانتصاب المصدرين على التمييز والعامل ما قبل كل من أفعل التفضيل ، ولا يخفي ما في الإبهام أولاً ثم البيان ثانياً من اللطف ولذا لم يقل : فأردنا أن يبدلهما ربهما أزكى منه وأرحم على أن في خير زكاة من المدح ما ليس في أزكى كما يظهر بالتأمل الصادق .

وذكر أبو حيان أن أفعل ليس للتفضيل هنا لأنه لا زكاة في ذلك الغلام ولا رحمة .

وتعقب بأنه كان زكياً طاهراً من الذنوب بالفعل إن كان صغيراً وبحسب الظاهر إن كان بالغاً فلذا قال موسى عليه السلام ﴿ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ [الكهف : 74] وهذا في مقابلته فخير من زكاة من هو زكي في الحال والمآل بحسب الظاهر والباطن ولو سلم فالاشتراك التقديري يكفي في صحة التفضيل وأن قوله : ولا رحمة قول بلا دليل انتهى .

(68/477)

وقال الخفاجي : إن الجواب الصحيح هنا أن يكتفي بالاشتراك التقديري لأن الخضر عليه السلام كان عالماً بالباطن فهو يعلم أنه لا زكاة فيه ولا رحمة فقوله : إنه لا دليل عليه لا وجه له ، وأنت تعلم أن الرحمة على التفسير الثاني مما لا يصح نفيها لأنها مدار الخشية فافهم ، والظاهر أن الفاء للتفريع فيفيد سببية الخشية للإرادة المذكورة ويفهم من تفريع القتل ، ولم يفرعه نفسه مع أنه المقصود تأويله اعتماداً على ظهور انفهامه من هذه الجملة على ألطف وجه ، وفيها إشارة إلى رد ما يلوح به كلام موسى عليه السلام من أن قتله ظلم وفساد في الأرض .

وقرأ نافع .

وأبو عمرو .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وحميد .

والأعمش .

وابن جرير ﴿ يُبْدِلَهُمَا ﴾ بالتشديد .

وقرأ ابن عامر .

وأبو جعفر في رواية .

ويعقوب .

وأبو حاتم ﴿ رُحْماً ﴾ بضم الحاء ، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ رُحْماً ﴾ بفتح الراء وكسر الحاء .

﴿ وَأَمَّا الجدار ﴾ المعهود ﴿ فَكَانَ لغلامين ﴾ قيل : إنهما أصرم وصريم ﴿ يَتِيمَيْنِ ﴾ صغيرين مات أبوهما وهذا هو الظاهر لأن يتم بني آدم بموت الأب ، وفي الحديث " لا يتم بعد بلوغ " وقال ابن عطية : يحتمل أنهما كانا بالغين والتعبير عنهما بما ذكر باعتبار ما كان على معنى الشفقة عليهما ولا يخفى أنه بعيد جداً ﴿ فِى المدينة ﴾ هي القرية المذكورة فيما سبق ، ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح .

ولما كان سوق الكلام السابق على غير هذا المساق عبر بالقرية فيه ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ مال مدفون من ذهب وفضة كما أخرجه البخاري في تاريخه .

والترمذي .

والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء وبذلك قال عكرمة .

وقتادة وهو في الأصل مصدر ثم أريد به اسم المفعول .

قال الراغب : الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه وأصله من كنزت التمر في الوعاء ، واستشكل تفسير الكنز بما ذكر بأن الظاهر أن الكانز له أبوهما لاقتضاء ﴿ لَّهُمَا ﴾ له إذا لا يكون لهما إلا إذا كان إرثاً أو كانا قد استخرجاه والثاني منتف فتعين الأول وقد وصف بالصلاح ، ويعارض ذلك ما جاء في ذم الكانز .

وأجيب بأن المذموم ما لم تؤد منه الحقوق بل لا يقال لما أديت منه كنز شرعاً كما يدل عليه عند القائلين بالمفهوم حديث كل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز فإن النبي صلى الله عليه وسلم بصدد بيان الأحكام الشرعية لا المفاهيم اللغوية لأنها معلومة للمخاطبين ولا يعتبر في مفهومه اللغوي المراد هنا شيء من الإخراج وعدمه ، والوصف بالصلاح قرينة على أنه لم يكن من الكنز المذموم ، ومن قال : إن الكنز حرام مطلقاً ادعى أنه لم يكن كذلك في شرع من قبلنا ، واحتج عليه بما أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء في هذه الآية قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز .

وأخرج عبد الرزاق .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك وفيه فلا يعجبن الرجل فيقول ما شأن الكنز حل لمن قبلنا وحرم علينا فإن الله تعالى يحل من أمره ما يشاء ويحرم ما يشاء وهي السنن والفرائض تحل

لأمة وتحرم على أخرى ، وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال : ما كان ذهباً ولا فضة ولكن كان صحب علم وروى ذلك أيضاً عن ابن جبير ، وأخرج ابن مردويه من حديث علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً والبزار عن أبي ذر كذلك ، والخرائطي عن ابن عباس موقوفاً أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(70/477)

وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنه مكتوب في أحد شقيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت الخ ؛ في الشق الآخر أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه وجمع بعضهم بأن المراد بالكنز ما يشمل جميع ذلك بناء على أنه المال المدفون مطلقاً ، وكل من المذكورات مال كان مدفوناً إلا أنه اقتصر في كل من الروايات على واحد منها وفيه أنه على بعده يأباه ظاهر قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما كان ذهباً ولا فضة ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا

﴿ الظاهر أنه الأب الأقرب الذي ولدهما ، وذكر أن اسمه كاشح وأن اسم أمهما دهناً ، وقيل : كان الأب العاشر ، وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه كان الأب السابع . وأياً كان ففي الآية دلالة على أن صلاح الآباء يفيد العناية بالأبناء ، وأخرج ابن أبي شيبة . وأحمد في الزهد .

وابن أبي حاتم عن خيثمة قال : قال عيسى عليه السلام طوبى لذرية المؤمن ثم طوبى لهم كيف يحفظون من بعده وتلا خيثمة هذه الآية .

وأخرج عبد بن حميد .

(71/477)

وابن المنذر عن وهب قال : إن الله تعالى ليحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس ، وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخورج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله تعالى مال الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما قال فأبى وجدي خير منه فقال الخارجي أنبأنا الله تعالى : إنكم قوم خصمون ، وذكر من صلاح هذا الرجل إن الناس كانوا يضعون عنده الودائع فيردها إليهم كما وضعوها ، ويروى أنه كان سياحاً ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ مالكك ومدبر أمورك ، ففي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له

على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبهما التي يشم منها طلب ما يحصل به تربية البدن وتدبيره ﴿ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ قيل أي الحلم وكمال الرأي ، وفي "الصحاح" القوة وهو ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين وهو واحد جاء على بناء الجمع مثل آنك ولا نظير لهما ، ويقال : هو جمع لا واحد له من لفظه مثل آسال وأبابيل وعباديد ومذاكير ، وكان سيبويه يقول : واحده شده وهو حسن في المعنى لأنه يقال بلغ الغلام شدته ولكن لا يجمع فعلة على أفعل ، وأما أنعم فإنما هو جمع نعم من قولهم يوم بؤس ويوم نعم ، وأما قول من قال : واحده شد مثل كلب وأكلب أو شد مثل ذئب وأذؤب فإنما هو قياس كما يقولون في واحد الأبابيل أبول قياساً على عجول وليس هو شيء يسمع من العرب .

(72/477)

﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ من تحت الجدار ولولا أني أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه والانتفاع به وذكروا أن اليتيمين كانا غير عالمين بالكنز ولهما وصي يعلم به لكنه كان غائباً والجدار قد شارف فلو سقط لضاع فلذا أقامه ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ مفعول له لأراد وأقيم الظاهر مقام الضمير ، وليس مفعولاً له ليستخرجا لاختلاف

الفاعل ، وبعضهم أجاز ذلك لعدم اشتراطه الاتحاد أو جعل المصدر من المبني للمفعول وأجاز أن يكون النصب على الحال وو من ضمير ﴿ يستخرجا ﴾ بتأويل مرحومين ، والزمخشري النصب على أنه مفعول مطلق لأراد فإن إرادة ذلك رحمة منه تعالى .

واعترض بأنه إذا كان أراد ربك بمعنى رحم كانت الرحمة من الرب لا محالة فأي فائدة في ذكر قوله تعالى ﴿ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ وكذا إذا كان مفعولاً له ؛ وقيل : في الكلام حذف والتقدير فعلت ما فعلت رحمة من ربك فهو حينئذ مفعول له بتقدير إرادة أو رجاء رحمة ربك أو منصوب بنزع الخافض والرحمة بمعنى الوحي أي برحمة ربك ووحيه فيكون قوله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي عن رأيي واجتهادي تأكيداً لذلك ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من العواقب المنظومة في سلك البيان ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجته في الفخامة ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع ﴾ أي تستطيع وهو مضارع اسطاع بهمز الوصل وأصله استطاع على وزن استفعل ثم حذف تاء الافتعال تخفيفاً وبقيت الطاء التي هي أصل .

وزعم بعضهم أن السين عوض قلب الواو ألفاً والأصل أطاع ولا حاجة تدعو إلى أن المحذوف هي الطاء التي هي فاء الفعل ثم دعوى أنهم أبدلوا من تاء الاتعال طاء لوقوعها بعد السين ويقال تستيع بإبدال الطاء تاء وتستيع بحذف تاء الافتعال فاللغات أربع كما قال ابن السكيت ، وما ألطف حذف أحد المتقاربين وبقاء الآخر في آخر هذا الكلام الذي وقع عنده ذهاب الخضر عن موسى عليهما السلام .

وقال بعض المحققين : إنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تخفيف الأخير ، وتعقب بأن ذلك مكرر أيضاً وذاك أخف منه فلم لم يؤت به ، وفيه أن الفرق ظاهر بين هذا وذلك ، وقيل : إنما خص بالتخفيف للإشارة إلى أنه خف على موسى عليه السلام ما لقيه ببيان سببه ، وتعقب بأنه يبعده أنه في الحكاية لا المحكي وأنت تعلم هذا وكذا ما ذكرناه زهرة لا تتحمل الفرك والتأويل بالمعنى السابق الذي ذكر أنه المراد أي ذلك مآل وعاقبة الذي لم تستطع ﴿ عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ من الأمور التي رأيت فيكون انجاز اللتنبئة الموعودة ، وجوز أن تكون الإشارة إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه المشهور ، وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم ، وفي جعل الصلة غير ما مر تكرير للتنكير وتشديد للعتاب ، قيل : ولعل إسناد الإرادة أولاً : إلى ضمير المتكلم وحده أنه الفاعل المباشر للتعييب ، وثانياً : إلى ضمير المتكلم ومعه غيره لأن إهلاك الغلام بمباشرته وفعله وتبديل غيره موقوف عليه وهو محض فعل الله تعالى وقدرته فضمير ن مشترك بين الله تعالى والخضر عليه السلام .

وثالثاً : إلى الله تعالى وحده لأنه لا مدخل له عليه السلام في بلوغ الغلامين واعترض توجيه

ضمير الجمع بأن الاجتماع المخلوق مع الله تعالى في ضمير واحد لا سيما ضمير المتكلم فيه من ترك الأدب ما فيه .

ويدل على ذلك ما جاء من أن ثابت بن قيس بن شماس كان يخطب في مجلسه صلى الله عليه وسلم إذا وردت وفود العرب فاتفق أن قدم وفد تميم فقام خطيبهم وذكر مفاخرهم ومآثرهم فلما أتم خطبته قام ثابت وخطب خطبة قال فيها من يطع الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بئس خطيب القوم أنت .

وصرح الخطابي أنه عليه الصلاة والسلام كره منه ما فيه من التسوية .

(74/477)

وأجيب بأنه قد وقع نحو ذلك في الآيات والأحاديث ، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبيّ ﴾ [الأحزاب : 56] فإن الظاهر أن ضمير ﴿ وملائكته يُصَلُّونَ عَلَى ﴾ راجع إلى الله تعالى وإلى الملائكة .

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الايمان : " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " ولعل ما كرهه صلى الله عليه وسلم من ثابت أنه وقف على قوله بعضهما : لا

التسوية في الضمير .

وظاهر هذا أنه لاكراهة مطلقاً في هذه التسوية وهو أحد الأقوال في في المسألة .

وثانيها : ما ذهب إليا الخطابي أنها تكره تنزيها .

وثالثها : ما يفهمه كلام الغزالي أنها تكره تحريماً .

وعلى القول بالكراهة التنزيهية استظهر بعضهم أنها غير مطردة فقد تكره في مقام دون مقام وبنى الجواب عما نحن فيه على ذلك فقال : لما كان المقام الذي قام فيه ثابت مقام خطابة وإطناب وهو بحضرة قوم مشركين والإسلام غض طري كره صلى الله عليه وسلم التسوية منه فيه وأما مثل هذا المقام الذي القائل فيه والمخاطب من عرفت وقصد فيه نكتة وهو عدم استقلاله فلا كراهة للتسوية فيه .

وخص بعض الكراهة بغير النبي صلى الله عليه وسلم وحينئذ يقوى الجواب عما ذكر لأنه إذا جازت للنبي صلى الله عليه وسلم فهو في كلام الله تعالى وما حكاه سبحانه بالطريق الأولى .

(75/477)

وخلاصة ما قرر في المسألة أن الحق أنه لا كراهة في ذلك في كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم كما أشير إليه في "شروح البخاري" وأما في حق البشر فلعل المختار أنه مكروه تنزيها في مقام دون مقام ، هذا وأنا لا أقول باشتراك هذا الضمير بين الله تعالى والخضر عليه السلام لا لأن فيه ترك الأدب بل لأن الظاهر أنه كضمير ﴿ خشينا ﴾ [الكهف : 80] والظاهر في ذاك عدم الاشتراك لأنه محوج لارتكاب المجاز على أن النكتة التي ذكروها في اختيار التشريك في ضمير أردنا لا تظهر في اختياره في ضمير ﴿ فَخَشِينَا ﴾ [الكهف : 80] لأنه لم يتضمن الكلام الأول فعلين على نحو ما تضمنهما الكلام الثاني فتدبر ، وقيل في وجه تغاير الأسلوب : أن الأول شر فلا يليق إسناده إليه سبحانه وأن كان هو الفاعل جل وعلا ، والثالث : خير فأفرد إسناده إلى الله عز وجل .

والثاني : ممتزج خبره وهو تبديله بخير منه وشره وهو القتل فأسند إلى الله تعالى وإلى نفسه نظراً لهما .

وفيه أن هذا الإسناد في ﴿ فَخَشِينَا ﴾ [الكهف : 80] أيضاً وأين امتزاج الخير والشر فيه ، وجعل النكتة في التعبير ينافيه مجرد الموافقة لتاليه ليس بشيء كما لا يخفى ، وقيل : الظاهر أنه أسند الإرادة في الأولين إلى نفسه لكنه تفنن في التعبير فعبر عنها بضمير المتكلم مع الغير بعد ما عبر بضمير المتكلم الواحد لأن مرتبة الانضمام مؤخرة عن مرتبة الانفراد مع أن فيه تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية

بخلاف التعييب .

وأسند فعل الإبدال إلى الله تعالى إشارة إلى استقلاله سبحان بالفعل وأن الحاصل للعبد مجرد مقارنة إرادة الفعل دون تأثير فيه كما هو المذهب الحق انتهى ، وأنت تعلم أن الأبدال نفسه مما ليس لإرادة العبد مقارنة له أصلاً وإنما لها مقارنة للقتل الموقوف هو عليه على أن في هذا التوجيه بعد ما فيه .

(76/477)

وفي الانتصاف لعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى لأن المراد ثم عيب فتأدب عليه السلام بأن نسب الإعابة إلى نفسه .

وأما إسناد الثاني إلى ن فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك أمرنا بكذا ودبرنا كذا وإما يعنون أمر الملك العظيم .

ودبر ويدل على ذلك قوله في الثالث ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ وهو كما ترى ، وقيل : اختلاف الأسلوب لاختلاف حال العارف بالله سبحانه فإنه في ابتداء أمره يرى نفسه مؤثرة فلذا أسند الإرادة أولاً إلى نفسه ثم يتنبه إلى أنه لا يستقل بالفعل بدون الله تعالى فلذا أسند إلى ذلك الضمير ثم يرى أنه لا دخل له وأن المؤثر والمريد إنما هو الله تعالى فلذا

أسنده إليه سبحانه فقط وهذا مقام الفناء ومقام كان الله ولا شيء معه وهو الآن كما كان ، وتعقب بأنه إن أريد أن هذه الأحوال مرت على الخضر عليه السلام واتصف بكل منها أثناء المحاورة فهو باطل وكيف يليق أن يكون إذ ذاك ممن يتصف بالمرتبة الثانية فضلاً عن المرتبة الأولى وهو الذي قد أوتي من قبل العلم اللدني .

وإن أريد أن عبر تعبير من اتصف بكل مرتبة من تلك المراتب وإن كان هو عليه السلام في أعلاها فإن كان ذلك تعليماً لموسى عليه السلام فموسى عليه السلام أجل من أن يعلمه الخضر عليه السلام مسألة خلق الأعمال .

وإن كان تعليماً لغيره عليه السلام فليس المقام ذلك المقام على تقدير أن يكون هناك غير يسمع منه هذا الكلام وإن أريد أنه عبر في المواضع الثلاثة بأسلوب مخصوص من هاتيك الأساليب إلا أنه سبحانه عبر في كل موضع بأسلوب فتعددت الأساليب في حكايته تعالى القصة لنا تعليماً وإشارة إلى هاتيك المراتب وإن لم يكن كلام الخضر عليه السلام كذلك فالله تعالى أجل وأعظم من أن ينقل عن أحد كلاماً لم يقله أو لم يقل ما بمعناه فالقول بذلك نوع افتراء عليه سبحانه .

(77/477)

والذي يخطر ببال العبد الفقير أنه روعي في الجواب حال الاعتراض وما تضمنه وأشار إليه فلما كان الاعتراض الأول بناء على أن لام ﴿ لِتُغْرِقَ ﴾ [الكهف : 71] للتعليل متضمناً إسناد إرادة الإغراق إلى الخضر عليه السلام وكان الإنكار فيه دون الإنكار فيما يليه بناء على ما اختاره المحققون من أن ﴿ نُّكْراً ﴾ [الكهف : 74] أبلغ من ﴿ أَمْراً ﴾ [الكهف : 71] ناسب أن يشرح بإسناد إرادة التعييب إلى نفسه المشير إلى نفي إرادة الإغراق عنها التي يشير كلام موسى عليه السلام إليها وأن لا يأتي بما يدل على التعظيم أو ضم أحد معه في الإرادة لعدم تعظيم أمر الانكار المحوج لأن يقابل بما يدل على تعظيم إرادة خلاف ما حسبه عليه السلام وأنكره .

ولما كان الاعتراض الثاني في غاية المبالغة والإنكار هناك في نهاية الإنكار ناسب إن يشير إلى أن ما اعترض عليه وبولغ في إنكاره قد أريد به أمر عظيم ولو لم يقع لم يؤمن من وقوع خطب جسيم فلذا أسند الخشية والإرادة إلى ضمير المعظم نفسه أو المتكلم ومعه غيره فإن في إسناد الإرادة إلى ذلك تعظيماً لأمرها وفي تعظيمه تعظيم أمر المراد وكذا في إسناد الخشية إلى ذلك تعظيم أمرها ، وفي تعظيمه تعظيم أمر المخشي .

(78/477)

وربما يقال بناء على إرادة الضم منا : إن في ذلك الإسناد إشارة إلى أن ما يخشى وما يراد قد بلغ من العظم إلى أن يشارك موسى عليه السلام في الخشية منه ، وفي إرادته الخضر لا أن يستقل بإنكار ما هو من مبادي ذلك المراد وبه ينقطع عن الأصلين عرق الفساد ، ولما كان الاعتراض الثالث هينا جدا حيث كان بلفظ لا تصلب فيه ولا ازعاج في ظاهره وخافيه ومع هذا لم يكن على نفس الفعل بل على عدم أخذ الأجرة عليه لستعان بها على آقامة جدار البدن وإزالة ما أصابه من الوهن فناسب أن يلين في جوابه المقام ولا ينسب لنفسه استقلالاً أو مشاركة شيئاً ما من الأفعال فلذا أسند الإرادة إلى الرب سبحانه وتعالى ولم يكتف بذلك حتى أضافه إلى ضميره عليه السلام ، ولا ينافي ذلك تركير النكير والعتاب لأنه متعلق بمجموع ما كان أولاً من ذلك الجناب ، هذا والله تعالى أعلم بحقيقة أسرار الكتاب وهو سبحانه الموفق للصواب ، واستدل بقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ القائلون بنبوته عليه السلام وهو ظاهر في ذلك واحتمال أن يكون هناك نبي أمره بذلك عن وحي كما زعمه القائلون بولايته احتمال بعيد على أنه ليس في وصفه بقوله تعالى :

﴿ آتيناه رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : 65] على هذا كثير فائدة بل قد يقال : أي فائدة في هذا العلم اللدني إذا احتاج في إظهار العجائب لموسى عليه السلام إلى توسيط نبي مثله ، وقال بعضهم : كان ذلك عن إلهام ويلزمه القول بأن الإلهام كان حجة في بعض الشرائع وأن الخضر من المكلفين بتلك الشريعة وإلا فالظاهر أن حجيته ليست في شريعة موسى عليه السلام وكذا هو ليس بحجة في شريعتنا على الصحيح ، ومن شذ وقال بحجيته اشترط لذلك أن لا يعارضه نص شرعي فلو أطلع الله تعالى بالإلهام بعض عباده على نحو ما اطلع عليه الخضر عليه السلام من حال الغلام لم يحل له قتله ، وما أخرجه الإمام أحمد عن عطاء أنه قال : كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان فكتب إليه إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم إنما قصد به ابن عباس كما قال السبكي المحاجة والإحالة على ما لم يكن قطعاً لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر وليس مقصوده رضي الله تعالى عنه أنه إن حصل ذلك يجوز القتل فما قاله اليافعي في روضه من أنه لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبس ثوب حرير مثلاً وعلم الإذن يقينا فلبسه لم يكن منتهكاً للشرع وحصول اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله للغلام إذ هو ولي لا نبي على الصحيح انتهى عثرة يكاد أن لا يقال لصاحبها لعا لأن مظنة حصول اليقين اليوم الإلهام وهو ليس بحجة عند الأئمة ومن شذ اشترط ما اشترط ، وحصوله بخبر عيسى عليه السلام إذا نزل متعذر لأنه عليه السلام ينزل بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم ومن

شريعته تحريم لبس الحرير على الرجال ألا للتداوي وما ذكره من نفي نبوة الخضر لا يعول عليه ولا يلتفت إليه ، وممن صرح بأن الإلهام ليس بحجة من الصوفية الإمام الشعراني وقال : قد زل في هذا الباب خلق كثير فضلوا وأضلوا ، ولنا في ذلك مؤلف سميته حد الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام وهو مجلد

(80/477)

لطيف انتهى ، وقال أيضاً في كتابه المسمى بالجواهر والدرر : قد رأيت من كلام الشيخ محي الدين قدس سره ما نصه اعلم أنا لا نعني بملك الإلهام حيث أطلقناه إلا الدقائق الممتدة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة فإن الملك لا ينزل بوحي على غير قلب نبي أصلا ولا يأمر بأمر الهي جملة واحدة فإن الشريعة قد استقرت وتبين الفرض والواجب وغيرهما فانقطع الأمر الإلهي بانقطاع النبوة والرسالة وما بقي أحد يأمره الله تعالى بأمر يكون شرعاً مستقلاً يتعبد به أبداً لأنه ان أمره بفرض كان الشارع قد أمر به وان أمره بمباح فلا يخلو إما أن يكون ذلك المباح المأمور به صار واجباً أو مندوباً في حقه فهذا عين نسخ الشرع الذي هو عليه حيث صير المباح الشرعي واجباً أو مندوباً وإن أبقاه مباحاً كما كان فأي فائدة للأمر الذي جاء به ملك الإلهام لهذا المدعي فإن قال : لم يجئني ملك الإلهام بذلك وإنما أمرني الله

تعالى بلا واسطة قلنا : لا يصدق في مثل ذلك وهو تلبيس من النفس ، فإن ادعى أن الله سبحانه كلمه كما كلم موسى عليه السلام فلا قائل به ، ثم إنه تعالى لو كلمه ما كان يلقي إليه في كلامه إلا علوماً وأخباراً لا أحكاماً وشرعاً ولا يأمره أصلاً انتهى .

(81/477)

وقد صرح الإمام الرباني مجدد الألف الثاني قدس سره العزيز في المكتوبات في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ويعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن وكلامه قدس سره في المكتوبات طافح بذلك ، ففي المكتوب الثالث والأربعين من الجلد الأول أن قوماً مالوا إلى الإلحاد والزندقة يتخيلون أن المقصود الأصلي وراء الشريعة حاشا وكلا ثم حاشا وكلا نعوذ بالله سبحانه من هذا الاعتقاد السوء فكل من الطريقة والشريعة عين الآخر لا مخالفة بينهما بقدر رأس الشعيرة وكل ما خالف الشريعة مردود وكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة ، وقال في أثناء المكتوب الحادي والأربعين من الجلد الأول أيضاً في مبحث الشريعة والطريقة والحقيقة : مثلاً عدم نطق اللسان بالكذب شريعة ونفي خاطر الكذب عن القلب إن كان بالتكلف والتعمل فهو طريقة وان تيسير بلا تكلف فهو حقيقة ففي الجملة الباطن الذي هو الطريقة والحقيقة

مكمل الظاهر الذي هو الشريعة فالسالكون سبيل الطريقة والحقيقة ان ظهر منهم في أثناء الطريق أمور ظاهرها مخالف للشريعة ومناف لها فهو من سكر الوقت وغلبة الحال فإذا تجاوزوا ذلك المقام ورجعوا إلى الصحو ارتفعت تلك المنافاة بالكلية وصارت تلك العلوم المضادة بتمامها هباء منثوراً .

(82/477)

وقال نفعنا الله تعالى بعلومه في أثناء المكتوب السادس والثلاثين من الجلد الأول أيضاً :

للشريعة ثلاثة أجزاء علم وعمل وإخلاص فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى وهو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ولم يبق مطلب وراء الشريعة فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الاخلاص فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك إلى آخر ما قال ، وقال عليه الرحمة في أثناء المكتوب التاسع والعشرين من الجلد المذكور بعد تحقيق كثير : فتقرر أن طريق الوصول إلى درجات القرب الإلهي جل شأنه سواء كان قرب النبوة أو قرب الولاية منحصر في طريق الشريعة التي

دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار مأموراً بها في آية ﴿ قُلْ هذه سَبِيلِي ادعوا إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني ﴾ [يوسف : 108] وآية ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] تدل على ذلك أيضاً وكل طريق سوى هذا الطريق ضلال ومنحرف عن المطلوب الحقيقي وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة ، وشاهد ذلك آية ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام : 153] وآية ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ [يونس : 32] وآية ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا ﴾ [آل عمران : 85] وحديث "خط لنا النبي صلى الله عليه وسلم " الخبر ، وحديث "كل بدعة ضلالة " وأحاديث أخر إلى آخر ما قال عليه رحمة الملك المتعال ، وقال قدس سره في معارف الصوفية : اعلم أن معارف الصوفية وعلومهم في نهاية سيرهم وسلوكهم إنما هي علوم الشريعة لا أنها علوم أخر غير علوم الشريعة ، نعم يظهر في أثناء الطريق علوم ومعارف كثيرة ولكن لا بد من العبور عنها ، ففي

(83/477)

نهاية النهايات علومهم علوم العلماء وهي علوم الشريعة والفرق بينهم وبين العلماء أن تلك العلوم بالنسبة إلى العلماء نظرية واستدلالية وبالنسبة إليهم تصير كشفية وضرورية .

وقال أيضاً : أعلم أن الشريعة والحقيقة متحدان في الحقيقة ولا فرق بينهما إلا بالإجمال والتفصيل وبالاستدلال والكشف بالغيب والشهادة وبالتعمل وعدم التعمل واللشريعة من ذلك الأول وللحقيقة الثاني وعلامة الوصول إلى حقيقة حق اليقين مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها وما دامت المخالفة موجودة ولو أدنى شعرة فذلك دليل على عدم الوصول ، وما وقع في عبارة بعض المشايخ من أن الشريعة قشر والحقيقة لب فهو وإن كان مشعرا بعدم استقامة قائله ولكن يمكن أن يكون مراده أن المجمل بالنسبة إلى المفصل حكمه حكم القشر بالنسبة إلى اللب وإن الاستدلال بالنسبة إلى الكشف كذلك ، والأكابر المستقيمة أحوالهم لا يجوزون الإتيان بمثل هذه العبارات الموهمة إلى غير ذلك من عباراته الشريفة التي لا تكاد تحصى .

وقال سيدي القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره : جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يعملون إلا بظاهرهما ، وقال سيد الطائفة الجنيد قدس سره : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال أيضاً : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا العلم لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة ، وقال السرى السقطي : التصوف اسم لثلاثة معان وهو لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بسر باطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكاتب ولا تحمله

الكرامات على هتك محارم الله ، وقال أيضاً قدس سره : من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط .

(84/477)

وقال أبو الحسين النوري : من رأيته يدعي مع الله تعالى حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربه ومن رأيته يدعي حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه ، وقال أبو سعيد الخراز : كل فيض باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

وقال أبو العباس أحمد الدينوري : لسان الظاهر لا يغير حكم الباطن ، وفي التحفة لابن حجر قال الغزالي : من زعم أن له مع الله تعالى حالا أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم شرب الخمر وجب قتله وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر لأن ضرره أكثر انتهى ، ولا نظر في خلوده لأنه مرتد لاستحلاله ما علمت حرمته أو نفيه وجوب ما علم وجوبه ضرورة فيهما ، ومن ثم جزم في الأنوار بخلوده انتهى .

وقال في الاحياء : من قال إن الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان إلى غير ذلك ، وفي رسالة القشيري طرف منه ، والذي ينبغي أن يعلم أن كلام العارفين المحققين وإن دل على أنه لا مخالفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الحقيقة لكنه يدل أيضاً على أن

في الحقيقة كشوفاً وعلوماً غيبية ولذا تراهم يقولون : علم الحقيقة هو العلم اللدني .

وعلم المكاشفة .

وعلم الموهبة .

وعلم الأسرار .

والعلم المكنون .

(85/477)

وعلم الوراثة إلا أن هذا لا يدل على المخالفة فإن الكشوف والعلوم الغيبية ثمرة الإخلاص الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة فهي بالحقيقة مترتبة على الشريعة ونتيجة لها ومع هذا لا تغير تلك الكشوف والعلوم الغيبية حكماً شرعياً ولا تقيد مطلقاً ولا تطلق مقيداً خلافاً لما توهمه ساجقلي زاده حيث قال في شرح عبارة الإحياء السابقة آنفاً : يريد الغزالي من الباطن ما ينكشف لعلماء الباطن من حل بعض الأشياء لهم مع أن الشارع حرمه على عباده مطلقاً فيجب أن يقال : إنما انكشف حله لهم لما انكشف لهم من سبب خفي يحلله لهم وتحريم الشارع تعالى ذلك على عباده مقيد بانتفاء انكشاف السبب المحلل لهم فمن انكشف له ذلك السبب حل له ومن لا فلا لكن الشارع سبحانه حرّمه على عاده على

الإطلاق وترك ذلك القيد لندرة وقوعه إذ من ينكشف له قليل جداً مثاله انكشاف محلل خرق السفينة وقتل الغلام للخضر عليه السلام فحل له بذلك الانكشاف الخرق والقتل وحلهما له مخالف لاطلاق نهى النبي صلى الله عليه وسلم أمته عن الضرر وعن قتل الصبي لكنهما مقيدان فالأول مقيد بما إذا لم يعلم هناك غاصب مثلاً والثاني بما إذا لم يعلم أن الصبي سيصير ضالاً مضلاً لكن الشارع ترك القيدين لندرة وقوعهما واعتماداً على فهم الراسخين في العلم إياهما إلى آخر ما قال فإن النصوص السابقة تنادي بخلافه كما سمعت ، ثم إن تلك الغيوب والمكاشفات بل سائر ما يحصل للصوفية من التجليات ليست من المقاصد بالذات ولا يقف عندها الكامل ولا يلتفت إليها ، وقد ذكر الإمام الرباني قدس سره في المكتوب السادس والثلاثين المتقدم نقل بعضه أنها تربى بها أطفال الطريق وأنه ينبغي مجاوزتها والوصول إلى مقام الرضا الذي هو نهاية مقامات السلوك والجذبة وهو عزيز لا يصل إليه إلا واحد من ألوف ، ثم قال : إن الذين هم قليلو النظر يعدون الأحوال والمواجيد من المقامات والمشاهدات والتجليات من المطالب فلا جرم بقوا في قيد

الوهم والخيال وصاروا محرومين من كمالات الشريعة

﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : 13] انتهى ، ويعلم منه أن الكاملين في الشريعة يعبرون على ذلك ولا يلتفتون إليه ولا يعدونه مقصداً وجل مقصدهم تحصيل مقام الرضا ، وعلى هذا يخرج بيت المنثوي حيث يقول :

زان طرف كه عشق من افزوددرد . . .

بو حنيفة شافعي درسي نكرد

(87/477)

وقد يحجب الكامل عن جميع ذلك ويلحق من هذه الحيثية بعوام الناس ، ويعلم مما ذكر أن موسى عليه السلام أكمل من الخضر وأعلمية الخضر عليه السلام بعلم الحقيقة كانت بالنسبة إلى الحالة الحاضرة فإن موسى عليه السلام عبر على ذلك ولم يقف عنده لأنه في مقام التشريع ، ولعل طلبه التعليم كان بالأمر ابتلاء له بسبب تلك الفلتة ، وقد ذكروا أن الكامل كلما كان صعوده أعلا كان هبوطه أنزل وكلما كان هبوطه أنزل كان في الإرشاد أكمل في الإفاضة أتم لمزيد المناسبة حينئذ بين المرشد والمسترشد ، ولهذا قالوا فيما

يحكى : إن الحسن البصري وقف على شط نهر ينتظر سفينة فجاء حبيب العجمي فقال له : ما تنتظر ؟ فقال : سفينة فقال : أي حاجة إلى السفينة أمالك يقين ؟ فقال الحسن : أمالك علم ؟ ثم عبر حبيب على الماء بلا سفينة ووقف الحسن أن الفضل للحسن فإنه كان جامعاً بين علم اليقين وعين اليقين وعرف الأشياء كما هي وفي نفس الأمر جعلت القدرة مستورة خلف الحكمة والحكمة في الأسباب وحبيب صاحب سكر لم ير الأسباب فعومل برفعها ، ومن هنا يظهر سر قلة الخوارق في الصحابة مع قول الإمام الربناي : إن نهاية أويس سيد التابعين بداية وحشى قاتل حمزة يوم أسلم فما الظن بغير أويس مع غير وحشي ، وأنا أقول : إن الكامل وإن كان من علمت إلا أن فوقه الأكمل وهو من لم يزل صاعداً في تزوله ونازلاً في صعوده وليس ذلك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا ذلك ما أمد العالم العلوي والسفلي ، وهذا مرجع الحقيقة والشريعة له عليه الصلاة والسلام على الوجه الأتم كما أشرنا إليه سابقاً والحمد لله تعالى على أن جعلنا من أمته وذريته ، ولا يعكر على ما ذكرنا ما قاله الإمام الغزالي في الإحياء وهو أن علم الآخرة قسمان علم مكاشفة وعلم معاملة أما علم المكاشفة فهو علم الباطن وهو غاية العلوم وهو علم الصديقين والمقربين وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة وينكشف

بذلك ما كان يسمع من قبل أسمائها ويتوهم لها معان مجملة غير متضحة فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة بذات الله تعالى وبصفاته التامات وبأفعاله وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة انتهى .

لأن المراد أن ذلك من علم الباطن الذي هو علم الحقيقة وهذا البعض لا يمكن أن يخلو منه نبي كيف ورتبة الديقين دون رتبة الأنبياء عليهم السلام كما قرروه في آية ﴿ أولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ [النساء : 69] ومما ذكرنا من عدم المخالفة بين الشريعة والحقيقة يعلم ما في كلام البلقيني في دفع ما استشكله من قول الخضر لموسى عليهما السلام : "إني على علم" الحديث السابق حيث زعم أنه يدل بظاهره على امتناع تعليم العلمين معا مع أنه لا يمتنع .

وأجاب بأن علم الكشوف والحقائق ينافي علم الظاهر فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظاهر أن يعلم الحقائق للتنافي وكذا لا ينبغي للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر الذي ليس مكلفاً به وينافي ما عنده من الحقيقة ، ولعمري لقد أخطأ فيما قال وبالحق تعرف الرجال وكأنه لم يعتمد عليه فأردفه بجواب آخر هو خلاف الظاهر .

وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى شيء من ذلك والاستشكال من ضعف النظر ، ثم إن قصة الخضر عليه السلام لا تصلح حجة لمن يزعم المخالفة بين العلمين فإن أعظم ما يشكل فيها قتل الغلام لكونه طبع كافراً وخشي من بقائه حياً ارتداد أبويه وذلك أيضاً شريعة لكنه مخصوصة به عليه السلام لأنه كما قال العلامة السبكي : أوحى إليه أن يعمل بالباطن وخلاف الظاهر الموافق للحكمة فلا إشكال فيه وإن علم من شريعتنا أنه لا يجوز لأحد كائناً من كان قتل صغير لا سيما بين أبوين مؤمنين وكيف يجوز قتله بسبب لم يحصل والمولود لا يوصف بكفر حقيقي ولا إيمان حقيقي واتفاق الشرائع في الأحكام مما لم يذهب إليه أحد من الأنام فضلاً عن العلماء الأعلام وهذا ظاهر على القول بنبوته ، وأما على القول بولايته فيقال : إن عمل الولي بالالهام كان إذ ذاك شرعاً أو كما قيل إنه أمر بذلك على يد نبي غير موسى عليه السلام ، وإما إقامة الجدار بلا أجر فلا إشكال فيها لأنها إحسان وغاية ما يتخيل أنه للمسيء فليكن كذلك ولا ضير فإنه من مكارم الأخلاق ، وأما خرق السفينة لتسلم من غصب الظالم فقد قالوا : إنه مما لا بأس به حتى قال العز بن عبد السلام .

إنه إذا كان تحت يد الإنسان مال يتيم أو سفيه أو مجنون وخاف عليه أن يأخذه ظالم يجب عليه تعييبه لأجل حفظه وكان القول قول من عيب مال اليتيم ونحوه إذا نازعه اليتيم ونحوه

بعد الرشد ونحوه في أنه فعله لحفظه على الأوجه كما قاله القاضي زكريا في شرح الروض قبيل باب الوديعة .

(90/477)

ونظير ذلك ما لو كان تحت يده مال يتيم مثلاً وعلم أنه لو لم يبذل منه شيئاً لقاض سوء لا نتزعه منه وسلم لبعض الخونة وأدى ذلك إلى ذهابه فإنه يجب عليه أن يدفع إليه شيئاً ويتحرى في أقل ما يمكن ارضاؤه به ويكون القول قوله أيضاً ، وقال بعضهم : قصارى ما تدل عليه القصة ثبوت العلم الباطن وهو مسلم لكن إطلاق الباطن عليه إضافي كما تقدم ، وكان في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله تعالى فإذا قالوه لا ينكره إلا أهل الغرة بالله تعالى " إشارة إلى ذلك ، والمراد بأهل الغرة علماء الظاهر الذين لم يؤتوا ذلك ، وبعض مثبتيه يستدلون بقول أبي هريرة : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين من العلم فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم ، واستدل به أيضاً على المخالفة بين العلمين .

(91/477)

وأنت تعلم أنه يحتمل أن يكون أراد بالآخر الذي لو بثه لقتل علم الفتن وما وقع من بني أمية وذم النبي صلى الله عليه وسلم لاناس معينين منهم ولا شك أن بث ذلك في تلك الأعصار يجر إلى القتل ، وعلى تسليم أنه أراد به العلم الباطن المسمى بعلم الحقيقة لا نسلم أن قطع البلعوم منه على بثه لمخالفته للعلم الظاهر في نفس الأمر بل لتوهم من بيده الحل والعقد والأمر والنهي من أمراء ذلك الزمان المخالفة فافهم ، واستدل العلماء بما في القصة حسبما ذكره شراح الحديث وغيرهم على استحباب الرحلة للعلم وفضل طلبه واستحباب استعمال الأدب مع العالم واحترام المشايخ وترك الاعتراض عليهم وتأويل ما لا يفهم ظاهره من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم والوفاء بعهودهم والاعتذار عند مخالفتهم وعلى جواز اتخاذ الخادم في السفر وحمل الزاد فيه وإنه لا ينافي التوكل ونسبة النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأدباً عن نسبتها إلى الله تعالى واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه وتقديم المشيئة في الأمر واشتراط المتبوع على التابع وعلى أن النسيان غير مؤاخذ به وإن للثلاث اعتباراً في التكرار ونحوه وعلى جواز ركوب السفينة وفيه الحكم بالظاهر حتى يتبين خلافه لإنكار موسى عليه السلام وعلى جواز أن يطلب الإنسان الطعام عند احتياجه إليه وعلى أن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام وجواز أخذ الأجر على الأعمال وإن المسكين لا يخرج عن المسكنة بملك آلة يكتسب

بها أو بشيء لا يكفيه وإن الغصب حرام وانه يجوز دفن المال في الأرض وفيه إثبات كرامات الأولياء على قول من يقول : الخضر ولي إلى غير ذلك مما يظهر للمتتبع أو للمتأمل ، وبالجملة قد تضمنت هذه القصة فوائد كثيرة ومطالب عالية خطيرة فامعن النظر في ذاك والله سبحانه يتولى هداك .

(92/477)

ومن باب الإشارة في الآيات : على ما ذكره بعض أهل الإشارة ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى خواص أضافهم سبحانه إليه وقطعهم عن غيره وأخص خواصه عز وجل من أضافه إلى الإسم الجليل وهو اسم الذات الجامع لجميع الصفات أو إلى ضمير الغيبة الراجع إليه تعالى وليس ذاك إلا حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ ﴾ وهي مرتبة القرب منه عز وجل ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : 65] وهو العلم الخاص الذي لا يعلم إلا من جهته تعالى ، وقال ذو النون : العلم اللدني هو الذي يحكم على الخلق بمواقع التفويق والخذلان .

وقال الجنيد قدس سره : هو الاطلاع على الأسرار من غير ظن فيه ولا خلاف واقع لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات ويحصل للعبد إذا حفظ جوارحه عن جميع

المخالفات وأفني حركاته عن كل الإرادات وكان سبحاً بين يدي الحق بلا تمني ولا مراد ، وقيل : هو علم يعرف به الحق سبحانه أولياءه ما فيه صلاح عباده .

وقال بعضهم : هو علم غيبي يتعلق بعالم الأفعال وأخص منه الوقوف على بعض سر القدر قبل وقوع واقعته وأخص من ذلك علم الأسماء والنعوت الخاصة وأخص منه علم الذات .

(93/477)

وذكر بعض العارفين أن من العلوم ما لا يعلمه إلا النبي ، واستدل له بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج كما ذكره القسطلاني في مواهبه وغيره " وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها فأورثني علم الأولين والآخرين وعلمني علوماً شتى فعلم أخذ على كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري وعلم خيرني فيه وعلمني القرآن فكان جبريل عليه السلام يذكرني به وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي " انتهى ، والله تعالى علم استأثر به عز وجل لم يطلع عليه أحداً من خلقه ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ [الكهف : 66] قاله عن ابتلاء إلهي كما قدمنا ، وقال فارس كما في أسرار القرآن : إن موسى عليه السلام كان أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله تعالى والخضر كان أعلم من موسى فيما وقع إلى موسى عليه

السلام ، وقال أيضاً : إن موسى كان باقياً بالحق والخضر كان فانياً بالحق ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ [الكهف : 67 ، 68] قيل : علم الخضر أن موسى عليه السلام أكرم الخلق على الله تعالى في زمانه وأنه ذو وحدة عظيمة ففزع من صحبته لئلا يقع منه معه ما لا يليق بشأنه .

(94/477)

وقال بعضهم : آيسة من نفسه لئلا يشغله صحبته عن صحبة الحق قال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ [الكهف : 69] قال بعضهم : لو قال كما قال الذبيح عليه السلام : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] لوفق للصبر كما وفق الذبيح ، والفرق أن كلام الذبيح أظهر في الالتجاء وكسر النفس حيث علق بمشيئة الله تعالى وجد انه واحداً من جماعة متصفين بالصبر ولا كذلك كلام موسى عليه السلام ﴿ فانطلقا حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعما أَهْلَهَا ﴾ سلكاً طريق السؤال الذي يتعلق بذل النفس في الطريقة وهو لا ينافي التوكل وكذا الكسب ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [الكهف : 77] كأنه عليه السلام أراد دفع ما أحوجهما إلى السؤال من أولئك اللئام وفيه نظر إلى الأسباب وهو من أحوال الكاملين كما مر في حكاية

الحسن البصري وحبيب ، ففي هذا إشارة إلى أنه أكمل من الخضر عليهما السلام ﴿ قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] أي حسبما أردت ، وقال النصرابادي : لما علم الخضر بلوغ موسى إلى منتهى التأديب وقصور علمه عن علمه قال ذلك لئلا يسأله موسى بعد عن علم أو حال فيفتضح .

وقيل : خاف أن يسأله عن أسرار العلوم الربانية الصفاتية الذاتية فيعجز عن جوابه فقال ما قال ﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طغيانا وَكُفْراً ﴾ [الكهف : 80] قيل : كان حسن الوجه جداً وكان محبوباً في الغاية لوالديه فخشي فتنتهما به ، والآية من المشكل ظاهراً لأنه إن كان قد قدر الله تعالى عليهما الكفر فلا ينفعهما قتل الولد وإن لم يكن قدر سبحانه ذلك فلا يضرهما بقاؤه ، وأجيب بأن المقدر بقاؤهما على الإيمان إن قتل وقتله ليبقيا على ذلك .

(95/477)

وقيل : إن المقدر قد يغير ولا يلزم من ذلك سوى التغير في تعلق صفتاه تعالى لا في الصفة نفسها ليلزم التغير فيه عز وجل ، وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد : 39] .

واستشكل أيضاً بأن المحذور يزول بتوفيقه للإيمان فما الحاجة إلى القتل ، وأجيب بأن الظاهر أنه غير مستعد لذلك فهو مناف للحكمة وكأن الخضر عليه السلام رأى فيما قال نوع مناقشة فتخلص من ذلك بقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف : 82] أي بل فعلته بأمر الله عز وجل ولا يسأل سبحانه عما أمر وفعل ولعل قوله لموسى عليه السلام ما قال حين نقر العصفور في البحر سد لباب المناقشة فيما أمر الله تعالى شأنه ، ولعل علم مثل هذه المسائل من العلم الذي استأثر الله سبحانه به ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : 255] وأول بعضهم مجمع البحرين بمجمع ولاية الشيخ وولاية المريد والصخرة بالنفس والحوت بالقلب المملح بملح حب الدنيا وزينتها والسفينة بالشريعة وخرقها بهدم الناموس في الظاهر مع الصلاح في الباطن وإغراق أهلها بإيقاعهم في بحار الضلال والغلام بالنفس الأمارة وقتله بذبحه بسيف الرياضة والقرية بالجسد وأهلها بالقوى الإنسانية من الحواس واستطعامهم بطلب أفاعيلها التي تختص بها وإباء الضيافة بمنعها إعطاء خواصها كما ينبغي لكلالها وضعفها والجدار بالتعلق الحائل بين النفس الناطقة وعالم المجردات وإرادة الانقضاض بمشارفة قطع العلائق وإقامته بتقوية البدن والرفق بالقوى

والحواس ومشيئة اتخاذ الأجر بمشيئة الصبر على شدة الرياضة لنيل الكشوف وإفاضة الأنوار والمساكين بالعوام والبحر الذي يعملون فيه ببحر الدنيا والملك بالشيطان والسفن التي يعضبها العبادات الخالية عن الإنكسار والذل والخشوع والأبوين المؤمنين بالقلب والروح والبدل الخير بالنفس المطمئنة والملهمة والكنز بالكمالات النظرية والعلمية والأب الصالح بالعقل المفارق الذي كمالاته بالفعل وبلوغ الأشد بوصولهما بتربية الشيخ وإرشاده إلى المرتبة الكاملة وهذا ما اختاره النيسابوري ، واختار غيره تأويلاً آخر هو ادهى منه . هذا والله تعالى الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(97/477)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) ﴾

قوله : ﴿ فانطلقا ﴾ أي : موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فمرّت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة خَرَقَهَا ﴾ قيل :

قلع لوحاً من ألواحها ، وقيل : لوحين مما يلي الماء ، وقيل : خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أي : لقد أتيت أمراً عظيماً ، يقال : أمر الأمر إذا كبر ، والأمر الاسم منه .

وقال أبو عبيدة : الأمر : الداهية العظيمة وأنشد :

قد لقي الأقران مني نكرا . . . داهية دهياً وأمراً إمرا

وقال القتيبي : الأمر العجب .

وقال الأخفش : أمر أمره يأمر إذا اشتد ، والاسم الأمر .

قرأ حمزة والكسائي " ليغرق أهلها " بالياء التحتية المفتوحة ، ورفع " أهلها " على أنه فاعل ، وقرأ الباقون بالفوقية المضمومة ونصب " أهلها " على المفعولية ﴿ قَالَ ﴾ أي : الخضر ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أذكره ما تقدم من قوله له سابقاً ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف : 67] ف ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ يحتمل أن تكون " ما " مصدرية ، أي : لا تؤاخذني بنسياني أو موصولة ، أي : لا تؤاخذني بالذي نسيته ، وهو قول الخضر ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسي ذلك ، أو بمعنى : الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ، ولكنه ترك العمل به ﴿ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ قال أبو زيد : أرهقته عسراً إذا كلفته ذلك ، والمعنى : عاملني باليسر لا بالعسر .

وقرىء "عسراً" بضمتين.

﴿ فانطلقا حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ ﴾ أي: الخضر، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير، قيل: كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقتلع الخضر رأسه ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زكية بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأويس بألف بعد الزاي وتخفيف الياء اسم فاعل.

وقرأ الباقون بتشديد الياء من دون ألف، الزاكية: البريئة من الذنوب.

قال أبو عمرو: الزاكية: التي لم تذنب، والزكية: التي أذنبت ثم تابت.

وقال الكسائي: الزاكية والزكية لغتان.

وقال الفراء: الزاكية والزكية: مثل القاسية والقسية، ومعنى ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾: بغير قتل نفس محرّمة حتى يكون قتل هذه قصاصاً ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴾ أي: فظيعاً منكراً لا يعرف في الشرع.

قيل: معناه: أنكر من الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، وقيل: النكر أقلّ من الإمر، لأن قتل نفس واحدة أهون من

إغراق أهل السفينة .

قيل : استبعد موسى أن يقتل نفساً بغير نفس ، ولم يتأول للخضر بأنه يحلّ القتل بأسباب أخرى ﴿ قَالَ ﴾ الخضر ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ زاد هنا لفظ " لك " ، لأن سبب العتاب أكثر ، وموجبه أقوى ، وقيل : زاد لفظ " لك " لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعني ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي : بعد هذه المرة ، أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ أي : لا تجعلني صاحباً لك ، نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ، ولذا قال : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرّات ، وهذا كلام نادم شديد الندامة ، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف .

(99/477)

قرأ الأعرج (تصحبني) بفتح التاء والباء وتشديد النون .

وقرأ الجمهور ﴿ تصاحبني ﴾ وقرأ يعقوب (تصحبني) بضم التاء وكسر الحاء ، ورواها سهل عن أبي عمرو .

قال الكسائي : معناه لا تتركني أصحبك .

وقرأ الجمهور ﴿ لدني ﴾ بضم الدال إلا أن نافعاً وعاصماً خففا النون ، وشددها الباقون .

وقرأ أبو بكر عن عاصم (لدني) بضم اللام وسكون الدال .

قال ابن مجاهد : وهي غلط .

قال أبو عليّ : هذا التغليط لعله من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فصحيحة .

وقرأ الجمهور ﴿ عذراً ﴾ بسكون الذال .

وقرأ عيسى بن عمر بضم الذال .

وحكى الداني أن أبيا روى عن النبيّ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة العذر إلى نفسه .

﴿ فانطلقا حتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ قيل : هي أيلة ؛ وقيل : أنطاكية ؛ وقيل : برقة ؛ وقيل : قرية من قرى أذربيجان ؛ وقيل : قرية من قرى الروم ﴿ استطعما أَهْلَهَا ﴾ هذه الجملة في محل الجر على أنها صفة لقرية ، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد ، أو لكراهة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ أي : أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما ، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحلّ الكدية فقد أخطأ خطأً بيناً ، ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس :

فإن رددت فما في الرد منقصة . . . عليّ قد ردّ موسى قبل والخضر

وقد ثبت في السنّة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا ﴾ أي : في القرية ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز .

قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة ، ومنه قول الراعي :

في مهمه فلقت به هاماتها . . . فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

(100/477)

ومعنى الانقضاض : السقوط بسرعة ، يقال : انقضّ الحائط إذا وقع ، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شيء ، ومعنى ﴿ فأقامه ﴾ : فسوّاه ، لأنه وجده مائلاً فردّه كما كان ؛ وقيل : نقضه وبناه ؛ وقيل : أقامه بعمود .

وقد تقدّم في الحديث الصحيح أنه مسحه بيده ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي : على إقامته وإصلاحه ، تحريضاً من موسى للخضر على أخذ الأجر .

قال الفراء : معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر ، قرأ أبو عمرو ، ويعقوب ، وابن كثير ، وابن محيصن ، واليزيدي ، والحسن (لتخذت) يقال : تخذ فلان يتخذ تخذاً مثل :

اتخذ .

وقرأ الباقون ﴿ لاتخذت ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ الخضر ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ على إضافة ﴿ فراق ﴾ إلى الظرف اتساعاً ، أي : هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا .

قال الزجاج : المعنى : هذا فراق بيننا ، أي : هذا فراق اتصالنا ، وكرّر " بين " تأكيداً ، ولما قال الخضر لموسى بهذا ، أخذ في بيان الوجه الذي فعل بسببه تلك الأفعال التي أنكرها موسى فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ والتأويل : رجوع الشيء إلى مآله .

ثم شرع في البيان له فقال : ﴿ أَمَّا السفينة ﴾ يعني : التي خرقها ﴿ فَكَانَتْ لمساكين ﴾ لضعفاء لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم ﴿ يَعْمَلُونَ فِى البحر ﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة ، وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي : أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿ وَكَانَ وراءهم ملك ﴾ قال المفسرون : يعني أمامهم ، ووراء يكون بمعنى : أمام ، وقد مرّ الكلام على هذا في قوله : ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : 17] .

وقيل : أراد خلفهم ، وكان طريقهم في الرجوع عليه ، وما كان عندهم خبر بأنه ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ أي : كل سفينة صالحة لا معيبة ، وقد قرىء بزيادة " صالحة " ، روي ذلك عن أبيّ وابن عباس .

وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين ، واختلف في معناها ، فقيل : هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذي يمسك السفينة ، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف .

﴿ وَأَمَّا الغلام ﴾ يعني : الذي قتله ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ أي : ولم يكن هو كذلك ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ أي : يرهق الغلام أبويه ، يقال : رهقه أي : غشيه ، وأرهقه أغشاه .

قال المفسرون : معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه في دينه ، وهو الكفر ، و ﴿ طُغْيَاناً ﴾ مفعول يرهقهما ﴿ وَكُفْراً ﴾ معطوف عليه ، وقيل : المعنى : فخشينا أن يرهق الوالدين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوقه .

قيل : ويجوز أن يكون ﴿ فخشينا ﴾ من كلام الله ، ويكون المعنى : كرهنا كراهة من خشي سوء عاقبة أمره فغيره ، وهذا ضعيف جدّاً ، فالكلام كلام الخضر .

وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة ، فقيل : إنه كان بالغاً وقد استحق ذلك بكفره ؛ وقيل : كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ، ويكون معنى ﴿

فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ : أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا في المعصية ، وقد يؤدّي ذلك إلى الكفر والارتداد .

(102/477)

والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً أو قاطعاً للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوّغ له ذلك ، وأما إذا كان الغلام صبياً غير بالغ ، فقيل : إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما ، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه ، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحلّ في الشريعة المحمدية ، ولكنه حلّ في شريعة أخرى ، فلا إشكال .

وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبياً ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال .

وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال ، والمعنى : أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولداً خيراً منه ﴿ زكواة ﴾ أي : ديناً وصلاحاً وطهارة من

الذنوب ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ قرأ ابن عباس ، وحمزة ، والكسائي ، وابن كثير ، وابن عامر (رحماً) بضم الحاء .

وقرأ الباقون بسكونها ، ومعنى الرحم : الرحمة ، يقال : رحمه الله رحمة ورحمى ، والألف للتأنيث .

﴿ وَأَمَّا الجدار ﴾ يعني : الذي أصلحه ﴿ فَكَانَ لغلامين يَتِيمَيْنِ فِى المدينة ﴾ هي القرية المذكورة سابقاً ، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قيل : كان مالاً جسيماً كما يفيده اسم الكنز ، إذ هو المال المجموع .

(103/477)

قال الزجاج : المعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه : المال المدفون ، فإذا لم يكن مالاً قيل : كنز علم وكنز فهم ؛ وقيل : لوح من ذهب ، وقيل : صحف مكتوبة ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ فكان صلاحه مقتضياً لرعاية ولديه وحفظ مالهما ، قيل : هو الذي دفنه ؛ وقيل : هو الأب السابع من عند الدافن له ، وقيل : العاشر ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ أي : مالكك ومدبر أمرك ، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفاً له ﴿ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أي : كمالهما وتمام نموّهما ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ من ذلك الموضع الذي عليه الجدار ، ولو

انقضّ لخرج الكنز من تحته ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ لهما ، وهو مصدر في موضع الحال أي : مرحومين من الله سبحانه ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي : عن اجتهادي ورأيي ، وهو تأكيد لما قبله ، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي : ذلك المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك وأوضحت وجوهها تأويل ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ، ومعنى التأويل هنا : هو المآل الذي آلت إليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبهاً على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من ﴿ تسطع ﴾ تخفيفاً .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ يقول : نكراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إِمْراً ﴾ قال : عجباً .

وأخرج ابن جرير ، عن أبيّ بن كعب في قوله : ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ قال : لم ينس ، ولكنها من معاريض الكلام .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية قال : كان الخضر عبداً لا تراه الأعين ، إلا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام .

وأقول : ينبغي أن ينظر من أين له هذا ؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله : ولو رآه القوم إلخ ، فليس ذلك بموجب لما ذكره ، أما أوّلاً : فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام ، لا لكونه لا تراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم .

وأما ثانياً : فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء ، فسلموا لأمر الله .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ نَفْساً زَكِيَّةً ﴾ قال : مسلمة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، قال : لم تبلغ الخطايا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، عن الحسن نحوه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ شَيْئاً نُّكْراً ﴾ قال : النكر أنكر من العجب .

وأخرج أحمد ، عن عطاء قال : كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان

، فكتب إليه : إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم .

وزاد ابن أبي شيبة من طريق أخرى عنه : ولكنك لا تعلم ، قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم فاعتزلهم .

وأخرج مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن مردويه ، عن أبيّ بن كعب ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، ولو أدرك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً " وأخرج أبو داود ، والترمذي ، وعبد الله بن أحمد والبزار ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن أبيّ ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ مِن لَّدُنِّى عُذْراً ﴾ مثقلة .

(105/477)

وأخرج ابن مردويه عن أبيّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ مشدّدة .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف ، وابن مردويه عن أبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه قرأ " فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ " فهدمه ، ثم قعد يبنيه " قلت : ورواية الصحيحين التي قدّمناها أنه مسحه بيده أولى .

وأخرج الفريابي في معجمه ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبيّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ " لَوْ شِئْتَ لتخذت عَلَيْهِ أَجْر " مخففة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحمة الله علينا وعلى موسى .

لو صبر لقصّ الله علينا من خبره ، ولكن قَال : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى ﴾ " وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ " وَكَانَ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً " .

وأخرج ابن الأنباري ، عن أبيّ بن كعب أنه قرأها كذلك .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، عن أبي الزاهرية قال : كتب عثمان " وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً " .

وأخرج أبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ " وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين " .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : هي في مصحف عبد الله " فخاف ربك أن يرهقهما طغياناً وكفراً " .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ خَيْراً مِّنْهُ زكواة ﴾ قال : ديناً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ قال : مودّة ، فأبدلا جارية ولدت نبياً .

(106/477)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قال : كان الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا ، وحرّمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا ، فلا يعجبنّ الرجل ، فيقول : فما شأن الكنز ، أحلّ لمن قبلنا وحرّم علينا ؟ فإن الله يحلّ من أمره ما يشاء ويحرّم ما يشاء ، وهي السنن والفرائض ، يحلّ لأمة ويحرّم على أخرى .

وأخرج البخاري في تاريخه ، والترمذي وحسنه ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قال : " ذهب وفضة " .

وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء في قوله : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قال : أحلت لهم الكنوز وحرّمت عليهم الغنائم ، وأحلّت لنا الغنائم وحرّمت علينا الكنوز .

وأخرج البزار ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي ذر رفعه قال : إن الكنز الذي ذكره

الله في كتابه لوح من ذهب مصمت فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وفي نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة .

وأخرج ابن المبارك ، وسعيد بن منصور ، وأحمد في الزهد ، والحميدي في مسنده ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ قال : حفظاً بصلاح أبيهما .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وجلّ يصلح بصلاح الرجل الصالح ، ولده ، وولد ولده ، وأهل دويرته وأهل دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده ، وولد ولده ، ويحفظه في دويرته ، والدويرات حوله ، فما يزالون في ستر من الله وعافية .

(107/477)

وأخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه قال : قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه ؟ فقال ابن عباس : قال فيما يذكر من حديث الفتى : إنه شرب

من الماء فخلد ، فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر ، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه .

قال ابن كثير : إسناده ضعيف ، الحسن متروك وأبوه غير معروف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(108/477)

وقال القاسمى :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ ﴾

أي : التي خرقتها : ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أي : لفقراء يحترفون العمل في البحر ، لنقل الناس من ساحل إلى آخر : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ أي : إنما خرقتها لأعيبها . لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصباً . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها .

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ ﴾ أي : الذي قتلته : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا ﴾ أي : لو تركناه : ﴿ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ أي : ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يعديهما بدائه .

﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ أي : بقتله : ﴿ أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً ﴾ أي : طهارة عن الكفر والطغيان : ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي : رحمة بأبويه ، وبرّاً .

(109/477)

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾

أي : قوتهما بالعقل وكمال الرأي : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ ليتصرفا فيه : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : تفضل بها عليهما .

ورحمة مفعول له . أو مصدر مؤكد لأراد فإن إرادة الخير رحمة : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ ﴾ أي ما رأيت مني : ﴿ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي : عن اجتهادي ورأيي ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي : من الأمور التي رأيتها . أي : مآله وعاقبته .

قال أبو السعود : ذَلِكَ إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتها في الفخامة . و : ﴿ تَسْطِع ﴾ مخفف تستطع بحذف التاء .

تنبيهات :

في بضع ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :

الأول : قال السيوطيّ في " الإكليل " : في هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم في السفر . واستحباب الرحلة في طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر ، وأنه لا ينافي التوكل . ونسبة النسيان ، ونحوه من الأمور المكروهة ، إلى الشيطان ، مجازاً وتأدباً عن نسبتهما إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه في المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم المشيئة في الأمر ، واشتراط المتبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به . وأن للثلاث اعتباراً في التكرار ونحوه . وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة . وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال . وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لا يكفيه . وأن الغصب حرام . وأنه يجوز إتلاف بعض مال الغير ، أو تعييبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم . وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه . وأنه تجب عُمارة ما يخاف منه ، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال في الأرض . انتهى .

وقال البيضاويّ : ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه . ولا يبادر إنكار ما لم يستحسنه ، فلعل فيه سرّاً لا يعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للمعلم ، ويراعي الأدب في المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

(111/477)

ومن فوائد الآية – كما في " فتح الباري " – استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجشم المشاق في ذلك . وإطلاق الفتى على التابع واستخدام الحرّ . وطواعية الخادم لمخدومه . وعذر الناسي . وجواز الإخبار بالتعب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يعان فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة . وقيام العذر بالمرة الواحدة ، وقيام الحجة بالثانية .

وفيها حسن الأدب مع الله وأن لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه ، لقول الخضر عن السفينة : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وعن الجدار : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم : < والخير بيديك والشر ليس إليك > .

انتهى .

ومن فوائدها إطلاق القرية على المدينة لقوله : ﴿ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ ثم قوله : ﴿ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ .

الثاني : ذكر الناصر في " الانتصاف " : شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة فنأثرها عنه .

(112/477)

قال عليه الرحمة : ورد في الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، إلا منذ جاوز الموضع الذي حدّه الله تعالى له . فلعل الحكمة في إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام ، لمنة الله تعالى على المسافر في طاعةٍ وطلب علمٍ ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه . وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات ، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بوناً بيّناً ، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة السلام ، إذا قص عليهم القصة . فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمُر بها

الناس ، ولكن ليشمّر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلاً وآجلاً . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة : ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار ، الالتهابُ والحميّة للحق ، أنه قال حين خرق السفينةَ : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ، ولم يقل لتغرقنا فنسي نفسه واشتغل بغيره, في الحالة التي كل أحد فيها يقول : نفسي نفسي , لا يلوي على مال ولا ولد . وتلك حالة الغرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين وسلامه .

ثم قال عليه الرحمة على قوله الزمخشري : فإن قلت قوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ قلت : النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين . فكان بمنزلة قولك : زيد ظني مقيم .

(113/477)

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين . ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك في غصب السفن . وهذا هو حد الترتيب في التعليل

أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعد . فلا يحتاج إلى جعله مقدماً ، والنية تأخيره . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي ، والمخالفة بينها في الأسلوب عجباً . ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد ثم عبت فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه . وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك : أمرنا بكذا أو دبرنا كذا وإنما يعنون : أَمَرَ الملكُ ودَبَّرَ ويدل على ذلك قوله في الثالثة : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يمجها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث : قال الخفاجيّ : في إعادة لفظ الأهل هنا ، يعني في قوله تعالى : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ إثر قوله : ﴿ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ سؤال مشهور . وقد نظمه الصلاح الصفدي سائلاً عنه السبكيّ في قصيدة منها :

~ رأيت كتابَ الله أعظمَ معجزٍ لأفضل مَن يُهْدَى به الثّقَلانِ

~ ومن جملة الإعجاز كون اختصاره بإيجاز ألفاظ وبسط معاني

~ولكنني في الكهف أبصرت آية بها الفكر ، في طول الزمان عناني

~وما هي إلا استطعما أهلها فقد نرى استطعماهم مثله ببيان

~فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر مكان ضمير ؟ إن ذاكِ لشان

(114/477)

يعني أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ أهل ولم يقل استطعماها لأنه صفة القرية . أو استطعماهم لأنه صفة أهل فلا بد من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذي تحرر فيه أنه ذكر الأهل أولاً ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز في القرية ، كقوله : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف : 82] ، لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو أتيت عرفات ولمن فيه نحو أتيت بغداد فلو لم يذكر كان فيه التباس مخلّ . فليس ما هنا نظير تلك الآية لامتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استعمالها . وأما الأهل الثاني فأعيد لأنه غير الأول . وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه . لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فرداً فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فُهِمَ غير المراد . أما لو قيل : استطعماهم فظاهر . وأما لو قيل استطعماها فإن النسبة إلى المحل تفيد الاستيعاب ، كما أثبتوه في محله . وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة في الوصول إلى بعض منها . كما يقال : زيد في البلد أو في الدار وقيل

: إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله :

~ليت الغرابَ غداة ينعبُ بيننا كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ

أو لكراهة اجتماع ضميرين متصلين ، لبشاعته واستطالته ، وثمة أجوبة أخرى .

الرابع : أبدى بعضهم سرّاً للتعبير أولاً بتستطع ثم أخيراً بتسطع بحذف التاء قال : لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل ما لم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل ، قال تسطع بحذف التاء . وقيل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً . فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف : 97] ، وهو الصعود إلى أعلاه ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ وهو أشق من ذلك . فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

(115/477)

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى صلى الله عليه وسلم ما لقيه ببيان سببه - فيبعد أنه في الحكاية ، لا المحكي . انتهى .

وما ألطف قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرك .

الخامس : قال الإمام السبكي رحمه الله : ما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً ، مخصوص به . لأنه أوحي إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لا يجوز قتل صغير لا سيما بين أبوين مؤمنين . ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام ، لم يجز له ذلك ، وما ورد عن ابن عباس لما كتب إليه نجدة الحروريّ : كيف قتله وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ما علمه عالم موسى ، فلك أن تقتل فإنما قصد به ابن عباس المحاجّة والإحالة على ما لم يمكن قطعاً ، لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لا يوصف بكفر حقيقي ولا إيمان حقيقي . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به . وهو نبيّ . وليس في شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح . لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع . فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة ، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر : وَأَمَّا الغُلامُ فَكانَ كافراً هو باعتبار ما يؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ . واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله . ولله أن يحكم في خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال : بغير نفس , لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لا تفيده . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطارّ الشاب ، أو من حين يولد إلى أن يشبّ ، والكهل أيضاً . ومن الأخير قول موسى في قصة الإسراء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاريّ : وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً فذبحه قال موسى : أقتلت نفساً لم تعمل بالحنث . ولكن لا نصّ فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور في الآية ، هو موسى بن عِمْرَان صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكاليّ – تابعي صدوق ابن امرأة كعب الأحبار أو ابن أخيه – إلى أنه ليس بموسى بن عِمْرَان كما في البخاريّ . ووقع في رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير ، عند النسائي قال : كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ، فقال بعضهم : يا أبا عباس ! إن نوفاً يزعم عن كعب الأحبار أن موسى الذي طلب العلم إنما هو موسى بن منسا . أي : ابن إفراثيم بن يوسف عليه السلام . فقال ابن

عباس : أسمعت ذلك منه يا سعيد ؟ قلت : نعم . قال : كذب نوف . وفي رواية البخاريّ : كذب عدو الله . وإنما قال ذلك مبالغة في الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

(117/477)

قال الرازيّ : كان ليوسف ولدان إفراثيم . ومنسا . فولد إفراثيم نون وولد نون يوشع صاحب موسى ووليّ عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عِمْرَان . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذي طلب هذا العلم ليتعلم . والخضرُ هو الذي خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار ، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود . واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر في القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميّزه وتزيل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فكان سنده في ذلك ، كما في البخاري ، ما حدثه به أبيُّ بن كعب ورفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أن موسى سئل هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ فقال : لا . أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده في الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب

التوراة ، فيكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً في خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده ، وفتح عليه بيت المقدس ونصر عل الجبارين ، كما هو معروف .

(118/477)

السابع : قال الأكثرون : إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى : ﴿ عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا ﴾ هو الخضر . قالوا : سمي بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصن الفزاريّ في صاحب موسى . فقال ابن عباس : هو خضر ، فمرَّ أُبيُّ بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا ، في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيّه . فهل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < بينا موسى في ملأ من بين إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد أعلم منك ؟ قال موسى : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى . عبدنا خضر . فسأل موسى السبيل إلى لقيّه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر . فقال موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً

﴿ فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه > .

الثامن : اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبيّاً وفي طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرةً . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قابيل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك ، وكله مما ليس فيه أثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبيٌّ بقوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الواسطة . وقيل : كان وليّاً . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصِّديقيَّة فهو مقام برزخيّ ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أُنسئَ للخضر في أجله حتى يكذب الدجال .

(119/477)

قال النوويّ في " التهذيب " قال الأكثرون : هو حيّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم في رؤيته ، والاجتماع به ، والأخذ عنه ، وسؤاله ، ووجوده في المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر .

وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دِحْية : وأما رواية اجتماعه مع النبيّ صلى الله عليه وسلم

وتعزيته لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شيء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميعُ ما ورد في حياته لا يصح منه شيء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقه ؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة ، واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخاريّ وجامع الترمذي . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .

وقال أبو حيان في " تفسيره " : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبي الفضل المرسيّ . لأنه لو كان حياً لزمه المجيء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه .

(120/477)

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : < لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي > . وبذلك جزم ابن المناويّ وإبراهيم الحربيّ وأبو طاهر العباديّ . وممن جزم بأنه غير موجود الآن ، أبو يعلى الحنبليّ وأبو الفضل بن ناصر والقاضي أبو بكر بن العربي , وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزيّ . واستدل على ذلك بأدلة . منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء : 34] ، قال أبو الحسين بن المناوي : بحثت عن تعمير

الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك ، والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية . والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة . وخبر رياح كالريح . وما عدا ذلك من الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لا يخلو حالها من أمرين : إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً ، أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ . قال صاحب " فتح البيان " : والحق ما ذكرناه عن البخاريّ وأضرابه في ذلك . ولا حجة في قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم . ولم يرد في ذلك نص مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه صلى الله عليه وسلم ، حتى يعمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر . وهما قاضيان على غيرهما ولا يقضي غيرهما عليهما . ومن قال إنه نبيّ أو مرسل أو حيٌّ باق ، لم يأت بحجة نيّرة ولا سلطان مبين . وإذا جاء نهر الله بطل نهر مَعْقِل . انتهى .

(121/477)

وقال تقيّ الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه ، في ترائي الجن للإنس في بعض البلاد ، ما مثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه

البقاع قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [الجن : 6] .

وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنيٌّ رأوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال إنني وكان ذلك جنيّاً لبّس على المسلمين الذين رأوه . وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حيّاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لوجب عليه أن يأتي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبيّ أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه . كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 81] . قال ابن عباس رضي الله عنه : لم يبعث الله نبيّاً إلا أخذ عليه الميثاق على أمته ؛ لئن بُعِثَ محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً ، من أن يلبّس الشيطان عليهم . ولكن لبّس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبيّ ويقول : أنا الخضر . وإنما هو الشيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميته خرج ، وجاء إليه ، وكلمه في أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

(122/477)

التاسع : دل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ ، على أن من العلم علماً غيبيّاً وهو المسمى بالعلم اللدنِّي . فالآية أصل فيه . وقد ألف حجة الإسلام الغزاليّ ، عليه الرحمة ، رسالة في إثبات هذا العلم . رد على من أنكر وجوده . وذكر عليه الرحمة أولاً طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جوّد الكلام في إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال قدس سره . اعلم أن العلم الإنساني يحصل من طريقين : أحدهما من التعليم الإنساني والثاني من التعليم الرباني . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنساني ، فطريق معهود مسلوك محسوس . ويكون على وجهين :

أحدهما : من خارج وهو التحصيل بالتعلّم .

(123/477)

والآخر : من داخل وهو الاشتغال بالتفكر . والتفكر في الباطن بمنزلة التعليم في الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئيّ . والتفكر استفادة النفس من النفس

الكليّ . والنفس الكلي أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العقلاء والعلماء . والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة . كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر ، أو في قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء الذي بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبّه بنفس العالم وتتقرب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزارع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذي هو بالقوة كالبذر . والذي هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم في طول المدة . ويحمل التعب في طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغني الطالب بقليل التفكر عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجد من الفوائد بتفكر ساعة ، ما لا تجد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذن بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكر . ثم قال قدس سره : والطريق الثاني وهو التعليم الربانيّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحي وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأماني الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتتمسك بجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فالله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كليّاً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، ويتخذ منها لوحاً ، ومن النفس الكليّ قلماً وينقش فيها علومه . ويصير العقل الكليّ كالمعلم والنفس القدسيّ

كالمتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر .

(124/477)

ومصداق هذا قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] ، فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد في قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام . فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم المخلوقين وأعرف الموجودات . آدم لما جاء ، ما كان عالماً . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفاخرت الملائكة عليه وتجبروا وتكبروا وقالوا : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] ، ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات ، وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى ، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ [البقرة : 31] ، أو صغر حالهم عند آدم وقلَّ علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، فغرقوا في بحر العجز : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : 32] ، فقال تعالى : ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة :

33] ، فأنبأهم آدم عن مكنونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبي المتولد عن الوحي ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . صار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحي في عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول : < أدبني ربي فأحسن تأديبي > وقال لقومه : < أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله > وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الربانيّ ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنسانيّ فقال تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم : 5] .

(125/477)

والوجه الثاني : هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس الكليّ للنفس الجزئيّ على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحي فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبيّ . والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبويّاً . والذي عن الإلهام يسمى علماً لدنّياً . والعلم اللدنيّ هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصولة في جوهر النفس الكليّ الأوّليّ الذي هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى

العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل الكليّ أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارئ تعالى من النفس الكليّ . والنفس الكليّ أعز وأشرف من سائر المخلوقات . فمن إفاضة العقل الكليّ يتولد الإلهام . فالوحي حلية الأنبياء ، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالوحي دون النبيّ . وكذلك الإلهام دون الوحي . فهو ضعيف بنسبة الوحي ، قوى بإضافة الرؤيا . والإلهامُ علم الأنبياء والأولياء . فإنّ علم الوحي خاص بالرسل موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هي قبول النفس القدسيّ حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والمتابعين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب . والعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف : 65] .

(126/477)

ثم قال عليه الرحمة : فإذا أراد الله بعبد خيراً رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكليّ الذي هو اللوح . فيظهر فيها أسرار بعض المكونات . وينتقش فيها معاني تلك المكونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنيّ . وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيماً . لأن الحكمة من مواهب الله تعالى : و : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، من عباده : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : 269] ، وهم الواصلون مرتبة العلم اللدنيّ ، المستغنون عن كثيرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلاً .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدنيّ هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد التسوية . كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] ، والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه :

أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

والثاني : الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحقيقة فقال : < من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم > .

والثالث : التفكر . فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تتفكر بمعلوماتها ، بشرط التفكر ، ينفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذي يتصرف في ماله

بشرط التجارة ، ينفتح عليه أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران . فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً . كما قال صلى الله عليه وسلم : < تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة > انتهى ملخصاً .

(127/477)

وفي خلال كلامه عليه الرحمة ، جمل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأباها العقل السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها في هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 55. 67 ﴾

(128/477)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾

والمساكين : هنا بمعنى ضعَفاء المال الذين يرتزقون من جهدهم ويُرَق لهم لأنهم يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم .

فليس المراد أنهم فقراء أشدّ الفقر كما في قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ [التوبة : 60] بل المراد بتسميتهم بالفقراء أنهم يُرق لهم كما قال الحريري في المقامة الحادية والأربعين : " . . .

مسكين ابن آدم وأيّ مسكين" .

وكان أصحاب السفينة هؤلاء عملة يأجرون سفينتهم للحمل أو للصيد .

ومعنى : ﴿ وكَانَ وَراءَهُم مِلِكٌ ﴾ : هو ملك بلادهم بالمرصاد منهم ومن أمثالهم يسخّر كل سفينة يجدها غصباً ، أي بدون عوض .

وكان ذلك لنقل أمور بناء أو نحوه مما يستعمله المِلِك في مصالح نفسه وشهواته ، كما كان الفراعنة يسخرون الناس للعمل في بناء الأهرام .

ولو كان ذلك لمصلحة عامة للأمة لجاز التسخير من كلّ بحسب حاله من الاحتياج لأنّ ذلك فرض كفاية بقدر الحاجة وبعد تحققها .

و ﴿ وراءَ اسم الجهة التي خلفَ ظهر من أضيف إليه ذلك الاسم ، وهو ضد أمام وقدّام .

ويستعار (الوراء) لحال تعقب شيء شيئاً وحال ملازمة طلب شيء شيئاً بحق وحال الشيء الذي سيأتي قريباً ، كلّ ذلك تشبيه بالكائن خلف شيء لا يلبث أن يتصل به كقوله

تعالى : ﴿ مِن وَرَائِهِم جَهَنَّمُ ﴾ في [الجاثية : 10] .

وقال لبيد :

أليس ورائي أن تراختْ منيتي

لزُوم العصا تُحنى عليها الأصابع . . .

وبعض المفسرين فسروا وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ بمعنى أمامهم ملك ، فتوهم بعض مدوني اللغة أن (وراء) من أسماء الأضداد ، وأنكره الفراء وقال : لا يجوز أن تقول للذي بين يديك هو وراءك ، وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي تقول : وراءك بَرد شديد ، وبين يديك بَرد شديد .

يعني أنّ ذلك على المجاز .

قال الزجاج : وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللّغة .

(129/477)

ومعنى ﴿ كلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ أي صالحة ، بقرينة قوله ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ ، وقد ذكروا في تعيين هذا الملك وسبب أخذه للسفن قصصاً وأقوالاً لم يثبت شيء منها بعينه ، ولا يتعلّق به غرض في مقام العبرة .

وجملة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ متفرعة على كل من جملتي ﴿ فَكَانت لمساكين ﴾ ، و ﴿ وكَانَ وَراءَهُم مِلِكٌ ﴾ ، فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر ، ولكنها قدمت خلافاً لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام والعناية بإرادة إعابة السفينة حيث كان عملاً ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله ، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجباً في الإقدام على خرقها .

والمعنى : فأردت أن أعيبها وقد فعلت .

وإنما لم يقل : فعبتها ، ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل .

وقد تطلق الإرادة على القصد أيضاً .

وفي "اللسان" عزو ذلك إلى سيبويه .

وتصرفُ الخضر في أمر السفينة تصرف برَعي المصلحة الخاصة عن إذن من الله بالتصرف في مصالح الضعفاء إذ كان الخضر عالماً بحال الملك ، أو كان الله أعلمه بوجوده حينئذ ، فتصرف الخضر قائم مقام تصرف المرء في ماله بإتلاف بعضه لسلامة الباقي ، فتصرفه الظاهر إفساد وفي الواقع إصلاح لأنه من ارتكاب أخف الضرين .

وهذا أمر خفي لم يطلع عليه إلاّ الخضر ، فلذلك أنكره موسى .

وأما تصرفه في قتل الغلام فتصرف بوحي من الله جارٍ على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحي ، فليس من مقام التشريع ، وذلك أنّ الله علم من تركيب عقل الغلام

وتفكيره أنه عقل شاذ وفكر منحرف طبع عليه بأسباب معتادة من انحراف طبع وقصور إدراك ، وذلك من آثار مفضية إلى تلك النفسية وصاحبها في أنه ينشأ طاغياً كافراً .

(130/477)

وأراد الله اللّطف بأبويه بحفظ إيمانهما وسلامة العالَم من هذا الطاغي لطفاً أرادهُ الله خارقاً للعادة جارياً على مقتضى سبق علمه ، ففي هذا مصلحة للدّين بحفظ أتباعه من الكفر ، وهو مصلحة خاصة فيها حفظ الدين ، ومصلحة عامة لأنه حقّ لله تعالى فهو كحكم قتل المرتد .

والزّكاة : الطهارة ، مراعاة لقول موسى ﴿ أقتلت نفساً زاكية .

والرُحْم : بضم الراء وسكون الحاء : نظير الكُثْر للكثرة .

والخشية : توقع ذلك لو لم يتدارك بقتله .

وضميرا الجماعة في قوله فَخَشِينَا ﴾ وقوله ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ عائدان إلى المتكلم الواحد بإظهار أنه مشارك لغيره في الفعل .

وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم لأن المقام مقام الإعلام بأنّ الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع فقال : ﴿ فَخَشِينَا فَأَرَدْنَا ﴾ ، ولم يقل مثله عندما قال

﴿ فَأَرَدتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ لأنّ سبب الإعابة إدراكه لمن له علم بحال تلك الأصقاع.

وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون ﴾ في سورة يوسف (79).

وقرأ الجمهور أَنْ يُبَدِّلَهُمَا ﴾ بفتح الموحدة وتشديد الدال من التبديل.

وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف بسكون الموحدة وتخفيف الدال من الإبدال.

وأما قضية الجدار فالخضر تصرف في شأنها عن إرادة الله اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه، إذ علم الله أن أباهما كان يَهمّه أمر عيشهما بعده، وكان قد أودع تحت الجدار مالاً، ولعله سأل الله أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما أن يبحثا عن مدفن الكنز تحت الجدار بقصد أو بمصادفة، فلو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولت الأيدي مكانه بالحفر ونحوه فعثر عليه عاثر، فذلك أيضاً لطف خارق للعادة.

(131/477)

وقد أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سرّه لأن فيهما دفع فساد عن الناس بخلاف قصة

الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين .

وقوله : ﴿ رحمةً من ربّك وما فعلتُهُ عن أمري ﴾ تصريح بما يزيل إنكار موسى عليه تصرفاته هذه بأنها رحمة ومصلحة فلا إنكار فيها بعد معرفة تأويلها .

ثم زاد بأنه فعلها عن وحي من الله لأنه لما قال ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ علم موسى أنّ ذلك بأمر من الله تعالى لأنّ النبي إنما يتصرف عن اجتهاد أو عن وَحي ، فلما نفى أن يكون فعله ذلك عن أمر نفسه تعيّن أنه عن أمر الله تعالى .

وإنما أوثر نفي كون فعله عن أمر نفسه على أن يقول : وفعلته عن أمر ربّي ، تكملة لكشف حيرة موسى وإنكاره ، لأنه لما أنكر عليه فعلاته الثلاث كان يؤيد إنكاره بما يقتضي أنه تصرفٌ عن خطأ .

وانتصب ﴿ رحْمَةً ﴾ على المفعول لأجله فينازعه كل من (أردتُ) ، و (أردنَا) ، و (أراد ربّك) .

وجملة ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ فَذلُكَةٌ للجمل التي قبلها ابتداء من قوله ﴿ أمَّا السَّفِينةُ فَكَانَتْ لمساكين ﴾ ، فالإشارة بذلك إلى المذكور في الكلام السابق وهو تلخيص للمقصود كحوصلة المدرس في آخر درسه .

و ﴿ تَسْطِعْ مضارع (اسطاع) بمعنى (استطاع) .

حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء ، والمخالفةُ بينه وبين قوله سأنبئك

بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ للتفنن تجنباً لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه .

وابتدىء بأشهرهما استعمالاً وجيء بالثانية بالفعل المخفف لأنّ التخفيف أولى به لأنه إذا كرر ﴿ تَسْتَطِع ﴾ يحصل من تكريره ثقل .

وأكد الموصول الأول الواقع في قوله ﴿ سأُنَبِّئُكَ بتأويل ما لم تستَطِعْ عليهِ صَبْراً ﴾ تأكيداً للتعريض باللوم على عدم الصبر .

(132/477)

واعلم أن قصة موسى والخضر قد اتخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلاً بنوا عليه قواعد موهومة .

فأول ما أسسوه منها أنّ الخضر لم يكن نبيئاً وإنما كان عبداً صالحاً ، وأن العِلم الذي أوتيه ليس وحياً ولكنه إلهام ، وأن تصرفه الذي تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية ، وأن الخضر منحهُ الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا ليكون مرجعاً لتلقي العلوم الباطنية ، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقّيه .

وبَنوا على ذلك أن الإلهام ضرب من ضروب الوحي ، وسموه الوحي الإلهامي ، وأنه يجيء على لسان ملك الإلهام ، وقد فصله الشيخ محيي الدين ابن العربي في الباب الخامس

والثمانين من كتابه "الفتوحات المكية" ، وبيّن الفرق بينه وبين وحي الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها منثورةً في الأبواب الثالث والسبعين ، والثامن والستين بعد المائتين ، والرابع والستين بعد ثلاثمائة ، وجزم بأن هذا الوحي الإلهامي لا يكون مخالفاً للشريعة ، وأطال في ذلك ، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز ، وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يسمى بالإلهام حجّة .

٧ وعرفوه بأنه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر ، وأبطلوا كونه حجّة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوماً ولتفاوت مراتب الكشف عندهم .

وقد تعرض لها النسفي في "عقائده" ، وكل ما قاله النسفي في ذلك حق ، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط .

والأظهر أن الخضر نبيء عليه السلام وأنه كان موحىً إليه بما أوحي ، لقوله ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ ، وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصّت في هذه السورة ، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفرض ، وأن يحمل ما يعْزى إليه من بعض الصوفية الموسومين بالصدق أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم ، أو على غشاوة الخيال التي قد تخيم عليهم .

فكونوا على حذر ممن يقول : أخبرني الخَضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ الآية .

ظاهر هذه الآية الكريمة – أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة ، صحيحة كانت أو معيبة .

ولكنه يفهم من آية أخرى أنه لا يأخذ المعيبة ، وهي قوله : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : 79] أي لئلا يأخذها ، وذلك هو الحكمة في خرقه لها المذكور في قوله : ﴿ حتى إِذَا رَكِبَا فِي السفينة خَرَقَهَا ﴾ [الكهف : 71] ثم بين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب . لأن عيبها يزهده فيها . ولأجل ما ذكرنا كانت هذه الآية الكريمة مثالاً عند علماء العربية لحذف النعت . أي وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غير معينى بدليل ما ذكرنا . وقد قدمنا الشواهد العربية على ذلك في سورة " بني إسرائيل " في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً ﴾ [الإسراء : 58] الآية . واسم ذلك الملك : هدد بن بدر : وقوله " وراءهم " أي أمامهم كما تقدم في سورة " إبراهيم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾

قوله : ﴿ لِمَسَاكِينَ ﴾ اللام هنا للملكية ، يعني مملوكة لهم ، وقد حسمتْ هذه الآيةُ الخلافَ بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين ، وأيهما أشدّ حاجة من الآخر ، وعليها فالمسكين : هو مَنْ يملك شيئاً لا يكفيه ، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل في البحر ، وسماهم القرآن مساكين ، أما الفقير : فهو مَنْ لا يملك شيئاً .

ومعنى : ﴿ يَعْمَلُونَ فِي البحر . . ﴾ [الكهف : 79] أي : مجال عملهم البحر ، يعملون فيه بنقل الركاب أو البضائع ، أو الصيد ، أو خلافه .

وقوله : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا . . ﴾ [الكهف : 79] المتكلم هنا هو الخِضْر عليه السلام فنسب إرادة عَيْب السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها إلى الله تعالى تنزيهاً له تعالى عَمَّا لا يليق ، أما في الخير فنسب الأمر إلى الله فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا . . ﴾ [الكهف : 82] لذلك فإنه في نهاية القصة يُرجع كل ما فعله إلى الله فيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي . . ﴾ [الكهف : 82] ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم

مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] كلمة : كل ترسم سُوراً كُلياً لا يترك شيئاً ، فالمراد يأخْذ كل سفينة ، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة ، لكن الحقيقة أنه يأخذ السفينة الصالحة للاستعمال فقط ، ولا حاجةَ له في المعيبة الغير صالحة ، وكأن في سياق الآية صفة مُقدَّرة : أي يأخذ كل سفينة صالحة غَصْباً من صاحبها .

(135/477)

والغَصْب : ما أُخذ بغير الحق ، عُنْوةً وقَهْراً ومُصَادرة ، وله صور متعددة منها مثلاً السرقة : وهي أَخْذ المال من حِرْزه خفية ككسر دولاب أو خزينة ، ومنها الغَصْب : وهو أخْذ مال الغير بالقوة ، وتحت سمعه وبصره ، وفي هذه الحالة تحدث مقاومة ومشادة بين الغاصب والمغصوب .

ومنها الخطف : وهو أخْذ مال الغير هكذا علانية ، ولكن بحيلةٍ ما ، يخطف الشيء ويفرّ به دون أن تتمكّن من اللحاق به ، فالخَطْفُ إذن يتم علانية ولكن دون مقاومة . ومنها الاختلاس : وهو أن تأخذ مال الغير وأنت مؤتمن عليه ، والاختلاس يحدث خفية ، ولا يخلو من حيلة تستره .

وما دام الأمر هنا غَصْباً فلا بُدَّ لمالك الشيء أنْ يقاوم ولو بعض مقاومة يدافع بها عن حَقِّه ،

وقد يتوسل إليه أنْ يترك له ماله ، فالمسألة إذن فيها كلام وأخْذٌ وَرَدٌّ .

إذن : خَرْق السفينة في ظاهره اعتداء على ملك مُقوّم ، وهذا منهيّ عنه شرعاً ، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً في نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن ، وسفينة معيبة خير من عدمها ، ولو عَلِم موسى عليه السلام هذه الحكمة لَبادرَ هو إلى خَرْقها .

وما دام الأمر كذلك ، فعلينا أن نُحوّل السفينة إلى سفينة غير صالحة ونعيبها بخَرْقها ، أو بخلْع لَوْح منها لنصرف نظر الملك المغتصب عن أَخْذها .

وكلمة ﴿ وَرَآءَهُم ﴾ هنا بمعنى أمامهم ؛ لأن هذا الظالم كان يترصَّد للسفن التي تمر عليه ، فما وجدها صالحة غصبها ، فهو في الحقيقة أمامهم ، على حَدّ قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ويسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 16] وهل جهنم وراءه أم أمامه ؟

وتستعمل وراء بمعنى : بَعْد ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71]

(136/477)

وتأتي وراء بمعنى : غير . كما في قوله تعالى في صفات المؤمنين : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ

ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ [المؤمنون : 5-7]

وفي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ . . ﴾ [النساء : 23] إلى . . ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذلكم . . ﴾ [النساء : 24]

وقد تستعمل وراء بمعنى خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ . . ﴾ [آل عمران : 187]

إذن : كلمة ﴿ وَرَاءَ ﴾ جاءتْ في القرآن على أربعة معَانٍ : أمام ، خلف ، بعد ، غير .

وهذا مما يُميِّز العربية عن غيرها من اللغات ، والملَكة العربية قادرة على أن تُميِّز المعنى المناسب للسياق ، فكلمة العَيْن مثلاً تأتي بمعنى العين الباصرة . أو : عين الماء ، أو : بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس . والسياق هو الذي يُحدد المعنى المراد .

ثم يقول الحق سبحانه في قرآنه عما أوضحه الخضر لموسى عليه السلام مما خفي عليه : ﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ . . ﴾ .

الغلام : الولد الذي لم يبلغ الحُلُم وسِنّ التكليف ، وما دام لم يُكلَّف فما يزال في سِنّ الطهارة والبراءة من المعاصي ؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً . . ﴾ [الكهف : 74] أي : طاهرة ، ولا شكَّ أن أخْذ الغلام في هذه السِّنِّ خَيْر له ومصلحة قبل أنْ تلوّثه المعاصي ، ويدخل دائرة الحساب .

إذن : فطهارته هي التي دعتْنَا إلى التعجيل بأخذه . هذا عن الغلام ، فماذا عن أبيه وأمه ؟

يقول تعالى : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ . . ﴾ [الكهف : 80] وكثيراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء ، كما قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فاحذروهم ﴾ [التغابن : 14]

والفتنة بالأولاد تأتي من حِرْص الآباء عليهم ، والسعي إلى جعلهم في أحسن حال ، وربما كانت الإمكانات غير كافية ، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد عَلِم الحق سبحانه وتعالى أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه ، وهما مؤمنان ولم يُرِد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكأن قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أُسْدِي إلى كلْيهما ، وحكمة بالغة تستتر وراء الحدَث الظاهر الذي اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَدُّ من الغباء إذا مات لدينا الطفل أو الغلام الصغير أَنْ يشتد الحزن عليه ، وننعي طفولته التي ضاعتْ وشبابه الذي لم يتمتع به ، ونحن لا ندري ما أُعِدَّ له من النعيم ، لا ندري أن مَنْ أُخِذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحدِّد له مسكن في الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجري فيها كما يشاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عند الأنبياء وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد

، ولذلك يُسمَّوْن " دعاميص الجنة " .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [الكهف : 80]

خشينا : خِفْنا . فالواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً في فساد دين أبيه ، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) ﴾

(138/477)

ولا يفوت الخضر عليه السلام أن ينسب الخير هنا أيضاً إلى الله ، فيقول : أنا أُحب هذا العمل وأريده ، إنما الذي يُبدّل في الحقيقة هو الله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً ﴾ [الكهف : 81] فهذا الخير من الله ، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه .

وقوله : ﴿ خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً . . ﴾ [الكهف : 81] أي : طُهْراً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ [الكهف : 81] لأنهما أرادا الولد لينفعهما في الدنيا ، وليكون قُرَّة عَيْن لهما ، ولما كانت الدنيا فاتنة لا بقاءَ لها ، وقد ثبت في علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويْه ، وسيجلب عليهما المعاصي والسيئات ، وسيجرّهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة في

أخذه بدل أنْ يتمتّعا به في الدنيا الفانية ، ويشقيَا به في الآخرة الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة . . . ﴾ .

﴿ لِغُلاَمَيْنِ ﴾ أي : لم يبلغا سِنَّ الرشْد ، وفوق ذلك هما يتيمان .

وكان تحت هذا الجدار المائل كَنْز لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أنْ تتصوّر ما يحدث لو تهدَّم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوهما الطعام بل ومجرد المأْوى ، إنَّ أقل ما يُوصفون به أنهم لِئَام لا يُؤتمنون على شيء . ولقد تعوَّدنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على موائد اللئام .

إذن : فلا شَكَّ أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يُعَدُ بمثابة صَفْعة لهؤلاء اللئام تناسب ما قابلوهم به من تنكُّر وسوء استقبال ، وترد لهم الصَّاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

(139/477)

فعلَّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أنْ يحفظ لحين أنْ يكبُرَ هذان الغلامان ويتمكنا من حفظه وحمايته في قرية من اللئام . وكأن الحق سبحانه وتعالى أرسله لهذين

الغلامين في هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار في التصدُّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقوم بإصلاحه قبل أنْ يقع وينكشف أمر الكنز وصاحبيه في حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجدار ورَدَّه إلى ما كان عليه رَدَّ مَنْ علَّمه الله من لَدُنْه ، فيقال : إنه بنَاهُ بناءً موقوتاً يتناسب وعُمْرَ الغلامين ، وكأنه بناه على عمر افتراضي ينتهي ببلوغ الغلامين سِنَّ الرشْد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه في الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أُوتِي علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سياق الآية أنهما كانا في سِنٍّ واحدة توأمين لقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا . . ﴾ [الكهف : 82] أي : سوياً ، ومعنى الأشُدّ : أي القوة ، حيث تكتمل أجهزة الجسم وتستوي ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنجاب مثله .

وتلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال هنا : ﴿ يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا . . ﴾ [الكهف : 82] ولم يقُلْ رُشْدهما ، لأنْ هناك فرْقاً بين الرُّشْد والأَشُدّ فالرُّشْد : حُسْن التصرُّف في الأمور ، أما الأشُدَّ : فهو القوة ، والغلامان هنا في حاجة إلى القوة التي تحمي كَنْزهما من هؤلاء اللئام فناسب هنا ﴿ أَشُدَّهُمَا . . ﴾ [الكهف : 82]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . ﴾ [الكهف : 82] أي : يستخرجاه بما لديهما من القوة والفُتوَّة . والرحمة : صفة تُعطَى للمرحوم لتمنعه من الداء ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ [الإسراء : 82] فقوله : شفاء : أي : يشفي داءً موجوداً ويُبرِئه . ورحمة : أي رحمة تمنع عودة الداء مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما وحِفْظ حقِّهما ، ثم لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُرجِع الفضل لأهله ، وينفي عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .

. ﴾ [الكهف : 82] أي : أن ما حدث كان بأمر الله ، وما علَّمتك إياه كان من عند الله ، فليس لي مَيْزة عليك ، وهذا درس في أَدب التواضع ومعرفة الفضْل لأهله .

ثم يقول : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف : 82] تأويل : أي إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(141/477)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

أخرج ابن عساكر من طريق ابن سمعان ، عن مجاهد قال : كان ابن عباس يقول في هذه الآية ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح ﴾ يقول : لا أنفك ولا أزال ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ يقول : ملتقى البحرين ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ يقول : أو أمضي سبعين خريفاً ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما ﴾ يقول : بين البحرين ﴿ نسيا حوتهما ﴾ يقول : ذهب منهما وأخطأهما ، وكان حوتاً مليحاً معهما يحملانه فوثب من المكتل إلى الماء فكان ﴿ سبيله في البحر سرباً ﴾ فأنسى الشيطان فتى موسى أن يذكره ، وكان فتى موسى يوشع بن نون ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ يقول : موسى عجب من أثر الحوت ودوراته التي غار فيها ﴿ قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ قول موسى : فذاك حيث أخبرت أني أجد الخضر حيث يفارقني الحوت ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ يقول : اتبع موسى ويوشع أثر الحوت في البحر وهم راجعان على ساحل البحر ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ يقول : فوجدا خضراً ﴿ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [يوسف : 76] فصحب موسى الخضر وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس أن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل : قال ابن عباس : كذب عدوّ الله ! . . . حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : أن لي عبداً بمجمع البحرين وهو أعلم منك . قال موسى : يا رب ، كيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً تجعله في مكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَم . فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال له فتاه ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال : فكان للحوت سرباً ، ولموسى ولفتاه عجباً . فقال

موسى ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدّا على آثارهما قصصاً ﴾ قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة ، ولا يصيب ماؤها ميتاً إلا عاش . قال : وكان الحوت قد أكل منه ، فلما قطر عليه الماء عاش . قال : فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نَعَم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قال إنك لن

(143/477)

تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى ، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلَمُهُ أنت ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه . فقال موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فقال له الخضر ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً فانطلقا ﴾ يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا في السفينة فلم يفجأه إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلَهَا ؟ . ﴿ لقد جئت شيئاً إمْرَا ﴾ فقال : ﴿ ألم أقل إنك لن

تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت الأولى من موسى نسياناً ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر بيده فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ قال : مائل ، فأخذ الخضر بيده هكذا فأقامه ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ فقال : ﴿ هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما " .

(144/477)

قال سعيد بن جبير : وكان ابن عباس يقرأ " وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً " وكان يقرأ " وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين " .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق آخر ، عن سعيد بن جبير قال : إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال : سلوني .

(145/477)

قلت : أي أبا عباس ، جعلني الله فداءك ، بالكوفة رجل قاص يقال له نوف ، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل . قال : كذب عدوّ الله ، حدثني أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن موسى عليه السلام ذكر الناس يوماً ، حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولّى ، فأدركه رجل فقال : أي رسول الله ، هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال : لا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى . قيل : بلى . قال : أي رب ، فأين ؟ قال : بمجمع البحرين . قال : أي رب ، اجعل لي علماً أعلم به ذلك . قال : خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني

بحيث يفارقك الحوت . قال : ما كلفت كثيراً . قال : فبينا هو في ظل صخرة في مكان سريان أن تضرب الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه . حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره . وتضرب الحوت حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر . قال موسى ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ قال : قد قطع الله عنك النصب ، فرجعا فوجدا خضراً على طنفسة خضراء على كبد البحر ، مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال : هل بأرض من سلام . . . ! ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئت لتعلمني مما علمت رشداً . قال : أما يكفيك أن التوراة بيديك ، وأن الوحي يأتيك يا موسى ؟ إن لي علماً لا ينبغي أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أعلمه . فأخذ طائر بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ الطير منقاره من البحر . حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل أهل الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر ، فعرفوه فقالوا : عبد الله الصالح لا نحمله بأجر ، فخرقها ووتد فيها وتداً . قال موسى ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمْراً قال ألم أقل إنك

لن تستطيع معي صبراً ﴾ كانت الأولى نسياناً والوسطى والثالثة عمداً ﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ ووجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، فقال : ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ لم تعمل الحنث . قال ابن عباس قرأها : ﴿ زكية ﴾ زاكية مسلمة ، كقولك : غلاماً زكياً . ﴿ فانطلقا فوجدا ﴾ جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ قال : بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام ﴿ قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال : أجراً تأكله ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ قرأها ابن عباس " وكان أمامهم ملك " يزعمون مدد بن ندد ، والغلام المقتول اسمه يزعمون جيسور ﴿ ملك يأخذ كل سفينة ﴾ صالحة ﴿ غصباً ﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها ، ومنهم من يقول سدوها بالقار ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ وكان كافراً ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتله خضر . " وزعم غير سعيد أنهما أُبْدِلا جارية " .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه من وجه آخر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وكنا عنده ، فقال القوم : إن نوفاً الشامي يزعم أن الذي ذهب يطلب العلم ليس

بموسى بني إسرائيل ، فكان ابن عباس متكئاً فاستوى جالساً فقال : كذب نوف ، حدثني أبي بن كعب أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول " رحمة الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل واستحيا وأخذته دمامة من صاحبه فقال له : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، لرأى من صاحبه عجباً " .

(147/477)

قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر نبياً من الأنبياء بدأ بنفسه فقال : " رحمة الله علينا وعلى صالح ، ورحمة الله علينا وعلى أخي عاد ، ثم قال : إن موسى بينا هو يخطب قومه ذات يوم ، إذ قال لهم : ما في الأرض أحد أعلم مني . فأوحى الله إليه : أن في الأرض من هو أعلم منك ، وآية ذلك أن تزوّد حوتاً مالحاً فإذا فقدته فهو حيث تفقده ، فتزوّد حوتاً مالحاً فانطلق هو وفتاه حتى إذا بلغا المكان الذي أمروا به ، فلما انتهوا إلى الصخرة انطلق موسى يطلب ، ووضع فتاه الحوت على الصخرة فاضطرب ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ قال فتاه : إذا جاء نبي الله حدثته . فأنساه الشيطان ، فانطلقا فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال حين جاوز ما أمر به ، فقال موسى : ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ قال فتاه : يا نبي الله ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى

الصخرة فإني نسيت الحوت ﴾ أن أحدثك ﴿ وما أَنسَانِيهُ إلا الشيطان ﴾ ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ ﴿ قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ فرجعا ﴿ على آثارهما قصصاً ﴾ يقصان الأثر حتى انتهيا إلى الصخرة ، فأطاف فإذا هو برجل مسجى بثوب فسلم عليه ، فرفع رأسه فقال له : من أنت ؟ قال : موسى . قال : من موسى ؟ قال : موسى بني إسرائيل . قال : فما لك ؟ قال : أخبرت أن عندك علماً فأردت أن أصحبك ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ ﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ ﴿ قال كيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ قال : قد أمرت أن أفعله ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة ﴾ فخرج من كان فيها وتخلف ليخرقها ، فقال له موسى : تخرقها ﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ فانطلقا ، حتى إذا أتوا على غلمان يلعبون على ساحل البحر وفيهم غلام ليس في الغلمان أحسن

(148/477)

ولا ألطف منه ، فأخذه فقتله فنفر موسى عند ذلك وقال ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال : فأخذته دمامة من صاحبه واستحيا فقال ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى أتيا أهل قرية ﴾ وقد أصاب موسى جهد شديد فلم يضيفوهما ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ قال له موسى مما نزل به من الجهد ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ فأخذ موسى بطرف ثوبه فقال : حدثني : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ فإذا مر عليها فرآها منخرقة تركها ورقعها أهلها بقطعة من خشب فانتفعوا بها .

وأما الغلام ، فإنه كان طبع يوم طبع كافراً ، وكان قد ألقي عليه محبة من أبويه ، ولو عصياه شيئاً لأرهقهما طغياناً وكفراً ، فأراد ربك أن يبدلهما ﴿ خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ فوقع أبوه على أمه فعلقت خيراً منه زكاة وأقرب رحماً .

(149/477)

وأخرج من وجه آخر عن سعيد بن جبير قال : جلست عند ابن عباس – وعنده نفر من أهل الكتاب – فقال بعضهم : إن نوفاً يزعم عن أبي بن كعب ، أن موسى النبي الذي طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا ، فقال ابن عباس : كذب نوف . . . حدثني أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن موسى بني إسرائيل سأل ربه فقال : أي رب ، إن كان في عبادك أحد أعلم مني فدلني . قال : نعم ، في عبادي من هو أعلم منك ، فنعت له مكانه فأذن له في لقيه ، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح ، قد قيل : إذا حيي هذا الحوت في مكان ، فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك . فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه ، فسار حتى جهده السير وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ، ماء الحياة من شرب منه خلد ، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ فانطلقا ﴿ فلما جاوزا قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ قال الفتى وذكر ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال ابن عباس : فظهر موسى على الصخرة حين انتهيا إليها ، فإذا رجل ملتف في كسائه فسلم موسى عليه فرد عليه ثم قال له : ما جاء بك ؟ إن كان لك في قومك لشغل ؟ قال له موسى : جئتك لتعلمني مما علمت رشداً .

﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد علم ذلك ، فقال موسى : بلى . قال : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ أي أن ما تعرف ظاهر ما ترى من العدل ولم تحط من علم الغيب بما أعلم ؟ ﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ وإن رأيت ما يخالفني ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس يلتمسان من يحملهما ، حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما من السفن شيء أحسن منها ولا أجمل ولا أوثق منها ، فسألا أهلها أن يحملوهما فحملوهما ، فلما اطمأنا فيها ولجت بهما مع أهلها ، أخرج منقاراً له ومطرقة ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها ، ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها ثم جلس عليها يرقعها ، فقال له موسى – ورأى أمراً أفظع به – ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ أي بما تركت من عهدك ﴿ ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ ثم خرجا من السفينة فانطلقا حتى أتيا قرية ، فإذا غلمان يلعبون . . . فيهم غلام ليس في الغلمان غلام أظرف منه ولا أوضأ منه ، فأخذ بيده وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله ، فرآى موسى عليه السلام أمراً فظيعاً لا صبر عليه ، صبي صغير قتله لا ذنب له . . . ! ؟ ﴿ قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴾ أي صغيرة ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً

قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ أي قد عذرت في شأني ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ فهدمه ثم قعد يبنيه ، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف وما ليس عليه صبر ، فقال ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ أي قد استطعمناهم فلم يطعمونا ، واستضفناهم فلم يضيفونا ، ثم قعدت تعمل في غير صنيعة ؟ ولو شئت

(151/477)

لأعطيت عليه أجراً في عملك . ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة ﴾ صالحة ﴿ غصباً ﴾ - في قراءة أبي بن كعب "كل سفينة صالحة" وإنما عيبها لطرده عنها فَسَلِمَتْ منه حين رأى العيب الذي صنعت بها ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً .

فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا

كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ أي ما فعلته عن نفسي ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ فكان ابن عباس يقول : ما كان الكنز إلا علماً " .

(152/477)

وأخرج ابن عساكر من وجه آخر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قام موسى خطيباً لبني إسرائيل فأبلغ في الخطبة ، وعرض في نفسه أن أحداً لم يؤت من العلم ما أوتي ، وعَلِمَ الله الذي حدث نفسه من ذلك فقال له : " يا موسى ، إن من عبادي من قد آتيته من العلم ما لم أوتك . قال : فادللني عليه حتى أتعلم منه . قال : يدلك عليه بعض زادك " . فقال لفتاه يوشع ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً ﴾ قال : فكان فيما تزوداه حوت مملوح وكانا يصيبان منه عند العشاء والغداء ، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر ، وضع فتاه المكتل على ساحل البحر فأصاب الحوت ندى الماء فتحرك في المكتل فقلب المكتل وأسرب في البحر ، فلما جاوز أحضر الغداء فقال : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ فذكر الفتى ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ فذكر موسى ما كان عهد إليه ، إنه يدلك عليه بعض زادك . ﴿ قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ أي

هذه حاجتنا ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة التي فعل فيها الحوت ما فعل ، فأبصر موسى أثر الحوت فأخذا أثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا إلى جزيرة من جزائر العرب ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلِّمت رشداً ﴾ فأقر له بالعلم ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ يقول : حتى أكون أنا أحدث ذلك لك ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلَهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً ﴾ على ساحل البحر في غلمان يلعبون ، فعهد إلى أجودهم وأصبحهم ﴿ فقتله قال أقتلت نفساً زكية

(153/477)

بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ .

قال ابن عباس : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاستحى نبي الله موسى عند ذلك فقال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلَهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ قال : وهي في قراءة أبي بن كعب ﴿ يأخذ كل سفينة صالحة غصباً ﴾ فأردت أن أعيبها حتى لا يأخذها الملك ، فإذا جاوزوا الملك رقعوها فانتفعوا بها وبقيت لهم ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ﴾ إلى قوله : ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ قال : فجاء طائر هذه الحمرة فبلغ فجعل يغمس منقاره في البحر ، فقال له : يا موسى ، ما يقول هذا الطائر ؟ قال : لا أدري . قال : هذا يقول : ما علمكما الذي تعلمان في علم الله إلا كما أنقص بمنقاري من جميع ما في هذا البحر " .

وأخرج الروياني وابن عساكر من وجه آخر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بينما موسى عليه السلام يذكر بني إسرائيل ، إذ حدث نفسه أنه ليس أحد من الناس أعلم منه ، فأوحى الله إليه : " إني قد علمت ما حدثت به نفسك ، فإن من عبادي رجلاً أعلم منك . . . يكون على ساحل البحر فأته فتعلم منه واعلم أن الآية الدالة لك على مكانه زادك الذي تزوّد به ، فأينما فقدته فهناك مكانه " .

(154/477)

ثم خرج موسى وفتاه قد حملا حوتاً مالحاً في مكتل وخرجا يمشيان لا يجدان لغوبا ولا عنتاً ، حتى انتهيا إلى العين التي كان يشرب منها الخضر ، فمضى موسى وجلس فتاه فشرب منها فوثب الحوت من المكتل حتى وقع في الطين ، ثم جرى فيه حتى وقع في البحر . فذلك قوله تعالى : ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ فانطلق حتى لحق موسى ، فلما لحقه أدركه العياء فجلس وقال لفتاه ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ قال : ففقد الحوت فقال : ﴿ إني نسيت الحوت ﴾ الآية . يعني فتى موسى ﴿ اتخذ سبيله في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ إلى ﴿ قصَصَا ﴾ فانتهيا إلى الصخرة فأطاف بها موسى فلم ير شيئاً ، ثم صعد فإذا على ظهرها رجل متلفف بكسائه نائم ، فسلم عليه موسى ، فرفع رأسه فقال : أنى السلام بهذا المكان . . . ! ؟ من أنت ؟ قال : موسى بني إسرائيل . قال : فما كان لك في قومك شغل عني ؟ قال : إني أمرت بك . فقال الخضر : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ ﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ الآية .

(155/477)

﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فخرجا يمشيان حتى انتهيا إلى ساحل البحر ، فإذا قوم قد ركبوا في سفينة يريدون أن يقطعوا البحر ركبوا

معهم ، فلما كانوا في ناحية البحر أخذ الخضر حديدة كانت معه فخرق بها السفينة ﴿ قال أخرقتها لتغرق أَهْلَهَا ﴾ الآية . ﴿ قال ألم أقل ﴾ الآية . ﴿ قال لا تؤاخذني ﴾ الآية . ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ فوجدا صبياناً يلعبون يريدون القرية ، فأخذ الخضر غلاماً منهم وهو أحسنهم وألطفهم فقتله قال له موسى : ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ الآية . ﴿ قال ألم أقل لَكَ ﴾ الآية . ﴿ قال إن سألتك ﴾ الآية . فانطلقا حتى انتهيا إلى قرية لئام وبهما جهد فاستطعموهم فلم يطعموهم ، فرأى الجدار مائلاً فمسحه الخضر بيده فاستوى ، فقال : ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال له موسى : قد ترى جهدنا وحاجتنا ، لو سألتهم عليه أجراً أعطوك فنتعشى به ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ قال : فأخذ موسى بثوبه فقال : أنشدك الصحبة ، إلا أخبرتني عن تأويل ما رأيت ؟ قال : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ الآية . خرقتها لأعيبها فلم تؤخذ فأصلحها أهلها فامتنعوا بها ، وأما الغلام ، فإن الله جعله كافراً وكان أبواه مؤمنين ، فلو عاش لأرهقهما ﴿ طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ الآية .

(156/477)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه بمصر ، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : 5] فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعم ، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله في الأرض وقال : كلم الله موسى نبيكم تكليماً واصطفاني لنفسه وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم من كل شيء سألتموه ، فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرون اليوم .

فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا عرفهم إياها ، فقال له رجل من بني إسرائيل : فهل على الأرض أعلم منك يا نبي الله ؟ قال : لا . فبعث الله جبريل إلى موسى فقال : إن الله يقول " وما يدريك أين أضع علمي ؟ . . . بلى على ساحل البحر رجل أعلم " .

قال ابن عباس : هو الخضر . فسأل موسى ربه أن يريه إياه فأوحى الله إليه : أن ائت البحر فإنك تجد على ساحل البحر حوتاً ميتاً فخذه فادفعه إلى فتاك ، ثم الزم شط البحر فإذا نسيت الحوت وذهب منك فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب . فلما طال صعود موسى ونصب فيه ، سأل فتاه عن الحوت : ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ لك .

قال الفتى . لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سربا ، فأعجب ذلك فرجع حتى أتى الصخرة فوجد الحوت ، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت ، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة ، فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر ، فلقي الخضر بها فسلّم عليه ، فقال الخضر : وعليك السلام . . . وأنى يكون هذا السلام بهذا الأرض . . . ! ؟ ومن أنت ؟ قال : أنا موسى . فقال له الخضر : أصاحب بني إسرائيل ؟ فرحب به وقال : ما جاء بك ؟ قال : جئتك ﴿ على أن تعلمني مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يقول : لا تطيق ذلك . قال موسى : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فانطلق به وقال له : لا تسألني عن شيء أصنعه حتى أبين لك شأنه . فذلك قوله : ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب وابن عساكر من طريق هرون بن عنترة ، عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه فقال : " رب ، أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني . قال : فأي عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال : فأيّ عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : وقد كان حدث موسى

نفسه أنه ليس أحد أعلم منه . قال : رب ، فهل أحد أعلم مني ؟ قال : نعم . قال : فأين هو ؟ قيل له : عند الصخرة التي عندها العين " .

(158/477)

فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه فقال له موسى : إني أريد أن تصحبني . قال : إنك لن تطيق صحبتي . قال : بلى . قال : فإن صحبتني ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في البحر مكان أكثر ماء منه . قال : وبعث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ بمنقاره من الماء ؟ قال : ما أقل ما رزأ . . . قال : فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء . وذكر تمام الحديث في خرق السفينة وقتل الغلام وإصلاح الجدار ، فكان قول موسى في الجدار لنفسه شيئاً من الدنيا ، وكان قوله في السفينة وفي الغلام لله عز وجل .

وأخرج الدارقطني في الأفراد وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان ، عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسئ له في أجله حتى يكذب

الدجال .

وأخرج البخاري وأحمد والترمذي وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سمي الخضر ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سمي الخضر خضراً ؛ لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر ، عن مجاهد قال : إنما سمي الخضر ، لأنه إذا صلى اخضر ما حوله .

(159/477)

وأخرج ابن عساكر عن ابن إسحق قال : حدثنا أصحابنا أن آدم عليه السلام لما حضره الموت جمع بنيه فقال : يا بني ، إن الله سينزل على أهل الأرض عذاباً ، فليكن جسدي معكم في المغارة حتى إذا هبطتم فابعثوني وادفنوني بأرض الشام . فكان جسده معهم ، فلما بعث الله نوحاً ضم ذلك الجسد وأرسل الله الطوفان على الأرض فغرقت الأرض زماناً ، فجاء نوح حتى نزل وأوصى بنيه الثلاثة – وهم سام وحام ويافث – أن يذهبوا

بجسده إلى الغار الذي أمرهم أن يدفنوه به . فقالوا : الأرض وحشية لا أنيس بها ولا نهتدي لطريق ، ولكن كفّ حتى يعظم الناس ويكثروا . فقال لهم نوح : إن آدم قد دعا الله أن يطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة . فلم يزل جسد آدم حتى جاء الخضر عليه السلام هو الذي تولى دفنه ، فأنجز الله له ما وعده فهو يحيا ما شاء الله أن يحيا .

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب : " أن الخضر عليه السلام أمه رومية وأبوه فارسي " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما لقي موسى الخضر ، جاء طير فألقى منقاره في الماء ، فقال الخضر لموسى : تدري ما يقول هذا الطائر ؟ قال : وما يقول : قال : يقول : ما علمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء " .

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي والبزار وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن أبي الدرداء في قوله : ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبزار ، عن أبي ذر رفعه قال : إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مضمن ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل . لا إله إلا الله . . . محمد رسول الله .

وأخرج الشيرازي في الألقاب عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: كان اللوح الذي ذكر الله تعالى في كتابه ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ حجراً منقوراً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجباً لمن يعلم أن القدر حق كيف يحزن؟!.

.. وعجباً لمن يعلم أن الموت حق كيف يفرح؟!... وعجباً لمن يرى الدنيا وغرورها وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟! لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأخرج الخرائطي في قمع الحرص وابن عساكر من طريق أبي حازم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجباً لمن يعرف الموت كيف يفرح...!؟ وعجباً لمن يعرف النار كيف يضحك...!؟ وعجباً لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها...؟! وعجباً لمن أيقن بالقضاء والقدر كيف ينصب في طلب الرزق...!؟ وعجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يعمل الخطايا...!؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأخرج ابن مردويه عن علي، "عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال: "لوح من ذهب مكتوب فيه: شهدت أن لا إله إلا الله، شهدت أن محمداً

رسول الله ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن . . . ! ؟ عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح . . . ! ؟ عجبت لمن تفكر في تقلب الليل والنهار ويأمن فجأتهما حالاً فحالاً " " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : ما كان ذهباً ولا فضة ، كان صحفاً عليها .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن علي بن أبي طالب في قول الله عز وجل : ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : كان لوح من ذهب مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله . . . عجباً لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح . . . ! وعجباً لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك . . . ! وعجباً لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن . . . ! وعجباً لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها . . .

(161/477)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ قال : كان يؤدي الأمانات والودائع إلى أهلها .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ قال : حفظ الصلاح

لأبيهما وما ذكر عنهما صلاحاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله ، فما يزالون في ستر من الله وعافية .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم " .

وأخرجه ابن المبارك وابن أبي شيبة عن محمد بن المنكدر موقوفاً .

وأخرج أحمد في الزهد عن كعب قال : إن الله يخلف العبد المؤمن في ولده ثمانين عاماً .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس قال : بينما موسى يخاطب الخضر يقول : ألست نبي بني إسرائيل ؟ فقد أوتيت من العلم ما تكتفي به ، وموسى يقول له : إني قد أمرت باتباعك . والخضر يقول : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ فبينما هو يخاطبه إذ جاء عصفور فوقع على شاطئ البحر . فنقر منه نقرة ثم طار فذهب ، فقال الخضر لموسى : يا موسى ، هل رأيت الطير أصاب من البحر ؟ قال : نعم . قال : ما أصبتُ أنا وأنت من العلم في علم الله ، إلا بمنزلة ما أصاب هذا الطير من هذا البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال : حتى إنتهي .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ مجمع البحرين ﴾ قال : بحر فارس والروم ، هما بحر المشرق والمغرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس مثله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي بن كعب في قوله : ﴿ مجمع البحرين ﴾ قال : أفريقية .

(162/477)

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ مجمع البحرين ﴾ قال : طنجة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ مجمع البحرين ﴾ قال : الكر والرس ، حيث يصبان في البحر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ قال : دهراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ قال : سبعين خريفاً . وفي قوله : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما ﴾ قال : بين البحرين ﴿ نسيا حوتهما ﴾ قال : أضلاه في البحر ﴿ فاتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال : موسى

يعجب من أثر الحوت ودوراته التي غاب فيها ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال : اتباع موسى وفتاه أثر الحوت حيث يشق البحر راجعين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ نسيا حوتهما ﴾ قال : كان مملوحاً مشقوق البطن .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ قال : أثره يابس في البحر كأنه حجر .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما انجاب ماء منذ كان الناس ، غير بيت ماء الحوت دخل منه صار منجاباً كالكرة ، حتى رجع إليه موسى فرأى إمساكه قال : ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ أي ، يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى مدخل الحوت " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ قال : جاء فرأى جناحيه في الطين حين وقع في الماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ قال : دخل الحوت في البطحاء بعد موته حين أحياه الله ، ثم اتخذ فيها سرباً حتى وصل إلى البحر . والسرب ، طريق حتى وصل إلى الماء وهي بطحاء يابسة في البر ، بعدما أكل منه دهراً طويلاً وهو زاده ، ثم أحياه الله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس أن موسى عليه السلام شق الحوت وملحه وتغدى منه وتعشى ، فلما كان من الغد ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال في قراءة أُبي " وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكر له " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : أتى الحوت على عين في البحر يقال لها عين الحياة ، فلما أصاب تلك العين ردّ الله إليه روحه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال : عودهما على بدئهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ قال : لقيا رجلاً عالماً يقال له خضر .

وأخرج ابن عساكر عن أبي بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " شممت ليلة أسري بي رائحة طيبة فقلت : يا جبريل ، ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها ، وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل ،

وكان ممره براهب في صومعته فيطلع عليه الراهب فيعلمه الإسلام ، وأخذ عليه أن لا يعلمه أحداً . ثم إن أباه زوجه امرأة فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلمه أحداً ، وكان لا يقرب النساء ، ثم زوجه أخرى فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلمه أحداً ، ثم طلقها فأفشت عليه إحداهما وكتمت الأخرى ، فخرج هارباً حتى أتى جزيرة في البحر ، فرآه رجلان فأفشى عليه أحدهما وكتم الآخر . فقيل له : ومن رآه معك ؟ قال : فلان . وكان في دينهم أن من كذب قتل ، فسئل فكتم ، فقتل الذي أفشى عليه ثم تزوج الكاتم عليه المرأة الماشطة ، فبينما هي تمشط ابنة فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تعس فرعون . فأخبرت الجارية أباها فأرسل إلى المرأة وابنيها وزوجها فأرادهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا ، فقال : إني قاتلكم . قال : أحببنا منك إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد . فقتلهم وجعلهم في قبر واحد " .

(164/477)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما شممت رائحة أطيب منها وقد دخلت الجنة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : إنما سمي الخضر ، لأنه كان إذا جلس في مكان

اخْضَرّ ما حوله وكانت ثيابه خضراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ قال : أعطيناه الهدى والنبوة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : إنما سمي الخضر ، لأنه إذا قام في مكان نبت العشب تحت رجليه حتى يغطي قدميه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ركبا في السفينة ﴾ قال : إنما كانت معبراً في ماء الكر فرسخ في فرسخ .

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ " ليغرق أهلها " بالياء .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ يقول : منكراً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ شيئاً إمراً ﴾ يقول : منكراً .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ شيئاً إمراً ﴾ قال : عجباً . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صخر في قوله : ﴿ شيئاً إمراً ﴾ قال : عظيماً .

وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب في قوله : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ قال : لم ينس ،

ولكنها من معاريض الكلام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية ومن طريق حماد بن زيد ، عن شعيب بن الحجاب قالا : كان الخضر عبداً لا تراه الأعين ، إلا من أراد الله أن يريه إياه فلم يريه من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام . قال حماد : وكانوا يرون أن موت الفجأة من ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز في قوله : ﴿ لقيا غلاماً ﴾ قال : كان غلاماً ابن عشرين سنة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال : لما قتل الخضر الغلام ، ذعر موسى ذعرة منكرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ نفساً زكية ﴾ قال : تائبة .

(165/477)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ [قتلت نفساً زكية] قال سعيد : زكية مسلمة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ نفساً زكية ﴾ قال : لم تبلغ الخطايا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية أنه كان يقرأ ﴿ زكية ﴾ يقول : تائبة .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ نفساً زكية ﴾ قال : تائبة . يعني صبياً لم يبلغ .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ قال : النكر أنكر من العجب .

وأخرج أحمد عن عطاء قال : كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب إليه : إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن يزيد بن جرير قال : كتب نجدة إلى ابن عباس يسأله عن قتل الولدان ، ويقول في كتابه : إن العالم صاحب موسى قد قتل الوليد .

قال يزيد : أنا كتبت كتاب ابن عباس بيدي إلى نجدة أنك كتبت تسأل عن قتل الولدان وتقول في كتابك أن العالم صاحب موسى قد قتل الوليد ، ولو كنت تعلم من الولدان ما علم ذلك العالم من ذلك الوليد ، قتلته ولكنك لا تعلم . . . قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم فاعتزلهم .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم ، عن ابن أبي مليكة قال : سئل ابن عباس عن الولدان في الجنة قال : حسبك ما اختصم فيه موسى والخضر .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن مردويه ، عن

أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، ولو أدرك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً " .

(166/477)

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً " .

وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ مهموزتين .

وأخرج أبو داود والترمذي وعبد الله بن أحمد والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه ، عن أبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ من لدني عذراً ﴾ مثقلة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن السدي في قوله : ﴿ أتيا أهل قرية ﴾ قال : كانت القرية تسمى باجروان كان أهلها لئاماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : أتيا الإبلة وهي أبعد أرض الله من السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أتيا أهل قرية ﴾ : قال : هي أبرقة . قال : وحدثني رجل أنها أنطاكية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أيوب بن موسى قال : بلغني أن المسألة للمحتاج حسنة ، ألا تسمع أن موسى وصاحبه استطعما أهلها ؟

وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ مشددة .

وأخرج الديلمي عن أبي بن كعب رفعه في قوله : ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ قال : كانوا أهل قرية لئاماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ يريد أن ينقض ﴾ قال : يسقط .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف ، عن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قرأ ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ فهدمه ثم قعد يبنيه .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فأقامه ﴾ قال : رفع الجدار بيده فاستقام .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هارون قال : في حرف عبد الله " لو شئت لتخذت عليه أجراً " .

وأخرج البغوي في معجمه وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ " لو شئت لتخذت عليه أجراً " مخففة .

(167/477)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق محمد بن كعب القرظي قال : قال عمر بن الخطاب ورسول الله يحدثهم بهذا الحديث حتى فرغ من القصة : " يرحم الله موسى ، وددنا أنه لو صبر حتى يقص علينا من حديثهما " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رحمة الله علينا وعلى موسى - فبدأ بنفسه - لو كان صبر لقص علينا من خبره ، ولكن قال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ قال : أخرقها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ : " وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة

صالحة غصباً " .

وأخرج ابن الأنباري عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، أنه قرأ " يأخذ كل سفينة صالحة غصباً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كانت تقرأ في الحرف الأول " كل سفينة صالحة غصباً " قال : وكان لا يأخذ إلا خيار السفن .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي الزاهرية قال : كتب عثمان " وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال : كان اسم الغلام الذي قتله الخضر جيسور .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ " وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال : في حرف أبي " وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ فخشينا ﴾ قال : فأشفقنا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : هي في مصحف عبد الله " فخاف ربك أن يرهقهما طغياناً وكفراً " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ قال : خشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مطر في الآية قال : لو بقي كان فيه بوارهما واستئصالهما .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن قتادة قال : قال مطرف بن الشخير : إنا لنعلم أنهما قد فرحا به يوم ولد وحزنا عليه يوم قتل ، ولو عاش لكان فيه هلاكهما . فرضي رجل بما قسم الله له ، فإن قضاء الله للمؤمن خير من قضائه لنفسه ، وقضاء الله لك فيما تكره خير من قضائه لك فيما تحب .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ خيراً منه زكاة ﴾ قال : إسلاماً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عطية في قوله : ﴿ خيراً منه زكاة ﴾ قال : ديناً ﴿ وأقرب رحماً ﴾ قال : مودة . فأبدلا جارية ولدت نبياً .

وأخرج ابن المنذر من طريق بسطام بن جميل ، عن عمر بن يوسف في الآية قال : أبدلهما جارية مكان الغلام ولدت نبيين .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : كان كنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحرمت الغنيمة على ما كان قبلنا وأحلت لنا ، فلا تعجبن للرجل يقول : ما شأن الكنز أحل لمن قبلنا وحرم علينا ؟ فإن الله يحل من أمره ما

يشاء ويحرم ما يشاء ، وهي السنن والفرائض . . . تحل لأمة وتحرم على أخرى .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم ، عن خيثمة قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : طوبى لذرية مؤمن ، ثم طوبى لهم كيف يحفظون من بعده . وتلا خيثمة ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب قال : إن الله يصلح بالعبد الصالح القبيل من الناس .

(169/477)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق شيبة ، عن سليمان بن سليم بن سلمة قال : مكتوب في التوراة " إن الله ليحفظ القرن إلى القرن إلى سبعة قرون ، وإن الله يهلك القرن إلى القرن إلى سبعة قرون " .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب قال : إن الرب تبارك وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل : " إني إذا أطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت وليس لبركتي ناهية ، وإذا عصيت غضبت ولعنتي تبلغ السابع من الولد " .

وأخرج أحمد عن وهب قال : يقول الله : " اتقوا غضبي فإن غضبي يدرك إلى ثلاثة آباء ،

وأحبوا رضاي فإن رضاي يدرك في الأمة" .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ قال : كان عبداً مأموراً مضى لأمر الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال : قال موسى لفتاه يوشع بن نون ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ فاصطادا حوتاً فاتخذاه زاداً وسارا حتى انتهيا إلى الصخرة التي أرادها ، فهاجت ريح فاشتبه عليه المكان ونسيا عليه الحوت ، ثم ذهبا فسارا حتى اشتهيا الطعام فقال لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ يعني جهداً في السير .

قال الفتى لموسى : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ .

(170/477)

قال : فسمعنا عن ابن عباس أنه حدث عن رجال من علماء أهل الكتاب ، أن موسى دعا ربه فسأله ومعه ماء عذب في سقاء ، فصب من ذلك الماء في البحر وانصب على أثره فصار حجراً أبيض أجوف ، فأخذ فيه حتى انتهى إلى الصخرة التي أراد فصعدها وهو

متشوف : هل يرى ذلك الرجل ؟ حتى كاد يسيء الظن ، ثم رآه فقال : السلام عليك يا خضر . قال : عليك السلام يا موسى . قال : من حدثك أني أنا موسى . . . ! ؟ قال : حدثني الذي حدثك أني أنا الخضر . قال : إني أريد أن أصحبك ﴿ على أن تعلمني مما علمت رشداً ﴾ وأنه تقدم إليه فنصحه فقال : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ وذلك بأن أحدهم لو رأى شيئا لم يكن رآه قط ولم يكن شهده ما كان يصبر حتى يسأل ما هذا ، فلما أبى عليه موسى إلا أن يصحبه ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ إن عجلت عليّ في ثلاث فذلك حين أفارقك .

(171/477)

فهم قيام ينظرون إذ مرت سفينة ذاهبة إلى أبلة ، فناداهم خضر : يا أصحاب السفينة ، هلم إلينا فاحملونا في سفينتكم ، وإن أصحاب السفينة قالوا لصاحبهم : إنا نرى رجالاً في مكان مخوف إنما يكون هؤلاء لصوصاً فلا تحملهم . فقال صاحب السفينة : إني أرى رجالاً على وجوههم النور ، لأحملنهم . فقال الخضر : بكم حملت هؤلاء ؟ كل رجل حملت في سفينتك فلك لكل رجل منا الضعف . فحملهم فساروا حتى إذا شارفوا على الأرض

- وقد أمر صاحب القرية : إن أبصرتم كل سفينة صالحة ليس بها عيب فائتوني بها - وإن الخضر أمر أن يجعل فيها عيباً لكي لا يسخروها فخرقها فنبع فيها الماء ، وإن موسى امتلأ غضباً ﴿ قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ وإن موسى عليه السلام شد عليه ثيابه وأراد أن يقذف الخضر في البحر ، فقال : أردت هلاكهم فتعلّم أنك أول هالك : فجعل موسى كلما ازداد غضباً استقر البحر ، وكلما سكن كان البحر كالدهر ، وإن يوشع بن نون قال لموسى عليه السلام : ألا تذكر العهد والميثاق الذي جعلت على نفسك ؟ وإن الخضر أقبل عليه ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ وإن موسى أدركه عند ذلك الحلم فقال : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ فلما انتهوا إلى القرية قال خضر : ما خلصوا إليكم حتى خشوا الغرق ، وأن الخضر أقبل على صاحب السفينة فقال : إنما أردت الذي هو خير لك ، فحمدوا رأيه في آخر الحديث وأصلحها الله كما كانت .

ثم إنهم خرجوا حتى انتهوا إلى غلام شاب ، عهد إلى الخضر أن أقتله فقتله ﴿ قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴾ إلى قوله : ﴿ قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ وإن خضراً أقبل عليه فقال : قد وفيت لك بما جعلت على نفسي ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ﴾ فكان لا يغضب أحداً إلا دعا عليه وعلى أبويه ، فطهر

الله أبويه أن يدعو عليهما أحد وأيد لهما مكان الغلام آخر خيراً منه وأبرّ بوالديه ﴿ وأقرب رحماً ﴾ .

(172/477)

﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ﴾ فسمعنا أن ذلك الكنز كان علماً فورثا ذلك العلم .

وأخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه قال : قيل لابن عباس : لم نسمع - يعني موسى - يذكر من حديث فتاه وقد كان معه . فقال ابن عباس : فيما يذكر من حديث الفتى قال : شرب الفتى من الماء فخلد فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر ، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة . وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه . قال ابن كثير الحسن متروك وأبوه غير معروف .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن يوسف بن أسباط قال : بلغني أن الخضر قال لموسى لما أراد أن يفارقه : يا موسى ، تعلم العلم لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به . وبلغني أن موسى قال للخضر : ادع لي . فقال الخضر : يسر الله عليك طاعته .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب قال : قال الخضر لموسى حين لقيه : يا موسى ، انزع عن

اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، والزم بيتك وابك على خطيئتك .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر ، عن أبي عبد الله – أظنه الملطي – قال : أراد موسى أن يفارق الخضر ، فقال له موسى : أوصني . قال : كن نفّاعاً ولا تكن ضراراً ، كن بشاشاً ولا تكن غضباناً ، ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ، ولا تُعَيِّرُ امرأً بخطيئته وابك على خطيئتك يا ابن عمران .

وأخرج ابن عساكر عن وهب ، أن الخضر قال لموسى : يا موسى ، إن الناس يعذبون في الدنيا على قدر همومهم .

وأخرج العقيلي عن كعب قال : الخضر على منبر بين البحر الأعلى والبحر الأسفل ، وقد أمرت دواب البحر أن تسمع له وتطيع وتعرض عليه الأرواح غدوة وعشية .

وأخرج ابن شاهين عن خصيف قال : أربعة من الأنبياء أحياء : اثنان في السماء عيسى وإدريس . وإثنان في الأرض ، الخضر وإلياس . فأما الخضر ، فإنه في البحر . وأما صاحبه فإنه في البر .

(173/477)

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال : بينا أنا أطوف ، إذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا مَنْ لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك ، قلت : يا عبد الله ، أعد الكلام .

قال : وسمعته ؟ قلت : نعم . قال : والذي نفس الخضر بيده : - وكان هو الخضر - لا يقولهن عبد دبر الصلاة المكتوبة ، إلا غفرت ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الحلية ، عن كعب الأحبار قال : إن الخضر بن عاميل ركب في نفر من أصحابه حتى بلغ الهند - وهو بحر الصين - فقال لأصحابه : يا أصحابي ، أدلوني . فدلوه في البحر أياماً وليالي ثم صعد ، فقالوا له : يا خضر ، ما رأيت ؟ فلقد أكرمك الله وحفظ لك نفسك في لجة هذا البحر . فقال : استقبلني ملك من الملائكة فقال لي : أيها الآدمي الخطاء إلى أين ؟ ومن أين ؟ فقلت : إني أردت أن أنظر عمق هذا البحر . فقال لي : كيف وقد أهوى رجل من زمان داود عليه السلام لم يبلغ ثلث قعره حتى الساعة ، وذلك منذ ثلثمائة سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن بقية قال : حدثني أبو سعيد قال : سمعت أن آخر كلمة أوصى بها الخضر موسى حين فارقه : إياك أن تعير مسيئاً بإساءته فتبتلى .

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أسامة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " ألا أحدثكم عن الخضر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل ، أبصره رجل مكاتب فقال : تصدق عليّ بارك الله فيك . فقال الخضر : آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون ، ما عندي شيء أعطيكه . فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت علي ، فإني نظرت السماحة في وجهك ووجدت البركة عندك . فقال الخضر : آمنت بالله ، ما عندي شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني . فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ ! قال : نعم . الحق أقول ، لقد سألتني بأمر عظيم : أما أني لا أخيبك بوجه ربي تعالى . فقدّمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم ، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء . فقال له : إنك إنما ابتعتني التماس خير عندي ، فأوصني أعمل بعمل . قال : أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف . قال : ليس يشق عليّ قال : فقم فانقل هذه الحجارة . وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم ، فخرج الرجل لبعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة ، فقال : أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه ، ثم عرض للرجل سفرة فقال : إني احتسبتك أميناً فاخلفني في

أهلي خلافة حسنة . قال : فأوصني بعمل . قال : إني أكره أن أشق عليك . قال : ليس يشق عليّ قال : فاضرب من اللبن لنبني حتى أقدم عليك ، فمر الرجل لسفره فرجع وقد شيد بناؤه ، فقال : أسألك بوجه الله ، ما سبيلك وما أمرك ؟ فقال : سألتني بوجه الله ووجه الله أوقعني في العبودية ، أنا الخضر الذي سمعت به . . . سألني مسكين صدقة ولم يكن عندي شيء أعطيه ، فسألني بوجه الله فأمكنته من نفسي فباعني . فأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر ، وقف يوم القيامة جلدة ولا لحم له ولا عظم ليتقصع . فقال الرجل : آمنت بالله ! . . . شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم . فقال : لا بأس ، أحسنت وأتقنت . فقال الرجل : بأبي أنت وأمي يا نبي الله

(175/477)

، احكم في أهلي ومالي بما أراك الله ، أو أخيّرك فأخلي سبيلك . فقال : أحب أن تخلي سبيلي أعبد ربي . فخلّى سبيله فقال الخضر : الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن الحجاج بن فرافصة ، أن رجلين كانا يتبايعان عند عبد الله بن عمر ، فكان أحدهما يكثر الحلف ، فبينما هو كذلك إذ مرّ عليهما رجل فقام عليهما

فقال للذي يكثر الحلف : مه يا عبد الله ، اتق الله ولا تكثر الحلف فإنه لا يزيد في رزقك ولا ينقص من رزقك إن لم تحلف . قال : امض لما يعنيك . قال : ذا مما يعنيني – قالها ثلاث مرات وردّ عليه قوله – فلما أراد أن ينصرف قال : اعلم أن من آية الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، ولا يكن في قولك فضل على فضلك . ثم انصرف فقال عبد الله بن عمر : الحقه فاستكتبه هذه الكلمات . فقال : يا عبد الله ، اكتبني هذه الكلمات يرحمك الله . فقال الرجل : ما يقدر الله من أمر يكن فأعادهن عليه حتى حفظهن ثم شهده حتى وضع إحدى رجليه في المسجد ، فما أدري أرض لفظته أو سماء اقتلعته ، قال : كأنهم يرونه الخضر أو إلياس عليه السلام .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسندٍ واهٍ ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الخضر في البحر واليسع في البر ، يجتمعان كل ليلة عند الردم الذي بناه ذو القرنين بين الناس وبين يأجوج ومأجوج ، ويحجان ويعتمران كل عام ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى قابل " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن أبي رواد قال : إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من قابل .

وأخرج العقيلي والدارقطني في الأفراد وابن عساكر ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم ، فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات : بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله ، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوّة إلا بالله " .

قال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات ، أمنه الله من الغرق والحرق والسرق ومن الشياطين والسلطان والحية والعقرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(177/477)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾

قوله : ﴿ لِمَسَاكِينَ ﴾ : العامَّةُ على تخفيفِ السِّين ، جمعَ " مِسْكين " . وقرأ عليٌّ أميرُ

المؤمنين - كرَّم الله وجهَه - بتشديدِها جمع " مَسَّاك " . وفيه قولان ، أحدُهما : أنه الذي يُمْسِك سكان السفينة . وفيه بعضُ مناسبة . والثاني : أنه الذي يَدْبُغُ المُسُوك جمعَ " مَسْك " بفتح الميم وهي الجُلود . وهذا بعيدٌ ، لقولِه ﴿ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾ . ولا أظنُّها إلا تحريفاً على أمير المؤمنين . و "يَعْملون " صفةٌ لمساكين .

قوله : ﴿ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ " وراء " هنا قيل : يُراد بها المكانُ . وقيلَ : الزمانُ . واخْتُلِف/ أيضاً فيها : هل هي على حقيقتِها أو بمعنى أمام ؟ وأنشدوا على هذا الثاني :

3189- اليس ورائي أَنْ أَدِبَّ على العَصا . . . فَيَأْمَنَ أعدائي ويَسْأَمَني أَهْلي

وقولَ لبيد :

3190- أليس ورائي إنْ تراخَتْ مَنِيَّتي . . . لُزومُ العَصا تُحْنَى عليها الأصابعُ

وقول سَوَّار بن المُضَرِّبِ السَّعْدي :

3191- أَيَرْجُو بنو مروانَ سَمْعي وطاعتي . . . وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا

ومثله قولُه تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ [إبراهيم : 16] ، أي : بين يديه .

قوله : " غَصْباً " فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مصدرٌ في موضعِ الحال ، أو منصوبٌ على المصدرِ المبيِّنِ لنوعِ الأَخْذِ ، أو منصوبٌ على المفعولِ له . وهو بعيدٌ في المعنى . وادَّعى الزمخشري أنَّ في الكلامِ تقديماً وتأخيراً فقال : " فإنْ قلتَ : قولُه " " فَأَرَدْتُ أَنْ أعيبَها " مُسَبَّبٌ عن خوفِ الغَصْبِ عليها فكان حقُّه أن يتأخرَ عن السبب فلِمَ قُدِّم عليه ؟ قلت : النيةُ به التأخيرُ ، وإنما قُدِّمَ للعنايةِ به ، ولأنَّ خَوْفَ الغَصبِ ليس هو السببَ وحدَه ، ولكن مع كونِها للمساكينِ ، فكان بمنزلةِ قولِك : زيدٌ ظنِّي مقيمٌ " .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) ﴾

قوله : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ : التثنيةُ للتغليبِ ، يريد : أباه وأمه ، فغلَّب المذكرَ ، وهو شائعٌ . ومثلُه : القمران والعُمَران . وقد تقدَّم في يوسف : أنَّ الأبوين يُراد بهما الأبُ والخالَةُ فهذا أقربُ .

والعامَّةُ على " مُؤْمِنَيْنِ " بالياء . وأبو سعيد الخُدريُّ والجحدري " مؤمنان " بالألف . وفيه ثلاثةُ أوجهٍ . أحدُها : أنه على لغة بني الحارث وغيرهم . الثاني : أنَّ في " كان " ضميرَ الشأنِ ، و " أبواه مؤمنان " مبتدأ وخبرٌ في محلِّ النصبِ كقوله :

3192- إذا مِتُّ كان الناسُ صِنْفانِ شامِتٌ . . . . . .

. . . . . .

فهذا أيضاً محتمِلٌ للوجهين . الثالث : أن في " كان " ضميرَ الغلامِ ، أي : فكان الغلامُ والجملةُ

بعده الخبرُ . وهو أحسنُ الوجوهِ .

﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) ﴾

(179/477)

قوله : ﴿ أَنْ يُبْدِلَهُمَا ﴾ : قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال مِنْ "بَدَّلَ" هنا ، وفي التحريم ﴿ أَنْ يُبْدِلَهُ ﴾ وفي القلم ﴿ أَنْ يُبْدِلَنا ﴾ والباقون بسكونِ الباءِ وتخفيفِ الدالِ مِنْ "أَبْدَلَ" في المواضعِ الثلاثة . فقيل : هما لغتان بمعنىً واحد . وقال ثعلب : الإبدالُ تَنْحِيَةُ جوهرةٍ ، واستئنافُ أخرى . وأنشد :

3193- عَزْلَ الأميرِ للأميرِ المُبْدَلِ . . . قال : ألا تراه نَحَّى جسماً ، وجعل مكانَه آخرَ . والتبديلُ : تغييرُ الصورةِ إلى غيرِها ، والجوهرةُ باقيةٌ بعينِها . واحتجَّ الفراء بقولِه تعالى : ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : 70] قال : "والذي قال ثعلبٌ حسنٌ ، إلا أنَّهم يجعلون أَبْدَلْتُ بمعنى بَدَّلْتُ" . قلت : ومِنْ ثَمَّ اختلف الناسُ في قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] : هل يتغير الجسمُ والصفةُ ، أو الصفةُ دونَ الجسمِ ؟

قوله : "رُحْماً" قرأ ابن عامر "رُحُماً" بضمتين . والباقون بضمةٍ وسكونٍ وهما بمعنى الرحمة . قال رؤبة :

3192- يا مُنْزِلَ الرُّحْمِ على إدْريسا . . . ومُنْزِلَ اللَّعْنِ على إبْليسا

وقيل : الرُّحْم بمعنى الرَّحِم . وهو لائقٌ هنا مِنْ أجلِ القَرابةِ بالولادة . ويؤيِّده قراءةُ ابنِ عباس " رَحِماً " بفتحِ الراءِ وكسرِ الحاءِ . و " زكاة ورُحْماً " منصوبان على التمييز .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾

قوله : ﴿ رَحْمَةً ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أوضحُها : أنَّه مفعولٌ له . الثاني : أَنْ يكونَ في موضعِ الحالِ من الفاعل ، أي : أراد ذلك راحماً ، وهي حالٌ لازمةٌ . الثالث : أَنْ ينتصِبَ انتصابَ المصدرِ لأنَّ معنى ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا ﴾ معنى " فَرَحِمَهما " .

(180/477)

قوله : تَسْطِعْ " ، قيل : أصلُه استطاع ، فَحُذِفَتْ تاءُ الافتعال . وقيل : المحذوفُ : الطاءُ الأصلية ثم أُبْدِلت تاءُ الافتعال طاءً بعد السِّين . وهذا تكلُّفشٌ بعيدٌ . وقيل : السينُ مزيدةٌ عوضاً من قلبِ الواوِ ألفاً ، والأصلُ : أطاع . ولتحقيقِ القولِ فيه موضعٌ غيرُ هذا . ويقال : " استتاعَ " بتاءين ، و " اسْتاعَ " بتاء واحدة ، فهذه أربعُ لغاتٍ ، حكاها ابن السكيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 536.540 ﴾

(181/477)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾

لما فارق الخضرُ موسى عليه السلام لم يُرِدْ أَنْ يبقى في قلب موسى شِبْهُ اعتراضٍ ؛ فأَزَالَ عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال ، وكشف له أنَّ السِّرَّ في قصده من خَرْقِ السفينة سلامتُها وبقاؤُها لأهلها حيث لن يطمعَ فيها المَلِكُ الغاصبُ ، فبَقَاءُ السفينة لأهلها – وهي معيبةٌ – كان خيراً لهم من سلامتها وهي مغصوبة .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) ﴾

بيَّن له أَنَّ قَتْلَ الغلامِ لمَّا سَبَقَ به العلمُ مضى من الله الحُكْمُ أنَّ في بقائه فتنةً لوالديه ، وفي إبدال الخَلفِ عنه سعادةً لهما .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾

أَما تسوية الجدار فلاستبقاءِ كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخَلْق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 412 ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

الْآيَةُ السَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ .

وَهِيَ آيَةٌ سَيَرْتَبِطُ بِهَا غَيْرُهَا ؛ لِأَنَّهُ حَدِيثُ الْخَضِرِ كُلُّهُ ، وَذَلِكَ فِي سَبْعَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً .

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَرْدِ الْحَدِيثِ ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ بِغَايَةِ الْإِيعَابِ ، وَشَرَحْنَا مَسَائِلَهُ ، وَتَكَلَّمْنَا عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَنَحْنُ الْآنَ هَاهُنَا لَا نَعْدُو مَا يَتَعَلَّقُ بِالْآيَاتِ عَلَى التَّقْرِيبِ الْمُوجِزِ الْمُوعِبِ فِيهَا بِعَوْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ .

فَأَمَّا حَدِيثُهُ فَهُوَ مَا رَوَى أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ وَغَيْرُهُ ، وَالْمُعَوَّلُ عَلَى حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : إنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إسْرَائِيلَ لَيْسَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ ، فَقَالَ : كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ ، سَمِعْت أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَامَ مُوسَى خَطِيبًا فِي بَنِي إسْرَائِيلَ ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمُ .

فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْك .

(183/477)

قَالَ مُوسَى : أَيْ رَبِّ ، فَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ فَقَالَ لَهُ : احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَثَمَّ هُوَ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ ، فَجَعَلَ مُوسَى حُوتًا فِي مِكْتَلٍ ، فَانْطَلَقَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ ، فَرَقَدَ مُوسَى وَفَتَاهُ ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ الْمِكْتَلِ ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ قَالَ : وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرْيَةَ الْمَاءِ ، حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ ، وَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا ، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا ، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى قَالَ لِفَتَاهُ : ﴿

آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .

قَالَ : وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ .

قَالَ : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

قَالَ : فَكَانَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا .

قَالَ سُفْيَانُ : يَزْعُمُ نَاسٌ أَنَّ تِلْكَ الصَّخْرَةَ عِنْدَهَا عَيْنُ الْحَيَاةِ ، وَلَا يُصِيبُ مَاؤُهَا مَيِّتًا إِلَّا عَاشَ .

قَالَ : وَكَانَ الْحُوتُ قَدْ أَكَلَ مِنْهُ ، فَلَمَّا قَطَرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ عَاشَ .

قَالَ : فَقَصَّا آثَارَهُمَا حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ ، فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : إِنِّي بِأَرْضِكَ السَّلَامِ ؟ قَالَ : أَنَا مُوسَى .

(184/477)

قَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : يَا مُوسَى ، إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ .

فَقَالَ مُوسَى : ﴿ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا ﴾ .

قَالَ لَهُ الْخَضِرُ : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ قَالَ : نَعَمْ .

فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ ، فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ

يَحْمِلُوهُمَا ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ ، فَحَمَلُوهَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى .

قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا .

قَالَ : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ .

ثُمَّ خَرَجَا مِنْ السَّفِينَةِ ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فَأَخَذَ

الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ ، فَقَتَلَهُ .

قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا ﴾ .

(185/477)

قَالَ : وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنْ الْأُولَى : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ

سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْنَا أَنَّهُ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا ﴾ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْأُولَى كَانَتْ مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا .

قَالَ : وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ : مَا عِلْمِي وَعِلْمُك فِي عِلْمِ اللَّهِ إلَّا بِمِقْدَارِ مَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ الْبَحْرِ .

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ : وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا .

وَكَانَ يَقْرَأُ : وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ أُبَيٌّ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا ﴾ .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ ؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ يَخْدُمُهُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ ابْنُ أُخْتِهِ وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونِ بْنِ أَفْرَائِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ .

وَإِنَّمَا سَمَّاهُ

فَتَاهُ ؛ لِأَنَّهُ قَامَ مَقَامَ الْفَتَى ، وَهُوَ الْعَبْدُ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي ، وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي ﴾ .

فَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَقْتَضِي أَنَّهُ عَبْدٌ .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ .

وَفِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُ ابْنُ أُخْتِهِ .

وَهَذَا كُلُّهُ مَا لَا يُقْطَعُ بِهِ ، فَالْوَقْفُ فِيهِ أَسْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِيهِ الرِّحْلَةُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي لَيْسَ بِفَرْضٍ ، وَقَدْ رَحَلَتْ الصَّحَابَةُ فِيهِ وَأُذِنَ لَهُمْ فِي التَّرَحُّلِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَضْلًا عَنْ الدِّينِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ الْآيَةِ الثَّامِنَةِ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ .

جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى النِّسْيَانَ سَبَبًا لِلزِّيَادَةِ عَلَى مِقْدَارِ الْحَاجَةِ فِي الْمَسِيرِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ كَانَ كَتَبَ لَهُ

لِقَاءَهُ ، وَكَتَبَ الزِّيَادَةَ فِي السَّيْرِ عَلَى مَوْضِعِ اللِّقَاءِ ، فَنَفَذَ الْكُلُّ ؛ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ النِّسْيَانِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَذَلِكَ عَلَى الْخَلْقِ فِي مَعَانِي الدِّينِ ، وَهُوَ عَفْوٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

(187/477)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ الْآيَةِ التَّاسِعَةِ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ بَيَّنَ ذَلِكَ جَوَازَ الِاسْتِخْدَامِ لِلْأَصْحَابِ أَوْ الْعَبِيدِ فِي أُمُورِ الْمَعَاشِ وَحَاجَةِ الْمَنَافِعِ ، لِفَضْلِ الْمَنْزِلَةِ ، أَوْ لِحَقِّ السَّيِّدِيَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ مِنْ الْآيَةِ الْعَاشِرَةِ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهِ إلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ : نَسِيَهُ يُوشَعُ ، وَنَسِيَهُ أَيْضًا مُوسَى ، وَنِسْبَةُ الْفَتَى نِسْيَانَهُ إلَى الشَّيْطَانِ ؛ لِأَنَّهُ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُ .

وَلَا يُنْسَبُ نِسْيَانُ الْأَنْبِيَاءِ إلَى الشَّيْطَانِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا نِسْيَانُهُمْ أُسْوَةٌ لِلْخَلْقِ وَسُنَّةٌ فِيهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَصَارَ الْمَاءُ عَلَى الْحُوتِ مِثْلَ الطَّاقِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ عَلَامَةً لِمُوسَى ، وَلَوْلَاهُ مَا عَلِمَ أَيْنَ فَقَدَ الْحُوتَ ، وَلَا وَجَدَ إلَى لِقَاءِ الْمَطْلُوبِ سَبِيلًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ مِنْ الْآيَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ﴾ : وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ تَبَعٌ لِلْعَالِمِ ، وَلَوْ تَفَاوَتَتْ الْمَرَاتِبُ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ مِنْ الْآيَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا ﴾ . حَكَمَ عَلَيْهِ بِعَادَةِ الْخَلْقِ فِي عَدَمِ الصَّبْرِ عَمَّا يَخْرُجُ مِنْ الِاعْتِيَادِ ، وَهُوَ أَصْلٌ فِي الْحُكْمِ بِالْعَادَةِ .

(188/477)

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ مِنْ الْآيَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَك أَمْرًا ﴾ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : اسْتَثْنَى فِي التَّصَبُّرِ ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ ، فَلَا جَرَمَ وَجَّهَ مَا اسْتَثْنَى فِيهِ ، فَكَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرِقَ السَّفِينَةَ أَوْ يَقْتُلَ الْغُلَامَ لَمْ يَقْبِضْ يَدَهُ ، وَلَا نَازَعَهُ ، وَخَالَفَهُ فِي الْأَمْرِ ، فَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ الْآيَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ .

ذَكَرَ أَنَّ النِّسْيَانَ لَا يَقْتَضِي الْمُؤَاخَذَةَ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ

التَّكْلِيفِ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ فِي طَلَاقٍ وَلَا غَيْرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ الْآيَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنْ سَأَلْتُك عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ .

فَهَذَا شَرْطٌ ، وَهُوَ لَازِمٌ ، وَالْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ ، وَأَحَقُّ الشُّرُوطِ أَنْ يُوفَّى بِهِ مَا الْتَزَمَهُ الْأَنْبِيَاءُ ، أَوْ الْتُزِمَ لِلْأَنْبِيَاءِ ، فَهَذَا أَصْلٌ مِنْ الْقَوْلِ بِالشُّرُوطِ وَارْتِبَاطِ الْأَحْكَامِ بِهَا ، وَهُوَ يُسْتَدَلُّ بِهِ فِي الْأَيْمَانِ وَغَيْرِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى قِيَامِ الِاعْتِذَارِ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ مُطْلَقًا ، وَبِقِيَامِ الْحُجَّةِ مِنْ الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِالْقَطْعِ .

(189/477)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : صَبَرَ مُوسَى عَلَى قَتْلِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ عِنْدَهُ الْقَتْلَ ، وَلَمْ يَغْتَرَّ لَمَّا كَانَ أَعْلَمَهُ مِنْ أَنَّ عِنْدَهُ عِلْمًا لَيْسَ عِنْدَهُ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا صَبَرَ عَلَى حَالٍ ظَاهِرُهَا الْمُحَالُ ، وَكَانَ هُوَ أَعْلَمُ بِبَاطِنِهَا فِي الْمَآلِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ الْآيَةِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ .

وَصَلَا إِلَى الْقَرْيَةِ مُحْتَاجَيْنِ إِلَى الطَّعَامِ ، فَعَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانُوا ثَلَاثَةً ، فَأَبَوْا عَنْ قَبُولِ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَهَذَا سُؤَالٌ ، وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبَ فِي الشَّرْعِ ، وَمَنَازِلَ بَيَّنَّاهَا فِي كِتَابِ شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ .

وَهَذَا السُّؤَالُ مِنْ تِلْكَ الْأَقْسَامِ هُوَ سُؤَالُ الضِّيَافَةِ ، وَهِيَ فَرْضٌ أَوْ سُنَّةٌ كَمَا بَيَّنَّاهُ هُنَالِكَ ، وَسُؤَالُهَا جَائِزٌ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمْ نَزَلُوا بِقَوْمٍ فَاسْتَضَافُوهُمْ ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ ، فَلُدِغَ سَيِّدُهُمْ ، فَسَأَلُوهُمْ : هَلْ مِنْ رَاقٍ ، فَجَعَلُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنْ الْغَنَمِ .

.

الْحَدِيثَ إِلَى آخِرِهِ .

(190/477)

وَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَوَّزَ الْكُلَّ ، وَقَدْ كَانَ مُوسَى حِينَ سَقَى لِبِنْتَيْ شُعَيْبٍ أَجْوَعَ مِنْهُ حِينَ أَتَى الْقَرْيَةَ مَعَ الْخَضِرِ ، وَلَمْ يَسْأَلْ قُوتًا ؛ بَلْ سَقَى ابْتِدَاءً ، وَفِي الْقَرْيَةِ سَأَلَا الْقُوتَ ، وَفِي ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ انْفِصَالَاتٌ كَثِيرَةٌ ، مِنْهَا أَنَّ مُوسَى كَانَ فِي حَدِيثِ مَدْيَنَ مُنْفَرِدًا ، وَفِي قِصَّةِ الْقَرْيَةِ تَبَعًا لِغَيْرِهِ .

وَقِيلَ : كَانَ هَذَا سَفَرَ تَأْدِيبٍ فَوُكِلَ إِلَى تَكْلِيفِ الْمَشَقَّةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَفَرَ هِجْرَةٍ فَوُكِلَ إِلَى الْعَوْنِ وَالْقُوَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ الْآيَةِ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْت أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

فَاسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ قَالَ : إنَّ الْمِسْكِينَ هُوَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ ، وَفَرَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْمٌ حَتَّى قَرَءُوهَا لِمَسَّاكِينَ بِتَشْدِيدِ السِّينِ مِنْ الِاسْتِمْسَاكِ ، وَهَذَا لَا حَاجَةَ إلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ إنَّمَا نَسَبَهُمْ إلَى الْمَسْكَنَةِ لِأَجْلِ ضَعْفِ الْقُوَّةِ ، بَلْ عَدَمِهَا فِي الْبَحْرِ ، وَافْتِقَارِ الْعَبْدِ إلَى الْمَوْلَى كَسْبًا وَخَلْقًا .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ الْحَوْلَ وَالْقُوَّةَ لِلَّهِ فَلْيَرْكَبْ الْبَحْرَ .

(191/477)

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ الْآيَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّك أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(192/477)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

التفسير : هذه قصة أوردها الله تعالى لتعين على المقاصد السابقة مع كونها مستقلة في الإفادة ، أما نفعها في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا : إن أخبركم محمد عنها فهو نبي وإلا فلا ، فذكر الله تعالى قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبي لا يلزم أن يكون عالماً بجميع القصص والأخبار . وأما نفعها في الرد على كفار قريش حين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار ، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعلو منصبه واستجمام موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر وتواضع له لأجل طلب العلم فدل ذلك على أن التواضع خير من التكبر . وأكثر العلماء على أن موسى المذكور في الآية هو موسى بن عمران صاحب التوارة والمعجزات . وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن

عباس : إن نوفاً ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى بن عمران وإنما هو صاحب موسى بن ميشا بن يعقوب وهو قد كان نبياً قبل موسى بن عمران . فقال ابن عباس : كذب عدو الله . واحتج الأكثرون على صحة قولهم بأن موسى حيث أطلق في القرآن أريد به موسى بن عمران ، فلو كان المراد ههنا شخصاً آخر لوجب تعريفه بحيث يتميز عن المشهور . حجة الأقلين – وإليه ذهب جمهور اليهود – أن موسى بن عمران بعد أن خصه الله تعالى بالمعجزات الظاهرة التي لم يتفق لمن قبله مثلها ، يبعد أن يؤمر بالتعلم والاستفادة . وأجيب بأن العالم الكامل في أكثر العلوم قد يجهل بعض المسائل فيحتاج في تعلمها إلى من يختص بعلمها . أما فتى موسى فالأكثر على أنه يوشع بن نون ، ويروى هذا القول عن سعد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو أخو يوشع وكان مصاحباً لموسى في السفر . وعن الحسن : إنه أراد عبده ويؤيده ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي " قال أهل السير : إن موسى لما ظهر على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط ، أمره الله

(193/477)

أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله فقال : إنه اصطفى نبيكم وكلمه فقالوا له : قد علمنا هذا فأيّ الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله حين لم يردّ العلم إلى الله ، فأوحى الله إليه بل أعلم منك عبد لي بمجمع البحرين وهو الخضر ، وكان الخضر عليه السلام في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر . وبقي إلى أيام موسى .

ويروى أن موسى سأل ربه أيّ عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني . قال : فأيّ عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال : فأي عبادك أعلم ؟ الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على الهوى أو تردّه عن ردى . فقال : إن كان في عبادك من هو أعلم منى فادللني عليه . قال : أعلم منك الخضر . قال : فأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة . قال : يا رب كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك . فقال لفتاه : إذا فقدت الحوت فأخبرني ، فذهبا يمشيان فرقد موسى عليه السلام فاضطرب الحوت ووقع في البحر ، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر فأتيا الصخرة فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال : وأنى بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال : يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا . فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع في حرفها فنقر في الماء فقال الخضر : ما ينقص علمي وعلمك

من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر . قلت : وهذا صحيح لأن علم الإنسان متناه وعلم الله غير متناه ، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي أصلاً .

(194/477)

ولنرجع إلى التفسير قال الزجاج وتبعه جار الله : ﴿ لا أبرح ﴾ بمعنى لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ولأن قوله : ﴿ حتى أبلغ ﴾ غاية مضروبة فلا بد لها من ذي غاية . فالمعنى لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، وجوز أن يكون المعنى لا أبرح سيري حتى أبلغ على أن ﴿ حتى أبلغ ﴾ هو الخبر ، وحذف المضاف وهو السير وأقيم المضاف إليه - وهو ياء المتكلم - مقامه فانقلب الفعل من لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم وجوز أيضاً أن يكون لا أبرح ، بمعنى لا أزول من برح المكان ، والمعنى لا أبرح ما أنا عليه أي لا أترك المسير والطلب حتى أبلغ ﴿ مجمع البحرين ﴾ يعني ملتقى بحري فارس والروم وقد شرحنا وضع البحار في سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿ الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ [الآية : 164] . وقيل : أراد طنجة ، وقيل أفريقية . ومن غرائب التفسير أن البحرين موسى والخضر لأنهما بحر العلم ، وهذا مع غرابته مستبشع جداً لأن البحرين إذا كان هو موسى عليه السلام فكيف يصح أن يقول : ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ إذ يؤل حاصل

المعنى إلى قولنا حتى أبلغ مكاناً يجتمع فيه بحران من العلم أحدهما أنا ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أسير زماناً طويلاً . قال جار الله : الحقب بالضم ثمانون سنة . ويقال : أكثر من ذلك . وقيل : إنه تعالى أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه بعينه فقال موسى : لا أزال أمضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحراً واحداً أو أمضي دهراً طويلاً حتى أجد هذا العالم ، وهذا إخبار من موسى عليه السلام بأنه وطن تحمل التعب الشديد إلى أن يلقاه ، وفيه تنبيه على شرف العلم وأن طلب العلم يحق له أن يسافر ، ويتحمل المتاعب في الطلب من غير ملال وكلال .

(195/477)

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما ﴾ قال جمهور المفسرين : الضمير للبحرين أي تحقق ما موسى وبلغ المكان الذي وعد فيه لقاء الخضر . ولا بد للبين من فائدة ، ولعل المراد حيث يكاد يلتقي وسط ما امتد من البحرين طولاً . والإضافة بمعنى " في " أي مجمعاً في وسط البحرين فيكون كالتفصيل لمجمع البحرين ، والبيان والإيضاح بكلام علام الغيوب تعالى أولى منه بكلام موسى ، أو البين بمعنى الافتراق أي البحران المفترقان يجتمعان هناك . ويحتمل على هذا أن يعود الضمير إلى موسى والخضر أي وصلا إلى الموضع الذي وعد اجتماع شملهما

هناك ، أو البين بمعنى الوصل لأنه من الأضداد فيفيد مزيد التأكيد كقولهم " جد جده " .

وهذه الوجوه مما لم أجدها في التفاسير ، فإن كان صواباً فمن الله وإلا فمني ومن الشيطان

﴿ نسيا حوتهما ﴾ لأنه تعالى جعل انقلاب الحوت حياً علامة على مسكن الخضر قيل : إن الفتى كان يغسل السمكة لأنها كانت مملوحة فطفرت وسارت . وقيل : إن يوشع توضأ في ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب إلى الماء . وقيل : انفجرت هناك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين إلى السمكة فحييت وطفرت إلى البحر . ونسيان الحوت للذهول عن الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول إلى المطلوب ، والسبب في هذا الذهول مع أن هذه الحالة كانت أمارة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها ، هو أن يوشع كان قد تعود مشاهدة المعجزات الباهرة فلم يبق لحياة السمكة ولقيام الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب منه وقع عنده .

(196/477)

وقيل : إن موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الذي يشبه الضروري تنبيهاً لموسى عليه السلام ، على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله وحفظه على قلوب عباده . وانتصاب قوله : ﴿ سرباً ﴾ على أنه مفعول ثانٍ لاتخذ أي

اتخذ سبيله سبيلاً سرياً وهو بيت في الأرض ، وذلك أن الله تعالى أمسك إجراء الماء عن الحوت وجعله كالكوة حتى سرى الحوت فيه معجزة لموسى عليه السلام وللخضر . وقيل : السرب هو الذهاب والتقدير سرب في البحر سرباً إلا أنه أقيم قوله : ﴿ واتخذ سبيله ﴾ مقام " سرب " ﴿ فلما جاوزا ﴾ أي موسى وفتاه الموعد المعين وهو الصخرة ﴿ قال موسى لفتاه آتنا غداءنا ﴾ وهو ما يؤكل بالغداة ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ تعباً وجوعاً .

قال المفسرون : قوله ﴿ من سفرنا هذا ﴾ إشارة إلى سيرهما وراء الصخرة ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك . قال الفتى متعجباً ﴿ أرأيت ﴾ ومفعوله محذوف لدلالة قوله : ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ عليه كأنه قال : أرأيت ما دهاني ووقع لي . ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ قيل : هي الصخرة التي دون نهر الزيت ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ عليها ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع ذلك النسيان فقال : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ و ﴿ أن أذكره ﴾ بدل الاشتمال من الهاء ﴿ في أنسانيه ﴾ أي وما أنساني ذكره قال الكعبي : لو كان النسيان بخلق الله وإرادته لكان إسناد ذلك إلى الله تعالى أولى من إسناده إلى الشيطان إذ ليس له في وجوده سعي ولا أثر . قال القاضي : المراد بإنساء الشيطان أن يشتغل قلب الإنسان بوساوسه التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد الذكر ، لأن ذلك لا يصلح أن يكون إلا من قبل الله تعالى .

قال أهل البرهان : لما كان اتخاذ الحوت سبيله في البحر عقيب النسيان ذكر أوّلاً فاتخذ بالفاء ، ولما حيل بينهما ثانياً بجملة معترضة هي قوله : ﴿ وما أنسانيه ﴾ زال معنى التعقيب وبقي العطف المجرد فقال : ﴿ واتخذ سبيله ﴾ بالواو . وانتصاب ﴿ عجباً ﴾ كما مر في ﴿ سرباً ﴾ . قال صلى الله عليه وسلم : "كان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً " ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ذلك ﴾ يعني اتخاذ الحوت السبيل في البحر ﴿ ما كان ينبغي ﴾ أي إنه الذي كنا نطلبه لأنه أمارة الظفر بالمطلوب ﴿ فارتدا على آثارهما ﴾ فرجعا على طريقهما المسلوك ﴿ قصصاً ﴾ مصدر لأنه بمعنى الارتداد على الأثر يتبعان آثارهما اتباعاً ، أو هو مصدر في موضع الحال أي رجعا على الطريق الذي جاءا منه مقتصين ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ الأكثرون على أن ذلك العبد كان نبياً لأنه تعالى وصفه بقوله : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ والرحمة هي الوحي والنبوّة بدليل قوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : 32] وقوله : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ [القصص : 86] ومنع أن كل رحمة نبوة قالوا : وصفه بقوله : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ والعلم المختص به تعالى هو الوحي والإخبار بالغيوب .

وأيضاً آخر القصة ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ أي عرفته وفعلته بأمر الله وذلك مستلزم للوحي . وروي أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال : السلام عليك . فقال : وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل . فقال : من عرّفك هذا ؟ قال : الذي بعثك إلي . والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية . والتحقيق فيه إذا ضعفت القوى الحسية والخيالية بواسطة الرياضة قويت القوة العقلية وأشرقت الأنوار الإلهية على جواهر العقل ، ويفيض عليه من عالم الأرواح أنوار يستعد بسببها لملاحظة أسرار الملكوت ومطالعة عالم اللاهوت . والأكثرون أيضاً على أن ذلك العبد هو الخضر سمي بذلك لأنه كان لا يقف موقفاً إلا اخضر ذلك الموقف .

(198/477)

وقال الجبائي : روي أن الخضر إنما بعث بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل . فإن صحت الرواية لم يكن ذلك العبد هو الخضر لأنه بعث بعده ، وبتقدير كونه معاصراً له فإنه أظهر الترفع على موسى حين قال : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ وأن موسى أظهر التواضع له حين قال ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ مع أنه كان مبعوثاً إلى كافة بني إسرائيل ، والأمة لا تكون أعلى حالا من النبي . وإن لم تكن الرواية صحيحة بأن الخضر لا

يكون من بني إسرائيل لم يجز أن يكون الخضر أفضل من موسى عليه السلام لأنه تعالى قال لبني إسرائيل ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ [البقرة : 47] وأجيب بأنه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها .

(199/477)

قال العلماء : إن موسى راعى مع الخضر في قوله : ﴿ هل أتبعك ﴾ أنواعاً من الأدب منها : أنه جعل نفسه تبعاً له مطلقاً ، وفيه أن المتعلم يجب عليه الخدمة وتسليم النفس والإتيان بمثل أفعال الأستاذ وأقواله على جهة التبعية لا الاستقلال ، فإن المتابعة هي الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير ، ولهذا لسنا متبعين لليهود في قولنا " لا إله إلا الله " لأنا نقول كلمة التوحيد لأجل أنهم قالوها بل لقيام الدليل على قولها ، ولكنا متابعون في الصلوات الخمس للنبي صلى الله عليه وسلم لأنا نأتي بها لأجل أنه أتى بها . ومنها أنه استأذن في إثبات هذه التبعية . ومنها أنه قال : ﴿ على أن تعلمني مما علمت ﴾ وفيه إقرار على أستاذه بالعلم ، وفيه أنه لم يطلب منه إلا بعض علمه ولم يطلب . منه أن يجعله مساوياً له في العلم كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله لأكله ، وفيه اعتراف بأن ذلك العلم علمه الله تعالى وإلا سمي فاعله ، وفيه إشعار بأن إنعامه عليه في هذا التعليم

شبيه بإنعام الله عليه فيه ومن هنا قيل : أن عبد من علمني حرفاً . ومنها أن الخضر عرف أنه نبي صاحب المعجزات المشهورة ، ثم إنه مع هذه المناصب العلية والمراتب السنية لم يطلب منه المال والجاه وإنما طلب التعليم فقال : ﴿ على أن تعلمني ﴾ فدل ذلك على أنه لا كمال فوق كمال العلم ، وأنه لا يحسن صرف الهمة إلا إلى تحصيله . وفيه أن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر ، فكان حرصه على زيادتها أوفر . ومنها أنه قال ﴿ رشداً ﴾ وهو يصلح أن يكون مفعولاً ل ﴿ تعلمني ﴾ و ﴿ علمت ﴾ أي علماً ذا رشد أرشد به في ديني ، وفيه تعظيم لما سيعلمه فإن الإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل حصل الضلال .

(200/477)

ثم إنه تعالى حكى عن الخضر أنه قال : ﴿ لن تستطيع معي صبراً ﴾ نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد لعلمه بأنه يتولى أموراً هي في الظاهر منكرة ، والرجل الصالح لا سيما النبي الذي يحكم بظواهر الأمور شرعاً قلما يتمالك أن يصبر عليها . و ﴿ خبراً ﴾ تمييز أي لم يحط به . خبرك ، أو هو مصدر لكونه في معنى الإحاطة . استدلت الأشاعرة بالآية على أن الاستطاعة لا تحصل فيه الفعل وإلا لكانت الاستطاعة عل الصبر حاصلة قبل

الصبر ، فيكون قول الخضر بنفي الاستطاعة كذباً . وكذا قوله : ﴿ وكيف تصبر ﴾ لأنه استفهام في معنى الإنكار أي لا تصبر ألبتة . أجاب الجبائي بأنه أراد بنفي الاستطاعة أن يثقل عليه الصبر لا أنه لا يستطيعه . يقال في العرف : إن فلاناً لا يستطيع أن يرى فلاناً وأن يجالسه إذا كان يثقل عليه ذلك ولهذا ﴿ قال ﴾ له موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى ﴾ أي ستجدني غير عاص ﴿ لك أمراً ﴾ ويجوز أن يكون قوله : ﴿ ولا أعصي ﴾ جملة مستأنفة معطوفة على مثلها أي ستجدني ولا أعصي . قال أهل السنة . في قوله : ﴿ إن شاء الله ﴾ بطريق الشك والصبر مأمور به دليل على أنه تعالى قد لا يريد من العبد ما أوجبه عليه . قالت المعتزلة . إنما ذكره بطريق الأدب . وأجيب بأن هذا الأدب إن صح معناه فقد ثبت المطلوب ، وإن فسد فأيّ أدب في ذكر الكلام الباطل .

(201/477)

قالت الأصوليون : في قوله : ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ دليل على أن ظاهر الأمر للوجوب ، لأن تارك الأمر عاص . بهذه الآية ، والعاصي يستحق العقاب لقوله : ﴿ ومن يعصى الله ورسوله فإن له نار جهنم ﴾ [الجن : 23] قال المحققون : في قوله الخضر تغليظ وتجهيل ، وفي قول موسى تحمل وتواضع ، فدل ذلك على أن المعلم إن رأى التغليظ على المتعلم فيما

يعتقده نفعاً وإرشاداً إلى الخير ، فالواجب عليه ذكره وعلى المتعلم أن يتلقاه بالبشر والطلاقة . ثم قال : ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني ﴾ شرط على موسى عليه السلام في اتباعه أن لا يسأل عما خفي عليه وجه صحته حتى يكون الخضر هو المبتدىء بتعليمه إياه بإخباره عن وجه الحكمة فيه ﴿ فانطلقا ﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فما ركباها يروى أن أهلها قالوا : هما من اللصوص وأمروهما بالخروج فمنعهم صاحب السفينة وقال : أرى وجوه الأنبياء . وقيل : عرفوا الخضر فحملوهم بلا أجرة ، فلما حصلوا في اللجة أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء . وقيل : خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ويقول : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ أتيت شيئاً عظيماً . يقال : أمر الأمر إذا عظم . ويقال في الشيء العجيب الذي يعرف له شبيه إنه أمر إمر . احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بأن موسى عليه السلام اعترض على الخضر بعد توكيد العهود والمواثيق وذلك ذنب .

(202/477)

وأجيب بأنه لم يقل ذلك اعتراضاً وتوبيخاً ولكنه أحب أن يقف على حكمة ذلك الأمر الخارج عن العبادة ، أو أنه خالف الشرط بناء على النسيان ولهذا ﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ ولا مؤاخذة على الناسي . و " ما " موصولة أو موصوفة أو مصدرية أي بالذي نسيت وبشيء نسيته وبنسياني . وجوز في الكشاف أن لا يكون ناسياً في الحقيقة ولكنه أوهم بقوله : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ أنه قد نسي لبسط عذره في الاعتراض على المعلم وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوصل إلى الغرض . وجوز أيضاً أن يكون النسيان بمعنى الترك أي بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ ولا ترهقني ﴾ ولا تغشني ﴿ من أمري عسراً ﴾ وأراد بأمره أمر المتابعة أي يسر عليّ متابعتك بالإغضاء وترك المناقشة .

(203/477)

وإنما قال في هذه القصة ﴿ خرقها ﴾ بغير " فاء " لأنه جعله جزاء للشرط ، وفي قصة الغلام جعل ﴿ فقتله ﴾ من جملة الشرط معطوفاً عليه بفاء التعقيب ، لأن القتل يعقب لقاء الغلام ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير ومنه قولهم " رأي الشيخ خير من مشهد الغلام " وأصله من الاغتلام وهو شدة الشبق . وليس في القرآن أنهما كيف لقياه

، وهل كان يلعب مع جمع من الغلمان ، أو كان منفرداً ، وهل كان مسلماً أو كان كافراً ، وهل كان بالغاً أو كان صغيراً واسم الغلام بالصغير أليق ، إلا أن ﴿ بغير نفس ﴾ بالبالغ لأن الصبي لا يقتل قصاصاً . وعن ابن عباس أن نجدة الحروري الخارجي كتب إليه كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل . قال الكسائي : الزاكية والزكية لغتان ومعناهما الطاهرة . وقال أبو عمرو : الزاكية التي لم تذنب ، والزكية التي أذنبت ثم تابت . ويجوز أن يكون وصفها بالزكاء لأنه لم يرها أذنبت فهي طاهرة عنده . قيل : النكر أقل من الأمر لأن قتل نفس واحدة أهو من إغراق أهل السفينة . وقيل : النكر أشد لأن ذلك كان خرقاً تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه . وأيضاً الأمر العجيب والعجب يستعمل في الخير والشر . والنكر ما تنكره العقول فهو شر ، وظاهر الآية يدل على أن موسى استبعد أن تقتل النفس إلا بالنفس وليس كذلك لأنه قد يحل القتل بسائر الأسباب ، ولعله اعتبر السبب الأغلب والأقوى واختلفوا في كيفية قتله فقيل : فتل عنقه . وقيل : ضرب برأسه الحائط . وعن سعيد بن جبير : أضجعه ثم ذبحه بالسكين . ثم إنه سبحانه حكى عن الخضر أنه ما زاد على أن أذكره ما عاهد عليه فقال : ﴿ ألم أقل لك ﴾ وإنما زاد ههنا لك لأن الإنكار أكثر وموجب العتاب أقوى .

وقيل : أكد التقرير الثاني بقوله ﴿ لك ﴾ كما تقول لمن توبخه لك أقول وإياك أعني . وقيل : بين في الثاني المقول له لما لم يبين في الأول فعند هذا ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ بعد هذه الكرة أو المسألة ﴿ لا تصاحبني ﴾ نهاه عن المصاحبة حينئذ مع حرصه على التعلم لظهور عذره كما قال : ﴿ قد بلغت من لدني عذراً ﴾ وهذا كلام نادم شديد الندامة جره المقال ، واضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخي كموسى استحيا فقال ذلك " ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ هي أنطاكية : وقيل : الأيلة وهي أبعد أرض الله من السماء .

﴿ استطعما أهلها ﴾ وكان حق الإيجاز أن يقال : " استطعماهم " فوضع الظاهر موضع المضمر للتأكيد كقوله :

ليت الغراب غداة ينعب بيننا . . . كان الغراب مقطع الأوداج

(205/477)

وأيضاً لعله كره اجتماع الضميرين المتصلين في مثل هذا اللفظ لما فيه من الكلفة والبشاعة والاستطالة ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ يقال : أضافه وضيفه إذا أنزله وجعله ضيفه ، والتركيب يدور على الميل من ضاف السهم عن الغرض والضيف يميل إلى المضيف . عن النبي صلى الله عليه وسلم : "كانوا أهل قرية لئاماً . " قيل : الاستطعام ليس من عادة الكرام فكيف أقدما عليه . وأيضاً الضيافة من المندوبات وترك المندوب غير منكر ، فكيف جاز لموسى أن يغضب عليهم حتى ترك عهد صاحبه . وقال : ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ وأجيب بأن الرجل إذا جاع بحيث ضعف عن الطاعة أو أشرف على الهلاك لزمه الاستطعام ووجبت إجابته . ولقائل أن يقول : لو كان قد بلغ الجوع إلى حدّ الهلاك لم يقو على إصلاح الجدار . ولمجيب أن يقول : إنه أقام الجدار معجزة فقد يروى أنه مسحه بيده فقام واستوى . وقيل : أقامه بعمود عمده به . وقيل : نقضه وبناه . وروي أنه كان ارتفاع الجدار مائة ذراع . قال أهل الاعتبار : شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حق . ويحكى أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل الذهب فقالوا : يا رسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء تاء أي " فأتوا أن يضيفوهما " فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك . قوله : ﴿ يريد أن ينقض ﴾ معناه يسرع سقوطه من انقض الطائر إذا هوى في طيرانه . يقال : قضضته فانقض ، ويحتمل أن يكون " افعل " من النقض كاحمرّ من الحمرة ،

فالنون تكون أصلية وإحدى الضادين مكررة زائدة عكس الأول . واستعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة تشبيهاً للجماد بالأحياء نظيره ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ [الأعراف : 154] ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾

(206/477)

[فصلت : 11] . ولما أقام الخضر الجدار ورأى موسى من الحرمان ومسيس الحاجة ﴿ قال ﴾ لصاحبه ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ لطلبت على عملك جعلاً حتى نستدفع به الضرورة . واتخذ افتعل من تخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ على الأصح ﴿ قال ﴾ الخضر مشيراً إلى الفراق المتصور في قوله : ﴿ فلا تصاحبني ﴾ أو مشيراً إلى السؤال والاعتراض ﴿ هذا فراق بيني ﴾ الإضافة بمعنى في أي فراق أو سبب فراق في بيني ﴿ وبينك ﴾ وحكى القفال أن البين ههنا بمعنى الوصل .

(207/477)

ثم شرع في تقرير الحكم التي تضمنتها أفعاله وتلك الحكم تشترك في أصل واحد هو أنه أذا تعارض الضرر إن وجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى فقال : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ قيل : كانت لعشرة إخوة خمسة منهم زمنى وخمسة ﴿ يعملون في البحر ﴾ وقد تقدم استدلال الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ وهو مسمى بجلندي والوراء ههنا بمعنى الأمام وقد مر في قوله : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ [إبراهيم : 17] وقيل : أراد خلفهم وكان طريقهم في الرجوع وما كان عندهم خبرة ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ أي غير معيبة ﴿ غصباً ﴾ ولا يخفى أن الضرر الحاصل من التخريق أهون من فوات السفينة بالكلية والتخريق ، وإن كان تصرفاً في ملك الغير إلا أنه إذا تضمن نفعاً زائداً لم يكن به بأس . ولعل مثل هذا التصرف كان جائزاً في تلك الشريعة ، أو لعله كان من مخصوصات النبي صلى الله عليه وسلم . قال جار الله . قوله : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها وكان حقه أن يتأخر عن السبب ولكنه قدم للعناية أي تتعجب من هذا وهو مرادي وأنا مأمور به . وأيضاً خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كون السفينة للمساكين فتوسط إرادة العيب بين المسكنة والغصب كتوسط الظن بين المبتدأ والخبر في قولك " زيد ظني مقيم " في أنه يتعلق بالطرفين ﴿ وأما الغلام ﴾ فقد قيل : إنه كان بالغاً قاطع الطريق يقدم على الأفعال المنكرة وكان أبواه مضطرين إلى التعصب له والذب عنه فكانا يقعان في الفسق لذلك واحتمل أن يؤدي

ذلك إلى الكفر والارتداد كما قال : ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ . يقال : رهقة أي غشيه وأرهقه إياه . وقيل : إنه كان صبياً إلا أنه تعالى علم من حاله أنه لو صار بالغاً صدرت عنه هذه المفاسد ، فأعلم الخضر بحاله وأمره بقتله لئلا يرتد الأبوان بسببه ومثل هذا لا يجوز إلا إذا تأكد الظن بالوحي . وقيل : أراد فخفنا أن يغشى الوالدين طغياناً عليهما

(208/477)

وكفراً بنعمتهما بعقوقه ، أو خفنا أن يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر . وجوزوا أن يكون قوله : ﴿ فخشينا ﴾ من كلام الله تعالى أي كرهنا كراهة من خاف سوء عاقبة أمر فغيره .

والزكاة الطهارة والنقاء من الذنوب وكأنه بإزاء قول موسى نفساً زاكية . والرحم الرحمة والعطف بمعنى الإشفاق على الأبوين . يروى أنهما ولدت لهما جارية فتزوجها نبي فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم . ويروى أنها ولدت سبعين نبياً . وقيل : أبدلهما ابناً مؤمناً . وقيل : اسم الغلام المقتول الحيسون وفي نسخة الحسين .

(209/477)

﴿ وأما الجدار فكان لغلامين ﴾ . قيل : اسمهما أصرم وصريم . وقوله : ﴿ في المدينة ﴾ بعد قوله : ﴿ أتيا أهل قرية ﴾ فيه دلالة على أن القرية لا تنافي المدينة ومعنى الاجتماع والإقامة مراعى فيهما . أما الكنز فقيل : هو المال لقوله : ﴿ ويستخرجا ﴾ ولأن المفهوم منه عند إطلاقه هو المال . وقيل : صحف فيها علم لقوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ ودفن المال لا يليق بأهل الصلاح . وعورض بقول قتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا . وحرمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا . وجمع بعضهم بين الأمرين فقال : كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفي قوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ دلالة على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء . عن جعفر بن محمد رضي الله عنه : كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء ، وذكر من صلاح أبيهما ان الناس كانوا يضعون الودائع عنده فيردها إليهم سالمة . قالت العلماء : الأشبه أن اليتيمين كانا جاهلين بحال الكنز ووصيهما كان عالماً به إلا أنه غائب وق أشرف الجدار على السقوط و ﴿ رحمة من ربك ﴾ مصدر منصوب بأراد لأنه في معنى رحمهما أو مفعول له ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ أي اجتهادي ورأيي

وإنما فعلته بأمر الله . سؤال : لم قال في الأول : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وفي الثاني : ﴿ فأردنا ﴾ وفي الثالث ﴿ فأراد ربك ﴾ ؟ الجواب : لأن الأول إفساد في الظاهر فأسنده إلى نفسه ، وفي الثالث إنعام محض فأسنده إلى الله سبحانه ، وفي الثاني إفساد من حيث القتل وإنعام من حيث التدبيل فجمع بين الأمرين . ويمكن أن يقال : إن القتل كان منه ولكن إزهاق الروح كان من الله ، ويحتمل أن يقال : الوحدة في الأول على الأصل ، والجمع في الثاني تنبيه

(210/477)

على أنه من العلماء بالمؤيدين بالعلوم الدينية ، والإسناد إلى الله بالآخرة إشارة إلى أنه لا إرادة إلا إرادة الله وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من أسرار تلك الوقائع ﴿ تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ أي يرجع المقصود من تلك الأفاعيل إلى ما قررنا ، وأصل تسطع تستطيع كما في قوله : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع ﴾ إلا أن التاء حذفت لأجل التخفيف . وهذا شاذ من جهة القياس ولكنه ليس بشاذ في الاستعمال . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخي موسى لو لبيث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 443. 453 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾

هذه الحلقة من سيرة موسى عليه السلام لا تذكر في القرآن كله إلا في هذا الموضع من هذه السورة . والقرآن لا يحدد المكان الذي وقعت فيه إلا بإنه ﴿ مجمع البحرين ﴾ ولا يحدد التاريخ الذي وقعت فيه من حياة موسى ، هل كان ذلك هو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل أم بعد خروجه بهم منها ؟ ومتى بعد الخروج : قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة ، أم بعد ما ذهب بهم إليها فوقفوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوماً جبارين ؟ أم بعد ذهابهم في التيه ، مفرقين مبددين ؟

كذلك لا يذكر القرآن شيئاً عن العبد الصالح الذي لقيه موسى . من هو ؟ ما اسمه ؟ هل هو نبي أو رسول ؟ أم عالم ؟ أم ولي ؟

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس وعن غيره في هذه القصة . ونحن نقف عند نصوص القصة في القرآن . لنعيش " في ظلال القرآن " ونعتقد أن لعرضها في القرآن على النحو الذي عرضت به ، دون زيادة ، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء ، حكمة خاصة .

فنقف نحن عند النص القرآني نتملاه . . ﴿ وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا ﴾ . .

والأرجح والله أعلم أنه مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم . أي البحر الأبيض والبحر الأحمر . . ومجمعهما مكان التقائهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس في البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر . وعلى أي فقد تركها القرآن مجملة فنكتفي بهذه الإشارة .

(212/477)

ونفهم من سياق القصة فيما بعد أنه كان لموسى عليه السلام هدف من رحلته هذه التي اعتزمها ، وأنه كان يقصد من ورائها أمراً ، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة ، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول . وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه القرآن من قوله : ﴿ أو أمضي حقبا ﴾ والحقب قيل عام ، وقيل ثمانون عاماً . على أية حال فهو تعبير عن التصميم ، لا عن المدة على وجه التحديد .

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت

الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا . . ﴾ . .

والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشوياً ، وأن إحياءه واتخاذه سبيله في البحر سرباً كان آية من آيات الله لموسى ، يعرف بهما موعده ، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر ، ولو كان يعني أنه سقط منه فغاص في البحر ما كان في هذا عجب .

ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية . فهذه إحداها .

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذي حدده ربه له للقاء عبده الصالح . وأنه هنالك عند الصخرة ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه :

﴿ قال : ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ . .

ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه ، فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه . ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح في المشاهد التالية للقصة :

﴿ قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟ ﴾ .

بهذا الأدب اللائق بنبي ، يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

(213/477)

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح الأسباب القريب النتائج ، إنما هو جانب من العلم اللدني بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده ، للحكمة التي أرادها . ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبياً رسولاً . لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي ، وبالأحكام الظاهرة ، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة ؛ وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار . لذلك يخشى العبد الصالح الذي أوتي العلم اللدني على موسى ألا يصبر على صحبته وتصرفاته :

﴿ قال : إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ ﴾ . .

ويعزم موسى على الصبر والطاعة ، ويستعين الله ، ويقدم مشيئته :

﴿ قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ . .

فيزيد الرجل توكيداً وبياناً ، ويذكر له شرط صحبته قبل بدء الرحلة ، وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها :

﴿ قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ .

ويرضى موسى . . وإذا نحن أمام المشهد الأول لهما :

﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ﴾ . .

سفينة تحملهما وتحمل معهما ركاباً ، وهم في وسط اللجة ؛ ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ! إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق

وتؤدي بهم إلى هذا الشر ؛ فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر ؟

لقد نسي موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه ، أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي ! والإنسان قد يتصور المعنى الكلي المجرد ، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعاً غير التصور النظري . فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد . وها هو ذا موسى الذي نبه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبراً على ما لم يحط به خبراً ، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة وبذل الوعد وقبل الشرط .

(214/477)

ها هو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مستنكراً .

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته . منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي فقتله من اندفاعه . ثم أناب إلى ربه مستغفراً معتذراً حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي يقتتل مع مصري آخر ، هم بالآخر مرة أخرى !

نعم إن طبيعة موسى هي هذه الطبيعة . ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء

بوعده الذي قطعه أمام غرابتها . ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وقعاً وطعماً غير التصور النظري . ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها .

ومن هنا اندفع موسى مستنكراً :

﴿ قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرا ﴾ .

وفي صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البداية :

﴿ قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ ﴾ .

ويعتذر موسى بنسيانه ، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير :

﴿ قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ؟ ﴾ .

ويقبل الرجل اعتذاره ، فنجدنا أمام المشهد الثاني :

﴿ فانطلقا . حتى إذا لقيا غلاماً فقتله . . ﴾ .

وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها ؛ فهذه قتل نفس . قتل عمد لا مجرد احتمال . وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده :

﴿ قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكرا ﴾ .

فليس ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ؛ ولكنه قاصد . قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له اسباباً ؛ والغلام في نظره بريء . لم يرتكب ما يوجب القتل ،

بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخذاً على ما يصدر منه .

ومرة أخرى يرده العبد الصالح إلى شرطه الذي شرط ووعده الذي وعد ، ويذكره بما قال له أول مرة . والتجربة تصدقه بعد التجربة :

(215/477)

﴿ قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ . .

وفي هذه المرة يعين أنه قال له : ﴿ ألم أقل لك ؟ ﴾ لك أنت على التعيين والتحديد . فلم تقتنع وطلبت الصحبة وقبلت الشرط .

ويعود موسى إلى نفسه ، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين ، ونسي ما تعهد به بعد التذكير والتفكير . فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ، ويجعلها آخر فرصة أمامه :

﴿ قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني . قد بلغت من لدني عذراً ﴾ .

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث :

﴿ فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ .

.

إنهما جائعان ، وهما في قرية أهلها بخلاء ، لا يطعمون جائعاً ، ولا يستضيفون ضيفاً . ثم يجد أن جداراً مائلاً يهم أن ينقض . والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول : ﴿ يريد أن ينقض ﴾ فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل ! ! !

وهنا يشعر موسى بالتناقض في الموقف . ما الذي يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جداراً يهم بالانقضاض في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان ، وقد أبوا أن يستضيفوهما ؟ أفلا أقل من أن يطلب عليه أجراً يأكلان منه ؟

﴿ قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ !

وكانت هي الفاصلة . فلم يعد لموسى من عذر ، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال :

﴿ قال : هذا فراق بيني وبينك . سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

(216/477)

وإلى هنا كان موسى ونحن الذين نتابع سياق القرآن أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سراً . وموقفنا منها كموقف موسى . بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة ، فلم ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا . وما قيمة اسمه ؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا ، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات

المنظورة ، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة . فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التي يمثلها . وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها . فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود . فيمضي في طريقه ؛ ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة ، وكأنما نسيه ليعودا . فيجد هذا الرجل هناك . وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا في وجهتهما ، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى . . كل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول في سياق القرآن .

ثم يأخذ السر في التجلي . .

﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ؛ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ .

فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصباً ؛ وكان الضرر الصغير الذي أصابها اتقاء للضرر الكبير الذي يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها .

﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما ﴾ . .

فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل ، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح ، فإذا هو في طبيعته كافر طاغ ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان ، وتزيد على الزمن بروزاً وتحققاً . . فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه ،

وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه . فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفاً خيراً منه ، وأرحم بوالديه .

(217/477)

ولو كان الأمر موكولاً إلى العلم البشري الظاهر ، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام ، ولما كان له عليه من سلطان ، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعاً . وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس . ولا أن يرتب على هذا العلم حكماً غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة . ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد .

﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك وما فعلته عن أمري . . ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ . .

فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته ، ولم يطلب عليه أجراً من أهل القرية وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما كان يخبئ تحته كنزاً ، ويغيب وراءه مالاً لغلامين يتيمين

ضعيفين في المدينة . ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه . . ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما ، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته .

ثم ينفض الرجل يده من الأمر . فهي رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف . وهو أمر الله لا أمره . فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما قبلها ، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه ﴿ رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ . .

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف ، كما انكشف عن غيب الله الذي لا يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى .

وفي دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفي الرجل من السياق كما بدا . لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول . فالقصة تمثل الحكمة الكبرى . وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار . ثم تبقى مغيبة في علم الله وراء الأستار .

(218/477)

وهكذا ترتبط في سياق السورة قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله ، الذي يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر ،

الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار . . . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2277 . 2282 ﴾

(219/477)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ فيه أن المسافر لا بد له في الطريق من الرفيق ، وفيه أن من شرطهما أن يكون أحدهما أميراً والآخر مأموراً ، وأن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده حتى يكون على بصيرة من صحبته ، وأن لا يسأم من متاعب السفر حتى يظفر بمقصوده ، وأن تكون نيته طلب شيخ يقتدي به فإن طلب الشيخ في الحقيقة هو طلب الحق . ومجمع البحرين هو مجمع ولاية الشيخ وولاية المريد وعنده عين الحياة الحقيقية ، فإذا وقعت قطرة منها على حوت قلب المريد حيي واتخذ سبيله في بحر الولاية سربا . ﴿ فلما جاوزا ﴾ فيه إشارة إلى أن المريد في أثناء السلوك لو تطرقت إليه الملالة أصاب قلبه الكلالة وسولت له نفسه التجاوز عن صحبة الشيخ ظاناً أن مقصوده يحصل من غير وساطة الشيخ . هيهات فإنه ظن فاسد ومتاع كاسد إلا إن أدركته العناية الأزلية ورد إليه صدق الإرادة

فيقول : الرفيق التوفيق . ﴿ آتنا غداءنا ﴾ وهو همة الشيخ وبركة صحبته ﴿ لقد لقينا في سفرنا هذا ﴾ الذي جاوزنا صحبة الشيخ ﴿ نصباً ﴾ فقال رفيقه ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ صخرة النفس وتسويلها ﴿ فإني نسيت ﴾ حوت القلب ﴿ قال ذلك ما كنا نبغي من حوت القلب الميت المملح بملح حب الدنيا وزينتها أن يتخذ سبيله في بحر ولاية شيخ كامل ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ حراً من رق غيرنا . وفي قوله : ﴿ وعلمناه من لدنّا علماً ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أطلعه على بواطن الأشياء وحقائقها ، وهذا النوع من العلم لا يمكن تعلمه وإنما يحصل بتصفية النفس وتجريد القلب عن العلائق الجسمانية ، وقد ذهب موسى إلى تعلم العلم فكان من الواجب على الخضر أن يظهر له علماً يمكن تعلمه ، فبين علم الخضر وبين مقصد موسى تباين وتنافٍ فلهذا قال الخضر : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ وفي إظهار المسائل الثلاثة إشارة إلى ما قلنا من أن العلم الظاهر يباين العلم اللدني وليس من التعليم والتعلم في شيء ، وإذا تأمل العاقل السالك في قول موسى : ﴿ هل

أتبعك ﴾ الخ في قول الخضر . ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني ﴾ الخ . وجد أصول الشرائط التي شرطها الصوفية للمريد وللشيخ مودعة فيها ، وفي تفصيلها طول وقد أشرنا في التفسير إلى طرف منها ، ومن أراد الكل فعليه بمطالعة كتاب " آداب المريدين " للشيخ المحقق أبي النجيب السهروردي تغمده الله بغفرانه ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة ﴾ هي سفينة الشريعة ﴿ خرقها ﴾ بهدم الناموس في الظاهر مع صلاح الحال في الباطن وفيما بينه وبين علام الغيوب ، ومثل هذا قد يفعله كثير من المحققين طرداً للعوام وحذراً من التباهي والعجب ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ في أودية الضلال إذا اقتدوا بك ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً ﴾ هو النفس الأمارة ﴿ فقتله ﴾ بسكين الرياضة وسيف المجاهدة ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ هي الجسد وهم القوى الإنسانية من الحواس وغيرها ﴿ استطعما أهلها ﴾ بطلب أفاعليها التي تختص بها ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ بإعطاء خواصها كما ينبغي لكلالها وضعفها ﴿ فوجدا فيها جداراً ﴾ هو التعلق الحائل بين النفس الناطقة وبين عالم المجردات ﴿ يريد أن ينقض ﴾ بقطع العلاقة ﴿ فأقامه ﴾ بتقوية البدن والرفق بالقوى والحواس كما قيل : نفسك مطيتك فارفق بها .

(221/477)

﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ ثواباً جزيلاً أي لو شئت لصبرت على شدة الرياضة إلى إفاضة الأنوار ونيل الكشوف . ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ هم العوام الذين ﴿ يعملون في ﴾ بحر الدنيا وليس لهم في بر عالم الربوبية سير وسلوك حتى يصلوا إلى ملوك تحت أطمار ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ في الظاهر لتسلطهم بالإخلاص في البواطن ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ هو الشيطان ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ عبادة ﴿ غصباً ﴾ لأن كل عبادة تخلو عن الانكسار والذل والخشوع فإنها للشيطان لا للرحمن ﴿ وأما الغلام فكان أبواه ﴾ وهما القلب والروح ﴿ مؤمنين فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ هو النفس المطمئنة ﴿ وأقرب رحماً ﴾ أي نسبة إلى الأبوين . ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين ﴾ هما النفس المطمئنة والملهمة ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ هو حصول الكمالات النظرية والعملية ﴿ وكان أبوهما ﴾ وهو العقل المفارق ﴿ صالحاً ﴾ كاملاً بالفعل فلهذا ادخر لأجلهما ما ادخر ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ﴾ بتربية الشيخ وإرشاده على سبيل الرفق والمداراة ﴿ ويستخرجا ﴾ ما كان كامناً فيهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 453. 455 ﴾

(222/477)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/478)

الجزء الثامن والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 83 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 98 ﴾ من نفس السورة

(4/478)

قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم ، عقبها بقصة من

طاف الأرض لطلب الجهاد ، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم لأنه أساس كل سعادة ، وقوام كل أمر ، فقال عاطفاً على ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ [الكهف : 56] ﴿ ويسألونك عن ﴾ الرجل الصالح المجاهد ﴿ ذي القرنين ﴾ سمي لشجاعته أو لبلوغه قرني مغرب الشمس ومشرقها ، أو لانقراض قرنين من الناس في زمانه ، أو لأنه كان له ضفيرتان من الشعر أو لتاجه قرنان ، وهو الإسكندر الأول – نقل ابن كثير عن الأزرقي أنه كان على زمن الخليل عليه السلام ، وطاف معه بالبيت ، ومن المناسبات الصورية أن في قصة كل منهما ثلاثة أشياء آخرها بناء جدار لا سقف له ، وإنما هو لأجل حفظ ما يهتم به خوف المفسد ، وصدّرها بالإخبار عن سؤالهم إشارة إلى أنهم لم يسألوا عن التي قبلها على ما فيها من العجائب واللطائف ، والأسرار والمعارف ، تبكيتاً لليهود في إغفال الأمر بالسؤال عنها إن كان مقصودهم الحق ، وإن لم يكن مقصوداً لهم كانوا بالتبكيت أجدر ، أو تكون معطوفة على مسألتهم الأولى وهي الروح ، وصدرها بالإخبار بالسؤال تنبيهاً على ذلك لطول الفصل ، إشارة إلى أن ذلك كله مرتبط بجوابهم ارتباط الدر بالسلك .

ولما كان من المعلوم أنه يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم : فبماذا أجيبهم ؟ قال : ﴿ قل ﴾ أي لهم : ﴿ سأتلوا ﴾ أي أقص قصاً متتابعاً في مستقبل الزمان إن أعلمني الله به ﴿ عليكم ﴾ أيها المشركون وأهل الكتاب المعلمون لهم مقيداً بأن شاء الله كما سلف لك الأمر به ﴿ منه ذكراً ﴾ كافياً لكم في تعرف أمره ، جامعاً لمجامع ذكره .

(5/478)

ولما كانت قصته من أدل دليل على عظمة الله ، جلاها في ذلك المظهر فقال : ﴿ إنا ﴾ مؤكداً لأن المخاطبين بصدد التعنت والإنكار ﴿ مكنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، قيل : بالملك وحده ، وقيل مع النبوة ، لأن ما ينسب إلى الله تعالى على سبيل الامتنان والإحسان جدير بأن يحمل على النهاية لا سيما إذا عبر عنه بمظهر العظمة ﴿ له في الأرض ﴾ مكنة يصل بها إلى جميع مسلوكها ، ويظهر بها على سائر ملوكها ﴿ وءاتيناه ﴾ بعظمتنا ﴿ من كل شيء ﴾ يحتاج إليه في ذلك ﴿ سبباً ﴾ قال أبو حيان : وأصل السبب الحبل ، ثم توسع فيه حتى صار يطلق على ما يتوصل به إلى المقصود .

(6/478)

فأراد بلوغ المغرب ، ولعله بدأ به لأن باب التوبة فيه ﴿ فأتبع ﴾ أي بغاية جهده – هذا على قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو بالتشديد ، والمعنى على قراءة الباقين بقطع الهمزة وإسكان الفوقانية : ألحق بعض الأسباب ببعض ، وذلك تفسير لقراءة التشديد

﴿ سبباً ﴾ يوصله إليه ، واستمر متبعاً له ﴿ حتى إذا بلغ ﴾ في ذلك المسير ﴿ مغرب الشمس ﴾ أي الحد الذي لا يتجاوزه آدمي في جهة الغرب ﴿ وجدها ﴾ فيما يحس بحاسة لمسه ﴿ تغرب ﴾ كما أحسه بحاسة بصره من حيث إنه متصل بما وصل إليه بيده ، لا حائل بينه وبينه ﴿ في عين حمئة ﴾ أي ذات حمأة أي طين أسود ، وهي مع ذلك حارة كما ينظر من في وسط البحر أنها تغرب فيه وتطلع منه وعنده القطع بأن الأمر ليس كذلك ﴿ ووجد عندها ﴾ أي على الساحل المتصل بتلك العين ﴿ قوماً ﴾ كفاراً لهم قوة على ما يحاولونه ومنعة ، فكأنه قيل : ماذا أمر فيهم ؟ فأجيب بقوله : ﴿ قلنا ﴾ بمظهر العظمة : ﴿ يا ذا القرنين ﴾ إعلاماً بقربه من الله وأنه لا يفعل إلا ما أمره به ، إما بواسطة الملك إن كان نبياً وهو أظهر الاحتمالات ، أو بواسطة نبي زمانه ، أو باجتهاده في شريعته الاجتهاد المصيب ، ﴿ إما أن تعذب ﴾ أي هؤلاء القوم ببذل السيف فيهم بكفرهم ﴿ وإما أن تتخذ ﴾ أي بغاية جهدك ﴿ فيهم حسناً ﴾ أمراً له حسن عظيم ، وذلك هو البداءة بالدعاء ، إشارة إلى أن القتل وإن كان جائزاً فالأولى أن لا يفعل إلا بعد اليأس من الرجوع عن موجبه ﴿ قال أما من ظلم ﴾ باستمراره على الكفر فإنا نرفق به حتى نيأس منه ثم نقتله ، وإلى ذلك أشار بقوله : ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بوعد لا خلف فيه بعد طول الدعاء والترفق ﴿ ثم يرد ﴾ بعد الحياة بالموت ، أو بعد البرزخ بالبعث ، رداً هو في غاية السهولة ﴿ إلى ربه ﴾ الذي تفرد بتربيته ﴿ فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ شديداً جداً لم يعهد مثله لكفره

لنعمته ، وبذل خيره في عبادة غيره ، وفي ذلك إشارة بالتهديد الشديد لليهود الغارين لقريش ، وإرشاد لقريش إلى أن يسألوهم عن قوله هذا ،

(7/478)

ليكون قائداً لهم إلى الإقرار بالبعث ﴿ وأما من ءامن وعمل صالحاً ﴾ تصديقاً لما أخبر به من تصديقه ﴿ فله ﴾ في الدارين ﴿ جزاء ﴾ طريقته ﴿ الحسنى ﴾ منا ومن الله بأحسن منها ﴿ وسنقول ﴾ بوعد لا خلف فيه بعد اختباره بالأعمال الصالحة ﴿ له ﴾ أي لأجله ﴿ من أمرنا ﴾ الذي نأمر به فيه ﴿ يسراً ﴾ أي قولاً غير شاق من الصلاة والزكاة والخراج والجهاد وغيرها ، وهو ما يطيقه ولا يشق عليه مشقة كبيرة ﴿ ثم أتبع ﴾ لإرادته بلوغ مشرق الشمس ﴿ سبباً ﴾ من جهة الجنوب يوصله إلى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مر عليها .

﴿ حتى إذا بلغ ﴾ في مسيره ذلك ﴿ مطلع الشمس ﴾ أي الموضع الذي تطلع عليه أولاً من المعمور من الأرض ﴿ وجدها تطلع على قوم ﴾ على ساحل البحر لهم قوة شديدة ﴿ لم نجعل لهم ﴾ ولما كان المراد التعميم ، أثبت الجار فقال : ﴿ من دونها ﴾ أي من أدنى الأماكن إليهم أول ما تطلع ﴿ ستراً ﴾ يحول بينهم وبين المحل الذي يرى طلوعها منه من

البحر من جبل ولا أبنية ولا شجر ولا غيرها .

ولما كان أمره مستغرباً في نفسه وفي الاطلاع عليه لا سيما عند القرب ، قال تعالى :

﴿ كذلك ﴾ أي أمره كما ذكرنا لكم على سبيل الاقتصار ﴿ وقد أحطنا ﴾ بما لنا من العظمة ، ﴿ بما لديه ﴾ أي كله من الأمور التي هي أغرب المستغرب ﴿ خبراً ﴾ أي من جهة بواطن أموره فضلاً عن ظواهرها ، فلا يستغرب إخبارنا عن ذلك ولا عن أمر أصحاب الكهف ، ولا يظن أن تفصيل أمر الروح خفي عنا ، لأنا مطلعون على خفايا الأمور وظواهرها ، شواهدها وغوائبها ، وكيف لا ونحن أوجدناها ولكنا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد على ما تدعو إليه الحكمة ، فلو شئنا لبسطنا هذه القصة وقصة أهل الكهف وفصلنا أمر الروح تفصيلاً يعجز عن حفظه الألباء ﴿ ثم أتبع ﴾ في إرادته ناحية السد مخرج يأجوج ومأجوج ﴿ سبباً ﴾ من جهة الشمال ، واستمر أخذاً فيه ﴿ حتى إذا بلغ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 501.503 ﴾

(8/478)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ فأتبع ﴾ ﴿ ثم أتبع ﴾ مقطوعة : ابن عامر وعاصم وحمزة وعلي وخلف الباقون بالتشديد موصولة . ﴿ حامية ﴾ الألف من غيرهم : ابن عامر ويزيد وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص . الباقون ﴿ حمئة ﴾ بالهمزة من غير ألف ﴿ جزاء الحسنى ﴾ بالنصب منوناً . يعقوب وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد . الآخرون ﴿ جزاء الحسنى ﴾ بالرفع والإضافة . ﴿ السدين ﴾ بفتح السين : ابن كثير ، أبو عمرو وحفص وأبو زيد عن المفضل . الآخرون بضمها . ﴿ يفقهون ﴾ بضم الياء وكسر القاف : حمزة وعلي وخلف . الباقون بفتحهما ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ حيث كان مهموزاً : عاصم غير الشموني ﴿ فهل نجعل ﴾ وبابه بإدغام اللام في النون : علي وهشام ﴿ خراجاً ﴾ بالألف : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد الباقون ﴿ خرجا ﴾ بسكون الراء . ﴿ سداً ﴾ بفتح السين : ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعلي وخلف وعاصم . والباقون بضمها ﴿ مكننى ﴾ : ابن كثير : الباقون بإدغام النون في النون ﴿ ردماً ائتوني ﴾ يحيى وحماد والابتداء بكسر الألف ﴿ الصدفين ﴾ بضم الصاد والدال : ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وسهل ويعقوب المفضل مخير ، أبو بكر وحماد بضم الصاد وإسكان الدال . الآخرون بفتح الصاد والدال . ﴿ قال ائتوني ﴾ والابتداء بكسر الألف : يحيى وحماد وحمزة ﴿ فما اسطاعوا ﴾ بالإدغام : حمزة غير حماد وخلاد ، وقرأ أبو نشيط والشموني ﴿ فما اصطاعوا ﴾ بالصاد وهو الصحيح من نقل

ابن مهران . ﴿ دكاء ﴾ بالمد : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير المفضل والخزاز عن هبيرة ﴿ أفحسب الذين ﴾ بسكون السين ورفع الباء : يزيد ويعقوب والأعشى في اختياره ﴿ دوني أولياء ﴾ بفتح ياء المتكلم : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ أن ينفد ﴾ بياء الغيبة : حمزة وعلي وخلف وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان .

(9/478)

الوقوف : ﴿ القرنين ﴾ ط ﴿ ذكراً ﴾ 5 ط ﴿ سبباً ﴾ لا ﴿ سبباً ﴾ 5 ﴿ قولاً ﴾ 5 ط ﴿ حسناً ﴾ 5 ﴿ نكراً ﴾ 5 ﴿ الحسنى ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ يسراً ﴾ 5 ط لأن " ثم " لترتيب الأخبار ﴿ سبباً ﴾ 5 ﴿ ستراً ﴾ 5 ﴿ كذلك ﴾ ط أي كذلك القبيل الذين كانوا عند مغرب الشمس . وقيل : يبتدأ بكذلك أي ذلك كذلك أو الأمر كذلك . وقيل : أي أحطنا بما لديه من العدد والعدد كذلك أي كعلمنا بقوم سبق ذكرهم ﴿ خبراً ﴾ 5 ﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ 5 ﴿ قوماً ﴾ لا ﴿ قولاً ﴾ 5 ﴿ سدّاً ﴾ 5 ﴿ ردماً ﴾ 5 ﴿ الحديد ﴾ ط ﴿ انفخوا ﴾ ط ﴿ ناراً ﴾ لا لأن " قال " جواب " إذا " ﴿ قطراً ﴾ 5 ط لأن ما بعده ابتداء إخبار ﴿ نقبا ﴾ 5 ﴿ من ربي ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ دكاء ﴾ ج لذلك ﴿ حقاً ﴾ 5 ط لانقطاع القصة ﴿

جمعاً ﴾ 5 لا للعطف ﴿ عرضاً ﴾ 5 لا ﴿ سمعاً ﴾ 5 ﴿ أوليا ﴾ ط ﴿ نزلاً ﴾ 5 ﴿ أعمالاً ﴾ 5 ط للفصل بين الاستخبار والإخبار لأن التقدير هم الذين ، ويجوز أن يكون نصباً على الذم أو جراً على البدل ﴿ صنعاً ﴾ 5 ﴿ وزناً ﴾ 5 ﴿ هزواً ﴾ 5 ﴿ نزلاً ﴾ 5 ﴿ حولاً ﴾ 5 ﴿ مدداً ﴾ 5 ﴿ واحد ﴾ ج لابتداء الشرط مع فاء التعقيب ﴿ أحداً ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 456 .

457 ﴾

(10/478)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة ذي القرنين :

ومن الإسرائيليات التي طفحت بها بعض كتب التفسير : ما يذكرونه في تفاسيرهم ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ، إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ 1 الآيات .

وقد ذكر ابن جرير في تفسيره بسنده ، عن وهب بن منبه اليماني ، وكان له علم بالأحاديث

الأولى ، أنه كان يقول : "ذو القرنين : رجل من الروم ، ابن عجوز من عجائزهم ، ليس لها ولد غيره ، وكان اسمه الإسكندر ، وإنما سُمِّيَ ذا القرنين ؛ أن2 صفحتي رأسه كانتا من نحاس ، فلما بلغ وكان عبدا صالحا ، قال الله عز وجل له : يا ذا القرنين إني باعثك إلى أمم الأرض ، وهي أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم جميع أهل الأرض ، ومنهم أمتان بينهما طول الأرض كله ، ومنهم أمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأمم في وسط الأرض منهم الجن ، والإنس ، ويأجوج ومأجوج . . . ثم استرسل في ذكر أوصافه ، وما وهبه الله من العلم والحكمة ، وأوصاف الأقوام الذين لقيهم ، وما قال لهم ، وما قالوا له ، وفي أثناء ذلك يذكر ما لا يشهد له عقل ولا نقل وقد سود بهذه الأخبار نحو أربعة صحائف من كتابه3 ، وكذلك ذكر روايات أخرى في سبب تسميته بذي القرنين ، بما لا يخلو عن تخليط وتخبط ، وقد ذكر ذلك عن غير ابن جرير : السيوطي في الدر قال : وأخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والشيرازي في الألقاب ، وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه اليماني ، وكان له علم بالأحاديث الأولى أنه كان يقول : كان ذو القرنين رجلا من الروم ، ابن عجوز من عجائزهم ، ليس لها ولد غيره ، وكان اسمه الإسكندر ، وإنما سمي ذا القرنين : أن صفحتي رأسي كانتا من نحاس . . . "4 ، وأنا لا أشك في أن ذلك مما تلقاه وهب عن كتبهم ، وفيها ما فيها من الباطل ، والكذب ، ثم حملها عنه بعض التابعين ، وأخذها عنهم ابن إسحاق وغيره من أصحاب كتب التفسير ،

---

1 الكهف ، الآية 83 : وما بعدها .

2 أي : لأن .

3 جامع البيان ج 15 من ص 14-18 .

4 الدر المنثور ج 4 من ص 242-246 .

(11/478)

والسير ، والأخبار ، ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير ، حيث قال في تفسيره :

وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثرًا طويلا ، عجيبا في سير ذي القرنين ، وبنائه السد ، وكيفية ما جرى له وفيه طول ، وغرابة ، ونكارة ، في إشكالهم ، وصفاتهم وطولهم ، وقصر بعضهم ، وآذانهم ، وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة ، لا تصح أسانيدها ، والله أعلم" 1 وحتى لو صح الإسناد إليها ، فلا شك في أنها من الإسرائيليات ، لأنه لا تنافي بين الأمرين ، فهي صحيحة إلى من رويت عنه ، لكنها في نفسها من قصص بني إسرائيل الباطل ، وأخبارهم الكاذبة .

ولو أن هذه الإسرائيليات وقف بها عند منابعها ، أو من حملها عنهم من الصحابة والتابعين ، لكان الأمر محتملا ، ولكن الإثم وكِبْر الكذب أن تنسب هذه الأخبار إلى النبي صلى الله

عليه وسلم ولو أنها كما أسلفت كانت صحيحة في معناها ومبناها لما حل نسبتها إلى رسول الله أبدا ، فما بالك وهي أكاذيب ملفقة ، وأخبار باطلة ؟ !

وقد روى ابن جرير وغيره عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ : حديثًا مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "حدثنا أبو كريب قال : حدثنا زيد بن حباب ، عن ابن لهيعة ، قال : حدثني عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن شيخين من تجيب ، أنهما انطلقا إلى عقبة بن عامر ، فقالا له : جئنا لتحدثنا فقال : كنت يوما أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت من عنده ، فلقيني قوم من أهل الكتاب ، فقالوا : نريد أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن لنا عليه ، فدخلت عليه فأخبرته فقال : "ما لي ، وما لهم ، ما لي علم إلا ما علمني الله" ، ثم قال : "اسكب لي ماءًا" فتوضأ ، ثم صلى ، قال : فما فرغ حتى عرفت السرور على وجهه ، ثم قال : "أدخلهم علي ، ومن رأيت من أصحابي" ، فدخلوا ، فقاموا بين يديه فقال : إن شئتم سألتم فأخبرتكم عما تجدونه في كتابكم مكتوبًا ، وإن شئتم أخبرتكم ، قالوا : بلى ، أخبرنا ، قال : جئتم تسألون عن ذي القرنين ، وما تجدونه في كتابكم ، كان شابًّا من الروم ، فجاء ، فبنى مدينة مصر الإسكندرية ، فلما فرغ جاءه ملك فعلا به في السماء ،

---

1 تفسير ابن كثير والبغوي ج 5 ص 329 .

فقال له : ما ترى ؟ فقال : أرى مدينتي ، ومدائن ، ثم علا به ، فقال : ما ترى ؟ فقال : أرى مدينتي ، ثم علا به فقال : ما ترى ؟ قال : أرى الأرض ، قال : فهذا اليم محيط بالدنيا ، إن الله بعثني إليك تعلم الجاهل ، وتثبت العالم ، فأتى به السد ، وهو جبلان لينان يزلق عنهما كل شيء ، ثم مضى به حتى جاوز يأجوج ومأجوج ، ثم مضى به إلى أمة أخرى ، وجوههم وجوه الكلاب ، يقاتلون يأجوج ومأجوج ، ثم مضى به إلى أمة أخرى ، وجوههم وجوه الكلاب ، يقاتلون يأجوج ومأجوج ، ثم مضى به حتى قطع به أمة أخرى يقاتلون هؤلاء الذين وجوههم وجوه الكلاب ، ثم مضى حتى قطع به هؤلاء إلى أمة أخرى قد سماهم" 1 . ثم عقب ذلك بسرد المرويات في سبب تسميته بذي القرنين .

وذكر السيوطي في "الدر المنثور" 2 مثل ذلك ، وقال : إنه أخرجه ابن عبد الحكم في تاريخ مصر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الدلائل وكل هذا من الإسرائيليات التي دست على النبي صلى الله عليه وسلم ولو شئت أن أقسم بين الركن والمقام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال هذا ، لأقسمت ، وابن لهيعة ضعيف في الحديث .

وقد كشف لنا الإمام الحافظ ابن كثير عن حقيقة هذه الرواية في تفسيره ، وأنحى باللائمة

على من رواها ، فقال : "وقد أورد ابن جرير ههنا ، والأموي في مغازيه ، حديثا أسنده ، وهو ضعيف ، عن عقبة بن عامر : أن نفرًا من اليهود جاءوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين ، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء ، فكان فيما أخبرهم به : أنه كان شابا من الروم ، وأنه بني الإسكندرية ، وأنه علي به ملك في السماء وذهب به إلى السد ، ورأى أقواما وجوههم مثل وجوه الكلاب . . . وفيه طول ونكارة ، ورفعه لا يصح ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل .

والعجب : أن أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتاب "دلائل النبوة" ، وذلك غريب منه ، فيه من النكارة أنه من الروم ، وإنما الذي كان من الروم : الإسكندر الثاني ، وهو ابن فيلبس المقدوني ، الذي تؤرخ به الروم . . . وكان وزيره .

---

1 جامع البيان لابن جرير ج15 ص 7 ، 8 .

2 ج4 ص 241 .

أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور ، والله أعلم1 .

ومن هو ذو القرنين ؟ :

والذي نقطع به : أنه ليس الإسكندر المقدوني ؛ لأن ما ذكره المؤرخون في تاريخه لا يتفق وما حكاه القرآن الكريم عن ذي القرنين ، والذي نقطع به أيضا أنه كان رجلا مؤمنا صالحا ، ملكه شرق الأرض وغربها ، وكان من أمره ما قصه الله تعالى في كتابه ، وهذا ما ينبغي أن نؤمن به ، ونصدقه ، أما معرفة هويته ، وما اسمه ؟ وأين ؟ وفي أي زمان كان ؟ فليس في القرآن ، ولا في السنة الصحيحة ما يدل عليه ، على أن الاعتبار بقصته ، والانتفاع بها ، لا يتوقف على شيء من ذلك ، وتلك سمة من سمات القصص القرآني ، وخصيصة من خصائصه أنه لا يعنى بالأشخاص ، والزمان ، والمكان مثل ما يعنى بانتزاع العبرة منها ، والاستفادة منها فيما سيقت له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 242. 245 ﴾

---

1 تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ ج 5 ص 322 .

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا في أول هذه السورة أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح فالمراد من قوله :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى القرنين ﴾ [الكهف : 83] هو ذلك السؤال .

المسألة الثانية :

(15/478)

اختلف الناس في أن ذا القرنين من هو وذكروا فيه أقوالاً : الأول : أنه هو الاسكندر بن فيلبوس اليوناني قالوا والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف : 86] وأيضاً بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله : ﴿ حتى إِذَا

بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس ﴾ [الكهف : 90] وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال ، وبدليل أن السد المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ إنه مبني في أقصى الشمال فهذا الإنسان المسمى بذي القرنين في القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض ، ومثل هذا الملك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر وأن لا يبقى مخفياً مستتراً ، والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر وذلك لأنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر .

ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها .

(16/478)

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلية ، أو ما يقرب منها ، وثبت بعلم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني ثم ذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم وجوهاً : الأول : أنه لقب بهذا اللقب لأجل بلوغه قرني الشمس أي مطلعها ومغربها كما لقب أردشير بن بهمن بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد .

والثاني : أن الفرس قالوا : إن دارا الأكبر كان قد تزوج بابنة فيلبوس فلما قرب منها وجد منها رائحة منكرة فردها على أبيها فيلبوس وكانت قد حملت منه بالإسكندر فولدت الإسكندر بعد عودها إلى أبيها فبقي الإسكندر عند فيلبوس وأظهر فيلبوس أنه ابنه وهو في الحقيقة ابن دارا الأكبر قالوا والدليل عليه أن الإسكندر لما أدرك دارا بن دارا وبه رمق وضع رأسه في حجره وقال لدارا : يا أبي أخبرني عمن فعل هذا لأنتقم لك منه ! فهذا ما قاله الفرس قالوا وعلى هذا التقدير فالإسكندر أبوه دارا الأكبر وأمه بنت فيلبوس فهو إنما تولد من أصلين مختلفين الفرس والروم وهذا الذي قاله الفرس إنما ذكروه لأنهم أرادوا أن يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لا يكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم وهو في الحقيقة كذب ، وإنما قال الإسكندر لدارا يا أبي على سبيل التواضع وأكرم دارا بذلك الخطاب .

والقول الثاني : قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية ، قيل : إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميري فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما . . ملكاً علا في الأرض غير مفندي

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . أسباب ملك من كريم سيد

(17/478)

ثم قال أبو الريحان ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذي كذا كذي النادي وذي نواس وذي النون وغير ذلك .

والقول الثالث : أنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة ، وإن كنا لا نعرف أنه من هو ثم ذكروا في تسميته بذي القرنين وجوهاً : الأول : سأل ابن الكوا علياً رضي الله عنه عن ذي القرنين وقال أملك هو أم نبي فقال : لا ملك ولا نبي كان عبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمي بذي القرنين وملك ملكه .

الثاني : سمي بذي القرنين لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس .

الثالث : قيل كان صفحتا رأسه من نحاس .

الرابع : كان على رأسه ما يشبه القرنين .

الخامس : (كان) لتاجه قرنان .

السادس : عن النبي صلى الله عليه وسلم سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا يعني شرقها وغربها .

السابع : كان له قرنان أي ضفيرتان .

الثامن : أن الله تعالى سخر له النور والظلمة فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من ورائه .

التاسع : يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً كأنه ينطح أقرانه .

العاشر : رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفي الشمس وقرنيها وجانبيها فسمي لهذا السبب بذي القرنين .

الحادي عشر : سمي بذلك لأنه دخل النور والظلمة .

والقول الرابع : أن ذا القرنين ملك من الملائكة عن عمر أنه سمع رجلاً يقول : يا ذا القرنين فقال : اللهم اغفر .

(18/478)

أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسموا بأسماء الملائكة ! فهذا جملة ما قيل في هذا الباب ، والقول الأول أظهر لأجل الدليل الذي ذكرناه وهو أن مثل هذا الملك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو هو إلا أن فيه إشكالاً قوياً وهو أنه كان تلميذ أرسطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في ذي القرنين هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبياً واحتجوا عليه بوجوه .

الأول : قوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة .

والثاني : قوله : ﴿ وآتيناه مِن كُلّ شَىْء سَبَباً ﴾ ومن جملة الأشياء النبوة فمقتضى العموم في قوله : ﴿ وآتيناه مِن كُلّ شَىْء سَبَباً ﴾ هو أنه تعالى آتاه في النبوة سبباً .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ والذي

يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً ومنهم من قال إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبياً .

المسألة الرابعة :

(19/478)

في دخول السين في قوله : ﴿ سَأَتْلُواْ ﴾ معناه إني سأفعل هذا إن وفقني الله تعالى عليه وأنزل فيه وحياً وأخبرني عن كيفية تلك الحال ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك من حيث إنه ملك مشارق الأرض ومغاربها والأول أولى لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أولى ثم قال : ﴿ وآتيناه مِن كُلّ شَىْء سَبَباً ﴾ قالوا : السبب في أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود وهو يتناول العلم والقدرة والآلة فقوله : ﴿ وآتيناه مِن كُلّ شَىْء سَبَباً ﴾ معناه : أعطيناه من كل شيء من الأمور التي يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء ثم إن الذين قالوا : إنه كان نبياً قالوا : من جملة الأشياء النبوة فهذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذي به يتوصل إلى تحصيل النبوة ، والذين أنكروا كونه نبياً قالوا : المراد به وآتيناه من كل شيء يحتاج إليه في إصلاح ملكه سبباً ، إلا أن لقائل

أن يقول : إن تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل ، ثم قال : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ ومعناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شيء سببه فإذا أراد شيئاً أتبع سبباً يوصله إليه ويقربه منه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فاتبع بتشديد التاء ، وكذلك ثم اتبع أي سلك وسار والباقون فأتبع بقطع الألف وسكون التاء مخففة .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾

اعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه حتى بلغه ، أما قوله :

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ففيه مباحث :

(20/478)

الأول : قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم في عين حامية بالألف من غير همزة أي حارة ، وعن أبي ذر ، قال : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال : أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تغرب في عين حامية ؛ وهي قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر ، والباقون حمئة ، وهي قراءة ابن عباس واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بألف فقال ابن عباس حمئة ، فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ ؟ قال : كما

يقرأ أمير المؤمنين ، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال : في ماء وطين كذلك نجده في التوراة ، والحمئة ما فيه ماء ، وحمأة سوداء ، واعلم أنه لا تنافي بين الحمئة والحامية ، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً .

البحث الثاني : أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها ، ولا شك أن الشمس في الفلك ، وأيضاً قال : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود ، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ، إذا ثبت هذا فنقول : تأويل قوله : ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ من وجوه .

الأول : أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر ، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره .

(21/478)

الثاني : أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار ، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية وهي أيضاً حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله : ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة .

الثالث : قال أهل الأخبار : إن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمأة وهذا في غاية البعد ، وذلك لأنا إذا رصدنا كسوفاً قمرياً فإذا اعتبرناه ورأينا أن المغربيين قالوا : حصل هذا الكسوف في أول الليل ورأينا المشرقيين قالوا : حصل في أول النهار فعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر في بلد ووقت الظهر في بلد آخر ، ووقت الضحوة في بلد ثالث . ووقت طلوع الشمس في بلد رابع ، ونصف الليل في بلد خامس ، وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار .

وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات كان الذي يقال : إنها تغيب في الطين والحمأة كلاماً على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة ، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل الذي ذكرناه ثم قال تعالى : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ﴾ الضمير في قوله عندها إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الشمس ويكون التأنيث للشمس لأن الإنسان لما تخيل أن الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من

الشمس .

والقول الثاني : أن يكون الضمير عائداً إلى العين الحامية ، وعلى هذا القول فالتأويل ما ذكرناه ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ وفيه مباحث :

(22/478)

الأول : أن قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ يدل على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة ، وذلك يدل على أنه كان نبياً وحمل هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء فهو عدول عن الظاهر .

البحث الثاني : قال أهل الأخبار في صفة ذلك الموضع أشياء عجيبة ، قال ابن جريج : هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها سمع الناس وجبة الشمس حين تغيب .

البحث الثالث : قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ يدل على أن سكان آخر المغرب كانوا كفاراً فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في

أصلح الأمرين كما خير نبيه عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم ، وقال الأكثرون : هذا التعذيب هو القتل ، وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء ، ثم قال ذو القرنين : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي ظلم نفسه بالإقامة على الكفر .

والدليل على أن هذا هو المراد أنه ذكر في مقابلته : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ ثم قال : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أي بالقتل في الدنيا : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابا نُّكْراً ﴾ أي منكراً فظيعاً : ﴿ وَأَمَّا مَنْ امَنَ وَعَمِلَ صالحا فَلَهُ جَزَاء الحسنى ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم : ﴿ جَزَاء الحسنى ﴾ بالنصب والتنوين والباقون بالرفع والإضافة ، فعلى القراءة الأولى يكون التقدير فله الحسنى جزاء كما تقول لك هذا الثوب هبة ، وأما على القراءة الثانية ففي التفسير وجهان .

الأول : فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الإيمان والعمل الصالح .

(23/478)

والثاني : أن يكون التقدير فله جزاء المثوبة الحسنى ويكون المعنى فله ذا الجزاء الذي هو المثوبة الحسنى والجزاء موصوف بالمثوبة الحسنى وإضافة الموصوف إلى الصفة مشهورة كقوله : ﴿ وَلَدَارُ الأخرة ﴾ [الأنعام : 32] و ﴿ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 95] ثم قال

: ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما وتقدير هذا يسر كقوله : ﴿ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء : 28] وقرىء يسراً بضمتين .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أولاً أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مغرب الشمس أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مطلع الشمس فبين الله تعالى أنه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً وفيه قولان .

الأول : أنه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم فلهذا السبب إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب واغلة في الأرض أو غاصوا في الماء فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق .

(24/478)

والقول الثاني : أن معناه أنه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبداً ويقال في كتب الهيئة إن حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك ، وذكر في كتب التفسير أن بعضهم قال : سافرت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم ، فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه الواحدة ويلبس الأخرى ولما قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن فلما طلعت الشمس إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سرباً لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ وفيه وجوه : الأول : أي كذلك فعل ذو القرنين اتبع هذه الأسباب حتى بلغ ما بلغ وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به .

والثاني : كذلك جعل الله أمر هؤلاء القوم على ما قد أعلم رسوله عليه السلام في هذا الذكر .

والثالث : كذلك كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب ، قضى في هؤلاء كما قضى في أولئك ، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين .

والرابع : أنه تم الكلام عند قوله كذلك والمعنى أنه تعالى قال : أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين ثم قال بعده : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أي كنا عالمين بأن الأمر

كذلك .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) ﴾

اعلم أن ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب أتبع سببا آخر وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين ، وقد آتاه الله من العلم والقدرة ما يقوم بهذه الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 139.144 ﴾

(25/478)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾

اختلف فيه هل كان نبياً ؟ فذهب قوم إلى أنه نبي مبعوث فتح الله على يده الأرض وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يكن نبياً ولا ملكاً ، ولكنه كان عبداً صالحاً أحب الله وأحبه الله ، وناصح لله فناصحه الله ، وضربوه على قرنه فمكث ما شاء الله ثم دعاهم إلى الهدى فضربوه على قرنه الآخر ، ولم يكن له قرنان كقرني الثور .

واختلف في تسميته بذي القرنين على أربعة أقاويل :

أحدها : لقرنين في جانبي رأسه على ما حكى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الثاني : لأنه كانت له ضفيرتان فَسُمِّيَ بهما ذو القرنين ، قاله الحسن .

الثالث : لأنه بلغ طرفي الأرض من المشرق والمغرب ، فَسُمِّيَ لاستيلائه . على قرني الأرض ذو القرنين ، قاله الزهري .

الرابع : لأنه رأى في منامه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها ، فقص رؤياه على قومه فَسُمِّيَ ذو القرنين ، قال وهب بن منبه .

وحكى بن عباس أن ذا القرنين هو عبد الله بن الضحاك بن معد ، وحكى محمد بن إسحاق أنه رجل من إهل مصر اسمه مرزبان بن مردبة اليوناني ولد يونان بن يافث بن نوح .

وقال معاذ بن جبل : كان روميا اسمه الاسكندروس . قال ابن هشام : هو الإِسكندر وهو الذي بنى الإسكندرية .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : باستيلائه على ملكها .

الثاني : بقيامه بمصالحها .

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من كل شيء علماً ينتسب به إلى إرادته ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : ما يستعين به على لقاء الملوك وقتل الأعداء وفتح البلاد .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : وجعلنا له من كل أرض وليها سلطاناً وهيبة .

قوله عز وجل : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : منازل الأرض ومعالمها .

الثاني : يعني طرقاً بين المشرق والمغرب ، قاله مجاهد ، وقتادة .

(26/478)

الثالث : طريقاً إلى ما أريد منه .

الرابع : قفا الأثر ، حكاه ابن الأنباري .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ وفيها وجهان :

أحدهما : عين ماء ذات حمأة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

الثاني : يعني طينة سوداء ، قاله كعب .

وقرأ بن الزبير ، والحسن : ﴿ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ ﴾ وهي قراءة الباقين يعني حارة .

فصار قولاً ثالثاً : وليس بممتنع أن يكون ذلك صفة للعين أن تكون حمئة سوداء حامية ،

وقد نقل مأثوراً في شعر تُبَّع وقد وصف ذا القرنين بما يوافق هذا فقال :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً . . . . . ملكاً تدين له الملوك وتسجد

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . . أسباب أمرٍ من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها . . . في عين ذي خُلُبٍ وثاطٍ حرمد

الخُلُب : الطين . والثأط : الحمأة . والحرمد : الأسود .

ثم فيها وجهان : أحدهما : أنها تغرب في نفس العين .

الثاني : أنه وجدها تغرب وراء العين حتى كأنها تغيب في نفس العين .

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه خيره في عقابهم أو العفو عنهم .

الثاني : إما أن تعذب بالقتل لمقامهم على الشرك وإما أن تتخذ فيهم حُسناً بأن تمسكهم بعد الأسر لتعلمهم الهدى وتستنقذهم من العَمَى ، فحكى مقاتل أنه لم يؤمن منهم إلا رجل واحد .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾

قرىء بقطع الألف ، وقرىء بوصلها وفيها وجهان :

أحدهما : معناهما واحد .

الثاني : مختلف . قال الأصمعي : بالقطع إذا لحق ، وبالوصل إذا كان على الأثر ، وإن لم يلحق .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ قرىء بكسر اللام ، وقرىء بفتح اللام ، وفي اختلافهما وجهان :

أحدهما : معناهما واحد .

(27/478)

الثاني : معناهما مختلف . وهي بفتح اللام الطلوع ، وبكسرها الموضع الذي تطلع منه .

والمراد بمطلع الشمس ومغربها ابتداء العمارة وانتهاؤها .

﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ يعني من دون الشمس ما يسترهم منها من بناء أو شجر أو لباس . وكانوا يأوون إذا طلعت عليهم إلى أسراب لهم ، فإذا زالت عنهم خرجوا لصيد ما يقتاتونه من وحش وسمك .

قال ابن الكلبي : وهم تاريس وتأويل ومنسك .

وهذه الأسماء والنعوت التي نذكرها ونحكيها عمن سلف إن لم تؤخذ من صحف النبوة السليمة لم يوثق بها ، ولكن ذكرت فذكرتها . وقال قتادة . هم الزنج . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(28/478)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

اختلف فيمن سأله عن هذه القصة ، فقيل سألته طائفة من أهل الكتاب ، وروى في ذلك عقبة بن عامر حديثاً ذكره الطبري وقيل إنما سألته قريش ، حين دلتها اليهود على سؤاله عن الروح ، والرجل الطواف ، وفتية ذهبوا في الدهر ليقع امتحانه بذلك ، و" ذو القرنين " : هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني ، وقد تشدد قافه ، فيقال المقدوني ، وذكر ابن إسحاق في كتاب الطبري أنه يوناني ، وقال وهب بن منبه هو رومي ، وذكر الطبري حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن ذا القرنين شاب من الروم " وهو حديث واهي السند ، فيه عن شيخين من تجيب ، واختلف الناس في وجه تسميته ب ﴿ ذي القرنين ﴾ ، فأحسن الأقوال أنه كان ذا ضفرتين من شعر هما قرناه ، فسمي بهما ، ذكره المهدوي وغيره ، والضفائر قرون الرأس ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

فلثمت فاها آخذاً بقرونها . . . شرب النزيف لبرد ماء الحشرج

ومنه حديث في غسل بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت أم عطية : فضفرنا رأسها ثلاثة قرون ، وكثيراً تجيء تسمية النواصي قروناً ، وروي أنه كان في أول ملكه يرى في نومه أنه يتناول الشمس ، ويمسك قرنين لها بيديه ، فقص ذلك ، ففسر أنه سيغلب على ما ذرت

عليه ، وسمي " ذا القرنين " ، وقالت فرقة سمي " ذا القرنين " لأنه بلغ المغرب والمشرق ، فكأنه حاز قرني الدنيا ، وقالت فرقة إنه بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرنيها ، فسمي بذلك ، أو قرني الشيطان بها ، وقال وهب بن منبه : سمي بذلك لأن جنبتي رأسه كانتا من نحاس ، وقال وهب بن منبه أيضاً كان له قرنان تحت عمامته .

(29/478)

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله بعيد ، وقال علي بن أبي طالب : إنما سمي " ذا القرنين " لأنه ضرب على قرن رأسه فمات : ثم حيي ثم ضرب على قرن رأسه الآخر فمات ، فسمي بذلك لأنه جرح على قرني رأسه جرحين عظيمين في يومين عظيمين من أيام حربه فسمي بذلك ، وهذا قريب ، والتمكين له في الأرض أنه ملك الدنيا ، ودانت له الملوك كلها ، فروي أن جميع من ملك الدنيا كلها أربعة : مؤمنان وكافران ، والمؤمنان : سليمان بن داود ، والإسكندر ، والكافران نمرود وبخت نصر ، وقوله ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ معناه علماً في كل أمر ، وأقيسة يتوصل بها إلى معرفة الأشياء ، وقوله ﴿ كل شيء ﴾ عموم ، معناه الخصوص في كل ما يمكن أن يعلمه ويحتاج إليه ، وثم لا محالة أشياء لم يؤتَ منها سبباً يعلمها به ، واختلف في ﴿ ذي القرنين ﴾ فقيل هو نبي ، وهذا ضعيف . وقيل هو

مَلَك بفتح اللام ، وروي عن علي بن أبي طالب أنه سمع رجلاً يدعو آخر يا ذا القرنين ، فقال أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عنه فقال " ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب " وقيل هو عبد مِلك بكسر اللام صالح ، نصح لله فأيده ، قاله علي بن أبي طالب ، وقال فيكم اليوم مثله ، وعنى بذلك نفسه ، والله أعلم . وقوله ﴿ فأتبع سبباً ﴾ الآية ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " فاتّبع " بشد التاء ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " فأتبع " بسكون التاء على وزن أفعل ، قال بعض اللغويين هما بمعنى واحد ، وكذلك تبع ، وقالت فرقة " أتبع " بقطع الألف : هي عبارة عن الجد المسرع الحثيث الطلب ، و" اتبع " إنما يتضمن معنى الاقتفاء دون هذه القرائن ، قاله أبو زيد وغيره .

(30/478)

قال القاضي أبو محمد : واستقرأ هذا القائل هذه المقالة من القرآن كقوله عز وجل ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات : 10] ، وكقوله ﴿ فأتبعهم فرعون ﴾ [يونس : 90] [طه : 78] ، وكقوله : ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ [الأعراف : 175] ، وهذا قول حكاه النقاش عن يونس بن حبيب ، وإذا تأملت " اتّبع " بشد التاء لم تربط لك هذا المعنى

ولا بد . و" السبب " في هذه الآية ، الطريق المسلوكة ، لأنها سبب الوصول إلى المقصد ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم " في عين حَمِئة " ، على وزن فَعِلة ، أي ذات حُماة ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ، والباقون في " عين حامية " ، أي حارة ، وقد اختلف في ذلك قراءة معاوية وابن عباس فقال ابن عباس " حمئة " ، وقال معاوية " حامية " ، فبعثا إلى كعب الأحبار ليخبرهم بالأمر كيف هو في التوراة ، فقال لهما أما العربية فأنتما أعلم بها مني ، ولكني أجد في التوراة أنها تغرب في عين ثاط ، والثاط الطين . فلما انفصلا قال رجل لابن عباس : لوددت أني حضرت يا أبا العباس ، فكنت أنجدك بشعر تبع الذي يقول فيه في ذكر ذي القرنين : [الكامل]

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً . . . ملكاً تدين له الملوك ويحشد

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . . أسباب أمر من حيكم مرشد

فرأى مغار الشمس عند غروبها . . . في عين ذي خلب وثاط حرمد

فالخلب : الطين ، والثاط : الحمأة ، الحرمد : الأسد ، ومن قرأ " حامئة " ، وجهها إلى الحرارة ، وروي عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى الشمس وهي تغيب فقال " في نار الله الحامية ، لولا ما يزعها من الله لأحرقت ما على الأرض " ، وروى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى الشمس عند غروبها فقال

" أتدري أين تغرب يا أبا ذر ؟ " قلت لا ، قال " إنها تغرب في عين حامية " ، فهذا يدل على أن العين هنالك حارة ، و" حامية " هي قراءة طلحة بن عبيد الله ، وعمرو بن العاص وابنه ، وابن عمر ، وذهب الطبري إلى الجمع بين الأمرين : فيقال يحتمل أن تكون العين حارة ، ذات حمأة فكل قراءة وصف بصفة من أحوالها ، وذهب بعض البغداديين إلى أن ﴿ في ﴾ بمنزلة عند ، كأنها مسامتة من الأرض فيما يرى الرائي ل ﴿ عين حمئة ﴾ وقال بعضهم : قوله ﴿ في عين ﴾ إنما المراد أن ذا القرنين كان فيها ، أي هي آخر الأرض .

قال القاضي أبو محمد : وظاهر هذه الأقوال تخيل والله أعلم ، قال أبو حاتم : وقد يمكن أن تكون " حاميئة " مهموزة ، بمعنى ذات حمأة ، فتكون القراءتان بمعنى واحد ، واستدل بعض الناس عل أن ذا القرنين نبي ، بقوله تعالى : ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾ ومن قال إنه ليس بنبي ، قال كانت هذه المقالة من الله له بإلهام ، و ﴿ إما أن تعذب ﴾ بالقتل على الكفر ﴿ وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ أي بالإجمال على الإيمان ، واتباع الهدى ، فكأنه قيل له هذه لا تعطيها إلا إحدى خطتين : إما أن تكفر فتعذبها ، وإما أن تؤمن فتحسن إليها ، وذهب الطبري إلى أن اتخاذ الحسن هو الأسر مع كفرهم ، فالمعنى ، على هذا ، أنهم كفروا ولا بد فخيره الله بين قتلهم أو أسرهم ، ويحتمل أن يكون الاتخاذ ضرب الجزية .

قال القاضي أبو محمد : ولكن تقسيم ﴿ ذي القرنين ﴾ بعد هذا الأمر إلى كفر أو إيمان ،

يريد هذا القول بعض الرد ، فتأمله .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) ﴾

(32/478)

﴿ ظلم ﴾ في هذه الآية بمعنى كفر ، ثم توعد الكافرين بتعذيبه إياهم قبل عذاب الله ، وعقب لهم بذكر عذاب الله ، لأن تعذيب ذي القرنين هو اللاحق عندهم ، المحسوس لهم ، الأقرب نكاية فلما جاء إلى وعد المؤمنين ، قدم تنعيم الله تعالى الذي هو اللاحق عن المؤمنين ، والآخر بإزائه حقير ، ثم عبر أخيراً بذكر إحسانه في قول اليسر ، وجعله قولاً ، إذ الأفعال كلها خلق الله تعالى ، فكأنه سلمها ، ولم يراع تكسبه ، وقرأت فرقة " نُكراً " بضم الكاف ، وفرقة " نكْراً " بسكون الكاف ، ومعناه المنكر الذي تنكره الأوهام لعظمه وتستهوله ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو وابن عامر : ﴿ جزاء الحسنى ﴾ بإضافة الجزاء إلى ﴿ الحسنى ﴾ ، وذلك يحتمل معنيين : أحدهما أن يريد ب ﴿ الحسنى ﴾ الجنة ، والجنة هي الجزاء ، فأضاف ذلك كما قال " دار الآخرة " والدار هي الآخرة ، والثاني أن يريد ب ﴿ الحسنى ﴾ أعمالهم الصالحة في إيمانهم ، فوعدهم بجزاء الأعمال الصالحة ، وقرأ حمزة الكسائي وحفص عن عاصم " جزاءً

الحسنى " بنصب الجزاء على المصدر في موضع الحال ، و" الحسنى " : ابتداء خبره في المجرور ، ويراد بها الجنة ، وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق " جزاءٌ " بالرفع والتنوين ﴿ الحسنى ﴾ وقرأ ابن عباس ومسروق : " جزاءَ " نصب بغير التنوين ﴿ الحسنى ﴾ بالإضافة ، قال المهدوي : ويجوز حذف التنوين لالتقاء الساكنين ، ووعدهم بذلك بأنه ييسر عليهم أمور دنياهم ، وقرأ ابن القعقاع : " يسُراً " بضم السين ، وقوله ﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ المعنى : ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده ، فيجيء سبب الوصول ، وكان ذو القرنين ، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال ، والسيرة الحميدة ، والإعداد الموفي ، والحزم المستيقظ المتقد ، والتأييد المتواصل ، وتقوى الله عز وجل ، فما لقي أمة ولا مر بمدينة إلا دانت له ، ودخلت في طاعته ، وكل من عارضه أو توقف عن

(33/478)

أمره جعله عظة وآية لغيره ، وله في هذا المعنى أخبار كثيرة وغرائب . وكرهت التطويل بها لأنها علم تاريخ . وقرأ الجمهور " مطلِع " بكسر اللام ، وقرأ الحسن بخلاف وابن كثير وأهل مكة " مَطلَع الشمس " بفتح اللام ، و" القوم " : الزنج ، قاله قتادة وهم الهنود وما وراءهم ، وقال النقاش في قوله ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ معناه : أنه لهم بنيان ، إذ لا تحمل

أرضهم البناء ، وإنما يدخلون من حر الشمس في أسراب ، وقيل يدخلون في ماء البحر ، قاله الحسن وقتادة وابن جريج ، وكثر النقاش في غيره في هذا المعنى ، والظاهر من اللفظ أنها عبارة بليغة عن قرب الشمس منهم وفعلها ، لقدرة الله تعالى فيهم ، ونيلها منهم ، ولو كان لهم أسراب تغني لكان ستراً كثيفاً ، وإنما هم في قبضة القدرة ، سواء كان لهم أسراب أو دور أو لم يكن ، ألا ترى أن الستر ، عندنا نحن ، إنما هو من السحاب والغمام وبرد الهوى ، ولو سلط الله علينا الشمس لأحرقتنا ، فسبحان المنفرد بالقدرة التامة ، وقوله ﴿ كذلك ﴾ معناه : فعل معهم كفعله مع الأولين أهل المغرب ، فأوجز بقوله ﴿ كذلك ﴾ ثم أخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع ما لدى ذي القرنين ، وما تصرف من أفعاله ويحتمل أن يكون ﴿ كذلك ﴾ استئناف قول ، ولا يكون راجعاً على الطائفة الأولى ، فتأمله ، والأول أصوب .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) ﴾

قرأت فرقة " اتّبع " بشد التاء ، وقرأت فرقة " أتبع " بتخفيفها ، وقد تقدم ذكره وهذه الآية تقتضي أنه لما بلغ مطلع الشمس ، أي أدنى الأرض من مطلع الشمس ، ﴿ أتبع ﴾ بعد ذلك ﴿ سبباً ﴾ ، أي طريقاً آخر ، فهو ، والله أعلم ، إما يمنة وإما يسرة من مطلع الشمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(34/478)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾

قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ [الإسراء : 85] .

واختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال .

أحدها : عبد الله ، قاله علي عليه السلام ، وروي عن ابن عباس أنه عبد الله بن الضحاك .

والثاني : الاسكندر ، قاله وهب .

والثالث : عيّاش ، قاله محمد بن علي بن الحسين .

والرابع : الصعب بن جابر بن القلمس ، ذكره ابن أبي خيثمة .

وفي علَّة تسميته بذي القرنين عشرة أقوال .

أحدها : أنه دعا قومه إلى الله تعالى ، فضربوه على قرنه فهلك ، فغبر زماناً ، ثم بعثه الله ، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك ، فذانك قرناه ، قاله علي عليه السلام .

والثاني : أنه سمي بذي القرنين ، لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس .

والرابع : لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس ، فقصَّ ذلك على قومه ، فسمِّي بذي القرنين .

والخامس : لأنه مَلَك الروم وفارس .

والسادس : لأنه كان في رأسه شبه القرنين ، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبِّه .

والسابع : لأنه كانت له غديرتان من شعر ، قاله الحسن .

قال ابن الأنباري : والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين ، وجميرتين ، وقرنين ؛ قال : ومن قال : سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم ، قال : لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما : قرنان .

والثامن : لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف .

والتاسع : لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس ، وهو حيّ .

والعاشر : لأنه سلك الظلمة والنور ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبي .

واختلفوا هل كان نبيّاً ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : أنه كان نبيّاً ، قاله عبد الله بن عمرو ، والضحاك بن مزاحم .

(35/478)

والثاني : أنه كان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبيّاً ، ولا مَلكاً ، قاله علي عليه السلام .

وقال وهب : كان ملكاً ، ولم يوحِ إليه .

وفي زمان كونه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه من القرون الأُوَل من ولد يافث بن نوح ، قاله علي عليه السلام .

والثاني : أنه كان بعد ثمود ، قاله الحسن .

ويقال : كان عمره ألفاً وستمائة سنة .

والثالث : [أنه] كان في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، قاله وهب .

قوله تعالى : ﴿ سأتلوا عليكم منه ذِكْراً ﴾ أي : خبراً يتضمن ذِكْره .

﴿ إنا مكَّنَّا له في الأرض ﴾ أي : سهَّلْنا عليه السَّير فيها .

قال علي عليه السلام : إنه أطاع الله ، فسخَّر له السحاب فحمله عليه ، ومَدَّ له في الأسباب ، وبسط له النُّور ، فكان الليل والنهار عليه سواء .

وقال مجاهد : مَلَك الأرضَ أربعةٌ : مؤمنان ، وكافران ؛ فالمؤمنان : سليمان بن دواد ، وذو القرنين ؛ والكافران : النمرود ، وبختنصر .

قوله تعالى : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ قال ابن عباس : عِلْماً يتسبب به إلى ما يريد .

وقيل : هو العِلْم بالطُّرق والمسالك .

قوله تعالى : ﴿ فأتبع سبباً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "فاتَّبع سبباً" "ثم اتَّبع سبباً" "ثم اتَّبع سبباً" مشددات التاء .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "فأتبع سبباً" "ثم أتبع سبباً" "ثم أتبع سبباً" مقطوعات .

قال ابن الأنباري : من قرأ "فاتَّبع سبباً" فمعناه : قفا الأثر ، ومن قرأ "فأتبع" فمعناه : لحق ؛ يقال : اتَّبَعَني فلان ، أي : تَبِعَني ، كما يقال : أَلْحَقَني فلان ، بمعنى لَحِقَني .

وقال أبو علي : "أتبع" تقديره : أتبع سبباً سبباً ، فأتبع ما هو عليه سبباً ، والسبب : الطريق ، والمعنى : تبع طريقاً يؤدِّيه إلى مَغْرِب الشمس .

وكان إذا ظهر على قوم أخذ منهم جيشاً فسار بهم إلى غيرهم .

(36/478)

قوله تعالى : ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن وعاصم : "حمئة" ، وهي قراءة [ابن عباس .

وقرأ] ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "حامية" ، وهي قراءة عمرو ، وعلي ، وابن مسعود ، والزبير ، ومعاوية ، وأبي عبد الرحمن ، والحسن ، وعكرمة

، والنخعي ، وقتادة ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وابن محيصن ، والأعمش ، كلُّهم لم يهمز .

قال الزجاج : فمن قرأ : "حمئة" أراد في عَيْنٍ ذاتِ حَمْأَة .

يقال : حَمَأْتُ البئر : إذا أخرجتَ حَمْأَتَها ؛ وأَحْمَأْتُها : إذا ألقيتَ فيها الحَمْأَة .

[وحمئت] فهي حمئة : إذا صارت فيها الحَمْأَة .

ومن قرأ : "حامية" بغير همز ، أراد : حارّة .

وقد تكون حارَّة ذاتَ حَمْأَة .

وروى قتادة عن الحسن ، قال : وجدها تَغْرُب في ماءٍ يغلي كغليان القدور ﴿ ووجد عندها قَوْماً ﴾ لباسهم جلود السِّباع ، وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدوابّ إذا غربت نحوها ، وما لفظت العين من الحيتان إذا وقعت فيها الشمس .

وقال ابن السائب : وجد عندها قوماً مؤمنين وكافرين ، يعني عند العين .

وربما توهَّم متوهِّم أن هذه الشمس على عِظَم قدْرها تغوص بذاتها في عين ماءٍ ، وليس كذلك .

فإنها أكبر من الدنيا مراراً ، فكيف تَسَعُها عين [ماء ؟ ! .

وقيل : إن الشمس بقدر الدنيا مائة وخمسين مَرَّة ، وقيل : بقدر الدنيا مائة وعشرين مَرَّة ، والقمر بقدر الدنيا ثمانين مرة] .

وإنما وجدها تغرب في العين كما يرى راكب البحر الذي لا يرى طَرَفه أن الشمس تغيب في

الماء ، وذلك لأن ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان فوجد عيناً حَمِئَة ليس بعدها أحد .

قوله تعالى : ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾ فمن قال : إنه نبيّ ، قال : هذا القول وحي ؛ ومن قال : ليس بنبي ، قال : هذا إلهام .

(37/478)

قوله تعالى : ﴿ إما أن تُعَذِّب ﴾ قال المفسرون : إما أن تقتلَهم إن أَبَوْا ما تدعوهم إليه ، وإما أن تأسرهم ، فتبصّرهم الرشد .

﴿ قال أمّا مَنْ ظَلَم ﴾ أي : أشرك ﴿ فسوف نُعَذِّبُه ﴾ بالقتل إذا لم يرجع عن الشرك .

وقال الحسن : كان يطبخهم في القدور ﴿ ثم يُرَدُّ إلى ربّه ﴾ بعد العذاب ﴿ فيعذبه عذاباً نُكْراً ﴾ بالنار .

قوله تعالى : ﴿ فله جزاءً الحسنى ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "جزاءُ الحسنى" برفع مضاف .

قال الفراء : "الحسنى" : الجنة ، وأضيف الجزاءُ إليها ، وهي الجزاء ، كقوله : ﴿ إنه لَحَقُّ اليقين ﴾ [الحاقة : 51] و ﴿ دينُ القيّمة ﴾ [البيّنة : 5] و ﴿ ولدار الآخرة ﴾ [النحل : 30] .

قال أبو علي الفارسي : المعنى : فله جزاء الخلال الحسنى ، لأن الإِيمان والعمل الصالح خِلال .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ، ويعقوب : "جزاءً" بالنصب والتنوين ؛ قال الزجاج : وهو مصدر منصوب على الحال ، المعنى : فله الحسنى مَجْزِيّاً بها جزاءً .

وقال ابن الأنباري : وقد يكون الجزاء غير الحسنى إِذا تأوّل الجزاء بأنه الثواب ؛ والحسنى : الحسنة المكتسبة في الدنيا ، فيكون المعنى : فله ثواب ما قدَّم من الحسنات .

قوله تعالى : ﴿ وسنقول له من أمرنا يُسْراً ﴾ أي : نقول له قولاً جميلاً .

قوله تعالى : ﴿ ثم أَتْبَعَ سبباً ﴾

أي : طريقاً آخر يوصله إِلى المَشْرِق .

قال قتادة : مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إِلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسرابٍ عراةً ، ليس لهم طعام إِلا ما أحرقت الشمس إِذا طلعت ، فإِذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم مما أحرقته الشمس .

وبلغَنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ، فيقال : إِنهم الزنج .

قال الحسن : كانوا إِذا غربت الشمس خرجوا يتراعَون كما يتراعى الوحش .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : "مَطْلَع الشمس" بفتح اللام .

قال ابن الأنباري : ولا خلاف بين أهل العربية في أن المَطْلِع ، والمَطْلَع كلاهما يعنى بهما المكانُ الذي تطلع منه الشمس .

ويقولون : ما كان على فَعَل يَفْعُل ، فالمصدر واسم الموضع يأتيان على المَفْعَل ، كقولهم : المَدْخَل ، للدخول ، والموضِع الذي يُدخَل منه ، إلا أحد عشر حرفاً جاءت مكسورة إذا أريد بها المواضع ، وهي : المَطْلِع ، والمَسْكِن ، والمَنْسِك ، والمَشْرِق ، والمَغرِب ، والمَسْجِد ، والمَنْبِت ، والمَجْزِر ، والمَفْرِق ، والمَسْقِط ، والمَهْبِل ، الموضع الذي تضع فيه الناقة ؛ وخمسة من هؤلاء الأحد عشر حرفاً سُمع فيهن الكسر والفتح : المَطْلِع ، والمَطْلَع .

والمَنْسِك ، والمَنْسَك .

والمَجْزِر ، والمَجْزَر .

والمَسْكِن ، والمَسْكَن .

والمَنْبِت ، والمَنْبَت .

فقرأ الحسن على الأصل من احتمال المَفْعل الوجهين الموصوفين [بفتح العين وكسرها] ، وقراءة العامة على اختيار العرب وما كثر على ألسنتها ، وخصت المَوْضِع بالكسر ،

وآثرت المصدر بالفتح .

قال أبو عمرو : المطلِع ، بالكسر : الموضع الذي تطلع فيه ؛ والمطلَع ، بالفتح : الطُّلوع ؛ قال ابن الأنباري : هذا هو الأصل ، ثم إن العرب تتسع فتجعل الاسم نائباً عن المصدر ، فيقرؤون : ﴿ حتى مَطْلِع الفجر ﴾ [القدر : 5] بالكسر وهم يعنون الطُّلوع ؛ ويقرأ من قرأ ﴿ مَطْلَع الشمس ﴾ بالفتح على أنه موضع بمنزلة المدخل الذي هو اسم للموضع الذي يدخل منه .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : كما بلغ مَغْرِب الشمس بلغ مطلعها .

والثاني : أتبع سبباً كما أتبع سبباً .

والثالث : كما وجد أولئك عند مَغْرِب الشمس وحكم فيهم ، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم .

(39/478)

والرابع : أن المعنى : كذلك أمْرُهم كما قصصنا عليك ؛ ثم استأنف فقال : ﴿ وقد أحطنا بما لديه ﴾ أي : بما عنده ومعه من الجيوش والعدد .

وحكى أبو سليمان الدمشقي : "بما لديه" أي : بما عند مطلع الشمس .

وقد سبق معنى الخُبْر [الكهف : 68] .

ثقوله تعالى : ﴿ ثم أتبع سبباً ﴾

أي : طريقاً ثالثاً بين المَشْرِق والمَغْرِب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(40/478)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾

قال ابن إسحاق : وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت غيره ، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضاً إلا سُلِّط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق .

قال ابن إسحاق : حدّثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر اسمه مرزبان بن مردبة اليونانيّ من ولد يونان بن يافث بن نوح .

قال ابن هشام : واسمه الإسكندر ، وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه .

قال ابن إسحاق : وقد حدّثني ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان الكَلاَعيّ وكان خالد رجلاً قد أدرك الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذي القرنين فقال : " ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب " وقال خالد : وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول : يا ذا القرنين ، فقال عمر : اللهم غَفْراً أما رضيتم أن تُسمّوا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! فقال ابن إسحاق : فالله أعلم أي ذلك كان ؟ أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا ؟ والحق ما قال .

قلت : وقد روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه مثل قول عمر ؛ سمع رجلاً يدعو آخر يا ذا القرنين ، فقال عليّ : أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! وعنه أنه عَبْد مِلك (بكسر اللام) صالحٌ نصح الله فأيّده .

وقيل : هو نبي مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض .

وذكر الدارقطنيّ في كتاب الأخبار أن ملكاً يقال له رباقيل كان ينزل على ذي القرنين ، وذلك الملك هو الذي يطوي الأرض يوم القيامة ، وينقصها فتقع أقدام الخلائق كلهم بالساهرة ؛ فيما ذكر بعض أهل العلم .

(41/478)

وقال السهيليّ : وهذا مشاكل بتوكيله بذي القرنين الذي قطع الأرض مشارقها ومغاربها ؛ كما أن قصة خالد بن سنان في تسخير النار له مشاكلة بحال الملك الموكل بها ، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين .

ذكر ابن أبي خَيْثَمة في كتاب البدء له خالد بن سِنان العبسيّ وذكر نبوّته ، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار ، وكان من أعلام نبوّته أن ناراً يقال لها نار الحدثان ، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردّها ، فردّها خالد بن سنان فلم تخرج بعد .

واختلف في اسم ذي القرنين وفي السبب الذي سمي به بذلك اختلافاً كثيراً ؛ فأما اسمه فقيل : هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني ، وقد تشدّد قافه فيقال : المقّدوني .

وقيل : اسمه هرمس .

ويقال : اسمه هرديس .

وقال ابن هشام : هو الصعب بن ذي يزن الحِميريّ من ولد وائل بن حمير ؛ وقد تقدّم قول ابن إسحاق .

وقال وهب بن منبه : هو رومي .

وذكر الطبريّ حديثاً عن النبيّ عليه الصلاة والسلام : أن ذا القرنين شابٌّ من الروم .

وهو حديث واهي السّند ؛ قاله ابن عطية .

قال السُّهيليّ : والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما : كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال : إنه الذي قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام .

والآخر : أنه كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام .

وقيل : إنه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أروندا سب الملك الطاغي على عهد إبراهيم عليه السلام ، أو قبله بزمان .

وأما الاختلاف في السبب الذي سمّي به ، فقيل : إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما ؛ ذكره الثعلبي وغيره .

والضفائر قرون الرأس ؛ ومنه قول الشاعر :

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخذاً بِقُرُونِها . . .

شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقيل : إنه رأى في أوّل ملكه كأنه قابض على قرني الشمس ، فقص ذلك ، ففسر أنه سيغلب ما ذرّت عليه الشمس ، فسمي بذلك ذا القرنين .

(42/478)

وقيل : إنما سمي بذلك لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرني الدنيا .

وقالت طائفة : إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمي بذلك ذا القرنين ؛ أو قرني الشيطان بها .

وقال وهب بن منبه : كان له قرنان تحت عمامته .

وسأل ابن الكَوّاء علياً رضي الله تعالى عنه عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً ؟ فقال : لا ذا ولا ذا ، كان عبداً صالحاً دعا قومه إلى الله تعالى فشجّوه على قرنه ، ثم دعاهم فشجّوه على قرنه الآخر ، فسمي ذا القرنين .

واختلفوا أيضاً في وقت زمانه ، فقال قوم : كان بعد موسى .

وقال قوم : كان في الفترة بعد عيسى .

وقيل : كان في وقت إبراهيم وإسماعيل .

وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم ؛ وقد ذكرناه في "البقرة" .

وبالجملة فإن الله تعالى مكّنه وملّكه ودانت له الملوك ، فروي أن جميع ملوك الدنيا كلها أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان سليمان بن داود وإسكندر ، والكافران نمرود وبختنصر ، وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [الفتح : 28] وهو المهديّ .

وقد قيل : إنما سمي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه

وأمه .

وقيل : لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيّ .

وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً .

وقيل : لأنه أعطي علم الظاهر والباطن .

وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور .

وقيل : لأنه ملك فارس والروم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرض ﴾ قال عليّ رضي الله عنه : سخر له السحاب ، ومُدَّت له الأسباب ، وبُسط له في النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء .

(43/478)

وفي حديث عقبة بن عامر " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين فقال : "إن أوّل أمره كان غلاماً من الروم فأعطي ملكاً فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له انظر ما تحتك قال أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذي تراه محيطاً بها هو البحر وإنما أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك

سلطاناً فيها فَسِرْ في الأرض فعلِّم الجاهل وثبِّت العالم" " الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ قال ابن عباس : من كل شيء علماً يتسبب به إلى ما يريد .

وقال الحسن : بلاغاً إلى حيث أراد .

وقيل : من كل شيء يحتاج إليه الخلق .

وقيل : من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء .

وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي "فَأَتْبَعَ سَبَباً" مقطوعة الألف .

وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو "فَاتَّبَعَ سَبَباً" بوصلها ؛ أي اتبع سبباً من الأسباب التي أوتيها .

قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى ؛ مثل ردِفته وأردفته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] ومنه الإتباع في الكلام مثل حَسَنٌ بَسَنٌ وقَبِيح شَقِيح .

قال النحاس : واختار أبو عبيد قراءة أهل الكوفة قال : لأنها من السَّيْر ، وحكى هو والأَصْمَعيّ أنه يقال : تَبِعه واتَّبعه إذا سار ولم يلحقه ، وأتبعه إذا لحقه ؛ قال أبو عبيد : ومثله ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : 60] .

قال النحاس : وهذا من التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه لا يقبل إلا بعلّة أو دليل .

وقوله عز وجل : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ ليس في الحديث أنهم لحقوهم ، وإنما الحديث : لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه انطبق عليهم البحر .

والحق في هذا أن تَبع واتّبع وأتبع لغات بمعنى واحد ، وهي بمعنى السَّيْر ، فقد يجوز أن يكون معه لَحَاق وألاّ يكون .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائي "حامِيةٍ" أي حارّة .

الباقون "حَمِئَة" أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء ، تقول : حَمَأْتُ البئر حَمْأً (بالتسكين) إذا نزعت حَمْأَتها .

وحَمِئت البئرُ حَمَأً (بالتحريك) كثرت حَمْأَتها .

ويجوز أن تكون "حامِيةٍ" من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء .

وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حَمْأة .

وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غربت ، فقال :

" نار الله الحامية لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض " وقال ابن عباس : أقرأنيها أبيّ كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم "في عين حَمِئَة" ؛ وقال معاوية : هي "حامية" فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين ؛ فجعلوا كعباً بينهم حَكَماً وقالوا : يا كعب كيف تجد هذا في التوراة ؟ فقال : أجدها تغرب في عين سوداء ، فوافق ابن عباس .

وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيّ :

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِماً . . .

مَلِكاً تدينُ له الملوك وتَسْجُدُ

بَلَغَ المغاربَ والمشارقَ يَبتغِي . . .

أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرْشِدِ

فرأى مغِيبَ الشَّمسِ عند غروبها . . .

في عين ذِي خُلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَدِ

الْخُلُب : الطين .

والثأْط : الحمأَة .

والحِرْمِد : الأسود .

وقال القفّال قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جرمها ومسّها ؛ لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض ، بل هي أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها في رأى العين تغرب في عين حمئة ، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم .

وقال القتبيّ : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر ، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها ، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه ؛ والله أعلم .

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ﴾ أي عند العين ، أو عند نهاية العين ، وهم أهل جابَرْس ، ويقال لها بالسريانية : جرجيسا ؛ يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح ؛ ذكره السُّهيليّ .

وقال وهب بن منبّه : كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر ، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً قال الله تعالى : يا ذا القرنين ! إني باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم أمم جميع الأرض ، وهم أصناف :

أمتان بينهما طول الأرض كله ، وأمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ؛ فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك .

وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل ؛ وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها تأويل .

(46/478)

فقال ذو القرنين : إلهي ! قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت ؛ فأخبرني عن هذه الأمم بأي قوّة أكاثرهم ؟ وبأي صبر أقاسيهم ؟ وبأي لسان أناطقهم ؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوّة ؟ فقال الله تعالى : سأظفرك بما حملتك ؛ أشرح لك صدرك فتسمع كل شيء ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شيء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء ، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جنداً من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من ورائك ؛ فلما قيل له ذلك سار بمن اتبعه ، فانطلق إلى الأمة التي عند مغرب الشمس ؛ لأنها كانت أقرب الأمم منه وهي ناسك ، فوجد جموعاً لا يحصيها إلا الله تعالى وقوة وبأساً لا يطيقه إلا الله ، وألسنة مختلفة ، وأهواء مُتشتِّتة ، فكاثرهم بالظّلمة ؛ فضرب حولهم

ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان ، حتى جمعتهم في مكان واحد ، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصدّ عنه ، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان ، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كل مكان ، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا ، فعجّوا إلى الله تعالى بصوت واحد : إنا آمنا ؛ فكشفها عنهم ، وأخذهم عنوة ، ودخلوا في دعوته ، فجنّد من أهل المغرب أمماً عظيمة فجعلهم جنداً واحداً ، ثم انطلق بهم يقودهم ، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه ، والنور أمامه يقوده ويدله ، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل ، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطىء إذا عمل عملاً ، فإذا أتوا مخاضة أو بحراً بنى سفناً من ألواح صغار مثل النعال فنظمها في ساعة ، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم ، فإذا قطع البحار والأنهار فَتَقَها ودفع إلى كل رجل لوحاً فلا يكترث بحمله ، فانتهى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فآمنوا ، ففرغ منهم ، وأخذ جيوشهم

(47/478)

وانطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس ، فعمل فيها وجند منها جنوداً كفعله في الأولى ، ثم كَرَّ مقبلاً حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تأويل ، وهي الأمة التي تقابل هاويل بينهما عرض الأرض ، ففعل فيها كفعله فيما قبلها ، ثم عطف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : يا ذا القرنين ! إن بين هذين الجبلين خلقاً من خلق الله تعالى كثيراً ليس لهم عدد ، وليس فيهم مشابهة من الإنس ، وهم أشباه البهائم ؛ يأكلون العشب ، ويفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع ، ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذي روح مما خلق الله تعالى في الأرض ، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم في العام الواحد ، فإن طالت المدة فسيملأون الأرض ، ويُجلون أهلها منها ، فهل نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ وذكر الحديث ؛ وسيأتي من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ياذا القرنين ﴾ قال القشيري أبو نصر : إن كان نبياً فهو وحي ، وإن لم يكن نبياً فهو إلهام من الله تعالى .

﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ قال إبراهيم بن السريّ : خَيَّره بين هذين كما خَيَّر محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فاحكم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

عَنْهُمْ ﴾ [المائدة: 42] ونحوه.

وقال أبو إسحاق الزجاج: المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين؛ قال النحاس: وردّ علي بن سليمان عليه قوله؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل: "ثم يردّ إلى ربه"؟ وكيف يقول: "فسوف نعذبه" فيخاطب بالنون؟ قال: التقدير؛ قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين.

(48/478)

قال أبو جعفر النحاس: هذا الذي قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيء.

أما قوله: "قلنا يا ذا القرنين" فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: 4]، وأما إشكال "فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربهِ" فإن تقديره أن الله تعالى لما خَيَّره بين القتل في قوله تعالى: ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ وبين الاستبقاء في قوله جل وعز: ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ قال لأولئك القوم: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أي أقام على الكفر منكم: ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أي بالقتل: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ أي يوم القيامة: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي شديداً في جهنم: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أي تاب من الكفر: ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ قال

أحمد بن يحيى : "أن" في موضع نصب في "إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً" قال : ولو رفعت كان صواباً بمعنى فإمّا هو ، كما قال :

فسيرا فإما حاجة تقضيانها . . .

وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ

"فَلَهُ جَزَاءُ الحسنى" قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم "فَلَهُ جَزَاءُ الحسنى" بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار .

و"الحسنى" في موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة ؛ أي له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وهي الجنة ، فأضاف الجزاء إلى الجنة ، كقوله : ﴿ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 95] ، ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ [يوسف : 109] ؛ قاله الفراء .

ويحتمل أن يريد ب"الحسنى" الأعمال الصالحة .

ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين ؛ أي أعطيه وأتفضل عليه .

ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون "الحسنى" في موضع رفع على البدل عند البصريين ، وعلى الترجمة عند الكوفيين ، وعلى هذا قراءة ابن أبي إسحاق "فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى" إلا أنك لم تحذف التنوين ، وهو أجود .

وقرأ سائر الكوفيين ﴿ فَلَهُ جَزَآءً الحسنى ﴾ منصوباً منوناً ؛ أي فله الحسنى جزاءً .

قال الفراء : "جزاءً" منصوب على التمييز .

وقيل : على المصدر ؛ وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال ؛ أي مجزياً بها جزاء .

وقرأ ابن عباس ومسروق "فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى" منصوباً غير منون .

وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين مثل "فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى" في أحد الوجهين في الرّفع .

النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ، ويكون تقديره : فله الثواب جزاءَ الحسنى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ تقدّم معناه أن أتبع واتّبع بمعنى ، أي سلك طريقاً ومنازل .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن بفتح الميم واللام ؛ يقال : طَلَعَت الشمسُ والكواكب طُلوعاً ومطلَعاً .

والمطلَع والمطلِع أيضاً موضع طلوعها ؛ قاله الجوهري .

المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس .

والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ ﴾ .

وقد اختلف فيهم ؛ فعن وهب بن منبه ما تقدّم ، وأنها أمة يقال لها منسك وهي مقابلة ناسك ؛ وقاله مقاتل .

وقال قتادة : يقال لهما الزنج .

وقال الكلبي : هم تارس وهاويل ومنسك ؛ حفاة عراة عماة عن الحق ، يتسافدون مثل الكلاب ، ويتهارجون تهارج الحمر .

وقيل : هم أهل جَابَلْق ، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود ، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا .

والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس ؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب ، بين كل بابين فرسخ .

ووراء جَابَلْق أمم ، وهم تافيل وتارس ، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج .

(50/478)

وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ؛ مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم فأجابوه ، ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه ؛ ذكره السهيلي وقال : اختصرت هذا كله من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه

وسلم .

ورواه الطبري مسنداً إلى مقاتل يرفعه ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ أي حجاباً يستترون منها عند طلوعها .

قال قتادة : لم يكن بينهم وبين الشمس ستر ؛ كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء ، وهم يكونون في أسراب لهم ، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم ؛ يعني لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها .

وقال أمية : وجدت رجالاً بسمرقند يحدّثون الناس ، فقال بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقيل لي : إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فاستأجرت رجلاً يريهم حتى صبحتهم ، فوجدت أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبي يحسن كلامهم ، فبتنا بهم ، فقالوا : فيم جئتم ؟ قلنا : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس ؛ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشي عليّ ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهيئة الزيت ، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط ، فلما ارتفعت أدخلوني سرباً لهم ، فلما ارتفع النهار وزالت الشمس عن رؤوسهم خرجوا يصطادون السمك ، فيطرحونه في الشمس فينضج .

وقال ابن جريج : جاءهم جيش مرة ، فقال لهم أهلها : لا تطلع الشمس وأنتم بها ، فقالوا : ما نبرح حتى تطلع الشمس .

قالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا .

قال : فولوا هاربين في الأرض .

وقال الحسن : كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ، وكانت لا تحمل البناء ، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء ، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا ، فيتراعون كما تتراعى البهائم .

(51/478)

قلت : وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك .

والله أعلم .

وربما يكون منهم من يدخل في النهر ، ومنهم من يدخل في السّرب فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(52/478)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

الضمير في ﴿ ويسألونك ﴾ عائد على قريش أو على اليهود ، والمشهور أن السائلين قريش حين دستها اليهود على سؤاله عن الروح ، والرجل الطواف ، وفتية ذهبوا في الدهر ليقع امتحانه بذلك .

وذو القرنين هو الإسكندر اليوناني ذكره ابن إسحاق .

وقال وهب : هو رومي وهل هو نبيّ أو عبد صالح ليس بنبي قولان .

وقيل : كان ملَكاً من الملائكة وهذا غريب .

قيل : ملك الدنيا مؤمنان سليمان وذو القرنين ، وكافران نمروذ وبخت نصر ، وكان بعد نمروذ .

وعن عليّ كان عبداً صالحاً ليس بملك ولا نبيّ ضرب على قرنه الأيمن فمات في طاعة الله ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات ، فبعثه الله فسمي ذا القرنين .

وقيل : طاف قرني الدنيا يعني جانبيها شرقها وغربها .

وقيل : كان له قرنان أي ضفيرتان .

وقيل : انقرض في وقته قرنان من الناس .

وعن وهب لأنه ملك الروم وفارس وروى الروم والترك وعنه كانت صفيحتا رأسه من

نحاس .

وقيل : كان لتاجه قرنان .

وقيل : كان على رأسه ما يشبه القرنين .

قال الزمخشري : ويجوز أن يسمى بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً كأنه ينطح أقرانه ، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره انتهى .

وقيل غير ذلك في تسميته ذا القرنين والمشهور أنه الإسكندر .

وقال أبو الريحان البيروتي المنجم صاحب كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية : هو أبو بكر بن سمي بن عمير بن إفريقس الحميري ، بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً . . .

ملكاً علا في الأرض غير مبعد

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . .

أسباب ملك من كريم سيد

قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لا تخلوا أسماؤهم من ذي كذي المنار ، وذي يواس انتهى .

والشعر الذي أنشده نسب أيضاً إلى تبع الحميري وهو :

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً . . .

وعن عليّ وابن عباس أن اسمه عبد الله بن الضحاك .

وعن محمد بن عليّ بن الحسين عياش .

وعن أبي خيثمة هو الصعب بن جابر بن القلمس .

وقيل : مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث .

وعن عليّ هو من القرن الأول من ولد يافث بن نوح .

وعن الحسن : كان بعد ثمود وكان عمره ألف سنة وستمائة .

وعن وهب : كان في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

والخطاب في ﴿ عليكم ﴾ للسائلين إما اليهود وإما قريش على الخلاف الذي سبق في السائلين .

وقوله ﴿ ذكراً ﴾ يحتمل أن يريد قرآناً وأن يريد حديثاً وخيراً ، والتمكين الذي له ﴿ في الأرض ﴾ كونه ملك الدنيا ودانت له الملوك كلها .

قال بعض المفسرين : والدليل على أنه الإسكندر أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب وإلى أقصى المشرق وإلى أقصى الشمال ، بدليل أن

يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال ، وهذا الذي بلغه ملك هذا الرجل هو نهاية المعمور من الأرض ، ومثل هذا الملك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر ، وأن لا يكون مختفياً ، والملك الذي اسمه في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلاّ الإسكندر وذلك أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان مع طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ، ثم عاد إلى مصر وبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه ، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم عطف إلى أرمينية ودان له العراقيون والقبط والبربر ، ثم نحو دار ابن دارا وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حربه ، واستولى الإسكندر على ممالك الفرس وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهر زور ومات بها .

(54/478)

وورد في الحديث : " إن الذين ملكوا الأرض أربعة مؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين " وقد تقدم ذكر ذلك وثبت في علم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلاّ الإسكندر

فوجب القطع أن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلفوس اليوناني .

وقيل تمكينه في الأرض بالنبوة وإجراء المعجزات .

وقيل : تمكينه بأن سخر له السحاب وحمله عليها وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء .

وقيل : بكثرة أعوانه وجنوده والهيبة والوقار وقذف الرعب في أعدائه وتسهيل السير عليه وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها .

﴿ وآتيناه من كل شيء ﴾ أي يحتاج إليه في الوصول إلى أغراضه ﴿ سبباً ﴾ أي طريقاً موصلاً إليه ، والسبب ما يتوصل به إني المقصود من علم أو قدرة أو آلة ، فأراد بلوغ المغرب ﴿ فاتبع سبباً ﴾ يوصله إليه حتى بلغ ، وكذلك أراد المشرق ﴿ فاتبع سبباً ﴾ وأراد بلوغ السدين ﴿ فاتبع سبباً ﴾ وأصل السبب الحبل ، ثم توسع فيه حتى صار يطلق على ما يتوصل به إلى المقصود .

وقال الحسن : بلاغاً إلى حيث أراد .

وقرأ زيد بن علي والزهري والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى والكوفيون وابن عامر ﴿ فاتبع ﴾ ثلاثتها بالتخفيف .

وقرأ باقي السبعة بالتشديد والظاهر أنهما بمعنى واحد .

وعن يونس بن حبيب وأبي زيد أنه بقطع الهمزة عبارة عن الجد المسرع الحثيث الطلب ،

وبوصلها إنما يتضمن الاقتفاء دون هذه الصفات .

وقرأ عبد الله وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن العاصي وابن عمر وعبد الله بن عمرو ومعاوية والحسن وزيد بن عليّ وابن عامر وحمزة والكسائي حامية بالياء أي حارة .

وقرأ ابن عباس وباقي السبعة وشيبة وحميد وابن أبي ليلى ويعقوب وأبو حاتم وابن جبير الأنطاكي ﴿ حمئة ﴾ بهمزة مفتوحة والزهري يلينها ، يقال حمئت البئر تحمأ حمأً فهي حمئة ، وحمأتها نزعت حمأتها وأحمأتها أبقيت فيها الحمأة ، ولا تنافي بين الحامية والحمئة إذ تكون العين جامعة للوصفين .

(55/478)

وقال أبو حاتم : وقد تمكن أن تكون حامية مهموزة بمعنى ذات حمأة فتكون القراءتان بمعنى واحد يعني إنه سهلت الهمزة بإبدالها ياء لكسرة ما قبلها ، وفي التوراة تغرب في ماء وطين .

وقال تبع :

فرأى مغيب الشمس عند مآبها . . .

في عين ذي خلب وثاط حرمد

أي في عين ماء ذي طين وحم أسود .

وفي حديث أبي ذر " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نظر إلى الشمس عند غروبها فقال : "أتدري أين تغرب يا أبا ذر ؟" فقلت : لا .

فقال : "إنها تغرب في عين حامية" " وهذا الحديث وظاهر النص دليل على أن قوله ﴿ في عين ﴾ متعلق بقوله ﴿ تغرب ﴾ لا ما قاله بعض المتعسفين أن قوله في ﴿ عين حمئة ﴾ إنما المراد أن ذا القرنين كان فيها أي هي آخر الأرض ، ومعنى ﴿ تغرب في عين ﴾ أي فيما ترى العين لا أن ذلك حقيقة كما نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض ، ويجوز أن تكون هذه العين من البحر ، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها ، وزعم بعض البغداديين أن ﴿ في ﴾ بمعنى عند أي ﴿ تغرب ﴾ عند عين .

﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ أي عند تلك العين .

قال ابن السائب : مؤمنين وكافرين .

وقال غيره : كفرة لباسهم جلود السباع وطعامهم ما أحرقته الشمس من الدواب ، وما لفظته العين من الحوت إذا غربت .

وقال وهب : انطلق يؤم المغرب إلى أن انتهى إلى باسك فوجد جمعاً لا يحصيهم إلاّ الله ، فضرب حولهم ثلاثة عساكر حتى جمعهم في مكان واحد ، ثم دخل عليهم في النور ودعاهم إلى عبادة الله ، فمنهم من آمن ومنهم من صدّ عنه .

وقال أبو زيد السهيلي : هم أهل حابوس ويقال لها بالسريانية جرجيساً يسكنها قوم من

نسل ثمود .

بقيتهم الذين آمنوا بصالح عليه السلام .

وظاهر قوله ﴿ قلنا ﴾ أنه أوحى الله إليه على لسان ملك .

(56/478)

وقيل : كلمه كفاحاً من غير رسول كما كلم موسى عليه السلام ، وعلى هذين القولين يكون نبياً ويبعد ما قاله بعض المتأولين أنه إلهام وإلقاء في روعه لأن مثل هذا التخيير لا يكون إلاّ بوحي إذ التكاليف وإزهاق النفوس لا تتحقق بالإلهام إلاّ بالإعلام .

وقال عليّ بن عيسى : المعنى ﴿ قلنا ﴾ يا محمد قالوا ﴿ يا ذا القرنين ﴾ ثم حذف القول الأول لأن ذا القرنين لم يصح أنه نبي فيخاطبه الله ، وعلى هذا يكون الضمير الذي في قالوا . المحذوفة يعود على جنده وعسكره الذين كانوا معه .

وقوله ﴿ إما أن تعذب ﴾ بالقتل على الكفر ﴿ وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ أي بالحمل على الإيمان والهدى ، إما أن تكفر فتعذب ، وإما أن تؤمن فتحسن فعبر في التخيير بالمسبب عن السبب .

قال الطبري : اتخاذ الحسن هو أسرهم مع كفرهم يعني أنه خير مع كفرهم بين قتلهم وبين

أسرهم ، وتفصيل ذي القرنين ﴿ أما من ظلم ﴾ و﴿ أما من آمن ﴾ يدفع هذا القول ولما خيره تعالى بين تعذيبهم ودعائهم إلى الإسلام اختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم .

فقال : أما من دعوته فأبى إلاّ البقاء على الظلم وهو الكفر هنا بلا خلاف فذلك هو المعذب في الدارين ، وأما من آمن وعمل ما يقتضيه الإيمان فله جزاء الحسنى .

وأتى بحرف التنفيس في ﴿ فسوف نعذبه ﴾ لما يتخلل بين إظهاره كفره وبين تعذيبه من دعائه إلى الإيمان وتأبيه عنه ، فهو لا يعاجلهم بالقتل على ظلمهم بل يدعوهم ويذكرهم فإن رجعوا وإلاّ فالقتل .

وقوله ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ أي يوم القيامة وأتى بنون العظمة في ﴿ نعذبه ﴾ على عادة الملوك في قولهم نحن فعلنا .

(57/478)

وقوله ﴿ إلى ربه ﴾ فيه إشعار بأن التخيير لذي القرنين ليس من الله تعالى ، إذ لو كان كذلك لكان التركيب ثم يرد إليك فتعذبه ، ولا يبعد أن يكون التخيير من الله ويكون قد أعلم ذو القرنين بذلك أتباعه ثم فصل مخاطباً لأتباعه لا لربه تعالى ، وما أحسن مجيء هذه الجمل لما ذكر ما يستحقه من ظلم بدأ بما هو أقرب لهم ومحسوس عندهم ، وهو قوله ﴿

فسوف نعذبه ﴾ ثم أخبر بما يلحقه آخراً يوم القيامة وهو تعذيب الله إياه العذاب النكر ولأن الترتيب الواقع هو كذا ولما ذكر ما يستحقه ﴿ من آمن وعمل صالحاً ﴾ ذكر جزاء الله له في الآخرة وهو ﴿ الحسنى ﴾ أي الجنة لأن طمع المؤمن في الآخرة ورجاءه هو الذي حمله على أن آمن لأجل جزائه في الآخرة ، وهو عظيم بالنسبة للإحسان في الدنيا ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ أي لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه أي قولاً ذا يسر وسهولة كما قال قولاً ميسوراً .

ولما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل بل اقتصر على القول أدباً مع الله تعالى وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلاً وقولاً .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وأبو بحرية والأعمش وطلحة وابن مناذر ويعقوب وأبو عبيد وابن سعدان وابن عيسى الأصبهاني وابن جبير الأنطاكي ومحمد بن جرير ﴿ فله جزاء ﴾ بالنصب والتنوين وانتصب ﴿ جزاء ﴾ على أنه مصدر في موضع الحال أي مجازي كقولك في الدار قائماً زيد .

وقال أبو علي قال أبو الحسن : هذا لا تكاد العرب تكلم به مقدماً إلاّ في الشعر .

وقيل : انتصب على المصدر أي يجزي ﴿ جزاء ﴾ .

وقال الفراء : ومنصوب على التفسير والمراد بالحسنى على قراءة النصب الجنة .

وقرأ باقي السبعة ﴿ جزاء الحسنى ﴾ برفع ﴿ جزاء ﴾ مضافاً إلى ﴿ الحسنى ﴾ .

قال أبو عليّ جزاء الخلال الحسنة التي أتاها وعملها أو يراد بالحسنى الحسنة والجنة هي الجزاء ، وأضاف كما قال دار الآخرة و﴿ جزاء ﴾ مبتدأ وله خبره .

(58/478)

وقرأ عبد الله بن إسحاق ﴿ فله جزاء ﴾ مرفوع وهو مبتدأ وخبر و﴿ الحسنى ﴾ بدل من ﴿ جزاء ﴾ .

وقرأ ابن عباس ومسروق ﴿ جزاء ﴾ نصب بغير تنوين ﴿ الحسنى ﴾ بالإضافة ، ويخرج على حذف المبتدأ لدلالة المعنى عليه ، أي ﴿ فله ﴾ الجزاء ﴿ جزاء الحسنى ﴾ وخرجه المهدوي على حذف التنوين لالتقاء الساكنين .

وقرأ أبو جعفر ﴿ يسراً ﴾ بضم السين حيث وقع .

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ أي طريقاً إلى مقصده الذي يسر له .

وقرأ الحسن وعيسى وابن محيصن ﴿ مطلع ﴾ بفتح اللام ، ورويت عن ابن كثير وأهل مكة وهو القياس .

وقرأ الجمهور بكسرها وهو سماع في أحرف معدودة ، وقياس كسره أن يكون المضارع تطلع بكسر اللام وكان الكسائي يقول : هذه لغة ماتت في كثير من لغات العرب ، يعني ذهب

من يقول من العرب تطلع بكسر اللام وبقي ﴿ مطلع ﴾ بكسرها في اسم المكان والزمان على ذلك القياس ، والقوم هنا الزنج .

وقال قتادة هم الهنود وما وراءهم .

والستر البنيان أو الثياب أو الشجر والجبال أقوال ، والمعنى أنهم لا شيء لهم يسترهم من حر الشمس .

وقيل : تنفذ الشمس سقوفهم وثيابهم فتصل إلى أجسامهم .

فقيل : إذا طلعت نزلوا الماء حتى ينكسر حرها قاله الحسن وقتادة وابن جريج .

وقيل : يدخلون أسراباً .

وقال مجاهد : السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض .

قال ابن عطية : والظاهر من اللفظ أنها عبارة بليغة عن قرب الشمس منهم ، وفعلها بقدرة الله فيهم ونيلها منهم ، ولو كانت لهم أسراب لكان ستراً كثيفاً انتهى .

وقال بعض الرجاز :

بالزنج حرّ غير الأجسادا . . .

حتى كسى جلودها سوادا

وذلك إنما هو من قوة حرّ الشمس عندهم واستمرارها .

كذلك الإشارة إلى البلوغ أي كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها .

وقيل ﴿ أتبع سبباً ﴾ كما ﴿ أتبع سبباً ﴾ .

وقيل : كما وجد أولئك عند مغرب الشمس وحكم فيهم كذلك وجد هؤلاء عند مطلع الشمس وحكم فيهم .

وقيل : كذلك أمرهم كما قصصنا عليكم .

وقيل : ﴿ تطلع ﴾ طلوعها مثل غروبها .

(59/478)

وقيل : ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ أي مثل أولئك الذين وجدهم في مغرب الشمس كفرة مثلهم ، وحكمهم مثل حكمهم في التعذيب لمن بقي على الكفر والإحسان لمن آمن .

وقال الزمخشري : ﴿ كذلك ﴾ أي أمر ذي القرنين كذلك أي كما وصفناه تعظيماً لأمره .

وقيل ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس ، والثياب من كل صنف .

وقال ابن عطية : ﴿ كذلك ﴾ معناه فعل معهم كفعله مع الأولين أهل المغرب ، وأخبر بقوله ﴿ كذلك ﴾ ثم أخبر تعالى عن إحاطته بجميع ما لدى ذي القرنين وما تصرّف فيه من أفعاله ، ويحتمل أن يكون ﴿ كذلك ﴾ استئناف قول ولا يكون راجعاً على الطائفة الأولى

فتأمله ، والأول أصوب انتهى .

وإذا كان مستأنفاً لا تعلق له بما قبله فيحتاج إلى تقدير يتم به كلاماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(60/478)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى القرنين ﴾

هم اليهودُ سألوه على وجه الامتحانِ ، أو سألتْه قريشٌ بتلقينهم ، وصيغةُ الاستقبال للدِلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجوابِ وهو ذو القرنين الأكبرُ واسمه (الإسكندرُ بنُ فيلفوس اليوناني) ، وقال ابن إسحاق : اسمُه (مَرزُبانُ بنُ مردبةَ) من ولد يافثَ بنِ نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسودَ ، وقيل : اسمُه (عبد اللَّه بن الضحاك) ، وقيل : (مصعبُ بنُ عبد اللَّه بنِ فينانَ بنِ منصور بنِ عبد اللَّه بن الآزرِ بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرُبَ بن قحطانَ) . وقال السهيلي : قيل : إن اسمه (مَرْزُبانُ بنُ مُدركةَ) ذكره ابن هشام وهو أول التبابعة . وقيل : إنه أفريذون بنُ النعمانِ الذي قتل الضحاك . وذكر أبو الريحان البيروني في كتابه المسمى ب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" أن ذا القرنين هو أبو

كرب سميّ بن عيرين بن أفريقيس الحِمْيري وأن مُلكَه بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها وهو الذي افتخر به التّبّعُ اليماني حيث قال

قد كان المشارقَ جدّي مسلما . . . مِلكاً علا في الأرض غيرَ مفنَّد

بلغ المشارقَ والمغاربَ يبتغي . . . أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرشد

(61/478)

وجعلَ هذا القولَ أقربَ لأن الأذواءَ كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رُعَين وذي يزَن وذي جَدَن . قال الإمام الرازي : والأولُ هو الأظهرُ لأن من بلغ ملكَه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيلُ الجليلُ إنما هو الإسكندر اليونانيّ كما تشهد به كتبُ التواريخ . يروى أنه لما مات أبوه جَمع مُلكَ الروم بعد أن كان طوائفَ ، ثم قصد ملوكَ العرب وقهرَهم ، ثم أمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ، ثم عاد إلى مصرَ فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيلَ وورد بيتَ المقدس وذبح في مذبحه ، ثم انعطف إلى أرمينيةَ وبابِ الأبواب ودان له العراقيون والقِبطُ والبربرُ ، ثم توجه نحو دارا بنِ دارا وهزمه مراراً إلى أن قتله صاحبُ حرسِه ، واستولى على ممالك الفرسِ وقصدَ الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديبَ وغيرَها من المدن العظامِ ، ثم قصد

الصينَ وغزا الأمم البعيدةَ ورجع إلى خراسانَ وبنى بها مدائنَ كثيرة ، ورجع إلى العراق ومرض بشهرزورَ ومات ، انتهى كلام الإمام .

وروي أن أهلَ النجوم قالوا له : إنك لا تموت إلا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب ، وكان يدفِن كنزَ كل بلدةٍ فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعِه ، فبلغ بابل فرعَف وسقط عن دابته ، فبُسطت له دروعٌ فنام عليها ، فآذته الشمس فأظلوه بترس ، فنظر فقال : هذه أرض من حديد وسماءٌ من خشب ، فأيقن بالموت فمات وهو ابنُ ألفٍ وستمائة سنة ، وقيل : ثلاثةِ آلافِ سنة . قال ابن كثير : وهذا غريب . وأغربُ منه : ما قاله ابنُ عساكر من أنه بلغني أنه عاش ستاً وثلاثين سنة أو ثنتين وثلاثين سنة ، وأنه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فإن ذلك لا ينطبق إلا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره . قلت : وكذا ما ذكره الإمام من قصد بني إسرائيلَ وورودِ بيت المقدس والذبحِ في مذبحه ، فإنه مما لا يكاد يتأتى نسبتُه إلى الأول .

(62/478)

واختُلف في نبوته بعد الاتفاق على إسلامه وولايتِه ، فقيل : كان نبياً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ وظاهر أنه متناولٌ للتمكين في الدين وكمالُه بالنبوة ، ولقوله تعالى :

﴿ واتيناه مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ ومن جملة الأشياء النبوةُ ، ولقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين ﴾ ونحوِ ذلك ، وقيل : كان ملكاً لما رُوي أن عمرَ رضي الله عنه سمع رجلاً يقول لآخر : يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفراً أما رضِيتم أن تتسموا بأسماء الملائكة .

قال ابن كثير : والصحيحُ أنه ما كان نبياً ولا ملكاً وإنما كان ملكاً صالحاً عادلاً ملَك الأقاليَم وقهر أهَلها من الملوك وغيرَهم ودانتْ له البلادُ ، وأنه كان داعياً إلى الله تعالى سائراً في الخلق بالمَعْدلة التامة والسلطانِ المؤيَّدِ المنصورِ ، وكان الخضر على مقدمة جيشِه بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير ، وقد ذكر الأزرقي وغيرُه أنه أسلم على يدَيْ إبراهيمَ الخليلِ عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو وإسماعيلُ عليهم السلام .

ورُوي أنه حج ماشياً فلما سمع إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ، ويقال : إنه أُتيَ بفرس ليركب فقال : لا أركب في بلد فيه الخليل ، فعند ذلك سُخّر له السحاب وطُويَ له الأسباب وبشره إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحابُ تحمله وعساكرَه وجميعَ آلاتِهم إذا أرادوا غزوةَ قومٍ ، وقال أبو الطفيل : سُئل عنه عليٌّ كرم الله وجهه أكان نبياً أم مِلكاً ؟ فقال : لم يكن نبياً ولا ملكاً لكن كان عبداً أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه سُخر له السحابُ ومُدّ له الأسباب .

(63/478)

واختلف في وجه تسميته بذي القرنين ، فقيل : لأنه بلغ قَرني الشمس مشرِقَها ومغربَها ، وقيل : لأنه ملَك الرومَ وفارسَ ، وقيل : الرومَ والتركَ ، وقيل : لأنه كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القرنين ، وقيل : كان له ذؤابتان ، وقيل : لأنه كانت صفحتا رأسِه من النحاس ، وقيل : لأنه دعا الناس إلى الله عز وجل فضَرب بقرنه الأيمنِ فمات ثم بعثه الله تعالى فضَرب بقرنه الأيسرِ فمات ثم بعثه الله تعالى ، وقيل : لأنه رأى في منامه أنه صعِد الفَلكَ فأخذ بقرني الشمس ، وقيل : لأنه انقرض في عهده قَرنان ، وقيل : لأنه سُخّر له النورُ والظلمة فإذا سرَى يهديه النورُ من أمامه وتحوطه الظلمةُ ورائه ، وقيل : لُقّب به لشجاعته .

هذا وأما ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير : إنه الإسكندر بنُ فيلبسَ بنِ مصريمَ بنِ هُرمُسَ بنِ ميطونَ بنِ رومي بن ليطى بن يونان بن يافثَ بن نونه بن شرخونَ بن رومية بن ثونط بن نوفيلَ بن رومي بن الأصفرِ بن العنرِ بن العيصِ بن إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهما الصلاة والسلام ، كذا نسبه ابنُ عساكرَ المقدونيُّ اليوناني المصريُّ باني الإسكندريةِ الذي يؤرِّخ بأيامه الرومُ ، وكان متأخراً عن الأول بدهر طويلٍ أكثرَ من ألفي سنة ، كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوفَ وهو الذي قتل دارا بنَ دارا وأذلّ ملوكَ الفرس ووطِىء أرضهم . ثم قال ابن كثير : وإنما بيّنا هذا لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحدٌ ، وأن المذكورَ في القرآن العظيم هو هذا المتأخرُ فيقع

بذلك خطأ كبير وفساد كثيرٌ ، كيف لا والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكاً عادلاً وزيرُه الخضرُ عليه الصلاة والسلام ، وقد قيل : إنه كان نبياً . وأما الثاني فقد كان كافراً وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوفُ وقد كان ما بينهما من الزمان أكثرَ من ألفي سنة فأين هذا من ذلك ؟ انتهى .

(64/478)

قلت : المقدوني نسبةً إلى بلدة من بلاد الروم غربيَّ دارِ السلطنة السنية قُسطنطينيةَ المحمية لا زالت مشحونةً بالشعائر الدينية ، بينهما من المسافة مسيرةُ خمسةَ عشر يوماً أو نحوِ ذلك عند مدينة سَيروزَ اسمُها بلغة اليونانيين مقدونيا ، كانت سريرَ مُلك هذا الإسكندرِ وهي اليوم بلقَعٌ لا يقيم بها أحد ، ولكن فيها علائمُ تحكي كمالَ عِظَمها في عهد عُمرانها ونهايةِ شوكةِ واليها وسلطانِها ، ولقد مررتُ بها عند القُفول من بعض المغازي السُّلطانية فعاينتُ فيها من تعاجيب الآثارِ ما فيه عبرةٌ لأولي الأبصار .

﴿ قُلْ ﴾ لهم في الجواب ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ﴾ أي سأذكر لكم ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من ذي القرنين ﴿ ذِكْراً ﴾ أي نبأ مذكوراً ، وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلوّ حكايةً عن الله عز وجل ، قيل : سأتلو أو سأتلو في شأنه من جهته تعالى ذكراً أي قرآناً ، والسينُ للتأكيد

والدِلالة على التحقيق المناسبِ لمقام تأييدِه عليه الصلاة والسلام وتصديقِه بإنجاز وعدِه ، أي لا أترك التلاوةَ ألبتةَ كما في قوله من قال

سأشكر عَمْراً إن تراخت منيّتي . . . أيادي لَك تُمنَنْ وإن هي جلَّتِ

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل ، لأن هذه الآيةَ ما نزلت بإنفرادها قبل الوحي بتمام القصة ، بل موصولةٌ بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهفِ ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : " ائتوني غداً أخبرْكم " فأبطأ عليه الوحيُ خمسة عشر يوماً أو أربعين كما ذكر فيما سلف .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾

(65/478)

شروعٌ في تلاوة الذكر المعهودِ حسبما هو الموعودُ ، والتمكينُ ها هنا الإقدارُ وتمهيدُ الأسباب ، يقال : مكّنه ومكّن له ومعنى الأولِ جعله قادراً وقوياً ، ومعنى الثاني جعل له قدرةً وقوةً ، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمل كلٌّ منهما في محل الآخر كما في قوله عز وعلا : ﴿ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ ﴾ أي جعلناهم قادرين من حيث القُوى والأسبابُ والآلاتُ على أنواع التصرفاتِ فيها ، ما لم نجعلْه لكم من القوة

والسَّعة في المال والاستظهارِ بالعَدد والأسباب ، فكأنه قيل : ما لم نمكنْكم فيها أي ما لم نجعلْكم قادرين على ذلك فيها أو مكنّا لهم في الأرض ما لم نمكنْ لكم ، وهكذا إذا كان التمكينُ مأخوذاً من المكان بناءً على توهّم ميمِه أصليةً كما أشير إليه في سورة يوسفَ عليه الصلاة والسلام ، والمعنى إنا جعلنا له مَكِنةً وقدرةً على التصرف في الأرض من حيث التدبيرُ والرأيُ والأسبابُ ، حيث سُخّر له السحابُ ، ومُدّ له في الأسباب ، وبُسط له النورُ ، وكان الليلُ والنهار عليه سواءً ، وسُهّل عليه السيرُ في الأرض ، وذُلّلت له طرقها ﴿ وآتيناه مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أراده من مُهمّات مُلكه ومقاصدِه المتعلقة بسلطانه ﴿ سَبَباً ﴾ أي طريقاً يوصله إليه وهو كلُّ ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ بالقطع ، أي فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿ سَبَباً ﴾ يوصله إليه ، ولعل قصدَ بلوغِ المغرب ابتداءً لمراعاة الحركةِ الشمسية ، وقرىء فاتّبع من الافتعال والفرق أن الأولَ فيه معنى الإدراك والإسراعِ دون الثاني .

(66/478)

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس ﴾ أي منتهى الأرضِ من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحدٌ من مجاوزته ، ووقف على حافة البحر المحيطِ الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه

الجزائرُ المسماة بالخالدات التي هي مبدأُ الأطوال على أحد القولين ﴿ وَجَدَهَا ﴾ أي الشمس ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي ذاتِ حَمأة وهي الطينُ الأسود من حمِئت البئرُ إذا كثرت حَمأتُها ، وقرىء حامية أي حارّة . روي أن معاوية رضي الله عنه قرأ (حامية) وعنده ابن عباس رضي الله عنهما فقال : (حَمِئَة) ، فقال معاوية لعبد اللَّه بن عمرو بن العاص : كيف تقرأ ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ، ثم وجه إلى كعب الأحبار : كيف تجد الشمسَ تغرب ؟ قال : في ماء وطين . وروي في ثَأْط فوافق قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وليس بينهما منافاةٌ قطعية لجواز كون العينِ جامعةً بين الوصفين وكونِ الياء في الثانية منقلبةً عن الهمزة لانكسار ما قبلها . وأما رجوعُ معاوية إلى قول ابن عباس رضي الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضاً مسموعةٌ قطعاً ، فلكون قراءةِ ابن عباس رضي الله عنهما قطعيةً في مدلولها وقراءتهِ محتمَلةً . ولعله لما بلغ ساحلَ المحيط رآها كذلك إذ ليس في مطمح بصره غيرُ الماء كما يلوح به قوله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ ﴾ ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا ﴾ عند تلك العين ﴿ قَوْماً ﴾ قيل : كان لباسُهم جلودَ الوحوش وطعامُهم ما لفَظه البحر ، وكانوا كفاراً فخيّره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوَهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذّبَ ﴾ بالقتل من أول الأمر ﴿ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ أي أمراً ذا حُسْن على حذف المضافِ أو على طريقةِ إطلاقِ المصدر على

موصوفه مبالغةً ، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع ، ومحلُّ أن مع صلته إما الرفعُ على الابتداء أو الخبرية وإما النصبُ على المفعولية ،

(67/478)

أي إما تعذيبُك واقعٌ أو إما تفعلُ تعذيبَك وهكذا الحال في الاتخاذ ، ومن لم يقل بنبوته قال : كان ذلك الخطابُ بواسطة نبيَ في ذلك العصر أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً بعد أن كان ذلك التخييرُ موافقاً لشريعة ذلك النبي .

﴿ قَالَ ﴾ أي ذو القرنين لذلك النبيِّ أو لمن عنده من خواصّه بعد ما تلقّى أمرَه تعالى مختاراً للشق الأخير ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أي نفسَه ولم يقبل دعوتي وأصرّ على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشركُ ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالقتل . وعن قتادة أنه كان يطبُخ مَنْ كفر في القدور ومن آمن أعطاه وكساه ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ ﴾ في الآخرة ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ فيها ﴿ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي منكراً فظيعاً وهو عذابُ النار ، وفيه دِلالةٌ ظاهرةٌ على أن الخطابَ لم يكن بطريق الوحي إليه وأن مقاولتَه كانت مع النبي أو مع من عنده من أهل مشورتِه .

(68/478)

﴿ وَأَمَّا مَنْ امَنَ ﴾ بموجب دعوتي ﴿ وَعَمِلَ ﴾ عملاً ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿ فَلَهُ ﴾ في الدارين ﴿ جَزَاء الحسنى ﴾ أي فله المثوبةُ الحسنى أو الفِعلةُ الحسنى أو الجنةُ جزاءً ، على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لمضمون الجملةِ قُدّم على المبتدأ اعتناءً به ، أو منصوب بمضمر أي نجزي بها جزاء ، والجملةُ حالية أو معترضة بين المبتدأ والخبرِ المتقدمِ عليه أو حال أي مجزياً بها أو تمييز ، وقرىء منصوباً غيرَ منوّن على أنه سقط تنوينُه لالتقاء الساكنين ومرفوعاً منوّناً على أنه المبتدأُ والحسنى بدلُه والخبرُ الجارُّ والمجرور . وقيل : خُيّر بين القتل والأسرِ والجوابُ من باب الأسلوبِ الحكيم لأن الظاهرَ التخييرُ بينهما وهم كفار ، فقال : أما الكافرُ فيراعى في حقه قوةُ الإسلام وأما المؤمنُ فلا يُتعرَّض له إلا بما يحب ، ويجوز أن تكون إما وأما للتوزيع دون التخيير أي وليكن شأنُك معهم إما التعذيبَ وإما الإحسانَ فالأول لمن بقيَ على حاله والثاني لمن تاب ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أي مما نأمر به ﴿ يُسْراً ﴾ أي سهلاً متيسراً غيرَ شاقَ وتقديرُه ذا يُسر ، أو أُطلق عليه المصدرُ مبالغةً ، وقرىء بضمتين .

(69/478)

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس موصلاً إلى مشرقها ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس ﴾ يعني الموضِعَ الذي تطلع عليه الشمسُ أولاً من معمورة الأرض ، وقرىء بفتح اللام على تقدير مضاف أي مكان طلوعِ الشمس فإنه مصدر ، قيل : بلغه في اثنتي عشرة سنة ، وقيل : في أقلَّ من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سُخّر له السحابُ وطُوِيَ له الأسباب ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ من اللباس والبناء ، قيل : هم الزَّنْج . وعن كعب : أن أرضَهم لا تُمسك الأبنية وبها أسرابٌ ، فإذا طلعت الشمسُ دخلوا الأسرابَ أو البحر ، فإذا ارتفع النهارُ خرجوا إلى معايشهم ، وعن بعضهم : خرجتُ حتى جاوزت الصينَ فسألت عن هؤلاء فقالوا : بينك وبينهم مسيرةُ يومٍ وليلةٍ ، فبلغتُهم فإذا أحدُهم يفرُش أُذنه ويلبَس الأخرى ومعي صاحبٌ يعرِف لسانهم ، فقالوا له : جئتنا تنظرُ كيف تطلُع الشمس ، قال : فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغُشيَ عليّ ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدُّهن ، فلما طلعت الشمسُ على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سرَباً لهم ، فلما ارتفع النهارُ خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضَج لهم ، وعن مجاهد : من لا يلبَس الثيابَ من السودان عن مطلع الشمس أكثرُ من جميع أهلِ الأرض .

(70/478)

﴿ كذلك ﴾ أي أمرُ ذي القرنين كما وصفناه لك في رفعة المحلِّ وبسطةِ المُلك ، أو أمرُه فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيارِ ، ويجوز أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوف لوجد أو نجعل أو صفةَ قومٍ ، أي على قوم مثلَ ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحُكم ، أو ستراً مثلَ سترِكم من اللباس والأكنان والجبال وغيرِ ذلك ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الأسباب والعَدد والعُدد ﴿ خُبْراً ﴾ يعني أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علمُ اللطيفِ الخبير . هذا على الوجه الأولِ وأما على الوجوه الباقيةِ فالمرادُ بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي طريقاً ثالثاً معترِضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(71/478)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى القرنين ﴾

كان السؤال على وجه الامتحان والسائلون في المشهور قريش بتلقين اليهود ، وقيل : اليهود

أنفسهم وروى ذلك عن السدي ، وأكثر الآثار تدل على أن الآية نزلت بعد سؤالهم فالتعبير بصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة الماضية لما أن في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره صلى الله عليه وسلم ما شاهدوا نوع غرابة ، وقيل : للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب ، وبعض الآثار يدل على أن الآية نزلت قبل ، فعن عقبة بن عامر قال : إن نفراً من أهل الكتاب جاؤوا بالصحف أو الكتب فقالوا لي : استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لندخل عليه فانصرفت إليه عليه الصلاة والسلام فاخبرته بمكانهم فقال صلى الله عليه وسلم : ما لي ولهم يسألونني عما لا أعلم إنما أنا عبد لا علم لي إلا ما علمني ربي ثم قال : ائتني بوضوء أتوضأ به فاتيته فتوضأ ثم قام إلى مسجد في بيته فركع ركعتين فانصرف حتى بدا السرور في وجهه ثم قال : اذهب فادخلهم ومن وجدت بالباب من أصحابي فادخلتهم فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن شئتم اخبرتكم بما سألتموني عنه وإن شئتم غير ذلك فافعلوا ، والجمهور على الأول ولم تثبت صحة هذا الخبر .

واختلف في ذي القرنين فقيل : هو ملك أهبطه الله تعالى إلى الأرض وآتاه من كل شيء سبباً وروي ذلك عن جبير بن نفير ، واستدل على ذلك بما أخرجه ابن عبد الحكم . وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن الأنباري في كتاب الأضداد .

(72/478)

وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه سمع رجلاً ينادي بمنى ياذا القرنين فقال له همر : ها أنتم قد سميتم بأسماء الأنبياء فما لكم وأسماء الملائكة ، وهذا قول غريب بل لا يكاد يصح ، والخبر على فرض صحته ليس نصاً في ذلك إذ يحتمل ولو على بعد أن يكون المراد أن هذا الاسم من أسماء الملائكة عليهم السلام فلا تسموا به أنتم وأن تسمى به بعض من قبلكم من الناس .

وقيل : هو عبد صالح ملكه الله تعالى الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة ولا نعرف من هو وذكر في تسميته بذي القرنين وجوه ، الأول أنه دعا إلى طاعة الله تعالى فضرب على قرنه الأيمن فمات ثم بعثه الله تعالى فدعا فضرب على قرنه الأيسر فمات ثم بعثه الله تعالى فسمي ذا القرنين وملك ما ملك وروي هذا عن علي كرم الله تعالى وجهه ، والثاني أنه انقرض في وقته قرنان من الناس ، الثالث أنه كانت صفحتا رأسه من نحاس وروي ذلك عن وهب بن منبه ، الرابع أنه كان في رأسه قرنان كالظلفين وهو أول من لبس

العمامة ليسترهما وروي ذلك عن عبيد بن يعلى ، الخامس أنه كان لتاجه قرنان ، السادس أنه طاف قرنى الدنيا أي شرقها وغربها وروي ذلك مرفوعاً ، السابع أنه كان له غديرتان وروي ذلك عن قتادة .

ويونس بن عبيد ، الثامن أنه سخر له النور والظلمة فإذا سرى يهديه النرو من أمامه وتمتد الظلمة من ورائه ، التاسع أنه دخل النور والظلمة ، العاشر أنه رأى في منامه كأنه صعد إلى الشمس وأخذ بقرنيها .

الحادي عشر أنه يجوز أن يكون قد لقب بذلك لشجاعته كأنه ينطح أقرانه كما لقب أزدشير بعمن بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد ، ولا يخفي أنه يبعد عدم معرفة رجل مكن له ما مكن في الأرض وبلغ من الشهرة ما بلغ في طولها والعرض ، وأما الوجوع المذكورة في وجه تسميته ففيها ما لا يكاد يصح ولعله غير خفي عليك وقيل : هو فريدون بن اثفيان بن جمشيد خامس ملوك الفرس الفيشدادية وكان ملكاً عادلاً مطيعاً لله تعالى .

(73/478)

وفي كتاب صور الأقاليم لأبي زيد البلخي أنه كان مؤيداً بالوحي .

وفي عامة التواريخ أنه ملك الأرض وقسمها بين بنيه الثلاثة ايرج .

وسلم .

وتور فأعطى ايرج العراق .

والهند .

والحجاز .

وجعله صاحب التاج ، وأعطى سلم الروم وديار مصر والمغرب ، وأعطى تور الصين والترك والمشرق ، ووضع لكل قانوناً تحكم به وسميت القوانين الثلاثة سياسة فهي معربة سي ايسا أي ثلاثة قوانين ، ووجه تسميته ذا القرنين أنه ملك طرفي الدنيا أو طول أيام سلطنته فإنها كانت على ما في روضة الصفا خمسمائة سنة أو عظم شجاعته وقهره الملوك .

ورد بأنه قد أجمع أهل التاريخ على أنه لم يسافر لا شرقاً ولا غرباً وإنما دوخ له البلاد كاوه الأصفهاني الحداد الذي مزق الله تعالى على يده ملك الضحاك وبقي رئيس العساكر إلى أن مات ، ويلزم على هذا القول أيضاً أن يكون الخضر عليه السلام على مقدمته بناءً على ما اشتهر أنه عليه السلام كان على مقدمة ذي القرنين ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين .

وأجيب بأن من يقول : إنه الإسكندر يثبت جميع ما ثبت للإسكندر في الآيات والأخبار ولا يبالي بعدم ذكر المؤرخين لذلك وهو كما ترى ، وقيل : هو اسكندر اليوناني ابن فيلقوس ، وقيل : قلفيص ، وقيل : قليص .

وقال ابن كثير : هو ابن فيليس .

بن مصريم .

بن هرمس .

بن مطيون .

بن رومي .

بن ليطي .

بن يونان .

بن يافث .

بن نونه .

بن شرخون .

بن تونط .

بن يوفيل .

بن رومي .

بن الأصغر .

بن العزير .

بن إسحاق .

بن إبراهيم الخليل عليه السلام وكان سرير ملكه مقدونياً وهي بلدة من بلاد الروم غربي دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية بينهما من المسافة قدر خمسة عشر يوماً أو نحو ذلك عند مدينة شيروز ، وقول ابن زيدون : إنها مصروهم ، وهو الذي غلب داراً الأصغر واستولى على ملك الفرس وكان مولده في السنة الثالثة عشر من ملك داراً الأكبر .

(74/478)

وزعم بعضهم أنه أبوه وذلك أنه تزوج بنت فيلقوس فلما قربها وجد منها رائحة منكرة فأرسلها إلى أبيها وقد حملت بالإسكندر فلما وضعته بقي في كفالة أبيها فنسب إليه ، وقيل : إن داراً الأكبر تزوج بنت ملك الزنج هلابي فاستخبث ريحها فأمر أن يحتال لذلك فكانت تغتسل بماء السند روس فأذهب كثيراً من ذفرها ثم عافها وردها إلى أهلها فولدت الإسكندر وكان يسمى الإسكندروس .

ويدل على أنه ولده أنه لما أدرك داراً الأصغر بن دارا الأكبر وبه رمق وضع رأسه في حجره وقال له : يا أخي أخبرني عمن فعل هذا بك لأنتقم منه وهو زعم باطل .

وقوله : يا أخي من باب الإكرام ومخاطبة الأمثال .

وإنما سمي ذا القرنين لملكه طرفي الأرض أو لشجاعته .

واستدل لهذا القول بأن القرآن دل على أن الرجل بلغ ملكه إلى أقصى المغرب وأقصى المشرق وجهة الشمال وذلك تمام المعمول من الأرض ومثل هذا الملك يجب أن يبقى ذكره مخلداً .

والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا هذا الإسكندر . وذلك لأنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر وبنى الإسكندرية ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر واستولى على دارا وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهر زور ومات بها ، وقيل : مات برومية المدائن ووضعوه في تابوت من ذهب وحملوه إلى الإسكندرية وعاش اثنين وثلاثين سنة ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة .

(75/478)

وقيل : عاش ستاً وثلاثين ومدة ملكه ست عشرة سنة ، وقيل : غير ذلك ، فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة وثبت بالتواريخ أن الذي هذا شأنه هو الإسكندر

وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر كذا ذكره الإمام ثم قال : وهذا القول هو الأظهر للدليل المذكور إلا أن فيه إشكالاً قوياً وهو أنه كان تلميذ أرسطو الحكيم المقيم بمدينة أنينة أسلمه إليه أبوه فأقام عنده خمس سنين وتعلم منه الفلسفة وبرع فيها وكان على مذهبه فتعظيم الله تعالى إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق وذلك مما لا سبيل إليه .

وأجيب بأنا لا نسلم أنه كان على مذهبه في جميع ما ذهب إليه والتلمذة على شخص لا توجب الموافقة في جميع مقالات ذلك الشخص ألا ترى كثرة مخالفة الإمامين لشيخهما الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه فيحتمل أن يكون مخالفاً له فيما يوجب الكفر ، وفي ذبحه في مذبح بيت المقدس دليل على أنه لم يكن يرى جميع ما يراه الحكماء ، ولا يخفى أنه احتمال بعيد ، والمشهور أنه كان قائلاً بما يقوله الحكماء والذبح المذكور غير متحقق والاستدلال به ضعيف ، وقيل : إن قوله بذلك وتمذهبه بمذهب أرسطو لا يوجب كفره إذ ذاك فإنه كان مقراً بالصانع تعالى شأنه معظماً له غير عابد سواه من صنم أو غيره كما يدل عليه ما نقله الشهرستاني أن الحكماء تشاوروا في أن يسجدوا له إجلالاً وتعظيماً فقال : لا يجوز السجود لغير بادىء الكل ولم يكن مبعوثاً إليه رسول فإنه كان قبل مبعث عيسى عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة وكان الأنبياء عليهم السلام إذ ذاك من بني إسرائيل ومبعوثين إليهم ولم يكن هو منهم فكان حكمه حكم أهل الفترة .

وتعقب بأنه على تسليم ذلك لا يحسم مادة الإشكال لأن الله تعالى لا يكاد يعظم من حكمه حكم أهل الفترة مثل هذا التعظيم الذي دلت عليه الآيات والأخبار ، وأيضاً الثالث في التواريخ أن الإسكندر المذكور كان أرسطو بمنزلة الوزير عنده وكان يستشيره في المهمات ويعمل برأيه ولم يذكر فيها أنه اجتمع مع الخضر عليه السلام فضلاً عن اتخاذه إياه وزيراً كما هو المشهور في ذي القرنين .

واعترض أيضاً بأن اسكندر المذكور لم يتحقق له سفر نحو المغرب في كتب التواريخ المعتبرة وقد نبه على ذلك كاتب جلبي عليه الرحمة ، وقيل : هو الإسكندر الرومي وهو متقدم على اليوناني بكثير ويقال له : ذو القرنين الأكبر ، واسمه قيل : مرزبان بن مردبة من ولد يافث بن نوح عليه السلام وكان أسود ، وقيل : اسمه عبد الله بن الضحاك ، وقيل : مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن زيد بن كهلان بن سبا بن يعرب بن قحطان ، وجعل بعضهم هذا الخلاف في اسم ذي القرنين اليوناني بعد أن نقل القول بأن اسمه الإسكندر بن فيلقوس ، وذكر في اسم الرومي ونسبه ما نقل اسبقاً عن ابن كثير .

وذهب بعض المحققين إلى أن الإسكندر اليوناني والإسكندر الرومي كلاهما يطلقان على

غالب دارا الأصغر والتاريخ المشهور بالتاريخ الرومي ويسمى أيضاً السرياني والعجمي ينسب إليه في المشهور وأوله شروق يوم الاثنين من أول سنة من سني ولايته عند ابن البناء ومن أول السنة السابعة وهي سنة خروجه لتملك البلاد كما في زيج الصوفي أو من أول السنة التي مات فيها كما في المبادىء والغايات ، وبعض المحققين ينسبه إلى سولونس بن الطبوخوس الذي أمر ببناء انطاكية وهو الذي صححه ابن أبي الشكر ، وتوقف بعضهم كالغ بك عن نسبته إلى أحدهما لتعارض الأدلة ، ونفى بعضهم أن يكون في الزمن المتقدم بين الملوك اسكندران .

(77/478)

وزعم أنه ليس هناك إلا الإسكندر الذي غلب دارا واستولى على ملك فارس وقال : إن ذا القرنين المذكور في القرآن العظيم يحتمل أن يكون هو ويحتمل أن يكون غيره ، والذي عليه الكثير أن المسمى بالإسكندر بين الملوك السالفة اثنان بينهما نحو ألفي سنة وأن أولهما هو المراد بذي القرنين ويسميه بعضهم الرومي وبعضهم اليوناني وهو الذي عمر دهراً طويلاً فقيل : عمر ألفاً وستمائة سنة ، وقيل : ألفي سنة ، وقيل : ثلاثة آلاف سنة ولا يصح في ذلك شيء ، وذكر أبو الريحان البيروني المنجم في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون

الخالية أن ذا القرنين هو أبو كرب سمي بن عمير بن أفريقيس الحميري وهو الذي افتخر به تبع اليماني حيث قال :

كان ذو القرنين جدي مسلما . . .

ملكاً علا في الأرض غير مفند

غ المغارب والمشارق يبتغي . . .

أسباب ملك من حكيم مرشد

أى مغيب الشمس عند غروبها . . .

في عين ذي خلب وثأط حرمد

(78/478)

ثم قال : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأدواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي رعين وذي يزن وذي جدن ، واختار هذا القول كاتب جلبي وذكر أنه كان في عصر إبراهيم عليه السلام وأنه اجتمع معه في مكة المكرمة وتعانقا وأن شهرة بلوغ ملك الإسكندر اليوناني تلميذ أرسطو الغاية القصوى في كتب التواريخ كما ذكر الإمام دون هذا إنما هي لقرب زمان اليوناني بالنسبة إليه فإن بينهما نحو ألفي سنة وتواريخ هاتيك الأعصار

قد أصابها إعصار ولم يبق ما يعول عليه ويرجع في حل المشكلات إليه ، وربما يقال : إن عدم شهرة من ذكر تقوى كونه المسؤول عنه إذ غرض اليهود من السؤال الامتحان وذلك إنما يحسن فيما خفي أمره ولم يشهر إذ الشهرة لا سيما إذا كانت تامة مظنة العلم وإلى كون ذي القرنين في زمان إبراهيم عليه السلام ذهب غير واحد ، وقد ذكر الأزرقي أنه أسلم على يده عليه السلام وطاف معه بالكعبة وكان ثالثهما إسماعيل عليه السلام ، وروي أنه حج ماشياً فلما سمع إبراهيم عليه السلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ، وقيل : أتى بفرس ليركب فقال : لا أركب في بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب ومد له في الأسباب وبشره إبراهيم عليه السلام بذلك فكانت السحابة تحمله وعساكره وجميع آلهتهم إذا أرادوا غزو قوم وهؤلاء لم يصرحوا بأن ذا القرنين هذا هو الحميري الذي ذكر لكن مقتضى كلام كاتب جلبي إنه هو .

وذكر أنه يمكن أن يكون اسكندر لقباً لمن ذكر معرباً عن الكسندر ومعناه في اللغة اليونانية آدمي جيد ، وربما يقال : إن من قال : اسم الإسكندر مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور إلى آخر النسب السابق المنتهى إلى قحطان عنى هذا الرجل الحميري لا الرومي ولا اليوناني لكن وهم الناقل لأنه لم يقل أحد بأن الروم من أبناء قحطان وكذا اليونان ، نعم ذكر يعقوب بن إسحاق الكندي أن يونان أخو قحطان .

ورد عليه أبو العباس الناشىء في قصيدته حيث قال :

أبا يوسف إني نظرت فلم أجد . . .

على الفحص رأياً صح منك ولا عقدا

وصرت حكيماً عند قوم إذا امرؤ . . .

بلاهم جميعاً لم يجد عندهم عهدا

قرن الحادا بدين محمد . . .

لقد جئت شيئاً يا أخا كندة إذا

تخلط يونانا بقحطان ضلة . . .

لعمري لقد باعدت بينهما جدا

والمذكور في كتب التواريخ أن ملوك اليمن إلى أن غلبت الحبشة عليها من أبناء قحطان .

وأورد على هذا القول في ذي القرنين أنه لم يوجد في كتب التواريخ المعتبرة سمي ابن عمير بن افريقيس في عداد ملوك اليمن والمذكور إنما هو شمر بصيغة فعل الماضي من التشمير بن افريقيس ولم يذكروا بينه وبين افريقيس عميراً وقد ذكر بعضهم فيه أنه ذو القرنين وقالوا : إنه يقال له شمرير عش لارتعاش كان فيه فلعل سمي محرف عن شمر وابن عمير محرف من

يرعش ، وقد ذكروا في أبيه افريقيس أنه غزا نحو المغرب في أرض البربر حتى أتى طنجة ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم اليوم وأنه هو الذي بنى أفريقية وبه سميت وكان ملكه مائة وأربعاً وستين سنة ، وفيه أنه خرج نحو العراق وتوجه نحو الصين وأنه قلع المدينة التي تسمى اليوم سمرقند وقالوا : إنها معرب شمركند وإلى ذلك يشير دعبل الخزاعي بقوله يفتخر بملوك اليمن :

اكتبوا الكتاب بباب مرو . . .

وباب الشاش كانوا الكاتبينا

هم سموا بشمر سمرقندا . . .

وهم غرسوا هناك النابتينا

إنما لقب بذي القرنين لذؤابتين كانتا له وكان ملكه على ما قال ابن قتيبة مائة وسبعاً وثلاثين سنة وعلى ما قال المسعودي ثلاثاً وخمسين سنة وعلى ما قال غيرهما سبعاً وثمانين سنة ، ثم إن هذا لم يكن بأبي كرب وإنما الكنى به على ما رأيناه في بعض التواريخ أسعد بن كليكرب ويقال له تبع الأوسط ويذكر أنه آمن بنبينا صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وفي ذلك يقول :

دت على أحمد أنه . . .

رسول من الله باري النسم

ومد عمري إلى عمره . . .

لكنت وزيراً له وابن عم

(80/478)

وا أنه كان شديد الوطأة كثير الغزو فلمه قومه فأغروا ابنه حسان على قتله فقتله ، ولا يخفى أن كلا هذين الشخصين لا يصح أن يكون المراد بذي القرنين الذي ذكر أنه لقي إبراهيم عليه السلام أما الأول فلأنهم ذكروا أنه ملك بعد ياسر ينعم ابن عمرو وملك ياسر بعد بلقيس زوجة سليمان عليه السلام وكان عمها فكيف يتصور أن يكون هذا ذاك مع بعد زمان ما بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام .

(81/478)

وأما الثاني فلأنه بعد هذا بكثير مع أنه لم يطلق عليه أحد ذا القرنين ولا نسب إليه غزواً في مشارق الأرض ومغاربها ورأيت في بعض الكتب أن في زمن منوجهر بن ايرج بن افريدون بعث موسى عليه السلام وكان ملك اليمن في زمانه شمر أبا الملوك وكان في طاعته انتهى ،

وعليه أيضاً لا يمكن أن يكون شمر هذا هوذا القرنين السابق وهو ظاهر وإذا أسقطت جميع هذه الأقوال عن الاعتبار بناءً على ما قيل إن أخبار ملوك اليمن مضطربة لا يكاد يوقف على روايتين متفقتين فيها واعتبرت القول بأنه كان في زمن إبراهيم عليه السلام ملك منهم هو ذو القرنين بناءً على حسن الظن بقائل ذلك أشكل الأمر من وجه آخر وهو أن كتب التواريخ قاطبة ناطقة بأن فريدون كان في زمان إبراهيم عليه السلام وأنه قسم المعمورة بين بنيه الثلاثة حسبما تقدم فكيف يتسنى مع هذا القول بأن ذا القرنين رجل من ملوك اليمن كان في ذلك الزمان أيضاً ، ويجيء نحو هذا الإشكال إذا قلنا إن ذا القرنين هو أحد الإسكندرين اليوناني والرومي وقلنا بأنه كان في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً ، والحاصل أن القول بأن فريدون كان في ذلك الزمان وكان مالكاً المعمورة كما في عامة تواريخ الفرس يمنع القول بأن ذا القرنين في ذلك الزمان غيره بل القول بوجود أحد الثلاثة من فريدون وذي القرنين التبعي وأحد الإسكندرين في ذلك الزمان وملكه المعمورة يمنع من القول بوجود غيره منهم في ذلك الزمان وملكه المعمورة أيضاً ، واستشكل كون ذي القرنين أياً كان من هؤلاء الثلاثة في زمان إبراهيم عليه السلام بأن نمرود كان في زمانه أيضاً ، وقد جاء ملك الدنيا مؤمنان وكافران أما المؤمنان فسليمان عليه السلام وذو القرنين وأما الكافران فنمرود وبختنصر ولا مخلص من ذلك على تقدير صحة الخبر إلا بأن يقال كان زمان إبراهيم عليه السلام ممتداً ووقع ملكهما الدنيا متعاقباً وهو كما ترى .

ورأيت في بعض الكتب القول بأن ذا القرنين ملك بعد نمرود وينحل به الإشكال .

وقال بعضهم : الذي تقتضيه كتب التواريخ عدم صحة الخبر أو تأويله إذ ليس في شيء منها عموم ملك سليمان عليه السلام أو ملك نمرود أو بختنصر والظاهر عدم الصحة .

واستشكل أيضاً كونه في ذلك الزمان بأنه لم يذكر في التوراة كما يدعيه اليهود اليوم كافة ويبعد ذلك غاية البعد على تقدير وجوده فالظاهر من عدم ذكره عدم كونه موجوداً .

وأجيب بأنا لا نسلم عدم ذكره ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد إنك إنما تذكر إبراهيم .

وموسى .

وعيسى والنبيين لأنك سمعت ذكرهم منا فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله تعالى في التوراة إلا في مكان واحد قال : ومن هو ؟ قالوا : ذو القرنين الخبر بل الظاهر من سؤالهم أن له ذكراً في كتابهم وإنكارهم اليوم ذلك لا يلتفت إليه على أن ما ذكر في الاستشكال مجرد استبعاد ولا يخفى أنه ليس مانعاً قوياً ، هذا وبالجملة لا يكاد يسلم في أمر ذي القرنين شيء من الأقوال عن قيل وقال ، وكأني بك بعد الاطلاع على الأقوال وما لها وما عليها تختار أنه الإسكندر

بن فليقوس غالب دارا وتدعى أنه يقال له اليوناني كما يقال له الرومي وأنه كان مؤمناً بالله تعالى لم يرتكب مكفراً من عقد أو قول أو فعل وتقول إن تلمذته على أرسطو لا تمنع من ذلك :

فموسى الذي رباه جبريل كافر . . .

وموسى الذي رباه فرعون مرسل

(83/478)

وقد تتلمذ الأشعري على المعتزلة ورئيس المعتزلة على الحسن ، وقد خالف أرسطو أفلاطون في أكثر المسائل وكان تلميذه ، والقول بأن أرسطو كان بمنزلة الوزير عنده وكان يستشيره في المهمات ويعمل برأيه لا يدل على اتباعه له في سائر اعتقاداته فإن ذلك على تقدير ثبوته إنما هو في الأمور الملكية لا المسائل الاعتقادية على أن الملا صدر الدين الشيرازي ذكر أن أرسطو كان حكيماً عابداً موحداً قائلاً بحدوث العالم ودثوره المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السجلِ لِلْكُتُبِ ﴾ وما شاع عنه في أمر العالم توهم ناشىء من عدم فهم كلامه ومثله في ذلك سائر أساطين الحكماء ولا نسلم عدم سفره نحو المغرب ولا ثبوت أن الخضر كان وزير ذي القرنين ، وإن اشتهر ليقدح عدم كونه وزيراً عنده

في كونه ذا القرنين وقيل : إنه كان وزيراً عند ملك يقال له ذو القرنين أيضاً لكنه غير هذا ووقع الاشتباه في ذلك ، وقيل : يمكن أن يكون عليه السلام في جملة الحكماء الذين معه وكان كالوزير عنده لا يقدح في ذلك استشارة غيره في بعض الأمور وكان مشتهراً إذ ذاك بالحكمة دون النبوة .

(84/478)

وفي الأعصار القديمة كانوا يسمون النبي حكيماً ولعله كان مشتهراً أيضاً باسم آخر وعدم تعرض المؤرخين لشيء من ذلك لا يدل على العدم ، وقيل لا نسلم عدم التعرض بل قولهم إن الخضر كان وزير ذي القرنين قول بأنه كان وزير الإسكندر المذكور عند القائل بأنه ذو القرنين ولا يمنع من ذلك كون الخضر على الأصح نبياً والإسكندر ليس كذلك كما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً عن الجمهور لأن المراد من وزارته له تدبير أموره ونصرته ولا ضرر في نصرة نبي وتدبيره أمور ملك صالح غير نبي وهو واقع في بني إسرائيل ؛ وإن لم تختر ما ذكر فإن اخترت أنه من ملوك اليمن أو اسكندر آخر يلزمك إما القول بأنه لم يكن في زمن إبراهيم عليه السلام وإما القول بأنه كان في زمنه بعد نمرود أو معه إلا أنه تحت إمرته ولم يكن فريدون إذ ذاك ويلزمك طي الكشح عن كتب التواريخ كما يلزمك على أتم وجه لو اخترت أنه

فريدون .

والأقرب عندي لإلزام أهل الملل والنحل الضالين الذين يشق عليهم نبذ كتب التواريخ وعدم الالتفات إلى ما فيها بالكلية مع كثرتها وانتشارها في مشارق الأرض ومغاربها وتباين أديان مؤلفيها واختلاف أعصارهم اختيار أنه الاسكندر بن فيلقوس غالب دارا :

وما علي إذ ما قلت معتقدي . . .

دع الجهول يظن الجهل عدواناً

(85/478)

واليهود قاطبة على هذا لكنهم لعنهم الله تعالى وقعوا في الإسكندر ونسبوه أقبح نسبة مع أنهم يذكرون أنه أمرمهم حين جاء إلى بيت المقدس وعظم أحبارهم والله تعالى أعلم ، ثم إن السؤال ليس عن ذات ذي القرنين بل عن شأنه فكأنه قيل ويسألونك عن شأن ذي القرنين ﴿ قُلْ ﴾ لهم في الجواب ﴿ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ الخطاب للسائلين والهاء لذي القرنين ومن تبعيضية ، والمراد من أنبائه وقصصه ، والجار والمجرور صفة ذكراً قدم عليه فصار حالاً ، والمراد بالتلاوة الذكر وعبر عنه بذلك لكونه حكاية عن جهة الله عز وجل أي سأذكر لكم نبأ مذكوراً من أنبائه ، ويجوز أن يكون الضمير له تعالى ومن ابتدائية ولا

حذف والتلاوة على ظاهر أي سأتلو عليكم من جهته سبحانه وتعالى في شأنه ذكراً أي قرآناً ، والسين للتأكيد والدلالة على التحقق المناسب لتقدم تأييده صلى الله عليه وسلم وتصديقه بإنجاز وعده أي لا أترك التلاوة البتة كما في قوله :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي . . .

أيادي لم تمنن وإن هي جلت

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لأن هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحي بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾

(86/478)

شروع في تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود ، والتمكين ههنا الأقدار وتمهيد الأسباب يقال مكنه ومكن له كنصحته ونصحت له وشكرته وشكرت له ؛ وفرق بينهما بأن معنى الأول جعله قادراً ومعنى الثاني جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يستعمل كل منهما في محل الآخر وهكذا إذا كان التمكين مأخوذاً من المكان بناءً على توهم ميمه أصلية ؛ والمعنى أنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من

حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار ، وقيل : تمكينه في الأرض من حيث أنه سخر له السحاب ومد له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وفي ذلك أثر ولا أراه يصح ، وقيل : تمكينه بالنبوة وإجراء المعجزات ، وروي القول بنبوته أبو الشيخ في العظمة عن أبي الورقاء عن علي كرم الله تعالى وجهه وإلى ذلك ذهب مقاتل ووافقه الضحاك .

ويعارضه ما أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن الأنباري في المصاحف .

وابن أبي عاصم في السنة .

وابن مردويه من طريق أبي الفضل أن ابن الكواء سأل علياً كرم الله تعالى وجهه عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً ؟ قال : لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله تعالى فأحبه ونصح الله تعالى فنصحه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابو زيد أنه قال : ذو القرنين بلغ السدين وكان نذيراً ولم أسمع بحق أنه كان نبياً ، وإلى أنه ليس بنبي ذهب الجمهور وتوقف بعضهم لما أخرجه عبد الرزاق .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

(87/478)

والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أدري أتبع كان لعيناً أم لا وما أدري أذو القرنين كان نبياً أم لا وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا " وأنت تعلم أن هذا النفي لم يكن ليستمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيمكن أن يكون درى عليه الصلاة والسلام فيما بعد أنه لم يكن نبياً كما يدل عليه ما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه فإنه لم يكن يقول ذلك إلا عن سماع ، ويشهد لذلك ما أخرجه ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال : سئل علي كرم الله تعالى وجهه عن ذي القرنين أنبي هو ؟ فقال : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول هو عبد ناصح الله تعالى فنصحه ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المعلقة بسلطانه ﴿ سَبَباً ﴾ أي طريقاً يوصله إليه وهو كل ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة لا العلم فقط وإن وقع الاقتصار عليه في بعض الآثار ، ومن بيانية والمبين سبباً وفي الكلام مضاف مقدر أي من أسباب كل شيء ، والمراد بذلك الأسباب العادية ، والقول بأنه يلزم على التقدير المذكور أن

يكون لكل شيء أسباب لا سبب وسببان ليس بشيء ، وجوز أن يكون من تعليلية فلا تقدير واختاره بعضهم فتأمل ، واستدل بعض من قال بنبوته بالآية على ذلك وليس بشيء كما لا يخفى .

﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ بالقطع والفاء فصيحة والتقدير فأراد بلوغ المغرب فاتبع ﴿ سَبَباً ﴾ يوصله إليه ، ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لأنه أقرب إليه ؛ وقيل : لمراعاة الحركة الشمسية وليس ذلك لكون جهة المغرب أفضل من جهة المشرق كما زعمه بعض المغاربة فإنه كما قال الجلال السيوطي لأقطع بتفضيل إحدى الجهتين على الأخرى لتعارض الأدلة .

وقرأ نافع .

(88/478)

وابن كثير ﴿ فَأَتَّبَعَ ﴾ بهمزة الوصل وتشديد التاء وكذا فيما يأتي واستظهر بعضهم أنهما بمعنى ويتعديان لمفعول واحد ، وقيل : إن أتبع بالقطع يتعدى لاثنين والتقدير هنا فاتبع سبباً سبباً آخر أو فاتبع أمره سبباً كقوله تعالى : ﴿ وأتبعناهم فِى هذا الدنيا لَعْنَةً ﴾ [القصص : 42] ، وقال أبو عبيد اتبع بالوصل في السير وأتبع بالقطع معناه اللحاق كقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] وقال يونس : ﴿ أَتَّبِعُ ﴾ بالقطع

للمجد المسرع الحثيث الطلب واتبع بالوصل إنما يتضمن مجرد الانتقال والاقتفاء .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس ﴾

أي منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ووقف كما هو الظاهر على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس وفيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هب مبدأ الأطوال على أحد الأقوال ﴿ وَجَدَهَا ﴾ أي الشمس ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي ذات حمأة وهي الطين الأسود من حمئت البئر تحمأ حمأ إذا كثرت حمأتها .

وقرأ عبد الله .

وطلحة بن عبيد الله .

وعمرو بن العاص .

وابنه عبد الله .

وابن عمر .

ومعاوية .

والحسن .

وزيد بن علي .

وابن عامر .

وحمزة .

والكسائي ﴿ حَامِيَةً ﴾ بالياء أي حارة ، وأنكر هذه القراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أول ما سمعها ، فقد أخرج عبد الرزاق .

وسعيد بن منصور .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(89/478)

وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاضر أن ابن عباس ذكر له أن معاوية قرأ ﴿ فِى عَيْنٍ حَامِيَةً ﴾ فقال له : ما نقرؤها إلا ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرأها ؟ فقال : كما قرأتها فقلت : في بيتي نزل القرآن فأرسل إلى كعب فقال له : أين تجد الشمس تغرب في التوراة فقال كعب : سل أهل العزيمة فإنهم أعلم بها وأما أنا فإني لم أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب ، قال ابن أبي حاضر : لو أني عند كما أيدتك بكلام تزاد به بصيرة في ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ ، قال ابن عباس : وما هو ؟ قلت : قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتباعه إياه قد كان ذو القرنين إلى آخر الأبيات الثلاثة السابقة ومحل الشاهد قوله :

فرأى مغيب الشمس عند غروبها . . .

في عين ذي خلب وثأط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قال : ابن أبي حاضر الطين بكلامهم فقال : فما الثأط ؟ قال : الحمأة فقال : فما الحرمد ؟ قال : الأسود فدعا ابن عباس غلاماً فقال : أكتب ما يقول هذا الرجل ولا يخفى أنه ليس بين القراءتين منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين بأن تكون ذات طين أسود وماؤها حار ولجواز كون القراءة بالياء أصلها من المهموز قلبت همزته ياء لإنكسار ما قبلها وإن كان ذلك إنما يطرد إذا كانت الهمزة ساكنة كذا قيل .

وتعقب بأنه يأباه ما جرى بين ابن عباس .

ومعاوية .

وأجيب بأنه إذا سلم صحته فمبناه السماع والتحكيم لترجيح إحدى القراءتين ، وظاهر ما سمعت ترجيح قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وكأن رجوع معاوية لقراءة ابن عباس على ما ذكره القرطبي كان لذلك .

نعم ما أخرجه ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن مردويه .

والحاكم .

(90/478)

وصححه عن أبي ذر قال : كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حمار فرأى الشمس حين غربت فقال : أتدري حيث تغرب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنها تغرب في عين حامية غير مهموزة يوافق قراءة معاوية ويدل على أن ﴿ فِى عَيْنٍ ﴾ متعلق بتغرب كما هو الظاهر ، وقول بعض المتعسفين بأنه متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل ﴿ وَجَدَهَا ﴾ مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وكأن الذي دعاه إلى القول بذلك لزوم إشكال على الظاهر فإن جرم الشمس أكبر من جسم الأرض بأضعاف مضاعفة فكيف يمكن دخولها في عين ماء في الأرض ، وهو مدفوع بأن المراد وجدها في نظر العين كذلك إذ لم ير هناك إلا الماء لا أنها كذلك حقيقة وهذا كما أن راكب البحر يراها كأنها تطلع من البحر وتغيب فيه إذا لم ير الشط والذي في أرض ملساء واسعة يراها أيضاً كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها ، ولا يرد على هذا أنه عبر بوجد والوجدان يدل على الوجود لما أن وجد يكون بمعنى رأى كما ذكره الراغب فليكن هنا بهذا المعنى ، ثم المراد بالعين الحمئة إما عين

في البحر أو البحر نفسه ، وتسميته عيناً مما لا بأس به خصوصاً وهو بالنسبة لعظمة الله تعالى كقطرة وإن عظم عندنا .

(91/478)

وزعم بعض البغداديين أن ﴿ فِى ﴾ بمعنى عند أي تغرب عند عين ، ومن الناس من زعم أن الآية على ظاهرها ولا يعجز الله تعالى شيء ونحن نقر بعظم قدرة الله عز وجل ولا نلتفت إلى هذا القول ، ومثله ما نقله الطرطوشي من أنها يبلعها حوت بل هذا كلام لا يقبله إلا الصبيان ونحوهم فإنها قد تبقى طالعة في بعض الآفاق ستة أشهر وغاربة كذلك كما في أفق عرض تسعين وقد تغيب مقدار ساعة ويظهر نورها من قبل المشرق في بعض العروض كما في بلغار في بعض أيام السنة فالشمس على ما هو الحق لم تزل سائرة طالعة على قوم غاربة على آخرين بحسب آفاقهم بل قال إمام الحرمين : لا خلاف في ذلك ، ويدل على ما ذكر ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من شرقها وكذلك القمر ، وكذا ما أخرجه ابن عساكر عن الزهري أن خزيمة بن حكيم السلمي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سخونة الماء في الشتاء

وبرده في الصيف فقال : إن الشمس إذا سقطت تحت الأرض سارت حتى تطلع من مكانها فإذا طال الليل كثر لبثها في الأرض فيسخن الماء لذلك فإذا كان الصيف مرت مسرعة لا تلبث تحت الأرض لقص الليل فثبت الماء على حاله بارداً ، ولا يخفى أن هذا السير تحت الأرض تختلف فيه الشمس من حيث المسامتة بحسب الآفاق والأوقات فتسامت الأقدام تارة ولا تسامتها أخرى فما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن قال : إذا غربت الشمس دارت في فلك السماء مما يلي دبر القبلة حتى ترجع إلى المشرق الذي تطلع منه وتجري منه في السماء من شرقها إلى غربها ثم ترجع إلى الأفق مما يلي دبر القبلة إلى شرقها كذلك هي مسخرة في فلكها وكذلك القمر لا يكاد يصح .

(92/478)

ويشكل على ما ذكر ما أخرجه البخاري عن أبي ذر قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال : يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : 38] .

وأجيب بأن المراد أنها تذهب تحت الأرض حتى تصل إلى غاية الانحطاط وهي عند

وصولها دائرة نصف النهار في سمت القدم بالنسبة إلى أفق القوم الذين غربت عنهم وذلك الوصول أشبه شيء بالسجود بل لا مانع أن تسجد هناك سجوداً حقيقياً لائقاً بها فالمراد من تحت العرش مكاناً مخصوصاً مسامتاً لبعض أجزاء العرش وإلا فهي في كل وقت تحت العرش وفي جوفه ، وهذا مبني على أنه جسم كري محيط بسائر الأفلاك والفلكيات وبه تحدد الجهات وهذا قول الفلاسفة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة طه ما يتعلق بذلك ، وعلى ما ذكر فالمراد بمستقرها محل انتهاء انحطاطها فهي تجري عند كل قوم لذلك المحل ثم تشرع في الارتفاع ، وقال الخطابي : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش إنها تستق تحته استقراراً لا نحيط به نحن وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق عن دورانها في سيرها انتهى ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في ذلك في سورة يس ، وبالجملة لا يلزم على هذا التأويل خروج الشمس عن فلكها الممثل بل ولا عن خارج المركز وإن اختلف قربها وبعدها من العرش بالنسبة إلى حركتها في ذلك الخارج .

(93/478)

نعم ورد في بعض الآثار ما يدل على خروجها عن حيزها ، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الشمس إذا غربت رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة وتحبس

تحت العرش فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع ثم ينطلق بها ما بين السماء السابعة وبين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة فتنحدر حيال المشرق من سماء إلى سماء فإذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الصبح فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين تطلع الشمس وهو وإن لم تأباه قواعدنا من شمول قدرة الله تعالى سائر الممكنات وعدم امتناع الخرق والالتئام على الفلك مطلقاً إلا أنه لا يتسنى مع تحقق غروبها عند قوم وطولعها عند آخرين وبقائها طالعة نحو ستة أشهر في بعض العروض إلى غير ذلك مما لا يخفى فلعل الخبر غير صحيح .

وقد نص الجلال السيوطي على أن أبا الشيخ رواه بسند واه ثم إن الظاهر على رواية البخاري ورواية ابن أبي شيبة ومن معه أن أبا ذرّ رضي الله تعالى عنه سئل مرتين إلا أنه رد العلم في الثانية إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم طلباً لزيادة الفائدة ومبالغة في الأدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم .

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا ﴾ أي عند تلك العين على ساحل البحر ﴿ قَوْماً ﴾ لباسهم على ما قيل : جلود السباع وطعامهم ما لفظه البحر ، قال وهب بن منبه : هم قوم يقال لهم : ناسك لا يحصيهم كثرة إلا الله تعالى .

وقال أبو زيد السهيلي : هم قوم من نسل ثمود كانوا يسكنون جابرسا وهي مدينة عظيمة لها اثنا عشر باباً ويقال لها بالسريانية : جرجيسا ، وروى نحو ذلك عن ابن جريج ، وزعم ابن السائب أنه كان فيهم مؤمنون وكافرون ، والذي عليه الجمهور أنهم كانوا كفاراً فخيره الله تعالى بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الايمان وذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذِّبَ ﴾ بالقتل من أول الأمر ﴿ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ أي أمراً ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة وذلك بالدعوة إلى الحق والإرشاد إلى ما فيه الفوز بالدرجات ؛ ومحل إن مع صلته إما الرفع على الابتداء أو على الخبر وإما النصب على المفعولية أما تعذيبك واقع أو اما أمرك تعذيبك أو اما تفعل أو توقع تعذيبك وهكذا الحال في الاتخاذ ، وقدم التعذيب لأنه الذي يستحقونه في الحال لكفرهم ، وفي التعبير بإما أن تتخذ فيهم حسناً دون إما أن تدعوهم مثلاً إيماء إلى ترجيح الشق الثاني ، واستدل بالآية من قال بنبوته ، والقول عند بعضهم بواسطة ملك وعند آخرين كفاحاً ومن لم يقل بنبوته قال : كان الخطاب بواسطة نبي في ذلك العصر أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً بعد أن كان ذلك التخيير موافقاً لشريعة ذلك النبي .

وتعقب هذا بأن مثل هذا التخييل المتضمن لإزهاق النفوس لا يجوز أن يكون بالإلهام دون الاعلام وإن وافق شريعة ، ونقض ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه بالرؤية وهي

دون الإلهام ، وفيه أن رؤية الأنبياء عليهم السلام وإلهاماتهم وحي كما بين في محله ، والكلام هنا على تقدير عدم النبوة وهو ظاهر .

(95/478)

وقال علي بن عيسى : المعنى قلنا يا محمد قالوا أي جنده الذين كانوا معه يا ذا القرنين فحذف القول اعتماداً على ظهور أنه ليس بنبي وهو من التكلف بمكان ، وقريب منه دعوى أن القائل العلماء الذين معه قالوه عن اجتهاد ومشاورة له بذلك ونسبه الله تعالى إليه مجازاً ، والحق أن الآية ظاهرة الدلالة في نبوته ولعلها أظهر في ذلك من دلالة قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف : 82] على نبوة الخضر عليه السلام ، وكأن الداعي إلى صرفها عن الظاهر الأخبار الدالة على خلافها ، ولعل الأول في تأويلها أن يقال : كان القول بواسطة نبي .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين لذلك النبي أو لمن عنده من خواصه بعد أن تلقى أمره تعلى مختاراً للشق الأخير من شقي التخيير حسبما أرشد إليه ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشرك ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾

بالقتل ، والظاهر أنه كان بالسيف ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان عذابه أن يجعلهم في بقر من صفر ثم يوقد تحتهم النار حتى يتقطعوا فيها وهو بعيد عن الصحة ، وأتى بنون العظمة على عادة الملوك ، وإسناد التعذيب إليه لأنه السبب الآمر ، ودعوى صدور ذلك منه بالذات في غاية البعد ، وقيل : أراد من الضمير الله تعالى ونفسه والإسناد باعتبار الخلق والكسب وهو أيضاً بعيد مع ما فيه من تشريك الله تعالى مع غيره في الضمير وفيه من الخلاف ما علمت ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ ﴾ في الآخرة ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ فيها ﴿ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي منكراً فظيعاً وهو العذاب في نار جهنم ، ونصب ﴿ عَذَاباً ﴾ على أنه مصدر يعذبه ، وقيل : تنازع فيه هو ونعذبه والمراد بالعذاب النكر نظراً إلى الأول ما روى عن السدي وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى .

(96/478)

وفي قولو : ﴿ إلى رَبِّهِ ﴾ دون إليك دلالة على أن الخطاب السابق لم يكن بطريق الوحي إليه وإن مقاولته كانت مع النبي أو مع خواصه .

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءامَنَ ﴾ بموجب دعوتي ﴿ وَعَمِلَ ﴾ عملاً ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الايمان ﴿ فَلَهُ ﴾ في الدارين ﴿ جَزَاء الحسنى ﴾ أي فله المثوبة الحسنى أو الفعلة

الحسنى أو الجنة جزاء على أن جزاء مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدا اعتناء به أو منصوب بمضمر أي يجزى بها جزاء ، والجملة حالية أو معترضة بين المبتدا والخبر المتقدم عليه أو هو حال أي مجزياً بها .

وتعقب ذلك أبو الحسن بأنه لا تكاد العرب تتكلم بالحال مقدماً إلا في الشعر ، وقال الفراء : هو نصب على التمييز .

وقرأ ابن عباس .

ومسروق ﴿ جَزَاء ﴾ منصوباً غير منون ، وخرج ذلك المهدوي على حذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وخرجه غيره على أنه حذف للإضافة والمبتدأ محذوف لدلالة المعنى عليه أي فله الجزاء جزاء الحسنى .

وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق بالرفع والتنوين على أنه للمبتدا و ﴿ الحسنى ﴾ بدله الخبر الجار والمجرور .

وقرأ غير واحد من السبعة بالرفع بلا تنوين ، وخرج على أنه مبتدأ مضاف قال أبو علي : والمراد على الإضافة جزاء الخلال الحسنة التي أتاها وعملها أو المراد بالحسنى الجنة والإضافة كما في دار الآخرة .

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أي مما نأمر به ﴿ يُسْراً بِهِ ﴾ ﴿ يُسْراً ﴾ أي سهلاً ميسراً غير شاق ، وتقديره ذا يسر وأطلق عليه المصر مبالغة ، وقرأ أبو جعفر ﴿ يُسْراً ﴾

بضمتين حيث وقع هذا ، وقال الطبري : المراد من اتخاذ الحسن الأسر فيكون قد خير بين القتل والأسر ، والمعنى إما أن تعذب بالقتل وإما أن تحسن إليهم بإبقاء الروح والأسر ، وما حكى من الجواب على هذا الوجه قيل من الأسلوب الحكيم لأن الظاهر أنه تعالى خيره في قتلهم وأسرهم وهم كفار فقال أما الكافر فيراعى فيه قوة الإسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له إلا بما يجب .

(97/478)

وفي "الكشف" أنه روعي فيه على الوجهين نكتة بتقديم ما من الله تعالى في جانب الرحمة دلالة على أن ما منه تابع وتتميم وما منه في جانب العذاب رعاية لترتيب الوجود مع الترقي ليكون أغيظ ، وكأنه حمل ﴿ فَلَهُ ﴾ الخ على معنى فله من الله تعالى الخ وهو الظاهر ، وجوز حمل ﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ ﴾ على التوزيع دون التخيير ، والمعنى على ما قيل : ليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان فالأول لمن بقي على حاله والثاني لمن تاب فتأمل .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس موصلاً إلى مشرقها .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس ﴾

يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض أي غاية الأرض المعمورة من جهة المشرق .

وقرأ الحسن .

وعيسى .

(98/478)

وابن محيصن ﴿ مَطْلِعَ ﴾ بفتح اللام ورويت عن ابن كثير وأهل مكة وهو عند المحققين مصدر ميمي والكلام على تقدير مضاف أي مكان طلوع الشمس والمراد مكاناً تطلع عليه ، وقال الجوهري إنه مكان كمكسور اللام فالقراءتان متفقتان من غير تقدير مضاف ، وقد صرح بعض أئمة التصريف أن المطلع جاء في المكان والزمان فتحاً وكسراً ، وما آثره المحققون مبني على أنه لم يرد في كلام الفصحاء بالفتح إلا مصدراً ولا حاجة إلى تخريج القرآن على الشاذ لأنه قد يخل بالفصاحة ، وقال أبو حيان : إن الكسر سماع في أحرف معدودة وهو مخالف للقياس فإنه يقتضي أن يكون مضارعه تطلع بكسر اللام ، وكان الكسائي يقول : هذه لغة ماتت في كثير من لغات العرب يعني ذهب من يقول من العرب تطلع بكسر اللام وبقي مطلع بكسرها ف ياسم الزمان والمكان على ذلك القياس انتهى فافهم ، ثم أن الظاهر

من حال ذي القرنين وكونه قد أوتي من كل شيء سبباً أنه بلغ مطلع الشمس في مدة قليلة ، وقيل : بلغه في اثنتي عشرة سنة وهو خلاف الظاهر إلا أن يكون أقام في أثناء سيره فإن طول المعمورة يقطعه بأقل من هذه المدة بكثير السائر على الاستقامة كما لا يخفى على العارف بالمساحة .

﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ أخرج ابن المنذر .

(99/478)

وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظيمة عن ابن جريج قال : حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية لم نجعل لها من دونها ستراً بناء لم يبن فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس " وأخرج جماعة عن الحسن وذكر أنه حديث سمرة أن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه فإذا غابت خرجوا يتراعون كما تراعى البهائم ، وقيل : المرا لا شيء لهم يسترهم من اللباس والبناء ، وهم على ما قيل قوم من الزنج ، وقيل : من الهنود ، وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من أهل الأرض ، عن وبعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك : وبينهم مسيرة يوم

وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش إحدى أذنيه ويلبس الأخرى ومعه صاحب يعرف لسانهم فقالوا له : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى علي ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فادخلونا سرباً لهم فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون الشمس ويطرحونه في الشمس فينضج لهم انتهى .

(100/478)

وأنت تعلم أن مثل هذه الحكايات لا ينبغي أن يلتفت إليها ويعود عليها وما هي إلا أخبار عن هيان ابن بيان يحكيها العجائز وأمثالهن لصغار الصبيان ، وعن وهب بن منبه أنه يقال لهؤلاء القوم منسك ، وظاهر الآية لوقوع النكرة فيها في سياق النفي يقتضي أنهم ليس لهم ما يسترهم أصلاً وذلك ينافي أن يكون لهم سرب ونحوه ، وأجيب بأن ألفاظ العموم لا تتناول الصور النادرة فالمراد نفي الساتر المتعارف والسرب ونحوه ليس منه ، وأنت تعلم أن عدم التناول أحد قولين في المسألة ، وقال ابن عطية : الظاهر أن نفي جعل ساتر لهم من الشمس عبارة عن قربها إليهم وتأثيرها بقدرة الله تعالى فيهم ونيلها منهم ولو كانت لهم أسراب لكان لهم ستر كثيف انتهى ، وحينئذ فالنكرة على عمومها ، وأنا أختار ذلك إلى أن تثبت صحة

أحد الأخبار السابقة .

﴿ كذلك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي أمر ذي القرنين ذلك ، والمشار إليه ما وصف به قبل من بلوغ المعرب والمشرق وما فعله ، وفائدة ذلك تعظيمه وتعظيم أمره أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار ، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أي وجدها تطلع وجداناً كوجدانها تغرب في عين حمئة أو صفة مصدر محذوف لنجعل أي لم نجعل لهم ستراً جعلاً كائناً كالجعل الذي لكم فيما تفضلنا به عليكم من الألبسة الفاخرة والأبنية العالية ، وفيه أنه لا يتبادر إلى الفهم أو صفة ﴿ سِتْراً ﴾ [الكهف : 90] والمعنى عليه كسابقه ، وفيه ما فيه أو صفة ﴿ قَوْمٌ ﴾ [الكهف : 90] أي على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليه الشمس في الكفر والحكم أو معمول بلغ أي ﴿ بَلَغَ ﴾ [الكهف : 90] مغربها كما بلغ مطلعها .

(101/478)

﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿ خُبْراً ﴾ علماً تعلق بظواهره وخفاياه ويفيد هذا على الأول زيادة تعظيم الأمر وأنه وراء ما وصف بكثير مما لا يحيط به الأعلم اللطيف الخبير ، وهو على الأخير ويل لما قاسى في السير إلى أن بلغ فيكون

المعنى وقد أحطنا بما لاقاه وحصل له في أثناء سيره خبراً أو تعظيم للسبب الموصل إليه في قوله تعالى ﴿ فأتبع سبباً حتى إذا بلغ ﴾ [الكهف : 85 ، 86] أي أحطنا بما لديه من الأسباب الموصلة إلى هذا الموضع الشاسع مما لم نؤت غيره وهذا كما في "الكشف" أظهر من التهويل ، وعلى الثاني تتميم يفيد حسن اختياره أي أحطنا بما لديه من حسن التلقي وجودة العمل خبراً ، وعلى الثالث لبيان أنه كذلك في رأي العين وحقيقته لا يحيط بعلمها غير الله تعالى ، وعلى الرابع والخامس تذييل للقصة أو بالقصتين فلا يأباهما كما توهم ، وعلى السادس تتميم يؤكد أنه سن بهم سنته فيمن وجدهم في مغرب الشمس .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من مطلع الشمس إلى الشمال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(102/478)

وقال الشوكانى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود ، وانتهى الكلام إلى حيث انتهى شرع سبحانه في السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود .

واختلفوا في ذي القرنين اختلافاً كثيراً ، فقيل : هو الإسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا بأسرها اليوناني باني الإسكندرية .

وقال ابن إسحاق : هو رجل من أهل مصر ، اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني ، من ولد يونان بن يافث بن نوح ؛ وقيل : هو ملك اسمه هرمس ؛ وقيل : ملك اسمه هردبس ؛ وقيل : شاب من الروم ، وقيل : كان نبياً ، وقيل : كان عبداً صالحاً وقيل : اسمه عبد الله بن الضحاك ؛ وقيل : مصعب بن عبد الله ، من أولاد كهلان بن سبأ .

وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما : كان على عهد إبراهيم عليه السلام .

والآخر : كان قريباً من عيسى عليه السلام ؛ وقيل : هو أبو كرب الحميري ؛ وقيل : هو ملك من الملائكة ، ورجح الرازي القول الأوّل ، قال : لأن من بلغ ملكه من السعة والقوّة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التاريخ ؛ قال : فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر ، قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل إليه .

قال النيسابوري : قلت : ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم .

ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدّمنا ذلك ، وبين أن الأوّل : طاف بالبيت مع إبراهيم أوّل ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر .

(103/478)

وأما الثاني : فهو الإسكندر المقدوني اليوناني ، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس ، وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة .

فأما الأوّل المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل ، هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره راوياً له عن الأزرقي وغيره ؛ ثم قال : وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية .

وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال : وإنما بينا هذا يعني : أنهما اثنان ، لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير ، كيف لا ، والأوّل : كان عبداً صالحاً مؤمناً ، وملكاً عادلاً ، ووزيره الخضر ، وقد قيل : إنه كان نبياً ، وأما الثاني : فقد كان كافراً ، ووزيره إرسطاطاليس الفيلسوف ، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة ، فأين هذا من ذاك ؟ انتهى .

قلت : لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً ، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه ، والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان ، كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازي وادّعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ ، وقد وقع الخلاف هل هو نبيّ أم لا ؟ وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله .

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين ، فقال الزجاج والأزهري : إنما سمي ذا القرنين ، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها ، وقرن الشمس من مغربها ؛ وقيل : إنه كان له ضفيرتان من شعر ، والضفائر تسمى قروناً ، ومنه قول الشاعر :

فلثمت فاها آخذاً بقرونها . . . شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

(104/478)

والحشرج : ماء من مياه العرب ؛ وقيل : إنه رأى في أوّل ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك ، وقيل : كان له قرنان تحت عمامته ؛ وقيل : إنه دعا إلى الله فشجه قومه على قرنه ، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر ، وقيل : إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه ، وقيل : لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيّ ، وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً ، وقيل : لأنه أعطي علم

الظاهر والباطن ، وقيل : لأنه دخل النور والظلمة ، وقيل : لأنه ملك فارس والروم ، وقيل : لأنه ملك الروم والترك ، وقيل : لأنه كان لتاجه قرنان .

قوله : ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ أي : سأتلو عليكم أيها السائلون من ذي القرنين خبراً .

وذلك بطريق الوحي المتلوّ .

ثم شرع سبحانه في بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكراً فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ أي : أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب ، فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها ، وسهلّ عليه المسير في مواضعها ، وذللّ له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء في الإضاءة ﴿ وآتيناه مِن كُلّ شَىْء ﴾ مما يتعلق بمطلوبه ﴿ سَبَباً ﴾ أي : طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ من تلك الأسباب .

قال المفسرون : والمعنى طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس .

قال الزجاج : فأتبع سبباً من الأسباب التي أوتي ، وذلك أنه أوتي من كل شيء سبباً فأتبع من تلك الأسباب التي أوتي سبباً في المسير إلى المغرب ، وقيل : أتبع من كل شيء علماً يتسبب به إلى ما يريد ؛ وقيل : بلاغاً إلى حيث أراد ؛ وقيل : من كل شيء يحتاج إليه الخلق

؛ وقيل : من كل شيء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء .

وأصل السبب : الحبل ، فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شيء .

(105/478)

قرأ ابن عامر ، وأهل الكوفة ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي (وأتبع) بقطع الهمزة ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها .

قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى .

مثل ردفته وأردفته ، ومنه قوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] .

قال النحاس : واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة ، قال : لأنها من السير .

وحكى هو والأصمعي أنه يقال : تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه ، وأتبعه إذا لحقه .

قال أبو عبيدة : ومثله ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ .

قال النحاس : وهذا من الفرق وإن كان الأصمعي قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو دليل ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : 60] ليس في الحديث أنهم لحقوهم ، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر .

والحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد ، وهو بمعنى : السير .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس ﴾ أي : نهاية الأرض من جهة المغرب ، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط ، وهو لا يمكن المضيّ فيه ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي " حامية " : أي : حارّة .

وقرأ الباقون " حمئة " أي : كثيرة الحمأة ، وهي الطينة السوداء ، تقول : حمئت البئر حمأ بالتسكين : إذا نزعت حمأتها ، وحمأت البئر حمأتها بالتحريك : كثرت حمأتها ، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة ، فخففت الهمزة وقلبت ياء ، وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حمأة .

(106/478)

قيل : ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك في نظره ، ولا يبعد أن يقال : لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التي تغرب فيها الشمس ، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس ، ومكن له في الأرض والبحر من جملتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ﴾ الضمير في عندها إما للعين أو للشمس .

قيل : هم قوم لباسهم جلود الوحش ، وكانوا كفاراً ، فخيّره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم ، فقال : ﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ أي : إما أن تعذبهم بالقتل من أوّل الأمر ، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن أو أمراً حسناً مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد : دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع .

﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترديد ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ في الآخرة ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ فيها ﴿ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي : منكراً فظيعاً .

قال الزجاج : خيّره الله بين الأمرين .

قال النحاس : وردّ عليّ بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبيّ فيخاطب بهذا ، فكيف يقول لربه عزّ وجلّ ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ وكيف يقول : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ فيخاطبه بالنون ، قال : والتقدير قلنا : يا محمد قالوا : يا ذا القرنين .

قال النحاس : وهذا الذي ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عزّ وجلّ خاطبه على لسان نبيّ في وقته ، وكأن ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما ذكره .

ويمكن أن يكون مخاطباً للنبيّ الذي خاطبه الله على لسانه ، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع .

قال ثعلب : إن في قوله : ﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ ﴾ في موضع نصب ، ولو رفعت لكان صواباً بمعنى فأما هو كقول الشاعر :

فسيروا فإما حاجة تقضيانها . . . وإما مقيل صالح وصديق

﴿ وَأَمَّا مَنْ امَنَ ﴾ بالله وصدّق دعوتي ﴿ وَعَمِلَ ﴾ عملاً ﴿ صالحا ﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿ فَلَهُ جَزَاء الحسنى ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر : (فله جزاء) بالرفع على الابتداء أي : جزاء الخصلة الحسنى عند الله ، أو الفعلة الحسنى وهي الجنة قاله الفراء .

وإضافة الجزاء إلى الحسنى التي هي الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذي القرنين أي : أعطيه وأتفضل عليه ، وقرأ سائر الكوفيين " فله جزاء الحسنى " بنصب ﴿ جزاء ﴾ وتنوينه .

قال الفراء : انتصابه على التمييز .

وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال أي مجزياً بها جزاءً .

وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب (جزاء) من غير تنوين .

قال أبو حاتم : هي على حذف التنوين لالتقاء الساكنين .

قال النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين .

وقرىء برفع : (جزاء) منوّناً على أنه مبتدأ ، و ﴿ الحسنى ﴾ بدل منه والخبر الجارّ والمجرور ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ أي : مما نأمر به قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق ، أو أطلق عليه المصدر مبالغة .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي : طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس ﴾ أي : الموضع الذي تطلع عليه الشمس أوّلاً من معمور الأرض ، أو مكان طلوعها لعدم المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ يسترهم ، لا من البيوت ولا من اللباس ، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة .

(108/478)

قيل : لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرّ عليها البناء ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أي : كذلك أمر ذي القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به ؛ وقيل : المعنى لم نجعل لهم ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الأبنية والثياب ، وقيل : المعنى كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها ، وقيل : المعنى كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم ، فقضي في

هؤلاء كما قضي في أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين ، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه في هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا في الوجه الأوّل .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : قالت اليهود للنبيّ صلى الله عليه وسلم : يا محمد إنك إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، إنك سمعت ذكرهم منا ، فأخبرنا عن نبيّ لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد ، قال : " ومن هو " ؟ قالوا : ذو القرنين ، قال : " ما بلغني عنه شيء " ، فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين ﴾ .

(109/478)

وأخرج عبد الرزاق ، ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أدري أتبع كان نبياً أم لا ؟ وما أدري أذو القرنين كان نبياً أم لا ؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ " ، وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال : سئل عليّ عن ذي القرنين أنبيّ هو ؟ قال : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : " هو عبد ناصح الله فنصحه " وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في المصاحف ، وابن أبي

عاصم في السنة ، وابن مردويه من طريق أبي الطفيل : أن ابن الكواء سأل عليّ بن أبي طالب عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً ؟ قال : لم يكن نبياً ولا ملكاً ، ولكن كان عبداً صالحاً أحبّ الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات ، ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فأحياه الله لجهادهم ، فلذلك سمي ذا القرنين ، وإن فيكم مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عمرو قال : ذو القرنين نبيّ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الأخرص بن حكيم ، عن أبيه ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن ذي القرنين فقال : " هو ملك مسح الأرض بالأسباب " وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن خالد بن معدان الكلاعي مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن عبد الحكم ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في كتاب الأضداد ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب : أنه سمع رجلاً ينادي بمنى يا ذا القرنين ، فقال عمر : ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ؟ وفي الباب غير ما ذكرناه مما يغني عنه ما قد أوردناه .

وقد أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني حديثاً يتضمن : أن نفراً من اليهود سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين ، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء ، وكان فيما أخبرهم به " أنه كان شاباً من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك في السماء ، وذهب به إلى السدّ " ، وإسناده ضعيف ، وفي متنه نكارة ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموي في مغازيه ، ثم قال بعد ذلك : والعجب أن أبا زرعة الداري مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوّة ، انتهى .

وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدرّ المنثور ، وساق أيضاً خبراً طويلاً عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والشيرازي في الألقاب ، وأبي الشيخ ، وفيه أشياء منكرة جدّاً ، وكذلك ذكر خبراً طويلاً عن محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب ، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وآتيناه مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ قال : علماً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن أبي هلال : أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ، قال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله قال : ﴿ وآتيناه مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ .

(111/478)

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاصر ، أن ابن عباس ذكر له : أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف " تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَامِيَةٍ " قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : ما نقرؤها إلا ﴿ حمئة ﴾ فسأل معاوية عبد بن عمرو كيف تقرؤها ؟ فقال عبد الله : كما قرأتها ، قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : في بيتي نزل القرآن ، فأرسل إلى كعب ، فقال له : أين تجد الشمس تغرب في التوراة ؟ فقال له كعب : سل أهل العربية فإنهم أعلم بها ، وأما أنا فإني أجد في التوراة في ماء وطين ، وأشار بيده إلى المغرب .

قال ابن أبي حاصر : لو أني عند كما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة في حمئة .

قال ابن عباس : وما هو ؟ قلت : فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتباعه إياه :

قد كان ذو القرنين عمر مسلماً . . . ملكاً تذلّ له الملوك وتحشد

فأتى المشارق والمغارب يبتغي . . . أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها . . . في عين ذي خلب وثاط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت : الطين بكلامهم ، قال : فما الثأط ؟ قلت : الحمأة .

قال : فما الحرمد ؟ قلت : الأسود ، فدعا ابن عباس غلاماً فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل .

وأخرج الترمذي ، وأبو داود الطيالسي ، وابن جرير ، وابن المنذر عن أبيّ بن كعب أن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كان يقرأ ﴿ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ " " .

وأخرج الطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً مثله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(112/478)

وقال القاسمى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾

وهو الإسكندر الكبير المقدوني وسنذكر وجه تلقيبه بذلك : ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ

ذِكْراً ﴾ أي : نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله عليَّ .

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بالقوة والرأي والتدبير والسعة في المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ ، أي : طريقاً موصلاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ بهمزة الوصل وتشديد التاء . فقيل هما بمعنى ويتعديان لمفعول واحد . وقيل : أَتْبَعَ بالقطع يتعدى لاثنين . والتقدير : فأتبع سبباً سبباً آخر . أو فأتبع أمره سبباً كقوله : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ [القصص : 42] .

وقال أبو عبيدة : اتبع بالوصل في السير وأتبع بالقطع معناه اللحاق كقوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] ، وقال يونس : أتبع بالقطع للجد الحثيث في الطلب وبالوصل مجرد الانتقال . والفاء في قوله : فأتبع فاء الفصيحة . أي : فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله ، لقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي : أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي : ذات حمأة وهو الطين الأسود ، وقرئ حامية أي : حارّة . وقد تكون جامعة للوصفين ووَجَدَ يكون بمعنى رأى لما ذكره الراغب : ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً ﴾ أي : أمة . ثم أشار تعالى إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم وجعل له الخيرة في شأنهم ، بقوله : ﴿ قُلْنَا

يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾ أي : بالقتل وغيره : ﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ بالعفو . ثم بين تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه :

(113/478)

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أي : بالبغي والفساد في الأرض بالشرك والضلال والإضلال : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ أي : في الآخرة : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْرا ﴾ أي : منكراً لم يعهد مثله .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ ﴾ أي : في الدارين : ﴿ جَزَاءً الْحُسْنَى ﴾ يقرأ بالرفع والإضافة . وهو مبتدأ ، أو مرفوع بالظرف أي : فله جزاء الخصلة الحسنى . يقرأ بالرفع والتنوين و : ﴿ الْحُسْنَى ﴾ بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أي : فله الحسنى جزاءً . فهو مصدر في موضع الحال . أي : مجزيّاً بها . أو هو مصدر على المعنى . أي : يجزي بها جزاءً أو تمييز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لالتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي : طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً ﴾ أي :

من المباني والجبال .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره في أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف لوجد أي : وجدها تطلع وجداناً كوجدانها تغرب في عين حمئة . أو معمول بلغ أي : بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة قوم أي : على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم الشمس ، في الكفر والحكم : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أي : علماً . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم وتقطّعت بهم الأرض . وفي التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العَدَد والعُدَد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي : طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 67.70 ﴾

(114/478)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾

افتتاح هذه القصة بـ ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ يدلّ على أنها مما نزلت السورة للجواب عنه كما كان الابتداء بقصة أصحاب الكهف اقتضاباً تنبيهاً على مثل ذلك .

وقد ذكرنا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي ﴾ في سورة الإسراء (85) عن ابن عباس : أن المشركين بمكة سألوا النبي ثلاثة أسئلة بإغراء من أحبار اليهود في يثرب .

فقالوا : سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عنها كلها فليس بنبيء .

وإن أجاب عن بعضها وأمسك عن بعض فهو نبيء ؟ .

وبيّنا هنالك وجه التعجيل في سورة الإسراء النازلة قبل سورة الكهف بالجواب عن سؤالهم عن الروح وتأخير الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين إلى سورة الكهف .

وأعقبنا ذلك بما رأيناه في تحقيق الحق من سَوق هذه الأسئلة الثلاثة في مواقع مختلفة .

فالسائلون : قريش لا محالة ، والمسؤول عنه : خبر رجل من عظماء العالم عرف بلقب ذي القرنين ، كانت أخبار سيرته خفيّة مُجملة مغلقة ، فسألوا النبي عن تحقيقها وتفصيلها ، وأذن له الله أن يبين منها ما هو موضع العبرة للناس في شؤون الصلاح والعدل ، وفي عجيب صنع الله تعالى في اختلاف أحوال الخلق ، فكان أحْبار اليهود منفردين بمعرفة إجمالية عن هذه المسائل الثلاث وكانت من أسرارهم فلذلك جَرّبوا بها نبوءة محمد .

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه ، لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن ، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حِكمية أو خُلقية فلذلك قال الله : قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنهُ ذِكراً ﴾ .

والمراد بالسؤال عن ذي القرنين السؤال عن خبره ، فحذف المضاف إيجازاً لدلالة المقام ، وكذلك حذف المضاف في قوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من خبره و (مِن) تبعيضية .

(115/478)

والذكر : التذكر والتفكر ، أي سأتلو عليكم ما به التذكر ، فجعل المتلو نفسه ذكراً مبالغة بالوصف بالمصدر ، ولكن القرآن جاء بالحق الذي لا تخليط فيه من حال الرجل الذي يوصف بذي القرنين بما فيه إبطال لما خلط به الناس بين أحوال رجال عظماء كانوا في عصور متقاربة أو كانت قصصهم تُساق مساق من جاسوا خلال بلاد متقاربة متماثلة وشوهوا تخليطهم بالأكاذيب ، وأكثرهم في ذلك صاحب الشاهنامة الفردوسي وهو معروف بالأكاذيب والأوهام الخرافية .

اختلف المفسرون في تعيين المسمى بذي القرنين اختلافاً كثيراً تفرقت بهم فيه أخبار

قصصية وأخبار تاريخية واسترواح من الاشتقاقات اللفظية ، ولعل اختلافهم له مزيد اتصال باختلاف القصّاصين الذين عُنوا بأحوال الفاتحين عناية تخليط لا عناية تحقيق فراموا تطبيق هذه القصة عليها .

والذي يجب الانفصال فيه بادىء ذي بدء أن وصفه بذي القرنين يتعين أن يكون وصفاً ذاتياً له وهو وصف عربي يظهر أن يكون عرف بمدلوله بين المثيرين للسؤال عنه فترجموه بهذا اللفظ .

ويتعين أن لا يحمل القرنان على الحقيقة ، بل هما على التشبيه أو على الصورة .

فالأظهر أن يكونا ذُؤابتين من شعر الرأس متدليتين ، وإطلاق القرن على الضفيرة من الشعر شائع في العربية ، قال عُمر بن أبي ربيعة :

فلثمت فاها آخذاً بقُرونها

شُرب النزيف ببرَد ماء الحشرج . . .

وفي حديث أم عطية في صفة غسل ابنة النبي صلى الله عليه وسلم قالت أم عطية : "فجعلنا رأسها ثلاثة قرون" ، فيكون هذا الملك قد أطال شعر رأسه وضفره ضفيرتين فسمي ذا القرنين ، كما سمّي خِرِبَاق ذا اليدين .

وقيل : هما شبه قرني الكبش من نحاس كانا في خوذة هذا الملك فنُعت بهما .

وقيل : هما ضربتان على موضعين من رأس الإنسان يشبهان منبتي القرنين من ذوات

القرون .

ومن هنا تأتي الأقوال في تعيين ذي القرنين ، فأحد الأقوال : إنه الإسكندر بن فيليبوس المقدوني .

وذكروا في وجه تلقيبه بذي القرنين أنه ضفر شعره قرنين .

(116/478)

وقيل : كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان ، وقيل : رسم ذاته على بعض نقوده بقرنين في رأسه تمثيلاً لنفسه بالمعبود (آمون) معبود المصريين وذلك حين ملَك مصر .

والقول الثاني : إنه ملك من ملوك حمير هو تُبّع أبو كرب .

والقول الثالث : أنه ملك من ملوك الفرس وأنه (أفريدون بن أثفيان بن جمشيد) .

هذه أوضح الأقوال ، وما دونها لا ينبغي التعويل عليه ولا تصحيح روايته .

ونحن تجاه هذا الاختلاف يحق علينا أن نستخلص من قصته في هذه الآية أحوالاً تقرّب تعيينه وتزييف ما عداه من الأقوال ، وليس يجب الاقتصار على تعيينه من بين أصحاب هذه الأقوال بل الأمر في ذلك أوسع .

وهذه القصة القرآنية تعطي صفات لا محيد عنها :

إحداها : أنه كان ملكاً صالحاً عادلاً .

الثانية : أنه كان ملهَماً من الله .

الثالثة : أن مُلكه شمل أقطاراً شاسعة .

الرابعة : أنه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكاناً كان مجهولاً وهو عين حَمئة .

الخامسة : أنه بلغ بلاد يأجوج ومأجوج ، وأنها كانت في جهة مما شمله ملكه غير الجهتين الشرقية والغربية فكانت وسطاً بينهما كما يقتضيه استقراء مبلغ أسبابه .

السادسة : أنه أقام سدّاً يحول بين ياجوج وماجوج وبين قوم آخرين .

السابعة : أن ياجوج وماجوج هؤلاء كانوا عائثين في الأرض فساداً وأنهم كانوا يفسدون بلاد قوم موالين لهذا الملك .

الثامنة : أنه كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء .

التاسعة : أن خبره خفيّ دقيق لا يعلمه إلاّ الأحبار علماً إجمالياً كما دل عليه سبب النزول .

وأنت إذا تدبرت جميع هذه الأحوال نفيت أن يكون ذو القرنين إسكندر المقدوني لأنه لم يكن ملكاً صالحاً بل كان وثنياً فلم يكن أهلاً لتلقي الوحي من الله وإن كانت له كمالات على الجملة ، وأيضاً فلا يعرف في تاريخه أنه أقام سُدّاً بين بلدَين .

وأما نسبة السد الفاصل بين الصين وبين بلاد ياجوج وماجوج إليه في كلام بعض المؤرخين فهو ناشىء عن شهرة الإسكندر ، فتوهم القصاصون أن ذلك السد لا يكون إلاّ من بنائه ، كما توهم العرب أن مدينة تَدمر بناها سليمان عليه السلام .

وأيضاً فإن هيرودوتس اليوناني المؤرخ ذكر أن الإسكندر حارب أمة (سكيثوس) .

وهذا الاسم هو اسم ماجوج كما سيأتي قريباً .

وأحسب أن لتركيب القصة المذكورة في هذه السورة على اسم اسكندر المقدوني أثراً في اشتهار نسبة السد إليه .

وذلك من أوهام المؤرخين في الإسلام .

ولا يعرف أن مملكة إسكندر كانت تبلغ في الغرب إلى عين حمئة ، وفي الشرق إلى قوم مجهولين عُراة أو عديمي المساكِن ، ولا أن أمته كانت تلقبه بذي القرنين .

وإنما انتحل هذا اللقب له لما توهموا أنه المعْنيّ بذي القرنين في هذه الآية ، فمنحه هذا اللقب من مخترعات مؤرخي المسلمين ، وليس رسم وجهه على النقود بقرنين مما شأنه أن يلقب به .

وأيضاً فالإسكندر كانت أخباره مشهورة لأنه حارب الفرس والقبط وهما أمّتان مجاورتان للأمة العربية .

ومثل هذه المبطلات التي ذكرناها تتأتى لإبطال أن يكون الملكُ المتحدث عنه هو أفريدون ، فإما أن يكون من تبابعة حمير فقد يجوز أن يكون في عصر متوغل في القدم .

وقد توهم بعض المفسرين أنه كان معاصراً إبراهيم عليه السلام وكانت بلاده التي فتحها مجهولة المواقع .

ولكن يبعد أن يكون هو المراد لأن العرب لا يعرفون من خبره مثل هذا ، وقد ظهر من أقوالهم أنّ سبب هذا التوهم هو وجود كلمة (ذو) التي اشتهر وجود مثلها في ألقاب ملوك اليمن وتبابعته .

فالذي يظهر لي أن ذا القرنين كان ملكاً من ملوك الصين لوجوه:

أحدها : أن بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع .

الثاني : أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة .

الثالث : أن من سماتهم تطويل شعر رؤوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين .

(118/478)

الرابع : أن سُداً ورَدْماً عظيماً لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المَغُول ، وهو المشهور في كتب الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم ، وسيرد وصفه .

الخامس : ما روت أم حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ليلة فقال : " ويل للعرب من شرّ قد اقترب فتح اليوم من رَدم ياجوج وماجوج هكذا " وأشار بعقد تسعين (أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام) .

وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد فتعين أن ياجوج وماجوج هم المغول وأن الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين وبانيه ملك من ملوكهم ، وأن وصفه في القرآن بذي القرنين توصيف لا تلقيب فهو مثل التعبير عن شَاول ملك إسرائيل باسم طالوت .

وهذا الملك هو الذي بنى السدّ الفاصل بين الصين ومنغوليا .

واسم هذا الملك (تْسِينْشِي هْوَانْفتي) أو (تْسِينْ شِي هْوَانْقْتِي) .

وكان موجوداً في حدود سنة سبع وأربعين ومائتين قبل ميلاد المسيح فهو متأخر عن إسكندر المقدوني بنحو قرن .

وبلاد الصين في ذلك العصر كانت متدينة بدين (كنفيشيوس) المشرع المصلح ، فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين .

وهذا الملك يؤخذ من كتب التاريخ أنه ساءت حالته في آخر عمره وأفسد كثيراً وقتل

علماء وأحرق كتباً ، والله أعلم بالحقيقة وبأسبابها .

ولما ظن كثير من الناس أن ذا القرنين المذكور في القرآن هو إسكندر بن فيليبوس نحلوه بناء السدّ .

وزعموه من صنعه كما نحلوه لقب ذي القرنين .

وكل ذلك بناء أوهام على أوهام ولا أساس لواحِد منهما ولا علاقة لإسكندر المقدوني بقصة ذي القرنين المذكورة في هذه السورة .

والأمر في قوله ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم ﴾ إذن من الله لرسوله بأن يَعد بالجواب عن سؤالهم عملاً بقوله : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ على أحد تأويلين في معناه .

(119/478)

والسين في قول ﴿ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم ﴾ لتحقيق الوعد كما في قوله تعالى : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربّي ﴾ في سورة يوسف (98) .

وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكراً للإشارة إلى أن المهم من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح لأن يكون تلاوةً حسب شأن القرآن فإنّه يُتلى لأجل الذكر ولا يُساق مساق القصص .

وقوله مِنْهُ ذِكْراً ﴾ تنبيه على أن أحواله وأخباره كثيرة وأنهم إنما يهمهم بعض أحواله المفيدة ذكراً وعظة .

ولذلك لم يقل في قصة أهل الكهف : نحن نقصّ عليك من نبئهم ، لأن قصتهم منحصرة فيما ذكر ، وأحوال ذي القرنين غير منحصرة فيما ذكر هنا .

وحرف (من) في قوله ﴿ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ للتبعيض باعتبار مضاف محذوف ، أي من خبره .

والتمكين : جعل الشيء متمكناً ، أي راسخاً ، وهو تمثيل لقوّة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد .

وحق فعل (مكّنا) التعدية بنفسه ، فيقال : مكّناه في الأرض كقوله ﴿ مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ [الأنعام : 6] .

فاللام في قوله : مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ للتوكيد كاللام في قولهم : شكرت له ، ونصحت له ، والجمْع بينهما تفنن .

وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ [الأنعام : 6] .

فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرف .

والمراد بالأرض أهل الأرض ، والمراد بالأرض أرض معينة وهي أرض مُلكه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ [يوسف : 56] .

والسبب : حقيقته الحبل ، وأطلق هنا على ما يتوسل به إلى الشيء من علم أو مقدرة أو

آلات التسخير على وجه الاستعارة كقوله تعالى : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ في سورة البقرة (166) .

وكُلّ شَيْءٍ ﴾ مستعمل هنا في الأشياء الكثيرة كما تقدم في نظائره غير مرة منها قوله تعالى : ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ [يونس : 97] أي آتيناه وسائل أشياء عظيمة كثيرة .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) ﴾

السبب : الوسيلة .

(120/478)

والمراد هنا معنى مجازي وهو الطريق ، لأن الطريق وسيلة إلى المكان المقصود ، وقرينة المجاز ذكر الاتباع والبلوغ في قوله : ﴿ فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس .

﴾ والدليل على إرادة غير معنى السبب في قوله تعالى : ﴿ وءاتيناه مِن كُلّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ إظهار اسم السبب دون إضماره ، لأنه لما أريد به معنى غير ما أُريد بالأول حسن إظهار اسمه تنبيهاً على اختلاف المعنيين ، أي فاتبع طريقاً للسير وكان سيره للغزو ، كما دلّ عليه قوله : ﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ .

ولم يعدّ أهل اللغة معنى الطريق في معاني لفظ السبب لعلهم رأوه لم يكثر وينتشر في الكلام .

ويظهر أن قوله تعالى : ﴿ أسباب السموات ﴾ [فاطر : 37] من هذا المعنى .

وكذلك قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه

أي هاب طرق المنايَا أن يسلكها تنله المنايا ، أي تأتيه ، فذلك مجاز بالقرينة .

والمراد بـ ﴿ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ مكان مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق غزوته أو مملكته .

وذلك حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة ، إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل .

والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو بحيرة قزوين فإنها غرب بلاد الصين .

والقول في تركيب ﴿ حتى إذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ كالقول في قوله : ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ﴾ .

والعين : منبع ماء .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ﴿ في عينٍ حمئة مهموزاً مشتقاً من الحمأة ، وهو الطين الأسود .

والمعنى : عين مختلط ماؤها بالحمأة فهو غير صاف .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وأبو جعفر ، وخلف : في عين

حامية بألف بعد الحاء وياء بعد الميم ، أي حارة من الحمو وهو الحرارة ، أي أن ماءها سخن .

(121/478)

ويظهر أن هذه العين من عيون النفْط الواقعة على ساحل بحر الخزر حيث مدينة (باكو) ، وفيها منابع النفط الآن ولم يكن معروفاً يومئذ .

والمؤرخون المسلمون يسمونها البلاد المنتنة .

وتنكير قَوْماً ﴾ يؤذن بأنهم أمّة غير معروفة ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم .

فجملة ﴿ قُلْنا ياذا القَرْنَيْنِ ﴾ استئناف بياني لما أشعر به تنكير ﴿ قَوْماً ﴾ من إثارة سؤال عن حالهم وعما لاقاه بهم ذو القرنين .

وقد دل قوله : ﴿ إمَّا أن تُعَذّبَ وإمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهمْ حُسْناً ﴾ على أنهم مستحقون للعذاب ، فدلّ على أن أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل .

وإسناد القول إلى ضمير الجلالة يحتمل أنه قول إلهام ، أي ألقينا في نفسه تردداً بين أن يبادر استيصالهم وأن يمهلهم ويدعوهم إلى الإيمان وحسن العمل ، ويكون قوله ﴿ قَالَ أمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ، أي قال في نفسه معتمداً على حالة وسط بين صورتي التردد .

وقيل : إن ذا القرنين كان نبيئاً يوحى عليه فيكون القول كلاماً موحىً به إليه يخيّره فيه بين الأمرين ، مثل التخيير الذي في قوله تعالى : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [محمد : 4] ، ويكون قوله : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ جواباً منه إلى ربّه .

وقد أراد الله إظهار سداد اجتهاده كقوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ [الأنبياء : 79] .

و ﴿ حُسْناً ﴾ مصدر .

وعدل عن (أن تحسن إليهم) إلى ﴿ أن تَتَّخِذَ فِيهِم حُسناً ﴾ مبالغة في الإحسان إليهم حتى جعل كأنه اتّخذ فيهم نفس الحُسن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ [البقرة : 83] .

وفي هذه المبالغة تلقين لاختيار أحد الأمرين المخير بينهما .

والظلم : الشرك ، بقرينة قسيمه في قوله ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً ﴾ .

واجتلاب حرف الاستقبال في قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ يشير إلى أنه سيدعوه إلى الإيمان فإن أصرّ على الكفر يعذبه .

وقد صرح بهذا المفهوم في قوله ﴿ وأمَّا مَن ءَامَنَ وعَمِلَ صالحا ﴾ أي آمن بعد كفره .

(122/478)

ولا يجوز أن يكون المراد من هو مؤمن الآن ، لأن التخيير بين تعذيبهم واتخاذ الإمهال معهم يمنع أن يكون فيهم مؤمنون حين التخيير .

والمعنى : فسوف نعذبه عذاب الدنيا ولذلك أسنده إلى ضميره ثم قال : ﴿ ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ وذلك عذاب الآخرة .

وقرأ الجمهور ﴿ جزاءُ الحسنى بإضافة جزاء إلى الحسنى على الإضافة البيانية .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب ، وخلف جزاءً الحسنى بنصب جزاءً منوناً على أنه تمييز لنسبة استحقاقه الحسنى ، أو مصدر مؤكد لمضمون جملة فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى ﴾ ، أو حال مقدمة على صاحبها باعتبار تعريف الجنس كالتنكير .

وتأنيث ﴿ الحُسْنَى ﴾ باعتبار الخصلة أو الفعلة .

ويجوز أن تكون ﴿ الحسنى ﴾ هي الجنة كما في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] .

والقول اليسر : هو الكلام الحسن ، وصف باليسر المعنوي لكونه لا يثقل سماعه ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ [الإسراء : 28] أي جميلاً .

فإن كان المراد من ﴿ الحسنى ﴾ الخصال الحسنى ، فمعنى عطف ﴿ وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ أنه يجازَى بالإحسان وبالثناء ، وكلاهما من ذي القرنين ، وإن كان المراد من ﴿ الحُسْنَى ﴾ ثواب الآخرة فذلك من أمر الله تعالى وإنما ذو القرنين مُخبر به خبراً

مستعملاً في فائدة الخبر ، على معنى .

إنا نُبشره بذلك ، أو مستعملاً في لازم الفائدة تأدباً مع الله تعالى ، أي أني أعلم جزاءه عندك الحسنى .

وعطف عليه ﴿ وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ لبيان حظ الملك من جزائه وأنه البشارة والثناء .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) ﴾

تقدم خلاف القراء في ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ فهو كذلك هنا .

(123/478)

ومطلع الشمس : جهة المشرق من سلطانه ومملكته ، بلغ جهة قاصية من الشرق حيث يُخال أن لا عمران وراءها ، فالمطلع مكان الطلوع .

والظاهر أنه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقاً ، فوجد قوماً تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها ، أي لا جبل فيها يستظلون بظلّه ولا شجر فيها ، فهي أرض مكشوفة للشمس ، ويجوز أن يكون المعنى أنهم كانوا قوماً عراة فكانوا يتّقون شعاع

الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب .

فالمراد بالستر ما يستر الجسد .

وكانوا قد تعودوا ملاقاة حرّ الشمس ، ولعلهم كانوا يتعرضون للشمس ليدفعوا عن أنفسهم ما يلاقونه من القُر ليلاً .

وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد وسيرتهم على نحو مناخهم .

﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ﴾

الكاف للتشبيه ، والمشبه به شيء تضمنه الكلام السابق بلفظه أو معناه .

والكاف ومجرورها يجوز أن يكون شِبه جملة وقع صفة لمصدر محذوف يدلّ عليه السياق ، أي تشبيهاً مماثلاً لما سمعت .

واسم الإشارة يشير إلى المحذوف لأنه كالمذكور لتقرر العلم به ، والمعنى : من أراد تشبيهه لم يشبهه بأكثر من أن يشبهه بذاته على طريقة ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) .

ويجوز أن يكون جزء جملة حذف أحد جزأيها والمحذوف مبتدأ .

والتقدير : أمر ذي القرنين كذلك ، أي كما سمعت .

ويجوز أن يكون صفة لـ قَوْماً كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أي قوماً كذلك القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس ، أي في كونهم كفاراً ، وفي تخييره في إجراء أمرهم على

العقاب أو على الإمهال .

ويجوز أن يكون المجرور جزء جملة أيضاً جلبت للانتقال من كلام إلى كلام فيكون فصل خطاب كما يقال : هذا الأمر كذا .

وعلى الوجوه كلها فهو اعتراض بين جملة ﴿ ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ الخ . . .

(124/478)

وجملة ﴿ ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ [الكهف : 92 ، 93] الخ . . . ﴾ .

هذه الجملة حال من الضمير المرفوع في ثم اتبع وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ .

و ﴿ بِما لَدَيهِ ﴾ : ما عنده من عظمة الملك من جند وقوّة وثروة .

والخبرُ بضم الخاء وسكون الموحدة : العلم والإحاطة بالخبر ، كناية عن كون المعلوم عظيماً بحيث لا يحيط به علماً إلاّ علاّم الغيوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(125/478)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ الآية .

قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم " حمئة " بلا ألف بعد الحاء ، وبهمزة مفتوحة بعد الميم المكسورة . وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصن " حامية " بالف بعد الحاء ، وياء مفتوحة بعد الميم المكسروة على صيغة اسم الفاعل .

فعلى القراءة الأولى فمعنى " حمئة " ذات حمأة وهي الطين الأسود ، ويدل لهذا التفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] والحمأ : الطين كما تقدم . ومن هذا المعنى قول تبع الحميري فيما يؤثر عنه يمدح ذا القرنين :

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . . أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها . . . في عين ذي خلب وثأط حرمد

والخلب – في لغة حمير – : الطين . والثأط : الحمأة . والحرمد : الأسود . وعلى قراءة " حاميه " بصيغن اسم الفاعل ، فالمعنى : أنها حارة ، وذلك لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل . ولا منافاة بين القراءتين حق . قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : " وجدها تغرب في عين حمئة " أي رأي الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه – إلى آخر كلامه .

ومقتضى كلامه أن المراد بالعين في الآية البحر المحيط ، وهو ذو طين أسود . والعين تطلق في اللغة على ينبوع الماء . والينبوع : الماء الكثير . فاسم العين يصدق على البحر لغة . وكون من على شاطىء المحيط الغربي يرى الشمس في نظر عينه تسقط في البحر أمر معروف . وعلى هذا التفسير فلا إشكال في الآية ، والعم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(126/478)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾

ذو القرنين : هذا لقبه ؛ لأنه ربما كان في تكوينه ذا قرنين ، أو يلبس تاجاً له اتجاهان ؛ أو لأنه بلغ قرني الشمس في المشرق وفي المغرب .

وقد بحث العلماء في : مَنْ هو ذو القرنين ؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدوني الطواف في البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان في مقدونيا في الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد وزير المعارف الهندي إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته في

الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حَصْرها في شخص بعينه ؛ لأن تشخيص حادثة القصة يُضعِف من تأثيرها ، ويصبغها بِصبْغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فنرى مَنْ يقول بأنها مسألة شخصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم في ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العَمَل خاص بهذا الشخص ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضرب لنا مثلاً يعُمُّ أي شخص ، ماذا سيكون مَسْلكه وتصرّفه إنْ مكَّنَ الله له ومنحه الله قوة وسلطة ؟

ولو حددَ القرآن هذه الشخصية في الإسكندر أو قورش أو غيرهما لَقُلْنَا : إنه حَدث فرديّ لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأُسْوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان في تعيينه فائدة لَعيَّنه الله لَنَا .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه عندما ضرب مثلاً للذين كفروا ، قال : ﴿ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ . . ﴾ [التحريم : 10] ولم يُعيّنهما على التحديد ؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان الرسول المرسَل من الله لهداية الناس لم يتمكّن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه ؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : ﴿ امرأت فِرْعَوْنَ . . ﴾ [التحريم : 11] ففرعون الذي أضَلَّ الناس وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأن الحق سبحانه يُلمّح للناس جميعاً أن رأيك في الدين وفي العقائد رَأْيٌ ذاتي ، لا يتأثر بأحد أيّاً كان ، لا في الهداية بنبي ، ولا في الغواية بأضلِّ الضالين الذي ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذي بها كل أحد ، وإلاَّ لو شخصتْ لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فنراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها ؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً في بنات آدم ، لذلك عيَّنها وشخَّصها ؛ لأن التشخيص ضروري في مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعني أنها صالحة لأنْ تتكرر في أيّ زمان أو في أيّ مكان ، كما رأينا في قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه أبهمهم أسماءً ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسْوة وقُدْوة للفتيان المؤمنين في أيِّ زمان ، وفي أيِّ مكان ، وبأيِّ عدد .

وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . ﴾ [الكهف : 83] نلاحظ أن مادة السؤال

لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن أخذت حيّزاً كبيراً فيه ، فقد ورد السؤال للنبي من القوم ست عشرة مرة ، إحداها بصيغة الماضي في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . ﴾ [البقرة : 186]

وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع ، كما في : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة . . ﴾ [البقرة : 189]

(128/478)

وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ . . ﴾ [البقرة : 215] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ . . ﴾ [البقرة : 217] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر . . ﴾ [البقرة : 219] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 219] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ . . ﴾ [البقرة : 220] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض . . ﴾ [البقرة : 222] ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ . . ﴾ [المائدة : 4] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة ﴾ [الأعراف : 187] ثلاث مرات ، [النازعات : 42] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال . . ﴾ [الأنفال : 1] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح . . ﴾ [الإسراء : 85]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . ﴾ [الكهف : 83] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً . . ﴾ [طه : 105]

خمسة عشر سؤالاً بالمضارع ، إلا أن الجوابَ عليها مختلف ، وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بُدَّ أنْ يكون اختلاف الجواب في كل سؤال له مَلْحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سأله المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله وقد نهاهم أنْ يسألوه حتى يهدأوا إلحاحٌ منهم في معرفة تصرُّفاتهم وإنْ كانت في الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أنْ يعرفوا رأي الإسلام فيها ، فكأنهم نَسُوا عادات الجاهلية ويرغبون في أن تُشرَّع كل أمورهم على وَفْق الإسلام .

(129/478)

وبتأمّل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدةً يأتي الجواب مباشرة دون ﴿ قُلْ ﴾ وهي في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع . . ﴾ [البقرة : 186] وواحدة وردتْ مقرونة بالفاء ﴿ فَقُلْ ﴾ وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً . . ﴾ [طه : 105]

وباقي الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل ﴿ قُلْ ﴾ ، فما الحكمة في اقتران الفعل بالفاء

في هذه الآية دون غيرها ؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه في الجواب ﴿ قُلْ ﴾ فهذه إجابة على سؤال سُئِلَهُ رسول الله بالفعل ، أي : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد أتتْ في الجواب على سؤال لم يُسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال . . ﴾ [طه : 105] سؤال لم يحدث بَعْد ، فالمعنى : إذا سألوك فَقُلْ ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فإذا قُلْتَ : فما الحكمة في أنْ يأتي الجواب في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . ﴾ [البقرة : 186] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن ﴿ إِذَا ﴾ تقتضي الفاء في جوابها ؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أنْ يُجيبهم عليه بانتفاء الواسطة من أحد ؛ لذلك تأتي الإجابة مباشرة دون واسطة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . ﴾ [البقرة : 186] قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . ﴾ [الكهف : 83] أي : عن تاريخه وعن خبره والمهمة التي قام بها : ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف : 83]

وأيُّ شرف بعد هذا الشرف ، إن الحق تبارك وتعالى يتولّى التأريخ لهذا الرجل ، ويُؤرّخ له في قرآنه الكريم الذي يُتلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة والذي يُتحدّى به ، ليظل ذِكْره باقياً بقاء القرآن ، خالداً بخلوده ، يظل أثره فيما عمل أُسْوة وقُدْوة لمن يعمل مثله . إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أن العمل الصالح مذكور عند الله قبل أنْ يُذكَرَ عند الخلق .

فأيُّ ذكْر أبقى من ذكر الله لخبر ذي القرنين وتاريخه ؟

و﴿ مِّنْهُ ﴾ أي : بعضاً من ذِكْره وتاريخه ، لا تاريخه كله .

وكلمة (ذِكْر) وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة ، تلتقي جميعها في الشرف والرفعة ، وفي التذكُّر والاعتبار . وإنْ كانت إذا أُطلقتْ تنصرف انصرافاً أولياً إلى القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] وبعد ذلك تُستعمل في أيّ كتاب أنزله الله تعالى من الكتب السابقة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43]

وقد يُطلَق الذكر على ما يتبع هذا من الصّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 10]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ . . ﴾ [الزخرف : 44]

أي : صيت حَسَن وشرف ورفْعة كون القرآن يذكر هذا الاسم ؛ لأن الاسم إذا ذُكِر في

القرآن ذاعَ صِيتُه ودَوَّى الآفاق .

وقلنا في قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أنْ خُطِف من قومه وَبيع في مكة لخديجة رضي الله عنها ، ثم وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما عَلِم أهله بوجوده في مكة أتى أبوه وعمه ، وكلّموا رسول الله في شأن زيد فقال : خَيِّروه .

(131/478)

فلما خَيَّروا زيداً قال : ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك أكرمه النبي صلى الله عليه وسلم وسمَّاه زيدَ بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن يبطل التبني ، ونزل قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النبيين . . ﴾ [الأحزاب : 40] وقال : ﴿ ادعوهم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . ﴾ [الأحزاب : 5]

فلا تقولوا : زيد بن محمد .

وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حَزِنَ زَيْد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه عَلَماً يتردد في قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، فكان زيد هو الصحابي الوحيد الذي ورد ذكره باسمه

في كتاب الله في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا . . ﴾ [الأحزاب : 37]

فأيُّ شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف ؟

ونلحظ في هذه الآية : ﴿ ادعوهم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . ﴾ [الأحزاب : 5] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله صلى الله عليه وسلم بالجور ، فقال : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . ﴾ [الأحزاب : 5] فما فعله الرسول كان أيضاً قِسْطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والأعدل .

إذن : فذِكْر ذي القرنين في كتاب الله شرف كبير ، وفي إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلته عند الله ، ومُجازىً بأنْ يُخلّد ذكره ويبقى صِيته بين الناس في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرض . . ﴾ .

التمكين : أي أننا أعطيناه إمكانات يستطيع بها أن يُصرِّف كل أموره التي يريدها ؛ لأنه مأمون على تصريف الأمور على حَسْب منهج الله ، كما قال تعالى في آية أخرى عن يوسف عليه السلام : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ . . ﴾ [يوسف : 56]

فالتمكين يعني إعطاءه إمكانات لكل غرض يريده فيُصرِّف به الأمور ، لكن لماذا مكناه ؟ مكّناه لأنه مأمون على تصريف الأمور وَفْق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانات .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ [الكهف : 84] أي : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شيء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه .

فماذا صنع هو ؟ ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ .

أتبع السبب ، أي : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التي جعلها الله له ، فلقد مكَّن الحق لذي القرنين في الأرض ، وأعطاه من كل شيء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أُعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكُنْ بهذا المكان ، بل كان قادماً إليه من المشرق .

ومعنى ﴿ مَغْرِبَ الشمس ﴾ هل الشمس تغرب ؟

هي تغرب في عين الرائي في مكان واحد ، فلو لاحظتَ الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً في الجيزة ، فإذا ذهبت إلى الجيزة وجدتها تغرب في مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأىَ عينك أنت ؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهي دائماً شارقة

غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين ؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة في كل الأوقات ، فحين نصلي نحن الظهر مثلاً يصلي غيرنا العصر ، ويصلي غيرهم المغرب ، وهكذا فالحق سبحانه مذكور في كل وقت بكل وقت ، فلا ينتهي الظهر لله ، ولا ينتهي العصر لله ، ولا ينتهي المغرب لله ، بل لا ينتهي الإعلام بواحدة منها طوال الوقت ، وعلى مَرِّ الزمن ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : يا زمن وفيك كل الزمن .

(133/478)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ . . ﴾ [الكهف : 86] أي : في عين فيها ماء . وقلنا : إن الحمأ المسنون هو الطين الذي اسودّ لكثرة وجوده في الماء . وفي تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد ، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ، قال : عند موضع يسمى (أزمير) .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً . . ﴾ [الكهف : 86] أي : عند هذه العين ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ [الكهف : 86] إذن : فهذا

تفويض له من الله ، ولا يُفوَّض إلا المأمون على التصرُّف ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ . . ﴾ [الكهف : 86] ولا بُدّ أنهم كانوا كفرة أو وثنيين لا يؤمنون بإله ، فإما أنْ تأخذهم بكفرهم ، وإما أن تتخذَ فيهم حُسْناً .

لكن ما وجه الحُسْن الذي يريد الله أن يتخذه ؟ يعني أنهم قد يكونون من أهل الغفلة الذين لم تصلهم الدعوة ، فبيّن لهم وجه الصواب ودلّهم على دين الله ، فَمنْ آمن منهم فأحسن إليه ، ومَنْ أصرّ على كُفْرِه فعذّبه ، إذن : عليك أن تأخذهم أولاً بالعِظَة الحسنة والبيان الواضح ، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ . . . ﴾ .

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87)

قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ . . ﴾ [الكهف : 87] يعطينا إشارة إلى المهلة التي سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكّنه أنْ يعِظهم ويُذكّرهم ويُفهّمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أفظعها وأعلاها الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 87]

فلن نُعذِّبه على قدْر ما فعل ، بل نُعذّبه عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شُرِعَتْ لحفظ توازن المجتمع ، ورَدْع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة في غير المؤمن ؟ لذلك نرى الأمم التي لا تؤمن بإله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرِّع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشدّ في الآخرة ﴿ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 87] والشيء النكر : هو الذي لا نعرفه ، ولا عَهْد لنا به أو أُلْفة ؛ لأننا حينما نُعذِّب في الدنيا نُعذِّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله في الآخرة فهو شيء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى . . . ﴾ .

قوله : ﴿ فَلَهُ جَزَآءً الحسنى . . ﴾ [الكهف : 88] أي : نعطيه الجزاء الحسن ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الكهف : 88] نقول له الكلام الطيب الذي يُشجِّعه ويحْفزه ، وإنْ كلَّفناه كلَّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التي هي ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمعٌ بلا جزاءات تثيب المجدّ وتعاقب المقصِّر مجتمع ينتهي إلى الفوضى والتسيُّب ، فإنْ أَمِنْ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانيه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما في المجتمع

من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيّب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملّق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التي يجيدونها ، أما الذي يجدّ ويعمل ويخلص فهو مُنْهك القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقْتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذي يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوَّر مدى الفساد والتسيّب الذي تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

(135/478)

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الكهف : 87-88]

فما أجمَل أنْ نرصُدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطةَ أنْ يقومَ ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والحُسْنى : أفعل التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنى فالحسن من باب أَوْلَى ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ . . ﴾

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) ﴾

أي : ذهب إلى مكان آخر .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَطْلِعَ الشمس . . ﴾ [الكهف : 90] كما قلنا في مغربها ، فهي دائماً طالعة ؛ لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغْرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ [الكهف : 90] السِّتْر : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقينيَ الحر أو ليقينيَ البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كبعض القبائل في وسط أفريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظِلّون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم " ضاحون " أي : ليس لهم ما يأويهم من حَرِّ الصيف أو بَرد الشتاء ، وهم أُناسٌ متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى في جلودهم ما يُعوِّضهم عن هذه الأشياء التي يفتقدونها ، فترى في جلودهم ما يمنحهم الدفء في الشتاء والبرودة في الصيف .

وهذا نلاحظه في البيئات العادية ، حيث وَجْه الإنسان وهو مكشوف للحر وللبرد ، ولتقلبات الجو ، لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقي الجسم المستور بالملابس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديدَ الحساسية للحرِّ أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية في جلودها تستطيع أنْ تعيش في القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، وتشغلهم مسألة الملابس هذه ، ولا يفكرون فيها ، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويروْنَ الملابس ، وكيف أنها زينة وسَتْر للعورة فيستخدمونها .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً وماذا فعل ذو القرنين معهم ، وإنْ قِسْنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضَّرهم ووفَّر لهم أسباب الرُّقي .

وبعض المفسرين يروْنَ أن ذا القرنين ذهب إلى موضعٍ يومُه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم يَرَ لها غروباً في هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم يَرَ لها سِتْراً يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب في أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ .

كذلك : يعني ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) ﴾

ذهب إلى مكان آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(137/478)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

قوله : ﴿ مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ : أي : مِنْ أخبارِه وقَصَصِه .

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84)

قوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ ﴾ : مفعولُه محذوفٌ ، أي : أمره وما يريد .

قوله : ﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ : قرأ نافعٌ وابن كثير وأبو عمرو " فَأَتْبَعَ " و " ثم أَتْبَعَ " في المواضعِ الثلاثة بهمزةِ وصلٍ وتشديدِ التاء . والباقون بهمزةِ القطع وسكونِ التاء . فقيل : هما بمعنى واحدٍ فيتعدَّيان لمفعولٍ واحدٍ . وقيل : " أتبع " بالقطعِ متعدٍ لاثنين حُذِف أحدُهما تقديرُه : فأتبع سبباً سبباً آخرَ ، أو فأتبع أمرَه سبباً . ومنه ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾

[القصص : 42] فعدّاه لاثنين/ ومِنْ حَذْفِ أحدِ المفعولين : قولُه تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : 60] ، أي : أَتْبعوهم جنودَهم . واختار أبو عبيد "اتَّبع" بالوصل ، قال : "لأنه من المسيرِ" قال "تقول "تَبِعْتُ القومَ واتَّبَعْتُهم . فأما الإتباعُ بالقَطْع فمعناه اللَّحاق ، كقولِه تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] . وقال يونس وأبو زيد : "أَتْبَعَ" بالقطع عبارةٌ عن المُجِدّ المُسْرِعِ الحثيثِ الطلبِ . وبالوصل إنما يتضمَّن الاقتفاءَ دونَ هذه الصفات .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾

(138/478)

قوله : ﴿ حامِيَةٍ ﴾ : قرأ ابن عامر وأبو بكر والأخَوان بالألف وياءٍ ضريحة بعد الميم . والباقون دون ألفٍ وهمزة بعد الميم . فأمَّا القراءةُ الأولى فإنها اسمُ فاعلٍ مِنْ حَمِي يَحْمِي ، والمعنى : في عينٍ حارَّة . واختارها أبو عبيدٍ ، قال : "لأنَّ عليها جماعةً من الصحابة" وسمَّاهم . وأمَّا الثانيةُ فهي مِنَ الحَمْأَةِ وهي الطينُ .

وكان ابنُ عباس عند معاويةَ . فقرأ معاويةُ "حاميةٍ" فقال ابن عباس : "حَمِئَةٍ" . فسأل معاويةُ ابنَ عمرَ كيف تقرأ ؟ فقال : كقراءةِ أمير المؤمنين . فبعث معاويةُ ، فسأل كعباً فقال

: "أَجِدُها تغرُبُ في ماءٍ وطين" . فوافق ابن عباس . وكان رجلٌ حاضرٌ هناك فأنشد قولَ تُبَّع :

3195- فرأى مغيبَ الشمسِ عند مآبِها . . . في عينِ ذي خُلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَدِ

ولا تناقضَ بين القراءتين ؛ لأنَّ العينَ جامعةٌ بين الوصفين : الحرارةِ وكونِها مِنْ طين .

قوله : ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ يجوز في ﴿ أَن تُعَذِّبَ ﴾ الرفعُ على الابتداءِ ، والخبرُ محذوفٌ ، أي : إمَّا تعذيبُك واقعٌ ، أو الرفعُ على خبرٍ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو تعذيبُك . والنصبُ ، أي : إمَّا أَنْ تفعَلَ أَنْ تُعَذَّبَ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ﴾

قوله : ﴿ جَزَآءً الحسنى ﴾ : قرأ الأخوان وحفصٌ بنصب "جزاءً" وتنوينه . والباقون برفعِه مضافاً . فالنصبُ على المصدر المؤكِّد لمضمونِ الجملة ، فتُنْصَبُ بمضمرٍ أو مؤكِّدٍ لعاملٍ مِنْ لفظِه مقدرٍ ، أي : يَجْزِي جزاء . وتكونُ الجملةُ معترضةً بين المبتدأ وخبرِه المقدَّمِ عليه . وقد يُعْترض على الأولِ : بأنَّ المصدرَ المؤكِّدَ لمضمونِ جملةٍ لا يتقدَّمُ عليها ، فكذا لا يَتوسَّط . وفيه نظرٌ يحتمل الجوازَ والمنعَ ، وهو إلى الجوازِ أقربُ .

(139/478)

الثالث : أنه في موضع الحالِ . والقراءةُ الثانية رفعُه فيها على الابتداء ، والخبرُ الجارُّ قبلَه .

و " الحُسْنى " مضاف إليها . والمرادُ بالحُسْنى الجنَّةُ . وقيل : الفَعْلَة الحسنى .

الرابع : نصبُه على التفسيرِ . قاله الفراء . يعني التمييزَ . وهو بعيدٌ .

وقرأ ابن عباس ومسروقٌ بالنصبِ والإضافةِ . وفيها تخريجان ، أحدُهما : أنَّ المبتدأَ محذوفٌ ، وهو العاملُ في " جزاءَ الحسنى " التقديرُ : فله الجزاءُ جزاءَ الحسنى . والثاني : أنه حَذَفَ التنوينَ لالتقاءِ الساكنين كقوله :

3196- . . . . . ولا ذاكرَ اللهَ إلاَّ قليلا

ذكره المهدويُّ .

وقرأ عبد الله وابن أبي إسحاق " جزاءً " مرفوعاً منوناً على الابتداء . و " الحُسْنى " بدلٌ أو بيان ، أو منصوبةٌ بإضمار " أَعْني " ، أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ .

و " يُسْراً " نعتُ مصدرٍ محذوفٍ ، أي : قولاً ذا يُسْرٍ . وقرأ أبو جعفر بضمِّ " اليُسْر " حيث وَرَدَ .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) ﴾

قوله : ﴿ مَطْلِعَ ﴾ : العامَّةُ على كسر اللام ، والمضارعُ يَطْلُع بالضم ، فكان القياسُ فتحَ

اللامِ في المَفْعَل مطلقاً ، ولكنها مع أخواتٍ لها سُمع فيها الكسر ، وقياسُها الفتح . وقد قرأ ابن الحسن وعيسى وابن محيصن ، ورُوِيَتْ عن ابن كثير وأهلِ مكة . قال الكسائي : " هذه اللغةُ قد ماتَتْ " يعني : أي : بكسر اللام من المضارع والمفْعِل . وهذا يُشْعِرُ أنَّ مِن العرب مَنْ كان يقول : طَلَعَ يَطْلِعُ بالكسرِ في المضارع .

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ﴾

قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ : الكافُ : إمَّا مرفوعةُ المحلِّ ، أي : الأمر كذلك . أو منصوبتُه ، أي : فَعَلْنا مثلَ ذلك .

(140/478)

قوله : ﴿ بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ " بين " هنا يجوز أن يكونَ ظرفاً ، والمفعولُ محذوفٌ ، أي : بلغ غَرَضَه ومقصودَه ، وأَنْ يكونَ مفعولاً به على الاتِّساع ، أي : بلغ المكانَ الحاجزَ بينهما . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح سين " السَّدَّين " و " سَدًّا " في هذه السورةِ ، وحفص فتح الجميع ، أعني موضعَيْ هذه السورة وموضعَيْ سورةِ يس . وقرأ الأخَوان بالفتح في " سَدًّا " في سورتيه وبالضمِّ في " السُّدَّين " . والباقون بالضم في الجميع . فقيل : هما بمعنى واحد . / وقيل : المضمومُ ما كان من فِعْلِ اللهِ تعالى ، والمفتوحُ ما كان مِنْ فِعْلِ الناس . وهذا

مرويٌ عن عكرمةَ والكسائي وأبي عبيد . وهو مردودٌ : بأن السَّدَّيْن في هذه السورة جَبَلان ، سَدَّ ذو القرنين بينهما بسَدّ ، فهما مِنْ فِعْلِ اللهِ ، والسَّدُّ الذي فعله ذو القرنين مِنْ فِعْل المخلوق . و " سَدّاً " في يس مِنْ فِعْلِ الله تعالى لقوله : " وجَعَلْنا " ، ومع ذلك قُرِئ في الجميع بالفتح والضمّ . فَعُلِم أنهما لغتان كالضَّعْف والضُّعف والفَقْر والفُقْر . وقال الخليل : المضمومُ اسمٌ ، والمفتوحُ مصدرٌ . وهذا هو الاختيارُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 540.545 ﴾

(141/478)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قرن)

القَرْن / : الرَّوْق من الحيوان ، وموضعه من الإِنسان ، وأَعلى الجبل ، وناحية الشمس أَو أَعلاها أَو أَوّل شُعاعها ، ومن القوم : سيّدهم ، ومن الكلاّ : خيره أَو أَنَفُه الَّذى لم يوطأ ، والقوم المقترنون فى زمن واحد ، وأربعون سنة أَو عشرون أَو ثلاثون أَو ستُّون أَو سبعون أَو ثمانون أَو مائة وعشرون أَو مائة سنة ، أَقوال ، وأَصحّها الأَخير ؛ لقوله صلَّى الله عليه

وسلَّم لغلام : عِشْ قرنا ، فعاش مائة سنة .

وذو القَرْنين : إسكندر الرومىّ ؛ لأَنَّهم ضربوا رأْسه حين دعا إلى الله تعالى ، أَو لأَنه بلغ قُطْرَى الأَرض ، أَو لضَفِيرتين كانتا له ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ .

وقول النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم لعلىّ رضى الله عنه : "إنّ لك بيتا فى الجنة – ويروى : كنزا – وإنّك لذو قرنَيْها" أَى ذو طَرَفيها ، أَى ذو قرنَى والأُمَّة ، فأَضمر وإن لم يتقدَّم لها ذكر ، أَو ذو جبليها ، أَى الحسن والحسين ، أَو ذو شَجَّتين فى رأْسه إحداهما من عمرو ابن وُدّ ، والأُخرى من ابن مُلْجَم ، وهذا أَصحّ .

والقرن أَيضاً : أُمَّة بعد أُمَّة ، وقال تعالى : ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ .

وقَرَن بين الشيئين : جمع .

وقَرَّنَ للتكثير ، قال تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ أَى مقرونين .

والاقتران : الازدواج فى كونه اجتماع شيئين أَو أَشياء فى معنى من المعانى ، قال تعالى : ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ .

والقرين جاءَ فى القرآن لأَربعة معان :

الأَول – بمعنى الشريك والمعين : ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قِرِيناً ﴾ ، وقال : ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أَى بئس المعين .

الثانى – بمعنى الكرام الكاتبين : ﴿ قال قرينه ﴾ ، ﴿ وقَالَ قَرِينه ﴾ .

الثالث .

(142/478)

بمعنى الشياطين الموسوسين : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ ، ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ، أَى موسوس .

الرابع – بمعنى الشياطين تحت تسخير سليمان عليه السَّلام مقيَّدين : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 260 . 261 ﴾

(143/478)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ﴾

أقوامٌ هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل مغرب الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم . . كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد : منهم الغالب عليهم طلوع شموسهم ، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقّهم ، وآخرون لهم من شموس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 413 ﴾

(144/478)

قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ حتى إذا بلغ ﴾ . في مسيره ذلك ﴿ بين السدين ﴾ أي الجبلين المانعين من وراءهما من الوصول منهما إلى من أمامهما وهما بمنقطع أرض الترك مما يلي بلاد أرمينية وآذربيجان ،

أملسان يزلق عليهما كل شيء ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم بفتح السين ، والباقون بضمهما ، فقيل : هما بمعنى واحد ، وقيل : المضموم من فعل الله ، والمفتوح من فعل الناس .

(145/478)

﴿ وجد من دونهما ﴾ أي بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما إلى الجهة التي أتى منها ذو القرنين ﴿ قوماً ﴾ أي أقوياء لغتهم في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم من بقية البلاد ، فهم لذلك ﴿ لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ أي لا يقربون من أن يفهموه ممن مع ذي القرنين فهماً جيداً كما يفهم غيرهم ، ودل وصفهم بما يأتي على أنهم يفهمون فهماً ما بعد بُعد ومحاولة طويلة ، لعدم ماهر بلسانهم ممن مع ذي القرنين ، وعدم ماهر منهم بلسان أحد ممن معه ، وهذا يدل على أن بينهم وبين بقية سكان الأرض غير يأجوج ومأجوج براري شاسعة ، وفيافي واسعة ، منعت من اختلاطهم بهم ، وأن تطيعهم بلسان غيرهم بعيد جداً لقلة حفظهم لخروج بلادهم عن حد الاعتدال ، أو لغير ذلك ، ويلزم من ذلك أنهم لا يكادون يفهمون غيرهم شيئاً من كلامهم ، وذلك معنى قراءة حمزة والكسائي بضم التحتانية وكسر القاف ، ودل على أن عدم فهمهم وأفهامهم مقيد بما مضى قوله :

﴿ قالوا ﴾ أي مترجموهم أو جيرانهم - الذين من دونهم - كما في مصحف ابن مسعود ممن يعرف بعض كلامهم ، أو بالإشارة كما يخاطب إليكم : ﴿ يا ذا القرنين ﴾ مسنا الضر ﴿ إن يأجوج ومأجوج ﴾ وهما قبيلتان من الناس من أولاد يافث ، لا يطاق أمرهم ، ولا يطفأ جمرهم ، وقد ثبت في الصحيح في حديث بعث النار أنهم من ذرية آدم عليه السلام ﴿ مفسدون في الأرض ﴾ بأنواع الفساد ﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ نخرجه لك من أموالنا - هذا على قراءة الجماعة ، وزاد حمزة والكسائي ألفاً ، فقيل : هما بمعنى واحد ، وقيل : بل الخرج ما تبرعت به ، والخراج بالألف ما لزمك .

﴿ على أن تجعل ﴾ في جميع ما ﴿ بيننا وبينهم ﴾ من الأرض التي يمكن توصلهم إلينا منها بما آتاك الله من المكنة ﴿ سداً ﴾ يصل بين هذين الجبلين ﴿ قال ﴾ بعفة وديانة وقصد للخير : ﴿ ما مكني ﴾ .

(146/478)

ولما كان لمكنته حالتان : إحداهما ظاهرة ، وهي ما شوهد من فعله بعد وقوعه ، وباطنة ولا يقع أحد عليها بحدس ولا توهم ، لأنها مما لم يؤلف مثله ، فلا يقع المتوسم عليه ، قرأ ابن كثير بإظهار النون في ﴿ مكنني ﴾ وغيره بالإدغام ، إشارة إليهما .

ولما كان النظر إلى ما يقع المكنة فيه أكثر ، قدم ضميره فقال : ﴿ فيه ربي ﴾ أي المحسن إليّ بما ترون من الأموال والرجال ، والفهم في إتقان الأمور ، والتوصل إلى جميع الممكن للمخلوق ﴿ خير ﴾ أي من خرجكم الذي تريدون بذله لمكنتي كما قال سليمان عليه السلام ﴿ فما آتانيَ الله خير مما آتاكم ﴾ [النمل : 36] ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ أي آلات وعمال أتقوى بها في فعل ذلك ، فإن أهل البلاد أخبر بما يصلح في هذا العمل من بلادهم وما معي إنما هو للقتال وما يكون من أسبابه ، لا لمثل هذا ﴿ أجعل بينكم ﴾ أي بين ما تختصون به ﴿ وبينهم ردماً ﴾ أي حاجزاً حصيناً موثقاً بعضه فوق بعض ، مع التلاصق المتلاحم الموجب لأن لا يميز بعضه من بعض وهو أعظم من السد ؛ قال البغوي : فحفر له الأساس حتى بلغ الماء وجعل حشوه الصخر وطينه النحاس يذاب فيصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 503.504 ﴾

(147/478)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة يأجوج ومأجوج :

من الإسرائيليات التي اتسمت بالغرابة ، والخروج عن سنة الله في الفطرة ، وخلق بني آدم ما ذكره بعض المفسرين في تفاسيرهم عند قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ 1 .

فقد ذكروا عن يأجوج ومأجوج الشيء الكثير من العجائب والغرائب ، قال السيوطي في "الدر المنثور" 2 : أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عدي ، وابن عساكر ، وابن النجار عن حذيفة قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ، ومأجوج ، فقال : "يأجوج ومأجوج أمة ، كل أمة أربعمائة ألف أمة ، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه ، كلٌّ حمل السلاح" قلت : يا رسول الله ، صفهم

---

1 الكهف : 94 .

2 ج5 ص 250 ، 251 .

لنا ، قال : "هم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز" قلت : وما الأرز ؟ قال : "شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء" ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ، ولا حديد ، وصنف منهم ، يفترش إحدى أذنيه ،

ويلتحف بالأخرى ، لا يمرون بفيل ، ولا وحش ، ولا جمل ، ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام وساقتهم يشربون أنهار المشرق ، وبحيرة طبرية" .

وقد ذكر ابن جرير في تفسيره هذه الرواية وغيرها من الروايات الموقوفة ، وكذلك صنع القرطبي في تفسيره ، وإذا كان بعض الزنادقة استباحوا لأنفسهم نسبة هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف استباح هؤلاء الأئمة ذكر هذه المرويات المختلقة المكذوبة على رسول الله في كتبهم ؟ !

وهذا الحديث المرفوع نص الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في موضوعاته وغيره على أنه موضوع1 ، ووافقه السيوطي في اللآلئ ، فكيف يذكره في تفسيره ولا يعقب عليه ؟ !

وحق له أن يكون موضوعا ؛ فالمعصوم صلى الله عليه وسلم أجلُّ من أن يروى عنه مثل هذه الخرافات ، وفي كتب التفسير من هذا الخلط وأحاديث الخرافة شيء كثير ، ورووا في هذا عن عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعن كعب الأحبار ، ولكي تتأكد أن ما رفع إلى رسول الله إنما هي إسرائيليات نسبت إلى النبي زورا وكذبا : نذكر لك ما روي عن كعب ، قال : "خلق يأجوج ومأجوج ، ثلاثة أصناف ، صنف كالأرز ، وصنف : أربعة أذرع طول ، وأربعة أذرع عرض ، وصنف يفترشون آذانهم ، ويلتحفون بالأخرى ، يأكلون مشائم2 نسائهم" .

وعلى حين نراهم يذكرون من هول وعظم خلقهم ما سمعت ، إذ هم يروون عن ابن عباس

رضي الله عنهما أنه قال : "إن يأجوج ومأجوج شبر ، وشبران ، وأطولهم ثلاثة أشبار ، وهم من ولد آدم" ، بل رووا عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بعثني الله ليلة أسرى بي إلى يأجوج ، ومأجوج ، فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا أن يجيبوني ، فهم في النار ، مع من عصى من ولد آدم وإبليس" والعجب أن السيوطي قال عن هذا

---

1 اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج1 ص 90 .

2 جمع مشيمة ، وهي : ما ينزل مع الجنين حين يولد وبها يتغذى في بطن أمه .

(149/478)

الحديث : إن سنده واهٍ ، ولا أدري لم ذكره مع وهاء سنده ؟ ! قال صاحب الدر : وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر والطبراني والبيهقي في البعث ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتاريس ، ونسك" .

قال : وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وصححه ، والبيهقي في البعث ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن

يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستفتحونه غدًا ، ولا يستثني فإذا أصبحوا وجدوه قد رجع كما كان ، فإذا أراد الله بخروجهم على الناس : قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستفتحونه إن شاء الله ويستثني 1 ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فيستقون المياه ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من في الأرض ، وعلونا من في السماء ، قسوا ، وعلوا ، فيبعث الله عليهم نغفا 2 في أعناقهم فيهلكون" ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فوالذي نفس محمد بيده : إن دواب الأرض لتسمن ، وتبطر ، وتَشْكَر شكرًا 3 من لحومهم" 4 .

ومهما كان سند مثل هذا ؛ فهو من الإسرائيليات عن كعب وأمثاله ، وقد يكون رفعها إلى النبي غلطًا وخطأً من بعض الرواة أو كيدًا يكيد به الزنادقة اليهود للإسلام ، وإظهار رسوله بمظهر من يروي ما يخالف القرآن ، فالقرآن قد نص بما لا يحتمل الشك على أنهم لم يستطيعوا أن يعلوا السد ، ولا أن ينقبوه ، قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ 5 .

---

1 يعني يقول : "إن شاء الله" لأنها في معنى الاستثناء ، يعني : إلا أن يشاء الله تعالى .

2 النَغَف "محرّكة" : دود يكون في أنوف الإبل والغنم واحدة نغفة .

3 أي : تسمن سمنًا .

4 الدر المنثور ج4 ص 251 .

5 الكهف : 97 .

(150/478)

وإليك ما ذكره في هذا الإمام الحافظ ، الناقد ، البصير ابن كثير في تفسيره ، قال بعد أن ذكر من رواه : وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة ، عن قتادة ، ثم قال : غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، وإسناده جيد قوي ، ولكن متنه في رفعه نكارة ؛ لأن ظاهر الآية : يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ، ولا من نقبه ؛ لإحكام بنائه وصلابته وشدته ، ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار ، أنهم قبل خروجهم يأتونه ، فيلحسونه ، حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون : غدا نفتحه ، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان ، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون كذلك ، فيصبحون وهو كما كان ، فيلحسونه ، ويقولون : غدا نفتحه ، ويلهمون أن يقولوا : إن شاء الله ، فيصبحون وهو كما فارقوه ، فيفتحونه ، وهذا متجه ، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب ، فإنه كان كثيرًا ما كان يجالسهن ويحدثنه ، فحدث به أبو هريرة ، فتوهَّم بعض الرواة عنه أنه مرفوع ، فرفعه ، والله أعلم 1 .

ومن الإسرائيليات المستنكرة في هذا ما روي : أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم ، فاختلط بالتراب ، وزعموا : أن آدم كان نائما فاحتلم ، فمن ثم اختلط منيه بالتراب ، ومعروف أن الأنبياء لا يحتملون ؛ لأن الاحتلام من الشيطان .

قال ابن كثير : وهذا قول غريب جدًّا ، لا دليل عليه ، لا من عقل ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب ، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة . والله أعلم2 .

والخلاصة :

إن أصحاب الكهف ، وذا القرنين ، ويأجوج ومأجوج ، حقائق ثابتة لا شك ، وكيف لا ، وقد أخبر بها الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الذي ننكره أشد الإنكار هذه الخرافات والأساطير التي حكيت حولهم ، وتدسست إلى المرويات الإسلامية ، والله ورسوله بريئان منها ، وإنما هي من أخبار بني إسرائيل وأكاذيبهم ، وتحريفاتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 248.245 ﴾

---

1 تفسير ابن كثير والبغوي ج5 ص 333 .

2 المصدر السابق .

فصل

قال الفخر :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾

وههنا مباحث :

الأول : قرأ حمزة والكسائي السدين بضم السين وسداً بفتحها حيث كان ، وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما في كل القرآن ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضم فيهما في كل القرآن ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السدين وسداً ههنا بفتح السين فيهما وضمها في يس في الموضعين قال الكسائي : هما لغتان ، وقيل : ما كان من صنعة بني آدم فهو السد بفتح السين ، وما كان من صنع الله فهو السد بضم السين والجمع سدد ، وهو قول أبي عبيدة وابن الأنباري ، قال صاحب الكشاف : السد بالضم فعل بمعنى مفعول أي هو مما فعله الله وخلقه ، والسد بالفتح مصدر حدث يحدثه الناس .

البحث الثاني : الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال ، وقيل : جبلان بين أرمينية وبين أذربيجان ، وقيل : هذا المكان في مقطع أرض الترك ، وحكى محمد بن جرير الطبري

في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنساناً إليه من ناحية الخزر فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع ، وذكر ابن (خرداذبة) في كتاب المسالك والممالك أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ، ثم إن ذلك الإنسان لما حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند ، قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(152/478)

البحث الثالث : أن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما أي من ورائهما مجاوزاً عنهما ﴿ قَوْماً ﴾ أي أمة من الناس : ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ يفقهون ﴾ بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يمكنهم تفهيم غيرهم والباقون بفتح الياء والقاف ، والمعنى أنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم وما كانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين ، ثم قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يا ذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ فإن قيل : كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله بقوله : ﴿ لاَّ

يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ والجواب : أن نقول كاد فيه قولان .

الأول : أن إثباته نفي ، ونفيه إثبات ، فقوله : ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ لا يدل على أنهم لا يفهمون شيئاً ، بل يدل على أنهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة .

والقول الثاني : أن كاد معناه المقاربة ، وعلى هذا القول فقوله : ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ أي لا يعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا .

وعلى هذا القول فلا بد من إضمار ، وهو أن يقال : لا يكادون يفهمونه إلا بعد تقريب ومشقة من إشارة ونحوها ، وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحة القول الأول في تفسير كاد .

البحث الرابع : في يأجوج ومأجوج قولان : الأول : أنهما اسمان أعجميان موضوعان بدليل منع الصرف .

والقول الثاني : أنهما مشتقان ، وقرأ عاصم يأجوج ومأجوج بالهمز .

وقرأ الباقون ياجوج وماجوج .

وقرىء في رواية آجوج ومأجوج ، والقائلون بكون هذين الاسمين مشتقين ذكروا وجوهاً .

الأول : قال الكسائي : يأجوج مأخوذ من تأجج النار وتلهبها فلسرعتهم في الحركة سموا بذلك ومأجوج من موج البحر .

الثاني : أن يأجوج مأخوذ من تأجج الملح وهو شدة ملوحته فلشدتهم في الحركة سموا

بذلك .

الثالث : قال القتيبي : هو مأخوذ من قولهم أج الظليم في مشيه يئج أجاً إذا هرول وسمعت حفيفه في عدوه .

(153/478)

الرابع : قال الخليل : الأج حب كالعدس والمج مج الريق فيحتمل أن يكونا مأخوذين منهما واختلفوا في أنهما من أي الأقوام فقيل : إنهما من الترك ، وقيل : ﴿ يَأْجُوجَ ﴾ من الترك ﴿ وَمَأْجُوجَ ﴾ من الجيل والديلم ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة بكون طول أحدهم شبراً ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخاليب في الأظفار وأضراساً كأضراس السباع واختلفوا في كيفية إفسادهم في الأرض فقيل : كانوا يقتلون الناس وقيل كانوا يأكلون لحوم الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئاً أخضر وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الأقسام ، والله أعلم بمراده ، ثم إنه تعالى حكى عن أهل ما بين السدين أنهم قالوا لذي القرنين : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّا ﴾ قرأ حمزة والكسائي خراجاً والباقون خرجاً .

قيل : الخراج والخرج واحد ، وقيل هما أمران متغايران ، وعلى هذا القول اختلفوا : قيل :

الخرج بغير ألف هو الجعل لأن الناس يخرج كل واحد منهم شيئاً منه فيخرج هذا أشياء وهذا أشياء ، والخراج هو الذي يجبيه السلطان كل سنة .

وقال الفراء : الخراج هو الاسم الأصلي والخرج كالمصدر وقال قطرب : الخرج الجزية والخراج في الأرض .

(154/478)

فقال ذو القرنين : ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى ﴾ أي ما جعلني مكيناً من المال الكثير واليسار الواسع خير مما تبذلون من الخراج فلا حاجة بي إليه ، وهو كما قال سليمان عليه السلام : ﴿ فَمَا ءاتانى اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءاتاكم ﴾ [النمل : 36] قرأ ابن كثير : (ما مكنني) بنونين على الإظهار والباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام ، ثم قال ذو القرنين : ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ أي لا حاجة لي في مالكم ولكن ﴿ أعينوني ﴾ برجال وآلة أبني بها السد ، وقيل المعنى : ﴿ أعينوني ﴾ بمال أصرفه إلى هذا المهم ولا أطلب المال لآخذه لنفسي ، والردم هو السد .

يقال : ردمت الباب أي سددته وردمت الثوب رقعته لأنه يسد الخرق بالرقعة والردم أكثر

من السد من قولهم : ثوب مردوم أي وضعت عليه رقاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 144.145 ﴾

(155/478)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ : الْخَرْجُ : الْجَزَاءُ وَالْأُجْرَةُ ، وَكَانَ مَلِكًا يَنْظُرُ فِي أُمُورِهِمْ ، وَيَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ ، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ جَزَاءً فِي أَنْ يَكُفَّ عَنْهُمْ مَا يَجِدُونَهُ مِنْ عَادِيَةِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَعَلَى الْمَلِكِ فَرْضُ أَنْ يَقُومَ بِحِمَايَةِ الْخَلْقِ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهِمْ ، وَسَدِّ فُرْجَتِهِمْ ، وَإِصْلَاحِ ثَغْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي تَفِيءُ عَلَيْهِمْ ، وَحُقُوقِهِمْ الَّتِي يَجْمَعُهَا خَزَنَتُهُمْ تَحْتَ يَدِهِ وَنَظَرِهِ ، حَتَّى لَوْ أَكَلَتْهَا الْحُقُوقُ ، وَأَنْفَدَتْهَا الْمُؤَنُ ، وَاسْتَوْفَتْهَا الْعَوَارِضُ ، لَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَعَلَيْهِ حُسْنُ النَّظَرِ لَهُمْ ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ : الْأَوَّلُ : أَلَّا يَسْتَأْثِرَ بِشَيْءٍ عَلَيْهِمْ .

الثَّانِي : أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ فَيُعِينُهُمْ .

الثَّالِثُ : أَنْ يُسَوِّيَ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ ، فَإِذَا فَنِيَتْ بَعْدَ هَذَا ذَخَائِرُ

الْخِزَانَةِ وَبَقِيَتْ صِفْرًا فَأَطْلَعَتْ الْحَوَادِثُ أَمْرًا بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَمْوَالِهِمْ ، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ فَأَمْوَالُهُمْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ ، وَتُصْرَفُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ .

(156/478)

فَهَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ قَالَ : لَسْت أَحْتَاجُ إلَيْهِ ، وَإِنَّمَا أَحْتَاجُ إلَيْكُمْ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ، أَيْ اخْدِمُوا بِأَنْفُسِكُمْ مَعِي ، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ عِنْدِي وَالرِّجَالَ عِنْدَكُمْ ؛ وَرَأَى أَنَّ الْأَمْوَالَ لَا تُغْنِي دُونَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ إنْ أَخَذُوهَا أُجْرَةً نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إلَيْهِ ، فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْأَخْذِ ، فَكَانَ التَّطَوُّعُ بِخِدْمَةِ الْأَبْدَانِ أَوْلَى .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابِ الْفَيْءِ وَالْخَرَاجِ وَالْأَمْوَالِ مِنْ شَرْحِ الْحَدِيثِ بَيَانًا شَافِيًا ، وَهَذَا الْقَدْرُ يَتَعَلَّقُ بِالْقُرْآنِ مِنْ الْأَحْكَامِ ، وَتَمَامُهُ هُنَالِكَ .

وَضَبْطُ الْأَمْرِ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ أَخْذُ مَالِ أَحَدٍ إلَّا لِضَرُورَةٍ تَعْرِضُ فَيُؤْخَذُ ذَلِكَ الْمَالُ جَهْرًا لَا سِرًّا ، وَيُنْفَقُ بِالْعَدْلِ لَا بِالِاسْتِئْثَارِ ، وَبِرَأْيِ الْجَمَاعَةِ لَا بِالِاسْتِبْدَادِ بِالرَّأْيِ .

وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(157/478)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾

بالفتح قرأ ابن كثير وابو عمرو وعاصم في رواية حفص . وقرأ الباقون بين السُّدين وبالضم ، واختلف فيهما على قولين .

أحدهما : أنهما لغتان معناهما واحد .

الثاني : أن معناهما مختلف .

وفي الفرق بينهما ثلاثة أوجه :

أحدها : أن السد بالضم من فعل الله عز وجل وبالفتح من فعل الآدميين .

الثاني : أنه بالضم الاسم ، وبالفتح المصدر ، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك . والسدان جبلان ، قيل إنه جعل الروم بينهما ، وفي موضعهما قولان :

أحدهما : فيما بين إرمينية وأذربيجان .

الثاني : في منقطع الترك مما يلي المشرق .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ أي من دون السدين ، وفي ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ قراءتان :

إحداهما : بفتح الياء والقاف يعني أنهم لا يفهمون كلام غيرهم .

والقراءة الثانية : بضم الياء وكسر القاف ، أي لا يفهم كلامهم غيرهم .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ وهما من ولد يافث بن نوح ، واسمهما مأخوذ من أجت النار إذا تأججت ، ومنه قول جرير :

وأيام أتين على المطايا . . . كأن سمومهن أجيج نارٍ

واسمها في الصحف الأولى ياطغ وماطغ . وكان أبو سعيد الخدري يقول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لاَ يَمُوتُ الرَّجُلُ منهُمْ حتى يُولَدُ لِصُلْبِهِ أَلْفُ رَجُلٍ " . واختلف في تكليفهم على قولين :

أحدهما : أنهم مكلفون لتمييزهم .

الثاني : أنهم غير مكلفين لأنهم لو كلفوا لما جاز ألاَّ تبلغهم دعوة الإسلام .

﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي : ﴿ خَرَاجاً ﴾ وقرأ الباقون ﴿ خَرْجاً ﴾ وفي اختلاف القراءتين ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الخراج الغلة ، والخرج الأجرة .

الثاني : أن الخراج اسم لما يخرج من الأرض ، والخرج ما يؤخذ عن الرقاب ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

الثالث : أن الخرج ما يؤخذ دفعة ، والخراج ثابت مأخوذ في كل سنة ، قاله ثعلب .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ يعني خير من الأجر الذي تبذلونه لي .

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بآلة ، قاله الكلبي .

الثاني : برجال ، قاله مقاتل .

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه الحجاب الشديد .

الثاني : أنه السد المتراكب بعضه على بعض فهو أكبر من السد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(159/478)

وقال ابن عطية :

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾

و" السدان " فيما ذكر أهل التفسير ، جبلان سدا مسالك تلك الناحية من الأرض ، وبين طرفي الجبلين فتح ، هو موضع الردم ، قال ابن عباس : الجبلان اللذان بينهما السد : أرمينية وأذربيجان ، وقالت فرقة : هما من وراء بلاد الترك ، ذكره المهدوي .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله غير متحقق ، وإنما هما في طريق الأرض مما يلي المشرق ويظهر من ألفاظ التواريخ ، أنه إلى ناحية الشمال ، وأما تعيين موضع فيضعف ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم : " السُّدين " بضم السين ، وكذلك " سُداً " حيث وقع ، وقرأ حفص عن عاصم بفتح ذلك كله من جميع القرآن ، وهي قراءة مجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي ، وقرأ ابن كثير " السَّدين " بفتح السين وضم " سداً " في يس ، واختلف بعد فقال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح هو المصدر ، وقال الكسائي : الضم والفتح لغتان بمعنى واحد ، وقرأ عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة ما كان من خلقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضم ، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح .

(160/478)

قال القاضي أبو محمد : ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرأ " بين السُّدين " بالضم وبعد ذلك " سَداً " بالفتح ، وهي قراءة حمزة والكسائي ، وحكى أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة

عكس ما قال أبو عبيدة ، وقال ابن أبي إسحاق : وما رأته عيناك فهو " سُد " بالضم ، وما لا يرى فهو " سَد " بالفتح ، والضمير في ﴿ دونهما ﴾ عائد على الجبلين ، أي : وجدهم في الناحية التي تلي عمارة الناس إلى المغرب ، واختلف في القوم ، فقيل : هم بشر ، وقيل جن ، والأول أصح من وجوه ، وقوله ﴿ لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ عبارة عن بعد السانهم عن ألسنة الناس ، لكنهم فقهوا وأفهموا بالترجمة ونحوها ، وقرأ حمزة والكسائي "يُفقهون" من أفقه ، وقرأ الباقون "يَفقهون" من فقه ، والضمير في ﴿ قالوا ﴾ : للقوم الذين من دون السدين ، و ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ : قبيلتان من بني آدم لكنهم ينقسمون أنواعاً كثيرة ، اختلف الناس في عددها ، فاختصرت ذكره لعدم الصحة ، وفي خلقهم تشويه : منهم المفرط الطول ، ومنهم مفرط القصر ، على قدر الشبر ، وأقل ، وأكثر ، ومنهم صنف : عظام الآذان ، الأذن الواحدة وبرة والأخرى زعرى يصيف بالواحدة ويشتو في الأخرى وهي تعمه ، واختلفت القراءة فقرأ عاصم وحده "يأجوج ومأجوج" بالهمز وقرأ الباقون : "ياجوج وماجوج" بغير همزة فأما من همز ، فاختلف : فقالت فرقة : هو أعجمي علتاه في منع الصرف : العجمة والتأنيث ، وقالت فرقة : هو معرب من أجج وأج ، علتاه في منع الصرف التعريف والتأنيث ، وأما من لم يهمز فإما أن يراهما اسمين أعجميين ، وإما أن يسهل من الهمز ، وقرأ رؤبة بن العجاج : "آجوج ومأجوج" بهمزة بدل الياء ، واختلف الناس في " إفسادهم " الذي وصفوهم به ، فقال سعيد بن عبد العزيز : " إفسادهم " : أكل بني آدم ،

وقالت فرقة " إفسادهم " إنما عندهم توقعاً ، أي سيفسدون ، فطلبوا وجه التحرز منهم ، وقالت فرقة : " إفسادهم " هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه

(161/478)

الإفساد المعلوم من البشر ، وهذا أظهر الأقوال ، لأن الطائفة الشاكية إنما تشكت من ضرر قد نالها ، وقولهم ﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب ، و" الخرج " : المجبي ، وهو الخراج ، وقال قوم : الخرج : المال يخرج مرة ، والخراج المجبي المتكرر ، فعرضوا عليه أن يجمعوا له أموالاً يقيم بها أمر السد ، قال ابن عباس ﴿ خرجاً ﴾ : أجراً وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم " خرجاً " وقرأ حمزة والكسائي " خراجاً " وهي قراءة طلحة بن مصرف والأعمش والحسن بخلاف عنه وروي في أمر ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ أن أرزاقهم هي من التنين يمطرونها ، ونحو هذا مما لم يصح ، وروي أيضاً أن الذكر منهم لا يموت حتى يولد له ألف ، والأنثى لا تموت حتى تخرج من بطنها ألف ، فهم لذلك إذا بلغوا العدد ماتوا ، ويروى أنهم يتناكحون في الطرق كالبهائم ، وأخبارهم تضيق بها الصحف ، فاختصرتها لضعف صحتها وقوله ﴿ قال ما مكني ﴾ الآية ، المعنى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله لي من القدرة والملك ، خير من خرجكم وأموالكم ، ولكن أعينوني بقوة

الأبدان ، ويعمل منكم بالأيدي ، وقرأ ابن كثير " ما مكنني " بنونين ، وقرأ الباقون " ما مكني " بإدغام النون الأولى في الثانية ، وهذا من تأييد الله تعالى لذي القرنين ، فإنه " تهدما " في هذه المحاورة إلى الأنفع الأنزه ، فإن القوم ، لو جمعوا له خرجاً لم يمنعه منهم أحد ، ولو كلوه إلى البنيان ، ومعونتهم بالقوة أجمل به ، وأمر يطاول مدة العمل ، وربما أربى على المخرج ، و" الردم " أبلغ من السد ، إذ السد كل ما سد به ، و" الردم " وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه ردم ثوبه : إذا رقعه برقاع متكاثفة ، بعضها فوق بعض ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

هل غادر الشعراء من متردم . . . أي من قول يركب بعضه على بعض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(162/478)

وقال ابن الجوزى :

﴿ حتى إِذا بلغ بين السدين ﴾

قال وهب بن منبه : هما جبلان منيفان في السماء ، من ورائهما البحر ، ومن أمامهما البلدان ، وهما بمنقطَع أرض التُّرك مما يلي بلاد أرمينية .

وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس قال : الجبلان من قِبَل أرمينية وأذربيجان .

واختلف القراء في "السدّين" فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم بفتح السين .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي بضمها .

وهل المعنى واحد ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدها : أنه واحد .

قال ابن الأعرابي : كل ما قابلك فسَدَّ ما وراءه ، فهو سَدٌّ ، وسُدٌّ ، نحو : الضَّعف والضُّعف ، والفَقر والفُقر .

قال الكسائي ، وثعلب : السَّد والسُّد لغتان بمعنى واحد ، وهذا مذهب الزجاج .

والثاني : أنهما يختلفان .

وفي الفرق بينهما قولان .

أحدهما : أن ما هو من فعل الله تعالى فهو مضموم ، وما هو من فعل الآدميين فهو مفتوح ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وأبو عبيدة .

قال الفراء : وعلى هذا رأيت المشيخة وأهل العلم من النحويين .

والثاني : أن السَّد ، بفتح السين : الحاجز بين الشيئين ، والسُدُّ ، بضمها : الغشاوة في العَيْن ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَجَد من دونهما ﴾ يعني : أمام السدين ﴿ قوماً لا يكادون يفقهون قولاً

﴿ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : "يَفْقَهُون قولاً" بفتح الياء ، أي : لا يكادون يفهمونه .

قال ابن الأنباري : قال اللغويون : معناه أنهم يفهمون بعد إبطاءٍ ، وهو كقوله : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : 71] .

قال المفسرون : وإنما كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "يُفْقِهُون" بضم الياء ، أراد : يُفْهِمُون غيرهم .

وقيل : كلَّم ذا القرنين عنهم مترجِمون ترجموا .

قوله تعالى : ﴿ إن يأجوج ومأجوج ﴾ هما : اسمان أعجميان ، وقد همزهما عاصم .

قال الليث : الهمز لغة رديئة .

(163/478)

قال ابن عباس : يأجوج رجل ، ومأجوج رجل ، وهما ابنا يافث بن نوح عليه السلام ، فيأجوج ومأجوج عشرة أجزاء ، وولد آدم كلُّهم جزء ، وهم شِبْر وشِبْران وثلاثة أشبار .

وقال عليّ عليه السلام : منهم مَنْ طوله شِبْر ، ومنهم من هو مُفْرِط في الطُّول ، ولهم من الشَّعر ما يواريهم من الحَرِّ والبَرْد .

وقال الضحاك : هم جيل من التُّرك .

وقال السدي : التُرك سرّية من يأجوج ومأجوج خرجت تغِير ، فجاء ذو القرنين فضرب السَّد ، فبقيت خارجه .

وروى شقيق عن حذيفة ، قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال : "يأجوج أُمَّة ، ومأجوج أُمَّة ، كل أُمَّة أربعمائة [ألف] أُمَّة ، لا يموت الرجُل منهم حتى ينظر إلى ألف ذَكَر بين يديه من صُلْبه كُلٌّ قد حمل السلاح ؛ قلت : يا رسول الله ، صِفْهُم لنا ، قال : "هم ثلاثة أصناف ، صنف منهم أمثال الأرز" ؛ قلت : يا رسول الله : وما الأرز ؟ قال : "شجر بالشام ، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء ؛ وصنف منهم عرضه وطوله سواء ، عشرون ومائة ذراع ، وهؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد ، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ، ويلتحف بالأخرى ولا يمرُّون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدّمتهم بالشام ، وساقّتهم بخراسان ، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية" " .

قوله تعالى : ﴿ مُفْسِدون في الأرض ﴾ في هذا الفساد أربعة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا يفعلون فِعْل قوم لوط ، قاله وهب بن منبّه .

والثاني : أنهم كانوا يأكلون الناس ، قاله سعيد بن عبد العزيز .

والثالث : يُخرِجون إلى الأرض الذين شَكَوْا منهم أيام الربيع ، فلا يَدَعون شيئاً أخضر إلا

أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم ، قاله ابن السائب .

والرابع : كانوا يقتلون الناس ، قاله مقاتل .

(164/478)

قوله تعالى : ﴿ فهل نَجْعَلُ لكَ خَرْجاً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : "خَرجاً" بغير ألف .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "خراجاً" بألف .

وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد ، قاله أبو عبيدة ، والليث .

والثاني : أن الخَرْجَ : ما تبرعت به ، والخراج : ما لزمك أداؤه ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

قال المفسرون : المعنى : هل نُخرج إليك من أموالنا شيئاً كالجُعل لك ؟

قوله تعالى : ﴿ ما مكَّني ﴾ وقرأ ابن كثير : "مكَّنَني" بنونين ، وكذلك هي في مصاحف مكة .

قال الزجاج : من قرأ : "مكَّنِي" بالتشديد ، أدغم النون في النون لاجتماع النونين .

ومن قرأ : "مكَّنني" أظهر النونين ، لأنهما من كلمتين ، الأولى من الفعل ، والثانية تدخل مع

الاسم المضمر .

وفي الذي أراد بتمكينه منه قولان .

أحدهما : أنه العِلْم بالله ؛ وطلب ثوابه .

والثاني : ما ملك من الدنيا .

والمعنى : الذي أعطاني الله خير مما تبذلون لي .

قوله تعالى : ﴿ فأعينوني بِقُوَّة ﴾ فيها قولان .

أحدهما : أنها الرجال ، قاله مجاهد ، ومقاتل .

والثاني : الآلة ، قاله ابن السائب .

فأما الرَّدْم ، فهو : الحاجز ؛ قال الزجاج : والرَّدْم في اللغة أكبر من السدِّ ، لأن الرَّدْم : ما جُعل بعضه على بعض ، يقال : ثوب مُرَدَّم : إذا كان قد رقِّع رقعة فوق رقعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(165/478)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾

وهما جبلان من قبل أرمينية وأَذْرَبِيجان .

روى عطاء الخراساني عن ابن عباس : "بين السدين" الجبلين أرمينية وأَذْرَبِيجان .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أي من ورائهما : ﴿ قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي "يُفْقِهُونَ" بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أي لا يفقهون غيرهم كلاماً .

الباقون بفتح الياء والقاف ، أي يعلمون .

والقراءتان صحيحتان ، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقِهون غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا ذا القرنين ﴾ أي قالت له أمة من الإنس صالحة : ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ .

قال الأخفش : من همز "يأجوج" فجعل الألفين من الأصل يقول : يأجوج يَفْعول ومأجوج مَفْعول كأنه من أجيج النار .

قال : ومن لا يهمز ويجعل الألفين زائدتين يقول : "ياجوج" من يَجَجت وماجوج من مَجَجت وهما غير مصروفين ؛ قال رؤبة :

لو أن ياجوجَ وماجوجَ مَعَا . . .

وَعادَ عادٌ واستجاشوا تُبَّعَا

ذكره الجوهري .

وقيل : إنما لم ينصرفا لأنهما اسمان أعجميان ، مثل طالوت وجالوت غير مشتقين ؛ علتاهما في منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث .

وقالت فرقة : هو معرب من أَجَّ وأَجَّجَ علتاه في منع الصرف التعريف والتأنيث .

وقال أبو عليّ : يجوز أن يكونا عربيين ؛ فمن همز "يأجوج" فهو على وزن يفعول مثل يربوع ، من قولك أَجَّت النارُ أي ضويت ، ومنه الأجيج ، ومنه ملح أجاج ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفاً مثل راس ، وأما "مأجوج" فهو مفعول من أَجَّ ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الهمزة ، ويجوز أن يكون فاعولاً من مَجَّ ، وترك الصرف فيهما للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة .

واختلف في إفسادهم ؛ فقال سعيد بن عبد العزيز : إفسادهم أكل بني آدم .

(166/478)

وقالت فرقة : إفسادهم إنما كان متوقعاً ، أي سيفسدون ، فطلبوا وجه التحرز منهم .

وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر ، والله أعلم .

وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنهم من ولد يافث .

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والبربر والسودان " وقال كعب الأحبار : احتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسِف فخلقوا من ذلك الماء ، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم .

وهذا فيه نظر ؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يحتلمون ، وإنما هم من ولد يافث ، وكذلك قال مقاتل وغيره .

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل " يعني يأجوج ومأجوج .

وقال أبو سعيد : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل ، ذكره القشيري .

وقال عبد الله بن مسعود : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال عليه الصلاة والسلام : " يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف (أمة) كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح" قيل : يا رسول الله صفهم لنا .

قال : "هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأَرْز شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع وصنف عرضه وطوله سواء نحواً من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس " وقال علي رضي الله تعالى عنه : وصنف منهم في طول شبر ، لهم مخالب وأنياب السباع ، وتداعي الحمام ، وتسافد البهائم ، وعواء الذئاب ، وشعور تقيهم الحرّ والبرد ، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها ، والأخرى جلدة يصيفون فيها ، يحفرون السدّ حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان ، حتى يقولوا : ننقبه غداً إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون ، ويتحصن الناس بالحصون ، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخاً بالدم ، ثم يهلكهم الله تعالى بالنغف في رقابهم .

ذكره الغزنوي .

وقال عليّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده " .

قلت : وقد جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة ، خرجه ابن ماجه في السنن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً فيعيده الله أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيَنْشِفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدمُ الذي أحفظ فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغَفاً في أقفائهم فيقتلهم بها " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَر شَكراً من لحومهم " قال الجوهري : شَكِرت الناقةُ تَشكَر شَكَراً فهي شكِرة ؛ وأشكر الضرع امتلأ لبناً .

وقال وهب بن منبه : رآهم ذو القرنين ، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا ، لهم مخاليب في مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع ، وأحناك كأحناك الإبل ، وهم هُلْبٌ عليهم من الشعر ما يواريهم ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان ، يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى ، وكل واحد منهم قد عرف أجله لا يموت حتى يخرج له من صلبه ألف

رجل إن كان ذكراً ، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى .

وقال السدي والضحاك : الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير ، فجاء ذو القرنين فضرب السدّ فبقيت في هذا الجانب .

قال السُّدي : بُني السدّ على إحدى وعشرين قبيلة ، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السدّ فهم التّرك .

وقاله قتادة .

(169/478)

قلت : وإذا كان هذا ، فقد نعت النبي صلى الله عليه وسلم الترك كما نعت يأجوج ومأجوج ، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التّرك قوماً وجوههم كالمجانِّ المُطْرَقَة يلبَسون الشّعر ويمشون في الشّعر " في رواية " ينتعلون الشّعر " خرجه مسلم وأبو داود وغيرهما .

ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم عددهم وكثرتهم وحِدَّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام : " اتركوا الترك ما تركوكم " وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى ، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم .

وروى أبو داود عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين قال ابن يحيى قال أبو معمر – وتكون من أمصار المسلمين – فإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطىء النهر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء " الغائط المطمئن من الأرض .

والبصرة الحجارة الرخوة وبها سميت البصرة .

وبنو قنطوراء هم الترك .

يقال : إن قنطوراء اسم جارية كانت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، ولدت له أولاداً جاء من نسلهم الترك .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب .

"خَرْجاً" أي جعلا .

وقرىء "خراجا" والخرج أخص من الخراج .

يقال : أَدِّ خَرْج رأسك وخَرَاج مدينتك .

وقال الأزهري : الخراج يقع على الضريبة ، ويقع على مال الفيء ، ويقع على الجزية ، وعلى الغلة .

(170/478)

والخراج اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال .

والخرج : المصدر .

وقوله تعالى : ﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ أي ردماً ؛ والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل .

وثوب مردم أي مرقع ، قاله الهروي .

يقال : ردمت الثلمة أردِمها بالكسر ردماً أي سددتها .

والردم أيضاً الاسم وهو السدّ .

وقيل : الردم أبلغ من السدّ إذ السدّ كل ما يسدّ به ، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع .

ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض .

ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ . . .

أي من قول يُركَّب بعضه على بعض .

وقرىء "سَدًّا" بالفتح في السين ؛ فقال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح المصدر .

وقال الكسائي : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد .

وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ما كان من خلقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضم ، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح .

ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرؤوا "سَدًّا" بالفتح ، وقبله "بين السُّدَّيْنِ" بالضم ، وهي قراءة حمزة والكسائي .

وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة .

وقال ابن أبي إسحاق : ما رأته عيناك فهو سُد بالضم ، وما لا ترى فهو سَدّ بالفتح .

الثانية : في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون ، وحبس أهل الفساد فيها ، ومنعهم من التصرف لما يريدونه ، ولا يتركون وما هم عليه ، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ المعنى قال لهم ذو القرنين : ما

بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينوني بقوّة الأبدان ؛ أي برجال وعمل منكم بالأبدان ، والآلة التي أبني بها الردم وهو السدّ .

(171/478)

وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة ؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان ، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل ، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج .

وقرأ ابن كثير وحده "مَا مَكَّنِنِي" بنونين .

وقرأ الباقون ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ .

الثانية : في هذه الآية دليل على أن المِلك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم ، وسدّ فرجتهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التي تفيء عليهم ، وحقوقهم التي تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق ، وأنفذتها المؤن ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ؛ وذلك بثلاثة شروط : الأول : ألا يستأثر عليهم بشيء .

الثاني : أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم .

الثالث : أن يسوّي في العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفراً فأطلعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير ، وتُصْرَف بتدبير ؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكفّ عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج ؛ قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي اخدموا بأنفسكم معي ، فإن الأموال عندي والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تغني عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوّع بخدمة الأبدان أولى .

وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سراً ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر .

والله تعالى الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(172/478)

وقال أبو السعود :

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾

بين الجبلين الذين سُدّ ما بينهما وهو منقطَعُ أرضِ الترك مما يلي المشرِق ، لا جبلا أرمينيةَ

وأَذَرْبيجان كما توهم ، وقرىء بالضم ، قيل : ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح ، وانتصاب بين على المفعولية لأنه مبلوغ وهو من الظروف التي تستعمل أسماءً أيضاً كما ارتفع في قوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ وانجرّ في قوله تعالى : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أي من ورائهما مجاوزاً عنهما ﴿ قَوْماً ﴾ أي أمة من الناس ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ لغرابة لغتِهم وقلة فِطنتِهم ، وقرىء من باب الإفعال أي لا يُفهمون السامعَ كلامَهم ، واختلفوا في أنهم من أي الأقوام ، فقال الضحاك : هم جيلٌ من الترك ، وقال السدي : التّركُ سريةٌ من يأجوجَ ومأجوجَ ، خرجت فضرب ذو القرنين السدّ فبقيت خارجَه فجميعُ الترك منهم ، وعن قتادة : أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلةً منهم وبقيت واحدة فسُمّوا التركَ لأنهم تركوا خارجين .

قال أهل التاريخ : أولادُ نوح عليه السلام ثلاثةٌ : سامٌ وحامٌ ويافثُ ، فسامٌ أبو العرب والعجمِ والروم ، وحامٌ أبو الحبشةِ والزّنج والنُّوبة ، ويافثُ أبو الترك والخَزَر والصقالبة ويأجوجَ ومأجوج .

(173/478)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي بواسطة مترجِمهم أو بالذات على أن يكون فهمُ ذي القرنين كلامَهم وإفهامُ كلامِه إياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب ﴿ يا ذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ قد ذكرنا أنهما من أولاد يافثَ بنِ نوحٍ عليه السلام ، وقيل : يأجوجُ من الترك ومأجوجُ من الجيل ، واختلف في صفاتهم فقيل : في غاية صِغرِ الجُثة وقِصَر القامة لا يزيد قدُّهم على شبر واحد ، وقيل : في نهاية عِظَم الجسم وطولِ القامة تبلغ قدُودهم نحوَ مائةٍ وعشرين ذراعاً وفيهم من عَرضُه كذلك ، وقيل : لهم مخالبُ وأضراسٌ كالسباع وهما اسمانِ أعجميان بدليل منْع الصرفِ ، وقيل : عربيان من أجّ الظليمُ إذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم ، وقد قرىء بغير همزةٍ ومُنع صرفُهما للتعريف والتأنيث ﴿ مُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلافِ الزروع ، وقيل : كانوا يخرُجون أيام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه ، وقيل : كانوا يأكلون الناسَ أيضاً ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ أي جُعْلاً من أموالنا ، والفاء لتفريع العَرض على إفسادهم في الأرض ، وقرىء خَراجا وكلاهما واحد كالنَّول والنوال ، وقيل : الخراجُ ما على الأرض والذمة والخَرْجُ المصدر ، وقيل : الخرج ما كان على كل رأس والخراجُ ما كان على البلد ، وقيل : الخرجُ ما تبرعْتَ به والخراج ما لزِمك أداؤُه ﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّا ﴾ وقرىء بالضم .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى ﴾ بالإدغام وقرىء بالفك ، أي ما مكّنني ﴿ فِيهِ رَبِّى ﴾ وجعلني فيه مكيناً وقادراً من المُلك والمال وسائرِ الأسباب ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي مما تريدون أن تبذلُوه إليّ من الخَرْج فلا حاجة بي إليه ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ أي بفَعَلة وصُنّاع يُحسنون البناءَ والعمل وبآلات لا بد منها من البناء ، والفاءُ لتفريع الأمر بالإعانة على خيرية ما مكّنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قَبولِ خَرْجهم ﴿ أَجْعَلَ ﴾ جواب للأمر ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ﴾ تقديمُ إضافةِ الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج ، لإظهار كمالِ العناية بمصالحهم كما راعَوْه في قولهم : بيننا وبينهم ﴿ رَدْمًا ﴾ أي حاجزاً حصيناً وبرزخاً متيناً وهو أكبرُ من السدّ وأوثقُ ، يقال : ثوبٌ مُرَدّم أي فيه رِقاع فوق رِقاعٍ وهذا إسعافٌ بمرامهم فوق ما يرجونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(175/478)

وقال الآلوسى :

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾

أي الجبلين ، قال في "القاموس" : السد الجبل والحاجز ؛ وإطلاق السد عليه لأنه سد فجا من الأرض ، وقيل : إطلاق ذلك عليه هنا لعلاقة المجاورة وليس بذاك ، وقرأ نافع .

وابن عامر .

وحمزة .

والكسائي .

وأبو بكر .

ويعقوب بضم السين ، والمعنى على ما قال الكسائي واحد ، وقال الخليل .

وس : السد بالضم الاسم وبالفتح المصدر ، وقال ابن أبي إسحاق : الأول ما رأيته عيناك والثاني ما لا تريانه ، وقال عكرمة .

وأبو عمرو بن العلاء .

(176/478)

وأبو عبيدة ؛ الأول ما كان من خلق الله تعالى لا دخل لصنع البشر فيه والثاني ما كان لصنع البشر دخل فيه ، ووجه دلالة المضموم على ذلك أنه بمعنى مفعول ولكونه لم يذكر فاعله فيه دلالة على تعين وعدم ذهاب الوهم إلى غيره فيقتضي أنه هو الله تعالى ، وأما دلالة المفتوح

على أنه من عمل العباد فللاعتبار بدلاله الحدوث وتصوير أنه ها هو ذا يفعله فليشاهد ، وهذا يناسب ما فيه مدخل العباد على أنه يكفي فيه فوات ذلك التفخيم ، وأنت تعلم أن القراءة بهما ظاهرة في توافقهما وعدم ذكر الفاعل والحدوث أمران مشتركان ، وعكس بعضهم فقال : المفتوح ما كان من خلقه تعالى إذ المصدر لم يذكر فاعله والمضموم ما كان بعمل العباد لأنه بمعنى مفعول والمتبادر منه ما فعله العباد وضعفه ظاهر ، وانتصاب ﴿ بَيْنَ ﴾ على المفعولية لأنه مبلوغ وهو من الروف المتصفة ما لم يركب مع آخر مثله ، وقيل : إنه ظرف والمفعول به محذوف وهو ما أراده أو نحوه ، وهذا السدان فيه يقرب من عرض تسعين من جهة الشمال وهو المراد بآخر الجربياء في كتاب حزقيال عليه السلام ، وقد ذكر بعض أحبار اليهود أن يأجود ومأجوج في منتهى الشمال حيث لا يستطيع أحد غيرهم السكنى فيه وهم في زاوية من ذلك لكنهم لم يتحقق عندهم أنهم فيما يلي المشرق من الشمال أو فيما يلي المغرب منه ، وهذا موافق لما ذكرناه في موضع السدين وهو الذي مال إليه كاتب جلبي ، وقيل : هما جبلاً أرمينية وأذربيجان ونسب ذلك إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وإليه يميل صنيع البيضاوي .

(177/478)

وتعقب بأنه توهم ولعل النسبة إلى الحبر غير صحيحة ، وكان من يزعم ذلك يزعم أن سد ذي القرنين هو السد المشهور في باب الأبواب وهو مع استلزامه أن يكون يأجوج ومأجوج الخزر والترك خلاف ما عليه المؤرخون فإن باني ذلك السد عندهم كسرى أنوشروان ، وقيل : اسفنديار وهو أيضاً لم يبق إلى الآن بل خرب من قبل هذا بكثير ، وزعم أن السد ويأجوج ومأجوج هناك وأن الكل قد تلطف بحيث لا يرى كما يراه عصرينا رئيس الطائفة المسماة بالكشفية السيد كاظم الرشتي ضرب من الهذيان وإحدى علامات الخذلان .

وقال ابن سعيد : إن ذلك الموضع حيث الطول مائة وثلاثة وستون درجة والعرض أربعون درجة ، وفيه أن في هذا الطول والعرض بلاد الخنا والجين وليس هناك يأجوج ومأجوج ، نعم هناك سد عظيم يقرب من مائتينوخمسين ساعة طولاً لكنه ليس بين السدين ولا بانيه ذو القرنين ولا يكاد يصدق عليه ما جاء في وصف سده ، ويمنع من القول بذلك أيضاً ما لا يخفى ، وقيل : هما بموضع من الأرض لا نعلمه وكم فيها من أرض مجهولة ولعله قد حال بيننا وبين ذلك الموضع مياه عظيمة ، ودعوى استقراء سائر البراري والبحاري غير مسلمة ، ويجوز العقل أن يكون في البحر أرض نحو أمريقا لم يظفر بها إلى الآن وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود وبعد إخبار الصادق بوجود هذين السدين وما يتبعهما يلزمنا الايمان بذلك كسائر ما أخبر به من الممكنات والالتفات إلى كلام المنكرين ناشيء من قلة الدين ﴿ وَجَدَ

مِن دُونِهِمَا ﴾ أي السدي ﴿ قَوْماً ﴾ أمة من الناس قيل هم الترك ، وزعم بعضهم أن القوم كانوا من الجان وهو زعم باطل لا بعيد كما قال أبو حيان .

(178/478)

﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ من أقوال اتباع ذي القرنين أو من أقوال من عداهم لغرابة لغتهم وبعدها عن لغات غيرهم وعدم مناسبتها لها مع قلة فطنتهم إذ لو تقاربت فهموها ولو كثرت فطنتهم فهموا ما يراد من القول بالقرائن فتعلموه ، والظاهر إبقاء القول على معناه المتبادر .

وزعم بعضهم أن الزمخشري جعله مجازاً عن الفهم مطلقاً أو عما من شأنه أن يقال ليشمل الإشارة ونحوها حيث قال : أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها ، وفيه نظر ، والظاهر أنه فهم من نفي يكاد إثبات الفهم لهم لكن يعسر وهو بناء على قول بعضهم : إن نفيها إثبات وإثباتها نفي وليس بالمختار .

وقرأ الأعمش .

وابن أبي ليلى .

وخلف .

وابن عيسى الأصبهاني .

وحمزة .

والكسائي ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ من الأفعال أي لا يكادون يفهمون الناس لتلعثمهم وعدم تبيينهم الحروف .

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ أي بواسطة مترجمهم فإسناد القول إليهم مجاز ، ولعل هذا المترجم كان من قوم بقرب بلادهم ، ويؤيد ذلك ما وقع في مصحف ابن مسعود قال : الذين من دونهم أو بالذات على أن يكون فهم ذي القرنين كلامهم وإفهامه إياهم من جملة من أتاه الله تعالى من الأسباب ، وقال بعضهم : لا يبعد أن يقال القائلون قوم غير الذين لا يفهمون قولاً ولم يقولوا ذلك على طريق الترجمة لهم وأيد بما في مصحف ابن مسعود .

وأياً ما كان فلا منافاة بين ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف : 93] .

وقالوا : ﴿ قَالُواْ يا ذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح عليه السلام وبه جزم وهب بن منبه وغيره واعتمده كثير من المتأخرين .

وقال الكسائي في العرائس : إن يافث سار إلى المشرق فولد له هناك خمسة أولاد جومر .

وبنرش .

وأشار .

واسقويل وميا شح فمن جومر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم ومن ميا شح جميع أصناف العجم ومن أشار يأجوج ومأجوج وأجناسهم ومن اسقويل جميع الترك ومن بنرش الفقجق واليونان .

وقيل : كلاهما من الترك وروى ذلك عن الضحاك ، وفي كلام بعضهم أن الترك منهم لما أخرجه ابن جرير .

وابن مردويه من طريق السدي من أثر قوي الترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد فبقوا خارجين عنه ، وفي رواية عبد الرزاق عن قتادة أن يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلة بني ذو القرنين السد على إحدى وعشرين وكانت واحدة منهم خارجة للغزو فبقيت خارجة وسميت الترك لذلك" وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الديلم ، وقيل من الجيل ، وعن كعب الأحبار أن يأجوج ومأجوج من ولد آدم عليه السلام من غير حواء وذلك أنه عليه السلام نام فاحتلم فامتزجت نطفته في التراب فخلق منها يأجوج ومأجوج ، ونقل النووي في تفاواه القول بأنهم أولاد آدم عليه السلام من غير حواء عن جماهير العلماء .

وتعقب دعوى الاحتلام بأن الأنبياء عليهم السلام لا يحتلمون ، وأجيب بأن المنفي الاحتلام بمن لا تحل لهم فيجوز أن يحتلموا بنسائهم فلعل احتلام آدم عليه السلام من القسم الجائز ، ويحتمل أيضاً أن يكون منه عليه السلام إنزال من غير أن يرى نفسه أنه يجامع كما يقع كثيراً لأبنائه ، واعترض أيضاً بأنه يلزم على هذا أنهم كانوا قبل الطوفان ولم يهلكوا به ، وأجيب بأن عموم الطوفان غير مجمع عليه فلعل القائل بذلك ممن لا يقول بعمومه وأنا أرى هذا القول حديث خرافة ، وقال الحافظ ابن حجر : لم يرد ذلك عن أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار ، ويرده الحديث المرفوع أنهم من ذرية نوح عليه السلام ونوح من ذرية حواء قطعاً . وكأنه عنى بالحديث غير ما روى عن أبي هريرة مرفوعاً ولد لنوح .

(180/478)

سام وحام ويافث فولد لسام العرب وفارس والروم وولد لحام القبط والبربر والسودان وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة فإنه صرح بأنه ضعيف ، وفي التوراة في السفر الأول في الفصل العاشر والتصريح بأن يأجوج من أبناء يافث .

وزعم بعض اليهود أن مأجوج اسم للأرض التي كان يسكنها يأجوج وليس اسماً لقبيلة وهو باطل بالنص ، والظاهر أنهما اسمان أعجميان فمنع صرفهما للعلمية والعجمة ؛ وقيل

عربيان من أج الظليم إذا أسرع وأصلهما لهمزة كما قرأ عاصم .

والأعمش .

ويعقوب في رواية وهي لغة بني أسد ووزنهما مفعول ، وبناء مفعول من ذلك مع أنه لازم لتعديه بحرف الجر .

وقيل : إن كان ما ذكر منقولاً فللتعدي وإن كان مرتجلاً فظاهر ، وقال الأخفش : إن جعلنا ألفهما أصلية فيأجوج يفعول ومأجوج مفعول كأنه من أجيج النار ، ومن لم يهمزهما جعلها زائدة فيأجوج من يججت ومأجوج من مججت ، وقال قطرب : في غير الهمز مأجوج فاعول من المج ويأجوج فاعول من اليج ، وقال أبو الحسن علي بن عبد الصمد السخاوي ؛ الظاهر أنه عربي وأصله الهمز وتركه على التخفيف .

وهو إما من الأجة وهو الاختلاف كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف : 99] أو من الأج وهو سرعة العدو قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 96] أو من الأجه وهي شدة الحر أو من أج الماء ياج أجوجاً إذا كان ملحقاً مراً انتهى .

وعلة منع الصرف على القول بعربيتهما العلمية والتأنيث باعتبار القبيلة .

وقرأ العجاج .

ورؤية ابنه ﴿ آجوج ﴾ بهمزة بدل الياء .

وربما يقال جوج بلا همزة ولا ياء في غير القررن وجاء بهذا اللفظ في كتاب حزقيال عليه السلام ﴿ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرض ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر ، وقيل بأخذ الأقوات وأكلها .

(181/478)

روى أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أوخضر إلا أكلوه ولا باساً إلا احتلوه ، وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن بيب الأوصافي أنه قال : كان فسادهم أنهم يأكلون الناس ، واستدل بإسناد مفسدون إلى يأجوج ومأجوج على أن أقل الجمع إثنان وليس بشيء أصلاً ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ أي جعلا من أموالن .

والفاء لتفريع العرض على إفسادهم في الأرض .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

وطلحة .

وخلف .

وابن سعدان .

وابن عيسى الأصبهاني وابن جبير الأنطاكي .

وحمزة .

والكسائي (خراجاً) بألف بعد الراء وكلاهما بمعنى واحد كالنول والنوال .

وقيل : الخرج المصدر أطلق على الخراج والخراج الاسم لما يخرج .

وقال ابن الاعرابي : الخرج على الرؤس يقال : أد خراج أرضك وقال ثعلب : الخرج اخص من الخراج .

وقيل الخرج المال يخرج مرة والخراج الخرج المتكرر وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك إداؤه ﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّا ﴾ حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

وأبو بكر سداً بضم السين .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى ﴾ بالإدغام ، وقرأ ابن كثير .

وحميد بالفك أي الذي مكنني ﴿ فِيهِ رَبِّى ﴾ وجعلني فيه سبحانه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي مما تريدون أن تبذلوه إلى من الخرج فلا حاجة بي إليه ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ أي بما يتقوى به على المقصود من الآلات كزبر الحديد أو من الناس أو الأعم منهما ، والفاء لتفريع الأمر بالإعانة على خيرية ما مكن الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم ﴿ أَجْعَلَ ﴾ جواب الأمر ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ﴾ تقديم إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه في قولهم ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ﴾ [الكهف : 94] ﴿ رَدْمًا ﴾ أي حاجزاً حصيناً وحجاباً متيناً وهو أكبر من السد وأوثق يقال : ثوب مردم أي فيه رقاع فوق رقاع ، ويقال : سحاب مردم أي متكاثف بعضه فوق بعض ، وذكر أن أصل معناه سد الثلمة بالحجارة ونحوها ، وقيل : سد الخلل مطلقاً ، ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم . . .

ثم أطلق على ما ذكر ، وقيل : هو والسد بمعنى ، ويؤيد الأول ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : هو كاشد الحجاب وعليه يكون قد وعدهم بالإسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه وهو اللائق بشأن الملوك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾

قرئ بفتح السين وضمها . أي : بين الجبلين اللذين سدّ ما بينهما : ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً ﴾ أي : من ورائهما أمة من الناس : ﴿ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : في أرضنا بالقتل والإضرار : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ أي : جعلاً نخرجه من أموالنا . وقرئ خراجاً وهو بمعناه : ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ أي : حاجزاً يمنع خروجهم علينا . ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي ما جعلني فيه مكيناً من المال والمُلك ، أجلُّ مما تريدون بذله . فلا حاجة بي إليه : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي : بعَمَلَةٍ وصنّاع وآلات : ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ أي : حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 70 . 71 ﴾

(184/478)

وقال ابن عاشور :

حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾

السدّ بضم السين وفتحها : الجبل .

ويطلق أيضاً على الجدار الفاصل ، لأنه يسد به الفضاء ، وقيل : الضم في الجبل والفتح في الحاجز .

وقرأه نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وأبو جعفر ، وخلف ، ويعقوب بضم السين وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم بفتح السين على لغة عدم التفرقة .

والمراد ﴿ بالسدين هنا الجبلان ، وبالسد المفرد الجدار الفاصل ، والقرينة هي التي عيّنت المراد من هذا اللفظ المشترك .

وتعريف السَّدَّيْنِ ﴾ تعريف الجنس ، أي بين سدّين معينين ، أي اتبع طريقاً آخر في غزوه حتى بلغ بين جبلين معلومين .

ويظهر أن هذا السبب اتّجه به إلى جهة غير جهتي المغرب والمشرق ، فيحتمل أنها الشمال أو الجنوب .

وعينه المفسّرون أنه للشمال ، وبنوا على أن ذا القرنين هو إسكندر المقدوني ، فقالوا : إن جهة السدّين بين (أرمينيا وأذربيجان) .

ونحن نبني على ما عيّناه في الملقب بذي القرنين ، فنقول : إن موضع السدين هو الشمال الغربي لصحراء (قوبِي) الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب (منغوليا) .

وقد وجد السد هنالك ولم تزل آثارهُ إلى اليوم شاهدَها الجغرافيون والسائحون وصورت صوراً شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية .

ومعنى ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ أنهم لا يعرفون شيئاً من قول غيرهم فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة بحيث لا يعرفها تراجمة ذي القرنين لأن شأن الملوك أن يتخذوا تراجمة ليترجموا لغات الأمم الذين يحتاجون إلى مخاطبتهم ، فهؤلاء القوم كانوا يتكلمون بلغة غريبة لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة فلا يوجد من يستطيع إفهامهم مراد الملك ولا هم يستطيعون الإفهام .

(185/478)

ويجوز أن يكون المعنى أنهم قوم متوغلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم .

وقرأ الجمهور ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ بفتح الياء التحتية وفتح القاف أي لا يفهمون قول غيرهم .

وقرأ حمزة ، والكسائي بضم الياء وكسر القاف أي لا يستطيعون إفهام غيرهم قولهم .

والمعنيان متلازمان .

وهذا كما في حديث الإيمان : "نسمع دويّ صوته ولا نفهم ما يقول" .

وهؤلاء القوم مجاورون ياجوج وماجوج ، وكانوا أضعف منهم فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد ياجوج وماجوج .

ولم يذكر المفسرون تعيين هؤلاء القوم ولا أسماء قبيلهم سوى أنهم قالوا : هم في منقطع بلاد الترك نحو المشرق وكانوا قوماً صالحين فلا شك أنهم من قبائل بلاد الصين التي تتاخم بلاد المغول والتّتر .

وجملة ﴿ قَالُوا ﴾ استئناف للمحاورة .

وقد بينا في غير موضع أن جمل حكاية القول في المحاورات لا تقترن بحرف العطف كما في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] الآية .

فعلى أول الاحتمالين في معنى ﴿ لاَيَكَادونَ يَفْقَهونَ قَولاً ﴾ أنهم لا يدركون ما يطلب منهم من طاعة ونظام ومع ذلك يعربون عما في نفوسهم من الأغراض مثل إعراب الأطفال ، وعلى الاحتمال الثاني أنهم أمكنهم أن يفهم مرادهم بعد لأي .

وافتتاحهم الكلام بالنداء أنهم نادوه نداء المستغيثين المضطرين ، ونداؤهم إياه بلقب ذي القرنين يدل على أنه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده .

ويأجوج ومأجوج أمة كثيرة العدد فيحتمل أن الواو الواقعة بين الاسمين حرف عطف فتكون أمة ذات شعبين ، وهم المغول وبعض أصناف التتار .

وهذا هو المناسب لأصل رسم الكلمة ولا سيما على القول بأنهما اسمان عربيان كما سيأتي فقد كان الصنفان متجاورين .

(186/478)

ووقع لعلماء التاريخ وعلماء الأنساب في اختلاف إطلاق اسمي المغول والتتار كل على ما يطلق عليه الآخر لعسر التفرقة بين المتقاربين منهما ، وقد قال بعض العلماء : إن المغول هم مأجوج بالميم اسم جد لهم يقال له أيضاً (سكيثوس) وربما يقال له (جيته) .

وكان الاسم العام الذي يجمع القبيلتين مأجوج ثم انقسمت الأمة فسميت فروعها بأسماء خاصة ، فمنها مأجوج ويأجوج وتتر ثم التركمان ثم الترك .

ويحتمل أن الواو المذكورة ليست عاطفة ولكنها جاءت في صورة العاطفة فيكون اللفظ كلمة واحدة مركبة تركيباً مزجياً ، فيتكون اسماً لأمة وهم المغول .

والذي يجب اعتماده أن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتر .

وقد ذكر أبو الفداء أن مأجوج هم المغول فيكون يأجوج هم التتر .

وقد كثرت التتر على المغول فاندمج المغول في التتر وغلب اسم التتر على القبيلتين .

وأوضح شاهد على ذلك ما ورد في حديث أمّ حبيبة عن زينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه " .

وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها .

وقد تقدم آنفاً .

ولا يعرف بالضبط وقت انطلاقهم من بلادهم ولا سبب ذلك .

ويقدّر أن انطلاقهم كان أواخر القرن السادس الهجري .

وتشتت ملك العرب بأيدي المغول والتتر من خروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بخارى سنة ست عشرة وستمائة من الهجرة ووصلوا ديار بكر سنة 628هـ ثم ما كان من تخريب هولاكو بغداد عاصمة ملك العرب سنة 660هـ .

ونظير إطلاق اسمين على حي مؤتلف من قبيلتين إطلاق طسم وجديس على أمّة من العرب البائدة ، وإطلاق السكاسك والسكرن في القبائل اليمنية ، وإطلاق هلال وزغبة على أعراب إفريقية الواردين من صعيد مصر ، وإطلاق أولاد وزاز وأولاد يحيى على حيّ بتونس بالجنوب الغربي ، ومَرَادة وفِرْجان على حي من وطن نابل بتونس .

وقرأ الجمهور ﴿ ياجوج وماجوج ﴾ كلتيهما بألف بعد التحتية بدون همز ، وقرأه عاصم بالهمز .

واختلف المفسرون في أنه اسم عربي أو معرّب ، وغالب ظني أنه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه في لغة تلك الأمة المناسب لحال مجتمعهم فاشتق لهما من مادة الأج ، وهو الخلط ، إذ قد علمت أن تلك الأمة كانت أخلاطاً من أصناف .

والاستفهام في قوله ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ ﴾ ، مستعمل في العَرض .

والخَرْج : المال الذي يدفع للملك .

وهو بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء في قراءة الجمهور .

ويقال فيه الخراج بألف بعد الراء ، وكذلك قرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف .

وقرأ الجمهور ﴿ سُدًّا بضم السين وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف بفتح السين .

وقوله ما مكَّنّي فِيه ربِّي خيرٌ ﴾ أي ما آتاني الله من المال والقوة خير من الخراج الذي عرضتموه أو خير من السد الذي سألتموه ، أي ما مكنني فيه ربي يأتي بخير مما سألتم ، فإنه لاح له أنه إن سد عليهم المرور من بين الصدفين تحيلوا فتسلقوا الجبال ودخلوا بلاد الصين ، فأراد أن يبني سُوراً ممتداً على الجبال في طول حدود البلاد حتى يتعذّر عليهم تسلق تلك

الجبال ، ولذلك سمّاه رَدْماً .

والردم : البناء المردّم .

شبه بالثوب المردّم المؤتلف من رقاع فوق رقاع ، أي سُداً مضاعفاً .

ولعله بَنى جدارين متباعدين وردم الفراغ الذي بينهما بالتُراب المخلوط ليتعذر نقبه .

ولما كان ذلك يستدعي عملة كثيرين قال لهم : ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ أي بقوّة الأبدان ، أراد تسخيرهم للعمل لدفع الضر عنهم .

وقد بنى ذو القرنين وهو (تْسين شي هوانق تي) سلطان الصين هذا الردم بناء عجيباً في القرن الثالث قبل المسيح وكان يعمل فيه ملايين من الخَدمَة ، فجعل طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة كيلومتر .

(188/478)

وبعضهم يقول : ألفا ومائتي ميل ، وذلك بحسب اختلاف الاصطلاح في تقدير الميل ، وجعل مبدأه عند البحر ، أي البحر الأصفر شرقي مدينة (بيكنغ) عاصمة الصين في خط تجاه مدينة (مُكْدن) الشهيرة .

وذلك عند عرض 4 ، 540 شمالاً ، وطول 02 ، 512 شرقاً ، وهو يلاقي النهر

الأصفر حيث الطول 50 ، 5111 شرقاً ، والعرض 50 ، 539 شمالاً ، وأيضاً في 375 عرض شمالي .

ومن هنالك ينعطف إلى جهة الشمال الغربي وينتهي بقرب 599 طولاً شرقياً و540 عرضاً شمالياً .

وهو مبني بالحجارة والآجر وبعضه من الطين فقط .

وسمكه عند أسفله نحو 25 قدماً وعند أعلاه نحو 15 قدماً وارتفاعه يتراوح بين 15 إلى 20 قدماً ، وعليه أبراج مبنية من القراميد ارتفاع بعضها نحو 40 قدماً .

وهو الآن بحالة خراب فلم يبق له اعتبار من جهة الدفاع ، ولكنه بقي علامة على الحد الفاصل بين المقاطعات الأرضية فهو فاصل بين الصين ومنغوليا ، وهو يخترق جبال (يابلوني) التي هي حدود طبيعية بين الصين وبلاد منغوليا فمنتهى طرَفه إلى الشمال الغربي لصحراء (قوبي) .

وقرأ الجمهور ﴿ مَكَّنِّي ﴾ بنون مدغمة ، وقرأه ابن كثير بالفك على الأصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(189/478)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾

السد : هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون أمراً معنوياً ، وقد يكون طبيعياً محسوساً كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة ، وما دام قد قال : ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ فالبَيْن هنا يقتضي وجود فجوة بين السدين يأتي منها العدو .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا . . ﴾ [الكهف : 93] أي : تحتهما ﴿ قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف : 93] أي : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون القول ؛ لأن الذي يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون كلاماً ، ولا يفهمون ما يقال لهم ، ومعنى : ﴿ لَّا يَكَادُونَ . . ﴾ [الكهف : 93] لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفي عنهم الفَهْم ، بل مجرد القُرْب من الفهم ، وكأنه لا أملَ في أن يفهمهم .

لكن ، يكف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : ﴿ قَالُواْ يَاذَا الْقَرْنَيْنِ . . ﴾ [الكهف : 94] فأثبت لهم القول ؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعلَ من حركاتهم كلاماً يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شكَّ أن هذه العملية احتاجت منه جهداً وصبراً حتى يُفهمهم ويفهم منهم ، وإلا فقد كان في وُسْعه أنْ ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير ، والذي لا يألو جَهْداً في نَفْع القوم وهدايتهم

.

والإشارة أصبحت الآن لغة مشهورة ومعروفة ، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

المراد بالقول هنا : دلالة مُعبِّرة تعبير القول ، فلا بُدَّ أنهم تعارفوا على شيء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

(190/478)

ويأجوج ومأجوج قوم خَلْف السدين أو الجبلين ، ينفذون إليهم من هذه الفجوة ، فيؤذونهم ويعتدون عليهم ؛ لذلك عرضوا عليه أن يجعلوا له ﴿ خَرْجاً ﴾ أي : أجراً وخراجاً يدفعونه إليه على أنْ يسدَّ لهم هذه الفجوة ، فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق – تبارك وتعالى – عن ذي القرنين أنه : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ . . . . ﴾ .

والقوْل هنا أيضاً قَوْل دلالة وإشارة تُفهمهم أنه في غِنىً عن الأجر ، فعنده الكثير من الخير

الذي أعطاه الله ، إنما هو في حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعِينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل

.

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكَّن في الأرض المالك للشيء يجب أن تكون حِسْبة لله ، وأنْ تُعين معونة لا تحوج الذي تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بل أعنه إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كأن تعلّمه أنْ يعمل بنفسه بدل أنْ تعطيه مثلاً مالاً ينفقه في يومه وساعته ثم يعود محتاجاً ؛ لذلك يقولون : لا تُعطِني سمكة ، ولكن علِّمني كيف أصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَس ، ولها عُمْر .

ولما كان ذو القرنين ممكّناً في الأرض ، وفي يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو في حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ . . ﴾ [الكهف : 95] أي : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصة ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ [الكهف : 95] ولم يقُلْ : سداً ؛ لأن السدّ الأصمَّ يعيبه أنه إذا حصلت رَجَّة مثلاً في ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى ؛ لذلك أقام لهم ردماً أي : يبني حائطاً من الأمام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردماً من التراب ليكون السد مَرِناً لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل " السُّوست " التي تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تردم حُفْرة مثلاً وتُسوّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أنْ يسمعَ ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(192/478)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾

قوله : ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ : قرأ الأخَوان بضمِّ الياء وكسرِ القافِ مِنْ أَقْفَهَ غيرَه ، فالمفعولُ محذوفٌ ، أي : لا يُفقهون غيرهم قولاً . والباقون بفتحها ، أي : لا يَفهمون كلامَ غيرِهم ، وهو بمعنى الأول . وقيل : ليس بمتلازمٍ ؛ إذ قد يَفْقَهُ الإنسانُ قولَ غيرِه ولا يَفْقَه غيرُه قولَه . وبالعكس .

قوله : ﴿ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ : قرأ عاصمٌ بالهمزة الساكنة ، والباقون بألفٍ صريحة . واخْتُلِف في ذلك فقيل : هما أعجميان . لا اشتقاقَ لهما ومُنعا من الصرف للعلَميَّة

والعُجْمة . ويحتمل أَنْ تكونَ الهمزةُ أصلاً والألفُ بدلٌ عنها ، أو بالعكسِ ؛ لأنَّ العربَ تتلاعب بالأسماءِ الأعجمية . وقيل : بل هما عربيَّان واختلفوا في اشتقاقِهما : فقيل : اشتقاقُهما مِنْ أَجيج النار وهو التهابُها وشِدَّةُ تَوَقُّدِها . وقيل : مِنَ الأَجَّة . وهو الاختلاطُ أو شدةُ الحَرِّ . وقيل : من الأَجِّ ، وهو سُرْعةُ العَدْوِ . ومنه قوله :

3197- . . . . . تَوَّجُ كما أَجَّ الظَّليمُ المُنَفَّرُ

وقيل : من الأُجاجِ ، وهو الماءُ المِلْحُ الزُّعاق . ووزنهما يَفْعُوْل ومَفْعُول . وهذا ظاهرٌ على قراءةِ عاصمٍ . وأمَّا قراءةُ الباقين فيُحتمل أن تكونَ الألفُ بدلاً من الهمزة الساكنة ، إلا أنَّ فيه أنَّ مِنْ هؤلاءِ مَنْ ليس أصلُه قَلْبَ الهمزةِ الساكنةِ وهم الأكثرُ . ولا ضَيْرَ في ذلك . ويُحتمل أَنْ تكونَ ألفُهما زائدتين ، ووزنُهما فاعول مِنْ يَجَّ ومَجَّ .

(193/478)

ويُحتمل أَنْ يكونَ ماجوج مِنْ ماج يموج ، أي : اضطرب ومنه المَوْجُ فوزنُه مَفْعول والأصل : مَوْجُوج . قاله أبو حاتم . وفيه نظرٌ من حيث ادِّعاءُ قَلْبِ حَرْفِ العلة وهو ساكنٌ .

وشذوذُه كشذوذِ " طائيّ " في النسب إلى طيِّئ . وعلى القولِ بكونِهما عربيين مشتقين

فَمَنْعُ صرفِهما للعَلَميَّةِ والتأنيثِ بمعنى القبيلة ، كما تقدَّم لك تحقيقهُ في سورة هود . ومثلُ هذا الخلافِ والتعليلِ جارٍ في سورة الأنبياء عليهم السلام . والهمزةُ في يَأْجوج ومَأْجوج لغةُ بني أسد . وقرأ رؤبة وأبوه العجاج "آجوج" .

قوله : "خَراجاً" قرأ ابن عامر "خَرْجاً" هنا وفي المؤمنين بسكون الراء ، والأخَوان "خراجاً" "فَخَراج" في السورتين بالألف ، والباقون كقراءةِ ابن عامر في هذه السورة ، والأول في المؤمنين وفي الثاني وهو "فَخَراج" كقراءة الأخوين . فقيل : هما بمعنى واحد كالنَّوْل والنَوال . وقيل : الخراجُ بالألف ما صُرِفَ على الأرضِ من الإتاوة كلَّ عام ، وبغير ألف بمعنى الجُعْل ، أي : نُعْطيك مِنْ أموالِنا مرةً واحدة ما تَسْتعين به على ذلك .

قال مكي رحمه الله : "والاختيارُ تَرْكُ الألف ؛ لأنهم إنما عَرَضوا عليه أن يُعطوه عَطِيَّة واحدة على بناءه ، لا أَنْ يُضْرَبَ ذلك عليهم كلَّ عام . وقيل : الخَرْج ما كان على الرؤوس ، والخراج ما كان على الأرض ، يقال : أَدَّ خَرْجَ رأسِكَ ، وخراجَ أرضِك . قاله ابن الأعرابي . وقيل : الخَرْجُ أخصُّ ، والخَراجُ أعَمُّ . قاله ثعلب . وقيل : الخَرْجُ مصدرٌ ، والخَراج اسمٌ لِما يُعطى ، ثم قد يُطلق على المفعول المصدرُ كالخَلْق بمعنى المخلوق .

قوله : ﴿ مَا مَكَّنِّي ﴾ : "ما" بمعنى الذي . وقرأ ابن كثير "مكَّنني" بإظهار النون . والباقون بإدغامِها في نون الوقاية للتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 547.545 ﴾

(194/478)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾

أي ما كانوا يهتدون إلا إلى لسانِ أنفسِهم ، وما كانوا يفقهون فقهَ غيرِهم فلجؤوا إلى عَبَرَاتهم في شرحِ قصتهم ، ورفعوا إليه – في باب ياجوج وماجوج – مظلمتَهم ، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤلهم ، وحقَّق لهم بُغْيَتَهم ، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية ، لَمَّا رأى أنَّ من الواجبِ عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 413 ﴾

(195/478)

قوله تعالى ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا

(97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ ءاتوني ﴾ بفتح الهمزة بعدها ساكنة ، ومدها على قراءة أي أعطوني وبهمزة وصل ، وهمزة بعدها ساكنة أي جيئوني وتعالوا إليّ فقد أجبتكم إلى سؤالكم ، ثم ابتدأ مغرياً على هذه القراءة فقال : ﴿ زبر الحديد ﴾ أي عليكم به فأحضروا إليّ قطعة ، فأتوه بذلك فردم ما فوق الأساس بعضه على بعض صفاً من الحديد وصفاً من الحطب ، قال البغوي : فلم يزل يجعل قطع الحديد على الحطب والحطب على الحديد .

﴿ حتى إذا ساوى ﴾ أي بذلك البناء ﴿ بين الصدفين ﴾ أي أعلى منقطع الجبلين الموصوفين ، سميا لتصادفهما – أي تقابلهما وتقاربهما – بالبناء على تلك الحالة عرضاً وطولاً ، وقراءة من فتح الصاد والدال – وهم نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم – دالة على أن تقابلهما في غاية الاستقامة ، فكأنهما جدار فتح فيه باب ، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر بضمهما دالة على أنه مع ذلك في غاية القوة حتى أن أعلاه وأسفله سواء ، وقراءة شعبة عن عاصم بالضم وإسكان الدال على أشد ثبات وأتقنه في كل منهما ، فلا ينتخر شيء منهما على طول الزمان بريح ولا غيرها من فساد في أحد الجانبين برخاوة

من سياخ أو غيره ﴿ قال ﴾ أي للصناع : ﴿ انفخوا ﴾ في الأكوار فنفخوا فأضرم فيه النار ، واستمر كذلك ﴿ حتى إذا جعله ﴾ أي كله ﴿ ناراً قال ﴾ للقوم : ﴿ ءاتوني ﴾ بالنحاس ﴿ أفرغ عليه ﴾ أي الحديد المحمى ﴿ قطراً ﴾ منه بعد إذابته ، فإن القطر : النحاس الذائب ، هذا في قراءة حمزة وأبي بكر عن عاصم بإسكان الهمزة ، وقراءة الباقين بفتح الهمزة ومدها بمعنى أعطوني النحاس .

(196/478)

ففعلوا ذلك فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً ، ثم قال الله تعالى : ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه لما أكمل عمله وأحكمه ما ﴿ اسطاعوا ﴾ أي يأجوج ومأجوج وغيرهم ﴿ أن يظهروه ﴾ أي يعلو ظهره لعلوه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ لثخنه وصلابته ، وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل ، وقد حكى ابن خرداذبه عن سلام الترجمان الذي أرسله أمير المؤمنين الواثق إليه حتى رآه أن ارتفاعه مد البصر ، ولأنهم لو احتالوا ببناء درج من جانبهم أو وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم ذلك لأنه لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ، ويؤيده أنهم يخرجون في

آخر الزمان بنقبه لا بظهوره ، ولا ينافي نفي الاستطاعة لنقبه ما رواه الإمام أحمد والترمذي في التفسير وابن ماجه في الفتن عن أبي رافع عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " إن يأجوج ومأجوج ليحفرن السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله فيستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس " – الحديث .

(197/478)

وفي حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش ـ رضى الله عنهم ـ ا عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم " ورويا ه عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ وفيه : " مثل هذا وعقد تسعين " فكأنه قيل : فما قال حين أفرغه ؟ قيل : ﴿ قال هذا ﴾ أي السد ﴿ رحمة من ربي ﴾ المحسن إليّ بإقداري عليه ومنع الفساد به ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ بقرب قيام الساعة ﴿ جعله دكاء ﴾ بإقدراهم على نقبه وهدمه وتسهيل ذلك عليهم ، والتعبير

بالمصدر المنون في قراءة الجماعة للمبالغة في دكه هو الذي أشارت إليه قراءة الكوفيين بالمد ممنوعاً من الصرف .

(198/478)

ولما كان هذا أمراً مستعظماً خارقاً للعادة ، علله بقوله : ﴿ وكان وعد ربي ﴾ الذي وعد به في خروج يأجوج ومأجوج واختراقهم الأرض وإفسادهم لها ثم قيام الساعة ﴿ حقاً ﴾ كائناً لا محالة ، فلذلك أعان على هدمه ، وعن قتادة قال : " ذكر لنا أن رجلاً – وفي رواية : عن رجل من أهل المدينة قال : يا رسول الله ! قد رأيت سد يأجوج ومأجوج ، قال انعته لي ، قال : كالبرد المحبر : طريقة سوداء وطريقة حمراء ، وفي وراية : طريقة حمراء من حديد وطريقة سوداء من نحاس ، وفي رواية أنه قال : انتهيت إلى أرض ليس لهم إلا الحديد يعملونه " – رواه الطبري وابن أبي عمر والطبراني في مسند الشاميين وابن مردويه عنه والبزار من وجه آخر من طريق أبي بكرة ـ رضى الله عنهم ـ – ذكر ذلك شيخنا ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ، وفي حديث فتح الباب من سيرة الحافظ أبي الربيع بن سالم الكلاعي وشيخه ابن حبيش – وكان أمير تلك الجيوش التي بها عبد الرحمن بن ربيعة في أيام عمر ـ رضى الله عنهم ـ – ما نصه : وحدث مطر بن ثلج التميمي قال : دخلت على عبد الرحمن

بن ربيعة بالباب وشهربراز عنده – يعني : وكان ملك الباب من جهة آل كسرى فأقبل رجل عليه شحوبة حتى جلس إلى شهربراز فتساءلا ، ثم إن شهربراز قال لعبد الرحمن : أيها الأمير ! أتدري من أين جاء هذا الرجل ؟ إني بعثته منذ سنين نحو السد لينظر لي ما حاله ومن دونه ، وزودته مالاً عظيماً ، وكتبت له إلى من يليني وأهديت له وسألته أن يكتب إلى من وراءه ، وزودته لكل ملك هدية ، ففعل ذلك بكل ملك بيني وبينه حتى انتهى إلى الملك الذي السد في ظهر أرضه ، فكتب له إلى عامله على ذلك البلد ، فأتاه فبعث معه بازياره ومعه عقابه ، فذكر أنه أحسن إلى البازيار ، قال : فتشكر لي البازيار فلما انتهينا إذا جبلان بينهما سد مسدود حتى ارتفع على الجبلين بعد ما استوى بهما ، وإذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده ، فنظرت إلى ذلك وتفرست فيه ، ثم

(199/478)

ذهبت لأنصرف فقال لي البازيار : على رسلك ! أكافيك أنه لا يلي ملك بعد ملك إلا تقرب إلى الله تعالى بأفضل ما عنده من الدنيا فيرمي به في هذا اللهب ، فشرح بضعة لحم معه فألقاها في ذلك الهواء وانقضت عليها العقاب وقال : إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء ، وإن لم تدركها حتى تقع فذلك شيء ، فخرجت علينا باللحم في مخالبها وإذا فيه ياقوتة

فأعطانيها ، وهي هذه ، فتناولها منه شهربراز وهي حمراء فناولها عبد الرحمن فنظر إليها ثم ردها إليه فقال شهربراز : هذه خير من هذه البلدة – يعني الباب – وايم الله ! لأنتم أحب إليّ ملكة من آل كسرى ، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني ، وايم الله ! لا يقوم لكم شيء ما وفيتم أو وفى ملككم الأكبر ، فأقبل عبد الرحمن على الرسول وقال : ما حال الردم وما شبهه ؟ فقال : هذا الثوب الذي على هذا الرجل ، وأشار إلى مطر بن ثلج وكان عليه قباء برود يمنية أرضه حمراء ووشيه أسود ، أو وشيه أحمر وأرضه سوداء ، فقال مطر : صدق والله الرجل ! لقد نفذ ورأى ، قال عبد الرحمن : أجل ! ووصف صفة الحديد والصفر وقرأ ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ إلى آخر الآية ، وقال عبد الرحمن لشهربراز : كم كانت هديتك ؟ قال : قيمة مائة ألف في بلادي هذه ، وثلاثة آلاف ألف أو أكثر في تلك البلدان – انتهى .

وقد ظهر أن ما تعنتوا به من قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين وما أدرج بينهما تبكيتاً لليهود الآمرين بذلك – دال من قصة موسى عليه السلام على قيام الساعة فصار كله أعظم ملزم لهم إن قبلوه ، وأوضح فاضح لعنادهم إن تركوه .

(200/478)

ولما انقضى ما سألوا عنه على أحسن وجه في أبلغ سياق وأبدع تناسب ، وأدرج في خلاله ما أدرج من التذكير والوعظ ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والتبكيت للكاتمين لما عندهم من العلم ، الناكبين عما استبان لهم من الطريق اللاحب والمنهج الواضح صنع القادر الحكيم الذي لا يستخفه ضجر فيستعجل ، ولا يعيبه أمر فيستمهل ، وختمه بما هو علم عظيم للساعة ، ذكر ما يكون إذإ ذاك وما يكون بعده إلى حصول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره ؛ ولما كان ذلك أمراً عظيماً ، دل عليه بالنون فقال عاطفاً على تقديره : فقد بان أمر ذي القرنين أي بيان ، وصدق في قوله ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ فإنه إذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التي نؤتيها ليأجوج ومأجوج دكاء فأخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 508.504 ﴾

(201/478)

فصل

قال الفخر :

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ﴾

اعلم أن ﴿ زُبَرَ الحديد ﴾ قطعة قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة ، قراءة الجميع آتوني بمد الألف إلا حمزة فإنه قرأ ائتوني من الإتيان ، وقد روى ذلك عن عاصم والتقدير ائتوني بزبر الحديد ثم حذف الباء كقوله : شكرته وشكرت له وكفرته وكفرت له ، وقوله : ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ فيه إضمار أي فأتوه بها فوضع تلك الزبر بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً ، واعلم أن هذا معجز قاهر لأن هذه الزبر الكثيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان على القرب منها ، والنفخ عليها لا يمكن إلا مع القرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها .

قال صاحب الكشاف : قيل بعد ما بين : ﴿ السَّدَّيْنِ ﴾ مائة فرسخ .

﴿ والصدفان ﴾ بفتحتين جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أي يتقابلان وقرىء :

﴿ الصدفين ﴾ بضمتين .

(202/478)

﴿ والصدفين ﴾ بضمة وسكون والقطر النحاس المذاب لأنه يقطر ، وقوله : ﴿ قِطْراً ﴾ منصوب بقوله : ﴿ أَفْرِغْ ﴾ وتقديره آتوني قطراً : ﴿ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ثم قال : ﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ فحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء وقرىء : ﴿ فَمَا اصطاعوا ﴾ بقلب السين صاداً ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أن يعلوه أي ما قدروا على الصعود عليه لأجل ارتفاعه وملاسته ولا على نقبه لأجل صلابته وثخانته ، ثم قال ذو القرنين : ﴿ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ فقوله هذا إشارة إلى السد ، أي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الاقتدار والتمكين من تسويته : ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى ﴾ يعني فإذا دنا مجيء القيامة جعل السد دكاً أي مدكوكاً مسوى بالأرض .

وكل ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندك وقرىء دكاء بالمد أي أرضاً مستوية ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ وههنا آخر حكاية ذي القرنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 146 ﴾

(203/478)

وقال الماوردى :

﴿ ءاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها قطع الحديد ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أنه فلق الحديد ، قاله قتادة .

الثالث : أنه الحديد المجتمع ، ومنه الزَّبور لاجتماع حروفه في الكتابة ، قال تبع اليماني :

ولقد صبرت ليعلموه وحولهم . . . زبر الحديد عشيةً ونهاراً

﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : الصدفان :

جبلان ، قال عمرو بن شاش :

كلا الصدفين ينفذه سناها . . . توقد مثل مصباح الظلام

وفيهما وجهان :

أحدهما : أن كل واحد منهما محاذ لصاحبه ، مأخوذ من المصادفة في اللقاء ، قاله

الأزهري .

الثاني : قاله ابن عيسى ، هما جبلان كل واحد منهما منعزل عن الآخر كأنه قد صدف

عنه .

ثم فيه وجهان :

أحدهما : : أن الصدفين اسم لرأسي الجبلين

الثاني : اسم لما بين الجبلين .

ومعنى قوله : ﴿ سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أي بما جعل بينهما حتى وارى رؤوسهما وسوّى بينهما .

﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ يعني أي في نار الحديد .

﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ يعني ليناً كالنار في الحر واللهب .

﴿ قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن القطر النحاس ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك .

الثاني : أنه الرصاص حكاه ابن الأنباري .

الثالث : أنه الصفر المذاب ، قاله مقاتل ، ومنه قول الحطيئة :

وألقى في مراجل من حديد . . . قدور الصُّفر ليس من البُرام

الرابع : أنه الحديد المذاب ، قاله أبو عبيدة وأنشد :

حُساماً كلون الملح صار حديده . . . حراراً من أقطار الحديد المثقب

وكان حجارته الحديد وطينه النحاس .

قوله عز وجل : ﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾

أي يعلوه . ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ يعني من أسفله ، قاله قتادة ، وقيل إن السد وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلي مؤخرهما البحر المحيط . وقيل : ارتفاع السد مقدار مائتي ذراع ، وعرضه نحو خمسين ذراعاً وأنه من حديد شبه المصمت . ورُوي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنّي رَأَيتُ السَّدَّ : " قَالَ : انعَتهُ " قَالَ : هُوَ كَالبَرَدِ المُحَبَّرَ ، طَرِيقُه سَوداءُ وَطَرِيقُه حَمْرَاءُ ، " قَالَ قَدْ رَأَيتَهُ

" . قوله عز وجل : ﴿ قَالَ هَذا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن عمله رحمة من الله تعالى لعباده .

الثاني : أن قدرته على عمله رحمة من الله تعالى له .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ قال ابن مسعود : وذلك يكون بعد قتل عيسى عليه السلام الدجال في حديث مرفوع . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّهُم يَدْأَبُونَ فِي حَفْرِهِم نَهَارُهُم حَتَّى إِذَا أَمْسَوْا وَكَادُوا يُبْصِرُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالُوا نَرْجِعُ غَداً فَنَحْفُرُ بَقِيَّتَهُ ، فَيَعُودُونَ مِنَ الغَدِ وَقَدِ اسْتَوَى كَمَا كَانَ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قَالُوا : غَداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ نَنْقُبُ بَقِيَّتَهُ ، فَيَرْجِعُونَ إِلَيهِ فَيَنْقُبُونَهُ فَإِذْنِ اللَّهِ ، فَيَخْرُجُونَ مِنهُ عَلَى النَّاسِ مِن حُصُونِهِم ، ثُمَّ يَرْمُونَ نبلاً إِلَى السَّمَاءِ فَيَرْجِعُ إِلَيهِم فِيهَا أَمْثَالُ الدِّمَاءِ ، فَيَقُولُونَ قَدْ ظَفَرْنَا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَقَهَرْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيهِم مَّا يَهْلِكُهُم

" . ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يوم القيامة ، قاله ابن بحر .

الثاني : هو الأجل الذي يخرجون فيه .

﴿ جَعَلَهُ دَكَّآءَ ﴾ يعني السد ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أرضاً ، قاله قطرب .

(205/478)

الثاني : قطعاً ، قاله الكلبي .

الثالث : هدماً حتى اندك بالأرض فاستوى معها ، قاله الأخفشس ، ومنه قول الأغلب :

هل غير غادٍ غاراً فانهدم . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(206/478)

وقال ابن عطية :

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾

(207/478)

قرأ عاصم وحمزة " ايتوني " بمعنى جيئوني ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي " آتوني " بمعنى أعطوني ، وهذا كله إنما هو استدعاء إلى المناولة ، لا استدعاء العطية والهبة ، لأنه قد ارتبط من قوله إنه لا يأخذ منهم الخرج ، فلم يبق الاستدعاء المناولة ، وإعمال القوة ، و" ايتوني " : أشبه بقوله : فأعينوني بقوة ، ونصب " الزبر " به على نحو قول الشاعر : أمرتك الخير ، حذف الجار فنصب الفعل وقرأ الجمهور " زبَر " بفتح الباء ، وقرأ الحسن بضمها ، وكل ذلك جمع زبرة ، وهي القطعة العظيمة منه ، والمعنى : فرصفه وبناه ، حتى إذا ساوى بين الصدفين ، فاختصر ذلك لدلالة الظاهر عليه ، وقرأ الجمهور " ساوى " وقرأ قتادة " سوى " ، و" الصدفان " : الجبلان المتناوحان ، ولا يقال للواحد صدف وإنما يقال صدفان لاثنين لأن أحدهما يصادف الآخر ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي " الصَّدَفين " بفتح الصاد وشدها وفتح الدال ، وهي قراءة عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو " الصُّدفين " بضم الصاد والدال ، وهي قراءة مجاهد والحسن ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بضم الصاد وسكون الدال ، وهي قراءة أبي رجاء وأبي عبد الرحمن وقرأ الماجشون " بفتح الصاد وضم الدال ، وقراءة قتادة " بين الصَّدْفين " ، بفتح الصاد وسكون الدال ، وكل ذلك بمعنى واحد : هما الجبلان المتناوحان ، وقيل " الصدفان " : السطحان الأعليان من الجبلين ، وهذا نحو من الأول ، وقوله ﴿ قال

انفخوا ﴾ إلى آخر الآية معناه أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ، ثم يوقد عليها ، حتى تحمى ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو الرصاص أو بالحديد ، بحسب الخلاف في القطر ، فيفرغه ، على تلك الطاقة المنضدة ، فإذا التأم واشتد استأنف وصف طاقة أخرى ، إلى أن استوى العمل ، وقرأ بعض الصحابة : " بقطر أفرغ عليه " ، وقال أكثر المفسرين : " القطر " : النحاس المذاب ، ويؤيد هذا

(208/478)

ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، إني رأيت سد يأجوج ومأجوج ، قال كيف رأيته ؟ قال رأيته كالبرد المحبر : طريقة صفراء ، وطريقة حمراء ، وطريقة سوداء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد رأيته " ، وقالت فرقة " القطر " : الرصاص المذاب ، وقالت فرقة الحديد المذاب ، وهو مشتق من قطر يقطر ، والضمير في قوله ﴿ استطاعوا ﴾ ل ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ [الكهف : 94] ، وقرأت فرقة " فما اسْطاعوا " بسكون السين وتخفيف الطاء ، وقرأت فرقة بشد الطاء ، وفيها تكلف الجمع بين ساكنين و ﴿ يظهروه ﴾ معناه : يعلونه بصعود فيه ، ومنه في الموطأ : والشمس في حجرتها قبل أن تظهر ، ﴿ وما اسطاعوا له نقباً ﴾ لبعد عرضه وقوته ولا

سبيل سوى هذين إما ارتقاء وإما نقب ، وروي أن في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ ، وفي عرضه خمسين فرسخاً ، وروي غير هذا مما لا ثبوت له ، فاختصرناه ، إذ لا غاية للتخرص ، وقوله في هذه الآية ﴿ انفخوا ﴾ يريد بالأكيار ، وقوله ﴿ اسطاعوا ﴾ بتخفيف الطاء ، على قراءة الجمهور قيل هي لغة بمعنى استطاعوا وقيل بل استطاعوا بعينه ، كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء ، فقالوا : ﴿ اسطاعوا ﴾ ، وحذف بعضهم منه الطاء فقال : " استاع " يستيع بمعنى استطاع يستطيع ، وهي لغة مشهورة وقرأ حمزة وحده " فما اسطّاعوا " بتشديد الطاء وهي قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو علي : هي غير جائزة ، وقرأ الأعمش : " فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا " بالتاء في الموضعين ، وقوله ﴿ هذا رحمة ﴾ الآية القائل : ذو القرنين ، وأشار بهذا إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به ، وقرأ ابن أبي عبلة " هذه رحمة " ، و " الوعد " : يحتمل أن يريد به يوم القيامة ، ويحتمل أن يريد به وقت خروج يأجوج ومأجوج ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " دكاً " مصدر دك يدك إذا هدم ورض ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " دكاء " بالمد ، وهذا

على التشبيه بالناقة الدكاء وهي التي لا سنام لها ، وفي الكلام حذف تقديره جعله مثل دكاء ، وأما النصب في ﴿ دكاً ﴾ فيحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً ل " جعل " ، ويحتمل أن يكون " جعل " بمعنى خلق ، وينصب ﴿ دكاً ﴾ على الحال ، وكذلك أيضاً النصب في قراءة من مد يحتمل الوجهين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(210/478)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ آتوني زُبَرَ الحديد ﴾

قرأ الجمهور : " ردما آتوني " أي : أعطوني .

وروى أبو بكر عن عاصم : " ردمٍ ايتوني " بكسر التنوين ، أي : جيئوني بها .

قال ابن عباس : احملوها إليَّ .

وقال مقاتل : أعطوني .

وقال الفراء : المعنى : إيتوني بها ، فلما ألقيت الياء زيدت ألف .

فأما الزُّبر ، فهي : القِطَع ، واحدتها : زُبْرَة ؛ والمعنى : فأَتَوه بها فبناه ، ﴿ حتى إذا ساوى ﴾ وروى أبان " إذا سوَّى " بتشديد الواو من غير ألف .

قال الفراء : ساوى وسوَّى سواء .

واختلف القراء في ﴿ الصَّدَفَين ﴾ فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "الصُّدُفَين" بضم الصاد والدال ، وهي : لغة حِمْيَر .

وروى أبو بكر والمفضل عن عاصم : "الصُّدْفين" بضم الصاد وتسكين الدال .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ، بفتح الصاد والدال جميعاً ، وهي لغة تميم ، واختارها ثعلب .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن يعمر : "الصَّدُفين" بفتح الصاد ورفع الدال .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والزهري ، والجحدري برفع الصاد وفتح الدال .

قال ابن الأنباري : ويقال : صُدَف ، على مثال نُغَر ، وكل هذه لغات في الكلمة .

قال أبو عبيدة : الصَّدَفان : جَنْبا الجبل .

قال الأزهري : يقال لجانبي الجبل : صَدَفان ، إذا تحاذيا ، لتصادفهما ، أي : لتلاقيهما .

قال المفسرون : حشا ما بين الجبلين بالحديد ، ونسج بين طبقات الحديد الحطب والفحم ، ووضع عليها المنافيخ ، ثم ﴿ قال انفخوا ﴾ فنفخوا ﴿ حتى إذا جعله ﴾ يعني : الحديد ، وقيل : الهاء ترجع إلى ما بين الصدفين ﴿ ناراً ﴾ أي : كالنار ، لأن الحديد إذا أحمي بالفحم والمنافيخ صار كالنار ، ﴿ قال آتوني ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن

عامر ، والكسائي : "آتوني"ممدودة؛ والمعنى : أعطوني .

وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : "إِيتوني" مقصورة؛ والمعنى : جيئوني به أُفرغه عليه .

(211/478)

وفي القِطْر أربعة أقوال .

أحدها : أنه النحاس ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أنه الحديد الذائب ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : الصُّفْر المُذاب ، قاله مقاتل .

والرابع : الرصاص ، حكاه ابن الأنباري .

قال المفسرون : أذاب القِطْر ثم صبَّه عليه ، فاختلط والتصق بعضه ببعض حتى صار جبلاً صلداً من حديد وقِطْر .

قال قتادة : فهو كالبرد المحبر ، طريقة سوداء وطريقة حمراء .

قوله تعالى : ﴿ فما اسطاعوا ﴾ أصله : فما "استطاعوا" فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحبُّوا التخفيف فحذفوا .

قال ابن الأنباري : إنما تقول العرب : اسطاع ، تخفيفاً ، كما قالوا : سوف يقوم ، وسيقوم ،

فأسقطوا الفاء .

قوله تعالى : ﴿ أن يَظْهَروه ﴾ أي : يعلوه ؛ يقال : ظهر فلان فوق البيت : إذا علاه ، والمعنى : ما قدروا أن يعلوه لارتفاعه وامّلاسه ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ من أسفله ، لشدته وصلابته .

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن يأجوج ومأجوج ليَحفرون السدّ كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه ، فيرونه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم على الناس ، حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً إن شاء الله ، ويستثني ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس " وذكر باقي الحديث ؛ وقد ذكرت هذا الحديث بطوله وأشباهه في كتاب "الحدائق" فكرهت التطويل ها هنا .

قوله تعالى : ﴿ قال هذا رحمة من ربِّي ﴾ لمّا فرغ ذو القرنين من بنيانه قال هذا .

وفيما أشار إليه قولان .

أحدهما : أنه الرَّدم ، قاله مقاتل ؛ قال : فالمعنى : هذا نِعْمة من ربِّي على المسلمين لئلا يخرجوا إليهم .

والثاني : أنه التمكين الذي أدرك به عمل السد ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد ربِّي ﴾ فيه قولان .

أحدهما : القيامة .

والثاني : وعده لخروج يأجوج ومأجوج .

قوله تعالى : ﴿ جعله دكّاً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "دكّاً" منوناً غير مهموز ولا ممدود .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "دكّاء" ممدودة مهموزة بلا تنوين .

وقد شرحنا معنى الكلمة في [الأعراف : 143] .

قوله تعالى : ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي : بالثواب والعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الحديد ﴾

أي أعطوني زبر الحديد وناولونيها .

أمرهم بنقل الآلة ، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التي بغير معنى الهبة ، وإنما هو استدعاء للمناولة ، لأنه قد ارتبط من قوله : إنه لا يأخذ منهم الخرج ، فلم يبق إلا استدعاء المناولة ، وأعمال الأبدان .

و﴿ زُبَرَ الحديد ﴾ قطع الحديد .

وأصل الكلمة الاجتماع ، ومنه زُبْرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله .

وزبرت الكتاب أي كتبته وجمعت حروفه .

وقرأ أبو بكر والمفضل "ردما ايتوني" من الإتيان الذي هو المجيء ؛ أي جيئوني بزبر الحديد ، فلما سقط الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر :

أَمَرْتُكَ الخيرَ . . . . . .

حذف الجار فنصب الفعل .

وقرأ الجمهور "زُبَرَ" بفتح الباء .

وقرأ الحسن بضمها ؛ وكل ذلك جمع زُبْرة وهي القطعة العظيمة منه .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا ساوى ﴾ يعني البناء فحذف لقوّة الكلام عليه .

﴿ بَيْنَ الصدفين ﴾ قال أبو عبيدة : هما جانبا الجبل ، وسميا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما .

وقاله الزهري وابن عباس ؛ كأنه يعرض عن الآخر ؛ من الصدوف ؛ قال الشاعر :

كلاَ الصَّدَفَين يَنْفُذُه سَنَاهَا . . .

تَوقَّدُ مثلَ مِصباحِ الظّلامِ

ويقال للبناء المرتفع : صدف تشبيه بجانب الجبل .

وفي الحديث : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشي .

قال أبو عبيد : الصدف والهدف كل بناء عظيم مرتفع .

ابن عطية : الصَّدَفَان الجبلان المتناوِحان ولا يقال للواحد صَدف ، وإنما يقال صَدَفان للاثنين ؛ لأن أحدهما يصادف الآخر .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي "الصَّدَفَيْنِ" بفتح الصاد وشدّها وفتح الدال ، وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز ، وهي اختيار أبي عبيدة لأنها أشهر اللغات .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو "الصُّدُفين" بضم الصاد والدال .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر "الصُّدْفَيْنِ" بضم الصاد وسكون الدال ، نحو الجُرْف والجُرُف .

فهو تخفيف .

وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال .

وقرأ قتادة "بين الصَّدْفَين" بفتح الصاد وسكون الدال ، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوِحان .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ انفخوا ﴾ إلى آخر الآية أي على زبر الحديد بالأكيار ، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر ، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة ، فإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى ، إلى أن استوى العمل فصار جبلاً صَلْداً .

قال قتادة : هو كالبُرْد المحبَّر ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء .

ويروى " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : يا رسول اللها إني رأيت سدّ يأجوج ومأجوج ، قال : "كيف رأيته" قال : رأيته كالبُرْد المحبَّر ، طريقة صفراء ،

وطريقة حمراء ، وطريقة سوداء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد رأيتَه" "

ومعنى ﴿ حتى إذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ أي كالنار .

ومعنى ﴿ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي أعطوني قطراً أفرغ عليه ، على التقديم والتأخير .

ومن قرأ "ائتوني" فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاساً .

والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب ، وأصله من القَطْر ؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء .

وقالت فرقة : القطر الحديد المذاب .

وقالت فرقة منهم ابن الأنباري : الرصاص المذاب .

وهو مشتق من قَطَرَ يَقطُرُ قَطْراً .

ومنه ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القطر ﴾ [سبأ : 12] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه ؛ لأنه أملس مستوٍ مع الجبل والجبل عالٍ لا يرام .

وارتفاع السدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعاً .

وروي : في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ ، وفي عرضه خمسون فرسخاً ؛ قاله وهب بن منبه .

﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً ﴾ لبعد عرضه وقوّته .

وروي في الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " وعقد وهب بن منبه بيده تسعين وفي رواية وحَلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها ؛ وذكر الحديث .

وذكر يحيى بن سلاّم عن سعد بن أبي عَرُوبة عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج يخرقون السدّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غداً فيعيده الله كأشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس " الحديث وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور .

وقيل : هي لغة بمعنى استطاعوا .

وقيل : بل استطاعوا بعينه كثير في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا : اسطاعوا .

وحذف بعضهم منه الطاء فقال : استاع يستيع بمعنى استطاع يستطيع ، وهي لغة مشهورة .

وقرأ حمزة وحده "فما اسطّاعوا" بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا ، ثم أدغم التاء في الطاء فشدّدها ، وهي قراءة ضعيفة الوجه ؛ قال أبو علي : هي غير جائزة .

وقرأ الأعمش "فَمَا اسْتَطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسَتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً" بالتاء في الموضعين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ القائل ذو القرنين ، وأشار بهذا إلى الردم ، والقوّة عليه ، والانتفاع به في دفع ضرر يأجوج ومأجوج .

وقرأ ابن أبي عَبْلة "هذِهِ رَحْمَةٌ مِنْ ربي" .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي يوم القيامة .

وقيل : وقت خروجهم .

(216/478)

﴿ جَعَلَهُ دَكَّآءَ ﴾ أي مستوياً بالأرض ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرض دَكًّا ﴾ [الفجر : 21] قال ابن عرفة : أي جعلت مستوية لا أكمة فيها ، ومنه قوله تعالى : "جَعَلَهُ دكّاً" قال اليزيدي : أي مستوياً ؛ يقال : ناقة دكاء إذا ذهب سنامها .

وقال القتبي : أي جعله مدكوكاً ملصقاً بالأرض .

وقال الكلبي : قطعاً متكسراً ؛ قال :

هل غيرُ غادٍ دَكَّ غاراً فانهدم . . .

وقال الأزهري : يقال دككته أي دققته .

ومن قرأ "دَكَّاءَ" أراد جعل الجبل أرضاً دكاء ، وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلاً وجمعها دكاوات .

قرأ حمزة وعاصم والكسائي "دكاء" بالمدّ على التشبيه بالناقة الدكاء ، وهي التي لا سنام لها ، وفي الكلام حذف تقديره : جعله مثل دكاء ؛ ولا بدّ من تقدير هذا الحذف .

لأن السدّ مذكر فلا يوصف بدكاء .

ومن قرأ "دَكًّا" فهو مصدر دَكَّ يدك إذا هَدم ورَضّ ؛ ويحتمل أن يكون "جعل" بمعنى خلق .

وينصب "دَكًّا" على الحال .

وكذلك النصب أيضاً في قراءة من مدّ يحتمل الوجهين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(217/478)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾

السد الحاجز والحائل بين الشيئين ، ويقال بالضم وبالفتح .

الردم : السد .

وقيل : الردم أكبر من السد لأن الردم ما جعل بعضه على بعض ، يقال : ثوب مردّم إذا كان قد رقع رقعة فوق رقعة .

وقيل : سد الخلل ، قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم . . .

أي خلل في المعاني فيسد ردماً .

الزبرة : القطعة وأصله الاجتماع ، ومنه زبرة الأسد لما اجتمع على كاهله من الشعر ، وزبرت الكتاب جمعت حروفه .

الصدفان جانبا الجبل إذا تحاذيا لتقاربهما أو لتلاقيهما قاله الأزهري ، ويقال : صدف بضمهما وبفتحهما وبضم الصاد وسكون الدال وعكسه .

قال بعض اللغويين : وفتحهما لغة تميم وضمهما لغة حمير .

وقال أبو عبيدة : الصدف كل بناء عظيم مرتفع .

القطر النحاس المذاب في قول الأكثرين .

وقيل : الحديد المذاب .

وقيل : الرصاص المذاب .

النقب مصدر نقب أي حفر وقطع .

الغطاء معروف وجمعه أغطية ، وهو من غطى إذا ستر .

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ .

﴿ سبباً ﴾ أي طريقاً أو مسيراً موصلاً إلى الشمال فإن ﴿ السدّين ﴾ هناك .

قال وهب : السدّان جبلان منيفان في السماء من ورائهما ومن أمامهما البلدان ، وهما بمنقطع أرض الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان .

وذكر الهروي أنهما جبلان من وراء بلاد الترك .

وقيل : هما جبلان من جهة الشمال لينان أملسان ، يزلق عليهما كل شيء ، وسمي الجبلان سدّين لأن كل واحد منهما سد فجاج الأرض وكانت بينهما فجوة كان يدخل منها يأجوج ومأجوج .

وقرأ مجاهد وعكرمة والنخعي وحفص وابن كثير وأبو عمرو ﴿ بين السدين ﴾ بفتح السين .

وقرأ باقي السبعة بضمها .

قال الكسائي هما لغتان بمعنى واحد .

وقال الخليل وسيبويه : بالضم الاسم وبالفتح المصدر .

(218/478)

وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ما كان من خلق الله لم يشارك فيه أحد فهو بالضم ، وما كان من صنع البشر فبالفتح .

وقال ابن أبي إسحاق ما رأت عيناك فبالضم ، وما لا يرى فبالفتح .

وانتصب ﴿ بين ﴾ على أنه مفعول به يبلغ كما ارتفع في ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ وانجر بالإضافة في ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ و ﴿ بين ﴾ من الظروف المتصرفة ما لم تركب مع أخرى مثلها ، نحو قولهم همزة بين بين .

﴿ من دونهما ﴾ من دون السدين و ﴿ قوماً ﴾ يعني من البشر .

وقال الزمخشري : هم الترك انتهى .

وأبعد من ذهب إلى أنهم جان .

قال الزمخشري : وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ، ونفى مقارنة فقههم ﴿ قولاً ﴾ وتضمن نفي فقههم .

وقال الزمخشري : لا يكادون يفهمونه إلاّ بجهد ومشقة كأنه فهم من نفى يكاد أنه يقع منهم الفهم بعد عسر ، وهو قول لبعضهم إن نفيها إثبات وإثباتها نفي ، وليس بالمختار .

وقرأ الأعمش وابن أبي ليلى وخلف وابن عيسى الأصبهاني وحمزة والكسائي ﴿ يفقهون ﴾ بضم الياء وكسر القاف أي يفهمون السامع كلامهم ، ولا يبينونه لأن لغتهم غريبة مجهولة .

والضمير في ﴿ قالوا ﴾ عائد على هؤلاء القوم شكوا ما يلقون من يأجوج ومأجوج إذ رجوا عنده ما ينفعهم لكونه ملك الأرض ودوخ الملوك وبلغ إليهم وهم لم يبلغ أرضهم ملك قبله ، و ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ من ولد آدم قبيلتان .

وقيل : هما من ولد يافث بن نوح .

وقيل : ﴿ يأجوج ﴾ من الترك ﴿ ومأجوج ﴾ من الجيل والديلم .

وقال السدي والضحاك : الترك شرذمة منهم خرجت تغير ، فجاء ذو القرنين فضرب السد فبقيت في هذا الجانب .

وقال قتادة والسدي : بني السد على إحدى وعشرين قبيلة ، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السد فهم الترك وقد اختلف في عددهم وصفاتهم ولم يصح في ذلك شيء وهما ممنوعا الصرف ، فمن زعم أنهما أعجميان فللعجمة والعلمية ، ومن زعم أنهما عربيان فللتأنيث والعلمية لأنهما اسما قبيلتين .

وقال الأخفش : إن جعلنا ألفهما أصلية فيأجوج يفعول ومأجوج مفعول ، كأنه من أجيج النار ومن لم يهمزهما جعلها زائدة فيأجوج من يججت ، ومأجوج من مججت .

وقال قطرب في غير الهمز مأجوج فاعول من المج ، ويأجوج فاعول من يج .

وقال أبو الحسن عليّ بن عبد الصمد السخاوي أحد شيوخنا : الظاهر أنه عربي وأصله الهمز ، وترك الهمز على التخفيف وهو إما من الأجّة وهو الاختلاف كما قال تعالى ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ أو من الأج وهو سرعة العدو ، قال تعالى ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ وقال الشاعر :

يؤج كما أج الظليم المنفر . . .

أو من الأجة وهو شدة الحرّ ، أو من أجّ الماء يئج أجوجاً إذا كان ملحاً مراً انتهى .

وقرأ عاصم والأعمش ويعقوب في رواية بالهمز وفي ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ وكذا في الأنبياء وفي لغة بني أسد ذكره الفراء .

قيل : ولا وجه له إلاّ اللغة الغربية المحكية عن العجاج أنه كان يهمز العالم والخاتم .

وقرأ باقي السبعة بألف غير مهموزة وهي لغة كل العرب غير بني أسد .

وقرأ العجاج ورؤبة ابنه : آجوج بهمزة بدل الياء .

وإفسادهم الظاهر تحقق الإفساد منهم لا توقعه لأنها شكت من ضررنا لها .

وقال سعيد بن عبد العزيز : إفسادهم أكل بني آدم .

وقيل : هو الظلم والقتل ووجوه الإفساد المعلوم من البشر .

وقيل : كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلاّ أكلوه ، ولا يابساً إلاّ احتملوه ، وروي أنه لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلٌّ قد حمل السلاح .

﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ استدعاء منهم قبول ما يبذلونه مما يعينه على ما طلبوا على جهة حسن الأدب إذ سألوه ذلك كقول موسى للخضر ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني ﴾ وقرأ الحسن والأعمش وطلحة وخلف وابن سعدان وابن عيسى الأصبهاني وابن جبير الأنطاكي ومن السبعة حمزة والكسائي خراجاً بألف هنا ، وفي حرفي قد أفلح وسكن ابن عامر الراء فيها .

(220/478)

وقرأ باقي السبعة ﴿ خرجاً ﴾ فيهما بسكون الراء فخراج بالألف والخرج والخراج بمعنى واحد كالنول والنوال ، والمعنى جعلا نخرجه من أموالنا ، وكل ما يستخرج من ضريبة وجزية وغلة فهو خراج وخرج .

وقيل : الخرج المصدر أطلق على الخراج ، والخراج الاسم لما يخرج .

وقال ابن الأعرابي : الخرج على الرؤوس يقال : أدّ خرج رأسك ، والخراج على الأرض .

وقال ثعلب : الخرج أخص والخراج أعم .

وقيل : الخرج المال يخرج مرة والخراج الجبي المتكرر عرضوا عليه أن يجمعوا له أموالاً يقيم بها أمر السد .

وقال ابن عباس ﴿ خرجاً ﴾ أجراً .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿ سداً ﴾ بضم السين وابن محيصن وحميد والزهري والأعمش وطلحة ويعقوب في رواية وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير وباقي السبعة بفتحها ﴿ قال ما مكني فيه ربي خير ﴾ أي ما بسط الله لي من القدرة والملك خير من خرجكم ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ أي بما أتقوّى به من فعلة وصناع يحسنون العمل والبناء ؛ قاله مقاتل وبالآلات ؛ قاله الكلبي ﴿ ردماً ﴾ حاجزاً حصيناً موثقاً .

وقرأ ابن كثير وحميد : ما مكنني بنونين متحركتين ، وباقي السبعة بإدغام نون مكن في نون الوقاية .

ثم فسر الإعانة بالقوة فقال ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ أي أعطوني .

قال ابن عطية : إنما هو استدعاء مناولة لا استدعاء عطية وهبة لأنه قد ارتبط من قوله إنه لا يأخذ منهم الخراج ، فلم يبق إلاّ استدعاء المناولة انتهى .

وقرأ الجمهور ﴿ آتوني ﴾ .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ائتوني أي جيئوني .

وانتصب ﴿ زبر ﴾ بإيتوني على إسقاط حرف الجر أي جيئوني بزبر ﴿ الحديد ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ زبر ﴾ بفتح الباء والحسن بضمها ، وفي الكلام حذف تقديره فأتوه أو فآتوه بها فأمر برصّ بعضها فوق بعض ﴿ حتى إذا ساوى ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ ساوى ﴾ وقتادة سوّى ، وابن أبي أمية عن أبي بكر عن عاصم سُووي مبنياً للمفعول .

(221/478)

وحكي في الكيفية أن ذا القرنين قاس ما بين الصدفين من حفر الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل حشوه الصخر وطينه النحاس مذاب ، ثم يصب عليه والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المنافخ حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً .

وقيل : طول ما بين السدين مائة فرسخ وعرضه خمسون .

وفي الحديث " أن رجلاً أخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) به فقال : "كيف رأيته" ؟

فقال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء ، قال : "قد رأيته" " .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والزهري ومجاهد والحسن ﴿ الصدفين ﴾ بضم الصاد والدال ، وأبو بكر وابن محيصن وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن كذلك إلاّ أنه سكن الدال وباقي السبعة وأبو جعفر وشيبة وحميد وطلحة وابن أبي ليلى وجماعة عن يعقوب وخلف في اختياره وأبو عبيد وابن سعدان بفتحهما ، وابن جندب بالفتح وإسكان الدال ، ورويت عن قتادة .

وقرأ الماجشون بالفتح وضم الدال .

وقرأ قتادة وأبان عن عاصم بضم الصاد وفتح الدال ﴿ حتى إذا جعله ناراً ﴾ في الكلام حذف تقديره فنفخوا حتى .

وقرأ الجمهور قال ﴿ آتوني ﴾ أي أعطوني .

وقرأ الأعمش وطلحة وحمزة وأبو بكر بخلاف عنه قال : ائتوني أي جيئوني و ﴿ قطراً ﴾ منصوب بأفرغ على إعمال الثاني ، ومفعول ﴿ آتوني ﴾ محذوف لدلالة الثاني عليه .

﴿ فما اسطاعوا ﴾ أي يأجوج ومأجوج ﴿ أن يظهروه ﴾ أي يصلوا عليه لبعده وارتفاعه وامّلاسه ، ولا أن ينقبوه لصلابته وثخانته فلا سبيل إلى مجاوزته إلى غيرهم من الأمم إلاّ بأحد هذين : إما ارتقاء وإما نقب وقد سلب قدرتهم على ذلك .

وقرأ الجمهور ﴿ فما اسطاعوا ﴾ بحذف التاء تخفيفاً لقربها من الطاء .

وقرأ حمزة وطلحة بإدغامها في الطاء وهو إدغام على غير حده .

وقال أبو عليّ هي غير جائزة .

(222/478)

وقرأ الأعشى عن أبي بكر : فما اصطاعوا بالإبدال من السين صاداً لأجل الطاء .

وقرأ الأعمش : فما استطاعوا بالتاء من غير حذف .

﴿ قال : هذا رحمة من ربي ﴾ أي قال ذو القرنين والإشارة بهذا قال ابن عطية إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به .

وقال الزمخشري : إشارة إلى السد أي ﴿ هذا ﴾ السد نعمة من الله و ﴿ رحمة ﴾ على عباده أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته .

قيل : وفي الكلام حذف وتقديره فلما أكمل بناء السد واستوى واستحكم ﴿ قال : هذا رحمة من ربي ﴾ .

وقرأ ابن أبي عبلة هذه رحمة من ربي بتأنيث اسم الإشارة .

والوعد يحتمل أن يراد به يوم القيامة ، وأن يراد به وقت خروج يأجوج ومأجوج .

وقال الزمخشري : فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي جعل السد دكاً أي مدكوكاً

منبسطاً مستوياً بالأرض ، وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك انتهى .

وقرأ الكوفيون : ﴿ دكاء ﴾ بالمدّ ممنوع الصرف وباقي السبعة دكاً منونة مصدر دككته ،

والظاهر أن ﴿ جعله ﴾ بمعنى صيره فدك مفعول ثان .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون جعل بمعنى خلق وينصب فدكاً على الحال انتهى .

وهذا بعيد جداً لأن السد إذ ذاك موجود مخلوق ولا يخلق المخلوق لكنه ينتقل من بعض

هيئاته إلى هيئة أخرى ، ووعد بمعنى موعود لا مصدر .

والمعنى ﴿ فإذا جاء ﴾ موعود ﴿ ربي ﴾ لا يريد المصدر لأن المصدر قد سبق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(223/478)

وقال أبو السعود :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ زُبَرَ الحديد ﴾

جمع زُبْره كغرف في غرفة وهي القطعةُ الكبيرة وهذا لا ينافي ردّ خراجِهم لأن المأمورَ به

الإيتاءُ بالثمن أو المناولةُ كما ينبىء عنه القراءة بوصل الهمزة ، أي جيئوني بزُبَر الحديد على

حذف الباء كما في أمرتك الخيرَ ، ولأن إيتاءَ الآلة من قبيل الإعانةِ بالقوة دون الخَراج على

العمل ، ولعل تخصيصَ الأمر بالإيتاء بها دون سائرِ الآلات من الصخور والحطبِ ونحوِهما لِما أن الحاجة إليها أمسُّ إذ هي الركنُ في السد ووجودُها أعزُّ . قيل : حفَر الأساسَ حتى بلغ الماء وجعل الأساسَ من الصخر والنحاس المذابِ والبنيانَ من زُبر الحديد بينها الحطبُ والفحم حتى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما وكان مائةَ فرسخ وذلك قوله عز قائلاً : ﴿ حتى إذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ أي آتَوه إياها فإخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السَّمْك على النهج المحكيِّ ، قيل : كان ارتفاعُه مائتي ذارعٍ وعَرضُه خمسين ذراعاً ، وقرىء سوّى من التسوية وسُووِيَ على البناء للمجهول ﴿ قَالَ ﴾ للعَمَلة ﴿ انفخوا ﴾ أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا ﴿ حتى إذَا جَعَلَهُ ﴾ أي المنفوخ فيه ﴿ نَارًا ﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة ، وإسنادُ الجعل المذكور إلى ذي القرتين مع أنه فعلُ الفَعَلة للتنبيه علي أنه العُمدة في ذلك وهم بمنزلة الآلةِ ﴿ قَالَ ﴾ للذين يتولَّوْن أمرَ النحاس من الإذابة ونحوِهما ﴿ اتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أي آتوني قِطراً أي نُحاساً مذاباً أفرِغْ عليه قطراً ، فحُذف الأول لدِلالة الثاني عليه ، وقرىء بالوصل أي جيئوني كأنه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ وإسنادُ الإفراغِ إلى نفسه للسر الذي وقفت عليه آنفاً وكذا الكلامُ في قوله تعالى : ﴿ سَاوِى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ﴾ .

﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفاً وحذَراً عن تلاقي المتقارِبَين ، وقرىء بالإدغام وفيه جمعٌ بين الساكنين على غير حِدَة ، وقرىء بقلب السين صاداً ، والفاء فصيحةٌ أي فعلوا ما أُمروا به من إيتاء القِطْر أو الإتيانِ ، فأفرغَه عليه ، فاختلط والتصق بعضُه ببعض ، فصار جبلاً صَلْداً ، فجاء يأجوجُ ومأجوجُ ، فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا ﴾ لصلابته وثخانتِه ، وهذه معجزةٌ عظيمةٌ لأن تلك الزُبَرَ الكثيرةَ إذا أثرت فيها حرارةُ النار لا يقدر الحيوانُ على أن يحوم حولها فضلاً عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار ، أو عن إفراغ القِطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثيرَ الحرارةِ العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال فكان ما كان والله على كل شيء قدير . وقيل : بناه من الصخور مرتبطاً بعضُها ببعض بكلاليب من حديد ونحاسٍ مُذاب في تجاويفها بحيث لم يبق هناك فُرجةٌ أصلاً .

﴿ قَالَ ﴾ أي ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديارِ وغيرهم ﴿ هذا ﴾ إشارةٌ إلى السد ، وقيل : إلى تمكينه من بنائه والفضلُ للمتقدم أي هذا الذي ظهر على يدي وحصل بمباشرتي من السد الذي شأنُه ما ذكر من المتانة وصعوبةِ المنال ﴿ رَحْمَةً ﴾ أي أثرُ رحمةٍ عظيمة عبر عنه بها مبالغةً ﴿ مّن رَّبِّى ﴾ على كافة العباد لا سيما على مجاوريه ، وفيه

إيذانٌ بأنه ليس من قبيل الآثارِ الحاصلةِ بمباشرة الخلقِ عادةً بل هو إحسانٌ إلهي محضٌ وإن ظهر بمباشرتي ، والتعرّضُ لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة .

(225/478)

﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى ﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يومُ القيامة لا خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ كما قيل إذ لا يساعده النظمُ الكريم ، والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئَه ومجيءَ مباديه من خروجهم وخروجِ الدجالِ ونزولِ عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوِ ذلك لا دنوُّ وقوعِه فقط كما قيل ، فإن بعضَ الأمور التي ستحكى تقع بعد مجيئِه حتماً ﴿ جَعَلَهُ ﴾ أي السدَّ المشارَ إليه مع متانته ورصانتِه ، وفيه من الجزالة ما ليس في توجيه الإشارةِ السابقة إلى التمكين المذكور ﴿ دَكَّاء ﴾ أي أرضاً مستويةً ، وقرىء دكاً أي مدكوكاً مسوًّى بالأرض ، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاعٍ فقد اندك ومنه الجملُ الأدكُّ أي المنبسطُ السنام ، وهذا الجعلُ وقت مجيءِ الوعد بمجيء بعضِ مباديه ، وفيه بيانٌ لعظم قدرتِه عز وجل بعد بيان سعةِ رحمته ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أي وعدُه المعهودُ أو كلُّ ما وعد به فيدخُل فيه ذلك دخولاً أولياً ﴿ حَقّاً ﴾ ثابتاً لا محالةَ واقعاً البتة ، وهذه الجملةُ تذييلٌ من ذي القرنين لما ذكره من

الجملة الشرطيةِ ومقرِّرٌ مؤكدٌ لمضمونها وهو آخرُ ما حُكي من قصته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(226/478)

وقال الآلوسى :

﴿ ءاتُونِى زُبَرَ الحديد ﴾

جمع زبرة كغرف في غرفة وهي القطعة العظيمة ، وأصل الزبر الاجتماع ومنه زبرت الكتاب جمعت حروفه وزبرة الأسد لما اجتمع على كاهله من الشعر ، وأخرج الطشتس عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق ساله عن ﴿ زُبَرَ الحديد ﴾ فقال : قطعة وأنشد قول كعب بن مالك :

تلظى عليهم حين شد حميها . . .

بزبر الحديد والحجارة شاجر

وطلب إيتاء الزبر لا ينافي أنه لم يقبل منهم شيئاً لأن المراد من الايتاء المأمور به الايتاء بالثمن أو مجرد لمناولة والايطال وإن كان ما آتوه له لا إعطاء ما هو لهم فهو معونة مطلوبة ، وعلى تسليم كون الايتاء بمعنى الإعطاء لا المناولة يقال : إن إعطاء الآلة للعمل لا يلزمه تملكها ولو

تملكها لا يعد ذلك جعلاً فإنه إعطاء المال لا إعطاء مثل هذا ، ويبنىء عن أن المراد ليس الإعطاء قراءة أبي بكر عن عاصم ﴿ رَدْمًا ائتونى ﴾ [الكهف : 95 ، 96] بكسر التنوين ووصل الهمزة من أتاه بكذا إذ جاء به له وعلى هذه القراءة نصب ﴿ زُبُراً ﴾ بنزع الخافض أي جيئوني بزبر الحديد وتخصيص زبر الحديد بالذكر دون الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة إليها أمس إذ هي الركن القوي في السد ووجودها أعز .

(227/478)

وقرأ الحسن ﴿ زُبُرِ ﴾ بضم الباء كالزاي ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ في الكلام حذف أي فأتوه إياها فأخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى إذا جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو فبين مفعول ساوى وفاعله ضمير ذي القرنين ، وقيل : الفاعل ضمير السد المفهوم من الكلام أي فاتوه إياها فأخذ يسد بها حتى إذا ساوى السد الفضاء الذي بين الصدفين ويفهم من ذلك مساواة السد في العلو للجبلين ، والصدف كما أشرنا إليه جانب الجبل وأصله على ما قيل : الميل ، ونقل في "الكشف" أنه لا يقال للمنفرد صدف حتى يصادفه الآخر ثم قال : فهو من الأسماء المتضايفة كالزوج وأمثاله ، وقال أبو عبيدة : هو كل بناء عظيم مرتفع ولا يخفى أنه ليس بالمراد هنا .

وزعم بعضهم أن المراد به هنا الجبل وهو خلاف ما عليه الجمهور ، وقرأ قتادة سوى من التسوية .

وقرأ ابن أبي أمية عن أبي بكر عن عاصم ﴿ سووى ﴾ بالبناء للمجهول ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

وابن عامر .

والزهري .

ومجاهد .

والحسن ﴿ بَيْنَ الصدفين ﴾ بضم الصاد والدار وهي لغة حمير كما أن فتحهما في قراءة الأكثرين لغة تميم ، وقرأ أبو بكر .

وابن محيصن .

وأبو رجاء .

وأبو عبد الرحمن ﴿ الصدفين ﴾ بضم فسكون .

وقرأ ابن جندب بفتح فسكون ، وروي ذلك عن قتادة ، وفي رواية أخرى عنه أنه قرأ بضم ففتح وهي قراءة أبان عن عاصم ، وقرأ الماجشون بفتح فضم .

﴿ قَالَ ﴾ للعملة ﴿ انفخوا ﴾ أي بالكيران في زبر الحديد الموضوعة بين الصدفين ففعلوا ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ ﴾ أي جعل المنفوخ فيه ﴿ نَارًا ﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة فهو من التشبيه البليغ ، وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنه فعل الفعلة للتنبيه على أنه العمدة في ذلك وهم بمنزلة الآلة ﴿ قَالَ ﴾ الذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها ، وقيل لأولئك النافخين قال لهم بعد أن نفخوا في ذلك حتى صار كالنار وتم ما أراده منهم أولاً ﴿ ءَاتُونِي ﴾ من الذين يتولون أمر النحاس ﴿ اتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني في باب التنازع أولى إذ لو كان ﴿ قِطْراً ﴾ مفعول ﴿ ءاتُونِى ﴾ لأضمر مفعول ﴿ أَفْرِغْ ﴾ وحذفه وإن جاز لكونه فضلة إلا أنه يوقع في لبس .

والقطر كما أشرنا إليه النحاس المذاب وهو قول الأكثرين ، وقيل : الرصاص المذاب ، وقيل : الحديد المذاب وليس بذاك ، وقرأ الأعمش .

وطلحة .

وحمزة .

وأبو بكر بخلاف عنه ﴿ ائتونى ﴾ بهمزة الوصل أي جيئوني كأنه يستدعيهم للإغاثة باليد عند الإفراغ ، وإسناد الإفراغ إلى نفسه للسر الذي وقفت عليه آنفاً ، وكذا الكلام في قوله

﴿ اجعل ﴾ وقوله : ﴿ سَاوِى ﴾ على أحد القولين .

﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفاً وحذراً عن تلاقي المتقاربين في المخرج وهما الطاء والتاء .

وقرأ حمزة .

(229/478)

وطلحة بإدغام التاء في الطاء وفيه جمع بين الساكنين على غير حدة ولم يجوزه أبو علي وجوزه جماعة ، وقرأ الأعشى عن أبي بكر ﴿ فَمَا ﴾ بقلب السين صاداً لمجاورة الطاء ، وقرأ الأعمش ﴿ مكانتهم فَمَا استطاعوا ﴾ بالتاء من غير حذف والفاء فصيحة أي ففعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الإتيان فأفرغ عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلاً صلداً فجاء يأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما اسطاعوا ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته ، قيل : كان ارتفاعه مائتي ذراع ، وقيل : ألف وثمانمائة ذراع ﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا ﴾ لصلابته وثخانته .

قيل : وكان عرضه خمسين ذراعاً وكان أساسه قد بلغ الماء وقد جعل فيه الصخر والنحاس المذاب وكانت زبر الحديد للبناء فوق الأرض ، ولا يخفى أن إفراغ القطر عليها

بعد أن أثرت فيها حرارة النار حتى صارت كالنار مع ما ذكروا من أن امتداد السد في الأرض مائة فرسخ لا يتم إلا بأمر إلهي خارج عن العادة كصرف تأثير حرارة النار العظيمة عن أبدان المباشرين للأعمال وإلا فمثل تلك الحرارة عادة مما لا يقدر حيوان على أن يحوم حولها ومثل ذلك النفخ في هاتيك الزبر العظيمة الكثيرة حتى تكون ناراً ، ويجوز أن يكون كل من الأمرين بواسطة آلات غريبة أو أعمال أوتيها هو أو أحد ممن معه لا يكاد أحد يعرفها اليوم ، وللحكماء المتقدمين بل والمتأخرين أعمال عجيبة يتوصلون إليها بآلات غريبة تكاد تخرج عن طور العقل وهذا مما لا شبهة فيه فليكن ما وقع لذي القرنين من ذلك القبيل ، وقيل : كان بناؤه من الصخور مرتبطاً بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها بحيث لم يبق هناك فجوة أصلاً .

وأخرج ابن جرير .

(230/478)

وابن مردويه عن أبي بكرة الثقفي أن رجلاً قال : يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال : انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال : قد رأيته ، والظاهر أن الرؤية بصرية لا منامية وهو أمر غريب إن صح الخبر ، وأما ما ذكره بعضهم من

أن الواثق بالله العباسي أرسل سلاماً الترجمان للكشف عن هذا السد فذهب جهة الشمال في قصة تطول حتى رآه ثم عاد ، وذكر له من أمره ما ذكر فثقات المؤرخين على تضعيفه ، وعندي أنه كذب لما فيه مما تأبى عنه الآية كما لا يخفى على الواقف عليه تفصيلاً .

ولا يخفى لطف الإتيان بالتاء في استطاعوا هنا .

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾

(231/478)

﴿ قَالَ ﴾ أي ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى السد ، وقيل : إلى تمكنه من بنائه والفضل للمتقدم ليتحد مرجع الضمير المتأخر أي هذا الذي ظهر على يدي وحصل بمباشرتي من السد الذي شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال ﴿ رَحْمَةً ﴾ أي أثر رحمة عظيمة وعبر عنه بها للمبالغة ﴿ مّن رَّبّى ﴾ على كافة العباد لا سيما على مجاوريه وكون السد رحمة على العباد ظاهر وإذا جعلت الإشارة إلى التمكن فكونه رحمة عليهم باعتبار أنه سبب لذلك ، وربما يرجح المتقدم أيضاً باحتياج المتأخر إلى هذا التأويل وإن كان الأمر فيه سهلاً ، وفي الإخبار عنه بما ذكر إيذان على ما

قيل بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو إحسان إلهي محض وإن ظهر بالمباشرة ، وفي التعرض لوصف الربوبية تربية معنى الرحمة ، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ هذه رَحْمَةً ﴾ بتأنيث اسم الإشارة وخرج على أنه رعاية للخبر أو جعل المشار إليه القدرة والقوة على ذلك ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى ﴾ أي وقت وعده تعالى فالكلام على حذف مضاف والإسناد إلى الوعد مجاز وهو لوقته حقيقة ، ويجوز أن يكون الوعد بمعنى الموعود وهو وقته أو وقوعه فلا حذف ولا مجاز في الإسناد بل هناك مجاز في الطرف ، والمراد من وقت ذلك يوم القيامة ، وقيل : وقت خروج يأجوج ومأجوج ، وتعقب بأنه لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئه ومجيء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط كما قال الزمخشري وغيره فإن بعض الأمور التي ستحكي تقع بعد مجيئه حتماً ﴿ جَعَلَهُ ﴾ أي السد المشار إليه مع متانته ورصانته ﴿ دَكَّاء ﴾ بألف التأنيث الممدودة والموصوف مؤنث مقدر أي أرضاً مستوية ، وقال بعضهم : الكلام على تقدير مضاف أي مثل دكاء وهي ناقة لا سنام لها ولا بد من التقدير لأن السد مذكر لا يوصف بمؤنث ، وقرأ غير الكوفيين دكاً على أنه مصدر دككته

وهو بمعنى المفعول أي مدكوكاً مسوى بالأرض أو على ظاهره والوصف به للمبالغة ، والنصب على أنه مفعول ثان لجعل وهي بمعنى صير ، وزعم ابن عطية أنها بمعنى خلق وليس بشيء .

وهذا الجعل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته تعالى شأنه بعد بيان سعة رحمته عز وجل وكان علمه بهذا الجعل على ما قيل من توابع علمه بمجيء الساعة إذ من مباديها دك الجبال الشامخة الراسخة ضرورة أنه لا يتم بدونها واستفادته العلم بمجيئها ممن كان في عصره من الأنبياء عليهم السلام ، ويجوز أن يكون العلم بجميع ذلك بالسماع من النبي وكذا العلم بمجيء وقت خروجهم على تقدير أن يكون ذلك مراداً من الوعد يجوز أن يكون عن اجتهاد ويجوز أن يكون عن سماع .

وفي كتاب حزقيال عليه السلام الإخبار بمجيئهم في آخر الزمان من آخر الجربياء في أمم كثيرة لا يحصيهم إلا الله تعالى وإفسادهم في الأرض وقصدهم بيت المقدس وهلاكهم عن آخرهم في بريته بأنواع من العذاب وهو عليه السلام قبل اسكندر غالب دارا فإذا كان هو ذا القرنين فيمكن أن يكون وقف على ذلك فأفاده علماً بما ذكر والله تعالى أعلم ، ثم أن في الكلام حذفاً أي وهو يستمر إلى آخر الزمان فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أي وعده سبحانه المعهود أو كل ما وعد عز وجل به فيدخل فيه ذلك

دخولاً أولياً ﴿ حَقّاً ﴾ ثابتاً لا محالة واقعاً البتة وهذه الجملة تذييل من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية وتأكيد لمضمونها وهو آخر ما حكى عن قصته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(233/478)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾

ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين إلى ناحية أخرى ، وهي ناحية القطر الشمالي بعد تهيئة أسبابه فقال : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي : طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ، وابن محيصن ، ويحيى اليزيدي ، وأبو زيد ، عن المفضل بفتح السين .

وقرأ الباقون بضمها .

قال أبو عبيدة وابن الأنباري وأبو عمرو بن العلاء : السد إن كان بخلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول ، أي : هو مما فعله الله وخلقه ، وإن كان من عمل العباد فهو

بالفتح حتى يكون حدثاً .

وقال ابن الأعرابي : كل ما قابلك فسدّ ما وراءه فهو سدّ وسد نحو الضعف والضعف ، والفقر والفقر ، والسدّان هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وانتصاب " بين " على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية في قوله : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] .

وقيل : موضع بين السدّين هو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان .

وحكى ابن جرير في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنساناً من ناحية الجزر فشاهده ، ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع ، و ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أي : من ورائهما مجازاً عنهما ، وقيل : أمامهما ﴿ قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يفقهون) بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان ، أي : لا يبينون لغيرهم كلاماً ، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف ، أي : لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ، ومعناهما : لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم ، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم .

(234/478)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي : هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً ، قيل : إن فهم ذي القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله ، وقيل : إنهم قالوا ذلك لترجمانهم ، فقال لذي القرنين بما قالوا له ﴿ ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ يأجوج ومأجوج : اسمان عجميان بدليل منع صرفهما ، وبه قال الأكثر .

وقيل : مشتقان من أجّ الظليم في مشيه : إذا هرول ، وتأججت النار : إذا تلهبت ، قرأهما الجمهور بغير همز ، وقرأ عاصم بالهمز .

قال ابن الأنباري : وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفاً لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم : كبأت ورثأت واستشأت الريح .

قال أبو علي : يجوز أن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل : يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقبلها ألفاً مثل : رأس .

وأما مأجوج ، فهو مفعول من أجّ ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق .

قال : وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة .

واختلف في نسبهم ؛ فقيل : هم من ولد يافث بن نوح ، وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الجبل والديلم .

وقال كعب الأحبار : احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء .

قال القرطبي : وهذا فيه نظر ، لأن الأنبياء لا يحتلمون ، وإنما هم من ولد يافث ، كذلك قال

مقاتل وغيره .

وقد وقع الخلاف في صفتهم ؛ فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يقول : لهم مخالب كمخالب السباع ، وإن منهم صنفاً يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم .

واختلف في إفسادهم في الأرض ؛ فقيل : هو أكل بني آدم ؛ وقيل : هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد ؛ وقيل : كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه .

(235/478)

﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين .

وقرىء (خراجاً) .

قال الأزهري : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفيء ، ويقع على الجزية وعلى الغلة .

والخراج أيضاً اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال ، والخرج : المصدر .

وقال قطرب : الخرج : الجزية والخراج في الأرض ، وقيل : الخرج : ما يخرجه كل أحد من ماله ، والخراج : ما يجبيه السلطان ؛ وقيل : هما بمعنى واحد ﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّا ﴾ أي : ردماً حاجزاً بيننا وبينهم .

وقرىء ﴿ سداً ﴾ بفتح السين .

قال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم ، والفتح المصدر .

وقال الكسائي : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد ، وقد سبق قريباً ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عبيدة ، وابن الأنباري من الفرق بينهما .

وقال ابن أبي إسحاق : ما رأته عيناك فهو سدّ بالضم ، وما لا ترى فهو سدّ بالفتح ، وقد قدّمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم في السدّين .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى ﴾ أي قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله لي من القدرة والملك ﴿ خَيْرٌ ﴾ من خرجكم ، ثم طلب منهم المعاونة له فقال : ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ أي : برجال منكم يعملون بأيديهم ، أو أعينوني بآلات البناء ، أو بمجموعهما .

قال الزجاج : بعمل تعملونه معي .

قرأ ابن كثير وحده .

(ما مكنني) بنونين ، وقرأ الباقون بنون واحدة .

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ هذا جواب الأمر ، والردم : ما جعل بعضه على بعض

حتى يتصل .

قال الهروي : يقال : ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردماً : أي سددتها ، والردم أيضاً الاسم ، وهو السدّ ، وقيل : الردم أبلغ من السدّ ، إذ السدّ كل ما يسدّ به ، والردم : وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه ردم ثوبه : إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردّم . . .

(236/478)

أي : من قول يركب بعضه على بعض .

﴿ آتوني زُبَرَ الحديد ﴾ أي : أعطوني وناولوني ، وزبر الحديد : جمع زبرة ، وهي القطعة .

قال الخليل : الزبرة من الحديد : القطعة الضخمة .

قال الفراء : معنى ﴿ آتوني زُبَرَ الحديد ﴾ ائتوني بها فلما ألقيت الياء زيدت ألفاً ، وعلى هذا فانتصاب ﴿ زبر ﴾ بنزع الخافض ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ والصدفان : جانبا الجبل .

قال الأزهري : يقال لجانبي الجبل صدفان : إذا تحاذيا لتصادفهما أي : تلاقيهما ، وكذا قال

أبو عبيدة والهروي .

قال الشاعر :

كلا الصدفين ينفده سناها . . . توقد مثل مصباح الظلام

وقد يقال : لكل بناء عظيم مرتفع : صدف ، قاله أبو عبيدة .

قرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص : ﴿ الصدفين ﴾ بفتح الصاد والدال .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، واليزيدي ، وابن محيصن بضم الصاد والدال .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بضم الصاد وسكون الدال .

وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات .

ومعنى الآية : أنهم أعطوه زبر الحديد ، فجعل يبني بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿ قَالَ انفخوا ﴾ أي قال للعملة : انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ أي : جعل ذلك المنفوخ فيه ، وهو الزبر ناراً ، أي : كالنار في حرّها وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ .

قيل : كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يتحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك

الطاقة ، وهو معنى قوله : ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال أهل اللغة : القطر : النحاس الذائب ، والإفراغ : الصبّ ، وكذا قال أكثر المفسرين .

وقالت طائفة : القطر الحديد المذاب .

وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنباري : هو الرصاص المذاب .

(237/478)

﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ أصله : استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان ، وهما التاء والطاء خففوا بالحذف .

قال ابن السكيت : يقال : ما أستطيع ، وما أسطيع ، وما أستيع .

وبالتخفيف قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة وحده (فما اسطاعوا) بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء في الطاء وهي قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو علي الفارسي : هي غير جائزة .

وقرأ الأعمش (فما استطاعوا) على الأصل ، ومعنى ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أن يعلوه أي : فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ يقال : نقبت الحائط : إذا خرقت فيه خرقاً فخلص إلى ما وراءه .

قال الزجاج: ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملاسه، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدّته وصلابته.

﴿ قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أي: قال ذو القرنين مشيراً إلى السدّ: هذا السدّ رحمة من ربي، أي: أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسدّ ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد؛ وقيل: الإشارة إلى التمكين من بنائه ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى ﴾ أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل: هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاء ﴾ أي: مستوياً بالأرض ومنه قوله:

﴿ حتى إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً ﴾ [الفجر: 21].

قال الترمذي: أي مستوياً، يقال ناقة دكاء: إذا ذهب سنامها.

وقال القتيبي: أي جعله مدكوكاً ملصقاً بالأرض.

وقال الحليمي: قطعاً متكسراً.

قال الشاعر:

هل غير غار دك غاراً فانهدم... قال الأزهري: دككته، أي: دققته.

ومن قرأ ﴿ دكاء ﴾ بالمد وهو عاصم وحمزة والكسائي أراد التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لها، أي: مثل دكاء، لأن السدّ مذكر فلا يوصف بدكاء.

وقرأ الباقون (دكاً) بالتنوين على أنه مصدر ، ومعناه ما تقدّم ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الحال ، أي : مدكوكاً ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ أي : وعده بالثواب والعقاب ، أو الوعد المعهود حقاً ثابتاً لا يتخلف .

وهذا أخر قول ذي القرنين .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ قال : الجبلين أرمينية وأذربيجان .

وأخرج أيضاً عن ابن جريج ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ قال : الترك .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم صححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار ؛ وهم من ولد آدم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، وابن عساكر عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتاريس ، ومنسك " وأخرج النسائي من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعاً : " أنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً " وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ،

والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض يحفرون السدّ كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستفتحونه غداً ، فيعودون إليه أشدّ ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستفتحونه غداً إن شاء الله ، ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه .

(239/478)

ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسراً وعلواً ، فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم فيهلكون ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فوالذي نفس محمد بيده إن دوابّ الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم "

وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمرّ وجهه وهو يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد

اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق ، قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث " وأخرجا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ قال : أجراً عظيماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ رَدْمًا ﴾ قال : هو كأشد الحجاب .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ زُبَرَ الحديد ﴾ قال : قطع الحديد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ بَيْنَ الصدفين ﴾ قال : الجبلين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : رؤوس الجبلين .

وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله : ﴿ قِطْراً ﴾ قال : النحاس .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ قال : أن يرتقوه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أن يعلوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاء ﴾ قال : لا أدري الجبلين يعني به أم بينهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾

أي : ناولوني قطعه : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أي : بين جانبي الجبلين : ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أي : في الأكوار والحديد : ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ ﴾ أي : المنفوخ فيه : ﴿ نَاراً ﴾ أي : كالنار بالإحماء : ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي : نحاساً مذاباً ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشتد .

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ أي : يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته : ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ لثخنه وصلابته .

﴿ قَالَ هَذَا ﴾ أي : السد : ﴿ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ على القاطنين عنده . لأمنهم من شر من سد عليهم به ، ورحمة على غيرهم ، لسد الطريق عليهم : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بدحره وخرابه : ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ بالمد أي : أرضاً مستوية ، وقرئ دكّاً أي : مدكوكاً مسوّاً بالأرض ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾ أي : كائناً لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذي القرنين .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هي الآيات والعبر والأحكام والآداب تجلت في سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات ، وما يستنبط من تلك الآيات . وقد أشار نبأ ذي القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

(241/478)

فَمنْ فَوَائِدِهَا : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . لما له من خفي الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب ، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل . وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ما قص عن الإسكندر من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار ، وركوب الأوعار والبحار ، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذي لا يشق له غبار ، أكبر عبرة لأولي الأبصار .

ومنها : تنشيط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تيسرت الأسباب ، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر ، عذرا في الخمول والرضاء بالدون . بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالي الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان في حدود العشرين من عمره .

وأتى ما أتى وهو في ريعان الشباب وقوة الفناء . فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم . ولم يقف في وجه عدد ولا عُدد . وخاض غمرات الردى غير هياب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرقي إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، كما دوّنه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال ، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته . فإن ما حكي عن الإسكندر من قوله : ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ [الكهف : 87] ، إلى آخره ، نهاية في العدل وغاية الإنصاف .

ومنها : أن على الملك ، إذا اشتَكى إليه جور مجاورين ، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن ، دفاعاً عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب التوحش والخراب ، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين . كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين في بناء السد . وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لرد غارات البرابرة ، وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد في أخذ أجرة ، في مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه الله عنه ، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته . كما تأبى الإسكندر تفضلاً وتكرماً .

ومنها : التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام . كقوله الإسكندر في مقام تعففه عن أموالهم ، والشفقة عليهم : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ [الكهف : 95] كقول سليمان : ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ [النمل : 36] ، [في المطبوع آتان] وقد قيل : أن دخل الإسكندر من البلاد التي فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون في الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفائح النحاس ، خلال الصخور الصم ، صدقاً في العمل ونصحاً فيه . لينتفع به على تطاول الأجيال . فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العمال في الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجرئة لهم وترويحاً لقلوبهم . وقد كان الإسكندر يقاسم العمال الأتعاب . ويدير العمل بنفسه ، كما بينه الذكر الحكيم في قوله : ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ .

ومنها : تعريف الغير ثمرة العمل المهم ، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره . ولذا قال : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ .

ومنها الإعلام بالدور الأخروي ، وانقضاء هذا الدور الأوليّ ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السرمدي . ولذا قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ .

(243/478)

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه في هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جلياً حسن سجاياه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلوّ الهمّة والعفّة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشري ، ولا سيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة . كما كان يرمي إليه سعى الإسكندر

. فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكي أنه كان يجيّش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً [في المطبوع : عرمزما] ، يضيفه إلى جيشه المكدوني اليوناني . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضي على المرء أن يعيش أولاً طفلاً مرضَعاً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة ، قياما بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملقى إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيقه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعي الممات ، وسرت بجسمه قوى الشبيبة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ما خلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيماً ظافراً بمنتهى أمله .

التنبيه الثاني : في ذي القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيليس ، وقال ابن القيم في " إغاثة اللهفان " في الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني وهو ابن فيليس وليس بالإسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن بل بينهما قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين .

فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يغزو عبّاد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هذا المقدوني ، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركاً يعبد الأصنام . انتهى . كلامه .

(245/478)

وفيه نظر . فإن المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليس باني الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة ، وثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا . وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام ، فغير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين ، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء في ترجمته – كما في طبقات الأطباء وغيرها – أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك . فلما أحس بذلك شخص عن أثينا . لأنه كره أن يبتلى

أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فثوّروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم ، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما في " طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة " فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه . كالنجاشيّ ملك الحبشة . فإنه جاهر بالإيمان بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . وشعبهُ وأهل مملكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاذه والحكماء قبله . فإن الممعن في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضي صاعد : كان فيثاغورس – أستاذ سقراط – يقول [في المطبوع : بقول] ببقاء النفس وكونها ، فيما بعد ، في ثواب أو عقاب . على رأي الحكماء الإلهيين . فتأمل قوله على رأي الحكماء الإلهيين يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازيّ : إن في كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قويّاً . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حقّ وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابعاً لمذهب فمدح لأمر ما يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال و المزايا ما لا يوجد في متبوعه . وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون في مذهبه الذي نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حرّاً في فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتنق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتيه من تنور الفكر وحرية الضمير ونفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه . هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه أعني : أرسطاطاليس ، كان موحداً . وهو معروف في التاريخ لا سترة فيه . على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك في الأصول التي هي المقصودة بالذات ، وكفى بهما كمالا . وللرازيّ فرض يغتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها – سامحه الله – في هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبيه الثالث : اختلف في سبب تلقيبه بذي القرنين . فقيل لأنه طاف قرني الدنيا . يعني جانبيها شرقها وغربها . أو لأنه كان له قرنان أي : ضفيرتان . أو لأنه ملك الروم وفارس .

قال الزمخشري : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشا لأنه ينطح أقرانه .

(247/478)

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذي قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشي أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ، الذين هم السائلون . وقد وقع في توراتهم في نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان , ثم قوله : وبينما كنت متأملا إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه , قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد من الغارات المتواصلة . قوله : خرج من المغرب إشارة إلى خروجه من مكدونية التي هي إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعقبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب – ذو القرنين – شهير وليس من أوضاع العرب خاصة . كما زعمه بعضهم . بل هو معروف عند العبرانين أيضاً . وقد يظهر أنه من

رموزهم الخاصة التي سرت إلى العرب . وأقرتهم عليها .

التنبيه الرابع : قال الرازي : اختلفوا في ذي القرنين . هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبياً . واحتجوا عليه بوجوه :

الأول : قوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين . و التمكين الكامل في الدين هو النبوة .

الثاني : قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ ومن جملة الأشياء النبوة .

فمقتضى العموم في قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ هو أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ والذي يتكلم الله معه لابد أن يكون نبياً .

ومنهم من قال إنه عبداً صالحاً وما كان نبياً . انتهى .

(248/478)

ثم قال الرازي بعد : يدلُّ قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبياً . وحمل هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه

على ألسنة بعض الأنبياء – فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تنصيص وتخصيص . وأما تعمق الجري وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ فقد منا أنه كناية عن تمكينه تعالى له منهم . لا أنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر . ولا يقال إن الأصل في الإطلاق الحقيقة . لأنا نقول به ، ما لم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر في بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين ذهاباً في النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لكان قريباً . فتكون نبوته من القسم الثاني وهو الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء في الحديث تسمية صاحبه محدَّثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً في الإسلام ، إلا أنه كان معروفاً قبله في العباد الأخيار .

التنبيه الخامس : حكي في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ قولان في أن السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجح الأول من وجهتين :

أولهما : أن للإسكندر عند اليهود شأناً وقدراً . وذلك لما حكي أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس ، خرج إليه رئيس أحبارها وقدم إليه الطاعة . فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة فسرَّ وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة في

كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

ثانيهما : أن عنوان ذو القرنين من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .

(249/478)

التنبيه السادس : قالوا المراد بالعين الحمئة البحر المحيط . وتسميته عيناً لكونه بالنسبة لعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس في منظره تغرب في البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه . وهي لا تفارق فلكها .

(250/478)

وللإمام ابن حزم عليه الرحمة رأي آخر في الآية . ذكره في كتاب " الملل " في بحث كروية الأرض قال : ذو القرنين هو كان في العين الحمئة الحامية كما تقول : رأيتك في البحر , تريد أنك إذا رأيته كنت أنت في البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشتوي إذا كانت من آخر رأس الجدي إلى

آخر مغربها الصيفي إذا كانت من رأس السرطان – مرئيّ مشاهد . ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك . وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسيّ أقل من مقدار السدس . يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيّف . وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم عين البتة . لا سيما أن تكون عيناً حمئةً حاميةً . وباللغة العربية خوطبنا . فلما تيقنا أنها عين بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشى فيها من المغارب إلى العين المذكورة . وانقطع له إمكان المشي بعدها لاعتراض البحار له هنالك . وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً أو مضطجعاً . ومن هذه صفته ، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض ، بمقدار مكان المغارب كلها ، لو كان مغيبها في عين من الأرض . كما يظن أهل الجهل . و لابد من أن يلقى خطٌّ بصره من حدبة الأرض ، ومن نشر من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمادي ، إلا أن يقول قائل : إن تلك العين عي البحر فلا يجوز أن يسمى البحر في اللغة عيناً حمئةً ولا حاميةً . وقد أخبر الله عز وجل أن الشمس تسبح في الفلك . وأنها إنما هي من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذي لا يتناقض فلو غابت في عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أو في البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا

القرنين كان هو في العين الحمئة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر في المغارب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً ﴾ فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبيه السابع : قال الرازيّ : الأظهر أن موضع السّدين في ناحية الشمال . وقيل : جبلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المكان في منقطع أرض الترك .

وحكى محمد بن جرير الطبريّ في " تاريخه " أن صاحب أذربيجان ، أيام فتحها ، وجه إنساناً إليه من ناحية الخَزَر . فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد في كتاب " المسالك والممالك " أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم ، فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه . فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه . فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية

لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشماليّ الغربيّ من المعمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازيّ .

(252/478)

وقال الإمام ابن حزم في " الملل والنحل " جزء أول صحيفة 120 في تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التي أهبط منها آدم في الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر في القرآن سد يأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف في أقصى الشمال في آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج في كتب اليهود التي يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى . وقد ذكر يأجوجَ ومأجوجَ والسدَّ أرسطاطاليس في كتابه في " الحيوان " عند كلامه على الغرانيق . وقد سد يأجوج ومأجوج بطليموس في كتابه المسمى " جغرافيا " وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان في جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسيّ وغيره . وقد ذكره قُدَامة بن جعفر والناس . فهيهات خبر من خبر . وحتى لو خفي مكان يأجوج ومأجوج والسد . فلم يعرف في شيء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه

حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو في الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل . واعلموا أن كل ما كان في عنصر الإمكان ، فأدخله مدخل في عنصر الامتناع بلا برهان فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهل . لا سيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإنما الشأن في المحال الممتنع الذي تكذبه الحواس والعيان أو بديهة العقل . فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر . ونعوذ بالله من البلاء . انتهى كلام ابن حزم .

(253/478)

قال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً ما يحدث في الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضي حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى في زمننا هذا . فإذا سلم أن سدّ ذي القرنين المذكور في هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة . أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ،

ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القويّ القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا السد ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدكها جمعاء دكّاً في لمح البصر . فمراد ذي القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لا شيء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السدّ يبقى إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أي : وقت كان , وكان هذا السد موجوداً , دكّه الله دكاً , وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده . وكالثورات البركانية كما قلنا . وليس في الآية ما ينافي ذلك . وأما قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض ، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ الفتح مجازاً شائع في اللغة . ومنه قولك فتحوا البلاد وقوله تعالى : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 44] ، فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجُوج لا باب لهم .

(254/478)

بل هم من كل حدب ينسلون والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغَزْو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجريّ .

وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض ، بعد أن انتشروا فيها ، من الإفساد والنهب والقتل والسبي . والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتي دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بالسُّد وبه موضع يسمى باب الحديد وهو أثر سدّ حديدي قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب بجبل قاف وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه في نهاية الأرض . وذلك بحسب ما عرفوه منها . ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج . انتهى .

(255/478)

وجاء في " صفوة الاعتبار " أن السور الذي وصلوا إليه أيام الواثق من بني العباس ، هو سور الصين الذي هو إحدى عجائب مملكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلاً ، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً .

وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفي أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها

إليه أربعين قدماً . بني لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب في جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد في الآية . لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤوّل صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية . ويكون وعد الله الذي يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولا شك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به في النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد في الممالك . كما في عهد جنكزخان ، وما عثاه هو وأصحابه في الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء في الجغرافية العمومية ، في المقالة السابعة والأربعين في تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أي : أهالي كوه قاف ، أي : جبل قاف : إن في تلك الأقطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم ، وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالمجاز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذي كان يخشى منه هجوم المتبربرين على كل من دولة الرومانيين والعجم . ثم إن الحصن الذي كان يسد هذا المجاز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنهم مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر .

ثم قال : وهناك حكاية مشهورة بين أهالي كوه قاف تقتضي أن هذا الجبل كان مسدوداً بسد عظيم يمنع غارة المتبربرين وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر ، وتارة لأنو شروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك .

التنبيه الثامن : قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للعجمة والتعريف . ويجوز همزهما وترك همزهما . وقيل : هما عربيان فيأجوج يفعول مثل يربوع . ومأجوج مفعول مثل معقول . وكلاهما من أجّ الظليم إذا أسرع . أو من أجت النار إذا التهبت . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث أي : للقبيلة كمجوس . فالكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق . وعلى العجمة ، لا يتأتى تصريفه . ولا يعتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربيّاً ، كما في " تذكرة أبي علي " .

قال الرازيّ : واختلفوا في أنهما من أي : الأقوام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب بجبل قاف ، في إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما آقوق ، والثانية ماقوق فعربهما العرب بيأجوج ومأجوج وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما في كتب أهل

الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق في روسيا وآسيا .

التنبيه التاسع : توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن في مصنفاته من الرواة ، في تخريج ما روي عن يأجوج ومأجوج . وكله إما من الإسرائيليات أو المنكرات أو الموضوعات . ومن ذلك حديث < إن يأجوج أمة ومأجوج أمة . كل أمة أربعمائة ألف أمة . لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ > رواه ابن عديّ في الضعفاء عن حذيفة مرفوعاً . وقال : موضوع منكر ، ومحمد بن إسحاق العكاشيّ كذاب يضع ، وقد أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

(257/478)

وقال الحافظ ابن جرير ههنا ، عن وهب بن منبه ، أثراً طويلاً عجيباً ، في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم . وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها . انتهى .

فجزى الله البخاريّ أحسن الجزاء ، على نبذه تلك الروايات ، واشتراطه الصحة في المرويات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح

مسلم صدق قوله : أن راوي الضعاف غاش آثم مضلّ وبالله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 81.71 ﴾

(258/478)

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ ﴾

هو أمر لهم بمناولة زبر الحديد .

فالإيتاء مستعمل في حقيقة معناه وهو المناولة وليس تكليفاً للقوم بأن يجلبوا له الحديد من معادنه لأن ذلك ينافي قوله ﴿ ما مكَّني فيه ربي خير فأعينوني بقوة ﴾ أي أنه غني عن تكليفهم إنفاقاً على جعل السدّ .

وكأن هذا لقصد إقامة أبواب من حديد في مداخل الردم لمرور سيول الماء في شُعَب الجبل حتى لا ينهدم البناء بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور الناس ولا تمنع انسياب الماء من بين قضبها ، وجعل قضبان الحديد معضودة بالنحاس المذاب المصبوب على الحديد .

والزُبَر : جمع زُبْرة ، وهي القطعة الكبيرة من الحديد .

والحديد : معدن من معادن الأرض يكون قِطعاً كالحَصَى ودون ذلك فيها صلابة .

وهو يصنف ابتداء إلى صنفين : ليّن ، ويقال له الحديد الأنثى ، وصُلب ويقال له الذكر .

ثم يُصنف إلى ثمانية عشر صنفاً ، وألوانه متقاربة وهي السنجابي ، منها ما هو إلى الحمرة ، ومنها ما هو إلى البياض ، وهو إذا صهر بنار قوية في أتون مغلق التأمت أجزاؤه وتجمعت في وسط النار كالإسفنجة واشتدت صلابته لأنه بالصهر يدفع ما فيه من الأجزاء الترابية وهي المسماة بالصدأ والخبث ، فتعلو تلك الأجزاء على سطحه وهي الزبَد .

وخبَث الحديد الوارد في الحديث : " إنّ المدينة تنفي خبَثها كما ينفي الكِيرُ خبث الحديد " .

ولذلك فبمقدار ما يطفو من تلك الأجزاء الغريبة الخبيثة يخلص الجزء الحديدي ويصفو ويصير زُبَراً .

ومن تلك الزُبر تُصنع الأشياء الحديدية من سيوف وزجاج ودروع ولأمات ، ولا وسيلة لصنعه إلاّ الصهر أيضاً بالنار بحيث تصير الزبرة كالجَمر ، فحينئذ تُشَكّل بالشكل المقصود بواسطة المطارق الحديدية .

والعصرُ الذي اهتدى فيه البشر لصناعة الحديد يسمى في التاريخ العصر الحديدي .

وقوله : ﴿ حتَّى إذا سَاوَى بَينَ الصَّدَفَينِ ﴾ أشعرت ﴿ حَتَّى ﴾ بشيء مغيّاً قبلها ، وهو كلام محذوف تقديره : فآتوه زُبَر الحديد فنضدها وبناها حتى إذا جعل ما بين الصدفين مساوياً لعلو الصدفين .

وهذا من إيجاز الحذف .

والمساواة : جعل الأشياء متساوية ، أي متماثلة في مقدار أو وصف .

والصدفان بفتح الصاد وفتح الدال في قراءة الجمهور وهو الأشهر .

وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب بضم الصاد والدال ، وهو لغة .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بضم الصاد وسكون الدال .

والصدف : جانب الجبل ، وهما جانبا الجبلين وهما السدان .

وقال ابن عطية والقزويني في "الكشف" : لا يقال إلاّ صدفان بالتثنية ، ولا يقال لأحدهما صَدف لأن أحدهما يصادف الآخر ، أي فالصدفان اسم لمجموع الجانبين مثل المِقَصّان لما يقطع به الثوب ونحوه .

وعن أبي عيسى : الصدف كلّ بناء عظيم مرتفع .

والخطاب في قوله ﴿ انْفُخُوا ﴾ وقوله ﴿ ءَاتُونِي ﴾ خطاب للعملة .

وحذف متعلّق ﴿ انْفُخُوا ﴾ لظهوره من كون العمل في صنع الحديد .

والتقدير : انفخوا في الكِيرَان ، أي الكيران المصفوفة على طول ما بين الصدفين من زُبر الحديد .

وقرأ الجمهور : ﴿ قَالَ ءَاتُونِي ﴾ مثل الأول .

وقرأه حمزة ، وأبو بكر عن عاصم ﴿ ائتوني على أنه أمر من الإتيان ، أي أمرهم أن يحضروا للعمل .

والقطر ﴾ بكسر القاف : النّحاس المُذاب .

وضمير ﴿ اسْطَاعُوَا ﴾ و ﴿ اسَتَطَاعُوا ﴾ ليأجوج ومأجوج .

والظهور : العلو .

والنقب : كسر الرّدم ، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته .

و ﴿ اسْطَاعُوَا ﴾ تخفيف ﴿ اسَتَطَاعُوا ﴾ ، والجمع بينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة .

وابتدىء بالأخف منهما لأنه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق ، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف .

(260/478)

ومقتضى الظاهر أن يُبتدأ بفعل ﴿ اسَتَطَاعُوا ﴾ ويثني بفعل ﴿ اسْطَاعُوَا ﴾ لأنه يثقل بالتكرير ، كما وقع في قوله آنفاً ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ [الكهف : 78] ثم قوله : ﴿ ذلك تأويل ما لم تَسْطِع عليه صبراً ﴾ [الكهف : 82] .

ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه ، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى .

وقرأ حمزة وحده ﴿ فَما اسْطَّاعوا الأول بتشديد الطاء مدغماً فيها التاء .

وجملة قال هذا رحمة من ربي ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأنه لما آذن الكلام بانتهاء حكاية وصف الردم كان ذلك مثيراً سؤال من يسأل : ماذا صدر من ذي القرنين حين أتم هذا العمل العظيم ؟ فيجاب بجملة : ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ .

والإشارة بهذا إلى الرّدم ، وهو رحمة للناس لما فيه من ردّ فساد أمّة ياجوج وماجوج عن أمة أخرى صالحة .

و(من) ابتدائية ، وجعلت من الله لأنّ الله ألهمه لذلك ويسرّ له ما هو صعب .

وفرع عليه ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً ﴾ نطقاً بالحكمة لأنه يعلم أن كل حادث صائر إلى زوال .

ولأنه علم أن عملاً عظيماً مثل ذلك يحتاج إلى التعهد والمحافظة عليه من الانهدام ، وعلم أنّ

ذلك لا يتسنى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذي لا محيص منه لكلّ ذي سلطان .

والوعد : هو الإخبار بأمر مستقبل .

وأراد به ما في علم الله تعالى من الأجل الذي ينتهي إليه دوام ذلك الردم ، فاستعار له اسم الوعد .

ويجوز أن يكون الله قد أوحى إليه إن كان نبيئاً أو ألهمه إن كان صالحاً أن لذلك الردم أجلاً معيناً ينتهي إليه .

وقد كان ابتداء ذلك الوعد يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم " فُتح اليوم من رَدم ياجوج وماجوج هكذا ، وعقد بين أصبعيه الإبهام والسبابة " كما تقدم .

(261/478)

والدك في قراءة الجمهور مصدر بمعنى المفعول للمبالغة ، أي جعله مدكوكاً ، أي مسوّى بالأرض بعد ارتفاع .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ﴿ جَعلهُ دَكّاءَ ﴾ بالمد .

والدكاء : اسم للناقة التي لا سنام لها ، وذلك على التشبيه البليغ .

وجملة ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ تذييل للعلم بأنه لا بد له من أجل ينتهي إليه لقوله تعالى :

﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : 38] و ﴿ لكل أمة أجل ﴾ [يونس : 49] أي وكان تأجيل الله الأشياء حقاً ثابتاً لا يتخلف .

وهذه الجملة بعمومها وما فيها من حكمة كانت تذييلاً بديعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(262/478)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوت ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أنْ يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل ليُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين ، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا . . ﴾ [الطلاق : 7] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين ؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة :

أعينوني بقوة ، آتوني زبر الحديد ، آتوني أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أي قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرة ، والقِطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس ؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة ؛ لكنه استخدم الحديد ، وسَدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه ، وليكون أملسَ ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلُون عليه .

فقوله : ﴿ حتى إذَا ساوى بَيْنَ الصدفين . . ﴾ [الكهف : 96] الصدف : الجانب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا . . ﴾ [الأنعام : 157] أي : مال عنها جانباً .

فمعنى : ساوى بين الصدفين . أي : ساوى الحائطين الأمامي والخلفي بالجبلين : ﴿ قَالَ انفخوا . . ﴾ [الكهف : 96] أي : في الحديد الذي أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذَاب : ﴿ قَالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ [الكهف : 96] وهكذا انسبكَ الحديد الملتهب مع النحاس المذَاب ، فأصبح لدينا حائطٌ صَلْبٌ عالٍ أملس .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ . . . ﴾ .

﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي : ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه ؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : ﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً ﴾ [الكهف : 97] لأنه صَلْب .

ثم يقول تعالى على لسان ذي القرنين : ﴿ قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي . . . ﴾ .

لم يَفُتْ ذا القرنين وهو الرجل الصالح أنْ يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأنْ يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : ﴿ قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ [الكهف : 98] لأنني أخذتُ المقوِّمات التي منحني الله إياها ، واستعملتها في خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقوة مخلوقة لله ، المواد والعناصر في الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لي أن أقول : أنا عملتُ كذا وكذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ [الكهف : 98] أي : الآخرة ﴿ جَعَلَهُ دَكَّآءَ ﴾ [الكهف : 98] فإياكم أن تظنوا أن صلابة هذا السَّد ومتانته باقية خالدة ، إنما هذا عمل للدنيا فحسب ، فإذا أتى وَعْد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكاً وسوّاه بالأرض ، ذلك لكي لا يغترون به ولا يتمردون على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلّين مُستضعفين ليأجوج

ومأجوج . وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾ [الكهف : 98] واقعاً لاشك فيه .

والتحقيق الأخير في مسألة ذي القرنين وبناء السد أنه واقع بمكان يُسمَّى الآن (بلخ)

والجبلان من جبال القوقاز ، وهما موجودان فعلاً ، وبينهما فَجْوة مبنيٌّ فيها ، ويقولون : إن

صاحب هذا البناء هو قورش ، وهذا المكان الآن بين بحر قزوين والبحر الأسود . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(264/478)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (الكهف : 97) ، للسائل

أن يسأل عن الفرق الموجب لمجيء استطاعوا بالتاء دون الآول ؟

والجواب أنه يقال : أستطاع واستاع واسطاع ، والأول الأصل ، ثم يحذفون أحد الحرفين

تخفيفاً ، فجيء أولاً بالفعل مخففاً عند إرادة نفي قدرتهم على الظهور على السدّ والصعود

فوقه ، ثم جيء بأصل الفعل مستوفى الحروف عند نفي قدرتهم على نقبه

وخرقه ، ولا شك أن الظهور أيسر من النقب ، والنقب أشد عليهم وأثقل ، فجيء بالفعل مخففاً مع الأخف ، وجيء به تاماً مستوفى مع الأثقل ، فتناسب ، ولو قدر بالعكس لما تناسب . وأيضاً فإن الثاني في محل التأكيد لنفي قدرتهم على الاستيلاء على السد وتمكنهم منه ، فناسب ذلك الإطالة ، وهذا يفتقر إلى بسط وبيان ، مع أن الأول أولى ، فلنكتف بهذا ، والله سبحانه أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 323 ـ 324 ﴾.

(265/478)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾

قوله : ﴿ آتُونِي ﴾ : قرأ أبو بكر " ايتوني " بهمزةِ وصل مِنْ أتى يَأتي في الموضعين من هذه السورة بخلافٍ عنه في الثاني . وافقه حمزةُ على الثاني من غيرِ خلافٍ عنه . والباقون بهمزةِ القطعِ فيهما . ف " زُبَرَ " على قراءةِ همزةِ الوصل منصوبةٌ على إسقاط الخافض ، أي : جيئوني بزُبَرِ الحديد . وفي قراءة قَطْعِها على المفعول الثاني لأنه يتعدَّى / بالهمزة إلى اثنين

. وعلى قراءة أبي بكر يُحتاج إلى كسر التنوين من " رَدْماً " لالتقاءِ الساكنين ؛ لأنَّ همزةَ الوصلِ تسقط دَرْجاً فيُقْرأ له بكسر التنوين ، وبعده همزةٌ ساكنة هي فاءُ الكلمة . وإذا ابتدأت بكلمتي " ائتوني " في قراءتِه وقراءةِ حمزة تبدأ بهمزةٍ مكسورةٍ للوصل ثم ياءٍ صريحة ، هي بدلٌ من همزةِ فاء الكلمة ، وفي الدَّرْجِ تسقط همزةُ الوصل ، فتعود الهمزةُ لزوالِ موجبِ إبدالها .

والباقون يَبْتَدِئون ويَصِلُون بهمزةٍ مفتوحة لأنها همزة قطع ، ويتركون تنوين " رَدْماً " على حاله من السكون ، وهذا كلُّه ظاهرٌ لأهلِ النحو ، خَفِيٌّ على القُرَّاء .

والزُّبَرُ جمع زُبْرَة كغُرْفَة وغُرَف . وقرأ الحسن بضم الباء .

قوله : " ساوَى " هذه قراءةُ الجمهور ، وقتادة " سوَّى " بالتضعيف . وعاصمٌ في رواية " سُوِّيَ " مبنياً للمفعول .

قوله : " الصَّدَفَيْن " قرأ أبو بكر بضم الصاد وسكون الدال . وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضمِّهما ، والباقون بفتحهما . وهذه لغاتٌ قُرِئ بها في السبع . وأبو جعفر وشيبة وحميد بالفتح والإِسكان ، والماجِشون بالفتح والضم ، وعاصم في روايةٍ بالعكس .

والصَّدَفان : ناحيتا الجبلين . وقيل : أَنْ يتقابلَ جبلان وبينهما طريق ، فالناحيتان صَدَفان لتقابُلِهما وتصادُفِهما ، مِنْ صادَفْتُ الرجلَ ، أي : لاقَيْتُه وقابَلْته . وقال أبو عبيد : " الصَّدَفُ : كل بناءٍ مرتفع وليس بمعروفٍ ، والفتح لغة تميم ، والضمُّ لغة حِمْير " .

قوله : " قِطْراً " هو المتنازَعُ فيه . وهذه الآيةُ أُشهر أمثلةِ النحاةِ في باب التنازع ، وهي من إعمالِ الثاني للحذف من الأول . والقِطْر : النُّحاس أو الرَّصاصُ المُذاب .

قوله : ﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ : قرأ حمزة بتشديد الطاء ، والباقون بتخفيفها . والوجهُ في الإدغام كما قال أبو علي : " لَمَّا لم يمكن إلقاءُ حركةِ التاءِ على السين لئلا يُحَرَّكَ ما لا يتحرك " - يعني أنَّ سين استفعل لا تتحرك - أُدْغم مع الساكن ، وإن لم يكن حرف لين . وقد قرأت القراءُ غيرَ حرفٍ من هذا النحو . وقد أنشد سيبويه " ومَسْحِي " يعني في قول الشاعر :

3198- كأَنَّه بعد كَلالِ الزَّاجِرِ . . . ومَسْحِي مَرُّ عُقابٍ كاسِرِ

يريد " ومَسْحِه " فأدغم الحاء في الهاء بعد أَنْ قَلَبَ الهاءَ حاءً ، وهو عكسُ قاعدةِ الإدغام في المتقاربين . وهذه القراءةُ قد لحنَّها بعضُ النحاة . قال الزجاج : " مَنْ قرأ بذلك فهو لاحِنٌ مخطئٌ " وقال أبو علي : " هي غيرُ جائزة " .

وقرأ الأعشى ، عن أبي بكر " اصْطاعوا " بإبدال السين صاداً . والأعمش " استطاعوا " كالثانية .

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

﴿

قوله : ﴿ جَعَلَهُ دَكَّآءَ ﴾ : الظاهرُ ان الجَعْلَ هنا بمعنى التصيير فتكون " دَكَّاء " مفعولاً ثانياً . وجوَّز ابنُ عطية أن يكونَ حالاً ، و " جعل " بمعنى خلق ، وفيه بُعدٌ ؛ لأنه إذ ذاك موجودٌ . وقد تقدَّم خلافُ القراء في " دَكَّاء " في الأعراف .

قوله : ﴿ وَعْدُ رَبِّي ﴾ الوَعْدُ هنا مصدرٌ بمعنى الموعود أو على بابه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 547. 551 ﴾

(267/478)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) ﴾

استعان بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال : ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ فلمَّا فعلوا ما أمرهم به ، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أي جانبي الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ له في الخروج ، وتندفعَ عن الناس عادية (. . .) إلى الوقت

المضروب لهم في التقدير .

وبعد ذلك يكون مِنْ شأنهم ما يريد الله . وبيَّنَ – سبحانه – أَنَّ خروجَهم من وراء سَدِّهم مِنْ أشراط الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 414 ﴾

(268/478)

فصل فى خبر ذي القرنين

قال ابن كثير :

قال تعالى ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما

مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى

(269/478)

بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني افرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل وانه بلغ المشارق والمغارب وملك الأقاليم وقهر اهلها وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط والصحيح أنه كان ملكا من الملوك العادلين وقيل كان نبيا وقيل رسولا وأغرب من قال ملكا من الملائكة وقد حكى هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فإنه سمع رجلا يقول لآخر يا ذا القرنين فقال مه ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ذكره السهيلي وقد روى وكيع عن إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال كان ذو القرنين نبيا وروى الحافظ بن عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر عن أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبي ذؤيب حدثنا محمد بن حماد أنبأنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذؤيب عن المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله

عليه و سلم لا أدري أتبع كان لعينا أم لا ولا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ولا أدري ذو القرنين كان نبيا أم لا وهذا غريب من هذا الوجه وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال كان ذو القرنين ملكا صالحا رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه وكان منصورا وكان الخضر وزيره وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم وقد ذكر الأزرقي وغيره ان ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام (1) وروى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشيا وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه وأن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد والله اعلم

(270/478)

واختلفوا في السبب الذي سمى به ذا القرنين فقيل لانه كان له في رأسه شبه القرنين قال وهب بن منبه كان له قرنان من نحاس في رأسه وهذا ضعيف وقال بعض اهل الكتاب لانه ملك فارس والروم وقيل لانه بلغ قرني الشمس غربا وشرقا وملك ما بينهما من الأرض وهذا أشبه من غيه وهو قول الزهري وقال (2) الحسن البصري كانت له غديرتان من

شعر يطافهما فسمي ذي القرنين وقال إسحاق ابن بشر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال دعا ملكا جبارا إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضه ثم دعاه فدق قرنه الثاني فكسره فسمي ذي القرنين وروى الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن علي بن ابي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال

كان عبدا ناصح الله فناصحه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمي ذا القرنين وهكذا رواه شعبة القاسم بن أبي بزة عن ابي الطفيل عن علي به وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل عن علي قال لم يكن نبيا ولا رسولا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا

وقد اختلف في اسمه فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس كان اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد وقيل مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون (1) بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن قحطان

وقد جاء في حديث أنه كان من حمير وأمه رومية وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله وقد أنشد بعض الحميريين (2) في ذلك شعرا يفتخر بكونه أحد أجداده فقال . . . قد كان ذو القرنين جدي (3) مسلما . . . ملكا تدين له الملوك وتحشد

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . . أسباب أمر من حكيم مرشد . . . فرأى مغيب

الشمس عند غروبها . . . في عين ذي خلب وثأط حرمد . . . من بعده بلقيس كانت عمتي . . . ملكتهم حتى أتاها الهدهد . . .

(271/478)

قال السهيلي وقيل كان اسمه مرزبان بن مرزبة ذكره ابن هشام (1) وذكر في موضع آخر أن اسمه الصعب بن ذي مرائد وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع وقيل إنه أفريدون بن أسفيان الذي قتل الضحاك وفي خطبة قس يا معشر إياد بن الصعب ذو القرنين ملك الخافقين وأذل الثقلين وعمر الفين ثم كان كلحظة عين ثم أنشد ابن هشام للأعشى

. . . والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا . . . بالجنو في جدث أشم مقيما . . .

وذكر الدارقطني وابن ماكولا أن اسمه هرمس (2) ويقال هرويس بن قيطون بن رومى بن لنطى بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح فالله اعلم وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال اسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام فأما ذو القرنين الثاني فهو اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل كذا نسبه الحافظ ابن

عساكر في تاريخه المقدوني اليوناني المصري باني اسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخرا عن الاول بدهر طويل كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان ارطاطاليس الفيلسوف وزيره وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم

(272/478)

وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره فبقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير فإن الأول كان عبدا مؤمنا صالحا وملكا عادلا وكان وزيره الخضر وقد كان نبيا على ما قررناه قبل هذا وأما الثاني فكان مشركا وكان وزيره فيلسوفا وقد كان بين زمانهما أزيد من الفي سنة فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتهان إلا على غبى لا يعرف حقائق الأمور فقوله تعالى ويسألونك عن ذي القرنين كان سببه أن قريشا سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم سول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا لهم سلوه عن رجل طواف في الأرض وعن فتية خرجوا لا يدري ما فعلوا فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولهذا قال قل سأتلوا عليكم منه ذكرا أي من خبره وشأنه ذكرا أي خبرا نافعا كافيا في تعريف أمره وشرح حاله فقال إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا أي وسعنا مملكته في البلاد

وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة قال قتيبة عن أبي عوانة عن سماك عن حبيب بن حماد قال كنت عند علي بن أبي طالب وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب فقال له سخر له السحاب ومدت له الأسباب وبسط له في النور وقال أزيدك فسكت الرجل وسكت علي رضي الله عنه وعن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن عبد الله الوادعي سمعت معاوية يقول ملك الأرض أربعة سليمان بن داود النبي عليهما السلام وذو القرنين ورجل من أهل حلوان ورجل آخر فقيل له الخضر قال لا وقال الزبير بن بكار حدثني ابراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك عن أبيه عن سفيان الثوري قال بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة مؤمنان وكافران سليمان النبي وذو القرنين نمرود وبخت نصر وهكذا قال سعيد بن بشير سواء وقال اسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال كان ذو القرنين ملك بعد النمرود وكان من

قصته أنه كان رجلا مسلما صالحا أتى المشرق والمغرب مد الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الأموال وفتح المدائن وقتل الرجال وجال في البلاد والقلاع فسار

حتى أتى المشرق والمغرب فذلك قول الله ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا أي خبرا إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا أي علما بطلب أسباب المنازل قال اسحاق وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه وإلا قتله وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلى والسدي وقتادة والضحاك وآتيناه من كل شيء سببا يعني علما وقال قتادة ومطر الوراق معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني تعليم الألسنة كان لا يغزو قوما إلا حدثهم بلغتهم والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها فإنه كان يأخذ من كل اقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الاقليم الآخر

(274/478)

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث الفا وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له وفي كل هذه المدة نظر والله أعلم وقد روى البيهقي وابن عساكر حديثا متعلقا بقوله وآتيناه من كل شيء سببا مطولا جدا وهو منكر جدا وفي اسناده محمد بن يونس الكديمي وهو متهم فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا والله أعلم وقوله فأتبع

سببا أي طريقا حتى إذا بلغ مغرب الشمس يعني من الأرض انتهى إلى حيث لا يمكن أحدا أن يجاوزه ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الأطوال على أحد قولي أرباب الهيئة والثاني من ساحل هذا البحر كما قدمنا وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته تغرب في عين حمئة والمراد بها البحر في نظره فإن من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ولهذا قال وجدها أي في نظره ولم يقل فإذا هي تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة قال كعب الأحبار وهو الطين الأسود وقرأه بعضهم حامية فقيل يرجع إلى الأول وقيل من الحرارة وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها وقد روى الإمام أحمد عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب حدثني مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض فيه غرابة وفيه رجل مبهم لم يسم ورفعه فيه نظر وقد يكون موقوفا من كلام عبد الله بن عمرو فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين فكان يحدث منها والله أعلم

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مددا طويلة فقد أخطأوا بعد النجعة وقال ما يخالف العقل والنقل

بيان طلب ذي القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر من طريق وكيع عن أبيه عن معتمر بن سليمان عن أبي جعفر الباقر عن أبيه زين العابدين خبرا مطولا جدا فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل فسأله ذو القرنين هل تعلم في الأرض عينا يقال لها عين الحياة فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها وجعل الخضر على مقدمته فانتهى الخضر اليها في واد في أرض الظلمات فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين اليها وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك وأنه أعطاه حجرا فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزنها حتى سأل الخضر فوضع قباله حجرا وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به وقال هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب فسجد له العلماء تكريما له وإعظاما والله أعلم ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه وهذا هو

العدل والعلم والإيمان قال الله تعالى ثم أتبع سببا أي سلك طريقا راجعا من المغرب إلى المشرق فيقال إنه رجع في ثنتي عشر سنة حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا أي ليس لهم بيوت ولا اكنان يستترون بها من حر الشمس قال كثير من العلماء ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى اسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور قال الله تعالى كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكافؤه بجراستنا في مسيره ذلك كله من مغارب الأرض إلى مشارقها

(276/478)

وقد روى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف أن ذوا القرنين حج ماشيا فلما سمع ابراهيم الخليل بقدومه تلقاه فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا ويقال انه جيء بفرس ليركبها فقال لا أركب في بلد فيه الخليل فسخر الله له السحاب وبشره ابراهيم بذلك فكانت تحمله إذا أراد وقوله تعالى ثم اتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا يعني عشما يقال انهم هم الترك ابناء عم يأجوج ومأجوج فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا في بلادهم وقطعوا السبل عليهم وبذلوا له حملا وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزا يمنعهم من الوصول إليهم فامتنع

من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة قال ما مكني فيه ربي خير ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالا وآلات ليبني بينهم وبينهم سدا وهو الردم بين الجبلين وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب وقيل الرصاص والصحيح الأول فجعل بدل اللبن حديدا وبدل الطين نحاسا ولهذا قال تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه أي يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها وما استطاعوا له نقبا أي بمعاول ولا فؤس ولا غيرها فقابل الأسهل بالأسهل والأشد بالأشد قال هذا رحمة من ربي أي قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة فإذا جاء وعد ربي أي الوقت الذي قدر خروجهم على الناس في آخر الزمان جعله دكاء أي مساويا للأرض ولا بد من كون هذا ولهذا قال وكان وعد ربي حقا كما قال تعالى حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق الآية ولذا قال ههنا وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض يعني يوم فتح السد على الصحيح ونفخ في

الصور فجمعناهم جمعا وقد أوردنا الأحاديث المروية في خروج يأجوج ومأجوج في التفسير وسنوردها ان شاء الله في كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته

قال أبو داود الطيالسي عن الثوري بلغنا أن أول من صافح ذو القرنين وروى عن كعب الأحبار انه قال لمعاوية إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعاما وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلى فلا تأكل منه شيئا فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه فقالت لهن سبحان الله كلكن ثكلى فقلن أي والله ما منا إلا من اثكلت فكان ذلك تسلية لأمه وذكر اسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظة أمه موعظة بليغة طويلة فيها حكم وأمور نافعة وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة وهذا غريب

قال ابن عساكر وبلغني من وجه آخر أنه عاش ستا وثلاثين سنة وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة واحدى وثمانين سنة وكان ملكه ست عشرة سنة وهذا الذي ذكره انما ينطبق على اسكندر الثاني لا الأول وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداء بجماعة من الحفاظ والله أعلم وممن جعلهما واحدا الامام عبد الملك بن هشام راوي السيرة وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلي رحمه الله انكارا بليغا ورد

قوله ردا شنيعا وفرق بينهما تفريقا جيدا كما قدمنا قال ولعل جماعة من الملوك المتقدمين

تسموا بذي القرنين تشبها بالأول والله أعلم

ذكر أمتي يأجوج ومأجوج

وصفاتهم وما ورد من أخبارهم وصفة السد

(278/478)

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ثم الدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول يا رب وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد قالوا يا رسول الله أينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم ابشروا فإن منكم واحدا ومن يأجوج ومأجوج ألفا وفي رواية فقال ابشروا فإن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه أي غلبتاه كثرة وهذا يدل على كثرتهم وانهم أضعاف الناس مرارا عديدة ثم هم من ذرية نوح لأن

الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا وقال تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة وقال جعلنا ذريته هم الباقين وتقدم في الحديث المروي في المسند والسنن أن نوحا ولد له ثلاثة وهم سام وحام ويافث فسام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل المغول وهم أشد بأسا وأكثر فسادا من هؤلاء ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم وقد قيل إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد والجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه فلهذا قيل لهم الترك

(279/478)

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك وانهم ليسوا من حواء فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوي في شرح مسلم وغيره وضعفوه وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدا فمنهم من هو كالنخلة السحوق ومنهم من هو غاية في القصر ومنهم من يفترش أذنا من أذنيه

ويتغطى بالأخرى فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم وقد قال النبي صلى الله عليه و سلم إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن وهذا فيصل في هذا الباب وغيره وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفا فإن صح في خبر قلنا به والا فلا نرده إذ يحتمله العقل والنقل أيضا قد يرشد اليه والله أعلم بل قد ورد حديث مصرح بذلك ان صح قال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا المغيرة عن مسلم عن أبي اسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه و سلم قال ان يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معائشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته الفا فصاعدا وان من وارئهم ثلاث أمم تاويل وتاريس ومنسك وهو حديث غريب جدا وإسناده ضعيف وفيه نكارة شديدة وأما الحديث الذي ذكره ابن جرير في تاريخه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من اجابته ومتابعته وأنه دعا تلك الأمم التي هناك تاريس وتاويل ومنسك فأجابوه فهو حديث موضوع اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصبح أحد الكذابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث والله أعلم

فإن قيل فكيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة وأنهم في النار ولم يبعث إليهم رسل وقد قال الله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فالجواب أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم والأعذار إليهم كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فإن كانوا في زمن

الذي قبل بعث محمد صلى الله عليه وسلم قد أتتهم رسل منهم فقد قامت على أولئك الحجة وان لم يكن قد بعث الله إليهم رسلا فهم في حكم أهل الفترة ومن لم تبلغه الدعوة وقد دل الحديث المروي من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من كان كذلك يمتحن في عرصات القيامة فمن أجاب الداعي دخل الجنة ومن أبى دخل النار وقد أوردنا الحديث بطرق وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري اجماعا عن أهل السنة والجماعة وامتحانهم لا يقتضي نجاتهم ولا ينافي الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار لأن الله يطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يشاء من أمر الغيب وقد اطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيبا للحق في الدنيا لو بلغهم فيها لأن في عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذبا في الدنيا فايقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى

منه في الدنيا والله أعلم كما قال تعالى ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون وقال تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا وأما الحديث الذي فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا فإنه حديث منكر بل موضوع وضعه عمرو بن الصبح

(281/478)

وأما السد فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم قال البخاري وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم رأيت السد قال وكيف رأيته قال مثل البرد المحبر فقال رأيته هكذا ذكره البخاري معلقا بصيغة الجزم وأره مسندا من وجه متصل أرتضيه غير أن ابن جرير رواه في تفسيره مرسلا فقال حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلا قال يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلا من جهته وكتب لهم كتبا إلى الملوك يوصلونهم من بلاد الى بلاد حتى ينهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أي

صفة فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه بابا عظيما وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيف جدا وأن بقية اللبن الحديد والآلات في برج هناك وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية ويقال أن بلادهم متسعة جدا وانهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم فإن قيل فما الجمع بين قوله تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا وبين الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها قالت استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(282/478)

من نوم محمرا وجهه وهو يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق تسعين قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث وأخرجاه في الصحيحين من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد تسعين فالجواب أما على قول من ذهب إلى أن هذا اشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن

وان هذا استعارة محضة وضرب مثل فلا اشكال واما على قول من جعل ذلك اخبارا عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر فلا اشكال أيضا لأن قوله فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا أي في ذلك الزمان لأن هذه صيغة خبر ماض فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدرا وتسليطهم عليه بالتدريج قليلا قليلا حتى يتم الأجل وينقضي الأمر المقدور فيخرجون كما قال الله تعالى وهم من كل حدب ينسلون ولكن الحديث الآخر اشكل من هذا وهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده قائلا حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كاشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرون غدا إن شاء الله ويستثني فيعودون اليه وهو كهيئة يوم تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه وتتحصن الناس في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا في اقفائهم فيقتلهم بها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم ودمائهم ورواه أحمد أيضا عن حسن بن موسى عن

سفيان عن قتادة به وهكذا رواه ابن ماجه من حديث سعيد عن قتادة الا أنه قال حديث أبو رافع ورواه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة به ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا ينذرون شعاع الشمس من ورائه لرقته فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظا وانما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم فقد استرحنا من المؤنة وان كان محفوظا فيكون محمولا على أن ضيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروي عن كعب الأحبار أو يكون المراد بقوله وما استطاعوا له نقبا أي نافذا منه فلا ينفي أن يلحسوه ولا ينفذوه والله أعلم وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد تسعين أي فتح فتحا نافذا فيه . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البداية والنهاية حـ 2 صـ 102.112﴾

(كلام حول قصة ذي القرنين)

قال صاحب الميزان :

وهو بحث قرآني وتاريخي في فصول :

1 – قصة ذي القرنين في القرآن : لم يعترض لاسمه ولا لتاريخ زمان ولادته وحياته ولا لنسبه وسائر مشخصاته على ما هو دأبه في ذكر قصص الماضين بل اكتفى على ذكر ثلاث رحلات منه فرحلة اولى إلى المغرب حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة (أو حامية) ووجد عندها قوما ، ورحلة ثانيه إلى المشرق حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم يجعل الله لهم من دونها سترا ، ورحله ثالثة حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا فشكوا إليه إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض وعرضوا عليه أن يجعلوا له خرجا على أن يجعل بين القوم وبين يأجوج ومأجوج سدا فأجابهم إلى بناء السد ووعدهم أن يبني لهم فوق ما يأملون وأبى أن يقبل خرجهم وإنما طلب منهم أن يعينوه بقوة وقد اشير منها في القصة إلى الرجال وزبر الحديد والمنافخ والقطر .

والخصوصيات والجهات الجوهرية التي تستفاد من القصة هي أولا أن صاحب القصة كان يسمى قبل نزول قصته في القرآن بل حتى في زمان حياته بذي القرنين كما يظهر في سياق القصة من قوله : " يسألونك عن ذي القرنين " " قلنا يا ذا القرنين " " وقالوا يا ذا القرنين " .

وثانيا : أنه كان مؤمنا بالله واليوم الآخر ومتدينا بدين الحق كما يظهر من قوله : " هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربي حقا " وقوله : " أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا " الخ ويزيد في كرامته الدينية أن قوله تعالى : " قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا " يدل على تأييده بوحي أو إلهام أو نبي من أنبياء الله كان عنده يسدده بتبليغ الوحي .

(285/478)

وثالثا : أنه كان ممن جمع الله له خير لدنيا ولاخرة ، أما خير الدنيا فالملك العظيم الذي بلغ به مغرب الشمس ومطلعها فلم يقم له شئ وقد ذلت له الأسباب ، وأما خير الاخرة فبسط العدل وإقامة الحق والصفح والعفو والرفق وكرامة النفس وبث الخير ودفع الشر ، وهذا كله مما يدل

عليه قوله تعالى : " إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شئ سببا " مضافا إلى ما يستفاد من سياق القصة من سيطرته الجسمانية والروحانية .

ورابعا : أنه صادف قوما ظالمين بالمغرب فعذبهم .

وخامسا : أن الردم الذي بناه هو في غير مغرب الشمس ومطلعها فإنه بعد ما بلغ مطلع

الشمس أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين .

ومن مشخصات ردمه مضافا إلى كونه واقعا في غير المغرب والمشرق أنه واقع بين جبلين كالحائطين ، وأنه ساوى بين صدفيهما وأنه استعمل في بنائه زبر الحديد والقطر ، ولا محالة هو في مضيق هو الرابط بين ناحيتين من نواحي الأرض المسكونة .

2 – ذكرى ذى القرنين والسد ويأجوج ومأجوج : في اخبار الماضين ، لم يذكر القدماء من المؤرخين في أخبارهم ملكا يسمى في عهده بذي القرنين أو ما يؤدي معناه من غير اللفظ العربي ولا يأجوج ومأجوج بهذين اللفظين ولا سدا ينسب إليه باسمه نعم ينسب إلى بعض ملوك حمير من اليمنيين أشعار في المباهاة يذكر فيها ذا القرنين وأنه من أسلافه التبابعة ، وفيها ذكر سيره إلى المغرب والمشرق وسد يأجوج ومأجوج وسيوافيك نبذة منها في بعض الفصول الاتية .

وورد ذكر " مأجوج " و " جوج ومأجوج " في مواضع من كتب العهد العتيق ففي الإصحاح (1) العاشر من سفر التكوين من التوراة .

" وهذه مواليد بنى نوح : سام وحام ويافث .

وولد لهم بنون بعد الطوفان .

بنو يافث جومر ومأجوج وماداي وباوان ونوبال وما شك ونبراس " .

وفي كتاب حزقيال (1) الإصحاح الثامن والثلاثون " وكان إلى كلام الرب قائلا : يا بن آدم

اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ما شك ونوبال ، وتنبأ عليه وقل :

هكذا قال السيد الرب : ها أنا ذا عليك ياجوج رئيس روش وما شك ونوبال وأرجعك

وأضع شكائم في فكيك وأخرجك أنت وكل جيشك خيلا وفرسانا

(1) كتب العهدين مطبوعة بيروت 1870 ومنها سائر ما نقل في هذه الفصول .

(2) وكان بين اليهود أيام أسارتهم ببابل .

(286/478)

كلهم لابسين أفخر لباس جماعة عظيمة مع أتراس ومجان كلهم ممسكين السيوف .

فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة ، وجومر وكل جيوشه وبيت نوجرمه من

أقاصى الشمال مع كل جيشه شعوبا كثيرين معك " قال : " لذلك تنبأ يا بن آدم وقل لجوج :

هكذا قال السيد الرب في ذلك اليوم عند سكنى شعب إسرائيل آمنين أفلا تعلم وتأتي من

موضعك من أقاصى الشمال " الخ وقال في الاصحاح التاسع والثلاثين ماضيا في الحديث

السابق : وأنت يا بن آدم تنبأ على جوج وقل : هكذا قال السيد الرب ها أنا ذا عليك

ياجوج رئيس روش ما شك ونوبال وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال .

وآتي بك على جبال إسرائيل وأضرب قوسك من يدك اليسرى واسقط سهامك من يدك

اليمنى فتسقط على جبال إسرائيل أنت وكل جيشك والشعوب الذين معك أبذلك مأكلا للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل ، على وجه الحقل تسقط لاني تكلمت بقول السيد الرب ، وارسل نارا على مأجوج وعلى الساكنين في الجزائر آمنين فيعلمون أني أنا الرب " الخ .

وفي رؤيا يوحنا في الاصحاح العشرين : " ورأيت ملاكا نازلا من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو ابليس والشيطان ، وقيده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكيلا يضل الأمم فيما بعد حتى تتم الالف سنة وبعد ذلك لا بد أن يحل زمانا يسيرا .

(287/478)

قال : " ثم متى تمت الالف سنة لن يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر فصعدوا على عرض الأرض ، وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم ، وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الابدين " .

ويستفاد منها أن " مأجوج " أو " جوج ومأجوج " أمة أو امم عظيمة كانت قاطنه في أقاصي شمال آسيا من معمورة الأرض يومئذ ، وأنهم كانوا امما حربية معروفة بالمغازي والغارات .

ويقرب حينئذ أن يحدس أن ذا القرنين هذا هو أحد الملوك العظام الذين سدوا الطريق على هذه الأمم المفسدة في الأرض ، وأن السد المنسوب إليه يجب أن يكون فاصلا بين منطقة شمالية من قارة آسيا وجنوبها كحائط الصين أو سد باب الابواب أو سد " داريال " أو غير هذه .

وقد تسلمت تواريخ الأمم اليوم من أن ناحية الشمال الشرقي من آسيا وهي الاحداب والمرتفعات في شمال الصين كانت موطنا لامة كبيره بدوية همجيه لم تزل تزداد عددا وتكثر سوادا فتكر على الأمم المجاورة لها كالصين وربما نسلت من أحدابها وهبطت إلى بلاد آسيا الوسطى والدنيا وبلغت إلى شمال أوربه فمنهم من قطن في أراض أغار عليها كأغلب سكنه أوربه الشمالية فتمدين بها واشتغل بالزراعة والصناعة ، ومنهم من رجع ثم عاد وعاد (1) .

وهذا أيضا مما يؤيد ما استقربناه آنفا أن السد الذي نبحث عنه هو أحد الاسداد الموجودة في شمال آسيا الفاصلة بين الشمال وجنوبه .

3 – من هو ذو القرنين ؟ وأين سده ؟ للمؤرخين وأرباب التفسير في ذلك أقوال بحسب اختلاف انظارهم في تطبيق القصة : 1 – ينسب إلى بعضهم أن السد المذكور في القرآن هو حائط الصين ، وهو حائط طويل يحول بين الصين وبين منغوليا بناه " شين هوانك تي " أحد ملوك الصين لصد هجمات المغول عن الصين ، طوله ثلاثة آلاف كيلو متر في عرض تسعة أمتار وارتفاع خمسة عشر مترا ، وقد بني بالاحجار شرع في بنائه سنه 264 ق م وقد تم بناؤه في عشر أو عشرين وعلى هذا فذو القرنين هو الملك المذكور .

ويدفعه أن الأوصاف والمشخصات المذكورة في القرآن لذي القرنين وسدة لا تنطبق على هذا الملك وحائط الصين الكبير فلم يذكر من هذا الملك أنه سار من أرضه إلى المغرب (1) وذكر بعضهم أن يأجوج ومأجوج هم الأمم الذين كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا تمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المنجد الشمالي وتنتهي غربا بما بلى بلاد تركستان ونقل ذلك عن فاكهلة الخلفاء وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه ورسائل إخوان الصفا

الأقصى ، والسد الذي يذكره القرآن يصفه بأنه ردم بين جبلين وقد استعمل فيه زبر الحديد والقطر وهو النحاس المذاب والحائط الكبير يمتد ثلاثه آلاف كيلو متر يمر في طريقه على السهول والجبال ، وليس بين جبلين وهو مبنى بالحجارة لم يستعمل فيه حديد ولا قطر .

ب – نسب إلى بعضهم أن الذي بنى السد هو أحد ملوك آشور (1) وقد كان يهجم في حوالى القرن السابع قبل الميلاد أقوام (2) سيت من مضيق جبال قفقاز إلى أرمينستان ثم غربي إيران وربما بلغوا بلاد آشور وعاصمتها نينوا فأحاطوا بهم قتلا وسبيا ونهبا فبني ملك آشور السد لصدهم ، وكأن المراد به سد باب الابواب المنسوب تعميره أو ترميمه إلى كسرى أنو شيروان من ملوك الفرس هذا .

ولكن الشأن في انطباق خصوصيات القصة عليه .

---

(1) منقول عن كتاب كيهان شناخت " للحسن بن قطان المروزي الطبيب المنجم المتوفى سنة 548 هـ وذكر فيه أن اسمه " بلينس " وسماه أيضا اسكندر .

(2) كانت هذه الأقوام يسمون – على ما ذكروا – عند الغربيين " سيت " ولهم ذكر في بعض النقوش الباقية من زمن " داريوش " ويسمون عند اليونانيين " ميكاك " .

ج – قال في روح المعاني : وقيل : هو يعني ذا القرنين فريدون بن أثفيان بن جمشيد خامس ملوك الفرس الفيشدادية ، وكان ملكا عادلا مطيعا لله تعالى ، وفي ، كتاب صور الاقاليم لابي زيد البلخى : أنه كان مؤيدا بالوحى وفي عامة التواريخ أنه ملك الأرض وقسمها بين

بنيه الثلاثة : إيرج وسلم وتور فأعطى إيرج العراق والهند والحجاز وجعله صاحب التاج ، وأعطى سلم الروم وديار مصر والمغرب ، وأعطى تور الصين والترك والمشرق ، ووضع لكل قانونا يحكم به ، وسميت القوانين الثلاثة " سياسة " وهي معربة " سي أيسا " أي ثلاثه قوانين .

ووجه تسميته ذا القرنين أنه ملك طرفي الدنيا أو طول أيام سلطنته فإنها كانت على ما في روضة الصفا خمسمائة سنة ، أو عظم شجاعته وقهره الملوك انتهى .

وفيه أن التاريخ لا يعترف بذلك .

د – وقيل : إن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني وهو المشهور في الألسن وسد

الاسكندر كالمثل السائر بينهم وقد ورد ذلك في بعض الروايات كما في رواية قرب الاسناد عن موسي بن جعفر عليهما السلام ورواية عقبه بن عامر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورواية وهب بن منبه المرويتين في الدر المنثور .

وبه قال بعض قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين كمعاذ بن جبل على ما في مجمع البيان ، وقتادة على ما رواه في الدر المنثور ، ووصفه الشيخ أبو على بن سينا عندما ذكره في

كتاب الشفاء بذي القرنين ، وأصر على ذلك الإمام الرازي في تفسيره الكبير .

قال فيه ما ملخصه : ان القرآن دل على أن ملك الرجل بلغ إلى أقصى المغرب وأقصى المشرق وجهة الشمال ، وذلك تمام المعمورة من الأرض ، ومثل هذا الملك يجب أن يبقى اسمه مخلدا ، والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أن ملكه بلغ هذا المبلغ ليس إلا الاسكندر .

وذلك أنه بعد موت أبيه جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم ، وانتهى إلى البحر الاخضر ثم إلى مصر ، وبنى الاسكندرية ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل وورد بيت المقدس ، وذبح في مذبحه .

ثم انعطف إلى أرمينية وباب الابواب ، ودان له العراقيون والقبط والبربر ، واستولى على إيران ، وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ، ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ثم رجع إلى العراق ومات في شهر زور أو رومية المدائن وحمل إلى اسكندرية ودفن بها ، وعاش ثلاثا وثلاثين سنة ، ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة .

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة ، وثبت بالتواريخ أن الذي هذا شأنه هو الاسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الاسكندر .

انتهى .

وفيه أولا : أن الذي ذكره من انحصار ملك معظم المعمورة في الاسكندر المقدوني غير

مسلم في التاريخ ففي الملوك من يماثله أو يزيد عليه ملكا .

وثانيا : أن الذي يذكره القرآن من أوصاف ذي القرنين لا يتسلمه التاريخ للاسكندر أو ينفيه عنه فقد ذكر القرآن أن ذا القرنين كان مؤمنا بالله واليوم الاخر وهو دين التوحيد وكان الاسكندر وثنيا من الصابئين كما يحكى أنه ذبح ذبيحته للمشترى ، وذكر القرآن أن ذا القرنين كان من صالحي عباد الله ذا عدل ورفق والتاريخ يقص للاسكندر خلاف ذلك .

وثالثا : أنه لم يرد في شئ من تواريخهم أن الاسكندر المقدونى بنى سد يأجوج ومأجوج على ما يذكره القرآن .

وقال في البداية والنهاية في خبر ذي القرنين : وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال : إسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة ، وكان من ولد سام ابن نوح .

(291/478)

فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس (وساق نسبه إلى عيص بن إسحاق بن إبراهيم المقدوني اليونانى المصري باني أسكندرية الذى يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخرا عن الأول بدهر طويل .

وكان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره ، وهو

الذي قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطا أرضهم .

قال : وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره فيقع بسبب ذلك خطأ كبير ، وفساد عريض طويل كثير فإن الأول كان عبدا مؤمنا صالحا ، وملكا عادلا ، وكان وزيره الخضر ، وقد كان نبيا على ما قررناه قبل هذا ، وأما الثاني فكان مشركا ، وقد كان وزيره فيلسوفا ، وقد كان بين زمانيهما ، أزيد من ألفي سنة فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور انتهى .

وفيه تعريض بالامام الرازي في مقاله السابق لكنك لو أمعنت فيما نقلنا من كلامه ثم راجعت كتابه فيما ذكره من قصة ذي القرنين وجدته لا يرتكب من الخطأ أقل مما ارتكبه الإمام الرازي فلا أثر في التاريخ عن ملك كان قبل المسيح بأكثر من ألفين وثلاثمائة سنة ملك الأرض من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وجهة الشمال وبنى السد وكان مؤمنا صالحا بل نبيا ووزيره الخضر ودخل الظلمات في طلب ماء الحياة سواء كان اسمه الاسكندر أو غير ذلك .

هـ – ذكر جمع من المؤرخين أن ذا القرنين أحد التبابعة (1) الاذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالاصمعي في تاريخ العرب قبل الإسلام ، وابن هشام في السيرة والتيجان وأبى

ريحان البيرونى في الاثار الباقية ونشوان بن سعيد الحميرى في شمس العلوم – على ما نقل عنهم – وغيرهم .

(292/478)

وقد اختلفوا في اسمه فقيل اسمه مصعب بن عبد الله ، وقيل : صعب بن ذي المرائد وهو أول التبابعة ، وهو الذى حكم لابراهيم في بئر السبع ، وقيل : تبع الاقرن واسمه حسان ، وذكر الاصمعي أنه أسعد الكامل الرابع من التبابعة بن حسان الاقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الأول ، وقيل : اسمه " شمر يرعش " .

وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدة من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية ففي البداية والنهاية : أنشد ابن هشام للاعشى : والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا .

بالجنو في جدث أشم مقيما .

وقد مر في البحث الروائي السابق أن عثمان بن أبي الحاضر أنشد لابن عباس قول بعض الحميريين : قد كان ذو القرنين جدي مسلما * * ملكا تدين له الملوك وتحشد .

بلغ المشارق والمغارب يبتغي * * أسباب أمر من حكيم مرشد

(1) كانت مملكة اليمن ينقسم إلى اربعة وثمانين مخلافا ، والمخلاف بمنزلة القضاء والمديرية

في العرف الحاضر ، وكل مخلاف يشتمل على عدة قلاع يسمى كل قلعة قصرا أو محفدا يسكنه جماعة من الأمة يحكم فيهم كبير لهم ، وكان صاحب القصر الذي يتولى أمره يسمى بذي كذي غمدان وذي معين أي صاحب غمدان وصاحب معين والجمع أذواء وذوين ، والذي يتولى أمر المخلاف يسمى القيل والجمع أقيال ، والذي يتولى أمر مجموع المخاليف يسمى الملك : والملك الذي يضم حضر موت والشحر إلى اليمين ويحكم في الثلاث يسمى تبع اما إذا ملك اليمن فقط فملك وليس بتبع .

وقد عثر على أسماء خمس وخمسين من الأذواء لكن الملوك منهم ثمانية اذواء هم من ملوك حمير وهم من ملوك الدولة الاخيرة من الدول الحاكمة في قبل ، وقد عد منهم أربعة عشر ملكا ، والذي يتحصل من تاريخ ملوك اليمن من طريق والرواية مبهم جدا لا اعتماد على تفاصيله .

(293/478)

فرأى مغيب الشمس عند غروبها * * في عين ذي خلب وثأط حرمد قال المقريزى في الخطط : إعلم أن التحقيق عند علماء الاخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز فقال : " ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا إنا مكنا له في الأرض وآتيناه

من كل شئ سببا " الآيات عربي قد كثر ذكره في أشعار العرب .

وان اسمه الصعب بن ذي مرائد بن الحارث الرائش ابن الهمال ذي سدد بن عاد ذي منح بن عار الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب ابن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام .

وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب (1) العاربة ، ويقال لهم أيضا العرب العرباء ، وكان ذو القرنين تبعا متوجا ، ولما ولي الملك تجبر ثم تواضع لله ، واجتمع بالخضر وقد غلط من ظن أن الاسكندر بن فيلبس هو ذو القرنين الذى بنى السد فإن لفظة ذو عربيه ، وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن ، وذاك رومي يوناني .

قال أبو جعفر الطبري : وكان الخضر في ايام افريدون الملك بن الضحاك في قول عامه علماء أهل الكتاب الأول ، وقيل : موسى بن عمران عليه السلام ، وقيل : إنه كان على مقدمة ذي القرنين الاكبر الذي كان على أيام إبراهيم الخليل عليه السلام وان الخضر بلغ مع ذي القرنين أيام مسيره في البلاد نهر الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم به ذو القرنين ولا من معه فخلد وهو حي عندهم إلى الان ، وقال آخرون إن ذا القرنين الذي كان على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام هو أفريدون بن الضحاك وعلى مقدمته كان الخضر .

وقال ابو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب التيجان في معرفة ملوك الزمان بعد ما ذكر نسب ذي القرنين الذي ذكرناه : وكان تبعا متوجا لما ولي الملك تجبر ثم تواضع واجتمع

بالخضر ببيت المقدس ، وسار معه مشارق الأرض ومغاربها واوتي من كل شئ سببا كما اخبر الله تعالى ، وبنى السد على يأجوج ومأجوج ومات بالعراق .

وأما الاسكندر فإنه يونانى ، ويعرف بالاسكندر المجدونى (ويقال المقدوني)

---

(1) العرب العاربة هم العرب قبل إسماعيل وأما إسماعيل وبنوه فهم العرب المستعربة .

سئل ابن عباس عن ذي القرنين : ممن كان ؟ فقال : من حمير وهو الصعب بن ذي مرائد الذي مكنه الله في الأرض وآتاه من كل شئ سببا فبلغ قرنى الشمس ورأس الأرض وبنى السد على يأجوج ومأجوج .

قيل له : فالاسكندر ؟ قال : كان رجلا صالحا روميا حكيما بنى على البحر في أفريقية منارا ، وأخذ أرض رومة ، وأتى بحر العرب ، وأكثر عمل الاثار في العرب من المصانع والمدن .

وسئل كعب الاحبار عن ذي القرنين فقال : الصحيح عندنا من أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير وأنه الصعب بن ذي مرائد ، والاسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، ورجال الاسكندر (1) أدركوا المسيح بن

مريم منهم جالينوس وأرسطاطاليس .

وقال الهمداني في كتاب الانساب وولد كهلان بن سبا زيدا فولد ، زيد عريبا ومالكا وغالبا وعميكرب ، وقال الهيثم : عميكرب بن سبا أخو حمير وكهلان فولد عميكرب أبا مالك فدرحا ومهيليل ابني عميكرب ، وولد غالب جنادة بن غالب وقد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبا ، وولد عريب عمرا فولد عمرو زيدا والهميسع ويكنى أبا الصعب وهو ذو القرنين الأول ، وهو المساح والبناء ، وفيه يقول النعمان ابن بشير .

فمن ذا يعادونا من الناس معشرا * * كراما فذو القرنين منا وحاتم .

وفيه يقول الحارثي : سموا لنا واحدا منكم فنعرفه * * في الجاهلية لاسم الملك محتملا كالتبعين وذي القرنين يقبله * * أهل الحجى فأحق القول ما قبلا وفيه يقول ابن أبي ذئب الخزائي : ومنا الذى بالخافقين تغربا * * واصعد في كل البلاد وصوبا فقد نال قرن الشمس شرقا ومغربا * * وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا

وهذا لا يوافق ما قطع به التاريخ انه ملك 356 – 324 ق م .

(295/478)

وذلك ذو القرنين تفخر حمير * * بعسكر فيل ليس يحصى فيحسبا قال الهمداني :

وعلماء همدان تقول ذو القرنين الصعب بن مالك بن الحارث الأعلى ابن ربيعة بن الحيار بن مالك وف ذي القرنين أقاويل كثيرة .

انتهى كلام المقريزى .

وهو كلام جامع ، ويستفاد منه أولا أن لقب ذي القرنين تسمى به أكثر من واحد من ملوك حمير وأن هناك ذا القرنين الأول (الكبير) وغيره .

وثانيا : أن ذا القرنين الأول وهو الذى بنى سد يأجوج ومأجوج قبل الاسكندر المقدونى بقرون كثيرة سواء كان معاصرا للخليل عليه السلام أو بعده كما هو مقتضى ما نقله ابن هشام من ملاقاته الخضر ببيت المقدس المبني بعد إبراهيم بعدة قرون في زمن داود وسليمان عليهما السلام فهو على أي حال قبله مع ما في تاريخ ملوك حمير من الابهام .

ويبقى الكلام على ما ذكره واختاره من جهتين : أحدهما : أنه أين موضع هذا السد الذى بناه تبع الحميري ؟ .

وثانيهما : أنه من هم هذه الأمة المفسدة في الأرض التي بنى السد لصدهم فهل هذا السد أحد الاسداد المبنية في اليمن أو ما والاها كسد مأرب وغيره فهي أسداد مبنية لادخار المياه للشرب والسقي لا للصد على أنها لم يعمل فيها زبر الحديد والقطر كما ذكره الله في كتابه ، أو غيرها ؟ وهل كان هناك أمة مفسده مهاجمة ، وليس فيما يجاورهم إلا أمثال

القبط والاشور وكلدان وغيرهم وهم أهل حضارة ومدنية .

وذكر بعض أجلة المحققين (1) من معاصرينا في تأييد هذا القول ما محصله : أن ذا القرنين المذكور في القرآن قبل الإسكندر المقدوني بمآت من السنين فليس هو هو بل هو أحد الملوك الصالحين من التبابعة الاذواء من ملوك اليمن ، وكان من شيمة طائفه منهم التسمى بذي كذى همدان وذي غمدان وذي المنار وذي الاذعار وذي يزن وغيرهم .

وكان مسلما موحدا وعادلا حسن السيرة وقويا ذا هيبة وشوكه سار في جيش كثيف نحو المغرب فاستولى على مصر وما وراءها ثم لم يزل يسير على سواحل البحر

---

(1) وهو العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني .

الأبيض حتى بلغ ساحل المحيط الغربي فوجد الشمس تغيب في عين حمئة أو حامية .

ثم رجع سائرا نحو المشرق وبنى في مسيره " أفريقية (1) .

وكان شديد الولع وذا خبرة في البناء والعمارة ولم يزل يسير حتى مر بشبه جزيرة وبراري آسيا الوسطى وبلغ تركستان وحائط الصين ووجد هناك قوما لم يجعل الله لهم من دون الشمس سترا .

ثم مال إلى الجانب الشمالي حتى بلغ مدار السرطان ، ولعله الذي شاع في الالسن أنه دخل الظلمات ، فسأله أهل تلك البلاد أن يبني لهم سدا يصد عنهم يأجوج ومأجوج لما أن اليمنيين – وذو القرنين منهم – كانوا معروفين بعمل السد والخبرة فيه فبنى لهم السد .

فإن كان هذا السد هو الحائط الكبير الحائل بين الصين ومنغوليا فقد كان ذلك ترميما منه لمواضع تهدمت من الحائط بمرور الايام وإلا فأصل الحائط إنما بناه بعض ملوك الصين قبل ذلك ، وإن كان سدا آخر غير الحائط فلا إشكال .

ومما بناه ذو القرنين واسمه الاصلي " شمر يرعش " في تلك النواحي مدينة سمرقند (2) على ما قيل .

وأيد ذلك بأن كون ذي القرنين ملكا عربيا صالحا يسأل عنه الاعراب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويذكره القرآن الكريم للتذكر والاعتبار أقرب للقبول من أن يذكر قصة بعض ملوك الروم أو العجم أو الصين ، وهم من الأمم البعيدة التي لم يكن للاعراب هوى في أن يسمعوا أخبارهم أو يعتبروا بآثارهم ، ولذا لم يتعرض القرآن لشئ من أخبارهم .

انتهى ملخصا .

والذي يبقى عليه أن كون حائط الصين هو سد ذي القرنين لا سبيل إليه فإن ذا القرنين قبل الاسكندر بعدة قرون على ما ذكره وقد بنى حائط الصين بعد الاسكندر بما يقرب من نصف قرن وأما غير الحائط الكبير ففي ناحية الشمال الغربي من الصين بعض أسداد اخر

لكنها مبنية من الحجارة على ما يذكر لا أثر فيها من زبر الحديد والقطر .

---

(1) بناها التبع أفريقس الملك ويقال إنه ذو القرنين ، وقيل إنه أبوذي القرنين أو أخوه وبه سميت القارة افريقيا .

(2) يقال انه مر بناحية تركستان فخرب " سند " وبنى " سمرقند " فقيل " شمركند " أي شمر قلع وخرب سند فبقي شمر اسماله كند ثم عربت الكلمة فصارت سمرقند .

(297/478)

وقال في تفسير الجواهر بعد ذكر مقدمة ملخصها أن المعروف من دول اليمن بمعونة من النقوش المكشوفة في خرائب اليمن ثلاث دول : دولة معين وعاصمتها قرناء وقد قدر العلماء أن آثار دولة معين تبتدئ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع أو الثامن قبله ، وقد عثروا على بعض ملوك هذه الدولة وهم ستة وعشرون ملكاً مثل " أب يدع " و " أب يدع ينيع " أي المنقد .

ودولة سبا وهم من القحطانيين كانوا أولا أذواء فأقيالا ، والذى نبغ منهم " سبا " صاحب قصر صرواح شرقي صنعاء فاستولى على الجميع ، ويبتدئ ملكهم من 850 ق م إلى 115 ق م والمعروف من ملوكهم سبعة وعشرون ملكا خمسة عشر منهم يسمى مكربا

كالمكرب " يثعمر " والمكرب " ذمر على " واثنا عشرة منهم يسمى ملكا فقط كالملك " ذرح " والملك " يريم أيمن " .

ودولة الحميريين وهم طبقتان الأولى ملوك سبا وريدان من سنة 115 ق م إلى سنة 275 ق م وهؤلاء ملوك فقط ، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضر موت وغيرها ، وهؤلاء أربعة عشر ملكا أكثرهم تبابعه أولهم " شمر يرعش " وثانيهم " ذو القرنين " وثالثهم " عمرو " زوج بلقيس (1) وتنتهي إلى ذي جدن ويبتدئ ملكهم من سنة 275 م إلى سنة 525 .

---

(1) بلقيس هذه غير ملكة سبأ التي يقال إن سليمان بن داود عليه السلام تزوج بها بعد ما أحضرها من سبأ وهو سابق على الميلاد بما يقرب من ألف سنة .

ثم قال : فقد ظهرت صلة الاتصاف بلقب " ذي " بملوك اليمن ولا نجد في غيرهم كملوك الروم مثلا من يلقب بذي فذو القرنين من ملوك اليمن ، وقد تقدم من ملوكهم من يسمي بذي القرنين ، ولكن هل هذا هو ذو القرنين المذكور في القرآن ؟ نحن نقول : كلا لأن هذا مذكور في ملوك قريبي العهد منا جدا ، ولم ينقل ذلك عنهم اللهم إلا في روايات ذكرها القصاصون في

التاريخ مثل أن " شمر يرعش " وصل إلى بلاد العراق وفارس وخراسان والصغد وبنى مدينة سمرقند وأصله شمر كند ، وأن أسعد أبو كرب غزا آذربيجان ، وبعث حسانا ابنه إلى الصغد ، وابنه يعفر إلى الروم ، وابن أخيه إلى الفرس ، وأن من الحميريين من بقوا في الصين لهذا العهد بعد غزو ذلك الملك لها .

وكذب ابن خلدون وغيره هذه الاخبار ، ووسموها بأنها مبالغ فيها ونقضوها بأدلة جغرافية وأخرى تاريخية .

إذن يكون ذو القرنين من أمة العرب ولكنه في تاريخ قديم قبل التاريخ المعروف .

انتهى ملخصا .

و- وقيل : إن ذا القرنين هو كورش أحد ملوك الفرس الهخامنشيين (539 - 560 ق م وهو الذي أسس الامبراطورية الايرانية ، وجمع بين مملكتي الفارس وماد ، وسخر بابل وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى اورشليم وساعد في بناء الهيكل وسخر مصر ثم اجتاز إلى يونان فغلبهم وبلغ المغرب ثم سار إلى أقاصي المعمورة في المشرق .

(299/478)

ذكر بعض من قارب عصرنا ثم بذل الجهد في إيضاحه وتقريبه بعض محققي الهند في هذه الاواخر بيان ذلك إجمالا أن الذي ذكره القرآن من وصف ذي القرنين منطبق على هذا الملك العظيم فقد كان مؤمنا بالله بدين التوحيد عادلا في رعيته سائرا بالرأفة والرفق والاحسان سائسا لاهل الظلم والعدوان ، وقد آتاه الله من كل شئ سببا فجمع بين الدين والعقل وفضائل الاخلاق والعدة والقوة والثروة والشوكة ومطاوعة الأسباب .

وقد سار كما ذكره الله في كتابه مره نحو المغرب حتى استولى علي ليديا وحواليها ثم سار ثانيا نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس ووجد عنده قوما بدويين همجيين يسكنون في البراري ثم بنى السد وهو على ما يدل عليه الشواهد السد المعمول في مضيق داريال بين جبال قفقاز بقرب " مدينة تفليس " هذا إجمال الكلام ودونك التفصيل .

ايمانه بالله واليوم الاخر : يدل على ذلك ما في كتب العهد العتيق ككتاب عزرا (الاصحاح 1) وكتاب دانيال (الاصحاح 6) وكتاب أشعياء (الاصحاح 44 و 45) من تجليله وتقديسه حتى سماه في كتاب الاشعياء " راعي الرب " وقال في الاصحاح الخامس والاربعين : " هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لادوس أمامه امما وأحقاء ملوك أحل لا فتح أمامه المصراعين والابواب لا تغلق .

أنا أسير قدامك والهضاب أمهد أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف .

وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابي .

لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك .

لقبتك وأنت لست تعرفني .

ولو قطع النظر عن كونه وحيا فاليهود على ما بهم من العصبية المذهبية لا يعدون رجلا مشركا مجوسيا أو وثنيا – لو كان كورش كذلك – مسيحا إلهيا مهديا مؤيدا وراعيا للرب .

(300/478)

على أن النقوش والكتابات المخطوطة بالخط المسماري المأثور عن داريوش الكبير وبينهما من الفصل الزماني ثماني سنين ناطقة بكونه موحدا غير مشرك ، وليس من المعقول أن يتغير ما كان عليه كورش في هذا الزمن القصير .

وأما فضائله النفسانية فيكفي في ذلك الرجوع إلى المحفوظ من أخباره وسيرته وما قابل به الطغاة والجبابرة الذين خرجوا عليه أو حاربهم كملوك " ماد " و " ليديا " و " بابل " و " مصر " وطغاة البدو في أطراف " بكتريا " وهو البلخ وغيرهم ، وكان كلما ظهر على قوم عفا عن مجرميهم ، وأكرم كريمهم ورحم ضعيفهم وساس مفسدهم وخائنهم .

وقد أثنى عليه كتب العهد القديم ، واليهود يحترمه أعظم الاحترام لما نجاهم من أساره بابل

وأرجعهم إلى بلادهم وبذل لهم الاموال لتجديد بناء الهيكل ورد إليهم نفائس الهيكل المنهوبة المخزونة في خزائن ملوك بابل ، وهذا في نفسه مؤيد آخر لكون ذي القرنين هو كورش فان السؤال عن ذي القرنين إنما كان بتلقين من اليهود على ما في الروايات .

وقد ذكره مؤرخو يونان القدماء كهرودت وغيره فلم يسعهم إلا أن يصفوه بالمروة والفتوة والسماحة والكرم والصفح وقلة الحرص والرحمة والرأفة ويثنوا عليه بأحسن الثناء .

وأما تسميته بذي القرنين فالتواريخ وإن كانت خاليه عما يدل على شئ في ذلك لكن اكتشاف تمثاله الحجري اخيرا في مشهد مرغاب في جنوب إيران يزيل الريب في اتصافه بذي القرنين فانه مثل فيه ذا قرنين نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحد القرنين مائل إلى قدام والاخر آخذ جهة الخلف .

وهذا قريب من قول من قال من القدماء في وجه تسمية ذي القرنين أنه كان له تاج أو خوذة فيه قرنان .

وقد ورد في كتاب دانيال ذكر رؤيا رأى كورش فيه في صورة كبش ذي قرنين قال فيه (1)

.

" في السنة الثالثة من ملك " بيلشاصر " الملك ظهرت لي انا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء .

---

(1) كتاب دانيال الإصحاح الثامن 1 - 9 .

فرأيت في الرؤيا وكأن في رؤياي وانا في " شوشن " القصر الذي في ولاية عيلام .

ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر " اولاي " فرفعت عيني وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد اعلى من الاخر والاعلى طالع اخيرا .

رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه ولا منفذ من يده وفعل كمرضاته وعظم .

وبينما كنت متأملا إذا بتيس من المعزجاء من المغرب على وجه كل الأرض ولم يمس الأرض وللتيس قرن معتبر بين عينيه .

وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذي رأيته واقفا عند النهر وركض إليه بشدة قوته ورايته قد وصل إلى جانب الكبش فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر قرنيه فلم تكن للكبش قوة على الوقوف امامه وطرحه على الأرض وداسه ولم يكن للكبش منفذ من يده .

فتعظم تيس المعز جدا .

ثم ذكر بعد تمام الرؤيا ان جبرئيل تراءى له وعبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على

كورش ، وقرناه مملكتا الفارس وماد ، والتيس ذو القرن الواحد على الإسكندر المقدونى .

وأما سيره نحو المغرب والمشرق فسيره نحو المغرب كان لدفع طاغية " ليديا " وقد سار بجيوشه نحو كورش ظلما وطغيانا من غير أي عذر يجوز له ذلك فسار إليه وحاربه وهزمه ثم عقبه حتى حاصره في عاصمة ملكه ثم فتحها وأسره ثم عفا عنه وعن سائر أعضاده وأكرمه وإياهم وأحسن إليهم وكان له أن يسوسهم ويبيدهم وانطباق القصة على قوله تعالى : " حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة – ولعلها الساحل الغربي من آسيا الصغرى – ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا " وذلك لاستحقاقهم العذاب بطغيانهم وظلمهم وفسادهم .

(302/478)

ثم إنه سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لاخماد غائلة قبائل بدوية همجية انتهضوا هناك للمهاجمة والفساد وانطباق قوله تعالى : " حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا عليه ظاهر .

واما بناؤه السد : فالسد الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر

الاسود ، ويسمى المضيق " داريال " (1) وهو واقع بلدة " تفليس " وبين " ولادي كيوكز "

.

وهذا السد واقع في مضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه وهو وحده الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي والشمالي والجبال مع ما ينضم إليها من بحر الخزر والبحر الاسود حاجز طبيعي في طول الوف من الكيلو مترات يحجز جنوب آسيا من شمالها .

وكان يهجم في تلك الاعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى ما يواليها من الجنوب فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم إيران حتى الاشور وكلده ، وهجموا في حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلا وسبيا ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الاشور وكان ذلك في القرن السابق على عهد

---

(1) ولعله محرف " داريول " بمعنى المضيق بالتركية ، ويسمى السد باللغة المحيلة " دمير قابو " ومعناه باب الحديد .

كورش تقريبا .

وقد ذكر المؤرخون من القدماء كهرودوت اليونانى سير كورش إلى شمال إيران لاخماد نوائر

فتن اشتعلت هناك ، والظاهر أنه بنى السد في مضيق داريال في مسيره هذا لاستدعاء من أهل الشمال وتظلم منهم ، وقد بناه بالحجارة والحديد وهو الردم الوحيد الذي استعمل فيه الحديد ، وهو بين سدين جبلين ، وانطباق قوله تعالى : " فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد " الآيات عليه ظاهر .

ومما أيد به هذا المدعى وجود نهر بالقرب منه يسمى " سايروس " وهو اسم كورش عند الغربيين ، ونهر آخر يمر بتفليس يسمى "كر" وقد ذكر هذا السد " يوسف " اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته إلى شمال قفقاز وليس هو الحائط الموجود في باب الابواب على ساحل بحر الخزر فان التاريخ ينسب بناءه إلى كسرى أنو شيروان وكان يوسف قبله (1)

.

على أن سد باب الابواب غير سد ذي القرنين المذكور في القرآن قطعا إذ لم يستعمل فيه حديد قط .

وأما يأجوج ومأجوج فالبحث عن التطورات الحاكمة على اللغات يهدينا إلى أنهم المغول فان الكلمة بالتكلم الصيني " منكوك " أو " منجوك " ولفظتا يأجوج ومأجوج كأنهما نقل عبرانى وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق "كوك" و " مأكوك " والشبه الكامل بين " ماكوك " و " منكوك " يقضي بأن الكلمة متطورة من التلفظ الصيني " منكوك " كما اشتق منه " منغول " و " مغول " ولذلك في باب تطورات الالفاظ نظائر لا تحصى .

فيأجوج ومأجوج هما المغول وكانت هذه الأمة القاطنة بالشمال الشرقي من آسيا من أقدم الاعصار أمة كبيرة مهاجمة تهجم برهة إلى الصين وبرهة من طريق داريال قفقاز إلى أرمينستان وشمال إيران وغيرها وبرهة وهى بعد بناء السد إلى شمال اوربة وتسمى

---

(1) فهو على ما يقال كان يعيش في القرن الأول الميلادي .

عندهم بسيت ومنهم الأمة الهاجمة على الروم وقد سقطت في هذه الكرة دولة رومان ، وقد تقدم أيضا أن المستفاد من كتب العهد العتيق أن هذه الأمة المفسدة من سكنة أقاصى الشمال .

هذه جملة ما لخصناه من كلامه ، وهو وإن لم يخل عن اعتراض ما في بعض أطرافه لكنه أوضح انطباقا على الآيات وأقرب إلى القبول من غيره .

ز – ومما قيل في ذي القرنين ما سمعته عن بعض مشايخي أنه من أهل بعض الأدوار السابقة على هذه الدورة الإنسانية وهو غريب ولعله لتصحيح ما ورد في الأخبار من عجائب حالات ذي القرنين وغرائب ما وقع منه من الوقائع كموته وحياته مرة بعد مرة ورفعه إلى السماء ونزوله إلى الأرض وقد سخر له السحاب يسير به إلى المغرب والمشرق ، وتسخير

النور والظلمة والرعد والبرق له ، ومن المعلوم أن تاريخ هذه الدورة لا يحفظ شيئا من ذلك فلا بد أن يكون ذلك في بعض الادوار السابقة هذا ، وقد بالغ في حسن الظن بتلك الاخبار .

4 – أمعن أهل التفسير والمؤرخون في البحث حول القصة ، وأشبعوا الكلام في أطرافها ، وأكثرهم على أن يأجوج ومأجوج أمة كبيرة في شمال آسيا ، وقد طبق جمع منهم ما أخبر به القرآن من خروجهم في آخر الزمان وإفسادهم في الأرض على هجوم التتر في النصف الأول من القرن السابع الهجري على غربي آسيا ، وإفراطهم في إهلاك الحرث والنسل بهدم البلاد وإبادة النفوس ونهب الاموال وفجائع لم يسبقهم إليها سابق .

وقد أخضعوا أولا الصين ثم زحفوا إلى تركستان وإيران والعراق والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى ، وأفنوا كل ما قاومهم من المدن والبلاد والحصون كسمرقند وبخارا وخوارزم ومرو ونيسابور والري وغيرها ، فكانت المدينة من المدن تصبح وفيها مآت الالوف من النفوس وتمسي ولم يبق من عامة أهلها نافخ نار ، ولا من هامة أبنيتها حجر على حجر .

ثم رجعوا إلى بلادهم ثم عادوا وحملوا على الروس ودمروا أهل بولونيا وبلاد المجر وحملوا على الروم وألجؤوهم على الجزية كل ذلك في فجائع يطول شرحها .

لكنهم أهملوا البحث عن أمر السد من جهة خروجهم منه وحل مشكلته فإن قوله تعالى : " فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض . . . الآيات"

ظاهره على ما فسروه أن هذه الأمة المفسدة محبوسون فيما وراءه لا مخرج لهم إلى سائر الأرض مادام معمورا قائما على ساقه حتى إذا جاء وعد الله سبحانه جعله دكاء مثلما أو منهدما فخرجوا منه إلى الناس وساروا بالفساد والشر .

فكان عليهم – على هذا – أن يقرروا للسد وصفه هذا فإن كانت هذه الأمة المذكورة هي التتر وقد ساروا من شمال الصين إلى إيران والعراق والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى فأين كان هذا السد الموصوف في القرآن الذى وطؤوه ثم طلعوا منه إلى هذه البلاد وجعلوا عاليها سافلها ؟ وإن لم تكن هي التتر أو غيرها من الأمم المهاجمة في طول التاريخ فأين هذا السد المشيد بالحديد ومن صفته أنه يحبس أمة كبيرة منذ ألوف من السنين من أن تهجم على سائر أقطار الأرض ولا مخرج لهم إلى سائر الدنيا دون السد المضروب دونهم وقد ارتبطت اليوم بقاع الأرض بعضها ببعض بالخطوط البرية والبحرية والهوائية وليس يحجز حاجز طبيعي كجبل أو بحر أو صناعي كسد أو سور أو خندق أمة من أمة فأي معنى لانصداد قوم عن الدنيا بسد بين جبلين بأي وصف وصف وعلى أي نحو فرض ؟ .

بيان والذي أرى في دفع هذا الإشكال – والله أعلم – أن قوله : " دكاء " من الدك بمعنى الذلة قال في لسان العرب : وجبل دك : ذليل .

انتهى .

والمراد بجعل السد دكاء جعله ذليلا لا يعبأ بأمره ولا ينتفع به من جهة اتساع طرق الارتباط وتنوع وسائل الحركة والانتقال برا وبحرا وجوا .

فحقيقة هذا الوعد هو الوعد برقي المجتمع البشري في مدنيته ، واقتراب شتى أممه إلى حيث لا يسده سد ولا يحوطه حائط عن الانتقال من أي صقع من أصقاع الأرض إلى غيره ولا يمنعه من الهجوم والزحف إلى أي قوم شاؤا . (1)

---

(1) كلام فى غاية البعد ، ولا يلتفت إليه لتعارضه مع ظاهر القرآن الكريم . والله أعلم بحقائق الأمور .

ويؤيد هذا المعنى سياق قوله تعالى في موضع آخر يذكر فيه هجوم يأجوج ومأجوج " حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون " حيث عبر بفتح يأجوج ومأجوج ولم يذكر السد .

وللدك معنى آخر وهو الدفن بالتراب ففي الصحاح : دككت الركى – وهو البئر – دفنته بالتراب انتهى ، ومعنى آخر وهو صيرورة الجبل رابية من طين ، قال في الصحاح وتد كدكت الجبال أي صارت روابي من طين واحدتها دكاء انتهى .

فمن الممكن أن يحتمل أن السد من جملة أبنية العهود القديمة التي ذهبت مدفونة تحت التراب عن رياح عاصفة أو غريقة بانتقال البحار أو اتساع بعضها على ما تثبتها الأبحاث الجيولوجية ، وبذلك يندفع الإشكال لكن الوجه السابق أوجه . والله أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الميزان حـ 13 صـ 378 . 399 ﴾

(307/478)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/479)

الجزء التاسع والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 99 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 106 ﴾ من نفس السورة

(4/479)

قوله تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ

ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي بعض من خلف السد ومن أمامه ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ جعلنا السد دكاء وخرجوا مقدمتهم بالشام وساقطتهم بخراسان ، وهم - كما قال الله تعالى - ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ .

﴿ يموج ﴾ أي يضطرب ﴿ في بعض ﴾ كما يموج البحر ، فأهلكوا ما مروا عليه من شيء إلا ما أراد الله ، ثم أبادهم الذي خلقهم وبقرب ذلك أفنى الخلائق أجمعين ﴿ ونفخ في الصور ﴾ أي النفخة الثانية لقوله : ﴿ فجمعناهم ﴾ ويجوز أن تكون هذه الفاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الأولى ، أو ونفخ في الصور فمات الخلائق كلهم ، فبليت أجسامهم ، وتفتتت عظامهم ، كما كان من تقدمهم ، ثم نفخ فيه النفخة الثانية فجمعناهم من التراب بعد تمزقهم فيه ، وتفرقهم في أقطار الأرض بالسيول والرياح وغير ذلك ﴿ جمعاً ﴾ فأقمناهم دفعة واحدة كلمح البصر ، وحشرناهم إلى الموقف للحساب ثم العقاب أو الثواب ﴿ وعرضنا ﴾ أي أظهرنا ﴿ جهنم يومئذ ﴾ أي إذ جمعناهم لذلك ﴿ للكافرين عرضاً ﴾ ظاهراً لهم كل ما فيها من الأهوال وهم لا يجدون عنها مصرفاً ؛ ثم وصفهم بما

أوجب سجنهم فيها وتجهمها لهم فقال : ﴿ الذين كانت ﴾ كوناً كأنه جبلة لهم ﴿ أعينهم ﴾ الوجهية والقلبية ﴿ في غطاء عن ذكري ﴾ بعدم النظر فيما جعلنا على الأرض من زينة دليلاً على الساعة بإفنائه إثر إحيائه وإعادته بعد إبدائه ﴿ وكانوا ﴾ بما جبلناهم عليه ﴿ لا يستطيعون ﴾ أي استطاعة عظيمة تسعدهم ، لضعف عقولهم ، وغرق استبصارهم في فضولهم ﴿ سمعاً ﴾ لآياتي التي تسمع الصم وتبصر الكمه ، وهو أبلغ في التبكيت بالغباوة والتقريع بالبلادة من مجرد نفي البصر والسمع ، لأن ذلك لا ينفي الاستطاعة ؛ ثم عطف على ما أفهمه ذلك قوله موبخاً لهم ومبكتاً : ﴿ أفحسب ﴾ أي أغطوا أعينهم عن آياتي وأصموا أسماعهم عن كلماتي ، وعبدوا عبادي فحسبوا لضعف عقولهم ، وإنما قال : ﴿ الذين كفروا ﴾ دلالة على الوصف الذي أوجب لهم ذلك ﴿ أن يتخذوا ﴾ أي ولو بذلوا الجهد ﴿ عبادي ﴾ من الأحياء كالملائكة وعزير والمسيح ، والأموات كالأصنام .

(5/479)

ولما كان كل شيء دونه سبحانه ، وكان لا يستغرق شيء من الأشياء جميع ما دون رتبته من المراتب ، أثبت الجار فقال : ﴿ من دوني أولياء ﴾ أي مبتدئين اتخاذهم من دون إذني

، والمفعول الثاني ل ﴿ حسب ﴾ محذوف تقديره : ينصرونهم ويدفعون عنهم ويجعلون بعضهم ولداً ولا أعذبهم .

ولما كانت غاية اتخاذ الولي أن يفعل ما يفعل القريب من النصر والحماية من كل مؤذ ، جاز كون هذا ساداً مسد مفعولي ﴿ حسب ﴾ لأن معناه : أحسبوا اتخاذهم مانعهم مني ؟ ولما كان معنى الاستفهام الإنكاري : ليس الأمر كذلك ، بل أصلد زندهم ، وخاب جدهم ، وغاب سعدهم ، حسن جداً قوله مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إنا اعتدنا جهنم ﴾ التي تقدم أنا عرضناها لهم ﴿ للكافرين نزلاً ﴾ نقدمها لهم أول قدومهم كما يعجل للضيف ، فلا يقدر أحد على منعها عنهم ، ولهم وراءها ما يحتقر بالنسبة إليه كما هو شأن ما بعد النزل بالنسبة إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 508.509 ﴾

(6/479)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) ﴾

اعلم أن الضمير في قوله بعضهم عائد إلى : ﴿ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ [الأنبياء : 96] وقوله :

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فيه وجوه : الأول : أن يوم السد ماج بعضهم في بعض خلفه لما منعوا من الخروج .

الثاني : أن عند الخروج يموج بعضهم في بعض قيل إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين في البلاد يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ويأكلون لحوم الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون .

والقول الثالث : أن المراد من قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة وكل ذلك محتمل إلا أن الأقرب أن المراد الوقت الذي جعل الله ذلك السد دكاً فعنده ماج بعضهم في بعض وبعده نفخ في الصور وصار ذلك من آيات القيامة ، والكلام في الصور قد تقدم وسيجيء من بعد ، وأما عرض جهنم وإبرازه حتى يصير مكشوفاً بأهواله فذلك يجري مجرى عقاب الكفار لما يتداخلهم من الغم العظيم ، وبين تعالى أنه يكشفه للكافرين الذين عموا وصموا ، أما العمى فهو المراد من قوله : ﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاء عَن ذِكْرِى ﴾ والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق ، وأما الصمم فهو المراد من قوله : ﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ يعني أن حالتهم أعظم من الصمم لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة واحتج الأصحاب بقوله : ﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ على أن الاستطاعة مع الفعل وذلك لأنهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا ، قال القاضي : المراد منه نفرتهم

عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم إياه كقول الرجل : لا أستطيع النظر إلى فلان .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(7/479)

اعلم أنه تعالى لما بين من حال الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به الرسول أتبعه بقوله : ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاء ﴾ والمراد أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر الآيات وتمردهم عن قبول أمره وأمر رسوله وهو استفهام على سبيل التوبيخ .

المسألة الثانية :

قرأ أبو بكر ولم يرفعه إلى عاصم : ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بسكون السين ورفع الباء . وهي من الأحرف التي خالف فيها عاصماً ، وذكر أنه قراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وعلى هذا التقدير فقوله : حسب مبتدأ ، أن يتخذوا خبر ، والمعنى أفكافيهم وحسبهم أن يتخذوا كذا وكذا ، وأما الباقون فقرأوا فحسب على لفظ الماضي ، وعلى

هذا التقدير ففيه حذف والمعنى : أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادي أولياء نافعاً .

المسألة الثالثة :

في العباد أقوال قيل : أراد عيسى والملائكة ، وقيل : هم الشياطين يوالونهم ويطيعونهم ، وقيل : هي الأصنام سماهم عباداً كقوله : ﴿ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾ وفي النزل قولان : الأول : قال الزجاج إنه المأوى والمنزل . والثاني : أنه الذي يقام للنزيل وهو الضيف ، ونظيره قوله : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 147.148 ﴾

(8/479)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم القوم الذين ذكرهم ذو القرنين يوم فتح السد يموج بعضهم في بعض .

الثاني : الكفار في يوم القيامة يموج بعضهم في بعض .

الثالث : أنهم الإنس والجن عند فتح السد .

وفيه وجهان :

أحدهما : يختلط بعضهم ببعض .

الثاني : يدفع بعضهم بعضاً ، مأخوذ من موج البحر .

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الضلال كالمغطي لأعينهم عن تَذَكُّر الانتقام .

الثاني : أنهم غفلوا عن الاعتبار بقدرته الموجبة لذكره .

﴿ وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المراد بالسمع ها هنا العقل ، ومعناه لا يعقلون الثاني : أنه معمول على ظاهره

في سمع الآذان . وفيه وجهان :

أحدهما : لا يستطيعونه استثقالاً .

الثاني : مقتاً .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن النزل الطعام ، فجعل جهنم طعاماً لهم ، قاله قتادة .

الثاني : أنه المنزل ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

والضمير في ﴿ تركنا ﴾ لله عز وجل ، وقوله ﴿ يومئذ ﴾ يحتمل أن يريد به يوم القيامة لأنه قد تقدم ذكره ، فالضمير في قوله ﴿ بعضهم ﴾ على ذلك لجميع الناس ، ويحتمل أن يريد بقوله ﴿ يومئذ ﴾ يوم كمال السد ، فالضمير في قوله ﴿ بعضهم ﴾ على ذلك ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ [الكهف : 94] ، واستعارة " الموج " لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم في بعض كالمولهين من هم وخوف ونحوه ، فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض ، وقوله ﴿ ونفخ في الصور ﴾ إلى آخر الآية معني به يوم القيامة بلا احتمال لغيره ، فمن تأول الآية كلها في يوم القيامة ، اتسق تأويله ، ومن تأول الآية إلى قوله ﴿ يموج في بعض ﴾ في أمر يأجوج ومأجوج ، تأول القول وتركنا هم يموجون دأباً على مر الدهر وتناسل القرون منهم فنائهم ، ثم ﴿ نفخ في الصور ﴾ فيجتمعون ، و ﴿ الصور ﴾ : في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصحاح ، هو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(10/479)

"كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنا الجبهة وأصغى بالأذن متى يؤمر " ، فشق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " قولوا حسبنا الله وعلى الله توكلنا ، ولو اجتمع أهل منى ما أقلوا ذلك القرن " ، وأما " النفخات " ، فأسند الطبري إلى أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " " الصور " قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين " ، وقال بعض الناس " النفخات " اثنتان : نفخة الفزع ، وهي نفخة الصعق ، ثم الأخرى التي هي للقيام ، وملك الصور هو إسرافيل ، وقالت فرقة ﴿ الصور ﴾ جمع صورة ، فكأنه أراد صور البشر والحيوان نفخ فيها الروح ، والأول أبين وأكثر في الشريعة ، وقوله ﴿ وعرضنا جهنم ﴾ معناه : أبرزناها لهم لتجمعهم وتحطمهم ، ثم أكد بالمصدر عبارة عن شدة الحال ، وروى الطبري في هذا حديثاً مضمنه أن النار ترفع لليهود والنصارى كأنها السراب ، فيقال هل لكم في الماء حاجة ؟ فيقولون نعم ، وهذا مما لا صحة له .

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾

(11/479)

قوله ﴿ أعينهم ﴾ كناية عن البصائر ، لأن عين الجارحة لا نسبة بينها وبين الذكر ، والمعنى : الذين فكرهم بينها وبين ﴿ ذكري ﴾ والنظر في شرعي حجاب ، وعليها ﴿ غطاء ﴾ ثم قال إنهم ﴿ كانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ يريد لإعراضهم ونفارهم عن دعوة الحق ، وقرأ جمهور الناس : " أفحسِب الذين " بكسر السين بمعنى : أظنوا ، وقرأ علي بن أبي طالب والحسن وابن يعمر ومجاهد وابن كثير بخلاف عنه : " أفحسْبُ " بسكون السين وضم الباء بمعنى أكافيهم ومنتهى غرضهم ، وفي مصحف ابن مسعود " أفظن الذين كفروا " ، وهذه حجة لقراءة الجمهور ، وقال جمهور المفسرين يريد كل من عبد من دون الله كالملائكة وعزير وعيسى ، فيدخل في ﴿ الذين كفروا ﴾ بعض العرب واليهود والنصارى ، والمعنى أن ذلك ليس كظنهم ، بل ليس من ولاية هؤلاء المذكورين شيء ، ولا يجدون عندهم منتفعاً و ﴿ أعتدنا ﴾ معناه : يسرنا ، و" النزل " موضع النزول ، و" النزل " أيضاً ما يقدم للضيف أو القادم من الطعام عند نزوله ، ويحتمل أن يراد بالآية هذا المعنى أن المعد لهم بدل النزول جهنم ، كما قال الشاعر : [الوافر]

تحية بينهم ضرب وجيع . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(12/479)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : و ﴿ تركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾

في المشار إليهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم يأجوج ومأجوج .

ثم في المراد ب "يومئذ" قولان .

أحدهما : أنه يوم انقضى أمر السدّ ، تُركوا يموج بعضهم في بعض من ورائه مختلطين لكثرتهم ؛

وقيل : ماجوا متعجبين من السدّ .

والثاني : أنه يوم يخرجون من السدّ تُركوا يموج بعضهم في بعض .

والثاني : أنهم الكفار .

والثالث : أنهم جميع الخلائق .

الجن والإنس يموجون حيارى .

فعلى هذين القولين ، المراد باليوم المذكور يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ ونُفخ في الصُّور ﴾ هذه نفخة البعث .

وقد شرحنا معنى "الصُّور" في [الأنعام : 73] .

قوله تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم ﴾ أي : أظهرناها لهم حتى شاهدوها .

قوله تعالى : ﴿ الذين كانت أعينهم ﴾ يعني : أعين قلوبهم ﴿ في غِطاءٍ ﴾ أي : في غفلةٍ

﴿ عن ذِكْري ﴾ أي : عن توحيدي والإِيمان بي وبكتابي ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ هذا لعداوتهم وعنادهم وكراهتهم ما يُنْذَرون به ، كما تقول لمن يكره قولك : ما تقدر أن تسمع كلامي .

قوله تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ أي : أَفَظَنَّ المشركون ﴿ أن يتخذوا عبادي ﴾ في هؤلاء العباد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الشياطين ، قاله ابن عباس .

والثاني : الأصنام ، قاله مقاتل .

والثالث : الملائكة والمسيح وعزير وسائر المعبودات من دونه ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ من دوني ﴾ فتح هذه الياء نافع ، وأبو عمرو .

وجواب الاستفهام في هذه الآية محذوف ، وفي تقديره قولان .

أحدهما : أفحسبوا أن يتخذوهم أولياء ، كلا بل هم أعداءٌ لهم يتبرؤون منهم .

والثاني : أن يتخذوهم أولياء ولا أغضبُ ولا أعاقبُهم .

وروى أبان عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : "أَفَحَسْبُ" بتسكين السين وضم الباء ، وهي قراءة علي عليه السلام ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وابن محيصن ؛ ومعناها : أفيكفيهم أن يتخذوهم أولياء ؟ .

(13/479)

فأما النُّزُل ففيه قولان .

أحدهما : أنه ما يُهيَّأ للضيف والعسكر ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : أنه المنزل ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(14/479)

وقال القرطبى :

قوله تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾

الضمير في "تركنا" لله تعالى ؛ أي تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج "يومئذٍ" أي وقت كمال السدّ يموج بعضهم في بعض .

واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردّد بعضهم في بعض ، كالمولهين من هَمٍّ وخوف ؛

فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السدّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم .

قلت : فهذه ثلاثة أقوال ، أظهرها أوسطها ، وأبعدها آخرها ، وحسن الأول ؛ لأنه تقدّم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ [الكهف : 98] . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ تقدّم في "الأنعام" .

﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ يعني الجن والإنس في عرصات القيامة .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي أبرزناها لهم .

﴿ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾ .

﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في موضع خفض نعت "للكافرين" .

﴿ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى .

﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة من صمَّ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كفروا ﴾ أي ظن .

وقرأ عليّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن "أَفَحَسْبُ" بإسكان السين وضم الباء ؛ أي كَفَاهم .

﴿ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي ﴾ يعني عيسى والملائكة وعزيراً .

﴿ مِن دوني أَوْلِيَآءَ ﴾ ولا أعاقبهم ؛ ففي الكلام حذف .

وقال الزجاج: المعنى؛ أفحسبوا أن ينفعهم ذلك.

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ . انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(15/479)

وقال أبو حيان:

و﴿ وتركنا ﴾ هذا الضمير لله تعالى والأظهر أن الضمير في ﴿ بعضهم ﴾ عائد على يأجوج ومأجوج، والجملة المحذوفة بعد إذ المعوض منها التنوين مقدرة بإذ جاء الوعد وهو خروجهم وانتشارهم في الأرض أو مقدرة بإذ حجز السد بينهم وبين القوم الذين كانوا يفسدون عندهم وهم متعجبون من السد فماج بعضهم في بعض.

وقيل: الضمير في ﴿ بعضهم ﴾ يعود على الخلق أي يوم إذ جاء وعد الله وهو يوم القيامة ويقويه قوله ﴿ ونفخ في الصور ﴾ فيظهر أن ذلك هو يوم القيامة، وكذلك ما جاء بعده من الجمع وعرض جهنم وتقدم الكلام على النفخ في الصور في سورة الأنعام.

و﴿ جمعاً ﴾ مصدر كموعد ﴿ وعرضنا ﴾ أي أبرزنا ﴿ جهنم يومئذ ﴾ أي يوم إذ جمعناهم.

وقيل : اللام بمعنى على كقوله :

فخر صريعاً لليدين وللفم . . .

وأبعد من ذهب إلى أنه مقلوب .

والتقدير وعرضنا الكافرين على جهنم ﴿ عرضاً ﴾ وتخصيصه بالكافرين بشارة للمؤمنين .

و﴿ الذين كانت أعينهم ﴾ صفة ذم في ﴿ غطاءٍ ﴾ استعار الغطاء لأعينهم ، والمراد أنهم لا يبصرون آياتي التي ينظر إليها فيعتبر بها ، واذكر بالتعظيم وهذا على حذف مضاف أي عن آيات ﴿ ذكري ﴾ .

وقيل ﴿ عن ذكري ﴾ عن القرآن وتأمل معانيه ، ويكون المراد بالأعين هنا البصائر لا الجوارح لأن الجوارح لا نسبة بينها وبين الذكر ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ مبالغة في انتفاء السمع إذ نفيت الاستطاعة ، وهم وإن كانوا صماً لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وكان هؤلاء أصمت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ هم من عبد الملائكة وعزيراً والمسيح واتخذوهم أولياء من دون الله وهم بعض العرب واليهود والنصارى ، وهو استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ ، والمعنى أنهم ليس لهم من ولاية هؤلاء الذين تولوهم شيء ، ولا يجدون عندهم منتفعاً ويظهر أن في الكلام

حذفاً والتقدير ﴿ أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ فيجدي ذلك وينتفعون بذلك الاتخاذ .

(16/479)

وقيل : العباد هنا الشياطين .

روي عن ابن عباس وقال مقاتل : الأصنام لأنها خلقه وملكه ، والأظهر تفسير العباد بما قلناه لإضافتهم إليه والأكثر أن تكون الإضافة في مثل هذا اللفظ إضافة تشريف .

وحسب هنا بمعنى ظن وبه قرأ عبد الله أفظن .

وقرأ عليّ بن أبي طالب وزيد بن علي بن الحسين ويحيى بن يعمر ومجاهد وعكرمة وقتادة ونعيم بن ميسرة والضحاك وابن أبي ليلى وابن كثير ويعقوب بخلاف عنهما وابن محيصن وأبو حيوة والشافعي ومسعود بن صاح ﴿ أفحسب ﴾ بإسكان السين وضم الباء مضافاً إلى ﴿ الذين ﴾ أي أفكافيهم ومحسبهم ومنتهى عرضهم ، والمعنى أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا .

وقال أبو الفضل الرازي قال سهل : يعني أبا حاتم معناه : أفحسبهم وحظهم إلاّ أن ﴿ أفحسب ﴾ أبلغ في الذم لأنه جعله غاية مرادهم انتهى .

وارتفع حسب على الابتداء والخبر ﴿ أن يتخذوا ﴾ .

وقال الزمخشري : أو على الفعل والفاعل لأن اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك : أقائم الزيدان وهي قراءة محكمة جيدة انتهى .

والذي يظهر أن هذا الإعراب لا يجوز لأن حسباً ليس باسم فاعل فتعمل ، ولا يلزم من تفسير شيء بشيء أن تجري عليه جميع أحكامه ، وقد ذكر سيبويه أشياء من الصفات التي تجري مجرى الأسماء وأن الوجه فيها الرفع .

ثم قال : وذلك مررت برجل خير منه أبوه ، ومررت برجل سواء عليه الخير والشر ، ومررت برجل أب له صاحبه ، ومررت برجل حسبك من رجل ، ومررت برجل أيما رجل هو انتهى .

ولا يبعد أن يرفع به الظاهر فقد أجازوا في مررت برجل أبي عشرة أبوه ارتفاع أبوه بأبي عشرة لأنه في معنى والد عشرة .

﴿ إنّا أعتدنا ﴾ أي أعددنا ويسرنا والنزل موضع النزول والنزل أيضاً ما يقدم للضيف ويهيأ له وللقادم من الطعام ، والنزل هنا يحتمل التفسيرين وكونه موضع النزول قاله الزجاج هنا ، وما هيىء من الطعام للنزيل قول القتبي .

(17/479)

وقيل : جمع نازل ونصبه على الحال نحو شارف وشرف ، فإن كان ما تقدم للضيف وللقادم فيكون كقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وكقول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

وقرأ أبو حيوة وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿ نزلاً ﴾ بسكون الزاي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(18/479)

وقال أبو السعود :

قوله عز وجل : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾

كلامٌ مَسوقٌ من جنابه تعالى معطوفٌ على قوله تعالى : ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاء ﴾ ومحقِّقٌ لمضمونه أي جعلنا بعضَ الخلائق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ جاء الوعدُ بمجيء بعضِ مباديه ﴿ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ آخرَ منهم يضطربون اضطرابَ أمواجِ البحر ويختلط إنسُهم وجنُّهم حَيارى من شدة الهول ، ولعل ذلك قبل النفخةِ الأولى ، أو تركنا بعضَ يأجوجَ ومأجوجَ يموج في بعض آخرَ منهم حين يخرُجون من السد مزدحمين في البلاد . روي أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه

ويأكلون دوابَّه ثم يأكلون الشجرَ ومن ظفِروا به ممن لم يتحصّن منهم من الناس ، ولا يقدِرون أن يأتوا مكةَ والمدينة وبيتَ المقدسِ ثم يبعث الله عز وجل نَغَفاً في أقفائهم فيدخُل آذانَهم فيموتون موتَ نفس واحدة ، فيرسل الله تعالى عليهم طيراً فتلقيهم في البحر ثم يرسل مطراً يغسل الأرض ويطهرها من نَتْنهم حتى يتركُها كالزَّلَفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزولِ عيسى عليه الصلاة والسلام وقتْل الدجال .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ هي النفخةُ الثانية بقضية الفاء قوله تعالى ﴿ فجمعناهم ﴾ ولعل عدمَ التعرضِ لذكر النفخةِ الأولى لأنها داهيةٌ عامةٌ ليس فيها حالةٌ مختصة بالكفار ، ولئلا يقعَ الفصلُ بين ما يقع منها في النشأة الأولى من الأحوال والأهوالِ ، وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة ، أي جمعنا الخلائقَ بعد ما تفرقت أوصالُهم وتمزقت أجسادُهم في صعيد واحدٍ للحساب والجزاء ﴿ جَمْعاً ﴾ أي جمعاً عجيباً لا يُكتَنُه كُنهُه .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي أظهرناها وأبرزناها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومَ إذْ جمعنا الخلائقَ كافة ﴿ للكافرين ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرَوْنها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿ عَرْضاً ﴾ أي عرضاً فظيعاً هائلاً لا يُقادَر قدرُه ، وتخصيصُ العَرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمعِ قاطبةً لأن ذلك لأجلهم خاصة .

(19/479)

﴿ الذين كَانَتْ ﴾ وهم في الدنيا ﴿ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاء ﴾ كثيف وغشاوةٍ غليظة مُحاطةٍ من جميع الجوانب ﴿ عَن ذِكْرِى ﴾ عن الآيات المؤديةِ لأولي الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والتمجيدِ ، أو كانت أعينُ بصائِرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم ﴿ وَكَانُواْ ﴾ مع ذلك ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لفَرْط تصامِّهم عن الحق وكمالِ عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ سَمْعاً ﴾ استماعاً لذكري وكلامي الحقِّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعيةِ كما أن الأولَ تصويرٌ لتعاميهم عن الآيات المشاهَدةِ بالأبصار ، والموصولُ نعتٌ للكافرين أو بدلٌ منه أو بيانٌ جيء به لذمهم بما في حيز الصلةِ وللإشعار بعلّيته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنمَ لهم ، فإن ذلك إنما هو لعدم استعمالِ مشاعرِهم فيما عَرَض لهم في الدنيا من الآيات وإعراضِهم عنها مع كونها أسباباً منجّيةً عما ابتُلوا به في الآخرة .

(20/479)

﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي كفروا بي كما يُعرب عنه قوله تعالى : ﴿ عِبَادِى ﴾ والحُسبان بمعنى الظن وقد قرىء أفظنّ والهمزةُ للإنكار والتوبيخِ على معنى إنكارِ الواقعِ واستقباحِه ، كما في قولك : أضربتَ أباك ؟ لا إنكارِ الوقوعِ ، كما في قوله : أأضرِب أبي ؟ والفاء للعطف على مقدر يُفصح عنه الصلةُ على توجيه الإنكارِ والتوبيخِ إلى المعطوفَين جميعاً كما إذا قُدّر المعطوفُ عليه في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ منفياً أي لا تسمعون فلا تعقلون لا إلى المعطوف فقط كما إذا قُدّر مُثْبتاً أي أتسمعون فلا تعقلون ، والمعنى أكفروا بي مع جلالة شأني فحسِبوا ﴿ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِى ﴾ من الملائكة وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ معبودين ينصُرونهم من بأسي ، وما قيل إنها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى : ﴿ كَانَتْ ﴾ الخ ﴿ وَكَانُواْ ﴾ الخ دَلالةً على أن الحُسبانَ ناشىءٌ من التعامي والتصامِّ وأُدخل عليها همزةُ الإنكار ذماً على ذم وقطعاً له عن المعطوف عليهما لفظاً لا معنى للإيذان بالاستقلال المؤكّدِ للذم بأباه تركُ الإضمار والتعرضُ لوصف آخرَ غيرِ التعامي والتصامِّ على أنهما أُخرجا مُخرَجَ الأحوال الجِبِلّية لهم ، ولم يذكروا من حيث إنهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحُسبانهم ليحسُن تفريعُه عليهما ، وأيضاً فإنه دينٌ قديمٌ لا يمكن جعلُه ناشئاً عن تصامّهم عن كلام الله عز وجل ، وتخصيصُ الإنكار بحُسبانهم المتأخرِ عن ذلك تعسّفٌ لا يخفى ، وما في حيز صلةِ أن سادٌّ مسدَّ مفعولَيْ حسِب كما في قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُواْ أَن لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي

أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياءَ على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ في شيء لِما أنه إنما يكون من الجانبين ، وهم عليهم الصلاة والسلام منزَّهون عن وَلايتهم بالمرة لقولهم : ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ وقيل

(21/479)

: مفعولُه الثاني محذوفٌ أي أفحسبوا اتخاذَهم نافعاً لهم ، والوجهُ هو الأولُ لأن في هذا تسليماً لنفس الاتخاذِ واعتداداً به في الجملة ، وقرىء أفحَسْبُ الذين كفروا أي أفحسبُهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياءَ على الابتداء والخبرِ ، أو الفعلِ والفاعل فإن النعتَ إذا اعتمد الهمزةَ ساوى الفعلَ في العمل ، فالهمزة حينئذ بمعنى إنكار الوقوع ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي هيأناها ﴿ للكافرين ﴾ المعهودين ، عدلَ عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعاراً بأن ذلك الاعتادَ بسبب كفرهم المتضمّنِ لحسبانهم الباطل ﴿ نُزُلاً ﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودِهم وهو ما يقام للنزيل أي الضيفِ مما حضر من الطعامِ ، وفيه تخطئةٌ لهم في حسبانهم وتهكّمٌ بهم حيث كان اتخاذُهم إياهم أولياءَ من قبيل إعتاد العتادِ وإعدادِ الزاد ليوم المعاد ، فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم من العُدة والذُّخْر جهنمَ عُدّةً . وفي إيراد النُزُل إيماءٌ إلى أن لهم وراءَ جهنمَ من العذاب ما هو أنموذجٌ له ، وقيل : النزلُ موضعُ

النزول ، ولذلك فسره ابن عباس رضي الله عنهما بالمثوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(22/479)

وقال الآلوسى :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾

كلام مسوق من جنابه سبحانه وتعالى وضمير الجمع المجرور عند بعض المحققين للخلائق ، والترك بمعنى الجعل وهو من الأضداد ، والعطف على قوله تعالى : ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ [الكهف : 98] وفيه تحقيق لمضمونه ، ولا يضر في ذلك كونه محكياً عن ذي القرنين أي جعلنا بعض الخلائق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه ﴿ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ آخر منهم ، والموج مجاز عن الاضطراب أي يضطربون اضطراب البحر يختلط إنسهم وجنهم من شدة الهول وروي هذا عن ابن عباس ، ولعل ذلك لعظائم تقع قبل النفخة الأولى ، وقيل : الضمير للناس والمراد وجعلنا بعض الناس يوم إذ جاء الوعد بخروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر لفزعهم منهم وفرارهم وفيه بعد ؛ وقيل : الضمير للناس أيضاً ،

والمراد وجعلنا بعض الناس يوم إذ تم السد يموج في بعضهم للنظر إليه والتعجيب منه ولا يخفى أن هذا يتعجب منه .

(23/479)

وقال أبو حيان : الأظهر كون الضمير ليأجوج ومأجوج أي وتركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين في البلاد وذلك بعد نزول عيسى عليه السلام ، ففي "صحيح مسلم" من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدجال وهلاكه بباب لد على يده عليه السلام ثم يأتي عيسى عليه السلام قوماً قد عصمهم الله تعالى من الدجال فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هم كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم ويضمون إليهم مواشيهم فيشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً حتى أن من يمر من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول قد كان ههنا ماء مرة ويحصر عيسى نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور ورأس الحمار لأحدهم خيراً من مائة دينار ؛ وفي رواية مسلم وغيره فيقولون : لقد قتلنا من في

الأرض هلم نقتل من في السماء فيرمون نشابهم إلى السماء فيردها الله تعالى عليهم مخضوبة دماً للبلاء والفتنة فيرغب نبي الله وأصحابه إلى الله تعالى فيرسل عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى ، وفي رواية داود كالنغف في أعناقهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة لا يسمع لهم حس فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد وطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مداينهم وحصونهم فيسرحون مواشيهم فما يكون لها مرعى إلا لحومهم فتشكر أحسن ما شكرت عن شيء ويهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فيها موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيستغيثون بالله تعالى فيبعث الله سبحانه ريحاً يمانية غبراء فتصير على

(24/479)

الناس غماً ودخاناً ويقع عليهم الزكمة ويكشف ما بهم بعد ثلاثة أيام وقد قذفت الأرض جيفهم في البحر ، وفي رواية فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى ، وفي رواية فترميهم

في البحر وفي أخرى في النار ولا منافاة كما يظهر بأدنى تأمل ثم يرسل الله عز وجل مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ويوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين ، ولعل الله تعالى يحفظ ذلك في الأودية ومواضع السيول زيادة في سرور المسلمين أو يحفظها حيث هلكوا ولا يلقيها معهم حيث شاء ولا يعجز الله تعالى شيء ، والحديث يدل على كثرتهم جداً ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً أن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم من صلبه ألفاً من الذرية .

وحمله بعضهم على طول العمر .

وفي "البحر" أنه قد اختلف في عددهم وصفاتهم ولم يصح في ذلك شيء .

وأعجب ما روي في ذلك قول مكحول الأرض مسيرة مائة عام ثمانون منها يأجوج ومأجوج وهي أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة لا تشبه أمة الأخرى وهو قول باطل ، ومثله ما روي عن أبي الشيخ عن أبي أمامة الدنيا سبعة أقاليم فليأجوج ومأجوج ستة وللباقي إقليم واحد وهو كلام من لا يعرف الأرض ولا الأقاليم : نعم أخرج عبد الرزاق .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(25/479)

والحاكم وصححه من طريق البكالي عن ابن عمر أن الله تعالى جزأ الإنس عشرة أجزاء فتسعة منهم يأجوج ومأجوج وجزء سائر الناس إلا أني لم أقف على تصحيحه لغير الحاكم وحكم تصحيحه مشهور ويعلم مما تقدم ومما سيأتي إن شاء الله تعالى بطلان ما يزعمه بعض الناس من أنهم التاتار الذين أكثروا الفساد في البلاد وقتلوا الأخبار والأشرار .

ولعمري أن ذلك الزعم من الضلالة بمكان وإن كان بين يأجوج ومأجوج وأولئك الكفرة مشابهة تامة لا تخفى على الواقفين على أخبار ما يكون وما كان إبطال ما يزعمه بعض الناس من أنهم التاتار ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ الظاهر أن المراد النفخة الثانية لأنه المناسب لما بعد .

ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ، وقيل : لئلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الأولى من الأحوال والأهوال وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة .

والصور قرن جاء في الآثار من وصفه ما يدهش العقول .

وقد صح عن أبي سعيد الخدري أنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنا جبينه وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ " .

وزعم أبو عبيدة أنه جمع صورة وأيد بقراءة الحسن ﴿ الصور ﴾ بفتح الواو فيكون لسورة وسور ورد ذلك أظهر من أن يخفى ، ولذلك قال أبو الهيثم على ما نقل عنه الإمام القرطبي : من أنكر أن يكون الصور قرناً فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان وطلب لها تأويلات .

وذكر أن الأمم مجمعة على أن النافخ فيه إسرافيل عليه السلام ﴿ فجمعناهم ﴾ أي الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء ﴿ جَمْعاً ﴾ أي جمعاً عجيباً لا يكتنه كنهه .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100)

(26/479)

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ اظهرناها وأبرزناها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿ للكافرين ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿ عَرْضاً ﴾ أي عرضاً فظيعاً هائلاً لا يقادر قدره .

وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لأن ذلك لأجلهم خاصة .

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ وهم في الدنيا ﴿ فِي غِطَاء ﴾ كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب ﴿ عَن ذِكْرِي ﴾ عن الآيات المؤدية لأولي الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والتمجيد .

فالذكر مجاز عن الآيات المذكورة من باب إطلاق المسبب وإرادة السبب .

وفيه أن من لم ينظر نظراً يؤدي به إلى ذكر التعظيم كأنه لا نظر له البتة وهذا فائدة التجوز .

وقيل : الكلام على حذف مضاف أي عن آيات ذكري وليس بذاك ، ويجوز أن يكون المراد بالأعين البصائر القلبية .

والمعنى كانت بصائرهم في غطاء عن أن يذكروني على وجه يليق بشأني أو عن ذكري الذي أنزلته على الأنبياء عليهم السلام ، ويجوز أن يخص بالقرآن الكريم ﴿ وَكَانُواْ ﴾ مع ذلك ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ نفى لسماعهم على أتم وجه ولذا عدل عن وكانوا صماً الاخصر إليه .

والمراد أنهم مع ذلك كفاقدي حاسة السمع بالكلية وهو مبالغة في تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم بعد تصوير تعاميهم عن الآيات المشاهدة بالإبصار فلا حاجة إلى تقدير لذكري المراد منه القرآن أو مطلق الشرائع الإلهية فإنه بعد تخصيص الذكر المذكور في النظم الكريم أولاً بالآيات المشاهدة لا يصير قرينة على هذا الحذف .

قال ابن هشام في "المغني" : إن الدليل اللفظي لا بد من مطابقته للمحذوف معنى فلا يصح زيد ضارب وعمرو أي ضارب على أن الأول بمعناه المعروف والثاني بمعنى مسافر .

(27/479)

وتقدير ذلك وإرادة معنى الآيات منه مجازاً بعد المجاز أظهر ، وقال بعض المحققين : إن تقدير ذلك إنما هو بقرينة قوله تعالى سمعاً وأن الكافرين هذا حالهم لا بقرينة ذكر الذكر قبل ليجيء كلام ابن هشام ، ولا يخفى أنه لا كلام في تقدير الذكر بمعنى القرآن أو الشرائع الإلهية إذا أريد من الذكر المذكور ذلك .

والموصول نعت الكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم .

﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ ﴾

أي كفروا بي كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ عِبَادِى ﴾ والحسبان بمعنى الظن ، وقد قرأ عبد الله ﴿ أفظن ﴾ والهمزة للإنكار والتوبيخ على معنى إنكار الواقع واستقباحه .

والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الإنكار والتوبيخ وإلى المعطوفين جميعاً على ما اختاره شيخ الإسلام .

والمعنى أكفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا ﴿ كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى ﴾ من الملائكة وعيسى ونحوهم عليهم السلام من المقربين كما تشعر به الإضافة إن الأكثر أن تكون في مثل هذا اللفظ لتشريف المضاف .

واقتصر قتادة في المراد من ذلك على الملائكة ؛ والظاهر إرادة ما يعمهم وغيرهم ممن ذكرنا واختاره أبو حيان وغيره ، وروي عن ابن عباس أن المراد منه الشياطين وفيه بعد ولعل الرواية لا تصح .

وعن مقاتل أن المراد الأصنام وهو كما ترى ، وجوز بعض المحققين أن يراد ما يعم المذكورين والأصنام وسائر المعبودات الباطلة من الكواكب وغيرها تغليباً .

ولعل المقام يقتضي أن لا تكون الإضافة فيه للتشريف أي أفظنوا أن يتخذوا عبادي الذي هم تحت ملكي وسلطاني ﴿ مِن دُونِى ﴾ أي مجاوزين لي ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ أي معبودين أو أنصاراً لهم من بأسي .

وما في حيز صلة أن قيل ساد مسد مفعولي حسب أي أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياء .

(28/479)

وكان مصب الإنكار أنهم يتخذونهم كذلك إلا أنه أقحم الحسبان للمبالغة ، وقيل : المراد ما ذكر على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ في شيء لما أنه إنما يكون من الجانبين والمتخذون بمعزل عن ولايتهم لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم ، وقيل : أن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول أول لحسب والمفعول الثاني محذوف أي أفحسبوا اتخاذهم نافعهم أو سبباً لرفع العذاب عنهم أو نحو ذلك .

وهو مبني على تجويز حذف أحد المفعولين في باب علم وهو مذهب بعض النحاة ، وتعقب بأن فيه تسليماً لنفس الاتخاذ واعتداداً به في الجملة والأولى ما خلا عن ذلك .

هذا وفي "الكشف" أن التحقيق أن قوله تعالى : ﴿ فحسب ﴾ معطوف على ﴿ كانت وكانوا ﴾ [الكهف : 101] دلالة على أن الحسبان ناشىء عن التعامي والتصام وأدخل عليه همزة الإنكار ذماً على ذم وقطعاً له عن المعطوف عليهما لفظاً لا معنى للإيذان بالاستقلال المؤكد للذم كأنه قيل لا يزيلون ما بهم من مرضى الغشاوة والصمم ويزيدون عليهما الحسبان المترتب عليهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ من وضع الظاهر مقام المضمر زيادة للذم انتهى .

وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل ما ذكر إلى قوله كأنه قيل الخ أنه يأبى ذلك ترك الإضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامي والتصام على أنهما أخرجا مخرج الأحوال الجبلية لهم ولم يذكرا من حيث أنهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحسبانهم ليحسن تفريعه

عليهما .

وأيضاً فإنه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئاً عن تصامهم عن كلام الله عز وجل .

وتخصيص الإنكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى انتهى ، ولا يخلو عن بحث فتأمل .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وزيد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم .

والشافعي عليه الرحمة .

ويحيى بن يعمر .

ومجاهد .

وعكرمة .

وقتادة .

ونعيم بن ميسرة .

والضحاك .

وابن أبي ليلى .

وابن محيصن .

وأبو حيوة .

ومسعود بن صالح .

وابن كثير .

(29/479)

ويعقوب بخلاف عنهما ﴿ أَفَحَسِبَ ﴾ بإسكان السين وضم الباء مضافاً إلى الذين وخرج ذلك على أن حسب مبتدأ وهو بمعنى محسب أي كافي ﴿ وَأَنْ يَتَّخِذُواْ ﴾ خبره أي أفكافيهم اتخاذهم عبادي من دوني أولياء .

وفيه دلالة على غاية الذم لأنه جعل ذلك مجموع عدتهم يوم الحساب وما يكتفون به عن سائر العقائد والفضائل التي لا بد منها للفائز في ذلك اليوم .

وجعل الزمخشري المصدر المتحصل من أن والفعل فاعلاً لحسب لأنه اعتمد على الهمزة واسم الفاعل إذا اعتمد ساوى الفعل في العمل ، واعترض عليه أبو حيان بأن حسب مؤول باسم الفاعل وما ذكر مخصوص بالوصف الصريح .

ثم أشار إلى جوابه بأن سيبويه أجاز في مررت برجل خير منه أبوه وبرجل سواء عليه الخير والشر وبرجل أب له صاحبه وبرجل إنما رجل هو وبرجل حسبك من رجل الرفع بالصفات المؤولة ، وذكر أنهم أجازوا في مررت برجل أبي عشرة أبوه ارتفاع أبوه بأبي عشرة

لأنه في معنى والد عشرة وحينئذٍ فلا كلام فيما ذكر الزمخشري ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي هيأناها وهو ظاهر في أنها مخلوقة اليوم ﴿ للكافرين ﴾ المعهودين عدل عن ازضمار ذماً لهم وإشعاراً بأن ذلك الاعتداد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل ﴿ نُزُلاً ﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام به للنزيل أي الضيف مما حضر من الطعام واختار هذا جماعة من المفسرين .

وفي ذلك على ما قيل تخطئة لهم في حسبانهم وتهكم به حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء من قبيل اعتاد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل أنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر جهنم عدة ، وفي إيراد النزل إيماءً إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هي أنموذج له ، ولا يأبى ذلك قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الكهف : 106] لأن المراد هناك أنها جزاؤهم بما فيها فافهم ، وقال الزجاج : النزل موضع النزول ، وروي ذلك عن ابن عباس ، وقيل : هو جمع نازل ونصبه على الحال .

وقرأ أبو حيوة .

وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿ نُزُلاً ﴾ بسكون الزاي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 16 صـ ﴾

(30/479)

وقال القاسمي :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾

أي : نفخ فيه للبعث في النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور . والبحثُ وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أي : لأنه من عالم الغيب ، أي : الأمور المغيّبة عنا ، التي لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي : أظهرناها وأبرزناها : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم إذْ جمعنا الخلائق كافة : ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً : ﴿ عَرْضاً ﴾ أي : فظيعاً هائلاً لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفي عرضها وإراءتهم ما فيها من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكاية . لكونه أبلغ في تعجيل الهم والحزن .

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ تمثيل لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصامّهم عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ أبلغ من وكانوا صمّاً لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به . وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع . أفاده الزمخشريّ . وفي توصيفهم بالجملتين نكتة أخرى ، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية عن الأولى ، كما زعم ، وذلك – كما حققه الشهاب – إن قوله تعالى : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ لما أفاد أنهم كفاقدي حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة أو نحوهما ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعني : الذين نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جيءَ به لذمهم بما في حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به في الآخرة .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا رجوع إلى طليعة السورة في قوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ [الكهف : 4] ، فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر في البديع ، جيء بالاستفهام الإنكاريّ ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم . ومفعول حسب الثاني محذوف . أي : أفحسبوا اتخاذهم نافعاً لهم ؟ : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] ، كما قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ [سبأ : 41] ، ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أي : هيأنا : ﴿ جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ أي : شيئاً يتمتعون به عند ورودهم . والنزل ما يقام للنزيل أي : الضعيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به في جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تخطئة لهم في حسبانهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم ، من العدة والذخر ، جهنم عدة . وفي إيراد النزل إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له . أي : لأن الضيف لا يستقر في منزل الضيافة .

وينتقل إلى ما هو إهناء له في دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيذوقون ما هو أشد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 82.83 ﴾

(33/479)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾

الترك : حقيقته مفارقة شيء شيئاً كان بقربه ، ويطلق مجازاً على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة تمثيلاً لحال إلفائه على حالة ، ثم تغييرها بحال من كان قرب شيء ثم ذهب عنه ، وإنما يكون هذا المجاز مقيداً بحالة كان عليها مفعول تَرك ، فيفيد أن ذلك آخر العهد ، وذلك يستتبع أنه يدوم على ذلك الحال الذي تركه عليها بالقرينة .

والجملة عطف على الجملة التي قبلها ابتداء من قوله ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ، ﴾ فهذه الجملة لذكر صنع الله تعالى في هذه القصة الثالثة من قصص ذي القرنين إذ ألهمه دفع فساد ياجوج وماجوج ، بمنزلة جملة ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب ﴾ في القصة الأولى ، وجملة ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ فجاء أسلوب حكاية هذه القصص الثلاث على نسق واحد .

و﴿ يومئذ ﴾ هو يوم إتمام بناء السد المستفاد من قوله ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ الآية.

و﴿ يَمُوج ﴾ يضطرب تشبيهاً بموج البحر.

وجملة ﴿ يَمُوج ﴾ حال من ﴿ بعضهم ﴾ أو مفعول ثان ل ﴿ تَرَكنا ﴾ على تأويله بـ(جعلنا)، أي جعلنا ياجوج وماجوج يومئذ مضطربين بينهم فصار فسادهم قاصراً عليهم ودفع عن غيرهم

. . .

.

والنار تأكل نفسها

إن لم تجد ما تأكله. . .

لأنهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويهم على ضعيفهم بالاعتداء.

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فجمعناهم جَمْعاً ﴾ ﴿ للهلله للهوعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ للكافرين عَرْضاً * الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾.

(34/479)

تخلصٌ من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه ، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة ، وهو تخلص يؤذن بتشبيه حال تموجهم بحال تموج الناس في المحشر ، تذكيراً للسامعين بأمر الحشر وتقريباً بحصوله في خيال المشركين .

فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد ، بفعل من يسره لذلك من خلقه ، هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته ، لأنّ متعلقات القدرة في عالم الآخرة أعجب .

وقد تقدّم أن من أهم أغراض هذه السورة إثبات البعث .

واستعمل الماضي موضع المضارع تنبيهاً على تحقيق وقوعه .

والنفخ في الصور تمثيلية مكنية تشبيهاً لحال الدّاعي المطاع وحال المدعو الكثير العدد السريع الإجابة ، بحال الجند الذين ينفذون أمر القائد بالنفير فينفخون في بوق النفير ، وبحال بقية الجند حين يسمعون بوق النفير فيسرعون إلى الخروج .

على أنه يجوز أن يكون الصور من مخلوقات الآخرة .

والحالة الممثلة حالة غريبة لا يعلم تفصيلها إلا الله تعالى .

وتأكيد فعلي ﴿ جمعناهم ﴾ و ﴿ عرضنا ﴾ بمصدريهما لتحقق أنه جمع حقيقي وعرض حقيقي ليسا من المجاز ، وفي تنكير الجمع والعرض تهويل .

ونعت الكافرين بـ ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء ﴾ للتنبيه على أن مضمون الصلة هو سبب عرض جهنم لهم ، أي الذين عرفوا بذلك في الدنيا .

والغطاء : مستعار لعدم الانتفاع بدلالة البصر على تفرد الله بالإلهية .

وحرف (من) للظرفية المجازية ، وهي تَمكُّن الغطاء من أعينهم بحيث كأنها محوية للغطاء .

و(عن) للمجاوزة ، أي عن النظر فيما يحصل به ذكري .

ونفي استطاعتهم السمع أنهم لشدة كفرهم لا تطاوعهم نفوسهم للاستماع .

وحذف مفعول ﴿ سمعا ﴾ لدلالة قوله ﴿ عن ذكري ﴾ عليه .

والتقدير : سمعاً لآياتي ، فنفي الاستطاعة مستعمل في نفي الرغبة وفي الإعراض كقوله ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] .

(35/479)

وعرَض جهنم مستعمل في إبرازها حين يشرفون عليها وقد سيقوا إليها فيعلمون أنها المهيئة لهم ، فشبه ذلك بالعرض تهكماً بهم ، لأنّ العرض هو إظهار ما فيه رغبة وشهوة .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾

أعقب وصف حرمانهم الانتفاع بدلائل المشاهدات على وحدانية الله وإعراضهم عن سماع الآيات بتفريع الإنكار لاتخاذهم أولياء من دون الله يزعمونها نافعة لهم تنصرهم تفريعَ الإنكار على صلة الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ، لأن حسبانهم ذلك نشأ عن كون أعينهم في غطاء وكونهم لا يستطيعون سمعاً ، أي حسبوا حسباناً باطلاً فلم يغن عنهم ما حسبوه شيئاً ، ولأجله كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً .

وتقدم حرف الاستفهام على فاء العطف لأن للاستفهام صدر الكلام وهو كثير في أمثاله .

والخلاف شهير بين علماء العربية في أن الاستفهام مقدم من تأخير ، أو أن العطف إنما هو على ما بعد الاستفهام بعد حذف المستفهم عنه لدلالة المعطوف عليه .

فيقدر هنا : أأمِنوا عذابي فحسبوا أن يتخذوا إلخ . . .

وأول القولين أولى .

وقد تقدمت نظائره منها قوله تعالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ في سورة البقرة (75) .

والاستفهام إنكاري ، والإنكار عليهم فيما يحسبونه يقتضي أن ما ظنوه باطل ، ونظيره قوله ﴿ أحسب الناس أن يتركوا ﴾ [العنكبوت : 2] .

و﴿ أن يتخذوا ﴾ سادٌّ مسدّ مفعولي ﴿ حسب ﴾ لأنه يشتمل على ما يدل على المفعولين فهو ينحل إلى مفعولين .

والتقدير : أحسبَ الذين كفروا عبادي متخِذين أولياء لهم من دوني .

والإنكار متسلط على معمول المفعول الثاني وهو ﴿ أولياء ﴾ المعمول ل ﴿ يتخذوا ﴾ بقرينة ما دل عليه فعل ﴿ حسب ﴾ من أن هنالك محسوباً باطلاً ، وهو كونهم أولياء باعتبار ما تقتضيه حقيقة الولاية من الحماية والنصر .

(36/479)

و ﴿ عبادي ﴾ صادق على الملائكة والجنّ والشياطين ومن عبدوهم من الأخيار مثل عيسى عليه السلام ، ويصدق على الأصنام بطريق التغليب .

و ﴿ من دوني ﴾ متعلّق بـ ﴿ أولياء ﴾ إما بجعل ﴿ دوني ﴾ اسماً بمعنى حول ، أي من حول عذابي ، وتأويل ﴿ أولياء ﴾ بمعنى أنصاراً ، أي حائلين دون عذابي ومانعيهم منه ، وإما بجعل ﴿ دوني ﴾ بمعنى غيري ، أي أحسبوا أنهم يستغنون بولايتهم .

وصيغ فعل الاتخاذ بصيغة المضارع للدلالة على تجدده منهم وأنهم غير مقلعين عنه .

وجعل في "الكشاف" فعل ﴿ يتخذوا ﴾ للمستقبل ، أي أحسبوا أن يتخذوا عبادي أولياء يوم القيامة كما اتّخذوهم في الدنيا ، وهو المشار إليه بقوله ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ﴾ .

ونظرّه بقوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ [سبأ : 40 41] .

وإظهار الذين كفروا دون أن يقال : أفحسبوا ، بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها ، لقصد استقلال الجملة بدلالتها ، وزيادةً في إظهار التوبيخ لها .

وجملة ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ مقررة لإنكار انتفاعهم بأوليائهم فأكد بأن جهنم أُعدت لهم نزلاً فلا محيص لهم عنها ولذلك أكد بحرف (إنّ) .

و ﴿ أعتدنا : ﴾ أعددنا ، أبدل الدال الأولى تاء لقرب الحرفين ، والإعداد : التهيئة ، وقد تقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً ﴾ [الكهف : 29] ﴾ .

وجَعل المسند إليه ضميرَ الجلالة لإدخال الروع في ضمائر المشركين .

والنُزُل بضمتين : ما يُعدّ للنزيل والضيف من القِرى .

وإطلاق اسم النزل على العذاب استعارة علاقتها التهكم ، كقول عمرو بن كلثوم :

قرينا كم فعجّلنا قِراكم

قُبيلَ الصبح مِرْدَاةً طحونا . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(37/479)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) ﴾

اعلم أولاً – أنا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أنه إن كان لبعض الآيات بيان من القرآن لا يفي بإيضاح المقصود وقد بينه النَّبي صلى الله عليه وسلم فإنا نتمم بيانه بذكر السنة المبينه له . وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك . فإذا علمت ذلك فاعلم – أن هاتين الآيتين الكريمتين لهما بيان من كتاب أوضحته السنة ، فصار بضميمة السنة إلى القرآن بياناً وافياً بالمقصود ، والله جل وعلا قال في كتابه لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 44] فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة ، وآية الأنبياء قد دلتا في الجملة على أن السد الذي بناه ذو القرنين دون يأجوج ومأجوج إنما يجعله الله دكا عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه . وقد دلتا على أنه بقرب يوم القيامة ، لأنه قال هنا ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ الآية . وأظهر الأقوال في الجملة المقدرة التي عوض عنها تنوين " يومئذ " من قوله ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ أنه يوم إذ جاء وعد ربي بخروجهم وانتشارهم في الأرض . ولا ينبغي العدول عن هذا القول لموافقته لظاهر سياق القرآن العظيم . وإذا تقرر أن معنى " يومئذ " يوم إذ جاء

الوعد بخروجهم وانتشارهم - فاعلم أن الضمير في قوله ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ على القول بأنه لجميع بني آدم فالمراد يوم القيامة . وإذاً فقد دلت الآية على اقترانه بالخروج إذا دك السد ، وقربه منه . وعلى القول بأن الضمير راجع إلى يأجوج ومأجوج . فقوله بعده ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ يدل في الجملة على أنه قريب منه . قال الزمخشري في تفسير هذه الآية " قال هذا رحمة من ربي " هو إشارة إلى السد . أي هذا السد نعمة من الله

(38/479)

ورحمة على عباده . أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ يعني فإذا دنا مجيء يوم القيامة ، وشارف أن يأتي جعل السد دكا . أي مدكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض . وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك . ومنه الجمل الأدك المنبسط السنام اه . وآية الأنبياء المشار إليها هي قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء : 96-97] الآية . لأن قوله : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ وإتباعه لذلك بقوله ﴿ واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يدل في الجملة على ما ذكرنا فيتفسير آية الكهف التي نحن بصددها . وذلك يدل على بطلان قول من قال : إنهم

روسية ، وأن السد فتح منذ زمان طويل .

فإذا قيل : إنما تدل الآيات المذكورة في " الكهف " و " الأنبياء " على مطلق اقتراب يوم القيامة من دك السد واقترابه من يوم القيامة – لا ينافي كونه قد وقع بالفعل . كما قال تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 1] الآية . وقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] ، وقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " ويل للعرب ، من شر قد اقترب ، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها . . " الحديث ، وقد قدمنا في سورة " المائدة " . فقد دل القرآن والسنة الصحيحة على أن اقتراب ما ذكر لا يستلزم اقترانه بنه ، بل يصح اقترابه مع مهلة ، وإذا فلا ينافي دك السد الماضي المزعوم الاقتراب من يوم القيامة ، فلا يكون في الآيات المذكورة دليل على أنه لم يدك السد إلى الآن .

(39/479)

فالجواب – هو ما قدمنا أن هذا البيان بهذه الآيات وافياً بتمام الإيضاح إلا بضميمة السنة له ، ولذلك ذكرنا أننا نتمم مثله من السنة لأنها مبينة للقرآن . قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو خيثمة زهير بن جرب ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثني عبد

الرحمن بن يزيد بن جابر ، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص ، حدثني عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير الحضرمي : أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي (ح) وحدثني محمد بن مهران الرازي (واللفظ له) ، حدثني الوليد بن مسلم ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الطائي ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه جبير بن نفير ، عن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال : " ما شأنكم ؟ " قلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ؟ فقال : " غير الدجال أخوفني عليكم ! إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي هل كل مسلم . إنه شاب قطط ، عينه طائفة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة " الكهف " إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً . " ياعباد فاثبتوا " " قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : " أربعون يوماً ، يوم ، كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم " قلنا : يارسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : " لا ، اقدروا له قدره " قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه في الأرض ؟ قال :

"كالغيث استدبرته الريح " فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له : فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت دراً وأسبغه ضروعاً ، وأمده خواصر – ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله : فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضؤبه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك . فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلامات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله . ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدراجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إل عيسر : إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور . ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهو من كل حب ينسلون . فيمر أوئلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم . فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل

الله عليهم النغف في رقابهم . فيصبحون فرسى كموت نفي واحدة . ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى ألأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهمز فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله . ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض : انبيي ثمرك ، وردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانه ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في

(41/479)

الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس . واللقحة من الغنم لتكفي الفخد الفخد من الناس . فبينما هم كذلك إذا بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم . فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم . يبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة " انتهى بلفظه من صحيح مسلم رحمه الله تعالى .

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النَّبي صلى الله عليه وسلم : بأن الله يوحي إلى عيسى ابن مريم خروج يأجوك ومأجوج بعد قتله الدجال . فمن يدعي أنهم روسية وأن

السد قد اندك منذ زمان فهو مخالف لما أخبر به النَّبي صلى الله عليه وسلم مخافة صريحة لا وجه لها . ولا شك أن كل خبر ناقض خبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فهو باطل .

لأن نقيض الخبر الصادق كاذب ضرورة كما هو معلوم . ولم يثبت في كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده ، ووضوح دلالته على المقصود .

والعمدة في الحقيقة لمن ادعى أن يأجوج ومأجوج هو روسية ، ومن ادعى من الملحدين أنهم لا وجود لهم أصلاً – هي حجة عقلية في زعم صاحبها ، وهي بحسب المقرر فيالجدل قياس استثنائي مركب من شرطية متصلة لزومية في زعم المستدل به يستثنى فيه نقيض التالي ، فينتج قيض المقدم . وصورة نظمه أن يقول : لو كان يأجوج ومأجوج وراء السد إلى الآن ، لاطلع عليهم الناس لتطور طرق الموصلات ، لكنهم لم يطلع عليهم أحد ينتج فهم ليسوا وراء السد إلى الآن ، لأن استثناء نقيض التالي ينتج نقيض القمدم كما هو معلوم . وبعبارة أوضح لغير المنطقي : لأن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم – هذا هو عمدة حجة المنكرين وجودهم إلى الآن وراء السد . ومن المعلوم أن القياس الاستثنائي المعروف بالشرطي ، إذا كان مركباً من شرطية متصلة واستثنائية ، فإن يتوجه عليه القدم من ثلاث جهات :

الأولى – أن يقدح فيه من جهة شرطيته ، لكون الربط بين المقدم والتالي ليس صحيحاً .

الثانية – أن يقد فيه من جهة استثنائية .

الثالثة – أن يقدح فيه من جهتهما معاً . وهذا القياس المزعوم يقدح فيه من جهة شرطيته فيقول للمعترض : الربط فيه بين المقدم والتالي غير صحيح . فقولكم : لو كانوا موجودين وراء السد إلى الآن لاطلع عليهم الناس غير صحيح . لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفي مكانهم على عامة الناس حتى يأتي الوقت المحدد لإخراجهم على الناس ، ومما يؤيد إمكان هذا ما ذكره الله تعال في سورة " المائدة " من أنه جعل بني إسرائيل يتيهوم في الأرض أربعين سنة . وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 26] الآية ، وهم في فراسخ قليلة من الأرض ، يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه ، لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق . وعلى كل حال ، فربك فعال لما يريد . وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه صادقة ، وما يوجد بين أهل الكتاب مما يخالف ما ذكرنا ونحوه من القصص الواردة في القرآن والسنة الصحيحة ، زاعين أنه منل في التوراة أو غيره من الكتب السماوية – باطل يقيناً لا يعول علينا . لأن الله جل وعلا صرح في هذا القرآن

العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد بأ ، هم بدلوا وحرفوا وغيروا في كتبهم ، كقوله : ﴿ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾

(43/479)

[المائدة : 13] ، وقوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ [الأنعام : 91] ، وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : 79] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكتاب لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكتاب وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 78] إلى غير ذلك من الآيات – بخلاف هذا القرآنا لعظيم ، فقد تولى الله جل وعلا حفظه بنفسه ، ولم يكله أحد يغير فيه أو يبدل أو يحرف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] ، وقال : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 16-17] ، وقال : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : 42] . وقال في النَّبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 3-4] ، وقد صح ا\عن النَّبي صلى الله

عليه وسلم أنه أذن لأمته أن تحدث عن بني إسرائيل ، ونهاهم عن تصديقهم وتكذيبهم ، خوف أن يصدقوا بباطل ، أو يكذبوا بحق .

(44/479)

ومن المعلوم أن ما يروى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بالإسرائيليات له ثلاث حالات : في واحدة منها يجب تصديقه ، وهي ما إذا دل الكتاب أو السنة الثابتة على صدقه . وفي واحدة يجب تكذيبه ، وهي ما إذا دل القرآن أو السنة أيضاً على كذبه . وفي الثالثة لا يجوز التكذيب ولا التصديق ، كما في الحديث المشار إليه آنفاً : وهي ما إذا لم يثبت في كتاب ولا سنة صدقه ولا كذبه . وبهذا التحقيق – تعلم أن القصص المخالفة للقرآن والسنة الصحيحة التي توجه بأيدي بعضهم ، زاعمين أنها في الكتب المنزلة – يجب تكذيبهم فيها لمخالفتها نصوص الوحي الصحيح ، التي لم تحرف ولم تبدل . والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاً ﴾ [الكهف : 98] قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو " دكاً " بالتنوين مصدر دكه . وقرأه عاصم وحمزة والكسائب ﴿ جعله دكاء ﴾ بألف التأنيث الممدودة تأنيث الأدك . ومعنى القراءتين راجع إلى شيء

واحد ، وقد قدما أيضاحه .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100)

قوله : ﴿ وَعَرَضْنَا ﴾ أي أبرزنا وأظهرنا جهنم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ جمعناهم جمعاً . كما دل على ذلك قوله قبله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ [الكهف : 99] . وقال بعض العلما : اللام في قوله " للكافرين " بمعنى على ، أي عرضنا جهنم على الكافرين ، وهذا يشهد له القرآن في آيات متعددة . لأن العرض في القرآن يتعدى بعلى لا باللام . كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ [الأحقاف : 20] ، وقوله : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 46] ، وقوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾ [الكهف : 48] ، ونظيره في كلام العرب من إتيان اللام بمعنى على – البيت الذي قدمناه في أول سورة " هود " ، وقدمنا الاختلاف في قائله ، وهو قوله :

(45/479)

هتكت له بالرمح جيب قميصه . . . فخر صريعاً لليدين وللفم

أي خر صريعاً على اليدين :

وقد علم من هذه الآيات : أن النار تعرض عليهم ويعرضون عليها . لأنها تقرب إليهم ويقربون إليها . كما قال تعالى في عرضها عليهم هنا : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾ ، وقال في عرضهم عليها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ الآية ، ونحوها من الآيات . وقد بينا شيئاً من صفات عرضهم دلت عليه آيات أخر من كتاب الله في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾ . وقول من قال : إن قوله هنا : " وعرضنا جهنم " الآية فيه قلب . وان المعنى : وعرضنا الكافرين لجهنم أي عليها – بعيد كما أوضحه أبو حيان في البحر . والله تعالى أعلم .

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101)

(46/479)

التحقيق في قوله : ﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ أنه في محل خفض نعتاً للكافرين . وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من صفات الكافرين الذي تعرض لهم جهنم يوم القيامة – نهم كانت أعينهم في دار الدنيا في غطاء عن ذكره تعالى ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً . وقد بين هذا من صفاتهم في آيات كثيرة ، كقوله في تغطية أعينهم : ﴿ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة : 7] الآية ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [الجاثية : 23] الآية ،

وقوله : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ [الرعد : 19] ، وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ [غافر : 58] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً . وقال في عدم استطاعتهم السمع : ﴿ أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : 23] ، وقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الكهف : 57] . وقد بينا معنى كونهم لا يستطيعون السمع في أول سورة " هود " في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : 20] فأغنى عن إعادته هنا . وقد بينا أيضاً طرفاً من ذلك في الكلام على قوله تعالى في هذه السورة الكريمة : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ وقد بين تعالى في موضع آخر : أن الغطاء المذكور الذي يعشو بسببه البصر عن ذكره تعالى يقيض الله لصاحبة شيطاناً فيجعله له قرينا . وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] الآية .

(47/479)

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) ﴾

الهمزة في قوله تعالى : ﴿ أفحسب ﴾ للإنكار والتوبيخ . وفي الآية حذف دل المقام عليه . قال بعض العلماء : تقدير المحذوف هو : أفحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من دوني أولياء ، ولا أعاقبهم العقاب الشديد ! كلا ! ! بل سأعاقبهم على ذلك العقاب الشديد . بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ وقال بعض العلماء : تقديره : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ! وأن ذلك ينفعهم . كلا ! لا ينفعهم بل يضرهم . ويدل لهذا قوله تعالى عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ [الزمر : 3] وقوله عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ [يونس : 18] . ثم إنه تعلى يين بطلان ذلك بقوله : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] ، وما أنكره عليهم هنا من ظنهم أنهم يتخذون من دونه أولياء من عباده ولا يعاقبهم . أو أن ذلك ينفعهم – جاء مبيناً في مواضع ، كقوله في أول سورة " الأعراف " : ﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف : 3] الآية . فقد نهاهم عن اتباع الأولياء من دونه في هذه الآية ، لأنه يضرهم ولا ينفعهم ، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن من الأدلة على أنه لا ولي من دون الله لأحد ، وإنما الموالاة في الله ، كقوله : ﴿ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ [الكهف : 26] الآية ، وقوله : ﴿ وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ

أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ [هود : 113] ، وقوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ ﴾ [الشورى : 44] الآية ، وقوله ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الذين يَخَافُونَ أَن يحشروا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ

(48/479)

لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ ﴾ [الأنعام : 51] الآية ، وقوله : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ ﴾ [الأنعام : 70] الآية ، ونحو ذلك من الآيات . وسيأتي له قريباً إن شار الله تعالى زيادة إيضاح وأمثلة .

والأظهر المتبادر من الإضافة في قوله " عبادي " أن المراد بهم نحو الملائكة وعيسى وعزيز . لا الشياطين ونحوهم ، لأن مثل هذه الإضافة للتشريف غالباً . وقد بين تعالى : أنهم لا يكونون أولياء لهم في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ [سبأ : 40-41] الآية ، وقوله ﴿ إنا أعتدنا ﴾ قد أوضحنا معنها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً ﴾ [الكهف : 29] الآية ، فأغنى عن إعادته هنا . وفي قوله ﴿ نزلاً ﴾ أوجه من التفسير للعلماء ، أظهرها " أن " النزل " هو ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه . والمعنى : أن الذي يهيأ لهم من الإكرام عند قدومهم إلى ربهم هو جهنم المعدة لهم ، كقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُم

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] . وقوله : ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالمهل ﴾ [الكهف : 29] . وقد قدمنا شواهده العربية في الكلام على قوله تعالى . ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالمهل ﴾ لأن ذلك الماء الذي يشوي الوجوه ليس فيه إغاثة ، كما أن جهنم ليست نزل إكرام الضيف أو قادم .

الوجه الثاني – أن " نزلاً " بمعنى المنزل ، أي اعتدنا جهنم للكافرين منزلاً ، أي مكان نزول ، لا منزل لهم غيرها . وأضعف الأوجه ما زعمه بعضهم من أن " النزل " جمع نازل ، كجمع الشارف على شرف بضمتين . والذي يظهر في إعراب " نزلاً " أنه حال مؤولة بمعنى المشتق . أو مفعول ل ﴿ اعتدنا ﴾ بتضمينه معنى صيرنا أو جعلنا . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(49/479)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾

فإذا كانت القيامة تركناهم يموج بعضهم في بعض ، كموج الماء لا تستطيع أن تفرق بعضهم من بعض ، كما أنك لا تستطيع فصل ذرات الماء في الأمواج ، يختلط فيهم الحابل بالنابل ،

والقويّ بالضعيف ، والخائف بالمخيف ، فهم الآن في موقف القيامة ، وقد انتهت العداوات الدنيوية ، وشُغِل كل إنسان بنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ [الكهف : 99] .

وهذه هي النفخة الثانية ؛ لأن الأولى نفخة الصَّعْق ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] .

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البَعْث والقيامة ، والصَّعْق قد يكون مميتاً ، وقد يكون مُغْمِياً لفترة ثم يفيق صاحبه ، فالصَّعْق المميت كما في قوله تعالى :

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ * فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات : 4344] .

أما الصَّعْقة التي تُسبِّب الإغماء فهي مِثْل التي حدثت لموسى عليه السلام حينما قال : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ [الأعراف : 143] .

فالجبل الأشمّ الراسي الصَّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله ، وخر موسى مصعوقاً مُغمى عليه ، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه ، فكيف برؤية المتجلِّي سبحانه ؟

وكأن الحق سبحانه أعطى مثلاً لموسى عليه السلام فقال له : ليست ضنيناً عليك بالرؤية ، ولكن قبل أن تراني انظر إلى الجبل أولاً ليكون لك مثالاً ، إذن : لا يمنع القرآن أن يتجلى الله على الخَلْق ، لكن هل نتحمل نحن تجلِّي الله ؟

فمن رحمة الله بنا ألاَّ يتجلى لنا على الحالة التي نحن عليها في الدنيا . أما في الآخرة ، فإن الخالق سبحانه سيُعِدّنا إعداداً آخر ، وسيخلقنا خِلْقة تناسب تجلِّيه سبحانه على المؤمنين في الآخرة ؛ لأنه سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 2223] .

وسوف نلحظ هذا الإعداد الجديد في كُلِّ أمور الآخرة ، ففيها مثلاً تقتاتون ولا تتغوطون ؛ لأن طبيعتكم في الآخرة غير طبيعتكم في الدنيا .

لذلك جاء السؤال من موسى عليه السلام سؤالاً علمياً دقيقاً : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] أي : أرِني كيفية النظر إليك ؛ لأني بطبيعتي وتكويني لا أراك ، إنما إنْ أريتني أنت أرى .

وفي ضوء هذه الحادثة لموسى عليه السلام نفهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " لا

تُخيّروا بين الأنبياء ، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة ، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان فيمن صُعِق ، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى " .

قالوا : لأنه صُعِق مرة في الدنيا ، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ ﴾

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100)

(51/479)

أي : تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها ، وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] والبعض يظن أن (واردها) يعني : داخلها ، لا بل واردها بمعنى : يراها ويمرُّ بها ، فقد ترِد الماء بمعنى : يراها ويمر بها ، فقد ترد الماء بمعنى تصل إليه دون أنْ تشربَ منه ؛ ذلك لأن الصراط الذي سيمر على الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر .

أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان

سالماً .

لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185] .

أما الكافر فسيعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع ؛ لأنه يعلم أنه داخلها ، ولن يُفلِتْ منها .

وقد وردتْ هذه المسألة في سورة التكاثر حيث يقول تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 18]

.

والمراد : لو أنكم تأخذون عنّي العلم اليقيني فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها ، لأنني أنقل لكم الصورة العلمية الصادقة لها ، وهذا ما نُسمّيه علم اليقين ، أما في الآخرة فسوف ترون النار عينها . وهذا هو عين اليقين أي : الصورة العينية التي ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط .

(52/479)

وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهي علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد ، وتُكتب له النجاة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 8] .

أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النار مرحلة ثالثة هي حقُّ اليقين ، يوم يدخلها ويباشر حَرَّها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 9296] .

إذن : عندنا عِلْم اليقين ، وهو الصورة العلمية للنار ، والتي أخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، وأن من صفات النار كذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن في بحبوحة الدنيا وسِعَتها . وعَيْن اليقين : في الآخرة عندما نمرُّ على الصراط ، ونرى النار رؤيا العين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفاتها كذا وكذا فأُعطِيك عنها صورة علمية صادقة ، فإنْ صدَّقتني فهذا عِلْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رَأْيَ العين فهذا عَيْن اليقين ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾ [الكهف : 100] ليس كعرضها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحقّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾

أي : على أبصارهم غشاوة تمنعهم إدراك الرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ [الكهف : 101] .

(53/479)

والمراد هنا السمع الذي يستفيد منه السامع ، سَمْع العبرة والعِظَة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سمَاعٌ لا فائدةَ منه ؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم في الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ﴾ [المائدة : 83] .

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن في لغتنا العامية : (أنت مطنش عني) ، يعني لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرَّ ؟ قال : نعم ، قال : أعْطني مائة جنيه ، قال : كأنِّي لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] .

يعني : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر في سامعه ما قالوا هذا ، لكنهم بأذنهم العربية وملكتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير في سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولأبدَّ لهذا العربي الفصيح أنْ يهتزّ للقرآن ، ولأبدَّ أنه سيعرف أنه مُعْجِز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] .

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية : 78] .

(54/479)

وقد يتعدَّى الأمر مجرد السماع إلى منْع الكلام كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 9] .

فليس الأمر منْع الاستماع ، بل أيضاً منع الكلام ، فربما تصل كلمة إلى آذانهم وهم في حالة انتباه فتُؤثّر فيهم ، أي منعوهم الكلام كما يُقال : اسكت ، أو أغلق فمك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كفروا ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كفروا أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دوني أَوْلِيَآءَ ﴾ [الكهف : 102] يعني : أعَمُوا عن الحق فظنُّوا أنْ يتخذوا عبادي من دوني أولياء ؟ وسبق أن تحدثنا عن كلمة (عِبَادي) وقلنا : إنهم المؤمنون بي المحبون لي ، الذين اختاروا مرادات الله على اختيارات نفوسهم ، وفرَّقْنا بين عبيد وعباد .

والكلام هنا عن الذين كفروا الذين اتخذوا عباد الله المقربين إليه المحبين له أولياء من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون ﴾ [النساء : 172] .

فكيف تتخذونهم أولياء من دوني وتعاندونني بهم وهم أحبتي ؟

يقول تعالى : ﴿ وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : 30] ومنهم مَنْ قال : الملائكة بنات الله ، فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله وهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله ، ويرونَ شرفهم وعِزَّتهم في عبوديتهم له سبحانه ، فإذا بكم تتخذونهم أولياء من دوني ، ويا ليتكم جعلتُم ذلك في أعدائي ، فهذا منهم تغفيل حتى في اتخاذ الشركاء ؛ لذلك كان جزاءَهم أنْ نُعِدَّ لهم جهنم :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ [الكهف : 102] والنُّزُل : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلاً ، فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(56/479)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : " يا محمد ، إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين أنك سمعت ذكرهم منّا ، فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد . قال : ومن هو ؟ قالوا : ذو القرنين . قال : ما بلغني عنه شيء . فخرجوا فرحين وقد غلبوا في أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفرة قال : دخل بعض أهل الكتاب على رسول الله

صلى الله عليه وسلم فسألوه فقالوا : " يا أبا القاسم ، كيف تقول في رجل كان يسيح في الأرض ؟ قال : لا علم لي به . فبينما هم على ذلك إذ سمعوا نقيضاً في السقف ، ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غمة الوحي ثم سري عنه فتلا ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ الآية . فلما ذكر السد قالوا : أتاك خبره يا أبا القاسم حسبك " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أدري أتبع كان لعيناً أم لا ، وما أدري أذو القرنين كان نبياً أم لا ، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا " .

وأخرج ابن مردويه " عن سالم بن أبي الجعد قال : سئل علي عن ذي القرنين : أنبي هو ؟ فقال : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : " هو عبد ناصح الله فنصحه " " .

(57/479)

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه من طريق أبي الطفيل ، أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب عن ذي القرنين : أنبياً كان أم ملكاً ؟ قال : لم يكن نبياً ولا ملكاً ، ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه ، ونصح لله فنصحه . . . بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات ، ثم أحياه

الله لجهادهم . ثم بعثه إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فأحياه الله لجهادهم .

فلذلك سمي ذا القرنين ، وإن فيكم مثله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ذو القرنين نبي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأحوص بن حكيم عن أبيه ، " أن النبي صلى الله عليه وسلم : سئل عن ذي القرنين فقال : " هو ملك مسح الأرض بالإحسان " " .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن خالد بن معدان الكلاعي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذي القرنين فقال : " ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب " " .

وأخرج ابن عبد الحكم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ ، عن عمر أنه سمع رجلاً ينادي بمنى : يا ذا القرنين ، فقال له عمر رضي الله عنه : ها أنتم قد سميتم بأسماء الأنبياء ، فما بالكم وأسماء الملائكة ؟

وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير ، أن ذا القرنين ملك من الملائكة أهبطه الله إلى الأرض وآتاه من كل شيء سبباً .

وأخرج الشيرازي في الألقاب عن جبير بن نفير ، " أن أحباراً من اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : " حدثنا عن ذي القرنين إن كنت نبياً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو ملك مسح الأرض بالأسباب " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : كان نذير واحد بلغ ما بين المشرق والمغرب ، ذو القرنين بلغ السدين وكان نذيراً ، ولم أسمع بحق أنه كان نبياً .

(58/479)

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي الورقاء قال : قلت لعلي بن أبي طالب : ذو القرنين ما كان قرناه ؟ قال : لعلك تحسب أن قرنيه ذهب أو فضة ، كان نبياً فبعثه الله إلى أناس فدعاهم إلى الله تعالى فقام رجل فضرب قرنه الأيسر فمات ، ثم بعثه الله فأحياه ، ثم بعثه إلى ناس فقام رجل فضرب قرنه الأيمن فمات ، فسماه الله ذا القرنين .

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن جعفر قال : إنما سمي ذو القرنين ذا القرنين ، لشجتين شجهما على قرنيه في الله ، وكان أسود .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب بن منبه ، أن ذا القرنين أول من لبس العمامة ، وذاك أنه كان في رأسه قرنان كالظلفين متحركان فلبس العمامة من أجل ذلك ، وأنه دخل الحمام ودخل كاتبه معه فوضع ذو القرنين العمامة فقال لكاتبه : هذا أمر لم يطلع عليه خلق غيرك ، فإن سمعت به من أحد قتلتك . فخرج الكاتب من الحمام فأخذه كهيئة الموت ، فأتى الصحراء فوضع فمه بالأرض ثم نادى : ألا إن للملك قرنين . فأنبت الله من كلمته قصبتين ، فمر بهما

راع فأعجب بهما فقطعهما واتخذهما مزماراً ، فكان إذا زمر خرج من القصبتين : ألا إن للملك قرنين . فانتشر ذلك في المدينة ، فأرسل ذو القرنين إلى الكاتب فقال : لتصدقني أو لأَقْتُلَنَّكَ . فقص عليه الكاتب القصة ، فقال ذو القرنين : هذا أمر أراد الله أن يبديه . فوضع العمامة عن رأسه .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل ، عن عقبة بن عامر الجهني قال : "كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت ذات يوم فإذا أنا برجال من أهل الكتاب بالباب معهم مصاحف فقالوا : من يستأذن لنا على النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : ما لي ولهم ، سألوني عما لا أدري ؟ إنما أنا عبد لا أعلم إلا ما أعلمني ربي عز وجل .

(59/479)

ثم قال : ابغني وضوءاً فأتيته بوضوء فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم انصرف فقال – وأنا أرى السرور والبشر في وجهه – أدخل القوم عليَّ ومن كان من أصحابي فأدخله أيضاً عليّ ، فأذنت لهم فدخلوا فقال : إن شئتم أخبرتكم بما جئتم تسألوني عنه من قبل أن تكلموا ، وإن شئتم فتكلموا قبل أن أقول . قالوا : بل فأخبرنا . قال : جئتم تسألوني عن ذي القرنين ،

إن أول أمره أنه كان غلاماً من الروم ، أعطي ملكاً فسار حتى أتى ساحل أرض مصر فابتنى مدينة يقال لها " اسكندرية " فلما فرغ من شأنها بعث الله عز وجل إليه ملكاً فعرج به فاستعلى بين السماء ، ثم قال له : انظر ما تحتك . فقال : أرى مدينتي وأرى مدائن معها ، ثم عرج به فقال : انظر . فقال : قد اختلطت مع المدائن فلا أعرفها ، ثم زاد فقال انظر : قال : أرى مدينتي وحدها ولا أرى غيرها . قال له الملك : إنها تلك الأرض كلها ، والذي ترى يحيط بها هو البحر وإنما أراد ربّك أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطاناً فيها ، فسر فيها فعلم الجاهل وثبت العالم ، فسار حتى بلغ مغرب الشمس ، ثم سار حتى بلغ مطلع الشمس ، ثم أتى السدين وهما جبلان لينان يزلق عنهما كل شيء ، فبنى السد ثم اجتاز يأجوج ومأجوج ، فوجد قوماً وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ، ثم قطعهم فوجد أمة قصاراً يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب ، ووجد أمة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار ، ثم مضى فوجد أمة من الحيات تلتقم الحية منها الصخرة العظيمة ، ثم مضى إلى البحر الدائر بالأرض فقالوا : نشهد أن أمره هكذا كما ذكرت ، وإنا نجده هكذا في كتابنا " .

(60/479)

وأخرج ابن عساكر عن سليمان بن الأشج صاحب كعب الأحبار ، أن ذا القرنين كان رجلاً طوافاً صالحاً ، فلما وقف على جبل آدم الذي هبط عليه ونظر إلى أثره هاله ، فقال له الخضر : – وكان صاحب لوائه الأكبر – ما لك أيها الملك ؟ قال : هذا أثر الآدميين . . . أرى موضع الكفين والقدمين وهذه القرحة ، وأرى هذه الأشجار حوله قائمة يابسة يسيل منها ماء أحمر ، إن لها لشأناً . فقال له الخضر : – وكان قد أعطي العلم والفهم – أيها الملك ، ألا ترى الورقة المعلقة من النخلة الكبيرة قال : بلى . قال : فهي تخبرك بشأن هذا الموضع . – وكان الخضر يقرأ كل كتاب – فقال : أيها الملك ، أرى كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من آدم أبي البشر ، أوصيكم ذريتي وبناتي أن تحذروا عدوي وعدوكم إبليس الذي كان يلين كلامه وفجور أمنيته ، أنزلني من الفردوس إلى تربة الدنيا ، وألقيت على موضعي هذا لا يلتفت إليّ مائتي سنة بخطيئة واحدة ، حتى درست في الأرض وهذا أثري وهذه الأشجار من دموع عيني فعلي في هذه التربة أنزلت التوبة ، فتوبوا من قبل أن تندموا وبادروا من قبل أن يبادر بكم وقدموا من قبل أن يقدم بكم .

فنزل ذو القرنين فمسح موضع جلوس آدم فإذا هو ثمانون ومائة ميل ، ثم أحصى الأشجار فإذا هي تسعمائة شجرة كلها من دموع آدم نبتت ، فلما قتل قابيل هابيل تحولت يابسة وهي تبكي دماً أحمر فقال ذو القرنين للخضر : ارجع بنا فلا طلبت الدنيا بعدها .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر عن السدي قال : كان أنف الإسكندر ثلاثة أذرع .

وأخرج ابن عبد الحكم عن الحسن قال : كان أنف الإسكندر ثلاثة أذرع .

وأخرج ابن عبد الحكم وابن أبي حاتم والشيرازي في الألقاب ، عن عبيد بن يعلى قال : إنما سمي ذا القرنين لأنه كان له قرنان صغيران تواريهما العمامة .

(61/479)

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن وهب بن منبه أنه سئل عن ذي القرنين فقال : لم يوح إليه وكان ملكاً . قيل : فلم سمي ذا القرنين ؟ فقال : اختلف فيه أهل الكتاب ، فقال بعضهم : ملك الروم وفارس ، وقال بعضهم : إنه كان في رأسه شبه القرنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن بكر بن مضر ، أن هشام بن عبد الملك سأله عن ذي القرنين : أكان نبياً ؟ فقال : لا ، ولكنه إنما أعطي ما أعطي بأربع خصال كان فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع اليوم لغد .

وأخرج ابن عبد الحكم عن يونس ، بن عبيد قال : إنما سمي ذا القرنين ، لأنه كان له غديرتان من رأسه من شعر يطأ فيهما .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي العالية قال : إنما سمي ذا القرنين لأنه قرن ما بين مطلع

الشمس ومغربها .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، عن ابن شهاب قال : إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها .

وأخرج عن قتادة قال : الإسكندر هو ذو القرنين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق ابن إسحق ، عمن يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم فيما توارثوا من علمه ، أن ذا القرنين كان رجلاً صالحاً من أهل مصر ، اسمه مرزيا بن مرزية اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن عبيد بن عمير ، أن ذا القرنين حج ماشياً فسمع به إبراهيم فتلقاه .

وأخرج الشيرازي في الألقاب ، عن قتادة قال : إنما سمي ذا القرنين ، لأنه كان له عقيصتان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ، أن ذا القرنين كان من سوّاس الروم يسوس أمرهم ، فخيّر بين ذلال السحاب وصعابها فاختار ذلالها ، فكان يركب عليها .

(62/479)

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم والشيرازي في الألقاب وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه اليماني – وكان له علم الأحاديث الأولى – أنه كان يقول : كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره ، وكان اسمه الإسكندر وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس ، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً قال الله له : " يا ذا القرنين ، إني باعثك إلى أمم الأرض منهم أمتان بينهما طول الأرض كلها ، ومنهم أمتان بينهما عرض الأرض كلها ، في وسط الأرض منهم الإنس والجن ويأجوج ومأجوج ، فأما اللتان بينهما طول الأرض ، فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأما الأخرى ؛ فعند مطلعها يقال لها منسك ، وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل ، وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر فأمة يقال لها تأويل . فلما قال الله له ذلك قال له ذو القرنين : يا إلهي ، أنت قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت ، فأخبرني عن هذه الأمم التي تبعثني إليها ، بأي قوة أكابرهم ، وبأي جمع أكاثرهم ، وبأي حيلة أكايدهم ، وبأي لسان أناطقهم ؟ ؟ ؟ وكيف لي بأن أحاربهم ، وبأي سمع أعي قولهم ، وبأي بصر أنفذهم ، وبأي حجة أخاصمهم ، وبأي قلب أعقل عنهم ، وبأي حكمة أدبر أمرهم ، وبأي قسط أعدل بينهم ، وبأي حلم أصابرهم ، وبأي معرفة أفصل بينهم ، وبأي علم أتقن أمرهم ، وبأي يد أسطو عليهم ، وبأي رجل أطؤهم ، وبأي طاقة أخصمهم ، وبأي جند أقاتلهم ، وبأي رفق أستألفهم . . . ؟ ؟ ؟ وإنه ليس عندي يا إلهي شيء مما

ذكرت يقرن لهم ، ولا يقوى عليهم ولا يطيقهم ، وأنت الرب الرحيم الذي لا يكلف نفساً ولا يحملها إلا طاقتها ، ولا يعنتها ولا يفدحها بل يرأفها ويرحمها . فقال له الله عز وجل : إني سأطوقك ما حملتك ، أشرح لك صدرك فيتسع لكل شيء ، وأشرح لك فهمك فتفقه كل شيء ، وأبسط لك لسانك فتنطق بكل شيء ، وأفتح لك سمعك فتعي كل شيء ، وأمد لك بصرك

(63/479)

فتنفذ كل شيء ، وأدبر لك أمرك فتتقن كل شيء ، وأحصر لك فلا يفوتك شيء ، وأحفظ عليك فلا يغرب عنك شيء ، وأشد ظهرك فلا يهدك شيء ، وأشد لك ركبك فلا يغلبك شيء ، وأشد لك قلبك فلا يروعك شيء ، وأشد لك عقلك فلا يهولك شيء ، وأبسط لك يديك فيسطوان فوق كل شيء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء . وأسخر لك النور والظلمة فأجعلهما جنداً من جنودك يهديك النور من أمامك وتحوطك الظلمة من ورائك .

(64/479)

فلما قيل له ذلك انطلق يؤم الأمة التي عند مغرب الشمس ، فلما بلغهم وجد جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا الله تعالى ، وقوة وبأساً لا يطيقه إلا الله ، وألسنة مختلفة وأموراً مشتبهة وأهواء مشتتة وقلوباً متفرقة ، فلما رأى ذلك كابرهم بالظلمة وضرب حولهم ثلاثة عساكر منها ، وأحاطت بهم من كل جانب وحاشدهم حتى جمعهم في مكان واحد ثم دخل عليهم بالنور ، فدعاهم إلى الله وعبادته . . . فمنهم من آمن ومنهم من صدّ عنه ، فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ، ودخلت في بيوتهم ودورهم وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب منهم فماجوا فيها وتحيروا ، فلما أشفقوا أن يهلكوا فيها عجوا إليه بصوت واحد فكشف عنهم وأخذهم عنوة فدخلوا في دعوته ، فجند من أهل المغرب أمماً عظيمة فجعلهم جنداً واحداً ، ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم من خلفهم وتحرسهم من حولهم ، والنور من أمامه يقوده ويدله وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى ، وهو يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن التي يقال لها هاويل . وسخر الله يده وقلبه ورأيه ونظره وائتماره فلا يخطئ إذا ائتمر وإذا عمل عملاً أتقنه ، فانطلق يقود تلك الأمم وهي تتبعه . . . فإذا انتهى إلى بحر أو مخاضة بنى سفناً من ألواح صغار أمثال البغال فنظمها في ساعة واحدة ثم حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم وتلك الجنود ، فإذا قطع الأنهار والبحار فتقها ثم دفع إلى كل إنسان لوحاً فلا يكربه حمله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل فعمل فيهم كعمله في ناسك ، فلما فرغ منهم مضى

على وجهه في ناحية الأرض اليمنى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند منها جنوداً كفعله في الأمتين اللتين قبلهما ، ثم كر مقبلاً في ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تأويل – وهي الأمة التي بحيال هاويل وهما متقابلتان ، بينهما عرض الأرض كلها – فلما بلغها عمل فيها وجند منها كفعله فيما قبلها ،

(65/479)

فلما فرغ منها عطف منها إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجن وسائر الإنس ويأجوج ومأجوج. فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع أرض الترك نحو المشرق ، قال له أمة من الإنس صالحة : يا ذا القرنين ، إن بين هذين الجبلين خلقاً من خلق الله . . . كثيراً فيهم مشابهة من الإنس ، وهم أشباه البهائم وهم يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحش كما يفترسها السباع ، ويأكلون خشاش الأرض كلها من الحيات والعقارب وكل ذي روح مما خلق الله في الأرض ، وليس لله خلق ينمو نماءهم في العام الواحد ، ولا يزداد كزيادتهم ولا يكثر ككثرتهم ، فإن كانت لهم كثرة على ما يرى من نمائهم وزيادتهم ، فلا شك أنهم سيملأون الأرض ويجلون أهلها ويظهرون عليها فيفسدون فيها ، وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم ورأيناهم إلا ونحن نتوقعهم وننظر أن يطلع إلينا أوائلهم من هذين الجبلين .

. . فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال : ما مكني فيه ربي خير ، فأعينوني بقوّة أجعل بينكم وبينهم ردماً ، اغدو إلى الصخور والحديد والنحاس حتى أرتاد بلادهم وأعلم علمهم وأقيس ما بين جبليهم .

(66/479)

ثم انطلق يؤمهم حتى دفع إليهم وتوسط بلادهم ، فإذا هم على مقدار واحد . . . أنثاهم وذكرهم مبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا ، لهم مخاليب في مواضع الأظفار من أيدينا ، ولهم أنياب وأضراس كأضراس السباع وأنيابها ، وأحناك كأحناك الإبل قوة ، يسمع له حركة إذا أكل كحركة الجرة من الإبل ، أو كقضم الفحل المسن أو الفرس القوي ، وهم صلب عليهم من الشعر في أجسادهم ما يواريهم وما يتقون به من الحر والبرد إذا أصابهم ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان إحداهما وبرة ظهرها وبطنها ، والأخرى زغبة ظهرها وبطنها . . . تسعانه إذا لبسهما ، يلبس إحداهما ويفترش الأخرى ، ويصيف في إحداهما ويشتو في الأخرى ، وليس منهم ذكر ولا أنثى إلا وقد عرف أجله الذي يموت فيه ومنقطع عمره ، وذلك أنه لا يموت ميت من ذكورهم حتى يخرج من صلبه ألف ولد ، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد ، فإذا كان ذلك أيقن بالموت

وتهيأ له . وهم يرزقون التنين في زمان الربيع ويستمطرونه إذا تحينوه كما يستمطر الغيث لحينه ، فيقذفون منه كل سنة بواحد فيأكلونه عامهم كله إلى مثلها من قابل ، فيعينهم على كثرتهم وما هم فيه ، فإذا أمطروا أخصبوا وعاشوا وسهئوا ورؤي أثره عليهم فدرت عليهم الإناث وشبقت منهم الذكور ، وإذا أخطأهم هزلوا وأحدثوا وجفلت منهم الذكور وأحالت الإناث وتبين أثر ذلك عليهم ، وهم يتداعون تداعي الحمام ويعوون عوي الذئاب ويتسافدون حيثما التقوا تسافد البهائم .

(67/479)

ثم لما عاين ذلك منهم ذو القرنين ، انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما – وهي في منقطع أرض الترك مما يلي الشمس – فوجد بعد ما بينهما مائة فرسخ ، فلما أنشأ في عمله حفر له أساساً حتى بلغ الماء ، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً وجعل حشوه الصخور وطينه النحاس يذاب ثم يصب عليه ، فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ، ثم علا وشرفه بزبر الحديد والنحاس المذاب ، وجعل خلاله عرقاً من نحاس أصفر فصار كأنه محبر من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد ، فلما فرغ منه وأحكم انطلق عامداً إلى جماعة الإنس والجن ، فبينما هو يسير إذ رفع إلى أمة صالحة يهدون بالحق وبه يعدلون ،

فوجد أمة مقسطة يقتسمون بالسوية ويحكمون بالعدل ويتأسون ويتراحمون . . . حالهم واحدة وكلمتهم واحدة وأخلاقهم مشتبهة وطريقتهم مستقيمة وقلوبهم مؤتلفة وسيرتهم مستوية وقبورهم بأبواب بيوتهم ، وليس على بيوتهم أبواب وليس عليهم أمراء وليس بينهم قضاة وليس فيهم أغنياء ولا ملوك ولا أشراف ، ولا يتفاوتون ولا يتفاضلون ولا يتنازعون ولا يستّبون ولا يقتتلون ولا يقحطون ولا يحردون ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس ، وهم أطول الناس أعماراً وليس فيهم مسكين ولا فقير ولا فظ ولا غليظ .

(68/479)

فلما رأى ذلك ذو القرنين من أمرهم أعجب منهم وقال لهم : أخبروني أيها القوم خبركم ، فإني قد أحصيت الأرض كلها . . . برها وبحرها ، وشرقها وغربها ، ونورها وظلمتها . . . فلم أجد فيها أحداً مثلكم . . . ! فأخبروني خبركم . قالوا : نعم ، سلنا عما تريد . قال : أخبروني ما بال قبوركم على أبواب بيوتكم ؟ قال : عمداً فعلنا ذلك ، لئلا ننسى الموت ولا يخرج ذكره من قلوبنا . قال : فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب ؟ قالوا : ليس فينا متّهم وليس فينا إلا أمين مؤتمن . قال : فما بالكم ليس عليكم أمراء ؟ قالوا : ليس فينا مظالم . قال : فما بالكم ليس بينكم حكام ؟ قالوا : لا نختصم . قال : فما بالكم ليس

فيكم أغنياء ؟ قالوا : لا نتكاثر . قال : فما بالكم ليس فيكم أشراف ؟ قالوا : لا نتنافس . قال : فما بالكم لا تتفاوتون ولا تتفاضلون ؟ قالوا : من قبل أنا متواصلون متراحمون . قال : فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون ؟ قالوا : من قبل ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا . قال : فما بالكم لا تقتتلون ولا تستّبون ؟ قالوا : من قبل أنا غلبنا طبائعنا بالعزم وسُسْنا أنفسنا بالحلم . قال : فما بال كلمتكم واحدة وطريقتكم مستقيمة ؟ قالوا : من قبل أنا لا نتكاذب ولا نتخادع ، فلا يغتاب بعضنا بعضاً . قال : فأخبروني من أين تشابهت قلوبكم واعتدلت سيرتكم ؟ قالوا : صحت صدورنا فنزع الله بذلك الغل والحسد من قلوبنا . قال : فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير ؟ قالوا : من قبل أنا نقسم بالسوية . قال : فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ ؟ قالوا : من قبل الذل والتواضع . قال : فما بالكم جُعِلْتُم أطول الناس أعماراً ؟ قالوا : من قبل أنا نتعاطى الحق ونحكم بالعدل . قال : فما بالكم لا تقحطون ؟ قالوا : لا نغفل عن الاستغفار . قال : فما بالكم لا تحردون ؟ قالوا : من قبل أنا وطّنا أنفسنا للبلاء منذ كنا ، وأحببناه وحرصنا عليه فعرينا منه . قال : فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس ؟ قالوا : لا نتوكل على غير

(69/479)

الله ولا نعمل بأنواء النجوم . قال : حدثوني . . . أهكذا وجدتم آبائكم يفعلون ؟ قالوا : نعم ، وجدنا آبائنا يرحمون مساكينهم ، ويواسون فقراءهم ويعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويحلمون على من جهل عليهم ، ويستغفرون لمسبهم ، ويصلون أرحامهم ، ويردون أماناتهم ، ويحفظون وقتهم لصلاتهم ، ويوفون بعهودهم ، ويصدقون في مواعيدهم ، ولا يرغبون عن أكفائهم ولا يستنكفون عن أقاربهم ، فأصلح الله بذلك أمرهم وحفظهم به ما كانوا أحياء ، وكان حقاً عليه أن يخلفهم في تركتهم .

فقال لهم ذو القرنين : لو كنتُ مقيماً لأقمت فيكم ، ولكني لم أؤمر بالإقامة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال : كان لذي القرنين صديق من الملائكة يقال له زرافيل ، وكان لا يزال يتعاهده بالسلام ، فقال له ذو القرنين : يا زرافيل ، هل تعلم شيئاً يزيد في طول العمر لنزداد شكراً وعبادة ؟ قال : ما لي بذلك علم ، ولكن سأسأل لك عن ذلك في السماء . فعرج زرافيل إلى السماء فلبث ما شاء الله أن يلبث ثم هبط ، فقال : إني سألت عما سألتني عنه فأخبرت أن لله عيناً في ظلمة هي أشد بياضاً من اللبن وأحلى من الشهد ، من شرب منها شربة لم يمت حتى يكون هو الذي يسأل الله الموت . قال : فجمع ذو القرنين علماء الأرض إليه فقال : هل تعلمون أن لله عيناً في ظلمة ؟ فقالوا : ما نعلم ذلك . فقام إليه رجل شاب فقال : وما حاجتك إليها أيها الملك ؟ قال : لي بها حاجة . قال : فإني أعلم مكانها . قال : ومن أين

علمت مكانها ؟ قال : قرأت وصية آدم عليه السلام فوجدت فيها : إن لله عيناً خلف مطلع الشمس في ظلمة ، ماؤها أشد بياضاً من اللبن وأحلى من الشهد ، من شرب منها شربة لم يمت حتى يكون هو الذي يسأل الله الموت .

(70/479)

فسار ذو القرنين من موضعه الذي كان فيه اثنتي عشرة سنة حتى انتهى إلى مطلع الشمس ، عسكر وجمع العلماء فقال : إني أريد أن أسلك هذه الظلمة بكم ، فقالوا : إنا نعيذك بالله أن تسلك مسلكاً لم يسلكه أحد من بني آدم قط قبلك . قال : لا بد أن أسلكها . قالوا : إنا نعيذك أن تسلك بنا هذه الظلمة ، فإنا لا نأمن أن ينفتق علينا بها أمر يكون فيه فساد الأرض . قال : لا بد أن أسلكها . قالوا : فشأنك . فسألهم أي الدواب أبصر ؟ قالوا : الخيل . قال : فأي الخيل أبصر ؟ قالوا : الإناث . قال : فأي الإناث أبصر ؟ قالوا : الأبكار . فانتقى ستة آلاف فرس أنثى بكر ثم انتخب من عسكره ستة آلاف رجل ، فدفع إلى كل رجل منهم فرساً ، وولى الخضر منها على ألفي فارس ثم جعله على مقدمته ، ثم قال : سرْ أمامي . فقال له الخضر : أيها الملك ، إني لست آمن هذه الأمة الضلال فيتفرق الناس مني ، فدفع إليه خرزة حمراء فقال : إذا تفرق الناس فارم هذه الخرزة فإنها ستضيء لك وتصوت

حتى تجمع إليك أهل الضلال ، واستخلف على الناس خليفة وأمره أن يقيم في عسكره اثنتي عشرة سنة ، فإن هو رجع إلى ذلك وإلا أمر الناس أن يتفرقوا في بلدانهم . ثم أمر الخضر فسار أمامه ، فكان الخضر إذا أتاه ذو القرنين رحل من منزله ونزل ذو القرنين في منزل الخضر الذي كان فيه ، فبينا الخضر يسير في تلك الظلمة إذ تفرق الناس عنه ، فطرح الخرزة من يده فإذا هي على شفير العين والعين في وادٍ فأضاء له ما حول البئر ، فنزل الخضر ونزع ثيابه ودخل العين فشرب منها واغتسل ثم خرج ، فجمع عليه ثيابه ثم أخذ الخرزة وركب وخالفه ذو القرنين في غير الطريق الذي أخذ فيه الخضر ، فساروا في تلك الظلمة في مقدار ست ليال وأيامهن ولم تكن ظلمة كظلمة الليل ، إنما كانت ظلمة كهيئة ضباب حتى خرجوا إلى أرض ذات نور ليس فيها شمس ولا قمر ولا نجم ، فعسكر ثم نزل الناس ثم ركب ذو القرنين وحده فسار حتى انتهى إلى قصر طوله فرسخ في فرسخ ، فدخل

(71/479)

القصر فإذا هو بعمود على حافتي القصر ، وإذا طائر مذموم .

. . بأنفه سلسلة معلقة في ذلك العود شبه الخطاف أو قريب من الخطاف ، فقال له الطير : من أنت ؟ قال أنا ذو القرنين . قال له الطير : يا ذا القرنين ، أما كفاك ما وراءك حتى تناولت

الظلمة ؟ أنبئني يا ذا القرنين . قال : سل . قال : هل كثر بنيان من الجص والآجر في الناس ؟ قال : نعم . فانتفخ الطير حتى سد ثلث ما بين الحائطين ، ثم قال : يا ذا القرنين أنبئني . قال : سل . قال : هل كثرت المعازف في الناس ؟ قال : نعم . فانتفخ حتى سد ثلثي ما بين الحائطين ، ثم قال : يا ذا القرنين ، أنبئني . قال : سل . قال : هل كثرت شهادة الزور في الناس ؟ قال : نعم . فانتفخ حتى سد ما بين الحائطين ، واجث ذو القرنين منه فرقاً ، قال له الطير : يا ذا القرنين ، لا تخف . . . أنبئني . قال : سل . قال : هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا . قال : هل ترك الناس الغسل من الجنابة ؟ قال : لا . قال : فانضم ثلثاه . قال : يا ذا القرنين ، أنبئني . قال : سل . قال : هل ترك الناس المكتوبة ؟ قال : لا . . . فانضم الطير حتى عاد كما كان ، ثم قال : يا ذا القرنين ، انطلق إلى تلك الدرجة فاصعدها فإنك ستلقى من تسأله ويخبرك . فسار حتى انتهى إلى درجة مدرجة فصعد عليها فإذا هو بسطح ممدود لا يرى طرفاه ، وإذا رجل شاب قائم شاخص ببصره إلى السماء واضع يده على فمه قد قدم رجلاً وأخر أخرى ، فسلم عليه ذو القرنين فرد عليه السلام ثم قال له : من أنت ؟ قال : أنا ذو القرنين . قال : يا ذا القرنين ، أما كفاك ما وراءك حتى قطعت الظلمة ووصلت إلي ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا صاحب الصور ، قد قدمت رجلاً وأخرت أخرى ووضعت الصور على فمي ، وأنا شاخص ببصري إلى السماء أنتظر أمر ربي ، ثم تناول حجراً فدفعه فقال : انصرف ، فإن هذا الحجر سيخبرك بتأويل ما أردت .

فانصرف ذو القرنين حتى أتى عسكره فنزل وجمع إليه العلماء فحدثهم بحديث القصر وحديث العمود والطير وما قال له وما رد عليه ، حديث صاحب الصور وأنه قد دفع إليه هذا الحجر وقال : إنه سيخبرني بتأويل ما جئت به ، فأخبروني عن هذا الحجر ، ما هو وأي شيء أراد بهذا ؟ قال : فدعوا بميزان ووضع حجر صاحب الصور في إحدى الكفتين ووضع حجر مثله في الكفة الأخرى فرجح به ، ثم وضع معه حجر آخر رجح به ، ثم وضع مائة حجر فرجح بها حتى وضع ألف حجر فرجح بها ، فقال ذو القرنين : هل عند أحد منكم في هذا الحجر من علم ؟ قال – والخضر قاعد بحاله لا يتكلم – فقال له : يا خضر ، هل عندك في هذا الحجر من علم ؟ قال : نعم . قال : وما هو ؟ قال الخضر : أيها الملك ، إن الله ابتلى العالم بالعالم وابتلى الناس بعضهم ببعض ، وإن الله ابتلاك بي وابتلاني بك . فقال له ذو القرنين : ما أراك إلا قد ظفرت بالأمر الذي جئت أطلبه . قال له الخضر : قد كان ذلك . قال : فائتني . فأخذ الميزان ووضع حجر صاحب الصور في إحدى الكفتين ووضع في الكفة الأخرى حجراً ، وأخذ قبضة من تراب فوضعها مع الحجر ثم رفع الميزان فرجح الحجر الذي معه التراب على حجر صاحب الصور ، فقالت العلماء :

سبحان الله ربنا . . . ! وضعنا مع ألف حجر فمال بها ، ووضع الخضر معه حجراً واحداً وقبضة من تراب فمال به . . . ! ! فقال له ذو القرنين : أخبرني بتأويل هذا . قال : أخبرك . . . إنك مكنت من مشرق الأرض ومغربها فلم يكفك ذلك حتى تناولت الظلمة حتى وصلت إلى صاحب الصور ، وإنه لا يملأ عينك إلا التراب . قال : صدقت . ورحل ذو القرنين فرجع في الظلمة راجعاً ، فجعلوا يسمعون خشخشة تحت سنابك خيلهم فقالوا : أيها الملك ، ما هذه الخشخشة التي نسمع تحت سنابك خيلنا ؟ قال : من أخذ منه ندم ومن تركه ندم ، فأخذت منه طائفة وتركت طائفة ، فلما برزوا به إلى الضوء نظروا فإذا هو بالزبرجد ، فندم الآخذ أن لا يكون ازداد وندم التارك أن لا يكون أخذ .

(73/479)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخي ذا القرنين ، دخل الظلمة وخرج منها زاهداً . أما إنه لو خرج منها راغباً لما ترك منها حجراً إلا أخرجه " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فأقام بدومة الجندل فعبد الله فيها حتى مات " .

ولفظ أبي الشيخ قال أبو جعفر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله أخي ذا القرنين ، لو ظفر بالزبرجد في مبداه ما ترك منه شيئاً حتى يخرجه إلى الناس ، لأنه كان

راغباً في الدنيا ، ولكنه ظفر به وهو زاهد في الدنيا لا حاجة له فيها " .

وأخرج ابن إسحق والفريابي وابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت ، وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن سئل عن ذي القرنين فقال : كان عبداً أحب الله فأحبه ، وناصح الله فناصحه ، فبعثه إلى قوم يدعوهم إلى الله فدعاهم إلى الله وإلى الإسلام ، فضربوه على قرنه الأيمن فمات ، فأمسكه الله ما شاء ثم بعثه . فأرسله إلى أمة أخرى يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام فضربوه على قرنه الأيسر فمات ، فأمسكه الله ما شاء ثم بعثه فسخر له السحاب وخيّره فيه فاختار صعبه على ذلوله – وصعبه الذي لا يمطر – وبسط له النور ومدّ له الأسباب وجعل الليل والنهار عليه سواء ، فبذلك بلغ مشارق الأرض ومغاربها .

(74/479)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه ، أن ذا القرنين لما بلغ الجبل الذي يقال له قاف ، ناداه ملك من الجبل : أيها الخاطئ ابن الخاطئ ، جئت حيث لم يجئ أحد من قبلك ولا يجيء أحد بعدك . فأجابه ذو القرنين : وأين أنا ؟ قال له الملك : أنت في الأرض السابعة . فقال ذو القرنين : ما ينجيني ؟ فقال : ينجيك اليقين . فقال ذو القرنين :

اللهم ارزقني يقيناً . فأنجاه الله . قال له الملك : إنه ستأتي إلى قوم فتبني لهم سداً ، فإذا أنت بنيته وفرغت منه فلا تحدث نفسك أنك بنيته بحول منك أو قوة ، فيسلط الله على بنيانك أضعف خلقه فيهدمه . ثم قال له ذو القرنين : ما هذا الجبل ؟ قال : هذا الجبل الذي يقال له قاف ، وهو أخضر والسماء بيضاء وإنما خضرتها من هذا الجبل ، وهذا الجبل أم الجبال والجبال كلها من عروقه ، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية حرك منه عرقاً . ثم إن الملك ناوله عنقوداً من عنب وقال له : حبة ترويك وحبة تشبعك ، وكلما أخذت منه حبة عادت مكانها حبة .

ثم خرج من عنده فجاء البنيان الذي أراد الله ، فقالوا له : ﴿ يا ذا القرنين ، إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ اجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ .

قال عكرمة رضي الله عنه : هم منسك وناسك وتأويل وراحيل . وقال أبو سعيد رضي الله عنه : هم خمسة وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج .

وأخرج الحاكم عن معاوية رضي الله عنه قال : ملك الأرض أربعة : سليمان وذو القرنين ورجل من أهل حلوان ورجل آخر . فقيل له : الخضر ؟ قال : لا .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : إن ذا القرنين ملك الأرض كلها إلا بلقيس صاحبة مأرب ، فإذا ذا القرنين كان يلبس ثياب المساكين ثم يدخل

المدائن فينظر من عورتها قبل أن يقتل أهلها فأخبرت بذلك بلقيس فبعثت رسولاً ينظر إليه فيصوّر لها صورته في ملكه حين يقعد ، وصورته في ثياب المساكين .

(75/479)

ثم جعلت كل يوم تطعم المساكين وتجمعهم ، فجاءها رسولها في صورته فجعلت إحدى صورتيه تليها والأخرى على باب الأسطوانة ، فكانت تطعم المساكين كل يوم ، فإذا فرغوا عرضتهم واحداً واحداً فيخرجون ، حتى جاء ذو القرنين في ثياب المساكين فدخل مدينتها ثم جلس مع المساكين إلى طعامها ، فقربت إليهم الطعام فلما فرغوا أخرجتهم واحداً واحداً وهي تنظر إلى صورته في ثياب المساكين ، حتى مر ذو القرنين فنظرت إلى صورته فقالت : أجلسوا هذا وأخرجوا من بقي من المساكين . فقال لها : لم أجلستني وإنما أنا مسكين . . . ! ؟ قالت : لا . . . أنت ذو القرنين ، هذه صورتك في ثياب المساكين ، والله لا تفارقني حتى تكتب لي أماناً بملكي أو أضرب عنقك . فلما رأى ذلك كتب لها أماناً فلم ينج أحد منه غيرها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : ملك ذو القرنين اثنتي عشرة سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن عبيد الله بن أبي جعفر رضي الله عنه قال : كان ذو القرنين في بعض مسيره فمر بقوم قبورهم على أبواب بيوتهم ، وإذا ثيابهم لون واحد وإذا هم رجال كلهم ليس فيهم امرأة ، فتوسم رجلاً منهم فقال له : لقد رأيت شيئاً ما رأيت في شيء من مسيري . . . ! قال : وما هو ؟ فوصف له ما رأى منهم . قالوا : أما هذه القبور على أبوابنا ، فإنا جعلناها موعظة لقلوبنا تخطر على قلب أحدنا الدنيا فيخرج فيرى القبور ويرجع إلى نفسه فيقول : إلى هذا المصير وإليها صار من كان قبلي .

وأما هذه الثياب ، فإنه لا يكاد الرجل منا يلبس ثياباً أحسن من صاحبه إلا رأى له بذلك فضلاً على جليسه .

(76/479)

وأما قولك : رجال كلكم ليس معكم نساء ، فلعمري لقد خلقنا من ذكر وأنثى ، ولكن هذا القلب لا يشغل بشيء إلا شغل به ، فجعلنا نساءنا وذريتنا في قرية قريبة وإذا أراد الرجل من أهله ما يريد الرجل ، أتاها فكان معها الليلة والليلتين ثم يرجع إلى ما ههنا ، لأنا خلونا ههنا للعبادة . فقال : ما كنت لأعظكم بشيء أفضل مما وعظتم به أنفسكم ، سلني ما شئت . قال : من أنت ؟ قال أنا ذو القرنين . قال : ما أسألك وأنت لا تملك لي شيئاً ؟ قال :

وكيف وقد آتاني الله من كل شيء سبباً ؟ قال : أتقدر على أن تأتيني بما لم يقدر لي ولا تصرف عني ما قدر لي ؟

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس قال له ملكها : يا ذا القرنين ، صف لي الناس . قال : إن محادثتك من لا يعقل بمنزلة من يضع الموائد لأهل القبور ، ومحادثتك من يعقل بمنزلة من يبلّ الصخرة حتى تبتل ، أو يطبخ الحديد يلتمس أدمه ونقل الحجارة من رؤوس الجبال ، أيسر من محادثتك من لا يعقل .

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ قال : علماً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فأتبع سبباً ﴾ قال : المنزل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ قال : علماً . من ذلك تعليم الألسنة ، كان لا يعرف قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه ، أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار : تقول أن ذا القرنين كان يربط خيله بالثنايا ؟ قال له كعب رضي الله عنه : إن كنت قلت ذاك فإن الله قال : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ قال : منازل الأرض وأعلامها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأتبع سبباً ﴾ قال : منزلاً وطرفاً من المشرق إلى المغرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأتبع سبباً ﴾ قال : هذه لأن الطريق كما قال فرعون لهامان ﴿ ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ﴾ [غافر : 36] أسباب السموات ، طريق السموات . قال : والشيء يكون اسمه واحداً وهو متفرق في المعنى . وقرأ ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ [البقرة : 166] قال : أسباب الأعمال .

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86)

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاضر ، أن ابن عباس رضي الله عنهما ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية في سورة الكهف " تغرب في عين حامية " قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقلت

لمعاوية رضي الله عنه : ما نقرؤها إلا ﴿ حمئة ﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو : كيف تقرؤها ؟ فقال عبد الله : كما قرأتها . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقلت لمعاوية : في بيتي نزل القرآن ، فأرسل إلى كعب فقال له : أين تجد الشمس تغرب في التوراة ؟ فقال له كعب رضي الله عنه : سل أهل العربية فإنهم أعلم بها ، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين – وأشار بيده إلى المغرب – .

قال ابن أبي حاضر رضي الله عنه : لو أني عند كما أيدتك بكلام وتزداد به بصيرة في ﴿ حمئة ﴾ . قال ابن عباس : وما هو ؟ قلت : فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم وإتباعه إياه :

(78/479)

قد كان ذو القرنين عمرو مسلماً . . . ملكاً تدين له الملوك وتحسد

فأتى المشارق والمغارب يبتغي . . . أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها . . . في عين ذي خلب وثاط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت : الطين بكلامهم . قال : فما الثاط ؟ قلت : الحمأة .

قال : فما الحرمد ؟ قلت : الأسود . فدعا ابن عباس رضي الله عنهما غلاماً فقال له :

اكتب ما يقول هذا الرجل .

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن مردويه ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ في عين حمئة ﴾ .

وأخرج الحاكم والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ في عين حمئة ﴾ .

وأخرج الحافظ عبد الغني بن سعيد رضي الله عنه في إيضاح الإشكال من طريق مصداع بن يحيى ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أقرأنيه أبي بن كعب رضي الله عنه كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ تغرب في عين حمئة ﴾ مخففة .

وأخرج ابن جرير من طريق الأعرج قال : كان ابن عباس رضي الله عنهما يقرؤها ﴿ في عين حمئة ﴾ ثم قرأها " ذات حمئة " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿ في عين حمئة ﴾ قال كعب رضي الله عنه : ما سمعت أحداً يقرؤها كما هي في كتاب الله غير ابن عباس ، فإنا نجدها في التوراة " تغرب في حمئة سوداء " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر من طريق عطاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خالفت عمرو بن العاص عند معاوية في ﴿ حمئة ﴾ وحامية ، قرأتها ﴿ في عين

حمئة ﴾ فقال عمرو : " حامية " فسألنا كعباً فقال : إنها في كتاب الله المنزل " تغرب في طينة سوداء " .

(79/479)

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق ابن حاضر ، عن ابن عباس قال : كنا عند معاوية فقرأ " تغرب في عين حامية " فقلت له : ما نقرؤها إلا ﴿ في عين حمئة ﴾ فأرسل معاوية إلى كعب فقال : أين تجد الشمس في التوراة تغرب ؟ قال : أما العربية فلا علم لي بها ، وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين .

وأخرج سعيد بن منصور عن طلحة بن عبيد الله ، أنه كان يقرأ " في عين حامية " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس " في عين حامية " يقول : حارة .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وابن منيع وابو يعلى وابن جرير وابن مردويه ، عن عبد الله بن عمرو قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال : " نار الله الحامية ، لو ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن أبي ذر قال : " كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حمار ، فرأى الشمس حين غربت

فقال : أتدري أين تغرب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تغرب في عين حامية " غير مهموزة .

وأخرج سعيد بن منصور عن أبي العالية قال : بلغني أن الشمس تغرب في عين ، تقذفها العين إلى المشرق .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ قال : مدينة لها اثنا عشر ألفا باب ، لولا أصوات أهلها لسمع الناس دوي الشمس حين تجب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي صالح قال : كان يقال : لولا لغط أهل الرومية سمع الناس وجبة الشمس حين تقع .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : لولا أصوات الصنافر لسمع وجبة الشمس حين تقع عند غروبها .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) ﴾

(80/479)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ قال أما من ظلم ﴾ قال : من أشرك .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فسوف نعذبه ﴾ قال : القتل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان عذابه أن يجعلهم في بقر من صفر ، ثم توقد تحتهم النار حتى يتقطعوا فيها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن مسروق رضي الله عنه في قوله : ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ قال : الحسنى له جزاء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ قال : معروفاً . والله تعالى أعلم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ الآية . قال : حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب . . . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ أنها لم يبن فيها بناء قط ، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس " .

وأخرج الطيالسي والبزار في أماليه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله : ﴿ تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ قال : أرضهم لا تحتمل البناء ، فإذا

طلعت الشمس تغور في المياه ، فإذا غابت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم . ثم قال الحسن : هذا حديث سمرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا أنهم بأرض لا يثبت لهم فيها شيء ، فهم إذا طلعت دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل في الآية قال : ليست لهم أكناف ، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم ، ولأحدهم أذنان يفترش واحدة ويلبس الأخرى .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وجدها تطلع على قوم ﴾ الآية . قال : يقال لهم الزنج .

(81/479)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : تطلع على قوم حمر قصار ، مساكنهم الغيران ، فيلقى لهم سمك أكثر معيشتهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ بما لديه خبراً ﴾ قال : علماً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ قال : الجبلين ،

أرمينية وأذربيجان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ قال : الترك .

وأخرج سعيد بن منصور عن تميم بن جذيم ، أنه كان يقرأ ﴿ لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال :

" أتينا نبي الله صلى الله عليه وسلم يوماً وهو في قبة آدم له ، فخرج إلينا فحمد الله ثم قال : " أبشركم أنكم ربع أهل الجنة . فقلنا : نعم يا رسول الله ؟ فقال : أبشركم أنكم ثلث أهل الجنة . فقلنا : نعم يا نبي الله ؟ قال : والذي نفسي بيده ، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، إن مثلكم في سائر الأمم كمثل شعرة بيضاء في جنب ثور أسود ، أو شعرة سوداء في جنب ثور أبيض ، إن بعدكم يأجوج ومأجوج ، إن الرجل منهم ليترك بعده من الذرية ألفاً فما زاد ، وأن وراءهم ثلاث أمم : منسك وتاويل وتاريس لا يعلم عدتهم إلا الله " " .

(82/479)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق البكالي ، عن عبد الله بن عمر قال : إن الله جزأ الملائكة والإنس والجن عشرة أجزاء ، تسعة أجزاء منهم الملائكة ، وجزء واحد الجن والإنس . وجزأ الملائكة عشرة أجزاء ،

تسعة أجزاء منهم الكروبيون الذي يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وجزء واحد لرسالاته ولخزائنه وما يشاء من أمره . وجزأ الإنس والجن عشرة أجزاء ، فتسعة منهم الجن ، والإنس جزء واحد فلا يولد من الإنس ولد إلا ولد من الجن تسعة . وجزأ الإنس عشرة أجزاء ، تسعة منهم يأجوج ومأجوج ، وجزء سائر الناس والسماء ذات الحبك . قال : السماء السابعة والحرم بحيالة العرش .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية ، أن يأجوج ومأجوج يزيدون على الإنس الضعفين ، وأن الجن يزيدون على الإنس الضعفين ، وأن يأجوج ومأجوج رجلان اسمهما يأجوج ومأجوج .

وأخرج عبد الرزاق ابن أبي حاتم عن قتادة قال : إن الله جزأ الإنس عشرة أجزاء ، تسعة منهم يأجوج ومأجوج ، وجزء سائر الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : صوّرت الدنيا على خمس صور ، على صورة الطير برأسه والصدر والجناحين والذنب ، فالمدينة ومكة واليمن الرأس ، والصدر مصر والشام ، والجناح الأيمن العراق ، وخلف العراق أمة يقال لها واق ، وخلف واق أمة يقال وقواق ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله تعالى . والجناح الأيسر السند وخلف السند الهند ، وخلف الهند أمة يقال لها ناسك ، وخلف ذلك أمة يقال لها منسك ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله تعالى . والذنب

من ذات الحمام إلى مغرب الشمس ، وشر ما في الطير الذنب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عبدة بن أبي لبابة ، أن الدنيا سبعة أقاليم : فيأجوج ومأجوج في ستة أقاليم ، وسائر الناس في إقليم واحد .

(83/479)

وأخرج ابن جرير عن وهب بن جابر الحيواني قال : سألت عبد الله بن عمرو عن يأجوج ومأجوج : أمن آدم هم ؟ قال : نعم ، ومن بعدهم ثلاث أمم لا يعلم عددهم إلا الله ، تاويل وتاريس ومنسك .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال : يأجوج ومأجوج لهم أنهار يلقون ما شاؤوا ، ونساء يجامعون ما شاؤوا ، وشجر يلقحون ما شاؤوا ، ولا يموت رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ ، عن حسان بن عطية قال : يأجوج ومأجوج أمتان ، في كل أمة أربعمائة ألف أمة لا تشبه واحدة منهم الأخرى ، ولا يموت الرجل منهم حتى ينظر في مائة عين من ولده .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن كعب قال : خلق يأجوج ومأجوج ثلاث أصناف ،

صنف أجسامهم كالأرز ، وصنف أربعة أذرع طول وأربعة أذرع عرض ، وصنف يفترشون آذانهم ويلتحفون بالأخرى يأكلون مشائم نسائهم .

وأخرج ابن المنذر عن خالد الأشج قال : إن بني آدم وبني إبليس ثلاثة أثلاث : فثلثان بنو إبليس وثلث بنو آدم ، وبنو آدم ثلاثة أثلاث : ثلثان يأجوج ومأجوج ، وثلث سائر الناس . والناس بعد ثلاث أثلاث ، ثلث الأندلس وثلث الحبشة وثلث سائر الناس العرب والعجم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلة ، فسد ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة وترك قبيلة ، وهم الأتراك .

وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب ، أنه سئل عن الترك فقال : هم سيارة ليس لهم أصل ، هم من يأجوج ومأجوج ، لكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسدّ بينهم وبين قومهم ، فذهبوا سيارة في الأرض .

وأخرج ابن المنذر عن حسان بن عطية قال : إن يأجوج ومأجوج خمس وعشرون أمة ، ليس منها أمة تشبه الأخرى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي المثنى الأملوكي قال : إن الله ذرأ لجهنم يأجوج ومأجوج ، لم يكن فيهم صديق قط ولا يكون أبداً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي شيبة عن عبد الله بن سلام قال : ما مات رجل من يأجوج ومأجوج إلا ترك ألف ذرية لصلبه فصاعداً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن يأجوج ومأجوج شبر وشبران ، وأطوالهم ثلاثة أشبار وهم من ولد آدم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي في البعث وابن مردويه وابن عساكر ، عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل وتاريس ومنسك " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال : الجن والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج ، وجزء واحد سائر الناس .

وأخرج النسائي وابن مردويه من طريق عمرو بن أوس عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاؤوا ، وشجر يلقحون ما شاؤوا ، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عدي وابن عساكر وابن النجار ، عن حذيفة قال :

" سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج فقال : يأجوج أمة ومأجوج أمة ، كل أمة بأربعمائة أمة . . . لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه ، كل قد حمل السلاح . قلت : يا رسول الله ، صفهم لنا . قال : هم ثلاثة أصناف ، صنف منهم أمثال الأرز . قلت : وما الأرز ؟ قال : شجر بالشام ، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هؤلاء الذين لا يقوم لهم ولا حديد ، وصنف منهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام وساقتهم يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية " .

(85/479)

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن وابن مردويه بسند واه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثني الله ليلة أسري بي إلى يأجوج ومأجوج ، فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا أن يجيبوني ، فهم في النار مع من عصى من ولد آدم وولد إبليس " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي بكر النسفي ، " أن رجلاً قال : " يا رسول الله ، قد

رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال : انعته لي . قال : كالبرد المحبر ، طريقة سوداء وطريقة سوداء . قال : قد رأيته " " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستفتحونه غداً ولا يستثني . فإذا أصبحوا وجدوه قد رجع كما كان ، فإذا أراد الله بخروجهم على الناس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستفتحونه إن شاء الله – ويستثني – فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسوة وعلواً . فيبعث الله عليهم نغفاً في أعناقهم فيهلكون " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فوالذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتَسْمَن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم " .

وأخرج البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : " لا إله إلا الله . . . ويل للعرب من شر قد

اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وحلق – قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث " .

(86/479)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وعقد بيده تسعين " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن حبيب الأرجاني في قوله : ﴿ إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾ قال : كان فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ قال : أجراً عظيماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ما صنع الله فهو السد ، وما صنع السد الناس فهو السد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ما مكني فيه ربي خير ﴾ قال : الذي أعطاني ربي هو خير من الذي تبذلون لي من الخراج .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ قال : هو

كأشد الحجاب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ زبر الحديد ﴾ قال : قطع الحديد .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن نافع بن الأزرق قال : أخبرني عن قوله ﴿ زبر الحديد ﴾ قال : قطع الحديد . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه وهو يقول :

تلظى عليهم حين شد حميمها . . . بزبر الحديد والحجارة شاجر

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ بين الصدفين ﴾ قال : الجبلين .

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعي ، أنه كان يقرأ ﴿ بين الصدفين ﴾ بفتحتين ، قال : يعني بين الجبلين .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن ، أنه كان يقرأ ﴿ بين الصدفين ﴾ بضمتين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ بين الصدفين ﴾ قال : رأس الجبلين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ قطراً ﴾ قال

: النحاس .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ قطراً ﴾ قال : نحاساً .

(87/479)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ قال : نحاسا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ قال : نحاسا ليلزم بعضه بعضاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ قال : ما استطاعوا أن يرتقوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ يقول : أن يعلوه ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ قال : من أسفله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ قال : جعله طريقاً كما كان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ قال : لا أدري الجبلين يعني به أم ما بينهما .

وأخرج سعيد بن منصور عن الربيع بن خيثم ، أنه كان يقرأ ﴿ جعله دكاء ﴾ ممدوداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : قال علي بن أبي طالب ، إن يأجوج ومأجوج خلف السد ، لا يموت الرجل منهم حتى يولد له ألف لصلبه ، وهم يغدون كل يوم على السد فيلحسونه وقد جعلوه مثل قشر البيض ، فيقولون : نرجع غداً ونفتحه ، فيصبحون وقد عاد إلى ما كان عليه قبل أن يلحس ، فلا يزالون كذلك حتى يولد فيهم مولود مسلم ، فإذا غدوا يلحسون قال لهم : قولوا بسم الله ، فإذا قالوا بسم الله فأرادوا أن يرجعوا حين يمسون ، فيقولون : نرجع غداً فنفتحه . فيصبحون وقد عاد إلى ما كان عليه فيقول : قولوا إن شاء الله . فيقولون : إن شاء الله . فيصبحون وهو مثل قشر البيض فينقبونه فيخرجون منه على الناس ، فيخرج أول من يخرج منهم سبعون ألفاً عليهم التيجان ، ثم يخرجون من بعد ذلك أفواجاً فيأتون على النهر مثل نهركم هذا – يعني الفرات – فيشربونه حتى لا يبقى منه شيء ، ثم يجيء الفوج منهم حتى ينتهوا إليه فيقولون : لقد كان ههنا ماء مرة ، وذلك قول الله : ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ والدكّ ، التراب ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ .

(88/479)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن كعب قال : إن يأجوج ومأجوج ينقرون السد بمناقرهم ، حتى إذا كادوا أن يخرقوه قالوا : نرجع إليه غداً فنفرغ منه ، فيرجعون إليه وقد عاد كما كان ، فيرجعون فهم كذلك ، وإذا بلغ الأمر ألقي على بعض ألسنتهم يقولون : نأتي إن شاء الله غداً ، فنفرغ منه فيأتونه وهو كما هو فيخرقونه فيخرجون ، فيأتي أولهم على البحيرة فيشربون ما كان فيها من ماء ، ويأتي أوسطهم عليها فيلحسون ما كان فيها من الطين ، ويأتي آخرهم عليها فيقولون : قد كان ههنا مرة ماء . فيرمون بسهامهم نحو السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : قهرنا من في الأرض وظهرنا على من في السماء ، فيدعو عليهم عيسى ابن مريم فيقول :

اللهم لا طاقة لنا بهم ولا يد ، فاكفناهم بما شئت . فيبعث الله عليهم دوداً يقال له النغف ، فيأخذهم في أقفائهم فيقتلهم حتى تنتن الأرض من ريحهم ، ثم يبعث الله عليهم طيراً فتنقل أبدانهم إلى البحر ، ويرسل الله إليهم السماء أربعين يوماً فينبت الأرض ، حتى أن الرمانة لتشبع أهل البيت .

وأخرج ابن المنذر عن كعب قال : عرض أسكفة يأجوج ومأجوج التي تفتح لهم أربعة وعشرون ذراعاً تحفيها حوافر خيلهم ، والعليا اثنا عشر ذراعاً تحفيها أسنة رماحهم .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : إذا خرج يأجوج ومأجوج ، كان عيسى ابن مريم في ثلثمائة من المسلمين في قصر بالشام ، يشتد عليهم أمرهم فيدعون الله أن يهلكهم

فيسلط عليهم النغف فتنتن الأرض منهم ، فيدعون الله أن يطهر الأرض منهم فيرسل الله مطراً فيسيل منهم إلى البحر ، ثم يخصب الناس حتى أن العنقود يشبع منه أهل البيت .

(89/479)

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه ، عن عبد الله بن عمرو قال : يأجوج ومأجوج يمر أولهم بنهر مثل دجلة ، ويمر آخرهم فيقول : قد كان في هذا النهر مرة ماء ، ولا يموت رجل إلا ترك ألفاً من ذريته فصاعداً ، ومن بعدهم ثلاثة أمم ما يعلم عدتهم إلا الله : تاريس وتاويل وناسك أو منسك .

وأخرج أبو يعلى والحاكم وصححه وابن عساكر ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في السد قال : " يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم : ارجعوا . . . فستخرقونه غداً . قال : فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله – واستثنى – فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه ، وينفر الناس منهم فيرمون سهامهم في السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : قهرنا أهل الأرض وغلبنا في السماء قسوة وعلواً ، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم فيهلكهم .

قال : والذي نفسي بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم " .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران أحدهما نار تأجج في عين من رآه ، والآخر ماء أبيض فإن أدركه أحد منكم فليغمض ويشرب من الذي يراه ناراً فإنه ماء بارد ، وإياكم والآخر فإنه الفتنة ، واعلموا أنه مكتوب بين عينيه "كافر" يقرؤه من يكتب ومن لا يكتب ، وإن إحدى عينيه ممسوحة عليها ظفرة ، إنه يطلع من آخر أمره على بطن الأردن على ثنية أفيق ، وكل أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ببطن الأردن ، وأنه يقتل من المسلمين ثلثا ويهزم ثلثا ويبقى ثلث ويجن عليهم الليل فيقول بعض المؤمنين لبعض : ما تنتظرون أن تلحقوا إخوانكم في مرضاة ربكم ؟ من كان عنده فضل طعام فليغدُ به على أخيه ، وصلّوا حتى ينفجر الفجر ، وعجلوا الصلاة ، ثم أقبلوا على عدوكم .

(90/479)

فلما قاموا يصلون ، نزل عيسى ابن مريم أمامهم فصلى بهم ، فلما انصرف قال : هكذا فرّجوا بيني وبين عدو الله فيذوب ، وسلط الله عليهم من المسلمين فيقتلونهم ، حتى أن الشجر والحجر لينادي : يا عبدالله ، يا عبد الرحمن . . . يا مسلم ، هذا يهودي فاقتله .

فيقتلهم الله ويُنْصر المسلمون فيكسرون الصليب ويقتلون الخنزير ويضعون الجزية ، فبينما هم كذلك أخرج الله يأجوج ومأجوج ، فيشرب أولهم البحيرة ويجيء آخرهم وقد انتشفوه ولم يدعوا فيه قطرة فيقولون : ظهرنا على أعدائنا ، قد كان ههنا أثر ماء . فيجيء نبي الله وأصحابه وراءه حتى يدخلوا مدينة من مدائن فلسطين يقال لها " لد " فيقولون : ظهرنا على من في الأرض ، فتعالوا نقاتل من في السماء ، فيدعو الله نبيه عند ذلك فيبعث الله عليهم قرحة في حلوقهم فلا يبقى منهم بشر ، فيؤذي ريحهم المسلمين فيدعو عيسى ، فيرسل الله عليهم ريحاً فتقذفهم في البحر أجمعين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الزاهرية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مقفل المسلمين من الملاحم دمشق ، ومقفلهم من الدجال بيت المقدس ، ومقفلهم من يأجوج ومأجوج بيت الطور على الناس " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال : ذلك حين يخرجون على الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال : هذا أول يوم القيامة ، ثم ينفخ في الصور على أثر ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق هارون بن عنترة ، عن ابن

عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال : الجن والإنس يموج بعضهم في بعض .

(91/479)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن هرون بن عنترة ، عن شيخ من بني فزارة في قوله : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال : إذا ماج الجن والإنس بعضهم في بعض ، قال إبليس : أنا أعلم لكم علم هذا الأمر ، فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض ، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض ، ثم يظعن يميناً وشمالاً حتى ينتهي إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض فيقول : ما من محيص ، فبينما هو كذلك إذ عرض له طريق كأنه شواظ ، فأخذ عليه هو وذريته . فبينما هو كذلك إذ هجم على النار فخرج إليه خازن من خزان النار فقال : يا إبليس ، ألم تكن لك المنزلة عند ربك ؟ ألم تكن في الجنان ؟ فيقول : ليس هذا يوم عتاب ، لو أن الله افترض عليّ عبادةً لعبدتُه عبادة لم يعبده أحد من خلقه . فيقول : إن الله قد فرض عليك فريضة . فيقول : ما هي ؟ فيقول : يأمرك أن تدخل النار . فيتلكأ عليه فيقول به وبذريته بجناحه فيقذفهم في النار ، فتزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه .

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ قال : كانوا عمياً عن الحق فلا يبصرونه ، صماً عنه فلا يسمعونه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لا يستطيعون سمعاً ﴾ قال : لا يعقلون سمعاً . والله أعلم .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ قال : ظن كفرة بني آدم أن يتخذوا الملائكة من دونه أولياء .

(92/479)

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر ، عن علي بن أبي طالب أنه قرأ ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ قال أبو عبيد : بجزم السين وضم الباء .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ، أنه قرأ ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ يقول : أفحسبهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(93/479)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾

قوله : ﴿ يَمُوجُ ﴾ : مفعولٌ ثانٍ ل " تَرَكْنا " والضميرفي " بعضَهم " يعودُ على " يَأْجُوج ومَأْجوج " أو على سائر الخلق .

قوله : " يومئذ " التنوينُ عوضٌ من جملةٍ محذوفة . تقديرُها : يوم إذ جاء وَعْدُ ربي ، أو إذ حَجَرَ السَّدُّ بينهم .

قوله : ﴿ الذين كَانَتْ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مجروراً بدلاً من " للكافرين " أو بياناً أو نعتاً ، وأن يكونَ منصوباً بإضمار أَذُمُّ ، وأن يكونَ مرفوعاً خبرَ ابتداءٍ مضمر .

قوله : ﴿ أَفَحَسِبَ ﴾ : العامَّةُ على كسرِ السين وفتح الباء فعلاً ماضياً . و ﴿ أَن يَتَّخِذُواْ ﴾ سادٌّ مَسَدَّ المفعولين . وقرأ أمير المؤمنين على بن أبي طالب وزيد علي وابن

كثير ويحيى بن يعمر في آخرين ، بسكون السينِ ورفعِ الباءِ على الابتداء ، والخبر " أَنْ " وما في حَيِّزها .

وقال الزمخشري : " أو على الفعلِ والفاعلِ لأن اسمَ الفاعلِ إذا اعتمد على الهمزةِ ساوى الفعلَ كقولك : " أقائمٌ الزيدان " وهي قراءةٌ مُحْكَمَةٌ جيدةٌ " .

قال الشيخ : والذي يظهرُ أنَّ هذا الإعرابَ لا يجوزُ لأنَّ حَسْباً ليس باسمِ فاعل فيعمل ، ولا يلزم مِنْ تفسير شيءٍ بشيء أن تجريَ عليه / أحكامُه . وقد ذكر سيبويه أشياءَ مِنَ الصفات التي تجري مَجْرى الأسماءِ ، وأنَّ الوجهَ فيها الرفعُ . ثم قال : وذلك نحو : مررتُ برجلٍ خيرٌ [منه] أبوه ، ومررتُ برجلٍ سواءٌ عليه الخيرُ والشرُّ ، ومررت برجلٍ أبٌ له صاحبُه ، ومررت برجلٍ حَسْبُك مِنْ رجلٍ هو ، ومررت برجلٍ أيُّما رجلٍ هو . ثم قال الشيخ : " ولا يَبْعُدُ أَنْ يُرْفَعَ به الظاهرُ ، فقد أجازوا في " مررت برجلٍ أبي عشرةٍ أبوه " ان يرتفعَ " أبوه " بأبي عشرة لأنه في معنى والدِ عشرة " .

(94/479)

قوله : " نزلاً " فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه منصوبٌ على الحالِ جمعَ " نازِل " نحو شارِف وشُرُف . الثاني : أنه اسمُ موضعِ النزول . الثالث : أنَّه اسمُ ما يُعَدُّ للنازلين من الضيوفِ ،

ويكونُ على سبيلِ التهكُّم بهم ، كقولِه تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] ، وقوله :

3199- . . . . . .

. . . تحيَّةُ بينِهم ضَرْبٌ وجميعُ

ونصبُه على هذين الوجهين مفعولاً به : أي : صَيَّرنا .

وأبو حيوة " نُزلاً " بسكونِ الزاي ، وهو تخفيفُ الشهيرِة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 551.553 ﴾

(95/479)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) ﴾

نظروا بأعين رؤوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ، ولم يكن لهم سمع الإجابةِ لِمَا فقدوا من التوفيق ، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف .

قوله : ﴿ وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ : لأنهم فقدوا من قِبَله – سبحانه – الإسماع ؛ فلم

يستطيعوا لهم القبول .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) ﴾

أي توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم ، واعتقدوا في أصنامهم استحقاق التعظيم ، وكانوا يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 104] وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 414 ﴾

(96/479)

قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تبين بذلك الذي لا مرية فيه أنهم خسروا خسارة لا ربح معها ، وخاب ما كانوا يؤملون ، أمره أن ينبههم على ذلك فقال : ﴿ قل هل ننبئكم ﴾ أي نخبركم أنا وكل عبد لله ليست عينه في غطاء عن الذكر ، ولا في سمعه عجز عن الوعي ، إخباراً عظيماً أيها التاركون من لا خالق ولا رازق لهم سواه ، والمقبلون على من ليس بيده شيء من خلق ولا رزق ولا غيره ﴿ بالأخسرين ﴾ ولما كانت أعمالهم مختلفة ، فمنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد النجوم ، ومنهم من يعبد بعض الأنبياء ، ومنهم من يعبد الأوثان ، ومنهم من يكفر بغير ذلك ، جمع المميز فقال : ﴿ أعمالاً ﴾ ثم وصفهم بضد ما يدعونه لأنفسهم من نجاح السعي وإحسان الصنع فقال : ﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ أي حاد عن القصد فبطل ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بالإعراض عمن لا ينفعهم ولا يضرهم إلا هو ، والإقبال على ما لا نفع فيه ولا ضر ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم مع ظهور ذلك كالشمس ﴿ يحسبون ﴾ لضعف عقولهم ﴿ أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي فعلاً هو في غاية الإحكام وهم في غاية الدربة به ؛ وروى البخاري في التفسير عن سعد بن أبي وقاص ـ رضى الله عنهم ـ أن الأخسرين اليهود والنصارى ، قال : أما اليهود فكفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شرب – انتهى .

قلت : وكذا قال اليهود لأن الفريقين أنكروا الحشر الجسماني وخصوه بالروحاني .

ولما كانوا ينكرون أنهم على ذلك ، لملازمتهم لكثير من محاسن الأعمال ، البعيدة عن الضلال ، بين لهم السبب في بطلان سعيهم بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا الستر والتغطية لما من حقه أن يظهر ويشهر ، مستهينين ﴿ بأيات ربهم ﴾ من كلامه وأفعاله ، وبين سبب هذا الكفر بقوله : ﴿ ولقائه ﴾ أي فصاروا لا يخافون فلا يردهم شيء عن أهوائهم ﴿ فحبطت ﴾ أي سقطت وبطلت وفسدت بسبب جحدهم للدلائل ﴿ أعمالهم ﴾ لعدم بنائها على أساس الإيمان ﴿ فلا ﴾ أي فتسبب عن سقوطها أنا لا ﴿ نقيم لهم ﴾ ما لنا من الكبرياء والعظمة المانعين من اعتراض أحد علينا أو شفاعته بغير إذننا لدينا ﴿ يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا نعتبرهم لكونهم جهلوا أمرنا الذي لا شيء أظهر منه ، وآمنوا مكرنا ولا شيء أخطر منه .

ولما كان هذا السياق في الدلالة على أن لهم جهنم أوضح من الشمس قال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي بيناه من وعيدهم ﴿ جزاؤهم ﴾ لكن لما كان حاكماً بضلالهم وغباوتهم ، بين الجزاء بقوله : ﴿ جهنم ﴾ وصرح بالسببية بقوله : ﴿ بما كفروا ﴾ أي وقعوا التغطية للدلائل ﴿ واتخذوا ءاياتي ﴾ التي هي مع إنارتها أجد الجد وأبعد شيء عن الهزل ﴿ ورسلي ﴾ المؤيدين بباهر أفعالي مع ما لهم من الشهامة والفضل ﴿ هزواً ﴾ فلم

يكتفوا بالكفر الذي هو طعن في الإلهية حتى ضموا إليه الهزء الذي هو أعظم احتقار .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 509.510 ﴾

(98/479)

فصل

قال الفخر :

ثم ذكر تعالى ما نبه به على جهل القوم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ قيل إنهم هم الرهبان كقوله تعالى : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية : 3] وعن مجاهد أهل الكتاب وعن علي أن ابن الكواء سأله عنهم فقال : هم أهل حروراء والأصل أن يقال هو الذي يأتي بالأعمال يظنها طاعات وهي في أنفسها معاصي وإن كانت طاعات لكنها لا تقبل منهم لأجل كفرهم فأولئك إنما أتوا بتلك الأعمال لرجاء الثواب ، وإنما أتبعوا أنفسهم فيها لطلب الأجر والفوز يوم القيامة فإذا لم يفوزوا بمطالبهم بين أنهم كانوا ضالين ، ثم إنه تعالى بين صنعهم فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بآيات رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لقاء الله عبارة عن رؤيته بدليل أنه يقال : لقيت فلاناً أي رأيته ، فإن قيل : اللقاء عبارة عن الوصول ، قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَى الماء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 12] وذلك في حق الله تعالى محال ، فوجب حمله على لقاء ثواب الله ، والجواب أن لفظ اللقاء ، وإن كان في الأصل عبارة عن الوصول والملاقاة إلا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور ، والذي يقولونه من أن المراد منه لقاء ثواب الله فهو لا يتم إلا بالإضمار ، ومن المعلوم أن حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج معه إلى الإضمار .

المسألة الثانية :

استدلت المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ على أن القول بالإحباط والتكفير حق ، وهذه المسألة قد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة فلا نعيدها ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ وفيه وجوه .

الأول : أنا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار .

(99/479)

الثاني : لا نقيم لهم ميزاناً لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين لتمييز مقدار الطاعات ومقدار السيئات .

الثالث : قال القاضي : إن من غلبت معاصيه صار ما في فعله من الطاعة كأن لم يكن فلا يدخل في الوزن شيء من طاعته .

وهذا التفسير بناء على قوله بالإحباط والتكفير ، ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ فقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الذي ذكرناه وفصلناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة ، وقوله : ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان لقوله : ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ ثم بين تعالى أن ذلك الجزاء جزاء على مجموع أمرين : أحدهما : كفرهم .

الثاني : أنهم أضافوا إلى الكفر أن اتخذوا آيات الله واتخذوا رسله هزواً ، فلم يقتصروا على الرد عليهم وتكذيبهم حتى استهزأوا بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 148 ﴾

(100/479)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَةٌ : أَجَابَ اللَّهُ عَمَّا وَقَعَ التَّقْرِيرُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ .

لَكِنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ حَمَلُوا عَلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ ، وَأَلْحَقُوا بِهِمْ مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ كَانَ فِي مَعْنَاهُمْ ، وَيَرْجِعُونَ فِي الْجُمْلَةِ إلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : الصِّنْفُ الْأَوَّلُ : الْكُفَّارُ بِاَللَّهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَالتَّكْلِيفِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ زَيَّنَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، إنْفَاذًا لِمَشِيئَتِهِ ، وَحُكْمًا بِقَضَائِهِ ، وَتَصْدِيقًا لِكَلَامِهِ .

الصِّنْفُ الثَّانِي : أَهْلُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ الدَّلِيلِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ كَأَهْلِ حَرُورَاءَ وَالنَّهْرَوَانِ ، وَمَنْ عَمِلَ بِعَمَلِهِمْ الْيَوْمَ ، وَشَغَبَ الْآنَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَشْغِيبَ أُولَئِكَ حِينَئِذٍ ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ وَشَرٌّ مِنْهُمْ .

(101/479)

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمًا ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إلَّا أَخْبَرْته ، فَقَامَ ابْنُ الْكَوَّاءِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا سَأَلَ عَنْهُ صُبَيْغٌ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : مَا الذَّارِيَاتُ ذَرْوًا ؟ قَالَ عَلِيٌّ : الرِّيَاحُ .

قَالَ : مَا الْحَامِلَاتُ وِقْرًا ؟ قَالَ : السَّحَابُ .

قَالَ : فَمَا الْجَارِيَاتُ يُسْرًا ؟ قَالَ : السُّفُنُ .

قَالَ : فَمَا الْمُقَسِّمَاتُ أَمْرًا ؟ قَالَ : الْمَلَائِكَةُ .

قَالَ : فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ قَالَ : ارْقَ إِلَيَّ أُخْبِرْكَ .

قَالَ : فَرَقَى إِلَيْهِ دَرَجَتَيْنِ قَالَ : فَتَنَاوَلَهُ

بِعَصًا كَانَتْ بِيَدِهِ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِهَا .

ثُمَّ قَالَ : أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ .

وَهَذَا بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ بِتَكْفِيرِ الْمُتَأَوِّلِينَ .

وَقَدْ قَدَّمْنَا نُبْذَةً مِنْهُ ، وَتَمَامُهَا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

الصِّنْفُ الثَّالِثُ : الَّذِينَ أَفْسَدُوا أَعْمَالَهُمْ بِالرِّيَاءِ وَضَيَّعُوا أَحْوَالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى الْبَيَانِ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، وَيَلْحَقُ بِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ كَثِيرٌ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْنَوْا زَمَانَهُمْ النَّفِيسَ فِي طَلَبِ الْخَسِيسِ .

كَانَ شَيْخُنَا الطُّوسِيُّ الْأَكْبَرُ يَقُولُ : لَا يَذْهَبُ بِكُمْ الزَّمَانُ فِي مُصَاوَلَةِ الْأَقْرَانِ وَمُوَاصَلَةِ الْإِخْوَانِ .

(102/479)

وَقَدْ خَتَمَ الْبَارِي الْبَيَانَ ، وَخَتَمَ الْبُرْهَانَ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(103/479)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾

فيهم خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم القسيسون والرهبان ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الثاني : أنهم الكتابيون اليهود والنصارى ، قاله سعد بن أبي وقاص .

الثالث : هم أهل حروراء من الخوارج ، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه .

الرابع : هم أهل الأهواء .

الخامس : أنهم من يصطنع المعروف ويمن عليه .

ويحتمل سادساً : أنهم المنافقون بأعمالهم المخالفون باعتقادهم .

ويحتمل سابعاً : أنهم طالبو الدنيا وتاركو الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ . . . فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : لهوانهم على الله تعالى بمعاصيهم التي ارتكبوها يصيرون محقورين لا وزن لهم .

الثاني : أنهم لخفتهم بالجهل وطيشهم بالسفه صاروا كمن لا وزن لهم . الثالث : أن المعاصي تذهب بوزنهم حتى لا يوازنوا من خفتهم شيئاً . روي عن كعب أنه قال : يجاء بالرجل يوم القيامة . فيوزن بالحبة فلا يزنها ، يوزن بجناح البعوضة فلا يزنها ، ثم قرأ : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾

الرابع : أن حسناتهم تُحبَط بالكفر فتبقى سيئاتهم . فيكون الوزن عليهم لا لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(104/479)

وقال ابن عطية :

ثم قال تعالى : ﴿ هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ الآية

(105/479)

المعنى : قل لهؤلاء الكفرة على جهة التوبيخ : هل نخبركم بالذين خسروا عملهم وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم مع ذلك يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعونه فإذا طلبوا ذلك ، فقل لهم : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ ، وقرأ ابن وثاب " قل سننبئكم " ، وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين ، بالبعث ، و" حبطت " معناه : بطلت ، و﴿ أعمالهم ﴾ : يريد ما كان لهم من عمل خير ، وقوله ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ يحتمل أن يريد أنه لا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ، ومن لا حسنة له فهو في النار لا محالة ، ويحتمل أن يريد المجاز والاستعارة ، كأنه قال فلا قدر لهم عندنا يومئذ ، فهذا معنى الآية عندي ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يؤتى بالأكول الشروب الطويل فلا يزن بعضوة " ثم يقرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ وقالت فرقة : إن الاستفهام تم في قوله ﴿ أعمالاً ﴾ ثم قال : هم ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ فقال سعد بن أبي وقاص هم عباد اليهود والنصارى ، وأهل الصوامع والديارات ، وقال علي بن أبي طالب هم الخوارج ، وهذا إن صح عنه ، فهو على جهة مثال فيمن ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن وروي أن ابن الكواء سأله عن ﴿ الأخسرين أعمالاً ﴾ فقال له أنت وأصحابك ، ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاء الله ، وإنما هذه صفة مشركي عبدة الأوثان ، فاتجه بهذا ما قلناه أولاً وعلي وسعد

رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحظهم من صدر الآية ، وقوله ﴿ أعمالاً ﴾ نصب على التمييز ، وقرأ الجمهور " فحبِطت " بكسر الباء ، وقرأ ابن عباس وأبو السمال " فحبَطت " بفتح الباء ، وقرأ كعب بن عجرة والحسن وأبو عمرو ونافع والناس " فلا نقيم لهم " بنون العظمة ، وقرأ مجاهد " فلا يقيم " ، بياء الغائب ، يريد

(106/479)

فلا يقيم الله عز وجل ، وقرأ عبيد بن عمير : " فلا يقوم " ويلزمه أن يقرأ " وزن " ، وكذلك قول مجاهد " يقول لهم يوم القيامة " ، وقوله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ترك إقامة الوزن و ﴿ جزاؤهم ﴾ خبر الابتداء في قوله ﴿ ذلك ﴾ ، وقوله ﴿ جهنم ﴾ بدل منه ، و ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ بما كفروا ﴾ مصدرية و" الهزء " الاستخفاف والسخرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(107/479)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل هل نُنَبِّئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾

فيهم قولان .

أحدهما : أنهم القسِّيسون والرهبان ، قاله علي عليه السلام ، والضحاك .

والثاني : اليهود والنصارى ، قاله سعد بن أبي وقاص .

قوله تعالى : ﴿ أعمالاً ﴾ منصوب على التمييز ، لأنه لما قال : "بالأخسرين" كان ذلك مبهماً لا يدل على ما خسروه ، فبيَّن ذلك في أي نوع وقع .

قوله تعالى : ﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ أي : بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا ، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم ، فرؤساؤهم يعلمون الصحيح ، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم ، وأتباعُهم مقلِّدون بغير دليل .

﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربِّهم ﴾ جحدوا دلائل توحيده ، وكفروا بالبعث والجزاء ، وذلك أنهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، صاروا كافرين بهذه الأشياء ﴿ فحبطت أعمالهم ﴾ أي : بطل اجتهادهم ، لأنه خلا عن الإيمان ﴿ فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ وقرأ ابن مسعود ، والجحدري : "فلا يُقيم" بالياء .

وفي معناه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إنما يثقل الميزان بالطاعة ، وإنما توزن الحسنات والسيئات ، والكافر لا طاعة

له .

والثاني : أن المعنى : لا نُقيم لهم قَدْراً .

قال ابن الأعرابي في تفسير هذه الآية : يقال : ما لفلان عندنا وزن ، أي : قَدْر ، لخسَّته .

فالمعنى : أنهم لا يُعتدُّ بهم ، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة .

وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة ، اقرؤوا إِن شئتم : ﴿ فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ " .

والثالث : أنه قال : "فلا نقيم لهم" لأن الوزن عليهم لا لهم ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ أي : الأمر ذلك الذي ذكرت من بطلان عملهم وخِسَّة قدرهم ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ جزاؤهم جهنم ﴾ ، وقيل : المعنى : ذلك التصغير لهم ، وجزاؤهم جهنم ، فأضمرت واو الحال .

قوله تعالى : ﴿ بما كفروا ﴾ أي : بكفرهم واتخاذهم ﴿ آياتي ﴾ التي أنزلتها ﴿ ورُسُلي هزواً ﴾ أي : مهزوءاً به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(108/479)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً ﴾

إلى قوله : ﴿ وَزْناً ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً ﴾ الآية فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه ، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة ، والمراد هنا الكفر .

روى البخاري عن مصعب قال : سألت أبي "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً" أهم الحَرُورِيّة ؟ قال : لا ؛ هم اليهود والنصارى .

أما اليهود فكذّبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ؛ وكان سعد يسميهم الفاسقين .

والآية معناها التوبيخ ؛ أي قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري : يخيب سعيهم وآمالهم غداً ؛ فهم الأخسرون أعمالاً ، وهم ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ في عبادة من سواي .

قال ابن عباس : يريد كفار أهل مكة .

وقال عليّ : هم الخوارج أهل حروراء .

وقال مَرَّة : هم الرهبان أصحاب الصوامع .

وروي أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له : أنت وأصحابك .

قال ابن عطية : ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أولئك الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور ، وإنما هذه صفة مشركي مكة عبدة الأوثان ؛ وعليّ وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحظهم من هذه الآية .

و"أعمالاً" نصب على التمييز .

و"حبِطت" قراءة الجمهور بكسر الباء .

وقرأ ابن عباس "حَبَطَت" بفتحها .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ قراءة الجمهور "نقيم" بنون العظمة .

وقرأ مجاهد بياء الغائب ؛ يريد فلا يقيم الله عز وجل .

(109/479)

وقرأ عبيد بن عمير "فلا يقوم" ويلزمه أن يقرأ "وزن" وكذلك قرأ مجاهد "فَلاَ يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ" .

قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة .

قلت : هذا لا يقال مثله من جهة الرأي ، وقد ثبت معناه مرفوعاً في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه ليأتي الرجلُ العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا إن شئتم ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ " والمعنى أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو في النار .

وقال أبو سعيد الخدري : يؤتى بأعمال كجبال تهامة فلا تزن شيئاً .

وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة ؛ كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذٍ ؛ والله أعلم .

وفي هذا الحديث من الفقه ذمُّ السِّمن لمن تكلّفه ، لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم ، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به التَّرفه والسِّمن .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين " ومن حديث عِمران بن حُصَين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم قرني ثم الذين

يلونهم قال عِمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم إن من بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون ويَنذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السِّمن " وهذا ذمٌّ .

(110/479)

وسبب ذلك أن السِّمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشَّرَه ، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها ، فهو عبد نفسه لا عبد ربه ، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام ، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به ؛ وقد ذمّ الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : 12] فإذا كان المؤمن يتشبه بهم ، ويتنعم بتنعمهم في كل أحواله وأزمانه ، فأين حقيقة الإيمان ، والقيام بوظائف الإسلام ؟! ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه ، وزاد بالليل كسله ونومه ، فكان نهارَه هائماً ، وليله نائماً .

وقد مضى في "الأعراف" هذا المعنى ؛ وتقدّم فيها ذكر الميزان ، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة .

" وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة : "تضحكون من ساق توزن بعمل أهل الأرض" " فدل هذا على أن الأشخاص توزن ؛

ذكره الغزنوي .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ ﴾ "ذلك" إشارة إلى ترك الوزن ، وهو في موضع رفع بالابتداء "جزاؤهم" خبره و ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ بدل من المبتدأ الذي هو "ذلك" و"ما" في قوله : ﴿ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ مصدرية ، والهزء الاستخفاف والسخرية ؛ وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(111/479)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) ﴾

أي ﴿ قل ﴾ يا محمد للكافرين هل نخبركم الآية فإذا طلبوا ذلك فقل لهم ﴿ أولئك الذين كفروا ﴾ والأخسرون أعمالاً عن عليّ هم الرهبان كقوله ﴿ عاملة ناصبة ﴾ وعن مجاهد : هم أهل الكتاب .

وقيل : هم الصابئون .

وسأل ابن الكواء علياً عنهم فقال : منهم أهل حروراء .

وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل على الحصر إذ الأخسرون أعمالاً هم كل من دان

بدين غير الإسلام ، أو راءى بعمله ، أو أقام على بدعة تؤول به إلى الكفر والأخسر من أتعب نفسه فأدى تعبه به إلى النار .

وانتصب ﴿ أعمالاً ﴾ على التمييز وجمع لأن أعمالهم في الضلال مختلفة وليسوا مشتركين في عمل واحد و﴿ الذين ﴾ يصح رفعه على أنه خبر مبتدإٍ محذوف ، أي هم ﴿ الذين ﴾ وكأنه جواب عن سؤال ، ويجوز نصبه على الذمّ وخبره على الوصف أو البدل ﴿ ضل سعيهم ﴾ أي هلك وبطل وذهب و﴿ يحسبون ﴾ و﴿ يحسنون ﴾ من تجنيس التصحيف وهو أن يكون النقط فرقاً بين الكلمتين .

ومنه قول أبي عبادة البحتري :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى . . .

ليعجز والمعتز بالله طالبه

ومن غريب هذا النوع من التجنيس .

قال الشاعر :

سقينني ربي وغنينني . . .

بحت بحبي حين بنّ الخرد

صحف بقوله سقيتني ربي وغنيتني بحب يحيى حين بن الجرد .

وقرأ ابن عباس وأبو السمال ﴿ فحبطت ﴾ بفتح الباء والجمهور بكسرها .

وقرأ الجمهور ﴿ فلا نقيم ﴾ بالنون ﴿ وزناً ﴾ بالنصب ومجاهد وعبيد بن عمير فلا يقيم بالياء لتقدم قوله ﴿ بآيات ربهم ﴾ وعن عبيد أيضاً يقوم بفتح الياء كأنه جعل قام متعدياً .

وعن مجاهد وابن محيصن ويعقوب بخلاف عنهم : فلا يقوم مضارع قام وزن مرفوع به .

واحتمل قوله ﴿ فلا نقيم ﴾ إلاّ به أنهم لا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ، ومن لا حسنة له فهو في النار .

واحتمل أن يريد المجاز كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ .

(112/479)

وفي الحديث : " يؤتي بالأكول الشروب الطويل فلا يزن جناح بعوضة " ثم قرأ ﴿ فلا نقيم ﴾ الآية .

وفي الحديث أيضاً : " يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة فإذا وزنوها لم تزن شيئاً " .

﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ مبتدأ وخبر و﴿ جهنم ﴾ بدل و﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ترك إقامة الوزن ، ويجوز أن يشار بذلك وإن كان مفرداً إلى الجمع فيكون بمعنى أولئك ويكون ﴿

جزاؤهم جهنم ﴾ مبتدأ وخبراً .

وقال أبو البقاء : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك وما بعده مبتدأ وخبر ، ويجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ و ﴿ جزاؤهم ﴾ مبتدأ ثان و ﴿ جهنم ﴾ خبره .

والجملة خبر الأول والعائد محذوف أي جزاؤه انتهى .

ويحتاج هذا التوجيه إلى نظر قال : ويجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ و ﴿ جزاؤهم ﴾ بدل أو عطف بيان و ﴿ جهنم ﴾ الخبر .

ويجوز أن يكون ﴿ جهنم ﴾ بدلاً من جزاء أو خبر لابتداء محذوف ، أي هو جهنم و ﴿ بما كفروا ﴾ خبر ذلك ، ولا يجوز أن تتعلق الباء بجزاؤهم للفصل بينهما و ﴿ اتخذوا ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ كفروا ﴾ وأن يكون مستأنفاً انتهى .

والآيات هي المعجزات الظاهرة على أيدي الأنبياء والصحف الإلهية المنزلة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(113/479)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾

الخطابُ الثاني للكفرة على وجه التوبيخِ والجمعُ في صيغة المتكلم لتعيينه من أول الأمر وللإيذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضاً ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ نصبٌ على التمييز والجمعُ للإيذان بتنوعها ، وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم من الأعمال الحسَنةِ في أنفسها وفي حُسبانهم أيضاً حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدةِ آثارِها غِبَّ بيان حالِهم باعتبار أعمالِهم السيئةِ في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم .

﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ في إقامة تلك الأعمالِ أي ضاع وبطَل بالكلية ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ متعلقٌ بالسعي لا بالضلال لأن بُطلانَ سعيِهم غيرُ مختصٍ بالدنيا ، قيل : المرادُ بهم أهلُ الكتابين قاله ابن عباس وسعدُ بنُ أبي وقاص ومجاهدٌ رضي الله عنهم ، ويدخُل في الأعمال حينئذ ما عمِلوه من الأحكام المنسوخةِ المتعلقةِ بالعبادات ، وقيل : الرهابنةُ الذين يحبِسون أنفسَهم في الصوامع ويحمِلونها على الرياضات الشاقّة ، ولعله ما يُعمهم وغيرَهم من الكفرة ، ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ لأنه جوابٌ للسؤال ، كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : الذين الخ ، وجعلُه مجروراً على أنه نعتٌ للأخسرين أو بدلٌ منه أو منصوباً على الذم على أن الجوابَ ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ الآية يأباه أن صدرَه ليس مُنْبئاً عن خُسران الأعمالِ وضلالِ السعي كما يستدعيه مقامُ الجواب ، والتفريعُ الأولُ وإن دل على حبوطها لكنه ساكتٌ عن إنباء ما هو العُمدةُ في تحقيق معنى

الخسرانِ من الوثوق بترتب الربحِ واعتقاد النفعِ فيما صنعوا على أن التفريعَ الثانيَ يقطع ذلك الاحتمالَ رأساً إذ لا مجال لإدراجه تحت الأمرِ بقضية نونِ العظمة .

(114/479)

﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الإحسانُ الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتي ، أي يحسبَون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائقِ وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها ، والجملةُ حالٌ من فاعل ضل أي بطل سعيُهم المذكورُ والحالُ أنهم يحسَبون أنهم يُحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره ، أو من المضاف إليه لكونه في محل الرفعِ نحوُ قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ أي بطل سعيُهم والحالُ أنهم الخ ، والفرقُ بينهما أن المقارِنَ لحال حُسبانِهم المذكورِ في الأول ضلالُ سعيهم وفي الثاني نفسُ سعيهم والأولُ أدخلُ في بيان خطئهم .

(115/479)

﴿ أولئك ﴾ كلامٌ مستأنفٌ من جنابه تعالى مَسوقٌ لتكميل تعريفِ الأخسرين وتبيينِ سبب خسرانِهم وضلالِ سعيهم وتعيينِهم بحيث ينطبق التعريفُ على المخاطبين غيرُ داخلٍ تحت الأمر ، أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحسبان المزبورِ ﴿ الذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ ﴾ بدلائله الداعيةِ إلى التوحيد عقلاً ونقلاً ، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ لزيادة تقبيحِ حالِهم في الكفر المذكور ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هي عليه ﴿ فَحَبِطَتْ ﴾ لذلك ﴿ أعمالهم ﴾ المعهودةُ حبوطاً كلياً ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ ﴾ أي لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمالِ ، وقرىء بالياء ﴿ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ أي فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً لأن مدارَه الأعمالُ الصالحة وقد حبِطت بالمرة ، وحيث كان هذا الازدراءُ من عواقب حبوطِ الأعمال عُطف عليه بطريق التفريعِ ، وأما ما هو من أجزية الكفرِ فسيجيء بعد ذلك ، أو لا نضع لأجل وزنِ أعمالِهم ميزاناً لأنه إنما يوضع لأهل الحسناتِ والسيئاتِ من الموحّدين ليتمَّمَ به مقاديرُ الطاعات والمعاصي ليترتب عليه التكفير أو عدمُه لأن ذلك في الموحدين بطريق الكمية ، وأما الكفرُ فإحباطه للحسنات بحسب الكيفيةِ دون الكمية فلا يوضع لهم الميزانُ قطعاً .

(116/479)

﴿ ذلك ﴾ بيانٌ لمآل كفرهم وسائرِ معاصيهم إثرَ بيان مآلِ أعمالِهم المحبَطة بذلك أي الأمرُ ذلك ، وقوله عز وجل : ﴿ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملةٌ مبيّنةٌ له أو ذلك مبتدأٌ والجملةُ خبرُه والعائدُ محذوفٌ ، أي جزاؤُهم به أو جزاؤهم بدلَه وجهنمُ خبرُه أو جزاؤهم خبرُه وجهنمُ عطفُ بيانٍ للخبر ﴿ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ تصريحٌ بأن ما ذكر جزاءٌ لكفرهم المتضمن لسائر القبائحِ التي أنبأ عنها قوله تعالى : ﴿ واتخذوا ءاياتى وَرُسُلِى هُزُواً ﴾ أي مهزوًّا بهما فإنهم لم يقتنعوا بمجرد الكفرِ بالآيات والرسل ، بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(117/479)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ خطاب للكفرة .

وإذا حمل الاستفهام على الاستئذان كان فيه من التهكم ما فيه ، والجمع في صيغة المتكلم قيل لتعيينه من أول الأمر وللإيذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضاً ﴿ بالاخسرين أعمالا ﴾ نصب على التمييز ، وجمع مع أن الأصل في التمييز الإفراد والمصدر شامل للقليل والكثير كما ذكر ذلك النحاة للإيذان بتنوع أعمالهم وقصد شمول الخسران لجميعها ، وقيل : جمع

لأن ما ذكره النحاة إنما هو إذا كان المصدر باقياً على مصدريته أما إذا كان مؤولاً باسم فاعل فإنه يعامل معاملته وهنا عمل بمعنى عامل فجمع على أعمال والمراد عاملين والصفة تقع تمييزاً نحو لله تعالى دره فارساً ، وزعم بعضهم أن أعمالاً جمع عامل ، وتعقب بأن جمع فاعل على أفعال نادر وقد أنكره بعض النحاة في غير ألفاظ مخصوصة كأشهاد جمع شاهد ، وقيل : جمع عمل ككتف بمعنى ذو عمل كما في "القاموس" وهو كما ترى ، وزعم بعض المتأخرين أنه إذا اعتبر أعمالاً بمعنى عاملين كان الأخسرين بمعنى الخاسرين لأن التمييز إذا كان صفة كان عبارة عن المنتصب عنه متحداً معه بالذات محمولاً عليه بالمواطأة حتى أن النحاة صرحوا بأنه تجعل الحال أيضاً وهو خبر عن ذي الحال معنى ومن البين أن أفعل التفضيل يمتنع أن يتحد مع اسم الفاعل لمكان الزيادة فحيث وقع اسم الفاعل تمييزاً وانتصب بأفعل وجب أن يكون بمعنى فاعل ليتحدا ، وتعقبه بعضهم بأن أفعل لا يكون مع اللام مجرداً عن معنى التفضيل كما أنه لا يكون مجرداً عنه مع الإضافة وإنما يكون ذلك إذا كان مع من كما صرح به ابن مالك في التسهيل وذكره الرضي ، ولا يخفى عليك ما في جميع ذلك من النظر ، والحق أن الجمعية ليست إلا لما ذكر أولاً ، نعم ذكر أبو البقاء أنه جمع لكونه منصوباً على أسماء الفاعلين وأول ذلك بأنه أراد باسم الفاعل المعنى اللغوي وأراد أنه جمع ليفيد التوزيع على أنه لا يخلو عن شيء ، ثم أن هذا على ما في إرشاد العقل السليم بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من

الأعمال الحسنة في أنفسها وفي حسبانهم أيضاً حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان أحوالهم باعتبار أعمالهم السيئة في أنفسها مع كونها حسنة في حسبانهم .

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ ﴾

أي ضاع وبطل بالكلية عند الله عز وجل ﴿ سَعْيُهُمْ ﴾ في إقامة تلك الأعمال ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ متعلق بسعي لا بضل لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا .

قيل : المراد بهم أهل الكتابين وروي ذلك عن ابن عباس .

وسعد بن أبي وقاص .

ومجاهد ويدخل في الأعمال حينئذٍ ما عملوه من الأحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات ، وقيل : الرهبان الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ، وقيل الصابئة ، وسأل ابن الكواء علياً كرم الله تعالى وجهه عنهم فقال : منهم أهل حروراء يعني الخوارج ، واستشكل بأن قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الكهف : 105] الخ يأباه لأنهم لا ينكرون البعث وهم غير كفرة ، وأجيب بأن من اتصالية فلا يلزم أن يكونوا

متصلين بهم من كل الوجوه بل يكفي كونهم على الضلال مع أنه يجوز أن يكون كرم الله تعالى وجهه معتقداً لكفرهم ، واستحسن أنه تعريض بهم على سبيل التغليظ لا تفسير للآية ، والمذكور في "مجمع البيان" أن العياشي روى بسنده أن ابن الكواء سأل أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه عن أهل هذه الآية فقال : أولئك أهل الكتاب كفروا بربهم وابتدعوا في دينهم فحبطت أعمالهم وما أهل النهر منهم ببعيد ، وهذا يؤيد الجواب الأول ، وأخبر أن المراد ما يعم سائر الكفرة ، ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف لأنه جواب للسؤال كأنه قيل من هم ؟ فقيل الذين الخ ، وجوز أن يكون في محل جر عطف بيان على ﴿ الاخسرين ﴾ [الكهف : 103] ، وجوز أن يكون نعتاً أو بدلاً وأن يكون منصوباً على الذم على أن الجواب ما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه : ﴿ أولئك الذين ﴾ [الكهف : 105] الخ .

(119/479)

وتعقب بأنه يأبى ذلك أن صدره ليس منبئاً عن خسران الأعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الأول وإن دل على هبوطها لكنه ساكت عن إنباء بما هو العمدة في تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على أن

التفريغ الثاني مما يقطع ذلك الاحتمال رأساً إذ لا مجال لإدراجه تحت الأمر بقضية نون العظمة والجواب عن ذلك لا يتم إلا بتكلف فتأمل ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي أي يعتقدون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق لإعجابهم بأعمالهم التي سعوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها ، والجملة حال من فاعل ﴿ ضَلَّ ﴾ أي ضل سعيهم المذكور والحال أنهم يحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره أو من المضاف إليه في ﴿ سَعْيُهُمْ ﴾ لكونه في محل الرفع أي بطل سعيهم والحال أنهم الخ ، والفرق بين الوجهين أن المقارن لحال حسبانهم المذكور في الأول ضلال سعيهم ، وفي الثاني نفس سعيهم قيل ، والأول أدخل في بيان خطئهم ، ولا يخفى ما بين يحسبون ويحسنون من تجنيس التصحيف ومثل ذلك قول البحتري :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى . . .

ليعجز والمعتز بالله طالبه

(120/479)

﴿ أولئك ﴾ كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الأمر كما قيل أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي والحسبان المذكور ﴿ الذين كَفَرُواْ بآيات رَبِّهِمْ ﴾ بدلائله سبحانه الداعية إلى التوحيد الشاملة للسمعية والعقلية ، وقيل : بالقرآن والأول أولى ، والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ هو حقيقة في مقابلة الشيء ومصادفته وليس بمراد ، والأكثرون على أنه كناية عن البعث والحشر وما يتبع ذلك من أمور الآخرة أي لم يؤمنوا بذلك على ما هو عليه ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي لقاء عذابه تعالى وليس بذلك ﴿ فَحَبِطَتْ ﴾ بكسر الباء ، وقرأ ابن عباس .

وأبو السمال بفتحها ، والفاء للتفريع أي فحبطت لذلك ﴿ أعمالهم ﴾ المعهودة حبوطاً كلياً ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ ﴾ أي لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمال ﴿ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ أي فنزدري بهم ونحتقرهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً لأن مدار الاعتبار والاعتناء الأعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء والاحتقار من عواقب حبوط الأعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ما هو من أجزية الكفر فسيجيء إن شاء الله تعالى بعد ذلك ، وزعم بعضهم أن حقه على هذا أن يعطف بالواو عطف أحد المتفرعين على الآخر لأن منشأ ازدرائهم الكفر لا الحبوط وبه اعترض على ذلك وهو

ناشيء من فرط الذهول كما لا يخفى أو لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً لأنها قد حبطت وصارت هباءً منثوراً .

ونفى هذا بعد الإخبار بحبوطها من قبيل التأكيد بخلاف النفي على المعنى الأول ولذلك رجح عليه وليس من الاعتزال في شيء ، وقرأ مجاهد .

(121/479)

وعبيد بن عمير ﴿ فَلا ﴾ بالياء لتقدم قوله تعالى ﴿ كَذَّبُواْ بآيات رَبِّهِمْ ﴾ وعن عبيد أيضاً ﴿ فَلا ﴾ بفتح ياء المضارعة كأنه جعل قام متعدياً ، وعن مجاهد .

وابن محيصن ويعقوب بخلاف عنهم ﴿ فَلا يا قوم لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ على أن يقوم مضارع قام اللام و ﴿ وزن ﴾ فاعله .

﴿ ذلك ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان أعمالهم المحبطة بذلك وهو خبر مبتدأ مذحوف أي الأمر والشأن ذلك .

وقوله عز وجل : ﴿ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملة مفسرة له فلا محل لها من الإعراب ، وجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ و ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بدل منه بدل اشتمال أو بدل كل من كل إن كانت الإشارة إلى الجزاء الذي في الذهن و ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ خبره .

والتذكير وإن كان الخبر مؤنثاً لأن المسار إليه الجزاء ولأن الخبر في الحقيقة للبدل .

وأن يكون ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ و﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ خبره و﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان للخبر والإرشارة إلى جهنم الحاضرة في الذهن ، وأن يكون مبتدأ و﴿ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ مبتدأ وخبر خبره له والعائد محذوف والإشارة إلى كفرهم وأعمالهم والتذكير باعتبار ما ذكر أي ذلك جزاؤهم به جهنم ، وتعقب بأن العائد المجرور إنكا يكثر حذفه في مثل ذلك إذا جر بحرف بتبعيض أو ظرفية أو جر عائد قبله بمثل ما جر به كقوله :

فالذي تدعي به أنت مفلح . . .

أي به .

وجوز أبو البقاء أن يكون "ذلك" مبتدأ و﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بدل أو عطف بيان و﴿ جَهَنَّمَ ﴾ بدل من جزاء أو خبر مبتدأ و﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بدل أو عطف بيان و﴿ جَهَنَّمَ ﴾ بدل من جزاء أو خبر مبتدأ محذوف أي هو جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ خبر ﴿ ذلك ﴾ وقال بعد أن ذكر من جوه الإعراب ما ذكر : إنه لا يجوز أن يتعلق الجار بجزاؤهم للفصل بينهما بجهنم ، وقيل : الظاهر تعلقه به ولا يضر الفصل في مثل ذلك .

وهو تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى المعطوف على كفروا ﴿ واتخذوا ءاياتى وَرُسُلِى هُزُواً ﴾ أي مهزواً بهما فإنهم لم يقنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل عليهم السلام بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً .

وجوز أن تكون الجملة مستأنفة وهو خلاف الظاهر ، والمراد من الآيات قيل المعجزات الظاهرة على أيدي الرسل عليهم السلام والصحف الإلهية المنزلة عليهم عليهم الصلاة والسلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(123/479)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) ﴾

اعتراض باستئناف ابتدائي أثاره مضمون جملة ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ الخ . . . فإنهم لما اتخذوا أولياءَ مَن ليسوا ينفعونهم فاختاروا الأصنام وعبدوها وتقربوا إليها بما أمكنهم من القُرب اغتراراً بأنها تدفع عنهم وهي لا تغني عنهم شيئاً فكان عملهم خاسراً وسعيهم باطلاً .

فالمقصود من هذه الجملة هو قوله ﴿ وهم يحسبون . . .

﴾ الخ .

وافتتاح الجملة بالأمر بالقول للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين لأنّ مثل هذا الافتتاح يشعر بأنه في غرض مُهمّ ، وكذلك افتتاحه باستفهامهم عن إنبائهم استفهاماً مستعملاً في العَرض لأنّه بمعنى : أتحبون أن نُنبئكم بالأخسرين أعمالاً ، وهو عرض تهكم لأنه منبئهم بذلك دون توقف على رضاهم .

وفي قوله ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ إلى آخره . . .

تمليح إذ عدل فيه عن طريقة الخطاب بأن يقال لهم : هل ننبئكم بأنكم الأخسرون أعمالاً ، إلى طريقة الغيبة بحيث يستشرفون إلى معرفة هؤلاء الأخسرين فما يروعهم إلاّ أن يعلموا أنّ المخبر عنهم هم أنفسهم .

والمقول لهم : المشركون ، توبيخاً لهم وتنبيهاً على ما غفلوا عنه من خيبة سعيهم .

ونون المتكلّم المشارك في قوله ﴿ ننبئكم ﴾ يجوز أن تكون نون العظمة راجعة إلى ذات الله على طريقة الالتفات في الحكاية .

ومقتضى الظاهر أن يقال : هل ينبئكم الله ، أي سينبئكم ويجوز أن تكون للمتكلّم المشارك راجعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الله تعالى لأنه ينبئهم بما يوحَى إليه من ربّه .

ويجوز أن تكون راجعة للرسول وللمسلمين .

وقوله ﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ بدل من ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصاً على معرفة الموصوفين بتلك الأوصاف والأحوال .

والضلال : خطأ السبيل .

شبه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة .

والسعي : المشي في شدة .

(124/479)

وهو هنا مجاز في العمل كما تقدّم عند قوله ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ﴾ في سورة الإسراء (19) ، أي عملوا أعمالاً تقربوا بها للأصنام يحسبونها مبلغة إياهم أغراضاً وقد أخطؤوها وهم يحسبون أنّهم يفعلون خيراً .

وإسناد الضلال إلى سعيهم مجاز عقلي .

والمعنى : الذين ضلوا في سعيهم .

وبين يحسبون ﴾ و ﴿ يحسنون ﴾ جناس مصحّف ، وقد مثل بهما في مبحث الجناس .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾

جملة هي استئناف بياني بعد قوله ﴿ هل ننبئكم ﴾ .

وجيء باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز لئلا يلتبسوا بغيرهم على نحو قوله تعالى : ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ [البقرة : 5] .

وللتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من حكم بسبب ما أجري عليهم من الأوصاف .

والآيات : القرآن والمعجزات .

والحبط : البطلان والدحض .

وقوله : ﴿ ربّهم ﴾ يجري على الوجه الأول في نون ﴿ هل ننبئكم ﴾ أنه إظهار في مقام الإضمار .

ومقتضى الظاهر أن يقال : أولئك الذين كفروا بآياتنا ، ويجري على الوجهين الثاني والثالث أنه على مقتضى الظاهر .

ونون ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ على الوجه الأول في نون ﴿ قل هل ننبئكم ﴾ جارية على مقتضى الظاهر .

وأما على الوجهين الثالث والرابع فإنها التفات عن قوله ﴿ بآيات ربّهم ، ﴾ ومقتضى الظاهر أن يقال : فلا يقيم لهم .

ونفي إقامة الوزن مستعمل في عدم الاعتداد بالشيء ، وفي حقارته لأن الناس يزنون

الأشياء المتنافس في مقاديرها والشيء التافه لا يوزن ، فشبهوا بالمحقرات على طريقة المكنية وأثبت لهم عدم الوزن تخييلاً .

وجُعل عدم إقامة الوزن مفرعاً على حبط أعمالهم لأنهم بحبط أعمالهم صاروا محقرين لا شيء لهم من الصالحات .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) ﴾

(125/479)

الإشارة إما إلى ما تقدّم من وعيدهم في قوله ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ ، أي ذلك الإعداد جزاؤهم .

وقوله ﴿ جزاؤهم ﴾ خبر عن اسم الإشارة .

وقوله ﴿ جهنم ﴾ بدل من ﴿ جزاؤهم ﴾ بدلاً مطابقاً لأن إعداد جهنم هو عين جهنّم .

وإعادة لفظ جهنم أكسبه قوّة التأكيد .

وإما إلى مقدر في الذهن دل عليه السياق يبينه ما بعده على نحو استعمال ضمير الشأن مع تقدير مبتدأ محذوف .

والتقدير : الأمر والشأن ذلك جزاؤهم جهنّم .

والباء للسببية ، و (ما) مصدرية ، أي بسبب كفرهم .

﴿ واتخذوا ﴾ عطف على ﴿ كفروا ﴾ فهو من صلة (ما) المصدرية .

والتقدير : وبما اتّخذوا آياتي ورسلي هزؤاً ، أي باتخاذهم ذلك كذلك .

والرسل يجوز أن يراد به حقيقة الجمع فيكون إخباراً عن حال كفار قريش ومن سبقهم من الأمم المكذبين ، ويجوز أن يراد به الرسول الذي أرسل إلى الناس كلهم وأطلق عليه اسم الجمع تعظيماً كما في قوله ﴿ نجب دعوتك ونتبع الرّسل ﴾ [إبراهيم : 44] .

والهزُؤُ بضمتين مصدر بمعنى المفعول .

وهو أشد مبالغة من الوصف باسم المفعول ، أي كانوا كثيري الهزؤ بهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(126/479)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) ﴾

المعنى : قل لهم يا نبي الله : هل ننبئكم أي نخبركم بالأخسرين أعمالاً ، أي بالذين هم أخسر

الناس أعمالاً وأضيعها . فالأخسر صيغة تفضيل من الخسران وأصله نقص مال التاجر ، والمراد به في القرآن غبنهم بسبب كفرهم معاصيهم في حظوظهم مما عند الله لو طاعوه .

وقوله ﴿ أعمالاً ﴾ منصوب على التمييز :

فإن قيل : نبئنا بالأخسرين أعمالاً من هم ؟

كان الجواب – هو الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وبه تعلم أن " الذين " من قوله ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف جواباً للسؤال المفهوم من المقام ، ويجوز نصبه على الذم ، وجره على أنه بدل من الأخسرين ، أو نعت له ، وقوله ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ أي بطل عملهم وحبط ، فصار كالهباء وكالسراب وكالرماد ! كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] ، وقوله : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور : 39] الآية . وقوله : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] ومع هذا فهم يعتقدون أن عملهم حسن مقبول عند الله .

(127/479)

والتحقيق : أن الآية نازلة في الكفار الذيت يعتقدون أن كفرهم صواب وحق ، وأن فيه رضى ربهم ، كما قال عن عبدة الأوثان : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ [الزمر : 3] ، وقال عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ [يونس : 18] ، وقال عن الرهبان الذين يتقربون إلى الله على غير شرع صحيح : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ [الغاشية : 2-4] الآية ، على القول فيها بذلك . وقوله تعالى في الكفار : ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30] وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 37] والدليل على نزولها في الكفار تصريحه تعالى بذلك في قوله بعده يليه ﴿ أولئك الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [الكهف : 105] الآية .

فقول من قال : إنهم الكفار ، وقول من قال : إنهم الرهبان ، وقوله من قال إنهم أهل الكتاب الكافرون بالنَّبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك تشمله هذه الآية . وقد رروى البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه سأله ابنه مصعب عن " الأخسرين أعمالاً " في هذه الآية هل هم الحرورية ؟ فقال لا هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكفروا بمحمد صلى الله عليهم وسلم . وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا لا طعام فيها ، ولا شراب . والحروية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وكان سعيد يسميهم الفاسقين . اه من البخاري . وما روي عن علي رضي الله عنه من أنهم أهل حروراء

المعرفون بالحوروبين معناه أ ، هم يكون فيهم من معنى الآية بقدر ما فعلوا ، لأنهم يرتكبون أمراً شنيعة من الضلال ، ويعتقدون أنها هي معنى الكتاب والسنة ؟ ، فقد ضل سعيهم وهو يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

(128/479)

وإن كانوا في ذلك أقل من الكفار المجاهرين . لأن العبرى بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب كما قدمنا إيضاحه وأدلته .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ [الكهف : 104] أي بطل واضمحل . وقد قدمنا أن الضلال يطلق في القرآن واللغة العربية ثلاثة إطلاقات :

الأول – الضلال بمعنى الذهاب عن طريق الحق إلى طريق الباطل . كالذهاب عن الإسلام إلى الكفر . وهذا أكثر استعمالاته في القرآن . ومنه قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم وَلاَ الضالّين ﴾ [الفاتحة : 7] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تتبعوا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السبيل ﴾ [المائدة : 77] .

الثاني – الضلال بمعنى الهلاك والغيبة الاضمحلال ، ومنه قول العرب : ضل السمن في الطعام إذا استهلك فيه وغاب فيه . ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ

يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص : 75] اي غاب واضمحل ، وقوله هنا : ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ أي بطل واضمحل ، وقول الشاعر :

ألم تسأل فتخبرك الديار . . . عن الحي المضلل أين ساروا

أي عن الحي الذي غاب واضمحل ، ومن هنا سمي الدفن إضلالاً . لأن مآل الميت المدفون إلى أن تختلط عظامه بالأرض ، فيضل فيهما كما يضل السمن في الطعام . ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان :

فأب مضوله بعين جلية . . . وغودو بالجولان حزم ونائل

فقوله " مضلوه " يعنى دافنيه في قبره . ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة : 10] الآية . فمعنى ﴿ ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ أنهم اختلطت عظامهم الرميم بها لغابت واستهلكت فيها .

(129/479)

الثالث – الضلال بمعنى الذهاب عن علم حقيقة الأمر المطابقة للواقع ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] أي ذاهباً عما تعلمه الآن من العلوم والمعارف التي لا تعرف إلا بالوحي فهداك إلى تلك العلوم والمعارف بالوحي . وحدد

هذا المعنى قوله تعالى عن أولاد يعقوب : ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] أي ذهابك عن العلم بحقيقة أمر يوسف ، ومن أجل ذلك تطمع في رجوعه إليك ، وذلك لا طمع فيه على أظهر التفسيرات وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ [البقرة : 282] أي تذهب عن حقيقة علم المشهود به بنسيان أو نحوه ، بدليل قوله ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها . . . بدلاً أراها في الضلال تهيم

فقوله " أراها في الضلال " أي الذهبا عن علم حقيقة الأمر حيث تظنني أبغي بها بدلاً ، والواقع بخلاف ذلك .

وقوله في هذه الآية : ﴿ وهم يحسبون ﴾ أي يظنون . وقرأه بعض السبعة بكسر السين ، وبعضهم بفتحها كما قدمنا مراراً في جميع القرآن . ومفعولا " حسب " هما المبتدأ والخبر اللذان علمت فيها " أن " والأصل ويحسبون أنفسهم محسنين صنعهم . وقوله " صنعاً " أي عملاً وبين قوله " يحسبون ، ويحسنون " الجناس المسمى عند أهل البديع " تجنيس التصحيف " وهو أن يكون النقط فرقاً بين الكلمتين ، كقول البحتري :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى . . . ليعجز والمعتز بالله طالبه

فبين " المغتر والمعتز " الجناس المذكور .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ﴾

(130/479)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ أولئك الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [الكهف : 105] الآية ، نص في أن الكفر بآيات الله ولقائه يحبط العمل ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً ، كقوله تعالى في " العنكبوت " ﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَآئِهِ أولئك يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت : 23] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، وسيأتي بعض أمثل لذلك قريباً إن شاء الله .

وقوله في هذه الآية الكريمه : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] فيه للعلماء أوجه :

(131/479)

أحدهما - أن المعنى أنهم ليس لهم حسنات توزن في الكفة الأخرى في مقابلة سيئاتهم ، بل لم يكن لهم إلا السيئات ، ومن كان كذلك فهو في النار ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النار وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون : 103-104] . وقال : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الأعراف : 8] . ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُم ﴾ [الأعراف : 9] الآية ، وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة : 8-11] . إلى غير ذلك من الآيات . وقال بعض أهل العلم . معنى ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] أنهم لا قدر لهم عند الله لحقارتهم ، وهو أنهم بسبب كفرهم . وذلك كقوله عنهم : ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : 60] ، أي صاغرين أذلاء حقيرين ، وقوله : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [الصافات : 18] وقوله : ﴿ قَالَ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هوانهم وصغارهم وحقارتهم .

(132/479)

وقد دلت السنة الصحيحة على أن معنى الآية يدخل فيه الكافر السمين العظيم البدن . لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة . قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن عبد الله . حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا المغيرة بن عبد الرحمن ، حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة " وقال – " اقرءوا فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً " وعن يحيى بن بكير ، عن المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبي الزناد مثله اه . من البخاري .

وهذا الحديث أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه ، وهو يدل على أن نفس الكافر العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة . وفيه دلالة على وزن الأشخاص . وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره هذه الآية بعد أن أشار إلى حديث أبي هريرة المذكور ما نصه : وفي هذا الحديث من الفقه ذم السمن لمن تكلفه . لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها على المكارم . بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية ، المبتغى به الترفه والسمن .

(133/479)

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين " ومن حديث عمران بن حصين عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم قرني ثم الذين يلونهم " – قال عمران . فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة – " ثم إن من بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن " وهذا ذم . وسبب ذلك : أن السن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشره والدعة والراحة والأمن ، والاسترسال مع النفس على شهواتها . فهو عبد نفسه لا عبد ربه . ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام . وكل لحم تولد من سحت فالنار أولى به . وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنعام والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : 12] فإذا كان المؤمن يتشبه بهم . ويتنعم تنعمهم في كل أحواله وأزمانه ، فإين حقيقة الإيمان والقيام بوظائف الإسلام . ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه ، وزاد بالليل كسله ونومه ، فكان نهاره هائماً ، وليله نائماً اه . محل الغرض من كلام القرطبي . وما تضمنه كلامه من الجزم بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يبغض الحبر السمين " فيه نظر ، لأنه لم يصح مرفوعاً ، وقد حسنه البيهقي من كلام كعب . وما ذكر من ذم كثرة الأكل والسرب والسمن المكتسب ظاهر وأدلته كثيرة " وحسب المؤمن لقيمات يقمن صلبه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) ﴾

(قُلْ) أي : يا محمد ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً ﴾ [الكهف : 103]

الأخسر : اسم تفضيل من خاسر ، فأخسر يعني أكثر خسارة (أَعْمَالاً) أي : خسارتهم بسبب أعمالهم . وهؤلاء الأخسرين هم : ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾

وقد ضلَّ سَعْي هؤلاء ؛ لأنهم يفعلون الشر ، ويظنون أنه خير فهم ضالّون من حيث يظنون الهداية . ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر ، ويُنَادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة ، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعاً وقدَّموا خَيْراً ، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله ؟

الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيماً وتكريماً وتخليداً لذكراهم .

ومعنى : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ [الكهف : 104] أي : بطُل وذهب وكأنه لا شيءَ ، مثل السراب كما صوَّرهم الحق سبحانه في قوله : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] .

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم ، ولا يمنعهم الأَجْر ؛ لأنهم أحسنوا الأسباب ، لكن هذا

الجزاء يكون في الدنيا ؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ، ولا نصيبَ لهم في جزاء الآخرة .

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

(135/479)

ومع ذلك يُبقي للكافر حَقَّه ، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يظلمه أو يعتدي عليه ، وفي حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : " سمعت أن مُحدّثاً حدَّث عن رسول الله بحديث أحببت ألا أموت ، أو يموت هو حتى أسمعه منه ، فسألت عنه فقيل : إنه ذهب إلى الشام ، قال : فاشتريت ناقة ورحَّلتها ، وسرْت شهراً إلى أنْ وصلتُ إلى الشام ، فسألت عنه فقيل : إنه عبد الله بن أُنَيْس ، فلما ذهبت قال له خادمه : إن جابر بن عبد الله بالباب ، قال جابر : فخرج ابنُ أُنَيْس وقد وَطِئ ثيابه من سرعته . قال عبد الله : واعتنقا .

قال جابر : حدّثت أنك حدثتَ حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله

ينادي يوم القيامة : يا ملائكتي ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أنْ يدخلَ النار وله عند أحد من أهل الجنة حَقٌّ حتى أقصّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أنْ يدخلَ الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصَّه منه ، حتى اللطمة " .

فانظر إلى دِقَّة الميزان وعدالة السماء التي تراعي حَقَّ الكافر ، فتقتصّ له قبل أنْ يدخل النارَ ، حتى ولو كان ظالمه مؤمناً .

وفي قوله تعالى : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 104] جاءت كلمة الضلال في القرآن الكريم في عِدّة استعمالات يُحدّدها السياق الذي وردتْ فيه . فقد يأتي الضلال بمعنى الكفر ، وهو قمة الضلال وقمة المعاصي ، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ﴾ [البقرة : 108] .

(136/479)

ويُطلق الضلال ، ويُراد به المعصية حتى من المؤمن ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ الله

وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب: 36] .

ويُطلق الضلال، ويُراد به أنْ يغيب في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة: 10] .

يعني: غِبْنا فيها واختفينا . ويُطلَق الضلال ويُراد به النسيان، كما في قوله تعالى: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخرى ﴾ [البقرة: 282] .

ويأتي الضلال بمعنى الغفلة التي تصيب الإنسان فيقع في الذنب دون قصد . كما جاء في قصة موسى وفرعون حينما وكز موسى الرجل فقضى عليه، فلما كلمه فرعون قال: ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء: 20] .

أي: قتلتُه حال غفلة ودون قصد، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها . ويحدث كثيراً أن واحداً تدهسه سيارة وبتشريح الجثة يتبين أنه مات بالسكتة القلبية التي صادفتْ حادثة السيارة .

ويأتي الضلال بمعنى: ألّا تعرف تفصيل الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى: 7] أي: لا يعرف ما هذا الذي يفعله قومه من الكفر .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أولئك الذين كَفَرُواْ ﴾

﴿ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الكهف : 105] والآيات تُطلَق ثلاثة إطلاقات ، وقد كفروا بها جميعاً وكذَّبوا ، كفروا بآيات الكون الدالة على قدرة الله ، فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ، وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله ، وكذلك كفروا بآيات المعجزات التي أنزلها الله لتأييد الرسل فلم يصدقوها . إذن : كلمة : ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الكهف : 105] هنا عامة في كل هذه الأنواع .

(ولقائه) أي : وكفروا أيضاً بلقاء الله يوم القيامة ، وكذَّبوا به ، فمنهم مَنْ أنكره كليةً فقال : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : 82] .

ومنهم مَن اعترف ببعْث على هواه ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] .

ومنهم مَنْ قال : إن البعث بالروح دون الجسد وقالوا في ذلك كلاماً طويلاً ، إذن : إما ينكرون البعث ، وإما يُصوِّرونه بصورة ليست هي الحقيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [الكهف : 105] أي : بَطُلت وذهب نفعُها ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] .

وقد اعترض المستشرقون على هذه الآية ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين الآيات التي تثبت الميزان ، كما في قوله تعالى : ﴿

وَنَضَعُ الموازين القسطِ لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة : 711] .

(138/479)

ونقول : إن العلماء في التوفيق بين هذه الآيات قالوا : المراد بقوله تعالى : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، فالمراد لا وزنَ لهم عندنا أي : لا اعتبارَ لهم ، وهذه نستعملها الآن في نفس هذا المعنى نقول : فلان لا وزنَ له عندي . أي : لا قيمة له .

وبالبحث في هذه الآية وتدبرها تجد أن القرآن الكريم يقول : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ ﴾ [الكهف : 105] ولم يَقُل : عليهم ، إذن : الميزان موجود ، ولكنه ليس في صالحهم ، فالمعنى : لا نقيم لهم ميزاناً لهم ، بل نقيم لهم ميزاناً عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾

(ذلك) أي : ما كان من إحباط أعمالهم ، وعدم إقامتنا لهم وزناً ليس تجنّياً مِنَّا عليهم أو

ظلماً لهم ، بل جزاءً لهم على كفرهم فقوله ﴿ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ [الكهف : 106] أي : بسبب كفرهم .

﴿ واتخذوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾ [الكهف : 106] فقد استهزأوا بآيات الله ، وكلما سمعوا آية قالوا : أساطيرُ الأولين : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [القلم : 15] .

وكذلك لم يَسْلَم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سخريتهم واستهزائهم ، والقرآن يحكي عنهم قولهم لرسول الله : ﴿ يا أَيُّهَا الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] فقولهم ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ [الحجر : 6] أي : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخرية واستهزاءً .

(139/479)

وفي سورة " المنافقون " يقول القرآن عنهم : ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ ﴾ [المنافقون : 7] فقولهم : ﴿ رَسُولِ الله ﴾ [المنافقون : 7] ليس إيماناً به ، ولكن إمّا غفلة منهم عن الكذب الذي يمارسونه ، وإما سُخْرية واستهزاءً كما لو كنتَ في مجلس ، ورأيتَ أحدهم يدَّعِي العلم ويتظاهر به فتقول : اسألوا هذا العالم .

وفي آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم : 51] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(140/479)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) ﴾

قوله : ﴿ أَعْمَالاً ﴾ : تمييزٌ للأَخْسَرين ، وجُمِعَ لاختلافِ الأنواع .

قوله : ﴿ الذين ضَلَّ ﴾ : يجوز فيه الجرُّ نعتاً وبدلاً وبياناً ، والنصبُ على الذمِّ ، والرفعُ على خبر ابتداء مضمر .

قوله : ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ يُسَمَّى في البديع " تجنيسَ التصحيف " وتجنيس الخَطِّ ، وهذا مِنْ أحسنِه . وقال البحتري :

3200- ولم يكن المُغْتَرُّ بالله إذ شَرَى . . . لِيُعْجِزَ والمُعْتَزُّ بالله طالبُهْ

فالأولُ من الغُرور ، والثاني مِن العِزِّ . ومِنْ أحسنِ ما جاء في تجنيس التصحيف قوله :

3201- سَقَيْنَني رِيِّيْ وغَنِّيْنَنِي . . . يُحْتُ بحبِّي حين بنَّ الخُرُدْ

يصحف بنحو :

3202- شَقَيْتَني ربي وعَنَّيْتِنْ . . . بحُبّ يحيى خَتَنِ ابن الجُرُدْ

وفي بعضِ رسائلِ الفصحاء : " قَبَّلَ قبلَ يَدِكَ ثَراك ، عبدٌ عند رَخاك رجاك ، آمِلٌ أَمَّك " .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ﴾

وقرأ ابن عباس " فَحَبِطَتْ " بفتح الباء . والعامَّة على " نُقيم " بنون العظمة مِنْ " أقام " . ومجاهد وعبيد بن عمير . " فلا يُقيم " بياءِ الغَيبة لتقدُّم قولِه : ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، فالضميرُ يعود عليه . ومجاهدٌ أيضاً " فلا يقومُ لهم " مضارع قام ، " وزنٌ " بالرفع . وعن عبيد بن عمير أيضاً " فلا يقومُ وزناً " بالنصبِ كأنه تَوَهَّم أنَّ " قام " متعدٍّ . كذا قال الشيخ . والأحسنُ مِنْ هذا أنْ تُعْرَبَ هذه القراءةُ على ما قاله أبو البقاء أَنْ يُجْعَلَ فاعلُ " يقومُ " صنيعُهم أو سَعْيُهم ، وينتصِبُ حينئذٍ " وَزْناً " على أحد وجهين : إمَّا على الحال ، وإمَّا على التمييز .

(141/479)

قوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ : فيه أوجهٌ كثيرةٌ أحدُها : أَنْ يكونَ " ذلك " خبرَ مبتدأ محذوف ، أي : الأمر ذلك ، و " جزاؤُهم جهنَّم " جملةٌ برأسها . الثاني : أن يكون " ذلك " مبتدأ اولَ ، و " جزاؤهم " مبتدأٌ ثانٍ و " جهنُم " خبرُه ، وهو وخبرُه خبرُ الأول . والعائدُ محذوف ، أي : جزاؤهم به ، كذا قال أبو البقاء ، فالهاء في " به " تعود على " ذلك " ، و " ذلك " مُشارٌ به إلى عدم إقامة الوزن .

قال الشيخ : " ويحتاج هذا التوجيهُ إلى نظر " . قلت : إنْ عَنَى النظرَ من حيث الصناعةُ فَمُسَلَّمٌ . ووجهُ النظر : أنَّ العائدَ حُذِفَ مِنْ غيرِ مُسَوِّغٍ إلا بتكليفٍ ، فإنَّ العائدَ على المبتدأ إذا كان مجروراً لا يُحْذَفُ إلا إذا جُرَّ بحرفِ تبعيضٍ أو ظرفية ، أو يَجُرُّ عائداً جُرَّ قبله بحرفٍ ، جُرَّ به المحذوفُ كقولِه :

3202- أَصِخْ فالذي تُدْعَى به أنت مُفْلِحٌ . . . . . .

. . . . . .

أي : مفلحٌ به . وإنْ عَنَى من حيث المعنى فهو معنى جيدٌ .

الثالث : أن يكون " ذلك " مبتدأً ، و " جزاؤهم " بدلٌ أو بيان ، و " جهنم " خبره . الرابع : أن يكون " ذلك " مبتدأ أيضاً ، و " جزاؤهم " خبره و " جهنمُ " بدلٌ أو بيانٌ أو خبر ابتداء مضمر . الخامس : أن يُجعل " ذلك " مبتدأ و " جزاؤهم " بدلٌ أو بيان و " جهنم " خبر ابتداءٍ مضمرٍ ، و " بما كفروا " خبر الأول ، والجملة اعتراضٌ . السادس : أن يكون " ذلك "

مبتدأً ، والجارُّ الخبر ، و " جزاؤهم جهنمُ " جملةٌ معترضةٌ وفيه بُعْدٌ . السابع : أن يكون " ذلك " إشارةً إلى جماعة / وهم مذكورون في قوله : " بالأخسرين " ، وأُشير إلى الجمع كإشارة الواحد كأنه قيل : أولئك جزاؤهم جهنَّمُ ، والإِعرابُ المتقدمُ يعودُ إلى هذا التقدير .

(142/479)

قوله : " واتَّخذوا " فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه عطفٌ على " كفروا " ، فيكونُ محلُّه الرفعَ لعطفِه على خبر " إنَّ " . الثاني : أنه متسأنفٌ فلا مَحَلَّ له .

والباء في قوله : " بما كفروا " لا يجوزُ تعلُّقُها ب " جزاؤهم " للفَصْلِ بين المصدرِ ومعمولِه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 553.556﴾

(143/479)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

ضلَّ سعيُهم لأنهم عَمِلُوا لغيرِ اللَّهِ . وما كان لغيرِ الله فلا ينفع .

ويقال الذين ضلَّ سعيُهم هم الذين قَرَنُوا أعمالَهم بالرياء ، ووصفوا أحوالَهم بالإعجاب ، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالمَنِّ .

ويقال هم الذين يُلاحِظُون أعمالهم وما مِنْهُم بعينِ الاستكثار .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ .

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فعَمِلوا من غير عِلْمٍ ، ولم يكونوا على وثيقة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ﴾

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحد ، فتفرَّقَتْ بهم الأوهام والظنون ، ولم يكونوا على بصيرة ، ولم تستقر قلوبُهم على عقيدة مقطوع بها ؛ فليس لهم في الآخرة وزنٌ ولا خَطَرٌ ، اليومَ هم كالأَنْعام ، وغداً واقعون ساقطونَ (. . .) الأقدام .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) ﴾

هم اليومَ في عقوبة الجحد ، وغداً في عقوبه الردِّ . اليوم هم في ذُلِّ الفراق ، وغداً في أليمِ الاحتراق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 415.416 ﴾

(144/479)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/480)

الجزء الثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 107 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 110 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/480)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين ما لأحد قسمي أهل الجمع تنفيراً عنهم ، بين ما للآخر على تقدير الجواب لسؤال تقتضيه الحال ترغيباً في اتباعهم والاقتداء بهم ، فقال : ﴿ إن الذين ءامنوا ﴾ أي باشروا الإيمان ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ من الخصال ﴿ كانت لهم ﴾ لبناء

أعمالهم على الأساس ﴿ جنات ﴾ أي بساتين ﴿ الفردوس ﴾ أي أعلى الجنة ، وأصله البستان الذي هو الجنة بالحقيقة لانخفاض ما دونه عنه ، وستر من يدخله بكثرة أشجاره ﴿ نزلاً ﴾ كما كان السعير والأغلال لأولئك نزلاً ، يعد لهم حين الدخول ﴿ خالدين فيها ﴾ بعد دخولهم ﴿ لا يبغون ﴾ أي يريدون أدنى إرادة ﴿ عنها حولاً ﴾ أي تحولاً لأنه مزيد عليها ، دفعاً لما قد يتوهم من أن الأمر كما في الدنيا من أن كل أحد في أيّ نعيم كان يشتهي ما هو أعلى منه لأن طول الإقامة قد يورث السآمة ، بل هم في غاية الرضى بها ، لما فيها من أنواع الملاذ التي لا حصر لها ولا انقضاء ، لا يشتهي أحد منهم غير ما عنده سواء كان في الفردوس أو فيما دونه ، وهو تعريض بالكفرة في أنهم يصطرخون في النار ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ [المؤمنون : 107] وذلك عكس ما كان في الدنيا من ركون الكفار إليها ، ومحبتهم في طول البقاء فيها ، وعزوف المؤمنين عنها ، وشوقهم إلى ربهم بمفارقتها .

(5/480)

ولما تم الجواب عن أسئلتهم على أحسن الوجوه مخللاً بما تراه من الحجج البينة والنفائس الملزمة لهم بفصل النزاع ، وأتبع ذلك بقص الأمر الذي بإغفاله تجرؤوا على الكفر ، وهو أمر البعث إلى أن ختمه بما يقتضي أن معلوماته لا تحد ، لأن مقدوراته في تنعيم أهل الجنة لا آخر

لها فلا تعد ، وكان اليهود قد اعترضوا على قوله في أولها ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 85] بأنهم أوتوا التوراة ، وكان لكل ما سألوا عنه من الفصول الطويلة الذيول أمور تهول ، وكان ربما قال قائل : ما له لا يزيد ذلك شرحاً ؟ قال تعالى آمراً بالجواب عن ذلك كله ، معلماً لهم بأنهم لا يمكنهم الوقوف على تمام شرح شيء من معلوماته ، وآخر استفصال شيء من مقدوراته ، قطعاً لهم عن السؤال ، وتقريباً إلى أفهامهم بضرب من المثال : ﴿ قل ﴾ أي يا أشرف الخلق لهم : ﴿ لو كان البحر ﴾ أي ماؤه على عظمته عندكم ﴿ مداداً ﴾ وهو اسم لما يمد به الدواة من الحبر ﴿ لكلمات ﴾ أي لكتب كلمات ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ في وصف ذكر وغيره مما تعنتموه في السؤال عما سألتم عنه أو غير ذلك ﴿ لنفد ﴾ أي فني مع الضعف فناء لا تدارك له ﴿ البحر ﴾ لأنه جسم متناه .

(6/480)

ولما كانت المخلوقات – لكونها ممكنة – ليس لها من ذاتها إلا العدم ، وكانت الكلمات من صفات الله ، وصفات الله واجبة الوجود ، فكان نفادها محالاً ، فكان نفاد الممكن من البحر وما يمده بالنسبة إليها مستغرقاً للأزمنة كلها ، جرد الظرف من حرف الجر فقال : ﴿ قبل أن تنفد ﴾ أي تفنى وتفرغ ﴿ كلمات ربي ﴾ لأنها لا تتناهى لأن معلوماته

ومقدوراته لا تتناهى ، وكل منها له شرح طويل ، وخطب جليل ؛ ولما لم يكن أحد غيره يقدر على إمداد البحر قال : ﴿ ولو جئنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا تكون لغيرنا ﴿ بمثله مدداً ﴾ أي له يكتب منه لنفد أيضاً ، وهذا كله كناية عن عدم النفاد ، لأنه تعليق على محال عادة كقولهم : لا تزال على كذا ما بل بحر صوفة وما دجى الليل ، ونحو هذا ، ولعله عبر بجمع السلامة إشارة إلى أن قليلها بهذه الكثرة فكيف بما هو أكثر منه ، وذلك أمر لا يدخل تحت وصف ، وعبر بالقبل دون أن يقال " ولم تنفد " ونحوه ، لأن ذلك كاف في قطعهم عن الاستقصاء في السؤال ولأن التعبير بمثل ذلك ربما فتح باباً من التعنت وهو أن يجعلوا الواو للحال فيجعلوا النفاد مقيداً بذلك ، وأما سورة لقمان فاقتضى سياقها في تأسيس ما فيها على ﴿ الغني الحميد ﴾ [لقمان : 26] ومقصودها أن يكون التعبير فيها بغير ما ههنا ، فما في كل سورة أبلغ بالنسبة إلى سياقه ، مع أنه ليس في إفصاح واحدة منهما ما يدل على نفاد الكلمات ولا عدمه ، وفي إفهام كل منهما بتدبر القرائن في السياق وغيره ما يقطع بعدم نفاذها ، ولا تخالف بين الآيتين وإن كان التعبير في هذه السورة أدخل في التشابه ، ويجاب عنه بما قالوا في مثل قول الشاعر " على لاحب لا يهتدى بمناره " من أن ما في حيز السلب لا يقتضي الوجود ، ولعل التعبير بمثل ذلك من الفتن المميزة بين من في قلبه مرض وبين الراسخ الذي يرد المتشابه إلى المحكم ، وهو ما دل عليه البرهان القاطع من أن الله تعالى لا نهاية لذاته ، ولا لشيء من صفاته ، بل هو الأول والآخر الباقي بلا زوال – والله أعلم .

ولما كانوا ربما قالوا : ما لك لا تحدثنا من هذه الكلمات بكل ما نسألك عنه حيثما سألناك ؟ وكانوا قد استنكروا كون النبي بشراً ، وجوزوا كون الإله حجراً ، وغيوا إيمانهم به بأمور سألوه في الإتيان بها كما تقدم بعد أول مسائلهم ، وهي الروح آخر سبحان ، وكان قد ثبت بإجابتهم عن المسائل على هذا الوجه أنه رسول ، أمره سبحانه أن يجيبهم عن ذلك كله بما يرد عليهم غلطهم ، ويفضح شبههم ، إرشاداً لهم إلى أهم ما يعنيهم من الحرف الذي النزاع كله دائر عليه وهو التوحيد فقال : ﴿ قل إنما أنا ﴾ أي في الاستمداد بالقدرة على إيجاد المعدوم والإخبار بالمغيب ﴿ بشر مثلكم ﴾ أي لا أمر لي ولا قدرة إلا على ما يقدرني عليه ربي ، ولا استبعاد لرسالتي من الله فإن ذلك سنته فيمن قبلي ﴿ يوحى إليّ ﴾ أي من الله الذي خصني بالرسالة كما أوحى إلى الرسل قبلي ما لا غنى لأحد عن علمه واعتقاده ﴿ أنما إلهكم ﴾ وأشار إلى أن إلهيته بالإطلاق لا بالنظر إلى جعل جاعل ولا غير ذلك فقال : ﴿ إله واحد ﴾ أي لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها ، قادر على ما يريد ، لا منازع له ، لم يؤخر جواب ما سألتموني عنه من عجز ولا جهل ولا هوان بي عليه – هذا هو الذي يعني كل أحد علمه ، وأما ما سألتم عنه من أمر الروح والقصتين تعنتاً فأمر لو

جهلتموه ما ضركم جهله ، وإن اتبعتموني علمتموه الآن وما دل عليه من أمر الساعة إيماناً بالغيب علم اليقين ، وعلمتموه بعد الموت بالمشاهدة عين اليقين ، وبالمباشرة حق اليقين ، وإن لم تتبعوني لم ينفعكم علمه ﴿ فمن ﴾ أي فتسبب عن وحدته المستلزمة لقدرته أنه من ﴿ كان يرجوا ﴾ أي يؤمن بمجازاته له على أعماله في الآخرة برؤيته وغيرها ، وإنما قال : ﴿ لقاء ربه ﴾ تنبيهاً على أنه هو المحسن إلى كل أحد بالتفرد بخلقه ورزقه ، لا شريك له في شيء من ذلك على قياس ما نعلمه من أنه لا مالك إلا وهو قاهر لمملوكه على لقائه ، مصرف له في أوامره في صباحه ومسائه .

(8/480)

ولما كان الجزاء من جنس العمل ، كان الواجب على العبد الإخلاص في عمله ، كما كان عمل ربه في تربيته بالإيجاد وما بعده ، فقال : ﴿ فليعمل ﴾ وأكده للإعلام بأنه لا بد مع التصديق من الإقرار فقال : ﴿ عملاً ﴾ أي ولو كان قليلاً ﴿ صالحاً ﴾ وهو ما يأمره به من أصول الدين وفروعه من التوحيد وغيره من أعمال القلب والبدن والمال ليسلم من عذابه ﴿ ولا يشرك ﴾ أي وليكن ذلك العمل مبنياً على الأساس وهو أن لا يشرك ولو بالرياء ﴿ بعبادة ربه أحداً ﴾ فإذا عمل ذلك فاز فحاز علوم الدنيا والآخرة ، وقد انطبق آخر

السورة على أولها بوصف كلمات الله ثم ما يوحى إليه ، وكل منهما أعم من الكتاب بالأقومية للدعاء إلى الحال الأسلم ، في الطريق الأقوم ، وهو التوحيد عن الشريك الأعم من الولد وغيره ، والإحسان في العمل ، مع البشارة لمن آمن ، والنذارة لمن أعرض عن الآيات والذكر ، فبان بذلك أن لله تعالى - بوحدانيته وتمام علمه وشمول قدرته صفات - الكمال ، فصح أنه المستحق لجميع الحمد - والله الموفق ، والحمد لله على إتمام سورة الكهف من كتاب نظم الدرر من تناسب الآي والسور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 513.510 ﴾

(9/480)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد ، ولما ذكر في الكفار أن جهنم نزلهم ، أتبعه بذكر ما يرغب في الإيمان والعمل الصالح .

فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس نُزُلاً ﴾ .

المسألة الثانية :

عطف عمل الصالحات على الإيمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وذلك يدل على أن الأعمال الصالحة مغايرة للإيمان .

المسألة الثالثة :

عن قتادة الفردوس وسط الجنة وأفضلها ، وعن كعب ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس ، وفيها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وعن مجاهد الفردوس هو البستان بالرومية ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها درجة ، ومنها الأنهار الأربعة والفردوس من فوقها ، فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإن فوقها عرش الرحمن ومنها تتفجر أنهار الجنة "

المسألة الرابعة :

قال بعضهم إنه تعالى جعل الجنة بكليتها نزلاً للمؤمنين والكريم إذا أعطى النزل أولاً فلا بد أن يتبعه بالخلعة وليس بعد الجنة بكليتها إلا رؤية الله ، فإن قالوا : أليس أنه تعالى جعل في الآية الأولى جملة جهنم نزلا الكافرين ولم يبق بعد جملة جهنم عذاب آخر ، فكذلك ههنا جعل جملة الجنة نزلاً للمؤمنين مع أنه ليس له شيء آخر بعد الجنة ، والجواب : قلنا للكافر بعد حصول جهنم مرتبة أعلى منها وهو كونه محجوباً عن رؤية الله كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ ﴾ [المطففين : 15 ، 16] فجعل الصلاء بالنار متأخر في المرتبة عن كونه محجوباً عن الله ، ثم قال تعالى : ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ الحول التحول ، يقال : حال من مكانه حولاً كقوله عاد في حبها عوداً يعني لا مزيد على سعادات الجنة وخيراتها حتى يريد أشياء غيرها ، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة كانت في السعادات فهو طامح الطرف إلى ما هو أعلى منها .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح أقاصيص الأولين نبه على كمال حال القرآن فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبِّى ﴾ والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر ولما يمد به السراج من السليط ، والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه وكان البحر مداداً لها والمراد بالبحر الجنس لنفد قبل أن تنفد الكلمات ، تقرير الكلام أن البحار كيفما فرضت في الاتساع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهي لا يفي ألبتة بغير المتناهي ، قرأ حمزة والكسائي ينفد بالياء لتقدم الفعل على الجمع والباقون بالتاء لتأنيث كلمات ، وروي أن حيي بن أخطب قال : في كتابكم : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] ثم تقرأون : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] فنزلت هذه الآية يعني أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله .

المسألة الثانية :

احتج المخالفون على الطعن في قول أصحابنا أن كلام الله تعالى واحد بهذه الآية ، وقالوا : إنها صريحة في إثبات كلمات الله تعالى وأصحابنا حملوا الكلمات على متعلقات علم الله تعالى ، قال الجبائي : وأيضاً قوله : ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ يدل على أن كلمات الله تعالى قد تنفد في الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه ، وأيضاً قال : ﴿ ولَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَاداً ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يجيء بمثل كلامه والذي يجاء به يكون محدثاً والذي يكون المحدث مثلاً له فهو أيضاً محدث وجواب أصحابنا أن المراد منه الألفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الأزلية ، واعلم أنه تعالى لما بين كمال كلام الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يسلك طريقة التواضع فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَىَّ ﴾ أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا أن الله تعالى أوحى إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد ، والآية تدل على مطلوبين : الأول : أن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر وهي قوله : ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ .

والثاني : أن كون الإله تعالى : ﴿ إلها واحدا ﴾ يمكن إثباته بالدلائل السمعية ، وقد قررنا هذين المطلوبين في سائر السور بالوجوه القوية ، ثم قال : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ والرجاء هو ظن المنافع الواصلة إليه والخوف ظن المضار الواصلة إليه ، وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله وهذه المناظرة قد تقدمت والعجب أنه تعالى أورد في آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله في ثلاث آيات :

أولها : قوله :

﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بآيات رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ [الكهف : 105] .

(13/480)

وثانيها : قوله : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس نُزُلاً ﴾ [الكهف : 107] وثالثها : قوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا ﴾ أي من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح ، ولما كان العمل الصالح قد يؤتي به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة لا جرم اعتبر فيه قيدان : أن يؤتى به لله ، وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك ، فقال : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ .

قيل : نزلت هذه الآية في جندب بن زهير قال – لرسول الله صلى الله عليه وسلم : – إني أعمل العمل لله تعالى فإذا اطلع عليه أحد سرني ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله لا يقبل ما شورك فيه " وروي أيضاً أنه قال له : " لك أجران أجر السر وأجر العلانية " فالرواية الأولى محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة ، والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يقتدى به ، والمقام الأول مقام المبتدئين ، والمقام الثاني مقام الكاملين والحمد صلى

الله عليه وسلم رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 149 . 150 ﴾

(14/480)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُم جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾

في ﴿ الْفِرْدَوْسِ ﴾ خمسة أقاويل :

أحدها : أن الفردوس وسط الجنة وأطيب موضع فيها ، قاله قتادة .

الثاني : أنه أعلى الجنة وأحسنها ، رواه ضمرة مرفوعاً .

الثالث : أنه البستان بالرومية ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه البستان الذي جمع محاسن كل بستان ، قاله الزجاج .

الخامس : أنه البستان الذي فيه الأعناب ، قاله كعب .

واختلف في لفظه على أربعة أقاويل :

أحدها : أنه عربي وقد ذكرته العرب في شعرها ، قاله ثعلب .

الثاني : أنه بالرومية ، قاله مجاهد .

الثالث : انه بالنبطية ، فرداساً ، قاله السدي .

الرابع : بالسريانية ، قاله أبو صالح .

قوله عز وجل : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي متحولاً وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بدلاً ، قاله الضحاك .

الثاني : تحويلاً ، قاله مقاتل .

الثالث : حيلة ، أي لا يحتالون منزلاً غيرها .

وقيل إنه يقول أولهم دخولاً إنما أدخلني الله أولهم لأنه ليس أحد أفضل مني ، ويقول آخرهم دخولاً إنما أخرني الله لأنه ليس أحد أعطاه الله مثل ما أعطاني .

قوله عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه وعد بالثواب لمن أطاعه ، ووعيد بالعقاب لمن عصاه ، قاله ابن بحر ومثله ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾

الثاني : أنه العلم بالقرآن ، قاله مجاهد .

الثالث : وهذا إنما قاله الله تعالى تبعيداً على خلقه أن يُحصوا أفعاله ومعلوماته ، وإن كانت عنده ثابتة محصية .

قوله عز وجل : ﴿ . . . فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني فمن كان يخاف لقاء ربه ، قاله مقاتل ، وقطرب .

الثاني : من كان يأمل لقاء ربه .

(15/480)

الثالث : من كان يصدّق بلقاء ربه ، قاله الكلبي .

وفي لقاء ربه وجهان :

أحدهما : معناه ثواب ربه ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : من كان يرجو لقاء ربه إقراراً منه بالعبث إليه والوقوف بين يديه .

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الخالص من الرياء ، قاله ذو النون المصري .

الثاني : أن يلقى الله به فلا يستحي منه ، قاله يحيى بن معاذ .

الثالث : أن يجتنب المعاصي ويعمل بالطاعات .

﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الشرك بعبادته الكفر ، ومعناه لا يُعْبَد معه غيرُه ، قاله الحسن .

الثاني : أنه الرياء ، ومعناه ولا يرائي بعمله أحداً ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد .

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَخْوَفُ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الخَفِيَّةَ " قيل : أتشرك أمتك بعدك ؟ قال : " لاَ ، أَمَّا أَنَّهُم لاَ يَعْبُدونَ شَمْساً وَلاَ قَمَراً وَلاَ حَجراً وَلاَ وَثَناً وَلَكِنَّهُم يُرَاءُونَ بِعَمَلِهِم " فقيل : يا رسول الله وذلك شرك ؟ فقال : " نَعَم " . قيل : وما الشهوة الخفية ، قال : " يُصْبِحُ أَحَدُهُم صَائِماً فَتَعْرِضُ لَهُ الشَّهْوَةُ مِن شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَيُفْطِرَ لَهَا وَيَتْرُكَ صَوْمَهُ

(16/480)

" . وحكى الكلبي ومقاتل : أن هذه الآية نزلت في جندب بن زهير العامري أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : إنا لنعمل العمل نريد به وجه الله فيثنى به علينا فيعجبنا ، وأني لأصلي الصلاة فأطولها رجاء أن يثنى بها عليّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ أَنَا خَيرُ شَرِيكٍ فَمَنْ أَشْرَكَنِي فِي عَمَلٍ يَعْمَلُهُ لِي أَحَداً مِن خَلْقِي تَرَكْتُهُ وذِلكَ الشَّرِيكَ " ونزلت فيه هذه الآية : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ فتلاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنها آخر آية نزلت من القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) ﴾

لما فرغ من ذكر الكفرة والأخسرين أعمالاً الضالين ، عقب بذكر حالة المؤمنين ليظهر التباين ، وفي هذا بعث النفوس على اتباع الحسن القويم ، واختلف المفسرون في ﴿ الفردوس ﴾ فقال قتادة إنه أعلى الجنة وربوتها ، وقال أبو هريرة إنه جبل تنفجر منه أنهار الجنة ، وقال أبو أمامة ، إنه سرة الجنة ، ووسطها ، وروى أبو سعيد الخدري أنه تنفجر منه أنهار الجنة ، وقال عبد الله بن الحارث بن كعب إنه جنات الكرم والأعناب خاصة من الثمار ، وقاله كعب الأحبار ، واستشهد قوم لذلك بقول أمية بن أبي الصلت : [البسيط]

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة . . . فيها الفراديس والفومان والبصل

وقال الزجاج قيل إن ﴿ الفردوس ﴾ سريانية ، وقيل رومية ، ولم يسمع ب ﴿ الفردوس ﴾ في كلام العرب إلا في بيت حسان : [الطويل]

وإن ثواب الله كل موحد . . . جنان من الفردوس فيها يخلد

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس " ، وقالت

فرقة ﴿ الفردوس ﴾ البستان بالرومية ، وهذا اقتضاب القول في ﴿ الفردوس ﴾ وعيون ما قيل ، وقوله ﴿ نزلاً ﴾ يحتمل الوجهين اللذين قدمناهما قبل ، و" الحلول " بمعنى التحول ، قال مجاهد : متحولاً ، ومنه قول شصار : [مجزوء الرجز]

لكل دولة أجل ثم يتاح لها حول . . . وكأنه اسم جمع ، وكأن واحده حوالة ، وفي هذا نظر ، وقال الزجاج عن قوم : هي بمعنى الحيلة في التنقل .

(18/480)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف متكلف ، وأما قوله ﴿ قل لو كان البحر ﴾ إلى آخر الآية ، فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي عليه السلام كيف تزعم أنك نبي الأمم كلها ، ومبعوث إليها ، وأنك أعطيت ما يحتاجه الناس من العلم ، وأنت مقصر ، قد سئلت في الروح ولم تجب فيه ، ونحو هذا من القول ، فنزلت الآية معلمة باتساع معلومات الله عز وجل ، وأنها غير متناهية ، وأن الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكير ، فعبر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه ، وهو قوله ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ﴾ و" الكلمات " : هي المعاني القائمة بالنفس ، وهي المعلومات ، ومعلومات الله سبحانه لا تناهى ، و﴿ البحر ﴾ متناه ، ضرورة ، وقرأ الجمهور : " تنفد " بالتاء من فوق ، وقرأ عمرو بن عبيد " ينفد "

بالياء وقرأ ابن مسعود وطلحة : قبل أن تقضي كلمات ربي ، وقوله ﴿ مداداً ﴾ أي زيادة ، وقرأ الجمهور : " مداداً " وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش ومجاهد والأعرج " مدداً " ، فالمعنى لو كان البحر ﴿ مداداً ﴾ تكتب به معلومات الله عز وجل ، لنفد قبل أن يستوفيها ، وكذلك إلى ما شئت من العدد ، و ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ لم أعط إلا ما أوحي إلي وكشف لي ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي : " ينفد " بالياء من تحت ، وقرأ الباقون بالتاء ، وقوله ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ المعنى : ﴿ إنما أنا بشر ﴾ ينتهي علمي إلى حيث ﴿ يوحى إلي ﴾ ومهم ما يوحى إلي ، أنما إلهكم إله واحد ، وكان كفرهم بعبادة الأصنام فلذلك خصص هذا الفصل مما أوحي إليه ، ثم أخذ في الموعظة ، والوصاة البينة الرشد ، و ﴿ يرجو ﴾ على بابها ، وقالت فرقة : ﴿ يرجو ﴾ بمعنى يخاف ، وقد تقدم القول في هذا المقصد ، فمن كان يؤمن بلقاء ربه وكل موقن بلقاء ربه ، فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاء ، فلو عبر بالخوف لكان المعنى تاماً على جهة التخويف والتحذير ، وإذا عبر بالرجاء فعلى جهة الإطماع وبسط النفوس إلى إحسان الله تعالى ،

(19/480)

أي ﴿ فمن كان يرجو ﴾ النعيم المؤبد من ربه ﴿ فليعمل ﴾ وباقي الآية بين في الشرك بالله تعالى ، وقال ابن جبير في تفسيرها لا يرائي في عمله وقد روي حديث أنها نزلت في الرياء ، حين سئل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يجاهد ويحب أن يحمده الناس ، وقال معاوية بن أبي سفيان هذه آخر آية نزلت من القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(20/480)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كانت لهم جنات الفردوس ﴾

قال ابن الأنباري : كانت لهم في علم الله قبل أن يُخلَقوا .

وروى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " جِنانُ الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وثنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيها ، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إِلى ربهم إِلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ،

الفردوس أعلاها ، ومنها تفجَّر أنهار الجنة ، فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس " قال أبو أمامة : الفردوس سرّة الجنة .

قال مجاهد : الفردوس : البستان بالرومية .

وقال كعب ، والضحاك : "جنات الفردوس" : جنات الأعناب .

قال الكلبي ، والفراء : الفردوس : البستان الذي فيه الكرم .

وقال المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر المتلف ، والأغلب عليه العنب .

وقال ثعلب : كل بستان يحوّط عليه فهو فردوس ، قال عبد الله بن رواحة :

في جنانِ الفردوسِ ليسَ يخافو . . .

ن خروجاً عنها ولا تحويلا

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قال الزجاج : الفردوس أصله رومي أعرب ، وهو البستان ، كذلك جاء في التفسير ، وقد قيل : الفردوس تعرفه العرب ، وتسمي الموضع الذي فيه كرم : فردوساً .

وقال أهل اللغة : الفردوس مذكَّر ، وإنما أنث في قوله تعالى : ﴿ يَرِثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون : 11] لأنه عنى به الجنة .

وقال الزجاج : وقيل : الفردوس : الأودية التي تنبت ضروباً من النبت ، وقيل : هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية ، قال : والفردوس أيضاً بالسريانية كذا لفظه : فردوس ، قال : ولم نجده في أشعار العرب إلا في شعر حسان ، وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين ، لأنه عند أهل كل لغة كذلك ، وبيت حسان :

فَإِنّ ثَوَابَ اللهِ كلَّ مُوَحّدٍ . . .

جِنَانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فيهَا يُخَلَّدِ

وقال ابن الكلبي باسناده : الفردوس : البستان بلغة الروم ، وقال الفراء : وهو عربي أيضاً ، والعرب تسمي البستان الذي فيه الكرم فردوساً .

وقال السدي : الفردوس أصله بالنبطية "فرداسَا" .

وقال عبد الله بن الحارث : الفردوس : الأعناب .

وقد شرحنا معنى قوله : "نُزُلاً" آنفاً .

قوله تعالى : ﴿ لا يبغون عنها حِوَلاً ﴾ قال الزجاج : لا يريدون عنها تحوُّلاً ، يقال : قد حال من مكانه حِوَلاً ، كما قالوا في المصادر : صَغُر صِغرَاً ، وعَظُم عِظَماً ، وعادَني حُبُّها عِوَداً ؛ قال : وقد قيل أيضاً : إن الحِوَل : الحِيلة ، فيكون المعنى : لا يحتالون مَنْزِلاً غيرها .

فإن قيل : قد عُلم أن الجنة كثيرة الخير ، فما وجه مدحها بأنهم لا يبغون عنها حِوَلاً ؟

فالجواب : أن الإِنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لا يوافقه ، فيحب أن ينتقل إِلى دار أخرى ، وقد يملّ ، والجنة على خلاف ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ﴾

سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إِلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 85] قالت اليهود : كيف وقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

ومعنى الآية : لو كان ماء البحر مداداً يُكتَب به .

قال مجاهد : [والمعنى] : لو كان البحر مداداً للقلم ، والقلم يكتب .

وقال ابن الأنباري : سمي المداد مداداً لإِمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء .

(22/480)

وقرأ الحسن ، والأعمش : "مدداً لكلمات ربِّي" بغير ألف .

قوله تعالى : ﴿ قبل أن تنفدَ كلمات ربي ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : "تنفد" بالتاء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "ينفد" بالياء .

قال أبو علي : التأنيث أحسن ، لأن المُسنَد إليه الفعلُ مؤنث ، والتذكير حسن ، لأن التأنيث ليس بحقيقي ، وإنما لم تنفد كلمات الله ، لأن كلامه صفة من صفات ذاته ، ولا يتطرق على صفاته النفاد ، ﴿ ولو جئنا بمثله ﴾ أي : بمثل البحر ﴿ مدداً ﴾ أي : زيادة ؛ والمدد : كل شيء زاد في شيء .

فإن قيل : لم قال في أول الآية : "مداداً" وفي آخرها : "مدداً" وكلاهما بمعنى واحد ، واشتقاقهما غير مختلف ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : لما كان الثاني آخر آية ، وأواخر الآيات هاهنا أتت على الفُعُل ، والفِعَل ، كقوله : "نُزُلاً" "هُزُواً" "حِوَلاً" كان قوله : "مَدَداً" أشبه بهؤلاء الألفاظ من المداد ، واتفاقُ المقاطع عند أواخر الآي ، وانقضاء الأبيات ، وتمام السجع والنثر ، أخف على الألسن ، وأحلى موقعاً في الأسماع ، فاختلفت اللفظتان لهذه [العلة] .

وقد قرأ ابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، ومجاهد ، وأبو رجاء ، وقتادة ، وابن محيصن : "ولو جئنا بمثله مداداً" فحملوها على الأولى ، ولم ينظروا إلى المقاطع .

وقراءة الأوّلين أبيَن حُجَّة ، وأوضح منهاجاً .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بَشَر مِثْلُكم ﴾

قال ابن عباس : علَّم الله تعالى رسوله التواضع لئلا يزهى على خلقه ، فأمره أن يُقِرَّ على نفسه بأنه آدمي كغيره ، إلا أنه أُكرم بالوحي .

(23/480)

قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربِّه ﴾ سبب نزولها " أن جندب بن زهير الغامدي قال لرسول الله صلى الله عليه و سلم : إني أعمل العمل [لله تعالى] فإذا اطُّلع عليه سرَّني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله طَيِّب لا يقبل إلا الطيِّب ، ولا يقبل ما روئي فيه" " فنزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن عباس .

وقال طاووس : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أُحب الجهاد [في سبيل الله] وأُحب أن يُرى مكاني ، فنزلت هذه الآية .

وقال مجاهد : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني أتصدق ، وأصل الرحم ، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيُذكَر ذلك مِنّي وأُحمَد عليه فيسرُّني ذلك وأُعجَب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية .

وفي قوله : ﴿ فمن كان يرجو ﴾ قولان .

أحدهما : يخاف ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : يأمل ، وهو اختيار الزجاج .

وقال ابن الأنباري : المعنى : فمن كان يرجو لقاء ثواب ربِّه .

قال المفسرون : وذلك يوم البعث والجزاء .

﴿ فَلْيعمل عملاً صالحاً ﴾ لا يرائي به ﴿ ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً ﴾ قال سعيد بن جبير : لا يرائي .

قال معاوية بن أبي سفيان : هذه آخر آية نزلت من القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(24/480)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً ﴾

قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها .

وقال أبو أمامة الباهلي : الفردوس سرة الجنة .

وقال كعب : ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس ؛ فيها الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها " قالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : "إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه قال وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفجّر أنهار الجنة " وقال مجاهد : والفردوس البستان بالرومية .

الفراء : هو عربي .

والفردوس حديقة في الجنة .

وفردوس اسم روضة دون اليمامة .

والجمع فراديس ، قال أمية بن أبي الصلت الثقفي :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً . . .

فيها الفَرَاديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس موضع بالشام .

وكَرْمٌ مُفَرْدَس أي مُعرَّش .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دائمين .

﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي لا يطلبون تحويلاً عنها إلى غيرها .

والحول بمعنى التحويل ؛ قاله أبو عليّ .

وقال الزجاج : حال من مكانه حِولاً كما يقال : عَظُم عِظَماً .

قال : ويجوز أن يكون من الحيلة ، أي لا يحتالون منزلاً غيرها .

وقال الجوهري : التحول التنقل من موضع إلى موضع ، والاسم الحِول ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ .

(25/480)

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ نفد الشيء إذا تم وفرغ ؛ وقد تقدّم .

﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ أي زيادة على البحر عدداً أو وزناً .

وفي مصحف أبيّ "مِدَاداً" وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد .

وانتصب "مددا" على التمييز أو الحال .

وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ قالوا : وكيف وقد أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً

كثيراً ؟ فنزلت ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر ﴾ الآية .

وقيل : قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة ، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح ؟ ! فقال الله تعالى قل : وإن أوتيت القرآن وأوتيتم التوراة فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة .

قال ابن عباس : "لِكَلِمَاتِ رَبِّي" أي مواعظ ربي .

وقيل : عنى بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات ، ولأنه ينوب منابها ، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيماً ؛ وقال الأعشى :

ووجهٌ نقيُّ اللون صافٍ يَزينُهُ . . .

مع الجِيد لَبَّاتٌ لها ومَعَاصِمُ

فعبر باللّبات عن اللبة .

وفي التنزيل : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ ﴾ [فصلت : 31] و ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ [الحجر : 23] وكذلك ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النمل : 120] لأنه ناب مناب أمة .

وقيل : أي ما نفدت العبارات والدلالات التي تدل على مفهومات معاني كلامه سبحانه وتعالى .

وقال السديّ : أي إن كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التي هي دار الثواب .

(26/480)

وقال عكرمة : لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إله إلا الله .

ونظير هذه الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله ﴾ [لقمان : 27] .

وقرأ حمزة والكسائيّ "قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ" بالياء لتقدّم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ ﴾ أي لا أعلم إلا ما يعلّمني الله تعالى ، وعلم الله تعالى لا يحصى ، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ أي يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ قال ابن عباس : نزلت في جُنْدُب بن زهير العامريّ ، قال : يا رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى ، وأريد وجه الله تعالى ، إلا أنه إذا اطُّلِع عليه سَرَّني ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله طيّبٌ ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شُورِكَ فيه " فنزلت الآية .

وقال طاوس قال رجل : يا رسول الله ! إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن يُرى مكاني فنزلت هذه الآية .

وقال مجاهد : جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول اللها إني أتصدق وأصِل الرَّحِم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك منّي وأُحَمد عليه فيسرّني ذلك وأُعجَب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً ، فأنزل الله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ .

قلت : والكل مراد ، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال .

وقد تقدّم في سورة "هود" حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أوّل الناس .

وقد تقدّم في سورة "النساء" الكلام على الرياء ، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية .

(27/480)

وقال الماوردي وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ إنه لا يرائي بعمله أحداً .

وروى الترمذي الحكيم رحمه الله تعالى في "نوادر الأصول" قال : حدّثنا أبي رحمه الله تعالى

قال : حدّثنا مكي بن إبراهيم قال : حدّثنا عبد الواحد بن زيد " عن عبادة بن نُسَيّ قال : أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي ، فقلت : ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، إذ رأيت بوجهه أمراً ساءني فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أرى بوجهك ؟ قال : "أمراً أتخوفه على أمتي من بعدي" قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : "الشرك والشهوة الخفية" قلت : يا رسول الله ! وتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : "يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حَجَراً ولا وَثَناً ولكنهم يراءون بأعمالهم" قلت : يا رسول الله والرياء شرك هو ؟ قال : "نعم" .

قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : "يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر" " قال عبد الواحد : فلقيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ! أخبرني عن الرياء أشرك هو ؟ قال : نعم ؛ أما تقرأ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ .

وروى إسماعيل بن إسحاق قال : حدثنا محمد بن أبي بكر قال : حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال : كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس جالسين ، فقالا : إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية ، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء .

وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صياما يرائي به فقد أشرك " ثم تلا ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ .

(28/480)

قلت : وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا ، وقد ذكرناه في "النساء" .

وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحبّ أن تُكتَم حسناتك ولا تحب أن تُكتَم سيئاتك ، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك ، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي ، وتذكر قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ .

﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوا ﴾ [المؤمنون : 60] الآية ؛ يؤتون الإخلاص ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ؛ وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا ؛ قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء .

وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم : وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به ؛ كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي : منذ كم صرت إلى العراق يا أبا

عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم ؛ فقال : يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين .

وحكى الأصمعي أن أعرابياً صلى فأطال وإلى جانبه قوم ، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟! فقال : وأنا مع ذلك صائم .

أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف ، فقيل له إنك خففت ؛ فقال : إنه لم يخالطها رياء ؛ فخلص من تنقصهم بنفي الرياء عن نفسه ، والتصنع من صلاته ؛ وقد تقدّم في "النساء" دواء الرياء من قول لقمان ؛ وأنه كتمان العمل .

(29/480)

وروى الترمذي الحكيم حدّثنا أبي رحمه الله تعالى قال : أنبأنا الحِمَّاني قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن مَعْقِل بن يَسَار قال : قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك ، قال : "هو فيكم أخفى من دبيب النمل وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات" " وقال عمر بن قيس الكندي سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ

﴿ فقال : إنها لآخر آية نزلت من السماء .

وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أوحي إلي أنه من قرأ ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ﴾ رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له " وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء " وعن ابن عباس أنه قال له رجل : إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم ، فقال : إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل ؛ ذكر هذه الفضائل الثعلبي رضي الله تعالى عنه .

وفي مسند الدارمي أبي محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن عبدة عن زرّ بن حبيش قال : من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها ؛ قال عبدة فجربناه فوجدناه كذلك .

(30/480)

قال ابن العربي : كان شيخنا الطُّرْطُوشيّ الأكبر يقول : لا تذهب بكم الأزمان في مصاولة الأقران ، ومواصلة الإخوان ؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(31/480)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) ﴾

الفردوس قال الفراء : البستان الذي فيه الكرم .

وقال ثعلب : كل بستان يحوّط عليه فهو فردوس .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أعد للكافرين ذكر ما أعد للمؤمنين وفي الصحيح ﴿ جنات الفردوس ﴾

أربع ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وثنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما .

وفي حديث عبادة ﴿ الفردوس ﴾ أعلاها يعني أعلا الجنة .

قال قتادة وربوتها ومنها تفجر أنهار الجنة .

وقال أبو هريرة جبل تتفجر منه أنهار الجنة .

وفي حديث أبي أمامة ﴿ الفردوس ﴾ سرة الجنة .

وقال مجاهد ﴿ الفردوس ﴾ البستان بالرومية .

وقال كعب والضحاك ﴿ جنات الفردوس ﴾ الأعناب .

وقال عبيد الله بن الحارث بن كعب إنه جنات الكروم والأعناب خاصة من الثمار .

وقال المبرد : ﴿ الفردوس ﴾ فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .

وحكى الزجّاج أنه الأودية التي تنبت ضروباً من النبت ، وهل هو عربي أو أعجمي قولان ؟ وإذا قلنا أعجمي فهل هو فارسي أو رومي أو سرياني ؟ أقوال .

وقال حسان :

وإن ثواب الله كل موحد . . .

جنان من الفردوس فيها يخلد

قيل : ولم يسمع بالفردوس في كلام العرب إلاّ في هذا البيت بيت حسان ، وهذا لا يصح فقد قال أمية بن أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة . . .

فيها الفراديس ثم الثوم والبصل

الفراديس جمع فردوس .

والظاهر أن معنى ﴿ جنات الفردوس ﴾ بساتين حول الفردوس ولذلك أضاف الجنات إليه .

(32/480)

ويقال : كرم مفردس أي معرش ، وكذلك سميت الروضة التي دون اليمامة فردوساً لاجتماع نخلها وتعريشها على أرضها .

وفي دمشق باب الفراديس يخرج منه إلى البساتين .

و ﴿ نزلاً ﴾ يحتمل من التأويل ما احتمل قوله ﴿ نزلاً ﴾ المتقدم .

ومعنى ﴿ حولاً ﴾ أي محولاً إلى غيرها .

قال ابن عيسى : هو مصدر كالعوج والصغر .

قال الزمخشري : يقال حال عن مكانه حولاً كقوله :

عادني حبها عوداً . . .

يعني لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم ، وهذه غاية الوصف لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه ، ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيد الخلود انتهى .

وقال ابن عطية : والحول بمعنى التحول .

قال مجاهد متحولاً .

وقال الشاعر :

لكل دولة أجل . . .

ثم يتاح لها حول

وكأنه اسم جمع وكان واحده حوالة وفي هذا نظر .

وقال الزجّاج عن قوم : هي بمعنى الحيلة في التنقل وهذا ضعيف متكلف .

﴿ قل لو كان البحر ﴾ .

قيل سبب نزولها أن اليهود قالوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) : كيف تزعم أنك نبي الأمم كلها ومبعوث إليها ، وأنك أعطيت ما يحتاجه الناس من العلم وأنت مقصر قد سئلت عن الروح فلم تجب فيه ؟ فنزلت معلمة باتساع معلومات الله وأنها غير متناهية وأن

الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكر ، فعبر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه وهو قوله ﴿ قل لو كان البحر ﴾ .

وقيل قال حيي بن أخطب في كتابكم ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ ثم تقروؤن ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ فنزلت يعني إن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله ﴿ قل لو كان البحر ﴾ أي ماء البحر ﴿ مداداً ﴾ وهو ما يمد به الدواة من الحبر ، وما يمد به السراج من السليط .

(33/480)

ويقال : السماء مداد الأرض ﴿ لكلمات ربي ﴾ أي معد الكتب كلمات ربي وهو علمه وحكمته ، وكتب بذلك المداد ﴿ لنفد البحر ﴾ أي فني ماؤه الذي هو المداد قبل أن تنفد الكلمات لأن كلماته تعالى لا يمكن نفادها لأنها لا تتناهى والبحر ينفد لأنه متناه ضرورة ، وليس ببدع أن أجهل شيئاً من معلوماته و ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ لم أعلم إلاّ ما أُوحي إلي به وأعلمت .

وقرأ الجمهور ﴿ مداداً لكلمات ربي ﴾ .

وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش ومجاهد والأعرج والحسن والمنقري عن أبي عمرو

مدداً لكلمات ربي .

وقرأ الجمهور ﴿ تنفد ﴾ بالتاء من فوق .

وقرأ حمزة والكسائي وعمرو بن عبيد والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى بالياء .

وقرأ السلمي ﴿ أن تنفد ﴾ بالتشديد على تفعل على المضي ، وجاء كذلك عن عاصم وأبي عمرو فهو مطاوع من نفد مشدداً نحو كسرته فتكسر .

وفي قراءة الجماعة مطاوع لأنفد وجواب لو محذوف لدلالة المعنى عليه تقديره لنفد .

وقرأ الجمهور بمثله مدداً بفتح الميم والدال بغير ألف ، والأعرج بكسر الميم .

وأنتصب ﴿ مدداً ﴾ على التمييز عن مثل كقوله :

فإن الهوى يكفيكه مثله صبراً . . .

وقرأ ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والأعمش بخلاف والتيمي وابن محيصن وحميد والحسن في رواية ، وأبو عمرو في رواية وحفص في رواية بمثله مداداً بألف بين الدالين وكسر الميم .

قال أبو الفضل الرازي : ويجوز أن يكون نصبه على المصدر بمعنى ولو أمددناه بمثله إمداداً ثم ناب المدد مناب الإمداد مثل أنبتكم نباتاً .

وفي قوله ﴿ بشر مثلكم ﴾ إعلام بالبشرية والمماثلة في ذلك لا أدّعي إني ملك ﴿ يوحى إليّ ﴾ أي عليّ إنما هو مستند إلى وحي ربي ، ونبه على الوحدانية لأنهم كانوا كفاراً

بعبادة الأصنام ، ثم حض على ما فيه النجاة و﴿ يرجو ﴾ بمعنى يطمع و﴿ لقاء ربه ﴾ على تقدير محذوف أي حسن لقاء ربه .

(34/480)

وقيل ﴿ يرجو ﴾ أي يخاف سوء ﴿ لقاء ربه ﴾ أي لقاء جزاء ربه ، وحمل الرجاء على بابه أجود لبسط النفس إلى إحسان الله تعالى .

ونهى عن الإشراك بعبادة الله تعالى .

وقال ابن جبير : لا يرائي في عمله فلا يبتغي إلاّ وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره .

قيل " نزلت في جندب بن زهير قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إني أعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرني فقال : "إن الله لا يقبل ما شورك فيه" " وروي أنه قال : " لك أجران أجر السر وأجر العلانية " وذلك إذا قصد أن يقتدى به .

وقال معاوية بن أبي سفيان : هذه آخر آية نزلت من القرآن .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا يشرك ﴾ بياء الغائب كالأمر في قوله ﴿ فليعمل ﴾ .

وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي عنه : ولا تشرك بالتاء خطاباً للسامع والتفاتاً من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب ، وهو المأمور بالعمل الصالح ثم عاد إلى الالتفات من الخطاب

إلى الغيبة في قوله بربه ، ولم يأت التركيب بربك إيذاناً بأن الضميرين لمدلول واحد وهو ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ فمن كان يرجو ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(35/480)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس ﴾

اختلف المفسّرون في «الفِرْدَوسِ» فقال قتادة : إنه أعلى الجَنَّة وَرَبْوتها ، وقال أبو هريرة : إنه جَبَلٌ تتفجَّر منه أنهارُ الجَنَّة ، وقال أبو أُمَامَةِ : إنه سُرَّة الجنة ووسطها ، وروى أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ ، أنه تتفجَّر منه أنهار الجَنَّة ، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أَنَّهُ قَالَ : " إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فاسألوه الفِرْدَوْس " . * ت * : ففي «البخاريّ» من حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " إِنَّ في الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ للمُجَاهِدِينَ في سَبيلِ اللَّه ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْن كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوُسَ ؛ فإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلى الجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن ، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ " انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ «الحِوَلُ» بمعنى المتحوَّل .

قال مجاهدٌ : متحوَّلاً .

وأما قوله سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبِّي . . . ﴾ الآية : فروي أن سبب الآية أنَّ اليهود قالَتْ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيُّ الأُمَمِ كُلِّها وأَنَّكَ أُعْطِيتَ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ مِنَ الْعِلْمِ ، وأَنْتَ مُقَصِّرٌ ، قَدْ سُئِلْتَ عَنْ الرُّوحِ ، فَلَمْ تُجِبْ فيهِ ؟ ، ونحو هذا من القول ؛ فأنزل اللَّه الآية مُعْلِمَةً باتساع معلوماتِ اللَّه عزَّ وجلَّ ، وأنها غير متناهية ، وأن الوقوف دونها ليس ببدْعٍ ، فالمعنى : لو كان البحْرُ مداداً تكتب به معلوماته تعالى ، لَنَفِدَ قبل أنْ يستوفيها ، «وكلمات ربِّي» هي المعاني القائمة بالنَّفْس ، وهي المعلوماتُ ، ومعلوماتُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لا تتناهى والبحر متناهٍ ضرورةً ، وذكر الغَزَّالِيُّ في آخر «المنهاج» أن المفسِّرين يقولون في قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبِّي ﴾ ، أن هذه هي الكلماتُ التي يقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ لأهْلِ الجَنَّةِ في الجَنَّة باللُّطْفِ والإكرام ، مما لا تكيِّفه الأوهام ، ولا يحُيطُ به عِلْمُ مخْلوقٍ ، وحُقَّ أنْ يكون ذلك كذلك ، وهو عطاءُ العزيز العليم ؛ على مقتضى الفَضْل العظيم ، والجود الكريمِ ، أَلاَ لِمِثْلِ هذا فليعملِ العَامِلُونَ . انتهى .

وقوله: ﴿ مَدَداً ﴾، أي زيادة. * ت *: وكذا فسَّره الهَرَوِيُّ ولفظه: وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾، أي زيادة انتهى.

(37/480)

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي: أنا بشرٌ ينتهي علْمي إلى حيثُ يوحى إليَّ، ومهم ما يوحَى إليَّ ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ وباقي الآية بيِّن في الشرك بالله تعالى، وقال ابن جُبَيْر في تفسيرها لا يرائي في عمله، وقد ورد حديثٌ أنها نزلَتْ في الرياء.

(38/480)

---

* ت *: وروى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن زَيْد بن أَسْلَمُ، عن أبيه، أنه كَانَ يَصِفُ أَمْرَ الرياء، فيقول: ما كَانَ مِنْ نَفْسِكَ فَرَضِيَتْهُ نَفْسُكَ لها، فإنه مِنْ نَفْسِكَ فعاتبها، وما كان مِنْ نَفْسِك، فكرهَتْه نَفْسُك لها، فإنه من الشيطان؛ فتعوَّذْ بالله منه، وكان أبو حَازِمٍ يقول ذلك، وأسند ابنُ المبارك عن عبْدِ الرحمن بنِ أبي أُمَيَّة، قال: كُلُّ

ما كَرِهَه العَبْد فليس منْه انتهى ، وخرَّج الترمذيُّ عن أبي سعيد بْنِ أبي فَضَالَة الأنصاريّ ، وكان من الصحابة ، قال : سَمِعْتُ رسَولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ، نَادَى مُنَادٍ : مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمِلَهُ للَّهِ أحَداً ، فَلْيَطْلُبْ ثَوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، فإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ " ، قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ انتهى ، وقد خرَّج مسلم معناه * ت * : ومما جَرَّبته ، وصحَّ من خواصِّ هذه السورة ، أنَّ من أراد أن يستيقظ أيَّ وقتٍ شاء من الليل ، فليقرأ عند نومه قولَهُ سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ . . . ﴾ إلى آخر السورة ، فإنه يستيقظُ بإذن اللَّه في الوقْت الذي نَوَاهُ ، ولتكُنْ قراءته عند آخر ما يَغْلِبُ عليه النُّعَاس ؛ بحيث لا يتجدَّد له عقب القراءة خواطِرُ ، هذا مما لا شَكَّ فيه ، وهو من عجائب القرآن المقطوعِ بها ، واللَّه الموفِّق بفضله .

(39/480)

تنبيهٌ : رُوِّينا في «صحيح مسلم» ، عن جابر رضي اللَّه عنه قال : سَمِعْتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إنَّ في اللَّيلِ لسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْراً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ إلاَّ أَعْطَاهُ إيَّاهُ " ، وذلِكَ كُلَّ لَيلَةٍ ، فإن أردتَ أن تعرف هذه الساعة ، فاقرأْ عند

نومك مِنْ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس ﴾ إلى آخر السورة ، فإنك تستيقظ في تلك الساعة – إن شاء اللَّه تعالى – بفضله ، ويتكرَّر تَيَقُّظُكَ ، ومهما استيقظْتَ ، فادْعُ لي ولك ، وهذا مما ألهمنيه اللَّهُ سبحانه ، فاستفِدْه ، وما كتبته إلاّ بَعْدَ استخارة ، وإياك أن تدعُوَ هنا على مُسْلِمٍ ، ولو كان ظالماً ، فإن خالفتَني ، فاللَّه حَسِيبُكَ وبَيْن يديه أكونُ خصيمَكَ ، وأنا أرغَبُ إليك أنْ تشركني في دعائِكَ ، إذ أفدتُّكَ هذه الفائدةَ العظيمةَ وكُنْتُ شيخَكَ فيها ، وللقرآن العظيم أسرارٌ يُطْلِعُ اللَّه عليها من يشاء مِنْ أوليائه ، جَعَلَنَا اللَّه منْهم بفَضْله ، وصلَّى اللَّه على سيدنا محمَّد وعلى آله وصَحْبِهِ وسلَّم تسليماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(40/480)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾

بيانٌ بطريق الوعدِ لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرةُ إثرَ بيانِ ما لهم بطريق الوعيد ، أي آمنوا بآيات ربِّهم ولقائه ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ من الأعمال ﴿ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعدِه ، وفيه إيماءٌ إلى أن أثرَ الرحمةِ يصل إليهم بمقتضى

الرأفةِ الأزليةِ بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلاً ، فإنه بموجب ما حدث من سوء اختيارِهم ﴿ جنات الفردوس ﴾ عن مجاهد : أن الفردوسَ هو البستانُ بالرومية ، وقال عكرمة : هو الجنةُ بالحبشية ، وقال الضحاك : هو الجنة الملتفّةُ الأشجار ، وقيل : هي الجنةُ التي تُنبتُ ضروباً من النبات ، وقيل : هي الجنةُ من الكرم خاصة ، وقيل : ما كان غالبة كَرْماً ، وقال المبرد : هو فيما سمعتُ من العرب للشجر الملتفِّ والأغلب عليه أن يكون من العنب ، وعن كعب : أنه ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في الجنة مائةُ درجةٍ ما بين كلِّ درجةٍ مسيرةُ مائة عام ، والفردوسُ أعلاها وفيها الأنهارُ الأربعةُ فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفِردوسَ فإن فوقه عرشَ الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة " ﴿ نُزُلاً ﴾ خبرُ كانت والجار والمجرور متعلقٌ بمحذوف على أنه حالٌ من نزلاً ، أو على أنه بيانٌ أو حالٌ من جنات الفردوس والخبرُ هو الجارُّ والمجرورُ فإن جعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمارُ جناتِ الفردوس نزلاً ، أو جُعلت نفسُ الجنّات نزلاً مبالغةً في الإكرام ، وفيه إيذانٌ بأنها عند ما أعد الله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله : " أَعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمِعتْ ولا خطرَ على قلب بشر " بمنزلة النزلِ بالنسبة إلى الضيافة ، وإن جُعل بمعنى المنْزِل فالمعنى ظاهر .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾

نصب على الحالية ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ مصدرٌ كالعِوج والصّغر ، أي لا يطلبون تحوّلاً عنها إذ لا يُتصوّر أن يكون شيءٌ أعزّ عندهم وأرفعَ منها حتى تُنازِعَهم إليه أنفسُهم وتطمَح نحوه أبصارُهم ، ويجوز أن يراد نفيُ التحول وتأكيدُ الخلود ، والجملة حالٌ من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فيكون حالاً متداخِلةً .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر ﴾ أي جنسُ البحر ﴿ مِدَاداً ﴾ وهو ما تُمِدُّ به الدواةُ من الحبر ﴿ لكلمات ربّى ﴾ لتحرير كلماتِ علمِه وحكمتِه التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعيةِ إلى التوحيد المحذّرة من الإشراك ﴿ لَنَفِدَ البحر ﴾ مع كثرته ولم يبقَ منه شيء لتناهيه ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ ﴾ وقرىء بالياء والمعنى من غير أن تنفد ﴿ رّبّى لَنَفِدَ ﴾ لعدم تناهيها فلا دِلالةَ للكلام على نفادها بعد نفادِ البحرِ ، وفي إضافة الكلماتِ إلى اسم الربِّ المضافِ إلى ضميره صلى الله عليه وسلم في الموضعين من تفخيم المضافِ وتشريفِ المضاف إليه ما لا يخفى ، وإظهارُ البحر والكلماتِ في موضع الإضمارِ لزيادة التقرير ﴿ وَلَوْ جِئْنَا ﴾ كلامٌ من جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقّن جيء به لتحقيق مضمونِه وتصديقِ مدلولِه مع زيادة مبالغةٍ وتأكيد ، والواوُ لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفةِ المقابلةِ لها المحذوفة لدِلالة

المذكورةِ عليها دَلالةً واضحة ، أي لنفد البحرُ من غير نفادِ كلماته تعالى لو لم نجِيءْ بمثله مدداً ولو جئنا ، بقدرتنا الباهرة ﴿ بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ عوناً وزيادةً لأن مجموعَ المتناهيَيْن متناهٍ ، بل مجموعُ ما يدخل تحت الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً لقيام الأدلةِ القاطعة على تناهي الأبعادِ ، وقرىء مُدَداً جمع مُدّة وهي ما يستمدّه الكاتبُ ، وقرىء مِداداً .

(42/480)

﴿ قُلْ ﴾ لهم بعد ما بينْتَ لهم شأن كلماتِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ لا أدّعي الإحاطةَ بكلماته التامة ﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ من تلك الكلماتِ ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ لا شريكَ له في الخلق ولا في سائر أحكامِ الألوهيةِ ، وإنما تميزْتُ عنكم بذلك ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ الرجاءُ توقعُ وصولِ الخير في المستقبل ، والمرادُ بلقائه تعالى كرامتُه ، وإدخالُ الماضي على المستقبل للدِلالة على أن اللائقَ بحال المؤمن الاستمرارُ والاستدامةُ على رجاء اللقاءِ ، أي فمن استمر على رجاء كرامتِه تعالى ﴿ فَلْيَعْمَلِ ﴾ لتحصيل تلك الطِّلْبةِ العزيزة ﴿ عَمَلاً صالحا ﴾ في نفسه لائقاً بذلك المرجوّ كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ إشراكاً جلياً كما فعله الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه ، ولا إشراكاً كما يفعله أهلُ الرياء ومَنْ يطلبُ به أجراً ، وإيثارُ وضعِ المُظهَرِ

موضعَ المُضمر في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبيةِ لزيادة التقريرِ ، وللإشعار بعلية العنوانِ للأمر والنهي ووجوبِ الامتثالِ فعلاً وتركاً .

روي أن جُندُبَ بنَ زهير رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأعمل العملَ لله تعالى فإذا اطّلع عليه سرّني ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله لا يقبل ما شوُرك فيه " فنزلت تصديقاً له . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال له : " لك أجران أجرُ السرِّ وأجرُ العلانية " وذلك إذا قصد أن يُقتدى به . وعنه عليه السلام : " اتقوا الشركَ الأصغرَ " قيل : وما الشركُ الأصغرُ ؟ قال : " الرياء " .

(43/480)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورةَ الكهفِ من آخرها كانت له نوراً من قَرْنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلَّها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " من قرأ عند مضجعه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ ﴾ الخ ، كان له من مضجعه نوراً يتلألأ إلى مكةَ ، حشْوُ ذلك النورِ ملائكةٌ يصلّون عليه حتى يقوم ، وإن كان مضجعُه بمكةَ كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمورِ ، حشوُ ذلك النورِ ملائكةٌ

يصلُون عليه حتى يستيقظ " الحمد لله سبحانه على نعمه العِظام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(44/480)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾

بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا باضداد ما اتصف به الكفرة اثر بيان ما لهم بطريق الوعيد أي إن الذين آمنوا بآيات ربهم ولقائه سبحانه : ﴿ وَعَمِلُواْ ﴾ من الأعمال ﴿ المتقون كَانَتْ لَهُمْ ﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده فالمضي باعتبار ما ذكر .

وفيه على ما قال شيخ الإسلام إيماء إلى أن أثر الرحمة يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزلية بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلا فإنه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم ،

وقيل : يجوز أن يكون ما وعدوا به لتحققه نزل منزلة الماضي فجيء بكان اشارة إلى ذلك .

ولم يقل اعتدنا لهم كما قيل فيما مر للإشارة إلى أن أمر الجنات لا يكاد يتم بل لا يزال ما فيها يزداد فإن اعتاد الشيء وتهيئته يقتضي تمامية أمره وكماله .

وقد جاء في الآثار أنه يغرس للمؤمن بكل تسبيحة يسبحها شجرة في الجنة ، وقيل : التعبير

بما ذكر أظهر في تحقق الأمر من التعبير بالاعتاد ألا ترى أنه قد تهيأ دار لشخص ولا يسكنها ولا يخلو عن لطف فافهم .

﴿ جنات الفردوس ﴾ أخرج ابن المنذر .

وإن أبي حاتم عن مجاهد أن الفردوس هو البستان بالرومية ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى أنه الكرم بالنبطية وأصله فرداساً ، وأخرج ابن أبي شيبة وغيره عن عبد الله بن الحرث أن ابن عباس سأل كعباً عن الفردوس فقال : جنة الأعناب بالسريانية ، وقال عكرمة : هي الجنة بالحبشية ، وقال القفال : هي الجنة الملتفة بالأشجار ، وحكى الزجاج أنها الأودية التي تنبت ضروباً من النبات ، وقال المبرد : هي فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .

ونص الفراء على أنه عربي أيضاً ومعناه البستان الذي فيه كرم وهو مما يذكر ويؤنث ، وزعم بعضهم أنها لم تسمع في كلام العرب إلا في قول حسان :

وإن ثواب الله كل موحد . . .

جنان من الفردوس فيها يخلد

وهو لا يصح فقد قال أمية بن أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة . . .

فيها الفراديس ثم الفوم والبصل

وجاء في شعر جرير في أبيات يمدح بها خالد بن عبد الله القسرى حيث قال :

وانا لنرجو أن نرافق رفقة . . .

يكونون في الفردوس أول وارد

ومما سمعه أهل مكة قبل إسلام سعد قول هاتف :

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا . . .

على الله في الفردوس منية عارف

والحق أن ذكرها في شعر الإسلاميين كثير وفي شعر الجاهليين قليل ، وأخرج البخاري . ومسلم .

وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنها تفجر أنهار الجنة "

وعن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعاً الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين ما بين السماء والأرض والفردوس أعلى الجنة فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، وروى عن كعب أنه ليس في الجنة أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وصح أن أهل الفردوس ليسمعون اطيط العرش .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً الفردوس مقصورة الرحمن وكل ذلك لا ينافي كون الفردوس في اللغة البستان كما توهم إذ لا مانع من أن يكون أعلى الجنة بستاناً لكنه لكونه في غاية السعة أطلق على كل قطعة منه جنة فقيل جنات الفردوس كذا قيل .

واستشكل بأن الآية حينئذ تفيد أن كل المؤمنين في الفردوس المشتمل على جنات وهذا لا يصح على القول بأن الفردوس أعلى الدرجات إذ لا شبهة في تفاوت مراتبهم .

وكون المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات طائفة مخصوصة من مطلق المؤمنين مع كونه في مقابلة الكافرين ليس بشيء .

وقال أبو حيان : الظاهر أن معنى جنات الفردوس بساتين حول الفردوس ولذا أضيفت الجنات إلى الفردوس .

وأنت تعلم أن هذا لا يشفي الغليل لما أن الآية حينئذ تفيد أن جميع المؤمنين في جنات حول الفردوس ومن المعلوم أن منهم من هو في الفردوس .

(46/480)

وقيل : الأمر كما ذكر أبو حيان إلا أنه يلتزم الاستخدام في الآية بأن يراد مطلق الجنات فيما بعد ، وفيه مع كونه خلاف الظاهر ما لا يخفي .

وقيل المراد من جنات الفردوس جميع الجنات والإضافة إلى الفردوس التي هي أعلاها باعتبار استمالها عليها ويكفي في الإضافة هذه الملابسة ، ولعلك تختار أن الفردوس في الآثار بمعنى وفي الآية بمعنى آخر وتختار من معانيه ما تكلف في الإضافة فيه كالشجر الملتف ونحوه ، وظاهر بيت حسان وبيت أمية شاهد على أن للفردوس معنى غير ما جاء في الآثار فليتدبر .

واعلم أنه استشكل أيضاً ما جاء من أمر السائل بسؤال الفردوس لنفسه مع كونه أعلى الجنة بخبر أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً " إذا صليتم علي فاسألوا الله تعالى لي الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو " واجيب بأنه لا مانع من انقسام الدرجة الواحدة إلى درجات بعضها أعلى من بعض وتكون الوسيلة عبارة عن أعلى درجات الفردوس التي هي أعلى درجات الجنان ، ونظير ذلك ما قيل في حد الإعجاز فتذكر ، وقيل المراد من الدرجة في حديث الوسيلة درجة المكانة لا الماكن بخلافها فيما تقدم فلا اشكال ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من قوله تعالى : ﴿ نُزُلاً ﴾ أو على أنه بيان كما في سعيا لك وخبر كان في الوجهين ﴿ نُزُلاً ﴾ أو على أنه الخبر و﴿ نُزُلاً ﴾ حال من ﴿ جنات ﴾ فإن جعل بمعنى ما يهيأ للنازل فالمعنى

كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة في الإكرام وفيه إيذان بأنها عندما أعد الله تعالى لهم على لسان النبوة من قوله تعالى : ﴿ رزقناهم تالله لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ ﴾ بنزلة النزل بالنسبة إلى الضيافة ، وإن جعلت بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) ﴾

(47/480)

﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ هو كما قال ابن عيسى وغيره مصدر كالعوج والصغر والعود في قوله :

عادني حبها عودا . . .

أي لا يطلبون عنها تحولا إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم وتطمح عنه أبصارهم وان تفاوتت درجاتهم ، والحاصل أن المراد من عدم طلب التحول عنها كونها أطيب المنازل وأعلاها ، وقال ابن عطية : كأنه اسم جمع وكأن واحده حوالة ولا يخفى بعده ، وقال الزجاج عن قوم : هو بمعنى الحيلة في التنقل وهو ضعيف متكلف ، وجوز أن يراد نفي التحول والانتقال على أن يكون تأكيداً للخلود لأن

عدم طلب الانتقال مستلزم للخلود فيؤكده أو لأن الكلام على حد .

ولا ترى الضب بها ينجحر . . .

أي لا يتحولون عنها فيبغوه ، وقيل في وجه التأكيد : انهم إذا لم يريدوا الانتقال لا ينتقلون لعدم الإكراه فيها وعدم إرادة النقلة عنها فلم يبق إلا الخلود إذ لا واسطة بينهما كما قيل ، والجملة حال من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فتكو حالا متداخلة ، وفيها إيذان بأن الخلود لا يورثهم مللاً .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر ﴾

(48/480)

أي جنس البحر ﴿ مِدَاداً ﴾ هو في الأصل اسم لكل ما يمد به الشيء واختص في العرف لما تمد به الدواة من الحبر ﴿ لكلمات ربّى ﴾ أي معداً لكتابة كلماته تعالى ، والمراد بها كما روي عن قتادة معلوماته سبحانه وحكمته عز وجل ﴿ لَنَفِدَ البحر ﴾ مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهبة ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ لعدم تناهيها ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه بل جميع ما يدخل في الوجود على التعاقب أو الاجتماع متناه ببرهان التطبيق وغيره من البراهين ، وهذا كلام من جهته تعالى شأنه غير

داخل في الكلام الملقن جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله على أتم وجه ، والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة أي لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته تعالى لو لم نجيء بمثله مدداً ولو جئنا بمثله مدداً ، والكلام في جواب ﴿ لَوْ ﴾ مشهور وليس قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ ﴾ للدلالة على أن ثم نفاداً في الجملة محققاً أو مقدراً لأن المراد منه لنفد البحر وهو باقية إلا أنه عدل إلى المنزل لفائدة المزاوجة وإن ما لا ينفد عند العقول العامية ينفد دون نفادها وكلما فرضت من المد فكذلك والمثل للجنس شائع على أمثال كثيرة تفرض كل منها مدداً ، وهذا كما في الكشف أبلغ من وجه من قوله تعالى : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان : 27] .

(49/480)

وذلك أبلغ من وجه آخر وهو ما في تخصيص هذا العدد من النكتة ولم يرد تخصيص العدة ثم فيه زيادة تصوير لما استقر في عقائد العامة من أنها سبعة حتى إذا بالغوا فيما يتعذر الوصول إليه قالوا هو خلف سبعة أبحر ، وفي إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره صلى الله عليه وسلم في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى ،

وإظهار البحر والكلمات في موضع الإضمار لزياد ، ة التقرير ، ونصب ﴿ مَدَداً ﴾ على التمييز كما في قوله :

فإن الهوى يكفيكه مثله صبرا . . .

وجوز أبو الفضل الرازي نصبه على المصدر على معنى ولو أمددنا بمثله إمداداً وناب المدد عن الإمداد على حد ما قيل في قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] وفيه تكلف .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وعمرو بن عبيد .

والأعمش .

وطلحة .

وابن أبي ليلى .

﴿ قَبْلَ أَنْ يَنفَدُ ﴾ بالياء آخر الحروف ، وقرأ السلمي ﴿ أَن تَنفَدَ ﴾ بالتشديد على تفعل على المضي وجاء كذلك عن عاصم .

وأبي عمرو .

فهو مطاوع نفد مشدداً نحو كسرته فتكسر .

وقرأ الأعرج ﴿ بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ بكسر الميم على أنه جمع مدة وهو ما يستمده الكاتب فيكتب به ، وقرأ ابن مسعود .

وابن عباس .

ومجاهد .

والأعمش .

بخلاف .

والتيمي .

وابن محيصن .

وحميد .

والحسن في رواية .

وأبو عمرو كذلك .

وحفص كذلك أيضاً ﴿ مِدَاداً ﴾ بألف بين الدالين وكسر الميم .

(50/480)

وسبب النزول أن حي بن أخطب كما رواه الترمذي عن ابن عباس قال : في كتابكم ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] ثم تقرؤون ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] ومراده الاعتراض بأنه وقع كتابكم تناقض بناء على أن الحكمة هي العلم وأن الخير الكثير هو عين الحكمة لا آثارها وما يترتب عليها لأن الشيء الواحد لا يكون قليلاً وكثيراً في حالة واحدة فالآية جواب عن ذلك بالإرشاد إلى أن القلة والكثرة من الأمور الإضافية فيجوز أن يكون الشيء كثيراً في نفسه وهو قليل بالنسبة إلى شيء آخر فإن البحر مع عظمته وكثرته خصوصاً إذا ضم إليه أمثاله قليل بالنسبة إلى كلماته عز وجل ، وقيل سبب ذلك أن اليهود قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : كيف تزعم أنك نبي الأمم كلها ومبعوث إليه وانك أعطيت من العلم ما يحتاجه الناس ، وقد سئلت عن الروح فلم تجب فيه ؟ ومرادهم الاعتراض بالتناقض بين دعواه عليه الصلاة والسلام وحاله في زعمهم بناء على أن العلم بحقيقة الروح مما يحتاجه الناس وأنه صلى الله عليه وسلم لم يفده عبارة ولا إشارة والجواب عن هذا منع كون العلم بحقيقة الروح مما يحتاجه الناس في أمر دينهم المبعوث له الأنبياء عليهم السلام والقائل "أنتم أعلم بأمور دنياكم" لا يدعي علم ما يحتاجه الناس مطلقاً ، وأنت تعلم أن الآية لا تكون جواباً عما ذكر على تقدير صحة كون ذلك سبب النزول إلا بضم الآية الآتية إليها ومع هذا يحتاج ذلك إلى

نوع تكلف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

(51/480)

﴿ قُلْ ﴾ بعد أن بينت شأن كلماته عز شأنه ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ لا أدعي الإحاطة بكلماته جل وعلا ﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ من تلك الكلمات ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ وإنما تميزت عنكم بذلك ، وأن المفتوحة وأن كفت بما في تأويل المصدر القائم مقام فاعل ﴿ يُوحِى ﴾ والاقتصار على ما ذكر لأنه ملاك الأمر ، والقصر في الموضعين بناء على القول بإفادة إنما بالكسر وإنما بالفتح الحصر من قصر الموصوف على الصفة قصر قلب والمقصور عليه في الأول ﴿ أَنَا ﴾ والمقصور البشرية مثل المخاطبين ، وهو على ما قيل مبني على تنزيلهم لاقتراحهم عليه عليه الصلاة والسلام ما لا يكون من بشر مثلهم منزلة من يعتقد خلافه أو على تنزيلهم منزلة من ذكر لزعمهم أن الرسالة التي يدعيها صلى الله عليه وسلم مبرهنة بالبراهين الساطعة تنافي ذلك ، وقيل إن المقصود بأن يقصر عليه الإيحاء إليه صلى الله عليه وسلم على معنى أنه صلى الله عليه وسلم مقصور على إيحاء ذلك إليه لا يتجاوزه إلى عدم الإيحاء كما يزعمون ، والمقصور الثاني ﴿ إلهاكم ﴾ أي معبودكم الحق

والمقصور عليه الوحدانية المعبر عنها باله واحد أي لا يتجاوز معبودكم بالحق تلك الصفة التي هي الوحدانية أي الوحدة في الألوهية إلى صفة أخرى كالتعدد فيها الذي تعتقدونه أيها المشركون .

وعزم بعضهم أن القصر في الثاني من قصر الصفة على الموصوف قصر أفراد وان المقصور الألوهية مصدر الهكم والمقصور عليه هو الله تعالى المعبر عنه باله واحد ولا يخفى ما فيه من التكلف والعدول عما هو الأليق .

ومما يوضح ما ذكرنا أنه لو قيل إنما الهكم واحد لم يكن إلا من قصر الموصوف على الصفة فزيادة إله للتوطئة للوصف بواحد والإشارة إلى أن المراد الوحدة في الألوهية ر تغير ذلك .

(52/480)

وأما جعله من قصر الصفة على الموصوف قصر أفراد على أن الله تعالى هو المقصور عليه والوحدانية هي المقصور فباطل قطعاً لأن قصر الصفة على الموصوف كذلك إنما يخاطب به من يعتقد اشتراك الصفة بين موصوفين كما تقرر في محله وهذا الاعتقاد لا يتصور هنا من عاقل لبداهة استحالة اشتراك موصوفين في الوحدانية أي الوحدة في الألوهية وما يوهم إرادة هذا القصر من كلام الزمخشري في نظير هذه الآية مؤول كما لا يخفى على المنصف ،

وجوز أن يكون من قصر التعيين وليس بذاك فتأمل جميع ذلك والله تعالى يتولى هداك ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الرجاء طمع حصول ما فيه مسرة في المستقبل ويستعمل بمعنى الخوف وأنشدوا :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . .

وحالفها في بيت نوب عوامل

(53/480)

ولقاء الرب سبحانه هنا قيل مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهده طويل وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر فاما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها فالمعني على هذا ، وحمل الرجاء على المعنى الأول من كان يأمل تلك الحال وأن يلقى فيها الكرامة من ربه تعالى والبشرى ﴿ فَلْيَعْمَلِ ﴾ لتحصيل ذلك والفوز به ﴿ عَمَلاً صالحا ﴾ وقيل هو كناية عن البعث وما يتبعه والكلام على حذف مضاف أي من كان يؤمل حسن البعث فليعمل الخ ، وقيل لا حذف ، والمراد من توقع البعث فليعمل صالحاً أي أن ذلك العمل مطلوب ممن يتوقع البعث فكيف من يتحققه ، وقيل : اللقاء على حقيقته

والكلام على حذف مضاف أيضاً أي من كان يؤمل لقاء ثواب ربه فليعمل الخ ، وقيل المراد منه رؤيته سبحانه أي من كان يؤمل رؤيته تعالى يوم القيامة وهو راض عنه فليعمل الخ ، وجوز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف على معنى من خاف سوء لقاء ربه أو خاف لقاء جزائه تعالى فليعمل الخ ، وتفسير الرجال بالطمع أولى ، وكذا كون المرجو الكرامة والبشرى ، وعلى هذا فادخال الماضي على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال العبد الاستمرار والاستدامة على رجاء الكرامة من ربه فكأنه قيل فمن استمر علم رجاء كرامته تعالى فليعمل عملاً صالحاً في نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ إشراكاً جلياً كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب بعمله دنيا ، واقتصر ابن جبير على تفسير الشرك بالرياء وروي نحوه عن الحسن ، وصح في الحديث تسميته بالشرك الأصغر ، ويؤيد إرادة ذلك تقديم الأمر بالعمل الصالح على هذا النهي فإن وجه جينئذ ظاهر إذ يكون الكلام في قوة قولك من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً

(54/480)

في نفسه ولا يراء بعمله أحداً فيفسده .

وكذا ما روي من أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أعمل العمل لله تعالى فإذا اطلع عليه سرني فقال لي : إن الله تعالى لا يقبل ما شورك فيه فنزلت الآية تصديقاً له صلى الله عليه وسلم ، نعم لا يأبى ذلك أرادة العموم كما لا يخفى ، وقد تظافرت الأخبار أن كل عمل عمل لغرض دنيوي لا يقبل ، فقد أخرج أحمد .

ومسلم .

وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه تعالى أنه قال : " أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيره فانا بريء منه وهو للذي أشرك " .

وأخرج البزار .

والبيهقي عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة فيقول الله تعالى ألفوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً فيقول سبحانه إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي " وأخرج أحمد .

والنسائي .

وابن حبان .

والطبراني .

والحاكم وصححه عن يحيى بن الوليد بن بعادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من غزا وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالا فله ما نوى " وأخرج أبو داود .

والنسائي .

والطبراني .

بسند جيد عن أبي إمامة قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له فاعادها ثلاث مرار يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام : لا شيء له ثم قال : إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه " إلى غير ذلك من الأخبار .

واستشكل كون السرور بالعمل إشراكاً فيه محبطاً له مع أن الإتيان به ابتداء كان بإخلاص النية كما يدل عليه إني أعمل العمل لله تعالى .

(55/480)

وأجيب بما أشار إليه في الإحياء من أن العمل لا يخلو إذا عمل من أن ينعقد من أوله إلى آخره على الإخلاص من غير شائبة رياء وهو الذهب المصفى أو ينعقد من أوله إلى آخره على الرياء وهو عمل محبط لا نفع فيه أو ينعقد من أول أمره على الإخلاص ثم يطرأ عليه الرياء

وحينئذ لا يخلو طروه عليه من أن يكون بعد تمامه أو قبله والأول غير محبط لا سيما إذا لم يتكلف إظهاره إلا أنه إذا ظهرت رغبة وسرور تام بظهوره يخشى عليه لكن الظاهر أنه مثاب عليه والثاني وهو المراد هنا فإن كان باعثاً له على العمل ومؤثراً فيه فسد ما قارنه وأحيطه ثم سرى إلى ما قبله .

وأخرج ابن منده .

وأبو نعيم في الصحابة .

وغيرهما من طريق السدى الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لمقالة الناس وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ ﴾ الآية ولا شك أن العمل الذي يقارن ذلك محبط .

وذكر بعضهم قد يثاب الرجل على الإعجاب إذا اطلع على عمله ، فقد روى الترمذي .

وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : " أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أعمل العمل فيطلع عليه فيعجبني فقال عليه الصلاة والسلام لك أجران أجر السر وأجر العلانية "

وهذا محمول على ما إذا كان ظهور عمله لأحد باعثاله على عمل مثله والاقتداء به فيه ونحو ذلك ولم يكن إعجابه بعمله ولا بظهوره بل بما يترتب عليه من الخير ومثله دفع سوء الظن ولذا قيل ينبغي لمن يقتدي به أن يظهر أعماله الحسنة .

والظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم علم حال كل من هذا الرجل وجندب بن زهير

فأجاب كلا على حسب حاله ، وما ألطف جوابه عليه الصلاة والسلام لجندب كما لا يخفى على الفطن .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

(56/480)

والبيهقي في شعب الأيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أنزلت الآية في المشركين الذين عبدوا مع الله تعالى إلهاً غيره وليست في المؤمنين وهو ظاهر في أنه حمل الشرك على الجلي ، وأنت تعلم أنه لا يظهر حينئذ وجه تقديم الأمر بالعمل الصالح على النهي عن الشضرك المذكور إلا بتكلف فلعل العموم أولى وإن كان الشرك أكثر شيوعاً في الشرك الجلي .

ويدخل في العموم قراءة القرآن للموتى بالأجرة فلا ثواب فيها للميت ولا للقارىء أصلاً وقد عمت البلوي بذلك والناس عنه غافلون وإذا نبهوا لا يتنبهون فانا لله تعالى وإنا إليه راجعون ؛ وقد بالغ في العموم من جعل الاستعانة في الطاعات كالوضوء شركاً منهياً عنه فقد قال

الراغب في المحاضرات : إن علي بن موسى الرضا رضي الله تعالى عنهما كان عند المأمون فلما حضر وقت الصلاة رأى الخدم يأتونه بالماء والطست فقال الرضا رضى الله تعالى عنه : لو توليت هذا بنفسك فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ ولعل المراد بالنهي هذا مطلق طلب الترك ليعم الحرام والكروه ، والظاهر أن الفاء للتفريع على قصر الوحدانية عليه تعالى ، ووجه ذلك على أن كون الإله الحق واحداً يقتضي أن يكون في غاية العظمة والكمال واقتضاء ذلك عمل الطامع في كرامته عملاً صالحاً وعدم الإشراك بعبادته مما لا شبهة فيه كذا قيل ، وقيل الأمر بالعمل الصالح فتفرع على كونه تعالى الها والنهي عن الشرك متفرع على كون الاله واحداً ، وجعل هذا وجهاً لتقديم الأمر على النهي على ما روي عن ابن عباس وهو كما ترى ، وقيل : التفريع على مجموع ما تقدم فليفهم ، ووضع الظاهر موضع الضمير في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهي ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً .

وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي ﴿ وَلاَ تُشْرِكُواْ ﴾ بالتاء الفوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ويكون قوله تعالى : ﴿ بِرَبِّهِ ﴾ التفاتا أيضاً من الخطاب إلى الغيبة ، هذا وعن معاوية بن أبي سفيان أن هذه الآية ﴿ فَمَن كَانَ ﴾ الخ آخر آية نزلت وفيه كلام والحق خلافه والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) ﴾

قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذي القرنين ، والضمير في ﴿ بعضهم ﴾ ليأجوج ومأجوج ، أي : تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجيء الوعد ، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم ، يقال : ماج الناس : إذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء .

والمعنى : أنهم يضطربون ويختلطون ، وقيل : الضمير في ﴿ بعضهم ﴾ للخلق ، واليوم : يوم القيامة أي : وجعلنا بعض الخلق من الجنّ والإنس يموج في بعض ، وقيل : المعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السدّ وتمام عمارته بعضهم يموج في بعض ، وقد تقدّم تفسير ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ في الأنعام ، قيل : هي النفخة الثانية بدليل قوله بعد : ﴿ فجمعناهم جَمْعاً ﴾ فإن الفاء تشعر بذلك ، ولم يذكر النفخة الأولى لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة .

والمعنى : جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها تراباً جمعاً تاماً على أكمل صفة

وأبدع هيئة وأعجب أسلوب .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ للكافرين عَرْضاً ﴾ المراد بالعرض هنا : الإظهار ، أي : أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ، ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله : ﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاء عَن ذِكْرِى ﴾ أي : كانت أعينهم في الدنيا في غطاء ، وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب ﴿ عن ذكري ﴾ عن سبب ذكري ، وهو الآيات التي يشاهدها من له تفكر واعتبار ، فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، فأطلق المسبب على السبب ، أو عن القرآن العظيم ، وتأمل معانيه وتدبر فوائده .

(58/480)

ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال : ﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ أي : لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله ، وهذا أبلغ مما لو قال : وكانوا صماً ، لأن الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية ، وفي ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم

عن الأدلة السمعية .

﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ ﴾ الحسبان هنا بمعنى : الظنّ .

والاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره .

والمعنى : أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردّهم عن قبول الحق ، ومعنى ﴿ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِى ﴾ أي : يتخذوهم من دون الله ، وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ أي : معبودين ، قال الزجاج : المعنى : أيحسبون أن ينفعهم ذلك ؟ وقرىء (أفحسب) بسكون السين ، ومعناه : أكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر ، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾ أي : هيأناها لهم نزلاً يتمتعون به عند ورودهم .

قال الزجاج : النزل : المأوى والمنزل ، وقيل : إنه الذي يعدّ للضيف ، فيكون تهكماً بهم كقوله : ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

(59/480)

والمعنى : أن جهنم معدّة لهم عندنا كما يعد النزل للضيف ، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ انتصاب ﴿ أعمالاً ﴾ على التمييز ، والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها ، ومحل الموصول وهو ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : هم الذين ضل سعيهم ، والمراد بضلال السعي : بطلانه وضياعه ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذمّ ، ويكون الجواب : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ ﴾ ويجوز أن يكون في محل جرّ على أنه نعت ل ﴿ لأخسرين ﴾ أو بدل منه ، ويكون الجواب أيضاً هو أولئك وما بعده ، وأول هذه الوجوه هو أولاها ، وجملة : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ ضلّ ﴾ ، أي : والحال أنهم يظنون أنهم محسنون في ذلك منتفعون بآثاره ، وتكون جملة ﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه ، هذا على الوجه الأوّل الراجح لا على الوجوه الآخرة ، فإنها هي الجواب كما قدّمنا ، ومعنى كفرهم بآيات ربهم : كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية ، ومعنى كفرهم بلقائه : كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخرة ، ثم رتب على ذلك قوله : ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي : التي عملوها مما يظنونه حسناً ، وهو خسران وضلال ، ثم حكم عليهم بقوله : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ أي : لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم ، وقيل : لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم ، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من

الموحدين ، وهؤلاء لا حسنات لهم .

قال ابن الأعرابي : العرب تقول : ما لفلان عندنا وزن ، أي : قدر لخسته ، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته ، وسرعة طيشه ، وقلة تثبته .

(60/480)

والمعنى على هذا : أنهم لا يعتدّ بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة ، وقرأ مجاهد (يقيم) بالياء التحتية ، أي : فلا يقيم الله ، وقرأ الباقون بالنون .

ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء وما يئول إليه أمرهم فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي : الذي ذكرناه من أنواع الوعيد جزاؤهم ، ويكون قوله : ﴿ جهنم ﴾ عطف بيان للجزاء ، أو جملة ﴿ جزاؤهم جهنم ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة خبر ﴿ ذلك ﴾ ، والسبب في ذلك أنهم ضموا إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزوا ، فالباء في ﴿ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ للسببية ، ومعنى كونهم هزوا : أنهم مهزوء بهم .

وقد اختلف السلف في تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالاً ، فقيل : اليهود والنصارى ، وقيل : كفار مكة ، وقيل : الخوارج ، وقيل : الرهبان أصحاب الصوامع ، والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة .

ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي : جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ قال ابن الأنباري : كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿ جنات الفردوس نُزُلاً ﴾ قال المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .

واختار الزجاج ما قاله مجاهد : إن الفردوس : البستان باللغة الرومية ، وقد تقدّم بيان النزل ، وانتصابه على أنه خبر كان .

والمعنى : كانت لهم ثمار جنة الفردوس : نزلاً معداً لهم مبالغة في إكرامهم ، وانتصاب ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ على الحال ، وكذلك جملة ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ في محل نصب على الحال ، والحول : مصدر ، أي : لا يطلبون تحوّلاً عنها إذ هي أعزّ من أن يطلبوا غيرها ، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها .

قال ابن الأعرابي وابن قتيبة والأزهري : الحول : اسم بمعنى التحوّل يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : إن الحول التحويل .

(61/480)

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق هارون بن عنترة ، عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ الآية قال : الجنّ والإنس ﴿ يَمُوجُ ﴾ بعضهم ﴿ فِى بَعْضٍ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ قال : لا يعقلون سمعاً .

وأخرج أبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، وابن المنذر عن عليّ : أنه قرأ " أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ " قال أبو عبيد : بجزم السين وضم الباء .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عكرمة : أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد الرزاق ، والبخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه من طريق مصعب بن سعد قال : سألت أبي ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية ﴿ الذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ ، وكان سعد يسميهم : الفاسقين .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن مصعب قال : قلت لأبي ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم

بالأخسرين أعمالا ﴾ الحرورية هم؟ قال: لا ولكنهم أصحاب الصوامع، والحرورية قوم: زاغوا فأزاغ الله قلوبهم.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي حميصة عبد الله بن قيس قال: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول: في هذه الآية ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري.

وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: سمعت عليّ بن أبي طالب وسأله ابن الكوّا فقال: ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ قال: فجرة قريش.

(62/480)

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريقين عن عليّ: أنه سئل عن هذه الآية ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ قال: لا أظنّ إلا أن الخوارج منهم، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾" وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن أبي أمامة قال

: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سلوا الله الفردوس ، فإنها سرّة الجنة ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش " وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة " وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأحمد ، والترمذي ، وابن جرير ، والحاكم ، والبيهقي ، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة مائة درجة ، كل درجة منها ما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومن فوقها يكون العرش ، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس " والأحاديث بهذا المعنى كثيرة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الفردوس : بستان بالرومية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : هو الكرم بالنبطية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن المنذر ، عن عبد الله بن الحارث : أن ابن عباس سأل كعباً عن الفردوس قال : هي جنات الأعناب بالسريانية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ قال : متحوّلاً .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) ﴾

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات ربّى ﴾ قال ابن الأنباري : سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء ، ويقال للزيت الذي يوقد به السراج : مداد ، والمراد بالبحر هنا : الجنس .

والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مداداً لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ، ولو جئنا بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً ، وقيل في بيان المعنى : لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ وقوله : ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله : ﴿ قل لو كان ﴾ .

وفيه زيادة مبالغة وتأكيد ، والواو لعطف ما بعده على جملة مقدّرة مدلول عليها بما قبلها أي : لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجيء بمثله مدداً ولو جئنا بمثله مدداً ، والمدد الزيادة ، وقيل : عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن

كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد ، وقد عبّرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع ، قال الأعشى :

ووجه نقّي اللون صاف يزينه . . . مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبّر باللبات عن اللبة .

قال الجبائي : إن قوله ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد في الجملة ، وما ثبت عدمه امتنع قدمه .

(64/480)

وأجيب بأن المراد : الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية ، وقيل في الجواب : إن نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدّل على نفاد الشيء الآخر ، ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية ، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك في الآية .

والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته ، وهي غير متناهية ، فالكلمات غير متناهية .

وقرأ مجاهد وابن محيصن وحميد (ولو جئنا بمثله مداداً) وهي كذلك في مصحف أبيّ ، وقرأ الباقون ﴿ مدداً ﴾ وقرأ حمزة والكسائي (قبل أن ينفد) بالتحتية ، وقرأ الباقون

بالفوقية ، ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسلك مسلك التواضع ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي : إن حالي مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية ، ومن كان هكذا فهو لا يدّعي الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه فقال : ﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر ، ثم بيّن أن الذي أوحى إليه هو قوله : ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ لا شريك له في ألوهيته ، وفي هذا إرشاد إلى التوحيد ، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ الرجاء : توقع وصول الخير في المستقبل ، والمعنى : من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا ﴾ وهو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ من خلقه سواء كان صالحاً ، أو طالحاً ، حيواناً أو جماداً ، قال الماوردي : قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية : إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً .

(65/480)

وأقول : إن دخول الشرك الجليّ الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدّم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء ، ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها ، إنما المانع من

كونه هو المراد بهذه الآية .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ لكلمات ربّى ﴾ يقول : علم ربي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : يقول : ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله وحكمته .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية قال : أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره ، وليست هذه في المؤمنين .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رجل : يا نبيّ الله إني أقف المواقف أبتغي وجه الله ، وأحبّ أن يرى موطني ، فلم يردّ عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

وأخرج ابن منده ، وأبو نعيم في الصحابة ، وابن عساكر من طريق السدّي الصغير عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدّق فذكر بخير ارتاح له ، فزاد في ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله ، فنزل في ذلك ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : "قال رجل : يا رسول الله أعتق وأحبّ أن يرى ،

وأتصدّق وأحبّ أن يرى ، فنزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ الآية وهو مرسل .

وأخرجه هناد في الزهد عنه أيضاً .

(66/480)

وأخرج ابن سعد ، وأحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك " وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن أبي هريرة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا ؟ فقال : " لا أجر له ، "

فأعظم الناس ذلك ، فعاد الرجل فقال : " لا أجر له " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص ، وابن جرير في تهذيبه ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن شدّاد بن أوس قال : كنا نعدّ الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر .

(67/480)

وأخرج الطيالسي ، وأحمد ، وابن أبي الدنيا ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن شدّاد بن أوس أيضاً قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك ، ثم قرأ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية " وأخرج الطيالسي ، وأحمد ، وابن مردويه ، وأبو نعيم عن شدّاد أيضاً قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غنيّ " وأخرج أحمد ، والحكيم الترمذي ، وابن جرير في تهذيبه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيخ ؟ الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل يصلي لمكان رجل " وأخرج أحمد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن شدّاد بن أوس سمعت رسول الله يقول صلى الله عليه وسلم : " أتخوّف على أمتي الشرك والشهوة الخفية ، قلت : أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراءون الناس بأعمالهم ، قلت : يا رسول الله ما الشهوة الخفية ؟ قال : يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته " وأخرج أحمد ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن

مردويه ، والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال : " أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه ، وهو للذي أشرك " ، وفي لفظ : " فمن أشرك بي أحداً فهو له كله " وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر ، وأن الله لا يقبله ، وقد استوفاها صاحب الدرّ المنثور في هذا الموضع فليرجع إليه ، ولكنها لا تدلّ على أنه المراد بالآية ، بل الشرك الجليّ

(68/480)

يدخل تحتها دخولاً أوّلياً ، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدّمنا ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرّر في علم الأصول .

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبراني ، وابن مردويه عن أبي حكيم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم "

وأخرج ابن راهويه ، والبزار ، والحاكم وصححه ، والشيرازي في الألقاب ، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ في ليلة ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية ، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة " قال ابن

كثير بعد إخراجه : غريب جداً .

وأخرج ابن الضريس عن أبي الدرداء قال : من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن .

قال ابن كثير : وهذا أثر مشكل ، فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(69/480)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾

أي : تحولاً ، لبلوغهم الكمال في نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة

رغبتهم فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هم مقيم في مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمديّ لا يختارون عن مقامهم متحوّلاً .

(70/480)

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ أي : لكتابتها : ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ أي : مع كثرته ولم يبق منه شيء : ﴿ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ أي : لكونها غير متناهية ، فلا تنفد نفاد المتناهي .

قال أبو السعود : وفي إضافة الكلمات إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره صلى الله عليه وسلم في الموضعين ، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى . وإظهارُ البحر والكلمات في موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ أي : بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفد أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن ، جيء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[لقمان : 27] .

تنبيه :

(71/480)

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لا نهاية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالهاشمية والكرامية وأصحاب أبي معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حيّ وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم ، والكلام صفة كمال لا صفة نقص . ومن تكلم بمشيئة أكمل ممن لا يتكلم بمشيئة . فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته . بل كلامه مخلوق منفصل عنه . والكلابية يقولون : هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة ، ولا يكون بمشيئته . والأشعرية يقولون : إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد . وكل هذه

أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة . مبتدعة مبنية على أصل واحد . وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل . والقرآن الكريم يدل على بطلانه في أكثر من مائة موضع . وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب . والصواب في هذا الباب وغيره ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها ؟ أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لا نهاية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى . وإنما ناداه حين أتى ، لم يناده قبل ذلك . وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم . وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته

(72/480)

القائمة بذاته . ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال ، باطلة . وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات والصفات ، باطلة . هذا ما أفاده تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان .

وقال أيضاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ الآية : كلمات الله لا نهاية لها . وهذا تسلسل ، جائز كالتسلسل في المستقبل . فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له . فما من شيء إلا وبعده شيء بلا نهاية .

(73/480)

﴿ قُلْ ﴾ أي : لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي : خصصت بالوحي وتميّزت عنكم به ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أي : يخاف المصير إليه ، أو يأمل لقائه ورؤيته ، أو جزاءه الصالح وثوابه : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ أي : في نفسه ، لائقاً بذلك المرجوّ ، وهو ما كان موافقاً لشرع الله : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ أي : من خلقه إشراكاً جليّاً . كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه . ولا إشراكاً خفياً . كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه .

قال أبو السعود : وإيثار وضع المظهر موضع المضمر في الموضعين ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهي ، ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً .

ودلت الآية – كما قال ابن كثير – على أن للعمل المتقبَّل ركنين : كونه موافقاً شرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركاً أصغر ، ثبت في السنة ، وصح فيها حبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء في الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق في الشرك الجليّ ، للخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 84.86 ﴾

(74/480)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) ﴾

هذا مقابل قوله : ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ على عادة القرآن في ذكر البشارة بعد الإنذار .

وتأكيد الجملة للاهتمام بها لأنها جاءت في مقابلة جملة ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ، ﴾ وهي مؤكدة كي لا يظن ظانّ أن جزاء المؤمنين غير مهتم بتأكيده مع ما في التأكيدْين من تقوية الإنذار وتقوية البشارة .

وجعل المسند إليه الموصولَ بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام بشأن أعمالهم ،

فلذلك خولف نظم الجملة التي تقابلها فلم يقل : جزاؤهم الجنّة .

وقد تقدّم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءَين عند قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ [الكهف : 29] ﴾ ثم قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ [الكهف : 30] .

وفي الإتيان بـ ﴿ فَكانت ﴾ دلالة على أن استحقاقهم الجنّات أمر مستقر من قبل مهيّأ لهم .

وجيء بلام الاستحقاق تكريماً لهم بأنهم نالوا الجنة باستحقاق إيمانهم وعملهم .

كما قال تعالى : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الزخرف : 72] .

وجمع الجنّات إيماء إلى سعة نعيمهم ، وأنها جنان كثيرة كما جاء في الحديث : " إنها جنان كثيرة " .

والفردوس : البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين ، وعن مجاهد هو معرّب عن الرومية .

وقيل عن السريانية .

وقال الفراء : هو عربي ، أي ليس معرباً .

ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل القرآن .

وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم : الفراديس .

وفي مدينة حلب باب يسمّى باب الفراديس .

وإضافة الجنات إلى الفردوس بيانية ، أي جنات هي من صنف الفردوس .

وورد في الحديث أن الفردوس أعلى الجنّة أو وسط الجنّة .

وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنه علم بالغلبة .

(75/480)

فإن حُملت هذه الآية عليه كانت إضافة ﴿ جنات ﴾ إلى ﴿ الفردوس ﴾ إضافة حقيقية ، أي جنات هذا المكان .

والنزُل : تقدم قريباً .

وقوله : ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ أي ليس بعد ما حوته تلك الجنات من ضروب اللّذات والتمتع ما تتطلع النفوس إليه فتود مفارقة ما هي فيه إلى ما هو خير منه ، أي هم يجدون فيها كل ما يخامر أنفسهم من المشتهى .

والحِوَل : مصدر بوزن العِوج والصِغر .

وحرف العلة يصحح في هذه الصيغة لكن الغالب فيما كان على هذه الزنة مصدرا

التصحيحُ مثل : الحِول ، وفيما كان منها جمعاً الإعلال نحو : الحِيل جمع حِيلة .

وهو من ذوات الواو مشتق من التحول .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) ﴾

لما ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد ، وذكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة وموعظة ، وما هو خفي من أحوال الأمم ، حُول الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى .

فهذا استئناف ابتدائي وهو انتقال إلى التنويه بعلم الله تعالى مفيضِ العلم على رسوله صلى الله عليه وسلم لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها علمه الله إياها ، وأخبر عنها أصدق خبر ، وبيّنها بأقصى ما تقبله أفهامهم وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها ، وكان آخرها خبر ذي القرنين ، أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله تعالى وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله .

وفي هذا رد عجز السورة على صدرها .

وقيل : نزلت لأجل قول اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقول ، أي في سورة

الإسراء ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التّوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً .

(76/480)

وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ في سورة الإسراء (85) .

وقال الترمذي عن ابن عباس : قال حيي بن أخطب اليهودي : في كتابكم ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] ثم تقرأون : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، فنزل قوله تعالى : قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي . . .

﴾ الآية .

وكلمات الله : ما يدلّ على شيء مِن علمه مما يوحي إلى رسله أن يبلغوه ، فكل معلوم يمكن أن يخبر به .

فإذا أخبر به صار كلمة ، ولذلك يطلق على المعلومات كلمات ، لأن الله أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره ، فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ

أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان : 27] .

وفي هذا دليل لإثبات الكلام النفسي ولإثبات التعلّق الصلوحي لصفة العلم .

وقل من يتنبه لهذا التعلّق .

ولما كان شأن ما يُخبِر الله به على لسان أحد رسله أن يكتَب حرصاً على بقائه في الأمة ، شبهت معلومات الله المخبَر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات ، ورُمز إلى المشبه به بما هو من لوازمه وهو المِداد الذي به الكتابة على طريقة المكنية ، وإثبات المداد تخييل كتخيُّل الأظفار للمنية .

فيكون ما هنا مثل قوله تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ فإن ذكر الأقلام إنما يناسب المداد بمعنى الحِبر .

ويجوز أن يكون هنا تشبيه كلمات الله بالسراج المضيء ، لأنه يهدي إلى المطلوب ، كما شبه نور الله وهديُه بالمصباح في قوله تعالى : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ [النور : 35] ويكون المداد تخييلاً بالزيت الذي يمد به السراج .

والمدَاد يطلق على الحِبر لأنه تُمَد به الدواة ، أي يمد به ما كان فيها من نوعه ، ويطلق المداد على الزيت الذي يمد به السراج وغلب إطلاقه على الحبر .

وهو في هذه الآية يحتمل المعنيين فتتضمّن الآية مكنيتين على الاحتمالين .

واللام في قوله ﴿ لكلماته ﴾ لام العلّة ، أي لأجل كلمات ربي .

والكلام يؤذن بمضاف محذوف ، تقديره : لكتابة كلمات ربي ، إذ المداد يراد للكتابة وليس البحر مما يكتب به ولكن الكلام بني على المفروض بواسطة (لو) .

والمداد : اسم لما يمد به الشيء ، أي يزاد به على ما لديه .

ولم يقل مداداً ، إذ ليس المقصود تشبيهه بالحبر لحصول ذلك بالتشبيه الذي قبله وإنما قصد هنا أن مثله يمده .

والنفاد : الفناء والاضمحلال ، ونفاد البحر ممكن عقلاً .

وأما نفاد كلمات الله بمعنى تعلقات علمه فمستحيل ، فلا يفهم من تقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف وهو ﴿ قَبْلَ ﴾ إمكان نفاد كلمات الله ؛ ولكن لما بُني الكلام على الفرض والتقدير بما يدل عليه (لو) كان المعنى لو كان البحر مداداً لكلمات ربي وكانت كلمات ربي مما ينفد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي .

وهذا الكلام كناية عن عدم تناهي معلومات الله تعالى التي منها تلك المسائل الثلاث التي سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقتضي قوله : ﴿ قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ إن لكلمات الله تعالى نفاداً كما علمته .

وجملة ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ في موضع الحال .

و﴿ لو ﴾ وصلية ، وهي الدالة على حالة هي أجدر الأحوال بأن لا يتحقق معها مفاد الكلام السابق فيُنبّه السامع على أنها متحقق معها مُفاد الكلام السابق .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة آل عمران (91) ، وهذا مبالغة ثانية .

وانتصب مدداً ﴾ على التمييز المُفسر للإبهام الذي في لفظ ﴿ بِمِثله ﴾ ، أي مثل البحر في الإمداد .

(78/480)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

استئناف ثان ، انتقل به من التنويه بسعة علم الله تعالى وأنه لا يعجزه أن يوحي إلى رسوله بعلم كل ما يُسأل عن الإخبار به ، إلى إعلامهم بأن الرسول لم يبعث للإخبار عن الحوادث الماضية والقرون الخالية ، ولا أن من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء فيتصدى للإجابة عن أسئلة تُلقَى إليه ، ولكنه بشَر عِلمه كعلم البشر أوحَى الله إليه بما شاء إبلاغه عبادهُ من التوْحيد والشريعة ، ولا علم له إلاّ ما علّمه ربّه كما قال تعالى : ﴿

قل إنما أتبع ما يُوحى إليّ من ربّي ﴾ [الأعراف : 203] .

فالحصر في قوله ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ قصر الموصوف على الصفة وهو إضافي للقلب ، أي ما أنا إلاّ بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالمغيّبات .

وأدمج في هذا أهم ما يوحي إليه وما بعث لأجله وهو توحيد الله والسعي لما فيه السلامة عند لقاء الله تعالى .

وهذا من ردّ العجز على الصدر من قوله في أوّل السورة ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ إلى قوله ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ [الكهف : 52] .

وجملة ﴿ يوحى إلي ﴾ مستأنفة ، أو صفة ثانية ل ﴿ بشر ﴾ .

و ﴿ أنما مفتوحة الهمزة أخت (إنما) المكسورة الهمزة وهي مركبة من (أَنّ) المفتوحة الهمزة و (ما) الكَافة كما ركبت (إنما) المكسورة الهمزة فتفيد ما تفيده (أَنّ) المفتوحة من المصدرية ، وما تفيده (إنما) من الحصر ، والحصر المستفاد منها هنا قصر إضافي للقلب .

والمعنى : يوحي الله إليّ توحيد الإله وانحصار وصفه في صفة الوحدانية دون المشاركة .

وتفريع ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ هو من جملة الموحى به إليه ، أي يوحَى إليّ بوحدانية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة .

فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة ، إذ جعل التوحيد أصلاً لها وفرع عليه الأصلان الآخران ، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنّهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى ، وحصل مع ذلك ردّ العجز على الصدر وهو أسلوب بديع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(80/480)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أن الأعمال الصالحة والإيمان سبب في نيل جنات الفردوس . والآيات الموضحة لكون العمل الصالح سبباً في دخول الجنة كثيرة جداً . كقوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ [الكهف : 2–3] ، وقوله : ﴿ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] أي بسببه ، وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف : 72] . وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك يَدْخُلُونَ

الجنة وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ [مريم : 61] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

تنبيه

فإن قيل هذه الآيات فيها الدلالة على أن طاعة الله بالإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة . وقوله صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحدكم عمله الجنة " قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا يتغمدني الله برحمة منه وفضل " يرد بسببه إشكال على ذلك .

فالجواب – أن العمل لا يكون سبباً لدخول الجنة إلا إذا تقبله الله تعالى وتقبله له فضل منه . فالفعل الذي هو سبب لدخول الجنة هو الذي تقبله الله بفضله ، وغيره من الأعمال لا يكون سبباً لدخول الجنة . والجمع بين الحديث والآيات المذكورة أوجه أخر ، هذا أظهرها عند . والعم عند الله تعالى . وقد قدمنا أن " النزل " هو ما يهيأ من الإكرام للضيف أو القادم .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) ﴾

(81/480)

أي خالدين في جنات الفردوس لا يبغون عنها حولاً ، أي تحولاً إلى منزل آخر ، لأنها لا يوجد منزل أحسن منها يرغب في التحول إليه عنها ، بل هم خالدون فيها دائماً من غير تحول ولا انتقال . وهذا المعنى المذكور هنا جاء موضحاً في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة ﴾ [فاطر : 35] أي الإقامة أبداً ، وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ [الكهف : 2-3] ، وقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54] ، وقوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على دوامهم فيها ، ودوام نعيمها لهم ، والحول : اسم مصدر بمعنى التحول .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) ﴾

أمر جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم فيه هذه الآية الكريمة : أن يقول ﴿ لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ اي لو كان ماء البحر مداداً للأقلام التي تكتب بها كلمات الله " لنفذ البحر " اي فرغ وانتهى قبل أن تنفذ كلمات ربيَ ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ أي ببحر آخر مثله مداداً ، أي زيادة عليه . وقوله " مددا " منصوب على التمييز ، ويصح إعرابه حالاً . وقد زاد هذا المعنى إيضاحاً في سورة " لقمان " في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله ﴾ [لقمان : 27]

الآية وقد دلت هذه الآية على أن كلماته تعالى لا نفاذ لها سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ الآية .

(82/480)

أمر جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أب أقول لكم إني ملك ولا غير بشر ، بل أنا بشر مثلكم أي بشر من جنس البشر ، إلا أن الله تعالى فضلني وخصني بما أوحى إلي من توحيده وشرعه . وقوله هنا ﴿ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ أي فوحدوه ولا تشركو به غيره . وهذا الذي بينه تعالى فيه هذه الآية . أوضحه في مواضع أخر . كقوله في أول " فصّلت " : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت : 6-7] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 93] وقوله : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : 50] الآية . وهذا الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية من أنه يقول للناس أنه بشر ، ولكن الله فضله على غيره بما أوحى إليه من وحيه جاء مثل عن

الرسل غيره صلوات الله وسلامه عليهم في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم : 11] الآية . فكون الرسل مثل البشر من حيث أن أصل الجميع وعنصرهم واحد ، وأنهم تجري على جميعهم الأعراض البشرية لا ينافي تفضيلهم على سائر البشر بما خصهم الله به من وحيه واصطفائه وتفضيله كما هو ضروري .

(83/480)

وقال بعض أهل العلم : معنى هذه الآية قل يا محمد للمشركين : إنما أنا بشر مثلكم ، فمن زعم منكم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإنني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به عما سألتم عنه من أخبار الماضين كقصة أصحاب الكهف . وخبر ذي القرنين . وهذه اله اتجاه والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ الآية .

قوله في هذه الآية : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ يشمل كونه يأمل ثوابه ، ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة ، وكونه يخشى عقابه . أي فمن كان راجياً من ربه يوم يلقاه الثواب الجزيل

والسلامة من الشر – فليعمل عملاً صالحاً . وقد قدمنا ايضاح العمل الصالح وغير الصالح في أول هذه السورة الكريمة وغيرها ، فأغنى عن إعادته هنا .

وقوله : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ قال جماعة أهل العلم . أي لا يرائي الناس في عمله ، لأن العمل بعبادة الله لأجل رياء الناس من نوع الشرك ، كما هو معروف عند العلماء أن الرياء من أنواع الشرك .

وقد جاءت في ذلك أحايث مرفوعة . وقد ساق طرفها ابن كثير في تفسير هذه الآية .

والتحقيق أن قوله : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ أعم من الرياء وغيره ، أي لا يبعد ربه رياء وسمعة ، ولا يصرف شيئاً من حقوق خالقه لأحد من خلقه ، لأ ، الله يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] الآية في الموضعين ، ويقول : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : 31] ، إلى غير ذلك من الآيات .

ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة : أن الذي يشرك أحداً بعبادة ربه ، ولا يعمل صالحاً أنه لا يرجو لقاء ربه ، والذي لا يرجوا لقاء ربه لا خير له عند الله يوم القيامة .

(84/480)

وهذا المفهو جاء مبيناً في مواضع أخر ، كقوله تعالى فيما مضى قريباً : ﴿ أولئك الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الكهف : 105-106] الآية لأن من كفر بلقاء الله لا يرجو لقاءه . وقوله في " العنكبوت " ﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله وَلِقَآئِهِ أولئك يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي ﴾ [العنكبوت : 23] الآية ، وقوله في " الأعراف " : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 147] وقوله في " الأنعام " : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : 31] الآية ، وقوله تعالى في " يونس " ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : 45] ، وقوله في " الفرقان " : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا لَقَدِ استكبروا في أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 21] ، وقوله في " الروم " : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة فأولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : 16] إلى غير ذلك من الآيات .

تنبيه

اعلم - أن الرجاء كقوله هنا ﴿ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : 110] يستعمل في رجاء الخير ، ويستعمل في الخوف أيضاً . واستعماله في رجاء الخير مشهور . ومن استعمال الرجاء في الخوف قوب أبي ذؤيب الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وحالفها في بيت نوب عواسل

فقوله " لم يرج لسعها " أي لم يخف لسعها . ويروى حالفها بالحاء والخاء ، ويروي عواسل بالسين ، وعوامل بالميم .

(85/480)

فإذا علمت أن الرجاء يطلق على كلا الأمرين المذكرين – فاعلم أنهما متلازمان ، فمن كان يرجو ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشر كالعكس . واختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية الكريمة . أعني قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ الآية ، فعن ابن عباس أنها نزلت في جندب بن زهير الأزدي الغامدي ، قال : يا رسول الله ، إنني أعمل العمل لله تعالى وأريد وجه الله تعالى ، إلا أنه إذا اطلع عليه سرني ؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم :

" إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ، ولا يقبل ما شورك فيه " فنزلت الآية وذكره القرطبي في تفسيره ، وذكر ابن حجر في الإصابة : أنه من رواية ابن الكلبي في التفسير عن أبي صالح عن أبي هريرة ، وضعف هذا السند مشهور ، وعن طاوس أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى ، واحب أن يرى مكاني .

فنزلت هذه الآية . وعن مجاهد قال : جاء رجل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ، إني أتصدق وأصل الرحم ، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيذكر ذلك مني ، وأحمد عليه فيسرني ذلك ، وأعجب به فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ انتهى من تفسير القرطبي .

(86/480)

ومعلوم أن من قصد بعمله وجه الله فعله لله ول سره اطلاع الناس على ذلك ، ولا سميا إن كان سروره بذلك لأجل أن يقتدوا به فيه . ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . والعلم عند الله تعالى . وقال صاحب الدر المثنور : أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ الآية قال : نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره ، وليست هذه في المؤمنين . وأخرج عبد الرزاق وابن ابي الدنيا في الأخلاص ، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم عن طاوس قال : قال رجل : يا نبي اله إني أقف مواقف أبتغي وجه الله ، وأحب أن يرى موطنين فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ . وأخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقي موصولاص عن كاوس عن ابن عباس . وأخرج بن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه . فأنزل الله ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ الآية . وأخرج ابن منده وأبو نعيم في الصحابة ، ابن عساكر من طريق السدي الصغير ، عن الكلبي ، عن أبي صالح عن ابن عباس اقل : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له ، فزاد في ذلك لمقالة الناس فلامه الله ، فنزل في ذلك : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ ، واخرج هناد في الزهد عن مجاهد قال : جاء رجل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، اتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله ، أحب أن يقال لي خير ، فنزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ الآية اه من " الدر المنثور في

التفسير بالمأثور " والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(87/480)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ [الكهف : 107] سبق أن قلنا : إن الإيمان هو تصحيح الينبوع الوجداني العقدي لتصدر الأفعال مناسبة لإيمانك بمَنْ شرّع ، ومن هنا كان الإيمان أولاً وشرطاً لقبول العمل ، وإلاَّ فهناك مَنْ يعمل الخير لا من منطلق إيماني بل لاعتبارات أخرى ، والنية شَرْط لازم في قبول العمل .

لذلك يعاقب الله تعالى مَنْ يعمل لغير الله ، يعاقبه بأنْ ينكره صاحبه ويجحده ويكرهه بسببه ، بدل أنْ يعترفَ له بالجميل . ومن هنا قالوا : (اتق شرَّ مَنْ أحسنتَ إليه) ؛ وهذا قول صحيح لأنك حين تُحسِن إلى شخص تدكُّ كبرياءه ، وتكون يدك العليا عليه ، فإذا ما أخذ حظاً من الحياة وأصبح ذا مكانة بين الناس فإن كان غير سَوِيِّ النفس فإنه لا يحب مَنْ تفضل عليه في يوم من الأيام ودَكَّ كبرياءه ؛ لذلك تراه يكره وجوده ، ولا يحب أنْ يراه وربما دبَّر لك المكائد لتختفي من طريقه ، وتُخلي له الساحة ؛ لأنك الوحيد الذي يحرجه حضورك .

لذلك ، مَنْ عمل عملاً لغير الله أسلمه الله لمن عمل له ، فليأخذ منه الجزاء ، وإذا بالجزاء يأتي على خلاف ما تنتظر ، فقد فعلت له ليُكرمك فإذا به يُهِينك ، فعلْتَ له ليحترمك فإذا به يَحْقِرك ، فعلتَ له لِيُواليك فإذا به عدو لك ؛ لذلك يقولون : العمل لله عاجل الجزاء ، أما العمل لغير الله فغير مضمون العواقب ، فقد يُوفي لك وقد لا يُوفي .

ثم أردف الحق سبحانه وتعالى الإيمانَ بالعمل الصالح ؛ لأن العمل الصالح لأبدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [الكهف : 107] .

(88/480)

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [الكهف : 107] يعني : عمل الشيء الصالح ، فإن كان الشيء صالحاً بنفسه فليتركه على صلاحه لا يفسده ، أو يزيده صلاحاً ، كبئر الماء الذي يشرب منه الناس ، فإمّا أن تتركه على حال صلاحه لا تُلقي فيه ما يسدُّه أو يُفسِده فتُخرج الصالح عن صلاحه ، وإما أنْ تزيده صلاحاً فتُضيف إليه ما يُحسّن من أدائه ويُزيد من كفاءته كأنْ تبني حوله سوراً يحميه أو غطاءً يحفظه ، أو آلةَ رفع تُيسِّر على الناس استعماله .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثرَ من حصيلته من عمله هو ؛ لأنه فَرْد واحد ، ويستفيد بصلاح المجتمع كله ، ومن هنا لا ينبغي أنْ تستثقل أوامر الشارع وتكليفاته ؛ لأنه يأخذ منك ليعطيك وليُؤمِّن حياتك وقت الحاجة والعَوَز ، وحينما يتوفّر لك هذا التكافل الاجتماعي تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر مطمئنة حال العُسْر

.

وساعةَ أنْ يأمرك الشرع بكافلة اليتيم وإكرامه ، فإنه يُطمِئنك على أولادك من بعدك ، فلا تحزن إنْ أصابك مكروه ؛ لأنك في مجتمع متعاون ، سيكفل أولادك ، بل قد يكون اليتيم في ظل الإسلام وتعاليمه أسعَد حظاً من حياته في رعاية أبيه ؛ لأنه بموت أبيه يجد المؤمنين جميعاً آباءَ له ، وربما كان أبوه مشغولاً عنه في حياته لا يُفيده بشيء ، بل ويصدُّ عنه الخير حيث يقول الناس : أبوه موجود وهو يتكفّل به .

لذلك يقول أحمد شوقي :

لَيْسَ اليَتيمُ مَنِ انتهَى أَبواهُ . . . مِنْ هَمّ الحيَاةِ وخَلَّفَاهُ ذَليلا

إنَّ اليَتِيمَ هُوَ الذِي تَلْقَى لَهُ . . . أُمًّا تخلَّتْ أَوْ أباً مَشْغُولا

(89/480)

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً ﴾ [الكهف : 107] الفردوس : هو أعلى الجنة ، والنُّزُل : ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة ومَقوّمات الحياة وتَرَفها ، والإنسان حينما يُعِدُّ النُزْلَ لضيفه يعده على حَسْب قدراته وإمكانياته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المعِدّ للنُّزُل هو الله تبارك وتعالى ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ ﴾

وخلود النعيم في الآخرة يُميّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا ، كما أن نعيم الدنيا يأتي على قَدْر تصوُّرنا في النعيم وعلى حَسْب قدراتنا ، وحتى إنْ بلغنا القمة في التنعُّم في الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله ، فإما أنْ يتركك النعيم ، وإما أن تتركه ، وأما في الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنت مُخلّد فيها فلن تتركك النعمة ولن تتركها .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : 108] أي : لا يطلبون تحوُّلهم عنها إلى غيرها ، لأنه لا يُتصوَّر في النعيم أعلى من ذلك .

ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية ، فكلما نال خيراً تطلع إلى أعلى منه ، وكلما حاز متعةً ابتغى أكثر منها ، هذا في الدنيا أما في الآخرة فالأمر مختلف ، وإلا فكيف يطلب نعيماً أعلى من الجنة الذي قال الله عنه : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [البقرة : 25] .

أي : كلما رزقهم الله ثمرةً أتتْهم أخرى فقالوا : لقد رُزِقْنا مثلهم من قبل ، وظنّوها كسابقتها ، لكنها ليست كسابقتها بل بطعم جديد مختلف ، وإن كانت نفس الثمرة ، ذلك لأن قدرة الأسباب محدودة ، أما قدرة المسبِّب فليست محدودة .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يُخرِج لك الفاكهة الواحدة على ألف لَوْن وألف طَعْم ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى في قدرتها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [البقرة : 25] فالثمر واحد متشابه ، أمَّا الطعم فمختلف .

والإنسان مِنّا لِيشقَّ طريقه في الحياة يظل يتعلّم ، ليأخذ شهادة مثلاً أو يتعلم مهنة ، ويظل في تعب ومشقة ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً من عمره أملاً في أن يعيش باقي حياته المظنونة مرتاحاً هانئاً ، وَهْب أنك ستعيش باقي حياتك في راحة ، فكم سيكون الباقي منها ؟

أما الراحة الأبدية في الآخرة فهي زمن لا نهايةَ له ، ونعيم خالد لا ينتهي ، ففي أيِّ شيء يطمع الإنسان بعد هذا كله ؟ وإلى أيِّ شيء يطمح ؟

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر ﴾

لأن قدرته تعالى لا حدود لها ، ومادامت قدرته لا حدود لها فالمقدورات أيضاً لا حدود لها ؛ لذلك لو كان البحر مداداً أي : حِبْراً يكتب به كلمات الله التي هي (كُنْ) التي تبرز المقدورات ما كان كافياً لكلمات الله ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : 109] أي : بمثل البحر .

ونحن نقول مثلاً عن السلعة الجيدة : لا يستطيع المصنع أنْ يُخرِج أحسن من هذه ، أما

صنعة الله فلا تقف عند حد ؛ لأن المصنع يعالج الأشياء ، أما الحق تبارك وتعالى فيصنعها بكلمة كُنْ ؛ لذلك نجد في أرقى فنادق الدنيا أقصى ما توصَّل إليه العلم في خدمة البشر أنْ تضغط على زِرّ معين ، فيُخرِج لك ما تريد من طعام أو شراب .

وهذه الأشياء بلا شكّ مُعدَّة ومُجهَّزة مُسْبقاً ، فقط يتم استدعاؤها بالضغط على زر خاص بكل نوع ، لكن هل يوجد نعيم في الدنيا يحضر لك ما تريد بمجرد أن يخطر على بالك ؟ إذن : فنعيم الدنيا له حدود ينتهي عندها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

(91/480)

﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 24] .

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد استنفدتم وسائلكم في الدنيا ، وبلغتم أقصى ما يمكن من مُتَعِها وزينتها ، فتعالوا إلى ما أعددتُه أنا لكم ، اتركوا ما كنتم فيه من أسباب الله ، وتعالوا عِيشُوا بالله ، كنتم في عالم الأسباب فتعالوْا إلى المسبِّب .

وإنْ كان الحق سبحانه قد تكلم في هذه الآية عن المداد الذي تُكتب به كلمات الله ، فقد تكلَّم عن الأقلام التي يكتب بها في آية أخرى أكثر تفصيلاً لهذه المسألة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله ﴾ [لقمان : 27] .

ونقف هنا عند دِقَّة البيان القرآني ، فلو تصوَّرنا ما في الأرض من شجر أقلام ، مع ما يتميز به الشجر من تجدُّد مستمر ، وتكرُّر دائم يجعل من الأشجار ثروة لا حَصْر لها ولا تنتهي ، وتصوَّرنا ماء البحر مداداً يُكتب به إلا أنّ ماء البحر منذ خلقه الله تعالى محدود ثابت لاَ يزيد ولا ينقص .

لذلك لما كان الشجر يتجدَّد ويتكرَّر ، والبحر ماؤه ثابت لا يزيد . قال سبحانه : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان : 27] ليتناسب تزايد الماء مع تزايد الشجر ، والمراد سبعة أمثاله ، واختار هذا العدد بالذات ؛ لأنه مُنتَهى العدد عند العرب .

(92/480)

وقد أوضح لنا العلم دورة الماء في الطبيعة ، ومنها نعلم أن كمية الماء في الأرض ثابتة لا تزيد ؛ لأن ما يتم استهلاكه من الماء يتبخّر ويعود من جديد فالإنسان مثلاً لو شَرِب طيلة عمره مائة طن من الماء ، فاحسب ما يخرج منه من بول وعرق وفضلات في عملية الإخراج تجدها نفس الكمية التي شربها ، وقد تبخرتْ وأخذَتْ دورتها من جديد ؛ لذلك يقولون : رُبَّ شربةِ ماء شربها من آدم الملايين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . ﴾

(قُلْ) أي : يا محمد ، وهذا كلام جديد ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . ﴾ [الكهف : 110] يعني : خُذُوني أُسْوة ، فأنا لست ملَكاً إنما أنا بشر مثلكم ، وحملتُ نفسي على المنهج الذي أطالبكم به ، فأنا لا آمركم بشيء وأنا عنه بنجْوَى . بل بالعكس كان صلى الله عليه وسلم أقلَّ الناس حَظّاً من مُتَعِ الحياة وزينتها .

فكان في المؤمنين به الأغنياء الذين يتمتعون بأطايب الطعام ويرتدُونَ أغْلى الثياب في حين كان صلى الله عليه وسلم يمر عليه الشهر والشهران دون أنْ يُوقَد في بيته نار لطعام ، وكان يرتدي المرقّع من الثياب ، كما أن أولاده لا يرثونه ، كما يرث باقي الناس ، ولا تحل لهم الزكاة كغيرهم ، فحُرِموا من حَقٍّ تمتع به الآخرون .

لذلك كان صلى الله عليه وسلم أدنى الأسوات أي : أقل الموجودين في مُتع الحياة وزُخْرفها ، وهذا يلفتنا إلى أن الرسالة لم تُجْرِ لمحمد نفعاً دنيوياً ، ولم تُميّزه عن غيره في زَهْرة الدنيا

الفانية ، إنما مَيَّزْته في القيم والفضائل .

ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم يقول : " يرد عليَّ يعني من الأعلى فأقول : أنا لست مثلكم ، ويؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم " .

والآية هنا لا تميزه صلى الله عليه وسلم عن البشر إلا في أنه : ﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ [الكهف : 110] فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه .

(93/480)

ثم يقول تعالى : ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : 110] أنما : أداة قَصْر ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : 110] أي : لا إله غيره ، وهذه قِمَّة المسائل ، فلا تلتفتوا إلى إله غيره ، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أنْ يكونَ له إله واحد ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً ليوضح لنا هذه المسألة فقال تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [الزمر : 29] .

فلا يستوي عبد مملوك لعدة أسياد يتجاذبونه ؛ لأنهم متشاكسون مختلفون يَحَارُ فيما بينهم ، إنْ أرضي هذا سخط ذاك . هل يستوي وعبد مملوك لسيد واحد ؟ إذن : فمما يُحمَد الله

عليه أنه إله واحد .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : 110] الناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم في الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنة ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضّح لنا غاية أَسْمى من الجنة ونعيمها ، هي لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : ﴿ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : 110] تصرف النظر عن النعمة إلى المنعم تبارك وتعالى .

فمن أراد لقاء ربه لا مُجرَّد جزائه في الآخرة : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ [الكهف : 110] فهذه هي الوسيلة إلى لقاء الله ؛ لأن العمل الصالح دليل على أنك احترمتَ أمر الآخر بالعمل ، ووثقتَ من حكمته ومن حُبِّه لك فارتاحتْ نفسك في ظلِّ طاعته ، فإذا بك إذا أويْتَ إلى فراشك تستعرض شريط أعمالك ، فلا تجد إلا خيراً تسعَدُ به نفسك ، وينشرح له صدرك ، ولا تتوجَّس شراً من أحد ، ولا تخاف عاقبة أمر لا تُحمَدُ عقباه ، فمَنِ الذي أنعم عليك بكل هذه النعم ووفَّقك لها ؟

(94/480)

ثم : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ﴾ [الكهف : 110] وسبق أن قُلْنا : إن الجنة أحد ، فلا تشرك بعبادة الله شيئاً ، ولو كان هذا الشيء هو الجنة ، فعليك أنْ تسموَ بغاياتك ، لا

إلى الجنة بل إلى لقاء ربها وخالقها والمنعِم بها عليك .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالرجل الذي أعدَّ وليمة عظيمة فيها أطايب الطعام والشراب ، ودعا إليها أحبابه فلما دخلوا شغلهم الطعام إلا واحداً لم يهتم بالطعام والشراب ، وسأل عن صاحب الوليمة ليُسلِّم عليه ويأنس به .

وما أصدق ما قالته رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعبدُونَ مِنْ خَوْفِ . . . نارٍ ويروْنَ النَّجاةَ حَظًّا جَزِيلاً

أَوْ بأنْ يسكنُوا الجِنَان فيحظَوْا . . . بقصُورٍ ويشْرَبُوا سَلْسَبِيلا

ليسَ لِي بالجنَانِ والنَّارِ حظٌّ . . . أنَا لا ابتغِي بحُبِّي بَدِيلا

وهذا يشرح لنا الحديث القدسي : " لوْلَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أَهْلاً لأنْ أُعْبَد ؟ " .

فلا ينبغي للعبد أن يكون نفعياً حتى في العبادة ، والحق سبحانه وتعالى أهْل بذاته لأن يُعبد ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، فاللهم ارزقنا هذه المنزلة ، واجعلنا برحمتك من أهلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(95/480)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (الكهف : 110) وفي سورة الأنبياء : (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (الأنبياء : 108) ، فلم يقع في هذه الثانية لفظ (أَنَا بَشَرٌ) وورد في الأولى ، فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب عن ذلك : أنه لما تقدم في أول سورة الأنبياء إثبات كون الرسل ، عليهم السلام ، من البشر ، فيما حكاه تعالى من قول الكفار بعضهم لبعض : (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) (الأنبياء : 3) ، ثم قال تعالى راداً لقولهم ، مثبتاً كون الرسل من البشر : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء : 7) ، ثم تتابع في السورة ذكر الرسل من البشر) في عدة مواضع إفصاحاً وإشارة آخرها قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء : 107) والخطاب لنبينا ، عليه السلام ، قال تعالى بعد ذلك : (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (الأنبياء : 108 ، فلم يحتج هنا أن يذكر كونه ، عليه السلام ، من البشر ، إذ قد توالى ذكر ذلك جملة وتفصيلا .

(96/480)

أما سورة الكهف فلم يتقدم فيها مثل هذا ، فكان مظنة الإعلام بكونه صلى الله عليه وسلم من البشر إرغاماً لأعدائه ، ولما في ذلك من تلطفه تعالى بالحق ورحمته إياهم ، قال تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (الأنعام : 9) ، وقال تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (الأنعام : 8) ، فكون الرسل من البشر من أعظم إنعامه سبحانه على الخلق ، وخصت آية الكهف بذكر بشريته ، عليه السلام ، لما بيناه ، وورد كل ذلك على ما يناسب ، ولم يكن عكس الوارد ليناسب ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 324 ﴾

(97/480)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر ﴾ [109] قال : أي بعلم ربي وعجائبه ، ثم قال : إن من علمه كتابه ، لو أن عبداً أعطي لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهايته علم الله فيه ، لأنه كلامه القديم ، وكلامه صفته ، ولا نهاية لصفاته ، كما لا نهاية له ، وإنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم كلامه .

(98/480)

قوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [110] قال : العمل الصالح ما كان خالياً عن الرياء مقيداً بالسنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 98 ﴾

(99/480)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) ﴾

أخرج عبد الرزاق والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه من طريق مصعب بن سعد ، قال : سألت أبي ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى . أما اليهود ، فكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم . وأما النصارى ، فكذبوا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب .

والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . وكان سعد يسميهم الفاسقين .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن مصعب قال : قلت لأبي ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ الحرورية هم ؟ قال : لا ، ولكنهم أصحاب الصوامع ، والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي خميصة عبد الله بن قيس قال : سمعت علي بن أبي طالب يقول في هذه الآية ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال : سمعت علي بن أبي طالب ، وسأله ابن الكواء فقال : مَنْ ﴿ هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ ؟ قال : فجرة قريش .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ، عن علي أنه سئل عن هذه الآية ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ قال : لا أظن إلا أن الخوارج منهم .

وأخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح

بعوضة " .

وقال : " اقرأوا إن شئتم ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ " .

(100/480)

وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب ، فلا يزن عند الله تبارك تعالى جناح بعوضة ، اقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن كعب قال : يمثل القرآن لمن كان يعمل به في الدنيا يوم القيامة كأحسن صورة رآها وجهاً أحسنه وأطيبه ريحاً ، فيقوم بجنب صاحبه فكلما جاءه روع هدأ روعه وسكنه وبسط له أمله ، فيقول له : جزاك الله خيراً من صاحب ، فما أحسن صورتك . . . ! وأطيب ريحك ! فيقول له : أما تعرفني ؟ تعال فاركبني فطالما ركبتك في الدنيا ، أنا عملك . . . إن عملك كان حسناً فترى صورتي حسنة ، وكان طيباً فترى ريحي طيبة . فيحمله فيوافي به الرب تبارك وتعالى فيقول : يا رب ، هذا فلان – وهو أعرف به منه – قد شغلته في أيام حياته في الدنيا ، طالما اظمأت نهاره وأسهرت ليله فشفعني فيه .

فيوضع تاج الملك على رأسه ويكسى حلة الملك فيقول : يا رب ، قد كنت أرغب له عن هذا وأرجو له منك أفضل من هذا . فيعطى الخلد بيمينه والنعمة بشماله ، فيقول : يا رب ، إن كل تاجر قد دخل على أهله من تجارته . فيشفع في أقاربه .

وإذا كان كافراً مثل له عمله في أقبح صورة رآها وأنتنه ، فكلما جاءه روع زاده روعاً فيقول : قبحك الله من صاحب ، فما أقبح صورتك وما أنتن ريحك . . . ! فيقول : من أنت ؟ قال : أما تعرفني ؟ أنا عملك ، إن عملك كان قبيحاً فترى صورتي قبيحة ، وكان منتناً فترى ريحي منتنة . فيقول : تعال حتى أركبك فطالما ركبتني في الدنيا . فيركبه فيوافي به الله فلا يقيم له وزناً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، عن عمير قال : يؤتى بالرجل العظيم الطويل يوم القيامة فيوضع في الميزان فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، ثم تلا ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ .

(101/480)

وأخرج هناد عن كعب بن عجرة في قوله : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ قال : يجاء بالرجل يوم القيامة فيوزن فلا يزن حبة حنطة ، ثم يوزن فلا يزن شعيرة ، ثم يوزن فلا يزن

جناح بعوضة . ثم قرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ يقول : ليس لهم وزن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سلوا الله الفردوس فإنها سرة الجنة ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة " .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم والبيهقي في البعث وابن مردويه ، عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ومن فوقها يكون العرش ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس " .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن معاذ بن جبل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الجنة مائة درجة ، كل منها ما بين السماء والأرض ، وأعلاها الفردوس وعليها يكون العرش ، وهي أوسط شيء في الجنة ومنها تفجر أنهار الجنة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار والطبراني ، عن سمرة بن جندب قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم :

" جنة الفردوس هي ربوة الجنة العليا التي هي أوسطها وأحسنها " .

وأخرج البزار عن العرباض بن سارية : إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة .

(102/480)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " الفردوس أعلى درجة في الجنة ، وفيها يكون عرش الرحمن ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة . وجنة عدن قصبة الجنة ، وفيها مقصورة الرحمن ومنها يسمع أطيط العرش ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الفردوس مقصورة الرحمن ، فيها خيار الأنهار والأثمار " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الفردوس بستان بالرومية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : الفردوس هو الكرم بالنبطية ، وأصله فرداساً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث ، أن ابن عباس سأل كعباً عن الفردوس قال : هي جنات الأعناب بالسريانية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : الفردوس ، يعني الجنة . قال : والجنة بلسان الرومية ، الفردوس .

وأخرج النجاد في جزء التزاحم ، عن أبي عبيدة بن الجراح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . والفردوس أعلى الجنة ، فإذا سألتم الله عز وجل فسلوه الفردوس " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ قال : متحوّلاً .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ﴾ يقول : علم ربي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ يقول : ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله وحكمته .

(103/480)

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي البختري قال : صحب سلمان رجل ليتعلم منه فانتهى إلى دجلة وهي تطفح ، فقال له سلمان : أنزل فاشرب . فشرب ، قال له : ازدد ، فازداد . قال : كم نقصت منها ؟ قال : ما عسى أن أنقص من هذه ؟ قال سلمان : فكذلك العلم ، تأخذ منه ولا تنقصه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية . قال : نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره ، وليست هذه في المؤمنين .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي الدنيا في الإخلاص ، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم عن طاوس قال : قال رجل : يا نبي الله ، إني أقف مواقف أبتغي وجه الله ، وأحب أن يرى موطني . فلم يردّ عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي موصولاً عن طاوس عن ابن عباس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه ، فأنزل الله ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية .

وأخرج ابن منده وأبو نعيم في الصحابة وابن عساكر من طريق السدي الصغير ، عن الكلبي

عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح فزاد في ذلك لمقالة الناس ، فلامه الله فنزل في ذلك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

وأخرج هناد في الزهد ، عن مجاهد قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله ، وأحب أن يقال لي خيراً : فنزلت ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية .

(104/480)

وأخرج هناد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي ، عن سعيد في قوله : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ قال : ثواب ربه . ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك ﴾ قال : لا يرائي ﴿ بعبادة ربه أحداً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ قال : من كان يخشى البعث في الآخرة ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ من خلقه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن ربكم يقول : أنا خير شريك ، فمن أشرك معي في

عمله أحداً من خلقي تركت العمل كله له ولم أقبل إلا ما كان لي خالصاً " .

ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كثير بن زياد قال : قلت للحسن قول الله : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ قال : في المؤمن نزلت . قلت : أشرك بالله ؟ قال : لا ، ولكن أشرك بذلك العمل عملاً يريد الله به والناس ، فذلك يرد عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الواحد بن زيد قال : قلت للحسن : أخبرني عن الرياء ؟ أشرك هو ؟ قال : نعم يا بني ، وما تقرأ ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

وأخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

" إذا جمع الله الأولين والآخرين بيقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، قال : أنا خير شريك ، كل عَمل عُمل لي في دار الدنيا كان لي فيه شريك ، فأنا أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصاً . ثم قرأ ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ [الصافات : 40] ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذي وابن ماجة والبيهقي ، عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري – وكان من الصحابة – : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة ، " أن رجلاً قال : " يا رسول الله ، الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا ؟ قال : لا أجر له . فأعظم الناس هذه فعاد الرجل ، فقال : لا أجر له " " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي ، عن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي ، عن شداد بن أوس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك . ثم قرأ ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية " .

وأخرج الطيالسي وأحمد وابن مردويه ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به ، أنا عنه غني " .

(106/480)

وأخرج البزار وابن منده والبيهقي وابن عساكر ، " عن عبد الرحمن بن غنم أنه قيل له : " أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صام رياء فقد أشرك ، ومن صلى رياء فقد أشرك ، ومن تصدق رياء فقد أشرك ؟ ؟ قال : بلى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ فشق ذلك على القوم واشتد عليهم فقال : ألا أفرجها عنكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، فقال : هي مثل الآية في الروم ﴿ وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ [الروم : 39] فمن عمل رياء لم يُكْتَبْ لا له ولا عليه " " .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل يصلي لمكان رجل " .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي ، عن شداد بن أوس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أخاف على أمتي الشرك والشهوة الخفية .

قلت : أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم . قلت : يا رسول الله ، فالشهوة الخفية ؟ قال : يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته " .

وأخرج أحمد ومسلم وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه قال : " أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه ، وهو الذي أشرك " .

وأخرج أحمد والبيهقي عن محمود بن لبيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله يوم القيامة : إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء " .

(107/480)

وأخرج البزار والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختتمة ، فيقول الله : ألقوا هذا واقبلوا هذا . فتقول الملائكة : يا رب ، والله ما رأينا منه إلا خيراً . فيقول : إن عمله كان

لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي " .

وأخرج البزار وابن مردويه والبيهقي بسند لا بأس به ، عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله : أنا خير شريك ، فمن أشرك معي أحداً فهو لشريكي . يا أيها الناس ، أخلصوا الأعمال لله فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم ، فإنه للرحم وليس لله منه شيء " .

وأخرج الحاكم وصححه " عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : " يا رسول الله ، أخبرني عن الجهاد والغزو ، قال : يا عبد الله : إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً على أي حال قاتلت أو قتلت ، بعثك الله على تلك الحال " " .

وأخرج أحمد والدارمي والنسائي والروياني وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه ، عن يحيى بن الوليد بن عبادة عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" من غزا وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالاً ، فله ما نوى " .

وأخرج الحاكم " عن يعلى بن منبه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعثني في سراياه ، فبعثني ذات يوم وكان رجل يركب فقلت له : إرحل . قال : ما أنا بخارج معك . قلت : لم ؟ قال : حتى تجعل لي ثلاثة دنانير . قلت : الآن حين ودعت النبي صلى الله عليه وسلم ما أنا براجع إليه ، إرحل ولك ثلاثة دنانير . فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك للنبي فقال : أعطها إياه فإنها حظه من غزاته " " .

وأخرج أبو داود والنسائي والطبراني بسند جيد ، عن أبي أمامة قال : " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له . فأعادها ثلاث مرات يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له . ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه " .

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به ، عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ما ابتغى به وجه الله عز وجل " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يسمع يسمع الله به ، ومن يرائي يرائي الله به " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن عبد الله بن عمر : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قام بخطبة لا يلتمس بها إلا رياء وسمعة ، أوقفه الله عز وجل يوم القيامة في موقف رياء وسمعة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من يرائي يرائي الله به ، ومن يسمع يسمع الله به " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكم وشرك السرائر . قالوا : وما شرك السرائر ؟ قال : أن يقوم أحدكم يريد صلاته جاهداً لينظر الناس إليه ، فذلك شرك السرائر " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : من صلى صلاة والناس يرونه ، فليصل إذا خلا مثلها ، وإلا فإنما هي استهانة يستهين بها ربه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة مثله .

وأخرج البيهقي عن عمرو بن عبسة قال : إذا كان يوم القيامة ، جيء بالدنيا فيميز منها ما كان لله وما كان لغير الله رمي به في نار جهنم .

(109/480)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى الأشعري قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : " أيها الناس ، اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقالوا : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ! قال : قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن

نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفر لما لا نعلم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عبادة بن الصامت قال : يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال : ميزوا ما كان لله فيميز ، ثم يقول : ألقوا سائرها في النار .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن معاذ بن جبل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن يسيراً من الرياء شرك ، وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الدجى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن أبي الدرداء ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الإتقاء على العمل أشد من العمل ، إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر ، يضعف أجره سبعين ضعفاً ، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ، فيكتب علانية ويمحى تضعيف أجره كله ، ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس الثانية ويحب أن يذكر ويحمد عليه فيمحى من العلانية ويكتب رياء ، فاتقى الله امرؤ صان دينه فإن الرياء شرك " .

وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي أمامة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحسن أوليائي عندي منزلة ، رجل ذو حظ من صلاة . . . أحسن عبادة ربه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع ، عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والبيهقي ، عن أبي هند الداري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قام مقام رياء أو سمعة ، رايا الله به يوم القيامة وسمع به " .

(110/480)

وأخرج البيهقي عن عمر بن النضر قال : بلغني أن في جهنم وادياً تعوّذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرةٍ أعد ذلك للمرائين من القراء .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " تعوّذ بالله من جب الحزن ، قيل من يسكنه ؟ قال : المراؤون بأعمالهم " .

وأخرج البيهقي عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله عز وجل : كل من عمل عملاً أراد به غيري فأنا منه بريء " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء يوم يجازي الله العباد بأعمالهم ، يقول : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، انظروا . . . هل تصيبون عندهم جزاء ؟ " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن محمد بن الحنفية قال : كل ما لا يبتغى به وجه الله يضمحل .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد ، عن أبي العالية قال : قال لي أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : يا أبا العالية ، لا تعمل لغير الله فيكلك الله عز وجل إلى عملت له .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ربيع بن خُثيم قال : ما لم يرد به وجه الله عز وجل يضمحل .

وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن ، عن إسماعيل بن أبي رافع قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض ، شيعها سبعون ألف ملك ؟ سورة الكهف ، من قرأها يوم الجمعة غفر الله له بها إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام من بعدها ، وأعطى نوراً يبلغ السماء ، ووقي من فتنة الدجال . ومن قرأ الخمس آيات من خاتمتها حين يأخذ مضجعه من فراشه ، حفظ وبعث من أي الليل شاء " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن معاوية بن أبي سفيان ، أنه تلا هذه الآية ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية . قال : إنها آخر آية نزلت من القرآن .

(111/480)

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم " .

وأخرج ابن راهويه والبزار وابن مردويه والحاكم وصححه والشيرازي في الألقاب ، عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ في ليلة ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية ، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة " .

وأخرج ابن الضريس عن أبي الدرداء قال : من حفظ خاتمة الكهف ، كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه . والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(112/480)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) ﴾

قوله : ﴿ نُزُلاً ﴾ : فيه ما تقدَّم : من كونِه اسمَ مكانِ النزولِ ، او ما يُعَدُّ للضيفِ . وفي نصبه وجهان ، أحدهما : أنه خبر "كانت" ، و "لهم" متعلقٌ بمحذوفٍ على أنَّه حال مِنْ "نُزُلا" ، أو على البيان ، أو ب "كانت" عند مَنْ يرى ذلك . والثاني : أنه حالٌ من "جنات" ، أي : ذوات نُزُلٍ ، والخبرُ الجارُّ .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) ﴾

قوله : ﴿ لاَيَبْغُونَ ﴾ : الجملةُ حالٌ : إمَّا مِنْ صاحب " خالدين " ، وإمَّا من الضمير في " خالدين " ، فتكونُ حالاً متداخلة .

والحِوَل : قيل : مصدرٌ بمعنى التحوُّل : يُقال : حال عن مكانه حِوَلاً ، فهو مصدرٌ كالعِوَج والعِوَد والصِّغَر قال :

3204- لكلِّ دولةٍ أجلُ . . . ثم يُتاحُ لها حِوَل

وقال الزجاج : " هو عند قومٍ بمعنى الحِيلة في التنقُّل " . وقال ابن عطية : " والحِوَلُ : بمعنى التحوُّل " قال مجاهد : " مُتَحَوَّلاً " وأنشد الرجز المتقدم ثم قال : " وكأنه اسم جمع ، وكأنَّ واحدَة حوالة " قلت : وهذا غريب والمشهورُ الأولُ . والتصحيح في فِعَل هو الكثير إن كان مفرداً نحو : الحِوَل وإن كان جمعاً فالعكسُ نحو : " ثِيَرة " و . . . .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) ﴾

قوله : ﴿ تَنفَدَ ﴾ : قرأ الأَخوان "يَنْفَدَ " بالياء من تحتُ ؛ لأنَّ التأنيثَ مجازي . والباقون بالتاء من فوقُ لتأنيثِ اللفظ . وقرأ السُّلمي - ورُويت عن أبي عمرو وعاصم - تَنَفَّدَ - بتشديدِ الفاءِ ، وهو مُطاوِعُ نَفَّدَ بالتشديد نحو : كسَّرته فتكسَّر . وقراءةُ الباقين مطاوعُ أَنْفَدْته .

قوله : " ولو جِئنا " جوابُها محذوف لِفَهْمِ المعنى تقديره : لنفِدَ . والعامَّةُ على " مَدَداً " بفتح الميم . والأعمشُ قرأ بكسرها ، ونصبُه على التمييز كقوله :

3205- . . . . . .

فإنَّ الهوى يَكْفِيْكه مثلُه صَبْرا

وقرأ ابن مسعود وابنُ عباس " مِداداً " كالأول . ونصبُه على التمييز أيضاً عند أبي البقاء . وقال غيرُه - كأبي الفضل الرازي - : إنه منصوب على المصدرِ بمعنى الإِمداد نحو : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] قال : والمعنى : ولو أَمْدَدْناه بمثلِه إمداداً .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

قوله : ﴿ أَنَّمَآ إِلهكم ﴾ : " أنَّ " هذه مصدرية وإنْ كانت مكفوفةً ب " ما " . وهذا المصدر قائمٌ مقامَ الفاعلِ كأنه قيل : إنما يُوْحَى إليَّ التوحيدُ .

قوله : ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ ﴾ العامَّةُ على الياءِ مِنْ تحتُ ، عُطِفَ بها على أمرٍ . ورُوي عن أبي عمرو ﴿ وَلاَ تُشْرِكْ ﴾ بالتاءِ مِنْ فوقُ خطاباً على الالتفات من الغَيْبة إلى الخطاب ثم التُفِتَ في قولِه ﴿ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ﴾ إلى الأول . ولو جيْءَ على الالتفات الثاني : لقيل : ربك .

والباءُ سببية ، أي : بسبب . وقيل : بمعنى في .

والفِرْدوس : الجَنَّةُ مِن الكَرْم خاصة . وقيل : بل ما كان غالبُها كَرْماً . وقيل : كل ما حُوطَ فهو فِرْدوسٌ والجمع فراديس . وقال المبرد : " الفِرْدوس فيما سمعتُ من العرب : الشجرُ الملتفُّ ، والأغلبُ عليه أن يكون من العِنَب " . وحكى الزجاج أنها الأَوْدِيَة التي تُنْبِتُ ضُروباً من النَّبْت . واختُلف فيه : فقيل : هو عربيٌّ وقيل : أعجمي . وهل هو روميٌّ أو فارسيٌّ أو سُرْيانيٌّ ؟ قيل : ولم يُسْمع في كلام العرب إلا في بيت حَسَّان :

(114/480)

3206- وإنَّ ثوابَ اللهِ كلَّ مُوحِّدٍ . . . جنانٌ من الفردوسِ فيها يُخَلَّدُ

وهذا ليس بصحيح ، لأنه سُمع في شعرِ أميةَ بنِ أبي الصلت :

3207- كانت منازلُهمْ إذ ذاك ظاهرةً . . . فيها الفَراديسُ ثم الثومُ والبَصَلُ

ويقال : كَرْمٌ مُفَرْدَسٌ ، أي : مُعَرَّشٌ ، ولهذا سُمِّيَتِ الروضةُ التي دونَ اليَمامة فِرْدَوساً .

وإضافةُ " جنَّات " إلى الفِرْدوس إضافةُ تبيينٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 556.559 ﴾

(115/480)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) ﴾

لهم جنات مُعَجَّلة سراً ، ولهم جنان مؤجلة جهراً .

اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .

اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) ﴾

عرَّفنا – سبحانه – أن ما يخوّله لهم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ؛ فهم أبداً في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لهم الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) ﴾

اي لا تُعَدُّ معاني كلمات الله لأنه لا نهاية لها ؛ فإنَّ متعلقاتِ الصفةِ القديمة لا نهاية لها ؛ كمعلوماتِ الحق – سبحانه – ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .

والذي هو مخلوقٌ لا يَسْتَوْفِي ما هو غير مُتَنَاهٍ – وإنْ كَثُرَ ذلك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

أَخْبِرْ أَنَّكَ لهم من حيث الصورة والجنسية مُشاكِلٌ ، والفَرْقُ بينكَ وبينهم تخصيصُ الله – سبحانه – إياكَ بالرسالة ، وتَرْكه إياهم في الجهالة .

ويقال : قل اختصاصي بما لي من (الاصطفاء) ، وإن كنا – أنا وأنتم – في الصورة أكفاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ .

حَمْلُ الرجاءِ في هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حَسَنٌ ، ولكنَّ تَرْكَ هذا على ظاهره أَوْلَى ؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاءَ الله .

والعارف بالله – سبحانه – يرجو لقاءَ الله والنظرَ إليه .

(116/480)

والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقائه هو صَبْرُه على لواعجِ اشتياقه ، وأَنْ يُخْلِصَ في عمله .

﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ﴾ : أي لا يُلاحِظُ عَمَلَه ، ولا يستكثر طاعته ، ويتبرأ من حَوْله وقُوَّته .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 416.417 ﴾

(117/480)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر ﴾

ويكسبون قوتهم ، ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ؛ أي أجعلها معيبة .

﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ ، أي أمامهم ملك .

روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ : وَكَانَ أَمَامَهُمْ ملك : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ ؛

وكان ابن عباس يقرأ أيضاً كل سفينة صالحة غصباً أَي : كل سفينة بغير عيب .

وكان اسم الملك جلندا ، يعني : أنها لو كانت بغير عيب أخذها الملك ؛ فإذا كانت مع العيب تبقى للمساكين .

قال الفقيه أبو الليث : فيه دليل أن للوصي أن ينقض مال اليتيم إذا رأى فيه صلاحاً ، وهو أنه لو كانت له دار نفيسة ، فخاف أن يطمع فيها بعض السلاطين ، فأراد أن يخرب بعضها

ليبقيها لليتيم جاز .

وروي عن أبي يوسف أنه كان يجيز مصانعة الوصي في مال اليتيم ، وهو يدفع من ماله شيئاً إلى السلطان ليدفعه عن بقية ماله .

﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ ، أي يقول يكلفهما ﴿ طغيانا وَكُفْراً ﴾ ، يقول ؛ تمادياً وإثماً .

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ﴿ يُبَدِّلَهُمَا ﴾ بتشديد الدال ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، ومعناهما واحد .

يقال : بدل وأبدل بمعنى واحد أي يعطيهما ولداً غير هذا الولد .

﴿ رَّبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ ﴾ ، أي أفضل .

﴿ زكواة ﴾ ، أي ولداً صالحاً .

﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ ، أي أوصل رحماً ويقال رحماً .

ويقال : أقرب رحمة وعطفاً عليهما .

قال الكلبي : فولدت امرأته جارية فتزوجها نبي من الأنبياء ، فهدى الله على يده أمة من الأمم .

﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لغلامين يَتِيمَيْنِ فِى المدينة ﴾ أحدهما أصرم والآخر صريم ، ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ ؛ قال الكلبي : أي مال لهما ، وقال مقاتل ومجاهد : كل شيء في القرآن من كنز فهو مال غير هنا ، فإنه الصحف التي فيها علم ؛ وقال الضحاك : كنز لهما أي علم لهما قال الفقيه : حدّثني أبي بإسناده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجد تحت الجدار الذي قال الله تعالى ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ لوح من ذهب ؛ والذهب لا يصدأ ولا ينقص مكتوب فيه بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، عجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يوقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها .

لا إله إلا الله محمد رسول الله .

روي عن ابن عباس أنه قال : كان في اللوح خمس كلمات وذكر نحوه .

قوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ ذا أمانة واسمه كاشح ، فحفظا بصلاح أبيها ولم يذكر منهما صلاحاً .

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنّ الله تَعَالَى لَيُصْلِحُ بِصَلاَحِ الرَّجُلِ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ وَأَهْلَ الدُّوَيْرَاتِ حوله " .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ ، أي يبلغا مبلغ الرجال ، ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا

رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي نعمة من ربك .

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي من قبل نفسي ولكن الله أمرني به .

﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ ﴾ ، أي تفسير ﴿ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ .

تستطع وتسطع بمعنى واحد ، يقال : اسطاع واستطاع .

(119/480)

قال الفقيه رضي الله عنه : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا أبو العباس أحمد بن محمد الدوري قال : حدّثنا الحجاج الأعور قال : حدّثنا حمزة الزيات ، عن أبي إسحق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه وقال : " رَحْمَةُ الله عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى فَلَوْ كَانَ صَبَرَ لَقَصَّ الله عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا " .

وفي رواية أخرى : " لَقَصَّ الله عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا العَجَائِبَ " فلما أراد موسى أن يرجع ، قال للخضر : أوصني .

فقال له الخضر : إياك واللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخطائين بخطاياهم ، وابكِ على خطيئتك يا ابن عمران .

قال مجاهد : إنما سمي الخضر خضراً ، لأنه لا يكون بأرض إلا اخضرت .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين ﴾ ، وكان اسمه اسكندر .

وروي عن وهب بن منبه أنه قيل له : لم سمي ذا القرنين ؟ فقال : اختلف فيه أهل الكتاب ، فقال بعضهم : لأنه ملك الروم وفارس ، وقال بعضهم : لأنه كان في رأسه شبه القرنين ، وقال بعضهم : لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها ، فسماه الملك الذي عند قاف ذا القرنين ، ويقال : رأى في المنام أنه دنا من الشمس وأخذ منها ، فقصَّ رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين ، وقال الزجاج : سمي ذا القرنين لأنه كان له ضفيرتان .

(120/480)

وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : ضرب على قرني رأسه ، وقيل : لأنه بلغ قطر الأرض ؛ وقال عكرمة : كان ذو القرنين نبياً ولقمان نبياً والخضر نبياً ، وروى مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص كان ذو القرنين نبياً ؛ وروي عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين ، فقال : كان رجلاً صالحاً ولقمان كان رجلاً حكيماً ؛ وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذي القرنين فقال : هو ملك يسبح في الأرض ؛ وقال مجاهد : ملك الأرض أربعة ، اثنان مؤمنان واثنان كافران .

أما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين ، وأما الكافران فالنمرود بن كنعان وبختنصر .

قال تعالى : ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ ، أي خبراً وعلماً من الله تعالى .

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ ﴾ ، أي ملكناه وأعطيناه ﴿ وآتيناه مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً ﴾ ، أي علماً ؛ ويقال : أعطيناه علم الوصول إلى كل شيء يحتاج إليه من الحروف وغيرها ، ويقال : علماً بالطريق ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ ، أي أخذ طريقاً فسار إلى المغرب ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ؛ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ حَامِئَةٍ ﴾ بالألف ، وقرأ الباقون ﴿ عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ بغير ألف .

فمن قرأ ﴿ حَامِئَةٍ ﴾ يعني : جائرة ، ومن قرأ بغير ألف يعني : من طينة سوداء منتنة .

وروي أن معاوية قرأ ﴿ فِى عَيْنٍ ﴾ فقال ابن عباس : ما نقرؤها إلا حمئة ، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو : كيف تقرؤها ؟ فقال : كما قرأتها .

قال ابن عباس : في بيتي نزل القرآن ، فبعث معاوية إلى كعب يسأله : أين تجد الشمس تغرب في التوراة ؟ قال : في ماء وطين وقال : في مذرة سوداء .

قال القتبي ﴿ عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ذات حمات ، والحامية حارّة .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ بتشديد التاء وكذلك ما بعده وقرأ الباقون فأتبع بنصب الألف وجزم التاء بغير تشديد .

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ﴾ ، أي عند العين التي تغرب فيها الشمس مؤمنين وكافرين فظهر عليهم .

﴿ قُلْنَا ياذا ذَا القرنين ﴾ ؛ قال مقاتل : أوصى الله تعالى إليه ، وقال ابن عباس : ألهمه الله تعالى .

﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ ﴾ ، يعني : أن تقتل من كان كافراً ؛ ﴿ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ ، يعني : تنعم عليهم وتغفر لمن كان مؤمناً ؛ وقال بعضهم : كانوا كلهم كفاراً قيل له : إما أن تعذب من لم يؤمن ، وإما أن تتخذ فيهم حسناً لمن آمن .

﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ، أي كفر بالله ، ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ ؛ أي نقتله إن لم يتب .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ ﴾ في الآخرة ، ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ في النار ﴿ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ ؛ يقول شديداً .

﴿ وَأَمَّا مَنْ امَنَ ﴾ صدق بالله ، ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فيما بينه وبين الله تعالى ، ﴿ فَلَهُ جَزَاء الحسنى ﴾ .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ جَزَاء ﴾ بنصب الألف والتنوين ، وقرأ الباقون بضم الألف بغير تنوين ؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه أن له الحسنى جزاء ، صار الجزاء نصباً للحال ؛ ومن قرأ بالضم جزاءً للإضافة بغير جزاء إحسان .

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ ، أي سنعد له في الدنيا معروفاً عدة ، ويقال : وسنقول له قولاً جميلاً .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ ، أي أخذ طريقاً .

وقال القتبي : السبب أصله الحبل ، ثمّ كل شيء توصلت به إلى موضع أو حاجة فهو سبب .

تقول : فلان سببي إليك ، أي وصلتي ، وتسمى الطريق سبباً ، لأنه يصل إلى الموضع الذي يريده .

(122/480)

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ ، أي لم يكن لهم من دون الشمس شيء يظلهم ، لا شجر ولا جبل ولا ثوب ، إلا عراة عماة عن الخلق ؛ وكانوا في مكان لا يستقر عليه البناء وقال قتادة : يقال إنهم الزنج ، وكانوا في مكان

لا ينبت فيه نبات ، وكانوا يدخلون سرباً إذا طلعت الشمس ، حتى تزول عنهم ويخرجون في معايشهم .

﴿ كذلك ﴾ يعني : هكذا بلغ مطلع الشمس أيضاً ، كما بلغ مغربها .

ثم استأنف فقال : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ ، أي بما عنده علماً .

وهذا قول مقاتل ﴿ كذلك ﴾ أي : كما أخبرتك بهذا الخبر ، كذلك كان علمنا محيطاً به قبل ذلك .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ ، أي أخذ طريقاً .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ ، أي بين الجبلين ؛ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ السَّدَّيْنِ ﴾ بضم السين وكذلك الثاني والذي في سورة يس ، وروى حفص عن عاصم أنه نصب كله ، وابن كثير وأبو عمرو نصبا هاهنا ورفعا في يس ، وحمزة والكسائي رفعا بين السدين ونصبا ما سوى ذلك وقال بعض أهل اللغة : ما كان مسدوداً خلقة فهو سَد بالنصب ، وما كان بعمل الناس فهو سد بالضم .

وروي عن ابن عباس ومجاهد وقيل : إن المراد هاهنا طرفا الجبل .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ ، أي من قبل الجبلين ﴿ قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ ، أي كلاماً غير كلامهم ولساناً غير لسانهم .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ بضم الياء وكسر القاف ، يعني : أن كلامهم لا يفهمه

أحد غيرهم ؛ وقرأ الباقون ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ بالنصب ، يعني : أنهم لا يفقهون قول غيرهم .

﴿ قَالُواْ يا ذَا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ ، أي يخرجون إلى أرضنا ويأكلون رطبنا ويحملون يابسنا ويقتلون أولادنا .

(123/480)

وكان يأجوج رجلاً ومأجوج رجلاً ، وكانا أخوين من بني يافث بن نوح ، فكثر نسلهما فنسب إليهما .

ويقال : سمي يأجوج ومأجوج لكثرتهم وازدحامهم ، لأنهم يموجون بعضهم في بعض .

﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ ؛ قرأ عاصم : ﴿ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ بهمز الألف ، وقرأ الباقون بغير همز ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ خَرَاجاً ﴾ بالألف وقرأ الباقون ﴿ لَكَ خَرْجاً ﴾ بغير ألف ، ويقال : الخراج هو الضريبة ، والخرج هو الجعل ؛ ويقال : أحدهما اسم والآخر مصدر .

﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا سَدّا ﴾ ، أي حاجزاً .

ف ﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين : ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ ؛ قرأ ابن كثير ﴿ مَا ﴾ بنونين وهو الأصل في اللغة ، وقرأ الباقون ﴿ مَا مَكَّنِّى ﴾ فأدغم إحدى النونين في الأخرى وأقيم

التشديد مقامه ، أي ما ملَّكني وأعطاني فيه ربي من القوة والمال خير من جعلكم في الدنيا ، ويقال : ما يعطيني الله تعالى في الأخرى من ثواب خير .

﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ قالوا : وما تريد ؟ قال : آلة العمل وهي آلة الحدادين .

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ .

قالوا : وَمَا هِيَ ؟ قال : ﴿ زُبَرَ الحديد حتى ﴾ ، أي قطع الحديد ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ سَدّا ﴾ قرأ عاصم في إحدى الروايتين ﴿ إِيتُونِي ﴾ على معنى جيئوني ، وقرأ الباقون ﴿ رَدْمًا ءاتُونِى ﴾ بمد الألف أي أعطوني .

فأتوه بقطع الحديد فبناه .

﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ الصدفين ﴾ بضم الصاد والدال ، وقرأ عاصم بضم الصاد وجزم الدال ، وقرأ الباقون بنصب الصاد والدال ؛ وهما ناحيتا الجبل .

فأخذ قطع الحديد وجعل بينهما حطباً وفحماً ، ووضع المنافخ وقال : انفخوا .

فنفخوه حتى صار كهيئة النار .

ثم أتى بالصفر ويقال بالنحاس ، فأذابه وأفرغ عليه حتى صار جبلاً من حديد ونحاس ، فذلك قوله ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ أي بين الجبلين .

﴿ قَالَ انفخوا ﴾ ، فنفخوا .

﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ ، أي صيَّر الحديد ناراً ، ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ ، وهو الصفر المذاب أصبُبْ عليه .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة ﴿ قَالَ ائتونى ﴾ بجزم الألف والباقون بالمد ﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ ، أي فما قدروا ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ ، يعني : أن يعلوا فوق السد .

﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا ﴾ ، أي ما قدروا على نقب السد .

ويقال : ﴿ مَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا ﴾ أي ما تحت السد في الأرض ، لأنه بناه في الأرض إلى السماء .

قال الفقيه رضي الله عنه : حدّثنا عمرو بن حمد قال : حدّثنا أبو بكر الواسطي قال : حدّثنا إبراهيم بن يوسف قال : حدّثنا أبو حفص ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم : قال :

" إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ الرَّدْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، حَتَّى إذا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْس ، قَالَ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَداً ، فَيُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ .

حَتَّى إذا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ ، قَالَ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُه غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ ، فَإِذا هُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَقُونَ الْمِيَاهَ

وَتُحَصَّنُ النَّاسُ فِي حُصُونِهِمْ ، فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ نغفاً فِي أَقْفِيَتِهِمْ فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ بِهَا " .

p> < وروى أبو صالح ، عن ابن عباس أن يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل منهم حتى يلد لصلبه ألف ابن ، وذكر أن يأجوج ومأجوج ، كما ذكرنا ، وهما ابنا يافث بن نوح ، فإذا انكسر السد ، وذلك عند اقتراب الساعة ، يخرجون فيمرون ببحيرة طبرية بأرض الشام وهي مملوءة ماء فيشربها أولهم ، ثم يمر آخرهم فيقولون لقد كان هاهنا مرة ماء .

(125/480)

قال : والسد نحو بنات نعش ، ثم يمرون بالبحر فيأكلون ما في جوفه من سمك وسرطان وسلحفاة ودابة ، ثم يأكلون ورق الشجر ، ويأكلون ما في الأرض من شيء ، ويهرب الناس منهم فيقتلون من قدروا عليه ، ولا يستطيعون أن يأتوا أربعة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، ومسجد طور سيناء .

ثم لا يرون على الأرض غيرهم ، ثم يقولون : لقد قتلنا أهل الأرض وبقي أهل السماء ، فيرمون سهامهم نحو السماء فتصيب الطير في جو السماء ، فترجع سهامهم مختضبة بالدماء فيقولون : لقد قتلنا أهل السماء وأهل الأرض ولم يبقَ غيرنا .

فيبعث الله تعالى عليهم دوداً يُسمَّى النغف ، فيدخل في آذانهم فيقتلهم ، فتنتن الأرض من

جيفهم ، ثم يرسل الله تعالى أربعين يوماً حتى يحمل السيل جيفهم فيرميها إلى البحر ، ويعود البحر كما كان .

قرأ حمزة ﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف .

فلما فرغ ذو القرنين من بناء السد .

﴿ قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ ، أي هذا السد رحمة من ربي عليكم .

﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى ﴾ ؛ يقول : إذا جاء أجل ربي ، ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاء ﴾ يعني كسراً .

قرأ أهل الكوفة ﴿ دَكَّاء ﴾ بالمد ، وقرأ الباقون بالتنوين ﴿ دَكّاً ﴾ إذا لم يكن لها سنام .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ ، أي صدقاً وكائناً بخروجهم .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ ، أي يحرك في بعض وراء السد ، ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ ؛ قال أبو عبيدة : تنفخ الأرواح في الصور ، وقال عامة المفسرين : يعني : ينفخ إسرافيل في الصور .

وهذا موافق لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَهُ وَحَنَى جَبْهَتَهُ عَلَيْهِ وَيَنْتَظِرُ مَتى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ فِيهِ " ﴿ فجمعناهم جَمْعاً ﴾ ، أي يوم القيامة نجمع يأجوج ومأجوج وجميع الخلق .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، أي كشفنا الغطاء عنها قبل دخولهم جهنم .

﴿ للكافرين عَرْضاً ﴾ ، أي كشفاً ويكون المصدر لتأكيد الكلام .

ثم نعت الكافرين فقال : ﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ ، أي أعين الكافرين ﴿ فِى غِطَاء عَن ذِكْرِى ﴾ ، أي في عمى عن التوحيد والقرآن فلم يؤمنوا .

﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ ، أي استماعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بغضه وعداوته .

﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاء ﴾ ، يعني : أن يعبدوا غيري ؛ ومعناه لا يحسبن الكافرون بأن يتخذوا أولياء يعبدون معي شيئاً ، لأن المشركين كانوا يدعون بعض المؤمنين إلى الشرك وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] ، ويقال : ومعناه أفيظن الذين كفروا أن يعبدوا عبادي ، يعني : الملائكة وعزيراً والمسيح ، من دوني أولياء ، يعني : أرباباً ، ومعناه يظنون أنهم لو اتخذوهم أرباباً تنفعهم عبادتهم ويفوتون من عذابي .

ثم بيّن عذابهم فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾ ، أي منزلاً .

روي عن علي بن أبي طالب أنه قرأ ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بجزم السين وضم الباء ، معناه أيكفيهم مني ومن طاعتي أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء فحسبهم جهنم ﴿ إِنَّا

أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾ أي منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالاخسرين أعمالا ﴾ يعني : الخاسرين أعمالهم ، ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ ؛ أي بطلت أعمالهم ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ ﴾ ، أي يظنون أنهم يفعلون فعلاً حسناً .

قال علي بن أبي طالب : هم الخوارج ؛ وهكذا روي عن أبي أمامة الباهلي ؛ وروي عن سلمان الفارسي أنه قال : هم رهبان النصارى أهل الصوامع ، وهكذا قال مقاتل .

(127/480)

﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ ﴾ ، أي بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ ، أي البعث بعد الموت .

﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ، أي بطلت حسناتهم ، ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ ؛ أي لا توزن أعمالهم مثقال ذرة ، ويقال : لا نقيم لأعمالهم ميزاناً .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم ﴾ ، أي هكذا عقوبتهم .

﴿ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ واتخذوا ءاياتى وَرُسُلِى ﴾ ، أي القرآن ومحمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ هُزُواً ﴾ ، أي استهزاء .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس نُزُلاً ﴾ ، أي منزلاً .

وقال مقاتل : الفردوس بلغة الروم البساتين عليها الحيطان ، وقال السدي : الأعناب بالنبطية ؛ وروى الحسن ، عن سمرة بن جندب قال : الفردوس ربوة خضراء من الجنة هي أعلاها وأحسنها ؛ وقال الكلبي : جنات الفردوس من أدنى الجنان منزلاً ؛ وروى أبو أمامة الباهلي قال : الفردوس سرة الجنة أي أوسطها .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ ، أي دائمين فيها .

﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ ، أي تحولاً رضوا بها وبثوابها .

وقال بعض المفسرين تمام النعمة أنهم لا يتمنون التحول لأنهم لو تمنوا التحول عنها لتنقص النعم عليهم .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبِّى ﴾ ؛ وذلك أن اليهود قالوا : يزعم محمد أن من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، ثم يزعم ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] فكيف نوافق الخير الكثير مع العلم القليل ؟ فنزل : قل يا محمد : ﴿ لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبِّى ﴾ يكتب به ، ﴿ لَنَفِدَ البحر ﴾ وتكسرت الأقلام ، ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبِّى ﴾ ؛ أي لا تنفد كلمات ربي .

كما قال في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : 27] .

﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ ، أي بمثل البحر ، وقرأ بعضهم ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَاداً ﴾ . وقراءة العامة ﴿ مَدَداً ﴾ ومعناهما واحد ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ [البقرة : 269] وهو قليل عند علم الله تعالى .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَىَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ ، أي من يخاف البعث بعد الموت .

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا ﴾ ، أي خالصاً فيما بينه وبين الله تعالى ، ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ ﴾ ؛ أي لا يخلط ولا يرائي ﴿ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ .

وقال سعيد بن جبير ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو ﴾ ، أي من كان يوجو ثواب ربه ؛ وروي عن مجاهد أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني أتصدق بالصدقة وألتمس بها وجه الله ، وأحب أن يقال لي خيراً .

فنزل : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا ﴾ .

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ أَن يَنفَدُ ﴾ بالياء بلفظ التذكير ،

وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث ؛ لأن الفعل إذا كان مقدماً على الاسم يجوز التأنيث والتذكير .

(129/480)

قال الفقيه : حدّثنا أبو الحسن أحمد بن عمران قال : حدّثنا أبو عبد الله المديني ، عن مخلد بن عبد الواحد ، عن الخليل ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن زر بن حبيش ، عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ فَهُوَ مَعْصُومٌ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ ، فَإِنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ فِي تِلْكَ الثَّمَانِيَةِ أَيَّامٍ ، عَصَمَهُ اللهُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وَمَنْ قَرَأَ الآيَةَ الَّتِي فِي آخِرِهَا ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ إلى الخاتِمَةِ حِينَ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ ، كَانَ لَهُ نُورٌ يَتَلأْلأُ فِي مَضْجَعِهِ إلى مَكَّةَ ، حَشْوُ ذلك النُّورِ مَلائِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ مِنْ مَضْجَعِهِ .

وَإِنْ كَانَ مَضْجَعُهُ بِمَكَّةَ فَتَلاَهَا ، كَانَ نُورٌ يَتَلأْلأُ مِنْ مَضْجَعِهِ إلى البَيْتِ المَعْمُورِ ، حَشْوُ ذلكَ النُّورِ مَلائِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ مِنْ نَوْمِهِ " .

إلى غير ذلك مما ورد في فضلها من الأخبار والآثار ؛ وصلى الله على سيدنا محمد النبي المختار وعلى آله وصحابته الأطهار ، صلاة وسلاماً دائمين ما تعاقب الليل والنهار ، آمين

آمين آمين ؛ والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 257 .

266 ﴾

(130/480)

وقال الثعلبى :

﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾

قال كعب : كانت لعشرة إخوة : خمسة منهم زمنى ، وخمسة منهم يعملون في البحر . وفي قوله : ﴿ مَسَاكِينَ ﴾ دليل على أن المسكين وإن كان مَلَكَ شيئاً فلا يزول عنه اسم المسكنة إذا كانت به حاجة إلى ما هو زيادة على ملكه ، ويجوز له أخذ الزكاة . (وأخبرنا أبو بكر عبد الرحمن بن علي الحمشادي ، عن أحمد بن الحسين بن علي الرازي قال : أبو الحسن أحمد بن زكريا المقدسي عن إبراهيم بن عبد الله الصنعاني عن إبراهيم) بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال : قلت لابن عباس : قوله : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾ ، كانوا مساكين والسفينة تساوي ألف دينار ؟ قال : إن المسافر مسكين ولو كان معه ألف دينار . ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم ﴾ أي أمامهم وقدّامهم كقوله تعالى :

﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ [إبراهيم : 16] ﴿ وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ [المؤمنون : 100]

أي أمامهم . قال الشاعر :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . . وقومي تميم والفلاة ورائيا

وقيل : ﴿ وَرَآءَهُم ﴾ : خلفهم ، وكان رجوعهم في طريقهم عليه ، ولم يكونوا يعلمون بخبره فأعلم الله الخضر (عليه السلام) بخبره . ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ ، أي كل سفينة صالحة ، فاكتفى بدلالة الكلام عليه ، يدل عليه ما روى سفيان عن عمر بن دينار عن ابن عباس أنه يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) . فخرقها وعيّبها ، لئلاّ يتعرض لها ذلك الملك ، واسمه جلندى وكان كافراً . قال محمد بن إسحاق : وكان اسمه منواه بن جلندى الأردني . وقال شعيب الجبائي اسمه هدد بن بدد .

(131/480)

﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ ﴾ ، أي فعلمنا . وفي مصحف أُبيّ : (فخاف ربك) أي علم ، ونظائره كثيرة . وقال قطرب : معناه فكرهنا ، كما تقول : فرّقت بين الرجّلين خشية أن يقتتلا ، وليست فيك خشية ولكن كراهة أن يقتتلا . ﴿ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ ، أي يهلكهما . وقيل : يغشاهما . وقال الكلبي : يكلّفهما ﴿ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ ، قال

سعيد بن جبير : خشينا أن يحملهما حبّه على أن يدخلهما معه في دينه .

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ : صلاحاً وإسلاماً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ هو من الرحم والقرابة . وقيل : هو من الرحمة ، يقال : رحَم ورحُم للرحمة ، مثل هلك وهلك ، وعمر وعمر ، قال العجّاج :

ولم تعوَّج رحمُ من تعوّجا . . . قال ابن عباس : ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ يعني : وأوصل للرحم وأبرّ بوالديه . قال قتادة : أقرب خيراً ، وقال ابن جريج : يعني أرحم به منهما بالمقتول . وقال الفراء : وأقرب أن يرحما له . قال الكلبي : أبدلهما الله جارية ، فتزوّجها نبّي من الأنبياء ، فولدت له نبياً فهدى الله عزّ وجلّ على يديه أُمّة من الأُمم . [وأخبرنا عبد الله بن حامد عن حامد بن أحمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن الحرث القاضي عن عبد الوّهاب بن فليح عن ميمون بن عبد الله القدّاح عن] جعفر بن محمد عن أبيه في هذه الآية قال : "أبدلهما جارية فولدت سبعين نبياً" .

وقال ابن جريج : أبدلهما بغلام مسلم وكان المقتول كافراً وكذلك هو في حرف أُبي : (فأما الغلام فكان كافراً ، وكان أبواه مؤمنين) . وقال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فليرضَ امرؤ بقضاء الله ؛ فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .

﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة ﴾ واسمهما أصرم وصريم ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ اختلفوا في ذلك الكنز ما هو ، فقال بعضهم : صحف فيها علم مدفونة تحته ، وهو قول سعيد ابن جبير . وقال ابن عباس : ما كان الكنز إلاّ علماً ، وقال الحسن وجعفر بن محمد : "كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها .

لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله" .

وقد روي " عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول مرفوعاً في بعض الروايات أنه كان مكتوباً في ذلك اللوح تحت ما ذكر هذه الآيات : يا أيُّها المهتم هماً لا تهمّه ، إنك إن تدركك الحمّى تحمّ [. . .] علوت شاهقاً من العلم كيف توقيك وقد جفّ القلم ؟ " .

وقال عكرمة كان ذلك الكنز مالاً . [أخبرنا أبو بكر الحمشادي : حدثنا أبو الحسن أحمد ابن محمد بن قيدوس الطرائفي عن عثمان بن سعيد عن صفوان بن صالح الثقفي عن الوليد بن مسلم عن يزيد بن يوسف الصنعاني عن يزيد بن أبي يزيد عن] مكحول عن [أبي] الدرداء قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾

، قال : كان ذهباً وفضّة" .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ ، واسمه كاشح ، وكان من الأتقياء . ذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح ، وكان بينهما وبين الأب الذي حُفظا به سبعة آباء ، وكان سيّاحاً . [وأخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد عن بشر بن موسى عن الحميدي عن] سفيان عن محمد ابن سوقة عن محمد بن المنكدر قال : إنّ الله عزّ وجلّ ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده ، وعشيرته التي هو فيها ، والدويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله وستره .

(133/480)

وعن سعيد بن المسيّب أنه كان إذا رأى ابنه قال : أي بني لأزيدن صلاتي من أجلك ، رجاء أن أحفظ فيك . ويتلو هذه الآية . [وأخبرنا عبد الله بن حامد عن الحسين بن محمد بن الحسين البلخي عن أحمد بن الليث بن الخليل عن عمر بن محمد قال : حدّثني محمد بن الهيثم ابن عبد الله الضبيعي عن] العباس بن محمد بن عبد الرحمن : حدّثني أبي عن يحيى بن إسماعيل بن مسلمة ابن كهيل قال : كانت لي أخت أسن منّي فاختلطت وذهب عقلها ، وتوحّشت ، وكانت في غرفة في أقصى سطوحها ، فمكثت بذلك بضع

عشرة سنة ، وكانت مع ذهاب عقلها تحرص على الصلاة والطهور . فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ باب بيتي يُدق في نصف الليل ، فقلت : من هذا ؟ قالت : بجّة . قلت : أُختي قالت : أُختك . فقلت : لبيك . وقمت ففتحت الباب ، فدخلت ولا عهد لها بالبيت منذ أكثر من عشر سنين ، فقلت لها : يا أخته خيراً ؟ قالت : خير ، أُتيت الليلة في منامي ، فقيل : السلام عليك يا بجّة ، فقلت : وعليك السلام ، فقيل : إنّ الله قد حفظ أباك إسماعيل بن سلمة بن كهيل بسلمة جدك ، وحفظك بأبيك إسماعيل ، فإن شئت دعوت الله لك فأذهب ما بك ، وإن شئت صبرت ولك الجنّة ، فإن أبا بكر وعمر قد تشفعا لك إلى الله عزّ وجلّ بحب أبيك وجدك إيّاهما .

فقلت : إن كان لا بدّ من اختيار أحدهما ، فالصبر على ما أنا فيه والجنّة ، فإن الله عزّ وجلّ لواسع لخلقه لا يتعاظمه شيء ، إن يشأ يجمعهما لي فعل . قالت : فقيل لي : قد جمعهما الله عزّ وجلّ لك ورضي عن أبيك وجدك بحبهما أبا بكر وعمر ، قومي فانزلي . قال : فأذهب الله ما بها .

(134/480)

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ يا موسى ﴿ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ ، أي يدركا شدّتهما وقوّتهما .

وقيل : ثماني عشرة سنة ، ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ المكنوز تحت الجدار ، ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ برأيي ومن تلقاء نفسي ، بل فعلت عن أمر الله عزّ وجلّ . ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ و (اسطاع) و (استطاع) بمعنى واحد .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ ، اختلفوا في نبوّته فقال بعضهم : كان نبياً . وقال الآخرون : كان ملكاً عادلاً صالحاً . [أخبرنا أبو منصور الحمشادي : أبو عبد الله محمد بن يوسف عن] وكيع عن العلاء بن عبد الكريم قال : سمعت مجاهداً يقول : ملك الأرض أربعة : مؤمنان ، وكافران . فأما المؤنان فسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران فنمرود وبخت نصّر .

واختلفوا في سبب تسميته بذي القرنين ، فقال بعضهم : سُمي بذلك ، لأنه ملك الروم وفارس . وقيل : لأنه كان في رأسه شبه القرنين . وقيل : لأنه رأى في منامه كأنه أخذ بقرني الشمس فكان تأويل رؤياه أنه طاف الشرق والغرب . وقيل : لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن ثمّ دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر . وقيل : لأنه كان له ذؤابتان حسناوان ، والذؤابة تسمى قرناً . وقيل : لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس ، وهو حي . وقيل :

لأنه إذا كان حارب قاتل بيده وركابه جميعاً . وقيل : لأنه أُعطي علم الظاهر الباطن . وقيل : لأنه دخل النور والظلمة .

(135/480)

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرض ﴾ أوطأنا له في الأرض فملكها وهديناه طرقها ، ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شيء يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء ﴿ سَبَباً ﴾ علماً يتسبّب به إليه . وقال الحسن : بلاغاً إلى حيث أراد . وقيل : قربنا إليه أقطار الأرض ، كما سخرنا الريح لسليمان (عليه السلام) .

﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ : سلك وسار . وقرأ أهل الكوفة : (فأتبع) ، (ثمّ اتبع) بقطع الألف وجزم الثاني : لحق ﴿ سَبَباً ﴾ ، قال ابن عباس : منزلاً ، وقال مجاهد : طريقاً بين المشرق والمغرب ، نظير قوله تعالى : ﴿ لعلي أَبْلُغُ الأسباب * أَسْبَابَ السماوات ﴾ [غافر : 36-37] يعني الطرق .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرأ العبادلة : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير ، والحسن ، وأبو جعفر ، وابن عامر وأيوب ، وأهل الكوفة : (حامية) بالألف ، أي حارة . ويدل عليه ما [

أخبرنا عبد الله بن حامد عن أحمد بن عبد الله بن سليمان عن عثمان بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون عن سفيان بن الحسين عن الحكم ابن عيينة عن] إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذرّ قال : كنت ردف النبّي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أبا ذر أين تغرب هذه ؟ " . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " فإنها تغرب في عين حامية " .

وقال عبد الله بن عمرو : " نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال : " في نار الله الحامية ، في نار الله الحامية فلولا ما يزعمها من أمر الله عزّ وجلّ لأحرقت ما على الأرض " " .

(136/480)

وقرأ الباقون : ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ مهموزة بغير ألف ، يعني : ذات حمأة ، وهي الطينة السوداء . يدل عليه ما روى سعد بن أوس عن مصرع بن يحيى عن ابن عباس قال : أقرأنيها أُبيّ بن كعب كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ وقال كعب : أجدها في التوراة : (في عين سّوداء) ، فوافق ابن عباس . أبو أسامة عن عمرو بن ميمون قال : سمعت أبا حاضر أو ابن حاضر رجل من الأزد يقول : سمعت ابن عباس يقول : إنّي لجالس عند معاوية إذ قرأ هذه الآية : (وجدها تغرب في عين حامية) فقلت : ما نقرؤها

إلاّ ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ . فقال معاوية لعبد الله بن عمر : وكيف تقرؤها ؟ قال : كما قرأتها يا أمير المؤمنين . قال ابن عباس : فقلت : في بيتي نزل القرآن . فأرسل معاوية إلى كعب ، فجاءه فقال : أين تجد الشمس تغرب في التوراة يا كعب ؟ قال : أما العربية فأنتم أعلم بها ، وأما الشمس فإنّي أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين . قال : فقلت لابن عباس : لو كنت عندكما لانشدت كلاماً تزداد به نصرة في قولك : ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ . قال ابن عباس : فإذن ما هو ؟ فقلت : قول تبع :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً . . . مِلكاً تدين له الملوك وتسجد

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . . أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى معاد الشمس عند غروبها . . . في عين ذي خلب وثأط حرمد

قال : فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت : الطين بكلامهم . قال : فما الثأط ؟ قلت : الحمأة . قال : وما الحرمد ؟ قلت : الأسود . قال : فدعا رجلاً أو غلاماً ، فقال : اكتب ما يقول هذا . وقال أبو العالية : بلغني أن الشمس في عين ، تقذفها العين إلى المشرق .

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ﴾ ، يعني ناساً ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ : إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ ، أي تعفو وتصفح . وقيل : تأسرهم فتعلّمهم وتبصّرهم الرّشاد .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ، أي كفر ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ : نقتله ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ في الآخرة ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ : منكراً . ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى ﴾ ، قرأ أهل الكوفة ﴿ جَزَآءً ﴾ نصباً منوّناً على معنى : فله الحسنى جزاء نصب على المصدر ، وقرأ الباقون بالرفع على الإضافة . ولها وجهان : أحدهما أن يكون المراد بالحسنى : الأعمال الصالحة ، والوجه الثاني أن يكون معنى الحسنى : الجنّة ، فأُضيف الجزاء إليهما كما قال : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ [يوسف : 109] والدار هي الآخرة : و ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ [البينة : 5] .

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ أي نلين له القول ، ونهوّن له الأمر . وقال مجاهد : ﴿ يُسْراً ﴾ أي معروفاً .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ ، أي سلك طريقاً ومنازل ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ ، قال قتادة : لم يكن بينهم وبين الشمس ستر ؛ وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليهم بناء ، وأنهم كانوا في شرب لهم ، حتّى إذا زالت الشمس عنهم ، خرجوا إلى معايشهم وحروثهم .

وقال الحسن : كانت أرضهم أرضاً لا تحتمل البناء ، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس تهوّروا في الماء ، فإذا ارتفعت عليهم خرجوا فتراعوا كما تراعى البهائم . وقال ابن جريج : جاءهم جيش مرّة فقال لهم أهلها : لا تطلع عليكم الشمس وأنتم بها ، فقالوا : ما نبرح حتّى تطلع الشمس . وقالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا . قال : فذهبوا هاربين في الأرض . قال قتادة : ويقال : إنهم الزنج . وقال الكلبي : هم تاريس وتاويل ومنسك عراة حفاة عماة عن الحق ، قال : وحدثنا عمرو بن مالك بن أُميّة قال : وجدت رجلاً بسمرقند يحدّث الناس وهم مجتمعون حوله ، فسألت بعض من سمع حديثه فأخبرني أنّه حدّثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس قال : خرجت حتّى جاوزت الصين ثمّ سألت عنهم فقيل لي : إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة . فاستأجرت رجلاً فسرت بقية عشيتي وليلتي حتّى صبحتهم ، فإذا أحدهم يفرش أُذنه ويلبس الأُخرى قال : وكان صاحبي يحسن لسانهم فسألهم وقال : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس . قال : فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشي عليّ فوقعت فأفقت ، وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهيئة الزيت وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط ، فلمّا ارتفعت أدخلوني سربا لهم أنا وصاحبي ، فلّما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السّمك فيطرحونه في الشمس فينضج .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : يعني كما بلغ مغرب الشمس فكذلك بلغ مطلعها . وقيل : أتبع سبباً كما أتبع سبباً . وقيل : كما وجد [القبيلتين] عند مغرب الشمس وحكم فيهم ، كذلك وجد عند مطلع الشمس فحكم فيهم بحكم أولئك . وقيل : إنّ الله عزّ وجلّ لمّا قصّ عليه خبره قال : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كذلك أمرُهم والخبر عنهم كما قصصنا عليك ، ثمّ استأنف وقال : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ ، يعني عنده ومعه من الملك والجيوش والآلات ﴿ خُبْراً ﴾ : علماً .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ بفتح السّين ، ابن كثير وأبو عمرو وعاصم . الباقون بالضم . قال الكسائي : هما لغتان ، وهما جبلان سدّ ذو القرنين ما بينهما حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن ورائهم . قال عكرمة : ما كان صنعة بني آدم فهو سدّ بفتح السين وما كان من صنع الله عزّ وجلّ فهو السّد ، بالضم . قال ابن عباس : السدان أرمينية وآذربيجان . ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ بضم الياء ، وكسر القاف على معنى (يُفهمون) غيرهم ، وقرأ الباقون : ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ بفتح الياء والقاف ، أي ويعلمون ويفقهون قولاً .

(140/480)

﴿ قَالُواْ يَاذَا القرنين ﴾ قيل : كلّمهُ عنهم قوم آخرون مترجمة ، وبيان ذلك في قراءة ابن مسعود : (لا يكادون يفقهون قولاً ، قال الذين من دونهم يا ذا القرنين) . وقيل : معناه : لا يكادون يفقهون خيراً من شر ، ولا ضلالاً من هدى ، ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ قرأهما عاصم والأعرج مهموزين ، الباقون بغير همزة . وهما لغتان . قالوا : وأصله من (أجيج النّار) ، وهو ضوؤها وشررها ، شُبّهوا به في كثرتهم وشدّتهم . قال وهب بن منبه ومقاتل بن سليمان : هم من ولد يافث ابن نوح ، وقال الضحّاك : هم جيل من الترك . وقال كعب : هم نادرة من ولد آدم من غير حوّاء ، وذلك أنّ آدم (عليه السلام) قال ذات يوم فاحتلم ، وامتزجت نطفته في التراب ، فلما انتبه أسف على ذلك الماء الذي خرج منه ، فخلق الله تعالى من ذلك الماء يأجوج ومأجوج ، وهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم .

(141/480)

وقوله تعالى : ﴿ مُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ ، قال سعيد بن عبد العزيز : فسادهم في الأرض أنهم كانوا يأكلون الناس . قال الكلبي : كانوا يخرجون إلى أرضهم أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلاّ أكلوه ، ولا شيئاً يابساً إلاّ احتملوه فأدخلوه أرضهم ، وقد لقوا منهم أذىً شديداً وقتلاً . وقيل : معناه : أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم . [أخبرنا عبد الله بن حامد الوّزان عن عبد الله بن المبارك عن إبراهيم بن عبد الله النسوي : محمد بن المصفي : يحيى بن سعيد عن محمد بن إسحاق عن] الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : سألت النبّي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال : " " يأجوج أُمّة ومأجوج أُمّة ، كل أُمّة أربعمئة ألف أُمّة ، لا يموت الرجل منهم حتّى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلّهم قد حمل السلاح " . قيل : يا رسول الله صفهم لنا . قال : " هم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز " قيل : يا رسول الله ، وما الأُرز ؟ قال : " شجرة بالشام طول الشجر عشرون ومئة ذراع في السماء ، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومئة ذراع ، وصنف منهم يفرش أذنه ويلتحف بالأُخرى ، لا يمرّون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلاّ أكلوه ومن مات منهم أكلوه . مقدّمهم بالشام وساقتهم بخراسان ، ويشربون أنهار المشرق وبحيرة الطبرية " " .

قال وهب بن منبه : كان ذو القرنين رجلاً من الروم ، ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره ، وكان اسمه الإسكندر ، فلمّا بلغ وكان عبداً صالحاً ، قال الله تعالى : " يا ذا القرنين إني باعثك إلى أُمم الأرض ، وهي أُمم مختلفة ألسنتهم ، وهم جميع أهل الأرض ، ومنهم أُمتان بينهما عرض الأرض كلّه وأمم وسط الأرض منهم الجّن والإنس ويأجوج ومأجوج . وأما اللتان بينهما طول الأرض ، فأُمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأمّا الأخرى فعند مطلعها يقال لها منسك ، وأمّا اللتان بينهما عرض الأرض فأُمّة في قطر الأرض الأيمن يُقال لها : هاويل ، والأخرى في قطر الأرض الأيسر يُقال لها : تاويل " .

(143/480)

فلمّا قال الله تعالى له ذلك ، قال ذو القرنين . "يا إلهي إنّك قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلاّ أنت ، فأخبرني عن هذه الأمم التي بعثتني إليها بأي قوّة أُكابرهم ؟ وبأي جمع وبأي حيلة أُكاثرهم ؟ وبأي صبر أُواسيهم ؟ وبأي لسان أُناطقهم ؟ وكيف لي بأن أفقه لغاتهم ؟ وبأي سمع أسمع أقوالهم ؟ وبأي بصر أنقدهم ؟ وبأي حجة أُخاصمهم ؟ وبأي عقل أعقل عنهم ؟ وبأي حكمة أُدبر أمرهم ؟ وبأي قسط أعدل بينهم ؟ وبأي حلم أُصابرهم ؟ وبأي

معرفة أفصل بينهم ؟ وبأي علم أُتقن أُمورهم ؟ وبأي يد أسطو عليهم ؟ وبأي رجل أطؤهم ؟ وبأي طاقة أُحصيهم ؟ وبأي جند أُقاتلهم ؟ وبأي رفق أتألّفهم ؟ وليس عندي يا إلهي شيء مما ذكرت يقوم بهم ولا يقوى عليهم ولا يطيقهم ، وأنت الرؤوف الرحيم لا تكلّف نفساً إلاّ وسعها ، ولا تحملها إلاّ طاقتها ، ولا تشقيها بل أنت ترحمها" . قال الله تعالى : "إنّي سأُطوقك ما حمّلتك : أشرح لك صدرك فتسمع كل شيء ، وأشرح لك فهمك فتفهم كلّ شيء ، وأبسط لك لسانك فتنطق بكلّ شيء ، وأفتح لك سمعك فتعي كلّ شيء ، وأمدّ لك بصرك فتنقد كلّ شيء ، وأُحصي لك فلا يفوتك شيء ، وأشدّ لك عضدك فلا يهولك شيء ، وأشدّ لك ركنك فلا يغلبك شيء ، وأشد لك قلبك فلا يفزعك شيء ، وأحفظ عليك فلا يعزب عنك شيء ، وأبسط لك من بين يديك فتسطو فوق كلّ شيء ، وأشدّ لك وطأتك فتهدّ كل شيء ، وأُلبسك الهيبة فلا يروعك شيء ، وأُسخّر لك النور والظّلمة فأجعلهما جنداً من جنودك يهديك النور من أمامك وتحوطك الظلمة من ورائك" .

(144/480)

فلمّا قيل له ذلك انطلق يؤمُّ الأُمم التي عند مغرب الشمس فلما بلغهم وجد جمعاً وعدداً لا يحصيهم إلاّ الله عزّ وجلّ ، وقوّة وبأساً لا يطيقهم إلاّ الله ، وألسنة مختلفة ، وأهواء متشتتة ، فلمّا رأى ذلك كابرهم بالظلمة ، فضرب حولهم ثلاثة عساكر منها فأحاط بهم في كلّ مكان حتّى جمعتهم في مكان واحد ثمّ أخذ عليهم بالنّور فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعبادته فمنهم من آمن ومنهم من صدّ عنه ، فعمد إلى الذين تولّوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت في أفواههم وآذانهم وأنوفهم وأجوافهم ، ودخلت في بيوتهم ودورهم ، وغشيهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كلّ جانب فماجوا فيه وتحيّروا ، فلمّا أشفقوا أن يهلكوا فيها عجّوا إليه بصوت واحد ، فكشفها عنهم ، وأخذهم عنوة ، فدخلوا في دعوته ، فجنّد من أهل المغرب أُمماً عظيمة ، فجعلهم جنداً واحداً . ثمّ انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم وتحرسهم من خلفهم ، والنور أمامهم يقودهم ويدلّه ، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى وهو يريد الأُمة التي في قطر الأرض الأيمن التي يُقال لها هاويل ، وسخّر الله عزّ وجلّ له يده وقلبه وعقله ورأيه ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملاً .

فانطلق يقود تلك الأُمم وهي تتبعه ، فإذا انتهى إلى بحر أو مخاصة بنى سفناً من ألواح صغار أمثال البغال ، فنظمها في ساعة ثمّ حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود ، فإذا قطع الأنهار والبحار فتقها ، ثمّ دفع إلى كل رجل منهم لوحاً فلا يثقله حمله ، فلم يزل ذلك دأبه حتّى انتهى إلى هاويل فعمل فيه كفعله في ناسك . فلّما خرج منها مضى على وجهه في

ناحية الأرض اليمنى حتّى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجنّد منها جنوداً كفعله في الأُمتين اللتين قبلها .

ثمّ كرّ مقبلاً حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تاويل وهي الأمة التي بجيال هاويل ، وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كلّه فلمّا بلغها عمل فيها وجنّد منها كعمله فيما قبلها .

(145/480)

فلمّا فرغ منها عطف منها إلى الأُمم التي في وسط الأرض من الجّن والإنس ويأجوج ومأجوج ، فلما كان في بعض الطريق ممّا يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له أُمّة صالحة من الإنس : يا ذا القرنين إنّ بين هذين الجبلين خلقاً من خلق الله تعالى ليس فيهم مشابه الإنس ، وفيهم أشباه البهائم يأكلون العشب ويفترسون الدّواب والوحش كما يفترسها السّباع ، ويأكلون [حشرات] الأرض كلها من الحيات والبهائم والعقارب وكلّ ذي روح ممّا خلق الله ، فليس لله تعالى خلق ينمي نماهم في العالم الواحد ولا يزدادون كزيادتهم . فإن أتت مدّة على ما ترى من زيادتهم ونمائهم فلا شك أنهم سيملؤون الأرض ويجلون أهلها منها ويظهرون عليها فيفسدون فيها . وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلاّ ونحن نتوقعهم أن يطلع علينا أوّلهم من بين هذين الجبلين ، ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا

مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ : أعدّوا لي الصخور والحديد والنحاس حتّى أرتاد بلادهم ، وأعلم علمهم ، وأقيس ما بين جبليهم .

(146/480)

ثمّ انطلق يؤمّهم حتّى دفع إليهم وتوسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد ، ذكرهم وأنثاهم ، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرّجل المربوع منّا . قال علي بن أبي طالب : " منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول ، لهم مخالب في [موضع] الأظفار من بين أيدينا وأنياب وأضراس كأضراس السّباع وأنيابها يسمع لها حركة إذا أكلوا كحركة الجرّة من الإبل وكقضم البغل المسن أو الفرس القوي ، ولهم هلب من الشعر في أجسادهم ما يواريهم وما يتّقون به من الحر والبرد إذا أصابهم . ولكلّ واحد منهم أُذنان عظيمتان أحدهما وبرة والأخرى زغبة يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى ، ويصيف في إحداهما ويشتو في الأُخرى وليس منهم ذكر ولا أُنثى إلاّ وقد عرف أجله الذي يموت فيه ، ومنقطع عمره وذلك أنه لا يموت ميّت من ذكورهم حتّى يخرج من صلبه ألف ولد ، ولا تموت أُنثى حتّى يخرج من رحمها ألف ولد .

فإذا كان ذلك أيقن الموت . وهم يرزقون السينان أيام الربيع كما يستمطر الغيث لحينه

فيقذفون منه كلّ سنّة واحداً فيأكلونه عامهم كله إلى مثلها من القابل فيعمهم على كثرتهم ، وهم يتداعون تداعي الحمام ، ويعوون عواء الذئاب ، ويتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا " .

فلمّا عاين منهم ذلك ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما ، وهو في منقطع أرض الترك ممّا يلي مشرق الشمس فوجد بعد ما بينهما مئة فرسخ ، فلمّا أنشأ في عمله حفر له الأساس حتّى بلغ الماء ، ثمّ جعل عرضه خمسين فرسخاً . وجعل حشوه الصخر ، وطينه النحاس يُذاب ثمّ يُصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ثمّ علاّه وشرّفه بزبر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقاً من نحاس أصفر ، فصار كأنه برد محبّر من صفرة النحاس وحمرته في سواد الحديد .

(147/480)

فلما فرغ منه وأحكمه انطلق عامداً إلى جماعة الإنس ، فبينا هو يسير إذ دفع إلى أُمّة صالحة يهدون بالحق وبه يعدلون ، فوجد أُمة مقسطة مقتصدة يقيمون بالسّوية ، ويحكمون بالعدل ويتراحمون ، حالتهم واحدة وكلمتهم واحدة ، وأخلاقهم مشتبهة وطريقتهم مستقيمة ، وقلوبهم متآلفة ، وسيرتهم مستوية ، وقبورهم بأبواب بيوتهم ، وليس على

بيوتهم أبواب ، وليس عليهم أُمراء ، وليس بينهم قضاة ، ولا بينهم أغنياء ولا ملوك ولا أشراف ، ولا يختلفون ولا يتفاضلون ، ولا يتنازعون ، ولا يستّبون ، ولا يقتلون ، ولا يضحكون ، ولا يحردون ولا تصيبهم الآفات التي تصيب النّاس ، وهم أطول الناس أعماراً ، وليس فيهم مسكين ولا فقير ، ولا فظ ولا غليظ . فلما رأى ذلك من أمرهم عجب وقال : " أخبروني أيّها القوم خبركم ، فإنّي قد أحصيت الأرض كلّها ؛ برّها وبحرها ، وشرقها وغربها ، فلم أرَ أحداً مثلكم ، فخبروني خبركم " . قالوا نعم : فسلنا عمّا تريد . قال : "خبروني ما بال قبوركم على أبواب بيوتكم ؟" . قالوا : عمداً فعلنا ذلك ، لئلا ننسى الموت ، ولا يخرج ذكره من قلوبنا .

قال : " فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب ؟ " . قالوا : ليس فينا متّهم ، وليس فينا إلاّ أمين مؤتمن . قال : " فما بالكم ليس عليكم أمير ؟ " . قالوا : لا حاجة لنا إلى ذلك .

قال : " فما بالكم ليس فيكم حكّام ؟ " . قالوا : لا نختصم .

قال : " فما بالكم ليس فيكم أغنياء ؟ " . قالوا : لا نتكاثر .

قال : " فما بالكم ليس فيكم ملوك ؟ " . قالوا : لا نفتخر .

قال : " فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون ؟ " . قالوا : مِن أُلفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا .

قال : " فما بالكم لا تقتتلون ؟ " . قالوا : من أجل أنّا شُبنا أنفسنا بالأحلام . قال : " فما

بال كلمتكم واحدة ، وطريقتكم مستقيمة ؟ " . قالوا : من قبل أنا لا نتكاثر ، ولا نتخادع ، ولا يغتال بعضنا بعضاً .

(148/480)

قال : " فأخبروني من أين تشابهت قلوبكم ، واعتدلت سيرتكم ؟ " . قالوا : صحت صدورنا فنُزع بذلك الغل والحسد من قلوبنا .

قال : " فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير ؟ " . قالوا : من أجل أنا نقسم بالسوية .

قال : " فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ ؟ " . قالوا : من قبل الذل والتواضع .

قال : " فما جعلكم أطول النّاس أعماراً ؟ " . قالوا : من قبل أنا نتعاطى الحقّ ، ونحكم بالعدل .

قال : " فما بالكم لا تضحكون ؟ " . قالوا : لا نغفل عن الاستغفار .

قال : " فما بالكم لا تحزنون ولا تحردون ؟ " . قالوا : من قبل أنّا وطّنّا أنفسنا للبلاء مذ كنّا ، وأحببناه وحرصنا عليه . قال : " فما بالكم لا يصيبكم الآفات كما يصيب النّاس ؟ " . قالوا : لأنّا لا نتوكل على غير الله ، ولا نعمل الأنواء والنجوم .

(149/480)

قال : " وهكذا وجدتم آباءكم يفعلون ؟ " . قالوا : نعم : وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم ، ويواسون فقراءهم ، ويعفون عمّن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويحلمون عمّن جهل عليهم ، ويصلون أرحامهم ، ويؤدون أمانتهم ، ويحفظون وقت صلاتهم ، ويوفون بعهدهم ، ويصدقون في مواعيدهم ، فأصلح الله عزّ وجلّ بذلك أمرهم ، وحفظهم ما كانوا أحياء . وكان حقاً على الله أن يخلفهم في ذريتهم . وروى قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة أن النبّي صلى الله عليه وسلم قال : " إن يأجوج ومأجوج يحفرونه كلّ يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فتحفرونه غداً . فيعيده الله عزّ وجلّ كأشدّ ما كان . حتّى إذا بلغت مدتهم حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله غداً ، فيعود إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه فيخرجون على النّاس فيتبعون المياه ، ويتحصن النّاس في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع فيها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء . فيبعث الله عزّ وجلّ نغفاً عليهم في أقفائهم فيقتلونهم " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده إنّ دواب الأرض لتسمن وتسكر سكراً من لحومهم " . وروى محمود بن قتادة عن أبي سعيد الخدري أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ

حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 96] فيغشون الأرض وينحاز المسلمون عنهم إلى حصونهم ومدائنهم حتى إن أولهم يمرون بالنهر من أنهار الأرض " قال أبو الهيثم : الدجلة " فيشربون حتى يصير يابسة ، فيمر به الذين من بعدهم فيقولون : لقد كان بهذا المكان ماء مرّة ، حتى إذا ظهروا على أهل الأرض قالوا : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ، وبقي أهل السماء " .

(150/480)

قال صلى الله عليه وسلم " فيهزّ أحدهم حربته ثمّ يقذفها إلى السماء فترجع إليه مختضبة دماً للفتنة . فبينا هم كذلك إذ يبعث الله عزّ وجلّ عليهم دوداً كنغف الجراد فيموتون موت الجراد ، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً ، فيقولون : هل من رجل يشتري لنا نفسه فينظر ما فعل هؤلاء القوم ؟ فينزل رجل منهم قد أيقن أنه مقتول ، فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي أصحابه : أبشروا ، فقد كفاكم الله عزّ وجلّ عدوّكم . فيخرج المسلمون فيرسلون مواشيهم فيهم فما يكون لها رعىً غير لحومهم وتكثر عليه كأحسن ما تكثر على شيء من النبات أصابته قط " .

قال وهب : إنهم كانوا يأتون البحر فيشربون ماءها ، ويأكلون دوابّها ، ثمّ يأكلون الخشب والشجر ومن ظفروا به من النّاس ، ولا يقدرون أن يأتوا مكّة ولا المدينة ولا بيت المقدس .

(151/480)

في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ قرأ أهل الكوفة : (خراجاً) بالألف . الباقون بغير ألف ، وهما لغتان ، بمعنى واحد . وقال أبو عمرو بن العلاء : الخرج : ما تبرّعت به ، والخراج : ما لزمك أداؤه . ﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ : حاجزاً فلا يصلون إلينا ؟ ﴿ قَالَ ﴾ لهم ذو القرنين : ﴿ مَا مَكَّنِّي ﴾ على الإدغام . وقرأ أهل مكة : (ما مكنني) بنونين بالإظهار ﴿ فِيهِ رَبِّي ﴾ وقوّاني عليه ﴿ خَيْرٌ ﴾ ، ولكن ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ : حاجزاً كالحائط والسدّ . قالوا : وما تلك القوّة ؟ قال : "فعلة وصنّاع يحسنون البناء والعمل والآلة" . قالوا : وما تلك الآلة ؟ قال : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الحديد ﴾ يعني : أعطوني قطع الحديد ، واحدتها زبرة ، فأتوه بها ، فبناه ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ ، وروى مسلم بن خالد عن سعيد بن أبي صالح قال : بلغنا أنه وضع الحطب بين الجبلين ، ثمّ نسج عليه الحديد ، ثمّ نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ ،

وهما الجبلان بضمّ الصاد والدال ، وفتحهما وأمر بالنّار فأُرسلت فيه ، ثمّ ﴿ قَالَ انفخوا ﴾ ، ثمّ جعل يفرغ القطر عليه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ آتوني أُفْرِغْ ﴾ : أصب عليه ﴿ قِطْراً ﴾ ، وهو النحاس المذاب . قال : فجعلت النّار تأكل الحطب ويصب النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس .

﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ ويعلوه من فوقه ، ﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً ﴾ من أسفله . قال قتادة ذُكر لنا " أن رجلاً قال : يا نبيّ الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج . قال : " انعته لي " . قال : كالبرد المحبّر ؛ طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال : " قد رأيته " " .

(152/480)

﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين لمّا فرغ من بنائه يعني هذا السّد : ﴿ هذا ﴾ السّد ﴿ رَحْمَةٌ ﴾ : نعمة ﴿ مِّن رَّبِّي ﴾ ؛ فلذلك لم يقل : هذه . ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ ﴾ ملتزقة مستوية بالأرض من قولهم : ناقة دكّاء أي مستوية الظهر لا سنام لها . ومن قرأ : (دكّاً) بلا مدّ فمعناه : مدكوك يومئذ ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ ، يعني الخلق ﴿ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ ﴾ : يدخل ﴿ فِي بَعْضٍ ﴾ ويختلط إنسهم بجنّهم حيارى ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ في صعيد واحد ، ﴿

وَعَرَضْنَا ﴾ : وأبرزنا ﴿ جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، يعني يوم القيامة ﴿ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾ . ثمّ وصفهم فقال : ﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ ﴾ : غشاوة وغفلة ﴿ عَن ذِكْرِي ﴾ ، يعني : الإيمان والقرآن ﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ ، أي لا يطيقون أن يسمعوا كتاب الله عزّ وجلّ ويتدبّروه ويؤمنوا به لغلبة الشقاء عليهم . وقيل : لعداوتهم النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَفَحَسِبَ ﴾ : أفظنّ . وقرأ عكرمة ومجاهد وعلي : (أفحسْبُ) ، أي كفاهم ذلك ﴿ الذين كفروا أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي ﴾ ، يعني عيسى والملائكة ﴿ مِن دوني أَوْلِيَآءَ ﴾ ؟ كلاّ بل هم لهم أعداء ويتبرؤون منهم . قال ابن عباس : يعني : الشياطين ، تولوهم وأطاعوهم من دون الله . وقال مقاتل : يعني : الأصنام ، وسمّاهم عباداً كما قال في موضع آخر : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف : 194] .

(153/480)

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأخسرين أَعْمَالاً ﴾ يعني الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحاً ، فنالوا به هلاكاً وعطباً ، ولم يدركوا ما طلبوا ، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وربحاً ، فخاب رجاؤه وخسر بيعه . واختلفوا في الذين

عُنوا بذلك فقال علي بن أبي طالب : "هم الرهبان والقسوس الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع" .

وقال سعد بن أبي وقّاص وابن عباس : هم اليهود والنصارى ، نظيره : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ [الغاشية : 3-4] . وروى سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الطفيل قال : سأل عبد الله بن الكوّا علياً عن قوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً ﴾ ، قال : "أنتم يا أهل حروراء" .

﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ ، أي يظنون أنهم بفعلهم مطيعون محسنون ﴿ أولئك الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ ﴾ : بطلت وذهبت ﴿ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ ، قال أبو سعيد الخدري : يأتي أُناس بأعمال يوم القيامة هي في العظم عندهم كجبال تهامة ، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً ، فذلك قوله : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ .

[حدثنا القاضي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن حبيب إملاءً : أبو بكر أحمد بن إسحاق ابن أيوب عن محمد بن إبراهيم : يحيى بن بكير بن المغيرة عن أبي الزّياد عن] الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن جناح بعوضة ، اقرؤوا : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ " .

[أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان عن مكي بن عبدان عن عبد الرحمن بن بشر عن مروان ابن معاوية عن] المغيرة بن مسلم عن سعيد بن عمرو بن عثمان قال : سمعت عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) يقول : الربا سبعون باباً أهونهن مثل نكاح الرجل أُمه .

قال : وأربى الربى عرض أخيك المسلم تشتمه . قال : ويؤتى يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب الذي يشرب الظرف في المجلس فيوزن فلا يعدل جناح بعوضة ، خاب ذلك وخسر ، ثمّ تلا هذه الآية : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ .

﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ واتخذوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾ ، يعني سخرية .

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً ﴾ اختلفوا في الفردوس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الجنّة مئة درجة ، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض . أعلاها الفردوس ، ومنها تفجر أنهار الجنة ، وفوقها عرش الرحمن فسلوه الفردوس " .

[وأخبرنا عبد الله بن حامد عن مكّي بن عبدان عن مسلم بن الحجاج عن نصر بن علي وإسحاق بن إبراهيم وأبي غسان واللفظ له قالوا : قال أبو عبد الصمد : قال] عمران الجويني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبّي صلى الله عليه وسلم قال : "

جنّات الفردوس أربع : جنتان من ذهب أبنيتهما ومافيهما ، وجنتان من فضّة أبنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه " .

(155/480)

وقال شهر : خلق الله جنّة الفردوس بيده فهو يفتحها في كل يوم خميس فيقول : ازدادي حسناً وطيباً لأوليائي . وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها . وقال أبو أُمامة : الفردوس سرة الجنّة . وقال كعب : ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال مجاهد : هو البستان بالرومية . وقال كعب : هو البستان فيه الأعناب . وقال الضحاك : هي الجنّة الملتفة الأشجار . وقيل : هي الروضة المستحسنة . وقيل : هي الأودية التي تنبت ضروباً من النبات ، وجمعها فراديس : وقال أُمية :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة . . . فيها الفراديس والفومان والبصل

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي يطلبون عنها تحولاً إلى غيرها ، وهو مصدر مثل الصعَر والعِوج . قال مخلد بن الحسين : سمعت بعض أصحاب أنس قال : يقول أولهم دخولاً : إنما أدخلني الله أولهم ؛ لأنه ليس أحد أفضل منّي . ويقول آخرهم دخولاً : إنما

أخّرني الله ، لأنه ليس أحد أعطاه مثل الذي أعطاني .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر ﴾ الآية ، قال ابن عباس : قالت اليهود : يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة ، وفي كتابك : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [البقرة : 269] ثمّ يقول : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] فكيف يكون هذا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر ﴾ أي ماؤه ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ حكمه وعجائبه . وقرأ أهل الكوفة (قبل أن ينفد) بالياء ؛ لتقدم الفعل ، ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ : عوناً وزيادة .

(156/480)

وفي مصحف أُبي : (ولو جئنا بمثله مداداً) ونظيرها قوله عزّ وجلّ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ [لقمان : 27] الآية .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ قال ابن عباس : نزلت في جندب بن زهير العامري ، وذلك أنه قال للنبّي صلى الله عليه وسلم إنّي أعمل لله ، فإذا اطّلع عليه سرّني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلاّ الطيب ولا يقبل ما شورك فيه " ،

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال أنس : قال رجل : يانبي الله ، إنّي أُحب الجهاد في سبيل الله ، وأُحب أن يُرى مكاني ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ : خلق آدمي مثلكم . قال ابن عباس : علّم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه ، ﴿ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ : المصير إليه . وقيل : معناه يأمل رؤية ربّه ، فالرجاء يتضمّن معنيين : الخوف والأمل ، قال الشاعر :

فلا كل ما ترجو من الخير كائن . . . ولا كل ما ترجو من الشر واقع

فجمع المعنيين في بيت واحد .

(157/480)

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ : خالصاً ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ ، أي ولا يراءِ .

قال شهر ابن حوشب : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله عزّ وجلّ ويحب أن يحمد عليه ، ويصوم يبتغي وجه الله عزّ وجلّ ويحب أن يحمد ، ويتصدّق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد عليه ، ويحجّ يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد عليه ؟ فقال عبادة : ليس له شيء ، إن الله عزّ وجلّ يقول : " أنا خير شريك ، فمن

كان له معي شريك فهو له كله ولا حاجة لي منه " . [أخبرنا عبد الله بن حامد عن محمد بن عبد الله الجوهري عن حامد بن شعيب البجلي عن شريح بن يونس عن إسماعيل بن جعفر قال : أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اتقوا الشرك الأصغر " . قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : "الرياء يوم يجازي الله النّاس بأعمالهم "

أخبرنا عبد الله بن حامد عن مكّي بن عبدان عن عبد الله بن هاشم عن عبد الرحمن عن] سفيان عن سلمة قال : سمعت جندباً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من سمّع سمّع الله به ، ومن يراءِ يراءِ الله به " .

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن النبّي صلى الله عليه وسلم قال : " اتقوا الشرك الأصغر " . قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : " الرياء يوم يجازي الله الناس بأعمالهم " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا نزلت هذه الآية : " إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفيّ ، وإيّاكم وشرك السرائر فإن الشرك أخفى في أُمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء . ومن صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك " .

قال : فشقّ ذلك على القوم ، فقال رسول الله : " أولا أدلّكم على ما يُذهب عنكم صغير الشرك وكبيره ؟" . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : قولوا : "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم " .

وقال عمرو بن قيس الكندي : سمعت معاوية بن أبي سفيان على المنبر تلا هذه الآية ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ الآية ، فقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن . وروى سعيد بن المسيب عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أوحي إلّي أن من قرأ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ الآية رفع له نور ما بين عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة " .

[وأخبرني محمد بن القاسم عن محمد بن زيد قال : أبو يحيى البزاز عن أحمد بن يوسف عن محمد بن العلا عن زياد بن قايد عن] سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلّها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 186 . 204 ﴾

(159/480)

وقال الزمخشرى :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79) ﴾

لِمَساكِينَ قيل كانت لعشرة إخوة ، خمسة منهم زمنى ، وخمسة يعملون في البحر وَراءَهُمْ أمامهم ، كقوله تعالى وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ وقيل : خلفهم ، وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره ، فأعلم اللّه به الخضر وهو «جلندى» «1» . فإن قلت : قوله فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا

---

(1) . قوله «و هو جلندى» : في الخازن : وكان اسمه الجلندى الأزدى ، وكان كافرا . وقيل : كان اسمه حرد ابن برد . (ع)

(160/480)

مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب «1» ، فلم قدّم عليه ؟

قلت :

النية به التأخير ، وإنما قدم للعناية ، ولأنّ خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين ، فكان بمنزلة قولك : زيد ظنى مقيم . وقيل في قراءة أبىّ وعبد اللّه : كل

سفينة صالحة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 80 إلى 82]

وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً (80) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (81) وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (82)

وقرأ الجحدري: وكان أبواه مؤمنان، على أن «كان» فيه ضمير الشأن فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما، وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه، ويلحق بهما شرا وبلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر. أيعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان وإنما خشي الخضر منه ذلك، لأن اللّه تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره. وأمره إياه بقتله كاختراقه لمفسدة عرفها في حياته. وفي قراءة أبيّ: فخاف ربك. والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره. ويجوز أن يكون قوله فَخَشِينا حكاية لقول اللّه تعالى، بمعنى: فكرهنا، كقوله لِأَهَبَ لَكِ

.

وقرئ: يبدّلهما، بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة

والعطف . وروى أنه ولدت لهما جارية تزوّجها نبىّ ، فولدت نبيا هدى اللّه على يديه أمّة من الأمم . وقيل : ولدت سبعين نبيا . وقيل : أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما . قيل :

---

(1) . قال محمود : «إن قلت قوله فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها مسبب عن خوف الغصب عليها . . . الخ» قال أحمد : وكأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين ، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك في غصب السفن ، وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد ، فلا يحتاج إلى جعله مقدما والنية تأخيره ، واللّه أعلم . ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي والمخالفة بينها في الأسلوب عجبا . ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما وفَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع اللّه تعالى ، لأن المراد ثم عيب ، فتأدب ثم نسب الاعابة إلى نفسه . وإما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور ، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك : أمرنا بكذا ، أو دبرنا كذا ، وإنما يعنون أمر الملك ودبر ، ويدل على ذلك قوله في الثالثة فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ولم تأت على نمط واحد مكرر يمجها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة ، فسبحان اللطيف الخبير .

اسما الغلامين : أصرم ، وصريم . والغلام المقتول : اسمه الحسين . واختلف في الكنز ، فقيل :

مال مدفون من ذهب وفضة «1» . وقيل : لوح من ذهب مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها . لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه «2» . وقيل : صحف فيها علم . والظاهر لإطلاقه : أنه مال .

وعن قتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا ، وحرّمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا : أراد قوله تعالى وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ . وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما . وعن جعفر بن محمد الصادق : كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء . وعن الحسين بن على رضى اللّه تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ اللّه الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما . قال : فأبى وجدّى خير منه : فقال : قد أنبأنا اللّه أنكم قوم خصمون رَحْمَةً مفعول له . أو مصدر منصوب بأراد

ربك ، لأنه في معنى رحمهما وَما فَعَلْتُهُ وما فعلت ما رأيت عَنْ أَمْرِي عن اجتهادي ورأيي ، وإنما فعلته بأمر اللّه .

[سورة الكهف (18) : الآيات 83 إلى 88]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (86) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88)

---

(1) . أخرجه الترمذي والحاكم والبزار والطبراني وابن عدى من طريق مكحول . عن أم الدرداء عن أبى الدرداء وفيه يزيد بن الصنعاني وهو ضعيف .

(2) . أخرجه البزار من رواية ابن حجيرة عن أبى ذر مرفوعا بهذا ، وأتم منه . وقال لا نعلمه عن أبى ذر إلا بهذا الاسناد . وروى الدارقطني في غرائب مالك من طريق محمد بن صالح بن فيروز عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال «سئل ابن عباس عن الكنز . فذكره - وقال : هذا باطل عن مالك . وروى ابن عدى . ومن رواية أبين ابن سفيان والطبراني في الدعاء . من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن أبى حازم عن ابن عباس نحوه وعن على مثل لفظ المصنف أخرجه البيهقي في الشعب من رواية جويبر عن الضحاك عن النزال بن

سبرة عنه . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن على مرفوعا . ورواه ابن شاهين في الجنائز . والواحدي من رواية محمد بن مروان السدى الصغير :

عن أيان عن أنس مرفوعا أيضا . وأبان والسدى الصغير متروكان .

(162/480)

ذو القرنين : هو الإسكندر الذي ملك الدنيا . قيل : ملكها مؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان وكافران : نمروذ ، وبخت نصر «1» ، وكان بعد نمروذ . واختلف فيه فقيل : كان عبدا صالحا ملكه اللّه الأرض ، وأعطاه العلم والحكمة ، وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه . وقيل : نبيا . وقيل : ملكا من الملائكة . وعن عمر رضى اللّه عنه أنه سمع رجلا يقول : يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفرا ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة . وعن علىّ رضى اللّه عنه . سخر له السحاب ، ومدّت له الأسباب ، وبسط له النور وسئل عنه فقال ، أحبه اللّه فأحبه . وسأله ابن الكوّا : ما ذو القرنين ؟ أملك أم نبىّ فقال :

ليس بملك ولا نبىّ ، ولكن كان عبدا صالحا ، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة اللّه فمات ، ثم بعثه اللّه فضرب على قرنه الأيسر فمات ، فبعثه اللّه فسمى ذا القرنين وفيكم مثله . قيل

: كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه اللّه تعالى . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : سمى ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا «2» يعنى جانبيها شرقها وغربها . وقيل : كان له قرنان ، أى ضفيرتان . وقيل : انقرض في وقته قرنان من الناس . وعن وهب : لأنه ملك الروم وفارس . وروى : الروم والترك . وعنه كانت صفحتا رأسه من نحاس . وقيل كان لتاجه قرنان . وقيل : كان على رأسه ما يشبه القرنين .

ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لأنه ينطح أقرانه ، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره . والسائلون : هم اليهود سألوه على جهة الامتحان . وقيل : سأله أبو جهل وأشياعه ، والخطاب في عَلَيْكُمْ لأحد الفريقين مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أى من أسباب كل شيء ، أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه سَبَباً طريقا موصلا إليه ، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ، فأراد بلوغ المغرب فَأَتْبَعَ سَبَباً يوصله إليه حتى بلغ ، وكذلك أراد المشرق ، فأتبع سببا ، وأراد بلوغ السدّين فاتبع سببا . وقرئ : فأتبع . قرئ : حمئة ، من حمئت البئر إذا صار فيها الحمأة . وحامية بمعنى حارّة . وعن أبى ذرّ : كنت رديف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على جمل ، فرأى الشمس حين غابت فقال . «يا أبا ذرّ ، أتدري أين تغرب هذه ؟

فقلت : اللّه ورسوله أعلم «3» . قال : فإنها تغرب في عين حامية ، وهي قراءة ابن مسعود وطلحة

---

(1) . أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مجاهد . قال «لم يملك الأرض كلها إلا أربعة : مؤمنان ، وكافران فذكره» .

(2) . لم أجده مرفوعا وإنما رواه الدارقطني في المؤتلف . من رواية عبد العزيز بن عمران . عن سليمان بن أسيد عن الزهري قال : إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها .

(3) . كذا في نسخ الكشاف على جمل . والذي في كتب الحديث «على حمار» ولم يصرح فيه بالارداف . عن أبى داود والحاكم من طريق الحكم بن عيينة عن إبراهيم التيمي عن أبيه . عن أبى ذر رضى اللّه عنه قال «كنت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو على حمار . والشمس عند غروبها فقال : هل تدرى أين تغرب هذه ؟ قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال فإنها تغرب في عين حامية» زاد الحاكم غير مهموزة . ورواه ابن أبى شيبة . وأحمد وأبو يعلى والبزار وزاد «و تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش ، فإذا كان خروجها أذن اللّه لها وإذا أراد اللّه أن يطلعها من مغربها حبسها ، فيقول . اطلعى من حيث غربت . فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها» وقال تفرد به سفيان بن حسين عن الحاكم . ورواه الجماعة عن إبراهيم التيمي . وهو في الصحيحين دون قوله «تغرب في عين حامية» وأوله «كنت مع النبي صلى اللّه عليه وسلم جالسا» الحديث .

وابن عمر وابن عمرو والحسن . وقرأ ابن عباس : حمئة . وكان ابن عباس عند معاوية ، فقرأ معاوية : حامية فقال ابن عباس : حمئة . فقال معاوية لعبد اللّه بن عمرو : كيف تقرأ ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار . كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال . في ماء وطين ، كذلك نجده في التوراة . وروى : في ثأط ، فوافق قول ابن عباس ، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع .

فرأى مغيب الشّمس عند مآبها في عين ذى خلب وثاط حرمد «1»

أى في عين ماء ذى طين وحمإ أسود ، ولا تنافى بين الحمئة والحامية ، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا . كانوا كفرة فخيره اللّه بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام ، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم فقال : أمّا من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك : فذلك هو المعذب في الدارين وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ ما يقتضيه الإيمان فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وقيل : خيره بين القتل والأسر ، وسماه إحسانا في مقابلة القتل فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى فله أن يجازى المثوبة الحسنى . أو فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة . وقرئ : فله جزاء الحسنى ، أى : فله الفعلة الحسنى جزاء . وعن قتادة : كان يطبخ من كفر في القدور ،

(1) قد كان ذو القرنين جدي مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد

بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى مغار الشمس عند مآبها في عين ذى خلب وثأط حرمد

لتبع الأكبر اليماني المذكور في القرآن ، يفتخر بجده إسكندر ذى القرنين ابن فيلسوف اليونانى . ويروى : مر ، بدل جدي . وتدين أى تنقاد . وروى بدله : «علا في الأرض غير مفند» أى غير مكذب ، فلا عيب في القافية والخلب - بضمتين - : الحمأة وهي الطين . والثأط : الحمأة المختلطة بالماء ، فتزيد رطوبة وتفسد . والحرمد : الطين الأسود . مدح ذا القرنين ثم قال : إنه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها ، يبتغى من اللّه أسبابا توصله لمقصده ، فرأى محلى غيار الشمس عند مآبها ، أى رجوعها إليه . ويروى مآب الشمس عند مغيبها : أى غيبوبتها .

وفي عين : متعلق بغار . أو بمحذوف ، أى : رآها تغرب في عين . ويجوز أنه حال من المغار ، لأن العين أوسع منه ، أى في عين ماء ذى طين أسود مختلط بماء ، وهذا موافق لظاهر الآية . وأولها أبو على الجبائي بأن ذلك على سبيل التخييل ، كما أن من لم ير الشاطئ الغربي من البحر المتسع يرى الشمس تغرب فيه ، وفي الحقيقة تغرب في ظلمة وراء الأبيض ، لأن الأرض كروية .

وهو العذاب النكر . ومن آمن أعطاه وكساه مِنْ أَمْرِنا يُسْراً أى لا نأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك ، وتقديره : ذا يسر ، كقوله قَوْلًا مَيْسُوراً وقرئ : يسرا ، بضمتين .

[سورة الكهف (18) : الآيات 89 إلى 91]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (89) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (90) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91)

وقرئ : مطلع ، بفتح اللام وهو مصدر . والمعنى : بلغ مكان مطلع الشمس ، كقوله :

كأنّ مجرّ الرّامسات ذيولها «1»

يريد : كأن آثار مجرّ الرامسات عَلى قَوْمٍ قيل : هم الزنج . والستر : الأبنية ، وعن كعب : أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب ، فإذا طلعت الشمس دخلوها . فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم . وعن بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس ؟ قال : فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة «2» فغشى علىّ ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلونا سربا لهم ، فلما

ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم. وقيل: الستر اللباس. وعن مجاهد:

من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض كَذَلِكَ أى أمر ذى القرنين كذلك، أى كما وصفناه تعظيما لأمره وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ من الجنود والآلات وأسباب الملك خُبْراً تكثيرا لذلك. وقيل: لم نجعل لهم من دونها سترا مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس، والثياب من

---

(1) كأن مجر الرامسات ذيولها عليه قضيم نمقته الصوانع

للنابغة، والمجر ليس مكان الجر، وإنما هو مصدر بمعنى الجر، لأنه لو كان اسم مكان لما عمل النصب، ثم يجب تقدير مضاف ليصح الاخبار عنه بأنه قضيم أى موضع مجر، أى كان المحل الذي تجر الرياح الرامسات ذيولها عليه قضيم، أى جلد أبيض نمقته وحسنته الصوانع للكتابة. وسميت الرياح رامسات من الرمس أى التغييب، لأنها تحمل التراب وتلقيه على الآثار فيدفنها. واستعار الذيول لما يلي الأرض من الرياح على طريق التصريح. ويجوز أن تشبه الرياح بنساء لثيابهن ذيول طويلة يجررنها على الأرض، والذيول تخييل.

(2). قوله «إذ سمعنا كهيئة الصلصلة» في الصحاح «الصلة» واحدة الصلال، وهي

القطع من الأمطار المتفرقة يقع منها الشيء بعد الشيء ، وصلصلة اللجام : صوته إذا ضوعف . (ع)

(165/480)

كل صنف . وقيل : بلغ مطلع الشمس مثل ذلك ، أى : كما بلغ مغربها . وقيل : تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم ، يعنى أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر ، وإحسانه إلى من آمن منهم .

[سورة الكهف (18) : الآيات 92 إلى 93]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (92) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (93)

بَيْنَ السَّدَّيْنِ بين الجبلين وهما جبلان سدّ ذو القرنين ما بينهما . قرئ : بالضم والفتح . وقيل : ما كان من خلق اللّه تعالى فهو مضموم ، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح ، لأنّ السد بالضم فعل بمعنى مفعول ، أى : هو مما فعله اللّه تعالى وخلقه . والسدّ - بالفتح - : مصدر حدث يحدثه الناس . وانتصب بَيْنَ على أنه مفعول به مبلوغ ، كما انجرّ على الإضافة في قوله هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ وكما ارتفع في قوله لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ لأنه من الظروف

التي تستعمل أسماء وظروفا ، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق مِنْ دُونِهِما قَوْماً هم الترك لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم . وقرئ : يفقهون ، أى : لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه ، لأنّ لغتهم غريبة مجهولة .

[سورة الكهف (18) : آية 94]

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94)

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ اسمان أعجميان بدليل منع الصرف . وقرئا : مهموزين . وقرأ رؤبة : آجوج ومأجوج ، وهما من ولد يافث . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الجيل والديلم «1» مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ قيل : كانوا يأكلون الناس ، وقيل : كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه ، ولا يابسا إلا احتملوه ، وكانوا يلقون منهم قتلا وأذى شديدا . وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم في صفتهم : لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه ، كلهم قد حمل السلاح «2» . وقيل : هم على صنفين ، طوال مفرط والطول ،

---

(1) . قوله «من الجيل والديلم» كذا عبارة النسفي أيضا ، ولعله «من جيل الديلم» وفي الصحاح : جيل من الناس ، أى : صنف ، الترك جيل ، والروم جيل . وفيه : الديلم جيل من الناس . (ع)

(2) . أخرجه ابن عدى . والطبراني في الأوسط وابن مردويه . والثعلبي وغيرهم من رواية يحيى بن سعيد عن محمد بن إسحاق عن الأعمش ، عن شقيق . عن حذيفة قال «سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج فقال : يأجوج أمة . ومأجوج أمة . كل أمة أربعة آلاف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» قال ابن عدى : هذا موضوع . ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازي . وإنما هو العكاش وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه فلم يصب فان له طريقا أخرى ففي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود مرفوعا «إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفا» وفي النسائي عن عمرو بن أوس عن أبيه رفعه «أن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاءوا . ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا . وفي المستدرك عن عبد اللّه ابن عمرو رفعه «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا»

(166/480)

وقصار مفرطو القصر . قرئ : خرجا وخراجا ، أى جعلا نخرجه من أموالنا : ونظيرهما : النول والنوال . وقرئ : سدا ، وسدا بالفتح والضم .

[سورة الكهف (18) : الآيات 95 إلى 97]

قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (96) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97)

ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ما جعلني فيه مكينا من كثرة المال واليسار ، خير مما تبذلون لي من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، كما قال سليمان صلوات اللّه عليه فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ قرئ بالإدغام وبفكه فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل ، وبالآلات رَدْماً حاجزا حصينا موثقا ، والردم أكبر من السدّ ، من قولهم : ثوب مردم ، رقاع فوق رقاع . قيل : حفر الأساس «1» حتى بلغ الماء ، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد ، بينهما الحطب «2» والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار ، صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا . وقيل : بعد ما بين السدين مائة فرسخ . وقرئ : سوّى ، وسووى .

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنّ رجلا أخبره به فقال : كيف رأيته ؟ قال كالبرد «3» المحبر

---

(1) . قوله «قيل حفر الأساس» لعله : للأساس . (ع)

(2) . قوله «بينهما الحطب» لعله : بينها . (ع) [. . . . .]

(3) . أخرجه الطبري من رواية سعيد بن أبى عروبة عن قتادة . قال «ذكر لنا أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج . قال انعته لي قال ، كالبرد المحبر . طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته» ورواه ابن أبى عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة ، أنه قال للنبي صلى اللّه عليه وسلم» رأيت الردم فذكر نحوه ، ورواه الطبراني في مسند الشاميين . وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن رجل عن أبى بكرة الثقفي «أن رجلا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فذكر نحوه ، لكن قال . طريقة حمراء من نحاس : وطريقة سوداء من حديد» وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبى مريم الحنفي . قال «بينما أنا قاعد مع أبى بكرة إذ جاء رجل فسلم عليه . فقال له أبو بكرة من أنت «قال تعلم رجلا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فأخبره أنه رأى الردم . فقال له أبو بكرة : وأنت هو ؟ قال : نعم . قال : اجلس حدثنا . قال : انطلقت حتى أتيت أرضا ليس لهم إلا الحديد يعلمونه . فذكر القصة والحديث . وقال : لا نعلم له رواية عن النبي صلى اللّه عليه وسلم غير أبى بكرة .

(167/480)

طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال «قد رأيته» والصدفان - بفتحتين - : جانبا الجبلين ، لأنهما يتصادفان أى يتقابلان ، وقرئ : الصدفين ، بضمتين . والصدفين ، بضمة وسكون . والصدفين ، بفتحة وضمة . والقطر : النحاس المذاب لأنه يقطر وقِطْراً منصوب بأفرغ . وتقديره .

آتوني قطرا أفرغ عليه قطرا ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه . وقرئ : قال ائتوني ، أى جيئوني فَمَا اسْطاعُوا بحذف التاء للخفة ، لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء . وقرئ : فما اصطاعوا بقلب السين صادا . وأما من قرأ بإدغام التاء في الطاء ، فملاق بين ساكنين على غير الحدّ أَنْ يَظْهَرُوهُ أن يعلوه ، أى : لا حيلة لهم فيه من صعود ، لارتفاعه وانملاسه ، ولا نقب لصلابته وثخانته .

[سورة الكهف (18) : آية 98]

قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

هذا إشارة إلى السد ، أى : هذا السد نعمة من اللّه ورَحْمَةٌ على عباده . أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي يعنى فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتى جعل السد دَكَّاءَ أى مدكوكا مبسوطا مسوّى بالأرض ، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك . ومنه : الجمل الأدك : المنبسط السنام . وقرئ : دكاء ، بالمد : أى أرضا مستوية وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا آخر حكاية قول ذى القرنين .

[سورة الكهف (18) : آية 99]

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99)

وَتَرَكْنا وجعلنا بَعْضَهُمْ بعض الخلق يَمُوجُ فِي بَعْضٍ أى يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد. وروى: يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث اللّه نغفا في أقفائهم «1» فيدخل في آذانهم فيموتون.

[سورة الكهف (18) : الآيات 100 إلى 101]

وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101)

---

(1). قوله «ثم يبعث اللّه نغفا في أقفائهم» أى دودا، أفاده الصحاح. (ع)

وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ وبرّزناها لهم فرأوها وشاهدوها عَنْ ذِكْرِي عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم. أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها، ونحوه صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ. وَكانُوا لا

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً يعنى وكانوا سمعا عنه ، إلا أنه أبلغ ، لأنّ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم «1» فلا استطاعة بهم للسمع .

[سورة الكهف (18) : آية 102]

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (102)

عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ هو الملائكة ، يعنى : أنهم لا يكونون لهم أولياء ، كما حكى عنهم سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ . وقرأ ابن مسعود : أفظن الذين كفروا . وقراءة على رضى اللّه عنه أفحسب الذين كفروا ، أى : أفكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر . أو على الفعل والفاعل ، لأنّ اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل ، كقولك : أقائم الزيدان . والمعنى أنّ ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند اللّه كما حسبوا .

وهي قراءة محكمة جيدة . النزل : ما يقام للنزيل وهو الضيف ، ونحوه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ .

[سورة الكهف (18) : الآيات 103 إلى 106]

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ

أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106)

ضَلَّ سَعْيُهُمْ ضاع وبطل وهم الرهبان. عن على رضى اللّه عنه، كقوله عامِلَةٌ ناصِبَةٌ وعن مجاهد: أهل الكتاب. وعن على رضى اللّه عنه: أنّ ابن الكوّا سأله عنهم؟ فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبى سعيد الخدري: يأتى ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئا فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً فنزدري بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان، لأنّ الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين. وقرئ: فلا يقيم، بالياء. فإن قلت: الذين ضل سعيهم في أى محل هو؟ قلت:

---

(1). قوله «كأنهم أصميت أسماعهم» في الصحاح في مادة صمم: أصمه اللّه فصم. وفي مادة صما بالألف:

أصميت الصيد إذا رميته فقتلته، فقوله: أصميت، لعله بمعنى أهلكت بالمرة بحيث لا يمكن أن تسمع. (ع)

الأوجه أن يكون في محل الرفع ، على : هم الذين ضل سعيهم ، لأنه جواب عن السؤال . ويجوز أن يكون نصبا على الذم ، أو جرّا على البدل جَهَنَّمُ عطف بيان لقوله جَزاؤُهُمْ «1» .

[سورة الكهف (18) : الآيات 107 إلى 108]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (108)

الحول : التحوّل . يقال : حال من مكانه حولا ، كقولك : عادني حبها عودا ، يعنى : لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم . وهذه غاية الوصف ، لأن الإنسان في الدنيا في أى نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه . ويجوز أن يراد نفى التحوّل وتأكيد الخلود .

[سورة الكهف (18) : آية 109]

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109)

المداد : اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به السراج من السليط . ويقال : السماء مداد الأرض . والمعنى : لو كتبت كلمات علم اللّه وحكمته وكان البحر مدادا لها ، والمراد بالبحر الجنس لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ الكلمات وَلَوْ جِئْنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا .

والكلمات غير نافدة. ومَدَداً تمييز، كقولك: لي مثله رجلا. والمدد مثل المداد، وهو ما يمدّ به. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه: بمثله مدادا. وقرأ الأعرج: مددا، بكسر الميم جمع مدّة، وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به. وقرئ: ينفد بالياء. وقيل: قال حييّ بن أخطب:

في كتابكم وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ثم تقرءون وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فنزلت، يعنى: أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات اللّه.

[سورة الكهف (18): آية 110]

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول.

وقد فسرنا اللقاء. أو: أفمن كان يخاف سوء لقائه. والمراد بالنهى عن الإشراك بالعبادة:

---

(1). قوله «عطف بيان لقوله جزاؤهم الحول» كذا في النسفي أيضا، لكن المتجه أنه بيان لقوله «ذلك» الذي هو إشارة لما مر في قوله إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا. (ع)

أن لا يرائى بعمله ، وأن لا يبتغى به إلا وجه ربه خالصا لا يخلط به غيره . وقيل : نزلت في جندب ابن زهير ، قال للنبي صلى اللّه عليه وسلم : إنى أعمل العمل للّه ، فإذا اطلع عليه سرني ، فقال :

«إن اللّه لا يقبل ما شورك «1» فيه» وروى أنه قال : «لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية» «2» وذلك إذا قصد أن يقتدى به . وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال «الرياء» «3» وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء «4»» وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ عند مضجعه قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكة ، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم ، وإن كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ» «5» واللّه أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 740 . 751﴾

---

(1) . أخرجه الواحدي في الأسباب عن ابن عباس ولم يسق سنده .

(2) . أخرجه الترمذي وابن ماجة . وابن حبان - وأبو يعلى . والبزار عن أبى هريرة . قال قال رجل «يا رسول اللّه ، إنى أعمل العمل فيطلع عليه فيعجبني . قال لك أجران . أجر السرّ . وأجر العلانية» أخرجوه كلهم من حديث ابن سنان سعيد بن سنان عن حرب بن

أبى ثابت عن أبى صالح عنه . قال الترمذي رواه الأعمش عن حبيب عن أبى صالح مرسلا . وقال ابن أبى حاتم قال أبى الصحيح عندي مرسل ، رواه يوسف بن أسباط عن الثوري عن حبيب .

عن أبى صالح عن أبى ذر وأخرجه أبو نعيم في الحلية . وقال : لم يقل أحد عن أبى ذر إلا ابن أسباط . ورواه يحيى بن يمان عن الثوري فقال عن ابن مسعود . أخرجه الطبراني ، قال أبو نعيم . ورواه قبيصة عن الثوري فقال عن المغيرة بن شعبة رضى اللّه عنه .

(3) . أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة بهذا ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي . وأبو قاسم الطلحي في الترغيب . وفي الباب عن محمود بن لبيد . ورفعه «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا يا رسول اللّه وما الشرك الأصغر ؟ قال الرياء» أخرجه أحمد والدارقطني . في غرائب مالك والبيهقي . في الشعب من رواية عمرو بن أبى عمرو بن قتادة عنه . وعن شداد بن أوس قال «كنا نعد الرياء على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : الشرك الأصغر» أخرجه الطبراني وابن مردويه . وفي إسناده ابن لهيعة .

(4) . أخرجه أحمد والنسائي من حديث معاذ بن أنس . وفي إسناده ابن لهيعة . أخرجه الطبراني من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زياد بن فايد وهم من الضعفاء .

(5) . أخرجه إسحاق والبزار من رواية النضر بن شميل . حدثنا أبو فررة الأسدى رجل

من أهل البادية . سمعت سعيد بن المسيب يحدث عن عمر رفعه «من قرأ في ليلته فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ . الآية كان له نور من عدن إلى مكة حشوه الملائكة» ورواه الثعلبي من هذا الوجه . «وزاد يصلون عليه ويستغفرون له» ورواه ابن مردويه من حديث أبى بن كعب باللفظ الأول وقد سبق سنده في آل عمران .

(171/480)

وقال النسفى :

﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر ﴾

قيل : كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعلمون في البحر ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أجعلها ذات عيب ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ أمامهم أو خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره فأعلم الله به الخضر وهو جلندي ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ أي يأخذ كل سفينة صالحة لا عيب فيها غصباً وإن كانت معيبة تركها ، وهو مصدر أو مفعول له .

فإن قلت : قوله : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب .

قلت : المراد به التأخير وإنما قدم للعناية .

﴿ وَأَمَّا الغلام ﴾ وكان اسمه الحسين ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طغيانا وَكُفْراً ﴾ فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغياناً عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شراً وبلاء ، أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وهو من كلام الخضر .

وإنما خشي الخضر منه ذلك لأنه تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وإن كان من قول الله تعالى ، فمعنى ﴿ فخشينا ﴾ فعلمنا إن عاش أن يصير سبباً لكفر والديه ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ ﴿ يبَدّلهما ربهما ﴾ مدني وأبو عمرو ﴿ خَيْراً مِّنْهُ زكواة ﴾ طهارة ونقاء من الذنوب ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ رحمة وعطفا ، و ﴿ زكاة ﴾ و ﴿ رحما ﴾ تمييز .

(172/480)

روي أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبياً أو سبعين نبياً أو أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما شامي وهما لغتان ﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لغلامين ﴾ أصرم وصريم ﴿ يَتِيمَيْنِ فِى المدينة ﴾ هي القرية المذكورة ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ أي لوح من ذهب مكتوب فيه :

عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

أو مال مدفون من ذهب وفضة أو صحف فيها علم والأول أظهر .

وعن قتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحرمت الغنيمة عليها وأحلت لنا .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا ﴾ قيل : جدهما السابع ﴿ صالحا ﴾ ممن يصحبني .

وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما : بم حفظ الله الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما .

قال : فأبي وجدي خير منه ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أي الحلم ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً ﴾ مفعول له أو مصدر منصوب ب ﴿ أراد ربك ﴾ لأنه في معنى رحمهما ﴿ مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ ﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿ عَنْ أَمْرِي ﴾ عن اجتهادي وإنما فعلته بأمر الله والهاء تعود إلى الكل أو إلى الجدار ﴿ ذلك ﴾ أي الأجوبة الثلاثة ﴿ تَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ حذف التاء تخفيفاً .

وقد زل أقدام أقوام من الضلال في تفضيل الولي على النبي وهو كفر جلي حيث قالوا : أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو وليّ .

والجواب أن الخضر نبي وإن لم يكن كما زعم البعض ، فهذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام على أن أهل الكتاب يقولون : إن موسى هذا ليس موسى بن عمران إنما هو موسى بن مانان ، ومن المحال أن يكون الوليّ وليًّا إلا بإيمانه بالنبي ثم يكون النبي دون الوليّ ، ولا غضاضة في طلب موسى العلم لأن الزيادة في العلم مطلوبة .

وإنما ذكر أولاً ﴿ فأردت ﴾ لأنه إفساد في الظاهر وهو فعله ، وثالثاً ﴿ فأراد ربك ﴾ لأنه إنعام محض وغير مقدور البشر ، وثانياً ﴿ فأردنا ﴾ لأنه إفساد من حيث الفعل إنعام من حيث التبديل .

وقال الزجاج : معنى فأردنا فأراد الله عز وجل ومثله في القرآن كثير .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ أي اليهود على جهة الإمتحان ، أو أبو جهل وأشياعه ﴿ عَن ذِى القرنين ﴾ هو الإسكندر الذي ملك الدنيا .

قيل : ملكها مؤمنان : ذو القرنين وسليمان ، وكافران : نمرود وبختنصر وكان بعد نمرود .

وقيل : كان عبداً صالحاً ملّكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه .

وقيل : نبياً .

وقيل : ملكاً من الملائكة .

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال : ليس بملك ولا نبي ولكن كان عبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله ، فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمي ذا القرنين وفيكم مثله أراد نفسه .

قيل : كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى .

وقال عليه السلام : " سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا " يعني جانبيها شرقها وغربها .

وقيل : كان له قرنان أي ضفيرتان ، أو انقرض في وقته قرنان من الناس ، أو لأنه ملك الروم وفارس أو الترك والروم ، أو كان لتاجه قرنان أو على رأسه ما يشبه القرنين ، أو كان كريم الطرفين أبا وأما وكان من الروم ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ﴾ من ذي القرنين ﴿ ذِكْراً ﴾ .

(174/480)

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ جعلنا له فيها مكانة واعتلاء ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه ﴿ سَبَباً ﴾ طريقاً موصلاً إليه ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً .

يوصله إليه حتى بلغ ، وكذلك أراد المشرق فأتبع سبباً ، وأراد بلوغ السدين فأتبع سبباً .

﴿ فأتبع سبباً ﴾ ﴿ ثم أتبع ﴾ كوفي وشامي الباقون : بوصل الألف وتشديد التاء .

عن الأصمعي : أتبع لحق واتبع اقتفى وإن لم يلحق ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس ﴾ أي منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع قال صلى الله عليه وسلم : " بدء أمره أنه وجد في الكتب أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد فجعل يسير في طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين " ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ذات حمأة من حمئت البئر إذا صارت فيها الحمأة .

﴿ حامية ﴾ شامي وكوفي غير حفص بمعنى حارة .

عن أبي ذر : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال : " أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه ؟ " قلت الله ورسوله أعلم .

قال : " فإنها تغرب في عين حامية .

" وكان ابن عباس رضي الله عنهما عند معاوية فقرأ معاوية ﴿ حامية ﴾ فقال : ابن عباس : حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو : كيف تقرؤها ؟ فقال : كما يقرأ أمير المؤمنين .

(175/480)

ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال : في ماء وطين كذلك نجده في التوراة فوافق قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا تنافي فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا ﴾ عند تلك العين ﴿ قَوْماً ﴾ عراة من الثياب لباسهم جلود الصيد وطعامهم ما لفظ البحر وكانوا كفاراً ﴿ قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ إن كان نبياً فقد أوحى الله إليه بهذا وإلا فقد أوحي إلى نبي فأمره النبي به ، أو كان إلهاماً خيرين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على أمرهم وبين أن يتخذ فيهم حسناً بإكرامهم وتعليم الشرائع إن آمنوا ، أو التعذيب القتل وإتخاذ الحسن الأسر لأنه بالنظر إلى القتل إحسان .

﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالقتل ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ في القيامة يعني أما من دعوته إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك فذاك هو المعذب في الدارين .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي عمل ما يقتضيه الإيمان ﴿ فَلَهُ جَزَاء الحسنى ﴾ فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة .

﴿ جزاءً الحسنى ﴾ كوفي غير أبي بكر أي فله الفعلة الحسنى جزاء ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ أي ذا يسر أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ ﴾

هم الزنج ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا ﴾ من دون الشمس ﴿ سِتْراً ﴾ أي أبنية عن كعب أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم ، أو الستر اللباس .

عن مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض .

(176/480)

﴿ كذلك ﴾ أي أمر ذي القرنين كذلك أي كما وصفناه تعظيماً لأمره ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿ خُبْراً ﴾ نصب على المصدر لأن في ﴿ أحطنا ﴾ معنى خبرنا ، أو بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أي كما بلغ مغربها ، أو تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم يعني أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ بين الجبلين وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما .

﴿ السَّدين ﴾ و ﴿ سَّداً ﴾ مكي وأبو عمرو وحفص ﴿ السُّدين ﴾ و ﴿ سدا ﴾ حمزة وعلي ، وبضمهما : غيرهم .

قيل : ما كان مسدوداً خلقة فهو مضموم ، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح .

وانتصب ﴿ بين ﴾ على أنه مفعول به ل ﴿ بلغ ﴾ كما انجر بالإضافة في ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ وكما ارتفع في ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : 94] لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ من ورائهما ﴿ قَوْماً ﴾ هم الترك ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها .

﴿ يُفقهون ﴾ حمزة وعلي أن لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لأن لغتهم غريبة مجهولة .

﴿ قَالُواْ يا ذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، وهمزهما عاصم فقط .

وهما من ولد يافث أو يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم ﴿ مُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ قيل كانوا يأكلون الناس .

وقيل : كانوا يخرجوا أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ، ولا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح .

(177/480)

وقيل : هم على صنفين طوال مفرطو الطول وقصار مفرطو القصر ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ ﴿ خراجا ﴾ حمزة وعلي أي جعلاً نخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال ﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّا ﴾ .

﴿ قال ما مكَّني ﴾ بالإدغام وبفكه مكي ﴿ فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ أي ما جعلني فيه مكيناً من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لي من الخرج فلا حاجة لي إليه ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ جداراً وحاجزاً حصيناً موثقاً والردم أكبر من السد ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الحديد ﴾ قطع الحديد والزبرة القطعة الكبيرة .

قيل : حفر الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى ، فاختلط والتصق بعضه وصار جلداً وصلدا ، وقيل : بعدما بين السدين فإنه فرسخ ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ بفتحتين جانبي الجبلين لأنها يتصادفان أي يتقابلان .

﴿ الصُّدَفين ﴾ مكى وبصرى وشامي .

﴿ الصُّدْفين ﴾ أبو بكر ﴿ قَالَ انفخوا ﴾ أي قال ذو القرنين للعملة : انفخوا في الحديد ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ ﴾ أي المنفوخ فيه وهو الحديد ﴿ نَارًا ﴾ كالنار ﴿ قَالَ آتُونِى ﴾

أعطوني ﴿ أَفْرِغْ ﴾ أصب ﴿ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ نحاساً مذاباً لأنه يقطر وهو منصوب ب ﴿ أفرغ ﴾ وتقديره آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ﴿ قال ائتوني ﴾ بوصل الألف : حمزة وإذا ابتدأ كسر الألف أي جيئوني .

(178/480)

﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ بحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أن يعلوا السد ﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا ﴾ أي لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه ولا نقب لصلابته ﴿ قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده ، أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى ﴾ فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي ﴿ جَعَلَهُ ﴾ أي السد ﴿ دَكَّاء ﴾ أي مدكوكا مبسوطاً مسوى بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك .

﴿ دكاء ﴾ كوفي أي أرضاً مستوية ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ آخر قول ذي القرنين ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ وجعلنا ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ بعض الخلق ﴿ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ ﴾ يختلط ﴿ فِى بَعْضٍ ﴾ أي يطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ، ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد .

ورُوي أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة بيت المقدس ، ثم يبعث الله نغفا في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ لقيام الساعة ﴿ فجمعناهم ﴾ أي جمع الخلائق للثواب والعقاب ﴿ جَمْعاً ﴾ تأكيد ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ للكافرين عَرْضاً ﴾ وأظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها ﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاء عَن ذِكْرِي ﴾ عن آياتي التي ينظر إليها أو عن القرآن فأذكره بالتعظيم أو عن القرآن وتأمل معانيه ﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ أي وكانوا صما عنه إلا أنه أبلغ إذ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع .

﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاء ﴾ أي أفظن الكفار اتخاذهم عبادي يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام أولياء نافعهم بئس ما ظنوا .

(179/480)

وقيل : "أن" بصلتها سد مسد مفعولي ﴿ أفحسب ﴾ و ﴿ عبادي أولياء ﴾ مفعولاً ﴿ أن يتخذوا ﴾ وهذا أوجه يعني أنهم لا يكونون لهم أولياء ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾ هو ما يقام للنزيل وهو الضيف ونحوه فبشرهم بعذاب أليم ﴿ قُلْ هَلْ

نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ ﴿ أعمالاً ﴾ تمييز .

وإنما جمع والقياس أن يكون مفرداً لتنوع الأهواء وهم أهل الكتاب أو الرهبان ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ ضاع وبطل وهو في محل الرفع أي هم الذين ﴿ فِى الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ هي عطف بيان لجزاؤهم ﴿ بِمَا كَفَرُواْ واتخذوا ءاياتى وَرُسُلِى هُزُواً ﴾ أي جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسوله .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس نُزُلاً خالدين فِيهَا ﴾ حال ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ تحولاً إلى غيرها رضا بما أعطوا .

يقال : حال من مكانه حولاً أي لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم ، وهذه غاية الوصف لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح مائل الطرف إلى أرفع منه ، أو المراد نفي التحول وتأكيد الخلود

.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر ﴾ أي ماء البحر ﴿ مِدَاداً لكلمات رَبِّى ﴾ قال أبو عبيدة : المداد : ما يكتب به أي لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها والمراد بالبحر الجنس ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ بمثل البحر ﴿ مَدَداً ﴾

لنفد أيضاً والكلمات غير نافدة .

و﴿ مدداً ﴾ تمييز نحو "لي مثله رجلاً" والمدد مثل المداد وهو ما يمد به .

(180/480)

﴿ ينفد ﴾ حمزة وعلي ، وقيل : قال حيي بن أخطب : في كتابكم ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] ثم تقرؤون ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 85] فنزلت يعني أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضاً وقبول ، أو فمن كان يخاف سوء لقاء ربه والمراد باللقاء القدوم عليه .

وقيل : رؤيته كما هو حقيقة اللفظ والرجاء على هذا مجرى على حقيقته ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا ﴾ خالصاً لا يريد به إلا وجه ربه ولا يخلط به غيره .

وعن يحيى بن معاذ : هو ما لا يستحي منه ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ هو نهي عن الشرك أو عن الرياء قال صلى الله عليه وسلم : " اتقوا الشرك الأصغر " قالوا : وما الشرك الأصغر قال : " الرياء " قال صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة الكهف فهو معصوم

ثمانية أيام من كل فتنة تكون فإن يخرج الدجال في تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجال ، ومن قرأ ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ ﴾ إلى آخرها عند مضجعه كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه ، وإن كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 21.28 ﴾

(181/480)

وقال البيضاوى :

﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر ﴾

لمحاويج ، وهو دليل على أن المسكين يطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفه . وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملك أو لزمانتهم فإنها كانت لعشرة إخوة خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر . ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أن أجعلها ذات عيب . ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ قدامهم أو خلفهم وكان رجوعهم عليه ، واسمه جلندى بن كركر ، وقيل منوار بن جلندي الأزدي . ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ من أصحابها . وكان حق النظم أن

يتأخر قوله ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ عن قوله ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ لأن إرادة التعيب مسببة عن خوف الغصب وإنما قدم للعناية أو لأن السبب لما كان مجموع الأمرين خوف الغصب ومسكنة الملاك رتبه على أقوى الجزأين وأدعاهما وعقبه بالآخر على سبيل التقييد والتتميم ، وقرىء "كل سفينة صالحة" والمعنى عليها .

﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ أن يغشيهما . ﴿ طغيانا وَكُفْراً ﴾ لنعمتهما بعقوقه فيلحقهما شراً ، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره يجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر ، أو يعديهما بعليه فيرتدا بإضلاله ، أو بمما لأته على طغيانه وكفره حياله وإنما خشي ذلك لأن الله تعالى أعلمه .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن نجدة الحروري كتب إليه كيف قتله وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان ، فكتب إليه إن كنت علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل . وقرىء "فخاف ربك" أي فكره كراهة من خاف سوء عاقبته ، ويجوز أن يكون قوله ﴿ فَخَشِينَا ﴾ حكاية قول الله عز وجل .

(182/480)

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ ﴾ أن يرزقهما ولداً خيراً منه . ﴿ زكواة ﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة . ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ رحمة وعطفاً على والديه . قيل ولدت لهما جارية فتزوجها نبي فولدت له نبياً هدى الله به أمة من الأمم ، وقرأ نافع وأبو عمرو "يُبْدِّلَهُمَا" بالتشديد وابن عامر ويعقوب وعاصم "رحماً" بالتخفيف ، وانتصابه على التمييز والعامل اسم التفضيل وكذلك ﴿ زكواة ﴾ .

(183/480)

﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لغلامين يَتِيمَيْنِ فِى المدينة ﴾ قيل اسمهما أصرم وصريم ، واسم المقتول جيسور . ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ من ذهب وفضة ، روي ذلك مرفوعاً والذم على كنزهما في قوله تعالى : ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة ﴾ لمن لا يؤدي زكاتهما وما تعلق بهما من الحقوق . وقيل من كتب العلم . وقيل كان لوح من ذهب مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ تنبيه على أن سعيه ذلك كان لصلاحه . قيل كان بينهما وبين الأب الذي حفظا

فيه سبعة آباء وكان سياحاً واسمه كاشح . ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أي الحلم وكمال الرأي . ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ مرحومين من ربك ، ويجوز أن يكون علة أو مصدراً لأراد فإن إرادة الخير رحمة . وقيل متعلق بمحذوف تقديره فعلت ما فعلت رحمة من ربك ، ولعل إسناد الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشر للتعييب وثانياً إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بدله ، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين . أو لأن الأول في نفسه شر ، والثالث خير ، والثاني ممتزج . أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط . ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ ﴾ وما فعلت ما رأيته . ﴿ عَنْ أَمْرِي ﴾ عن رأيي وإنما فعلته بأمر الله عز وجل ، ومبني ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمل أهونهما لدفع أعظمهما ، وهو أصل ممهد غير أن الشرائع في تفاصيله مختلفة . ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي ما لم تستطع فحذف التاء تخفيفاً .

(184/480)

ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه ، فلعل فيه سراً لا يعرفه ، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ، ويراعي الأدب في المقابل وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ثم يهاجر عنه .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ذِى القرنين ﴾ يعني إسكندر الرومي ملك فارس والروم . وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين ، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها ، وقيل لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس ، وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان ، وقيل كان لتاجه قرنان . ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كأنه ينطح أقرانه . واختلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه ، والسائلون هم اليهود سألوه امتحاناً أو مشركو مكة . ﴿ قُلْ سَأَتْلُوعَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ خطاب للسائلين والهاء لذي القرنين . وقيل لله .

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء فحذف المفعول . ﴿ واتيناه مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أراده وتوجه إليه . ﴿ سَبَباً ﴾ وصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة .

﴿ فَاتبعَ سَبَباً ﴾ أي فأراد بلوغ المغرب فاتبع سبباً يوصله إليه ، وقرأ الكوفيون وابن عامر بقطع الألف مخففة التاء .

(185/480)

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ذات حمأ من حمئت البئر إذا صارت ذات حمأة . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر "حامية" أي حارة

، ولا تنافي بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين أو "حمية" على أن ياءها مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها . ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ ﴾ ولم يقل كانت تغرب . وقيل إن ابن عباس سمع معاوية يقرأ "حامية" فقال "حمئة" فبعث معاوية إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا ﴾ عند تلك العين . ﴿ قَوْماً ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لفظه البحر ، وكانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكى بقوله . ﴿ قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّا أَن تُعَذِّبَ ﴾ أي بالقتل على كفرهم . ﴿ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع . وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل ويؤيده الأول قوله :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي فاختار الدعوة وقال : أما من دعوته فظلم نفسه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فنعذبه أنا ومن معي في الدنيا بالقتل ، ثم يعذبه الله في الآخرة عذاباً منكراً لم يعهد مثله .

(186/480)

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ وهو ما يقتضيه الإيمان . ﴿ فَلَهُ ﴾ في الدارين . ﴿ جَزَاء الحسنى ﴾ فعلته الحسنى . وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص "جزاء" منوناً منصوباً على الحال أي فله المثوبة الحسنى مجزياً بها ، أو على المصدر لفعله المقدر حالاً أي يجزي بها جزاء أو التمييز ، وقرىء منصوباً غير منون على أن تنوينه حذف لالتقاء الساكنين ومنوناً مرفوعاً على أنه المبتدأ و ﴿ الحسنى ﴾ بدله ، ويجوز أن يكون ﴿ أَمَّا ﴾ وما للتقسيم دون التخيير أي ليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان ، فالأول لمن أصر على الكفر والثاني لمن تاب عنه ، ونداء الله إياه إن كان نبياً فبوحي وإن كان غيره فبإلهام أو على لسان نبي . ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ بما نأمر به . ﴿ يُسْراً ﴾ سهلاً ميسراً غير شاق وتقديره ذا يسر ، وقرىء بضمتين .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ ثم أتبع طريقاً يوصله إلى المشرق .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس ﴾ يعني الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض ، وقرىء بفتح اللام على إضمار مضاف أي مكان مطلع الشمس فإنه مصدر . ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ من اللباس أو البناء ، فإن أرضهم لا تمسك الأبنية أو أنهم اتخذوا الأسراب بدل الأبنية .

﴿ كذلك ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك ، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار . ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد

أو ﴿ نَجْعَلِ ﴾ أو صفة قوم أي على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم. ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الجنود والآلات والعدد والأسباب. ﴿ خُبْراً ﴾ علماً تعلق بظواهره وخفاياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

(187/480)

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ يعني طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سده وهما جبلا أرمينية وأذربيجان. وقيل جبلان منيفان في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب "بَيْنَ السُّدَّيْنِ" بالضم وهما لغتان. وقيل المضموم لما خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناس لأنه في الأصل مصدر سمي به حدث يحدثه الناس. وقيل بالكسر وبين ها هنا مفعول به وهو من الظروف المتصرفة. ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم. وقرأ حمزة والكسائي "لا يفقهون" أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لتلعثمهم

فيه .

﴿ قَالُواْ يَا ذَا القرنين ﴾ أي قال مترجمهم وفي مصحف ابن مسعود قال "الذين من دونهم" . ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح ، وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجبل . وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف . وقيل عربيان من أج الظليم إذا أسرع وأصلهما الهمز كما قرأ عاصم ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث . ﴿ مُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع . قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه ، وقيل كانوا يأكلون الناس . ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ نخرجه من أموالنا . وقرأ حمزة والكسائي "خراجاً" وكلاهما واحد كالنول والنوال . وقيل الخراج على الأرض والذمة والخرج المصدر . ﴿ على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّا ﴾ يحجز دون خروجهم علينا وقد ضمه من ضم "السُّدَّيْنِ" غير حمزة والكسائي . ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ ما جعلني فيه مكيناً من المال والملك خير مما تبذلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه .

(188/480)

وقرأ ابن كثير "مكنني" على الأصل . ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ أي بقوة فعلة أو بما أتقوى به من الآلات . ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد من قولهم ثوب مردم إذا كان رقاعاً فوق رقاع .

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ الحديد ﴾ قطعه والزبرة القطعة الكبيرة ، وهو لا ينافي رد الخراج والاقتصار على المعونة لأن الإِيتاء بمعنى المناولة ، ويدل عليه قراءة أبي بكر "رَدْمًا ائتونى" بكسر التنوين موصولة الهمزة على معنى جيئوني بزبر الحديد ، والباء محذوفة حذفها في أمرتك الخير ولأن إعطاء الآلة من الإِعانة بالقوة دون الخراج على العمل . ﴿ حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ بين جانبي الجبلين بتنضيدها . وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريان بضمتين ، وأبو بكر بضم الصاد وسكون الدال ، وقرىء فتح الصاد وضم الدال وكلها لغات من الصدف وهو الميل لأن كلاً منهما منعزل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل . ﴿ قَالَ انفخوا ﴾ أي قال للعملة انفخوا في الأكوار والحديد . ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ ﴾ جعل المنفوخ فيه . ﴿ نَارًا ﴾ كالنار بالإِحماء . ﴿ قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي آتوني قطراً أي نحاساً مذاباً أفرغ عليه قطراً ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه . وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى ، إذ لو كان قطراً مفعول أفرغ حذراً من الإِلباس . وقرأ حمزة وأبو بكر قال ﴿ ءاتُونِى ﴾ موصولة الألف .

﴿ فَمَا اسطاعوا ﴾ بحذف التاء حذراً من تلاقي متقاربين . وقرأ حمزة بالإدغام جامعاً بين الساكنين على غير حده . وقرىء بقلب السين صاداً . ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أن يعلوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه . ﴿ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا ﴾ لثخنه وصلابته . وقيل حفر للأساس حتى بلغ الماء ، وجعله من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى ساوى أعلى الجبلين ، ثم وضع المنافيخ حتى صارت كالنار فصب النحاس المذاب عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً . وقيل بناه من الصخور مرتبطاً بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها .

﴿ قَالَ هذا ﴾ هذا السد أو الأقدار على تسويته . ﴿ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ على عباده .

﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى ﴾ وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج ، أو بقيام الساعة بأن شارف يوم القيامة . ﴿ جَعَلَهُ دَكَّا ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض ، مصدر بمعنى مفعول ومنه جمل أدك لمنبسط السنام . وقرأ الكوفيون دكاء بالمد أي أرضاً مستوية . ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ كائناً لا محالة وهذا آخر حكاية قول ذي القرنين .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد يموجون في بعض مزدحمين في البلاد ، أو يموج بعض الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ويؤيده قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ لقيام الساعة . ﴿

فجمعناهم جَمْعاً ﴾ للحساب والجزاء .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ للكافرين عَرْضاً ﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم .

﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاء عَن ذِكْرِى ﴾ عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتوحيد والتعظيم . ﴿ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ استماعاً لذكري وكلامي لإفراط صممهم عن الحق ، فإن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء كأنهم أصمت مسامعهم بالكلية .

(190/480)

﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أفظنوا والاستفهام للإنكار . ﴿ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى ﴾ اتخاذهم الملائكة والمسيح . ﴿ مِن دُونِى أَوْلِيَاء ﴾ معبودين نافعهم ، أو لا أعذبهم به فحذف المفعول الثاني كما يحذف الخبر للقرينة ، أوسد أن يتخذوا مسد مفعوليه وقرىء ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي إفكاً فيهم في النجاة ، وأن بما في حيزها مرتفع بأنه فاعل حسب ، فإن النعت إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل أو خبر له . ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾ ما يقام للنزيل ، وفيه تهكم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر دونه .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ نصب على التمييز وجمع لأنه من أسماء الفاعلين أو لتنوع أعمالهم .

﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ ضاع وبطل لكفرهم وعجبهم كالرهابنة فإنهم خسروا دنياهم وأخراهم ، ومحله الرفع على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال أو الجر على البدل أو النصب على الذم . ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ بعجبهم واعتقادهم أنهم على الحق .

﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ ﴾ بالقرآن أو بدلائله المنصوبة على التوحيد والنبوة . ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ بالبعث على ما هو عليه أو لقاء عذابه . ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ بكفرهم فلا يثابون عليها . ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، أو لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالهم لانحباطها .

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك وقوله : ﴿ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملة مبينة له ويجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أي جزاؤهم به ، أو جزاؤهم بدله و ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ خبره أو ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ خبره و ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان للخبر . ﴿ بِمَا كَفَرُواْ واتخذوا ءاياتى وَرُسُلِى هُزُواً ﴾ أي بسبب ذلك .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس نُزُلاً ﴾ فيما سبق من حكم الله ووعده ، و﴿ الفردوس ﴾ أعلى درجات الجنة ، وأصله البستان الذي يجمع الكرم والنخل .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدرة . ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ تحولاً إذ لا يجدون أطيب منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم ، ويجوز أن يراد به تأكيد الخلود .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً ﴾ ما يكتب به ، وهو اسم ما يمد الشيء كالحبر للدواة والسليط للسراج . ﴿ لكلمات رَبِّى ﴾ لكلمات علمه وحكمته . ﴿ لَنَفِدَ البحر ﴾ لنفد جنس البحر بأمره لأن كل جسم متناه . ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبِّى ﴾ فإنها غير متناهية لا تنفد كعلمه ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ بمثل البحر الموجود . ﴿ مَدَداً ﴾ زيادة ومعونة ، لأن مجموع المتناهين متناه بل مجموع ما يدخل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد ، والمتناهي ينفد قبل أن ينفد غير المتناهي لا محالة . وقرىء "ينفد" بالياء و﴿ مَدَداً ﴾ بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب ومداداً . وسبب نزولها أن اليهود قالوا في كتابكم ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وتقرؤون ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

﴾

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ لا أدعي الإحاطة على كلماته . ﴿ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ وإنما تميزت عنكم بذلك . ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ يؤمل حسن لقائه أو يخاف سوء لقائه . ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا ﴾ يرتضيه الله . ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ بأن يرائيه أو يطلب منه أجراً . روي أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأعمل العمل لله فإذا أطلع عليه سرني فقال : " إن الله لا يقبل ما شورك فيه " فنزلت تصديقاً له وعنه عليه الصلاة والسلام " اتقوا الشرك الأصغر " قالوا وما الشرك الأصغر قال " الرياء " والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأها عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم ، فإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ " وعنه عليه الصلاة والسلام " من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 515.528 ﴾

(193/480)

وقال ابن جزى :

﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين ﴾

قيل : إنهم تجار ، ولكنه قال فيهم : مساكين على وجه الإشفاق عليهم ، لأنهم كانوا يُغصبون سفينتهم أو لكونهم في لجج البحر ، وقيل : كانوا إخوة عشرة منهم خمسة عاملون بالسفينة ، وخمسة ذوو عاهات لا قدرة لهم وقرئ مسّاكين بتشديد السين ، أي يمسكون السفينة ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم ﴾ قيل : معناه قدامهم ، وقرأ ابن عباس أمامهم ، وقال ابن عطية : إن وراءهم على بابه ؛ ولكن روعي به الزمان فالوراء هو المستقبل والأمام هو الماضي ﴿ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ عموم معناه الخصوص في الجياد والصحاح من السفن ، ولذلك قرأ نقل صحيح ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، لأن قوله ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ مؤخر في المعنى عن ذكر غصبها لأن خوف الغصب سبب في أنه عابها وإنما قُدم للعناية به .

(194/480)

﴿ وَأَمَّا الغلام ﴾ روي انه كان كافراً ، وروي أنه كان يفسد في الأرض ، ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ المتكلم بذلك الخضر وقيل : إنه من كلام الله وتأويله على هذا فكرهنا ، وقال ابن عطية : إنه من نحو ما وقع في القرن من عسى ولعل ، وإنما هو في حق المخاطبين ومعنى : يرهقهما طغياناً وكفراً : يكلفهما ذلك ، والمعنى أن يحملهما حبة على اتباعة أو يضر بهما لمخالطته مع مخالفته لهما ﴿ خَيْراً مِّنْهُ ﴾ أي غلاماً آخراً خيراً من الغلام المذكور المقتول ﴿ زكاوة ﴾ أي طهارة وفضيلة في دينه ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي رحمة وشفقة ، فقيل : المعنى أن يرحمها ، وقيل يرحمانه ﴿ لغلامين يَتِيمَيْنِ ﴾ اليتيم من فقد أبويه قبل البلوغ ، وروي أن اسم الغلامين أصرم وصريم ، واسم أبيهما كاشح وهذا يحتاج إلى صحة نقل ﴿ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قيل مال عظيم ، وقيل : كان علماً في صحف مدفونة ، والأول أظهر ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا ﴾ قيل : إنه الأب السابع ، وظاهر اللفظ أنه الأقرب ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ أسند الإرادة هنا إلى الله لأنها في أمر مغيب مستأنف لا يعلم ما يكون منه إلا الله ، وأسند الخضر إلى نفسه في قوله فأردت أن أعيبها لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لا يسندها إلى الله وذلك كقول إبراهيم عليه السلام ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] فأسند المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تأدباً ، واختلف في قوله : فأردنا أن يبدلهما هل هو مسند إلى الضمير الخضر أو إلى الله ، ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ هذا دليل على نبوّة الخضر ، لأن المعنى أنه فعل بأمر الله أو بوحي .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين ﴾ السائلون اليهود ، أو قريش بإشارة اليهود ، وذو القرنين هو الإسكندر الملك ، وهو يوناني وقيل رومي وكان رجلاً صالحاً ، وقيل كان نبياً ، وقيل كان ملكاً بفتح اللام والصحيح أنه ملك بكسر اللام واختلف لم سمي ذو القرنين فقيل : كان له ضفيرتان من شعرهما قرناه ، فسمي بذلك وقيل : لأنه بلغ المشرق والمغرب وكأنه حاز قرني الدنيا ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرض ﴾ التمكين له أنه ملك الدنيا ودانت له الملوك كلهم ﴿ وآتيناه مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ أي علماً وفهما ، يتوصل به إلى معرفة الأشياء والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو غير ذلك ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي طريقاً يوصله ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرئ بالهمز على وزن فعلة أي ذات حمأة وقرئ بالياء على وزن فاعله وقد اختلف في ذلك معاوية وابن عباس فقال ابن عباس : حمئة وقال معاوية حامية فبعثا إلى كعب الأحبار ليخبرهما بالأمر فقال : أما العربية فأنتما أعلما بها مني ، ولكني أجد في التوارة أنها تغرب في ماء وطين فوافق ذلك قراءة ابن عباس ومعنى ﴿ حَامِيَةٌ ﴾ [الغاشية : 4] حارة ، ويحتمل أن يكون بمعنى حمية ولكن سهلت همزته ويتفق معنى القراءتين . وقد قيل : يمكن أن يكون فيها حمئة ويكون حارة لحرارة الشمس

فتكون جامعة للموضعين ، ويجتمع معنى القراءتين ﴿ قُلْنَا يا ذا القرنين ﴾ استدل بهذا من قال إن ذا القرنين نبي لأن هذا القول وحي ويحتمل أن يكون بإلهام فلا يكون فيه دليل على نبوته ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ كانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، أو يدعوهم إلى الإسلام ، فيحسن إليهم وقيل : الحسن هنا هو الأسر ، وجعله حسناً بالنظر إلى القتل ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ اختار أن يدعوهم إلى الإسلام ، فمن تمادى على الكفر قتله ومن أسلم أحسن

(196/480)

إليه ، والظلم هنا الكفر والعذاب القتل وأراد بقوله : عذاباً نكرا عذاب الآخرة ﴿ فَلَهُ جَزَآءً الحسنى ﴾ المراد بالحسنى الجنة أو الأعمال الحسنة ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ وعدهم بأن ييسر عليهم .

﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ هؤلاء القوم هم الزنج وهم أهل الهند ومن وراءهم ، ومعنى لم نجعل الآية أنهم ليس لهم بنيان إذ لا تحمل أرضهم البناء وإنما يدخلون من حر الشمس في أسراب تحت الأرض وقال ابن عطية : الظاهر أنها عبارة عن قرب الشمس منهم وقيل : الستر اللباس فكانوا على هذا لا يلبسون الثياب ﴿ كَذَلِكَ ﴾

أي أمر ذي القرنين كذلك ، أي كما وصفناه تعظيماً لأمره وقيل : إن كذلك راجع لما قبله أي لم نجعل لهم ستراً ، كما جعلنا لكم من المباني والثياب ، وقيل : المعنى وجد عندها قوماً كذلك ، أي مثل القوم الذين وجدوا عند مغرب الشمس وفعل معهم مثل فعله ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أي الجبلين وهما جبلان في طرف الأرض ، وقرئ بالفتح والضم وهما بمعنى واحد ، وقيل ما كان من خلقة الله فهو مضموم وما كان من فعل الناس فهو مفتوح ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً ﴾ قيل هم الترك ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ عبارة عن بعد لسانهم عن ألسنة الناس ، فهم لا يفقهون القول إلا بالإشارة أو نحوها ﴿ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويه ، منهم مفرط الطول ومفرط القصر ﴿ مُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ لفسادهم بالقتل والظلم وسائر وجوه الشرط ، وقيل : كانوا يأكلون بني آدم .

(197/480)

﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ هذا استفهام في ضمنه عرض ورغبة ، والخرج الجباية يقال فيه خراج وقد قرئ بهما ، فعرضوا عليه أن يجعلوا له أموالاً ليقيم بها السد ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي ما بسط الله لي من الملك خير من خرجكم ، فلا حاجة لي به ولكن أعينوني بقوة الأبدان وعمل الأيدي ﴿ رَدْماً ﴾ أي

حاجزاً حصيباً ، والردم أعظم من السد .

﴿ ساوى بَيْنَ الصدفين ﴾ أي بين الجبلين ﴿ قَالَ انفخوا ﴾ يريد نفخ الكير ؛ أي أوقدوا النار على الحديد ﴿ قِطْراً ﴾ أي نحاساً مذاباً وقيل هو الرصاص ، وروي أنه حفر الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل البنيان من أصل اسطاعوا استطاعوا حذفت التاء تخفيفاً ، والضمير في يظهروه للسدّ ، ومعنى يظهروه يعلوه ويصعدوا على ظهره فالمعنى أن يأجوج ومأجوج لا يقدرون أن يصعدوا على السدّ لارتفاعه ولا ينقبوه لقوته ﴿ قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ القائل ذو القرنين وأشار إلى الردم ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ يعني القيامة جعله دكاً أي مبسوطاً مسوى بالأرض .

(198/480)

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ الضمير في تركنا لله عز وجل ، ويومئذ يحتمل أن يريد به يوم القيامة ، لأنه قد تقدم ذكره فالضمير في قوله بعضهم على هذا لجميع الناس ، أو يريد بقوله يومئذ يوم كمال السد ، والضمير في قوله : بعضهم على هذا ليأجوج ومأجوج ، والأول أرجح لقوله بعد ذلك : ونفخ في الصور فيتصل الكلام ويموج عبارة عن اختلاطهم واضطرابهم ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ الصور هو القرن الذي ينفخ فيه يوم القيامة حسبما جاء في الحديث ، ينفخ

فيه إسرافيل نفختين إحداهما للصعق والأخرى للقيام من القبور ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي أظهرناها ﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ ﴾ عبارة عن عمى بصائرهم وقلوبهم ، وكذلك لا يستطيعون سمعاً ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كفروا أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دوني أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني أنهم لا يكونون لهم أولياء ، كما حكي عنهم أنهم يقولون أنت ولينا من دونهم ، والعباد هنا من عُبد مع الله ممن لا يريد ذلك ؛ كالملائكة وعيسى ابن مريم ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ أي يسرنا ﴿ نُزُلاً ﴾ ما ييسر للضيف والقادم عند نزوله ، والمعنى أن جهنم لهم بدل النزل كما أن الجنة نزل في قوله : (كانت لهم جنات الفردوس نزلا) ويحتمل أن يكون النزل موضع النزول .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً ﴾ الآية في كفار العرب كقوله : كفروا بآيات ربهم ولقائه وقيل : في الرهبان لأنهم يتعبدون يظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ، وفي قوله : يحسبون أنهم يحسنون تجنيس وهو الذي يسمى تجنيس التصحيف ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ أي ليس لهم حسنة توزن لأن أعمالهم قد حبطت ﴿ جنات الفردوس ﴾ هي أعلى الجنة حسبما ورد في الحديث ولفظ الفردوس أعجمي معرب ﴿ حِوَلاً ﴾ أي تحوّلا وانتقالاً .

(199/480)

﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبِّى ﴾ الآية إخبار عن اتساع علم الله تعالى والكلمات هي المعاني القائمة بالنفس وهي المعلومات ، فمعنى الآية لو كتب علم الله بمداد البحر لنفد البحر ولم ينفد علم الله ، وكذلك لو جيء ببحر آخر مثله وذلك لأن البحر متناهٍ وعلم الله غير متناه ﴿ بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ أي زيادة والمدد هو ما يمد به الشيء أي يكثر ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ ﴾ إن كان الرجاء هنا على بابه فالمعنى يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول ، وإن كان الرجاء بمعنى الخوف فالمعنى يخاف سوء لقاء ربه ، ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ يحتمل أن يريد الشرك بالله وهو عبادة غيره فيكون راجعاً إلى قوله يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد أو يريد الرياء ؛ لأنه الشرك الأصغر واللفظ يحتمل الوجهين ، ولا يبعد أن يحمل على العموم في المعنيين والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 2 صـ 194. 197 ﴾

(200/480)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

(201/480)

التفسير : ولما أجاب عن سؤالين من أسئلة اليهود وانتهى الكلام إلى حيث انتهى ، شرع في السؤال الثالث والجواب عنه . وأصح الأقوال أن ذا القرنين هو الإسكندر بن فيلقوس الرومي الذي ملك الدنيا بأسرها ، إذ لو كان غيره لانتشر خبره ولم يخف مكانه عادة . يحكى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف ، ثم قصد ملوك المغرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه ، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم عطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العبرانيون والقبط والبربر ، ثم توجه نحو داراً ابن دارا وهزمه إلى أن قتله فاستولى على ممالك الفرس ، ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ، ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها . وقال الإمام فخر الدين الرازي : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلية أو ما يقرب منها ، وثبت من علم التاريخ أن من هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر وجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر . قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطا طاليس وكان على مذهبه . فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق وصدق ذلك وذلك مما لا سبيل إليه . قلت : ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر . والسبب في تسميته بذي القرنين أنه بلغ قرني الشمس أي مطلعهما

ومغربها . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه طاف قرني الدنيا يعني جانبيها شرقها وغربها . وقيل : كان له قرنان ضفيرتان . وقيل : انقرض في وقته قرنان من الناس . وقيل : كان لتاجه قرنان . وعن وهب أنه سمي بذلك لأنه ملك الروم وفارس . ويروى الروم والترك . وعنه كانت صفحتا رأسه من نحاس . وقيل : كان على رأسه ما يشبه القرنين . وقيل : لشجاعته كما سمى الشجاع كبشاً كأنه ينطح أقرانه . وقيل : رأى في المنام كأنه صعد الفلك وتعلق

(202/480)

بطرفي الشمس أي بقرنيها . وزعم الفرس أن دارا الأكبر تزوّج بابنة فيلقوس ، فلما قرب منها وجد رائحة منكرة فردها إلى أبيها وكانت قد حملت بالإسكندر فولدت الإسكندر وبقي عند فيلقوس وأظهر أنه ابنه وهو في الحقيقة دارا الأكبر . وقال أبو الريحان : إنه من ملوك حمير والدليل عليه أن الأذواء كانوا من اليمن كذي يزن وغيره . ويروى أنه ملك الدنيا بأسرها أربعة : ذو القرنين وسليمان – وهما مؤمنان – ونمرود وبختنصر – وهما كافران – واختلفوا فيه فقيل : كان عبداً صالحاً ملكه الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه .

وعن علي رضي الله عنه : سخر له السحاب ومدت له الأسباب وبسط له النور وأحب الله وأحبه . وسأله ابن الكواء وكان من أصحابه ما ذو القرنين أملك أم نبي ؟ فقال : ليس بملك ولا نبي ولكن كان عبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله أي في جهاده فمات ، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمي ذا القرنين وفيكم مثله يعني نفسه . قالوا : وكان ذو القرنين يدعو الناس إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله . وقيل : كان نبياً لقوله تعالى : ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ والتمكين المعتد به هو النبوة ، ولقوله ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ وظاهره العموم فيكون قد نال أسباب النبوّة ، ولقوله : ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب ﴾ وتكليم الله بلا واسطة لا يصلح إلا للنبي . وقيل : كان ملكاً من الملائكة عن عمر أنه سمع رجلاً يقول : يا ذا القرنين : فقال : اللَّهم غفراً أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة .

(203/480)

قوله : ﴿ سأتلوا عليكم ﴾ أي سأفعل هذا إن وفقني الله تعالى وأنزل فيه وحياً . والخطاب في ﴿ عليكم ﴾ للسائلين وهم اليهود أو قريش كأبي جهل وأضرابه ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ طريقاً موصلاً إليه . والسبب في اللغة هو الحبل والمراد ههنا كل ما

يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ، وذلك أنه أراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً وصله إليه ، وكذلك أراد المشرق فاتبع سبباً موصلاً إليه ، وأراد بلوغ السدين فأتبع سبباً أدى إليه . ثم إنه سبحانه شرع في نعت مسيره إلى المغرب قائلاً ﴿ فأتبع سبباً ﴾ أي سلك طريقاً أفضى به إلى سفر المغرب ، ومن قرأ بقطع الهمزة فمعناه اتبع نفسه سبباً ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حامية ﴾ أي حارة ، ومن قرأ بحذف الألف مهموزاً فمعناه ذات حمأة أي طين أسود ، ولا تنافي بين القراءتين : فمن الجائز أن تكون العين جامعة للوصفين . " عن أبي ذر قال : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال : أتدري يا أبا ذر من أين تغرب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم : قال : فإنها تغرب في عين حامية . " فقال حكماء الإسلام : قد ثبت بالدلائل اليقينية أن الأرض كروية في وسط العالم ، وأن السماء محيطة بها من جميع الجوانب ، وأن الشمس في فلكها تدور بدوران الفلك . وأيضاً قد وضح أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض بمائة وست وستين مرة تقريباً ، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ؟ فتأويل الآية أن الشمس تشاهد هناك أعني في طرف العمارة كأنها تغيب وراء البحر الغربي في الماء كما أن راكب البحر يرى الشمس تغيب في الماء لأنه لا يرى الساحل ولهذا قال : ﴿ وجدها تغرب ﴾ ولم يخبر أنها تغرب في عين ، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية ، وأيضاً حمئة لكثرة ما في البحار من الطين الأسود .

(204/480)

أما قوله ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ فالضمير إما للشمس وإما للعين ، وذلك أن الإنسان لما تخيل أن الشمس تغرب هناك كان سكان ذلك الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس . قال ابن جريج : هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها سمع الناس وجوب الشمس حين تجب ، كانوا كفرة بالله فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يتخذ فيهم حسناً وهو تركهم أحياء فاختار الدعوة والاجتهاد فقال ﴿ أما من ظلم ﴾ بالإصرار على الشرك ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ في الآخرة ﴿ فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ منكراً فظيعاً .

(205/480)

روى صاحب الكشاف عن قتادة أنه كان يطبخ من كفر في القدور وهو العذاب النكر ، ومن آمن أعطاه وكساه وفيه نظر ، لأن العذاب النكر بعد أن يرد إلى ربه لا يمكن أن يكون من فعل ذي القرنين . ومن قرأ ﴿ جزاء ﴾ بالنصب أراد فله الفعلة ﴿ الحسنى ﴾ جزاء

، ومن قرأ بالرفع أراد فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كل الشهادة ، أو فله أن يجازى المثوبة الحسنى ﴿ وسنقول له من أمرنا ﴾ أي مما نأمر به الناس من الزكاة والخراج وغير ذلك ﴿ يسراً ﴾ أي قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق . ثم حكى سفره إلى أقصى الشرق قائلاً ﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ أي هيأ أسباباً بسفر المشرق ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ أي مكان طلوعها ﴿ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ عن كعب أن الستر هو الأبنية وذلك أن أرضهم لا تمسكها فليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع شعاع الشمس وتدفع حره عنهم ، فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب لهم ، وإذا غربت اشتغلوا بتحصيل المعاش ، فحالهم بالضد من أحوال سائر الخلق . وعن مجاهد أن الستر الثياب وأنهم عراة كالزنج ، وحال كل من سكن في البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك . حكى صاحب الكشاف عن بعضهم أنه قال : خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة . فبلغتهم فإذا أجدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى . وحين قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشى عليّ ثم أفقت ، فلما طلعت الشمس إذ هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سرباً لهم . فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم . وللمفسرين في متعلق قوله : ﴿ كذلك ﴾ وجوه أحدها : كذلك أمر ذي القرنين اتبع هذه

الأسباب حتى بلغ ما بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به .

(206/480)

الثاني : لم نجعل لهم ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الأبنية أو الثياب . الثالث : بلغ مطلع الشمس مثل الذي بلغ من مغربها . الرابع : تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم فقضى في هؤلاء كما قضى في أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين ، وقد سبق بعض هذه الوجوه في الوقوف .

(207/480)

ثم حكى سفره إلى ناحية القطب الشمالي بعد تهيئة أسبابه قائلاً ﴿ ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ قيل : السد إذا كان بخلق الله فهو بضم السين حتى يكون بمعنى " مفعول " أي هو مما فعله الله وخلقه ، وإذا كان ممن عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثاً قاله أبو عبيدة وابن الأنباري . وانتصب ﴿ بين ﴾ على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية في قوله :

﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : 94] قال الإمام فخر الدين الرازي : الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال . فقيل جبلان بين أرمينية وأذربيجان ، وقيل في منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبري في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنساناً من ناحية الخزر ، فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع . وقيل : إن الواثق رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه ووصفوا أنه بناء من لبن من حديد مشددة بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ، ثم إن ذلك الإنسان لما حاول الرجوع أخرجهم الدليل إلى البقاع المحاذية لسمرقند ، قال أبو الريحان البيرني : ومقتضى هذا الخبر أن هذا الموضع في الربع الغربي الشمالي من المعمورة والله أعلم بحقيقة الحال ، ولما بلغ الإسكندر ما بين الجبلين اللذين سد ما بينهما ﴿ وجد من دونهما ﴾ أي من ورائهما متجاوزاً عنهما قريباً ﴿ قوماً لا يكادون يفقهون ﴾ بأنفسهم أو يفقهون غيرهم قولهم لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم . سؤال : كيف فهم منهم ذو القرنين أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض الخ ؟ وأجيب بأن "كاد " إثبات أو لعله فهم ما في ضميرهم بالقرائن والإشارات ، أو بوحي وإلهام . وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف . وقيل : مشتقان من أج الظليم في مشيه إذا هرول ، وتأجج النار إذا تلهبت ومن أجج الريق أو موج البحر ، سمو بذلك لشدتهم وسرعة حركتهم ، وهما من ولد يافث . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من

الجيل والديلم . ومن الناس من وصفهم بصغر الجثة وقصر القامة حتى الشبر ، ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبت لهم مخالب وأضراساً كأضراس السباع . أما إفسادهم في الأرض فقيل : كانوا يقتلون الناس . وقيل : يأكلون لحومهم . وقيل : يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه ﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ وخراجاً أي جعلاً نخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال .

وقيل : الخرج ما يخرجه كل أحد من ماله ، والخراج ما يجبيه السلطان من البلد كل سنة . وقال قطرب : الخرج الجزية والخراج في الأرض ﴿ قال ﴾ ذو القرنين ﴿ ما ملكني فيه ربي ﴾ أي جعلني فيه مكيناً ذا مكانة من المال واليسار ﴿ خير ﴾ مما تبذلون لي من الخراج نظيره قول سليمان ﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ [النمل : 36] ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ بآلات ورجال وصناع . وقيل : بمال أصرفه في هذا المهم ولا آخذه لنفسي والردم أكبر من السد من قولهم " ثوب مردم رقاع فوق رقاع " وزبر الحديد قطعه .

قال الخليل : الزبرة من الحديد القطعة الضخمة . من قرأ ﴿ آتوني ﴾ بالمد فظاهر ، ومن قرأ ﴿ ائتوني ﴾ من الإتيان فعلى حذف باء التعدية والنصب بنزع الخافض . ثم ههنا إضمار أي فأتوه بها فوضع بعضها فوق بعض . ﴿ حتى إذ ساوى بين الصدفين ﴾ وهما على القراءات جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أي يتقابلان ﴿ أفرغ عليه قطراً ﴾ أصب عليه النحاس المذاب ﴿ وقطراً ﴾ منصوب بأفرغ والتقدير : آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه . وهذا محمل ما يستدل به البصريون في أن المختار عند تنازع الفعلين هو إعمال الثاني إذ لو عمل الأول لقال أفرغه عليه . يحكى أنه حفر الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً . وقيل : بعد ما بين السدين مائة فرسخ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً أخبره به فقال : كيف رأيته ؟ قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال : قد والله رأيته . قال العلماء : هذا معجز من ذي القرنين صرف تأثير تلك الزبر الكثيرة إذا صارت كالنار لم يقدر الآدمي على القرب منه ، وكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين . ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ أي يعلوه لارتفاعه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ لصلابته وثخانته لما تكرر لفظ

الاستطاعة مراراً ، حذف منها التاء تخفيفاً في الموضعين وأعاد ذكرها بالآخرة تنبيهاً على الأصل ورجوعاً إلى البداية . ثم ﴿ قال ﴾ ذو القرنين ﴿ هذا ﴾ السد أو هذا الإقرار والتمكين نعمة من الله عز وجل ورحمة على عباده ﴿ فإذا جاء ﴾ أي دنا مجيء القيامة ﴿ جعله دكاً ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مستوي بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك . ومن قرأ ﴿ دكاء ﴾ بالمد فعلى

(210/480)

الوصف أي جعله أرضاً مستوية ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ وهذا آخر حكاية ذي القرنين .

ثم شرع سبحانه في بقية أخبارهم فقال ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموجون ﴾ أي حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد .

(211/480)

ويروى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة ولا المدينة وبيت المقدس . ثم يبعث الله نغفاً وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم فيدخل آذانهم فيموتون . وقيل : أراد أن قوم السد لما منعوا من الخروج ماج بعضهم في بعض خلفه . وقيل : الضمير للخلق واليوم يوم القيامة أي وجعلنا الخلق يضطربون ويختلط إنسهم وجنهم حيارى . ونفخ الصور من آيات القيامة وسيجيء وصفه . ومعنى عرض جهنم إبرازها وكشفها للذين عموا عنها في الدنيا ، وفي ذلك نوع من العقاب للكفار لما يتداخلهم من الغم والفزع ﴿ عن ذكري ﴾ أي عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم فأطلق المسبب على السبب أو عن القرآن وتأمل معانيه .

وصفهم بالعمى عن الدلائل والآثار فأراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ وهو أبلغ من أن لو قال " وكانوا صماً " لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء زالت عنهم الاستطاعة بالكلية . احتجت الأشاعرة بالآية على أن الاستطاعة مع الفعل لأنهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا . وأجيب بأن المراد من نفي الاستطاعة النفرة والاستثقال . ثم أنفذ في التوبيخ والوعيد قائلاً ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ والمراد أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول أمره وأمر رسوله ؟ وفيه إضمار تقديره أفحسبوا اتخاذ عبادي أولياء نافعاً . والعباد إما عيسى والملائكة ، وإما الشياطين الذين يطيعونهم ، وإما الأصنام أقوال . ومن قرأ

بسكون السين فمعناه أفكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر ، أو على أنه مثل " أقائم الزيدان " يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا . قال الزجاج : النزل المأوى والمنزل . وقيل : إنه الذي يعدّ للضيف فيكون تهكماً به نحو ﴿ فبشرهم بعذاب ﴾ [آل عمران : 21] أما الذين ضل سعيهم أي ضاع

(212/480)

وبطل فعن علي رضي الله عنه أنهم الرهبان كقوله : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ [الغاشية : 3] وروي عنه صلى الله عليه وسلم أن منهم أهل حروراء . وعن مجاهد : أهل الكتاب . والتحقيق أنه يندرج فيه كل ما يأتي بعمل خير لا يبتني على إيمان وإخلاص . وعن أبي سعيد الخدري : يأتي الناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة ، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً وذلك قوله : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ قال القاضي : إن من غلبت معاصية طاعاته صار ما فعله من الطاعة كأن لم يكن فلا يدخل في الوزن شيء من طاعاته ، وهذا مبني على الإحباط والتكفير .

وفي قوله : ﴿ فحبطت أعمالهم ﴾ إشارة إلى ذلك ، أو المراد فنزدري بهم ولا يكون له عندنا وزن ومقدار .

وقيل : لا يقام لهم ميزان لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرناه من أنواع الوعيد ﴿ جزاؤهم ﴾ وقوله ﴿ جهنم ﴾ عطف للجزاء . والسبب فيه أنهم ضموا إلى الكفر بالله اتخاذ آيات الله واتخاذ كل رسله هزؤاً وتكذيباً ، ويجوز أن يكون كل من الأمرين سبباً مستقلاً للتعذيب ، ثم أردف الوعيد بالوعد على عادته . عن قتادة : الفردوس أوسط الجنة وأفضلها . وعن كعب : ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وعن مجاهد : الفردوس هو البستان بالرومية . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها درجة ، وفيها الأنهار الأربعة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإن فوقها عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة " قال أهل السنة : جعل جنات الفردوس نزلاً فالإكرام التام يكون وراء ذلك وليس إلا الرؤية ونظيره أنه جعل جهنم بأسرها نزلاً فما وراءها هو العذاب الحقيقي وهو عذاب الحجاب ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [المطففين : 15] والحول والتحول وفيه أنه لا مزيد على نعيم

الفردوس حتى تنازعهم أنفسهم إلى تلك الزيادة ، ويجوز أن يراد به تأكيد الخلود أي لا تحوّل فيطلب كقوله :

(214/480)

ولا ترى الضب بها ينجحر . . . ولما ذكر أنواع الدلائل والبينات وشرح أقاصيص سئل عنها . نبه على كمال حال القرآن . والمداد اسم لما يمد به الشيء كالحبر والزيت للدواة والسراج ، والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه وفرض أن جنس البحر مداد لهما لنفد البحر قبل نفاد الكلمات ولو جئنا بمثل البحر مدداً لنفد أيضاً وهو تمييز من مثله كقولك " على التمرة مثلها زبداً " . والمدد والمداد واحد . يروى أن حيي بن أخطب قال : في كتابكم ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] ثم تقرأون ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 85] فنزلت هذه الآية . يعنى أن ذلك خير كثيرة ولكنه قطرة من بحر كلمات الله . قالت الأشاعرة : إن كلام الله تعالى واحد . واعترض عليهم بهذه الآية فإنها صريحة في إثبات كلمات كثيرة لله تعالى . وأجيب بأن المراد من الكلمات متعلقات علم الله تعالى . وزعم الجبائي أن قوله : ﴿ قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ يدل على أن كلمات الله قد تنفد بالجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه .

وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الأزلية . قلت : الإنصاف أن نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدل على نفاد الشيء الآخر ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا يضبطها عقول البشر . أما أنها متناهية أو غير متناهية فلا دليل في الآية على أحد النقيضين ، ولكن الحق في نفس الأمر أن كلمات الله لا تتناهى لأنها تابعة لمعلوماته وهي غير متناهية بالبرهان ، ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسلك سبيل التواضع وهو أن حاله مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية إلا أنه امتاز بنعت الإيحاء إليه وكفى به بوناً ومباينة .

ثم بين أن الموحى هو ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ .

(215/480)

وفي تخصيص هذا الوحي بالذكر فائدة هي أن يستدل به على صدقه ، فإن من علامات صدق مدعي النبوة أن يدعو إلى التوحيد ، ثم أن يدعو إلى العمل الصالح المقترن بالإخلاص وذلك قوله : ﴿ فمن كان يرجو ﴾ أي يأمل حسن لقائه أو يخاف سوء لقائه . واللقاء بمعنى الرؤية عند الأشاعرة وبمعنى لقاء الثواب أو العقاب عند المعتزلة ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ قال المفسرون : النهي عن الإشراك بالعبادة هو أن لا

يرائي بعمله ولا يبتغي به إلا وجه ربه . " يروى أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرني فقال : إن الله لا يقبل ما شورك فيه " . وروي أنه قال : لك أجران أجر السر وأجر العلانية . قال العلماء : الرواية الأولى محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة . والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يقتدي به . قال في الكشاف : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه . ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء " وعنه صلى الله عليه وسلم : " من قرأ عند مضجعه ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ كان له من مضجعه نوراً يتلألأ إلى مكة ، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 457 .

464 ﴾

(216/480)

وقال الخازن :

﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾

قيل كانت لعشرة إخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر ، أي يؤجرونها ويكتسبون بها ، وفي دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً لا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته ، وإن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين ، لأن الله تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ أي أمامهم وقيل خلفهم وكان رجوعهم في طريقهم عليه والأول أصح .

﴿ يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ أي كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه الجلندي والأزدي وكان كافراً وقيل اسمه هدد بن بدد ، روي أن الخضر اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت إذا هي تمر به أن يدعها لعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها .

(217/480)

قوله ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا ﴾ أي خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه ، وقيل معناه فعلمنا ﴿ أن يرهقهما ﴾ أي يغشيهما وقيل يكلفهما ﴿ طغياناً وكفراً ﴾ قيل معناه فخشينا أن يحملهما حبه على أن

يتبعاه على دينه ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما ﴾ الإبدال رفع الشيء ووضع أخر مكانه ﴿ خيراً منه زكاة ﴾ أي صلاحاً وتقوى ، وقيل هو في مقابلة قوله تعالى ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ فقال الخضر أردنا أن يرزقهما الله خيراً منه زكاة ﴿ وأقرب رحماً ﴾ أي ويكون المبدل منه أقرب عطفاً ورحمة لأبويه ، بأن يبرهما ويشفق عليهما قيل أبدلهما جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله على يديه أمة من الأمم وقيل ولدت سبعين نبياً ، وقيل أبدلهما بغلام مسلم وقيل إن الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين ولد وحزن عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض العبد بقضاء الله تعالى فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ قيل كان أسمهما أصرم وصريم ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ روى أبو الدرداء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " كان الكنز ذهباً وفضة " أخرجه الترمذي .

وقيل كان الكنز صحفاً فيهم علم .

وقال ابن عباس : كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجباً لمن أيقن بالقدر كيف يغضب ، عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل عجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير

والشر ، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه .

(218/480)

وقيل الكنز إذا أطلق يراد به المال ومع التقييد يراد به غيره ، يقال عند فلان كنز علم وكان هذا اللوح جامعاً لهما ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ قيل إن إسمه كاشح وكان من الأتقياء ، وقال ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما ، وقيل كان بينهما وبين الأب الصالح سبع آباء ، قال محمد بن المنكدر : إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله ، فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم وقال سعيد بن المسيب : إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي .

﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ﴾ أي يدركا ويعقلا قوتهما وهو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة .

فإن قلت كيف قال في الأولى فأردت وفي الثانية فأردنا وفي الثالثة فأراد ربك وما وجه كل واحدة في هذه الألفاظ .

قلت إنه لما ذكر العيب أضافة إلى نفسه على سبيل الأدب مع الله تعالى ، فقال فأردت أن

أعيبها ولما قتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العلماء العظماء في علم الباطن وعلوم الحكمة ، وأنه لم يقدم على مثل هذا القتل إلا بحكمة عالية ، ولما ذكر عليه المصالح في مال اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله سبحانه وتعالى لأن حفظ الأبناء وصلاح أحوالهم لرعاية حق الآباء ليس إلا لله سبحانه وتعالى ، فلأجل ذلك أضافه إلى الله تعالى ﴿ ويستخرجا كنزهما ﴾ يعني إذا بلغا وعقلا وقويا ﴿ رحمة من ربك ﴾ أي نعمة من ربك ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ أي باختياري ورأيي بل فعلته بأمر والله وإلهامه إياي لأن تنقيض أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أصولهم ، لايكون إلا بالنص وأمر الله تعالى .

واستدل بعضهم بقوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري على أنه الخضر كان نبياً لأن هذا يدل على الوحي وذلك للأنبياء ، والصحيح أنه ولي الله وليس بنبي ، وأجيب عن قوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري إنه إلهام من الله سبحانه وتعالى له بذلك ، وهذه درجة الأولياء .

(219/480)

وقيل معناه إنما فعلت هذه الأفعال لغرض أن تظهر رحمة الله لأنهما بأسرها ترجع إلى معنى واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى .

﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ أي لم تطق أن تصبر عليه .

روي أن موسى عليه السلام لما أراد أن يفارق الخضر قال : أوصني قال : لا تطلب العلم لتحدث به واطلب العلم لتعمل به .

واختلف العلماء في أن الخضر حي أم ميت فقيل إنه حي وهو قول الأكثرين من العلماء وهو متفق عليه عند مشايخ الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة والحكايات في رؤيته والاجتماع به ، ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر ، قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاواه : هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة .

هذا آخر كلامه ، وقيل إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان السبب في حياة الخضر فيما حكي أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذو القرنين دخل الظلمة لطلب عن الحياة ، وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكراً لله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق ، فرجع وذهب أخرون إلى أنه ميت لقوله سبحانه وتعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بعد ما صلى العشاء ليلة " أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حياً لكان لا يعيش بعده " .

وقوله ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ قيل اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الاسكندر بن فيلفوس كذا صح الرومي ، وكان ولد عجوز ليس

لها ولد غيره ونقل الإمام فخر الدين في تفسيره عن أبي الريحان السروري المنجم في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أنه من حمير واسمه أبو كرب سمي ابن عير بن أبي أفريقيس الحميري وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً . . .

ملكاً علا في الأرض غير مفند

(220/480)

بلغ المشارق والمغارب يبتغي . . .

أسباب ملك من كريم مرشد

فرآى مآب الشمس عند غروبها . . .

في عين ذي خلب وثأطه حرمد

قوله فرأى مآب الشمس ، أي ذهاب الشمس وقوله في عين ذي خلب أي حمأة ، والثأطة الحمأة أيضاً والجمع ثأط والحرمد الطين الأسود .

وقيل سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها ، وقيل لأنه ملك فارس والروم وقيل لأنه دخل النور والظلمة ، وقيل لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني الشمس وقيل لأنه

كان له ذؤابتان حسنتان ، وقيل كان له قرنان توراهما العمامة ، وروي عن علي أنه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات فأحياه الله .

واختلفوا في نبوته فقيل كان نبياً ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى قلنا يا ذا القرنين وخطاب الله لا يكون إلا مع الأنبياء وقيل لم يكن نبياً .

قال أبو الطفيل : سئل علي عن ذي القرنين أكان نبياً فقال : لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً أحب الله فأحبه الله وناصح الله ، فناصحه الله .

وروي أن عمر سمع رجلاً يقول لآخر يا ذا القرنين فقال تسميتم بأسماء الأنبياء ، فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة والأصح الذي عليه الأكثرون أنه كان ملكاً صالحاً عادلاً وأنه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الأرض وذلك أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن دان له طوائف ثم مضى إلى ملوك العرب وقهرهم ، ومضى حتى أنتهى إلى البحر الأخضر ، ثم رجع إلى مصر وبنى الإسكندرية ، وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس وقرب فيه القربان ، ثم انعطف إلى أرمينية وبوب الأبواب وبنى السد ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر .

واستولى على ممالك الفرس ثم مضى إلى الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ثم رجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل إلى حيث هو مدفون وقيل إن عمره كان ألفاً وثلاثين سنة ومثل هذا الملك البسيط الذي هو على خلاف العادات وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الأرض فذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ أي خبراً يتضمن حاله .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ أي وطأنا له والتمكين تمهيد الأسباب ، قال علي سخر الله له السحاب فحمل عليه ومد له في الأسباب ، وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير في الأرض وذلك له طريقها .

﴿ وآتيناه من كل شيء ﴾ ما يحتاج إليه الخلق وكل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء ﴿ سبباً ﴾ أي علماً يسبب به إلى كل ما يريده ويسير به في أقطار الأرض وقيل بلاغاً إلى حيث أراد ، وقيل قربنا له أقطار الأرض ﴿ فأتبع سبباً ﴾ أي سلك طريقاً ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ أي ذات حماة وهي الطينة السوداء ، وقرىء حامية اي حارة ، وسأل معاوية كعباً : كيف تجد في التوراة تغرب الشمس وأين تغرب ؟ قال : نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين .

وقيل يجوز أن يكون معنى في عين حمئة أي عندها عين حمئة ، أو في رأي العين ، وذلك أنه بلغ

موضعاً من المغرب لم يبق بعده شيء من العمران فوجد الشمس كأنها تغرب في وهذه مظلمة .

(222/480)

كما أن راكب البحر يرى أن الشمس كأنها تغيب في البحر ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ أي عند العين أمة ، قال ابن جريج : مدينة لها أثنا عشر ألف باب يقال إنها الجاسوس واسمها بالسريانية حريحسا سكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح لولا ضجيج أهلها ، لسمع الناس وجبة الشمس حين تجب أن تغيب ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾ يستدل بهذا من يزعم أنه كان نبياً فإن الله خاطبه من قال إنه لم يكن نبياً قال المراد منه الإلهام وقيل يحتمل أن يكون الخطاب على لسان غيره ﴿ إما أن تعذب ﴾ يعني تقتل من لم يدخل في الإسلام .

﴿ وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ يعني تعفو وتصفح وقيل تأسرهم فتعلمهم الهدى ، خيره الله سبحانه وتعالى بين الأمرين ﴿ قال أما من ظلم ﴾ أي كفر ﴿ فسوف نعذبه ﴾ أي نقتله ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ أي في الآخرة ﴿ فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي منكراً يعني بالنار لأنها أنكر من القتل ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ أي جزاء أعماله الصالحة ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ أي نلين له القول نعامله باليسر من أمرنا ﴿ ثم أتبع

سبباً ﴾ أي سلك طريقاً ومنازل ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ قيل إنهم كانوا في مكان ليس بينهم وبين الشمس ستر من جبل ولا شجر ولا يستقر عليهم بناء ، فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب لهم تحت الأرض ، فإذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم .

وقيل إنهم كانوا إذا طلعت الشمس نزلوا في الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم ، وقيل هم قوم عراة يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحق بالأخرى وقيل إنهم من قوم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية مرقيسيا وهم مجاورون يأجوج ومأجوج .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ كذلك ﴾ أي كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها ، وقيل معناه أنه حكم في القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حكم في القوم الذين هم عند مغربها وهو الأصح .

(223/480)

﴿ وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ أي علماً بما عنده ومن معه من الجند والعدة وآلات الحرب ، وقيل معناه وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية بذلك الملك

والاستقلال به والقيام بأمره .

قوله : ﴿ ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ هما هنا جبلان في ناحية الشمال في منقطع أرض الترك حكي أن الواثق بعث بعض من يثق به من أتباعه إليه ليعاينوه ، فخرجوا من باب من الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ﴿ وجد من دونهما قوماً ﴾ أي أمام السدين قيل هم الترك ﴿ لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ قال ابن عباس : لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم ﴿ قالوا يا ذا القرنين ﴾ فإن قلت كيف أثبت لهم القول وهم لا يفهمون .

قلت تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم ، وقيل معناه لا يكادون يفقهون قولاً إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم الخرس ﴿ إن يأجوج ومأجوج ﴾ أصلهما من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم ، وهم من أولاد يافث بن نوح والترك منهم قيل إن طائفة منهم خرجت تغير فضرب ذو القرنين السد فبقوا خارجه فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين .

(224/480)

قال أهل التواريخ : أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالية ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس " هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء " وروى حذيفة مرفوعاً " أن يأجوج ومأجوج أمة ، وكل أمة أربعة آلاف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه قد حمل السلاح ، وهم من ولد آدم يسيرون إلى خراب الدنيا ، وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون مائة ذراع في السماء ، وصنف منهم عرضه بالأخرى وطوله سواء عشرون مائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد ، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحق بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية .

وعن علي : منهم من طوله شبر ، ومنهم من هو مفرط في الطول .

وقال كعب : هم نادرة في ولد آدم وذلك أن آدم أحتلم (1) ذات يوم ، وامتزجت نطفته بالتراب ، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم ، وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلاً من الروم ابن عجوز .

فلما بلغ كان عبداً صالحاً قال الله سبحانه وتعالى إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس .

يقال له ناسك ، والأخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الأرض احداهما في القطر الأيمن يقال لها هاويل ، والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها تأويل ، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج .

فقال ذو القرنين بأي قوة أكابدهم وبأي جمع أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم ؟ فقال الله تعالى إني سأقويك وأبسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء ، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك ، فالنور يهديك من أمامك والظلمة تحوطك من ورائك .

---

(1) قوله . احتلم ، هذا مردود فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الشيطان ، والاحتلام من الشيطان ا ه .

(225/480)

فانطلق حتى مغرب الشمس ، فوجد جمعاً وعدداً لا يحصيهم إلا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد ، فدعاهم إل الله تعالى وعبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ، فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته ، فجند من أهل المغرب جنداً عظيماً وانطلق يقودهم والظلمة

تسوقهم ، حتى أتى هاويل ففعل فيهم كفعله في ناسك ثم مضى حتى منسك ففعل فيهم كفعله في الأمتين ، وجند منهم جنداً عظيماً ثم أخذ ناحية اليسرى فأتى تاويل ففعل بهم كفعله فيما قبلها ثم عمد إلى الأمم التي في وسط الأرض .

فلما كان فيما يلي منقطع الترك مما يلي المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : يا ذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقاً أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلق في الأرض ، وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا شك أنهم يتملكون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها فهل نجعل لك خرجاً ، على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال : ﴿ ما مكَّنيّ فيه ربي خير ﴾ وقال أعدوا إلى الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم .

(226/480)

فانطلق حتى توسط بلادهم ، فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا ، لهم مخالب وأضراس كالسباع ، ولهم هدب شعر يواري أجسادهم ، ويتقون به من الحر والبرد ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى ، يصيف في واحدة ويشتي في واحدة يتسافدون تسافد البهائم حيث

التقوا فلما عاين ذو القرنين ذلك انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما وحفر له الأساس حتى بلغ الماء فذلك قوله تعالى ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾ قيل فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا حملوه وأدخلوه أرضهم ، فلقوا منهم أذىً شديداً وقيل فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس ، وقيل معناه أنهم سيفسدون عن خروجهم ﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ أي جعلاً وأجراً من الأموال ﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾ أي حاجزاً فلا يصلون إلينا .

﴿ قال ﴾ لهم ذو القرنين ﴿ ما مكني فيه ربي خير ﴾ أي ما قواني به ربي خير من جعلكم ﴿ فأعينوني ﴾ يعني لا أريد منكم المال بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ أي سداً قالوا وما تلك القوة ؟ قال فعلة وصناع يحسنون البناء والآله .

(227/480)

قالوا وما تلك الآلة ؟ قال : ﴿ آتوني ﴾ أي أعطوني وقيل جيئوني (1)

﴿ زبر الحديد ﴾ أي قطع الحديد فأتوه بها ، وبالحطب فجعل الحطب على الحديد

والحديد على الحطب ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ أي بين طرفي الجبلين ﴿ قال انفخوا ﴾ يعني في النار ﴿ حتى إذا جعله ناراً ﴾ أي صار ناراً ﴿ قال آتوني أفرغ عليه ﴾ أي أصيب عليه ﴿ قطراً ﴾ أي نحاساً مذاباً فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس قيل إن السد كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء ، وقيل إن عرضه خمسون ذراعاً وارتفاعه مائة ذراع وطوله فرسخ ، واعلم أن هذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لأن الزبرة الكبيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها ، والنفخ عليها لا يمكن إلا بالقرب منها .

فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه ﴿ فما استطاعوا أن يظهروه ﴾ أي يعلو عليه لعلوه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ أي من أسفله لشدته وصلابته ﴿ قال ﴾ يعني ذو القرنين ﴿ هذا ﴾ أي السد ﴿ رحمة من ربي ﴾ أي نعمة من ربي ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ قيل يعني القيامة وقت خروجهم ﴿ جعله دكاء ﴾ أي أرضاً ملساء وقيل مدكوكاً مستوياً مع الأرض ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ .

---

(1) قوله وقيل جيئوني ظاهر أنه تفسير لآتوني مقطوع الهمزة ولا يصح إنما يصح إذا كان تفسيرا لآتوني موصولها فليتأمل ا ه .

(ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين " قوله وعقد بيده تسعين هو من موضوعات الحساب ، وهو أن تجعل رأس أصبعك السبابة في وسط الإبهام من باطنها شبه الحلقة ، لكن لا يتبين لها إلا خلل يسير وعنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " في السد يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال بعضهم ارجعوا فستحفرونه غداً قال فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً ، إن شاء الله تعالى ، واستثنى قال فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه وتفر منهم الناس " وفي رواية " تتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهام إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء فيزدادون قسوة وعتواً ، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيهلكون ، فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكراً " أخرج الترمذي .

وقوله قسوة وعتواً أي غلظة وفظاظة وتكبراً ، والنغف دود يكون في أنوف الإبل والغنم

وقوله وتشكر يقال شكرت الشاة تشكر شكراً ، إذا امتلأ ضرعها لبناً ، والمعنى أنها تمتلي أجسامها لحماً وتسمن .

(خ) عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج " .

(229/480)

قوله : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض ﴾ قيل هذا عند فتح السد ، يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج أي يدخل بعضهم في بعض كموج الماء ، ويختلط بعضهم في بعض لكثرتهم ، وقيل هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض لكثرتهم ويختلط إنسهم بجنهم حيارى ﴿ ونفخ في الصور ﴾ فيه دليل على أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي في صعيد واحد ﴿ وعرضنا ﴾ أي أبرزنا ﴿ جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ﴾ ليشاهدوها عياناً ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء ﴾ أي غشاء وستر ﴿ عن ذكري ﴾ أي عن الإيمان والقرآن والهدى والبيان وقيل عن رؤية الدلائل وتبصرها ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي سمع قبول الإيمان والقرآن لغلبة الشقاء عليهم ، وقيل معناه لا يستطيعون أن يسمعوا من رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) لشدة عداوتهم له .

قوله تعالى ﴿ أفحسب ﴾ أي أفظن ﴿ الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ يعني أربابا يريد عيسى والملائكة ، بل هم لهم أعداء يتبرؤون منهم .

وقال ابن عباس : يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله ، والمعنى أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي فلا أعاقبهم وقيل معناه أفظنوا أنه ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴿ إنا أعتدنا ﴾ أي هيأنا ﴿ جنهم للكافرين نزلاً ﴾ أي منزلاً .

قال ابن عباس : هي مثواهم وقيل معدة لهم عندنا كالنزل للضيف .

(230/480)

قوله تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ يعني الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً فنالوا هلاكاً وبواراً ، قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى ، وقيل هم الرهبان الذي حبسوا أنفسهم في الصوامع وقال علي بن أبي طالب : هم أهل حوراء يعني الخوارج ﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ أي بطل عملهم واجتهادهم ﴿ في الحياة الدنيا وهم يحسبون ﴾ أي يظنون ﴿ أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي عملاً ثم وصفهم فقال تعالى ﴿

أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ يعني أنهم جحدوا دلائل توحيده وقدرته ، وكفروا بالبعث والثواب والعقاب ، وذلك لأنهم كفروا بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وبالقرآن فصاروا كافرين بهذه الأشياء ﴿ فحبطت أعمالهم ﴾ أي بطلت ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ .

قيل لا نقيم لهم ميزاناً ، لأن الميزان إنما توضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميزوا مقدار الطاعات ومقدار السيئات .

قال أبو سعيد الخدري " يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم من العظم كجبال تهامة فإذا وزنوها لم تزن شيئاً فذلك قوله تعالى ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ وقيل معناه نزدري بهم فليس لهم عندنا شيئاً ذلك قوله تعالى ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ وقيل معناه نزدري بهم فليس لهم عندنا حظ ولا قدر ولا وزن (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً " .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حبوط أعمالهم وخسة قدرهم ، ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴾ يعني سخرية واستهزاء .

قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾ .

عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة " قال كعب : ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس ، فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها .

وقيل : الفردوس هو البستان الذي فيه الأعناب .

وقيل : هي الجنة الملتفة بالأشجار التي تنبت ضروباً من النبات .

وقيل : الفردوس البستان بالرومية .

وقيل : بلسان الحبش منقولاً إلى العربية نزولاً هو ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلاً .

وقيل في معنى كانت لهم أي في علم الله تعالى قبل أن يخلقوا ﴿ خالدين فيها لا يبغون ﴾ أي لا يطلبون ﴿ عنها حولاً ﴾ أي تحولاً إلى غيرها ، قال ابن عباس : لا يريدون أن يتحولوا عنها ، كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى .

قوله تعالى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ﴾ قال ابن عباس : قالت اليهود يا محمد تزعم أننا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

﴿ ثم تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، فأنزل الله تعالى وقيل لما نزل ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالت اليهود أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شيء .

فأنزل الله تعالى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ﴾ ما يستمده الكتاب ويكتب به ، وأصله من الزيادة قال مجاهد : لو كان البحر مداداً للقلم يكتب قيل والخلائق يكتبون ﴿ لنفد البحر ﴾ أي لنفد ماؤه ﴿ قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ أي علمه وحكمه ﴿ ولو جئنا بمثله مداداً ﴾ والمعنى ولو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم فني ماء البحر ولم تفن كلمات ربي ، ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته مدداً وزيادة .

(232/480)

قوله تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ قال ابن عباس : علم الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) التواضع لئلا يزهى على خلقه ، فأمره أن يقرأ فيقول آنا آدمي مثلكم إلا أني خصصت بالوحي وأكرمني الله به وهو قوله تعالى ﴿ يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ لا شريك له في ملكه ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أي يخاف المصير إليه وقيل يؤمل رؤية ربه ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ أي من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير إليه فليستعمل نفسه في العمل الصالح ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ أي لا يرائي بعمله ولما كان العمل

الصالح قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان ، أحدهما : يراد به سبحانه وتعالى والثاني : أن يكون مبرأ من جهات الشرك جميعها (ق) عن جندب بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به " قوله من سمع سمع الله به أي من عمل عملاً مراآة للناس يشتهر بذلك شهرة الله يوم القيامة ، وقيل سمع الله به أي أسمعه المكروه (م) عن أبي هريرة قال " سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول إن الله تبارك وتعالى يقول " أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه ولغير مسلم فأنا منه بريء هو والذي عمله " عن سعيد بن أبي فضالة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إذا جمع الناس ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ من كان يشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه منه فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك " أخرجه الترمذي .

(233/480)

وقال حديث غريب وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ؟ قالوا وما الشرك الأصغر قال الرياء " (م) عن أبي الدرداء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة

الدجال " وفي رواية من آخرها والله أعلم بمراده وأسراره كتابه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 226 . 237 ﴾

(234/480)

وقال الخطيب الشربينى :

ثم أخذ الخضر في تأويل ذلك مبتدئاً بالمسألة الأولى بقوله:

﴿ أما السفينة ﴾ أي : التي أحسن إلينا أهلها فخرقتها ﴿ فكانت لمساكين ﴾ عشرة إخوة خمسة زمني وخمسة ﴿ يعملون في البحر ﴾ أي : يؤاجرون ويكتسبون ، واحتج الشافعي رضي اللّه عنه بهذه الآية على أن حال الفقير أشدّ في الحاجة والضرر من حال المسكين لأن اللّه تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ أي : أن أجعلها ذات عيب بأن تفوت منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكلف أهلها لوحاً أو لوحين يسدونها بذلك أخف عليهم من أن تفوتهم منفعتها بالكلية كما يعلم من قوله : ﴿ وكان وراءهم ﴾ أي : أمامهم كقوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ (المؤمنين ،)

وقيل خلفهم ، وكان طريقهم في رجوعهم عليه ﴿ ملك ﴾ كان كافراً واسمه الجلندي ،

وقال محمد بن إسحاق اسمه سولة بن خليد الأزدي ، وقيل : اسمه هدد بن بدد ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ أي : صالحة وحذف التقييد بذلك للعلم به ﴿ غصباً ﴾ من أصحابها ولم يكن عند أصحابها علم به فإذا مرّت به تركها لعيبها فإذا جاوزته أصلحوها فانتفعوا بها قيل : سدوها بقارورة وقيل : بالقار فإن قيل : قوله : فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدّم عليه ؟

أجيب : بأن النية به التأخير وإنما قدم للعناية ولأنّ خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها للمساكين ، فلما كان كل من الغصب والمسكنة سبب الفعل قدمها على الغصب إشارة إلى أن أقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين . ثم شرع في تأويل المسألة الثانية بقوله:

(235/480)

﴿ وأمّا الغلام ﴾ الذي قتلته ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ التثنية للتغليب يريد أباه وأمه فغلب المذكر وهو شائع ومثله العمران ، قيل : إن ذلك الغلام كان بالغاً وكان يقطع الطريق ويقدم على الأفعال المنكرة ، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشيء من المنكرات وكان يصير سبباً لوقوعهما في الفسق وربما قاد ذلك الفسق

إلى الكفر ، وقيل : إنه كان صبياً إلا أنه علم منه أنه لو صار بالغاً لحصلت فيه هذه المفاسد ، وفي الحديث أنه طبع كافراً ولو عاش لأرهقهما ذلك كما قال ﴿ فخشينا ﴾ أي : خفنا ، والخشية خوف يشوبه تعظيم ﴿ أن يرهقهما ﴾ أي : يغشيهما ويلحقهما ﴿ طغياناً وكفراً ﴾ أي : لمحبتهما له يتبعانه في ذلك فإن قيل : هل يجوز الإقدام على قتل الإنسان بمثل ذلك ؟

أجيب : بأنه إذا تأكد ذلك بوحي من اللّه تعالى جاز ، وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه كيف قتله أي : كيف قتل الخضر الغلام ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب إليه : "إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل" . رواه بمعناه مسلم . ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد تسبب عنه قوله:

(236/480)

﴿ فأردنا ﴾ أي : بقتله وإراحتهما من شره ﴿ أن يبدلهما ربهما ﴾ أي : المحسن إليهما بإعطائه وأخذه ، قال مطرف : فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فليرض كل امرىء بقضاء اللّه تعالى فإن قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ولهذا أبدلهما اللّه تعالى ﴿ خيراً منه زكاة ﴾ أي : طهارة وبركة من

الذنوب والأخلاق الرديئة وصلاحاً وتقوى ﴿ وأقرب رحماً ﴾ أي : رحمة وعطفاً عليهما ، وقيل : هو من الرحم والقرابة ، قال قتادة : أي : أوصل للرحم وأبرّ للوالدين ، قال الكلبي : أبدلهما الله تعالى جارية فتزوجها نبيّ من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله تعالى على يديه أمّة من الأمم ، وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : أبدلهما الله تعالى جارية ولدت سبعين نبياً ، وقال ابن جريج : أبدلهما بغلام مسلم ، وقرأ نافع وأبو عمرو أن يبدّلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال ، وقرأ ابن عامر رحماً برفع الحاء والباقون بالسكون .

ثم شرع في تأويل المسألة الثالثة بقوله:

(237/480)

﴿ وأما الجدار ﴾ أي : الذي أشرت بأخذ الأجر عليه ﴿ فكان لغلامين ﴾ ودل على كونهما دون البلوغ بقوله : ﴿ يتيمين ﴾ وكان اسم أحدهما أصرم والآخر صريماً . ولما كانت القرية لا تنافي التسمية بالمدينة وكان التعبير بالقرية أولاً أليق عبر بها لأنها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم في ترك الضيافة ، ولما كانت المدينة بمعنى محل الإقامة عبر بها فقال : ﴿ في المدينة ﴾ فكان التعبير بها أليق للإشارة به إلى أن الناس يعملون فيها فينهدم

الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز كما قال ، ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ فلذلك أقمته احتساباً ، واختلف في ذلك الكنز كما قال : ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ فلذلك أقمته احتساباً واختلف في ذلك الكنز فعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان ذهباً وفضة" رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه والذم على كنزهما في قوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ (التوبة ،)

(238/480)

لمن لا يؤدي زكاتهما وما يتعلق بهما من الحقوق ، وعن سعيد بن جبير قال : كان الكنز صحفاً فيها علم رواه الحاكم وصححه ، وعن ابن عباس قال : كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجباً لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، عجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ، وفي الجانب الآخر مكتوب أنا اللّه لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه ، والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه ، قال البغوي : وهذا قول أكثر أهل التفسير وروي أيضاً ذلك مرفوعاً . قال الزجاج : الكنز إذا أطلق ينصرف إلى كنز

المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنه كنز علم وهذا اللوح كان جامعاً لهما ، وقوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه فيراعى وتراعى ذريته ، وكان سياحاً واسمه كاسح ، قال ابن عباس : حفظا لصلاح أبيهما وقيل : كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء ، قال محمد بن المنكدر : إن اللّه تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ اللّه ما دام فيهم ، قال سعيد بن المسيب : إني أصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي ، وعن الحسن أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما : بم حفظ اللّه الغلامين قال : بصلاح أبيهما ، قال : فأبي وجدي خير منه ، قال : قد أنبأنا اللّه أنكم قوم خصمون وذكروا أيضاً أن ذلك الأب الصالح كان من الذين تضع الناس الودائع عنده فيردها إليهم ﴿ فأراد ربك أن يبلغا ﴾ أي : الغلامان ﴿ أشدّهما ﴾ أي : الحلم وكمال الرأي ﴿ ويستخرجا كنزهما ﴾ لينتفعا به وينفعا الصالحين .

(239/480)

تنبيه : أسند الإرادة في قوله : فأردت أن أعيبها إلى نفسه لأنه المباشر للتعييب ، وثانياً في قوله : فأردنا إلى اللّه وإلى نفسه لأنّ التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد اللّه تعالى بدله ، وثالثاً في

قوله : فأراد ربك إلى اللّه وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين ، أولأن الأول في نفسه شرّ والثالث خير والثاني ممتزج ، أو لأنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه ، ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية ، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى اللّه تعالى لأنّ التكفل بصلاح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا للّه تعالى أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسايط فإن قيل : اليتيمان هل أحد منهما عرف حصول ذلك الكنز تحت ذلك الجدار أم لا فإن كان الأول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار ، وإن كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به ؟ وأجيب : لعلهما كانا جاهلين به إلا أن وصيهما كان عالماً به ثم إن ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط ، ولما قرّر الخضر هذه الجوابات قال : رحمة من ربك أي : إنما فعلت هذه الأفعال لغرض أن تظهر رحمة اللّه لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما تقرّر ﴿ وما فعلته ﴾ أي : شيئاً من ذلك ﴿ عن أمري ﴾ أي : عن اجتهادي ورأيي بل بأمر من له الأمر وهو اللّه تعالى .

تنبيه : احتج من ادعى نبوّة الخضر بأمور أحدها قوله تعالى : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ والرحمة هي النبوّة ، قال تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ (القصص ،)

والمراد من هذه الرحمة النبوة ، قال الرازي : ولقائل أن يقول مسلم : إنّ النبوة رحمة ولكن لا يلزم أن تكون كل رحمة نبوة ، الثاني : قوله تعالى : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ وهذا يقتضي أن اللّه تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد وكل من علمه اللّه تعالى بلا واسطة البشر وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحي من اللّه تعالى ، قال الرازي : وهذا الاستدلال ضعيف لأنّ العلوم الضرورية تحصل ابتداء من اللّه وذلك لا يدل على النبوّة ، الثالث : أن موسى عليه السلام قال : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت ﴾ والنبي لا يتبع غير نبي في التعلم ؟ قال الرازي : وهذا أيضاً ضعيف لأن النبي لا يتبع غير نبي في العلوم التي باعتبارها صار نبياً أما غير تلك العلوم فلا ، الرابع : أنه أظهر على موسى الترفع حيث قال : وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ، وأما موسى فإنه أظهر له التواضع حيث قال : ولا أعصي لك أمراً ، وهذا يدل على أنه كان فوق موسى ومن لا يكون نبياً لا يكون فوق نبي . قال الرازي : وهذا أيضاً ضعيف لأنه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها ، الخامس : قوله وما فعلته عن أمري ، وفي المعنى : أني فعلته بوحي من اللّه وهذا يدل على النبوة . قال الرازي : وهذا أيضاً ضعيف ظاهر الحجة ، السادس :

ما روي أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال : السلام عليك ، قال : وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل ، فقال موسى : من عرّفك هذا ؟ قال : الذي بعثك إليّ ، وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون إلا مع النبوة ، قال الرازي : ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والإلهامات انتهى .

(241/480)

وبالجملة فالجمهور على أنه نبي كما مرّ واختلفوا هل هو حيّ أو ميت ؟ فقيل : إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم ، قال البغوي : وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمة ليطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدّمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل وشرب وشكر اللّه تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق ، وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا البشر من قبلك الخلد ﴾ (الأنبياء ،)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة : "أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد" ولو كان الخضر حياً لكان لا يعيش بعده . ولما بيّن لموسى سر تلك القضايا قال له ﴿ ذلك ﴾ أي : هذا التأويل العظيم

﴿ تأويل ما لم تسطع ﴾ يا موسى ﴿ عليه صبراً ﴾ وحذف تاء الاستطاعة هنا تخفيفاً فإنّ استطاع واسطاع بمعنى واحد .

تنبيه : من فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعمله ولا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفه وأن يداوم على التعلم ويتذلل للعلماء ويراعي الأحب في المقال ، وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حين يتحقق إصراره ثم يهاجره ، روي أن موسى لما أراد أن يفارق الخضر قال له : أوصني ؟ قال : لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه للعمل به . ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد وقدم الأول إشارة إلى علوّ درجة العلم لأنه أساس كل سعادة وقوام كل امرئ فقال عاطفاً على ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ (الكهف ،)

(242/480)

﴿ ويسألونك ﴾ أي : اليهود وقيل : مشركو مكة يا أشرف الخلق ﴿ عن ذي القرنين ﴾ وذكروا في سبب تسميته بذلك وجوهاً ، الأول : قال أبو الطفيل سئل علي رضي اللّه عنه عن ذي القرنين أكان نبياً أم ملكاً ؟ قال : لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً أمر قومه بتقوى اللّه تعالى فضربوه على قرنه الأيمن فمات ، ثم بعثه اللّه تعالى فأمرهم بتقوى اللّه

تعالى فضربوه على قرنه الأيسر فمات ، ثم بعثه اللّه تعالى فسمي ذا القرنين ، فيكم مثله يعني نفسه ، الثاني : أنه انقرض في وقته قرنان من الناس ، الثالث : أنه كان صفحتا رأسه من نحاس ، الرابع : كان على رأسه ما يشبه القرنين ، الخامس : كان لتاجه قرنان ، السادس : أنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها ، السابع : كان له قرنان أي : ضفيرتان ، الثامن : أنّ اللّه تعالى سخر له النور والظلمة فإذا سرى يهدي النور من أمامه وتمتدّ الظلمة من ورائه ، التاسع : أنه لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه ، العاشر : أنه رأى في المنام كأنه صعد الفلك وتعلق بطرفي الشمس وقرنيها أي : جانبيها فسمي بذلك لهذا السبب ، الحادي عشر : أنه كان له قرنان تواريهما العمامة ، الثاني عشر : أنه دخل النور والظلمة ، وذكروا في اسمه أيضاً وجوهاً الأول : اسمه مرزبان اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح ، الثاني : اسمه اسكندر بن فيلفوس الرومي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه أقصى المشرق والمغرب وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه ، الثالث : شمر بن عمر بن أفريقيس الحميري وهو الذي بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وافتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال:

*قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً

** ملكاً علا في الأرض غير مفند

*بلغ المشارق والمغارب يبتغي

**أسباب ملك من كريم سيد

(243/480)

واختلفوا في نبوّته مع الاتفاق على إيمانه فقال بعضهم : كان نبياً واحتجوا على ذلك بوجوه ، الأول : قوله تعالى:

﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ وحمل على التمكين في الدنيا والتمكين الكامل في الدين هو النبوّة ، الثاني : قوله تعالى : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوّة سبباً ، الثالث : قوله تعالى : ﴿ يا ذا القرنين إما أن تعذب ﴾ الخ والذي يتكلم اللّه معه لا بد أن يكون نبياً ومنهم من قال : إنه كان عبداً صالحاً ملكه اللّه تعالى الأرض وأعطاه اللّه سبحانه وتعالى الملك والحكمة وألبسه الهيبة وقد قالوا : ملك الأرض مؤمنان ذوالقرنين وسليمان وكافران نمروذ وبختنصر ومنهم من قال : إنه كان ملكاً من الملائكة ، عن عمر رضي اللّه تعالى عنه أنه سمع رجلاً يقول : يا ذا القرنين فقال : اللهم غفراً أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ، والأكثر على القول الثاني ، ويدل له قول عليّ رضي اللّه تعالى عنه المتقدم .

تنبيه : قد قدّمنا أنّ اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح ، والمراد من قوله تعالى :

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ هو ذلك السؤال ، ثم قال اللّه تعالى : ﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء المتعنتين ﴿ سأتلو ﴾ أي : أقص قصاً متتابعاً في مستقبل الزمان أعلمني اللّه تعالى به

﴿ عليكم ﴾ أي : أيها البعداء ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ منه ﴾ لذي القرنين وقيل للّه تعالى ﴿ ذكراً ﴾ أي : خبراً كافياً لكم في تعرّف أمره جامعاً لمجامع ذكره

﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ أي : مكنا له أمره من التصرّف فيها مكنة يصل بها إلى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها ﴿ وآتيناه ﴾ بعظمتنا ﴿ من كل شيء ﴾ يحتاج إليه في ذلك ﴿ سبباً ﴾ أي : وصله توصله إليه من العلم والقدرة والآلة

(244/480)

﴿ فأتبع سبباً ﴾ أي : سلك طريقاً نحو المغرب قال البقاعي : ولعله بدأ به لأن باب التوبة فيه ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمر واتبع في المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمرّ متبعاً له

(245/480)

﴿ حتى إذا بلغ ﴾ في ذلك السير ﴿ مغرب الشمس ﴾ أي : موضع غروبها ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ أي : ذات حمأة وهي الطين الأسود أي : بلغ موضعاً في الغرب لم يبق بعده شيء من العمران وجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة وغروبها في رأي العين كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر وإلا فهي أكبر من الأرض مرّات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ، قال البيضاوي : ولعله بلغ ساحل المحيط فرأى ذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال : وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب ، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وابن عامر بألف بعد الحاء وياء مفتوحة بعد الميم . عن أبي درّ قال : كنت رديف رسول اللّه صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال : أتدري يا أبا ذرّ أين تغرب هذه ؟ قلت : اللّه ورسوله أعلم قال : فإنها تغرب في عين حمئة ، وقرأ الباقون بغير ألف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة ، واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس : حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر : كيف تقرأ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال : في ماء وطين كذلك نجده في التوراة ﴿ ووجد عندها ﴾ أي : عند تلك العين على الساحل المتصل بها ﴿ قوماً ﴾ أي : أمة ، قال ابن جريج : مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا

ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب أي : تغرب ، قيل : كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر كانوا كفاراً فخيره اللّه تعالى بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكى ذلك بقوله تعالى : ﴿ قلنا يا ذا

(246/480)

القرنين ﴾ إما بوّاسطة الملك إن كان نبياً أو بواسطة نبي زمانه إن لم يكن أو باجتهاد في شريعته ﴿ إمّا أن تعذب ﴾ بالقتل على كفرهم ﴿ وإمّا أن تتخذ ﴾ أي : بغاية جهدك ﴿ فيهم حسناً ﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع ، وقيل : خيره بين القتل والأسر وسماه حسناً في مقابلة القتل ويؤيد الأوّل قوله ﴿ قال أمّا من ظلم ﴾ باستمراره على الكفر فإنا نرفق به حتى نيأس منه ثم نقتله وإلى ذلك أشار بقوله : ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بوعد لا خلف فيه بعد طول الدعاء والترفق ، وقال قتادة كان يطبخ من كفر في القدور وهو العذاب المنكر ﴿ ثم يردّ إلى ربه ﴾ في الآخرة ﴿ فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي : شديداً جداً في النار وتقدّم في نكراً سكون الكاف وضمها

﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً ﴾ تصديقاً لما أخبر به من تصديقه ﴿ فله ﴾ في الدارين ﴿ جزاء الحسنى ﴾ أي : الجنة ، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة بعد الزاي

منوّنة وتكسر في الوصل لالتقاء الساكنين ، قال الفراء : نصبه على التفسير أي : لجهة النسبة ، وقيل : منصوب على الحال أي : فله المثوبة الحسنى مجزياً بها ، والباقون بضم الهمزة من غير تنوين فالإضافة للبيان ، قال المفسرون : والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول له هذا الثوب هبة ، وعلى قراءة الرفع وجهان ، الأول : فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الإيمان والعمل الصالح ، والثاني : فله جزاء المثوبة الحسنى وإضافة الموصوف إلى الصفة مشهورة كقوله : ولدار الآخرة ، وأمال ألف الحسنى حمزة والكسائي محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح والإمالة بين بين ﴿ وسنقول ﴾ بوعد لا خلف فيه بعد اختباره بالأعمال الصالحة ﴿ له ﴾ أي : لأجله ﴿ من أمرنا ﴾ أي : ما نأمره به ﴿ يسراً ﴾ أي : قولاً غير شاق من الصلاة والزكاة والخراج والجهاد وغيرها وهو ما يطيقة ولا يشق عليه مشقة كثيرة

﴿ ثم أتبع ﴾ لإرادة طلوع مشرق الشمس ﴿ سبباً ﴾ من جهة الجنوب يوصله إلى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مرّ عليها

﴿ حتى إذا بلغ ﴾ في مسيره ذلك ﴿ مطلع الشمس ﴾ أي : الموضع الذي تطلع عليه أولاً من المعمور من الأرض ﴿ وجدها تطلع على قوم ﴾ ، قال الجلال المحلى : هم الزنج وقوله تعالى : ﴿ لم نجعل لهم من دونها ﴾ أي : الشمس ﴿ ستراً ﴾ فيه قولان ، الأول : أنه لا شيء لهم من سقف ولا جبل يمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم لأن أرضهم لا تحمل بنياناً ، قال الرازي : ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرّف في المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش وأحوالهم بالضدّ من أحوال سائر الخلق ، وقال قتادة : يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم ، والثاني : أن معناه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبداً وفي كتب الهيئة أن أكثر حال الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء ، كذلك قال الكلبي : هم عراة يفرش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، وقال الزمخشري وعن بعضهم قال : خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم وإذا أحدهم يفرش إحدى أذنيه ويلبس الأخرى ، فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتاً كهيئة الصلصلة فغشى عليّ ثم أفقت فلما طلعت الشمس فإذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلوني سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس

فينضج لهم ، وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض وقوله تعالى:

(248/480)

﴿ كذلك ﴾ فيه وجوه ؛ الأول : أن معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها ، الثاني : أن أمره كما وصفناه من رفعة المكان وبسطة الملك ، قال البغوي : والصحيح أن معناه كما حكم في القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك في القوم الذين هم عند مطلعها

﴿ وقد أحطنا بما لديه ﴾ أي : عند ذي القرنين من الآلات والجند وغيرهما ﴿ خبراً ﴾ أي : علماً تعلق بظواهره وخفاياه والمعنى أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير

﴿ ثم ﴾ إن ذا القرنين لما بلغ المغرب والمشرق ﴿ أتبع سبباً ﴾ آخر من جهة الشمال في إرادة ناحية السدّ مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذاً فيه

﴿ حتى إذا بلغ ﴾ في مسيره ذلك ﴿ بين السدّين ﴾ أي : بين الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان وقيل : جبلان في أواخر الشمال ، وقيل : هذا المكان في منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج ، قال الرازي : والأظهر أن موضع السد في ناحية الشمال سد

الاسكندر ما بينهما كما سيأتي ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما لغتان معناهما واحد ، وقال عكرمة : ما كان من صنع بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع اللّه فهو بالضم وقاله أبو عمرو وقيل بالعكس ﴿ وجد من دونهما ﴾ أي : بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما إلى الجهة التي أتى منها ذو القرنين ﴿ قوماً ﴾ أي : أمة من الناس لغتهم في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم عن بقية البلاد فهم كذلك ﴿ لا يكادون ﴾ أي : لا يقربون ﴿ يفقهون ﴾ أي : يفهمون ﴿ قولاً ﴾ ممن مع ذي القرنين فهماً جيداً كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما ، وقال ابن عباس : لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم واستشكل بقولهم:

(249/480)

﴿ قالوا يا ذا القرنين ﴾ وأجيب بأنه تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم ﴿ إن يأجوج ومأجوج ﴾ وهما اسمان أعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا ، وقرأ عاصم بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالألف فيهما وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام ،

قال الضحاك : هم جيل من الترك ، قال السدي : الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السدّ فبقيت خارجة فجميع الترك منهم ، وعن قتادة أنهم اثنان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السدّ على إحدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لأنهم تركوا خارجين ، قال : أهل التواريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب والعجم والروم ، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ، ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج ، وقال ابن عباس في رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء ، وروي عن حذيفة مرفوعاً أن يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون في خراب الأرض ، وقال : هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء ، وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد ، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ، ومنهم أن ثبت لهم مخالب في أظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع ، وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال : منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول ، وقال كعب : هم نادرة في

ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق اللّه من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون

(250/480)

الأم،

(251/480)

وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلاً من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبداً صالحاً قال اللّه تعالى : إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، والأخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الأرض إحداهما في القطر الأيمن يقال لها : هاويل والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها : ناويل وأمم في وسط الأرض منهم الجن والأنس ويأجوج ومأجوج ، فقال ذو القرنين : بأي قوة أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم ، قال اللّه تعالى : إني سأطوقك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء وألبسك الهيبة فلا يروعنك شيء وأسخر لك النور

والظلمة وأجعلهما من جنودك يهديك النور من أمامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتي مغرب الشمس فوجد جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا اللّه تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد فدعاهم إلى اللّه تعالى وإلى عبادته فمنهم من آمن ومنهم من كفر ومنهم من صدّ عنه فعمد إلى الذين تولوا عنه وأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته ، فجند من أهل المغرب جنداً عظيماً فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله في ناسك ثم مضى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند منها جنوداً كفعله في الأمتين ثم أخذ بناحية الأرض اليسرى فأتى ناويل فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد إلى الأمم التي وسط الأرض فلما كان مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : يا ذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقاً أشباه البهائم أي : وهم يأجوج ومأجوج ﴿ مفسدون في الأرض ﴾ يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلقه اللّه في الأرض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا يشك أنهم سيملكون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها ، وقال الكلبي : فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئاً أخضر

إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه وأدخلوه أرضهم وقد بالغوا ولقوا منهم أذى شديداً وقتلاً ، وقيل : فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس ، وقيل : معناه أنهم سيفسدون في الأرض بعد خروجهم ﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ أي : جعلا من المال ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وألف بعدها والباقون بسكون الراء ولا ألف بعدها فقيل : هما بمعنى ، وقيل : الخرج ما تبرّعت به والخراج ما لزمك ﴿ على أن تجعل ﴾ في جميع ما ﴿ بيننا وبينهم ﴾ من الأرض التي يمكن توصلهم إلينا منها بما آتاك اللّه من المكنة ﴿ سدّاً ﴾ أي : حاجزاً بين هذين الجبلين فلا يصلون إلينا ، وقرأ نافع وابن عامر وشعبة برفع السين والباقون بالنصب ، ﴾

قال ﴾ لهم ذو القرنين ﴿ ما مكّني فيه ربي ﴾ أي : المحسن إليّ مما ترونه من الأموال والرجال والتوصل إلى جميع الممكن للمخلوق ﴿ خير ﴾ من خراجكم الذي تريدون بذله كما قال سليمان عليه السلام : ﴿ فما آتاني اللّه خير مما آتاكم ﴾ (النمل ،) ، وقرأ ابن كثير بنون مفتوحة بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون واحدة مكسورة مشدّدة ﴿ فأعينوني بقوّة ﴾ أي : أني لا أريد المال بل أعينوني بأيديكم وقوّتكم وبالآلات التي أتقوّى بها في فعل ذلك فإن ما معي إنما هو للقتال وما يكون من أسبابه لا لمثل هذا ﴿ أجعل بينكم ﴾ أي : بين ما تحتصون به ﴿ وبينهم ردماً ﴾ أي : حاجزاً حصيناً موثقاً بعضه فوق

بعض من التلاصق والتلاحم وهو أعظم من السد من قولهم ثوب ردم إذا كان رقاعاِ فوق رقاع قالوا : وما تلك القوة ؟ قال : فعلة وصناع يحسنون البناء ، قالوا : وما تلك الآلات ؟ قال:

(253/480)

﴿ آتوني ﴾ أي : أعطوني ﴿ زبر الحديد ﴾ أي : قطعة وهو جمع زبرة كغرفة وغرف ، قال الخليل : الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فأتوه به وبالحطب حفر له الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم ﴿ حتى إذا ساوى ﴾ أي : بذلك البناء ﴿ بين الصدفين ﴾ أي : بين جانبي الجبلين أي : سوى بين طرفي الجبلين سميا بذلك لأنهما يتصادفان أي : يتقابلان من قولهم : صادفت الرجل لاقيته وقابلته ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال وشعبة برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب الصاد والدال ، ثم وضع المنافخ وأطلق النار في الحطب والفحم و ﴿ قال ﴾ أي : للعملة ﴿ انفخوا ﴾ فنفخوا ﴿ حتى إذا جعله ﴾ أي : الحديد ﴿ ناراً ﴾ أي : كالنار ﴿ قال آتوني ﴾ أي : أعطوني ﴿ أفرغ عليه قطراً ﴾ أي : أصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فصبه عليه فدخل في خلال الحديد مكان

الحطب لأن النار أكلت الحطب حتى لزم الحديد النحاس فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً ، قال الزمخشري : قيل ما بين السدين مائة فرسخ ، وروي أن عرضه كان خمسين ذراعاً وارتفاعه مائتي ذراع ، وعن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً "وفي رواية عن رجل من أهل المدينة قال : يا رسول اللّه قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال : انعته لي قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء" وهذه معجزة عظيمة إن كان نبياً أو كرامة إن لم يكن ؛ لأنّ هذه الزبرة الكبيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان أن يقرب منها والنفخ عليها لا يكون إلا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها .

(254/480)

تنبيه : قطراً هو المتنازع فيه وهذه الآية أشهر أمثلة النحاة في باب التنازع وبها تمسك البصريون على أن أعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى إذ لو كان قطراً مفعول آتوني لأضمر مفعول أفرغ حذراً من الإلباس ، ثم قال تعالى:

﴿ فما ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنه لما أكمل عمل الردم وأحكمه ما ﴿ اسطاعوا ﴾ أي : يأجوج ومأجوج وغيرهم ﴿ أن يظهروه ﴾ أي : يعلوا ظهره لعلوّه وملاسته ، وقرأ حمزة

بتشديد الظاء والباقون بالتخفيف ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ أي : خرقاً لصلابته وسمكه وزيادة التاء هنا تدل على أنّ العلوّ عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علوّ الجبل فإنهم ولو احتالوا ببناء درج من جانبهم أو وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم ذلك لأنهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ، ويؤيده أنهم إنما يخرجون في آخر الزمان بنقبه لا بظهورهم عليه ولا ينافي نفي الاستطاعة لنقبه ما رواه الإمام أحمد والترمذي في التفسير وابن ماجه في الفتن "عن أبي رافع عن أبي هريرة عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : "إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد اللّه تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء اللّه تعالى فيستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس" الحديث ، وفي حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبي صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ورواه عن أبي هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لأن هذا في آخر الزمان ، ثم إنه قيل فما قال حين فراغه قيل:

﴿ قال هذا ﴾ أي : السد يعني الإقدار عليه ﴿ رحمة ﴾ أي : نعمة ﴿ من ربي ﴾ أي : المحسن إليّ بإقداري عليه ومنع العادية ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ بقرب قيام الساعة أو بوقت خروجهم ﴿ جعله دكاً ﴾ أي : مدكوكاً مبسوطاً ، روي أنهم يخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسوة وعلواً ، فيبعث اللّه تعالى عليهم نغفاً في رقابهم ، وفي رواية في آذانهم فيهلكون ، قال صلى الله عليه وسلم "فو الذي نفسي بيده إنّ دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكراً" أخرجه الترمذي ، قوله قسوة وعلواً أي : غلظة وفظاظة وتكبراً ، والنغف دود يخرج في أنوف الإبل والغنم ، وقوله : وتشكر من لحومهم شكراً يقال : شكرت الشاة شكراً حين امتلأ ضرعها لبناً ، والمعنى أنها تمتلئ أجسادها لحماً وتسمن ، وعن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة من النخل فلما رحلنا إليه عرف ذلك فينا فقال : ما شأنكم قلنا : يا رسول اللّه ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال : غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه واللّه خليفتي على كل مسلم وإنه شاب قطط أي : شديد الجعودة ، وقيل : حسن الجعودة عينه

طافية أي : بارزة ، وقيل : مخسوفة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج من حلة بين الشام والعراق فعاث أي : أفسد يميناً وعاث شمالاً يا عباد اللّه فاثبتوا قلنا : يا رسول اللّه وما مكثه في الأرض قال : أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيام كأيامكم قلنا : يا رسول اللّه فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا أقدروا له قدره أي : واليوم الثاني والثالث كذلك ، وسكت عن ذلك

(256/480)

للعلم به من الأوّل ،

(257/480)

قلنا : يا رسول اللّه وما إسراعه في الأرض قال : "كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت درّاً واسعة ضروعها وأملأها خواصر ، ثم يأتي القوم فيدعوهم

فيردّون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمرّ بالخربة فيقول لها : أخرجي كنزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث اللّه المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء في دمشق بين مهرودتين أي : حلتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه حتى يدركه بباب لد قرية بالشام قريبة من الرملة فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم اللّه منه فيمسح عن وجوههم ويخبرهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى اللّه تعالى إلى عيسى عليه السلام إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فجوّز عبادي إلى الطور ويبعث يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمرّ آخرهم فيقول : لقد كان بهذه مرّة ماء ويحصر نبي اللّه وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي اللّه عيسى وأصحابه إلى اللّه تعالى فيرسل اللّه تعالى عليهم النغف في رقابهم وهو بالتحريك دود يكون في أنوف الإبل والغنم كما مرّ واحدتها نغفة فيصبحون فرساً أي : قتلى الواحد فريس ، ثم يهبط نبي اللّه عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون

في الأرض موضع شبر إلا ملأه رممهم ونتنهم فيرغب نبيّ اللّه عيسى وأصحابه إلى اللّه فيرسل اللّه تعالى عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم حيث شاء اللّه تعالى ، ثم يرسل

(258/480)

اللّه تعالى

مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة وهي بالتحريك جمعها زلف مصانع الماء ، ويجمع على المزالف أيضاً أي : فتصير الأرض كأنها مصنعة من مصانع الماء ، وقيل كالمرآة ، وقيل الزلفة الروضة ، وقيل بالقاف أيضاً ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل وهو بتحريك الراء والسين من الإبل والغنم من عشرة إلى خمسة وعشرين حتى أن اللقحة من الأبل لتكفي الفئام من الناس وهو مهموز الجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث اللّه تعالى عليهم ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة ﴿ وكان وعد ربي ﴾ الذي وعد به في خروج يأجوج ومأجوج وإحراقهم الأرض وإفسادهم لها قرب قيام الساعة ﴿ حقاً ﴾

كائناً لا محالة فلذلك أعان تعالى على هدمه هذا آخر حكاية ذي القرنين . وفي القصة أن ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفي بشيرزور وذكر بعضهم أنّ عمره كان نيفاً وثلاثين سنة ، سبحان من يدوم عزه وبقاؤه ، ثم إنه تعالى قال عاطفاً على ما تقديره فقد بان أمر ذي القرنين أيّ بيان وصدق في قوله فإذا جاء وعد ربي فإنه إذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التي نؤتيها ليأجوج ومأجوج دكاً فأخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال

﴾

(259/480)

وتركنا بعضهم ﴾ أي : يأجوج ومأجوج ﴿ يومئذٍ ﴾ أي : حين يخرجون ﴿ يموج ﴾ أي : يضطرب ﴿ في بعض ﴾ كموج البحر أو يموج بعض الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ويؤيده ﴿ ونفخ في الصور ﴾ أي : القرن النفخة الثانية لقوله تعالى : ﴿ فجمعناهم ﴾ أي : الخلائق في مكان واحد يوم القيامة ، قال البقاعي : ويجوز أن تكون هذه الفاء فاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الأولى أي : ونفخ فمات الخلائق كلهم فبليت أجسامهم وتفتت عظامهم كما كان من تقدّمهم ، ثم نفخ الثانية فجمعناهم من التراب بعد تمزقهم فيه وتفرّقهم في أقطار الأرض بالسيول والرياح وغير ذلك ﴿ جمعاً ﴾ فأمتناهم دفعة

واحدة كلمح البصر وحشرناهم إلى الموقف للحساب ثم للثواب والعقاب ،

﴿ وعرضنا ﴾ أي : أظهرنا ﴿ جهنم يومئذٍ ﴾ أي : إذ جمعناهم لذلك ﴿ للكافرين عرضاً ﴾ ظاهرة لهم بكل ما فيها من الأهوال وهم لا يجدون لهم عنها مصرفاً . ثم وصفهم بما أوجب لهم ذلك بقوله تعالى:

﴿ الذين كانت ﴾ كوناً كأنه جبلة لهم ﴿ أعينهم ﴾ وهو بدل من الكافرين ﴿ في غطاء عن ذكري ﴾ أي : عن القرآن فهم لا يهتدون به وعما جعلنا على الأرض من زينة دليلاً على الساعة بإفنائه ثم إحيائه وإعادته بعد إبداده ﴿ وكانوا ﴾ بما جعلناهم عليه ﴿ لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي : لا يقدرون أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما يتلو عليهم بغضاله فلا يؤمنون به . ولما بيّن تعالى أمر الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أتبعه بقوله تعالى:

(260/480)

﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي ﴾ من الأحياء كالملائكة وعزير والمسيح والأموات كالأصنام ﴿ من دوني ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولياء ﴾ أي : أرباباً مفعول ثان ليتخذوا ، والمفعول الثاني لحسب محذوف والمعنى أظنوا أنّ الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا

يغضبني ولا أعاقبهم عليه كلا ، وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم في المدّ . ولما كان معنى الاستفهام الإنكاري ليس الأمر كذلك حسن جداً قوله تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم ﴿ إنا أعتدنا جهنم ﴾ التي تقدم أنا عرضناها لهم ﴿ للكافرين ﴾ أي : هؤلاء وغيرهم ﴿ نزلاً ﴾ أي : هي معدة لهم كالمنزل المعد للضعيف وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (آل عمران ،)

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْخَسِرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا * قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ قل ﴾ لهم ﴿ هل ننبئكم ﴾ أي : نخبركم وأدغم الكسائي لام هل في النون والباقون بالإظهار ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ أي : الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً فنالوا هلاكاً وبواراً ، واختلفوا فيهم فقال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص : هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد ، قال سعد بن أبي وقاص : أما اليهود فكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب انتهى . قال البقاعي : وكذا قال اليهود لأن الفريقين أنكروا الحشر الجسماني وخصوه بالروحاني ، وقيل : هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع .

تنبيه : أعمالاً تمييز للأخسرين جمع عمل وإن كان مصدر التنوع أعمالهم ، ثم وصفهم تعالى بضدّ ما يدّعونه لأنفسهم من نجاح السعي وإحسان الصنع فقال تعالى : ﴿ الذين ضلّ ﴾ أي : ضاع وبطل ﴿ سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ لكفرهم .

تنبيه : محل الموصول الجر نعتاً أو بدلاً أو بياناً أو النصب على الذم أو الرفع على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال ، ومعنى خسرانهم أنه مثلهم بمن يشتري سلعة يرجو فيها ربحاً فخسر وخاب سعيه كذلك أعمال هؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم مع ضلالهم فبطل جدّهم واجتهادهم في الحياة الدنيا ﴿ وهم يحسبون ﴾ أي : يظنون ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر ﴿ أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي : عملاً يجازون عليه لاعتقادهم أنهم على الحق . ثم بيّن تعالى السبب في بطلان سعيهم بقوله تعالى:

﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ الذين كفروا بآيات ربهم ﴾ أي : بدلائل توحيده من القرآن وغيره ﴿ ولقائه ﴾ أي : رؤيته لأنه يقال : لقيت فلاناً أي : رأيته فإن قيل : اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى : فالتقى الماء على أمر قد قدر وذلك في حق اللّه تعالى محال فوجب حملة على لقاء ثواب اللّه تعالى كما قال بعض المفسرين أجيب : بأنّ لفظ اللقاء ، وإن كان عبارة عن الوصول إلا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي يقول : إن المراد لقاء ثواب اللّه قال : لا يتم إلا بالإضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج إلى الإضمار ، ثم قال تعالى : ﴿ فحبطت ﴾ أي : فبسبب جحدهم الدلائل بطلت ﴿ أعمالهم ﴾ فصارت هباءً منثوراً فلا يثابون عليها ، وفي قوله تعالى : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ قولان ؛ أحدهما : أنا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار ، تقول العرب : ما لفلان عندي وزن أي : قدر لخسته ، وروى أبو هريرة عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند اللّه جناح بعوضة" ، وقال : اقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ " ، الثاني : لا نقيم لهم ميزاناً لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من

الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيئات ، وقال أبو سعيد الخدري : تأتي ناس بأعمالهم يوم القيامة عندهم في التعظيم كجبال تهامة فإذا وزنوها لم تزن شيئاً فذلك قوله تعالى : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ .

ولما كان هذا السياق في الدلالة على أنّ لهم جهنم أوضح من الشمس قال تعالى:

(263/480)

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الذي بيّناه من وعيدهم ﴿ جزاؤهم ﴾ ثم بيّن ذلك الجزاء بقوله تعالى : ﴿ جهنم ﴾ وصرّح بالسببية بقوله تعالى : ﴿ بما كفروا ﴾ أي : بما أوقعوا التغطية للدلائل ﴿ واتخذوا آياتي ﴾ الدالة على واحدانيتنا ﴿ ورسلي ﴾ المؤيدين بالمعجزات الظاهرات ﴿ هزوا ﴾ أي : مهزوءاً بهما فلم يكتفوا بالكفر الذي هو طعن في الإلهية حتى ضموا إليه الهزو الذي هو أعظم احتقاراً . ولما بيّن سبحانه وتعالى ما لاحد قسمي أهل الجمع تنفيراً عنهم بيّن ما للآخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيباً في اتباعهم والاقتداء بهم بقوله:

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي : باشروا الإيمان ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ من الخصال ﴿ كانت لهم ﴾ أي : في علم اللّه قبل أن يخلقوا البناء أعمالهم على الأساس

﴿ جنات ﴾ أي : بساتين ﴿ الفردوس ﴾ أي : أعلى الجنة وأوسطها والإضافة إليه للبيان ، روي عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا سألتم اللّه تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة" وقال كعب : ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها ، وقال كعب : الفردوس هو بستان الجنة الذي فيه الأعناب ، وقال مجاهد : هو البستان بالرومية ، وقال الزجاج : هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية ، وقال عكرمة : هي الجنة بلسان الحبش ، وقال الضحاك : هي الجنة الملتفة الأشجار ﴿ نزلاً ﴾ أي : منزلاً كما كان السعير والأغلال لأولئك نزلاً وقوله تعالى:

(264/480)

﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة ﴿ لا يبغون ﴾ أي : لا يريدون أدنى إرادة ﴿ عنها حولاً ﴾ أي : تحويلاً إلى غيرها ، قال ابن عباس : لا يريدون أن يتحوّلوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى . ولما ذكر تعالى في هذه السورة أنواع الدلائل

والبيّنات وشرح فيها أقاصيص الأوّلين والآخرين نبه على حال كمال القرآن بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

(265/480)

﴿ قل ﴾ يا أشرف الخلق للخلق ﴿ لو كان البحر ﴾ أي : ماؤه على عظمته عندكم ﴿ مداداً ﴾ وهو اسم لما يمدّ به الشيء كالحبر للدواة والسليط للسراج ﴿ لكلمات ﴾ أي : لكتب كلمات ﴿ ربي ﴾ أي : المحسن إليّ ﴿ لنفد ﴾ أي : فني مع الضعف فناء لا تدارك له ﴿ البحر ﴾ لأنه جسم متناه ﴿ قبل أن تنفذ ﴾ أي : تفنى وتفرغ ﴿ كلمات ربي ﴾ لأنّ معلوماته تعالى غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث . ولما لم يكن أحد غيره يقدر على إمداد البحر قال تعالى : ﴿ ولو جئنا بمثله ﴾ أي : بمثل البحر الموجود ﴿ مدداً ﴾ أي : زيادة ومعونة ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ ﴾ (لقمان ،) ، واختلف في سبب نزول هذه الآية ، فقال البغوي وابن عباس : قالت اليهود : تزعم يا محمد أنا قد أوتينا الحكمة ، وفي كتابك ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (النبوة ،) ، ثم تقول :

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية ، وقال البيضاوي : وسبب نزولها أن اليهود قالوا : في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وتقرؤون وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً انتهى . وقال في "الكشاف" يعني أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات اللّه ، وقيل : لما نزل وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، قالت اليهود : أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فأنزل اللّه تعالى هذه الآية . ولما كانوا ربما قالوا : مالك لا تحدّث من هذه الكلمات بكل ما سألنا عنه قال اللّه تعالى:

(266/480)

﴿ قل ﴾ يا خير الخلق لهم ﴿ إنما أنا بشر ﴾ في استبداد القدرة على إيجاد المعدوم والإخبار بالغيب ﴿ مثلكم ﴾ أي : لا أمر لي ولا قدرة إلا ما يقدرني ربي عليه ولكن ﴿ يوحى إليّ ﴾ أي : من اللّه تعالى الذي خصني بالرسالة كالوحي إلى الرسل قبلي ﴿ أنما إلهكم ﴾ الذي يجب أن يعبد ﴿ إله واحد ﴾ لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد ، لا منازع له لم يؤخر جواب ما سألتموني عنه من عجز ولا من جهل هذا الذي يعني كل أحد علمه ، وأما ما سألتم عنه في أمر الروح والقصتين تعنتا لي فأمر لو جهلتموه ما ضرّكم جهله ﴿ فمن ﴾ أي : فتسبب عن وحدته المستلزمة لقدرته أنه من ﴿ كان يرجو لقاء

ربه ﴾ أي : يخاف المصير إليه وقيل يأمل رؤية ربه والرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً قال الشاعر :

*فلا كل ما ترجو من الخير كائن

**ولا كل ما ترجو من الشر واقع

(267/480)

فجمع بين المعنيين ﴿ فليعمل عملاً ﴾ ولو قليلاً ﴿ صالحاً ﴾ يرتضيه اللّه ﴿ ولا يشرك ﴾ أي : وليكن ذلك العمل مبنياً على الأساس وهو أن لا يشرك ولو بالرياء ﴿ بعبادة ربه أحداً ﴾ فإذا عمل ذلك حاز فخار علوم الدنيا والآخرة ، روي أن جندب بن زهير قال لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم إني لأعمل العمل للّه فإذا اطلع عليه سرّني فقال : "إن اللّه لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقاً ، وروي أنه قال له : لك أجران أجر السر وأجر العلانية" وذلك إذا قصد أن يقتدي به ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "اتقوا الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء" وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول عن اللّه تعالى : "أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء هو للذي عمله" ، وعن سعيد بن فضالة

قال : سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا جمع اللّه تبارك وتعالى الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك في عمل عمله للّه فليطلب ثوابه منه فإن اللّه تعالى أغنى الشركاء عن الشرك" والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة .

(268/480)

خاتمة : روي في فضائل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها ما رواه الترمذي وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نور يتلألأ في مضجعه إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وإن كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ ، وروي أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال" ، وقال البيضاوي وعنه عليه السلام : "من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه" ، ولكن الذي رواه الإمام أحمد : "من قرأ أول سورة الكهف كانت له نوراً من فرقه إلى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء" ، وروى البغوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قرأ أوّل سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من

قدمه إلى رأسه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء" فنسأل اللّه تعالى أن ينوّر قلوبنا وأبصارنا وأن يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا ، وأن يفعل ذلك بوالدينا وأولادنا وأقاربنا وأصحابنا ومشايخنا وجميع إخواننا المسلمين وأحبابنا آمين ولا حول ولا قوة إلا باللّه العليّ العظيم وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 73.94 ﴾

(269/480)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾

هذا الدرس الأخير في سورة الكهف قوامه قصة ذي القرنين ، ورحلاته الثلاث إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الوسط ، وبناؤه للسد في وجه يأجوج ومأجوج .

والسياق يحكي عن ذي القرنين قوله بعد بناء السد : ﴿ قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ﴾ . . ثم يعقب الوعد الحق ، بالنفخ في الصور ومشهد من مشاهد القيامة . . ثم تختم السورة بثلاثة مقاطع ، يبدأ كل مقطع منها : بقوله : ﴿ قل ﴾ .

وهذه المقاطع ، تلخص موضوعات السورة الرئيسية واتجاهاتها العامة . وكأنما هي الإيقاعات الأخيرة القوية في اللحن المتناسق . .

وتبدأ قصة ذي القرنين على النحو التالي :

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين . قل : سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ . .

(270/480)

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة فقال : " حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول . ما كان من أمرهم ؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض

ومغاربها . ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ، فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود ان نسأله عن أمور . . فأخبرهم بها . فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد أخبرنا . . فسألوه عما أمرهم به . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - " أخبركم غداً عما سألتم عنه " - ولم يستثن فانصرفوا عنه . ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة ؛ وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه ؛ وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر

(271/480)

الفتية ، والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الروح . . ﴾ الآية " .

هذه رواية . وقد وردت عن ابن عباس رضي الله عنه رواية أخرى في سبب نزول آية الروح خاصة ، ذكرها العوفي . وذلك أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الروح . وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه شيء . فلم يحر إليهم شيئاً . فأتاه جبريل فقال له : ﴿ قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . . إلى آخر الرواية .

ولتعدد الروايات في أسباب النزول ، نؤثر أن نقف في ظل النص القرآني المستيقن . ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذي القرنين . لا ندري على وجه التحقيق من الذي سأله . والمعرفة به لا تزيد شيئاً في دلالة القصة . فلنواجه النص بلا زيادة .

إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه . وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن . فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود . إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة . والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان .

والتاريخ المدون يعرف ملكاً اسمه الاسكندر ذو القرنين . ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن . فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً . وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله وحده معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيروني المنجم في كتاب : " الآثار الباقية عن القرون الخالية " إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من حمير مستدلاً باسمه . فملوك حمير كانوا يلقبون بذي . كذي نواس وذي يزن . وكان اسمه أبو بكر بن افريقش . وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرهما ؛ وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه . وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس .

(272/480)

وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه . ذلك انه لا يمكن البحث في التاريخ المدون عن ذي القرنين الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم . فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية . وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً . فليس هو الذي يستفتى فيها !

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث .

ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير . وشحنت كذلك

بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحي به من الله . فلم تعد التوارة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي .

وإذن فلم يبق إلا القرآن . الذي حفظ من التحريف والتبديل . هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي .

ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين :

أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية ، لم يعلم عنها شيئاً . والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها !

وثانيهما : أن التاريخ وإن وعى بعض هذه الأحداث هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد في زماننا هذا الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة ، ويفسر تفسيرات متناقضة . ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق !

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل . وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء . إنما هو مراء ! ! !

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين . سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته . وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة . فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم . وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ، ولكنها لا تعتمد على يقين . وينبغي أن تؤخذ بحذر ، لما فيها من إسرائيليات وأساطير .

وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، وواحدة إلى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدين . . فلنتابع السياق في هذه الرحلات الثلاث .

يبدأ الحديث عن ذي القرنين بشيء عنه : ﴿ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ . .

لقد مكن الله له في الأرض ، فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح ، وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع . . وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة .

﴿ فأتبع سببا ﴾ . ومضى في وجه مما هو ميسر له ، وسلك طريقه إلى الغرب .

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ، ووجد عندها قوماً . قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً .

قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ .

(274/480)

ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق . وهو يختلف بالنسبة للمواضع . فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر . .

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهي عنده فرأى الشمس تغرب فيه .

والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار . حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ . وتوجد البرك وكأنها عيون الماء . . فرأى الشمس تغرب هناك و ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ . . ولكن يتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا

يحدده . وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده . وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح .

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوماً : ﴿ قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ .

كيف قال الله هذا القول لذي القرنين ؟ أكان ذلك وحياً إليه أم إنه حكاية حال . إذ سلطه الله على القوم ، وترك له التصرف في أمرهم فكأنما قيل له : دونك وإياهم . فإما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ؟ كلا القولين ممكن ، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك . والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره في معاملة البلاد المفتوحة ، التي دان له أهلها وسلطه الله عليها .

﴿ قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ .

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذاباً فظيعاً ﴿ نكرا ﴾ لا نظير له فيما يعرفه البشر . أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن ، والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة والتيسير .

وهذا هو دستور الحكم الصالح . فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم . والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء . . وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً ، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً ؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة ؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون .

فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد . ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد .

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ، ممكناً له في الأرض ، ميسرة له الأسباب :

﴿ ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴾ .

وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها . فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقي في عين الرائي . والقرآن لم يحدد المكان . ولكنه وصف طبيعته وحال القوم الذي وجدهم ذو القرنين هناك : ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها

سترا ﴾ . . أي إنها أرض مكشوفة ، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار .

فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر . . وهذا الوصف ينطبق على الصحارى والسهوب الواسعة . فهو لا يحدد مكاناً بعينه . وكل ما نرجحه أن هذا المكان كان في أقصى الشرق حيث يجد الرائي أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة ، وقد يكون ذلك على شاطئ إفريقية الشرقي . وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله : ﴿ لم نجعل لهم من دونها سترا ﴾ إنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم ستراً من الشمس . .

ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره في الحكم ، فلم يتكرر بيانه هنا ، ولا تصرفه في رحلة المشرق لأنه معروف من قبل ، وقد علم الله كل ما لديه من افكار واتجاهات .

(276/480)

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفني في العرض . . فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر . وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله . . وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة .

﴿ ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا . قالوا : يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال : ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد . حتى إذا ساوى بين الصدفين قال : انفخوا . حتى إذا جعله ناراً قال : آتوني أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . قال : هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ، وكان وعد ربي حقاً ﴾ .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين ﴿ بين السدين ﴾ ولا ما هما هذان السدان . كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين .

تفصلهما فجوة أو ممر . فوجد هنالك قوماً متخلفين : ﴿ لا يكاد يفقهون قولاً ﴾ .

وعندما وجدوا فاتحاً قوياً ، وتوسموا فيه القدرة والصلاح . . عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون في أرضهم فساداً ؛ ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم . . وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم .

وتبعاً للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه من المال ؛ وتطوع بإقامة السد ؛ ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين ؛ فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية : ﴿ فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد ﴾ . . فجمعوا له قطع الحديد ، وكومها في الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما . ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ وأصبح الركام بمساواة القمتين ﴿ قال : انفخوا ﴾ على النار لتسخين الحديد ﴿ حتى إذا جعله ناراً ﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿ قال : آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ أي نحاساً مذاباً يتخلل الحديد ، ويختلط به فيزيده صلابه .

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد ؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته . وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله في كتابه الخالد سبقاً للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله .

بذلك التحم الحاجزان ، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ ويتسوروه ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ فينفذوا منه . وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين . فأمنوا واطمأنوا .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه . وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً .

﴿ قال : هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء . وكان وعد ربي حقاً ﴾ . .

(278/480)

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين . النموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله في الأرض ، وييسر له الأسباب ؛ فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً ؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه . . إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعبير والإصلاح ، ودفع العدوان وإحقاق الحق .

ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته ، وأنه راجع إلى الله .

وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون !

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين : ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ، وكان وعد ربي حقاً ﴾ .

وهذا النص لا يحدد زماناً . ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار ، وانساحوا في الأرض ، ودمروا الممالك تدميراً .

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق . . . ﴾ وهذا النص كذلك لا يحدد زمانا معيناً لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فجاء في القرآن : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر . فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون ، يراها البشر طويلة مديدة ، وهي عند الله ومضة قصيرة .

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة ما بين : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج .

وهنالك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري عن عروة ، عن زينب بنت أبي سلمة ، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، عن أمها حبيبة ، عن زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : " استيقظ الرسول صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول : " ويل للعرب من شر قد اقتربت . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا " وحلق (بإصبعيه السبابة والإبهام) . قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبيث " .

وقد كانت الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . وقد وقعت غارات التتار بعدها ، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين . وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلم ذلك عند الله . وكل ما نقوله ترجيح لا يقين .

ثم نعود إلى سياق السورة . فنجده يعقب على ذكر ذي القرنين للوعد الحق بمشهد من مشاهد القيامة .

﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ؛ وعرضنا جهنم

يومئذ للكافرين عرضاً ، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ، وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ .

وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين . يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج . . ثم إذا نفخة التجمع والنظام : ﴿ ونفخ في الصُّور فجمعناهم جمعا ﴾ فإذا هم في الصف في نظام !

(280/480)

ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولكأن في أسماعهم صمماً . . إذا بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله . فما يستطيعون اليوم إعراضاً . لقد نزع الغطاء عن عيونهم نزعاً فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقاً !

والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين في المشهد ، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن .

ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة :

﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء . إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ . .

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا مخلوقات الله المستعبدة له انصاراً لهم من دونه ، ينصرونهم منه ويدفعون عنهم سلطانه ؟ إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان : ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ . . ويا له من نزل مهيأ للاستقبال ، لا يحتاج إلى جهد ولا انتظار . فهو حاضر ينتظر النزلاء الكفار !

ثم تختم السورة بالإيقاعات الأخيرة ، تلخص خطوطها الكثيرة ، وتجمع إيقاعاتها المتفرقة : فأما الإيقاع الأول فهو الإيقاع حول القيم والموازين كما هي في عرف الضالين ، وكما هي على وجه اليقين . . قيم الأعمال وقيم الأشخاص . .

﴿ قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ .

﴿ قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ الذين لا يوجد من هم أشد منهم خسراناً ؟ ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ فلم يؤد بهم إلى الهدى ، ولم ينته بهم إلى ثمرة أو غاية : ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، فهم ماضون في هذا السعي الخائب الضال ، ينفقون حياتهم فيه هدراً . .

قل هل ننبئكم من هم هؤلاء ؟

وعندما يبلغ من استثارة التطلع والانتظار إلى هذا الحد يكشف عنهم فإذا هم :

(281/480)

﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾ . .

وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ ثم تلقى حتفها . . وهو أنسب شيء لوصف الأعمال . . إنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة . . ثم تنتهي إلى البوار !

﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾ . . ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ . .

فهم مهملون ، لا قيمة لهم ولا وزن في ميزان القيم الصحيحة ﴿ يوم القيامة ﴾ .

ولهم بعد ذلك جزاؤهم :

﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ .

ويتم التعاون في المشهد بعرض كفة المؤمنين في الميزان وقيمتهم :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا

يبغون عنها حولا ﴾ . .

وهذا النزل في جنات الفردوس في مقابل ذلك النزل في نار جهنم . وشتان شتان !

ثم هذه اللفتة الدقيقة العميقة إلى طبيعة النفس البشرية وإحساسها بالمتاع في قوله : ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ . . وهي تحتاج منا إلى وقفة بإزاء ما فيها من عمق ودقة . .

إنهم خالدون في جنات الفردوس . . ولكن النفس البشرية حوّل قلب . تمل الاطراد ، وتسأم البقاء على حال واحدة أو مكان واحد ؛ وإذا اطمأنت على النعيم من التغير والنفاد فقدت حرصها عليه . وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه . بل قد تنتهي إلى الضيق به ؛ والرغبة في الفرار منه !

(282/480)

هذه هي الفطرة التي فطر عليها الأنسان لحكمة عليا تناسب خلافته للأرض ، ودوره في هذه الخلافة . فهذا الدور يقتضي تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها في علم الله . ومن ثم ركز في الفطرة البشرية حب التغيير والتبديل ؛ وحب الكشف والاستطلاع ، وحب الانتقال من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، ومن مشهد إلى مشهد ، ومن نظام إلى نظام . . وذلك كي يندفع الإنسان في طريقه ، يغير في واقع الحياة ،

ويكشف عن مجاهل الأرض ؛ ويبدع في نظم المجتمع وفي أشكال المادة . . ومن وراء التغير والكشف والإبداع ترتقي الحياة وتتطور ؛ وتصل شيئاً فشيئاً إلى الكمال المقدر لها في علم الله .

نعم إنه مركوز في الفطرة كذلك ألفة القديم ، والتعلق بالمألوف ، والمحافظة على العادة . ولكن ذلك كله بدرجة لا تشل عملية التطور والإبداع ، ولا تعوق الحياة عن الرقي والارتفاع . ولا تنتهي بالأفكار والأوضاع إلى الجمود والركود . إنما هي المقاومة التي تضمن التوازن مع الاندفاع . وكلما اختل التوازن فغلب الجمود في بيئة من البيئات انبعثت الثورة التي تدفع بالعجلة دفعة قوية قد تتجاوز حدود الاعتدال . وخير الفترات هي فترات التعادل بين قوتي الدفع والجذب ، والتوازن بين الدوافع والضوابط في جهاز الحياة . فأما إذا غلب الركود والجمود . فهو الإعلان بانحسار دوافع الحياة ، وهو الإيذان بالموت في حياة الأفراد والجماعات سواء .

هذه هي الفطرة المناسبة لخلافة الإنسان في الأرض . فأما في الجنة وهي دار الكمال المطلق . . فإن هذه الفطرة لا تقابلها وظيفة . ولو بقيت النفس بفطرة الأرض ، وعاشت في هذا النعيم المقيم الذي لا تخشى عليه النفاد ، ولا تتحول هي عنه ، ولا يتحول هو عنها لانقلب النعيم جحيماً لهذه النفس بعد فترة من الزمان ؛ ولأصبحت الجنة سجناً لنزلائها يودون لو يغادرونه فترة ، ولو إلى الجحيم ، ليرضوا نزعة التغير والتبديل !

ولكن بارئ هذه النفس وهو أعلم بها يحول رغباتها ، فلا تعود تبغي التحول عن الجنة ، وذلك في مقابل الخلود الذي لا تحول له ولا نفاد !

وأما الإيقاع الثاني فيصور العلم البشري المحدود بالقياس إلى العلم الإلهي الذي ليست له حدود ؛ ويقربه إلى تصور البشر القاصر بمثال محسوس على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .

﴿ قل : لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ . .

والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر ، والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون ؛ وكل ما يسجلون به علمهم الذي يعتقدون أنه غزير !

فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه ؛ فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد . ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد !

وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشري المحدود معنى غير

المحدود ، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع .

والمعنى الكلي المجرد يظل حائراً في التصور البشري ومائعاً حتى يتمثل في صورة محسوسة .

ومهما أوتي العقل البشري من القدرة على التجريد فإنه يظل في حاجة إلى تمثل المعنى المجرد في صور وأشكال وخصائص ونماذج . . ذلك شأنه مع المعاني المجردة التي تمثل المحدود ، فكيف بغير المحدود ؟

لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ؛ ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد ، ومحسوسات ذات مقومات وخصائص وأشكال على مثال هذا المثال .

والبحر في هذا المثال يمثل علم الإنسان الذي يظنه واسعاً غزيراً . وهو على سعته وغزارته محدود . وكلمات الله تمثل العلم الإلهي الذي لا حدود له ، والذي لا يدرك البشر نهايته ؛ بل لا يستطيعون تلقيه وتسجيله . فضلاً على محاكاته .

(284/480)

ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار في أنفسهم وفي الآفاق ، فتأخذهم نشوة الظفر العلمي ، فيحسبون أنهم علموا كل شيء ، أو أنهم في الطريق !

ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التي لا حد لها ، فإذا هم ما يزالون على خطوات من

الشاطئ ، والخضم أمامهم أبعد من الأفق الذي تدركه أبصارهم !

إن ما يطيق الإنسان تلقيه وتسجيله من علم ضئيل قليل ، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود .

فليعلم الإنسان ما يعلم ؛ وليكشف من أسرار هذا الوجود ما يكشف . . ولكن ليطامن من غروره العلمي ، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه ان يكون البحر مداداً في يده . وسينفد البحر وكلمات الله لم تنفد ؛ ولو أمده الله ببحر مثله فسينتهي من بين يديه وكلمات الله ليست إلى نفاد . .

وفي ظل هذا المشهد الذي يتضاءل فيه علم الإنسان ينطلق الإيقاع الثالث والأخير في السورة ، فيرسم أعلى أفق للبشرية وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة .

فإذا هو قريب محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذي تتقاصر دونه الأبصار ، وتنحسر دونه الأنظار :

﴿ قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . .

إنه أفق الألوهية الأسمى . . فأين هنا آفاق النبوة ، وهي على كل حال آفاق بشرية ؟

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي . . . ﴾ . . بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى . بشر يستمد من ذلك المعين الذي لا ينضب . بشر لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه . بشر

يتعلم فيعلم فيعلم . . فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى ، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذي يتلقى ، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . .

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير .

(285/480)

وهكذا تختم السورة التي بدأت بذكر الوحي والتوحيد بتلك الإيقاعات المتدرجة في العمق والشمول ، حتى تصل إلى نهايتها فيكون هذا الإيقاع الشامل العميق ، الذي ترتكز عليه سائر الأنغام في لحن العقيدة الكبير . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2288 . 2297 ﴾

(286/480)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : لما بين للإنسان كمالاً مكنوناً وكنزاً مدفوناً يمكن له تحصيله بالتربية والإرشاد ، أراد أن يبين أن الإنسان الكامل إنما هو مستحق الخلافة في الأرض وهو ذو القرنين الذي ملك الجانبين أعني جانب عالم الأرواح وجانب عالم الأشباح ، لأنه أوتي التمكين في الأرض وأتى أسباب كل شيء في عالم الوسائط والأسباب ، فبذلك يصير كاملاً في نفسه مكملاً لغيره . ﴿ فأتبع سبباً ﴾ من أسباب الوصول إلى عالم السفلي وهو مغرب شمس الروحي الإنساني ﴿ فوجدها تغرب في عين حمئة ﴾ هي عالم القوى والطبائع والأجساد ﴿ ووجدنا عندها قوماً ﴾ قم القوى البدنية والنفوس الأرضية ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذبهم ﴾ بالقتل بسكين الرياضة وسيف المجاهدة ﴿ وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ هو الرفق والمداراة ﴿ قال أما من ظلم ﴾ بوضع خاصيته واستعمالها في غير موضعها ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بقهره على خلاف ما هو مراده وهواه ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ وهو الشيخ الكامل الذي يربيه ﴿ فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ هو المنع عن مشتهياته ، أو يرد إلى الله تعالى فيعذبه بعذاب البعد والقطيعة .

(287/480)

﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ هو مقام الوصول والوصال ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ هو التخفيف والاستراحة بعد الفناء والمجاهدة ﴿ ثم أتبع ﴾ أسباب الوصول إلى عالم الأرواح وهو مطلع شمس النفس الناطقة الإنسانية ﴿ فوجدها تطلع على قوم ﴾ مجردين عن العلائق الجسمانية والعوائق الساترة الجسدانية ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ وهو عالم التعيش والتمدن والجولان في جو أسباب قوام البدن وقيامه على وجه الجسمانية إلى صلاح المعاد ونظامه ﴿ وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ وهم العوام الذين قصارى أمرهم الجهل البسيط ﴿ إن يأجوج ومأجوج ﴾ القوى والطبائع البشرية ﴿ مفسدون في الأرض ﴾ البشرية باستعمال خواصها في غير ما خلقت هي لأجلها ﴿ فهل نجعل لك مخرجاً ﴾ هو ترك الوجود وبذلك الموجود . ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ بهمة صارفة وعزيمة صادقة ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ ملكات راسخة وهيئات ثابتة أو قلوباً هن كالحديد في المضاء ، وكالجبال الراسيات في البقاء ﴿ حتى إذا ساوى ﴾ عرض ما بين طرفي العمر كما قيل من المهد إلى اللحد ﴿ قال انفخوا ﴾ بالمداومة على الأذكار والأوراد ﴿ حتى إذا جعله ناراً ﴾ بتأثير حرارة الطاعة والذكر في حديد القلب ﴿ قال آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ هو جوهر المحبة وكيمياء الإخلاص النافذ في سويدات القلوب بحيث لا ينفذ فيه كيد الشيطان ولا يعلوه ما سوى الرحمن الله حسبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 464 . 465 ﴾

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : قيل ذو القرنين إشارة إلى القلب ، وقيل : إلى الشيخ الكامل ويأجوج ومأجوج إشارة إلى الدواعي والهواجس الوهمية والوساوس والنوازع الخيالية ، وقيل : إشارة إلى القوى والطبائع والأرض إشارة إلى البدن وهكذا فعلوا في باقي ألفاظ القصة وراموا التطبيق بين ما في الآفاق وما في الأنفس ولعمري لقد تكلفوا غاية التكلف ولم يأتوا بما يشرح الخاطر ويسر الناظر ، ولعل الأولى أن يقال : الإشارة في القصة إلى إرشاد الملوك لاستكشاف أحوال رعاياهم وتأديب مسيئهم والإحسان إلى محسنهم وإعانة ضعفائهم ودفع الضرر عنهم وعدم الطمع بما في أيديهم وإن سمحب به أنفسهم لمصلحتهم .

وقد يقال : فيها إشارة إلى اعتبار الأسباب .

وقال الأشاعرة : الأسباب في الحقيقة ملغاة وعلى هذا قول شيخهم يجوز لأعمى الصين أن يرى بقعة أندلس ومذهب السلف أنها معتبرة وإن لم يتوقف عليها فعل الله تعالى عقلا وتحقيق هذا المطلب في محله ، وقوله تعالى : ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا ﴾ [الكهف : 104] إشارة إلى المرائين على ما في أسرار

القرآن ومنهم الذين يجلسون في الخانقاه لأجل نظر الخلق وصرف وجوه الناس إليهم واصطياد أهل الدنيا بشباك حيلهم وذكر من خسرانهم في الدنيا افتضاحهم فيها وإظهار الله تعالى حقيقة حالهم للناس :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة . . .

وإن خالها تخفي على الناس تعلم

وأما خسرانهم في الآخرة فالطرد عن الحضرة والعذاب الأليم .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : 110]) إشارة إلى جهة مشاركته صلى الله عليه وسلم للناس وجهة امتيازه ولولا تلك المشاركة ما حصلت الإفاضة ولولا ذلك الامتياز ما حصلت الاستفاضة .

هذا ونسأل الله تعالى بحرمة نبيه المكرم المعظم صلى الله عليه وسلم أن يوفقنا لما يرضيه ويوفقنا على أسرار كتابه الكريم ومعانيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الكهف (18) : آية 51]

ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51)

الإعراب :

(ما) نافية (أشهدتهم) فعل ماض وفاعله . . و(هم) ضمير مفعول به (خلق) مفعول به ثان منصوب (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (خلق) معطوف على خلق الأول منصوب (أنفسهم) مضاف إليه مجرور . . و(هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) كالأولى (كنت) فعل ماض

ناقص . . و(التاء) اسمه (متّخذ) خبر كنت منصوب (المضلّين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (عضدا) مفعول به ثان لاسم الفاعل متّخذ ، ومفعوله الأول جاء مضافا إليه .

جملة : " ما أشهدتهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ما كنت متّخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

الصرف :

(المضلّين) ، جمع المضلّ ، اسم فاعل من أضلّ الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين

(عضدا) اسم جامد للعضو المعروف واتّخذ وصفا على سبيل الاستعارة ، وزنه فعل

بفتح الفاء وضمّ العين

البلاغة

- التشبيه البليغ :

في قوله تعالى " وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً " .

فقد شبه المضلين بالعضد ، الذي يتقوى به الإنسان ، وأصله العضو الذي هو من المرفق إلى

الكتف ، ولم يذكر الأداة ، فهو تشبيه بليغ .

الفوائد

1 - المال والبنون .

وصف الله " الْمالُ وَالْبَنُونَ " بأنهما زينة الحياة الدنيا ، وسيبقون زينتها ما دامت الدنيا ،

وما دامت الحياة ، ويطلق على هذا النوع من البلاغة " فن الجمع " ، إذ يجمع

المتحدث أشياء عدّة ، ثم يخبر عنها بخبر واحد . ومنه

حديث الرسول/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ " من أصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها " .

ومنه قول أبي العتاهية :

ان الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أيّ مفسدة

]

سورة الكهف (18) : آية 52]

وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (52)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (يقول) مضارع مرفوع ، والفاعل هو أي اللّه (نادوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (شركائي) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و(الياء) مضاف إليه (الذين) اسم موصول في محلّ نصب نعت لشركاء (زعمتم) فعل ماض وفاعله ، وقد حذف المفعولان أي زعمتموهم شركاء (الفاء) عاطفة (دعوهم) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل ، و(هم) ضمير

مفعول به (الفاء) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (يستجيبوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستجيبوا) ، (الواو) حاليّة (جعلنا) فعل ماض وفاعله (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بمفعول به ثان . . و(هم) مضاف إليه (موبقا) مفعول به أوّل منصوب .

جملة : " يقول . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " نادوا . . . " في محلّ نصب مقول القول

وجملة : " زعمتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " دعوهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يقول وجملة : " لم يستجيبوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة دعوهم وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد)

الصرف :

(دعوهم) ، فيه إعلال بالحذف أصله دعاوهم ، فلمّا التقى ساكنان حذفت الألف وبقي ما قبلها مفتوحا دلالة عليها ، وزنه فعوهم .

(موبقا) ، مصدر ميميّ من وبق الثلاثيّ المعتلّ المثال بمعنى هلك ، أو هو اسم مكان من

الفعل نفسه ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين ، وقيل هو واد في جهنّم أو النار ، وقيل الحاجز .

[سورة الكهف (18) : آية 53]

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (53)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (رأى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (المجرمون) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو (النار) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (ظنّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل (أنّهم) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ نصب أنّ (مواقعوها) خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو . . و(ها) ضمير مضاف إليه والمصدر المؤوّل (أنّهم مواقعوها . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّوا . .

(الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (يجدوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (عن) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (مصرفا) مفعول به أوّل منصوب .

جملة : " رأى المجرمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ظنّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " لم يجدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظنّوا . . .

الصرف :

(مواقعوها) ، جمع مواقع ، اسم فاعل من واقع الرباعيّ ، وزنه مفاعل بضمّ الميم وكسر العين

(مصرفا) ، اسم مكان من فعل صرف الثلاثيّ ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين .

[سورة الكهف (18) : آية 54]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54)

الإعراب :

(292/480)

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (صرّفنا) فعل ماض وفاعله (في) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (صرّفنا) ، (القرآن) بدل من ذا - أو عطف بيان - مجرور (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (صرّفنا) ، (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (صرّفنا) " 1 " ، (مثل) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (كان) ماض ناقص (الإنسان) اسم كان مرفوع (أكثر) خبر كان منصوب (شيء) مضاف إليه مجرور (جدلا) تمييز منصوب .

---

(1) و(من) لابتداء الغاية . . ويجوز أن يتعلّق بنعت للمفعول المحذوف أي مثلا من جنس كلّ مثل .

(293/480)

وجملة : " صرّفنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم استئنافيّة وجملة : " كان الإنسان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 1 " .

الصرف :

(جدلا) ، مصدر سماعيّ لفعل جدل يجدل الرجل باب فرح أي اشتدت خصومته ، وزنه فعل بفتحتين

[سورة الكهف (18) : الآيات 55 إلى 56]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (55) وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (56)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (منع) فعل ماض (الناس) مفعول به منصوب (أن) حرف

مصدريّ (يؤمنوا) مضارع منصوب ، وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يؤمنوا . .) في محلّ نصب مفعول به ثان .

(إذ) ظرف للزمن الماضيّ مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (منع) ، (جاءهم) فعل ماض . .

و(هم) ضمير مفعول به (الهدى) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف

(الواو) عاطفة (يستغفروا) مثل يؤمنوا ومعطوف عليه

---

(1) يجوز أن تكون مقطوعة على الاستئناف . .

(294/480)

(ربّهم) مفعول به منصوب . . و(هم) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (أن) مثل الأول

(تأتيهم) مضارع منصوب . . و(هم) ضمير مفعول به (سنّة) فاعل مرفوع (الأوّلين)

مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (أو) حرف عطف (يأتيهم العذاب) مثل تأتيهم سنّة

ومعطوف عليه (قبلا) حال منصوبة من العذاب .

والمصدر المؤوّل (أن تأتيهم . .) في محلّ رفع فاعل منع على حذف مضاف أي إتيانها أو

طلب إتيانها .

جملة : " منع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول

الحرفيّ (أن) وجملة : " جاءهم الهدى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " يستغفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤمنوا . . .

وجملة : " تأتيهم سنّة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني وجملة : " يأتيهم العذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تأتيهم 56 - (الواو) عاطفة (ما) نافية (نرسل) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (المرسلين) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء (إلّا) أداة حصر (مبشّرين) حال منصوبة ، وعلامة النصب الياء (منذرين) معطوف على مبشّرين بالواو . . (الواو) استئنافيّة (يجادل) مضارع مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض وفاعله (بالباطل) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الموصول (اللام) للتعليل (يدحضوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يدحضوا) ، (الحقّ) مفعول به منصوب .

(295/480)

والمصدر المؤوّل (أن يدحضوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يجادل) (الواو) حاليّة - أو استئنافيّة - (اتّخذوا) مثل كفروا (آياتي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة

المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على آيات " 1 " . والعائد محذوف (أنذروا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . . و(الواو) نائب الفاعل (هزوا) مفعول به ثان عامله اتّخذوا ، منصوب .

وجملة : " ما نرسل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما منع وجملة : " يجادل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " يدحضوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " اتّخذوا . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) " 2 " وجملة : " أنذروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

الصرف :

(اتّخذوا) ، فيه إدغام فاء الكلمة مع تاء الافتعال ، أصله تخذ ، فلمّا بني على افتعل سكّنت فاء الكلمة من أجل همزة الوصل ثمّ أدغمت التاءان معا " 3 " .

---

(1) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل في محلّ نصب معطوف على آيات .

(2) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(3) وهو رأي الجمهور خلافا للجوهريّ . فقد جاء في لسان العرب : " قال ابن الأثير :

اتّخذ افتعل من تخذ فأدغم إحدى التاءين في الأخرى ، قال وليس من أخذ في شيء ، الافتعال من أخذ ائتخذ لأنّ فاءها همزة والهمزة لا تدغم بالتاء . قال الجوهري : الاتخاذ الافتعال من الأخذ إلّا أنه أدغم بعد تليين الهمزة وإبدال التاء ، ثمّ لمّا كثر استعماله بلفظ الافتعال توهّموا أنّ التاء أصلية ، فبنوا منه فعل يفعل قالوا تخذ يتخذ ، قال وأهل العربيّة على خلاف ما قال الجوهريّ .

(296/480)

[سورة الكهف (18) : آية 57]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (من) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (أظلم) (ذكّر) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل هو ، وهو العائد (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ذكّر) ، (ربّه) مضاف إليه مجرور ، و(الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أعرض) فعل ماض والفاعل هو (عن)

حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعرض) ، (الواو) عاطفة (نسي) مثل أعرض (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (قدّمت) فعل ماض و(التّاء) للتأنيث (يداه) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف . . و(الهاء) مضاف إليه (انّا) حرف مشبه بالفعل . . و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (جعلنا) فعل ماض وفاعله (على قلوبهم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . .

و(هم) مضاف إليه (أكنّة) مفعول به أوّل منصوب (أن) حرف مصدريّ (يفقهوه) مضارع منصوب ، وعلامة النصب حذف النون . . . و(الواو) فاعل ، و(الهاء) مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن يفقهوه . . .) في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي كراهة أن يفقهوه . .

(الواو) عاطفة (في آذانهم وقرا) مثل على قلوبهم أكنّة ومعطوف عليه " 1 " ،

---

(1) يجوز أن يكون ثمّة فعل محذوف تقديره جعلنا ، وحينئذ يكون العطف من عطف الجمل .

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تدعهم) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة . . و(هم) ضمير مفعول به (إلى الهدى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تدعهم) ، وعلامة الجرّ الكسر المقدّرة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لن) حرف نفي ونصب (يهتدوا) مضارع منصوب مثل يفقهوا (إذا) – بالتنوين – حرف جواب لا عمل له (أبدا) ظرف منصوب متعلّق بـ (يهتدوا) .

وجملة : " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ذكّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " أعرض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " نسي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " نسي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " قدّمت يداه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " إنّا جعلنا . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " تدعهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا جعلنا " 1 " وجملة : " لن يهتدوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط جازم مقترنة بالفاء

[سورة الكهف (18) : الآيات 58 إلى 59]

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58) وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ربّك) مبتدأ مرفوع . . و(الكاف) مضاف إليه (الغفور) خبر مرفوع "

2 " ، (ذو) خبر ثان مرفوع ، وعلامة الرفع الواو ،

---

(1) أو استئنافيّة من غير تعليل .

(2) أو نعت لربّك . . وجملة يؤاخذهم الخبر .

(الرحمة) مضاف إليه مجرور (لو) حرف شرط غير جازم (يؤاخذهم) مضارع مرفوع . .

و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الباء) حرف جرّ للسببيّة (ما) حرف مصدريّ "

1 " ، (كسبوا) فعل ماض وفاعله (اللام) رابطة لجواب لو (عجّل) فعل ماض ، والفاعل هو

(اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عجّل) ، (العذاب) مفعول به

منصوب .

والمصدر المؤوّل (ما كسبوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يؤاخذهم) .

(بل) حرف إضراب وابتداء (لهم) مثل الأول متعلّق بخبر مقدّم (موعد) مبتدأ مؤخّر

مرفوع (لن يجدوا) مثل لن يهتدوا " 2 " ، (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال

من (موئلا) " 3 " ، و(الهاء) مضاف إليه (موئلا) مفعول به .

جملة : " ربّك الغفور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يؤاخذهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " وجملة : "كسبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " عجّل . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " لهم موعد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لن يجدوا . . . " في محلّ رفع نعت لموعد 59 - (الواو) عاطفة (تلك) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ بالباء ، والعائد محذوف أي كسبوه .

(2) في الآية السابقة (57) .

(3) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان إن جعلت (يجدوا) متعدّيا لاثنين . [. . . . .]

(4) يجوز أن تكون خبرا ثالثا للمبتدأ ربّك .

المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (القرى) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (أهلكناهم) فعل ماض وفاعله . . و(هم) ضمير مفعول به (لمّا) ظرف بمعنى حين فيه معنى الشرط متعلّق بفعل محذوف تقديره أهلكناهم وهو جواب الشرط (ظلموا)

مثل كسبوا (الواو) عاطفة (جعلنا لمهلكهم موعدا) مثل جعلنا على قلوبهم أكنّة " 1 " .

وجملة : " تلك القرى أهلكناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ربّك الغفور . .

وجملة : " أهلكناهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (تلك) وجملة : " ظلموا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجملة الجواب مقدّرة أي أهلكناهم وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أهلكناهم

الصرف :

(موئلا) ، هو مصدر ميميّ من فعل وأل الثلاثيّ بمعنى رجع من باب ضرب . . أو هو اسم زمان أو اسم مكان ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين (مهلك) ، هو مصدر ميميّ من فعل هلك الثلاثيّ باب ضرب وباب فتح ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين

الفوائد

- قاعدة اسم التفضيل :

---

(1) في الآية (57) من هذه السورة .

أ- إذا كان مقترنا بـ " ال " امتنع وصله بـ " من " الجارة فلا يقال : " فلان الأفضل من فلان "

.

ب - إذا تجرد من " ال والإضافة " فلا بد من إفراده وتذكيره وأن تتصل به " من " الجارة ولو تقديرا ، نحو " وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " . .

ج - إذا أضيف إلى نكرة وجب إفراده وتذكيره ، وامتنع وصله بـ " من " الجارة .

د - وإذا أضيف إلى معرفة امتنع أيضا وصله بمن الجارة ، وجاز فيه وجهان :

الإفراد والتذكير من جهة ، ومطابقته لما قبله من جهة أخرى نحو : " أَحْرَصَ النَّاسِ " بالإفراد ، و " أَكابِرَ مُجْرِميها " بالجمع ، أي المطابقة وعدمها . . !

[سورة الكهف (18) : الآيات 60 إلى 62]

(301/480)

وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (61) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (62)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض فاعله (موسى) ، مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و(إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (لفتاه) جارّ ومجرور متعلّق بـ(قال) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف ، و(الهاء) مضاف إليه (لا) نافية (أبرح) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا " 1 " ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (أبلغ) مضارع منصوب بأن مضمرة

---

(1) و(أبرح) بمعنى أترك أو أغادر فيحتاج إلى مفعول ، وهو مقدّر لا أبرح سيري - أو مهمّتي - حتّى أبلغ . . ويجوز أن يكون الفعل ناقصا خبره محذوف تقديره سائرا . . والعكبريّ يجيز أن يكون الخبر (حتّى أبلغ) بتأويل متكلّف .

(302/480)

بعد حتّى ، والفاعل أنا (مجمع) مفعول به منصوب (البحرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ بالياء (أو) حرف عطف (أمضي) مضارع منصوب معطوف على (أبلغ) وهو مثله " 1 " ، (حقبا) ظرف زمان منصوب متعلّق و(أمضي) .

والمصدر المؤوّل (أن أبلغ) في محلّ جرّ بـ(حتّى) متعلّق بـ(أبرح) .

جملة : " قال موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " لا أبرح . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " أبلغ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " أمضي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ 61 – (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن الشرط متعلّق بـ (نسيا) ، (بلغا) فعل ماض ، و(الألف) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (مجمع) مفعول به منصوب (بين) مضاف إليه مجرور " 2 " ، و(هما) ضمير مضاف إليه (نسيا) مثل بلغا (حوتهما) مفعول به منصوب . . و(هما) مثل الأول (الفاء) عاطفة (اتّخذ) فعل ماض ، والفاعل هو أي الحوت (سبيله) مفعول به منصوب ، و(الهاء) مضاف إليه (في البحر) جارّ ومجرور متعلّق بحال من سبيل – أو من سربا – (سربا) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " بلغا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " نسيا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " اتّخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) يجوز أن ينصب بأن مضمرة بعد أو التي بمعنى (إلّا) أي إلّا أن أمضي زمانا أتيقن معه فوات مجمع البحرين .

(2) والبين بمعنى الوصل ، وبمعنى الفرقة أيضا فهو من الأضداد ، ويجوز أن يكون ظرفا معربا أضيف إليه لفظ مجمع .

(303/480)

---

62 - (الفاء) عاطفة (لمّا جاوزا قال) مثل لمّا بلغا . . نسيا (لفتاه) مثل الأول (آتنا) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة . . و(نا) ضمير مفعول به (غداءنا) مفعول به ثان منصوب ، و(نا) ضمير مضاف إليه (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (لقينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (من سفرنا) جارّ ومجرور متعلّق بـ(لقينا) ، و(نا) مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ بدل من سفرنا - أو عطف بيان - (نصبا) تمييز منصوب .

(304/480)

وجملة : " جاوزا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " آتنا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " لقينا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، والقسم وجوابه استئناف تعليليّ .

الصرف :

(مجمع) ، اسم مكان من جمع الثلاثيّ على وزن مفعل بفتح الميم والعين (حقبا) ، اسم بمعنى الدهر ، جمعه أحقاب ، وزنه فعل بضمّتين ، ووزن الجمع أفعال ، وضمّ العين هنا للاتباع لغة ، ويجوز فتحها .

(غداء) ، اسم للطعام يتناول في الغدد وزنه فعال بفتح الفاء ، وفيه إبدال الواو في آخره همزة بعد الألف الساكنة .

[سورة الكهف (18) : آية 63]

قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (63)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي الفتى (الهمزة) للاستفهام التعجبيّ (رأيت) فعل ماض وفاعله ، والمفعول محذوف أي : أ رأيت حالنا (إذ) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالمحذوف أو بحال منه (أوينا) مثل لقينا " 1 " ، (الى الصخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوينا) ، (الفاء) استئنافيّة (إنّي) حرف مشبّه بالفعل . . و(الياء) ضمير اسم إنّ (نسيت) مثل رأيت (الحوت) مفعول به منصوب (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية (إنسانية) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير مفعول به أوّل ، و(الهاء) مفعول به ثان (إلّا) أداة حصر (الشيطان) فاعل مرفوع (أن) حرف مصدريّ

ونصب (أذكره) مضارع منصوب ، و(الهاء) مفعول به ، والفاعل أنا .

والمصدر المؤوّل (أن أذكره . .) في محلّ نصب بدل اشتمال من الهاء في أنسانيه .

(الواو) عاطفة (اتّخذ . . عجبا) مثل اتّخذ . . سربا " 2 " .

---

(1) في الآية السابقة (62) .

(2) في الآية (61) من هذه السورة . . ويجوز في (عجبا) أيضا مفعول مطلق لفعل محذوف . . فالمفعول الثاني على هذا الجارّ والمجرور (في البحر) .

(305/480)

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " أرأيت . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " أوينا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " إنّي نسيت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " نسيت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " ما أنسانيه إلّا الشيطان . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة

وجملة : " أذكره . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " اتّخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّي نسيت

[سورة الكهف (18) : الآيات 64 إلى 65]

قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (64) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي موسى (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (كنّا) فعل ماض ناقص واسمه (نبغي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة من الرسم تخفيفا ، والفاعل نحن (الفاء) عاطفة (ارتدّا) مثل بلغا " 1 " ، (على آثارهما) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ارتدّا) ، و(هما) ضمير مضاف إليه (قصصا) مفعول مطلق لفعل محذوف " 2 " منصوب جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ذلك ما كنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : "كنّا نبغي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " نبغي . . . " في محلّ نصب خبر كنّا .

وجملة : " ارتدّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

---

(1) في الآية (61) من هذه السورة .

(2) أو مصدر في موضع الحال أي مقتصّين .

65 – (الفاء) عاطفة (وجدا) مثل بلغا " 1 " ، (عبدا) مفعول به منصوب (من عبادنا) جارّ ومجرور متعلّق بنعت (عبدا) ، و(نا) مضاف إليه (آتيناه) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل ، و(الهاء) ضمير مفعول به (رحمة) مفعول به منصوب (من عندنا) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لرحمة " 2 " ، و(نا) مثل الأول (الواو) عاطفة (علّمناه) ، مثل آتيناه (من لدنّا) جارّ ومجرور ، والاسم في محلّ جرّ متعلّق بـ (علّمناه) " 3 " . و(نا) مثل الأول (علما) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " وجدا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ارتدّا وجملة : " آتيناه . . . " في محلّ نصب نعت لـ (عبدا) " 4 " وجملة : " علّمناه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة آتيناه . .

الصرف :

(قصصا) مصدر سماعي للثلاثي قصّ الأثر بمعنى تتّبعه شيئًا فشيئًا وزنه فعل بفتحتين

الفوائد

1 – لدن :

أ – هي بجميع لغاتها وأقسامها لأول غاية زمان أو مكان وهي مثل " عند "

(1) في الآية (61) من هذه السورة.

(2) أو متعلّق بـ (اتيناه).

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من (علما).

(4) أو هي حال من (عبدا) لأنّه وصف.

(307/480)

بمعناها وإضافتها، وتجرّ ما بعدها بالإضافة لفظا إن كان معربا، ومحلّا ان كان مبنيّا أو جملة. فالأول نحو "مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" والثاني نحو "وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً" والثالث الجملة، نحو "لدن شبّ حتى شاب سود الذوائب".

ف "لدن" ملازمة للإضافة، فإذا كانت إضافتها إلى جملة تمحّضت للزمان، لأن ظروف المكان لا يضاف منها إلى الجملة إلا "حيث".

وإذا اتصلت بـ "لدن" ياء المتكلم اتصلت بها نون الوقاية، فيقال: "لدنيّ" بتشديد النون.

ب - "لدن" تفارق "عند" بستة أمور:

1 – مختصة بمبدإ الغايات .

2 – قلما يفارقها لفظ " من " الواقع قبلها .

3 – أنها مبنية إلا في لغة قيس .

(308/480)

---

4 – جواز إضافتها إلى الجمل .

5 – جواز إفرادها قبل " غدوة " ، وتنصب " غدوة " بها ، على خلاف في تسمية المنصوب ، نحو قوله : لدن غدوة حتى دنت لغروب 6 – لا تقع إلا فضلة ، فتقول : السفر من عند دمشق ، وليس من لدن دمشق .

ج – " لدن " تفارق " لدى " بخمسة أمور :

1 – لدن تحل محل ابتداء غاية ، نحو " جئت من لدنه " . وهذا لا يصح في " لدى " .

2 – " لدن " لا يصح وقوعها عمدة في الكلام .

3 – " لدن " كثيرا ما تجرّ بـ " من " كما مر ، بخلاف " لدى " .

4 – " لدن " تضاف إلى الجملة ، وهو ممتنع في لدى .

5 – إذا وقعت " لدن " قبل " غدوة " ، جاز جرّ غدوة بالإضافة ، ونصبها على التمييز ،

ورفعها على تقدير " لدن كانت غدوة " .

أما " لدى " ليس فيها إلا الإضافة فقط .

6 - تخفيف لدن إلى " لد " :

قد تخفف لدن إلى " لد " لكثرة الاستعمال نحو قول الشاعر :

من " لد " شولا فإلى اتلائها .

وهذا البحث فيه طرائف تجدها في المطولات .

[سورة الكهف (18) : آية 66]

قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66)

الإعراب :

(قال . . موسى) مرّ إعرابها " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال) ، (هل) حرف استفهام (أتّبعك) مضارع مرفوع ، و(الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل أنا (على) حرف جرّ (أن) حرف مصدريّ (تعلّمن) مضارع منصوب ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير مفعول به (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تعلّمن) ، (علّمت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . .

و(التاء) ضمير نائب الفاعل (رشدا) مفعول به ثان منصوب عامله تعلّمن " 2 "

.

والمصدر المؤوّل في (أن تعلّمن) محلّ جرّ متعلّق بحال من الكاف أي مثابرا على تعلّمن جملة : " قال له موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

---

(1) في الآية (60) من هذه السورة. [. . . . .]

(2) علمت ، مفعوله محذوف وهو العائد أي علّمته . . ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف . . أو مفعولا لأجله عامله أتّبعك .

(309/480)

وجملة : " هل أتّبعك . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " تعلّمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " علّمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

[سورة الكهف (18) : الآيات 67 إلى 68]

قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي الرجل العالم (إنّك) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (لن) حرف نفي ونصب (تستطيع) مضارع منصوب ، والفاعل أنت (معي) ظرف منصوب متعلّق بحال من الفاعل أي ماشيا معي

(صبرا) مفعول به منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " إنّك لن تستطيع . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " تستطيع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ 68 - (الواو) عاطفة (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال (تصبر) مضارع مرفوع ، والفاعل أنت (على) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ " 1 "

متعلّق بـ (تصبر) ، (لم) حرف نفي وجزم (تحط) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تحط) (خبرا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر فهو مرادف له " 2 "

.

وجملة : " تصبر . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّك لن تستطيع .

وجملة : " تحط . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

---

(1) أو هو نكرة موصوفة ، والجملة بعده نعت في محلّ جرّ .

(2) لأنّ الخبر بالشيء هو الإحاطة به .

الصرف :

(خبرا) ، مصدر سماعيّ لفعل خبر يخبر الشيء وبه علمه بحقيقته من بابي فتح وكرم ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، وثمّة مصادر أخرى هي خبر بكسر الخاء وخبرة بضمّ الخاء وكسرها ومخبرة بفتح الميم وضمّ الباء وفتحها

[سورة الكهف (18) : آية 69]

قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69)

الإعراب :

(قال) مثل السابق " 1 "

، (السين) حرف استقبال (تجدني) مضارع مرفوع . . و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (إن) حرف شرط جازم (شاء) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (صابرا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (لا) نافية (أعصي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل أنا (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعصي) ، (أمرا) مفعول به جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " ستجدني . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " شاء اللّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دل عليه جملة تجدني . .

وجملة : " أعصي . . . " في محلّ نصب معطوف على المفعول الثاني صابرا أي : صابرا وغير عاص " 2 "

.

[سورة الكهف (18) : آية 70]

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70)

---

(1) في الآية السابقة.

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة في حيّز القول لا محلّ لها . . أو معطوفة على مقول القول.

(311/480)

الإعراب :

(قال) مثل السابق " 1 "

، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (إن) مثل السابق " 2 "

، (اتّبعتني) فعل ماض مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط ، و(التاء) ضمير فاعل

، و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية

جازمة (تسألني) مضارع مجزوم ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) مفعول به ، والفاعل أنت ،

(عن شيء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تسألني) ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (أحدث) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى ، والفاعل أنا (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحدث) ، (منه) مثل لك متعلّق بحال من (ذكرا) وهو مفعول به منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " إن اتّبعتني . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن عزمت على الصبر . .

وجملة : " لا تسألني . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " أحدث . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن أحدث) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (تسأل) " 3 "

الفوائد

- الرسول يحدث عن الخضر :

عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول اللّه/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ يقول : قام موسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم . فعتب اللّه عليه إذ لم يردّ العلم إليه ، فأوحى اللّه إليه : أن لي عبدا بمجمع البحرين ، هو أعلم منك ، قال موسى : أي ربّ ، كيف لي به . فقيل له : احمل حوتا في مكتل ، فحيث تفقد

(1 ، 2) في الآية السابقة .

(3) أو متعلّق بفعل مقدّر متضمّن معنى لا تسألني ، أي اصبر حتّى أحدث .

(312/480)

الحوت فهو ثمّ . فانطلق وانطلق معه فتاه ، وهو يوشع بن نون ، يمشيان حتى أتيا صخرة فرأى رجلا مسجّى ، عليه ثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : أنّى بأرضك السلام ؟

قال أنا موسى قال : موسى بني إسرائيل . قال : نعم . قال : انك على علم من علم اللّه علّمكه اللّه لا أعلمه ، وأنا على علم من علم اللّه علمنيه لا تعلمه .

وقال البيضاوي :

ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة " سيدنا موسى " أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطا في أبواب الدين ، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليهم فيما يبعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقا ، وقد راعى موسى في ذلك غاية التواضع والأدب ، فاستجهل نفسه ، واستأذن أن يكون تابعا له ، وسأله أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم اللّه به عليه . . !

[سورة الكهف (18) : الآيات 71 إلى 73]

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (انطلقا) فعل ماض ، و(الألف) ضمير فاعل (حتّى) للابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط متعلّق بـ (خرقها) ، (ركبا) مثل انطلقا (في السفينة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ركبا) ،

(خرقها) فعل ماض ، و(ها) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي الرجل العالم (الخضر) ، (قال) مثل خرق (الهمزة) للاستفهام التعجّبي (خرقتها) فعل ماض وفاعله ومفعوله (اللام) لام التعليل (تغرق) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل أنت (أهلها) مفعول به منصوب . . و(ها) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن تغرق . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خرقتها) (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (جئت) مثل خرقت (شيئًا) مفعول به منصوب (إمرا) نعت لـ (شيئًا) منصوب .

جملة : " انطلقا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ركبا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " خرقها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " خرقتها . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " تغرق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " جئت شيئا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر 72 - (قال) مثل خرق (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (لم) حرف نفي وجزم (أقل) مضارع مجزوم ، والفاعل أنا (إنّك) حرف مشبّه بالفعل ، والكاف ضمير اسم إنّ في محلّ نصب (لن تستطيع معي صبرا) مرّ إعرابها " 1 "

.

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " لم أقل . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل قال

---

(1) الآية (67) من هذه السورة .

وجملة : " إنّك لن تستطيع . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل أقل وجملة : " تستطيع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ 73 – (قال) مثل خرق (لا) ناهية جازمة (تؤاخذني) مضارع مجزوم ، و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 "

، (نسيت) فعل ماض . . و(التاء) فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما نسيت) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تؤاخذ) (الواو) عاطفة (لا ترهقني) مثل لا تؤاخذني (من أمري) جارّ ومجرور متعلّق بحال من ضمير الفاعل أي ضائقا من أمري (عسرا) مفعول به ثان منصوب بتضمين ترهق معنى تكلّف " 2 "

.

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " لا تؤاخذني . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " نسيت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " لا ترهقني . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تؤاخذني

الصرف :

(السفينة) ، اسم جامد لوسيلة النقل في البحر وزنه فعيلة ، والجمع سفن زنة فعل بضمّتين وسفين وسفائن .

---

(1) أو اسم موصول – أو نكرة موصوفة مجرور بالباء ، والعائد محذوف أي نسيته ،

والجملة صلة لا محلّ لها ، أو نعت لـ (ما) في محلّ جرّ .

(2) وفي المختار : رهقه : غضيه ، وبابه طرب ، وأرهقه عسرا كلّفه إيّاه .

(315/480)

(إمرا) ، صفة مشبّهة من أمر الشيء أي عظم ونكر ، وزنه فعل بكسر فسكون

البلاغة

- التورية :

في قوله تعالى " قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ " .

أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان ، يوهمه أنه قد نسي ليبسط عذره في الإنكار ، وهو من معاريض الكلام التي يتّقى بها الكذب ، مع التوصل إلى الغرض ، كقول إبراهيم : هذه أختي ، واني سقيم .

[سورة الكهف (18) : آية 74]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74)

الإعراب :

(فانطلقا حتّى إذا لقيا) مرّ إعراب نظيرها " 1 "

، (غلاما :

مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة للتعقيب (قتله) فعل ماض ، و(الهاء) ضمير مفعول به ،

والفاعل هو أي الخضر (قال أقتلت نفسا) مثل قال أخرقتها " 2 "

، (زكيّة) نعت لـ (نفسا) منصوب (بغير) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل قتلت أي :

ظالما ، أو من المفعول أي : مظلوما " 3 "

، (نفس) مضاف إليه مجرور (لقد جئت شيئا نكرا) مثل لقد جئت شيئا إمرا " 4 "

.

جملة : " انطلقا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

(1 ، 2) في الآية (71) من هذه السورة .

(3) يجوز تعليقه بفعل قتلت أي : بلا سبب . . . أو بمحذوف مطلق أي قتلا بغير نفس .

(4) في الآية (71) من هذه السورة .

وجملة : " لقيا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " أقتلت . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل القول وجملة : " جئت شيئا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّر استئنافيّة في حيّز القول

الصرف :

(زكيّة) ، مؤنّث زكيّ ، صفة مشبّهة من زكا يزكو باب قتل ، وزنه فعيل ، وقد أدغمت عينه مع لامه ، واللام فيه منقلبة عن واو ، أصله زكيو ، اجتمعت الياء والواو في الكلمة وكانت الأولى منهما ساكنة قلبت الواو إلى ياء وأدغمت مع ياء فعيل ، والمؤنّث فعيلة .

(نكرا) ، صفة مشبّهة من نكر ينكر باب كرم أي عظم واشتدّ وزنه فعل بضمّ فسكون ، وقد يأتي اللفظ بضمّتين في المعنى نفسه .

[سورة الكهف (18) : آية 75]

قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (75)

" 1 "

الإعراب :

(لك) متعلّق بـ (أقل) " 2 "

.

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أقل . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل (قال) .

وجملة : " إنّك لن تستطيع . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل (أقل) .

[سورة الكهف (18) : آية 76]

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (76)

الإعراب :

(سألتك) ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (عن شيء) متعلّق بـ (سألتك) ، (بعد) متعلّق بفعل سألتك (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لدنّي) اسم مبنيّ على السكون في محلّ جرّ متعلّق بحال من (عذرا) . .

و(النون) الثانية للوقاية (عذرا) مفعول به منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سألتك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تصاحبني . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) بعد أن منّ اللّه عليّ بتيسير إعراب النصف الأول من القرآن العظيم رأيت من المناسب أن أقصر إعرابي في النصف الثاني على ما يحتاج إليه المعرب في الأسماء والأفعال وحروف المعاني وإعراب الجمل وتعليق الجارّ والظرف ، وذكر أوجه الإعراب المختلفة –

إن كان ثمّة أوجه - بحسب قراءة حفص وحدها .

أمّا في الصرف فسأتعرّض إلى الألفاظ التي لم يجر صرفها في النصف الأول ، وأحيل القارئ الكريم - في النادر - إلى بعض الألفاظ التي جرى صرفها من قبل ، والله المعين الموفّق .

[. . . . .]

(2) انظر الآية (72) من سورة الكهف هذه ، في الجزء (15) .

(317/480)

وجملة : " بلغت . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ .

الصرف :

(عذرا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ عذر باب ضرب وزنه فعل بضم فسكون .

[سورة الكهف (18) : آية 77]

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (حتّى) حرف ابتداء (الفاء) عاطفة (أبوا) ماض مبنيّ على الضمّ

المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (يضيّفوهما) مضارع، علامة النصب حذف النون.

والمصدر المؤوّل (أن يضيّفوهما) في محلّ نصب مفعول به عامله أبوا.

(فيها) متعلّق بـ (وجدا).

والمصدر المؤوّل (أن ينقضّ . .) في محلّ نصب مفعول به عامله يريد.

(لو) حرف شرط غير جازم (اللام) رابطة لجواب لو (عليه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لفعل اتّخذ (أجرا) مفعول به أوّل منصوب.

جملة: "انطلقا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أتيا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

(318/480)

وجملة: "استطعما . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وهي عند ابن هشام صفة لقرية وليست جوابا للشرط. . إنّما جملة قال لو شئت . . هي جملة الجواب . . قال لأنّ تكرار الظاهر يعري الجملة عن معنى الجواب ولأنّها تقاس على جملة الجواب في قصة الغلام وهو قوله تعالى: قال أقتلت نفسا زكية . .

وجملة : " أبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استطعما .

وجملة : " يضيّفوهما . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " وجدا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أبوا . . .

وجملة : " ينقضّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " يريد . . . " في محلّ نصب نعت لـ (جدارا) .

وجملة : " أقامه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وجدا . .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " شئت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اتّخذت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(أبوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله أباوا ، التقى ساكنان فحذف لام الكلمة وهو الألف ،

وبقيت الفتحة على الباء دلالة على المحذوف ، وزنه فعوا بفتح العين .

(جدارا) ، اسم جامد للحائط أو الحاجز بين مكانين ، وزنه فعال بكسر الفاء .

الفوائد

- الاستعارة :

في قوله تعالى " فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ " .

المراد من إرادة السقوط قربه من ذلك ، على سبيل المجاز المرسل ، بعلاقة تسبب إرادة السقوط لقربه ، أو على سبيل الاستعارة بأن يشبه قرب السقوط بالإرادة لما فيها من الميل ، ويجوز أن يعتبر في الكلام استعارة مكنية وتخييلية .

[سورة الكهف (18) : آية 78]

قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78)

الإعراب :

(هذا) مبتدأ خبره (فراق) ، (بيني) مضاف إليه مجرور " 1 "

---

(1) (بين) هنا اسم بمعنى الوصل أي : تفريق وصلنا . . وأضيف بين إلى غير متعدّد لوجود التكرار بالعطف .

، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء و(بين) معطوف على الأول مجرور مثله (بتأويل) متعلّق بـ (أنبّئك) ، (ما) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (عليه) متعلّق بـ (صبرا) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هذا فراق . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سأنبّئك . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " تستطع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(فراق) ، مصدر سماعيّ لفعل فارق الرباعيّ ، وزنه فعال بكسر الفاء .

(بيني – بينك) ، اسم بمعنى الوصل ويأتي بمعنى الفراق فهو من الأضداد ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

1 – أفعال تنصب ثلاثة مفاعيل :

هي : أعلم وأرى وأنبأ ونبّأ وأخبر وخبّر وحدّث .

(320/480)

والأصل في هذه الأفعال " أعلم وأرى " وهما في الأصل من الأفعال التي تنصب مفعولين قبل زيادة همزة التعدية عليهما ، فهما في الأصل " علم ورأى " . ويلحق بهما " خبّر " ، فهي للإعلام أيضا . وما تبقى فليس لها ثلاثي يفيد العلم .

وتستعمل هذه الخمسة متعدية إلى مفعول واحد . دون واسطة نحو " حدثت عليا " ، وإلى أكثر من واحد بالباء نحو " حدثتك بخبر أخيك " . ومنه قوله تعالى : " سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً " .

ولهذا الحديث تتمة تأتي في مواقيتها بإذن اللّه .

2 - القصص في القرآن :

(321/480)

ألمحنا فيما سبق إلى بعض خصائص القصة في القرآن ، ولما لهذا الحديث من أهمية ، نعود للتذكير به ، ولإيضاح بعض جوانبه ، وخصوصا أننا أمام قصة من روائع القصص القرآني ، وذات فوائد متعددة فالحظ معي هذا الحوار الذي جرى بين موسى والخضر ، والذي قوامه الإخبار من جهة ، واستعمال همزات الاستنكار من جهة ، ثم الإيجاز والاقتصار على ما لا بد منه لتأليف هيكل القصة ، وأخيرا وليس آخرا استعمال " أمّا " التفصيلية لشرح غوامض القصة التي تنتظر ريشة الفنان الموهوب لاستخراج دررها من أصدافها ، وتقديمها على طبق من فضة ، لرواد الفن ، ومن يجدون في فن القصة من المتعة ما لا يجدونه في غيره من الفنون .

[سورة الكهف (18) : الآيات 79 إلى 82]

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً (80) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (81) وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (82)

الإعراب :

(أمّا) حرف شرط وتفصيل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لمساكين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كانت ، وعلامة الجرّ الفتحة ، فهو ممنوع من الصرف (في البحر) متعلّق بـ (يعملون) ، (الفاء) عاطفة .

والمصدر المؤوّل (أن أعيبها) في محلّ نصب مفعول به عامله أردت .

(وراءهم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر كان (ملك) اسم كان الناقص (غصبا)

مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مبيّن لنوعه " 1 "

.

جملة: " السفينة فكانت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " كانت لمساكين . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ " 2 "

.

وجملة: " يعملون . . . " في محلّ جرّ نعت لمساكين.

وجملة: " أردت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانت . .

وجملة: " أعيبها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

---

(1) أو مصدر في موضع الحال أي غاصبا لها . . أو هو مفعول لأجله منصوب.

(2) أصل التعبير: مهما يكن من شيء فالسفينة كانت . . فلمّا حلّت أمّا محلّ الشرط وفعله انتقلت الفاء إلى الخبر.

وجملة : "كان وراءهم ملك " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) " 1 "

.

وجملة : "يأخذ . . . " في محلّ رفع نعت لملك .

80 – (الواو) عاطفة (أبواه) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الألف . . و(الهاء) مضاف إليه (مؤمنين) خبر كان منصوب ، وعلامة النصب الياء (الفاء) عاطفة (طغيانا) مصدر في موضع الحال المقدّرة " 2 "

.

والمصدر المؤوّل (أن يرهقهما) في محلّ نصب مفعول به عامله خشينا .

وجملة : " الغلام فكان . . . " لا محلّ لها معطوفة على السفينة كانت . .

وجملة : "كان أبواه مؤمنين . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الغلام) .

وجملة : " خشينا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان أبواه . .

وجملة : " يرهقهما . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

81 – (الفاء) عاطفة (خيرا) مفعول به ثان منصوب عامله يبدلهما (منه) متعلّق بـ (خيرا) ، (زكاة) تمييز منصوب لـ (خيرا) ، (رحما) تمييز منصوب لـ (أقرب) المعطوف على (خيرا) منصوب مثله ، ومنع من التنوين لأنّه صفة على وزن أفعل ، وقدّر (منه) لأنّه ذكر من قبل .

والمصدر المؤوّل (أن يبدلهما . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أردنا . .

وجملة : " أردنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خشينا .

وجملة : " يبدلهما ربّهما . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

82 - (الواو) عاطفة (لغلامين) متعلّق بخبر كان ، وعلامة الجرّ الياء (في

---

(1) يجوز أن تكون اعتراضيّة في حكم التعليل .

(2) أو مفعول لأجله منصوب .

(324/480)

المدينة) متعلّق بنعت ثان لـ (غلامين) (الواو) عاطفة (تحته) ظرف منصوب متعلّق بخبر كان (كنز) اسم كان مؤخّر مرفوع (لهما) متعلّق بنعت لـ (كنز) .

والمصدر المؤوّل (أن يبلغا . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أراد .

(يستخرجا) مضارع منصوب معطوف على (يبلغا) بالواو ، وعلامة النصب حذف النون مثل الأوّل ، و(الألف) فاعل في كليهما (رحمة) مفعول لأجله منصوب عامله أراد " 1 " ، (من ربّك) متعلّق بنعت لـ (رحمة) (الواو) عاطفة (ما) نافية (عن أمري) جارّ ومجرور حال من الفاعل أي مستقلّا أو منفردا (ذلك) مبتدأ خبره (تأويل) (ما) موصول في محلّ جرّ

مضاف إليه (عليه) متعلّق بـ (صبرا) ، وجملة : " الجدار فكان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الغلام فكان . .

وجملة : " كان لغلامين . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الجدار) .

وجملة : " كان تحته كنز . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان لغلامين .

وجملة : " كان أبوهما صالحا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان لغلامين .

وجملة : " أراد ربّك . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان لغلامين " 2 "

.

وجملة : " يبلغا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يستخرجا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يبلغا . .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال .

(2) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة بعد الفاء .

وجملة : " ما فعلته . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمّا الجدار . . .

وجملة : " ذلك تأويل . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " لم تسطع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(غصبا) ، مصدر سماعيّ لفعل غصب يغصب باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(زكاة) ، اسم من زكا يزكو الرجل أي صلح فهي بمعنى الصلاح ، وزنه فعله بفتحتين ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله زكوة جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(رحما) ، مصدر رحم يرحم باب فرح بمعنى برّ به وأشفق عليه ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، وثّمة مصادر أخرى هي رحمة ، ومرحمة ، ورحم بضمّتين .

(تسطع) ، فيه حذف تاء الافتعال ، واستطاع واسطاع لغتان حيث تحذف التاء من الماضي والمضارع " 1 "

.

البلاغة

1 – التقديم والتأخير :

في قوله تعالى " فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا " .

قوله " فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا " مسبب عن خوف الغصب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، وإنما قدم للغاية ، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين .

2 - تعليم الأدب :

في قوله تعالى " فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا " .

حيث قال اللّه في آية لاحقه : " فَأَرادَ رَبُّكَ " .

---

(1) سيرد في الآية (97) من هذه السورة استعمال الماضي بغير التاء : " فما اسطاعوا أن يظهروه . . . " .

(326/480)

أسند ما ظاهره شر لنفسه ، وأسند الخير إلى اللّه تعالى ، وذلك لتعليم الأدب مع اللّه جل وعلا .

[سورة الكهف (18) : الآيات 83 إلى 85]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عن ذي) متعلّق بـ (يسألونك) ، وعلامة الجرّ الياء (عليكم) متعلّق بـ

(أتلو) ، (منه) متعلّق بحال من (ذكرا) مفعول أتلو .

جملة : " يسألونك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(327/480)

وجملة : " سأتلو . . . " في محلّ نصب مقول القول .

84 - (إنّا) حرف مشبّه بالفعل . . و(نا) اسمه ، ومفعول (مكّنّا) محذوف تقديره الأمر ، (له) متعلّق بـ(مكّنّا) وكذلك (في الأرض) ، (من كلّ) متعلّق بـ(آتينا) " 1 " ، (سببا) مفعول به ثان عامله آتينا .

وجملة : " إنّا مكّنّا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مكّنّا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو بمحذوف حال من (سببا) .

(328/480)

وجملة : " آتيناه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة مكّنّا . .

85 - (الفاء) عاطفة (سببا) مفعول به منصوب " 1 "

.

وجملة : " أتبع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا مكّنّا .

الصرف :

(القرنين) مثنّى قرن ، اسم جامد لما يظهر في رأس ذوات الأظلاف ، وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه قرون بضمّ القاف .

(سببا) ، اسم جامد بمعنى الحبل ، ثمّ أستعير لكلّ ما يتوصّل به إلى شيء ، وزنه فعل بفتحتين .

[سورة الكهف (18) : آية 86]

حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (86)

الإعراب :

(حتّى) حرف ابتداء (في عين) متعلّق بـ (تغرب) " 2 "

، (الواو) عاطفة (عندها) ظرف منصوب متعلّق بـ (وجد) " 3 "

. (ذا) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الألف (إمّا) حرف تخيير " 4 "

، (فيهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لـ (تتّخذ) ، والمفعول الأوّل (حسنا) .

---

(1) قيل المفعول الثاني محذوف أي أتبع سببا سببا آخر ، وقيل هو متعدّ لواحد .

(2) والرؤية بحسب الظاهر لا بحسب الحقيقة .

(3) أو متعلّق بحال من (قوما) .

(4) أو هو حرف تقسيم . [. . . . .]

(329/480)

والمصدر المؤوّل (أن تعذّب) في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف أي إمّا تعذيبك واقع بهم " 1 "

والمصدر المؤوّل (أن تتّخذ) في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف أي اتّخاذك حسنا فيهم واقع بهم " 2 "

.

جملة : " بلغ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " وجدها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تغرب . . . " في محلّ نصب حال من المفعول .

وجملة : " وجد (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة وجد (الأولى) .

وجملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (النداء) يا ذا القرنين " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعذيبك (واقع . .) " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اتّخاذك . . (واقع) " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

الصرف :

(حمئة) ، مؤنّث حمىء ، وزنه فعلة بفتح فكسر ، صفة مشبّهة من حمىء يحمأ باب فرح إذا خالط الحمأة وهو الطين الأسود .

الفوائد

- خداع البصر .

كثيرا ما يرد الخطاب الموجّه إلى الناس في القرآن الكريم ، مراعيا حواسهم في الإدراك ، ويكون الكلام ضربا من المجاز إذا قارناه بالحقيقة والواقع . ومنه قوله

---

(1) ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : الجزاء تعذيبك لهم .

(2) والعطف حينئذ من عطف الجمل أو يمكن عطف المصدر الثاني على المصدر الأول ، وتقدير كلّ من الخبر أو المبتدأ للمصدرين معا .

(330/480)

تعالى : " وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ " ، وفي رواية حامية . والحقيقة أن الشمس لا تغرب في وسط العين " الحمئة " وانما هذا ما تدركه العين المبصرة وخداع الحواس كثير ، حتى لقد ألّفت فيه الكتب ، وانطلقت به ألسنة الشعراء . يقول المعري :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وحيثيات العلم وثبوتياته ، تقرر أن الشمس تغرب وراء الكرة الأرضية ، بسبب دورانها ، وليس بداخلها كما تصور الحواس . وحاشا للّه أن يقول ما ليس بحق ، وانما هو المجاز ومراعاة مبلغ ادراك الناس . فتأمل هدانا وهداكم اللّه .

(331/480)

[سورة الكهف (18) : الآيات 87 إلى 89]

قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (89)

الإعراب :

(أمّا) حرف شرط وتفصيل (من) اسم موصول مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط أمّا " 1 "

، (سوف) حرف استقبال ، وفاعل (نعذّب) ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (يردّ) مضارع مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إلى ربّه) متعلّق بـ (يردّ) ، (الفاء) عاطفة (عذابا) مفعول مطلق منصوب (نكرا) نعت لـ (عذابا) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من ظلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أصل التركيب في (أمّا من ظلم . .) : مهما كان الأمر فمن ظلم سوف نعذّبه . . فلمّا حلّت (أمّا) محلّ الشرط وباشرت المبتدأ (من) نقلت الفاء الرابطة إلى الخبر ، وهكذا شأن الخبر الواقع بعد أمّا تتصل به الفاء الرابطة .

وجملة : " ظلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " سوف نعذّبه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " يردّ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نعذّبه .

وجملة : " يعذّبه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يردّ .

88 – (الواو) عاطفة و(الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) متعلّق بخبر مقدّم (جزاء) مصدر في موضع الحال من الحسنى منصوب " 2 " . أي : مجزيّا بها (الحسنى) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (له) متعلّق بـ (نقول) (من أمرنا) متعلّق بـ (نقول) ، و(من) لابتداء الغاية (يسرا) مفعول به منصوب " 3 " .

وجملة : " من آمن . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة من ظلم . .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " عمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمن .

وجملة : " له . . الحسنى " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " سنقول . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة له الحسنى .

89 – (سببا) مفعول به منصوب " 4 " .

وجملة : " أتبع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتبع الأولى " 5 " .

---

(1) أصل التركيب في (أمّا من ظلم . .) : مهما كان الأمر فمن ظلم سوف نعذّبه . . فلمّا حلّت (أمّا) محلّ الشرط وباشرت المبتدأ (من) نقلت الفاء الرابطة إلى الخبر ، وهكذا شأن الخبر الواقع بعد أمّا تتصل به الفاء الرابطة .

(2) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي يجزى بها جزاء . . وقال الفرّاء هو تمييز لبيان نسبة الخبر إلى المبتدأ .

(3) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه أو صفته ، وقد يجي ء المصدر وصفا .

(4) انظر الآية (85) من السورة .

(5) يجوز جعل (ثمّ) حرف استئناف ، فالجملة استئنافيّة .

(333/480)

[سورة الكهف (18) : آية 90]

حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (90)

الإعراب :

(حتّى إذا . . تطلع) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (على قوم) متعلّق بـ (تطلع) ، (لهم) متعلّق بمفعول ثان لفعل نجعل (من دونها) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (سترا) وهو مفعول به أوّل منصوب .

جملة : " بلغ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " وجدها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تطلع . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " نجعل . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم

الصرف :

(مطلع) ، اسم مكان من طلع يطلع باب نصر ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين خلافا للقياس .

(سترا) ، اسم لما يستر به من فعل ستر يستر باب نصع وباب ضرب ، وزنه فعل بكسر فسكون ، جمعه ستور وأستار .

الفوائد

- اسم الزمان والمكان :

تحدثنا فيما سبق عن اسمي الزمان والمكان ما فيه الكفاية . ولتمام الفائدة نؤكّد

---

(1) في الآية (86) من هذه السورة .

أنهما يصاغان ، مما فوق الثلاثي على وزن مضارعه بعد إبدال حرف المضارع ميما مضمومة وفتح ما قبل آخره ، نحو مجتمع ، ومنتظر ، ومستشفى . وهما يتفقان في الوزن مع اسم المفعول والمصدر الميمي . وبيان ذلك يعود للذوق والقرائن المتاحة .

[سورة الكهف (18) : الآيات 91 إلى 92]

كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (92)

الإعراب :

(كذلك) جارّ ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر " 1 " ، (الواو) استئنافيّة (بمّا) متعلّق بفعل (أحطنا) ، وما موصوليّة (لديه) ظرف مبني في محلّ نصب متعلّق بمحذوف صلة ما (خبرا) مفعول به عامله أحطنا .

جملة : " (الأمر) كذلك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أحطنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " أتبع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (الأمر) كذلك .

[سورة الكهف (18) : آية 93]

حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (93)

الإعراب :

(بين) اسم ظرفيّ مفعول به منصوب عامله بلغ " 3 " ، (من دونهما) متعلّق بـ (وجد) " 4 "

، (يكادون) مضارع ناقص مرفوع . . و(الواو) اسم

---

(1) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره حكم أي : حكم بهؤلاء الذين هم في مطلع الشمس كما حكم بأولئك الذين هم في مغربها .

(2) يجوز أن تكون اعتراضيّة بين الجملتين المعطوفتين على بعضهما .

(3) هو في الأصل نعت لمنعوت محذوف أي مكانا بين السدّين . .

(4) أو متعلّق بحال من (قوما) .

(335/480)

جملة : " بلغ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " وجد . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لا يكادون . . . " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

وجملة : " يفقهون . . . " في محلّ نصب خبر يكادون .

الصرف :

(السدّين) ، مثنّى السدّ اسم جامد للحاجز بين شيئين أو ماءين ، وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه أسداد زنة أفعال ، وقد يكون السدّ بالضمّ وجمعه سدود فهو السحاب الأسود

السادّ للأفق .

الفوائد

- الظروف نوعان زمانية ومكانية :

وكلا النوعين ينقسم إلى قسمين :

متصرف وغير متصرف :

أ- المتصرف : هو الذي يفارق الظرفية ، فقد يكون فاعلا أو مبتدءا أو خبرا أو مفعولا ، نحو : شهر ، ويوم ، وقرن ، وعصر ، وسنة ، ونهار ، وليل ، إلخ .

ب - وغير المتصرف : هو ما يلزم النصب على الظرفية ، سواء كان مبنيا أو معربا نحو : قط ، وعوض ، وبينا ، وبينما ، وإذا ، وأيان وأين وذات ليلة ، وما ركب من الظروف مثل صباح مساء ، ويوم يوم .

ج - ومنه ما ينصب على الظرفية أو يجر بـ " من " ، مثل : " قبل ، وبعد ، والجهات الست ، ولدى ، ولدن ، وعند ، ومتى ، وأين ، وهنا ، وثمّ ، وحيث والآن " ولهذا البحث تفصيلات نجدها في المطولات فعليك بها إن كنت من روادها .

[سورة الكهف (18) : آية 94]

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94)

الإعراب :

(ذا) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الألف (في الأرض) متعلّق بـ (مفسدون) ،

(الفاء) عاطفة (هل) حرف استفهام (لك) متعلّق بمفعول به ثان لفعل نجعل " 1 " ،

(خرجا) مفعول به أوّل منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن تجعل) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (نجعل) .

(بيننا) ظرف متعلّق بـ (تجعل) بتضمينه معنى تبني " 2 " ، (سدّا) مفعول به منصوب .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " النداء : يا ذا القرنين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ يأجوج . . مفسدون " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " نجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " تجعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(يأجوج ومأجوج) ، قيل هما أعجميّان لا اشتقاق لهما ، ومنعا من الصرف للعلميّة والعجمة ، وقيل هما عربيان واشتقاقهما من أجيج النار أي التهابها ، أو من الأوج وهو سرعة العدو . . والأول وزنه يفعول ، والثاني

---

(1) يجوز أن يتعدّى الفعل (نجعل) لمفعول واحد بتضمينه معنى ندفع ، فيتعلّق الجارّ بالفعل

نجعل. [. . . . . .]

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من (سدّا) .

(336/480)

مفعول ، والمنع حينئذ للعلميّة والتأنيث ، ويجوز في لفظهما الهمز وعدمه .

(خرجا) ، هو مصدر الثلاثيّ خرج ، ثمّ استعمل اسما للمال المدفوع كأجر ، أو هو بمعنى مخرج ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة الكهف (18) : الآيات 95 إلى 97]

قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (96) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97)

الإعراب :

(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (فيه) متعلّق بـ (مكّني) ، و(الياء) مفعول به في الفعل ، ومضاف إليه في الاسم (خير) خبر المبتدأ ما " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بقوّة) متعلّق بـ (أعينوا) ، (أجعل) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل أنا

(بينكم) ظرف منصوب متعلّق بمفعول به ثان لـ (أجعل) ، (ردما) مفعول به أوّل .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما مكّنّي فيه ربّي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " مكّني فيه ربّي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أعينوني . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن طلبت العون فأعينوني .

---

(1) والمفضّل عليه محذوف مع الجارّ أي خير من خرجكم .

وجملة : " أجعل . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن تعينوني أجعل . .

96 – (زبر) مفعول به ثان عامله آتوني (حتّى) حرف غاية وابتداء (بين) ظرف متعلّق بـ (ساوى) ، (نارا) مفعول به ثان عامله جعله (أفرغ) مضارع مثل أجعل " 1 " (قطرا) مفعول به عامله أفرغ ومتنازع عليه من فعل آتوني لأنّه المفعول الثاني في المعنى " 2 " .

وجملة : " آتوني زبر . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 3 " .

وجملة : " ساوى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " انفخوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جعله . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال (الثانية) " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " آتوني أفرغ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أفرغ . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن تأتوني قطرا أفرغه عليه .

97 - (الفاء) عاطفة . .

---

(1) في (95) من هذه السورة .

(2) وقد أضمر في الأول ، ولو أعمل الأول لأضمر في الثاني وجوبا أي : آتوني أفرغه عليه قطرا .

(3) يجوز أن تكون الجملة بدلا من أعينوني . . .

(337/480)

والمصدر المؤوّل (أن يظهروه) في محلّ نصب مفعول به عامله اسطاعوا (له) متعلّق بـ (نقبا) " 1 " وهو مفعول به عامله استطاعوا .

وجملة : " ما اسطاعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على محذوف مستأنف أي : فجاء القوم يقصدون ثقبه فما استطاعوا .

وجملة : " يظهروه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ما استطاعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما اسطاعوا .

الصرف :

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من (نقبا) .

(ردما) ، هو في الأصل مصدر ردم الثلاثيّ ، واستعمل هنا بمعنى التراب الرادم أو المردوم به ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(زبر) ، جمع زبرة ، اسم جامد لقطعة الحديد الضخمة ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، والجمع بضمّ ففتح أو بضمّتين .

(الحديد) ، اسم جامد للمعدن المعروف ، وزنه فعيل .

(ساوى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله ساوى - بالياء في آخره - فلمّا تحرّك وانفتح ما قبله قلب ألفا ، وزنه فاعل .

(الصدفين) ، مثنّى الصدف ، اسم للناحية من الجبلين لكونه مصادفا ومقابلا للآخر ، أو لكونه منعزلا عن الآخر لأنّ الصدف هو الميل أيضا . وزنه فعل بفتحتين . . وقد قرئ

بضمّتين ، وبضمّ الأول وسكون الثاني .

(قطرا) ، اسم لذائب النحاس من (أقطر) الماء إذا سال ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(نقبا) ، مصدر سماعيّ لفعل نقب ينقب باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

- التشبيه البليغ :

في قوله تعالى " جَعَلَهُ نارا " .

أي كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار ، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه ، فأصبح بليغا .

الفوائد

- حذف الأحرف من الكلمات :

ورد حذف بعض الأحرف من بعض الكلمات في اللغة ، إما لتقارب مخارج من ذلك :

اسطاع ، وأصلها استطاع ، ومنه حذف تاء المضارعة إذا كان الفعل مبدوءا بتاء . ومنه حذف نون لدن للتخفيف . وهذا وجه يقتضي استقصاؤه ويتطلب جهدا وزمانا لا يتسقان مع وجهتنا في هذا الكتاب .

الحروف أو تباعدها أو تماثلها ، وفي سائر ذلك فالغاية تسهيل اللفظ وتطويع اللغة وإزالة المعوقات .

[سورة الكهف (18) : آية 98]

قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

الإعراب :

(339/480)

(هذا) مبتدأ خبره (رحمة) ، (من ربّي) متعلّق بنعت لـ (رحمة) (الفاء) عاطفة (دكّاء) مفعول به ثان عامله جعل ، وهو ممنوع من التنوين لأن همزته للتأنيث ، فهو على حذف موصوف أي أرضا دكّاء (الواو) عاطفة (حقّا) خبر كان منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هذا رحمة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جاء وعد . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جعله . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كان وعد " في محلّ نصب معطوفة على جملة الشرط وفعله وجوابه المعطوفة بدورها على جملة مقول القول .

الصرف :

(دكّاء) ، مؤنّث أدكّ ، زنة أفعل ، صفة مشبّهة من دكّ الثلاثيّ ، وزن دكّاء فعلاء ، والأدكّ

الجمل الذي لا سنام له.

[سورة الكهف (18) : الآيات 99 إلى 101]

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99) وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (تركنا) من أفعال التحويل (يومئذ) ظرف منصوب متعلّق بـ (تركنا) ، و(إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ على السكون المقدّر منع من ظهوره التنوين العارض " 1 " في محلّ جرّ مضاف إليه (في بعض) متعلّق بـ (يموج) (نفخ) ماض مبنيّ للمجهول (في الصور) جارّ ومجرور نائب الفاعل (الفاء) عاطفة تعقيبيّة (جمعا) مفعول مطلق منصوب.

جملة: " تركنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يموج . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله تركنا.

وجملة: " نفخ في الصور . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

---

(1) هو تنوين العوض من جملة محذوفة أي: يوم إذ خرجوا من وراء السدّ.

وجملة : " جمعناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نفخ . .

100 - (للكافرين) متعلّق بـ (عرضنا) بتضمينه معنى قرّبنا (عرضا) مفعول مطلق منصوب وجملة : " عرضنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جمعناهم .

101 - (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم " 1 " ، (في غطاء) متعلّق بخبر كانت (عن ذكري) علامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء ، متعلّق بنعت لـ (غطاء) (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (سمعا) مفعول به عامله يستطيعون ، منصوب .

وجملة : " (هم) الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كانت أعينهم في غطاء " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 2 " .

الصرف :

(جمعا) ، مصدر سماعيّ لفعل جمع ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(عرضا) ، مصدر سماعيّ لفعل عرض ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(غطاء) ، اسم جامد أصله غطا ولأن فعله غطا يغطو ومصدره غطو ، قلبت الواو فيه إلى همزة لمجيئها متطرّفة بعد ألف ساكنة .

(1) أو هو نعت للكافرين أو بدل منه أو عطف بيان له . . ويجوز أن يكون في محلّ نصب بفعل محذوف تقديره أذّم .

(2) أو في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

(341/480)

البلاغة

- الاستعارة التبعية في قوله تعالى " يموج في بعض " .

شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض ، بموج البحر المتلاطم ، واستعار لفظ يموج لذلك . ففيه استعارة تبعية .

الفوائد

- أفعال التحويل :

اختلف النحاة في معموليها اختلافا كبيرا .

أ- جمهور النحاة أنها تنصب مفعولين أصلهما " مبتدأ وخبر " .

ب - وقف بعضهم موقف المعارضة ، وزعم أن معموليها قد لا يكونان مبتدأ وخبرا ،

وقدم كل فريق بين يديه من الأدلة ما يؤيد رأيه ، ويدفع مقالة الآخر .

ولكل وجهة هو مولّيها فاستبق الحق إذا اتضح ذلك .

[سورة الكهف (18) : آية 102]

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (102)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) استئنافيّة ، وعلامة النصب في (يتّخذوا) حذف النون (عبادي) مفعول به أوّل ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء (من دوني) متعلّق بـ (أولياء) " 1 " وهو مفعول به ثان ، وهو ممنوع من التنوين لأنّه ملحق بالمؤنّث الممدود (إنّا) حرف مشبّه

---

(1) أو متعلّق بحال من أولياء .

بالفعل واسمه (للكافرين) متعلّق بحال من (نزلا) وهو مفعول به ثان عامله أعتدنا .

والمصدر المؤوّل (أن يتّخذوا . . .) سدّ مسدّ مفعولي حسب .

جملة : " حسب الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إنّا أعتدنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أعتدنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة الكهف (18) : الآيات 103 إلى 104]

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام (بالأخسرين) متعلّق بـ (ننبّئكم) ، وعلامة الجرّ الياء (أعمالا) تمييز منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ننبّئكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

104 - (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت للأخسرين ، أو بدل منه ، أو عطف بيان " 2 " ، (في الحياة) متعلّق بحال من الضمير في سعيهم " 3 " ، وعلامة الجرّ في (الدنيا) الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) واو الحال . .

---

(1) أو هي معطوفة على استئناف مقدّر - على رأي الزمخشريّ - أي أكفروا فحسبوا .

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، أو في محلّ نصب بفعل محذوف على الذمّ .

(3) لأنّ المضاف داخل في المضاف إليه ، ويجوز تعليقه بـ (ضلّ) .

(344/480)

و المصدر المؤوّل (أنّهم يحسنون) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسبون .

(صنعا) مفعول به منصوب عامله يحسنون .

وجملة : " ضلّ سعيهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هم يحسبون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في سعيهم .

وجملة : " يحسبون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " يحسنون . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) .

الصرف :

(الأخسرين) ، جمع الأخسر اسم تفضيل من خسر الثلاثيّ ، وزنه أفعل ، وقد جمع لأنه تبع ما قبله في المعنى أي : بمن هم الأخسرون أعمالا ، وقد يراد به مطلق الوصف لا التفضيل أي بالخاسرين في أعمالهم .

(سعيهم) ، مصدر سماعيّ لفعل سعى الثلاثيّ ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، (صنعا) ، مصدر سماعيّ لفعل صنع الثلاثيّ ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، وثمّة مصدر آخر بفتح الصاد .

البلاغة

الجناس الناقص :

في قوله تعالى " وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً " .

ويسمى جناس التصحيف ، وهو أن يكون النقط فيه فارقا بين الكلمتين ، فقد تغير الشكل والنقط بين الكلمتين .

الفوائد

ألمحنا في حديث سبق عن مميّز العدد بأنواعه . ونشير هنا إلى المميز بصورة عامة من حيث الإفراد والجمع . أي وروده مفردا أو جمعا – وحديثنا عن المنصوب دون غيره – .

أ- إذا وقع بعد العقود من عشرين إلى تسعين لا يكون الا مفردا ، نحو " اشتريت عشرين ثوبا " إذ الكمية عرفت من العدد ، ويذكر المميز لتعريف النوع فقط .

(345/480)

ب - إذا كان مفسرا لصفة أو معنى من المعاني ، جاز فيه الإفراد والجمع ، فإذا جمعت دللت على نوع المميز وكونه جمعا ، نحو " هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا " وإذا أفردت دللت على النوع لا غير نحو " أنا أكثر منك مالا " .

[سورة الكهف (18) : آية 105]

أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105)

الإعراب :

(أولئك) اسم إشارة مبتدأ خبره الموصول (الذين) ، (بآيات) متعلّق بـ (كفروا) ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (لهم) متعلّق بـ (نقيم) وكذلك الظرف يوم (وزنا) مفعول به منصوب .

جملة : " أولئك الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " حبطت أعمالهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لا نقيم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف ربطت معها برابط السببيّة .

[سورة الكهف (18) : آية 106]

ذِلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106)

الإعراب :

(ذلك) اسم إشارة خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر ، والإشارة إلى حبوط الأعمال " 1 " ، (جزاء) مبتدأ خبره جهنّم " 2 " ، (ما) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (ما كفروا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (جزاؤهم) " 3 " .

(الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (آياتي) مفعول أوّل عامله اتّخذوا منصوب ، وعلامة النصب الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء (رسلي) معطوف على آياتي ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء (هزوا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " (الأمر) ذلك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جزاؤهم جهنّم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 4 " .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفروا " 5 " .

[سورة الكهف (18) : الآيات 107 إلى 108]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (108)

---

(1) أو هو مبتدأ خبره جملة جزاؤهم جهنّم . . أو خبره جزاؤهم . . أو خبره جهنّم إذا أعرب جزاؤهم بدلا من اسم الإشارة. [. . . . .]

(2) أو هو بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - مرفوع . . أو هو خبر المبتدأ ذلك و(جهنّم) بدل من جزاء .

(3) لا مانع من التعليق برغم الفاصل لأنّ هذا الفاصل ليس أجنبيّا عن المصدر فهو خبره .

(4) أو خبر للمبتدأ ذلك .

(5) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(346/480)

الإعراب :

(لهم) متعلّق بخبر كانت " 1 " ، (نزلا) حال منصوبة من جنّات على حذف مضاف أي ذوات نزل " 2 " .

جملة : "إنّ الذين . . كانت "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "عملوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : "كانت . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

108 - (خالدين) حال منصوبة من الضمير في (لهم) ، وعلامة النصب الياء (فيها) متعلّق بـ (خالدين) (عنها) متعلّق بحال من (حولا) وهو مفعول به عامله يبغون ، منصوب .

وجملة : "لا يبغون . . . "في محلّ نصب حال من الضمير في خالدين أو في (لهم) .

الصرف :

(الفردوس) ، اسم للجنّة ، وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنّة ، وقال المبرّد : الفردوس فيما سمعت من العرب الشجر الملتفّ والأغلب عليه أن يكون العنب ، واختلف فيه فقيل هو عربيّ وقيل هو أعجميّ وقيل فارسيّ وقيل سريانيّ . . جمعه فراديس . .

(حولا) ، اسم مصدر من (تحوّل) الخماسيّ بمعنى التحوّل ، وقيل هو مصدر سماعيّ للخماسيّ تحوّل . وزنه فعل بكسر ففتح .

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بحال من (نزلا) إذا أعرب خبرا لـ (كانت) .

(2) يجوز أن يكون خبرا لـ (كانت) .

[سورة الكهف (18) : آية 109]

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109)

الإعراب :

(لو) حرف شرط غير جازم (لكلمات) متعلّق بنعت لـ (مدادا) ، (ربّي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء (اللام) واقعة في جواب لو (قبل) ظرف منصوب متعلّق بـ (نفد) .

والمصدر المؤوّل (أن تنفد . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الواو) واو الحال (بمثله) متعلّق بـ (جئنا) ، (مددا) تمييز منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كان البحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نفد البحر . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تنفد كلمات . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " جئنا . . . " في محلّ نصب حال " 1 " . . وجواب الشرط محذوف تقديره لنفد .

الصرف :

(مدادا) ، اسم لما يكتب به أي الحبر وزنه فعال بكسر الفاء ، وقد يقصد به المصدر السماعيّ لفعل مادّه بمعنى مدّه .

الفوائد

1 - اقتران جواب " لو " باللام :

أ - جوابها لا يخرج عن كونه ماضيا إما معنى وإما وضعا .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

ب - يأتي جوابها مثبتا ومنفيا .

1 - إذا كان مثبتا فاقترانه بـ " اللام " هو الغالب ، والنادر أن يتجرد من اللام وسميت هذه اللام بلام التسويف ، لأن وجودها يفيد التراخي في الجواب وحذفها يفيد الإسراع فيه .

الأول : نحو " لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً " .

والثاني : نحو " لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً . . " .

(349/480)

---

2 – إذا كان جواب " لو " منفيا بـ " ما " فالأكثر تجرده من اللام ، والقليل اقترانه بها .

فالكثير نحو : " وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ " . والقليل نحو :

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

ملاحظة : خلافا لما قررناه بأن جوابها فعل ماض ، فقد يأتي جوابها جملة اسمية مقترنة باللام ، نحو " لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " . وحول ذلك خلاف ليس من صالحنا أن نخوض فيه .

2 – كَلِماتُ رَبِّي – يكاد يضل الفكر في أبعاد هذه الآية ، وما لها من امتداد :

أليس كل ما يحدث في هذا الكون ، السحيق في آزاله ، اللامتناهي في آباده المترامي في أطرافه وأبعاده ، والذي لا نكاد ندرك به بداية أو نهاية ، أليس كل حركة أو سكنة فيه ، مهما صغرت حتى الذرة ، أو كبرت حتى المجرة ، أليس كل ذلك مما نتصوره وما لا نتصوره ، كله صادر تلبية لكلمات اللّه الملفوظة وغير الملفوظة ، والمسموعة وغير المسموعة ، مما

يحصى وما لا يحصى ، فتصور معي إن كنت ممن يحسن التصور ، وأعجب أنت وكل صاحب عجب من تعداد كلمات اللّه ، ومن كثرتها ، إذا كانت كلمة الكثرة تعبر عن تعداد كلمات اللّه التي ينفد البحر ولا تنفد كلماته ولو جئنا بمثله مددا .

(مددا) ، اسم مصدر لفعل أمدّ الرباعيّ بمعنى العون والغوث والزيادة ، وزنه فعل بفتحتين .

[سورة الكهف (18) : آية 110]

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (مثلكم) نعت لبشر مرفوع (يوحى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (إليّ) متعلّق بـ (يوحى) ، (إنّما) مثل إنّما ، ولكنّ (ما) لم تخرج (أنّ) عن مصدريّتها " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أنّما إلهكم إله . . .) في محلّ رفع نائب الفاعل أي يوحى إليّ وحدانية اللّه .

(الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط و(اللام) لام الأمر (عملا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا) محتمل أن تكون نافية أو ناهية (بعبادة) متعلّق بـ (يشرك) ، (أحدا)

مفعول به عامله يشرك ، منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنا بشر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) ذكر ذلك العكبريّ ، وتبعه السيوطيّ والجمل .

(350/480)

وجملة : " يوحى إليّ . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ أنا " 1 " .

وجملة : " من كان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان يرجو . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " يرجو لقاء . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " ليعمل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا يشرك . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة الجواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 15 صـ 206 . 267 ﴾

---

(1) أو لا محلّ استئناف بيانيّ للقول السابق .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(351/480)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) ما نافية وأشهدتهم فعل وفاعل ومفعول به وخلق السموات والأرض مفعول به ثان ولا خلق أنفسهم عطف على خلق السموات والأرض . (وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً) الواو عاطفة وما نافية وكنت كان واسمها ومتخذ خبرها والمضلين مضاف اليه وفيه وضع الظاهر موضع المضمر وعضدا مفعول به ثان لمتخذ وسيأتي الكلام عن هذا التشبيه في باب البلاغة .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض " إلى آخر الآية تشبيه تمثيلي مقلوب أما التشبيه التمثيلي فهو تشبيه الحياة الدنيا وما فيها من زخارف

تعجب المتلهي برؤيتها والمستمتع بزينتها حتى إذا أفاق من عمايته وجد أن ما كان يتلهى

ويستمتع به باطل لا حقيقة ، بالنبات الذي اختلط به الماء الهاطل من السماء فربا والتف ، وزها ورف ، وأنبت من كل زوج بهيج ولم تكد العين تستمتع به والنفس تنشرح بمنظره حتى يبس وتصوّح ثم جف وذبل ثم أصبح هشيما تذروه الرياح فكأنه ما كان ، وأما التشبيه المقلوب فقد كان من حق الكلام أن يقول فاختلط بنبات الأرض ووجهه أنه لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته وبعبارة أوضح لما كان الاختلاط عبارة عن شيئين متداخلين صدق على كل منهما أنه مختلط ومختلط به لكن في عرف اللغة والاستعمال تدخل الباء على الكثير غير الطارئ فلذا جعل هذا من القلب ، ولما كان القلب مقبولا إذا كان فيه نكتة وهي أن كلا منهما مختلط ومختلط به وهي المبالغة في كثرة حتى كأنه الأصل الكثير فالمراد بالعكس مما قدمناه آنفا هو القلب وهذا من الممتع الرائع فاعرفه .

(352/480)

2- الاستعارة المكنية في قوله " يا ويلتنا " نداء الويلة قائم على تشبيهها بشخص يطلب إقباله كأنه قيل : يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك .

3- التشبيه البليغ في قوله " وما كنت متخذ المضلين عضدا " فقد شبه المضلين بالعضد

الذي يتقوى به الإنسان وأصله العضو الذي هو المرفق إلى الكتف ولم يذكر الأداة وقد جعله بعضهم استعارة وهو خطأ لوجود ركني التشبيه وهما المشبه والمشبه به .

4- استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات : وذلك في قوله تعالى : " ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " فإن وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة

فينبغي أن يكون لا يغادر كبيرة ولا صغيرة لأنه إذا لم يغادر صغيرة فمن الأولى أن لا يغادر كبيرة وأما إذا لم يغادر كبيرة فإنه يجوز أن يغادر صغيرة لأنه إذا لم يعف عن الصغيرة فينبغي القياس أنه لا يعفو عن الكبيرة وإذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة .

5- وفي قوله تعالى " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " فن الجمع وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم واحد وهو واضح في الآية ومنه في الحديث قوله صلى اللّه عليه وسلم : من أصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم في حوز الدنيا بحذافيرها وهي النواحي والواحد حذفار ومنه في الشعر قول أبي العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أيّ مفسده

وقول ابن خفاجة الأندلسي :

تعلقته ريان من خمر ريقه له رشفها دوني ولي دونه السكر

وطبنا معا ثغرا وشعرا كأنما له منطقي ثغر له ولي ثغره شعر

[سورة الكهف (18) : الآيات 52 إلى 59]

وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (52)

(353/480)

اللغة :

(مَوْبِقاً) : اسم مكان أو مصدر ميمي من وبق يبق وبوقا كوثب يثب وثوبا أو وبق يوبق وبقا كفرح يفرح فرحا إذا هلك أي مهلكا يشتركون فيه وهو النار ، وفي القاموس وغيره : وبق يبق من باب ضرب يضرب ووبق يبق من باب علم يعلم ووبق يوبق وبقا ووبوقا وموبقا واستوبق هلك فهو وبق والموبق المهلك والموعد والمحبس وكل شيء حال بين شيئين وعن الحسن : موبقا عداوة والمعنى عداوة هي في شدتها هلاك وقال الفراء : البين الوصل أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكا يوم القيامة .

(مَصْرِفاً) : اسم مكان أو زمان وقال أبو البقاء أي انصرافا فهي مصدر ميمي وفي الكشاف مصرفا : معدلا قال :

أزهير هل عن شيبة من مصرف (جَدَلًا) : خصومة في الباطل قال الفرزدق :

ما أنت بالحكم الترضي حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

(قُبُلًا) : عيانا ومقابلة وفي القاموس : " رأيته قبلا وقبلا وقبلا وقبلا وقبيلا وقبليا أي عيانا ومقابلة .

قال الفراء : إن قبلا جمع قبيل أي متفرقا يتلو بعضه بعضا وقيل :

عيانا وقيل فجأة .

(لِيُدْحِضُوا) : ليبطلوا ويزيلوا من ادحاض القدم وهو إزلاقها وإزالتها عن موطئها وفي المختار : دحضت حجته بطلت وبابه خضع وأدحضها اللّه ودحضت رجله زلقت وبابه قطع والإدحاض الإزلاق " .

(مَوْئِلًا) : منجى وملجأ والأصل المرجع من وأل يئل وألا وءولا إذا لجأ اليه وهو هنا مصدر ميمي وفي المصباح : وأل إلى اللّه

يئل من باب وعد التجأ وباسم الفاعل سمي ومنه وائل بن حجر وهو صحابي وسحبان بن وائل ووأل رجع والى اللّه الموئل أي المرجع .

الاعراب :

(وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره أذكر وجملة يقول مضاف إليها الظرف ونادوا فعل أمر وفاعل وشركائي مفعول به والذين نعت وجملة زعمتم صلة والعائد محذوف أي زعمتموهم شركاء كما حذف المفعول الثاني لزعمتم أيضا .

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً) إما أن تعطف الجملة على محذوف مقدر أي فبادروا إلى آلهتهم فدعوهم وإما أن تقدر الماضي بمعنى المستقبل ودعوهم فعل وفاعل ومفعول به فلم الفاء عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم ويستجيبوا مضارع مجزوم بلم والواو فاعل ولهم متعلقان بيستجيبوا وجعلنا فعل وفاعل وبينهم الظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني وموبقا هو المفعول الأول والمعنى صيرنا بين الأوثان وعابديها مكانا يجتمعون فيه ليهلكوا معا . (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها) ورأى المجرمون النار فعل وفاعل ومفعول به فظنوا الفاء عاطفة وظنوا فعل وفاعل وإن واسمها وخبرها وسدت مسد مفعولي ظنوا أي تراءت لهم من مكان بعيد فأيقنوا أنهم واقعون فيها والظن هنا معناه اليقين لأن ذلك الحين ليس حين شك .

)

وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً) الواو عاطفة ولم يجدوا عطف على ظنوا وعنها متعلقان بمصرفا لأنه اسم مكان أو زمان مشتق أو مصدر ميمي بمعنى انصرافا ومصرفا مفعول به . (وَلَقَدْ

صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق

(355/480)

وصرفنا فعل وفاعل وفي هذا متعلقان بصرفنا والقرآن بدل من هذا وللناس متعلقان بصرفنا أيضا ومن كل صفة لموصوف محذوف هو مفعول صرفنا أي معنى غريبا بديعا يشبه المثل بغرابته وطرافته ومثل مضاف اليه . (وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) الواو عاطفة أو حالية وكان الإنسان كان واسمها وأكثر شيء خبرها وجدلا تمييز يعني الإنسان أكثر المخلوقات الحية مجادلة ولجاجا باطلا (وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى) الواو عاطفة وما نافية ومنع فعل ماض والناس مفعول به مقدم وأن يؤمنوا مصدر مؤول في موضع المفعول الثاني لمنع وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بيؤمنوا وجملة جاءهم الهدى مضاف إليها الظرف . (وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا) ويستغفروا عطف على يؤمنوا والواو فاعل وربهم مفعول به وإلا أداة حضر وأن وما في حيزها فاعل منع وتأتيهم فعل مضارع ومفعول به مقدم وسنة الأولين فاعل مؤخر وأو حرف عطف ويأتيهم العذاب عطف على تأتيهم سنة الأولين وقبلا حال من الضمير أو

العذاب ولا بد من تقدير مضاف محذوف قبل أن تأتيهم سنة الأولين تقديره انتظار الإتيان قالوا : " إنما احتيج إلى تقدير المضاف إذ لا يمكن جعل إتيان سنة الأولين مانعا من إيمانهم فإن المانع يقارن الممنوع وإتيان العذاب متأخر عن إيمانهم بمدة طويلة " . (وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) الواو عاطفة وما نافية ونرسل المرسلين فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإلا أداة حصر ومبشرين حال ومنذرين عطف .

(356/480)

(وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) يجادل فعل مضارع والذين فاعل وكفروا صلة وبالباطل متعلقان بيجادل وليدحضوا اللام للتعليل ويدحضوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وبه متعلقان بيدحضوا والحق مفعول به . (وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً)

(357/480)

الواو حالية أو استئنافية واتخذوا فعل وفاعل وآياتي مفعول به والواو حرف عطف وما اسم موصول معطوف على آياتي وجملة أنذروا صلة ، ويجوز جعل ما مصدرية والمصدر معطوف على آياتي ، وهزوا مفعول به ثان . (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ) الواو استئنافية ومن اسم استفهام معناه النفي في محل رفع مبتدأ وأظلم خبر وممن متعلقان بأظلم وجملة ذكر صلة وبآيات ربه متعلقان بذكر فأعرض عطف على ذكر وفاعله مستتر تقديره هو وعنها متعلقان بأعرض ونسي عطف على ما تقدم وما مفعول به وجملة قدمت صلة ويداه فاعل . (إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً) ان واسمها وجملة جعلنا خبرها وعلى قلوبهم في محل نصب مفعول به ثان لجعلنا وأكنة مفعول به أول وأن يفقهوه المصدر في محل نصب مفعول لأجله وفي آذانهم وقرا عطف على معمولي جعلنا . (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً) الواو حرف عطف وأن شرطية وتدعهم فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به والى الهدى متعلقان بتدعهم فلن الفاء رابطة ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويهتدوا نصب بلن والواو فاعل واذن حرف جواب وجزاء وأبدا ظرف متعلق بيهتدوا . (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ) وربك الواو استئنافية وربك مبتدأ والغفور خبر وذو الرحمة خبر ثان ولو شرطية ويؤاخذهم فعل مضارع وفاعل مستتر

ومفعول به وبما متعلقان بيؤاخذهم وجملة كسبوا صلة واللام رابطة وعجل فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ولهم متعلقان بعجل والعذاب مفعول به . (

(358/480)

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا) بل حرف إضراب ولهم خبر مقدم وموعد مبتدأ مؤخر ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويجدوا فعل مضارع منصوب بلن ومن دونه متعلقان بمحذوف حال وموئلا مفعول به . (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

تلك مبتدأ أو منصوب على الاشتغال والقرى بدل وجملة أهلكناهم خبر والمراد أهل القرى ويجوز إعراب القرى خبرا وجملة أهلكناهم إما حال وإما خبر ثان ، ولما ظرف بمعنى حين متعلق بأهلكناهم وجملة ظلموا مضافة للما . (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً) وجعلنا فعل وفاعل ولمهلكهم حال أو متعلقان بموعدا وموعدا مفعول به . ومهلكهم مصدر ميمي مضاف إلى الفاعل إن كان لازما أو مضاف إلى المفعول إن كان متعديا .

البلاغة :

في قوله تعالى " أو يأتيهم العذاب قبلا " اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وقد أوردنا في باب اللغة معاني القبل وقد صنّف فيه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد وأبو العمثيل الاعرابي

الذي صنف كتابا مأثورا عنه وهو مجرد حصر للألفاظ التي قد يتعدد مدلولها دون التزام منه لترتيب ما في سوق الكلمات وبدون تعليل أو محاولة لإيجاد أية صلة بين المعاني المختلفة إذ يقول : " القبل على سبعة أوجه : القبل في العين والقبل النشز من الأرض يستقبلك تقول رأيت شخصا بذلك القبل والقبل أن ترى الهلال قبلا فكان صغيرا والقبل أن يتكلم الرجل بكلام لم يكن استعدّ له يقال تكلم فلان قبلا والقبل أن يورد الرجل إبله الماء ثم يستقي ويصب عليها فيقال سقاها قبلا والقبل شي

(359/480)

منصوب بأن مضمرة بعد حتى ومجمع البحرين مفعول به وأو حرف عطف وأمضي معطوف على أبلغ وحقبا ظرف زمان متعلق بأمضي واختار أبو البقاء وغيره أن تكون بمعنى إلى وأبلغ منصوب بأن مضمرة بعدها وما أحسبه صحيحا . (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) الفاء عاطفة ولما ظرف بمعنى حين وجملة بلغا في محل جر بإضافة الظرف إليها والألف فاعل ومجمع مفعول به وبينهما ظرف أضيف إلى مجمع أي بين البحرين وجملة نسيا لا محل لها لأنها جواب لما وحوتهما مفعول به فاتخذوا الفاء عاطفة واتخذ فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو أي الحوت وسبيله مفعول به

وسربا مفعول به ثان وفي البحر متعلقان بمحذوف حال ، وفي الكلام تقديم وتأخير لأن اتخاذ الحوت سبيله في البحر قبل النسيان . (فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية وجملة جاوزا مضاف إليها الظرف والمفعول محذوف أي الموعد وهو الصخرة وجملة قال لفتاه لا محل لها وجملة آتنا غداءنا مقول القول وغداءنا مفعول به ثان لآتنا .

(360/480)

)

لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ولقينا فعل وفاعل ومن سفرنا متعلقان بلقينا وهذا صفة لسفرنا أو بدل منه ونصبا مفعول به للقينا .

(قالَ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ) أرأيت تقدم الكلام عليها مطولا وانها بمعنى أخبرني ومفعولا أرأيت محذوفان اختصارا أي رأيت أمرنا ما عاقبته وهذا أسلوب معهود في الكلام المتداول بين الناس يقول أحدهم لصاحبه إذا ألمّ به خطب أرأيت ما نابني فالظرف متعلق بهذا المحذوف أي بنا بني وسيأتي مزيد من بحث هذه الرؤية في باب البلاغة وجملة أوينا مضاف إليها الظرف والى الصخرة متعلقان بأوينا . (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا

الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) الفاء لتعليل الدهشة التي اعترتهما مما نابهما وان واسمها وجملة نسيت الحوت خبرها والواو اعتراضية والجملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه وما نافية وأنسانيه فعل ماض والنون للوقاية والياء مفعول به أول والهاء مفعول به ثان وإلا أداة حصر والشيطان فاعل أنسانيه وأن وما في حيزها بدل اشتمال من الهاء أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان . (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً) الواو عاطفة واتخذ فعل ماض معطوف على نسيت وفاعله مستتر تقديره هو أي الحوت وسبيله مفعول به أول وفي البحر حال وعجبا مفعول به ثان لاتخذ أو مفعول مطلق لفعل محذوف وفي البحر هو المفعول الثاني أي قال موسى عجبت عجبا : حوت يؤكل دهرا ثم يصير حيا بعد ما أكل بعضا .

البلاغة :

في قوله " أرأيت " الرؤية هنا مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة وهي استعارة تصريحية تبعية لأنها أجريت في فعل وقد حذف

(361/480)

المشبه وأقيم المشبه به مقامه والاستفهام في أرأيت للتعجب كأنه يحاول إثارة العجب في نفس موسى مما رأى من المعاجز التي لا تدور في الخلد ، ويكاد لا يصدقها العقل مما يمكن

الرجوع اليه في التفاسير المطولة والروايات المنقولة مما يخرج بنا عن نطاق الكتاب وسنكتفي بسرد قصة لقاء موسى والخضر معتمدين على نص الحديث والتحليل المنطقي المعقول تاركين المجال لأصحاب المواهب القصصية عسى أن ينسجوا على منوال الكاتب القاص توفيق الحكيم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 64 إلى 70]

قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (64) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68)

قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69) قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70)

الإعراب:

(قالَ ذِلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ) ذلك مبتدأ وما خبر وجملة كنا صلة وكان واسمها وجملة نبغي خبرها وجملة ذلك إلخ مقول القول وفي المصحف تحذف ياء نبغي لأنها من ياءات الزوائد. (فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً)

الفاء عاطفة وارتدا فعل وفاعل وعلى آثارهما متعلقان بمحذوف حال أي رجعا أدراجهما ، وقصصا مفعول مطلق لفعل محذوف أي يقصان قصصا ويتبعان آثارهما اتباعا ، ولك أن تجعلها حالا أي فارتدا على آثارهما مقتصّين . (فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) الفاء عاطفة ووجدا عبدا فعل وفاعل ومفعول به ومن عبادنا صفة لعبد وجملة آتيناه صفة ثانية ورحمة مفعول به ثان ومن عندنا صفة لرحمة وعلمناه فعل وفاعل ومفعول به ومن لدنا حال لأنه كان صفة لعلما وتقدم عليه وعلما مفعول به ثان لعلمناه ولو كان مفعولا مطلقا لكان تعليما لأن فعله على فعّل بالتشديد وقياس مصدره التفعيل . (قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً) قال فعل ماض وله متعلقان به وموسى فاعل وهل حرف استفهام واتبعك فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ، على أن تعلمني أن وما في حيزها في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من الكاف في هل اتبعك أي هل اتبعك حال كونك معلما لي ومما متعلقان بتعلمني وجملة علمت صلة ورشدا مفعول ثان لتعلمني لأن الياء هي المفعول الأول ويجوز أن تعرب رشدا مفعولا لأجله أي لأجل الرشاد أو مصدر في موضع نصب على الحال . (قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) جملة إنك مقول القول وان واسمها ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتستطيع منصوب بلن ومعي ظرف مكان متعلق بمحذوف أي حال

كونك معي وصبرا مفعول به . (

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً) وكيف الواو عاطفة وكيف اسم استفهام في محل نصب حال وتصبر فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وعلى ما متعلقان بتصبر وجملة لم تحط صلة وبه متعلقان بتحط وخبرا مفعول مطلق لتحط في المعنى لأن لم تحط بمعنى لم تخبر وأعربها الزمخشري تمييزا

(363/480)

محولا عن الفاعل أي لم يحط به خبرك وليس ببعيد . (قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً) ستجدني السين حرف استقبال وتجدني فعل مضارع مرفوع والنون للوقاية وفاعله مستتر تقديره أنت والياء ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول وإن شاء اللّه جملة معترضة وصابرا مفعول به ثان لتجدني وقد ذكر الرحمة احتراسا لما يأتي من قوله " حتى إذا لقيا غلاما فقتله " ، وقتله للغلام يوهم اتصافه بالغلظة والجفاء ، وجملة ولا أعصي لك أمرا معطوفة على صابرا فهي في محل نصب أو معطوفة على ستجدني فلا محل لها من الاعراب ولك متعلقان بمحذوف حال لأنه كان صفة لأمرا وإنما قيد موسى بالمشيئة لعلمه بشدة الأمر وصعوبته وان الحمية قد تعترضه عند ما يرى أمرا مغايرا وسيأتي تفصيل

ذلك في حينه . (قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً) الفاء عاطفة وإن شرطية واتبعتني فعل ماض وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة ولا ناهية وتسألني مضارع مجزوم بلا والنون للوقاية والياء مفعول به وعن شيء متعلقان بتسألني وحتى حرف غاية وجر وأحدث فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ولك متعلقان بأحدث ومنه حال وذكرا مفعول به ولا بد من تقدير صفة محذوفة بعد شيء أي شيء خفي عليك سره وغبي أمره .

الفوائد :

1- عند ولدن :

لدن وهي بمعنى عند فتكون اسما لزمان الحضور ومكانه كما أن عند كذلك إلا أن لدن تختص بستة أمور :

1- انها ملازمة لمبدأ الغايات الزمانية والمكانية وعند غير ملازمة فمن ثم يتعاقبان في نحو جئت من عنده من لدنه وفي الآية الكريمة وقد لا يتعاقبان في نحو جلست عنده لعدم معنى الابتداء هنا وانما ترك التعاقب في الآية تفاديا لتكرار النظم .

2- ان الغالب في لدن استعمالها مجرورة بمن ونصبها قليل وجر عند بمن دون جر لدن في الكثرة .

3- انها مبنية على السكون بخلاف عند فانها معربة دائما .

4- جواز إضافتها إلى الجمل كقول القطامي :

صريع غوان راقهن ورقنه لدن شبّ حتى شاب سود الذوائب

5- جواز إفرادها قبل غدوة كقوله :

وما زال مهري مزجر الكلب فيهم لدن غدوة حتى دنت لغروب

بنصب غدوة على التمييز أو على التشبيه بالمفعول به . وبجرها على القياس .

6- انها لا تقع إلا فضلة بخلاف عند فانها قد تقع عمدة .

وقال بعضهم : إن عند في لسان العرب لما ظهر ولدن لما بطن فيكون المراد بالرحمة ما ظهر من كراماته وبالعلم الباطن الخفي المعلوم قطعا بأنه خاص .

2- حديث النبي عن الخضر :

وقد آن أن نورد لك الحديث البليغ الذي روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم بشأن الخضر والحديث الآخر الذي تحدث به عن لقاء موسى والخضر :

الحديث الأول : روي عن أبي أمامة رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " ألا أحدثكم عن الخضر ؟ قالوا بلى يا رسول اللّه ، قال : بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال : تصدق عليّ بارك اللّه فيك ، فقال الخضر

: آمنت باللّه ما شاء من أمر يكون ما عندي شيء أعطيكه فقال المسكين : أسألك بوجه اللّه لما تصدقت عليّ ، فإني نظرت السماحة في وجهك ، ورجوت البركة عندك فقال الخضر : آمنت باللّه ما عندي شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ قال : نعم ، أقول : لقد سألتني بأمر عظيم أما إني لا أخيبك بوجه ربي بعني قال :

(365/480)

فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زمانا لا يستعمله في شيء ، فقال : إنما اشتريتني التماس خير عندي فأوصني بعمل ، قال : أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف ، قال : ليس يشقّ عليّ ، قال : قم فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفر في اليوم فخرج الرجل لبعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة ، قال : أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه قال : ثم عرض للرجل سفر فقال : إني أحبك أمينا فاخلفني في أهلي خلافة حسنة ، قال : وأوصني بعمل ، قال : إني أكره أن أشق عليك ، قال : ليس يشقّ علي ، قال : فاضرب من اللّبن بيتي حتى أقدم عليك ، قال : فمر الرجل لسفره ، قال فرجع الرجل وقد شيّد بناءه ، قال : أسألك بوجه اللّه ما سببك ؟

وما أمرك ؟ قال : سألتني بوجه اللّه ووجه اللّه

أوقعني في هذه العبودية ، فقال الخضر سأخبرك من أنا ، أنا الخضر الذي سمعت به سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي شيء أعطيه فسألني بوجه اللّه فأمكنته من رقبتي فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه اللّه فردّ سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلدة ولا لحم له يتقعقع ، فقال له الرجل : آمنت باللّه ، شققت عليك يا نبي اللّه ولم أعلم ، قال : لا بأس أحسنت وأتقنت ، فقال الرجل : بأبي أنت وأمي يا نبي اللّه احكم في أهلي ومالي بما شئت أو اختر فأخلّي سبيلك ، قال : أحبّ أن تخلّي سبيلي فأعبد ربي ، فخلّى سبيله ، فقال الخضر الحمد للّه الذي أوثقني في العبودية ثم نجاني منها " .

لمحة تحليلية :

(366/480)

أخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، في هذا الحديث ، عن نبذة طريفة عن الخضر ، ومدى إيمانه العميق باللّه ورغبته في ثوابه ورهبته من عقابه لتكون بمثابة معالم الصبح لكل مؤمن بما يعتقده حقا وصوابا ، لا يبالي ما يتكبده في سبيل ترسيخ ما يعتقده في النفوس كما انطوت النبذة على ميله إلى إجابة السائل الفقير المحتاج ولو ببيع نفسه قال أحدهم :

يجود بالنفس إذ ضنّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

بثّ النوال ولا تمنعك قلته فكلّ ما سدّ فقرا فهو محمود

ثم أعطى الخضر نصيحة غالية تصلح للاحتذاء في مختلف ظروف الزمان والمكان ، فحذر المسئولين من البخل خشية الوقوف يوم الحساب

حفاة عراة وهيئة أجسامهم رثة بالية تضطرب لرداءتها وقذارتها فكأن جسمه جلدة مثل الهيكل فقط يضطرب ويتحرك ولا تستدل عليه إلا بقعقعة خفيفة وأحسب أبا الطيب رمق سماء هذا المعنى حين قال واصفا نحوله :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وانظر بعد ذلك إلى أسمى مطلب يجنح اليه العقلاء : " تخلي سبيلي فأعبد ربي " وهذا بمثابة مثل ضربه النبي صلى اللّه عليه وسلم لكل انسان ليجود بماله في مشروعات الخير وليثق باللّه الرزاق المنفق المخلف ، وليتحلى بشيم السخاء والعطاء ، وما أجمل قول أبي فراس الحمداني وقد تضمن هذه المعاني السامية كلها كما صور الفتوة أجمل تصوير :

غيري يغيره الفعال الجافي ويحول عن شيم الكريم الوافي

إن الغنيّ هو الغنيّ بنفسه ولو انه عاري المناكب حاف

ما كل ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فكل شيء كاف

وتعاف لي طمع الحريص فتوتي ومروءتي وقناعتي وعفافي

ومكارمي عدد النجوم ومنزلي مأوى الكرام ومنزل الأ

ضياف لا أرتضي ودا إذا هو لم يدم عند الجفاء وقلة الانصاف

الحديث الثاني في لقاء موسى والخضر :

(367/480)

ورد في صحيح مسلم : " عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : قام موسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم ، قال : فعتب اللّه عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى اللّه إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : أي رب كيف لي به ؟ فقيل له :

احمل حوتا في مكتل فحيث تفقد الحوت فهو ثم فانطلق وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون فحمل موسى عليه السلام حوتا في مكتل وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة فرأى رجلا مسجى عليه ثوب فسلم عليه موسى فقال له الخضر أنّى بأرضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : إنك على علم من علم اللّه علمكه اللّه لا أعلمه وأنا على علم من علم اللّه علمنيه لا تعلمه " .

وسيأتي في الآيات الآتية إيضاح أعمالها ، هذا ولم يذكر يوشع ابن نون لأنه كان تابعا لموسى

فأدرج في مطاوي الحديث عنه ، أما أعمالهما فهي :

1- خرق السفينة .

2- قتل الغلام .

3- إخراج كنز من جدار .

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يرحم اللّه موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقصّ علينا من أخبارهما .

لما ذا سمي الخضر ؟

وقال النووي : " وقد صح في البخاري وغيره عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من خلفه خضراء ، وجمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا وكان الحوت سمكة مالحة والمكتل : القفة والزنبيل والطاقة وقوله " مسجى مغطى " و" أنى بأرضك السلام " بمعنى كيف أي السلام عجيب بدار الكفر هذه .

التأدب في طلب العلم :

وقال البيضاوي : " ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة (سيدنا موسى) أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطا في أبواب الدين فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليهم فيما بعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقا وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب فاستجهل نفسه واستأذن أن يكون تابعا له وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم اللّه به عليه " .

هل الخضر حيّ ؟

هذا وقد زعم كثيرون أن الخضر حي وهذا غير صحيح إذ لا دليل عليه من كتاب منزل أو سنة ثابتة فيجب المصير اليه ولم ينقل عن أحد

ممن يوثق به ويعتمد على نقله انه رآه وأخبره انه الخضر صاحب موسى ومثل هذا لا يمكن الركون اليه والتعويل عليه والتصديق به إلا بأحد هذين الطريقين إما الخبر الصادق أو المشاهدة بالبصر وبدون ذلك فالتصديق بوجوده ضرب من الخلط ، والعادة المستمرة أن الإنسان لا يعيش مثل هذا العمر الطويل فمن ادعى خلاف العادة في فرد من أفراد هذا النوع طولب بالدليل على ذلك وكل ما استند اليه القائلون بحياة الخضر إلى الآن وانه يبقى حيا إلى آخر الدنيا أحاديث لم يصح منها شيء عند أهل العلم وحكايات لفقها القصاصون ترويجا لحالهم عند العامة ولذلك أنكر الامام المجتهد أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري وشيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني الحنبلي صحة ذلك وكفى بقولهما على

سعة علمهما بحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومعرفة صحيحه وضعيفه حجة لنا فيما ذكرناه على أن القرآن يخالف ما ذهب اليه القائلون بحياته فإن اللّه جل شأنه قال في محكم كتابه " وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد " وقال لشرّ خلقه إبليس " انك من المنظرين " في جواب قوله " انظرني إلى يوم يبعثون " فجعل ذلك خصوصية لعدوه إبليس لامتحان خلقه به ولتتم لعنته عليه ولم يجعل ذلك لأحد غيره لا نعمة ولا نقمة فالقائل بغير ذلك غير مصيب فيما قاله واللّه أعلم .

(369/480)

أما لفظ الخضر فقد ضبطوه بكسر الخاء مع سكون الضاد وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها ففيه ثلاث لغات وهذا لقبه وكنيته أبو العباس واسمه بليا ، وهو من نسل نوح وكان أبوه من الملوك .

[سورة الكهف (18) : الآيات 71 إلى 82]

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (71) قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (72) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا

تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (75)

(370/480)

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً (80)

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (82)

اللغة :

(إِمْراً) : الإمر العظيم المنكر ، قال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة وأنشد :

قد لقي الأقران مني نكرا داهية دهيا وأمرا إمرا

ويقال : أمر الإمر أي عظم وتفاقم وهذه المادة اللغوية غريبة تقول الأمر بالفتح : طلب إحداث الشيء وجمعه أوامر والأمر الشأن وجمعه أمور وأولو الأمر أهل الرياسة والعلماء ، والإمّر والإمّر الضعيف الرأي ، والأمير الآمر ، فتتغير معانيها بتغير شكلها .

(تُرْهِقْنِي) : تكلفني وفي المختار : رهقه غشيه وبابه طرب وأرهقا عسرا كلفه إياه .

(371/480)

(زَكِيَّةً) : طاهرة من الذنوب لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ، وفي القاموس : زكا يزكو زكاء وزكّوا ، وزكي يزكى زكى الزرع نما والرجل صلح وتنعم وزكاه اللّه بالتشديد أنماه وطهّره وأصلحه ، وأخا زكاته وزكّى ماله أدّى عنه الزكاة ، وزكّى نفسه مدحها .

(نُكْراً) : بضم فسكون وبضمتين : المنكر وهو أبلغ من الإمر لأن معه القتل بخلاف خرق السفينة فإنه يمكن تداركه وتلافيه وقيل :

الإمر أبلغ لأن قتل النفس بسبب الخرق أعظم من قتل نفس واحدة .

(يُضَيِّفُوهُما) : يقال ضافه إذا كان له ضيفا وحقيقته من الميل ، يقال ضاف السهم عن

الغرض وأضافه وضيفه جعله ضيفا وهم ضيوف وأضياف وضيفان ، ومن المجاز :

أضاف إليه أمرا إذا أسنده إليه واستكفاه وفلان أضيفت اليه الأمور وما هو إلا مضاف

أي دعي ، ونزلت به مضوفة . قال :

وكنت إذا جاري دعا لمضوفة أشمر حتى يبلغ الساق مئزري

الاعراب :

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها) الفاء استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة

للشروع في الأمور الثلاثة التي ألمعنا إليها والتي خفيت بواطنها عن موسى وبدت له

ظواهرها مستنكرة ، ولا بد من تقدير محذوف أي فانطلقا يمشيان ومعهما تابعهما يوشع بن

نون وقد اكتفى بذكر المتبوع عن التابع أي على ساحل البحر يطلبان سفينة تقلهما فوجدا

سفينة فركباها فأخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي فجعل

موسى يعارضه ويقول إلخ . وحتى حرف غاية وجر وإذا ظرف مستقبل وجملة ركبا في

السفينة في محل جر بإضافة الظرف إليها ، وجملة خرقها جواب إذا وهو فعل ماض وفاعل

مستتر ومفعول به . (قالَ : أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً) قال- أي موسى-

أخرقتها والهمزة للاستفهام الإنكاري ،

لتغرق اللام للتعليل وتغرق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وأهلها مفعول به ، وسيأتي سر نسيان نفسه في باب البلاغة ، واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجئت فعل وفاعل وشيئا مفعول به وإمرا صفة . (قالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وإن واسمها وجملة لن تستطيع معي صبرا خبرها . (قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً) لا ناهية وتؤاخذني فعل مضارع مجزوم بلا والنون للوقاية والفاعل مستتر تقديره أنت والياء مفعول به . ومن أمري حال لأنه كان في الأصل صفة لعسرا وعبرا مفعول به ثان لترهقني . (فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً) فانطلقا الفاء للعطف وانطلقا فعل وفاعل وحتى حرف غاية وجر وإذا ظرف مستقبل وجملة لقيا مضافة للظرف وهي شرط إذا وغلاما مفعول به ، والفاء حرف عطف وقتله عطف على لقيا فهو داخل في حيز فعل الشرط بخلاف قوله " حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها " بغير فاء فقد جعله هنا جوابا والعلة في هذه المخالفة ، ان خرق السفينة لم يأت عقب الركوب مباشرة أما القتل فقد أتى عقب لقاء الغلام مباشرة ، وقال هو جواب إذا ، أقتلت : الهمزة للاستفهام الانكاري ونفسا مفعول به وزكية صفة ، وبغير نفس : الجار والمجرور في موضع نصب على الحال من الفاعل أو المفعول أي قتلته ظالما أو مظلوما أو

متعلق بقتلت ، واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجئت فعل وفاعل وشيئا مفعول به ونكرا صفة . (

(373/480)

قال أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وان واسمها وجملة لن تستطيع معي صبرا خبرها ، وقد زاد هنا لفظ لك لأن سبب العتاب أكثر وموجبه أقوى وقيل زاد لفظ لك

لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعني . (قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي) إن شرطية وسألتك فعل ماض وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط وعن شيء جار ومجرور متعلقان بسألتك وبعدها ظرف متعلق بمحذوف صفة لشيء ، والفاء رابطة لجواب الشرط ولا ناهية وتصاحبني مجزوم بلا والياء مفعول به .

)

(374/480)

قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً) قد حرف تحقيق وبلغت فعل وفاعل ومن حرف جر ولدن ظرف مبني على السكون في محل جر والجار والمجرور متعلقان ببلغت أو بمحذوف حال وعذرا مفعول به . (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا) الفاء عاطفة وانطلقا فعل وفاعل وحتى حرف غاية وجر وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وأتيا فعل وفاعل وأهل مفعول به وقرية مضاف إليه ، قيل القرية هي انطاكية ومعنى استطعما أهلها طلبا منهم الطعام على سبيل الضيافة ، وجملة استطعما أهلها لا محل لها لأنها جواب إذا ، واختار ابن هشام أن تكون صفة لقرية ، وكرر الأهل للتأكيد من باب إقامة الظاهر مقام المضمر وقد تقدمت شواهده أو للتقصي ليشمل الاستطعام والامتناع من الإكرام جميع أهلها . (فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) الفاء عاطفة وأبوا فعل وفاعل وأن وما في حيزها مفعول أبوا . (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ) الفاء عاطفة ووجدا فعل وفاعل وفيها جار ومجرور متعلقان بوجدا وجدارا مفعول به وجملة يريد صفة لجدارا وفي معنى إسناد الإرادة للجدار بحث ممتع يطالعه القارئ في باب البلاغة وأن وما في حيزها مفعول يريد فأقامه الفاء عاطفة وأقامه فعل وفاعل مستتر ومفعول به أي رفعه ورممه وأصلحه . (قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً) لو حرف شرط غير جازم وشئت فعل وفاعل واللام واقعة في جواب لو واتخذت فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب لو

و عليه متعلقان بمحذوف حال وأجرا مفعول به . (قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) هذا مبتدأ والاشارة إلى الفراق المترتب على تكرار السؤال وفراق خبر وبيني مضاف إليه وساغت اضافة بين إلى غير متعدد لتكرير بين بالعطف بالواو وبينك عطف على بيني . (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً) السين حرف استقبال وأنبئك فعل وفاعل مستتر ومفعول به وبتأويل الباء حرف جر دخل على مضمون المفعولين الثاني والثالث وسيأتي تفصيل ذلك في باب الفوائد وما اسم موصول مضاف إلى تأويل ولم حرف نفي وقلب وجزم وتستطع مضارع مجزوم بلم وصبرا مفعول به وعليه متعلقان بصبرا أي سأنبئك سر ما فعلت في الأمور الثلاثة . (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) أما حرف شرط وتفصيل والسفينة مبتدأ والفاء رابطة وكانت كان واسمها المستتر والتاء تاء التأنيث الساكنة ولمساكين خبر كانت والجملة خبر السفينة وجملة يعملون في البحر صفة لمساكين وفي البحر متعلقان بيعلمون . (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) الفاء عاطفة وأردت فعل وفاعل وأن أعيبها المصدر المؤول مفعول أردت والواو للحال وكان فعل ماض ناقص ووراءهم ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وهو بمعنى أمام ويجوز أن يكون بمعنى خلف وملك اسم كان المؤخر وجملة يؤخذ صفة وكل سفينة مفعول به وغصبا مفعول مطلق مبين لنوع الأخذ ويجوز أن يكون المصدر في موضع نصب على

الحال وفي كلام تقديم وتأخير سيأتي سره العجيب في باب البلاغة .

)

وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً) الواو عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل والغلام مبتدأ فكان الفاء رابطة وكان واسمها وخبرها فخشينا الفاء عاطفة وخشينا فعل وفاعل وأن وما في حيزها مفعول خشينا وطغيانا مفعول به ثان وكفرا عطف على

(376/480)

طغيانا وجملة الجواب خبر الغلام وأسند الخشية إلى نفسه لأن اللّه أطلعه على مآل الغلام لو تناهت به المدة وانفسح الأجل ، أو لأنه حكى قول اللّه . (فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً) فأردنا عطف على خشينا وأردنا فعل وفاعل وأن يبدلهما أن وما في حيزها مفعول يبدلهما وخيرا منه مفعول ثان وزكاة تمييز أي صلاحا وتقى وأقرب رحما عطف على خيرا منه زكاة ورحما تمييز أيضا أي رحمة بوالديه .

قال أبو حيان : وانتصب رحما على المفعول له وأجاز الزمخشري أن ينصب على المصدر بأراد قال لأنه في معنى رحمهما وأجاز أبو البقاء أن ينتصب على الحال وكلاهما متكلف .

فتأمل .

)

وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) الجملة معطوفة على ما تقدم والاعراب مماثل وفي المدينة صفة ثانية أو حال . (وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً) الواو عاطفة وكان فعل ماض ناقص وتحته ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وكنز اسمها المؤخر ولهما صفة وكان أبوهما صالحا كان واسمها وخبرها . (فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) فأراد عطف على ما تقدم وربك فاعل وأن يبلغا مفعول أراد وأشدهما مفعول به وقد تقدم تفسير الأشد ويستخرجا عطف على يبلغا والألف فاعل وكنزهما مفعول به ورحمة من ربك مفعول لأجله أي لولا أني أقمته لانقض وهوى وخرج الكنز من تحته قبل أن يصبحا قادرين على حفظ المال وتنميته واستثماره ولضاع بددا . (وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً) الواو عاطفة وما نافية وفعلته فعل وفاعل ومفعول به والضمير يعود على مجموع ما ذكر وعن أمري جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي صادرا عن أمري وإنما هو بأمر اللّه وإلهامه

إياي وذلك مبتدأ وتأويل خبر وما مضاف اليه ولم حرف نفي وقلب وجزم وتسطع أي تستطع فحذفت منه تاء الافتعال مجزوم بلم وعليه متعلقان بصبرا وصبرا مفعول به .

البلاغة :

الفنون التي انطوت عليها الآيات الآنفة لا يتسع لها صدر هذا الكتاب إذا نحن حاولنا استجلاء غوامضها واكتناه خوافيها فلنمض في استقصائها جانحين إلى لغة النظر فأولها :

1- نسيان نفسه عند ما قال : " أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا "

وهو بين الراكبين وهو جدير بأن ينهمك بأمر نفسه وما هو مقدم عليه من سوء المصير وإنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق فنسي نفسه واشتغل بغيره في الحالة التي يقول فيها كل واحد : نفسي نفسي ، ولا يلوي على مال ولا ولد وتلك حالة الغرق تذهل فيها العقول وتغرب الأحلام ويضيع الرشد من الألباب .

2- التورية في قوله " قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ "

أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان لإيهامه بأنه قد نسي ليبسط عذره في الإنكار وبعضهم يسمي هذا النوع من معاريض الكلام ، والمعاريض جمع معراض وهو هنا إيهام خلاف المراد لئلا يلزم الكذب وهو فن ظريف من فنونهم ولعله أجمل أنواع التورية التي سبق ذكرها وقد كان المتنبي يجنح إليه في قصائده وخاصة الكافوريات قال :

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يمان

(378/480)

فشبيب هذا خارجي خرج على كافور الإخشيدي وقصد دمشق وحاصرها فيقال أن امرأة ألقت عليه رحى فصرعته فانهزم الذين كانوا معه لما مات ، ويقال إنه أكثر من شرب الخمر فحدث به صرع ففي ساعة القتال أتته نوبة الصرع فتركه أصحابه ومضوا فأخذه أهل دمشق وقتلوه وقد كان شبيب هذا من قيس ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب وأخبار ذلك مشهورة والسيف يقال له " يماني " في نسبته إلى اليمن ومراد المتنبي من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يماني وصاحبك قيسي ولهذا جانبه السيف وفارقه وهذه مغالطة حسنة .

ومن معاريض الكلام الحسنة قول أبي العلاء المعري في وصف الإبل :

صلب العصا بضرب قد دمّاها تود أن الله قد أفناها

إذا أرادت رشدا أغواها محاله من رقه إياها

فالضرب لفظ مشترك يطلق على الضرب بالعصا وعلى الضرب في الأرض وهو المسير فيها

وكذلك دماها يطلق على شيئين أحدهما يقال : دمّاه إذا أسال دمه ودماه إذا جعله كالدمية وهي الصورة وكذلك لفظ الفناء فإنه يطلق على عنب الثعلب وعلى إذهاب الشيء إذا لم يبق منه بقية يقال أفناه إذا أذهبه وأفناه إذا أطعمه حب الفناء وهو عنب الثعلب ، والرشد والغوى نبتان يقال أغواه إذا أضله وأغواه إذا أطعمه النوى ويقال طلب رشدا إذا طلب ذلك النبت وطلب رشدا إذا طلب الهداية .

ويروى في الأخبار الواردة في غزاة بدر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال :

ممن القوم ؟ فقال النبي : من ماء ، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول :

من ماء من ماء لينظر من أي بطون العرب يقال لها ماء فسار النبي لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وهذا من المغالطة المثلية لأنه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء ويجوز أن يكون المراد أن خلقتهم من ماء وحاشى النبي أن يكذب .

3- توكيد الضميرين :

وذلك في قوله تعالى " قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً " في قصة قتل الغلام وهذا بخلاف قصة السفينة فإنه قال فيها " أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً " والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى " أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ " وقال في الثانية " أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ " وإنما جيء بذلك للزيادة في مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة بعد مرة والوسم بعدم الصبر وهذا كما لو أتى الإنسان ما نهيته عنه فلمته وعنفته ثم أتى ذلك مرة ثانية أليس أنك تزيد في لومه وتعنيفه ؟ وكذلك فعل ها هنا فإنه قيل في الملامة أولا : " أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ " ثم قيل ثانيا :

"

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ " وهذا موضع يدق عن العثور عليه بالنظرة العجيلة ولا يمكن اكتناه حسنه إلا بعد التأمل العميق وهذا فن جليل القدر ، بعيد الغور ، فللضمائر أسرار لا يدركها إلا الملهمون والمبدعون وهي ليست مجرد ضمائر تذكر كما ترد في كتب النحو وستأتي في كتابنا هذا صور رائعة عنه تبين مدى قدر المبين وتساميه عن الانداد .

التوكيد بالضمائر في الشعر :

وسنورد لك هنا الآن نماذج من التوكيد بالضمائر الوارد في الشعر تذهل العقول فمن بديع ما استظرفناه قول أبي تمام :

لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الأوطار

فقوله " لا أنت أنت ولا الديار ديار " من المليح النادر لأنه هو هو والديار الديار وإنما مراده أن البواعث التي كانت تبعث على قبيل أنت منهم وأنت أنت ولو تأتى له ذلك الرأب صدع البيت ، ومع ولا الديار في عينه من الحسن تلك الديار . وقد حاول أبو الطيب أن ينسج على منوال أبي تمام فأسف ولم يلحق به إذ قال :

قبيل أنت أنت وأنت منهم وجدك بشر الملك الهمام

(380/480)

فقوله " أنت أنت " من توكيد الضميرين المشار إليهما وفائدته المبالغة في مدحه ولكنه أفسد على نفسه ما أراده لأن سبك البيت عار من الحسن وفيه تقديم وتأخير أفسداه أيضا لأنه كان من حقه أن يقول :

قبيل أنت منهم وأنت أنت ولو تأتّى له ذلك الرأب صدع البيت ، ومع ذلك يبقى دون بيت أبي تمام العذب الرشيق وهذا مرده إلى الذوق وهو الحكم في هذا الباب .

وروى صاحب الأغاني : أن عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة :

يا خير الفتيان أردد علي ما أخذته من إبلي فردها عليه وفيها فحلها فنازعه الفحل إلى الإبل فصرعه عمرو فقال له زياد : لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الإبل

لكنتم أنتم أنتم فقال عمرو له : لقد أعطيت قليلا وسمت جليلا ، وجررت على نفسك ويلا طويلا " فقوله : لكنتم أنتم أنتم ، أي أنتم الأشداء أو الشجعان أو ذوو النجدة والبأس إلا أن " أنتم " الثانية تخصيصا لهم بهذه الصفة دون غيرهم كأنه قال لكنتم أنتم الشجعان دون غيرهم ولو مدحهم بأي شيء مدحهم به من وصف البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الكلمة أعني " أنتم " الثانية .

4- الاستعارة المكنية :

في قوله تعالى : " فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ " فقد استعيرت الارادة للمشارفة والمداناة ويجوز أن يكون مجازا عقليا وهذا الخلاف مطرد في كل نسبة إلى ما لا يعقل كقول عمرو بن أبي ربيعة :

أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

(381/480)

و سنبسط لك القول في هذا البيت بسطا شافيا لتتأكد من حقيقة هذا الكلام فالإباء المنع الاختياري وقد شبه الروادف والثدي لكبرها بمن يصح منه ذلك والكلام يحتمل إرادة التشبيه فهو مجاز علاقته المشابهة فيكون استعارة مكنية تبعية وقد لا يحتمل إرادة التشبيه

ويكون عبارة عن مجرد إسناد الإباء إليها للدلالة على كبرها فيكون مجازا عقليا وفي الكلام أيضا لف ونشر مشوش لأن مس البطون يرجع للثدي ومس الظهور يرجع للروادف ولا بد لإظهار معنى البيت تماما من إيراد البيت الثاني وهو :

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبّهن حاسدة وهجن غيورا

يقال تناوح الجبلان أي تقابلا فالمراد بالتناوح التقابل بحيث يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضها من خلفها فتظهر روادفها ونهودها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضموره فتنبه الحاسدة لها وتهيج الغيور لكراهية ذلك من الرياح. ومن هذا الضرب قول الحسن بن هانىء أبي نواس :

فاستنطق العود قد طال السكوت به لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

شبه العود بانسان على طريق الاستعارة المكنية ويصح أن يكون مجازا عقليا على نحو ما قدمنا لك.

وقول حسان بن ثابت :

ان دهرا يلف شملي بجمل لزمان يهمّ بالإحسان

وجمل اسم محبوبته ويروى بعدي يقول : إن الدهر الذي يجمع شملي بمحبوبتي لدهر يهمّ بالإحسان على طريق المكنية ولفظ الهم تخييل ويحتمل أن إسناد الهم له مجاز عقلي كإسناد اللف.

5- التقديم والتأخير :

ظاهر الكلام يقتضي تأخير قوله " فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا " عن قوله :

" وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً " لأن إرادة العيب مسببة عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب والجواب على ذلك أنه سبحانه قدم المسبب على السبب للعناية به ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها للمساكين .

(382/480)

وفي الآية والتي بعدها أيضا أسرار عجيبة أخرى وذلك بمخالفة الضمائر فيهما فقد أسند في الأولى الفعل إلى ضميره خاصة بقوله " فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا " وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله " فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا " و " فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا " ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع اللّه تعالى لأن المراد أن ثمة عيبا فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك أمرنا بكذا

أو دبرنا كذا وإنما يعنون بأمر الملك أو دبر ويؤيد ذلك قوله في الثالثة " فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا " فلم تأت الضمائر على نمط واحد وهذا من أرقى الأساليب وأحفلها بالمعاني

الخصبة التي لا يمجها السمع وتحتويها الآذان .

الفوائد :

1- الأفعال التي تنصب مفاعيل ثلاثة هي أعلم وأرى وأنبأ ونبأ وأخبر وخبر وحدث والأصل في هذه الأفعال أعلم وأرى اللذان كان أصلهما قبل دخول همزة النقل عليهما علم ورأى المتعديان لاثنين وأما الخمسة الباقية فليس لها ثلاثي يستعمل في العلم إلا خبر ولكنها ألحقت في بعض استعمالاتها بأعلم المتعدي إلى ثلاثة لأن الإنباء والتنبيء والإخبار والتخبير والتحديث بمعنى الإعلام ، هذا وتستعمل الخمسة متعدية إلى واحد بأنفسها والى مضمون الثاني والثالث أو مضمون الثالث وحده بالباء نحو حدثتك بخروج زيد وعليه يحمل قوله تعالى " سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً " وسيأتي مزيد بحث عن هذه الأفعال في موضعه إن شاء اللّه .

2- وراء :

هو لفظ يطلق على الخلف وعلى الأمام ومعناها هنا أمامهم وكون وراءهم بمعنى أمامهم قول قتادة وأبي عبيدة وابن السكيت والزجاج ولا خلاف عند أهل اللغة أن وراء يجوز

بمعنى قدام وجاء في التنزيل والشعر ، قال اللّه تعالى : " مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ " وقال " وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ " وقال " وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ " وقال لبيد :

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا يحنى عليها الأصابع

وقال سوار بن المضرب السعدي :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

وقال آخر :

أليس ورائي أن أدب على العصا فتأمن أعداء وتسأمني أهلي

وقال الفراء : " لا يجوز أن يقال للرجل بين يديك هو وراءك وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي والأيام والدهر تقول وراءك برد شديد وبين يديك برد شديد جاز الوجهان لأن البرد إذا لحقك صار من ورائك وكأنك إذا بلغته صار بين يديك " قال : " إنما جاز هذا في اللغة لأن ما بين يديك وما قدامك إذا توارى عنك فقد صار وراءك " وأكثر أهل اللغة على أن وراء من الأضداد .

[سورة الكهف (18) : الآيات 83 إلى 88]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ

حُسْناً (86) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (87)
وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88)

اللغة :

(384/480)

(ذِي الْقَرْنَيْنِ) : اضطربت الأقوال فيه كثيرا فبينما يزعم مفسرو القرآن أنه غير الإسكندر المقدوني الكبير يقولون انه هو الذي بنى الاسكندرية مع أن الإسكندر الكبير هو بانيها ومعنى ذي القرنين انه لقب لقب به لأنه طاف قرني الدنيا يعني جانبيها شرقيها وغربيها أو لأنه كان له قرنان أي ضفيرتان ، والعرب تسمي الذؤابة قرنا وجمعها قرون . قال مجنون ليلى لزوجها صبيحة عرسه :

بعيشك هل ضممت إليك ليلى قبيل الفجر أو قبلت فاها

وهل رفّت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة في شذاها

وقيل كان على رأسه ما يشبه القرنين ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لأنه ينطح أقرانه واختلف في زمنه ومكانه اختلافا يمكن الرجوع اليه في المطولات لأن هذا البحث غير داخل في نطاق كتابنا .

(حَمِئَةٍ) : أي كثيرة السواد من الحمأة أي الطين وفي المصباح والحمأة بسكون الميم طين أسود وقد حمئت البئر حمأ من باب تعب صار فيها الحمأة والعين الحمئة ماء يجري على الطين الأسود ، وقد

فرىء عين حامية أي حارة ويروى أن ابن عباس قرأ حمئة وكان عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله ابن عمر كيف تقرأ ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب فقال : في ماء وطين فوافق قول ابن عباس ، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع :

قد كان ذو القرنين جدي مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد

بلغ المغارب والمشارق يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى مغار الشمس عند مآبها في عين ذي خلب وثأط حرمد

(385/480)

و الخلب بضمتين الحمأة وهي الطين والثأط الحمأة المختلطة بالماء فتزيد رطوبة وتفسد والحرمد الطين الأسود . مدح تبع ذا القرنين ثم قال انه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها يبتغي من اللّه أسبابا توصله لمقصده فرأى محل غبار الشمس عند مآبها أي

رجوعها وفي عين متعلق بمغار وحال منه وقد أوّل أبو علي الجبائي ذلك تأويلا طريفا بأن ذلك على سبيل التخييل كما أن من ير الشاطئ الغربي من البحر المتسع ير الشمس تغرب فيه وفي الحقيقة تغرب في ظلمة وراء الأرض لدورانها كما يقرر ذلك بدائه العلم .

الاعراب :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ) الواو استئنافية ويسألونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به وعن ذي القرنين متعلقان بيسألونك .

(قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً) جملة سأتلو مقول القول وعليكم متعلقان بأتلو ومنه متعلقان بمحذوف حال لأنه كان صفة لذكر أو تقدم عليه وذكرا مفعول به . (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِ

ف سيروا فإما حاجة تقضيانها منها وإما مقيل صالح وصديق

أو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف أي إما أن تفعل التعذيب وإما أن تتخذ عطف على إما أن تعذب وفيهم متعلقان بتتخذ أو مفعول به ثان لتتخذ وحسنا مفعول به أول أي أمرا ذا حسن .

(

قالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ) أما حرف شرط وتفصيل ومن ظلم مبتدأ وجملة ظلم

صلة فسوف الفاء رابطة وسوف حرف استقبال ونعذبه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول والجملة خبر من .

(386/480)

(ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً) ثم حرف عطف وتراخ ويرد فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو والى ربه متعلقان بيرد فيعذبه الفاء عاطفة ويعذبه فعل وفاعل ومفعول به وعذابا مفعول مطلق ونكرا صفة . (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى) وأما عطف على أما السابقة ومن مبتدأ وآمن صلة وعمل صالحا فعل وفاعل مستتر ومفعول به أو صالحا صفة لمفعول مطلق محذوف أي عملا صالحا فله الفاء رابطة وله خبر مقدم وجزاء تمييز وأعربها أبو حيان مصدرا في موضع الحال أي مجازى كقولك في الدار قائما زيد وقيل انتصب على المصدر أي يجزى جزاء ، والحسنى مبتدأ مؤخر أي فله الفعلة الحسنى جزاء . قال الفراء ونصب جزاء على التفسير أي لجهة النسبة أي نسبة الخبر المقدم وهو الجار والمجرور إلى المبتدأ المؤخر وهو الحسنى والتقدير فالفعلة الحسنى كائنة له من جزاء الجزاء (وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً) وسنقول فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن وله متعلقان بنقول ومن أمرنا متعلقان

بمحذوف حال لأنه كان صفة ليسرا وتقدم عليه ويسرا مفعول به أو مفعول مطلق أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر .

الفوائد :

بحث طريف يتعلق ب " في " :

ذهب ابن قتيبة إلى أن " في " بمعنى " عند " لأنها قد ترد بمعنى " في " وبمعنى " مع " قال الشاعر :

حتى إذا ألقت يدا في كافر معناه عند كافر ، وقال الشاعر :

وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان معناه ومع الشر ، وتكون في الآية بمعنى على كقوله تعالى :

"

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ " أي على جذوع النخل وقال عنترة :

بطل كأن ثيابه في سرحة أي على سرحة ، وكما أن في تقع موقع على كذلك تعكس القضية كقول الشاعر :

ولقد سريت على الزمان بمعشر أي في الظلام .

هذا ونقول إن الخطاب على حكم الحس في رأي العين لأن من وقف على شاطىء البحر المحيط أو قريبا من جبل عال رأى الشمس عند الغروب كأنها تدلت في نفس البحر أو خلف الجبل ، قال اللّه تعالى :

" حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ " أي وراء الجبل ولو لا أن اللفظ جاء على حكم الحسّ في الظاهر لما قال اللّه تعالى : " وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً " ومن المعلوم عقلا أن القوم لا يجلسون في قرن الشمس ولا هم عندها ولكن لما كان ذو القرنين قد توغل في جوب الأرض حتى انتهى إلى البحر المحيط من جهة الغرب كان الناظر يخيل اليه أن الشمس تغرب هناك وإذن فالخطاب ورد على حكم الحسّ في الظاهر وما أكثر ما تكذب الحواس وله مباحث تؤخذ من مظانها وليس من شرطنا البحث في هذه الموضوعات على جلالتها ويروي التاريخ أن لابن الهيثم كتابا جليل القدر يقع في سبعة مجلدات في هذا العلم ولكنه فقد مع ما فقد من تراثنا العربي .

هذا وقد تظرف الشعراء فأشاروا إلى خداع الحس ، قال أبو العلاء المعري :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وقال الخفاجي :

ولا ينال كسوف الشمس طلعتها وإنما هو فيما يزعم البصر

[سورة الكهف (18) : الآيات 89 إلى 98]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (89) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (90) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (92) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (93)

(388/480)

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (94) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (96) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً (98)

اللغة :

(بَيْنَ السَّدَّيْنِ) : بين الجبلين يروى أن ذا القرنين سدّ ما بينهما ، وإطلاق السد على الجبل لأنه سد في الجملة ، وفي القاموس : السدّ الجبل والحاجز ، أو لكونه ملاصقا للسد فهو مجاز

بعلاقة المجاورة والقول الثاني هو المناسب لما قبله والتفاصيل في المطولات .

(يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) : اسمان أعجميان بدليل منع الصرف فيهما للعلمية والعجمة وقيل بل هما عربيان واختلف في اشتقاقهما فقيل من

أجيج النار وهو التهابها وشدة توقدها وقيل من الأوجة وهي الاختلاط أو شدة الحر وقيل من الأوج وهو سرعة العدو ، وإنما منعا من الصرف للعلمية والتأنيث وكلاهما من أج الظليم إذا أسرع أو من أجت النار إذا التهبت والأقوال في حقيقتهما كثيرة يمكن الرجوع إليها في المطولات .

(خَرْجاً) : جعلا من المال أو الخراج بتثليث الخاء وقد قرىء بها ومنه " الخراج بالضمان " ثم سمي ما يأخذه السلطان خراجا ويقال للجزية الخراج فيقال أدى خراج أرضه ، ومن المجاز خرج فلان في العلم والصناعة خروجا إذا نبغ وخرّجه فلان فتخرج وهو خريج المدرسة ، قال زهير يصف الخيل :

(389/480)

وخرّجها صوارخ كل يوم فقد جعلت عرائكها تلين

أي وأدبها كما يخرّج المتعلم .

(رَدْماً) : حاجزا حصينا موثقا ، والردم أكبر من السدّ من قولهم ثوب مردم . ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

المتردم الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي والتردم أيضا مثل الترنم وهو ترجيح الصوت مع تحزين ومعنى قول عنترة : لم يترك الأول للآخر شيئا أي سبقني من الشعراء قوم لم يتركوا لي مسترقعا أرقعه ومستصلحا أستصلحه .

(زُبَرَ الْحَدِيدِ) : جمع زبرة كغرفة أي قطعة .

(الصَّدَفَيْنِ) بفتحتين ، وضمتين أيضا ، وضم الأول وسكون الثاني ، وقد قرىء بالثلاث جميعا مثنى صدف بفتحتين وصدف بضمتين

وصدف بضم الأول وفتح الثاني وبالعكس : منقطع الجبل أو ناصيته وقد سميا بذلك لأنهما يتقابلان .

(قِطْراً) بكسر فسكون النحاس المذاب على الحديد المحمى .

(يَظْهَرُوهُ) يعلوا ظهره لارتفاعه وانملاسه .

(نَقْباً) خرقا لصلابته وثخانته .

(دَكَّاءَ) بالمد أرض مستوية من قولهم ناقة دكاء أي لا سنام لها ، ذللت بالدك وقرىء دكا مصدر دك .

الاعراب :

)

(390/480)

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً) عطف على نظائرها وقد تقدم إعرابها . (حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً) حتى حرف غاية وجر وإذا ظرف مستقبل وجملة بلغ مضافة إلى الظرف ومطلع بكسر اللام مكان الطلوع وسيأتي القول فيه في باب الفوائد وجملة وجدها لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة تطلع مفعول ثان لوجدها وعلى قوم متعلقان بتطلع وجملة لم نجعل صفة لقوم ولهم في موضع نصب مفعول ثان لنجعل ومن دونها حال وسترا مفعول نجعل الأول لأن أرضهم لا أبنية فيها بل فيها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها وإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم وقيل المراد بالستر اللباس فهم عراة أبدا . (كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً) كذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك وقد الواو عاطفة أو حالية وقد حرف تحقيق وأحطنا فعل وفاعل وبما متعلقان بأحطنا ولديه صلة الموصول وخبرا تمييز أو مفعول به وقد تقدم . (ثُمَّ

أَتْبَعَ سَبَباً) تقدم إعرابه . (حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) بين السدين : انتصب بين على أنه مفعول به مبلوغ

(391/480)

كما انجر على الاضافة في قوله تعالى " هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " وكما ارتفع في قوله " لقد تقطع بينكم " لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفا وسيأتي تفصيل ذلك في باب الفوائد وجملة وجد لا محل لها لأنها جواب إذا ومن دونهما مفعول وجد الثاني وقوما مفعول وجد الأول وجملة لا يكادون صفة لقوما والواو اسم يكاد وجملة يفقهون خبرها وقولا مفعول به . (قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) يا أداة نداء وذا القرنين منادى مضاف وإن واسمها ومأجوج عطف على يأجوج ومفسدون خبر إن وفي الأرض متعلقان بمفسدون . (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) الفاء عاطفة وهل خرف استفهام ونجعل فعل مضارع وفاعل مستتر ولك مفعول نجعل الثاني وخرجا مفعول نجعل الأول وعلى ومدخولها متعلقان بمحذوف صفة لخرجا أي قائما على هذا الشرط فعلى هنا على بابها أي للاستعلاء وبيننا الظرف متعلق بمحذوف مفعول تجعل الثاني وبينهم عطف على بيننا وسدا مفعول تجعل الأول .

(قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) ما اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة مكني صلة وفيه متعلقان بمكني وربي فاعل مكني وخير خبر المبتدأ . (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً) الفاء الفصيحة وأعينوني فعل أمر وفاعل ومفعول به وبقوة متعلقان بأعينوني واجعل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وبينكم الظرف مفعول اجعل الثاني وبينهم عطف عليه وردما مفعول أجعل الاول ومعنى أعينوني بقوة أي بفعلة وصنّاع يحسنون البناء وبآلة وسيأتي تفسيرها .

)

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) آتوني فعل أمر وفاعل ومفعول به أول وزبر الحديد مفعول به ثان وحتى حرف غاية وجر وإذا ظرف مستقبل وساوى فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو

(392/480)

و لا بد من تقدير محذوف للغاية أي فجاءوه بما طلب فبنى ، وجعل بين الصدفين الفحم والحطب حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما والظرف متعلق بساوى (قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً) جملة انفخوا مقول القول وجملة قال لا محل لها لأنها

جواب إذا وحتى غاية للنفخ وجملة جعله نارا مضافة إلى الظرف ونارا مفعول جعل الثاني وجملة آتوني مقول القول وأفرغ مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله أنا وعليه متعلقان بأفرغ وقطرا مفعول به لأفرغ والتقدير وآتوني قطرا أفرغ عليه قطرا فحذف الأول لدلالة الثاني عليه والمسألة من باب التنازع ، فقد أعمل الثاني ولو أعمل الأول لقالوا آتوني أفرغه عليه قطرا إذ التقدير آتوني قطرا أفرغه عليه ومثله قوله تعالى : " هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ " أعمل الثاني ولو أعمل الأول لقال " هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ " وسيأتي القول فيه في حينه .

)

فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً) الفاء عاطفة على محذوف أي فجاء قوم يأجوج بعد أن أنهى بناءه وتسويته يحاولون أن يعلوه أو ينقبوه فما اسطاعوا ، واسطاعوا فعل وفاعل وأن وما بعدها مصدر مؤول في محل نصب مفعول اسطاعوا ، وما استطاعوا عطف على فما اسطاعوا وله متعلقان بنقبا ونقبا مفعول به . (قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) جملة هذا مقول القول وهذا مبتدأ ورحمة خبر والاشارة إلى السد لأنه مانع من خروجهم ومن ربي صفة لرحمة ، فاذا الفاء استئنافية وإذا ظرف مستقبل وجملة جاء وعد ربي مضافة للظرف وجملة جعله لا محل لها ودكاء مفعول به ثان لجعل وكان الواو عاطفة أو حالية وكان وعد ربي كان واسمها وحقا خبرها .

الفوائد :

1 – أسماء الزمان والمكان تفيد زمان الفعل ومكانه

(393/480)

و تصاغ من الثلاثي المجرد على وزن مفعل بفتح العين وعلى وزن مفعل بكسرها فوزن مفعل بفتح العين للثلاثي المجرد المأخوذ من يفعل المضموم العين أو يفعل المفتوح العين في المضارع أو من الفعل المعتل الآخر مطلقا فالأول مثل مكتب ومحضر ومحل من حل بالمكان والثاني مثل ملعب ومزرع والثالث مثل ملهى ومثوى وموقى وشذت ألفاظ جاءت بالكسر مع أنها مبنية من مضموم العين في المضارع وهي أحد عشر وهي المطلع والمنسك لمكان النسك أي العبادة والمجزر لمكان جزر الإبل وهو نحرها يقال جزرت الجزور أجزرها بالضم إذا نحرتها وجلدتها والمنبت لموضع النبات والمشرق والمغرب لمكان الشروق والغروب والمفرق لوسط الرأس لأنه موضع فرق الشعر وكذلك مفرق الطريق للموضع الذي يتشعب منه طريق آخر والمسكن موضع السكنى والمسقط موضع السقوط يقال هذا مسقط رأسي أي حيث ولدت وسقط رأسي والمرفق موضع الرفق والمسجد وهو اسم للبيت وليس المراد موضع السجود فقد كسروا هذه الألفاظ والقياس فيها الفتح .

ووزن مفعل بكسر العين للثلاثي المجرد المأخوذ من يفعل الصحيح المكسور العين أو من المثال الواوي فالأول مثل مجلس ومحبس ومضرب ومبيت ومضيف والثاني مثل مورد وموعد .

وقد تدخل تاء التأنيث على أسماء المكان كالمزلة بفتح الزاي وكسرها فالمفتوح من باب فرح والمكسور من باب ضرب وهي اسم مكان من زل إذا سقط والمظنة لموضع الظن ومألفه وهو بفتح الظاء لأنه من ظن يظن بالضم والمقبرة لموضع القبر والمعبرة لموضع الشط

(394/480)

المهيأ للعبور والمشرقة مثلثة الراء والمدرجة الطريق من درج يدرج دروجا إذا مشى والموقعة بفتح القاف وكسرها الموضع الذي يقع عليه والمشربة بفتح الراء وضمها أي موضع الشرب وتطلق أيضا على الغرفة لأنهم كانوا يشربون فيها وهي أيضا الأرض اللينة الدائمة النبات وإذا كثر الشيء بالمكان قيل فيه مفعلة بالفتح فيبنى اسم المكان من الأسماء مثل أرض مسبعة أي كثيرة السباع ومذأبة أي كثيرة الذئاب ومأسدة أي كثيرة الأسود ومبطخة أي كثيرة البطيخ ومقثأة أي كثيرة القثاء ومحياة أي كثيرة الحيات ومفعاة أي كثيرة الأفاعي ومدرجة أي كثيرة الدراج بضم الدال وتشديد الراء وهو طائر جميل ملون الريش ويطلق

على الذكر والأنثى .

أما وزنهما مما فوق الثلاثي فبكون على وزن المضارع بضم الميم المبدلة من حرف المضارعة وفتح ما قبل الآخر نحو مجتمع ومنتدى ومنتظر ومستشفى فهما يشبهان اسم المفعول والمصدر الميمي والتفرقة بينها بالذوق والقرينة .

2- الظرف :

الظرف قسمان : متصرف وغير متصرف :

فالمتصرف ما يستعمل ظرفا وغير ظرف فهو يفارق الظرفية إلى حال لا تشبهها كأن يستعمل مبتدأ أو خبرا أو فاعلا أو مفعولا به أو نحو ذلك مثل شهر ويوم وسنة وليل .

والظرف غير المتصرف ما يلازم النصب على الظرفية فلا يستعمل إلا ظرفا منصوبا مثل قط وعوض وبينا وبينما وإذا وأيان وأنى وذا صباح وذات ليلة ومنه ما ركب من الظروف مثل صباح مساء وليل ليل ومنه ما يلزم النصب على الظرفية أو الجر بمن نحو قبل وبعد والجهات الست ولدي ولدن وعند ومتى وأين وهنا وثم وحيث والآن وتفصيل ذلك في المطولات .

3- استطاع واسطاع :

قالوا : الأصل في اسطاع استطاع وان التاء حذفت تخفيفا وفتحت همزة الوصل وقطعت وهو قول الفراء وفي استطاع لغات : اسطاع يسطيع بفتح الهمزة في الماضي وضم حرف المضارعة فهو من أطاع يطيع وأصله يطوع بقلب الفتحة من الواو إلى الطاء في أطوع إعلالا له حملا على الماضي فصار أطاع ثم دخلت السين كالعوض من عين الفعل هذا مذهب سيبويه واللغة الثانية استطاع يستطيع بكسر الهمزة في الماضي ووصلها وفتح حرف المضارعة وهو استفعل نحو استقام واستعان .

[سورة الكهف (18) : الآيات 99 إلى 106]

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99) وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106)

اللغة :

(يَمُوجُ) : يختلط .

(الصُّورِ) : القرن ينفخ فيه والبوق .

الاعراب :

)

(396/480)

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) وتركنا فعل وفاعل وبعضهم مفعول به ويومئذ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بيموج وجملة يموج في بعض مفعول به ثان والتنوين في إذ عوض عن جملة كما تقدم ، وقد جعل بعضهم ترك متعديا إلى واحد فتكون جملة يموج في محل نصب على الحال . (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً) ونفخ فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر وفي الصور متعلقان بنفخ فجمعناهم الفاء عاطفة وجمعناهم فعل وفاعل ومفعول به وجمعا مفعول مطلق .

(وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً) وعرضنا عطف على ما تقدم وجهنم مفعول به ويومئذ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بعرضنا وللكافرين متعلقان بعرضنا أيضا وعرضا مفعول مطلق . (الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) الذين

صفة للكافرين أو

بدل منهم وجملة كانت صلة وأعينهم اسم كانت وفي غطاء خبر كانت وعن ذكري صفة لغطاء وكانوا كان واسمها وجملة لا يستطيعون سمعا خبرها . (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والذين فاعل وجملة كفروا صلة وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي حسب ومن دوني مفعول ثان ليتخذوا وأولياء مفعول به أول . (إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا) إنا إن واسمها وجملة أعتدنا خبر وجهنم مفعول به وللكافرين حال لأنه كان صفة لنزلا ونزلا حال أي مغدة لهم كالنزل يعد للضيف .

)

(397/480)

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا) جملة هل ننبئكم مقول القول وبالأخسرين دخلت الباء على مضمون المفعولين الثاني والثالث وأعمالا تمييز وجمع التمييز وهو أصيل في الافراد لمشاكلة المميز وللايذان بأن خسرانهم إنما كان من جهات شتى لا من جهة واحدة . (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) الذين صفة للأخسرين

أو بدل ويرجح أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف كأنه جواب لسؤال سائل ومن هم الأخسرون أعمالا وجملة ضل صلة وسعيهم فاعل وفي الحياة متعلقان بضل والواو حالية وهم مبتدأ وجملة يحسبون خبر وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي يحسبون وجملة يحسنون خبر أنهم وصنعا مفعول ويجوز أن يعرب تمييزا وجملة وهم يحسبون حال من فاعل ضل .

(أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ) أولئك اسم اشارة مبتدأ والذين خبره وجملة كفروا صلة وبآيات ربهم جار ومجرور متعلقان بكفروا ولقائه عطف على آيات فحبطت عطف على كفروا وأعمالهم فاعل حبطت . (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً) فلا نقيم عطف على ما تقدم والفاعل مستتر تقديره نحن ولهم متعلقان بنقيم ويوم القيامة متعلق بنقيم أيضا ووزنا مفعول به أي

(398/480)

فلا يكون لهم عندنا وزن أو مقدار . (ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً) ذلك مبتدأ وجزاؤهم خبر وجهنم بدل أو عطف بيان لقوله جزاؤهم ويجوز أن يعرب ذلك خبرا لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك وجزاؤهم جهنم مبتدأ وخبر فتكون كل من الجملتين جملة برأسها ويجوز أن يعرب ذلك مبتدأ وجزاؤهم مبتدأ ثان وجهنم خبر

جزاؤهم والجملة خبر المبتدأ الأول وهو ذلك وهذه الاوجه متساوية الرجحان ، وبما كفروا يجوز أن يتعلق بمحذوف خبر ذلك في أحد وجوهه أو بمحذوف حال أي بسبب كفرهم وما مصدرية واتخذوا عطف على كفروا وآياتي مفعول به أول ورسلي عطف على آياتي وهزوا مفعول به ثان .

البلاغة :

1- الاستعارة المكنية :

في قوله تعالى " وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ " استعارة محسوس لمحسوس كما قسمنا أنواع الاستعارة فإن أصل الموج تحريك المياه فاستعير لحركة يأجوج ومأجوج لاشتراك المستعار والمستعار له في الحركة وهي استعارة مكنية تبعية أوهم الخلق يموجون .

2- جناس التصحيف :

وفي قوله تعالى " وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً " جناس التصحيف وهو أن يكون النقط فيه فارقا بين الكلمتين على حد قول البحتري :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

الجناس وأقسامه :

الجناس ويقال له التجنيس والمجانسة والتجانس وكلها ألفاظ مشتقة من الجنس ، وحدّه في الاصطلاح تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى وفائدته أن يميل بالسامع إلى

الإصغاء فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها ولأن اللفظ المذكور إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه .

وفيما يلي أقسام الجناس باختصار :

1 - الجناس المركب : وهو أن يتألف من ركنين وهو قسمان :

آ - أن يتشابه ركناه لفظا لا خطا كقول العماد الاصفهاني وكان يسير مع القاضي الفاضل في موكب السلطان وقد ثار الغبار :

أما الغبار فإنه مما أثارته السنابك

والجوّ منه مظلم لكن أنار به السنابك

يا دهر لي عبد الرحيم فلست أخشى مسّ نابك

ويحكى أنه لما كان المعتمد بن عباد في سجن أغمات وطال عليه الحال قالت له جاريته لقد هنّا هنا فأنشد على قولها :

قالت لقد هنّا هنا مولاي أين جا هنا

قلت لها : إلهنا صيرنا إلى هنا

ب- أن يتشابه ركناه لفظا وخطا ومن أمثلته :

عضنا الدهر بنا به ليت ما حل بنا به

ولأبي الفتح البستي :

إذا لم يكن ملك ذا هبه فدعه فدولته ذاهبه

2- الجناس الملفق :

وحدّه أن يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين كقول بعضهم :

رعى اللّه دهرا بكم قد مضى بلغت الأماني به في أمان

وأيام أنس تولت لنا بأحلام عان بأحلى معان

3- الجناس المعنوي :

وهو مجرد صناعة مضنية وقد يأتي حسنا ، وهو أن يضمر المتكلم ركني التجنيس ويذكر ألفاظا مرادفة لأحدهما فيدل المظهر على المضمر وأحسن ما سمعناه منه قول أبي بكر بن عبدون وقد اصطبح بخمرة وترك بعضها إلى الليل فصارت خلا :

ألا في سبيل اللّه كأس مدامة أتتنا بطعم عهده غير ثابت

حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة وأضحت كجسم الشنفري بعد ثابت

فصح معه جناسان مضمران في صدر البيت وعجزه لأن بنت بسطام بن قيس كان اسمها

الصهباء والشنفري اسمه ثابت وجعل جسمه خلا في مرثية خاله تأبط شرا حيث قال :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل

(400/480)

و الخل المهزول ، وأما الجناس المضمر فهو بنت بسطام التي هي الصهباء وأما الذي في العجز فهو جسم ثابت الشنفري الذي هو الخل والمعنى أن الخمر التي حكت سميتها بنت بسطام صباحا وحكت جسم الشنفري مساء أي كانت صهباء فصارت خلا فظهر من كناية اللفظ جناسان مضمران الصهباء وهي الخمرة والصهباء وهي بنت بسطام وخل وهو المهزول وخل وهو ما يؤتدم به .

4- الجناس المطرف :

وهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفا في طرفه الأول كقول عبد اللّه بن المعتز :

زارني والدجى أحمّ الحواشي والثريا في الغرب كالعقود

وكأن الهلال طوق عروس بات يجلى على غلائل سود

ليلة الوصل ساعدينا بطول طول اللّه فيك غيظ الحسود

فإن قوله الحسود زاد حرفا على سود .

5- الجناس المحرف :

وهو ما اتفق ركناه في أعداد الحروف وترتيبها واختلفا في هيئة الحروف فقط ، سمي بذلك لانحراف هيئة عن هيئة الآخر قال أبو العلاء :

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

6- الجناس اللفظي :

وهو ما تماثل ركناه لفظا واختلف أحد ركنيه عن الآخر خطا ،

قال أبو تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وقال البحتري :

من كل ساجي الطرف أغيد أجيد ومهفهف الكشحين أحوى أحور

7- الجناس المطلق :

وهو ما اختلف ركناه في الحركات والحروف فاشتبه بالمشتق الراجع معناه إلى أصل واحد وليس كذلك وهو جميل غير متكلف ، ومنه قول أبي فراس :

سكرت من لحظه لا من مدامته ومال بالنوم عن عيني تمايله

فما السلاف دهتني بل سوالفه ولا الشمول ازدهتني بل شمايله

ألوى بعزمي أصداغا لوين له وغال صبري بما تحوي غلايله

وقد ولع أبو فراس بهذا اللون من الجناس فقال :

عذيري من طوالع في عذاري ومن برد الشباب المستعار

وثوب كنت ألبسه أنيق أجرّر ذيله بين الج

واري وما زادت على العشرين سني فما عذر المشيب إلى عذاري

(401/480)

و منه الحديث النبوي وهو " الظلم ظلمات يوم القيامة " .

8- الجناس المذيل :

وهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر بحرف أو أكثر في طرفه الأخير فكان له بمثابة الذيل

اللاحق بالثوب ، ومنه قول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

ولحسان بن ثابت منه :

وكنا متى يغز النبي قبيلة نصل جانبيها بالقنا والقنابل

9- الجناس اللاحق :

وهو ما أبدل من أحد ركنيه حرف واحد بغيره من غير مخرجه سواء كان الابدال في الأول

أو الوسط أو الآخر ، قال البحتري :

عجب الناس لاغترابي وفي الأط . . . . . راف تلقى منازل الأشراف

وقعودي عن التقلب والأرض لمثلي رحيبة الأ

كناف ليس عن ثروة بلغت مداها غير أني امرؤ كفاني كفافي

ولأبي فراس الحمداني :

تعس الحريص وقلّ ما يأتي به عوضا عن الإلحاح والإلحاف

إن الغني هو الغني بنفسه ولو انه عاري المناكب حافي

ما كلّ ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت فكل شيء كافي

10 - الجناس المصحف :

وقد تقدم عند الكلام على الآية ، ولأبي فراس فيه روائع ، استمع إلى هذه المقطوعة :

ما كنت مذ كنت إلا طوع خلاني ليست مؤاخذة الاخوان من شاني

يجني الخليل فأستحلي جنايته حتى أدل على عفوي واحساني

إذا خليلي لم تكثر إساءته فأين موقع إحساني وغف

راني يجني عليّ وأحنو صافحا أبدا لا شيء أحسن من حان على جاني

11 - الجناس التام :

وهو أن يتفق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها وهو قسمان :

آ- الجناس التام المتماثل : وهو أن يكون اللفظان من نوع واحد كاسمين أو فعلين أو حرفين كقوله تعالى " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ " .

وقول أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب

(402/480)

فجانس بين حد السيف والحد الفاصل بين الشيئين وهما اسمان ، وقد تفنن الشعراء فيه ولا سيما في عصور الانحطاط كقول الملك الصالح داود :

عيون من السحر المبين تبين لها عند تحريك الجفون سكون

تصول ببيض وهي سود فرندها ذبول فتور والجفون

جفون إذا أبصرت قلبا خليا من الهوى تقول له : كن مغرما فيكون

ب- وان كانا من نوعين كاسم وفعل أو اسم وحرف أو فعل وحرف سمي الجناس المستوفى كقول أبي الفضل الميكالي :

يا من يضيع عمره في اللهو أمسك واعلم بأنك ذاهب كذهاب أمسك

فجانس بين أمسك وهو فعل أمر وأمسك وهو اليوم الذي قبل يومك .

أبو تمام والتجنيس :

وقد بالغ أبو تمام في استعمال التجنيس وفيما يلي طائفة منها :

قال :

فأصبحت غرر الأيام مشرقة بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الأولى استعارة من غرر الوجه والغرر الثانية مأخوذة من غرة الشيء أكرمه . وقال

في قصيدته فتح عمورية :

عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الخصب

فالثغور جمع ثغر وهو واحد الأسنان ، وهو أيضا البلد الذي على تخوم العدو ، ثم قال فيها

:

كم أحرزت قضب الهندي مصلتة تهتز من قضب تهتز في كثب

بيض إذا انتفيت من حجبها رجعت أحق بالبيض أبدانا من الحجب

فالقضب السيوف ، والقضب القدود على حكم الاستعارة وكذلك البيض السيوف

والبيض النساء وهذا من نادر أبي تمام الذي لا يتعلق به أحد .

وقد أكثر أبو تمام من التجنيس في شعره فمنه ما أغرب فيه وأحسن ومنه ما أتى مستثقلا

نابيا كقوله :

قرّت بقرّان عين الدين واشترت بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

فجانس بين قرت من قرت العين أي بردت سرورا وقران اسم مكان واشترت : انشقت والأشترين اسم مكان أيضا واصطلم : قطع من أصله .

وأقبح من ذلك قوله :

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت سلام سلمى ومهما أورق السلم

(403/480)

جناس البحتري : أما البحتري فلم يسف إلى الحضيض الذي أسف إليه أبو تمام ولم يأت بالتجنيس إلا جميلا مطبوعا غير متكلف كقوله :

إذا العين راحت وهي عين على الهوى فليس بسرّ ما تسر الأضالع

فالعين الجاسوس والعين معروفة .

وما أجمل قول أبي العلاء المعري :

لم يبق غيرك إنسانا يلاذ به فلا برحت لعين الدهر إنسانا

ولأبي تمام تجنيس متكرر في البيت الواحد قال :

ليالينا بالرقمتين وأهلنا سقى العهد منك العهد والعهد والعهد

فالعهد الأول المسقى هو الوقت والعهد الثاني هو الحفاظ من قولهم فلان ما له عهد ،

والعهد الثالث الوصية من قولهم عهد فلان إلى فلان وعهدت اليه أي وصاني وصيته ، والعهد الرابع : المطر وجمعه عهاد ، قال ابن رشيق : " استثقل قوم هذا التجنيس وحق لهم " .

الفوائد :

1 - أفعال التصيير هي التي تدل على التحويل والانتقال من حالة إلى أخرى وهي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر هكذا قال النحاة واعترض بعضهم ذلك بقوله ان معمولي هذه الأفعال متغايران

(404/480)

مفهوما وخارجا فلا يصح أن يدعى كونهما مبتدأ وخبرا لوجود اتحادهما خارجا يبين لك ذلك انك تقول صيرت الفقير غنيا والمعدوم موجودا ولا يخفى أن صدق أحدهما على الآخر ممتنع ويجاب بأن نحو الفقير غني صحيح أي الفقير فيما مضى تجدد له الغنى وكذا المعدوم موجود إذ الوصف العنواني لا يشترط وجوده دائما بل يكفي وجوده في بعض الأوقات . وقال الشهابي القاسمي : ويمكن أن يجاب عن البحث بأن أريد أن أفعال التصيير لا يكون معمولاها متغايرين مفهوما وخارجا فهو ممنوع نحو قوله تعالى " وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ

يَمُوجُ فِي بَعْضٍ " فإن ترك هنا من أفعال التصيير مع صدق أحد مفعوليها على الآخر وإيجاده معه خارجا فإن المائج يصدق على بعضهم ويتحد معه خارجا وان أريد انه قد يكون معمولاها كذلك فمسلم ولا يضير لأن أفعال الباب لا يجب أن تدخل على المبتدأ والخبر بل قد تدخل على غيرهما .

2- اعلم أن المميز يكون واحدا ويكون جمعا فإذا وقع بعد عدد نحو عشرين وثلاثين ونحوهما لم يكن المميز إلا واحدا نحو قولك :

عندي عشرون ثوبا وثلاثون عمامة لأن العدد قد دل على الكمية ولم يبق بنا حاجة إلا إلى بيان نوع ذلك المبلغ وكان ذلك مما يحصل بالواحد وهو أخف وأما إذا وقع مفسرا لغير عدد نحو : هذا أفره منك عبدا وخير منك عملا جاز الافراد والجمع لاحتمال أن يكون له عبد واحد وعبيد فاذا قلت : هو أفره منك عبيدا أو خير منك أعمالا دللت بلفظ الجمع على معنيين : النوع وانهم جماعة . قال اللّه تعالى :

" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا " ، فهم من ذلك النوع وانه كان من جهات شتى لا من جهة واحدة وإذا أفردت فهم منه النوع لا غير .

[سورة الكهف (18) : الآيات 107 إلى 110]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (108) قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

اللغة :

(الْفِرْدَوْسِ) : الجنة من الكرم خاصة ، وقيل : بل ما كان غالبها كرما . وقيل : كل ما حوط فهو فردوس والجمع فراديس ، وقال المبرد :

والفردوس فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والأغلب عليه من العنب ، وحكى الزجاج انها الأودية التي تنبت ضروبا من النبت ، واختلف فيه فقيل هو عربي وقيل أعجمي ، وقيل هو رومي ، وقيل فارسي ، وقيل سرياني ، وفي القاموس والتاج : الفردوس : بالكسر الأودية التي تنبت ضروبا من النبت والبستان يجمع كل ما يكون في البساتين تكون فيه الكروم وقد يؤنث ، عربية أو رومية نقلت أو سريانية ، وروضة دون اليمامة لبني يربوع ، وماء لبني تميم قرب الكوفة ، وقلعة فردوس بقزوين . إلى أن يقول والفردسة السعة وصدر مفردس واسع أو ومنه الفردوس قال شارحه قوله : أو ومنه الفردوس أي

اشتقاقه كما نقله ابن القطاع وهذا يؤيد كونه عربيا ويدل له أيضا قول حسان :

وان ثواب اللّه كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد

(حِوَلًا) : الحول التحول يقال حال من مكانه حولا كقولك عادني حبها عودا يعني لا مزيد عليه والحول بكسر الحاء وفتح الواو مصدر بمعنى التحول يقال حال عن مكانه حولا فهو مصدر كالعوج والصغر .

)

المداد) : اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به السراج من السليط ، ويقال السماد مداد الأرض .

(406/480)

الاعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) ان واسمها وجملة آمنوا صلة وجملة وعملوا الصالحات عطف على الصلة وجملة كانت خبر إن ولهم حال من نزلا لأنه كان صفة وتقدم عليه وجنات الفردوس اسم كانت ونزلا خبرها ويجوز أن يكون لهم الخبر ونزلا حال . (خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا) خالدين حال من الضمير في لهم وفيها متعلقان بخالدين وجملة لا يبغون حالية وعنها متعلقان بحولا وحولا مفعول يبغون . (قُلْ لَوْ

كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً) لو شرطية وكان البحر كان واسمها ومدادا خبرها ولكلمات صفة لمداد واللام واقعة في جواب لو وجملة نفد البحر جواب شرط غير جازم لا محل لها وقيل ظرف متعلق بنفد وأن تنفد المصدر مضاف لقبل

(407/480)

و كلمات ربي فاعل والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها أي لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجيء بمثله مددا ، ولو شرطية وجئنا فعل الشرط وجواب لو محذوف تقديره لنفد ولم تفرع ، وبمثله متعلقان بجئنا ومددا تمييز كقولك لي مثله رجلا وسيأتي مزيد بحث في الفوائد عن جواب لو . (قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) إنما كافة ومكفوفة وأنا مبتدأ وبشر خبر ومثلكم صفة . (يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ) جملة يوحى صفة لبشر وإليّ متعلقان بيوحى وانما كافة ومكفوفة ولكنها لم تخرج عن المصدرية فهي وما بعدها في محل رفع نائب فاعل وإلهكم مبتدأ وإله خبر وواحد صفة . (فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وكان فعل ماض ناقص واسمها يعود على من وجملة يرجو خبرها

ولقاء ربه مفعول به ، فليعمل الفاء رابطة لجواب الشرط واللام لام الأمر ويعمل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعملا مفعول مطلق أو مفعول به وصالحا صفة ولا يشرك لا ناهية ويشرك فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وبعبادة ربه متعلقان بيشرك وأحدا مفعول يشرك .

الفوائد :

جواب لو :

سيأتي المزيد من أبحاث لو في هذا الكتاب فهي من الأدوات التي يكثر فيها القول ولذلك جعلناه موزعا على الآيات ونتكلم الآن عن جواب لو فنقول : إن جوابها إما ماض معنى نحو نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه أو ماض وضعا وهذا إما مثبت فاقترانه باللام نحو " لو نشاء لجعلناه حطاما " أكثر من تركها نحو " لو نشاء جعلناه

(408/480)

أجاجا " وهذه اللام تسمى لام التسويف لأنها تدل على تأخير الجواب عن الشرط وتراخيه عنه كما أن إسقاطها يدل على التعجيل أي أن الجواب يقع عقيب الشرط من غير مهلة ولهذا دخلت في " لو نشاء لجعلناه حطاما " وحذفت في نحو " لو نشاء جعلناه أجاجا " أي لوقته في المزن من غير تأخير والفائدة في تأخير جعله حطاما وتقديم جعله أجاجا

تشديد العقوبة أي إذا استوى الزرع على سوقه وقويت به الاطماع جعلناه حطاما ، أو لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاما مما يحتمل انه من فعل الزراع ولهذا قال تعالى : " أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ " أو أنه من سقي الماء وجفافه من عدم السقي وحرارة الشمس أو مرور الأعصار فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك على الحقيقة وانه قادر على جعله حطاما في حال نموه لو شاء وإنزال الماء من السماء مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه غير اللّه تعالى وهذا من عيون النكت فاعرفه وتدبره .

وإما أن يكون جواب لو منفيا بما فالأكثر تجرده من اللام ويقل اقترانه بها فالاول نحو " ولو شاء ربك ما فعلوه " والثاني نحو قوله :

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

فأدخل اللام على ما النافية ولا تدخل اللام على ناف غيرها وقيل قد تجاب لو بجملة اسمية مقترنة باللام نحو " ولو انهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند اللّه خير " فاللام في لمثوبة جواب لو وان بين الماضي والاسم تشابها من هذه الجهة وقال الزمخشري وانما جعل جوابها جملة اسمية دلالة على استمرار مضمون الجزاء ورد أبو حيان هذا في البحر فقال اللام في لمثوبة لام الابتداء لا الواقعة في جواب لو وهو

أحد احتمالي الزمخشري وقد تقدم ذلك في البقرة أي فتكون الجملة مستأنفة أو جواب لقسم مقدم وقال ابن هشام في المغني : " والأولى أن تكون لام لمثوبة لام جواب قسم مقدر بدليل كون الجملة اسمية وأما القول بأنها لام جواب لو وأن الاسمية استعيرت مكان الفعلية تعسف " وأقول التعسف في تقديرها للقسم أكثر من جعل الجواب جملة اسمية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 619 : حـ 6 صـ 52 ﴾

(410/480)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/481)

الجزء الحادى والثمانون بعد الأربعمائة

(سورة مريم عليها السلام)

(4/481)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة مريم عليها السلام)

(5/481)

" فصل فى فضل السورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فيه أَحاديث ضعيفة ، منها : مَن قرأَ سورة مريم أَعطِى من الأَجر عشر حسنات ، بعدد مَن صَدَّق بزكرّيا ، ويحيى ، ومريمَ ، وموسى ، وعيسى وهارون ، وإِبراهيم ، وإِسحاق ، ويعقوب ، وإِسماعيل ، عشر حسنات ، وبعدد مَن دعا للهِ ولداً ، وبعدد مَن لم يَدْعُ له ولداً ، ويعطى بعددهم حسناتِ ودرجات ، كلّ درجة منها كما بين السّماءِ والأَرض أَلف أَلفِ مرّة ويُزوّج بعددها فى الفردوس ، وحُشِر يوم القيامة مع المتَّقين فى أَوّل زُمرة السّابقين .

وعن جعفر أَنّ من قرأَ هذه السّورة لا يموت ولا يخرج من الدّنيا حتى [لا] يصيب الفتنة فى نفسه ، وماله ، وولده ، وكان فى الآخرة من أَصحاب عيسى بن مريم ، وأُعطى من الأَجر كمُلْك سليمان بن داود .

وقال : يا علىّ مَن قرأَ ها يا ع ص أَعطاه الله من الثواب مثلَ ثواب أَيّوب ومريم ، وله بكلِّ آية قرأَها ثوابُ شهيد من شهداءِ بدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 309.308 ﴾

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة مريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم مكية – آياتها ثمان وتسعون

مقصودها بيان اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإفاضة النعم على جميع خلقه ، المستلزم للدلالة على اتصافه لجميع صفات الكمال ، المستلزم لشمول القدرة على إبداع المستغرب ، المستلزم لتمام القدرة الموجب للقدرة على البعث والتنزه عن الولد لأنه لا يكون إلا لمحتاج ، ولا يكون إلا مثل الوالد ، ولا سمي له سبحانه فضلا عن مثيل ، وعلى هذا دلت تسميتها بمريم ، لأن قصتها أدل ما فيها على تمام القدرة وشمول العلم ، لأن أغرب ما في المخلوقات وأجمعه خلقا الآدمي ، وأعجب أقسام توليده الأربعة – بعد كونه آدميا – ما كان من أنثى بلا توسط ذكر ، لأن أضعف الأقسام ، وأغرب ذلك أن يتولد منها على ضعفها أقوى النوع وهو الذكر ، ولا سيما إن أوتي قوة الكلام والعلم والكتاب في حال الطفولية ، وأن يخبر بسلامته الكاملة فيكون الأمر كذلك ، لم يقدر أحد – مع كثرة الأعداء – على أن يسمه بشيء من أذى ، هذا إذا جمعته من إخراج الرطب في غير حينه من يابس الحطب ، ومن

إنباع الماء في غير موضعه ، وعلى مثل ذلك أيضا دلت تسميتها بما في أولها من الحروف ، بيان ذلك أن مخرج الكاف من أقصى اللسان مما يلي الحلق ويحاذيه من أسفل الحنك ، وهي أدنى من مخرج القاف قليلا إلى مقدم الفم ر ، ولها من الصفات الهمس والشدة والانفتاح والاستفال والخفاء ، ومخرج الياء من وسط اللسان والحنك الأعلى ، ولها من الصفات الجهر والرخاوة والانفتاح والاستفال ، وهو أغلب صفاتها ، ومخرج العين وسط الحلق ، ولها من صفات الجهر وبين أصول الثنيتين السفليين ، وله من الصفات الهمس والرخاوة والإطباق والاستعلاء والصفير ، فالافتتاح بهذه الأحرف هنا إشارة – والله أعلم – إلى أن أهل الله عامة – من ذكر منهم في هذه السورة وغيرهم – يكون

(7/481)

أمرهم عند المخالفين أولا – كما تشير إليه الكاف – ضعيفا مع شدة انفتاح كما كان حال النبي (صلى الله عليه وسلم) أول ما دعا ، فإنه اشتهر أمره ولكنه كان ضعيفا بإنكار قومه إلا أنهم لم يبالغوا في الإنكار ، ثم يصير الأمر فيا ، ائل العراك – كما تشير إلأيه الهاء – إلى استقال ، ثم يزداد بتمالؤ المستكبرين عليهم ضعفا وخفاء ، وإلى هذا تشير قراءتها بالإمالة ، ولا بد مع ذلك من نوع ظهور – كما يشبر إليه انفتاح الهاء وإليه تشير قراءة الفتح ، وهذا

كما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) حين صرح بسب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم فقاموا عليه إلبا واحدا ، فهاجر أكثر الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة ، وخاف أبو طالب دهماء العرب فقال قصيدته اللامية يفي ذلك ، وتمادى الحال حتى ألجاتهم قريش إلأى الشعب ، وتكون في وسط أمرهم - كما تشير إليه الياء وقراءتها بالفتح ، لهم قوة مع رخاوة واشتهار واستفال ، وهو الأغلب عليهم ظاهرا كما تشير إليه قراءة الإمالة ، فيكون ذلهم من وراء عز وعزهم في ثوب ذل ، يعرف ذلك من عاناه ، ونظر إليه بعين الحقيقة واجتلاء ، وهذا كما كان عند قيام من قام من قريش يفي نقض الصحيفة الظالمة وإخراجهم من الشعب ، ثم عند موت خديجة رضي الله عنها وأبي طالب ، وخرج (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف فردوه - بأبي هو وأمي ونفسي وولدي وعيني ، فلما قرب من مكة المشرفة لم يستطع دخولها بغير جوار ، فاختفى في غار حراء وأرسل إلى من يجيره ، ثم أرسل حتى أجاره المطعم بن عدي ، ولبس السلاح هو من أطاعتى وأدخله (صلى الله عليه وسلم) حتى طاف بالبيت ، ثم قضى سبحانه أن قتل المطعم في بدر كافرا ، بعد اجتهاد النبي (صلى الله عليه وسلم) في سلامته والإيصاء به أن لا يقتل - ليعلم أنه سبحانه مختار في عموم رحمته وخصوصها ، لئلا ييأس عاص أو يأمن طائع ، ثم إذا علا أمرهم عن الوسط صاعدا قوي - كما تشير إليه العين ، فصار بين الشدة

والرخاوة ، وفيه انفتاح بشهرة مع استفال في بعض الأمر كما كان حاله (صلى الله عليه وسلم) عند مبايعة الأنصار رضوان الله عليهم ، وأما آخر أمرهم فهو وإن كالن فيه نوع من الضعف ، وضرب من الرخاوة واللين كما كان في غزوة حنين والطائف ، فإنه تعقبه قوة عظيمة بالإطباق ، واستعلاء واشتهار يملأ الآفاق ، كما يشير إليه الصغير – هذا في أهل الله عامة المذكورين في هذه السورة وغيرهم ، وأما ما يخص عيسى عليه الصلاة والسلام الذي هو صورة سورتها ومطمح إشارتها وسيرتها فجعل الحروف اللسانية من هذه الحروف أغلبها ثلاثة أحرف منها إشارة إلى أن إبراهيم عليه السلام بما أعطى في نفسه وفي ذريته ولسان الصدق المذكور به هو لسان هذا الوجود ، وأن دولة آله الذين عيسى عليه السلام من أعيانهم هي وسط هذا الوجود حقيقة وخيارا ، فموسى عليه السلام أو أصحاب شرائعهم بمنزلة القاف التي هي من أقصى اللسان وله حظ كبير

(9/481)

منها ، فإنه من أجله قتل أبناء بني إسرائيل وولد في سنة القتل ، وكان سبب هجرته وابتداء سيره إلى الله تعالى قتله القبطي ، وقرب نجيا ، ومن صفاتها الجهر والشدة والانفتاح ،

والاستعالاء والقلقلة ، وهو عريق يفي كل من خيرات ذلك ، وداود عليه السلام ثاني ذوي كتبهم بمنزلة الهمزة التي هي أبعد من مخرج الهاء إحدى هذه الحروف ، وهو أول من جمع من بني إسرائيل بين الملك والنبوة ، وله حظ من صفاتها : الجهر والشدة والانفتاح ، بما كان فيه من الملك والظهور ، والنصر على الأعداء وعجائب المقدور ، وله حظ من وصفها بالاستفال في أول أمره وفي آخره بما كان من بكائه وتواضعه وإخباته لربه وصلاحه ، فالكاف هنا إشارة إلى أن عيسى عليه الصلاة والسلام هو ثاني الشارعين يفي الوجود ، والهاء عبارة عن أنه من عقب داود عليه السلام ، وكل منهما له حظ من صفات الحرف المشير إليه الدال عليه ، والصاد التي هي من طرف اللسان وهي خاتمة هذه الحروف إشارة مما فيها من الإطباق المشير إلى تطبيق الرسالة لجميع الوجوه ، ومن الاستعلاء المشير إلى نهاية العطمة ، والصفير المشير إلى غاية الانتشار بما فيها من الصفات إلى أن أول أمر عيسى عليه السلام يكون فيه مع الشدة ضعف ، ثم تشير أيضا الهاء – التي هي من أقصى الحلق – إلى أن أمره يبطن بعد ذلك الظهور ويخفى بارتفاعه إلى السماء ، ويدل الاستفال على أنها قريبة إلى السفلى ، وهو كذلك فإنه في الثانية بدلالة رتبة الكاف والهاء في مخرجيهما ، وتشير الياء بجهرها إلى ظهوره بنزوله ، وتدل بكونها من وسط اللسان على تمكنه في أموره ، وباعتلائها على شيء في ذلك وهو ضعف الاتباع وحصرهم في ذلك الوقت ، وتدل بانفتاحها ورخاوتها على ظهوره على الدجال في أولئك القوم الذين قد

جهدهم البلاء عند نزوله ، ومسهم الضر قبل حلوله ، وتليح غلبة الاستقال عليها إلى أمر يأجوج ومأجوج لما يوحيه الله إليه " إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بهم ،

(10/481)

فجرز عبادي إلى الطور " وتدل العين بكونها من وسط الحق على انحصارهم ، ويجهرها على أنه لا سبيل للعدو عليهم ولا وصول بوجه إليهم ، وبما فيها من البينية والاستقال على جهدهم مع حسن العاقبة ، وتبشر - بما فيها من الانفتاح - بحصول الفتح الذي ليس وراءه 9 فتح ، وتدل الصاد بمخرجها على القوة الزائدة ، وبالهمس والرخاوة على أنها قوة لا بطش فيها ، وبالإطباق والاستعلاء على عموم الذين جميع الناس ، وبالصفير على أنه ليس وراء ذلك إلا النفخ في الصور لعموم الهلاك لكل موجود مفطور ، ثم لبعثرة القبور ، وتحصيل ما في الصدور ، وكل هذا من

(11/481)

ترتيب سنته سبحانه في المصطفين من عباده على هذا النحو البديع ، وترتيب هذه الحروف على هذا النظم الدال عليه دائر على القدرة التامة والعلم الشامل والحكمة الباهرة ، رحمهم سبحانه بأن نكبهم طريق الجبارين التي أوصلتهم إلى القسوة ، وجنبهم سنن المستكبرين التي تلجئ ولا بد إلأى الشقوة ، فجعل نصرهم في لوامع انكسار ، وكسرهم في جوامع انتصار ، وحماهم من فخامة دائمة تجر إلى بذخ وعلو واستكبار ، ومن رقة ثابتة تحمل على ذل وسفول وصغار ، فلقد انطبق الاسمان على المسمى ، واتضحا غاية الاتضاح في أمره ونما ، وهذا معنى ما قال الكلبي : هو ثناء أثنى الله به على نفسه .) بسم الله (المنزه عن كل شائبة نقص ، القادر على كل ما يريد) الرحمن (الذي عم نواله سائر مخلوقاته) الرحيم (الذي اختص الصالحين من عباده ، بما يسعد من مراده .

(12/481)

ولما كان مقصود التي قبلها الدلالة على أنم القرآن قيم لا عوج فيه ، وبه تمام الانتظام في نعمة الإبقاء الأول ، ودل على ذلك بأنه ساق المؤول عنه من القصص أحسن سوق ، وكشف عن مخبأته القناع أبدع كشف – إلى غير ذلك مما خلله به من بدائع الحكم وغرائب المعاني فاضحة لمن ادعى الله سبحانه ولدا ، وختمها بمثل ذلك وصف الكتاب والتوحيد –

النافي لقبول التعدد بولد أوغيره بكل اعتبار - والعمل الصالح ، ابتدأ هذه بالكشف عن أغرب من تلك القصص ، تحقيقا لآية (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) [الكهف : 9] بسياق غير ما تقدم فيما مضى عن السور ، وجزئيات لم تذكر إلا فيها مع عدم المخالفة لما مضى ، تأييدا لأن كلماته لا تنفذ ، وعجائبه لا تعد ولا تحد ، وأنه لو كان من عند غيره لاختلف ، مع أن أهلها سادة الموحدين ، وقادة المصلحين المتقين الذين عملوا الصالحات ، ونفوا الشرك وشرعوا ذلك للناس ، فرحمهم ربهم سبحانه ، وكلهم ممن يعتقده اليهود الآمرون لقريش بالسؤال عن أصحاب الكهف وذي القرنين تعنتا ، أمت من عدا عيسى عليه الصلاة والسلام فواضح ، وأما عيسى عليه السلام فيعتقدون أنه ما اتى لأنه سيأتي ، ويكون الناس في أيامه على دين واحد تصديقا لوعد التوارة الآتي بيانه ، وذلك على وجه مستلزم في أكثرها تنزهه تعالاى عن الوالد ، وقدرته على البعث ، وبدأها بقصة من خرق له العادة في الولد على وجه مبين أنه لا يحتاجه إلا فإن حسا أو معنى يريد أن يخلفه فيما تعسر عليه فعله أو تعذر ، وكان تقديم قصته أولى لأن التبكيت به أعظم لمباشرتهم لقتله وقتل ابنه يحيى عليهما الصلاة والسلام ، وإشارة إلى أن العمل الصالح المؤسس على التوحيد ضامن لإجابة الدعاء وإن كان فيه خرق العادة ، وثنى بأمر من نسبوء إليه وافتروه عليه

وقصدوا قتله على وجه معرب عن شأنه غاية الإعراب ، مبين فيه وجه الصواب ، متمما لتبكيت اليهود الآمرين لقريش بالتعنت بالسؤال بالإشارة إلى قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام وإعاء صلب المسيح الذي بشرت به التوراة ، وهم الآن ينتظرونه ويدعون أنهم أخص الناس به ، وقذف أمه – وحاشاها – دالا بذلك على القدرة على البعث ، قال في التوراة في آخر السفر الأول : إن يعقوب عليه الصلاة والسلام أخب ربقرب وفاته وقال لبنيه : اجتمعوا إلى فأبين لكم ما هو كائن من أمركم في آخر الأيام ، اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب انصتوا لإسرائيل أبيكم ثن قال : يا يهوذا لك يعترف إخوتك بتعالى يدك على رقاب أعدائك ، وليسجد لك بنو أبيك ، شبل الليث ، من ذا يقيمه عن فريسته ، لا يزول القضيب من آل يهوذا ، لا يعدم سبط يهوذا ملكا مسلطا وأفخاده نبيا مرسلا حتى يأتي الذي له الملك – وفي نسخة : الكل – وإياه تنتظر الشعوب ، يربط بالحبلة جحشه عيناه أشد شهولة من الخمر ، وأسنانه أشد بياضا من اللبن – هذا نصه ، وعند اليهود أنه المسيح ، ويسمونه مع ذلك المنتظر والمهدي ، وعندهم أنه ينصرهم ويخلصهم مما هم فيه من الذل ، فقلت لبعضهم : أشهد أنه المسيح ابم مريم الذي أتى وتبعه النصارى وعاديتموه حتى رفعه الله تعالى ، فقال الذي في التوارة إنه يكون له الكل ، وعيسى ما كان كذلك ، فقلت : إنه يكون له الكل حين ينزل تابعا لديننا من حيث إنه لا يقبل إلا الإسلام ، فيطبق أهل الأرض

على إتباعهخ عليه ، ويسعد به منكم من يتبعه ، ويزول عنه الذل ، هذا لا يناف كلام التوراة فإنه لم يقيد ذلك بساعة إتيانه . فلم يقبل ذلك ، ثم إنه أتى إلي يوما بكتاب من كتبهم في شرح سفر الأنبياء فقال في الكلام على البشائر المتعلقة بالمسيح " ولا يبعد أن يبدو لإسرائيل ثم يختفي ثم يظهر فيكون له الكل " فقلت له : انظر وتبصر هذا عين ما ذكرته لك من قبل فبهت لذلك فقلت : أطعني وأسلم ففكر ثم قال : حتى

(14/481)

يريد الله تعالى .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه : لما قال تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا (ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين وموسى والخضر عليهما السلام وقصة ذي القرنين ، أتبع سبحانه ذلك بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجبا وأخفى سببا ، فافتتح سورة مريم بيحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج حتى سأل زكريا مستفهما ومتعجبا (أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) [مريم : 8] فأجابه تعالى بأن ذلك عليه هين ، وأنه يجعل ذلك آية للناس ، وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة ، فكان

(15/481)

قد قيل : أم حسبت يا محمد أنم أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجيا ، نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية ، وهو قصة زكريا في ابنه يحيى عليهما الصلاة والسلام ، وقصة عيسى في كيونته بغير أب ، ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله ، وإنما الفعل له سبحانه لا بسبب ، وإلى هذا أشار قوله تعالى لزكريا عليه والسلام) وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (ثم أتبع سبحانه بشارة زكريا بيحيى بإتيانه الحكم صبيا ، ثم بذكر وابنها عليهما الصلاة والسلام ، وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 514. 519 ﴾

(16/481)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . كهيعص)

السّورة مكّيّة إجماعاً .

وعدد آياتها تسع وتسعون .

وكلماتها أَلف ومائة واثنتان وتسعون .

وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنان .

والآيات المختلف فيها ستَّة : (ع ص) ﴿فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾ .

مجموع فواصل آياتها (مدن) اللآية الأُولى على الدّال (صاد) .

وما قبل أَلف كلّ آية آخرها على الأَلف حروف زيد .

ولهذه السّورة اسمان : سورة كهيعص ؛ لافتتاحها بها ، وسورة مريم ، لاشتمالها على قصّتها مفصّلة .

مقصود السّورة ومعظم المراد منها على سبيل الإِجمال : وَعْد الله العباد بالكفاية والهداية ، وإِجابة دعاءِ زكريّا ، والمِنّة عليه بولد : يحيى ، وإِعطائه علم الكتاب ، وذكر عجائب ولادة عيسى وأُمّه والخبر عن أَحوال القيامة ، ونصيحة إِبراهيم لآزر (ومناظرة آزر له) والإِشارة إِلى قُربة موسى ، وذكر صدق وعد إِسماعيل ، وبيان رفعة درجة إِدريس ، والشكوى من الولد الخَلْف ، وحكاية أَهل الجنّة ، وذلّ الكفّار فى القيامة ، ومرور الخَلْق على عَقَبة الصِّراط ، وابتلاء بعضهم بالعذابِ ، والرّد على الكفّار فى افتخارهم بالمال ،

وذلّ الأَصنام ، وعُبَّادها فى القيامةِ ، وبيان حال أَهل الجنّة والنّار ، والمِنّة على الرّسول بتيسير القرآن على لسانه ، وتهديد الكفّار بعقوبة القرون الماضية ، فى قوله : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ .

النّاسخ والمنسوخ :

أَربع آيات منها منسوخة : م ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدّاً ﴾ ن آية السيف م ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ ن آية السَّيف ، م ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ ن آية السيف ، م ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ ، والاستثناء فى قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ ﴾ ن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 305.306 ﴾

(17/481)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة مريم

260 - مسألة :

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ)

ما وجه قوله ذلك مع أنه قال : (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5)

فسؤاله مؤذن بإمكانه عنده ، وقوله : (أَنَّى يَكُونُ لِي) مؤذن بإحالته عادة ؟

جوابه :

أنه كان بين سؤاله وبشارته بالولد أربعين سنة . (1)

261 - مسألة :

قوله تعالى في يحيى عليه السلام (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) وفى عيسى عليه السلام (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ) .

جوابه :

أن الأول : إخبار من الله تعالى ببركته وسلامه عليه .

---

(1) كلام فى غاية البعد .

والثاني : إخبار عيسى عليه السلام عن نفسه ، فناسب

عدم التزكية لنفسه بنفي المعصية أدبا مع الله تعالى ، وقال :

(شقيا) أي بعقوق أمي أو بعيدا من الخير .

وقوله : (وَالسَّلَامُ) معرفا ، أي السلام المتقدم على يحيى

عليّ أيضا .

262 – مسألة :

قوله تعالى : (قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23)) وقد تقدم قول الملك

: (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) و (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) فكيف ذلك بعد علمها

جوابه :

لم تقله كراهة له ، بل لما يحصل لها من الخجل عند قومها

بخروج ذلك عن العادة والوقوع فيها .

263 – مسألة :

قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)

وقال في الزخرف : أبث (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) ؟ .

جوابه :

أن آية مريم تقدمها وصف الكفار باتخاذ الولد وهو كفر

صريح ، فناسب وصفهم بالكفر .

ولم يرد مثل ذلك في الزخرف ، بل قال تعالى : (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) فوصفهم بالظلم

لاختلافهم .

246- مسألة :

(19/481)

قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) . في إبراهيم وإدريس وفى موسي : (رَسُولًا نَبِيًّا) ، وفى إسماعيل : (صَادِقَ الْوَعْدِ) . ما وجه تخصيص كل منهم بما وصف به وكل منهم كذلك ؟ .

جوابه :

أما إبراهيم عليه السلام فلعل المبالغة في صدقه لنفى ما توهم منه في الثلاثة التي ورى بها وهي : " إنى سقيم " ولسارة : " هي أختي " ، و " فعله كبيرهم " .

وأما موسى عليه السلام ، فلأنه أخلص نفسه لله في منابذة

فرعون مع ملكه وجبروته وفى غير ذلك .

وأما إسماعيل عليه السلام : فلصدق قوله : (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) ووفى بوعده فصدق في قوله :

وقيل : إنه وعد إنسانا إلى مكان فوفى له وانتظره مدة .

265 – مسألة :

قوله تعالى : (أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ) ومناسبة مس العذاب : الجبار المنتقم ؟ .

وما فائدة تكرار ذكر " الرحمن " في هذه السورة أكثر من غيرها ؟ .

جوابه :

أما قوله تعالى : (عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ) ففيه تعظيم أمر الكفر الذي كان عليه أبوه ، لأن من عظمت رحمته وعمت لا يعذب إلا على أمر عظيم بالغ في القبح فنبه على عظم ما عليه أبوه من الكفر ورجاء قبول توبته من الرحمن .

وأما تكرار لفظ (الرَّحْمَنِ) في هذه السورة : فقد يجاب بأنه لما افتتح أول السورة بقوله تعالى : (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)

نبه بتكرار لفظ (الرَّحْمَنِ) الذي هر بصيغة المبالغة على عظم رحمته وعمومها ، وأن ذاك ليس خاصا بأنبيائه وأوليائه ، وخواصه .

266 – مسألة :

قوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) وقد قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101)) ؟ .

جوابه :

أدن ورود المؤمنين : الجواز على الصراط ، والكفار والعصاة يدخلونها أو أن الخطاب لمن

تقدم ذكرهم في قوله (أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69)

إلى قوله تعالى : (صِلِيًّا (70) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 246.

252 ﴾

(20/481)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ وبعده ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ لأَنَّ الأَوّل فى حقِّ يحيى .

وجاءَ فى الحديث : ما من أَحد من بنى آدم إلاَّ أَذْنب

أَوهَمّ بذنْب إلا يحيى بن زكرّيَا عليهما السّلام ، فنفى عنه العصيان ؛ والثَّانى فى حقِّ عيسى عليه السلام فنفى عنه الشقاوة ، وأَثبت له السّعادة ، والأَنبياءُ عندنا معصومون عن الكبائر دون الصَّغائر .

قوله : ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ فى قصّة يحيى ﴿ وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ ﴾ فى قصة عيسى ، فنكَّر فى الأَول ، وعرَّفَ فى الثانى ؛ لأَنَّ الأَوّل من الله تعالى ، والقليل منه كثير كقول القائل :

قليل منك يكفينى ولكنْ قليلك لا يقال له قليل ولهذا قرأَ الحسن (اهدنا صراطاً مستقيماً)

أَى نحن راضون منك بالقليل ، ومثل هذا فى الشعر كثير ، قال :

*وانِّى لأَرضى منك يا هند بالذى * لو ابصره الواشى لقرَّت بلابلُه*

بلا ، وبأَن لا أَستطيع ، وبالمنى ، * وبالوعد حتى يسأَم الوعدَ آمِلُهُ*

والثانى من عيسى ، والأَلف واللام لاستغراق الجنس ، ولو أَدخل عليه السّبعة والعشرين

والفروع المستحسنة والمستقبحة ، لم يبلغ عُشر معشار سلام الله .

ويجوز أَن يكون ذلك بوحى من الله عزَّ وجلّ ، فيقرُبَ من سلام يحيى .

وقيل : إِنما أَدخل الأَلِف واللام لأَنَّ النكرة إِذا تكرّرت تعرّفت .

وقيل : نكرة الجنس ومعرفته سواء : تقول : لا أشرب ماءً ، ولا أَشرب الماءَ ، فهما سواء .

(21/481)

قوله ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وفى حم ﴿ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ؛

لأَنَّ الكفر أَبلغ من الظُّلم ، وقصّة عيسى فى هذه السّورة مشروحة ، وفيها ذكر نسبتهم إِيّاه

إِلى الله تعالى ، حين قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ ، فذكر بلفظ الكفر ، وقصّة

فى الزّخرف مجمّلة ، فوصفهم بلفظ دونه وهو الظُّلم .

قوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وفى الفرقان : ﴿ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ لأَنَّ ما فى هذه السّورة أَوجز فى ذكر المعاصى ، فأَوجز فى التَّوبة ، وأَطال (هناك فأَطال) والله أَعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 306. 308 ﴾

(22/481)

فصل

وقال القرطبى :

سورة مريم عليها السلام

وهي مكية بإجماع . وهي تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشي ، وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعله يعطيكم من عنده من قريش ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ؛ فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعثهما ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم عمرو بن أمية الضمري ، وكتب معه إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم ﴿ كهيعص ﴾ وقاموا تفيض أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وقرأ إلى قوله : ﴿ الشَّاهِدِينَ ﴾ . ذكره أبو داود . وفي السيرة ؛ فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ قال جعفر : نعم ؛ فقال له النجاشي : اقرأه علي . قال : فقرأ ﴿ كهيعص ﴾ فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم ؛ فقال النجاشي : هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا ؛ وذكر تمام الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ 74 ﴾

(23/481)

وقال الآلوسى :

سورة مريم

المشهور تسميتها بذلك ورويت عن رسول الله فقد أخرج الطبراني وأبو نعيم والديلمي من

طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده قال : أتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فقلت : ولدت لي الليلة جارية فقال : والليلة أنزلت علي سورة مريم وجاء فيما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تسميتها بسورة كهيعص وهي مكية كما روي عن عائشة وابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم وقال مقاتل : هي كذلك إلا آية السجدة فإنها مدنية نزلت بعد مهاجرة المؤمنين إلى الحبشة وفي الإتقان استثناء قوله تعالى وإن منكم إلا واردها أيضا وهي عند العراقيين والشاميين ثمان وتسعون آية وعند المكيين تسع وتسعوت وللمدنيين قولان ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب كقصة ولادة يحيى وقصة ولادة عيسى عليه السلام ولهذا ذكرت بعدها وقيل إن أصحاب الكهف يبعثون قبل الساعة ويحجون مع عيسى عليه السلام حين ينزل ففي ذكر هذه السورة بعد تلك مع ذلك إن ثبت ما لا يخفى من المناسبة ويقوي ذلك ما قيل أنهم من قومه عليه السلام وقيل غير ذلك انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 16 صـ 56. 57 ﴾

(24/481)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة مريم

291 – قوله ولم يكن جبارا عصيا 14 وبعده ولم يجعلني جبارا شقيا 32 لأن الأول في حق يحيى وجاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ما من أحد من بني آدم إلا أذنب أو هم بذنب إلا يحيى ابن زكريا عليهما السلام فنفى عنه العصيان والثاني في عيسى عليه السلام فنفى عنه الشقاوة وأثبت له السعادة والأنبياء عندنا معصومون عن الكبائر غير معصومين عن الصغائر

292 – قوله وسلام عليه يوم ولد 15 في قصة يحيى والسلام على 33 في قصة عيسى فنكر في الأول وعرف في الثاني لأن الأول من الله تعالى والقليل منه كثير كما قال الشاعر

. . . قليل منك يكفيني ولكن . . . قليل لا يقال له قليل . . .

ولهذا قرأ الحسن اهدنا صراطا مستقيما 6 1 أي نحن راضون منك بالقليل ومثل هذا في الشعر كثير قال . . . وأني لراض منك يا هند بالذي . . . لو أبصره الواشي لقرت بلابله . . .

. . . بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى . . . وبالوعد حتى يسأم الوعد آمله . . .

والثاني من عيسى عليه السلام والألف واللام لاستغراق الجنس ولو أدخل عليه التسعة والعشرين والفروع المستحسنة والمستقبحة لم تبلغ عشر معشار سلام الله عليه

ويجوز أن يكون ذلك وحيا من الله عز و جل فيقرب من سلام يحيى

وقيل إنما دخل الألف واللام لأن النكرة إذا تكررت تعرفت

وقيل نكرة الجنس ومعرفته سواء تقول لا أشرب ماء ولا أشرب الماء فهما سواء

293 - قوله فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا 37 وفي حم الزخرف فويل للذين ظلموا 65 لأن الكفر أبلغ

من الظلم وقصة عيسى في هذه السورة مشروحة وفيها ذكر نسبتهم إياه إلى الله تعالى حين قال ما كان لله أن يتخذ من ولد 35 فذكر بلفظ الكفر وقصته في الزخرف مجملة فوصفهم بلفظ دونه وهو الظلم

(25/481)

---

294 - قوله وعمل صالحا 60 وفي الفرقان وعمل عملا صالحا 70 لأن في هذه السورة أوجز في ذكر المعاصي فأوجز في التوبة وأطال هناك فأطال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 135.137 ﴾

(26/481)

فصل

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ :

" سُورَةُ مَرْيَمَ " مَضْمُونُهَا : تَحْقِيقُ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَأَنَّ خَوَاصَّ الْخَلْقِ هُمْ عِبَادُهُ فَكُلُّ كَرَامَةٍ وَدَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ فِي هَذِهِ الْإِضَافَةِ وَتَضَمَّنَتْ الرَّدَّ عَلَى الْغَالِينَ الَّذِينَ زَادُوا فِي النِّسْبَةِ إلَى اللَّهِ حَتَّى نَسَبُوا إلَيْهِ عِيسَى بِطَرِيقِ الْوِلَادَةِ وَالرَّدَّ عَلَى الْمُفْرِطِينَ فِي تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ الْكَرَامَةِ وَجَحَدُوا نِعَمَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمُصْطَفِينَ . افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ وَنِدَائِهِ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا وَمَوْهِبَتِهِ لَهُ يَحْيَى ثُمَّ قِصَّةِ مَرْيَمَ وَابْنِهَا وَقَوْلِهِ : ﴿ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ . . إلَخْ بَيَّنَ فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْغُلَاةِ فِي الْمَسِيحِ وَعَلَى الْجُفَاةِ النَّافِينَ عَنْهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِذِكْرِ إبْرَاهِيمَ وَمَا دَعَا إلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَنَهْيِهِ إيَّاهُ عَنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَمَوْهِبَتِهِ

(27/481)

لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا وَهُوَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ وَأَخْبَرَ عَنْ يَحْيَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ مَعَ التَّوْحِيدِ وَذَكَرَ مُوسَى وَمَوْهِبَتَهُ لَهُ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا كَمَا وَهَبَ يَحْيَى لِزَكَرِيَّا وَعِيسَى لِمَرْيَمَ وَإِسْحَاقَ لِإِبْرَاهِيمَ . فَهَذِهِ السُّورَةُ " سُورَةُ الْمَوَاهِبِ " وَهِيَ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ لِأَنْبِيَائِهِ مِنْ الذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ ثُمَّ ذَكَرَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ لِأَجْلِ إدْرِيسَ ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ وَهُوَ إبْرَاهِيمُ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ إلَى آخِرِ الْقِصَّةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ الْآيَةُ . فَهَذِهِ حَالُ الْمُفَرِّطِينَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ثُمَّ اسْتَثْنَى التَّائِبِينَ وَبَيَّنَ أَنَّ الْجَنَّةَ لِمَنْ تَابَ وَأَنَّ جَنَّاتِ عَدْنٍ وَعَدَهَا الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ وَهُمْ أَهْلُ تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ مُنْكِرِي الْمَعَادِ وَحَالَ مَنْ جَعَلَ لَهُ الْأَوْلَادَ وَقَرَنَ بَيْنَهُمَا فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : ﴿ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ ﴾ الْحَدِيثُ . ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ إقْسَامَهُ عَلَى

(28/481)

حَشْدِهِمْ وَالشَّيَاطِينِ وَإِحْضَارِهِمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُخْبِرَ عَنْ خَبَرٍ يَحْصُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا يَكُونُ إلَّا بِطَرِيقَيْنِ : إمَّا اطِّلَاعُهُ عَلَى الْغَيْبِ وَهُوَ الْعِلْمُ بِمَا سَيَكُونُ ؛ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَاَللَّهُ مُوفٍ بِعَهْدِهِ فَالْأَوَّلُ عِلْمٌ بِالْخَبَرِ وَالثَّانِي عِلْمٌ بِالْأَمْرِ . الْأَوَّلُ عِلْمٌ بِالْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَالثَّانِي عِلْمٌ بِالْكَلِمَاتِ الدِّينِيَّةِ وَهَذَا الَّذِي أَقْسَمَ أَنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْمَعَادِ مَا ذَكَرَ كَاذِبٌ فِي قَسَمِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ اطِّلَاعٌ عَلَى الْغَيْبِ وَلَا اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا . وَهَذَا كَمَا قِيلَ فِي إجَابَةِ الدُّعَاءِ : أَنَّهُ تَارَةً يَكُونُ لِصِحَّةِ الِاعْتِقَادِ وَهُوَ مُطَابَقَةُ الْخَبَرِ وَتَارَةً لِكَمَالِ الطَّاعَةِ وَهُوَ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ . فَذَكَرَ حَالَ مَنْ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْبَاطِلَ بِلَا عِلْمٍ بِالْوَاقِعِ وَلَا اتِّخَاذِ عَهْدٍ بِالْمَشْرُوعِ . ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا فَنَفَى الْوِلَادَةَ عَنْ نَفْسِهِ وَرَدَّ عَلَى مَنْ أَثْبَتَهَا وَأَثْبَتَ الْمَوَدَّةَ رَدًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَهَا فَقَالَ : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ أَيْ يُحِبُّهُمْ ؛ وَيُحَبِّبُهُمْ إلَى عِبَادِهِ وَقَدْ وَافَقَ ذَلِكَ مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ : ﴿ إذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ : إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ

(29/481)

وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ﴾

وَقَالَ فِي الْبُغْضِ عَكْسَ ذَلِكَ . وَفِي قَوْلِ إبْرَاهِيمَ : ﴿ إنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ وَقَوْلِهِ فِي مُوسَى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ وَمَا ذَكَرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْمَوَدَّةِ : إثْبَاتٌ لِمَا يُنْكِرُهُ الْجَاحِدُونَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَتَكْلِيمِهِ كَمَا فِي الْأَوَّلِ نَفْيٌ لِمَا يُثْبِتُهُ الْمُفْتَرُونَ مِنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ .

سُئِلَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ هَلْ ذَلِكَ فِيمَنْ أَضَاعَ وَقْتَهَا فَصَلَّاهَا فِي غَيْرِ وَقْتِهَا أَمْ فِيمَنْ أَضَاعَهَا فَلَمْ يُصَلِّهَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ هَلْ هُوَ عَنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ أَوْ السَّهْوِ فِيهَا كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ مِنْ صَلَاةِ الغفلة الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ مِنْ صَلَاتِهِمْ شَيْئًا ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ .

فَأَجَابَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

(30/481)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، بَلْ الْمُرَادُ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مَنْ أَضَاعَ الْوَاجِبَ فِي الصَّلَاةِ لَا مُجَرَّدَ تَرْكِهَا هَكَذَا فَسَّرَهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَهُوَ ظَاهِرُ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ فَأَثْبَتَ لَهُمْ صَلَاةً وَجَعَلَهُمْ سَاهِينَ عَنْهَا فَعُلِمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَ السَّهْوِ عَنْهَا وَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ : بَلْ هُوَ السَّهْوُ عَمَّا يَجِبُ فِيهَا مِثْلَ تَرْكِ الطُّمَأْنِينَةِ وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ حَقٌّ وَالْآيَةُ تَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ،

(31/481)

تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إلَّا قَلِيلًا ﴾ . فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ صَلَاةَ الْمُنَافِقِ تَشْتَمِلُ عَلَى التَّأْخِيرِ عَنْ الْوَقْتِ الَّذِي يُؤْمَرُ بِفِعْلِهَا فِيهِ وَعَلَى النَّقْرِ الَّذِي لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ إلَّا قَلِيلًا وَهَكَذَا فَسَّرُوا قَوْلَهُ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ بِأَنَّ إضَاعَتَهَا تَأْخِيرُهَا عَنْ وَقْتِهَا وَإِضَاعَةُ حُقُوقِهَا وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ إنَّ الْعَبْدَ إذَا قَامَ إلَى الصَّلَاةِ بِطُهُورِهَا وَقِرَاءَتِهَا وَسُجُودِهَا - أَوْ كَمَا قَالَ - صَعِدَتْ وَلَهَا بُرْهَانٌ كَبُرْهَانِ الشَّمْسِ تَقُولُ لَهُ : حَفِظَك اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي وَإِذَا لَمْ يُتِمَّ طُهُورَهَا وَقِرَاءَتَهَا

وَسُجُودَهَا - أَوْ كَمَا قَالَ - فَإِنَّهَا تَلُفُّ كَمَا يَلُفُّ الثَّوْبُ وَتَقُولُ لَهُ : ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي ﴾ قَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ : الصَّلَاةُ مِكْيَالٌ مَنْ وَفَّى وُفِّيَ لَهُ وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَالَ فِي الْمُطَفِّفِينَ . وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد عَنْ عَمَّارٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ الْعَبْدَ لَيَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاتِهِ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إلَّا نِصْفُهَا إلَّا ثُلُثُهَا إلَّا رُبُعُهَا إلَّا خُمُسُهَا إلَّا سُدُسُهَا إلَّا سُبُعُهَا إلَّا ثُمُنُهَا إلَّا تُسْعُهَا إلَّا عُشْرُهَا ﴾ . وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِيمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوِسْوَاسُ فِي صَلَاتِهِ هَلْ عَلَيْهِ الْإِعَادَةُ عَلَى قَوْلَيْنِ

(32/481)

. لَكِنَّ الْأَئِمَّةَ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ عَلَى أَنَّهُ لَا إعَادَةَ عَلَيْهِ وَاحْتَجُّوا بِمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ فَإِذَا قَضَى التَّأْذِينَ أَقْبَلَ فَإِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ فَإِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ فَيَقُولُ : اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَضِلَّ الرَّجُلُ لَنْ يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ ﴾ . فَقَدْ عَمَّ بِهَذَا الْكَلَامِ وَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدًا بِالْإِعَادَةِ . و " الثَّانِي " عَلَيْهِ الْإِعَادَةُ وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ : مِنْ الْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ

كَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَامِدٍ وَغَيْرِهِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ مِنْهَا إلَّا عُشْرُهَا . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ لَا أَجْرَ لَهُ إلَّا بِقَدْرِ الْحُضُورِ ؛ لَكِنْ ارْتَفَعَتْ عَنْهُ الْعُقُوبَةُ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا تَارِكُ الصَّلَاةِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ : تَبْرَأُ ذِمَّتُهُ بِهَا أَيْ : لَا يُعَاقَبُ عَلَى التَّرْكِ لَكِنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ الْحُضُورِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَيْسَ لَك مِنْ صَلَاتِك إلَّا مَا عَقَلْت مِنْهَا فَلِهَذَا شُرِعَتْ السُّنَنُ الرَّوَاتِبُ جَبْرًا لِمَا يَحْصُلُ مِنْ النَّقْصِ فِي الْفَرَائِضِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 230 . 236 ﴾

(33/481)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة مريم

تمهيد :

هذه السورة مكية ، وقيل أن آيتى 58 ، 71 مدنيتان ، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية .

وقد ابتدأت هذه السورة الكريمة بذكر معجزات خارقة للعادة فى الوجود الإنسانى ، ذلك أن الفلسفة الأيونية كانت قائمة على أن الأسباب وعلاقتها بالمسببات لا تخالف قط حتى

بنوا نظرية الألوهية على العلية ، وقالوا : إن العالم نشأ عن الله تعالى نشوء العلة من المعلول من غير إرادة من الفاعل المختار ، فجاءت السورة فى كثير من آياتها بما هو خرق لهذه النظرية . إن من أسباب الخلق أن الشيخ الكبير لا ينجب وأن المرأة العاقر لا تلد فإذا أنجب الرجل الهرم من عجوز عاقر ، فذلك خرق لنظرية الأسباب ، إذ يوجد الولد من عاقر عجوز لا تنجب ومن شيخ هرم لا ينسل .

وقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر نبى الله زكريا (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) .

والله تعالى يجيب دعاءه فيقول سبحانه له : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)

ولكن تأثره بمجرى الأسباب العادية يثير استغرابه فيقول : (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) .

(34/481)

ولكن الاستغراب لا يزال يتردد فى نفسه فيقول : (رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

أعطاه ولدا من امرأة عاقر ، وكان ذلك خرقا للأب فى عصر الأسباب ، وقد وهبه الله تعالى حبا وحنانا ، وبرا بوالديه ولم يكن . . جبارا عصيا .

ثم جاء بالمعجزة الكبرى الخارقة لمجرد الأسباب والمسببات وبيان أنها لا تلزم الفاعل المختار وهى خلق عيسى من غير أب من عذراء بتول فقال تعالى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16)

ونزل إليها روح القدس جبريل - عليه السلام - الذى شرفه الله تعالى بأن أضافه إليه (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) .

جاءها المخاض وألجأها إلى جذع النخلة ، وجات الخوارق للعادة متوالية تعلن خرق نظرية الأسباب والمسببات ، فتهز جذع النخلة . . فتساقط رطبا جنيا والماء يجرى من تحتها (

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

(35/481)

ولكنهم . يجابهونها بما كانت تخشى يقولون : (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) ، ولكن يجىء سر خارق للعادة يشير له الجميع ، وهو أن يتكلم من هو فى المهد بالحكمة ، (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) .

كان عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ معجزة فى الحمل به وفى ولادته وفى طفولته فى المهد وهو مخلوق عبد لله تعالى ، وإذا كان وجوده على غير مجرى العادات فهو بخلقه أدل على قدرة الله تعالى من غيره وإذا عبده النصارى فمن جهلهم (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)

ولكن من بعده اختلفت الفرق على نحل متباينة فويل لهم من مشهد يوم عظيم (أَسْمِعْ بِهِمْ

وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) .

ويجىء فى السورة أخبار الأنبياء السابقين وما اقترن برسالاتهم من معجزات وما جاءوا به من شرائع ، فابتدأ بقصة أبى العرب إبرهيم ـ عليه السلام ـ ، وفيها تتجلى محبة الأبناء للآباء فيريد لمحبته أباه أن يجنبه عبادة الأوثان ويدعوه إلى تركها فيقول :

(36/481)

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)

ويرده أبوه ردا جافيا فيضطر لاعتزاله وقلبه معلق بمحبته وطلبه الهداية له ، ويذهب به فرط محبته إلى أن يستغفر له ويقول : (سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ، (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا

.

ثم ذكرت قصة موسى وكيف وهب الله من رحمته معه أخاه هرون نبيا ، ثم ذكر أخبار إسماعيل ـ عليه السلام ـ منفردا عن أولاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وفى هذا إشارة إلى أنه

عمود نسب متفرع من إبراهيم - عليه السلام - وأنه سيكون منه محمد خاتم النبيين (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54)

وترجع السورة فى التاريخ فتشير إلى إدريس - عليه السلام - إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا ، ويشير سبحانه إلى النبيين أجمعين : (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)

وقد أشار سبحانه إلى أن الخلاف جعل منهم الصالحين ، والذين أضاعوا الصلاة (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60)

وتفصل السورة الكريمة جزاء المتقين وعقاب الكافرين فى بيان معجز ككل آيات القرآن وسوره .

(37/481)

وتجىء العبر فى الآيات المختلفة الكثيرة ، فيذكر الناس بالبعث (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ

جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) .

ويضرب الأمثال للمشركين بالذين مضوا من الذين عادوا النبيين وأهلكهم الله ، وهم أحسن منهم أثاثا ورئيا .

ويبين الله اهتداء المهتدين وضلال الضالين : (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76) .

وتشرح السورة الكريمة نفس الكافر وغروره : (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) ،

(38/481)

ثم بين سبحانه أن ذلك مكتوب عليه وأنه سيرث أعقاب هذا القول ، ويقول : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) .

ويبين سبحانه سيطرة الشياطين على الكافرين : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) .

ويذكر الله الناس جميعا بما يكون يوم الآخرة ، (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87) .

ويبين مقالة الكافرين (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) .

وختم السورة الكريمة ببيان المؤمنين ، وما كتب لهم من جزاء يوم القيامة ، فقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ

بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) .

(39/481)

وهكذا نجد السورة ابتدأت بأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يخلق يحيى ـ عليه السلام ـ من شيخ هرم امرأته عاقر ، ويخالف بذلك الأسباب والمسببات ، ثم يأتى سبحانه بخلق عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب ليكون وجوده ـ عليه السلام ـ معجزة ، وهو عبد من عباد الله ويختمها بالمعجزة الكبرى وهو القرآن ، (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 4602 . 4606 ﴾

(40/481)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم

اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم .

ورويت هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الطبراني والديلمي ، وابن منده ، وأبو نعيم ، وأبو أحمد الحاكم : عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده أبي مريم قال : " أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنه ولدت لي الليلة جارية ، فقال : والليلة أنزلت علي سورة مريم فسمها مريم " .

فكان يكنى أبا مريم ، واشتهر بكنيته .

واسمه نذير ، ويظهر أنه أنصاري .

وابن عباس سماها سورة كهيعص ، وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحها .

ولم يعدها جلال الدين في الإتقان في عداد السور المسماة باسمين ولعله لم ير الثاني اسما .

وهي مكية عند الجمهور .

وعن مقاتل : أن آية السجدة مدنية .

ولا يستقيم هذا القول لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلا أن تكون ألحقت بها في النزول وهو بعيد .

وذكر السيوطي في الإتقان قولا بأن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] الآية مدني ، ولم يعزه لقائل .

وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول ؛ نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه .

وكان نزول سورة طه قبل إسلام عمر بن الخطاب كما يؤخذ من قصة إسلامه فيكون نزول هذه السورة أثناء سنة أربع من البعثة مع أن السورة مكية ، وليس أبو مريم هذا معدودا في المسلمين الأولين فلا أحسب الحديث المروي عنه مقبولا .

ووجه التسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصل في غيرها .

(41/481)

ولا يشبهها في ذلك إلا سورة آل عمران التي نزلت في المدينة .

وعدت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة تسعا وتسعين .

وفي عدد أهل الشام والكوفة ثمانا وتسعين .

أغراض السورة

ويظهر أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها ، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقداستهم في الخير .

وهل يثبت الخطي إلا وشيجه

ثم التنويه بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم .

والإنحاء على بعض خلفهم من ذرياتهم الذين لم يكونوا على سننهم في الخير من أهل الكتاب والمشركين وأتوا بفاحش من القول إذ نسبوا لله ولدا ، وأنكر المشركون منهم البعث وأثبت النصارى ولدا لله تعالى .

والتنويه بشأن القرآن في تبشيره ونذارته .

وأن الله يسره بكونه عربيا ليسر تلك اللغة .

والإنذار مما حل بالمكذبين من الأمم من الاستئصال .

واشتملت على كرامة زكريا إذ أجاب الله دعاءه فرزقه ولدا على الكبر وعقر امرأته .

وكرامة مريم بخارق العادة في حملها وقداسة ولدها ، وهو إرهاص لنبوءة عيسى عليه السلام ، ومثله كلامه في المهد .

والتنويه بإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وإسماعيل ، وإدريس عليه السلام .

ووصف الجنة وأهلها .

وحكاية إنكار المشركين البعث بمقالة أبي بن خلف والعاصي ابن وائل وتبجحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم .

وإنذار المشركين أن أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها .

ووعد الرسول النصر على أعدائه .

وذكر ضرب من كفرهم بنسبة الولد لله تعالى .

والتنويه بالقرآن ولملته العربية ، وأنه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم .

وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمان ست عشرة مرة ، وذكر اسم الرحمة أربع مرات ، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمان .

والرد على المشركين الذين تقعروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله في سورة الفرقان : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان : من الآية60]

ووقع في هذه السورة استطراد بآية ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : من الآية64] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ 5.7 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة مريم

مقدمة السورة يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ; ونفي الولد والشريك ; ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد . . هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة , كالشأن في السور المكية غالبا .

والقصص هو مادة هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ومولد عيسى . فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه . . ثم تعقبها إشارات إلى النبيين:إسحاق ويعقوب , وموسى وهرون , وإسماعيل , وإدريس . وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة . ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث , ونفي الولد والشريك , وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة , وبعض الجدل مع المنكرين للبعث .

واستنكار للشرك ودعوى الولد ; وعرض لمصارع المشركين والمكذبين في الدنيا وفي الآخرة . . وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها , ويتمشى في موضوعاتها . .

إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية . . الانفعالات في النفس البشرية , وفي "نفس" الكون من حولها . فهذا الكون الذي تتصوره جمادا لا حس له يعرض

في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات , تشارك في رسم الجو العام للسورة . حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا :

(أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) . .

أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها . والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى .

(44/481)

والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال . فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وهو يناجي ربه نجاء : (إذ نادى ربه نداء خفيا) . . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيرا . ويكثر فيها اسم (الرحمن) . ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حنانا (وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا) . ومن نعمة الله على عيسى أن جعله برا بوالدته وديعا لطيفا :

(وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا) . .

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال . كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته . . كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق: رضيا . سريا . حفيا . نجيا . . فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف, فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالا في الغالب . مدا . ضدا . إدا . هدا, أو زايا: عزا . أزا .

وتنوع الإيقاع المصوسيقي والفاصلة والقافية بتنوع الجو والموضوع يبدو جليا في هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى فتسير الفاصلة والقافية هكذا:

ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . . . الخ .

وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه:

واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . . الخ

إلى أن ينتهي القصص, ويجيء التعقيب, لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم, وللفصل في قضية بنوته . فيختلف نظام الفواصل والقوافي . . تطول الفاصلة, وتنتهي القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية . على النحو التالي:

ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضي أمرا فإنما يقول له: كن فيكون . . . الخ .

ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً (3)

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرخية المديدة:

واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . . الخ .

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام , تغير الإيقاع الموسيقي وجرس القافية:

قل: من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب ; وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا . . الخ .

وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال:

وقالوا: اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا , تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . . الخ .

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقي في السورة وفق المعنى والجو ; ويشارك في إيقاء الظل الذي يتناسق مع المعنى في ثنايا السورة , وفق انتقالات السياق من جو إلى جو ومن معنى إلى معنى .

ويسير السياق مع موضوعات السورة في أشواط ثلاثة:

الشوط الأول يتضمن قصة زكريا ويحيى , وقصة مريم وعيسى . والتعقيب على هذه القصة بالفصل في قضية عيسى التي كثر فيها الجدل , واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

والشوط الثاني يتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لملة الشرك وما عوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك الأمة . ثم إشارات إلى قصص النبيين , ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ; ومصير هؤلاء وهؤلاء . وينتهي بإعلان الربوبية الواحدة , التي تعبد بلا شريك:(رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا ?)

والشوط الثالث والأخير يبدأ بالجدل حول قضية البعث , ويستعرض بعض مشاهد القيامة . ويعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك , وينتهي بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون ! (وكم أهلكنا قبلهم من قرن . هل تحسن منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2299 . 2301 ﴾

(47/481)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة مريم

مكية وآياتها ثمان وتسعون

بين يدي السورة

* سورة مريم مكية ، وغرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله " زكريا " وولده " يحيى " الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر ولا تلد ، ولكن الله قادر على كل شيء ،

يسمع دعاء المكروب ، ويتسجيب لنداء الملهوف ، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه .

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب ، تلك هي قصة " مريم العذراء " وإنجابها لطفل من غير أب ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار ، بعظمة الواحد القهار .

* وتحدثت كذلك عن قصة " إبراهيم " مع ابيه ، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : " إسحاق ، يعقوب ، موسى ، هارون ، إسماعيل ، إدريس ، نوحاً " وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة ، والهدفُ من ذلك إثبات " وحدة الرسالة " وأن الرسل جميعا جاؤوا لدعوة الناس إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك والأوثان .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب ، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها ، ويكونوا وقودا لها .

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد ، والشريك ، والنظير ، وردَّت على ضلالات المشركين بأنصع بيان ، وأقوى برهان .

التسمية :

سميت (سورة مريم) تخليدا لتلك المعجزة الباهرة ، في خلق إنسان بلا أب ، ثم إنطاق الله

للوليد وهو طفل في المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 210 ﴾

(48/481)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة مريم

زكريا (يمد ويقصر) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا ، نادى ربه :

أي دعاه ، خفيا : أي مستورا عن الناس لم يسمعه أحد منهم ، وهن العظم :

ضعف ورقّ من الكبر إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أو ثمانين ، واشتعل الرأس شيبا : أي

صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ، ولقوتها وشدّتها أحرقت الرأس نفسه ،

شقيا . يقال شقى بكذا : أي تعب فيه ولم يحصّل مقصوده منه ، والمراد أنه خائب غير

مستجاب الدعوة ، الموالي : هم عصبة الرجل ، من ورائي : أي من بعدي ، ويقال رجل

عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين ، وليا : أي ولدا من صلبى ، ويعقوب :

هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم وكان متزوجا أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان

عليه السلام ، رضيا : أي مرضيا عندك قولا وفعلا ، سميا : أي شريكا له فى الاسم فلم يسمّ أحد بهذا الاسم قبله ، وهذا دليل على أن الأسماء السّنع - الشريفة - جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية كما قال قائلهم فى المدح :

سنع الأسامى مسبلى أزر حمر تمسّ الأرض بالهدب

أنى : أي كيف ، عتيا من عتا يعتو : أي يبست مفاصله وعظامه ، شيئا : أي موجودا ، آية : علامة ، سويا : أي سوىّ الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس ، المحراب : المصلّى ، أوحى : أي أوماً وأشار ، سبّحوا : أي صلوا ، بكرة وعشيا أي صلاة الفجر وصلاة العصر .

الكتاب : هو التوراة ، والقوة : الجد والاجتهاد ، والحكم والحكمة : الفقه فى الدين ، وحنانا : أي عطفا على الناس ، وزكاة : أي طهارة من الذنوب والآثام ، تقيا : أي مطيعا لأمر ربه ، منتهيا عما نهى عنه ، وبرا بوالديه : أي كثير البر والإحسان إليهما ، جبارا : أي متعاليا عن قبول الحق والإذعان له ، عصيا : أي مخالفا أمر مولاه ، سلام : أي أمان من اللّه عليه .

انتبذت : أي اعتزلت وتنحّت ، مكانا شرقيا : أي شرقى بيت المقدس ، حجابا :

أي ساترا تورات به منهم ، روحنا : هو جبريل عليه السلام ، سويا : أي سويّ الخلق كامل البنية ، أعوذ : أي أعتصم وألتجئ ، تقيا : أي مطيعا ، لأهب لك : أي لأكون سببا فى هبته ، غلاما : أي ولدا ذكرا ، زكيا : أي طاهرا من الأدناس والأرجاس ، أنى : أي كيف يكون ذلك ؟ آية : أي علامة على قدرة خالقكم ، مقضيا : أي محتوما قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

فانتبذت : أي فاعتزلت ، قصيا : أي بعيدا من أهلها وراء الجبل ، فأجاءها المخاض : أي فألجأها واضطرها ، والمخاض : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن والنسى : (بفتح النون وكسرها) الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، والمنسى : ما لا يخطر بالبال لتفاهته ، والسرىّ : السيد الشريف ،

والهز : تحريك الشيء بعنف أو بدونه ، تساقط : أي تسقط ، ورطبا : أي بسرا ناضجا جنيا : أي صالحا للاجتناء ، فقولى : أي أشيرى إليهم .

قال الفرّاء : العرب تسمى كل ما أفهم الإنسان شيئا – كلاما بأى طريق كان ، إلا إذا أكد بالمصدر فيكون حقيقة فى الكلام كقوله : " وكلم الله موسى تكليما " صوما : أي صمتا فريّا : أي عظيما خارقا للعادة ، وهى الولادة بلا أب ، من فرى الجلد أي قطعه على وجه الإفساد أو الإصلاح ، ومنه فى وصف عمر " فلم أر عبقريا يفرى فريّه " وفى المثل :

جاء يفرى الفرىّ ، وهارون هو أخو موسى عليه السلام ، وقيل هو رجل صالح من بنى إسرائيل ، والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا من قبل من صلاحها ، والمهد : الموضع يهيّأ للصبى ويوطّأ له والجمع مهود ، والكتاب : الإنجيل ، مباركا : نفّاعا للناس ، أو ثابتا فى دين اللّه ، الجبار : المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقا ، والشقي : العاصي لربه

(50/481)

قول الحق : أي قول الصدق الذي لا شبهة فيه ، يمترون : أي يشكّون ويتنازعون ، ما كان للّه أن يتخذ من ولد . أي ما ينبغى ولا يصح أن يجعل له ولدا ، صراط مستقيم : أي طريق لا يضل سالكه ، الأحزاب : فرق النصارى الثلاث ، مشهد :

أي شهود وحضور ، يوم عظيم : هو يوم القيامة ، اليوم : أي فى الدنيا ، يوم الحسرة ، هو يوم القيامة حين يندم الناس على ما فرّطوا فى جنب اللّه ، قضى الأمر : أي فرغ من الحساب واذكر فى الكتاب : أي اتل فى هذه السورة ، صدّيقا : أي مبالغا فى الصدق لم يكذب قط ، صراطا سويا : أي طريقا مستقيما موصلا إلى نيل السعادة ، وليا : أي قرينا تليه ويليك فى العذاب ، أراغب أنت عن آلهتي : أي أكاره لها ، لأرجمنك : أي لأشتمنك باللسان أو

لأرجمنك بالحجارة ، مليّا : أي دهرا طويلا . قال مهلهل :

فتصدعت صمّ الجبال لموته وبكت عليه المرملات مليّا

حفيا : أي مبالغا فى برّى وإكرامى يقال : حفى به إذا اعتنى بإكرامه ، شقيا : أي خائب المسعى ، لسان صدق : أي ثناء حسنا .

مخلصا : أي مختارا مصطفى ، وقربناه : أي تقريب تشريف وتكريم ، والطور : هو الجبل الذي بين مصر ومدين ، ونجيا : أي مناجيا مكلّما للّه بلا واسطة

إسرائيل : يعقوب عليه السلام ، واجتباه . اصطفاه واختاره ، والسجّد ، واحدهم ساجد ، والبكىّ : وأحدهم باك ، يقال : بكى يبكى بكاء ، وبكيا : قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الجزن : أي لا صوت معه كما قال الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها وما يغنى البكاء ولا العويل

الخلف : (بسكون اللام) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلف (بفتح اللام) ، أضاعوا الصلاة : أي تركوها بتاتا ، اتبعوا الشهوات : أي انهمكوا فى المعاصي واللذات ، غيّا : أي ضلالا ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .

(51/481)

جنات عدن : أي جنات إقامة ، وهذا وصف لها بالدوام ، بالغيب : أي وهى غائبة عنهم ، وعده ، أي ما وعد به من الجنات : مأتيا ، أي يأتيه من وعد به لا محالة ، لغوا أي فضولا من الكلام لا طائل تحته ، سلاما : أي سلاما من اللّه أو من الملائكة .

التنزل : النزول وقتا غب وقت ، ما بين أيدينا : أي ما قدامنا من الزمان المستقبل ، وما خلفنا : أي من الزمان الماضي ، وما بين ذلك : هو الزمان الحاضر ، نسيّا : أي تاركا لك ، واصطبر عليها : أي اثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق كما تقول للمبارز : اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من حملاته ، سميّا : أي مثلا ونظيرا .

يذكر : أي يتذكر ويتفكر ، لنحشرنهم : أي لنجمعنهم ، جثيا : واحدهم جاث وهو البارك على ركبتيه ، شيعة : أي جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه عتيا : أي تكبرا ومجاوزة للحد ، صليّا : أي دخولا فيها من صلّى بالنار إذا قاسى حرها ، واردها : أي مارّ عليها ، حتما : أي واجبا ، مقضيا : أي قضى بوقوعه البتة .

بينات : أي ظاهرات الإعجاز ، مقاما : أي مكانا ومنزلا ، نديّا : أي مجلسا ومجتمعا ، ومثله النادي وقيل هو المجلس الذي يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ، ومنه دار الندوة التي كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم ، والقرن : أهل كل عصر ، والأثاث : متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له ، والرئى المنظر والمراد به النضارة والحسن ، فليمدد : أي فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات ، جندا : أي أنصارا ، والباقيات

الصالحات : أي الطاعات التي تبقى آثارها ، مردّا :

أي مرجعا وعاقبة .

أطلع الغيب ؟ من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أي أظهر له علم الغيب ؟ عهدا :

أي عملا صالحا ، كلا : كلمة زجر وتنبيه إلى الخطأ ، سنكتب ما يقول :

(52/481)

أي سنظهر له أنا كتبنا ، ونمد له من العذاب : أي سنطيل له العذاب الذي يستحقه ونرثه ما

يقول : أي نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله

ومصداقه ، وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد ، فردا : أي لا يصحبه مال ولا ولد .

العز : المنعة والقوة ، سيكفرون : أي سيجحدون ، ضدّا : أي أعداء وأعوانا عليهم والأزّ

والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج والمراد الإغراء على المعاصي والتهييج لها بالتسويلات ،

وتحبيب الشهوات ، فلا تعجل عليهم : أي فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم ، الوفد والوفود

والأوفاد : واحدهم وافد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج ، والمراد

يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا إلى الرحمن : أي إلى دار كرامته وهى الجنة ، وردا : أي

مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نعم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهد شهادة أن لا إله

إلا اللّه ، والتبري من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا اللّه

جئتم : أي فعلتم والإدّ : (بالكسر والفتح) المنكر العظيم ، والإدة : الشدة يقال أدّنى الأمر وآدنى : أثقلنى وعظم علىّ ، والتفطر : التشقق ، وتخر : تسقط وتنهدم ، دعوا : أي نسبوا وأثبتوا ، قال شاعرهم :

إنا بنى نهشل لا ندّعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

عبدا : أي منقادا خاضعا كما يفعل العبيد ، أحصاهم : عدّهم وأحاط بهم ، وعدهم عدّا : أي عد أشخاصهم ، فردا : أي منفردا لا شىء معه من الأنصار والأتباع.

الود : المودة والمحبة ، بلسانك : أي بلغتك ، واللّدّ : واحدهم ألد ، وهو الشديد الخصومة ، وركزا : أي صوتا خفيّا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 16 صـ 32 . 88 ﴾ . باختصار

(53/481)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم

وهي مكية

1 – من ذلك قوله جل اسمه كهيعص حدثنا أبو بكر بن نافع قال نا سلمة بن شبيب قال نا عبد الرزاق قال أنبأنا ابن عيينة عن عطاء بن السايب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى كهيعص قال كاف من كاف وهاء من هاد وياء من حكيم وعين من عليم وصاد من صادق قال عبد الرزاق وأخبرنا معمر عن قتادة في قوله كهيعص قال اسم من أسماء القرآن قال أبو جعفر وقد استقصينا ما في هذا في سورة البقرة

2 – وقوله جل وعز إذ نادى ربه نداء خفيا

قال يونس بن عبيد كان الحسن يرى ان يدعو الإمام في القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع الصوت وتلا يونس إذ نادى ربه نداء خفيا 3 – وقوله جل وعز قال رب إني وهن العظم مني قال أبو زيد يقال وهن يهن ووهن يوهن وقال غيره أي ضعف 4 – ثم قال تعالى واشتعل الرأس شيبا يقال لمن كثر الشيب في رأسه اشتعل رأسه شيبا 5 – ثم قال جل وعز ولم أكن بدعائك رب شقيا أي لم أكن أخيب إذا دعوتك 6 – ثم قال جل وعز وإني خفت الموالي من ورائي

روى هشام عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح قال الكلالة وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال العصبة وقال أبو عبيدة يعني بني العم قال ومن ورائي أي من قدامي وقول مجاهد أولى يقال للعصبة موال أي من يليه في النسب كما أن الأقرباء من يقرب إليه في النسب وبنو

العم داخلون في هذا كما قال الشاعر *

مهلا بني عمنا مهلا موالينا * وقوله أيضا من ورائي من قدامي مخالف لقول أهل

(54/481)

التفسير لأن المعنى عندهم من بعد موتي وقال سعيد بن العاص أمل علي عثمان بن عفان رحمة الله عليه وإني خفت الموالي من ورائي يعني بتشديد الفاء وكسر التاء وإسكان الياء قال ومعناه قلت 7 - ثم قال جل وعز وكانت امرأتي عاقرا أي لا تلد كأن بها عقرا يمنعها من الولاد 8 - ثم قال جل وعز وقد بلغت من الكبر عتيا قال مجاهد أي نحول العظم ويروي أن عبد الله بن مسعود قرأ عسيا

يقال عتا يعتو وعسى يعسو إذا بلغ النهاية في الشدة والكبر قال قتادة كان ابن بضع وسبعين سنة 9 - وقوله جل وعز يرثني ويرث من آل يعقوب روى هشيم عن إسماعيل عن أبي خالد عن أبي صالح قال يكون نبيا كما كانوا أنبياء وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال كانت وراثته علما وكان زكريا من آل يعقوب وروى عن داود بن أبي هند عن الحسن يرثني اي يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة وأبو إسحاق يذهب إلى القول الأول ويبعد أن يكون نبي

يشفق أن يورث ماله للحديث المأثور 10 - وقوله جل وعز يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى أي قلنا يا زكريا 11 - ثم قال جل وعز لم نجعل له من قبل سميا روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال لم يسم أحد قبل يحيى بيحيي غيره وروى سفيان عن أبيه عن حسان بن أبي الأشرس لم نجعل له من قبل سميا قال عدلا وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال مثلا

قال أبو جعفر ويقوي هذا أن أهل التفسير منهم ابن جريج قالوا في قول الله هل تعلم له سميا أي مثلا أي شريكا 12 - وقوله جل وعز قال رب أني يكون لي غلام قال أبو اسحاق أراد أن يعلم من أي جهة يولد له وامرأته عاقر وقد كبر قال أبو جعفر وقد ذكرنا العاقر والعتي قبل هذا 13 - ثم قال جل وعز قال كذلك قال ربك هو علي هين أي الأمر كما قيل لك ثم قال تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا أي شيئا موجودا 14 - ثم قال جل وعز قال رب اجعل لي آية

أي علامة تدل على وقوع ما بشرت به

(55/481)

قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليالي سويا قال عكرمة وقتادة والضحاك أي من غير خرس 15 - وقوله جل وعز فخرج على قومه من المحراب قال أهل التفسير كان موضعا مرتفعا وكذلك هو عند اهل اللغة كأنه على حربة لارتفاعه ومنه قيل محراب للموضع الذي يصلي فيه كأنه أرفع المجلس 16 - ثم قال جل وعز فأوحى إليهم قال قتادة أي فأوما إليهم وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال كتب لهم فذلك الوحي 17 - ثم قال تعالى أن سبحوا بكرة وعشيا روى معمر عن قتادة قال صلوا وذلك معروف في اللغة

ومنه يقال للصلاة سبحة 18 - ثم قال جل وعز يا يحيى خذ الكتاب بقوة في الكلام حذف لعلم المخاطب المعنى فوهبنا له يحيى فقلنا يا يحيى خذ الكتاب بقوه قال مجاهد أي بجد وقال غيره أي بجد وعون من الله

19 - ثم قال تعالى وآتيناه الحكم صبيا قال عبد الرزاق أخبرنا معمر قال بلغنا أن الصبيان قالوا ليحيى وهو صبي تعال حتى نلعب فقال ما للعب خلقنا فقال جل ثناؤه وآتيناه الحكم صبيا

قال أبو جعفر هذا معنى كلامه قال عكرمة الحكم اللب قال قتادة كان ابن سنتين أو ثلاث

20 - ثم قال تعالى وحنانا من لدنا روى شعبة عن سماك عن عكرمة قال الحنان الرحمة وكذلك هو عند أهل اللغة وأصله من حنين الناقة على ولدها قال طرفة * أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشر أهون من بعض *

21 - ثم قال جل وعز وزكاة وكان تقيا روى على بن الحكم عن الضحاك قال الزكاة العقل الزاكي الصالح وقال قتادة الزكاة الصدقة 22 - وقوله جل وعز وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا روى قتادة عن الحسن قال لما لقى يحيى عيسى عليهما السلام قال له يحيى أنت خير مني قال عيسى بل أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت على نفسي 23 - وقوله جل وعز واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا أي تنحت وتباعدت

(56/481)

ونبذت الشئ رميت به وقيل إنها قصدت مطلع الشمس لتغتسل من الحيض وقيل لتخلو بالعبادة 24 - وقوله جل وعز فأرسلنا إليها روحنا روى علي بن الحكم عن الضحاك قال جبريل صلى الله عليه وسلم قال أبو جعفر وهذا قول حسن لأن غيره قال هو عيسى يدل على ذلك قوله تعالى فتمثل لها بشرا سويا وعيسى بشر

25 - وقوله جل وعز قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال أبو اسحاق أي فإن كنت تقيا فستتعظ بين بتعوذي بالله جل وعز منك وقال غيره إن بمعنى ما والأول أولى 26 - ثم قال جل وعز قال إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما

زكيا ويقرأ لأهب لك فمعنى لأهب بالهمز محمول على المعنى أي قال أرسلته لأهب لك ويحتمل ليهب بلا همز أي يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة وقيل المعنى أرسلني الله ليهب لك

27 - وقوله جل وعز قال أني يكون لي غلام ولم يمسسني بشر أي لم يمسسني على جهة تزوج ولم أك بغيا أي لم يقربني على غير حد تزوج 28 - وقوله جل وعز قال كذلك قال ربك هو علي هين أي الأمر كما قيل لك قال الكسائي هو من جاء وجئت به وأجأته وهذا موافق لقول ابن عباس ومجاهد لأنه إذا ألجأها إلى الذهاب إلى جذع النخلة فقد جاء بها إليه قال زهير * وجار سار معتمدا إليكم * أجاءته المخافة والرجاء * والمخاص أهل الحمل

قال أبو عبيد حدثنا عبد الرحمن عن سفيان قال مجاهد كان حمل النخلة عجوة وقال غيره كان جذعا بلا رأس وكان ذلك في الشتاء فأنبت الله له رأسا وخلق فيه رطبا وقال ابن عباس حملت ووضعت في ساعة واحدة وقال غيره أقامت ثمانية أشهر وتلك آية لأنه لا يولد مولود لثمانية أشهر فيعيش قال أبو اسحاق قوله تعالى فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة يدل على طول المكث والله أعلم 29 - وقوله جل وعز فحملته فانتبذت به مكانا قصيا قال مجاهد أي قاصيا

قال الكسائي يقال قصا يقصو أي بعد وأقصاه الله وأقصى الشئ أبعده 30 – وقوله جل وعز فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة قال ابن عباس ومجاهد أي فألجأها المخاض قال الكسائي هو من جاء وجئت به وأجأته وهذا موافق لقول ابن عباس ومجاهد لأنه إذا ألجأها إلى الذهاب إلى جذع النخلة فقد جاء بها إليه قال زهير وجار سار معتمدا اليكم أجاءته المخافة والرجاء * والمخاض الحمل

قال أبو عبيد حدثنا عبد الرحمن عن سفيان قال مجاهد

كان حمل النخلة عجوة وقال غيره كان جذعا بلا رأس وكان ذلك في الالشتاء فأنبت الله له رأسا وخلق فيه رطبا وقال غيره أقامت ثمانية أشهر وتلك آية لأنه لا يولد مولود لثمانية أشهر فيعيش قال أبو اسحاق قوله تعالى فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة يدل على طول المكث والله أعلم 31 – ثم قال تعالى قالت يا ليتني مت قبل هذا أي لو خيرت بين الموت وهذا لاخترت الموت 32 – ثم قال جل وعز وكنت نسيا منسيا قال عكرمة أي حيضة ملقاة

والنسي عند أهل اللغة على ضربين أحدهما ما طال مكثه فنسى والآخر الشئ الحقير الذي لا يعبأ به وقرأ محمد بن كعب وكنت نسئا وقرأ نوف وكنت نسا وهو من نسأ الله في أجله أي أخره قال حماد بن سلمة قال لي عاصم كيف تقرأ فاجأها قلت أقرؤها فأجاءها

فقا إنما هو فاجأ من المفاجأة 33 - وقوله جل وعز فناداها من تحتها

كذا روى عن أبي بن كعب والبراء بن عازب وإبراهيم النخعي أنهم قرءوا من بالفتح وتأولوه على أنه عيسى عليه السلام وقرأ ابن عباس وعمرو بن ميمون والضحاك فناداها من تحتها وفسروه أنه جبريل صلى الله عليه وسلم قال الضحاك كان جبريل أسفل منها فناداها من ذلك الموضع أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا روى سفيان عن أبي اسحاق عن البراء قال السري الجدول والنهر الصغير وكذلك هو في كلام العرب قال لبيد * فتوسطا عرض السرى وصدعا * مسجورة متجاوزا قلامها *

(58/481)

---

34 - وقوله جل وعز فقولي إني نذرت للرحمن صوما روى سلمان التيمي عن أنس قال صمتا وذلك معروف في اللغة يقال لكل ممسك عن كلام أو طعام صائم كما قال الشاعر * خيل صيام وخيل غير صائمة * تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما * صيام ممسكة عن الحركة ساكنة 35 - وقوله جل وعز قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا

قال مجاهد أي عظيما وقال سعيد بن مسعدة أي مختلقا مفتعلا يقال فريت وأفريت بمعنى واحد

قال قطرب زعم أبو خيرة العدوى أن الفري الجديد من الأسقية قال قطرب فكأن معنى

فري بديع وجديد لم يسبق إليه قال وكان معنى افترى على الله جاء بأمر بديع جديد لم يكن

وقال أبو عبيدة فري عجيب 36 - وقوله جل وعز يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء

روى معمر عن قتادة قال كان هارون صالحا من قومهما فقالوا يا شبيهه هارون قال أبو

جعفر ويقوي هذا الحديث المرفوع كانوا يتسمون

بأسماء أنبيائهم والصالحين منهم 37 - ثم قال جل وعز وما كانت أمك بغيا أي فاجرة

والبغاء الزنا 38 - وقوله جل وعز فاشارت إليه والمعنى فأشارت إلى عيسى أن كلموه

ودل على هذا قوله تعالى قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قيل كان ها هنا زائدة لأن

الناس كلهم لا يخلون

من أن يكونوا هكذا وقيل كان بمعنى وقع وخلق

وقيل فيه معنى الشرط أي من كان صبيا فكيف نكلمه 39 - وقوله جل وعز قال إني

عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت روى سفيان عن سماك عن

عكرمة في قوله تعالى آتاني الكتاب قال قضى أن يؤتينه وقيل معنى وأوصاني بالصلاة

والزكاة أي أوصاني بالصلاة والطهارة 40 - وقوله تعالى ذلك عيسى بن مريم أي ذلك

الذي قال هذا عيسى بن مريم عبد الله 41 - ثم قال جل وعز قول الحق الذي فيه يمترون

حدثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدثنا سلمة قال حدثنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة في قوله تعالى ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون قال اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال أحدهم هو الله هبط إلى الأرض أحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية قال فقال الثلاثة كذبت

ثم قال اثنان منهم للثالث قل فيه قال هو ابن الله وهم النسطورية قال فقال الاثنان كذبت ثم قال الاثنان للآخر قل فيه قال هو ثالث ثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله وهم الإسرئيلية حديث ملوك النصارى قال الرابع كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون فكانت لكل رجل منهم اتباع على ما قال فاقتتلوا فظهروا على المسلمين فذلك قول الله جل وعز ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس

قال قتادة وهم الذين قال الله فاختلف الأحزاب من بينهم أختلفوا فيه فصاروا أحزابا 42 – وقوله جل وعز فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم روى مبارك عن الحسن قال يوم القيامة 43 – وقوله جل وعز أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا روى سعيد عن قتادة قال ذلك والله يوم القيامة سمعوا حين لا ينفعهم السمع وأبصروا حين لا ينفعهم البصر قال أبو جعفر والمعنى عند أهل اللغة ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة لأنهم عاينوا ما لا يحتاجون معه إلى

فكر ولا روية 44 - وقوله تبارك وتعالى وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون

(60/481)

روى سفيان عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيئ بالموت في صورة كبش أملح فينادي يا أهل الجنة فيشرئبون ينظرون ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون ينظرون فيقال أتعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وليس منهم إلا من يعرفه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود لا موت فيه ويا أهل النار خلود لا موت فيه فذلك قول الله جل وعز وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر

وروى أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي

سعيد الخدري عن النبي (ص) في قوله وهم في غفله وهم لا يؤمنون قال في الدنيا وحدثنا أسامة بن أحمد قال حدثنا هارون بن سعيد الأيلي قال حدثني أنيس بن عياض قال أخبرني محمد بن عمرو وعن أبي سلمة عن أي هريرة أن رسول الله (ص) قال يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف عل الصراط ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه ثم يقال يا أهل النار فيطلعون فرحين مستبشرين رجاء أن يخرجوا من

مكانهم الذي هم فيه فيقال هل تعرفون هذا فيقولون نعم يا ربنا هذا الموت فيؤمر به فيذبح على الصراط ثم يقال يا أهل الجنة خلودا فيما تجدون لا موت فيه أبدا 45 - وقوله جل وعز واذكر في الكتاب ابراهيم

والمعنى واذكر في الكتاب الذي أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره

46 - ثم قال جل وعز إنه كان صديقا نبيا صديق مأخوذ من الصدق وفيه معنى المبالغة والتكثير يقال لمن صدق بالله وأنبيائه وفرائضه وعمل بها صديق ومنه قيل لأبي بكر صديق 47 - وقوله جل وعز يا أبت لا تعبد الشيطان والمعنى لا تطعه فيما يامرك به من الكفر والعصيان فتكون بمنزلة من عبده وروى علي بن الحكم عن الضحاك لئن لم تنته لأرجمنك بالقول قال أبو جعفر وذلك معروف في اللغة يقال رجمه ورماه إذا شتمه ومنه قوله تعالى والذين يرمون المحصنات 48 - ثم قال جل وعز واهجرني مليا

(61/481)

قال سعيد بن جبير ومجاهد أي حينا وقال الحسن أي زمانا طويلا وقال عكرمه أي دهرا وقال الضحاك أي سالما لا تصيبك مني معرة قال أبو جعفر القول عند أهل اللغة أنه بمعنى زمانا

ودهرا قال الكسائي يقال هجرته مليا وملوة وملوة وملاوة وملاوة قال أبو جعفر ومنه تمل حبيبك أي عش معه دهرا ومنه أمليت له ومنه قيل لليل والنهار الملوان كما قال الشاعر أمل عليها بالبلى الملوان *

49 - ثم قال جل وعز سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا الحفي اللطيف البار يقال حفي به وتحفى إذا بره أي كان يجيبني إذا دعوته 50 - وقوله جل وعز ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا أي أبقينا عليهم ثناء حسنا قال أبو جعفر ومعروف في اللغة أن يجعل اللسان موضع القول لأن القول به يكون كما قال الشاعر * إني أتاني لسان لا أسر بها * من علو لا عجب منها ولا سخر *

51 - وقوله جل وعز واذكر في الكتاب موسى أنه كان مخلصا أي أخلصناه فجعلناه مختارا خالصا من الدنس

ومعنى مخلصا بكسر اللام وحد الله عزوجل بطاعته وأخلص نفسه من الدنس 52 - وقوله جل وعز وقربناه نجيا حدثنا الحسن بن عمر الكوفي قال حدثنا هناد قال حدثنا وكيع وقبيصة عن سفيان عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله وقربناه نجيا قال أدنى حتى سمع صريف القلم 53 - وقوله جل وعز واذكر في الكتاب ادريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا قيل إنه سأل ملك الموت أن يريه النار فأراه إياها ثم

سأله أن يدخله الجنة فأدخله إياها ثم قال له اخرج فقال كيف أخرج وقد قال الله وما هم منها بمخرجين قال أبو جعفر فيجوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس ثم نزل القرآن به وقيل معناه في المنزلة والرتبة وأصح من هذين القولين لعلو إسنادة وصحته ما رواه سعيد عن قتادة قال حدثنا أنس بن مالك بن صعصعة ان النبي (صلى) لما أسرى به قال رأيت إدريس في السماء الرابعة وروى سفيان عن هارون عن أبى سعيد الخدري ورفعناه مكانا عليا قال السماء الرابعة وروى الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن إساف

قال كنا عند كعب الأحبار إذ أقبل عبد الله بن عباس فقال هذا

ابن عم نبيكم فوسعنا له فقال يا كعب ما معنى ورفعناه مكانا عليا فقال كعب إن إدريس صلى الله عليه وسلم كان له صديق من الملائكة وأوحى الله إليه إني أرفع لك كل يوم مثل عمل أهل الأرض فقال إدريس للملك كلم لي ملك الموت حتى يؤخر قبض روحي فحمله الملك تحت طرف جناحه فلما بلغ السماء الرابعة لقى ملك الموت فكلمه فقال اين هو فقال ها هو ذا فقال من العجب إني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة فقبضها هناك 54 – وقوله جل وعز فخلف من بعدهم خلف قال أبو عبيدة حدثنا حجاج عن ابن جريج عن

مجاهد قال ذلك عند قيام الساعة وذهاب صالحي هذه الأمة أمة محمد ينزو بعضهم على بعض في الأزقة زنا

قال أبو جعفر الخلف بتسكين اللام لا يستعمل إلا للردئ كما قال لبيد ذهب الذين يعاش في أكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الأجرب فإذا قلت خلف بتحريك اللام فهو للجيد كم يقال جعل الله فيك خلفا من أبيك 56 - ثم قال جل وعز أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات

قال القاسم بن مخيمرة أضاعوها أخروها عن وقتها ولو تركوها لكفروا وقيل أضاعوها تركوها البتة

(63/481)

وهذا أشبه لقوله بعد إلا من تاب وآمن وهذا يدل على أنهم كفروا 57 - ثم قال جل وعز فسوف يلقون غيا روى سفيان عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال هو واد في جهنم قال أبو جعفر والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون جزاء الغي كما قال جل ذكره ومن يفعل ذلك يلق أثاما ويجوز أن يكون الوادي يسمى غيا لأن الغاوين يصيرون إليه

58 – وقوله جل وعز جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب جنات إقامة يقال عدن بالمكان إذا قام به ومنه قيل معدن لمقام أهله به شتاء وصيفا لا ينتجعون منه 59 – وقوله جل وعز إنه كان وعده مأتيا مأتي مفعول من الإتيان وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه كما تقول وصل إلي من فلان خير ووصلت منه إلى خير فالضعيف في العربية يقول مفعول بمعنى فاعل

60 – وقوله جل وعز لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما اللغو الباطل وما يؤثم فيه وما لا معنى له والسلام كل ما يسلم منه وهو اسم جامع للخير أي لا يسمعون إلا كل ما يحبون

61 – ثم قال جل وعز لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا روى الضحاك عن ابن عباس قال في مقادير الليل والنهار قال أبو جعفر ومعنى هذا أن الجنة ليست فيها غداة ولا عشية ولكن المعنى في مقادير هذه الأوقات وقال قتادة كانت العرب إذا وجد الرجل منهم ما يأكل بالغداة والعشي عجب به فأعلمهم الله أن ذلك في الجنة 62 – وقوله جل وعز وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك

وروى عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام لم لا تزورنا أكثر مما تزورنا فأنزل الله وما نتنزل إلا بأمر ربك إلى آخر الآية وكان هذا الجواب له وروى أبو حصين عن سعيد بن جبير في قوله ما بين أيدينا قال من أمر الآخرة وما خلفنا من أمر الدنيا وما بين ذلك ما بين الدنيا والآخرة أي البرزخ

63 - وقوله عز وجل وما كان ربك نسيا قيل معناه لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي وقيل هو عالم بما كان وبما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع حافظ له لم ينس منه شيئا 64 - وقوله جل وعز هل تعلم له سميا

روى اسرائيل عن سماك عن عكرمة ابن عباس قال هل تعلم أحدا سمي الرحمن سواه قال أبو جعفر وهذا أجل إسناد علمته روي في هذا الحرف وهو قول صحيح لا يقال الرحمن إلا لله وقد يقال لغير الله رحيم وقد بينا لم لا يقال الرحمن إلا لله في سورة الحمد وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد هل تعلم له سميا قال مثلا وروى حجاج عن ابن يجريج لأنه هل تعلم له سميا قال لا شريك له لا مثل وقيل هل تعلم أحدا تقول له الله إلا هو قال أبو جعفر وهذه الأقوال متقاربة وإنما المعنى هل تعلم أحدا يقال له هذا على استحقاق إلا الله لأنه الذي وسعت رحمته كل شئ وهو القادر والرازق وقيل المعنى إن اسمه المذكور في هذا الآية لا يسمى به

غيره وهو رب السموات والأرض وما بينهما 65 - وقوله جل وعز ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أي لا يتفكر وينظر ويذكره بعلم ويتبينه أخبرنا

66 - وقوله جل وعز فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا قال مجاهد وقتادة أي على ركبهم

والمعنى أنهم لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام 67 - وقوله جل وعز ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا روى سفيان عن علي بن الأقمر عن أبي الأحوص قال يبدأ بالأكابر جرما ومعنى هذا القول نبدأ بتعذيب أكبرهم جرما ثم الذي يليه ثم الذي يليه ثم الذي يليه قال مجاهد من كل شيعة من كل أمة عتيا أي كفرا 68 - وقوله جل وعز وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا في هذه الآية خمسة أقوال أ قيل ورودها دخولها لأن بعده ونذر الظالمين فيها وإنما يقال نذر لما حصل فينجي الله الذين اتقوا

(65/481)

ويصيرون إلى رحمته فيعرفون مقدار ما خلصوا منه لأنهم قد دخلوا النار وخلصوا منها وهذا قول ابن عباس وإسناده جيد

روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال تمارى ابن عباس ونافع الأزرق فقال نافع ليس الورود الدخول وقال ابن عباس هو الدخول أرأيت قول الله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله تعالى جهنم أنتم لها واردون أوردوا أم لا وقوله تعالى وبئس الورد المورود فأما أنا وأنت

فسنردها وأرجو أن يخرجني الله منها ولا يخرجك منها لتكذيبك فقال له نافع ربنا انك يا من تدخل النار فقد أخزيته روى معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحلة القسم يعني الورود

ب وقيل يردها المؤمنون وهي جامدة وروى سفيان عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان قال إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا يا رب ألم توعدنا أنا نرد النار فيقول قد وردتموها وهي جامدة ج وقيل يعني القيامة د وقيل وإن منكم إلا واردها يراد به المشركون واستدل صاحب هذا القول بأن عمر بن الوليد روى عن عكرمة أنه قرأ

وإن منكم إلا واردها والقول الخامس أن ورودها بلاغها والممر بها روى معمر عن قتادة وإن منكم إلا واردها قال الممر بها وروى الحسن بن مسلم عن عبيد الله بن عمير وإن منكم إلا واردها قال حضورها

فهذه خمسة أقوال والله أعلم بما أراد إلا أنه معروف في كلام العرب أن يقال وردت كذا أي بلغته ولم أدخله قال زهير * فلما وردن الماء زرقا جمامة * وضعن عصي الحاضر المتخيم * وقرأ أبي بن كعب ثم ننجي الذين اتقوا أي في ذلك الموضع قال أبو جعفر وأبين ما في هذه الأقوال قول من قال وإن منكم إلا واردها إنها القيامة وقوله تعالى فوربك لنحشرنهم يدل على ذكر القيامة فكنى عنها بهذا وكذلك ذكر جهنم يدل على القيامة لأنها فيها والله

جل وعز يقول لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فيبعد أن يكون مع

هذا دخول النار

(66/481)

وقرأ ابن عباس ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا 69 - وقوله جل وعز وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا

روى أبو ظبيان عن ابن عباس في قوله أي الفريقين خير مقاما قال منزلا وأحسن نديا قال مجلسا قال الكسائي الندي والنادي المجلس

قال أبو جعفر وذلك معروف في اللغة يقال ندوت القوم أندوهم أي جمعتهم ومنه قيل دار الندوة لأنهم كانوا يجتمعون فيها إذا حزبهم الأمر ومنه قوله تعالى وتأتون في ناديكم المنكر 70 - وقوله جل وعز وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا روى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال الأثاث المتاع والرئى المنظر قال أبو جعفر والأثاث في اللغة المتاع وقال الأحمر واحدته أثاثة

وقال الفراء لا واحد له وكذلك الرئى المنظر من رأيت أي ما ترى في صورة الإنسان ولباسه ويقرأ وريا بلا همزة وهو جيد على

تخفيف الهمز وهو حسن ها هنا لتتفق رؤوس الآيات ويجوز أن يكون من الري والنعمة وقال الأخفش يجوز أن يكون من ري المطر والزي بالزاي الهيئة والحسن يقال زيت المرأة أي زينتها وهيأتها 71 - وقوله جل وعز قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا يقال ما معنى الأمر ها هنا قال أبو جعفر الجواب أن هذا أبلغ فلو قلت إن تجئني فلأكرمك لو كان أبلغ من قولك إن تجئني فأكرمك وإنما صار أبلغ لأن فيه معنى الإلزام

72 - ثم قال جل وعز حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة العذاب ها هنا أن ينصر الله المسلمين عليهم فيعذبوهم يكون بالقتل والسبي والساعة القيامة أي وأما تقوم القيامة فيصيرون إلى النار فسيعلمون من هو شر مكانا إذا صاروا إلى النار وأضعف جندا إذا نصر الله المسلمين عليهم 73 - ثم قال جل وعز ويزيد الله الذين اهتدوا هدى قيل نزيدهم هدى بالناسخ والمنسوخ وقيل نزيدهم هدى مجازاة وقد ذكرنا معنى الباقيات الصالحات في سورة

الكهف

74 - وقوله جل وعز أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا قال أبو جعفر حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام قال حدثنا أبو الأزهر قال حدثنا روح ابن عبادة قال شعبة عن سليمان عن أبي الضحى عن مسروق عن خباب قال كنت قينا في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل حتى اجتمعت لي عليه دراهم فجئت أتقاضاه فقال لا أقضيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقلت لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث قال وإني لمبعوث قلت نعم قال فإنه سيكون لي ثم مال وولد فأقضيك فأنزل الله عز وجل أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا إلى آخر القصة قال أبو جعفر وهذا معنى الحديث

75 - وفي قوله تعالى أم أتخذ عند الرحمن عهدا أقوال قال سفيان عملا صالحا وقيل العهد ها هنا توحيد الله والإيمان به وقيل العهد ها هنا الوعد بما قال وقال الأسود بن زيد قال عبد الله يقول الله عز وجل يوم القيامة من كان له عندي عهد فليقم فقالوا يا أبا عبد الرحمن فعلمنا قال قولوا اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك عهدا في هذه الحياة الدنيا إنك إن تكلني إلى عملي تقربني من الشر وتباعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعله لي عندك عهدا تؤديه إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد

قال أبو جعفر هذه الأقوال متقاربة والعهد في اللغة يكون الأمان ومنه أهل العهد ومنه قول الله تعالى قال لا ينال عهدي الظالمين قال أبو عبيد كأنه قال لا أؤمنهم من عذاب يوم القيامة وكذلك قول قتادة قال في الآخرة فأما في الدنيا فقد أكلوا وشربوا وعاشوا وأبصروا فإذا قيل

للتوحيد عهد فلأنه يؤمن به وكذلك الوعد 76 - وقوله جل وعز ونرثه ما يقول ويأتينا فردا قال قتادة أي نرثه ما عنده أي قوله لأوتين مالا وولدا قال وفي قراءة ابن مسعود ونرثه ما عنده وقيل نبقي عليه الاثم فكأنه موروث قال أبو جعفر قيل هذا مفسر في حديث خباب قيل

(68/481)

والمعنى والله أعلم نسلبه ماله وولده يوم القيامة ألا ترى أن

بعده ويأتينا فردا قال أبو جعفر وأصح ما قيل في هذا أن معنى ونرثه ما يقول نحفظ عليه ما يقول حتى نوفيه عقوبته عليه ومن هذا حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء ومنه وأورثكم أرضهم وديارهم 77 - وقوله جل وعز واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا أي أعوانا 78 - ثم قال سبحانه كلا سيكفرون بعبادتهم كلا عند أهل العربية تنقسم قسمين أحدهما أن يكون ردعا وتنبيها وردا لكلام وهي ها هنا كذلك أي ارتدعوا عن هذا وتنبهوا على وجه الضلالة فيه فإذا كانت كذا فالوقوف عليها التمام وتكون ردعا وتنبيها ولا تكون ردا لكلام نحو قوله تعالى كلا إن الإنسان ليطغى 79 - وقوله جل وعز ويكونون عليهم ضدا أي أعوانا قال مجاهد أي تكون أوثانهم عليهم

في النار تخاصمهم وتكذبهم

80 - وقوله جل وعز ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم

أزا في معناه قولان أحدهما لم تعصمهم من الشياطين والقول الآخر قيضنا لهم الشياطين

مجازاة على كفرهم قال الله جل وعز ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ومعنى

أرسلنا في اللغة هاهنا سلطنا ثم قال سبحانه تؤزهم أزا قال علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس قال تغريهم إغراء قال ابن جريج الشياطين تؤز الكافرين إلى الشر امضوا

امضوا حتى توقعهم في النار قال قتادة تؤزهم أي تزعجهم إلى المعاصي قال أبو جعفر هذه

الأقوال متقاربة المعاني وأصله من أزرت الشئ أوزة أزا وأزيزا أي حركته ومنه الحديث إن

النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل أي من البكاء 81 - وقوله

جل وعز فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا روى هشيم عن أبي يزيد عن أبي جعفر محمد

بن علي في قوله تعالى إنما نعد لهم عدا قال كل شئ حتى

الأنفاس

82 – وقوله جل اسمه يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا قال أهل التفسير أي ركبانا قال النعمان بن سعد قرأ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا فقال أما والله لا يحشرون على أقدامهم ولكنهم يؤتون بنوق لم تر الخلائق مثلها عليه أرحلة الذهب وأزمتها الزبرجد ثم تنطلق بهم إلى الجنة حتى يقرعوا بابها 83 – وقوله جل وعز ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا قال أهل التفسير أي عطاشا قال أهل اللغة هو مصدر وردت فالتقدير عندهم ذوي ورد وقد حكوا أنه يقال للواردين الماء ورد فلما كانوا يردون على

النار كما يرد العطاش على الماء قيل لهم ورد فعلى هذا يوافق اللغة 84 – ثم قال جل وعز لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا أن جعلت من بدلا من الواو كان المعنى لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا فإنه يشفع وإن جعلته استثناء ليس من الأول كان المعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا فإنه يشفع فيه

85 – وقوله جل وعز وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا قال مجاهد أي عظيما وذلك معروف في اللغة يقال جاء شيئا إدا وجاء بشئ إد وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي إدا بفتح الهمزة والكسر أعرف قال أبو عبيد ومنه الحديث أن عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله لما هم بقتل علي رضوان الله عليه ذاكر فلانا قال أبو عبيد وقد سماه فقال ثكلتك أمك لقد جئت شيئا إدا أتقتل علي بن أبي طالب 86 – وقوله جل وعز تكاد السماوات يتفطرن

منه قال مجاهد الإنفطار الانشقاق قال أبو جعفر وذلك معروف في اللغة يقال فطر ناب البعير

إذا انشق اللحم وخرج 87 - وقوله جل وعز وتخر الجبال هدا أي سقوطا

88 - وقوله جل وعز أن دعوا للرحمن ولدا أي لأن دعوا للرحمن ولدا ومن أن دعوا

89 - وقوله جل وعز إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا

روى مجاهد عن ابن عباس قال محبة قال مجاهد يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه

90 - ثم قال جل وعز فإنما يسرناه بلسانك

(70/481)

أي سهلناه وأنزلناه بلغتك

91 - وقوله جل وعز وتنذر به قوما لدا روى سفيان عن إسماعيل عن أبي صالح قال

عوجا عن الحق وقال مجاهد الألد الظالم الذي لا يستقيم وقال الحسن اللد الصم وقال أبو

عبيدة هو الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل وأنشد * إن تحت الأحجار حدا ولينا *

وخصيما ألد ذا مغلاق * ويروى معلاق بالعين

قال أبو جعفر أحسن هذه الأقوال الأول واللديدان مع صفحتا العنق فكأنه تمثيل

92 - وقوله جل وعز وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد يقال هل

أحسست صاحبك أي هل أبصرته

93 - ثم قال جل وعز أو تسمع لهم ركزا

روى علي بن الحكم عن الضحاك قال صوتا قال أبو جعفر الركز في اللغة الصوت الخفي الذي لا يكاد يتبين

وصلى الله على خير خلقه محمد نبيه وعلى آله وسلم

تمت سورة مريم ولله الحمد والمنة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 367.307 ﴾

(71/481)

وقال الفراء :

ومن سورة مريم

قوله : ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا [1] الذكر مرفوع بكهيعص. وإن شئت أضمرت : هذا ذكر رحمة ربّك. والمعنى ذكر ربّك عبده برحمته فهو تقديم وتأخير. (زَكَرِيَّا) فى موضع نصب.

وقوله : وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا [4] يقول : لم أشق بدعائك، أجبتنى إذ دعوتك.

وقوله : الْمَوالِيَ [5] هم بنو (عم «1» الرجل) وورثته والولىّ والمولى «2» فى كلام العرب واحد «3» وفى قراءة عبد اللّه (إنّما مولاكم اللّه «4» ورسوله) مكان (وَلِيُّكُمُ) وذكر فى خفّت «5» الموالي أنه قلّت ، ذكر عن عثمان (بن عفان «6») .

وقوله 108 ب : يرثنى [6] تقرأ جزما ورفعا : قرأها يحيى «7» بن وثّاب جزما والجزم الوجه لأن

---

(1) ا : «العم» .

(2) ا : «الموالي» .

(3) وهو هنا ابن العم . [. . . . .]

(4) الآية 55 سورة المائدة .

(5) كذا . وكأن الأصل : «ذكر فى خفت خفت» والمراد أن هذه الصيغة «خفت» من الخفة رويت عن عثمان رضى اللّه عنه .

(6) ا : «رحمه اللّه» .

(7) وهى قراءة أبى عمرو والكسائي وافقهما اليزيدي والشنبوذى . وقرأ الباقون بالرفع .

(يَرِثُنِي) من آية سوى الأولى فحسن الجزاء . وإذا رفعت كانت صلة للولىّ : هب لى الذي يرثنى .

ومثله (ردءا «1» يصدّقنى) و(يصدّقنى) .

وإذا أوقعت الأمر على نكرة : بعدها فعل فى أوّله الياء والتّاء والنون والألف «2» كان فيه وجهان : الجزم على الجزاء والشرط ، والرفع على أنه صلة للنكرة بمنزلة الذي ، كقول القائل : أعرنى دابّة أركبها ، وإن شئت أركبها : وكذلك (أَنْزِلْ «3» عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا) ولو قال (تكن «4» لنا) كان صوابا . فإذا كان الفعل الذي بعد النكرة ليس للأوّل ولا يصلح فيه إضمار الهاء إن كان الفعل واقعا على الرجل فليس إلّا الجزم كقولك : هب لى ثوبا أتجمّل «5» مع الناس لا يكون (أتجمّل) إلّا جزما لأن الهاء لا تصلح فى أتجمل . وتقول : أعرنى دابّة أركب يا هذا لأنك تقول أركبها فتضمر الهاء فيصلح ذلك .

وقوله : لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا [7] لم يسمّ أحد بيحيى قبل يحيى بن زكريّا .

وقوله : مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا «6» و(عِتِيًّا) «7» وقرأ ابن عباس (عسيّا) وأنت قائل للشيخ إذا كبر ، قد عتا وعسا كما يقال للعود إذا يبس .

وقوله : قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ [9] أي خلقه علىّ هيّن .

وقوله : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ [10] (أن) فى موضع رفع أي آيتك هذا .

و(تُكَلِّمَ) منصوبة بأن ولو رفعت (كما قال «8» : أفلا يرون إن لا يرجع إليهم قولا :) كان صوابا .)

---

(1) الآية 34 سورة القصص . وقراءة الرفع لحمزة وعاصم ، وقراءة الجزم للباقين .

(2) ا : «الأول» والألف أول حروف الهجاء .

(3) الآية 114 سورة المائدة .

(4) ورد الجزم عن المطوعى أحد رواة الأعمش فى القراءات الشاذة .

(5) فى ش : «أتحمل به» ولو كان كذلك لصح الرفع لوجود الرابط .

(6) كسر العين لحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وافقهم الأعمش ، والضم للباقين .

(7) كسر العين لحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وافقهم الأعمش ، والضم للباقين .

(8) فى ا بدل ما بين القوسين : «تكلم كان صوابا كما قال : ا فلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا» .

وإذا رأيت (أن) الخفيفة «1» معها (لا) فامتحنها بالاسم المكنى مثل الهاء والكاف . فإن صلحا كان فى الفعل الرفع والنصب وإن لم يصلحا لم يكن فى الفعل إلّا النصب ألا ترى أنه

جائز أن تقول : آيتك أنّك لا تكلّم الناس والذي لا يكون إلّا نصبا .

قوله (يُرِيدُ اللَّهُ «2» أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا) لأن الهاء لا تصلح فى (أن) فقس على هذين .

وقوله (ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا) يقال : من غير خرس .

وقوله وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا [13] الحنان : الرحمة (ونصب «3» حنانا أي) وفعلنا ذلك رحمة لأبويه «4» (وَزَكاةً) يقول : وصلاحا . ويقال : وتزكية لهما .

وقوله : إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا

[16] يقال «5» : فى مشرقة «6» دار أهلها . والعرب تقول : هو منى نبذة «7» ونبذة .

وقوله . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً

[17] كانت إذا أتاها الحيض ضربت حجابا .

وقوله «8» : فَأَوْحى إِلَيْهِمْ [11] أي أشار إليهم . والعرب تقول : أوحى إلىّ ووحي وأوما إلىّ وومى بمعنى واحد ، ووحي يحى و(ومى يمى) «9» وإنه ليحى إلى وحيا ما أعرفه .

وقوله : لِأَهَبَ لَكِ

[19] الهبة من اللّه ، حكاها جبريل لها ، كأنه هو الواهب . وذلك كثير فى القرآن خاصّة . وفى قراءة «10» عبد اللّه (ليهب لك) والمعنى : ليهب اللّه لك . وأما تفسير

(1) ا : «المخففة» .

(2) الآية 176 سورة آل عمران . [. . . . .]

(3) سقط ما بين القوسين في ا .

(4) ا : «لأبويك» .

(5) ا : «يقول» .

(6) المشرقة – مثلثة الراء – : موضع القعود فى الشمس بالشتاء .

(7) أي فى ناحية .

(8) هذا فى الآية 11 ، فهو مذكور فى غير مكانه .

(9) هما فى الأصل : ومأ يمأ دخلهما التخفيف .

(10) هى قراءة أبى عمرو ويعقوب . وفى بعض الروايات عن نافع .

(74/481)

(لِأَهَبَ لَكِ)

فإنه كقولك أرسلنى بالقول لأهب لك فكأنه قال : قال : ذا لأهب لك والفعل للّه تعالى .

وقوله وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا [20] البغيّ : الفاجرة .

وقوله : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ [21] خلقه علىّ هيّن .

وقوله : مَكاناً قَصِيًّا [22] (قاصيا) بمعنى واحد . أنشدنى بعضهم .

لتقعدنّ مقعد القصىّ منى ذى القاذورة المقلىّ «1»

وقوله : فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ [23] من جئت كما تقول : فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة . فلمّا ألقيت الباء جعلت فى الفعل ألفا كما تقول : آتيتك زيدا تريد : أتيتك بزيد . ومثله «2» (آتُونِي زُبَرَ «3» الْحَدِيدِ) فلمّا ألقيت الباء زدت ألفا «4» وإنما هو ائتونى بزبر الحديد . ولغة أخرى لا تصلح فى الكتاب «5» وهى تميميّة : فأشاءها المخاض ، ومن أمثال العرب «6» : شرّ ما ألجأك إلى مخّة عرقوب . وأهل الحجاز وأهل العالية يقولون : شرّ ما أجاءك إلى مخّة عرقوب ، والمعنى واحد .

وتميم تقول : شرّ ما أشاءك إلى مخّة عرقوب .

وقوله (وَكُنْتُ نَسْياً) 109 أصحاب عبد اللّه قرءوا «7» نسيا) بفتح «8» النون .

وسائر العرب تكسر النون وهما لغتان مثل الجسر والجسر والحجر والحجر والحجر والوتر والوتر . والنّسى : ما تلقيه المرأة

---

(1) سبق هذا الرجز فى سورة إبراهيم (ص 66) .

(2) ا : «منه» .

(3) الآية 96 سورة الكهف .

(4) سقط الواو فى ا .

(5) ا : «القراءة» .

(6) فى اللسان عن الأصمعى : «وذلك أن العرقوب لامخ فيه ، وإنما يحوج إليه من لا يقدر على شىء» . [. . . . .]

(7) ش : «يقولون» .

(8) الفتح قراءة حفص وحمزة . والكسر قراءة الباقين .

(75/481)

من خرق اعتلالها (لأنه «1» إذا رمى به لم يردّ) وهو اللقى مقصور . وهو النّسى «2» ولو أردت بالنّسي مصدر النسيان كان صوابا .

بمنزلة قولك : حجرا محجورا : حراما محرما ، نسيا منسيّا . والعرب تقول : نسيته نسيانا ، ونسيا ، أنشدنى بعضهم :

من طاعة الربّ وعصى الشيطان

يريد : وعصيان الشيطان «3» . وكذلك أتيته إتيانا وأتيا . قال الشاعر :

أتى الفواحش فيهم معروفة ويرون فعل المكرمات حراما «4»

وقوله : فَناداها مِنْ تَحْتِها [24] و(ناداها من «5» تحتها) وهو الملك فى الوجهين جميعا . أي فناداها جبريل من تحتها ، وناداها من تحتها : الذي تحتها وقوله (سَرِيًّا) السرىّ : النهر .

وقوله : وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ [25] العرب تقول : هزّ به وهزّه ، وخذ الخطام وخذ بالخطام ، وتعلّق زيدا وتعلّق بزيد ، وخذ برأسه وخذ رأسه ، وامدد بالحبل (وامدد الحبل «6») قال اللّه (فَلْيَمْدُدْ «7» بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ) معناه : فليمدد سببا (إلى السّماء) وكذلك فى قوله (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) لو كانت : وهزّى جذع النخلة كان صوابا .

---

(1) ما بين القوسين ورد فى ا بعد قوله بعد : «وهو النسى» .

(2) بعده فى ش : «والنسى مثله» ولا حاجة إليه .

(3) سقط فى ا .

(4) «معروفة» جاء تأنيثها وهى خبر عن (أتى» لاكتسابه التأنيث من إضافته إلى «الفواحش» .

(5) القراءة الأولى بكسر الميم من (من) لنافع وحفص وحمزة والكسائي وأبى جعفر وروح وخلف وافقهم الحسن والأعمش . والقراءة بالفتح للباقين .

(6) الخطام : ما يوضع فى أنف البعير ليقتاد به .

(7) الآية 15 سورة الحج .

وقوله : (يسّاقط) ويقرأ (تسّاقط «1» عليك) وتساقط «2» وتساقط «3» (بالتاء) «4» فمن قرأها يسّاقط ذهب إلى الجذع . وقد قرأها البراء بن عازب بالياء ، وأصحاب عبد اللّه (تساقط) يريدون النخلة ، فإن شئت شدّدت وإن شئت خففت . وإن قلت (تساقط عليك) كان صوابا . والتشديد والتخفيف فى المبدوء بالتاء والتشديد فى المبدوء بالياء خاصّة . ولو قرأ قارئ تسقط عليك رطبا يذهب إلى النخلة أو قال يسقط عليك رطبا يذهب إلى الجذع كان صوابا .

وقوله (جَنِيًّا) الجنيّ والمجنىّ واحد وهو مفعول به .

وقوله : وَقَرِّي عَيْناً [26] جاء فى التفسير : طيبى نفسا . وإنما نصبت العين لأن الفعل كان لها ، فصيّرته للمرأة . معناه : لتقرر عينك ، فإذا حوّل الفعل عن صاحبه إلى ما قبله نصب صاحب الفعل على التفسير . ومثله (فَإِنْ طِبْنَ «5» لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً) وإنما معناه : فإن طابت أنفسهنّ لكم ، وضاق به ذرعا وضقت به ذرعا ، وسؤت به ظنّا إنما (معناه «6» : ساء به ظنّى) وكذلك مررت برجل حسن وجها إنما كان «7» معناه : حسن وجهه ، فحوّلت فعل الوجه إلى الرجل فصار الوجه مفسّرا .

فابن على ذا ما شئت . وقوله : (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً) أي صمتا .

وقوله : لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا [27] الفرىّ : الأمر العظيم . والعرب تقول : يفرى الفرىّ إذا هو أجاد العمل أو السّقى ففضل الناس قيل هذا فيه . وقال الراجز «8» .

(1 ، 2 ، 3) قراءة (يساقط) بالياء وتشديد السين لأبى بكر فى بعض طرقه وليعقوب . (تساقط) بفتح التاء ، وتخفيف السين لحمزة وافقه الأعمش . وقرأ حفص (تساقط) بضم التاء وتخفيف السين . وقرأ الباقون بفتح التاء وتشديد السين (تساقط) .

(4) سقط ما بين القوسين فى ا .

(5) الآية 4 سورة النساء .

(6) فى ش : «إنما هو ساء به ظنا» وقد يكون الأصل : «ظنه» فى مكان «ظنه» ليستقيم الكلام .

(7) سقط فى ش . [. . . . .]

(8) فى اللسان عن الفراء أنه زرارة بن صعب يخاطب العامرية .

قد أطعمتنى دقلا حجريّا قد كنت تفرين به الفريّا «1»

أي قد كنت تأكلينه أكلا كثيرا «2» .

وقوله : يا أُخْتَ هارُونَ [28] كان لها أخ يقال له هارون من خيار بنى إسرائيل ولم يكن من أبويها فقيل : يا أخت هارون فى صلاحه . أي إن أخاك صالح وأبواك أبواك كالتغيير لها . أي أهل بيتك صالحون وقد أتيت أمرا عظيما .

وقوله : فَأَشارَتْ إِلَيْهِ [29] إلى ابنها . ويقال إن المهد حجرها وحجرها . ويقال : سريره والحجر أجود «3» .

وقوله : وَجَعَلَنِي مُبارَكاً [31] يتعلم منى حيثما كنت .

وقوله جَبَّاراً [32] الجبّار : الذي يقتل على الغضب ، ويضرب على الغضب .

وقوله وَبَرًّا بِوالِدَتِي نصبته على وجعلنى نبيّا وجعلنى برّا . متبع للنبى كقوله (وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً «4») ثم قال (وَدانِيَةً «5» عَلَيْهِمْ ظِلالُها) (دانية) مردودة على (مُتَّكِئِينَ «6» فِيها) كما أن البرّ مردودة على قوله (نبيّا) .

وقوله : وَالسَّلامُ عَلَيَّ [33] جاء فى التفسير السّلامة علىّ .

وقوله : قَوْلَ الْحَقِّ [34] فى قراءة عبد اللّه (قال اللّه الحقّ) والقول والقال فى معنى واحد .

---

(1) ورد الرجز فى ا هكذا :

قد أطعمتنى دقلا حوليا مسوسا مدودا حجريا

قد كنت تفرين به الفريا

والحولي : الذي أتى عليه حول أي عام . والدقل : نوع من التمر رديء . والحجر منسوب إلى حجر وهى قصبة اليمامة .

(2) ا : «شديدا» وفى اللسان عقب إيراد الرجز : «أي كنت تكثرين فيه القول وتعظيمينه» .

(3) أي فى اللغة .

(4) الآية 12 سورة الإنسان .

(5) فى الآية 14 .

(6) فى الآية 13 .

(78/481)

والحقّ فى هذا الموضع يراد به اللّه . ولو أريد به قول الحقّ فيضاف القول إلى الحقّ ومعناه القول الحق كان صوابا كما قيل : (إِنَّ «1» هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) فيضاف الشيء إلى مثله ومثله قول اللّه (وَعْدَ الصِّدْقِ «2» الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ) ومعناه الوعد الصدق . وكذلك

(وَلَدارُ «3» الْآخِرَةِ خَيْرٌ) إنما هو: والدار الآخرة.

وقد قرأت القراء بالنصب «4» (قَوْلَ الْحَقِّ) وهو كثير يريدون به: حقّا. وإن نصبت القول وهو فى النيّة من نعت عيسى كان صوابا، كأنك قلت: هذا عبد اللّه أخاه بعينه. والعرب تنصب «5» الاسم المعرفة فى هذا وذلك وأخواتهما. فيقولون: هذا عبد اللّه الأسد عاديا «6» كما يقولون:

أسدا عاديا.

وقوله: ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ [35] (أن) فى موضع رفع.

وقوله: وَإِنَّ اللَّهَ [36] تقرأ (وأنّ «7» اللّه) فمن فتح أراد: ذلك أنّ اللّه ربّى وربكم. وتكون رفعا وتكون (فى تأويل «8») خفض على: ولأن اللّه كما قال (ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ «9» مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ) ولو فتحت (أنّ) على قوله (وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ. (وأن اللّه) كان وجها. وفى قراءة أبىّ (إن اللّه ربّى وربّكم) بغير واو فهذا دليل على أنها مكسورة.

وقوله: وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ [41] اقصص قصّة إبراهيم: اتل عليهم. وكذلك قوله فيمن ذكر من الأنبياء (أي) «10» اقصص عليهم قصصهم.

---

(1) الآية 95 سورة الواقعة.

(2) الآية 16 سورة الأحقاف.

(3) الآية 109 سورة يوسف.

(4) النصب قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب وافقهم الحسن والشنبوذى والباقون قرءوا بالرفع.

(5) هذا النصب عند الكوفيين على التقريب، وهو عندهم من العوامل. وانظر ص 12 من الجزء الأول.

(6) ا: «غاديا».

(7) الفتح لنافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر ورويس وافقهم ابن محيصن واليزيدي. والكسر للباقين. [.....]

(8) ا: «بتأويل».

(9) الآية 131 سورة الأنعام.

(10) سقط فى ا.

(79/481)

وقوله: إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ [45] يريد: إنى أعلم. وهو مثل قوله (فَخَشِينا «1» أَنْ يُرْهِقَهُما) أي فعلمنا.

وقوله : لَأَرْجُمَنَّكَ [46] لأسبّنّك .

وقوله : (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) طويلا يقال كنت عنده ملوة من دهر وملوة وملوة وملاوة من دهر وهذيل تقول : ملاوة ، وبعض العرب ملاوة . وكلّه من الطول .

وقوله : كانَ بِي حَفِيًّا [47] : كان بي عالما لطيفا يجيب دعائى إذا دعوته .

وقوله : عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا [48] يقول : إن دعوته لم أشق به .

وقوله : وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا [50] : ثناء حسنا فى كلّ الأديان . حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى عمرو بن أبى المقدام عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد فى قوله (وَاجْعَلْ لِي لِسانَ «2» صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) قال : ثناء حسنا .

وقوله : وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ [52] (من «3» الجبل) ليس للطور يمين ولا شمال ، إنما هو الجانب الذي يلى يمينك كما تقول : عن يمين القبلة وعن شمالها .

وقوله (وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا) (اسم ليس بمصدر «4» ولكنه) كقولك : مجالس وجليس .

والنجىّ والنجوى قد يكونان اسما ومصدرا .

وقوله : وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا [55] ولو أتت : مرضوّا كان صوابا لأن أصلها

---

(1) الآية 80 سورة الكهف .

(2) الآية 84 سورة الشعراء .

(3 و4) سقط فى ا .

الواو ألا ترى أنّ الرضوان بالواو . والذين قالوا مرضيّا بنوه على رضيت (ومرضوّا «1» لغة أهل الحجاز) .

وقوله : وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا [57] ذكر أن إدريس كان حبّب إلى ملك الموت حتى استأذن ربّه فى خلّته . فسأل إدريس ملك الموت أن يريه النار فاستأذن ربه فأراها إيّاه ثم (استأذن «2» ربه) فى الجنّة فأراها إيّاه فدخلها . فقال له ملك الموت : اخرج فقال : واللّه لا أخرج منها أبدا لأن اللّه قال (وَإِنْ «3» مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) فقد وردتها يعنى النار وقال (وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ «4») فلست بخارج منها إلا بإذنه . فقال اللّه : بإذنى دخلها فدعه . فذلك قوله (وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا) .

وقوله : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خلف : الخلف يذهب به إلى الذّم . والخلف الصالح . وقد يكون فى الرديء خلف وفى الصالح خلف لأنهم قد يذهبون بالخلف إلى القرن بعد القرن .

وقوله : جَنَّاتِ عَدْنٍ [61] نصب . ولو رفعت على الاستئناف كان صوابا .

وقوله (إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) ولم يقل : آتيا . وكلّ ما أتاك فأنت تأتيه ألا ترى أنك تقول أتيت على خمسين سنة وأتت علىّ خمسون سنة . وكلّ ذلك صواب .

وقوله : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا [62] ليس هنالك بكرة ولا عشىّ ، ولكنهم يؤتون بالرزق على مقادير من «5» الغدوّ والعشىّ فى الدنيا .

وقوله : وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ [64] يعنى الملائكة وقوله : له (ما بَيْنَ أَيْدِينا) من أمر الدنيا (وَما خَلْفَنا) من أمر الآخرة (وَما بَيْنَ ذلِكَ) يقال ما بين النفختين ، وبينهما أربعون سنة .

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ا .

(2) ا : «استأذنه» .

(3) الآية 71 سورة مريم .

(4) الآية 48 سورة الحجر .

(5) سقط فى ا .

(81/481)

وقوله : لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا [66] و(أخرج) قراءتان «1» .

وقوله : أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ [67] وهى فى قراءة أبىّ (يتذكّر) وقد قرأت القراء (يَذْكُرُ) عاصم وغيره «2» .

وقوله : خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا [73] : مجلسا . والندىّ والنادي لغتان .

وقوله : أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً [74] الأثاث : المتاع . والرّئى : المنظر ، والأثاث لا واحد له ، كما أن المتاع لا واحد له . والعرب تجمع المتاع أمتعة وأما تيع ومتعا . ولو جمعت الأثاث لقلت :

ثلاثة آثّة ، وأثث لا غير . وأهل المدينة يقرءونها بغير همز (وريّا) وهو وجه جيّد لأنه مع آيات لسن بمهموزات الأواخر . وقد ذكر عن بعضهم أنه ذهب بالريّ إلى رويت «3» .

وقد قرأ بعضهم (وزيّا) بالزاي . والزيّ : الهيئة والمنظر . والعرب تقول : قد زيّيت الجارية أي زيّنتها وهيّأتها .

وقوله : وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً [76] بالناسخ والمنسوخ .

قرىء : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي [77] بغير «4» همز .

وقوله : وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ [80] يعنى ما يزعم العاصي»

بن وائل أنّه له فى الجنّة فتجعله لغيره (ويأتينا فردا : خاليا من المال والولد .

وقوله : لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا [81] يقول : ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة .

---

(1) القراءة الأولى بضم الهمزة قراءة الجمهور . والقراءة الأخرى للحسن وأبى حيوة كما فى البحر 6/ 207 .

(2) هى نافع وابن عامر . وقرأ الباقون بالتشديد .

(3) أي رويت أبدانهم وأجسامهم من التنعم والرفاهية . [. . . . .]

(4) هى قراءة الكسائي .

(5) كتب بالياء . وهو أحد وجهين فيه . وانظر شرح القاري على الشفاء 1/ 54 .

(82/481)

فقال اللّه : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [82] يكونون عليهم أعوانا «1» .

وقوله : أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ [83] (فى الدنيا) (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) : تزعجهم إلى المعاصي وتغريهم بها .

وقوله : إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا [84] يقال : الأيام «2» والليالى والشهور والسنون . وقال بعض المفسّرين : الأنفاس .

وقوله : نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً [85] الوفد : الركبان .

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً [86] مشاة عطاشا .

وقوله : لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ [87] : لا يملكون أن يشفعوا (إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً) والعهد لا إله إلا اللّه . و(من) فى موضع نصب على الاستثناء ولا تكون خفضا بضمير اللام ولكنها تكون نصبا على معنى الخفض كما تقول فى الكلام : أردت المرور اليوم

إلّا العدوّ فإنى لا أمرّ به فتستثنيه من المعنى ولو أظهرت الباء فقلت : أردت المرور إلّا بالعدوّ لخفضت . وكذلك لو قيل : «3» لا يملكون الشّفاعة إلّا لمن اتّخذ عند الرحمن [110 ب] عهدا .

[قوله : لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً [77]] حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى المغيرة عن إبراهيم أنه كان يقرأ (ماله «4» وولده) وفى كهيعص (مالًا وَوَلَداً) قال الفراء وكذلك

---

(1) ا : «عونا» .

(2) أي الذي يعد الأيام . . .

(3) فى الطبري أن هذا الكلام على هذا الوجه يكون متصلا بقوله : «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا» أي لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا .

(4) الآية 21 سورة نوح. وضم الواو فى (ولده) قراءة غير نافع وابن عامر وعاصم وأبى جعفر أما هؤلاء فعندهم فتح الواو واللام .

قرأ يحيى بن وثّاب . ونصب عاصم الواو . وثقّل فى كلّ القرآن . وقرأ مجاهد (ماله وولده إلّا خسارا) بالرفع ونصب سائر «1» القرآن . وقال الشاعر :

ولقد رأيت معاشرا قد ثمّروا مالا وولدا

فخفف (وثمروا) «2» والولد والولد لغتان مثل (ما قالوا) «3» : العدم والعدم (والولد والولد) «4» وهما واحد . (وليس «5» بجمع) ومن أمثال العرب ولدك من دمّى عقبيك . وقال بعض الشعراء :

فليت فلانا مات فى بطن أمّه وليت فلانا كان ولد حمار

فهذا واحد . وقيس تجعل الولد جمعا والولد واحدا .

وقوله : وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا [90] : كسرا .

وقوله : أَنْ دَعَوْا [91] لأن دعوا ، ومن أن دعوا ، وموضع (أن) نصب لاتصالها .

والكسائىّ كان يقول : (موضع أن) خفض .

وقوله : إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً [93] ولو قلت : آت الرحمن عبدا كان صوابا . ولم أسمعه من قارئ .

وقوله : لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا [89] قرأت القرّاء بكسر الألف ، إلا أبا عبد الرحمن السّلمىّ فإنه قرأها بالفتح (أدّا) ومن العرب من يقول : لقد جئت بشىء آدّ مثل مادّ . وهو فى الوجوه كلها :

بشيء عظيم.

---

(1) كذا. والاولى: «فى سائر القرآن».

(2) سقط فى ش، ب وضبط فى ا: «ثمروا» فى النظم بالبناء للمعقول وهنا بالبناء للفاعل.

(3) ا: «قولهم».

(4) سقط فى ا.

(5) سقط فى ا.

(84/481)

وقوله: يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ [90] وينفطرن. وفى قراءة عبد اللّه (إن تكاد السّماوات لتتصدّع منه) وقرأها حمزة (ينفطرن) على هذا المعنى.

وقوله: وُدًّا [96] يقول: يجعل اللّه لهم ودّا فى صدور المؤمنين.

وقوله: أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا [98] الركز: الصوت. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 161. 174﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة مريم

(ذكر رحمت ربك) [2] أي: هذا ذكر ، أو فيما أنزل عليك ذكر . (واشتعل الرأس شيباً) [4] نصب على المصدر ، كأنه شاب الرأس شيباً . ويجوز على [التمييز] ، كقولك: ضقت به ذرعاً ، وتصببت عرقاً . (يرثني) [6] بالرفع ، على صفة الولي ومعنى النكرة ، لأن صفة النكرة نكرة ، أي: ولياً وارثاً .

وإنما دعا أن يرثه [الدين] والعلم ، لئلا يغير بنو عمه كتبه . (عتياً) [8] سناً عالياً .

و[العاتي] والعاسي الذي أيبسه الكبر ، وأعجفه السن . [وحناناً لمن لدنا] [13] رحمة من عندنا . وقيل: تعطفاً وتحنناً على [عبادنا] ، وإنما فسر بالتحنن ، لأنه لم يوجد له فعل ثلاثي . (انتبذت) [16] تباعدت/وانفردت .

البغي: الفاجرة ، مصروفة عن الباغية ، أو بمعنى [المفعولة] ، يقال: نفس [قتيل] ، وكف خضيب . (فأجاءها المخاض) [23] ألجأها [أ]و [جاء] بها ، كما قال زهير في المعنيين:

732- وسار سار معتمداً علينا أجاءته المخافة والرجاء 733- ضمنا ماله فغدا

سليماً علينا نقصه وله النماء . (نسياً منسياً) [23]

مصدر موصوف ، كقوله: (حجراً محجوراً) ، وقيل: إن النسي: اسم ما يرمى به لوتاحته وحقارته . وفي الشعر للشنفري: النسي: المفقود ، فيكون المنسي غير معنى النسي ، قال: 734- لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت 735- كأن لها في الأرض نسياً تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت . (تحتك سرياً) [24] أي: شريفاً وجيهاً ، قال السدي: إنه كان والله سرياً .

وقيل: السري: النهر الصغير ، لكون الرطب طعامها ، والنهر شرابها ، قال لبيد : 736- سحق يمتعها [الصفا] وسريه عم نواعم بينهن كروم . (تساقط) [25] أي: [تـ]ـتساقط ، فأدغمت التاء في السين ، لأنهما مهموستان . (رطباً جنياً) [25] نصب على [التمييز] ، وقيل: على وقوع الفعل عليه ، لأن التساقط متعد ، مثل: تقاضيته ، وتناسيته ، قال الله تعالى: (لولا أن تداركه نعمة) ،

(86/481)

وقيل: تقدير الكلام "وهزي رطباً جنياً بجذع النخلة تساقط عليك" ، (فأتت به قومها تحمله) [27] يجوز أن يكون (تحمله) حالاً منها ويجوز منه ، ويجوز منهما ، على قوله:

737- [فلئن] لقيتك خالياً لتعلمن أيي وأيك فارس الأحزاب/ ، ولو كانت الآية "فأتت به قومها تحمله إليهم" ، لجاز أن يكون تحمله حالاً منها ، ومنه ، ومنهما ، ومنهم جميعاً ، لحصول الضمائر في الجملة التي هي حال . (فرياً) [27] عجيباً .

وقيل: مفترى ، من الفرية . (من كان في المهد صبياً) [29] أي: من يكن في المهد ، كيف نكلمه ، على الشرط والجزاء ، فوضع الماضي موضع الاستقبال ، لأن الشرط لا يكون إلا في المستقبل ، وقد يوضع كان موضع يكون ، ويكون موضع كان ، قال جرير: 738- لقد وجداني حين مدت حبالنا أشد محاماة وأبعد منزعا 739- فأدركت من قد كان قبلي ولم أدع لمن كان بعدي في القصائد مصنعا . وقال الصلتان:

740- فإذا مررت بقبره فاعقر به كوم الهجان وكل طرف سائح 741- وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبائح . (فاختلف الأحزاب) [37] لأنهم تحزبوا إلى يعقوبية ، وملكائية ، ونسطورية ، وغيرها . (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) [38] أي: إن عموا وصموا عن الحق في الدنيا ، فما أسمعهم يوم القيامة . ووجه التعجب أنهم يسمعون ويبصرون حيث لا ينفعهم . (واهجرني ملياً) [46]

حيناً طويلاً . (حفياً) [47] لطيفاً رحيماً . والتحفي: التلطف في القول والفعل ، والحفاوة: الرأفة والكرامة . (فخلف من بعدهم خلف) [59] الخلف في البقية الفاسدة ، والخلف في الصالحة ، وأنشد أبو عبيد: 742- عرقت أبوك ولا أراك معرقاً وأباك دار في

انتخاب المولد 743- فاخلفه لبيك ولا تكن خلفاً ومن يخلف ولا يخلف أباً لا يرشد .

وإعراب هذا الشعر من المشكلات ، وسنشرحها إن شاء الله .

(87/481)

(يلقون غياً) [59]/ خيبة ، وقيل: شراً . وقيل: حذف منه المضاف ، أي: جزاء الغي ، كقوله تعالى: (يلق أثاماً) . قال أنس بن [مدرك] الخثعمي: 744- ومقوز يأبى الظلام شهدته والليل أليل ماله لألاء 745- فرجت عنه بطعنة مشفوعة للنيب حول رشاشها ضوضاء . أي: [يأبى] رد الظلامة ، فحذف المضاف .

(جثياً) [68] و(عتياً) [69] من بنات الواو ، إلا أنها قلبت ياء لموافقة رؤوس الآي .

وقيل: بل هو الوجه ، لأن الواو وقعت طرفاً في موضع الإعلال ، وقبلها ضمة ، إذ أصلها "جثوواً" . 746- إذ[ا] الخصوم اجتمعت جثياً وجدت ألوى محكاً أبيا . (صلياً) [70] دخولاً ، وقيل: لزوماً . قال كليب وائل:

747- قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال 748- لم أكن من جناتها علم الله وإني لحرها اليوم صالي . (وإن منكم إلا واردها) [71] منكم بمعنى منهم ، وكذلك قرئت في بعض [القراءات] ، كقوله: (إن هذا كان لكم جزاء) بعد قوله: (وسقاهم

ربهم) . وقيل: إنه ورود حضور ، لا ورود دخول ، كقول زهير:

749- ولما وردن الماء زرقاً جمامه وضعن عصي الحاضر [المتخيم] . (حتماً) [71]

أي: حقاً ، وليس التفسير بالواجب صحيحاً . كما قال الهذلي: 750- فوالله أنساتيك

ما عشت ليلة صفي من الإخوان والولد الحتم . وقال: 751- وما أحد حي تأخر يومه

بأخلد ممن صار قبل إلى الرجم

752- سيأتي على [الباقين] يوم كما أتى على من مضى حتم عليهم من الحتم/ .

([و]رءياً) [74] مهموزاً ساكنة على وزن رعي ، اسم المرئي . يقال: رأيته رؤية ورأياً .

[والمصدر] رئي ، كالرعي والرعي ، والحمل والحمل ، أي: أحسن متاعاً ومنظراً . وقيل:

أحسن ما لا يراه الناس وهو الأثاث ، وما يراه الناس وهو الرئي . وأما "الري" مشدداً غير

مهموز ، فهو من الري: الشباب ، وارتواء النعمة . قال المزرد:

(88/481)

753- وأسحم ريان القرون كأنه أساود رمان السباط الأطاول 754- وتخطو على

برديتين غذاهما نمير المياه والعيون [الغلاغل] . (فليمدد له الرحمن مداً) [75] أي:

فليدعه في ضلالته وليمله في غيه . (وخير مرداً) [76] أي: مرجعاً يرد إليه . (تؤزهم أزاً)

[83]

تزعجهم إزعاجاً . وقيل: تهيجهم وتثيرهم ، وفي الحديث: "ولجوفه أزيز كأزيز المرجل" .

(نعد لهم عداً)[84] أي: أعمالهم للجزاء . وقيل: أنفاسهم للفناء . (وفداً) [85] ركباناً مكرمين .

وقيل: زواراً مجتمعين . (ورداً) [86] عطاشاً من ورود الإبل . (إداً) [89] منكراً عظيماً ، وقيل: داهية شديدة . (ركزا) [98] صوتاً خفياً .

[تمت سورة مريم] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 897.881 ﴾

(89/481)

وقال الأخفش :

سورة (مريم)

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾

قال ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ قال: "مِمَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّك" فانتصب العبد بالرحمة . وقد يقول الرجل "هذا ذِكْرُ ضَرْبِ زيدٍ عَمْراً" .

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾

[و] قال ﴿ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ وجعله من الاخفاء .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾

وقال ﴿ شَيْباً ﴾ لأنه مصدر في المعنى كأنه حين قال ﴿ اشْتَعَلَ ﴾ قال: "شابَ" فقال "شَيْبَا" على المصدر وليس هو مثل "تَفَتَّأْتُ شَحْماً" و"اِمْتَلأَتُ ماءً" لأن ذلك ليس بمصدر .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾

وقال ﴿ سَوِيّاً ﴾ على الحال كأنه أمره أن يكف عن الكلام سويّا .

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾

وقال ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ لأن الباء تزاد في كثير من الكلام نحو قوله ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ أي: تُنْبِتُ الدُهنَ . وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد السادس والأربعون بعد المئتين]:

بِوادٍ يَمانٍ يُنْبِتُ السِّدْرَ صَدْرُهُ * وَأَسْفَلُهُ بِالمَرْخِ والشَبَهانِ

يقول: "وأَسْفَلُه يُنْبِتُ المَرْخَ والشَبَهان" ومثله: "زَوَّجْتُكَ بِفُلانَة" يريدون: "زَوَّجْتُكَها" ويجوز ان يكون على معنى "هُزِّي رُطَباً بِجِذْعِ النَخْلَة" .

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾

وقال ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ مثل قولك "مِلْحَفَةٌ جَدِيدٌ" .

﴿ يا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيّاً ﴾

(90/481)

وقال ﴿ يا أَبَتِ [149 ب] لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ فاذا وقفت قلت ﴿ يا آبَهْ ﴾ وهي هاء زيدت كنحو قولك "يا أُمَّهْ" ثم قال "يَا أُمَّ" اذا وصل ولكنه لما كان "الأبُ" على حرفين كان كأنه قد أُخِلَّ به فصارت الهاء لازمَةً وصارت الياء كأنها بعدها ، فلذلك قال "يَا أَبَتِ أَقْبِلْ" وجعل التاء للتأنيث . ويجوز الترخيم لأنه يجوز ان تدعو ما تضيف الى نفسك في المعنى مضموماً نحو قول العرب "يا رَبُّ اغْفِرْ لي" وتقف في القرآن ﴿ يا أَبَتِ ﴾ للكتاب . وقد يقف بعض العرب على هاء التأنيث .

وقوله ﴿ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيّاً ﴾ و"العَصِيّ": العاصي كما تقول: "عَلِيم" و"عالِم" و"عَرِيف" و"عارِفٌ" قال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد السابع والأربعون بعد المئتين]:

أَوَكُلَّما وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ * [150 ب] بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ

يقول: "عارِفَهُمْ" .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾

وقال ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ كما تقول: "لسانُنا غيرُ لسانِكُم" أي: لغتُنا غيرُ لغتِكُم. وان شئت جعلت اللسان مقالهم كما تقول "فُلانٌ لِسانُنا".

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ سَلاَماً ﴾ فهذا كالاستثناء الذي ليس من أول الكلام. وهذا على البدل ان شئت كأنه "لا يَسْمَعُونَ فيهَا إلاّ سَلاَما" وفي قراءة عبد الله ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ و ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ رفع على أن قوله ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ صفة.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾

(91/481)

وقال ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا [150] بَيْنَ ذَالِكَ ﴾ يقول ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ قبل ان نخلق ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ بعد الفناء ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَالِكَ ﴾ حين كنا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾

وقال ﴿ وَرِءْياً ﴾ فـ"الرِءْيُ" من الرُؤْيَةِ وفسروه من المنظر فذاك يدل على أَنَّهُ من "رَأَيْتُ".

﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْداً ﴾

وقال ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ فهذه الف الاستفهام وذهبت ألف الوصل لما دخلت الف الاستفهام.

﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾

[و] قال ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ لأنَّ "الضِدّ" يكون واحدا وجماعة مثل "الرَصَد" و"الأَرْصاد" – ويكون الرَّصَدُ أيضاً اسما للجماعة.

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ﴾

وقال: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ فالمعنى: يُرِدْنَ. لأنهن لا يكون [منهن] ان يتفطرن ولا يدنون من ذلك ولكنهن هممن به اعظاما لقول المشركين. ولا يكون على من هم بالشيء ان يدنو منه الا ترى ان رجلا لو أراد ان ينال السماء لم يدن من ذلك وقد كانت منه ارادة. وتقرأ ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ ويقرأ ﴿ يَنْفَطِرْنَ ﴾ للكثرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 437. 441 ﴾

(92/481)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة مريم

مكية كلها

4 - لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ، يريد : لم أكن أخيب إذا دعوتك .

5 - خِفْتُ الْمَوالِيَ وهم العصبة «1» .

مِنْ وَرائِي أي من بعد موتي . خاف أن يرثه غير الولد .

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي يعني الولد يرثه الحبورة . وكان حبرا .

6 - وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ الملك . كذلك قيل في التفسير .

7 - لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا أي لم يسمّ أحد قبله : يحي . فأما قوله : هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا فإنه أراد - فيما ذكر المفسرون - شبيها . ولو أراد أنه لا يسمّي اللّه غيره ، كان وجها .

8 - مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا أي يبسا «2» . يقال : عتا وعسا ، بمعنى واحد . ومنه يقال : ملك عات ، إذا [كان] قاسي القلب غير لّين .

---

(1) الذين يلون في النسب كبني العم .

(2) وأصل عتي : عتو وكسرت التاء تخفيفا وقلبت الواو الأولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها الياء .

10 – ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا أي سليما غير اخرس .

11 – فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أي أوماً .

أَنْ سَبِّحُوا أي صلّوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا والسّبحة : الصلاة .

13 – وَحَناناً أي رحمة . ومنه يقال : تحنّن عليّ . وأصله من حنين الناقة على ولدها .

وَزَكاةً أي صدقة .

16 – انْتَبَذَتْ

: اعتزلت . يقال : جلست نبذه ونبذه ، أي ناحيته .

مَكاناً شَرْقِيًّا

يريد مشرّقة .

والْبَغْيَ : الفاجرة . والبغاء : الزنا .

23 – فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ أي جاء بها وألجأها . وهو من حيث يقال : جاءت بي الحجة

إليك ، وأجاءتني الحاجة إليك . والمخاض :

الحمل «1» .

وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا والنّسي : الشيء الحقير الذي ألقي نسي . ويكون كلّ ما نسي . قال

الشاعر :

كأن لها في الأرض نسيا تقصّه على أمّها . وإن تحدثك تبلت

[تبلت : تقطع . مثل تبتل] .

و(السري) النهر .

26 - نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً أي صمتا . والصّوم هو الإمساك .

ومنه قيل للواقف من الخيل : صائم .

27 - لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا أي عظيما عجيبا .

---

(1) يقال أجدها المخاض أي أخذها الطلق والمخاض هو ألم الولادة .

(94/481)

---

28 - يا أُخْتَ هارُونَ كان [في] بني إسرائيل رجل صالح يسمى :

هارون ، فشبّهوها به . كأنهم قالوا : يا أخت هارون ، يا شبه هارون في الصلاح .

46 - لَأَرْجُمَنَّكَ أي لأشتمنّك .

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا أي حينا طويلا . ومنه يقال : تمليت حبيبك .

والملوان : الليل والنهار .

47 - إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا أي بارّا عوّدني منه الإجابة إذا دعوته .

50 - وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا أي ذكرا حسنا عاليا .

61 - إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا أي آتيا . مفعول في معنى فاعل .

62 - لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً أي باطلا من الكلام .

64 - وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ : قول الملائكة ، أو قول جبريل صلى اللّه عليه .

68 - جِثِيًّا جمع جاث . وفي التفسير جماعات .

73 - خَيْرٌ مَقاماً أي منزلا .

وَأَحْسَنُ نَدِيًّا أي مجلسا . يقال للمجلس : نديّ ونادى . ومنه قيل : دار النّدوة ، للدار التي كان المشركون يجلسون فيها ويتشاورون في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم .

و(الأثاث) : المتاع .

و(الرئي) : المنظر ، والشّارة ، والهيئة .

75 - فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا أي يمد له في ضلالته .

80 - وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ أي المال والولد الذي قال : لأوتينّه .

وَيَأْتِينا فَرْداً لا شيء معه .

82 - وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا أي أعداء يوم القيامة . وكانوا في الدنيا أولياءهم .

83 - تَؤُزُّهُمْ : تزعجهم وتحرّكهم إلى المعاصي .

84 - إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا

أي أيام الحياة . ويقال : الأنفاس .

85 - وَفْداً : جمع وافد . مثل ركب جمع راكب ، وصحب جمع صاحب .

والْوِرْدُ : جماعة يريدون الماء .

87 - لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً : أي وعدا منه له بالعمل الصالح والإيمان .

89 - جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا أي عظيما .

90 - يَتَفَطَّرْنَ : يتشقّقن .

هَدًّا أي سقوطا .

96 - سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا أي محبة في قلوب الناس .

97 - فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ أي سهلنا وأنزلنا بلغتك .

و(اللد) جمع ألد . وهو : الخصم الجدل .

و(الركز) : الصوت الذي لا يفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 231 .

234 ﴾

وقال الغزنوى :

ومن سورة مريم

2 ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ/ عَبْدَهُ : هذا ذكر «1» . أو فيما أنزل عليك ذكر [59/ ب]

رحمت ربّك عبده بالرحمة ، لأنّ ذكر الرحمة إياه لا يكون إلّا بالله «2» .

5 خِفْتُ الْمَوالِيَ : الذين يلونه في النّسب «3» .

6 يَرِثُنِي : على صفة الولي «4» ، وبمعنى النكرة ، أي : وليا وارثا ، وإنّما دعا أن يرثه الدين لئلّا يغيّر بنو عمّه كتبه إذ كانوا أشرارا «5» .

7 سَمِيًّا : نظيرا «6» .

8 أَنَّى يَكُونُ لِي [غُلامٌ] «7» : على الاستخبار أبتلك الحال أم بقلبه شابا» ؟ .

---

(1) فيكون خبرا لمبتدأ محذوف هو «هذا» . [. . . . .]

(2) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 318 .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : 3/ 4 ، وزاد المسير : 5/ 206 ، والتبيان للعكبري :

.865/2

(3) قال الزجاج في معانيه: 3/ 319: «والموالي واحدهم مولى، وهم بنو العم وعصبة الرجل، ومعناه الذين يلونه في النسب كما أن معنى القرابة الذين يقربون منه في النسب».

وانظر تفسير الماوردي: 2/ 516، وزاد المسير: 5/ 207.

(4) معاني القرآن للزجاج: 3/ 320.

(5) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 516 دون عزو.

(6) ينظر تفسير الطبري: 16/ 49، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 320، وتفسير الماوردي:

.517/2

(7) في الأصل: «ولد».

(8) نص هذا القول في تفسير الماوردي: 2/ 517، وذكره الفخر الرازي في تفسيره: 21/ 189.

وراجع ص (144) عند تفسير قوله تعالى: قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ [آل عمران: 40].

عِتِيًّا : سنا عاليا «1» .

13 وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا : رحمة من عندنا «2» . وقيل «3» : تعطفا وتحنّنا على عبادنا ، أو على دعاء الناس إلينا .

وَزَكَاةً : تطهيرا لمن يدعوه إلى اللّه «4» ، أو زكيناه بالثناء عليه «5» .

16 انْتَبَذَتْ

: تباعدت واحتجبت لتعبد اللّه «6» .

19 زَكِيًّا

: ناميا على الخير والبركة «7» .

«البغيّ» «8» الفاجرة «9» ، مصروفة عن الباغية «10» ، أو بمعنى

---

(1) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 2 ، وتفسير الماوردي : 2/ 517 ، وتفسير البغوي : 3/ 189 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (16/ 55 ، 56) عن ابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة ، والضحاك .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 519 عن ابن عباس ، وقتادة .

وذكره الفراء في معانيه : 2/ 163 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 2 ، والزجاج في معانيه : 3/ 322 .

(3) أخرجه الطبري في تفسيره : 16/ 56 عن مجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 519 عن مجاهد أيضا .

(4) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 322 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 9/ 437 .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 214 عن الزجاج.

(5) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 519 .

(6) معاني القرآن للزجاج : 3/ 323 ، وتفسير القرطبي : 11/ 90 .

(7) ذكر نحوه الفخر الرازي في تفسيره : 19/ 200 .

وقال الطبري في تفسيره : 16/ 61 : «والغلام الزكي : هو الطاهر من الذنوب ، وكذلك تقول العرب : غلام زاك وزكى ، وعال وعليّ» . [. . . . .]

(8) في قوله تعالى : قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا [آية : 20] .

(9) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 164 ، وتفسير البغوي : 3/ 191 ، وزاد المسير : 5/ 217 .

(10) فهي فعيل بمعنى فاعل ، ذكر هذا الوجه ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 218 عن ابن الأنباري.

المفعولة «1» ، كقولك : نفس قتيل ، وكفّ خضيب .

23 فَأَجاءَهَا : ألجأها أو جاء بها «2» .

نَسْياً مَنْسِيًّا : مصدر موصوف من لفظه ، كقوله «3» : حِجْراً مَحْجُوراً .

وقيل : النّسي ما يرمى به لوقاحته .

24 تَحْتَكِ سَرِيًّا : شريفا وجيها «4» .

وقيل «5» : السّريّ : النهر الصغير ليكون الرطب طعامها والنهر شرابها .

---

(1) البحر المحيط : 6/ 181 .

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 164 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 4 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 273 .

(3) سورة الفرقان : آية : 22 .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 70 عن الحسن ، وابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 522 عن الحسن ، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 222 إلى الحسن ، وعكرمة ، وابن زيد .

(5) ذكر الإمام البخاري في صحيحه : 4/ 140 ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ تعليقا موقوفا على البراء بن عازب قال : «سريا» : نهر صغير بالسريانية .

وأخرجه عبد الرازق في تفسيره : 326 عن البراء ، والحاكم في المستدرك : 2/ 373 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (16/ 69 ، 70) عن البراء بن عازب ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة .

ورجحه الطبري فقال : «و أولى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال : عني به الجدول ، وذلك أنه أعلمها ما قد أعطاها اللّه من الماء الذي جعله عندها ، وقال لها : وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا فَكُلِي من هذا الرطب ، وَاشْرَبِي من هذا الماء ، وَقَرِّي عَيْناً بولدك ، و«السري» معروف من كلام العرب أنه النهر الصغير . . . » اه .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 165 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 5 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 274 .

25 تُساقِطْ : تتساقط ، أدغمت التاء في السين «1» .

رُطَباً : نصب على التمييز «2» ، أو على وقوع الفعل لأنّ التساقط متعد كالتقاضي والتناسي ، قال اللّه تعالى «3» : فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، أو التقدير : هزي رطبا جنيا بجذع النخل تساقط عليك «4» .

27 فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ : يجوز تَحْمِلُهُ حالا منها ومنه ومنهما «5» ، ولو كان تحمله إليهم لجاز حالا منهم أيضا لحصول الضمائر في الجملة التي هي حال .

فَرِيًّا : عجيبا «6» ، أو مفترى من الفرية «7» .

29 مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا : أي : من يكن في المهد صبيا كيف نكلمه «8» ؟ .

34 ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : أي : ذلك الذي قال : إني عبد اللّه

---

(1) ورد هذا التوجيه لقراءة حمزة بفتح التاء والتخفيف .

ينظر إعراب القرآن للنحاس : 3/ 12 ، وحجة القراءات : 442 ، والكشف لمكي : 2/ 88 .

(2) معاني القرآن للزجاج : 3/ 326 ، والتبيان للعكبري : 2/ 872 .

(3) سورة طه : آية : 62 .

(4) ينظر وجوه الإعراب في هذه الآية في معاني القرآن للزجاج: 2/ 325، وإعراب القرآن للنحاس: (3/ 12، 13)، ومشكل إعراب القرآن لمكي: 2/ 452، والتبيان للعكبري:

2/ 672، والبحر المحيط: 6/ 185.

(5) ينظر إعراب القرآن للنحاس: 3/ 14، والتبيان للعكبري: 2/ 673.

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 7، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 274.

[. . . . .]

(7) هذا قول اليزيدي في غريب القرآن: 238، قال: «يقال فريت الكذب وافتريته وكذلك تَخْلُقُونَ إِفْكاً تصنعونه. خلقت الكذب واختلقته مثل فريته وافتريته، ومنه إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، أي: افتراء الأولين. . .».

(8) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 328، وقال: «يكون «من» في معنى الشرط والجزاء ويكون المعنى: من يكن في المهد صبيا - ويكون صَبِيًّا حالا - فكيف نكلمه. كما تقول: من كان لا يسمع ولا يعقل فكيف أخاطبه».

عيسى بن مريم لا ما تقول النصارى أنه ابن اللّه «1» .

قَوْلَ الْحَقِّ : أي : هو قول الحق وكلمته ، أو الذي تلوناه من صفته وقصّته قَوْلَ الْحَقِّ .

37 فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ : تحزبوا إلى يعقوبيّة ، وملكائيّة ، ونسطورية [60/أ] وغيرها «2» .

38 أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا : أي : لئن عموا وصمّوا عن الحقّ في الدّنيا فما أسمعهم يوم لا ينفعهم ! .

44 لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ : لا تطعه فيما سول .

45 فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا : موكولا إليه وهو لا يغني عنك شيئا .

46 لَأَرْجُمَنَّكَ : لأرمينّك بالشّتم «3» ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا : حينا طويلا .

47 حَفِيًّا : لطيفا رحيما «4» ، والحفاوة : الرأفة والكرامة «5» .

---

(1) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 329 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 526 .

ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 195 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 231 عن الزجاج .

(2) هذه الفرق الثلاث نسبة إلى ثلاثة من علماء النصارى هم : يعقوب ، وملكاء ، ونسطور .

فقالت اليعقوبية : عيسى هو اللّه ، هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء . وقالت الملكائية

:

هو عبد اللّه ونبيه ، وقالت النسطورية : إنه ابن اللّه .

ينظر تفسير الطبري : 16/ 84 ، وتفسير البغوي : 3/ 196 ، وتفسير القرطبي : 11/ 108 ، وتفسير ابن كثير : (5/ 225 ، 226) ، وتفسير البيضاوي : 2/ 34 .

(3) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 169 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 274 ، والطبري في تفسيره : 16/ 91 .

وقال الزجاج في معانيه : 3/ 332 : «يقال : فلان يرمي فلانا ويرجم فلانا ، معناه يشتمه ، وكذلك قوله عز وجل : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، معناه : يشتمونهن ، وجائز أن يكون لَأَرْجُمَنَّكَ لأقتلنك رجما ، والذي عليه التفسير أن الرجم ها هنا الشتم» .

(4) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 169 ، وتفسير الطبري : 16/ 92 ، ومعاني الزجاج :

3/ 333 ، والمفردات للراغب : 125 .

(5) اللسان : 14/ 187 (حفا) .

(101/481)

52 وَقَرَّبْناهُ : قرّب «1» من أعلى الحجب حتى سمع صرير «2» القلم .

57 وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا : رفع إلى السّماء الرابعة «3» ، وروي :

---

(1) هو موسى عليه الصلاة والسلام .

(2) في «ك» : «صريف» ، وصرير القلم صوته .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (16/ 94 ، 95) عن ابن عباس ، وأبي العالية .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 373 ، كتاب التفسير ، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 515 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد عن أبي العالية ، كما عزا إخراجه إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

(3) أي : إدريس عليه السلام .

وقد ورد هذا القول في أثر أخرجه الترمذي في سننه : 5/ 316 ، كتاب تفسير القرآن ، باب «ومن سورة مريم» عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة» .

قال الترمذي : وفي الباب عن أبي سعيد عن النبي صلى اللّه عليه وسلم .

وقال : وهذا حديث حسن وقد رواه سعيد بن أبي عروبة وهمام وغير واحد عن قتادة

عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، حديث المعراج بطوله ، وهذا عندنا مختصر من ذاك» اه .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (16/ 96 ، 97) عن أنس مرفوعا .

وأخرجه عن أبي سعيد الخدري ، وكعب ، ومجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 518 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن مردويه . عن قتادة عن أنس مرفوعا .

وأخرج البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في حديث المعراج : أنه رأى إدريس في السماء الرابعة .

ينظر صحيح البخاري : 4/ 77 ، كتاب بدء الخلق ، باب «ذكر الملائكة صلوات اللّه عليهم» .

وصحيح مسلم : 1/ 150 ، كتاب الإيمان ، باب «الإسراء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى السماوات» .

(102/481)

السّادسة «1» ، وروي : السّابعة «2» .

58 بُكِيًّا «3» : جمع «باك» ، ك «شاهد» ، و«شهود» «4» ، ويجوز مصدرا بمعنى البكاء «5» .

59 أَضاعُوا الصَّلاةَ : صلّوها في غير وقتها «6» .

يَلْقَوْنَ غَيًّا : خيبة وشرا «7» ، أو جزاء الغيّ على حذف المضاف «8» .

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره : (16/ 96 ، 97) عن ابن عباس ، والضحاك .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 529 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، والضحاك أيضا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 518 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس ، والضحاك .

(2) أورده ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 241 ، وقال : «حكاه أبو سليمان الدمشقي» .

(3) من قوله تعالى : إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا [آية : 58] .

(4) عن معاني القرآن للزجاج : 3/ 335 .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 8 ، وتفسير الطبري : 16/ 98 ، وتفسير الماوردي :

2/ 530 . [. . . . .]

(5) رده الزجاج في معانيه : 3/ 335 قائلا : «و من قال : بُكِيًّا ها هنا مصدر فقد أخطأ لأن سُجَّداً جمع ساجد ، وبُكِيًّا عطف عليه ، ويقال : بكى بكاء وبكيا » اه .

وانظر القول الذي أورده المؤلف – رحمه اللّه – في إعراب القرآن للنحاس : 3/ 21 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 2/ 456 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 128 ، والبحر المحيط : 6/ 200 .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 98 عن القاسم بن مخيمرة .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 530 عن ابن مسعود ، وعمر بن عبد العزيز .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 526 ، ونسب إخراجه إلى عبد بن حميد عن ابن مسعود رضي اللّه عنه .

كما عزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم ، والخطيب في «المتفق والمفترق» عن عمر بن عبد العزيز .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 101 عن ابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 531 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 246 عن ابن زيد أيضا .

(8) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 336 . وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 246 عن الزجاج.

(103/481)

---

61 مَأْتِيًّا : مفعولا من الإتيان «1» .

62 إِلَّا سَلاماً : اسم جامع للخير .

بُكْرَةً وَعَشِيًّا : مقدار ما بين الغداة والعشي على التمثيل بعادة الدنيا .

64 وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ : استبطأ جبريل - عليه السلام - فقال : «ما يمنعك أن تزورنا أكثر» «2» .

ما بَيْنَ أَيْدِينا : من أمر الآخرة وَما خَلْفَنا : ما مضى من أمر الدنيا .

وَما بَيْنَ ذلِكَ : من الحال إلى يوم القيامة .

68 جِثِيًّا : باركين على الركب ، وأصلها : «جثووا» فوقعت الواو طرفا قبلها ضمّة «3» .

69 أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا : أي : ننزع الأعتى فالأعتى .

وأَيُّهُمْ رفع على الحكاية «4» ، أي : الذي يقال أيهم أشد . وعند

---

(1) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 336 ، وقال : «لأن كل ما وصل إليك فقد وصلت إليه ، وكل ما أتاك فقد أتيته ، يقال : وصلت إلى خبر فلان ووصل إليّ خبر فلان ، وأتيت خبر فلان وأتاني خبر فلان ، فهذا على معنى : أتيت خبر فلان» .

(2) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 237 ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ .

وانظر تفسير الطبري : 16/ 103 ، وأسباب النزول للواحدي : 347 ، وتفسير ابن كثير :

5/ 243 .

(3) أصلها جثوو (جثوّ) ثم قلبت ياء فصارت «جثويا» ثم اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون في كلمة فقلبت الواو الأولى ياء وأدغمت الياء في الياء فصارت «جثيّا» ، وقلبت ضمة الثاء كسرة فصارت «جثيا» ثم أتبعت حركة الثاء فقلبت كسرة فقالوا : «جثيا» ، فحركة الجيم اتباعا لحركة الثاء ، وحركة الثاء لمجانسة الياء بعدها .

وينظر إعراب القرآن للنحاس : 3/ 23 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 130 .

(4) هذا قول الخليل كما في الكتاب لسيبويه : 2/ 399 .

واختاره الزجاج في معانيه : 3/ 329 .

سيبويه «1» هو مبنيّ بتقدير: الذي هو أشدّ، فلما حذف «هو» واطّرد الحذف صار كبعض الاسم فبني.

71 وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها: ورود حضور ومرور «2». وقال رجل من الصّحابة - لآخر: أيقنت بالورود؟ قال: نعم، قال: وأيقنت بالصّدر؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ ففيم التثاقل «3»؟!.

73 نَدِيًّا: مجلسا «4»، ندوت القوم أندوهم: جمعتهم فندوا: اجتمعوا «5».

74 وَرِءْياً: مهموزا «6» على وزن «رعي» اسم المرئيّ، رأيته رؤية ورأيا، والمصدر رئي كالرّعي والرّعي، أي: أحسن متاعا ومنظرا «7».

---

(1) الكتاب: 2/ 398.

(2) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: 16/ 110 عن قتادة.

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 256 عن عبيد بن عمير.

(3) نقل ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 255 عن الحسن البصري أنه قال: «قال رجل

لأخيه :

يا أخي أتاك إنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ !» .

وأورد نحوه القرطبي في التذكرة : 404 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

قال القرطبي رحمه اللّه : «و قد أشفق كثير ممن تحقق الورود ، والجهل بالصدر . كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه يقول : ليت أمي لم تلدني . فتقول له امرأته : يا أبا ميسرة إنّ اللّه قد أحسن إليك وهداك إلى الإسلام ، قال : أجل ، ولكن اللّه قد بين لنا أنّا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون» .

(4) معاني القرآن للفراء : 2/ 171 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 10 ، وغريب القرآن لليزيدي : . 241

(5) اللسان : 15/ 317 (ندى) .

(6) قراءة عاصم ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وحمزة ، والكسائي .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 411 ، وحجة القراءات : 446 ، والتبصرة لمكي : 256 .

[. . . . .]

(7) معاني القرآن للفراء : 2/ 71 ، وغريب القرآن لليزيدي : 241 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 275 .

[60/ب] وأمّا/الرّيّ «1» - مشدّدا - فمن ريّ الشّباب وأنواع النعمة.

75 فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا: فليدعه في ضلالته وليمله في غيّه، واللّفظ أمر والمعنى خبر «2».

76 وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ: الطاعات التي تسلم من الإحباط وتبقى لصاحبها.

وَخَيْرٌ مَرَدًّا: مرجعا يردّ إليه.

77 أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا: العاص بن وائل السّهمي «3».

---

(1) وهي قراءة نافع، وابن عامر.

(2) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 343.

ونص كلامه هناك: «هذا لفظ أمر في معنى الخبر، وتأويله أن اللّه - عز وجل - جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها، ويمده فيها، كما قال جل وعز: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأعراف: 186] إلّا أن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر، كأن لفظ الأمر يريد به المتكلم نفسه إلزاما، كأنه يقول: أفعل ذلك وآمر نفسي به، فإذا قال القائل: من رآني فلأكرمه، فهو ألزم من قوله: أكرمه، كأنه قال: من زارني فأنا آمر نفسي بإكرامه

وألزمها ذلك» اه.

وانظر تفسير الطبري: 16/ 119، وتفسير البغوي: 3/ 207، والمحرر الوجيز: 9/ 522، وتفسير القرطبي: 11/ 144.

(3) ورد ذلك في صحيح البخاري وصحيح مسلم من رواية أخرجاها عن خبات بن الأرت رضي اللّه عنه قال: «كنت قينا في الجاهلية، وكان لي دين على العاص بن وائل.

قال:

فأتاه يتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى اللّه عليه وسلم. فقال: «و اللّه لا أكفر حتى يميتك اللّه ثم تبعث. قال: فذرني حتى أموت ثم أبعث فسوف أوتي مالا وولدا فأقضيك. فنزلت هذه الآية: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا اه.

اللفظ للبخاري في صحيحه: 5/ 238، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا.

وهو في صحيح مسلم: 4/ 2153 كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم»، باب «سؤال اليهود النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم عن الروح».

وانظر تفسير الطبري: 16/ 120، وأسباب النزول للواحدي: 349، والتعريف والإعلام:

111.

---

78 عَهْداً : أي : عهد بعمل صالح قدّمه «1» .

لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً : أي : إذا بعثت .

79 سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ : نحفظه عليه .

80 وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ : نجعل المال والولد لغيره ونسلبه ذلك .

و«الولد» «2» : جمع كأسد ووثن .

83 أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ : خلّيناهم وإيّاهم «3» .

تَؤُزُّهُمْ أَزًّا : تزعجهم إزعاجا «4» .

84 نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا : أي : أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء .

85 وَفْداً : ركبانا مكرّمين .

86 وِرْداً : عطاشا «5» . من ورود الإبل .

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره : 16/ 122 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 536 عن قتادة ، وكذا البغوي في تفسيره : 3/ 208 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 361 .

(2) على قراءة «ولد» بضم الواو ، وهي لحمزة والكسائي كما في السبعة لابن مجاهد :

412 ، والتبصرة لمكي : 257 ، والتيسير للداني : 150 .

وانظر توجيه المؤلف لهذه القراءة في الكشف لمكي : 2/ 92 ، والبحر المحيط : 6/ 213 .

(3) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 345 ، وذكر وجها آخر وقال : «وهو المختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال عز وجل : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ [الزخرف : 35] . . . ومعنى الإرسال ها هنا التسليط ، يقال : قد أرسلت فلانا على فلان : إذا سلّطته عليه ، كما قال : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ ، فأعلم اللّه عز وجل : أن من اتبعه هو مسلط عليه» اه .

وانظر المحرر الوجيز : 9/ 533 .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 125 عن قتادة .

وانظر هذا المعنى في معاني القرآن للفراء : 2/ 172 ، ومعاني الزجاج : 3/ 345 ، وتفسير القرطبي : 11/ 150 .

(5) بلغة قريش كما في كتاب لغات القبائل : 189 عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (16/ 127 ، 128) عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، والحسن ، وقتادة ، وسفيان .

89 إِدًّا : منكرا عظيما «1» .

90 هَدًّا : هدما بشدة صوت «2» .

96 وُدًّا : محبة في قلوب النّاس «3» .

97 لُدًّا : ذوي جدل بالباطل .

98 رِكْزاً : صوتا خفيا «4» .

95 فَرْداً : لا أنصار له ولا أعوان كلّ امرئ مشغول بنفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 533 . 544 ﴾

---

(1) تفسير الطبري : 16/ 129 ، ومعاني الزجاج : 3/ 346 ، والمفردات للراغب : 14 .

(2) تفسير الطبري : 16/ 130 ، والمفردات : 537 .

(3) نص هذا القول في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 276 .

وأخرج نحوه الطبري في تفسيره : 16/ 132 عن ابن عباس ، ومجاهد .

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 14 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 276 ، وتفسير الطبري : 16/ 134 ، ومعاني الزجاج : 3/ 347 ، والمفردات : 202 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة مريم

عدد 44 - 19

نزلت بمكة بعد سورة فاطر عدا الآيتين 58 و 71 ، وتسمى سورة كهيعص ، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، وهي ثمان وتسعون آية ، وسبعمائة وثمانون كلمة ، وثلاثة آلاف وسبعمائة حرف .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى "كهيعص" 1 كلمة مؤلفة من مبادئ أسماء اللّه تعالى الحسنى كريم وكبير ، وهاد ، ورحيم ، وعليم ، وصادق ، وصبور ، ولا يعلم معناها الحقيقي إلا اللّه والمنزل عليه هذا القرآن ، راجع تفسير المص تجد ما يتعلق بها ، وهذا الذي نتلوه عليك يا أكرم الرسل "ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا" 2 حينما دعا ربه بطلب الولد وأنعم عليه به بعد كبر سنه وعقر زوجته وكبرها على عقمها ، فاذكر لقومك معجزة ربهم لرسوله زكريا كيف رحمه وأجاب دعاءه "إِذْ نادى رَبَّهُ" سأله واستغاث به "نِداءً خَفِيًّا" 3 سرا بينه وبين ربه ، لأنه أبعد عن

الرياء وأدخل في الإخلاص ، ولئلا يلومه قومه إذا سمعوا منه طلب الولد من ربه مع شيخوخته وعقم زوجته ، لأنهم يرون ذلك طلبا تافها عقيما محالا ، ولا ينبغي لمثله وهو على ما هو عليه من المركز بينهم أن

يفعل ذلك ، لعدم معرفتهم بقدرة اللّه الذي له خرق العادات لضعف إيمانهم ، ثم ذكر صفة دعائه بقوله عز قوله "قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ" دق وضعف من الكبر "الْعَظْمُ مِنِّي" وإذا كان العظم صار كذلك ، فما بالك باللحم وغيره من قوام وجوده ؟ وزاد لفظة (مني) مع أنه لو قال عظمي لكفى بالمقصود ، لأنه أحوج في الدلالة على الجنسية المقصودة هنا وهي أفصح ما يمكن أن يقال في هذا المقام وقد أخذ ابن دريد قوله :

واشتعل المبيّض في مسودّه مثل اشتعال النار في جمر الغضا

(109/481)

في قوله "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً" 3 تمييز محول عن الفاعل ، أي اشتعل شيب الرأس ، شبه عليه السلام كثرة الشيب في رأسه في البياض والإنارة بشواظ النار وانتشاره في الشعر ، وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ففي الكلام استعارتان : تصريحية تبعية في اشتعل ومكنية في الشيب ، وأسند الاشتعال إلى محل

الشعر ومنبته وأخرج مخرج التمييز للمبالغة وإفادة الشمول ، وإن إسناد معنى إلى ظرف ما اتصف به زمانيا أو مكانيا يفيد عموم معناه لكل ما فيه في عرف المخاطب ، فقولك اشتعل نارا يفيد احتراق جميع ما فيه ، دون اشتعل نار بيته ، تأمل .

وما قيل إن شيبا مصدر لاشتعل لأنه بمعنى شاب ، أو حال بمعنى شائب ، غير سديد كما لا يخفى .

ثم قال عليه السلام فيما يحكيه ربه عنه "وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا" 4 بعدم الإجابة لدعوتي هذه ، بل كنت سعيدا لأني كنت مستجاب الدعوة عندك مقبولا ، فلا تخيبني الآن بما دعوتك به حسبما عودتني قبلا فأشقى ، وحاشاك إلا إدامة كرمك على عبدك .

ثم بين سبب طلبه بقوله "وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ" يريد أخواته وبني عمه إذ كانوا أشرارا لا يصلحون للخلافة بعده على إقامة دين اللّه ، وخاف عليه السلام إن استولوا بعده على الخلافة أن يغيروا معالم الدين ويبدلوا ما كان عليه .

واعلم أن كل من يلي أمر الرجل من قرابته وذويه يطلق عليه لفظ مولى ، ويطلق على السيد والعبد أيضا ، ويعرف بالقرينة والخطاب قال :

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالي

وحيث أن زكريا عليه السلام كان أمينا على إقامة الدين حال وجوده بما أعطاه اللّه من ملكة قال "مِنْ وَرَائِي" أي بعد موتي "وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً" فضلا عن أنها عجوز "فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا" 5 يلي أمر الناس من بعدي لإقامة دينك ممن يرضون بحكمه لأنه "يَرِثُنِي" النبوة التي شرفتني بها "وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ" النبوة والعلم والحكمة لأنه عليه السلام بن آزر وقيل بن برخيا من أولاد هارون أخي موسى عليهما السلام وهما من سبط يهوذا أولاد يعقوب والنبوة في عقبه لأنه إسرائيل اللّه صفوته من عباده وزوجته ايساع أخت مريم بنت عمران من ذرية داود عليهم السلام ، وبما أن النبوة والملك محصوران في أولاد يعقوب ، أراد أن يكون ابنه الذي سيمنّ عليه به ربه وارثا للجهتين النبوة والملك لأن زكريا كان نبيا ورسولا لا ملكا ، ومن قال إنه أراد وراثة المال فقد أخطأ وعن الحقيقة مال ، لأن الأنبياء لا يورثون ، قال عليه الصلاة والسلام نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

ومن البعد بمكان أن يشفق نبي من أنبياء اللّه على مال الدنيا ، وكذلك القول بأن المراد أن يلي الخلافة بعده أي شخص كان فقد زل لأنه عليه السلام أراد ولدا ذكرا من صلبه ، يؤيد هذا قوله تعالى (قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) الآية 38 من آل عمران في ج 3 "وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا" 6 برا تقيا أرضاه وترضاه ويرضاه خاصة خلقك ، وهذا أيضا يؤيد أن المراد بالولي ولدا صلبيا ، ومما يؤكد هذا استجابة دعوته ومناداته له على الفور من قبل

ربه

مطلب في الأسماء وما يستحب منها ويجوز ويحرم :

(111/481)

"يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى " وهو أسم خصصناه به "لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ" في الدهور الماضية "سَمِيًّا" 7 قط تشريفا له وفيه إعلام بأن الغريب جدير بالأثرة وكان ذلك لأنه لم يكن له مثل في أنه يعص اللّه قط ولم يهمّ بمعصية قط ، وانه ولد بين شخصين هرمين ، وأنه كان حصور لا يأتي النساء مع القدرة ، لأن الأنبياء كاملين لا يعتريهم خلل ، ولم يشرب الخمر

مع أنه غير محرم عليه ، ولم يلعب مع الصبيان .

قالوا كانت العرب تسمي بالأسماء النادرة لهذه الغاية ، قال بعضهم في مدح قوم :

شنع الأسامي مسبلي أزر حمر تمس الأرض أهدابها

وقيل للصلت بن عطاء : كيف تقدمت عند البرامكة وعندهم من هو آدب منك ؟

فقال : لأني غريب الدار غريب الاسم خفيف الجرم .

وكانت تختار الأسماء التي يتفاءل بها بعيدهم : كسعد وسعيد ومبارك ورزق ومرزوق

ومسعود ومهنأ وبشير وشبهها ، ويختارون الأسماء الدالة على الغلظة والشر لأنفسهم : كغضبان وعذاب وجدعان ومرار وذباح وهامة ونمر وفهد وما أشبه ذلك .

ولما قيل لهم في ذلك قالوا إن اسماء عبيدنا لنا فنختار الأحسن ، وأسماؤنا لأعدائنا فنختار لهم ما يوقع مهابتنا فيهم ، مثل الضاري والسبع والهيثم والعادي ، أما الأسماء المطلوبة في الإسلام فهي كما قال عليه الصلاة والسلام : خير الأسماء ما عبد وحمد كعبد اللّه وعبد الرحمن وعبد اللطيف ومحمد وأحمد ومحمود وما أشبه ذلك ، وكرهوا اسم نافع ورابح وخير وشبهها لتفاؤل الشر بنفيها من قولهم لا نافع ولا رابح ولا خير في الدار إلى غير ذلك ، وحرموا التسمية بعبد الحارث وعبد العزى وعبد الدار وغيرها من اسماء الجاهلية لما فيها من نسبة العبودية لغير اللّه تعالى "قالَ رَبِّ أَنَّى" كيف "يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا"

(112/481)

---

8 يبسا وعساوة في المفاصل والعظام وصرت في حالة يأس ، وهذا الاستفهام منه عليه السلام ليس على طريق الاستبعاد ، وسيأتي توضيحه في تفسير الآية 40 من آل عمران في ج 3 إن شاء اللّه فراجعه ، إذ جاءت هذه القصة فيها أوضح من غيرها في سائر السور ،

وهكذا نؤخر بيان القصص إلى السور التي هي فيها أوسع لأنها أوفى بالمقصود منها "قالَ كَذَلِكَ قالَ رَبُّكَ" مثل هذا الأمر الذي ترونه صعبا أولا يكون "هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ" ليس بشيء كيف "وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ" يحيى يا رسولي "وَلَمْ تَكُ شَيْئاً" 9 موجودا أو خلقت أباك آدم من العدم ، أفلا أخلق لك ولدا من أبوين مهما كانا

في الهرم ؟ وفي هذه الآية دلالة كافية على أن المعدوم ليس بشيء كما هو معتقد أهل السنة والجماعة قال في بدء الأمالي :

وما المعدوم مرئيا وشيئا لفقه لاح في بمن الهلال

فما قاله الغير من أن المعدوم شيء لا قيمة له لمخالفته الإجماع .

ومفهوم هذه الآية كما قال بعض المحققين .

المراد ، ابتداء خلق البشر إذ هو واقع إثر العدم المحض المستفاد من قوله (وَلَمْ تَكُ شَيْئاً) لأن ما كان بعد ذلك كان بطريق التوالد المعتاد ، فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل في تضاعيف خلق آدم ، ولم تك إذ ذاك شيئا أصلا ، بل كنت عدما بحتا .

(113/481)

وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) وقد المعنا إليه في تفسير الآية 10 من سورة فاطر المارة ، وسنأتي على توضيحه في تفسير الآية 49 من سورة الأنعام في ج 2 إن شاء اللّه ، وإنما لم يقل وقد خلقنا أباك آدم من قبل ولم يك شيئا مع كفايته في إزالة الاستبعاد لقياس حال ما بشر به على حاله عليه السلام ، لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس من حيث نبّه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه عليه السلام من العدم ، لأنه أبدع أنموذج طوي على سائر آحاد جنسه ، فكان إبداعه على ذلك الوجه إبداعا لكل أحد من فروعه إلى آخر الدوران ، ولما كان خلقه عليه السلام على هذا النمط المساوي إلى جميع ذريته أبدع من أن يكون مقصودا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه ، وأدلّ على عظيم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته ، وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده ، وكان حاله أولى بأن يكون معيارا لحال ما بشّر به لينسب الخلق المذكور إليه ، كما نسب الخلق المذكور إليه ، كما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين في قوله تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ) الآية 10 من سورة الأعراف المارة توفية لمقام الامتنان في حقه ، وقرأ الكسائي وغيره خلقناك على التعظيم ، وإنما جوز هذه القراءة لما يقصد فيها من تعظيم العظيم ليس إلا ، وإلا فالقياس عدم جوازها لما فيها من تغيير التاء بالنون وزيادة الألف ، والشرط

في القراءات عدم الزيادة والنقص والتغيير كما أوضحناه في بحث القراءة في المقدمة وفي مواقع أخر ستمر عليك "قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً" على حمل زوجتي بما بشرتني به "قالَ آيَتُكَ" على ذلك "أَلَّا" تستطيع ولا تقدر بحسب الطبع أن "تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا" 10 كاملات متتابعات ، وجاء في آل عمران (ثلاثة أيام) الآية 41 في ج 3 وعدم استطاعتك على تكليم الناس خلال هذه المدة من غير بأس فيك كخرس أو مرض أو غيره حال كونك سوى الخلق سليم الجوارح .

روى عن أبي زيد أنه لما حملت زوجته عليه السلام أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا مع أنه يقرأ التوراة ، حتى إنه إذا أراد مناداة أحد لم يطق .

مطلب ذكر الليالي دون الأيام :

وكلمة سويا تفيد معنى آخر وهو ما ذكرناه من أن الليالي مع أيامها كاملات والعرب تتجوز أي تكتفي بذكر أحدهما عن الآخر ولهذا جاء هنا ليالي وفي آل عمران أيام ، والنكتة في ذكر الليالي هنا والأيام هناك ، أن هذه السورة مكّيّة سابقة النزول ، وتلك مدنية متأخرة النزول ، والليالي عندهم سابقات الأيام لأن شهورهم وسنيهم قمرية تعرف بالأهلّة ، ولذلك اعتبروها بالتاريخ .

وقال تعالى (وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ) الآية 60 من سورة يس المارة ، فأعطى السابق للسابق

، لأن هذه الآية تفيد أن الليل لا يسبق النهار من جهة لحوقه به وعدم إدراك أحدهما الآخر ، إذ يقول في صدر الآية (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) فلا حجة في الآية على نفي ذلك ، لأنه متعارف مشهور حتى إنك تقول ليلة كذا ولا تقول نهار كذا ، وتريد فيه الليل الذي يليه بخلاف ذلك .

والليالي جمع ليل على غير قياس كأهل وأهالي ، أو جمع ليلاة وتجمع على لياليل .

قال تعالى "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ" موضع خلوته وتعبده "فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ" أشار إليهم بأصابعه لعدم قدرته على تكليمهم وقيل كتب لهم ذلك إذا

(115/481)

يطلق الوحي على الكتابة عند العرب قال عنترة :

كوحي صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طمطميس

وقد فسر ما أشار به إليهم بقوله "أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا" 11 أي نزهوا ربكم عما هو من شأن كافة الحوادث صباح مساء ، ففعلوا ، قالوا فكان الحمل وكانت الولادة عند تمام مدتها ، وقال تعالى مخاطبا لذلك المولود المبارك عند ولادته "يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ" التوراة ، لأنه لم ينزل بعد موسى كتاب فيه أحكام غيرها ، أما الزبور الذي أنزل على داود فيه أذكار

وأمثال ، وأما الإنجيل فلم ينزل بعد حيث أنزل على ابن خالته عيسى عليه السلام الذي بعده بستة أشهر ، أي خذه أخذا "بِقُوَّةٍ" جد وحزم وعزم ، واجتهد أن تعمل به وتأمر قومك بالعمل به ، قال تعالى "وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا" 12 أي النبوة التي لم تعط لمثله قبله قط ولا بعده إلا لعيسى عليه السلام ، لانها مبنية على خرق العادة ، وللّه أن يعطيها من يشاء من خلّص من عباده بمحض الفضل ، فإذا ثبت هذا وهو ثابت محقق فلا يمنع صيرورة الصبي نبيا لان نبوته على صغره أمر خارق للعادة أيضا ولا شك أن اللّه تعالى أحكم عقله وأهله لوحيه .

روى عن ابن عباس رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال في ذلك إنه أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين .

وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعا أنه قال قال العلمان ليحيى بن زكريا عليهما السلام اذهب بنا نلعب ، فقال ا للّعب خلقنا ؟ اذهبوا نصلي فهو قوله تعالى (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) وأكثر المفسرين على أن الحكم الذي أعطاه اللّه إياه هو النبوة ، وما ذكر أنه الفهم بسبب قراءته التوراة وهو صغير مستدلا يقول بعض السلف : من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فقد أوتي الحكم ، ليس بشيء .

قال تعالى "وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا" أعطيناه أيضا رحمة ورأفة وشفقة على أبويه وغيرهما ، لأنه نبي مرسل وهذه الصفات من مقتضيات النبوّة .

قال الحطيئة يخاطب عمر رضي اللّه عنه

تحنن عليّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

أي ترحم .

ويطلق الحنان على اللّه جل شأنه ، ولا وجه لمن منع إطلاقه عليه لوروده في بعض أدعيته صلى اللّه عليه وسلم حتى عده بعضهم في الأسماء الحسنى ، ولكنه بالتشديد ليس بالتخفيف كما هنا ليدل على التكثير وبعضهم لم يعده قال المنذر بن درهم الكلبي

وأحدث عهد من أمينة نظرة على جانب العلياء إذ أنا واقف

تقول حنان ما أتى بك ها هنا أذو نسب ، أم أنت بالحي عارف

وقال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

فكل هذا مما يؤيد أن الحنان بالتخفيف بمعنى الرحمة ، وقيل مأخوذ في الأصل من حنّ بالتشديد بمعنى اشتاق وارتاح "وَزَكَاةً" أعطيناه أيضا طهارة من مقارفة الذنوب ومقاربة العيوب ، وقيل بركة ، أي جعلناه نفاعا مباركا معلما للخير .

وجاء في الإنجيل ما لفظه مبارك من الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب .

وفيه يقول السيد عيسى عليه السلام لم يقم أحد من بين المولودين أعظم من يوحنّا المعمدان .

ويحيى عليه السلام المعمدان لأنه كان يعمد الذين يسلمون على يده وأولادهم بأن يأمرهم بالاغتسال .

وهو عمّد أي غسل السيد عيسى عليهما السلام .

والتعميد بمعنى التغسيل لغة متعارفة عند النصارى "وَكَانَ تَقِيًّا" 13 مطيعا مخلصا متجنبا كل ما يلهي عن اللّه ، وهذه الصفات التي أخبر اللّه بها تؤيد تشريفه بالنبوة حال صباه ، لانه لا يتحلى بها إلا الكاملون "وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ"

لأنه علم بتعليم اللّه إياه أن لا عبادة بعد تعظيم اللّه تعالى أعظم من برّ الوالدين .

قال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) الآية 21 من سورة الإسراء الآتية ، ثم نفى اللّه عنه ما قاله بعض قومه أنه خرج على غير طريقهم تجبرا عليهم وعصيانا لهم ، فقال جل قوله "وَلَمْ يَكُنْ"

ممن تحلى بهذه الصفات الحميدة الجليلة "جَبَّاراً عَصِيًّا"

14 بل كان متواضعا لين الجانب سهل المأخذ يسر المخاطبة كثير الطاعة لوالديه ، لأن نفي الصنفين الكائنين بلفظ المبالغة يثبت عكسهما له عليه السلام بلفظ المبالغة أيضا "وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا"

15 وهذا كله باق دائم له من جانب ربه في أحواله

الثلاث المهمة ، أي أنه لم ينله الشيطان يوم ولادته ، وإنه يحميه من فتاني القبر إذا مات ، ومن الفزع الأكبر والعذاب حين ينشر من قبره ، وهذه المواطن الثلاث أوحش ما يلاقيه الإنسان ، يوم يولد يرى نفسه خارجا مكرها من مقره فيسقط باكيا ، ويوم الموت يرى من الأشباح والآلام ما ترتعد له الفرائص وترتج لهوله القلوب ، ويوم البعث يرى مشهدا لا يوصف ما فيه من الشدة والكرب ، راجع تفسير الآية الأولى من سورة الحج في ج 3 ، وهذه البشارة الواردة في القرآن العظيم خصّت به وبالسيد عيسى عليهما السلام ، ولا أعظم منها بشارة "وَاذْكُرْ"

يا محمد لقومك وغيرهم قصة مريم بعد قصة يحيى العجيبتين "فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ"

بنت عمران التي قصتها أعجب من قصة ابن أختها يحيى "إِذِ انْتَبَذَتْ"

اعتزلت وتنحت ، وأصل النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ، أي أنها لم تبال بنفسها حيث انفردت وتباعدت "مِنْ أَهْلِهَا"

ومن الناس أجمع "مَكاناً شَرْقِيًّا"

16 من دار أهلها وقريتها لتغتسل وتتخلى للعبادة ، وقيل قعدت في مشرفة لتغتسل من الحيض ، ويؤيد هذا القيل معنى قوله تعالى "فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً"

ساترا لها لئلا يراها أحد حين اغتسالها على القول بأن ابتعادها لهذه الغاية ، أو حائطا أو جبلا على القول بأن اعتزالها كان لمحض العبادة ، ولكن لفظ الاتخاذ يؤيد الأول ويؤكده قوله تعالى "فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا"

(118/481)

جبريل عليه السلام ، وإنما سمي روحا لأن الدين يوحى به ، لأنه واسطة الوحي وتبليغه للرسل ، والإضافة للتشريف ، أو لأنه محبوب اللّه ومقربه وأمين وحيه ، كما تقول لحبيبك أنت روحي لفرط محبتك له ، وقرىء روحنا بفتح الراء ، وإنما سمي به لانه سبب الروح للعبادة ، ولأنه من جملة المقرّبين الموعودين بالروح في قوله تعالى : (فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) الآية 40 من سورة الواقعة الآتية ، وقرىء روحنّا بتشديد النون اسم ملك ، وليست بشيء ، ولا وجه لمن قال إن المراد بروحنا عيسى عليه السلام محتجا بقوله تعالى (وَرُوحٌ مِنْهُ) الآية 170 من سورة النساء في ج 3 ، لأنه لم يكن بعد

فكيف يرسله ، وينافيه قوله تعالى "فَتَمَثَّلَ لَهَا"

ذلك الملك

المسمى بالروح فكيف يتصور أنه عيسى ولم يخلق بعد ؟ وما قيل إن ضمير تمثل يعود إلى ملك غير مذكور يأباه سياق النظم الكريم ، فكان عليه السلام حينما تمثل لها "بَشَرًا سَوِيًّا" 17 كامل الخلق لئلا تنفر منه ولتستأنس بكلامه ، لأنه لو جاءها بصورته الحقيقة لما استطاعت النظر إليه لما أعطاه اللّه من بداعة الخلق والهيبة والصفة العجيبة – راجع تفسير الآية 21 من سورة التكوير المارة – وما قيل إنه تمثل لها بصورة البشر لتهيج شهوتها قيل خاطئ تتنزه عنه السيدة مريم ويكذبه قولها حين رأته أقبل عليها وهو "قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا" 18 تخاف اللّه فتباعد عني ولا تقربني ، فهذا شاهد عدل على أنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما البتة ، وقولها هذا غاية في كمال عفتها ونزاهتها عليها السلام ، مع أنه إذ ذاك كان غير محذور اختلاط النساء بالرجال ومكالمتهم فلا مانع ولا شبهة فيه ، ولم يحرم النظر على الأجنبية إلا زمن عيسى عليه السلام ، كما جاء في الاصحاح 5 من إنجيل متى ، وسنبينه في تفسير الآية

29 من سورة النور في ج 3 إن شاء اللّه .

أما الحجاب فلا ذكر له قبل عهد المصطفى محمد صلى اللّه عليه وسلم ديانة وإن كان يستعمله أكابر الناس قبلا كما سنبينه في تفسير الآية 58 من سورة الأحزاب في ج 3 أيضا إن شاء اللّه بصورة كافية شافية .

وما قيل إن (تقيا) اسم رجل شقي معروف عندهم في ذلك الزمن أو رجل صالح كيوسف النجار فغير صحيح ، وهو من مخترعات القصاص وأخبار الأخباريين وأكاذيبهم ، لأن الأول لا يجرؤ على الوصول لبنات الأنبياء والأعاظم كمريم عليها السلام ، والثاني مشهور بالعفة يمنعه دينه من الوصول إليها وغيرها .

فأجابها جبريل عليه السلام "قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ"

ليس ممن يتوقع منه الشرّ الذي توهمينه حتى تستجيري بربك مني لأني رسول الذي استجرت به واستعذت أمرني أن آتيك "لِأَهَبَ لَكِ"

بإذنه تعالى الذي أرسلني إليك ، إذ أمرني أن أنفخ في جيبك ليكون هذا النفخ سببا في حصول الولد الذي سيكون "غُلاماً زَكِيًّا"

19 طاهرا نقيا فطنا .

وأسند ضمير أهب لنفسه ، لأن اللّه أرسله بذلك ، وفعل الرسول ينسب إلى المرسل

"قالَتْ" متعجبة مما سمعته "أَنَّى

يَكُونُ لِي غُلامٌ"

كيف يتصور ذلك "وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا" 20 لأن الولد لا يكون إلا بنكاح أو سفاح، وكلاهما لم يكن، وهذا استفهام تعجب.

وهناك أي استفهام زكريا المار في الآية 8 استفهام استطلاع عن الكيفية والتذاذ بسماع الجواب السّار

"قال كَذَلِكِ" إن الأمر كما ذكرت لك، ولا أعلم غير ما أمرت به.

(120/481)

ولكن "قال رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ" وإن كان مستحيلا عادة إتيان الولد من غير مس، لأن اللّه تعالى يأتي بالمستحيل من غير حاجة إلى الأسباب ألا تعلمين أنه خلق آدم من لا شيء وخلق حواء منه، فالذي يخلق من غير أم وأب ومن غير أم ألا يقدر أن يخلق من غير أب وهو الفعال لما يريد ؟ بلى يسهل عليه ذلك، ثم قال لها وإن ربك قال "وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ" كما جعلنا آدم وحواء قبله آيتين للخلق في زمنهما من الملائكة والجنّ، كذلك نجعل الولد الذي سيكون منك آية لهم دالة على قدرة ربك البالغة "وَرَحْمَةً مِنَّا" لمن يؤمن به ويتبعه

"وَكَانَ" ابنك هذا مكتوبا في أزل ربك بأنه يكون من هذه النفخة بأمره "أَمْراً مَقْضِيًّا" 21 محكما مبرما لا يبدل ولا يرد .

فلما سمعت هذا وعرفته أنه من اللّه سكتت ، فتقدم جبريل عليه السلام وأخذ درعها من الأرض ورفعه فنفخ فيه وأعطاه إياها ، فلبسته بعد أن اطمأنت إليه "فَحَمَلَتْهُ" أحست بحمله حالا ، ولما بدأ حملها خافت أن يعرف الناس ذلك وهي مشهورة بالعفّة والطهارة ومن بيتهما ، وعرفت أنها إذا قالت من اللّه بواسطة الملك لا يصدقونها ، فصمّمت على الخروج من القرية لترى ما يرى اللّه لها "فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا" 22 بعيدا عن قريتها وأهلها لئلا يعيروها ، والباء في (به) للمصاحبة والملابسة لأنه في بطنها كقوله تعالى (تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ) الآية 22 من سورة المؤمنين في ج 2 ، وعليه قول المتنبي في وصف الخيل :

فمرت غير ناظرة عليهم تدوس الجماجم والرؤوسا

أي اعتزلتهم "فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ" الجأها أو فاجأها وجع الولادة المسمى طلقا بعرفتا "إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ" الكائن في بيت لحم في فلسطين وهو يبعد

عن قريتها الناصرة بأربعة مراحل تقريبا ، ولذلك وصفته بالبعد في الآية لانه في ذلك الزمن يعد بعدا بعيدا ، وكان الجذع بالبرية على مستوى من أرض بيت لحم يا بسا ، فاستندت إليه وتمسكت به عند شدة الطلق ، ولما رأت وحدتها وما حل بها وتفكرت بما سيصمها به قومها "قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا" الأمر الذي حل بي الذي سيصيبني منه ما يصيبني "وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا" 23 لم أذكر ولم أولد ، فولدته عند ذلك ، وقد سمع كلامها "فَناداها مِنْ تَحْتِها" قائلا لها يا أماه "لا تَحْزَنِي" على وحدتك وما سيتفوه به الناس فيك ، وافرحي "قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا" 24 عبدا شريفا رفيعا سيدا كريما ، ومن تأت بمثل هذا ينبغي لها أن تفرح لا أن تحزن .

وقال بعض المفسرين إن (سريا) جدول ماء جار هناك بمحل الولادة ، ومعنى لا تحزني على الطعام والشراب معتدلا بالآية 25 الآتية وهو بغير محله ، ولا طائل تحته ، إذ يبعد على مثلها أن تحزن على الطعام والشراب .

وأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه عن البراء من أنه سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن السريّ ، فقال هو الجدول ، وذكره البخاري تعليقا موقوفا عليه ، فلم يصح ، وإذ لم يصح لا يتخذ حجة لأن الدليل إذا طرقه الاحتمال أفقده الاستدلال وأسقط حجيته ، وإن اطلاق السريّ على جدول الماء الجاري من حيث اللغة صحيح معروف ، وجاء في قول لبيد :

فتوسطا عرض السريّ فصدعا مسجودة متجاوزا قلامها

يصف عيرا وأتانا .

وأنشد ابن عباس :

سهل الخليقة ماجد ذو نائل مثل السري تمده الأنهار

إلا أنه غير مراد هنا وأراه غير موافق للواقع أيضا ، إذ لا يوجد هناك في بيت لحم نهر جار البتة لا في محل الولادة ولا في غيرها ، بل يوجد آبار ولعلها كانت قريبة التناول ، وكانت عينّا معينا .

(122/481)

أما ما جاء في الآية 50 من سورة المؤمنين في ج 2 وهي قوله تعالى (وَآوَيْنا هُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ) فهو غير مراد هنا بل هو في محل هجرة عيسى عليه السلام مع أمه كما سيأتي توضيحه هناك ،

حتى إن محل الولادة لا يوجد فيه ربوة وإنها الآن ينزل إليها بدرج تحت الأرض وقد شاهدته بعيني سنة 1935 في شهر مايس عند زيارتي للقدس الشريف والخليل ، وذلك المحل المبارك .

وعلى هذا واللّه أعلم أنه لم يرد ذلك المعنى بالسريّ ، وإنما معناه ما ذكرناه وهو الموافق للسياق والسباق .

(123/481)

وإن استعمال السريّ بمعنى السيد الكريم هو من فصيح الكلام كما أن عود الضمير في ناداها إلى السيد عيسى كما جرينا عليه أوفق وأنسب للمعنى من قول إنه يعود إلى جبريل ، لأن نطقه حال ولادته من معجزاته التي جاوبها ، وعلى هذا جهابذة المفسرين كالحسن وابن زيد وأبي حيان والجبائي ومجاهد ووهب وابن جبير وابن جرير ، ونقله الطبرسي عن الحسن يؤيده قراءة الأبوين والابنين عاصم والجحدري "من" بفتح الميم أي الذي تحتها ، وروى أن الحسن وابن عباس قرأ كذلك ، وفي الأسئلة النجمية كذلك أيضا ، ومن قال على هذه القراءة يراد به جبريل لأنه كان تحت الرّبوة التي ولدت عليها لا دليل له على ذلك ، ولا يساعده نظم التنزيل وظاهره ولا يعدل عن الظاهر إلا لأمر قسريّ ، ولا يوجد ، وأضعف من هذا قولهم إنه كان عليه السلام تحتها يتلقى الولد ، وهذا مما لا يليق بجنابه وأمانته على وحي ربه ، وعفتها وطهارتها ، ومما يتأدب عنه وعن القول به كل تقي ، هذا ، واختلف في سنّها عند الحمل وفي مدة الحمل وزمنه أيضا على أقوال ، فقيل إن سنها كان يتراوح بين

العشر سنين وخمس عشرة ومدة حملها ما بين ساعة وتسعة أشهر ، والمشهور أنها ثمانية ، لهذا قالوا لم يعش مولود على رأس الثمانية أشهر غير عيسى عليه السلام ، وذلك أن جملة المنجمين يزعمون أن النطفة تقبل البرودة في الشهر الأول من زحل فتجمد ، وتقبل القوة النامية في الثاني من المشتري فتأخذ في النمو ، وتقبل في الثالث القوة الغضبية من المريخ ، وفي الرابع قوة الحياة من الشمس ، وفي الخامس قوة الشهوة من الزهرة ، وفي السادس قوة النطق من عطارد ، وفي السابع قوة الحركة من القمر ، فتتم خلقة الجنين ، فإن ولد في الثامن لم يعش لقبوله قوة الموت من زحل ، فإن ولد في التاسع عاش ، لأنه قبل قوة الحياة من المشتري ، وذلك من الخرافات لأن هذه المكونات لا تأثير لها إلا

(124/481)

بإرادة اللّه تعالى ، فمن قال هذا قبل قوله كقولهم إن الثمار تنضج بتأثير الشمس ، وألوانها تكون بتأثير القمر ، وأطعمتها تكون بتأثير النجوم .

أما من نسب ذلك لها بقوة جعلها اللّه فيها وإرادته لذلك فلا بأس بقوله ، لأن اللّه تعالى يضع ما يريده من قوى فيما يريده من مخلوقاته الجامدة والحساسة ، كما يضع قوة الذبح في الموسى عند إرادة الذبح ، وكما يخلق قوة الشبع والرّي عند الأكل والشرب ، يفعل ما يشاء

ويختار .

ومن أسند هذه القوى لنفس النجوم فقوله مردود عليه ويخاف عليه من سلب الإيمان والعياذ بالله ، وقد صرفنا النظر عن الأقوال الواردة في سن مريم ومدة حملها ، إذ لا طائل تحتها ، وأحسنها القول بأن سنها كان خمس عشرة سنه ، ومدة الحمل تسعة أشهر ، لأن القول بأن حملها وولادتها في ساعة واحدة يأباه نظم القرآن ، إذ لو كان كذلك لما ذهبت من الناصرة إلى بيت لحم ، بل وضعته حالا في مكانها ، وهذا كاف لردّ هذا القول .

وأما زمن الولادة فهو وقت الزوال على ما جاء في أحسن الأقوال ، وما قيل إنه في منتصف الليل لم يثبت ولعلها أحست بالطلق في منتصف الليل وولدته وقت الزوال .

ثم قال لها عيسى عليه السلام "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا" 25 ناضجا حان قطافه ، وهذه معجزة لسيدنا عيسى عليه السلام إرهاصا لنبوته أو كرامة لأمه

(125/481)

لا معجزة لفقد شرطيها وهو النبوة والتحدي ، ووجه كونها كرامة أو إرهاصا لسيدنا عيسى أو كرامة لأمّه عليها السلام لأنها كانت يابسة والولادة كانت في موسم الشتاء (25

كانون الأول سنة 4004) من ولادة آدم كما قيل ، والشتاء ليس بموسم لقطف الثمر ، وفيها إشارة إلى ما يؤول إليه حاله بأنه عليه السلام (أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ) كما وصفت النخلة لأنه ولد في الأرض ورفع إلى السماء وأنه سيحيي الموتى بإذن اللّه كما أحييت النخلة الميتة ، وفي الأمر بالهزّ دليل على وجوب السعي لتحصيل الرزق وإلا فالذي أحيا النخلة قادر على إسقاط ثمرها دون هزّ ، وما أحسن ما قيل في هذا :

ألم تر أن اللّه أوحى لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزّه إليها ولكن كل شيء له سبب

"فَكُلِي" من هذا الثمر "وَاشْرَبِي" من الماء الموجود هناك وهذا ما حدا ببعض المفسرين على تفسير السريّ بالنهر كما أشرنا إليه آنفا "وَقَرِّي عَيْناً" طيبي نفسا ، والعرب تكنى بقرة العين أي بردها عند السرور والفرح وسخنها عند الغم والحزن ، راجع تفسير الآية 74 من سورة الفرقان المارة تجد هذا مفصلا بما يكفيك عن مراجعة غيره ، هذا وعلى ما جرينا عليه يكون المعنى إجمالا :

لا تحزني وافرحي بولدك لأنك جئت بما يرضيك ، واتركي الحزن فإن اللّه قد أظهر لك ما يبرىء ساحتك مما كنت تتوهمينه قالا وحالا .

يؤيد هذا ما روي عن ابن زيد قال قال عيسى عليه السلام لها لا تحزني ، فقالت كيف لا أحزن وأنت معي ولست ذات زوج ولا مملوكة ، فأي شيء عذري عند الناس ؟ ليتني متّ قبل هذا ، فقال لها عليه السلام أنا أكفيك الكلام ، قال تعالى (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً) عند ذهابك لأهلك وقريتك وأراد أحدا أن يتكلم معك في هذا الشأن "فَقُولِي" لهم "إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً" عن الكلام لدلالة المقام عليه ، وكان صوم الصمت عن الكلام عندهم معروفا ومن جملة العبادات لدى الإسرائيليين ، وهو حتى الآن كذلك ، وإنما أمرها بالصمت ليتكلم هو عنها ولئلا تجادل السفهاء بنفسها لأنها مهما قالت لهم لا يصدقوها ، لأنه أمر لم يقع وهو فوق العقل ، فكان سكوتها واجبا لحفظ كرامتها .

ثم فسر الصوم بقوله قولي "فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا" 26 وإنما أناجي ربي وأكلم الملك وابني هذا ، أي قولي لهم هذا الكلام واسكتي .

فطاب خاطرها وعلمت حجة قول ابنها ، لأن تكليمه إياها فوق العقل أيضا ، وإذ حصل لها اطمئنان بما سمعت من ابنها ، عنّ لها أن ترجع إلى قريتها قال تعالى "فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ" إلى بلدتها النّاصرة ، فلما رأوها حزنوا لما يعلمون من صلاحها وطهارتها وأصلها ، لأنها من قوم صالحين ، وكان رجوعها إليهم حال كونها حاملة ولدها ، قالوا وكان رجوعها

إليهم بعد الولادة بأربعين يوما لا من غيابها لأنها تركت قريتها الناصرة بعد أن ظهر حملها وذهبت إلى بيت لحم خوفا من كلام السفهاء إلى محل لا يرونها لبعده إذ ذاك ، لأنه لا يوجد وسيلة للنقل وركوب الإبل وغيرها من الحيوان ، وبقيت هناك حتى ولدت وانقضت مدة نفاسها على أصح الأقوال المعول عليها "قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا" 27 منكرا عظيما وأمرا بديعا تحتجين به ، مع ما أنت عليه من الصلاح وكريم المحتد "يا أُخْتَ هارُونَ" يا شبيهته في العفة والتقوى والورع والصلاح وطيب العنصر ، لا في النسب لأنها من نسل داود واسمها مريم واسم أبيها عمران ، وهرون أخو موسى اسم أخته مريم أيضا ، وأبوه عمران وهو من بيت الصلاح ، فمن هنا جاءت النسبة ، والعرب تقول أخو تميم وأخو تغلب لرجل منهم ، روى مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت خراسان سألوني فقالوا لي إنكم تقرءون يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ فلما قدمت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سألته عن ذلك فقال إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم ، ولذلك شبهوها به .

وما قيل إن هرون آخر كان في بني إسرائيل فاسقا فشبهوها به قول باطل ينافيه سياق الكلام ومبناه لا مستند له ولا مناسبة ، ومن تتمة خطابهم لها ما ذكره اللّه عز ذكره "ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ" شقيا ولا زانيا "وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا" 28 بل كانا عفيفين طاهرين منزهين ، وكان اسم أمها حنّة ، مشهورة بالطهارة ومن بيت العفة ، والأجدر أن يتبع الفرع أصله ، فلما ذا جئت على خلاف ضئضئك ومن أين أتاك هذا الولد ؟ وهنا انتهى كلامهم لها فكان جوابها لهم ما ذكره اللّه عز ذكره "فَأَشارَتْ إِلَيْهِ" بأن كلموه هو وأشارت إلى عيسى ليكلمهم فظنوا أنها تهزأ بهم وتسخر عليهم فغضبوا وخاطبوها بعنف "قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا" 29 ولم تجر العادة أن يكلم مثله أو يتكلم ، ولا يرد على هذا أن كل إنسان كان في المهد صبيا ثم كبر وتكلم ، لأنه كان لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح للقريب والبعيد ، وهو

هنا للقريب خاصة ، لأن الكلام مسوق للتعجب ، وكلام الكبير الذي كان في المهد قبل سنين لا يتعجب منه ، فهو إيراد تافه ، كما أن القول بأن كان زائدة واه إذ لا زائد في القرآن ، وهي هنا تامة .

ولما سمع كلامهم مع أمه التفت إليهم عليه السلام وقطع رضاعه وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته على ما قالوا فقال لهم "قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ" الإنجيل

لأنذركم به "وَجَعَلَنِي نَبِيًّا" 30 حال صباي وإن معجزتي كلامي معكم وأنا طفل .

قال الحسن كان في المهد صبيا وكلامه معجزة له .

وقال أكثر المفسرين إنه أتي الإنجيل وهو صغير ، وكان يعقل عقل الكمل وعبر بالماضي عن المستقبل ، إما باعتبار ما سبق في أزله تعالى أو باعتبار المحقق وقوعه كالواقع .

وقيل معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا ، وهو إخبار عما كتب له في اللوح .

(129/481)

كما قبل لحضرة الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم متى كنت نبيا قال : كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس أن عيسى عليه السلام درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه .

وروي عن الحسن أنه ألهم التوراة وهو في بطن أمه ، وهما كما ترى .

وبعد أن أخبر اللّه بأنه أعطاه الكتاب فلا حاجة للجنوح إلى ما جاء في الحديثين بل علينا أن نعتقد أنه كما ولد بأمر اللّه من غير أب وأنطقه وهو طفل أعطاه الكتاب وعلمه إياه بإلهام منه وهو طفل أيضا .

ومن عرف اللّه بأنه الفعال لما يريد القادر على كل شيء لا يحتاج إلى التأويل والتفسير ، وعلى العاقل أن يصدق بكل ما جاء من عنده ، وهذا طريق السلام ،

قال عليه السلام "وَجَعَلَنِي مُبارَكاً" نفاعا قاضيا للحوائج آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، أبرىء الأكمه والأبرص وأشفي المرضى بإذن اللّه وهذا هو المبارك ولا أعظم بركة من هذه البركة التي شرفه اللّه بها ، فالإله الذي يعطيه ذلك ويعطيه إحياء الموتى أيضا وخلق الطير أفلا يعطيه الإنجيل ويحفظه إياه ؟

بلى وهو على كل شيء قدير "أَيْنَ ما كُنْتُ" ليس في أرضكم وبلدكم هذه فقط بل في كل مكان حللت فيه وزمان وجدت فيه أكون هكذا معلما للخير مباركا نفاعا "وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا" 31 في الدنيا لأن الآخرة

(130/481)

لا عبادة فيها ، والصلاة والزكاة عبادة تنقطع بالموت ، لذلك جعل نهايتها الحياة وهذان الفرضان تعبّد اللّه بهما كل أنبيائه وأممهم وكذلك الصوم والقصاص إلا أنها كانت مفرقة على الأنبياء على غير هذه الصفة والقدر المبين في شريعتنا ، لأن نبينا صلى اللّه عليه وسلم جاء بشريعة جامعة لما تشتت من شرائع الأنبياء قبله ، ولم تجمع الصلوات الخمس إلا

له ولأمته ، فالصلاة والزكاة من حيث الأصل فرضت على جميع الأنبياء وأممهم كما يفهم من الآية 183 من سورة البقرة في ج 3 ، ولكن تختلف في الكيفية والكمية عما فرض علينا "وَبَرًّا بِوالِدَتِي" أوقرها وأكرمها وأعظمها على سائر الناس ، وفي تخصيص برّه بوالدته اشعار صريح بأنه لا والد له وإيذان ببراءتها مما رموها به ، وإشارة بطهارتها وعفافها ، ولهذا استحقت البر منه "وَلَمْ يَجْعَلْنِي" ربي الذي منّ علي بما ذكرته لكم "جَبَّارًا شَقِيًّا" 32 متكبرا عاقا عاصيا ، وفي قوله جبارا إعلام بنزاهة أمه أيضا مما وصمت به بسببه ، قال بعض العلماء لا تجد العلق أي ابن الزنا إلا جبارا .

(131/481)

ولهذا نفى عنه عليه السلام هذه الصفة الخبيثة "وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا" 33 تقدم تفسير مثلها في الآية 15 المارة ، وقد أخبر بهذه الآية قومه بأنه عليه السلام آمن عند ربه في هذه المواطن الثلاثة التي قل من يأمن منها ، وفي بدء جوابه عليه السلام لقومه اعتراف على نفسه بالعبودية للّه ، كأنه نفت في روعه أن من الناس من يتخذه إلها فنبّه قومه مقدما بأنه عبد اللّه من جملة عيده تبرأ مما سيقوله المتوغلون في حبه واعتذارا مقدما إلى ربه ليكون حجة له عنده وحجة على الذين يتخذونه إلها فمن قومه

من قنع وصدق ، ومنهم من استعظم وكذب ، ونشأ صلى اللّه عليه وسلم على أكمل الأوصاف في غاية من التواضع ونهاية في الأدب يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب ولم يتخذ مسكنا له ويتصدر لقومه ويقول سلوني عن أموركم فإني لين القلب صغير النفس ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 45 فما بعدها من آل عمران في ج 3 ، قال تعالى "ذِلِكَ" الذي خلقناه من روحنا على الوجه المار ذكره والذي وصف نفسه بتلك الصفات هو "عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ" نبيّنا

ورسولنا وعبدنا لا إله ولا جزء من الإله ولا شريك معه ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

(132/481)

أقول لكم هذا أيها الناس "قَوْلَ الْحَقِّ" على قراءة النصب وهي الواردة في القرآن ، وعلى قراءة الرفع يكون المعنى ان هذا الذي قلته في عيسى عبدي هو قول الحق الصدق "الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ" 34 يشكون ويختلفون فيقولون الأقاويل الكاذبة فيه وهو عبد اللّه ورسوله ولد من مريم بلا أب على الوجه المار ذكره والصفة المبينة ، لا مرية فيه أبدا ، وعليه فإن ما تقوله اليهود بأنه ساحر وما يرمونه به كذب محض ، وما تقوله النصارى من أنه ابن اللّه افتراء

بحت ، وما يقوله الغير من وصم أمه الطاهرة الزّكية بهت ظاهر ، وقد بين اللّه كذبهم كلهم بما تقدّم من الآيات وما سيأتي في الآيات المبينة آنفا وغيرها ، وحققه بقوله جل قوله "ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ" البتة لعدم الحاجة إليه وقد نزه نفسه عنه بسورة الإخلاص المارة وفي الآية الأخيرة من سورة الإسراء الآتية وغيرها "سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً" كهذا وغيره مهما كبر وعظم عند خلقه إذ لا يعظم عنده شيء "فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" 35 حالا لا محالة وها تان الآيتان من ذلك إلى هنا من كلام الرب عز وجل جاءتا اعتراضا بين قوله على لسان عيسى قبلها وبين قوله :

"وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ" وحده لا تشركوا به شيئا .

مطلب وصية عيسى عليه السلام وما يقوله فيه قومه :

(133/481)

وفي قوله هذا وقول ربه المار ذكره ردّ صريح على من قال إنه إله أو ابن الإله "هذا" الذي أخبرتكم به أيها الناس من براءة أمي وتبرؤ مما سيقال في ، وإني عبد اللّه ورسوله وإن اللّه ربي وربكم ورب العالم أجمع لا شريك له ولا وزير ولا صاحبة ولا ولد "صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ" 36 فاسلكوه وتمسكوا به لئلا تضلوا فتهلكوا لأنه الطريق السوي الموصل إلى الخير في الدنيا

والآخرة ، فمن قال بعد هذا إن عيسى ابن اللّه أو إله أو ثالث ثلاثة أو شريك مع الإله أو إن أمه لم تحمل به على الصورة المذكورة ، فقد افترى على اللّه وعلى رسوله عيسى وعلى أمه مريم

وأبهتهم باختلاق أقوال كاذبة انتحلها من نفسه .

فمن أذعن وصدق فقد فاز ونجا ، ومن جادل وكذب فقد هلك وخسر .

قال تعالى "فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ" بدل أن يتفقوا بعد هذا البيان الكافي في وصيته عليه السلام لهم ، وهذا الاختلاف حدث "مِنْ بَيْنِهِمْ" من بين قوم الموصي لهم بالاتفاق على وصيته على أقوال اتبع كل فرقة ما سوّلت لهم أنفسهم ، فقالت النسطورية هو ابن اللّه أظهره ثم رفعه ، وقالت اليعقوبية هو اللّه هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وقالت الملكانية هو عبد اللّه ونبيه .

ولهذا قال تعالى : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ) الآيات 19/ 75 و76 من المائدة والآية 170 من النساء في ج 3 وسيأتي تفسيرها فيها إن شاء ، إذ كان في عهد نزول القرآن من لا يقول هذا وإلا لما خصص هذين الأمرين ، ويوشك أن يكون الآن ممن لا يقول بهما ويعيب على من يقول بهما حتى الآن .

وقالت اليهود ليس بنبي إنما هو رجل تعلم السّحر ويزعم أنه ملك اليهود ، ولذلك صاروا فرقا وأحزابا كما ذكر اللّه "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا" به وقالوا ما قالوا وماتوا على كفرهم "مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ" 37 مهول مخوف وهو يوم الحساب والجزاء لأنهم لا يسمعون نصائح الرسل سماع قبول ، وستراهم يوم القيامة يا أكرم الرسل في ذلك الموقف أكثر سماعا من غيرهم وأحد نظرا "أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ" هاتان كلمتان تعجب من جودة سمعهم وحدة بصرهم (واللّه تعالى لا يوصف بالتعجب) والمراد منه أن أبصارهم وأسماعهم "يَوْمَ يَأْتُونَنَا" في الآخرة جدير بأن يتعجب منهما لما هم عليه إذ ذاك من قوة السمع والبصر بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الصمم عن سماع ذكرنا والعمى عن أبصار آياتنا "لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ" في هذه الدنيا مغرورون تائهون وخاصة بعض المسيحيين فيما يعتقدونه في عيسى عليه السلام ، فهم "فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" 38 خطأ ظاهر غدا في الآخرة بل وقبلها يوم ينزل من السماء كما سيأتي في الآية 60 من سورة الزخرف في ج 2 فيعترفون بالحق الذي أنكروه الآن ويندمون على ما وقع منهم .

مطلب يوم الحسرة وذبح الموت :

فعظهم يا أكمل الرسل "وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ" ذلك يوم الخسران والندامة ، إذ يتحسر المسيء على ما وقع منه في الدنيا ويتحسر المؤمن على تقصيره فيها أيضا لما يرى من عظيم

ثواب غيره .

روى أبو هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : ما من أحد يموت إلا يندم .

(135/481)

قالوا ما ندمه يا رسوله ؟ قال إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع – أخرجه الترمذي – وقال أكثر المفسرين إن يوم الحسرة يوم من أيام القيامة يذبح فيه الموت استنادا على ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يؤتى بالموت على هيئة كبش أملح (مختلط سواده ببياضه والموت لا يذبح لأنه عرض والذبح للأجسام ، إلا أن اللّه تعالى يجسمه بصورة كبش فيذبح على مشهد الخلائق فيموت ولا يرجى له حياة ولا وجود ، وكذلك حال أهل الجنة وأهل النار لا زوال لهما ولا انتقاص) فينادي مناد : يا أهل الجنة ! فيشرفون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادي مناد : يا أهل النار ! فيشرفون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه . فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ، ثم قرأ : وأنذرهم يوم الحسرة "إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ" فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة

وأهل النار النار وذبح الموت "وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ" عما يراد بهم بالآخرة لشدة انهماكهم في الدنيا ، والواو في هذه الجملة وفي قوله جل قوله "وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ" 39 للحال ، أي والحال أنهم لا يصدقون أن الأمر قد فرغ منه ، وأشار بيده إلى الدنيا .

زاد الترمذي فيه : فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار .

لزيادة ما يرى الأول من النعيم والسرور ، والآخر من العذاب والحزن ، ويعلم كل منهم أنه خالد فيما صار إليه .

ورويا عن ابن عمر أيضا قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى

(136/481)

يجعل بين الجنة والنار ، فيذبح ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا يدخل الجنة أحد إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده

من الجنة لو أحسن فيكون عليه حسرة .

فعلى هذا قد ثبت أن يوم الحسرة هو يوم ذبح الموت على الوجه الذي بيناه ، إذ يتحسر فيه الظالمون على ما فرط منهم ، والمنقون على تفريطهم بعدم ازدياد العمل الصالح ، فما قيل إنه يوم يقال لهم (اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ) الآية 107 من سورة المؤمنين في ج 2 ، أو يوم يقال لهم (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 90 من سورة يس المارة ، أو يوم (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ) الآية 91 من سورة الشعراء الآتية ، أو يوم يسدّ باب التوبة حين تطلع الشمس من مغربها ليس لها ما يؤيدها بمقابلة الأحاديث الصحيحة التي أوردناها أعلاه ، وذلك لأن قوله تعالى اخسئوا بعد دخول النار ، وقوله وامتازوا قبل دخولها ويوم تبرز الجحيم يكون بعد الامتياز ، ويوم طلوع الشمس من أيام الدنيا لا من أيام الآخرة ، والأمل بعد باق للعاصين ، أما يوم ذبح الموت فتنقطع فيه الآمال ، ولذلك سمي يوم الحسرة إذ لم يبق أمل لأهل النار بالخروج منها ، ولذلك يتحسرون الحسرة إثر الحسرة ، وليس بنافع ، أجارنا اللّه تعالى القائل "إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها" في ذلك اليوم إذ لا يبقى ملك لملك ، بل يكون الملك كله للّه ، ويرجع الملوك الغاشمون أذلاء خاضعين إليه كآحاد الناس ، بل هم أدنى لما يعلمون ما كانوا عليه في الدنيا إلا من رحمه اللّه منهم "وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ" 40 ملوكهم ومملوكوهم انسهم وجنهم وطيرهم وحيتانهم ، ومنهم قومك يا محمد ، فيجازى كل بعمله .

وقرىء ترجعون بالتاء على الخطاب والأول أولى بنسق الآية ،

قال تعالى "وَاذْكُرْ" لقومك يا سيد الرسل "فِي الْكِتَابِ" المنزل عليك جدك وجد الأنبياء من قبلك "إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً" كثير الصدق ملازما له في أقواله وأفعاله لم يكذب قط "نَبِيًّا" 41 مرسلا بدليل قوله بعد (قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ) الآية الآتية ، ثم بين قصته مع أبيه فقال "إِذْ قالَ لِأَبِيهِ"

آزر وكان من عبدة الأوثان "يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ"

نداءك إذا استغثت به "وَلا يُبْصِرُ"

شخصك حين تعبده فلا يقدر خضوعك إليه وخشوعك منه "وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً"

من الأشياء البتة "يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ" والمعرفة بالله المستحق للعبادة الذي يجيب دعاء المضطرين ويرى خضوع الخاشعين ، يثيب الطائع ويعذّب العاصي .

(138/481)

واعلم يا أبت أن الله ربي وربك ورب الخلق أجمع أعطاني شيئا عظيما "ما لَمْ يَأْتِكَ" ولا غيرك شيء منه "فَاتَّبِعْنِي" واترك ما أنت عليه من عبادة الأوثان "أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا"

43 عدلا مستقيما يوصلك إلى النجاة ويخلّصك من الضلال المؤدي بك إلى مهاوي العطب "يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ" وتطيعه فيما يزين لك من زخارف الدنيا ويوسوس في قلبك الانقياد لعبادته ويحبذ لك ما أنت عليه "إِنَّ الشَّيْطانَ" الذي ديدنه الخبث "كانَ" ولم يزل من حين امتناعه من السجود لأبينا آدم صار "لِلرَّحْمنِ" الواجب طاعته على خلقه "عَصِيًّا 44" ومن يعصه أحق أن يعصى ويلعن لا أن يطاع ويعبد ، لأن طاعة العاصي عصيان والعاصي جدير بأن تسلب منه نعم ربه انتقاما منه "يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ" إن بقيت مصرّا على عصيانك إياه وعبادة غيره "فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا" 45 يلي أمرك ويتسلط عليك ، ومن ولي أمره الشيطان تبرأ اللّه منه ، ومن يتبرأ اللّه منه فمأواه جهنم .

هذا وقد تأدب عليه السلام مع أبيه غاية الأدب وسلك بخطابه طريق الاحترام ، واستعمل بدعوته ونصحه نهاية التعظيم ، وجامله مجاملة ما عليها من مزيد ، حتى إنه لم يسمه باسمه ولم يسمه بالجهل ، مع ما هو عليه من الكفر ، ولم يصف نفسه بالعلم مع ما هو عليه من النبوة ، هضما لنفسه وإكراما لأبيه ، واكتفى ببيان أن عنده من العلم ما ليس عند أبيه شيء منه ، لشدة تعلق قلبه بصلاح أبيه أداء لحق الأبوة ورفقا به خوفا عليه من اللّه ، وهذا نهاية ما يطلب من المرشد الحريص على هداية الناس المقدر

من مخاطبتهم باللين واللطف وعدم تغليظ القول ، وضرب الأمثال بهم ليقبل ويؤخذ به ،

وإلا عاد عليه نصحه شرا ، وعلى غيره خسرا ، وكسب عداوتهم من مودتهم .

طلب الفرق بين نور الإيمان وظلمة الكفر في خطاب ابراهيم وجواب أبيه :

(139/481)

كأن قائلا يقول ماذا قال آزر لابنه عند سماعه هذه النصائح الواجبة القبول ؟

أصر على عناده ، وقابل ذلك الاستعطاف واللطف بالفظاظة والغلظة بقوله له أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ" استفهام انكار على نوع من التعجب ، أنف عن عبادتها وسماه باسمه احتقارا ولم يقابله بالمثل ، فيقول يا ولدي حنانا بل هدده بقوله مقسما بآلهته "لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ" عما صدر منك "لَأَرْجُمَنَّكَ" بالحجارة حتى تموت وأقول لك من الآن اذهب عني "وَاهْجُرْنِي" لا تأت إلي ولا أراك واتركني على ما أنا عليه ولا تدعني إلى ما ذكرت هجرا "مَلِيًّا" 46 طويلا أبدا ، مأخوذ من الإملاء أي الإمداد ، وكذا الملاءة بتثليث الميم ومن هذا الملوان الليل والنهار ، يريد عدم تكليمه له مادام حيا ، ونصب الظرفية كما في قول المهلهل :

فتصدعت صم الجبال لموته وبكت عليه المرملات مليا

فانظر يا رعاك اللّه إلى الكلام الصادر عن نور المعرفة ، وإلى الكلام الناشئ عن الكفر ،

وتفكر في رقة الإيمان كيف تخاطب غلظة الكفر ، وقساوة الشرك كيف تقابل لين الإيمان ، وأنعم نظرك في جواب العارف بعد تهديده من ذلك وقد طرده طردا أبديا مع تهديده بالقتل "قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ" يا أبت هنا تعلم (الدّن ينضح بما فيه) وقول عيسى عليه السلام (كل ينفق ما عنده) السلام هنا والمباركة كالذي أشرنا إليه في تفسير الآية 63 من سورة الفرقان ، وبعد هذا كله لم يقطع أمله من إيمانه بسائق الرأفة عليه من عذاب اللّه امّا لحق التربية وجزاء لواجب الأبوّة فقال عليه السلام "سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي"

(140/481)

عما وقع منك تجاهه لقاء نصحي ، وأسأله أن يرزقك الإيمان به وحده وترك الشرك الذي أنت عليه "إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا" 47 بليغا بالبر والإكرام إذ أنقذني من ظلمة الكفر وهداني إلى نور الإيمان ، وجعلني نذيرا لعباده من عذابه ، وبشيرا لهم بثوابه وصيّرني بهم رءرفا رحيما وعودني أن يجيب دعائي بجزيل كرمه وأفضاله علي (يقال احتفى بالرجل إذا بالغ في إكرامه واعتنى به) راجع الآيتين 95 و187 من سورة الأعراف المارة ، ثم قال مجيبا لزجر أبيه وتحذيره من البقاء معه "وَأَعْتَزِلُكُمْ" على جهة التعظيم لأن المخاطب واحد ، وفيه إشارة إلى أنه لم يزل محافظا على أدبه معه مراعيا حقه وان ما صدر منه عليه لم يؤثر في قلبه الطاهر

، وهكذا الأنبياء العارفون لا يمنعهم من القيام بالإرشاد تعدي الناس عليهم "وَ" أعتزل أيضا "ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" لأنها أوثان لا تضر ولا تنفع "وَأَدْعُوا رَبِّي" وحده لأن يوفقني إلى مهاجر أجد فيه من يسمع نصحي ويجيب دعوتي ويؤمن بربي "عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي" خلقه إلى عبادته "شَقِيًّا" 48 خائبا ضائعا مخذولا ، بل موفقا واجدا أهلا لعبادته ، وفيه تعريض بأنهم يدعون غير اللّه وأنهم يشقون بذلك .

(141/481)

واعلم أن الدعاء هنا بمعنى العبادة بدليل الآية بعدها لأنها كالمفسّرة لها ، ويجوز أن يكون على ظاهره ، لأن الدعاء من العبادة ، والعبادة مشتملة على الدعاء ، وفي تصدير الكلام بما ذكر نهاية في إظهار التواضع ومراعاة لحسن الأدب ، وتنبيه على أن الإثابة والإجابة بطريق التفضل من اللّه عز وجل لا بطريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة وهي من الأمور الغيبية المختصة بعالم الغيب ، ثم هاجر عليه السلام إلى الشام فإلى بيت المقدس ، قال تعالى "فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" بعد أن سمع من أبيه ما سمع وأيس من إيمانه وقومه وخاف على نفسه من القتل "وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا" 49 وهذا من ألطاف اللّه بأنبيائه وعنايته بهم وعطفه على خلّص عباده وعطائه لهم ، إذ أنه عليه

السلام هاجر إلى ربه طريدا فوفقه من هاجر إليه إلى زوجة صالحة ورزقه أولادا وجعلهم أنبياء مثله ، وأنعم عليهم بما أنعم عليه ، وآنسه برفقتهم ، وعوّضه عن أبيه وقومه خيرا "وَوَهَبْنا لَهُمْ" ولولديه الكريمين "مِنْ رَحْمَتِنا" أموالا وأولاد "وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ" ثناء حسنا "عَلِيًّا" 50 رفيعا مشهورا في جميع الأديان مستمرا إلى أبد الدوران ، إذ ما من أمة إلا وتلهج بالثناء على ابراهيم وولده ، فانظر عطاء اللّه إلى أوليائه كيف يكون بغير قدر ولا حساب ، أللهم اجعلنا من أتباعهم .

ستأتي بقية قصته مع أبيه وقومه في الآية 51 فما بعدها من سورة الأنبياء في ج 2

وَاذْكُرْ" يا سيد الرسل لقومك "فِي الْكِتابِ" أيضا قصة "مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً" أخلصه اللّه واصطفاه بعد أن استخلفه .

(142/481)

هذا على فتح اللام ، وعلى كسرها أخلص عبادته للّه فلم يراء بها "وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا" 51 جمع له الوصفين الشريفين وكل رسول نبي ولا عكس "وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ" من ناحيته التي تلي يمين موسى إذ لا يمين للجبل ولا شمال بل يكون باعتبار من هو عليه "وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا" 52 تقريب منزلة ومكانة حتى شرفناه بمناجاتنا وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ

هارُونَ نَبِيًّا" 53 إجابة لدعائه ، وكان كبر منه سنا إذ ولد قبل أمر فرعون بذبح الأولاد من بني إسرائيل ليؤازره يعاضده في امر دعوته لقومه

مطلب في انجاز الوعد وبحث بالوعيد :

"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ" مع أبيه بأن انقاد لذبحه ووعده أن يصبر على الذبح وبرّ بوعده تنفيذا لأمر اللّه الذي تبلغه على لسان أبيه – كما سيأتي في الآية 143 من سورة الصافات في ج 2 – قال مقاتل وعد الحسن رجلا أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه ، فأقام ثلاثة أيام حتى رجع إليه وقال الكلبي انتظره حولا .

وسأل بعضهم الشعبي عن مثل هذا فقال إن وعده نهارا فكل النهار ، وإن ليلا فكل الليل ، وان لوقت ينتظره لوقت صلاة أخرى بعدها .

واعلم أن الخلف بالوعد مذموم وفي الوعيد ممدوح ، وقد جاء في الحديث : من وعد لأحد على عمله ثوابا فهو منجز له ، ومن أوعد على عمله عقابا فهو بالخيار ،

والعرب لا تعد الخلف في الوعيد عيبا بل مكرمة وعطفا ، وتعد الخلف بالوعد مذمة ونقصانا ، قال قائلهم :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادي ومنجز موعدي

وقال آخر :

إذا وعد السراء أنجز وعده وإن أوعد الضراء فالعقل مانعه

ومن هنا يفهم أن وعد وأوعد بمعنى واحد إذا صرح بالموعود به ، وإلا فإن وعد للخير ، وأوعد للشر .

(143/481)

ويجوز خلف الوعيد على اللّه تعالى أيضا لأنه من محض الفضل ، قال يحيى بن معاذ : الوعد حق العباد على من ضمن لهم إذا فعلوا ذلك أن يعطيهم ، ومن أولى بالوفاء من اللّه وهو الآمر به ؟ والوعيد حق اللّه على العباد فإن شاء عفا وإن شاء وأخذ .

والعفو من أسمائه تعالى وقد حبّذه لخلقه وهو العفو الرحيم ، وأولى الأمرين العفو ، ويأبى كرمه إلا أحسنهما لخلقه اه من شرح العقد للجلال الدواني مع تصرف - "وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا" 54 مخبرا عن اللّه فيما يأمر وينهى ، وقد أرسله إلى جرهم قبيلة من عرب اليمن من قحطان بن عامر بن سائح كما سيأتي في الآية 134 من سورة البقرة في ج 3 ، وقحطان أبو قبائل اليمن كلها "وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ" التي تزوجها من جرهم كما يأمر قبيلتها الذين نزلوا عليه في مكة وأباح لهم الشرب من زمزم التي أنبعها اللّه كرامة له وهو رضيع حين ضاق ذرع أمه مما لحقه من العطش بعد أن كبر وشرفه اللّه بالنبوة والرسالة "بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ" بمقتضى شريعته التي تلقاها عن أبيه ابراهيم من الصحف التي أنزلها اللّه عليه ، وبما أوحاه له من

الشريعة أيضا "وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا" 55 عنه وقرىء (مرضوّوا) فقلبت الواو ياء لتطرفها بعد الواو الساكنة ، فاجتمعت الواو والياء ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء بالياء وقلبت الضمة كسرة لمناسبة الياء .

مطلب أول من اخترع المهن وقصة إدريس عليه السلام :

"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ" أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن خيتان بن شيث بن آدم عليهم السلام ، وبينه وبين نوح ألف سنة تقريبا ، وسمي

إدريسا لدراسة الصحف المنزلة على آدم فمن بعده ، وهو أول مرسل بعده ، وأول من خط بالقلم ولم تكن قبله كتابة ، وقد أنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وهو أول من خاط اللباس وكان الناس من قبله يرتدون جلود الحيوانات ويخللونها عليهم ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، قال ابن الأثير في تاريخه : إن إدريس (أخنوخ) كان خوّاء ينظر بالنجوم وأطلعه اللّه على كون طوفان يعم الأرض ، فبنى الأهرامات في مصر ليتحصن فيها من يكون زمن هذا الطوفان ، قالوا وكان بناؤها بتخلية الهواء من حجر فقط بلا كلس ولا طين ولا غيره ، وهو أول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ، وأول من قاتل بني قابيل ، لأن قابيل ابن آدم

لما قتل أخاه هابيل خرج عن طاعة أبيه وانفرد بعصيانه وأخذ أخته وهاجر عنه ، فنشأ أولاده على المعصية ، فلما بعث اللّه إدريس وجعله خلفا لآدم غزاهم واسترقهم .

فادريس عليه السلام أول مؤسس لهذه المهن المارّة ، وأول من سن الجهاد واسترقاق المغلوبين ، وستأتي قصة قابيل معه في الآية 30 من سورة المائدة في ج 3 إن شاء اللّه "إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا" 56 تقدم تفسير مثله "وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا" 57 بتشريفه بالنبوة والرسالة وتقريبه من اللّه برفعه إلى السماء الرابعة .

روى أنس بن مالك بن صعصعة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج – متفق عليه – واختلف في حياته وموته ، واتفق الجمهور على أنه حي ، وقالوا أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في الأرض الخضر وإلياس ، وثنان في السماء إدريس وعيسى اه – من بحر العلوم – على أن الخضر مختلف في نبوته ، وأكثر العلماء على أنه ولي ، ولهذا البحث صلة تأتي في الآية 16 من سورة الكهف في ج 2 إن شاء اللّه تعالى .

(145/481)

وخلاصة قصته عليه السلام أنه حببّ إلى الملائكة لكثرة عبادته ، فقال لملك الموت أذقني الموت يهن علي ففعل بإذن اللّه ، ثم أحياه اللّه ، ثم قال لمالك خازن النار ، أدخلني النار

أزدد رهبة من اللّه ، فأدخله فيها بإذن اللّه ، ثم أخرجه منها ، ثم قال إلى رضوان خازن الجنة أدخلني الجنة أزدد رغبة في عبادة اللّه ، فأدخله فيها بإذن اللّه ، ولما أراد أن يخرجه أبى فتلاحيا بينهما ، فبعث اللّه ملكا ليتحاكما إليه ، فقال الملك بعد أن أخذ ادعاء المدعي رضوان ودفاع المدعى عليه إدريس لإدريس : لم لم تخرج بأمره بعد أن أدخلك بأمره وأنت تعترف بأنك استأذنته بالدخول وأنه أمرك بالخروج فلم تفعل ؟ قال لأن اللّه قضى على كل نفس بالموت بقوله : (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ) الآية 36 من سورة الأنبياء في ج 2 وقد متّ ، وقضى على كل نفس بورود جهنم بقوله : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) الآية 74 الآتية وقد وردتها ، وقضى على كل من دخل الجنة أن لا يخرج منها بقوله : (وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ) الآية 49 من سورة الحجر في ج 2 ، ولذلك فإني لا أخرج.

فأوحى اللّه إلى الملك بأمري دخل وبأمري لا يخرج.

وجاء هذا في حديث طويل أخرجه ابن المنذر عن عمر مولى عفرة يرفعه إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، واللّه أعلم بذلك ، ولا يقال إن هذه الآيات المحتج بها نزلت على محمد ولم تكن في زمنه ، لأن اللّه قادر على إلهامه إياها ، لأنها مدونة في لوحه ، وقد يجوز أنه أشار إليها في الصحف التي أنزلها عليه.

هذا ، وان الرفعة بالمكان كما جاء في هذه الآية لا تكون معنوية بل حسية ، وظاهرها لا

يحتاج إلى التأويل فيكون ، والله أعلم ، أن سيدنا إدريس حي خالد في جنة ربه ، نسأل الله أن يدخلنا فيها ونراه إن شاء الله ، وهذه الآية المدنية من هذه السورة المتأخر نزولها عنها .

(146/481)

قال تعالى "أُولَئِكَ" اشارة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة كلهم ، وما في هذه الكلمة من معنى البعد يؤيد أن نزولها كان متأخرا إذ كان بعد بضع سنين ، وفيها إشارة اخرى إلى علو منزلة المشار إليهم ولارتفاع شأنهم عنده "الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ" أي إدريس ونوح ومن تقدمه من الأنبياء ومن حملهم في سفينته وذريتهم ومنهم ابراهيم لأنه

من ولد سام بن نوح "وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ" اسحق وإسماعيل ويعقوب المعني بقوله "وَإِسْرائِيلَ" ومن ذرية موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى المار ذكرهم ، عليهم جميعا صلوات الله وسلامه ، لأنهم كما شرفوا بالنبوة شرفوا بالنسب الطاهر "وَ" هؤلاء المحترمون الأكارم "مِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا" من خلقنا إلى الإيمان بنا والدعوة لخلقنا لتوحيدنا ورفض ما سوانا "إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ" المتضمنة الأمر لهم بالسجود لنا والخضوع لعظمتنا والخشوع لقدرتنا "خَرُّوا" سقطوا على وجوههم إلى الأرض "سُجَّداً" لإلهيّتنا

وحدها "وَبُكِيًّا" 58 خوفا منا وطمعا برحمتنا .

وقيل في المعنى

ونبكي إن نأوا شوقا إليهم ونبكي إن دنوا خوف الفراق

مطلب في السجود وما يقول فيه وكلمة خلف :

وهذه السجدة من عظائم السجود أيضا ، أخرج ابن ابي الدنيا في (البكاء) وابن جرير وابن ابي حاتم والبيهقي في (الشعب) عن عمر رضي اللّه عنه أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال : هذا السجود فأين البكاء ؟ وأخرج ابن ماجه واسحق بن راهويه والبزار في مسنديهما من حديث سعد بن ابي وقاص مرفوعا : اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

(147/481)

وقال العلماء : ينبغي للساجد أن يدعو في كل سجدة بما يناسبها ، فهنا يقول اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك ، وفي آية الإسراء الآتية يقول اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك ، وفي آية السجدة في ج 2 اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك ورحمتك ، وأعوذ بك من المتكبرين عن أمرك .

وهكذا ، راجع بحث السجود في آخر الأعراف المارة ، وما ترشدك إليه ، قال تعالى "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ" جاء بعدهم عقب سيء ، وكلمة (خلف) لا توجد في القرآن إلا هنا وفي الآية 168 من سورة الأعراف المارة ، وتقرأ بفتح اللام في غير هذا الموضع ، ويكون معناها أتوا بأولاد سوء ، وعلى القراءة بإسكانها كما هنا أتوا قوم سوء .

قال النضر بن شميل الخلف بالتحريك والإسكان القرن السوء ، أما الصالح فبالتحريك فقط .

وقال ابن جرير بالمدح بفتح اللام وبالذّم بتسكينها على الأكثر ، لذلك فالقراءة هنا بالتسكين لأن معناه الرّديء وعليه المثل (سكت ألفا ونطق خلفا) وبالفتح إذا قام مقام أهله ، ومن هذا القبيل النصب بالفتح التعب ، وبالسكون الشر ، والشق بالفتح الصدع في عود أو زجاجة ، وبالكسر نصف الشيء ، والسّداد بالفتح الإصابة ، وبالكسر كل شيء سددت به من قارورة وغيرها .

ولهذا البحث

صلة في الآية 56 من سورة المؤمن في ج 2 ، وتقدم في الآية 17 من سورة الفرقان المارة مثله وفي الآية 17 المارة أيضا فراجعها ، "أَضاعُوا الصَّلاةَ" تركوها وقرىء الفعل بالجمع وفاقا لقوله "وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ" آثروها على طاعة اللّه وانهمكوا فيها "فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا" 59 واديا في جهنم يرونه ، هذا الخلف السيء ويدخلونه .

أخرج ابن جرير والطبراني وغيرهما من حديث أبي أمامة مرفوعا أنه نهر في أسفل جهنم يسيل فيه صديد أهل النار .

(148/481)

وأخرج جماعة عن ابن مسعود أنه قال الغيّ نهر أو واد في جهنم من فيح بعيد القعر خبيث الطعم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن الغيّ السوء وعليه قول مرقش الأصغر :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

أي سيء .

وقال ابن عباس هو واد في جهنم تستغيث وتستعيذ منه أودية جهنم كلها أعد للزاني المصرّ وللشارب المدمن ولآكل الربى المصمم عليه ، ولأهل العقوق وشهود الزور ، والزور تحسين الشيء ووصفه بغير صفته ، فهو عبارة عن تمويه الباطل وتزخرفه بما يوهم أنه حق ، ويطلق على اللهو والعناء ، قال ابن مسعود رضي اللّه عنه : الغناء ينبت النفاق بالقلب كما ينبت الماء الزرع – راجع بقية هذا البحث في الآية 72 من سورة الفرقان المارة – قال تعالى "إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً" تأييدا لصحة إيمانه وتثبيتا لتوبته "فَأُولئِكَ" التائبون الموصلون

توبتهم بالإيمان والعمل الصالح حتى الممات ، فإنهم "يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" جزاء ثوابهم وعملهم الصالح "وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً" 60 من اجزاء أعمالهم الحسنة التي عملوها قبل توبتهم فإنها تحسب لهم ويتقاضون أجرها تماما ، فكما أن الكفر يحبط الأعمال فالتوبة تعيد ثوابه ، ثم ذكر صفة أهل الجنة التي يدخلها التائبون وليست بواحدة بدليل قوله جل قوله "جَنَّاتِ عَدْنٍ" إقامة دائمة بدل من الجنة المقدمة التي لامها للجنس الدالة على الكثرة وهي "الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ" عنهم فلم يشاهدوها قبل وقد هيئت لهم من حيث لا يعلمون "إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا" 61

(149/481)

حاصلا وأصلا لمن وعده به جزما لا خلف فيه (وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) الآية 111 من سورة التوبة في ج 3 ، ومن صفة هذه الجنّة أن أهلها "لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً" من فضول الكلام وما لا ينبغي أن يقال وما لا يعني القائل والسامع "إِلَّا" لكنهم يسمعون فيها "سَلاماً" من اللّه جل جلاله وملائكته عليهم ومن بعضهم أيضا ، وهذا سلام تحية وإكرام وإجلال .

مطلب في الأكل المسنون وإرث الجنة :

قال تعالى "وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا" 62 بمقدار طرفي النهار بالنسبة لأيام الدنيا ، إذ

لا ليل ولا نهار فيها فهم في النور أبدا دائما ويعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب والنهار برفعها من قبل الملائكة الموكلين بذلك ، وأفضل العيش عند العرب ما كان في هذين الوقتين ، وكانت لهم أكلة واحدة في اليوم والليلة فمن أصاب منهم أكلتين فيها سموه الناعم فأنزل اللّه هذه الآية على عادة المتنعمين ترغيبا لعباده ، وما جاء عنه صلى اللّه عليه وسلم الأكل مرتين في اليوم من الإسراف محمول على أنهما غير العشاء ، إذ به يصير ثلاث أكلات وهو من السرف ، فلا يرد على ما جاء في هذه الآية ، راجع الآية 31 من سورة الأعراف المارة "تِلْكَ الْجَنَّةُ" الموصوفة بما ذكر هي "الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا" 63 نقيا مخلصا في عبادته منفقا من فضل ماله فيعطيها أمثاله عن ثمرة أعماله ، وقيل إنهم يرثون أعمالهم الحسنة ، وقيل إنهم يرثون مساكن أهل النار فيها لو كانوا آمنوا زيادة على مساكنهم ، والسياق يناسبه راجع الآية 40 المارة والآية 43 من سورة الأعراف المارة تجد ما يتعلق بهذا ، وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال :

(150/481)

قال يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا فأنزل اللّه على لسانه قوله "وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ" يا أكرم الرسل ليس لنا من أمرنا شيء "لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا" لا نملك منهما شيئا ابدا "وَما

بَيْنَ ذَلِكَ" أيضا هو بيده وحده "وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا" 64 غافلا عمّا يكون منا في جميع أحوالنا ، وذلك المالك لأمرنا وأمر خلقه أجمع هو "رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما" لا يجوز عليه السهو والنسيان والغفلة ، كيف وهو مدبر الكون كله بما فيه فلا تقع حركة ولا سكون فيه إلا بعلمه وأمره وقضائه وقدره ، ولذلك فلا نقدر أن نزورك إلا بالوقت الذي يأمرنا به "فَاعْبُدْهُ" يا أكرم الرسل حق عبادته جهد قدرتك "وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ" وتحمل مشاقها ومكارهها في القر والحر ، والراحة والتعب ، والضيق والسعة ، والرضاء والغضب ، والصحة والمرض حتى العطب ، وأنظر "هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا" 65 فيما سبق سمّي باسمه ، كلا ولا يسمى بعد ، والحمد للّه الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء وهو الرب العظيم والإله الكبير المنفرد بأسمائه وصفاته ، ويطلق السمي على الولد قال الشاعر :

أما السّميّ فأنت منه مكثر والمال مال يغتدى ويروح

(151/481)

وليس مرادا هنا لأن السّميّ غير المسمى قال تعالى "وَيَقُولُ الْإِنْسانُ" قيل المراد به أميّة ابن خلف الجمحي لأنه قال ما يأتي في هذه الآية استهزاء ، واللفظ عام واللام للجنس ، فيشمل

كل من يقول هذا القول لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، ومقول القول "أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا" 66 استفهام إنكار على طريق الاستبعاد للبعث الذي أخبر به اللّه وتكذيبا لرسوله الذي يهددهم به وسخرية بهما قال تعالى "أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ" المذكور آنفا "أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ" الحالة التي هو فيها "وَلَمْ يَكُ شَيْئاً" 67 فيستدل هذا الخبيث بالخلق الأول على الثاني ، لأن من قدر على الإيجاد أولا لا يعجز عن الإعادة لما أوجده ثانيا بل هي أيسر ، ثم أقسم بنفسه عزت نفسه فقال "فَوَرَبِّكَ" يا حبيبي لنحيينّهم مرة ثانية ثم "لَنَحْشُرَنَّهُمْ" والكافرين أمثالهم ، وجملة الجاحدين لما أخبرنا به "وَالشَّياطِينَ" أيضا معهم لأن لكل كافر قرينا من الشياطين يحشر معه مقرونا به "ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا" 68 قاعدين على ركبهم لشدة ما يدهمهم من هول المطلع وموقف الحساب ، قال تعالى : (وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً الآية 25 من سورة الجاثية في ج 2) خائفة مترقبة ما يؤل إليه حالها ثم إن الكفرة يساقون على حالتهم تلك أذلاء مهانين لأن قعودهم على هذه الصفة دليل على حقارتهم وهي بكسر الجيم والتاء ويجوز ضم الجيم "ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ" طائفة غارية من الكفار "أَيُّهُمْ" كان في الدنيا "أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا" 69 جرأة وتمردا وفجورا فنطرحهم فيها الأعتى فالأعتى على الترتيب الأكبر جرما والأشد كفرا .

وإنما خصّ اسم الرحمن دون سائر أسمائه الحسنى في هذه الآية والآيات المتقدمة إعلاما بأنه لا ينبغي أن يغرّ الكافر برحمته تعالى ، لأن من حل عليه قضاؤه المبرم بالعذاب لا تشمله الرحمة .

ومن درى أن الرحمة مقيدة بشروط والمغفرة أيضا كما هو مصرح في الآيات الكثيرة من هذا القرآن العظيم ، إذ لا تجد رحمة أو مغفرة مطلقة من قيد أو شرط لم يغتر بذكرها ، بل عكف على عبادة ربه وطاعته وجعل في قلبه معنى أسمائه المنتقم أيضا ، والمذل المهيمن ، الحكم العدل ، الجبار القهار ، قال تعالى "ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا" 70 من غيرهم فقدمه على غيره بالإحراق فيها ، وهذه الآية المدنية الثانية ،

قال تعالى "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها" وأصلها ومقرّب إليها .

مطلب معنى الورود وأن مرتكب الكبيرة لا يخلد بالنار :

واعلم أن الورود موافاة المكان ، وقال أكثر المفسرين إنه بمعنى الدخول ، وأنكره ابن الأزرق ، وأقسم ابن عباس بأنّه سيدخلها هو وهذا المنكر ، وقال أرجو أن يخرجني بتصديقي ، وما أراه يخرجك بتكذيبك .

واحتج بالآية 98 من سورة الأنبياء في ج 2 وهي (إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) إلخ والآية 19 من سورة هود في ج 2 أيضا وهي (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) إلخ .

وحجة ابن الأزرق بهاتين الآيتين أيضا ، ولكن المتعارف أن الورود غير الدخول ، قال في القاموس : الورود الإشراف على الماء دخله أو لم يدخله ، ففارق معنى الدخول من الجهة الثانية "كانَ" ذلك الورود إلى جهنم لكل من البشر كما أقسم اللّه تعالى "عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا" 71 لازما مبرما حقا .

قال بعض المفسرين إن في هذه الآية معنى القسم ، وهي كذلك ، ولكن بقطع النظر عما قبلها ،

(153/481)

وإلا فهي قسم كالتي قبلها ، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا يموت لأحد ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلّة القسم .

وأراد به الآية المارة أي واللّه ما منكم من أحد إلا ويرد جهنم .

وروى مسلم عن أم مبشر الأنصاري أنها سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول عند حفصه : لا يدخل النار إن شاء اللّه من أصحاب الشجرة أحد ، أو من الذين بايعوه تحتها الوارد ذكرهم في الآية 19 من سورة الفتح في ج 3 ، قالت بلى يا رسول اللّه ، فانتهرها لأنها لم تقل إن شاء اللّه ، فقالت حفصة : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) فقال صلى اللّه عليه

وسلم جوابا لها ما قاله ربه : "ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا" الأسباب الموجبة لدخولها من الكفر ودواعيه ، ولم يصروا على ما فعلوه من المعاصي الكبيرة برحمتنا "وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا" 72 بعدلنا لاختيارهم الكفر على الإيمان وإصرارهم عليه إلى الوفاة ، ولا دليل في هذه الآية لمن يقول إن الفاسق وصاحب الكبيرة يخلد في النار ، لأن المراد بالتقي المستثنى من الورود من اتقى الشرك ، لأن من آمن بالله ورسوله يصح أن يقال له متق الشرك ولو كان مقترفا الكبائر من غير استحلال ، لأن المستحل لها كافر ، ومن صدق عليه أنه متق الشرك صح عنه أنه متق ، لأن التقى جزء من التقى من الشرك ، ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد مثبت أن صاحب الكبيرة والفاسق متق ، وإذا ثبت لك هذا وجب أن لا يخلد في النار وأنه يخرج منها لعموم هذه الآية ، وعليه إجماع الأمة من علماء التوحيد ، قال صاحب الشيبانية :

ولا يبقى في نار الجحيم موحّد ولو قتل النفس الحرام تعمدا

ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

يخرج من النار من قال لا إله إلا اللّه وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا اللّه وفي قلبه وزن برّة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا اللّه وفي قلبه وزن ذرة من خير .

وفي رواية من إيمان .

مطلب آخر الناس خروجا من النار وآخرهم دخولا في الجنة :

وما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول اللّه هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال هل تمارون في القمر ليلة البدر وليس دونه سحاب ؟ قالوا لا يا رسول اللّه ، قال هل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا لا يا رسول اللّه ، قال فإنكم ترونه كذلك ، يحشر الناس يوم القيامة فيقول اللّه : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربّنا عرفناه ، فيأتيهم اللّه فيقول أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا ، فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلّم سلّم .

وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا نعم .

قال فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا اللّه تعالى ، تخطف الناس

بأعمالهم .

وهو نبت ذو شوك معقّف تأكله الإبل وهو من أجود مراعيها .

(155/481)

والمراد أن كلاليب النار تقطعه حتى يلقيه بالنار فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من ينجدل (أي يهلك وينصرع) ثم ينجو ، حتى إذا أراد اللّه رحمة من أراد من أهل النار أمر اللّه الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد اللّه ، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود ، وحرم اللّه على النار أن تأكل أعضاء السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا أي أحرقوا وأكلت جلودهم وبدت عظامهم ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبّة في حميل السيل (بكسر الحاء) وهي جميع البذور وحميل السيل هو الزبد وما يلقيه الماء على شاطئه ، ثم يفرغ من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة ، مقبل بوجهه قبل النار ، فيقول يا رب اصرف وجهي عن النار فقد قشبني (آذاني وسمّني لأن القشب السم) ريحها وأحرقني ذكاؤها (اشتعالها ولهبها) فيقول هل عسيت أن أفعل ذلك بك ، فتسأل غير ذلك ؟ فيقول لا وعزتك ، فيعطي اللّه ما شاء من عهد وميثاق ، فيصرف اللّه وجهه

عن النار ، فإذا أقبل به على الجنة رأى نكهتها وبهجتها (حسنها ونضارتها وزهرتها) سكت ما شاء اللّه أن يسكت ، ثم يقول يا رب قسمني عند باب الجنة ، فيقول اللّه أليس قد أعطيت المواثيق والعهود بأن لا تسأل غير الذي كنت سألت ! فيقول يا رب لا أكون أشقى خلقك ، فيقول فما عسيت إن أعطيتك ذلك أن لا تسأل غيره ؟ فيقول وعزّتك لا أسأل غير ذلك ، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فيسكت ما شاء اللّه أن يسكت فيقول : يا رب أدخلني الجنة ، فيقول اللّه تبارك وتعالى ويحك يا ابن آدم ما اغدرك ، أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟ فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك ، فيضحك اللّه عز وجل منه ، ثم يؤذن له في دخول الجنة ، فيقول تمنّ ، حتى إذا انقطعت أمنيته ، قال اللّه تمن كذا وكذا (أقبل يذكره ربه) حتى إذا انتهت به الأماني ، قال اللّه : لك ذلك ومثله معه .

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة وعشرة أمثاله ؟ قال أبو هريرة لم أحفظ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا قوله لك مثل ذلك ومثله معه .

قال أبو سعيد رضي اللّه عنه سمعته يقول لك ذلك وعشرة أمثاله .

وهذا من لطف اللّه تعالى في هذا العبد لأنه يعلم في الأزل أنه أهل للجنة بشيء من عمله لا يعرفه هو .

أنظر قوله صلى اللّه عليه وسلم : دخلت النار امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض .

وحديث البطاقة المار ذكره في الآية 7 من الأعراف ، وحديث من رأى كلبا يأكل الثرى من العطش فأسقاه .

لأن اللّه تعالى لا يضيع الذرة لعباده بل ينميها له بواسع فضله وهو لا يشعر .

وعن ابن مسعود قال :

(157/481)

قال صلى اللّه عليه وسلم : إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا فيها ، رجل يخرج من النار حبوا ، فيقول اللّه له اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى ، فيقول يا رب وجدتها ملأى ، فيقول اللّه اذهب فادخل الجنة ، قال فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع ، فيقول يا رب وجدتها ملأى ، فيقول اللّه تعالى اذهب

فادخل الجنة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ، أو إن لك مثل

عشرة أمثال الدنيا ، فيقول تسخر بي وأنت المالك ! فلقد رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (أضراسة وأنيابه وهي آخر الأسنان) فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة اه .

بلفظها حرفيا ، فدلت الآية الأولى على أن الكل دخلوا النار ، ودلت الثانية والأحاديث على أن اللّه أخرج منها المتقين والموحدين وترك فيها الظالمين المشركين فقط .

وقد جاء في الحديث : تقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهي .

وروي عن مجاهد في قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) إلخ قال من حم من المسلمين وردها ، وفي الخبر : الحمى من قيح جهنم .

وفي خبر آخر :

الحمى كير من جهنم وهي حظّ المؤمن من النار الآية 100 من سورة الأنبياء في ج 2 .

وقال خالد ابن معدان يقول أهل الجنة ألم يعدنا أن نرد النار ، فيقال :

بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة .

وروى مسلم والبخاري عن عائشة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : الحمى من فيح جهنم (أي وهجها) فأبردوها بالماء .

ولهذا فإن الطبّ الحديث يرى أن يغسل أطراف المحموم بالماء البارد ، ومن كانت حمّاه

برأسه يضعون على رأسه الثلج ، وهذا من الطب النبوي المحتاج إلى عقيدة راسخة كما في الآية 25 من سورة القلم ، لأن من لم يعتقد بالقرآن لا ينتفع بما فيه ، بل يكون عليه وبالا ، وسيأتي لهذا البحث في تفسير الآية 80 من سورة الإسراء الآتية بيان واضح واسع فراجعه .

(158/481)

هذا ، وإن مذهب أهل السنة والجماعة هو أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لا محالة ، ويجوز أن يعفو اللّه عنه ، وهذه الطريقة يجب التمسك بها والجنوح إليها ، فكل قول يخالف هذا باطل لا قيمة له إذ لا مستند له على الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة .

أما أقوال المخالفين فهي كيفية لا عبرة بها وسنأتيك ببعضها ، فمنهم المرجئة يقولون لا يعاقب المؤمن على ما يقترف من الذنوب كبائر كانت أو صغائر ، لأن المعصية لا تضر مع الإيمان ، قاتلهم اللّه .

وقالت فرقة أخرى إن المسلمين أهل الكبائر يكونون بمنزلة بين المنزلتين ، أي لا يقال له مؤمن لعدم دخوله في عموم المتقين ، ولا كافر لعدم دخوله في عموم الظالمين ، فيكون بين بين ، وهذا

باطل أيضا إذ لا دار عند اللّه إلا الجنة أو النار ، فمن نجا من النار دخل الجنة واللّه أعلم .

(159/481)

وهو القائل : (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ) الآية 185 من آل عمران في ج 3 ، راجع تفسير الآيات 7 و8 و31 من سورة فاطر المارة والآية 19 من سورة الفرقان المارة فيما يتعلق بفاعل الكبائر ، أما ما يتعلق بالرؤية المار بحثها فراجع الآية 146 من سورة الأعراف ، والآية 23 من سورة القيمة المارتين وما ترشدك إليه ، قال تعالى "وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ" لا تحتاج إلى إثبات لأنها أعظم حجة وأدل دليل وأكبر برهان على قدرتنا وعجائب مخلوقاتنا ومبتدعات صنائعنا "قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً" منزلا ومكانا وموضعا بين الناس "وَأَحْسَنُ نَدِيًّا" 73 مجلسا ومجتمعا ، لأن النادي خصّ لمباحثات في الأمور العامة ، أي إن هؤلاء الكفار عند ما تتبين لهم الدلائل وتظهر لهم البراهين على قدرتنا يعرضون عن التفكر بها والتدبر لمعانيها ، ويقبلون على التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد والمساكن والمجالس والتفاضل على المؤمنين بزينتهم وزخارفهم الدنيوية ، لأنهم يقولون لو كان المؤمنون على الحق لصار حالهم في الدنيا أحسن

وأطيب من حالنا ، إذ لا يليق بالحكيم أن يوقع أولياءه بالذل والحاجة ويجعل أعداءه بالعز والراحة ، فيظهر من هذا أنا نحن على الحق بخلاف زعمهم ، وهم على الباطل ، ولهذا جعلنا أحسن منهم حالا ومكانة ومجلسا ، فأنزل اللّه ما فيه إبطال قياسهم العقيم الناشئ عن رأيهم السقيم بقوله عز قوله "وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً" من هؤلاء المعجبين برياشهم وثروتهم ومجلسهم "وَرِءْياً" 74 مرأى ومنظرا منهم مهما تزينوا بأنواع الألبسة وتعطروا بأصناف الطيب "قُلْ" لهم يا أكرم الرسل إن هذه الأمتعة الدنيوية التي يعطيها اللّه تعالى بعض خلقه لا تدل على حسن

(160/481)

الحال وارتفاع المقام وعلو المنزلة ، لأن "مَنْ كانَ" مخلوقا للتوغل "فِي الضَّلالَةِ" واقتراف أنواع المعاصي الواردة عن طريق الهوى من الكفرة أمثالكم "فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا" يمهله كي يتمادى في طغيانه إمهالا كثيرا ويستدرجه بإكثار النعم استدراجا يظن معه أن اللّه أهمله واللّه لا يهمل بل يمهل العبد إلى أن ينتهي أمره ويبلغ الغاية

في انتهاك الحرمات وينسى صنع ربه فيه ، فيأخذه بغتة ويقصفه على حين غفلة "حَتَّى إِذا رَأَوْا" هؤلاء المأخوذون غرة "ما يُوعَدُونَ" على لسان رسلهم "إِمَّا الْعَذابَ" العاجل في

الدنيا قتلا وأسرا وجلاء وذلا وموتا "وَإِمَّا السَّاعَةَ" القيامة التي عذابها أكبر وأدوم "فَسَيَعْلَمُونَ" حينذاك في إحدى الحالتين أو كلتيهما معا "مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً" هنا وعند الله "وَ" من هو "أَضْعَفُ جُنْداً" 75 فئة وناصرا ومغيثا يوم القيامة أهم وهم في النار ، أم نحن ونحن في الجنة ، وفي الدنيا هم في حالة الغلب والمهانة ، أم نحن في حالة النصر والعز ، بل المؤمنون في الحالتين أحسن لأنهم هم المهتدون .

قال تعالى "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً" ونورا على هداهم ، ويزيد الظالمين عمى وضلالا على ضلالهم "وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ" من الأعمال الحسنة التي تبقى فوائدها وتدوم عوائدها "خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً" من حطام الدنيا الذي يتفاخر به هؤلاء الكفرة على المؤمنين "وَخَيْرٌ مَرَدًّا" 76 من ذلك ، أي مرجعا وعاقبة ، لأن عاقبة الكفر الحسرة الأبدية ، وعاقبة الإيمان النعيم المقيم ، راجع تفسير الآية 39 المارة ، وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم وعليه معنى قول حسان :

أتهجوه ولست له بكفء فشرّ كما لخير كما الجزاء

وهو تهكم بالكفرة المذكورين القائلين أي الفريقين خير إلخ .

(161/481)

وقرىء مقاما بالضم ، والفرق بينهما أن المقام بالفتح موضع القيام سواء أقام فيه بنفسه أو أقام فيه غيره بطريق المكث فيه أولا ، وبضم الميم موضع إقامة الغير إياه أو موضع قيامه بنفسه قياما ممتدا ، وقد سئل أبو السعود رحمه اللّه عن الفرق بينهما فقال :

يا وحيد الدهر شيخ الأنام نبتغي فرق المقام والمقام

فأجابه رحمه اللّه بلفظ :

إن أقمت فيه فهو مقام وإن أقمت فيه فهو المقام

قال تعالى "أَفَرَأَيْتَ" يا حبيبي أعلمت هذا "الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنا وَقالَ" وهو على كفره "لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً" 77 ما أجهله يتمنى على اللّه الأماني وهو

لا يعبده ويشرك معه غيره "أَطَّلَعَ الْغَيْبَ" هذا الأحمق حتى يقول هذا الكلام ويقسم عليه "أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً" 78 بأن يؤتيه ذلك "كَلَّا" لم يطلع على الغيب ولم يأخذ عهدا من اللّه ، وإنما قال ذلك تكبرا وتجبرا وعتوا على اللّه القائل له ولأمثاله "سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ" من افتئاته علينا وتعاظمه "وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا" 79 فنزيده عذابا فوق عذابه بسبب قوله هذا ونطيله عليه جزاء افترائه واجترائه حتى يظل معذبا دائما "وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ" بأن نهلكه ونجعل ماله وولده إرثا لغيره "وَيَأْتِينا يوم القيامة فَرْداً" 80 لا مال له ولا ولد ولا قرابة ولا أصدقاء ، راجع الآية 48 من سورة الكهف والآية 93 من سورة الأنعام في ج 2 .

روى البخاري ومسلم عن خبّاب بن الأرت أن رجلا من الأزد قال كنت رجلا قينا في

الجاهلية ، وكان لي على العاص بن وائل السهمي دين ، فأتيته أتقاضاه ، وفي رواية فعلت للعاص بن وائل السهمي سيفا فجئته أتقاضاه ، فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، قلت لا أكفر حتى يميتك اللّه تعالى ثم تبعث ، قال وإني لميت ثم مبعوث ؟ قلت بلى ، قال دعني أموت وأبعث ، فأوتى مالا وولدا فأقضيك ، فأنزل اللّه فيه هذه الآية ،

(162/481)

قال تعالى "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا" 81 في الدنيا يعتزون بها ويمتنعون من العذاب في الآخرة على زعمهم الباطل ، قال تعالى "كَلَّا" لا تفيدهم عزا في الدنيا ولا منعة في الآخرة وهذا زجر لهم ورد لكلامهم الكاذب .

مطلب تبرأ المعبودين من العابدين وأصناف الحشر :

ذلك لأن هذه الأوثان التي اتخذوها لذلك فإنّهم "سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ" يوم القيامة وينكرونها ويتبرأون منهم "وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا" 82 حين ينطقهم اللّه ويسألهم عن ذلك فيقولون : يا ربنا عذّب هؤلاء الذين عبدونا من دونك ، وإنا نتبرأ إليك من عبادتهم ، راجع الآية 17 من سورة الفرقان المارة والآية 42 من سورة سبأ الآتية في ج 2 إذ يقولون : (ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ) بل كانوا يعبدون الجن ، فيخيب ظنهم ويعود الأمر عليهم بالعكس ،

فيكون لهم الذل والهوان

والخزي والعار ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآيتين 167 و168 من سورة البقرة في ج 3 ، قال تعالى "أَلَمْ تَرَ" يا أكمل الرسل فتخبر وتعلم "أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا" 83 أي سلطنا الشياطين على الكافرين لتهيجهم وتزعجهم وتغريهم على ارتكاب المعاصي تستفزهم لاقترافها حتى يتوغلوا فيها "فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ" يا حبيبي بإنزال العذاب ، ودعهم تحيق بهم المهالك من كل مكان حتى يأتي الأجل المعين في أزلنا لهلاكهم ، وهو حتما نازل بهم ، ولكنهم لم يستكملوا ما قدر لهم بعد "إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا" 84 سنين وشهورا وأياما وساعات ودقائق وثواني ولحظات ، قال السماك : عند ما قرأت هذه الآية بحضرة المأمون العباسي قال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وقيل في المعنى :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس

(163/481)

وكيف يفرح بالدنيا ولذتها فتى يعدّ عليه اللفظ والنفس

واعلم يا أكرم الرسل أنا سنوقع بهم ما أوعدناهم على لسانك وسيذكرون هذا "يَوْمَ نَحْشُرُ

الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً" 85 جماعات ركبانا معزّزين كما يفد رؤساء الأقوام على ملوكهم في الدنيا ليكرموهم بالخلع المعيّنة لهم والأوسمة الكريمة "وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ" المحكوم عليهم بالعذاب في ذلك اليوم الذي ينال فيه الأتقياء اعطياتهم العظيمة ويبلغون آمالهم من ملك الملوك "إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً" 86 كما تساق الأنعام ليذوقوا وبال أعمالهم ، مشاة عطشا مهانين ، فيروون النار بدل الماء .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

محشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين ، واحد على بعير واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير ، وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، تمسي معهم حيث أمسوا .

وأخرج الترمذي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم ،

قيل يا رسول اللّه كيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم .

راجع الآية 34 من سورة الفرقان المارة ، وللبحث صلة في الآية 97 من سورة الإسراء

الآتية .

مطلب الشفاعة ومحبة اللّه :

(164/481)

واعلم يا أكمل الرسل أن هؤلاء في ذلك اليوم العصيب "لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ" للعصاة لا هم ولا غيرهم "إِلَّا" لكن يملكها "مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً" 87 بأن يشفع لمن يريده اللّه وهم المرتضون ، قال تعالى (إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ) الآية 37 من سورة الجن المارة ، فهؤلاء يشفعون بإذن الله لمن قال لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه مخلصا ومات عليها .

هذا ، وقد أنكر المعتزلة جواز الشفاعة في دخول الجنة ، مع أن الأخبار والأحاديث وظاهر الآيات تكذبهم ، روي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن الرجل من أمتي يشفع للفئام من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته ، وإن الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته ، (ومعنى الفئام الجماعة) والأحاديث في هذا الباب كثيرة وسنأتي عليها في الآية 89 من سورة الإسراء إن شاء اللّه ، وان ما عليه أهل السنة والجماعة هو أن شفاعة الأنبياء والأولياء حق واجب مفيدة ، قال في بدء الأمالي :

ومرجو شفاعة أهل خير لأصحاب الكبائر كالجبال

وقال في الشيبانية :

لكل نبي شافع ومشفع وكل ولي في جماعته غدا

وجزاء منكرها حرمانها "وَقَالُوا" هؤلاء الكفرة بعد قولهم بالإشراك وانكارهم البعث والنبوة "اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً" 88 وذلك أنهم يقولون الملائكة بنات اللّه كما تقول اليهود عزيز والنصارى المسيح أبناء اللّه ، تعالى اللّه عن ذلك راجع الآية 31 من سورة التوبة في ج 3 ، "لَقَدْ جِئْتُمْ" أيها الكفرة المغترون المبهتون بمقالتكم هذه "شَيْئاً إِدًّا" 89 منكرا عظيما وقولا ثقيلا ، وفعلا شديدا ، وعظمتنا إن قولكم هذا "تَكَادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ" لشناعته وفظاعته

"وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ" من هوله فتخسف "وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا" 90 لعظمته فتسقط عن موضعها عليهم

(165/481)

"أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً" 91 لما فيه من الافتئات على اللّه بما لا يليق بعظمته وجلاله ، لأن مثل هذا الكلام ينفي ملاك الإيمان وأهم أركانه وقواعده ، وأعظم أصوله وفروعه ، ولا

يقال كيف تؤثر هذه الكلمة في هذه الجمادات ، لأن اللّه تعالى يقول كدت أن أفعل هذا بهذه الأجرام عند صدور هذه الكلمة غضبا مني على من تفوه بها لولا حلمي وإني لا أعجل بالعقوبة ، والقادر قادر فكيف بغير الجماد ، فإنه يذوب كما يذوب الملح بالماء ، ثم نزه نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عن ذاته المقدسة فقال "وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً" 92 ولا يليق بجنابه أن يوصف بذلك ، لأن الولد قد يشبه أباه ويكون للحاجة والسرور والاستعانة والذكر ، واللّه ليس كمثله شيء وغني عن كل شيء ومنزه عن كل شيء من سمات المخلوقين "إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً" 93 أذلاء حاضعين مملوكين يأوون لحضرته بالعبودية ويستكينون لعظمته وينقادون لكبريائه ، وفي هذه الآية إيذان بأن الوالد لا يملك ولده وأن اللّه مالك مطلق لجميع من في الكون يتصرف فيه كما يشاء ويختار ، واللّه الذي لا إله إلا هو "لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً" 94 حصرهم وأحاط بهم وعلم أنفاسهم وآثارهم بحيث لا يخرج أحد عن قبضته وقدرته ، راجع قوله تعالى : (لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) في الآية 54 من سورة الأعراف المارة وآية (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ) 8 من سورة الرعد في ج 3 ، "وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً" 95 لا مال ولا ولد معهم ولا خدم ولا حشم ، مجردين عن كل شيء كما ولدوا ، وهذه الآية مثل الآية 80 المارة وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 93 من الأنعام في ج 2 ، فيأتونه وكلهم حاجة إلى رحمته فكيف ينسبون له الولد تعالى عن ذلك "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ"

الذين نزهوا ربهم عن الشريك والولد وغيره ويعترفون بوحدانيته ونبوة أنبيائه واليوم الآخر "سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا" 96 في الدنيا فيحببهم لخلقه ويحبب الخلق إليهم ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة

عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : إذا أحب اللّه سبحانه وتعالى عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول له إن اللّه يحب فلانا فأحبّه فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء إن اللّه يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض اللّه عبدا دعا جبريل فيقول له أنا أبغض فلانا فابغضه ، فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن اللّه يبغض فلانا فابغضوه ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض .

وسيأتي لهذا البحث صلة نفيسة في الآية 68 من سورة الزخرف في ج 2 .

قالوا إن هذه الآية نزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة لأنهم كانوا ممقوتين بين الكفرة فوعدهم اللّه ذلك وأنجز لهم وعده ، وسيأتي بيان ما وقع لهم مع ملك الحبشة في الآية 199 من آل عمران في ج 3 ، وإليكم أن من يجمل اللّه له ودّا في الدنيا من أجل إيمانه وعمله الصالح فإنه

يجعل له ودا في الآخرة من باب أولى لأن الدنيا مزرعة الآخرة وتوادّ الآخرة بين اللّه وبين عباده أكثر من توادهم بينهم ، راجع الآية 55 من سورة المائدة في ج 2 .

(167/481)

قال تعالى "فَإِنَّما يَسَّرْناهُ" هذا القرآن العظيم "بِلِسانِكَ" يا سيد الرسل "لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ" بما لهم عند اللّه من الكرامة في الآخرة التي تضمحل عندها عزة الملوك ، وأبن عطاء الملوك في الدنيا من إكرام ملك الملوك في الآخرة "وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا" 97 شديدي الخصومة بالباطل ممتنعين عن الإيمان باللّه لجاجا وعنادا لم يحسبوا لعاقبتهم أمرا ولا لحسابهم عذرا "وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ" من القرون الماضية بسبب إصرارهم على الكفر وفي هذه الجملة وعيد لقومه ووعد لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ضمن وعيدهم بالإهلاك وحثّ له على إدامة العمل بإنذارهم ولهذا التفت اليه وخاطبه عز خطابه بقوله وانظر يا حبيبي "هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ" من أولئك القرون الهالكة ، أي تشعر كأنهم ما كانوا "أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً" 98 أقل صوت ، والركز هو الخفاء ومنه الركاز المال المدفون في الأرض ، وركز الرمح إذا غيبت طرفه في الأرض ، والمعنى أهلكناهم جميعا عن بكرة أبيهم ، بحيث لا يرى منهم أحد ، ولا يسمع لهم صوت ، لأن اللّه عز وجل أخذهم استئصالا فلم يبق منهم عين ولا

أثر .

ولا يوجد سورة مختومة بمثل هذه اللفظة .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه عليه وسلم على سيدنا محمد وآله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 136 .

180 ﴾

(168/481)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة مريم عليها السلام

مكية وقيل إلا سجدتها وقيل إلا فخلف من بعدهم خلف الآيتين فمدني

كهيعص تقدم الكلام عليه في سورة البقرة عبده زكريا ليس بوقف لتعلق ما بعده به نداء

خفيا وكذا شقيا من آل يعقوب صلح رضيا تام سميا كاف وكذا عتيا ولم تك شيئا تام آية

كاف سويا تام وكذا وعشيا بقوة جائز وذكاة كاف وكذا تقيا عصيا حسن حيا تام شرقيا

صالح حجابا كاف بشرا سويا تام وكذا تقيا وزكيا وبغيا على هين تام وكذا ورحمة منا

مقضيا كاف وكذا قصيا ومنسيا وسريا ورطبا جنيا ولا أراه في الاخير جيدا وقرّى عينا
صالح انسيا كاف تحمله صالح فريا حسن وكذا فأشارت إليه وصبيا وقال أبو عمرو في
الثاني كاف وفي الثالث تام أينما كاف وكذا بوالدتي شقيا حسن وكذا حيا عيسى ابن مريم
كاف إن نصب قول الحق وليس بوقف إن رفع يمترون تام سبحانه كاف ولو وقف على من
ولدو ابتدأ بسبحانه كان كافيا أيضا كن صالح أو كاف فيكون تام لمن قرأ وان الله بكسر
الهمزة وليس بوقف لمن قرأه بفتحها عطفا على بالصلاة أو بتقدير وقضى بان الله ربي ردا
على قوله إذا قضى أمرا وان علق بقوله فاعبدوه أو بما يفسره فاعبدوه لنه ربي وربكم
حسن الوقف على فيكون فاعبدوه تام مستقيم حسن وكذا من بينهم عظيم تام يوم يأتوننا
كاف مبين تام وكذا لا يؤمنون ومن عليها جائز يرجعون تام في الكتاب إبراهيم مفهوم وكذا
نبيا ولا يغني عنط شيئًا تام وكذا سويا الشيطان عصيا تام وكذا وليا ويا إبراهيم ومليا
سلام عليك كاف وكذا ربي وحفيا وشقيا واسحق ويعقوب جعلنا نبيا حسن عليا تام
موسى مفهوم رسولا نبيا كاف نجيا حسن وقال أبو عمرو كاف هارون نبيا تام في الكتاب
اسمعيل مفهوم رسولا نبيا صالح والرزكاة مفهوم مرضيا تام في الكتاب إدريس مفهوم عليا
حسن وقال أبو عمرو كاف واجتبينا كاف وبكيا حسن وقال أبو عمرو تام الشهوات صالح
يلقون غيا جائز لأنه رأس آية ولا أحبه لتعلق ما بعده به والوقف على وعمل صالحا أصلح

منه فن وقف على غيا لم يقف على وعمل صالحا لان المعنى عليه لكن من تاب الخ فمن مبتدأ خبره فأولئك يدخلون

(169/481)

الجنة ولا يفصل بين المبتدأ أو الخبر الجنة صالح والاحسن إن لا يوقف عليه ولا على شيئا لان جنات عدن بدل من الجنة بالغيب كاف وكذا مأتيا إلا سلاما حسن وكذا وعشيا من كان تقيا تام بأمر ربك حسن وكذا وما بين ذلك نسيا تام إن جعل رب السموات خبر مبتدأ محذوف وجائز إن جعل بدلا من ربك وجاز وان تعلق به ذلك لأنه رأس آية وما بينهما كاف زكذا لعبادته سميا حسن وقال أبو عمرو تام حيا تام وكذا شيئا جثيا صالح وكذا عتيا صليا تام وارادها كاف مقضيا تام جثيا صالح نديا حسن وكذا ورئيا مدا صالح جندا تام وكذا تام وكذا هدى ومراد أو ولدا جائز عهدا تام وأتنم منه الوقف على كلا لانها زجرور لما قبلها وقيل انها بمعنى حقا وإلا لم يحسن على عهدا دون كلا مدا صالح فردا كاف غزا حسن وياتي في كلا ما مر فيها آنفا ضدا تام أزا صالح تجعل عليهم مفهوم عدا كاف إن نصب ما بعده لالاعزاء وجائز إن نصب بنعدو وإنما جاز لأنه راس آية وردا مفهوم عهدا صالح اتخذ الرحمن ولدا جائز شيأ إذا كاف يتفطرون منه مفهوم أن دعوا للرحمن ولد كاف أن

يتخذ ولدا حسن عبدا كاف عبدا حسن فرد تام ودا كاف قوما لذا حسن من قرن صالح آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 475.484 ﴾

(170/481)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة مريم

مكية وهي تسع وتسعون أية في المدني الأخير والمكي وثمان في عد الباقين اختلافهم في ثلاث آيات كهيعص عدها الكوفي في الكتاب إبراهيم عدها المدني الأخير والمكي فليمدد له الرحمن مداً لم يعدها الكوفي وكلمها تسعمائة واثنان وستون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وحرفان وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع أربعة مواضع شياً ، عتيا ، الذين اهتدوا هدى ، لتبشر به المتقين . قال الأخفش كل حرف من هذه الأحرف قائم بنفسه يوقف على كل حرف منها والصحيح الوقف على آخرها لأَّنهم كتبوها كالكلمة الواحدة فلا يوقف على بعضها دون بعض وقال الشعبي لله في كل كتاب سر وسره في القرآن فواتح السور وقد تقدم هل هي مبنية أو معربة أقوال فعلى أَّنها معربة الوقف عليها تام لأَنَّ المراد معنى هذه الحروف على أنّ كهيعص خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ حذف خبره أو في

محل نصب بإضمار فعل تقديره اتل وليست بوقف إن جعلت في موضع رفع على الابتداء وذكر رحمت الخبر أو جعلت حروفاً أقسم الله بها فلا يوقف عليها حتى يؤتى بجواب القسم إلاَّ أن تجعله محذوفاً بعده فيجوز الوقف عليها

زكريا (كاف) إن علق إذ بمحذوف وليس بوقف إن جعل العامل فيه ذكر أو رحمت وإنَّما أضاف الذكر إلى رحمت لأنَّه من أجلها كان

خفيا (كاف) على استئناف ما بعده وجائز إن جعل ما بعده متعلقاً بما قبله وإنَّما أخفى دعاءه عن الناس لئلاَّ يلام على طلب الولد بعد ما شاخ وكبر سنه وكان يومئذ ابن خمس وتسعين سنة 0

شقيا (كاف) ومثله ولياً على قراءة من قرأ يرثني ويرث بالرفع على الاستئناف والأولى الوصل سواء رفعت ما بعده أو جزمت فالجزم جواب الأمر قبله ولا يفصل بين الأمر وجوابه والرفع صفة لقوله ولياً أي ولياً وارثاً العلم والنبوة فلا يفصل بين الصفة وموصوفها

من آل يعقوب (جائز)

رضيا (كاف)

اسمه يحيى ليس بوقف لأنَّ الجملة بعده صفة غلام

سميا (كاف) ومثله عتياً وشياً وآية

سويا (تام) ووقف بعضهم على ثلاث ليال ثم قال سوياً أي أنَّك ليس بك خرس ولا علة

وعشيا (كاف)

بقوة (حسن)

صبيا ليس بوقف لأنَّ وحناناً منصوب عطفاً على الحكم فكأنَّه قال وآتيناه حناناً من لدنا

والحنان التعطف ومنه قول الشاعر :

وقالت حنان ما أتى بك ههنا أذو نسب أم أنت بالحي عارف

وقال أبو عبيد تحنن عليّ هداك المليك فإنَّ لكل مقام مقالا

وقال أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وإن جعل مصدراً منصوباً بفعل مقدر نحو سقياً ورعياً جاز الوقف عليه

وزكاة (كاف) ومثله تقياً إن نصب ما بعده بفعل مقدر أي وجعلناه براً وليس بوقف إن

عطف على تقياً وتقياً خبر لكان

عصيا (كاف)

حيا (تام) إذا ظرف لما مضى لا يعمل فيه اذكر لأنَّه مستقبل بل التقدير إذكر ما جرى لمريم

وقت كذا

شرقيا (جائز)

حجابا (حسن)

بشراً سوياً (كاف) ومثله أعوذ بالرحمن منك لأنَّ قوله إن كنت تقياً شرطاً وجوابه محذوف دل عليه ما قبله أي فإني عائذة منك أو فلا تتعرض لي أو فستتعظ وقيل إنَّ تقياً كان رجلاً فاسقاً فظنت أنَّه هو ذلك الرجل فمن ذلك تعوذت منه ويجوز أن تكون للمبالغة أي إن كنت تقياً فإني أعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك فعلى هذا لا يجوز الوقف على منك

تقيا (كاف) ومثله زكياً وكذا بغياً

عليَّ هين (جائز) إن جعلت اللام للقسم وهو غير جيد لأنَّ لام القسم لا تكون إلاَّ مفتوحة وليس بوقف إن جعلت لام كي معطوفة على تعليل محذوف تقديره لنبين به قدرتنا ولنجعله وهو أوضح وما قاله أبو حاتم السجستاني من أن اللام للقسم حذفت منه النون تخفيفاً والتقدير ولنجعلنه مردود لأنَّ اللام المكسورة لا تكون للقسم كما تقدم في براءة

رحمةً منا (كاف)

مقضيا (تام)

قصيا (كاف)

إلى جذع النخلة (جائز) ومثله قبل هذا

منسيا (كاف)

ألاَّ تحزني (حسن)

سريا (كاف)

(172/481)

من قرأ تسّاقط بتشديد السين وهي قراءة الجمهور غير حفص أصله تتساقط فأدغمت التاء في السين وكذا من قرأ تساقط بحذف التاء فعليهما فنصب رطباً على التمييز وأما من قرأ تساقط بضم التاء وكسر القاف مضارع ساقط أو يساقط بضم الياء وكسر القاف فرطباً مفعول به ومن قرأ يساقط بالتحتية جعله للجذع ومن قرأ بالفوقية جعله للنخلة

جنيا (كاف) وأباه بعضهم لأنَّ ما بعده جواب الأمر وهو قوله فكلي

وقري عينا (كاف) للابتداء بالشرط مع الفاء

من البشر أحداً (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل جواب الشرط فقولي وبين هذا الجواب وشرطه جملة محذوفة تقديرها فإما ترينّ من البشر أحداً فسألك الكلام فقولي وبهذا المقدر يتخلص من إشكال وهو أنَّ قولها فلن أكلم اليوم إنسياً كلام فيكون تناقضاً لأنَّها كلمت إنسياً بكلام

إنسيا (كاف)

تحمله (حسن) بمعنى حاملة له

فريا (كاف)

يا أخت هرونَ هرون هذا كان من عباد بني إسرائيل كانت مريم تشبهه في كثرة العبادة

وليس هو هرون أخا موسى بن عمران فإنَّ بينهما مئيناً من السنين قال ابن عباس هو

عمران بن ماثان جد عيسى من قبل أمه وقال الكلبي كان هرون أخا مريم من أبيها وقيل

كان هرون رجلاً فاسقاً شبهوها به وقد ذكرت مريم في القرآن وكرر اسمها في أربعة وثلاثين

موضعاً ولم يسم في القرآن من النساء غيرها

امرأ سوء (جائز)

بغيا (كاف) وكذا فأشارت إليه ومثله صبيا

قال إنِّي عبد الله (جائز) ومثله نبيا

أينما كنت (حسن) وقيل كاف

حيا (حسن) إن نصب براً بمقدر أو على قراءة من قرأ وبراً بوالدتي وعلى قراءة العامة وبراً

بالنصب عطفاً على مباركاً من حيث كونه رأس آية يجوز

بوالدتي (حسن)

شقيا (تام) ومثله حيا

ذلك عيسى ابن مريم (كاف) لمن قرأ قول الحق بالنصب وهو عاصم وحمزة وابن عامر على أنَّ قول مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي هذا الإخبار عن عيسى ابن مريم ثابت صدق فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم وعد الصدق أي الوعد الصدق وكذا كاف إن رفع قول على قراءة من قرأه برفع اللام على أنَّه خبر مبتدأ محذوف أي ذلك قول الحق أو ذلك الكلام قول الحق أو هو قول الحق يراد به عيسى ابن مريم لا ما تدعونه عليه فليس هو بابن الله تعالى كما تزعم النصارى ولا لغير رشدة كما تزعم اليهود وليس بوقف إن رفع قول بدلاً من عيسى لأنَّه لا يفصل ببين البدل والمبدل منه بالوقف

يمترون (تام)

سبحانه (حسن) ولو وقف على من ولد وابتدئ بسبحانه كان الوقف حسناً أيضاً

كن (جائز)

فيكون (تام) لمن قرأ وإن الله بكسر الهمزة على الابتداء أو خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أنَّ الله قاله الكسائي وليس بوقف لمن قرأ بفتحها عطفاً على الصلاة فتكون أن في موضع خفض بإضمار الجار أي وأوصاني بالصلاة وبالزكاة وبأنَّ الله ربي فعلى هذا لا يوقف على فيكون ولا على ما بين أول القصة إلى هنا إلاَّ على سبيل التسامح لطول الكلام وقياس سيبويه أنَّ هذه الآية تكون من المقدم والمؤخر فتكون أن منصوبة بقوله فاعبدوه فكأنَّه قال

فاعبدوا الله لأَنَّه ربي وربكم أو نصب إن عطفاً على قوله إذا قضى أمراً أي وقضى بأنَّ الله

ربي وربكم فتكون أن في محل نصب

فاعبدوه (تام) ومثله مستقيم

من بينهم (حسن) لأنَّ ما بعده مبتدأ

عظيم (كاف) وقيل تام

يوم يأتوننا تجاوزه أجود للاستدراك بعده ولجواز الوقف مدخل لقوم

مبين (كاف)

إذ قضي الأمر (حسن) ومثله وهم في غفلة وليس بوقف إن جعلا حالين من الضمير

المستتر في ضلال مبين أي استقروا في ضلال مبين على هاتين الحالتين السيئتين وكذا إن

جعلا حالين من مفعول أنذرهم أي أنذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى الأول يكون

قوله وأنذرهم اعتراضاً

لا يؤمنون (تام)

ومن عليها (جائز)

(174/481)

يرجعون (تام)

في الكتاب إبراهيم (جائز)

نبياً (كاف) إن علق إذ باذكر مقدراً وليس بوقف إن جعل إذ منصوباً بكان أو صديقاً أي كان جامعاً لمقام الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات

عنك شيأ (كاف)

ما لم يأتك (حسن)

سويا (كاف) ومثله لا تعبد الشيطان وكذا عصياً ووليا وقال بعضهم ليس ولياً بوقف وإنَّما الوقف عن آلهتي وقال بعضهم الوقف على إبراهيم ويجعل النداء متعلقاً بأول الكلام أي يا إبراهيم أراغب أنت عن آلهتي

وعن آلهتي (تام) عند نافع وأحمد بن جعفر ثم يبتدئ يا إبراهيم على الاستئناف

لأرجمنك (حسن)

مليا (كاف) ومثله سلام عليك للابتداء بسين الاستقبال ومثله ربي وكذا بي حفياً

من دون الله (حسن)

وأدعو ربي (جائز) والوصل أولى لأنَّ عسى كلمة ترج للإجابة فتوصل بالدعاء

ربي شقيا (كاف)

من دون الله الثاني ليس بوقف لأنَّ وهبنا له جواب فلما

ويعقوب (حسن) لأنّ كلا منصوب بجعلنا ولذلك لم يكن معطوفاً على ما قبله

جعلنا نبيا (كاف)

من رحمتنا (حسن)

عليا (كاف)

موسى (جائز) للابتداء بإن ومثله مخلصا

نبيا (كاف)

الأيمن (حسن) ومثله نجيا

نبيا (تام)

اسمعيل (جائز) ومثله صادق الوعد

نبيا (كاف)

بالصلاة والزكاة (حسن)

مرضيا (تام)

إدريس (جائز)

نبيا (كاف) ومثله عليا

مع نوح (جائز)

واجتبينا (كاف)

وبكيا (كاف)

الشهوات (جائز) للابتداء بالتهديد

غيا (جائز) لكونه رأس آية قال عبد الله بن عمرو الغيّ واد في جهنم

يدخلون الجنة الأولى وصله وما بعده إلى بالغيب فلا يوقف على شيأ لأنّ جنات عدن بدل

من الجنة وإن نصب جنات بفعل مقدر حسن الوقف على شيأ وكذا يحسن الوقف عليه

على قراءة من قرأ جنات بالرفع على إضمار مبتدأ محذوف تقديره تلك جنات عدن وبها

قرأ أبو حيوة والحسن وعيسى بن عمرو الأعمش وقرأ العامة بكسر التاء

بالغيب (حسن)

مأتيا (كاف)

إلاَّ سلاما استثناء منقطع لأنَّ سلام الملائكة ليس من جنس اللغو فهو من وادي قوله :

(175/481)

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

يعني إن وجد فيهم عيب فهو هذا وهذا لا يعده أحد عيباً فانتفى عنهم العيب بدليله

وعشيا (كاف)

تقيا (تام)

ربك (حسن) ومثله ما بين ذلك

نسيا (تام) إن جعل رب خبر مبتدأ محذوف أي ذلك رب وجائز إن جعل بدلاً من ربك

وجاوز إن تعلق به ذلك لأَنَّه رأس آية

وما بينهما (كاف) ومثله لعبادته

سميا (تام)

أئذا ما مت ليس بوقف لفصله بين القول والمقول وهما كشيء واحد

حيا (تام)

أَنَّا خلقناه من قبل لا يحسن الوقف عليه لأنَّ ولم يك شيأ معطوف على ما قبله

ولم يك شيأ (حسن) وقيل تام

والشياطين(جائز) ومثله جثيا

من كل شيعة ليس بوقف لأنَّ موضع أي نصب وإن كانت في اللفظ مرفوعة وسأل سيبويه

الخليل بن أحمد عنها فقال هي مرفوعة على الحكاية بمنزلة قول الأخطل

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم

كأنه قال الذي يقال لا هو حرج ولا محروم وكأنه في الآية قال من كل شيعة الذي يقال أيهم أشد

ومن قرأ أيهم بالنصب لا يسوغ له الوقف على شيعة على حالة من الأحوال

عتيا (جائز) ومثله صليا لأنهما رأسا آية

واردها (كاف)

ومقضيا (جائز)

جثيا (تام) ولا وقف إلى قوله نديا فلا يوقف على بينات لأن قال جواب إذا ولا على الذين آمنوا لأنَّ ما بعده مقول قال

نديا (كاف) ومثله من قرن وكذا ورئيا وكذا مدا وجواب إذا محذوف تقديره إذا رأوا العذاب أو الساعة آمنوا

وأما الساعة (جائز) للابتداء بالتهديد

وأضعف جندا (تام) ومثله هدى عند أبي حاتم وكذا مردا وولدا لأنه آخر كلامهم الغيب ليس بوقف لأنَّ أم معادلة للهمزة في أطلع فلا يفصل بينهما لأنهما كالشيء الواحد

(176/481)

عهدا (تام) وكلا أتم منه لأنها للردع والزجر قاله الخليل وسيبويه وقال أبو حاتم هي بمعنى إلاَّ الاستفتاحية وهذه هي الأولى من لفظ كلا الواقع في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعاً في خمس عشرة سورة وليس في النصف الأول منها شيء وسئل جعفر بن محمد عن كلا لِم لم يقع في

النصف الأول منها شيء فقال لأنَّ معناها الوعيد والتهديد فلم تنزل إلاَّ بمكة لأن أهلها جبابرة فهي ميعاد للكفار وأحسن ما قيل في معنى كلا أنها تنقسم قسمين أحدهما أن تكون ردعاً وزجراً لما قبلها أو تكون بمعنى ألا بالتخفيف فان كانت للردع والزجر حسن الوقف عليها ويبتدأ بما بعدها وهذا قول الخليل بن أحمد وإن كانت بمعنى إلا أو حقاً فإنه يوقف على ما قبلها ويبتدأ بها وهذا قول أبي حاتم السجستاني وإذا تدبرت جميع ما في القرآن من لفظ كلا وجدته على ما قاله الخليل كما تقدم 0

مدا (جائز) ولا يوقف على يقول لعطف ما بعده على ما قبله 0

فردا (كاف)

عزا (جائز)

كلا (تام) لأنها للردع ولزجر كالتي قبلها

ضدا (تام)

أزا (جائز) ومثله فلا تعجل عليهم

عدا (كاف) إن نصب يوم بمضمر أو قطع عما قبله بالإغراء وجائز إن نصب بنعد لهم وإنما جاز لأنه رأس آية

وفدا (جائز) وإنما جاز مع العطف لأنَّ هذا من عطف الجمل عند بعضهم

ودا (حسن) لئلا تشتبه بالجملة بعد التي لنفي شفاعة معبوداتهم ورداً لقولهم هؤلاء

شفعاؤنا عند الله بالوصف لهم بالجملة

عهدا (جائز) وقيل تام لأنه لو وصل لا يعطف وقالوا اتخذ الرحمن ولداً على اتخذ عند الرحمن عهداً وإن كان اتخذ موحداً على لفظ من فإن قالوا عائد على معنى من لأنَّ من يصلح للجمع فيؤدي إذا إلى إثبات الشفاعة لمن قال اتخذ الرحمن ولداً قاله السجاوندي وتفيده عبارة أبي حيان فانظرها إن شئت

ولدا (جائز)

إدا (كاف) ومعنى إدا أي منكراً

(177/481)

يتفطرن منه (جائز) قرأ أبو عمرو وأبو بكر بالياء والنون هنا وفي الشورى وقرأ نافع وابن كثير والكسائي وحفص عن عاصم بالياء والتاء وتشديد الطاء فيهما وقرأ حمزة وابن عامر في هذه السورة بالياء والنون وفي الشورى بالياء والتاء وتشديد الطاء

هداً ليس بوقف لأنَّ إن موضعها نصب بما قبلها أي بأن دعوا

ولدا (كاف) وقيل (تام)

أن يتخذ ولدا (تام) رسموا آتي الرحمن بالياء كما ترى

عبدا (كاف) ومثله عدا

فردا (تام) ومثله ودا وكذا لدا أي شدادا في الخصومة وهم الكفار

من قرن (حسن)

من أحد ليس بوقف لعطف ما بعده بأو على ما قبله

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 375.384 ﴾

(178/481)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة مريم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ أبو جعفر : "كافْ هَا يَا عَين صَاد 1" .

وقرأ : "كافْ هَا يُا عَين صَاد" ، بفتح الهاء ، ورفع "الياء" - الحسن .

وقرأ : "كافْ هُا يَا عَين صَاد" ، بضم الهاء 2 وفتح الياء - الحسن أيضا .

قال أبو الفتح : أما على الجملة فإن الإمالة والتفخيم في حروف المعجم 3 ضرب من الاتساع

، وذلك أن الإمالة والتفخيم ضربان من ضروب التصرف ، وهذه الحروف جوامد لا حظ لها في التصرف ؛ لأنها كـ"ما" و"لا" و"هل" و"قد" و"بل" و"إنما" . وإنما أتاه ذانك من قبل أنها إذا فارقت موضعها من الهجاء صارت أسماء ، كقولنا : الهاء حرف هاوٍ ، والواو والياء والألف [96و] حروف الإعلال ، وفي الصاد والزاي والسين صفير ، والميم حرف ثقيل .

فلما كانت تفارق كونها هجاء إلى الاسمية دخلها ضرب من القوة ؛ فتصرفت ، فحملت الإمالة والتفخيم .

فمن فتح ولم يفخم ولم يُمِلْ فعلَى ظاهر الأمر ، ومن أمال أو فخم اعتمد ما ذكرنا : من جواز كونها أسماء ، فمن قال "يا" فأمال – جنح بالإمالة إلى الياء ، كما جنح بها إليها في نحو قولك : السَّيَال4 والهِيَام5 . ومن فخم تصور أن عين الفعل في الياء انقلبت عن الواو ، كالباب والدار والمال والحال ؛ وذلك أن هذه الأَلِفَات – وإن كانت مجهولة أنه6 لا اشتقاق لها – فإنها تُحمَلُ على ما هو في اللفظ مشابِهٌ لها ، والألف إذا وقعت عينا فجهلت فالواجب فيها

---

1 سورة مريم : . 1

2 قال في البحر "6 : 172" قال : أبو عمرو الداني : معنى الضم في الهاء والياء إشباع التفخيم ، وليس بالضم الخالص الذي يوجب القلب .

3 "في حروف المعجم" ساقطة في ك .

4 السيال : نبات له شوك أبيض طويل ، إذا نزع خرج منه اللبن ، أو ما طال من السمر .

المفرد : سيالة .

5 الهيام : جمع هيمان ، وهو الذي أصابه الهيام بالضم ، وهو مثل الجنون من العشق .

6 أي : لأنه لا اشتقاق لها .

(179/481)

أن يعتقد منقلبة عن الواو . على ذلك وجدنا سرد اللغة عند اعتبارنا له ، ولذلك حمل الخليل ألف آءَة1 على أنها من الواو ، فقال : كأنها من أُؤتُ2 . وبمثل ذلك ينبغي أن يحكم في راءَة3 وصاءَة4 ، حتى كأنها في الأصل روأَة وصوأَة . فهذا قول جامع في هذا الضرب من الأِلفات ، فَاغْنَ به عما وراءه .

ومن ذلك قراءة الحسن أيضا : "ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ5" .

قال أبو الفتح : فاعل : ذَكَّرَ ضمير ما تقدم ، أي : هذا المتلو من القرآن الذي هذه الحروف أوله وفاتحته يُذَكِّرُ رحمةَ ربِّكَ ، فهو كقوله "تعالى" : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ6 ﴾ . وعلى هذا أيضا يرتفع قوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ ، أي : هذا القرآن ذكر

رحمة ربك . وإن شئت كان تقديره : مما يُقَصُّ عليك ، أو يُتْلَى عليك ذِكْرُ رحمةِ ربّك عبدَهُ زَكَرِيَّا .

ومن ذلك قراءة عثمان وزيد بن ثابت وابن عباس وسعيد بن العاص7 وابن يعمَر وسعيد بن جبير وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وشُبَيل بن عزرة8 : "خَفَّتِ الْمَوَالِي9" ، بفتح الحاء والتاء مكسورة .

قال أبو الفتح : أي قَلَّ بنو عمي وأهلي ، ومعنى قوله – والله أعلم : "مِنْ وَرَائِي" ، أي مَنْ أُخَلِّفُه بعدي . قوله : "مِنْ وَرَائِي" حال متوقَّعَة محكية . أي : خَفُّوا مُتوقَّعًا مُتصوَّرًا

---

1 الآءة : واحدة الآء ، وهو ثمر شجر .

2 أوت : جاء به على الأصل فهمز . وأوت الأديم : دبغته .

3 الراءة : واحدة الراء ، وهو شجر .

4 الصاءة : الماء الذي في السَّلى ، أو على رأس الولد ، والسلى : الجلدة فيها الولد من الناس والمواشي .

5 سورة مريم : 2 .

6 سورة الإسراء : 9 .

7 هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، ولد عام الهجرة ، وهو أحد أشراف قريش ، ممن جمع السخاء والفصاحة ، وأحد الذين كتبوا المصحف لعثمان رضي الله

عنه .

استعمله عثمان على الكوفة . وتوفي في خلافة معاوية سنة 59 . الاستيعاب : 2 : 621 .

8 هو شبيل بن عزرة الضبعي من خطباء الخوارج وعلمائهم ، وكان أولا شيعيا نحو سبعين سنة ، ثم انتقل إلى الشراة . أقام بالبصرة ، وأخذ الناس عنه الغريب ، ولم يزل بها إلى أن مات . إنباه الرواة : 2 : 76 .

9 سورة مريم : 5 .

كونهم بعدي . ومثله مسألة الكتاب : مررت برجل معه صقرٌ صائدًا ، أي : مُتَصَوِّرًا صيدُه بِهِ غدًا ، ومثله قول الله1 "تعالى" : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ2 ﴾ ، أي مُتَصَوِّرًا خُلُودُهُم فيها مدةَ دوامِ السمواتِ والأرضِ . فإذا أشفقت من ذلك فارْزُقْنِي وَلَدًا يَخْلُفُنِي .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس "عليهما السلام" وابن يعمَر وأبي حرب بن أبي الأسود3 والحسن والجحدري وقتادة وأبي نَهِيك وجعفر بن محمد : "يَرِثُنِي وَارِثٌ مِنْ

آلِ يَعْقُوبَ4" .

قال أبو الفتح : هذا ضرب من العربية غريب ، ومعناه التجريد ؛ وذلك أنك تريد ؛ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي منه أو به وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جَرَّدَ منه وارثًا . ومثله قول الله "تعالى"

: ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ5 ﴾ ، فهي نفسها دارُ الخلد ، فكأنه جَرَّدَ من الدارِ دارًا ، وعليه قول الأخطل :

بنزوةِ لصٍّ بعد ما مرَّ مُصعَبٌ بأشعثَ لا يُفْلَى ولا هو يَقْمَلُ6

ومصعب نفسه [96ظ] هو الأشعثُ7 ، فكأنه استخلص منه أشعثَ . ومثله قول الأعشى :

---

1 في ك : قوله .

2 سورة هود : 107 : 108 .

3 قرأ أبو حرب على أبي الأسود أبيه ، قرأ عليه حمران بن أعين . وقد ولاه الحجاج جوخا ، وهو نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد بالجانب الشرقي . وتوفي سنة 109 . طبقات ابن الجزري : 1 : 266 ، وإنباه الرواة : 1 : 21 . وفي نسختي الأصل : "وأبي حرب بن الأسود" ، سقط .

4 سورة مريم : 6 .

5 سورة فصلت : 28 .

6 قبله :

فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل

من قصيدة يمدح الشاعر فيها خالد بن عبد الله بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، أحد أجواد العرب . ويروى "يغسل" مكان "يقمل" . وفلى رأسه : بحثه عن القمل . وفي نسختي الأصل : يقلى بالقاف ، وهو تحريف . وقمِل رأسُه ، كفرح : صار ذا قمل .

7 في الديوان "11" : وأشعث ، يعني ابن زياد ، وكان مصعب قتله ، فجاء أخوه عبيد الله بن زياد بن ظبيان ومصعب مثخن فاحتز رأسه . ويفسر محقق الخصائص "2 : 475" الأشعث هنا بالوتد ، لشعث رأسه ، ولم يذكر مرجعه في هذا التفسير .

(181/481)

. . . . . أَمْ مَنْ جَاءَ مِنْها بِطائِفِ الأَهْوَالِ 1 *

وهي نفسُها طائفُ الأهوال . وقد أفردنا لهذا الضرب من العربية بابا من كتاب الخصائص 2 فاعرفه ، فإنه موضع غريب لطيف وطريف . وقد ذكرناه أيضا فيما مضى 3 .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "الْكِبَرِ عَتِيًّا"4 ، 1 بفتح العين .

وكذلك قرأ أيضا : "أَوْلَى بِهَا صَلِيًّا"5 ، بفتح الصاد . وقال ابن مجاهد : لا أعرف لهما في العربية ، أصلا ، قال ابن مجاهد : ويقرأ مع ذلك "بُكِيًّا" بضم الباء .

قال أبو الفتح : لا وجه لإنكار ابن مجاهد ذلك لأن له في العربية أصلا ماضيا ، وهو ما جاء من المصادر على فعيل نحو : الحويل6 ، والزويل7 ، والشخير ، والنخير8 . فأما "البكِيّ" فجماعة ، وهي فعول : كالحثيّ9 ، والدني ، والفلي ، جمع فلاة ، والحلي .

ومن ذلك قراءة شبيل10 بن عزرة : "فَأَجَأَها"11 ، مثل فألجأها .

قال أبو الفتح : رواها ابن مجاهد أيضا أنها من المفاجأة ، إلا أن ترك همزها إنما هو بدل لا تخفيف قياسي . وقد يجوز أن تكون القراءة على التخفيف القياسي ، إلا أنه لطفت لضعف

---

1 من قوله :

لات هنا ذكرى جبيرة أم من جاء منها بطائف الأهوال

وروي "أو" مكان "أم" ، ولات هنا الخ : ليس الوقت وقت ذكرى جبيرة . يريد : إليك عني أيتها الذكرى ، فليس الوقت وقت جبيرة أو رسولها الذي يطرقنا بالأهوال . ومجيء "هنا" للزمان قليل ، لأنه بطريق الحمل . انظر الديوان : 3 ، والدرر اللوامع : 1 : 99 وحاشية الصبان على الأشموني .

2 الخصائص : 2 : 473 .

3 المحتسب : 1 : 105 .

4 سورة مريم : 8 .

5 سورة مريم : 70 .

6 الحويل : جودة النظر ، والقدرة على التصرف .

7 والزويل" الذهاب والاستحالة . وفي : ك : الرويل بالراء ، وهو تحريف .

8 النخير : مد الصوت في الخياشيم .

9 الحثى : جمع حاث ، من حثا التراب ، أي صبه .

10 في الأصل شبل ، والصواب شبيل . وانظر الصفحة 37 من هذا الجزء ، وإنباه الرواة : 2 : 76 .

11 سورة مريم : 23 ، وأجاه إليه : ألجأه .

(182/481)

الهمزة بعد الألف فظنها القراء ألفا ساكنة مدة ، إلا أن قوله : مثل ألجأها يشهد لقراءة الجماعة : ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ . وقد يمكن أن يكون أراد مثل : أجاءها إذا أبدلت همزته ألفا

فيكون التشبيه لفظيا لا معنويا .

ومن ذلك قراءة محمد بن كعب1 وبكر بن حبيب السهمي2 : "نَسْئًا"3 ، بفتح النون مهموزة ؟

قال أبو الفتح : قال أبو زيد نسأت اللبن أنسؤه نسئا ، وذلك أن تأخذ حليبا فتصب عليه ماء ، واسمه النسء والنسيء ، وأنشد :

سَقُونِي نَسْئًا قَطَعَ الماءُ مَتْنَهُ يُبِيلُ على ظَهْرِ الفِرَاشِ ويُعْجِلُ

فتأويل هذه القراءة – والله أعلم – يا ليتني مِتُّ قبل هذا ، وكنت كهذا اللبن المخلوط . بالماء في قلته وصغارة حاله ، كما أن قوله : "وَكُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا"4 ، أي : كنت كالشيء المحقر ينساه أهله ، ونَزَارَة5 أمره .

ومن ذلك قراءة مسروق : "يُسَاقِطْ"6 ، بالياء خفيفة .

---

1 هو محمد بن كعب بن سليم بن عمرو وأبو حمزة ، ويقال : أبو عبد الله القرظي ، تابعي . ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلمن وقيل : رآه . ونزل الكوفة ، ثم رجع إلى المدينة . روى عن عائشة وأبي هريرة وغيرهما . وردت عنه الرواية في حروف القرآن . قال عون بن عبد الله : ما رأيت أحد أعلم بتأويل القرآن من القرظي . توفي سنة 108 ، وقيل غير ذلك . طبقات القراء : 2 : 233 .

2 بكر بن حبيب السهمي : هو والد عبد الله المحدث ، كان عالما بالعربية في طبقة أبي

عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر . وهو أكبر من الخليل ، ولم يكن له شهرته . والسهمي نسبة إلى سهم بن عمرو بن ثعلبة ، بطن من باهلة . وانظر إنباه الرواة : 1 : 244 .

3 سورة مريم : 23 .

4 قال في البحر "6 : 183" : وقرأ الجمهور بكسر النون ، وهو فعل بمعنى مفعول ، كالذبح ، وهو ما من شأنه أن يذبح وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش وابن أبي ليلى وحمزة وحفص بفتح النون .

5 الظاهر أن الأصل : لحقارته ونزارة أمره .

6 سورة مريم : 25 ، ويكون ضمير "يساقط" للجذع ، كما في البحر "6 : 185" .

(183/481)

قال أبو الفتح : يساقط هنا بمعنى يسقط ، إلا أنه شيئًا بعد شيء ، وعليه قول ضابئ البرجمي :

يُسَاقِطُ عَنْهُ رَوْقُهُ ضَارِيَاتِها سِقَاطَ حَدِيدِ القَينِ أَخْوَلَ أَخْوَلا1

أي يسْقُطُ قرن هذا الثور ضاريات كلاب الصيد لطعنه إياها ، شيئًا بعد شيء .

ومن ذلك قراءة طلحة : "رُطَبًا جِنِيًّا" ، بكسر الجيم .

قال أبو الفتح : أتبع فتحة الجيم من "جِنِيًّا" كسرة النون ، وشبه النون وإن لم تكن من حروف الحلق بهن في نحو صَأَى3 الفرخ صِئِيا ، وفي نحو : الشخير ، والنخير4 ، والنغيق5 والشعير ، والبعير ، والرغيف . وحكى أبو زيد عنهم : ذلك لمن خاف وعيد الله .

وله في تشبيهه النون بالحرف الحلقي عذر ما ؛ وذلك لتفاوتهما ، فالنون متعالية ، كما أنهن سوافل : فكل في شقه مضاد لصاحبه ، ألا ترى أن أبا العباس قال في همزة صحراء وبطحاء ونحوهما : صحراوان وبطحاوان [97و] وصحراوات وبطحاوات ؟ شبهت الهمزة بالواو ، لأن كل واحدة منهما طارفة في جهتها ؛ فجعل تناهيهما في البعد طريقا إلى تلاقيهما في الحكم .

وبعد فالعرب تجري الشيء مجرى نقيضه ، كما تجريه مجرى نظيره . ألا تراها قالت : طَوِيل كما قالت : قَصِير ، وشَبْعان كجَوْعان ، وكَرُمَ كلَؤُمَ ، وعَلِمَ كجَهِلَ ؟ ولأجل هذا قال بعضهم : إن قَوِيَ فعل في الأصل حملا على نظيره الذي هو ضَعُفَ ، وفي هذا كاف من غيره . ونحو من معناه قول المنجمين في النحسين إذا تقابلا : استحالا سعدا ، وعليه قول الناس : عداوة أربعين سنة مودة . والمعاني في هذا6 العالم متلاقية على تفاوُتها ، ومجتمعة مع ظاهر تفرقها ، لكنها محتاجة إلى طَبٍّ7 بها وملاطف لها .

---

1 لضابئ البرجمي يصف الثور والكلاب . والروق : القرن . وأَخْوَلَ أَخْوَلا : متفرقا . وانظر الخصائص : 2 : 130 ، اللسان "خول ، وسقط" .

2 سورة مريم : 25 .

3 صأى الفرخ ونحوه : صوت .

4 النخير : مد الصوت في الخياشيم .

5 النغيق : صوت الغراب ، أو هو في الخير . والنعيب في الشر . وفي ك : النفيق ، وهو تحريف .

6 في ك : والمعنى ، وهو تحريف .

7 الطب : الحاذق الماهر في عمله .

(184/481)

ومن ذلك قراءة طلحة : "فَإِمَّا تَرَيِنَ1" .

وروى عن أبي عمرو : "تَرَئِنَّ" ، بالهمز .

قال أبو الفتح : الهمز هنا ضعيف ؛ وذلك لأن الياء مفتوح ما قبلها ، والكسرة فيها لالتقاء الساكنين ؛ فليست محتسبة أصلا ، ولا يكثر مستثقَلُه ، وعليه قراءة الجماعة : ﴿ تَرَيِنَّ ﴾ ، بالياء لما ذكرنا2 . غير أن الكوفيين قد حكوا الهمز في نحو هذا ، وأنشدوا :

كَمُشْتَرِئٍ بِالْحَمْدِ أَحْمِرَةً بُتْرَا3

نعم ، وقد حكى الهمز في الواو التي هي نظيرة الياء في قول الله : "تعالى" : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ 4 ، فشبه الياء لكونها ضميرا وعلم تأنيث بالواو ؛ من حيث كانت ضميرا وعلم تذكير . وهذا تعذر ما وليس قويا ، ولا تُرَيَّنَ هذه الهمزة هي همزة رأيت ، تلك قد حذفت للتخفيف في أصل الكلمة "تَرْأَيْنَ" ؛ فحذفت الهمزة ، وألقيت حركتها على الراء فصارت "تَرَيْنَ" ، فالهمزة الأصلية إذا محذوفة ، وغير هذه الملفوظ بها .

وأما قراءة طلحة : "فَإِمَّا تَرَيِن" فشاذة ، ولست أقول إنها لحن لثبات علم الرفع ، وهو النون في حال الجزم ، لكن تلك لغة : أن تثبت هذه النون في الجزم ، وأنشد أبو الحسن :

لَوْلَا فَوَارِسُ مِنْ قَيْسٍ وَأُسْرَتِهِمْ يَوْمَ الصُّلَيْفَاءِ لَمْ يُوفُونَ بِالْجَارِ 5

كذا أنشده "يُوفُونَ" بالنون ، وقد يجوز أن يكون على تشبيه "لم" بلا .

ومن ذلك قراءة أبي نهيك وأبي مجلز : "وبِرًّا 6" ، بكسر الباء .

---

1 سورة مريم : 26 .

2 في ك : بالياء ، بدون "لما ذكرنا" .

3 روي بالخيل مكان بالحمد . والبتر : جمع أبتر ، وهو المقطوع الذنب . "الخصائص : 3 : 279 ، وشرح شواهد الشافية : 409" .

4 سورة آل عمران : 186 .

5 روي ذهل وجرم مكان قيس ، وروي مكانها أيضا نعم ، وهذه تحريف . وروى أسرتهم

بالرفع معطوفا على فوارس ، وبالجر معطوفا على ذهل . وذهل : اسم لقبيلتين : ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة ، والأخرى ذهل بن ثعلبة بن عكاية . وهما من ربيعة .

والصليفاء : مصغر صلفاء ، وهي الأرض الصلبة ، والمكان أصلف . ويقال : صلفاء ، كجرباء ، والجمع الأصالف والصلافي . ويوم الصلفاء : من أيام العرب ، لكن الشاعر صغره . وهو لهوازن على فزارة وعبس ، وانظر اللسان "صلف" ، والخزانة : 3 : 626 ، والبيت فيهما غير منسوب .

6 سورة مريم : 32 .

(185/481)

قال أبو الفتح : هو معطوف على موضع الجار والمجرور من قوله : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ1 ﴾ ، كأنه قال : ألزمني برًّا ، وأشعرني بوالدتي ؛ لأنه إذا أوصاه به ؛ فقد ألزمه إياه . وعليه بيت الكتاب :

يَذْهَبْنَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَائِرَا2*

أي : ويسلكن غورا ، وبيته أيضا :

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ وَالِدًا وَدُونَ مَعَدٍّ فَلْتَزَعْكَ الْعَوَاذِلُ3

عطف "دونَ" الثانية على موضع "من دونِ" الأولى ، نظائره كثيرة جدًّا . وإن شئت حملته على حذف المضاف ، أي : وجعلني ذا برّ ، وإن شئت جعلته إياه على المبالغة ، كقولها 4 :

فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ

على غير حذف المضاف .

ومن ذلك قراءة طلحة : "وريًا" 5 ، خفيفة بلا همز .

---

1 في الآية : 31 من سورة مريم .

2 للعجاج يصف ظعائن منتجعات ، يأتين مرة نجدا ، وهو ما ارتفع من بلاد العرب ، ومرة الغور ، وهو ما انخفض من بلادها . ولم نعثر على الشاهد في ديوان العجاج ، وانظر الكتاب : 1 : 249

3 البيت للبيد من قصيدة في رثاء النعمان بن المنذر . وروي باقيا مكان والد . وتزعك : تكفك . والعواذل : يريد بها ما يزع من حوادث الدهر وزواجره ، وإسناد العذل إليها مجاز . أي : لم يبق لك أب حي إلى عدنان ، فكف عن الطمع في الحياة . الديوان : 255 ، والكتاب : 1 : 34 ، والخزانة : 1 : 339 .

4 في هامش الأصل : أي : الخنساء . وصدره :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت

والبيت من قصيدة ترثي بها الخنساء أخاها صخرا . وضمير ترتع للعجول المذكورة في قولها :

فما عجول على بو تطيف به قد ساعدتها على التحنان اظآر

والعجول : الثكلى ، تريد بها الناقة . والبو : جلد ولد الناقة إذا مات حين تلده أمه ، يحشى تبنا ، ويدنى منها فتشمه ، وترأمه ، وتدر عليه . والتحنان : الحنين . والأظآر : جمع الظئر ، وهي العاطفة على ولد غيرها ، المرضعة له في الناس وغيرهم ، تريد أن وجدها لأخيها لا يقل عن وجد ناقة ثكلى ، كلما غفلت عن ولدها أقبلت ترتع ، فإذا ذكرته حنت إليه ، وجعلت تقبل وتدبر ذاهلة حيرى . انظر الديوان : 48 ، والكتاب : 1 : 169 ، والخزانة 1 : 207 .

5 سورة مريم : 74 .

(186/481)

وقرأ : "وَزِيًّا" ، [97ظ] بالزاي سعيد بن جبير ويزيد البربري والأعسم المكي .

قال أبو الفتح 1 : النظر من ذلك في "وَرِيًّا"

، خفيفة بلا همز 2 ؛ وذلك أنه في الأصل فعل إما من رأيت وإما من رويت ، فأصله – وهو

من الهمز – "ورِئْيًا" كَرِعْيًا ، على قراءة أبي عمرو وغيره ؛ فأريد تخفيف الهمز ، فأبدلت الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، ثم أدغمت الياء المبدلة من الهمزة في الياء الثانية التي هي لام الفعل ، فصارت "وَرِيًّا" .

ويجوز أن يكون من رويت قال أبو علي : وذلك لأن المريان نضارة وحسنا ؛ فيتفق إذا معناه ومعنى "وزيا" بالزاي . وأصله على هذا "رِوْيٌ" ، فأبدلت الواو ياء ، وأدغمت3 في الياء بعدها ؛ فصارت "وَرِيًّا" .

حدثنا أبو علي عن ابن مجاهد أن القراءة فيها على ثلاث أضرب : "ورِئْيًا" ، "وَرِيًّا" ، "وَرِيًّا" فهذا هذا .

فأما "رِيًا" ، مخففة غير مهموزة فتحتمل أمرين :

أحدهما أن تكون مقلوبة من فعل إلى فلع ؛ فصارت في التقدير "رِيئًا" ، ثم خفف على هذا ، فحذفت الهمزة ، فألقيت حركتها على الياء ؛ فصارت "رِيًا" ، كقولك في تخفيف نيء : أكلت طعاما نِيًا ، وفي تخفيف الجيئة : الجية . فإن خففت البيئة4 من قولهم : بات بيئة سوء قلت فيها : البِوَة ، وذلك أنها في الأصل بِوْءَة ، لأنها فِعْلَة من تَبَوَّأت ، فانقلبت الواو ياء ؛ لسكونها وانكسار ما قبلها ، فصارت بيئة ، فإذا ألقيت عليها فتحة الهمزة قويت بها ، فرجعت الواو لقوة الحرف بالحركة ، فقلبت "بِوَة" وقد استقصينا هذا الموضع من كتابنا المعرب ، فهذا أحد الوجهين في "رِيًا" بالتخفيف .

والآخر أن يكون يريد "رِيًا" من رويت ، ثم يخفف الكلمة بحذف إحدى الياءين ، كما قال : أتاني القوم لا سيما زيد بتخفيف الياء ، وقولهم في الطَّيَّة5 والنية : الطِيَة والنِّيَة ، بحذف إحدى الياءين . وينبغي أن تكون المحذوفة من ذلك كله هي الياء الثانية ؛ لأمرين : أحدهما أنها هي المكررة ، وبها وقع الاستثقال ، وإياها ما6 حذف .

---

1 "قال أبو الفتح" ساقطة في ك .

2 يمهد بهذا للخفيفة غير المهموزة .

3 في ك : فأدغمت .

4 البيئة : اسم من أباءه منزلا وفيه ، أي : أنزله .

5 الطية : من معانيها : الحاجة والوطر .

6 ما زائدة .

والآخر أنها لام ، وقد كثر حذف اللام حرف علة : كمائة ، ورِئة ، وفِئة . وقلما تحذف العين ، فهذا هذا .

وأما "الزِّي" ، بالزاي ففِعل من زَوَيْت ؛ وذلك أنه لا يقال لمن له شيء واحد من آلته : زِيٌّ1

، حتى تكثر آلته المستحسنة ، فهي إذا من زويْت ، أي جمعت .

ومن قول النبي "صلى الله عليه وسلم" : "زُوِيَت لِيَ الأرضُ"2 ، أي جمعت ، ومن قول الأعشى ؛

يَزِيدُ يغُضّ الطرْفَ دُونِي كَأَنَّما زَوَى بين عَيْنَيْه علَى المَحَاجِمِ3

وأصلها زِوْيٌ ، فقلبت الواو على ما مضى ، وأدغمت في الياء .

ومن ذلك قراءة أبي نهيك : "كَلًّا سَيَكْفُرُون4" ، بالتنوين .

قال أبو الفتح : ينبغي أن تكون "كلا" هذه مصدرا ن كقولك : كل السيف كلا ، فهو إذاً منصوب بعفل مضمر ، فكأنه لما قال : "سبحانه" : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا5 ﴾ قال الله "سبحانه" رادا عليهم : "كلا" ، أي : كل الرأي والاعتقاد كلا ، ورأوا منه رأيا [98و] كلا ، كما يقال : ضعفا لهذا الرأي وفيالة6 ، فتم الكلام ، ثم قال "تعالى" مستأنفا فقال : كل رأيهم كلا ، ووقف ، ثم قال من بعد : "سيكفرون" ، فهناك إذا وقفان : أحدها "عزا" ، والآخر "كلا" ؛ من حيث كان منصوبا بفعل مضمر ، لا من حيث كان زجرا وردا وردعا .

ومن ذلك قراءة السلمى : شيئ أدا7 ، بالفتح .

قال أبو الفتح : الأد ، بالفتح : القوة .

---

1 لعلها : له زي .

بقيته كما في النهاية "2 : 145" : فرأيت مشارقها ومغاربها .

3 البيت من قصيدة يهجو بها الشاعر يزيد بن مسهر الشيباني . والمحاجم : جمع المحجم ، وهو مشرط الحجام . وانظر الديوان : 79 .

4 سورة مريم : 82 .

5 هي الآية من سورة مريم .

6 قال رأيه يفيل : اخطأ وضعف .

7 سورة مريم : 89 .

(188/481)

قال :

نَضَوْنَ عَنّي شِرَّةً وَأَدّا مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُ صَمُلًّا نَهْدَا 1

فهو إذاً حذف المضاف ، فكأنه قال : لقد جِئْتُم شيئًا ذا أدٍّ ، أي : ذا قوة . فهو كقولهم رجل زَوْر 2 وعَدْل وضَيْف ، تصفه بالمصدر إن شئت على حذف المضاف ، وإن شئت على وجه آخر أصنع من هذا وألطف ، وذلك أن تجعله نفسه هو المصدر للمبالغة ، كقول الخنساء :

تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ فإنما هِيَ إقبالٌ وإدبارُ[3]

إن شئت على ذات إقبال وإدبار ، وإن شئت جعلتها نفسها هي الإقبال والإدبار ، أي : مخلوقة منهما : ويدلك على أن هذا معنى عندهم لا على حذف المضاف ، بل لأنهم جعلوه الحدث نفسه قولهم ، أنشدناه أبو علي :

أَلّا أصبحَتْ أسماءُ جَاذِمَةَ الْحَبْلِ وَضَنَّتْ عَلَيْنَا وَالضَّنِينُ مِنَ الْبُخْلِ[4]

أي : هو مخلوق من البخل ، ولا تحمله على القلب ، أي : والبخل من الضنين ؛ لصغر معناه إلى المعنى الآخر ، ولأنه مع ذلك أيضا نزول عن الظاهر وأنشدنا أيضا .

وَهُنَّ مِنَ الإِخْلافِ قَبْلَكَ وَالْمُطْلِ[5]

وأنشدنا أيضا :

وَهُنَّ مِنَ الإِخْلافِ وَالْوَلَعانِ[6]

ويكفي من هذا كله قول الله "سبحانه" : ﴿ خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [7] ، أي من العَجَلَة ، لا من الطين كما يقول قومٌ ؛ لقوله : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 35 . 45 ﴾

---

1 الشرة : النشاط والحدة . والصمل : الشديد الخلق من الناس والإبل والجبال والنهد : المشرف الجسيم .

2 رجل زور : زائر .

3 انظر ص43 من هذا الجزء . وفي الأصل : وترتع ، وصوابها : ترتع .

4 البعيث . وجذم حبل الوصال : قطعه . والضنين : البخيل . وانظر اللسان "ضن ، وجذم" . والخصائص : 202 ، 3 : 259 .

5 رواه ابن جني في التمام : "143" كما هنا ولم ينسبه ، إلا أن فيه بعدك مكان قبلك ، ورواه في الخصائص : "2 : 203" كما هنا .

6 صدره :

لِخَلَّابَةِ الْعَيْنَيْنِ كَذَّابَةِ الْمُنَى

وانظر اللسان "ولع" ، والخصائص : 2 : 203

7 سورة الأنبياء : 37 .

8 بقية الآية السابقة .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة مريم عليها الصلاة والسلام

مكية قيل إلا آية السجدة فمدنية وآيها تسعون وثمان عراقي وشامي ومدني أول تسع مكي

ومدني أخير خلافها ثلاث كهيعص كوفي وترك له الرحمن مدا في الكتاب إبراهيم مكي

ومدني أخير مشبه الفاصلة أربعة الرأس شيبا وقرى عينا الرحمن صوما اهتدوا هدى

القراآت أمال الهاء والياء من كهيعص أبو بكر والكسائي وقللهما قالون والأزرق بخلف

عنهما تقدم تفصيله في بابها وأما الأصبهاني فالمشهور عنه الفتح قولا واحدا والقليل عنه

من انفرادات الهذلي وقرأ أبو عمرو بإمالة الهاء محضة وأما الياء فالمشهور عنه فتحها من

روايتيه وهو المراد بقول الطيبة والخلف يعني في الياء قل لثالث وقد روي عنه إمالتها من

طريق ابن فرح عن الدوري وأما السوسي فقد وردت عنه عن غير طرق كتابنا التي هي

طرق النشر وما في التيسير من أنه قرأ بها للسوسي على فارس بن أحمد ليس من طريق أبي

عمران التي هي طريق التيسير والعذر للشاطبي في اتباعه كما بينه في النشر وقرأ ابن عامر

وحمزة وخلف بفتح الهاء وإمالة الياء محضة بخلف عن هشام في إمالة الياء والمشهور عنه

إمالتها وهو الذي قطع به ابن مجاهد والهذلي والداني من جميع طرقه والباقون وهم ابن كثير

وحفص وابو جعفر ويعقوب بفتحهما مهمة تقدم التنبيه على أن أبا عمرو لم يمل كبرى غير

الراء إلا الناس المجرور ومن كان في هذه أعمى والياء من فاتحتي مريم وطه وسكن أبو جعفر

على حروف هجائها وأظهر دال صاد عند ذال ذر نافع وابن كثير وعاصم وابو جعفر

ويعقوب وأدغمها الباقون ومر آخر الإدغام الكبير أن المشهور إخفاء نون عين عند الصاد

وبعضهم يظهرها لكونها حروفا مقطوعة ويجوز في عين المد لأجل الساكن والتوسط لفتح

ما قبل الياء وهو الثاني في الشاطبية والقصر إجراءها مجرى الحرف الصحيح والثلاثة في الطيبة وعن الحسن ضم الهاء من كهيعص وفي البحر والدر عنه ضم كاف كأنه جعلها معربة ومنعها الصرف للعلمية والتأنيث قال الداني معنى الضم في الهاء إشباع التفخيم وليس

(190/481)

المراد بالضم الذي يوجب القلب والجمهور على تسكين أواخر هذه الحروف المنقطعة ووقف على رحمت بالهاء ابن

كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب وسهل الثانية من زكريا إذ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس

وقرأ (زكريا) الآية 2 بالقصر بلا همز حفص وحمزة والكسائي وخلف وأمال نادى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه

وقرأ أبو جعفر بإخفاء تنوين نداء عند خاء خفيا وفتح ياء الإضافة من ورائي وكانت ابن كثير

واختلف في (يرثني ويرث) الآية 6 فأبو عمرو والكسائي بجزمهما فالأول على جواب

الدعاء أو جواب شرط مقدر والثاني عطف عليه وافقهما اليزيدي والشنبوذي والباقون بالرفع فيهما الأول صفة لوليا أي وارثا والثاني عطف عليه وقرأ يا زكريا إنا بتسهيل الثاني كالياء وبإبدالها واوا مكسورة نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر ورويس وأما تسهيلها كالواو فتقدم منعه عن النشر وقرأ ابن عامر وأبو بكر وروح تحقيق والباقون زكريا بالقصر كما مر وقرأ نبشرك بالتخفيف حمزة

وأمال (أنى يكون) الآية 8 معا حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما

واختلف في (عتيا) الآية 8 9 و (جثيا) الآية 68 72 و (صليا) الآية 70 و (بكيا) الآية 58 فحمزة والكسائي بكسر أوائل الأربعة وافقهم الأعمش وقرأ حفص كذلك إلا في بكيا جمعا بين اللغتين والباقون بضمها على الأصل وعن الحسن على هين بكسر ياء المتكلم وهو شبيه بقراءة حمزة مصرخي

واختلف في (وقد خلقتك) الآية 9 فحمزة والكسائي بنون مفتوحة وألف على لفظ الجمع وافقهم الأعمش والباقون بالتاء المضمومة بلا ألف على التوحيد وفتح ياء الإضافة من لي آية نافع وابو عمرو وأبو جعفر

وأمال من المحراب ابن ذكوان ورقق الراء منه الأزرق وعن الحسن (برا) في الحرفين بكسر الباء أي ذا بر أو على المبالغة وفتح ياء إني أعوذ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر

واختلف في ﴿ (ليهب لك ﴾ الآية 19 فقالون بخلف عنه من طريقيه كما هو صريح النشر وورش وأبو عمرو ويعقوب بالياء بعد اللام والضمير للرب أي ليهب لك الذي استعذت به منى لأنه الواهب على الحقيقة وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بالهمز والضمير للمتكلم وهو الملك أسنده لنفسه على طريق المجاز ويحتمل أن يكون محكيا بقول محذوف أي قال لأهب وعن الحسن فأجاءها بغير همز بعد الجيم وإمالة الألف ومد الجيم عن الأعمش وحده كما مر و قرأ مت بكسر الميم نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف ومر بآل عمران

واختلف في (نسيا) الآية 23 فحفص وحمزة بفتح النون والباقون بكسرها لغتان كالوتر والوتر والكسر أرجح ومعناه الشيء المتروك

وأمال ﴿ فناديها) ﴾ حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (من تحتها) الآية 24 فنافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح وخلف بكسر الميم وجر تحتها والفاعل مضمر قيل جبريل وقيل عيسى ومعنى كون جبريل تحتها أي في مكان أسفل منها لأنه كان تحت أكمة والجار متعلق بالنداء وافقهم ابن محيصن

بخلفه والحسن والأعمش والباقون بفتح الميم ونصب تحتها فمن موصولة والظرف صلتها وأدغم دال قد جعل أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

(192/481)

واختلف في (تساقط) الآية 25 فحمزة بفتح التاء من فوق على التأنيث والقاف وتخفيف السين والأصل يتساقط فحذف إحدى التاءين تخفيفا وافقه الأعمش وقرأ حفص بضم التاء من فوق وتخفيف السين وكسر القاف مضارع ساقطت متعد ورطبا مفعوله أو بقدر تساقط ثمرها فرطبا تمييز وافقه الحسن وقرأ أبو بكر من طريق العليمي والخياط عن شعيب عن يحيى عنه وكذا يعقوب بالياء من تحت مفتوحة على التذكير وتشديد السين وفتح القاف والفعل عليه مسند إلى الجذع والباقون بفتح التاء من فوق وتشديد السين وفتح القاف أدغموا التاء الثانية في السين والفعل على هذه والأولى لازم وفاعله مضمر أي تساقط النخلة أو ثمرتها ورطبا تمييز أو حال وهي رواية سائر أصحاب يحيى عنه عن أبي بكر وأدغم دال لقد جئت أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وتقدم خلاف أبي عمرو في إدغام التاء من جئت في الشين وكذا يعقوب ويوقف على أمرأ ونحوه مما همزته مفتوحة بعد فتح لحمزة وهشام بخلفه بإبدالها ألفا فقط

وأمال آتاني و أوصاني الكسائي وحده وقللهما الأزرق بخلفه وتقدم غير مرة حكم تثليث همزة آتاني للأزرق مع التقليل والفتح وسكن ياء الإضافة من آتاني الكتاب حمزة وفتحها الباقون

وقرأ نبيئًا بالهمز نافع

واختلف في (قول الحق) الآية 34 فابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب اللام على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي هذا الإخبار عن عيسى أنه ابن مريم ثابت صدق ليس منسوبا لغيرها أي أقول قول الحق فالحق الصدق وهو من إضافة الموصوف إلى صفته أي القول الحق أو على المدح إن أريد بالحق الباري تعالى والموصوف صفة للقول مراد به عيسى وسمي قولا كما سمي كلمة لأنه عنها نشأ وقيل بإضمار أعني وقيل على الحال من عيسى وافقهم الحسن والشنبوذي والباقون بالرفع خبره مبتدأ محذوف أي هو أي نسبته إلى أمه فقط قول الحق أو بدل من عيسى وابن مريم نعت أو بدل أو بيان أو خبر ثان وعن المطوعي فيه تمترون بتاء الخطاب والجمهور بياء الغيب

(193/481)

وقرأ كن فيكون) الآية 35 بالنصب ابن عامر

واختلف في (وإن الله ربي) الآية 36 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس بفتح الهمزة على حذف حرف الجر اللام متعلقا بما بعده والمعنى لوحدانيته أطيعوه أو عطفا على الصلاة أي بالصلاة وبأن الله وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بكسرها على الاستئناف

وقرأ (صراط) الآية 36 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وأشم الصاد زايا خلف عن حمزة

وقرأ (يرجعون) الآية 40 بالياء من تحت مبنيا للفاعل يعقوب والباقون بالياء من تحت أيضا مبنيا للمفعول ومر بالبقرة كقراءة إبراهام بالألف في الثلاثة لهشام وابن ذكوان بخلفه

وقرأ يا أبت بفتح التاء ابن عامر وابو جعفر ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وفتح ياء الإضافة من إني أخاف نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر وفتح لام (مخلصا) عاصم وحمزة والكسائي وخلف وسهل همز إسرائيل أبو جعفر مع المد والقصر ومر خلف الأزرق في مد البدل فيها مع وقف حمزة عليها وعن الحسن ﴿ أضاعوا الصلوات ﴾ بالجمع ونصب التاء بالكسرة

وقرأ (يدخلون) الآية 60 بضم الياء وفتح الخاء مبنيا للمفعول ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وسبق بالنساء وعن الحسن ﴿ جنة عدن ﴾ بالتوحيد والرفع

وعن المطوعي كذلك إلا أنه نصب التاء وعن الشنبوذي بالألف على الجمع مع رفع التاء على أنه خبر لمضمر أي تلك أو هي أو على أنه مبتدأ والتي وعد خبره والجمهور بالجمع والنصب بدل من الجنة

واختلف في (نورث) الآية 63 فرويس بفتح الواو وتشديد الراء من ورث مضعفا وافقه الحسن والمطوعي والباقون بسكون الواو وتخفيف الراء مضارع أورث

وأدغم لام هل تعلم حمزة والكسائي وهشام على ما صوبه عنه في النشر

(194/481)

وقرأ أئذا مامت) الآية 66 بهمزة واحدة على الخبر ابن ذكوان من طريق الصوري وعليه جمهور العراقيين من طريقه وابن الأحزم عن الأخفش عنه من التبصرة وغيرها وفاقا لجمهور المغاربة وهو أحد الوجهين في الشاطبية وغيرها ورواه النقاش عن الأخفش عنه بهمزتين على الاستفهام وبه قرأ الباقون وهم على أصولهم فقالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الثانية مع المد وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل والقصر وهشام في أحد وجهيه وابن ذكوان من طريق النقاش وعاصم وحمزة والكسائي وروح وخلف بالتحقيق والقصر والثاني لهشام التحقيق مع المد وروى كثيرون المد هنا عن هشام من طريق الحلواني بلا

خلف هو أحد السبعة

وقرأ (مت) الآية 66 بكسر الميم نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (أولا يذكر) الآية 67 بتخفيف الذال والكاف المضمومة نافع وابن عامر وعاصم

مضارع ذكر والباقون بالتشديد مع فتح الكاف مضارع تذكر والأصل يتذكر أدغمت التاء

في الذال وسبق بالإسراء ومر قريبا وكسر جثيا لحفص وحمزة والكسائي

وقرأ (ثم ننجي الذين) الآية 72 بالتخفيف من أنجى الكسائي ويعقوب كما مر بالأنعام

وعن ابن محيصن يتلى بالياء من تحت على التذكير والجمهور بالتاء على التأنيث

واختلف في (مقاما) الآية 73 فابن كثير بضم الميم وافقه ابن محيصن مصدر أقام أو اسم

مكان منه أي خير إقامة أو مكان إقامة والباقون بفتحها مصدر قام أو اسم مكانه ونصبه

على التمييز

(195/481)

وقرأ ﴿ أثاثا وريا) ﴾ الآية 74 بتشديد الياء بلا همز قالون وابن ذكوان وأبو جعفر

فيحتمل أن يكون مهموز الأصل إشارة إلى حسن البشرة كأنه قال ونضارة فسهلت الهمز

بإبدالها ياء ثم أدغمت الياء في الياء ويحتمل أن يكون من الري مصدر روى يروي ريا إذا

امتلأ من الماء لأن الريان له من الحسن والنضارة ما يستحسن والباقون بالهمز من رؤية العين فعل بمعنى مفعول إذ هو حسن المنظر ووقف عليه حمزة بالبدل ياء مع الإظهار إعتبارا بالأصل وبالإدغام ورجح الأول صاحب الكافي وغيره ورجح الثاني الداني في الجامع قال لأنه جاء منصوصا عن حمزة ولموافقته الرسم وأطلق في التيسير الوجهين على السواء وتبعه الشاطبي وحكي ثالث وهو التحقيق لما قيل من صعوبة الإظهار وإيهام الإدغام إنها مادة أخرى وهو الري بمعنى الامتلاء قال في النشر ولا يؤخذ به بمخالفته

النص والأداء وحكي رابع وهو الحذف فيقف بياء واحدة مخففة على الرسم ولا يصح ولا يحل كما في النشر قال واتباع الرسم متحد مع الإدغام فالمقروء به الوجهان الأولان فقط وقرأ أفرأيت بتسهيل الثانية نافع وابو جعفر وللأزرق أيضا إبدالها ألفا خالصة مع المد للساكنين وحذفها الكسائي وحققها الباقون ومر بالأنعام ويوقف عليه لحمزة ببين بين

(196/481)

واختلف في (وولدا) الآية 77 هنا وهو أربعة مالا وولدا وقالوا اتخذ الرحمن ولدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا الآية 88 91 92 وفي الزخرف ( ) إن كان للرحمن ولد (الآية 81 فحمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام في الأربعة جمع ولد

كأسد وأسد والباقون بفتح الواو واللام فيهن اسم مفرد قائم مقام الجمع وقيل هما لغتان بمعنى كالعرب والعرب ويذكر حرف نوح في موضعه إن شاء الله تعالى ويوقف لحمزة على توزهم بالتسهيل بين بين فقط وأما إبدالها واوا مضمومة للرسم فلا يصح وعن الحسن يحشر المتقون بضم الياء من تحت وفتح الشين مبنيا للمفعول والمتقون بالرفع بالواو نيابة عن الفاعل وكذا ويساق المجرمون وأدغم دال لقد جئتم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأبدل الهمزة الساكنة من جئتم أبو عمر بخلفه وابو جعفر كوقف حمزة وحققها ورش من طريقيه كالباقين

واختلف في ( ) تكاد السماوات يتفطرن (الآية 90 هنا فنافع والكسائي يكاد بالياء من تحت على التذكير يتفطرن بفتح الياء من تحت والتاء من فوق والطاء مشددة من فطره إذا شققه مرة بعد أخرى وقرأ ابن كثير وحفص وأبو جعفر كذلك لكن بالتاء من فوق في تكاد وافقهم ابن محيصن والحسن والمطوعي

وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة ويعقوب وخلف تكاد كذلك بالتأنيث ﴿ ينفطرن ﴾ بالياء ونون ساكنة وكسر الطاء مخففة من فطره شقه وافقهم اليزيدي والشنبوذي ويأتي موضع الشورى في محله إن شاء الله تعالى

وقرأ (لتبشر به) الآية 97 بالتخفيف حمزة سبق بآل عمران وأدغم لام (هل تحس) حمزة والكسائي وهشام وصوبه عنه في النشر وعليه الجمهور

(197/481)

المرسوم كتبوا خلقتك من قبل بغير ألف قبل الكاف في الكل نافع كبقية الرسوم تسقط بحذف الألف وكتبوا لأهب لك بلام وألف في الإمام كغيره وكتب أيهم الياء متصلة بالهاء هاء التأنيث ذكر رحمت ربك بالتاء يا أبت بالتاء أيضا ياءات الإضافة ست (ورائي وكانت) الآية 5 (لي آية) الآية 10 و (إني أخاف) الآية 45 (إني) الآية 43 (آتاني الكتاب) الآية 30 (ربي إنه) الآية 47 وليس فيها زائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 375.380 ﴾

(198/481)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة مريم "

" كهيعص " أجمع القراء على مد كاف وصاد مدا مشبعا لأجل الساكن وأجمعوا على قصرها ويا لعدم وجود الساكن . واختلفوا في عين فذهب بعض أهل الأداء إلى الإشباع

لالتقاء الساكنين وذهب البعض إلى التوسط لقصور حرف اللين عن حرف المد واللين وهذان الوجهان جائزان لكل من القراء العشرة . وسكت أبو جعفر على كاف وها ويا وعين وص من غير تنفس .

" ذكر ، رحمت " الرأس ، المحراب ، نداء خفيا إليهم ، بوالديه . عليه ، لا يخفى .

" زكريا إذ " قرأ حفص والأخوان وخلف بحذف همزة زكريا فيكون المد عندهم منفصلا فيمده كل حسب مذهبه ، والباقون همزة مفتوحة غير منونة وحينئذ يكون المد عندهم متصلا فيمده كل حسب مذهبه ويلتقي همزتان الأولى مفتوحة والثانية مكسورة فيسهل الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس ويحققها الشامي وشعبة وروح .

" من ورائي " فتح الياء المكي وأسكنها غيره وفيه لورش ثلاثة البدل .

" يرثني ويرث " قرأ البصري والكسائي بجزم الفعلين والباقون برفعهما .

" يا زكريا إنا " قرأ حفص والأخوان وخلف بلا همزة فيكون المد عندهم منفصلا كما تقدم والباقون بهمزة مضمومة غير منونة ويكون المد عندهم متصلا وحينئذ همزتان الأولى مضمومة والثانية مكسورة فقرأ المدنيان المكي والبصري ورويس بتسهيل الثانية بين بين وعنهم أيضا إبدالها واوا خالصة . وقرأ الشامي وشعبة وروح بتحقيقها وكل من قرأ بالهمز حقق الأولى .

" نبشرك " قرأ حمزة بفتح النون وإسكان الموحدة وضم الشين مخففة وغيره بضم النون

وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة وفيه ترقيق الراء لورش .

" عتيا " كسر العين حفص والأخوان وضمها غيرهم .

" خلقتك " قرأ حمزة والكسائي بنون بعد القاف وبعدها ألف والباقون بتاء مضمومة بعد القاف من غير ألف .

" شيئًا " لورش التوسط والإشباع مطلقا ولحمزة وقفا النقل والإدغام ولا يخفى ماله وصلا .

(199/481)

" لي آية " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها سواهم .

" إني أعوذ " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" لأهب " قرأ البصريان وورش وقالون بخلف عنه بياء مفتوحة بعد اللام والباقون بهمزة مفتوحة في مكان الياء وهو الوجه الثاني لقالون ولحمزة في الوقف عليه تحقيق الهمزة وإبدالها ياء خالصة .

" مقضيا " آخر الربع .

الممال

الكافرين معا بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش . الدنيا ويحيى ويا يحيى بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه يوحى ونادى فأوحى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . كهيعص: أمال البصري الهاء وحدها . وأمال الشامي وخلف وحمزة الياء وحدها وأمال شعبة والكسائي الهاء واليا معا . وقللهما معا ورش وفتحهما الباقون . وما ذكره الشاطبي من التقليل فيهما لقالون وفي الياء للسوسي من الإمالة فخروج منه عن طريقه فلا يقرأ به . أنى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه . المحراب لابن ذكوان بلا خلاف لأنه مجرور للناس لدوري البصري .

المدغم

" الصغير " هل ننبئكم للكسائي مع الغنة . كهيعص ذكر إدغام دال الصاد في الذال للبصري والشامي والأخوين وخلف .

" الكبير " للكافرين نزلا جهنم بما ، ذكر رحمت ، قال رب الثلاثة ، العظم مني ، الرأس شيبا على أحد الموجهين ، والثاني الإظهار . كذلك قال معا ، قال ربك معا ، الكتاب بقوة ، فتمثل لها ، رسول ربك ، ولا إدغام في يكون لي معا للساكن قبل النون .

" مت " قرأ المكي والبصريان والشامي وشعبة وأبو جعفر بضم الميم والباقون بكسرها .

" نسيا " قرأ حفص وحمزة بفتح النون وغيرهما بكسرها .

" من تحتها " قرأ نافع وحفص والأخوان وخلف وأبو جعفر وروح بكسر الميم وجر التاء الثانية من تحتها ، والباقون بفتح الميم ونصب تاء تحتها .

(200/481)

" تساقط " قرأ حمزة بفتح التاء الفوقية والقاف وتخفيف السين وقرأ حفص بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف ويعقوب بياء تحتية مفتوحة مع تشديد السين وفتح القاف والباقون بالتاء الفوقية المفتوحة وتشديد السين وفتح القاف .

" امرأ سوء " في الأول لحمزة وهشام وقفا الابدال ألفا ليس غير ، وفي الثاني التوسط والمد لورش وصلا ووقفا ، وفيه لهشام وحمزة وقفا النقل والادغام وكل منهما مع السكون المحض والروم .

" آتاني الكتاب " أسكن حمزة الياء وصلا مع حذفها لالتقاء الساكنين وفتحها غيره .

" نبيا " بالصلاة . علي ، فاعبدوه ، صراط ، سأستغفر ، عليهم ، النبيين ، إسرائيل كله جلي .

" قول الحق " قرأ الشامي وعاصم ويعقوب بنصب اللام والباقون برفعها .

" فيكون " نصب ابن عامر النون ورفعها غيره .

" وإن الله " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بفتح الهمزة والباقون بكسرها .

" يرجعون " قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم والباقون بضم الياء وفتح الجيم .

" إبراهيم معا ويا إبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسر الهاء وياء بعدها .

" يا أبت " الأربعة ، قرأ الشامي وأبو جعفر بفتح التاء والباقون بكسرها ووقف بالهاء المكي والشامي وأبو جعفر ويعقوب وغيرهم بالتاء .

" فاتبعني أهدك " أجمعوا على إسكان الياء في الحالين .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" ربي إنه " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" مخلصا " فتح اللام الكوفيون وكسرها غيرهم .

" وبكيا " قرأ الأخوان بكسر الباء والباقون بضمها . وهو آخر الربع .

الممال

فناداها وقضى وعسى وتتلى بالامالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . آتاني وأوصاني بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلف عنه ، عيسى لدى الوقف عليه وموسى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . جاءني لابن ذكوان وخلف

وحمزة ولا إمالة فأجاءها لكونه رباعيا .

المدغم

(201/481)

" الصغير " قد جعل ربك لقد جئت . قد جاءني للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " جعل ربك ، النخلة تساقط ، جئت شيئًا على أحد الوجهين والآخر الإظهار ، نكلم من ، المهد صبيا ، يقول له فاعبدوه هذا ، نحن نرث ، قال لأبيه ، العلم ما ، سأستغفر له ، أخاه هرون ، هرون نبيا .

" يدخلون الجنة " قرأ المكي والبصريان وأبو جعفر وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء .

" يظلمون شيئًا " ، مأتيا ، لنحضرنهم ، عليهم ، أفرأيت ، منه ، وتخر ، تقدم مثله غير مرة .

" نورث " قرأ رويس بفتح الواو وتشديد الراء والباقون بإسكان الواو وتخفيف الراء .

" أئذا " قرأ ابن ذكوان بخلف عنه بهمزة واحدة مكسورة على الإخبار والباقون بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام ، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان ، وهم على أصولهم في الهمزتين فقالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الثانية مع الإدخال وورش وابن

كثير ورويس بالتسهيل بلا إدخال ، وهشام بالتحقيق مع الإدخال هنا قولا واحدا لأنه من المواضع السبعة التي يدخل فيها قولا واحدا والباقون بالتحقيق بلا إدخال .

" مت " سبق قريبا في هذه السورة .

" يذكر " قرأ نافع والشامي وعاصم بإسكان الذال وضم الكاف وغيرهم بفتح الذال والكاف وتشديدهما .

" جثيا " معا عتيا ، صليا ، قرأ حفص والأخوان بكسر الجيم في جثيا والعين من عتيا والصاد من صليا والباقون بضم الحروف الثلاثة .

" ننجي " قرأ الكسائي ويعقوب بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم وغيرهما بفتح النون وتشديد الجيم .

" مقاما " ضم الميم الأولى ابن كثير وفتحها غيره .

" ورئيا " قرأ قالون وابن ذكوان وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء وإدغام الياء قبلها فيها فينطق بياء مشددة مفتوحة ولا إبدال فيه للسوسي لاستثنائه ، ولحمزة في الوقف عليه وجهان الأول كقالون ومن معه والثاني الابدال من غير إدغام .

" ولدا " الأربعة قرأ الأخوان بضم الواو وسكون اللام وغيرهما بفتح الواو واللام .

" تكاد " قرأ نافع والكسائي بياء التذكير والباقون بتاء التأنيث .

" يتفطرن " قرأ البصريان وخلف وحمزة وابن عامر وشعبة بنون ساكنة بعد الياء التحتية مع كسر الطاء مخففة ، والباقون بتاء فوقية مفتوحة بعد الياء مع فتح الطاء وتشديدها .

" لتبشر " قرأ حمزة بفتح التاء وإسكان الباء الموحدة وضم الشين مع تخفيفها وغيره بضم التاء وفتح الباء وكسر الشين مع تشديدها وفيه ترقيق الراء لورش .

" ركزا " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" أولى وتتلى وهدى " لد الوقف وأحصاهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

الكافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " واصطبر لعبادته للبصري بخلف عن الدوري . هل تعلم وهل تحس لهشام والأخوين . لقد جئتم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " بأمر ربك ، لعبادته هل ، أعلم بالذين ، وأحسن نديا ، وقال لأوتين ، الصالحات سيجعل لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 201 . 205 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة مريم

قوله تعالى ﴿ كهيعص ﴾ يقرأ بفتح جميع حروفه وبإمالتها وبين الإمالة والفتح وبإمالة الياء وفتح الهاء وبكسر الهاء وفتح الياء فالحجة لمن فتحهن أنه أتى بالكلام على أصله ووفاه حق ما وجب له لأن الحروف إذا قطعت كانت أولى بالفتح فرقا بينها وبين ما يمال من الأسماء والحروف والأفعال والحجة لمن أمالهن أنه فرق بين هاء التنبيه وهاء الهجاء وبين ما إذا كانت نداء وإذا كانت هجاء والحجة لمن قرأهن بين بين أنه عدل بين اللفظين وأخذ بأقرب اللغتين والحجة لمن أمال بعضا وفخم بعضا أنه كره توالي الكسرات أو الفتحات فأمال بعضا وفخم بعضا وقد قلنا فيما تقدم إن العرب تذكر حروف الهجاء وتؤنثها وتميلها وتفخمها وتمدها وتقصرها ولها مراتب فما كان منها على حرفين مد مدا وسطا وما كان على ثلاثة أحرف مد فوق ذلك

وقيل في معناهن إن الله تعالى أقسم بحروف المعجم لأنها أصل لتأليف أسمائه فاجتزا بما في

أوائل السور منها وقيل هي شعار للسورة وقيل هي سر الله تعالى عند نبيه وقيل كل حرف مها نائب عن اسم من أسماء الله عز وجل فالكاف من كاف والهاء من هاد والعين من عليم والصاد من صادق

قوله تعالى ? < صاد ذكر > ? يقرأ باظهار على الأصل وبالإدغام للمقاربة بين الحرفين

قوله تعالى ﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ يقرأ بالإدغام وطرح الحركة من الراء لمجانسة الحرفين وطلب التخفيف وبالإظهار لأن الحرفين من كلمتين والحركة تمنع من الإدغام وإنما يجوز الإدغام مع السكون لا مع الحركة

قوله تعالى ﴿ من ورائي ﴾ يقرأ بإسكان الياء لطول الاسم وثقله بالهمز إلا ما روي عن ابن كثير أنه فتح الياء مع المد لئلا يجمع بين ياء إضافة ساكنة وهمزة مكسورة ففتحها طلبا للتخفيف

قوله تعالى ﴿ وليا يرثني ﴾ يقرأ بالجزم والرفع فالحجة لمن جزم أنه جعله

(204/481)

جوابا للأمر لأن معنى الشرط موجود فيه يريد فإن تهب لي وليا يرثني والحجة لمن رفع أنه جعل قوله يرثني صلة لولي لأنه نكرة عاد الجواب عليها بالذكر ودليله قوله تعالى ﴿ أنزل

علينا مائدة من السماء تكون ﴾ ولو قيل إنه إنما جاز الرفع في قوله يرثني وما أشبهه لأنه حال حل محل اسم الفاعل لكان وجها بينا ودليله قوله تعالى ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ يريد لاعبين وفيه بعض الضعف لأن الأول حال من ولي وهو نكرة وهذا حال من الهاء والميم وهما معرفة

قوله تعالى ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ يقرأ بالرفع والجزم عطفا على ما تقدم من الوجهين في أول الكلام

قوله تعالى ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ يقرأ بالكسر والضم وما شاكله من قوله ﴿ صليا ﴾ ? < وجثيا > ? ﴿ وبكيا ﴾ فالحجة لمن قرأ بالكسر أنه نحا ذلك لمجاورة الياء وجذبها ما قبلها إلى الكسر ليكون اللفظ به من وجه واحد لأنه يثقل عليهم الخروج من ضم إلى كسر والحجة لمن ضم أن الأصل عنده في هذه الأسماء الضم لأنها في الأصل على وزن فعول فانقلبت الواو فيهن ياء لسكونها وكون الياء بعدها فصارتا ياء مشددة

فإن قيل فهلا كانت هذه الأسماء بالواو كما كان قوله ﴿ وعتوا عتوا كبيرا ﴾ بالواو فقل الأصل في الواحد من هذا الجمع عاتو وجاثو لأنه من يعتو ويجثو فانقلبت فيه الواو ياء لانكسار ما قبلها كما قالوا غاز والأصل غازو لأنه من يغزو فجاء الجمع في ذلك تاليا للواحد في بنائه لأن الجمع أثقل من الواحد

والواو أثقل من الياء فإذا كان القلب في الواحد واجبا كان في الجمع لازما

فأما قوله عتوا فإنما صح بالواو لأنه مصدر والمصدر يجري مجرى الاسم الواحد حكما وإن شارك الجمع لفظا فصحت الواو فيه لخفته واعتلت في الجمع لثقله واعتلالها في واحده

(205/481)

فإن قيل فيلزم على هذا أن يجيز في قوله ﴿ فما استطاعوا مضيا ﴾ كسر الميم فقل هذا لا يلزم لأنه مصدر والفعل منه مضى يمضي مضاء ومضيا وقد بينا وجه صحة لفظ المصدر وإنما كان يلزم ذلك لو أنه جمع لماض فأما وهو مصدر فلا

قوله تعالى ﴿ وقد خلقتك ﴾ يقرا بالتاء وبالنون والألف فالحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده على قوله ﴿ هو علي هين ﴾ وقد خلقتك والحجة لمن قرأه بالنون والالف أنه حمله على قوله ﴿ وحنانا من لدنا ﴾ وقد خلقناك وكلاهما من إخبار الله تعالى عن نفسه

فإن قيل فما معنى قوله ﴿ ولم تك شيئا ﴾ فقل معناه ولم تك شيئا مرئيا مخلوقا موجودا عند المخلوقين فأما في علم الله فقد كان شيئا وإنما سمي يحيى لأنه حيي من عقمين قد نيفا على التسعين ويئسا من الولد

وقوله ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قيل لم يسم باسمه غيره وقيل لم يولد لأبويه ولد قبله

وقوله ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ يحتمل الوجهين

قوله تعالى ﴿ لأهب لك ﴾ يقرأ بالياء والهمزة فالحجة لمن قرأه بالياء أنه جعله من إخبار جبريل عليه السلام عن الله عز وجل ومعناه ليهب لك ربك والحجة لمن قرأه بالهمز أنه أراد بذلك حكاية جبريل عليه السلام عن الله تعالى ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ وهو يقول لأهب لك فأراد أن جبريل عليه السلام أخبر بذلك عن نفسه

لأنه هو كان المخاطب لها والنافخ بأمر الله في حيها

قوله تعالى ﴿ وكنت نسيا ﴾ يقرأ بفتح النون وكسرها فالحجة لمن فتح أنه أراد المصدر من قولك نسيت والحجة لمن كسر أنه أراد كنت شيئا ألقي فنسي والعرب تقول هذا الشيء لقى ونسي ومنه قول الشاعر يصف امرأة بالحياء والخفر وغض الطرف % كأن لها في الأرض نسيا تقصه % إذا ما غدت وإن تحدثك تبلت % يريد كأنها تطلب شيئا ألقته لتعرف خبره ومعنى تبلت تقص وتصدق

(206/481)

قوله تعالى ﴿ فناداها من تحتها ﴾ يقرأ بفتح الميم والتاء وبكسرهما فالحجة لمن فتح أنه جعله اسم عيسى وفتح التاء لأنه ظرف مكاني متضمن لجثة من ومن مستقر فيه والأستقرار كون له والكون مشتمل على الفعل فانتصب الظرف لأنه مفعول فيه بما قدمناه

من القول في معناه والحجة لمن كسر الميم والتاء أنه جعلها حرفا خافضا للظرف لأنه اسم للموضوع والظرف في الحقيقة الوعاء فلذلك جعل المكان ظرفا لأن الفعل يقع فيه فيحويه والمراد بالنداء جبريل فأما مواقع من في الكلام فتقع ابتداء غاية وتقع تبعيضا وتقع زائدة مؤكدة

قوله تعالى ﴿ تساقط ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد تتساقط فأسكن التاء الثانية وادغمها في السين فشدد لذلك والحجة لمن خفف أنه حذف التاء تخفيفا لأنه يثقل عليهم اجتماع حرفين متجانسين متحركين فمنهم من يخفف بالإدغام ومنهم من يخفف بالحذف

قوله تعالى ﴿ وأوصاني ﴾ يقرأ بالتفخيم والإمالة وقد ذكر في أمثاله من الاحتجاج ما يغني عن إعادته ها هنا

قوله تعالى ﴿ قول الحق ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن نصب أنه وجهه إلى نصب المصدر كما يقول هذا قولا حقا وقول الحق والحجة لمن رفع أنه جعله بدلا من عيسى أو أضمر له ذلك ثانية فعيسى كلمة الله لانه بكلمته كان وقوله لأنه بقوله كن تكون وروحه لأنه كان رحمة على من بعث إليه إذ آمنوا به فنجوا

قوله تعالى ﴿ وإن الله ربي وربكم ﴾ يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتحها أنه رد الكلام بالواو على قوله وأوصاني بالصلاة وبأن الله ربي والحجة لمن كسرها أنه استأنف

الكلام بالواو ودليله أنها في قراءة أبي وإن الله بغير واو

قوله تعالى ﴿ أولا يذكر الإنسان ﴾ يقرأ بتشديد الكاف وفتح الذال وبضم الكاف وإسكان الذال وقد تقدم من القول في نظائره ما يغني عن إعادته

قوله تعالى ﴿ إنه كان مخلصا ﴾ يقرأ بفتح اللام وكسرها والحجة فيه كالحجة في المخلصين وقد ذكرت آنفا

(207/481)

قوله تعالى ﴿ هل تعلم ﴾ يقرأ بالإدغام للمقاربة وبالإظهار على الأصل وانفصال الحرفين

قوله تعالى ﴿ ثم ننجي ﴾ يقرأ بالتشديد من نجى وبالتخفيف من أنجى

قوله تعالى ﴿ خير مقاما ﴾ يقرأ بفتح الميم وضمها فالحجة لمن ضم أنه جعله من الإقامة ولمن فتح أنه جعله اسما للمكان

قوله تعالى ﴿ أثاثا ورئيا ﴾ يقرا بالهمز وتخفيف الياء وبترك الهمز وتشديد الياء فالحجة لمن همز أنه أخذه من رؤية المنظر والحسن والحجة لمن شدد انه أخذه من الري وهو امتلاء الشباب وتحير مائه في الوجه أو يكون أراد الهمز فتركه وعوض التشديد منه

قوله تعالى ﴿ مالا وولدا ﴾ يقرأ بفتح الواو واللام وبضم الواو وإسكان اللام ها هنا في

أربعة مواضع وفي الزخرف وفي نوح فالحجة لمن فتح أنه أراد الواحد من الأولاد والحجة لمن ضم أنه أراد جمع ولد وقيل هما لغتان في الواحد كقولهم عدم وعدم وسقم وسقم

قوله تعالى ﴿ تكاد السماوات يتفطرن ﴾ يقرأ تكاد بالتاء وقد تقدم ذكره فأما ينفطرن فيقرأ بالنون والتخفيف وبالتاء والتشديد ها هنا وفي ﴿ عسق ﴾ فالحجة لمن قرأه بالتخفيف أنه مأخوذ من قوله ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ ودليله قوله ﴿ السماء منفطر به ﴾ والحجة لمن قرأه بالتشديد أنه اخذه من تفطرت السماء تتفطر وهما لغتان فصيحتان معناهما التشقق ومنه قولهم تفطر الشجر إذا تشقق ليورق ومنه قوله تعالى ﴿ هل ترى من فطور ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 234. 239 ﴾

(208/481)

وقال ابن زنجلة :

سورة مريم عليها السلام

قرأ أبو عمرو كهيعص 1 بكسر الهاء وفتح الياء قال اليزيدي قلت لأبي عمرو لم كسرت الهاء قال لئلا تلتبس بالهاء التي للتنبيه إذا قلت ها زيد

وقرأ حمزة وابن عامر بفتح الهاء وكسر الياء وحجتهما في ذلك أن الكسرة هي أخت الياء

وليست الكسرة أخت الهاء فلهذا كسرا الياء وفتحا الهاء

وقرأ أبو بكر والكسائي بكسر الهاء والياء وإنما كسرا الهاء لئلا تلتبس بالهاء التي للتنبيه والياء لئلا تلتبس بياء النداء إذا قلت يا رجل

قرأ نافع وابن كثير وحفص بفتح الهاء والياء وهو الأصل العرب تقول ها يا ومن العرب من يقول ها يا

قال سيبويه إنما جازت فيه الإمالة نحو يا تا ها لأنها أسماء ما تكتبه وإنما أمالتها العرب لتفصل بينها وبين الحروف لأن الإمالة إنما تلحق الأسماء والأفعال ويدلك على أنها أسماء أنها إذا أخبرت عنها أعربتها فتقول هذه هاء وياء قال ولا أميل لا ولا ما لأنهما حرفان وقال ما التي تكون اسما بمنزلة الذي لا أميلها لأنها لا تتم إلا بصلة

وإني خفت الموالي من وراءي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب 5 و6

قرأ ابن كثير من ورائي بفتح الياء وقرأ الباقون بسكون الياء تخفيفا لطول الحرف مع الهمزة

قرأ أبو عمرو والكسائي يرثني ويرث جزما جوابا للأمر وإنما صار جواب الأمر مجزوما لأن الأمر مع جوابه بمنزلة الشرط والجزاء المعنى هب لي وليا فإنك إن وهبته لي ورثني

وقرأ الباقون يرثني ويرث بالرفع جعلوه صفة للولي أي أي وليا وارثا وإنما اختاروا الرفع لأن وليا نكرة فجعلوا يرثني صفة كما تقول أعرني دابة أركبها وكما قال خذ من أموالهم صدقة

تطهرهم وتزكيهم بها ولو كان الاسم معرفة لكان الاختيار الجزم كما قال فذروها تأكل فالهاء معرفة فلا يجوز أن تجعل النكرة صفة للمعرفة

(209/481)

واعلم أن الفعل المضارع إذا حل محل اسم الفاعل لم يكن إلا رفعا كقوله تعالى ولا تمنن تستكثر أي مستكثرا وحجتهم في ذلك أن زكريا إنما سأل وليا وارثا علمه ونبوته وليس المعنى على الجزاء أي إن وهبته ورث ذلك لأنه ليس كل ولي يرث فإذا لم يكن كذلك لم يسهل الجزاء من حيث لم يصح أن تقول إن وهبته ورث لأنه قد يهب وليا لا يرث وأخرى وهي أن الآية قد تمت عند قوله وليا ثم تبتدئ يرثني أي هو يرثني ويرث من آل يعقوب

وقد بلغت من الكبر عتيا 8

قرأ حمزة والكسائي وحفص عتيا و صليا و جثيا و بكيا بكسر العين والصاد والجيم والباء حفص خرج في قوله بكيا فرفع وإنما كسروا أوائل هذه الحروف لمجاورة الكسرة

وقرأ الباقون بضم هذه الحروف على الأصل وكان أصل الكلمة عتووا مصدر عتا مثل قعد قعودا ثم جعلوا الواو التي هي لام الفعل ياء ثم أدغموا فيها واو فعول بعد أن قلبوها فصارت عتيا بضم العين والياء فاجتمع ضمتان وبعدهما ياء مشددة وكسرت التاء لمجيء الياء

بعدها فصارت عتيا ومن كسر العين فإنه استثقل ضمة العين لمجيء كسرة التاء وبعدها ياء مشددة وكذلك الكلام في قوله أيهم أشد على الرحمن عتيا و صليا كان الأصل صلويا وكذلك بكويا وهو جمع باك مثل شاهد وشهود و جثيا جمع جاث وكان الأصل جثووا

قالوا كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا 9

قرأ حمزة والكسائي وقد خلقناك بالنون كذا يكون كلام الملوك والعظماء وحجتهما أن ما أتى في القرآن من هذا اللفظ بلفظ الجمع أكثر مما أتى بلفظ التوحيد وذلك قوله وما خلقنا السموات والأرض ولقد خلقناكم ثم صورناكم وخلقناكم أزواجا

أمن خلقنا إنا خلقناهم في نظائر ذلك

وقرأ الباقون وقد خلقتك بالتاء وحجتهم أنه قرب من قوله قال ربك هو علي هين ولم يقل علينا يجب أن يكون الكلام بعده جاريا على لفظه إذ هو في سياقه ولم يعترض بينهما بكلام يوجب صرفه عن لفظ ما تقدمه إلى لفظ الجمع

قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلما زكيا 19

قرأ أبو عمرو و ورش والحلواني عن نافع قال إنما أنا رسول ربك ليهب لك بالياء أي ليهب الله لك ولم يكن جبريل الذي يهب بل الله يهب المعنى أرسلني ليهب الله لك

وقرأ الباقون لأهب لك جبرئيل يخبر عن نفسه فإن قال قائل الهبة من الله تعالى فلم أخبر جبرئيل عن نفسه قيل ففي ذلك قولان أحدهما قال إنما أنا رسول ربك يقول الله تعالى لأهب لك

قال الزجاج من قرأ لأهب لك فهو على الحكاية وحمل الحكاية على المعنى على ت تأويل قال أرسلت إليك لأهب لك فحذف من الكلام أرسلت لدلالة ما ظهر على ما حذف

والقول الثاني جبريل عليه السلام قال لمريم إنما أنا رسول ربك أرسلني لأهب لك

إذ كان النافخ في جيبها بأمر الله فتكون الهبة في المعنى من الله وهي في اللفظ مسندة إلى جبرئيل لأن الرسول والوكيل قد يسندان هذا النحو إلى أنفسهم وإن كان الفعل للموكل والمرسل للعلم بأنه في المعنى للمرسل وأن الرسول مترجم عنه

قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا 23

قرأ حمزة وحفص نسيا بفتح النون مصدر نسيت أنسى نسيا ونسيانا مثل غشيته غشيا وغشيانا

وقرأ الباقون نسيا بالكسر وهو الاسم وقال الفراء هما لغتان مثل الجسر والجسر والوتر والوتر قال الأخفش النسي هو الشيء الحقير ينسى نحو النعل قال الزجاج نسيا حيضة

ملقاة وقيل نسيا في معنى منسية لا أعرف

فناداها من تحتها ألا تحزني 24

قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر فناداها من تحتها بفتح الميم والتاء جعلوا من اسما وجعلوا النداء له المعنى فناداها الذي تحتها وهو عيسى و تحتها صلة من وحجتهم ما روي عن أبي بن كعب قال الذي خاطبها هو الذي حملته في جوفها

وقرأ الباقون من تحتها بكسر الميم والتاء أي فناداها جبريل من بين يديها وحجتهم ما روي عن ابن عباس من تحتها قال جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها وقال آخرون منهم الحسن

(211/481)

البصري من تحتها عيسى فكأنه جعل الفاعل مستترا في ناداها المعنى فناداها عيسى من تحتها وهو أجود الوجهين وذلك أنه جرى ذكره في قوله فحملته 22 فلما أتى الفعل بعد ذكره دل على أنه فعل المذكور وأنه مستتر في فعله فالكسر أعم وذلك أن من كسر يحتمل المعنى أن يكون الملك ويحتمل أن يكون عيسى عليه السلام

وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا 25

قرأ حفص تساقط بضم التاء وكسر القاف جعله فاعل ساقط يساقط مساقطة وعنى به النخلة وقال تساقط لأن ذلك لا يكون دفعة واحدة ومثله في الكلام أنا أساقط إليك المال أولا فأولا

قرأ حمزة تساقط بفتح التاء والتخفيف أراد تتساقط ثم حذف التاء لاجتماع التاءين وحجته قوله فأنت له تصدى فأنت عنه تلهى والأصل تتهلى وتتصدى

وقرأ الباقون تساقط بالتشديد أدغموا التاء في السين

قرأ حماد يساقط بالياء ذهب إلى الجذع وآخرون ذهبوا إلى النخلة

ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون 34

قرأ عاصم وابن عامر قول الحق بنصب اللام على المصدر المعنى أقول قول الحق الذي فيه يمترون فالله جل وعز أخبر عن نفسه بأني أقول قول الحق بأن عيسى هو ابن مريم

وقرأ الباقون قول الحق بالرفع ورفعه من وجهين أحدها أن يجعل قول نعتا لعيسى قال اليزيدي قول الحق رفع على النعت وقال الزجاج ويجوز أن تضمر هو وتجعله كناية عن عيسى لأنه قد قيل فيه روح الله وكلمته والكلمة قول وقال آخرون بل المعنى هذا الكلام الذي جرى هو قول الحق

إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه 35 و36

قرأ ابن عامر كن فيكون بالنصب وقد ذكرت في سورة البقرة

قرا نافع وابن كثير وأبو عمرو وأن الله ربي وربكم بنصب الألف وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال من فتحه حمله على قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة 31 وب أن الله ربي وربكم وكان أبو عمرو يتأولها على إذا قضى أمرا وقضى أن الله ربي وربكم ف أن في موضع نصب

(212/481)

قرأ أهل الشام والكوفة وإن الله بالكسر على الاستئناف قال الكسائي إن ذلك على قول عيسى حين قال إني عبد الله و إن الله ربي وربكم

إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا 47

قرأ ابن عامر يا أبت بفتح التاء وقرأ الباقون بالكسر وقد بينت في سورة يوسف

واذكر في الكتب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا 51

قرأ عاصم وحمزة والكسائي إنه كان مخلصا بفتح اللام أي أخلصه الله واختاره وجعله خالصا من الدنس وحجتهم قوله إنا أخلصناهم بخالصة

وقرأ الباقون مخلصا بكسر اللام أي أخلص هو التوحيد فصار مخلصا وجعل نفسه خالصة في طاعة الله وحجتهم قوله مخلصين له الدين

فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا 60

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر يدخلون الجنة برفع الياء وحجتهم قوله تعالى وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات

وقرأ الباقون يدخلون بفتح الياء وحجتهم قوله جنات عدن يدخلونها وقد تقدم ذكره في سورة النساء

أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا 67

قرأ نافع وابن عامر وعاصم أولا يذكر الإنسان بالتخفيف أي أولا يعمل أولا يتنبه من ذكر يذكر وحجتهم قوله تعالى كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره

وقرأ الباقون أولا يذكر بالتشديد أي أولا يتدبر ويتفكر

ويعتبر والأصل يتذكر فأدغموا التاء في الذال وحجتهم قوله تعالى وإنما يتذكر أولو الألباب

ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا 72

قرأ الكسائي ثم ننجي الذين اتقوا بالتخفيف من أنجى ينجي

وقرأ الباقون بالتشديد من نجى ينجي وهما لغتان مثل كرم وأكرم

أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا 72

قرأ ابن كثير خير مقاما بضم الميم أي إقامة يقال طال مقامي بالبلد وأقمت بالبلد مقاما وإقامة

وقرأ الباقون خير مقاما بالفتح أي مكانا تقول قام يقوم مقاما وهذا مقامنا فالمقام يستقيم أن

يكون مصدرا ويستقيم أن يكون اسم الموضع

وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا 74

(213/481)

قرأ نافع وابن عامر أحسن أثاثا وريا بالتشديد وقرأ ورش عن نافع ورئيا بالهمزة وبه قرأ الباقون المعنى هم أحسن متاعا

ورئيا أي منظرا من رأيت ومن لم يهمز فله حجتان إحداهما أن يكون أراد الهمز فترك كما قرؤوا خير البرية والأصل رئيا بالهمز ثم تركت الهمزة فصارت ياء مثل ذيب إذا تركت الهمزة ثم أدغمت الياء في الياء فصارت ريا مشددا فهذا مثل الأول في التفسير والثانية أن تأخذه من الري وهو امتلاء الشباب أي أن منظرهم مرتو من النعمة كأن النعيم بين فيهم

لأوتين مالا وولدا 77

قرأ حمزة والكسائي مالا وولدا بضم الواو وسكون اللام جميع ما في هذه السورة وفي الزخرف

وقرأ الباقون بفتح الواو واللام قال الفراء هما لغتان مثل البخل والبخل والحزن والحزن قال الشاعر . . . فليت فلانا كان في بطن أمه . . . وليست فلانا كان ولد حمار . . .

يعني الولد وقال آخرون منهم ابن أبي حماد الولد ولد الولد و الولد بالفتح ولد الصلب

تكاد السموات يتفطرن منه 90

قرأ نافع والكسائي يكاد السموات بالياء لأن السموات جمع قليل والعرب تذكر فعل المؤنث إذا كان قليلا كقوله فإذا انسلخ الأشهر الحرم ولم يقل انسلخت وقوله وقال نسوة ولم يقل وقالت قال ابن الأنباري سألت ثعلبا لم صار ذلك كذلك فقال لأن الجمع القليل قبل الكثير والمذكر قبل المؤنث فحمل الأول على الأول وقرأ الباقون تكاد بالتاء لتأنيث السموات وسقط السؤال

قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ينفطرن بالنون أي ينشققن وحجتهم إجماع الجميع على قوله السماء منفطر به ولم يقل متفطر و إذا السماء انفطرت فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

قرأ نافع وابن كثير والكسائي وحفص يتفطرن بالتاء والتشديد أي يتشققن والأمر في التاء والنون يرجع إلى معنى واحد إلا أنه

(214/481)

التاء للتكثير وذلك أن ينفطرن إنما هو من فطرت فانفطرت مثل كسرت فانكسرت وقطعت فانقطعت و يتفطرن من قولك فطرت فتفطرت مثل كسرت فتكسرت وقطعت فتقطعت فهذا لا يكون إلا للتكثير فقوله يتفطرن أشد مبالغة في تغيظهن على من نسب إلى الله ولدا كقوله في قصة النار تكاد تميز من الغيظ ولم يقل تنماز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 437.449 ﴾

(215/481)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة مريم

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدني الأخير والمكي ولا نظير لها في غيره

وكلمها تسع مئة واثنتان وستون كلمة

وحروفها ثلاث آلاف وثماني مئة وحرفان

وهي تسعون وتسع آيات في المدني الأخير والمكي وثمان في عدد الباقين

اختلافها ثلاث آيات (﴿ كهيعص ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ في الكتاب

﴿) إبراهيم عدها المدني الأخير والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ فليمدد له الرحمن مدا

﴿) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع أربعة مواضع

(﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ وقري عينا) (﴿ الذين اهتدوا هدى ﴾ به المتقين)

(216/481)

ورؤوس الآي

زكريا

2 خفيا

3 شقيا

4 وليا

5 رضيا

5 سميا

7 عتيا

8 شيئا

9 سويا

10 وعشيا

11 صبيا

12 تقيا

13 عصيا

14 حيا

15 شقيا

16 سويا

17 تقيا

18 زكيا

19 بغيا

20 مقضيا

21 قصيا

22 منسيا

23 سريا

24 جنيا

25 إنسيا

26 فريا

27 بغيا

28 صبيا

29 نبيا

30 حيا

31 شقيا

32 حيا

33 يمترون

34 فيكون

35 مستقيم

36 عظيم

37 مبين

38 لا يؤمنون

39 يرجعون

40 إبراهيم

جندا

75 مردا

76 وولدا

77 عهدا

78 مدا

79 فردا

80 عزا

81 ضدا

82 أزا

83 عدا

84 وفدا

85 وردا

86 عهدا

87 ولدا

88 إدا

89 هدا

90 ولدا

91 ولدا

92 عبدا

93 عدا

94 فردا

95 ودا

96 لدا

97 ركزا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 182.181﴾

(217/481)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة مريم عليها السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قد ذكرنا الكلام على الحروف المقطعة في أول البقرة فليتأمل من ثم .

قوله تعالى (عص) يقرأ بإخفاء النون عند الصاد لمقاربتها إياها واشتراكهما في الفم ، ويقرأ بإظهارها لأن الحروف المقطعة يقصد تمييز بعضها عن بعض إيذانا بأنها مقطعة ، ولذلك وقف بعضهم على كل حرف منها وقفة يسيرة ، وإظهار النون يؤذن بذلك .

قوله تعالى (ذكر رحمة ربك) في ارتفاعه ثلاثة أوجه أحدها هو خبر مبتدأ محذوف: أي هذا ذكر .

والثاني هو مبتدأ والخبر محذوف: أي فيما يتلى عليك ذكر .

والثالث هو خبر الحروف المقطعة ذكره الفراء وفيه بعد لأن الخبر هو المبتدأ في المعنى وليس في الحروف المقطعة ذكر الرحمة ، ولا في ذكر الرحمة معناها ، وذكر مصدر مضاف إلى المفعول ، والتقدير: هذا أن ذكر ربك رحمته عبده ، وقيل هو مضاف إلى الفاعل على الاتساع ، والمعنى: هذا إن ذكرت رحمة ربك ، فعلى الأول ينتصب عبده برحمة ، وعلى الثاني بذكر ، ويقرأ في الشاذ " ذكر " على الفعل الماضي ، ورحمة مفعول ، وعبده فاعل ، و (زكريا) بدل على الوجهين من عبده ، ويقرأ بتشديد

الكاف ورحمة وعبده بالنصب: أي هذا القرآن ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أو الأمة ، و (إذ) ظرف لرحمة أو لذكر .

قوله تعالى (شيبا) نصب على التمييز ، وقيل هو مصدر في موضع الحال ، وقيل هو منصوب على المصدر من معنى اشتعل لأن معناه شاب ، و (بدعائك) مصدر مضاف إلى المفعول:

أي بدعائي إياك .

قوله تعالى (خفت الموالى) فيه حذف مضاف: أي عدم الموالى أو جور الموالى ويقرأ خفت بالتشديد وسكون التاء ، والموالي فاعل: أي نقص عددهم ، والجمهور على المد وإثبات الياء في (ورائي) ويقرأ بالقصر وفتح الياء ، وهو قصر الممدود .

قوله تعالى (يرثنى) يقرأ بالجزم فيهما على الجواب: أي أن يهب يرث ،

(218/481)

وبالرفع فيهما على الصفة لولى ، وهو أقوى من الأولى لأنه سأل وليا هذه صفته ، والجزم لا يحصل بهذا المعنى وقرئ شاذا يرثنى وارث على أنه اسم فاعل ، و (رضيا) أي مرضيا ، وقيل راضيا ، ولام الكلمة واو وقد تقدم ، و (سميا) فعيل بمعنى مساميا ، ولام الكلمة واو من سما يسمو .

قوله تعالى (عتيا) أصله عتو على فعول ، مثل قعود وجلوس ، إلا أنهم استثقلوا توالى الضمتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، ثم قلبت الواو التى هي لام ياء لسبق الأولى بالسكون ، ومنهم من يكسر العين إتباعا ويقرأ بفتحها على أنها مصدر على فعيل ، وكذلك بكى وصلى وهو منصوب ببلغت: أي بلغت العتى

من الكبر: أي من أجل الكبر ، ويجوز أن تكون حالا من عتى ، وأن تتعلق ببلغت ، وقيل " من " زائدة ، وعتيا مصدر مؤكد أو تمييز أو مصدر في موضع الحال من الفاعل .

قوله تعالى (قال كذلك) أي الأمر كذلك ، وقيل هو في موضع نصب: أي أفعل مثل ما طلبت ، وهو كناية عن مطلوبه .

قوله تعالى (سويا) حال من الفاعل في تكلم .

قوله تعالى (أن سبحوا) يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون بمعنى أي ، و (بقوة) مفعول أو حال (وحنانا) معطوف على الحكم: أي وهبنا له تحننا ، وقيل هو مصدر (وبرا) أي وجعلناه برا ، وقيل هو معطوف على خبر كان .

قوله تعالى (إذ انتبذت) في " إذ " أربعة أوجه: أحدها أنها ظرف والعامل فيه محذوف تقديره: واذكر خبر مريم إذ انتبذت .

والثاني أن تكون حالا من المضاف المحذوف .

والثالث أن يكون منصوبا بفعل محذوف: أي وبين إذ انتبذت فهو على كلام آخر كما قال سيبويه في قوله تعالى " انتهوا خيرا لكم " وهو في الظرف أقوى وإن كان مفعولا به .

(219/481)

والرابع أن يكون بدلا من مريم بدل الاشتمال ، لأن الأحيان تشتمل على الجثث ، ذكره الزمخشري وهو بعيد ، لأن الزمان إذا لم يكن حالا من الجثة ولا خبرا عنها ولا وصفا لها لم يكن بدلا منها ، وقيل " إذ " بمعنى أن المصدرية كقولك: لاأكرمك إذ لم تكرمني: أي لأنك لم تكرمني ، فعلى هذا يصح بدل الاشتمال: أي واذكر مريم انتباذها ، و (مكانا) ظرف ، وقيل مفعول به على المعنى إذ أتت مكانا (بشرا سويا) حال .

قوله تعالى (لاهب) يقرأ بالهمز وفيه وجهان: أحدهما أن الفاعل الله تعالى ، والتقدير: قال لأهب لك .

والثانى الفاعل جبريل عليه السلام ، وأضاف الفعل إليه لأنه سبب فيه .

ويقرأ بالياء وفيه وجهان: أحدهما أن أصلها الهمزة قلبت ياء للكسر قبلها تخفيفا .

والثانى ليهب الله .

قوله تعالى (بغيا) لام الكلمة ياء ، يقال بغت تبغى ، وفى وزنه وجهان: أحدهما هو فعول: فلما اجتمعت الواو والياء قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين

إتباعا ، ولذلك لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق في امرأة صبور وشكور .

والثانى هو فعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحق التاء أيضا للمبالغة ، وقيل لم تلحق لأنه على النسب مثل طالق وحائض .

قوله تعالى (كذلك) أي الأمر كذلك ، وقيل التقدير: قال ربك مثل ذلك و (هو على هين)

مستأنف على هذا القول (ولنجعله آية للناس) أي ولنجعله آية للناس خلقناه من غير أب وقيل التقدير: نهبه لك ولنجعله (وكان أمرا) أي وكان خلقه أمرا .

قوله تعالى (فانتبذت به) الجار والمجرور حال: أي فانتبذت وهو معها .

قوله تعالى (فأجاءها المخاض) الأصل جاءها ، ثم عدى بالهمزة إلى مفعول ثان ، واستعمل بمعنى ألجأها ، ويقرأ بغير همز على فاعلها ، وهو من المفاجأة ، وترك الهمزة الأخيرة تخفيفا ، والمخاض بالفتح وجع الولادة ، ويقرأ بالكسر وهما لغتان ، وقيل الفتح اسم للمصدر مثل السلام والعطاء ، والكسر مصدر مثل القتال ، وجاء على فعال مثل الطراق والعقاب .

(220/481)

قوله تعالى (يا ليتني) قد ذكر في النساء (نسيا) بالكسر ، وهو بمعنى المنسى وبالفتح: أي شيئا حقيرا ، وهو قريب من معنى الأول ، ويقرأ بفتح النون وهمزة بعد السين ، وهو من نسأت اللبن إذا خالطت به ماء كثيرا ، وهو في معنى الأول أيضا ، و (منسيا) بالفتح والكسر على الإتباع شاذ مثل المغيرة .

قوله تعالى (من تحتها) يقرأ بفتح الميم ، وهو فاعل نادى ، والمراد به عيسى صلى الله عليه

وسلم ، أي من تحت ذيلها ، وقيل المراد من دونها ، وقيل المراد به جبريل عليه السلام ، وهو تحتها في المكان كما تقول: دارى تحت دارك ، ويقرأ بكسر الميم والفاعل مضمر في الفعل ، وهو عيسى أو جبريل صلوات الله عليهما ، والجار على هذا حال أو ظرف ، و (أن لا) مصدرية أو بمعنى أي .

قوله تعالى (بجذع النخلة) الباء زائدة: أي أميلى إليك ، وقيل هي محمولة على المعنى ، والتقدير: هزى الثمرة بالجذع: أي انفضى ، وقيل التقدير: وهزى إليك رطبا جنيا كائنا بجذع النخلة فالباء على هذا حال (تساقط) يقرأ على تسعة أوجه: بالتاء والتشديد ، والأصل تتساقط وهو أحد الأوجه 7 .

والثالث بالياء والتشديد والأصل يتساقط فأدغمت التاء في السين .

والرابع بالتاء والتخفيف على حذف الثانية والفاعل على هذه الأوجه النخلة ، وقيل الثمرة لدلالة الكلام عليها .

والخامس بالتاء والتخفيف وضم القاف .

والسادس كذلك إلا أنه بالياء والفاعل الجذع أو الثمر .

والسابع " تساقط " بتاء مضمومة وبالألف وكسر القاف .

والثامن كذلك إلا أنه بالياء والتاسع " تسقط " بتاء مضمومة وكسر القاف من غير ألف ، وأظن أنه يقرأ كذلك بالياء ، و (رطبا) فيه أربعة أوجه: أحدها هو حال موطئة ،

وصاحب الحال الضمير في الفعل .

والثاني هو مفعول به لتساقط .

والثالث هو مفعول هزي .

والرابع هو تمييز ، وتفصيل هذه الأوجه يتبين بالنظر في القراءات ، فيحمل كل منها على ما يليق به ، و (جنيا) بمعنى مجنى ، وقيل هو بمعنى فاعل: أي طريا .

(221/481)

قوله تعالى (وقرى) يقرأ بفتح القاف والماضي منه قررت يا عين بكسر الراء والكسر قراءة شاذة ، وهي لغة شاذة ، والماضي قررت يا عين بفتح الراء ، و (عينا) تمييز ، و (ترين) أصله ترأيين مثل ترغبين ، فالهمزة عين الفعل ، والياء لامه ، وهو مبني هنا من أجل نون التوكيد مثل لتضربن ، فألقيت حركة الهمزة على الراء وحذفت اللام للبناء كما تحذف في الجزم ، وبقيت ياء الضمير وحركت لسكونها وسكون النون بعدها ، فوزنه يفين ، وهمزة هذا الفعل تحذف في المضارع أبدا ، ويقرأ ترين بإسكان الياء وتخفيف النون على أنه لم يجزم بإما وهو بعيد ، و (من البشر) حال من (أحدا) أو مفعول به .

قوله تعالى (فأتت به) الجار والمجرور حال ، وكذلك (تحمله) وصاحب الحال مريم ، ويجوز

أن يجعل تحمله حالا من ضمير عيسى عليه السلام ، و (جئت) أي فعلت فيكون (شيئا) مفعولا ، ويجوز أن يكون مصدرا : أي مجيئا عظيما .

قوله تعالى (من كان) كان زائدة: أي من هو في المهد ، و (صبيا) حال من الضمير في الجار والضمير المنفصل المقدر كان متصلا بكان ، وقيل كان الزائدة لا يستتر فيها ضمير فعلى هذا لا تحتاج إلى تقدير هو ، بل يكون الظرف صلة من ، وقيل ليست زائدة بل هي كقوله " وكان الله عليما حكيما " وقد ذكر ، وقيل هي بمعنى صار ، وقيل هي التامة ، ومن بمعنى الذى ، وقيل شرطية وجوابها كيف .

قوله تعالى (وبرا) معطوف على مباركا ، ويقرأ في الشاذ بكسر الباء والراء ، وهو معطوف على الصلاة ، ويقرأ بكسر الباء وفتح الراء : أي وألزمني برا ، أو جعلتني ذا بر ، فحذف المضاف أو وصفه بالمصدر .

قوله تعالى (والسلام) إنما جاءت هذه بالألف واللام لأن التى في قصة يحيى عليه السلام نكرة ، فكان المراد بالثاني الأول كقوله تعالى "كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول " وقيل النكرة والمعرفة في مثل هذا سواء (ويوم ولدت) ظرف ، والعامل فيه الخبر الذى هو على ، ولا يعمل فيه السلام للفصل بينهما بالخبر .

(222/481)

قوله تعالى (ذلك) مبتدأ ، و (عيسى) خبره ، و (ابن مريم) نعت أو خبر ثان ، و (قول الحق) كذلك ، وقيل هو خبر مبتدإ محذوف ، وقيل عيسى عليه السلام بدل أو عطف بيان وقول الحق الخبر ، ويقرأ قول الحق بالنصب على المصدر أي أقول قول الحق ، وقيل هو حال من عيسى ، وقيل التقدير: أعنى قول الحق ، ويقرأ قال الحق ، والقال اسم للمصدر مثل القيل ، وحكى قول الحق بضم القاف

مثل الروح وهى لغة فيه .

قوله تعالى (وأن الله) بفتح الهمزة .

وفيه وجهان: أحدهما هو معطوف على قوله بالصلاة: أي وأوصاني بأن الله ربى .

والثانى هو متعلق بما بعده ، والتقدير: لأن الله ربى وربكم فاعبدوه: أي لوحدانيته أطيعوه ، ويقرأ بالكسر على الاستئناف .

قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) لفظه لفظ الأمر ومعناه التعجب ، وبهم في موضع رفع كقولك: أحسن بزيد أي أحس زيد .

وحكى عن الزجاج أنه أمر حقيقة ، والجار والمجرور نصب ، والفاعل مضمر فهو ضمير المتكلم ، كأن المتكلم يقول لنفسه: أوقع به سمعا أو مدحا ، و (اليوم) ظرف والعامل فيه الظرف الذى بعده .

قوله تعالى (إذ قضى الأمر) " إذ " بدل من يوم أو ظرف للحسرة ، وهو مصدر فيه الألف واللام ، وقد عمل .

قوله تعالى (إذ قال لأبيه) في " إذ " وجهان: أحدهما هي مثل إذ انتبذت في أوجهها ، وقد فصل بينهما بقوله " إنه كان صديقا نبيا " .

والثاني أن " إذ " ظرف ، والعامل فيه صديقا نبيا أو معناه .

قوله تعالى (أراغب أنت) مبتدأ ، وأنت فاعله ، وأغنى عن الخبر ، وجاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على الهمزة ، و (مليا) ظرف: أي دهرا طويلا ، وقيل هو نعت لمصدر محذوف .

قوله تعالى (وكلا جعلنا) هو منصوب بجعلنا .

قوله تعالى (نجيا) هو حال ، و (هرون) بدل ، و (نبيا) حال .

قوله تعالى (مكانا عليا) ظرف .

قوله تعالى (من ذرية آدم) هو بدل من النبيين بإعادة الجار ، و (سجدا) حال مقدرة لأنهم غير سجود في حال خرورهم (وبكيا) قد ذكر ، و (غيا) أصله غوى فأدغمت الواو في الياء .

قوله تعالى (جنات عدن) من كسر التاء أبدله من الجنة في الآية قبلها ، ومن رفع فهو خبر مبتدإ محذوف (إنه) الهاء ضمير اسم الله تعالى ، ويجوز أن تكون ضمير الشأن ، فعلى الأول يجوز أن لا يكون في كان ضمير ، وأن يكون فيه ضمير و (وعده) بدل منه بدل الاشتمال ، و (مأتيا) على بابه ، لأن ما تأتيه فهو يأتيك ، وقيل المراد بالوعد الجنة: أي كان موعده مأتيا وقيل مفعول هنا بمعنى فاعل ، وقد ذكر مثله في سبحان .

قوله تعالى (وما نتنزل) أي وتقول الملائكة .

قوله تعالى (رب السموات) خبر مبتدإ محذوف ، أو مبتدأ والخبر (فاعبده) على رأى الأخفش في جواز زيادة الفاء .

قوله تعالى (أئذا) العامل فيها فعل دل عليه الكلام: أي أبعث إذا ، ولايجوز أن يعمل فيها (أخرج) لأن ما بعد اللام وسوف لا يعمل فيما قبلها مثل إن .

قوله تعالى (يذكر) بالتشديد : أي يتذكر ، وبالتخفيف منه أيضا ، أو من الذكر باللسان (جثيا) قد ذكر في عتيا وبكيا ، وأصله جثو ومصدرا كان أو جمعا .

قوله تعالى (أيهم أشد) يقرأ بالنصب شاذا ، والعامل فيه لننزعن ، وهى بمعنى الذى ، ويقرأ بالضم ، وفيه قولان: أحدهما أنها ضمة بناء وهو مذهب سيبويه ، وهى بمعنى الذى ، وإنما بنيت هاهنا لأن أصلها البناء لأنها بمنزلة الذى ، " ومن " من الموصولات إلا أنها

أعربت حملا على كل أو بعض ، فإذا وصلت بجملة تامة بقيت على الإعراب ، وإذا حذف العائد عليها بنيت لمخالفتها بقية الموصولات فرجعت إلى حقها من البناء بخروجها عن نظائرها ، وموضعها نصب بننزع .

والقول الثاني هي

ضمة الإعراب .

وفيه خمسة أقوال: أحدها أنها مبتدأ وأشد خبره وهو على الحكاية ،

والتقدير: لننزعن من كل شيعة الفريق الذى يقال أيهم ، فهو على هذا استفهام وهو قول الخليل .

والثانى كذلك في كونه مبتدأ وخبرا واستفهاما ، إلا أن موضع الجملة نصب بننزعن ، وهو فعل معلق عن العمل ومعناه التمييز ، فهو قريب من معنى العلم الذى يجوز تعليقه كقولك: علمت أيهم في الدار ، وهو قول يونس .

(224/481)

والثالث أن الجملة مستأنفة ، وأى استفهام ، ومن زائدة: أي لننزعن كل شيعة ، وهو قول الأخفش والكسائي ، وهما يجيزان زيادة من في الواجب .

والرابع أن أيهم مرفوع بشيعة ، لأن معناه تشيع ، والتقدير : لننزعن من كل فريق يشيع أيهم ، وهو على هذا بمعنى الذى ، وهو قول المبرد .

والخامس أن ننزع علقت عن العمل ، لأن معنى الكلام معنى الشرط ، والشرط لا يعمل فيما قبله ، والتقدير : لننزعنهم تشيعوا أو لم يتشيعوا ، أو إن تشيعوا ، ومثله لأضربن أيهم غضب : أي إن غضبوا أو لم يغضبوا ، وهو قول يحيى عن الفراء ، وهو أبعدها عن الصواب .

قوله تعالى (وإن منكم) أي وما أحد منكم فحذف الموصوف ، وقيل التقدير : وما منكم إلا من هو واردها ، وقد تقدم نظائرها .

قوله تعالى (مقاما) يقرأ بالفتح وفيه وجهان : أحدهما هو موضع الإقامة .

والثانى هو مصدر كالإقامة ، وبالضم وفيه الوجهان .

ولام الندى واو ، يقال ندوتهم : أي أتيت ناديهم وجلست في النادى ، ومصدره الندو .

قوله تعالى (وكم) منصوب ب (أهلكنا) و (هم أحسن) صفة لكم ، و (رئيا) يقرأ بهمزة ساكنة بعد الواو وهو من الرؤية : أي أحسن منظرا ، ويقرأ بتشديد الياء من غير همز .

وفيه وجهان : أحدهما أنه قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم أدغم .

والثانى أن تكون من الرى ضد العطش ، لأنه يوجب حسن البشرة ويقرأ ريئا بهمزة بعد ياء ساكنة وهو مقلوب .

يقال في رأى أرى ، ويقرأ بياء خفيفة من غير همز ، ووجهها أنه نقل حركة الهمزة إلى الياء وحذفها ، ويقرأ بالزاى

والتشديد : أي أحسن زينة ، وأصله من زوى يزوى لأن المتزين يجمع ما يحسنه .

قوله تعالى (قل من كان) هي شرطية والأمر جوابها ، والأمر هنا بمعنى الخبر: أي فليمدن له ، والأمر أبلغ لما يتضمنه من اللزوم ، و (حتى) يحكى ما بعدها هاهنا ، وليست متعلقة بفعل (إما العذاب وإما الساعة) كلاهما بدل مما يوعدون (فسيعلمون) جواب إذا (ويزيد) معطوف على معنى فليمدد : أي فيمد

(225/481)

ويزيد من هو ، فيه وجهان: أحدهما هي بمعنى الذى ، وهو " شر " صلتها وموضع من نصب بيعلمون .

والثانى هي استفهام ، وهو فصل وليست مبتدأ .

قوله تعالى (وولدا) يقرأ بفتح الواو واللام وهو واحد ، وقيل يكون جمعا أيضا ، ويقرأ بضم الواو وسكون اللام ، وهو جمع ولد مثل أسد وأسد ، وقيل يكون واحدا أيضا ، وهى لغة والكسر لغة أخرى .

قوله تعالى (أطلع) الهمزة همزة استفهام لأنها مقابلة لأم وهمزة الوصل محذوفة لقيام همزة الاستفهام مقامها ، ويقرأ بالكسر على أنها همزة وصل ، وحرف الاستفهام محذوف لدلالة أم عليه .

قوله تعالى (كلا) يقرأ بفتح الكاف من غير تنوين ، وهى حرف معناه الزجر عن قول منكر يتقدمها ، وقيل هي بمعنى حقا ، ويقرأ بالتنوين ، وفيه وجهان: أحدهما هي مصدر كل: أي أعيا : أي كلوا في دعواهم وانقطعوا .

والثانى هي بمعنى النقل: أي حملوا كلا ، ويقرأ بضم الكاف والتنوين وهو حال: أي سيكفرون جميعا وفيه بعد (بعبادتهم) المصدر مضاف إلى الفاعل: أي سيكفر المشركون بعبادتهم الأصنام ، وقيل هو مضاف إلى المفعول: أي سيكفر المشركون بعبادة الأصنام ، وقيل سيكفر الشياطين بعبادة المشركين إياهم ، و (ضدا) واحد في معنى الجمع ، والمعنى أن جميعهم في حكم واحد لأنهم متفقون على الإضلال .

قوله تعالى (ونرثه ما يقول) في " ما " وجهان أحدهما هو بدل من الهاء ، وهى بدل الاشتمال: أي نرث قوله .

والثانى هو مفعول به: أي نرث منه قوله .

قوله تعالى (يوم نحشر) العامل فيه لا يملكون ، وقيل " نعد لهم " وقيل تقديره: اذكر ، و (وفدا) جمع وافد مثل راكب وركب وصاحب وصحب .

والورد اسم لجمع وارد ، وقيل هو بمعنى وارد ، والورد العطاش ، وقيل هو محذوف من وارد وهو بعيد (لا يملكون) حال (إلا من اتخذ) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، وقيل هو متصل على أن يكون الضمير في يملكون للمتقين والمجرمين ، وقيل هو في موضع رفع بدلا من الضمير في يملكون .

(226/481)

قوله تعالى (شيئا إدا) الجمهور على كسر الهمزة وهو العظيم ، ويقرأ شاذا بفتحها على أنه مصدر أد يؤد إذا جاءك بداهية: أي شيئا ذا إد ، وجعله نفس الداهية على التعظيم .

قوله تعالى (يتفطرن) يقرأ بالياء والنون ، وهو مطاوع فطر بالتخفيف ،

ويقرأ بالتاء والتشديد ، وهو مطاوع فطر بالتشديد ، وهو هنا أشبه بالمعنى و (هدا) مصدر على المعنى لأن تخر بمعنى تهد ، وقيل هو حال .

قوله تعالى (أن دعوا للرحمن) فيه ثلاثة أوجه: أحدها هو في موضع نصب لأنه مفعول له .

والثاني في موضع جر على تقدير اللام .

والثالث في موضع رفع: أي الموجب لذلك دعاؤهم .

قوله تعالى (من) نكرة موصوفة ، و (في السموات) صفتها ، و (إلا آتي) خبر كل ، وواحد

آتى حملا على لفظ كل وقد جمع في موضع آخر حملا على معناها ، ومن الإفراد " وكلهم آتيه " .

قوله تعالى (بلسانك) قيل الباء بمعنى على ، وقيل هي على أصلها : أي أنزلناه بلغتك فيكون حالا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 110 .

118 ﴾

(227/481)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة مريم

[سورة مريم (19) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (3)

"كهيعص" هذه الحروف لا محل لها من الإعراب "ذِكْرُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا ذكر "رَحْمَتِ" مضاف إليه "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "عَبْدَهُ" مفعول به لرحمة منصوب والهاء مضاف إليه "زَكَرِيَّا" بدل من عبده أو عطف بيان "إِذْ" ظرف زمان متعلق

برحمة "نادى " ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "رَبَّهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "نِداءً" مفعول مطلق "خَفِيًّا" صفة لنداء .

[سورة مريم (19) : الآيات 4 الى 6]

قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

(228/481)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء في محل جر بالإضافة "إِنِّي" إن واسمها "وَهَنَ الْعَظْمُ" ماض وفاعله والجملة خبر "مِنِّي" متعلقان بحال محذوفة "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة "شَيْباً" تمييز "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم حرف جازم "أَكُنْ" مضارع ناقص واسمها مستتر والجملة معطوفة "بِدُعائِكَ" متعلقان بالخبر شقيا "رَبِّ" منادى مضاف إلى الياء المحذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم "شَقِيًّا" خبر أكن "وَإِنِّي" الواو استئنافية وإن واسمها "خِفْتُ" ماض وفاعله والجملة في محل رفع

خبر إن "الْمَوالِيَ" مفعول به "مِنْ وَرائِي" متعلقان بحال محذوفة "وَكانَتِ" الواو عاطفة وماض ناقص والتاء للتأنيث "امْرَأَتِي" اسمها مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه "عاقِراً" خبر والجملة معطوفة "فَهَبْ" الفاء استئنافية وفعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان بهب والجملة مستأنفة "مِنْ لَدُنْكَ" متعلقان بهب والكاف مضاف إليه "وَلِيًّا" مفعول به "يَرِثُنِي" مضارع والنون للوقاية والفاعل مستتر والياء مفعول به والجملة صفة لوليا "وَيَرِثُ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة معطوفة "مِنْ آلِ" متعلقان بيرث "يَعْقُوبَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَاجْعَلْهُ" الواو عاطفة وأمر للدعاء والفاعل مستتر والهاء مفعول به أول والجملة معطوفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "رَضِيًّا" مفعول به ثان لا جعله.

(229/481)

[سورة مريم (19) : الآيات 7 الى 9]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي

غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9)

(230/481)

"يا زَكَرِيَّا" يا أداة نداء زكريا منادى مفرد علم مبني على الضمة المقدرة على الألف في محل نصب "إِنَّا" إن ونا الدالة على الجماعة اسمها "نُبَشِّرُكَ" مضارع وفاعل مستتر والكاف في محل نصب مفعول به "بِغُلامٍ" متعلقان بنبشرك والجملة خبر إنا "اسْمُهُ" مبتدأ والهاء في محل جر بالإضافة "يَحْيى" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف والجملة صفة لغلام "لَمْ نَجْعَلْ" لم جازمة ومضارع والفاعل مستتر "لَهُ" مفعول تجعل الثاني "مِنْ قَبْلُ" من حرف جر وقبل ظرف زمان مبني على الضم في محل جر بحرف الجر وهما متعلقان بنجعل "سَمِيًّا" مفعول به والجملة في محل جر صفة ثانية لغلام "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى منصوب مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وجملة النداء وما بعدها مقول القول "أَنَّى" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية "يَكُونُ" مضارع ناقص "لِي" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "غُلامٌ" اسم يكون والجملة مقول القول "وَكانَتِ" الواو عاطفة وماض ناقص والتاء تاء التأنيث "امْرَأَتِي" اسمها مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل

ياء المتكلم والياء مضاف إليه "عاقِراً" خبر "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "بَلَغْتُ" ماض وفاعله والجملة في محل نصب حال "مِنَ الْكِبَرِ" متعلقان ببلغت "عِتِيًّا" مفعول به "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كَذلِكَ" متعلقان بخبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك والجملة مقول القول "قالَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه "هُوَ" مبتدأ "عَلَيَّ" متعلقان بالخبر هين "هَيِّنٌ" خبر والجملة مقول القول "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "خَلَقْتُكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "مِنْ" حرف جر "قَبْلُ" ظرف مبني على الضم في محل جر بمن وهما متعلقان بخلقتك "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم حرف جزم "تَكُ" مضارع ناقص مجزوم

(231/481)

بالسكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسمها مستتر "شَيْئاً" خبر والجملة معطوفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 10 الى 13]

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ

الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى منصوب مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وجملة النداء وما بعدها مقول القول "اجْعَلْ" فعل دعاء والفاعل مستتر "لِي" متعلقان باجعل "آيَةً" مفعول به "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "آيَتُكَ" مبتدأ والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "أَلَّا"

(232/481)

أن حرف ناصب ولا نافية لا عمل لها "تُكَلِّمَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر "النَّاسَ" مفعول به والمصدر المؤول خبر المبتدأ "ثَلاثَ" ظرف زمان متعلق بتكلم "لَيالٍ" مضاف إليه "سَوِيًّا" صفة لليال "فَخَرَجَ" الفاء استئنافية وماض فاعله مستتر "عَلى قَوْمِهِ" متعلقان بخرج "مِنَ الْمِحْرابِ" متعلقان بخرج "فَأَوْحى" الفاء استئنافية وماض والفاعل مستتر "إِلَيْهِمْ" متعلقان بأوحى "أَنْ" تفسيرية لأنها وقعت بعد جملة فيها معنى القول "سَبِّحُوا" أمر والواو فاعل "بُكْرَةً" ظرف زمان متعلق بسبحوا والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها تفسيرية "وَعَشِيًّا" عطف على بكرة "يا يَحْيى" يا أداة نداء ويحيى منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف في محل نصب على النداء والجملة لا محل لها

"خُذِ" أمر والفاعل مستتر "الْكِتابَ" مفعول به والجملة مستأنفة "بِقُوَّةٍ" متعلقان بالفعل "وَآتَيْناهُ" الواو استئنافية وماض وفاعله ومفعوله الأول "الْحُكْمَ" مفعول به ثان والجملة معطوفة "صَبِيًّا" حال "وَحَناناً" الواو عاطفة وحنانا معطوف على الحكم أي وآتينا حنانا "مِنْ لَدُنَّا" متعلقان بصفة محذوفة لحنانا ونا مضاف إليه "وَزَكاةً" معطوف على حنانا "وَكانَ" الواو عاطفة وماض ناقص اسمه محذوف تقديره هو يحيى "تَقِيًّا" خبر كان.

[سورة مريم (19) : الآيات 14 الى 17]

وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (14) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (17)

"وَبَرًّا"

معطوف بالواو على تقيا "بِوالِدَيْهِ"

متعلقان ببرا "وَلَمْ"

لم حرف جزم "يَكُنْ"

مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون واسمها مستتر "جَبَّاراً"

خبرها "عَصِيًّا"

صفة لجبارا "وَسَلَامٌ"

الواو استئنافية ومبتدأ "عَلَيْهِ"

متعلقان بخبر محذوف تقديره كائن "يَوْمَ"

ظرف متعلق بسلام "وُلِدَ"

ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "وَيَوْمَ"

معطوف على ما قبله "يُبْعَثُ"

مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "حَيًّا"

حال "وَاذْكُرْ"

الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر "فِي الْكِتَابِ"

متعلقان باذكر "مَرْيَمَ"

مفعول به "إِذِ"

ظرف زمان متعلق بانتبذت "انْتَبَذَتْ"

ماض مبني على الفتح والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ أَهْلِهَا"

متعلقان بانتبذت "مَكاناً"

ظرف مكان متعلق بانتبذت "شَرْقِيًّا"

صفة لمكان "فَاتَّخَذَتْ"

الفاء عاطفة وماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر "مِنْ دُونِهِمْ"

متعلقان باتخذت "حِجاباً"

مفعول به "فَأَرْسَلْنا"

الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "إِلَيْها"

إلى حرف جر والها في محل جر بحرف الجر ومتعلقان بأرسلنا "رُوحَنا"

مفعول به ونا في محل جر بالإضافة "فَتَمَثَّلَ"

الفاء عاطفة وماض والفاعل مستتر "لَها"

متعلقان بتمثل "بَشَراً"

مفعول به "سَوِيًّا"

صفة لبشرا .

[سورة مريم (19) : الآيات 18 الى 22]

قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قالَ

كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21)

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا (22)

"قالَتْ"

ماض مبني على الفتح والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "إِنِّي"

(234/481)

إن واسمها والجملة مقول القول "أَعُوذُ"

مضارع والفاعل مستتر والجملة خبر "بِالرَّحْمنِ"

متعلقان بأعوذ "مِنْكَ"

متعلقان بأعوذ إن حرف شرط جازم "كُنْتَ"

ماض ناقص والتاء اسمها "تَقِيًّا"

خبر والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب وجملة جواب الشرط محذوفة "قالَ"

ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّما"

كافة ومكفوفة "أَنَا رَسُولُ"

مبتدأ وخبر "رَبِّكِ"

مضاف إليه والكاف مضاف إليه "لِأَهَبَ"

اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "لَكِ"

متعلقان بأهب "غُلاماً"

مفعول به "زَكِيًّا"

(235/481)

صفة "قالَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَنَّى" اسم استفهام بمعنى كيف في محل نصب على الظرفية المكانية "يَكُونُ" مضارع ناقص "لِي" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "غُلامٌ" اسمها "وَلَمْ" الواو عاطفة لم حرف جزم "يَمْسَسْنِي" مضارع مجزوم بلم والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به "بَشَرٌ" فاعل والجملة معطوفة "وَلَمْ" الواو عاطفة لم حرف جزم "أَكُ" مضارع ناقص مجزوم بلم واسمها مستتر "بَغِيًّا" خبر "قالَ" ماض والفاعل مستتر "كَذلِكِ" متعلقان بخبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك والجملة مقول القول "قالَ رَبُّكِ" ماض وفاعله ومضاف إليه والجملة مستأنفة "هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ" الضمير المنفصل مبتدأ وهين خبره والجار والمجرور متعلقان بالخبر هين والجملة مقول القول "وَلِنَجْعَلَهُ" الواو استئنافية واللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة والفاعل مستتر والهاء مفعول به

أول "آيَةً" مفعول به ثان "لِلنَّاسِ" متعلقان بصفة محذوفة من آية "وَرَحْمَةً" معطوف على آية "مِنَّا" من حرف جر ونا ضمير متصل في محل جر بحرف الجر ومتعلقان برحمة "وَكانَ" ماض ناقص واسمها مستتر "أَمْراً" خبرها "مَقْضِيًّا" صفة لأمر "فَحَمَلَتْهُ" الفاء استئنافية وماض والتاء للتأنيث والهاء مفعول به "فَانْتَبَذَتْ" الفاء عاطفة وماض والتاء للتأنيث "بِهِ" متعلقان بانتبذت والجملة معطوفة "مَكاناً" مفعول فيه "قَصِيًّا" صفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 23 الى 25]

فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25)

(236/481)

"فَأَجاءَهَا" الفاء عاطفة للتعقيب والهمزة للتعدية وماض والها مفعوله "الْمَخاضُ" فاعل والجملة معطوفة "إِلى جِذْعِ" متعلقان بجاء "النَّخْلَةِ" مضاف إليه "قالَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر

"يا لَيْتَنِي" يا للنداء أو للتنبيه وليتني ليت حرف مشبه بالفعل والنون للوقاية والياء اسمها

والجملة مقول القول "مِتُّ" ماض وفاعله والجملة خبر ليت "قَبْلَ" ظرف زمان "هذا" الها للتنبيه ذا اسم إشارة مضاف إليه "وَكُنْتُ" الواو عاطفة وماض ناقص والتاء اسمها "نَسْياً" خبر "مَنْسِيًّا" صفة لنسيا "فَناداها" الفاء عاطفة وماض مبني على الفتح المقدر على الألف والفاعل مستتر والها مفعول به "مِنْ تَحْتِها" متعلقان بالفعل ناداها "أن" تفسيرية "لا" ناهية جازمة "تَحْزَنِي" مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والياء فاعله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها تفسيرية "قَدْ" حرف تحقيق "جَعَلَ رَبُّكِ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه "تَحْتَكِ" ظرف مكان والكاف مضاف إليه "سَرِيًّا" مفعول به لجعل "وَهُزِّي" الواو عاطفة وأمر مبني على حذف النون والياء في محل رفع فاعل "إِلَيْكِ" متعلقان بهزي "بِجِذْعِ" الباء زائدة ومفعول به مجرور لفظا منصوب محلا "النَّخْلَةِ" مضاف إليه "تُساقِطْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر "عَلَيْكِ" متعلقان بتساقط "رُطَباً" مفعول به "جَنِيًّا" صفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 26 الى 28]

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)

"فَكُلِي" الفاء الفصيحة أي إذا تم لك هذا كله كلي وفعل أمر مبني على حذف النون والياء في محل رفع فاعل والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "وَاشْرَبِي" فعل أمر معطوف على ما قبله "وَقَرِّي" فعل أمر معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "عَيْناً" تمييز "فَإِمَّا" الفاء عاطفة وإما شرطية أدغمت نونها بما الزائدة "تَرَيِنَّ" مضارع مرفوع بثبوت النون والياء فاعل "مِنَ الْبَشَرِ" متعلقان بمحذوف حال "أَحَداً" مفعول به "فَقُولِي" الفاء رابطة لجواب الشرط وأمر مبني على حذف النون والياء ضمير في محل رفع فاعل والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "إِنِّي" إن حرف مشبه بالفعل والياء اسمها والجملة مقول القول "نَذَرْتُ" ماض مبني وفاعله والجملة خبر إن "لِلرَّحْمنِ" متعلقان بنذرت "صَوْماً" مفعول به "فَلَنْ" الفاء استئنافية ولن حرف ناصب "أُكَلِّمَ" مضارع منصوب بلن وفاعله مستتر "الْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بأكلم "إِنْسِيًّا" مفعول به "فَأَتَتْ" الفاء استئنافية وماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة والتاء للتأنيث والفاعل مستتر "قَوْمَها" مفعول به والهاء مضاف إليه "تَحْمِلُهُ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر والهاء مفعول به والجملة حال "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا مَرْيَمُ" اليا للنداء ومريم منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب على النداء والجملة مقول

القول "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "جِئْتِ" ماض والتاء فاعل "شَيْئاً" مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب قم "فَرِيًّا" صفة

(238/481)

لشيئا "يا أُخْتَ" يا أداة نداء أخت منادى مضاف منصوب على النداء "هارُونَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "ما كانَ أَبُوكِ" ما نافية وكان واسمها المرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة والكاف في محل جر بالإضافة "امْرَأَ" خبر والجملة مستأنفة "سَوْءٍ" مضاف إليه "وَما كانَتْ أُمُّكِ" الواو عاطفة وما نافية وكان واسمها والكاف في محل جر بالإضافة "بَغِيًّا" خبر والجملة معطوفة

[سورة مريم (19) : الآيات 29 الى 31]

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31)

(239/481)

"فَأَشارَتْ" الفاء استئنافية وماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "إِلَيْهِ" متعلقان بأشارت "قالُوا" ماض والواو واو الجماعة فاعله والجملة مستأنفة "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "نُكَلِّمُ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر "مَنْ" اسم موصول مفعول به "كانَ" كان واسمها ضمير مستتر "فِي الْمَهْدِ" متعلقان بحال محذوفة "صَبِيًّا" خبر كان والجملة صلة "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنِّي" إن واسمها "عَبْدُ" خبر إن والجملة مقول القول "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "آتانِيَ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والنون للوقاية والفاعل مستتر والياء في محل نصب مفعول به أول "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة مقول القول "وَجَعَلَنِي" الواو عاطفة وماض والنون للوقاية والفاعل مستتر والياء مفعول به "نَبِيًّا" مفعول به ثان والجملة معطوفة "وَجَعَلَنِي" الواو عاطفة وماض سبق إعرابه والياء مفعول به أول "مُبارَكاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة "أَيْنَ ما" ظرف مكان منصوب متعلق بالفعل جعل "كُنْتُ" كان واسمها والجملة مضاف إليه "وَأَوْصانِي" الواو عاطفة وماض والفاعل مستتر والياء مفعول به والنون للوقاية "بِالصَّلاةِ" متعلقان بأوصاني "وَالزَّكاةِ" معطوفة على الصلاة والجملة مستأنفة "ما" مصدرية "دُمْتُ" ماض ناقص مبني على السكون والتاء في محل رفع اسمها "حَيًّا" خبرها والمصدر المؤول في محل نصب على الظرفية الزمانية.

[سورة مريم (19) : الآيات 32 الى 34]

وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)

(240/481)

"وَبَرًّا" الواو عاطفة وبرا معطوف على مباركا "بِوالِدَتِي" متعلقان ببرا والياء مضاف إليه "وَلَمْ يَجْعَلْنِي" الواو عاطفة ومضارع مجزوم بلم والنون للوقاية والياء مفعول به أول والفاعل مستتر "جَبَّاراً" مفعول به ثان "شَقِيًّا" صفة لجبارا والجملة معطوفة على ما سبق "وَالسَّلامُ" الواو عاطفة والسلام مبتدأ "عَلَيَّ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بولدت "وُلِدْتُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة مضاف إليه "وَيَوْمَ" الواو عاطفة وظرف زمان متعلق بأموت "أَمُوتُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "وَيَوْمَ أُبْعَثُ" إعرابه كإعراب يوم أموت "حَيًّا" حال "ذلِكَ" ذا اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "عِيسَى" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مستأنفة "ابْنُ" بدل من عيسى "مَرْيَمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث "قَوْلَ" مفعول مطلق لفعل محذوف

تقديره قلت "الْحَقِّ" مضاف إليه "الَّذِي" اسم موصول في محل جر صفة للحق "فِيهِ" متعلقان بيمترون "يَمْتَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

[سورة مريم (19) : الآيات 35 الى 36]

ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)

(241/481)

"ما" نافية "كانَ" ماض ناقص "لِلَّهِ" متعلقان بالخبر المقدم والجملة مستأنفة "أَنْ" ناصبة "يَتَّخِذَ" مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر وأن والفعل في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان "مِنْ" حرف جر زائد "وَلَدٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به ليتخذ "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أسبح "إِذا" ظرف زمان لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه متعلق بجوابه "قَضى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "أَمْراً" مفعول به "فَإِنَّما" الفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة "يَقُولُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير

جازم "لَهُ" متعلقان بيقول "كُنْ" أمر ناقص واسمه مستتر والخبر محذوف تقديره بشرا والجملة مقول القول "فَيَكُونُ" الفاء عاطفة ومضارع تام فاعله مستتر والجملة معطوفة "وَإِنَّ اللَّهَ" الواو استئنافية وأن ولفظ الجلالة اسمها "رَبِّي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه "وَرَبُّكُمْ" معطوف على ربي والكاف مضاف إليه "فَاعْبُدُوهُ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعول به والجملة معطوفة "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "صِراطٌ" خبر "مُسْتَقِيمٌ" صفة لصراط والجملة مستأنفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 37 الى 39]

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39)

(242/481)

"فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ" الفاء استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ بَيْنِهِمْ" متعلقان بحال محذوفة والهاء مضاف إليه "فَوَيْلٌ" الفاء عاطفة ومبتدأ وجاء الابتداء بالنكرة لأنها

تتضمن معنى الدعاء "لِلَّذِينَ" اللام حرف جر واسم موصول في محل جر بحرف الجر متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "مِنْ مَشْهَدِ" متعلقان بويل

"يَوْمٍ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة "أَسْمِعْ" ماض جاء على صيغة الأمر والجملة مستأنفة "بِهِمْ" الباء حرف جر زائد زيدت في الفاعل وجاء ضميره ضمير نصب لمناسبة الباء "وَأَبْصِرْ" معطوف على أسمع وإعرابه مثله "يَوْمَ" ظرف زمان "يَأْتُونَنا" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ونا مفعول به "لكِنِ" مخففة من لكن لا عمل لها "الظَّالِمُونَ" مبتدأ مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "الْيَوْمَ" ظرف زمان "فِي ضَلالٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مُبِينٍ" صفة والجملة مستأنفة "وَأَنْذِرْهُمْ" الواو استئنافية وأمر ومفعوله الأول وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يَوْمَ" مفعول به ثان "الْحَسْرَةِ" مضاف إليه "إِذْ" ظرف زمان متعلق بالحسرة "قُضِيَ الْأَمْرُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة مضاف إليه "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "فِي غَفْلَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "وَهُمْ" إعرابها كسابقتها "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر.

[سورة مريم (19) : الآيات 40 الى 42]

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40) وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ

صِدِّيقاً نَبِيًّا (41) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42)

(243/481)

"إِنَّا" إن المشبهة بالفعل ونا المدغمة بها اسمها والجملة مستأنفة "نَحْنُ" مبتدأ والجملة خبر إنا "نَرِثُ" مضارع فاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به والجملة خبر نحن "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم موصول معطوف على الأرض "عَلَيْها" متعلقان بمحذوف صلة "وَإِلَيْنا" الواو عاطفة ومتعلقان بيرجعون "يُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة معطوفة "وَاذْكُرْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فِي الْكِتابِ" متعلقان باذكر "إِبْراهِيمَ" مفعول به "إِنَّهُ" إن والهاء اسمها والجملة تعليلية لا محل لها "كانَ" ماض ناقص والجملة خبر إنه واسمها مستتر ، "صِدِّيقاً" خبر "نَبِيًّا" خبر ثان "إِذْ"

ظرف زمان متعلق بصديقا "قالَ"

ماض فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "لِأَبِيهِ"

متعلقان بقال والهاء مضاف إليه "يا"

أداة نداء "أَبَتِ"

منادى مضاف إلى الياء وعوض عنها بالتاء والجملة مقول القول "لِمَ"

اللام حرف جر وما اسم استفهام في محل جر حذف ألفها لدخول حرف الجر عليها

متعلقان بتعبد "تَعْبُدُ"

مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة مقول القول "ما"

اسم موصول في محل نصب مفعول به "لا"

نافية "يَسْمَعُ"

مضارع فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "وَلا يُبْصِرُ"

إعرابها كسابقتها معطوف على يسمع "وَلا يُغْنِي"

إعرابها كسابقتها "عَنْكَ"

متعلقان بيغني "شَيْئاً"

مفعول به والجملة معطوفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 43 الى 45]

يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45)

"يا أَبَتِ" مر إعرابها في الآية السابقة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "قَدْ" حرف تحقيق

"جاءَنِي" ماض والنون للوقاية والياء مفعوله المقدم "مِنَ الْعِلْمِ" متعلقان بجاءني "ما" اسم موصول في محل رفع فاعل مؤخر "لَمْ" حرف جازم "يَأْتِكَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "فَاتَّبِعْنِي" الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط سابق والتقدير إن شئت الهداية فاتبعني والجملة معطوفة "أَهْدِكَ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف مفعوله الأول وفاعله مستتر "صِراطاً" مفعول به ثان "سَوِيًّا" صفة لصراطا "يا أَبَتِ" تقدم إعرابها في الآية السابقة "لا" ناهية "تَعْبُدِ" مضارع مجزوم وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين وفاعله مستتر "الشَّيْطانَ" مفعوله به والجملة مقول القول "إِنَّ الشَّيْطانَ" إن واسمها والجملة مقول القول "كانَ" ماض ناقص والجملة خبر "لِلرَّحْمنِ" متعلقان بالخبر عصيا "عَصِيًّا" خبر "يا أَبَتِ" تقدم إعرابها "إِنِّي" إن والياء اسمها والجملة مقول القول "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إني "أَنْ" ناصبة "يَمَسَّكَ" مضارع منصوب بأن والكاف مفعوله

"عَذابٌ" فاعل مؤخر "مِنَ الرَّحْمنِ" متعلقان بيمسك "فَتَكُونَ" الفاء عاطفة ومضارع ناقص واسمه محذوف تقديره أنت "لِلشَّيْطانِ" متعلقان بالخبر وليا "وَلِيًّا" خبر والجملة معطوفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 46 الى 47]

قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47)

(245/481)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَراغِبٌ" الهمزة للاستفهام وخبر مقدم وجاز الابتداء بالنكرة لأنها وقعت بعد الاستفهام "أَنْتَ" مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول "عَنْ آلِهَتِي" متعلقان براغب والياء مضاف إليه "يا" أداة نداء "إِبْراهِيمُ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة والجملة مقول القول "لَئِنْ" اللام الموطئة للقسم إن حرف شرط جازم "لَمْ" حرف جازم "تَنْتَهِ" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب "لَأَرْجُمَنَّكَ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل

مستتر والكاف في محل نصب مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم وجواب الشرط محذوف "وَاهْجُرْنِي" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة معطوفة "مَلِيًّا" ظرف زمان متعلقان باهجرني "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "سَلامٌ" مبتدأ وسوغ الابتداء به لمعنى الدعاء فيه "عَلَيْكَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مقول القول "سَأَسْتَغْفِرُ" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "لَكَ" متعلقان بأستغفر "رَبِّي" مفعول به والياء مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ" ماض ناقص وجملته خبر إنه "بِي" متعلقان بحفيا "حَفِيًّا" خبر كان.

[سورة مريم (19) : الآيات 48 الى 49]

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (49)

(246/481)

"وَأَعْتَزِلُكُمْ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة معطوفة "وَما" الواو عاطفة واسم موصول معطوف على الكاف قبله "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بتدعون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه

"وَأَدْعُوا" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل فاعله مستتر "رَبِّي" مفعول به والياء مضاف إليه والجملة معطوفة "عَسى" فعل ماض ناقص من أفعال الرجاء واسمه محذوف "أَلَّا" أن ناصبة ولا نافية "أَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن واسمه محذوف تقديره أنا "بِدُعاءِ" متعلقان بشقيا "رَبِّي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "شَقِيًّا" خبر يكون والمصدر المؤول في محل نصب خبر عسى "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما ظرفية شرطية غير جازمة "اعْتَزَلَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما اسم موصول معطوف على ما قبله "يَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بيعبدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَهَبْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "لَهُ" متعلقان بوهبنا "إِسْحاقَ" مفعول به "وَيَعْقُوبَ" معطوف على إسحق "وَكُلًّا" الواو عاطفة وكلا مفعول به أول لجعلنا "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "نَبِيًّا" مفعول به ثان.

[سورة مريم (19) : الآيات 50 الى 53]

وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (51) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53)

"وَوَهَبْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "لَهُمْ" متعلقان بوهبنا "مِنْ رَحْمَتِنا" متعلقان بوهبنا ونا مضاف إليه "وَجَعَلْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "لَهُمْ" متعلقان بجعلنا "لِسانَ" مفعول به "صِدْقٍ" مضاف إليه "عَلِيًّا" صفة لسان "وَاذْكُرْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فِي الْكِتابِ" متعلقان باذكر "مُوسى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليلية لا محل لها "كانَ" الواو عاطفة وماض ناقص "مُخْلَصاً" خبر كان والجملة خبر إنّ "وَكانَ" حرف عطف وماض ناقص اسمه محذوف والجملة معطوفة "رَسُولًا نَبِيًّا" خبران لكان "وَنادَيْناهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "مِنْ جانِبِ" متعلقان بناديناه "الطُّورِ" مضاف إليه "الْأَيْمَنِ" صفة "وَقَرَّبْناهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "نَجِيًّا" حال "وَوَهَبْنا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان بوهبنا "مِنْ رَحْمَتِنا" متعلقان بوهبنا ونا مضاف إليه "أَخاهُ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "هارُونَ" بدل من أخاه "نَبِيًّا" حال.

[سورة مريم (19) : الآيات 54 الى 57]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ

بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57)

(248/481)

"وَاذْكُرْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فِي الْكِتابِ" متعلقان باذكر "إِسْماعِيلَ" مفعول به "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليلية "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "صادِقَ" خبر كان والجملة خبر إنه "الْوَعْدِ" مضاف إليه "وَكانَ" الواو عاطفة وماض ناقص واسمها محذوف "رَسُولًا نَبِيًّا" خبرا كان منصوبا والجملة معطوفة "وَكانَ" الواو عاطفة وماض ناقص والجملة معطوفة "يَأْمُرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كان "أَهْلَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بِالصَّلاةِ" متعلقان بيأمر "وَالزَّكاةِ" معطوف على الصلاة وهو مجرور مثله "وَكانَ" الواو عاطفة وماض ناقص والجملة معطوفة "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمرضيا "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "مَرْضِيًّا" خبر كان "وَاذْكُرْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي الْكِتابِ" متعلقان باذكر "إِدْرِيسَ" مفعول به "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليلية "كانَ" ماض ناقص واسمها مستتر والجملة خبر إن "صِدِّيقاً" خبر كان "نَبِيًّا" خبر ثان لكان "وَرَفَعْناهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله

والجملة معطوفة "مَكاناً" ظرف مكان متعلق برفعناه "عَلِيًّا" صفة لمكانا .

[سورة مريم (19) : آية 58]

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (58)

(249/481)

"أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ والكاف للخطاب والجملة ابتدائية "الَّذِينَ" اسم موصول خبر "أَنْعَمَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بأنعم "مِنَ النَّبِيِّينَ" متعلقان بحال محذوفة "مِنْ ذُرِّيَّةِ" جار ومجرور بدل من النبيين بإعادة الجار "آدَمَ" مضاف إليه مجرور بالكسرة لأنه ممنوع من الصرف "وَمِمَّنْ" الواو عاطفة ومن حرف جر مدغمة بمن الموصولة وهما معطوفان على ما قبلهما "حَمَلْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَعَ" ظرف متعلق بحملنا "نُوحٍ" مضاف إليه "وَمِنْ ذُرِّيَّةِ" معطوف على ما قبله "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَإِسْرائِيلَ" معطوف على إبراهيم بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَمِمَّنْ" الواو عاطفة ومن حرف جر أدغمت بمن اسم الموصول ومعطوفان على ما سبق "هَدَيْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَاجْتَبَيْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله

والجملة معطوفة "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط وهي أداة شرط غير جازمة تتعلق بالجواب "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتتلى "آياتُ" نائب فاعل "الرَّحْمنِ" مضاف إليه والجملة مضاف إليه "خَرُّوا" ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "سُجَّداً" حال "وَبُكِيًّا" معطوفة على سجدا

[سورة مريم (19) : الآيات 59 الى 61]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)

(250/481)

"فَخَلَفَ" الفاء عاطفة وماض "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بخلف والهاء مضاف إليه "خَلْفٌ" فاعل والجملة معطوفة على ما سبق "أَضاعُوا" ماض مبني على الضم والواو فاعل والجملة في محل رفع صفة لخلف "الصَّلاةَ" مفعول به "وَاتَّبَعُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "الشَّهَواتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "فَسَوْفَ" الفاء عاطفة

وسوف للاستقبال "يَلْقَوْنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "غيًّا" مفعول به وأصله غويا فأدغمت الواو في الياء "إِلَّا" أداة استثناء "مَنْ" اسم موصول منصوب على الاستثناء "تابَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَآمَنَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة بالواو "وَعَمِلَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة بالواو "صالِحاً" مفعول به "فَأُولئِكَ" الفاء عاطفة واسم الإشارة مبتدأ والكاف للخطاب والجملة معطوفة "يَدْخُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر المبتدأ "الْجَنَّةَ" مفعول به "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة معطوفة "شَيْئاً" مفعول به ثان ليظلمون "جَنَّاتِ" بدل من الجنة في الآية السابقة منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "عَدْنٍ" مضاف إليه "الَّتِي" اسم موصول صفة لجنات "وَعَدَ الرَّحْمنُ" ماض وفاعله والجملة صلة "عِبادَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بِالْغَيْبِ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليلية "كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا" كان واسمها وخبرها والهاء في وعده مضاف إليه والجملة خبر إنه.

[سورة مريم (19) : الآيات 62 الى 64]

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63) وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

"لا" نافية "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "فِيها" متعلقان بحال محذوفة أي حالة كونهم في الجنة "لَغْواً" مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "سَلاماً" بدل من لغوا "وَلَهُمْ" الواو عاطفة ومتعلقان بخبر مقدم محذوف "رِزْقُهُمْ" مبتدأ مؤخر والهاء مضاف إليه "فِيها" متعلقان بالخبر المحذوف "بُكْرَةً" ظرف زمان "وَعَشِيًّا" معطوف على بكرة "تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "الْجَنَّةُ" خبر والجملة مستأنفة "الَّتِي" موصول صفة للجنة "نُورِثُ" مضارع فاعله مستتر "مِنْ عِبادِنا" متعلقان بنورث "مِنْ" اسم موصول مفعول به "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "تَقِيًّا" خبر كان والجملة صلة الموصول "وَما" الواو استئنافية وما نافية "نَتَنَزَّلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة

"إِلَّا" أداة حصر "بِأَمْرِ" متعلقان بنتنزل "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "ما" اسم موصول مبتدأ مؤخر "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بصلة الموصول المحذوفة "أَيْدِينا" مضاف إليه ونا مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما موصولية معطوفة على ما السابقة "خَلْفَنا" ظرف مكان ونا مضاف إليه "وَما بَيْنَ" معطوف على ما

سبق وإعرابه مثله "ذِلكَ" اسم الاشارة مضاف إليه واللام للبعد والكاف للخطاب "وَما" الواو استئنافية وما نافية "كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا" كان واسمها وخبرها والكاف في ربك مضاف إليه والجملة مستأنفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 65 الى 67]

(252/481)

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)
وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67)

"رَبُّ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي اللّه "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَما" الواو عاطفة وما اسم موصول معطوف على ما قبله "بَيْنَهُما" ظرف مكان متعلق بصلة الموصول المحذوفة والهاء مضاف إليه "فَاعْبُدْهُ" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله وفاعله مستتر وسميت الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر "وَاصْطَبِرْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "لِعِبادَتِهِ" متعلقان باصطبر "هَلْ" حرف استفهام "تَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بتعلم "سَمِيًّا" مفعول به

"وَيَقُولُ الْإِنْسانُ" الواو استئنافية ومضارع وفاعله والجملة مستأنفة "أَإِذا" الهمزة للاستفهام وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "ما مِتُّ" ما زائدة وماض والتاء في محل رفع فاعل والجملة في محل جر مضاف إليه "لَسَوْفَ" اللام لام الابتداء وسوف للاستقبال "أُخْرَجُ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله مستتر "حَيًّا" حال "أَوَلا" الهمزة للاستفهام والواو عاطفة ولا نافية "يَذْكُرُ الْإِنْسانُ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة "أَنَّا" أن المشبهة بالفعل ونا المدغمة بها اسمها والجملة في تأويل المصدر مفعول به "خَلَقْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر أنا "مِنْ قَبْلُ" من حرف جر وقبل ظرف مبني على الضم في محل جر متعلقان بخلقناه "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم حرف جزم "يَكُ" مضارع ناقص مجزوم بالسكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسمها محذوف والجملة معطوفة "شَيْئاً" خبر يك.

[سورة مريم (19) : الآيات 68 الى 71]

(253/481)

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (70)

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71)

"فَوَرَبِّكَ" الفاء عاطفة والواو للقسم وربك اسم مجرور بواو القسم ومتعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "لَنَحْشُرَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة فاعله مستتر والهاء مفعول به "وَالشَّياطِينَ" الواو المعية والشياطين مفعول معه "ثُمَّ" حرف عطف

(254/481)

"لَنُحْضِرَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب قسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة فاعله مستتر والجملة معطوفة "حَوْلَ" ظرف مكان متعلق بنحضرنهم "جَهَنَّمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "جِثِيًّا" حال "ثُمَّ" عاطفة "لَنَنْزِعَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة فاعله مستتر "مِنْ كُلِّ" متعلقان بننزعن "شِيعَةٍ" مضاف إليه "أَيُّهُمْ" اسم موصول بمعنى الذي مفعول به "أَشَدُّ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أشد "عَلَى الرَّحْمنِ" متعلقان بأشد "عِتِيًّا" تمييز "ثُمَّ" عاطفة "لَنَحْنُ" اللام واقعة في جواب القسم ونحن مبتدأ "أَعْلَمُ" خبر "بِالَّذِينَ" الباء حرف جر واسم الموصول في محل جر به متعلقان بأعلم "هُمْ" مبتدأ "أَوْلى" خبر مرفوع

بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "بِها" متعلقان بأولى "صِلِيًّا" تمييز والجملة صلة الموصول "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن نافية "مِنْكُمْ" متعلقان بصفة لمبتدأ محذوف تقديره أحد "إِلَّا" أداة حصر "وارِدُها" خبر والها مضاف إليه "كانَ" ماض ناقص واسمه مستتر "عَلى رَبِّكَ" متعلقان بحتما "حَتْماً" خبر "مَقْضِيًّا" صفة

[سورة مريم (19) : الآيات 72 الى 74]

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (74)

(255/481)

"ثُمَّ" حرف عطف "نُنَجِّي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به "اتَّقَوْا" ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل والجملة صلة "وَنَذَرُ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "الظَّالِمِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فِيها" متعلقان بجثيا "جِثِيًّا" حال "وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بجوابه

"تُتْلى " مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتتلى "آياتُنا" نائب فاعل ونا مضاف إليه والجملة مضاف إليه "بَيِّناتٍ" حال منصوبة بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "قالَ الَّذِينَ" ماض واسم الموصول فاعله والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لِلَّذِينَ" اسم الموصول في محل جر باللام ومتعلقان بقال "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَيُّ" اسم استفهام مبتدأ "الْفَرِيقَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى "خَيْرٌ" خبر "مَقاماً" تمييز "وَأَحْسَنُ" معطوف على خير "نَدِيًّا" تمييز "وَكَمْ" الواو استئنافية وكم خبرية في محل نصب مفعول به لأهلكنا "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْنٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا تمييز "هُمْ أَحْسَنُ" مبتدأ وخبر والجملة صفة لقرن "أَثاثاً" تمييز "وَرِءْياً" معطوف على أثاثا

[سورة مريم (19) : الآيات 75 الى 76]

قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

(257/481)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "كانَ" ماض ناقص واسمه مستتر "فِي الضَّلالَةِ" متعلقان بخبر كان المحذوف "فَلْيَمْدُدْ" الفاء رابطة للجواب واللام لام الأمر ومضارع مجزوم بلام الأمر والجملة في محل جزم جواب الشرط "لَهُ" متعلقان بيمدد "الرَّحْمنُ" فاعل "مَدًّا" مفعول مطلق "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بالجواب "رَأَوْا" ماض وفاعله والجملة في محل جر مضاف إليه "ما" اسم موصول مفعول به "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة صلة "إِمَّا" حرف شرط وتفصيل "الْعَذابَ" بدل من ما "وَإِمَّا" الواو عاطفة وإما معطوفة على إما السابقة "السَّاعَةَ" بدل من ما "فَسَيَعْلَمُونَ" الفاء واقعة في جواب إما والسين للاستقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "مَنْ" اسم موصول مفعول به "هُوَ شَرٌّ" مبتدأ وخبر والجملة صلة "مَكاناً" تمييز "وَأَضْعَفُ" معطوف على شر

"جُنْداً" تمييز "وَيَزِيدُ اللَّهُ" الواو استئنافية ومضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به أول "اهْتَدَوْا" ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل والجملة صلة "هُدىً" مفعول به ثان ليزيد منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "وَالْباقِياتُ" الواو استئنافية ومبتدأ مرفوع "الصَّالِحاتُ" صفة "خَيْرٌ" خبر والجملة مستأنفة "ثَواباً" تمييز "وَخَيْرٌ" معطوف على خير السابقة "مَرَدًّا" تمييز

[سورة مريم (19) : الآيات 77 الى 81]

(258/481)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (78) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81)

"أَفَرَأَيْتَ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "الَّذِي" اسم موصول مفعول به "كَفَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "بِآياتِنا" متعلقان بكفر ونا مضاف إليه "وَقالَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "لَأُوتَيَنَّ" اللام واقعة

في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر وجملة القسم مقول القول "مالًا" مفعول به "وَوَلَدًا" معطوف على مالا وجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب "أَطَّلَعَ" الهمزة للاستفهام وماض فاعله مستتر "الْغَيْبَ" مفعول به "أَمِ" حرف عطف "اتَّخَذَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "عِنْدَ" ظرف مكان "الرَّحْمنِ" مضاف إليه "عَهْدًا" مفعول به "كَلَّا" حرف ردع وزجر "سَنَكْتُبُ" السين

(259/481)

للاستقبال ومضارع فاعله مستتر "ما" اسم موصول مفعول به "يَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَنَمُدُّ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بنمد "مِنَ الْعَذابِ" متعلقان بمحذوف صفة لمدا "مَدًّا" مفعول مطلق "وَنَرِثُهُ" الواو عاطفة ومضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة. "ما" موصولة مفعول به "يَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَأْتِينا" الواو عاطفة ومضارع ونا فاعله والجملة معطوفة "فَرْدًا" حال "وَاتَّخَذُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة استئنافية "مِنْ دُونِ" متعلقان باتخذوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "آلِهَةً" مفعول به "لِيَكُونُوا" اللام لام التعليل ومضارع ناقص والواو اسمه "لَهُمْ" متعلقان بالخبر عزا "عِزًّا" خبر

[سورة مريم (19) : الآيات 82 الى 86]

كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (86)

(260/481)

"كَلَّا" حرف زجر "سَيَكْفُرُونَ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة ابتدائية "بِعِبادَتِهِمْ" متعلقان بيكفرون والهاء مضاف إليه "وَيَكُونُونَ" الواو عاطفة ومضارع ناقص والواو اسمها "عَلَيْهِمْ" متعلقان بضدا "ضِدا" خبر يكونون "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف جازم "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والفاعل مستتر والجملة ابتدائية "أَنَّا" مؤلفة من أن المشبهة بالفعل ونا المدغمة بها وهي اسمها "أَرْسَلْنَا" ماض وفاعله والجملة خبر أنا "الشَّياطِينَ" مفعول به "عَلَى الْكافِرِينَ" متعلقان بأرسلنا "تَؤُزُّهُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة حالية "أَزًّا" مفعول مطلق "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَعْجَلْ" مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتعجل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "إِنَّما" كافة ومكفوفة "نَعُدُّ" مضارع فاعله مستتر "لَهُمْ"

متعلقان بنعد "عَدًّا" مفعول مطلق "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بنحشر "نَحْشُرُ" مضارع فاعله مستتر "الْمُتَّقِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مضاف إليه "إِلَى الرَّحْمنِ" متعلقان بنحشر "وَفْداً" حال "وَنَسُوقُ" الواو حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "الْمُجْرِمِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "إِلى جَهَنَّمَ" متعلقان بنسوق وجهنم مجرورة بالفتحة لأنها ممنوعة من الصرف "وِرْداً" حال والجملة معطوفة.

[سورة مريم (19) : الآيات 87 الى 92]

لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87) وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91)

وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92)

(261/481)

"لا" نافية "يَمْلِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "الشَّفَاعَةَ" مفعول به "إِلَّا" أداة استثناء "مَنِ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "اتَّخَذَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق باتخذ "الرَّحْمنِ" مضاف إليه

"عَهْداً" مفعول به "وَقالُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "اتَّخَذَ الرَّحْمنُ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "وَلَداً" مفعول به "لَقَدْ" اللام للقسم وقد حرف تحقيق "جِئْتُمْ" ماض وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب قسم "شَيْئاً" مفعول به "إِدًّا" صفة لشيئا "تَكادُ" مضارع ناقص "السَّماواتُ" اسمها "يَتَفَطَّرْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة خبر تكاد "مِنْهُ" متعلقان بيتفطرن "وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ" الواو عاطفة ومضارع وفاعله والجملة معطوفة "وَتَخِرُّ الْجِبالُ" مضارع وفاعل "هَدًّا" حال "أَنْ" مصدرية "دَعَوْا" ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين وفتح ما قبلها للدلالة عليها "لِلرَّحْمنِ" متعلقان بدعوا "وَلَداً" مفعول به "وَما يَنْبَغِي" الواو استئنافية وما نافية ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "لِلرَّحْمنِ" متعلقان بينبغي والجملة استئنافية "أَنْ" حرف ناصب "يَتَّخِذَ" مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر والجملة في تأويل المصدر في محل رفع فاعل ينبغي "وَلَداً" مفعول به.

[سورة مريم (19) : الآيات 93 الى 98]

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98)

"إِنْ" حرف نفي لا عمل له "كُلُّ" مبتدأ "مَنْ" موصولية في محل جر مضاف إليه "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "إِلَّا" أداة حصر "آتِي" خبر كل مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والجملة الاسمية من المبتدأ والخبر ابتدائية "الرَّحْمنِ" مضاف إليه "عَبْداً" حال "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "أَحْصاهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "وَعَدَّهُمْ" معطوف على أحصاهم وإعرابه مثله "عَدًّا" مفعول مطلق "وَكُلُّهُمْ" الواو عاطفة وكل مبتدأ والهاء مضاف إليه "آتِيهِ" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بآتيه "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "فَرْداً" حال "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول اسم إن والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "سَيَجْعَلُ" السين للاستقبال ومضارع

مرفوع "لَهُمُ" متعلقان بسيجعل "الرَّحْمنُ" فاعل "وُدًّا" مفعول به والجملة خبر إن "فَإِنَّما" الفاء استئنافية وإنما كافة ومكفوفة "يَسَّرْناهُ" مضارع وفاعله ومفعوله

(263/481)

والجملة مستأنفة "بِلِسانِكَ" متعلقان بيسرناه "لِتُبَشِّرَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل "بِهِ" متعلقان بتبشر "الْمُتَّقِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَتُنْذِرَ" معطوف على تبشر منصوب مثله وفاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بتبشر "قَوْماً" مفعول به "لُدًّا" صفة لقوما . "وَكَمْ" الواو استئنافية وكم خبرية في محل نصب مفعول به مقدم لأهلكنا "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان متعلق بأهلكنا والهاء مضاف إليه "مِنْ" حرف جر "قَرْنٍ" اسم مجرور تمييز كم . "هَلْ" حرف استفهام "تُحِسُّ" مضارع فاعله مستتر "مِنْهُمْ" متعلقان بحال محذوفة "مِنْ" حرف جر زائد "أَحَدٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "أَوْ" حرف عطف "تَسْمَعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "لَهُمْ" متعلقان بتسمع "رِكْزاً" مفعول به . انتهى انتهى . اهـ

﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 236. 253﴾

(264/481)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة مَرْيَم

ذكر فِيهَا اثْنَيْنِ وَعشْرين حَدِيثا

757 - الحَدِيث الأول

سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن السّري فَقَالَ (هُوَ الْجَدْوَل)

قلت رُوِيَ من حَدِيث الْبَراء بن عَازِب وَمن حَدِيث ابْن عمر

فَحَدِيث الْبَراء بن عَازِب رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الصَّغِير من حَدِيث مُعَاوِيَة ابْن يَحْيَى الصَّدَفِي عَن أبي سِنَان سعيد بن سِنَان الشَّيْبَانِيّ عَن أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء ابْن عَازِب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى قد جعل رَبك تَحْتك سريا قَالَ السّري النَّهر انْتَهَى

قَالَ الطَّبَرَانِيّ لم يرفعهُ عَن أبي إِسْحَاق إِلَّا أَبُو سِنَان

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بِمُعَاوِيَة بن يَحْيَى وَضَعفه عَن النَّسَائِيّ وَابْن الْمَدِينِيّ وَابْن معِين وَوَافَقَهُمْ

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه مَوْقُوفا عَلَى الْبَراء رَوَاهُ عَن شُعْبَة عَن أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء

فِي قَوْله تَعَالَى قد جعل رَبك تَحْتك سريا قَالَ هُوَ الْجَدْوَل النَّهر الصَّغِير

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

وَذكره الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب بَدْء الْخلق تَعْلِيقا وَلَفظه قَالَ وَكِيع عَن إِسْرَائِيل عَن

أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء سريا قَالَ هُوَ النَّهر الصَّغِير بالسُّرْيَانِيَّة

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره رَوَاهُ مَوْقُوفا أخبرنَا الثَّوْرِيّ عَن

أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء بن عَازِب فِي قَوْله تَعَالَى قد جعل رَبك تَحْتك سريا قَالَ السّري

الْجَدْوَل يَعْنِي النَّهر الصَّغِير

انْتَهَى

(265/481)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه من حَدِيث آدم بن أبي إِيَاس عَن إِسْرَائِيل مَوْقُوفا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا أَبُو شُعَيْب عبد الله ابْن الْحسن الْحَرَّانِي حَدثنَا يَحْيَى بن عبد الله الْبَابلتِّي حَدثنَا أَيُّوب بن نهيك قَالَ سَمِعت عِكْرِمَة مولَى ابْن عَبَّاس يَقُول سَمِعت ابْن عمر يَقُول سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (إِن السّري الَّذِي قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ لِمَرْيَم قد جعل رَبك تَحْتك سريا نهر أخرجه الله لتشرب مِنْهُ)

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عِكْرِمَة حَدثنَا أَحْمد بن يَعْقُوب حَدثنَا أَبُو شُعَيْب بِهِ سندا ومتنا وَهُوَ حَدِيث غَرِيب وَأَيوب بن نهيك هَذَا هُوَ الْحلبِي قَالَ أَبُو حَاتِم ضَعِيف وَقَالَ أَبُو زرْعَة مُنكر الحَدِيث

785 - الحَدِيث الثَّانِي

وَنَهَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن صَوْم الصمت

قلت رُوِيَ من حَدِيث عَلّي وَجَابِر

فَحَدِيث عَلّي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْوَصَايَا من حَدِيث يَحْيَى ابْن مُحَمَّد الْجَارِي حَدثنِي عبد الله بن خَالِد بن سعيد بن أبي مَرْيَم عَن أَبِيه عَن سعيد بن عبد الرَّحْمَن بن رُقَيْش أَنه سمع شُيُوخًا من بني عَمْرو بن عَوْف وَمن خَاله عبد الله بن أبي أَحْمد قَالَ قَالَ عَلّي حفظت عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ

لَا يتم بعد احْتِلَام وَلَا صمَات يَوْم إِلَى اللَّيْل)

انْتَهَى

وَيَحْيَى بن مُحَمَّد الْجَارِي مُتَكَلم فِيهِ

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَائِهِ وَقَال لَا يُتَابع عَلَيْهِ يَحْيَى الْجَارِي

وَتكلم عَلَيْهِ ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه وَتقدم ذَلِك فِي سُورَة النِّسَاء

(266/481)

وَأما حَدِيث جَابر فَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الرَّضَاع أخبرنَا معمر عَن حرَام بن عُثْمَان عَن عبد الرَّحْمَن وَمُحَمّد ابْني جَابر عَن أَبيهمَا جَابر بن عبد الله أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال (لَا صمت يَوْم إِلَى اللَّيْل وَلَا مُوَاصلَة فِي الصّيام وَلَا يتم بعد حلم وَلَا رضَاع بعد الْفِطَام) مُخْتَصر وَتقدم الْكَلَام عَلَيْهِ فِي سُورَة النِّسَاء

759 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله يَا أُخْت هَارُون قَال إِنَّمَا عنوا هَارُون النَّبِي)

قلت غَرِيب وَذكره الثَّعْلَبِيّ هَكَذَا من غير سَنَد بل ورد خِلَافه فروَى مُسلم فِي آخر اللبَاس عَن الْمُغيرَة بن شُعْبَة وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث عبد الله بن إِدْرِيس عَن أَبِيه عَن

سماك عَن عَلْقَمَة بن وَائِل عَن الْمُغيرَة بن شُعْبَة قَالَ بَعَثَنِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى نَجْرَان فَقَالُوا لي أَرَأَيْتُم شَيْئًا تَقْرَءُونَهُ يَا أُخْت هَارُون وَبَين مُوسَى وَعِيسَى مَا شَاءَ الله من السنين فَلم أدر مَا أُجِيبهُم حَتَّى أخْبرت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (فَهَلا أَخْبَرتهم أَنهم كَانُوا يسمون بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قبلهم)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث ابْن إِدْرِيس

انْتَهَى

وَعَزاهُ فِي جَامع الْأُصُول لمُسلم فَلْينْظر وَكَذَلِكَ الواحدي فِي الْوَسِيط

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنِي يَعْقُوب حَدثنَا ابْن علية عَن سعيد ابْن أبي صَدَقَة عَن مُحَمَّد بن سِيرِين قَالَ نبئت أَن كَعْبًا قَالَ إِن قَوْله يَا أُخْت

(267/481)

هَارُون) لَيْسَ بِهَارُون أخي مُوسَى قَالَ فَقَالَت لَهُ عَائِشَة كذبت فَقَالَ يَا أم الْمُؤمنِينَ إِن كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَه فَهُوَ أعلم وَأخْبر وَإِلَّا فَأَنَا أجد بَينهمَا سِتّمائَة سنة قَالَ فَسَكَتَتْ

انْتَهَى

وَاحْتج الطَّبَرِيّ بِهَذَيْنِ الْحَدِيثين لمن قَالَ إِنَّه هَارُون آخر غير هَارُون النَّبِي وَلم يذكر فِي القَوْل الآخر أَنه هَارُون النَّبِي حَدِيثا مَرْفُوعا بل رُوِيَ عَن السّديّ أَنه قَالَ هُوَ هَارُون أَخُو مُوسَى

760 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله مُبَارَكًا أَيْنَمَا كنت قَالَ نَفَّاعًا حَيْثُ كنت قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة يُونُس بن عبيد حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد بن عُثْمَان الْحَافِظ حَدثنَا الْحُسَيْن بن عبد الْمُجيب حَدثنَا شُعَيْب بن مُحَمَّد الْكُوفِي حَدثنَا هشيم بن بشير عَن يُونُس بن عبيد عَن الْحسن عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (قَول عِيسَى رَحْمَة الله علينا وَعَلِيهِ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كنت قَالَ جعلني نَفَّاعًا أَيْنَمَا توَجَّهت) انْتَهَى وَقَالَ غَرِيب من حَدِيث يُونُس تفرد بِهِ هشيم وَعنهُ شُعَيْب

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنِي إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد حَدثنَا الْحُسَيْن بن عبد الْمُجيب الْموصِلِي بِهِ سَوَاء

761 - الحَدِيث الْخَامِس

سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن قَوْله تَعَالَى وَأَنْذرهُمْ يَوْم الْحَسْرَة إِذْ قضي الْأَمر فَقَالَ (

حِين يذبح الْكَبْش وَالْفَرِيقَانِ ينْظرَانِ)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَقد رُوِيَ من حَدِيث الْخُدْرِيّ وَابْن عمر وَأبي هُرَيْرَة

(268/481)

فَحَدِيث الْخُدْرِيّ رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة عَنهُ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْش أَمْلَح فينادي مُنَاد يأهل الْجنَّة فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُول هَل تعرفُون هَذَا فَيَقُولُونَ نعم هَذَا الْمَوْت وَكلهمْ قد رَآهُ ثمَّ ينَادي يأهل النَّار فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُول هَل تعرفُون هَذَا فَيَقُولُونَ نعم هَذَا الْمَوْت وَكلهمْ قد رَآهُ فَيذْبَح ثمَّ يَقُول يأهل الْجنَّة خُلُود فَلَا موت وَيَأْهِلُ النَّار خُلُود فَلَا موت) ثمَّ قَرَأَ وَأَنْذرهُمْ يَوْم الْحَسْرَة إِذْ قضي الْأَمر وهم فِي غَفلَة

انْتَهَى

وَحَدِيث ابْن عمر أخرجه الْبُخَارِيّ وَمُسلم أَيْضا عَنهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِذا صَار أهل الْجنَّة إِلَى الْجنَّة وَأهل النَّار إِلَى النَّار أُتِي بِالْمَوْتِ حَتَّى يَجْعَل بَين الْجنَّة وَالنَّار ثمَّ يذبح ثمَّ ينَادي مُنَاد يأهل الْجنَّة لَا موت وَيَأْهِلُ النَّار لَا موت فَيَزْدَاد أهل الْجنَّة

فَرحا إِلَى فَرَحهمْ ويُزَاد أهل النَّار حزنا إِلَى حزنهمْ)

انْتَهَى

وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي الثَّامِن وَالسبْعين من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْإِيمَان عَنهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي هَذِه الْآيَة قَالَ يُنَادَى مُنَاد) فَذكره نَحوه قَالَ الْحَاكِم حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم

(269/481)

وَرَوَى أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده حَدثنَا نَافِع بن خَالِد الطَّاحِي حَدثنَا نوح ابْن قيس عَن أَخِيه خَالِد بن قيس عَن قَتَادَة عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْم الْقِيَامَة كَأَنَّهُ كَبْش أَمْلَح فَيُوقف بَين الْجنَّة وَالنَّار ثمَّ يُنَادي مُنَاد يأهل الْجنَّة فَيَقُولُونَ لبيْك رَبنَا فَيَقُول هَل تعرفُون هَذَا فَيَقُولُونَ نعم هَذَا الْمَوْت ويُقَال لأهل النَّار مثل ذَلِك ثمَّ يذبح كَمَا تذبح الشَّاة فَيَأْمَن هَؤُلَاءِ وَينْقَطِع رَجَاء هَؤُلَاءِ)

انْتَهَى

وَبِالسَّنَدِ الْمَذْكُور رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ لَا نعلمهُ يرْوَى عَن أنس إِلَّا من هَذَا الْوَجْه بِهَذَا الْإِسْنَاد وَقد أَخْرجَاهُ من حَدِيث الْخُدْرِيّ

انْتَهَى

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير رَوَاهُ الْبُخَارِيّ عَنهُ بِلَفْظ يأهل الْجنَّة خُلُود بِلَا موت وَيَأْهِلُ النَّار خُلُود بِلَا موت

انْتَهَى

وَلَيْسَ فِيهِ ذكر الذّبْح وَينظر ابْن حبَان

762 - الْحَدِيث السَّادِس

عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أوحى الله إِلَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام حسن خلقك وَلَو مَعَ الْكفَّار تدخل مداخِل الْأَبْرَار فَإِن كَلَّمتِنِي سبقت لمن حسن خلقه أظلهُ تَحت عَرْشِي وَأَسْكَنَهُ حَظِيرَة الْقُدس وَأُدْنِيه من جواري)

(270/481)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنِي مُحَمَّد بن دَاوُد بن أسلم الصَّدَفِي حَدثنَا عمر بن سوار السرُوجِي حَدثنَا مُؤَمل بن عبد الرَّحْمَن بِهِ وَابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث مُؤَمل بن عبد الرَّحْمَن بن الْعَبَّاس بن عبد الله بن عُثْمَان بن أبي الْعَاص الثَّقَفِيّ حَدثنَا أَبو أُمَيَّة بن يعلي عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ (أوحى الله إِلَى إِبْرَاهِيم) فَذكره إِلَى آخِره ولين مُؤَمل بن عبد الرَّحْمَن وَقَالَ عَامَّة حَدِيثه غير مَحْفُوظ

وَرَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي كِتَابه نَوَادِر الْأُصُول فِي الْأَصْل الثَّانِي وَالثَّلَاثِينَ بعد الْمِائَتَيْنِ فَقَالَ حَدثنَا عمر بن أبي عمر يرفعهُ إِلَى أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أوحى الله إِلَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام أَن يَا إِبْرَاهِيم حسن خلقك وَلَو مَعَ الْكفَّار) إِلَى آخِره وَهَذَا معضل

763 - الْحَدِيث السَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الدُّعَاء هُوَ الْعِبَادَة)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي الصَّلَاة وَالتِّرْمِذِيّ فِي الدَّعْوَات وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير فِي سُورَة حم غَافِر الْمُؤمن وَابْن ماجة فِي الدُّعَاء من حَدِيث ذر عَن يسيع الْحَضْرَمِيّ عَن النُّعْمَان بن بشير قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الدُّعَاء هُوَ الْعِبَادَة) ثمَّ قَرَأَ وَقَالَ ربكُم ادْعُونِي أَسْتَجِب لكم الْآيَة

انْتَهَى

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح وَلَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث ذر

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتَاب الدُّعَاء وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

(271/481)

وَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي وَأحمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَابْن أبي شيبَة وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق أبي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب وَابْن مرْدَوَيْه والطبري وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم وَأَعَادَهُ الْمُصَنّف فِي الزمر

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره أَيْضا من حَدِيث الْأَعْمَش عَن طَلْحَة بن مصرف عَن عبد الرَّحْمَن بن عَوْسَجَة عَن الْبَراء بن عَازِب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الدُّعَاء هُوَ الْعِبَادَة) ثمَّ قَرَأَ ادْعُونِي أَسْتَجِب لكم

انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُعْجَمه

764 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن أنس بن مَالك يرفعهُ فِي قَوْله تَعَالَى وَرَفَعْنَاهُ مَكَانا عليا قَالَ رفع إِلَى السَّمَاء الرَّابِعَة

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث شَيبَان عَن قَتَادَة فِي قَوْله وَرَفَعْنَاهُ مَكَانا عليا قَالَ حَدثنَا أنس بن مَالك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لما عرج بِي إِلَى السَّمَاء رَأَيْت إِدْرِيس فِي السَّمَاء الرَّابِعَة)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح وَقد رَوَاهُ سعيد بن أبي عرُوبَة وَهَمَّام وَغير وَاحِد عَن قَتَادَة عَن أنس بن مَالك عَن مَالك بن صعصعة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَدِيث الْمِعْرَاج بطُولِهِ وَهَذَا عِنْدِي مُخْتَصر من ذَاك

انْتَهَى

(272/481)

وَحَدِيث الْمِعْرَاج فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من حَدِيث أنس بن مَالك عَن مَالك بن صعصعة وَفِيه ثمَّ عرج بِي إِلَى السَّمَاء الرَّابِعَة فَاسْتَفْتَحَ قيل من هَذَا قَالَ جِبْرِيل وَمن مَعَك قَالَ مُحَمَّد ففتح لنا فَإِذا أَنا بِإِدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَام فَرَحَّبَ بِي ودعا لي قَالَ الله تَعَالَى وَرَفَعْنَاهُ مَكَانا عليا

انْتَهَى

765 - قَوْله وَعَن ابْن عَبَّاس قَالَ رفع إِلَى السَّمَاء السَّادِسَة

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنِي مُحَمَّد بن سعد حَدثنِي أبي حَدثنِي عمي حَدثنِي أبي عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى وَرَفَعْنَاهُ مَكَانا عليا قَالَ رفع إِلَى السَّمَاء السَّادِسَة فَمَات فِيهَا وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه حَدثنَا أَحْمد بن كَامِل حَدثنَا مُحَمَّد بن سعد بِهِ سَوَاء

766 - الْحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ عَن النَّابِغَة الْجَعْدِي أَنه لما أنْشد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشّعْر الَّذِي آخِره

(بلغنَا السَّمَاء مَجدنَا وسناؤنا . . . وَإِنَّا لنَرْجُو فَوق ذَلِك مظْهرا) قَالَ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِلَى أَيْن يَا أَبَا لَيْلَى) قَالَ إِلَى الْجنَّة

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ وَأَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة لَهما من حَدِيث يعْلى بن الْأَشْدَق قَالَ سَمِعت النَّابِغَة نَابِغَة بني جعدة يَقُول أنشدت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قولي

(بلغنَا السَّمَاء مَجدنَا وجدودنا . . . وَإِنَّا لنَرْجُو فَوق ذَلِك مظْهرا)

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (إِلَى أَيْن الْمظهر يَا أَبَا لَيْلَى) قلت إِلَى الْجنَّة قَالَ أَجل إِن شَاءَ الله) قَالَ ثمَّ قَالَ أَنْشدني) فَأَنْشَدته من قولي

(وَلَا خير فِي حلم إِذا لم يكن لَهُ . . . بَوَادِر تَحْمِي صَفوه أَن تكدرا)

(وَلَا خير فِي جهل إِذا لم يكن لَهُ . . . حَلِيم إِذا مَا أورد الْأَمر أصْدرَا)

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ (أَجدت لَا يفضض الله فَاك)

قَالَ يعْلى بن الْأَشْدَق فَلَقَد رَأَيْته وَقد أَتَى عَلَيْهِ نَيف وَمِائَة سنة وَلم تذْهب لَهُ سنّ . . .

وَرَوَاهُ الْبَزَّار كَذَلِك فِي مُسْنده

وَله طَرِيق آخر عِنْد الْبَيْهَقِيّ فِي الدَّلَائِل أَيْضا رَوَاهُ من حَدِيث مُجَاهِد بن سليم بن عبد الله بن جَراد قَالَ سَمِعت النَّابِغَة . . . فَذكره وَالْقَصِيدَة طَوِيلَة

767 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (اتْلُوا الْقُرْآن وابكوا فَإِن لم تبكوا فتباكوا)

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي التَّهَجُّد من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن رَافع أبي رَافع عَن ابْن أبي مليكَة عَن عبد الرَّحْمَن بن السَّائِب قَالَ قدم علينا سعد بن أبي وَقاص وَقد كف بَصَره فَسلمت عَلَيْهِ فَقَالَ من أَنْت فَأَخْبَرته فَقَالَ مرْحَبًا يَا ابْن أخي بَلغنِي أَنَّك حسن الصَّوْت بِالْقُرْآنِ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (إِن هَذَا الْقُرْآن نزل بحزن فَإِذا قرأتموه فابكوا فَإِن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا بِهِ فَمن لم يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ منا)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ كَذَلِك أَبُو يعلي الْموصِلِي والْحَارث بن أبي أُسَامَة فِي مسنديهما وَرَوَاهُ كَذَلِك الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع عشر

وَله طَرِيق أُخْرَى رَوَاهَا إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسنديهما من حَدِيث

(274/481)

عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر عَن ابْن أبي مليكَة عَن عبد الله بن السَّائِب عَن سعد قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اقْرَءُوا الْقُرْآن وابكوا فَإِن لم تبكوا فتباكوا)

انْتَهَى قَالَ الْبَزَّار لَا نعلمهُ عَن سعد إِلَّا من هَذَا الْوَجْه بِهَذَا الْإِسْنَاد وَعبد الرَّحْمَن ابْن أبي بكر هَذَا لين الحَدِيث

انْتَهَى

768 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (إِن الْقُرْآن نزل بحزن فَإِذا قرأتموه فتحازنوا)

قلت غَرِيب وَيقرب مِنْهُ مَا رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة رَيَاح بن عَمْرو الْقَيْسِي من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن سيف حَدثنَا عُوين بن عَمْرو أَخُو رَيَاح الْقَيْسِي حَدثنَا الْجريرِي عَن أبي بُرَيْدَة عَن أَبِيه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اقْرَأ الْقُرْآن بحزن فَإِنَّهُ نزل

بحزن)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده كَذَلِك وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَائِهِ وَأعله بِعُوَيْنٍ بن عَمْرو وَقَال لَا يُتَابع عَلَى حَدِيثه

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي أخر تَفْسِيره حَدثنَا عبد الْبَاقِي بن قَانِع حَدثنَا مُحَمَّد بن يُونُس حَدثنَا أَبُو زيد سعيد بن أَوْس حَدثنَا قيس بن الرّبيع عَن قَابُوس بن أبي ظبْيَان عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الْقُرْآن نزل بحزن فَاقْرَءُوهُ بحزن)

انْتَهَى

769 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

(275/481)

رُوِيَ أَن جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام احْتبس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَقيل خَمْسَة عشر حِين سُئِلَ عَن قصَّة أَصْحَاب الْكَهْف وَذي القرنين وَالروح فَلم يدر كَيفَ يُجيب وَرَجا أَن يُوحَى إِلَيْهِ فِيهِ فشق عَلَيْهِ ذَلِك وَقَال الْمُشْركُونَ ودعه ربه وقلاه فَلَمَّا نزل جِبْرِيل قَال لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

(أَبْطَأَت حَتَّى سَاءَ ظَنِّي وَاشْتَقت إِلَيْك) فَقَالَ إِنِّي كنت أشوق وَلَكِنِّي عبد مَأْمُور إِذا بعثت نزلت وَإِذا حبست احْتَبست وَأنزل الله هَذِه الْآيَة وَمَا نَتَنَزَّل إِلَّا بِأَمْر رَبك وَسورَة الضُّحَى

قلت رَوَاهُ ابْن إِسْحَاق فِي سيرته بِنَقص يسير فَقَالَ حَدثنِي شيخ من أهل مصر قدم علينا مُنْذُ بضع وَأَرْبعين سنة عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس أَن قُرَيْشًا جَاءُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالُوا يَا مُحَمَّد أخبرنَا عَن فتية ذَهَبُوا فِي الدَّهْر الأول قد كَانَت لَهُم قصَّة عَجِيبَة وَعَن رجل كَانَ طَوافا قد بلغ مَشَارِق الأَرْض وَمَغْربهَا وَأَخْبرنَا عَن الرّوح مَا هِيَ فَقَالَ لَهُم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (غَدا أخْبركُم عَمَّا سَأَلْتُم)

(276/481)

وَلم يسْتَثْن فانصرفوا عَنهُ فَمكث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِيمَا يذكرُونَ خمس عشرَة لَيْلَة لَا يحدث الله إِلَيْهِ فِي ذَلِك وَحيا وَلَا يَأْتِيهِ جبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى أَحْزَن ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وشق عَلَيْهِ مَا يتَكَلَّم أهل مَكَّة ثمَّ جَاءَهُ جبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام بسُورَة أَصْحَاب الْكَهْف فِيهَا مُعَاتَبَته إِيَّاه عَلَى حزنه عَلَيْهِم وَخبر مَا سَأَلُوهُ عَنهُ من أَمر الْفتية وَالرجل الطّواف وَالروح قَالَ ابْن إِسْحَاق فَذكر لي أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم قَالَ لجبريل حِين جَاءَهُ (لقد احْتبست عني يَا جِبْرِيل حَتَّى سُؤْت ظنا) فَقَالَ لَهُ جِبْرِيل وَمَا نَتَنَزَّل إِلَّا بِأَمْر رَبك

مُخْتَصر

وَمن طَرِيق ابْن إِسْحَاق رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْبَاب التَّاسِع عشر بِسَنَدِهِ وَمَتنه وَرَوَاهُ أَيْضا من طَرِيق الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس . . . فَذكره نَحوه وَفِيه قَالَ فَأَبْطَأَ جِبْرِيل عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خَمْسَة عشر يَوْمًا لَا يَأْتِيهِ لتركه الِاسْتِثْنَاء . . . الْحَدِيث

وَقَالَ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره ثمَّ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول وَعَن عِكْرِمَة وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَمُقَاتِل والكلبي قَالُوا احْتبس جِبْرِيل . . . إِلَى آخر لفظ الْمُصَنّف وَسَنَد الثَّعْلَبِيّ إِلَى الْمَذْكُورين أول كِتَابه

770 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن جَابر بن عبد الله أَنه سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن الْوُرُود فَقَالَ إِذا دخل أهل الْجنَّة الْجنَّة قَالَ بَعضهم لبَعض أَلَيْسَ قد وعدنا رَبنَا أَن نرد النَّار قَالَ فَيُقَال لَهُم قد وردتموها وَهِي خامدة)

قلت غَرِيب وَلم أَجده إِلَّا من قَول خَالِد بن معدان فَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده

حَدثنَا عِيسَى بن يُونُس عَن ثَوْر بن يزِيد عَن خَالِد بن معدان قَالَ إِذا جَازَ الْمُؤْمِنُونَ الصِّرَاط

نَادَى بَعضهم أَلم يعدنا رَبنَا أَن نرد النَّار فَيُقَال لَهُم قد وردتموها وَهِي خامدة

انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة خَالِد بن معدان

وَرَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي غَرِيبه حَدثنَا مَرْوَان بن مُعَاوِيَة حَدثنَا بكار ابْن أبي

مَرْوَان عَن خَالِد بن معدان . . . فَذكره

وَعَن أبي عبيد رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان

وَرَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي كِتَابه نَوَادِر الْأُصُول فِي الْأَصْل الْحَادِي وَالسبْعين

بعد الْمِائَة أخبرنَا عبد الْعَزِيز بن أبي رواد يرفعهُ إِلَى خَالِد بن معدان . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد أخبرنَا سُفْيَان عَن رجل عَن خَالِد ابْن معدان . . .

فَذكره

وَلم يذكر الْبَغَوِيّ هَذَا الْحَدِيث فِي تَفْسِيره وَكَذَلِكَ الواحدي فِي الْوَسِيط إِلَّا من قَول خَالِد بن

معدان

قَالَ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْفَضَائِل وخَالِد بن معدان من كبار التَّابعين صحب معَاذ بن

جبل فَمن بعده من الصَّحَابَة

771 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

وَعَن جَابر أَنه سُئِلَ عَن الْآيَة فَقَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (الْوُرُود الدُّخُول لَا يَبْقَى بر وَلَا فَاجر إِلَّا دَخلهَا فَتكون عَلَى الْمُؤمنِينَ بردا وَسلَامًا كَمَا كَانَت عَلَى إِبْرَاهِيم حَتَّى أَن للنار ضَجِيجًا من بردهَا)

(278/481)

قلت رَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو يعلي الْموصِلِي وَابْن أبي شيبَة وَعبد بن حميد فِي مسانيدهم قَالُوا ثَلَاثَتهمْ حَدثنَا سُلَيْمَان بن حَرْب حَدثنَا أَبُو صَالح غَالب بن سُلَيْمَان عَن كثير بن زِيَاد البرْسَانِي عَن أبي سميَّة قَالَ اخْتَلَفْنَا فِي الْوُرُود فَمن قَائِل لَا يدخلهَا مُؤمن وَمن قَائِل يدْخلُونَهَا جَمِيعًا ثمَّ ينجى الَّذين اتَّقوا فسألنا جَابرا عَن ذَلِك فَقَالَ وَقد أَهْوَى بأُصْبُعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ صمتا إِن لم أكن سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول الْوُرُود الدُّخُول لَا يَبْقَى بر وَلَا فَاجر إِلَّا دَخلهَا فَتكون عَلَى الْمُؤمن بردا وَسلَامًا كَمَا كَانَت عَلَى إِبْرَاهِيم حَتَّى إِن لِجَهَنَّم ضَجِيجًا من بردهمْ ثمَّ ينجي الله الَّذين اتَّقوا)

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي نَوَادِر الْأُصُول فِي الْأَصْل السَّادِس عشر وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان وَقَالَ إِسْنَاده حسن ذكره فِي الْبَاب التَّاسِع

وَبِهَذَا السَّنَد والمتن رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى أخبرنَا عَمْرو بن مَنْصُور حَدثنَا سُلَيْمَان بِهِ

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْأَهْوَال من حَدِيث سُلَيْمَان بن حَرْب حَدثنَا أَبُو صَالح غَالب بن سُلَيْمَان عَن كثير بن زِيَاد أبي سهل عَن مسَّة الْأَزْدِيَّة عَن عبد الرَّحْمَن بن شيبَة قَالَ اخْتَلَفْنَا فِي الْوُرُود فَقَالَ قوم لَا يدخلهَا مُؤمن وَقَالَ آخَرُونَ يدْخلُونَهَا جَمِيعًا ثمَّ ينجى الَّذين اتَّقوا فَأَهْوَى بِأُصْبُعَيْهِ وَقَالَ صمتا إِن لم أكن سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول الْوُرُود) إِلَى آخِره سَوَاء وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ

(279/481)

---

772 - الْحَدِيث الْخَامِس عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْحمى من فيح جَهَنَّم)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق وَمُسلم فِي الطِّبّ من حَدِيث عَائِشَة قَالَت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْحمى من فيح جَهَنَّم فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ)

انْتَهَى

773 - الحَدِيث السَّادِس عشر

فِي الحَدِيث (الْحمى حَظّ كل مُؤمن من النَّار)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث أنس وَمن حَدِيث عَائِشَة وَمن حَدِيث أبي رَيْحَانَة وَمن حَدِيث أبي أُمَامَة وَمن حَدِيث عُثْمَان بن عَفَّان وَمن حَدِيث ابْن مَسْعُود

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي كتاب الطِّبّ حَدثنَا أَبو بكر بن أبي شيبَة حَدثنَا أَبو أُسَامَة عَن عبد الرَّحْمَن بن يزِيد عَن إِسْمَاعِيل بن عبيد الله عَن أبي صَالح الْأَشْعَرِيّ عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه عَاد مَرِيضا من وعك بِهِ وَمَعَهُ أَبو هُرَيْرَة فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (أبْشِرْ فَإِن الله تَعَالَى يَقُول هِيَ نَارِي أُسَلِّطهَا عَلَى عَبدِي الْمُؤمن فِي الدُّنْيَا ليَكُون حَظه من النَّار فِي الْآخِرَة)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْجَنَائِز وَقَالَ حَدِيث صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَأما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الْعَسَّال حَدثنَا سُلَيْمَان بن دَاوُد الشَّاذكُونِي حَدثنَا عُبَيْس بن مَيْمُون حَدثنِي قَتَادَة عَن انس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْحمى حَظّ الْمُؤمن من النَّار)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث عَائِشَة فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث عُثْمَان بن مخلد الوَاسِطِيّ حَدثنَا هشيم عَن الْمُغيرَة عَن إِبْرَاهِيم عَن الْأسود عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الْحمى خط كل مُؤمن من النَّار)

انْتَهَى

وَقَالَ لَا نعلم أسْنده عَن هشيم إِلَّا عُثْمَان بن مخلد

انْتَهَى

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله عُثْمَان بن مخلد الوَاسِطِيّ لَا بَأْس بِهِ لكنه خُولِف فِي رفع هَذَا الحَدِيث فَرَوَاهُ مندل بن عَلّي عَن هشيم بِهِ مَوْقُوفا وَهُوَ الْمَحْفُوظ

وَأما حَدِيث أبي رَيْحَانَة فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السّبْعين من حَدِيث مُسلم بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا عصمَة بن سَالم الْهنائِي حَدثنَا الْأَشْعَث بن جَابر الْحدانِي عَن شهر بن حَوْشَب عَن أبي رَيْحَانَة مَرْفُوعا (الْحمى من فيح جَهَنَّم وَهِي نصيب الْمُؤمن من النَّار)

انْتَهَى

قَالَ أَبُو طَاهِر هَذَا إِسْنَاد فِيهِ جمَاعَة من الضُّعَفَاء وَأَبُو رَيْحَانَة أُسَمِّهِ شَمْعُون

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي أُمَامَة فَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ أَيْضا فِي الشّعب عَن يزِيد بن هَارُون أَنا مُحَمَّد بن مطرف عَن أبي الْحصين عَن أبي صَالح الْأَشْعَرِيّ عَن أبي أُمَامَة مَرْفُوعا الْحمى كي من جَهَنَّم فَمَا أصَاب الْمُؤمن كَانَ حَظه من النَّار)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث عُثْمَان فَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَائِهِ من حَدِيث فضل بن حَمَّاد الوَاسِطِيّ حَدثنَا عبد الله بن عمرَان الْقرشِي حَدثنَا مَالك بن دِينَار عَن معبد الْجُهَنِيّ عَن عُثْمَان ابْن عَفَّان قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْحمى حَظّ كل مُؤمن من النَّار)

انْتَهَى

(281/481)

وَأعله بِفضل بن حَمَّاد وَبِعَبْد الله بن عمرَان أَيْضا وَقَالَ إِسْنَاد غير مَحْفُوظ وَيروَى بِإِسْنَاد أصلح من هَذَا وَهُوَ حَدِيث صَحِيح

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَرَوَاهُ الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب أخبرنَا مُحَمَّد ابْن الْحُسَيْن

الْموصِلِي حَدثنَا أَبو بكر أَحْمد بن إِبْرَاهِيم بن شَاذان حَدثنَا صَالح بن أَحْمد الْهَرَوِيّ حَدثنَا أَحْمد بن رَاشد الْهِلَالِي حَدثنَا حميد بن عبد الرَّحْمَن الرواسِي عَن الْحسن ابْن صَالح عَن الْحسن بن عَمْرو عَن إِبْرَاهِيم عَن الْأَسود عَن ابْن مَسْعُود قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْحمى حَظّ كل مُؤمن من النَّار وَحمى لَيْلَة تلْغي خَطَايَا سنة)

انْتَهَى

قَالَ ابْن طَاهِر وَالْحسن بن صَالح تَركه يَحْيَى الْقطَّان وَعبد الرَّحْمَن بن مهْدي

وَأما حَدِيث سعد بن معَاذ فَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمته أخبرنَا أَبو نعيم الْفضل بن دُكَيْن حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن مُسلم الْعَبْدي حَدثنَا أَبو المتَوَكل أَن سعد ابْن معَاذ ذكر لَهُ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (من كَانَت بِهِ حمى فَهِيَ حَظه من النَّار) قَالَ فَسَأَلَهَا سعد فَلَزِمته وَلم تفَارِقهُ حَتَّى فَارق الدُّنْيَا

انْتَهَى

774 - قَوْله عَن الْحسن أَنَّهَا نزلت فِي الْوَلِيد بن الْمُغيرَة وَالْمَشْهُور أَنَّهَا فِي الْعَاص بن وَائِل قَالَ خباب بن الْأَرَت كَانَ لِي دين عَلَيْهِ فاقتضيته قَالَ لَا وَالله حَتَّى تكفر بِمُحَمد . . . الحَدِيث

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الْإِجَارَة وَمُسلم فِي كتاب الْمُنَافِقين من حَدِيث مَسْرُوق عَن خباب بن الْأَرَت قَال كنت قينا فِي الْجَاهِلِيَّة وَكَانَ لِي دين عَلَى الْعَاص بن وَائِل فَأَتَيْته أَتَقَاضَاهُ فَقَال لَهُ لَا أُعْطِيك حَتَّى تكفر بِمُحَمد فَقلت لَا وَالله لَا أكفر بِمُحَمد حَتَّى يُمِيتك الله ثمَّ تبْعَث فَقَال إِنِّي لميت ثمَّ مَبْعُوث قلت نعم قَال دَعْنِي حَتَّى أَمُوت ثمَّ أبْعث فسأوتي مَالا وَولدا فَأَقْضِيك فنزلت أَفَرَأَيْت الَّذِي كفر بِآيَاتِنَا . . . الْآيَات

انْتَهَى

775 - الحَدِيث السَّابِع عشر

قَال النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (وهم يَد عَلَى من سواهُم)

قلت رُوِيَ من حَدِيث عَلّي وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث معقل ابْن يسَار وَمن حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص وَمن حَدِيث ابْن عمر

أما حَدِيث عَلّي فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي سننيهما فِي كتاب الدّيات من حَدِيث قيس بن عباد عَن عَلّي أَنه أخرج من قراب سَيْفه كتابا عهد إِلَيْهِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَإِذا فِيهِ (الْمُسلمُونَ تتكافأ دِمَاؤُهُمْ وهم يَد عَلَى من سواهُم وَيسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُم أَلا لَا يقتل مُؤمن بِكَافِر وَلَا ذُو عهد فِي عَهده من أحدث أَو أَوَى مُحدثا فَعَلَيهِ لعنة الله وَالْمَلَائِكَة وَالنَّاس أَجْمَعِينَ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما

وَمن طَرِيق أَحْمد رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب قسم الْفَيْء وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجاهُ

(283/481)

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ ابْن ماجة حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الْأَعْلَى الصَّنْعَانِيّ حَدثنَا الْمُعْتَمِر بن سُلَيْمَان عَن أَبِيه عَن حُبَيْش عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الْمُسلمُونَ تَتَكَافَأ دِمَاؤُهُمْ وهم يَد عَلَى من سواهُم يسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُم وَيرد عَلَى أَقْصَاهُم)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث معقل بن يسَار فَرَوَاهُ ابْن ماجة أَيْضا حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن سعيد الْجَوْهَرِي حَدثنَا أنس بن عِيَاض أَبُو ضَمرَة عَن عبد السَّلَام بن أبي الْجنُوب عَن الْحسن عَن معقل بن يسَار قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْمُسلمُونَ يَد عَلَى من سواهُم تَتَكَافَأ دِمَاؤُهُمْ)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَابْن ماجة من حَدِيث عَمْرو بن شُعَيْب عَن أَبِيه عَن جده قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْمُسلمُونَ تتكافأ دِمَاؤُهُمْ وَيسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُم وَيجْبر عَلَيْهِم أَقْصَاهُم وهم يَد عَلَى من سواهُم) مُخْتَصر وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَرَوَاهُ احْمَد وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث وَالْأَرْبَعِينَ من الْقسم الثَّالِث من حَدِيث طَلْحَة بن مصرف عَن مُجَاهِد عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْمُؤْمِنُونَ يَد عَلَى من سواهُم تتكافأ دِمَاؤُهُمْ يعْقد عَلَيْهِم أَوَّلهمْ وَيرد عَلَيْهِم أَقْصَاهُم)

مُخْتَصر

776 - قَوْله

عَن عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فِي قَوْله تَعَالَى يَوْم نحْشر الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا قَالَ وَالله مَا يحشرون عَلَى أَرجُلهم وَلَكنهُمْ عَلَى نُوق رِحَالهَا ذهب وَعَلَى نَجَائِب سُرُوجهَا ياقوت قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه وَعبد الله بن أَحْمد فِي مُسْند أَبِيه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان والطبري وَابْن مرْدَوَيْه والواحدي وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم كلهم من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن إِسْحَاق عَن النُّعْمَان ابْن سعد عَن عَلّي فِي هَذِه الْآيَة يَوْم نحْشر الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا

قَالَ أما وَالله لَا يحشرون عَلَى أَقْدَامهم وَلَكنهُمْ يأْتونَ بنُوق لم ير الْخَلَائق مثلهَا عَلَيْهَا رحال الذَّهَب وَأَزِمَّتهَا الزبرجد فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا ثمَّ ينْطَلق بهم حَتَّى يقرعُوا بَاب الْجنَّة انْتَهَى

وَسَنَد عبد الله بن أَحْمد حَدثنَا سُوَيْد بن سعيد أَنا عَلّي بن مسْهر عَن عبد الرَّحْمَن بن إِسْحَاق بِهِ

وَرَفعه ابْن عدي فِي الْكَامِل رَوَاهُ من حَدِيث عَمْرو بن هَاشم أبي مَالك الْجَنبي حَدثنَا جُوَيْبِر عَن الضَّحَّاك بن مُزَاحم عَن ابْن عَبَّاس أَنه سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم نحْشر الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا فَقَالَ يَا عَلّي وَهل يكون الْوَفْد إِلَّا الركب وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّهُم لَيَأْتُونَ إِلَى قُبُورهم بنُوق) الحَدِيث ولين عَمْرو بن هَاشم وَقَالَ أَرْجُو أَنه صَدُوق انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الإِمَام أَبو بكر عبد الله بن أبي دَاوُد السجسْتَانِي فِي كتَاب الْبَعْث لَهُ وَهُوَ جُزْء حَدِيثي فَقَالَ حَدثنَا عباد بن يَعْقُوب الرواجي حَدثنَا مُحَمَّد بن فُضَيْل عَن عبد الرَّحْمَن بن إِسْحَاق عَن النُّعْمَان بن سعد عَن عَلّي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي هَذِه الْآيَة يَوْم نحْشر الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا الْآيَة . . . إِلَى آخر اللَّفْظ الأول ثمَّ قَالَ لم يرفعهُ عَن ابْن فُضَيْل إِلَّا عباد

انْتَهَى كَلَامه

777 - الحَدِيث الثَّامِن عشر

عَن ابْن مَسْعُود أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لأَصْحَابه ذَات يَوْم أَيعْجزُ أحدكُم أَن يتَّخذ كل صباح وَمَسَاء عِنْد الله عهدا) قَالُوا وَكَيف ذَلِك قَالَ يَقُول كل صباح وَمَسَاء اللَّهُمَّ فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض عَالم الْغَيْب وَالشَّهَادَة إِنِّي أَعهد إِلَيْك بِأَنِّي أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا أَنْت وَحدك لَا شريك لَك وَأَن مُحَمَّدًا عَبدك وَرَسُولك وَأَنَّك إِن تَكِلنِي إِلَى نَفسِي تقربني من الشَّرّ وَتُبَاعِدنِي عَن الْخَيْر وَإِنِّي لَا أَثِق إِلَّا برَحْمَتك فَاجْعَل لِي عهدا تُوفينِيهِ يَوْم الْقِيَامَة إِنَّك

لَا تخلف الميعاد فَإِذا قَالَ ذَلِك طبع عَلَيْهِ بطَابع وَوضع تَحت الْعَرْش فَإِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة نَادَى مُنَاد أَيْن الَّذين كَانَ لَهُم عِنْد الله عهد فَيدْخلُونَ الْجنَّة)

(286/481)

قلت غَرِيب مَرْفُوعا وَلم أَجِدهُ إِلَّا مَوْقُوفا رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الدُّعَاء وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية كلهم من حَدِيث الْمَسْعُودِيّ عَن عون بن عبد الله بن عبد الله بن عتبَة عَن أبي فَاخِتَة عَن الْأسود بن يزِيد عَن ابْن مَسْعُود أَنه قَرَأَ إِلَّا من اتخذ عِنْد الرَّحْمَن عهدا فَإِن الله يَقُول اتَّخذُوا عِنْد الرَّحْمَن عهدا فَإِن الله يَقُول يَوْم الْقِيَامَة من كَانَ لَهُ عِنْدِي عهد فَليقمْ قَالَ فَقُلْنَا فعلمنا يَا أَبَا عبد الرَّحْمَن فَقَالَ قُولُوا اللَّهُمَّ فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض . . . إِلَى قَوْله إِنَّك لَا تخلف الميعاد

قَالَ الْحَاكِم صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَقَالَ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره وَرَوَى أَبُو وَائِل عَن عبد الله بن مَسْعُود أَنه عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ لأَصْحَابه . . . فَذكره بلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ مَرْفُوعا فِي كِتَابه نَوَادِر الْأُصُول لَكِن من حَدِيث أبي بكر فَقَالَ حَدثنَا عمر بن أبي عمر حَدثنَا أَبُو عبد الله بن أبي أُمَيَّة الْفَزارِيّ عَن أبي عَلّي بن الرماح عَن

عَمْرو بن مَيْمُون حَدثنِي مقَاتل بن حيَّان عَن الْأسود ابْن هِلَال عَن أبي بكر الصّديق قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَالَ فِي دبر الصَّلَوَات هَؤُلَاءِ الْكَلِمَات اللَّهُمَّ فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض) إِلَى قَوْله إِنَّك لَا تخلف الميعاد إِلَّا كتبهَا فِي رق ثمَّ خَتمه بخَاتمِهِ ثمَّ رَفعه إِلَى يَوْم الْقِيَامَة فَإِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة نَادَى مُنَاد أَيْن الَّذين كَانَ لَهُم عِنْد الله عهد فَدفع إِلَيْهِم) انْتَهَى

ذكره فِي الأَصْل السَّادِس وَالسبْعين بعد الْمِائَة

(287/481)

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْأَحْزَاب حَدثنَا عَلَى بن أبي حَامِد الْمَدِينِيّ حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن سعيد حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله بن سُلَيْمَان قَالَ وجدت فِي كتَاب عقبَة بن قبيصَة حَدثنَا أبي حَدثنَا حَمْزَة الزيات عَن عون بن عبد الله عَن رجل من بني سليم عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْعَهْد الْمَسْئُول أَن تَقول اللَّهُمَّ فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض عَالم الْغَيْب وَالشَّهَادَة إِنِّي أَعهد إِلَيْك فِي هَذِه الْحَيَاة الدُّنْيَا أَلا تَكِلنِي إِلَى عمل يقربني من الشَّرّ ويُبَاعِدنِي من الْخَيْر وَإِنِّي لَا أَثق إِلَّا برَحْمَتك فَاجْعَل لي عهدا عنْدك تؤَدِّيه إِلَيّ يَوْم الْقِيَامَة إِنَّك لَا تخلف الميعاد)

انْتَهَى

778 - الحَدِيث التَّاسِع عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من ادَّعَى إِلَى غير موَالِيه)

قلت غَرِيب بهَذَا اللَّفْظ وَالَّذِي فِي مُسلم عَن عَلّي بن أبي طَالب عَن

النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَمن ادَّعَى إِلَى غير أَبِيه أَو انْتَمَى إِلَى غير موَالِيه فَعَلَيهِ لعنة

الله وَالْمَلَائِكَة وَالنَّاس أَجْمَعِينَ) مُخْتَصرا أخرجه مُسلم فِي الْعتْق عَن ابْن شريك التَّيْمِيّ

عَن عَلّي . . . فَذكره

وَقد تقدم بتَمَامِهِ فِي 37 من الْبَقَرَة

وَهُوَ فِي البُخَارِيّ لَيْسَ فِيهِ اللَّفْظ الْمَذْكُور

وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى أَن من ادَّعَى فِيهِ مُطَاوع دعِي بِمَعْنى نسب

(288/481)

وَذكره السَّرَقسْطِي فِي غَرِيبه من غير سَنَد بِلَفْظ المُصَنّف فَقَالَ رُوِيَ عَن عَلّي بن أبي

طَالب أَنه قَامَ خَطِيبًا فَقَالَ إِن الله بعث مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاما غير خَاص أَدَّى

مَا أَدَّى عَلَانيَة غير سر وَقد بَلغنِي أَن نَاسا يَزْعمُونَ أَن عِنْدِي من رَسُول الله مَا لَيْسَ عِنْد

النَّاس وَأَنا أعوذ بِاللَّه إِلَّا أَن يكون فِي قرابي هَذَا شَيْء ثمَّ أخرج من قرَابه صحيفَة فقرأها رَافعا صَوته قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من ادَّعَى إِلَى غير موَاليه أَو تولى مولَى قوم دونهم فَعَلَيهِ لعنة الله . . . إِلَى آخر لفظ الصَّحِيح

779 - الْحَدِيث الْعشْرُونَ

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ لعَلي يَا عَلّي قل اللَّهُمَّ اجْعَل لي عنْدك عهدا وَاجعَل لِي فِي صُدُور الْمُؤمِنِينَ مَوَدَّة) فَأَنْزل الله هَذِه الْآيَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا عبد الْخَالِق أَنا أَبُو عَلّي مُحَمَّد بن أَحْمد بن الْحسن الصَّواف بِبَغْدَاد حَدثنَا أَبُو جَعْفَر الْحسن بن عَلّي الْفَارِسِي حَدثنَا إِسْحَاق بن بشر الْكُوفِي حَدثنَا خَالِد بن يزِيد عَن حَمْزَة الزيات عَن أبي إِسْحَاق السبيعِي عَن الْبَراء بن عَازِب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لعَلي بن أبي طَالب (يَا عَلّي قل اللَّهُمَّ اجْعَل لي عنْدك عهدا وَاجعَل لِي فِي صُدُور الْمُؤمِنِينَ مَوَدَّة) فَأَنْزل الله تَعَالَى إِن الَّذين آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات سَيجْعَل لَهُم الرَّحْمَن ودا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن السّري وَعبد الْبَاقِي ابْن قَانِع قَالَا حَدثنَا الْحسن بن عَلّي بن النُّعْمَان حَدثنَا إِسْحَاق بن بشر الْكَاهِلي حَدثنَا خَالِد بن يزِيد بِهِ سندا ومتنا

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي الْجُزْء الَّذِي جمعه من أَحَادِيث حَمْزَة الزيات وَهُوَ جُزْء لطيف جملَته ثَمَان وَرَقَات فَقَالَ حَدثنَا الْحسن بن عَلّي الْفَسَوِي حَدثنَا إِسْحَاق بن بشر الْكَاهِلِي حَدثنَا خَالِد بن يزِيد الْقَسرِي بِهِ سندا ومتنا

780 - الْحَدِيث الْحَادِي وَالْعشْرُونَ

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (يَقُول الله عَزَّ وَجَلَّ يَا جِبْرِيل قد أَحْبَبْت فلَانا فَأَحبهُ فَيُحِبهُ جِبْرِيل فينادي جِبْرِيل فِي أهل السَّمَاء إِن الله قد أحب فلَانا فَأَحبُّوهُ فَيُحِبهُ أهل السَّمَاء ثمَّ توضع لَهُ الْمحبَّة فِي الأَرْض)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الْأَدَب وَمُسلم فِي الْبر والصلة من حَدِيث سهل عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِذا أحب الله عبدا نَادَى جِبْرِيل إِن الله يحب فلَانا فَأَحبهُ فَيُحِبهُ جِبْرِيل فينادي جِبْرِيل فِي أهل السَّمَاء إِن الله يحب فلَانا فَأَحبُّوهُ فَيُحِبهُ أهل السَّمَاء ثمَّ يوضع لَهُ الْقبُول فِي الأَرْض)

انْتَهَى للْبُخَارِيّ وَزَاد مُسلم (وَإِذا أبْغض عبدا دَعَا جِبْرِيل فَيَقُول إِنِّي أبْغض فلَانا فَأَبْغضهُ قَالَ فَيبْغضهُ جِبْرِيل ثمَّ يُنَادي فِي أهل السَّمَاء إِن الله يبغض فلَانا فَأَبْغضُوهُ قَالَ فَيبْغضُونَهُ ثمَّ

تُوضَع لَهُ الْبغضَاء فِي الأَرْض)

انْتَهَى

781 - الحَدِيث الثَّانِي وَالْعشْرُونَ

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من قَرَأَ سُورَة مَرْيَم أعطي من الْأَجر عشر حَسَنَات بِعَدَد من كذب زَكَرِيَّا وَصدق بِهِ وَيَحْيَى وَمَرْيَم وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيم وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب ومُوسَى وَهَارُون وَإِسْمَاعِيل وَإِدْرِيس

(290/481)

وَعشر حَسَنَات بِعَدَد من دَعَا الله فِي الدُّنْيَا وَبِعَدَد من لم يدع الله

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي حَدثنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره إِلَّا أَنه قَالَ وَبِعَدَد من دَعَا لله ولدا وَبِعَدَد من لم يدع لَهُ ولدا) عوض قَوْله من يدع الله فِي الدُّنْيَا وَمن لم يدع

وَكَذَلِك رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان بِلَفْظ الثَّعْلَبِيّ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِلَفْظ الثَّعْلَبِيّ بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 321 . 343 ﴾

(291/481)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة مريم

قوله تعالى : (إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا) ، الآية/ 3 .

يدل على أن أفضل الدعاء ما هذه حاله ، لأنه أبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الإخلاص .

قوله تعالى : (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) ، الآية/ 4 .

يدل على أنه يستحيى للمرء أن يذكر في دعائه نعم اللّه تعالى عليه ، وما يليق بالخضوع ، لأن قوله : (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) ، إظهار للخضوع ، وقوله : (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) ، إظهارا لعادات تفضله في إجابة أدعيته ،

ثم عقب ذلك بالمسألة فقال :

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) ، الآية/ 5 :

يدل على أن رفع الحاجة إليه ، إنما يستحب عند مخافة الضرر في الدين ، فإنه خاف من أقاربه الفساد والشر ، فطلب من اللّه تعالى ولدا يقوم بالدين بعده ، فيرثه النبوة ، ويرث من آل يعقوب ، ولا يجوز أن يهتم بالدعاء هذا الاهتمام ، ومراده أن يورثه المال ، فإن ذلك مباين لطريقة الأنبياء ،

(292/481)

ولأنه جمع وراثته إلى وراثة آل يعقوب ، ومعلوم أن ولد زكريا لا يرثهم .

فإن قيل : كيف أقدم على مسألة ما يخرق العادة من غير إذن ! ؟

الجواب : أن ذلك جائز ، في زمان الأنبياء ، وفي القرآن ما كشف عن هذا المعنى ، فإنه قال تعالى :

(كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) «1» .

فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه في إجابة دعوته ، فقال تعالى :

(هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) «2» .

قوله تعالى : (إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا) ، الآية/ 58 .

فيه دلالة على أن لتلاوة آيات الرحمن تأثيرا ، فقال الحسن : إذ تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا : في الصلاة .

وقال الأصم : المراد بآيات اللّه كتبه المتضمنة لتوحيده وحجته ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، ويبكون عند ذكرها .

والمروي عن ابن عباس ، أن المراد به القرآن ، خاصة وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوته ويبكون ، ففي ذلك دلالة من قوله على أن القرآن هو الذي كان يتلى على جميع الأنبياء ، ولو كان كذلك لما كان الرسول صلى اللّه عليه وسلم مختصا بإنزاله عليه .

---

(1) سورة آل عمران آية 37 .

(2) سورة آل عمران آية 38 .

واحتج الرازي به على وجوب سجود القرآن على المستمع والقارئ ، وهذا بعيد ، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات اللّه تعالى ، وضم إلى السجود البكاء ، وأبان به عن طريقه الأنبياء في تعظيمهم اللّه تعالى وآياته ، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند سماع آيات

مخصوصة .

قوله تعالى :

(وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً) ، الآية/ 92 ، 93 .

فيه دلالة على أن الولد لا يكون مملوكا لأبيه خلافا لمن قال : إنه يشتريه فيملكه ولا يعتق إلا إذا أعتقه ، وقد أبان اللّه تعالى المنافاة بين الولادة والملك .

واستدل إسماعيل بن إسماعيل بن اسحق بدليل آخر ، ونقله الرازي في كتابه عنه فقال : وقد اتفق أهل العلم على أن أمة الرجل إذا حملت منه ، فإن الولد يتحرر في بطن أمه ، مع أن العبرة في رق الولد برق الأم ، وحرية الوالد لا تقتضي حرية الولد ، فلم يكن عتق الولد من جهة كون الأب حرا ، وإنما كان من جهة أن الولد لو علق رقيقا ، لكان ملكا للوالد ، ولا يثبت الملك للوالد على الولد أصلا .

إلا أن الولد تم حر الأصل ، لأنه لا حاجة إلى إثبات الرق والملك للولد ، فعلق الولد حرا هنالك ، حتى لا يثبت للوالد على الولد ملك .

وإذا اشترى ، فلا يمكن أن يقال إن الملك لا يثبت ، فإن الملك لو لم يثبت لم يصح الشراء ، ولا بد من تصحيح الشراء .

وقال مالك : ينقل المالك الملك إلى المشتري ، فيثبت له الملك بقدر ما يحصل به الانتقال ضرورة تصحيح الشراء ، وامتنع بعد ذلك ثبوت ملك الوالد عليه .

(294/481)

وقال بعض العلماء : إن شراء الولد لا يثبت له ملكا أصلا ، وإنما هو عقد عتاق ، فإما أن يقال إن الملك يثبت حقيقة في زمان ، وحصل العتق بعده في زمان آخر فلا ، ولكن العتق ثبت مقارنا للشراء ، وجعل الشراء عقد عتاق وإسقاط لملك المالك ، لا على حقيقة شراء فيما سواه ، ولم يجعل الشراء سبب الملك ، لوجود الأبوة المنافية له ، كما لم يجعل ملك المحل سببا لملك الولد لوجود سبب ما ينافيه ، فيقال حدث حرا ، وكذلك يقال حصل الشراء مع الحرية .

فهذا قول فيه تأمل .

وعلى كل حال تبين به أنه لا يدوم ملك الوالد على ولده «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 269.272﴾

---

(1) انظر أبو بكر الجصاص في هذه المسألة .

تأملات تربوية – سورة مريم

د : عثمان قدري مكانسي

(1) هذه بداية تأملات تربوية في كتاب الله تعالى ، أقدمها على حلقات أسبوعية إن شاء الله ، ليس فيها من التفسير إلا ما يخدم الفكرة التربوية في القرآن الكريم ، أجلي فيها الأسلوب التربوي ، وأشير إليه دون الخوض في المعاني إلا بما يناسب الهدف التربوي نفسه . وقد أشير إلى هدف بلاغي أو تعبير لغوي أو توجيه نحوي يخدم الهدف التربوي الذي أريد تجليته . . . . والله ولي التوفيق .

1 – أسلوب التنبيه : أساليب التنبيه في القرآن الكريم كثيرة كلما مررنا على واحد منها ذكرناه –إن شاء الله تعالى – في موقعه . . وهنا نجد السورة تبدأ مثل كثير من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة ، ك . ه . ي . ع . ص . فالأول والرابع والخامس منها ممدودة والثاني والثالث غير ذلك ، مما يشد انتباه السامع والقارئ على حد سواء بطريقتين مجتمعتين قبل البدء بقراءة الجمل والمعاني ، هما " الحروف المبهمة " و " الأداء الموسيقي " والمفسرون يوردون تفسير هذه الحروف منسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ،

فالكاف "كريم" والهاء "هاد" والياء "قوي، ذوالأيد" والعين "عليم" والصاد "صادق الوعد" . . . . إن البدء بحروف متقطعة ذات جرس موسيقي مختلف يجعل المتلقي يرهف السمع، إليها لغرابتها فلا يضيع عليه ما بعدها . . . . ومن ناحية أخرى نجد المتلقي يتساءل في قرارة نفسه عن معناها وطريقة أدائها ليصل إلى تأويلات عدة، منها : أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف وأخواتها ، فإن استطعت أن تأتي بمثلها فافعل . وإلا ثبت أنها من لدن عليم خبير .

2- التأمل والتدبر : إن كلمة "ذكر" في قوله تعالى "ذكر رحمة ربك عبده زكريا" توحي بأمور كثيرة يتفاعل بها المتلقي سامعا وقارئا . منها :

- إعمال الفكر، وتقليب المعاني في ذكر الله تعالى عبده الصالح زكريا ، وسبب تخصيصه بهذا الفضل العظيم حين ذكره

(296/481)

- وأن التذكر ليس ضد النسيان دائما ، فالله سبحانه وتعالى منزه عن النقائص، والنسيان نقيصة . "لا يضل ربي ولا ينسى" "وما كان ربك نسيا" "أحصاه الله ونسوه" . إنما التذكر هنا رفع لمقام زكريا عليه السلام، واستجابة لدعوته، وخصه بالرحمة .

- وأن ذكر الله عز وجل يرفع مقام صاحبه في عليين " فاذكروني أذكركم " " ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه " . . .

- وانظر معي إلى هذا الربط الرائع بين النبيين الكريمين ، فهما أخوان كريمان يستقيان من نبع واحد ، ويستضيئان من مشكاة واحدة ، فكلمة " ربك" خطاب لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام تدل على أعلى مراتب الإنسان : العبودية لله تعالى ، فما دام الله ربه فهو عليه الصلاة والسلام عبده . وزكريا عليه الصلاة والسلام عبده ، فاجتمعا في هذه المكانة العلية . وبما أنهما مثال يحتذى كانت الدعوة لنا من الله تعالى أن نكون من عباده .

3 - إغاثة الملهوف : فزكريا عليه السلام لجأ إلى الله تعالى ، واتجه إليه في دعائه وسأله من فضله ، " إذ نادى ربه نداء خفيا " ، فأجابه الله إذ رحمه ووهبه غلاما زكيا . وهذه لفتة كريمة تحض على مساعدة الآخرين وتقديم العون لهم إن استطعنا إلى ذلك سبيلا .

4 - أدب الخطاب : ويتجلى ذلك في أمور عدة :

أولها : التحبب : من أحب شيئا أكثر من ذكره . وأنت حين تخاطب من تحب يتكرر اسمه على لسانك . فزكريا عليه السلام ذكر ربه خمس مرات في جمل قليلة : " رب إني وهن العظم مني " " ولم أكن بدعائك رب شقيا " " واجعله رب رضيا " " قال رب أنى يكون لي غلام . . " " قال رب اجعل لي آية " . وعلى هذا قبل الله تعالى ربوبيته لعبده زكريا حين قال سبحانه : " إذ نادى ربه نداء خفيا " .

ثانيها : النداء الخافت : فالله تعالى يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . وحين سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا ينادي الله بصوت عال ، قال : له إنك لا تنادي أصم بل سميعا بصيرا . وحين سأله رجل : هل ربك قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ نزل قوله تعالى : " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداعي إذا دعان . . " . " نداء خفيا " . لأنه معه ، " ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " .

ثالثها : التذلل إلى الله قبل الطلب : فقد عرض الحال بتسلسل منطقي ، وأدب جم ، فبدأ بذاته الداخلية " إني وهن العظم مني " ولم يقل وهن عظمي فكان صادقا فليس كل عظمه واهنا وإلا لم يستطع الحركة ، وإنما أراد أن يقول : إنه ضعف وشاخ . وثنى بجزء منه لكنه الإطار الخارجي منه " واشتعل الرأس شيبا . فلئن كان شعره منه إلا أن بعضه خارج جسمه ، أما العظم فمختلط بلحمه وشحمه . ثم التمس تقبل الدعاء وإجابة الرجاء مادحا ربه : " ولم أكن بدعائك رب شقيا " فأنت يا رب سميع الدعاء ، ولن تردني خائبا .

رابعها : الحرص عل الدعوة حين خاف على الدعوة إلى الله أن تضعف و لم يجد من حوله

من يقوم بأدائها ويحمل عبئها ، " وإني خفت الموالي من ورائي " فلا بد من خلف يكمل عمل السلف . وأمرأته عقيم " وكانت امرأتي عاقرا " فليس لي ذرية يتمون ما أمرتني بالقيام به .

(298/481)

خامسها : البوح بالطلب أن يرزقه الله ولدا صالحا تقر به عينه حين يراه حاملا أمانة الرسالة وهم الدعوة إلى الله عز وجل بين اليهود قساة القلوب . " فهب لي من لدنك وليا ، وقد لا يكون الولد وليا . فالولي الذي يسير على هديك وخطاك ، ويكمل ما بنيته ، لا الذي يهدم ما تعبت في بنائه وإقامته . فهو لن يكون وليا ولو كان من لحمك ودمك . وكم من شوكة تخلف وردة ! " ما مهمته ؟ " يرثني ، ويرث من آل يعقوب " . . . وهنا نجد الدقة في بيان السبب : أن يرثه في كل شيء كان يقوم به ، ويرث الصالحين من آل يعقوب في المهمة نفسها .

سادسها : أن يكمل المنة ، فيجعله رضيا . وهنا نجد الأسلوب البلاغي الرائع في قوله تعالى " رضيا " فالغلام راض بما قسم الله له شاكر لله فضله ، والله راض عنه مكمل عليه نعمته . فـ" رضي " أدت معنى اسمي الفاعل والمفعول معا ، ولن تكون " راض " و" مرضي " لتغني إحداهما عن الأخرى ! . . . . وكم يتمنى الناس الذرية دون أن يقوموا بواجبهم في

تربية النشء ، ويهتمون بجني المال لأولادهم من حل وحرام ، وقد كفل الله لهم الرزق ، وكفاهم مؤونته ويتناسون أن الله أمرهم بحسن التربية ، وسيحاسبهم على ذلك ، أحسنوا أو أساءوا ؟ .

5- الإجابة السريعة : فإن استطعت أخي الحبيب أن تلبي أخاك فلا تتكاسل . إن الله تعالى أجاب عبده المطيع بسرعة فلا نجد حرف عطف ولا حرف استفهام ، ولا الفعل " قال" : . . . إنما قرأنا مباشرة : " يازكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا " . وتجلت الإجابة السريعة بما يلي :

أولا : النداء ، ما إن نادى ربه حتى سمع نداء ربه : " يازكريا " فعرف أنه المقصود لا سواه فأصاخ السمع ، خافق القلب راغب الخير .

(299/481)

ثانيا : البشرى وهذا أسلوب رائع في طمأنة الفؤاد وإراحة النفس قبل زف البشرى نفسها . ولعل الإنسان يظل مستوفز الأعصاب لا يدري أيسمع بشرى أم إنذارا حتى يقال له ما يقال . لكنه حين يسمع كلمة البشرى قبل إلقائها ترتاح نفسه ، ويكون أكثر وعيا لتلقيها . ومما زاد في جمال البشرى أنها جاءت بعد التأكيد " إنا " والفعل المضارع الذي يسمعه ،

فثبت حصولها .

ثالثا : تحقيق المطلوب : فهو غلام سيبلغ الحلم وتقر به العينان . وقد نذرت امرأة عمران ما في بطنها محررا وهي ترغب في الولد ، ففوجئت بأنثى ، خيبت في البدء أملها في الوفاء بالنذر ف " قالت رب إني وضعتها أنثى " " وليس الذكر كالأنثى " ، لكنها حزمت أمرها ووفت بنذرها . لكنه هنا ذكر يافع . وزاد في تمام الفضل أن الله سماه يحيى من فوق سبع سماوات . ولم يجعل له من قبل سميا .

6- الضعف البشري : المخلوق ضعيف . . ضعيف مهما علا شأنه ، ورسخ إيمانه . ولو كان نبيا إلا من عصمه الله تعالى . لكن أخطاء الأنبياء ليست كأخطاء الآخرين ، إنما هي هنات تدل على بشريتهم . لكنهو يظلون مثال الكمال الإنساني ومما يدل على ذلك في قصة سيدنا زكريا ما يلي :

أولا : أنه ذكر ضعفه وهرمه ، وعرف أن زوجته لا تنجب لسببين اثنين أحدهما شيخوختها ، وثانيهما عقمها . ومع ذلك فأمله بالله أن يرزقهما ولدا صالحا كبير . . . فلما أجاب الله سؤله تعجب من ذلك .

ثانيا : انه حين سأل الله تعالى الولد قدم شيخوخته على عقم زوجته . وكأنه السبب الأول في عدم الإنجاب . فلما تعجب من البشرى نأى بنفسه أن يكون السبب الأول لعدم الإنجاب ، فقدم زوجته عليه . وهنا نلحظ الرغبة في الكمال وتفضيل النفس على

الآخرين . . . . ولعله تعجب أن تلد امرأة عقيم بلغت سن الشيخوخة ، فنبهه المولى سبحانه أنه على كل شيء قدير ، فقد خلقه من العدم .

(300/481)

7- تصحيح الخطأ مع التعليل : إذا ترك الإنسان لنفسه فقد يزل ويقع في المحظور ، فإدراك العقل محدود ، وفهمه قاصر ، ولا بد من تصويب الأخطاء كي يبقى الصحيح فقط ، فيتمثله القلب والعقل . مع التعليل لدواع عديدة . منها : أن يكون الحكم واضحا بينا ، والدليل ساطعا فينقطع الشك ، وليكون الجواب شافيا . فلما تساءل زكريا عليه السلام عن إمكانية حمل زوجته ، وبشرى الله لهما بالغلام قيل له : " . . كذلك قال ربك هو علي هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا " .

فبين له أن الله تعالى خلقه من عدم . وهو سبحانه قادر على كل شيء .

8- الاستيثاق من الأمر : وهو أسلوب تربوي ذو فوائد جمة ، منها : التأكد ، والاطمئنان ، والمتابعة . لكن الله هو الذي وعده بالغلام ، فهل يطلب منه إثباتا ؟ ! وهو سبحانه إن شاء وهب ، ويمنع إن شاء . فهل أخطأ زكريا حين سأل ربه العلامة ف " قال رب اجعل لي آية " ؟ !

لو كان هذا السؤال من قبيل الشك فهو الكفر بعينه ، وهو قلة الأدب ذاتها . لكنه نبي الله فوق الشبهات ، وقد أرادها ليعلم وقت حدوثها . هذا من ناحية . ثم لا بد من الاطمئنان فهذه هي الطبيعة البشرية السوية . والدليل على ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام لربه : " رب أرني كيف تحيي الموتى ! قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي " والقصة معروفة . كما أن قصة عزير تسير على هذا النسق حين قال وهو في طريقه إذ رأى القدس هدمها الآشوريون : " أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ ! فأماته الله مئة عام ثم بعثه . قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم . قال : بل لبثت مئة عام . . . . "فلما رأى قدرة الله في بديع صنعه قال : " أعلم أن الله على كل شيئ قدير " . ومثله قول مريم : " أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ، ولم أك بغيا " فهي تتساءل للتأكد والتثبت .

(301/481)

9- الدعوة إلى الله في كل الظروف : فإذا مرض الإنسان أو امتنع أن يقوم بواجبه المعتاد بالطريقة التي اعتادها لأمر طارئ اتخذ ذلك ذريعة للتفلت أو الراحة - ومن حقه أن يرتاح فترة ليشحذ همته - لكن النفس الطموح للنبي الكريم زكريا أبت أن تبتعد عن طريقها المرسوم . فحين حملت زوجته بيحيى و ما عاد يتكلم ثلاثة أيام - كما أعلمه ربه بذلك - لم

يتوان عن دعوته ، ولم يتخل عن مهمته ، إنما التزم المحراب يصلي ويجتهد في عبادة ربه شاكرا فضله ، معترفا بنعمته عليه . وأوحى لأتباعه بالإشارة أن " سبحوا بكرة وعشيا "

10- اختيار زمان الذكر ومكانه : أما المكان فالمحراب لمقابلة المليك العظيم ، فينبغي أن يكون أفضل مكان في البيت أو المسجد . والمحراب في العربية (صدر البيت ، أو المسجد ، وأشرف موضع فيه ، ومجلس الملوك الذي ينفردون به عن العامة) . وأما الزمان فالذي يدل على قدرة الله عز وجل في بديع صنعه ، حين يتداخل الليل والنهار في الفجر والمغرب هذا التداخل بين الظلام والضياء ، وبين الموت والحياة " وسبح بالعشي والإبكار " .

11- الاهتمام بالجوهر والبعد عن الحشو : يختصر القرآن المسافات التي لا يغني ذكرها . فلم يحدثنا عن طفولة يحيى عليه السلام ، إنما فاجأنا باللب والمراد من القصة ، فإذا هو فتى ذكي الفؤاد قوي العزيمة ، ذو حكمة وفهم ، يحمل رسالة ربه بكل ما أوتي من صبر واجتهاد .

12- بر الوالدين : ولن يرضى الله تعالى عن الإنسان ما لم يكن الوالدان راضيين عنه . ولن يستطيع حمل رسالة ربه ما لم يحمل في قلبه حبا لهما وتقديرا ووفاء . ولهذا شمله الله تعالى بالسلام والطمأنينة يوم ولد ، ويوم مات وبالسلام يوم القيامة والنجاة من النار في ذلك اليوم المهول . حين تبعث الخلائق ، فمنهم شقي وسعيد . . . .

---

(2)

الناظر في هذه السورة الكريمة يجدها تتحدث في التربية الأسرية . وعلاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض :

(302/481)

فالمقطع الأول يتحدث عن سيدنا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام . . . وهم الدعوة ، وحمل الأمانة ، وبر الولد بأبويه .

والمقطع الثاني يتحدث عن العلاقة الحميمة بين الأم وولدها ، الأم الطاهرة النقية مريم العذراء التي وهبت نفسها لدين الله ودعوته ، والولد الصالح عيسى عليه السلام الذي دافع عن طهر أمه وشرفها ، وحمل الدعوة إلى الله عز وجل .

والمقطع الثالث يتحدث عن الصديق إبراهيم عليه السلام الذي هداه الله إليه ، وعلاقته بوالده حين دعا الولد أباه بأدب جم إلى عبادة الله الواحد ، ثم اعتزله وقومه إذ أصروا على الكفر ، وتحمل المشاق في سبيل الدعوة إلى ربه ، فأكرمه الله تعالى بالذرية الصالحة التي رباها فأحسن تربيتها . فكان بذلك قدوة للعالمين جميعا .

والمقطع الرابع يتحدث عن النبي العظيم موسى صاحب العزم القوي في الدعوة إلى الله ، إذ

أكرمه ربه فجعله مخلصا ورسولا كريما ، ومن عليه في أخيه هارون فوهبه أعلى درجات الإنسان في الوصول إلى ربه " النبوة " . فكان موسى لهارون أكرم منة لأخ على أخيه مر الدهور وكر العصور .

والمقطع الخامس يتحدث عن دور رب الأسرة في تربية أهله – زوجة وأولادا وموالي – فهذا إسماعيل عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا بسبب تربيته إياهم . فكان قدوة لمن بعده في الاعتناء بالأسرة ووصلها بالله . . فمن كان بحبل الله موصولا سعد وأكرم ، وحاز القبول .

وقد كنا الأسبوع الماضي نتأمل في رياض المقطع الأول ، في رحاب النبيين الكريمين الأب زكريا وابنه يحيى . . فهلم إلى الروضة الغناء في رحاب العذراء البتول وابنها السيد الكريم عيسى عليهما السلام .

1 – تقييد العلم : العلم في الصدور ، وتقييده في السطور ، وكلمة " اذكر في الكتاب " ترددت خمس مرات في هذه السورة الكريمة :

" واذكر في الكتاب مريم "

" واذكر في الكتاب إبراهيم "

" واذكر في الكتاب موسى "

" واذكر في الكتاب إسماعيل "

" واذكر في الكتاب إدريس "

والفائدة التربوية الأولى من كلمة " اذكر " العلم : فالعلم بالشيء ومعرفته أمر لا بد منه لأهل الدعوة (ففاقد الشيء لا يعطيه) .

والفائدة الثانية الكتابة : إن تقييد العلم في كتاب يحفظه من الضياع ، ويثبته في الذاكرة بين الحين والحين .

والفائدة الثالثة التعليم : وهذه رسالة الأنبياء والدعاة والمعلمين ، لا ينبغي التفريط فيها ، " فمن كتم علما لجمه الله بلجام من نار " .

2- شفافية التبتل إلى الله : من كان مع الله كان الله معه ، ومن أخلص في عبادته اجتباه الله وأدناه . فقد انقطعت مريم عن اقرب الناس إليها وعن الدنيا ، واجتهدت في التقرب إلى مولاها ، فاستقلت عنهم بأدب جم دون أن تسيء إليهم " فانتبذت " منهم ولم يقل : " نبذتهم " ففي الأولى ابتعاد وانقطاع مع احترام وتوقير ، وفي الثانية احتقار واستعلاء . فالانتباذ بالنفس ، والنبذ للآخرين ! . . . أرأيتم جمال التعبير ؟ ! . . . إلى أين ؟ " مكانا شرقيا " . . . إلى مصدر النور عند إشراق الشمس . ومن كان قصده خالق النور

والضياء احتجب عن الناس " فاتخذت من دونهم حجابا " .

3- الجزاء من جنس العمل : حين انقطعت إلى الله تعالى ورغبت فيما عنده ورجت رضاه لم يخيب أملها . . . وصلها حين وصلته . وقبلها حين قصدته . " وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . وإن سألني أعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه " . لقد أرسل إليها كبير الملائكة " جبريل " عليه السلام . ليكرمها بسيد من سادات البشر .

(304/481)

4- المنطقية في التعامل : لجبريل عليه السلام ست مئة جناح ، كما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام . وكان يملأ السماء حين رآه النبي عليه الصلاة والسلام مرتين على هيئته التي خلقه الله تعالى عليها . فلو أنه دخل على مريم بهذه الهيئة لسقطت ميتة أو مغمى عليها . فلم يكن تباسط ، ولا حديث ، ولما عرفت سبب دخوله عليها ولا ماهيته . إذا دخل عليها على هيئة رجل " فتمثل لها بشرا سويا " لتفهم منه ، فيخاطبها وتخاطبه . . وقد نبه المولى سبحانه وتعالى إلى المثلية فقال رادا على الذين رغبوا أن يكون الرسول ملكا حتى يؤمنوا

به : " وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ !

قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا" .

5- الحوار : هو أسلوب راق في التربية ، له فوائد كثيرة . منها :

1- أنك تسمع حديثا فيه آراء وحجج يدلي بها المتحاورون ، ليبرهن كل منهم على صواب ما يرتئيه .

2- ان الحوار يثري السامع والقارئ والرائي بأفكار تطرح أمامهم ، بالحجة والبرهان ، فيعتادون التفكير السليم والأسلوب القويم .

3- أن الحوار أثبت في النفس لأن السامع يعمل أكثر من حاسة في تفهم أبعاد الحوار ومراميه

وعلى هذا تعال معي إلى متابعة الحوار بين الملك ومريم :

" قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا "

" قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا "

" قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ، ولم أك بغيا "

" قال : كذلك قال ربك : هو علي هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا" .

وفي هذا الحوار فوائد جمة ، نذكر منها :

1- اللجوء إلى الله تعالى في الملمات ، فهو حصن حصين وركن ركين .

2- الرجل التقي لا يقتحم مخادع النساء ، وينأى بنفسه عن الشبهات .

(305/481)

3- لا بد من تعليل يبعد هذه الشبهات ، ولو كان المشبوه به تقيا فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لرجلين رأياه مع صفية ليلا : هذه أمكم صفية . كي لا يبوءا بالكفر حين يظنان السوء بنبيهم . . . فقال الملك : لأهب لك غلاما زكيا .

4- المرأة المسلمة الشريفة لا تزني ، ولا يكون الحمل إلا بالزواج أو الزنا .

5- إذا أراد الله شيئا قال له : كن فيكون . ومريم تعلم أن الله تعالى قادر على كل شيء لكنها أبدت تعجبها أن يختارها الله لهذا الشرف العظيم

6- توخي الحذر والستر : يعلمنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التستر . فيقول : إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا " ونعى القرآن تساهل اليهود في السكوت عن المنكر "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون " ووبخ لوط عليه السلام قومه الذين استحلوا اللواط وجهروا به " إنكم لتأتون الفاحشة ، ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديكم المنكر . . " اما الطاهرة العفيفة

مريم فقد استترت في مكان قصي وهي لم تفعل المنكر ، فكانت مثالا للشرف المصون والفتاة التقية .حتى إنها تألمت ألما شديدا ، وتمنت أنها لم تخلق ، ولم يعرفها أحد . بل لو كانت شيئا لا قيمة له .

7- الدعم والتأييد : إذا كلفت أحدهم بمهمة فلتكن قدر استطاعته " لا يكلف الله نفسا إلا وسعها " وإذا لم يستطع القيام بها لكونها فوق طاقته أو كانت ثقيلة فأعنه عليها ، وسهل له سبلها وهذا ما وجدناه في قصة مريم فقد :

- سمعت من يكلمها في وحدتها ويشد من أزرها .

- جرى إلى جانبها جدول ماء عذب شربت منه .

- هزت جذع النخلة فتساقط عليها رطب لذيذة سهلت الطلق والولادة .

- الامتناع عن إجابة المتطفلين . .فهي صائمة عن الكلام . ومن الذي سيتكفل بالإجابة ؟ إنه ولدها الذي يدافع عنها بإذن الله .وسينطقه الله بما يبرئ أمه ويرفع قدرها بين الناس .

(306/481)

وعلى هذا استمدت قوة وشجاعة ، وعادت إلى قومها تحمل وليدها . وكان ما كان من أمر الناس ، وحق لهم أن يسألوها ، فهي ابنة سيدهم المعروف بدينه وخلقه وأمها مثال الصون والعفاف ، كما أنهم يعرفونها شديدة التدين مشهورة بالعفة والطهارة .

8- الرد المفحم : قد يكون الإنسان صاحب حق ، إلا أنه عيي أو أحمق أو غبي ساذج لا يعرف كيف يستخرج حقه أو يحتفظ به أو يدافع عنه ، فيضيع منه كله أو جله ، وقد يكون أحدهم مبطلا لكن لسانه طليق وحجته حاضرة وأساليبه ذكية ، فيسلب حق غيره ويحتال على الضعفاء فيغمطهم نصيبهم .

لكن الله تعالى لقن الوليد حجته ، فكان قوله الفصل وبيانه الفصل

أولا :عرف بنفسه . فهو عبد الله . ومن أعلن عبوديته لله فقد عرف ربه وهذه أسمى المراتب

ثانيا : ومن كان عبدا لله تعالى فتح عليه ينابيع العلم وكنوز المعرفة ، وآفاق الحكمة .

ثالثا : ثم خصه الله بمرتبة النبوة الكريمة ، وهذه قمة الإنعام والفضل .

رابعا : افاض عليه الخيرات والبركات ، فكان مع الله قلبا وقالبا في حله وترحاله ، ونومه ويقظته ،

خامسا : وأوصاه أن لا يفتر عن ذكر الله وأن يكثر من الصلاة – وهي الصلة بالله – والزكاة – الإحسان إلى عباد الله – وكأنه سبحانه يقول : عبدي أحسنت إليك فأحسن إلى

عبادي ، وأحب عباد الله إليه أنفعهم لعياله .

سادسا : والأقربون أولى بالمعروف . وفضل الأم لا يدانى . وقد قرن الله تعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين . ثم يكتمل الإحسان بتعميمه على الناس أجمعين .

سابعا : ويتوج ذلك كله بسلام الله عليه في حياته وفي موته ، وحين يبعث يوم القيامة .

ومن الطريف أن المفسرين يوردون حوارا بين ابني الخالتين ، عيسى ويحيى .

فيقول عيسى : أنت خير مني يا يحيى .

فيقول يحيى : بل أنت خير مني ، أنت من الخمسة أولي العزم .

(307/481)

فيقول عيسى : بل أنت خير مني ، فقد سلمت على نفسي ، فقلت : والسلام علي وأنت سلم الله عليك فقال : وسلام عليه . . . . صلى الله عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين .

---

(3)

1 – الداعية مؤتمن :

تفيد كلمة " اذكر " ذلك الخطاب – خطاب التكليف – من الله تعالى لنبيه الكريم يأمره أن لا يغفل شيئا مما أمره الله به ، فالرسول عليه الصلاة والسلام مؤتمن على الدعوة . وعليه أن يبلغها كاملة . فهي أمانة في عنقه . كما أن كل مسلم داعية في محيطه ، كبر هذا المحيط أم صغر . . . وبما أنه صلى الله عليه وسلم مخاطب في القرآن الكريم من أوله إلى آخره فهذا دليل على أن القرآن ليس من عنده . فالإنسان لا يأمر نفسه أمام السامعين أو القارئين . . صحيح أنه يفكر أحيانا بصوت عال إلا أن كثرة الأوامر والتعليمات في القرآن تدل على أن الرسول المعلم ينفذ تعليمات خالق سيد آمر .

2 – المديح : أسلوب راق يستعمله المربون :

ا – للتعبير عن الرضا بما يصدر من أعمال أو أقوال تسر وتحمد .

2 – لدفع الممدوح إلى التزام ما يرفعه في أعين الناس .

3 – يوحون به للآخرين أن يكونوا مثل الممدوحين في شمائلهم .

وقد مدح المولى عبده إبراهيم عليه السلام بصفتين لا يتصف بهما إلا من كان في القمة البشرية "كثرة الصدق والنبوة" . مع تعليل الوصول إلى هاتين المرتبتين العظيمتين . فقد كان داعية مخلصا لدعوته لا يمالئ فيها أحدا أبدا . وهذا أبوه أقرب الناس إليه يفاتحه بها ويدعوه إليها بأكثر من طريقة تربوية رائعة .

نذكر أولاهما متسلسلة بعد اسلوب المديح :

3- التحبب : يدخلك القلب دون استئذان ، ويبوئك المكانة العالية في صدور السامعين ونفوسهم . أما المتعالى فعلى العكس من ذلك ينفر الناس منه ، ويجدونه ثقيلا على قلوبهم . . . وكرر كلمة " يا أبت " متحببا إلى أبيه ، محاولا دخول قلبه :

يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ؟

(308/481)

يا أبت : إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطا سويا .

يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا .

يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .

ولعل

4- التكرار : وهو أسلوب أصيل في التربية أفاد هنا بالإضافة إلى التحبب التأكيد والتفصيل والتنبيه غلى خطر عظيم وأمر مهم . إن الطرق يلين الحديد لكن قلب الأب الكافر أقسى من الحديد ، أو قد من صخر فلم ينفع معه الاستعطاف واللطف .

5- الترتيب والتتابع في العرض : ففي الآية الأولى من كلام إبراهيم عليه السلام لوم لطيف لوالده وعتاب : فكيف يعبد آلهة ضعيفة ليس لها سمع ولا بصر ، ولا تنفع ؟ !

ويقدم السمع على البصر لأنه أوسع فجعل له الأولوية ، وهذا شأن القرآن الكريم في تقديم الأهم ويتجلى هذا الترتيب من حيث الأهمية في قوله تعالى " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث " الآية 14 من سورة آل عمران . فالمرء يبذل المال ليتزوج فينجب البنين . . فالنساء أولا ثم إنجاب البنين ، والمال في خدمتهما فهو الثالث من حيث الأهمية . وقدم من المال الذهب على الفضة ، وتأتي الخيل ثالث المال والأنعام رابعها من إبل وبقر وغنم . . ثم أخيرا دور الزرع . . . .

وبعد اللوم على الضلال يدعوه إلى اتباعه على علم : وعلى الجاهل مهما كبر أن يتبع العالم مهما صغر . فالحق أحق أن يتبع والعلم يهدي إلى الصراط السوي – فليس سواء عالم وجهول –

ثم يأتي التحذير من الشيطان : لأنه عدو للرحمن ، يحيد بمن اتبعه عن الحق ويغويه فيغضب الله تعالى عليه ومن عصى الله كان إلى النار نهايته .

(309/481)

ثم يأتي التخويف من الله الذي يعاقب بالنار الشيطان ومن تبعه ، فإبراهيم عليه السلام يخاف على أبيه لأنه يحبه . وقد جاء في تفسير قوله تعالى : " ولا تخزني يوم يبعثون " في سورة الشعراء أن إبراهيم يلقى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة ، فيقول : يارب : إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون . فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . وفي رواية أخرى : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب إن وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ . فيقول الله تعال : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقول : يا إبراهيم ، انظر تحت رجلك . فينظر ، فإذا بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار . نعوذ بالله من سوء المصير . . .

وهذا الأسلوب التدرجي من اللوم إلى الدعوة إلى التحذير إلى التخويف – أسلوب تربوي ينتقل بالمدعو خطوة خطوة .

6– الحلم : ولا بد للداعية أن يكون في دعوته للآخرين حليما واسع الصدر يحتوي المدعوين وإن أساءوا إليه . هذا ما نراه من سيدنا إبراهيم حين جبهه أبوه بقوله : " أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ " وهدده بالرجم والطرد : " لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرني مليا " فرد عبه بألطف كلام يدل على الحلم والروية:

" سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيا "

أسلوب يدل على اهتمام الداعية بدعوته ومن يدعوهم إليها وعلى اهتمام المربي ومن يربيهم . إن الإجابة بالعنف والارتجال القائم على ردة الفعل يضر ولا ينفع ، فهو إن حصل لم يعد للتفاهم مكان ، ولا للنصح قبول ، وضيع الداعية الفرصة في اكتساب الناس .

(310/481)

وهذا ما فعله الصالحون في كل زمان ومكان وقالوه : " سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين " .

وهذه صفات عباد الرحمن الذين مدحهم الله عز وجل : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما "

7- والشفاعة : وهي طلب الخير للغير والوساطة لهم عند من يرجونهم . وهذا ما عناه النبي الكريم إبراهيم حين قال : " سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا " إن المدعو حين يرى من الداعية اهتماما واعتناء يلين قلبه ثم يتقبل منه ما يقول ، ثم يؤمن بما يقول ، ثم يعتنق ذلك ويكون منافحا عن هذه الدعوة " ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " . . كان الصحابة متحلقين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل رجل من بعيد إلى مجلسه صلى الله عليه وسلم ، فالتفت إليهم صلى الله عليه وسلم ، وقال : " هذا الرجل قادم يريد مني مسألة ، وإني معطيه إياها إن شاء الله ، ولكن إذا سألنيها فاشفعوا له ، والله

يؤجركم على شفاعتكم ، وليقض الله على لسان نبيه ما يشاء " . جاء الرجل وجلس ولم ينبس ببنت شفة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألك حاجة يا رجل ؟ . " قال : نعم يا رسول الله ، صلى الله عليك وسلم . وذكر حاجته . فكان أصحاب رسول الله يقولون :

– هو أهل لفضلك يا رسول الله .

– ما علمنا عنه إلا خيرا يا رسول الله .

أحسن إليه يا رسول الله . فما عهدناك إلا محسنا .

كان الرجل ينظر إليهم مسرورا من شفاعتهم ، وقد أحبهم وشعر أنه منهم وأنهم منه .

. . . يا لهذا المجتمع المتحاب المتكافل . . . وابتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد اكتسب إلى المسلمين واحدا آخر ، وعلم أصحابه أن يناصر بعضهم بعضا . . . . وقضى للرجل حاجته .

(311/481)

8– اعتزال الجاهلين : المسلم داعية . فكيف يدعو الناس إذا اعتزلهم ؟ . . إنه يعيش بينهم ليؤثر فيهم لا ليتأثر ، يعيش بينهم مادة لكنه مع ربه قلبا وروحا وفكرا . يعاملهم

بالحسنى ويتحملهم ، ويشاركهم حياتهم إلا أنه ينأى عن مفاسدهم وكيف يعتزلهم منقطعا عنهم تماما والرسول الكريم يقول : " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم " ؟ ! فإبراهيم عليه السلام قال : " واعتزلكم وما تدعون من دون الله " هو اعتزال المسلم للمنكر والجهالة , إلا أنه حاضر بينهم يعمل على هدايتهم ، يقوم بخدمتهم والسهر على مصالحهم . وتنبيههم إلى الصواب وحضهم عليه

9- ثواب الصالحين : " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا " وهبه الله تعالى بعد العقم ولدا صالحا وحفيدا صالحا ، وزاده نعمة أن جعلهما نبيين كريمين ، وأكرمهم ببقاء ذكرهم مكرما وذريتهم على مر الدهور وكر العصور ، فكل المسلمين وغيرهم من اهل الأديان يكبرونهم ويجلونهم . بل إن الله تعالى أخبرنا أنه أكرم الأولاد بسبب صلاح الآباء ، " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك . " سورة الكهف . وقد قتل الرجل الصالح في سورة الكهف الغلام السيء وأبدله فتاة صالحة لأن الأبوين كانا صالحين . فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

---

(4)

قوله تعالى عن الذكر فيه معان كثيرة منها :

(312/481)

1- التشريف والتكريم : في قوله تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " . إن قدر الإنسان يعلو بانتمائه إلى ربه وإرضائه ، والعمل بما أمر والانتهاء عما نهى . وفي قوله جل شأنه " ص ، والقرآن ذي الذكر " فمن عاش في ظلاله وحي به ارتفعت مكانته ، ومن أبى ذل وخاب " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " والعزة هنا استكبار وعناد ، يوضحه قوله تعالى " وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم " والشقاق : الخلاف والإنكار . ونعود إلى " الذكر في القسم الرابع من تأملاتنا في قوله تعالى " واذكر في الكتاب موسى " . . فبماذا وصف هذا النبي الكريم ؟ . . لو عدنا إلى السورة نفسها في بداية الذكر لرأينا كل نبي ذكر بصفة اختص بها :

زكريا عليه السلام وصف مثل نبينا محمد صلى الله عليه وسل بالعبودية " ذكر رحمة ربك عبده زكريا " .

وعيسى عليه السلام خص بهذه الصفة " قال إني عبد الله "

وإبراهيم وإدريس عليهما السلام خصا بالصديقية : " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا " " واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا " .

وموسى عليه السلام خص بالقرب والتكليم " وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا " .

وإسماعيل عليه السلام وصف بصدق الوعد والرضا " إنه كان صادق الوعد . . . . . وكان عند ربه مرضيا "

وداوود عليه السلام وصف بأنه وهب القوة وكثرة التوبة " واذكر عبدنا داوود ذا الإيد إنه أواب . كما كرر ذكر الأنبياء مرة بأنهم " أخيار " ومرة بـ " الذكر الحسن " ومرة بـ " الصبر " وكل ذلك تكريم وتشريف لهم ودعوة إلى الاقتداء بهم . فهؤلاء قلوبهم متصلة بربهم ، وحياتهم وقفوها على رضاه " إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا " . . . فالله تعالى شرفهم ، وهم شكروه بسجودهم مقرين بفضله عليهم ومنته سبحانه .

(313/481)

2- الترهيب والترغيب: أسلوب تربوي مؤثر . ففي الإنسان بذرة خير . إن تعهدها بالعناية والرعاية زكت ونمت فنال صاحبها الأمن والأمان والسعادة والهناء . وفيه بذرة

شر ، إن أهملها ولم يلق لها بالا زاحمت بذرة الخير ودافعتها ، فإذا ساعدتها نوازع فاسدة كامنة في حنايا الإنسان اشتدت واستفحلت ، وبدا خطرها على صاحبها ومن حوله ، فدبت الفوضى وضربت أطنابها في المجتمع . . . . . ومن طبع الإنسان أن يفعل الخير . لأن الله فطره على الهدى والصلاح ، ودله على طريقه . . . . ومن طبعه أيضا أن يقع في الخطأ والتفلت والتهاون لأن الله تعالى خلقه من عجل . وخلقه ضعيفا يصيب الذنوب والآثام . . . لذلك كانت الجنة للتائبين العائدين إلى ربهم ، والنار للعاصين المتنكبين سبيل الهدى والرشاد .

ونرى القرآن العظيم يستعمل أسلوب الترغيب وأسلوب الترهيب بمقدار ما يقوم سلوك الإنسان ليمضي على ما يرضي الله تعالى .

وليس في القرآن – على الغالب الأعم – آية ترغيب إلا تبعتها آية ترهيب . ولا آية ترهيب إلا تبعتها آية ترغيب فهما – الترغيب والترهيب – متلازمان . . والحكمة في ذلك : أولا التذكير بالثواب والعقاب ليظل الإنسان حريصا على نيل المثوبة واتقاء العقوبة . وثانيا أن من لا يؤثر فيه الترغيب وثوابه يؤثر فيه الترهيب وعقابه .

(314/481)

ومثال هذين الأسلوبين في هذه السورة الكريمة قوله تعالى " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا " فبدأ بالترهيب مبينا السبب (إضاعة الصلاة واتباع الشهوات) ثم النتيجة (فسوف يلقون غيا) فاختزل التهديد في هذه الآية التي فجأت السامع فارتجف لها قلبه ، وتزلزل لها كيانه فأصبح مهيأ لأن يميل نحو الثواب الذي جاء بعد صيغة الاستثناء في الآيات 59- 64 فأراحت القلب وهدأت الأعصاب بعد تلك الفجأة المخيفة . . . فمن تاب وآمن وعمل صالحا نال حقه كاملا ودخل الجنة التي وعده الله بها في الحياة الدنيا وفي هذه الجنة الطمأنينة والسلام والرزق الهنيئ الرغيد الدائم الذي لا ينقطع ، يناله العبد التقي الصالح . جعلنا الله أتقياء صالحين

(315/481)

3- الحجة المنطقية : ينكر الكافر أن يبعث بعد الموت مرة أخرى : " ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أبعث حيا ؟ ! " . . إنه سؤال استنكاري لا يريد صاحبه جوابا لاقتناعه أن لا بعث ولا نشور بعد الموت . فيأتي التحدي المنطقي : الذي يدمغ بالحجة البينة والمنطق الساطع : إن الله خلقك ابتداء من لا شيء أفلا يستطيع إعادتك من شيء ؟ ! ! فإذا كان المولى سبحانه قد أوجدنا من العدم ولم نك شيئا ؟ أفلا يستطيع سبحانه أن يعيدنا إلى

الحياة من وجود ؟ . . . . بلى إنه قادر على كل شيء بقوله : كن فيكون . والتحدي يجبه المنكر ، فيخرسه ويوقفه عند حده ، ويكسر حدته ويجرده من قوته الكاذبة . أو قل يعريه مما يدعيه ، ويظهر ضعفه ، ويعيده إلى حجمه الحقيقي . ثم انظر معي إلى مقولة الكافر الجاهل الذي ليس له من الأمر شيء يدعي أنه سيؤتى من الأولاد والبنين والأموال ما يشاء ، وكأن له قدرة على ذلك ، فيهرف بما لا يعرف " أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا " فهنا يسأله العليم القدير من بيده مقاليد الأمور : " أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا " فلا هو اطلع على الغيب فعرف ، ولا هو أخذ من الله سبحانه الوعد والعهد على ذلك . فكيف يدعي من لا يقدر أنه يقدر ومن لا يعلم أنه يعلم ؟ ! حجة منطقية تعلمنا أن على الإنسان أن يلزم حده ، فيقف عنده .

4- التهويل : اسلوب تربوي مخيف ، يزلزل النفوس ، ويحرق الأعصاب ، ويخضد شوكة الخصم ، ويزرع الرعب في أوصاله ، فيستسلم صاغرا ذليلا ، منكسر الفؤاد مستسلما ,وهو أسلوب إذا تمكن منه من يستعمله كما استعمله القرأن فقد كسب الجولة بكل تأكيد . ومثاله قوله تعالى : " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئًا إدا (عظيما) تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض و وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، " فالله واحد أحد ، فرد صمد ، ليس له زوجة ، ولا شريك ، ولا

ولد .

وكثيرا ما يدخل في التهويل :

(316/481)

5- التصوير الحسي المتسلسل :

" فوربك لنحشرنهم والشياطين "

" ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا "

" ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا "

" ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا "

" وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا "

" ثم ننجي الذي اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا "

فتصور معي كيف يحشر العتاولة والمجرمون مع الشياطين أذلاء صاغرين ، ومقيدين يسحبهم الزبانية إلى جهنم ، ثم هم يجثون على ركبهم ، لا يملكون من أمرهم شيئا ، ولا ينتظرون عونا من أحد . وقد أيقنوا بالهلاك فنكسوا رؤوسهم خوفا ورعبا . ثم ترى العتاة المتجبرين المتكبرين ينزعون من بينهم ويلقون في جهنم دون حساب ، فليس لهم عند

الله تعالى قيمة ، وكان تجبرهم في الدنيا وبالا عليهم في الآخرة . فهم أهلها الذين يخلدون في النار أبد الآبدين .

وهناك حقيقة لا بد منها . . فالجميع – صالحين وطالحين – يردون جهنم والعياذ بالله " وإن منكم إلا واردها " . قال أهل العربية : ليس من شرط ورودها الدخول فيها . إن أهل الجنة يجوزونها على الصراط دون أن يشعروا بها بإذن الله وفضله . . . اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك ورحمتك . . . أما أهلها فيسقطون فيها ، نعوذ بالله منها ومن مصير أهلها . . . لقوله تعالى " ثم ننجي الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثيا " . . والسورة مليئة بالصور المتحركة التي تخلع القلوب وتزلزل الأوصال

6-- . الجمل الموسيقية : انقسمت الفاصلة القرآنية في هذه السورة إلى قسمين :

(317/481)

من أول السورة إلى الآية 74 نجد – غالبا – الياء المشددة بعدها ألف ممدودة تمد الأنفاس راحة وتمنح الصدر والروح هدوءا في الحديث عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . فهناك مناجاة ودعاء ورحمات (خفيا وليا رضيا سميا سويا عشيا نبيا عليا . . .) موسيقا تفتح القلوب وتنشط الأعصاب وتنشر الأنس ونسمات الاسترواح . . ثم هي

نفسها تنقلب إلى إصرار وعزم وتهديد حين تتحدث عن مصير المجرمين في جهنم (جثيا عتيا صليا مقضيا) ، فتجد التهديد والوعيد القويين .

ومن الآية 75 إلى آخر السور نجد – غالبا – حرف الدال المشدد الذي يناسب التهديد والوعيد والعقاب أو السكون قبل حرف الدال . . (مدا مردا إدا هدا ودا لدا ضدا . . عهدا عبدا فردا)

ونجد الزاي المشددة الدالة على الغضب الشديد (أزا عزا) . . هذه الفواصل أسلوب تربوي لما فيها من إيحاءات معبرة عن العاطفة الهادئة حينا والمائجة حينا آخر ، العاطفة مرة والعاصفة مرة ثانية . تؤثر في القارئ والسامع على حد سواء . فتراه يلين مع الأنبياء في الحديث عنهم ، وينشط لحديث الجنة ، ويرتجف لذكر النار وأهلها . ويجتهد ليكون ممن يحشر في وفد الرحمن ويهفو لذلك . ويخاف أن يساق مع العصاة العتاة فينأى عنهم . ويرضى لرضاء الله . ويغضب لغضبه سبحانه .

(318/481)

---

7 – مخاطبة الناس بما يناسبهم : لو دعاك أحدهم بلغة جميلة وصوت عذب ، لكنك لا تعرف هذه اللغة فهل تستجيب ؟ طبعا لن تكون هناك استجابة لانك لم تفهم ما يقول ، ولم

تتفاعل معه : " ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين " . . . أما إذا خاطبك بلغتك ، بل بلهجتك التي اعتدت عليها ، بل بدقائق هذه اللهجة ومفرداتها فسوف تشد إليه ، وتنزع إلى ما يقول بلهفة . . وهكذا نزل القرآن " فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوما لدا " . فتفهم هؤلاء وتقيم الحجة على هؤلاء . وعلى هذا أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الصحابي الشاب زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود ، وقال : " من تعلم لغة قوم أمن مكرهم " ولن يدخل أحد قلوب الآخرين إذا لم يملك مقاليد اللسان الذي يترجم أحاسيسه وأفكاره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأملات تربوية – سورة مريم

د : عثمان قدري مكانسي ﴾

(319/481)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة مريم عليها السلام» (19)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي» أي بنى العمّ من ورائي ، أي قدامى وبين يدى وأمامى ، قال :

أترجو بنى مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا

(387) قال الفضل بن العبّاس بن عتبة بن أبى لهب :

مهلا بنى عمّنا مهلا موالينا لا تظهرنّ لنا ما كان مدفونا

(149) «وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً» (5) أي لا تلد ، وكذلك لفظ المذكّر مثل الأنثى ، قال عامر بن الطّفيل :

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا جبانا فما عذرى لدى كل محضر

(114) «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» (5) أي من عندك ولدا ووارثا وعضدا رضيّا يرثنى يرفعه قوم على الصفة ، مجازه : هب لى وليا وارثا ، يقولون :

ائتنى بدابة أركبها ، رفع لأن معناها : ائتنى بدابة تصلح لى أن أركبها ولم يرد الشرط ومن جزمه فعلى مجاز الشريطة والمجازاة كقولك : فإنك إن وهبته لى ورثنى .

«يا زَكَرِيَّا» (7) مجازه مجاز المختصر كأنك قلت : «فقلنا يا زكريا» وفيه ثلاث لغات : زكرّياء ممدود ، وزكرّيا ساكن ، وزكرىّ تقديره بختىّ «1» .

«مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا» «2» (8) كل مبالغ من كبر أو كفر أو فساد فقد عتا يعتو عتيّا .

«هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» (9) أي أهون .

«وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا» (13) أي رحمة «3» من عندنا ، قال امرؤ القيس ابن حجر الكندىّ :

ويمنحها بنو شمجى بن جرم معيزهم حنانك ذا الحنان

«4» [496]

---

(1) . . 2 - 3 «زكريا . . بختي» : كذا فى الأصول ، وقال فى اللسان : وقرأ أبو بكر عن عاصم «زكريا» ممدودا ومهموزا أيضا وقرأ حمزة والكسائي وحفص «وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا» مقصورا فى القرآن وابن سيده : وفى «زكريا» أربع لغات زكرى مثل عربى بتخفيف الياء ، قال وهذا مرفوض عند سيبويه و«زكريا» مقصور و«زكريا» ممدود . . . إلخ. (زكر) . و«البختي» جمعه البخت بضم الياء وهى الإبل الخرسانية وانظر اللسان (بخت) .

(2) . . 4 - 5 «كل . . . عتيا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 6/ 337 . [. . . . .]

(3) . «و العرب . . . رحمتك» الذي ورد فى الفروق : رواه القرطبي (11/ 87) عن أبى عبيدة .

(4) . . 496 : فى ديوانه من الستة ص 161 وفى الطبري 16/ 38 والقرطبي 11/ 87 والتاج (حنن) .

وقال الحطيئة :

تحنّن عليّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

«1» [498] أي ترحم ، وعامة ما يستعمل فى المنطق على لفظ الاثنين ، قال طرفة العبديّ :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

«2» [499]

«إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها»

(16) اعتزلت وننحّت «3» .

«مَكاناً شَرْقِيًّا»

(16) مما يلى المشرق وهو عند العرب خير من الغربي الذي بلى المغرب . «4»

«مَكاناً قَصِيًّا» (22) أي بعيدا . «5»

«فَأَجاءَهَا «6» الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ» (33) مجازها أفعلها من

---

(1) . - 498 : فى الكامل ص 348 والطبري 16/ 38 والقرطبي 11/ 88

واللسان (حنن) .

(2) . - 499 : ديوانه من الستة ص 187 والكتاب 1/ 146 والكامل ص 348 والطبري 16/ 38 والجمهرة 3/ 449 والشنتمرى 1/ 174 والقرطبي 11/ 87 واللسان والتاج (حنن) .

(3) . - 7 «اعتزلت وتنحت» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 6/ 343 .

(4) . 8 - 9 «شَرْقِيًّا . . . المغرب» : رواه ابن حجر فى فتح الباري 6/ 343 .

(5) . - 10 «مكانا . . . بعيدا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 6/ 343 .

(6) . - 11 «فَأَجاءَهَا» : روى ابن حجر تفسير هذه الكلمة عن أبى عبيدة فى فتح الباري 6/ 343 .

(321/481)

جاءت هى وأجاء غيرها إليه ، يقال فى المثل : شرّ ما أجاءنى إلى مخّة عرقوب «1» ، وقال زهير :

وجار سار معتمدا إليكم أجاءته المخافة والرّجاء

«2» [500] «وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا» (23) وهو ما نسى من عصا أو أداوة أو غير ذلك ، قال الشّنفرى :

كأنّ لها فى الأرض نسيا تقصّه على أمّها وإن تحدّثك تبلت

«3» [501] أي تقطع الحديث استحياء وقال الكميت :

أنجعلنا قيس لكلب بضاعة ولست بنسى فى معدّ ولا دخل

«4» [502] وقال دكين الفقيمىّ :

كالنّسى ملقى بالجهاد البسبس

«5» [503] الجهاد غلظ من الأرض .

---

(1) . - 1 «شر . . عرقوب» : هذا المثل فى شرح ديوان زهير ص 77 والطبري 16/ 42 واللسان والتاج (جيأ)

(2) . - 500 : فى ديوانه ص 77 والطبري 16/ 42 واللسان والتاج (جيأ) والقرطبي 11/ 92 .

(3) . - 501 : من كلمة 34 بيتا فى المفضليات رقم 20 ومن الشرح ص 200 - 207 وهو فى الكامل ص 497 والطبري 16/ 44 والاقتضاب ص 417 واللسان والتاج (نسا) .

(4) . - 502 : فى القرطبي 11/ 93 .

(5) . - 503 : «دكين» : هو دكين بن رجاء الفقيمي ، راجز إسلامى له ترجمة فى السمط ص 652 . والشطر فى اللسان والتاج مع شطر قبله (نسا) .

(322/481)

«سَرِيًّا» «1» (24) أي نهرا ، قال لبيد بن ربيعة :

فرمى بها عرض السّرىّ فغادرا مسجورة متجاورا قلّامها

«2» [504] مسجورة أي مملوءة ، القلّام شجر يشبه القاقلّى وهو نبت .

«وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ» (25) مجازه : هزّى إليك جذع النخلة ، الياء من حروف الزوائد ، وقال :

نضرب بالبيض ونرجو بالفرج

«3» [505] معناه : ونرجو الفرج.

«يسّاقط عليك» (25) من جعل «يساقط» بالياء فالمعنى على الجذع ومن جعله بالتاء فالمعنى على النخلة وهى ساكنة إذا كانت فى موضع المجازات وموضع «يسّاقط» فى موضع يسقط عليك رطبا جنيّا والعرب تفعل ذلك ، قال أوفى ابن مطر المازني :

تخاطأت النّبل أحشاءه وأخّر يومى فلم يعجل

«4» [506]

---

(1) . - 1 «سريا أي نهرا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 6/ 344 .

[. . . . .]

(2) . - 504 : من معلقته فى شرح العشر ص 76 والطبري 16/ 47 والجمهرة 2/ 362 ، 3/ 163 والقرطبي 11/ 94 وفتح الباري 6/ 344 .

(3) . - 505 : هذا الشطر لراجز من بنى جعدة وهو فى الاقتضاب ص 458 وشواهد المغني ص 114 والخزانة 4/ 159 .

(4) . - 506 : فى السمط 465 .

(323/481)

تخاطأت وهو فى موضع أخطأت ، وقال الأعشى :

ربى كريم لا يكدّر نعمة وإذا تنوشد بالمهارق أنشدا

(355) هو فى موضع نشد ، أي سئل بالمهارق وهى الكتب ، قال إمرؤ القيس :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تناسانى إذا قمت سربالى

«1» [507] فى معنى تنسّينى . وقال جرير :

لولا عظام طريف «2» ما غفرت لكم بيعى قراى ولا نسّأتكم غضبى

(59) أي ما أنسأتكم لولا عظام طريف . يعنى طريف بن تميم العنبري ، قتله حمصيصة الشّيبانىّ وهو ابن شراحيل .

«إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً» (26) يقال لكل ممسك عن شيء من طعام أو شراب أو كلام أو عن أعراض الناس وعيبهم صائم «3» ، قال النابغة الذبيانىّ .

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

«4» [508]

---

(1) . - 507 : ديوانه من الستة ص 153 واللسان (نسا) .

(2) . 7 - 8 «طريف . . الشيباني» : وقد ورد فى الكامل ص 655 والجمهرة 2/ 358 ومعجم البلدان 4/ 409 والتاج (حمص) .

(3) . 9 - 10 «لكل . . . صائم» : ورواه فى اللسان (صوم) عن أبى عبيدة .

(4) . - 508 : لم أجد هذا البيت فى ديوانه من الستة وهو فى الكامل ص 483 واللسان والتاج (صوم) .

«شَيْئاً فَرِيًّا» (27) أي عجبا فائقا «1» ، وكذلك كل شيء فائق من عجب أو عمل أو جرى فهو فرى.

«مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» (29) ول «كان» مواضع ، فمنها لما مضى ، ومنها لما حدث ساعته وهو : كيف نكلم من حدث فى المهد صبيا ومنها لما يجىء بعد فى موضع «يكون» والعرب تفعل ذلك ، قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا منى وما يسمعوا من صالح دفنوا

«2» (210) أي يطيروا ويدفنوا . «وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» (4/48) فيما مضى والساعة ، وفيما يكون ويجيء «كان» أيضا زائدة ولا تعمل فى الاسم ، كقوله :

فكيف إذا رأيت ديار قوم وجيران لهم كانوا كرام

«3» [509] والمعنى وديار جيران كرام كانوا ، و«كانوا» فضل لأنها لم تعمل فتنصب القافية ، قال غيلان بن حريث الرّبعىّ :

إلى كناس كان مستعيده

[510] وكان فضل ، يريد إلى كناس مستعيده . وسمعت قيس «4» بن غالب

---

(1) . - 1 «شيئا . . . فائقا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري (6/

343)

(2) . - 210 : وقد اختلف عجز البيت فى إنشادى أبى عبيدة .

(3) . - 509 : للفرزدق : من قصيدة طويلة فى ديوانه ص 835 وهو فى الكتاب 1/ 249 والشنتمرى 1/ 289 والسمط ص 759 والقرطبي 11/ 102 واللسان والتاج (كون) والعيني 1/ 42 وشواهد المغني ص 236 والخزانة 4/ 37 .

(4) . - 14 «قيس . . . البدري» : لم أقف على ترجمته فيما رجعت إليه .

(325/481)

البدريّ يقول : ولدت فاطمة «1» بنت الخرشب الكملة «2» من بنى عبس لم يوجد كان مثلهم ، أي لم يوجد مثلهم ، «كان» فضل .

«كانَ بِي حَفِيًّا» (47) أي متحفيا ، يقال : تحفيت بفلان .

«وَقَرَّبناهُ نَجِيًّا «3»» (52) .

«وَاجْتَبَيْنا» (58) أي اخترنا .

«وبُكِيًّا» (58) جمع باك «4» .

«لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً» (62) أي هذرا وباطلا «إِلَّا سَلاماً» فالسلام ليس من اللّغو

والعرب تستثنى الشيء بعد الشيء وليس منه وذلك أنها تضمر فيه ، فكان مجازه : لا يسمعون فيها لغوا إلّا أنهم يسمعون سلاما ، قال «5» :

يا ابن رقيع هل لها من مغبق ما شربت بعد طويّ الكربق

(408)

---

(1) . - 1 «فاطمة» : من بنى أنمار بن بغيض وهى إحدى منجبات قيس وهى أم الربيع بن زياد العبسي وهى تسير فى ظعائن من بنى عبس (انظر النقائض ص 90) .

(2) . - 1 «الكلمة» : كانوا أربعة والمشهور منهم هو عمارة بن زياد العبسي وأخوه الربيع وأخوه أنس الفوارس (انظر النقائض ص 193) .

(3) . - 4 «نجيا» : وقد مضى تفسيره فى آية (80) من سورة يوسف . [. . . . .]

(4) . - 6 «وبكيا . . باك» : أخذه البخاري وقال ابن حجر (فتح الباري 8/ 324 : هو قول أبى عبيدة وتعقب بأن قياس جمع باك بكاة مثل قاض وقضاة وأجاب الطبري (16/ 65) بأن أصله بكوا بالواو الثقيلة مثل قاعد وقعود فقلبت الواو لمجيئها بعد كسرة . . إلخ .

(5) . - 10 «قال» : القائل هو صقر بن حكيم الربعي .

من قطرة غير النجاء الأدفق

فاستثنى النجاء من قطرة الماء وليس منها ، قال أبو جندب الهذلىّ :

نجا سالم والنفس منه بشدقه ولم ينج إلّا جفن سيف ومئزرا

«1» [511] وليسا منه .

«هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» (65) هل تعرف له نظيرا ومثلا ، إذا كان بعد هل تاء ففيها لغتان فبعضهم يبين لام «هَلْ» وبعضهم يخمدها فيقول : «هتّعلم» ، كأنها أدغمت اللام فى التاء فثقّلوا التاء «2» .

«حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» (68) جميع جاث «3» ، خرج مخرج فاعل والجميع فعول ، غير أنهم لا يدخلون الواو فى المعتلّ . «4»

---

(1) . - 511 : فى ديوان الهذليين 3/ 22 لحذيفة بن أنس وفى أشعار هذيل رقم 56 مرة له ومرة أخرى لأبى خراش رقم 29 وهو فى اللسان والتاج (جفن) .

(2) . - 512 : فى اللسان 20/ 317 .

(3) . - 513 : لم أجده فيما رجعت إليه .

(4) . - 514 : فى القرطبي 11/ 133 .

«عِتِيًّا» (69) مصدر عتوت تعتو.

«صِلِيًّا» «1» (70) مصدر «صليت تصلى» خرج مخرج فعلت فعولا ولا يظهرون فى هذا أيضا الواو.

«وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» (73) أي مجلسا والنّدى والنادي واحد «2»، قال حاتم طيى.

ودعيت فى أولى النّديّ ولم ينظر إلىّ بأعين خزر

«3» [515] والجميع منها أندية، قال سلامة بن جندل:

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

«4» «5» [516]

«أَثاثاً» (74) أي متاعا وهو جيد المتاع.

«وَرِءْياً» (74) وهو ما ظهر عليه ورأيته عليه.

«أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا» (77) إذا استفهموا ب «رأيت»

---

(1). - 2 «صليا»: قد أخذ البخاري تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة قال ابن حجر هو تفسير أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 325).

(2) . - 4 «نديا . . واحد» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 325) .

(3) . - 515 : ديوانه ص 36 وفى نوادر أبى زيد ص 109 والطبري 16/ 77 .

(4) . - 516 : فى ديوانه ص 7 ومن كلمة مفضلية ص 224 - 245 وهو فى الكامل ص 469 والطبري 19/ 21 والقرطبي 14/ 88 واللسان والتاج (أوب) .

(5) . - 517 : فى الهاشميات ص 10 .

(328/481)

فمنهم من يدعها على حالها كأنه لم يعدّه أحدث فيها شيئا كما أحدث فى «يرى» فيبقى همزتها ، ومنهم من يرى أنه أحدث فيها شيئا فيدع همزتها ، قال أبو الأسود :

أريت امرأ كنت لم أبله أتانى فقال اتّخذنى خليلا «1» [518]

فخاللته ثم أكرمته فلم أستفد من لديه فتيلا

ألست حقيقا بتوديعه وإتباع ذلك صرما جميلا

وقال المتوكّل اللّيثىّ :

أرأيت إن أهلكت مالى كلّه وتركت مالك فيم أنت تلوم

«2» [519]

«تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (83) أي تهيّجهم وتغويهم ، قال رؤبة :

لا يأخذ التأفيك والتّحزّى فينا ولا قذف العدى ذو الأزّ

«3» [520] العدى بضم العين الأعداء ، والعدى بكسر العين الغرباء .

«إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً» (85) جمع وافد .

«إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً» (86) مصدر «ورد يرد» .

«جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا» (89) عظيما من أعظم الدّواهى ، قال رؤبة :

---

(1) . - 518 : الأول فى اللسان (رأى) .

(2) . - 519 : المتوكل هو المتوكل بن عبد اللّه بن نهشل ، شاعر إسلامى وهو من أهل الكوفة كان فى عصر معاوية وابنه يزيد ومدحهما . انظر أخباره فى الأغانى 11/ 37 والموشح ص 228 والمؤتلف ص 179 .

(3) . - 520 : فى ديوانه ص 64 والجمهرة 1/ 17 واللسان والتاج (أزز) .

[. . . . .]

نطح بنى أدّ رؤوس الأداد

«1» [521] وقال :

كيلا على دجوة «2» كيلا إدّا كيلا عليه أربعين مدّا

«3» [522] وكذلك «إِمْراً» (18/ 71) وكذلك «شَيْئاً نُكْراً» (18/ 75)

وكذلك «شَيْئاً فَرِيًّا» (19/ 27) عظيما من أعظم الدواهي .

«تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ» (90) أي يتشققن كما يتفطر الزجاجة والحجر ويقال :

فطرنا به إذا شقّنا به .

«وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا» (90) مصدر «هددت ، أي سقطت فجاء مصدره صفة

للجبال .

«أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً» (91) وليس هو من دعاء الصوت ، مجازه : أن جعلوا للّه ولدا ،

قال الشاعر :

ألا ربّ من تدعو نصيحا وإن تغب تجده بغيب غير منتصح الصدر

«4» [523] وقال ابن أحمر :

---

(1) . - 521 : ديوانه ص 40 .

(2) . - 3 «دجوة» : قرية بمصر على شط النيل الشرقي (معجم البلدان 2/ 555) .

(3) . - 522 : فى الطبري 16/ 87 واللسان (دعا) .

(4) . - 524 : ديوانه من الستة ص 126 .

(330/481)

أهوى لها مشقصا حشرا فشبرقها وكنت أدعو قذاها الإثمد القردا

«1» [525] القرد المنقطع من الإثمد يلزم بعضه بعضا أدعو أجعل الحشر السهم الذي حشر حشرا ، وهو المخفّف الرّيش ويقال للحمار : حشر ، إذا كان خفيفا ، وللرجل إذا كان صدعا «2» ، والصّدع : الرّبعة من الرجال .

«سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا» (96) أي محبّة ، وهو مصدر «وددت» ، «سَيَجْعَلُ لَهُمُ» أي سيثيبهم ويرزقهم ذلك .

«قَوْماً لُدًّا» (97) واحدهم : ألدّ ، وهو الشديد الخصومة الذي لا يقبل الحق ويدعى الباطل ، قال مهلهل :

إنّ تحت الأحجار حدّا ولينا وخصيما ألدّ ذا مغلاق

«3» «4» [526]

---

(1) . - 525 : فى الطبري 16/ 87 الجمهرة 3/ 440 .

(2) . - 5 «صدعا» : قال فى اللسان (صدع) : رأيت رجلا صدعا وهو الربعة والربعة أي مربوع الخلق لا بالطويل ولا بالقصير .

(3) . - 526 : فى الكامل ص 25 واللسان والتاج (غلق) ومن كلمة 15 بيتا فى العيني 4/ 212 ، وقال المبرد ، ويروى «مغلاق» فمن روى ذلك فتأويله أنه يغلق الحجة على الخصم ، ومن قال «ذا معلان» فإنما يريد أنه إذا علق خصما لم يتخلص منه .

(4) . - 527 : لامرئ القيس ، ديوانه من الستة ص 136 وفى الجمهرة 7/ 263 ، 3/ 391 .

(331/481)

ويروى مغلاق الحجة عن أبى عبيدة وقال رؤبة :

أسكت أجراس القروم الألواد الضّيغميّات العظام الألداد

«1» [528]

« [رِكْزاً]» (98) الركز : الصوت الخفي والحركة كركز الكتيبة «2» ، قال لبيد :

فتوجّست ركز الأنيس فرابها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

«3» «4» [529] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 2 . 14 ﴾

(1) . - 528 : ديوانه ص 41 .

(2) . - 3 «كركز الكتيبة» نقل القرطبي (11/ 162) تفسير أبى عبيدة هذا .

(3) . - 529 : من معلقته فى شرح العشر ص 42 وهو فى الطبري 16/ 89 والقرطبي 11/ 162 .

(4) . - 530 : لم أجده فيما رجعت إليه .

(332/481)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «مريم عليها السلام»

[سورة مريم (19) : آية 4]

قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

قوله سبحانه : قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً [4] وهذه من الاستعارات العجيبة . والمراد بذلك : العبارة عن تكاثر الشّيب فى الرأس حتى يقهر بياضه ، وينصل سواده .

وفى هذا الكلام دليل على سرعة تضاعف الشيب وتزيّده وتلاحق مدده ، حتى يصير فى الإسراع والانتشار كاشتعال النار ، يعجز مطفيه ، ويغلب متلافيه .

[سورة مريم (19) : آية 23]

فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23)

وقوله سبحانه : فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ [23] . وهذه استعارة .

والمعنى : فجاء بها المخاض ، أو ألجأها المخاض إلى جذع النخلة ، لتجعله سنادا لها ، أو عمادا لظهرها . وهى التي لجأت إلى النخلة ، ولكنّ ضرب المخاض لما كان سببا لذلك ، حسن أن ينسب الفعل إليه فى إلجائها ، والمجيء بها

[سورة مريم (19) : آية 50]

وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

وقوله سبحانه : وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا ، وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا [50] وهذه استعارة . والمراد بذكر اللسان هاهنا - والله أعلم - الثناء الجميل «1» الباقي فى أعقابهم ، والخالف فى آبائهم «2» . والعرب تقول : جاءنى لسان فلان . يريد مدحه أو ذمه . ولما كان مصدر المدح والذم عن اللسان عبروا عنهما باسم اللسان .

وإنما قال سبحانه : لِسانَ صِدْقٍ . إضافة للسان إلى أفضل حالاته ، وأشرف متصرفاته ،

لأن أفضل أحوال اللسان أن يخبر صدقا ، أو يقول حقا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 220 ﴾

---

(1) فى الأصل : (الجل) وهو تحريف من الناسخ .

(2) أي الباقي فى آبائهم .

(333/481)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة مريم

تمتاز فواصل الآيات فى سورة مريم بأن أغلبها جاء على حرف الياء المشدد المنصوب ، إلا الصفحة الأخيرة ، فقد جاء على حرف الدال المشدد المنصوب . وقد لوحظ أن اسم الرحمن من أسماء الله الحسنى تكرر فى هذه السورة ست عشرة مرة ، نحصيها فيما يلى :

1 - " إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا " لأن التقى هو الذى يخاف الله ويهاب عصيانه . 2 - " إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا " وكان الامتناع عن الكلام نوعا من الصيام . 3 - " يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا " . 4 -

" يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا " . 5 - " . . . وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا" . 6 - " جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا " . 7 - " . . . ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا " . 8 - " قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . . . " . 9 - " أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا " . 10 - " يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا " . 11 - " لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا " . 12 - " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا " .

(334/481)

ص - " أن دعوا للرحمن ولدا " . 14 - " وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا " . 15 - " إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا " . 16 - " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا " . ومن اللطائف أن تفتتح السورة بكلمة الرحمة " ذكر رحمة ربك عبده زكريا " ، وقد تكررت الكلمة أربع مرات خلال السورة ، وهي تتحدث عمن أنعم الله عليهم ، ولا عجب فالإنعام نابع من الرحمة ، وكل شيء يتعرض الناس له فهو

نابع من حكمة عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها . والسورة من القرآن النازل ! بمكة المكرمة ، ولعلها نزلت فى السنوات الأولى ، قبل الهجرة إلى الحبشة ، وقد تحدثت عن ولادة عيسى بن مريم ، وكشفت عن الإعجاز الإلهى فى تكوين هذا النبى الكريم ، لكنها جعلت هذا الإعجاز بين يدى قصة زكريا وابنه يحيى . لأن ولادة يحيى كانت هى الأخرى معجزة ، فقد كان الوالد شيخا وهن عظمه ، وكانت الوالدة عجوزا عقيما ، فمن أخصب العاقر وأحيى الشيخ ؟ ومن بالولد ؟ . إنه جل شأنه الذى فعل ذلك ، فليس يعجزه أن يجعل البكر تنجب دون أن يمسها أحدا ! . وهذا الترتيب بين القصتين سبق ذكره فى سورة آل عمران المدنية . . . وقد قلنا : إن خالق الأسباب لاتحكمه الأسباب ، وقد خلق عيسى كذلك ليقول للناس : " إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أينما كنت . . " . ولماذا حرص زكريا على أن يكون له غلام ؟ على حين يرضى مؤمنون كثيرون أن يعيشوا بلا أولاد ؟ إن حرصه على سلامة القيادة الروحية لبنى إسرائيل هى السبب ، فقد كان له أقرباء يتطلعون إلى الزعامة وهم لا يصلحون لها ، فسأل الله أن يهب له من يسد الطريق على هؤلاء ، ويقود بنى إسرائيل قيادة صحيحة " وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا " . ورزقه الله بيحيى الذى جاء بعد ثلاث ليال من التسبيح والتحميد والانقطاع إلى العبادة : " فخرج على قومه من المحراب فأوحى

(335/481)

إليهم

أن سبحوا بكرة وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا " .

(336/481)

أما معجزة ابن مريم وأمه فقد حكتها السورة المباركة ، والحق أن كلام عيسى فى المهد برهان ساطع على براءة أمه من بهتان اليهود " قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا " . غير أن ولادة عيسى على هذا النحو كانت السبب فى وجود عقيدة أخرى ، فقد قال بعض الناس: صحيح أنه ليس له أب من البشر ، وإنما أبوه هو الله نفسه – سبحانه وتعالى – وأنه – مثل أبيه رب ثان ! . ويوجد إله ثالث يكمل سلسلة الآلهة هو الروح القدس الذى نفخ فى مريم . وهذه هى الأسرة المقدسة ! ! . ولما كان هذا الكلام لم يعهد فى دين سبق ، ولم يجر على لسان أحد المرسلين ، فقد سمى العهد الجديد ! . والإنسان يتساءل: هل الأب والابن

والروح كلمات مترادفة لذات واحدة ؟ كما يقول العرب: أسد ، وضيغم ، وغضنفر ، لحقيقة واحدة ؟ كلا ، إن لكل منهم ذاتا خاصة . ومع ذلك فالكل واحد ! . يقول آخرون: بل ذات وصفتان ! لكن الصفة لا تتجسد وتصلب ثم تصعد لتدين العباد والأب ينظر ! هل هم ثلاثة أثلاث يكونون واحدا صحيحا ! كلا ، كل الفروض يأباها العقل . والصحيح أن الله واحد ، وأن عيسى عبده ورسوله كسائر العباد المرسلين ، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى عشرات السور : " وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين " . إن الخلاف ظل وسوف يظل محتدما إلى أن يجمعنا الله يوم المشهد العظيم ، عندئذ يعلم الرؤساء والأتباع أن الله واحد ، وأنه ليس له أولاد ، : لا بنون ولا بنات ، وأن ما عداه من مخلوقاته عبد له ، وأنه هو الذى يدين العباد يوم الدين . وإذا كان البعض الآن ينظر ولا يرى ، ويسمع ولا يعى ، فإن الحواس هناك ستسمع الهمس والعيون هناك سترى الذر " أسمع بهم وأبصر

(337/481)

يوم يأتوننا . . . " . بعد الكلام عن عيسى بن مريم ، وكيف دعا الناس إلى توحيد الله ، جاءت قصة إبراهيم – عليه السلام – الذى اشتبك مع الوثنية فى حرب طويلة ، وبارزها فى مواطن عدة .

وإنك لتجد فى الحوار الذى دار بين إبراهيم وأبيه المشرك طبيعة الدعوة الإسلامية ، وطبيعة الأحزاب التى تناوئها . فإبراهيم يناشد أباه أربع مرات أن يدع الأصنام ، ويسلم لله وجهه ، فى أسلوب يسيل وداعة وأدبا ، وآخر مناشداته: " يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا " فيكون الرد الجافى القاسى " أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا " . تهدد ابنه بالرجم إن بقى على العقيدة الصحيحة ، وطرده بعيدا عنه . . وقد اعتزل إبراهيم أباه وقومه فآنس الله وحشته ، وجعل النبوة فى ذريته ! " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا " . . وذكرت السورة بعد ذلك عددا من الأنبياء وما أفاء الله عليهم من نعماء ، والأنبياء خلاصة البشرية العارفة بالله ، والمعرفة به ، وسيرتهم نموذج يحتذى . . ولاشك أن الذين خالطوهم واستفادوا منهم تأثروا بهم نفسيا وعقليا ، فكانوا أرقى من غيرهم وأطهر ، ولذلك يقول محمد إمام الأنبياء : " خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " . أما الخلوف التى تجىء من بعد ذلك ، فقد ابتعدت عن الضوء وخبطت فى ظلام . ! " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات

فسوف يلقون غيا " . إن الصلاة معراج يصل العباد بربهم ، ويغسل أرواحهم من الآثام ، ويكسبهم حصانة ضدها ، فمن انقطع عن الله ، واستهوته الشياطين ، ورتع فى الرذائل فقد هلك . وينضم إلى هذا العوج فى السلوك عوج فى الفقه والحديث عن الله ، ولذلك قال الله فى سورة أخرى: " فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا " . أى: يتبعون الدنايا ، وينتظرون المغفرة ، وتلك خصائص التدين الفاسد ، ومصير أصحاب البوار

(338/481)

"إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا" . وإذا كانت الخلوف من أتباع الأنبياء قد زاغت ولم تنتفع بما لديها من وحى فإن هناك أمثالهم من الملاحدة الذين يزحمون القارات ، لا يعرفون ربا ، ولا ينتظرون آخرة ، وما ارتفعت أبصارهم إلى السماء يوما . .

يتحدث القرآن الكريم عن هذا النوع: " ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا * فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا . . .

" . إن الكافرين من الأولين والاخرين ، والهمل الذين عاشوا بلها لايدرون شيئا ، هؤلاء كلهم يجثون أمام الخالق فينفذ فيهم حكمه: " . . . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا " ، فلن يخلد فى النار إلا ظلوم كفار . . . والخطاب فى الآية متجه إلى منكرى البعث ، إذ لا يصح إلا هذا ، فإن المؤمنين الصالحين لن يردوا النار أبدا وهى كما وصف الله تعالى: " وبئس الورد المورود " . ومن المؤمنين الأكابر من لا يحاسب على شىء . لأنه سبق سبقا بعيدا . والمؤمنون عامة يظفرون بالنجاة ، ويأمنون يوم الفزع: " ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا " . وذكرت سورة مريم بعض المواقف لمشركى مكة حين عرضت عليهم دعوة الإسلام ، وهى مواقف تكشف عن غباء وادعاء ! . ماذا تقول لامرئ تناقشه بالحجة فيقول لك: كيف تعارضنى وثوبى أجمل من ثوبك ؟ أو وقصرى أعلى من دارك ؟ " وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ ؟ " . وكان الجواب الإلهى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا " (منظرا) . إن هذا الكلام إفلاس فى المناظرة . . . ومثله قول مشرك مماطل عليه دين لمؤمن ضعيف: القنى فى الآخرة أقض لك دينك ، سأكون هناك ذا مال وولد ! ! أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟ ؟ " .

إنه كصاحب الجنتين فى سورة الكهف ، يكفر بلقاء الله ثم يقول: إذا كان هناك لقاء فسأكون أحسن حالا وأكثر مالا ! ! "كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا " متجردا عريان لا يملك شيئا . . وفى القرآن النازل بمكة حملة هائلة على عقيدة أن لله ولدا ، ذكرا كان أو أنثى ، وهذه الحملة

تجرف المشركين من عبدة الأصنام ، كما تضم إليهم كل من زعم أن لله جزءا من عباده ، أو أن له ابنا من مخلوقاته . . الذى يجب أن يعرفه الكل أن ما عدا الله من إنس وجن وملك عبد له لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا أمامه ، فكيف يجدى على غيره ؟ . واسمع إلى الآيات تقصف كالرعد " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . . . " . والله سبحانه يبغض من أشرك به ، ولا يغفر له جريمته ، ويقبل الموحدين ويقبل عليهم بالود والرحمة ، وما جعل إنسان التوحيد قاعدته ثم انطلق فى دروب الحياة مرتبطا به إلا أحبه الله ، وجعل أهل السماء والأرض يحبونه إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا" وفى الحديث: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله سبحانه إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إنى أحب فلانا فأحبه . فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه

أهل السماء ، ثم يوضع له القبول ! فى الأرض " ! ! . قال أحد الصالحين: ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم " فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 246.241 ﴾

(340/481)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/482)

الجزء الثانى والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 6 ﴾ من نفس السورة

(4/482)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/482)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة مريم

أقول: ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها : أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف ، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب ، وقصة موسى مع الخضر ، وما فيها من الخارقات ، وقصة ذي القرنين وهذه السورة فيها أعجوبتان قصة ولادة يحيى بن زكريا ، وقصة ولادة عيسى ، فناسب تتاليهما وأيضاً فقد قيل: إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة ، ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل ، ففي ذكر سورة مريم بعد سورة أصحاب الكهف مع ذلك – إن ثبت – ما لا يخفى من المناسبة وقد قيل أيضاً : إنهم من قوم عيسى ، وإن قصتهم كانت في الفترة ، فناسب توالى قصتهم وقصة نبيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 115.116 ﴾

(6/482)

قوله تعالى ﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت هذه السورة تالية للسورة الواصفة للكتاب – الذي به نعمة الإبقاء الأول – بالاستقامة البالغة ، افتتحها بالأحرف المقطعة ، كما افتتح السورة التي تلي أم الكتاب ، الداعيةَ إلى الصراط المستقيم ، الواصفةَ الكتابَ بالهدى الضامن للاستقامة ، والتي تلي واصفته ، والتي تلي الأنعام المشيرة إلى نعمة الإيجاد الأول ، فقال : ﴿ كهيعص ﴾ وهي خمسة أحرف على عددها مع تلك السور ، وهي جامعة النعم ، وواصفة الكتاب ، وذات النعمة الأولى ، وذات النعمة الثانية ، كما افتتحت الأعراف التالية لذات النعمة الأولى بأربعة على عددها مع قبلها من الأم الجامعة والواصفة وذات النعمة الأولى ، وكما افتتحت آل عمران التالية للواصفة بثلاثة على عددها مع الأم والواصفة ﴿ ذكر ﴾ أي هذا الذي أتلوه عليكم ذكر ﴿ رحمت ربك ﴾ أي المحسن إليك بالتأييد بكشف الغوامض وإظهار الخبء ﴿ عبده ﴾ منصوب برحمة ، لأنها مصدر بني على التاء ، لا أنها دالة على الوحدة ﴿ زكريا ﴾ أي ابن ماثان ، جزاء له على توحيده وعمله الصالح الذي حمله عليه الرجاء

للقاء ربه ، والرحمة منه سبحانه المعونة والإجابة والإيصال إلى المراد ونحو ذلك من ثمرات الرحمة المتصف بها العباد ﴿ إذ نادى ﴾ ظرف الرحمة ﴿ ربه ﴾ .

(7/482)

ولما قدم تشريفه بالذكر والرحمة والاختصاص بالإضافة إليه فدل ذلك على كمال القرب ، قال : ﴿ نداء خفياً ﴾ أي كما يفعل المحب القريب مع حبيبه المقبل عليه في قصد خطاب السر الجامع بين شرف المناجاة ولذاذة الانفراد بالخلوة ، فأطلع سبحانه عليه لأنه يعلم السر وأخفى ، فكأنه قيل : كما ذلك الندا ؟ فقيل : ﴿ قال رب ﴾ بحذف الأداة للدلالة على غاية القرب ﴿ إني وهن ﴾ أي ضعف جداً ﴿ العظم مني ﴾ أي هذا الجنس الذي هو أقوى ما في بدني ، وهو أصل بنائه ، فكيف بغيره ! ولو جمع لأوهم أنه وهن مجموع عظامه لا جميعها ﴿ واشتعل الرأس ﴾ أي شعره مني ﴿ شيباً ولم أكن ﴾ فيما مضى قط مع صغر السن ﴿ بدعائك ﴾ أي بدعائي إياك ﴿ رب شقياً ﴾ فأجرِني في هذه المرة أيضاً على عوائد فضلك ، فإن المحسن يربي أول إحسانه بآخره وإن كان ما ادعوا به في غاية البعد في العادة ، لكنك فعلت مع أبي إبراهيم عليه السلام مثله ، فهو دعاء شكر واستعطاف ؛ ثم عطف على " إني وهن " قوله : ﴿ وإني خفت الموالي ﴾ أي فعل الأقارب أن يسيئوا

الخلافة ﴿ من وراءي ﴾ أي في بعض الزمان الذي بعد موتي ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ لا تلد أصلاً - بما دل عليه فعل الكون ﴿ فهب لي ﴾ أي فتسبب - عن شيخوختي وضعفي وتعويدك لي بالإجابة ، وخوفي من سوء خلافة أقاربي ، ويأسي عن الولد عادة بعقم امرأتي ، وبلوغي من الكبر حداً لاحراك بي معه - إني أقول لك يا قادراً على كل شيء : هب لي ﴿ من لدنك ﴾ أي من الأمور المستبطنة المستغربة التي عندك ، لم تجرها على مناهج العادات والأسباب المطردات ، لا من جهة سبب أعرفه ، فإن أسباب ذلك عندي معدومة .

(8/482)

وقد تقدم في آل عمران لذلك مزيد بيان ﴿ ولياً ﴾ أي من صلبي بدلالة ﴿ ذرية ﴾ في السورة الأخرى ﴿ يرثني ﴾ في جميع ما أنا فيه من العلم والنبوة والعمل ﴿ ويرث ﴾ زيادة على ذلك ﴿ من ءال يعقوب ﴾ جدنا مما خصصتهم به من المنح ، وفضلتهم به من النعم ، من محاسن الأخلاق ومعالي الشيم ، وخص اسم يعقوب اقتداء به نفسه إذ قال ليوسف عليهما الصلاة والسلام ﴿ ويتم نعمته عليك وعلى ءال يعقوب ﴾ [يوسف : 6] ولأن إسرائيل صار علماً على الأسباط كلهم ، وكانت قد غلبت عليهم الأحداث ؛ وقد

استشكل القاضي العضد في " الفوائد الغياثية " كونَ ﴿ يرث ﴾ على قراءة الرفع صفة بأنه يلزم عليه عدم إجابة دعائه عليه الصلاة والسلام لأن يحيى عليه السلام قتل في حياته ، ولا يكون وارثاً إلا إذا تخلف بعده ، وقد قال تعالى ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى ﴾ [الأنبياء : 90] قال : فتجعل استئنافية ، ولا يلزم حينئذ إلا خلف ظنه عليه السلام – هكذا نقل لي عنه ، وأنا أجلّه عن ذلك ، لأنه لا يلزم تخلف دعائه ولا يتجرأ على عليّ مقامه بإخلاف ظنه ، لأن الإخبار عن قتله قبله إن كان عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وصح السند ، كان تسمية العلم الذي أخذه عنه في حياته إرثاً مجازاً مرسلاً باعتبار ما يؤول إليه في الجملة ، لا سيما مع جواز أن يكون يحيى عليه السلام علَّمه لمن عاش بعد أبيه عليهما الصلاة والسلام ، وذلك لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - سمى العلم إرثاً على وجه الاستعارة التبعية بقوله عليه الصلاة والسلام " العلماء ورثة الأنبياء " ولا شك أن من ضرورة تعلم العلم حياة المأخوذ عنه ، ولم يرد منع من تسميته إرثاً حال الأخذ ، هذا إذا صح أن يحيى عليه السلام مات قبل زكريا عليه السلام ، وحينئذ يؤول ﴿ من وراءي ﴾ بما غاب عنه ، أي عجزت عن تتبع أفعال الموالي بنفسي في حال الكبر ، وخفت سوء فعلهم إذا خرجوا من عندي وغابوا عني ، فهب لي ولداً يكون متصفاً بصفاتي ، فكان ما سأله ، وإن لم يصح

موته قبله بالطريق المذكور لم يصح أصلاً ، وينتفي الاعتراض رأساً ، فإن التواريخ القديمة إنما هي عن اليهود فهي لا شيء ، مع أن البغوي نقل في أول تفسير سورة بني إسرائيل ما يقتضي موت زكريا قبل يحيى عليهما الصلاة والسلام ، فإنه قال : آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وكانوا من بيت آل داود عليه السلام فمات زكريا عليه السلام ، وقيل : قتل ، فلما رفع الله عيسى عليه الصلاة والسلام من بين أظهرهم وقتلوا يحيى ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خردوش فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام ، فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤوس جنوده يدعى بيوزردان صاحب الفيل فقال : إني كنت قد حلفت بإلهي : لئن أنا ظهرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلا أن لا أجد أحداً أقتله ، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، وأن بيوزردان دخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم ، فوجد فيها دماً يغلي فقال : يا بني إسرائيل ! ما شأن هذا الدم يغلي ؟ قالوا : هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا ، فقال : ما صدقتموني ، قالوا : لو كان تأول زماننا لتقبل منا ، ولكن قد انقطع منا الملك والوحي فلذلك لم يقبل منا ، فذبح منهم بيوزردان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤوسهم فلم يهدأ ، فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم يهدأ ، فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد

، فلما رأى بيوزردان أن الدم لا يهدأ قال لهم : يا بني إسرائيل ! ويلكم ! أصدقوني واصبروا على أمر ربكم ، فقد طال ما ملكتم الأرض تفعلون فيها ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار أنثى ولا ذكر إلا قتلته ، فلما رأوا الجد وشدة القتل صدقوا الخبر فقالوا : إن هذا دم نبي كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله عز وجل ، فلو أطعناه فيها لكان أرشد منا ، وكان يخبرنا بأمركم

(10/482)

فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه ، فقال لهم بيوزردان : ما كان اسمه ؟ قالوا : يحيى بن زكريا ، قال : الآن صدقتموني ، بمثل هذا ينتقم منكم ربكم ، فلما رأى بيوزردان أنهم صدقوه خر ساجداً وقال لمن حوله : أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش ، وخلا في بني إسرائيل ، ثم قال : يا يحيى بن زكريا ! قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم فاهدأ بإذن الله قبل أن لا أبقي من قومك أحداً ، فهدأ الدم بإذن الله تعالى ، ورفع بيوزردان عنهم القتل وقال : آمنت بالذي آمن به بنو إسرائيل وأيقنت أنه لا رب غيره ، وقال لبني إسرائيل : إن خردوش أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره ، وإني لست أستطيع أن أعصيه ، قالوا له : افعل ما أمرت به ، فأمرهم

فحفروا خندقاً وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم ، فذبحها حتى سال الدم في العسكر ، وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم ، فلم يظن خردوش إلا أن ما في الخندق من بني إسرائيل ، فلما بلغ الدم عسكره أرسل بيوزردان أن ارفع عنهم القتل ، ثم انصرف إلى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد .

فهذا كما ترى ظاهر في أن يحيى تخلف بعد أبيه عليهما الصلاة والسلام وكذا ما تقدم في آل عمران عن الإنجيل في قصة ولادته .

ولما ختم دعاءه بقوله : ﴿ واجعله رب ﴾ أي أيها المحسن إلي ﴿ رضياً ﴾ أي بعين الرضا منك دائماً حتى يلقاك على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 514 . 522 ﴾

(11/482)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ كهيعص ﴾ بإمالة الهاء فقط : أبو عمرو ﴿ كهيعص ﴾ بإمالة الياء فقط : حمزة وخلف وقتيبة وابن ذكوان ، وقرأ عليّ غير قتيبة ويحيى ويحيى وحماد بإمالتهما .

وقرأ أبو جعفر ونافع والخزاعي عن البزي وابن فليح بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب .
الباقون بتفخيمها ﴿ صاد ذكر ﴾ مدغماً : أبو عمرو وحمزة وخلف وابن عامر وسهل
﴿ من ورائي ﴾ بفتح الياء مهموزاً : ابن كثر غير زمعة والخزاعي عن ا لبزي وقرأ زمعة
عن ابن كثير والخزاعي عن البزي ﴿ من وراي ﴾ مثل ﴿ عصاي ﴾ ﴿ يرثني ويرث ﴾
بالجزم فيهما : أبو عمرو وعليّ . الباقون برفعهما ﴿ يبشرك ﴾ ثلاثياً وكذلك في آخر
السورة : حمزة ﴿ عتباً ﴾ و ﴿ جثياً ﴾ و ﴿ صلياً ﴾ و ﴿ بكياً ﴾ بكسر الأوائل :
حمزة وعلي وافق حفص إلا في ﴿ بكياً ﴾ الخزاز عن هبيرة ﴿ عتباً ﴾ الأولى بالكسر
والثاني بالضم . ﴿ وقد خلقناك ﴾ حمزة وعلي . الآخرون ﴿ خلقتك ﴾ على
التوحيد ﴿ إلى آية ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن شنبوذ عن أهل مكة .
الوقوف : ﴿ كهيعص ﴾ 5 كوفى ﴿ زكريا ﴾ 5 ح لجواز تعلق "إذ" ب ﴿ ذكر رحمة
ربك ﴾ ولاحتمال انتصابه بأذكر محذوفاً . ﴿ خفياً ﴾ 5 ﴿ شقياً ﴾ ه ﴿ ولياء ﴾
لا ﴿ آل يعقوب ﴾ ق والوجوه الوصل لعطف الجملتين المتفقتين ﴿ يحيى ﴾ لا لأن ما
بعده صفة غلام والاستئناف ليس بقوي . ﴿ سمياً ﴾ 5 ﴿ عتياً ﴾ 5 ﴿ كذلك ﴾
5 بناء على أن التقدير الأمر كذلك ﴿ شيئاً ﴾ 5 ﴿ آية ﴾ ط ﴿ سوياً ﴾ 5 ﴿
وعشياً ﴾ 5 ﴿ بقوة ﴾ ط ﴿ صبياً ﴾ 5 لا للعطف أي آتيناه الحكم وحناناً منا عليه

﴿ وزكاة ﴾ ط ﴿ تقياً ﴾ 5 ﴿ عصياً ﴾ 5 ﴿ حياً ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 466 . 467 ﴾

(12/482)

فصل

قال الفخر :

﴿ كهيعص (1) ﴾

قبل الخوض في القراءات لا بد من مقدمات ثلاثة .

المقدمة الأولى : أن حروف المعجم على نوعين ثنائي وثلاثي ، وقد جرت عادة العرب أن ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولوا : با تا ثا وكذلك أمثالها ، وأن ينطقوا بالثلاثيات التي في وسطها الألف مفتوحة مشبعة فيقولوا دال ذال صاد ضاد وكذلك أشكالها ، أما الزاي وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الأمران ، فإن من أظهر ياءه في النطق حتى يصير ثلاثياً لم يمله ، ومن لم يظهر ياءه في النطق حتى يشبه الثنائي يمله .

أما المقدمة الثانية : ينبغي أن يعلم أن إشباع الفتحة في جميع المواضع أصل والإمالة فرع عليه ولهذا يجوز إشباع كل ممال ولا يجوز إمالة كل مشبع من الفتحات .

المقدمة الثالثة : للقراء في القراءات المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق : أحدها : أن يتمسكوا بالأصل وهو إشباع فتحة الهاء والياء .

وثانيها : أن يميلوا الهاء والياء .

وثالثها : أن يجمعوا بين الأصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا أحدهما أيهما كان ويكسروا الآخر ولهم في السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان : الأول : أن الفتحة المشبعة أصل والإمالة فرع مشهور كثير الاستعمال فأشبع أحدهما وأميل الآخر ليكون جامعاً لمراعاة الأصل والفرع وهو أحسن من مراعاة أحدهما وتضييع الآخر .

القول الثاني : أن الثنائية من حروف المعجم إذا كانت مقطوعة كانت بالإمالة ، وإذا كانت موصولة كانت بالإشباع وها ويا في قوله تعالى : ﴿كهيعص﴾ مقطوعان في اللفظ موصولان في الخط فأميل أحدهما وأشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعياً جانب القطع اللفظي وجانب الوصل الخطي ، إذا عرفت هذا فنقول فيه قراءات : إحداها : وهي القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعاً .

(13/482)

وثانيها : كسر الهاء وفتح الياء وهي قراءة أبي عمرو وابن مبادر (1) والقطعي عن أيوب ، وإنما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقاً بينه وبين الهاء الذي للتنبيه فإنه لا يكسر قط .

وثالثها : فتح الهاء وكسر الياء وهو قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم ، وإنما كسروا الياء دون الهاء ، لأن الياء أخت الكسرة وإعطاء الكسرة أختها أولى من إعطائها إلى أجنبية مفتوحة للمناسبة .

ورابعها : إمالتهما جميعاً وهي قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهري وابن جرير وإنما أمالوهما للوجهين المذكورين في إمالة الهاء وإمالة الياء .

وخامسها : قراءة الحسن وهي ضم الهاء وفتح الياء ، وعنه أيضاً فتح الهاء وضم الياء ، وروى صاحب "الكشاف" عن الحسن بضمهما ، فقيل له لم تثبت هذه الرواية عن الحسن لأنه أورد ابن جني في كتاب "المكتسب" أن قراءة الحسن ضم أحدهما وفتح الآخر لا على التعيين ، وقال بعضهم : إنما أقدم الحسن على ضم أحدهما لا على التعيين لأنه تصور أن عين الفعل في الهاء والياء ألف منقلب عن الواو كالدار والمال ، وذلك لأن هذه الألفات وإن كانت مجهولة لأنها لا اشتقاق لها فإنها تحمل على ما هو مشابه لها في اللفظ .

والألف إذا وقع عيناً فالواجب أن يعتقد أنه منقلب عن الواو لأن الغالب في اللغة ذلك فلما تصور الحسن أن ألف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله في حكم الواو وضم ما قبله لأن

الواو أخت الضمة .

وسادسها : ها يا بإشمامهما شيئاً من الضمة .

المسألة الثالثة :

قرأ أبو جعفر كهيعص يفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع إظهار نون العين

وباقي القراء يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون .

المسألة الثالثة :

القراءة المعروفة صاد ، ذكر بالإدغام ، وعن عاصم ويعقوب بالإظهار .

---

(1) هكذا في الأصول (ابن مبادر) ولم نره في القراءة ولعله محرف عن ابن مناذر وهو مما سمت به العرب .

البحث الثاني : المذاهب المذكورة في هذه الفواتح قد تقدمت لكن الذي يختص بهذا الموضع ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى كهيعص ثناء من الله على نفسه ، فمن الكاف وصفه بأنه كاف ومن الهاء هاد ومن العين عالم ومن الصاد صادق .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً أنه حمل الكاف على الكبير والكريم ، ويحكى أيضاً

عنه أنه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى ، وعن الربيع بن أنس في الياء أنه من مجير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في العين أنه من عزيز ومن عدل ، وهذه الأقوال ليست قوية لما بينا أنه لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز لأنا إن جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطناً ، واللغة لا تدل على ما ذكروه فإنه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم أو الملائكة أو الجنة أو النار فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكماً لا تدل عليه اللغة أصلاً .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في لفظة ذكر أربع قراءات صيغة المصدر أو الماضي مخففة أو مشددة أو الأمر ، أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر رحمة ربك على الإضافة ثم فيها ثلاثة أوجه : أحدها :

نصب الدال من عبده والهمزة من زكرياء وهو المشهور .

وثانيها : برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هي عبده زكرياء عن ابن عامر .

وثالثها : بنصب الأول وبرفع الثاني والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء .

وأما صيغة الماضي بالتشديد فلا بد فيها من نصب رحمة .

وأما صيغة الماضي بالتخفيف ففيها وجهان .

أحدهما : رفع الباء من ربك والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء .

وثانيها : نصب الباء من ربك والرفع في عبده زكرياء وذلك بتقديم المفعول على الفاعل

وهاتان القراءتان للكلبي ، وأما صيغة الأمر فلا بد من نصب رحمة وهي قراءة ابن عباس .

(15/482)

واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر والماضي يكون التقدير هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك .

المسألة الثانية :

يحتمل أن يكون المراد من قوله رحمة ربك أعني عبده زكرياء ثم في كونه رحمة وجهان :

أحدهما : أن يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعات .

والآخر : أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمة محمد لأن الله تعالى لما شرح لمحمد صلى الله عليه وسلم طريقه في الإخلاص والابتهال في جميع الأمور إلى الله تعالى صار ذلك لفظاً داعياً له ولأمته إلى تلك الطريقة فكان زكرياء رحمة ، ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكرياء .

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) ﴾

راعى سنة الله في إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان فكان الإخفاء أولى لأنه أبعد عن الرياء وأدخل في الإخلاص .

وثانيها : أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمان الشيخوخة .

وثالثها : أسره من مواليه الذين خافهم .

ورابعها : خفي صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات ، فإن قيل من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفياً ، والجواب من وجهين :

الأول : أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفاً لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظراً إلى قصده وخفياً نظراً إلى الواقع .

الثاني : أنه دعا في الصلاة لأن الله تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى المحراب أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بيحيى ﴾ [آل عمران : 39] فكون الإجابة في الصلاة يدل على كون الدعاء في الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفياً .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) ﴾

القراءة فيها مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ وَهَنَ ﴾ بالحركات الثلاث .

(16/482)

المسألة الثانية :

إدغام السين في الشين (من الرأس شيباً) عن أبي عمرو .

المسألة الثالثة :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى ﴾ بفتح الياء وعن الزهري بإسكان الياء من الموالي وقرأ عثمان وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس خفت بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر التاء وهذا يدل على معنيين : أحدهما : أن يكون ورائي بمعنى بعدي والمعنى أنهم قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعده فسأل ربه تقويتهم بولي يرزقه . والثاني : أن يكون بمعنى قدامي والمعنى أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تقو واعتضاد .

المسألة الرابعة :

القراءة المعروفة : ﴿ مِن وَرَائِى ﴾ بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وعن حميد بن مقسم

كذلك لكن بفتح الياء وقرأ ابن كثير ﴿ وراي ﴾ كعصاي .

المسألة الخامسة :

من يرثني ويرث وجوه : أحدها : القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة .

وثانيها : وهي قراءة أبي عمرو والكسائي والزهري والأعمش وطلحة بالجزم فيهما جواباً للدعاء .

وثالثها : عن علي ابن أبي طالب وابن عباس وجعفر بن محمد والحسن وقتادة :

﴿ يَرِثُنِى ﴾ جزم وارث بوزن فاعل .

ورابعها : عن ابن عباس : ﴿ يَرِثُنِى ﴾ وارث من آل يعقوب .

وخامسها : عن الجحدري ﴿ وَيَرِثُ ﴾ تصغير وارث على وزن أفيعل (اللغة) الوهن ضعف القوة قال في "الكشاف" شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه كل مأخذ كاشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة ، وأما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الإجابة كما أن مقابل الأمر الطاعة ، وأما أصل التركيب في (ولي) (1) فيدل على معنى القرب والدنو يقال وليته أليه ولياً أي دنوت وأوليته أدنيته منه وتباعد ما بعده وولي ومنه قول ساعدة (ابن جؤية) :

(1) التثقيل هنا التشديد . والحشو هنا وسط الكلمة . والسلب هنا معناه الضد والمعنى أنه شدد اللام من ولي ليفهم الضد فإن (ولي) مكسورة اللام مخففة معناها أقبل و(ولى) مفتوحة اللام مشددة معناها أدبر والأدبار ضد الإقبال . وهذا معنى تثقيل الحشو للسلب والله أعلم .

(17/482)

وعدت عواد دون وليك تشغب . . وكل مما يليك وجلست مما يليه ومنه الولي وهو المطر الذي يلي الوسمي ، والولية البرذعة لأنها تلي ظهر الدابة وولي اليتيم والقتيل وولي البلد لأن من تولى أمراً فقد قرب منه ، وقوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144 ، 149 ، 150] من قولهم ولاه بركنه أي جعله مما يليه ، أما ولي عني إذا أدبر فهو من باب تثقيل الحشو للسلب وقولهم فلان أولى من فلان أي أحق أفعل التفضيل من الوالي أو الولي كالأدنى والأقرب من الداني والقريب وفيه معنى القرب أيضاً لأن من كان أحق بالشيء كان أقرب إليه والمولى اسم لموضع الولي كالمرمى والمبني اسم لموضع والمرمي والبناء ، وأما العاقر فهي التي لا تلد والعقر في اللغة الجرح ومنه أخذ العاقر لأنه نقص أصل الخلقة وعقرت الفرس بالسيف إذا ضربت قوائمه ، وأما الآل فهم خاصة الرجل الذين يؤول

أمرهم إليه ثم قد يؤول أمرهم إليه للقرابة تارة وللصحبة أخرى كآل فرعون وللموافقة في الدين كآل النبي صلى الله عليه وسلم واعلم أن زكرياء عليه السلام قدم على السؤال أموراً ثلاثة : أحدها : كونه ضعيفاً .

والثاني : أن الله تعالى ما رد دعاءه ألبتة .

والثالث : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم بعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح بالسؤال .

أما المقام الأول : وهو كونه ضعيفاً فأثر الضعف ، إما أن يظهر في الباطن أو في الظاهر ، والضعف الذي يظهر في الباطن يكون أقوى مما يظهر في الظاهر فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله : ﴿ وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ وتقريره هو أن العظام أصلب الأعضاء التي في البدن وجعلت كذلك لمنفعتين : إحداهما : لأن تكون أساساً وعمداً يعتمد عليها سائر الأعضاء الآخر إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول .

(18/482)

والثانية : أنه احتيج إليها في بعض المواضع لأن تكون جنة يقوى بها ما سواها من الأعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر ، وما كان كذلك فيجب أن يكون صلباً ليكون صبوراً على ملاقاة الآفات بعيداً من القبول لها إذا ثبت هذا فنقول : إذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ما عداها مع رخاوتها أولى ، ولأن العظم إذا كان حاملاً لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجباً لتطرقه إلى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة .

المقام الثاني : أنه ما كان مردود الدعاء ألبتة ووجه التوسل به من وجهين : أحدهما : ما روي أن محتاجاً سأل واحداً من الأكابر وقال : أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا ، فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا ثم قضى حاجته .

وذلك أنه إذا قبله أولا فلو أنه رده ثانياً لكان الرد محبطاً للأنعام الأول والمنعم لا يسعى في إحباط أنعامه .

والثاني : وهو أن مخالفة العادة شاقة على النفس فإذا تعود الإنسان إجابة الدعاء فلو صار مردوداً بعد ذلك لكان في غاية المشقة ولأن الجفاء ممن يتوقع منه الإنعام يكون أشق فقال

زكرياء عليه السلام إنك ما رددتني في أول الأمر مع أني ما تعودت لطفك وكنت قوي البدن قوي القلب فلو رددتني الآن بعد ما عودتني القبول مع نهاية ضعفي لكان ذلك بالغاً إلى الغاية القصوى في ألم القلب ، واعلم أن العرب تقول سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها وشقي بها إذا خاب ولم ينلها ومعنى بدعائك أي بدعائي إياك فإن الفعل قد يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى .

(19/482)

المقام الثالث : بيان كون المطلوب منتفعاً به في الدين وهو قوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى مِن وَرَائِى ﴾ وفيه أبحاث : الأول : قال ابن عباس والحسن : إني خفت الموالي أي الورثة من بعدي وعن مجاهد العصبة وعن أبي صالح الكلالة وعن الأصم بنو العم وهم الذين يلونه في النسب وعن أبي مسلم المولي يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب وهو ههنا من يقوم بميراثه مقام الولد ، والمختار أن المراد من الموالي الذين يخلفون بعده إما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب فإنه كان متعيناً في الحياة .

الثاني : اختلفوا في خوفه من الموالي فقال بعضهم : خافهم على إفساد الدين ، وقال بعضهم

بل خاف أن ينتهي أمره إليهم بعد موته في مال وغيره مع أنه عرف من حالهم قصورهم في العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب ، وفيه قول ثالث وهو أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد اعلمه أنه لم يبق من أنبياء بني إسرائيل نبي له أب إلا واحد فخاف أن يكون ذلك من بني عمه إذ لم يكن له ولد فسأل الله تعالى أن يهب له ولداً يكون هو ذلك النبي ، وذلك يقتضي أن يكون خائفاً من أمر يهتم بمثله الأنبياء وإن لم يدل على تفصيل ذلك .

ولا يمتنع أن زكرياء كان إليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالإمامة فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما .

(20/482)

أما قوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ﴾ فهو وإن خرج على لفظ الماضي لكنه يفيد أنه في المستقبل أيضاً ، كذلك يقول الرجل قد خفت أن يكون كذا وخشيت أن يكون كذا أي أنا خائف لا يريد أنه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله : ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ أي أنها عاقر في الحال وذلك لأن العاقر لا تحول ولوداً في العادة ففي الإخبار عنه بلفظ الماضي إعلام بتقادم العهد في ذلك وغرض زكرياء من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى وإلى هذا يرجع الأمر في قوله : وإني خفت الموالي من ورائي لأنه إنما قصد به

الإخبار وعن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسألة الوارث وإظهار الحاجة عن الإخبار بوجود الخوف في الحال وأيضاً فقد يوضع الماضي مكان المستقبل وبالعكس قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] والله أعلم وأما قوله ﴿ من ورائي ﴾ ففيه قولان : الأول : قال أبو عبيدة أي قدامي وبين يدي وقال آخرون أي بعد موتي وكلاهما محتمل فإن قيل كيف خافهم من بعده وكيف علم أنهم يبقون بعده فضلاً من أن يخاف شرهم ؟ قلنا : إن ذلك قد يعرف بالأمارات والظن وذلك كاف في حصول الخوف فربما عرف ببعض الإمارات استمرارهم على عادتهم في الفساد والشر واختلف في تفسير قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ فالأكثرون على أنه طلب الولد وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولداً كان أو غيره والأقرب هو الأول لثلاثة أوجه .

الأول : قوله تعالى في سورة آل عمران حكاية عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 38] .

والثاني : قوله في هذه السورة : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ .

(21/482)

والثالث : قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ [الأنبياء : 89] وهذا يدل على أنه سأل الولد لأنه قد أخبر في سورة مريم أن له موالي وأنه غير منفرد عن الورثة وهذا وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه لكن حمله على الولد أظهر واحتج أصحاب القول الثالث بأنه لما بشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال أنى يكون لي غلام ولو كان دعاؤه لأجل الولد لما استعظم ذلك .

الجواب : أنه عليه السلام سأل عما يوهب له أيوهب له وهو وامرأته على هيئتهما أو يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد ؟ وهذا يحكي عن الحسن وقال غيره إن قول زكرياء عليه السلام في الدعاء : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ إنما هو على معنى مسألته ولداً من غيرها أو منها بأن يصلحها الله للولد فكأنه عليه السلام قال إني أيست أن يكون لي منها ولد فهب لي من لدنك ولياً كيف شئت إما بأن تصلحها فيكون الولد منها أو بأن تهب لي من غيرها فلما بشر بالغلام سأل أيرزق منها أو من غيرها فأخبر بأنه يرزق منها واختلفوا في المراد بالميراث على وجوه .

أحدها : أن المراد بالميراث في الموضعين هو وراثة المال وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك .

وثانيها : أن المراد به في الموضعين وراثة النبوة وهو قول أبي صالح .

وثالثها : يرثني المال ويرث من آل يعقوب النبوة وهو قول السدي ومجاهد والشعبي وروي

أيضاً عن ابن عباس والحسن والضحاك .

ورابعها : يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة وهو مروي عن مجاهد واعلم أن هذه الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهي المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة ولفظ الإرث مستعمل في كلها أما في المال فلقوله تعالى :

(22/482)

﴿ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديارهم وَأَموالَهُمْ ﴾ [الأحزاب : 27] وأما في العلم فلقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الهدى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسرائيل الكتاب ﴾ [غافر : 53] وقال عليه السلام : " العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم " وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ وسليمان عِلْماً وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذى فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مّنْ عِبَادِهِ المؤمنين * وَوَرِثَ سليمان دَاوُودَ ﴾ [النمل : 15 ، 16] وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة وقد يقال أورثني هذا غماً وحزناً ، وقد ثبت أن اللفظ محتمل لتلك الوجوه .

واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول أما الخبر فقوله عليه السلام : " رحم الله زكريا ما كان له من يرثه " وظاهره يدل على أن المراد إرث المال وأما المعقول فمن

وجهين .

الأول : أن العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لا تحصل إلا بالاكتساب فوجب حمله على المال .

(23/482)

الثاني : أنه قال ﴿ واجعله رَبّ رَضِيّاً ﴾ ولو كان المراد من الإرث إرث النبوة لكان قد سأل جعل النبي صلى الله عليه وسلم رضياً وهو غير جائز لأن النبي لا يكون إلا رضياً معصوماً ، وأما قوله عليه السلام : " إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " فهذا لا يمنع أن يكون خاصاً به واحتج من حمله على العلم أو المنصب والنبوة بما علم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين ، وقيل لعله أوتي من الدنيا ما كان عظيم النفع في الدين فلهذا كان مهتماً به أما قوله النبوة كيف تورث قلنا المال إنما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام أبيه وحصل له من فائدة التصرف فيه ما حصل لأبيه وإلا فملك المال من قبل الله لا من قبل المورث فكذلك إذا كان المعلوم في الإبن أن يصير نبياً بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز أن يقال ورثه أما قوله عليه السلام : " إنا معشر الأنبياء " فهذا وإن جاز حمله على الواحد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9]

لكنه مجاز وحقيقته الجمع والعدول عن الحقيقة من غير موجب لا يجوز لا سيما وقد روي قوله : " إنا معاشر الأنبياء لا نورث " والأولى أن يحمل ذلك على كل ما فيه نفع وصلاح في الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع في الدين والمال الصالح ، فإن كل هذه الأمور مما يجوز توفر الدواعي على بقائها ليكون ذلك النفع دائماً مستمراً .

(24/482)

السابع : اتفق أكثر المفسرين على أن يعقوب ههنا هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام لأن زوجة زكرياء هي أخت مريم وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب وأما زكرياء عليه السلام فهو من ولد هرون أخي موسى عليه السلام وهرون وموسى عليهما السلام من ولد لاوى بن يعقوب بن إسحق وكانت النبوة في سبط يعقوب لأنه هو إسرائيل صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين ليس المراد من يعقوب ههنا ولد إسحق بن إبراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكرياء وهذا قول الكلبي ومقاتل .

وقال الكلبي كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم وكان زكريا رأس الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بني ماثان ملكهم ، واعلم أنهم ذكروا في تفسير الرضى

وجوهاً .

أحدها : أن المراد واجعله رضياً من الأنبياء وذلك لأن كلهم مرضيون فالرضي منهم مفضل على جملتهم فائق لهم في كثير من أمورهم فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين لم يعص ولم يهم بمعصية ، وهذا غاية ما يكون به المرء رضياً .

وثانيها : المراد بالرضي أن يكون رضياً في أمته لا يتلقى بالتكذيب ولا يواجه بالرد .

وثالثها : المراد بالرضي أن لا يكون متهماً في شيء ولا يوجد فيه مطعن ولا ينسب إليه شيء من المعاصي .

ورابعها : أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قالا في الدعاء : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة : 182] وكانا في ذلك الوقت مسلمين ، وكأن المراد هناك ثبتنا على هذا أو المراد اجعلنا فاضلين من أنبيائك المسلمين فكذا ههنا واحتج أصحابنا في مسألة خلق الأفعال بهذه الآية لأنه إنما يكون رضياً بفعله ، فلما سأل الله تعالى جعله رضياً دل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

فإن قيل : المراد منه أن يلطف له بضروب الألطاف فيختار ما يصير مرضياً فينسب ذلك إلى الله تعالى .

والجواب من وجهين : الأول : أن جعله رضياً لو حملناه على جعل الألطاف وعندها يصير المرء باختياره رضياً لكان ذلك مجازاً وهو خلاف الأصل .

والثاني : أن جعل تلك الألطاف واجبة على الله تعالى لا يجوز الإخلال به وما كان واجباً لا يجوز طلبه بالدعاء والتضرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 151 . 158 ﴾

(26/482)

وقال الجصاص :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

فَمَدَحَهُ بِإِخْفَاءِ الدُّعَاءِ ، وَفِيهِ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ إِخْفَاءَهُ أَفْضَلُ مِنْ الْجَهْرِ بِهِ ، وَنَظِيرُهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وَرَوَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي ﴾ .

وَعَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنْ يَدْعُوَ الْإِمَامُ فِي الْقُنُوتِ وَيُؤَمِّنَ مَنْ خَلْفَهُ ، وَكَانَ لَا يُعْجِبُهُ رَفْعُ الْأَصْوَاتِ .

وَرَوَى أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي سَفَرٍ فَرَأَى قَوْمًا قَدْ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالدُّعَاءِ فَقَالَ : إنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّا وَلَا غَائِبًا إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَيْكُمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾

رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَأَبِي صَالِحٍ وَالسُّدِّيِّ : أَنَّ الْمَوَالِيَ الْعُصْبَةُ وَهُمْ بَنُو أَعْمَامِهِ ، خَافَهُمْ عَلَى الدِّينِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا شِرَارَ بَنِي إسْرَائِيلَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْك وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا ذَكَرًا يَلِي أُمُورَ الدِّينِ وَالْقِيَامَ بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ لِخَوْفِهِ مِنْ بَنِي أَعْمَامِهِ عَلَى تَبْدِيلِ دِينِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ .

وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قَالَ : " نُبُوَّتَهُ وَعِلْمَهُ " .

(27/482)

وَرَوَى خُصَيْفٌ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : "كَانَ عَقِيمًا لَا يُولَدُ لَهُ وَلَدٌ فَسَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ فَقَالَ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ النُّبُوَّةَ " ، وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ مِثْلُهُ .

فَذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُ يَرِثُ الْمَالَ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ النُّبُوَّةَ فَقَدْ أَجَازَ إِطْلَاقَ اسْمِ الْمِيرَاثِ عَلَى النُّبُوَّةِ فَكَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَعْنِيَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَرِثُنِي ﴾ يَرِثُ عِلْمِي .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ﴾ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ يَعْنِي بِعَرَفَاتٍ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ لَا نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ ﴾ .

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ يَنْشُدُ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ عُثْمَانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ : أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي بِهِ تَقُومُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ﴾ فَقَدْ ثَبَتَ بِرِوَايَةِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا

يُورِّثُونَ الْمَالَ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ زَكَرِيَّا لَمْ يُرِدْ بِقَوْلِهِ : "يَرِثُنِي " الْمَالَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْسَفَ عَلَى مَصِيرِ مَالِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ إلَى مُسْتَحِقِّهِ ، وَأَنَّهُ إنَّمَا خَافَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ بَنُو أَعْمَامِهِ عَلَى عُلُومِهِ وَكِتَابِهِ فَيُحَرِّفُونَهَا وَيَسْتَأْكِلُونَ بِهَا فَيُفْسِدُونَ دِينَهُ وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(29/482)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذَا يُنَاسِبُ قَوْلَهُ : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

وَقَدْ رَوَى سَعْدٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ ، وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنْ الرِّيَاءِ ، فَأَمَّا دُعَاءُ زَكَرِيَّا فَإِنَّمَا كَانَ خَفِيًّا ، وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ كَانَ لَيْلًا .

وَالثَّانِي : لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي دُعَائِهِ أَحْوَالًا تَفْتَقِرُ إلَى الْإِخْفَاءِ ، كَقَوْلِهِ : وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي .

وَهَذَا مِمَّا يُكْتَمُ وَلَا يُجْهَرُ بِهِ ، وَقَدْ أَسَرَّ مَالِكٌ الْقُنُوتَ ، وَجَهَرَ بِهِ الشَّافِعِيُّ ، وَالْجَهْرُ أَفْضَلُ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو بِهِ جَهْرًا حَسْبَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْك وَلِيًّا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ لِلْمَوْلَى ثَمَانِيَةَ مَعَانٍ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ وَالْحَدِيثِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا الْوَارِثُ ، وَابْنُ الْعَمِّ .

(30/482)

وَلَمْ يَخَفْ زَكَرِيَّا إرْثَ الْمَالِ ، وَلَا رَجَاهُ مِنْ الْوَلَدِ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ إرْثَ النُّبُوَّةِ ، وَعَلَيْهَا خَافَ أَنْ تَخْرُجَ عَنْ عَقِبِهِ ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ ﴾ .

وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : ﴿ إنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا عِلْمًا ﴾ .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَجَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ فِي الْوَلَدِ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ دَعَاهُ لِإِظْهَارِ دِينِهِ ،

وَإِحْيَاءِ نُبُوَّتِهِ ، وَمُضَاعَفَةِ أَجْرِهِ ، فِي وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ بَعْدَهُ ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ لِلدُّنْيَا .

الثَّانِي : لِأَنَّ رَبَّهُ كَانَ قَدْ عَوَّدَهُ الْإِجَابَةَ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ .

وَهَذِهِ وَسِيلَةٌ حَسَنَةٌ أَنْ يَتَشَفَّعَ إِلَيْهِ بِنِعَمِهِ ، وَيَسْتَدِرَّ فَضْلَهُ بِفَضْلِهِ .

يُرْوَى أَنَّ حَاتِمَ الْجَوَادِ لَقِيَهُ رَجُلٌ ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الَّذِي أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ عَامَ أَوَّلَ .

قَالَ : مَرْحَبًا بِمَنْ تَشَفَّعَ إِلَيْنَا بِنَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(31/482)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ كهيعص ﴾

فيه ستة أقاويل :

أحدها : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الثاني : أنه اسم من أسماء الله ، قاله علي كرم الله وجهه .

الثالث : أنه استفتاح السورة ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : أن اسم السورة ، قاله لحسن .

الخامس : أنه من حروف الجُمل تفسير لا إله إلا الله ، لأن الكاف عشرون والهاء خمسة والياء عشرة والعين سبعون والصاد تسعون . كذلك عدد حروف لا إله إلا الله ، حكه أبان بن تغلب .

السادس : أنها حروف أسماء الله .

فأما الكاف فقد اختلفوا فيها من أي اسم هي على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها من كبير ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها من كاف ، قاله الضحاك .

الثالث : أنها من كريم ، قاله ابن جبير .

وأما الهاء فإنها من هادٍ عند جميعهم .

وأما الياء ففيها أربعة أقاويل :

أحدها : أنها من يمن ، قاله ابن عباس .

الثاني : من حكيم قاله ابن جبير .

الثالث : أنها من ياسين حكاه سالم .

الرابع : أنها من يا للنداء وفيه على هذا وجهان :

أحدهما : يا من يجيب من دعاه ولا يخيب من رجاه لما تعقبه من دعاء زكريا .

الثاني : يا من يجير ولا يجار عليه ، قاله الربيع بن أنس . وأما العين ففيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها من عزيز ، قاله ابن جبير . الثاني : أنها من عالم ، قاله ابن عباس .

الثالث : من عدل ، قاله الضحاك . وأما الصاد فإنها من صادق في قول جميعهم فهذا بيان للقول السادس .

ويحتمل سابعاً : أنها حروف من كلام أغمضت معانيه ونبه على مراده فيه يحتمل أن يكون : كفى وهدى من لا يعص فتكون الكاف من كفى والهاء من هدى والباقي حروف يعصى لأن ترك المعاصي يبعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، فصار تركها كافياً من العقاب وهادياً إلى الثواب وهذا أوجز وأعجز من كل كلام موجز لأنه قد جمع في حروف كلمة معاني كلام مبسوط وتعليل أحكام وشروط .

(32/482)

ثم ذكر حال من كفاه وهداه فقال : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ فذكر رحمته حين أجابه إلى ما سأله فاحتمل وجهين :

أحدهما : أنه رحمه بإجابته له .

الثاني : أنه إجابة لرحمته له .

قوله تعالى : ﴿ . . . . نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ [فيه قولان] .

أحدهما : قاله ابن جريج ، سراً لا رياء فيه . قال قتادة إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي فأخفى زكريا نداءه لئلا ينسب إلى الرياء فيه .

الثاني : قاله مقاتل ، إنما أخفى لئلا يهزأ الناس به ، فيقولون انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد .

ويحتمل ثالثاً : أن إخفاء الدعاء أخلص للدعاء وأرجى للإجابة للسنة الواردة فيه : إن الذي تدعونه ليس بأصم .

قوله تعالى : ﴿ . . . إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضعف وفي ذكره وهن العظم دون اللحم وجهان :

أحدهما : أنه لما وهن العظم الذي هو أقوى كان وهن اللحم والجلد أولى .

الثاني : أنه اشتكى ضعف البطش ، والبطش إنما يكون بالعظم دون اللحم .

﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ هذا من أحسن الاستعارة لأنه قد ينشر فيه الشيب كما ينشر في الحطب شعاع النار .

﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي خائباً ، أي كنت لا تخيبني إذا دعوتك ولا تحرمني إذا سألتك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ . . . ﴾ فيهم أربعة أقاويل :

أحدها : العصبة ، قاله مجاهد وأبو صالح .

الثاني : الكلالة ، قاله ابن عباس .

الثالث : الأولياء أن يرثوا علمي دون من كان من نسلي قال لبيد :

ومولى قد دفعت الضيم عنه . . . وقد أمسى بمنزلةِ المُضيمِ

الرابع : بنو العلم لأنهم كانوا شرار بني إسرائيل .

وسموا موالي لأنهم يلونه في النسب لعدم الصلب .

وفيما خافهم عليه قولان :

أحدهما : أنه خافهم على الفساد في الأرض .

الثاني : أنه خافهم على نفسه في حياته وعلى أشيائه بعد موته .

(33/482)

ويجوز أن يكون خافهم على تبديل الدين وتغييره . روى كثير ابن كلثمة أنه سمع علي بن الحسين عليهما السلام يقرأ : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ﴾ بالتشديد بمعنى قلّت .

وفي قوله : ﴿ مِن وَرَآءِي ﴾ وجهان :

أحدهما : من قدامي وهو قول الأخفش .

الثاني : بعد موتي ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ . . فَهَبْ لِي مِن لَّدنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة ، قاله أبو صالح .

الثاني : يرثني ويرث من آل يعقوب العلم والنبوة ، قاله الحسن .

الثالث : يرثني النبوة ويرث من آل يعقوب الأخلاق ، قاله عطاء .

الرابع : يرثني العلم ويرث من آل يعقوب الملك ، قاله ابن عباس ، فأجابه الله إلى وراثة العلم ويرث من آل يعقوب الملك ، قاله ابن عباس . فأجابه الله إلى وراثة العلم ولم يجبه إلى وارثة الملك . قال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله وهو يعقوب بن ماثان وكان فيهم الملك ، وكان زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسى . قال مقاتل ويعقوب بن ماثان هو أخو عمران أبي مريم لأن يعقوب وعمران إبنا ماثان ، فروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يَرْحَمُ اللَّهُ زَكَرِيَّآ مَا كَانَ عَلَيهِ مِن وَرَثَتِهِ " . ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مرضياً في أخلاقه وأفعاله .

الثاني : راضياً بقضائك وقدرك .

ويحتمل ثالثاً : أن يريد نبياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(34/482)

وقال ابن عطية :

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

(35/482)

اختلف الناس في الحروف التي في أوئل السور على قولين فقالت فرقة : هو سر الله في القرآن لا ينبغي أن يعرض له ، يؤمن بظاهره ويترك باطنه . وقال الجمهور بل ينبغي أن يتكلم فيها وتطلب معانيها فإن العرب قد تأتي بالحرف الواحد دالاً على كلمة وليس في كتاب الله ما لا يفهم ، ثم اختلف هذا الجمهور على أقوال قد استوفينا ذكرها في سورة البقرة ، ونذكر الآن ما يختص بهذه السورة . قال ابن عباس وابن جبير والضحاك هذه حروف دالة على أسماء من أسماء الله تعالى الكاف من "كبير" وقال ابن جبير أيضاً الكاف من "كاف" وقال أيضاً

هي من "كريم" فمقتضى أقواله أنها دالة على كل اسم فيه كاف من أسمائه تعالى . قالوا والهاء من "هاد" والياء من "علي" وقيل من "حكيم" وقال الربيع بن أنس هي من "يأمن" لا يجير ولا يجار عليه . قال ابن عباس والعين من "عزيز" وقيل من "عليم" وقيل من "عدل" ، والصاد من "صادق" وقال قتادة بل ﴿ كهيعص ﴾ بجملته اسم السورة ، وقالت فرقة بل هي اسم من أسماء الله تعالى . وروي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول يا ﴿ كهيعص ﴾ اغفر لي ، فهذا يحتمل أن تكون الجملة من أسماء الله تعالى ويحتمل ان يريد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينادي الله تعالى بجميع الأسماء التي تضمنها ﴿ كهيعص ﴾ ، كأنه أراد أن يقول "يا كريم يا هادي يا علي يا عزيز يا صادق" اغفر ، فجمع هذا كله باختصار في قوله يا ﴿ كهيعص ﴾ . وقال ابن المستنير وغيره ﴿ كهيعص ﴾ عبارة عن حروف المعجم ، ونسبه الزجاج الى أكثر أهل اللغة ، أي هذه الحروف منها ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ وعلى هذا يتركب قول من يقول ارتفع ﴿ ذكرُ ﴾ بانه خبر عن ﴿ كهيعص ﴾ ، وهي حروف تهج يوقف عليها بالسكون . وقرأ الجميع كاف بإثبات الألف والفاء . وقرأ نافع الهاء والياء وبين الكسر والفتح ولا يدغم الدال في الذال ، وقرأ ابن كثير ونافع أيضاً بفتح الهاء والياء ، وقرأ الحسن بن أبي

الحسن بضم الهاء وفتح الياء ، وروي عنه ضم الياء ، وروي عنه أنه قرأ كاف بضم الفاء .

قال أبو عمرو الداني : معنى الضم في الهاء والياء إشباع التفخيم وليس الضم الخالص الذي يوجب القلب ، وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء ، وقرأ عاصم بكسرها ، وقرأت فرقة بإظهار النون من عين وهي قراءة حفص عن عاصم وهو القياس إذ هي حروف منفصلة ، وقرأ الجميع غيره بإخفاء النون جعلوها في حكم الاتصال ، وقرأ الأكثر بإظهار الدال من صاد ، وقرأ أبو عمرو بإدغامه في الذال من قوله ﴿ ذكر ﴾ ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإظهار هذه الحروف كلها وتخليص بعضها من بعض ، وارتفع قوله ﴿ ذكرُ ﴾ فيما قالت فرقة بقوله ﴿ كهيعص ﴾ وقد تقدم وجه ذلك ، وقالت فرقة : ارتفع على خبر ابتداء تقديره " هذا ذكر " وقالت فرقة : ارتفع بالابتداء والخبر مقدر تقديره فيما أوحي اليك ذكر ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابن يعمر " ذَكَرَ رحمة ربك " بفتح الذال والكاف والراء على معنى هذا المتلو ذكر " رحمة " بالنصب ، هذه حكاية أبي الفتح .

(37/482)

وحكى أبو عمرو الداني عن ابن يعمر أنه قرأ " ذَكِّر رحمةَ " بفتح الذال وكسر الكاف المشددة ونصب الرحمة و" عبدَه " نصب ب " الرحمة " التقدير ذكر أن رحم ربك عبده " ، ومن قال في الكلام تقديم وتأخير فقد تعسف . وقرأ الجمهور " زكرياء " بالمد ، وقرأ الأعمش ويحيى وطلحة " زكريا " بالقصر وهما لغتان وفيه لغات غيرهما . وقوله ﴿ نادى ﴾ معناه بالدعاء والرغبة . واختلف في معنى " إخفائه " هذا النداء ، فقال ابن جريج ذلك لأن الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء ، ومنه قول النبي عليه السلام " خير الذكر الخفي " وقال غيره يستحب الإخفاء بين العبد ومولاه في الأعمال التي يزكو بها البشر ، وفي " الدعاء " الذي هو في معنى العفو والمغفرة لأنه يدل من الإنسان على أنه خير فإخفاؤه أبعد من الرياء وأما دعاء ﴿ زكرياء ﴾ وطلبه فكان في أمر دنياوي وهو طلب الولد فإنما إخفاوه لئلا يلومه الناس في ذلك ، وليكون على أول أمره إن أجيب نال بغيته وإن لم يجب لم يعرف أحد بذلك ، ويقال وصف بالخفاء لأنه كان في جوف الليل . و﴿ وهن ﴾ معناه ضعف ، والوهن في الشخص أو الأمر الضعف وقرأ الأعمش " وهِن " بكسر الهاء ﴿ واشتعل ﴾ مستعارة للشيب من اشتعال النار على التشبيه به .

و﴿ شيباً ﴾ نصب على المصدر في قول من رأى ﴿ اشتعل ﴾ بمعنى شاب ، وعلى التمييز في قول من لا يرى ذلك بل رآه فعلاً آخر ، فالأمر عنده كقولهم : تفقأت شحماً وامتلأت غيظاً . وقوله ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ شكر لله تعالى على سالف

أياديه عنده معناه أي قد أحسنت إلي فيما سلف وسعدت بدعائي إياك فالإنعام يقتضي أن يشفع آخره أوله . وقوله تعالى : ﴿ وإني خفت الموالي ﴾ الآية ، اختلف الناس في المعنى الذي من أجله خاف ﴿ الموالي ﴾ ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق من ذلك ، وروى قتادة والحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال

(38/482)

" يرحم الله أخي زكرياء ما كان عليه ممن يرث ماله " وقالت فرقة إنما كان مواليه مهملين للدين ، فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب ﴿ ولياً ﴾ يقوم بالدين بعده حكى هذا القول الزجاج وفيه أنه لا يجوز أن يسأل ﴿ زكرياء ﴾ من يرث ماله إذ الأنبياء لا تورث .

(39/482)

قال القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية رضي الله عنه : وهذا يؤيد قول النبي عليه السلام " إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة " ، ويوهنه ذكر " العاقر " . والأكثر

من المفسرين على أنه أراد وراثة المال ، ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم " إنا معشر النبياء لا نورث " أن لا يريد به العموم بل على أنه غالب امرهم فتأمله ، والأظهر الأليق ﴿ زكرياء ﴾ عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين فتكون الوراثة مستعارة ، ألا ترى أنه إنما طلب ﴿ ولياً ﴾ ، ولم يخصص ولداً فبلغه الله أمله على أكمل الوجوه . وقال أبو صالح وغيره : قوله ﴿ يرثني ﴾ يريد المال ، وقوله ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ يريد العلم والنبوة . وقال السدي : رغب ﴿ زكرياء ﴾ في الولد . و ﴿ خفت ﴾ من الخوف هي قراءة الجمهور وعليها هو هذا التفسير ، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه وزيد بن ثابت وابن عباس وسعيد بن العاصي وابن يعمر وابن جبير وعلي بن الحسين وغيرهم " خَفَّتِ " بفتح الخاء والفاء وشدها وكسر التاء على إسناد الفعل الى ﴿ الموالي ﴾ والمعنى على هذا انقطع أوليائي وماتوا ، وعلى هذه القراءة فإنما طلب ﴿ ولياً ﴾ يقول بالدين ، و ﴿ الموالي ﴾ بنو العم والقرابة الذين يلون بالنسب . وقوله ﴿ من ورائي ﴾ أي من بعدي في الزمن فهم الولاء على ما بيناه في سورة الكهف ، وقال أبو عبيدة في هذه الآية أي من بين يدي ومن أمامي وهذا قلة تحرير . وقرأ ابن كثير " من ورائيَ " بالمد والهمز وفتح الياء ، وقرأ أيضاً ابن كثير " من ورايَ " بالياء المفتوحة مثل عصاي ، والباقون همزوا ومدوا وسكنوا الياء . و " العاقر " من النساء التي لا تلد من غير كبرة وكذلك العاقر من الرجال .

ومن قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً . . . جباناً فما عذري لدى كل محضر

(40/482)

و ﴿ زكرياء ﴾ عليه السلام لما رأى من حاله إنما طلب ﴿ ولياً ﴾ ولم يصرح بولد لبعد ذلك عنده بسبب المرأة ، ثم وصف الولي بالصفة التي هي قصده وهو أن يكون وارثاً . وقالت فرقة : بل طلب الولد ثم شرط أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه تحفظاً من أن تقع الإجابة في الولد لكن يخترم فلا يتحصل منه الغرض المقصود . وقرأ الجمهور " ويرثُني " برفع الفعلين على معنى الصفة للولي وقرأ أبو عمرو والكسائي " يرثْني ويرثْ " بجزم الفعلين ، وهذا على مذهب سيبويه ليس هو جواب " هبْ " إنما تقديره " إن تهبه يرثْني " والأول أصوب في المعنى لأنه طلب وارثاً موصوفاً ، ويضعف الجزم أنه ليس كل موهوب يرث . وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وغيرهما " يرثني وارث من آل يعقوب " ، قال أبو الفتح هذا هو التجريد ، التقدير : يرثني منه أو به وارث ، وقرأ مجاهد " يرثَني ويرثَ " بنصب الفعلين ، وقرأت فرقة " يرثني أو يرث من آل يعقوب " على التصغير . وقوله من ﴿ آل يعقوب ﴾ يريد يرث منهم الحكمة والحبورة والعلم والنبوءة والميراث في هذه كلها استعارة و ﴿

رضياً ﴾ معناه مرضي فهو فعيل بمعنى مفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(41/482)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كهيعص ﴾

قرأ ابن كثير : "كهيعص ذِكْر" بفتح الهاء والياء وتبيين الدال التي في هجاء "صاد" .

وقرأ أبو عمرو : "كهيعص" بكسر الهاء وفتح الياء ويدغم الدال في الذال ، وكان نافع يلفظ بالهاء والياء بين الكسر والفتح ، ولا يدغم الدال التي في هجاء "صاد" في الذال من "ذِكْر" .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ، والكسائي ، بكسر الهاء والياء ، إلا أن الكسائي لا يبيِّن الدال ، وعاصم يُبيِّنها .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، بفتح الهاء وكسر الياء ويدغمان .

وقرأ أُبيّ بن كعب : "كهيعص" برفع الهاء وفتح الياء .

وقد ذكرنا في أول "البقرة" ما يشتمل على بيان هذا الجنس .

وقد خصَّ المفسرون هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال .

أحدها : أنها حروف من أسماء الله تعالى ، قاله الأكثرون .

ثم اختلف هؤلاء في الكاف من أي اسم هو ، على أربعة أقوال .

أحدها : أنه من اسم الله الكبير .

والثاني : من الكريم .

والثالث : من الكافي ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والرابع : أنه من الملك ، قاله محمد بن كعب .

فأما الهاء ، فكلُّهم قالوا : هي من اسمه الهادي ، إلا القرظي فإنه قال : من اسمه الله .

وأما الياء ، ففيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها من حكيم .

والثاني : من رحيم .

والثالث : من أمين ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس .

فأما العين ، ففيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها من عليم .

والثاني : من عالم .

والثالث : من عزيز ، رواها أيضاً سعيد [بن جبير] عن ابن عباس .

والرابع : أنها من عدل ، قاله الضحاك .

وأما الصاد ، ففيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها من صادق .

والثاني : من صدوق ، رواهما سعيد [بن جبير] أيضاً عن ابن عباس .

والثالث : من الصمد ، قاله محمد بن كعب .

والقول الثاني : أن "كهيعص" قَسَم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس .

(42/482)

وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال : هو اسم من اسماء الله تعالى .

وروي عنه أنه كان يقول [يا] كهيعص اغفر لي .

قال الزجاج : والقَسَم بهذا والدعاء لا يدل على أنه اسم واحد ، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله فدعا بها ، فكأنه قال : يا كافي ، يا هادي ، يا عالم ، يا صادق ، وإذا أقسم بها ، فكأنه قال : والكافي الهادي العالم الصادق ، وأُسكنت هذه الحروف لأنها حروف تهجٍّ ، النيَّة فيها الوقف .

والثالث : أنه اسم للسورة ، قاله الحسن ، ومجاهد .

والرابع : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

فإن قيل : لم قالوا : ها يا ، ولم يقولوا في الكاف : كا ، وفي العين : عا ، وفي الصاد : ص ، لتتفق المباني كما اتفقت العلل ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : حروف المعجم التسعة والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة ، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان ، كما يستقبحون ذلك في خطبهم ورسائلهم ، فيغيّرون بعض الكِلَم ليختلف الوزن وتتغيَّر المباني ، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْر رحمة ربك ﴾ قال الزجاج : الذِّكر مرفوع بالمُضمَر ، المعنى : هذا الذي نتلو عليك ذِكْر رحمة ربِّك عبدَه .

قال الفراء : وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ المعنى : ذِكْر ربِّك عبده بالرحمة ، و"زكريا" في موضع نصب .

قوله تعالى : ﴿ إِذ نادى ربَّه ﴾ النداء هاهنا بمعنى الدعاء .

وفي علة إِخفائه لذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : ليبعد عن الرياء ، قاله ابن جريج .

والثاني : لئلا يقول الناس : انظروا إِلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكِبَر ، قاله مقاتل .

والثالث : لئلا يعاديه بنو عمه ، ويظنوا أنه كره أن يلوا مكانه بعده ، ذكره أبو سليمان

الدمشقي .

وهذه القصة تدل على أن المستحب إِسرار الدعاء ، ومنه الحديث : " إِنكم لا تدعون أصمّ " .

(43/482)

قوله تعالى : ﴿ قال ربِّ إِني وهن العظم منّي ﴾ وقرأ معاذ القارىء ، والضحاك : "وَهُن" بضم الهاء ، أي : ضَعُف .

قال الفراء : وغيره : وَهَن العظم ، ووَهِن ، بفتح الهاء وكسرها ؛ والمستقبل على الحالين كليهما : يَهِن .

وأراد أن قوَّة عظامه قد ذهبت لِكبَره ؛ وإِنما خصّ العظم ، لأنه الأصل في التركيب .

وقال قتادة : شكا ذهاب أضراسه .

قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ يعني : انتشر الشيب فيه ، كما ينتشر شعاع النار في الحطب ، وهذا من أحسن الاستعارات .

﴿ ولم أكن بدعائك ﴾ أي : بدعائي إِياكَ ﴿ ربِّ شقياً ﴾ أي : لم أكن أتعب بالدعاء ثم أُخيَّب ، لأنك قد عودتَني الإِجابة ؛ يقال : شقي فلان بكذا : إِذا تعب بسببه ، ولم ينل

مراده .

قوله تعالى : ﴿ وإِني خِفتُ الموالي ﴾ يعني : الذين يلونه في النسب ، وهم بنو العم والعَصبة ﴿ من ورائي ﴾ أي : من بعد موتي .

وفي ما خافهم عليه قولان .

أحدهما : أنه خاف أن يَرِثوه ، قاله ابن عباس .

فإن اعترض عليه معترض ، فقال : كيف يجوز لنبيّ أن يَنْفَس على قراباته بالحقوق المفروضة لهم بعد موته ؟

فعنه جوابان .

أحدهما : أنه لما كان نبيّاً ، والنبيّ لا يورث ، خاف أن يرِثوا ماله فيأخذوا ما لا يجوز لهم .

والثاني : أنه غلب عليه طبع البشر ، فأحبَّ أن يتولَّى مالَه ولدُه ، ذكرهما ابن الأنباري .

قلت : وبيان هذا أنه لا بد أن يتولَّى ماله وإِن ولم يكن ميراثاً ، فأحبَّ أن يتولاه ولده .

والقول الثاني : أنه خاف تضييعهم للدِّين ونبذهم إِيّاه ، ذكره جماعة من المفسرين .

وقرأ عثمان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمرو ، وابن جبير ، ومجاهد ، وابن أبي شريح عن الكسائي : "خَفَّت" بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى "قلَّت" ؛ فعلى هذا يكون إِنما خاف على عِلْمه ونبوَّته ألاَّ يُورَثا فيموت العِلْم .

وأسكن ابن شهاب الزهري ياء "الموالي" .

قوله تعالى : ﴿ من ورائي ﴾ أسكن الجمهور هذه الياء ، وفتحها ابن كثير في رواية قنبل .

وروى عنه شبل : "ورايْ" مثل "عصايْ" .

قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لي من لدنك ﴾ أي : من عندك ﴿ وليّاً ﴾ أي : ولداً صالحاً يتولَّاني .

قوله تعالى : ﴿ يَرِثني ويرث من آل يعقوب ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : "يَرِثُني ويَرِثُ" برفعهما .

وقرا أبو عمرو ، والكسائي : "يَرِثْني ويَرِثْ" بالجزم فيهما .

قال أبو عبيدة : من قرأ بالرفع ، فهو على الصفة للوليّ ؛ فالمعنى : هب لي وليّاً وارثاً ، ومن جزم ، فعلى الشرط والجزاء ، كقولك : إن وهبتَه لي ورثني .

وفي المراد بهذا الميرث أربعة أقوال .

أحدها : يَرِثني مالي ، ويرث من آل يعقوب النبوَّة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال أبو صالح .

والثاني : يَرِثني العِلْم ، ويَرِث من آل يعقوب المُلْكَ ، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العِلْم دون

المُلْك ، وهذا مرويّ عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : يَرِثني نبوَّتي وعِلْمي ، ويَرِث من آل يعقوب النبوَّة أيضاً ، قاله الحسن .

والرابع : يَرِثني النبوَّة ، ويرث من آل يعقوب الأخلاق ، قاله عطاء .

قال مجاهد : كان زكريا من ذرية يعقوب ، وزعم الكلبي أن آل يعقوب كانوا أخواله ، وأنه ليس بيعقوب أبي يوسف .

وقال مقاتل : هو يعقوب بن ماثان ، وكان يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوين .

والصحيح : أنه لم يُرِد ميراثَ المال لوجوه .

أحدها : أنه قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نحن معاشر الأنبياء لا نورَث ، ما تركناه صدقة " .

والثاني : [أنه] لا يجوز أن يتأسَّف نبيّ الله على مصير ماله بعد موته إذا وصل إلى وارثه المستحق له شرعاً .

والثالث : أنه لم يكن ذا مال .

وقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن زكريا كان نجاراً .

قوله تعالى : ﴿ واجعله ربّ رضيّاً ﴾ قال اللغويون : أي : مرضيّاً ، فصُرِف عن مفعول إلى فَعيل ، كما قالوا : مقتول وقتيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كهيعص ﴾

تقدّم الكلام في أوائل السور .

وقال ابن عباس في ﴿ كهيعص ﴾ : إن الكاف من كافٍ ، والهاء من هادٍ ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق ؛ ذكره ابن عزيز القشيري عن ابن عباس ؛ معناه كافٍ لخلقه ، هادٍ لعباده ، يده فوق أيديهم ، عالم بهم ، صادق في وعده ؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسدي ومجاهد والضحاك .

وقال الكلبي أيضاً : الكاف من كريم وكبير وكافٍ ، والهاء من هادٍ ، والياء من رحيم ، والعين من عليم وعظيم ، والصاد من صادق ؛ والمعنى واحد .

وعن ابن عباس أيضاً : هو اسم من أسماء الله تعالى ؛ وعن عليّ رضي الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان يقول : يا كهيعص اغفر لي ؛ ذكره الغزنوي .

السدي : هو اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب .

قتادة : هو اسم من أسماء القرآن ؛ ذكره عبد الرزاق عن مَعْمَر عنه .

وقيل : هو اسم للسورة ؛ وهو اختيار القشيري في أوائل الحروف ؛ وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله : "كهيعص" كأنه إعلام باسم السورة ، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا

ثم تشرع في المقصود .

وقرأ ابن جعفر هذه الحروف متقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء ، وابن عامر وحمزة بالعكس ، وأمالها جميعاً الكسائي وأبو بكر وخلف .

وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره .

وفتحهما الباقون .

وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف ، وحكى غيره أنه كان يضم ها ، وحكى إسماعيل بن إسحاق أنه كان يضم يا .

قال أبو حاتم : ولا يجوز ضم الكاف ولا الهاء ولا الياء ؛ قال النحاس : قراءة أهل المدينة من أحسن ما في هذا ، والإمالة جائزة في هَا ويَا .

وأما قراءة الحسن فأشكلت على جماعة حتى قالوا : لا تجوز ؛ منهم أبو حاتم .

(46/482)

والقول فيها ما بيَّنه هارون القارىء ؛ قال : كان الحسن يشم الرفع ؛ فمعنى هذا أنه كان يومىء ؛ كما حكى سيبويه أن من العرب من يقول : الصلاة والزكاة يومىء إلى الواو ، ولهذا كتبتا في المصحف بالواو .

وأظهر الدال من هجاء "صا" نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب، وهو اختيار أبي عبيد؛ وأدغمها الباقون.

قوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ في رفع "ذكر" ثلاثة أقوال؛ قال الفراء: هو مرفوع ب"كهيعص"؛ قال الزجاج: هذا محال؛ لأن "كهيعص" ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا، وقد خبّر الله تعالى عنه وعن ما بشّر به، وليس "كهيعص" من قصته.

وقال الأخفش: التقدير؛ فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك.

والقول الثالث: أن المعنى هذا الذي يتلوه عليكم ذكر رحمة ربك.

وقيل: "ذكر رحمة ربك" رفع بإضمار مبتدأ؛ أي هذا ذكر رحمة ربك؛ وقرأ الحسن: "ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّك" أي هذا المتلو من القرآن ذَكَّر رحمة ربك.

وقرىء "ذَكِّرْ" على الأمر.

"ورحمة" تكتب ويوقف عليها بالهاء، وكذلك كل ما كان مثلها، لا اختلاف فيها بين النحويين، واعتلوا في ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسماء فرقاً بينها وبين الأفعال.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ عَبْدَهُ ﴾ قال الأخفش: هو منصوب ب"رحمة".

"زكريا" بدل منه؛ كما تقول: هذا ذكر ضرب زيد عمراً؛ فعمراً منصوب بالضرب، كما

أن "عبده" منصوب بالرحمة .

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ معناه : ذِكر ربك عبده زكريا برحمة ؛ ف"عبده" منصوب بالذكر ؛ ذكره الزجاج والفراء .

وقرأ بعضهم "عَبْدُهُ زكرِيا" بالرفع ؛ وهي قراءة أبي العالية .

وقرأ يحيى بن يعمر "ذَكَرَ" بالنصب على معنى هذا القرآن ذَكَرَ رحمة عبده زكريا .

وتقدمت اللغات والقراءة في "زكريا" في "آل عمران" .

(47/482)

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ مثل قوله : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ [الأعراف : 55] وقد تقدّم .

والنداء الدعاء والرغبة ؛ أي ناجى ربه بذلك في محرابه .

دليله قوله : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب ﴾ [آل عمران : 93] فبيّن أنه استجاب له في صلاته ، كما نادى في الصلاة .

واختلف في إخفائه هذا النداء ؛ فقيل : أخفاه من قومه لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن ؛ ولأنه أمر دنيوي ، فإن أجيب فيه نال بغيته ، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد .

وقيل : مخلصاً فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى .

وقيل : لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه .

وقيل : "خَفِيًّا" سِرًّا من قومه في جوف الليل ؛ والكل محتمل والأوّل أظهر ؛ والله أعلم .

وقد تقدّم أن المستحب من الدعاء الإخفاء في سورة "الأعراف" وهذه الآية نص في ذلك ؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا .

وروى إسماعيل قال : حدّثنا مسدد قال : حدّثنا يحيى بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو ابن أبي كبشة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير الذكر الخفيّ وخير الرزق ما يكفي " وهذا عام .

قال يونس بن عبيد : كان الحسن يرى أن يدعو الإمام في القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت ، وتلا يونس ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ .

قال ابن العربي : وقد أسر مالك القنوت وجهر به الشافعي ، والجهر به أفضل ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهراً .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ﴾ قرىء "وَهَنَ" بالحركات الثلاث أي ضعف .

يقال : وهَنَ يَهِن وَهْنا إذا ضعف فهو واهنٌ .

وقال أبو زيد يقال : وَهَنَ يَهِن ووَهِن يَوْهَن .

وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته ؛ ولأنه أشدّ ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منه .

ووحّده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام ، وأشدّ ما تركّب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ أدغم السين في الشين أبو عمرو .

وهذا من أحسن الاستعارة في كلام العرب .

والاشتعال انتشار شعاع النار ؛ شبه به انتشار الشيب في الرأس ؛ يقول : شخت وضعفت ؛ وأضاف الاشتعال إلى مكان الشعر ومَنْبِته وهو الرأس .

ولم يُضِف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام .

"وشيباً" في نصبه وجهان : أحدهما : أنه مصدر لأن معنى اشتعل شاب ؛ وهذا قول الأخفش .

وقال الزجاج : وهو منصوب على التمييز .

النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فالمصدر أولى به .

والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود .

الثالثة : قال العلماء : يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نِعَم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ وَهَنَ العظم مِنّي ﴾ إظهار للخضوع .

وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته ؛ أي لم أكن بدعائي إياك شقياً ؛ أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك ؛ أي إنك عودتني الإجابة فيما مضى .

يقال : شقي بكذا أي تعب فيه ولم يحصل مقصوده .

وعن بعضهم أن محتاجاً سأله وقال : أنا الذي أحسنتَ إليه في وقت كذا ؛ فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا ؛ وقضى حاجته .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالي ﴾ قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن علي وعلي بن الحسين ويحيى بن يعمر رضي الله تعالى عنهم "خَفَّتِ" بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وسكون الياء من "الموالي" لأنه في موضع رفع "بخفت" ومعناه انقطعت أي بالموت .

وقرأ الباقون "خِفْتُ" بكسر الخاء وسكون الفاء وضم التاء ونصب الياء من "الْمَوَالِيَ" لأنه في موضع نصب ب"خفت" .

و"الموالي" هنا الأقارب وبنو العم والعصبة الذين يلونه في النسب .

والعرب تسمي بني العم الموالي ؛ قال الشاعر :

مَهْلاً بَنِي عمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا . . .

لا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا ما كان مَدْفُونَا

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد .

وقالت طائفة : إنما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب ولياً يقوم بالدين بعده ؛ حكى هذا القول الزجاج ؛ وعليه فلم يسل من يرث ماله ؛ لأن الأنبياء لا تُورَث .

وهذا هو الصحيح من القولين في تأويل الآية ، وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال ؛ لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنا معشر الأنبياء

لا نورث ما تركنا صدقة" وفي كتاب أبي داود : "إن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ورَّثُوا العلم" وسيأتي في هذا مزيد بيان عند قوله : "يرثني" .

(50/482)

الثانية : هذا الحديث يدخل في التفسير المسند ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل : 16] وعبارة عن قول زكريا : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ وتخصيص للعموم في ذلك ، وأن سليمان لم يرث من داود مالاً خلّفه داود بعده ؛ وإنما ورث منه الحكمة والعلم ، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب ؛ هكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض ، وإلا ما روي عن الحسن أنه قال : "يرثني" مالاً" ويرث من آل يعقوب" النبوّة والحكمة ؛ وكل قول يخالف قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو مدفوع مهجور ؛ قاله أبو عمر .

قال ابن عطية : والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المال ؛ ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" ألا يريد به العموم ، بل على أنه غالب أمرهم ؛ فتأمله .

والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين ، فتكون الوراثة مستعارة .

ألا ترى أنه لما طلب ولياً ولم يخصص ولداً بلّغه الله تعالى أمله على أكمل الوجوه .

وقال أبو صالح وغيره : قوله "من آل يعقوب" يريد العلم والنبوة .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مِن وَرَآئِي ﴾ قرأ ابن كثير بالمدّ والهمز وفتح الياء .

وعنه أنه قرأ أيضاً مقصوراً مفتوح الياء مثل عصايَ .

الباقون بالهمز والمدّ وسكون الياء .

والقراء على قراءة "خِفت" مثل نمت إلا ما ذكرنا عن عثمان .

وهي قراءة شاذة بعيدة جداً ؛ حتى زعم بعض العلماء أنها لا تجوز .

قال كيف يقول : خَفَّتِ الموالي مِن بعدِي أي من بعد موتي وهو حيّ ؟ ! .

النحاس : والتأويل لها ألا يعني بقوله : "مِنْ وَرَائِي" أي من بعد موتي ، ولكن من ورائي في ذلك الوقت ؛ وهذا أيضاً بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفّوا في ذلك الوقت وقلّوا ، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا : "أيهم يكفل مريم" .

(51/482)

ابن عطية : "من ورائي" من بعدي في الزمن ، فهو الوراء على ما تقدّم في "الكهف .

"

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً ﴾ امرأته هي إيشاع بنت فاقوذا بن قبيل ، وهي أخت حنة بنت فاقوذا ؛ قاله الطبريّ .

وحنة هي أم مريم حسب ما تقدم في "آل عمران" بيانه .

وقال القتبي : امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران ، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة .

وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه .

وفي حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : " فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى " شاهدا للقول الأوّل .

والله أعلم .

والعاقر التي لا تلد لكبر سنها ؛ وقد مضى بيانه في "آل عمران" .

والعاقر من النساء أيضاً التي لا تلد من غير كبر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ [الشورى : 50] .

وكذلك العاقر من الرجال ؛ ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقراً . . .

جبانا فما عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ سؤال ودعاء .

ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة .

قال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة .

مقاتل : خمس وتسعين سنة ؛ وهو أشبه ؛ فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره ؛ ولذلك قال : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ .

وقالت طائفة : بل طلب الولد ، ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه ، تحفظا من أن تقع الإجابة في الولد ولكن يُخْتَرم ، ولا يتحصل منه الغرض .

السادسة : قال العلماء : دعاء زكريا عليه السلام في الولد إنما كان لإظهار دينه ، وإحياء نبوّته ، ومضاعفة لأجره لا للدنيا ، وكان ربه قد عوّده الإجابة ، ولذلك قال : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ ، أي بدعائي إياك .

(52/482)

وهذه وسيلة حسنة ؛ أن يَتَشفَّع إليه بنعمه ، ويستدر فضله بفضله ؛ يروى أن حاتم الجود لقيه رجل فسأله ؛ فقال له حاتم : من أنت ؟ قال : أنا الذي أحسنتَ إليه عام أول ؛ فقال : مرحباً بمن تَشفَّع إلينا بنا .

فإن قيل : كيف أقدم زكريا على مسألة ما يخرق العادة دون إذن ؟ فالجواب أن ذلك جائز

في زمان الأنبياء .

وفي القرآن ما يكشف عن هذا المعنى ؛ فإنه تعالى قال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه في إجابة دعوته ؛ فقال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 38] الآية .

السابعة : إن قال قائل : هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد ، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد ، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك ؛ فقال : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : 15] .

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : 14] .

فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدّم في "آل عمران" بيانه .

ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال : ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ وقال : ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ .

والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة ، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرة والنعمة .

وقد " دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأنس خادمه فقال : "اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته" " فدعا له بالبركة تحرزاً مما يؤدّي إليه الإكثار من الهلكة .

(53/482)

وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه في هداية ولده ، ونجاته في أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء الأولياء ؛ وقد تقدم في "آل عمران" بيانه .

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : "يَرِثُنِي" قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة "يَرِثُنِي وَيَرِثُ" بالرفع فيهما .

وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائيّ بالجزم فيهما ، وليس هما جواب "هب" على مذهب سيبويه ، إنما تقديره إن تهبه يرثني ويرث ؛ والأوّل أصوب في المعنى لأنه طلب وارثاً موصوفاً ؛ أي هب لي من لدنك الولي الذي هذه حاله وصفته ، لأن الأولياء منهم من لا يرث ؛ فقال : هب لي الذي يكون وارثي ؛ قاله أبو عبيد ؛ ورد قراءة الجزم ؛ قال : لأن معناه إن وهبت ورث ، وكيف يخبر الله عز جل بهذا وهو أعلم به منه ؟ !

النحاس : وهذه حجة متقصاة ؛ لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ؛ تقول : أطع الله يدخلك الجنة ؛ أي إن تطعه يدخلك الجنة .

الثانية : قال النحاس : فأما معنى ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة ؛ قيل : هي وراثة نبوّة .

وقيل : هي وراثة حكمة .

وقيل : هي وراثة مال .

فأما قولهم وراثة نبوّة فمحال ؛ لأن النبوّة لا تورث ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس ينتبسون إلى نوح عليه السلام وهو نبيّ مرسل .

ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن ؛ وفي الحديث " العلماء ورثة الأنبياء " وأما وراثة المال فلا يمتنع ، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا نورث ما تركنا صدقة " فهذا لا حجة فيه ؛ لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجمع .

(54/482)

وقد يُؤوَّل هذا بمعنى ؛ لا نُورث الذي تركنا صدقة ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخلّف شيئاً يورث عنه ؛ وإنما كان الذي أباحه الله عز وجل إياه في حياته بقوله تبارك اسمه

: ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : 41] لأن معنى "لله" لسبيل الله ، ومن سبيل الله ما يكون في مصلحة الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام حياً ؛ فإن قيل : في بعض الروايات "إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" ففيه التأويلان جميعاً ؛ أن يكون "ما" بمعنى الذي .

والآخر لا يورث من كانت هذه حاله .

وقال أبو عمر : واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : "لا نورث ما تركنا صدقة" على قولين : أحدهما : وهو الأكثر وعليه الجمهور أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة .

والآخر : أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث ؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة في فضيلته ، كما خُصَّ في النكاح بأشياء أباحها له وحرمها على غيره ؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عُلَية ، وسائر علماء المسلمين على القول الأوّل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قيل : هو يعقوب إسرائيل ، وكان زكريا متزوجاً بأخت مريم بنت عمران ، ويرجع نسبها إلى يعقوب ؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب ، وزكريا من ولد هارون أخي موسى ، وهارون وموسى من ولد لاوي بن يعقوب ، وكانت النبوّة في سبط يعقوب بن إسحاق .

وقيل : المعنيُّ بيعقوب هاهنا يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم أخوان من نسل

سليمان بن داود عليهما السلام ؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان ، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل ؛ قاله مقاتل وغيره .

وقال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله ، وهو يعقوب بن ماثان ، وكان فيهم الملك ، وكان زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسى .

(55/482)

وروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله تعالى زكريا ما كان عليه من ورثته " ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمي .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله .

وقيل : راضياً بقضائك وقدرك .

وقيل : رجلاً صالحاً ترضى عنه .

وقال أبو صالح : نبياً كما جعلت أباه نبياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(56/482)

وقال أبو حيان :

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

هذه السورة مكية كالسورة التي قبلها .

وقال مقاتل : إلاّ آية السجدة فهي مدنية نزلت بعد مهاجرة المؤمنين إلى الحبشة .

ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى ضمن السورة قبلها قصصاً عجباً كقصة أهل الكهف ، وقصة موسى مع الخضر ، وقصة ذي القرنين ، وهذه السورة تضمنت قصصاً عجباً من ولادة يحيى بين شيخ فانٍ وعجوز عاقر ، وولادة عيسى من غير أب ، فلما اجتمعا في هذا الشيء المستغرب ناسب ذكر هذه السورة بعد تلك ، وتقدم الكلام في أول البقرة على هذه الحروف المقطعة التي في فواتح السور بما يوقف عليه هناك و ﴿ ذكر ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا المتلو من هذا القرآن ﴿ ذكر ﴾ .

وقيل ﴿ ذكر ﴾ خبر لقوله ﴿ كهيعص ﴾ وهو مبتدأ ذكره الفرّاء .

قيل : وفيه بُعد لأن الخبر هو المبتدأ في المعنى وليس في الحروف المقطعة ذكر الرحمة ، ولا في ذكر الرحمة معناها .

وقيل : ﴿ ذكر ﴾ مبتدأ والخبر محذوف تقديره فيما يتلى ﴿ ذكر ﴾ .

وقرأ الجمهور كاف بإسكان الفاء .

وروي عن الحسن ضمها ، وأمال نافع هاء وياء بين اللفظين ، وأظهر دال صاد عند ذاك .

﴿ ذكر ﴾ وقرأ الحسن بضم الهاء وعنه أيضاً ضم الياء وكسر الهاء ، وعن عاصم ضم الياء وعنه كسرهما وعن حمزة فتح الهاء وكسر الياء .

قال أبو عمرو الداني : معنى الضم في الهاء والياء إشباع التفخيم وليس بالضم الخالص الذي يوجب القلب .

(57/482)

وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن المقري الرازي في كتاب اللوامح في شواذ القراءات خارجة عن الحسن : كاف بضم الكاف ، ونصر بن عاصم عنه بضم الهاء وهارون بن موسى العتكي عن إسماعيل عنه بالضم ، وهذه الثلاث مترجم عليها بالضم ولسن مضمومات المحال في الحقيقة لأنهن لو كنّ كذلك لوجب قلب ما بعدهن من الألفات واوات بل نحيت هذه الألفات نحو الواو على لغة أهل الحجاز ، وهي التي تسمى ألف التفخيم بضد الألف الممالة فأشبهت الفتحات التي تولدت منهن الضمات ، وهذه الترجمة كما ترجموا عن الفتحة الممالة المقربة من الكسرة بكسرة لتقريب الألف بعدها من الياء انتهى .

وقرأ أبو جعفر بتقطيع هذه الحروف وتخليص بعضها من بعض فرقاً بينها وبين ما ائتلف من الحروف ، فيصير أجزاء الكلم فاقتضين إسكان آخرهن ، وأظهر الأكثرون دال صاد عند ذال ﴿ ذكر ﴾ وأدغمها أبو عمرو .

وقرأ حفص عن عاصم وفرقة بإظهار النون من عين والجمهور على إخفائها .

وقرأ الحسن وابن يعمر ﴿ ذكر ﴾ فعلاً ماضياً ﴿ رحمة ﴾ بالنصب ، وحكاه أبو الفتح وذكره الزمخشري عن الحسن أي هذا المتلو من القرآن ﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ وذكر الداني عن ابن يعمر ﴿ ذكر ﴾ فعل أمر من التذكير ﴿ رحمة ﴾ بالنصب و ﴿ عبده ﴾ نصب بالرحمة أي ﴿ ذكر ﴾ أن ﴿ رحمة ربك عبده ﴾ .

وذكر صاحب اللوامح أن ﴿ ذكر ﴾ بالتشديد ماضياً عن الحسن باختلاف وهو صحيح عن ابن يعمر ، ومعناه أن المتلو أي القرآن ﴿ ذكر برحمة ربك ﴾ فلما نزع الباء انتصب ، ويجوز أن يكون معناه أن القرآن ذكر الناس تذكيراً أن رحم الله عبده فيكون المصدر عاملاً في ﴿ عبده زكريا ﴾ لأنه ذكرهم بما نسوه من رحمة الله فتجدد عليهم بالقرآن ونزوله على النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، ويجوز أن يكون ﴿ ذكر ﴾ على المضي مسنداً إلى الله سبحانه .

وقرأ الكلبي ﴿ ذكر ﴾ على المضي خفيفاً من الذكر ﴿ رحمة ربك ﴾ بنصب التاء ﴿ عبده ﴾ بالرفع بإسناد الفعل إليه .

وقال ابن خالويه : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده ﴾ يحيى بن يعمر و﴿ ذكر ﴾ على الأمر عنه أيضاً انتهى .

و﴿ إذ ﴾ ظرف العامل فيه قال الحوفي : ﴿ ذكر ﴾ وقال أبو البقاء : و﴿ إذ ﴾ ظرف لرحمة أو لذكر انتهى .

ووصف نداء بالخفي .

قال ابن جريج : لئلا يخالطه رياء .

مقاتل : لئلا يعاب بطلب الولد في الكبر .

قتادة : لأن السر والعلانية عنده تعالى سواء .

وقيل : أسره من مواليه الذين خافهم .

وقيل : لأنه أمر دنياوي فأخفاه لأنه إن أجيب فذاك بغيته ، وإلاّ فلا يعرف ذلك أحد .

وقيل : لأنه كان في جوف الليل .

وقيل : لإخلاصه فيه فلا يعلمه إلاّ الله .

وقيل : لضعف صوته بسبب كبره ، كما قيل : الشيخ صوته خفات وسمعه تارات .

وقيل : لأن الإخفاء سنة الأنبياء والجهر به يعد من الاعتداء .

وفي التنزيل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ وفي الحديث : " إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً " .

﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ هذه كيفية دعائه وتفسير ندائه .

وقرأ الجمهور : ﴿ وهن ﴾ بفتح الهاء .

وقرأ الأعمش بكسرها .

وقرىء بضمها لغات ثلاث ، ومعناه ضعف وأسند الوهن إلى العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى ما وراءه وتساقطت قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحد ﴿ العظم ﴾ لأنه يدل على الجنس ، وقصد إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام ، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ولو جمع لكان قصداً آخر وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

وقال قتادة : اشتكى سقوط الأضراس .

قال الكرماني : وكان له سبعون سنة .

وقيل : خمس وسبعون .

وقيل : خمس وثمانون .

وقيل : ستون .

وقيل : خمس وستون .

(59/482)

وشبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكرياء فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة قاله الزمخشري ، وإلى هذا نظر ابن دريد .

فقال :

واشتعل المبيض في مسوده . . .

مثل اشتعال النار في جزل الغضا

وبعضهم أعرب ﴿ شيباً ﴾ مصدراً قال : لأن معنى ﴿ واشتعل الرأس ﴾ شاب فهو مصدر من المعنى .

وقيل : هو مصدر في موضع نصب على الحال ، واشتعال الرأس استعارة المحسوس للمحسوس إذ المستعار منه النار والمستعار له الشيب ، والجامع بينهما الانبساط

والانتشار ﴿ ولم أكن ﴾ نفي فيما مضى أي ما كنت ﴿ بدعائك رب شقياً ﴾ بل كنت سعيداً موفقاً إذ كنت تجيب دعائي فأسعد بذلك ، فعلى هذا الكاف مفعول .

وقيل : المعنى ﴿ بدعائك ﴾ إلى الإيمان ﴿ شقياً ﴾ بل كنت ممن أطاعك وعبدك مخلصاً .

فالكاف على هذا فاعل والأظهر الأول شكراً لله تعالى بما سلف إليه من إنعامه عليه ، أي قد أحسنت إليّ فيما سلف وسعدت بدعائي إياك فالإنعام يقتضي أن تجيبني آخر كما أجبتني أولاً .

وروي أن حاتماً الطائي أتاه طالب حاجة فقال : أنا أحسنت إليك وقت كذا ، فقال حاتم : مرحباً بالذي توسل بنا إلينا وقضى حاجته .

﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ ﴿ الموالي ﴾ بنو العم والقرابة الذين يلون بالنسب .

قال الشاعر :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا . . .

لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

وقال لبيد :

ومولى قد دفعت الضيم عنه . . .

وقد أمسى بمنزلة المضيم

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح ﴿ الموالي ﴾ هنا الكلالة خاف أن يرثوا ماله وأن يرثه الكلالة .

(60/482)

وروى قتادة والحسن عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " يرحم الله أخي زكريا ما كان عليه ممن يرث ماله " وقالت فرقة : إنما كان مواليه مهملين الدين فخاف بموته أن يضيع الدين فطلب ولياً يقوم بالدين بعده ، وهذا لا يصح عنه إذ قال عليه السلام : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة " والظاهر اللائق بزكريا عليه السلام من حيث هو معصوم أنه لا يطلب الولد لأجل ما يخلفه من حطام الدنيا .

وكذلك قول من قال : إنما خاف أن تنقطع النبوّة من ولده ويرجع إلى عصبته لأن تلك إنما يضعها الله حيث شاء ولا يعترض على الله فيمن شاءه واصطفاه من عباده .

قال الزمخشري كان مواليه وهم عصبته إخوته وبنو عمه شرار بني إسرائيل فخافهم على الدين أن يغيروه وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقباً صالحاً من صلبه يقتدى به في إحياء الدين .

وقرأ الجمهور ﴿ خفت ﴾ من الخوف .

وقرأ عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وابن عباس وسعيد بن العاصي وابن يعمر وابن جبير وعليّ بن الحسين وولده محمد وزيد وشبيل بن عزرة والوليد بن مسلم لأبي عامر ﴿ خفت ﴾ بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر تاء التأنيث ﴿ الموالي ﴾ بسكون الياء والمعنى انقطع مواليّ وماتوا فإنما أطلب ولياً يقوم بالدين .

وقرأ الزهري ﴿ خفت ﴾ من الخوف ﴿ الموالي ﴾ بسكون التاء على قراءة ﴿ خفت ﴾ من الخوف يكون ﴿ من ورائي ﴾ أي بعد موتي .

وعلى قراءة ﴿ خفت ﴾ يحتمل أن يتعلق ﴿ من ورائي ﴾ بخفت وهو الظاهر ، فالمعنى أنهم خفوا قدامه أي درجوا فلم يبق منهم من له تقوّ واعتضاد ، وأن يتعلق بالموالي أي قلوا وعجزوا عن إقامة الدين .

و ﴿ ورائي ﴾ بمعنى خلفي ومن بعدي ، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه .

وروي عن ابن كثير من وراي مقصوراً كعصاي .

وتقدم شرح العاقر في آل عمران وقوله ﴿ من لدنك ﴾ تأكيد لكونه ولياً مرضياً بكونه مضافاً إلى الله وصادراً من عنده ، أو أراد اختراعاً منك بلا سبب لأني وامرأتي لا نصلح للولادة .

والظاهر أنه طلب من الله تعالى أن يهبه ولياً ولم يصرح بأن يكون ولد البعد ذلك عنده لكبره وكون امرأته عاقراً .

وقيل : إنما سأل الولد .

وقرأ الجمهور : ﴿ يرثني ويرث ﴾ برفع الفعلين صفة للولي فإن كان طلب الولد فوصفه بأن تكون الإجابة في حياته حتى يرثه لئلا تكون الإجابة في الولد لكن يحرمه فلا يحصل ما قصده .

وقرأ النحويان والزهري والأعمش وطلحة واليزيدي وابن عيسى الأصبهاني وابن محيصن وقتادة بجزمهما على جواب الأمر .

وقرأ عليّ وابن عباس والحسن وابن يعمر والجحدري وقتادة وأبو حرب بن أبي الأسود وجعفر بن محمد وأبو نهيك ﴿ يرثني ﴾ بالرفع والياء وارث جعلوه فعلاً مضارعاً من ورث .

قال صاحب اللوامح : وفيه تقديم فمعناه ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ من آل يعقوب ﴿ يرثني ﴾ إن مت قبله أي نبوّتي وأرثه إن مات قبلي أي ماله ، وهذا معنى قول الحسن .

وقرأ عليّ وابن عباس والجحدري ﴿ يرثني ﴾ وارث ﴿ من آل يعقوب ﴾ .

قال أبو الفتح هذا هو التجريد التقدير ﴿ يرثني ﴾ منه وارث .

وقال الزمخشري وارث أي ﴿ يرثني ﴾ به وارث ويسمى التجريد في علم البيان ، والمراد بالإرث إرث العلم لأن الأنبياء لا تورث المال .

وقيل : ﴿ يرثني ﴾ الحبورة وكان حبراً ويرث ﴿ من آل يعقوب ﴾ الملك يقال : ورثته وورثت منه لغتان .

وقيل : ﴿ من ﴾ للتبعيض لا للتعدية لأن ﴿ آل يعقوب ﴾ ليسوا كلهم أنبياء ولا علماء .

وقرأ مجاهد أو يرث من آل يعقوب على التصغير ، وأصله وويرث فأبدلت الواو همزة على اللزوم لاجتماع الواوين وهو تصغير وارث أي غُلَيم صغير .

وعن الجحدري وارث بكسر الواو يعني به الإمالة المحضة لا الكسر الخالص ، والظاهر أن يعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم .

وقيل : هو يعقوب بن ماثان أخو زكرياء .

وقيل : يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود ومرضياً بمعنى مرضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(62/482)

وقال الثعالبى :

قوله عزَّ وجل : ﴿ كهيعص ﴾ قد تقدَّمَ الكلامُ في فواتح السورِ .

وقوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ مرتَفِعٌ بقولِهِ : ﴿ كهيعص ﴾ في قَوْلِ فرقَةٍ .

وقيل : إنَّهُ ارتفعَ على أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدأ محذوفٍ تَقْديرُهُ : هذا ذكر وحكَى أبو عمرو الدَّانِي عن ابن يعمر أَنَّه قرأ : «ذَكَّر رَحْمَة رَبِّكَ» : بفتح الذَّالِ ، وكسر الكافِ المشدَّدة ، ونصبِ الرَّحمة .

وقوله ﴿ نادى ﴾ : مَعناه بالدُّعَاءِ والرغبَةِ ؛ قاله ابنُ العربيِّ في «أحكامه» .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ : يناسِبُ قَوْلَهُ : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] .

وفي «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قَال : " خيرُ الذِّكْرِ الخفيُّ ، وخيرُ الرِّزقِ ما يَكْفِي " وذلك ؛ لأَنَّهُ أَبْعَدُ مِن الرياء ، فأَمَّا دُعاءُ زكرياء عليه السلام فإنما كان خفيّاً لوجهين :

أَحدُهُما : أَنَّهُ كان ليلاً .

والثاني : أَنَّهُ ذَكَرَ في دُعَائه أَحوالاً تفتقرُ إلى الإخفَاءِ ؛ كَقَوْلِه : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالِيَ مِن وَرَآئِي ﴾ . وهذا مما يُكْتَمُ . انتهى .

و ﴿ وَهَنَ العظم ﴾ معناه ضَعُفَ ، ﴿ واشتعل ﴾ مُسْتَعَارٌ للشيْب مِن اشتعال النَّار .

وقولهُ : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ شُكْر للّه عز وجل على سالف أياديه عنده ، معناه : قد أَحسنتَ إليَّ فيما سلَف ، وسعدتُ بدعائي إيَّاك ؛ فالإنعامُ يقتضي أَنْ يشفع أَوله آخره .

* ت * : وكذا فسَّر الدَّاوُودِيُّ ، ولفظه : «ولم أَكُنْ بدُعائِك رَبِّ شقيّاً» ، يقولُ : كنْتَ تعرفني الإجابَة فيما مضى ، وقاله قتادةُ : انتهى .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ المواليَ . . . ﴾ الآية ، قيل : معناه خاف أَن يرثَ الموَالي مَالَهُ ، والموالي : بنو العمّ ، والقرابةُ .

وقولُه ﴿ مِن وَرَآئِي ﴾ أَيْ : من بعدي .

(63/482)

وقالت فرقةٌ : إنما كان مواليه مهمِلينَ للدِّين ؛ فخاف بموته أَنْ يضيع الدينُ ؛ فطلب وليّاً يقومُ بالدين بعده ؛ حَكَى هذا القولَ : الزَّجَّاجُ ، وفيه : أَنه لا يجوز أَن يسأل زَكَرِيَّاءُ من يرث ماله ؛ إذِ الأَنبيَاءِ لا تُورَثُ .

قال * ع * : وهذا يُؤَيِّده قولُه صلى الله عليه وسلم : " إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبيَاءِ لا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا ، فَهُو صَدَقَة " والأَظهرُ الأَليق بزكرياء عليه السلام أَن يريدَ وِرَاثَةَ العِلْم والدِّين ،

فتكون الوارثةُ مستعارةً، وقد بلغه اللّه أَمَلَهُ.

قال ابنُ هِشَامٍ: و ﴿ مِنْ وَرَآئِي ﴾ متعلّقٌ ب ﴿ الموالي ﴾، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من الموالي، أو مُضَاف إليهم، أَيْ: كائِنِينَ مِنْ وَرَائي، أو فعَل الموالي مِنْ ورائي، ولا يصحّ تعلقه ب «خِفْتُ»؛ لفساد المعنى. انتهى. من «المغني».

و ﴿ خِفْتُ الموالي ﴾، هي قراءةُ الجمهور، وعليها هو هذا التفسير.

وقرأ عثمانُ بنُ عَفَّانَ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، وابنُ عباسٍ، وجماعةٌ «خَفَّتِ» بفتح الخاء، وفتح الفاء، وشدّها، وكَسْر التَّاء، والمعنى على هذا: قد انقَطَع أَوْلِيَائِي، وماتُوا، وعلى هذه القراءة، فإنما طلب وَلِيًّا يقوم بالدين.

قال ابنُ العربي في «أحكامه»: ولم يخف زكرياءُ وارثَ المالِ، وإنما أَراد إرْثَ النبوءة، وعليها خاف أَن تخرج عن عَقِبه، وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال:

(64/482)

"إِنَّا معَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ" انتهى.

وقرأ عليُّ بنُ أَبي طَالِبٍ، وابنُ عباسٍ، وغيرُهما رضي اللّه عنهم «يرِثُنِي وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ».

* ت * : وقوله : ﴿ فَهَبْ لِي ﴾ قال ابنُ مَالكٍ في «شرح الكافية» اللامُ هنا : هي لامُ التعدِيَة ؛ وقاله ولدُه في «شرح الخلاصة» .

قال ابنُ هشام : والأولى عندي أن يمثل للتعدية بنحو : ما أكرم زيداً لعمرو ، وما أحبه لبكر ، انتهى .

وقولُه : ﴿ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ يريدُ يرث منهم الحِكْمة ، وكذلك العاقرُ من الرجال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(65/482)

وقال أبو السعود :

﴿ كهيعص ﴾ بإمالة الهاءِ والياء وإظهار الدال ، وقرىء بفتح الهاء وإمالةِ الياء وبتفخيمهما وبإخفاء النونِ قبل الصادِ لتقاربهما ، وقد سلف أن ما لا تكون من هذه الفواتح مفردةً ولا موازِنةً لمفرد فطريقُ التلفظ بها الحكايةُ فقط ساكنةُ الأعجاز على الوقف ، سواءٌ جعلت أسماءً للسور أو مسرودةً على نمط التعديد ، وإن لزمها التقاءُ الساكنين لكون مغتفراً في باب الوقف قطعاً فحق هذه الفاتحة الكريمةِ أن يوقف عليها جرياً على الأصل ، وقرىء بإدغام الدال فيما بعدها لتقاربهما في المخرج ، فإن جُعلت اسماً للسورة

على ما عليه إطباقُ الأكثر فمحلُّه الرفعُ ، إما على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ والتقديرُ هذا كهيعص أي مسمًّى به وإنما صحت الإشارةُ إليه مع عدم جريَانِ ذكرِه لأنه باعتبار كونِه على جناح الذكر صار في حكم الحاضِر المشاهَدِ ، كما يقال : هذا ما اشترى فلان ، أو على أنه مبتدأٌ خبرُه : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أي المسمّى به ذكرُ رحمة الخ ، فإن ذكرَها لمّا كان مطلَعَ السورةِ الكريمة ومعظمَ ما انطوت هي عليه جُعلت كأنها نفسُ ذكرها ، والأولُ هو الأولى لأن ما يجعل عنواناً للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المخاطبِ ، وإذ لا علمَ بالتسمية من قبل فحقُّها الإخبارُ بها كما في الوجه الأول ، وإن جُعلت مسرودةً على نمط التعديدِ حسبما جنَح إليه أهلُ التحقيقِ فذكرُ الخ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ هو ما ينبىء عنه تعديدُ الحروف كأنه قيل : المؤلَّفُ من جنس هذه الحروف المبسوطةِ مراداً به السورةُ ذكرُ الرحمة الخ ، وقيل : هو مبتدأٌ قد حُذف خبرُه أي فيما يتلى عليك ذكرُها ، وقرىء ذكَّر رحمةَ ربك على صيغة الماضي من التذكير أي هذا المتلوُّ ذكّرها ، وقرىء اذكُرْ على صيغة الأمر ، والتعرضُ لوصف الربوبية المنْبئةِ عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأن تنزيلَ السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميلٌ له

(66/482)

عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ عَبْدِهِ ﴾ مفعولٌ لرحمة ربك على أنها مفعولٌ لما أضيف إليها ، وقيل : للذكر على أنه مصدرٌ أضيف إلى فاعله على الاتساع ، ومعنى ذكرِ الرحمةِ بلوغُها وإصابتُها ، كما يقال : ذكرني معروفُ فلان أي بلغني ، وقوله عز وعلا : ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ بدل منه أو عطف بيان له ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ ظرفٌ لرحمة ربك ، وقيل : لذِكرُ على أنه مضافٌ إلى فاعله اتساعاً لا على الوجه الأولِ لفساد المعنى ، وقيل : هو بدلُ اشتمالٍ من زكريا كما في قوله : ﴿ واذكر فِى الكتاب مَرْيَمَ إِذِ انتبذت ﴾ ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسنَ الأدب في إخفاء دعائِه ، فإنه مع كونه بالنسبة إليه عز وجل كالجهر أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولدِ لتوقّفه مبادىءَ لا يليق به تعاطيها في أوان الكِبَر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم ، وقيل : كان ذلك من عليه السلام لضَعف الهرم ، قالوا : كان سنُّه حينئذ ستين ، وقيل : خمساً وستين ، وقيل : سبعين ، وقيل : خمساً وسبعين ، وقيل : أكثرَ منها كما مر في سورة آلِ عِمرانَ .

(67/482)

﴿ قَالَ ﴾ جملةٌ مفسِّرةٌ لنادى لا محلَّ لها من الإعراب ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ إسنادُ الوهن إلى العظمِ لما أنه عمادُ البدن ودِعامُ الجسد فإذا أصابه الضَّعفُ والرخاوة أصاب كلَّه ، أو لأنه أشدُّ أجزائه صلابةً وقِواماً وأقلُّها تأثراً من العلل فإذا وهَن كان ما وراءه أوهنَ ، وإفرادُه للقصد إلى الجنس المنْبىءِ عن شمول الوهْنِ لكل فردٍ من أفراده ، ومنّي متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من العظم ، وقرىء وهِن بكسر الهاء وبضمها أيضاً ، وتأكيدُ الجملة لإبراز كمال الاعتناءِ بتحقيق مضمونها ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ شبّه عليه الصلاة والسلام الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظ النار ، وانتشارَه في الشعر وفُشوَّه فيه وأخذَه منه كلَّ مأخذ باشتعالها ، ثم أخرجه مُخرجَ الاستعارةِ ثم أَسند الاشتعالَ إلى محل الشعرِ ومنبِته ، وأخرجه مُخرج التمييز وأطلق الرأسَ اكتفاءً بما قيّد به العظمَ ، وفيه من فنون البلاغة وكمالِ الجزالةِ ما لا يخفى ، حيث كان الأصلُ اشتعل شيبُ رأسي فأسند الاشتعالَ إلى الرأس كما ذُكر لإفادة شمولِه لكلها ، فإن وزانَه بالنسبة إلى الأصل وزانُ اشتعل بيتُه ناراً بالنسبة إلى اشتعل النارُ في بيته ، ولزيادة تقريرِه بالإجمال أولاً والتفصيلِ ثانياً ولمزيد تفخيمِه بالتنكير ، وقرىء بإدغام السينِ في الشين ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي ولم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من أوقات هذا العمُر الطويلِ ، بل كلما دعوتُك استجبتَ لي ، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها أو حالٌ من ضمير المتكلم إذِ المعنى واشتعل الرأسُ شيباً ، وهذا توسلٌ منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة

عند كلِّ دعوة إثرَ تمهيدِ ما يستدعي الرحمةَ ويستجلب الرأفةَ من كِبَر السّنّ وضَعفِ الحال ، فإنه تعالى بعد ما عوّد عبدَه بالإجابة دهراً طويلاً لا يكاد يُخيّبه أبداً لا سيما عند اضطرارِه وشدة افتقارِه ، والتعرضُ في

(68/482)

الموضوعين لوصف الربوبيةِ المنْبئة عن إضافة ما فيه صلاحُ المربوبِ ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسيطُه بين كان وخبرها لتحريك سلسلةِ الإجابةِ بالمبالغة في التضرّع ، ولذلك قيل : إذا أراد العبدُ أن يُستجابَ له دعاؤُه فليدعُ الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاتِه .

(69/482)

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى ﴾

عطف على قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَهَنَ العظم ﴾ مترتبٌ مضمونُه على مضمونه فإنه ضَعفَ القُوى وكِبَر السنّ من مبادىء خوفه عليه السلام مِمّن يلي أمرَه بعد موته ، ومواليه بنو عمه

وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ فخاف أن لا يُحسِنوا خلافتَه في أمته ويبدّلوا عليهم دينَهم ، وقوله : ﴿ مِن وَرَائِى ﴾ أي بعد موتي متعلقٌ بمحذوف ينساق إليه الذهنُ ، أي فِعلَ الموالي من بعدي أو جَوْرَ الموالي وقد قرىء كذلك ، أو بما في الموالي من معنى الوِلاية ، أي خِفتُ الذين يلون الأمرَ من ورائي لا بخِفْتُ لفساد المعنى ، وقرىء ورايَ بالقصر وفتح الياء ، وقرىء خفّت الموالي من ورائي أي قلوا وعجَزوا عن القيام بأمور الدين بعدي ، أو خفّت الموالي القادرون على إقامة مراسمِ الملة ومصالحِ الأمة من خفَّ القومُ أي ارتحلوا مسرعين أي درَجوا قُدّامي ولم يبقَ منهم من به تَقوَ واعتضادٌ ، فالظرفُ حينئذ متعلقٌ بخفّتْ ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ أي لا تلد من حينِ شبابها . ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ﴾ كلا الجارّين متعلقٌ بهب لاختلاف معنييهما ، فاللام صلةٌ له ومِنْ لابتداء الغاية مجازاً ، وتقديمُ الأول لكون مدلولِه أهمَّ عنده ويجوز تعلّقُ الثاني بمحذوف وقع حالاً من المفعول ، ولدن في الأصل ظرفٌ بمعنى أولِ غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرهما من الذوات ، وقد مر تفصيلُه في أوائل سورة آل عمران ، أي أعطِني من محض فضلِك الواسعِ وقدرتِك الباهرةِ بطريق الاختراعِ لا بواسطة الأسباب العادية ﴿ وَلِيّاً ﴾ أي ولداً من صُلبي ، وتأخيرُه عن الجارَّين لإظهار كمالِ الاعتناءِ بكون الهبةِ له على ذلك الوجه البديعِ مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ، فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مستشرِفةً له فعند ورودِه لها يتمكن

عندها فضلُ تمكنٍ ، ولأن فيه نوعَ طولٍ بما بعده من الوصف فتأخيرُهما عن الكل أو توسيطُهما بين الموصوف والصفه

(70/482)

مما لا يليق بجزالة النظمِ الكريم ، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن ما ذكرَه عليه الصلاة والسلام من كِبَر السنّ وضَعف القُوى وعقرِ المرأة موجبٌ لانقطاع رجائِه عليه السلام عن حصول الولدِ بتوسط الأسبابِ العادية واستيهابِه على الوجه الخارقِ للعادة ، ولا يقدح في ذلك أن يكون هنا داعٍ آخرُ إلى الإقبال على الدعاء المذكورِ من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرةِ في حق مريمَ كما يُعرب عنه قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ الآية ، وعدمُ ذكرِه ها هنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدمَ ذكر مقدمةِ الدعاء هناك للاكتفاء بذكره ها هنا ، فإن الاكتفاءَ بما ذكر في موطن عما تُرك في موطن آخرَ من النكت التنزيلية .

وقوله تعالى : ﴿ يَرِثُنِى ﴾ صفةٌ لوليا ، وقرىء هو وما عطف عليه بالجزم جواباً للدعاء ، أي يرثني من حيث العلمُ والدينُ والنبوةُ فإن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام لا يورِّثون المالَ ، قال صلى الله عليه وسلم :

" نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نورَث ، ما تركنا صدقةٌ " وقيل : يرثني الحُبورة وكان عليه السلام حِبْراً .

(71/482)

﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ يقال : ورِثه وورِث منه لغتان ، وآلُ الرجل خاصّته الذين يؤُول إليه أمرُهم للقرابة أو الصُّحبة أو الموافقة في الدين ، وكانت زوجةُ زكريا أختَ أمِّ مريمَ ، أي ويرث منهم الملكَ ، قيل : هو يعقوبُ بنُ إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم الصلاة والسلام ، وقال الكلبي ومقاتل : هو يعقوبُ بنُ ماثانَ أخو عمرانَ بنِ ماثان من نسل سليمانَ عليه السلام ، وكان آلُ يعقوب أخوالَ يحيى بنِ زكريا ، قال الكلبي : كان بنو ماثانَ رؤوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم ، وكان زكريا رئيسَ الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولدُه حبورتَه ويرثَ من بني ماثان ملكَهم ، وقرىء ويرث وارثَ آلِ يعقوب على أنه حالٌ من المستكن في يرث ، وقرىء أو يرث آل يعقوب بالتصغير ففيه إيماءٌ إلى وراثته عليه السلام لما يرثه في حالة صِغَره ، وقرىء وارثٌ من آل يعقوب على أنه فاعلُ يرثني على طريقة التجريد أي يرثني به وارثٌ ، وقيل : من للتبعيض إذ لم يكن كلُّ آل يعقوبَ عليه السلام أنبياءَ ولا علماءَ ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾

مرضياً عندك قولاً وفعلاً ، وتوسيطُ ربِّ بين مفعولي اجعَلْ للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(72/482)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم كهيعص ﴾

أخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ذلك فحدث عن أبي صالح عن أم هانىء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كاف هاد عالم صادق ، واختلفت الروايات عن ابن عباس ، ففي رواية أنه قال : كبير هاد أمين عزيز صادق ، وفي أخرى أنه قال : هو قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسماء الله تعالى ، وفي أخرى أنه كان يقول : كهيعص وحم ويس وأشباه هذا هو اسم الله تعالى الأعظم ، ويستأنس له بما أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي .

وابن ماجه وابن جرير عن فاطمة بنت علي قالت : كان علي كرم الله تعالى وجهه : يقول يا كهيعص اغفر لي ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة أنهم قالوا كهيعص هو الهجاء المقطع الكاف من الملك والهاء من الله والياء والعين من العزيز والصاد

من المصور .

وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب نحو ذلك إلا أنه لم يذكر الياء ، وقال الصاد من الصمد .

وأخرج أيضاً عن الربيع بن أنس أنه قال في ذلك : يا من يجير ولا يجار عليه ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة أنه اسم من أسماء القرآن ، وقيل : إنه اسم للسورة وعليه جماعة ، وقيل حروف مسرودة على نمط التعديد ونسب إلى جمع من أهل التحقيق ، وفوض البعض علم حقيقة ذلك إلى حضرة علام الغيوب .

وقد تقدم تمام الكلام في ذلك وأمثاله في أول سورة البقرة فتذكر ، وقرأ الجمهور كاف بإسكان الفاء ، وروى عن الحسن ضمها وأمال نافع هاوياً بين اللفظين وأظهر دال صادر ولم يدغمها في الذال بعد وعليه الأكثرون .

(73/482)

وقرأ الحسن بضم الهاء وعنه أيضاً ضم الياء وكسر الهاء ، وعن عاصم ضم الياء وعنده أيضاً كسرهما ، وعن حمزة فتح الهاء وكسر الياء ، قال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن المقري الرازي في كتاب "اللوامح" : إن الضم في هذه الأحرف ليس على حقيقته وإلا لوجب قلب ما بعدهن من الالفات واوات بل المراد أن ينحي هذه الالفات نحو الواو على

لغة أهل الحجاز وهي التي تسمى ألف التفخيم ضد الأمارة ، وهذه الترجمة كما ترجموا عن الفتحة الممالة المقربة من الكسر بالكسر لتقريب الألف بعدها من الياء انتهى ، ووجه الأمالة والتفخيم أن هذه الألفات لما لم يكن لها أصل حملوها على المنقلبة عن الواو تارة ، وعن الياء أخرى فجوز الأمران دفعاً للتحكم .

وقرأ أبو جعفر بتقطيع هذه الحروف وتخليص بعضها من بعض واقتضى ذلك إسكان آخرهن ، والتقاء الساكنين مغتفر في باب الوقف ، وأدغم أبو عمرو دال صادر في الذال بعد .

وقرأ حفص عن عاصم .

وفرقة بإظهار النون من غير ، والجمهور على إخفائها .

واختلف في إعرابه فقيل على القول بأن كل حرف من اسم من أسمائه تعالى لا محل لشيء من ذلك ولا للمجموع من الأعراب ، وقيل : إن كل حرف على نية الاتمام خبر لمبتدأ محذوف أي هو كاف هو هاد وهكذا أو الأول على نية الاتمام كذلك والبواقي خبر بعد خبر .

وعلي ما روى عن الربعي قيل : هو منادي وهو اسم من أسمائه تعالى معناه الذي يجير ولا يجار عليه .

وقيل لا محل له من الأعراب أيضاً وهو كلمة تقال في موضع نداء الله تعالى بذلك العنوان مثل

ما يقال مهيم في مقام الاستفسار عن الحال وهو كما ترى ، وعلى القول بأنه حروف مسرودة على نمط التعديد قالوا : لا محل له من الإعراب ؛ وقوله تعالى :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ على هذه الأقوال خبر مبتدأ محذوف أي هذا المتلو ﴿ ذُكِرَ ﴾ الخ ويقال على الأخير المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مراداً به السورة ﴿ ذُكِرَ ﴾ الخ .

(74/482)

وقيل مبتدأ خبره محذوف أي فيما يتلى عليك ﴿ ذُكِرَ ﴾ الخ ، وعلى القول بأنه اسم للسورة قيل محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا كهيعص أي مسمى به .

وإنما صحت الإشارة إليه مع عدم جريان ذكره لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر صار في حكم الحاضر المشاهد كما قيل في قولهم هذا ما اشترى فلان .

وفي ﴿ ذُكِرَ ﴾ وجهان كونه خبراً لمبتدأ محذوف وكونه مبتدأ خبره محذوف .

وقيل محله الرفع على أنه مبتدأ و ﴿ ذُكِرَ ﴾ الخ خبره أي المسمى به ذكر الخ فإن ذكر ذلك لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما انطوت هي عليه جعلت كأنها نفس ذكره أو الإسناد باعتبار الاشتمال أو هو بتقدير مضاف أي ذو ذكر الخ أو بتأويل مذكور فيه رحمة ربك ،

وعلى القول بأنه اسم للقرآن قيل المراد بالقرآن ما يصدق على البعض ويراد به السورة والإعراب هو الاعراب وحينئذ لا تقابل بين القولين .

وقيل المراد ما هو الظاهر وهو مبتدأ خبره ﴿ ذُكِرَ ﴾ الخ والإسناد باعتبار الاشتمال أو التقدير أو التأويل ؛ وقوله تعالى : ﴿ عَبْدِهِ ﴾ مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف إليه وهي مصدر مضاف لفاعله موضوع هكذا بالتاء لا أنها للوحدة حتى تمنع من العمل لأن صيغة الوحدة ليست الصيغة التي اشتق منها الفعل ولا الفعل دال على الوحدة فلا يعمل المصدر لذلك عمل الفعل إلا شذوذاً كما نص عليه النحاة .

وقيل مفعول للذكر على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع .

ومعنى ذكر الرحمة بلوغها وإصابتها كما يقال ذكرني معروفك أي بلغني .

وقوله عز وجل : ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ بدل منه بدل كل من كل أو عطف بيان له أو نصب بإضمار أعني .

وقوله تعالى شأنه :

﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف لفاعله لا على الوجه الأول لفساد المعنى وقيل : هو بدل اشتمال من ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ [مريم : 2] كما قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ [مريم : 16] .

وقرأ الحسن .

وابن يعمر كما حكاه أبو الفتح ﴿ ذُكِرَ ﴾ [مريم : 2] فعلاً ماضياً مشدداً و ﴿ رَحْمَةً ﴾ بالنصب على أنه كما في البحر مفعول ثان لذكر والمفعول الأول محذوف و ﴿ عَبْدِهِ ﴾ مفعول لرحمة وفاعل ﴿ ذُكِرَ ﴾ ضمير القرآن المعلوم من السياق أي ذكر القرآن الناس أن رحم سبحانه عبده ، ويجوز أن يكون الفاعل ضميره عز وجل أي ذكر الله تعالى الناس ذلك ، وجوز أن يكون ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ مفعولاً ثانياً والمفعول الأول هو ﴿ عَبْدِهِ ﴾ والفاعل ضميره سبحانه أي ذكر الله تعالى عبده رحمته أي جعل العبد يذكر رحمته .

وإعراب ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ كما مر ، وجوز أن يكون مفعولاً لرحمة والمراد بعده الجنس كأنه قيل ذكر عباده رحمته زكريا وهو كما ترى ، ويجوز على هذا أن يكون الفاعل ضمير القرآن ، وقيل يجوز أن يكون الفاعل ضميره تعالى والرحمة مفعولاً أولاً و ﴿ عَبْدِهِ ﴾ مفعولاً ثانياً ويرتكب المجاز أي جعل الله تعالى الرحمة ذاكرة عبده ، وقيل : ﴿ رَحْمَةً ﴾ نصب بنزع الخافض أي ذكر برحمة ، وذكر الداني عن أبي يعمر أنه قرأ ﴿ ذُكِرَ ﴾ على الأمر والتشديد و ﴿ رَحْمَةً ﴾ بالنصب أي ذكر الناس رحمة أو برحة ربك عبده زكريا .

وقرأ الكلبي ﴿ ذُكِرَ ﴾ فعلاً ماضياً خفياً و ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بالنصب على المفعولية لذكر و ﴿ عَبْدِهِ ﴾ بالرفع على الفاعلية له .

وزكريا عليه السلام من ولد سليمان بن داود عليهما السلام ، وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه آخر أنبياء بني إسرائيل وهو ابن آزر بن مسلم من طرية يعقوب ، وأخرج إسحاق بن بشر .

وابن عساكر عن ابن عباس أنه ابن دان وكان من أبناء الأنبياء الذين يكتبون الوحي في بيت المقدس ، وأخرج أحمد .

وأبو يعلى .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً أنه عليه السلام كان نجاراً .

وجاء في اسمه خمس لغات .

أولها : المد .

وثانيها : القصر وقرىء بهما في السبع .

وثالثها : زكرى بتشديد الياء .

ورابعها : زكرى بتخفيفها .

(76/482)

وخامسها : زكر كقلم وهو اسم أعجمي ، والنداء في الأصل رفع الصوت وظهوره وقد يقال لمجرد الصوت بل لكل ما يدل على شيء وإن لم يكن صوتاً على ما حققه الراغب ، والمراد هنا إذ دعا ربه ﴿ نِدَاء ﴾ أي دعاء ﴿ خَفِيّاً ﴾ مستوراً عن الناس لم يسمعه أحد منهم حيث لم يكونوا حاضرين .

وكان ذلك على ما قيل في جوف الليل ، وإنما أخفى دعاء عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص وأبعد عن الرياء وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مبادي لا يليق به تعاطيها في أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه ، وعلى ما ذكرنا لا منافاة بين النداء وكونه خفياً بل لا منافاة بينهما أيضاً إذا فسر النداء برفع الصوت لأن الخفاء غير الخفوت ومن رفع صوته في مكان ليس بمرأى ولا مسمع من الناس فقد أخفاه ، وقيل : هو مجاز عن عدم الرايء أي الإخلاص ولم ينافه النداء بمعنى رفع الصوت لهذا . وفي "الكشف" أن الأشبه أنه كناية مع إرادة الحقيقة لأن الخفاء في نفسه مطلوب أيضاً لكن المقصود بالذات الإخلاص ، وقيل مستوراً عن الناس بالمخافة ، ولا منافاة بناء على ارتكاب المجاز أو بناء على أن النداء لا يلزمه رفع الصوت ولذا قيل : "

يا من ينادي بالضمير فيسمع "

وكان نداؤه عليه السلام كذلك لما مر آنفاً أو لضعف صوته بسبب كبره كما قيل الشيخ صوته خفات وسمعه تارات ، قيل : كان سنه حينئذ ستين سنة ، وقيل خمساً وستين ،

وقيل سبعين ، وقيل خمساً وسبعين ، وقيل ثمانين ، وقيل خمساً وثمانين ، وقيل اثنتين وتسعين ، وقيل تسعاً وتسعين ، وقيل مائة وعشرين وهو أوفق بالتعليل المذكور .

وزعم بعضهم أنه أشير إلى كون النداء خفياً ليس فيه رفع بحذف حرفه في قوله تعالى :

(77/482)

﴿ قَالَ رَبّ ﴾ والجملة تفسير للنداء وبيان لكيفيته فلا محل لها من الإعراب ﴿ إِنّى وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ أي ضعف ، وإسناد ذلك إلى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه وتساقطت قوته ؛ ففي الكلام كناية مبنية على تشبيه مضمر في النفس أو لأنه أشد أجزاء صلابة وقواماً وأقلها تأثراً من العلل فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ففي الكلام كناية بلا تشبيه ، وأفرد على ما قاله العلامة الزمخشري وارتضاه كثير من المحققين لأن المفرد هو الدال على معنى الجنسية والقصد إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ولو جمع لكان القصد إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها حتى كأنه وقع من سامع شك في الشمول والإحاطة لأن القيد في الكلام ناظر إلى نفي ما يقابله وهذا غير مناسب للمقام ، وقال السكاكي : إنه ترك جمع ﴿ العظام ﴾ إلى الإفراد لطلب شمول الوهن العظام

فرداً فرداً ولو جمع لم يتعين ذلك لصحة وهنت العظام عند حصول الون لبعض منها دون كل فرد وهو مسلك آخر مرجوح عند الكثير وتحقيق ذلك في موضعه ، وعن قتادة أنه عليه السلام اشتكى سقوط الأضراس ولا يخفى أن هذا يحتاج إلى خبر يدل عليه فإن انفهامه من الآية مما لا يكاد يسلم ، و ﴿ مِنّي ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من العظم ، ولو يقل عظمي مع أنه أخصر لما في ذلك من التفصيل بعد الإجمال ولأنه أصرح في الدلالة على الجنسية المقصودة هنا ، وتأكيد الجملة لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها .

(78/482)

وقرأ الأعمش ﴿ وَهَنَ ﴾ بكسر الهاء ، وقرىء بضمها أيضاً ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ شبه الشيب في البياض والإنارة بشواظ النار وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ففي الكلام استعارتان تصريحية تبعية في ﴿ اشتعل ﴾ ومكنية في الشيب ، وانفكاكها عن التخييلية مما عليه المحققون من أهل المعاني على أنه يمكن على بعد القول بوجود التخييلية هنا أيضاً .

وتكلف بعضهم لزعمه عدم جواز الانفكاك وعدم ظهور وجود التخييلية إخراج ما في الآية مخرج الاستعارة التمثيلية وليس بذاك ، وأسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وأخرج

مخرج التمييز للمبالغة وإفادة الشمول فإن إسناد معنى إلى ظرف ما اتصف به زمانياً أو مكانياً يفيد عموم معناه لكل ما فيه في عرف التخاطب فقولك : اشتعل بيته ناراً يفيد احتراق جميع ما فيه دون اشتعل نار بيته .

وزعم بعضهم أن ﴿ الولدان شِيباً ﴾ نصب على المصدرية لأن معنى ﴿ واشتعل الرأس ﴾ شاب ، وقيل هو حال أي شائباً وكلا القولين لا يرتضيهما كامل كما لا يخفى ، واكتفى باللام عن الإضافة لأن تعريف العهد المقصود هنا يفيد ما تفيده ، ولما كان تعريف ﴿ العظام ﴾ السابق للجنس كما علمت لم يكتف به وزاد قوله ﴿ مِنّي ﴾ وبالجملة ما أفصح هذه الجملة وأبلغها ، ومنها أخذ ابن دريد قوله :

واشتعل المبيض في مسوده . . .

مثل اشتعال النار في جزل الغضاء

(79/482)

وعن أبي عمرو أنه أدغم السين في الشين ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لي ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، وقيل حال من ياء المتكلم إذ المعنى واشتعل رأسي وهو

غرب ، وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه تعالى من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة من كبر السن وضعف الحال فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهراً طويلاً لا يكاد يخيبه أبداً لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره ، وفي هذا التوصل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه .

وقد حكى أن حاتماً الطائي ، وقيل معنى بن زائدة أتاه محتاج فسأله وقال : أنا الذي أحسنت إليه وقت كذا فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته ، وقيل المعنى ولم أكن بدعائك أياي إلى الطاعة شقياً بل كنت ممن أطاعك وعبدك مخلصاً فالكاف على هذا فاعل والأول أظهر وأولى وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لا سيما توسيطهبين كان وخبرها لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع .

وقد جاء في بعض الآثار أن البعد إذا قال في دعائه : يا رب قال الله تعلى له : لبيك عبدي .

وروى أن موسى عليه السلام قال يوماً في دعائه : يا رب فقال الله سبحانه وتعالى له : لبيك يا موسى فقال موسى : أهذا لي خاصة فقال الله تبارك وتعالى : لا ولكن لكل من يدعوني بالربوبية وقيل : إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته عز وجل :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى ﴾ هم عصبة الرجل على ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

ومجاهد ، وعن الأصم أنهم بنو العم وهم الذين يلونه في النسب .

(80/482)

وقيل : من يلي أمره من ذوي قرابته مطلقاً ، وكانوا على سائر الأقوال شرار بني إسرائيل فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافته في أمته ، والجملة عطف على قوله : ﴿ إِنِّى وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ مترتب مضمونها على مضمونه فإن ضعف القوى وكبر السن من مبادي خوفه عليه السلام من يلي أمره بعد موته حسبما يدل عليه قوله ﴿ مِنْ ﴾ فإن المراد منه بإجماع من علمنا من المفسرين من بعد موتي ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أي خفت فعل الموالي من ورائي أو جور المولى ؛ وقد قرىء كما في إرشاد العقل السليم كذلك ، وجوز تعلقه بالموالي ويكفي في ذلك وجود معنى الفعل فيه في الجملة ، فقد قالوا : يكفي في تعلق الظرف رائحة الفعل ولا يشترط فيه أن يكون دالاً على الحدوث كاسم الفاعل والمفعول حتى يتكلف له ويقال : إن اللام في الموالي على هذا موصول والظرف متعلق بصلته وإن مولى مخفف مولى كما قيل في معنى أنه مخفف معنى فإنه تعسف لا حاجة

إليه ، نعم قالوا في حاصل المعنى على هذا : خفت الذين يلون الأمر من ورائي ، ولم يجوز الزمخشري تعلقه بخفت لفساد المعنى ، وبين ذلك في "الكشف : بأن الجار ليس صلة الفعل لتعديه إلى المحذور بلا واسطة فتعين أن يكون للظرفية على نحو خفت الأسد قبلك أو من قبلك وحينئذ يلزم أن يكون الخوف ثابتاً بعد موته وفساده ظاهر .

وبعضهم رأى جواز التعلق بناء على أن كون المفعول في ظرف مصحح لتعلق ذلك الظرف بفعله كقولك : رميت الصيد في الحرم إذا كان الصيد فيه دون رميك والظاهر عدم الجواز فافهم ، وقال ابن جني : هو حال مقدرة من ﴿ خِفْتُ الموالى ﴾ وعن ابن كثير أنه قرأ ﴿ وَمِنْ ﴾ بالقصر وفتح الياء كمعصاء .

وقرأ الزهري ﴿ خِفْتُ الموالى ﴾ بسكون الياء .

وقرأ عثمان بن عفان .

وابن عباس .

وزيد بن ثابت .

وعلي بن الحسين .

وولداه محمد .

وزيد .

وسعيد بن العاص .

وابن جبير .

وأبو يعمر .

وشبيل بن عزرة .

(81/482)

والوليد بن مسلم لابن عامر ﴿ خِفْتُ ﴾ بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر تاء التأنيث ﴿ الموالى ﴾ بسكون الياء على أن ﴿ خِفْتُ ﴾ من الخفة ضد الثقل ومعنى ﴿ مِن وَرَائِى ﴾ كما تقدم : والمراد وإني قل الموالي وعجزوا عن القيام بأمور الدين من بعدي أو من الخفوف بمعنى السير السريع ومعنى ﴿ مِن وَرَائِى ﴾ من قدامي وقبلي ، والمراد وإني مات القادرون على إقامة مراسم الملة ومصالح الأمة وذهبوا قدامي ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فيكون محتاجاً إلى العقب لعجز مواليه عن القيام بعده بما هو قائم به أو لأنهم ماتوا قبله فبقي محتاجاً إلى يعتضد به ، وتعلق الجار والمجرور على الوجه الثاني بالفعل ظاهر ، وأما على الوجه الأول فإن لوحظ أن عجزهم وقلتهم سيقع بعده لا أنه واقع وقت دعائه صح تعلقه بالفعل أيضاً وإن لم يكن كذلك تعلق بغير ذلك .

﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ أي لا تلد من حين شبابها إلى شيبها ، فالعقر بالفتح والضم

والعقم ، ويقال عاقر للذكر والأنثى ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ﴾ كلا الجارين متعلق بهب واللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازاً ، وتقديم الأول لكون مدلوله أهم عنده ، وجوز تعلق الثاني بمحذوف وقع حالاً من المفعول الآتي .

وتقدم الكلام في لدن ، والمراد أعطني من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية ، وقيل المراد أعطني من فضلك كيف شئت ﴿ وَلِيّاً ﴾ أي ولداً من صلبي وهو الظاهر .

ويؤيده قوله تعالى في سورة آل عمران حكاية عنه عليه السلام ﴿ قَالَ رَبّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ وقيل إنه عليه السلام طلب من يقوم مقامه ويرثه ولداً كان أو غيره ، وقيل : إنه عليه السلام أيس أن يولد له من امرأته فطلب من يرثه ويقوم مقامه من سائر الناس وكلا القولين لا يعول عليه .

وزعم الزمخشري أن ﴿ مِن لَّدُنْكَ ﴾ تأكيد لكونه ولياً مرضياً ولا يخفى ما فيه .

(82/482)

وتأخير المفعول عن الجارين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرها عن الكل

وتوسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن ما ذكره عليه السلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الأسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة .

وقيل لأن ذلك موجب لانقطاع رجائه عن حصول الولد منها وهي في تلك الحال واستيهابه على الوجه الذي يشاؤه الله تعالى ، وهو مبني على القول الثاني في المراد من ﴿ هَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ والأول أولى .

ولا يقدح فيما ذكر أن يكون هناك داع آخر إلى الإقبال على الدعاء من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة في حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : 38] الآية .

وعدم ذكره ههنا للتعويل على ما ذكر هنالك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هنالك للاكتفاء بذكرها ههنا ، والاكتفاء بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر من السنن التنزيلية

وقوله :

﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾

صفة لوليا كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات ، ويقال : ورثه وورث منه لغتان

كما قيل ، وقيل من للتبعيض لا للتعدية ، وآل الرجل خاصته الذين يؤل إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ، ويعقوب على ما روى عن السدي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فإن زكريا من ولد هرون وهو من ولدي لاوي بن يعقوب وكان متزوجاً باخت مريم بنت عمران وهي من ولد سليمان بن داود عليهما السلام وهو من ولد يهوذ بن يعقوب أيضاً .

وقال الكلبي : ومقاتل : هو يعقوب بن ماثان وأخوه عمران بن ماثان أبو مريم .

(83/482)

وقيل : هو أخو زكريا عليه السلام والمراد من الوراثة في الموضعين العلم على ما قيل .

وقال الكلبي : كان بنو ماثان رؤس بني إسرائيل وملوكهم وكان زكريا عليه السلام رئيس الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده الحبورة ويرث من بني ماثان ملكهم فتكون الوراثة مختلفة في المضعين وأيد ذلك بعدم اختيار العطف على الضمير المنصوب والاكتفاء بيرث الأول ، وقيل الوراثة الأولى وراثة النبوة والثانية وراثة الملك فتكون مختلفة أيضاً إلى أن قوله : ﴿ واجعله رَبّ رَضِيّاً ﴾ أي مرضياً عندك قولاً وفعلاً ، وقيل راضياً والأول أنسب يكون على هذا تأكيداً لأن النبي شأنه أن يكون كذبك ، وعلى ما قلنا يكون دعاء بتوفيقه للعمل

كما أن الأول متضمن للدعاء بتوفيقه للعلم فكأنه طلب أن يكون ولده عالماً عاملاً ، وقيل : المراد اجعله مرضياً بين عبادك أي متبعاً فلا يكون هناك تأكيد مطلقاً ، وتوسيط ﴿ رَبّ ﴾ بين مفعولي الجعل على سائر الأوجه للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه .

واختار السكاكي أن الجملتين مستأنفتان استئنافاً بيانياً لأنه يرد أنه يلزم على الوصفية أن لا يكون قد وهب لزكريا عليه السلام من وصف لهلاك يحيى عليه السلام قبل هلاكه لقتل يحيى عليه السلام قبل قتله .

(84/482)

وتعقب ذلك في "الكشف" بأنه مدفوع بأن الروايات متعارضة والأكثر على هلاك زكريا قبله عليهما السلام ، ثم قال : وأما الجواب بأنه لا غضاضة في أن يستجاب للنبي بعض ما سأل دون بعض ألا ترى إلى دعوى نبينا صلى الله عليه وسلم في حق أمته حيث قال عليه الصلاة والسلام : " وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها " وإلى دعوة إبراهيم عليه السلام في حق أبيه فإنما يتم لو كان المحذور ذلك وإنما المحذور لزوم الخلف في خبره تعالى فقد قال سبحانه وتعالى في الأنبياء : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ [الأنبياء : 76 ، 84 ، 88 ، 90] وهو يدل على أنه عليه السلام أعطى ما سأل من غير تفرقة بين بعض وبعض

وكذلك سياق الآيات الأخر .

ولك أن تستدل بظاهر هذه الآية على ضعف رواية من زعم أن يحيى هلك قبل أبيه عليهما السلام ، وأما الايراد بأن ما اختير من الحمل على الاستئناف لا يدفع المحذور لأنه وصل معنوي فليس بشيء لأن الوصل ثابت ولكنه غير داخل في المسؤول لأنه بيان العلة الباعثة على السؤال ولا يلزم أن يكون علة السؤال مسؤلة انتهى .

وأجاب بعضهم بأنه حيث كان المراد من الوراثة هنا وراثة العلم لا يضر هلاكه قبل أبيه عليهما السلام لحصول الغرض وهو أخذ ذلك وإفاضته على الغير بحيث تبقى آثاره بعد زكريا عليه السلام زماناً طويلاً ولا يخفى أن المعروف بقاء ذات الوارث بعد الموروث عنه .

وقرأ أبو عمرو .

والكسائي .

والزهري .

والأعمش .

وطلحة .

واليزيدي .

وابن عيسى الأصفهاني .

وابن محيصن .

وقتادة بجزم الفعلين على أنهما جواب الدعاء ؛ والمعنى أن تهب لي ذلك يرثني الخ ، والمراد أنه كذلك في ظني ورجائي ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهم والحسن .

وابن يعمر .

والجحدري .

وأبو حرب بن أبي الأسود .

(85/482)

وأبو نهيك ﴿ يَرِثُنِى ﴾ بالرفع ﴿ وأرث ﴾ فعلاً مضارعاً من ورث وخرج ذلك على أن المعنى يرثني العلم وأرث أنا به الملك من آل يعقوب وذلك بجعل وراثة الولي الملك وراثة لزكريا عليه السلام لأن رفعة الولد رفعة للوالد والواو لمطلق الجمع ، وقال بعضهم : والواو للحال والجملة حال من أحد الضميرين ، وقال "صاحب اللوامح" : فيه تقديم ومعناه فهب لي ولياً من آل يعقوب يرثني النبوة إن مت قبله وأرثه ماله إن مات قبلي وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً ، ونقل عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وجماعة أنهم قرأوا ﴿ يَرِثُنِى ﴾ برفع وأرث بزنة فاعل على أنه فاعل يرثني على طريقة التجريد كما قال أبو الفتح .

وغيره أي يرثني ولي من ذلك الولي أو به فقد جرد من الولي ولياً كما تقول رأيت مه به أسداً ، وعن الجحدري أنه قرأ ﴿ وأرث ﴾ بإمالة الواو ، وقرأ مجاهد ﴿ أَوْ ﴾ تصغير وارث وأصله وويرث بواوين الأولى فاء الكلمة الأصلية والثانية بدل ألف فاعل لأنها تقلب واواً في التصغير كضويرب ولما وقعت الواو مضمومة قبل أخرى في أوله قلبت همزة كما تقرر في التصريف ونقل عنه أنه قال التصغير لصغيره فإنه عليه السلام تورث عنهم أموالهم لأن الوراثة حقيقية في وراثة المال ولا داعي إلى الصرف عن الحقيقة ، وقد ذكر الجلال السيوطي في "الذر المنثور" عن ابن عباس .

ومجاهد وعكرمة .

وأبي صالح أنهم قالوا في الآية : يرثني مالي وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم قال في الآية : يرحم الله تعالى أخي زكريا ما كان عليه من ورثة وفي رواية ما كان عليه ممن يرث ماله ، وقال بعضهم : إن الوراثة ظاهرة في ذلك ولا يجوز ههنا حملها على وراثة النبوة لئلا يلغو قوله : ﴿ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ ولا على وراثة العلم لأنه كسبي والموروث حاصل بلا كسب .

ومذهب أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام لا يرثون مالاً ولا يورثون لما صح عندهم من الأخبار .

وقد جاء ذلك أيضاً من طريق الشيعة فقد روى الكليني في الكافي عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه قال : إن العلماء ورثة الأنبياء وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا أحاديث من أحاديثهم فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظ وافر ، وكلمة إنما مفيدة للحصر قطعاً باعتراف الشيعة ، والوراثة في الآية محمولة على ما سمعت ولا نسلم كونها حقيقة لغوية في وراثة المال بل هي حقيقة فيما يعم وراثة العلم والمنصب والمال وإنما صارت لغلبة الاستعمال في عرف الفقهاء مختصة بالمال كالمنقولات العرفية ولو سلمنا أنها مجاز في ذلك فهو مجاز متعارف مشهور خصوصاً في استعمال القرآن المجيد بحيث يساوي الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : 32] وقوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ [الأعراف : 169] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [الشورى : 14] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ

﴿ [الأعراف : 128] ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 180]

قولهم لا داعي إلى الصرف عن الحقيقة قلنا : الداعي متحقق وهي صيانة قول المعصوم عن الكذب ودون تأويله خرط القتاد ، والآثار الدالة على أنهم يورثون المال لا يعول عليها عند النقاد ، وزعم البعض أنه لا يجوز حمل الوراثة هنا على وراثة النبوة لئلا يلغو قوله : ﴿ واجعله رَبّ رَضِيّاً ﴾ قد قدمنا ما يعلم منه ما فيه .

(87/482)

وزعم أن كسبية الشيء تمنع من كونه موروثاً ليس بشيء فقد تعلقت الوراثة بما ليس بكسبي ف يكلام الصادق ، ومن ذلك أيضاً ما رواه الكليني في الكافي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : إن سليمان ورث داود وإن محمداً صلى الله عليه وسلم ورث سليمان عليه السلام فإن وراثة النبي صلى الله عليه وسلم سليمان عليه السلام لا يتصور أن تكون وراثة غير العلم والنبوة ونحوهما ، ومما يؤيد حمل الوراثة هنا على وراثة العلم ونحوه دون المال أنه ليس في الأنظار العالية والهمم العلياء للنفوس القدسية التي انقطعت من تعلقات هذا العالم المتغير الفاني واتصلت بالعالم الباقي ميل للمتاع الدنيوي قدر جناح بعوضة لا سيما جناب زكريا عليه السلام فإنه كان مشهوراً بكمال الانقطاع والتجرد

فيستحيل عادة أن يخاف من وراثة المال والمتاع الذي ليس له في نظره العالي أدنى قدر أو يظهر من أجله الكلف والحزن والخوف ويستدعي من حضرة الحق سبحانه وتعالى ذلك النحو من الاستدعاء وهو يدل على كمال المحبة وتعلق القلب بالدنيا ، وقالت الشيعة : إنه عليه السلام خاف أن يصرف بنو عمه ماله بعد موته فيما لا ينبغي فطلب لو الوارث المرضي لذلك ، وفيه أن ذلك مما لا يخاف منه إذ الرجل إذا مات وانتقل ماله بالوراثة إلى آخر صار المال مال ذلك الآخر فصرفه على ذمته صواباً أو خطأً ولا مؤاخذة على الميت من ذلك الصرف بل لا عتاب أيضاً مع أن دفع هذا الخوف كان ميسراً له عليه السلام بأن يصرفه قبل موته ويتصدق به كله في سبيل الله تعالى ويترك بني عمه الأشرار خائبين لسوء أحوالهم وقبح أفعالهم .

(88/482)

وللأنبياء عليهم السلام عند الشيعة خبر بزمن موتهم وتخيير فيه فما كان له خوف موت الفجأة أيضاً فليس قصده عليه السلام من مسألة الولد سوى إجراء أحكام الله تعالى وترويج الشريعة وبقاء النبوة في أولاده فإن ذلك موجب لتضاعف الأجر إلى حيث شاء الله

تعالى من الدهر ، ومن أنصف لم يتوقف في قبول ذلك والله تعالى الهادي لأقوم المسالك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 16 صـ ﴾

(89/482)

وقال القاسمي :

﴿ كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ [1 - 3] .

﴿ كهيعص ﴾ سلف في أول سورة البقرة الكلام على هذه الأحرف ، المبتدأ بها . وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها . وكونها خبر مبتدأ محذوف . أي : هذا : ﴿ كهيعص ﴾ أي : مسمى به ، وقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ مبتدأ خبره محذوف . أي : فيما يتلى عليك . أو خبر محذوف . أي : هذا المتلوّ ذكرها وزكريا والد يحيى عليهما السلام . بدل من عبده أو عطف بيان له . قال المهايميّ : أي : ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته . فأعطاه ولداً كاملاً في باب النبوة . فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى . وتولى تسميته ولم يشرك فيه من تقدمه . وذكرُها لنا كبير هبة لنا ، في تعريف مقام النبوة ، وقدرة الله وعنايته بصفوته .

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ ظرف لرحمة أو بدل اشتمال من زكريا والنداء في الأصل

رفع الصوت وظهوره . والمراد به الدعاء . وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه ، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل في الإخلاص . ثم فسر الدعاء بقوله :

(90/482)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي : ضعف . قال الزمخشريّ : وإنما ذكر العَظْم لأنه عمود البدن . وبه قوامه ، وهو أصل بنائه . فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته . ولأنه أشد ما فيه وأصلبه . فإذا وهن كان ما وراءَه أوهن . ووحّده ، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفراده . وقرئ : ﴿ وَهُنَ ﴾ بكسر الهاء وضمها : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ قال الزمخشريّ : شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته ، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ – باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاءً بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . وظاهره أن فيه استعارتين مبنيتين على تشبيهين : أولاهما تصريحية تبعية في اشتعل بتشبيه انتشار المبيضّ في المسودّ باشتعال النار ، كما قال ابن دريد في " مقصورته " .

~إِمَّا تَرَى رَأْسِيَ حَاكى لَوْنُهُ طرّةَ صبحٍ تَحْتَ أذيال الدجا

~واشتعل المبيضُّ في مسودِّهِ مثلَ اشتعالِ النَّارِ في جَزْلِ الغضَا

والثانية مكنية . بتشبيه الشيب ، في بياضه وإنارته ، باللهب . وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخييلية ، وعليه المحققون من أهل المعاني . وقيل : إن الاستعارة هنا تمثيلية . فشبه حال الشيب بحال النار ، في بياضه وانتشاره : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي : ولم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت لم أعوّد منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردَّني قط . وهذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة ، إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة ، من كبر السن وضعف الحال . فإنه تعالى بعد ما عوَّد عبده بالإجابة دهراً طويلاً . لا يكاد يخيبه أبداً . لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره .

تنبيه :

(91/482)

استفيد من هذا الآيات آداب الدعاء [في المطبوع : الاعاء] وما يستحب فيه . فمنها الإسرار بالدعاء ، لقوله خَفِيّاً ومنها استحباب الخضوع في الدعاء وإظهار الذل والمسكنة والضعف لقوله : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده

الجميلة لقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ ﴾ الخ كما قدمنا .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ أي : الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ﴾ أي : لا تلد من حين شبابها : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أي : هب لي ولداً ، يلي من الأمر ما كنت إليه وارثاً ، لي ولآل يعقوب ، في العلم والنبوة . وفي قوله : ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة . لعدم صلاحية زوجه للحمل . وتنويه به لكونه مضافاً إلى الله تعالى ، وصادراً من عنده . وآل يعقوب أولاده الأنبياء ، عليهم السلام ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ أي : مرضيّاً عندك قولاً وفعلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 88.90 ﴾

(92/482)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور . كقوله هنا : ﴿ كهيعص ﴾ في

سورة هود « فأغنى عن إعادته هنا . وقوله ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف . اي هذا ذكر رحمة ربك . وقيل : مبتدأ خبره محذوف ، وتقديره : فيما يتلى عليكم ذكر رحمة ربك ، والأول ، والأول أظهر . والقول بأنه خبر عن قوله » « ظاهر السقوط لعدم ربط بينهما . وقوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ لفظه » ذكر « مصدر مضاف إلى مفعوله . ولفظة » رحمة « مصدر مضاف إلى فاعله وهو » ربك « . وقوله ﴿ عبده ﴾ مفعول به للمصدر الذي هو » رحمة « المضاف إلى فاعله ، على حد قوله في الخلاصة :

وبعد جره الذي الذي أضيف له . . . كمل بنصب أو برفع علمه

وقوله » زكريا « بدل من قوله » عبده « أو عطف عليه .

(93/482)

وقد بين جل وعلا في هذه الآية : أن هذا الذي يتلى في أول هذه لسورة الكريمن هو ذكر الله رحمته التي رحم بها عبده زكريا حين ناداه نداء خفياً أي دعاه في سر وخفية . وثناؤه جل وعلا عليه يكون دعائه خفياً يدل على أن إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره وإعلانه . وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية جاء مصرحاً به في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن

ظُلُمَاتِ البر والبحر تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ [الأنعام : 63] الآية ، وقوله تعلى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ [الأعراف : 55] . وإنما كان الإخفاء أفضل من الإظهار لأنه أقرب إلى الإخلاص ، وأبعد من الرياء . فقول من قال : إن سبب إخفائه دعاءه أنه خوفه من قومه أن يلوموه على طلب الولد ، في حالة لا يمكن فيها الولد عادة لكبر سنه وسن امرأته ، وكونها عاقراً . وقول من قال : إنه أخفاه لأنه طلب أمر دنيوي ، فإن أجبا الله دعاءه فيه نال ما كان يريد . وإن لم يجبه لم يعلم ذلك أحد ، إلى غير ذلك من الأقوال ، كل ذلك ليس بالأظهر . والأظهر أن السر في غخفائه هو ما ذكرنا من كون الإخفاء أفضل من الإعلان في الدعاء . ودعاء زكريا هذا لم يبين الله في هذا الموضع مكانه ولا وقته ، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة » آل عمران « في قوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 37-38] الآية . فقوله » هنالك « اي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم . وقال بعضهم : » هنالك « أي في ذلك الوقت ، بناء على أن هنا ربما أشير بها إلى الزمان .

وقوله في دعائه هذا : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنّي ﴾ أي ضعف . والوهن : الضعف . وإنما ذكر ضعف العظم لأنه عموم البدن وبه قوامهن وهو أصل بنائه فإذا وهن دل على ضعف جميع البدن ، لأنه أشد ما فيه وأصلبه ، فوهنه يستللزم وهن غيره من البدن .

وقوله : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ الألف واللام في « الرأس » قاما مقام المضاف إليه . إذ المراد : واشتعل رأسي شيبا . والمراد باشتعال الرأس شيباً : إنتشار بياض الشيب فيه . قال الزمخشري في كشافه : شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزاً ، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم الخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة – انتهى منه . والظاهر عندنا كما بينا مراراً : أن مثل هذا من التعبير عن انتشار بياض الشيب في الرأس ، باشتعال الرأس شيبا أسلوب من أساليب اللغة العربية الفصحى جاء القرآن به ، ومنه قول الشاعر :

ضيعت حزمي في إبعادي الأملا . . . وما أرعويت وشيباَ رأسي اشتعلا

ومن هذا القبي قول ابن دريد في مقصورته .

واشتعل المبيض في مسوده . . . مثل اشتعال النار في جزل الغضا

وقوله « شيباً » تمييز محول عن الفاعل في أظهر الأعاريب . خلافاً لمن زعم أنه ما ناب عن مطلق من قوله « واشتعل » لأنه اشتعل بمعنى شاب ، فيكون « شيباً » مصدراً منه في المعنى – ومن زعم أيضاً أنه مصدر منكر في موضع الحال .

وهذا الذي ذكره الله هنا عن زكريا في دعائه من إظهار الضعف والكر جاء في مواضع أخر . كقوله هنا : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ [مريم : 8] ، وقوله في « آل عمران » : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر ﴾ [آل عمران : 40] الآية . وهذا الذي ذكره هنا من إظهار الضعف يدل على أنه ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه .

(95/482)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي لم أكن بدعائي إياك شقيا ، أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك ، يعني أنك عودتني الإجابة فيما مضى . والعرب تقول : شقى بذلك إذا تعب فيه ولم يحصل مقصوده . وربما أطلقت الشقاء . على التعب ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] وأكثر ما يستعمل في ضد السعادة . ولا شك أن إجابة الدعاء من السعادة فيكون عدم إجابته من الشقاء .

(96/482)

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) ﴾

معنى قوله : ﴿ خِفْتُ الموالي ﴾ أي خفت أقاربي وبني عمي وعصبتي : أن يضيعوا الدين بعدي ، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام ، فارزقني ولداً يقوم بعدي بالدين حق القيام . وبهاذا التفسير تعلم ان معنى قومه « يرثني » أنه إرث وعلم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال . ويدل لذلك أمران :

أحدهما – قوله ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان ، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .

(97/482)

والأمر الثاني – ما جاء من الأدلة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدي فمن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عنع صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا نورث ، ما تركنا

صدقه » قالوا : نعم . من ذلك ما أخرجه الشيخان أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم حين توفي أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن . فقالت عائشة : أليس قال النَّبي : « ما تركنا صدقة » ومن ذلك ما رواه الشيخان أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتسم روثني ديناراً ، ما تركتُ بعد نَفَقَة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقةٌ » وفي لفظ عن أحمد : « لا تقتسم ورثني ديناراً ولا درهماً » ومن ذلك أيضاً ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه . عن أبي هريرة : أن فاطمة رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه : من يرثك إذا مت ؟ قال : ولدي وأهلي ؟ قالت : فما لنا لا نرث النَّبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن النَّبي لا يورث » ولكن أعول من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوله ، وأنفق على من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق .

(98/482)

فهذه الأحاديث وأمثالها ظارة في أن الأنبياء لا يوث عنهم المال بل العلم والدين . فإن قيل : هذا مختص به صلى الله عليه وسلم . لأن قوله « لا نورث » يعني به نفسه . كما قال عمر

رضي الله عنه في الحديث الصحيح المشار إليه عنه آنفاً : أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله قال : « لانورث ما تركنا صدقة » يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه . فقال الرهط : قد قال ذلك الحديث . ففي هذا الحديث الصحيح أن عمر قال : إن مراد النَّبي صلى الله عليه وسلم بقوله « لا نورث » نفسه ، وصدقه الجماعة المذكورون في ذلك ، وهذا دليل على الخصوص فلا مانع إذن من كون الموروث عن زكريا في الآية التي نحن بصددها هو المال ؟ فالجواب من أوجه :

الأول – أن ظاهر صيغة الجمع شمول جميع الأنبياء ، فلا يجوز العدول عن هذا الظاهر إلا بدليل من كتاب أو سنة .

(99/482)

وقول عمر لا يصح تخصيص نص من السنة به . لأن النصوص لا يصح تخصيصها بأقوال الصحابة على التحقيق كما هو مقرر في الأصول .

الوجه الثاني – أن قول عمر « يريد صلى الله عليه وسلم نفسه » لا ينتفي شمولا لحكم لغيره من الأنبياء ، لاحتمال أن يكون قصده يريد أنه هو صلى الله عليه وسلم يعني نفسه فإنه لا يورث ، ولم يقل عمر إن اللفظ لم يشمل غيره ، وكونه يعني نفسه لا ينافي أن غيره من الأنبياء لا

يورث أيضاً .

الوجه الثالث – ما جار من الأحاديث صريحاً في عموم عدم الإرث المالي في جميع الأنبياء .

وسنذكر طرفاً من ذلك هنا إن شاء الله تعالى .

(100/482)

قال ابن حجر في فتح البارس ما نصه : وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ « نحن » لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ « إنا معاشر الأنبياء لا نورث . . » الحديث وأخرجه عن محمد بن منصور ، عن ابن عيينة عنه ، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة ، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه . وأورده الهيثم بن كليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور . وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور . وأخرجه الدارقطني في العلل من رواية أم هانىء عن فاطمة رضي الله عنها ، عن أبي بكر الصديق بلفظ « إن الأنبياء لا يورثون » انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر . وقد رأيت فيه هذه الطرق التي فيها التصريح بعموم الأنبياء .

وقد قال ابن حجر : إن إنكار الحديث المذكور غير مسلم إلا بالنسبة لخصوص لفظ « نحن

» وهذه الروايات التي أشار لها يشد بعضها . وقد تقرر في الأصول أن البيان يصح بكل ما يزيل الإشكال ولو قرينة أو غيرها كما قدمناه موضحاً في ترجمة هذا الكتاب المبارك ، وعليه – فهذه الأحاديث التي ذكرنا تبين أن المقصود من فقوله في الحديث المتفق عليه « لا نورث » أنه يعني نفسه . كما قال عمر وجميع الأنبياء كما دلت عليه الروايات المذكورة . والبيان إرشاد ودلالة يصح بكل شيء يزيل اللبس عن النص من نص أو فعل أو قرينة أو غير ذلك قال في مراقي السعود في تعريف البيان وما به البيان :

(101/482)

تصيير مشكل من الجلى . . . وهو واجب على النَّبي

إذا أريد فهمه وهو بما . . . من الدليل مطلقا يجلو العما

وبهذا الذي قررنا تعلم : أن قوله هنا ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ يعني وراثة العلم والدين لا المال . وكذلك قوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل : 16] الآية . فتلك الوراثة أيضاً وراثة علم ودين . والوراثة قد تطلق في الكتاب والسنة على وراثة العلم والدين ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : 32] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى : 14

] ، وقوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ [الأعراف : 169] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(102/482)

ومن السنة الورادة في ذلك ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلماء ورثة الأنبياء » وهو في المسند والسنن قال صاحب (تمييز الطيب من الخبيث ، فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث) : رواه أحمد أبو داود والترمذي وآخرون عن أبي الدراداء مرفوعاً بزيادة « إن الأنبياء لم يورثوا ديناً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم » وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما – انتهى منه بلفظه . وقال صاحب (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) : « العلماء ورثة الأنبياء » رواه أحمد والأربعة وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً بزيادة « إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم . . » الحديث ، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما ، وحسنه حمزة الكناني وضعفه غيرهم لاضطراب سنده لكن له شواهد . ولذا قال الحافظ : له طرق يعرف بها أن للحديث أصلاً ، ورواه الديلمي عن البراء بن عازب بلفظ الترجمة اه محل الغرض منه . والظاهر صلاحية هذا الحديث

للاحتجاج لاعتضاد بعض طرقه ببعض . فإذا علمت ما ذكرنا من دلالة هذه الأدلة على أن الوراثة المذكورة في الآية وراثة علم ودين لا وراثة مال فاعلم أن للعلماء في ذلك ثلاثة أقوالك الأول – هو ما ذكرنا . والثاني – أنها وراثة مال ، والثالث : أنها وبالنسبة لآل يعقول في قوله « ويرث من آل يعقوب » وراثة علم ودين . وهذا اختيار ابن جرير الطبري . وقد ذكر من قال : إن وراثته لزكريا وراثة مال حديثاً عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ذلك أنه قال : « رحم الله زكريا ما كان عليه من ورثته » أي ماذا يضره إرث ورثته لماله . ومعلوم أن هذا لم يثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . والأرجح فيما يظهرلنا هو ما ذكرنا من أنها وراثة علم ودين ؛ للأدلة التي ذكرنا وغيرها مما يدل على ذلك . وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هنا ما يؤيد ذلك من أوجه . قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿

(103/482)

وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً فسأل الله ولداً يكون نبياً ن بعده ؛ ليسوسهم بنبوته بما يوحى إليه فأجيب في ذلك ؛ لا أنه خشي من وراثتهم له ماله ؛ فإن النبي أعظم منزلة ، وأجل قدراً من أن يشفق

على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثة عصباته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليجوز ميراثه دونهم – وهذا وجه .

(104/482)

الثاني – أنه لم يذكر أنه كان ذا مال ؛ بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه . ومثل هذا لا يجمع مالاً ، ولا سيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا .

الثالث – أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح « نحن معشر الأنبياء لا نورث » وعلى هذا فتعين حمل قوله ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي ﴾ على ميراث النبوة . ولهذا قال يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ كقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل : 16] أي في النبوة ، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة . إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل : أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها . وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث . ما تركنا فهو صدقة » اه محل الغرض من كلام ابن كثير ، ثم ساق بعد هذا طرق الحيث الذي أشرنا له « يرحم الله زكريا وما كان عليه من

ورثة ماله » الحديث . ثم قال في أسانيده : وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح .

واعلم أن لفظ « نحن معاشر الأنبياء » ولفظ « إنا معاشر الأنبياء » مؤداهما واحد . إلا أن « إن » دخلت على « نحن » فأبدلت لفظة « نحن » التي هي المبتدأ بلفظة « ن » الصالحة للنصب ، والجملة هي هي إلا أنها في أحد اللفظين أكدت . ب « إن » كما لا يخفى .

(105/482)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ يعني بهذا الولي الولد خاصة دون غيره من الأولياء . بدليل قوله تعالى في القصة نفسها ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 38] الآية ، وأشار إلى أنه الولد أيضاً بقوله ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ [الأنبياء : 89] فقوله « لا تذرني فرداً » أي واحداً لا ولد .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ، عن زكريا : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي ﴾ اي من بعدي إذا مت أن يغيروا في الدين .

(106/482)

وقد قدمنا أن الموالي الأقارب والعصبات ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون ﴾ [النساء : 33] الآية . والمولى في لغة العرب : يطلق على كل من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به . وكثيراً ما يطلق في اللغة على ابن العم . لأن ابن العم يوالي ابن عمه بالقرابة العصبية . ومنه قول طرفة بن العبد :

واعلم علماً ليس بالظن أنه . . . إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

يعني إذا ذلت بنو عمه فهو ذليل . وقوله الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مهلا ابن عمنا مهلا موالينا . . . لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً ﴾ ظاهر في أنها كانت عاقراً في زمن شبابها . والعاقر : هي العقيم التي لا تلد وهو يطلق على الذكر والأنثى . فمن إطلاقه على الأنثى هذه الآية ، وقوله تعالى عن زكريا أيضاً ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر وامرأتي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران : 40] . ومن إطلاقه على الذكر قوله عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً . . . جباناً فما عذري لدى كل محضر

وقد أشار تعالى إلى أنه أزال عنها العقم . وأصلحها . فجعلها ولوداً بعد ان كانت عاقراً في قوله عز وجل : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء : 90] فهذا الإصلاح هو كونها صارت تلد بعد أن كانت عقيماً . وقول من قال : إن إصلاحها

المذكور هو جعلها حسنة الخلق بعد أن كانت شيئة الخلق لا ينافي ما ذكر لجواز أن يجمع له بين الأمرين فيها ، مع أن كون الإصلاح هو جعلها ولوداً بعد العقم هو ظاهر السياق ، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، ومجاهد وغيرهم . والقول الثاني يروي عن عطاء .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن زكريا ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك في أخلاقه واقواله وأفعاله ودينه ، وهو فعيل بمعنى مفعول .

(107/482)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ﴾ أي من عندك . وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قرأه أبو عمرو والكسائي بإسكان الثاء المثلثة من الفعلين ، أعني ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ وهما على هذه القراءة مجوزمان لأجل جواب الطلب هو « هب لي » والمقرر عند علماء العربية . ان المضارع المجزوم في جواب الطلب مجزوم بشرط مقدر يدل عليه فعل الطلب ، وتقديره في هذه الآية التي نحن بصددها ، إن تهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب . وقرأ الباقون ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ برفع الفعلين على أن الجملة نعت لقوله « ولياً » أي ولياً وارثاً لي ، ووارثاً من آل يعقوب ، كما قال في الخلاصة :

ونعتوا بجملة منكراً . . . فأعطيت ما أعطيته خبرا

وقراءة الجمهور برفع الفعلين أوضح معنى . وقرأ ابن كثير بفتح الياء من قوله ﴿ مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي ﴾ والباقون بإسكانها . وقرأ زكريا بلا همزة بعد الألف حمزة والكسائي وحفص عن عاصم . والباقون قرؤوا « زكرياء » بهمزة بعد الألف ، وبه تعلم أن المد في قوله ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نادى ﴾ [الأنبياء : 89] منفصل على قراءة حمزة والكسائي وحفص ، ومتصل على قراءة الباقين . والهمزة الثانية على قراءة الجمهور التي هي همزة « إذا » مسهلة في قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو ، ومحققة في قراة ابن عامر وشعبة عن عاصم . وقراءة ﴿ خِفْتُ الموالي ﴾ بفتح الخاء الفاء المشددة بصيغة الفعل الماضي بمعنى أن مواليه خفوا أي قلو شاذة لا تجوز القراءة بها وإن رويت عن عثمان بن عفان ، ومحمد بن علي وعلي بن الحسين ، وغيرهم رضي الله عنهم . وامرأة زكريا المذكورة قال القرطبي : هي إيشاع بنت فاقوذ بن قبيل ، وهي أخت حنة بنت فاقوذا . قاله الطبري . وحنة : هي أم مريم . وقال القتبي : امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران . فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة . وعلى القول الأول يكون ابن خالة أمه . وفي

حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : « فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى » شاهداً للقول الأول اهـ . منه . والظاهر شهادة الحديث للقول الثاني لا للأول ، خلافاً لما ذكره رحمه الله تعالى ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(109/482)

وقال ابن عاشور :

﴿ كهيعص (1) ﴾

حروف هجاء مرسومة بمسمياتها ومقروءة بأسمائها فكأنها كتبت لمن يتهجاها .

وقد تقدم القول في مجموع نظائرها .

وفي المختار من الأقوال منها في سورة البقرة وكذلك موقعها من الكلام .

والأصل في النطق بهذه الحروف أن يكون كل حرف منها موقوفاً عليه ، لأنّ الأصل فيها أنها تعداد حروف مستقلة أو مختزلة من كلمات .

وقرأ الجمهور جميع أسماء هذه الحروف الخمسة بإخلاص الحركات والسكون بإسكان أواخر أسمائها .

وقرأ أبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، ويعقوب اسمَ الحرف الثاني وهو ﴿

ها بالإمالة .

وفي رواية عن نافع وابن كثير (ها) بحركة بين الكسر والفتح .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي (يا) بالإمالة .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وأبو جعفر بإظهار دَال (صاد) .

وقرأ الباقون بإدغامه في ذال ذكر ﴿ رحمة ربك ﴾ [مريم : 2] وإنما لم يمد (ها) و (يا) مع أنّ القارىء إنما ينطق بأسماء هذه الحروف التي في أوائل السور لا بمسمياتها المكتوبة أشكالُها ، واسمَا هذين الحرفين مختومان بهمزة مخففة للوجه الذي ذكرناه في طالع سورة يونس وهو التخفيف بإزالة الهمزة لأجل السكت .

واعلم أنك إن جريت على غير المختار في معاني فواتح السور ، فأما الأقوال التي جعلت الفواتح كلها متحدة في المراد فالأمر ظاهر ، وأما الأقوال التي خصت بعضها بمعان ، فقيل في معنى ﴿ كهيعص ﴾ إن حروفها مقتضبة من أسمائه تعالى : الكافي أو الكريم أو الكبير ، والهاء من هادي ، والياء من حكيم أو رحيم ، والعين من العليم أو العظيم ، والصاد من الصادق ، وقيل مجموعها اسم من أسمائه تعالى ، حتى قيل هو الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وقيل اسم من أسماء القرآن ، أي بتسمية جديدة ، وليس في ذلك حديث يعتمد .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

افتتاح كلام ، فيتعيّن أن ﴿ ذِكْرُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، مثلُه شائع الحذف في أمثال هذا من العناوين .

والتقدير : هذا ذكر رحمة ربّك عبده .

وهو بمعنى : اذكر .

ويجوز أن يكون ﴿ ذِكْرُ ﴾ أصله مفعولاً مطلقاً نائباً عن عامله بمعنى الأمر ، أي اذكر ذكراً ، ثمّ حول عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات كما حُول في قوله ﴿ الحمد لله ﴾ وقد تقدم في [سورة الفاتحة : 2] .

ويرجحه عطف ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ [مريم : 16] ونظائرِه .

وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدولِ عن الأسلوب المتعارف في الإخبار ، وأصل الكلام : ذكر عبدنا زكرياء إذ نادى ربّه فقال : رب الخ . . .

فرحمة ربّك ، فكان في تقديم الخبر بأن الله رحمه اهتمام بهذه المنقبة له ، والإنباء بأن الله يرحم من التجأ إليه ، مع ما في إضافة ﴿ ربّ إلى ضمير النبيء وإلى ضمير زكرياء من التنويه بهما .

وافتتحت قصة مريم وعيسى بما يتصل بها من شؤون آل بيت مريم وكافلها لأنّ في تلك الأحوال كلها تذكيراً برحمة الله تعالى وكرامته لأوليائه .

وزكرياء نبي من أنبياء بني إسرائيل ، وهو زكرياء الثاني زوج خالة مريم ، وليس له كتاب في أسفار التوراة .

وأما الذي له كتاب فهو زكرياء بن برخيا الذي كان موجوداً في القرن السادس قبل المسيح .

وقد مضت ترجمة زكرياء الثاني في سورة آل عمران ومضت قصّة دعائه هنالك .

وإذ نادى ربه ﴾ ظرف ل ﴿ رحمتِ ﴾ .

أي رحمة الله إياه في ذلك الوقت ، أو بدل من ﴿ ذكر ، ﴾ أي اذكر ذلك الوقت .

والنداء : أصله رفع الصوت بطلب الإقبال .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ﴾ في سورة آل عمران (193) وقوله : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها ﴾ في [سورة الأعراف : 43] .

ويطلق النداء كثيراً على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلام ، فلذلك سميت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال حروف النداء .

(111/482)

ويطلق على الدعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء لأن شأن الدعاء في المتعارف أن يكون جهراً .

أي تضرعاً لأنه أوقع في نفس المدعو .

ومعنى الكلام : أن زكرياء قال : يا رب ، بصوت خفي .

وإنما كان خفياً لأن زكرياء رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أنّ الله يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس ، فلذلك لم يدعه تضرعاً وإن كان التضرع أعون على صدق التوجه غالباً ، فلعل يقين زكرياء كاف في تقوية التوجه ، فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء .

ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفياً ، لأنه نداء من يسمع الخفاء .

والمراد بالرحمة : استجابة دعائه ، كما سيصرح به بقوله : ﴿ يا زكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ [مريم : 7] .

وإنما حكي في الآية وصف دعاء زكرياء كما وقع فليس فيها إشعار بالثناء على إخفاء الدعاء .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) ﴾

جملة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ مبنية لجملة ﴿ نادى ربه ﴾ [مريم : 3] .

وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء وهو قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً ﴾ .

وإنّما كان ذلك تمهيداً لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد .

والله يجيب المضطر إذا دعاه ، فليس سؤاله الولدَ سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر .

ووصَف من حاله ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالاً ومآلاً ، فكان وهن العظم وعموم الشيب حالاً مقتضياً للاستعانة بالولد مع ما يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة ، فذلك مقصود لنفسه ووسيلة لغيره وهو الميراث بعد الموت .

والخبران من قوله : ﴿ وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ﴾ مستعملان مجازاً في لازم الإخبار ، وهو الاسترحام لحاله .

لأن المخبَر بفتح الباء عالم بما تضمنه الخبران .

والوهن : الضعف .

(112/482)

وإسناده إلى العظم دون غيره مما شمله الوهن في جسده لأنه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه لأنّ العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلاّ وقد بلغ ما فوقه .

والتعريف في (العظَمُ) تعريف الجنس دال على عموم العظام منه .

وشبّه عموم الشّيب شعرَ رأسه أو غلَبَته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود ، تشبيهاً مركباً تمثيلياً قابلاً لاعتبار التفريق في التشبيه ، وهو أبدع أنواع المركب .

فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل ﴿ اشتَعَل ﴾ .

وأسند الاشتعال إلى الرأس ، وهو مكان الشعر الذي عمّه الشيب ، لأنّ الرأس لا يعمه الشيب إلاّ بعد أن يعمّ اللّحية غالباً ، فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن .

وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي ، لأنّ الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب فكان الظاهر إسناده إلى الشيب ، فلما جيء باسم الشيب تمييزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته ، وخصوصية التفصيل بعد الإجمال ، مع إفادة تنكير ﴿ شَيباً ﴾ من التعظيم فحصل إيجاز بديع .

وأصل النظم المعتاد : واشتعل الشيب في شعر الرأس .

ولِما في هذه الجملة من الخصوصيات من مبنى المعاني والبيان كان لها أعظم وقع عند أهل البلاغة نبه عليه صاحب "الكشاف" ووضحه صاحب "المفتاح" فانظُرهما .

وقد اقتبس معناها أبو بكر بن دريد في قوله:

واشتعل المُبيضّ في مُسود همثلَ اشتعال النّار في جزل الغضا . . .

ولكنّه خليق بأن يكون مضرب قولهم في المثل : "ماء ولا كصدّى" .

والشيب : بياض الشعر .

ويعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادة التي تعطي اللون الأصلي للشعر ، ونقصانها بسبب كبر السن غالباً ، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر ، وقد يبيضّ الشعر مِنْ مرض .

(113/482)

وجملة ﴿ لم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ معترضة بين الجمل التمهيدية ، والباء في قوله : ﴿ بدعائك ﴾ للمصاحبة .

والشقيّ : الذي أصابته الشقوة ، وهي ضد السعادة ، أي هي الحرمان من المأمول وضلال السّعي .

وأطلق نفي الشقاوة والمراد حصول ضدها وهو السعادة على طريق الكناية إذ لا واسطة بينهما عرفاً .

ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجرى المثل في حصول السعادة من شيء .

ونظيره قوله تعالى في هذه السورة في قصة إبراهيم : ﴿ عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ [مريم : 48] أي عسى أن أكون سعيداً .

أي مستجاب الدعوة .

وفي حديث أبي هُريرة عن النبيء صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه في شأن الذين يذكرون الله ومن جالسهم "هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم" أي يسعد معهم .

وقال بعض الشعراء ، لم نعرف اسمه وهو إسلامي :

وكنت جليسَ قعقاع بن شَوْرٍ ولا يشقَى بقعقاع جليس . . .

أي يسعد به جليسُه .

والمعنى : لم أكن فيما دعوتك من قبل مردود الدعوة منك ، أي أنه قد عهد من الله الاستجابة كلما دعاه .

وهذا تمهيد للإجابة من طريق غير طريق التمهيد الذي في الجمل المصاحبة له بل هو بطريق الحث على استمرار جميل صنع الله معه ، وتوسلٌ إليه بما سلف له معه من الاستجابة .

روي أن محتاجاً سأل حاتماً الطائي أو مَعْنَ بن زائدةَ قائلاً : "أنا الذي أحسنت إليّ يوم كذا" فقال : "مرحباً بمن تَوسل بنا إلينا" .

وجملة ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ عطف على جملة ﴿ واشتعل الرأس شيباً ، ﴾ أي قاربت الوفاة وخفت الموالي من بعدي .

وما روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبي صالح عن النبيء صلى الله عليه وسلم مرسلاً أنه قال : " يرحم الله زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله " فلعلّه خشي سوء معرفتهم بما يخلّفه من الآثار الدينية والعلمية .

(114/482)

وتلك أعلاق يعزّ على المؤمن تلاشيها ، ولذلك قال : ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ فإن نُفوس الأنبياء لا تطمح إلا لمعالي الأمور ومصالح الدين وما سوى ذلك فهو تبع .

فقوله ﴿ يَرِثُني ﴾ يعني به وراثة ماله .

ويؤيّده ما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة عن الحسن أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله "

والظواهر تؤذن بأن الأنبياء كانوا يُورَثون ، قال تعالى : ﴿ وورث سليمان داوود ﴾ [النمل : 16] .

وأما قول النبيء صلى الله عليه وسلم " نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركْنَا صدقةٌ " فإنما يريد به رسول الله نفسَه ، كما حمله عليه عُمر في حديثه مع العبّاس وعليّ في "صحيح البخاري" إذ قال عمر : "يريد رسول الله بذلك نفسه" ، فيكون ذلك من خصوصيات

محمد صلى الله عليه وسلم فإن كان ذلك حكماً سابقاً كان مراد زكرياء إرث آثار النبوءة خاصة من الكتب المقدّسة وتقاييده عليها .

والموالي : العصبة وأقرب القرابة ، جمع مولى بمعنى الولي .

ومعنى : ﴿ من ورائي ﴾ من بعدي ، فإن الوراء يطلق ويراد به ما بعد الشيء ، كما قال النّابغة:

وليس وراء الله للمرء مطلب . . .

أي بعد الله .

فمعنى ﴿ من ورائي ﴾ من بعد حياتي .

و﴿ من ورائي ﴾ في موضع الصفة ل ﴿ الموالي ﴾ أو الحال .

وامرأة زكرياء اسمها أليصابات من نسل هارون أخي موسى فهي من سبط لاوي .

والعاقر : الأنثى التي لا تلد ، فهو وصف خاص بالمرأة ، ولذلك جرد من علامة التأنيث إذ لا لبس .

ومصدره : العُقر بفتح العين وضمها مع سكون القاف .

وأتى بفعل (كان) للدلالة على أن العقر متمكن منها وثابت لها فلذلك حرم من الولد منها .

ومعنى ﴿ مِنْ لَدنكَ ﴾ أنه من عند الله عندية خاصة ، لأنّ المتكلّم يعلم أنّ كلّ شيء من عند الله بتقديره وخلقه الأسْباب ومسبباتها تبعاً لخلقها ، فلما قال ﴿ من لدنك ﴾ دلّ على أنه سأل ولياً غير جارٍ أمره على المعتاد من إيجاد الأولاد لانعدام الأسباب المعتادة ، فتكون هبته كرامة له .

ويتعلّق ﴿ لِي ﴾ و ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ بفعل ﴿ هَبْ ﴾ .

وإنما قدم ﴿ لِي ﴾ على ﴿ مِن لدُنكَ ﴾ لأنه الأهم في غرض الداعي ، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام .

و ﴿ يَرِثُني ﴾ قرأه الجمهور بالرفع على الصفة ل ﴿ وَلِيًّا ﴾ .

وقرأه أبو عمرو ، والكسائي بالجزم على أنه جواب الدعاء في قوله ﴿ هَبْ لِي ﴾ لإرادة التسبب لأن أصل الأجوبة الثمانية أنها على تقدير فاء السببية .

و ﴿ ءَالَ يَعْقُوبَ ﴾ يجوز أن يراد بهم خاصة بني إسرائيل كما يقتضيه لفظ ﴿ آل المشعر بالفضيلة والشرف ، فيكون يعقوب هو إسرائيل ؛ كأنه قال : ويرث من آل إسرائيل ، أي حملة الشريعة وأحْبار اليهودية كقوله تعالى : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ﴾ [النساء : 54] ، وإنما يذكر آل الرجل في مثل هذا السياق إذا كانوا على سننه ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ [آل عمران : 68]

وقوله : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ [الإسراء : 3] ، مع أن الناس كلهم ذرية من حملوا معه .

ويجوز أن يراد يعقوب آخر غير إسرائيل .

وهو يعقوب بن ماثان ، قاله : معقل والكلبي ، وهو عمّ مريم أخو عمران أبيها ، وقيل : هو أخو زكرياء ، أي ليس له أولاد فيكون ابنُ زكرياء وارثاً ليعقوب لأنه ابن أخيه ، فيعقوب على هذه هو من جملة الموالي الذين خافهم زكرياء من ورائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(116/482)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كهيعص (1) ﴾

هذه خمسة حروف مقطعة ، تُنطق باسم الحرف لا بمُسمَّاه ، لأن الحرف له اسم وله مُسمَّى ، فمثلاً كلمة (كتب) مسماها (كتب) أما بالاسم فهي كاف ، تاء ، باء . فالاسم هو العَلَم الذي وُضِع للدلالة على هذا اللفظ .

وفي القرآن الكريم سور كثيرة ابتُدِئَتْ بحروف مُقطعة تُنطق باسم الحرف لا مُسمَّاه ، وهذه

الحروف قد تكون حَرفاً واحداً مثل : ن ، ص ، ق . وقد تكون حرفين مثل : طه ، طس . وقد تكون ثلاثة أحرف مثل : الم ، طسم . وقد تأتى أربعة أحرف مثل : المر . وقد تأتى بخمسة أحرف مثل : كهيعص ، حمعسق .

لذلك نقول : لا بُدَّ في تعلُّم القرآن من السماع ، وإلاَّ فكيف تُفرِّق بين الم في أول البقرة فتنطقها مُقطَّعة وبين ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] فتنطقها موصولة ؟ وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 18] .

ونلاحظ في هذه الحروف أنه يَنطِق بالمسمّى المتعلم وغير المتعلم ، أما الاسم فلا ينطق به ولا يعرفه إلا المتعلّم الذي عرف حروف الهجاء . فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أميّاً لم يجلس إلى معلم ، وهذا بشهادة أعدائه ، فمن الذي علمه هذه الحروف ؟

إذن : فإذا رأيت هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمَّيات الحروف لا بأسمائها .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)

الذكْر : له معانٍ متعددة ، فالذكْر هو الإخبار بشيء ابتداءً ، والحديث عن شيء لم يكُنْ لك به سابق معرفة ، ومنه التذكير بشيء عرفته أولاً ، ونريد أن نُذكِّرك به ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] .

ويُطلَق الذكْر على القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] وفي القرآن أفضل الذكر ، وأصدق الأخبار والأحداث . كما يُطلق الذكر على كل كتاب سابق من عند الله ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] .

والذكْر هو الصِّيت والرِّفْعة والشرف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] أي : فيه صِيتكم وشرفكم ، ومن ذلك قولنا : فلان له ذِكْر في قومه .

ومن الذكْر ذِكْر الإنسان لربه بالطاعة والعبادة ، وذكْر الله لعبده بالمثوبة والجزاء والرحمة ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] .

فقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 2] أي : هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به .

والرحمة : هي تجليّات الراحم على المرحوم بما يُديم له صلاحه لمهمته ، إذن : فكلُّ راحم ولو من البشر ، وكلُّ مرحوم ولو من البشر ، ماذا يصنع ؟ يعطى غيره شيئاً من النصائح تُعينه

على أداء مهمته على اكمل وجه ، فما بالك إنْ كانت الرحمة من الخالق الذي خلق الخلق ؟ وما بالك إذا كانت رحمة الله لخير خَلْقه محمد ؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم ، فلا وَحْيَ ولا رسالة من بعده ، ولا إكمال . إذن فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخَلْق ، ورحمة كل نبي تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته ، ومهمة محمد أكرم المهمات .

وكلمة (رَحْمَة) هنا مصدر يؤدي معنى فعله ، فالمصدر مثل الفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول ، كما نقول : آلمني ضَرْب الرجل ولدَه ، فمعنى : ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم : 2] أي : رحم ربُّك عبده زكريا .

(118/482)

لذلك قال تعالى : ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 2] لأنها أعلى أنواع الرحمة ، وإن كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا ، فقد خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] فرحمة الله تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به ، بل هي رحمة عامة لجميع العاملين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

فالمراد من ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم : 2] يعنى هذا الذي يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذِكْر وحديث وخبر رحمة ربك التي هي أجلُّ الرحمات بعبده زكريا .

وسبق أن أوضحنا أن العبودية للخَلْق مهانة ومذلَّة ، وهي كلمة بشعة لا تُقبل ، أما العبودية لله تعالى فهي عِزٌّ وشرف ، بل مُنتهَى العِزّ والشرف والكرامة ، وعللنا ذلك بأن العبودية التي تسوء وتُحزِن هي عبودية العبد لسيد يأخذ خيره ، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده .

لكن ، ما نوع الرحمة التي تجلى الله تعالى بها حين أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بخبر عبده زكريا ؟

قالوا : لأنها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة في الكون ، وطلاقة القدرة في أن الله تبارك وتعالى خلق للمسبّبات أسباباً ، ثم قال للأسباب : أنت لست فاعلة بذاتك ، ولكن بإرادتي وقدرتي ، فإذا أردتُك ألاَّ تفعلي أبطلْتُ عملك ، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به .

(119/482)

ومن ذلك ما حدث في قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار في النار ، ولم يكن حظ الله بإطفاء النار عن إبراهيم ، أو بجَعْل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم أن يُنجي إبراهيم ؛ لأنه كان من الممكن ألاَّ يُمكّنَ خصوم إبراهيم عليه السلام من القبض عليه ، أو يُنزِل مطراً يُطفئ ما أوقدوه من نار ، لكن ليست نكاية القوم في هذا ، فلو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم ، أو نزل المطر فأطفأ النار لقالوا : لو كُنَّا تمكنّا منه لفعلنا كذا وكذا ، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا .

إذن : شاءت إرادة الله أنْ تكيد هؤلاء ، وأن تُظهِر لهم طلاقة القدرة الإلهية فتُمكّنهم من إبراهيم حتى يلقوه في النار فعلاً ، ثم يأتي الأمر الأعلى من الخالق سبحانه للنار أن تتعطل فيها خاصية الإحراق : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] .

وكذلك في قصة رحمة الله لعبده زكريا تعطينا دليلاً على طلاقة القدرة في مسألة الخَلْق ، وليلفتنا إلى أن الخالق سبحانه جعل للكون أسباباً ، فمَنْ أخذ بالأسباب يصل إلى المسبِّب ، ولكن إياكم أنْ تُفتَنوا في الأسباب ؛ لأن الخالق سبحانه قد يعطيكم بالأسباب ، وقد يُلغيها نهائيا ويأتي بالمسبِّبات دون أسباب .

وقد تجلَّتْ طلاقة القدرة في قصة بَدْء الخَلْق ، فنحن نعلم أن جمهرة الناس وتكاثرهم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة ، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسباب والخالق

سبحانه يُدير خلقه على كُلِّ أوجه الخَلْق ، فيأتي آدم دون ذكر أو أنثى ، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى ، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر .

فالقدرة الإلهية إذن غير مُقيَّدة بالأسباب ، وتظلّ طلاقة القدرة هذه في الخَلْق إلى أنْ تقومَ الساعة ، فنرى الرجل والمرأة زوجين ، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبِّب سبحانه ، فهو القائل :

(120/482)

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : 4950] .

وطلاقة القدرة في قصة زكريا عليه السلام تتجلى في أن الله تعالى استجاب لدعاء زكريا في أنْ يرزقَه الولد . قال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم : 2] .

أي : رحمه الله ، لكن متى كانت هذه الرحمة ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾

إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3)

أي : في الوقت الذي نادى فيه ربه نداءً خفياً .

والنداء لَوْن من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يقسمون الكلام إلى خبر ، وهو أن تخبر عن شيء بكلام يحتمل الصدق أو الكذب . وإنشاء ، وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قَوْلٌ لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ؛ لأنك تريد أن تنشىء شيئاً من عندك ، فلو قُلْت : يا محمد فأنت تريد أن تنشئ إقبالاً عليك ، فالنداء إذن طلبُ الإقبال عليك ، لكن هل يصح أن يكون النداء من الله تعالى بهذا المعنى ؟ إنك لا تنادى إلا البعيد عنك الذي تريد أن تستدنية منك .

فكيف تنادى ربك تبارك وتعالى وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم ؟ فإذا كان إقباله عليك موجوداً في كل وقت ، فما الغرض من النداء هنا ؟ نقول : الغرض من النداء : الدعاء .

ووَصْف النداء هنا بأنه : ﴿ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ [مريم : 3] لأنه ليس كنداء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رَفْع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء لله تبارك وتعالى الذى يستوي عنده السر والجهر ، وهو القائل : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الملك : 13] .

ومن أدب الدعاء أنْ ندعوَه سبحانه كما أمرنا : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] .

وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] أي : وما هو أَخْفى من السر ؛ لأنه سبحانه قبل أن يكون سِرّاً ، علم أنه سيكون سراً .

لذلك ، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفي ؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشيء ، إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خَفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضحَ أمره عند الناس .

أما الحق سبحانه فهو ستَّار يحب الستر حتى على العاصين ، وكذلك ليدعو العبد ربَّه بما يستحي أنْ يذكره أمام الناس ، وليكون طليقاً في الدعاء فيدعو ربه بما يشاء ؛ لأنه ربُّه ووليه الذي يفزع إليه . وإنْ كان الناس سيحزنون ويتضجرون إن سألتهم أدنى شئ ، فإن الله تعالى يفرح بك أن سألته .

لكن لماذا أخفي زكريا دعاءه ؟

دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ، ولكن كيف يتحقق هذا المطلب وقد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟ فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده ؛ لذلك توجه إلى الله بالدعاء : يا رب لا ملجأ لي إلا أنت فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون ،

وهذا مطلب من زكريا جاء في غير وقته .

أخفاه أيضا ؛ لأنه طلب الولد في وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلاّ أنه لم يأتمنهم على منهج الله ؛ لأن ظاهر حركتهم في الحياة غير متسقة مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟ فإذا دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ؛ لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسِرُّه بينه وبين ربه تعالى .

سؤال آخر تنبغي الإجابة عليه هنا : لماذا يطلب زكريا الولد في هذه السن المتأخرة ، وبعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وأصبحت امرأته عاقراً ؟

(122/482)

لقد أوضح زكريا عليه السلام العلة في ذلك في الآيات القادمة فقال : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : 6] .

إذن : فالعِلَّة في طلب الولد دينية مَحْضة ، لا يطلبه لمغْنَم دنيوي ، إنما شغفه بالولد أنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمايته من الإفساد .

لذلك قوله : (يرثني) هنا لا يفهم منه ميراث المال كما يتصوره البعض ؛ لأن الأنبياء لا يورثون

، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة "

وبذلك يخرج النبي من الدنيا دون أن ينتفع أحد من أقاربه بماله حتى الفقراء منهم .

فالمسألة مع الأنبياء خالصة كلها لوجه الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : 6] أي : النبوة التي تناقلوها . فلا يستقيم هنا أبداً أن نفهم الميراث على انه ميراث المال أو متاع الدنيا الفاني .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل : 16] ففي أيِّ شئ ورثه ؟ أورثه في تركته ؟ إذن : فما موقف إخوته الباقين ؟ لا بد أنه ورثه في النبوة والملك ، فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادي .

ثم يقول الحق سبحانه أن زكريا عليه السلام قال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

هذا هو النداء ، أو الدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي ﴾ [مريم : 4] ويرد في الدعاء أن نقول : يا رب . أو نقول : يا الله ، فقال زكريا (رب) أي : يا رب ؛ لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذي يشمل المؤمن والكافر ، إنه يطلب الولد ، وهذا أمر يتعلق ببنية الحياة وصلاحها للإنجاب ، وهذه من عطاء الرب سبحانه وتعالى ، وإن كانت العلقة في طلب الولد إلهية ، وهي أنْ يحمل المنهج من بعد أبيه .

فكأن زكريا عليه السلام دعا ربه : يا ربّ يا مَنْ تعطي مَنْ آمن بك ، وتعطي مَنْ كفر ، يا مَنْ تعطي مَنْ أطاع ، وتعطي مَنْ عصى ، حاشاك أن تمنع عطاءك عمَّن أطاعك ويدعو الناس إلى طاعتك .

أما الدعاء بالله ففي أمور العبادة والتكليف .

ثم يُقدِّم زكريا عليه السلام حيثيات هذا المطلب : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي ﴾ [مريم : 4] والوَهَن هو الضعف ، وقال : ﴿ وَهَنَ العظم ﴾ [مريم : 4] لأن لكل شيء قواماً في الصلابة والقوة ، فمثلاً الماء له قوام معروف والدُّهْن له قوام ، واللحم له قوام ، والعصب والعظم وكل عناصر تكوين الإنسان ، والعَظْم هو أقوى هذه الأشياء ، والعَظْم في بناء الجسم البشري مثل (الشاسيه) في لغة العصر الحديث ، وعلى العظم يبنى جسم الإنسان من لحم ودم وعصب ، فإذا أصاب العظام وهي أقوى العناصر ضعفٌ ووهنٌ فغيرها من باب أَوْلى .

لذلك ، فإن الرجل العربي حينما شكا الجدب والقحط ماذا قال ؟ قال : مرَّتْ بنا سنون صعبة : فَسنة أذابتْ الشحم أي : بعد الجوع وعدم الطعام وسنة أذهبت اللحم أي : بعد أن أنهت الشحم وسنة محَّت العظم .

فكأن العَظْم هو آخر مخزن من مخازن القوت في جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام

والشراب . والعظم في هذه الحالة يُوجِّه غذاءه للمخ خاصة ؛ لأنه ما دام في المخ بقية قبول حياة فما حدث للجسم من تلف قابل للإصلاح والعودة إلى طبيعته ، إذن : فسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة المخ .

لذلك نجد الأطباء في الحالات الحرجة يُركِّزون اهتمامهم على سلامة المخ ، ويرتبون عليه حياة الإنسان أو موته ، حتى إن توقف القلب فيمكنهم بالتدليك إعادته إلى حالته الطبيعية ، أما إنْ توقف المخ فهذا يعني الموت .

فكأن نبي الله زكريا عليه السلام يقول : يا رب ضعف عظمي ، ولم يَعُدْ لديَّ إلا المصدر الأخير لاستقباء الحياة .

(124/482)

ولما كان العظم شيئاً باطناً مدفوناً تحت الجلد ، فهو حيثية باطنة ، فأراد زكريا عليه السلام أنْ يأتيَ بحيثية أخرى ظاهرة بينة ، فأتى بأمر واضح : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [مريم : 4] فشبّه انتشار الشيب في رأْسه باشتعال النار ، فالشعر الأبيض الذي يعلوه واضح كالنار .

والمتأمل في هذا التشبيه يجد أن النار أيضاً تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو

طالما في الحطب الحيوية النباتية التي تمد النار ، فإذا ما انتهتْ هذه الحيوية النباتية في الحطب أخذت النار في التضاؤل ، حتى تصير جَذْوة لا لَهبَ لها ثم تنطفىء .

واشتعال الرأس بالشيب أيضاً دليل على ضعف الجسم ووَهَن قُوته ؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة مُلوّنة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد في بُصَيْلة الشعرة ، وتُمد الشعرة بهذا اللون ، وضعْفُ الجسم يُضعِف هذه المادة تدريجياً ، حتى تختفي ، وبالتالي تخرج الشعرة بيضاء ، والبياض ليس لوناً ، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضَعْف الجسم وضَعْف الغُدَد التي تفرز هذا اللون .

لذلك ، نجد المترفين الذين يعنون كثيراً بشعرهم ويضعُون عليه المواد المختلفة أول ما يظهر الشيب عندهم تبيض سوالفهم ؛ لأن السوالف عادة بعد أنْ يُهذّبها الحلاق تأخذ أكبر قدر من المواد الكاوية التي تؤثر على بُصيْلات الشعر وعلى هذه المادة الملونة ، والشعرة مثل الأنبوبة يسهل توصيل هذه المواد منها خاصة بعد الحلاقة مباشرة وما تزال الشعرة مفتوحة .

(125/482)

ثم يقول : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ [مريم : 4] أي : لم أكُنْ فيما مضى بسبب دعائي لك شقياً ؛ لأني مُستجَابُ الدعوة عندك ، فكما أكرمتني سابقاً بالإجابة فلم أكُنْ شقياً بدعائك ، بل كنتُ سعيداً بالإجابة ، فلا تُخلِف عادتك معي هذه المرة ، واجعلني سعيداً بأنْ تُجيبني ، خاصة وأن طلبي منك طاعة لك ، فأنا لا أريد أنْ أخرج من الدنيا إلاَّ وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج ، ويقوم بهذه المهمة من بعدي .

وأنت قد تدعو الله لأمر تحبه ، فإذا لم يأْتِ ما تحبه ولم تحب حزنت وكأنك شقيت بدعائك ، وقد يكون شقاءَ كذب ، لأنك لا تدري الحكمة من المنع وعدم الإجابة ، لا تدري أن الله تعالى يتحكم في تصرفاتك .

وربما دعوْت بأمر تراه الخير من وجهة نظرك وفي علم الله أنه لا خَيْرَ لك فيه ، فمنعه عنك وعدّل لك ما أخطأتَ فيه من تقدير الخير ، فأعطاك ربك من حيث ترى أنه منعك ، وأحسن إليك من حيث ترى أنه حرمك ، لأنك طلبتَ الخير من حيث تعلم أنت أنه خير ومنع الله من حيث يعلم أن الخير ليس في ذلك .

ثم يذكر زكريا عليه السلام عِلَّة أخرى هي علة العِلَل ولُبّ هذه المسألة ، فيقول : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالي ﴾

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5)

(المَوَالِي) من الولاء ، وهم أقاربه من أبناء عمومته ، فهم الجيل الثاني الذي سيأتي بعده ،

ويخاف أنْ يحملوا المنهج ودين الله من بعده ؛ لأنه رأى من سلوكياتهم في الحياة عدم أهليتهم لحمْل هذه المهمة .

﴿ مِن وَرَآئِي ﴾ [مريم : 5] سبق أن أوضحنا في سورة (الكهف) أن كلمة وراء تأتي بمعنى : خلف ، أو أمام ، أو بعد ، أو غير . وهنا جاءت بمعنى : من بعدي .

(126/482)

ثم يقول : ﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً ﴾ [مريم : 5] والعاقر هي التي لا تلد بطبيعتها بداية ، أو صارت عاقراً بسبب بلوغها سِنَّ اليأس مثلاً . ونحن نعلم أن التكاثر والإنجاب في الجنس البشري ينشأ من رجل وامرأة ، وقد سبق أنْ وصفَ زكريا حاله من الضعف والكبر ، ثم يخبر عن زوجته بأنها عاقرٌ لا تلد ، إذن : فأسباب الإنجاب جميعها مُعطَّلة .

وقوله : ﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً ﴾ [مريم : 5] أي : هي بطبيعتها عاقر ، وهذا أمر مصاحب لها ليس طارئاً عليها ، فلم يسبق لها الإنجاب قبل ذلك .

ثم يقول : ﴿ فَهَبْ لِي ﴾ [مريم : 5] والهِبَة هي العطاء بلا مقابل ، فالأسباب هنا مُعطَّلة ، والمقدمات تقول : لا يوجد إنجاب ؛ لذلك لم يقُلْ مثلاً : أعطني ؛ لأن العطاء قد يكون عن مقابل ، أما في هذه الحالة فالعطاء بلا مقابل وبلا مقدمات ، فكأنه قال : يا رب إنْ

كنتَ ستعطيني الولد فهو هِبَة منك لا أملك أسبابها ؛ لذلك قال في آية أخرى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم : 39] .

ولنا وَقْفة ومَلْحظ في قوله تعالى ﴿ عَلَى الكبر ﴾ [إبراهيم : 39] حيث قال المفسرون : (على) هنا بمعنى (مع) و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان ، فلماذا عدل الحق تبارك وتعالى عن الخفيف إلى الثقيل ؟ لا بد أن وراء هذه اللفظ إضافةً جديدة ، وهي أن (مع) تفيد المعية فقط ، أما (على) فتفيد المعية والاستعلاء ، فكأنه قال : إن الكِبَر يا رب يقتضي ألاَّ يوجد الولد ، لكن طلاقة قدرتك أعلى من الكِبَر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : 6] كأن الظلم يقتضي أن يُعاقبوا ، لكن رحمة الله بهم ومغفرته لهم عَلَتْ على استحقاق العقاب .

(127/482)

وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْكَ ﴾ [مريم : 5] أي : من عندك أنت لا بالأسباب (وَلِياً) أي : ولداً صالحاً يليني في حَمْل أمانة تبليغ منهجك إلى الناس لِتسْلَم لهم حركة الحياة .

ثم يقول : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾

سبق أن أوضحنا أن الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم ، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوة والمُلْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، ونلحظ أنه لم يكتَفِ بقوله (يَرِثُنِي) بل قال : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : 6] فلستُ أنا القمة في الطاعة في آل يعقوب ، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم .

وقوله : ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ [مريم : 6] أي : مرضياً عنه منك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(128/482)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

قوله : ﴿ ذِكْرُ ﴾ : فيه ثلاثة أوجهٍ . أحدُها : أنه مبتدأٌ محذوفُ الخبر ، تقديرُه : فيما يُتْلَى عليكم ذِكْرُ . الثاني : أنه خبرٌ محذوفُ المبتدأ ، تقديرُه : المَتْلُوُّ ذِكْرُ ، أو هذا ذِكْرُ .

الثالث : أنه خبرُ الحروفِ المتقطعةِ ، وهو قولُ يحيى بن زياد . قال أبو البقاء : " وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الخبرَ هو المبتدأُ في المعنى ، وليس في الحروفِ المقطَّعةِ ذِكْرُ الرحمةِ ، ولا في ذكرِ الرحمة معناها " .

والعامَّةُ على تسكينِ أواخرِ هذه الأحرفِ المقطَّعةِ ، وكذلك كان بعضُ القُرّاءِ يقفُ على كلِّ حرفٍ منها وَقْفَةً يسيرةً مبالغةً في تمييزِ بعضِها مِنْ بعضٍ .

وقرأ الحسنُ "كافُ" بالضم ، كأنه جَعَلها معربةً ، ومَنَعها من الصَّرْف للعَلَميَّةِ والتأنيث .

وللقُرَّاء خلافٌ في إمالة "يا" و "ها" وتفخيمِهما . وبعضُهم يُعَبِّر عن التفخيم بالضمِّ ، كما يُعَبِّر عن الإمالةِ بالكسرِ ، وإنما ذكَرْتُه لأنَّ عبارتَهم في ذلك مُوْهِمَةٌ .

وأظهر دالَ صاد قبل ذال " ذَكْرُ " نافعٌ وابنُ كثير وعاصم لأنه الأصل ، وأدغمها فيها الباقون .

والمشهورُ إخفاءُ نونِ " عَيْن " قبل الصاد ؛ لأنها تُقاربها ، ويشتركان في الفم ، وبعضُهم يُظْهِرُها لأنها حروف مقطعة يُقْصَدُ تمييزُ بعضِها [من بعض] .

و " ذِكْرُ " مصدرٌ مضافٌ . قيل : إلى مفعولِه وهو الرحمةُ ، والرحمةُ في نفسها مصدرٌ أيضاً مضافٌ إلى فاعِله ، و " عبدَه " مفعولٌ به . والناصبُ له نفسُ الرحمةِ ، ويكونُ فاعلُ الذِّكْرِ غيرَ مذكورٍ لفظاً ، والتقدير : أَنْ ذَكَرَ اللهُ رحمتَه عبدَه . وقيل : بل " ذِكْرُ " مضافٌ إلى

فاعِله على الاتّساعِ ويكون " عبدَه " منصوباً بنفسِ الذِّكْر ، والتقديرُ : أَنْ ذَكَرَتِ الرحمةُ عبدَه ، فَجَعَلَ الرحمةَ ذاكرةً له مجازاً .

(129/482)

و " زكريَّا " بدلٌ أو عطفُ بيانٍ ، أو مصنوبٌ بإضمار " أَعْني " .

وقرأ يحيى بن يعمر – ونقلها الزمخشريُّ عن الحسنِ – " ذَكَّرَ " فعلاً ماضياً مشدّدا ، و " رحمةَ " بالنصبِ على أنها مفعولٌ ثانٍ قُدِّمَتْ على الأول ، وهو " عبدَه " والفاعلُ : إمَّا ضميرُ القرآنِ ، أو ضميرُ الباري تعالى . والتقدير : أَنْ ذَكَّر القرآنُ المتلوُّ – أو ذَكَّر اللهُ – عَبْدَه رحمتَه ، أي : جَعَلَ العبدَ يَذْكُرُ رحمتَه . ويجوز على المجازِ المتقدّمِ أن تكون " رحمةَ ربك " هو المفعولَ الأولَ ، والمعنى : أنَّ اللهَ جَعَلَ الرحمةَ ذاكرةً للعبدِ . وقيل : الأصلُ : ذَكَّرَ برحمةٍ ، فلمَّا انْتُزِعَ الجارُّ نُصِب مجرورُه ، ولا حاجةَ إليه .

وقرأ الكلبيُّ " ذَكَرَ " بالتخفيفِ ماضياً ، " رحمةَ " بالنصبِ على المفعول به ، " عبدُه " بالرفع فاعلاً بالفعلِ قبلَه ، " زكريَّا " بالرفعِ على البيانِ او البدلِ او على إضمارِ مبتدأ ، وهو نظيرُ إضمار الناصب في القراءة الأولى .

وقرأ يحيى بن يعمر – فيما نقله عنه الدانيُّ – " ذَكَّرْ " فعلَ أمرٍ ، " رحمةَ " و " عبدةَ "

بالنصب فيهما على أنهما مفعولان ، وهما على ما تقدَّم مِنْ كونِ كلِّ واحدٍ يجوز أَنْ يكونَ المفعولَ الأولَ أو الثاني ، بالتأويلِ المتقدّمِ في جَعْلِ الرحمة ذاكرةً مجازاً .

قوله : ﴿ إذْ نادى ﴾ : في ناصبه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّه " ذِكْرُ " ولم يذكر الحوفيُّ غيرَه . والثاني : أنَّه " رحمة " ، وقد ذكر الوجهين أبو البقاء . والثالث : أنَّه بدلٌ مِنْ " زكريَّا " بدلُ اشتمالٍ لأنَّ الوقتَ مُشْتملٌ عليه وسيأتي مِثْلُ هذا عند قوله ﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ ﴾ [مريم : 16] ونحوه .

قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ : لا مَحَلَّ لهذهِ الجملةِ لأنها تفسيرٌ لقولِه " نادى ربَّه " وبيانٌ ، ولذلك تُرِكَ العاطفُ بينهما لشدَّةِ الوَصْلِ .

(130/482)

قوله : " وَهَنَ " العامَّةُ على فتحِ الهاء . وقرأ الأعمشُ بكسرِها . وقُرِئ بضمِّها ، وهذه لغاتٌ في هذه اللفظةِ . ووَحَّد العظمَ لإرادةِ الجنسِ ، يعني أنَّ هذا الجنسَ الذي هو عَمُوْدُ البدنِ ، وأشدُّ ما فيه وأَصْلَبُه ، قد أصابه الوَهْنُ ، ولو جُمع لكان قصداً أخرَ : وهو أنه لم يَهِنْ منه بعضُ عظامه ولكن كلُّها ، قاله الزمخشري : وقيل : أُطْلِقَ المفردُ ، والمرادُ به الجمعُ كقولِه :

3208- بها جِيَفُ الحَسْرى فأمَّا عِظامُها . . . فبِيضٌ وأمَّا جِلْدُها فَصَلِيْبُ

أي : جلودُها ، ومثلُه :

3209- كُلوا في بعضِ بطنِكُم تَعِفُّوا . . . فإنَّ زمانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ

أي : بطونكم .

و" مَنَّي " حالٌ من " العَظْمِ " . وفيه رَدٌّ على مَنْ يقول : إن الألفَ واللامَ تكونُ عِوَضاً من الضميرِ المضافِ إليه ؛ لأنه قد جُمع بينهما هنا وإن كان الأصلُ : وَهَنَ عَظْمِي . ومثلُه في الدَّلالةِ على ذلك ما أنشدوه شاهداً على ما ذَكَرْتُ :

3210- رَحِيبٌ قِطابُ الجَيْبِ منها رَفِيقَةٌ . . . بجَسِّ النَّدامى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

قوله : " شَيْباً " في نصبه ثلاثةُ أوجهٍ ، احدُها : - وهو المشهورُ - أنه تمييزٌ منقولٌ من الفاعلية ؛ إذ الأصلُ : اشتعلَ شيبُ الرأسِ . قال الزمخشري : " شبَّه الشيبَ بشُواظٍ في بياضِه وانتشارِه في الشعر وفُشُوِّه فيه ، وأَخْذِه منه كلَّ مَأْخَذٍ باشتعال النار ، ثم أخرجه مُخْرَجَ الاستعارةِ ، ثم أَسْنَدَ الاشتعالَ إلى مكانِ الشَّعْرِ ومَنْبَتِه وهو الرأسُ ، وأخرج الشَّيْبَ مميَزاً ، ولم يُضِفِ الرأسَ اكتفاءً بعِلْمِ المخاطب أنه رأسُ زكريا ، فمِنْ ثَمَّ / فَصُحَتْ هذه الجملةُ وشُهِد لها بالبلاغةِ " . انتهى . وهذا مِنْ استعارةِ محسوسٍ لمحسوسٍ ، ووجهُ الجمع : الانبساطُ والانتشارُ .

والثاني : أنه مصدرٌ على غيرِ الصَّدْرِ ، فإنَّ معنى " اشتعلَ الرأسُ " شابَ .

الثالث : أنه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ ، اي : شائباً أو ذا شيبٍ .

قوله : " بدُعائِك " فيه وجهان ، أظهرُهما : أنَّ المصدرَ مضافٌ لمفعولِه ، أي : بدعائي إياك . والثاني : أنه مضافٌ لفاعِله ، أي : لم أكُنْ بدعائِك لي إلى الإيمانِ شَقِيًّا .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) ﴾

قوله : ﴿ خِفْتُ الموالي ﴾ : العامَّةُ على " خَفْتُ " بكسر الحاء وسكونِ الفاء ، وهو ماضٍ مسندٌ لتاءِ المتكلم . و " المَوالي " مفعولٌ به بمعنى : أنَّ مَوالِيه كانوا شِرارَ بني إسرائيل ، فخافَهم على الدِّين . قاله الزمخشري .

قال أبو البقاء : " لا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ ، أي : عَدَمَ المَوالي أو جَوْرَ المَوالي " .

وقرأ الزُّهري كذلك ، إلا أنه سَكَّن ياءَ " المَوالِيْ " وقد تَقَدَّمَ أنَّه قد تُقُدِّرَ الفتحةُ في الياء والواو ، وعليه قراءةُ زيدِ بنِ عليّ ﴿ تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [المائدة : 89] . وتقدَّم إيضاحُ هذا .

وقرأ عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وابن عباس وسعيد بن جبير وسعيد بن العاص ويحيى بن يعمر وعلي بن الحسين في آخرين : " خَفَّتِ " بفتحِ الخاءِ والفاءِ مشددةً وتاءِ تأنيثٍ ،

كُسِرَتْ لالتقاءِ السَّاكنين . و " المَوالِيْ " فاعلٌ به ، بمعنى دَرَجُوا وانقرضُوا بالموت .

قوله : ﴿ مِن وَرَآئِي ﴾ هذا متعلّقٌ في قراءةِ الجُمهورِ بما تضمنَّه المَوالي مِنْ معنى الفِعْلِ ، أي : الذين يَلُوْن الأمرَ بعدي . ولا يتعلق ب " خَفْتُ " لفسادِ المعنى ، وهذا على أَنْ يُرادَ ب " ورائي " معنى خلفي وبعدي . وأمَّا في قراءةِ " خَفَّتْ " بالتشديد فيتعلَّق الظرفُ بنفسِ الفعل ، ويكونُ " ورائي " بمعنى قُدَّامي . والمرادُ : أنهم خفُّوا قدَّامَه ودَرَجُوا ، ولم يَبْقَ منهم مَنْ به تَقَوٍّ واعْتِضادٌ . ذكر هذين المعنيين الزمخشري .

(132/482)

والمَوالي : بنو العمِّ يدلُّ على ذلك تفسيرُ الشاعرِ لهم بذلك في قوله :

3211- مَهْلاً بني عَمِّنا مَهْلاً مَوالِيَنا . . . لا تَنْبُشوا بَيْنَنا ما كان مَدْفُوْنا

وقال آخر :

3212- ومَوْلًى قد دَفَعْتُ الضَّيْمَ عنهُ . . . وقد أَمْسَى بمنزلةِ المَضِيْمِ

والجمهورُ على " ورائي " بالمدِّ . وقرأ ابنُ كثير - في روايةٍ عنه - " وَرايَ " بالقصر ، ولا يَبْعُدُ ذلك عنه فإنه قَصَرَ " شُرَكاي " في النحل كما تقدَّم ، وسيأتي أنَّه قرأ ﴿ أَنْ رَاه اسْتَغْنى ﴾ في العَلَق ، كأنه كان يُؤْثِرُ القَصْرَ على المدِّ لخفَّتِهن ولكنه عند البصريين لا يجوزُ

سَعَةً .

و﴿ مِن لَّدُنْكَ ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " هَبْ " . ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أَنَّه حالٌ مِنْ " وَلِيّاً " لأنه في الأصل صفةٌ للنكرة فقُدِّمَ عليها .

قوله : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ : قرأ أبو عمرٍو والكسائي بجزمِ الفعلين على أَنَّهما جوابٌ للأمر إذ تقديرُه : إن يَهَبْ يَرِثْ . والباقون برفعهما على أَنَّهما صفةٌ ل " وليّاً " .

وقرأ عليٌّ أميرُ المؤمنين – رضي الله عنه – وابن عباس والحسن ويحيى بن يعمر والجحدري وقتادة في آخرين : "يَرِثُني " بياء الغيبة والرفع ، وأَرثُ " مُسْنداً لضمير المتكلم . قال صاحب " اللوامح " : في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ . والتقديرُ : يَرِثُ نبوَّتي إن مِتُّ قبلَه وأَرِثُه مالَه إنْ مات قبلي " . ونُقِل هذا عن الحسن .

وقرأ عليٌّ أيضاً وابن عباس والجحدري "يَرِثُني وارثٌ " جعلوه اسمَ فاعلٍ ، أي : يَرِثُني به وارِثٌ ، ويُسَمى هذا " التجريدَ " في علم البيان .

(133/482)

وقرأ مجاهد " أُوَيْرِثٌ " وهو تصغيرُ " وارِث " ، والأصل وُوَيْرِث بواوين . وَجَبَ قَلْبُ أولاهما همزةً لاجتماعهما متحركتين أول كلمةٍ ، ونحو " أُوَيْصِل " تصغيرَ " واصل " . والواو

الثانية بدلٌ عن ألفِ فاعِل . وأُوَيْرِث مصروفٌ . لا يُقال : ينبغي أن يكونَ غيرَ مصروفٍ لأنَّ فيه علتين الوصفيةَ ووزنَ الفعل ، فإنه بزنة أُبَيْطِر مضارع بَيْطَر ، وهذا مِمَّا يكون الاسم فيه منصرفاً في التكبير ممتنعاً في التصغير . لا يُقال ذلك لأنه غَلَطٌ بَيِّنٌ ؛ لأنَّ " أُوَيْرِثاً " وزنُه فُوَيْعِل لا أُفَيْعِل بخلافِ " أُحَيْمِر " تصعير " أَحْمَر " .

وقرأ الزُّهْري " وارِث " بكسرِ الواو ، ويَعْنون بها الإِمالةَ .

قوله : " رَضِيًّا " مفعولٌ ثانٍ ، وهو فَعِيْل بمعنى فاعِل ، وأصلُه رَضِيْوٌ لأنه مِنَ الرِّضْوان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 561.569﴾

(134/482)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله ، اسم عزيز من عبده واصل جهاده ، ومن طلبه ودع وساده ، ومن عرفه أنكر أحبابه ، ومن يسر له أوقفه على محبته .

من ذكره نسي اسمه ، ومن شهده فقد عقله ولبه .

اسم عزيز جبلت القلوب على محبته ، وكل قلب ليس يوقفه على محبته ، فليس بحيلة يصل

.

اسم ما اتصفت أشباح الأبرار إلا بعبادته ، وما اعتكفت أرواح الأحرار إلا بمشاهدته .

اسم عزيز من عرفه اعترف أنه وراء ما وصفه .

تعريفٌ للأحباب بأسرار معاني الخطاب ، حروف خَصَّ الحقُّ المخَاطبَ بها بفهم معانيها ، وإذا كان للأخيار سماعُها وذِكْرُها ، فللرسولِ – عليه السلام – فَهْمُها وسِرُّها .

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام ، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْم .

ويقال في الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه ، وتخويفٌ بخِفّي مَكْرِه في بلائه .

ويقال في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نَفْسِه قبل كتابة الملائكة الزَّلَّةَ على عباده .

والهاءُ تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه ، وما له ن الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يُسْرِ نعَمِه بعد عُسْرِ مِحَنِه . وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده .

والعين تشير إلى عِلْمِه بأحوالِ عَبْدِهِ في سِرَّه وجَهْرِه ، وقُلِّه وكُثْرِه ، وحالِه ومآلِه ، وقدْرِ طاقته وحق فاقته .

وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

تخصيصه إياه بإجابته في سؤال وَلَدِه ، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القربة له ولجميع أهله .

(135/482)

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) ﴾

وإنما ذلك لئلا يَطَّلِع أحدٌ عبى سِرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامي عن شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسُّوء في نفسه ، ثم أخفى سِرَّهُ عن الخَلْق لئلا يقعَ لأحدٍ إشرافٌ على حاله ، ولئلا يَشْمَتَ بمقالته أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ .

أي لَقِيتُ بضعفي عن خدمتك ما لا أحِبُّه ؛ فطعنتُ في السنِّ ، ولا قوةَ بعد المشيب ؛ فهَبْ لي ولداً ينوب عني في عبادتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ .

أي إني أسألك واثقاً بإجابتك ؛ لعلمي بأني لا أشْقَى بدعائِك فإنَّك تحِبُّ أن تُسأل .

ويقال إنك عوَّدتني إجابة الدعاء ، ولم تُرُدَّني في سالف أيامي إذا دعوْتُك .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) ﴾

إني خِفْتُ أَنْ تذهبَ النبوة من أهل بيتي ، وتنتقل إلى بني أعمامي فهبْ لي وَلَداً يعبدك ، ويكون من نَسلِي ومن أهلي .

وهو لم يرِدْ الولدَ بشهوةِ الدنيا وأَخْذِ الحظوظِ منها ، وإنما طلبَ الولدَ ليقومَ بحقِّ الله ، وفي قوله : ﴿ يَرِثُنِى ﴾ دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده ؛ فقال : ولداً يكون وارثاً لي ؛ أي يبقى بَعْدِي ، ويرث من آل يعقوب النبوةَ وتبليغ الرسالة .

واجعله ربِّ رضياً : رَضِي فعيل بمعنى مفعول أي ترضى عنه فيكون مَرْضِيَّاً لك . ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أي راضياً منك ، وراضياً بتقديرك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 418.420 ﴾

(136/482)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب تأويل الحروف التي ادّعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم

من ذلك (الحروف المقطّعة) .

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطّعة :

فكان بعضهم يجعلها أسماء للسور ، تعرف كل سورة بما افتتحت به منها .

وكان بعضهم يجعلها أقساما .

وكان (بعضهم) يجعلها حروفا مأخوذة من صفات اللّه تعالى ، يجتمع بها في المفتتح الواحد صفات كثيرة ، كقول ابن عباس : في كهيعص (1) [مريم : 1] : إنّ (الكاف) من كاف ، و(الهاء) من هاد ، و(الياء) من حكيم ، و(العين) من عليم ، و(الصاد) من صادق .

وقال الكلبيّ "1" هو : كتاب كاف ، هاد ، حكيم ، عالم ، صادق .

ولكل مذهب من هذه المذاهب وجه حسن ، ونرجو ألا يكون ما أريد بالحروف خارجا منها ، إن شاء اللّه .

فإن كانت أسماء للسور ، فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها . فإذا قال القائل : قرأت المص أو قرأت ص أو ن – دلّ بذاك على ما قرأ ، كما تقول : لقيت محمدا وكلمت عبد اللّه ، فهي تدل بالاسمين على

---

(1) هناك اثنان يلقبان بالكلبي (أو ابن الكلبي) وهما : محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث ، أبو النصر الكوفي النسابة المعروف بابن الكلبي ، منسوب إلى كلب بن وبرة ،

وهي قبيلة كبيرة من قضاعة ، المتوفى بالكوفة سنة 146 ، له "تفسير القرآن" ، (كشف الظنون 6/ 7) .

وابنه أبو المنذر هشام بن أبي النصر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو النسابة الكوفي ، المعروف بابن الكلبي المتوفى سنة 204 ه ، له العشرات من المصنفات ، منها : "آباء النبي صلّى اللّه عليه وسلم" ، "أسواق العرب" ، "الديباج في أخبار الشعراء" ، "لغات العرب" ، "النسب الكبير" يحتوي كتاب الأنساب ، "كتاب التاريخ" ، "كتاب المنافرات" وغيرها الكثير (كشف الظنون 6/ 508 - 509) .

(137/482)

العينين ، وإن كان قد يقع بعضها مثل "حم" و"الم" لعدة سور - فإنّ الفصل قد يقع بأن تقول : حم السّجدة ، والم البقرة ، كما يقع الوفاق في الأسماء ، فتدل بالإضافات وأسماء الآباء والكنى .

وإن كانت أقساما ، فيجوز أن يكون اللّه ، عز وجل ، أقسم بالحروف المقطّعة كلّها ، واقتصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها ، فقال : "الم" وهو يريد جميع الحروف المقطعة ، كما يقول القائل : تعلمت "ا ب ت ث" وهو لا يريد تعلم هذه الأربعة الأحرف دون غيرها

من الثمانية والعشرين ، ولكنّه لما طال أن يذكرها كلّها ، اجتزأ بذكر بعضها . ولو قال : تعلمت "حاء طاء صاد" لدلّ أيضا على حروف المعجم ، كما دلّ بالقول الأول ، إلا أن الناس يدلون بأوائل الأشياء عليها فيقولون : قرأت "الحمد للّه" يريدون فاتحة الكتاب فيسمونها بأول حرف منها . هذا الأكثر ، وربما دلّو بغير الأول أيضا ، أنشدّ الفرّاء "1" :

لما رأيت أنّها في حطّي أخذت منها بقرون شمط

يريد (في أبي جاد) فدلّ بحطّي كما دلّ غيره بأبي جاد .

وإنما أقسم اللّه بحروف المعجم ، لشرفها وفضلها ، ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة ، ومباني أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وأصول كلام الأمم ، بها يتعارفون ، ويذكرون اللّه ويوحّدون .

وقد أقسم اللّه في كتابه بالفجر ، والطّور ، وبالعصر ، وبالتّين ، والزّيتون – وهما جبلان ينبتان التين والزيتون ، يقال لأحدهما : طور زيتا وللآخر : طور تينا ، بالسّريانية ، من الأرض المقدسة ، فسماها بما ينبتان – وأقسم بالقلم ، إعظاما لما يسطرون .

ووقع القسم بها في أكثر السور على القرآن فقال : الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ [البقرة : 1 ، 2] ، كأنه قال : وحروف المعجم ، لهو الكتاب لا ريب فيه .

والم (1) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [آل عمران : 1 ، 2] ، أي وحروف المعجم لهو اللّه لا إله إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ [آل عمران : 2 ، 3] .

والمص (1) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ [الأعراف : 1 ، 2] ، أي وحروف المعجم ، لهو

---

(1) الرجز لأبي القمقام الأسدي في معاني القرآن للفراء 1/ 369 ، وتهذيب الألفاظ ص 447 ، وبلا نسبة في لسان العرب (فنك) ، وتهذيب اللغة 10/ 281 ، وأساس البلاغة (فنك) ، وتاج العروس (فنك) ، وأمالي القالي 2/ 200 ، ومجمع البيان 1/ 33 ، وتفسير الطبري 1/ 68 .

(138/482)

كتاب أنزل إليك فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ [الأعراف : 2] ، ويس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) [يس : 1 ، 2] .

وص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) [ص : 1] ، وق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) [ق : 1] ، كله أقسام .

وإن كان حروفا مأخوذة من صفات اللّه ، فهذا فنّ من اختصار العرب ، وقلّما تفعل العرب شيئا في الكلام المتصل الكثير إلا فعلت مثله في الحرف الواحد المنقطع .

فكما يستعيرون الكلمة فيضعونها مكان الكلمة لتقارب ما بينهما ، أو لأنّ إحداهما سبب للأخرى ، فيقولون للمطر : سماء ، لأنه من السماء ينزل ويقولون للنبات : ندى ، لأنه بالندى ينبت ، ويقولون : ما به طرق ، أي ما به قوّة ، وأصل الطّرق : الشحم ، فيستعيرونه مكان

القوّة ، لأنّ القوّة تكون عنه .

كذلك يستعيرون الحرف في الكلمة مكان الحرف فيقولون : "مدهته" بمعنى :

(مدحته) ، لأن (الحاء) و(الهاء) يخرجان جميعا من مخرج واحد .

ويقولون للقبر : جدث وجدف ، ويقولون : ثوم وفوم ومغاثير ومغافير لقرب مخرج (الفاء) من

(التاء) .

ويقولون : هرقت الماء وأرقته ، ولصق ولسق ، وسحقت الزعفران وسهكته ، وغمار

الناس وخمارهم .

في أشباه لهذا كثيرة يبدلون فيها الحرف من الحرف ، لتقارب ما بينهما .

وكما يقلبون الكلام ويقدّمون ما سبيله أن يؤخّر ، ويؤخرون ما سبيله أن يقدّم ، فيقولون"

:

كان الزناء فريضة الرجم أي كان الرجم فريضة الزّنى .

---

(1) يروى البيت بتمامه :

كانت فريضة ما تقول كما أنّ الزناء فريضة الرجم

والبيت من الكامل ، وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص 35 ، ولسان العرب (زنى) ، وبلا

نسبة في أمالي المرتضى 1/ 216 ، والإنصاف 1/ 373 ، والأضداد للسجستاني ص

152 ، وتفسير البحر المحيط 6/ 33 ، ومجمع البيان 1/ 155 .

ويقولون "1" :

كأنّ لون أرضه سماؤه يريدون : كأن لون سمائه من غبرتها لون أرضه .

ويقولون : اعرض الناقة على الحوض ، يريدون اعرض الحوض على الناقة .

وكذلك يقدمون الحرف في الكلمة وسبيله التأخير ، ويؤخرون الحرف وسبيله التقديم ، فيقولون : جذب وجبذ ، وبئر عميقة ومعيقة ، وأحجمت عن الأمر وأجحمت ، وبتلت الشيء ، أي قطعته وبلّته ، وما أطيبه وما أيطبه . ورجل أغرل وأرغل ، وأعتقاه الأمر واعتقاء ، واعتام واعتمى ، في أشباه لهذا كثيرة .

وكما يزيدون في الكلام الكلمة والمعنى طرحها ، كقول الشاعر "2" :

فما ألوم البيض ألا تسخرا يريد : أن تسخر .

ويزيدون إذ ، واللام ، والكاف ، والباء ، وأشباه لهذا مما ذكرناه في باب المجاز – كذلك يزيدون في الكلمة الحرف ، كما قال المفضّل العبدي "3" :

وبعضهم على بعض حنيق أي حنق .

---

(1) قبله : وبلد مغبرّة أرجاؤه والرجز لرؤبة في ديوانه ص 3 ، والأشباه والنظائر 2/

296 ، وخزانة الأدب 6/ 458 ، وشرح التصريح 2/ 339 ، وشرح شواهد المغني 2/ 971 ، ولسان العرب (عمى) ، ومعاهد التنصيص 1/ 178 ، ومغني اللبيب 2/ 695 ، والمقاصد النحوية 4/ 557 ، وتاج العروس (كبد) ، (عمى) ، وبلا نسبة في أمالي المرتضى 1/ 216 ، والإنصاف 1/ 377 ، وأوضح المسالك 4/ 342 ، وجواهر الأدب ص 164 ، وسر صناعة الإعراب 2/ 636 ، 637 ، وشرح شذور الذهب ص 414 ، وشرح المفصل 2/ 118 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 202 .

(2) يليه : لما رأين الشمط القفندرا والرجز لأبي النجم في تاج العروس (قفدر) ، والخصائص 2/ 283 ، وبلا نسبة في لسان العرب (قفندر) ، وجمهرة اللغة ص 1147 ، 1185 ، والمخصص 2/ 175 ، والأزهية ص 154 ، والجنى الداني ص 303 ، والمحتسب 1/ 181 ، والمقتضب 1/ 47 .

(3) صدر البيت : تلاقينا بغينة ذي طريف والبيت من الوافر ، وهو للمفضل النكري في لسان العرب (حنق) ، والأصمعيات ص 200 ، وبلا نسبة في لسان العرب (حنق) ، (سخن) ، وجمهرة اللغة ص 561 ، 1081 ، والمخصص 13/ 126 .

وقال الآخر "1" :

أقول إذ خرّت على الكلكل أراد : الكلكل .

وأنشد الفرّاء "2" :

إنّ شكلي وإنّ شكلك شتّى فالزمي الخصّ واخفضي تبيضضّى

فزاد ضادا ، في أشباه لهذا كثيرة .

وكما يحذفون من الكلام البعض إذا كان فيما أبقوا دليل على ما ألقوا فيقولون :

واللّه أفعل ذاك ، يريدون : لا أفعل . ويقولون : أتانا فلان عند مغيب الشمس ، أو حين .

أي حين كادت تغيب .

وقال ذو الرّمة يذكر حميرا "3" :

فلمّا لبسن الليل أو حين نصّبت له من خذا آذانها وهو جانح

أراد : وحين أقبل الليل .

وقال اللّه تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى [الرعد : 31] ، أراد لكان هذا القرآن ، فحذف .

وكذلك يحذفون من الكلمة الحرف والشّطر والأكثر ، ويبقون البعض والشطر والحرف ،

يوحون به ويومئون . يقولون : "لم يك" ، فيحذفون النون مع حذفهم الواو لاجتماع الساكنين .

ويقولون : "لم أبل" يريدون : لم أبال . ويقولون : ولاك افعل كذا ، يريدون : ولكن ، قال

الشاعر "4" :

---

(1) يليه : يا ناقتا ما جلت من مجال والرجز بلا نسبة في الإنصاف ص 25 ، والجنى الداني ص 178 ، ورصف المباني ص 12 ، وشرح الأشموني 2/ 485 ، ولسان العرب (كلل) ، والمحتسب 1/ 166 ، وتهذيب اللغة 15/ 665 ، وجمهرة اللغة ص 222 ، وتاج العروس (كلل) ، (باب الألف اللينة) وتفسير الطبري 1/ 70 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 193 ، والموشح ص 94 ، وتفسير البحر المحيط 3/ 150 .

(2) البيت من الخفيف ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (جدب) ، (بيض) ، (خفض) ، (حوا) ، وديوان الأدب 2/ 166 ، وتاج العروس (بيض) ، وتفسير الطبري 1/ 70 ، وأمالي ابن الشجري 17/ 190 .

(3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 897 ، وأدب الكاتب ص 214 ، والخصائص 2/ 365 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 582 .

(4) صدر البيت : فلست بآتيه ولا أستطيعه

ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل ويحذفون في الترخيم ، فيقولون : يا صاح ، يريدون : يا صاحب ، ويا حار ، يريدون : يا حارث .

وقرأ بعض المتقدمين : وَنَادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ [الزخرف : 77] ، أي يا مالك .

وقال اللّه تعالى : أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ [النمل : 25] ، أي ألا يا هؤلاء اسجدوا للّه .

ويقولون : عم صباحا ، أي أنعم .

وقال الفرّاء في قولهم : سترى : إنما أرادوا : سوف ترى ، فحذفوا الواو والفاء .

وكذلك أمثالها .

كقولك : سيكون كذا ، وسيفعل كذا ، تأويلها عنده : سوف يكون ، وسوف يفعل .

وفي قوله : بينا ، إنما هو بينما .

وقال في الآن : إنما هو أصله الأوان ، كما قالوا : الراح والرّياح للخمر ، قال لبيد "1" :

درس المنا بمتالع فأبان أراد : المنازل ، فقطع .

والبيت من الطويل ، وهو للنجاشي الحارثي في ديوانه ص 111 ، والأزهية ص 296 ، وخزانة الأدب 10/ 418 ، 419 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 195 ، وشرح التصريح 1/ 196 ، وشرح شواهد المغني 2/ 701 ، والكتاب 1/ 27 ، والمصنف 2/ 229 ، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر 2/ 133 ، 361 ، والإنصاف 2/ 684 ، وأوضح المسالك 1/ 671 ، وتخليص الشواهد ص 269 ، والجنى الداني ص 592 ،

وخزانة الأدب 5/ 265 ، ورصف المباني ص 277 ، 360 ، وسر صناعة الإعراب 2/ 440 ، وشرح الأشموني 1/ 136 ، وشرح المفصل 9/ 142 ، واللامات ص 159 ، ولسان العرب (لكن) ، ومغني اللبيب 1/ 291 ، وهمع الهوامع 2/ 156 ، وتاج العروس (لكن) . [. . . . .]

(1) عجز البيت :

فتقادمت بالحبس فالسوبان والبيت من الكامل ، وهو للبيد بن ربيعة في ديوانه ص 138 ، والدرر 6/ 208 ، وسمط اللآلي ص 13 ، وشرح التصريح 2/ 180 ، وشرح شواهد الشافية ص 397 ، ولسان العرب (تلع) ، (أبن) ، والمقاصد النحوية 4/ 246 ، وتاج العروس (تلع) ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 4/ 44 ، وشرح الأشموني 2/ 460 ، وهمع الهوامع 2/ 156 ، وكتاب العين 1/ 173 .

(142/482)

وقال الطّرمّاح يذكر بقرا "1" :

تتّقي الشّمس بمدريّة كالحماليج بأيدي التّلام

المدريّة : القرون هاهنا .

والحماليج : منافيخ الصّاغة شبّه قرونها بها إذا نفخ فيها .

والتّلام : أراد التّلاميذ ، يعني غلمان الصاغة فقطع .

وقال أبو دؤاد "2" :

فكأنّما تذكي سنابكها الحبا أراد الحباحب .

وقال الآخر "3" :

أناس ينال الماء قبل شفاههم لهم واردات الغرض شمّ الأرانب

أراد : الغرضوف .

وقال الآخر "4" :

---

(1) البيت من المديد ، وهو للطرماح في ديوانه ص 399 ، وتهذيب اللغة 14/ 295 ، ولسان العرب (تلم) ، والمعاني الكبير ص 764 ، 791 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 1/ 353 ، وجمهرة اللغة ص 410 ، وتاج العروس (تلم) .

(2) صدر البيت :

يذرين جندل جائر لجنوبها والبيت من الكامل ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (حبحب) ، وتاج العروس (حبب) ، والصاحبي في فقه اللغة ص 194 .

(3) يروى صدر البيت بلفظ :

كرام ينال الماء قبل شفاههم والبيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (غرض) ،

وأساس البلاغة (ورد) ، وتهذيب اللغة 8/ 7 ، وتاج العروس (غرض) .

ويروى البيت بلفظ :

كرام ينال الماء قبل شفاههم لهم عارضات الورد شمّ المناخر

والبيت بلا نسبة في لسان العرب (عرض) ، والمخصص 7/ 98 .

(4) الرجز لأبي النجم في جمهرة اللغة ص 407 ، ولسان العرب (عصب :) ، (لجج) ، (خلل) ، (فلن) ، والطرائف الأدبية ص 66 ، والمنصف 2/ 25 ، والممتع في التصريف 2/ 640 ، وخزانة الأدب 2/ 389 ، والدرر 3/ 37 ، وسمط اللآلي ص 257 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 439 ، وشرح التصريح

(143/482)

في لجّة أمسك فلانا عن فل أراد : عن فلان .

وقال الآخر "1" :

قواطنا مكّة من ورق الحمي أراد : الحمام .

وأنشد الفراء "2" :

قلت لها : قفي ، فقالت لي : قاف أراد فقالت : قد وقفت ، فأومأت بالقاف إلى معنى

الوقوف .

ولم نزل نسمع على ألسنة الناس : الألف : آلاء . اللّه ، والباء : بهاء اللّه ، والجيم : جمال اللّه ، والميم : مجد اللّه . فكأنّا إذا قلنا : (حم) دللنا بالحاء على حليم ، ودللنا بالميم على مجيد .

وهذا تمثيل أردت أن أريك به مكان الإمكان .

2/ 180 ، وشرح المفصل 5/ 119 ، وشرح شواهد المغني 1/ 450 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 228 ، والكتاب 2/ 248 ، 3/ 452 ، والمقاصد النحوية 4/ 228 ، وتهذيب اللغة 2/ 48 ، وتاج العروس (عصب) ، (فلن) ، ومقاييس اللغة 4/ 447 ، 5/ 202 ، ومجمل اللغة 4/ 61 ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 4/ 43 ، وشرح الأشموني 2/ 460 ، وشرح ابن عقيل ص 527 ، وشرح المفصل 1/ 48 ، والمقتضب 4/ 238 ، والمقرب 1/ 182 ، وهمع الهوامع 1/ 77 .

(1) قبله :

وربّ هذا البلد المحرّم والقاطنات البيت غير الرّيم

والرجز للعجاج في ديوانه 1/ 453 ، ولسان العرب (حمم) ، (قطن) ، (منى) ، وشرح ابن عقيل ص 425 ، والكتاب 1/ 26 ، 110 ، وما ينصرف وما لا ينصرف ص 51 ، والمحتسب 1/ 78 ، والمقاصد النحوية 3/ 554 ، 4/ 285 ، وتهذيب اللغة 15/

381 ، وتاج العروس (ألف) ، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر 1/ 294 ، والإنصاف 2/ 519 ، والخصائص 3/ 135 ، والدرر 6/ 244 ، ورصف المباني ص 178 ، وسر صناعة الإعراب 1/ 721 ، وشرح التصريح 2/ 189 ، وشرح الأشموني 2/ 343 ، 476 ، وشرح المفصل 6/ 75 ، وهمع الهوامع 1/ 181 ، 2/ 157 ، وتهذيب اللغة 4/ 16 ، ومقاييس اللغة 1/ 131 ، والمخصص 17/ 107 ، وكتاب العين 8/ 336 .

(2) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (وقف) ، وتهذيب اللغة 15/ 679 ، وتاج العروس (سين) ، والأغاني 5/ 181 ، وشرح شواهد الشافية ص 271 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 94 ، ومجمع البيان 1/ 34 ، وتفسير البحر المحيط 1/ 35 ، والعمدة 1/ 280 .

(144/482)

وعلى هذا سائر الحروف .

ومن ذهب إلى هذا المذهب فلا أراه أراد أيضا إلا القسم بصفات اللّه ، فجمع بالحروف المقطعة معاني كثيرة من صفاته ، لا إله إلا هو .

وروي أن بعض السلف وأحسبه عليا رحمة اللّه عليه ، قال : الرّحم هو من الرّحمن .

وقد كان (قوم من المفسرين) يفسرون بعض هذه الحروف فيقولون : (طه) يا رجل ، و(يس) يا إنسان ، و(نون) الدّواة .

وقال (آخر) : (الحوت) و(حم) : قضي واللّه ما هو كائن ، و(قاف) : جبل محيط بالأرض .

و(صاد) - بكسر الدال - من المصاداة وهي المعارضة .

وهذا ما لا نعرض فيه ، لأنا لا ندري كيف هو ولا من أي شيء أخذ خلا (صاد) وما ذهب إليه فيها .

في سورة سبأ

(145/482)

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ [سبأ : 20 ، 21] .

تأويله : أن إبليس لما سأل اللّه تبارك وتعالى النّظرة فأنظره قال : لأغوينّهم ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق اللّه ولأتّخذنّ منهم نصيبا

مفروضا وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقنا أنّ ما قدّره اللّه فيهم يتمّ ، وإنما قاله ظانا ، فلما اتبعوه وأطاعوه ، صدق ما ظنّه عليهم أي فيهم ، ثم قال اللّه : وما كان تسليطنا إيّاه إلا لنعلم من يؤمن ، أي المؤمنين من الشاكين .

وعلم اللّه تعالى نوعان :

أحدهما علم ما يكون من إيمان المؤمنين ، وكفر الكافرين ، وذنوب العاصين ، وطاعات المطيعين قبل أن تكون .

وهذا علم لا تجب به حجة ولا تقع عليه مثوبة ولا عقوبة .

والآخر : علم هذه الأمور ظاهرة موجودة فيحق القول ويقع بوقوعها الجزاء .

فأراد جل وعز : ما سلطناه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمنين ظاهرا موجودا ، وكفر الكافرين ظاهرا موجودا .

وكذلك قوله سبحانه : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) [آل عمران : 142] ، أي يعلم جهاده وصبره موجودا يجب له به الثواب .

وقوله سبحانه : قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (46) [سبأ : 46] .

تأويله أنّ المشركين قالوا : إن محمدا مجنون وساحر ، وأشباه هذا من خرصهم "1" ، فقال اللّه جل وعز لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم : قل لهم : اعتبروا أمري بواحدة ، وهي أن تنصحوا لأنفسكم ، ولا يميل بكم هوىّ عن حق ، فتقوموا للّه وفي ذاته ، مقاما يخلو فيه الرجل منكم بصاحبه فيقول له : هلمّ فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجل جنّة قط أو جربنا عليه كذبا ؟ فهذا موضع قيامهم مثنى .

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكّر وينظر ويعتبر . فهذا موضع قيامهم فرادى .

فإنّ في ذلك ما دلهم على أنه نذير .

وكل من تحير في أمر قد اشتبه عليه واستبهم ، أخرجه من الحيرة فيه : أن يسأل ويناظر ، ثم يفكّر ويعتبر .

في سورة الفرقان

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (46) [الفرقان : 45 ، 46] .

امتداد الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . كذلك قال المفسرون ، ويدلك عليه أيضا قوله في وصف الجنة : وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) [الواقعة : 30] أي لا شمس فيه ، كأنه ما بين هذين الوقتين .

وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً أي : مستقرا دائما حتى يكون كظل الجنة الذي لا تنسخه الشمس .

---

(1) خرص يخرص ، بالضم ، خرصا وتخرص : أي كذب ، ورجل خرّاص : كذّاب . ومنه قوله تعالى :

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ أي الكذابون الذين قالوا : محمد شاعر .

(147/482)

ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا يقول : لما طلعت الشمس دلت عليه وعلى معناه . وكلّ الأشياء تعرف بأضدادها ، فلولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة ، ولولا الحق ما عرف الباطل . وهكذا سائر الألوان والطّعوم ، قال اللّه عز وجل : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) [الذاريات : 49] يريد به ضدين : ذكرا وأنثى ، وأسود وأبيض ، وحلوا وحامضا ، وأشباه ذلك .

ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً يعني الظّل الممدود بعد غروب الشمس ، وذلك أنّ الشمس إذا غربت عاد الظل الممدود ، وذلك وقت قبضه .

وقوله : قَبْضاً يَسِيراً أي : خفيا ، لأن الظل بعد غروب الشمس لا يذهب كلّه دفعة واحدة ، ولا يقبل الظلام كلّه جملة ، وإنما يقبض اللّه جلّ وعز ذلك الظل قبضا خفيّا شيئا بعد

شيء ، ويعقب كلّ جزء منه يقبضه بجزء من سواد الليل حتى يذهب كلّه .

فدلّ اللّه عز وجل بهذا الوصف على قدرته ولطفه في معاقبته بين الشمس والظل والليل ، لمصالح عباده وبلاده .

وبعضهم يجعل قبض الظل عند نسخ الشمس إياه ، ويجعل قوله قَبْضاً يَسِيراً أي : سهلا خفيفا عليه .

وهو وجه ، غير أن التفسير الأول أجمع للمعاني وأشبه بما أراد .

في سورة يس

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) [يس : 38] .

قوله : تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها أي : إلى مستقر لها ، كما تقول : هو يجري لغايته وإلى غايته .

ومستقرّها : أقصى منازلها في الغروب ، وذلك لأنها لا تزال تتقدم في كل ليلة حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع ، فذلك مستقرها لأنها لا تجاوزه .

وقرأ بعض السلف : والشمس تجري لا مستقر لها والمعنى أنها لا تقف ، ولا تستقر ، ولكنها جارية أبدا .

وقوله : وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ يريد : أنه ينزل كل ليلة منزلا ، ومنازله ثمانية

وعشرون منزلا عندهم ، من أول الشهر إلى ثمان وعشرين ليلة منه ثم يستسرّ .

وهذه المنازل هي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنواء .

وأسماؤها عندهم الشّرطان والبطين ، والثّريّا ، والدّبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذّراع ، والنّثرة ، والطّرف ، والجبهة ، والزّبرة ، والصّرفة ، والعوّاء ، والسّماك ، والغفر ، والزّباني ، والإكليل ، والقلب ، والشّولة ، والنّعائم ، والبلدة ، وسعد الذّابح ، وسعد بلع ، وسعد السّعود ، وسعد الأخبية ، وفرغ الدّلو المقدّم ، وفرغ الدّلو المؤخّر ، والرّشا وهو الحوت .

وإذا صار القمر في آخر منازله دقّ حتى يعود كالعرجون القديم وهو العذق اليابس .

والعرجون إذا يبس دقّ واستقوس حتى صار كالقوس انحناء ، فشبّه القمر به ليلة ثمانية وعشرين .

ثم قال سبحانه : لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ يريد : أنهما يسيران الدّهر دائبين ولا يجتمعان ، فسلطان القمر بالليل ، وسلطان الشمس بالنهار ، ولو أدركت الشمس القمر لذهب ضوءه ، وبطل سلطانه ، ودخل النهار على الليل .

يقول اللّه جل وعز حين ذكر يوم القيامة : وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) [القيامة : 9] وذلك

عند إبطال هذا التدبير ، ونقض هذا التأليف .

وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ يقول : هما يتعاقبان ، ولا يسبق أحدهما الآخر : فيفوته ويذهب قبل مجيء صاحبه .

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أي : يجرون ، يعني الشمس والقمر والنجوم .

في سورة المرسلات

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (30) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (33) [المرسلات : 29 ، 33] .

(149/482)

هذا يقال في يوم القيامة للمكذبين ، وذلك أن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق ، وليس عليهم يومئذ لباس ، ولا لهم كنان ، فتلفحهم الشمس وتسفعهم وتأخذ بأنفاسهم ، ومدّ ذلك اليوم عليهم وكربه ، ثم ينجّي اللّه برحمته من يشاء إلى ظلّ من ظلّه ، فهناك يقولون : فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (27) [الطور : 27] ويقال للمكذبين

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) [المرسلات : 29] من عذاب اللّه سبحانه وعقابه ،

انطلقوا من ذلك إلى ظل من دخان نار جهنم قد سطع ثم افترق ثلاث فرق ، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب . فيكونون فيه إلى أن يفرغ من الحساب ، كما يكون أولياء اللّه في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل إلى أن يفرغ من الحساب ، ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقرّه من الجنة أو النار .

ثم وصف الظل فقال : لا ظَلِيلٍ أي : لا يظلّكم من حرّ هذا اليوم بل يدنيكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس ، ولا يغني عنكم من اللهب .

وهذا مثل قوله سبحانه : وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (44) [الواقعة : 43 ، 44] واليحموم : الدّخان وهو سرادق أهل النار فيما ذكر المفسرون .

ثم وصف النار فقال : إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ فمن قرأه بتسكين الصاد ، أراد القصر من قصور مياه الأعراب .

ومن قرأه القصر شبّهه بأعناق النخل ، ويقال : بأصوله إذا قطع .

ووقع تشبيه الشّرر بالقصر في مقاديره ، ثم شبّهه في لونه بالجمالات الصّفر وهي السود ، والعرب تسمى السّود من الإبل صفرا ، قال الشاعر "1" :

تلك خيلي منها وتلك ركابي هنّ صفر أولادها كالزّبيب

أي : هنّ سود .

وإنما سمّيت السّود من الإبل : صفرا ، لأنه يشوب سودها شيء من صفرة ، كما قيل لبيض

الظباء : أدم ، لأن بياضها تعلوه كدرة .

والشّرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار ، أشبه شيء بالإبل السّود ، لما يشوبها من الصفرة .

في سورة الأنعام

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) [الأنعام : 33] .

---

(1) البيت من الخفيف ، وهو للأعشى في ديوانه ص 385 ، ولسان العرب (خشب) ، (صفر) ، وتهذيب اللغة 12/ 170 ، وجمهرة اللغة ص 740 ، وتاج العروس (خشب) ، والخزانة 2/ 464 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 3/ 294 ، ومجمل اللغة 3/ 231 ، والمخصص 2/ 105 .

(150/482)

يريد : أنهم كانوا لا ينسبونك إلى الكذب ولا يعرفونك به ، فلما جئتهم بآيات اللّه ، جحدوها ، وهم يعلمون أنك صادق .

والجحد يكون ممن علم الشيء فأنكره ، بقول اللّه عز وجل : وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها

أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً [النمل : 14] .

في سورة النساء

وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (8) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (9) [النساء : 8 ، 9] .

فيه قولان :

أحدهما أن تكون القسمة : الوصية . يقول : إذا حضرها أقرباؤكم الذين لا يرثونكم ، والمساكين ، واليتامى - فاجعلوا لهم فيها حظا ، وألينوا لهم القول . وليخش من حضر الوصية ، وهو لو كان له ولد صغار خاف عليهم بعده الضّيعة - أن يأمر الموصي بالإسراف فيما يعطيه اليتامى والمساكين وأقاربه الذين لا يرثون فيكون قد أمره بما لم يكن يفعله لو كان هو الميت . وهو معنى قول سعيد بن جبير وقتادة .

قال "قتادة" : إذا حضرت وصية ميت فمره بما كنت آمرا به نفسك ، وخف على ورثته ما كنت خائفا على ضعفة أولادك لو تركتهم بعدك .

(151/482)

والقول الآخر : أن تكون القسمة : قسمة الورثة الميراث بعد وفاة الرجل . يقول :

فإذا حضرها الأقارب واليتامى والمساكين ، فارضخوا "1" لهم وعدوهم . ثم استأنف معنى آخر فقال : وليخش من لو ترك ولدا صغارا خاف عليهم الضّيعة ، فليحسن إلى من كفله من اليتامى ، وليفعل بهم ما يجب أن يفعل بولده من بعده . وهو معنى قول ابن عباس في رواية أبي صالح عنه .

في سورة البقرة

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ [البقرة : 266] .

---

(1) فارضخوا لهم : أي أعطوهم عطية قليلة . والرضخ : العطية القليلة .

(152/482)

هذا مثل ضربه اللّه ، تبارك وتعالى ، للمنافقين والمرائين بأعمالهم لا يريدونه بشيء منها . يقول : يردون يوم القيامة على أعمال قد محقها اللّه وأبطلها ، ووكلهم في ثوابها إلى من عملوا له ، أحوج ما كانوا إلى أعمالهم ، فمثلهم كمثل رجل كانت له جنّة فيها من كل الثمرات ،

وأصابه الكبر فضعف عن الكسب ، وله أطفال لا يجدون عليه ولا ينفعونه ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، ففقدها أحوج ما كان إليها ، عند كبر السن ، وضعف الحيلة ، وكثرة العيال ، وطفولة الولد . وهو معنى قول ابن عباس وغيره .

وقد ضرب اللّه لهم قبل هذا مثلا فيه هذا المعنى بعينه ، فقال : كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا [البقرة : 264] .

يريد سبحانه : أنه محق كسبهم ، فلم يقدروا عليه حين حاجتهم إليه ، كما أذهب المطر التراب عن الصّفا ، ولم يوافق في الصّفا منبتا .

ثم ضرب مثلا للمخلصين ، فقال : وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ [البقرة : 265] أي : تحقيقا من أنفسهم ، فقال : كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ وأحسن ما تكون الجنان والرّياض : على الرّبا ، أَصابَها وابِلٌ وهو : أشدّ المطر ، فأضعفت في الحمل ، ثم قال : فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ [البقرة : 265] أي :

أصابها طلّ ، وهو : أضعف المطر . فتلك حالها في النّزل وتضاعف الثمر ، لا ينقص بالطّل عن مقدارها بالوابل .

في سورة الرعد

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ

فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17) [الرعد : 17].

هذا مثل ضربه اللّه للحق والباطل . يقول : الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه ، فإن اللّه سيمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله ، ومثل ذلك مطر جود ، أسال الأودية بقدرها : الكبير على قدره ، والصغير على قدره .

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً أي : عاليا على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق ، ومن جواهر الأرض التي تدخل الكير ويوقد عليها . يعني الذهب والفضة

(153/482)

للحلية ، والشّبه والحديد للآلة ، حيث يعلوها مثل زبد الماء .

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً أي : يلقيه الماء عنه فيتعلّق بأصول الشّجر وبجنبات الوادي ، وكذلك خبث الفلزّ يقذفه الكير . فهذا مثل الباطل .

وَأَمَّا ما الماء الذي يَنْفَعُ النَّاسَ وينبت المرعى فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ وكذلك الصّفو من الفلزّ يبقى خالصا لا شوب فيه . فهو مثل الحق .

في سورة النور

قول الله عز وجل : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (36) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (39) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (40) [النور : 35 ، 40] .

(154/482)

هذا مثل ضربه اللّه لقلب المؤمن ، وما أودعه بالإيمان والقرآن من نوره فيه . فبدأ فقال : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، أي بنوره يهتدي من في السموات والأرض .

ثم قال : مَثَلُ نُورِهِ ، يعني في قلب المؤمن . كذلك قال المفسّرون . وكان أبيّ يقرأ : اللّه نور السموات والأرض مثل نور المؤمن ، روى ذلك عبيد اللّه بن موسى ، عن أبي جعفر الرّازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية .

كَمِشْكاةٍ ، وهي : الكوّة غير النافذة .

فِيها مِصْباحٌ ، أي سراج الْمِصْباحُ في قنديل ، القنديل كأنه من شدة بياضه وتلألئه ، كوكب درّي ، يتوقّد ذلك المصباح بزيت من شجرة لا شَرْقِيَّةٍ ، أي لا بارزة للشمس كلّ النهار وَلا غَرْبِيَّةٍ لا مستترة في الظلّ كلّ النهار . ولكنها شرقية غربية تصيبها الشمس في بعض النهار ، والظلّ في بعض النهار . وإذا كان كذلك فهو أنضر لها ، وأجود لحملها ، وأكثر لنزلها ، وأصفى لدهنها .

يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ يسرج به من شدة صفائه . وتم الكلام ثم ابتدأ فقال :

نُورٌ عَلى نُورٍ ، يعني نور المصباح على نور الزّجاجة والدّهن ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ثم قال :

هذا المصباح فِي بُيُوتٍ ، يعني المساجد . وذكر أهلها فقال : يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ ، يريد أن القلوب يوم القيامة تعرف أمره يقينا فتتقلّب عما كانت عليه من الشك

والكفر ، وأن الأبصار يومئذ ترى ما كانت مغطّاة عنه فتتقلّب عمّا كانت عليه . ونحوه قوله تعالى : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) [ق : 22] .

ثم ضرب مثلا للكافرين ، فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً ، أي كالسراب يحسبه العطشان من البعد ماء يرويه حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً .

(155/482)

كذلك الكافر يحسب ما قدّم من عمله نافعه ، حتى إذا جاءه ، أي مات ، لم يجد عمله شيئا ، لأنّ اللّه ، عزّ وجلّ ، قد أبطله بالكفر ومحقه ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ، أي عند عمله فَوَفَّاهُ حِسابَهُ .

ثم ضرب مثلا آخر ، فقال : أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ، يريد : أنه في حيرة من كفره كهذه الظلمات .

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً في قلبه ، فَما لَهُ مِنْ نُورٍ .

في سورة سبأ

وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (51) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ

مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54) [سبأ : 51 ، 54] .

كان الحسن – رضي اللّه عنه – يجعل الفزع يوم القيامة إذا بعثوا من القبور . يقول : ولو ترى يا محمد فزعهم حين لا فوت ، أي لا مهرب ولا ملجأ يفوتون به ويلجأون إليه . وهذا نحو قوله : فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ [ص : 3] ، أي نادوا حين لا مهرب .

وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ، يعني القبور .

وَقالُوا آمَنَّا بِهِ ، أي بمحمد ، صلى اللّه عليه .

وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ والتناوش : التناول ، أي كيف لهم بنيل ما يطلبون من الإيمان في هذا الوقت الذي لا يقال فيه كافر ولا تقبل توبته ؟ .

وقوله : مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ يريد بعد ما بين مكانهم يوم القيامة ، وبين المكان الذي تتقبّل فيه الأعمال .

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، أي بمحمد ، صلّى اللّه عليه وسلم . يقول : كيف ينفعهم الإيمان به في الآخرة وقد كفروا به في الدنيا ؟ .

وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ، أي بالظنّ أن التوبة تنفعهم .

مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ ، أي بعيد من موضع تقبّل التوبة .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ من الإيمان . كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ ، أي بأشباههم من الأمم الخالية .

وكان غير الحسن يجعل الفزع عند نزول بأس اللّه من الموت أو غيره ، ويعتبره بقوله في موضع آخر : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85) [غافر : 84 ، 85] .

في سورة النور

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً [النور : 61] .

كان المسلمون في صدر الإسلام حين أمروا بالنصيحة ونهوا عن الخيانة وأنزل عليهم : وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ [البقرة : 188] . أي : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق

- أدقّوا النظر وأفرطوا في التوقّي ، وترك بعضهم مؤاكلة بعض :

فكان الأعمى لا يؤاكل الناس ، لأنه لا يبصر الطعام فيخاف أن يستأثر ، ولا يؤاكله الناس يخافون لضرره أن يقصر .

وكان الأعرج يتوقّى ذلك ، لأنه يحتاج لزمانته إلى أن يتفسّح في مجلسه ، ويأخذ أكثر من موضعه ، ويخاف الناس أن يسبقوه لضعفه .

(157/482)

وكان المريض يخاف أن يفسد على الناس طعامهم بأمور قد تعتري مع المرض :

من رائحة تتغيّر ، أو جرح يبضّ ، أو أنف يذنّ ، أو بول يسلس ، وأشباه ذلك . فأنزل اللّه تبارك وتعالى : ليس على هؤلاء جناح في مؤاكلة الناس ، وهو معنى قول ابن عباس في رواية أبي صالح .

وأما عائشة رضي اللّه عنها ، فإنها قالت : كان المسلمون يوعبون "1" مع رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، في المغازي "2" ، ويدفعون مفاتيحهم إلى الضّمنى ، وهم الزّمنى ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في منازلنا . فكانوا يتوقّون أن يأكلوا من منازلهم حتى نزلت هذه الآية .

وإلى هذا يذهب قوم ، منهم الزّهري "3" .

ثم قال اللّه عز وجل : وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أراد : ولا عليكم أنفسكم أن تأكلوا من أموال عيالكم وأزواجكم .

وقال بعضهم : أراد : أن تأكلوا من بيوت أولادكم ، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء ، لأن الأولاد كسبهم ، وأموالهم كأموالهم . يدلك على هذا : أن الناس لا يتوقّون أن يأكلوا من بيوتهم ، وأن اللّه سبحانه عدّد القرابات وهم أبعد نسبا من الولد ، ولم يذكر الولد .

وقال المفسرون في قوله تعالى : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) [المسد : 1 ، 2] . أراد : ما أغنى عنه ماله وولده ، فجعل الولد كسبا .

ثم قال : أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ يريد إخوتكم

---

(1) يقال : أوعب القوم : إذا خرجوا كلهم إلى الغزو .

(2) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث 5/ 206 ، بلفظ : وفي حديث عائشة : كان المسلمون يوعبون في النفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . أي يخرجون بأجمعهم في الغزو .

)

3) الزهري : هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المدني ، أحد الأئمة الكبار ، وعالم الحجاز والأمصار ، تابعي ، وردت عنه الرواية في حروف

القرآن. قرأ على أنس بن مالك، وعرض عليه نافع، توفي سنة 124 ه صنف "كتاب المغازي". (كشف الظنون 6/ 7، غاية النهاية 2/ 262، 263). [. . . . .]

(158/482)

أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ، يعني العبيد، لأن السيد يملك منزل عبده. هذا على تأويل ابن عباس.

وقال غيره: أو ما خزنتموه لغيركم. يريد الزّمنى الذين كانوا يخزنون للغزاة أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً من منازل هؤلاء إذا دخلتموها، وإن لم يحضروا ولم يعلموا، من غير أن تتزوّدوا وتحملوا، ولا جناح عليكم أن تأكلوا جميعا أو فرادى، وإن اختلفتم: فكان فيكم الزّهيد "1"، والرّغيب "2"، والصحيح، والعليل.

وهذا من رخصته للقرابات وذوي الأواصر - كرخصته في الغرباء والأباعد لمن دخل حائطا وهو جائع: أن يصيب من ثمره، أو مرّ في سفر بغنم وهو عطشان: أن يشرب من رسلها "3"، وكما أوجب للمسافر على من مرّ به الضيافة، توسعة منه ولطفا بعباده،

ورغبة بهم عن دناءة الأخلاق ، وضيق النظر .

في سورة الأنعام

(159/482)

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) [الأنعام : 76 - 79] .

كان العصر الذي بعث الله ، عز وجل ، فيه إبراهيم ، صلّى الله عليه وسلم ، عصر نجوم وكهانة ، وإنما أمر نمروذ بقتل الولدان في السنة التي ولد فيها إبراهيم ، صلّى الله عليه وسلم ، لأن المنجمين والكهّان قالوا : إنه يولد في تلك السنة من يدعو إلى غير دينه ، ويرغب عن سنّته .

وكان القوم يعظّمون النجوم ، ويقضون بها على غائب الأمور ، ولذلك نظر إبراهيم نظرة في النجوم فقال : إِنِّي سَقِيمٌ [الصافات : 89] وكان القوم يريدون الخروج إلى مجمع لهم ،

فأرادوه على أن يغدو معهم ، وأراد كيد أصنامهم خلاف مخرجهم ، فنظر نظرة في النجوم ، يريد علم النجوم ، أي في مقياس من مقاييسها ، أو سبب من أسبابها ، ولم ينظر إلى النجوم أنفسها . يدلك على ذلك قوله : فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) [الصافات : 88]

---

(1) يقال : رجل زهيد العين : إذا كان يقنعه القليل .

(2) يقال : رجل رغيب العين : إذا كان لا يقنعه إلا الكثير .

(3) الرّسل : اللبن .

(160/482)

ولم يقل : إلى النجوم . وهذا كما يقال : فلان ينظر في النجوم ، إذا كان يعرف حسابها ، وفلان ينظر في الفقه والحساب والنحو .

وإنما أراد بالنظر فيها : أن يوهمهم أنه يعلم منها ما يعلمون ، ويتعرف في الأمور من حيث يتعرفون ، وذلك أبلغ في المحال ، وألطف في المكيدة فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) [الصافات : 89] أي سأسقم فلا أقدر على الغدوّ معكم . هذا الذي أوهمهم بمعاريض الكلام ، ونيّته أنه سقيم غدا لا محالة ، لأن من كانت غايته الموت ومصيره إلى الفناء – فسيسقم . ومثله قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) [الزمر : 30] ولم يكن النبي ، صلّى اللّه عليه

وسلم ، ميّتا في ذلك الوقت ، وإنما أراد : أنك ستموت وسيموتون .

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الزّهرة قالَ هذا رَبِّي يريد : أن يستدرجهم بهذا القول ، ويعرّفهم خطأهم ، وجهلهم في تعظيمهم شأن النجوم ، وقضائهم على الأمور بدلالتها . فأراهم أنه معظّم ما عظّموا ، وملتمس الهدى من حيث التمسوا . وكلّ من تابعك على هواك وشابعك على أمرك ، كنت به أوثق ، وإليه أسكن وأركن . فأنسوا واطمأنوا .

فَلَمَّا أَفَلَ أراهم النقص الداخل على النجم بالأفول ، لأنه ليس ينبغي لإله أن يزول ولا أن يغيب ، ف قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ واعتبر مثل ذلك في الشمس والقمر ، حتى تبين للقوم ما أراد ، من غير جهة العناد والمبادأة بالتّنقص والعيب .

(161/482)

ثم قال : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وما فيها من نجم وقمر وشمس وَالْأَرْضَ وما فيها من بحر وجبل وحجر وصنم وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ومثل هذا : الحواريّ حين ورد على قوم يعبدون (بدّا) "1" لهم فأظهر تعظيمه وترفيله "2" ، وأراهم الاجتهاد في دينهم ، فأكرموه وفضّلوه وائتمنوه ، وصدروا في كثير من الأمور عن رأيه . إلى أن دهمهم عدوّ لهم خافه الملك على مملكته ، فشاور الحواريّ في أمره ، فقال :

الرأي أن ندعو إلهنا – يعني البدّ – حتى يكشف ما قد أظلّنا ، فإنا لمثل هذا اليوم كنّا نرشّحه . فاستكفّوا حوله "3" يتضرّعون إليه ويجأرون ، وأمر عدوّهم يستفحل ، وشوكته تشتد يوما بعد يوم . فلما تبين لهم من هذه الجهة أن (بدّهم) لا ينفع ولا يدفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، قال : ها هنا إله آخر ، أدعوه فيستجيب ،

---

(1) البدّ : الصنم الذي يعبد ، لا أصل له في اللغة ، فارسي معرب ، والجمع : البددة ، بفتح الباء والدال .

(2) الترفيل : التسويد والتعظيم ، ورفلت الرجل : إذا عظمته وملّكته .

(3) استكفّوا حوله : يقال : استكف القوم حول الشيء : أي أحاطوا به ينظرون إليه .

(162/482)

وأستجيره فيجير ، فهلموا فلندعه . فدعوا اللّه جميعا فصرف عنهم ما كانوا يحاذرون ، وأسلموا .

ومن الناس من يذهب إلى أن إبراهيم صلّى اللّه عليه وسلم ، كان في تلك الحال على ضلال وحيرة .

وكيف يتوهّم ذلك على من عصمه اللّه وطهّره في مستقرّه ومستودعه ؟ واللّه سبحانه يقول

: إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) [الصافات : 84] . أي : لم يشرك به قط ، كذلك قال المفسرون ، أو من قال منهم .

ويقول في صدر الآية : وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) [الأنعام : 75] ثم قال على أثر ذلك : فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ [الأنعام : 76] .

فروي : أنه رأى في الملكوت عبدا على فاحشة فدعا اللّه عليه ، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا اللّه عليه ، فقال له اللّه : (يا إبراهيم اكفف دعوتك عن عبادي ، فإن عبدي بين خلال ثلاث : إما أن أخرج منه ذرّية طيّبة ، أو يتوب فأغفر له ، أو النار من ورائه) .

أفترى اللّه أراه الملكوت ليوقن ، فلما أيقن رأى كوكبا فقال : هذا ربي على الحقيقة والاعتقاد ؟ ! .

في سورة الأنعام

ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ [الأنعام : 143 ، 144] .

أراد : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ [الأنعام : 141] ، وأنشأ لكم وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً يعني : كبارا وصغارا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ [الأنعام : 142] ، أي : لا تقفوا أثره فيما يحرّم عليكم مما لم يحرّمه اللّه ، ويحلّه لكم مما حرّمه اللّه عليكم .

ثم قال : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ، أي : كلوا مما رزقكم اللّه ثمانية أزواج . وإن شئت جعلته منصوبا بالرّدّ إلى الحمولة الفرش تبيينا لها .

(163/482)

والثمانية الأزواج : الضأن ، والمعز ، والإبل ، والبقر .

وإنما جعلها ثمانية وهي أربعة ، لأنه أراد : ذكرا وأنثى من كل صنف ، فالذكر زوج ، والأنثى زوج ، والزوج يقع على الواحد والاثنين . ألا ترى أنك تقول للرجل : زوج ، وهو واحد ، وللمرأة : زوج ، وهي واحدة ؟ قال اللّه تعالى : وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (45) [النجم : 45] .

وكانوا يقولون : ما في بطون الأنعام حلال لذكورنا ونسائنا ، إن كان الجنين ذكرا ، ومحرّم على إناثنا إن كان أنثى . ويحرّمون على الرجال والنساء الوصيلة وأخاها ، ويزعمون أن اللّه

حرّم ذلك عليهم . فقال اللّه سبحانه : ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ [المائدة : 103] .

وقال يقايسهم في تحريم ما حرّموا : قُلْ آلذَّكَرَيْنِ من الضأن والمعز حَرَّمَ اللّه عليكم أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ؟ ، فإن كان التحريم من جهة الذكرين : فكل ذكر حرام عليكم ، وإن كان التحريم من جهة الأنثيين : فكل أنثى حرام عليكم ، أَمِ حرّم عليكم أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ من الأجنّة ؟ .

فإن كان التحريم من جهة الاشتمال ، فالأرحام تشتمل على الذكور ، وتشتمل على الإناث ، وتشتمل على الذكور والإناث ، فكل جنين حرام . أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بهذا أي حين أمر اللّه بهذا فتكونون على يقين ؟ أم تفترونه عليه وتختلقونه ؟ توبيخ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ [الأنعام : 144] .

في سورة التين

(164/482)

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ

بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (8) [التين : 4 ، 8] .

يريد : عدّلنا خلقه ، وقوّمناه أحسن تعديل وتقويم .

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ ، والسّافلون : هم الضعفاء والزّمنى الأطفال ، ومن لا يستطيع حيلة ، ولا يجد سبيلا . وتقول : سفل يسفل فهو سافل ، وهم سافلون . كما تقول : علا يعلو فهو عال وهم عالون . وهو مثل قوله سبحانه : وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ [النحل : 70] .

وأراد : أنّ الهرم يخرف ويهتز وينقص خلقه ، ويضعف بصره وسمعه ، وتقلّ حيلته ، ويعجز عن عمل الصالحات ، فيكون أسفل من هؤلاء جميعا .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ [الشعراء : 227] في وقت القوّة والقدرة ، فإنّهم في حال الكبر غير منقوصين ، لأنّا نعلم أنا لو لم نسلبهم القدرة والقوّة لم يكونوا ينقطعون عن عمل الصّالحات ، فنحن نجري لهم أجر ذلك ولا نمنّه ، أي لا نقطعه ولا ننقصه .

وهو معنى قول المفسرين . ومثله قوله سبحانه : إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) [العصر : 2] ، والخسر : النقصان إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3) [العصر : 3] فإنهم غير منقوصين .

ونحوه

قول رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم : "يقول اللّه للكرام الكاتبين : إذا مرض عبدي

فاكتبوا له ما كان يعمل في صحته ، حتى أعاقبه أو أقبضه" "1" .

ثم قال : فَما يُكَذِّبُكَ أيها الإنسان بِالدِّينِ ؟ أي : بمجازاتي إيّاك بعملك وأنا أحكم الحاكمين ؟

في سورة والشمس وضحاها

(165/482)

قوله سبحانه : وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9) وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10) [الشمس : 7 ، 10] .

أقسم بالنفس وخلقه لها ثم قال : فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها ، أي : فهّمها أعمال البر وأعمال الفجور ، حتى عرف ذلك الجاهل والعاقل ، ثم قال : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها يريد أفلح من زكى نفسه ، أي : أنماها وأعلاها بالطاعة والبرّ والصّدقة واصطناع المعروف .

وأصل التزكية : الزّيادة ، ومنه يقال : زكا الزرع يزكوا : إذا كثر ريعه ، وزكت النّفقة : إذا بورك فيها ، ومنه زكاة الرّجل عن ماله ، لأنها تثمّر ماله وتنمّيه . وتزكية القاضي للشّاهد منه ، لأنه يرفعه بالتّعديل والذّكر الجميل .

وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها ، أي : نقصها وأخفاها بترك عمل البرّ ، وبركوب المعاصي .

والفاجر أبدا خفيّ المكان ، زمر المروءة ، غامض الشّخص ، ناكس الرأس .

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه 3/ 231 ، والسيوطي في الدر المنثور 6/ 104 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 6671 .

(166/482)

ودسّاها : من دسّست ، فقلبت إحدى السيّنات ياء ، كما يقال : لبّبت ، والأصل لبّيت ، و : قصّيت أظفاري ، وأصله قصصت . ومثله كثير .

فكأنّ النّطف "1" بارتكاب الفواحش دسّ نفسه وقمعها ، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها .

وكانت أجواد العرب تنزل الرّبا وأيفاع "2" الأرض ، لتشتهر أماكنها للمعتفين ، وتوقد النّيران في الليل للطّارقين .

وكانت اللئام تنزل الأولاج "3" والأطراف والأهضام "4" : لتخفى أماكنها على الطّالبين .

فأولئك أعلوا أنفسهم وزكّوها ، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها ، قال الشاعر "5" :

وبوّأت بيتك في معلم رحيب المباءة والمسرح

كفيت العفاة طلاب القرى ونبح الكلاب لمستنبح

ترى دعس آثار تلك المطيّ أخاديد كاللّقم الأفيح

ولو كنت في نفق زائغ لكنت على الشّرك الأوضح

ومثل هذا كثير .

في لا أقسم بيوم القيامة

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) [القيامة : 3 ، 5] .

هذا ردّ من اللّه عليهم ، وذلك أنهم ظنوا أن اللّه لا ينشر الموتى ، ولا يقدر على جمع العظام البالية ، فقال : بلى ، فاعلموا أنّا نقدر على رد السّلاميات "6" على صغرها ،

---

(1) النّطف : المتهم .

(2) اليفاع : المشرف من الأرض .

(3) الأولاج : جمع ولجة ، بالتحريك ، وهي موضع أو كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره .

(4) الأهضام : جمع هضم ، وهو ما تطامن الأرض .

(5) الأبيات من المتقارب ، وهي في كتاب الحيوان 1/ 381 - 382 ، 5/ 134 - 135 ، والبيت الأول بلا نسبة في تاج العروس (بوأ) ، والمعاني الكبير ص 409 ، والبيت الثاني بلا نسبة في تاج العروس (بوأ) .

(6) السلاميات : جمع سلامى ، وهي عظام صغار على طول الإصبع أو قريب منها ، في كل يد ورجل أربع سلاميات أو ثلاث .

(167/482)

ونؤلّف بينها حتى يستوي البنان . ومن قدر على هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر .

ومثل هذا رجل قلت له : أتراك تقدر على أن تؤلّف هذا الحنظل في خيط ؟ فيقول لك : نعم وبين الخردل .

وأما قوله سبحانه : بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ فقد كثرت فيه التفاسير : فقال سعيد بن جبير يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب .

وقال الكلبي : يكثر الذنوب ، ويؤخّر التوبة .

وقال آخرون : يتمنّى الخطيئة .

وفيه قول آخر : على طريق الإمكان - إن كان اللّه تعالى أراده - وهو : أن يكون الفجور بمعنى : التكذيب بيوم القيامة ، ومن كذّب بحق فقد فجر .

وأصل الفجور : الميل ، فقيل للكاذب والمكذّب والفاسق : فاجر لأنه مال عن الحق .

وقال بعض الأعراب لعمر بن الخطاب رحمه اللّه - وكان أتاه فشكى إليه نقب إبله ودبرها

واستحمله فلم يحمله - "1" :

أقسم باللّه أبو جفص عمر ما مسّها من نقب ولا دبر

فاغفر له اللهمّ إن كان فجر أي : كذب .

وهذا وجه حسن لأن الفجور اعتراض بين كلامين من أسباب يوم القيامة ، أولهما :

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ ؟ والآخر : يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ ؟

فكأنه قال : أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه في الآخرة ؟ بلى نقدر على أن نجمع ما صغر منها ونؤلف بينه .

---

(1) الرجز لرؤبة في شرح المفصل 3/ 71 ، وليس في ديوانه ، ولا يمكن أن يكون رؤبة هو الذي قاله لعمر بن الخطاب ، ذلك أنه توفي سنة 145 ه ، ولم يعتبره أحد من التابعين فضلا عن المخضرمين ، وهو لعبد اللّه بن كيسبة أو لأعرابي في خزانة الأدب 5/ 154 ، 156 ، والأعرابي في شرح التصريح 1/ 121 ، والمقاصد النحوية 4/ 115 ، ولسان العرب (نقب) ، (فجر) ، وتاج العروس (نقب) ، (فجر) ، وتهذيب اللغة 11/ 50 ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 1/ 128 ، وشرح الأشموني 1/ 59 ، وشرح شذور الذهب ص 561 ، وشرح ابن عقيل ص 489 ، ومعاهد التنصيص 1/ 279 ، وأساس البلاغة (نقب) ، وديوان الأدب 2/ 111 ، وكتاب العين 8/ 307 . [. . . . .]

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ أي : ليكذّب بيوم القيامة وهو أمامه ، فهو يسأل أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ [القيامة : 6] أي متى يكون ؟ .

في والصافات

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28)

[الصافات :

27 ، 28] .

يقول هذا المشركون يوم القيامة لقرنائهم من الشياطين : إنكم كنتم تأتوننا عن أيماننا ، لأن إبليس قال : لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وعَنْ شَمائِلِهِمْ [الأعراف : 17] فشياطينهم تأتيهم من كل جهة من هذه الجهات بمعنى من الكيد والإضلال .

وقال المفسرون : فمن أتاه الشيطان من جهة اليمين : أتاه من قبل الدّين فلبّس عليه الحق .

ومن أتاه من جهة الشمال : أتاه من قبل الشّهوات .

ومن أتاه من بين يديه : أتاه من قبل التّكذيب بيوم القيامة والثواب والعقاب .

ومن أتاه من خلفه : خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلّف بعده ، فلم يصل رحما ، ولم يؤدّ

زكاة. فقال المشركون لقرنائهم: إنكم كنتم تأتوننا في الدنيا من جهة الدّين، فتشبّهون علينا فيه حتى أضللتمونا. فقال لهم قرناؤهم: بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [الصافات: 29] أي: لم تكونوا على حق فنشبّهه عليكم ونزيلكم عنه إلى باطل. وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ [الصافات: 30]، أي: قدرة فنقهركم ونجبركم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31) [الصافات: 30، 31] نحن وأنتم العذاب فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32) [الصافات: 32] يعني بالدعاء والوسوسة.

ومثل هذا قوله سبحانه: وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي [إبراهيم: 22].

في سورة ص

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11) [ص: 9، 11].

أخبر اللّه، سبحانه، عن عنادهم وتكبّرهم وتمسّكهم بآلهتهم في أول السورة،

فقال : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (2) [ص : 1] ، وحكى قولهم : أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ [ص : 6] ، أي اذهبوا ودعوه وتمسّكوا بآلهتكم فقال اللّه عز وجل : أعندهم بآلهتهم هذه خزائن الرحمة ؟ ! أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10) [ص : 10] ، أي في أبواب السماء ، وأبواب السماء : أسبابها ، قال الشاعر "1" :

ولو نال أسباب السّماء بسلّم ويكون أيضا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ ، أي : في الحبال إلى السماء ، كما سألوك أن ترقى في السماء وتأتيهم بكتاب . ويقال للرجل إذا تقدم في العلم وغيره وبرع : قد ارتقى في الأسباب ، كما يقال : قد بلغ السماء .

ونحو هذا قوله في موضع آخر : أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) [الطور : 38] .

وهذا كله توبيخ ، وتقرير بالعجز .

ثم قال بعد : جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11) [ص : 11] .

وجند بمعنى : حزب لهذه الآلهة . و(ما) زائدة . ومهزوم : مقموع ذليل . وأصل الهزم : الكسر ، ومنه قيل للنّفرة في الأرض : هزمة ، أي كسرة ، وهزمت الجيش : أي كسرتهم ، وتهزّمت القربة : أي انكسرت .

يقول : هم حزب عند ذلك مقموع ذليل من الأحزاب ، أي عند هذه المحن ، وعند هذا

القول ، لأنهم لا يقدرون أن يدّعوا لآلهتهم شيئًا من هذا ، ولا لأنفسهم .

والأحزاب : سائر من تقدّمهم من الكفار ، سمّوا أحزابا لأنهم تحزّبوا على أنبيائهم .

يقول اللّه سبحانه على إثر هذا الكلام : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ [ص : 12] وكذا وكذا .

ثم قال : أُولئِكَ الْأَحْزابُ [ص : 13] فأعلمنا أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب .

---

(1) يروى البيت بتمامه :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن رام أسباب السماء بسلّم

والبيت من الطويل ، وهو لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص 30 ، والخصائص 3/ 324 ، 325 ، وسر صناعة الإعراب 1/ 267 ، وشرح شواهد المغني 1/ 386 ، ولسان العرب (سبب) ، وشرح القصائد العشر ص 120 .

(170/482)

وكان ابن عباس في رواية أبي صالح - يذهب إلى أن اللّه تعالى أخبر رسوله صلّى اللّه عليه وسلم أنه سيهزم المشركين يوم بدر .

في سورة السجدة

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) [السجدة : 5] .

يريد سبحانه : أنه يقضي الأمر في السماء وينزله مع الملائكة إلى الأرض فتوقعه ، ثم تعرج إلى السماء ، أي تصعد ، بما أوقعته من ذلك الأمر ، فيكون نزولها به ورجوعها في يوم واحد مقداره ألف سنة مما تعدّون . يريد مقدار المسير فيه على قدر مسيرنا وعددنا ألف سنة ، لأن بعد ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام لابن آدم ، فإذا قطعته الملائكة ، بادئة وعائدة في يوم واحد ، فقد قطعت مسيرة ألف سنة في يوم واحد .

في سورة النمل

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66) [النمل : 65 ، 66] .

أصل ادّارك : تدارك ، فأدغمت التاء في الدال ، وأدخلت ألف الوصل ليسلم للدّال الأولى السكون ، ومثله : حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً [الأعراف : 38] وَاثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ [التوبة : 38] ، وقالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ [النمل : 47] ، إنما هو : تداركوا ، وتثاقلتم ، وتطيّرنا . ومعنى تدارك : تتابع ، وعِلْمُهُمْ : حكمهم على الآخرة ، وحدسهم الظّنون .

وأراد وما يشعرون متى يبعثون إلّا بتتابع الظّنون في علم الآخرة ، فهم يقولون تارة : إنها تكون ، وتارة : إنها لا تكون ، وإلى كذا تكون ، وما يعلم غيب ذلك إلّا اللّه تعالى .

ثم قال : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بل هم من علمها عَمُونَ .

وكان ابن عباس يقرؤها بلى أدارك علمهم .

وهذه القراءة أشدّ إيضاحا للمعنى ، لأنه قال : وما يشعرون متى يبعثون ، ثم قال : بل تداركت ظنونهم في علم الآخرة ، فهم يحدسون ولا يدرون .

في سورة الامتحان

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) [الممتحنة : 1] .

ذكر المفسرون : أنّها أنزلت في حاطب بن أبي بلتعة وكان كتب إلى المشركين بمكة يخبرهم بمسير الرسول ، صلّى اللّه عليه وسلم إليهم ، لأنّ عياله كانوا بمكة ، ولم يكن له بها عشيرة تمنع منهم ، فأراد أن يتقرب إليهم ليكفوا عن عياله فأنزل اللّه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أي تخبرونهم بما يخبر بمثله الرجل أهل مودّته ، وتنصحون لهم وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، مع النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ تمّ الكلام ، يعني من مكة أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ، أي أخرجوا الرسول وأخرجوكم ، لأن آمنتم باللّه وحده إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي ، يريد . فلا تلقوا إليهم بالمودة إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي طالبين رضاي .

ثم قال : تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ [الممتحنة : 1] ، أي كيف تستترون بمودّتكم لهم منّي وأنا أعلم بما تضمرون وما تظهرون ؟ .

ثم ضرب لهم إبراهيم ، صلّى اللّه عليه وسلم ، مثلا حين تبرّأ من قومه ونابذهم وباغضهم ، إلى قوله سبحانه : وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا [الممتحنة : 4] ، يريد أنّ إبراهيم ، صلّى اللّه عليه وسلم ، عاداهم وهجرهم في كل شيء إلا في قوله لأبيه : لأستغفرنّ لك .

في سورة الحج

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (15) [الحج : 15] .

(173/482)

كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين ، يستبطئون ما وعد اللّه ورسوله من النصر . وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون ألا يتم له أمره ، فقال تعالى : مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ ، يعني محمدا ، عليه السلام ، على مذاهب العرب في الإضمار لغير مذكور ، وهو يسمعني أعده النصر والإظهار والتمكين ، وإن كان يستعجل به قبل الوقت الذي قضيت أن يكون ذلك فيه ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ أي

بحبل إِلَى السَّماءِ ، يعني سقف البيت ، وكلّ شيء علاك وأظلّك فهو سماء ، والسحاب : سماء ، يقول اللّه تعالى : وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً [ق : 9] ، وقال سلامة بن جندل يذكر قتل كسرى النعمان "1" :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه نحور الفيول بعد بيت مسردق

يعني : سقفه ، وذلك أنّه أدخله بيتا فيه فيلة فتوطّأته حتى قتلته .

وقوله : ثُمَّ لْيَقْطَعْ . قال المفسرون أي : ليختنق فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ هل يذهب

ذلك ما في قلبه ؟ وهذا كرجل وعدته شيئا مرة بعد مرة ، ووكّدت على نفسك الوعد ، وهو يراجعك في ذلك ، ولا تسكن نفسه إلى قولك ، فتقول له : إن كنت لا تثق بما أقوله ، فاذهب فاختنق . تريد : اجهد جهدك .

هذا معنى قول المفسرين .

وفيه وجه آخر على طريق الإمكان ، وهو أن تكون السماء هاهنا : السماء بعينها لا السقف ، كأنه قال : فليمدد بسبب إليها أي بحبل ، وليرتق فيه ، ثم ليقطع حتى يخرّ فيهلك ، أي : ليفعل هذا إن بلغه جهده ، فلينظر هل ينفعه . ومثله قوله لرسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم - حين سأله المشركون أن يأتيهم بآية ولم يشأ اللّه أن يأتيهم بها ، فشقّ ذلك عليه - :

(174/482)

وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35) [الأنعام : 35] يريد : اجهد إن بلغ هذا جهدك .

وروى ابن عيينة عن ابن أبي نجيح ، عن كردم : أنّ رجلا سأل أبا هريرة ، وابن عمر ، وابن

عباس ، عن رجل قتل مؤمنا متعمدا ، هل له توبة ؟ فكلهم قال : هل يستطيع أن يحييه ؟ هل يستطيع أن يبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء ؟ .

يريدون : أنه لا توبة له ، كما أن هذا لا يكون .

وقال أبو عبيدة : مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ أي : يرزقه اللّه . وذهب إلى

---

(1) يروى عجز البيت بلفظ :

صدور الفيول بعد بيت مسردق والبيت من الطويل ، وهو لسلامة بن جندل في ديوانه ص 182 ، ولسان العرب (سردق) ، وجمهرة اللغة ص 1146 ، وتاج العروس (سردق) ، والأصمعيات ص 137 ، وللأعشى في تهذيب اللغة 9/ 394 ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في المخصص 6/ 7 ، وكتاب العين 5/ 251 .

(175/482)

قول العرب . أرض منصورة ، أي ممطورة ، وقد نصرت الأرض : أي مطرت .

كأنه يريد : من كان قانطا من رزق اللّه ورحمته فليفعل ذلك ، فلينظر هل يذهب كيده ، أي حيلته غيظه لتأخر الرزق عنه ؟ .

في سورة البقرة

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) [البقرة : 17 ، 20] .

الَّذِي ها هنا بمعنى الذين استوقدوا نارا ، وربما جاءت مؤدّية عن جميع ، قال الشاعر "1" :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كلّ القوم يا أمّ خالد

أراد : مثل المنافقين كمثل قوم كانوا في ظلمة فأوقدوا نارا ، فلما أضاءت النار ما حولهم أطفأها اللّه وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

فالظلمة الأولى التي كانوا فيها : الكفر .

واستيقادهم النار قولهم : لا إله إلّا اللّه ، وإن محمدا رسول اللّه .

فلما أضاءت لهم ما حولهم واهتدوا وآمنوا : خلوا إلى شياطينهم فنافقوا ، وقالوا : إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ [البقرة : 14] فسلبهم نور الإيمان ، وتركهم في ظلمات الكفر لا يبصرون .

ثم ضرب لهم مثلا آخر شبيها بهذا المثل ، فقال :

)

1) البيت من الطويل ، وهو للأشهب بن رميلة في خزانة الأدب 6/ 7 ، 25 - 26 ، وشرح شواهد المغني 2/ 517 ، والكتاب 1/ 187 ، ولسان العرب (فلج) ، (لذا) ، والمؤتلف والمختلف ص 33 ، والمحتسب 1/ 185 ، ومعجم ما استعجم ص 1028 ، والمقاصد النحوية 1/ 482 ، والمقتضب 4/ 146 ، والمنصف 1/ 67 ، وللأشهب أو لحريث بن محفض في الدرر 1/ 148 ، وبلا نسبة في الأزهية ص 99 ، وخزانة الأدب 2/ 315 ، 6/ 133 ، 8/ 210 ، والدرر 5/ 131 ، ورصف المباني ص 342 ، وسر صناعة الإعراب 2/ 537 ، وشرح المفصل 3/ 155 ، ومغني اللبيب 1/ 194 ، 2/ 552 .

(176/482)

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ [البقرة : 19] .

فالصيب : المطر ، والظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة السحابة ، والرعد : دليل على شدة ظلمة الصّيّب وهوله .

أراد : أو مثل قوم في ظلمات ليل ومطر . فضرب الظلمات لكفرهم مثلا ، والبرق لتوحيدهم مثلا ، فقال : إذا قالوا : لا إله إلا اللّه اهتدوا كما يهتدي هؤلاء القوم بالبرق إذا لمع فيمشون .

وجعله يكاد يخطف الأبصار لشدّة ضوئه .

وإذا نافقوا فاستهزؤوا وخلوا بشياطينهم فتابعوهم - عموا وصمّوا ، كما يظلم على هؤلاء إذا سكن لمعان البرق فيقومون .

في سورة المزمل

الْمُزَّمِّلُ ، المتزمّل ، فأدغمت التاء في الزّاي ، وكذلك الْمُدَّثِّرُ هو : المتدثّر بثيابه ، فأدغمت التاء في الدال . وكل من التف بثوبه فقد تزمل به .

(177/482)

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) [المزمل : 2] أي : صلّ الليل إلا شيئا يسيرا منه تنام فيه وهو الثلث ، ثم قال : نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) [المزمل : 3] أي : قم نصفه ، فاكتفى بالفعل الأول من الثاني لأنه دليل عليه . أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد على النصف إلى الثلثين . جعل له سعة في مدّة قيامه بالليل . فلما نزل هذه الآية قام رسول اللّه ، صلّى اللّه

عليه وسلم ، وطائفة من المؤمنين معه ، أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وأخذ المسلمون أنفسهم بالقيام على المقادير حتى شقّ ذلك عليهم ، فأنزل اللّه تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ أي : وتقوم نصفه وثلثه وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ فيعلم مقدار ثلثيه ونصفه وثلثه ، وسائر أجزائه ومواقيته ، ويعلم أنكم أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ أي : لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام فيه فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ [المزمل : 20] رخّص لهم أن يقوموا ما أمكن وخفّ ، لغير مدة معلومة ولا مقدار .

وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم نسخ بالصلوات الخمس . كذلك قال المفسرون :

وقوله : إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ [المزمل : 6] وهي : آناؤه وساعاته ، مأخوذة من نشأت تنشأ نشئا ، ونشأت أي : ابتدأت وأقبلت شيئا بعد شيء ، وأنشأها اللّه فنشأت

وأنشأت . ومنه قوله سبحانه : أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ [الزخرف : 18] وقوله : إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35) [الواقعة : 35] أي : ابتدأناهن ونبّتناهن ، ومنه قيل لصغار الجواري :

نشأ .

فكأنه قال : إن ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف من الاسم .

و قوله : أَشَدُّ وَطْئاً [المزمل : 6] أي : أثقل على المصلي من ساعات النهار . وهو من قولك : اشتدت على القوم وطأة سلطانهم : إذا ثقل عليهم ما يلزمهم ويأخذهم به .

فأعلم اللّه نبيه أن الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها .

ومن قرأها : وطاء على تقدير (فعال) فهو مصدر لواطأت فلانا على كذا مواطأة ووطاء .

وأراد : أنّ القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على التّفهّم والأداء والاستماع ، بأكثر مما يتواطأ عليه بالنهار .

وَأَقْوَمُ قِيلًا [المزمل : 6] أي : أخلص للقول وأسمع له ، لأن الليل تهدأ عنه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، فيخلص القول ، ولا يكون دون تسمّعه وتفهّمه حائل .

وقوله : إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا (7) [المزمل : 7] يعني : تصرفا وإقبالا وإدبارا في حوائجك وأشغالك .

في سورة الفتح

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25) [الفتح : 25] .

كان بمكة قوم مؤمنون مختلطون بالمشركين غير متميزين ولا معروفي الأماكن ، فلما صدّ

المشركون رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، عن المسجد الحرام وعكفوا الهدي أن يبلغ محلّه . قال اللّه سبحانه : لولا أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لا تعرفونهم فتطئوهم لو دخلتموها ، أي تقتلوهم ليدخلهم اللّه في رحمته لو فعلتم فتصيبكم من قتلهم بغير علم معرّة ، أي يعيبكم المشركون بذلك ويقولون : قد قتلوا أهل دينهم وعذبوهم كما فعلوا بنا ، وتلزمكم الدّيات .

(179/482)

ثم قال ، لَوْ تَزَيَّلُوا ، أي تميزوا من المشركين لَعَذَّبْنَا المشركين بالسيف

عَذاباً أَلِيماً : فصار قوله سبحانه : لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً جوابا لكلامين :

أحدهما : لَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ ، والآخر : لَوْ تَزَيَّلُوا .

في سورة الأعراف

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الأعراف : 176] .

كلّ شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش أو علّة ، خلا الكلب ، فإنّه يلهث في حال الكلال ، وحال الرّاحة ، وحال الصحة والمرض ، وحال الريّ والعطش .

فضربه اللّه مثلا لمن كذّب بآياته فقال : إن وعظته فهو ضالّ ، وإن لم تعظه فهو ضالّ ، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، أو تركته على حاله أيضا لهث .

ونحوه قوله : وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (193) [الأعراف : 193] .

في سورة البقرة

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ [البقرة : 84 ، 85] .

(180/482)

نزلت في بني قريظة والنّضير . يقول : أخذ اللّه عليكم في الكتاب : ألا تسفكوا دماءكم ، أي لا تقتلوا ، فيقتل بعضكم بعضا ، ولا تتركوا أسيرا في أيدي الآسرين فيقتلوه ، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم ، أي لا تغلبوا أحدا على داره وتخرجوه ، فقبلتم ذلك وأقررتم به ، وهو

أخذ الميثاق وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ بذلك ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ أي تقتتلون فيقتل بعضكم بعضا ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ أي تتعاونون وَإِنْ يَأْتُوكُمْ بهم أُسارى تُفادُوهُمْ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ من ديارهم أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ في فك الأسير وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ في إخراجكم من أخرجتم من ديارهم فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فجوزي بنو النّضير بأن أخرجهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، عن

ديارهم لأوّل الحشر .

وجوزي بنو قريظة بقتل المقاتلة وسبي الذّرّيّة .

في الزخرف

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) [الزخرف : 81] .

لما قال المشركون : للّه ولد ، ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله اللّه على رسوله ، عليه السلام ، من التبرّؤ من ذلك - قال اللّه سبحانه لرسوله عليه السّلام : قُلْ : لهم إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ أي : عندكم في ادعائكم . فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ أي : أول الموحدين ، ومن وحّد اللّه فقد عبده ، ومن جعل له ولدا أو ندّا ، فليس من العابدين ، وإن اجتهد .

ومنه قوله : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [النازعات : 56] ، أي إلا ليوحّدون .

قال مجاهد "1" : يريد إن كان للّه ولد في قولكم ، فأنا أول من عبد اللّه ووحّده ، وكذّبكم

بما تقولون .

وبعض المفسرين يجعل إن بمعنى (ما) ، وليس يعجبني ذلك .

ويقال : العابدون هاهنا : الغضاب الآنفون . يقال : عبدت من كذا أعبد عبدا . وأكثر ما تأتي الأسماء من فعل يفعل (على فعل) كقوله : وجل يوجل فهو وجل ، وفزع يفزع فهو فزع .

وربما جاء على (فاعل) نحو علم يعلم فهو عالم .

وربما جاء منه على (فعل) و(فاعل) نحو صدى يصدي فهو صد وصاد ، كذلك تقول : عبد يعبد فهو عبد وعابد ، قال الشاعر "2" :

وأعبد أن تهجى تميم بدارم

---

(1) مجاهد : هو مجاهد بن جبير المخزومي ، أبو الحجاج المقري المكي ، مولى عبد اللّه بن السائب ، وقيل : مولى السائب بن أبي السائب ، فقيه محدث تابعي ثقة ، توفي بمكة سنة 102 ه . وقيل : سنة 103 ه . وقيل : سنة 104 ه . صنف "تفسير القرآن" . (أسماء التابعين 1/ 363 ، كشف الظنون 6/ 4) .

(2) صدر البيت : أولئك قومي إن هجوني هجوتهم والبيت من الطويل ، وهو للفرزدق في إصلاح المنطق ص 50 ، ولسان العرب (عبد) ، والمحتسب 2/ 258 ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في الإنصاف 2/ 637 ، وجمهرة اللغة ص 299 ، ويروى عجز البيت بلفظ : وأعبد أن تهجى كليب بدارم وهو بهذا اللفظ للفرزدق في تاج العروس (عبد) ،

(عني) ، وإصلاح المنطق ص 50 ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 299 ، وديوان الأدب 2/ 230 ، ومقاييس اللغة 4/ 207 .

(181/482)

في سورة النساء

مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46) [النساء : 46] .

(182/482)

هؤلاء قوم من اليهود كانوا يقولون للنبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، إذا حدّثهم وأمرهم : سمعنا ، ويقولون في أنفسهم : عصينا . وإن أرادوا أن يكلموه بشيء قالوا له : اسمع يا أبا القاسم ، ويقولون في أنفسهم : لا سمعت . ويقولون له : راعنا . يوهمونه في ظاهر اللفظ أنهم يريدون انتظرنا حتى نكلمك بما نريد ، كما تقول العرب : أرعني سمعك وراعني ، أي : انتظرني

وترفّق وتلوّم عليّ ، هذا ونحوه ، وإنما يريدون سبّه بالرّعونة في لغتهم ، فقال اللّه سبحانه :

مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ كذا وكذا .

ويقولون : راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ أي : قلبا للكلام بها ، وَطَعْناً فِي الدِّينِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا : سَمِعْنا وَأَطَعْنا مكان قولهم : سمعنا وعصينا ، وقالوا : واسمع . مكان قوله : لا سمعت ، وانظرنا ، مكان قولهم : راعنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ .

والعرب تقول : نظرتك وانتظرتك ، بمعنى واحد ، قال الحطيئة "1" :

وقد نظرتكم إبناء عاشية للخمس طال بها حوزي وتنساسي

في سورة المائدة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106)

---

(1) يروى صدر البيت بلفظ :

وقد نظرتكم أبناء صادرة والبيت من البسيط ، وهو للحطيئة في ديوانه ص 106 ، ولسان العرب (نظر) ، (نسس) ، (عشا) ، والتنبيه والإيضاح 2/ 306 ، وجمهرة اللغة ص 250 ، وتهذيب اللغة 3/ 54 ، 5/ 177 ، 12/ 307 ، 14/ 371 ، وتاج

العروس (نظر) ، (نسس) ، وكتاب العين 7/ 199 ، وبلا نسبة في المخصص 7/ 103 ، ولسان العرب (حوز) .

(183/482)

فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا

[المائدة :

106 ، 108] .

قد اختلف الناس قديما في تأويل هذه الآية والسبب الذي نزلت فيه .

وأنا مخبر من تلك المذاهب والتأويلات ، بأشبهها بلفظ الكتاب ، وأولاها بمعناه .

وأراد اللّه عز وجل أن يعرفنا كيف نشده بالوصية عند حضور الموت ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أي :

رجلان عدلان من المسلمين تشهدونهما على الوصيّة .

وعلم اللّه سبحانه أنّ من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين ،

وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم ، ويحضره الموت فلا يجد من يشهده من المسلمين ، فقال : أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ أي : من غير دينكم إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ أي : سافرتم فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ وتمّ الكلام . فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر خاصّة إن أمكن إشهادهما في السفر . والذّميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما .

ثم قال : تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ أراد : تحبسونهما من بعد صلاة العصر إن ارتبتم في شهادتهما وشككتم ، وخشيتم أن يكونا قد غيّرا ، أو بدّلا وكتما وخانا .

وخصّ هذا الوقت ، لأنه قبل وجوب الشمس "1" ، وأهل الأديان يعظمونه ويذكرون اللّه فيه ، ويتوقّون الحلف الكاذب وقول الزّور ، وأهل الكتاب يصلّون لطلوع الشمس وغروبها . فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً أي : لا نبيعه بعرض ، ولا نحابي في شهادتنا أحدا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة علمناها .

فإذا حلفا بهذه اليمين على ما شهدا به ، قبلت شهادتهما ، وأمضي الأمر على قولهما .

---

(1) وجوب الشمس : يقال : وجبت الشمس وجبا ووجوبا : غابت .

وروى معاوية بن عمرو "1" ، عن زائدة "2" ، عن زكريا "3" ، عن الشعبي "4" أنه قال : مات رجل بدقوقا ولم يشهده إلا نصرانيّان ، فأشهدهما على وصيته ، فقدما الكوفة وأبو موسى الأشعري "5" عليهما ، فتقدّما إليه فأحلفهما في مسجد الكوفة بعد العصر : باللّه ما بدّلا ولا كتما ولا كذبا وأجاز شهادتهما .

فَإِنْ عُثِرَ بعد هذه اليمين أي : ظهر عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً أي : حنثا في اليمين بكذب في قول ، أو خيانة في وديعة فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ أي : قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت الذين استحق منهم الأوليان ، وهما الوليّان ، يقال : هذا الأولى بفلان ، ثم يحذف من الكلام بفلان ، فتقول :

هذا الأولى ، وهذان الأوليان ، كما تقول : هذا الأكبر ، في معنى الكبير ، وهذا الأكبران ، وعَلَيْهِمُ بمعنى (منهم) ، كما تقول : استحققت عليك كذا ، واستوجبت عليك كذا ، وأي : استحققته منك ، واستوجبته منك ، وقال اللّه سبحانه : الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ [المطففين : 2] .

أي من الناس .

وقال صخر الغيّ "6" :

متى ما تنكروها تعرفوها على أقطارها علق نفيث

---

(1) هو معاوية بن عمرو بن خالد بن غلاب ، توفي سنة 214 ه (خلاصة تذهيب الكمال

ص 102 ، والطبقات الكبرى لابن سعد 2/ 168 ، 3/ 258 ، 7/ 245) .

(2) هو زائدة بن قدامة الثقفي ، توفي غازيا بأرض الروم سنة 262 ه (خلاصة تذهيب الكمال ص 102 ، والطبقات الكبرى لابن سعد 6/ 355) .

(3) هو زكريا بن أبي زائدة ، توفي سنة 248 ه . (خلاصة تذهيب الكمال ص 104 ، والطبقات الكبرى لابن سعد 6/ 339) .

(4) الشعبي : هو أبو عمرو ، عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي ، كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، توفي سنة 109 ه . (أسماء التابعين 1/ 267 ، والطبقات الكبرى لابن سعد 6/ 259) .

(5) أبو موسى الأشعري : هو عبد اللّه بن قيس بن سليم بن حرب ، أبو موسى ، من بني الأشعر من قحطان ، صحابي توفي سنة 44 ه . (طبقات ابن سعد 4/ 79 ، والأعلام 4/ 114) .

(6) البيت من الوافر ، وهو لأبي المثلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 264 ، وديوان الهذليين ص 224 ، والأزهية ص 276 ، ولصخر الغي في خزانة الأدب 2/ 199 ، ولسان العرب (نفث) ، والمعاني الكبير 2/ 970 ، وأدب الكاتب ص 521 ، والمقصور والممدود ص 103 ، وبلا نسبة في تفسير الطبري 7/ 79 . [. . . . .]

يريد : من أقطارها .

فإذا أقام الوليان مقام الذّمّيين لليمين ، حلفا باللّه لقد ظهرنا على خيانة الذميين وكذبهما وتبديلهما ، وما اعتدينا عليهما ، ولَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهما أي : أصحّ لكفرهما وإيماننا .

(186/482)

فإذا حلف الوليان على ما ظهرا عليه ، رجع على الذّمّيين بما اختانا ، ونقض ما مضى عليه الحكم بشهادتهما .

ثم قال سبحانه : ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أي : هذا الحكم أقرب بهم إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، يعني أهل الذمة أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ على أولياء الميت بَعْدَ أَيْمانِهِمْ فيحلّفوا على خيانتهم وكذبهم ، فيفضحوا ، أو يغرّموا .

وأكثر العلماء يذهب إلى أن هذا باب من الحكم (محكم) وأنه لم ينسخ من سورة المائدة شيء ، لأنها آخر ما نزل .

وبعضهم يذهب إلى أنه منسوخ بقوله سبحانه :

وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ [البقرة: 282].

في سورة الروم

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) [الروم: 28].

هذا مثل ضربه اللّه لمن جعل له شركاء من خلقه، فقال قبل المثل: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27] يريد: إعادته على المخلوق أهون من ابتدائه، لأنه ابتدأه في الرحم نطفة، وعلقة، ومضغة، وإعادته تكون بأن يقول له: كُنْ فَيَكُونُ [الأنعام: 73] فذلك أهون على المخلوق من النشأة الأولى. كذلك قال ابن عباس في رواية أبي صالح.

وإن جعلته للّه، جعلت أهون بمعنى: وهو هيّن عليه، أي سهل عليه.

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى [الروم: 27] يعني: شهادة أن لا إله إلا اللّه.

(187/482)

ثم ضرب المثل فقال : ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ وذلك أقرب عليكم هل لكم من شركاء من عبيدكم الذين تملكون فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ وعبيدكم سَواءٌ يأمرون فيه كأمركم ، ويحكمون كحكمكم ، وأنتم تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أي كما يخاف الرجل الحرّ شريكه الحرّ في المال يكون بينهما ، فلا يأمر فيه بشيء دون أمره ، ولا يمضي فيه عطيّة بغير إذنه .

وهو مثل قوله : وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ [الحجرات : 11] أي لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين .

وقوله : ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً [النور : 12] أي بأمثالهم من المؤمنين .

يقول : فإذا كنتم أنتم بهذه المنزلة فيما بينكم وبين أرقائكم ، فكيف تجعلون للّه من عبيده شركاء في ملكه ؟

ومثله قوله وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فجعل منكم المالك والمملوك فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا يعني : السادة بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ [النحل : 71] من عبيدهم حتى يكونوا فيه شركاء . يريد : فإذا كان هذا لا يجوز بينكم ، فكيف تجعلونه للّه ؟ .

في سورة النحل

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً [النحل : 75] .

هذا مثل ضربه اللّه لنفسه ولمن عبد دونه ، فقال : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ

عَلى شَيْءٍ فهذا مثل من جعل إلها دونه أو معه لأنه عاجز مدبّر ، مملوك لا يقدر على نفع ولا ضرّ .

ثم قال : وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ [النحل : 75] .

فهذا مثله جل وعز لأنه الواسع الجواد القادر ، الرّازق عباده جهرا من حيث يعلمون ، وسرا من حيث لا يعلمون .

(188/482)

وقال بعض المفسرين : هو مثل للمؤمن ، والكافر . فالعبد : هو الكافر ، والمرزوق : هو المؤمن .

والتفسير الأول أعجب إليّ ، لأن المثل توسّط كلامين هما للّه تعالى أمّا (الأوّل)

فقوله : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73) [النحل : 73] .

فهذا للّه ومن عبد من دونه .

وأمّا الآخر فقوله بعد انقضاء المثل : فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

(74) [النحل : 74] .

ولأنه ضرب لهذا المعنى مثلا آخر بعقب هذا الكلام فقال : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ أي : أخرس لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أي : عيال وثقل على قرابته ووليّه أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ [النحل : 76] .

فهذا مثل آلهتهم ، لأنها صمّ بكم عمي ، ثقل على من عبدها ، في خدمتها والتّعبّد لها ، وهي لا تأتيه بخير .

ثم قال : هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [النحل : 76] فجعل هذا المثل لنفسه .

في سورة النحل أيضا

وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ [النحل : 92] .

هذا مثل لمن عاهد اللّه وحلف به ، فقال تعالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها [النحل : 91] فتكونوا إن فعلتم كامرأة غزلت غزلا وقوّت مرّته وأبرمته ، فلما استحكم نقضته ، فجعلته أنكاثا .

والأنكاث : ما نقض من أخلاق بيوت الشعر والوبر ليغزل ثانية ويعاد مع الجديد ، وكذلك ما نقض من خلق الخزّ .

ومنه قيل لمن أعطاك بيعته على السمع والطاعة ثم خرج عليك : ناكث ، لأنه نقض ما وكّد على نفسه بالإيمان والعهود ، كما تنقض النّاكثة غزلها .

ثم قال : تَتَّخِذُونَ أَيمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ . أي : دغلا وخيانة وحيلا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ أي : لأن يكون قوم أغنى من قوم ، وقوم أعلى من قوم ، تريدون : أن تقتطعوا بأيمانكم حقوقا لهؤلاء ، فتجعلوها لهؤلاء .

وقال المفسرون في التي نقضت غزلها : هي امرأة من قريش وكانت حمقاء ، فكانت تغزل الغزل من الصوف والشّعر والوبر بمغزل في غلظ الذّراع ، وصنّارة في قدر الإصبع ، وفلكة عظيمة ، فإذا أحكمته أمرت خادمها فنقضته .

في سورة الصافات

إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) [الصافات : 64، 65] .

طلعها : ثمرها ، سمّي طلعا لطلوعه كلّ سنة ، ولذلك قيل : طلع النخل ، لأوّل ما يخرج من ثمره ، فإذا انتقل عن ذلك فصار في حال أخرى ، سمى باسم آخر .

والشياطين : حيّات خفيفات الأجسام قبيحات المناظر .

قال الشاعر وذكر ناقة "1" :

تلاعب مثنى حضرميّ كأنّه تعمّج شيطان بذي خروع قفر

يعني : زماما ، شبّه تلوّيه بتلوّي الحيّة .

وقال آخر "2" :

عجيّز تحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف

والحماط : شجر . والعرب تقول إذا رأت منظرا قبيحا : كأنه شيطان الحماط .

يريدون حيّة تأوي في الحماط ، كما يقولون : أيم "3" الضّال ، وذئب الغضى ، وأرنب خلّة ، وتيس حلّب ، وقنفذ برقة .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لطرفة بن العبد في الحيوان 4/ 133 ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في لسان العرب (حبب) ، (عمج) ، (خرع) ، (شطن) ، (ثنى) ، ومقاييس اللغة 2/ 28 ، 3/ 148 ، 4/ 137 ، ومجمل اللغة 2/ 30 ، وديوان الأدب 2/ 60 ، 440 ، والمخصص 7/ 110 ، 8/ 109 ، وتاج العروس (حبب) ، (خرع) ، (ثنى) .

(2) يروى الشطر الأول من الرجز بلفظ :

عنجرد تحلف حين أحلف والرجز بلا نسبة في لسان العرب (عنجرد) ، (حمط) ، (شطن) ، (حيا) ، وتهذيب اللغة 3/ 370 ، 4/ 402 ، 11/ 313 ، وتاج العروس

(عجرد) ، (عنجرد) ، (عرف) ، (شطن) ، (حيي) ، وديوان الأدب 2/ 60 ، 95 .

(3) الأيم والأيم ، بسكون الياء وتشديدها مثل : هين وهيّن : الحية الأبيض اللطيف ، وعمّ به بعضهم جميع ضروب الحيات .

(190/482)

وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد الشياطين بأعيانها . شبّه ثمر هذه الشجرة في قبحه ، برؤوسها ، وهي إن لم تر ، فإنّها موصوفة بالقبح ، معروفة به .

في سورة النساء

وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (78) ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ [النساء : 78 ، 79] .

الحسنة ها هنا : الخصب والمطر . يقول : إن أصابهم خصب وغيث قالوا : هذا من عند اللّه .

والسيئة : الجدب والقحط . يقول : وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . أي بشؤمك ، يقول اللّه تعالى : قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

ومثل هذا قوله حكاية عن فرعون وملئه : فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ [الأعراف : 131] يريد إذا جاءهم الخصب والمطر قالوا : هذا هو ما لم نزل نتعرّفه .

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ [الأعراف : 131] أي يتشاءمون بهم .

أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ [الأعراف : 131] أي ما تطيّروا بموسى - لمجيئه - من عند اللّه .

(191/482)

ونحو قوله : وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها أي : خصبا وخيرا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أي جدب وقحط بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أي بذنوبهم إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ [الروم : 36] .

ثم قال : ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ أي من خير فَمِنَ اللَّهِ ، وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ أي من شر فَمِنْ نَفْسِكَ [النّساء : 79] أي بذنبك . الخطاب للنبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، والمراد غيره ، على ما بيّنت في باب الكناية .

في سورة يونس

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا

فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) [يونس : 11] .

يريد أن الناس عند الغضب وعند الضّجر ، قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وبالخزي وتعجيل البلاء ، كما قد يدعونه بالرزق والرحمة وإعطاء السّؤل .

يقول : فلو أجابهم اللّه إذا دعوه بالشر الذي يستعجلونه استعجالهم بالخير – لقضي إليهم أجلهم ، أي لهلكوا .

وفي الكلام حذف للاختصار ، كأنه قال : ولو يعجّل اللّه للنّاس إجابتهم بالشر الذي يستعجلونه استعجالهم بالخير ، لهلكوا .

في سورة هود

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17) [هود : 17] .

هذا كلام مردود إلى ما قبله ، محذوف منه الجواب للاختصار ، على ما بيّنا في (باب المجاز) .

وإنما ذكر اللّه تعالى قبل هذا الكلام قوما ركنوا إلى الدنيا ورضوا بها عوضا من الآخرة فقال :

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15) [هود : 15] .

أي نؤتيهم ثواب أعمالهم في الدنيا ، إذ كان عملهم لها وطلبهم ثوابها ، وليس لهم في الآخرة إلا النار .

وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها أي ذهب وبطل ، لأنهم لم يريدوا اللّه بشيء منه .

ثم قايس بين هؤلاء وبين النبي صلّى اللّه عليه وسلم وصحابته فقال : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ يعني محمدا ، صلّى اللّه عليه وسلم . وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ أي من ربّه . (الهاء) مردودة إلى اللّه تعالى .

والشاهد من اللّه تعالى للنبي ، صلّى اللّه عليه وسلم : جبريل عليه السلام ، يريد أنه يتبعه ويؤيّده ويسدّده ويشهده .

ويقال : الشاهد : (القرآن) يَتْلُوهُ يكون بعده تاليا شاهدا له .

وهذا أعجب إليّ ، لأنّه يقول : وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى يعني التوراة .

إِماماً وَرَحْمَةً قبل القرآن يشهد له بما قدّم اللّه فيها من ذكره .

والجواب ها هنا محذوف . أراد أفمن كانت هذه حاله كهذا الذي يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم ، إذ كان فيه دليل عليه .

ومثله قوله : أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ، ولم يذكر الذي هو ضده ؟ لأنه قال بعد : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [الزمر : 9] .

فالقانتون آناء الليل والنهار هم الذين يعلمون ، وأضدادهم ، هم الذين لا يعلمون ، فاكتفى من الجواب بما تأخّر من القول ، إذ كان فيه دليل عليه .

وقوله : أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، يعني أصحاب محمد ، صلّى اللّه عليه وسلم ، يؤمنون بهذا .

(193/482)

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ ، يعني مشركي العرب وغيرهم . فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، أي في شك . إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، الخطاب للنبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، والمراد غيره ، على ما بينا في (باب الكناية) .

في سورة الأنعام

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ

بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) [الأنعام: 154].

أراد: آتينا موسى الكتاب تماما على المحسنين، كما تقول: أوصي بمالي للذي غزا وحج، تريد الغازين الحاجّين، ويكون (الذي) في موضع (من) كأنه قال: تماما على من أحسن.

والمحسنون: هم الأنبياء، صلوات اللّه عليهم أجمعين، والمؤمنون. و(على) في هذا الموضع بمعنى (لام الجر) كما يقال: أتمّ اللّه عليه وأتمّ له قال الرّاعي "1":

رعته أشهرا وخلا عليها فطار النّيّ فيها واستغارا

أراد: وخلا لها.

وتلخيصه: آتينا موسى الكتاب تتميما منّا للأنبياء وللمؤمنين - الكتب.

---

(1) البيت من الوافر، وهو للراعي النميري في ديوانه ص 142، وخزانة الأدب 10/ 140، 142، ولسان العرب (غور)، (خلا).

وَتَفْصِيلًا مِنّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً.

وقد يكون أن تجعل (الذي) بمعنى (ما) أي آتينا موسى الكتاب تماما على أحسن من العلم والحكمة وكتب اللّه المتقدمة. وأراد بقوله: تَماماً على ذلك، أي زيادة على ذلك.

والتأويل الأول أعجب إليّ ، لأنه في مصحف عبد اللّه : تماما على الذين أحسنوا . وفي هذا ما دل على ذلك التأويل .

وقد ينصرف أيضا إلى معنى آخر ، كأنه قال : آتيناه الكتاب إتماما منّا للإحسان على من أحسن .

في سورة المائدة

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (33) [المائدة : 33] .

المحاربون للّه ورسوله : هم الخارجون على الإمام وعلى جماعة المسلمين ، يخيفون السّبل ، ويسعون في الأرض بالفساد . وهم ثلاثة أصناف :

رجل قتل النفس ولم يأخذ مالا .

ورجل قتل النفس وأخذ المال .

ورجل أخذ المال ولم يقتل النفس .

فإذا قدر الإمام عليهم فإنّ بعضهم يقول : هو مخيّر في هذه العقوبات ، بأيّها شاء عاقب كل صنف منهم .

وكان بعضهم يجعل لكل صنف منهم حدّا لا يتجاوزه إلى غيره :

فمن قتل النفس ولم يأخذ المال قتل ، لأن النفس بالنفس .

ومن قتل وأخذ المال : صلب إلى أن يموت ، فكان الشّهر له بالصّلب جزاء له بأخذه المال ، وقتله جزاء له بقتله للنفس .

ومن أصاب المال ولم يقتل ، فإن شاء الإمام قطع يده اليمنى جزاء بالسّرق ، ورجله اليسرى جزاء بالخروج والمجاهرة بالفساد . وإن شاء نفاه من الأرض .

(195/482)

وقد اختلفوا في نفيه من الأرض ، فقال بعضهم : هو أن يقال : من لقيه فليقتله .

وقال آخر : هو أن يطلب في كل أرض يكون بها .

وقال آخر : هو أن ينفى من بلده .

وقال آخر : هو أن يحبس .

قال أبو محمد :

ولا أرى شيئا من هذه التفاسير ، أشبه بالنفي في هذا الموضع من الحبس ، لأنّه إذا حبس ومنع من التصرّف والتقلّب في البلاد ، فقد نفي منها كلّها وألجئ إلى مكان واحد . وقال بعض المسجونين "1" :

خرجنا من الدّنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

إذا جاءنا السّجّان يوما لحاجة عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدّنيا

ومن جعل النفي له أن يقال : من لقيه فليقتله ، أو أن يطلب في كل أرض يكون بها – فإنه يذهب – فيما أحسب – إلى أنّ هذا جزاؤه قبل أن يقدر عليه ، لأنّه لا يجوز أن يكون الإمام يظفر به فيدع عقوبته ثم يقول : من لقيه فليقتله . أو يجده فيتركه ثم يطلبه في كل أرض .

وإذا كان هذا هكذا اختلفت العقوبات فصار بعضها لمن قدر عليه ، وبعضها لمن لم يقدر عليه . وأشبه الأشياء أن تكون كلّها فيمن ظفر به .

وأما نفيه من بلده إلى غيره ، فليس نفي الخارب "2" من بلده إلى غيره عقوبة له ، إذ كان في خرابته وخروجه غائبا عن مصره ، بل هو إهمال وتسليط وبعث على التّزيّد في العيث والفساد .

في سورة الأنبياء

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) [الأنبياء : 87] .

---

(1) البيتان من الطويل ، وهما لصالح بن عبد القدوس في أمالي المرتضى 1/ 101 ، وبلا

نسبة في عيون الأخبار 1/ 81 - 82 ، والمحاسن والأضداد ص 38 .

(2) الخارب : اللّص .

(196/482)

يستوحش كثير من الناس من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوبا ، ويحملهم التنزيه لهم ، صلوات اللّه عليهم ، على مخالفة كتاب اللّه جلّ ذكره ، واستكراه التأويل ، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة التي لا تخيل عليهم ، أو على من علم منهم - أنّها ليست لتلك الألفاظ بشكل ، ولا لتلك المعاني بلفق .

كتأوّلهم في قوله تعالى : وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى [طه : 121] أي : بشم من أكل الشجرة .

وذهبوا إلى قول العرب : غوى الفصيل : إذا أكثر من اللبن حتى يبشم . وذلك غوى - بفتح الواو - يغوي غيّا . وهو من البشم غوي - بكسر الواو - يغوى غوى . قال الشاعر يذكر قوسا "1" :

معطّفة الأثناء ليس فصيلها برازئها ذرّا ولا ميّت غوى

وأراد بالفصيل : السّهم . يقول : ليس يرزؤها درّا ، ولا يموت بشما ، ولو وجد أيضا في (عصى) مثل هذا السّنن لركبوه ، وليس في (غوى) شيء إلا ما في (عصى) من معنى

الذّنب ، لأن العاصي للّه التّارك لأمره غاو في حاله تلك ، والغاوي عاص . والغيّ ضدّ الرّشد ، كما أن المعصية ضد الطاعة .

وقد أكل آدم ، صلّى اللّه عليه وسلم ، من الشجرة التي نهي عنها باستزلال إبليس وخدائعه إيّاه باللّه والقسم به إنه لمن الناصحين ، حتى دلّاه بغرور "2" . ولم يكن ذنبه عن إرصاد "3" وعداوة وإرهاص "4" كذنوب أعداء اللّه . فنحن نقول : (عصى وغوى) ، كما قال اللّه تعالى ، ولا نقول : آدم (عاص ولا غاو) ، لأن ذلك لم يكن عن اعتقاد متقدّم ولا نيّة صحيحة ، كما تقول لرجل قطع ثوبا وخاطه : قد قطعه وخاطه ، ولا تقل خائط ولا خيّاط حتى يكون معاودا لذلك الفعل ، معروفا به .

وكتأولهم في قوله سبحانه : وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها أنها همّت بالمعصية ، وهمّ بالفرار منها ! وقال (بعضهم) : وهمّ بضربها ! واللّه تعالى يقول : لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ [يوسف : 24] . أفتراه أراد الفرار منها . أو الضرب لها ، فلما رأى البرهان أقام

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لعامر المجنون في تاج العروس (غوي) (ولعله عامر بن المجنون الجرمي المذكور في الأغاني 3/ 109 ، 122 ، وكان يلقب بمدرج الريح) . والبيت بلا نسبة في لسان العرب (غوي) ، وتهذيب اللغة 8/ 218 ، ومقاييس اللغة 4/ 400 ، والمخصص 7/ 41 ، 180 ، 15/ 162 ، وديوان الأدب 4/ 97 .

(2) دلاه بغرور : أي أوقعه فيما أراد من تغريره .

(3) الإرصاد : الإعداد .

(4) الإرهاص على الذنب : الإصرار عليه .

(197/482)

عندها وأمسك عن ضربها ؟ ! هذا ما ليس به خفاء ولا يغلط متأوّله . ولكنها همّت منه بالمعصية همّ نيّة واعتقاد ، وهمّ نبي اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، همّا عارضا بعد طول المراودة ، وعند حدوث الشهوة التي أتي أكثر الأنبياء في هفواتهم منها .

وقد روي في الحديث : أنه ليس من نبي إلا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة غير يحيى بن زكريا ، عليهما السلام

، لأنّه كان حصورا لا يأتي النساء ولا يريدهنّ "1" . فهذا يدلّك على أنّ أكثر زلّات الأنبياء من هذه الجهة ، وإن كانوا لم يأتوا في شيء منها فاحشة ، بنعم اللّه عليهم ومنّه ، فإن الصغير منهم كبير ، لما آتاهم اللّه من المعرفة .

واصطفاهم له من الرسالة ، وأقام عليهم من الحجّة . ولذلك قال يوسف ، صلّى اللّه عليه وسلم : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [يوسف : 53] ، يريد ما أضمره وحدّث به نفسه عند حدوث الشّهوة . وقد وضع اللّه تعالى الحرج عمّن همّ بخطيئة ولم يعملها .

وقالوا في قوله : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً : إنه غاضب قومه ! استيحاشا من أن يكون مع تأييد اللّه وعصمته وتوفيقه وتطهيره ، يخرج مغاضبّا لربّه . ولم يذهب مغاضبا لربّه ولا لقومه ، لأنّه بعث إليهم فدعاهم برهة من الدّهر فلم يستجيبوا ، ووعدهم عن اللّه فلم يرغبوا ، وحذّرهم بأسه فلم يرهبوا ، وأعلمهم أنّ العذاب نازل عليهم لوقت ذكره لهم ، ثم إن اعتزلهم ينتظر هلكتهم . فلما حضر الوقت أو قرب فكّر القوم واعتبروا ، فتابوا إلى اللّه وأنابوا ، وخرجوا بالمراضيع وأطفالها يجأرون ويتضرّعون ، فكشف اللّه تعالى عنهم العذاب ، ومتّعهم إلى حين .

فإن كان نبي اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، ذهب مغاضبا على قومه قبل أن يؤمنوا ، فإنما راغم من استحق في اللّه أن يراغم ، وهجر من وجب أن يهجر ، واعتزل من علم أن قد حقّت عليه كلمة العذاب . فبأيّ ذنب عوقب بالتهام الحوت ، والحبس في الظّلمات ، والغمّ الطويل ؟ .

---

(1)

أخرجه أحمد في المسند 1/ 254 ، 292 ، 295 ، 301 ، 320 ، بلفظ : عن ابن عباس : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو همّ بخطيئة ، ليس يحيى بن زكريا" .

وروي الحديث بلفظ : عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : "كل بني

آدم يلقى اللّه بذنب ، وقد يعذبه عليه إن شاء ، أو يرحمه ، إلا يحيى بن زكريا ، فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين" ، وأهوى النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : "ذكره مثل هذه القذاة" .

أخرجه الحاكم في المستدرك 2/ 373 ، وابن الجوزي في زاد المسير 1/ 383 ، والسيوطي في الدر المنثور 4/ 262 ، والشوكاني في الفوائد المجموعة 397 ، وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث 1835 ، 1913 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 32428 ، والطبري في تفسيره 6/ 377 - 378 ، والهيثمي في مجمع الزوائد 8/ 209 .

(198/482)

و ما الأمر الذي ألام فيه فنعاه اللّه عليه إذ يقول : فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) [الصافات : 142] والمليم : الذي أجرم جرما استوجب به اللّوم .

ولم أخرجه من أولي العزم من الرّسل ، حين يقول لنبيه ، صلّى اللّه عليه وسلم : فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) [القلم : 48] .

وإن كان الغضب عليهم بعد أن آمنوا ، فهذا أغلظ مما أنكروا ، وأفحش مما استقبحوا ،

كيف يجوز أن يغضب على قومه حين آمنوا ، ولذلك انتخب وبه بعث ، وإليه دعا ؟ ! .

وما الفرق بين عدو اللّه ووليّه إن كان وليّه يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون ؟ .

والقول في هذا أنّ المغاضبة : المفاعلة من الغضب ، والمفاعلة تكون من اثنين ، تقول : غاضبت فلانا مغاضبة وتغاضبنا : إذا غضب كلّ واحد منكما على صاحبه ، كما تقول : ضاربته مضاربة ، وقاتلته مقاتلة ، وتضاربنا وتقاتلنا .

وقد تكون المفاعلة من واحد ، فنقول : غاضبت من كذا : أي غضبت ، كما تقول : سافرت وناولت ، وعاطيت الرّجل ، وشارفت الموضع ، وجاوزت ، وضاعفت ، وظاهرت ، وعاقبت .

ومعنى المغاضبة هاهنا : الأنفة ، لأن الأنف من الشيء يغضب ، فتسمّى الأنفة غضبا ، والغضب أنفة ، إذا كان كل واحد بسبب من الآخر ، تقول : غضبت لك من كذا ، وأنت تريد أنفت ، قال الشاعر "1" :

غضبت لكم أن تساموا اللّفاء بشجناء من رحم توصل

يروى مرة : (أنفت لكم) ، ومرة : (غضبت لكم) ، لأنّ المعنيين متقاربان .

وكذلك (العبد) أصله : الغضب . ثم قد تسمّى الأنفة عبدا .

وقال الشاعر "2" :

وأعبد أن تهجى تميم بدارم

---

(1) البيت من المتقارب ، وهو لخداش بن زهير في المعاني الكبير 1/ 528 .

(2) صدر البيت : أولئك قومي إن هجوني هجوتهم وتقدم البيت مع تخريجه قبل قليل .

(199/482)

يريد : آنف .

وحكى أبو عبيد ، عن أبي عمرو ، أنه قال في قوله تعالى : فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ [الزخرف : 81] : هو من الغضب والأنفة . ففسّر الحرف بالمعنيين لتقاربهما .

فكأنّ نبيّ اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، لمّا أخبرهم عن اللّه أنّه منزل العذاب عليهم لأجل ، ثم بلغه بعد مضيّ الأجل أنّه لم يأتهم ما وعدهم - خشي أن ينسب إلى الكذب ويعيّر به ، ويحقّق عليه ، لا سيّما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعها إيمانها غير قومه ، فدخلته الأنفة والحميّة ، وكان مغيظا بطول ما عاناه من تكذيبهم وهزئهم وأذاهم واستخفافهم بأمر اللّه ، مشتهيا لأن ينزل بأس اللّه بهم . هذا إلى ضيق صدره ، وقلّة صبره على ما صبر على مثله أولوا العزم من الرّسل .

وقد روي في الحديث أنه كان ضيّق الصدر ، فلما حمّل أعباء النّبوّة تفسّخ تحتها تفسّخ الرّبع تحت الحمل الثّقيل ، فمضى على وجهه مضيّ الآبق النّادّ .

يقول اللّه سبحانه : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) [الصافات : 139 ، 140] .

فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، أي لن نضيّق عليه ، وأنّا نخلّيه ونهمله . والعرب تقول : فلان مقدّر عليه في الرزق ، ومقتّر عليه ، بمعنى واحد ، أي مضيّق عليه . ومنه قوله تعالى : وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ [الفجر : 16] . وقدر - بالتخفيف والتثقيل - قال أبو عمرو بن العلاء : قتر وقتّر وقدر وقدّر ، بمعنى واحد ، أي ضيّق . فعاقبه اللّه عن حميّته وأنفته وإباقته ، وكراهيته العفو عن قومه ، وقبول إنابتهم - بالحبس له ، والتّضييق عليه في بطن الحوت .

وفي رواية أبي صالح : أن ملكا من ملوك بني إسرائيل كان أمره بالمسير إلى نينوى ليدعو أهلها بأمر شعياء النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فأنف من أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير اللّه تعالى ، فخرج مغاضبا للملك ، فعاقبه اللّه بالتقام الحوت .

قال : فلما قذفه الحوت بعثه اللّه إلى قومه فدعاهم . وأقام بينهم حتى آمنوا .

في سورة يوسف

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ [يوسف : 110].

قد تكلم المفسرون في هذه الآية بما فيه مقنع وغناء عن أن يوضّح بغير لفظهم :

فروى عبد الرّزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، أنه قال : اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ من قومهم وَظَنُّوا أي : علموا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا وكان يقرؤها بالتشديد .

وروى عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن الزّهري ، عن عروة ، عن عائشة أنها قالت : استيئس الرّسل ممن كذّبهم من قومهم أن يصدّقوهم ، وظنّت الرّسل أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر اللّه عند ذلك . وكانت تقرأ فكذبوا بضم الكاف وتشديد الذال .

(201/482)

وروى حجّاج ، عن ابن جريج : عن ابن أبي مليكة ، عن عروة ، عن (عائشة) ، أنها قالت : لم يزل البلاء بالرّسل حتى خافوا أن يكون من معهم من المؤمنين قد كذّبوهم .

وروى حجّاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد أنه قرأها قَدْ كُذِبُوا بفتح الكاف والذال وتخفيف الذال ، يريد : حتى إذا استيئس الرسل من إيمان قومهم فظنّ قومهم أنّ الرّسل قد

كذبوا فيما بلّغوا عن اللّه عز وجل .

وروى حجّاج ، عن ابن جريج ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس أنه قرأ :

كُذِبُوا بضم الكاف ، وكسر الذال ، وتخفيفها . وقال : كانوا بشرا ، يعني الرسل ، يذهب إلى أن الرسل ضعفوا فظنّوا أنهم قد أخلفوا .

وهذه مذاهب مختلفة ، والألفاظ تحتملها كلّها ، ولا نعلم ما أراد اللّه عز وجل ، غير أنّ أحسنها في الظاهر ، وأولاها بأنبياء اللّه صلوات اللّه عليهم ، ما قالت أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها .

في سورة لإيلاف قريش

يذهب بعض الناس إلى أنّ هذه السورة وسورة الفيل واحدة .

وبلغني عن ابن عيينة "1" أنه قال : كان لنا إمام بالكوفة يقرأ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) [الفيل : 1] وِلِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) [قريش : 1] ولا يفرّق بينهما .

وتوهّم القوم أنهما سورة واحدة ، لأنهم رأوا قوله : لِإِيلافِ قُرَيْشٍ مردودا إلى كلام في سورة الفيل .

---

(1) ابن عيينة : هو سفيان بن عيينة ، تقدمت ترجمته . [. . . . .]

وأكثر الناس على أنهما سورتان ، على ما في مصحفنا ، وإن كانتا متّصلتي الألفاظ ، على مذهب العرب في التضمين .

والمعنى أنّ قريشا كانت بالحرم آمنة من الأعداء أن تهجم عليها فيه ، وأنّ يعرض لها أحد بسوء إذا خرجت منه لتجارتها . وكانوا يقولون : قريش سكان حرم اللّه ، وأهل اللّه وولاة بيته . والحرم واد جديب لا زرع فيه ولا ضرع ، ولا شجر ولا مرعى ، وإنما كانت تعيش فيه بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان في كل سنة : رحلة إلى اليمن في الشتاء ، ورحلة في الصيف إلى الشام . ولولا هاتان الرّحلتان لم يمكن به مقام ، ولولا الأمن بجوارهم البيت ، لم يقدروا على التصرّف .

فلمّا قصد أصحاب الفيل إلى مكة ليهدموا الكعبة وينقلوا أحجارها إلى اليمن فيبنوا به هناك بيتا ينتقل به الأمن إليهم ، ويصير العزّ لهم ، أهلكهم اللّه سبحانه ، لتقيم قريش بالحرم ، ويجاوروا البيت ، فقال يذكر نعمته : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5) [الفيل : 1 ، 5] . لِإِيلافِ قُرَيْشٍ [قريش : 1] . أي : فعل ذلك ليؤلّف قريشا هاتين الرّحلتين اللّتين بهما تعيشهم ومقامهم بمكة تقول : ألفت موضع كذا : إذا لزمته ، وآلفنيه اللّه ، كما تقول : لزمت موضع كذا ، وألزمنيه اللّه .

وكرّر (الإيلاف) كما تقول في الكلام : أعطيتك المال لصيانة وجهك صيانة عن كلّ الناس ، فتكرّر الكلام للتوكيد ، على ما بينا في (باب التكرار) .

ثم أمرهم بالشكر فقال : فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ [قريش : 3 ، 4] في هذا الموضع الجديب من الجوع ، وآمنهم فيه ، والناس يتخطّفون حوله من الخوف .

في سورة النحل

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (48) [النحل : 48] .

(203/482)

تفيؤ الظّلال : رجوعها من جانب إلى جانب ، فهي مرة تجاه الشّخص ، ومرة وراءه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن شماله .

وأصل الفيء : الرّجوع ، ومنه قيل للظل في العشيّ : فيء ، لأنه فاء ، أي رجع من جانب إلى جانب . ومنه الفيء في الإيلاء إنما هو : الرّجوع إلى المرأة .

وأصل السجود : التطأطؤ والميل ، يقال : سجد البعير وأسجد : إذا طؤطىء ليركب ،

وسجدت النّخلة : إذا مالت . قال : لبيد يصف نخلا "1" :

غلب سواجد لم يدخل بها الحصر فالغلب : الغلاظ الأعناق . والسّواجد : الموائل .

ومن هذا قيل لمن وضع جبهته بالأرض : ساجد ، لأنه تطامن في ذلك . ثم قد يستعار السجود فيوضع موضع الاستسلام والطاعة والذّل ، كما يستعار التطأطؤ والتّطامن فيوضعان موضع الخشوع والخضوع والانقياد والذل ، فيقال : تطامن للحق ، أي أخضع له ، وتطأطأ لها تخطّك ، أي تذلّل لها ولا تعزّز .

ومن الأمثال المبتذلة : اسجد للقرد في زمانه "2" . يراد : اخضع للسّفلة واللئيم في دولته ، ولا يراد معنى سجود الصلاة . قال الشاعر "3" :

بجمع تضلّ البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجّدا للحوافر

يريد أن حوافر الخيل قد قلعت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت . ومن خلق اللّه عز وجل : المسخّر المقصور على فعل واحد ، كالنّار شأنها الإحراق ، والشمس والقمر شأنهما المسير الليل والنّهار دائبين ، والفلك المسخّر للدّوران .

ومنه المسخّر لمعنيين ، ثم هو مخيّر بينهما ، كالإنسان في الكلام والسكوت ، والقيام والقعود ، والحركة والسكون . والشمس والظلّ ، خلقان مسخّران لأن يعاقب كلّ

---

(1) صدر البيت : بين الصفا وخليج العين ساكنة والبيت من البسيط ، وهو للبيد بن ربيعة في ديوانه ص 60 ، وتاج العروس (سجد) ، (شمذ) ، وتهذيب اللغة 3/ 48 ،

572/10 ، 336/11 ، والمخصص 113/11 ، 114 ، ولسان العرب (سجد) . وفيه : "الخصر" بدل : "الحصر" . والبيت بلا نسبة في لسان العرب (عوج) ، (شمذ) .

(2) هو جزء من رجز ، وتمامه :

فإن تلقاك بقيروانه أو خفت بعض الجور من سلطانه

فاسجد لقرد السوء في زمانه والرجز بلا نسبة في لسان العرب (قرا) ، وتاج العروس (قرا) .

(3) البيت من الطويل ، وهو لزيد الخيل الطائي في الكامل 1/ 358 ، والأغاني 16/ 52 ، ومجموعة المعاني ص 192 ، ، ومجمع البيان 1/ 141 ، وتفسير الطبري 1/ 289 ، ولعروة بن زيد في الوساطة ص 435 ، وبلا نسبة في تفسير الطبري 1/ 238 ، والأضداد لابن الأنباري ص 257 ، وكتاب الصناعتين ص 221 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 224 ، والأزمنة والأمكنة 1/ 35 ، ولسان العرب (سجد) ، وتفسير البحر المحيط 1/ 51 .

واحد منهما صاحبه بغير فصل .

والظلّ في أول النهار قبل طلوع الشمس يعمّ الأرض كما تعمّها ظلمة الليل ، ثم تطلع الشمس فتعمّ الأرض إلا ما سترته الشّخوص ، فإذا ستر الشّخص شيئا عاد الظّل .

فرجوع الظلّ بعد أن كان شمسا ، ودورانه من جانب إلى جانب - هو سجوده ، لأنه مستسلم منقاد مطيع بالتّسخير ، وهو في ذلك يميل ، والميل : سجود .

وكذلك قوله : وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) [الرحمن : 6] ، أي يستسلمان للّه بالتّسخير .

وقوله : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15) [الرعد : 15] ، أي يستسلم من في السموات من الملائكة ، ومن في الأرض من المؤمنين طوعا ، ويستسلم من فى الأرض من الكافرين كرها من خوف السيف .

وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ مستسلمة .

(205/482)

وهو مثل قوله : وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [آل عمران : 83] .

في سورة ويل لكل همزة

نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) [الهمزة : 6 ، 7] .

قوله : تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ أي توفي عليها وتشرف ، ويقال : طلع الجبل واطّلع عليه : إذا علا فوقه .

وخصّ الأفئدة ، لأنّ الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه . فأخبرنا أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون .

وهو كما قال : فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى [طه : 74] يريد أنه في حال من يموت وهو لا يموت .

في سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلم

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22) [محمد : 20 ، 22] .

كان المسلمون إذا بطل الوحي يقولون : هلّا نزل شيء ، تأميلا أن تنزل عليهم بشرى من اللّه وفتح وخير وتخفيف فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ أي محدثة . وسميت المحدثة : محكمة ، لأنها حين تنزل تكون كذلك حتى ينسخ منها شيء .

وهي في حرف عبد اللّه فإذا أنزلت سورة محدثة وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ، أي فرض فيها الجهاد رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي شك ونفاق يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم ، وينظرون نظرا شديدا بتحديق ، وتحديد ، كما ينظر الشّاخص ببصره عند الموت ، من شدّة العداوة . والعرب تقول :

رأيته لمحا باصرا أي نظرا صلبا بتحديق . ونحوه قوله : وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ [القلم : 51] ، أي يسقطونك بشدة نظرهم ، وقد تقدم ذكر هذا .

ثم قال : فَأَوْلى لَهُمْ تهدّد ووعيد . وتمّ الكلام ، ثم قال : طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ وهذا مختصر ، يريد قولهم قبل نزول الفرض : سمع لك وطاعة .

فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ ، أي جاء الجدّ كرهوا ذلك ، فحذف الجواب على ما بينت في باب الاختصار .

ثم ابتدأ فقال : فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ . ثم قال : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ، أي انصرفتم عن النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، وما يأمركم به أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ ، يريد فهل تريدون إذا أنتم تركتم محمدا ، صلّى اللّه عليه وسلم ، وما يأمركم به

- أن تعودوا إلى مثل ما كنتم عليه من الكفر ، والإفساد في الأرض وقطع الأرحام ؟

في سورة ق

(207/482)

وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (24) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) [ق : 21 ، 29] .

السائق هاهنا : قرينها من الشياطين ، سمّي سائقا ، لأنه يتبعها وإن لم يحثّها ويدفعها . وكان رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، يسوق أصحابه ، أي يكون وراءهم .

والشّهيد : الملك الشاهد عليها بما عملت .

يقول اللّه تعالى : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا في الدنيا . فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ

أي : أريناك ما كان مستورا عنك في الدنيا .

فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ أي : فأنت ثاقب البصر لمّا كشف عنك الغطاء .

وَقَالَ قَرِينُهُ يعني : الملك .

هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ يعني : ما كتبه من عمله ، حاضر عندي .

أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ يقال : هو قول الملك ، ويقال : قول اللّه جل ذكره .

وقَالَ قَرِينُهُ من الشياطين : رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ .

وهذا مثل قوله سبحانه : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ [الصافات : 22] يعني :

قرناءهم . والعرب تقول : زوّجت البعير بالبعير ، إذا قرنت أحدهما بالآخر . ومنه قوله :

كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) [الدخان : 54] أي : قرنّاهم بهن .

(208/482)

ثم قال : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31) [الصافات : 27 ، 31] يعني : نحن وأنتم ذائقون العذاب ، وقد تقدم تفسير هذا .

قال اللّه تعالى : لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ [ق : 28] يعني : المجرمين وقرناءهم من الشياطين وَقَدْ

قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ [ق : 28 ، 29] . أي : لا يغيّر عن جهته ، ولا يحرّف ، ولا يزاد فيه ولا ينقص ، لأنّي أعلم كيف ضلّوا وكيف أضللتموهم .

وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [ق : 29] .

في سورة الروم

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ [الروم : 1 ، 5] .

كانت (فارس) غلبت (الروم) على أرض الجزيرة ، وهي أدنى أرض الروم من سلطان فارس ، فسرّ بذلك مشركو قريش .

وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على أهل فارس ، لأن الروم أهل كتاب ، وأهل فارس مجوس ، فساءهم أن غلبوهم على شيء من بلادهم ، فأنزل اللّه تعالى :

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ أي : والروم من بعد أن غلبوا سَيَغْلِبُونَ أهل فارس . وغلبهم يكون للغالبين والمغلوبين جميعا ، كما تقول : والشهداء من بعد قتلهم سيرزقون ، أي : من بعد أن قتلوا فِي بِضْعِ سِنِينَ والبضع : ما فوق الثلاث ودون العشر . فغلبت الروم أهل فارس وأخرجوهم من بلادهم يوم الحديبية .

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ أي : له الغلبة لمن شاء من قبل ومن بعد وَيَوْمَئِذٍ أي : يوم يغلب الروم أهل فارس يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ أهل الكتاب على المجوس .

قال الشّعبي في سورة الفتح : أنزلت بعد الحديبية ، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبايعوه مبايعة الرّضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وظهرت الرّوم على فارس ، وفرح المؤمنون بتصديق كتاب اللّه ، وظهرت الروم على المجوس .

في سورة القصص

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (85) وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [القصص : 85 ، 86] .

معاد الرّجل : بلده ، لأنه يتصرّف في البلاد ، ويضرب في الأرض ثم يعود إلى بلده . يقال : ردّ فلان إلى معاده ، أي ردّ إلى بلده . ومثله قولهم لمنزل الرجل : مثاب ومثابة ، لأنّه يتصرّف في حوائجه ثم يثوب إليه .

وكان رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، حين خرج من مكة إلى المدينة اغتم بمفارقة مكة ، لأنّها مولده وموطنه ومنشؤه ، وبها أهله وعشيرته ، واستوحش . فأخبره اللّه سبحانه في طريقه أنّه سيردّه إلى مكة ، وبشّره بالظهور والغلبة .

وفي الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : إنّ الذي فرض عليك القرآن ، أي جعلك نبيّا ينزل عليك القرآن وما كنت ترجو قبل ذلك أن تكون نبيّا يوحى إليك الكتاب - لرادّك إلى مكة ظاهرا قاهرا . وهو معنى تفسير أبي صالح ومجاهد .

وقال الحسن : معاده : يوم القيامة ووافقه على ذلك الزّهري وروى عبد الرّزّاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : هذا مما كان ابن عباس يكتمه .

في سورة الجن

قال أبو محمد :

(210/482)

في هذه السورة إشكال وغموض : بما وقع فيها من تكرار (إنّ) واختلاف القرّاء في نصبها وكسرها ، واشتباه ما فيها من قول اللّه تعالى وقول الجن ، فاحتجنا إلى تأويل السورة كلّها .

قال تعالى لنبيه : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ وكانوا استمعوا لرسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، وهو يقرأ : فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً [الجن : 1] يعني أنهم قالوا ذلك لقومهم حين رجعوا إليهم . واعتبار هذا قوله : وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ثم قال : فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ [الأحقاف : 29] .

ثم قال : وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3) [الجن : 3] يقال : جدّ فلان في قومه : إذا عظم عندهم .

ثم قال : وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4) [الجن : 4] أي : جاهلنا يقول شططا ، أي : غلوا في الكذب والجور .

ثم قال : وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5) [الجن : 5] .

يقولون : كنا نتوهم أنّ أحدا لا يقول على اللّه باطلا . يريدون : إنّا كنا قبل اليوم نصدّقهم ونحن نظن أن أحدا لا يكذب على اللّه . وانقطع هاهنا قول الجن .

و(إن) في جميع هذا مكسورة إلا (أنّه استمع) .

وقال اللّه تعالى : وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ [الجن : 6] فإن شئت أن تنصب وَأَنَّهُ وتردها إلى قوله : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ ، وأنه أوحى إليّ أنه كان رجال - نصبت . وإن شئت أن تكسرها وتجعلها مبتدأة من اللّه سبحانه ، فعلت .

وكان الرجل في الجاهلية إذا سافر فصار إلى موضع مقفر موحش لا أنيس به ، قال : أعوذ بسيّد هذا المكان من سفهائه . يعني سفهاء الجن ويعني بالسيد : رئيسهم .

(211/482)

يقول اللّه عز وجل : فَزادُوهُمْ رَهَقاً [الجن : 6] يريد أنهم يزدادون بهذا التعوّذ طغيانا وإثما فيقولون : سدنا الجن والإنس .

ثم قال تعالى : وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7) [الجن : 7] يقول : ظن الجن كما ظننتم أيها الإنس أن لا بعث يوم القيامة . أي كانوا لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون به .

وانقطع ها هنا قول اللّه تعالى .

وقال الجن : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) [الجن : 8] .

و(إنّا) مكسورة نسق على ما تقدم من قولهم . يريدون : حرست بالنجوم من استماعنا وكنا قبل ذلك نقعد منها مقاعد للسمع .

وروى عبد الرّزّاق عن معمر أنه قال : قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ فقال : نعم .

قلت : أفرأيت قوله : وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9) [الجن : 9] .

فقال : غلّظت وشدّد أمرها حين بعث النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزّهري ، عن علي بن حسين ، عن ابن عباس أنه قال : بينا النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار ،

فقال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ فقالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم "1" .

في حديث فيه طول اختصرناه وذكرنا هذا منه لندلّ على أن الرجم قد كان قبل مبعثه ولكنه لم يكن مثله الآن في شدة الحراسة قبل مبعثه ، وكانت تسترق في بعض الأحوال ، فلما بعث منعت من ذلك أصلا .

وعلى هذا وجدنا الشعراء القدماء :

قال بشر بن أبي خازم الأسدي وهو جاهلي "2" :

---

(1)

لفظ الحديث بتمامه : عن عبد اللّه بن عباس قال : أخبرني رجل من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم من الأنصار ، أنهم بينا هم جلوس ليلة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رمي بنجم فاستنار . فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : "ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا ؟ " ، قالوا : اللّه ورسوله أعلم ، كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم . فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : "فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه ، إذا قضى أمر سبّح حملة العرش ، ثم سبّح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا . ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال . قال : فيستخبر بعض

أهل السماوات بعضا ، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا ، فتختطف الجن السمع ، فيقذفون إلى أوليائهم ، ويرمون به ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون" . أخرجه مسلم في السلام حديث 124 ، والترمذي في تفسير سورة 34 ، باب 3 ، وأحمد في المسند 1/ 218 .

(2) البيت من الكامل ، وهو لبشر بن أبي حازم في ديوانه ص 37 ، والمعاني الكبير 2/ 739 ، وكتاب الحيوان 6/ 273 ، 279 .

والعير يرهقهما الغبار وجحشها ينقضّ خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر ، وهو جاهلي "1" :

وانقضّ كالدّرّيّ يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

وقال عوف بن الخرع ، وهو جاهلي "2" :

يردّ علينا العير من دون أنفه أو الثّور كالدّرّيّ يتبعه الدّم

وفي أيدي الناس كتب من كتب الأعاجم وسيرهم : تنبىء عن انقضاض النجوم في كلّ عصر وكلّ زمان .

ثم قالت الجن : وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ حين اشتدت حراسة السماء من استراق السمع أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً [الجن : 10] أي خيرا .

(213/482)

ثم قالت الجن : وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ بعد استماع القرآن : وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ أي : منّا بررة أتقياء ، ومنا دون البررة ، وهم مسلمون وكُنَّا طَرائِقَ قِدَداً [الجن : 11] أي : أصنافا ، وكلّ فرقة قدّة ، وهي مثل قطعة في التقدير وفي المعنى ، فكأنّهم قالوا : نحن أصناف وقطع .

ثم قالت الجن : وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ [الجن : 14] أي : الكافرون ، الآية .

وانقطع كلام الجن .

وقال اللّه تعالى : وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16) [الجن : 16] أي : لو آمنوا جميعا لوسّعنا عليهم في الدنيا . وضرب الماء الغدق ، وهو الكثير ، لذلك مثلا ، لأنّ الخير والرّزق كلّه بالمطر يكون ، فأقيم مقامه إذ كان سببه ، على ما أعلمتك في المجاز .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ [الجن : 17] . أي لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم .

وفيه قول آخر ، يقول : وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا [الجن : 16] جميعا على طريقة الكفر : لوسّعنا عليهم وجعلنا ذلك فتنة لهم و(أن) منصوبة منسوقة على ما تقدّم من قوله سبحانه .

---

(1) البيت من الكامل ، وهو لأوس بن حجر في ديوانه ص 3 ، ولسان العرب (درأ) ، وتهذيب اللغة 14/ 158 ، وتاج العروس (درأ) ، والمعاني الكبير 2/ 738 ، وكتاب الحيوان 6/ 274 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لعوف بن الخرع في كتاب الحيوان 6/ 275 ، والمعاني الكبير 2/ 739 .

(214/482)

ثم قال : وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً [الجن : 17] أي يدخله عذابا شاقا .

يقال : سلكت الخيط في الحبّة وأسلكته : إذا أدخلته ، ومنه سمّي الخيط سلكا ، تقول : سلكته سلكا ، فتفتح أوّل المصدر . وتقول للخيط : هذا السّلك ، فتكسر أوّل الاسم ، مثل القطف والقطف .

ومن الصّعد قيل : تصعّدني هذا الأمر ، أي شقّ علي . والصّعود : العقبة الشّاقة .

ومنه قوله : سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) [المدثر : 17] ثم قال سبحانه : وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18) [الجن : 18] بنصب (أنّ) نسق على ما تقدّم من قوله : يريد أنّ السجود للّه ، ولا يكون لغيره ، جمع مسجد ، كما تقول : ضربت في البلاد مضربا بعيدا ، وهذا مضرب بعيد .

ثم قال سبحانه : وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ [الجن : 19] بنصب (أنّ) نسق على ما تقدم من قوله سبحانه . يريد لما قام النبي ، عليه السلام يَدْعُوهُ أي يدعو اللّه كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً يعني الجنّ كادوا يلبدون به ويتراكبون ، رغبة فيما سمعوا منه ، وشهوة له .

ثم قال سبحانه لنبيه عليه السلام : قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ [الجن : 21 ، 27] أي ارتضاء للنّبوّة والرّسالة ، فإنّه يطلعه على ما يشاء من غيبه .

ثم قال : فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً [الجن : 27] أي يجعل بين يديه وخلفه رصدا من الملائكة ، يحوطون الوحي من أن تسترقه الشياطين فتلقيه إلى الكهنة ، حتى تخبر به الكهنة إخبار الأنبياء ، فلا يكون بينهم وبين الأنبياء فرق ، ولا يكون للأنبياء دلالة .

ثم قال : لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ [الجن : 28] أي ليبلّغوا رسالات ربهم .

و(العلم) ها هنا مثله في قوله : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ [آل عمران : 142] يريد : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا تجاهدوا وتصبروا ، فيعلم اللّه ذلك ظاهرا موجودا يجب به ثوابكم ، على ما بينا في غير هذا الموضع .

في سورة البقرة

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ [البقرة : 275] . هذا في يوم القيامة . يريد أنه إذا بعث النّاس من قبورهم خرجوا مسرعين ، يقول اللّه سبحانه : يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) [المعارج : 43] أي يسرعون ، إلّا أكلة الرّبا ، فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ويسقط ، لأنهم أكلوا الرّبا في الدنيا فأرباه اللّه في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم ، فهم ينهضون ويسقطون ، ويريدون الإسراع فلا يقدرون .

في سورة الأحزاب

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (73)

[الأحزاب: 72، 73].

(216/482)

إن اللّه، جلّ ذكره، لما استخلف آدم على ذرّيته، وسلّطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطير والوحش - عهد إليه عهدا أمره فيه ونهاه، وحرّم عليه وأحلّ له، فقبله، ولم يزل عاملا به إلى أن حضرته الوفاة، فما حضرته، صلّى اللّه عليه وسلم، سأل اللّه أن يعلمه من يستخلف بعده، ويقلّده من الأمانة ما قلّده. فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشّرط الذي أخذ عليه من الثّواب إن أطاع، ومن العقاب إن عصى. فأبين أن يقبلنه شفقا من عقاب اللّه.

ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال، فكلّها أباه.

ثم أمره أن يعرضه على ولده، فعرضه عليه فقبله بالشّرط، ولم يتهيّب منه ما تهيبته السماء والأرض والجبال.

إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً لنفسه جَهُولًا بعاقبة ما تقلّد لربّه .

ثم قال لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ أي عرضنا ذلك عليه ليتقلّده ، فإذا تقلّده ظهر نفاق المنافق وشرك المشرك ، فعذّبه اللّه به ، وظهر إيمان المؤمن فتاب اللّه عليه . وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً للمؤمنين رَحِيماً .

هذا قول على مذهب بعض المفسرين .

وفيه قول آخر :

قالوا : الأمانة : الفرائض ، عرضت على السموات والأرض والجبال بما فيها من الثواب والعقاب ، فأبين أن يحملنها ، وعرضت على الإنسان بما فيها من الثواب والعقاب ، فحملها .

والمعنيان في التفسيرين متقاربان .

في سورة الفرقان

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (77) [الفرقان : 77] .

في هذه الآية مضمر وله أشكلت : أي ما يعبأ بعذابكم ربّي لولا ما تدعونه من دونه من الشريك والولد . ويوضّح ذلك قوله : فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً أي يكون العذاب لمن كذّب ودعا من دونه إلها - لازما .

ومثله من المضمر الشاعر "1" :

من شاء دلّى النّفس في هوّة ضنك ، ولكن من له بالمضيق

أراد : ولكن من له بالخروج من المضيق ؟

وقال اللّه تعالى : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً [فاطر : 10] ، أي من كان يريد علم العزّة : لمن هي ؟ فإنها للّه تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 182 . 246 ﴾

(1) البيت من السريع ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (ضيق) ، (دلا) .

(218/482)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/483)

الجزء الرابع والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 7 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 15 ﴾ من نفس السورة

(4/483)

قوله تعالى ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

قيل في جواب من كأنه قال : ماذا قال له ربه الذي أحسن الظن به ؟ : ﴿ يا زكريا إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ نبشرك ﴾ إجابة لدعائك ؛ وقراءة الجماعة غير حمزة بالتشديد أوفق من قراءة حمزة للتأكيد الذي جيء به ، لأن المبشر به لغرابته جدير بالإنكار ﴿ بغلام اسمه يحيى ﴾ ثم وصفه بما عرف به أن مما شرفه به أن ادخر له هذا الاسم فقال : ﴿ لم نجعل له ﴾ فيما مضى ، ولعله أتى بالجار الدال على التبعيض تخصيصاً لزمان بني إسرائيل قومه فقال : ﴿ من قبل سمياً ﴾ فكأنه قيل : ما قال في جواب هذه البشارة العظمى ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ عالماً بصدقها طالباً لتأكيدها ، والتلذيذ بترديدها ، وهل ذلك من امرأته أو غيرها ؟ وهل إذا كان منها يكونان على حالتهما من الكبر أو غيرها غير طائش ولا عجل ﴿ رب ﴾ أي المحسن إليّ بإجابة دعائي دائماً ﴿ أنّى ﴾ أي من أين وكيف وعلى أيّ حال ﴿ يكون لي غلام ﴾ يولد لي على غاية القوة والنشاط والكمال في الذكورة ﴿ وكانت ﴾ أي والحال أنه كانت ﴿ امرأتي ﴾ كانت شابة ﴿ عاقراً ﴾ غير قابلة للولد عادة وأنا وهي

شابان فلم يأتنا ولد لاختلال أحد السببين فكيف بها وقد أسنت ! ﴿ وقد بلغت ﴾ أنا ﴿ من الكبر عتياً ﴾ أي أمراً في اليبس مجاوزاً للحد هو غاية في الكبر ما بعدها غاية ، وقد حصل من ذلك من الضعف ويبس الأعضاء وقحلها ما يمنع في العادة من حصول الولد مطلقاً لاختلال السببين معاً فضلاً عن أن يصلح لأن يعبر عنه بغلام ؛ قال البغوي في آل عمران : وقال الضحاك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : كان ابن عشرين ومائة سنة ، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة ؛ وقال الرازي في اللوامع : إن هذا على الاستخبار أيعطيه الله الولد بتلك الحال أم يقلبه شاباً ؟ ولله تعالى في كل صنع تدبيران : أحدهما المعروف الذي يسلكه الناس من توجيه الأسباب إلى المسببات ، والآخر يتعلق بالقدرة المحضة ، ولا يعرفه إلا أهل الاستبصار – انتهى .

(5/483)

﴿ قال كذلك ﴾ أي الأمر ؛ ثم علله بقوله : ﴿ قال ربك ﴾ أي الذي عودك بالإحسان ، وذكر مقول القول فقال : ﴿ هو ﴾ أي خلق يحيى منكما على هذه الحالة ﴿ عليَّ ﴾ أي خاصة ﴿ هين ﴾ لا فرق عندي بينه وبين غيره ﴿ وقد خلقتك ﴾ أي قدرتك وصورتك وأوجدتك .

ولما كان القصد تشبيه حاله بالإتيان منه بولد على ضعف السبب بتقديره من النطفة على ضعف سببيتها لكونها تارة تثمر وتارة لا ، وهو الأغلب ، أتى بالجار إشارة إلى ذلك فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل هذا الزمان ﴿ ولم ﴾ أي والحال أنك لم : ولما كان عليه السلام شديد التشوف لما يلقى عليه من المعنى في هذه البشرى ، أوجز له حتى بحذف النون وليثبت أنه ليس له من ذاته إلا العدم المحض ، وينفي أن يكون له من ذاته وجود ولو على أقل درجات الكون لاقتضاء حاله في هذا التعجب لتذكيره في ذلك فقال : ﴿ تك شيئاً ﴾ أي يعتد به ، ثم أبرزتك على ما أنت عليه حين أردت ، فتحقق بهذا أنه من امرأته هذه العاقر في حال كونهما شيخين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 522 . 523 ﴾

(6/483)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في من المنادي بقوله : يا زكريا ، فالأكثرون على أنه هو الله تعالى وذلك لأن ما قبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله تعالى ويسأله وهو قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي ﴾ [مريم : 4] وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ [مريم : 4] وقوله : ﴿ فَهَبْ لِي ﴾ [مريم : 5] وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول : ﴿ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ [آل عمران : 40] وإذا كان ما قبل هذه الآية وما بعدها خطاباً مع الله تعالى وجب أن يكون النداء من الله تعالى وإلا لفسد النظم ، ومنهم من قال هذا نداء الملك واحتج عليه بوجهين .

الأول : قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ فَنَادَتْهُ الملئكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بيحيى ﴾ [آل عمران : 39] .

الثاني : أن زكريا عليه السلام لما قال : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً * قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 8 ، 9] وهذا لا يجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام الملك .

والجواب عن الأول : أنه يحتمل أن يقال حصل النداءان نداء الله ونداء الملائكة .

وعن الثاني : أنا نبين إن شاء تعالى أن قوله : ﴿ قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ يمكن أن يكون كلام الله .

المسألة الثانية :

فإن قيل إن كان الدعاء بإذن فما معنى البشارة ، وإن كان بغير إذن فلماذا أقدم عليه ؟

والجواب هذا أمر يخصه فيجوز أن يسأل بغير إذن ، ويحتمل أنه أذن له فيه ولم يعلم وقته فبشر به .

المسألة الثالثة :

(7/483)

اختلف المفسرون في قوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ على وجهين : أحدهما : وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الاسم .

الثاني : أن المراد بالسمي النظير كما في قوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] واختلفوا في ذلك على وجوه .

أحدها : أنه سيد وحصور لم يعص ولم يهم بمعصية كأنه جواب لقوله : ﴿ واجعله رَبّ رَضِيّاً ﴾ [مريم : 6] فقيل له إنا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيهاً في الدين ، ومن كان هكذا فهو في غاية الرضا .

وهذا الوجه ضعيف لأنه يقتضي تفضيله على الأنبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وإبراهيم وموسى وذلك باطل بالإتفاق .

وثانيها : أن كل الناس إنما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم في الوجود ، وأما يحيى عليه السلام فإن الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية .

وثالثها : أنه ولد بين شيخ فإن وعجوز عاقر ، واعلم أن الوجه الأول أولى وذلك لأن حمل السمي على النظير وإن كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وإنه لا يجوز ، وأما قول الله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ فهناك إنما عدلنا عن الظاهر لأنه قال : ﴿ فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] ومعلوم أن مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الاسم لا يقتضي وجوب عبادته ، فلهذه العلة عدلنا عن الظاهرة ، أما ههنا لا ضرورة في العدول عن الظاهر فوجب اجراؤه عليه ولأن في تفرده بذلك الاسم ضرباً من التعظيم لأنا نشاهد أن الملك إذا كان له لقب مشهور فإن حاشيته لا يتلقبون به بل يتركونه تعظيماً له فكذلك ههنا .

المسألة الرابعة :

في أنه عليه السلام سمي بيحيى روى الثعلبي فيه وجوهاً .

أحدها : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى أحيا به عقر أمه .

وثانيها : عن قتادة أن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة والله تعالى سمى المطيع حياً والعاصي ميتاً بقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] وقال : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يحييكم ﴾ [الأنفال : 24] .

وثالثها : إحياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد إلا وقد عصى أو هم إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهم ولم يعملها " ورابعها : عن أبي القاسم بن حبيب أنه استشهد وأن الشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [آل عمران : 169] .

وخامسها : ما قاله عمرو بن عبد الله المقدسي : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قل ليسارة ، وكان اسمها كذلك ، بأني مخرج منها عبداً لا يهم بمعصية اسمه حيي .

فقال : هبي له من اسمك حرفاً فوهبته حرفاً من اسمها فصار يحيى وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة .

وسادسها : أن يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى فصار قلبه حياً بذلك الإيمان وذلك أن أم يحيى كانت حاملاً به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحيى : يا مريم أحامل أنت ؟ فقالت : لماذا تقولين ؟ فقالت : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك .

وسابعها : أن الدين يحيا به لأنه إنما سأله زكريا لأجل الدين ، واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة

لأن أسماء الألقاب لا يطلب فيها وجه الإشتقاق ، ولهذا قال أهل التحقيق أسماء الألقاب قائمة مقام الإشارات وهي لا تفيد في المسمى صفة ألبتة .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(9/483)

قرأ حمزة والكسائي عتياً وصلياً وجثياً وبكياً بكسر العين والصاد والجيم والباء ، وقرأ حفص عن عاصم بكياً بالضم والباقي بالكسر والباقون جميعاً بالضم ، وقرأ ابن مسعود بفتح العين والصاد من عتياً وصلياً .

وقرأ أبي بن كعب وابن عباس عسياً بالسين غير المعجمة ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

في الألفاظ وهي ثلاثة : الأول : الغلام الإنسان الذكر في ابتداء شهوته للجماع ومنه اغتلم إذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل في التلميذ يقال : غلام ثعلب .

الثاني : العتي والعبسي واحد تقول عتا يعتو عتواً وعتياً فهو عات وعسا يعسو عسواً

وعسياً فهو عاص والعاسي هو الذي غيره طول الزمان إلى حال البؤس وليل عات طويل وقيل شديد الظلمة .

الثالث : لم يقل عاقرة لأن ما كان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فإنه لا تدخل فيه الهاء نحو امرأة عاقر وحائض قال الخليل : هذه الصفات مذكرة وصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا : رجل ملحة وربعة وغلام نفعة .

المسألة الثالثة :

في هذه الآية سؤالان : الأول : أن زكريا عليه السلام لم تعجب بقوله : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ مع أنه هو الذي طلب الغلام ؟ السؤال الثاني : أن قوله أنى يكون لي غلام لم يكن هذا مذكوراً بين أمته لأنه كان يخفي هذه الأمور عن أمته فدل على أنه ذكره في نفسه ، وهذا التعجب يدل على كونه شاكاً في قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الأنبياء عليهم السلام .

(10/483)

والجواب عن السؤال الأول : أما على قول من قال إنه لم يطلب خصوص الولد فالسؤال زائل ، وأما على قول من قال إنه طلب الولد فالجواب عنه أن المقصود من قوله : ﴿ أنى يَكُونُ لِي

غلام ﴾ هو التعجب من أنه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد أو يتركهما شيخين ويرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين * فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء : 89 ، 90] وما هذا الإصلاح إلا أنه أعاد قوة الولادة وقد تقدم تقرير هذا الكلام ، وذكر السدي في الجواب وجها آخر فقال : إنه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال : إن هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك ، فلما شك زكريا قال : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ واعلم أن غرض السدي من هذا أن زكريا عليه السلام لو علم أن المبشر بذلك هو الله تعالى لما جاز له أن يقول ذلك فارتكب هذا ، وقال بعض المتكلمين هذا باطل قطعاً إذ لو جوز الأنبياء في بعض ما يرد عن الله تعالى أنه من الشيطان لجوزوا في سائره ولزالت الثقة عنهم في الوحي وعنا فيما يوردونه إلينا ويمكن أن يجاب عنه بأن هذا الاحتمال قائم في أول الأمر وإنما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة في هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ما عداها ، والله أعلم ، والجواب عن السؤال الثاني من وجوه : الأول : أن قوله :

﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغلام اسمه يحيى ﴾ [مريم : 7] ليس نصاً في كون ذلك الغلام ولداً له بل يحتمل أن زكريا عليه السلام راعى الأدب ولم يقل هذا الكلام هل يكون لي ولد أم لا ، بل ذكر أسباب تعذر حصول الولد في العادة حتى أن تلك البشارة إن كانت بالولد فالله تعالى يزيل الإبهام ويجعل الكلام صريحاً فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا لا أنه كان شاكاً في قدرة الله تعالى عليه .

الثاني : أنه ما ذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته وهذا كالرجل الذي يرى صاحبه قد وهب الكثير الخطير فيقول أنى سمحت نفسك بإخراج مثل هذا من ملككا تعظيماً وتعجباً .

الثالث : أن من شأن من بشر بما يتمناه أن يتولد له فرط السرور به عند أول ما يرد علي استثبات ذلك الكلام إما لأن شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر وهذا كما أن امرأة إبراهيم عليه السلام بعد أن بشرت باسحق قالت : ﴿ أَأَلِد وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود : 72] فأزيل تعجبها بقوله : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [هود : 73] وإما طلباً للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة أخرى ، وإما مبالغة في تأكيد التفسير .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ هَيِّنٌ ﴾ وجوه .

أحدها : أن الكاف رفع أي الأمر كذلك تصديقاً له ثم ابتدأ قال ربك .

وثانيها : نصب يقال وذلك إشارة إلى مبهم تفسيره هو علي هين وهو كقوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] وثالثها ؛

أن المراد لا تعجب فإنه كذلك قال ربك لا خلف في قوله ولا غلط ثم قال بعده هو علي هين

بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئاً .

(12/483)

ورابعها : أنا ذكرنا أن قوله أنى يكون لي غلام معناه تعطيني الغلام بأن تجعلني وزوجتي شابين

أو بأن تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد ، وقوله : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي

نهب الولد مع بقائك وبقاء زوجتك على الحاصلة في الحال .

المسألة الثانية ؛ قرأ الحسن وهو علي هين وهذا لا يخرج إلا على الوجه الأول أي الأمر كما

قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك علي هين .

المسألة الثالثة :

إطلاق لفظ الهين في حق الله تعالى مجاز لأن ذلك إنما يجوز في حق من يجوز أن يصعب عليه شيء ولكن المراد أنه إذا أراد شيئاً كان.

المسألة الرابعة:

في وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ فنقول: إنه لما خلقه من العدم الصرف والنفي المحض كان قادراً على خلق الذوات والصفات والآثار وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه إلا إلى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معاً أولى أن يكون قادراً على تبديل الصفات وإذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد إليه وإلى صاحبته القوة التي عنها يتولد الماءان اللذان من اجتماعهما يخلق الولد ولذلك قال: ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء: 90] فهذا وجه الاستدلال.

المسألة الخامسة:

الجمهور على أن قوله قال كذلك قال ربك يقتضي أن القائل لذلك ملك مع الاعتراف بأن قوله: ﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم: 7] قول الله تعالى وقوله: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ قول الله

تعالى وهذا بعيد لأنه إذا كان ما قبل هذا الكلام وما بعده قول الله تعالى فكيف يصح إدراج هذه الألفاظ فيما بين هذين القولين ، والأولى أن يقال قائل هذا القول أيضاً هو الله تعالى كما أن الملك العظيم إذا وعد عبده شيئاً عظيماً فيقول العبد من أين يحصل لي هذا فيقول إن سلطانك ضمن لك ذلك كأنه ينبه بذلك على أن كونه سلطاناً مما يوجب عليه الوفاء بالوعد فكذا ههنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 158 . 161 ﴾

(14/483)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾

فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء :

أحدها : إجابة دعائه وهي كرامة .

الثاني : إعطاؤه الولد وهو قوة .

الثالث : أن يفرد بتسميته . فدل ذلك على أمرين :

أحدهما : اختصاصه به . الثاني : على اصطفائه له . قال مقاتل سماه يحيى لأنه صبي بين أب شيخ وأم عجوز

﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ فيه ثلاثة اقاويل :

أحدها : أي لم تلد مثله العواقر ، قاله ابن عباس . فيكون المعنى لم نجعل له مثلاً ولا نظيراً .

الثاني : أنه لم نجعل لزكريا من قبل يحيى ولداً ، قاله مجاهد .

الثالث : أي لم يسم قبله باسمه أحد ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ . . . أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾

أي ولد .

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ﴾ أي لا تلد وفي تسميتها عاقراً وجهان :

أحدهما : لأنها تصير إذا لم تلد كأنها تعقر النسل أي تقطعه .

الثاني : لأن في رحمها عقراً يفسد المني ، ولم يقل ذلك عن شك بعد الوحي ولكن على وجه الاستخبار : أتعيدنا شابين ؟ أو ترزقنا الولد شيخين ؟

﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني سناً ، قاله قتادة . الثاني : أنه نحول العظم ، قاله ابن جريج .

الثالث : أنه الذي غيره طول الزمان إلى اليبس والجفاف ، قاله ابن عيسى قال الشاعر :

إنما يعذر الوليد ولا يعذر . . . من كان في الزمان عتياً

قال قتادة : كان له بضع وسبعون سنة وقال مقاتل خمس وتسعون سنة . وقرأ ابن عباس :

﴿ عِسِيّاً ﴾ وهي كذلك في مصحف أبي من قولهم للشيخ إذا كبر : قد عسا وعتا ومعناهما واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(15/483)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) ﴾

(16/483)

المعنى قيل له بإثر دعائه ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾ يولد لك ﴿ اسمه يحيى ﴾ وقرأ الجمهور " بَشِّرك " بفتح الباء وكسر الشين مشددة ، وقرأ أصحاب ابن مسعود " نُبْشُرك " بسكون الباء وضم الشين ، قال قتادة : سمي ﴿ يحيى ﴾ لأن الله أحياه بالنبوءة والإيمان ، وقال بعضهم سمي بذلك لأن الله أحيا له الناس بالهدى . وقوله ﴿ سمياً ﴾ معناه في اللغة لم نجعل لم مشاركاً في هذا الاسم ، أي لم يتسم قبل ب ﴿ يحيى ﴾ وهذا قول قتادة وابن عباس وابن أسلم والسدي ، وقال مجاهد وغيره ﴿ سمياً ﴾ معناه مثلاً ونظيراً وهذا كأنه

من المساماة والسمو ، وفي هذا بعد لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى اللهم إلا أن يفضل في خاص بالسؤود والحصر . وقال ابن عباس معناه لم تلد العواقر مثله . وقول زكرياء ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ اختلف الناس فيه فقالت فرقة : إنما كان طلب الولي دون تخصيص ولد فلما بشر بالولد استفهم عن طريقه مع هذه الموانع منه ، وقالت فرقة : إنما كان طلب الولد وهو بحال يرجو الولد فيها بزواج غير العاقر أو تسرٍّ ، ولم تقع إجابته إلا بعد مدة طويلة صار فيها الى حال من لا يولد له فحينئذ استفهم وأخبر عن نفسه ب ﴿ الكبر ﴾ والعتو فيه . وقالت فرقة : بل طلب الولد فلما بشر به لحين الدعوة تفهم على جهة السؤال لا على جهة الشك كيف طريق الوصول الى هذا وكيف نفذ القدر به ؟ لا أنه بعد عنده هذا في قدرة الله . و" العتي " و" العسي " المبالغة في الكبر أو يبس العود أو شيب الرأس أو عقيدة ما ونحو هذا ، وقرأ حمزة الكسائي " عِتِياً " بكسر العين والباقون بضمها ، وقرأ ابن مسعود " عَتياً " بفتح العين ، وحكى أبو حاتم أن ابن مسعود قرأ " عُسياً " بضم العين وبالسين وحكاها الداني عن ابن عباس أيضاً ، وحى الطبري عن ابن عباس أنه قال : ما أدري أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الظهر والعصر ولا أدري أكان يقرأ ﴿ عتياً ﴾ أو " عسياً " بالسين . وحكى الطبري عن السدي أنه

قال : نادي جبريل زكرياء إن الله يبشرك ﴿ بغلام اسمه يحيى ﴾ فلقيه الشيطان فقال له إن ذلك الصوت لم يكن لملك وإنما كان لشيطان فحينئذ قال زكرياء ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ ، ليثبت إن ذلك من عند الله ، و ﴿ زكرياء ﴾ هو من ذرية هارون عليه السلام ، وقال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة وقيل ابن سبعين وقال الزجاج : ابن خمس وستين فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له .

وقوله ﴿ قال كذلك ﴾ قيل إن المعنى قال له الملك ﴿ كذلك ﴾ فليكن الوجود كما قيل لك ﴿ قال ربك ﴾ خلق الغلام ﴿ عليّ هين ﴾ ، أي غير بدع فكما ﴿ خلقتك من قبل ﴾ وأخرجتك من عدم الى وجود كذلك أفعل الآن ، وقال الطبري : معنى قوله ﴿ كذلك ﴾ أي الأمران اللذان ذكرت من المرأة العاقر والكبرة هو ﴿ كذلك ﴾ ولكن ﴿ قال ربك ﴾ قال القاضي والمعنى عندي قال الملك ﴿ كذلك ﴾ أي على هذه الحال ﴿ قال ربك هو علي هين ﴾ . وقرأ الجمهور " وقد خلقتك " وقرأ حمزة الكسائي " وقد خلقناك " .

وقوله ﴿ ولم تك شيئاً ﴾ أي موجوداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(18/483)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا زكريا إِنا نبشرك ﴾

في الكلام إِضمار ، تقديره : فاستجاب الله له فقال : "يا زكريّا إِنا نبشّرك" .

وقرأ حمزة : "نَبْشُرك" بالتخفيف .

وقد شرحنا هذا في [آل عمران : 39] .

قوله تعالى : ﴿ لم نجعل له من قبل سَمِيّاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لم يُسمَّ يحيى قبله ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، وابن زيد ، والأكثرون .

فإن اعترض معترض ، فقال : ما وجه المِدْحَة باسم لم يُسمَّ به أحد قبله ، ونرى كثيراً من الأسماء لم يُسبَق إِليها ؟ فالجواب : أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولَّى تسميته ، ولم يَكِل ذلك إِلى أبويه ، فسماه باسم لم يُسبَق إِليه .

والثاني : لم تلد العواقر مثله ولداً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

فعلى هذا يكون المعنى : لم نجعل له نظيراً .

والثالث : لم نجعل له من قبل مِثْلاً وشِبْهاً ، قاله مجاهد .

فعلى هذا يكون عدم الشَّبَه من حيث أنه لم يعص ولم يهمَّ بمعصية .

وما بعد هذا مفسر في [آل عمران : 39] إِلى قوله : ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ .

وفي معنى "كانت" قولان.

أحدهما: انه توكيد للكلام، فالمعنى: وهي عاقر، كقوله: ﴿ كنتم خير أُمَّة ﴾ [آل عمران: 110] أي: أنتم.

والثاني: أنها كانت منذ كانت عاقراً، لم يحدُث ذلك بها، ذكرهما ابن الأنباري، واختار الأول.

قوله تعالى: ﴿ وقد بلغتُ من الكِبَر عتياً ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: "عُتيّاً" و"بُكيّاً" [مريم: 58] و"صُليّا" [مريم: 70] بضم أوائلها.

وقرأ حمزة، والكسائي، بكسر أوائلها، وافقهما حفص عن عاصم، إلا في قوله: "بُكيّاً" فإنه ضم أوله.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد: "عُسِيّاً" بالسين قال مجاهد: "عتيّاً" هو قُحُول العظم.

وقال ابن قتيبة: أي يُبْساً؛ يقال: عَتَا وعَسَا بمعنى واحد.

(19/483)

قال الزجاج: كل شيء انتهى، فقد عَتَا يَعْتُو عِتِيّاً، وعُتُوّاً، وعُسُوّاً، وعُسِيّاً.

قوله تعالى: ﴿ قال كذلكَ ﴾ أي: الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكِبَر ﴿ قال ربُّكَ هو عليَّ هيِّن ﴾ أي: خَلْقُ يحيى عليَّ سَهْل.

وقرأ معاذ القارىء، وعاصم الجحدري: "هَيْن" باسكان الياء.

﴿ وقد خلقتُك مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: أوجدتُك.

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: "خَلَقْتُكَ".

وقرأ حمزة، والكسائيُّ: "خَلَقْنَاكَ" بالنون والألف.

﴿ ولم تك شيئاً ﴾ المعنى: فخلْقُ الولد، كخلقك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(20/483)

وقال القرطبى:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾

في الكلام حذف؛ أي فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمه يحيى ﴾ فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة.

الثاني : إعطاؤه الولد وهو قوة .

الثالث : أن يفرد بتسميته ؛ وقد تقدّم معنى تسميته بيحيى في "آل عمران" .

وقال مقاتل : سماه يحيى لأنه حَيِي بين أب شيخ وأم عجوز ؛ وهذا فيه نظر ؛ لما تقدم من أن امرأته كانت عقيماً لا تلد .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي لم نسمّ أحداً قبل يحيى بهذا الاسم ؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن أسلم والسدي .

ومَنَّ عليه تعالى بأن لم يَكِل تسميته إلى الأبوين .

وقال مجاهد وغيره : ﴿ سَمِيّاً ﴾ معناه مثلاً ونظيراً ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] معناه مثلاً ونظيراً وهذا كأنه من المساماة والسموّ ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأنه لا يفضّل على إبراهيم وموسى ؛ اللهم إلا أن يفضّل في خاص كالسؤدد والحصر حسب ما تقدّم بيانه "في آل عمران" .

وقال ابن عباس أيضاً : معناه لم تلد العواقر مثله ولداً .

وقيل : إن الله تعالى اشترط القَبْل ، لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسامي السُّنُع جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب

تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنزه عن النبز حتى قال قائل :

سُنُعُ الأسَامِي مُسْبِلِي أُزُرٍ . . .

حُمْرٍ تَمَسُّ الأرضَ بالهُدبِ

وقال رؤبة للنسابة البكري وقد سأله عن نسبه : أنا ابن العَجّاج ؛ فقال : قَصَّرتَ وعَرَّفتَ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير .

(21/483)

وقيل : غير هذا مما تقدّم في "آل عمران" بيانه .

﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّاً ﴾ يعني النهاية في الكبر واليبس والجفاف ؛ ومثله العُسِي ؛ قال الأصمعيّ : عَسَا الشيءُ يَعسُ عُسوّاً وعَسَاء ممدود أي يَبِس وصَلُب ، وقد عسا الشيخُ يَعسو عُسِيّا ولَّى وكَبِرَ مثل عَتَا ؛ يقال : عَتَا الشيخُ يَعتو عُتيا وعِتيّاً كبر وولّى ، وعتوت يا فلان تعتو عتواً وعِتيا .

والأصل عتوّ لأنه من ذوات الواو ، فأبدلوا من الواو ياء ؛ لأنها أختها وهي أخفّ منها ، والآيات على الياءات ، ومن قال : "عِتِيًّا" كره الضمة مع الكسرة والياء ؛ وقال الشاعر :

إنما يُعذَرُ الوليدُ ولا يُعْذَرُ . . .

من كان في الزّمان عِتِيَّا

وقرأ ابن عباس "عُسِيًّا" وهو كذلك في مصحف أبيّ .

وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وحفص "عِتِيا" بكسر العين وكذلك "جِثيا"

و"صِلِيا" حيث كن .

وضم حفص "بُكِيًّا" خاصة ، وكذلك الباقون في الجميع ، وهما لغتان .

وقيل : "عِتيا" قَسِيّا ؛ يقال : ملك عاتٍ إذا كان قاسي القلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي قال له الملَك "كذلك قال ربك"

والكاف في موضع رفع ؛ أي الأمر كذلك ؛ أي كما قيل لك : "هو عليّ هين" .

قال الفراء : خَلْقه عليّ هيِّن .

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل يحيى .

وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم .

وقرأ سائر الكوفيين "وَقَدْ خَلَقْنَاكَ" .

بنون وألف بالجمع على التعظيم .

والقراءة الأولى أشبه بالسواد .

﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ أي كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئاً موجوداً ، فهو القادر

على خلق يحيى وإيجاده .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِي آيَةً ﴾ طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة إياه ، وبعد قول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ زيادة طمأنينة ؛ أي تمم النعمة بأن تجعل لي آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة .

(22/483)

وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى منه بيحيى لا من الشيطان ؛ لأن إبليس أوهمه ذلك .

قاله الضحاك وهو معنى قول السدي ؛ وهذا فيه نظر لإخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ما تقدّم في "آل عمران" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(23/483)

وقال أبو حيان :

﴿ يا زكريا ﴾ أي قيل له بإثر الدعاء .

وقيل : رزقه بعد أربعين سنة من دعائه .

وقيل : بعد ستين والمنادي والمبشر زكرياء هم الملائكة بوحي من الله تعالى قال تعالى ﴿ فنادته الملائكة ﴾ الآية والغلام الولد الذكر ، وقد يقال للأنثى غلامة كما قال :

تهان لها الغلامة والغلام . . .

والظاهر أن ﴿ يحيى ﴾ ليس عربياً لأنه لم تكن عادتهم أن يسموا بألفاظ العربية فيكون منعه الصرف للعلمية والعجمة ، وإن كان عربياً فيكون مسمى بالفعل كيعمر ويعيش قد سموا بيموت وهو يموت بن المزرع ابن أخت الجاحظ .

وعلى أنه عربي .

فقيل : سمي بذلك لأنه يحيى بالحكمة والعفة .

وقيل : يحيى بهدايته وإشاده خلق كثير .

وقيل لأنه يستشهد والشهداء أحياء .

وقيل : لأنه يعمر زمناً طويلاً .

وقيل : لأنه حيي بين شيخ كبير وأمّ عاقر .

وقيل : لأنه حيي به عقر أمه وكانت لا تلد .

وقال ابن عباس وقتادة والسدّي وابن أسلم : لم نسم قبله أحداً بيحيى .

قال الزمخشري : وهذا شاهد على أن الأسامي الشنع جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب

تنحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النفر ، حتى قال القائل في مدح قوم :

شنع الأسامي مسبلي أزر . . .

حمر تمس الأرض بالهدب

وقال رؤبة للنسابة البكري : وقد سأله عن نسبه أنا ابن العجاج فقال : قصرت وعرفت انتهى .

وقيل للصلت بن عطاء : كيف تقدمت عند البرامكة وعندهم من هو آدب منك ، فقال : كنت غريب الدار غريب الأسم خفيف الحزم شحيحاً بالاشلاء .

فذكر مما قدمه كونه غريب الاسم إذ كان اسمه الصلت .

وقال مجاهد وغيره ﴿ سمياً ﴾ أي مثلاً ونظيراً وكأنه من المساماة والسموّ .

قال ابن عطية : وهذا فيه بعد لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى .

وقال ابن عباس أيضاً لم تلد العواقر مثله .

قال الزمخشري : وإنما قيل للمثل سمّي لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير فكل واحد منهما سَمِي لصاحبه .

(24/483)

وقيل : لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصوراً انتهى .

و﴿ أنّى ﴾ بمعنى كيف : وتقدم الكلام عليها في قوله ﴿ قال رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ﴾ في آل عمران والعتيّ المبالغة في الكبر .

ويبس العود .

وقرأ أبو بحرية وابن أبي ليلى والأعمش وحمزة والكسائي ﴿ عتياً ﴾ بكسر العين وباقي السبعة بالضم وعبد الله بفتح العين وصاد صلياً جعلهما مصدرين كالعجيج والرحيل ، وفي الضم هما كذلك إلاّ أنهما على فعول .

وعن عبد الله ومجاهد عسياً بضم العين والسين كمسورة .

وحكاها الداني عن ابن عباس وحكاها الزمخشري عن أُبيّ ومجاهد يقال عتا العود وعسا يبس وجسا .

﴿ قال : كذلك ﴾ أي الأمر كذلك تصديق له ثم ابتدأ ﴿ قال ربك ﴾ فالكاف رفع أو نصب بقال ، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره ﴿ هو عليّ هين ﴾ ونحوه ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ وقرأ الحسن ﴿ وهو عليّ هين ﴾ ولا يخرج هذا إلاّ على الوجه الأول أي الأمر كما قلت ، وهو عليّ ذلك يهون ، ووجه آخر وهو أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله لا إلى قول زكرياء وقال : محذوف في كلتا القراءتين أي قال

﴿ هو عليّ هين ﴾ وإن شئت لم تنوه لأن الله هو المخاطب ، والمعنى أنه قال ذلك ووعده وقوله الحق قاله الزمخشري : وقال ابن عطية وقوله ﴿ قال كذلك ﴾ قيل إن المعنى قال له الملك ﴿ كذلك ﴾ فليكن الوجود كما قيل لك ﴿ قال ربك ﴾ خلق الغلام ﴿ عليّ هين ﴾ أي غير بدع وكما خلقتك قبل وأخرجتك من عدم إلى وجود كذلك أفعل الآن .

وقال الطبري : معنى قوله ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر أن اللذان ذكرت من المرأة العاقر والكبر هو كذلك ولكن ﴿ قال ربك ﴾ والمعنى عندي قال الملك ﴿ كذلك ﴾ أي على هذه الحال ﴿ قال ربك هو عليّ هين ﴾ انتهى .

وقرأ الحسن ﴿ هو عليّ هين ﴾ بكسر الياء .

وقد أنشدوا قول النابغة :

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة . . .

(25/483)

لوالده ليست بذات عقارب

بكسر ياء المتكلم وكسرها شبيه بقراءة حمزة ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾ بكسر الياء .

وقرأ الجمهور ﴿ وقد خلقتك ﴾ بتاء المتكلم .

وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب وحمزة والكسائي خلقناك بنون العظمة ﴿ ولم تك شيئاً ﴾ أي شيئاً موجوداً .

وقال الزمخشري : ﴿ شيئاً ﴾ لأن المعدوم ليس بشيء أو شيئاً يعتد به كقولهم : عجبت من لا شيء إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(26/483)

وقال أبو السعود :

﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾

على إرادة القولِ أي قال تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾ ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغلام اسمه يحيى ﴾ لكن لا بأن يخاطِبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات ، بل بواسطة الملَك على أن يحكيَ له عليه الصلاة والسلام هذه العبارةَ عنه عز وجل على نهج قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ ﴾ الآية ، وقد مر تحقيقُه في سورة آلى عمران ، وهذا جوابٌ لندائه عليه الصلاة والسلام ووعدٌ بإجابة دعائِه ، لكن لا كما هو المتبادرُ من قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ الخ ، بل بعضاً حسبما تقتضيه المشيئةُ الإلهية المبنية على الحِكَم البالغة

فإن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا مستجابي الدعوةِ لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعواتِ ، ألا يرى إلى دعوة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام في حق أبيه وإلى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال : " وسألته أن لا يُذيقَ بعضَهم بأسَ بعض فمنعنيها " وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبَه يحيى نبياً مرضياً ولا يرثه ، فاستجيب دعاؤُه في الأول دون الثاني حيث قتل قبلَ موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ما هو المشهورُ ، وقيل : بقي بعده برهةً فلا إشكال حينئذ ، وفي تعيين اسمِه عليه الصلاة والسلام تأكيدٌ للوعد وتشريفٌ له عليه الصلاة والسلام ، وفي تخصيصه به عليه السلام حسبما يُعرب عنه قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي شريكاً له في الاسم حيث لم يُسمَّ أحدٌ قبله بيحيى مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فإن التسميةَ بالأسامي البديعة الممتازة عن أسماء سائرِ الناس تنويهٌ بالمسمّى لا محالة ، وقيل : سميًّا شبيهاً في الفضل والكمالِ كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ فإن المتشاركين في الوصف بمنزلة المتشاركين في الاسم ، قالوا : لم يكن له عليه الصلاة والسلام مِثْلٌ في أنه لم يعصِ الله تعالى ولم يهُمَّ بمعصية قط وأنه ولد من شيخ

(27/483)

فانٍ وعجوزٍ عاقر وأنه كان حَصوراً ، فيكون هذا إجمالاً لما نزل بعده من قوله تعالى : ﴿ مُصَدّقاً بِكَلِمَةٍ مّنَ الله وَسَيّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيّا مّنَ الصالحين ﴾ والأظهرُ أنه اسمٌ أعجميٌّ وإن كان عربياً فهو منقول عن الفعل كيعمَرَ ويَعيشَ ، قيل : سمي به لأنه حيِيَ به رحِمُ أمّه أو حيِيَ دينُ الله تعالى بدعوته .

(28/483)

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كأنه قيل : فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ : فقيل : قال : ﴿ رَبّ ﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابِه تعالى إليه بتوسط الملَك ، للمبالغة في التضرع ، والمناجاة والجِدّ في التبتل إليه تعالى ، والاحترازِ عما عسى يُوهم خطابُه للملك من توهُّم أن علمَه تعالى بما يصدُر عنه متوقّفٌ على توسطه ، كما أن علمَ البشرِ بما يصدر عنه سبحانه متوقّفٌ على ذلك في عامة الأوقات ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين ، وكان إما تامةٌ وأنى واللام متعلقتان بها وتقديمُ الجار على الفاعل لما مر مراراً من الاعتناء بما قدم والتشويقِ إلى ما أُخّر ، أي كيف أو من أين يحدث لي غلامٌ ؟ ويجوز أن تتعلق اللامُ بمحذوف وقع حال من غلامٌ إذ لو تأخر لكان صفةً له أي أنى يحدث كائناً لي غلام ، أو ناقصةٌ اسمُها ظاهرٌ وخبرُها إما أنى ولي متعلقٌ

بمحذوف كما مر ، أو هو الخبر وأنى نصبٌ على الظرفية ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ حالٌ منه مؤكدةٌ للاستبعاد إثرَ تأكيد ، أي كانت امرأتي عاقراً لم تلدْ في شبابها وشبابي فكيف وهي الآن عجوزٌ وقد بلغتُ أنا من أجل كِبَر السنّ جساوة وقحولاً في المفاصل والعِظام ، أو بلغتُ من مدارج الكِبَر ومراتبه ما يسمى عِتيًّا من عتا يعتو وأصله عُتُوٌّ كقعود فاستُثقل توالي الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، ثم قلبت الثانية أيضاً لاجتماع الواو والياء وسبْقِ إحداهما بالسكون وكُسرت العينُ إتباعاً لها لما بعدها ، وقرىء بضمها . ولعل البداءة هاهنا بذكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمرانَ لما أنه قد ذُكر حالُه في تضاعيف دعائِه وإنما المذكورُ هاهنا بلوغُه أقصى مراتبِ الكِبَر تتمةً لما ذكر قبل ، وأما هنالك فلم

(29/483)

يسبِقْ في الدعاء ذكرُ حاله فلذلك قدّمه على ذكر حال امرأتِه لما أن المسارعةَ إلى بيان قصورِ شأنه أنسبُ ، وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائِه بذلك وقوةِ يقينه بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدتِه للشواهد المذكورة في سورة آلِ عمران استعظاماً لقدرة الله

تعالى وتعجيباً منها واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنه من محضِ لطفِ الله عز وعلا وفضله مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلةِ عادة لا استبعاداً له . وقيل : إنما قاله ليُجابَ بما أجيب به فيزدادَ المؤمنون إيقاناً ويرتدعَ المبطلون ، وقيل : كان ذلك بطريق الاستبعادِ حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستون سنة وكان قد نسِيَ دعاءه ، وهو بعيد .

(30/483)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر مبنيٌّ على سؤال نشأ مما سلف ، والكافُ في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ مقحمةٌ كما في : مثلُك لا يبخل محلُّها إما النصبُ على أنه مصدرٌ تشبيهيٌّ لقال الثاني وذلك إشارةٌ إلى مصدره الذي هو عبارةٌ عن الوعد السابقِ لا إلى قول آخرَ شُبِّه هذا به ، وقد مر تحقيقُه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ جملةٌ مقرِّرةٌ للوعد المذكورِ دالةٌ على إنجازه داخلةٌ في حيز قال الأول ، كأنه قيل : قال الله عز وجل مثلَ ذلك القولِ البديع ، قلت : أي مثلَ ذلك الوعدِ الخارقِ للعادة وعدتُ وهو علي خاصةً هيِّنٌ وإن كان في العادة مستحيلاً ، وقرىء وهو علي هينٌ فالجملة حينئذ حالٌ من ربك والياء عبارةٌ عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراضٌ ، وعلى كل حالٍ فهي مؤكدةٌ ومقرِّرةٌ لما قبلها ، ثم أُخرج القولُ الثاني مُخرجَ

الالتفات جرياً على سنن الكبرياء لتربية المهابةِ وإدخال الروعةِ ، كقول الخلفاء : أميرُ المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم ، أُسند إلى اسم الربِّ المضاف إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تشريفاً له وإشعاراً بعلة الحُكم ، فإن تذكيرَ جريَانِ أحكامِ ربوبيتِه تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من إيجاده من العدم وتصريفِه في أطوار الخلقِ من حال إلى حال شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ كمالَه اللائقَ به ، مما يقلَع أساسَ استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعودِ ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنانَ بإنجازه لا محالة ، ثم التُفت من ضمير الغائبِ العائدِ إلى الرب إلى ياء العظمةِ إيذاناً بأن مدارَ كونه هيّناً عليه سبحانه هو القدرةُ الذاتيةُ لا ربوبيتُه تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيداً لما يعقُبه ، وقيل : ذلك إشارةٌ إلى مبهم يفسّره قولُه تعالى : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ على طريقة قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأمر أَنَّ

(31/483)

دَابِرَ هَٰؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ ولا يخرج هذا الوجهُ على القراءة بالواو لأنها لا تدخل بين المفسِّر والمفسَّر . وإما الرفع على أنه مبتدأ محذوفٌ وذلك إشارةٌ إلى ما تقدم من وعده تعالى ، أي قال عز وعلا : " الأمرُ كما وعدتُ " وهو واقعٌ لا محالة ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ

رَبُّكِ ﴾ الخ ، استئنافٌ مقرِّر لمضمونه والجملةُ المحكية على القراءة الثانية معطوفةٌ على المحكية الأولى ، أو حالٌ من المستكن في الجار والمجرور أياً ما كان ، فتوسيطُ قال بينهما مُشعرٌ بمزيد الاعتناءِ بكل منهما والكلامُ في إسناد القولِ إلى الرب ثم الالتفاتِ إلى التكلم كالذي مر آنفاً ، وقيل : ذلك إشارةٌ إلى ما قاله زكريا عليه الصلاة والسلام ، أي قال تعالى : " الأمرُ كما قلت " تصديقاً له فيما حكاه من الحالة المباينةِ للولادة في نفسه وفي امرأته ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الخ ، استئنافٌ مَسوقٌ لإزالة استبعادِه بعد تقريره ، أي قال تعالى :

(32/483)

" هو مع بعده في نفسه عليّ هيّنٌ " والقراءة الثانية أَدخلُ في إفادة هذا المعنى على أن الواو للعطف ، وأما جعلُها للحال فمُخِلٌّ بسِداد المعنى لأن مآله تقريرُ صعوبته حال سهولتِه عليه تعالى مع أن المقصودَ بيانُ سهولتِه عليه سبحانه مع صعوبته في نفسه ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مقررة لما قبلها ، والمرادُ به ابتداءُ خلق البشرِ إذ هو الواقعُ إثرَ العدم المحضِ لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالدِ المعتادِ ، وإنما لم يُنسَبْ ذلك إلى آدمَ عليه الصلاة والسلام وهو المخلوقُ من العدم حقيقةً بأن يقال : وقد خلقتُ أباك أو آدمَ من قبل ولم يك شيئاً مع كفايته في إزالة الاستبعادِ بقياس حالِ ما بُشّر به على

حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاجِ وتوضيح منهاجِ القياس حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظٌّ من إنشائه عليه الصلاة والسلام من العدم ، إذ لم تكن فطرتُه البديعةُ مقصورةً على نفسه به كانت أنموذجاً منطوياً على فطرية سائر آحادِ الجنس انطواءً إجمالياً مستتبعاً لجريان آثارِها على الكل ، فكان إبداعُه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه إبداعاً لكل أحد من فروعه كذلك ، ولمّا كان خَلقُه عليه الصلاة والسلام على هذا النمطِ الساري إلى جميع أفراد ذريته أبدعَ من أن يكون ذلك مقصوراً على نفسه كما هو المفهومُ من نسبة الخلقِ المذكور إليه وأدلَّ على عظم قدرتِه تعالى وكمال علمِه وحكمتِه ، وكان عدمُ زكريا حينئذ أظهرَ عنده وأجلى وكان حالُه أولى بأن يكون معياراً لحال ما بشر به نُسب الخلقُ المذكور إليه ، كما نسب الخَلقُ والتصويرُ إلى المخاطَبين في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ توفيةً لمقام الامتنان حقَّه ، فكأنه قيل : وقد خلقتُك من قبل في تضاعيف خلقِ آدمِ ولم تكن إذ ذاك شيئاً أصلاً بل عدماً بحتاً ونفياً صِرْفاً . هذا وأما حملُ الشيء

على المعتدّ به أي ولم تكن شيئاً معتداً به فيأباه المقام ويردّه نظمُ الكلام ، وقرىء خلقناك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(33/483)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾

على إرادة القول أي قيل له أو قال الله تعالى يا زكريا ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغلام اسمه يحيى ﴾ لكن لا بأن يخاطبه سبحانه وتعالى بذلك بالذات بل بواسطة الملك كما يدل عليه آية أخرى على أن يحكي عليه السلام العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] الآية وهذا جواب لندائه عليه السلام ووعد بإجابة دعائه كما يفهمه التعبير بالبشارة دون الإعطاء أو نحوه وما في الوعد من التراخي لا ينافي التعقيب في قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ [الأنبياء : 90] الآية لأنه تعقيب عرفي كما في تزوج فولد له ولأن المراد بالاستجابة الوعد أيضاً لأن وعد الكريم نقد ، والمشهور أن هذا القول كان إثر الدعاء ولم يكن بين البشارة والولادة إلا أشهر ، وقيل : إنه رزق الولد بعد أربعين سنة من دعائه ، وقيل : بعد ستين .

والغلام الولد الذكر ، وقد يقال للأنثى : غلامة كما قال :

تهان لها الغلامة والغلام . . .

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه السلام ، وفي تخصيصه به حسبما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي شريكاً له في الاسم

حيث لم يسم أحد قبله بيحيى على ما روي عن ابن عباس .

وقتادة .

والسدي .

وابن أسلم مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام ، وهذا كما قال الزمخشري شاهد على أن الأسماء النادرة التي لا يكاد الناس يستعملونها جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز حتى قال القائل في مدح قوم :

شنع الأسامي مسبلي أزر . . .

حمر تمس الأرض بالهدب

وقيل للصلت بن عطاء : كيف تقدمت عند البرامكة وعندهم من هو آدب منك ؟ فقال : كنت غريب الدار غريب الاسم خفيف الجرم شحيحاً بالإشلاء فذكر مما قدمه كونه غريب الاسم ؛ وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر .

(34/483)

وغيرهما عن مجاهد أن ﴿ سَمِيّاً ﴾ بمعنى شبيهاً .

وروي عن عطاء .

وابن جبير مثله أي لم نجعل له شبيهاً حيث أنه لم يعص ولم يهم بمعصية ، فقد أخرج أحمد .

والحكيم .

والترمذي في "نوادر الأصول" .

والحاكم .

وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أوهم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام لم يهم بخطيئة ولم يعملها "

والأخبار في ذلك متظافرة ، وقيل : لم يكن له شبيه لذلك ولأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر .

وقيل لأنه كان كما وصف الله تعالى ﴿ مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ [آل عمران : 39] فيكون هذا إجمالاً لذلك وإنما قيل للشبيه سمي لأن المتشابهين يتشاركان في الاسم .

ومن هذا الإطلاق قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] لأنه الذي يقتضيه التفريع ، والأظهر أنه اسم أعجمي لأنه لم تكن عادتهم التسمية بالألفاظ العربية فيكون منعه الصرف على القول المشهور في مثله للعلمية والعجمة ، وقيل إنه عربي ولتلك العادة مدخل في غرابته وعلى هذا فهو منقول من الفعل كيعمر ويعيش وقد سموا بيموت وهو يموت بن المزرع بن أخت الجاحظ ووجه تسميته بذلك على القول بعربيته قيل الإشارة بأنه يعمر ،

وهذا في معنى التفاؤل بطول حياته ، وكان في ذلك إشارة إلى أنه عليه السلام يرث حسبما سأل زكريا عليه السلام ، وقيل : سمي بذلك لأنه حي به رحم أمه .

وقيل لأنه حي بين شيخ فان وعجوز عاقر ، وقيل لأنه يحيا بالحكمة والعفة ، وقيل لأنه يحيا بإرشاد الخلق وهدايتهم ، وقيل لأنه يستشهد والشهداء أحياء ، وقيل غير ذلك ، ثم لا يخفى أنه على العربية والعجمة يختلف الوزن والتصغير كما بين في محله .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) ﴾

(35/483)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه السلام حينئذٍ ؟ فقيل قال : ﴿ رَبِّ ﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بواسطة الملك للمبالغة في التضرع والمناجاة والجد في التبتل إليه عز وجل ، وقيل لذلك والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه تعالى متوقف على ذلك في عامة الأوقات ؛ ولا يخفى أن الاقتصار على الأول أولى ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غلام ﴾ كلمة ﴿ إِنَّى ﴾ بمعنى كيف أو من أين ، وكان إما تامة وأنى واللام متعلقان بها ، وتقديم الجار على الفاعل لما مر غير مرة أي كيف أو من

أين يحدث لي غلام ، ويجوز أن يتعلق اللام بمحذوف وقع حالاً من ﴿ غُلَامٌ ﴾ أي أنى يحدث كائناً لي غلام أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها إما أنى و ﴿ لِى ﴾ متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ حال منه مؤكدة للاستبعاد إثر تأكيد ، ومن للابتداء العلي ، والعتي من عتى يعتو اليبس والقحول في المفاصل والعظام .

وقال الراغب : هو حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها ، وقيل إلى رياضتها وهي الحالة المشار إليها بقول الشاعر :

ومن العناء رياضة الهرم . . .

وأصله عتوو كقعود فاستثقل توالي الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الأولى ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها ثم انقلبت الثانية أيضاً لاجتماع الواو والياء وسبق إحداهما بالسكون وكسرت العين اتباعاً لما بعدها أي كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي فكيف وهي الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن يبساً وقحولاً أو حالة لا سبيل إلى إصلاحها وقد تقدم لك الأقوال في مقدار عمره عليه السلام إذ ذاك .

وأما عمر امرأته فقد قيل إنه كان ثماني وتسعين .

وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض أي بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتياً ، وجعلها بعضهم بيانية تجريدية وفيه بحث والجار والمجرور إما متعلق بما عنده أو بمحذوف وقع حالاً من ﴿ عِتِيّاً ﴾ وهو نصب على المفعولية وأصل المعنى متحد مع قوله تعالى في آل عمران حكاية عنه بلغني الكبر والتفاوت في المسند إليه لا يضر فإن ما بلغك من المعاني فقد بلغته نعم بين الكلامين اختلاف من حيثية أخرى لا تخفى فيحتاج اختيار كل منهما في مقام إلى نكتة فتدبر ذاك ، وكذا وجه البداءة ههنا بذكر حال امرأته عليه السلام على عكس ما في تلك السورة .

وفي إرشاد العقل السليم لعل ذلك لما أنه قد ذكر حاله في تضاعيف دعائه وإنما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل وأما هنا لك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب اه .

وقال بعضهم : يحتمل تكرر الدعاء والمحاورة واختلاف الأسلوب للتفنن مع تضمن كل ما لم يتضمنه الآخر فتأمل والله تعالى الموفق ، والظاهر أنه عليه السلام كان يعرف من نفسه أنه لم يكن عاقراً ، ولذلك ذكر الكبر ولم يذكر العقر وإنما قال عليه السلام ما ذكر مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران استعظاماً لقدرة الله تعالى واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنه من محض

فضل الله تعالى ولطفه مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة ولم يكن ذلك استبعاداً كذا قيل .

وقيل : هو استبعاد لكنه ليس راجعاً إلى المتكلم بل هو بالنسبة إلى المبطلين ، وإنما طلب عليه السلام ما يزيل شوكة استبعادهم ويجلب ارتداعهم من سيء عادتهم ، وذلك مما لا بأس به من النبي خلافاً لابن المنير ، نعم أورد على ذلك أن الدعاء كان خفياً عن المبطلين .

(37/483)

وأجيب بأنه يحتمل أنه جهر به بعد ذلك إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه وطلباً لما ذكر فتذكر ، وقيل : هو استبعاد راجع إلى المتكلم حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة ، وكان قد نسي عليه السلام دعاءه وهو بعيد جداً .

وقال في "الانتصاف" : الظاهر والله تعالى أعلم أن زكريا عليه السلام طلب ولداً على الجملة وليس في الآية ما يدل أنه يوجد منه وهو هرم ولا إنه من زوجته وهي عاقر ولا أنه يعاد عليهما قوتهما وشبابهما كما فعل بغيرهما أو يكون الولد من غير زوجته العاقر فاستبعد الولد منهما وهما بحالهما فاستخبر أيكون وهما كذلك فقيل له ﴿ كذلك ﴾ [مريم : 9] أي يكون الولد وأنتما كذلك .

وتعقب بأن قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ﴾ ظاهر في أنه طلب الولد وهما على حالة يستحيل عادة منهما الولد .

والظاهر عندي كونه استبعاداً من حيث العادة أو هو بالنسبة إلى المبطلين وهو كما في "الكشف" أولى .

وقرأ أكثر السبعة ﴿ عِتِيّاً ﴾ بضم العين .

وقرأ ابن مسعود بفتحها وكذا بفتح صاد ﴿ صِلِيّاً ﴾ [مريم : 70] وأصل ذلك كما قال ابن جني رداً على قول ابن مجاهد لا أعرف لهما في العربية أصلاً ما جاء من المصادر على فعيل نحو الحويل والزويل .

وعن ابن مسعود أيضاً .

ومجاهد أنهما قرآ ﴿ عسيا ﴾ بضم العين وبالسين مكسورة .

وحكى ذلك الداني عن ابن عباس .

والزمخشري عن أبي ، ومجاهد وهو من عسا العود يعسو إذا يبس .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾

قرأ الحسن ﴿ وَهُوَ على هَيِّنٌ ﴾ بالواو ، وعنه أنه كسر ياء المتكلم كما في قول النابغة :

علي لعمرو نعمة بعد نعمة . . .

لوالده ليست بذات عقارب

ونحو ذلك قراءة حمزة ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] بكسر الياء ، والكاف إما رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك وضمير ﴿ قَالَ ﴾ للرب عز وجل لا للملك المبشر لئلا يفك النظم ، وذلك إشارة إلى قول زكريا عليه السلام ، والخطاب في ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ له عليه السلام لا لنبينا صلى الله عليه وسلم بدليل السابق واللاحق ، وجملة ﴿ هُوَ عَلَيَّ حِينٍ ﴾ مفعول ﴿ قَالَ ﴾ الثاني وجملة الأمر كذلك مع جملة ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الخ مفعول ﴿ قَالَ ﴾ الأول وإن لم يتخلل بين الجملتين عاطف كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا ﴾ [المؤمنون : 82 ، 83] الآية وكم وكم ، وجيء بالجملة الأولى تصديقاً منه تعالى لزكريا عليه السلام وبالثانية جواباً لما عسى يتوهم من أنه إذا كان ذلك في الاستبعاد بتلك المنزلة وقد صدقت فيه فإني يتسنى فهي في نفسها استئنافية لذلك ، ولا يحسن تخلل العاطف في مثل هاتين الجملتين إذا كان المحكي عنه قد تكلم بهما معاً من غير عاطف ليدل على الصورة الأولى للقول بعينها ، وكذلك لا يحسن إضمار قول آخر لأنه يكون استئنافاً جواباً للمحكي له فلا يدل على أنه الاستئناف

أيضاً في الأول إلا بمنفصل أما لو تكلم بهما في زمانين أو بدون ذلك الترتيب فالظاهر العطف أو الاستئناف بإضمار القول .

(39/483)

ثم لو كان الاقتصار في جواب زكريا عليه السلام على ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ من دون إقحام ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ لكان مستقيماً لكن إنما عدل إليه للدلالة على تحقيق الوعد وإزالة الاستبعاد بالكلية على منوال ما إذا وعد ملك بعض خواصه ما لا يجد نفسه تستأهل ذلك فأخذ يتعجب مستبعداً أن يكون من الملك بتلك المنزلة فحاول أن يحقق مراده ويزيل استبعاده فأما أن يقول لا تستبعد أنه أهون شيء علي على الكلام الظاهر وإما أن يقول لا تستبعد قد قلت إنه أهون شيء على إشارة منه إلى أنه وعد سبق القول به وتحتم وإنه من جلالة القدر بحيث لا يرى في إنجازه لباغيه كائناً من كان وقعاً فكيف لمن استحق منه لصدق قدمه في عبوديته إجلالاً ورفعاً ، وهذا قول بلسان الإشارة يصدق وإن لم يكن قد سيق منه نطق به لأن المقصود أن علو المكانة وسعة القدرة وكمال الجود يقضي بذلك قيل : أولاً أولاً ثم إذا أراد ترشيح هذا المعنى عدل عن الحكاية قائلاً : قد قال من أنت غرس نعمائه أنه أهون شيء على ثم إذا حكى الملك القصة مع بعض خلصائه كان له أن يقول :

قلت لعبدي فلان كيت وكيت قال : إني وليت قلت قال من أنت الخ وأن يقول بدله قال سيد فلان له ويسرد الحديث فهذا وزان الآية فيما جرى لزكريا عليه السلام وحكى لنبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل والسلام ، وقد لاح من هذا التقرير أن فوات نكتة الإقحام مانع من أن يجعل المرفوع من صلة ﴿ قَالَ ﴾ الثاني والمجموع صله الأول ، والظاهر في توجيه قراءة الحسن على هذا أن جملة ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ عطف على محذوف من نحو أفعل وأنا فاعل ، ويجوز أن يقال وربما أشعر كلام الزمخشري بإيثاره أنه عطف على الجملة السابقة نظراً إلى الأصل لما مر من أن ﴿ قَالَ ﴾ مقحم لنكتة فكأنه قيل الأمر كذلك وهو على ذلك يهون علي ، وأما نصب بقال الثاني وهي الكاف التي تستعمل مقحمة في الأمر العجيب الغريب لتثبيته وذلك إشارة إلى مبهم يفسر ما بعده أعني ﴿ هُوَ عَلَيَّ

(40/483)

هَيِّنٌ ﴾ وضمير "قال" للرب كما تقدم والخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم أيضاً أي قال رب زكريا له قال ربك مثل ذلك القول العجيب الغريب هو على هين علي أن ﴿ قَالَ ﴾ الثاني مع ما في صلته مقول القول الأول وإقحام القول الثاني لما سلف ولا ينصب الكاف بقال الأول وإلا لكان ﴿ قَالَ ﴾ ثانياً تأكيداً لفظياً لئلا يقع الفصل بين المفسر والمفسر

بأجنبي وهو ممتنع إذ لا ينتظم أن يقال : قال رب زكريا قال ربك ويكون الخطاب لزكريا عليه السلام والمخاطب غيره كيف وهذا النوع من الكلام يقع فيه التشبيه مقدماً لا سيما في التنزيل الجليل من نحو

﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً ﴾ [البقرة : 143] ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ [آل عمران : 40] إلى غير ذلك ، وهذا الوجه لا يتمشى في قراءة الحسن لأن المفسر لا يدخله الواو ولا يجوز حذفه حتى يجعل عطفاً عليه لأن الحذف والتفسير متنافيان ، وجوز على احتمال النصب أن تكون الإشارة إلى ما تقدم من وعد الله تعالى إياه عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم : 7] الخ أي قال ربه سبحانه له قال ربك مثل ذلك أي مثل ذلك القولب العجيب الذي وعدته وعرفته وهو ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ الخ ، وأداة التشبيه مقحمة كما مر فيكون المعنى وعد ذلك وحققه وفرغ منه فكن فارغ البال من تحصيله على أوثق بال ثم قال : هو على هين أي قال ربك هو على هين فيضمر القول ليتطابقا في البلاغة ، ولأن قوله مثل ذلك مفرد فلا يحسن أن تقرن الجملة به وينسحب عليه ذلك القول بعينه بل إنما يضمر مثله استئنافاً إيفاءاً بحق التناسب .

وإن شئت لم تنوه ليكون محكياً منتظماً في سلك ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ منسحباً عليه القول الأول أي قال رب زكريا له هو على هين لأن الله تعالى هو المخاطب لزكريا عليه السلام أفلا منع

من جعله مقول القول الأول من غير إضمار لأن القولين أعني قال ربك مثل ذلك هو على هين صادران معاً محكيان على حالهما .

(41/483)

ولو قدر أن المخاطب غيره تعالى أعني الملك تعين إضمار القول لامتناع أن يكون هو على هين من مقوله فلا ينسحب عليه الأول .

وأما على قراءة الحسن فإن جعل عطفاً على ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ لم يحتج إلى إضمار لصحة الانسحاب وإن أريد تأكيده أيضاً قدر القول لئلا تفوت البلاغة ويكون التناسب حاصلاً ، وجعله عطفاً ما بعد ﴿ قَالَ ﴾ الثاني من دون التقدير يفوت به رعاية التناسب لفظاً فإن ما بعده مفرد والملاءمة معنى لما عرفت أن لا قول على الحقيقة .

والمعنى قال ربه قد حقق الموعود وفرغ عنه فلا بد من تقديره على ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ليفيد تحقيقه أيضاً .

ولو قدر أن المخاطب غيره تعالى تعين الإضمار لعدم الانسحاب دونه فافهم ، وهذا ما حققه صاحب الكشف وقرر به عبارة الكشاف بأدنى اختصار ، ثم ذكر أن خلاصة ما وجده من قول الأفاضل أن التقدير على احتمال أن تكون الإشارة إلى ما تقدم من الوعد قال

رب زكريا له قال ربك قولاً مثل قوله سبحانه وتعالى السابق عدة في الغرابة والعجب فاتجه له عليه السلام أن يسأل ماذا قلت يا رب وهو مثله فيقول : هو على هين أي قلت أو قال ربك .

والأصل على هذا التقدير قلت قولاً مثل الوعد في الغرابة فعدل إلى الالتفات أو التجريد أياً شئت تسميه لفائدته المعلومة .

وليس في الإتيان بأصل القول خروج عن مقتضى الظاهر إذ لا بد منه لينتظم الكلام وذلك لأن المعنى على هذا التقدير ولا تعجب من ذلك القول وانظر إلى مثله واعجب فقد قلناه .

(42/483)

وكذلك يتجه لنبينا صلى الله عليه وسلم السؤال فيجاب بأنه قال له ربه هو على هين وصحة وقوعه جواباً عن سؤال نبينا عليه الصلاة والسلام وهو الأظهر على هذا الوجه لأن الكلام معه ، وإذ قد صح أن يجعل جواباً له جاز إضمار القول لأنه جواب له صلى الله عليه وسلم بما يدل على أنه خوطب به زكريا عليه السلام أيضاً وجاز أن لا يضمر لأن المخاطب لهما واحد والخطاب مع نبينا صلى الله عليه وسلم وعلم من ضرورة المماثلة أنه قيل لزكريا أيضاً هذه المقالة ولو كان الحاكي والقائل الأول مختلفين في هذه الصورة لم يكن بد من إضماره

لأنه إذا قال عمرو لبكر ماذا قال زيد لخالد مما يماثل مقالته السابقة له ؟ فيقول : إنك محبب مرضي وجب أن يكون التقدير قال زيد لخالد هذه المقالة لا محالة ، ولا بعد في تنزيل كلام الزمخشري عليه ، وهذا ما لوح إليه صاحب التقريب وآثره الإمام الطيبي وفيه فوات النكتة المذكورة في ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ثم إنه إن لم يكن سبق القول كان كذباً من حيث الظاهر إذ ليس من القول بلسان الإشارة إلى أن يؤول بأنه مستقبل معنى ، هذا والكلام مسوق لما يزيل الاستبعاد ويحقق الموعود المرتاد وفي ذلك التقدير خروج عنه إلى معنى آخر ربما يستلزم هذا المعنى تبعاً وما سيق له الكلام ينبغي أن يجعل الأصل انتهى .

وهو كلام تحقيق وتدقيق لا يرشد إليه إلا توفيق ، وفي الآية وجه آخر هو ما أشار إليه صاحب الانتصاف ، و ﴿ هَيِّنٌ ﴾ فيعل من من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ، والمراد أني كامل القدرة على ذلك إذا أردته كان .

(43/483)

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ تقرير لما قبل ، والشيء هنا بمعنى الموجود أي ولم تك موجوداً بل كنت معدوماً ، والظاهر أن هذا إشارة إلى خلقه بطريق التوالد والانتقال في الأطوار كما يخلق سائر أفراد الإنسان ، وقال بعض المحققين : المراد به ابتداء خلق البشر

، إذ هو الواقع إثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد فكأنه قيل : وقد خلقتك من قبل في تضاعيف خلق آدم ولم تك إذ ذاك شيئاً أصلاً بل كنت عدماً بحتاً ، وإنما لم يقل : وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يك شيئاً مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بشر به على حاله عليه السلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس من حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه عليه السلام من العدم لأنه عليه السلام أبدع أنموذجاً منطوياً على سائر احاد الجنس فكان إبداعه على ذلك الوجه إبداعاً لكل أحد من فروعه كذلك ، ولما كان خلقه عليه السلام على هذا النمط الساري إلى جميع ذريته أبدع من أن يكون مقصوراً على نفسه كما هو المفهوم من نسبه الخلق المذكور إليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذٍ أظهر عنه وكان حاله أولى بأن يكون معياراً لحال ما بشر به نسب الخلق المذكور إليه كما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ [الأعراف : 11] توفية لمقام الامتنان حقه انتهى ، ولا يخلو عن تكلف ، وجوز أن يكون الشيء بمعنى المعتد به وهو مجاز شائع ، ومنه قول المتنبي :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم . . .

إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

وقولهم : عجبت من لا شيء وليس بشيء إذ يأباه المقام ويرده نظم الكلام .

وقرأ الأعمش . وطلحة . وابن وثاب . وحمزة . والكسائي ﴿ خلقناك ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(44/483)

وقال القاسمى :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

أي : مثلاً وشبيهاً . وعن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله . وروي أنه لم يعص ، ولم يهمّ بمعصية قط .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

أي : حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها . وقيل : إلى رياضته . وهي الحال المشار إليها بقول الشاعر :

~ومن العناء رياضة الهرم

قال الراغب .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

أي : من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر ، ثم وجدت .

قال الزمخشري : فإن قلت : لِمَ طلب أولاً ، وهو وامرأته على صفة العتيّ والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب ؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً ، ويرتدع المبطلون . وإلا فمعتقد زكريّا أولاً وآخراً ، كان في منهاج واحد ، هو أن الله غنيٌّ عن الأسباب . انتهى .

وقال أبو السعود : إنما قال عليه السلام ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عِمْرَان ، استعظاماً لقدرة الله تعالى ، وتعجيبا منها ، واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك ، بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله . مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعاداً له . وقيل : كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه . أي : أيكون الولد ونحن كذلك ؟ فقيل : كذلك . أي : يكون الولد وأنتما كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 90. 91 ﴾

(45/483)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) ﴾

في هذه الآية الكريمة حذف دل المقام عليه ، وتقديره : فأجاب الله دعاءه فنودي ﴿ يا زكريا ﴾ الآية . وقد أوضح جل وعلا في موضع آخر هذا الذي أجمله هنا ، فبين أن الذي ناداه بعض الملائكة . وأن النداء المذكور وقع وهو قائم يصلي في المحراب . وذلك قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 39] ، وقوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة ﴾ قال بعض العماء : أطلق الملائكة وأراد جبريل . ومثل بع بعض علماء الأصول العالم المارد به الخصوص قائلاً : إنه اراد بعموم الملائكة خصوص جبريل ، وإسناد الفعل للمجموع مراداً بعضه قد بيناه فيما مضى مراراً .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ اسمه يحيى ﴾ يدل على أن الله هو الذي سماه ، ولم يكل تسميته إلى أبيه . وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ اعلم أولاً أن السمى يطلق في اللغة العربية إطلاين : الأول قولهم : فلان سمى فلان اي مسمى باسمه . فمن كان اسمهما واحداً فكلاهما سمي الآخر أي مسمى باسمه .

(46/483)

والثاني – إطلاق السمي يعني المسامي أي المماثل في السمو والرفعة والشرف ، وهو فعيل بمعنى مفاعل من السمو بمعنى العلو والرفعة ، ويكثر في اللغة إتيان الفعيل بمعنى المفاعل . كالقعيج والجليس بمعنى المقاعد والمجالس . والأكيل والشريب بمعنى المؤاكل والمشارب ، وكذلك السمي بمعنى المسامي أي المماثل في السمو . فإذا علمت ذلك – فاعلم أن قوله هنا ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي لم نجعل من قبله أحداً يتسمى باسمه . فهو أول من كان اسمه يحيى . وقول من قال : إن معناه لم نجعل له سمياً أي نظيراً في السمو والرفعة غير صواب لأنه ليس بأفضل من إبراهيم وموسى ونوح ، فالقول الأول هو الصواب . وممن قال به ابن عباس وقتادة والسدي وابن أسلم وغيرهم . ويروى القول الثاني عن مجاهد وابن عباس أيضاً . وإذا علمت أن الصواب أن معنى قوله ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي لم نسم أحداً باسمه قبله – فاعلم أن قوله : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] معناهك أنه تعالى ليس له نظير ولا مماثل يساميه في العلو والعظمة والكمال على التحقيق . وقال بعض العلماء : وهو مروي عن ابن عباس ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ هل تعلم أحداً يسمى باسمه الرحمن جل وعلا . والعلم عند الله تعالى .

(47/483)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن زكريا لما بشر بيحيى قال ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ وهذا الذي ذكر أنه قاله هنا ذكره أيضاً في « آل عمران » في قوله ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر وامرأتي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران : 40] . وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ قرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم « عتياً » بضمها على الأصل . ومعنى قوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ بكسر العين إتباعاً للكسرة التي بعدها ، ومجانسة للياء وقرأه الباقون « عتياً » بضمها على الأصل . ومعنى قوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ أنه بلغ غاية الكبر في السن . حتى نحل عظمه ويبس . قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره هذه الآية : يقول وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها . يقال منه للعود اليابس : عود عات وعاس . وقد عتا عتواً وعتياً . وعسا يعسو عسياً وعسوا . وكل متناه إلى غاية في كبر أو فساد أو كفر فهو عات وعاس .

تنبيه

فإن قيل : ما وجه استفهام زكريا في قوله ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ مع علمه بقدرة الله تعالى على كل شيء .

فالجواب من ثلاثة أوجه قد ذكرناها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عند آيات الكتاب) في سورة « آل عمران » وواحد منها فيه بعد وإن روى عن عكرمة والسدي وغيرهما .

الأول – أن استفهام زكريا استفهام استخبار استعلام . لأنه لا يعلم هل الله يأتيه بالولد من زوجه العجوز على كبر سنهما على سبيل خرق العادة . أو يأمر بأن يتزوج شابة ، أو يردهما شابين ؟ فاستفهم عن الحقيقة ليعلمها . ولا إشكال في هذا ، وهو أظهرها .

(48/483)

الثاني – أن استفهامه استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى .

الثالث – وهو الذي ذكرنا أن فيه بعداً هو ما ذكره ابن جرير عن عكرمة والسدي : من أن زكريا لما نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ، قال له الشيطان : ليس هذا نداء الملائكة ، وإنما هو نداء الشيطان ، فداخل زكريا الشك في أن النداء من الشيطان ، فقال عند الله الشك الناشىء عن وسوسة الشيطان قبل أن يتيقن أنه من الله : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ ولذا طلب الآية من الله على ذلك بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِي آيَةً ﴾ [مريم : 10] الآية . وإنما قلنا : إن هذا القول فيه بعد لأنه لا يلتبس على زكريا نداء الملائكة بنداء الشيطان .

وقوله في هذه الآية الكريمة « عتياً » أصله عنوا ، فأبدلت الواو ياء . ومن إطلاق العتي الكبر المتناهي قول الشاعر

إنما يعذر الوليد ولا يع . . . ذر من كان في الزمان عتيا

وقراءة « عسياً » بالسين شاذة لا تجوز القراءة بها . وقال القرطبي : وبها قرأ ابن عباس ، وهي كذلك مصحف أبي .

(49/483)

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9)

هذا الذي ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة – ذكره أيضاً في « آل عمران » في قوله : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : 40] . وقوله في هذه الآية الكريمة « كذلك » للعلماء في إعرابه أوجه :

الأول – أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره ، الأمر كذلك ، ولا محالة أن تلد الغلام المذكور . وقيل ، الأمر كذلك أنت كبير في السن ، وامرأتك عاقر . وعلى هذا فقوله ﴿ قال ربك ﴾ ابتداء كلام :

الوجه الثاني – أن « كذلك » في محل نصب ب « قال » وعليه فالإشارة بقوله « ذلك » إلى

مبهم يفسره قوله : ﴿ هو عليّ هينٌ ﴾ ونظيره على هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] . وغير هذين من أوجه إعرابه تركناه لعدم وضوحه عندنا . وقوله ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي يسير سهل .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ أي ومن خلقك ولم تك شيئاً فهو قادر على أن يرزقك الولد المذكور كما لا يخفى . وهذا الذي قاله هنا لزكريا : من أنه خلقه ولك يك شيئاً – أشار إليه بالنسبة إلى الإنسان في مواضع أخر . كقوله : ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 67] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان : 1] .

(50/483)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ دليل على أن المعدوم ليس بشيء . ونظيره قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] ، وهذا هو الصواب . خلافاً للمعتزلة القائلين : إن المعدوم الممكن وجوده شيء ، مستدلين لذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] قالوا : قد سماه الله شيئاً قبل أن يقول له كن فيكون ، وهو يدل على أنه شيء قبل وجوده . ولأجل هذا قال

الزمخشري في تفسير هذه الآية : لأن المعدوم ليس بشيء . أو ليس شيئاً يعتد به . كقولهم : عجبت من لا شيء . وقول الشاعر :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم . . . إذا رأى شيء ظنه رجلا

لأن مراده بقوله : غير شيء ، اي إذا رأى شيئاً تافهاً لا يعتد به كأنه لا شيء لحقارته ظنه رجلاً ، لأن غير شيء بالكلية لا يصح وقوع الرؤية عليه . والتحقيق هو ما دلت عليه هذه الآية وأمثالها في القرآن : من أن المعدوم ليس بشيء ؟ والجواب عن استدلالهم بالآية : أن ذلك المعدوم لما تعلقت الإرادة بإيجاده ، صار تحقق وقوعه كوقوعه بالفعل ، كقوله ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] ، وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ [الكهف : 99] ، وقوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين ﴾ [الزمر : 69] الآية ، وقوله ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا ﴾ [الزمر : 71] ، وقوله ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : 73] الآية ، وأمثال ذلك . كل هذه الأفعال الماضية الدالة على الوقوع بالفعل فيما مضى – أطلقت مراداً بها المستقبل ، لأن تحقق وقوع ما ذكره صيره كالواقع بالفعل . وكذلك تسميته شيئاً قبل وجوده لتحقق وجوده بإرادة الله تعالى .

(51/483)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا حمزة والكسائي « خلقتك » بتاء الفاعل المضمومة التي هي تاء المتكلم . وقرأه حمزة والكسائي « وقد خلقناك » بنون بعدها ألف ، وصيغة الجمع فيها للتعظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(52/483)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) ﴾

مقول قول محذوف دلّ عليه السياق عقب الدعاء إيجازاً ، أي قلنا يا زكرياء إلخ . . .

والتبشير : الوعد بالعطاء .

وفي الحديث : "أنّه قال للأنصَار فأبشروا وأمّلوا" ، وفي حديث وفد بني تميم : "اقبَلوا البشرى ، فقالوا بشرتَنا فأعطنا" .

ومعنى ﴿ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ سَمّهِ يحيى ، فالكلام خبر مستعمل في الأمر .

والسميّ فسروه بالموافق في الاسم ، أي لم نجعل له من يوافقه في هذا الاسم من قبل وجوده .

فعليه يكون هذا الإخبار سراً من الله أودعه زكرياء فلا يظن أنه قد يُسمّي أحد ابنَه يحيى

فيما بين هذه البشارة وبين ازدياد الولد .

وهذه منّة من الله وإكرام لزكرياء إذ جعل اسم ابنه مبتكراً ، وللأسماء المبتكرة مزيّة قوّة تعريف المسمى لقلّة الاشتراك ، إذ لا يكون مثله كثيراً مدّة وجوده ، وله مزية اقتداء الناس به من بعد حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمّناً واستجادة .

وعندي : أن السّمِيّ هنا هو الموافق في الاسم الوصفي بإطلاق الاسم على الوصف ، فإن الاسم أصله في الاشتقاق (وسَم) ، والسمة : أصلها وسمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ ليسمُّون الملائكَة تسمية الأنثى ﴾ [النجم : 27] ، أي يصفونهم أنهم إناث ، ومنه قوله الآتي : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ [مريم : 65] أي لا مثيل لله تعالى في أسمائه .

وهذا أظهر في الثناء على يحيى والامتنان على أبيه .

(53/483)

والمعنى : أنه لم يجيء قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى فإنه أعطي النبوءة وهو صبيّ ، قال تعالى : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ [مريم : 12] ، وجعل حصوراً ليكون غير مشقوق عليه في عصمته عن الحرام ، ولئلا تكون له مشقة في الجمع بين حقوق العبادة وحقوق الزوجة ، وولد لأبيه بعد الشيخوخة ولأمّه بعد العَقر ، وبُعث مبشراً

برسالة عيسى عليه السلام ، ولم يكن هو رسولاً ، وجعل اسمه العلم مبتكراً غير سابق من قبله .

وهذه مزايا وفضائل وهبت له ولأبيه ، وهي لا تقتضي أنه أفضل الأنبياء لأنّ الأفضلية تكون بمجموع فضائل لا ببعضها وإن جلّت ، ولذلك قيل "المزيّة لا تقتضي الأفضليّة" وهي كلمة صدق .

وجملة ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ جواب للبشارة .

و ﴿ أنى ﴾ استفهام مستعمل في التعجب ، والتعجب مكنى به عن الشكر ، فهو اعتراف بأنها عطية عزيزة غير مألوفة لأنّه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولداً ثمّ يتعجب من استجابة الله له .

ويجوز أن يكون قد ظن الله يهب له ولداً من امرأة أخرى بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر ، وتقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران .

وجملة ﴿ امرأتي عاقراً ﴾ حال من ياء التكلّم .

وكرّر ذلك مع قوله في دعائه ﴿ وكَانَتِ امرأتي عاقِراً ﴾ .

وهو يقتضي أنّ زكرياء كان يظن أن عدم الولادة بسبب عقر امرأته ، وكان الناس يحسبون ذلك إذا لم يكن بالرجل عُنّةٌ ولا خصاء ولا اعتراض ، لأنهم يحسبون الإنعَاظ والإنزال هما سبب الحمل إن لم تكن بالمرأة عاهة العُقر .

وهذا خطأ فإن عدم الولادة يكون إمّا لعلّة بالمرأة في رحمها أو لعلة في ماء الرجل يكون غير صالح لنماء البويضات التي تبرزها رحم المرأة .

و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من الكبر عُتِيّاً ﴾ للابتداء ، وهو مجاز في معنى التعليل .

والكِبر : كثرة سني العمر ، لأنه يقارنه ظهور قلّة النشاط واختلال نظام الجسم .

و﴿ عُتِيّاً ﴾ مفعول ﴿ بَلَغْتُ ﴾ .

(54/483)

والبلوغ : مجاز في حلول الإبان ، وجعل نفسه هنا بالغاً الكبر وفي آية آل عمران (40) قال : ﴿ وقد بلغني الكبر ﴾ لأن البلوغ لما كان مجازاً في حصول الوصف صح أن يسند إلى الوصف وإلى الموصوف .

والعُتيّ بضم العين في قراءة الجمهور مصدر عتا العود إذا يبس ، وهو بوزن فعول أصله عُتُوُوٌ ، والقياس فيه أن تصحح الواو لأنها إثر ضمّة ولكنهم لما استثقلوا توالي ضمتين بعدهما واوان وهما بمنزلة ضمتين تخلصوا من ذلك الثقل بإبدال ضمّة العين كسرة ثم قلبوا الواو الأولى ياء لوقوعها ساكنة إثْرَ كسرة فلما قلبت ياءً اجتمعت تلك الياء مع الواو التي هي لام ، وكأنهم ما كسروا التاء في عتي بمعنى اليبس إلاّ لدفع الالتباس بينه وبين العُتوّ الذي هو

الطغيان فلا موجب لطلب تخفيف أحدهما دون الآخر .

شبه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة المكنية ، وإثباتُ وصف العُتي لها استعارة تخييلية .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) ﴾

فصلت جملة ﴿ قَالَ كذلك ﴾ لأنها جرت على طريقة المحاورة .

وهي جواب عن تعجبه .

والمقصود منه إبطال التعجب الذي في قوله : ﴿ وكانَتِ امرأتي عاقِراً وقد بلغتُ مِن الكِبَر عُتِياً ﴾ [مريم : 8] .

فضمير ﴿ قَالَ ﴾ عائد إلى الرب من قوله ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يكونُ لي غُلامٌ ﴾ [مريم : 8] .

والإشارة في قوله ﴿ كذلك ﴾ إلى قول زكرياء ﴿ وكانت امرأتي عاقِراً وقَد بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عُتِيّاً ﴾ .

والجار والمجرور مفعول لفعل ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ ، أي كذلك الحال من كبرك وعقر امرأتك قدّر ربُّك ، ففعلُ ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ مرادٌ به القول التكويني ، أي التقديري ، أي تعلّق الإرادة والقدرة .

والمقصود من تقريره التمهيد لإبطال التعجب الدال عليه قوله ﴿ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ، فجملة ﴿ هُوَ عليَّ هَيِّنٌ ﴾ استئناف بياني جواباً لسؤال ناشىء عن قوله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ لأنّ تقرير منشأ التعجب يثير ترقب السامع أن يعرف ما يُبطل ذلك التعجب المقرّر ، وذلك كونه هيّناً في جانب قدرة الله تعالى العظيمة .

ويجوز أن يكون المشار إليه بقوله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ هو القول المأخوذ من ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ ، أي أن قولَ ربّك ﴿ هُوَ عليَّ هَيِّنٌ ﴾ بلغ غاية الوضوح في بابه بحيث لا يبين بأكثر ما علمت ، فيكون جارياً على طريقة التشبيه كقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ وقد تقدم في سورة البقرة (143) .

وعلى هذا الاحتمال فجملة هُوَ عليَّ هَيِّنٌ ﴾ تعليل لإبطال التعجب إبطالاً مستفاداً من قوله ﴿ كذلك قال ربّك ﴾ ، ويكون الانتقال من الغيبة في قوله ﴿ قَالَ رَبّك ﴾ إلى التكلم في قوله ﴿ هُوَ عليَّ هَيِّنٌ ﴾ التفاتاً .

ومقتضى الظاهر : هو عليه هيّن .

والهيّن بتشديد الياء : السهل حصوله .

وجملة ﴿ وقَدْ خَلَقتُكَ من قَبْلُ ﴾ على الاحتمالين هي في موضع الحال من ضمير الغيبة الذي في قوله ﴿ هُوَ على هَيِّنٌ ﴾ ، أي إيجاد الغلام لك هيّن عليّ في حال كوني قد خلقتُك

من قبل هذا الغلام ولم تكن موجوداً ، أي في حال كونه مماثلاً لخلقي إياك ، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة إذ هما إيجاد بعد عدم .

ومعنى ﴿ ولَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ : لم تكن موجوداً .

وقرأ الجمهور ﴿ وقَدْ خَلَقْتُكَ ﴾ بتاء المتكلّم .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف : (وقد خلقناك) بنون العظمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(56/483)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) ﴾

المتأمل لهذه القصة يجد هذه الآية قد اختصرت من القصة ما يفهم من سياقها ثقةً في نباهة السامع ، وأنه قادر على إكمال المعنى ، فكأن معنى الآية : سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه ، فأجابه بقوله : ﴿ يازكريآ ﴾ [مريم : 7] .

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه ،

فجاءت الإجابة مباشِرة دون مُقدّمات .

ومثال ذلك : ما حكاه القرآن من قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ، قال سليمان : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : 3840] فبيْنَ قوله : ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : 40] وقوله : ﴿ رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ [النمل : 40] كلام يقتضيه سياق القصة ، كأن نقول : فأذِن له فذهب وأتى بالعرش ، لكن جاء الأسلوب سريعاً ليتناسب مع سرعة الحدث في إحضار عرش بلقيس من مكانه .

وقوله : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم : 7] البشارة : هي الإخبار بما يسرُّك قبل أن يجيء ليستطيل أمدَ الفرح بالشيء السَّار ، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب في البُشْرى ، وقد تأتي الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه ، فكيف بك إذا بشّرك الله تعالى ؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حَقٌّ وواقعٌ لا شكَّ فيه .

(57/483)

وقوله : ﴿ بِغُلاَمٍ اسمه يحيى ﴾ [مريم : 7] أي : وسماه أيضاً . ونحن نعلم أن للبشر اختيارات في وَضْع الأسماء للمسميات ، ولهم الحرية في ذلك ، فواحدة تُسمى ولدها (حرنكش) هي حرة ، والأخرى تسمى ابنتها الزنجية (قمر) هي أيضاً حرة .

إلا أن الناس حين يُسمُّون يتمنون في المسمّى مواصفات تَسرُّ النفس وتقرُّ العين ، فحين نُسمِّي سعيداً تفاؤلاً بأن يكون سعيداً فعلاً ، والاسم وُضِع للدلالة على المسمى ، لكن ، أيملك هذا المتفائل أن يأتي المسمى على وَفْق ما يحب ويتمنى ؟ لا ، لا يملك ذلك ولا يضمنه ؛ لأن هناك قوة أعلى منه تتحكم في هذه المسألة ، وقد يأتي المسمَّى على غير مُراده

.

أما إذا كان الذي سمّى هو الله تعالى فلابد أن يتحقق الاسم في المسمَّى ، وينطبق عليه ، ولأبدَّ أنْ يتحقَّق مراده تعالى في مَنْ سَمَّاه ، وقد سَمَّى الحق تبارك وتعالى ابن زكريا يحيى فلابُدَّ أن تنطبق عليه هذه الصفة ، ويحيى فعل ضده يموت ، إذن : فهو سبحانه القادر على أن يُحييه ، لكن يحييه إلى متى ؟ وكم عاماً ؟ الحياة هنا والعيش يتحقق ولو بمتوسط الأعمار مثلاً ، فقد أحياه وتحققت فيه صفة الحياة .

ولذلك استدل أهل المعرفة من تسميته يحيى على أن ابن زكريا سيموت شهيداً ليظل حياً كما سماه الله وقد كان .

وقوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 7] السميُّ : اختلف العلماء في معناها

فقالوا : تأتي بمعنى : نظير أو مثيل أو شبيه وإما سمياً يعني : اسمه كاسمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] فقالوا : سمياً هنا تحمل المعنيين : هل تعلم له نظيراً أو شبيهاً ؛ لأنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] .

(58/483)

ويمكن أن نقول بهذا المعنى أيضاً في قصة يحيى عليه السلام ، إلا أنه يقع فيه شيء وهو : أن الله تعالى حينما قال في مسألة يحيى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 7] واعتبرناها بمعنى المِثْل أو النظير والشبيه ، فهذا يعني أنه لم يسبق يحيى واحد مثله في الصلاح والتقوى ، فأين إذن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟ وأين إسماعيل وإسحق ؟ فهذا المعنى وإن كان السياق يحتمله في غير هذا الموضع إلا أنه لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى جعل من قَبْل يحيى مَنْ هو أفضل من يحيى ، أو مثله على الأقل .

أما المعنى الآخر فيكون : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] أي : هل هناك مَنْ تسمى باسمه تعالى ؟ وهذا هو المعنى الذي يستقيم في قصة يحيى عليه السلام ؛ لأنه أول

اسم وضعه الحق سبحانه على ابن زكريا ، ولم يكن أحدٌ تسمى به من قبل ، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم ، حتى قال الشاعر :

وسَمَّيْتُه يَحْيى ليحيى فلم يكُنْ . . . لِردِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

ونقف هنا على آية من آيات الله في التسمية ، حيث لم يجرؤ أحد حتى من الكفرة والملاحدة الذين يجاهرون بإلحادهم ويعلنون إنكارهم للخالق سبحانه ، لم يجرؤ أحدهم أن يسمى ولده (الله) ، وحرية اختيار الأسماء مكفولة ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على أن كفرهم عناد ولَجَجٌ ، وأنهم غير صادقين في كُفْرهم ، ويعلمون أن الله موجود ؛ لذلك يخافون على أنفسهم وعلى أولادهم أنْ يُسمّوا بهذا الاسم .

إذن : كلمة (سَمِياً) في مسألة الألوهية تُؤخَذ على المعنيين ، أما في مسألة يحيى فلا تحتمل إلا المعنى الثاني .

وَهبْ أن الحق سبحانه وتعالى استعرض الأسماء السابقة فلم يجد في الماضي من سُمِّي (الله) فأعلنها تحدياً : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] ؟ فلم يحدث بعد هذا التحدي أنْ يُسمَّى أحد بهذا الاسم .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) ﴾

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه ، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك في أنْ يُوغل في معرفة الوسيلة ، وكيف سيتم ذلك ، وتتحقق هذه البشارة حال كَوْنه قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟

لكن ماذا يقصد زكريا من سؤاله ، وهو يعلم تماماً أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه ؟

الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى ، ولا يستدرك على الله ، وحاشاه أنْ يقصد ذلك ، وإنما أطمعته البُشْرى في أنْ يعرف الكيفية ، كما حدث في قصة موسى عليه السلام حينما كلَّمه ربه واختاره ، وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام في أنْ يطلب الرؤيا ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] .

وكما حدث في قصة إبراهيم عليه السلام لما قال لربه : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى ﴾ [البقرة : 260] وأبو الأنبياء لا يشكّ في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، ولكنه يريد أنْ يعرف هذه الطريقة العجيبة ، فالكلام ليس في الحقيقة وجوداً وعدماً ، إنما في كيفية وجود الحقيقة ، والكلام في الكيفية لا دخْل له بالوجود .

فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُباشَر عملياً ، فأمره بما نعلم من هذه القصة : وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه ، ثم يضمهنّ إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها ، ثم أمره أنْ يُقطِّعهن أجزاء ، ثم يُفرِّق هذه الأجزاء على قمم الجبال ، ثم بعد ذلك ترك له

الخالق سبحانه أنْ يدْعُوَهُن بنفسه ، وأن يصدر الأمر منه فتتجمع هذه القطع المبعثرة وتدبّ فيها الحياة من جديد ، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنه لم يفعل ، بل جعل مَنْ لا يستطيع ذلك يفعله . ويقدر عليه .

(60/483)

فإنْ كان البشر يُعَدُّون أثر قدرتهم إلى الضعفاء ، فمَنْ لا يقدر على حَمْل شيء يأتي بمَنْ يحمله له ، ومَنْ يعجز عن عمل شيء يأتي بمَنْ يقوم به ، ويظل هو ضعيفاً لا يقدر على شيء ، أما الحق سبحانه وتعالى فيُعدِّي قوته بنفسه إلى الضعيف فيصير قوياً قادراً على الفعل .

فقوله : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ ﴾ [مريم : 8] ؟ سؤال عن الكيفية ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة : 260] ؟ أي : بقدرتي على إحياء الموتى ، قال (بَلَى) أي : نعم أومن ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : 260] أي : الكيفية التي يتم بها الإحياء .

أو : أن زكريا عليه السلام بقوله : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ ﴾ [مريم : 8] يريد أن يُوثِّق هذه البشرى ويُسجِّلها ، كما تَعِد ولدك بأنْ تشتري له هدية فيُلِحّ عليك في هذه المسألة ليؤكد وَعْدك له ، ويستلذ بأنه وَعْد مُحقَّق لا شكَّ فيه ، ثم يذكر زكريا حيثيات تعجُّبه من هذا

الأمر فيقول :

﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ [مريم : 8] .

عتياً : من عَتَا يعني طغى وتجبر وأفسد كثيراً ، والعُتُو : الكفر ، والعَتِيّ : هو القوي الذي لا يُغالب ؛ لذلك وصف الكِبَر الذي هو رمز للضعف بأنه عَتِيّ ؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْف لا يقدر أحد على مقاومته ، أو دفعه أبداً ، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير (والفيتامينات) .

ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام ؛ وتُلح عليه ؛ لأنه دعا الله كثيراً أنْ يرزقه الولد ، ففي موضع آخر يقول : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ [الأنبياء : 89] . فزكريا عليه السلام يريد الولد الذي يَرِثه وهو موروث ؛ لأن الله تعالى خير الوارثين .

(61/483)

لكن يأتي الرد : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء : 90] ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء : 90] التي ستنجب هذا الولد ، قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ [الأنبياء : 90] فصلاح الزوجة

ليس شرطاً في تحقُّق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة .

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التي لا يُعجِزها شيء ، فهو سبحانه قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر ، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حَدٍّ ، كما لو تعطَّل عندك أحد الأجهزة مثلاً فذهبتَ به إلى الكهربائي لإصلاحه فوجد التلفَ به كبيراً ، فينصحك بتركه وشراء آخر جديد ، فلا حيلةَ في إصلاحه .

لذلك أصلح الله تعالى لزكريا زوجه حتى لا نظنَّ أن يحيى جاء بطريقة أخرى ، والزوجة ما تزال على حالها .

ثم يقول الحق : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(قَالَ) أي : الحق تبارك وتعالى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم : 9] أي : أنه تعالى قال ذلك وقضى به ، فلا تناقش في هذه المسألة ، فنحن أعلَم بك وما أنتَ فيه من كِبَر ، وأن زوجتك عاقر ، ومع ذلك سأهبك الولد .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 9] وفي آية أخرى يقول في آية البعث : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] فلا تظن أن الأمر بالنسبة لله تعالى فيه شيء هَيِّن وشيء أَهْوَن ، وشيء شاقّ ، فالمراد بهذه الألفاظ تقريب المعنى إلى أذهاننا .

والحق سبحانه يخاطبنا على كلامنا نحن وعلى منطقنا ، فالخَلْق من موجود أهون في نظرنا

من الخلق من غير موجود ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15] .

(62/483)

إذن : فمسألة الإيجاد بالنسبة له تعالى ليس فيها سَهْل وأسْهَل أو صَعْب وأصعب ، لأن هذه تُقال لمَنْ يعمل الأعمال علاجاً ، ويُزوالها مُزَاولة ، وهذا في إعمالنا نحن البشر ، أما الحق تبارك وتعالى فإنه لا يعالج الأفعال ، بل يقول للشيء كُنْ فيكون : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

ثم يُدلّل الحق سبحانه وتعالى بالأَقْوى ، فيقول : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : 9] فلأن يوجد يحيى من شيء أقلّ غرابة من أن أوجد من لا شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/483)

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة زكريا عليه السلام]

تمسكوا بقوله تعالى : (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب أنى يكون لى غلام وامرأتى عاقر وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) قالوا : قد شك في قدرة الله تعالى *

[جوابه] لو كان الأمر على ما قالوه لكان زكريا عليه السلام غير عاقل لما سأل الله ذلك فلما أضافه إليه استنكره فاستبعد قدرته عليه كان ذلك من افعال المجانين ، فثبت أن الأمر بخلاف ما قالوه وذلك أن زكريا عليه السلام لم يسأل ربه أن يهب له ولدا من جهة الولادة وإنما سأله أن يهب له ولدا من عنده فقال : (هب لى من لدنك وليا) وقال في آل عمران : (هب لى من لدنك ذرية طيبة) إنما سأل ذلك عند ما أخبرته مريم بأن رزقها يأتيها من عند الله فسأل ولدا من عنده فلما بشرته الملائكة بالولد سأل كيف ذلك يقع على كبره ، وكيف وكانت امرأته عاقرا ؟ فقال : (كذلك يفعل الله ما يشاء) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 91 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) ﴾

قوله : ﴿ يحيى ﴾ : فيه قولان : أحدُهما : أنه سامٌ أعجميٌّ لا اشتقاقَ له ، وهذا هو الظاهرُ ، ومَنْعُه من الصَّرْفِ للعَلَمِيَّةِ والعُجْمة . وقيل : بل هو منقولٌ من الفعلِ المضارعِ كما سَمَّوْا بيَعْمُرَ ويَعيشَ ويَموتَ ، وهو يموتُ بنُ المُزَرِّع .

والجملةُ مِنْ قولِه : ﴿ اسمه يحيى ﴾ في محلِّ جَرٍّ صفةً ل " غُلام " وكذلك ﴿ لَمْ نَجْعَل ﴾ . و " سَمِيًّا " كقوله : " رَضِيًّا " إعراباً وتصريفاً لأنَّه من السُّمُوِّ ، وفيه دلالةٌ لقول البصريين : أنَّ الاسمَ من السُّمُوِّ ، ولو كان من الوَسْم لقيل : وَسِيما .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) ﴾

قوله : ﴿ عِتِيّاً ﴾ : فيه أربعةُ أوجهٍ ، أظهرُها : أنه مفعولٌ به ، أي : بَلَغْتُ عِتِيّاً من الكِبَرِ ، فعلى هذا ﴿ مِنَ الكبر ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " بَلَغْتُ " ، ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " عِتِيّا " لأنه في الأصلِ صفةٌ له كما قَدَّرْتُه لك . الثاني : أن يكونَ مصدراً مؤكِّداً مِنْ الفعل ، لأنَّ / بلوغَ الكِبَرِ في معناه . الثالث : أنَّه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ من فاعل

"بَلَغْتُ" ، أي : عاتياً أو ذاعِتِيّ . الرابع : أنه تمييزٌ . وعلى هذه الأوجهِ الثلاثةِ ف "مِنْ" مزيدةٌ ، ذكره أبو البقاء ، والأولُ هو الوجهُ .

(65/483)

والعُتُوُّ : بزنة فُعُوْل ، وهو مصدرُ عَتا يَعْتُو ، أي : يَبِس وصَلُب . قال الزمخشري : " وهو اليُبْس والجَسَاوَةُ في المفاصِلِ والعظام كالعُوْدِ القاحِلِ يُقال : عَتا العُوْدُ وجَسا ، أو بَلَغْتُ مِنْ مدارجِ الكِبَر ومراتبه ما يُسَمَّى عِتِيّاً " يريد بقوله : " أو بَلَغْتُ " أنه يجوز أَنْ يكونَ مِنْ عتا يَعْتُو ، أي : فَسَدَ .

والأصل : عُتُوْوٌ بواوين فاسْتُثْقِل واوان بعد ضمتين ، فَكُسِرَتِ التاءُ تخفيفاً فانقلبت الواوُ الأولى ياءً لسكونها وانكسارِ ما قبلها ، فاجتمع ياءٌ وواوٌ ، وسَبَقَتْ إحداهما بالسكون ، فَقُلبت الواوُ ياءً وأُدْغِمت فيها الياءُ الأُولى . وهذا الإعلالُ جارٍ في المفرد كهذا ، والجمعِ نحو : " عِصِيّ " إلا أنَّ الكثيرَ في المفردِ التصحيحُ كقولِه : " وعَتَوْا عُتُوّاً كبيراً " وقد يُعَلُّ كهذه الآية ، والكثيرُ في الجمع والإعلالُ ، وقد يُصَحَّحُ نحو : " إنكم لتنظرون في نُحُوٍّ كثيرة " وقالوا : فُتِيَ وفُتُوّ .

وقرا الأخَوان " عِتِيّاً " و " صِلِيّاً " و " بِكِيّاً " و " جِثِيّاً " بكسر الفاء للإتباع ، والباقون

بالضمِّ على الأصل .

وقرأ عبدُ الله بن مسعود بفتح الأول مِنْ " عَتِيًّا " و " صَلِيًّا " جَعَلَهما مصدَرَيْن على زنة فَعيل كالعَجيج والرَّحيل .

وقرأ عبد الله ومجاهد " عُسِيًّا " بضم العين وكسر السينِ المهملة . وتقدَّم اشتقاقُ هذه اللفظة في الأعراف وتصريفُها .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) ﴾

(66/483)

قوله : ﴿ كذلك ﴾ : في محلِّ هذه الكاف وجهان ، أحدهما : أنه رفعٌ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ ، أي : الأمرُ كذلك ، ويكون الوقف على : " كذلك " ثم يُبْتَدَأ بجملة أخرى .

والثاني : أنها منصوبةُ المحلِّ ، فَقَدَّره أبو البقاء ب " أَفْعَلُ مثلَ ما طلبْتَ ، وهو كنايةٌ عن مطلوبِه ، فَجَعَلَ ناصبَه مقدَّراً ، وظاهرُه أنَّه مفعولٌ به .

وقال الزمخشري : " أو نصبٌ ب " قال " و " ذلك " إشارةٌ إلى مُبْهَم يُفَسِّره ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ، ونحوُه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] . وقرأ الحسن ﴿ وهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ولا يُخرَّجُ هذا إلا على الوجه الأول ، أي :

الأمرُ كما قلت ، وهو على ذلك يَهُون عليَّ . ووجهٌ آخرُ : وهو أَنْ يُشارَب " ذلك " إلى ما تقدَّم من وَعْدِ الله ، لا إلى قولِ زكرِّيَا . و " قال " محذوفٌ في كلتا القراءتين . - في كلتا القراءتين : يعني قراءةَ العامة وقراءةَ الحسنِ - أي : قال هو عليَّ هيِّن ، قال : وهو عَلَيَّ هَيِّن ، وإن شئتَ لم تَنْوِه ، لأنَّ اللهَ هو المخاطَبَ ، والمعنى أنه قال ذلك ، ووَعْدُه وقولُه الحق " . وفي هذا الكلامِ قَلَقٌ ؛ وحاصلُه يَرْجع إلى أنَّ " قال " الثانيةَ هي الناصبةُ للكاف . وقوله : " وقال محذوفٌ " يعني تفريغاً على أنَّ الكلامَ قد تَمَّ عند " قال ربك " ويُبْتَدأ بقولِه : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ . وقوله : " وإنْ شِئْتَ لم تَنْوِه " أي : لم تَنْوِ القولَ المقدَّرَ ، لأنَّ اللهَ هو المتكلِّمُ بذلك .

(67/483)

وظاهرُ كلامِ بعضهم : أنَّ " قال " الأولى مُسْنَدةٌ إلى ضميرِ المَلَكِ ، وقد صرَّح بذلك ابنُ جريرٍ ، وتبعه ابن عطية . قال الطبري : " ومعنى قولِه " قال كذلك " ، أي : الأمران اللذان ذكرْتَ مِنَ المرأةِ العاقرِ والكِبَرِ هو كذلك ، ولكم قال ربُّكِ ، والمعنى عندي : قال المَلَكُ : كذلك ، أي : على هذه الحال ، قال ربك : هو عليَّ هَيِّنٌ " انتهى .

وقرأ الحسن البصري " عَلَيِّ " بكسر ياء المتكلم كقوله :

3213- عَلَيَّ لعمروٍ نِعْمَةٌ بعدَ نِعْمةٍ . . . لوالدِهِ ليسَتْ بذاتِ عَقَارِبِ

أنشدوه بالكسر . وقد أَمْنَعْتُ الكلامَ في هذه المسألة في قراءةِ حمزةَ ﴿ بِمُصْرِخِيِّ ﴾ .

قوله : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ ﴾ هذه جملة مستأنفة . وقرأ الأخَوان " خَلَقْناك " أسنده إلى الواحدِ المعظِّمِ نفسَه . والباقون " خَلَقْتُكَ " بتاءِ المتكلم .

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ جملةٌ حاليةٌ ، ومعنى نَفْيِ كونِه شيئاً ، أي : شيئاً يُعْتَدُّ به كقوله :

3214- . . . . . إذا رَأَى غيرَ شَيْءٍ ظَنَّه رَجُلاً

وقالوا : عَجِبْتُ مِنْ لا شيء . ويجوز أن يكونَ قال ذلك ؛ لأنَّ المعدومَ ليس بشيءٍ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 569.573 ﴾

(68/483)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) ﴾

أي استجبنا لدعائِك ، ونرزقك ولداً ذكَراً اسمُه يحيى ؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّه ، ويحيا به نَسَبُكُ ، يحيا به ذِكْرُك ، وما سألْتَه من أن يكون نائباً عنك ؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة في بيتك .

﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ : انفراده – عليه السلام – بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة ؛ أي لم يكن له سَمِيٌّ قَبْله ؛ فلا أحَدَ كُفْؤٌ له في استجماع أوصاف فَضْله .

ويقال لم تجعل له من قبل نظيراً ؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنبَ له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) ﴾

سأل الوَلَدَ فلمَّا أُجِيب قال أَنَّى يكون لي غلام ؟ ومعنى ذلك – على ما جاء في التفسير – أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدةً طويلة ؛ فكأنه سأل الولدَ في ابتداء حال سِنّه ، واستجيبت دعوتُه بعد ما تناهى في سِنَّه ، فلذلك قال : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ ؟ .

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد . . أمِنْ هذه المرأة وهي عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها ؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد . فقال تعالى : قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ .

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة في هذا الوقت الذي فيه حسب مستقرِّ العادة ولادة مثلِ هذه المرأة دلالةٌ ومعجزةٌ لك على قومك ، فتكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهٍ معجزةٌ ؛ ومن وجهٍ راحةٌ وكرامةٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ .

دلَّت الآية على أن المعدومَ ليس بشيءٍ ، لأنه نفي أن يكون قبل خَلْقِه له كان شيئاً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 420. 421 ﴾

(69/483)

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم قيل جواباً لمن كأنه قال : ما قال بعد علمه بذلك ؟ : ﴿ قال رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ بالتقريب ! ﴿ اجعل لي ﴾ على ذلك ﴿ ءاية ﴾ أي علامة تدلني على وقوعه ﴿ قال ﴾ أي الله : ﴿ ءايتك ﴾ على وقوع ذلك ﴿ ألا تكلم الناس ﴾ أي لا تقدر على كلامهم .

ولما بدئت السورة بالرحمة ، وكان الليل محل تنزلها " ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول " – الحديث ، قال : ﴿ ثلاث ليال ﴾ أي بأيامها – كما ذلك عليه التعبير بالأيام في آل

عمران حال كونك ﴿ سوياً ﴾ من غير خرس ولا مرض ولا حبسة عن مطلق الكلام ، بل تناجي ربك فيها بتسبيحه وتحميده وتلاوة كتابه وكل ما أردت من مثل ذلك وكذا من عدا الناس من الملائكة وغيرهم من صالح عباد الله ، وجعلت الآية الدالة عليه سكوتاً عن غير ذكر الله دلالة على إخلاصه وانقطاعه بكليته إلى الله دون غيره ﴿ فخرج ﴾ عقب إعلام الله له بهذا ﴿ على قومه ﴾ أي عالياً على العلية منهم ﴿ من المحراب ﴾ الذي كان فيه وهو صدر الهيكل وأشرف ما فيه ، وهو منطلق اللسان بذكر الله منحبسه عن كلام الناس ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار بشفتيه من غير نطق : قال الإمام أبو الحسن الرماني في آل عمران : والرمز : الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين ، والأول أغلب ؛ قال : وأصله الحركة .

وسبقه إلى ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري فقال : وأما الرمز فإن الأغلب من معانيه عند العرب الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجبين والعينين أحياناً ، وذلك غير كثير فيهم ، وقد يقال للخفي من الكلام الذي مثل الهمس بخفض الصوت الرمز .

ثم نقل أن المراد به هنا تحرك الشفتين عن مجاهد – انتهى .

وهو ظاهر أيضاً في الوحي لأنه مطلق الإشارة والكناية والكلام الخفي ، فيجوز أن يكون وحيه بكل منهما ، لا يقدر على غير ذلك في مخاطبته للناس ، فإذا توجه إلى مناجاة ربه سبحانه انطلق أحسن انطلاق ﴿ أن سبحوا ﴾ أي أوجدوا التنزيه والتقديس لله تعالى

بالصلاة وغيرها ﴿ بكرة وعشياً ﴾ فحملت امرأته كما قلنا فولدت ولداً فسماه يحيى كما بشرناه به فكبر حتى ميز فقلنا : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب ﴾ أي التوراة ﴿ بقوة ﴾ .

(70/483)

ولما كانت النبوة لا يستضلع بأمرها ويقوى على حملها إلا عند استحكام العقل ببلوغ الأشد ، وكان التطويق على أمرها قبل ذلك من العظمة بمكان ، دل عليه النون في قوله : ﴿ وءاتيناه ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ الحكم ﴾ أي النبوة والفهم للتوراة ﴿ صبياً ﴾ لغلبة الروح عليه ، وهذه الخارقة لم تقتض الحكمة أن تكون لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن قومه لا عهد لهم بالنبوة ، فكانوا إذا كذبوا لا يكون لهم من أنفسهم ما يلزمهم من التناقض ، فعُوّض أعظم من ذلك بغرائز الصدق التي أوجبت له تسميته بالأمين ليكونوا بذلك مكذبين لأنفسهم في تكذيبهم له .

(71/483)

وبمزيد إبقاء معجزته القرآنيه بعده تدعو الناس إلى دينه دعاء لا مرد له ﴿ و ﴾ آتيناه ﴿ حناناً ﴾ أي رحمة وهيبة ووقاراً ورقة قلب ورزقاً وبركة ﴿ من لدنا ﴾ من مستقرب المستغرب من عظمتنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة ﴿ وزكاة ﴾ أي طهارة في نيته تفيض على أفعاله وأقواله ﴿ وكان ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ تقياً ﴾ حوافاً لله تعالى ﴿ وبراً ﴾ أي واسع الأخلاق محسناً ﴿ بوالديه ولم يكن ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ جباراً ﴾ عليهما ولا على غيرهما ؛ ثم قيده بقوله : ﴿ عصياً ﴾ إشارة إلى أن يفعل فعل الجبارين من الغلظة والقتل والبطش بمن يستحق ذلك كما قال تعالى لخاتم النبيين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ﴾ [التحريم : 9] فكان مطيعاً لله قائماً بحقوقه وحقوق عباده على ما ينبغي ، فهنيئاً له ما أعطاه من هذه الخلال القاضية بالكمال ، والتعبير بصيغة المبالغة يفهم أن المنفي الجبل عليها ، وما دونها يذهبه الله بغسل القلب أو غيره ﴿ وسلام ﴾ أي أيّ سلام ﴿ عليه ﴾ منا ﴿ يوم ولد ﴾ من كل سوء يلحق بالولادة وما بعدها في شيء من أمر الدين ﴿ ويوم يموت ﴾ من كرب الموت وما بعده ، ولعله نكر السلام لأنه قتل فما سلم بدنه بخلاف ما يأتي في عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ويوم يبعث ﴾ من كل ما يخاف بعد ذلك ﴿ حياً ﴾ حياة هي الحياة للانتفاع بها ، إجابة لدعوة أبيه في أن يكون رضياً ، وخص هذه الأوقات لأن من سلم فيها سلم في غيرها لأنها أصعب منه ؛ أخرج الطبراني عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ "كل بني آدم يلقى الله يوم القيامة بذنب وقد يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ، وأهوى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : ذكره مثل هذه القذاة"

(72/483)

قال الهيثمي : وفيه حجاج ابن سليمان الرعيني وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو زرعة وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، وأخرجه أيضاً عن عبد الله بن عمرو ابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ م ، لكن ليس فيه ذكر الذكر ، ولفظ ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : كنت في حلقة في المسجد نتذاكر فضائل الأنبياء – فذكره حتى قال : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما ينبغي أن يكون أحد خيراً من يحيى بن زكريا ، قلنا : يا رسول الله ! وكيف ذاك ؟ قال : ألم تسمعوا الله كيف نعته في القرآن ؟ ﴿ يا يحيى خذ الكتاب ﴾ – إلى قوله : ﴿ حياً ﴾ ، مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين لم يعمل سيئة ولم يهم بهم " ورواه أيضاً البزار وفيه على بن زيد بن جدعان ضعفه الجمهور – وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات .

وأشار سبحانه بالتنقل في هذه الأطوار إلى موضع الرد على من ادعى لله ولداً من حيث إن

ذلك قاضٍ على الولد نفسه وعلى أبيه بالحاجة ، وذلك مانع لكل من الولد والوالد من الصلاحية لمرتبة الإلهية المنزهة عن الحاجة ، وقد مضى في آل عمران ما تجب مراجعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 523.526 ﴾

(73/483)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعضهم طلب الآية لتحقيق البشارة وهذا بعيد لأن بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى من ذلك من صريح القول وقال آخرون : البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يعرف وقتها بمجرد البشارة فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق .

المسألة الثانية :

اتفقوا على أن تلك الآية هي تعذر الكلام عليه فإن مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا

يكون معجزة ثم اختلفوا على قولين : أحدهما : أنه اعتقل لسانه أصلاً .

والثاني : أنه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكناً من ذكر الله ومن قراءة التوراة وهذا القول عندي أصح لأن اعتقال اللسان مطلقاً قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله فلا يعرف زكريا عليه السلام أن ذلك الاعتقال معجزاً إلا إذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات وهذا مما لا يعرف إلا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة إلى دلالة أخرى ، أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة أن ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية ومعجزة ومما يقوي ذلك قوله تعالى : ﴿ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ الناس ثلاث لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ خص ذلك بالتكلم مع الناس وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادراً على التكلم مع غير الناس .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في معنى ﴿ سَوِيّاً ﴾ فقال بعضهم : هو صفة لليالي الثلاث وقال أكثر المفسرين هو صفة لزكريا والمعنى : آيتك أن لا تكلم الناس في هذه المدة مع كونك سوياً لم يحدث بك مرض .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(74/483)

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾ قيل كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ثم ينتقل إلى قومه فعند ذلك أوحى إليهم ، وقيل : كان موضعاً يصلي فيه هو وغيره إلا أنهم كانوا لا يدخلونه للصلاة إلا بإذنه وأنهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للإذن فخرج إليهم وهو لا يتكلم فأوحى إليهم .

المسألة الثانية :

لا يجوز أن يكون المراد من قوله أوحى إليهم الكلام لأن الكلام كان ممتنعاً عليه فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك إما بالإشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة لأن كل ذلك يفهم منه المراد فعلموا أنه قد كان ما بشر به فكما حصل السرور له حصل لهم فظهر لهم إكرام الله تعالى له بالإجابة ، واعلم أن الأشبه بالآية هو الإشارة لقوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ ثلاثة أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ [آل عمران : 41] والرمز لا يكون كناية للكلام .

المسألة الثالثة :

اتفق المفسرون على أنه أراد بالتسبيح الصلاة وهو جائز في اللغة يقال : سبحه الضحى أي صلاة الضحى وعن عائشة رضي الله عنها في صلاة الضحى : "إني لأسبحها" أي لأصليها إذا ثبت هذا فنقول روي عن أبي العالية أن البكرة صلاة الفجر والعشي صلاة العصر ويحتمل أن يكون إنما كانوا يصلون معه في محرابه هاتين الصلاتين فكان يخرج إليهم فيأذن لهم بلسانه ، فلما اعتقل لسانه خرج إليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام ، والله أعلم .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

اعلم أنه تعالى وصف ﴿ يحيى ﴾ في هذه الآية بصفات تسع : الصفة الأولى : كونه مخاطباً من الله تعالى بقوله : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن قوله : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب ﴾ يدل على أن الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذي يجوز أن يخاطبه بذلك فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه .

المسألة الثانية :

الكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة التي هي نعمة الله على بني إسرائيل لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا بَنِى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ [الجاثية : 16] ويحتمل أن يكون كتاباً خص الله به يحيى كما خص الله تعالى الكثير من الأنبياء بذلك والأول أولى لأن حمل الكلام ههنا على المعهود السابق أولى ولا معهود ههنا إلا التوراة .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ ليس المراد منه القدرة على الأخذ لأن ذلك معلوم لكل أحد فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة وحاصلها يرجع إلى حصول ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهي عنه .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ اعلم أن في الحكم أقوالاً .

الأول : أنه الحكمة ومنه قول الشاعر :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت . . إلى حمام سراع وارد الثمد

وهو الفهم في التوراة والفقه في الدين .

والثاني : وهو قول معمر أنه العقل روي أنه قال ما للعب خلقنا .

والثالث : أنه النبوة فإن الله تعالى أحكم عقله في صباه وأوحى إليه وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمداً عليهما السلام ، وقد بلغا الأشد والأقرب حمله على النبوة لوجهين : الأول : أن الله تعالى ذكر في هذه الآية

صفات شرفه ومنقبته ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان فذكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها .

(76/483)

الثاني : أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق وذلك لا يكون إلا بالنبوة فإن قيل كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا ؟ قلنا : هذا السائل ، إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع منه ، فإن منع منه فقد سد باب النبوات لأن بناء الأمر فيها على المعجزات ولا معنى لها إلا خرق العادات ، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فإنه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلاً أشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر .

الصفة الثالثة ؛ قوله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ اعلم أن الحنان أصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق كما يقال : حنين الناقة وهو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها ذكر الخليل ذلك في الحديث :

" أنه عليه السلام كان يصلي إلى جذع من المسجد فلما اتخذ له المنبر وتحول إليه حنت تلك

الخشبة حتى سمع حنينها " فهذا هو الأصل ثم قيل : تحنن فلان على فلان إذا تعطف عليه ورحمه ، وقد اختلف الناس في وصف الله بالحنان فأجازه بعضهم ، وجعله بمعنى الرؤوف الرحيم ، ومنهم من أباه لما يرجع إليه أصل الكلمة قالوا : لم يصح الخبر بهذه اللفظة في أسماء الله تعالى ، إذا عرفت هذا فنقول : الحنان هنا فيه وجهان .

أحدهما : أن يجعل صفة لله .

وثانيهما : أن يجعل صفة ليحيى أما إذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول : التقدير وآتيناه الحكم حناناً أي رحمة منا ، ثم ههنا احتمالات : الأول : أن يكون الحنان من الله ليحيى ، المعنى : آتيناه الحكم صبياً ، ثم قال : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي إنما آتيناه الحكم صبياً حناناً من لدنا عليه أي رحمة عليه وزكاة أي وتزكية له وتشريفاً له .

الثاني : أن يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام فكأنه تعالى قال : إنما استجبنا لزكريا دعوته بأن أعطيناه ولداً ثم آتيناه الحكم صبياً وحناناً من لدنا عليه أي على زكريا فعلنا ذلك .

﴿ وزكواة ﴾ أي وتزكية له عن أن يصير مردود الدعاء .

(77/483)

والثالث : أن يكون الحنان من الله تعالى لأمة يحيى عليه السلام كأنه تعالى قال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً * وَحَنَاناً ﴾ منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وإرشاده ، أما إذا جعلناه صفة ليحيى عليه السلام ففيه وجوه .

الأول : آتيناه الحكم والحنان على عبادنا أي التعطف عليهم وحسن النظر على كافتهم فيما أوليه من الحكم عليهم كما وصف نبيه فقال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : 159] وقال : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] ثم أخبر تعالى أنه آتاه زكاة ، ومعناه أن لا تكون شفقته داعية له إلى الإخلال بالواجب لأن الرأفة واللين ربما أورثا ترك الواجب ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ الله ﴾ [النور : 2] وقال : ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : 123] وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين يجاهدون فِى سَبِيلِ الله وَلاَ يخافون لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [المائدة : 54] فالمعنى إنما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الإخلال بالواجبات ، ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصي فلم يعص ولم يهم بمعصية ، وفي الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن رباح : ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ والمعنى آتيناه الحكم صبياً تعظيماً إذ جعلناه نبياً وهو صبي ولا تعظيم أكثر من هذا والدليل عليه ما روى أنه مر ورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء ، ويقول : أحد أحد فقال : والذي نفسي بيده لئن قتلتموه

لأتخذنه حناناً أي معظماً .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ وزكواة ﴾ وفيه وجوه : أحدها : أن المراد وآتيناه زكاة أي عملاً صالحاً زكياً ، عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج .

وثانيها : زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء عن الحسن .

(78/483)

وثالثها : زكيناه بحسن الثناء كما تزكى الشهود الإنسان .

ورابعها : صدقة تصدق الله بها على أبويه عن الكلبي .

وخامسها : بركة ونماء وهو الذي قال عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ ﴾ [مريم : 31] واعلم أن هذا يدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى لأنه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى وحمله على الألطاف بعيد لأنه عدول عن الظاهر .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ وقد عرفت معناه وبالجملة فإنه يتضمن غاية المدائح لأنه هو الذي يتقي نهي الله فيجتنبه ويتقي أمره فلا يهمله ، وأولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك ، فإن قيل ما معنى : ﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ وهذا حين ابتداء تكليفه قلنا : إنما خاطب الله تعالى بذلك

الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه .

الصفة السادسة : قوله : ﴿ وَبَرّا بوالديه ﴾ وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين ، ولهذا السبب قال : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء : 23] .

(79/483)

الصفة السابعة : قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً ﴾ والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 88] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر ، ولذلك فإن إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعداً عن رحمة الله تعالى وعن الدين وقيل الجبار هو الذي لا يرى لأحد على نفسه حقاً وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق أحد ، وقال سفيان في قوله : ﴿ جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ إنه الذي يقبل على الغضب والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأرض ﴾ [القصص : 19

] وقيل : كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : 130] .

الصفة الثامنة : قوله : ﴿ عَصِيّاً ﴾ وهو أبلغ من العاصي كما أن العليم أبلغ من العالم .

الصفة التاسعة : قوله : ﴿ وسلام عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ وفيه أقوال :

أحدها : قال محمد بن جرير الطبري : ﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾ أي أمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم : ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ أي وأمان عليه من عذاب القبر : ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ أي ومن عذاب القيامة .

وثانيها : قال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً ما شاهدهم قط ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة .

(80/483)

وثالثها : قال عبد الله بن نفطوية : ﴿ وسلام عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ أي أول ما يرى الدنيا ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ أي أول يوم يرى فيه الجنة

والنار وهو يوم القيامة .

وإنما قال : ﴿ حَياً ﴾ تنبيهاً على كونه من الشهداء لقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] فروع .

الأول : هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف لأن الملائكة لا يسلمون إلا عن أمر الله تعالى .

الثاني : ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الأنبياء عليهم السلام كقوله : ﴿ سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ [الصافات : 79] .

﴿ سلام على إبراهيم ﴾ [الصافات : 109] لأنه قال و ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ وليس ذلك لسائر الأنبياء عليهم السلام .

الثالث : روي أن عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام : أنت أفضل مني لأن الله تعالى سلم عليك وأنا سلمت على نفسي ، وهذا ليس يقوى لأن سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله على يحيى لأن عيسى معصوم لا يفعل إلا ما أمره الله به .

الرابع : السلام عليه يوم ولد لا بد وأن يكون تفضلاً من الله تعالى لأنه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاء له ، وأما السلام عليه يوم يموت ويوم يبعث في المحشر ، فقد يجوز أن يكون ثواباً كالمدح والتعظيم ، والله تعالى أعلم .

القول في فوائد هذه القصة .

الفائدة الأولى : تعليم آداب الدعاء وهي من جهات .

أحدها : قوله : ﴿ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ [مريم : 3] وهو يدل على أن أفضل الدعاء ما هذا حاله ويؤكد قوله تعالى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] ولأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار وعمدة الدعاء الانكسار والتبري عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه .

(81/483)

وثانيها : أن المحتسب أن يذكر في مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما في قوله تعالى عنه : ﴿ وَهَنَ العظم مِنّى واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [مريم : 4] ثم يذكر كثرة نعم الله على ما في قوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبّ شَقِيّاً ﴾ [مريم : 4] .

وثالثها : أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال : ﴿ وَإِنّي خِفْتُ الموالى مِن وَرَائِى ﴾ [مريم : 5] .

ورابعها : أن يكون الدعاء بلفظ يا رب على ما في هذا الموضع .

الفائدة الثانية : ظهور درجات زكريا ويحيى عليهما السلام أما زكريا فأمور : أحدها : نهاية تضرعه في نفسه وانقطاعه إلى الله تعالى بالكلية .

وثانيها : إجابة الله تعالى دعاءه .

وثالثها : أن الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الأمران معاً .

ورابعها : اعتقال لسانه عن الكلام دون التسبيح .

وخامسها : أنه يجوز للأنبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله رب اجعل لي آية .

الفائدة الثالثة : كونه تعالى قادراً على خلق الولد وإن كان الأبوان في نهاية الشيخوخة رداً على أهل الطبائع .

الفائدة الرابعة : صحة الاستدلال في الدين لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9] .

الفائدة الخامسة : أن المعدوم ليس بشيء والآية نص في ذلك فإن قيل المراد ولم تك شيئاً مذكوراً كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان : 1] قلنا : الإضمار خلاف الأصل وللخصم أن يقول الآية تدل على أن الإنسان لم يكن شيئاً ونحن نقول به لأن الإنسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها أعراض مخصوصة والجواهر المتألفة الموصوفة بالأعراض المخصوصة غير ثابتة في العدم إنما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهي ليست بإنسان فظهر أن الآية لا دلالة فيها على المطلوب .

الفائدة السادسة : أن الله تعالى ذكر هذه القصة في سورة آل عمران وذكرها في هذا الموضع فلنعتبر حالها في الموضعين فنقول : الأول : أنه تعالى بين في هذه السورة أنه دعا ربه ولم يبين الوقت وبينه في آل عمران بقوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يامريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 37 ، 38] والمعنى أن زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم عليها السلام طمع فيه في حق نفسه فدعا .

الثاني : وهو أن الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادي هو الملائكة لقوله : ﴿ فَنَادَتْهُ الملئكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى المحراب ﴾ [آل عمران : 39] وفي هذه السورة الأظهر أن المنادي بقوله : ﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم : 7] هو الله تعالى وقد بينا أنه لا منافاة بين الأمرين .

الثالث : أنه قال في آل عمران : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر وامرأتى عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران : 40] فذكر أولاً كبر نفسه ثم عقر المرأة وهو في هذه السورة قال : ﴿ أنى يَكُونُ لِى غلام وَكَانَتِ امرأتى عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾

[مريم : 8] وجوابه أن الواو لا تقتضي الترتيب .

الرابع : قال في آل عمران : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر ﴾ وقال ههنا وقد بلغت من الكبر وجوابه أن ما بلغك فقد بلغته .

الخامس : قال في آل عمران : ﴿ آيتك أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثلاثة أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ [آل عمران : 41] وقال ههنا : ﴿ ثلاث لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ [مريم : 10] وجوابه : دلت الآيتان على أن المراد ثلاثة أيام بلياليهن ، والله أعلم .

(83/483)

القصة الثانية : قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام اعلم أنه تعالى إنما قدم قصة يحيى على قصة عيسى عليهما السلام لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد لا من الأب ألبتة وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقياً إلى الأصعب فالأصعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 161.167 ﴾

(84/483)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ ﴾

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْمِحْرَابُ صَدْرُ الْمَجْلِسِ ، وَمِنْهُ مِحْرَابُ الْمَسْجِدِ .

وَقِيلَ : إنَّ الْمِحْرَابَ الْغُرْفَةُ ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ وَقِيلَ : الْمِحْرَابُ الْمُصَلَّى .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَى إلَيْهِمْ ﴾ قِيلَ فِيهِ : إنَّهُ أَشَارَ إلَيْهِمْ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ ، فَقَامَتْ الْإِشَارَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَقَامَ الْقَوْلِ ؛ لِأَنَّهَا أَفَادَتْ مَا يُفِيدُهُ الْقَوْلُ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إشَارَةَ الْأَخْرَسِ مُعَوَّلٌ عَلَيْهَا قَائِمَةٌ فِيمَا يَلْزَمُهُ مَقَامَ الْقَوْلِ .

وَلَمْ يَخْتَلِفْ الْفُقَهَاءُ أَنَّ إشَارَةَ الصَّحِيحِ لَا تَقُومُ مَقَامَ قَوْلِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي الْأَخْرَسِ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ بِالْعَادَةِ وَالْمِرَانِ وَالضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إلَيْهَا قَدْ عُلِمَ بِهَا مَا يُعْلَمُ بِالْقَوْلِ ، وَلَيْسَ لِلصَّحِيحِ فِي ذَلِكَ عَادَةٌ مَعْرُوفَةٌ فَيُعْمَلُ عَلَيْهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ اُعْتُقِلَ لِسَانُهُ فَأَوْمَأَ وَأَشَارَ بِوَصِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهَا أَنَّهُ لَا يُعْمَلُ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَادَةٌ جَارِيَةٌ بِذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ فِي مَعْنَى الْأَخْرَسِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(85/483)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ بَيَّنَّا الْحِكْمَةَ وَالْحُكْمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا ، وَفِي غَيْرِهِ مِنْ الْكُتُبِ ، وَأَوْضَحْنَا وُجُوهَهَا وَمُتَصَرَّفَاتِهَا وَمُتَعَلَّقَاتِهَا كُلَّهَا .

وَأَجَلُّهَا مَرْتَبَةُ النُّبُوَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي الْمُرَادِ بِالْحُكْمِ هَاهُنَا : وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الْوَحْيُ .

وَالثَّانِي : النُّبُوَّةُ .

وَالثَّالِثُ : الْمَعْرِفَةُ وَالْعَمَلُ بِهَا .

وَهَذَا كُلُّهُ مُحْتَمَلٌ يَفْتَقِرُ إلَى تَحْقِيقٍ ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْوَحْيُ فَجَائِزٌ أَنْ يُوحِيَ اللَّهُ إلَى الصَّغِيرِ ، وَيُكَاشِفَهُ بِمَلَائِكَتِهِ وَأَمْرِهِ ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْمُكَاشَفَةُ نُبُوَّةً غَيْرَ مَهْمُوزَةٍ رِفْعَةً وَمَهْمُوزَةً إخْبَارًا ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرْسِلَهُ إلَى الْخَلْقِ كَامِلَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ مُؤَيَّدًا بِالْمُعْجِزَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ خَبَرٌ ، وَلَا كَانَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ .

وَقَوْلُ عِيسَى : ﴿ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ .

إخْبَارٌ عَمَّا وَجَبَ لَهُ حُصُولُهُ ، لَا عَمَّا حَصَلَ بَعْدُ .

وَأَمَّا الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ فَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ .

قَالَ عِيسَى : أُوصِيكُمْ بِالْحِكْمَةِ ، وَالْحِكْمَةُ فِي قَوْلِ مَالِكٍ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ ، وَالِاتِّبَاعُ لَهَا ، وَالْفِقْهُ فِي الدِّينِ وَالْعَمَلُ بِهِ ، وَقَالَ : وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّك تَجِدُ الرَّجُلَ عَاقِلًا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا ذَا بَصَرٍ فِيهَا ، وَتَجِدُ آخَرَ ضَعِيفًا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ عَالِمًا بِأَمْرِ دِينِهِ بَصِيرًا بِهِ ، يُؤْتِيهِ اللَّهُ إيَّاهُ ، وَيَحْرِمُهُ هَذَا ، فَالْحِكْمَةُ الْفِقْهُ فِي دِينِ اللَّهِ .

وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ قَالَ : الْمَعْرِفَةُ وَالْعَمَلُ بِهِ .

انْتَهَى قَوْلُ مَالِكٍ .

وَفِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّهُ قِيلَ لِيَحْيَى ، وَهُوَ صَغِيرٌ : أَلَا تَذْهَبُ نَلْعَبُ ؟ قَالَ : مَا خُلِقْت لِلَّعِبِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(87/483)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . اجْعَل لِّي ءَايَةً ﴾

أي علامة وفيها وجهان :

أحدهما : أنه سأل الله آية تدله على البشرى بيحيى منه لا من الشيطان لأن إبليس أوهمه ذلك ، قاله الضحاك .

الثاني : سأله آية تدله على أن امرأته قد حملت .

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه اعتقل لسانه ثلاثاً من غير مرض وكان إذا أراد أن يذكر الله انطلق لسانه وإذا أراد أن يكلم الناس اعتقل ، وكانت هذه الآية ، قاله ابن عباس

الثاني : اعتقل من غير خرس ، قاله قتادة والسدي .

﴿ سَوِيًّا ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : صحيحاً من غير خرس ، قاله قتادة .

الثاني : ثلاث ليال متتابعات ، قاله عطية ، فيكون السوي على الوجه الأول راجعاً إلى لسانه ، وعلى الثاني إلى الليالي .

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ قال ابن جريج أشرف على قومه من المحراب . وفي ﴿ الْمِحْرَابِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه مصلاة ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه الشخص المنصوب للتوجه إليه في الصلاة .

وفي تسميته محراباً وجهان :

أحدهما : أنه للتوجه إليه في صلاته كالمُحَارِب للشيطان صلاته .

الثاني : أنه مأخوذ من منزل الأشراف الذي يحارب دونه ذباً عن أهله فكأن الملائكة تحارب عن المصلي ذباً عنه ومنعاً منه .

﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أوصى إليهم ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : أشار إليهم بيده ، قاله الكلبي .

الثالث : كتب على الأرض . والوحي في كلام العرب الكتابة ومنه قول جرير :

كأن أخا اليهود يخط وحياً . . . بكافٍ من منازلها ولام

﴿ أَنَ سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ أي صلوا بكرة وعشياً ، قاله الحسن وقتادة ، وقيل للصلاة تسبيح لما فيها من التسبيح .

قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾

وفي قائله قولان :

أحدهما : أنه قول زكريا ليحيى حين نشأ .

الثاني : قول الله ليحيى حين بلغ .

وفي هذا ﴿ الْكِتَابَ ﴾ قولان :

أحدهما : صحف إبراهيم .

الثاني : التوراة .

﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بجد واجتهاد ، قاله مجاهد .

الثاني : العمل بما فيه من أمر والكف عما فيه من نهي ، قاله زيد بن أسلم .

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : اللب ، قاله الحسن .

الثاني : الفهم ، قاله مقاتل .

الثالث : الأحكام والمعرفة بها .

الرابع : الحكمة . قال معمر : إن الصبيان قالوا ليحيى إذهب بنا نلعب فقال ما للعب خلقت ، فأنزل الله ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ . قاله مقاتل وكان ابن ثلاث سنين .

قوله تعالى : ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : رحمة من عندنا ، قاله ابن عباس وقتادة ، ومنه قول الشاعر :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا . . . حنانيكَ بعض الشر أهون من بعض

أي رحمتك وإحسانك .

الثاني : تعطفاً ، قاله مجاهد .

الثالث : محبة ، قاله عكرمة .

الرابع : بركة ، قاله ابن جبير .

الخامس : تعظيماً .

السادس : يعني آتينا تحنناً على العباد .

ويحتمل سابعاً : أن يكون معناه رفقاً ليستعطف به القلوب وتسرع إليه الإجابة ﴿ وَزَكَاةً ﴾ فيها هنا ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنها العمل الصالح الزاكي ، قاله ابن جريج .

الثاني : زكيناه بحسن الثناء كما يزكي الشهود إنساناً .

الثالث : يعني صدقة به على والديه ، قاله ابن قتيبة . ﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما مطيعاً لله ، قاله الكلبي . الثاني : باراً بوالديه ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(89/483)

وقال ابن عطية :

قال زكرياء ﴿ رب اجعل لي آية ﴾

علامة أعرف بها صحة هذا وكونه من عندك . وروي أن زكرياء عليه السلام لما عرف ثم طلب الآية بعد ذلك عاقبه الله تعالى بأن أصابه بذلك السكوت عن كلام الناس ، وذلك وإن لم يكن عن مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب . ما روي عن ابن زيد أن زكرياء لما حملت زوجته منه يحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم احداً ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله ، فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه ، ويحتمل على هذا أن يكون قوله ﴿ اجعل لي آية ﴾ معناه علامة أعرف بها أن الحمل قد وقع ، وبذلك فسر الزجاج . ومعنى قوله ﴿ سوياً ﴾ فيما قال الجمهور صحيحاً من غير علة ولا خرس ، وقال ابن عباس أيضاً ذلك عائد على " الليالي " أراد كاملات مستويات ، وقوله ﴿ فخرج على قومه ﴾ المعنى أن الله تعالى أظهر الآية بأن خرج زكرياء من محرابه وهو موضع مصلاة ، و ﴿ المحراب ﴾ أرفع المواضع والمباني اذ هي تحارب من ناوأها ثم خص بهذا الاسم مبنى الصلاة ، وكانوا يتخذونها فيما ارتفع من الأرض ، واختلف الناس في اشتقاقه ، فقالت فرقة : هو مأخوذ من الحرب كأن ملازمة يحارب الشيطان والشهوات ، وقالت فرقة : هو مأخوذ من الحرَب بفتح الراء كأن ملازمه يلقى منه حرباً وتعباً ونصباً ، وفي اللفظ بعد هذا

نظر ، وقوله ﴿ فأوحى ﴾ قال قتادة وابن منبه : كان ذلك بإشارة ، وقال مجاهد : بل بأن كتبه في التراب .

قال القاضي أبو محمد : وكلا الوجهين وحي . وقوله ﴿ أن سبحوا ﴾ ، ﴿ أن ﴾ مفسرة بمعنى " أي " ، و ﴿ سبحوا ﴾ قال قتادة : معناه صلوا ، والسبحة الصلاة ، وقالت فرقة : بل أمرهم بذكر الله وقول سبحان الله . وقرأ طلحة " أن سبحوه " بضمير ، وباقي الآية ويقال " وحى وأوحى " بمعنى واحد .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

(90/483)

المعنى فولد له وقال الله تعالى للمولود ﴿ يا يحيى ﴾ ، وهذا اختصار ما يدل الكلام عليه . و ﴿ الكتاب ﴾ التوراة بلا اختلاف لأنه ولد قبل عيسى ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس . وقوله ﴿ بقوة ﴾ أي العلم به والحفظ له والعمل به والالتزام للوازمه ثم أخبر الله تعالى فقال ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ ، واختلف في ﴿ الحكم ﴾ فقالت فرقة الأحكام والمعرفة بها ، و ﴿ صبياً ﴾ يريد شاباً لم يبلغ حد الكهول . وقال الحسن ﴿ الحكم ﴾ النبوة ، وفي لفظ صبي على هذا تجوز واستصحاب حال ، وقال فرقة ﴿ الحكم

﴿ الحكمة ، وروى معمر في ذلك أن الصبيان دعوه وهو طفل الى اللعب فقال إني لم أخلق للعب فتلك الحكمة التي آتاه الله عز وجل وهو صبي أهم لذاته اللعب . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن من قبل أن يحتلم فهو ممن " أوتي الحكم صبياً " ، وقوله ﴿ وحناناً ﴾ عطف على قوله ﴿ الحكم ﴾ ﴿ وزكاة ﴾ عطف عليه ، أعمل في جميع ذلك ﴿ آتيناه ﴾ ، ويجوز أن يكون قوله ﴿ وحناناً ﴾ عطفاً على قوله ﴿ صبياً ﴾ ، أي وبحال حنان منا وتزكية له والحنان الرحمة والشفقة والمحبة قاله جمهور المفسرين ، وهو تفسير اللغة . وهو فعل من أفعال النفس ويقال حنانك وحنانيك ، فقيل هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل حنانيك تثنية الحنان ، وقال عطاء بن أبي رباح ﴿ حناناً من لدنا ﴾ بمعنى تعظيماً من لدنا . والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله تعالى ، ومن قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال بن رباح " والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حناناً " . وقد روي عن ابن عباس أنه قال " والله ما أدري ما الحنان " . و" الزكاة " التطهير والتنمية في وجود الخير والبر . و" التقي " من تقوى الله عز وجل ، وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي عليه السلام أنه قال " كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكرياء " وقال قتادة : إن يحيى عليه السلام لم يعص الله قط

بصغيرة ولا بكبيرة ولا همَّ بأمراة ، وقال مجاهد : كان طعام يحيى العشب وكان للدمع في خده مجار ثابتة ومن الشواهد في الحنان قوله امرئ القيس : [الوافر]

وتمنحها بنو شمجى بن جرم . . . معيزهمُ حنانك ذا الحنان

وقال النابغة : [الطويل]

أبا منذر أفنيت فاستبقِ بعضنا . . . حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقال الآخر : [منذر بن إبراهيم الكلبي] [الطويل]

فقالت حنان ما أتى بك هاهنا . . . أذو نسب أم أنت بالحي عارف

وقوله تعالى : ﴿ وبراً بوالديه ﴾ الآية ، " البر " الكثير البر .

و " الجبار " المتكبر كأنه يجبر الناس على أخلاقه والنخلة الجبارة العظيمة العالية . و " العصي " أصله عصوي فعول بمعنى فاعل . وروي أن يحيى بن زكرياء عليه السلام لم يواقع معصية صغيرة ولا كبيرة كما تقدم . وقوله ﴿ وسلام ﴾ قال الطبري وغيره ، معناه وأمان ، والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان وهي أقل درجاته وإنما الشرف في أن أسلم الله عليه وحياه في المواطن التي الأنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر الى الله وعظيم الهول ، وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا وهما ابنا الخالة فقال يحيى لعيسى : ادع لي

فأنت خير مني . فقال عيسى : بل أنت ادع لي فأنت خير مني سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي .

قال القاضي أبو محمد : قال أبي ، رضي الله عنه : انتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى بأن قال إذلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه عليه السلام لكل وجه .

(92/483)

المعنى فولد له وقال الله تعالى للمولود ﴿ يا يحيى ﴾ ، وهذا اختصار ما يدل الكلام عليه . و ﴿ الكتاب ﴾ التوراة بلا اختلاف لأنه ولد قبل عيسى ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس . وقوله ﴿ بقوة ﴾ أي العلم به والحفظ له والعمل به والالتزام للوازمه ثم أخبر الله تعالى فقال ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ ، واختلف في ﴿ الحكم ﴾ فقالت فرقة الأحكام والمعرفة بها ، و ﴿ صبياً ﴾ يريد شاباً لم يبلغ حد الكهول . وقال الحسن ﴿ الحكم ﴾ النبوة ، وفي لفظ صبي على هذا تجوز واستصحاب حال ، وقال فرقة ﴿ الحكم ﴾ الحكمة ، وروى معمر في ذلك أن الصبيان دعوه وهو طفل الى اللعب فقال إني لم أخلق

للعب فتلك الحكمة التي آتاه الله عز وجل وهو صبي أهم لذاته اللعب . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن من قبل أن يحتلم فهو ممن " أوتي الحكم صبياً " ، وقوله ﴿ وحناناً ﴾ عطف على قوله ﴿ الحكم ﴾ ﴿ وزكاة ﴾ عطف عليه ، أعمل في جميع ذلك ﴿ آتيناه ﴾ ، ويجوز أن يكون قوله ﴿ وحناناً ﴾ عطفاً على قوله ﴿ صبياً ﴾ ، أي وبحال حنان منا وتزكية له والحنان الرحمة والشفقة والمحبة قاله جمهور المفسرين ، وهو تفسير اللغة . وهو فعل من أفعال النفس ويقال حنانك وحنانيك ، فقيل هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل حنانيك تثنية الحنان ، وقال عطاء بن أبي رباح ﴿ حناناً من لدنا ﴾ بمعنى تعظيماً من لدنا . والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله تعالى ، ومن قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال بن رباح " والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حناناً " .

(93/483)

وقد روي عن ابن عباس أنه قال " والله ما أدري ما الحنان " . و" الزكاة " التطهير والتنمية في وجود الخير والبر . و" التقي " من تقوى الله عز وجل ، وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي عليه السلام أنه قال " كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكرياء " وقال قتادة : إن يحيى عليه السلام لم يعص الله قط بصغيرة

ولا بكبيرة ولا همَّ بأمراة ، وقال مجاهد : كان طعام يحيى العشب وكان للدمع في خده مجار ثابتة ومن الشواهد في الحنان قوله امرئ القيس : [الوافر]

وتمنحها بنو شمجى بن جرم . . . معيزهمُ حنانك ذا الحنان

وقال النابغة : [الطويل]

أبا منذر أفنيت فاستبقِ بعضنا . . . حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقال الآخر : [منذر بن إبراهيم الكلبي] [الطويل]

فقالت حنان ما أتى بك هاهنا . . . أذو نسب أم أنت بالحي عارف

وقوله تعالى : ﴿ وبراً بوالديه ﴾ الآية ، " البر " الكثير البر . و" الجبار " المتكبر كأنه يجبر الناس على أخلاقه والنخلة الجبارة العظيمة العالية . و" العصي " أصله عصوي فعول بمعنى فاعل . وروي أن يحيى بن زكرياء عليه السلام لم يواقع معصية صغيرة ولا كبيرة كما تقدم . وقوله ﴿ وسلام ﴾ قال الطبري وغيره ، معناه وأمان ، والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان وهي أقل درجاته وإنما الشرف في أن أسلم الله عليه وحياه في المواطن التي الأنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر الى الله وعظيم الهول ، وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا وهما ابنا الخالة فقال يحيى لعيسى : ادع لي فأنت خير مني . فقال عيسى : بل أنت ادع لي فأنت خير مني سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي .

(94/483)

قال القاضي أبو محمد : قال أبي ، رضي الله عنه : انتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى بأن قال إذلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه عليه السلام لكل وجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(95/483)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه ﴾

وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها أمرأته ﴿ من المحراب ﴾ أي : من مصلاَّه وقد ذكرناه في [آل عمران : 39] .

قوله تعالى : ﴿ فأوحى إِليهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه كتب إِليهم في كتاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : أوماً برأسه ويديه ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ أن سَبِّحوا ﴾ أي : صلُّوا ﴿ بُكْرة وعَشِيّاً ﴾ قد شرحناه في [آل عمران : 39] ، والمعنى : أنه كان يخرج إلى قومه فيأمرهم بالصلاة بُكْرة وعَشِيّاً ، فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة إشارة .

قوله تعالى : ﴿ يا يحيى ﴾

قال الزجاج : المعنى : فوهبنا له يحيى ، وقلنا له : يا يحيى ﴿ خذ الكتاب ﴾ يعني : التوراة ، وكان مأموراً بالتمسك بها .

وقال ابن الأنباري : المعنى : اقبل كُتُبَ الله كلَّها إيماناً بها واستعمالاً لأحكامها .

وقد شرحنا في [البقرة : 63] معنى قوله : ﴿ بقوّة ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحُكْم ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الفهم ، قاله مجاهد .

والثاني : اللُّب ، قاله الحسن ، وعكرمة .

والثالث : العِلْم ، قاله ابن السائب .

والرابع : حفظ التوراة وعلْمها ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وقد زدنا هذا شرحاً في سورة [يوسف : 23] .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن [من] قبل أن يحتلم ، فهو ممن أُوتيَ

الحُكم صبيّاً .

فأما قوله : ﴿ صبيّاً ﴾ ففي سنّه يوم أُوتيَ الحُكم قولان .

أحدهما : أنه سبع سنين ، رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : ثلاث سنين ، قاله قتادة ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وحناناً من لَدُنّا ﴾ قال الزجاج : أي : وآتيناه حناناً .

وقال ابن الأنباري : المعنى : وجعلناه حناناً لأهل زمانه .

وفي الحنان ستة أقوال .

أحدها : أنه الرحمة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والفراء ، وأبو عبيدة ، وأنشد :

(96/483)

تَحَنَّنْ عليَّ هَدَاكَ المَلِيك . . .

فإنّ لكلِّ مقامٍ مَقَالاَ

قال : وعامة ما يُستعمَل في المنطق على لفظ الاثنين ، قال طرفة :

أبا مُنْذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بَعضَنَا . . .

حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

قال ابن قتيبة : ومنه يقال : تحنَّن عليَّ ، وأصله من حنين الناقة على ولدها .

وقال ابن الأنباري : لم يختلف اللغويون أن الحنان : الرحمة ، والمعنى : فعلنا ذلك رحمةً لأبويه ، وتزكيةً له .

والثاني : أنه التعطف من ربِّه عليه ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه اللِّين ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : البَرَكة ، وروي عن ابن جبير أيضاً .

والخامس : المَحبَّة ، قاله عكرمة ، وابن زيد .

والسادس : التعظيم ، قاله عطاء بن أبي رباح .

وفي قوله : ﴿ وزكاة ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنها العمل الصالح ، قاله الضحاك ، وقتادة .

والثاني : أن معنى الزكاة : الصدقة ، فالتقدير : إن الله تعالى جعله صدقة تصدّق بها على أبويه ، قاله ابن السائب .

والثالث : أن الزكاة : التطهير ، قاله الزجاج .

والرابع : أن الزكاة : الزيادة ، فالمعنى : وآتيناه زيادة في الخير على ما وُصف وذُكِر ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ وكان تقيّاً ﴾ قال ابن عباس : جعلته يتَّقيني ، ولا يعدل بي غيري .

قوله تعالى : ﴿ وبَرّاً بوالديه ﴾ أي : وجعلناه بَرّاً بوالديه ، والبَرُّ بمعنى : البارّ ؛ والمعنى : لطيفاً بهما ، محسناً إليهما .

والعَصِيَّ بمعنى : العاصي .

وقد شرحنا معنى الجبّار في [هود : 59] .

قوله تعالى : ﴿ وسلام عليه ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه السلام المعروف من الله تعالى .

قال عطاء : سلام عليه مِنّي في هذه الأيام ؛ وهذا اختيار أبي سليمان .

والثاني : أنه بمعنى : السلامة ، قاله ابن السائب .

فإن قيل : كيف خَصَّ التسليم عليه بالأيام ، وقد يجوز أن يولد ليلاً ويموت ليلاً ؟

(97/483)

فالجواب : أن المراد باليوم الحِين والوقت ، على ما بيّنا في قوله : ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينَكم ﴾ [المائدة : 3] .

قال ابن عباس : وسلام عليه حين وُلد .

وقال الحسن البصري : التقى يحيى وعيسى ، فقال يحيى لعيسى : أنتَ خير مني ، فقال عيسى ليحيى : بل أنت خير مني ، سلَّم الله عليك ، وأنا سلَّمتُ على نفسي .

وقال سعيد بن جبير مثله : إلا أنه قال أثنى الله عليك ، وأنا أثنيت على نفسي .

وقال سفيان بن عيينه : أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن ، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر لم يره ، فخص الله تعالى يحيى فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(98/483)

وقال القرطبى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾ أي أشرف عليهم من المصلى . والمحراب أرفع المواضع ، وأشرف المجالس ، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض ، دليله محراب داود عليه السلام على ما يأتي .

واختلف الناس في اشتقاقه ؛ فقالت فرقة : هو مأخوذ من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات .

وقالت فرقة : هو مأخوذ من الحَرَب (بفتح الراء) كأن ملازمه يلقى منه حرباً وتعباً ونصباً .

الثانية : هذه الآية تدل على أن ارتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعاً عندهم في صلاتهم .

وقد اختلف في هذه المسألة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد بن حنبل وغيره متمسكاً بقصة المنبر .

ومنع مالك ذلك في الارتفاع الكثير دون اليسير ، وعَلَّل أصحابه المنع بخوف الكِبْر على الإمام .

قلت : وهذا فيه نظر ؛ وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أَمَّ الناس بالمدائن على دكان ، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه ، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هذا أو يُنهَى عن ذلكا قال : بلى ؛ قد ذكرت حين مددتني .

وروي أيضاً عن عدي بن ثابت الأنصاري قال : حدّثني رجل أنه كان مع عمار بن ياسر بالمدائن ، فأقيمت الصلاة فتقدّم عمار بن ياسر ، وقام على دكان يصلي والناس أسفل منه ، فتقدّم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة ، فلما فرغ عمار من

صلاته ، قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أَمَّ الرجلُ القوم فلا يقم في مكان أرفعَ من مقامهم " أو نحو ذلك ؛ فقال عمّار : لذلك اتبعتك حين أخذت على يدي .

قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهي عن ذلك ، ولم يحتج أحد منهم على صاحبه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ .

(99/483)

ومما يدل على نسخه أن فيه عملاً زائداً في الصلاة ، وهو النزول والصعود ، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام .

وهذا أولى مما اعتذر به أصحابنا من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معصوماً من الكِبْر ؛ لأن كثيراً من الأئمة يوجد لا كِبْر عندهم .

ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيراً ؛ والله أعلم .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ قال الكلبي وقتادة وابن منبه : أوحى إليهم أشار .

القتبي : أومأ .

مجاهد : كتب على الأرض .

عكرمة : كتب في كتاب .

والوحي في كلام العرب الكتابة ؛ ومنه قول ذي الرُّمة :

سوى الأربع الدُّهْم اللواتي كأنَّها . . .

بَقِيَّةُ وَحْيٍ في بُطونِ الصَّحَائِف

وقال عَنْترة :

كوحي صحائفٍ من عهد كسرى . . .

فأهداها لأعجم طِمْطِمِيّ

و"بكرة وعشيا" ظرفان .

وزعم الفراء أن العشي يؤنث ويجوز تذكيره إذا أبهمتَ ؛ قال : وقد يكون العشيّ جمع عشية .

الرابعة : قد تقدّم الحكم في الإشارة في "آل عمران" .

واختلف علماؤنا فيمن حلف ألا يكلم إنساناً فكتب إليه كتاباً ، أو أرسل إليه رسولاً ؛ فقال مالك : إنه يحنث إلا أن ينوي مشافهته ، ثم رجع فقال : لا ينوي في الكتاب ويحنث إلا أن يرتجع الكتاب قبل وصوله .

قال ابن القاسم : إذا قرأ كتابه حنث ، وكذلك لو قرأ الحالف كتاب المحلوف عليه .

وقال أشهب : لا يحنث إذا قرأه الحالف ؛ وهذا بيّن ؛ لأنه لم يكلمه ولا ابتدأه بكلام ، إلا أن يريد ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحنث وعليه يخرج قول ابن القاسم .

فإن حلف ليكلمنه لم يبرّ إلا بمشافهته ؛ وقال ابن الماجشون : وإن حلف لئن علم كذا ليُعلِمنّه أو ليُخبِرنّه فكتب إليه أو أرسل إليه رسولاً بَرَّ ، ولو علماه جميعاً لم يبر ، حتى يُعلِمه لأن علمهما مختلف .

الخامسة : واتفق مالك والشافعي والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه ؛ قال الكوفيون : إلا أن يكون رجل أصمِت أياماً فكتب لم يجز من ذلك شيء .

(100/483)

قال الطحاوي : الخرس مخالف للصمت العارض ، كما أن العجز عن الجماع العارض لمرض ونحوه يوماً أو نحوه مخالف للعجز المأيوس منه الجماع ، نحو الجنون في باب خيار المرأة في الفرقة .

قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ في الكلام حذف ؛ المعنى فولد له ولد وقال الله تعالى للمولود : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ .

وهذا اختصار يدل الكلام عليه .

و"الكتاب" التوراة بلا خلاف .

"بقوّة" أي بجد واجتهاد ؛ قاله مجاهد .

وقيل : العلم به ، والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام لأوامره ، والكفّ عن نواهيه ؛ قاله زيد بن أسلم ؛ وقد تقدّم في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ قيل : الأحكام والمعرفة بها .

وروى مَعْمَر أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعب ؛ فقال : ما للعب خلقت .

فأنزل الله تعالى "وآتيناه الحكم صبِيا" .

وقال قتادة : كان ابن سنتين أو ثلاث سنين .

وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين .

و"صبيا" نصب على الحال .

وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيا .

وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنْب إلا ما كان من يحيى بن زكريا " وقال قتادة : إن يحيى عليه السلام لم يعص الله تعالى قط بصغيرة ولا كبيرة ولا هَمَّ بامرأة .

وقال مجاهد : وكان طعام يحيى عليه السلام العشب ، وكان للدمع في خدّيه مجار ثابتة .

وقد مضى الكلام في معنى قوله : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ [آل عمران : 39] في "آل

عمران" .

قوله تعالى : ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ "حنانا" عطف على "الحكم" .

وروي عن ابن عباس أنه قال : والله ما أدري ما "الحنان" ؟ .

وقال جمهور المفسرين : الحنان الشفقة والرحمة والمحبة ؛ وهو فعل من أفعال النفس .

النحاس : وفي معنى الحنان عن ابن عباس قولان : أحدهما : قال : تعطّف الله عز وجل عليه بالرحمة .

(101/483)

والقول الآخر ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك .

وأصله من حنين الناقة على ولدها .

ويقال : حنانك وحنانيك ؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد .

وقيل : حنانيك تثنية الحنان .

وقال أبو عبيدة : والعرب تقول : حنانك يا رب وحنانيك يا رب بمعنى واحد ؛ تريد رحمتك .

وقال امرؤ القيس :

وَيَمْنَحُها بَنُو شَمَجَى بن جَرْمٍ . . .

مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنانِ

وقال طرفة :

أبا مُنْذِرٍ أفنيتَ فاستبقِ بَعضَنَا . . .

حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشري : "حنانا" رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفاً وشفقة ؛ وأنشد سيبويه :

فقالتْ حَنَانٌ ما أَتَى بكَ هَاهُنَا . . .

أَذُو نَسَبٍ أَمْ أنت بالحيِّ عارفُ

قال ابن الأعرابي : الحنّان من صفة الله تعالى مشدداً الرحيم .

والحنَان مخفف : العطف والرحمة .

والحنان : الرزق والبركة .

ابن عطية : والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله تعالى ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل في حديث بلال : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حَنَانا ؛ وذكر هذا الخبر الهرويّ ؛ فقال : وفي حديث بلال ومر عليه ورقة بن نوفل وهو يعذَّب فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذنه حَنَانا ؛ أي لأتمسحنّ به .

وقال الأزهري : معناه لأتعطفن عليه ولأترحمن عليه لأنه من أهل الجنة .

قلت : فالحنان العطف ، وكذا قال مجاهد .

و"حنانا" أي تعطفاً منا عليه أو منه على الخلق ؛ قال الحطيئة :

تَحنَّنْ عليَّ هَدَاكَ المَلِيكُ . . .

فإنّ لكلِّ مقامٍ مَقَالاَ

عكرمة : محبة .

وحَنَّة الرجل امرأته لتوادهما ؛ قال الشاعر :

فقالتْ حنانٌ ما أَتَى بكَ هاهنا . . .

أذو نسبٍ أم أنتَ بالحيّ عارفُ

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ "الزكاة" التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر ؛ أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم .

وقيل : المعنى زكيناه بحسن الثناء عليه كما تزكي الشهود إنسانا .

(102/483)

وقيل : "زكاة" صدقة به على أبويه ؛ قاله ابن قتيبة .

﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ أي مطيعاً لله تعالى ، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلمَّ بها .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ ﴾ البر بمعنى البار وهو الكثير البرّ .

و ﴿ جَبَّاراً ﴾ متكبراً .

وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح .

قوله تعالى : ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ قال الطبري وغيره : معناه أمان .

ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنبه من الأمان ؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهي أقل درجاته ، وإنما الشرف في أن سلم الله تعالى عليه ، وحياه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول .

قلت : وهذا قول حسن ، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة في سورة "سبحان" عند قتل يحيى .

وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا وهما ابنا الخالة فقال يحيى لعيسى : ادع الله لي فأنت خير مني ؛ فقال له عيسى : بل أنت ادع الله لي فأنت خير مني ؛ سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي ؛ فانتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى ؛ بأن قال : إدلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه .

قال ابن عطية : ولكل وجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال ﴾ أي زكريا ﴿ رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به وطلب ذلك ليزداد يقيناً كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ لا لتوقف منه على صدق ما وعد به ، ولا لتوهم أن ذلك من عند غير الله لعصمة الأنبياء عن مثل ذلك .

وقال الزجاج : وقعت البشارة مطلقة فلم يعرف الوقت فطلب الآية ليعرف وقت الوقوع .

﴿ قال آيتك ﴾ روي عن ابن زيد أنه لما حملت زوجته بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله ، فإذا أراد مناداة أحد لم يطقه .

و﴿ سوياً ﴾ حال من ضمير أي ﴿ لا تكلم ﴾ في حال صحتك ليس بك خرس ولا علة قاله الجمهور وعن ابن عباس ﴿ سوياً ﴾ عائد على الليالي أي كاملات مستويات فتكون صفة لثلاث ، ودل ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام استمر له ثلاثة أيام بلياليهن .

وقرأ ابن أبي عبلة وزيد بن علي ﴿ أن لا تكلم ﴾ برفع الميم جعلها أن المخففة من الثقيلة التقدير أنه لا يكلم .

وقرأ الجمهور بنصبها جعلوا أن الناصبة للمضارع ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي وهو بتلك الصفة من كونه لا يستطيع أن يكلم الناس ، ومحرابه موضع مصلاه ، والمحراب تقدم الكلام عليه في آل عمران ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار .

قال قتادة وابن منبه والكلبي والقرطبي أوحى إليهم أشار ، وذكره الزمخشري عن مجاهد قال : ويشهد له إلاّ رمزاً .

وعن ابن عباس كتب لهم على الأرض .

وقال ابن عطية : وقال مجاهد : بل كتب لهم في التراب وكلا الوجهين وحي انتهى .

وقال عكرمة : كتب في ورقة والوحي في كلام العرب الكتابة .

ومنه قول ذي الرمة :

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها . . .

بقية وحي في بطون الصحائف

وقال عنترة :

كوحي صحائف من عهد كسرى . . .

فأهداها لأعجم طمطميِّ

وقال جرير :

كأن أخا اليهود يخط وحياً . . .

بكاف في منازلها ولام

والجمهور على أن المعنى ﴿ أن سبحوا ﴾ صلوا .

وقيل أمرهم بذكر الله والتسبيح .

(104/483)

قال المفسرون كان يخرج على قومه بكرة وعشياً فيأمرهم بالصلاة إشارة .

وقال صاحب التحرير والتحبير وعندي في هذا معنى لطيف وهو أنه إنما خص بالتسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول : سبحان الله سبحان الخالق ، فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح انتهى .

وقال الزمخشري وابن عطية و ﴿ أن ﴾ مفسرة .

وقال الحوفي ﴿ أن سبحوا ﴾ ﴿ أن ﴾ نصب بأوحى .

وقال أبو البقاء : يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون بمعنى أي انتهى .

وقرأ طلحة أن سبحوه بهاء الضمير عائدة على الله تعالى .

وروى ابن غزوان عن طلحة أن سبحن بنون مشددة من غير واو ألحق فعل الأمر نون

التوكيد الشديد .

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ في الكلام حذف والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السنّ الذي يؤمر فيه قال الله له على لسان الملك وأبعد التبريزي في قوله إن المنادي له أبوه حين ترعرع ونشأ ، والصحيح ما سبق لقوله ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ و ﴿ الكتاب ﴾ هو التوراة .

قال ابن عطية بلا خلاف لأنه ولد قبل عيسى ولم يكن الإنجيل موجوداً انتهى .

وليس كما قال بل قيل له كتاب خص به كما خص كثير من الأنبياء بمثل ذلك .

وقيل : ﴿ الكتاب ﴾ هنا اسم جنس أي اتل كتب الله .

وقيل : ﴿ الكتاب ﴾ صحف إبراهيم .

وقال الحسن وعلمه التوراة والإنجيل وأرسله إلى بني إسرائيل ، وكان يصوم ويصلي في حال طفوليته ويدعو إلى الله بقوة بجد واستظهار وعمل بما فيه والحكم النبوة أو حكم الكتاب أو الحكمة أو العلم بالأحكام أو اللب وهو العقل ، أو آداب الخدمة أو الفراسة الصادقة أقوال ﴿ صبياً ﴾ أي شاباً لم يبلغ سن الكهولة .

وقيل : ابن سنتين .

وقيل : ابن ثلاث .

وعن ابن عباس في حديث مرفوع : " ابن سبع سنين " ﴿ وحناناً ﴾ معطوف على الحكم

والحنان الرحمة قاله ابن عباس في رواية والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عبيدة والفراء وأنشد أبو عبيدة :

(105/483)

تحنن على هداك المليك . . .

فإن لكل مقام مقالا

قال : وأكثر ما تستعمل مثنى كما قال :

حنانيك بعض الشر أهون من بعض . . .

وقال ابن الأنباري : المعنى وجعلناه ﴿ حناناً ﴾ لأهل زمانه .

وقال مجاهد وتعطفاً من ربه عليه .

وعن ابن جبير : ليناً .

وعن عكرمة وابن زيد : محبة ، وعن عطاء تعظيماً .

وقوله ﴿ وزكاة ﴾ عن الضحاك وقتادة عملاً صالحاً .

وعن ابن السائب : صدقة تصدق بها على أبويه .

وعن الزجاج تطهيراً .

وعن ابن الأنباري زيادة في الخير .

وقيل ثناء كما يزكي الشهود .

﴿ وكان تقياً ﴾ .

قال قتادة : لم يهم قط بكبيرة ولا صغيرة ولا همَّ بامرأة .

وقال ابن عباس : جعله متقياً له لا يعدل به غيره .

وقال مجاهد : كان طعامه العشب المباح وكان للدمع في خديه مجار بائنة ﴿ وبراً بوالديه ﴾ أي كثير البر والإكرام والتبجيل .

وقرأ الحسن وأبو جعفر في رواية وأبو نهيك وأبو مجلز ﴿ وبراً ﴾ في الموضعين بكسر الباء أي وذا بر ﴿ ولم يكن جباراً ﴾ أي متكبراً ﴿ عصياً ﴾ أي عاصياً كثير العصيان ، وأصله عصوى فعول للمبالغة ، ويحتمل أن يكون فعيلاً وهي من صيغ المبالغة .

﴿ وسلام عليه ﴾ .

قال الطبري : أي أمان .

قال ابن عطية : والأظهر أنها التحية المتعارفة وإنما الشرف في أن سلم الله عليه وحياه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله ، وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى عليهما السلام التقيا وهما ابنا الخالة ، فقال يحيى لعيسى : ادع لي فأنت خير مني ، فقال له عيسى : بل أنت ادع لي فأنت خير مني سلم الله

عليك وأنا سلمت على نفسي .

وقال أبو عبد الله الرازي : ﴿ يوم ولد ﴾ أي أمان عليه من أن يتاله الشيطان ﴿ ويوم يموت ﴾ أي أمان من عذاب القبر ﴿ ويوم يبعث حياً ﴾ من عذاب الله يوم القيامة .

(106/483)

وفي قوله ﴿ ويوم يبعث حياً ﴾ تنبيه على كونه من الشهداء لقوله ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ وهذا السلام يحتمل أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة انتهى .

والأظهر أنه من الله لأنه في سياق ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(107/483)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِّى ءايَةً ﴾

أي علامةً تدلني على تحقق المسؤولِ ووقوعِ الحبَل ، ولم يكن هذا السؤالُ منه عليه الصلاة

والسلام لتأكيد البِشارة وتحقيقِها كما قيل فإن ذلك مما لا يليق بمنصِب الرسالة ، وإنما كان ذلك لتعريف وقت العُلوق حيث كانت البشارةُ مطلقةً عن تعيينه وهو أمرٌ خفيٌّ لا يوقف عليه ، فأراد أن يُطلعَه الله تعالى عليه لتلقِّي تلك النعمةِ الجليلةِ بالشكر من حين حدوثِها ولا يؤخّرَه إلى أن تظهر ظهوراً معتاداً ، وقد مرت الإشارةُ في تفسير سورة آل عمران إلى أن هذا السؤالَ ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة بُرهةٌ من الزمان ، لما روي أن يحيى كان أكبرَ من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ، ولا ريب في أن دعاءَ زكريا عليه الصلاة والسلام كان في صِغَر مريمَ لقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ وهي إنما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهي بنتُ عشرِ سنين أو بنتُ ثلاثَ عشْرةَ سنةً ، والجعلُ إبداعيٌّ واللامُ متعلقة به وتقديمُها على المفعول به لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخَّر ، أو بمحذوف وقع حالاً من آيةً إذ لو تأخر لكان صفةً لها ، وقيل : بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين أولُهما آيةً وثانيهما الظرفُ ، وتقديمُه لأنه لا مسوّغَ لكون آيةً مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديمِ الظرف فلا يتغير حالُهما بعد ورودِ الناسخ .

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَن لا تُكَلِّمَ الناس ﴾ أي لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناسِ مع القدرة على الذكر والتسبيح ﴿ ثلاث لَيَالٍ ﴾ مع أيامهن للتصريح بها في سورة آل عمران ﴿ سَوِيّاً

﴿ حال من فاعل تكلم مفيدٌ لكون انتفاءِ التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أي تُمنع الكلامَ فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق سليمَ الجوارحِ ما بك شائبةُ بَكَم ولا خَرَس .

(108/483)

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾ أي من المصلّى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحرابِ ينتظرونه أن يفتح لهم البابَ فيدخلوه ويصلّوا إذْ خرج عليهم متغيّراً لونُه فأنكروه وقالوا : ما لك ؟ ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ أي أوماً إليهم لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ وقيل : كتب على الأرض وأنْ في قوله تعالى : ﴿ أَن سَبّحُواْ ﴾ إما مفسرةٌ لأوحى أو مصدريةٌ والمعنى أن صلّوا أو بأن صلوا ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ هما ظرفا زمانٍ للتسبيح .

عن أبي العالية : أن المرادَ بهما صلاةُ الفجر وصلاةُ العصر ، أو نزّهوا ربكم طرفي النهار ولعله كان مأموراً بأن يسبّح شكراً ويأمرَ قومه بذلك .

﴿ يَا يحيى ﴾ استئناف طُويَ قبله جملٌ كثيرةٌ مسارعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعدِ الكريم أي قلنا : يا يحيى ﴿ خُذِ الكتاب ﴾ التوراةَ ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجد واستظهار بالتوفيق ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : الحكمُ النبوةُ استنبأه وهو ابنُ ثلاثِ سنين ، وقيل : الحُكمُ الحِكمةُ وفهمُ التوراة والفقهُ في الدين . روي أنه دعاه الصبيانُ

إلى اللعب ، فقال : ما لِلَّعب خُلقنا .

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ عطف على الحُكم وتنوينُه للتفخيم وهو التحنّنُ والاشتياق ، ومن متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً مؤكدةً لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافيةِ ، أي وآتيناه رحمةً عظيمةً عليه كائنة من جنابنا أو رحمةً في قلبه وشفقةً على أبويه وغيرِهما ﴿ وزكواة ﴾ أي طهارةً من الذنوب أو صدقةً تصدقنا به على أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس ﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي .

﴿ وَبَرّا بوالديه ﴾ عطف على تقياً أي بارّاً بهما لطيفاً بهما محسناً إليهما ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ متكبراً عاقاً لهما أو عاصياً لربه .

(109/483)

﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾ من الله عز وجل ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من عذاب القبر ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ من هول القيامةِ وعذاب النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(110/483)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِّى ءايَةً ﴾

أي علامة تدلني على تحقق المسؤول ووقوع الخبر ، وكان هذا السؤال كما قال الزجاج لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفي لا يوقف عليه لا سيما إذا كانت زوجته ممن انقطع حيضها لكبرها وأراد أن يطلعه الله تعالى ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حيث حدوثها ولا يؤخره إلى أن تظهر ظهوراً معتاداً ، وقيل : طلب ذلك ليزداد يقيناً وطمأنينة كما طلب إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى لذلك والأول أولى ، وبالجملة لم يطلبه لتوقف منه في صدق الوعد ولا لتوهم أن ذلك من عند غير الله تعالى ، ورواية هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تصح لعصمة الأنبياء عليهم السلام عن مثل ذلك .

وذكر أن هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روي أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما السلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب في أن دعاءه عليه السلام كان في صغر مريم لقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : 38] وهي إنما ولدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة ، والجعل إبداعي واللام متعلقة به ، والتقديم على ﴿ ءايَةً ﴾ الذي هو المفعول لما

تقدم مراراً أو بمحذوف وقع حالاً من ﴿ ءايَةً ﴾ وقيل : بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين أولهما ﴿ ءايَةً ﴾ وثانيهما الظرف وتقديمه لأنه لا مسوغ لكون ﴿ ءايَةً ﴾ مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالهما بعد ورود الناسخ .

﴿ قَالَ ءايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ﴾ أن لا تقدر على تكليمهم بكلامهم المعروف في محاوراتهم .

(111/483)

روي عن أبي زيد أنه لما حملت زوجته عليه السلام أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يقرأ التوراة فإذا أراد مناداة أحد لم يطقها ﴿ ثلاث لَيَالٍ ﴾ مع أيامهن للتصريح بالأيام في سورة آل عمران والقصة واحدة ، والعرب تتجوز أو تكتفي بأحدهما عن الآخر كما ذكره السيرافي ، والنكتة في الاكتفاء بالليالي هنا وبالأيام ثمة على ما قيل أن هذه السورة مكية سابقة النزول وتلك مدنية والليالي عندهم سابقة على الأيام لأن شهورهم وسنيهم قمرية إنما تعرف بالأهلة ولذلك اعتبروها في التاريخ كما ذكره النحاة فأعطى السابق للسابق ، والليال جمع ليل على غير قياس كأهل وأهال أو جمع ليلاة ويجمع أيضاً على ليايل .

﴿ سَوِيّاً ﴾ حال من فاعل ﴿ تُكَلِّمَ ﴾ مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة لا لاعتقال اللسان بمرض أي يتعذر عليك تكليمهم ، ولا تطيقه حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح ما بك شائبة بكم ولا خرص وهذا ما عليه الجمهور ، وعن ابن عباس أن ﴿ سَوِيّاً ﴾ عائد على الليالي أي كاملات مستويات فيكون صفة لثلاث .

وقرأ ابن أبي عبلة .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ أَن لا تُكَلِّمَ ﴾ بالرفع على أن المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن أي أنه لا تكلم .

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾

أي من المصلى كما روي عن ابن زيد أو من الغرفة كما قيل ، وأصل المحراب كما قال الطبرسي : مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذباً عن أهله ، ويسمى محل العبادة محراباً لما أن العابد كالمحارب للشيطان فيه ، وإطلاق المحراب على المعروف اليوم في المساجد لذلك وهو محدث لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ألف الجلال السيوطي في ذلك رسالة صغيرة سماها إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب .

روي أن قومه كانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيراً لونه فأنكروه وقالوا : مالك ؟ ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ أي أوماً إليهم وأشار كما روي عن قتادة .

وابن منبه .

والكلبي .

والقرطبي وهو إحدى الروايتين عن مجاهد ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ [آل عمران : 41] وروي عن ابن عباس كتب لهم على الأرض .

﴿ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ وهو الرواية الأخرى عن مجاهد لكن بلفظ على التراب بدل على الأرض وقال عكرمة : كتب علي ورقة .

وجاء إطلاق الوحي على الكتابة في كلام العرب ومنه قول عنترة :

كوحي صحائف من عهد كسرى . . .

فأهداها لأعجم طمطمى

وقول ذي الرمة :

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها . . .

بقية وحي في بطون الصحائف

و﴿ إن ﴾ إما مفسرة أو مصدرية فتقدر قبلها الباء الجارة .

والمراد بالتسبيح الصلاة مجازاً بعلاقة الاشتمال وهو المروى عن ابن عباس .

وقتادة .

وجماعة .

و﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ ظرفا زمان له .

والمراد بذلك كما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية صلاة الفجر وصلاة العصر ، وقال بعض : التسبيح على ظاهره وهو التنزيه أي نزهوا ربكم طرفي النهار ، ولعله عليه السلام كان مأموراً بأن يسبح شكراً ويأمر قومه .

وقال صاحب التحرير والتحبير : عندي في هذا معنى لطيف وهو أنه إنما خص التسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول : سبحان الله تعالى سبحان الخالق جل جلاله فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح اه .

فأمرهم بالتسبيح إشارة إلى حصول أمر عجيب ، وقيل : إنه عليه السلام كان قد أخبر قومه بما بشر به قبل جعل العلامة فلما تعذر عليه الكلام أشار إليهم بحصول ما بشر به من الأمر العجيب فسروا بذلك .

وقرأ طلحة ﴿ إن ﴾ بهاء الضمير عائدة إلى الله تعالى ، وروى ابن غزوان عن طلحة ﴿ إن سبحان ﴾ بنون مشددة .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

﴿ يا يحيى ﴾ على تقدير القول وكلام آخر حذف مسارعة إلى الأنباء بإنجاز الوعد الكريم أي فلما ولد وبلغ سنا يؤمر مثله فيه قلنا يا يحيى ﴿ خُذِ الكتاب ﴾ أي التوراة ، وادعى ابن عطية الإجماع على ذلك بناءً على أن ال للعهد ولا معهود إذ ذاك سواها فإن الإنجيل لم يكن موجوداً حينئذٍ وليس كما قال بل قيل : له عليه السلام كتاب خص به كما خص كثير من الأنبياء عليهم السلام بمثل ذلك ، وقيل : المراد بالكتاب صحف إبراهيم عليه السلام ، وقيل : المراد الجنس أي كتب الله تعالى : ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واستظهار وعمل بما فيه ، وقائل ذلك هو الله تعالى على لسان الملك كما هو الغالب في القول للأنبياء عليه السلام ، وأبعد التبريزي فقدر قال له أبوه حين ترعرع ونشأ : يا يحيى الخ ، ويزيده بعداً قوله تعالى : ﴿ وءاتيناه الحكمة صَبِيّاً ﴾ .

أخرج أبو نعيم .

وابن مردويه .

والديلمي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ذلك : أعطى الفهم

والعبادة وهو ابن سبع سنين ، وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعاً أيضاً قال الغلمان ليحسى بن زكريا عليهما السلام : اذهب بنا نلعب فقال : أللعب خلقنا ، اذهبوا نصلي فهو قوله تعالى : ﴿ وءاتيناه الحكمة صَبِيّاً ﴾ والظاهر أن الحكم على هذا بمعنى الحكمة ، وقيل : هي بمعنى العقل ، وقيل معرفة آداب الخدمة ، وقيل الفراسة الصادقة وقيل النبوة وعليه كثير قالوا : أوتيها وهو ابن سبع سنين أو ابن ثلاث أو ابن سنتين ولم ينبأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين ، والجملة عطف على قلنا المقدر .

(114/483)

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ عطف على ﴿ الحكم ﴾ [مريم : 12] وتنوينه للتفخيم وهو في الأصل من حن إذا ارتاح واشتاق ثم استعمل في الرحمة والعطف ، ومنه الحنان لله تعالى خلافاً لمن منع إطلاقه عليه عز وجل ، وإلى تفسيره بالرحمة هنا ذهب الحسن .

وقتادة .

والضحاك .

وعكرمة .

والفراء .

وأبو عبيدة وهو رواية عن ابن عباس ، ويروى أنه أنشد في ذلك لابن الأرزق قول طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا . . .

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وأنشد سيبويه قول المنذر بن درهم الكلبي :

وأحدث عهد من أمينة نظرة . . .

على جانب العلياء إذ أنا واقف

تقول حنان ما أتى بك ههنا . . .

أذو نسب أم أنت بالحي عارف

والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا وهذا أبلغ من ورحمناه وروي هذا التفسير عن مجاهد ، وقيل : المراد وآتيناه رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما ، وفائدة الوصف على هذا الإشارة إلى أن ذلك كان مرضياً لله عز وجل فإن من الرحمة والشفقة ما هو غير مقبول كالذي يؤدي إلى ترك شيء من حقوق الله سبحانه كالحدود مثلاً أو الإشارة إلى أن تلك الرحمة زائدة على ما في جبلة غيره عليه السلام لأن ما يهبه العظيم عظيم .

وأورد على هذا أن الإفراط مذموم كالتفريط وخير الأمور أوسطها .

ورد بأن مقام المدح يقتضي ذلك .

ورب إفراط يحمد من شخص ويذم من آخر فإن السلطان يهب الألوف ولو وهبها غيره كان إسرافاً مذمُوماً .

(115/483)

وعن ابن زيد أن الحنان هنا المحبة وهو رواية عن عكرمة أي وآتيناه محبة من لدنا ، والمراد على ما قيل جعلناه محبباً عند الناس فكل من رآه أحبه نظير قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] وجوز بعضهم أن يكون المعنى نحو ما تقدم على القول السابق ، وقيل : هو منصوب على المصدرية فيكون من باب ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وَحِفْظاً ﴾ [فصلت : 12] .

وجوز أن يجعل مفعولاً لأجله وأن يجعل عطفاً على ﴿ صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] وذلك ظاهر على تقدير أن يكون المعنى رحمة لأبويه وغيرهما ، وعلى تقدير أن يكون وحناناً من الله تعالى عليه لا يجيء الحال وباقي الأوجه بحاله ، ولا يخفى على المتأمل الحال على ما روى عن ابن زيد ﴿ وزكواة ﴾ أي بركة كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وهو عطف على المفعول ، ومعنى إيتائه البركة على ما قيل جعله مباركاً نفاعاً معلماً للخير .

وقيل : الزكاة الصدقة والمراد ما يتصدق به ، والعطف على حاله أي آتيناه ما يتصدق به على الناس وهو كما ترى .

وقيل : هي بمعنى الصدقة والعطف على الحال والمراد آتيناه الحكم حال كونه متصدقاً به على أبويه وروى هذا عن الكلبي .

وابن السائب ، وجوز عليه العطف على ﴿ حنانا ﴾ بتقدير العلية ، وقيل : العطف على المفعول ، ومعنى إيتائه الصدقة عليهما كونه عليه السلام صدقة عليهما ، وعن الزجاج هي الطهارة من الذنوب ولا يضر في مقام المدح الإتيان بألفاظ ربما يستغني ببعضها عن بعض ﴿ وزكواة وَكَانَ تَقِيّا ﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي وقد جاء في غير ما حديث أنه عليه السلام ما عمل معصية ولا هم بها .

وأخرج مالك .

وأحمد في الزهد ، وابن المبارك .

وأبو نعيم عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا عليهما السلام العشب وإنه كان ليبكي من خشية الله تعالى حتى لو كان القار على عينه لخرقه وقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه .

﴿ وَبَرّا بوالديه ﴾ كثير البر بهما والإحسان إليهما ؛ والظاهر أنه عطف على خبر ﴿ كان ﴾ [مريم : 13] وقيل هو من باب .

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

والمراد وجعلناه براً وهو يناسب نظيره حكاية عن عيسى عليه السلام ، وقرأ الحسن .

وأبو جعفر في رواية .

وابن نهيك .

وأبو مجلز ﴿ وَبَرّاً ﴾ في الموضعين بكسر الباء أي وذا بر ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً ﴾ متكبراً متعالياً عن قبول الحق والإذعان له أو متطاولاً على الخلق ؛ وقيل : الجبار هو الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ، وعن ابن عباس أنه الذي يقتل ويضرب على الغضب .

وقال الراغب : هو في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها .

﴿ عَصِيّاً ﴾ مخالفاً أمر مولاه عز وجل ، وقيل : عاقاً لأبويه وهو فعول وقيل : فعيل ، والمراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة .

﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾

قال الطبري : أمان من الله تعالى عليه ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم

﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من وحشة فراق الدنيا وهو المطلع وعذاب القبر ، وفيه دليل على أنه يقال للمقتول ميت بناء على أنه عليه السلام قتل لبغي من بغايا بني إسرائيل ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ من هول القيامة وعذاب النار .

وجيء بالحال للتأكيد ، وقيل للإشارة إلى أن البعث جسماني لا روحاني ، وقيل للتنبيه على أنه عليه السلام من الشهداء .

وقال ابن عطية : الأظهر أن المراد بالسلام التحية المتعارفة والتشريف بها لكونها من الله تعالى في الماطن التي فيها العبد في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله عز وجل ، وجاء في خبر رواه أحمد في الزهد وغيره عن الحسن أن عيسى .

ويحيى عليهما السلام التقيا وهما ابنا الخالة فقال يحيى لعيسى : ادع الله تعالى لي فأنت خير مني فقال له عيسى : بل أنت ادع لي فأنت خير مني سلم الله تعالى عليك وإنما سلمت على نفسي .

(117/483)

وهذه الجملة كما قال الطيبي عطف من حيث المعنى على ﴿ ءاتيناه الحكم ﴾ [مريم : 12] كأنه قيل وآتيناه الحكم صبياً وكذا وكذا وسلمناه أو سلمنا عليه في تلك المواطن

فعدل إلى الجملة الاسمية لإرادة الدوام والثبوت وهي كالخاتمة للكلام السابق . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(118/483)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء ، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة ، وأمالهما جميعاً الكسائي وأبو بكر وخلف ، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون .

وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف ، وحكي عن غيره أنه كان يضم " ها " .

وقال أبو حاتم : لا يجوز ضمّ الكاف ولا الهاء ولا الياء .

قال النحاس : قراءة أهل المدينة من أحسن ما في هذا ، والإمالة جائزة في " ها " وفي " يا "

وقد اعترض على قراءة الحسن جماعة .

وقيل في تأويلها : أنه كان يشمّ الرفع فقط .

وأظهر الدال من هجاء " صاد " نافع وأبو جعفر وابن كثير وعاصم ويعقوب ، وهو اختيار

أبي عبيد وأدغمها الباقون .

وقد قيل في توجيه هذه القراءات : أن التفخيم هو الأصل ، والإمالة فرع عنه ، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل ، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع ، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمرين ، وقد تقدم الكلام في هذه الحروف الواقعة في فواتح السورة مستوفى في أوائل سورة البقرة .

ومحل هذه الفاتحة إن جعلت اسماً للسورة على ما عليه الأكثر الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، قاله الفراء .

واعترضه الزجاج فقال : هذا محال لأن ﴿ كهيعص ﴾ ليس هو مما أنبأنا الله عزّ وجلّ به عن زكريا ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عنه وعما بشر به ، وليس ﴿ كهيعص ﴾ من قصته ، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد ، فقوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي : هذا ذكر رحمة ربك وقيل : هو مبتدأ خبره محذوف أي : فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك .

(119/483)

قال الزجاج: ﴿ ذكر ﴾ مرتفع بالمضمر، والمعنى: هذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك ﴿ عَبْدِهِ زكريا ﴾ يعني: إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد، وانتصاب ﴿ عبده ﴾ على أنه مفعول للرحمة، قاله الأخفش.

وقيل: للذكر.

ومعنى ذكر الرحمة: بلوغها وإصابتها، كما يقال: ذكرني معروف فلان أي: بلغني.

وقرأ يحيى بن يعمر: "ذكر" بالنصب، وقرأ أبو العالية "عبده" بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول، وفاعل الذكر هو عبده، وزكريا على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه، وقرأ الكلبي: "ذكّر" على صيغة الفعل الماضي مشدّداً ومخففاً على أن الفاعل عبده، وقرأ ابن معمر على الأمر، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكريا، لأن كل نبيّ رحمة لأمته.

﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ العامل في الظرف: رحمة.

وقيل: ذكر.

وقيل: هو بدل اشتمال من زكريا.

واختلف في وجه كون ندائه هذا خفياً؛ فقيل: لأنه أبعد عن الرياء، وقيل: أخفاه، لئلا يلام على طلبه للولد في غير وقته، ولكونه من أمور الدنيا.

وقيل: أخفاه مخافة من قومه.

وقيل : كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفاً هرماً لا يقدر على الجهر .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنّي ﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله : ﴿ نادى ربه ﴾ يقال : وهن يهن وهنا إذا ضعف فهو واهن ، وقرىء بالحركات الثلاث .

(120/483)

أراد أن عظامه فترت وضعفت قوّته ، وذكر العظم ، لأنه عمود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته ، ولأن أشدّ ما في الإنسان صلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ووحد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين في الشين ، والباقون بعدمه ، والاشتعال في الأصل : انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية ، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها .

قال الزجاج : يقال للشيب إذا كثر جدّاً : قد اشتعل رأس فلان ، وأنشد للبيد :

فإن ترى رأسي أمسى واضحا . . . سلط الشيب عليه فاشتعل

وانتصاب ﴿ شيباً ﴾ على التمييز ، قاله الزجاج.

وقال الأخفش : انتصابه على المصدر ، لأن معنى اشتعل : شاب .

قال النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل ، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك ، وكان الأصل اشتعل شيب رأسي ، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لي .

قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع ، وذكر نعم الله عليه كما فعل زكريا ها هنا ، فإن في قوله : ﴿ وَهَنَ العظم مِنّي واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه ، وبلوغ مآربه ، وفي قوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ ذكر ما عوّده الله من الإنعام عليه بإجابة أدعيته ، يقال شقي بكذا ، أي تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه .

(121/483)

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى مِن وَرَائِى ﴾ قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن علي بن الحسين وأبوه علي ويحيى بن يعمر " خفت " بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله ﴿ الموالي ﴾ أي قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدي ، أو انقطعوا بالموت ، مأخوذاً من خفت القوم

إذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب .

وقرأ الباقون ﴿ خفت ﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكرياء ، ومفعوله الموالي ، ومن ورائي متعلق بمحذوف لا بخفت ، وتقديره : خفت فعل الموالي من بعدي .

قرأ الجمهور : ﴿ ورائي ﴾ بالهمز والمدّ وسكون الياء ، وقرأ ابن كثير بالهمز والمدّ وفتح الياء .

وروي عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء ، مثل عصاي .

والموالي هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بني العمّ ونحوهم ، والعرب تسمي هؤلاء موالي ، قال الشاعر :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا . . . لا تنشروا بيننا ما كان مدفوناً

قيل : الموالي الناصرون له .

واختلفوا في وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده ، فقيل : خاف أن يرثوا ماله ، وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولداً .

وقال آخرون : إنهم كانوا مهملين لأمر الدين ، فخاف أن يضيع الدين بموته .

فطلب ولياً يقوم به بعد موته ، وهذا القول أرجح من الأوّل لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجلّ من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا : وراثة المال ، بل المراد : وراثة العلم والنبوّة

والقيام بأمر الدين .

وقد ثبت عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " ﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِرًا ﴾ العاقر : هي التي لا تلد لكبر سنها ، والتي لا تلد أيضاً لغير كبر وهي المرادة هنا ، ويقال : للرجل الذي لا يلد : عاقر أيضاً ، ومنه قول عامر ابن الطفيل :

(122/483)

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا . . . قال ابن جرير : وكان اسم امرأته : أشاع بنت فاقود بن ميل ، وهي أخت حنة ، وحنة هي أمّ مريم .

وقال القتيبي : هي أشاع بنت عمران ، فعلى القول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أمّ عيسى ، وعلى القول الثاني يكونان ابني خالة كما ورد في الحديث الصحيح .

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ أي أعطني من فضلك ولياً ، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته في حالة لا يجوّز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما .

وقد قيل : إنه كان ابن بضع وتسعين سنة ، وقيل : بل أراد بالوليّ الذي طلبه هو الولد ، ولا

مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة ، فإن الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم .

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة وابن محيصن واليزيدي ويحيى بن المبارك بالرفع في الفعلين جميعاً ، على أنهما صفتان للوليّ وليسا بجواب للدعاء .

وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى ابن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما ، على أنهما جواب للدعاء .

ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال : هي أصوب في المعنى ؛ لأنه طلب ولياً هذه صفته فقال : هب لي الذي يكون وارثي .

ورجح ذلك النحاس وقال : لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ، تقول : أطع الله يدخلك الجنة أي إن تطعه يدخلك الجنة ، وكيف يخبر الله سبحانه بهذا ، أعني كونه أن يهب له ولياً يرثه ، وهو أعلم بذلك ، والوراثة هنا هي وراثة العلم والنبوّة على ما هو الراجح كما سلف .

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبي ومقاتل ، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ، وقد كان فيهم أنبياء وملوك ، وقرىء : " يرثني وارث من آل يعقوب " على أنه فاعل يرثني .

وقرىء : " وأرث آل يعقوب " أي أنا .

وقرىء : " أو يرث آل يعقوب " بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثني .

وهذه القراءات في غاية الشذوذ لفظاً ومعنى ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله ؛ وقيل : راضياً بقضائك وقدرك ، وقيل : رجلاً صالحاً ترضى عنه ، وقيل : نبياً كما جعلت آباءه أنبياء .

﴿ رَضِيّاً يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغلام اسمه يحيى ﴾ قال جمهور المفسرين : إن هذا النداء من الله سبحانه ، وقيل : إنه من جهة الملائكة ، لقوله في آل عمران ﴿ فَنَادَتْهُ الملئكة ﴾ [آل عمران : 39] ، وفي الكلام حذف ، أي فاستجاب له دعاءه ، فقال : يا زكريا ، وقد تقدّم في آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا .

قال الزجاج : سمي يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ قال أكثر المفسرين : معناه : لم نسمّ أحداً قبله يحيى .

وقال مجاهد وجماعة : معنى ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً ،

فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ ، وردّ هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى .

وقيل : معناه لم تلد عاقر مثله ، والأوّل أولى .

وفي إخباره سبحانه بأنه لم يسمّ بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين : الأولى : أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به ، ولم يكلها إلى الأبوين .

والجهة الثانية : أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه .

(124/483)

﴿ قَالَ رَبِّ أَنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ أي كيف أو من أين يكون لي غلام ؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار ، بل التعجب من قدرة الله وبديع صنعه ، حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير ، وقد تقدّم الكلام على مثل هذا في آل عمران ، ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ يقال : عتا الشيخ يعتو عتيا إذا انتهى سنه وكبر ، وشيخ عات إذا صار إلى حال اليبس والجفاف ، والأصل عتوا لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء لكونها أخفّ ، ومثل ما في الآية قول الشاعر :

إنما يعذر الوليد ولا يع . . . ذر من كان في الزمان عتياً

وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وحفص والأعمش ﴿ عتياً ﴾ بكسر العين ، وقرأ الباقون بضم العين وهما لغتان ، ومحل جملة ﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِرًا ﴾ النصب على الحال من ضمير المتكلم ، ومحل جملة ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ النصب أيضاً على الحال ، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ أي كيف يحصل بيننا ولد الآن ، وقد كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي وهي الآن عجوز ، وأنا شيخ هرم ؟

ثم أجاب الله سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : ﴿ قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ ﴾ الكاف في محل رفع ، أي الأمر كذلك ، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا ، ثم ابتدأ بقوله : ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية ، أي : قال قولاً مثل ذلك ، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وأما على الاحتمال الأوّل فتكون جملة ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، أي قال : هو مع بعده عندك ، عليّ هين ، وهو فيعل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد .

قال الفراء : أي خلقه عليّ هين ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها .

قال الزجاج : أي فخلق الولد لك كخلقك ، والمعنى : أن الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض ، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه ، وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئاً ، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم .

قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر ﴿ وقد خلقتك من قبل ﴾ وقرأ سائر الكوفيين : " وقد خلقناك من قبل " .

﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِّى ءايَةً ﴾ أي علامة تدلني على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل ، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه .

قال ابن الأنباري : وجه ذلك أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر ، فسأل الله آية يستدلّ بها على قرب ما منّ به عليه .

وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى من الله سبحانه لا من الشيطان ، لأن إبليس أوهمه بذلك ، كذا قال الضحاك والسدّي وهو بعيد جدّاً ﴿ قال ءايتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في آل عمران مستوفى ، وانتصاب ﴿ سوياً ﴾ على الحال ، والمعنى : آيتك أن لا تقدر على الكلام والحال أنك سويّ الخلق ليس بك آفة تمنعك

منه ، وقد دل بذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران .

أن المراد ثلاثة أيام ولياليهنّ .

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾ وهو مصلاه ، واشتقاقه من الحرب ، كأنّ ملازمه يحارب الشيطان .

وقيل : من الحرب محركاً ، كأن ملازمه يلقى حرباً وتعباً ونصباً ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ قيل : معنى ﴿ أوحى ﴾ : أومأ بدليل قوله في آل عمران ﴿ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ [آل عمران : 41] .

وقيل : كتب لهم في الأرض .

وبالأوّل قال الكلبي والقرظي وقتادة وابن منبه ، وبالثاني قال مجاهد .

وقد يطلق الوحي على الكتابة ومنه قول ذي الرّمة :

(126/483)

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها . . . بقية وحي في بطون الصحائف

وقال عنترة :

كوحي صحائف من عهد كسرى . . . فأهداها لأعجم طمطميّ

و"أن" في قوله : ﴿ أَن سَبِّحُواْ ﴾ مصدرية أو مفسرة ، والمعنى : فأوحى إليهم بأن صلوا ، أو أي صلوا ، وانتصاب ﴿ بكرة ﴾ و ﴿ عشياً ﴾ على الظرفية .

قال الفراء : العشي يؤنث ، ويجوز تذكيره إذا أبهم .

قال : وقد يقال العشيّ جمع عشية ، قيل : والمراد : صلاة الفجر والعصر .

وقيل : المراد بالتسبيح : هو قولهم سبحان الله في الوقتين : أي نزهوا ربكم طرفي النهار .

وقد أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق ، وفي لفظ : كاف بدل كبير .

وأخرج عبد الرزاق وآدم بن أبي إياس ، وعثمان بن سعيد الدارمي في التوحيد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ كهيعص ﴾ قال : كاف من كريم ، وهاء من هاد ، وياء من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس : من الصحابة ﴿ كهيعص ﴾ هو الهجاء المقطع ، الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصوّر .

وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿ كهيعص ﴾ فحدّث عن أبي صالح عن أمّ

هانىء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كاف هاد عالم صادق" وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجه وابن جرير عن فاطمة ابنة عليّ قالت : كان علي يقول : يا كهيعص اغفر لي .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في : ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف الكافي ، والهاء الهادي ، والعين العالم ، والصاد الصادق .

(127/483)

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن السدّي قال : كان ابن عباس يقول في كهيعص وحمو ياس وأشباه هذا : هو اسم الله الأعظم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة وقع بين من بعدهم ولم يصح مرفوعاً في ذلك شيء ، ومن روي عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه ، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة ، بل الحق الوقف ، وردّ العلم في مثلها إلى الله سبحانه ، وقد قدّمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة .

وأخرج أحمد وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان زكريا نجاراً " وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن أزر بن مسلم من ذرية يعقوب دعا ربه سرّاً ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنّي ﴾ إلى قوله : ﴿ خِفْتُ الموالي ﴾ قال : وهم العصبة ﴿ يَرِثُنِي ﴾ يرث نبوّتي ونبوّة آل يعقوب ، فنادته الملائكة ، وهو جبريل : إن الله يبشرك ﴿ بغلام اسمه يحيى ﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال : يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان سخر بك ، فشك وقال : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ يقول : من أين يكون وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ، قال الله : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَائِي ﴾ قال : الورثة : وهم عصبة الرجل .

وأخرج الفريابي عنه قال : كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال : ﴿ رب هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ قال : يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوّة .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ قال : مثلاً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : لا أدري كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذا الحرف عتياً أو عسياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله : ﴿ عِتِيّاً ﴾ قال : لبث زماناً في الكبر .

وأخرج أيضاً عن السدّي قال : هرماً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثلاث لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ قال : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفي لفظ من غير خرس ، أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ قال : كتب لهم كتاباً .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَن سَبِّحُواْ ﴾ قال : أمرهم بالصلاة ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

قوله : ﴿ يا يحيى ﴾ ها هنا حذف ، وتقديره : وقال الله للمولود : يا يحيى ، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذي يجوز أن يخاطب فيه ، فقلنا له : يا يحيى .

وقال الزجاج : المعنى فوهبنا له وقلنا له : يا يحيى .

والمراد بالكتاب : التوراة لأنه المعهود حينئذٍ ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن ، والمراد بالأخذ : إما الأخذ الحسي أو الأخذ من حيث المعنى ، وهو القيام بما فيه كما ينبغي ، وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به ، والإحجام عن المنهيّ عنه ، ثم أكده بقوله : ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجدّ وعزيمة واجتهاد ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ المراد بالحكم : الحكمة ، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية .

(129/483)

وقيل : هي العلم وحفظه والعمل به وقيل : النبوّة وقيل : العقل ، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحاً لحمله على جميع ما ذكر .

قيل : كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين ، وقيل : ابن ثلاث .

﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ معطوف على الحكم .

قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة ، وأصله توقان النفس ، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها .

قال أبو عبيدة : تقول حنانك يا ربّ ، وحنانيك يا ربّ ، بمعنى واحد ، يريد : رحمتك ، قال

طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا . . . حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وقال امرؤ القيس :

ويمنحها بنو سلخ بن بكر . . . معيزهم حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابي : الحنان مشدّداً من صفات الله عزّ وجلّ ، والحنان مخففاً : العطف والرحمة .

والحنان : الرزق والبركة .

قال ابن عطية : والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حناناً ، يعني : بلالاً ، لما مرَّ به وهو يعذب .

وقيل : إن القائل لذلك هو ورقة بن نوفل .

قال الأزهري : معنى ذلك لأترحمنّ عليه ، ولأتعطفنّ عليه لأنه من أهل الجنة ، ومثله قول الحطيئة :

تحنن عليّ هداك المليك . . . فإن لكل مقام مقالا

ومعنى ﴿ مّن لَّدُنَّا ﴾ من جنابنا .

قيل : ويجوز أن يكون المعنى : أعطيناه رحمة من لدنا كائنة في قلبه يتحنن بها على الناس ،

ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر ﴿ وزكواة ﴾ معطوف على ما قبله ، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبرّ ، أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم إلى الخير ؛ وقيل : زكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهود وقيل : صدقة تصدقنا به على أبويه قاله ابن قتيبة ﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ أي متجنباً لمعاصي الله مطيعاً له .

وقد روي أنه لم يعمل معصية قط .

(130/483)

﴿ وَبَرّا بوالديه ﴾ معطوف على ﴿ تقياً ﴾ ، البرّ هنا بمعنى البارّ ، فعل بمعنى فاعل ، والمعنى : لطيفاً بهما محسناً إليهما ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ أي لم يكن متكبراً ولا عاصياً لوالديه أو لربه ، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾ قال ابن جرير وغيره : معناه : أمان عليه من الله .

قال ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة ، فهي أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه ، وهو أقلّ درجاته ، وإنما الشرف في أن يسلم الله عليه ، ومعنى ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ أنه أمن من الشيطان وغيره في ذلك اليوم ، أو أن الله حياه في ذلك اليوم ، وهكذا معنى ﴿ يَوْمَ يَمُوتُ ﴾ وهكذا معنى ﴿ يَوْمَ يُبعثُ حَياً ﴾ قيل :

أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن : يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قوماً لم يكن قد عرفهم وأحكاماً ليس له بها عهد ، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة .

فخصّ الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ قال : بجدّ ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ قال : الفهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : يقول : اعمل بما فيه من فرائض .

وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال : اللب .

وأخرج أبو نعيم والديلمي وابن مردويه عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ قال : "أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين" وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم عن قتادة : بدله وهو ابن ثلاث سنين .

(131/483)

وأخرج الحاكم في تاريخه من طريق نهشل بن سعد عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال يحيى : ما للعب خلقنا ، اذهبوا نصلي فهو قول الله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ " وأخرج

ابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ القرآن قبل أن يحتلم ، فهو ممن أوتي الحكم صبياً " وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي وابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَحَنَانًا ﴾ قال : لا أدري ما هو إلا أني أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة ، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وزكواة ﴾ قال : بركة ، وفي قوله : ﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ قال : طهر فلم يعمل بذنب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(132/483)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾

أي : علامة تدلني على تحقق المسؤول ووقوع الحمل ، ليطمئن قلبي : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّا ﴾ أي : لا تقدر على تكليمهم ، حال كونك سوياً ، بلا مرض في

بدنك ، ولا في لسانك .

لطيفة :

إنما ذكر الليالي هنا ، والأيام في آل عِمْرَان ، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس ، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها .

والعرب تتجوز أو تكتفي بأحدهما عن الآخر . والنكتة في الاكتفاء بالليالي هنا وبالأيام ثمَّ ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول . وتلك مدنية . والليالي عندهم سابقة على الأيام . لأن شهورهم وسنيَّهم قمرية ، إنما تعرف بالأهلة . ولذلك اعتبروها ، في التاريخ ، كما ذكره النحاة , فأعطي السابق للسابق .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾

أي : مصلاه أو غرفته : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ أي : أشار إليهم رمزاً : ﴿ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ أي : صلوا لله طرفي النهار ، وقوله تعالى :

﴿ يَا يَحْيَى ﴾

استئناف ، طوى قلبه جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم . وهو وجود هذا الغلام المبشّر به ، وتعليمه التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النَّبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً . فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم عليه وعلى والديه . أي : قلنا يا يحيى : ﴿ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي : تعلم

التوراة والعلم بجد وحرص واجتهاد ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ أي : الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد في الخير ، وهو صبيٌّ ، وقوله تعالى :

(133/483)

﴿ وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي : وآتيناه حناناً : وهو التحنن والتعطف والشفقة . وتنوينه للتفخيم . أي : رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق . أو حناناً من الله عليه : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ أي : طهارة من الذنوب ، وعصمة بليغة منها : ﴿ وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ أي : متكبراً عاقاً لهما ، أو عاصياً لربه .

﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ ﴾ أي : من الله : ﴿ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ أي : ليستقبل النعيم الأبدي . والسلام بمعنى السلامة والأمان من الآفات . وفيه معنى التحية والتشريف . وفي ذكر الأحوال الثلاث ، زيادة في العناية به ، صلوات الله وسلامه عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 92.91 ﴾

(134/483)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) ﴾

المراد بالآية هنا العلامة ، اي اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به من الولد . قال بعض أهل العلم : طلب الآية على ذلك لتتم طمأنينته بوقوع ما بشر به . ونظيره على هذا القول قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : 260] . وقيل : أراد بالعلامة ان يعرف ابتداء حمل امرأته ، لأن الحمل في أول زمنه يخفى .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ الناس ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ اي علامتك على وقوع ذلك ألا تلكم الناس ، أي أن تمنع الكلام فلا تطيقه ثلاث ليال بأيامهن في حال كونك سوياً ، أي سوى الخلق ، سليم الجوارح ، ما بك خرس ولا بكم ولطنك ممنوع من الكلام على سبيل خرق العادة ، كما قدمنا في « آل عمران » . أما ذكر الله فليس ممنوعاً منه بدليل قوله في « آل عمران » : ﴿ واذكر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بالعشي والإبكار ﴾ [آل عمران : 41] . وقول من قال : إن معنى قوله تعالى . ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ أي ثلاث ليال متتابعات – غير صواب ، بل معناه هو ما قدمنا من كون اعتقال لسانه عن كلام قومه ليس لعلة ولا مرض حدث به . ولكن بقدرة الله تعالى وقد قال تعالى هنا ﴿ ثلاث ليال ﴾ ولم يذكر معها أيامها

، ولكنه ذكر الأيام في «آل عمران» ، في قوله ﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [آل عمران : 41] الآية . فدلت الآيتان على أنها ثلاث ليالي بأيامهن .

(135/483)

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ﴾ يعنى إلا بالإشارة أو الكتابة ، كما دل عليه قوله هنا : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 11] ، وقوله في « آل عمران » : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ [آل عمران : 41] الآية . لأن الرمز : الإشارة والإيماء بالشفتين والحاجب . والإيحاء في قوله : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ ﴾ الآية ، قال بعض العلماء : هو الإشارة وهو الأظهر بدليل قوله « إلا رمزاً » كما تقدم آنفاً . وممن قال بأن الوحي في الآية الإشارة : قتادة ، والكلبي ، وابن منبه ، والعتبي ، كما نقله عنهم القرطبي وغيره . وعن مجاهد ، والسدي « فأوحى إليهم » اي كتب لهم في الأرض . وعن عكرمة : كتب لهم في كتاب . والوحي في لغة العرب يطلق على كل إلقاء في سرعة وخفاء . ولذلك أطلق على الإلهام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] الآية . وعلى الإشارة كما هو الظاهر في قوله تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ ﴾ الآية . ويطلق على الكتابة كما هو القول الآخر في هذه الآية الكريمة .

وإطلاق الوحي على الكتابة مشهور في كلام العرب ، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته :

فمدافع الريان عرى رسمها . . . خلقا كما ضمن الوحي سلامها

فقوله « الوحي » بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء ، جمع وحي بمعنى الكتابة . وقول عنترة :

كوحي صحائف من عهد كسرى . . . فأهداها لأعجم طمطمي

وقول ذي الرمة :

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها . . . بقية بطوحي في ون الصحائف

وقول جرير :

كأن أخا الكتاب يخط وحيا . . . بكاف في منازلها ولام

(136/483)

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن زكريا خرج على قوله من المحراب فأشار إليهم ، أو كتب لهم ، أن سبحوا الله أول النهار وآخره . فالبكرة أول النهار ، والعشي آخره . وقد بين تعالى في « آل عمران » أن هذا الذي أمر به زكريا قومه بالإشارة أو الكتابة من التسبيح

بكرة وعشياً – أن الله أمر زكرياء به أيضاً ، وذلك في قوله : ﴿ واذكر ربَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بالعشي والإبكار ﴾ [آل عمران : 41] . والظاهر أن هذا المحراب الذي خرج منه على قومه هو المحراب الذي بشر بالولد وهو قائم يصلي فيه المذكور في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب ﴾ [آل عمران : 39] . قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية : والمحراب : ارفع المواضع ، وأشرف المجالس . وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الآرض اه . وقال الجوخري في صحاحه : قال الفراء المحاريب : صدور المجالس ، ومنه سمي محراب المسجد ، والمحراب : الغرفة . قال وضاح اليمن :

ربة محراب إذا جئتها . . . لم ألقها أو أرتقي سلما

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب ﴾ [آل عمران : 37] الآية .

تنبيه

أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية الكريمة : مشروعية الإمام على المأمومين في الصلاة . لأن المحراب موضع صلاة زكريا ، كما جل عليه قوله ﴿ وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ . والمحراب أرفع من غيره ، فدل ذلك على ما ذكر . قال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره : هذه الآية تدل على أن ارتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعاً عندهم . وقد اختلف في

هذه المسألة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد وغيره ، متمسكاً بقصة المنبر . ومنع مالك ذلك في الارتفاع الكثير دون اليسير . وعلل أصحابه المنع بخوف الكبر على الإمام .

(137/483)

قلت : وهذا فيه نظر ، وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام : أن حذيفة أم الناس بالمدائن على دكان . فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه . فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هذا ، أو ينهى عن ذلك ؟ قال بلى ، ذكرت ذلك حين مددتني . وروي ايضاً عن عدي بن ثابت الأنصاري قالك حدثني رجل أنه كان مع عمار بن ياسر بالمدائن . فأقيمت الصلاة فتقم عمار بن ياسر ، وزقام على دكان يصلي والناس أسفل منه فتقدم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة . فلما فرغ عمار من صلاته قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا أم الرجل القوم فلا يقم في مكان أرفع من مقامهم » أو نحو ذلك ؟ فقال عمار : لذلك اتبعتك حين أخذت على يدي . قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهي عن ذلك ، ولم يحتج أحد منهم على صاحبه بحديث المنبر .

(138/483)

فدل على أنه منسوخ ، ومما يدل على نسخه : أن فيه عملاً زائداً في الصلاة وهو النزول والصعود ، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام . وهذا أولى مما اعتذر به أصحابنا من أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان معصوماً من الكبر . لأن كثيراً من الأئمة يوجدون لا كبر عندهم . ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيراً ، والله أعلم . انتهى كلام القرطبي رحمه الله تعالى .

قال مقيده عفا الله عنه : سنتكلم هنا إن شاء اله تعالى على الأحاديث المذكورة ، ونبين أقوال العلماء في هذه المسألة ، وأدلتهم وما يظهر رجحناه بالدليل .

(139/483)

أما الحديثان اللذان ذكرهما القرطبي عن ابي داود ساقهما أبو داود في سننه حدثنا أحمد بن سنان وأحمد بن الفرات أبو مسعود الرازي المعنى قال : ثنا يعاى الأعمش عن إبراهيم عن همام : أن حذيفة أم الناي بالمدائن على دكان ، فأخذ ابو مسعود بقميصه فجبذه ، إلى آخر الحديث . ثم قال أبو داود رحمه الله : حدثنا أحمد بن إبراهيم ثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني أبو خالد عن عدي بن ثابت الأنصاري ، حدثني رجل أنه كان مع عمار بن

ياسر بالمدائن . إلى آخر الحديث . ولا يخفى أن هذا الحديث الأخير ضعيف . لأن الرواي فيه عن عمار رجل لا يُدرى من هو كما ترى . وأما الأثر الأول فقد صححه غير واحد ، وروى مرفوعاً صريحاً . قال ابن حجر في (التلخيص) في الكلام على الأثر والحديث المذكورين : ويعارضه ما رواه أبو داود من طريق همام : أن حذيفة أم الناس بالمدائن على دكان فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه ، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن ذلك ؟ قال بلى . وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم ، وفي رواية للحاكم التصريح برفعه . ورواه ابو داود من وجه آخر ، وفيه أن الإمام كان عمار بن ياسر ، والذي جبذه حذيفة ، وهو مرفوع لكن فيه مجهول . والأول أقوى ، ويقويه ما رواه الدارقطني من وجه آخر عن همام عن أبي مسعود : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم الإمام فوق شيء والناس خلفه أسفل منه . اه من التلخيص . وقال النووي في (شرح المهذب) في الكلام على حديث صلاة حذيفة على الدكان وجبذ أبي مسعود له المذكور : رواه الشافعي وأبو داود والبيهقي . ومن لا يحصى من كبار المحدثين ومصنفيهم ، وإسناده صحيح . ويقال جذب وجبذ ، لغتان مشهورتان اه منه . وأما قصة المنبر التي أشار لها القرطبي ، وقال : إنها حجة من يجيز ارتفاع الإمام على المأموم – فهي حديث سهل بن سعد : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر في أول يوم وضع ، فكبر وهو عليه ثم ركع ثم نزل القهقرى فسجد

(140/483)

وسجد الناس معه ، ثم عاد حتى فرغ ، فلما انصرف قال :

(141/483)

« أيها الناس ، إنما فعلت هذا لتأتموا بي ، ولتعلموا صلاتي » متفق عليه . أما أقوال الأئمة في هذه المسالة : فمذهب الشافعي فيها هو كراهة علو الإمام على المأموم . وكذلك عكسن إلا إذا كان ذلك لغرض صحيح محتاج إليه ، كارتفاع الإمام ليعلم الجاهلين الصلاة كما فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم في صلاته على المنبر ، وبين أنه فعل ذلك لقصد التعليم ، وكارتفاع المأموم ليبلغ غير من المأمومين تكبيرات الإمام فإن كان ارتفاع أحدهما لنحو هذا الغرض استحب له الارتفاع لتحصيل الغرض المذكور .

قال النووي في (شرح المهذب) : هذا مذهبنا ن وهو رواية عن أبي حنيفة ، وعنه رواية . أنه يكره الارتفاع مطلقاً ، وبه قال مالك والأوزاعي . وحكى الشيخ أبو حامد عن الأوزاعي : أنه قال تبطل به الصلاة .

وأما مذهب مالك في المسألة ففيه تفصيل بين علو الإمام على المأموم وعكسه . فعلو المأموم جائز عنده . وقد رجع إلى كراهته . وبقي بعض أصحابه على قوله بجوازه . وعلو الإمام لا يعجبه . وفي المدونة قال مالك : لا باس في غير الجمعة أن يصلي الرجل بصلاة الإمام على ظهر المسجد والإمام في داخل المسج . ثم كرهه . وأخذ ابن القاسم بقوله الأول . انتهى بواسطة نقل الموق في الكلام على قول خليل بن إسحاق في متصره عاطفاً على ما يجوز . وعلو مأموم ولو بسطح . وفي المدونة أيضاً قال مالك : إذا صلى الإمام بقوم على ظهر المسجد والناس خلفه أسفل من ذلك فلا يعجبني . انتهى بواسطة نقل المواق أيضاً . وقوله « يعجبني » ظاهر في الكراهة . وحمله بعضهم على المنع . وفي وجوب إعادة الصلاة قولان . ومحل الخلاف ما لم يقصد المرتفع بارتفاعه التَّكَبُّر على الناس ، فإن قصد ذلك بطلت صلاته عندهم إماماً كان أو مأموماً . وهذه المسألة ذركها خليل بن إسحاق في مختصره في قوله : وعلو مأموم ولو بسطح لا عكسه ، وبطلب بقصد إمام ومأموم به الكبر إلا بكشبراه . وقوله « إلا بكشبر » يعني إلا أن يكون الارتفاع بكشبر « مستثن من قوله » لا عكسه « لا من مسالة قصده الكبر فالصلاة فيها باطلة عندهم مطلقاً : قال المواق في

شرحه لكلام خليل المذكور من المدونة : كره مالك وغيره أن يصلي الإمام على شيء أرفع مما يصلي عليه من خلفه ، مثل الدكان يكون في المحراب ونحوه . قال ابن القاسم : فإن فعل اعادوا أبداً ، لأنهم يعبثون إلا أن يكون ذلك دكاناً يسير الارتفاع مثل ما كان عندنا بمصر فتجزئهم الصلاة . قال أبو محمد : مثل الشبر وعظم الذراع – إلى أن قال : وانظر إذا صلى المقتدي كذلك أعني على موضع مرتفع قصداً إلى التكبر عن مساواة الإمام . قال ابن بشير : صلاته أيضاً باطلة .

(143/483)

اه محل الغرض منه . وقول ابن القاسم « لأنهم يعبثون » يعنس برفع ذلك البنيان الذي يصلي عليه الإمام ، كما قال تعالى عن نبيه هود مخاطباً لقومه عاد : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : 128-129] وإذا ارتفعت مع الإمام طائفة من المصلين سائر الناس ، أعني ليست من أشراف الناس وأعيانهم ، ففي نفي الكراهة بذلك خلاف عندهم وإليه أشار خليل في مختصره بقوله : وهل يجوز إن كان مع الإمام طائفة كغيرهم تردد . هذا هو حاصل مذب مالك في هذه المسالة .

وأما مذهب أبي حنيفة في هذه المسألة : فهو أن ارتفاع كل من الإمام والمأموم على الآخر

مكروه . وقال الطحاوي : لا يكره علو المأموم على الإمام . ومحل الكراهة عند الحنفية في الارتفاع في اليسير ، ولا كراهة عندهم في اليسير : وقدر الارتفاع الموجب للكراهة عندهم قدر قامة ، ولا بأس بما دونها ، ذكره الطحاوي ، وهو مروي عن أبي يوسف : وقيل هو مقدر بقدر ما يقع عليه الامتياز . وقيل : مقدر بقدر ذراع اعتباراً بالسترة . قال صاحب (تبيت الحقائق) . وعليه الاعتماد . وإن كان مع الإمام جماعة في مكانه المرتفع ، وبقية المأمومين أسفل منهم فلا يكره ذلك على الصحيح عندهم – انتهى بمعناه (تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق) .

(144/483)

وأما مذهب الإمام أحمد في هذه المسألة – فوه التفصيل بين علو الإمام على المأموم ، فيكره على المشهور من مذهب أحمد . وبين علو المأموم الإمام فيجوز . قال ابن قدامة في المغني : المشهور في المذهب اه يكره أن يكون الإمام أعلى من المأمومين ، سواء أراد تعليمهم الصلاة ، أو لم يرد . وهو قول ماكل والأوزاعي واصحاب الري . وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكره – اه . محل الغرض منه . وقال في المغني ايضاً : فإن صلى الإمام في مكان أعلى من المأمومين فقال ابن حامد : لا تصح صلاتهم . وهو قول الأوزاعي ، لأن النهي يقتضي فساد

المنهي عنه . وقال القاضي : لا تبطل ، وهو قول أصحاب الرأي – اه محل الغرض منه .

فإذا عرفت مذاهب الآئمة الأربعة في هذه المسالة – فاعلم أن حجة من كره علو الإمام على المأموم أو منعه – هي ما قدمنا في قصة جبذ أبي مسعود لحذيفة لما أم الناس ، وقام يصلي على دكان . الحديث المتقدم . وقد بينا اقوال أهل العلم في الحديث المذكور .

وحجة من أجاز ذلك للتعليم حديث سهل بن سعد المتفق عليه في قصة صلاة النَّبي صلى الله عليه وسلم على المنبر وجواب المخالفين عن صلاته على المنبر . أنه ارتفاع يسير ، وذلك لا باس به ، أو بأنه منسوخ كما تقدم في كلام القرطبي : وحجة من أجاز علو المأموم على الإمام ما روي عن أبي هريرة : أنه صلى بصلاة الإمام وهو على سطح المسجد .

(145/483)

قال ابن حجر « في التلخيص » : رواه الشافعي عن إبراهيم بن محمد قال حدثني صالح مولي التوأمة أنه رأى أبا هريرة يصلي فوق ظهر المسجد بصلاة الإمام في المسجد . ورواه البيهقي من حديث القعنبي عن ابن أبي ذئب عن صالح ، ورواه سعبد بن منصورن وذكره البخاري تعليقاً – انتهى محل الغرض من كلامه . فقد رأيتمذاهب العلماء في المسألة وأدلتهم .

قال مقيده عفا الله عنه : والذي يظهر – والله تعالى أعلم – وجوب الجمع بين الأدلة المذكورة ، وأن علو الإمام مكروه لما تقدم . ويجمع بينه وبين قصة الصلاة على المنبر بجوازه للتعليم دون غيره . ويدل لهذا إخباره صلى الله عليه وسلم أنه ارتفع على المنبر ليعلّمهم الصلاو لانه إذا ارتفع رأوه وإذا نزل لم يره إلا من يليه ، وجمع بعضهم بأن ارتفاعه على المنبر ارتفاع يسير وهو مغتفر . أما علو المأموم فقد تعارض فيه القياس مع فعل أبي هريرة . لأن القياس يقتضي كراهة ارتفاع المأموم قياساً على ارتفاع الإمام وهو قياس جلي ، وإذا تعارض القياس مع قول الصحابي فمن الأصوليين من يقول بتقديم القياسن وهو مذهب مالك وجماعةن ومنهم من يقول بتقديم قول الصحابي . ولا شك أن الأحوط تجنب علو كل واحد من الإمام والمأمومو على الآخر . والعلم عند الله تعالى . و « أن » في قوله ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ هي المفسرة . والمعنى أن ما بعدها يفسر الإيحاء المذكور قبلها . فهذا الذي أشار لهم به هو الأمر بالتسبيح بكرة وعشياً ، وهذا هو الصواب . ويحتمل أن تكون مصدرية بناء على أن « أن » المصدرية تأتي مع الأفعال الطلبية . وعليه فالمعنى : أوحى إليهم أي أشار إليهم بأن سبحوا ، أي بالتسبيح أو كتب لهم ذلك بناء على القول بأن المراد به الكتابة ، وكونها مفسرة هو الصواب . والعلم عند الله تعالى .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

اعلم أولاً – أنا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر شيء مع بعض صفاته وله صفات أخر مذكورة في وضع آخر ، فإنا نبينها . وقد مر فيه أمثلة كثيرة من ذلك ، وأكثرها في الموصوفات من أسماء الأجناس لا الأعلام ، وربما ذكرنا ذلك في صفات الأعلام كما هنا – فإذا علمت ذلك – فاعلم أنه تعلى ذكر في هذه الآية الكريمة بعض صفات يحيى ، وقد ذكر شيئاً ن صفاته أيضاً في غير هذا الموضع . وسنبين إن شار الله المراد بالمذكور منها هنا ، والمذكور في غير هذا الموضع .

اعلم أنه هنا وصفه بأنه قال له ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ ووصفه بقوله ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ . فقوله ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب ﴾ مقول قول محذوف . أي وقلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة . والكتاب : التوراة . أي خذ التوراة بقوة . أي بجد واجتهاد ، وذلك بتفهم المعنى أولاً حتى يفهمه على الوجه الصحيح ، ثم يعمل به من جميع الجهات ، فيعتقد عقائده ، ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويتأدب بآدابه ، ويتعظ بمواعظه ، إلى غير ذلك من جهات العمل به . وعامة المفسرين على أن المراد بالكتاب هنا : التوراة . وحكى غير واحد عليه الإجماع . وقيل : هو كتاب أنزل على

يحيى وقيل : هو اسم جنس يشمل الكتب المتقدمه . وقيل : هو صحف إبراهيم .

والأظهر قول الجمهور : إنه التوراة كما قدمنا .

(147/483)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم ﴾ أي أعطيناه الحكم ، وللعلماء في المراد بالحكم أقوال متقاربة ، مرجعها إلى شي واحد ، وهو أن الله أعطاه الفهم في الكتاب . أي إدراك ما فيه والعمل به في كال كونه صبياً . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ اي الفهم والعلم والجد والعزم ، والاقبال على الخير والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه – وهو صغير حدث . قال عبد الله بن المبارك قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا ! فلهذا أنزل الله ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ . وقال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ يقول تعالى ذكره : المبارك قال : أخبرني معمو ولم يذكره عن أحد في هذه الآية « وآتيناه الحكم صبياً » قال بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعب . فقال : ما للعب خلقنا ، فأنزل الله ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ وقال الزمخشري في الكشاف ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم ﴾ أي الحكمة ، ومنه قول نابغة ذبيان :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت . . . إلى حمام سراع وارد الثمد

وقال أبو حيان في تفسير هذه الآية : والحكم النبوة ، أو حكم الكتاب ، أو الحكمة ، أو العلم بالأحكام .

(148/483)

أو اللب وهو العقل ، أو آداب الخدمة ، أو الفراسة الصادقة . أقوال :

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي – هو أن الحكم يعلم النافع والعلم به ، وذلك بفهم الكتاب السماوي فهماً صحيحاً ، والعمل به حقاً ، فإن هذا يشمل جميع أقوال العلماء في الآية الكريمة . وأصل معنى « الحكن » المنع ، والعلم النافع . والعلم به يمنع الأقوال والأفعال من الخلل والفساد والنقصان .

وقوله تعالى : ﴿ صبياً ﴾ أي لم يبلغ ، وهو الظاهر . وقيل : صبياً أي شاباً لم يبلغ سن الكهولة – ذكره أبو حيان وغيره ، والظاهر الأول . قيل ابن ثلاث سنين ، وقيل ابن سبع ، وقيل ابن سنتين . والله أعلم .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وحناناً ﴾ معطوف على ﴿ الحكم ﴾ أي وآتيناه حناناً من لدنا . والحنان : هو ما جبل عليه من الرحمة ، والعطف والشفقة . وإطلاق الحنان على

الرحمة والعطف مشهور في كلام العرب ، ومنه قولهم : حنانك وحنانيك يا رب ، بمعنى رحمتك . ومن هذا المعنى قول امرىء القيس :

أبنت الحارث الملك بن عمرو . . . له ملك العراق إلى عمان

ويمنحها نبو شمجي لن جرم . . . معيزهم حنانك ذا الحنان

يعني رحمتك يا رحمن . وقول طرفة بن العبد :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا . . . حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقول منذر بن درهم الكلبي :

وأحدث عهد من أمينة نظرة . . . على جانب العلياء إذ أنا واقف

فقالت حنان ما أتى بك ها هنا . . . أذو نسب أم أنت بالحي عارف

فقوله « حنان » أي أمري حنان . أي رحمة لك ، وعطف وشفقه عليك وقول الحطيئة أو غيره :

تحن على هداك المليك . . . فإن لكل مقام مقالا

(149/483)

وقوله تعالى : ﴿ من لدنا ﴾ أي من عندنا ، وأصح التفسيرات في قوله « وزكاةً » أنه معطوف على ما قبله اي أو أعطيناه زكاة ، أي طهارة من أدران الذنوب والمعاصي بالطاعة ، والتقرب إلى الله بما يرضيه : وقد قدمنا في سورة « الكهف » الآيات الدالة على إطلاق الزكاة في القرآن بمعنى الطهارة ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية « وزكاةً » الزماة : التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير . أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم . وقيل المعنى : زكيناه بحسن الثناء عليه كما يزكي الشهود إنساناً . وقيل « زكاةً » صدقة على أبويه . قاله ابن قتيبة – انتهى كلام القرطبي . وهو خلاف التحقيق في معنى الآية . والتحقيق فيه إن شاء الله هو ما ذكرنا ، من أن المعنى : وأعطيناه زكاة اي طهارة من الذنوب والمعاصي بتوفيقنا غياه للعمل بما يرضي الله تعالى . وقول من قال من العلماء : بأن المراد بالزكاة في الآية العمل الصالح ، راجع إلى ما ذكرنا لأن العمل الصالح هو الذي به الطهارة من الذنوب والمعاصي .

(150/483)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وكان تقياً ﴾ اي ممتثلاً لأوامر ربه مجتنباً كل ما نهى عنه . ولذا لم يعمل خطيئة قط ، ولم يلم بها ، قاله القرطبي وغيره عن قتادة وغيره . وفي نحو

ذلك أحاديث مرفوعة ، والظاهر أنه لم يثبت شيء من ذلك مرفوعاً ، إما بانقطاع ، وإما بعنعنة مدلس : وإما بضعف راو ، كما أشار له ابن كثير وغيره . وقد قدمنا معنى « التقوى » مراراً وأصل مادتها في اللغة العربية .

وقوله تعالى : ﴿ وبراً بوالديه ﴾ البر بالفتح هو فاعل البر – بالكسر – كثيراً أي وجعلناه كثير البر بوالديه ، أي محسناً إليهما ، لطيفاً بهما ، لين الجانب لهما . وقوله « وبراً » معطوف على قوله « تقياً » ، وقوله « ولم يكن جباراً عصياً » أي لم يكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه ، ولكنه كان مطيعاً لله ، متواضعاً لوالديه ، قاله ابن جرير . والجبار : هو كثير الجبر ، أي القهر للناس ، والظلم لهم . وكل متكبر على الناس يظلمهم : فهو جبار . وقد أطلق في القرآن على شديد البطش في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : 130] وعلى من يتكرر منه القتل في قوله : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً ﴾ [القصص : 19] الآية . والظاهر أن قوله : « عصياً » فعول قلبت فيه الواو ياء وأدغمت في الياء على القاعدة التصريفية المشهورة : التي عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله :

إن يسكن السابق من واو ويا . . . واتصلا ومن عروض عريا

فياء الواو اقبلن مدغماً . . . وشذ معطى غير ما قد رسما

فأصل « عصياً » على هذا « عصوياً » كصبور ، أي كثير العصيان . ويحتمل أن يكون أصله فعيلاً وهي م صيغ المبالغة أيضاً ، قاله أبو حيان في البحر .

(151/483)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا ﴾ قال ابن جرير ك وسلام عليه أي أمان له . وقال ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة ، فهي أشرف من الأمان ، لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهو أقل درجاته ، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه وحياه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة ، وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول – انتهى كلام ابن عطية بواسطة نقل القرطبي في تفسير هذه الآية ، ومرجع القولين إلى شيء واحد ، لأن معنى سلام ، التحية ، الأمان ، والسلامة مما يكره . وقول من قال : هو الأمان . يعني أن ذلك الأمان من الله . والتحية من الله معناها الأمان والسلامة مما يكره . والظاهر المتبادر أن قوله ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ تحية من الله ليحيى ومعناها الأمان والسلامة وقوله : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ مبتدأ ، وسوغ الابتداء به وهو نكرة أنه في معنى الدعاء ، وإنما خص هذه

الأوقات الثلاثة بالسلام التي هي وقت ولادته ، ووقت موته ، ووقت بعثه ، في قوله ﴿ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ الآية ، لأنها أوحش من غيرها .

(152/483)

قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطنك يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهمز ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم . قال فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه فيها . رواه عنه ابن جرير وغيره . وذكر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية بإسناده عن الحسن حمه الله فالك إن عيسى ويحيى التقيا فقال له عيسى : استغفر لي ، أنت خير مني . فقال الآخر : استغفر لي ، أنت خير مني . فقال عيسى : أنتخير مني ، سلمت على نفسي وسلم الله عليك . وقد نقل القرطبي هذا الكلام الذي رواه ابن جرير عن الحسن البصري رحمه الله تعالى . ثم قال : انتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم – فضل عيسى بأه قال إدلالة في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكي في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه ، قال ابن عطية : ولك وجه . انتهى كلام القرطبي . والظاهر أن سلام الله علة يحيى في قوله ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ الآية أعظم من سلام عيسى على نفسه في

قوله : ﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 33] كما هو ظاهر .

تنبيه

الفتحة في قوله : ﴿ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ يحتمل أن تكون ي الظروف الثلاثة فتحة إعراب نصباً على الظرفيةز ويحتمل أن تكون فتحة بناء لجواز البناء في نحو ذلك ، والأجود أن تكون فتحة « يوم ولد » فتحة بناء ، وفتحة ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ ﴾ فتحة نصب ، لأن بناء ما قبل الفعل الماضي أجود من إعرابه وإعراب ما قبل المضارع ، والجملة الاسمية أجود عن بنائه ، كما عقده في الخلاصة بقوله :

وابن أو أعرب ما كإذ قد أجريا . . . واختر بنا متلو فعل بنيا

وقبل فعل معرب أو مبتدأ . . . أرعب ومن بنى فلن يفندا

(153/483)

والأحوال في مثل هذا أربعة : الأول أن يضاف الظرف المذكور إلى جملة فعلية فعلها مبني بناء أصلياً وهو الماضي ، كقول نابغة ذبيان :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . فقلت ألما أصح والشيب وازع

فبناء الظرف في مثل ذلك أجود ، وإعرابه جائز .

الثاني – أن يضاف الظرف المذكور إلى جملة فعلية فعلها مبني بناء عاوضاًن كالمضارع المبني لاتصاله بنون النسوة . كقول الآخر :

لأجتذبن منهن قلبي تحلما . . . على حين يستصبين كل حليم

وحكم هذا كما قبله .

الثالث – أن يضاف إلى جملة فعلية فعلها معرب . قول أبي صخر الهذلي :

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجني . . . نسيم الصبا من حيث يطلع الفجر

(154/483)

فإعراب مثل هذا أجود ، وبناؤه جائز .

الرابع – أن يضا الظرف المذكور إلى جملة اسمية . كقول الشاعر :

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني . . . كريم على حين الكرام قليل

وقول الآخر :

تذكر ما تذكر من سليمي . . . على حين التواصل غير دان

وحكم هذا كما قبله . واعلم أن هذه الأوجه إنما هي في الظرف المبهم الماضي . وأما إن

كان الظرف المبهم مستقبل المعنى ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ ﴾ فإنه لا يضاف إلا لى الجمل الفعلية دون الاسمية . فتكون فيه الأوجه الثلاثة المذكورة دون الرابع . وأجاز ابن مالك إضافته إلى الجملة الاسمية بقلة ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] وقول سواد بن قارب :

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة . . . بمغن فتيلاً عن سواد بن قارب

لأن الظرف في الآية والبيت المذكورين مستقبل لا ماض . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ قال أبو حيان : فيه تنبيه على كونه من الشهداء لقوله تعالى فيهم : ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] .

قال مقيده عفا الله عنه : وجه هذا الاستنباط أنا لحال قيد لعاملها ، وصف لصاحبها . وعليه فبعثه مقيد بكونه حياً ، وتلك حياة الشهداء ، وليس بظاهر كل الظهور . والله تعالى أعلم .

(155/483)

هذا هو حاصل ما ذكره الله تعالى في هذه السورة الكريمة من صفات يحيى ، وذكر بعض صفاته في غير هذا الموضع ، كقوله في « آل عمران » : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي

فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 39] ومعنى كونه ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله ﴾ أنه مصدق بعيسى ، وإنما قيل لعيس كلمة لأنه الله أوجده بكلمة هي قوله « كن » فكان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ﴾ [النساء : 171] الآية . وقال : ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائكة يا مريم إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [آل عمران : 45] الآية . وهذا هو قول جمهور المفسرين في معنى قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله ﴾ وقيل : المراد بكلمة الكتاب ، أي مصدقاً بكتاب الله . والكلمة في القرآن تطلق على الكلام المفيد ، كقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى ﴾ [الأعراف : 137] ، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : 115] ، وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون : 100] إلى غير ذلك من الآيات ، وباقي الأقوال : تركناه لظهور ضعفه . والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا . وقوله « وسيداً » وزن السيد بالميزان الصرفي فيعل وأصل مادته (س و د) سكنت ياء الفعيل الزائدة قبل الواو التي هي في موضع العين ، فأبدلت الواو ياء عن القاعدة التصريفية المشار لها بقوله في الخلاصة :

إن يسكن السابق من واو ويا . . . البيتين المتقدمين آنفاً . وأصله من السواد وهو الخلق الكثير . فالسيد من يطيعهن ويتبعه سواد كثير من الناس . والدليل على أن عين المادة واو أنك تقول فيه : ساد يسود بالواو ، وتقول سودوه إذا جعلوه سيداً .

والتضعيف يرد العين إلى أصلها ، ومنه قول عامر بن الطفيل العامري :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر . . . وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة . . . أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

وقال الآخر :

وإن بقوم سودوك لحاجة . . . إلى سيد لو يظفرون بسيد

وشهرة مثل ذلك تكفي عن بيانه . والآية فيها دليل على إطلاق السيد على من ساد من الناس ، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال في الحسن بن علي رضي الله عنهما « إن ابني هذا سيد » الحديث . وأنه صلى الله عليه وسلم لما جاء يعد بن معاذ رضي الله عنه للحكم في بني قريظة قال صلى الله عليه وسلم : « قوموا لسيدكم » والتحقيق في معنى قوله « حصوراً » أنه الذي حصر نفسه عن النساء مع القدرة على إتيانهن تبتلاً منه ، وانقطاعاً لعبادة الله . وكان ذلك جائزاً في شرعه . وأما سنة النَّبي صلى الله عليه وسلم فهي التزوج وعدم التبتل . أما قول من قال : إن الحصور فعول بمعنى مفعول وأنه محصور عن النساء لأنه عنين لا يقدر على إتيانهن – فليس بصحيح

، لأنه العنة عيب ونقص في الرجال ، وليست من فعله حتى يثنى عليه بها . فالصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا ، واختاره غير واحد من العلماء . وقول من قال : إن الحصور هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر كما قال الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمني . . . لا بالحصور ولا فيها بسوار

(157/483)

قول ليس بالصواب في معنى الآية . بل معناها هو ما ذكرا وإن كان إطلاق الحصور على ذلك صحيحاً لغة . وقوله « ونبيئاً » على قراءة نافع بالهمزة معناه واضح ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، من النبأ وهو الخبر الذي له شأن ، لأن الوحي خبر له شأن يخبره الله به . وعلى قراءة الجمهور بالياء المشددة فقال بعض العلماء : معناه كمعنى قراءة نافع ، إلا أن العمزة أبدبت ياء وأدغمت فيها للياء التي قبلها . وعلى هذا فهو كالقراءتين السبعيتين في قوله ﴿ إِنَّمَا النسيء زِيَادَةٌ فِي الكفر ﴾ [التوبة : 37] بالهمزة وتشيد الياء . وقال بعض العلماء : هو على قراءة الجمهور من النبوة بمعنى الارتفاع لرفعة النَّبي وشرفه . والصالحون : هم الذن صلحت عقائدهم ، وأعمالهم . وأقوالهم ، ونياتهم ، والصلاح ضد الفساد . وقد وصف الله تعالى يحيى بالصلاح مع من وصف بذلك من الأنبياء في سورة « الأنعام »

في قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصالحين ﴾ [الأنعام : 85] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(158/483)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) ﴾

أراد نصب علامة على وقوع الحمل بالغلام ، لأنّ البشارة لم تعيّن زمناً ، وقد يتأخر الموعود به لحكمة ، فأراد زكرياء أن يعلم وقت الموعود به .

وفي هذا الاستعجال تعريض بطلب المبادرة به ، ولذلك حذف متعلّق ﴿ ءَايَةً ﴾ .

وإضافة ﴿ ءَايَتُكَ ﴾ على معنى اللاّم ، أي آية لك ، أي جعلنا علامة لك .

ومعنى ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ﴾ أن لا تقدر على الكلام ، لأنّ ذلك هو المناسب لكونه آية من قِبَل الله تعالى .

وليس المراد نهيَه عن كلام الناس ، إذ لا مناسبة في ذلك للكون آية .

وقد قدمنا تحقيق ذلك في سورة آل عمران .

وجعلت مدة انتفاء تكليمه الناس هنا ثلاث ليال ، وجعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام

فعلم أنّ المراد هنا ليال بأيامها وأنّ المراد في آل عمران أيام بلياليها .

وأُكد ذلك هنا بوصفها بـ ﴿ سَوِيّاً ﴾ أي ثلاث ليال كاملة ، أي بأيامها .

وسويّ : فعيل بمعنى مفعول ، يستوي الوصف به الواحد والواحدة والمتعدد منهما .

وفسر أيضاً ﴿ سَوِيّاً ﴾ بأنه حال من ضمير المخاطب ، أي حال كونك سوياً ، أي بدون عاهة الخَرَس والبكَم ، ولكنّها آية لك اقتضتها الحكمة التي بيّناها في سورة آل عمران .

وعلى هذا فذكر الوصف لمجرد تأكيد الطمأنينة ، وإلا فإن تأجيله بثلاث ليال كاف في الاطمئنان على انتفاء العاهة .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) ﴾

الظاهر أن المعنى أنه خرج على قومه ليصلي على عادته ، فكان في محرابه في صلاة خاصة ودعاء خفي ، ثم خرج لصلاة الجماعة إذ هو الحبر الأعظم لهم .

وضمن خرج معنى طلع فعدي بعلى كقوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ [القصص : 79] .

والمحراب : بيت أو محتجر يُخصص للعبادة الخاصة .

قال الحريري : فمحرَابيَ أحْرَى بي .

والوحي : الإشارة بالعين أو بغيرها ، والإيماء لإفادة معنى شأْنُه أن يفاد بالكلام .

و(أن) تفسيرية .

وجملة ﴿ سبّحوا بكرة وعشِيّاً ﴾ تفسير (لأَوْحى) ، لأن (أوحى) فيه معنى القول دون حروفه .

وإنما أمرهم بالتسبيح لئلا يحسبوا أن زكرياء لما لم يكلمهم قد نذر صمتاً فيقتدوا به فيصمتوا ، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة ، كما سيأتي في قوله تعالى : ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ [مريم : 26] .

فأوماً إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوه من التسبيح ؛ أو أراد أن يسبحوا الله تسبيح شكر على أن وهب نبيئهم ابناً يرث علمه ، ولعلهم كانوا علموا ترقبه استجابه دعوته ، أو أنه أمرهم بذلك أمراً مبهماً يفسره عندما تزول حبْسة لسانه .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

مقول قول محذوف ، بقرينة أن هذا الكلام خطاب ليحيى ، فلا محالة أنه صادر من قائل ، ولا يناسب إلاّ أن يكون قولاً من الله تعالى ، وهو انتقال من البشارة به إلى نبوءته .

والأظهر أنّ هذا من إخبار القرآن للأمة لا من حكاية ما قيل لزكرياء .

فهذا ابتداء ذكر فضائل يحيى .

وطوي ما بين ذلك لعدم تعلق الغرض به .

والسياق يدلّ عليه .

والتقدير : قلنا يا يحيى خذ الكتاب .

والكتاب : التوراة لا محالة ، إذ لم يكن ليحيى كتاب منزّل عليه .

والأخذ : مستعار للتفهم والتدبر ، كما يقال : أخذت العلم عن فلان ، لأنّ المعتني بالشيء يشبه الآخذ .

والقوة : المراد بها قوّة معنوية ، وهي العزيمة والثّبات .

والباء للملابسة ، أي أخذا ملابساً للثبات على الكتاب ، أي على العمل به وحَمْل الأمّة على اتباعه ، فقد أخذ الوهن يتطرق إلى الأمة اليهودية في العمل بدينها .

و﴿ ءَاتيناه ﴾ عطف على جملة القول المحذوفة ، أي قلنا : يا يحيى خذ الكتاب وآتيناه الحكم .

والحُكم : اسم للحكمة .

(160/483)

وقد تقدم معناها في قوله تعالى : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ في سورة البقرة (269) .

والمراد بها النّبوءة ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ في سورة يوسف (22) ، فيكون هذا خصوصية ليحيى أن أوتي النبوءة في حال صباه .

وقيل : الحكم هو الحكمة والفهم .

وصَبِيّاً ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ وءاتيناه ﴾ .

وهذا يقتضي أن الله أعطاه استقامة الفكر وإدراك الحقائق في حال الصبا على غير المعتاد ، كما أعطى نبيئه محمداً صلى الله عليه وسلم الاستقامة وإصابة الرأي في صباه .

ويبعد أن يكون يحيى أُعطي النبوءة وهو صبي ، لأن النبوءة رتبة عظيمة فإنما تعطى عند بلوغ الأشُدّ .

واتفق العلماء على أن يحيى أعطِي النبوءة قبل بلوغ الأربعين سنة بكثير .

ولعل الله لما أراد أن يكون شهيداً في مقتبل عمره باكره بالنبوءة .

والحَنان : الشفقة .

ومن صفات الله تعالى الحنان .

ومن كلام العرب : حنانيك ، أي حناناً منك بعد حنان .

وجُعل حنان يحيى من لَدن الله إشارة إلى أنه متجاوز المعتاد بين الناس .

والزكاة : زكاة النفس ونقاؤها من الخبائث ، كما في قوله تعالى : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : 18] أو أُريد بها البركة .

وتقي : فعيل بمعنى مُفعل ، من اتّقى إذا اتّصف بالتقوى ، وهي تجنب ما يخالف الدّين .

وجيء في وصفه بالتقوى بفعل ﴿ كَانَ تَقِيّاً ﴾ للدلالة على تمكنه من الوصف .

وكذلك عطف بروره بوالديه على كونه تقياً للدلالة على تمكنه من هذا الوصف .

والبرور : الإكرام والسعي في الطاعة .

والبَرّ بفتح الباء وصف على وزن المصدر ، فالوصف به مبالغة .

وأما البِر بكسر الباء فهو اسم مصدر لعدم جريه على القياس .

والجبّار : المستخف بحقوق الناس ، كأنه مشتق من الجبر ، وهو القسر والغصب .

لأنّه يغصب حقوق النّاس .

والعصيّ : فعيل من أمثلة المبالغة ، أي شديد العصيان ، والمبالغة منصرفة إلى النفي لا إلى المنفيّ .

(161/483)

أي لم يكن عاصياً بالمرة .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) ﴾

الأظهر أنه عطف على ﴿ وءاتيناه الحكم صبياً ﴾ [مريم : 12] مخاطباً به المسلمون ليعلموا كرامة يحيى عند الله .

والسّلام : اسم للكلام الذي يفاتح به الزائر والراحل فيه ثناء أو دعاء .

وسمي ذلك سلاماً لأنه يشتمل على الدعاء بالسلامة ولأنه يؤذن بأن الذي أقدم هو عليه مسالم له لا يخشى منه بأساً .

فالمراد هنا سلام من الله عليه ، وهو ثناء الله عليه ، كقوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [يس : 58] .

فإذا عرّف السلام باللام فالمراد به مثل المراد بالمنكّر أو مراد به العهد ، أي سلام إليه ، كما سيأتي في السلام على عيسى .

فالمعنى : أن إكرام الله متمكن من أحواله الثلاثة المذكورة .

وهذه الأحوال الثلاثة المذكورة هنا أحوال ابتداءِ أطوار : طور الورود على الدنيا ، وطور الارتحال عنها ، وطور الورود على الآخرة .

وهذا كناية على أنه بمحل العناية الإلهية في هذه الأحوال .

والمراد باليوم مطلق الزمان الواقع فيه تلك الأحوال .

وجيء بالفعل المضارع في ﴿ ويوم يموت ﴾ لاستحضار الحالة التي مات فيها ، ولم تذكر قصة قتله في القرآن إلاّ إجمالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(162/483)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾

(آية) أي : علامة على أن امرأته قد حملتْ في يحيى ، وكأن زكريا عليه السلام يتعجل الأمور ولا صبرَ له طوال تسعة أشهر ، بل يريد أن يعيش في ظِلِّ هذه النعمة ، وكأنها واقع لا ينفكّ لسانه حامداً شاكراً عليها ، وتظل النعمة في باله رغم أن ولده ما يزال جنيناً في بطن أمه .

فيجيبه ربه : ﴿ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ [مريم : 10] علامتك أَلاَّ تُكَلِّم الناس ثلاث ليال و (أَلاَّ) ليست للنهي عن الكلام ، بل هي إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته ، فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون عِلَّة تمنعه من الكلام ، كخرس أو غيره .

لذلك قال : ﴿ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ [مريم : 10] أي : سليماً مُعافىً ، سويّ التكوين ، لا

نقص فيك ، ولا قصور في جارحة من جوارحك . وهكذا لا يكون عدم الكلام عَيْباً ، بل آية من آيات الله .

وهناك فَرْق بين أمر كونيٍّ وأمر شرعي ، الأمر الكونيُّ هو ما يكون وليس لك فيه اختيار في ألاَّ يكون ، والأمر الشرعيّ ما لك فيه اختيار من الممكن أن تطعيه فتكون طائعاً ، أو تعصيه فتكون عاصياً .

وهذا الذي حدث لزكريا أمر كوني ، وآية من الله لا اختيار له فيها ، وكأن الحق سبحانه يعطينا الدليل على أنه يوجد مِنْ لا مظنّة أسباب ، وقد يبقي الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبِّب ، فاللسان هنا موجود ، وآلات النطق سليمة ، ولكنه لا يقدر على الكلام . فتأمل طلاقة القدرة ، فقد شاء سبحانه لزكريا الولد بغير أسباب ، وهنا منع مع وجود الأسباب ، فكلا الآيتين سواء في قدرته تعالى ومشيئته .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ ﴾

(163/483)

إذن : حدثتْ هذه المسألة لزكريا وهو في (المحرَابِ) أي : مكان العبادة والصلاة ، وعادةً ما يكون مرتفعاً على شرف عما حوله ، وكان مصلى الأنبياء والصالحين ، وسُمي محراباً

لأنه يحارب فيه الشيطان بكيْده ووسوسته . وقد ذُكر المحراب أيضاً في قصة داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ [ص : 21] .

وقد وردتْ هذه اللقطة من قصة زكريا عليه السلام في آية أخرى دَلَّتْ أيضاً على أن البشارة بيحيى كانت وهو في محرابه ، حيث قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً ﴾ [آل عمران : 39] .

وقوله تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ [مريم : 11] قلنا : إن الوَحْي له معنى لُغَويّ ومعنى شرعي ، الوحي لُغةً : الإخبار بطريق خفيٍّ . وعلى هذا المعنى يأتي الوحي بطرق متعددة ، فالله تعالى يُوحِي للرسل والأنبياء ، ويُوحي لغير الرسل من المصطفين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : 7] أي : أخبرها بطريق خفيٍّ ، هو طريق الإلهام .

ويُوحِي إلى الملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ ﴾ [الأنفال : 12] .

ويُوحِي للصالحين من أتباع الرسل : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ [المائدة : 111] .

ويتعدَّى الإعلام بخفاء إلى الحشرات : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : 68] .

بل يتعدّى الوحي إلى الجماد في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 15] .

(164/483)

وقد يُوحي الشياطين بعضهم إلى بعض : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام : 112] .

ويُوحون إلى أوليائهم : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : 121] لأن الشيطان لا يأتي الإنسان إلا بطريق خفيٍّ ، ووسوسة في خواطره .

أما الوحي الشرعي فهو إعلام من الله وحده إلى نبي يدّعي النبوة ومعه معجزة ، إذن فالوحي : إعلام خفيّ من الله للرسول .

فقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ [مريم : 11] أي : قال لهم بطريق الإشارة ؛ لأنه لا يتكلم ﴿ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 11] بُكرة : أول النهار ، وعَشياً : آخره ، يعني : طوِّقوا النهار بالتسبيح بداية ونهاية . وكأن زكريا عليه السلام قد بدتْ عليه علامات الفرح والإنبساط بالبُشْرى ، ورأى أن شُكْره لله وتسبيحه لا ينهض بهذه النعمة ،

فأمر قومه أنْ يُسبِّحوا الله معه ، ويشكروه معه على هذه النعمة ؛ لأنها لا تخصُّه وحده ، بل هي عامة لكل القوم .

ثم يقول تعالى : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب ﴾

نلحظ أن الآية الكريمة انتقلتْ بنا نَقْلة واسعة ، وطوَتْ فترة طويلة من حياة يحيى عليه السلام فقد كان السياق يتحدث عنه وهو بُشْرى لوالده ، وهو ما يزال في بطن أمه جنيناً ، وفجأة يخاطبه وكأنه أصبح أمراً واقعاً : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : 12] فقد بلغ مبلغ النُّضْج ، وأصبح أهْلاً لحمْل مهمة الدعوة ، إذن : المسألة مأخوذة مأخَذ الجدِّ ، وهي حقيقة واقعة .

وقوله : ﴿ خُذِ الكتاب ﴾ [مريم : 12] أي : التوراة ، وفيها منهج الله الذي يُنظِّم لهم حركة حياتهم ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : 12] أي : بأخلاص في حِفْظه وحِرْص على العمل به ؛ لأن العلم السماوي والمنهج الإلهي الذي جاءكم في التوراة ليس المراد أن تعلمه فقط بل وتعمل به .

(165/483)

وإلا فقد قال تعالى في بني إسرائيل : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] فقد حَمَّلهم الله التوراة ، فلم يحملوها ولم يعملوا بها .

والقوة : هي الطاقة الفاعلة التي تدير دولاب الحياة حركةً وسكوناً ، وخُذْ مثلاً سفينة الفضاء التي تنطلق إلى الفضاء الخارجي ، وتظل تدور فيه عدة سنوات وتتساءل : من أين لها بالوقود الذي يُحرِّكها طوال هذه المدة ؟ والحقيقة أنها لا تحتاج : إلى وقود إلا بمقدار ما يُخرِجها من مدار الجاذبية الأرضية ، فإذا ما خرجت من نطاق الجاذبية وهي متحركة تظل متحركة ولا تتوقف إلا بقوة توقفها ، وكذلك الساكن يظل ساكناً إلى أنْ تأتيَ قوة تحركه

.

إذن : القوة إمّا أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسْكِن المتحرك وتصده ، ومن ذلك ما نراه في السكك الحديدية من مصدَّات تُوقِف القطارات ؛ لأنك إنْ أردتَ أن توقف القطار تمنع عنه الوقود ، لكن يظل به قوة دفع تحركه تحتاج إلى قوة معاكسة توقفه ، وهذا ما يسمونه قانون العطالة .

يعني : إن كان الشيء متحركاً فيحتاج إلى قوة توقفه ، وإن كان ساكناً يحتاج إلى قوة تحركه .

ومن ذلك قانون القصور الذاتي الذي تعلمناه في المدارس ، وتلاحظه إذا تحركتْ بك السيارة تجد أن جسمك يندفع للخلف ؛ لأنها تحركتْ للأمام وأنت ساكن ، فإنْ توقفتْ السيارة تحرَّك جسمك للأمام لأنها توقفت وأنت متحرك . إذن : هذه الأشياء التي تتحرك في الكون أو الساكنة نتيجة قوة .

فقوله تعالى : ﴿ خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : 12] لأن الكتاب فيه أوامر وفيه نَوَاهٍ ، يأمر بالخير وينهاك عن الشر ، فإنْ أمركَ بالخير وأنت لا تفعله تحتاج إلى قوة دَفْع تدفعك إلى الخير ، وكأنك كنتَ ساكناً تحتاج إلى قوة تحركك ، وإنْ نهاك عن الشر وأنت تفعله فأنت في حاجة إلى قوة تمنعك وتوقف حركتك في الشر . والمنهج هو هذه القوة التي تُحرِّكك إلى الخير وأنت ساكن ، وتُسكنك عن الشر وأنت متحرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] الحكم : العلم والفهم للتوراة ، أو الطاعة والعبادة ، ﴿ صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] في سِنٍّ مبكرة ؛ لأن المسألة عطاء من الله لا يخضع للأسباب ، فجاء يحيى عليه السلام مُبكِّر النضج والذكاء ، يفوق أقرانه ، ويسبق زمانه ، وقد أُثِر عنه وهو صغير أنْ دعاه أقرانه للعب فقال لهم : " ما للعب خُلِقْنا " .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾

ولأن يحيى جاء إلى الدنيا حال كِبَر وضعف والديه ، وهو كطفل يحتاج مَنْ يشمله بالعطف والحنان ، ويُعوِّضه حنان الوالدين ، ويحتاج إلى مَنْ يُعلِّمه ويُربِّيه ؛ لذلك تولّى الحق سبحانه وتعالى هذه المهمة ، فهو سبحانه خالقه ومُسمِّيه ومُتولِّيه فوهبه حناناً منه سبحانه ﴿ مِّن

لَّدُنَّا ﴾ [مريم : 13] من عندنا ؛ لأن طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبتْ .

وقوله : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ [مريم : 13] أي : طهارة من الذنوب وصفاءَ نفْسٍ وبركة ، وهذه كلها نتيجة التربية الإلهية بمنهج الله الذي يرسم له حركته في الحياة : افعل كذا ولا تفعل كذا .

﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 13] أي : استجاب لهذا الحنان ، وأثمرت فيه هذه التربية فكان تقياً ، أي : مُنفذاً لأوامر الله مُجتنباً لنواهيه ، وبذلك وقَى نفسه من صفات الجلال من الله تعالى .

(167/483)

وقلنا : إن التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما تتقيه مانعاً يحميك ويبعدك عن إيذائه ، فنقول : اتقِ الله واتقِ النار ، كيف ذلك ونحن نريد أن نصل إلى معيته سبحانه ؟

نقول : اتق الله أي : اجعل بينك وبين صفات جلاله وجبروته وقايةً تحميك من جبروته وجباريته وقهره ، فلسْت مطيقاً لأدنى شيء من العذاب ، والنار من جنود الله ومظهر من مظاهر قهره ، فاتقاء النار جزء من اتقاء الله ، والوقاية التي تحميك من صفات الجبروت والجلال هي الطاعة بامتثال الأوامر والنواهي .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن ﴾

فرغم أن يحيى عليه السلام جاء أبويْه في حال كِبَرهما وضعفهما ، ولم يجد منهما الحنان الكافي والتربية المناسبة ، ولم يشعر معهما بالأُبوة الكاملة ، فكان دورهما في حياته ثانوياً ، وحمايلهم عليه باهتة متواضعة ، مع هذا كله كان باراً بهما حانياً عليهما . وقال عنه أيضاً : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ [مريم : 14] .

وصفة الجبروت وصفة العصيان لا يُتصوَّران من الولد على والديه ، إلا حين يرى من أبيه شروداً عنه وانصرافاً عن رعايته ، وحين يرى من أمه انشغالاً عن تربيته ، فهي تاركة له غير مُراعية لحقه .

لذلك نرى صوراً من هذا الجبروت ومن هذا العصيان ، ونسمع مَنْ يقسو على أمه وعلى أبيه ؛ لأنه لم يجد منهما العطف والحنان والرعاية ، فتقعطتْ بينهما أواصر الأبوة . ويبدو أن زكريا حكى لولده ما حدث ، وقصَّ عليه قِصّته ، فتفهَّم الولد دور والديه ونفى عنهما أيّ تقصير ، فكان بهما باراً رحيماً ، ولهما طائعاً متواضعاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾

هذه مسائل ثلاث تُعَدُّ أعلام حياة للإنسان : الميلاد ، والموت ، والبعث . وقد خَصَّه الله بالسلام يوم مولده ؛ لأنه وُلِد على غير العادة في الميلاد فأُمّه عاقر أسنتْ ، ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس ولم يعترض أحد على ولادتها ، وهي على هذا الوصف ، فلم يتجرأ أحد عليها ؛ لأن ما حدث لها كان آيةً من آيات الله وقد بشّر الله بها زكريا لتكون البُشْرى إعداداً ومقدمة لهذا الحدث العجيب .

وخَصَّه بالسلام يوم يموت ؛ لأنه سيموت شهيداً ، والشهادة غير الموت ، الشهادة تعطيه حياة موصولةً بالحياة الأبدية الخالدة . وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حيّاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(169/483)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى في قصة يحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، : (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) (مريم : 14) ، وفي قصة عيسى ، عليه السلام ، (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) (مريم : 32) ، فاختلف الوصفان في الآيتين مع اتحاد مرماهما في السابق من ظاهرهما ،

فيسأل عن ذلك ؟

والجواب عنه –والله أعلم– أن الله سبحانه وصف يحيى ، عليه السلام ، بعظم التقوى في قوله تعالى : (وَكَانَ تَقِيًّا) (مريم : 13) ، وتقي فعيل من التقوى ، وهو من أبنية المبالغة ، فيفهم الوفاء بوجوه التقوى حتى لا يكون من الموصوف به معصية ولا تقصير ، فقوله بعد : (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) (مريم : 14) ، المراد –والله أعلم– نفي للمعاصي جملة ، وهو المراد بقوله في الموضع الآخر (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) (آل عمران : 39) ، أي ممنوعاً من المعاصي ، والحصر الحبس والمنع ، قال مكي ، رحمة الله : حصر عن الذنوب فلم يأتها .

وما قاله المفسرون من أن المراد هنا منعه من النساء بأي وجه قالوه فلا يصح ، والله أعلم ، لأن عدم القدرة على النساء نقص ، والأنبياء منزهون عن النقص ، فكيف يصح ورود هذا الوصف في معرض المدحة ، وهو في نفسه نقص ، والقوى في ذلك كمال ودحه ، فالمراد هنا بالحصور الممنوع عن المعاصي ، وقد روى (عمرو) بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم : (كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا يحيى بن زكرياء) ، ثم نوسب بين هذا الوصف وما تقدمه من قوله : (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) ، فورد بلفظ المبالغة مثله ، والمراد نفي المعاصي عنه ، عليه السلام ، (جملة ، والتناسب في هذا كله واضح) .

(170/483)

وأما وقله في قصة عيسى ، عليه السلام (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) (مريم : 32) فملحوظ في ذلك ما جرى لأتباعه ، عليه السلام ، وما وقعوا (فيه) من العظيمة حين قالوا : هو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ن فاستحقوا الوصف بالشقاء بمقالهم ، والشقي مستحق لاعذاب الأخراوي . وإلى السعادة والشقاء انقسام العالم في الآخرة ، قال تعالى : (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (هود : 105) ، فهما طرفا حصر العالم في الآخرة وهذا كقوله :

(فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) (التغابن : 2) ، فلما لحظ في قصة عيسى ، عليه السلام ، عصمته من الرضا بما وقع فيه أتباعه ناسب ذلك نفي صفة الضالين ، ممن توهم أنه ممن اتبعه ، لتبرأ ، عليه السلام ، من حالهم كما يتبرأ حين يقول في الآخرة : (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ) (المائدة : 117) ، فقد وضح ورود كل من الوصفين على أجل النظم وأتم المناسبة ، وإن عكس الوارد لا يمكن ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 325 . 326 ﴾

(171/483)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : كبير ، هاد ، أمين ، عزيز ، صادق . وفي لفظ : كاف بدل كبير .

وأخرج عبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وعثمان بن سعيد الدارمي في التوحيد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس ﴿ كهيعص ﴾ قال : كاف من كريم ، وهاء من هاد ، وياء من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة ﴿ كهيعص ﴾ هو الهجاء المقطع الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصوّر .

وأخرج ابن مردويه عن الكلبي ، أنه سئل عن ﴿ كهيعص ﴾ فحدث عن أبي صالح عن أم هانئ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كاف ، هاد ، عالم ، صادق " .

وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجة وابن جرير ، عن فاطمة بنت علي قالت :

كان ابن عباس يقول في ﴿ كهيعص ﴾ و (حم) و (يس) وأشباه هذا ، هو اسم الله الأعظم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : يقول : أنا الكبير الهادي عليّ أمين صادق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والعين من العزيز ، والصاد من الصمد .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف مفتاح اسمه كافي ، والهاء مفتاح اسمه هادي ، والعين مفتاح اسمه عالم ، والصاد مفتاح اسمه صادق .

(172/483)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : يا من يجير ولا يجار عليه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : اسم من

أسماء القرآن . والله أعلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر ، أنه كان يقرأ ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ بنقل ، يقول : لما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء . فقال : ﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان زكريا نجاراً" .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : إن زكريا بن دان أبا يحيى كان من أبناء الأنبياء الذين كانوا يكتبون الوحي ببيت المقدس .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ قال : لا يريد رياء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ أي بقلبه سراً . قال قتادة : إن الله يحب الصوت الخفي ، والقلب النقي .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن إدريس من ذرية يعقوب دعا ربه سراً ، قال : ﴿ رب إني وهن العظم مني ﴾ إلى قوله : ﴿ خفت الموالي من ورائي ﴾ وهم العصبة ﴿ يرثني ويرث ﴾ نبوة ﴿ آل يعقوب ﴾ ﴿ فنادته الملائكة ﴾ وهو جبريل ﴿ إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ فلما سمع النداء ،

جاءه الشيطان فقال : يا زكريا ، إن الصوت الذي سمعت ليس من الله ، إنما هو من الشيطان يسخر بك ، فشك وقال : ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ يقول : من أين يكون ؟ ﴿ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ﴾ ! قال الله : ﴿ قد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وهن العظم مني ﴾ يقول : ضعف .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وهن العظم مني ﴾ قال : نحول العظم .

(173/483)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ قال : قد كنت تُعَودني الإجابة فيما مضى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عيينة في قوله : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ يقول : سعدت بدعائك وإن لم تعطني .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن العاص قال : أملى عليّ عثمان بن عفان من فيه ﴿ وإني خفت الموالي ﴾ بنقلها يعني بنصب الخاء والفاء وكسر التاء يقول

قلت : ﴿ الموالي ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ قال : الورثة ، وهم عصبة الرجل .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ قال : العصبة من آل يعقوب ، وكان من ورائه غلام ، وكان زكريا من ذرية يعقوب ، وفي لفظ : أيوب .

وأخرج الفريابي ، عن ابن عباس قال : كان زكريا لا يولد له ، فسأل ربه ؟ فقال : ﴿ رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ قال : يرثني مالي ، ويرث من آل يعقوب النبوة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ قال : نبوته وعلمه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أخي زكريا ، ما كان عليه من ورثة ، ويرحم الله لوطاً ، إن كان ليأوي إلى ركن شديد " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ فيقول : يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن صالح في قوله : ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ قال : النبوة يكون نبياً

كما كان أبوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ قال : السنة والعلم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، عن يحيى بن يعمر أنه قرأها : ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ مشددة بنصب الخاء ، وكسر التاء ، وقرأها : ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ .

(174/483)

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ يرثني ﴾ مثقل مرفوع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب قال : قال داود عليه السلام : " يا رب هب لي ابناً " فولد له ابن خرج عليه ، فبعث إليه داود جيشاً فقال : " إن أخذتموه سليماً فابعثوا إلي رجلاً أعرف السرور في وجهه ، وإن قتلتموه فابعثوا إلي رجلاً أعرف الشرّ في وجهه " فقتلوه فبعثوا إليه رجلاً أسود ، فلما رآه علم أنه قتل ، فقال : رب سألت أن تهب لي ابناً ، فخرج علي ؟ ! فقال : إنك لم تستثن . قال محمد بن كعب : لم يقل كما قال زكريا : ﴿

واجعله رب رضياً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال : لما دعا زكريا ربه أن يهب له غلاماً هبط جبريل عليه السلام – فبشره بيحيى . فقال زكريا عندها : ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ وأخبر بكبر سنه ، وعلة زوجته ، فأخذ جبريل عوداً يابساً ، فجعله بين كفي زكريا ، فقال : ادرجه بين كفيك ، ففعل ، فإذا في رأسه عود بين ورقتين يقطر منهما الماء . فقال جبريل : إن الذي أخرج هذا الورق من هذا العود ، قادر أن يخرج من صلبك ، ومن امرأتك العاقر غلاماً .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قال : لم يسم أحد يحيى قبله .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد ، عن قتادة في قوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قال : لم يسم أحد يحيى قبله .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قال : لم تلد العواقر مثله ولداً .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قال : مثلاً .

وأخرج أحمد في الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قال : شبيهاً .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء مثله .

وأخرج البخاري في تاريخه ، عن يحيى بن خلاد الزرقي ، أنه لما ولد أتي به النبي صلى الله عليه وسلم فحنكه وقال : لأسمينه اسماً لم يسم بعد يحيى بن زكريا فسماه يحيى .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : لا أدري كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذا الحرف ﴿ عتياً ﴾ أو عييا .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء والحاكم ، عن ميمون بن مهران : أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس ؟ فقال : أخبرني عن قول الله : ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ ما العتي ؟ قال : البؤس من الكبر قال الشاعر :

إنما يعذر الوليد ولا يعذر . . . من كان في الزمان عتيا

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وقد بلغت من

الكبر عتيا ﴾ قال : نحول العظم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ يقول : هرماً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ قال : العتي الذي قد عتا من الولد فيما يرى في نفسه لا ولادة فيه .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم ، عن الثوري قال : بلغني أن زكريا كان ابن سبعين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن المبارك ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ قال : ستين سنة .

وأخرج الرامهرمزي في الإسناد ، عن وهب بن منبه ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ قال : هذه المقالة وهو ابن ستين أو خمس وستين .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ عتيا برفع العين .

وأخرج عبد بن حميد ، عن يحيى بن وثاب أنه قرأها ﴿ عتيا ﴾ وصليا ، بكسر العين والصاد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عقيل أنه قرأ " وقد بلغت من الكبر عسيا " بالسين ورفع العين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والحاكم ، عن نوف في قوله : ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ قال : أعطني آية أنك قد استجبت لي . فقال : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ قال ختم على لسانه وهو صحيح سوي ليس به من مرض ، فلم يتكلم ثلاثة أيام .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ قال : اعتقل لسانه من غير مرض .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثلاث ليال سويا ﴾ قال : من غير خرس .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ثلاث ليال سويا ﴾ قال : صحيحاً لا يمنعك الكلام مرض .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في الآية قال : حبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً ، وهو في ذلك يسبح ويقرأ التوراة ، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ قال : المحراب مصلاه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأوحى إليهم ﴾ قال : كتب لهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن الحكم ﴿ فأوحى إليهم ﴾ قال : كتب لهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ قال فأشار زكريا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا ﴾ قال : أشار إليهم إشارة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير ﴿ فأوحى إليهم ﴾ قال : أوماً إليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا ﴾ قال : صلوا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ بكرة وعشيا ﴾ قال : أمرهم بالصلاة بكرة وعشيا .

(177/483)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ قال : البكرة ، صلاة الفجر ، وعشيا ، صلاة العصر .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ قال : بجد ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال : الفهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ خذ الكتاب بقوة ﴾ يقول : اعمل بما فيه من فرائضه .

وأخرج ابن المنذر ، عن مالك بن دينار قال : سألنا عكرمة عن قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال : اللب .

وأخرج أبو نعيم وابن مردويه والديلمي ، عن ابن عباس ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال : أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زائد الزهد وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال : وهو ابن ثلاث سنين .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي وابن عساكر ، عن معمر بن راشد في قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال : بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : ما للعب خلقت . فهو قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد من طريق معمر ، عن قتادة قال : جاء الغلمان إلى يحيى بن زكريا فقال : ما للعب خلقت . قال : فأنزل الله ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ .

وأخرجه ابن عساكر ، عن معاذ بن جبل مرفوعاً .

وأخرج الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال يحيى : ما للعب خلقنا ! اذهبوا نصلي . فهو قول الله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ .

(178/483)

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ القرآن قبل أن يحتلم ، فقد أوتي الحكم صبياً " .

وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والزجاجي في أماليه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وحناناً ﴾ قال : لا أدري ما هو ، إلا أني أظنه تعطف الله على خلقه بالرحمة .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ وحناناً ﴾ فلم يجر فيها شيئاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : رحمة من عندنا .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله : ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : رحمة من عندنا .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت طرفة بن العبد البكري وهو يقول :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا . . . حنانيك بعض لشر أهون من بعض

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : تعطفاً من ربه عليه .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : الرحمة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الربيع ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : ﴿ رحمة من عندنا ﴾ لا يملك عطاءها أحد غيرنا .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن سعيد الجهني في قوله : ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : الحنان المحبب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : رحمة من عندنا ﴿ وزكاة ﴾ قال صدقة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وزكاة ﴾ قال : بركة . وفي قوله : ﴿ وكان تقياً ﴾ قال : طهر فلم يعمل بذنب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان بن عيينة أنه سئل عن قوله : ﴿ وكان تقياً ﴾ قال : لم يعصه ولم يهم بها .

(179/483)

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولم يكن جباراً عصياً ﴾ قال : كان سعيد بن المسيب يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب ، إلا يحيى بن زكريا " قال قتادة : وقال الحسن : قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما أذنب يحيى بن زكريا قط ولا هم بامرأة " .

(180/483)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ قال : ذكره الله برحمته منه حيث دعاه ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ يعني دعا ربه ﴿ دعاء خفياً ﴾ في الليل ، لا يسمع أحداً ، أو يسمع أذنيه . فقال : ﴿ رب إني وهن العظم مني ﴾ يعني ضعف العظم مني ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ يعني غلب البياض السواد ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ أي لم أدعك قط فخيبتني فيما مضى ، فتخيبني فيما بقي ، فكما لم أشق بدعائي فيما مضى ، فكذلك لا أشقى فيما بقي ، عوّدتني الإجابة من نفسك . ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ فلم يبق لي وارث ، وخفت العصبة أن ترثني ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ يعني من عندك ولداً ﴿ يرثني ﴾ يعني يرث محرابي ، وعصاي وبرنس العربان ، وقلمي الذي أكتب به الوحي ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ النبوّة ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ يعني مرضياً عندك زاكياً بالعمل ، فاستجاب الله له ، فكان قد دخل في السن هو وامرأته . فبينا هو قائم يصلي في المحراب ، حيث يذبح القربان ، إذا هو برجل عليه البياض حياله ، وهو جبريل فقال : ﴿ يا زكريا إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ هو اسم من أسماء الله ، اشتق من حي سماه الله فوق عرشه ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ لم يجعل لزكريا من قبل يحيى ولد له ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ يعني هل تعلم له ولداً ، ولم يكن لزكريا قبله ولد ، ولم يكن قبل يحيى أحد يسمى يحيى قال : وكان اسمه حياً ، فلما وهب الله لسارة إسحق ، فكان اسمها يسارة ، ويسارة من النساء التي لا تلد ،

وسارة من النساء : الطالقة الرحم التي تلد فسماها الله سارة وحول الياء من سارة إلى حي فسماه يحيى ، فقال : ﴿ رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً ﴾ خاف أنها لا تلد .

(181/483)

قال : ﴿ كذلك قال ربك ﴾ ﴿ يا زكريا هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ﴾ أن أهب لك يحيى ﴿ ولم تك شيئاً ﴾ وكذلك أقدر على أن أخلق من الكبير والعاقر . وذلك أن إبليس أتاه فقال : يا زكريا ، دعاؤك كان خفياً فأجبت بصوت رفيع ، وبشرت بصوت عال ، ذلك صوت من الشيطان ، ليس من جبريل ، ولا من ربك . ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ حتى أعرف أن هذه البشرى منك . ﴿ قال آيتك ألَّا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ يعني صحيحاً من غير خرس . فحاضت زوجته ، فلما طهرت طاف عليها فاستحملت ، فأصبح لا يتكلم وكان إذا أراد التسبيح والصلاة أطلق الله لسانه فإذا أراد أن يكلم الناس ؛ اعتقل لسانه فلا يستطيع أن يتكلم ، وكانت عقوبة له لأنه بشر بالولد فقال : ﴿ أَنى يكون لي غلام ﴾ فخاف أن يكون الصوت من غير الله ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ يعني من مصلاه الذي كان يصلي فيه . فأوحى إليهم بكتاب كتبه بيده ﴿ أن سبحوا بكرة وعشياً

﴿ يعني صلوا صلاة الغداة والعصر ، فولد له يحيى على ما بشره الله نبياً تقياً صالحاً ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ يعني بجد وطاعة واجتهاد وشكر وبالعمل بما فيه ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ يعني الفهم ﴿ صبياً ﴾ صغيراً وذلك أنه مر على صبية أتراب له ، يلعبون على شاطئ نهر بطين وبماء ، فقالوا : يا يحيى تعالَ حتى نلعب ، فقال : سبحان الله ! أو للعب خلقنا ؟ ! ﴿ وحناناً ﴾ يعني ورحمة ﴿ منا ﴾ وعطفاً ﴿ وزكاة ﴾ يعني وصدقة على زكريا ﴿ وكان تقياً ﴾ يعني مطهراً مطيعاً لله ﴿ وبراً بوالديه ﴾ كان لا يعصيهما ﴿ ولم يكن جباراً ﴾ يعني قتال النفس التي حرم الله قتلها ﴿ عصياً ﴾ يعني عاصياً لربه . ﴿ وسلام عليه ﴾ يعني حين سلم الله عليه ﴿ يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ .

(182/483)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن القاسم قال : قال مالك : بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة ، وكان حملهما جميعاً معاً ، فبلغني أن أم يحيى ، قالت لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل الله عيسى ، لأن الله جعله يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ولم يكن ليحيى عيشة إلا عشب الأرض ، وإن كان ليبكي من خشية الله ، حتى لو كان على خده القار

لأذابه ، ولقد كان الدمع اتخذ في وجهه مجرى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن خزيمة والدارقطني في الأفراد وأبو نصر السجزي في الإبانة والطبراني ، عن ابن عباس قال : "كنا في حلقة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم نتذاكر فضائل الأنبياء ، فذكرنا نوحاً وطول عبادته ، وذكرنا إبراهيم وموسى وعيسى فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما تذاكرون بينكم " فذكرنا له ، فقال : أما إنه لا ينبغي أن يكون أحد خيراً من يحيى بن زكريا أما سمعتم الله كيف وصفه في القرآن ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوّة ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان تقياً ﴾ لم يعمل سيئة قط ولم يهم بها " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب : " أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل : موسى كلمه الله تكليماً ، وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته ، وقال قائل : إبراهيم خليل الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب يحيى بن زكريا " " .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردويه ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ ، أو هم بخطيئة ، إلا يحيى بن زكريا ، لم يهم بخطيئة ولم يعملها " .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم والحاكم عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن عساكر ، عن يحيى بن جعدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يحيى بن زكريا ، ما هم بخطيئة ولا حاكت في صدره امرأة" .

وأخرج ابن عساكر عن ضمرة بن حبيب قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما بعلت النساء عن ولد ينبغي له أن يقول : أنا أفضل من يحيى بن زكريا لم يحك في صدره خطيئة ولم يهم بها " .

وأخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طلحة رفعه قال : ما ارتكض في النساء من جنين ينبغي له أن يقول : أنا أفضل من يحيى بن زكريا ، لأنه لم يحك في صدره خطيئة ولم يهم بها " .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الحسن قال : إن عيسى ويحيى التقيا فقال يحيى لعيسى : استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى : بل أنت خير مني ، سلم الله عليك ، وسلمت أنا على نفسي ، فعرف والله فضلها .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم والضياء ، عن أبي سعيد قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحسن والحسين سيداً شباب أهل الجنة – إلا ابني الخالة – عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا " .

وأخرج الحاكم من طريق سمرة ، عن كعب قال : كان يحيى لا يقرب النساء ولا يشتهيهن ، وكان شاباً حسن الوجه ، لين الجناح ، قليل الشعر ، قصير الأصابع ، طويل الأنف ، أقرن الحاجبين ، رقيق الصوت ، كثير العبادة ، قوياً في الطاعة .

وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه وابن عساكر ، عن أبي بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من هوان الدنيا على الله ، أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة " .

(184/483)

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن الزبير قال : من أنكر البلاء ، فإني لا أنكره ، لقد ذكر لي أنما قتل يحيى بن زكريا في زانية .

(185/483)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريقه : أنا أبو يعقوب الكوفي ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه فقال له : " يا أبا يحيى ، خبرني عن قتلك كيف كان ؟ ولم قتلك بنو إسرائيل ؟ قال : يا محمد ، إن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان كما قال الله : ﴿ سيداً وحصوراً ﴾ وكان لا يحتاج إلى النساء ، فهويته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بغية فأرسلت إليه ، وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها ، وأجمعت على قتل يحيى ، ولَهُم عيد يجتمعون في كل عام ، وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب ، فخرج الملك للعيد فقامت امرأته فشيعته ، وكان بها معجباً ، ولم تكن تسأله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سليني فما تسأليني شيئاً إلا أعطيتك ، قالت : أريد دم يحيى بن زكريا . قال لها : سليني غيره . قالت : هو ذاك . قال : هو لك ، فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي ، وأنا إلى جانبه أصلي ، فذبح في طست ، وحمل رأسه ودمه إليها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فما بلغ من صبرك ؟ قال : ما انفتلت من صلاتي ، فلما حمل رأسه إليها ووضع بين يديها ، – فلما أمسوا – خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : لقد غضب إله زكريا لزكريا ، فتعالوا حتى نغضب لملكنا ، فنقتل زكريا ، فخرجوا في طلبي ليقتلوني ، فجاءني النذير ، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم علي : فلما أن تخوفت أن لا أعجزهم ، عرضت لي شجرة

فنادتني فقالت : إلي إلي ، وانصدعت لي ، فدخلت فيها ، وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي ، والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة ، وجاء بنو إسرائيل ، فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ! هذا طرف ردائه دخل به الشجرة ، فقالوا : نحرق هذه الشجرة ، فقال إبليس : شقوه بالمنشار شقاً .

(186/483)

قال : فشققت مع الشجرة بالمنشار . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا زكريا ، هل وجدت له مساً أو وَجعاً ؟ قال : لا ، إنما وجدت تلك الشجرة جعل الله روحي فيها " .

وأخرج ابن عساكر ، عن وهب بن منبه أن زكريا هرب ودخل جوف شجرة ، فوضع على الشجرة المنشار وقطع بنصفين ، فلما وقع المنشار على ظهره أنَّ ، فأوحى الله " يا زكريا إما أن تكف عن أنينك ، أو أقلب الأرض ومن عليها " فسكت حتى قطع نصفين .

وأخرج أحمد في الزهد وابن عساكر عن يزيد بن ميسرة قال : كان طعام يحيى بن زكريا الجراد وقلوب الشجر ، وكان يقول : من أنعم منك يا يحيى ؟ طعامك الجراد وقلوب الشجر .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن عساكر ، عن أبي إدريس الخولاني وابن المبارك

وأحمد في الزهد وأبو نعيم ، عن مجاهد قالا : كان طعم يحيى بن زكريا العشب ، وإن كان ليبكي من خشية الله ، حتى لو كان القار على عينه لأحرقه ! ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه .

وأخرج ابن عساكر ، عن يونس بن ميسرة قال : مر يحيى بن زكريا على دينار فقال : قبح هذا الوجه يا دينار ، يا عبد العبيد ، ومعبد الأحرار .

وأخرج البيهقي في سننه ، عن مجاهد قال : سأل يحيى بن زكريا ربه ؟ قال : رب ، اجعلني أسلم على ألسنة الناس ، ولا يقولون فيّ إلا خيراً . فأوحى الله إليه : " يا يحيى لم أجعل هذا لي ، فكيف أجعله لك ؟ " .

وأخرج أحمد والبيهقي في الشعب وابن عساكر ، عن ثابت البناني قال : بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا ، فرأى عليه معاليق من كل شيء ، فقال له يحيى : ما هذه ؟ ! قال : هذه الشهوات التي أصيب بها بنو آدم . قال له يحيى : هل لي فيها شيء ؟ قال : لا . قال : فهل تصيب مني شيئاً ؟ قال : ربما شبعت ، فثقلناك عن الصلاة والذكر . قال : هل غيره ؟ قال : لا . قال : لا جرم ، لا أشبع أبداً .

(187/483)

وأخرج ابن عساكر من طريق علي بن زيد بن جدعان ، عن علي بن الحسين ، عن الحسين بن علي قال : كان ملك مات وترك امرأته وابنته ، فورث ملكه أخوه ، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه ، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك ، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعلمون بأمر الأنبياء ، فقال له : لا تتزوّجها فإنها بغي ، فبلغ المرأة ذلك ، فقالت : ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه . فعمدت إلى ابنتها فصيغتها ، ثم قالت اذهبي إلى عمك عند الملأ ، فإنه إذا رآك سيدعوك ، ويجلسك في حجره ويقول : سليني ما شئت ، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتك ، فإذا قال لك قولي : فقولي لا أسألك شيئاً إلا رأس يحيى ، وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رؤوس الملأ ، ثم لم يمض له ، نزع من ملكه .

ففعلت ذلك ، فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى ، وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه ، فاختار ملكه ، فقتله ، فساخت بأمها الأرض . قال ابن جدعان : فحدثت بهذا الحديث ابن المسيب ، فقال : أما أخبرك كيف كان قتل زكريا ؟ قلت : لا . قال : إن زكريا حيث قتل ابنه ، انطلق هارباً منهم ، واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق ، فدعته إليها فانطوت عليه ، وبقيت من ثوبه هدبة تلعبها الريح ، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره عندها ، فنظروا تلك الهدبة ، فدعوا المنشار ، فقطعوا الشجرة فقطعوه فيها .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمرو قال : التي قتلت يحيى بن زكريا امرأة ورثت الملك عن آبائها ، فأتيت برأس يحيى وهي على سريرها ، فقال للأرض خذيها فأخذتها وسريرها

فذهب بها .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر ، عن عبد الله بن الزبير : أن ملكاً أراد أن يتزوج ابنة أخيه ، فاستفتى يحيى بن زكريا ؟ فقال : لا تحل لك . فسألت قتله ؟ فبعث إليه - وهو في محرابه يصلي - فذبحوه ، ثم حزوا رأسه وأتوا به الملك ، فجعل الرأس يقول : لا يحل لك ما تريد .

(188/483)

وأخرج ابن عساكر عن ابن شوذب قال : قال يحيى بن زكريا للذي جاء يحز رأسه : أما تعلم أني نبي ؟ قال : بلى ، ولكني مأمور .

وأخرج الحاكم وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً وإني قاتل بابن ابنتك سبيعن ألفا وسبعين ألفاً .

وأخرج ابن عساكر ، عن شمر بن عطية قال : قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا .

وأخرج ابن عساكر عن قرة قال : ما بكت السماء على أحد ، إلا على يحيى بن زكريا ،

والحسين بن علي ، وحمرتها بكاؤها .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن خالد بن ثابت الربعي قال : لما قتل فجرة بني إسرائيل - يحيى بن زكريا ، أوحى الله إلى نبي من أنبيائهم : أن قل لبني إسرائيل " إلى متى تجترئون على أن تعصوا أمري ، وتقتلوا رسلي ؟ وحتى متى أضمكم في كنفي ؟ كما تضم الدجاجة أولادها في كنفها ، فتجترئون علي ! اتقوا ، لا أؤاخذاكم بكل دم كان بين ابني آدم ويحيى بن زكريا ، واتقوا ، أن أصرف عنكم وجهي ، فإني إن صرفت عنكم وجهي لا أقبل عليكم إلى يوم القيامة " .

وأخرج أحمد عن سعيد بن جبير قال : لما قتل يحيى عليه السلام قال : بعض أصحابه لصاحب له : ابعث إلي بقميص نبي الله يحيى أشمه ، فبعث به إليه ، فإذا سداه ولحمته ليف ! .

(189/483)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن يونس بن عبيد قال : بلغنا أنه كان رجل يجور على مملكته ويعدي عليهم ، فائتمروا بقتله ، فقالوا : نبي الله زكريا بين أظهرنا ، فلو أتيناه فأتوا منزله ، فإذا فتاة جميلة رائعة قد أشرق لها البيت حسناً ، فقالوا : من أنتِ ؟

قالت : امرأة زكريا . فقالوا فيما بينهم : كنا نرى نبي الله لا يريد الدنيا ، فإذا هو عنده امرأة من أجمل النساء ، ثم إنهم رأوه في عمل عند قوم ويعمل لهم ، حتى إذا حضر غداؤه قرب رغيفين ، فأكل ولم يدعهم ، ثم قام فعمل بقية عمله ، ثم علق خفيه على عنقه والمسحاة والكساء ، قال : ما حاجتكم ؟ قالوا : قد جئنا لأمر ، ولقد كاد يغلبنا ما رأينا ، على ما جئنا له . قال : فهاتوا ؟ قالوا : أتينا منزلك ، فإذا امرأة جميلة رائعة ! وكنا نرى نبي الله لا يريد الدنيا ، فقال : إني إنما تزوجت امرأة جميلة رائعة ، لأكف بها بصري ، وأحفظ بها فرجي ، فخرج نبي الله مما قالوا . قالوا : ورأيناك قدمت رغيفين ، فأكلت ولم تدعنا ؟ ! قال : إن القوم استأجروني على عمل ، فخشيت أن أضعف عن عملهم ، ولو أكلتم معي لم يكفني ولم يكفكم ، فخرج نبي الله مما قالوا . قالوا : ورأيناك وضعت خفيك على عنقك ، والمسحاة والكساء . فقال : إن هذه الأرض جديدة ، وكرهت أن أنقل تراب هذه في هذه ، فخرج نبي الله مما قالوا . قالوا : إن هذا الملك يجور علينا ويظلمنا ، وقد ائتمرنا لقتاله . قال : أي قوم ، لا تفعلوا ، فإن إزالة جبل من أصله أهون من إزالة ملك مؤجل . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(190/483)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) ﴾

قوله : ﴿ سَوِيّاً ﴾ : حالٌ مِنْ فاعل " تُكَلِّمَ " . وعن ابن عباس : أنَّ " سَوِيَّاً " من صفةِ الليالي بمعنى كاملات ، فيكونُ نصبُه على النعتِ للظرف . والجمهورُ على نصب ميم " تُكَلَّم " جعلوها الناصبةَ .

وابن أبي عبلة بالرفعِ ، جَعَلها المخففةَ من الثقيلة ، واسمُها ضميرُ شانٍ محذوف ، و " لا " فاصلةٌ . وتقدَّم تحقيقُه .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) ﴾

قوله : ﴿ أَن سَبِّحُواْ ﴾ : يجوز في " أَنْ " أَنْ تكونَ مفسِّرةً لأَوْحى ، وأَنْ تكونَ مصدريةً مفعولةً بالإيحاء . و ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ ظرفا زمانٍ للتسبيح . وانصرفَتْ " بُكْرَة " لأنه لم يُقْصَد بها العَلَمِيَّةُ ، فلو قُصِد بها العَلَمية امتنعت عن الصرف . وسواءٌ قُصد بها وقتٌ بعينه نحو : لأسيرنَّ الليلةَ إلى بكرةَ ، أم لم يُقصد نحو : بكرةُ وقتُ نشاط [لأنَّ عَلَمِيَّتَها جنسيَّة كأُسامة] ، ومثلُها في ذلك كله " غدوة " .

وقرأ طلحة " سَبَّحوه " بهاءِ الكناية . وعنه أيضاً : " سَبِّحُنَّ " بإسناد الفعل إلى ضمير الجماعة مؤكَّداً بالثقيلة وهو كقولِه : ﴿ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود : 8] وقد تقدَّم

تصريفه .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) ﴾

قوله : ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ : حالٌ من الفاعل أو المفعول ، أي : ملتبساً أنت ، أو ملتبساً هو بقوة . و "صَبِيًّا" حال من هاء "آتيناه" .

﴿ وَحَنَاناً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً به نَسَقاً على "الحُكْمَ" ، أي : وآتيناهُ تَحَنُّناً .

والحنانُ : الرحمةُ واللِّيْن ، وأنشد أبو / عبيدة :

(191/483)

3215- تحَنَّنْ عليَّ هداكَ المليكُ . . . فإنَّ لكلِّ مقامٍ مَقالا

قال : "وأكثر استعمالِه مثنَّى كقولِهم : حَنَانَيْكَ ، وقولِه :

3216- . . . . . .

حَنَانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهونُ مِنْ بعضِ

وجوَّز فيه أبو البقاء أَنْ يكونَ مصدراً ، كأَنَّه يريد به المصدرَ الواقعَ في الدعاء نحو : سَقْياً ورَعْياً ، فنصبُه بإضمارِ فِعْلٍ كأخواتِه . ويجوز أَنْ يرتفعَ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ نحو : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : 18] و ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الاعراف : 46 ، الرعد :

24 ، الزمر : 73] في أحد الوجهين : وأنشد سيبويه :

3217- وقالَتْ حَنانٌ ما أَتى بك هَهنا . . . أذو نَسَبٍ أَمْ أنتَ بالحَيِّ عارِفُ

وقيل لله تعالى : حَنان ، كما يقال له " رَحيم " قال الزمخشري : " وذلك على سبيل الاستعارة " .

و﴿ مِّن لَّدُنَّا ﴾ صفةٌ له .

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) ﴾

قوله : ﴿ وَبَرّاً ﴾ : يجوز أن يكون نَسَقاً على خبر "كان" ، أي : كان تقيّاً بَرّاً . ويجوز أَنْ يكون منصوباً بفعلٍ مقدر ، أي : وجَعَلْناه بَرّاً . وقرأ الحسن " بِرّاً " بكسر الباء في الموضعين . وتأويلُه واضح كقوله : ﴿ ولكن البر مَنْ آمَنَ ﴾ [البقرة : 177] وتقدَّم تأويلُه . و " بِوالِدَيْهِ " متعلِّقٌ ب " بَرّاً " .

و " عَصِيّاً " يجوز أَنْ يكونَ وزنُه فَعُولاً ، والأصل : عَصُوْيٌ فَفُعِل فيه ما يُفْعَل في نظائره ، وفَعُول للمبالغة كصَبُوْر . ويجوز أَنْ يكونَ وزنُه فَعِيلاً ، وهو للمبالغة أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 573.576 ﴾

(192/483)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) ﴾

أراد علامةً على علوق المرأة بالولد ؛ ولم يُرِدْ علامةً يَسْتَدلُّ لها على صِدْق ما يقال له .

فأخبره تعالى : " أُنبِئُكَ علامةَ وقت إجابتك . . إنَّ لسانَك لا ينطق معهم بالمخاطبة – ولو اجتهدت كُلَّ الجهد – ثلاثةَ أيام ، وعليكَ أن تخاطبني ، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلَةَ التي كانت في وقتك . فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكلِّمَهم ، وإذا أراد أن يقرأَ الكتبَ أو يسبِّحَ اللَّهَ انطلق مع الله لسانُه " .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) ﴾

أي فلمَّا خرج عليهم عرَّفهم – من طريق الإشارة – أنَّ اللسانَ الذي كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) ﴾

أي قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة مِنَّا ، خَصَصْنَاكَ بها . . . لا قوةَ يدٍ ولكن قوة قلبٍ ، وذلك خيرٌ خَصَّه اللَّهُ تعالى به وهو النبوة .

ودلَّت الآية على أنه كان من الله له كتاب .

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ أي النبوة ، بَعَثَه اللَّهُ بها إلى قومه ، وأوحى إليه وهو صبيّ .

ويقال الحُكْمُ بالصوابِ والحقّ بين الناس .

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر .

قوله ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا . . . ﴾ أي آتيناه رحمةً من عندنا ، وطهارةً وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها ؛ فإن التقوى على قسمين : مجموع ومجلوب يتوصَّلُ إليه العبدُ بِتَكَلُّفِه وتَعَلُّمِه ، وموضوعٍ من الله تعالى وموهوبٍ منه يصلُ إليه العبدُ بِبَذْله سبحانه وبفضله .

(193/483)

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) ﴾

﴿ براً بوالديه ﴾ كأمر الله – سبحانه – له بذلك لا لمودَّةِ البَشَرِ وموجبِ عادة الإنسانية .

ولم يكن متمرداً عن الحق ، جاحداً لربوبيته .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) ﴾

أي له مِنَّا أمانٌ يوم القيامة ، ويوم ولادته في البداية ، ويوم وفاته في النهاية ، وهو أن يصونَه عن الزَّيْغِ والعِوَجِ في العقيدة بما يُشْهِدُه على الدوام من حقيقة الإلهية .

وكذلك هو في القيامة له منه – سبحانه – الأمان ؛ فهو في الدنيا معصومٌ عن الزَّلَّة ، محفوظٌ عن الآفة . وفي الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 421. 423 ﴾

(194/483)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

التفسير : حروف المعجم في الوقف ثنائية وثلاثية ، وقد جرت عادة العرب بإمالة الثنائيات وبتفخيم الثلاثيات ، وفي الزاي اعتيد الأمران لأنه قد يلحق بآخره ياء وقد لا يلحق بآخره ياء وقد لا يلحق فيصير ثنائياً ، ولا ريب أن التفخيم أصل والإمالة فرع عليه . فمن قرأ بإمالة الهاء والياء معاً فعلى العادة ، ومن قرأ بتفخيمهما جميعاً فعلى الأصل ومن قرأ بإمالة إحداهما فلرعاية الجانبين . وقد روى صاحب الكشاف عن الحسن أنه قرأ بضمهما فقيل : لأنه تصور أن عين الكلمة فيهما واو فنبه بالضم على أصلها . والبحث عن هذه الفواتح قد سلف في أول البقرة ، ومما يختص بهذا الموضع ما روي عن ابن عباس أن قوله ﴿

كهيعص ﴾ ثناء من الله تعالى على نفسه ، فالكاف كاف لأمور عباده ، والهاء هاد والعين عالم أو عزيز ، والصاد صادق . وعنه أيضاً أنه حمل الكاف على الكريم أو الكبير ، والياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى . وعن الربيع بن أنس أن الياء من مجير ، وهذا التفسير لا يخلو من تحكم إلا أن يسند إلى الوحي أو الإلهام ، وارتفع ﴿ ذكر رحمة ﴾ على الخبر أي هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ﴿ ربك ﴾ وانتصب ﴿ عبده ﴾ على أنه مفعول لذكر و ﴿ زكريا ﴾ عطف بيان ، وقرىء برفعهما على إضافة المصدر إلى المفعول ، وعن الكلبي أنه قرأ ﴿ ذكر ﴾ بلفظ الماضي مشدداً تارة و ﴿ رحمة ﴾ و ﴿ عبده ﴾ منصوبان على المفعولية ، والفاعل ضمير المتلو .

(195/483)

ومخففاً أخرى و ﴿ عبده ﴾ مرفوع على الفاعلية . وقرىء ﴿ ذكر ﴾ على الأمر وهي قراءة ابن معمر . وقيل : يحتمل على هذا أن تكون الرحمة عبارة عن زكريا لأن كل نبي رحمة لأمته ، ويجوز أن يكون رحمة لنبينا صل الله عليه وسلم ولأمته لأن طريقه في الإخلاص والابتهال يصلح لأن يقتدى به وكان ذكره رحمة لنا ولنبينا . وفي خفاء ندائه . وجوه منها : أن الإخفاء أبعد عن الرياء وأدخل في الخشية ولهذا فسره الحسن بأنه نداء لا رياء فيه .

ومنها أنه أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في غير وقته . ومنها أنه أسره من مواليه الذين خافهم . ومنها أنه خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ " صوته خفات وسمعه تارات " ولعله أتى بأقصى ما يقدر عليه من الصوت ومع ذلك كان خفياً لنهاية كبره . ثم شرع في حكاية ندائه قائلاً : ﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ إلى قوله : ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ قال علماء المعاني : في الآية لطائف وذلك أصل الكلام : يا ربي قد شخت فإن الشيخوخة مشتملة على ضعف البدن وشيب الرأس ، ثم ترك الإجمال إلى التفصيل لتوخي زيادة التقرير فصار ضعف بدني وشاب رأسي ، ثم في القرينة الأولى عدل من التصريح إلى الكناية التي هي أبلغ منه فصار وهنت عظامي فإن وهن عظام البدن لازم لضعفه ، ثم بنيت الكناية على المبتدأ لتقوي الحكم فحصل أنا وهنت عظام بدني ، ثم سلك طريق الإجمال والتفصيل لمزيد البيان فصار : إني وهنت العظام من بدني ، لأنك إذا قلت إني وهنت العظام أفاد أن عظاماً واهنة عندك ، فإذا قلت : " من بدني " فقد فصلت ، ثم ترك توسيط البدن لطلب مزيد اختصاص العظام ، ثم لطلب شمول العظام فرداً فرداً قصدت مرتبة ثانية وهي ترك جمع العظم إلى الإفراد لأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع فحصل ﴿ إني وهن العظم مني ﴾ فحصل أني وهنت العظام مني . وإذا حصل الوهن في هذا الجنس الذي هو أصلب الأعضاء وبه قوام البدن وقد يكون جنة لسائر الأعضاء الرئيسة كالقحف للدماغ والقص

للقلب ففي الأعضاء الأخر أولى . وأما القرينة الأخرى فتركت الحقيقة فبها الاستعارة التي هي أبلغ فحصل اشتعل شيب رأسي . وبيان الاستعارة فيه أنه شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته ، وشبه انتشاره في الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه فصار اشتعل شيب الرأسي ، ويمكن تقرير الاستعارة بوجه آخر وهو أن يكون استعمل ﴿ اشتعل ﴾ بدل " انتشر " فتكون الاستعارة تبعية تصريحية وقرينتها ذكر الشيب ، ثم تركت هذه المرتبة إلى أبلغ منها وهي " اشتعل رأسي شيباً " .

وكونها أبلغ من وجهات منها : إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادته شمول الاشتعال الرأس كما لو قلت : " اشتعل بيتي ناراً " مكان " اشتعل النار في بيتي " . ومنها الإجمال والتفصيل الواقعان في طريق التمييز ، ومنها تنكير ﴿ شيباً ﴾ للتعظيم كما هو حق التمييز . ثم عدل إلى مرتبة أخرى هي " اشتعل الرأس مني شيباً " لتوخي مزيد التقرير بالإبهام ثم البيان على نحو ﴿ وهن العظم مني ﴾ ثم ترك لفظ " مني " ذكره في القرينة الأولى ففي ذلك إحالة تأدية المعنى على العقل دون اللفظ . وكم بين الحوالتين مع أن بناء الكلام على الاختصار حيث

قال " رب " بحذف حرف النداء وياء المتكلم يناسب الاختصار في آخره . وإنما أطنب في هذا المقام لأن هذه الآية كالعلم فيما بين علماء المعاني .

(197/483)

ثم إنه توسل إلى الله عز وجل بما سلف له معه من الاستجابة قائلاً ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ كما حكى أن محتاجاً قال لكريم : أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا فقال : مرحباً بمن توسل إلينا وقضى حاجته . تقول العرب : سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها ، وشقي بها إذا خاب ولم ينلها . ومعنى ﴿ بدعائك ﴾ أي بدعائي إياك . واعلم أن زكريا عليه السلام قدم على السؤال أموراً ثلاثة : الأول كونه ضعيفاً ، والثاني أنه تعالى لم يرد دعاءه والثالث كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين وذلك قوله ﴿ وإني خفت الموالي ﴾ قال ابن عباس والحسن : أي الورثة . وعن مجاهد العصبة . وعن أبي صالح : الكلالة . وعن الأصم : بني العم وهم الذين يلونه في النسب . وعن أبي مسلم : المولى يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب وهو ههنا من تقدم في ميراثة كالولد . والمختار أن المراد من الموالي الذين يخلفون بعده إما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين ، وكان من عاداتهم أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب كان متعيناً للحبورة . وقوله : ﴿ من

ورائي ﴾ أي بعد موتي لا يتعلق ب ﴿ خفت ﴾ لأن الخوف بعد الموت محال ولكن بمحذوف أي الموالي الذين يخلفون من بعدي ، أو بمعنى الولاية في الموالي أي خفت ولايتهم وسوى خلافتهم بعدي ، فإن زكريا انضم له مع النبوّة الملك فخاف بعده على أحدهما أو عليهما . وسبب الخوف القرائن والأمارات التي ظهرت له من صفائح أحوالهم وأخلاقهم . وإنما قال : ﴿ خفت ﴾ بلفظ الماضي لأنه قصد به الإخبار عن تقادم الخوف ، ثم استغنى بدلالة الحال كمسألة الوارث وإظهار الحاجة عن الإخبار بوجود الخوف في الحال .

(198/483)

وقرىء ﴿ خفت الموالي ﴾ بتشديد الفاء . وعلى هذا فمعنى ورائي خلفي وبعدي أي قلوا وعجزوا عن أمر الدين والإقامة بوظائفه ، والظرف متعلق بالموالي ، أو معناه قدامي والظرف متعلق ب ﴿ خفت ﴾ أي درجوا ولم يبق من يعتضد به . ثم صرح بالمسألة قائلاً : ﴿ فهب لي ﴾ وأكده بقوله : ﴿ من لدنك ﴾ أي ولياً صادراً من عندك مضافاً إلى اختراعك بلا سبب لأني وامرأتي لا تصلح للولادة . من قرأ ﴿ يرثني ويرث ﴾ بالجزم فيهما فهو جواب الدعاء ، ومن قرأ برفعهما فالأكثرون ومنهم جار الله قالوا : إنه صفة . وقال صاحب المفتاح : الأولى حمله على الاستئناف كأنه قيل : لم تطلب الولد ؟ فقال مجيباً :

يرثني أي لأنه يرثني لئلا يلزم منه أنه لم يوهب من وصف لهلاك يحيى قبل زكريا . واعترض بأن حمله على الاستئناف يوجب الإخبار عما لم يقع ، وكذب النبي صلى الله عليه وسلم . أمنع من كونه غير مستجاب الدعوة . وأجيب بأن عدم ترتب الغرض من طلب الولد لا يوجب الكذب . وأقول : الاعتراض باق لأن المعنى يؤل إلى قولنا " هب لي ولياً موصوفاً بالوراثة " أو بأن الغرض منه الوراثة ، أوهب لي ولياً أخبر عنه بأنه يرثني . وعلى التقادير يلزم عدم الاستجابة أو الكذب . والحق في الجواب هو ما سلف لنا في قصة زكريا من سورة آل عمران ، أن النبي لا يطلب في الدعاء إلا الأصلح حتى لو كان الأصلح غير ما طلبه فصرفه الله تعالى عنه كان المصروف إليه هو بالحقيقة مطلوبه . ويمكن أن يقال : لعل الوراثة قد تحققت من يحيى وإن قتل قبل زكريا ، وذلك بأن يكون قد تلقى منه كتاب أو شرع هو المقصود من وجود يحيى وبقى ذلك الكتاب أو الشرع معمولاً به بعد زكريا أيضاً إلى حين . وقد روى صاحب الكشاف ههنا قراآت شاذة لا فائدة كثيرة في تعدادها إلى قوله عن علي وجماعة وأرث من آل يعقوب أي يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان . فقيل : هو أن تجرد الكلام عن ذكر الأول حتى تقول " جاءني فلان فجاءني رجل " لا تريد به إلا الأول ،

ولذلك تذكر اسمه في الجملة الثانية ، وتجرد الكلام عنه . وأقول : يشبه أن يكون معنى التجريد هو أنك تجرده عن جميع الأوصاف المنافية للرجولية . وكذا في الآية كأنه جرده عن منافيات الوارثية بأسرها .

واختلف المفسرون في أنه طلب ولداً يرثه أو طلب من يقوم مقامه ولداً كان أو غيره ؟ والأول أظهر لقوله في آل عمران ﴿ رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ [آل عمران : 38] ولقوله في سورة الأنبياء ﴿ ربي لا تذرني فرداً ﴾ [الأنبياء : 89] حجة المخالف أنه لما بشر بالولد استعظم وقال ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ ولو كان دعاؤه لأجل الولد ما استعظم ذلك .

(200/483)

والجواب ما مر في آل عمران . واختلفوا أيضاً في الوراثة فعن ابن عباس والحسن والضحاك : هي وراثة المال . وعنهم أيضاً أن المراد يرثني المال ويرث من آل يعقوب النبوّة أو بالعكس . وفي رواية أبي صالح أن المراد في الموضعين النبوّة . فلفظ الإرث مستعمل في المال ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ [الأحزاب : 17] وفي العلم ﴿ وأورثنا بني

إسرائيل الكتاب ﴾ [غافر : 53] " العلماء ورثة الأنبياء " وحجة الأولين ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله زكريا وما عليه من يرثه " فإن ظاهره يدل على أنه أراد بالوراثة المال . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم " أنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " ، وأيضاً العلم والنبوة كيف يحصل بالميراث ولو كان المراد إرث النبوّة إلى قوله : ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ لأن النبي لا يكون إلا مرضياً . وأجيب بأنه إذا كان المعلوم من حال الابن أنه يصير نبياً بعده فيقوم بأمر الدين جاز أن يقال ورثه . والمراد يكون رضياً أن لا يوجد منه معصية ولا همّ بها كما جاء في حق يحيى ، وقج مر الحديث هناك . ولا يلزم من هذا أن يكون يحيى مفضلاً على غيره من الأنبياء كلهم فلعل لبعضهم فضائل أخر تختص به . احتجت الأشاعرة بالآية في مسألة خلق الأعمال ، وأجابت المعتزلة بأنه يفعل به ضروب الألطاف فيختار ما يصير مرضياً عنده ، وزيف بأن ارتكاب المجاز على خلاف الأصل ، وبأن فعل الألطاف واجب على الله فطلب ذلك بالدعاء والتضرع عبث . واعلم أن أكثر المفسرين على أن يعقوب المذكور في الآية هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم لأن زوجة زكريا كانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهودا بن يعقوب ، وأما زكريا فقد كان من ولد هرون أخي موسى وهرون وموسى ولد لاوى بن يعقوب بن إسحق ، وكانت النبوّة في سبط وهو إسرائيل عليه السلام . وزعم بعض المفسرين أن المراد هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وهذا قول الكلبي ومقاتل . وعن مقاتل : أن بني ماثان

(201/483)

كانوا رؤوس بني إسرائيل وملوكها .

قوله : ﴿ يا زكريا ﴾ الكثرون على أنه نداء من الله تعالى لقرينة التخاطب من قوله : ﴿ رب إني وهو العظم مني ﴾ إلى قوله : ﴿ رب أنى يكون لي غلام ﴾ ومنهم من قال : هو نداء الملك لقوله في آل عمران ﴿ فنادته الملائكة ﴾ [الآية : 49] وجوز بعضهم الأمرين . واختلفوا في عدم السمي فقيل : أراد أن لم يسم أحد بيحيى قبله . وقيل : أراد أنه لا نظير له كقوله ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ [مريم : 65] وذلك أنه سيداً وحصوراً ولم يعص ولم يهم بمعصية فكأنه جواب لقوله : ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ وأيضاً سمي بيحيى قبل دخوله في الوجود ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر فلا نظير له في هذه الخواص .

(202/483)

قال بعض العلماء : القول الأول أظهر لما في الثاني من العدول عن الظاهر ولا يصار إليه لضرورة كما في قوله : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ [مريم : 65] لأنا

نعلم أن مجرد كونه تعالى لا سميّ له لا يقتضي عبادته فنقول : السميّ هناك يراد به المثل والنظير . ويمكن أن يقال : إن التفرد بالاسم فيه ضرب من التعظيم فلا ضرورة في الآية أيضاً . قال جار الله : إنما قيل للمثل سميّ لأن كل متشاكلين يسمى كل منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير ، فكل واحد منهما سمي . قلت : ويقرب هذا من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم . ولم سمي بيحيى ؟ تكلفوا له وجوهاً . فعن ابن عباس لأنه تعالى أحيا عقر أمه . وعن قتادة لأنه تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [الأنفال : 24] . ولهذا كان من أول من آمن بعيسى . وقيل : لأنه استشهد والشهداء أحياء . وقيل : لأن الدين أحيى به لأن زكريا سأله لأجل الدين . قوله : ﴿ وقد بلغت من الكبر ﴾ قال جار الله : أي من أجل الكبر والطعن في السن العالية ف " من " للتعليل ، ويجوز أن تكون للابتداء أي بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى ﴿ عتياً ﴾ وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام . يقال : عنا العود عتياً إذا غيره طول الزمان إلى حالة اليبس .

(203/483)

سؤال : إنه قال في آل عمران ﴿ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ﴾ [آل عمران : 40] فلم عكس الترتيب في هذه السورة ؟ وأجيب بأن الواو لا تفيد الترتيب . قلت : إن ذاك ورد على الأصل وهو تقديم نقص نفسه وههنا راعى الفاصلة . ﴿ قال ﴾ الأمر ﴿ كذلك ﴾ تصديقاً له . ثم ابتدأ قائلاً ﴿ قال ربك ﴾ فمحل ﴿ كذلك ﴾ رفع ، ويحتمل أن يكون نصباً ﴿ قال ﴾ وذلك إشارة إلى مبهم يفسره قوله : ﴿ هو ﴾ أي خلق الغلام ﴿ عليّ هين ﴾ ويحتمل أن يكون إشارة إلى قول زكريا ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ أي كيف تعطيني الغلام أبأن تجعلني وزوجتي شابين أو بأن تتركنا على الشيخوخة ؟ فأجيب بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي نهب الولد لك مع بقائك وبقاء زوجتك على حالتكما . ولفظ الهين مجاز عن كمال القدرة وهو فيعل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع عن المراد ﴿ ولم تك شيئاً ﴾ لأن المعدوم ليس بشيء أو شيئاً يعتد به كالنطفة ، أو كالجواهر التي لم تتألف بعد ، فيه نفس استبعاد زكريا ، لأن خلق الذات ثم تغييرها في أطوار الصفات ليس أهون من تبديل الصفات وهو أحداث القوة المولدة في زكريا وصاحبته بعد أن لم تكن ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ قد مر تفسير الآية في أول عمران . قوله : ﴿ سوياً ﴾ قيل : إنه صفة لليالي أي تامة كاملة . والأكثرون على أنه صفة زكريا أي وأنت سليم الحواس مستوى الخلق ما بك خرس ولا عيّ ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ قيل : كان له موضع ينفرد فيه للصلاة والعبادة ثم ينتقل إلى قومه .

وقيل : كان موضعاً يصلي فيه هو وغيره إلا أنهم كانوا لا يدخلونه للصلاة إلا بإذنه . ﴿ فأوحى إليهم ﴾ عن مجاهد : أشار بدليل قوله في أول آل عمران ﴿ إلا رمزاً ﴾ وعن ابن عباس : كتب لهم على الأرض . و ﴿ أن ﴾ هي المفسرة و ﴿ سبحوا ﴾ أي صلوا أو على الظاهر وهو قول سبحان الله . عن أبي العالية أن البكرة صلاة الفجر والعشيّ صلاة العصر ، فلعلهم كانوا يصلون معه هاتين الصلاتين في محرابه ، وكان يخرج إليهم ويأذن لهم بلسانه ، فلما اعتقل لسانه خرج إليهم كعادته ففهمهم المقصود بالإشارة أو الكتابة . وههنا إضمار والمراد فبلغ يحيى المبلغ الذي يجوز أن يخاطب فقلنا له : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب ﴾ أي التوراة لأنها المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن كقول عيسى ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ [مريم : 30] والمراد بالأخذ إما الأخذ من حيث الحس ، وإما الأخذ من حيث المعنى وهو القيام بمواجبه كما ينبغي وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهى عنه . ثم أكده بقوله : ﴿ بقوة ﴾ أي بجد وعزيمة . ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ أي الحكمة . عن ابن عباس : هو فهم التوراة والفقه في الدين ولذلك لما دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي قال : ما للعب

خلقت . وعن معمر : العقل . وقيل : النبوة . وكل هذه الأوصاف على الأقول من الخوارق كما حق عيسى فلا استبعاد إلا من حيث العادة . والحنان أصله توقان النفس ، ثم استعمل في الرحمة وهو المراد ههنا . وما قيل إنه يحتمل أن يراد حناناً منا على زكريا أو على أمة يحيى لا يساعده وجود الواو . وقيل : أراد آتيناه الحكم والحنان على عبادنا كقوله في نبينا ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ [آل عمران : 159] وأراد بقوله : ﴿ وزكاة ﴾ أنه مع الإشفاق عليهم كان لا يخل بإقامة ما يجب عليهم لأن الرأفة واللين ربما تورث ترك الواجب ولهذا قال : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ [النور : 2] ولا

(205/483)

يخفى أنه يساعد هذا القول وجود لفظة ﴿ من لدنا ﴾ وعن عطاء : أن معنى حناناً تعظيماً من لدنا . وعن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج : أن معنى زكاة عملاً صالحاً زكياً . وقيل : زكيناه بحسن الثناء عليه كما يزكى الشهود . وقيل : بركة كقول عيسى ﴿ جعلني مباركاً ﴾ وقيل : صدقة أي ينعطف على الناس ويتصدق عليهم . ثم أخبر محمد صلى الله عليه وسلم عن جملة أحواله بقوله : ﴿ وكان تقياً ﴾ بحيث لم يعص الله ولا هم بمعصية قط ﴿ وبرّاً بوالديه ﴾ لأن تعظيم الوالدين تلو تعظيم الله ﴿ ولم

يكن جباراً عصياً ﴾ وذلك أن الزاهد في الدنيا قلما يخلو عن طلب ترفع والرغبة في احترام ، فذكر أنه مع غاية زهده كان موصوفاً بالتواضع للخلق وتحقيق العبودية للحق .

قال سفيان : الجبار الذي يقتل عند الغضب دليله قوله : ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلاّ أن تكون جباراً في الأرض ﴾ [القصص : 19] ثم إنه سبحانه سلم عليه في ثلاثة مواطن هي أوحش المواطن وأحوجها إلى طلب السلامة فيها ، ويحتمل أن يكون هذا السلام من الملائكة عليه إلا أنه لما كان بإذن الله كان كلام الله ، وقيل : إنما قال : ﴿ حياً ﴾ مع أن المبعوث هو المعاد إلى حال الحياة تنبيهاً على كونه من الشهداء وهم أحياء إلا أنه يشكل بما يجيء في قصة عيسى ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ [مريم : 33] وذلك أنه ورد في الأخبار أن عيسى سيموت بعد النزول . والظاهر أنه أراد ويوم يجعل حياً فوضع الأخص موضع الأعم تأكيداً . قيل : السلام عليه يوم ولد لا بد أن يكون تفضلاً من الله تعالى لأنه لم يتقدم منه عمل يجزى عليه ، وأما الآخران فيجوز أن يكونا لأجل الثواب . قلت : أكثر أموره خارق للعادة ، فيحتمل أن يوجد منه في بطن أمه عمل يستحق الثواب كما يحكى أن أمه قالت لمريم وهما حاملان : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 467 . 474 ﴾

(206/483)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : إن زكريا الروح ﴿ نادى ربه نداء خفياً ﴾ من سر السر ﴿ قال رب إني وهن ﴾ مني عظم الروحانية واشتعل شيب صفات البشرية ، وإني خفت صفات النفس أن تغلب ﴿ وكانت امرأتي ﴾ يعني الجثة التي هي روح الروح ﴿ عاقراً ﴾ لا تلد إلا بموهبة من الله ﴿ فهب لي من لدنك ﴾ سأل ﴿ ولياً ﴾ فأعطاه الله نبياً وهو في الحقيقة القلب الذي هو معدن العلم اللدني فإنه ولد الروح والنفس أعدى عدوه ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ أي يتصف بصفة الروح وجميع الصفات الروحانية ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ بأن توطنه من تجلي صفات ربوبيتك ما يرضى به نظيره ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] ﴿ اسمه يحيى ﴾ إن الله أحياه بنوره ﴿ ولم نجعل له من قبل سمياً ﴾ لا من الحيوانات ولا من الملائكة لأنه هو الذي يقبل فيض الألوهية بلا واسطة ، وهو سر حمل الأمانة كما قال : " ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن " ﴿ وقد بلغت من الكبر ﴾ أي بسبب طول زمان تعلق القلب بالقالب ﴿ عتياً ﴾ يبساً وجفافاً من غلبات صفات النفس ﴿ آيتك أن لا تكلم الناس ﴾ لا تخاطب إلا الله ولا تلتفت إلى ما سواه ﴿ ثلاث ليال ﴾ هي ثلاث مراتب الجماديات والحيوانيات والروحانيات ﴿ سوياً ﴾ متمكناً في

هذا الحال من غير تلون ﴿ فخرج ﴾ زكريا الروح من محراب هواه وطبعه على قوم صفات نفسه وقلبه وأنانيته ، فأشار إليهم أن كونوا متوجهين إلى الله معرضين عما سواه آناء الليل وأطراف النهار بل بكرة الأزل وعشيّ الأبد ﴿ يا يحيى ﴾ القلب ﴿ خذ ﴾ كتاب الفيض الإلهي المكتوب لك في الأزل ﴿ بقوة ﴾ ربانية لا بقوة جسدانية لأنه خلق ضعيفاً ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ في صباه إذ خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره ﴿ زكاة ﴾ وتطهراً من الالتفات إلى غيرنا ﴿ وبراً بوالديه ﴾ الروح والقالب .

(207/483)

أما البروح فلأن القلب محل قبول الفيض الإلهي لأن الفيض نصيب الروح أوّلاً ولكن لا يمسكه لغاية لطافته كما أن الهواء الصافي لا يقبل الضوء وينفذ فيه ، وأما القلب ففيه صفاء وكثافة فبالصفاء يقبل الفيض وبالكثافة يمسكه ، وهذا أحد أسرار حمل الأمانة . وأما بر والدة القلب فهو استعمالها على وفق الشريعة والطريقة ﴿ ولم يكن جباراً عصياً ﴾ كالنفس الأمارة بالسوء ﴿ وسلام عليه يوم يولد ﴾ في أصل خلقه ﴿ ويوم يموت ﴾ من استعمال المعاصي بالتوبة ﴿ ويوم يبعث حياً ﴾ بالتربية والترقي إلى مقام السلامة الله حسبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 474 ﴾

(208/483)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/484)

الجزء الخامس والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 16 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ من نفس السورة

(4/484)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان حاصل القصة أنه ولد أخرجه الله تعالى عن سبب هو في ضعفه قريب من العدم ، أما من جهته فبلوغه إلى حد من السن وحال في المزاج لا يقبل حركة الجماع عادة ، أما من جهة زوجته فلزيادتها مع يأسها ببلوغها إلى نحو ذلك السن بكونها عاقراً لم تقبل حبلاً قط ،

أتبعه بقصة هي أغرب من قصته بكونها ليس فيها إلا سبب واحد وهو المرأة ، وعدم فيها سبب الذكورية أصلاً ، إشارة إلى أنه تعالى يخلق ما يشاء تارة بسبب قوي ، وتارة بسبب ضعيف ، وتارة بلا سبب ، ومن كان كذلك كان مستغنياً عن الولد ؛ ولما كان على اليهود الآمرين بالسؤال تعنتاً عن قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين أن ينصحوا العرب بالإعلام بأن دينهم باطل لشركهم ، فلم يفعلوا فكانوا جديرين بالتبكيت ، وكانت قصة زكريا أعظم في تبكيتهم بمباشرتهم لقتله وقتل ولده يحيى عليهما السلام ، قدمها في الذكر ، وتوطئة لأمر عيسى عليه السلام كما مضى بيانه في آل عمران إلزاماً لهم بالاعتراف به ، وللنصارى بالاعتراف بأنه عبد ، كما اعترف كل منهما بأمر يحيى عليه السلام ، وذلك بما جمع بينهما من خرق العادة ، وكانت قصة يحيى أولى من قصة إسحاق عليهما السلام لما تقدم ، ولمشاهدة الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من الفريقين لأمره وأمر يحيى عليهم الصلاة والسلام لما لهما من الاتحاد في الزمن مع ما لهما من قرب النسب ، ولما كانت قصة عيسى عليه السلام أغرب ، أشار إلى ذلك بتغيير السياق فقال عاطفاً على ما تقديره : اذكر هذا لهم : ﴿ واذكر ﴾ - بلفظ الأمر ﴿ في الكتاب مريم ﴾ ابنة عمران خالة يحيى - كما في الصحيح من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة الأنصاري - رضى الله عنهما - في حديث الإسراء : " فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة " ثم أبدل من ﴿ مريم ﴾ بدل اشتمال قوله : ﴿ إذ ﴾ أي اذكر ما اتفق لها حين ﴿ انتبذت ﴾ أي كلفت

نفسها أن اعتزلت وانفردت ﴿ من أهلها ﴾ حالة ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ عن مكانهم ، فكان انفرادها في

(5/484)

جهة مطالع الأنوار إشارة إلى ما يأتيها من الروح الإلهي ﴿ فاتخذت ﴾ أي أخذت بقصد وتكلف ، ودل على قرب المكان بالإتيان بالجار فقال : ﴿ من دونهم ﴾ أي أدنى مكان في مكانهم لانفرادها للاغتسال أو غيره ﴿ حجاباً ﴾ يسترها ﴿ فأرسلنا ﴾ لأمر يدل على عظمتنا ﴿ إليها روحنا ﴾ جبرائيل عليه السلام ليعلمها بما يريد الله بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، لئلا يشتبه عليها الأمر ، ويتشعب بها الفكر ، فتقتل نفسها غماً ﴿ فتمثل لها ﴾ أي تشبح وهو روحاني بصورة الجسماني ﴿ بشراً سوياً ﴾ في خلقه حسن الشكل لئلا تشتد نفرتها وروعها منه ؛ ثم أخرج القصة مخرج الاستئناف فقال دالاً على حزمها وخلوص تعبدها لله والتجائها إليه وشهودها له بحيث لا تركن إلى سواه : ﴿ قالت ﴾ .

(6/484)

ولما كان على أنهى ما يكون من الجمال والخلال الصالحة والكمال ، فكان بحيث يستبعد غاية الاستبعاد أن يتعوذ منه أكدت فقالت : ﴿ إني أعوذ بالرحمن ﴾ ربي الذي رحمته عامة لجميع عباده في الدنيا والآخرة ، وله بنا خصوصية في إسباغ الرحمة وإتمام النعمة ﴿ منك ﴾ ولما تفرست فيه – بما أنار الله من بصيرتها وأصفى من سريرتها – التقوى ، ألهبته وهيجته للعمل بمضمون هذه الاستعاذة بقولها : ﴿ إن كنت تقياً قال ﴾ جبرئيل عليه السلام مجيباً لها بما معناه : إني لست ممن تخشين أن يكون متهماً ، مؤكداً لأجل استعاذتها ، ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ أي الذي عذت به أي فأنا لست متهماً ، متصف بما ذكرت وزيادة الرسلية ، وعبر باسم الرب المقتضي للإحسان لطفاً بها ، ولأن هذه السورة مصدرة بالرحمة ، ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده ﴿ لأهب ﴾ بأمره أو ليهب هو على القراءة الأخرى ﴿ لك ﴾ وقدم المتعلق تشويقاً إلى المفعول ليكون أوقع في النفس ؛ ثم بينه معبراً بما هو أكثر خيراً وأقعد في باب البشرى وأنسب لمقصود السورة مع أنه لا ينافي ما ذكر في آل عمران بقوله : ﴿ غلاماً ﴾ أي ولداً ذكراً في غاية القوة والرجولية ﴿ زكياً ﴾ طاهراً من كل ما يدنس البشر : نامياً على الخير والبركة ﴿ قالت ﴾ مريم : ﴿ أنّى ﴾ أي من أين وكيف ﴿ يكون لي غلام ﴾ ألده ﴿ ولم يمسسني بشر ﴾ بنكاح أصلاً حلال ولا غيره بشبهة ولا غيرها .

ولما هالها هذا الأمر ، أداها الحال إلى غاية الإسراع في إلقاء ما تريد من المعاني لها لعلها تستريح مما تصورته ، فضاق عليها المقام ، فأوجزت حتى بحذف النون من "كان" ولتفهم أن هذا المعنى منفي كونه على أبلغ وجوهه فقالت ﴿ ولم أك ﴾ .

(7/484)

ولما كان المولود سر من يلده ، وكان التعبير عنه بما هو من مادة الغلمة دالاً على غاية الكمال في الرجولية المقتضي لغاية القوة في أمر النكاح نفت أن يكون فيها شيء من ذلك فقالت : ﴿ بغياً ﴾ أي ليكون دأبي الفجور ، ولم يأت " بغية " لغلبة إيقاعه على النساء ، فكان مثل حائض وعاقر في عدم الإلباس ولأن بغية ، لا يقال إلا للمتلبسة به ﴿ قال ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿ كذلك ﴾ القول الذي قلت لك يكون .

ولما كان لسان الحال قائلاً : كيف يكون بغير سبب ؟ أجاب بقوله : ﴿ قال ﴾ ولما بنيت هذه السورة على الرحمة واللطف والإحسان بعباد الرحمن ، عبر باسم الرب الذي صدرت به بخلاف سورة التوحيد آل عمران المصدرة بالاسم الأعظم فقال : ﴿ ربك هو ﴾ أي المذكور وهو أيجاد الولد على هذه الهيئة ﴿ عليّ ﴾ أي وحدي لا يقدر عليه أحد غيري ﴿ هين ﴾ أي خصصناك به ليكون شرفاً به لك .

ولما كان ذلك أعظم الخوارق ، نبه عليه بالنون في قوله ، عطفاً على ما قدرته مما أفهمه السياق : ﴿ ولنجعله ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ ءاية للناس ﴾ أي علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية في يحيى عليه السلام ، وبه تمام القسمة الرباعية في خلق البشر ، فإنهه أوجده من أنثى بلا ذكر ، وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لا من ذكر ولا أنثى ، وبقية أولاده من ذكر وأنثى معاً ﴿ ورحمة منا ﴾ لمن آمن به في أول زمانه ، ولأكثر الخلق بالإيمان والإنجاء من المحن في آخر زمانه ، لا كآية صالح عليه السلام لأنها كانت آية استئصال لأهل الضلال ﴿ وكان ﴾ ذلك كله ﴿ أمراً مقضياً ﴾ أي محكوماً به مبتوتاً هو في غاية السهولة لا مانع منه أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 526 . 528 ﴾

(8/484)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إني أعوذ ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ ليهب لك ﴾ على الغيبة : أبو عمرو ويعقوب وورش والحلواني عن قالون وحمزة في الوقف .

الآخرون ﴿ لأهب ﴾ على التكلم ﴿ نسياً ﴾ بفتح النون : حمزة وحفص . الباقون بكسرها . ﴿ من تحتها ﴾ بكسر الميم على أنه حرف جر وبجر التاء الثانية : أبو جعفر ونافع وسهل وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد . الباقونه بفتحهما على أن " من " موصولة والظرف صلتها ﴿ تساقط ﴾ بحذف تاء التفاعل : علي وحمزة والخزاز عن هبيرة . ﴿ تساقط ﴾ من المفاعلة : حفص غير الخزاز ﴿ يساقط ﴾ بياء الغيبة ، وعلى أن الضمير للجذع وبإدغام التاء في السين : سهل ويعقوب ونصير وحماد . الباقون مثله ولكن بتاء التأنيث على أن الضمير للنخلة ﴿ آتاني الكتاب ﴾ ممالة مفتوحة الياء : عليّ . وقرأ حمزة مرسلة الياء مفخمة في الوصل ممالة في الوقف . ﴿ وأوصاني ﴾ بالإمالة : علي ﴿ قول الحق ﴾ بالنصب : ابن عامر وعاصم ويعقوب . ﴿ وإن الله ﴾ بكسر الهمزة : عاصم وحمزة وعلي وخلف وابن عامر وروح والمعدل عن زيد .

(9/484)

الوقوف : ﴿ مريم ﴾ لا ليصير " إذ " ظرفاً لأذكر ﴿ شرقياً ﴾ لا للعطف ﴿ زكياً ﴾ 5 ﴿ بغياً ﴾ 5 ﴿ كذلك ﴾ ط لما مر ﴿ هين ﴾ ج لجواز كون الواو مقحمة أو معلقة بمحذوف كما يجيء ﴿ منا ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ مقضياً ﴾ 5 ﴿ قصياً ﴾ 5

﴿ النخلة ﴾ ج لترتب الماضي من غير عاطف والأولى أن يكون استئنافاً ﴿ منسياً ﴾ 5 ﴿ سرياً ﴾ 5 ﴿ جنياً ﴾ 5 ز ﴿ عيناً ﴾ 5 ج للشرط مع الفاء ﴿ أحداً ﴾ لا لأن ما بعده جواب الشرط ﴿ نسياً ﴾ 5 ج للعطف مع الآية ﴿ تحمله ﴾ ط ﴿ فرياً ﴾ 5 ﴿ بغياً ﴾ 5 ج ﴿ إليه ﴾ ج ﴿ صبياً ﴾ 5 ﴿ عبد الله ﴾ ط لأن الجملة لا تقع صفة للمعرفة. ويمكن أن يجعل معنى التحقيق في "إن" عاملاً فيكون حالاً فلا يوقف ﴿ أينما كنت ﴾ ص لطول الكلام ﴿ حياً ﴾ ص 5 لذلك والوصل أولى لأن قوله ﴿ وبراً ﴾ معطوف على قوله ﴿ مباركاً ﴾ . ﴿ بوالدتي ﴾ ج لتبدل الكلام من الإثبات إلى النفي ﴿ شقياً ﴾ ، ﴿ حياً ﴾ 5 ، ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ ج على القراءتين لاحتمال أن يراد أقول قول الحق وأن يجعل حالاً ، وأما في قراءة الرفع فإما أن يكون بدلاً من عيسى أو يكون التقدير هو قول الحق ﴿ يمترون ﴾ 5 ، ﴿ من ولد ﴾ 5 استعجالاً للتنزيه ﴿ سبحانه ﴾ ط ﴿ فيكون ﴾ 5 ط لمن قرأ ﴿ وأن ﴾ بالكسر ﴿ فاعبدوه ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ ، 5 ﴿ من بينهم ﴾ ج لأن ما بعده مبتدأ مع الفاء ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ وأبصر ﴾ لا لأن ما بعده ظرف للتعجب ﴿ مبين ﴾ 5 وسمعت عن مشايخي رحمهم الله أن الوقف على قوله ﴿ قضى الأمر ﴾ لازم لا أقل من المطلوب لأن ما بعده جملة مستأنفة ولو وصل لأوهم أن يكون حالاً من القضاء وليس كذلك ﴿ لا يؤمنون ﴾ ، 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 475.476 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إذ بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه .

المسألة الثانية :

النبذ أصله الطرح والإلقاء والانتباذ افتعال منه ومنه : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران : 187] وانتبذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أي ناحية وهذا إذا جلس قريباً منك حتى لو نبذت إليه شيئاً وصل إليه ونبذت الشيء رميته ومنه النبيذ لأنه يطرح في الإناء وأصله منبوذ فصرف إلى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لأنه يرمى به ومنه النهي عن المنابذة في البيع وهو أن يقول : إذا نبذت إليك هذا الثوب أو الحصاة

فقد وجب البيع إذ عرفت هذا فنقول قوله تعالى : ﴿ إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ معناه تباعدت وانفردت على سرعة إلى مكان يلي ناحية الشرق ثم بين تعالى أنها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجاباً مستوراً وظاهر ذلك أنها لم تقتصر على أن انفردت إلى موضع بل جعلت بينها وبينهم حائلاً من حائط أو غيره ويحتمل أنها جعلت بين نفسها وبينهم ستراً وهذا الوجه الثاني أظهر من الأول ثم لا بد من احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس مذكوراً واختلف المفسرون فيه على وجوه .

الأول : أنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام .

والثاني : أنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة .

والثالث : قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها .

(11/484)

والرابع : أنها كان لها في منزل زوج أختها زكرياء محراب على حدة تسكنه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فتمنت (على) الله (أن) تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفرج السقف لها فخرجت إلى المفازة فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك .

وخامسها : عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها .

المسألة الثالثة :

المكان الشرقي هو الذي يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى : ﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة .

المسألة الرابعة :

أنها لما جلست في ذلك المكان أرسل الله إليها الروح واختلف المفسرون في هذا الروح فقال الأكثرون : إنه جبريل عليه السلام وقال أبو مسلم إنه الروح الذي تصور في بطنها بشراً والأول أقرب لأن جبريل عليه السلام يسمى روحاً قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾

[الشعراء : 193 194] وسمي روحاً لأنه روحاني وقيل خلق من الروح وقيل لأن الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه على المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك روحي وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المتقين في قوله : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : 88 ، 89] أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا وإذا ثبت أنه

يسمى روحاً فهو هنا يجب أن يكون المراد به هو لأنه قال : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غلاما زَكِيّاً ﴾ [مريم : 19] ولا يليق ذلك إلا بجبريل عليه السلام واختلفوا في أنه كيف ظهر لها .

فالأول : أنه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوي الخلق .

(12/484)

والثاني : أنه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وكل ذلك محتمل ولا دلالة في اللفظ على التعيين ثم قال : وإنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ثم ههنا إشكالات .

أحدهما : وهو أنه لو جاز أن يظهر الملك في صورة إنسان معين فحينئذ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذي أراه في الحال هو زيد الذي رأيته بالأمس لاحتمال أن الملك أو الجني تمثل في صورته وفتح هذا الباب يؤدي إلى السفسطة ، لا يقال هذا إنما يجوز في زمان جواز البعثة فأما في زماننا هذا فلا يجوز لأنا نقول هذا الفرق إنما يعلم بالدليل ، فالجاهل بذلك الدليل يجب أن لا يقطع بأن هذا الشخص الذي أراه الآن هو الشخص الذي رأيته بالأمس .

وثانيها : أنه جاء في الأخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جداً فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه في مقدار جثة الإنسان أبأن تساقطت أجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك يوجب تداخل الأجزاء وهو محال .

وثالثها : وهو أنا لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام في صورة الآدمي فلم لا يجوز تمثله في صورة جسم أصغر من الآدمي حتى الذباب والبق والبعوض ومعلوم أن كل مذهب جر إلى ذلك فهو باطل .

ورابعها : أن تجويزه يفضي إلى القدح في خبر التواتر فلعل الشخص الذي حارب يوم بدر لم يكن محمداً بل كان شخصاً آخر تشبه به وكذا القول في الكل .

(13/484)

والجواب عن الأول أن ذلك التجويز لازم على الكل لأن من اعترف بافتقار العالم إلى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادراً على أن يخلق شخصاً آخر مثل زيد في خلقته وتخطيطه وإذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك في أن زيداً المشاهد الآن هو الذي شاهدناه بالأمس أم لا ، ومن أنكر الصانع المختار وأسند الحوادث إلى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك لزمه تجويز أن يحدث اتصال غريب في الأفلاك يقتضي حدوث شخص

مثل زيد في كل الأمور وحينئذ يعود التجويز المذكور .

وعن الثاني : أنه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة والأجزاء الأصلية قليلة جداً فحينئذ يكون متمكناً من التشبه بصورة الإنسان ، هذا إذا جعلناه جسمانياً أما إذا جعلناه روحانياً فأي استبعاد في أن يتدرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير .

وعن الثالث : أن أصل التجويز قائم في العقل وإنما عرف فساده بدلائل السمع وهو الجواب عن السؤال الرابع ، والله أعلم .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) ﴾

وفيه وجوه : أحدها : أرادت أن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائذة به منك وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله : ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 278] أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال .

وثانيها : أن معناه ما كنت تقياً حيث استحللت النظر إلي وخلوت بي .

وثالثها ؛ أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقى يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقى والأول هو الوجه .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لما علم جبريل خوفها قال : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لا بد من دلالة تدل على أنه جبريل عليه السلام وما كان من الناس فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل أنها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أظهر لها من باطن جسده ما عرفت أنه ملك فيكون ذلك هو العلم وسأل القاضي عبد الجبار في تفسيره نفسه فقال : إذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم أن الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالاً فكيف يصح ذلك وأجاب أن ذلك إنما وقع في زمان زكريا عليه السلام وكان رسولاً وكل ذلك كان عالماً به وهذا ضعيف لأن المعجز إذا كان مفعولاً للنبي فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالماً به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزاً له بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام .

المسألة الثانية :

قرأ ابن عامر ونافع ليهب بياء مفتوحة بعد اللام أي ليهب الله لك والباقون بهمزة مفتوحة

بعدها أما قوله لأهب لك ففي مجازه وجهان .

الأول : أن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها وإضافة الفعل إلى ما هو سبب له مستعمل قال تعالى في الأصنام : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ الناس ﴾ [إبراهيم : 36] .

(15/484)

الثاني : أن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فإن قال قائل ما الدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الأجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذي يقال فيه : إن جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الأشياء أما أنه جسم فلأنه محدث وكل محدث إما متحيز أو قائم بالمتحيز وأما أن الجسم لا يقدر على هذه الأشياء فلأنه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لأن الأجسام متماثلة وهو ضعيف لأن للخصم أن يقول لا نسلم أن كل محدث إما متحيز أو قائم به ، بل ههنا موجودات قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالاً لذات الله تعالى لأن الاشتراك في الصفات الثبوتية لا يقتضي التماثل فكيف في الصفات السلبية سلمنا كونه جسماً فلم قلت الجسم لا يقدر عليه قوله

الأجسام متماثلة قلنا نعني به أنها متماثلة في كونها حاصلة في الأحياز ذاهبة في الجهات أو نعني به أنها متماثلة في تمام ماهياتها .

والأول مسلم لكن حصولها في الأحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات المواصفات سلمنا أن الأجسام متماثلة فلم لا يجوز أن يقال : إن الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى أنه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك والجواب الحق أن المعتمد في دفع هذا الاحتمال إجماع الأمة فقط ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

الزكي يفيد أموراً ثلاثة : الأول : أنه الطاهر من الذنوب .

والثاني : أنه ينمو على التزكية لأنه يقال فيمن لا ذنب له زكي ، وفي الزرع النامي زكي .

والثالث : النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يبعث نبياً وقال بعض المتكلمين الأولى أن يحمل على الكل وهو ضعيف لما عرفت في أصول الفقه أن اللفظ الواحد لا يجوز حمله على المعنيين سواء كان حقيقة فيهما أو في أحدهما مجازاً وفي الآخر حقيقة .

المسألة الرابعة :

سماه زكياً مع أنه لم يكن له شيء من الدنيا وأنت إذا نظرت في سوقك فمن لم يملك شيئاً فهو شقي عندك .

وإنما الزكي من يملك المال والله يقول كان زكياً ، لأن سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب وأنت فإنما تسمى بالزكي من كانت سيرته الجهل وطريقته المال .

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنها إنما تعجبت بما بشرها جبريل عليه السلام لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولأنها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول قولها : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ يدخل تحته قولها : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ فلماذا أعادتها ومما يؤكد هذا السؤال أن في سورة آل عمران قالت : ﴿ رَبّ أنى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : 47] فلم تذكر البغاء والجواب من وجوه : أحدها : أنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [الأحزاب : 49] والزنا ليس كذلك إنما يقال فجر بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات .

وثانيها : أن إعادتها لتعظيم حالها كقوله : ﴿ حافظوا عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] وقوله : ﴿ وَمَلَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] فكذا ههنا إن من لم تعرف من النساء بزوج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه .

المسألة الثالثة :

(17/484)

قال صاحب "الكشاف" البغي الفاجرة التي تبغي الرجال وهو فعول عند المبرد بغوي فأدغمت الواو في الياء ، وقال ابن جني في كتاب "التمام" هو فعيل ولو كان فعولاً لقيل بغوا كما قيل نهوا عن المنكر .

المسألة الرابعة :

أن جبريل عليه السلام أجابها بقوله : ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وهو كقوله في آل عمران : ﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات والمواد .

المسألة الخامسة :

الكناية في : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ تحتمل وجهين :

الأول : أن تكون راجعة إلى الخلق أي أن خلقه علي هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا بإظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقرب .

الثاني : أن ترجع الكنايات إلى الغلام وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة أعلمت أن الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الأمر الغريب ، فأما قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ فيحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي فعلنا ذلك : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ فعلنا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفاً على الآية أي : ولنجعله آية ورحمة فعلنا ذلك .

(18/484)

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ المراد منه أنه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لأنه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب وأيضاً فلأن جميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء والقدر إلى واجب الوجود والمنتهي إلى الواجب انتهاء واجباً يكون واجب الوجود وإذا كان واجب الوجود فلا فائدة في الحزن والأسف وهذا هو سر قوله عليه السلام : " من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 167 . 171 ﴾

(19/484)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾

يعني في القرآن ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : انفردت ، قاله قتادة .

الثاني : اتخذت .

﴿ مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ناحية المشرق ، قاله الأخفش ولذلك اتخذت النصارى المشرق قبلة .

الثاني : مشرقة داره التي تظلها الشمس ، قاله عطية .

الثالث : مكاناً شاسعاً بعيداً ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : حجاباً من الجدران ، قاله السدي .

الثاني : حجاباً من الشمس جعله الله ساتراً ، قاله ابن عباس

الثالث : حجاباً من الناس ، وهو محتمل ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنها اتخذت مكاناً تنفرد فيه للعبادة .

الثاني : أنها اتخذت مكاناً تعتزل فيه أيام حيضها .

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ الآية : فيه قولان :

أحدهما : يعني الروح التي خلق منها المسيح حتى تمثل لها بشراً سوياً .

الثاني : أنه جبريل ، قاله الحسن وقتادة ، والسدي ، وابن جريج ، وابن منبه .

وفي تسميته له روحاً وجهان :

أحدهما : لأنه روحاني لا يشوبه شيء غير الروح ، وأضافه إليه بهذه الصفة تشريفاً له .

الثاني : لأنه تحيا به الأرواح .

واختلفوا في سبب حملها على قولين :

أحدهما : أن جبريل نفخ في جيب درعها وكُمِّهَا فَحَمَلَتْ ، قاله ابن جريج ، منه قول أميه بن أبي الصلت :

فأهوى لها بالنفخ في جيب درعها . . . فألقت سويّ الخلق ليس بتوأم

الثاني : أنه ما كان إلا أن حملت فولدته ، قاله ابن عباس .

واختلفوا في مدة حملها على أربعة أقاويل : أحدها : تسعة أشهر ، قاله الكلبي . الثاني : تسعة أشهر . حكى لي ذلك أبو القاسم الصيمري .

الثالث : يوماً واحداً .

الرابع : ثمانية أشهر ، وكان هذا آية عيسى فإنه لم يعش مولوداً لثمانية أشهر سواه .

(20/484)

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ لأن مريم خافت جبريل على نفسها حين دنا فقالت ﴿ إِنِّي أَعُوذُ ﴾ أي أمتنع ﴿ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ ﴾ فاستغاثت بالله في امتناعها منه .

فإن قيل : فلم قالت ﴿ إن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ والتقي مأمون وإنما يستعاذ من غير التقي ؟

ففيه وجهان : أحدهما : أن معنى كلامها إن كنت تقياً لله فستمتنع من استعاذتي وتنزجر

عني من خوفه ، قاله أبو وائل .

الثاني : أنه كان اسماً لرجل فاجر من بني إسرائيل مشهور بالعهر يُسَمَّى تقياً فخافت أن يكون الذي جاءها هو ذلك الرجل المسمى تقياً الذي لا يأتي إلا للفاحشة فقالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قاله بن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(21/484)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

(22/484)

هذه ابتداء قصة ليست من الأولى ، والخطاب لمحمد عليه السلام . و ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ، و ﴿ مريم ﴾ هي بنت عمران أم عيسى اخت أم يحيى واختلف الناس لم ﴿ انتبذت ﴾ والانتباذ التنحي . فقال السدي ﴿ انتبذت ﴾ لتطهر من حيض ، وقال غيره

لتعبد الله وهذا أحسن ، وذلك أن مريم كانت وقفاً على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فيه فتنحت من الناس لذلك . وقوله ﴿ شرقياً ﴾ يريد في جهة الشرق من مساكن أهلها ، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلق الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها ، حكاه الطبري ، وحكي عن ابن عباس أنه قال إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ؟ لقول الله عز وجل ﴿ إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبله ، وقال بعض الناس " الحجاب " هي اتخذته لتستتر به عن الناس لعبادتها . فقال السدي كان من جدرات ، وقيل من ثياب ، وقال بعض المفسرين اتخذت المكان بشرقي المحراب ، و" الروح " جبريل ، وقيل عيسى ، حكى الزجاج القولين . فمن قال إنه جبريل قدر الكلام فتمثل هو لها . ومن قال إنه عيسى قدر الكلام فتمثل الملك لها ، قال النقاش ومن قرأ " روحنّا " مشددة النون جعله اسم ملك من الملائكة ولم أر هذه القراءة لغيره . واختلف الناس في نبوة مريم فقيل كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك ، وقيل لم تكن نبية وإنما كملها مثال بشر ورؤيتها لملك ، كما رئي جبريل في صفة دحية وفي سؤاله عن الإسلام والأول أظهر . وقوله تعالى ﴿ أعوذ بالرحمن ﴾ الآية ، المعنى قالت مريم للملك الذي تمثل لها بشراً لما رأته قد خرق الحجاب الذي اتخذته ، فأساءت به الظن ﴿ أعوذ بالرحمن منك إن كنت ﴾ ذا تقى ، قال أبو وائل علمت أن " التقي " ذو نهية ، وقال وهب بن منبه " تقي " رجل فاجر كان ذلك في الزمن

في قومها فلما رأته متسوراً عليها ظنته إياه فاستعاذت بالرحمن منه ، حكى هذا مكي وغيره ، وهو ضعيف ذاهب مع التخرص

(23/484)

، فقال لها جبريل عليه السلام ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك ﴾ ، جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وقرأ الجمهور " لأهب " كما تقدم ، وقرأ عمرو ونافع " ليهب " بالياء أي ليهب الله لك ، واختلف عن نافع . وفي مصحف ابن مسعود " ليهب الله لك " فلما سمعت مريم ذلك واستشعرت ما طرأ عليها استفهمت عن طريقه وهي لم يمسها بشر بنكاح ولم تكن زانية . و" البغي " المجاهرة المنبهرة في الزنا فهي طالبة له بغوى على وزن فعول كبتول وقتول ولو كانت فعيلاً لقوي أن يلحقها هاء التأنيث فيقال بغية .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾

المعنى قال لها الملك ﴿ كذلك ﴾ هو كما وصفت ولكن ﴿ قال ربك ﴾ ويحتمل أن يريد على هذه الحال ﴿ قال ربك ﴾ والمعنى متقارب والآية العبرة المعرضة للنظر ، والضمير في قوله ﴿ لنجعله ﴾ للغلام ، ﴿ ورحمة منا ﴾ معناه طريق هدى لعالم كثير ، فينالون

الرحمة بذلك ، ثم أعلمها بأن الأمر قد قضي وانتجز ، و" الأمر " هنا واحد الأمور وليس بمصدر أمر يأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(24/484)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب ﴾

يعني : القرآن ﴿ مريمَ إذ انتبذت ﴾ قال أبو عبيدة : تنحَّت واعتزلت ﴿ مكاناً شرقيّاً ﴾ مما يلي المشرق ، وهو عند العرب خير من الغربيّ .

قوله تعالى : ﴿ فاتّخذتْ من دونهم ﴾ يعني : أهلها ﴿ حجاباً ﴾ أي : ستراً وحاجزاً ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ضربت ستراً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن الشمس أظلَّتْها ، فلم يرها أحد منهم ، وذلك مما سترها الله به ، [روي] هذا المعنى عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها اتخذت حجاباً من الجدران ، قاله السدي عن أشياخه .

وفي سبب انفرادها عنهم قولان .

أحدهما : [أنها] انفردت لتطهر من الحيض وتمتشط ، قاله ابن عباس .

والثاني : لتفلّي رأسها ، قاله عطاء .

قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إِليها روحنا ﴾ وهو جبريل في قول الجمهور .

وقال ابن الأنباري : صاحب روحنا ، وهو جبريل .

والرُّوح بمعنى : الرَّوْح والفرح ، ثم تضم الراء لتحقيق مذهب الاسم ، وإِبطال طريق المصدر ، ويجوز أن يُراد بالرُّوح ها هنا : الوحي وجبريل صاحب الوحي .

وفي وقت مجيئه إِليها ثلاثة أقوال .

أحدها : وهي تغتسل .

والثاني : بعد فراغها ، ولبسها الثياب .

والثالث : بعد دخولها بيتها .

وقد قيل : المراد بالروح ها هنا : [الروح] الذي خُلق منه عيسى ، حكاه الزجاج ، والماوردي ، وهو مضمون كلام أُبيّ بن كعب فيما سنذكره عند قوله : ﴿ فحملتْه ﴾ .

قال ابن الأنباري : وفيه بُعد ، لقوله : ﴿ فتمثَّل لها بَشَراً سوّياً ﴾ ، والمعنى : تصوَّر لها في صورة البَشَر التامّ الخِلْقة .

وقال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد قطط حين طرَّ شاربه .

وقرأ أبو نهيك : "فأرسلنا إِليها رَوحنا" بفتح الراء ، من الرَّوْح .

قوله تعالى : ﴿ قالت إِني أعوذ بالرحمن منكَ إِن كنتَ تقيّاً ﴾ المعنى : إِن كنتَ تتَّقي الله ، فستنتهي بتعوُّذي منك ، هذا هو القول عند المحققين .

(25/484)

وحكي عن ابن عباس أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي ، وكان فاجراً ، فظنتْه إِياه ، ذكره ابن الأنباري ، والماوردي .

وفي قراءة عليّ عليه السلام ، وابن مسعود ، وأبي رجاء : "إِلا أن تكون تقيّاً" .

قوله تعالى : ﴿ قال إِنما أنا رسول ربّك ﴾ أي : فلا تخافي ﴿ لِيَهَبَ لك ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "لأهب لك" بالهمز .

وقرأ أبو عمرو ، وورش عن نافع : "ليهب لك" بغير همز .

قال الزجاج : من قرأ "ليهب" فالمعنى : أرسَلني ليهب ، ومن قرأ "لأهب" فالمعنى : أُرسلتُ إِليكِ لأهب لكِ .

وقال ابن الأنباري : المعنى : أرسلني يقول لك : أرسلتُ رسولي إِليكِ لأهبَ لكِ .

قوله تعالى : ﴿ غلاماً زكيّاً ﴾ أي : طاهراً من الذنوب .

والبغيّ : الفاجرة الزانية .

قال ابن الأنباري : وإنما لم يقل : "بغيَّة" لأنه وصف يغلب على النساء ، فقلَّما تقول العرب : رجل بغيّ ، فيجري مجرى حائض ، وعاقر .

وقال غيره : إنما لم يقل : "بغيَّة" لأنه مصروف عن وجهه ، فهو "فعيل" بمعنى : "فاعل" .

ومعنى الآية : ليس لي زوج ، ولستُ بزانية ، وإنما يكون الولد من هاتين الجهتين .

﴿ قال كذلِكِ قال ربُّكِ ﴾ قد شرحناه في قصة زكريا ، والمعنى : أنه يسيرٌ عليّ أن أهب لكِ غلاماً من غير أب .

﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ أي : دلالة على قدرتنا كونه من غير أب .

قال ابن الأنباري : إنما دخلت الواو في قوله : ﴿ ولنجعلَه ﴾ لأنها عاطفةٌ لما بعدها على كلام مضمر محذوف ، تقديره : قال ربُّكِ خَلْقُه عليّ هيّن لننفعكِ به ، ولنجعلَه عبرة .

قوله تعالى : ﴿ ورحمةً مِنّا ﴾ أي : لمن تبعه وآمن به ﴿ وكان أمراً مقضيّاً ﴾ أي : وكان خَلْقُه أمراً محكوماً به ، مفروغاً عنه ، سابقاً في عِلْم الله تعالى كونه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(26/484)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ ﴾

القصة إلى آخرها .

هذا ابتداء قصة ليست من الأولى .

والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي عرّفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا .

﴿ إِذِ انتبذت ﴾ أي تنحت وتباعدت .

والنبذ الطرح والرمي ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران : 187] .

﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي ممن كان معها .

و"إذ" بدل من "مريم" بدل اشتمال ؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها .

والانتباذ الاعتزال والانفراد .

واختلف الناس لم انتبذت ؛ فقال السدي : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس .

وقال غيره : لتعبد الله ؛ وهذا حسن .

وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفاً على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ أي مكاناً من جانب الشرق .

والشَّرْق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس .

والشَّرَق بفتح الراء الشمس .

وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها ؛ حكاه الطبري .

وحكي عن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله عز وجل : ﴿ إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة ؛ وقالوا : لو كان شيء من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه .

واختلف الناس في نبوّة مريم ؛ فقيل ؛ كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملَك .

وقيل : لم تكن نبية وإنما كلمها مثال بشر ، ورؤيتها للملك كما رؤي جبريل في صفة دِحْية الكلبي حين سؤاله عن الإيمان والإسلام .

والأول أظهر .

وقد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفى في "آل عمران" والحمد لله .

(27/484)

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا ﴾ قيل : هو روح عيسى عليه السلام ؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد ، فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها .

وقيل : هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصاً وكرامة .

والظاهر أنه جبريل عليه السلام ؛ لقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أي تمثل الملك لها .

﴿ بَشَراً ﴾ تفسير أو حال .

﴿ سَوِيّاً ﴾ أي مستوي الخلقة ؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته .

ولما رأت رجلاً حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء ف ﴿ قَالَتْ إِنِي أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ أي ممن يتقي الله .

البِكَاليّ : فنكص جبريل عليه السلام فزعاً من ذكر الرحمن تبارك وتعالى .

الثعلبيّ : كان رجلاً صالحاً فتعوذت به تعجباً .

وقيل : تقي فعيل بمعنى مفعول أي كنت ممن يُتَّقى منه .

وفي البخاري قال أبو وائل : علمت مريم أن التقيّ ذو نُهْيةٍ حين قالت : "إن كنت تقيا" .

وقيل : تقي اسم فاجر معروف في ذلك الوقت ؛ قاله وهب بن منبه ؛ حكاه مكي وغيره .

ابن عطية : وهو ضعيف ذاهب مع التخرص .

فقال لها جبريل عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله .

وقرأ ورش عن نافع "لِيهَبَ لَكِ" على معنى أرسلني الله ليهب لك .

وقيل : معنى "لأهب" بالهمز محمول على المعنى ؛ أي قال : أرسلته لأهب لك .

ويحتمل "ليهب" بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة .

فلما سمعت مريم ذلك من قوله استفهمت عن طريقه ف ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ أي بنكاح .

﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي زانية .

وذكرت هذا تأكيداً ؛ لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام .

(28/484)

وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد ؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء ؟ وروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمها ؛ قاله ابن جريج .

ابن عباس : أخذ جبريل عليه السلام رُدن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها

بعيسى .

قال الطبري : وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً ، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين ، فكان جميع عمرها نيفاً وخمسين سنة .

وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ متعلق بمحذوف ؛ أي ونخلقه لنجعله : ﴿ آيَةً ﴾ دلالة على قدرتنا عجيبة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي لمن آمن به ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ مقدراً في اللوح مسطوراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(29/484)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر قصة زكريا وطلبه الولد وإجابة الله إياه فولد له من شيخ فان وعجوز له عاقر وكان ذلك مما يتعجب منه ، أردفه بما هو أعظم في الغرابة والعجب وهو وجود ولد من غير ذكر ، فدل ذلك على عظم قدرة الله وحكمته ، وأيضاً فقص عليهم ما سألوه من قصة أهل الكهف وأتبع ذلك بقصة الخضر وموسى ، ثم قص

عليهم ما سألوه أيضاً وهو قصة ذي القرنين ، فذكر في هذه السورة قصصاً لم يسألوه عنها وفيها غرابة ، ثم أتبع ذلك بقصة إبراهيم وموسى وهارون موجزة ، ثم بقصة إسماعيل وإدريس ليستقر في أذهانهم أنه أطلع نبيه على ما سألوه وعلى ما لم يسألوه ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام وحيه في ذلك واحد يدل على صدقه وصحة رسالته من أمي لم يقرأ الكتب ولا رحل ولا خالط من له علم ولا عنى بجمع سير .

و﴿ الكتاب ﴾ القرآن .

و﴿ مريم ﴾ هي ابنة عمران أم عيسى ، و﴿ إذ ﴾ قيل ظرف زمان منصوب باذكر ، ولا يمكن ذلك مع بقائه على الظرفية لأن الاستقبال لا يقع في الماضي .

وقال الزمخشري : ﴿ إذ ﴾ بدل من ﴿ مريم ﴾ بدل الاشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وقته ، إذ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيها انتهى .

ونصب ﴿ إذ ﴾ باذكر على جهة البدلية يقتضي التصرف في ﴿ إذ ﴾ وهي من الظروف التي لم يتصرف فيها إلاّ بإضافة ظرف زمان إليها .

فالأولى أن يجعل ثم معطوف محذوف دل المعنى عليه وهو يكون العامل في ﴿ إذ ﴾ وتبقى على ظرفيتها وعدم تصرفها ، وهو أن تقدر مريم وما جرى لها ﴿ إذ انتبذت ﴾

واستبعد أبو البقاء قول الزمخشري قال : لأن الزمان إذا لم يكن حالاً عن الجثة ولا خبراً عنها ولا وصفاً لها لم يكن بدلاً منها انتهى .

واستبعاده ليس بشيء لعدم الملازمة .

قال : وقيل التقدير خبر مريم فإذ منصوبة لخبر .

(30/484)

وقيل : حال من هذا المضاف المحذوف .

وقيل : ﴿ إذ ﴾ بمعنى أن المصدرية كقولك : أكرمك إذ لم تكرمني أي إن لم تكرمني .

قال أبو البقاء : فعلى هذا يصح بدل الاشتمال أي ﴿ واذكر ﴾ ﴿ مريم ﴾ انتباذها انتهى .

و ﴿ انتبذت ﴾ افتعل من نبذ ، ومعناه ارتمت وتنحت وانفردت .

قال السدّي ﴿ انتبذت ﴾ لتطهر من حيضها وقال غيره : لتعبد الله وكانت وقفاً على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فتنحت من الناس كذلك ، وانتصب ﴿ مكاناً ﴾ على الظرف أي في مكان ، ووصف بشرقي لأنه كان مما يلي بيت المقدس أو من دارها ، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا يعظمون جهة الشرق من حيث تطلع الشمس .

وعن ابن عباس : اتخذت النصارى الشرق قبلة لميلاد عيسى عليه السلام .

وقيل : قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أي شيء يسترها ، وكان

موضعها المسجد فبينا هي في مغتسلها أتاها الملَك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً أو حسن الصورة مستوي الخلق .

وقال قتادة ﴿ شرقياً ﴾ شاسعاً بعيداً انتهى .

والحجاب الذي اتخذته لتستتر به عن الناس لعبادة ربها .

قال السدّي : كان من جدران .

وقيل : من ثياب .

وعن ابن عباس : جعلت الجبل بينها وبين الناس ﴿ حجاباً ﴾ وظاهر الإرسال من الله إليها ومحاورة الملَك تدل على أنها نبية .

وقيل : لم تنبأ وإنما كلمها مثال بشر ورؤيتها للملك كما رئي جبريل عليه السلام في صفة دحية .

وفي سؤاله عن الإيمان والإسلام .

والظاهر أن الروح جبريل لأن الدين يحيا به ويوحيه أو سماه روحه على المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك : أنت روحي .

وقيل عيسى كما قال وروح منه ، وعلى هذا يكون قوله ﴿ فتمثل ﴾ أي الملك .

وقرأ أبو حيوة وسهل ﴿ روحنا ﴾ بفتح الراء لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقرّبين في قوله ﴿ فأما إن كان من المقرّبين فروح وريحان ﴾ أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا .

وذكر النقاش أنه قرىء ﴿ روحنا ﴾ بتشديد النون اسم ملك من الملائكة وانتصب ﴿ بشراً سوّياً ﴾ على الحال لقوله وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً .

قيل : وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه ، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبراً لعفتها .

وقيل : كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه ، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفرج السقف لها فخرجت فجلست في المشرقة وراء الجبل فأتاها الملَك .

وقيل : قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس ، وتعليقها الاستعاذة على شرط تقواه لأنه لا تنفع الاستعاذة ولا تجدي إلاّ عند من يتقي الله أي إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل الاستعاذة به فإني عائذة به منك .

وجواب الشرط محذوف أي فإني أعوذ .

وقال الزجاج : فستعظ بتعويذي بالله منك .

وقيل : فاخرج عني .

وقيل : فلا تتعرض لي وقول من قال تقي اسم رجل صالح أو رجل فاسد ليس بسديد .

وقيل : ﴿ إن ﴾ نافية أي ما ﴿ كنت تقياً ﴾ أي بدخولك عليّ ونظرك إليّ ، ولياذها بالله وعياذها به وقت التمثيل دليل على أنه أول ما تمثل لها استعاذت من غير جري كلام بينهما .

﴿ قال ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ الناظر في مصلحتك والمالك لأمرك ، وهو الذي استعذت به وقوله لها ذلك تطمين لها وإني لست ممن تظن به ريبه أرسلني إليك ليهب .

(32/484)

وقرأ شيبة وأبو الحسن وأبو بحرية والزهري وابن مناذر ويعقوب واليزيدي ومن السبعة نافع وأبو عمر : وليهب أي ليهب ربك .

وقرأ الجمهور وباقي السبعة ﴿ لأهب ﴾ بهمزة المتكلم وأسند الهبة إليه لما كان الإعلام بها من قبله .

وقال الزمخشري : ﴿ لأهب لك ﴾ لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الروع .

وفي بعض المصاحف أمرني أن أهب لك ، ويحتمل أن يكون محكياً بقول محذوف أي قال ﴿ لأهب ﴾ والغلام اسم الصبي أول ما يولد إلى أن يخرج إلى سن الكهولة .

وفسرت الزكاة هنا بالصلاح وبالنبوة وتعجبت مريم وعلمت بما ألقي في روعها أنه من عند الله .

وتقدم الكلام على سؤالها عن الكيفية في آل عمران في قصتها وفي قولها ﴿ ولم أك بغياً ﴾ تخصيص بعد تعميم لأن مسيس البشر يكون بنكاح وبسفاح .

وقال الزمخشري : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله ﴿ من قبل أن تمسوهنّ ﴾ أو لمستم النساء والزنا ليس كذلك إنما يقال فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن يراعى فيه الكنايات والآداب انتهى .

والبغي المجاهرة المشتهرة في الزنا ، ووزنه فعول عند المبرد اجتمعت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها لأجل الياء كما كسرت في عصي ودلي .

قيل : ولو كان فعيلاً لحقتها هاء التأنيث فيقال بغية .

وقال ابن جنيّ في كتاب التمام : هي فعيل ، ولو كانت فعولاً لقيل بغو كما قيل فلان نهو عن المنكر انتهى .

قيل : ولما كان هذا اللفظ خاصاً بالمؤنث لم يحتج إلى علامة التأنيث فصار كحائض وطالق ، وإنما يقال للرجل باغ .

وقيل : بغى فعيل بمعنى مفعول كعين كحيل أي مبغية بطلبها أمثالها .

(33/484)

﴿ قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ﴾ الكلام عليه كالكلام السابق في قصة زكريا ﴿ ولنجعله ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على تعليل محذوف تقديره لنبين به قدرتنا ﴿ ولنجعله ﴾ أو محذوف متأخر أي فعلنا ذلك ، والضمير في ﴿ ولنجعله ﴾ عائد على الغلام وكذلك في قوله ﴿ وكان ﴾ أي وكان وجوده ﴿ أمراً ﴾ مفروغاً منه ، وكونه رحمة من الله أي طريق هدى لعالم كثير فينالون الرحمة بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(34/484)

وقال أبو السعود :

﴿ واذكر فِى الكتاب ﴾

كلامٌ مستأنَفٌ خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأُمر بذكر قصة مريمَ إثرَ قصةِ زكريا لما بينهما من كمال الاشتباكِ ، والمرادُ بالكتاب السورةُ الكريمة لا القرآنُ إذ هي التي صُدّرت بقصة زكريا المستتبعةِ لذكر قصتها وقصصِ الأنبياء المذكورين فيها أي واذكر للناس ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أي نَبأَها فإن الذكرَ لا يتعلق بالأعيان وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انتبذت ﴾ ظرف لذلك المضافِ لكن لا على أن يكون المأمورُ به ذكرَ نبئها عند انتباذِها فقط ، بل كلَّ ما عُطف عليه وحُكيَ بعده بطريق الاستئنافِ ، داخلٌ في حيز الظرف متممٌ للنبأ . وقيل : بدلُ اشتمال من مريم على أن المراد بها نبأُها فإن الظروفَ مشتملةٌ على ما فيها ، وقيل : بدلُ الكل على المرادَ بالظرف ما وقع فيه ، وقيل : إذ بمعنى أن المصدرية كما في قولك : أكرمتك إذ لم تكرمني أي لأن لم تكرمني فهو بدلُ اشتمالٍ لا محالة وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ متعلق بانتبذت وقوله : ﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ مفعولٌ له باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيانِ المترتبِ وجوداً واعتباراً على أصل معناه العاملِ في الجار والمجرور ، وهو السرُّ في تأخيره عنه أي اعتزلت وانفردت منهم وأتت مكاناً شرقياً من بيت المقدِس أو من دارها لتتخلّى هنالك للعبادة ، وقيل : قعدت في شرُفة لتغتسل من الحيض محتجبةً بحائط أو بشيء يسترُها وذلك قوله تعالى : ﴿ فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾ وكان موضعُها

المسجدَ فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها وإذا طهُرت عادت إلى المسجد ، فبينما هي في مغتسلها أتاها الملَكُ عليه الصلاة والسلام في صورة آدميَ شابّ أمردَ وضيءِ الوجه جعْدِ الشعر وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ أي جبريلَ عليه الصلاة والسلام عبرّ عنه بذلك توفيةً للمقام حقَّه ، وقرىء بفتح الراء لكونه سبباً لما فيه روحُ العباد الذي هو عُدّةُ المقربين في قوله تعالى :

(35/484)

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ سويَّ الخلقِ كاملَ البُنية لم يفقِدْ من حِسان نعوتِ الآدمية شيئاً ، وقيل : تمثل في صورةِ ترْبٍ لها اسمُه يوسفُ من خدم بيتِ المقدس وذلك لتستأنسَ بكلامه وتتلقّى منه ما يلقى إليها من كلماته تعالى ، إذ لو بدا لها على الصورة الملَكيةِ لنفرَتْ منه ولم تستطع مفاوضتَه . وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتِها فتنحدر نطفتُها إلى رحمها فمع مخالفته لمقام بيانِ آثارِ القدرة الخارقةِ للعادة يكذبه قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ ﴾ فإنه شاهدٌ عدْلٌ بأنه لم يخطُر ببالها شائبةُ ميل ما إليه فضلاً عما ذُكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتبِ الميل والشهوة ، نعم كان تمثيلُه على ذلك الحسنِ الفائقِ والجمالِ الرائقِ لابتلائها وسبْرِ عِفّتها ،

ولقد ظهر منها من الورع والعَفافِ ما لا غايةَ وراءه ، وذكرُه تعالى بعنوان الرحمانيةِ للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلابِ آثارِ الرحمةِ الخاصة التي هي العصمةُ مما دهِمَها وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به ، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدلالة السياقِ عليه أي فإني عائذةٌ به أو فتعوّذْ بتعوذي أو فلا تتعرّضْ لي .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾

(36/484)

يريد عليه الصلاة والسلام أني لست ممن يُتوقّع منه ما توهّمتِ من الشر ، وإنما أنا رسولُ ربك الذي استعذتِ به ﴿ لأَهَبَ لَكِ غلاما ﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدِّرْع ، ويجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء ، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتِها والإشعارِ بعلة الحكم ، فإن هبةَ الغلامِ لها من أحكام تربيتها ، وفي بعض المصاحفِ أمرَني أن أهبَ لك غلاماً ﴿ زَكِيّاً ﴾ طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح .

﴿ قَالَتْ أَنى يَكُونُ لِى غلام ﴾ كما وصفت ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ أي والحال أنه لم يباشرْني بالنكاح رجلٌ ، وإنما قيل بشرٌ مبالغةً في بيان تنزّهها من مبادىء الولادة ﴿ وَلَمْ أَكُ

بَغِيّاً ﴾ عطف على لم يمسَسْني داخلٌ معه في حكم الحالية مفصِحٌ عن كون المِساس عبارةً عن المباشرة بالنكاح أي ولم أكن فاجرةً تبغي الرجالَ ، وهي فَعولٌ بمعنى الفاعل أصلها بغُويٌ فأدغمت الواوُ بعد قلبها ياء في الياء وكسرت الغين للياء ، وقيل : هي فعيل بمعنى الفاعل ، وإلا لقيل : بَغُوٌّ كما يقال : فلان نَهُوٌّ عن المنكر ، وإنما لم تلحَقْه التاءُ لأنها من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أي يبغيها الرجالُ للفجور بها .

(37/484)

﴿ قَالَ ﴾ أي الملَكُ تقريراً لمقالته وتحقيقاً لها ﴿ كذلك ﴾ أي الأمرُ كما قلتُ لك ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الخ ، استئنافٌ مقرِّر له أي قال ربك الذي أرسلني إليك : ﴿ هُوَ ﴾ أي ما ذكرتُ لك من هبة الغلامِ من غير أن يمسَّك بشرٌ أصلاً ﴿ عَلَىَّ ﴾ خاصة ﴿ هَيِّنٌ ﴾ وإن كان مستحيلاً عادة لما أني لا أحتاج إلى الأسباب والوسائطِ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ إما علةٌ لمعلَّلٍ محذوف أي ولنجعل وهْبَ الغلام آيةً لهم وبرهاناً يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك ، أو معطوفٌ على علة أخرى مضمَرةٍ أي لنبين به عِظَمَ قدرتنا ولنجعله آية الخ ، والواو على الأول اعتراضيةٌ والالتفاتُ إلى نون العظمة لإظهار كمالِ الجلالةِ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمةً كائنة ﴿ مِنَّا ﴾ عليهم يهتدون بهدايته

ويسترشدون بإرشاده . ﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ مُحكماً قد تعلق به قضاؤنا الأزليُّ أو قُدّر وسُطّر في اللوح لا بد من جريانه عليك ألبتةَ ، أو كان أمراً حقيقاً بأن يقضى ويُفعل لتضمنّه حِكَماً بالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(38/484)

وقال الآلوسى :

﴿ واذكر فِى الكتاب ﴾ الخ

فهو كلام مستأنف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم وأمر عليه الصلاة والسلام بذكر قصة مريم إثر قصة زكريا عليه السلام لما بينهما من كمال الاشتباك والمناسبة .

والمراد بالكتاب عند بعض المحققين السورة الكريمة لا القرآن كما عليه الكثير إذ هي التي صدرت بقصة زكريا عليه السلام المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء عليهم السلام المذكورين فيها أي واذكر للناس فيها ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أي نبأها فإن الذكر لا يتعلق بالاعيان .

وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انتبذت ﴾ ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل في حيز الظرف متمم للبناء وجعله أبو حيان ظرفاً لفعل محذوف أي واذكر مريم وما جرى لها

إذ انتبذت وما ذكرناه أولى .

وقيل : هو ظرف لمحذوف وقع حالاً من ذلك المضاف ، وقيل : بدل اشتمال من مريم لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه تفخيم لقصتها العجيبة .

وتعقبه أبو البقاء بأن الزمان إذا لم يقع حالاً من الجثة ولا خبراً عنها ولا صفة لها لم يكن بدلاً منها .

ورد بأنه لا يلزم من عدم صحة ما ذكر عدم صحة البدلية ألا ترى سلب زيد ثوبه كيف صح فيه البدلية مع عدم صحة ما ذكر في البدل وكون ذلك حال الزمان فقد غير بين ولا مبين .

وقيل : بدل كل من كل على أن المراد بمريم قصتها وبالظرف الواقع فيه وفيه بعد .

وقيل : ﴿ إِذَ ﴾ بمعنى أن المصدرية كما في قوله لا أكرمتك إذ لم تكرمني أي لأن لم تكرمني أي لعدم إكرامك لي .

وهذا قول ضعيف للنحاة .

والظاهر أنها ظرفية أو تعليلية إن قلنا به ويتعين على ذلك بدل الاشتمال .

والانتباذ الاعتزال والانفراد .

وقال الراغب يقال : انتبذ فلان اعتزل اعتزال من تقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس .

والنبذ : إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ متعلق بانتبذت ، وقوله سبحانه : ﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ قيل نصب على الظرف ، وقيل مفعول به لانتبذت باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيان المترتب وجوداً واعتباراً على أصل معناه العامل في الجار والمجرور وهو السر في تأخيره عنه .

واختاره بعض المحققين أي اعتزلت وانفردت من أهلها وأتت مكاناً شرقياً من بيت المقدس أو من دارها لتتخلى هناك للعبادة ، وقيل قعدت في مشرفة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط أو بجبل على ما روي عن ابن عباس أبو بثوب على ما قيل وذلك قوله تعالى :

﴿ فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾

وكونه شرقياً كان أمراً اتفاقياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قيل ربك ﴿ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ [مريم : 16] فلذلك صلوا قبل مطلع الشمس ، وفي رواية إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة لأن مريم انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، وقد قدمنا عن بعض أنهم كانوا في زمن عيسى عليه السلام يستقبلون بيت المقدس وإنهم ما استقبلوا الشرق إلا بعد رفعه عليه السلام زاعمين

أنه ظهر لبعض كبارهم فأمره بذلك ، وجوز أن يكون اختاره الله تعالى لها مطلع الأنوار .

وقد علم سبحانه أنه حان ظهور النور العيسوي منها فناسب أن يكون ظهور النور المعنوي في جهة ظهور النور الحسي وهو كما ترى ، وروى أنه كان موضعها في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها وإذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هي في مغتسلها أتاها الملك عليه السلام في صورة شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ أي جبرائيل عليه السلام كما قاله الأكثر ، وعبر عنه بذلك لأن الدين يحيا به وبوحيه فهو مجاز .

والإضافة للتشريف كبيت الله تعالى .

(40/484)

وجوز أن يكون ذلك كما تقول لحبيبك أنت روحي محبة له وتقريباً فهو مجاز أيضاً إلا أنه مخالف للأول في الوجه والتشريف عليه في جعله روحاً .

وقال أبو مسلم : المراد من الروح عيسى عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : 171] وضمير تمثل الآتي للملك وليس بشيء .

وقرأ أبو حيوة .

وسهل ﴿ رُوحَنَا ﴾ بفتح الراء ، والمراد به جبريل عليه السلام أيضاً لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله تعالى الذي هو عدة المقربين في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة : 88 ، 89] أو لأنه عليه السلام من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربا أو ذا روحنا .

وذكر النقاش أنه قرىء ﴿ رُوحَنَا ﴾ بتشديد النون اسم ملك من الملائكة عليهم السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ مشتق من المثال وأصله أن يتكلف أن يكون مثال الشيء ، والمراد فتصور لها ﴿ بَشَراً سَوِيّاً ﴾ سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً ، وقيل تمثل في صورة قريب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته إذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ، وما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها فمع ما فيه من الهجنة التي ينبغي أن تنزه مريم عنها يكذبه قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ ﴾

(41/484)

فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه فضلاً عن الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة ، نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لأن عادة الملك إذا تمثل أن يتمثل بصورة بشر جميل كما كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية رضي الله تعالى عنه أولاً بتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وإرادة القائل أنه وقع كذلك لكيون مظنة لما ذكر فيظهر خلافه فيكون أقوى في نزاهتها بعيد جداً عن كلامه .

وقال بعض المتأخرين : إن استعاذتها بالله تعالى تنبىء عن تهييج شهوتها وميلانها إليه ميلاً طبيعياً على ما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف : 33] فقد قيل : المراد بالصبوة فيه الميل بمقتضى الطبيعة وحكم القوة الشهوية ثم أنه لا ينافي عفتها بل يحققها لكونه طبيعياً اضطرارياً غير داخل تحت التكلف كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : 24] ومع هذا قد استعاذ يوسف عليه السلام بما حكى الله تعالى عنه من قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَّ ﴾ [يوسف : 23] فدعوى أن الاستعاذة تكذب التهييج والميل الطبيعي كذب والقول بأنه يأبى ذلك مقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة ليس بشيء لأن خلق الإنسان من ماء واحد آثار القدرة الخارقة للعادة أيضاً .

والأسباب في هذا المقام ليست بمرفوضة بالكلية كما يرشد إلى ذلك قصة يحيى عليه السلام.

(42/484)

على أنه قد يدعى أن خلق شيء لا من شيء أصلاً محال فلا يكون من مراتب القدرة ومادة الجعل الإبداعي الأعيان الثابتة وهي قديمة اه، ولا يخلو عن بحث، وما ذكرناه في التعليل أسلم من القال والقيل فتدبر، ونصب ﴿ بَشَرًا ﴾ [مريم: 17] على الحالية المقدرة أو التميزي، وقيل على المفعولية بتضمين تمثل معنى اتخذ، واستشكل أمر هذا التمثل بأن جبريل عليه السلام شخص عظيم الجثة حسبما نطقت به الأخبار فمتى صار في مقدار جثة الإنسان يلزم أن لا يبقى جبريل أن تساقطت الأجزاء الزائدة على جثة الإنسان وأن تتداخل الأجزاء إن لم يذهب شيء وهو محال.

وأيضاً لو جاز التمثل ارتفع الوثوق وامتنع القطع بأن هذا الشخص الذي يرى الآن هو زيد الذي رئى أمس لاحتمال التمثل، وأيضاً لو جاز التمثل بصورة الإنسان فلم لا يجوز تمثله بصورة أخرى غير صورة الإنسان، ومن ذلك البعوض ونحوه، ومعلوم أن كل مذهب يجر إلى ذلك فهو باطل، وأيضاً لو جاز ذلك ارتفع الوثوق بالخبر المتواتر كخبر مقاتلة النبي عليه

الصلاة والسلام يوم بدر لجواز أن يكون المقاتل المتمثل به .

وأجيب عن الأول بأنه لا يمتنع أن يكون لجبريل عليه السلام أجزاء أصلية قليلة وأجزاء فاضلة فبالأجزاء الأصلية يكون متمكناً من التمثل بشراً هذا عند القائلين بأنه جسم ، وأما عند القائلين بأنه روحاني فلا استبعاد في أن يتدرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغري .

وعن الثاني بأنه مشترك الإلزام بين الكل فإن من اعترف بالصانع القادر يلزمه ذلك أيضاً إذ يجوز أن يخلق سبحانه مثل زيد مثلاً ومع هذا الجواز يرتفع الوثوق ويمتنع القطع على طرز ما تقدم .

(43/484)

وكذا من لم يعترف ، وأسند الحوادث إلى الاتصالات والتشكلات للفلكية يلزمه ذلك لجواز حدوث اتصال يقتضي حدوث مثل ذلك وحينئذ يمتنع القطع أيضاً ، ولعله لما كان مثل ذلك نادراً لم يلزم منه قدح في العلوم العادية المستندة إلى الإحساس فلا يلزم الشك في أن زيداً الذي نشاهده الآن هو الذي شاهدناه بالأمس .

وأجيب عن الثالث بأن أصل التجويز قائم في العقل وإنما عرف فساده بدلائل السمع .

وهو الجواب عن الرابع كذا قال الإمام الرازي وعندي أن مسألة التمثل على القول بالجسمية مما ينبغي تفويض الأمر فيها إلى علام الغليوب ولا سبيل للعقل إلى الجزم فيها بشيء تنشرح له القلوب .

وإنما ذكرته تعالى بعنوان الرحمانية تذكيراً لمن رأته بالرحمة ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه أو مبالغة للعياذة به تعالى واستجلاباً لآثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها .

وما قيل من أن ذلك تذكير لمن رأت بالجزاء لينزجر فإنه يقال يا رحمن الآخرة ليس بشيء لأنه ورد رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ﴿ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ شرط جوابه محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أي إن كان يرجى منك أن تتقي الله تعالى وتخشاه وتحتفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كذا قدره الزمخشري .

وفي "الكشف" أنه أشار إلى أن وجه هذا الشرط مع أن الاستعاذة بالرحمن إن لم يكن تقياً أولى أن أثر الاستجارة بالله تعالى أعني مكافته وأمنها منه إنما يتم ويظهر بالنسبة إلى المتقى ، وفيه دلالة على أن التقوى مما تقتضي للمستعيذ بالله تعالى حق الذمام والمحافظة وعلى عظم مكان التقوى حيث جعلت شرطاً للاستعاذة لا تتم دونها وقال : إن كان يرجى إظهاراً لمعنى أن وإنها إنما أوثرت دلالة على أن رجاء التقوى كان فضلاً عن العلم بها .

والحاصل أن التقوى لم تجعل شرط الاشتعاذة بل شرط مكافته وأمنها منه وكنت عن ذلك

بالاستعاذة بالله تعالى حثاً له على المكافة بألطف وجه وأبلغه وإن من تعرض للمستعيذ به فقد تعرض لعظيم سخطه انتهى .

(44/484)

وقدر الزجاج إن كنت تقياً فتتعظ بتعويذي ، والأولى عليه تتعظ بإسقاط الفاء لأن المضارع الواقع جواباً لا يقترن بالفاء فيحتاج إلى جعله مرفوعاً بتقدير مبتدأ ، وقدر بعضهم فاذهب عني وبعضهم فلا تتعرض بي وقيل إنها أرادت إن كنت تقياً متورعاً فإني أعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك وكأنه أراد أنها استعاذت بهذا الشرط ليعلم استعاذتها بما يقابله من باب أولى ، وقال الشهاب : الظاهر أن إن على هذا القول وصلية وفي مجيئها بدون الواو كلام ، وذكر أن الجملة على هذا حالية والمقصود بها الالتجاء إلى الله تعالى من شره لا حثه على الانزجار وقيل نافية ، والجملة استئناف في موضع التعليل أي ما كنت تقياً متورعاً بحضورك عندي وانفرادك بي وهو خلاف الظاهر ، وأياً كان فالتقى وصف من التقوى ، وقول من قال : إنه اسم رجل صالح أو طالح ليس بسديد .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾

المالك لأمرك والناظر في مصلحتك الذي استعذت به ولست ممن يتوقع منه ما توهمت من

الشر .

روى عن ابن عباس أنها لما قالت : ﴿ إني أعوذ ﴾ [مريم : 18] الخ تبسم جبريل عليه السلام وقال : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غلاما ﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع ، ويجوز أن يكون حكاية لقوله تعالى بتقدير القول أي ربك الذي قال أرسلت هذا الملك لأهب لك ، ويؤيده قراءة شيبة .

وأبي الحسن .

وأبي بحرية .

والزهري .

وابن مناذر .

ويعقوب .

واليزيدي .

وأبي عمرو .

ونافع في رواية ليهب بالياء فإن فاعله ضمير الرب تعالى .

وما قيل : من أصل ﴿ ليهب ﴾ لأهب فقلبت الهمزة ياء لانكسار ما قبلها تعسف من غير داع له .

وفي بعض المصاحب : أمرني أن أهل لك غلاماً ﴿ غلاما زَكِيّاً ﴾ طاهراً من الذنوب ،

وقيل : نبياً .

وقيل : نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح فالزكا شامل للزيادة المعنوية والحسية .

واستدل بعضهم برسالة الملك إليها على نبوتها .

(45/484)

وأجيب : بأن الرسالة لمثل ذلك لا تستدعي النبوة .

﴿ قَالَتْ أَنى يَكُونُ لِى غلام وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾

أي والحال أنه لم يباشرني بالحلال رجل وإنما قيل بشر مبالغة في تنزهها من مبادىء الولادة ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ أي ولم أكن زانية ، والجملة عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالحلال وهو كناية عن ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : 237] ﴿ أَوْ لامستم النساء ﴾ [النساء : 43] ونحوه كما قيل دخلتم بهن وبنى عليها .

(46/484)

وأما الزنا فليس بقمن أن يكنى عنه لأن مقامه أما تطهير اللسان فلا كناية ولا تصريح وإما التقريع فحينئذ يستحق الزيادة على التصريح والألفاظ التي يظن أنها كناية فيه قد شاعت حتى صارت حقيقة صرحية فيه ومنها ما في الظن الكريم ، ولا يرد على ذلك ما في سورة آل عمران من قولها ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ مقتصرة عليه فإن غاية ما قيل فيه إنه كناية عن النكاح والزنا على سبيل التغليب ، ولم يجعل كناية عن الزنا وحده ، ولقائل أن يقول : أنه ثم كناية عن النكاح فقد كما هنا واستوعبت الأقسام ههنا لأنه مقام البسط واقتصرت على نفي النكاح ثم لعدم التهمة ولعلمها أنهم ملائكة ينادون لا يتخيلون فيها التهمة بخلاف هذه الحالة فإن جبريل عليه السلام كان قد أتاها في صورة شاب أمرد ، ولهذا تعوذت منه ولم يكن قد سكن روعها بالكلية إلى أن قال : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مريم : 19] على أنه قيل : إن ما في آل عمران من الاكتفاء وترك الاكتفاء في هذه لأنه تقدم نزولها فهي محل التفصيل بخلاف تلك لسبق العلم ، وقيل : المساس هنا كناية عن الأمرين على سبيل التغليب كما في تلك السورة ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ تخصيص بعد التعميم لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء ، ولذا آثرت كان في النفي الثاني فإن في ذلك إيذاناً بأن انتفاء الفجور لازم لها .

وكأنها عليها السلام من فرط تعجبها وغاية استبعادها لم تلتفت إلى الوصف في قول الملك

عليه السلام ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ [مريم : 19] النافي كل ريبة وتهمة ونبذته وراء ظهرها وأتت بالموصوف وحده وأخذت في تقرير نفيه على أبلغ وجه أي ما أبعد وجود هذا الموصوف مع هذه الموانع بله الوصف ، وهذا قريب من الأسلوب الحكيم .

(47/484)

وبغى فعول عند المبرد وأصله بغوى فلما اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسرت الغين اتباعاً ولذا لم تلحقه هاء التأنيث لأن فعولاً يستوي فيه المذكور والمؤنث وإن كان بمعنى فاعل كصبور ، واعترضه ابن جني في كتاب التمام بأنه لو كان فعولاً قيل بغو كما قيل نهو عن المنكر ورد بأنه لا يقال على الشاذ وقد نصوا على شذوذ نهو لمخالفته قاعدة اجتماع الواو والياء وسبق إحداهما بالسكون واختار أنه فعيل وهو على ما قال أبو البقاء بمعنى فاعل ، وكان القياس أن تلحقه هاء التأنيث لأنه حينئذ ليس مما يستوي فيه المذكر والمؤنث كفعول ، ووجه عدم اللحوق بأن للمبالغة التي فيه حمل على فعول فلم تلحقه الهاء ، وقال بعضهم : هو من باب النسب كطالق ومثله يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وقيل ترك تأنيثه لاختصاصه في الاستعمال بالمؤنث ويقال للرجل باغ وقيل فعيل بمنى مفعول كعين كحيل وعلى هذا معنى بغى يبغيها

الرجال للفجور بها ، وعلى القول بأنه بمعنى فاعل فاجرة تبغي الرجال ، وأياً ما كان فهو للشيوع في الزانية صار حقيقة صريحة فيه فلا يرد أن اعتبار المبالغة فيه لا يناسب المقام لأن نفي الأبلغ لا يستلزم نفي أصل الفعل ، ولا يحتاج إلى الجواب بالتزام أن ذلك من باب النسب أو بأن المراد نفي القيد والمقيد معاً أو المبالغة في النفي لا نفي المبالغة .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾

اطلقوا الكلام في أنه نظير ما تقدم في قصة زكريا عليه السلام .

(48/484)

وفي "الكشف" أنه لا يجري فيه تمام الأوجه التي ذكرها الزمخشري هناك لأن ﴿ قَالَ ﴾ أولاً فيه ضمير الرسول إليها فكذلك إن علق بالثاني يكون المعنى قال الرسول قال ربك كذلك ثم فسره بقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أو المعنى مثل ذلك القول العجيب الذي سمعته ووعدتك قال ربك على إقحام الكاف ثم استأنف هو على هين ولا بد من إضمار القول لأن المخاطب لها جبريل عليه السلاكم وقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ كلام الحق تعالى شأنه حكاه لها .

وإن علق بالأول يكون المعنى الأمر كذلك تصديقاً لها أو كما وعدت تحقيقاً له ثم استأنف

قال ربك هو على هين لإزالة الاستبعاد أو لتقرير التحقيق ولاي بعد أن يجعل ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ على هذا تفسيراً وكذلك مبهماً انتهى .

ولا أرى ما نقل عن ابن المنير هناك وجهاً هنا ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ تعليل لمعلل محذوف أي لنجعل وهب الغلام ﴿ ءَايَةً ﴾ وبرهاناً ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ جميعهم أو المؤمنين على ما روى عن ابن عباس يستدلون به على كمال قدرتنا ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنَّا ﴾ عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بإرشاده فعلنا ذلك .

وجوز أن يكون معطوفاً على علة أخرى مضمرة أي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ .

قال في "الكشف" : إن مثل هذا يطرد فيه الوجهان ويرجح كل واحد بحسب المقام وحذف المعلل هنا أرجح إذ لو فرض علة أخرى لم يكن بد من معلل محذوف أيضاً فليس قبل ما يصلح فهو تطويل للمسافة .

وهذه الجملة أعني العلة مع معللها معطوفة على قوله ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وفي إيثار الأولى اسمية دالة على لزوم الهون مزيلة للاستبعاد والثانية فعلية دالة على أنه تعالى أنشأه لكونه آية ورحمة خاصة لا لأمر آخر ينافيه مراداً بها التجدد لتجدد الوجود لينتقل من الاستبعاد إلى الاستحماد ما لا يخفى من الفخامة انتهى .

ولا يرد أنه إذا قدر علة نحو لنبين جاز أن يكون ذلك متعلقاً بما يدل عليه ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ من غير حذف شيء فلا يصح قوله لم يكن بد من معلل محذوف لظهور ما فيه .

وما ذكره من العطف خالف فيه بعضهم فجعل الواو على الأول اعتراضية .

ومن الناس من قال : إن ﴿ لنجعله ﴾ على قراءة ﴿ ليهب ﴾ [مريم : 19] عطف عليه على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلم .

وجوز أيضاً العطف على ﴿ لأهَبَ ﴾ [مريم : 19] على قراءة أكثر السبعة .

ولا يخفى بعد هذا العطف على القراءتين ﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ محكماً قد تعلق به قضاؤنا الأزلي أو قدر وسطر في اللوح لا بد لك منه أو كان أمراً حقيقاً بمقتضى الحكمة والتفضل أن يفعل لتضمنه حكماً بالغة .

وهذه الجملة تذييل إما لمجموع الكلام أو للأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(50/484)

وقال القاسمي :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾

أي : القرآن : ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أي : نبأها : ﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ ﴾ أي : اعتزلت وانفردت : ﴿ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ أي : شرقي بيت المقدس . لئلا يشغلوها عن

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً ﴾

أي : لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ أي : جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا ، لغاية كماله ، لينفخ فيها : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أي : فتصور لرؤيتها : ﴿ بَشَراً سَوِيّاً ﴾ أي : سويّ الخلق ، كامل الصورة .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ﴾ أي : أعتصم به منك . إنما خافته لانفرادها في خلوتها ، وظنها أنه يريدها على نفسها . وفي ذلك من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه :

﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾ أي : تتقي الله تعالى ، وتبالي بالاستعاذة به . وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه . أي : فإني عائذة به . أو فلا تتعرض لي . وإنَّما ذكّرته بالله تعالى ، لأن المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . فخوفته أولاً بالله عز وجل

.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ﴾ أي : لا تخافي ولا تتوقعي ما توهمت . فإني رسول ربك الذي استعذت به ، بعثني إليك : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ﴾ أي : لأكون سبباً في هبته .

والزكيّ : الطاهر من الذنوب أو النامي على الخير .

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ أي : تعجبت من هذا وقالت : كيف يكون لي غلام ، أي : على أي : صفة يوجد مني ، ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور ؟ .

(51/484)

قال الزمخشريّ : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : 237] ، ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [النساء : 43] و [المائدة : 6] ، والزنى ليس كذلك . إنما يقال فيه فَجَرَ بهَا ، وخبث بها وما أشبه ذلك . وليس بقَمنٍ أن تراعى فيه الكنايات والآداب . وإنما اقتصر في سورة آل عِمْرَان على قوله : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 47] ، لكون هذه السورة متقدمة النزول عليها . فهي محل التفصيل . بخلاف تلك . فلذا حسن الاكتفاء فيها . وقيل : جعل المس ثَمَّ ، كناية عنهما ، على سبيل التغليب . والبغيُّ الفاجرة التي تبغي الرجال . ووزنه فعول ولذا لم تلحقه التاء ، لأنه يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإن كان بمعنى فاعل كصبور . أو فعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة .

﴿ قَالَ ﴾ أي : الملك : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي : برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع خلقهم . فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق حواء من ذكر بلا أنثى . وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى ، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر . فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي : عليك بهذه الكرامة ، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده ، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾ من تتمة كلام جبريل لمريم . يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته . أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه . وأنه كنى به عن النفخ في فرجها . كما قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ [التحريم : 12] ، وقال : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ [الأنبياء : 91] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 92.94 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

أمر الله جلو علا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : أن يذكر في الكتاب وهو القرآن « مريم » حيت انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . وقوله « انتبذت » أي تنحَّت عنهم واعتزلتهم منفردة عنهم . وقوله ﴿ شَرْقِياً ﴾ أي مما يلي شرقي بيت المقدس . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة « إذ » « مريم » بدل اشتمال ، لأن الأحيان مشتملة على ما يليل فيها اشتمال الظرف على مظروفه . قاله الزمخشري في الكشاف واعتراضه عليه أبو البقاء وأبو حيان : والظاهر سقوط اعتراضهما ن وأن الصواب معه ، والله تعالى أعلم . ولم يذكر هنا شيئاً عن نسب « مريم » ولا عن قصة ولادتها . وبين في غير هذا الموضع أنها ابنه عمران ، وأن أمها نذرت ما في بطنها محرراً ، تعني لخدمة بيت المقدس ، تظن أنها ستلد ذكراً « فولدت مريم » . قال في بيان كونها ابنة عمران : ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [التحريم : 12] الآية . وذكر قصة ولادتها في « آل عمران » في قوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ امرأة عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أنثى والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ

يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 35-37] . وقوله مكاناً منصوب لأنه ظرف .

(54/484)

قوله تعالى : ﴿ فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ .

أظهر الأقوال أن المراد بقوله « روحنا » جبريل . ويدل لذلك قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] الآية ، وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ بالحق ﴾ [النحل : 102] ، وإضافته إلى الله إضافة تشريف وتكريم . قوله تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ .

تمثله لها بشراً سوياً المذكور في الآية يدل على أنه ملك وليس بآدميز وهذا المدلول صرح به تعالى في قوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائكة يا مريم إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : 45] الآية . وهذا الذي بشرها به هو الذي قال لها هنا ﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً ﴾ [مريم : 19] . وقوله ﴿ بَشَراً سَوِيّاً ﴾ حالان من ضمير الفاعل في قوله « تمثل لها » .

(55/484)

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19)

(56/484)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن ذلك الروح الذي هو جبريل قال لها إن رسول ربها ليهب لها ن أي ليعطيها غلاماً أي ولداً زكيا ، أي طاهراً من الذنوب والمعاصي ، كثير البركات . وبين في غير هذا الموضع كثيراً من صفات هذا الغلام الموهوب لها ، وهو عيسى عليه وعلى نبيا الصلاة والسلامن كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدنيا والآخرة وَمِنَ المقربين وَيُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً وَمِنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 45-46] وقوله : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وَرَسُولاً إلى بني إِسْرَائِيل أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أني أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله وَأُبْرِىءُ الأكمه والأبرص وَأُحْيِي الموتى بِإِذْنِ الله وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : 48-49] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على صفات هذا الغلامز وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وورش عن نافع وقالون عنه أيضاً بخلف عنه « ليهب » بالياء المفتوحة بعد اللام أي ليهب لك هو ،

أي ربك غلاماً زكياً . وقرأ الباقون « لأهب » بهمزة المتكلم أي لأهب لك هو أنا إيها الرسول منربك غلاماً زكياً . وفي معنى إسناده الهبة إلى نفسه على قراءة الجمهور خلاف معروف بين العلماء . وأظهر الأقوال في ذلك عندي - : أن المراد بقول جبريل لها ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ أي لأكون سبباً في هب الغلام بالنفخ في الدرع الذي وصل إلى الفرج ، فصار بسببه حملها عيسى . وبين تعالى في سورة « التحريم » أن هذا النفخ في فرجها في قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [

(57/484)

التحريم : 12] الآية . والضمير في قوله « فيه » راجع إلى فرجها ولا ينافي ذلك قوله تعالى في « الأنبياء » : ﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : 91] لأن النفخ وصل إلى الفرج فكان منه حمل عيسى ، وبهذا فسر الزمخشري في الكشاف الآية .

وقال بعض العلماء : قوله جبريل ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا ﴾ حكاية منه لقول الله جل وعلا . وعليه فلامعنى : إنما أنا رسول ربك ، وقد قال لي أرسلتك لأهب غلاماً . والأول أظهر .

وفي الثاني بعد عن ظاهر اللفظ . وقال بعض العلماء : جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وبهذا صدر القرطبي في تفسيره . وأظهرها الأول : والعلم عند الله تعالى .

(58/484)

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

(59/484)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن مريم لما بشرها جبريل بالغلام الزكي عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قالت : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ اي كيف ألد لاماً والحال أني لم يمسسني بشر . تعني لم يجامعني زوج بنكاح ، ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ ، اي لم أك زانية ، وإذا انتفى عنها مسيب الرجلا حلالاً وحراماً فكيف تحمل . والظاهر أن استفهامها استخبار واستعلام عن الكيفية التي يكون بها حمل الغلام المذكور ، لأنها مع عدم مسيس الرجال لم تتضح لها الكيفية . ويحتمل أن يكون استفهامها استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى ، وهذ الذي ذكر الله جل وعلا عنها : أنها قالته فنا ذكره عنها أيضاً في سورة « آل عمران »

في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائكة يا مريم إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدنيا والآخرة وَمِنَ المقربين وَيُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً وَمِنَ الصالحين قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران : 45-47] .

واقتصارها في آية « آل عمران » على قولها ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ يدل على أن مسيس البشر المنفي عنها شامل للمسيس بنكاح والمسيس بزنى . كما هو الظاهر . وعليه فقولها في سورة « مريم » : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ يظهر فيه إن قولها « ولم أك بغياً » : تخصيص بعد تعميم . لأن مسيس البشر يشمل الحلال والحرام .

وقال الزمخشري فالكشاف في تفسير قوله تعالى هنا ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه . كقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : 237] . ﴿ أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء ﴾ [النساء : 43] والزنى ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها ، وخبث بها وما أشبه ذلك . وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات

(60/484)

والآداب اه .

والأظهر الأول . وآية آل عمران تدل عليه . ويؤيده أن لفظة « بشر » نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر : فينتفي مسيس كل بشر كائناً من كان ، والبغي : المجاهرة المشتهر بالزنى . ووزنه فعلو عند المبرد ، اجتمعت فيه واو وياء سبقت إحداهما بالسكون : فقلبت الواو ياء وادغمت في الياء وكسر ما قبلها لأجل الياؤ كما كسرت في عصيّ ودليّ جمع عصا ودلو . كما قدمنا هذا مراراً . والقائل بأن أصلي البغي فعول ، يقول : لو كان أصله فعيلاً للحقته هاء التأنيث ، لأنها لازمة في فعيل بمعنى فاعل . وقال ابن جني في كتاب التمام : أصل البغي على وزن فعيل ، ولو كان فعولاً لقيل بغو . كما قيل : فلان نهو عن المنكر . وعلى هذا القول فقد يجاب عن عدم لحوق تاء التأنيث : بأن البغي وصف مختص بالإناث . والرجل يقال فيه باغ لا بغي . كما قاله أبو حيان في البحر . والأوصاف المختصة بالإناث لا تحتاج إلى تاء الفرق بين الذكر والأنثى كحائض . كما عقده ابن مالك في الكافية بقوله :

وما من الصفات بالأنثى يخص . . . عن تاء استغنى لأن اللفظ نص

(61/484)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ .

قد قدمنا تفسير هذه الآية مستوفي في قصة زكريا ، فأغنى عن إعادته هنا . وقول جبريل لمريم في هذه الآية : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي مستلدين ذلك الغلام المبشر به من غير أن يمسك بشر ، وقد أشار تعالى إلى معنى هذه الآية في سورة « آل عمران » في قوله : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] .

قوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من حكم خلقه عيسى من امرأة بغير زوج ليجعل ذلك آية للناس . أي علامة دالة على كمال قدرته . وأنه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء : إن شار خلقه من أنثى بدون ذكر كما فعل بعيسى . وإن شاء خلقه ن ذكر بدون أنثى كما فعل بحواء . كما نص على ذلك في قوله : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] أي خلق من تلك النفس التي هي آدم زوجها حواء . وإن شاء خلقه بدون الذكر والأنثى معاً كما فعل بآدم . وإن شار خلقه من ذكر وأنثى كما فعل بسائر بني آدم . فسبحان الله العظيم على كل شيء ؟ وما ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونه جعل عليسى آية حيث ولدته أمه من غير زوج أشار له أيضاً في « الأنبياء » بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ

﴿ [الأنبياء : 91] ، وفي « الفلاح » بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ﴾ [المؤمنون : 50] الآية .

(62/484)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ فيه حف دل المقام عليه . قال الزمخشري في الكشاف : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ تعليل معلله محذوف . أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك . أو هو معطوف على تعليل مضمر ، اي لنبيّن به قدرتنا ولنجعله آية . ونحوه ﴿ وَخَلَقَ اللهُ السماوات والأرض بالحق ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية : 22] ، وقله : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض وَلِنُعَلِّمَهُ ﴾ [يوسف : 21] اه . وقوله في هذه الآية ﴿ ورحمة منا ﴾ أي لمن آمن به . ومن كفر به فلم يبتغ الرحمة لنفسه ، كما قال تعالى في نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ أي وكان وجود ذلك الغلام منك أمراً مقضياً ، أي مقدراً في الآزل ، مسطوراً في اللوح المحفوظ لا بد من وقوعه ، فهو واقع لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(63/484)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

جملة ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ عطف على جملة ﴿ ذِكْرُ رحمتِ ربّكَ ﴾ [مريم : 2] عطف القصة على القصة فلا يراعى حُسن اتّحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية ، على أن ذلك الاتحاد ليس بملتزم .

على أنك علمت أن الأحسن أن يكون قوله ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ مصدراً وقع بدلاً من فعله .

والمراد بالذكر : التّلاوة ، أي اتل خبر مريم الذي نقصّه عليك .

وفي افتتاح القصة بهذا زيادة اهتمام بها وتشويق للسامع أن يتعرفها ويتدبرها .

والكتاب : القرآن ، لأنّ هذه القصة من جملة القرآن .

وقد اختصت هذه السورة بزيادة كلمة ﴿ في الكتاب ﴾ بعد كلمة ﴿ واذكر ﴾ .

وفائدة ذلك التنبيه إلى أن ذكر من أمر بذكرهم كائن بآيات القرآن وليس مجرد ذكر فضله في كلام آخر من قول النبي صلى الله عليه وسلم كقوله : " لو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي "

ولم يأت مثل هذه الجملة في سورة أخرى لأنه قد حصل علم المراد في هذه السورة فعلم أنه

المراد في بقية الآيات التي جاء فيها لفظ ﴿ اذكر ﴾ .

ولعل سورة مريم هي أول سورة أتى فيها لفظ ﴿ واذكرْ ﴾ في قصص الأنبياء فإنها السورة الرابعة والأربعون في عدد نزول السور .

و﴿ إذ ظرف متعلق باذكر ﴾ باعتبار تضمنه معنى القصة والخبر ، وليس متعلقاً به في ظاهر معناه لعدم صحة المعنى .

ويجوز أن يكون (إذ) مجرد اسم زمان غير ظرف ويجعل بدلاً من (مريم) ، أي اذكر زمن انتباذها مكاناً شرقياً .

وقد تقدم مثله في قوله ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه ﴾ [مريم : 2 ، 3] .

والانتباذ : الانفراد والاعتزال ، لأن النبذ : الإبعاد والطرح ، فالانتباذ في الأصل افتعال مطاوع نبذه ، ثم أطلق على الفعل الحاصل بدون سبق فاعل له .

وانتصب ﴿ مكاناً ﴾ على أنه مفعول ﴿ انتبذت ﴾ لتضمنه معنى حلت .

(64/484)

ويجوز نصبه على الظرفية لما فيه من الإبهام .

والمعنى : ابتعدت عن أهلها في مكان شرقي .

ونُكر المكان إبهاماً له لعدم تعلُّق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيد كمالاً في المقصود من القصة .

وأما التصدّي لوصفه بأنه شرقي فللتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرقَ قبلة لصلواتهم إذ كان حمل مريم بعيسى في مكان من جهة مشرق الشمس .

كما قال ابن عباس : "إني لأعلم خلقِ الله لأي شيء اتّخذت النصارى الشرقَ قبلة لقوله تعالى : ﴿ مكاناً شرقِيّاً ﴾ " ، أي أن ذلك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى .

فذكر كون المكان شرقياً نكتة بديعة من تاريخ الشرائع مع ما فيه من مؤاخاة الفواصل .

واتخاذ الحجاب : جعل شيء يَحجب عن الناس .

قيل : إنها احتجبت لتغتسل وقيل لتمتشط .

والروح : الملك ، لأن تعليق الإرسال به وإضافته إلى ضمير الجلالة دلاَّ على أنه من الملائكة وقد تمثل لها بشراً .

والتمثل : تكلف المماثلة ، أي أن ذلك الشكل ليس شكل الملك بالأصالة .

و﴿ بَشَرَاً ﴾ حال من ضمير (تمثل) ، وهو حال على معنى التشبيه البليغ .

والبشر : الإنسان .

قال تعالى : ﴿ إني خالق بشراً من طين ﴾ [ص : 71] ، أي خالق آدم عليه السلام .

والسويُّ : المُسَوّى ، أي التام الخلق .

وإنما تمثل لها كذلك للتناسب بين كمال الحقيقة وكمال الصورة ، وللإشارة إلى كمال

عصمتها إذ قالت : ﴿ إِنِّي أعوذُ بالرحمن مِنكَ إن كُنتَ تقِيّاً ﴾ ، إذ لم يكن في صورته ما يكره لأمثالها ، لأنها حسبت أنه بشر اختبأ لها ليراودها عن نفسها ، فبادرته بالتعوذ منه قبل أن يكلمها مبادرة بالإنكار على ما توهمته من قصده الذي هو المتبادر من أمثاله في مثل تلك الحالة .

وجملة ﴿ إِنِّي أعوذُ بالرحمن مِنكَ ﴾ خبرية ، ولذلك أكدت بحرف التأكيد .

والمعنى : أنها أخبرته بأنها جعلت الله معاذاً لها منه ، أي جعلت جانب الله ملجأ لها مما هَمّ به .

وهذه موعظة له .

(65/484)

وذكرها صفة (الرحمان) دون غيرها من صفات الله لأنها أرادت أن يرحمها الله بدفع من حسبته داعراً عليها .

وقولها ﴿ إن كُنتَ تَقيّاً ﴾ تذكير له بالموعظة بأن عليه أن يتّقي ربّه .

ومجيء هذا التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في تقواه قصد لتهييج خشيته ، وكذلك اجتلاب فعل الكون الدال على كون التّقوى مستقرة فيه .

وهذا أبلغ وعظٍ وتذكيرٍ وحثّ على العمل بتقواه .

والقصر في قوله : ﴿ إنَّما أنا رسولُ ربّكِ ﴾ قصر إضافي ، أي لستُ بشراً ، رداً على قولها : ﴿ إن كنت تقياً ﴾ المقتضي اعتقادها أنه بشر .

وقرأ الجمهور ﴿ لأَهَبَ ﴾ بهمزة المتكلم بعد لام العلّة .

ومعنى إسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي لأنه سبب هذه الهبة .

وقرأه أبو عمرو ، وورش عن نافع ﴿ ليهب بياء الغائب ، أي ليهب ربّك لك ، مع أنها مكتوبة في المصحف بألف .

وعندي أن قراءة هؤلاء بالياء بعد اللام إنما هي نطق الهمزة المخففة بعد كسر اللام بصورة نطق الياء .

ومحاورتها الملك محاولة قصدت بها صرفه عما جاء لأجله ، لأنها علمت أنّه مرسل من الله فأرادت مراجعة ربّها في أمر لم تطقه ، كما راجعه إبراهيم عليه السلام في قوم لوط ، وكما راجعه محمد عليه الصلاة والسلام في فرض خمسين صلاة .

ومعنى المحاورة أن ذلك يجر لها ضرّاً عظيماً إذ هي مخطوبة لرجل ولم يَبْنِ بها فكيف يتلقى الناس منها الإتيان بولد من غير أب معروف .

وقولها ولم أكُ بغيّاً ﴾ تبرئة لنفسها من البغاء بما يقتضيه فعل الكون من تمكن الوصف الذي هو خبر الكون ، والمقصود منه تأكيد النفي فمفاد قولها ﴿ ولم أكُ بغيّاً ﴾ غير مفاد قولها

﴿ ولمْ يَمْسَسني بَشَر ﴾ ، وهو مما زادت به هذه القصة على ما في قصتها في سورة آل عمران ، لأن قصتها في سورة آل عمران نزلت بعد هذه فصح الاجتزاء في القصة بقولها ﴿ ولمْ يَمْسَسني بَشَر ﴾ .

(66/484)

وقولها ﴿ ولمْ يَمْسَسني بَشَر ﴾ أي لمْ يَبْنِ بي زوج ، لأنها كانت مخطوبة ومراكنة ليوسف النجار ولكنه لم يبن بها فإذا حملت بولد اتهمها خطيبها وأهلها بالزنى .

وأما قولها ﴿ ولَمْ أكُ بَغِياً ﴾ فهو نفي لأن تكون بغياً من قبل تلك الساعة ، فلا ترضى بأن ترمى بالبغاء بعد ذلك .

فالكلام كناية عن التنزه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب ، والمعنى : ما كنت بغيّاً فيما مضى أفأعدّ بغياً فيما يستقبل .

وللمفسرين في هذا المقام حيرة ذكرها الفخر والطيبي ، وفيما ذكرنا مخرج من مأزِقها ، وليس كلام مريم مسوقاً مساق الاستبعاد مثل قول زكرياء ﴿ أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً ﴾ [مريم : 8] لاختلاف الحالين لأن حال زكرياء حال راغب في حصول الولد ، وحال مريم حال متشائم منه متبرىء من حصوله .

والبغِيّ : اسم للمرأة الزانية ، ولذلك لم تتصل به هاء التأنيث ، ووزنه فعيل أو فعول بمعنى فاعل فيكون أصله بَغوي .

لأنه من البغي فلما اجتمع الواو والياء وسكن السابق منهما قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء الأصلية وعوض عن ضمة الغين كسرة لمناسبة الياء فصار بغي .

وجواب المَلَك معناه : أن الأمر كما قلت ، نظير قوله في قصة زكرياء : ﴿ كذلك قال ربك هو علي هين ، ﴾ وهو عدول عن إبطال مرادها من المراجعة إلى بيان هون هذا الخلق في جانب القدرة على طريقة الأسلوب الحكيم .

وفي قوله ﴿ هو علي هين ﴾ توجيه بأن ما اشتكته من توقع ضدّ قولها وطعنهم في عرضها ليس بأمر عظيم في جانب ما أراد الله من هدي الناس لرسالة عيسى عليه السلام بأن الله تعالى لا يصرفه عن إنفاذ مراده ما عسى أن يعرض من ضر في ذلك لبعض عبيده ، لأنّ مراعاة المصالح العامة تقدم على مراعاة المصالح الخاصة .

فضمير ﴿ هو علي هين ﴾ عائد إلى ما تضمنه حوارها من لحاق الضر بها كما فسرنا به قولها ﴿ ولم يَمْسَسني بَشَر ولم أكُ بَغِياً ﴾ .

فبين جواب الملك إياها وبين جواب الله زكرياء اختلاف في المعنى .

والكلام في الموضعين على لسان المَلك من عند الله ، ولكنه أسند في قصة زكرياء إلى الله لأن كلام المَلك كان تبليغَ وحي عن الله جواباً من الله عن مناجاة زكرياء ، وأسند في هذه القصة إلى المَلك لأنه جواب عن خطابها إياه .

وقوله ﴿ ولنجعله ﴾ عطف على ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ باعتبار ما في ذلك من قول الرُّوح لها ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً ، ﴾ أي لأن هبة الغلام الزكي كرامة من الله لها ، وجعله آية للناس ورحمة كرامة للغلام ، فوقع التفات من طريقة الغيبة إلى طريقة التكلم .

وجملة ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ يجوز أن تكون من قول الملك ، ويجوز أن تكون مستأنفة .

وضمير ﴿ كان عائد إلى الوهْب المأخوذ من قوله لأهب لك غلاماً ﴾ .

وهذا قطع للمراجعة وإنباء بأن التخليق قد حصل في رحمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(68/484)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾

وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى ؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأْتِ به ، وهو كافلها ومُتولّي أمرها ، فتعجب أنْ يرى عندها رِزْقاً لم يحمله إليها ، وهي مقيمة على عبادتها في محرابها ، فقال لها : ﴿ يامريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

وكأن هذا أول بداية قانون : من أين لك هذا ؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب ، بل هو سبحانه يرزق مَنْ يشاء متى شاء وبغير حساب .

وشاءتْ إرادة الله أن تنطِقَ مريم بهذه المقولة : ﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شيء ، وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد حينما تشعر بالحَمْل من غير زَوْج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاءٌ من الله .

وكذلك نبَّهتْ هذه الآية زكريا عليه السلام إلى فَضْل الله وسِعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبي الله ، ولكن هناك قضايا في النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : 38] .

فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدي ، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه .

إذن : فمريم هي التي أوحَتْ لزكريا بهذا الدعاء ، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى ؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم ، فلا تنزعج من حَمْلها ، وتردّ هذه المسألة إلى أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً ، وإلاَّ فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك ، وتتصور أن هذا الحمْل نتيجة شيء حدث لم تشعر به ، أو كانت نائمة مثلاً .

لكن الحق تبارك وتعالى يقطع عنها كل هذه الشكوك ، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها في طعام لم يَأْتِ به أحد إليها ، وفي حَمْل زوجة زكريا وهي عاقر لا تلِد .

قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ ﴾ [مريم : 16] الكتاب هو القرآن الكريم ، أي : اذكُر يا محمد في كتاب الله الذي أوحاه إليك مما تذكر قصة مريم ، وقد سبق الحديث عن هذه القصة في سورة (آل عمران) لما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن نَذْر أمها لما في بطنها لخدمة بيت المقدس ، ولم يكن يصلح لخدمة بيت المقدس إلا الذكْران الذين يتحمَّلون مشقة هذا العمل ، فلما وضعْتها أنثى لم يوافق ظنّها إرادة الله ، ولم تستطع مريم خدمة البيت مكاناً أفرغتْ نفسها لخدمته قِيماً ، ودِيناً حملتْ نفسها عليه حَمْلاً ، حتى إنها هجرتْ

أهلها وذهبت إلى هذا المكان الذي اتخذته خُلْوة لها لعبادة الله بعيداً عن أعيُنِ الناس .

ومريم هي ابنة عمران ، وقد قال القرآن في خطابها : ﴿ يا أخت هَارُونَ ﴾ [مريم : 28] ولذلك حدث لَبْسٌ عند كثير من الناس ، فظنوها أخت نبي الله موسى بن عمران وأخت هارون أخي موسى عليهما السلام .

والحقيقة أن هذه المسألة جاءتْ مصادفة اتفقتْ فيها الأسماء ؛ لذلك لما ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها : إنكم تقولون : إن مريم هي أخت موسى وهارون ، مع أن بين مريم وعمران أبي موسى أحد عشر جيلاً ! !

(70/484)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يتفاءلون بذِكر الأسماء خاصة الأنبياء فيُسمّون على أسمائهم عمران ويسمون على أسمائهم هارون " .

حتى ذكروا أنهم في جنازة بعض العلماء سار فيها أربعة آلاف رجل اسمهم هارون . إذن : فالأسماء هنا مصادفة ، فهي ابنة عمران ، لكن ليس أبا موسى ، وأخت هارون ، لكن ليس هو أخو موسى .

وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم مريم وخصَّها وشخَّصها باسمها واسم أبيها ، وسبق أنْ

أوضحنا أن التشخيص في قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومُفردة بين نساء العالم بشيء لا يحدث ولن يحدث إلا لها ، فهذا أمر شخصي لن يتكرر في واحدة أخرى من بنات حواء .

أما إنْ كان الأمر عاماً يصح أنْ يتكرّر فتأتي القصة دون تشخيص ، كما في حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر ، وهما زوجتان لنبيين كريمين ، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذي قام في بيت الكفر وفي عُقْر داره ، فالمراد هنا ليس الأشخاص ، بل المراد بيان حرية العقيدة ، وأن المرأة لها في الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية ، وأنها غيرُ تابعة في عقيدتها لأحد ، سواء أكانت زوجة نبي أم زوجة إمام من أئمة الكفر .

وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ [مريم : 16] .

﴿ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [مريم : 16] أي : ابتعدتْ عنهم ، من نبذ الشيء عنه أي أبعده ، فكأن أُنسها لا بالأهل ، ولكن أُنسها كان برب الأهل ، والقرآن يقول : ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [مريم : 16] ولم يقُلْ : من الناس ، فقد تركتْ مريم أقرب الناس إليها وأحبّهم عندها وذهبت ، إلى هذا المكان .

(71/484)

﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ [مريم : 16] لكن شرقيّ أيّ شيء ؟ فكل مكان يصح أن يكون شرقياً ، ويصح أن يكون غربياً ، فهي إذن كلمة دائرة في كل مكان . لكن هناك عَلَم بارز في هذا المكان ، هو بيت المقدس ، فالمراد إذن : شرقي بيت المقدس ، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان .

لكن ، لماذا اختارتْ الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات ؟ قالوا : لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس ، لأنها سِمَة النور المادىْ الذي يسير الناس على هُدَاه فلا يتعثرون ، وللإنسان في سَيْره نوران : نور مادىّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح ، وهو النور الذي يظهر له الأشياء من حوله ، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه .

وكذلك له نور من منهج الله يهديه في مسائل القيم ، حتى لا يتخبّط تائهاً بين دُروبها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض ﴾ [النور : 35] ثم يقول بعدها : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ [النور : 35] .

أي : نور السماء الذي ينزل بالوحي لهداية الناس .

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) ﴾

الحجاب : هو الساتر الذي يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه ، فما فائدة أنْ تتخذ بينها وبين أهلها سِتْراً بعد أن ابتعدتْ عنهم ؟ نقول : انتبذتْ من أهلها مكاناً بعيداً ،

هذا في المكان ، إنما لا يمنع أنْ يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد ، فهناك إذن مكان ومكين .

(72/484)

والحجاب قد يكون حجاباً مُفْرداً فهو ساتر فقط ، وقد يكون حجاباً مستوراً بحجاب غيره ، فهو حجاب مُركّب ، كما يصنع أهل الترف الآن الستائر من طبقتين ، إحداهما تستر الأخرى ، فيكون الحجاب نفسه مَسْتوراً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم : 17] .

كلمة الروح في القرآن الكريم لها إطلاقات مُتعدّدة ، أولها الروح التي بها قِوام حياتنا المادية ، فإذا نفخَ الله الروح في المادة دبَّتْ فيها الحياة والحِسّ والحركة ، ودارت كل أجهزة الجسم ، وهذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 29] .

لكن ، هل هذه الحياة التي تسري في المادة بروح من الله هي الحياة المقصودة من خَلْق الله للخَلْق ؟ قالوا : إنْ كانت هذه الحياة هي المقصودة فما أهونها ؛ لأن الإنسان قد يمرُّ بها

ويموت بعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد سنة ، أو عدة سنوات .

إذن : هي حياة قصيرة حقيرة هيّنة ، هي أقرب إلى حياة الديدان والهوام ، أما الإنسان الذي كرّمه الله وخلق الكون من أجله فلا بُدَّ أن تكون له حياة أخرى تناسب تكريمَ الله له ، هذه الحياة الأخرى الدائمة الباقية يقول عنها القرآن : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] .

﴿ لَهِيَ الحيوان ﴾ أي : الحياة الحقيقية ، أما حياتك الدنيا فهي مُهدّدة بالموت حتى لو بلغتَ من الكبر عتياً ، فنهايتك إلى الموت ، فإنْ أردتَ الحياة الحقيقية التي لا يُهدِّدها موت فهي في الآخرة .

(73/484)

فإذا كان الخالق تبارك وتعالى جعل لك روحاً في الدنيا تتحرك بها وتناسب مُدّة بقائك فيها ، ألاَ يجعل لك في الآخرة رُوحاً تناسبها ، تناسب بقاءها وسَرْمديتها ، والقرآن حينما يتحدث عن هذه الروح يقول للناس : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] فكيف يدعوهم لما يُحييهم ويُخاطبهم وهم أحياء ؟ نعم ، هم أحياء الحياة الدنيا ، لكنه يدعوهم إلى حياة أخرى دائمة باقية ، أما مَنْ

لم يستجب لهذا النداء ويسعى لهذه الحياة فلن يأخذ إلا هذه الحياة القصيرة الفانية التي لا بقاءَ لها .

وكما سمَّى الله السِّرَّ الذي ينفخه في المادة فتدبّ فيها الحركة والحياة " روحاً " ، كذلك سمَّى القيم التي تحيا بها النفوس حياة سعيدة " روحاً " ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] أي : القرآن الكريم .

كما سَمَّى الملَك الذي ينزل بالروح رُوحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] وهو جبريل عليه السلام .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم : 17] أي : جبريل عليه السلام .

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم : 17] معنى تمثَّل : أي : ليستْ هذه حقيقته ، إنه تمثَّل بها ، أما حقيقته فنورانية ذات صفات أخرى ، وذات أجنحة مَثْنى وثُلاَث ورُبَاع ، فلماذا إذن جاء الملَكُ مريمَ في صورة بشرية ؟

(74/484)

لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقيَ الملَكُ بملكتيه مع البشر ببشريته ، فلكل منهما قانونه الخاص الذي لا يناسب الآخر ، ولأبدَّ في

لقائهما أنْ يتصوَّر الملَك في صورة بشر ، أو يُرقَّى البشر إلى صفات الملائكة ، كما رُقي محمد صلى الله عليه وسلم إلى صفات الملائكة في حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

لذلك ، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملَكاً رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

وقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9]

إذن : لا يمكن أن يلتقي الملَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب .

جاء جبريل عليه السلام إلى مريم في صورة بشرية لتأنس به ، ولا تفزع إنْ رأَتْه على صورته الملائكية ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً ﴾ [مريم : 17] أي : من جنسها ﴿ سَوِيّاً ﴾ [مريم : 17] .

أي : سويّ الخِلْقة والتكوين ، وسيماً ، قد انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه ، كما نرى في بعض الناس .

وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها ، وأيضاً ليثبت أنها العذراء العفيفة ؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسِيم ما أبدتْ له إعجاباً ولا تلطفتْ إليه في الحديث ، ولا نطقتْ بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه ، بل قالت كما حكى القرآن : ﴿ قَالَتْ إِنِي أَعُوذُ بالرحمن ﴾

فلم تُظهِر له إعجاباً ، ولا مالتْ إليه بكلمة واحدة ، وهذا دليل على عِفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها .

(75/484)

وقولها : ﴿ أَعُوذُ ﴾ [مريم : 18] أي : ألجأ وأعتصم بالله منك ؛ لأنني أخاف أنْ تفتك بي ، أو تعتدي عليَّ وأنا ضعيفة لا حَوْلَ لي ولا قوة إلا بالله ، فأستعيذ به منك . والمؤمن هو الذي يحترم الاستعاذة بالله ويُقدّرها ، فإنْ استعذتَ بالله أعاذك ، وإن استجرتَ بالله أجارك .

" ولما خطب النبي صلى الله عليه وسلم امرأة ، كانت على شيء من الحسن أثار غَيْرة نسائه ، فخشينَ أنْ تغلبهن على قلب رسول الله ، فدبَّرْنَ لها أمراً يبعدها من أمامهن ، فقُلْنَ لها وكانت غِرَّة ساذجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب إذا اقترب منه إنسان أن يقول له : أعوذ بالله منك ، فما كان من المرأة إلا أنْ قالت هكذا لرسول الله عندما دخلت عليه ، فقال لها : " لقد استعذت بمعيذ ، الحقي بأهلك " .

فقول مريم : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : 18] لأن المؤمن التقيّ هو الذي يخاف الله ، ويحترم الاستعاذة به ، وكأنها قالتْ : إنْ كنت تقياً فابتعد عني ،

واختارت الاستعاذة بالرحمن لما عندها من الأمل إنْ لم يكُنْ تقياً مؤمناً أن يبتعد عنها رحمةً بها وبضعفها ، ولجأتْ إلى الرحمن الرحيم الذي يحميها ويحرسها منه .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) ﴾

قال : ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مريم : 19] ولم يقلْ رسول الله ؛ لأن الربّ هو المتولّي للتربية الذي يُحسِنها ويصونها من الفساد ، فعطاء الربوبية عطاء ماديّ ، أما عطاء الألوهية فهو عطاء معنوي قِيَمي هو العبادة ، فأنا رسول ربك الذي يتولاَّك ويرعاك ويحرسك فلا تخافي .

(76/484)

وقوله : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ [مريم : 19] يفهم منه أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة للأسباب التكوينية ، فالهبة في هذه الحالة هبة حقيقية مَحْضَة ، فقد قلنا في قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامرأته عاقر ، لكن على أية حال فالجهازان موجودان : الذكورة والأنوثة ، لكن في حالة مريم فهي أنثى بلا ذكر ، فهنا الهِبَة المحضة ، والمعجزة الحقيقية .

وقوله : ﴿ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : 19] أي مُنقًّى مُطهّر صافي الخِلْقة .

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم : ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي ﴾

(أَنَّى) استفهام عن الكيفيات التي يمكن أن تتم بها هذه المسألة ، وتعجُّب كيف يحدث ذلك .

وقوله : ﴿ يَمْسَسْنِي ﴾ [مريم : 20] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح ، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل : الوسيلة الأولى : هي الزواج الشرعي الذي شرعه الله لعباده للتكاثر وحِفْظ النسل ، وهو إيجاب وقبول ، وعقد وشهادة ، وهذا هو المسّ الحلال .

الوسيلة الثانية : أنْ يتم هذه اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْباً عنها . وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم : 20] لا في الحلال ، ولا في الحرام ، وأنا بذاتي ﴿ لَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] إذن : فمن أين لي بالغلام ؟

(77/484)

وكلمة : مسَّ جاءتْ في القرآن للدلالة على الجماع ، كما في قوله تعالى : ﴿ لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النسآء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : 236] فالمراد بالمسّ هنا الجماع ، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى : ﴿ لاَمَسْتُمُ النسآء ﴾ [النساء : 43] بأنه الجماع ؛ لأن القرآن أطلق المسَّ ، وأراد به النكاح ، والمسُّ فعل من طرف واحد ، أما الملامسة فهي مُفَاعلة بين اثنين ، فهي من باب أَوْلَى تعني : جامعتم .

وقولها : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] البغِيُّ : هي المرأة التي تبغي الرجال . والبِغَاء : هو الزنا ، والبَغِيّ : التي تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم ، وربما تُكرههم على هذه الجريمة .

وقولها : ﴿ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] مبالغة في البَغْي وهو الظلم ، واختارتْ صيغة المبالغة بَغِيّ ولم تقُلْ باغية ؛ لأن باغية تتعلق بحقوق ما حول العِرْض ، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة في هذا الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ كَذلك قَالَ رَبُّكَ ﴾

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد : ﴿ قَالَ كَذلك قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم : 9] أي : أنا أعرف ما أنت فيه من كِبَر السن ، وأن امرأتك عاقر لا تلِد ، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه ، وهو وحده الذي يملك التنفيذ ، فَلِمَ التعجب إذن ؟

وهنا نجد بعض المتورِّكين على القرآن يعترضون على قوله تعالى : (كَذَلِكَ) بالفتح في قصة

زكريا وبالكسر في قصة مريم (كذلكِ) ، والسياق والمعنى واحد ، وأيُّهما أبلغ من الأخرى ، وإنْ كانت أحدهما بليغة فالأخرى غير بليغة ؟

وهذا الاعتراض منهم ناتج عن قصور فَهْمهم لكلام الله ، فكلمة (كذلك) عبارة عن ذا اسم إشارة ، وكاف الخطاب التي تُفتح في خطاب المذكر ، وتُكسر في خطاب المؤنث .

(78/484)

وهنا أيضاً قال : (ربك) أي : الذي يتولى تربيتك ورعايتك ، والذي يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربِّي .

وقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 21] كما قال في مسألة البعث بعد الموت : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] فكلمة هيّن وأَهْوَن بالنسبة للحق تبارك وتعالى لا تُؤخَذ على حقيقتها ؛ لأن هَيِّن وأهوَنَ تقتضي صعب وأصعب ، وهذه مسائل تناسب فِعْلَ الإنسان في معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته ، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هَيِّن وأهون منه ؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال مُعَالجةً ، ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، فقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 21] أي

: بمنطقكم أنتم إنْ كنت قد خَلَقْتكم من غير شيء ، فإعادتكم من شيء موجود أمر هَيِّن

.

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [مريم : 21] .

هل كان الغرض من خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظهِر الحق سبحانه قدرته في الخلق وطلاقة قدرته فقط ؟ لا ، بل هناك هدف آخر ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم : 21] أي : أمراً عجيباً ، يخرج عن مألوف العادة والأسباب ، كما نقول : هذا آية في الحُسْن ، آية في الذكاء ، فالآية لا تُقال إلا للشيء الذي يخرج عن معتاد التناول .

والآية هنا أن الخالق تبارك وتعالى كما خلق آدم عليه السلام من غير أب أو أم ، وخلق حواء من غير أم ، خلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، ثم يخلقكم جميعاً من أب وأم ، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما فيجعل مَنْ يشاء عقيماً .

(79/484)

إذن : فهذا الأمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه . فالآية للناس في إنْ يعلموا طلاقة قدرته تعالى في الخَلْق ، وأنها غير خاضعة للأسباب ، وليستْ عملية ميكانيكية ، بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد .

لكن ، أكانتْ الآية في خَلْق عيسى عليه السلام أَمْ في أمه ؟ كان من الممكن أنْ يوجد عيسى من أب وأم ، فالآية إذن في أمه ، إنما هو السبب الأصيل في هذه الآية ؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى :

﴿ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ [المؤمنون : 50] فعيسى ومريم آية واحدة ، وليسا آيتين ؛ لأنهما لا ينفصلان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [مريم : 21] ووجْه الرحمة في خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة ، أنه سبحانه يرحم الناس من أنْ يشكُّوا في أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها ، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر ، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة للخالق سبحانه ، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتي في الخَلْق من شيء ، ومن بعض شيء ، ومن لا شيء .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 21] أي : مسألة منتهية لا تقبل المناقشة ، فإياك أن تناقش في كيفيتها ؛ لأن الكلام عن شيء في المستقبل إنْ كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألاَّ يتم مراده لأيِّ سبب من الأسباب كأن تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، ويأتي غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك ، إذن : فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل .

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذي يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع ، فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 21] .

(80/484)

ولما تكلمنا عن تقسيمات الأفعال بين الماضي الذي حدث قبل الكلام ، والمضارع الذي يحدث في الحال ، أو في الاستقبال قلنا : إن هذه الأفعال بالنسبة للحق سبحانه تنحل عنها الماضوية والحالية والاستقبالية .

فإذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفتح : 14] فهل كان الحق سبحانه غفوراً رحيماً في الماضي ، وليس كذلك في الحاضر والمستقبل ؟ لا ، لأن الحق سبحانه كان ولا يزال غفوراً رحيماً ، فرحمتُه ومغفرتُه أزلية حتى قبل أنْ يوجدَ مَنْ يغفر له ومَنْ يرحمه .

لذلك جاء الفعل بصيغة الماضي ، فالصفة موجودة فيه سبحانه أزلاً ، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخَلْق وبصفة الخَلْق خَلَقَ ، كما ضربنا مثلاً لذلك : نقول فلان شاعر ، فهل هو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم قال القصيدة لأنه شاعر ، وبالشعر صنع القصيدة ؟ إذن : فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا وجود الصفة فيه ما قال .

فالصفة إذن أزلية في الحق سبحانه ، فإذا قلت : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفتح : 14] فقد ثبتتْ له هذه الصفة أزلاً ، ولأنه سبحانه لا يتغير ، ولا يعارضه أحد فقد بقيتْ له ، هذا معنى : كان ولا يزال .

وهذه المسألة واضحة في استهلال سورة النحل : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] لذلك وقف بعض المستشرقين أمام هذه الآية ، كيف يقول سبحانه (أَتَى) بصيغة الماضي ، ثم يقول : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] أي : في المستقبل ؟ نقول : لأن قوله تعالى : (أَتَى) فهذه قضية منتهية لا شكّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها ؛ لذلك جاءت بصيغة الماضي وهي في الواقع أمر مستقبل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(81/484)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

قوله : ﴿ إِذِ انتبذت ﴾ : في " إذ " أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها منصوبةٌ ب " اذكُرْ " على أنها

خَرَجَتْ عن الظرفية ، إذ يستحيل أنْ تكونَ باقيةً على مُضِيّها . والعاملُ فيها ما هو نَصٌّ في الاستقبال . الثاني : أنَّه منصوبٌ بمحذوفٍ مضافٍ لمريم تقديره : واذكر خبرَ مريم ، أو نَبَأَها ، إذ انْتَبَذَتْ ، ف " إذ " منصوبٌ بذلك الخبر أو النبأ . والثالث : أنه منصوبٌ بفعلٍ محذوف تقديره : وبَيِّنَ ، أي : اللهُ تعالى ، فهو كلامٌ آخرُ . وهذا كما قال سيبويه في قوله : ﴿ انتهوا خَيْراً لَّكُمْ ﴾ [النساء : 171] وهو في الظرف أقوى وإنْ كان مفعولاً به .

والرابع : أن يكونَ منصوباً على الحال مِنْ ذلك المضافِ المقدَّر ، أي : خبر مريم أو نبأ مريم . وفيه بُعْدٌ . قاله أبو البقاء . والخامس : أنه بدلٌ مِنْ " مريمَ " بدلُ اشتمال . قال الزمخشري : " لأنَّ الأحيانَ مشتملةٌ على ما فيها ، وفيه : أنَّ المقصودَ بذِكْر مريم ذِكْرُ وقتها هذا لوقوع هذه القصةِ العجيبةِ فيه " .

قال أبو البقاء : – بعد أن حكى عن الزمخشريِّ هذا الوجهَ – " وهو بعيدٌ ؛ لأنَّ الزمانَ إذا لم يكنْ حالاً من الجثة ولا خبراً عنها ولا صفةً لها لم يكن بَدَلاً منها " . وفيه نظرٌ لأنَّه لا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ صحةِ ما ذَكَرَ عَدَمُ صحةِ البدلية ، ألا ترى نحو : " سُلِبَ زيدٌ ثوبُه " ف " ثوبُه " لا يَصِحُّ جَعْلُه خبراً عن " زيد " ولا حالاً منه ولا وصفاً له ، ومع ذلك فهو بدلُ اشتمالٍ .

السادس : أنَّ " إذ " بمعنى " أَنْ " المصدرية كقولك : " لا أُكْرِمُك إذ لم تكرِمْني " ، أي : لأنَّك لا تُكْرِمُني ، فعلى هذا يَحْسُن بدلُ الاشتمال ، أي : واذكر مريمَ انتباذَها . ذكره أبو البقاء

.

والانْتِباذُ : افتعالٌ من النَّبْذِ وهو الطَّرْحُ ، وقد تقدَّم بيانُه .

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) ﴾

والجمهورُ على ضَمِّ الراء مِنْ " رُوْحِنا " وهو ما يَحْيَوْن به . وقرأ أبو حيوة وسهلٌ بفتحها ، أي : ما فيه راحةٌ للعباد كقوله : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة : 89] . وحكى النقاش أنه قد قُرِئ " رُوْحَنَّا " بتشديدِ النون ، وقال : هو اسم مَلَكٍ من الملائكة .

قوله : ﴿ بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ حالٌ مِنْ فاعل " تَمَثَّلَ " . وسَوَّغ وقوعَ الحالِ جامدة وَصْفُها ، فلمَّا وُصِفَتِ النكرةُ وقعت حالاً .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) ﴾

قوله : ﴿ لِأَهَبَ ﴾ : قرأ نافع وأبو عمرو " لِيَهَبَ " بالياء والباقون " لأَهَبَ " بالهمزة . فالأُوْلَى : الظاهرُ فيها أنَّ الضميرَ للربِّ ، أي : ليَهَبَ الرَّبُّ . وقيل : الأصلُ : لأَهَبَ بالهمز ، وإنما قُلِبَتِ الهمزةُ ياءً تخفيفاً ؛ لأنها مفتوحةٌ بعد كسرةٍ فتتَّفِقُ القراءتان وفيه بُعْدٌ . وأمَّا الثانيةُ فالضميرُ للمتكلم ، والمرادُ به المَلَكُ وأسنده لنفسِه لأنه سببٌ فيه . ويجوز أَنْ يكونَ الضمير لله تعالى ويكون على الحكاية بقولٍ محذوف . ويُقَوِّي الذي قبله أنَّ في بعض

المصاحف : أَمَرَني أَنْ أَهَبَ لك .

وقوله : ﴿ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 18] جوابُه محذوفٌ أو متقدم .

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) ﴾

(83/484)

قوله : ﴿ بَغِيّاً ﴾ : في وزنِه قولان ، أحدُهما – وهو قولُ المبردِ – أنَّ وزنَه فُعول ، والأصل بَغُوْيٌ فاجتمعت الياء والواو ففُعِل فيه ما هو معروفٌ . قال أبو البقاء : " ولذلك لم تَلْحَقْ تاءُ التأنيث كما لم تَلْحَقْ في صبور وشكور " . ونَقَل الزمخشري عن أبي الفتح أنها فَعِيْل ، قال : " ولو كانَتْ فَعُولاً لقيل : بَغُوٌ ، كما يقال : فلان نَهُوٌ عن المنكر " ولم يُعْقِبْه بنكير . ومَنْ قال : إنها فَعِيْل فهل هي بمعنى فاعِل او بمعنى مَفعول ؟ فإنْ كانَتْ بمعنى فاعِل فينبغي أَنْ تكونَ بتاء التأنيث نحو : امرأةٌ قديرةٌ وبَصيرة . وقد أُجيب عن ذلك : بأنها بمعنى النسب كحائِض وطالِق ، أي ذات بَغْي . وقال أبو البقاء حين جَعَلَها بمعنى فاعِل : " ولم تَلْحَقِ التاءُ أيضاً لأنها للمبالغة " فجعل العلةَ في عدم اللِّحاق كونَه للمبالغة . وليس بشيءٍ . وإن قيل بأنها بمعنى مَفْعول فَعَدَمُ الياءِ واضحٌ .

﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا

﴿ (21) ﴾

قوله : ﴿ كذلك ﴾ : تقدَّم نظيرُه .

قوله : " وَلِنَجْعَلَه " يجوز أن يكونَ علةً ، ومُعَلَّلُه محذوفٌ تقديره : لنجعلَه آيةً للناس فَعَلْنا ذلك . ويجوز أَنْ يكونَ نَسَقاً على علةٍ محذوفةٍ تقديره : لِنُبَيِّنَ به قُدْرَتَنا ولنجعَله آيةً . والضميرُ عائدٌ على الغلام ، واسم "كان" مضمرٌ فيها ، أي : وكان الغلامُ ، أي : خَلْقُه وإيجادُه أمراً لا بُدَّ منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 576.579 ﴾

(84/484)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البشر)

وهو جَمْع البَشَرة ، وهى ظاهر الجِلْد .

والأَدَمَة : باطنُه .

ويجمع على أَبشار أَيضاً .

وعُبّر عن الإِنسان بالبَشَر ؛ اعتباراً بظهور جلده من الشَعَر ؛ بخلاف الحيوانات الَّتى عليها

الصّوف ، أَو الشعرَ ، أَو الوبر .

ويستوى فى لفظ البَشَر الواحد والجمع ، وثُنِّىَ فقال – تعالى – : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ ﴾ .

وقد ورد فى القرآن على ثلاثة عشر وجهاً :

الأَوّل : بمعنى أَبينا آدم الصّفِىّ : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

الثانى : بمعنى شَيخ المرسلين نوح : ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

الثالث : بمعنى صالحٍ النبىّ : ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ .

الرّابع : بمعنى يوسف الصّديق : ﴿ مَا هذا بَشَراً ﴾ .

الخامس : بمعنى موسى وهارون : ﴿ فَقَالُواْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ .

السّادس : بمعنى جبريل : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ .

أَى مَلَكا .

ونبّه أَنه تشبّحَ لها بصورة بشر .

السّابع : بمعنى ابن ماثان : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ .

الثامن : بمعنى شخص من الإِسرائيليين : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً ﴾ أَى من بنى إِسرائيل .

التَّاسع : بمعنى الغلامَين العجميّين اللذين قال كفَّار مكّة : إِنَّ محمّداً صلَّى الله عليه وسلَّم

يتعلَّم القرآن وأَخبار الماضين منهما : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ إنما يعنون جَبْراً ويساراً .

العاشر : بمعنى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وفيه تنبيه أَنَّ الناس يتساوون فى البشريّة ، وإِنَّما يتفاضلون بما يختصون به من المعارف الجليلة ، والأَعمال الجميلة .

ولذلك قال بعده : ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ تنبيهاً أَنِّى بذلك تميّزتُ عنكم .

(85/484)

الحادى عشر : بمعنى جُمْلة المرسلين : ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ .

الثانى عشر : بمعنى جَمْع البشرة : ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ .

الثالث عشر : بمعنى جُمْلَة الآدميّين : ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ولها نظائر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 203 . 204 ﴾

(86/484)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

اعتزلت عنهم لتحصيلٍ يطهرها ، فاستترت عن أبصارهم .

فلمَّا أبصرت جبريلَ في صورةِ إنسانٍ لم تتوقعه أَحَسَّتْ في نفسها رُعْباً ، ولم تكن لها حيلةٌ إلا تخويفه بالله ، ورجوعها إلى الله .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) ﴾

قالت مريمُ لجبريل – وهي لم تعرفه – إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخَافَ ويُتَّقَى منه ؛ أي إنْ كنتَ تَقْصِد السوءَ . ومعنى قولها ﴿ بالرحمن ﴾ ولم تقل : " بالله " – أي بالذي يرحمني فيحفظني منك .

ويقال يحتمل أن يكون معناه : إن كنتَ تعرف الله وتكون متقياً مخالفة أمره فإِنّي أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) ﴾

تعرَّف جبريلُ إليها بما سكَّن رَوْعَها ، وقَرَنَ مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام .

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) ﴾

قالت أنى يكونُ لي ولَدٌ ولم أُلَمّ بزلّةٍ ولا فاحشةٍ ؟ فقال جبريلُ – عليه السلام – : الأمرُ كما

قلتُ لَكِ ؛ فلا يتعّصى ذلك على الله تعالى ؛ إذ هو أَقْدَرُ أَنْ يجعل هذا الوَلَدَ دلالةً على كمال قدرته ، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه – سبحانه – لِمَنْ آمَنَ ، وسَبَبَ جهلٍ للآخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 423.424 ﴾

(87/484)

قوله تعالى ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ونبه على سرعة تسبيب الحمل عن هذا القول وإن كان التقدير بما أرشد إليه في غير هذه السورة : فنفخ في درعها فوصل النفخ إلى جوفها ﴿ فحملته ﴾ وعقب بالحمل قوله : ﴿ فانتبذت به ﴾ أي فاعتزلت – وهو في بطنها – حالة ﴿ مكاناً قصياً ﴾ أي بعيداً من

أهلها أو من المكان الشرقي ، وأشار إلى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب في قوله : ﴿ فأجاءها ﴾ أي فأتى بها وألجأها ﴿ المخاض ﴾ وهو تحرك الولد في بطنها للولادة ﴿ إلى جذع النخلة ﴾ وهو ما برز منها من الأرض ولم يبلغ الأغصان ، وكان تعريفها لأنه لم يكن في تلك البلاد الباردة غيرها ، فكانت كالعلم لما فيها من العجب ، لأن النخل من أقل الأشجار صبراً على البرد ، ولعلها ألجئت إليها دون غيرها من الأشجار على كثرتها لمناسبة حال النخلة لها ، لأنها لا تحمل إلا بإلقاح من ذكور النخل ، فحملها بمجرد هزها أنسب شيء لإتيانها بولد من غير والد ، فكيف إذا كان ذلك في غير وقته ! فكيف إذا كانت يابسة ! مع ما لها فيها من المنافع بالاستناد إليها والاعتماد عليها ، وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية في نفعها وغير ذلك .

(88/484)

ولما كان ذلك أمراً صعباً عليها جداً ، كان كأنه قيل : يا ليت شعري ! ما كان حالها ؟ فقيل : ﴿ قالت ﴾ لما حصل عندها من خوف العار : ﴿ ياليتني مت ﴾ ولما كانت كذلك أشارت إلى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار : ﴿ قبل هذا ﴾ أي الأمر العظيم ﴿ وكنت نسياً ﴾ أي شيئاً من شأنه أن ينسى ﴿ منسياً ﴾ أي

متروكاً بالفعل لا يخطر على بال ، فولدته ﴿ فناداها من تحتها ﴾ وهو عيسى عليه السلام ﴿ ألا تحزني ﴾ قال الرازي في اللوامع : والأصح أن مدة حملها له وولادته ساعة لأنه كان مبدعاً ، ولم يكن من نطفة تدور في أدوار الخلقة – انتهى .

ونقله ابن كثير وقال : غريب عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، ويؤيده أنه لم ينقل في كتابنا ولا عن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم أنكروا عليها زمن الحمل ، ولو علموا به لأنكروه ولو أنكروه لنقل كما نقل إنكار الولادة .

ولما أنكروا الولادة فكأنها قالت : لم لا أحزن ؟ وتوقعت ما يعلل به ؟ قال : ﴿ قد جعل ربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ تحتك ﴾ في هذه الأرض التي لا ماء جارياً بها ﴿ سرياً ﴾ جدولاً من الماء جليلاً آية لك تطيب نفسك ﴿ وهزي إليك ﴾ أي أوقعي الهز وهو جذب بتحريك .

(89/484)

ولما كان المقصود التهويل لصرف فكرها عما دهمها من الهم جعله قاصراً فكأنها قالت : ما أهز ؟ إذ لم يكن في الجذع ما يتوقع نفعه بهزه ، فقال مصرحاً بالمهزوز : ﴿ بجذع النخلة ﴾ التي أنت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها فكأنها قالت : ولم ذاك ؛ فقال :

﴿ تساقط عليك ﴾ من أعلاها ﴿ رطباً جنياً ﴾ طريا آية أخرى عظيمة تطيب النفس وتذهب بالحزن ، وتدل على البراءة ، والتعبير بصيغة التفاعل في قراءة الجماعة وحمزة للدلالة على أن التمر يسقط منها ، ومن حقه أن يكون منتفياً لأنها غير متأهلة لذلك ، فهو ظاهر في أنه على وجه خارق للعادة ، وقراءة الجماعة بالإدغام تشير مع ذلك إلى أنه مع شدته يكاد أن يخفي كونه منها ليبسها وعدم إقنائها ، وقراءة حمزة بالفتح والتخفيف تشير إلى سهولة تساقطه وكثرته ، وقراءة حفص عن عاصم بالضم وكسر القاف من فاعل ، تدل على الكثرة وأنه ظاهر في كونه من فعلها .

ولما كان من المعلوم أنها هزت فتساقط الرطب ، سبب عنه قوله : ﴿ فكلي ﴾ أي فتسبب عن الإنعام عليك بالماء والرطب أن يقال لك تمكيناً من كل منهما كلي من الرطب ﴿ واشربي ﴾ من ماء السرى ﴿ وقري ﴾ أي استقري ﴿ عيناً ﴾ بالنوم ، فإن المهموم لا ينام ، والعين لا تستقر ما دامت يقظى ، وعن الأصمعي أن المعنى : ولتبرد دمعتك ، لأن دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارة ، واشتقاق " قري " من القرور ، وهو الماء البارد – انتهى .

وقال الإمام أبو عبد الله القزاز في ديوانه : وحكى الفراء أن قريشاً ومن حولهم يقولون : قررت به عيناً – أي بكسر العين – أقر ، وأن أسداً وقيساً وتميماً يقولون : قررت به عيناً – أي بالفتح – أقر ، قال – يعني الفراء : فمن قال : قررت – أي بالكسر – قراً ، وقرى عيناً –

أي بالفتح ، وهي القراءة المعروفة ، ومن قال : قررت ، - أي بالفتح قراً وقري عيناً - بكسر القاف أي وهي الشاذة ، قال - أي القزاز : هي لغة كل من لقيت من أهل نجد ، والمصدر قرة وقرور .

(90/484)

وسيأتي في القصص ما ينفع هنا ، وهو على كل حال كناية عن طيب النفس وتأهلها لأن تنام بالكفاية في الدنيا بطعام البدن وغذاء الروح بكونه آية باهرة ، والآخرة بالكرامة وذلك على أنفع الوجوه ، قيل : ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل ؛ ثم سبب عن ذلك قوله مؤكداً إيذاناً بأن أكثر رؤيتها في تلك الأوقات الملائكة عليهم السلام ﴿ فإما ترين ﴾ أي يا مريم ﴿ من البشر أحداً ﴾ لا تشكين أنه من البشر ينكر عليك ﴿ فقولي ﴾ لذلك المنكر جواباً له مع التأكيد تنبيهاً على البراءة لأن البريء يكون ساكناً لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه : ﴿ إني نذرت للرحمن ﴾ أي الذي عمت رحمته فأدخلني فيها على ضعفي وخصني بما رأيت من الخوارق ﴿ صوماً ﴾ أي صمتاً ينجي من كل وصمة وإمساكاً عن الكلام ﴿ فلن ﴾ أي فتسبب عن النذر أني لن ﴿ أكلم اليوم إنسياً ﴾ فإن كلامي يقبل الرد والمجادلة ولكن يتكلم عني المولود الذي كلامه لا يقبل الدفع ، وأما أنا

فأنزه نفسي عن مجادلة السفهاء فلا أكلم إلا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر ، قالوا : ومن أذل الناس سفيهاً لم يجد مسافهاً ، ومن الدلالة عليه بالصمت عن كلام الناس مع ما تقدم الإشارة إلى أنه ردع مجرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 531.528 ﴾

(91/484)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : 12] أي في عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : 29] وقال فنفخنا فيها لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها واختلفوا في النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وظاهره يفيد أن النافخ

هو الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل ، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ فكذا ههنا وقال آخرون : النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام : ﴿ لأَهَبَ لَكِ ﴾ [مريم : 19] أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام فلا بد من إحالة النفخ إليه ، ثم اختلفوا في كيفية ذلك النفخ على قولين : الأول : قول وهب إنه نفخ جبريل في جيبها حتى وصلت إلى الرحم .

الثاني : في ذيلها فوصلت إلى الفرج .

الثالث : قول السدي أخذ بكمها فنفخ في جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها ، فقالت امرأة زكريا إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله ﴾ [آل عمران : 39] .

الرابع : أن النفخة كانت في فيها فوصلت إلى بطنها فحملت في الحال ، إذ عرفت هذا ظهر أن في الكلام حذفاً وهو ، وكان أمراً مقضياً ، فنفخ فيها فحملته .

المسألة الثانية :

قيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة ، وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل .

(92/484)

وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال .

المسألة الثالثة :

﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها كقوله : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] أي تنبت والدهن فيها ، واختلفوا في علة الإنتباذ على وجوه .

(93/484)

أحدها : ما رواه الثعلبي في العرائس عن وهب قال : إن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون ، وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم في أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً ولا عبادة منهما ، وأول من عرف حمل مريم يوسف فتحير في أمرها فكلما أراد أن

يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها ، وأنها لم تغب عنه ساعة قط ، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل فأول ما تكلم أن قال إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري ، فقالت : قل قولاً جميلاً قال : أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث ، وهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت نعم : ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر ، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة ، أو تقول إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها ، فقال يوسف : لا أقول هذا ولكني أقول إن الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون ، فقالت له مريم : أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟ فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب ، فلما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن أخرجي من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له ، فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة ، وذلك في زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها .

وثانيها : أنها استحيت من زكريا فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا .

وثالثها : أنها كانت مشهورة في بني إسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الأنبياء في تربيتها وتكفل زكريا بها ، ولأن الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى ، فلما كانت في نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا .

ورابعها : أنها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم ، واعلم أن هذه الوجوه محتملة ، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها .

المسألة الرابعة :

اختلفوا في مدة حملها على وجوه : الأول : قول ابن عباس رضي الله عنهما إنها كانت تسعة أشهر كما في سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر .

الثاني : أنها كانت ثمانية أشهر ، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى ابن مريم عليه السلام .

الثالث : وهو قول عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر .

الرابع : أنها كانت ستة أشهر .

الخامس : ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة .

السادس : وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً كانت مدة الحمل ساعة واحدة

ويمكن الاستدلال عليه من وجهين : الأول : قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فانتبذت بِهِ ﴾ [مريم : 22] ﴿ فَأَجَاءهَا المخاض ﴾ [مريم : 23] ، ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ [مريم : 24] والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة لا يقال انتباذها مكاناً قصياً كيف يحصل في ساعة واحدة لأنا نقول : السدي فسره بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها .

(95/484)

الثاني : أن الله تعالى قال في وصفه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] فثبت أن عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل ، وإنما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة .

المسألة الخامسة :

﴿ قَصِيّاً ﴾ أي بعيد من أهلها ، يقال مكان قاص ، وقصي بمعنى واحد مثل عاص وعصي ، ثم اختلفوا فقيل : أقصى الدار ، وقيل وراء الجبل ، وقيل : سافرت مع ابن عمها

يوسف وقد تقدمت هذه الحكاية .

المسألة السادسة :

قال صاحب "الكشاف" : "أجاء" منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء فإنك لا تقول جئت المكان ، وأجاءنيه زيد كما تقول بلغنيه وأبلغته ، والمعنى أن طلقها ألجأها إلى جذع النخلة ثم يحتمل أنها إنما ذهبت إلى النخلة طلباً لسهولة الولادة للتشبث بها .

ويحتمل للتقوية والاستناد إليها ، ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه القالة إذا رآها ، ولذلك حكى الله عنها أنها تمنت الموت .

المسألة السابعة :

قال في "الكشاف" قرأ ابن كثير في رواية المخاض بالكسر يقال مخضت الحامل ومخاضاً وهو تمخض الولد في بطنها .

المسألة الثامنة :

قال في "الكشاف" كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء والتعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس ، فإذا قيل : جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره وإما أن يكون تعريف الجنس أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة كان الله أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء ، ولأن النخلة أقل الأشياء صبراً على البرد ولا تثمر إلا عند اللقاح ، وإذا قطعت رأسها لم تثمر ، فكأنه تعالى قال كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح ، ثم إني أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر .

المسألة التاسعة :

لم قالت : ﴿ ياليتنى مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين ، والجواب من وجهين : الأول : قال وهب : أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس (من) بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام .

الثاني : أن عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك .

وروى عن أبي بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر تقع على الشجرة

وتأكل من الثمر ! وددت أني ثمرة ينقرها الطائر ! وعن عمر أنه أخذ تبنة من الأرض وقال : ليتني هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئاً ! وقال علي يوم الجمل : يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وعن بلال : ليت بلال لم تلده أمه .

فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم .

الثالث : لعلها قالت ذلك لكي لا تقع المعصية ممن يتكلم فيها ، وإلا فهي راضية بما بشرت به .

المسألة العاشرة :

(97/484)

قال صاحب "الكشاف" النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطمث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح كقوله : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 107] تمنت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى في العادة وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة نسياً بالفتح والباقون نسياً بالكسر قال الفراء : هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر ، وقرأ محمد بن كعب القرظي نسيئاً بالهمزة وهو الحليب المخلوط بالماء ينساه أهله لقلته وقرأ الأعمش منسياً بالكسر على الإتباع كالمغير والمنخر ، والله أعلم .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

فناداها من تحتها القراءة المشهورة فناداها وقرأ زر وعلقمة فخاطبها وفي الميم فيها قراءتان فتح الميم وهو المشهور وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائي وحفص وفي المنادي ثلاثة أوجه : الأول : أنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير .

والثاني : أنه جبريل عليه السلام وأنه كان كالقابلة للولد .

والثالث : أن المنادي على القراءة بالكسر هو الملك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم والأول أقرب لوجوه : الأول : أن قوله : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحداً والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه ، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادي جبريل عليه السلام ، فقد صح قولنا .

الثاني : أن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة وذلك لا يليق بالملائكة .

الثالث : أن قوله فناداها فعل ولا بد وأن يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فانتبذت بِهِ ﴾ [مريم : 22] والضمير ههنا عائد إلى المسيح فكان حمله عليه أولى .

والرابع : وهو دليل الحسن بن علي عليه السلام أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام فأما من قال المنادي هو عيسى عليه السلام فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال المنادي جبريل عليه السلام قال إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بما تقدم من أصناف البشارات ، وأما قوله : ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ فإن حملناه على الولد فلا سؤال وإن حملناه على الملك ففيه وجهان : الأول : أن يكونا معاً في مكان مستو ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا فكل من كان أقرب منها كان فوق وكل من كان أبعد منها كان تحت وفسر الكلبي قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : 10] بذلك وعلى هذا الوجه قال بعضهم : إنه ناداها من أقصى الوادي .

والثاني : أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر فيكون صاحب العلو فوق

صاحب السفل وعلى هذا الوجه روي عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية وفيه وجه ثالث : يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رأته وأنها ما رأته وليس في اللفظ ما يدل على شيء من ذلك .

المسألة الثانية :

(99/484)

اتفق المفسرون إلا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السري هو النهر والجدول سمي بذلك لأن الماء يسري فيه وأما الحسن وابن زيد فجعلا السري عيسى والسري هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أي من أشرافهم وروي أن الحسن رجع عنه وروي عن قتادة وغيره أن الحسن تلا هذه الآية وبجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ فقال : إن كان لسرياً وإن كان لكريماً ، فقال له حميد : يا أبا سعيد إنما هو الجدول فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك ، واحتج من حمله على النهر بوجهين :

أحدهما : أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن السري فقال : هو الجدول .

والثاني : أن قوله : ﴿ فَكُلِي واشربي ﴾ يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب

فتأكل وتشرب واحتج من حمله (على) عيسى بوجهين : الأول : أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جانبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها كما في قوله : ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف : 51] لأن هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج إلى هذا المجاز .

الثاني : أنه موافق لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءايَةً وءاوينا هما إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : 50] والجواب عنه ما تقدم أن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان من تحت فرعان : الأول : إن حملنا السري على النهر ففيه وجهان : أحدهما : أن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب .

والثاني : أنه كان هناك ماء جار .

والأول : أقرب لأن قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ مشعر بالحدوث في ذلك الوقت ولأن الله تعالى ذكره تعظيماً لشأنها وذلك لا يثبت إلا على الوجه الذي قلناه .

(100/484)

الثاني : اختلفوا في أن السري هو النهر مطلقاً وهو قول أبي عبيدة والفراء أو النهر الصغير على ما هو قول الأخفش .

المسألة الثالثة :

قال القفال : الجذع من النخلة هو الأسفل وما دون الرأس الذي عليه الثمرة وقال قطرب : كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع وأما الباء في قوله بجذع النخلة فزائدة والمعنى هزي إليك أي حركي جذع النخلة ، قال الفراء : العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة ، وقال الأخفش : يجوز أن يكون على معنى هزي إليك رطباً بجذع النخلة أي على جذعها ، إذا عرفت هذا فنقول : قد تقدم أن الوقت كان شتاء وأن النخلة كانت يابسة ، واختلفوا في أنه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير ، وهل أثمر مع الرطب غيره ؟ والظاهر يقتضي أنه صار نخلة لقوله بجذع النخلة وأنه ما أثمر إلا الرطب .

المسألة الرابعة :

قال صاحب "الكشاف" : تساقط فيه تسع قراءات تساقط بإدغام التاء وتتساقط بإظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية ويساقط بالياء وإدغام التاء وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع .

المسألة الخامسة :

رطباً تمييز أو مفعول على حسب القراءة الجني المأخوذ طرياً وعن طلحة بن سليمان جنياً بكسر الجيم للأتباع والمعنى جمعنا لك في السري والرطب فائدتين : إحداهما : الأكل والشرب .

والثانية : سلوة الصدر بكونهما معجزتين فإن قال قائل : فتلك الأفعال الخارقة للعادات لمن ؟ قلنا : قالت المعتزلة : إنها كانت معجزة لزكريا وغيره من الأنبياء وهذا باطل لأن زكرياء عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها فكيف بتلك المعجزات ، بل الحق أنها كانت كرامات لمريم أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام .

المسألة السادسة :

(101/484)

فكلي واشربي وقري عيناً قرىء بكسر القاف لغة نجد وتقول قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ، ثم قال : وقري عيناً ، وههنا سؤال ، وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران : أحدهما : أن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن .

والثاني : ما روي أنه أجيعت شاة ثم قدم العلف إليها وربط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفاً من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن دلت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن .

إذا ثبت هذا فنقول : فلم قدم الله تعالى في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف ، والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى .

المسألة السابعة :

قال صاحب "الكشاف" قرأ ترئن بالهمزة ابن الرومي عن أبي عمرو وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿ صَوْماً ﴾ صمتاً وفي مصحف عبد الله صمتاً وعن أنس بن مالك مثله وقيل صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالاً على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزاً في شرعهم ، وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال القفال لعله يجوز لأن الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة ، ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس ، وروي أنه دخل أبو بكر على امرأة قد نذرت أنها

لا تتكلم فقال أبو بكر : إن الإسلام هدم هذا فتكلمي ، والله أعلم .

المسألة الثامنة :

(102/484)

أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها في الكلام لمعنيين : أحدهما : أن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى .

والثاني : كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهاً .

المسألة التاسعة :

اختلفوا في أنها هل قالت معهم : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ فقال قوم : إنها ما تكلمت معهم بذلك لأنها كانت مأمورة بأن تأتي بهذا النذر عند رؤيتها فإذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها أمسكت وأومأت برأسها ، وقال آخرون : إنها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ وهذه الصيغة وإن كانت عامة إلا أنها صارت

بالقرينة مخصوصة في حق هذا الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 177.171 ﴾

(103/484)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾

قَالَ قَائِلُونَ : إنَّمَا تَمَنَّتْ الْمَوْتَ لِلْحَالِ الَّتِي دُفِعَتْ إلَيْهَا مِنْ الْوِلَادَةِ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ .

وَهَذَا خَطَأٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ حَالٌ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ ابْتَلَاهَا بِهَا وَصَيَّرَهَا إلَيْهَا وَقَدْ كَانَتْ هِيَ رَاضِيَةٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا بِذَلِكَ مُطِيعَةً لِلَّهِ ، وَتَسَخُّطُ فِعْلِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ مَعْصِيَةٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَفْعَلُ إلَّا مَا هُوَ صَوَابٌ وَحِكْمَةٌ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهَا لَمْ تَتَمَنَّ الْمَوْتَ لِهَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا تَمَنَّتْهُ لِعِلْمِهَا بِأَنَّ النَّاسَ سَيَرْمُونَهَا بِالْفَاحِشَةِ فَيَأْثَمُونَ بِسَبَبِهَا ، فَتَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ قَدْ مَاتَتْ قَبْلَ أَنْ يَعْصِيَ النَّاسُ اللَّهَ بِسَبَبِهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ : " جِبْرِيلُ " عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ : " الَّذِي نَادَاهَا عِيسَى " عَلَيْهِ

السَّلَامُ وقَوْله تعَالَى : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : " مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ " . وَقَالَ غَيْرُهُ : " جَعَلَنِي نَفَّاعًا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(104/484)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ وهُزِّي إلَيْكِ بجذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ هُزِّي إلَيْكِ بجذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أَمْرٌ بتَكَلُّفِ الْكَسْبِ فِي الرِّزْقِ ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنْ غَيْرِ تَكَسُّبٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : كَانَ قَلْبُهَا فَارِغًا لِلَّهِ ، فَفَرَّغَ اللَّهُ جَارِحَتَهَا عَنْ النَّصَبِ ، فَلَمَّا وَلَدَتْ عِيسَى ، وَتَعَلَّقَ قَلْبُهَا بحُبِّهِ ، وَكَّلَهَا اللَّهُ إلَى كَسْبِهَا ، وَرَدَّهَا إلَى الْعَادَةِ فِي التَّعَلُّقِ بالْأَسْبَابِ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ إلَيْك فَهُزِّي الْجِذْعَ يَسَّاقَطْ الرُّطَبْ وَلَوْ شَاءَ أَحْنَى

الْجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزِّهَا إلَيْهَا وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ وَقَدْ كَانَ حُبُّ اللَّهِ أَوْلَى بِرِزْقِهَا كَمَا كَانَ حُبُّ الْخَلْقِ أَدْعَى إلَى النَّصَبِ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي صِفَةِ الْجِذْعِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ كَانَ لِنَخْلَةٍ خَضْرَاءَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ زَمَانَ الشِّتَاءِ ، فَصَارَ وُجُودُ التَّمْرِ فِي غَيْرِ إبَّانِهِ آيَةً . الثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ جِذْعًا يَابِسًا فَهَزَّتْهُ ، فَاخْضَرَّ وَأَوْرَقَ وَأَثْمَرَ فِي لَحْظَةٍ .

(105/484)

وَدَخَلْتُ بَيْتَ لَحْمٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، فَرَأَيْت فِي مُتَعَبَّدِهِمْ غَارًا عَلَيْهِ جِذْعٌ يَابِسٌ كَانَ رُهْبَانُهُمْ يَذْكُرُونَ أَنَّهُ جِذْعُ مَرْيَمَ بِإِجْمَاعٍ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ دَخَلَتْ بَيْتَ لَحْمٍ قَبْلَ اسْتِيلَاءِ الرُّومِ عَلَيْهِ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فَرَأَيْت الْغَارَ فِي الْمُتَعَبَّدِ خَالِيًا مِنْ الْجِذْعِ .

فَسَأَلْتُ الرُّهْبَانَ بِهِ ، فَقَالُوا : نَخَرَ وَتَسَاقَطَ ، مَعَ أَنَّ الْخَلْقَ كَانُوا يَقْطَعُونَهُ اسْتِشْفَاءً حَتَّى فُقِدَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : قَالَ اللَّهُ : رُطَبًا جَنِيًّا .

الْجَنِيُّ : مَا طَابَ مِنْ غَيْرِ نَقْشٍ وَلَا إفْسَادٍ ، وَالنَّقْشُ أَنْ يُنْقَشَ فِي أَسْفَلِ الْبُسْرَةِ حَتَّى تُرَطَّبَ ، فَهَذَا مَكْرُوهٌ يَعْنِي مَالِكٌ أَنَّ هَذَا تَعْجِيلٌ لِلشَّيْءِ قَبْلَ رِقَّتِهِ ، وَإِفْسَادٌ لِجَنَاهُ ؛ فَلَا

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَهُ ، وَلَوْ فَعَلَهُ فَاعِلٌ مَا كَانَ ذَلِكَ مُجَوِّزًا لِبَيْعِهِ ، وَلَا حُكْمًا بِطِيبِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(106/484)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : معناه ألجأها ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومنه قول الشاعر :

إذ شددنا شدة صادقة . . . فأجأناكم إلى سفح الجبل

الثاني : معناه فجأها المخاض كقول زهير :

وجارٍ سارَ معتمداً إلينا . . . أجاءته المخافة والرجاء .

وفي قراءة ابن مسعود ﴿ فَأَوَاهَا ﴾

﴿ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها خافت من الناس أن يظنوا بها سوءاً قاله السدي .

الثاني : لئلا يأثم الناس بالمعصية في قذفها .

الثالث : لأنها لم تَرَ في قومها رشيداً ذا فراسة ينزهها من السوء ، قاله جعفر بن محمد رحمهما الله .

﴿ وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : لم أخلق ولم أكن شيئاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا أعرف ولا يدرى من أنا ، قاله قتادة .

الثالث : النسي المنسي هو السقط ، قاله الربيع ، وأبو العالية .

الرابع : هو الحيضة الملقاة ، قاله عكرمة ، بمعنى خرق الحيض .

الخامس : معناه وكنت إذا ذكرت لم أطلب حكاه اليزيدي . والنسي عندهم في كلامهم ما أعقل من شيء حقير قال الراجز :

كالنسي ملقى بالجهاد البسبس . . . .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن المنادي لها من تحتها جبريل ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي .

الثاني : أنه عيسى ابنها ، قاله الحسن ، ومجاهد .

وفي قوله من تحتها وجهان :

أحدهما : من أسفل منها في الأرض وهي فوقه على رأسه ، قاله الكلبي .

الثاني : من بطنها : قاله بعض المتكلمين ، بالقبطية .

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ فيه قولان :

(107/484)

أحدهما : أن السريّ هو ابنها عيسى ، لأن السري هو الرفيع الشريف مأخوذ من قولهم فلان من سروات قومه أي من أشرافهم ، قاله الحسن ، فعلى هذا يكون عيسى هو المنادي من تحتها ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾

الثاني : أن السريّ هو النهر ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير ، وقتادة ، والضحاك ، لتكون النخلة لها طعاماً ، والنهر لها شراباً ، وعلى هذا يكون جبريل هو المنادي لها ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ .

الثاني : أنه عربي مشتق من السراية فَسُمِّيَ السريّ لأنه يجري فيه ومنه قول الشاعر :

سهل الخليقة ماجد ذو نائلٍ . . . مثل السريّ تمده الأنهار

(108/484)

وقيل : إن اسم السري يطلق على ما يعبره الناس من الأنهار وثباً . وروى أبان بن تغلب في تفسيره القرآن خبراً عن عدد لم يسمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث شداد بن ثمامة مصدقاً لبني كعب بن مذحج وكتب له كتاباً : " عَلَى مَا سَقَتْهُ المَرَاسِمُ وَالجَدَاوِلُ وَالنَّوَاهِرُ وَالدَّوَافِعُ العُشْرُ وَنِصْفُ العشر بقيمة عَدْلٍ إلاَّ الضَّوَامِرَ وَاللَّوَاقِحَ وَمَا أَطل الصور من الجفن . وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ شَاةً شَاةٌ إلاَّ العَقِيلَ وَالأَكِيلَ وَالرِبِيَّ . ومن كل ثلاثين بقرةً جِذْعٌ أَوْ جِذْعَةٌ إلاَّ العَاقِرَ وَالنَّاشِطَ وَالرَّاشِحَ . وَمِن كُلِّ خَمْسٍ مِنَ الإِبِلِ المُوَّبَلَةِ مُسِنَّةٌ مِنَ الغَنَمِ . وَلاَ صَدَقَةَ فِي الخَيلِ وَلاَ فِي الإِبِلِ العَامِلَةِ . شَهِدَ جَرِيرٌ بن عَبدِ اللَّهِ بن جَابرٍ البَجْلِي وَشَدَّادُ بن ثُمَامَةَ وَكَتَبَ المُغِيرَةُ بن شُعْبَةِ " فالمراسل العيون ، والجداول الأنهار الصغار ، والنواهر الدوالي ، والدوافع الأودية ، والضوامر ما لم تحمل من النخل ، واللواقح الفحول ، والجفن الكرم ، وما أطلاه من الزرع عفو ، والعقيل فحل الغنم والأَيل الذي يُرَبَّى للأكل . والربي التي تربي ولدها والعاقر من البقر التي لا تحمل ، والناشط الفحل الذي ينشط من أرض إلى أرض والراشح الذي يحرث الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ . . . . ﴾ الآية . اختلف في النخلة . على أربعة أقاويل :

أحدها : كانت برنية .

الثاني : صرفاتة ، قاله أبو داود .

الثالث : قريناً .

الرابع : عجوة ، قاله مجاهد .

وفي ﴿ الجَنِي ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : المترطب البسر ، قاله مقاتل .

الثاني : البلح لم يتغير ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

الثالث : أنه الطري بغباره . وقيل لم يكن للنخلة رأس وكان في الشتاء فجعله الله آية . قال مقاتل فاخضرت وهي تنظر ثم حملت وهي تنظر ثم نضجت وهي تنظر .

(109/484)

قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي ﴾ يعني من الرطب الجني .

﴿ وَاشْرَبِي ﴾ يعني من السريّ .

﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ يعني بالولد ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : جاء يقر عينك سروراً ، قاله الأصمعي ، لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة .

الثاني : طيبي نفساً ، قاله الكلبي .

الثالث : تسكن عينك ولذلك قيل ما شيء خير للنفساء من الرطب والتمر .

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ﴾ يعني إما للإنكار عليك وإما للسؤال لك .

﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني صمتاً ، وقد قرىء في بعض الحروف : ﴿ لِلرَّحَمْنِ صَمْتاً ﴾ وهذا تأويل ابن عباس وأنس بن مالك والضحاك .

الثاني : صوماً عن الطعام والشراب والكلام ، قاله قتادة . ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها امتنعت من الكلام ليتكلم عنها ولدها فيكون فيه براءة ساحتها ، قاله ابن مسعود ووهب بن منبه وابن زيد .

الثاني : أنه كان من صام في ذلك الزمان لم يكلم الناس ، فأذن لها في المقدار من الكلام قاله السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(110/484)

وقال ابن عطية :

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾

وروي أن جبريل عيله السلام حين قاولها هذه المقاولة " نفخ في جيب درعها " فسرت النفخة بإذن الله حتى حملت منه قاله وهب بن منبه وغيره ، وقال ابن جريج : نفخ في جيب درعها وكمها وقال أبي بن كعب " دخل الروح المنفوخ من فمها " فذلك قوله تعالى : ﴿ فحملته ﴾ أي حملت الغلام ، ويذكر أنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة ، فلما أحست بذلك وخافت تعنيف الناس وأن يظن بها الشر ﴿ انتبذت به ﴾ أي تنحت ﴿ مكاناً ﴾ بعيداً حياء وفراراً على وجهها ، وروي في هذا أنها فرت الى بلاد مصر أو نحوها قال وهب بن منبه ، وروي أيضاً أنها خرجت الى موضع يعرف (ببيت لحم) بينه وبين أيلياء أربعة أميال و ﴿ أجاءها ﴾ معناه ، فاضطرها وهو تعدية جاء بالهمزة وقرأ شبل بن عزرة ورويت عن عاصم " فاجأها " من المفاجأة وفي مصحف أبي بن كعب " فلما أجاءها المخاض " .

وقال زهير : [الوافر]

وجار سار معتمداً إليكم . . . أجاءته المخافة والرجاء

(111/484)

وقرأ الجمهور " المَخاض " بفتح الميم ، وقرأ ابن كثير فيما روي عنه بكسرها وهو " الطلق وشدة الولادة وأوجاعها " ، روي أنها بلغت الى موضع كان فيه " جذع نخلة " بالٍ يابس في أصله مذود بقرة على جرية ماء فاشتد بها الأمر هنالك واحتضنت الجذع لشدة الوجع وولدت عيسى عليه السلام فقالت عند ولادتها لما رأته من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وجه ، ﴿ يا ليتني مت ﴾ ولم يجر علي هذا القدر ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وعاصم وأبو عمرو وجماعة " مُت " بضم الميم ، وقرأ الأعرج وطلحة ويحيى والأعمش " مِت " بكسرها واختلف عن نافع ، وتمنت مريم الموت من جهة الدين إذ خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك وهذا مباح ، وعلى هذا الحد تمناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصالحين ونهي النبي عليه السلام عن تمني الموت إنما هو لضر نزل بالبدن وقد أباحه عليه السلام في قوله : " يأتي على الناس زمان يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه " .

قال القاضي أبو محمد : لأنه زمن فتن يذهب بالدين ، ﴿ وكنت نسياً ﴾ أي شيئاً متروكاً محتقراً ، و" النسي " في كلام العرب الشيء الحقير الذي شأنه أن ينسى فلا يتألم لفقده ، كالوتد والحبل للمسافر ونحوه ، ويقال " نِسي " بكسر النون و" نَسي " بفتحها ، وقرأ الجمهور بالكسر ، وقرأ حمزة وحده بالفتح ، واختلف عن عاصم ، وكقراءة حمزة ، قرأ

طلحة ويحيى والأعمش ، وقرأ محمد بن كعب القرظي بالهمز " نِسئاً " بكسر النون ، وقرأ نوف البكالي " نَسأً " بفتح النون ، وحكاها أبو الفتح والداني عن محمد بن كعب ، وقرأ بكر بن حبيب " نَسّاً " بشد السين وفتح النون دون همز ، وقال الشنفرى : [الطويل]

كأنَّ لها في الأرض نسّاً تقصه . . . إذا ما غذت وإن تحدثك تبلت

(112/484)

وحكى الطبري في قصصها أنها لما حملت بعيسى حملت أيضاً أختها بيحيى ، فجاءتها أختها زائرة فقالت " يا مريم أشعرت أني حملت " قالت لها مريم " أشعرت أنت أني حملت " قالت له " وإني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك " وذلك أنه روي أنها أحست جنينها يخر برأسه الى ناحية بطن مريم ، قال السدي فذلك قوله تعالى ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ [آل عمران : 39] وفي هذا كله ضعف فتأمله . وكذلك ذكر الطبري من قصصها أنها خرجت فارّة مع رجل من بني اسرائيل يقال له يوسف النجار كان يخدم معها المسجد وطول في ذلك فاختصرته لضعفه ، وهذه القصة تقتضي أنها حملت واستمرت حاملاً على عرف البشر واستحيت من ذلك ومرت بسببه وهي حامل وهو قول الجمهور المتأولين ، وروي عن ابن عباس أنه قال ليس إلا أن حملت فوضعت في ساعة واحدة والله أعلم .

وظاهر قوله ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ يقتضي أنها كانت على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر ولذلك قيل لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصية عيسى عليه السلام وقيل ولدته لسبعة وقيل لستة .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) ﴾

(113/484)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر وابن عباس والحسن وزيد بن حبيش ومجاهد والجحدري وجماعة " فناداها مَن تحتها " على أن " مَن " فاعل ينادي والمراد ب " مَن " عيسى ، قال أي ناداها المولود قاله مجاهد والحسن وابن جبير وأبي بن كعب ، وقال ابن عباس المراد " مَن " جبريل ولم يتكلم حتى أتت به قومها وقال علقمة والضحاك وقتادة ، ففي هذه آية لها وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مراد عظيم لا سيما والمنادي عيسى فأنه يبين به عذر مريم ولا تبقى بها استرابة ، فلذلك كان النداء أن لا يقع حزن ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم والبراء بن عازب والضحاك وعمرو بن ميمون وأهل الكوفة وأهل المدينة وابن عباس أيضاً والحسن " مِن تحتها " بكسر الميم على أنها لابتداء الغاية واختلفوا ، فقال بعضهم : المراد عيسى ، وقالت فرقة : المراد

جبريل المحاور لها قبل ، قالوا : وكان في سعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها وأبين وأظهر ، وعليه كان الحسن بن أبي الحسن يقسم وقرأ علقمة وزر بن حبيش " فخاطبها " من تحتها " ، وقرأ ابن عباس " فناداها ملك من تحتها " . وقوله ﴿ ألا تحزني ﴾ تفسير النداء ف " أن " مفسرة بمعنى أي ، و " السري " من الرجال العظيم الخصال السيد ، و " السري " أيضاً الجدول من الماء ، وبحسب هذا اختلف الناس في هذه الآية فقال قتادة وابن زيد : أراد جعل تحتك عظيماً من الرجال له شأن ، وقال الجمهور أشار لها إلى الجدول الذي كان قرب جذع نخلة ، وروي أن الحسن فسر الآية فقال أجل لقد جعله الله ﴿ سرياً ﴾ كريماً ، فقال عبيد بن عبد الرحمن الحميري يا أبا سعيد إنما يعني ب " السري " الجدول . وقال الحسن لهذه وأشباهها أحب قربك ولكن غلبنا عليك الأمراء ومن الشاهد في " السري " قول لبيد . [الكامل]

فتوسطا عرض السري فصدعا . . . مسجورة متجاوراً قلاّمها

(114/484)

ثم أمر بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع ، وقالت فرقة بل كانت النخلة مطعمة ﴿ رطباً ﴾ ، وقال السدي كان الجذع مقطوعاً وأجرى النهر تحتها لحينه ،

والظاهر من الآية أن عيسى هو المكلم لها وأن الجذع كان يابساً وعلى هذا تكون آيات تسليها وتسكن إليها . والباء في قوله ﴿ بجذع ﴾ زائدة مؤكدة قال أبو علي : كما يقال ألقى بيده أي ألقى يده .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا المثال عندي نظر ، وأنشد الطبري : [الطويل]

بواد يمان ينبت السدر صدره . . . وأسفله بالمرج والشبهان

(115/484)

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وابن عامر والكسائي وابو بكر عن عاصم والجمهور من الناس " تَسّاقط " بفتح التاء وشد السين يريد ﴿ النخلة ﴾ ، وقرأ البراء بن عازب والأعمش " يساقط " بالياء يريد " الجذع " ، وقرأ حمزة وحده " تَسَاقط " بفتح التاء وتخفيف السين ، وهي قراءة مسروق وابن وثاب وطلحة وأبي عمرو بخلاف ، وقرأت فرقة " يساقط " بالياء على ما تقدم من إدارة ﴿ النخلة ﴾ أو " الجذع " . وقرأ عاصم في رواية حفص " تُسَاقط " بضم التاء وتخفيف السين ، وقرأت فرقة " يساقط " بالياء ، وقرأ أبو حيوة " يسقط " بالياء ، وروي عنه " يُسقط " بضم الياء وقرأ أيضاً " تسقط " وحكى أبو علي في الحجة أنه قرئ " يتساقط " بياء وتاء ، وروي عن مسروق " تُسقِط " بضم التاء

وكسر القاف ، وكذلك عن أبي حيوة ، وقرأ أبو حيوة أيضاً " يسقُط " بفتح الياء وضم القاف ، " رطب جني " بالرفع ، ونصب ﴿ رطباً ﴾ يختلف بحسب معاني القراءات المذكورة ، فمرة يسند الفعل الى الجذع ومرة الى الهز ، ومرة الى ﴿ النخلة ﴾ و ﴿ جنياً ﴾ معناه قد طابت وصلحت للاجتناء ، وهو من جنيت الثمرة . وقرأ طلحة بن سليمان " جِنياً " بكسر الجيم ، وقال عمرو بن ميمون : ليس شيء للنفساء خيراً من التمر والرطب ، وقال محمد بن كعب : كان رطب عجوة ، وقد استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم الى سعي ما فيه لأنه أمرت مريم بهز الجذع لترى آية ، وكانت الآية تكون بأن لا تهز هي . وحكى الطبري عن ابن زيد أنه قال " قال لها عيسى : لا تحزني ، فقالت وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة أي شيء عذري عند الناس ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ [مريم : 23] ، فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام " . وقوله ﴿ فكلي واشربي وقري ﴾ الآية ، قرأ الجمهور " وقَري " بفتح الكاف ، وحكى الطبري قراءة " وقِري " بكسر القاف ، وقرة العين مأخوذة من القر وذلك أنه

يحكى أن دمع الفرح بارد المس ودمع الحزن سخن المس ، وضعفت فرقة هذا وقالت : الدمع كله سخن وإنما معنى قرة العين أن البكاء الذي يسخن العين ارتفع إذ لا حزن بهذا الأمر الذي قرت به العين . وقال الشيباني ﴿ قري عيناً ﴾ معناه نامي ، حضها على الأكل والشرب والنوم . وقوله ﴿ عيناً ﴾ نصب على التمييز ، والفعل في الحقيقة إنما هو للعين فينقل ذلك الى ذي العين وينصب الذي كان فاعلاً في الحقيقة على التفسير ، ومثله طبت نفساً وتفقأت شحماً وتصببت عرقاً ، وهذا كثير .

وقرأ الجمهور " ترين " وأصله ترءين حذفت النون للجزم ، ثم نقلت حركة الهمزة الى الراء ، ثم قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان الألف والياء ، فحذفت الألف فجاء ترى وعلى هذا النحو هو قول الأفوه : [السريع]

أما ترى رأسي أزرى به . . . ثم دخلت النون الثقيلة ، فكسرت الياء لاجتماع ساكنين منها ومن النون ، وإنما دخلت النون هنا بتوطئة " ما " كما توطئ لدخولها أيضاً لام القسم .

وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه " ترءين " بالهمزة ، وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة " ترينَ " بسكون الياء وفتح النون خفيفة ، قال أبو الفتح : وهي شاذة ، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل أو ابنها على الخلاف المتقدم بأن تمسك عن مخاطبة البشر وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها خجلها ، وتبين الآية فيقوم عذرها ، وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية وهو قول الجمهور . وقالت فرقة معنى ﴿ فقولي

﴿ بالإشارة لا بالكلام والا فكأن التناقض بين في أمرها . وقرأ ابن عباس وأنس بن مالك " إني نذرت للرحمن وصمت " . وقال قوم معناه ﴿ صوماً ﴾ عن الكلام إذ أصل الصوم الإمساك ومنه قول الشاعر : [البسيط]

(117/484)

" خيل صيام " وأخرى غير صائمة . . . وقال ابن زيد والسدي : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام ، وقرأت فرقة " إني نذرت للرحمن صمتاً " ولا يجوز في شرعنا أن ينذر أحد صمتاً ، وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق والكلام . قال المفسرون : أمرت مريم بهذا ليكفيها عيسى الاحتجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(118/484)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فحملته ﴾

يعني : عيسى .

وفي كيفية حملها له قولان .

أحدهما : أن جبريل نفخ في جيب دِرعها ، فاستمرَّ بها حملها ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

قال السدي : نفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قُدَّامها ، فدخلت النفخة في صدرها فحملت من وقتها .

والثاني : الذي خاطبها هو الذي حملته ، ودخل مِنْ فيها ، قاله أُبيّ بن كعب .

وفي مقدار حَمْلها سبعة أقوال .

أحدها : أنها حين حملت وضعت ، قاله ابن عباس ، والمعنى : أنه ما طال حملها ، وليس المراد أنها وضعته في الحال ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ فحملته فانتبذت به ﴾ ، وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الانتباذ به .

والثاني : أنها حملته تسع ساعات ، ووضعت من يومها ، قاله الحسن .

والثالث : تسعة أشهر ، قاله سعيد بن جبير ، وابن السائب .

والرابع : ثلاث ساعات ، حملته في ساعة ، وصوِّر في ساعة ، ووضعته في ساعة ، قاله مقاتل بن سليمان .

والخامس : ثمانية أشهر ، فعاش ، ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر ، فكان في هذا آية ،

حكاه الزجاج.

والسادس: في ستة أشهر، حكاه الماوردي.

والسابع: في ساعة واحدة، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ فانتبذت به ﴾ يعني بالحَمْل ﴿ مكاناً قصيّاً ﴾ أي: بعيداً.

وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: ﴿ قاصياً ﴾.

قال ابن إِسحاق: مشت ستة أميال.

قال الفراء: القصيّ والقاصي بمعنى واحد.

وقال غير الفراء: القصيّ والقاصي بمنزلة الشهيد والشاهد.

وإِنما بَعُدت، فراراً من قومها أن يعيّروها بولادتها من غير زوج.

قوله تعالى: ﴿ فأجاءها المَخاض ﴾ وقرأ عكرمة، وإِبراهيم النخعي، وعاصم الجحدري: "المِخاض" بكسر الميم.

قال الفراء: المعنى: فجاء بها المخاض، فلما أُلقيت الباء، جُعلت في الفعل ألفاً، ومثله: ﴿ آتنا غداءنا ﴾ [الكهف: 62] أي: بغدائنا، ومثله: ﴿ آتوني زُبَر الحديد ﴾ [الكهف: 96] أي: بزبر الحديد.

قال أبو عبيدة : أفعلها من جاءت هي ، وأجاءها غيرها .

وقال ابن قتيبة : المعنى : جاء بها ، وألجأها ، وهو من حيث يقال : جاءت بي الحاجة إليك ، وأجاءَتني الحاجة إليك ، والمَخاض : الحمل .

وقال غيره : المخاض : وجع الولادة .

﴿ إلى جِذع النخلة ﴾ وهو ساق النخلة ، وكانت نخلة يابسة في الصحراء ، ليس لها رأس ولا سعف .

﴿ قالت يا ليتني مُتُّ قبل هذا ﴾ اليوم ، أو هذا الأمر .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : "مِتُّ" بكسر الميم .

وفي سبب قولها هذا قولان .

أحدهما : أنها قالته حياءً من الناس .

والثاني : لئلا يأثموا بقذفها .

قوله تعالى : ﴿ وكنتُ نسياً منسيّاً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، بكسر النون ، وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : "نَسياً" بفتح النون .

قال الفراء : وأصحاب عبد الله يقرؤون : "نَسياً" بفتح النون ، وسائر العرب بكسرها ،

وهما لغتان ، مثل الجَسر والجِسر ، والوَتر والوِتر ، والفتح أحب إليَّ .

قال أبو علي الفارسي : الكسر على اللغتين .

وقال ابن الأنباري : من كسر النون قال : النِسي : اسم لما يُنسى ، بمنزلة البِغض اسم لما يُبْغَض ، والسِّب اسم لما يُسَب .

والنَسي بفتح النون : اسم لما يُنسى أيضاً على أنه مصدر ناب عن الاسم ، كما يقال : الرجل دِنَف ودَنَف .

فالمكسور : هو الوصف الصحيح ، والمفتوح : مصدر سدَّ مسدَّ الوصف .

ويمكن أن يكون النِسي والنَسي اسمين لمعنىً ، كما يقال : الرِّطل والرَّطل .

وللمفسرين في قوله تعالى : ﴿ نسياً منسيّاً ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : يا ليتني لما أكن شيئاً ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وابن زيد .

والثاني : "وكنت نسياً منسيّاً" أي : دم حيضة ملقاة ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة .

قال الفراء : النّسي : ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها .

وقال ابن الأنباري : هي خرق الحيض تلقيها المرأة فلا تطلبها ولا تذكرها .

(120/484)

والثالث : [أنه من] السقط ، قاله أبو العالية ، والربيع .

والرابع : أن المعنى : يا ليتني لا يُدرى من أنا ، قاله قتادة .

والخامس : أنه الشيء التافه يرتحل عنه القوم ، فيهون عليهم فلا يرجعون إليه ، قاله ابن السائب .

وقال أبو عبيدة : النِسي ، والمنسي : ما ينسى من إداوة وعصا .

يعني أنه ينسى في المنزل ، فلا يرجع إليه لاحتقار صاحبه إياه .

وقال الكسائي : معنى الآية : ليتني كنت ما إذا ذُكر لم يُطلب .

قوله تعالى : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "مَن تحتها" بفتح الميم ، والتاء .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "مِن تحتها" بكسر الميم ، والتاء .

فمن قرأ بكسر الميم ، ففيه وجهان .

أحدهما : ناداها الملك من تحت النخلة .

وقيل : كانت على نَشَز ، فناداها الملك أسفل منها .

والثاني : ناداها عيسى لما خرج من بطنها .

قال ابن عباس : كلُّ ما رفعت إليه طرفك ، فهو فوقك ، وكلُّ ما خفضت إليه طرفك ، فهو

تحتك .

ومن قرأ بفتح الميم ، ففيه الوجهان المذكوران .

وكان الفراء يقول : ما خاطبها إلا الملك على القراءتين جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ قد جعل ربُّكِ تحتكِ سريّاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه النهر الصغير ، قاله جمهور المفسرين ، واللغويون ، قال أبو صالح ، وابن جريج : هو الجدول بالسريانية .

والثاني : أنه عيسى كان سرياً من الرجال ، قاله الحسن ، وعكرمة ، [وابن زيد] .

قال ابن الأنباري : وقد رجع الحسن عن هذا القول إلى القول الأول ، ولو كان وصفاً لعيسى ، كان غلاماً سرياً أو سوياً من الغلمان ، وقلَّما تقول العرب : رأيت عندك نبيلاً ، حتى يقولوا : رجلاً نبيلاً .

فإن قيل : كيف ناسب تسليتها أن قيل : لا تحزني ، فهذا نهر يجري ؟

فالجواب : من وجهين .

(121/484)

أحدهما : أنها حزنت لجدب مكانها الذي ولدت فيه ، وعدمِ الطعام والشراب والماء الذي تتطهر به ، فقيل : لا تحزني قد أجرينا لك نهراً ، وأطلعنا لك رطباً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها حزنتِ لما جرى عليها من ولادة ولد عن غير زوج ، فأجرى الله تعالى لها نهراً ، فجاءها من الأردنِّ ، وأخرج لها الرَّطب من الشجرة اليابسة ، فكان ذلك آية تدل على قدرة الله تعالى في إيجاد عيسى ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وهزِّي إليك ﴾ الهزُّ : التحريك .

والباء في قوله تعالى : ﴿ بجذع النخلة ﴾ فيها قولان .

أحدهما : أنها زائدة مؤكدة ، كقوله تعالى : ﴿ فليمدد بسببٍ إلى السماء ﴾ [الحج : 15] قال الفراء : معناه : فليمدد سبباً .

والعرب تقول : هزَّه ، وهزَّ به ، وخذ الخطام ، وخذ بالخطام ، وتعلَّق زيداً ، وتعلَّق به .

وقال أبو عبيدة : هي مؤكدة ، كقول الشاعر :

نَضْرِبُ بالسَّيفِ ونرجو بالفرَج . . .

والثاني : أنها دخلت على الجذع لتلصقه بالهزِّ ، فهي مفيدة للالصاق ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ تساقط ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "تَسَّاقط" بالتاء مشددة السين .

وقرأ حمزة ، وعبد الوارث : "تَسَاقط" بالتاء مفتوحة مخففة السين .

وقرأ حفص عن عاصم : "تُساقِط" بضم التاء وكسر القاف مخففة السين .

وقرأ يعقوب ، وأبو زيد عن المفضل : "يَسَّاقَط" بالياء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف .

فهذه القراآت المشاهير .

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو حيوة : "تَسْقُط" بفتح التاء وسكون السين ورفع القاف .

وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعائشة ، والحسن : "يُساقِط" بألف وتخفيف السين ورفع الياء وكسر القاف .

وقرأ الضحاك ، وعمرو بن دينار : "يُسْقِط" برفع الياء وكسر القاف مع سكون السين وعدم الألف .

وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو عمران الجوني مثله ، إلا أنه بالتاء .

(122/484)

وقرأ معاذ القارىء ، وابن يعمر مثله ، إلا أنه بالنون .

وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابن أبي عبلة : "يَسْقُط" بالياء مفتوحة مع سكون السين ورفع

القاف .

وقرأ أبو السماك العدوي ، وابن حزام : "تتساقط" بتاءين مفتوحين وبألف .

وقال الزجاج : من قرأ "يسَّاقط" فالمعنى : يتساقط ، فأدغمت التاء في السين .

ومن قرأ "تسَّاقط" ، فكذلك أيضاً ، وأنث لأن لفظ النخلة يؤنث .

ومن قرأ "تساقط" بالتاء والتخفيف ، فإنه حذف من "تتساقط" اجتماع التاءين .

ومن قرأ "يُساقط" ذهب إلى معنى : يُساقط الجذع عليك .

ومن قرأ "نُساقط" بالنون ، فالمعنى : نحن نُساقط عليك ، فنجعله لك آية ، والنحويون يقولون : إن "رطباً" منصوب على التمييز إذا قلت : يسَّاقط أو يتساقط ، المعنى : يتساقط الجزع رطباً .

وإذا قلت : تسَّاقط بالتاء ، فالمعنى : تتساقط النخلة رطباً .

قوله تعالى : ﴿ جَنِيّاً ﴾ قال الفراء : الجَنِيّ : المجتنى ، وقال ابن الأنباري : هو الطريُّ ، والأصل : مجنوٌّ ، صُرف من مفعول إلى فعيل ، كما يقال : قديد ، وطبيخ .

وقال غيره : هو الطريّ بغباره : ولم يكن لتلك النخلة رأس ، فأنبته الله تعالى ، فلما وضعت يدها عليها ، سقط الرطب رَطْباً .

وكان السلف يستحبُّون للنفساء الرطب من أجل مريم عليها السلام .

قوله تعالى : ﴿ فكلي ﴾ أي : من الرطب ﴿ واشربي ﴾ من النهر ﴿ وقرِّي عينا ﴾

بولادة عيسى عليه السلام .

قال الزجاج : يقال : قَرِرت به عيناً أَقَر ، بفتح القاف في المستقبل ، وقَرِرت في المكان أقر ، بكسر القاف ، و"عيناً" : منصوب على التمييز .

وروى ابن الأنباري عن الأصمعي أنه قال : معنى "وقرِّي عيناً" ، ولتبرد دمعتك ، لأن دمعة الفرح باردة ، ودمعة الحزن حارَّة .

واشتقاق "قرِّي" من القَرور ، وهو الماء البارد .

وقال لنا أحمد بن يحيى : تفسير "قرِّي عيناً" بلغتِ غاية أملك حتى تقرَّ عينك من الاستشراف إلى غيره ، واحتج بقول عمرو ابن كلثوم :

(123/484)

بيوم كريهةٍ ضرباً وطعناً . . .

أقرَّ به مواليك العيونا

أي : ظفروا وبلغوا منتهى أمنيتهم ، فقرَّت عينهم من تطلّع إلى غيره .

قوله تعالى : ﴿ فإما تَرَيِنّ ﴾ وقرأ ابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن السميفع ، والضحاك ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : "ترئِنَّ" بهمزة مكسورة من غير ياء .

أي : إن رأيتِ من البشر أحداً فقولي ؛ وفيه إضمار تقديره : فسألك عن أمر ولدك .

﴿ فقولي إنّي نذرتُ للرحمن صوماً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : صمتاً ، قاله ابن عباس ، وأنس بن مالك ، والضحاك ؛ وكذلك قرأ أُبيّ بن كعب ، وأنس بن مالك ، وأبو رزين العقيلي : "صمتاً" مكان قوله : "صوماً" .

وقرأ ابن عباس : صياماً .

والثاني : صوماً عن الطعام والشراب والكلام ، قاله قتادة .

وقال ابن زيد : كان المجتهد من بني إسرائيل يصوم عن الكلام كما يصوم عن الطعام ، إلا من ذِكْر الله عز وجل .

قال السدي : فأذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم تسكت .

قال ابن مسعود : أُمِرتْ بالصمت ، لأنها لم تكن لها حُجَّة عند الناس ، فأُمرتْ بالكفّ عن الكلام ليكفيَها الكلامَ ولدُها مما يُبرّىء به ساحتها .

وقيل : كانت تُكلّم الملائكة ولا تكلّم الإنس .

قال ابن الأنباري : الصوم في لغة العرب على أربعة معانٍ ، يقال : صوم لترك الطعام والشراب ، وصوم للصمت ، وصوم لضرب من الشجر ، وصوم لذَرْق النعام .

واختلف العلماء في مقدار سنّ مريم يوم ولادتها على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها وَلَدت وهي بنت خمس عشرة سنة ، قاله وهب بن منبّه .

والثاني : بنت اثنتي عشرة سنة ، قاله زيد بن أسلم .

والثالث : بنت ثلاث عشرة سنة ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ

﴾

(124/484)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فانتبذت بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾

أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد ؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال ؛ وإنما بعدت فراراً من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج .

قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل .

وقيل : غير ذلك على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجَآءَهَا المخاض إلى جِذْعِ النخلة ﴾ "أجاءَهَا" بمعنى اضطرها ؛ وهو تعدية جاء بالهمز .

يقال : جاء به وأجاءه إلى موضع كذا ، كما يقال : ذهب به وأذهبه .

وقرأ شبيل ورويت عن عاصم "فاجأها" من المفاجأة .

وفي مصحف أبيّ "فلما أجاءها المخاض" .

وقال زهير :

وَجَار سَار معتمداً إلينَا . . .

أَجاءَتْهُ المخافَةُ والرَّجاءُ

وقرأ الجمهور "المخَاضُ" بفتح الميم .

وابن كثير فيما روي عنه بكسرها وهو الطلق وشدّة الولادة وأوجاعها .

مَخِضت المرأة تَمخَض مَخَاضاً ومِخَاضاً .

وناقة ماخض أي دنا ولادها .

"إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ" كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به ، كما تتعلق الحامل لشدّة وجع الطلق .

والجذع ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه ولا غصن ؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة .

﴿ قَالَتْ يا ليتني مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين :

أحدهما : أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك .

الثاني : لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك .

وعلى هذا الحدّ يكون تمني الموت جائزاً ، وقد مضى هذا المعنى مبيناً في سورة "يوسف" عليه السلام .

والحمد لله .

قلت : وقد سمعتُ أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : اخرجي يا من يُعبَد من دون الله فحزنت لذلك ، و ﴿ قَالَتْ يا ليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ .

(125/484)

النِّسي في كلام العرب الشيء الحقير الذي شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه .

وحكي عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا : احفظوا أنساءكم ؛ الأنساء جمع نِسي وهو الشيء الحقير يغفل فينسى .

ومنه قول الكميت رضي الله تعالى عنه :

أتجعلنا جِسْراً لكلب قُضَاعةٌ . . .

ولستُ بِنسْيٍ في مَعَدٍّ ولا دَخل

وقال الفراء : النّسي ما تلقيه المرأة من خِرَق اعتلالها ؛ فقول مريم : "نسيا منسيا" أي حيضة ملقاة .

وقرىء "نَسْياً" بفتح النون وهما لغتان مثل الحِجْر والحَجْر والوِتْر والوَتْر .

وقرأ محمد بن كعب القرظي بالهمز "نِسْئاً" بكسر النون .

وقرأ نوف البِكَاليّ "نَسْئاً" بفتح النون من نسأ الله تعالى في أجله أي أخره .

وحكاها أبو الفتح والدّاني عن محمد بن كعب .

وقرأ بكر بن حبيب "نَسًّا" بتشديد السين وفتح النون دون همز .

وقد حكى الطبري في قصصها أنها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضاً أختها بيحيى ، فجاءتها أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرت أنت أني حملت ؟ فقالت لها : وإني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك ؛ فذلك أنه روي أنها أحست بجنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم ؛ قال السدي فذلك قوله : ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 39] .

وذكر أيضاً من قصصها أنها خرجت فارّة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار ، كان يخدم معها في المسجد وطوّل في ذلك .

قال الكلبي : قيل ليوسف وكانت سميت له أنها حملت من الزنى فالآن يقتلها الملك ، فهرب بها ، فهمّ في الطريق بقتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : إنه من روح القدس ؛ قال ابن

عطية : وهذا كله ضعيف .

وهذه القصة تقتضي أنها حملت ، واستمرّت حاملاً على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر .

قاله عكرمة ؛ ولذلك قيل : لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصة عيسى .

(126/484)

وقيل : ولدته لتسعة .

وقيل : لستة .

وما ذكرناه عن ابن عباس أصح وأظهر .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ قرىء بفتح الميم وكسرها .

قال ابن عباس : المراد ب"من" جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة ؛ ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله تعالى فيها مراد عظيم .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ تفسير النداء ، "وأَنْ" مفسرّة بمعنى أي ؛ المعنى : فلا تحزني

بولادتك .

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ يعني عيسى .

والسريّ من الرجال العظيم الخصال السيّد .

قال الحسن : كان والله سريّا من الرجال .

ويقال : سَرِي فلان على فلان أي تكرم .

وفلان سريٌّ من قوم سَرَاة .

وقال الجمهور : أشار لها إلى الجدول الذي كان قريب جذع النخلة .

قال ابن عباس : كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم .

والنهر يسمى سَرِيًّا كأنَّ الماء يسري فيه ؛ قال الشاعر :

سَلْمٌ تَرَى الدَّالِيَّ منه أَزْوَرَا . . .

إذا يَعُبُّ في السَّرِيِّ هَرْهَرَا

وقال لبيد :

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا . . .

مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلاَّمُهَا

وقيل : ناداها عيسى ، وكان ذلك معجزة وآية وتسكيناً لقلبها ؛ والأول أظهر .

وقرأ ابن عباس "فَنَاداها ملك مِن تحتِها" قالوا : وكان جبريل عليه السلام في بقعة من

الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها .

قوله تعالى : ﴿ وهزي إِلَيْكِ بجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً .

فَكُلِي واشربي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وهزي ﴾ أمرها بهزّ الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع .

والباء في قوله : "بجذع" زائدة مؤكدة كما يقال : خذ بالزمام ، وأعط بيدك ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ﴾ [الحج : 15] أي فليمدد سبباً .

(127/484)

وقيل : المعنى ؛ وهزي إليك رطباً على جذع النخلة .

و ﴿ تَسَّاقَطْ ﴾ أي تتساقط فأدغم التاء في السين .

وقرأ حمزة "تَسَاقَطْ" مخففاً فحذف التي أدغمها غيره .

وقرأ عاصم في رواية حفص "تُسَاقِطْ" بضم التاء مخففاً وكسر القاف .

وقرىء "تَتَسَاقَطْ" بإظهار التاءين و"يَسَّاقَطْ" بالياء وإدغام التاء "وتُسْقِط" و"يُسْقِط" و"تَسْقُطْ" و"يَسْقط" بالتاء للنخلة وبالياء للجذع ؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري

رحمة الله تعالى عليه .

"رطباً" نصب بالهز ؛ أي إذا هززت الجذع هززتِ بهزه "رطباً جنيا" .

وعلى الجملة ف"رطباً" يختلف نصبه بحسب معاني القراءات ؛ فمرة يستند الفعل إلى الجذع ، ومرة إلى الهزّ ، ومرة إلى النخلة .

"وجنيا" معناه قد طابت وصلحت للاجتناء ، وهي من جنيت الثمرة .

ويروى عن ابن مسعود ولا يصح أنه قرأ "تساقط عليك رطباً جنياً بَرْنيًّا" .

وقال مجاهد : "رطباً جنِياً" قال : كانت عجوة .

وقال عباس بن الفضل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : "رطباً جنياً" فقال : لم يذو .

قال وتفسيره : لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدي مجتنيه ؛ وهذا هو الصحيح .

قال الفراء : الجنيّ والمجنيّ واحد ؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القتيل والمقتول والجريح والمجروح .

وقال غير الفراء : الجنيّ المقطوع من نخلة واحدة ، والمأخوذ من مكان نشأته ؛ وأنشدوا :

وطيب ثمار في رياضٍ أرِيضةٍ . . .

وأغصان أشجارٍ جَنَاها على قُرْبِ

يريد بالجَنَى ما يجنى منها أي يقطع ويؤخذ .

قال ابن عباس : كان جذعاً نخزاً فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع ،

ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف ، ثم اخضر فصار بلحاً ثم احمر فصار زَهْواً ، ثم رطباً ؛ كل ذلك في طرفة عين ، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء .

(128/484)

الثانية : استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً ؛ فإن الله تعالى قد وكَلَ ابن آدم إلى سعي مّا فيه ؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية ، وكانت الآية تكون بألا تهز .

الثالثة : الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده ، وأن ذلك لا يقدح في التوكل ، خلافاً لما تقوله جهال المتزهدة ؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه .

وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ﴾ [آل عمران : 37] الآية .

فلما ولدت أمرت بهزّ الجذع .

قال علماؤنا : لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، واشتغل سرها بحديثه وأمره ، وكلها إلى كسبها ، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده .

وحكى الطبري عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها : لاتحزني ؛ فقالت له : كيف لا أحزن وأنت معي ؟ ! لا ذات زوج ولا مملوكة ! أي شيء عذري عند الناس ؟ ! ﴿ ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

الرابعة : قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية ، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ؛ ولذلك قالوا : التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت ، وكذلك التّحنيك .

وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ؛ ذكره الزمخشري .

قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : "رطباً جنِيا" الجنيّ من التمر ما طاب من غير نَقْش ولا إفساد .

والنَّقْش أن يُنقَش من أسفل البسرة حتى ترطب ؛ فهذا مكروه ؛ يعني مالك أن هذا تعجيل للشيء قبل وقته ، فلا ينبغي لأحد أن يفعله ، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوّزاً لبيعه ؛ ولا حُكْماً بطيبه .

وقد مضى هذا القول في الأنعام .

والحمد لله .

وعن طلحة بن سليمان "جِنِيًّا" بكسر الجيم للإتباع ؛ أي جعلنا لك في السريّ والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب ، والثانية سلوة الصدر ؛ لكونهما معجزتين ؛ وهو (معنى) قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي واشربي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ أي فكلي من الجنيّ ، واشربي من السريّ ، وقرّي عيناً برؤية الولد النبيّ .

وقرىء بفتح القاف وهي قراءة الجمهور .

وحكى الطبريّ قراءة "وَقِرِّي" بكسر القاف وهي لغة نجد .

يقال : قَرَّ عيناً يَقُر ويَقِر بضم القاف وكسرها ؛ وأقر الله عينه فقرّت .

وهو مأخوذ من القُرّ والقِرّة وهما البَرْد .

ودمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن حارة .

وضعّفت فرقة هذا وقالت : الدمع كله حار ، فمعنى أقر الله عينه أي سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقرّ وتسكن ؛ وفلان قُرة عيني ؛ أي نفسي تسكن بقربه .

وقال الشيباني : "وقرّي عيناً" معناه نامي ؛ حضها على الأكل والشرب والنوم .

قال أبو عمرو : أقرّ الله عينه أي أنام عينه ، وأذهب سهره .

و"عيناً" نصب على التمييز ؛ كقولك : طب نفساً .

والفعل في الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذي العين ؛ وينصب الذي كان فاعلاً في الحقيقة

على التفسير .

ومثله طبت نفساً ، وتفقأت شحماً ، وتصببت عرقاً ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ فيه ثلاث مسائل :

(130/484)

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ ﴾ الأصل في ترين تَرْأَيِينَ فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار "تريين" ، ثم قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التأنيث ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار تَرَيْنَ ، ثم حذفت النون علامة للجزم لأن إن حرف شرط وما صلة فبقي تَرَيْ ، ثم دخله نون التوكيد وهي مثقلة ، فكسر ياء التأنيث لالتقاء الساكنين ؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار تَرَيِنَ وعلى هذا النحو قول ابن دريد :

إما تَرَيْ رأسِي حَاكَى لونُهُ . . .

وقول الأفوه :

إما تَرَيْ رأسِي أَزْرَى به . . .

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة "ما" كما يوطِّىء لدخولها أيضاً لام القسم .

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة "تَرَيْنَ" بسكون الياء وفتح النون خفيفة ؛ قال أبو الفتح : وهي شاذة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فقولي إنّي نَذَرْتُ ﴾ هذا جواب الشرط وفيه إضمار ؛ أي فسألكِ عن ولدِك ﴿ فقولي إنّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي صَمْتاً ؛ قاله ابن عباس وأنس بن مالك .

وفي قراءة أبيّ بن كعب "إنّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً صَمْتاً" .

وروي عن أنس .

وعنه أيضاً "وصمتاً" بواو ، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قرآناً ؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم .

والذي تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت ؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام .

وقيل : هو الصوم المعروف ، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة .

وعلى هذا تخرج قراءة أنس "وصمتاً" بواو ، وأن الصمت كان عندهم في الصوم ملتزماً بالنذر ، كما أن من نذر منا المشي إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام أو ابنها على الخلاف المتقدم بأن تمسك عن مخاطبة البشر ، وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها خجلها ، وتتبين الآية فيقوم عذرها .

وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية ، وهو قول الجمهور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(132/484)

وقال أبو حيان :

وذكروا أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها أو فيه وفي كمها وقال : أي دخل الروح المنفوخ من فمها ، والظاهر أن المسند إليه النفخ هو الله تعالى لقوله ﴿ فنفخنا ﴾ ويحتمل ما قالوا : ﴿ فحملته ﴾ أي في بطنها والمعنى فحملت به .

قيل : وكانت بنت أربع عشرة سنة .

وقيل : بنت خمس عشرة سنة قاله وهب ومجاهد .

وقيل : بنت ثلاث عشرة سنة .

وقيل : اثنتي عشرة سنة .

وقيل : عشرة سنين .

قيل : بعد أن حاضت حيضتين .

وحكى محمد بن الهيصم أنها لم تكن حاضت بعد .

وقيل : لم تحض قط مريم وهي مطهرة من الحيض ، فلما أحست وخافت ملامة الناس أن يظن بها الشر فارتمت به إلى مكان قصي حياءً وفراراً .

روي أنها فرت إلى بلاد مصر أو نحوها قاله وهب .

وقيل : إلى موضع يعرف ببيت لحم بينه وبين إيليا أربعة أميال .

وقيل : بعيداً من أهلها وراء الجبل .

وقيل : أقصى الدار .

وقيل : كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف فلما قيل حملت من الزنا خاف عليها قتل الملك هرب بها ، فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه بأن يقتلها فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إنه من روح القدس فلا تقتلها فتركها حملته في ساعة واحدة فكما حملته نبذته عن ابن .

وقيل : كانت مدة الحمل ثلاث ساعات .

وقيل : حمل في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة .

وقيل : ستة أشهر .

وعن عطاء وأبي العالية والضحاك : سبعة أشهر .

وقيل : ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية إلاّ عيسى وهذه أقوال مضطربة متناقضة كان ينبغي أن يضرب عنها صفحاً إلاّ أن المفسرين ذكروها في كتبهم وسوّدوا بها الورق ، والباء في ﴿ به ﴾ للحال أي مصحوبة به أي اعتزلت وهو في بطنها كما قال الشاعر :

تدوس بنا الجماجم والتريبا . . .

أي تدوس الجماجم ونحن على ظهورها .

ومعنى ﴿ فأجاءها ﴾ أي جاء بها تارة فعدي جاء بالباء وتارة بالهمزة .

(133/484)

قال الزمخشري : إلاّ أن استعماله قد يغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء الإتراك ، لا تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول : بلغته وأبلغنيه ، ونظيره آتى حيث لم يستعمل إلاّ في الإعطاء ولم يقل آتيت المكان وآتانيه فلان انتهى .

أما قوله وقول غيره إن الاستعمال غيره إلى معنى الإلجاء فيحتاج إلى نقل أئمة اللغة المستقرئين ذلك عن لسان العرب ، والإجاءة تدل على المطلق فتصلح لما هو بمعنى الإلجاء

ولما هو بمعنى الاختيار كما لو قلت : أقمت زيداً فإنه قد يكون مختاراً لذلك وقد يكون قد قسرته على القيام .

وأما قوله الإتراك لا تقول إلى آخره فمن رأى أن التعدية بالهمزة قياس أجاز لك ولو لم يسمع ومن لا يراه قياساً فقد سمع ذلك في جاء حيث قالوا : أجاء فيجيز ذلك ، وأما تنظيره ذلك بآتي فهو تنظير غير صحيح لأنه بناه على أن الهمزة فيه للتعدية ، وأن أصله أتى وليس كذلك بل آتى مما بُني على أفعل وليس منقولاً من أتى بمعنى جاء ، إذ لو كان منقولاً من أتى المتعدية لواحد لكان ذلك الواحد هو المفعول الثاني ، والفاعل هو الأول إذا عديته بالهمزة تقول : أتى المال زيداً ، وآتى عمراً زيداً المال ، فيختلف التركيب بالتعدية لأن زيداً عند النحويين هو المفعول الأول والمال هو المفعول الثاني .

وعلى ما ذكره الزمخشري كان يكون العكس فدل على أنه ليس على ما قاله .

وأيضاً فآتى مرادف لأعطى فهو مخالف من حيث الدلالة في المعنى .

وقوله : ولم تقل أتيت المكان وآتانيه هذا غير مسلم بل يقال : أتيت المكان كما تقول : جئت المكان .

وقال الشاعر :

أتوا ناري فقلت منون أنتم . . .

فقالوا الجن الجن قلت عموا ظلاما

ومن رأى النقل بالهمزة قياساً قال : أتانيه .

وقرأ الجمهور ﴿ فأجاءها ﴾ أي ساقها .

وقال الشاعر :

وجار سار معتمداً إليكم . . .

أجاءته المخافة والرجاء

وأما فتحه الجيم الأعمش وطلحة .

وقرأ حماد بن سلمة عن عاصم .

قال ابن عطية وشبيل بن عزرة فاجأها من المفاجأة .

(134/484)

وقال صاحب اللوامح شبيل بن عزرة : فاجأها .

فقيل : هو من المفاجأة بوزن فاعلها فبدلت همزتها بألف تخفيف على غير قياس ، ويحتمل أن تكون همزة بين بين غير مقلوبة .

وروي عن مجاهد كقراءة حماد عن عاصم .

وقرأ ابن كثير في رواية ﴿ المخاض ﴾ بكسر الميم يقال مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً

وتمخض الولد في بطنها : و﴿ إلى ﴾ تتعلق بفأجاءها ، ومن قرأ فاجأها من المفاجأة فتتعلق بمحذوف أي مستندة أي في حال استنادها إلى النخلة ، والمستفيض المشهور أن ميلاد عيسى عليه السلام كان بيت لحم ، وأنها لما هربت وخافت عليه أسرعت به وجاءت به إلى بيت المقدس فوضعته على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالمهد وهي الآن موجودة تزار بحرم بيت المقدس ، ثم بعد أيام توجهت به إلى بحر الأردن فعمدته فيه وهو اليوم الذي يتخذه النصارى ويسمونه يوم الغطاس وهم يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقدست فلذلك يغطسون في كل ماء ، ومن زعم أنها ولدته بمصر قال : بكورة اهناس .

قيل : ونخلة مريم قائمة إلى اليوم ، والظاهر أن النخلة كانت موجودة قبل مجيء مريم إليها .

وقيل : إن الله أنبت لها نخلة تعلقت بها .

وروي أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة يابس بال أصله مدوّد لا رأس له ولا ثمر ولا خضرة ، وأل إما لتعريف الجنس أو الداخلة على الأسماء الغالبة كأن تلك الصحراء كان بها جذع نخلة معروف فإذا قيل ﴿ جذع النخلة ﴾ فهم منه ذلك دون غيره .

(135/484)

وأرشدها تعالى إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها ولظهور تلك الآيات منها فتستقر نفسها وتقر عينها ، فاشتد بها الأمر هنالك واحتضنت الجذع لشدة الوجع وولدت عيسى عليه السلام فقالت عند ولادتها لما رأته من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وجه ﴿ يا ليتني مت قبل هذا ﴾ وتمنت مريم الموت من جهة الدين إذ خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيغبنها ذلك ، وهذا مباح وعلى هذا الحد تمنى عمر بن الخطاب وجماعة من الصالحين .

وأما النهي عن ذلك فإنما هو لضر نزل بالبدن ، وتقدم الخلاف من القراء في كسر الميم من مت وضمها في آل عمران ، والنسي الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى فلا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر وخرقة الطمث .

وقرأ الجمهور بكسر النون وهو فعل بمعنى مفعول كالذبح وهو ما من شأنه أن يذبح .

وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش وابن أبي ليلى وحمزة وحفص بفتح النون .

وقرأ محمد بن كعب القرظي : نسأ بكسر النون والهمز مكان الياء وهي قراءة نون الأعرابي .

وقرأ بكر بن حبيب السهمي ومحمد بن كعب أيضاً نسأ بفتح النون والهمز وهو مصدر من نسأت اللبن إذا صببت عليه ماء ، فاستهلك اللبن فيه لقلته فكأنها تمنت أن تكون مثل ذلك اللبن الذي لا يرى ولا يتميز من الماء .

وقال ابن عطية : وقرأ بكر بن حبيب نسا بفتح النون والسين من غير همز بناه على فعل كالقبض والنفض .

قال الفراء نسي ونسي لغتان كالوتر والوتر والفتح أحب إليّ .

وقال أبو علي الفارسي الكسر أعلى اللغتين .

وقال ابن الأنباري : من كسر فهو اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض ، ومنه فتح فمصدر نائب عن اسم كما يقال : رجل دنف ودنف والمكسور هو الوصف الصحيح والمفتوح مصدر يسد مسد الوصف ، ويمكن أن يكونا لمعنى كالرطل والرطل والإشارة بقوله هذا إلى الحمل .

وقيل : ﴿ قبل هذا ﴾ اليوم أو ﴿ قبل هذا ﴾ الأمر الذي جرى .

(136/484)

وقرأ الأعمش وأبو جعفر في رواية ﴿ منسياً ﴾ بكسر الميم اتباعاً لحركة السين كما قالوا منتن باتباع حركة الميم لحركة التاء .

وقيل : تمنت ذلك لما لحقها من فرط الحياء على حكم العادة البشرية لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة ، وبضد ما قربت من

اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام ، أو لحزنها على الناس أو يأثم الناس بسببها .

وروي أنها سمعت نداء أخرج يا من يعبد من دون الله فحزنت و ﴿ قالت يا ليتني مت ﴾ .

وقال وهب : أنساها كرب الولادة وما سمعت من الناس بشارة الملائكة بعيسى .

وقرأ زر وعلقمة فخاطبها مكان ﴿ فناداها ﴾ وينبغي أن يكون تفسيراً لا قراءة لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه ، والمنادي الظاهر أنه عيسى أي فولدته فأنطقه الله وناداها أي حالة الوضع .

وقيل : جبريل وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها وقاله الحسن وأقسم على ذلك .

قيل : وكان يقبل الولد كالقابلة .

وقرأ ابن عباس ﴿ فناداها ﴾ ملك ﴿ من تحتها ﴾ .

وقرأ البراء بن عازب وابن عباس والحسن وزيد بن عليّ والضحاك وعمرو بن ميمون ونافع وحمزة والكسائي وحفص ﴿ من ﴾ حرف جر .

وقرأ الابنان والأبوان وعاصم وزر ومجاهد والجحدري والحسن وابن عباس في رواية عنهما ﴿ من ﴾ بفتح الميم بمعنى الذي و ﴿ تحتها ﴾ ظرف منصوب صلة لمن ، وهو

عيسى أي ناداها المولود قاله أبيّ والحسن وابن جبير ومجاهد و ﴿ أن ﴾ حرف تفسير أي ﴿ لا تحزني ﴾ والسري في قول الجمهور الجدول .

وقال الحسن وابن زيد وقتادة عظيماً من الرجال له شأن .

وروي أن الحسن فسر الآية فقال : أجل لقد جعله الله ﴿ سرياً ﴾ كريماً فقال حميد بن عبد الرحمن : يا أبا سعيد إنما يعني بالسري الجدول ، فقال الحسن لهذه وأشباهها أحب قربك ، ولكن غلبنا الأمراء .

ثم أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع .

(137/484)

وقالت فَرِقة : بل كانت النخلة مطعمة رطباً .

وقال السدّي : كان الجذع مقطوعاً وأجرى تحته النهر لجنبه ، والظاهر أن المكلم هو عيسى وأن الجذع كان يابساً وعلى هذا ظهرت لها آيات تسكن إليها وحزنها لم يكن لفقد الطعام والشراب حتى تتسلى بالأكل والشرب ، ولكن لما ظهر في ذلك من خرق العادة حتى يتبين لقومها أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها .

قال ابن عباس : كان جذعاً نخراً فلما هزت إذ السعف قد طلع ثم نظرت إلى الطلع يخرج

من بين السعف ، ثم اخضر فصار بلحاً ، ثم احمر فصار زهواً ثم رطباً كل ذلك في طرفة عين ، فجعل الرطب يقع من بين يديها لا يتسرح منه شيء .

وإلى حرف بلا خلاف ويتعلق بقوله ﴿ وهُزِّي ﴾ وهذا جاء على خلاف ما تقرر في علم النحو من أن الفعل لا يتعدى إلى الضمير المتصل ، وقد رفع الضمير المتصل وليس من باب ظن ولا فقد ولا علم وهما لمدلول واحد لا يقال : ضربتك ولا زيد ضربه أي ضرب نفسه ولا ضربني إنما يؤتى في مثل هذه التراكيب بالنفس فتقول : ضربت نفسك وزيد ضرب نفسه وضربت نفسي والضمير المجرور عندهم كالضمير المنصوب فلا تقول : هززت إليك ولا زيد هز إليه ولا هززت إلى ولهذا زعموا في قول الشاعر :

دع عنك نهياً صيح في حجراته . . .

ولكن حديثاً ما حدث الرواحل

وفي قول الآخر :

وهوّن عليك فإن الأمو . . .

ر بكف الإله مقاديرها

إنّ عن وعلى ليسا حرفين وإنما هما اسمان ظرفان ، وهذا ليس ببعيد لأن عن وعلى قد ثبت كونهما اسمين في قوله :

من عن يمين الحبيا نظرة قبل . . .

وفي قوله :

غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها . . .

وبعض النحويين زعم أن على لا تكون حرفاً البتة ، وأنها اسم في كل مواردها ونسب إلى سيبويه ، ولا يمكن أن يدعي أن إلى تكون اسماً لإجماع النحاة على حرفيتها كما قلنا .

(138/484)

ونظير قوله تعالى ﴿ وهزي إليك ﴾ قوله تعالى ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ وعلى تقرير تلك القاعدة ينبغي تأويل هذين ، وتأويله على أن يكون قوله ﴿ إليك ﴾ ليس متعلقاً بهزي ولا باضمم ، وإنما ذلك على سبيل البيان والتقدير أعني إليك فهو متعلق بمحذوف كما قالوا في قوله

﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ وما أشبهه على بعض التأويلات .

والباء في ﴿ بجذع ﴾ زائدة للتأكيد كقوله ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ قال أبو عليّ كما يقال : ألقى بيده أي ألقى يده .

وكقوله :

سود المحاجر لا يقرآن بالسور . . .

أي لا يقرآن السور .

وأنشد الطبري :

فؤاد يمان ينبت السدر صدره . . .

وأسفله بالمرخ والسهان

وقال الزمخشري أو على معنى أفعلي الهز به .

كقوله :

يخرج في عراقيبها نصلي . . .

قالوا : التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وكذلك التحنيك ، وقالوا : كان من العجوة قاله محمد بن كعب .

وقيل : ما للنفساء خير من الرطب .

وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب .

وقرأ الجمهور ﴿ تساقط ﴾ بفتح التاء والسين وشدها بعد ألف وفتح القاف .

وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب ومسروق وحمزة كذلك إلاّ أنهم خففوا السين .

وقرأ حفص ﴿ تساقط ﴾ مضارع ساقطت .

وقرأ أبو السمال تتساقط بتاءين .

وقرأ البراء بن عازب والأعمش في رواية يساقط بالياء من تحت مضارع أساقط .

وقرأ أبو حيوة ومسروق .

تسقط بالتاء من فوق مضمومة وكسر القاف .

وعن أبي حيوة كذلك إلاّ أنه بالياء من تحت ، وعنه تسقط بالتاء من فوق مفتوحة وضم القاف ، وعنه كذلك إلاّ أنه بالياء من تحت ، وقال بعضهم في قراءة أبي حيوة هذه أنه قرأ رطب جني بالرفع على الفاعلية ، وأما النصب فإن قرأ بفعل متعد نصبه على المفعول أو بفعل لازم فنصبه على التمييز ، ومن قرأ بالياء من تحت فالفعل مسند إلى الجذع ، ومن قرأ بالتاء فمسند إلى النخلة ، ويجوز أن يكون مسنداً إلى الجذع على حدّ ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ وفي قراءة من قرأ يلتقطه بالتاء من فوق .

(139/484)

وأجاز المبرد في قوله ﴿ رطباً ﴾ أن يكون منصوباً بقوله ﴿ وهزي ﴾ أي ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ رطباً تساقط عليك ، فعلى هذا الذي أجازه تكون المسألة من باب الإعمال فيكون قد حذف معمول ﴿ تساقط ﴾ فمن قرأه بالياء من تحت فظاهر ، ومن قرأ بالتاء من فوق فإن كان الفعل متعدياً جاز أن يكون من باب الإعمال ، وإن كان لازماً فلا لاختلاف متعلق هزي إذ ذاك والفعل اللازم .

وقرأ طلحة بن سليمان ﴿ جنياً ﴾ بكسر الجيم إتباعاً لحركة النون والرزق فإن كان مفروغاً منه فقد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه ، ولذلك أمرت مريم بهز الجذع وعلى هذا جاءت الشريعة وليس ذلك بمناف للتوكل .

وعن ابن زيد قال عيسى لها لا تحزني ، فقالت : كيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة أي شيء عذري عند الناس ؟ ﴿ يا ليتني مت قبل هذا ﴾ الآية فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام ﴿ فكلي واشربي وقرّي عيناً ﴾ .

قال الزمخشري : أي جمعنا لك في السري والرطب فائدتين إحداهما الأكل والشرب ، والثانية سلوة الصدر لكونهما معجزتين وهو معنى قوله ﴿ فكلي واشربي وقرّي عيناً ﴾ أي وطيبي نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك انتهى .

ولما كانت العادة تقديم الأكل على الشرب تقدم في الآية والمجاورة قوله ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ ولما كان المحزون قد يأكل ويشرب قال : ﴿ وقرّي عيناً ﴾ أي لا تحزني ، ثم ألقى إليها ما تقول إن رأت أحداً .

وقرىء ﴿ وقري ﴾ بكسر القاف وهي لغة نجدية وتقدم ذكرها .

وقرأ أبو عمرو في ما روى عنه ابن رومي ترئن بالإبدال من الياء همزة وروى عنه لترؤن بالهمز أيضاً بدل الواو .

قال ابن خالويه : وهو عند أكثر النحويين لحن .

وقال الزمخشري : وهذا من لغة من يقول لتأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمزة وحروف اللين في الإبدال انتهى .

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة ﴿ ترين ﴾ بسكون الياء وفتح النون خفيفة .

قال ابن جنيّ : وهي شاذة يعني لأنه لم يؤثر الجازم فيحذف النون .

(140/484)

كما قال الأفوه الأودي :

أما ترى رأسي أزرى به . . .

مأس زمان ذي انتكاس مؤوس

والآمر لها بالأكل والشرب وذلك القول الظاهر أنه ولدها .

وقيل جبريل على الخلاف الذي سبق ، والظاهر أنه أبيح لها أن تقول ما أُمِرَت بقوله وهو قول الجمهور .

وقالت فرقة : معنى ﴿ فقولي ﴾ أي بالإشارة لا بالكلام وإلاّ فكان التناقض ينافي قولها انتهى .

ولا تناقض لأن المعنى ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ بعد ﴿ قولي ﴾ هذا وبين الشرط

وجزائه جملة محذوفة يدل عليه المعنى ، أي ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ وسألك أو حاورك الكلام ﴿ فقولي ﴾ .

وقرأ زيد بن عليّ صياماً وفسر ﴿ صوماً ﴾ بالإمساك عن الكلام .

وفي مصحف عبد الله صمتاً .

وعن أنس بن مالك مثله .

وقال السدّي وابن زيد : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام انتهى .

والصمت منهي عنه ولا يصح نذره .

وفي الحديث : " مره فليتكلم " وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق وأمرت بنذر الصوم لأن عيسى بما يظهر الله عليه يكفيها أمر الاحتجاج ومجادلة السفهاء .

وقوله ﴿ إنسياً ﴾ لأنها كانت تكلم الملائكة دون الإنس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(141/484)

وقال أبو السعود :

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾

بأن نفخ جبريلُ عليه الصلاة والسلام في دِرعها فدخلت النفخةُ في جوفها ، قيل : إنه عليه الصلاة والسلام رفع دِرعَها فنفخ في جيبه فحمَلت ، وقيل : نفخ عن بُعد فوصل الريحُ إليها فحملت في الحال ، وقيل : إن النفخةَ كانت في فيها وكانت مدةُ حملها سبعةَ أشهر ، وقيل : ثمانيةً ، ولم يعِشْ مولود وُضع لثمانية أشهر غيرُه ، وقيل : تسعةَ أشهرٍ ، وقيل : ثلاثَ ساعات ، وقيل : ساعة كما حملت وضعتْه وسنُّها حينئذ ثلاثَ عشْرةَ سنةً ، وقيل : عشرُ سنين وقد حاضت حيضتين ﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ أي فاعتزلت وهو في بطنها كما في قوله

تدوس بنا الجماجمَ والتّريبا . . . فالجارُّ والمجرور في حيز النصب على الحالية أي فانتبذت ملتبسةً به ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل ، وقيل : أقصى الدارِ وهو الأنسبُ لِقصرَ مدة الحمل .

(142/484)

﴿ فَأَجَاءهَا المخاض ﴾ أي فألجأها وهو في الأصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل في غيره كآتى في أعطي ، وقرىء المِخاض بكسر الميم وكلاهما مصدرُ مخِضَت المرأةُ إذا تحرك الولدُ في بطنها للخروج ﴿ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الوِلادة وهو ما

بين العِرْق والغصن ، وكانت نخلةً يابسةً لا رأس لها ولا خُضرة وكان الوقت شتاءً ، والتعريفُ إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثمةَ غيرُها وكانت كالمتعالم عند الناس ، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليُريَها من آياتها ما يسكّن رَوْعتها ويطعمها الرُّطَبَ الذي هو خُرْسةُ النُّفَساءِ الموافقةُ لها ﴿ قَالَتْ ياليتنى مّتّ ﴾ بكسر الميم من مات يمات كخِفت ، وقرىء بضمها من مات يموت ﴿ قَبْلَ هذا ﴾ أي هذا الوقتِ الذي لقِيتُ فيه ما لقِيت ، وإنما قالته مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريلَ عليه السلام من الوعد الكريم استحياءً من الناس وخوفاً من لائمتهم ، أو حِذاراً من وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها ، أو جرياً على سَنن الصالحين عند اشتدادِ الأمر عليهم كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تِبْنةً من الأرض فقال : " يا ليتنى هذه التبنةُ ولم أكن شيئاً " ، وعن بلال أنه قال : " ليت بلالاً لم تلده أمُّه " ﴿ وكُنتُ نَسْياً ﴾ أي شيئاً تافهاً شأنُه أن يُنسى ولا يُعتدّ به أصلاً ، وقرىء بالكسر ، قيل : هما لغتان في ذلك كالوتر ، وقيل : هو بالكسر اسمٌ لما يُنسى كالنِّقْض اسمٌ لما يُنقض وبالفتح مصدرٌ سُمّي به المفعولُ مبالغةً ، وقرىء بهما مهموزاً من نسأتُ اللبن إذا صببتُ عليه الماء فصار مستهلَكاً فيه ، وقرىء نساً كعصاً ﴿ مَّنسِيّاً ﴾ لا يخطُر ببال أحد من الناس وهو نعتٌ للمبالغة ، وقرىء بكسر الميم إتباعاً له بالسين .

﴿ فَنَادَاهَا ﴾

أي جبريلُ عليه السلام ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ قيل : إنه كان يقبل الولد ، وقيل : من تحتها أي من مكان أسفلَ منها تحت الأكمة ، وقيل : من تحت النخلة ، وقيل : ناداها عيسى عليه السلام ، وقرىء فخاطبها مَنْ تحتَها بفتح الميم ﴿ أَن لا تَحْزَنِى ﴾ أي لا تحزني ، على أن "أنْ" مفسرةٌ ، أو بأن لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ ﴾ أي بمكان أسفل منك ، وقيل : تحت أمرِك إنْ أمرْتِ بالجري أُجريَ وأن أمرت بالإمساك أُمسِك ﴿ سَرِيّاً ﴾ أي نهراً صغيراً حسبما روي مرفوعاً ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن جبريلَ عليه السلام ضرب برجله الأرضَ فظهرت عينُ ماء عذبٍ فجرى جدْولاً . وقيل : فعله عيسى عليه السلام . وقيل : كان هناك نهر يابسٌ أجرى الله عز وجل فيه الماءَ حينئذ كما فعل مثلَه بالنخلة ، فإنها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ورق فضلاً عن الثمر وكان الوقت شتاءً ، فجعل الله لها إذ ذاك رأساً وخُوصاً وثمراً ، وقيل : كان هناك ماءٌ جارٍ . والأول هو الموافقُ لمقام بيان ظهورِ الخوارق والمتبادرُ من النظم الكريم ، وقيل : سرياً أي سيداً نبياً رفيعَ الشأن جليلاً وهو عيسى عليه السلام ، فالتنوينُ للتفخيم والجملةُ للتعليل لانتفاء الحزْنِ المفهوم من النهي عنه ، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيدِ التعليل وتكميلِ التسلية .

(144/484)

﴿ وهزي ﴾ هزُّ الشيء تحريكُه إلى الجهات المتقابلة تحريكاً عنيفاً متداركاً ، والمرادُ هاهنا ما كان منه بطريق الجذبِ والدفعِ لقوله تعالى : ﴿ إِلَيْكَ ﴾ أي إلى جهتك والباء في قوله عز وعلا : ﴿ بِجِذْعِ النخلة ﴾ صلةٌ للتأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ الخ ، قال الفراء : تقول العرب : هَزّه وهزّ به وأخذ الخطامَ وأخذ بالخطام ، أو لإلصاق الفعل بمدخولها أي افعلي الهزَّ بجذعها ﴿ تساقط ﴾ أي تُسقِطِ النخلة ﴿ عَلَيْكَ ﴾ إسقاطاً متواتراً حسب تواترِ الهزِّ ، وقرىء تُسقِطْ ويُسقِط من الإسقاط بالتاء والياء ، وتتساقطْ بإظهار التاءين ، وتَساقطْ بطرح الثانية ، وتسّاقَطْ بإدغامها في السين ، ويَسّاقط بالياء كذلك ، وتسقُطْ ويسقُطْ من السقوط على أن التاء في الكل للنخلة والياء للجذع ، وقوله تعالى : ﴿ رُطَباً ﴾ على القراءات الأُوَل مفعولٌ وعلى الست البواقي تمييزٌ ، وقوله تعالى : ﴿ جَنِيّاً ﴾ صفةٌ له وهو ما قُطع قبل يَبْسه فعل بمعنى مفعول ، أي رطباً مجنياً أي صالحاً للاجتناء ، وقيل : بمعنى فاعل أي طرياً طيباً ، وقرىء جِنياً بكسر الجيم للاتباع .

(145/484)

﴿ فَكُلِى واشربى ﴾ أي ذلك الرطبَ وماءَ السَّرِيّ أو من الرطب وعصيرِه ﴿ وَقَرّى عَيْناً ﴾ وطِيبي نفساً وارفضي عنها ما أحزنك وأهمك ، فإنه تعالى قد نزّه ساحتَك عما اختلج في صدور المتعبدين بالأحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصريةِ والمركباتِ النباتية ما يخرِق العاداتِ التكوينيةَ ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرِك ، وقرىء وقِرّي بكسر القاف وهي لغة نجد واشتقاقُه من القرار ، فإن العينَ إذا رأت ما يسرّ النفسَ سكنت إليه من النظر إلى غيره ، أو من القَرّ فإن دمعةَ السرور باردةٌ ودمعةَ الحُزن حارة ، ولذلك يقال : قُرّة العين وسُخْنةُ العين للمحبوب والمكروه ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ أي آدمياً كائناً مَنْ كان ، وقرىء تَرئِنّ على لغة من يقول : لبّأْتُ بالحج لما بين الهمزة والياءِ من التآخي ﴿ فَقُولِى ﴾ له إن استنطقك ﴿ إِنّى نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي صمتاً وقد قرىء كذلك ، أو صياماً وكان صيامُهم بالسكوت ﴿ فَلَنْ أُكَلّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ أي بعد أن أخبرتُكم بنذري وإنما أكلم الملائكةَ وأناجي ربي ، وقيل : أُمِرت بأن تخبرَ بنذرها بالإشارة وهو الأظهرُ ، قال الفراء : العربُ تسمّي كلَّ ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصَل ما لم يؤكَّد بالمصدر ، فإذا أُكّد لم يكن إلا حقيقةَ الكلام ، وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلةِ السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام ، فإنه نصٌّ قاطعٌ في قطع الطعن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾

الفاء فصيحة أي فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيبها فدخلت النفخة في جوفها فحملته .

وروى هذا عن ابن عباس .

وقيل : لم يدن عليه السلام بل نفخ عن بعد فوصل الريح إليها فحملت .

وقيل : إن النفخة كانت في كمها وروى ذلك عن ابن جريج .

وقيل كانت في ذيلها .

وقيل كانت في فمها .

واختلفوا في سنها إذ ذاك فقيل ثلاث عشرة سنة ، وعن وهب ومجاهد خمس عشرة سنة ، وقيل : أربع عشرة سنة ، وقيل : اثنتا عشرة سنة ، وقيل ؛ عشر سنين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل ، وحكى محمد بن الهيصم رئيس الهيصمية من الكرامية إنها لم تكن حاضت بعد ، وقيل : إنها عليها السلام لم تكن تحيض أصلاً بل كانت مطهرة من الحيض .

وكذا اختلفوا في مدة حملها ففي رواية عن ابن عباس أنها تسعة أشهر كما في سائر النساء

وهو المروى عن الباقر رضي الله تعالى عنه لأنها لو كانت مخالفة لهن في هذه العادة لناسب ذكرها في أثناء هذه القصة الغريبة .

وفي رواية أخرى عنه أنها كانت ساعة واحدة كما حملته نبذته .

واستدل لذلك بالتعقيب الآتي وبأنه سبحانه قال في وصفه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] فإنه ظاهر في أنه عز وجل قال له كن فيكون فلا يتصور فيه مدة الحمل .

وعن عطاء .

وأبي العالية .

والضحاك أنها كانت سبعة أشهر ، وقيل .

كانت ستة أشهر ، وقيل : حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها ، والمشهور أنها كانت ثمانية أشهر ، قيل : ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره عليه السلام .

(147/484)

ونقل النيسابوري عن أهل التنجيم أن ذلك لأن الحمل يعود إلى تربية القمر فتستولى عليه البرودة والرطوبة وهو ظاهر في أن مربي الحمل في أول الشهور منسوب إلى زحل والثاني إلى المشتري وهكذا إلى السابع وهو منسوب إلى القمر ثم ترجع النسبة إلى زحل ثم إلى المشتري : وفيها أيضاً أن جهال المنجمين يقولون إن النطفة في الشهر الأول تقبل البرودة من زحل فتجمد ، وفي الثاني تقبل القوة النامية من المشتري فتأخذ في النمو ، وفي الثالث تقبل القوة الغضبية من المريخ .

وفي الرابع قوة الحياة من الشمس .

وفي الخامس قوة الشهوة من الزهرة .

وفي السادس قوة النطق من عطارد .

وفي السابع قوة الحركة من القمر فتتم خلقة الجنين فإن ولد في ذلك الوقت عاش وإلا فإن ولد في الثامن لم يعش لقبوله قوة الموت من زحل وإن ولد في التاسع عاش لأنه قبل قوة المشتري .

ومثل تلك الكلمات خرافات وكل امرأة تعرف أن النطفة إذا مضت عليها ثلاثة أشهر تتحرك .

وقد ذكر حكماء الطبيعة أن أقل مدة الولادة ستة أشهر ومدة الحركة ثلث مدة الولادة فيكون أقلها شهرين ومن امتحن الاسقاط يعلم أن الخلقة تتم في أقل من خمسين يوماً انتهى .

وكلام المتشرعين لا يخفى عليك في هذا الباب .

وقد يعيش المولود لثمان إلا أنه قليل فليس ذلك من خواصه عليه السلام إن صح .

ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة بيد أني أميل إلى أولها والاستدلال للثاني مما سمعت لا يخلو عن نظر .

﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ أي فاعتزلت وهو في بطنها فالباء للملابسة والمصاحبة مثلها في قوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] وقول المتنبي يصف الخيول :

فمرت غير نافرة عليهم . . .

تدوس بنا الجماجم والرؤسا

(148/484)

والجار والمجرور ظرف مستقر وقع حالاً من ضميرها المستتر أي فانتبذت ملتبسة به ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل ، وأخرج عبد الله بن أمد في "زوائد الزهد" عن نوف أن جبريل عليه السلام نفخ في جيبها فحملت حتى إذا أثقلت وجعت مايجع النساء وكانت في بيت النبوة فاستحيت وهربت حياء من قومها فأخذت نحو المشرق وخرج قومها في طلبها فجعلوا يسألون رأيتم فتاة كذا وكذا فلا يخبرهم أحد كان من أخبر الله تعالى به .

وروى الثعلبي في "العرائس" عن وهب قال : إن مريم لما حملت كان معها ابن عمر لها يسمى يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون وكانا معاً يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم أن أحداً من أهل زمانهما أشد اجتهاداً وعبادة منهما وأول من علم أمرها يوسف فتحير في ذلك لعلمه بكمال صلاحها وعفتها وأنه لم تغب عنه ساعة فقال لها : قد وقع في نفسي شيء من أمرك لم أستطع كتمانه وقد رأيت الكلام فيه أشفى لصدري فقالت قل قولاً جميلاً فقال : يا مريم اخبريني هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر : فقالت ؟ نعم ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق كل واحد منهما على حدة أتقول : إن الله سبحانه لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى يستعين بالماء : قال ؟ لا أقول هذا ولكني أقول إن الله تعالى يقدر على ما يشاء بقول كن فيكون فقالت : ألم تعلم أن الله تعالى خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟ فعند ذلك زال ما يجده وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب فلما دنا نفاسها أوحى الله تعالى إليها أن اخرجي من أرض

قومك لئلا يقتوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فكان ما قص سبحانه ، وقيل : انتبذت أقصى الدار وهو الأنسب بقصر مدة الحمل .

﴿ فَأَجَاءهَا المخاض ﴾ أي الجأها كما قال الزمخشري وجماعة ، وفي "الصحاح" أجأته إلى كذا بمعنى الجأته واضطررته إليه قال زهير بن أبي سلمى :

وجار سار معتمداً عليكم . . .

أجاءته المخافة والرجاء

(150/484)

قال الفراء : أصله من جئت وقد جعلته العرب الجاء ، وفي المثل شر ما يجيئك إلى مخة عرقوب انتهى ، واختار أبو حيان أن المعنى جاء بها واعترض على الزمخشري وأطال الكلام بما لا يفخى رده و﴿ المخاض ﴾ بفتح الميم كما في قراءة الأكثرين وبكسرها كما في رواية عن ابن كثير مصدر مخضت المرأة بفتح الخاء وكسرها إذا أخذها الطلق وتحرك الولد في بطنها للخروج ، وقرأ الأعمش .

وطلحة ﴿ فَأَجَاءهَا ﴾ بامالة فتحة الجيم ، وقرأ حماد بن سلمة عن عاصم ﴿ فاجأها

﴿ من المفاجأة وروي ذلك عن مجاهد ونقله ابن عطية عن شبيل بن عزرة أيضاً ، وقال صاحب اللوامح : إن قراءته تحتمل أن تكون الهمزة فيها قد قلبت ألفا ويحتمل أن تكون بين بين غير مقلوبة .

﴿ المخاض إلى جِذْعِ النخلة ﴾ لتستند إليه عند الولادة كما روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة .

والسدي أو لذلك ولتستر به كما قيل ، والجذع ما بين العرق ومتشعب الأغصان من الشجرة ، وقد يقال للغصن أيضاً : جذع ، والنخلة معروفة .

والتعريف إما للجنس فالمراد واحدة من النخل لا على التعيين أو للعهد فالمراد نخلة معينة ويكفي لتعينها تعينها في نفسها وإن لم يعلمها المخاطب بالقرآن عليه الصلاة والسلام كما إذا قلت أكل السلطان ما أتي به الطباخ أي طباخه فإنه المعهود ، وقد يقال : إنها معينة له صلى الله عليه وسلم بأن يكون الله تعالى أراها له عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج ، وزعم بعضهم أنها موجودة إلى اليوم ، والظاهر أنها كانت موجودة قبل مجيء مريم إليها وهو الذي تدل عليه الآثار ، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها عليها السلام لما اشتد عليها الطلق نظرت إلى أكمة فصعدت مسرعة فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس عليها سعف .

وقيل : إن الله تعالى خلقها له يومئذ وليس بذاك ؛ وكان الوقت شتاء ، ولعل الله تعالى أرشدها إليها ليريها فيما هو أشبه الأشجار بالإنسان من آياته ما يسكن روعتها كاثمارها بدون رأس وفي وقت الشتاء الذي لم يعهد ذلك فيه ومن غير لقاح كما هو المعتاد ، وفي ذلك إشارة أيضاً إلى أن أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وإلى أن ولدها نافع كالثمرة الحلواء وانه عليه السلام سيحيي الأموات كما أحي الله تعالى بسببه الموات مع ما في ذلك من اللطف بجعل ثمرتها خرسة لها ، والجار والمجرور متعلق بإجاءها ، وعلى القراءة الأخرى متعلق بمحذوف وقع حالاً أي مستندة إلى جذع النخلة ﴿ قَالَتْ يا أيها لَيْتَنِى مّتّ ﴾ بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف أو من مات يميت كجاء يجيء .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر .

ويعقوب بضمها من مات يموت كقال يقول .

﴿ قَبْلَ هذا ﴾ الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت أو قبل هذا الأمر .

وإنما قالته عليها السلام مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفاً من لائمتهم أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها .

وروي أنها سمعت نداء أخرج يا من يعبد من دون الله تعالى فحزنت لذلك وتمنت الموت ، وتمنى الموت لنحو ذلك مملا لا كراهة فيه .

نعم يكره تمنيه لضرر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا .

ففي صحيح مسلم .

وغيره قال صلى الله عليه وسلم : " لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل فإن كان لا بد متمنياً فليقل اللهم احيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي " ومن ظن أن تمنيها عليها السلام ذلك كان لشدة الوجه فقد أساء الظن والعياذ بالله تعالى .

﴿ وَكُنتُ نَسْياً ﴾ أي شيئاً تافهاً شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلاً كخرقة الطمث .

قرأ الأكثرون ﴿ نَسِيّاً ﴾ بالكسر .

قال الفراء : هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر والفتح أحب إلي .

(152/484)

وقال الفارسي : الكسر أعلى اللغتين ، وقال ابن الأنباري : هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر نائب عن الاسم ، وقرأ محمد بن كعب القرظي ﴿

نسئاً ﴾ بكسر النون والهمزة مكان الياء وهي قراءة نوف الأعرابي ، وقرأ بكر بن حبيب السهمي .

ومحمد بن كعب أيضاً في رواية ﴿ نسأ ﴾ بفتح النون والهمزة على أن ذلك من نسأت اللبن إذا صببت عليه ماء فاستهلك اللبن فيه لقلته فكأنها تمنت أن تكون مثل ذلك اللبن الذيلا يرى ولا يتميز من الماء ، ونقل ابن عطية عن بلكر بن حبيب أنه قرأ ﴿ نسا ﴾ بفتح النون والسين من غير همز كعصى ﴿ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس .

ووصف النسى بذلك لما أنه حقيقة عرفية فيما يقل الاعتداد به وإن لم ينس ، وقرأ الأعمش .

وأبو جعفر في رواية بكسر الميم اتباعاً لحركة السين كما قالوا : منتن باتباع حركة الميم لحركة التاء .

﴿ فَنَادَاهَا ﴾ أي جبريل عليه السلام كما روي عن ابن عباس .

ونوف .

وقرأ علقمة فخاطبها .

قال أبو حيان : وينبغى أن تكون تفسيراً لمخالفتها سواد المصحف ، وقرأ الحبر ﴿ فَنَادَاهَا مُلْكُ ﴾ ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ وينبغي أن يكون المراد به جبريل عليه السلام ليوافق ما روي عنه أولاً .

ومعنى دمن تحتها ﴿ من مكان أسفل منها وكان واقفاً تحت الأكمة التي صعدتها مسرعة كما سمعت آنفاً ، ونقل في البحر عن الحسن أنه قال : ناداها جبريل عليه السلام وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها وأقسم على ذلك .

ولعله إنما كان موقفه عليه السلام هناك إجلالاً لها وتحاشياً من حضوره بين يديها في تلك الحال .

(153/484)

والقول بأنه عليه السلام كان تحتها يقبل الولد مما لا ينبغي أن يقال لما فيه من نسبة ما لا يليق بشأن أمين وحي الملك المتعال ، وقيل : ضمير ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ من مكان أسفل منها وكان واقفاً تحت الأكمة التي صعدتها مسرعة كما سمعت آنفاً ، ونقل في البحر عن الحسن أنه قال : ناداها جبريل عليه السلام وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها وأقسم على ذلك .

ولعله إنما كان موقفه عليه السلام هناك إجلالاً لها وتحاشياً من حضوره بين يديها في تلك الحال .

والقول بأنه عليه السلام كان تحتها يقبل الولد مما لا ينبغي أن يقال لما فيه من نسبة ما لا يليق

بشأن أمين وحي الملك المتعال ، وقيل : ضمير ﴿ تَحْتِهَا ﴾ للنخلة ، واستظهر أبو حيان كون المنادي عيسى عليه السلام والضمير لمريم والفاء فصيحة أي فولدت غلاماً فانطقه الله تعالى حين الولادة فناداها المولود من تحتها .

وروي ذلك عن مجاهد .

ووجهب .

وابن جبير .

وابن جرير .

وابن زيد .

والجبائي .

ونقله الطبرسي عن الحسن أيضاً ، وقرأ الابنان والأبوان .

وعاصم .

والجحدري .

وابن عباس والحسن في رواية عنهما ﴿ مِنْ ﴾ بفتح الميم بمعنى الذي فاعل نادى و ﴿ تَحْتِهَا ﴾ ظرف منصوب صلة لمن والمراد به إما عيسى أو جبريل عليهما الصلاة والسلام ﴿ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ أي أي لا تحزني على أن أن مفسرة أو بأن لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ ﴾ بمكان أسفل منك ، وقيل : تحت أمرك إن

أمرت بالجري جري وإن أمرت بالإمساك أمسك وهو خلاف الظاهر ﴿ سَرِيّاً ﴾ أي جدولاً كما أخرجه الحاكم في مستدركه عن البراء وقال : إنه صحيح على شرط الشيخين وذكره البخاري تعليقاً موقوفاً عليه وأسنده عبد الرزاق .

وابن جرير .

وابن مردويه في تفاسيرهم عنه موقوفاً عليه أيضاً ولم يصح الرفع كما أوضحه الجلال السيوطي .

وعلى ذلك جاء قول لبيد يصف عيرا وأتانا :

فتوسطا عرض السرى فصدعا . . .

(154/484)

مسجورة متجاوزا قلامها

وأنشد ابن عباس قول الشاعر :

سهل الخليقة ماجد ذو نائل . . .

مثل السرى تمده الأنهار

وكان ذلك على ما روي عن ابن عباس جدولاً من الأردن أجراه الله تعالى منه لما أصابها

العطش .

وروي أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً ، وقيل : فعل ذلك عيسى عليه السلام وهو المروى عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه ، وقيل : كان ذلك موجوداً من قبل إلا أن الله تعالى نبهها عليه .

وما تقدم هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم .

وسمى الجدول سرياً لأن الماء يسري فيه فلامه على هذا المعنى ياء ، وعن الحسن .

وابن زيد .

والجبائي أن المراد بالسرى عيسى عليه السلام وهو من السرو بمعنى الرفعة كما قال الراغب أي جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن سامي القدر ، وفي الصحاح هو سخاء في مروءة وإرادة الرفعة أرفع قدراً ولامه على هذا المعنى واو .

والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية .

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ ﴾ أي إلى جهتك .

والهز تحريك يميناً وشمالاً سواء كان بعنف أولا أو تحريك بجذب ودفع وهو مضمن معنى الميل فلذا عدى بالي أو أنه مجاز عنه أو اعتبر في تعديته ذلك لأنه جزء معناه كذا قيل .

ومنع أبو حيان تعلقه بهزي وعلل ذلك بأنه قد تقرر في النحو أن الفعل لا يعدي إلى الضمير المتصل وقد رفع الضمير المتصل وليس من باب ظن ولا فقد ولا عدم وهما لمدلول واحد فلا يقال : ضربتك وزيد ضربه على معنى ضربت نفسك وضرب نفسه .

والضمير المجرور عندهم كالضمير المنصوب فلا يقال : نظرت إليه وزيد نظر على معنى نظرت إلى نفسك ونظر إلى نفسه .

ومن هنا جعلوا على في قوله :

هون عليك فإن الأمور . . .

بكف الإله مقاديرها

اسماً كما في قوله :

غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها . . .

(155/484)

وجعل الجار والمجرور هنا متعلقاً بمحذوف أي أعني إليك كما قالوا في سقيا لك ونحوه مما جيء به للتبيين .

وأنت تعلم أنهم قالوا بمجيء إلى للتبيين لكن قال ابن مالك .

وكذا صاحب القاموس : إنها المبينة لغاعلية مجرورها بعد ما يفيد حباً أو بغضاً من فعل تعجب أو اسم تفضيل وما هنا ليس كذلك .

وقال في الاتقان : حكى ابن عصفور في شرح أبيات الإيضاح عن ابن الأنباري أن إلى تستعمل اسماً فيقال : انصرفت من إليك كما يقال غدوت من عليه وخرج عليه من القرآن ﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ وبه يندفع إشكال أبي حيان فيه انتهى .

وكان عليه أن يبين ما معناها على القول بالإسمية ، ولعلها حينئذ بمعنى عند فقد صرح بمجيئها بهذا المعنى في القاموس وأنشد :

أم لا سبيل إلى الشباب وذكره . . .

أشهى إلى من الرحيق السلسل

لكن لا يخلو هذا المعنى في الآية ، ومثله ما قيل إنها في ذلك اسم فعل ، ثم أن حكاية استعمالها اسماً إذا صحت تقدح في قول أبي حيان : لا يمكن أن يدعي أن إلى تكون اسماً لا جماع النحاة على حرفيتها .

ولعله أراد اجماع من يعتد به منهم في نظره .

والذي أميل إليه في دفع الاشكال أن الفعل مضمن معنى الميل والجار والمجرور متعلق به لا بالفعل الرافع للضمير وهو مغزى بعيد لا ينبغي أن يسارع إليه بالاعتراض على أن في القلب من عدم صحة نحو هذا التركيب للقاعدة المذكورة شيئاً لكثرة مجيء ذلك في كلامهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب : 37] والبيت المار آنفاً .

وقول الشاعر :

دع عنك نهبا صيح في حجراته . . .

ولكن حديثاً ما حديث الرواعل

وقولهم : اذهب إليك وسر عنك إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتتبع .

وتأويل جميع ما جاء لا يخلو عن تكلف فتأمل وأنصف ، ثم الفعل هنا منزل منزلة اللازم كما في قول ذي الرمة :

فإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها . . .

إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلى

(156/484)

فلذا عدى بالباء أي افعلي الهز ﴿ بِجِذْعِ النخلة ﴾ فالباء للآلة كام في كتبت بالقلم .

وقيل هو متعد والمفعول محذوف والكلام على تقدير مضاف أي هزي الثمرة بهز جذع النخلة ولا يخفى ما فيه من التكلف وأن هز الثمرة لايخلو من ركاكة ، وعن المبرد أن مفعوله ﴿ رُطَباً ﴾ الآتي والكلام من باب التنازع .

وتعقب بأن الهز على الرطب لا يقع إلا تبعاً فجعله أصلاً وجعل الأصل تبعاً حيث أدخل عليه الباء للاستعانة غير ملائم مع ما فيه من الفصل بجواب الأمر بينه وبين مفعوله ويكون فيه أعمال الأول وهو ضعيف لا سيما في هذا المقام.

وما ذكر من التعكيس وارد على ما فيه التكلف وهو ظاهر، وما قيل من أن الهز وان وقع بالأصالة على الجذع لكن المقصود منه الثمرة فلهذه النكتة المناسبة جعلت أصلاً لأن هز الثمرة ثمرة الهز لا يدفع الركاكة التي ذكرناها مع أن المفيد لذلك ما يذكر في جواب الأمر.

وجعل بعضهم ﴿ بِجِذْعِ النخلة ﴾ في موضع الحال على تقدير جعل المفعول ﴿ رُطَباً ﴾ أو الثمرة أي كائنة أو كائناً بجذع النخلة وفيه ثمرة ما لا تسمن ولا تغنى، وقيل الباء مزيدة للتأكيد مثلها في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة: 195] وقول الشاعر:

هن الحرائر لا ربات أخمرة...

سود المحاجر لا يقرأن بالسور

والوجه الصحيح الملائم لما عليه التنزيل من غرابة النظم كما في الكشف هو الأول، وقول الفراء: إنه يقال هزه وهز به إن أراد أنهما بمعنى كما هو الظاهر لا يلتفت إليه كما نص عليه بعض من يعول عليه ﴿ تساقط ﴾ من ساقطت بمعنى أسقطت، والضمير المؤنث للنخلة ورجوع الضمير للمضاف إليه شائع، ومن أنكره فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وجوز أبو حيان أن يكون الضمير للجذع لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه كما في قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ [يوسف : 10] في قراءة من قرأ بالتاء الفوقية ، وقول الشاعر :

(157/484)

كما شرقت صدر القناة من الدم . . .

وتعب بأنه خلاف الظاهر وإن صح .

وقرأ مسروق .

وأبو حيوة في رواية ﴿ تُسْقِطَ ﴾ بالتاء من فوق مضمومة وكسر القاف .

وفي رواية أخرى عن أبي حيوة أنه قرأ كذلك إلا أنه بالياء من تحت .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْكِ رُطَباً ﴾ في جميع ذلك نصب على المفعولية وهو نضيج البسر واحدته بهاء وجمع شاذاً على أرطاب كربه وأرباع ، وعن أبي حيوة أيضاً أنه قرأ ﴿ تُسْقِطَ ﴾ بالتاء من فوق مفتوحة وضم القاف ، وعنه أيضاً كذلك إلا أنه بالياء من تحت فنصب ﴿ رُطَباً ﴾ على التمييز ، وروي عنه أنه رفعه في القراءة الأخيرة على الفاعلية .

وقرأ أبو السمال ﴿ تتساقط ﴾ بتاءين .

وقرأ البراء بن عازب ﴿ يساقط ﴾ بالياء من تحت مضارع أساقط .

وقرأ الجمهور ﴿ النخلة تساقط ﴾ بفتح التاء من فوق وشد السين بعدها ألف وفتح القاف ، والنصب على هذه الثلاثة على التمييز أيضاً .

وجوز في بعض القراآت أن يكون على الحالية الموطئة وإذا أضمر ضمير مذكر على إحدى القراآت فهو للجذع ، وإذا أضمر ضمير مؤنث فهو للنخلة أوله على ما سمعت ﴿ جَنِيّاً ﴾ أي مجنياً ففعيل بمعنى مفعول أي صالحاً للاجتناء .

وفي القاموس ثم جنى جنى من ساعته .

وعليه قيل المعنى رطباً يقول من يراه هو جني وهو صفة مدح فإن ما يجنى أحسن مما يسقط بالهز وما قرب عهده أحسن مما بعد عهده ، وقيل فعيل بمعنى فاعل أي رطباً طرياً ، وكان المراد على ما قيل إنه تم نضجه .

وقرأ طلحة بن سليمان ﴿ جَنِيّاً ﴾ بكسر الجيم للاتباع .

ووجه التذكير ظاهر .

وعن ابن السيد أنه قال في شرح أدب الكاتب .

كان يجب أن يقال جنية إلا أنه أخرج بعض الكلام على التذكير وبعضه على التأنيث ، وفيه نظر .

روي عن ابن عباس أنه لم يكن للنخلة إلا الجذع ولم يكن لها رأس فلما هزته إذ السعف قد طلع ثم نظرت إلى الطلع يخرج من بين السعف ثم أخضر فصار بلحاً ثم أحمر فصار زهواً ثم رطباً كل ذلك في طرفة عين فجعل الرطب يقع بين يديها وكان برنيا ، وقيل عجوة وهو المروى عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه .

والظاهر أنها لم تحمل سوى الرطب ، وقيل كان معه موز ، وروي ذلك عن أبي روق .

وإنما اقتصر عليه لغاية نفعه للنفساء ، فعن الباقر رضي الله تعالى عنه لم تستشف النفساء بمثل الرطب إن الله أطعمه مريم في نفاسها وقالوا : ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل ، وقيل : المرأة إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب ، وذكر أن التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وكذا التحنيك وفي أمرها بالهز إشارة إلى أن السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوب وهو لا ينافي التوكل وما أحسن ما قيل :

ألم تر أن الله أوحى لمريم . . .

وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه . . .

إليها ولكن كل شيء له سبب

﴿ فَكُلِى ﴾ من ذلك الرطب ﴿ واشربى ﴾ من ذلك السرى .

وقيل : من عصير الرطب وكان في غاية الطراوة فلا يتم الاستدلال بذكر الشرب على تعين تفسير السرى بالجدول وما ألطف ما أرشد إليه النظم الكريم من إحضار الماء أولاً والطعام ثانياً ثم الأكل ثالثاً والشرب رابعاً فإن الاهتمام بالماء أشد من الاهتمام بالأكل لا سيما ممن يريد أن يأكل ما يحوج إلى الماء كالأشياء الحلوة الحارة ، والعادة قاضية بأن الأكل بعد الشرب ولذا قدم الأكل على الشرب حيث وقع ، وقيل : قدم الماء لأنه أصل في النفع ونفعه عام للتنظيف ونحوه ، وقد كان جارياً وهو أظهر في إزالة الحزن وأخر الشرب للعادة .

وقيل قدم الأكل ليجاور ما يشاكله وهو الرطب .

والأمر قيل يحتمل الوجوب والندب .

وذلك باعتبار حالها ، وقيل هو للإباحة ﴿ وَقَرِّى عَيْناً ﴾ وطيبي نفساً وارفضي عنها ما أحزنك .

(159/484)

وقرىء بكسر القاف وهي لغة نجد وهم يفتحون عين الماضي ويكسرون عين المضارع وغيرهم يكسرهما وذلك من القر بمعنى السكون فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره ويشهد له قوله تعالى : ﴿ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 19] من

الحزن أو بمعنى البرد فإن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة .

ويشهد له قولهم قرة العين وسخنتها للمحبوب والمكروه .

وتسليتها عليها السلام بما تضمنته الآية من إجراء الماء وإخراج الرطب من حيث أنهما أمران خارقان للعادة فكأنه قيل لا تحزني فإن الله تعالى قدير ينزه ساحتك عما يختلج في صدور المتقيدين بالأحكام العادية بأن يرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك بما أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ، وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب لأن الحزين قد لا يتفرغ لمثل ذلك وأكد ذلك بالأمر الأخير .

ومن فسر السرى برفيع الشأن سامي القدر جعل التسلية بإخراج الرطب كما سمعت وبالسرى من حيث أن رفعة الشأن مما يتبعها تنزيه ساحتها فكأنه قيل لا تحزني فإن الله سبحانه قد أظهر لك ما ينزه ساحتك قالا وحالا .

وقد يؤيد هذا في الجملة بما روي عن ابن زيد قال : قال عيسى عليه السلام لها لا تحزني فقالت : كيف لا أحزن وأنت معى ولست ذات زوج ولا مملوكة فأي شيء عذري عند الناس ليتني مت قبل هذا فقال لها عليه السلام : أنا أكفيك الكلام ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ أي آدمياً كائناً من كان .

وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه ابن الرومي ﴿ ترئن ﴾ بالإبدال من الياء همزة .

وزعم ابن خالويه أن هذا لحن عند أكثر النحويين .

وقال الزمخشري : إنه من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمزة وحروف اللين في الابدال .

وقرأ طلحة .

وأبو جعفر .

وشيبة ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ ﴾ بسكون الياء وفتح النون خفيفة .

(160/484)

قال ابن جنى : هي شاذة وكان القياس حذف النون للجازم كما في قول الأفوه الأودي :

أما ترى رأسي أزري به . . .

مأس زمان ذي انتكاس مؤوس

﴿ فَقُولِى ﴾ له إن استنطقك ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ وقرأ زيد بن على رضي الله تعالى عنه ﴿ صِيَاماً ﴾ والمعنى واحد أي صمتا كما في مصحف عبد الله .

وقرأ به أنس بن مالك .

فالمراد بالصوم الإمساك وإطلاقه على ما ذكر باعتبار أنه بعض أفراده كإطلاق الإنسان على زيد وهو حقيقة .

وقيل اطلاقه عليه مجاز والقرينة التفريع الآتي وهو ظاهر على ذلك .

وقال بعضهم : المراد به الصوم عن المفطرات المعلومة وعن الكلام وكانوا لا يتكلمون في صيامهم وكان قربة في دينهم فيصح نذره .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه فهو منسوخ في شرعنا كما ذكره الجصاص في كتاب الأحكام .

وروي عن أبكي بكر رضي الله تعالى عنه أنه دخل على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم فقال : إن الإسلام هدم هذا فتكلمي .

وفي شرح البخاري لابن حجر عن ابن قدامة أنه ليس من شريعة الإسلام .

وظاهر الأخبار تحريمه فإن نذره لا يلزمه الوفاء به ولا خلاف فيه بين الشافعية والحنفية لما فيه من التضييق وليس في شرعنا وإن كان قربة في شرع من قبلنا .

فتردد القفال في الجواز وعدمه ناشىء من قلة الإطلاع ، وفي بعض الآثار ما يدل ظاهره على أن نذر الصمت كان من مريم عليها السلام خاصة .

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن حارثة بن مضرب قال : كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا فقال القوم .

ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال : إنه نذر صوماً لا يكلم اليوم انسيا فقال له ابن مسعود : بئس ما

قلت إنما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت وكانوا ينكرون أن يكون وله من غير زوج إلا زنا فكلم وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإنه خير لك .

(161/484)

والظاهر على المعنى الأخير للصوم أنه باعتبار الصمت فيه فرع قوله تعالى : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ أي بعد أن أخبرتكم بنذري فتكون قد نذرت إن لا تلكم انسيا بغير هذا الأخبار فلا يكون مبطلا له لأنه ليس بمندور ويحتمل أن هذا تفسير للنذر بذكر صيغته .

وقالت فرقة : امرت أن تخبر بنذرها بالإشارة قيل : وهو الأظهر .

قال الفراء : العرب تسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأن طريق وصل ما لم يأكد بالمصدر فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام .

ويفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنسِيّاً ﴾ دون أحداً أن المراد فلن أكلم اليوم انسيا وإنما أكلم الملك وأناجي ربي .

وإنما أمرت عليها السلام بذلك على ما قاله غير واحد لكراهة مجادلة السفهاء والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فإنه نص قاطع في قطع الطعن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

قوله : ﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ ﴾ هذا شروع في ابتداء خلق عيسى ، والمراد بالكتاب : هذه السورة ، أي اذكر يا محمد للناس في هذه السورة قصة مريم ، ويجوز أن يراد بالكتاب : جنس القرآن وهذه السورة منه ، ولما كان الذكر لا يتعلق بالأعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر ، وهو قصة مريم ، أو خبر مريم ﴿ إِذِ انتبذت ﴾ العامل في الظرف هو ذلك المضاف المقدّر ، ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم ، لأن الأزمان مشتملة على ما فيها ، ويكون المراد بمريم : خبرها ، وفي هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه ، والنبذ : الطرح والرمي .

قال الله سبحانه ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران : 187] .

والمعنى : أنها تنحت وتباعدت .

وقال ابن قتيبة : اعتزلت .

وقيل : انفردت ، والمعاني متقاربة .

واختلفوا في سبب انتباذها ، فقيل : لأجل أن تعبد الله سبحانه وقيل لتطهر من حيضها ، و ﴿ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ متعلق ب ﴿ انتبذت ﴾ ، وانتصاب ﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ على المفعولية للفعل المذكور ، أي مكاناً من جانب الشرق ، والشرق بسكون الراء : المكان الذي تشرق فيه الشمس ، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار ، حكى معناه ابن جرير .

وقد اختلف الناس في نبوّة مريم ، فقيل : إنها نبية بمجرّد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك وقيل : لم تكن نبية ، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر ، وقد تقدّم الكلام في هذا في آل عمران .

﴿ فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾ أي اتخذت من دون أهلها حجاباً يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة ، أو حال التطهر من الحيض ، والحجاب الستر والحاجز ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ هو جبريل عليه السلام .

(163/484)

وقيل : هو روح عيسى ، لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ أي تمثل جبريل لها بشراً مستوي الخلق لم يفقد من نعوت بني آدم

شيئاً .

قيل : ووجه تمثل الملك لها بشراً أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته ، فلما رأته في صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء ، فاستعاذت بالله منه و ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ أي ممن يتقي الله ويخافه .

وقيل : إن تقياً اسم رجل صالح ، فتعوّذت منه تعجباً .

وقيل : إنه اسم رجل فاجر معروف في ذلك الوقت ، والأوّل أولى .

وجواب الشرط محذوف ، أي فلا تتعرض لي .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي قال لها جبريل : إنما أنا رسول ربك الذي استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء ﴿ لأَهَبَ لَكِ غلاما زَكِيّاً ﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سبباً فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته ، أو من جهة كون النفخ قام به في الظاهر .

وقرأ أبو عمرو ويعقوب وورش عن نافع " ليهب " على معنى أرسلني ليهب لك ، وقرأ الباقون بالهمز .

والزكيّ : الطاهر من الذنوب الذي ينمو على النزاهة والعفة .

وقيل : المراد بالزكيّ النبيّ ﴿ قَالَتْ أنى يَكُونُ لِي غلام وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ أي لم يقربني

زوج ولا غيره ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ البغيّ هي الزانية التي تبغي الرجال .

قال المبرد : أصله بغوى على فعول ، قلبت الواو ياء ثم أدغمت في الياء وكسرت الغين للمناسبة .

وقال ابن جني : إنه فعيل .

(164/484)

وزيادة ذكر كونها لم تك بغياً مع كون قولها : لم يمسسني بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيهاً لجانبها من الفحشاء وقيل : ما استبعدت من قدرة الله شيئاً ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوّجه في المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداء ؟ وقيل : إن المس عبارة عن النكاح الحلال ، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها : ﴿ ولم أك بغياً ﴾ وما ذكرناه من شموله أولى باستعمالات أهل اللغة ، وما يوجد في محاوراتهم مما يطول تعداده اه .

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة ، وهو علة لمعلل محذوف ، والتقدير خلقناه لنجعله ، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وجملة ﴿

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ مستأنفة ، والقائل هو الملك ، والكلام فيها كالكلام فيما تقدّم من قول زكريا .

وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ معطوف على آية أي : ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبيّ رحمة لأمته ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ أي وكان ذلك المذكور أمراً مقدّراً قد قدّره الله سبحانه وجف به القلم .

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ ها هنا كلام مطويّ ، والتقدير : فاطمأنت إلى قوله ، فدنا منها ، فنفخ في جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته .

وقيل : كانت النفخة في ذيلها ، وقيل : في فمها .

قيل : إن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل من غير مضيّ مدة الحمل ، ويدلّ على ذلك قوله : ﴿ فانتبذت بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ أي تنحت واعتزلت إلى مكان بعيد ، والقصيّ هو البعيد .

قيل : كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل : أبعد مكان في تلك الدار .

وقيل : أقصى الوادي .

وقيل : إنها حملت به ستة أشهر .

وقيل : ثمانية أشهر ، وقيل : سبعة ﴿ فَأَجَاءهَا المخاض إلى جِذْعِ النخلة ﴾ أي ألجأها واضطرها ، ومنه قول زهير :

أجاءته المخافة والرجاء . . . وقرأ شبل : " فاجأها " من المفاجأة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، وقرأ الحسن بغير همز ، وفي مصحف أبيّ : " فلما أجاءها " قال في الكشاف : إن " أجاءها " منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقلّ ، والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضاً ومخاضاً إذا دنا ولادها .

وقرأ الجمهور بفتح الميم .

وقرأ ابن كثير بكسرها ، والجذع : ساق النخلة اليابسة ، كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدّة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد ﴿ قَالَتْ يا مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ أي قبل هذا الوقت ، تمنت الموت لأنها خافت أن يظنّ بها السوء في دينها ، أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان ﴿ وَكُنتُ نَسْياً ﴾ النسي في كلام العرب : الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، ومنه قول الكميت :

أتجعلنا خسراً لكلب قضاعة . . . ولسنا بنسي في معدّ ولا دخل

وقال الفراء : النسي : ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فتقول مريم : ﴿ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ أي حيضة ملقاة ، وقد قرىء بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان مثل الحجر والحجر ، والوتر والوتر .

وقرأ محمد بن كعب القرظي : " نساء " بالهمز مع كسر النون .

وقرأ نوف البكالي بالهمز مع فتح النون .

وقرأ بكر بن حبيب ﴿ نسياً ﴾ بفتح النون وتشديد الياء بدون همز ، والمنسي المتروك الذي لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ أي جبريل لما سمع قولها ، وكان أسفل منها تحت الأكمة .

وقيل : تحت النخلة ، وقيل المنادي هو عيسى ، وقد قرىء بفتح الميم من ﴿ من ﴾ وكسرها .

(166/484)

وقوله : ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ تفسير للنداء ، أي لا تحزني أو المعنى بأن لا تحزني على أنها المصدرية ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ قال جمهور المفسرين : السريّ : النهر الصغير ، والمعنى : قد جعل ربك تحت قدمك نهراً .

قيل : كان نهراً قد انقطع عنه الماء ، فأرسل الله فيه الماء لمريم ، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر .

وقيل : المراد بالسريّ هنا : عيسى ، والسريّ : العظيم من الرجال ؛ ومنه قولهم فلان سريّ ، أي عظيم ، ومن قوم سراة أي عظام .

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ الهزّ : التحريك ، يقال : هزه فاهتزّ ، والباء في بجذع النخلة مزيدة للتوكيد .

وقال الفراء : العرب تقول هزّه وهزّ به ، والجذع : هو أسفل الشجرة .

قال قطرب : كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع ، ومعنى إليك : إلى جهتك ، وأصل تساقط : تتساقط ، فأدغم التاء في السين .

وقرأ حمزة والأعمش ﴿ تساقط ﴾ مخففاً .

وقرأ عاصم في رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف .

وقرىء : " تتساقط " بإظهار التاءين .

وقرىء بالتحتية مع تشديد السين .

وقرىء " تسقط ، ويسقط " .

وقرأ الباقون بإدغام التاء في السين ، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ، ومن قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع ؛ وانتصاب ﴿ رُطَباً ﴾ على بعض هذه القراءات للتمييز ،

وعلى البعض الآخر على المفعولية لتساقط .

قال المبرد والأخفش : يجوز انتصاب رطباً بهزّي أي : هزّي إليك رطباً ﴿ جَنِيّاً ﴾ بجذع النخلة ، أي على جذعها وضعفه الزمخشري ، والجنيّ : المأخوذ طرياً .

وقيل : هو ما طلب وصلح للاجتناء ، وهو فعيل بمعنى مفعول .

قال الفراء : الجنيّ والمجني واحد .

وقيل : هو فعيل بمعنى فاعل ، أي رطباً طرياً طيباً .

(167/484)

﴿ فَكُلِي واشربي ﴾ أي من ذلك الرطب وذلك الماء ، أو من الرطب وعصيره ، وقدّم الأكل مع أن ذكر النهر مقدّم على الرطب ، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشدّ من احتياجها إلى شرب الماء ، ثم قال : ﴿ وَقَرّي عَيْناً ﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف .

وحكى ابن جرير أنه قرىء بكسرها ، قال : وهي لغة نجد .

والمعنى : طيبي نفساً وارفضي عنك الحزن ، وهو مأخوذ من القرّ والقرّة وهما البرد ، والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح .

وقيل : المعنى : وقرّي عيناً برؤية الولد الموهوب لك .

وقال الشيباني : معناه : نامي .

قال أبو عمرو : أقرّ الله عينه ، أي : أنام عينه وأذهب سهره ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ أصله : ترأيين : مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد ، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد :

أما ترى رأسي حاكى لونه . . . طرة صبح تحت أذيال الدجى

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة " ترين " بسكون الياء وفتح النون مخففة .

قال أبو الفتح : وهي شاذة ، وجواب الشرط ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي قولي إن طلب منك الكلام أحد من الناس إني نذرت للرحمن صوماً أي صمتاً وقيل : المراد به : الصوم الشرعي ، وهو الإمساك عن المفطرات ، والأوّل أولى .

وفي قراءة أبيّ : " إني نذرت للرحمن صوماً صمتاً " بالجمع بين اللفظين ، وكذا روي عن أنس .

وروي عنه أنه قرأ : "صوماً وصمتاً" بالواو ، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا : الصمت ، ويدل عليه ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ ومعنى الصوم في اللغة : أوسع من المعنيين .

قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم .

وقراءة أبيّ تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت ، لأنه تفسير للصوم .

وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو .

(168/484)

ومعنى ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ أنها لا تكلم أحداً من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر ، بل إنما تكلم الملائكة وتناجي ربها وقيل : إنها لم تخبرهم هنا باللفظ ، بل بالإشارة المفيدة للنذر .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ قال : مكاناً أظلها الشمس أن يراها أحد منهم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم اتخذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذوا ميلاده قبلة ، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل ، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه ، يتخوّفون أن يقع عليهم ، فسجدوا سجدة رضيها الله ، فاتخذوها سنة .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن عساكر من طريق السدّي

عن أبي مالك عن ابن عباس .

وعن مرّة عن ابن مسعود قالا : خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها ، فلما طهرت إذا هي برجل معها ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً ﴾ ففزعت و ﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ فخرجت وعليها جلبابها ، فأخذ بكمها فنفخ في جنب درعها ، وكان مشقوقاً من قدّامها ، فدخلت النفخة صدرها فحملت ، فأتتها أختها امرأة زكرياء ليلة تزورها ، فلما فتحت لها الباب التزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرت أني حبلى ، قالت مريم : أشعرت أني حبلى ، فقالت امرأة زكرياء : فإني وجدت ما في بطني سجد للذي في بطنك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ مُصَدّقاً بِكَلِمَةٍ مّنَ الله ﴾ [آل عمران : 39] .

(169/484)

فولدت امرأة زكرياء يحيى ، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿ فَأَجَاءهَا المخاض إلى جِذْعِ النخلة قَالَتْ ياليتنى مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ الآية ﴿ فَنَادَاهَا ﴾ جبريل ﴿ مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بني إسرائيل أن مريم ولدت ، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم فقال ﴿ إِنّي عَبْدُ الله ءَاتَانِىَ الكتاب

﴿ الآيات ، ولما ولد لم يبق في الأرض صنم إلا خرّ لوجهه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في مريم قال : حين حملت وضعت .

وأخرج ابن عساكر عنه قال : وضعت لثمانية أشهر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ قال : جبريل .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء نحوه أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن عساكر عن أبيّ بن كعب في الآية قال : تمثل لها روح عيسى في صورة بشر فحملته ، قال : حملت الذي خاطبها .

دخل في فيها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ قال : نائياً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ قال : كان جذعاً يابساً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ وكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ قال : لم أخلق ولم أك شيئاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ قال : حيضة ملقاة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد نحوه .

وأخرج عبد بن حميد عن نوف البكالي والضحاك مثله .

وأخرج عبد ابن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ قال : الذي ناداها جبريل .

(170/484)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : الذي ناداها من تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها .

وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادي هو جبريل أو عيسى .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي بكر بن عياش قال : قرأ عاصم بن أبي النجود ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ بالنصب ، قال : وقال عاصم : من قرأ بالنصب فهو عيسى ، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : " إن السريّ الذي قال الله لمريم ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه " وفي إسناده أيوب بن نهيك الجبلي قال فيه أبو حاتم الرازي : ضعيف ، وقال أبو زرعة : منكر الحديث ، وقال أبو فتح الأزدي : متروك الحديث ، وقال الطبراني بعد إخراج هذا الحديث : إنه غريب جدّاً .

وأخرج الطبراني في الصغير ، وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ قال : " النهر " وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وصححه والحاكم ، وابن مردويه عن البراء قال في الآية : هو الجدول ، وهو النهر الصغير ، فظهر بهذا أن الموقوف أصح .

وقد روي عن جماعة من التابعين أن السريّ هو عيسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ قال : طرياً .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه في قوله : ﴿ إِنّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ قال : صمتاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري عنه أنه قرأ : " صوماً صمتاً " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾

أي : لما صارت حاملاً به ، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها ، فراراً من القالة . وقد روي عن السلف أن جبريل لما قال لها ، عن الله تعالى ، ما قال ، مما تقدم استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله .

فدنا منها فنفخ في جيب درعها . فسرت النفخة حتى ولجت في الفرج ، فحملت بإذن الله تعالى .

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي : فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع لتعتمد عليه وتستتر به . وأجاء – قال الزمخشريّ – منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . وقرئ المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج : ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أي : الحمل : ﴿ وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾ أي : شيئاً تافهاً ، شأنه أن ينسى ولا يعتد به . منسيّاً لا يخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود ، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة ، وبضد ما قرفت به ، من اختصاص الله

إياها بغاية الإجلال والإكرام – قال الزمخشريّ – لأنه مقام دحض ، قلما تثبت عليه الأقدام ، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر ، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به – عيباً يعاب به ويعنف بسببه .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أي : من مكان أسفل منها , تحت أكمة ، وهو جبريل . وقيل : هو عيسى ، وقرئ مَنْ بفتح الميم موصولة : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ أي : سيداً نبيلاً رفيعاً ، وقيل : نهراً يسري .

(172/484)

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ أي : حضر أوان اجتنائه .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلَّى بالسريّ والرطب ! قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تُريان الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به ، بمعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها .

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ أي : بالكمال والولد المبارك ، الموجود بالقدرة ،

الموهوب بالعناية . قال الزمخشريّ : أي : جمعنا لك في السريّ والرطب فائدتين : إحداهما : الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وهو معنى قوله : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ أي : وطيبي نفساً ولا تغتمي . وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ﴾ أي : من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب ، الذين لا يفهمون قولك ولا يصدقون بحالك . لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألوك : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ أي : لا تكلميهم في أمرك شيئاً . ولا تمادّيهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرتْ بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع في براءة ساحتها ، فقوله : ﴿ صَوْماً ﴾ . وقوله : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ﴾ الخ تفسير للنذر بذكر صيغته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 94.96 ﴾

(173/484)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن مريم حملت عيسى . فقوله ﴿ حملته ﴾ أي

عيسى ﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ : أي انتحت به وبعدت معتزلة عن قومها ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ أي في مكان بعيد : والجمهور على أن المكان المذكور بيت لحم . وفيه أقولا أخر غير ذلك .

وقوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا المخاض ﴾ أي ألجأها الطلق إلى جذع النخلة ، أي جذع نخلة في ذلك المكان . والعرب تقول : جاء فلان ، وأجاءه غيره : إذا حمله على المجيء ، ومنه قول زهير :

وجار سار معتمداً إلينا . . . أجاءته المخافة والرجاء

وقول حسان رضي الله عنه :

إذ شددنا شدة صادقة . . . فأجأناكم غلى سفح الجبل

والمخاض : الطلق ، وهو وجع الولادة ، وسمي مخاضاً من المخض ، وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج .

(174/484)

وقوله : ﴿ قَالَتْ ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ تمنت أن تكون قد ماتت قبيل ذلك ولم تكن شيئاً يذكر . فإذا عرفت معنى هاتين الآيتين – فأعلم أنه هنا لم يبين كيفية حملها به ، ولم يبين هل هذا الذي تنحت عنهم من أجله ، وتمنت من أجله أن تكون ماتت

فيب ذلك ، وكانت نسياً منسياً : وهو خوفها أن يتهموها بالزنى ، وأنها جاءت بذلك الغلام من زنى وقعت فه أو سلمت منه . ولكنه تعالى بين كل ذلك في غير هذا الموضع ، فأشار إلى أن كيفية حملها أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك ، كما قال ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : 12] وقال ﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : 91] الآية . والذي عليه الجمهور من العلماء : أنا لمراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت ، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : 19] كما تقدم . ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله ﴿ فنفخنا ﴾ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته ، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ . فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى ، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل إلا منه إلا بمشيئة جل وعلا – أسنده إلى نفسه – والله تعالى أعلم .

وقول من قال : إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط ، بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل .

وقد بين تعالى في مواضع أخر ، أن ذلك الذي خافت منه وهو قذفهم لها بالفاحشة – قد

وقعت فيه ، ولكت اله برأها ، وذلك كقوله عنهم : ﴿ قَالُواْ يا مريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ [مريم : 27] يعنون الفاحشة ، وقوله عنهم ،

(175/484)

﴿ يا أخت هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] يعنون فكيف فجرت أنت وجئت بهذا الولد ؟ وكقوله عالى ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ [النساء : 156] .

وقوله : ﴿ مكاناً قصياً ﴾ القصي ، البعيد ، ومنه قول الراجز :

لتقعدن معقد القص . . . مني ذي القاذورة المقلي

أو تحلفي بربك العلي . . . أني أبو ذيالك الصبي

وهذا المكان القصي قد وصفه الله تعالى في غير هذا الموضع بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : 50] . وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فانتبذت به ﴾ أي انتبذت وهو في بطنها . والإشارة في قوله هذا إلى الحمل والمخاض الذي أصابها للوضع .

وقوله في هذه الآية الكريمة عنها : ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ النسي والنِّسي - بالكسر

وبالفتح - : هو ما من حقه أن يطرح وينسى لحقارته ، كخرق الحيض ، وكالوتد والعصا ، ونحو ذلك . ومن كلام العرب إذا ارتحلوا عن الدار قولهمك انظروا أنساءكم جمع نسي ؟ أي الأشياء الحقيرة التي من شأنها أن تترك وتنسى كالعصا والوتد . ونحو ذلك . فقولها « وكنت نسياً » أي شيئاً تافهاً حقيراً من حقه أن يترك وينسى عادة . وقولها « منسياً » تعني أن ذلك الشيء التافه الذي من عادته أن يترك وينسى قد نسي وطرح بالفعل فوجد فيه النسيان الذي هو حقه . وأقوال المفسرين في الآية راجعة إلى ما ذكرنا ، ومن إطلاق النسي على ما ذكرنا قول الكميت :

أتجعلنا جسراً لكلب قضاعة . . . ولست بنسي في معد ولا دخل

فقوله « بنسي » أي شيء تافه منسي . وقوله الشنفرى :

كان لها في الآرض نسياً تقصه . . . على أمها وإن تحدثك تبلت

(176/484)

فقوله « نسياً » اي شيء تركته وتسيته . وقوله « تبلن » بفتح التاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام بعدها تاء التأنيث - أي تقطع كلامها من الحياء . والبلت في اللغة : القطع . وقرأ نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي « يا ليتني مت » بكسر الميم . وقرأ الباقون «

مت » بضم الميم « . وقرأ حفص عن عاصم وحمزة ، : وكنت نسياً » بفتح النون .

والباقون بكسرها ، وهما لغتان فصيحتان ، وقراءتان صحيحتان .

تنبيه

قراءة « مت » بكسر الميم كثيراً ما يخفى على طلبه العلم وجهها . لأن لغة مات يموت « لا يصح منه » من « بكسر الميم . ووجه القراءة بكسر الميم أنه من مات يمات ، كخاف يخاف . لا من مات يموت . كقال يقول : فلفظ » مات « فيها لغتان عربيتان فصيحتان ، الأولى منهما موت بفتح الواو فأبدلت الواو ألفاً على القاعدة التصريفية المشار لها بقوله في الخلاصة :

من ياء أو او بتحريك أصل . . . ألفا إبدل بعد فتح متصل

إن حرك الثاني . . الخ ومضارع هذه المفتوحة » يموت « بالضم على القياس وفي هذه ونحوها إن أسند الفعل إلى تاء الفاعل أو نونه سقطت العين بالاعتلال وحركت الفاي بحركة تناسب العين ، والحركة المناسبة للواو هي الضمة ، فتقول » مت « بضم الميم ، ولا يجوز غير ذلك .

(177/484)

الثانية أنها « موت » بكسر الواو ، أبدلت الواو ألفاً للقاعدة المذكرة آنفاً . ومضارع هذه « يمات » بالفتح ، لأن فعل بكسر العين ينقاس في مضارعها بفعل بفتح العين ، كما قال ابن مالك في اللامية :

وافتح موضع الكسر في المبنى من فعلا . . . ويستثنى من هذه القاعدة كلمات معروفة سماعية تحفظ ولا يقاس عليها . والمقرر في فن الصرف : أن كل فعل ثلاثي أجوف أعنى معتل العين إذا كان على وزن فعل بكسر العين ، أو فعل بضمها فإنه إذا أسند إلى تاء الفاعل أو نونه تسقط عينه بالاعتلال وتنقل حركة عينه الساقطة بالاعتلال إلى الفاء فتكسر فاؤه إن كان من فعل بكسر العين ، وتضم إن كان من فعل بضمها . مثال الأول – « مت » من مات يمات ، لأن أصلها « موت » بالكسر وكذلك خاف يخاف ، ونام ينام ، فإنك تقول فيها « مت » بكسر الميم ، و « نمت » بكسر للنون ، « وخفت » بكسر الخاء . لأن حركة العين نقلت إلى الفاء وهي الكسرة . ومثاله في الضم « طال » فأصلها « طول » بضم الواو فتقول فيها « طلت » بالضم لنقل حركة العين إلى الفاء . أما إذا كان الثلاثي من فعل بفتح العين كمات يموت ، وقال يقول : فإن العين تسقط بالاعتدال وتحرك الفاء بحركة مناسبة للعين الساقطة فيضم الفاء إن كانت العين الساقطة واواً كمات يموت ، وقال يقول : فتقول مت وقلت . – بالضم – وتكسر الفاء إن كانت العين الساقطة ياؤ ، كباع وسار ، فتقول : بعت وسرت بالكسر فيهما . وإلى هذا اشار ابن مالك في اللامية بقوله

وانقل لفاء الثلاثي عين . . . إذا اعتلت وكان بنا الإضمار متصلاً

أو نونه وإذا فتحا يكون منه . . . اعتض مجانس تلك العيم منتفلا

واعلم أن مات يمات ، من فعل بالكسر يفعل بالفتح لغة فصيحة ، ومنها قول الراجز :

بنيتي سيدة البنات . . . عيشي ولا نأمن أن تماد

وأما مات يميت فهي لغة ضعيفة . وقد اشار إلى اللغات الثلاث الفصيحتين والردية بعض أدباء قطر شنقيط في بيت رجز هو قوله :

(178/484)

من منعت زوجته منه المبيت . . . مات يموت ويمات ويميت

وأقوال العلماء في قدر المدة التي حملت فيها مريم قبل الوضع لم نذكرها ، لعدم دليل على شيء منها . وأظهرها : أنه حمل كعادة حمل النساء وإن كان منشؤه خارقاً للعادة ، والله تعالى أعلم .

(179/484)

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)

اعلم أولاً : أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين : قرأه نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ بكسر الميم على أن « من » حرف جر ، وخفض تاء تحتها ، لأن الظرف مجرور ب « من » . وقرأه ابن كثير وأبو عمر ، وابن عامر وشعبة عن عاصم ، « فنادها من تحتها » بفتح ميم « من » على أنه تس موصول هو فاعل نادى ، أن ناداها الذي تحتها . وفتح أي « تحتها » فعلى القراءة الأولى ففاعل النداء ضمير محذوف . وعلى الثانية فالفاعل الاسم الموصول الذي هو « من » .

وإذا عرفت هذا فاعلم أن العلماء مختلفون في هذا المنادى الذي ناداها المعبر عنه في إحدى القراءتين بالضمير ، وفي الثانية بالاسم الموصول من هو ؟ فقال بعض العلماء : هو عيسى . وقال بعض العلماء : هو جبريل . ممن قال : إن الذي نادى مريم هو جبريل – ابن عباس ، وعمرو بن ميمون الأودي ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وسعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه . وأهل هذا القول قالوا : لم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها .

وممن قال إن الذي نادها هو عيسى عندما وضعته – أبي ، ومجاهد ، والحسن ، ووهب بن منبه ، وسعيد بن جبير في الرواية الأخرى عنه وابن زيد .

فإذا كلمت ذلك فاعلم أن من قال إنه الملك يقول : فناداها جبريل من مكان تحتها ، لأنها على ربوة مرتفعة ، وقد ناداها من مكان منخفض عنها ، وبعض أهل القول يقول : كان جبريل تحتها يقبل الولد كما تقبله القابلة . والظاهر الأول على هذا القول . وعلى قراءة « فناداها من تحتها » بفتح الميم وتاء « تحتها » عند أهل هذا القول . فالمعنى فنادها الذي هو تحتها اي في كان أسفل من مكانها ، أو تحتها يقبل الولد كما تقبل القابلة مع ضعف الاحتمال الأخير كما قدمنا ، أي وهو جبريل فعلى القراءة الأولى على القول « فناداها » هة أي جبريل من تحتها . وعلى القراءة الثانية « فنادها من تحتها » اي الذي تحتخا وهو جبريل . وأما على القلة بأن المنادى هو عيسى ، فالمعنى على القراءة الأولى : فناداها هو أي المولود الذي وضعته من تحتها . لأنه كان تحتها عند الوضع . وعلى القراءة الثانية : « فناداها من تحتها » أي الذي تحتها وهو المولود المذكور الكائن تحتها عند الوضع . على القراءة الثانية : « فناداها من تحتها » أي الذي تحتها وهو المولود المذكور الكائن تحتها عند الوضع . وممن اختار أن الذي ناداها هو عيسى : ابن جرير الطبري في تفسيره ، واستظهره أبو حيان في البحر ، واستظهر القرطبي أنه جبريل .

قال مقدية عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسى ،

وتدل على ذلك قرينتان : الأولى – أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه ، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل .

(181/484)

لأن الله قال ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ [مريم : 22] يعني عيسى ﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ [مريم : 22] أي بعيسى .

ثم اقل بعده « فناداها » فالذي يظهر ويتبارد من السياق أنه عيسى . والقرينة الثانية – أنها لما جاءت به قولها تحملهن وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه . كما قال تعالى عنها : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته . وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه على أنه عيسى . كما نقله عنه غير واحد . و « أن » في قوله « ألا تحزني » هي المفسرة ، فهي بمعنى أي . وضابط « أن » المفسرة أن يتقدمها معنى القول دون حروفه كما هنا . فالنداء فيه بمعنى القول دون حروفه ومعنى كونها مفسرة : أن الكلام الذي بعدها هو معنى ما قبلها . فالنداء المذكور قبلها هو : لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا .

واختلف العلماء في المراد بالسري هنا . فقال بعض العلماء : هو الجدول وهو النهر الصغير . لأن اله اجرى لها تحتها نهراً . وعله فقوله تعالى : ﴿ فكلي ﴾ أي من الرطب المذكور في قوله ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ [مريم : 25] أي من النهر المذكور في قوله ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ وإطلاق السري على الجدول مشهور في كلام العرب . ومنه قول لبيد في معلقته :

فتوسطا عرض السري وصدعا . . . مسجورة متجاوراً قلامها

وقول لبيد أيضاً يصف نخلاً نابتاً على ماء النهر :

سحق يمتعها الصفا وسريه . . . عم نواعم بينهم كروم

وقول الآخر :

سهل الخليفة ماجد ذو نائل . . . مثل السري تمده الأنهار

فقوله « سريه » . وقولهما « السري » بمعنى الجدول . وكذلك قول الراجز :

سلم ترى الدالي منه أزورا . . . إذا يعب في السري هرهرا

وقال بعض أهل العلم : السري هو عيسى . والسري هوا لرجل الذي له شرف مروءة .

يقال في فعله سرو بالضم . وسرا – بالفتح – يسرو سروا فيهما . وسري – بالكسر – يسري سري وسراء وسروا إذا شرف . ويجمع السري هذا على أسرياء على القياس ، وسرواء وسراة بالفتح . وعن سيبويه إن السراة – بالفتح – اسم جمع لا جمع . ومنه قول الأفوه الأودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم . . . ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ويجمع السراة على سروات . ومنه قول قيس بن الحطين :

وعمرة من سروات النساء . . . تنفح بالمسك أردانها

ومن إطلاق السري بمعنى الشريف قول الشاعر :

تلقى الشري من الرجال بنفسه . . . وابن الشري إذا سرى أسراهما

(183/484)

وقوله « أسراهما » اي أشرفهما . قاله في اللسان .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي أن السري في الآية النهر الصغير ، والدليل على ذلك أمران :

أحدهما – القرينة من القرآن ، فقوله تعالى : ﴿ فَكُلِي واشربي ﴾ [مريم : 26] قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ ، وقوله : ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ [مريم : 25] ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : 50] لأن المعين : الماء الجاري . والظاهر أن الجدول المعبر عنه بالسري في هذه الآية . والله تعالى أعلم .

(184/484)

الأمر الثاني – حيديث جاء بذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وقد جاء بذلك حديث مرفوع ، قال الطبراني : حدثنا أبو شعيب الحراني ، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلي ، حدثنا أيوب بن نهيك ، سمعت عكرمة مولى ابن عابس ، سمعت ابن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن السري الذي قال الله لمريم : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ ، نهر أخرجه الله لها لتشرب منه » وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه . وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلى ، قال فيه أبو حاتم الرزاي : ضعيف . وقال أبو زرعة : منكر الحديث . وقال أبو الفتح الأزدي : متروك الحديث – انتهى كلام ابن كثير . وقال ابن حجر رحمه الله في « الكافي

الشاف ، في تخريج أحاديث الكشاف » في الحديث المذكور : أخرجه الطبراني في الصغير ، وابن عدي من رواية أبي سنان سعيد بن سنان ، عن أبي إسحاق ، عن البراء عن النَّبي صلى الله عليه ويلم في قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ قال : « السري النهر » قال الطبراني : لم يرفعه عن أبي إسحاق إلا أبو سنان ، رواه عنه يحيى بن معاوية وهم ضعيف . وأخرجه عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن أبي إسحاق عن البراء موقوفاً . وكذا ذكره البخاري تعليقاً عن وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق . ورواه ابن مرديه من طريق آدم ، عن إسرائيل كذلك وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبي إسحاق موقوفاً . وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « إن السري الذي قاله لمريم أخرجه الله لتشرب منه » . أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عكرمة عن ابن عمر ، ورواية عن عكرمة أيوب بن نهيك ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة – انتهى .

(185/484)

فهذا الحديث المرفوع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف – اقرب إلى الصواب من دعوى أن السري عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه .

وممن اختار أن السري المذكور في الآية النهر – : ابن جرير في تفسيره ، وبه قال البراء بن

عازب ، وعلي بن ابي طلحة ، عن ابن عباس . وعمر بن ميمون ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاكن وإبراهيم النخعي ، وقتادةن ولاسدي ، ووهب بن منبه وغيرهم .

وممن قال إنه عيسى : الحسن ، والربيع بن انس ، ومحمد بن عباد بن جعفر . وهو إحدى الروايتين عن قتادة . وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قاله ابن كثير وغيره .

(186/484)

قوله تعالى : ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي واشربي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ .

لم يصرح جل وعلا في هذه الآية الكريمة ببيان الشيء الذي أمرها أن تأكل منه ، والشيء الذي أمرها أن تشرب منه . ولكنه أشار إلى أن الذي أمرها أن تأكل منه هو « الرطب الجني » المذكور . والذي أمرها أن تشرب منه هو النهر المذكور المعبر عنه « بالسري » كما تقدم – هذا هو الظاهر .

(187/484)

وقال بعض العلماء : إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهز به كان جزعاً يابساً ؛ فلما هزته جعله الله نخلة ذات رطب جني . وقال بعض العلماء : كان الجذع جذع نخلة نابتة إلا أنها غير مثمرة ، فلما هزته أنبت الله فيه الثمر وجعله رطباً جنياً . وقال بعض العلماء : كانت النخلة مثموة ، وقد أمرها الله بهزها ليتساقط لها الرطب الذي كان موجوداً . والذي يفهم من سياق القرآن : أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة ، وأجرى لها ذلكالنهر على سبيل خرق العادة . ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك ، سواء قلنا إن الجذع كان يابساً أو نخلة غير مثمرة ، إلا ان الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنياً .

ووجع دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي واشربي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة ؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به . فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر ، وإنبات الرطب ، وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة ، وبذلك يكون قرة عين لها ؛ لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر . وخرق الله لها العادة بتفجير الماء ، وإنبات الرطب ، وكلام المولود لا غرابة فيه . وقد نص الله جل وعلا في « آل عمران » عل خرقه لها العادة في قوله ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يامريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] . قال العلماء :

كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . وإجراء النهر وإنبات الرطب ليس أغرب من هذا المذكور في سورة « آل عمران » .

مسالة

(188/484)

أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وهزي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] الآية – أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعاً وأنه لا ينافي التوكل على الله جل وعلا . وهذا أمب كالمعلوم من الدين بالضرورة .

(189/484)

أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعاً لا ينافي التوكل على الله بحال ؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه . فهو متوكل على الله ، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر . ولو شاء الله تخلف تاثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف .

ومن أصرح الأدلة في ذلك – قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَا على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] الآية . فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزّأ إلى معان مختلفة ، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رماداً من حرها في الوقت الذي كائنة برداً وسلاماً على إبراهيم . فدل ذلك دلالة قاطعة على ان التأثيؤ حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السموات والأرض ، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب ، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا .

ومن أوضح الأدلة في ذلك – أنه ربما جلع الشيء سبباً لشيء آخر مع أنه مناف له : كجعله ضرب ميت بني إسرائيل ببعض من بقرة مذبوحة سبباً لحياته ، وضربه بقطعة ميتة ن بقرة ميتة مناف لحياته . إذ لا تكسب الحياة من ضرب بميت ؟ وذلك يوضه أنه جل وعلا يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب ، ولا يقع تاثسر البتة إلا بمشيئته جل وعلا .

(190/484)

ومما يوضخ أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله – قوله تعالى عن يعقوب : ﴿ وَقَالَ يا بني لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ [يوسف : 67] أمرهم في

هذا الكلام بتعاطي السبب ، وتسبب في ذلك بالأمر به ، لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين لأنهم أحد عشر رجلاً أبناء رجل واحد ، وهو أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام . فدخولهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين فأمرهم بالتفرق والدخول من ابواب متفرقة تعاطياً للسبب في السلامة من إصابة العين ؛ كما قال غير واحد من علماء السلف . ومع هذا التسبب فقد قال اله عنه : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِي لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ [يوسف : 67] . فانظر كيف جمع بين التسبب في قوله : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ وبين التوكل على الله في قوله : ﴿ وعَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ وهذا أمر معلوم لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته . والله جل وعلا قادر على أن يسقط لها الرطب من غير هز الجذع ، ولكنه أمرها بالتسبب في إسقاطه بهز الجذع . وقد قال بعضهم في ذلك :

ألم تر أن الله قال لمرين . . . وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه . . . جنته ولكن كل شيء له سبب

(191/484)

وقد أخذ بعض العلماء من هذه الآية – أن خير ما تطعمه النفساء الرطب ، قالوا : لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله مريم وقت نفاسها بعيسى ، قاله الربيع بن خيثم وغيره . والباء في قوله ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] مزيدة للتوكيد ، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه ، وزيادة حرف الباء للتوكيد قبل مفعول الفعل المتعدي بنفسه كثيرة في القرآن وفي كلام العرب ، فمنه في القرآن قوله هنا ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] ، وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ [الحج : 25] الآية . وقوله : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ [القلم : 5–6] الآية ، وقوله : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] على قراءة ابن كثير وأبي عمرو بضم التاء وكسر الباء مضارع أنبت الرباعي ، لأن الرباعي الذي هو أنبت ينبت بضم الياء المثناة وكسر الباء الموحدة يتعدى بنفسه دون الحرف ، فالباء مزيدة للتوكيد كما رأيت في الآيات المذكورة . ونظير ذلك من كلام العرب قول أمية بن ابي الصلت الثقفي :

إذ يسقون بالدقيق وكانوا . . . قبل لا يأكلون خبزاً فطيرا

لأن الأصل يسقون الدقيق فزيدت الباء للتوكيد . وقول الراعي :

هن الحرائر لا ربات أخمرة . . . سود المعاجر لا يقرأن بالسور

فالأصل : لا يقرأن السور ، فزيدت الباء لما ذكر . وقول يعلى الأحول اليشكري أو غيره :

بواد يمان ينبت الشث صدره . . . واسفله بالمرخ والشبهان

فالأصل : وأسفله المرخ ؛ اي وينبت اسفله المرخ ، فزيدت الباء لما ذكر وقول الأعشى :

ضمنت برزق عالينا أرماحنا . . . ملء المراجل والصريح الأجودا

فالأصل ضمنت رزق عيالنا . وقول الراجز :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج . . . نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أي نرجو الفرج . وقول امرىء القيس :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت . . . هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

(192/484)

فالأصل : هصرت غصنا ؛ لأن هصر تتعدى بنفسها . وأمثال هذا كثيرة في كلام العرب . وفي قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : « تساقط تسع قراءات ، ثلاث منها سبعية ، وست شاذة . أما الثلاث السبعية فقد قرأه حمزة وحده من السبعة » تساقط « بفتح التاء وتخفيف السين وفتح القاف ، وأصله : تتساط ؛ فحذف إحدى التاءين . وعلى هذه القراءة فقوله » رطباً « تمييز محول عن الفاعل . وقرأه حفص وحده عن عاصم » تساقط « بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين ، ومضارع ساقطت تساقط . وعلى هذه القراءة فقول » رطباً « مفعول به للفعل الذي و » تساقط « هي أي النخلة رطباً . وقرأه

بقية السبعة » تساقط « بفتح التاء والقاف وتشديد السين ، اصله : تتساقط ؛ فأدغمت إحدى التاءين في السين . وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله » رطباً « تمييز محول عن الفاعل كإعرابه على قراءة حمزة – وغير هذا من القراءات شاذ :

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ الجني : هو ما طاب وصلح لأن يجنى فيؤكل . وعن أبي عمر بن العلاء : أن الجني هو الذي لم يجف ولم ييبس ، ولم يبعد عن يدي متناوله .

(193/484)

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ .

قائل هذا الكلام لمريم : هو الذي ناداها من تحتها ألا تحزني . وقد قدمنا الخلاف فيه ؛ هل هو عيسى ، أو جبريل ، وما يظهر رجحانه عندنا من ذلك .

(194/484)

وقوله فيه هذه الآية الكريمة : ﴿ فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ قيل أمرت أن تقول ذلك باللفظ . وقيل أمرت أن تقوله بالإشارة . وكونها أمرت أن تقوله باللفظ هو مذهب الجمهور ؛ كما قاله القرطبي وأبو حيان ، وهو ظاهر الآية الكريمة ؛ لأن ظاهر القول في قوله تعالى : ﴿ فقولي إِنِّي نَذَرْتُ ﴾ الآية – أنه قول باللسان . واستدل من قال : إنها أمرت أن تقول ذلك بالإشارة بأنها لو قالته باللفظ أفسدت نذرها الذي نذرته ألا تكلم اليوم إنسياً ، فإذا قالت لإنسي بلسانها إني نذرت للرحمن صوماً فقد كلمت ذلك الإنسي فأفسدت نذرها . واختار هذا القول الأخير لدلالة الآية عليه ابن كثير رحمه الله ، قال في تفسير هذه الآية ﴿ فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ . المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد القول اللفظي لئلا ينافي ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ وأجاب المخالفون عن هذا بأن المعنى ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ وقوله : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ فقد رأيت كلام العلماء في الآية . وإن القول الأول يدل على ظاهر السياق . وإن الثاني يدل عليه قوله : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ لأنه يدل على نفي الكلام للإنسي مطلقاً . قال أبو حيان في البحر : وقوله « إنسياً » لأنها كانت تكلم الملائكة . ومعنى كلامه أن قوله « إنسياً » له مفهوم مخالفة ، أي بخلاف غير الإنسي كالملائكة فغني أكلمه . والذي يظهر لي أنه لم يرد في الكلام إخراج المفهوم عن حكم المنطوق ، وإنما المراد شمول نفي الكلام

كل إنسان كائناً من كان .

مسألة

(195/484)

اعلم أنه على هذا القول الذي اختاره ابن كثير أن المراد بقوله ﴿ فقولي إِنّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي قولي ذلك بالإشارة يدل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ، لأنها في هذه الآية سميت قولاً على هذا الوجه من التفسير . وسمع في كلام العرب كثيراً إطلاق الكلام على الإشارة ، كقوله :

إذا كلمتني بالعيون الفواتر . . . رددت عليها بالدموع البوادر

وسنذكر هنا إن شار الله تعالى ما يدل من النصوص على إن الإشارة المفهمة تنزل منزلة الكلام ، وما يدل من النصوص على أنها ليست كالكلام ، وأقوال العلماء في ذلك .

اعلم أنه دلت أدلة على قيام الإشارة المفهمة مقام الكلام ، وجاءت أدلة أخرى يفهم منها خلاف ذلك . فمن الأدلة الدالة على قيام الإشارة مقام الكلام – قصة الأمة السوداء التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(196/484)

« أين الله ؟ » فاشارت إلى السماء . فقال صلى الله عليه وسلم : « أعتقها فإنها مؤمنة » فجعل إشارتها كنطقها في الإيمان الذي هو أصل الديانات . وهو الذي يعصم به الدم والمال ، وتستحق به الجنة ، وينجي به من النار . والقصة المشهورة مروية عن جماعة من الذي يعصهم به الدم والمال ، وتستحق به الجنة ، وينجي به من النار . والقصة المشهورة مروية عن جماعة من الصحابة ، منهم أبو هريرة ، وابن عباس ، ومعاوية بن الحكم السلمي ، والشريد بن سويد الثقفي رضي الله عنهم . وفي بعض رواياتهم : أنها أشارت إلى السماء . قال أبو داود في سننه : حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني ، ثنا يزيد بن هارون ، قال أخبرني المسعودي عن عون بن عبد الله بن عتبة ، عن أبي هريرة : أن رجلاً أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم بجارية سوداء فقال : يا رسول الله ، إن علي رقبة مؤمنة ؟ فقال لها : « أين الله ؟ » فأشارت إلى السماء بإصبعها فقال لها : « فمن أنا ؟ » فأشارت إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم وإلى السماء ، يعني أنت رسول الله . فقال : « أعتقها فإنها مؤمنة » والظاهر حمل الرويات التي فيها أنه لما قال لها أين الله قالت في السماء من غير ذكر الإشارة ، على أنها قالت ذلك بالإشارة . لأن القصة واحدة والروايات يفسر بعضها بعضاً . قال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره في سورة « آل عمران » في الكلان على قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ [آل عمران : 41] ما نصه :

فيه هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ، وذلك موجود في كثير من السنة ، وآكد الإشارات ما حكم به النَّبي صلى الله عليه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : « اين الله ؟ » فأشارت براسها إلى السماء ، فقال : « اعتقها فإنها مؤمنة » فأجاز الإسلام بالإشارة الذي هو أصل الديانة الذي يحرز به الدم والمال ، وتستحق به الجنة وينجي به من

(197/484)

النار ، وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ، فيجب أن تكون الإشارة عاملة في سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء .

وروى ابن القايم عن مالك : ان الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يلزمه . وقال الشافعي في الرجل يمرض فيختل لسانه : فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شك فيها فهذا باطل ، وليس ذلك بقياس ، وإنما هو استحسان . والقياس في هذا كله أنه باطل ، لأنه لا يتكلم ولا تعقل إشارته – انتهى محل الغرض من كلام القرطبي رحمه الله . وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة تدل على قيام الإشارة مقام الكلام في أشياء متعددة ، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث

ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رمضان فضرب بيده فقال :

(198/484)

« الشهر هكذا وهكذا وهكذا » ، – ثم عقد إبهامه في الثالثة – « فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن أغمي عليكم فاقدروا له ثلاثين » هذا لفظ مسلم في صحيحه وهو صريح في أنه صلى الله عليه وسلم نزل إشارته بأصابعه غلى أن الشهر قد يكن تسعة وعشرين يوماً ، وقد يكون ثلاثين – منزلة نطقة بذلك . وقال النووي في شرح مسلم في الكلام على هذا الحديث : وفي هذا الحديث جواز اعتماد الإشارة المفهمة في مثل هذا . وحديث ابن عمر هذا اورده البخاري في باب (اللعان) مستدلاً به على أن الإشارة كالفظ . وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه أحاديث كثيرة تدل على جعل الإشارة كالنطق ، قال رحمه اللع تعالى : ﴿ باب الإشارة في الطلاق والأمور) وقال ابن عمر قال النَّبي صلى الله عليه وسلم إليَّ أي خُذِ النصف . وقالت أسماء : صلى النَّبي صلى الله عليه وسلم في الكسوف . فقلت لعائشة : ما شان الناس وهي تصلس ؟ فأومأت براسها إلى الشمس . فقلت : آية ؟ فأومأت براسها نعم . وقال أنس : أومأ النَّبي صلى الله عليه

وسلم بيده إلى أبي بكر أن يتقدم . وقال ابن عباس : أومأ النبي صلى الله عليه وسلم بيده لا حرج . وقال أبو قتادة : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم في الصيد للمحرم : « آحدكم آمره أن يحمل عليها » أو أشار إليها ؟ قالوا لا . قال : « فكلوا » حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا إبراهيم ، عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير ، وكان كلما اتى على الركن اشار إليه وكبر . وقالت زينب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وهذه » وعقد تسعين – حدثنا مسدد ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا سلمة بن علقمة ، عن محمد بن سرين ، عن ابي هريرة قال : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم قائم يصلي يسال الله خيراً إلا أعطاه » وقال بيده ، ووضع

(199/484)

أنملته على بطن الوسطى والخنصر . قلنا : يزهدها : وقال الأويسي : حدثنا إبراهيم بن سعد عن شعبة بن الحجاج عن هشام بن يزيد عن أنس بن مالك قال : عد يهودي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جارية فأخذ أوضحاً كانت عليها ، ورضخ

راسها . فأتى به أهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في آخر رمق وقد أصمتت .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(200/484)

« من قتلك ؟ فلان » لغير الذي قلتها ، فأشارت برأسها أن لا . قال : فقال لرجل آخر غير الذي قلتها ، فأشارت أن لا . فقال : « فلان ؟ » لقاتلها ، فأشارت أن نعم . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضخ راسه بين حجرين . حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول ؟ « الفتنة من هنا » وأشار إلى المشرق . حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا جرير بن عبد الحميد ، عن أبي إسحاق الشيباني ؟ عن عبد الله بن أبي أوهم قال : كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « فلما غربت الشمس قال لرجل ؟ » انزل فاجدح لي « قال : يا رسول الله ، لو أمسيت ؟ ثم قال . » انزل فاجدح « قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لو أمسيت إن عليك نهاراً ، ثم قال ؟ » انزل فاجدح « فنزل فجدح له في الثالثة فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أومأ بيده إلى المشرق فقال : » إذا رأيتم قد أقبل من ها هنا فقد أفطر صائم « حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا يزيد بن زريع

، عن سليمان التيمس عن أبي عثمان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ؟ قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : » لا يمنعن أحداً منكم نداء بلال « – أو قال أذانه – من سحوره ، فإنما ينادي – أو قال يؤذن – ليرجع قائمكم وليس أن يقول كأنه يعني الصبح أو الفجر ، واظهر يزيد يديه ثم مد إحداهما من الأخرى . وقال الليث : حدثني جعفر بن ربيعة عنعبد الرحمن بن هرمز ، سمعت أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثدييهما إلى تراقيهما . فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا مادت على جلده حتى تجن بنانه وعفو أثره . وأما البخيل فلا يريد ينفق إلا لزمت كل حلقة موضعها ، فهو يوسعها فلا تتسع « ويشير باصبعه إل حلقه . انتهى من صحيح البخاري .

(201/484)

فهذه أحاديث دالة ، على قيام الإشارة مقام النطق في أمور متعددة . وقال ابن حجر في الفتح في هذا الباب : ذكر فيه عدة أحاديث معلقة وموصولة أولها قوله : قال ابن عمر : هو طرف من حديث تقدم موصولاً في الجنائز ، وفيه قصة لسعد بن عبادة ، وفيها : » ولكن الله يعذب بهذا « وأشار إلى لسانهز ثانيها – وقال كعب بن مالك ؟ هو أيضاً طرف من

حديث تقدم موصولاً في الملازمة ؟ وفيها وأشار إل أن خذ النصف . ثالثها – » وقالت أسماء « هي بنت أبي بكر .

(202/484)

صلَّى النَّبي صلى الله عليه وسلم في الكسوف . الحديث تقدم موصولاً في كتاب الإيمان بلفظ « فاشارت إلى السماء ، وفيه . فأشارت برأسها أي نعم . وفي صلاة الكسوف بمعناه . وفي صلاة السهو باختصار – إلى آخر كلامه . وبالجملة فجميع الأحاديث التي ذكرها البخاري في الباب المذكور كلها ثابتة في الصحيح موصولة . اما ما جاء منها موصولاً في الباب المذكور فأمره واضح . وأما ما جاء منها معلقاً في الباب المذكور فقد جاء موصولاً في محل آخر من البخاري .

والحديث الأول – دل على أن النّبي صلى الله عليه وسلم جلع إشارته إلى اللسان أن الله يعذب به كمطقه بذلك .

والحديث الثاني – جعل فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم إشارته غلى كعب بن مالك أن يسقط نصف ديته عن ابن أبي حدرد ويأخذ النصف الباقي منه كنطقه بذلك .

والحديث الثالث – جعلت فيه عائشة إشارتها لأختها أن الكسوف آية من آيات الله هي

السبب في صلاة النَّبي صلى الله لعيه وسلم ، كنطقها بذلك .

والحديث الرابع – جعل فيه النبي صلى الله عليه وسلم إشارته إلى أبي بكر رضي الله عنه أن يتقدم كنطقه له بذلك . وإيضاح ذلك هو ما رواه البخاري عن انس في باب (أهل العلم والفضل أحق بالإمامة) .

(203/484)

قال أنس : لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، فأقيمت الصلاة فذهب أبو بكر يتقدم . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم بالحجاب فرفعه فلما وضح وحه النبي صلى الله عليه وسلم ما نظرنا منظراً كان أعجب إلينا من وجه النبي صلى الله عليه وسلم حين وضح لنا . فأومأ النبي صلى الله عليه ويلم بيده إلى أبي بكر أن يتقدم : وأرخى النبي صلى الله عليه وسلم الحجاب فلم يقدر عليه حتى مات اه . هذا لفظ البخاري وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث في مرض موته وقبل وفاته صلى الله عليه وسلم بقليل إشارته إلى أبي بكر ان يتقدم ليصلي بالناس كنطقه له بذلك . لأن أبا بكر رضي الله عنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم كشف الحجاب نكص على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي صلى الله عليه وسلم خارج إلى الصلاة كما ثبت في صحيح البخاري في الباب

المذكور آنفاً من حديث أنس ، فأشار إليه أن يتقدم ، وقامت الإشارة مقام النطق .

والحديث الخامس – جعل فيه النبي صلى الله عليه وسلم الفتيا بإشارة كالفتيا بالنطق .

وأيضاحه هو ما رواه البخاري في كتاب العلم (في باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس) حدثنا موسى بن إسماعيل ، قال حدثنا وهيب . قال حدثنا أيوب ، عن عكرمة عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل في حجته فقال : » ذبحت قبل أن أرمي فأومأ بيده قال : ولا حرج ، قال حلقت قبل أن أذبح .

(204/484)

فأومأ بيده ولا حرج « . ومن امثله الفتيا بإشارة اليد ما رواه البخاري في هذا الباب المذكور آنفاً من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : » يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ، ويكثر الهرج « قيل : يا رسول الله ، وما الهرج ! فقال : » هكذا « بيده فحرفها كأنه يريد القتل اه فجعل صلى الله عليه وسلم إشارته بيده كنطقع : بأن المراد بالهرج القتل .

والحديث السادس – جعل فيه النبي صلى الله عليه وسلم المحرم إلى الصيد لينبه إليه المحل كأمره له باصطياده بالنطق ، وقد قدمنا هذا الحديث في سورة » المائدة « .

والحديث السابع – جعل فيه النبي صلى الله عليه وسلم الإشارة إلى الركن في طوافه كاستلامه وتقبيله بالفعل .

والحديث الثامن – جعل فيه النبي صلى الله عليه وسلم إشارته باصبعه كعقد التسعين . لبيان القدر الذي فتح من ردم يأجوج ومأجوج كالنطق بذلك .

والحديث التاسع – فيه أنه جعل وضع أنملته على بطن الوسطى والخنصر . مشيراً بذلك لقله زمن الساعة التي يجاب فيها الدعاء بالخير يوم الجمعة . أو مشيراً بذلك لوقتها عند من قال : إن وضع الأنملة في وسط الكف يراد به الإشارة إلى أن ساعة الجمعة في وسط يوم الجمعة . ووضعها على الخنصر يراد به انها في آخر النهار ، لأن الخنصر آخر أصابع الكف كالنطق بذلك . وذكر ابن حجر عن بعض أهل العلم . أن هذا الإشارة باليد لساعة الجمعة من فعل بشر بن المفضل رواي الحديث عن سلمة بن علقمة كما تقدم في إسناد الحديث . وعليه ففي سياق هذا الحديث عند البخاري إدراج .

(205/484)

والحديث العاشر – جعل فيه النبي صلى الله عليه وسلم إشارة الجارية التي قتلها اليهودي كنطقها بأن اليهودي قتلها ، وأن من سمَّى لها غيره لم يكن هو الذي قتلها . وقد قدمنا هذا

الحديث في سورة » بني إسرائيل « وبينا هنالك أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان جعل إشارة الجارية كنطقها لم يقتل اليهودي بإشارة الجارية القائمة مقام نطقها بمن قتلها ، ولكنه اعترف بأنه قتلها فثبت عليه القتل باعترافه واقتص لها منه بذلك .

والحديث الحادي عشر – فيه أنه صلى الله عليه وسلم قال : » الفتنة من هنا « واشار إلى المشرق ، فجعل إشارته إلى المشرق كنقطه بذلك .

والحديث الثاني عشر – فيه أنه صلى الله عليه وسلم أومأ إلى المشرق فقال : » إذا رايتم الليل قد أقبل من ها هنا فقد افطر الصائم « فجعل إشارته بيده إلى المشرق كنطقه بلفظ المشرق .

والحديث الثالث عشر – جعل فيه الإشارة باليد غلى الفرق بين الفجر الكاذب والفجر لصادق بذلك .

(206/484)

والحديث الرابع عشر – قال فيه صلى الله عليه وسلم : « فهو يوسعها ولا تتسع » ويشير باصبعه إلى حلقه ، فجعل إشارته إلى أن درع الحديد المضروب بها المثل للبخيل ثابتة على حلقة لا تنزل عنه ولا تستر عورته ولا بدنه كالنطق بذلك .

فهذه أربعة عشر حديثاً أوردها البخاري رحمه الله في الباب المذكور ، وسقناها هنا ، وبينا وجه الدلالة على أن الإشارة كالنطق في كل واحد منها ، مع ما قدمنا من الأحدايث الدالة على ذلك زيادة على ما ذكره البخاري هنا .

وقد ذكر البخاري رحمه الله في أول باب (اللعان) خمسة أحاديث أيضاً كل واحد منها فيه الدلالة على أن الإشارة كالنطق ولم نذكرها هنا لأن فيما ذكرنا كفاية .

وقال ابن حجر في (الفتح) في آخر كالمه على احاديق الباب المذكورة . قال ابن بطالك ذهب الجمهور إلى أن الإشارة المفهمة تنزل منزلة النطق . وخالفه الحنفية في بعض ذلك .

ولعل البخاري ردَّ عليهم بهذه الأحاديث التي جعل فيها النبي صلى الله عليه وسلم الإشارة قائمة مقام النطق . وإذا جازت الإشارة في احكام مختلفة في الديانة فهي لمن لا يمكنه النطق أجوز .

وقال ابن المنير : أراد البخاري أن الإشارة بالطلاق وغيه من الأخرس وغيره التي يفهم منها الأصل والعدد نافذة كاللفظ اهـ – ويظهر لي أن البخاري اورد هذه الترجمة واحاديثها توطئة لما يذكره من البحث في الباب الذي يليه ، مع من فرق بين لعان الأخرس ، وطلاقه ، والله أعلم .

(207/484)

فهذه الأحاديث وأمثالها هي حجة من قال : إن الإشارة المفهمة تقوم مقام اللفظ . واحتج من قال : بأن الإشارة ليست كاللفظ بأن القرآن العظيم دل على ذلك ، وذلك في قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها : ﴿ فقولي إنّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إنسِيّاً ﴾ فإن في هذه الآية التصريح بنذرها الإمساك عن كلام كل إنسي ، مع أنه تعالى قال : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [مريم : 29] أي اشارت لهم إليه أن كلموه يخبركم بحقيقة الأمره فهذه إشارة مفهمة ، وقد فهمها قومها فأجابوها جواباً مطابقاً لفهمهم ما أشارب به : ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] ، وهذه الإشارة المفهمة لو كانت كالنطق لأفسدت نذر مريم ألا تلكم إنسياً . فالآية صريحة في أنا لكلام باللفظ يخل بنذرها ، وأن الإشارة ليست كذلك ، فقد جاء الفرق صريحاً في القرآن بين اللفظ والإشارة ، وكذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ [آل عمران : 41] فإن اله جعل له آية على ما بُشر به وهي منعه من الكلام ، مع أنه لم يمنعمن الإشارة بدليل قوله : ﴿ إلا رمزاً ﴾ ، وقوله : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ ﴾ [مريم : 11] الآية . فدل ذلك على أن الإشارة ليست كالكلام ، لأن استثناءه تعالى قوله ﴿ إلا رمزاً ﴾ من قوله ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ﴾ يفهم منه أن الرمز الذي هو الإشارة نوع من جنس الكلام استثنى منه ، لأن الأصل في الاستثناء الاتصال .

والله تعالى أعلم .

فإذا علمت أدلة الفريقين في الإشارة ، هل هي كاللفظ أو لا – فاعلم أن العلماء مختلفون في الإشارة المفهمة ، هل تنزل منزلة اللفظ أو لا . وسنذكر هنا إن شار الله تعالى جملاً من أقوال أهل العلم في ذلك ، وما يظهر رجحانه بالدليل .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في (فتح الباري) في آخر « باب الإشارة في الطلاق والأمور » ما نصه : وقد اختلف العلماء في الإشارة المفهمة . فأما في حقوق الله فقالوا : يكفي ولو من القادر على النطق . وأما في حقوق الآدميين كالعقود والإقرار والوصية ونحو ذلك فاختلف العلماء فيمن اعتقل لسانه . ثالثها عن أبي حنيفة إن كان مأيوساً من نطقه . وعن بعض الحنابلة إن اتصل بالموت ، ورجحه الطحاوي . وعة الأوزاعي إن سبقه كلام ، ونقل عن مكحول إن قال : فلان حر ثم أصمت فقيل له : وفلاة ؟ فأومأ صح . وأما القادر على النطق فلا تقوم إشارته مقام نطقه عند الأكثرين واختلف هل يقوم منه مقام النية ، كما لو طلق امرأته فقيل له : كم طلقه ؟ فأشار بأصبعه – أنتهى .

وقال البخاري في أول (باب اللعان) ما نصه : فإذا قذف الأخرس امرأته بكتابة أو إشارة أوإيماء معروف فهو كالمتكلم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أجاز الإشارة في الفرائض . وهو قول بعض أهل الحجاز وأهل العلم ، وقال تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] . وقال الضحاك : ﴿ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ [آل عمران : 41] إشارة . وقال بعض الناس : لا حد ولا لعان . ثم زعم أنه إن الطلاق بكتابة أو إشارة أو أيماء جاز وليس بين الطلاق والقذف فرق ، فإن قال : القذف لا يكون إلا بكلام قيل له : كذلك الطلاق لا يكون إلا بكلام وإلا بطل الطلاق والقذف وكذلك العتق . وكذلك الأصم يلاعن . وقال الشعبي وقتادة : إذا قال أنت طالق – فأشار بأصابعه – تنبين منه بإشارته . وقال إبراهيم : الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه . وقال حماد : الأخرس والأصم إن قال براسه جاز : انتهى محل الغرض من كلام البخاري رحمه الله .

ومذاهب الأئمة الأربعة متقاربة في هذه المسالة ، وبينهم اختلاف في بعض فروعها .

فمذهب مالك رحمه الله : أن الإشارة المفهمة تقوم مقام النطق . قال خليل بن إسحاق في مختصره ، الذي قال في ترجمته مبيناً لما به الفتوى – يعني في مذهب مالك – الكلام على

الصيغة التي يحصل بها الطلاق . ولزم بالإشارة المفهمة . يعني أن الطلاق يلزم بالإشارة أو بكتاب من طلق أو خلع أو عتق أو نكاح . أو بيع أو شراء أو قذف لزمه حكم المتكلم .

(210/484)

وروى الباجي . إشارة السليم بالطالق برأسه أو بيده كلفظه ، لقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ الناس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً ﴾ [آل عمران : 41] اه منه . ورواية الباجي هذه عليها أهل المذهب . ومذهب أب حنيفة رحمه الله : أن إشارة الأخرس تقوم مقام كلام الناطق في تصرفاته ، كإعتاقه وطلاقه ، وبيعه وشرائه ، ونحو ذلك . أما السليم فلا تقبل عنده إشارته لقدرته على النطق . وإشارة الأخرس بقذف زوجته لا يلزم عنده فيها حد ولا لعان . لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وعدم التصريح شبهة عنده . لأن الإشارة قد يفهم ما لا يقصد المشير . ولأن أيمان اللعان لها صيغ لا بد منها ولا تحصل بالإشارة وكذلك عنده إذا كانت الزوجة المقذوفة خرساء فلا حد ولا لعان عنده . لاحتمال أنها لو نطقت لصدقته ، ولأنها لا يمكنها الإتيان بألفاظ الأيمان المنصوصة في آية اللعان . وكذلك عنده القذف لا يصح من الأخرس . لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وقال بعض العلماء من الحنفية : إن القياس منع اعتبار إشارة الأخرس ، لأنها لا تفهم

كالنطق في الجميع ، وأنهم أجازوا العمل بإشارة الأخرس في غير اللعان والقذف على سبيل الاستحسان ، والقياس المنع مطلقاً . ومذهب الشافعي في هذه المسألة اعتبار إشارة الأخرس في اللعان وغيره . وعدم اعتبار إشارة السليم .

وأما مذهب الإمام أحمد – فظاهر كلام أحمد رحمه الله تعالى أنه لا لعان إن كان أحد الزوجين أخرس ، كما قدمنا توجيهه في مذهب أبي حنيفة . وقال القاضي وأبو الخطاب : إن فهمت إشارة الأخرس فهو كالناطق في قذفه ولعانه . وأما طلاق الأخرس ونكاحه وشبه ذلك فالإشارة كالنطق في مذهب الإمام أحمد . وأما السليم – فلا تقبل عنده إشارته بالطلاق ونحوه .

هذا حاصل كلام الأئمة ويرهمن فقهاء الأمصار في هذه المسالة . وقد رأيت ما جاء فيها من أدلة الكتاب والسنة .

(211/484)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر رجحانه في المسألة : إن الإشارة إن دلت على المعنى دلالة واضحة لا شك في المقصود معها أنها تقوم مقام النطق مطلقاً ، ما لم تكن في خصوص اللفظ أهمية مقصودة من قبل الشارع ، فإن كانت فيه فلا تقوم الإشارة مقامه

كأيمان اللعان ، فإن الله نص عليها بصورة معينة . فالظاهر أن الإشارة لا تقوم مقامها وكجميع الألفاظ المتعبد بها فلا تكفي فيها الإشارة ، والله جل وعلا أعلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي إمساكاً عن الكلام في قول الجمهور . والصوم في اللغة : الإمساك ، ومنه قول نابغة ذبيان .

خيل صيام وخيل غير صائمة . . . تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

فقوله : « خيل صيام » اي ممسكة عن الجري . وقيل عن العلف ، « وخيل غير صائمة » اي غير ممسكة عما ذكر وقول امرىء القيس .

كأن الثريا علقت في مصامها . . . بأمراس كتان إلى صم جندل

(212/484)

فقوله : « في مصامها » أي مكان صومها ، يعنى إمساكها عن الحركة . وهذا القول الصحيح في معنى الآية . أن المراد بالصوم الإمساك عن الكلام ، بدليل قوله بعده ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ وهو قول أكثر أهل العلم . وقال ابن حجر (في الفتح في باب اللعان) . وقد ثبت من حديث أبي كعب وأنس بن مالك : أن معنى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي صمتاً . أخرجه الطبراني وغيره اه . وقال بعض العلماء : المراد

بالصوم في الآية : هو الصوم الشرعي المعروف المذكور في قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 183] . وعليه فالمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم حرم عليهم الكلام كما يحرم عليهم الطعام ، والصواب في معنى الآية الأول . وعليه فهذا النذر ولا يجب الوفاء به . قال البخاري في صحيحه : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا وهيب ، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : بينا النبي يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم . « مره فليتكلم ، وليستظل وليقعد وليتم صومه » قال عبد الوهاب : حدثنا أيوب عن عكرمة عن النبي صلى الله عليه وسلم اه .

(213/484)

وقال ابن حجر « في الفتح » في الكلام على هذا الحديث وفي حديثه أن السكوت عن المباح ليس من طاعة الله : وقد أخرج أبو داود من حديث علي « ولا صمت يوم إلى الليل » وتقدم في السيرة النبوية قول أبي بكر الصديق إن هذا « يعني الصمت » من فعل الجاهلية ، وفيه : أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو ما آلاما لم يرد بمشروعيَّته كتاب أو سنة ، كالمشي

حافياً ن والجلوس في الشمي ليس هو من طاعة الله ، فلا ينعقد به النذر ، فإنه صلى الله عليه وسلم أمر أبا إسرائيل بإتمام الصوم دون غيره . وهو محمول على أنه علم أنه لا يشق عليه . وأمره أن ينعقد ويتكلم ويستظل . قال القرطبي : في قصة أبي إسرائيل هذه أوضح الحجج للجمهور في عدم وجوب الكفارة على من نذر معصية ، أو ما لا طاعة فيه . قال مالك لما ذكره : ولم اسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالكفارة . انتهى كلام صاحب (فتح الباري) . وقد قال الزمخشري في تفسير هذه الآية التي نحن بصددها : وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت . فقال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) : لم أره هكذا . وأخرج عبد الرزاق من حديث جاب بلفظ « لا صمت يوم إلى الليل » وفيه حزام بن عثمان وهو ضعيف . ولأبي داود من حديث علي مثله ، وقد تقدم في تفسير سورة « النساء » .

(214/484)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ ﴾ معناه فإن تري من البشر أحداً . فلفظه « إما » مركبة نم « إن » الشرطية و « ما » المزيدة لتوكيد الشرط . والأصل ترأيين على وزن تفعلين ، تحركت الياء التي هي لام الكلمة وانفتح ما قبلها وجب قلبها ألفاً فصارت

ترآين ، فحذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى الراء . لأن اللغة الفصحى التي هي الأغلب في كلام العرب حذف همزة رأى في المضارع والأمر ، ونقل حركتها إلى الراء فصارت ترايين فالتقى الساكنان فحذف الأول وهو الألف ، فصار ترين فدخلت عليه نون التوكيد الثقيلة فحذفت نون الرفع من أجلها هي ، والجازم الذي هو إن الشرطية ، لأن كل واحد منهما بانفراده يوجب حذف نون الرفع ، فصار ترين ، فالتقى ساكنان هما الياء الساكنة والنون الأولى الساكنة من نون التوكيد المثقلة ، لأن كل حرف مشدد فهو حرفان ، فحركت الياء بحركة تناسبها وهي الكسرة فصارت ترين ، كما أشار إلى هذا ابن مالك في الخلاصة بقوله :

واحذفه من رافع هاتين وفي . . . واو ويا شكل مجالس قفي

نحو اخشين يا هند بالكسر ويا . . . قوم اخشون واضمم وقس مسويا

وما ذكرنا من أن همزة « رأى » تحذف في المضارع والأمر هو القياس المطرد في كلام العرب وبقاؤها على الأصل مسموع ، ومنه قول سراقة بن مرداس البارقي الأصغر :

أرى عيني ما لم ترأياه . . . كلانا عالم بالترهات

وقول الأعلم بن جرادة السعدي ، أو شاعر من تيم الرباب :

ألم ترأ ما لاقيت والدهر أعصر . . . ومن يتمل العيش يرأ ويسمع

وقول الآخر :

أحن إذا رأيت جبال نجد . . . ولا أرأى غلى نجد سبيلا

(215/484)

ونون التوكيد في العمل المضارع بعد « إما » لازمة عند بعض علماء العربية . وممن قال بلزومها بعد « إما » كقوله هنا ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ : المبرّد والزجاج.

ومذهب سيبويه والفارسي وجماعة أن نون التوكيد في الفعل المضارع بعد « إما » غير لازمة ، ويدل له كثرة وروده في شعر العرب ، كقول الأعشى ميمون بن قيس :

فإما تريني ولي لمة . . . فإن الحوادث اردى بها

وقول لبيد بن ربيعة :

فإما تريني اليوم أصبحت سالماً . . . فلست بأحيا من كلاب وجعفر

وقول الشنفرى :

فإما تريني كابنة الرجل ضاحياً . . . على رقة أحفى ولا أتنعل

وقول الأفواه الأودي :

إما ترى راسي أزر به . . . ماس زمان ذي انتكاس مؤس

وقول الآخر :

زعمت تماضر أنني إما أمت . . . يسدد أبينوها الأصاغر خلتي

وقول الآخر :

يا صاح إما تجدني غير ذي جدة . . . فما التخلي عن الخلان من شيمي

وأمثال هذا كثيرة في شعر العرب . والمبرد والزجاج يقولان : إن حذف النون في الأبيان المذكورة ونحوها إنما هو لضرورة الشعر . ومن خالفهم كسيبويه والفارسش يمنعون كون للضرورة ، ويقولون : إنه جائز مطلقاً . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(216/484)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) ﴾

الفاء للتفريع والتعقيب ، أي فحملت بالغلام في فور تلك المراجعة .

والحمل : العلوق ، يقال : حملت المرأة ولداً ، وهو الأصل ، قال تعالى : ﴿ حملته أمه كرهاً ﴾ [الأحقاف : 15] .

ويقال : حملت به .

وكأن الباء لتأكيد اللصوق ، مثلها في ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

قال أبو كبير الهذلي:

حملت به في ليلة قرءودة . . .

كرهاً وعقد نطاقها لم يُحلَل

والانتباذ تقدم قريباً ، وكذلك انتصاب ﴿ مكاناً ﴾ تقدم .

و ﴿ قَصِيّاً ﴾ بعيداً ، أي بعيداً عن مكان أهلها .

قيل : خرجت إلى البلاد المصرية فارّة من قومها أن يعزّروها وأعانها خطيبها يوسف النجّار وأنها ولدت عيسى عليه السلام في الأرض المصرية .

ولا يصح .

وفي إنجيل لوقا : أنها ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهودية حين صعدت إليها مع خطيبها يوسف النجار إذ كان مطلوباً للحضور بقرية أهله لأن ملك البِلاد يجري إحصاء سكان البلاد ، وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ فأتت به قومَها تحمله ﴾ [مريم : 27] .

والفاء في قوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ ﴾ للتعقيب العُرفي ، أي جاءها المخاض بعد تمام مدة الحمل ، قيل بعد ثمانية أشهر من حملها .

و ﴿ أجَاءها معناه أَلْجأها ، وأصله جاء ، عدي بالهمزة فقيل : أجاءه ، أي جعله

جائياً .

ثم أطلق مجازاً على إلجاء شيء شيئاً إلى شيء ، كأنه يجيء به إلى ذلك الشيء ، ويضطره إلى المجيء إليه .

قال الفراء : أصله من جئتُ وقد جعلته العرب إلْجاء .

وفي المثل شرّ ما يُجيئك إلى مُخّة عرْقُوب .

وقال زهير:

وجارٍ سارَ معتمداً إلينا . . .

أجَاءته المخافةُ والرجاء

والمَخاص بفتح الميم : ﴿ طَلق الحامل ، وهو تحرك الجنين للخروج .

والجذع بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة : العود الأصلي للنخلة الذي يتفرع منه الجريد .

وهو ما بين العروق والأغصان ، أي إلى أصل نخلة استندت إليه .

(217/484)

وجملة ﴿ قَالَتْ ﴾ استئناف بياني ، لأن السامع يتشوف إلى معرفة حالها عند إبان وضع حملها بعد ما كان أمرها مستتراً غير مكشوف بين الناس وقد آن أن ينكشف ، فيجاب السامع بأنها تمنت الموت قبل ذلك ؛ فهي في حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيها .

وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقي البلوى التي ابتلاها الله تعالى فلذلك كانت في مقام الصديقية .

والمشار إليه في قولها ﴿ قبل هذا ﴾ هو الحمل .

أرادتْ أن لا يُتطرق عِرضها بطعن ولا تجرّ على أهلها معرة .

ولم تتمن أن تكون ماتت بعد بدوّ الحمل لأن الموت حينئذ لا يدفع الطعن في عرضها بعد موتها ولا المعرة على أهلها إذ يشاهد أهلها بطنها بحملها وهي ميتة فتطرقها القالة .

وقرأ الجمهور ﴿ مِتّ بكسر الميم للوجه الذي تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم ﴾ في سورة آل عمران (157) .

وقرأه ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وأبو جعفر بضم الميم على الأصل .

وهما لغتان في فعل مات إذا اتّصل به ضمير رفع متصل .

والنِسْيُ بكسر النون وسكون السين ﴾ في قراءة الجمهور : الشيء الحقير الذي شأنه أن يُنسى ، ووزن فِعْل يأتي بمعنى اسم المفعول بقيْد تهيئته لتعلّق الفعل به دون تعلق حصل .

وذلك مثل الذبح في قوله تعالى : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ [الصافات : 107] ، أي كبش عظيم معدّ لأن يذبح ، فلا يقال للكبش ذبح إلا إذا أعد للذبح ، ولا يقال للمذبوح ذبح بل ذَبيح .

والعرب تسمي الأشياء التي يغلب إهمالها أَنْسَاءً ، ويقولون عند الارتحال : انظروا أنساءكم ، أي الأشياء التي شأنكم أن تَنْسَوها .

ووصف النسي بمنسي مبالغة في نسيان ذكرها ، أي ليتني كنت شيئاً غير متذكّر وقد نسيه أهله وتركوه فلا يلتفتون إلى ما يحل به ، فهي تمنت الموت وانقطاع ذكرها بين أهلها من قبل ذلك .

وقرأه حمزة ، وحفص ، وخلف ﴿ نَسْياً بفتح النون وهو لغة في النِّسي ، كالوتر والوتر ، والجسر والجسر .

(218/484)

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)

ضمير الرفع المستتر في (ناداها) عائد إلى ما عاد عليه الضمير الغائب في ﴿ فحملته ﴾ [مريم : 22] ، أي : ناداها المولود .

قرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، وأبو جعفر ، وخلف ، وروح عن يعقوب ﴿ مِنْ تَحتها ﴾ بكسر ميم (من) على أنها حرف ابتداء متعلّق بـ (ناداها) وبجر ﴿ تَحتها ﴾ .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، ورويس عن يعقوب ﴿ مَنْ بفتح الميم على أنها اسم موصول ، وفتح تَحْتَهَا ﴾ على أنه ظرف جعل صلة ، والمعني بالموصول هو الغلام الذي تحتها .

وهذا إرهاص لعيسى وكرامة لأمّه عليهما السلام .

وقَيْدُ ﴿ من تحتها ﴾ لتحقيق ذلك ، ولإفادة أنه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه مبادرة للتسلية والبشارة وتصويراً لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتّصال الصبي بأمه .

و ﴿ أنَّ من قوله ألاَّ تَحْزَني ﴾ تفسيرية لفعل (ناداها) .

وجملة ﴿ قَدْ جَعلَ رَبُّكِ تحتك سَرِيّاً ﴾ خبر مراد به التعليل لجملة ﴿ ألاَّ تحزني ﴾ ، أي أن حالتك حالة جديرة بالمسرة دون الحزن لما فيها من الكرامة الإلهية .

السرّي : الجدول من الماء كالساقية ، كثير الماء الجاري .

وهبَها الله طعاماً طيّباً وشراباً طيّباً كرامة لها يشهدها كل من يراها ، وكان معها خطيبها يوسف النجار ، ومن عسى أن يشهدها فيكون شاهداً بعصمتها وبراءتها مما يظن بها .

فأما الماء فلأنه لم يكن الشأن أن تأوي إلى مجرى ماء لتضع عنده .

وأما الرُطب فقيل كان الوقت شتاء ، ولم يكن إبان رطب وكان جذع النخلة جذع نخلة ميتة فسقوط الرطب منها خارق للعادة .

وإنما أعطيت رُطباً دون التمر لأنّ الرطب أشهى للنفس إذ هو كالفاكهة وأما التمر فغذاء .

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) ﴾

(219/484)

فائدة قوله ﴿ وَهُزِي إِلَيْكِكِ بِجِذْعِ النخلةوهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تساقط عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِى ﴾ أن يكون إثمار الجذع اليابس رُطباً ببركة تحريكها إياه ، وتلك كرامة أخرى لها .

ولتشاهد بعينها كيف يُثمر الجذع اليابس رطباً .

وفي ذلك كرامة لها بقوّة يقينها بمرتبتها .

والباء في ﴿ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ لتوكيد لصوق الفعل بمفعوله مثل ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] وقوله ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] .

وضمن ﴿ وَهُزِي ﴾ معنى قَرّبي أو أدني ، فعُدي بـ (إلى) ، أي حرّكي جذع النخلة وقرّبيه يَدْنُ إليك ويَلِنْ بعد اليبس ويُسقط عليك رطباً .

والمعنى : أدني إلى نفسك جِذع النخلة .

فكان فاعل الفعل ومتعلقه متحداً ، وكلاهما ضميرُ معادٍ واحد ، ولا ضير في ذلك لصحة المعنى وورود أمثاله في الاستعمال نحو ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ [القصص : 32] .

فالضامّ والمضموم إليه واحد .

وإنما منَع النحاة أن يكون الفاعل والمفعول ضميري معاد واحد إلاّ في أفعال القلوب ، وفي فعلي : عَدِم وفَقَد ، لعدم سماع ذلك ، لا لفساد المعنى ، فلا يقاس على ذلك منع غيره .

والرطب : تمر لم يتم جفافه .

والجَنيّ : فعيل بمعنى مفعول ، أي مجتنى ، وهو كناية عن حَدثان سقوطه ، أي عن طراوته ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل لأن الرطب متى كان أقرب عهداً بنخلته كان أطيب طعماً .

و﴿ تَسَّاقط ﴾ قرأه الجمهور بفتح التاء وتشديد السين أصله تتساقط بتاءين أدغمت التاء الثانية في السين ليتأتى التخفيف بالإدغام .

وقرأه حمزة بتخفيف السين على حذف إحدى التاءين للتخفيف .

و﴿ رُطَباً ﴾ على هاته القراءات تمييز لنسبة التساقط إلى النخلة .

وقرأه حفص بضم التاء وكسر السين على أنه مضارع سَاقَطَت النخلة تمرَها ، مبالغة في أسقطت و ﴿ رُطَباً ﴾ مفعول به .

(220/484)

وقرأه يعقوب بياء تحتية مفتوحة وفتح القاف وتشديد السين فيكون الضمير المستتر عائداً إلى ﴿ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ .

وجملة ﴿ فَكُلِي ﴾ وما بعدها فذلكة للجمل التي قبلها من قوله ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ، ﴾ أي فأنت في بحبوحة عيش .

وقرّة العين : كناية عن السرور بطريق المضادة ، لقولهم : سَخِنت عينه إذا كثر بكاؤه ، فالكناية بضد ذلك عن السرور كناية بأربع مراتب .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ﴾ [القصص : 9] .

وقرّة العين تشمل هناء العيش وتشمل الأنس بالطفل المولود .

وفي كونه قرّة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه .

وفتح القاف في ﴿ وقَرّي عيناً ﴾ لأنه مضارع قررت عينه من باب رضي ، أدغم فنقلت حركة عين الكلمة إلى فائها في المضارع لأن الفاء ساكنة .

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً فقولى إِنِّى نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ .

هذا من بقية ما ناداها به عيسى ، وهو وحي من الله إلى مريم أجراه على لسان الطفل ، تلقيناً من الله لمريم وإرشاداً لقطع المراجعة مع من يريدُ مجادلتها ، فعلّمها أن تنذر صوماً يقارنه انقطاع عن الكلام ، فتكون في عبادة وتستريح من سؤال السائلين ومجادلة الجهلة .

وكان الانقطاع عن الكلام من ضروب العبادة في بعض الشرائع السالفة ، وقد اقتبسه العرب في الجاهلية كما دلّ عليه حديث المرأة من أحمس التي حجّت مُصمتة .

ونسخ في شريعة الإسلام بالسنة ، ففي "الموطأ" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال : ما بال هذا ؟ فقالوا : نذر أن لا يتكلم ولا يستظل من الشمس ولا يجلسَ ويصوم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليُتم صيامه "

وكان هذا الرجل يدعَى أبا إسرائيل .

وروي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه دخل على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم ، فقال لها : "إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمي" .

(221/484)

وفي الحديث أن امرأة من أحْمَسَ حجّت مُصمتة ، أي لا تتكلّم .

فالصمت كان عبادة في شرع من قبلنا وليس هو بشرع لنا لأنه نسخه الإسلام بقول النبي صلى الله عليه وسلم "مروه فليتكلّم" ، وعملِ أصحابه .

وقد دلّت الآثار الواردة في هذه على أشياء :

الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوجب الوفاء بالنذر في مثل هذا ، فدلّ على أنه غير قربة .

الثاني : أنه لم يأمر فيه بكفارة شأن النذر الذي يتعذر الوفاء به أو الذي لم يسم له عمل معيّن كقوله : عليّ نذر .

وفي "الموطأ" عقب ذكر الحديث المذكور قال مالك : ولم يأمره بكفارة ولو كانت فيه كفارة لأمره بها فدلّ ذلك على أنه عمل لا اعتداد به بوجه .

الثالث : أنه أومأ إلى علّة عدم انعقاد النذر به بقوله : "إن الله عن تعذيب هذا نفسَه لغنيّ" .

فعلمنا من ذلك أنّ معنى العبادة أن تكون قولاً أو فعلاً يشتمل على معنى يكسب النفس تزكية ويبلغ بها إلى غاية محمودة مثل الصوم والحج ، فيُحتمل ما فيها من المشقة لأجل الغاية السامية ، وليست العبادة بانتقام من الله لعبده ولا تعذيب له كما كان أهل الضلال يتقربون بتعذيب نفوسهم ، وكما شرع في بعض الأديان التعذيب القليل لخضد جلافتهم .

وفي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم

لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ [الحج : 36 37] ، لأنهم كانوا يحسبون أن القربة إلى الله في الهدايا أن يريقوا دماءها ويتركوا لحومها ملقاة للعوافي .

وفي "البخاري" : عن أنس "أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شيخاً يُهادَى بين ابنيه فقال : ما بال هذا ؟ قالوا : نذر أن يمشي .

قال : إن الله عن تعذيب هذا نفسَه لغنيّ .

وأمره أن يركب" ، فلم ير له في المشي في الطواف قربة .

(222/484)

وفيه عن ابن عباس : "أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ وهو يطوف بالكعبة بإنسان رَبط يده إلى إنسان بِسِيَرٍ أو بخيط أو بشيء غير ذلك ، فقطعه النبي بيده ثم قال : قده بيده" .

وفي "مسند أحمد" عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاصي : "أن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك رجلين وهما مقترنان .

فقال : ما بالهما ؟ قالا : إنّا نذرنا لنقترنن حتى نأتي الكعبة ، فقال : أطلقا أنفُسكما ليس هذا نذراً إنما النذر ما يبتغى به وجه الله" وقال : إسناده حسن .

الرابع : أنّ الراوي لبعض هذه الآثار رواها بلفظ : نهى رسول الله عن ذلك ، ولذلك قال مالك في "الموطأ" عقب حديث الرجل الذي نذر أن لا يستظل ولا يتكلم ولا يجلس : "قال مالك : قد أمره رسول الله أن يتمّ ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية" .

ووجه كونه معصية أنه جراءة على الله بأن يعبده بما لم يشرع له ولو لم يكن فيه حَرَج على النفس كنذر صمت ساعة ، وأنه تعذيب للنفس التي كرّمها الله تعالى من التعذيب بوجوه التعذيب إلا لعمل اعتبره الإسلام مصلحة للمرء في خاصته أو للأمة أو لدرْء مفسدة مثل القصاص والجَلد .

ولذلك قال : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ [النساء : 29] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إنّ دماءكم وأموالكم وأنفسكم وأبْشاركم عليكم حرام " لأن شريعة الإسلام لا تُناط شرائعها إلاّ بجلب المصالح ودَرء المفاسد .

والمأخوذ من قول مالك في هذا أنه معصية كما قاله في "الموطأ" .

ولذلك قال الشيخ أبو محمد في "الرسالة" : "ومَن نذر معصية من قتل نفس أو شرب خمر أو نحوه أو ما ليس بطاعة ولا معصية فلا شيء عليه ، وليستغفر الله" ، فقوله : "وليستغفر الله" بناء على أنه أتى بنذره مخالفاً لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عنه .

ولو فعل أحد صمتاً بدون نذر ولا قصد عبادة لم يكن حراماً إلا إذا بلغ إلى حد المشقة المضنية .

وقد بقي عند النصارى اعتبار الصمت عبادة وهم يجعلونه ترحماً على الميت أن يقفوا صامتين هنيهة .

ومعنى ﴿ فقولي إني نَذَرْت للرحمن صَوْماً ﴾ فانذري صوماً وإن لقيت من البشر أحداً فقولي : إنّي نذرت صوماً فحذفت جملة للقرينة .

وقد جعل القول المتضمن إخباراً بالنذر عبارة عن إيقاع النذر وعن الإخبار به كناية عن إيقاع النذر لتلازمهما لأن الأصل في الخبر الصدق والمطابقة للواقع مثل قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ [البقرة : 136] .

وليس المراد أنها تقول ذلك ولا تفعله لأن الله تعالى لا يأذن في الكذب إلاّ في حال الضرورة مع عدم تأتّي الصدق معها ، ولذلك جاء في الحديث : " إن في المعاريض مندوحة عن الكذب "

وأطلق القول على ما يدلّ على ما في النفس ، وهو الإيماء إلى أنها نذرت صوماً مجازاً بقرينة قوله ﴿ فلن أُكلِمَ اليَوْمَ إنْسِيّاً ﴾ .

فالمراد أن تؤدي ذلك بإشارة إلى أنها نذرت صوماً بأن تشير إشارة تدلّ على الانقطاع عن

الأكل ، وإشارةً تدل على أنها لا تتكلّم لأجل ذلك ، فإن كان الصوم في شرعهم مشروطاً بترك الكلام كما قيل فالإشارة الواحدة كافية ، وإن كان الصوم عبادة مستقلة قد يأتي بها الصائم مع ترك الكلام تشير إشارتين للدلالة على أنها نذرت الأمرين ، وقد علمت مريم أنّ الطفل الذي كلّمها هو الذي يتولى الجواب عنها حِين تُسأل بقرينة قوله تعالى:

﴿ فأشارت إليه ﴾ [مريم : 29] .

والنون في قوله ﴿ تَرَيِنَّ ﴾ نون التوكيد الشديدة اتصلت بالفعل الذي صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع لأجل حرف الشرط فحركت الياء بحركة مجانسة لها كما هو الشأن مع نون التوكيد الشديدة .

والإنْسِي : الإنسان ، والياء فيه للنسب إلى الإنس ، وهو اسم جمع إنسان ، فياء النسب لإفادة فرد من الجنس مثل : ياء حَرْسي لواحد من الحرس .

وهذا نكرة في سياق النفي يُفيد العموم ، أي لن أكلم أحداً .

(224/484)

وعدل عن أحد إلى ﴿ إنسياً ﴾ للرّعي على فاصلة الياء ، وليس ذلك احترازاً عن تكليمها الملائكة إذ لا يخطر ذلك بالبال عند المخاطبين بمن هيئت لهم هذه المقالة فالحمل عليه سماجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(225/484)

وقال الشيخ الشعراوى :

(فَحَملتْهُ) أي : حملتْ به على الحذف والإيصال ، والحمل يقتضي حاملاً ومحمولاً . ﴿ فانتبذت بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ [مريم : 22] لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة ، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة ، وهنا ﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ [مريم : 22] أي : ابتعدتْ عن القوم لما أحسَّتْ بالحمل ، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجتْ إلى مكان بعيد .

﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ [مريم : 23] الفعل جاء فلان . أي : باختياره ورِضَاه ، إنما إجاءه فلان أي جاء به رغماً عنه ودون إرادته ، فكأن المخاض هو الذي ألجأها إلى جِذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغْماً عنها ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ [مريم : 23] أي : جاء بها ، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان .

والمخاض : هو الألم الذي ينتاب المرأة قبل الولادة ، وليس هو الطَّلْق الذي يسبق نزول الجنين

.

وقوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا المخاض إلى جِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 23] أوضح لنا عِلَّة مجيئها إلى جِذْع النخلة ؛ لأن المرأة حينما يأتي وقت ولادتها تحتاج إلى ما تستند إليه ، وتتشبث به ليخفف عنها ألم الوضع ، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة ، فألجأها المخاض إذن إلى جذع (النخلة) ، وجاءت النخلة مُعرَّفة لأنها نخلة معلومة معروفة .

وجذع النخلة : ساقها الذي يبدأ من الجذر إلى بداية الجريد ، فهل ستتشبث مريم عند وضعها بكل هذه الساق ؟ بالطبع ستأخذ الجزء القريب منها فقط ، وأُطلق الجذع على سبيل المبالغة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصواعق حَذَرَ الموت ﴾ [البقرة : 19] .

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها ، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبالغةً في كَتْم الصوت المزعج والصواعق التي تنزل بهم .

(226/484)

إذن : فالسيدة مريم أصبحت أمام أمر واقع وحمل ظاهر لا تستطيع إخفاءه ، ولا تقدر على ستره ، فقد قبلتْ قبل ذلك أنْ يُبشِّرها الملَك بغلام زكيٍّ ، وقبلتْ أنْ تحمل به ،

فكيف بها الآن وقد تحوّل الأمر من الكلام إلى الواقع الفعلي ، وها هو الوليد في أحشائها ، وقد حان موعد ولادته ؟

لأبدَّ أن ينتابها نزوع انفعالي فالأمر قد خرج عن نطاق السَّتْر والتكتّم ، فإذا بها تقول : ﴿ ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ [مريم : 23] أي : تمنتْ لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب ، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلاماً زكياً تعجبتْ قائلة : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] .

مجرد تعجُّب وانفعال هادىء ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلا بُدَّ من فعل نزوعي شديد يُعبِّر عما هي فيه من حَيْرة ، لذلك تمنتْ الموتْ ، مع أن الله تعالى نهانا عن تمني الموت ، كما ورد في الحديث الشريف الذي يرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت ، بل نقول : " اللهم أحْيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفَّني ما كانت الوفاة خيراً لي " .

وقلنا : إن تمني الموت المنهيّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله ، وتمرد على إرادته سبحانه ، كأنْ تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت ، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصبر إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر .

وقد ورد في القرآن مسألة تمني الموت هذه في الكلام عن بني إسرائيل الذين قالوا : نحن أبناء

الله وأحباؤه ، وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ، وأن الدار الآخرة لنا خالصة عند الله ، فبماذا رَدّ عليهم القرآن الكريم ؟

(227/484)

والله طالما أن الأمر كما تقولون ، والآخرة لكم ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 94] ثم قرَّر الحق سبحانه ما سيكون منهم فقال : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 95] .

وقال عنهم : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ ﴾ [البقرة : 96] .

وما داما لن يتمنوا الموت ، وما داموا أحرصَ الناس على الحياة ، فلا بُدَّ أن حياتهم هذه التي يعيشونها أفضل لديهم من الحياة الأخرى .

فالمؤمن إذن لا يجوز أن يتمنى الموت هَرباً من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَرِ الله ، ويجوز له ذلك إنْ علم أنه صائر إلى أفضل ممّا هو فيه .

وقولها : ﴿ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ [مريم : 23] النسيّ : هو الشيء التافه الذي لا يُؤْبَه به ، وهذا عادةً ما يُنْسَي لعدم أهميته ، كالرجل الذي نسى عند صاحبه علبة كبريت بها عودان اثنان ، وفي الطريق تذكرها فعاد إلى صاحبه يطلب ما نسيه ، وهكذا تمنتْ مريم

أن تكون نسياً منسياً حتى لا يذكرها أحد .

ولم تكتفِ بهذا ، بل قالت : ﴿ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ [مريم : 23] لأن النسيّ : الشيء التافه الذي يُنسَي في ذاته ، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويعرفه ، فأكدت النسيّ بقولها (منسياً) أي : لا يذكره أحد ، ولا يفكر فيه أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾

﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ [مريم : 24] فيها قراءتان (مِنْ ، مَنْ) صحيح أن جبريل عليه السلام ما زال موجوداً معها لكنه ليس تحتها ، فدلّ ذلك على أن الذي ناداها هو الوليد ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ [مريم : 24] ، وحزن مريم منشؤه الانقطاع عن الناس ، وأنها في حالة ولادة ، وليس معها مَنْ يسندها ويساعدها ، وليس معها مَنْ يَحضِر لها لوازم هذه المسألة من طعام وشراب ونحوه .

(228/484)

لذلك تعهّدها ربها تبارك وتعالى فوفّر لها ما يُقيتها من الطعام والشراب ، فقال : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ [مريم : 24] والسريّ : هو النهر الذي يجري بالماء العَذْب الزُّلال ، وثم يعطيها الطعام المناسب لحالتها ، فيقول تعالى : ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ ﴾

وهكذا وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقوّمات الحياة وعناصر استبقائها ، وهي مُرتَّبة على حَسْب أهميتها للإنسان : الهواء والشراب والطعام ، والإنسان يصبر على الطعام شهراً دون أنْ يأكلَ ، ويمكنه أنْ يقتاتَ على ما هو مخزون في جسمه من غذاء ، لكنه لا يصبر على الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام حسب ما في جسمه من مائية ، في حين لا يصبر على الهواء لحظة واحدة ، ويمكن أنْ يموتَ من كَتْم نفَسٍ واحد .

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يُملِّك الطعام كثيراً ، ويُملك الماء قليلاً ، ولا يُملِّك الهواء لأحد أبداً ، لأنك لو غضبتَ على أحد فمنعتَ عنه الهواء لمات قبل أنْ ترضى عنه ، إذن : فعناصر استبقاء الحياة مرتبة حَسْب أهميتها في حياة الإنسان ، وقد ضمنها الحق سبحانه لمريم وجعلها في متناول يدها وأغناها عن أنْ يخدمها أحد .

فالهواء موجود وهي في الخلاء ، ثم الماء فأجري تحتها نهراً عذباً زلالاً ، ثم الطعام فقال : ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ [مريم : 25] وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يُظهِر لمريم آية أخرى من آياته ، فأمرها أنْ تهزَّ جذع النخلة اليابس الذي لا يستطيع هَزَّه الرجل القويّ ، فما بالها وهي الضعيفة التي تعاني ألم الولادة ومشاقها ؟

(229/484)

كما أن الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزِل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزِّها ، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين : طلب الأسباب والاعتماد على المسبب ، والأخذ بالأسباب في هَزِّ النخلة ، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة ، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها في وحدتها لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً .

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها ، ثم تعتمد على المسبِّب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطَب مُسْتوياً ناضجاً ، وهل استطاعت مريم أنْ تهزَّ الجذع الكبير اليابس ؟

إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر ، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها ، وقد صَوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله قَالَ لمرْيَم . . . وَهُزِّي إليك الجذْعَ يَسَّاقَط الرُّطبْ

وَإنْ شَاءَ أَعطَاهَا ومِنْ غير هَزَّة . . . ولكن كُلّ شَيءٍ لَهُ سَبَبْ

وقوله : ﴿ تُسَاقِطْ ﴾ مريم : 25] أي : تتساقط عليك ﴿ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ [مريم : 25] أي : استوى واستحق أن يُجنى ، وليس مُبْتسراً قبل موعده ، ومن الرُّطَب ما يتساقط قبل نُضْجه فلا يكون صالحاً للأكل .

وقوله : ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ ﴾ [مريم : 25] فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله ،

وإلا فالبلحة لم تخرج عن طَوْع أمها ، إذن : فقد ألقتْها طواعيةً واستجابة حين تَمَّ نضجها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكُلِي واشربي وَقَرِّي ﴾

(230/484)

ونلحظ هنا أن الحق تبارك وتعالى عند إيجاد القُوت لمريم جاء بالماء أولاً ، فقال : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ [مريم : 24] ، ثم أتى بالطعام فقال : ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ [مريم : 25] لأن الماء أوْلى من الطعام في احتياج الإنسان ، أما عند الأمر بالانتفاع قال : ﴿ فَكُلِي واشربي ﴾ [مريم : 26] فبدأ بالطعام قبل الشراب ، لماذا ؟ لأن الإنسان عادةً يأكل أولاً ، ثم يشرب ، فالماء مع أهميته ، إلا أنه يأتي في العادة بعد الطعام ، فسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ [مريم : 26] بعد أن وفَّر لها الحق سبحانه الطعام والشراب الذي هو قِوَام المادة ، وبه يتم استبقاء الحياة ، لكن بعد الطعام والشراب يبقى لديها حُزْن عميق وألم وحَيْرة مِمَّا هي فيه ؛ لذلك يعطيها ربها تبارك وتعالى بعد القوت الذي هو قوام المادة يعطيها السكينة والطمأنينة ويُخفِّف عنها ألم النفس وحَيْرة الفؤاد .

﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ [مريم : 26] قرّي : أي : اسكني . وهذا التعبير عند العرب كناية

عن السرور ، ومنه قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] .

والعرب تعبر بقُرَّة العين وسكونها عن السرور ؛ لأن سكون العين على مَرأًى واحد لا تتحول عنه دليلٌ على أن العين صادفت مرأى جميلاً تسعد به وتُسَرُّ فلا يُغني عنه مَرأًى آخر ، فتظل ساكنة عليه لا تتحرك عنه .

وقد يستعمل هذه التعبير في المقابل أي : في الشر والدعاء على إنسان وتمني الشر له ، كالمرأة التي دخلتْ على أحد الخلفاء فنهرَها فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته وأقرَّ عينك . فظنَّ الحضور أنها تدعو له ، لكنه فَطِن لمرادها ، فقال لجلسائه : ما فهمتم ما تقول ، إنها تقصد أتمَّ الله عليك نعمته أي : أزالها ، أما سمعتم قول الشاعر :

(231/484)

إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُه . . . ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمْ

ذلك لأن الإنسان بطبيعته ابن أغيار ، لا يثبت على حال ، فإذا ما وصل إلى القمة وتمتْ له النعمة ، وهو ابن أغيار فلا بُدَّ أنْ يتحوَّل عنها .

وقولها : أقرَّ الله عينك ، أي : أسْكَنَها بالعمى .

فقوله تعالى لمريم : ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ [مريم : 26] أي : كوني سعيدة باصطفاء الله لك مسرورة بما أعطاك ، فما تهتمين به وتحزنين هو عَيْن النعمة التي ليستْ لأحد غيرك من نساء العالمين .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ [مريم : 26] .

وهنا يتولَّى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذي لا تجد له هي مبرراً في أعراف الناس ، فَمنْ يلتمس عُذْراً لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج ؟ ومهما قالت فلن تُصدَّق ولن تسْلَم من ألسنة القوم وتجريحهم .

إذن : فجواب ما يكره السكوت ، فأمرها سبحانه أنْ تلزم الصمت ولا تجادل أحداً في أمرها : ﴿ فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ [مريم : 26] والصوم هنا أي : عن الكلام ، كما حدث مثل هذا في قصة زكريا ؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها ، فقد أعطى الله زكريا مع عَطَب الآلات ، وأعطى مريم بنقص الآلات ، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى .

وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أنْ ينتقموا على القرآن ، فقالوا : كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفي نفس الوقت يأمرها أن تقول : نذرت للرحمن صوماً ؟

يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رأته ليتم بذلك إعلان صومها ، ثم انقطعت عن الكلام ، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تُومىء برأسك هكذا تعني نعم في كل اللغات ، وحين تُشير بأصبعك هكذا تعني لا ، إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامّة .

وقد تعرَّضَ القرآن الكريم في موضع آخر لهذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف : 93] .

أي : لا يقربون من الفهم ، فَهُمْ يفهمون من باب أَوْلى ، ومع ذلك كان بينهم كلام وإشارة ولغة ، وفَهِم كل منهم عن الآخر : ﴿ قَالُواْ يا ذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ [الكهف : 94] .

ونلحظ في قولها : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ [مريم : 26] أن النهي عن الكلام مع البشر خاصة فلم تَقُل : لن أتكلم ، وإلاّ فمعها جبريل عليه السلام يُكلّمها وبينهما تفاهم ، لعلَّه يرى لها مَخْرجاً ، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج ، فإذا كان ربها تبارك وتعالى أمرها بالصوم عن الكلام ، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم

.

(233/484)

ولما تكلّمنا في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ [مريم : 24] استبعدنا أنْ يكون هذا النداء من جبريل ، وقلنا : إنه نداء الوليد ؛ لذلك اطمأنتْ مريم وعَلِمتْ أنها أمام معجزة عُظْمى ، ووثقتْ تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحَرج مع قومها ؛ لأن الكلام ممَّنْ يقدر على الكلام لا يأتي بحجة تُقنِع الناس عن خلاف العادة ، أما حين يتكلم وهو في المهد ، فهذا يعني أنه معجزة خارقة للعادة ، فإذا كان الوليد معجزةً فالمعجزة في أُمِّه من باب أَوْلَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(234/484)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ تَرْكَ الْكَلَامِ وَاسْتِعْمَالَ الصَّمْتِ قَدْ كَانَ قُرْبَةً ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا نَذَرَتْهُ مَرْيَمُ

وَلَمَا فَعَلَتْهُ بَعْدَ النَّذْرِ .

وَقَدْ رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ قَالَ : فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ : " صَمْتًا " وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَهَا الصَّمْتُ .

قَوْلُهَا : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ نَهَى عَنْ صَمْتِ يَوْمٍ إلَى اللَّيْلِ ﴾ .

وَقَالَ السُّدِّيُّ : كَانَ مَنْ صَامَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لَا يُكَلِّمُ النَّاسَ فَأُذِنَ لَهَا فِي هَذَا الْمِقْدَارِ مِنْ الْكَلَامِ ، وَقَدْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى حَبَسَ زَكَرِيَّا عَنْ الْكَلَامِ ثَلَاثًا وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً لَهُ عَلَى الْوَقْتِ الَّذِي يُخْلَقُ لَهُ فِيهِ الْوَلَدُ ، فَكَانَ مَمْنُوعًا مِنْ الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ آفَةٍ وَلَا خَرَسٍ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(235/484)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) ﴾

قوله : ﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ : الجارُّ والمجرورُ في محل نصب على الحال ، أي : انتبذَتْ وهو

مصاحبٌ لها ، كقولِه :

3218- . . . . . تَدُوْسُ بنا الجَماجِمَ والتَّرِيْبا

قوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ : الأصلُ في " جاء " أَنْ يتعدَّى لواحدٍ بنفسه ، فإذا دَخَلَتْ عليه الهمزةُ كان القياسُ يقتضي تَعَدِّيَه لاثنين . قال الزمخشري : " إلا أنَّ استعمالَه قد تغيَّر بعد النقلِ إلى معنى الإِلْجاء ، ألا تراكَ لا تقول : جِئْتُ المكانَ وأَجَاءْنِيهِ زيدٌ ، كما تقول : بَلَغْتُه وأَبْلَغَنِيْه ، ونظيرُه " آتى " حيث لم يُستعمل إلا في الإِعطاء ولم تَقُلْ : أتيت المكانَ وآتانِيه فلان " . وقال أبو البقاء : الأصلُ " جاءها " ثم عُدِّيَ بالهمزة إلى مفعولٍ ثانٍ ، واسْتُعمل بمعنى أَلْجَأَها " .

(236/484)

قال الشيخ : " قوله وقولُ [غيرِه] : إنَّ " أجاءها " بمعنى أَلْجَأَها يحتاج إلى نَقْلِ أئمةِ اللغة المستقرئين لذلك مِنْ لسانِ العرب . والإِجاءةُ تدلُّ على المُطلق ، فَتَصْلُحِ لما هو بمعنى الإِلجاءِ ولِما هو بمعنى الاختيار ، كما تقول : " أَقَمْتُ زيداً " فإنه يَصْلُحُ أَنْ تكونَ إقامتُك له قَسْراً أو اختياراً . وأمَّا قوله : " ألا ترك لا تقول " إلى آخره فَمَنْ رَأَى أنَّ التعديةَ بالهمزة

قياسٌ أجاز ذلك وإنْ لم يُسْمَعْ ، ومَنْ منع فقد سُمِع ذلك في " جاء " فيُجيز ذلك . وأمَّا تنظيرُه ذلك ب " آتى " فليس تنظيراً صحيحاً ؛ لأنَّه بناه على أنَّ همزتَه للتعديةِ ، وأنَّ أصلَه " أتى " ، بل " آتى " ممَّا بُني على أَفْعَل ، ولو كان منقولاً مِنْ " آتى " المتعدّي لواحد لكان ذلك الواحدُ هو المفعولَ الثاني ، والفاعلُ هو الأولُ ، إذا عَدَّيْتَه بالهمزةِ تقولُ : " أتى المالُ زيداً " و " آتى عمروٌ زيداً المالَ " فيختلف التركيب بالتعدية لأنَّ " زيداً " عند النحويين هو المفعولُ الأول ، و " المالُ " هو المفعولُ الثاني ، وعلى ما ذكره الزمخشري كان يكون العكس ، فَدَلَّ على أنَّه ليس على ما قاله ، وأيضاً فآتى مُرادِفٌ لأَعْطَى ، فهو مخالِفٌ من حيث الدَّلالةُ في المعنى . وقوله : " ولم تَقُلْ : أتيت المكانَ وآتانِيْه " هذا غيرُ مُسَلَّمٍ بل تقول : " أتيتُ المكانَ " كما تقول : " جئت المكان " . وقال الشاعر :

3219- أَتَوْا ناري فقلتُ مَنُوَّنَ أنتُمْ . . . فقالوا : الجنُّ قلتُ عِمُوا ظَلاما

ومَنْ رأى التعديةَ بالهمزةِ قياساً ، قال : " آتانيه " وهذه الأبحاثُ التي ذكرها الشيخُ معه ظاهرُه الأجوبة ، فلا نُطَوِّلُ بذِكْرِها .

وقرأ الجمهورُ " فَأَجَاءَها " ، أي : أَلْجأها وساقَها ، ومنه قولُه :

3220- وجارٍ سارَ مُعْتَمِداً إليكم . . . أَجَاءَتْهُ المَخافةُ والرَّجاءُ

وقرأ حَمَّاد بن سَلَمة " فاجَأَها " بألفٍ بعد الفاء وهمزةٍ بعد الجيم ، من المفاجأة ، بزنة قابَلَها . ويقرأ بألفين صريحتين كأنهم خفَّفوا الهمزةَ بعد الجيمِ ، وكذلك رُوِيَت بينَ بينَ .

والجمهور على فتحِ الميم من " المَخاض " وهو وَجَعُ الوِلادةِ .

ورُوي عن ابن كثير بكسرِ الميمِ ، فقيل : هما بمعنى . وقيل : المفتوح اسمُ مصدرٍ كالعَطاء والسَّلام ، والمكسورُ مصدرٌ كالقتال واللِّقاء ، والفِعال قد جاء مِنْ واحد كالعِقاب والطِّراق . قاله أبو البقاء . والميمُ أصليةٌ لأنه مِنْ تَمَخَّضَتِ الحامِلُ تتمخَّضُ .

و﴿ إلى جِذْعِ ﴾ يتعلقُ في قراءة العامَّة ب " أَجاءها " ، أي : ساقَها إليه .

وفي قراءةِ حَمَّاد بمحذوفٍ لأنه حالٌ من المفعولِ ، أي : فاجَأَها مستندةً إلى جِذْعِ النخلةِ .

قوله : " نَسْيَاً " الجمهورُ على كسرِ النون وسكون السين وبصريح الياء بعدها . وقرأ حمزةُ وحفص وجماعة بفتح النون ، فالمكسورُ فِعْلٌ بمعنى مَفْعول كالذَّبْح والطَّحْن ، ومعناه الشيءُ الحقيرُ الذي مِنْ شأنه أن يُنْسَى كالوَتِدِ والحَبْلِ وخِرْقةِ الطَّمْثِ ونحوِها .

قال ابن الأنباري : " مَنْ كسر فهو اسمٌ لما يُنْسَى كالنَّقْضُ اسمٌ لما يَنْقض ، والمفتوحُ مصدرٌ يَسُدُّ مَسَدَّ الوصفِ " . وقال الفراء : " هما لغتان كالوَتْر والوِتْر ، الكسرُ أحَبُّ إليَّ " .

وقرأ محمدُ بن كعب القَرَظيُّ " نِسْئاً " بكسر النون ، والهمزةُ بدلُ الياء . ورُوي عنه أيضاً وعن بكر بن حبيب السَّهْمي فتحٌ مع الهمز . قالوا : وهو مِنْ نَسَأْتُ اللَّبَنَ إذا صَبَبْتَ فيه

ماءً فاستُهْلِك فيه ، فالمكسورُ أيضاً كذلك الشيءُ المُسْتَهْلَكُ ، والمفتوحُ مصدر كما كان ذلك من النِّسْيان

ونَقَل ابن عطية عن بكر بن حبيب " نَسَا " بفتح النون والسين والقصرِ كعَصَا ، كأنه جَعَل فَعَلاً بمعنى مَفْعول كالقَبَض بمعنى المَقْبُوض .

(238/484)

و " مَنْسِيَّاً " نعتٌ على البالغةِ ، وأصلُه مَنْسُوْي فَأُدْغم . وقرأ أبو جعفر والأعمش " مِنْسِيَّاً " بكسر الميم للإتباع لكسرة السين ، ولم يَعْتَدُّوا بالساكن لأنه حاجزٌ غيرُ حصينٍ كقولهم : " مِنْتِن " و " مِنْخِر " .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) ﴾

قوله : ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ : قرأ الأخَوَان ونافع وحفص بكسر ميم " مِنْ " ، وجَرَّ " تحتِها " على الجار والمجرور . والباقون بفتحها ونصب " تحتَها " . فالقراءةُ الأولى تقتضي أن يكونَ الفاعلُ في " نادَى " مضمراً وفيه تأويلان ، أحدهما : هو جبريل ومعنى كونِه ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ أنه في مكانٍ أسفلَ منها . ويَدُل على ذلك قراءةُ ابنِ عباس " فناداها مَلَكٌ مِنْ تحتها : فَصَرَّح به . و ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ على هذا فيه وجهان أحدهما : أنه متعلقٌ بالنداء ، أي :

جاء النداء مِنْ هذه الجهةِ . والثاني : أنه حالٌ من الفاعل ، أي : فناداها وهو تحتَها .

وثاني التأويلين : أنَّ الضمير لعيسى ، لأي : فناداها المولودُ مِنْ تحت ذَيْلها . والجارُّ فيه الوجهان : مِنْ كونِه متعلّقاً بالنداء ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ . والثاني أوضح .

والقراءةُ الثانية : تكون فيها " مَنْ " موصولةً ، والظرفُ صلتُها ، والمرادُ بالموصولِ : إمَّا جبريلُ ، وإمَّا عيسى .

قوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ يجوزُ في " أَنْ " أَنْ تكونَ مفسرةً لتقدُّمِها ما هو بمعنى القول ، و " لا " على هذا ناهيةٌ ، وحَذْفُ النونِ للجزم ؛ وأَنْ تكونَ الناصبةَ و " لا " حينئذٍ نافيةٌ ، وحَذْفُ النونِ للنصبِ . ومَحَلُّ " أَنْ " : إمَّا نصب أو جرٌّ لأنها على حَذْفِ حرفِ الجر ، أي : فناداها بكذا . والضمير في " تحتها " : إمَّا لمريمَ عليها السلام ، وإمَّا للنخلةِ ، والأولُ أَوْلَى لتوافُقِ الضميرين .

(239/484)

قوله : " سَرِيًّا " يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً أولَ ، و " تحتك " مفعولٌ ثان لأنها بمعنى صَيَّر .

ويجوز أن تكون بمعنى خَلَق ، فتكون " تحتك " لغواً .

والسَّرِيُّ فيه قولان ، أحدهما : أنه الرجلُ المرتفعُ القَدْرِ ، مِنْ سَرُوَ يَسْرُو كشَرُف يَشْرُف ،

فهو سَرِيٌّ . وأصله سَرِيْوٌ ، فأُعِلَّ إعلالَ سَيِّد ، فلامُه واوٌ . والمرادُ به في الآية عيسى بن مريم عليه السلام ، ويُجْمع " سَرِيٌّ " على " سَراة " بفتح السين ، وسُرَواء كظُرَفاء ، وهما جمعان شاذَّان ، بل قياسُ جَمْعِه " أَسْرِياء " ، كغَنِيّ وأَغْنِياء . وقيل : السَّرِيُّ : مِنْ سَرَوْتُ الثوبَ ، أي : نَزَعْتُه ، وسَرَوْتُ الجُلَّ عن الفَرَس ، أي : نَزَعْتُه . كأنَّ السَّرِيَّ سَرَى ثوبَه ، بخلاف المُدَّثِّر والمُتَزَمِّل . قاله الراغب .

والثاني : أنه النهرُ الصغير ، ويناسِبُه " فكُلي واشربي " واشتقاقه مِنْ سَرَى يَسْرِي ، لأن الماءَ يَسْرِي فيه ، فلامُه على هذا ياء ، وأنشدوا للبيد :

3221- فتوسَّطا عُرْضَ السَّرِيِّ فَصَدَّعا . . . مَسْجورةً مُتَجاوِزاً قُلاَّمُها

قوله : ﴿ وهزي إِلَيْكِ بجِذْعِ ﴾ :

يجوز أَنْ تكونَ الباءُ في " بِجَذْعِ " زائدةً كهي في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة : 195] [وقوله :]

3222- . . . . . .

. . . . . لا يَقْرَأْن بالسُّوَر

وأنشد الطبري :

3223- بوادٍ يَمانٍ يُنْبِتُ السِّدْرَ صَدْرَه . . . وأَسْفَلُه بالمَرْخِ واشَّبَهانِ

أي : هُزِّي جِذْعَ النخلةِ . ويجوز أَنْ يكونَ المفعولُ محذوفاً ، والجارُّ حالٌ من ذلك المحذوفِ تقديرُه : وهُزِّي إليك رُطَباً كائناً بجذع النخلة . ويجوز أن يكونَ هذا محمولاً على المعنى ؛ إذِ التقدير : هُزِّي الثمرةَ بسبب هَزِّ الجِذْع ، أي : انفُضِي الجِذْع . وإليه نحا الزمخشري فإنه قال : " أو افْعَلي الهَزَّ كقولِه :

3224- . . . . . يَجْرَحْ في عراقيبِها نَصْلي

قال الشيخ : " وفي هذه الآيةِ وفي قولِه تعالى : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ [القصص : 32] ما يَرُدُّ على القاعدةِ المقررةِ في علم النحو : من أَنَّه لا يتعدَّى فعلُ المضمرِ المتصل إلى ضميره المتصلِ إلا في باب ظنٍّ ، وفي لفظَتَيْ فَقَد وعَدِمَ ، لا يُقالُ : ضَرَبْتَكَ ولا ضَرَبْتُني ، أي : ضربْتَ أنت نفسَك وضربْتُ أنا نفسي ، وإنما يُؤْتى في هذا بالنفس ، وحكمُ المجرورِ بالحرفِ حكمُ المنصوبِ فلا يقال : هَزَزْتَ إليك ، ولا زيدٌ هَزَّ إليه ، ولذلك جَعَلَ النحويون " عن " و " على " اسْمَيْن في قولِ امرئ القيس :

3225- دَعْ عنك نَهْباً صِيْحَ في حُجُراتِه . . . ولكنْ حَديثاً ما حديثُ الرواحلِ

وقول الآخر :

3226- هَوِّنْ عليكَ فإنَّ الأمورَ . . . بِكَفِّ الإلهِ مقاديرُها

وقد ثبت بذلك كونُهما اسمين لدخولِ حرفِ الجر عليهما في قوله :

3227- غَدَتْ مِنْ عليهِ بعدما تَمَّ ظِمْؤُها . . . تَصِلُّ وعن قَيْضٍ ببَيْداءَ مَجْهَلِ

وقولِ الآخر :

3228- فقُلْتُ للرَّكْبِ لَمَّا أَنْ عَلا بِهِمْ . . . مِنْ عَنْ يمينِ الحُبيَّا نظرةٌ قَبَلُ

(241/484)

وإمَّا "إلى" فحرفٌ بلا خلافٍ ، فلا يمكنُ فيها أَنْ تكونَ اسماً كـ "عَنْ" و "على" . ثم أجاب : بأنَّ "إليك" في الآيتين لا تتعلَّقُ بالفعلِ قبله ، إنما تتعلَّقُ بمحذوفٍ على جهةِ البيان تقديرُه : أَعْني إليك" . قال : "كما تَأَوَّلوا ذلك في قولِه : ﴿ لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ [الأعراف : 21] في أحد الأوجه" .

قلت : وفي ذلك جوابان آخران ، أحدهما : أن الفعلَ الممنوعَ إلى الضمير المتصل إنما هو حيث يكون الفعلُ واقعاً بذلك الضمير ، والضميرُ مَحَلٌّ له نحو : "دَعْ عنك" "وهَوِّنْ عليك" وأمَّا الهَزُّ والضَّمُّ فليسا واقعين بالكاف فلا محذورَ . والثاني : أنَّ الكلامَ على حذفِ مضافٍ تقديره : هُزِّي إلى جهتِكِ ونحوك ، واضمُمْ إلى جهتِك ونحوك .

قوله : "تُساقِطْ" قرأ حمزة "تَسَاقَطْ" بفتح التاء وتخفيفِ السين وفتح القاف . والباقون

- غيرَ حفصٍ - كذلك إلا أنَّهم شَدَّدوا السين ، وحفص بضم التاء وتخفيفِ السين وكسر القاف .

فأصلُ قراءةِ غيرِ حفص " تَتَساقط " بتاءين ، مضارعَ " تساقَطَ " فحذف حمزةُ إحدى التاءين تخفيفاً نحو : " تَنَزَّلُ " و " تَذَكَّرون " ، والباقون أدغموا التاءَ في السِّيْن .

وقراءةُ حفص مضارع " ساقَطَ " .

وقرأ الأعمش والبراء بن عازب " يَسَّاقَطْ " كالجماعة إلا أنه بالياء مِنْ تحتُ ، أدغم التاء في السين ، إذ الأصلُ : يتساقط فهو مضارع " اسَّاقط " وأصلُه يَتَساقط ، فأُدْغم واجتُلِبَتْ همزةُ الوصل كـ " ادَّارَأَ " في تَدَارَأَ .

ونُقل عن أبي حيوة ثلاثُ قراءاتٍ : / وافقه مسروقٌ في الأولى ، وهي " تُسْقِط " بضم التاء وسكون السين وكسر القاف مِنْ أَسْقَط . والثانية كذلك إلا أنه بالياء مِنْ تحت . الثالثة كذلك إلا أنه رفع " رُطَباً جَنِيَّاً " بالفاعلية .

(242/484)

وقُرِئَ " تَتَساقط " بتاءين مِنْ فوقُ ، وهو أصلُ قراءةِ الجماعة . وتَسْقُط ويَسْقُط بفتح التاء والياء وسكون السين وضمَّ القاف . فَرَفْعُ الرُّطَبِ بالفاعلية ، وتعطي من الأفعال ما يوافقه

في القراءات المتقدمة . ومَنْ قرأ بالتاءِ مِنْ فوقُ الفعلُ مسندٌ : إمَّا للنخلة ، وإمَّا للثمرةِ المفعومة من السِّياق ، وإمَّا للجِذْع . وجاز تأنيثُ فِعْلِه لإضافتِه إلى مؤنث ، فهو كقوله :

3229- . . . . . .

كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدَّم

وكقراءة " تَلْتَقِطْه بعض السيارة " . ومَنْ قرأ بالياء مِنْ تحتُ فالضميرُ للجِذْع وقيل : للثمر المدلولِ عليه بالسياق .

وأمَّا نَصْبُ " رُطَباً " فلا يَخْرُجُ عن كونِه تمييزاً أو حالاً موطِّئة إنْ كان الفعل قبلَه لازماً ، أو مفعولاً به إن كان الفعل متعدِّيَاً ، والذكيُّ يَرُدُّ كلَّ شيء إلى ما يليق به من القراءات . وجَوَّز المبردُ في نصبه وجهاً غريباً : وهو أَنْ يكونَ مفعولاً به ب " هُزِّيْ " وعلى هذا فتكون المسألة من باب التنازع في بعض القراءات : وهي أَنْ يكونَ الفعلُ فيها متعدِّياً ، وتكونَ المسألةُ من إعمالِ الثاني للحذف من الأول .

وقرأ طلحة بن سليمان " جَنِيَّاً " بكسرِ الجيم إتباعاً لكسرةِ النون .

والرُّطَبُ : اسمُ جنسٍ لرُطَبَة بخلافِ " تُخَم " فإنَّه لتُخَمة ، والفرق : أنهم لَزِموا تذكيرَه فقالوا : هو الرُّطَبُ ، وتأنيثَ ذاك فقالوا : هي التُّخَم ، فذكَّروا " الرطب " باعتبار الجنس ، وأَنَّثوا " التُّخَم " باعتبار الجمعية ، وهو فرقٌ لطيفٌ . ويُجْمَعُ على " أَرْطاب " شذوذاً

كرُبَع وأَرْباع . والرُّطَب : ما قُطِع قبل يُبْسِه وجَفافِه ، وخُصَّ الرُّطَبُ بالرُّطَبِ من التَّمْرِ . وأَرْطَبَ النخلُ نحو : أَتْمَرَ وأَجْنَى .

(243/484)

والجَنِيُّ : ما كابَ وصَلُحَ للاجْتِناء . وهو فَعيل بمعنى مفعول وقيل : بمعنى فاعِل : أي : طَرِيًّا ، والجَنَى والجَنِيُّ أيضاً : المُجتَنَى من العَسَلِ ، وأَجْنَى الشجرُ : أَدْرَكَ ثَمَرُه ، وأَجْنَتِ الأرضُ كَثُرَ جَناها . واسْتُعِير من ذلك " جَنَى فلانٌ جنايةً " كما استعير " اجْتَرَم جريمةً " .

قوله : ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ :

" عَيْناً " نصبٌ على التمييز منقولٌ من الفاعل ، إذ الأصلُ : لِتَقَرَّ عينُك . والعامَّة على فتحِ القاف مِنْ " قَرِّيْ " أمراً مِنْ قَرَّتْ عَيْنُه تَقَرُّ ، بكسر العين في الماضي ، وفتحِها في المضارع . وقُرِئ بكسرِ القاف ، وهي لغةُ نجدٍ يقولون : قَرَّتْ عينُه تَقِرُّ بفتح العين في الماضي وكسرِها في المضارع ، والمشهورُ أن مكسورَ العين في الماضي للعين ، والمفتوحَها في المكان . يقال : قَرَرْتُ بالمكانِ أَقِرُّ به ، وقد يُقال : قَرِرْتُ بالمكانِ بالكسر . وسيأتي ذلك في قولِه تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 33] .

وفي وَصْفِ العين بذلك تأويلان ، أحدُهما : أنَّه مأخوذٌ مِنَ " القُرّ " وهو البَرْدُ : وذلك أنَّ العينَ إذا فَرِح صاحبُها كان دَمْعُها قارّاً أي بارداً ، وإذا حَزِن كان حَرّاً ولذلك قالوا في الدعاء عليه : " أَسْخَنَ اللهُ عينَه " ، وفي الدعاء له : " أقرَّ اللهُ عينَه . وما أَحْلى قولَ أبي تمام :

3230- فأمَّا عيونُ العاشِقينَ فَأُسْخِنَتْ . . . وأمَّا عيونُ الشامتينَ فَقَرَّتِ

والثاني : أنه مأخوذٌ من الاستقرار ، والمعنى : أعطاه الله ما يُسَكِّنُ عينَه فلا تطمحُ إلى غيره .

(244/484)

قوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ ﴾ دخلت " إنْ " الشرطية على " ما " الزائدة للتوكيد ، فَأُدْغِمت فيها ، وكُتِبَتْ متصلةً . و " تَرَيْنَ " تقدَّم تصريفُه . والعامَّةُ على صريح الياء المكسورة وقرأ أبو عمرو في رواية " تَرَئِنَّ " بهمزة مكسورةٍ بدلَ الياء ، وكذلك رُوي عنه " لَتَرَؤُنَّ " بإبدالِ الواوِ همزةً . قال الزمخشري : " هذا مِنْ لغةِ مَنْ يقول : لَبَأْتُ بالحَجِّ وحَلَأْتُ السَّوِيْقَ " - يعني بالهمز - وذلك لتآخٍ بين الهمز وحروف اللين " . وتجرَّأ ابن خالَوَيْه على أبي عمرو فقال : " هو لحنٌ عند أكثر النحويين " .

وقرأ أبو جعفر قارئُ المدينةِ وشيبة وطلحة " تَرَيْنَ " بياءٍ ساكنة ونونٍ خفيفة . قال ابن جني : " وهي شاذَّةٌ " . قلت : لأنه كان ينبغي أَنْ يُؤَثِّر الجازمُ ، وتُحذفَ نونُ الرفع . كقول الأَفْوه :

3231- إمَّا تَرَيْ رَأْسِيَ أَزْرَى به . . . ماسُ زمانٍ ذي انتكاثٍ مَؤُوْسِ

ولم يؤثِّرْ هنا شُذوذاً . وهذا نظيرُ قولِ الآخر :

3232- لولا فَوارسُ مِنْ نُعْمٍ وأُسْرَتِهِمْ . . . يومَ الصُّلَيْفاءِ لم يُوفُوْنَ بالجارِ

فلم يُعْمِلْ " لم " ، وأبقى نونَ الرفعِ .

و" من البشر " حالٌ من " أحداً " لأنه لو تأخَّر لكان وصفاً . وقال أبو البقاء : " أو مفعول " يعني أنه متلِّعق بنفسِ الفعل قبله .

قوله : فَقُولِيْ " بين هذا الجوابِ وشرطِه جملةٌ محذوفةٌ ، تقديرُه : فإمَّا تَرَيْنَّ من البشر أحداً فسألكِ الكلامَ فَقُولي . وبهذا المقدَّر نَخْلُصُ من إشكال : وهو أنَّ قولَها ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إنسِيّاً ﴾ / كلامٌ ، فيكون ذلك تناقضاً ؛ لأنها قد كَلَّمَتْ إنْسِيَّاً بهذا الكلامِ . وجوابُه ما تَقَدَّم : وقيل : المرادُ بقوله " فقُولي " إلى آخره ، أنه بالإِشارة . وليس بشيء . بل المعنى : فلن أكلِّمَ اليومَ إنْسِيَّاً بعد هذا الكلامِ .

وقرأ زيد بن علي " صِياماً " بدل " صوم " ، وهما مصدران . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 579.592 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) ﴾

لَمَّا ظهر بها الحَمْلُ ، وعَلِمَتْ أَنَّ الناسَ يستبعدون ذلك ، ولم تَثِقْ بأحدٍ تُفْشِي إليه سِرَّها . . . مَضَتْ إلى مكانٍ بعيد عن الخَلْق .

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) ﴾

أَلْجَأَها وَجَعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جِذْعِ النخلة . ولَمَّا أَخذها الطَّلْقُ ، ودَاخَلَهَا الخَجَلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسانِ العَجزِ ، وقالت : ﴿ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ .

ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها ، لأنها عَلِمَتْ أَنَّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بسلانِ الفُجْر ؛ وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصِيبَهم بسببَها عقوبةٌ .

ويقال قالت : ﴿ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ حتى لم أسمع مَنْ قال في الله تعالى بسببي إن

عيسى ابن الله وابن مريم ، وإن مريمَ زوجتُه . . . تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً !

ويقال ﴿ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ : في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بي ، ولم تستقبلني هذه الخشونةُ في الحالةِ التي لَحِقَتْنِي .

ويقال ﴿ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ : في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) ﴾

في التفسير أن المَعْنِيَّ بقوله ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ : جبريلُ عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام . والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أي يرزقك الله ولداً سرياً .

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) ﴾

(246/484)

وكان جِذْعاً يابساً أخرجَ اللَّهُ تعالى منه في الوقتِ الثمرةَ ، وهي الرُّطبُ الجنيُّ ، وكان في ذلك آية ودلالة لها ؛ فالذي قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى – عليه السلام – من غير أبٍ .

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة ، فقد كان زكريا – عليه السلام – يَجِدُ عندها رزقاً

من غير أن أُمِرْتْ بتكليف ، فلمَّا جاءَتْ علاقةُ الولدِ أُمِرَتْ بهزِّ النخلةِ اليابسةِ – وهي في أضعف حالها ؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد ، لِيُعْلَمَ أَنَّ العلاقةَ توجبُ العناءَ والمشقة .

ويقال بل أُمِرَتْ بهزِّ النخلة اليابسة ، وكان تمكنُها من ذلك أوضحَ دلالة على صدقها في حالها .

ويقال لمّا لم يكن لها في هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدها تولَّى الله تعالى كفايتها ؛ لِيَعْلَمَ العالمون أنه لا يضيع خواصَّ عِبادِهِ في وقت حاجتهم .

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) ﴾

كفاها أسبابَ ما احتاجت إليه مِنْ أَكْلِهَا وشُرْبِها ، وسَكَّنَ من خوفها ، وطيَّبَ قلبَها .

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَدا ﴾ : فلا تخاطبيهم وعرِّفيهم – بالإشارة – أَنَّكِ نَذَرْتِ للرحمن الصمتَ مع الخَلْق ، وتَرْكَ المخاطبةِ معهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 424. 426 ﴾

(247/484)

قوله تعالى ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ فأتت ﴾ أي فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها ، وزال حزنها ، وأتت ﴿ به ﴾ أي بعيسى ﴿ قومها ﴾ وإن كان فيهم قوة المحاولة لكل ما يريدونه إتيان البريء الموقن بأن الله معه ﴿ تحمله ﴾ غير مبالية بأحد ولا مستخفية فكأنه قيل : فما قالوا لها ؟ فقيل : ﴿ قالوا يا مريم ﴾ ما هذا ؟ مؤكدين لأن حالها في إتيانها يقتضي إنكار كلامهم ﴿ لقد جئت ﴾ بما نراه ﴿ شيئاً فرياً ﴾ قطيعاً منكراً ﴿ ياأخت هارون ﴾ في زهده وورعه وعفته وهو صالح كان في زمانها أو أخو موسى عليه السلام ﴿ ما كان أبوك ﴾ أي عمران ساعة من الدهر ﴿ امرأ سوء ﴾ لنقول : نزعك عرق منه ﴿ وما كانت أمك ﴾ في وقت من الأوقات ﴿ بغياً ﴾ أي ذات بغي أي عمد لتتأسى بها ﴿ فأشارت ﴾ امتثالاً لما أمرت به ﴿ إليه ﴾ أي عيسى ليكلموه فيجيب عنها ﴿ قالوا كيف نكلم ﴾ يا مريم ﴿ من كان في المهد ﴾ أي قبيل إشارتك ﴿ صبياً ﴾ لم يبلغ سن هذا الكلام ، الذي لا يقوله إلا الأكابر العقلاء بل الأنبياء والتعبير ب "كان" يدل على أنه حين الإشارة إليه لم يحوجهم إلى أن

يكلموه ، بل حين سمع المحاورة وتمت الإشارة بدا منه قوله خارق لعادة الرضعاء والصبيان ، ويمكن أن تكون تامة مشيرة إلى تمكنه في حال ما دون سن الكلام ، ونصب ﴿ صبياً ﴾ على الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 531 ﴾

(248/484)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أنها كيف أتت بالولد على أقوال : الأول : ما روي عن وهب قال : أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به إلى قومها .

الثاني : ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم إلى غار فأدخلها فيه أربعين يوماً حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلمها عيسى في الطريق ، فقال

: يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه .

وهذان الوجهان محتملان وليس في القرآن ما يدل على التعيين .

المسألة الثانية :

الفريء ، البديع وهو من فري الجلد يروى أنهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ فيحتمل أن يكون المراد شيئاً عجيباً خارجاً عن العادة من غير تعيير وذم ويحتمل أن يكون مرادهم شيئاً عظيماً منكراً فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده : ﴿ يا أخت هارون مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْء وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ لأن هذا القول ظاهره التوبيخ وأما هرون ففيه أربعة أقوال : الأول : أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح ، والمراد أنك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا ، وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمون هرون تبركاً به وباسمه .

الثاني : أنه أخو موسى عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنوا هرون النبي وكانت من أعقابه وإنما قيل أخت هرون كما يقال يا أخا همدان أي يا واحداً منهم .

والثالث : كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة .

الرابع : كان لها أخ يسمى هرون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به (1) ، وهذا هو الأقرب لوجهين : الأول : أن الأصل في الكلام الحقيقة وإنما يكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهرون .

الثاني : أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش .

المسألة الثالثة :

القراءة المشهورة : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْء ﴾ وقرأ عمرو بن رجاء التميمي : (ما كان أباك امرؤ سوء ﴾ .

المسألة الرابعة :

أنهم لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت إليه أي إلى عيسى عليه السلام أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه وعن السدي لما أشارت إليه غضبوا غضباً شديداً وقالوا :

لسخريتها بنا أشد من زناها ، روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته ، وقيل : كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان .

وقيل إن زكرياء عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها ، فقال لعيسى عليه السلام

انطق بحجتك إن كنت أمرت بها فقال عيسى عليه السلام عند ذلك :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ﴾ [مريم : 30] فإن قيل كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم ؟ قلنا : إن جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت ، فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي إلى زكرياء أو لعلها عرفت بالوحي إليها على سبيل الكرامة ، بقي ههنا بحثان :

البحث الأول : قوله : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى المهد صَبِيّاً ﴾ أي حصل في المهد فكان ههنا بمعنى حصل ووجد وهذا هو الأقرب في تأويل هذا اللفظ ، وإن كان الناس قد ذكروا وجوهاً أخر .

---

(1) الأولى أن يقال ، فذكرت به ، لأن هذا مقام التذكير وقد يجاب بأن الأصل في كل هذا هو التعبير فلم يعدل عنه .

(250/484)

البحث الثاني : اختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما روى أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فأشارت إليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل معد

حتى يعد لها المهد أو المعنى : كيف نكلم صبياً سبيله أن ينام في المهد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 177.178 ﴾

(251/484)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . شَيْئًا فَرِيًّا ﴾

فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أنه القبيح من الإفتراء ، قاله الكلبي .

الثاني : أنه العمل العجيب ، قاله الأخفش .

الثالث : العظيم من الأمر ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي .

الرابع : أنه المتصنع مأخوذ من الفرية وهو الكذب ، قاله اليزيدي .

الخامس : أنه الباطل .

قوله تعالى : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ . . . ﴾ وفي هذا الذي نسبت إليه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل ينسب إليه من يعرف بالصلاح ، قاله مجاهد وكعب ، والمغيرة بن شعبة يرفعه للنبي صلى الله عليه وسلم

الثاني : أنه هارون أخو موسى فنسبت إليه لأنها من ولده كما يقال يا أخا بني فلان ، قاله السدي .

الثالث : أنه كان أخاها لأبيها وأمها ، قاله الضحاك .

الرابع : أنه كان رجلاً فاسقاً معلناً بالفسق ونسبت إليه ، قاله ابن جبير .

﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ أي زانية . وسميت الزانية بغياً لأنها تبغي الزنا أي تطلبه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أشارت إلى الله فلم يفهموا إشارتها ، قاله عطاء .

الثاني : أنها أشارت إلى عيسى وهو الأظهر ، إما عن وحي الله إليها ، وإما لثقتها بنفسها في أن الله تعالى سيظهر براءتها ، فأشارت إلى الله إليها ، فأشارت إلى عيسى أن كلموه فاحتمل وجهين :

أحدهما : أنها أحالت الجواب عليه استكفاء .

الثاني : أنها عدلت إليه ليكون كلامه لها برهاناً ببراءتها .

﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ ﴾ وفي ﴿ كَانَ ﴾ في هذا الموضع وجهان :

أحدهما : أنها بمعنى يكون تقديره من يكون في المهد صبياً قاله ابن الأنباري .

الثاني : أنها صلة زائدة وتقديره من هو في المهد ، قاله ابن قتيبة .

وفي ﴿ الْمَهْدِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه سرير الصبي المعهود لمنامه .

(252/484)

الثاني : إنه حجرها الذي تربيه فيه ، قاله قتادة . وقيل إنهم غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا أعظم من زناها ، قاله السدي . فلما تكلم قالوا : إن هذا لأمر عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(253/484)

وقال ابن عطية :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾

(254/484)

روي أن مريم عليها السلام لما اطمأنت بما رأت من الآيات وعلمت ان الله سيبين عذرها أتت به تحمله مدلة من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه ، روي أن قومها خرجوا في طلبها فلقوها وهي مقبلة به . و" الفري " العظيم الشنيع ، قال مجاهد والسدي ، وأكثر استعماله في السوء وهو من الفرية ، فإن جاء الفري بمعنى المتقن فمأخوذ من فريت الأديم للإصلاح وليس بالبين ، وأما قولهم في المثل جاء يفري الفري بمعناه بعمل عظيم من العمل في قول أو فعل مما قصد ضرب المثل له وهو مستعمل فيما يختلف ويفعل ، و" الفري " من الأسقية الجديد ، وقرأ أبو حيوة " شيئاً فرْياً " بسكون الراء ، واختلف المفسرون في معنى قوله عز وجل ، ﴿ يا أخت هارون ﴾ . فقالت فرقة كان لها أخ اسمه ﴿ هارون ﴾ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني اسرائيل ، تبركاً باسم هارون أخي موسى ، وروى المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى أهل نجران في أمر من الأمور فقال له النصارى إن صاحبك يزعم أن مريم " أخت هارون " وبينهما في المدة ستمائة سنة ، قال المغيرة فلم أدر ما أقول فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له . فقال ألم يعلموا أنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين ، فالمعنى أنه اسم وافق اسماً ، وقال السدي وغيره : بل نسبوها الى ﴿ هارون ﴾ أخي موسى لأنها كانت من نسله وهذا كما تقول من قبيلة يا أخاً فلانة ومن قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن أخا صداء أذن ومن أذن فهو يقيم " ، وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين إن مريم ليست ب " أخت

لهارون " أخي موسى ، فقالت عائشة كذبت فقال لها يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى عليه وسلم قاله فهو أصدق وخير ، والاَّ فإني أجد بينهما من المدة ستمائة سنة ، قال فسكتت . وقال قتادة : كان في ذلك الزمن في بني إسرائيل رجل عابد منقطع الى الله يسمى " هارون " فنسبوها الى أخوته من حيث كانت على طريقته قبل إذ كانت

(255/484)

موقوفة على خدمة البيع ، أي يا هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لما أتيت به . وقالت فرقة : بل كان في ذلك الزمن رجل فاجر اسمه " هارون " فنسبوها إليه على جهة التعيير والتوبيخ ذكره الطبري ولم يسم قائله ، والمعنى ﴿ ما كان أبوك ﴾ ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها ؟ و" البغي " التي تبغي الزنا أي تطلبه ، أصلها بغوي فعول وقد تقدم ذكر ذلك .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) ﴾

التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت ب ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ [مريم : 26] وإنما ورد انها ﴿ أشارت إليه ﴾ فيقوى بهذا القول من قال إن أمرها ب " قولي " إنما أريد به الإشارة ، ويروى أنهم لما أشارت إلى

الطفل قالوا استخفافها بنا أشد علينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة التقرير ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ وإنما هي في معنى هو ويحتمل أن تكون الناقصة والأظهر أنها التامة وقد قال أبو عبيدة ﴿ كان ﴾ هنا لغو ، وقال الزجاج والفراء ﴿ مَنْ ﴾ شرطية في قوله ﴿ من كان ﴾ "ع" ونظير كان هذه قول رؤية : [الرجز]

أبعد ان لاح بك القتير . . . والرأس قد كان له شكير

و ﴿ صبياً ﴾ إما خبر ﴿ كان ﴾ على تجوز وتخيل في كونها ناقصة ، وإما حال يعمل فيه الاستقرار المقدر في الكلام . وروي أن ﴿ المهد ﴾ يراد به حجر أمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(256/484)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾

قال ابن عباس في رواية أبي صالح : أتتهم به بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها .

وقال في رواية الضحاك : انطلق قومها يطلبونها ، فلما رأَتْهم حملت عيسى فتلقَّتْهم به ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فأتتْ به قومها تحمله ﴾ .

فإن قيل : "أتت به" يغني عن "تحمله" فلا فائدة للتكرير .

فالجواب : أنه لما ظهرت منه آيات ، جاز أن يتوهَّم السامع "فأتت به" أن يكون ساعياً على قدميه ، فيكون سعية آيةً كنطقه ، فقطع ذلك التوهُّمَ ، وأعلم أنه كسائر الأطفال ، وهذا مِثْل قول العرب : نظرت إلى فلان بعيني ، فنفَوْا بذلك نظر العطف ؛ والرحمة ، وأثبتوا [أنه] نظرُ عَيْنٍ .

وقال ابن السائب : لما دخلت على قومها بَكَوْا ، وكانوا قوماً صالحين ؛ و ﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : شيئاً عظيماً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

قال الفراء : الفريُّ : العظيم ، والعرب تقول : تركته يفري الفريَّ ، إذا عمل فأجاد العمل فَفَضَلَ الناس ، قيل هذا فيه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فما رأيت عبقرياً يفري فَرْيَ عمر " .

والثاني : عَجباً فائقاً ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : شيئاً مصنوعاً ، ومنه يقال : فريت الكذب ، وافتريته ، قاله اليزيدي .

قوله تعالى : ﴿ يا أخت هارون ﴾ في المراد بهارون هذا خمسة أقوال .

أحدها : أنه أخ لها من أُمِّها ، وكان من أمثل فتى في بني إسرائيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال الضحاك : كان من أبيها وأُمِّها .

والثاني : أنها كانت من بني هارون ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

وقال السدي : كانت من بني هارون أخي موسى عليهما السلام ، فنُسبت إِليه ، لأنها من ولده .

(257/484)

والثالث : أنه رجل صالح كان في بني إِسرائيل ، فشبَّهوها به في الصلاح ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، وقتادة ، ويدل عليه ما روى المغيرة بن شعبة قال : " بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إِلى أهل نجران ، فقالوا : ألستم تقرؤون : "يا أخت هارون" وقد علمتم ما كان بين موسى وعيسى ؟ فلم أدرِ ما أُجيبهم ، فرجعت إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتُه ، فقال : "ألا أخبرتَهم أنهم كانوا يسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلَهم" " .

والرابع : أن قوم هارون كان فيهم فُسَّاق وزُناةٌ ، فنسبوها إِليهم ، قاله سعيد بن جبير .

والخامس : أنه رجل من فُسَّاق بني إِسرائيل شبَّهوها به ، قاله وهب بن منبِّه .

فعلى هذا يخرج في معنى "الأخت" قولان .

أحدهما : أنها الأخت حقيقة .

والثاني : المشابهة ، لا المناسبة ، كقوله تعالى : ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ [الزخرف : 48] .

قوله تعالى : ﴿ ما كان أبوكِ ﴾ يعنون : عِمران ﴿ امرأَ سَوْءٍ ﴾ أي : زانياً ﴿ وما كانت أُمُّكِ ﴾ حنَّة ﴿ بَغِيّاً ﴾ أي : زانية ، فمن أين لكِ هذا الولد ؟ !

قوله تعالى : ﴿ فأشارت ﴾ أي : أومأت ﴿ إليه ﴾ أي : إلى عيسى فتكلَّم .

وقيل المعنى : أشارت إليه أنْ كلِّموه .

وكان عيسى قد كلَّمها حين أتت قومها ، وقال : يا أُماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه ، فلما أشارت أن كلِّموه ، تعجَّبوا من ذلك ، و ﴿ قالوا كيف نكلِّم من كان ﴾ وفيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها زائدة ، فالمعنى كيف نكلِّم صبياً في المهد ؟ ! .

والثاني : أنها في معنى : وقع ، وحدث .

والثالث : أنها في معنى الشرط والجزاء ، فالمعنى : من يكن في المهد صبياً ، فكيف نكلِّمه ؟ ! حكاها الزجاج ، واختار الأخير منها ؛ قال ابن الأنباري : وهذا كما تقول : كيف أعظ من كان لا يقبل موعظتي ؟ ! أي : من يكن لا يقبل ، والماضي يكون بمعنى المستقبل في الجزاء .

والرابع : أن "كان" بمعنى : صار ، قاله قطرب .

(258/484)

وفي المراد بالمهد قولان .

أحدهما : حِجْرُها ، قاله نوفٌ ، وقتادة ، والكلبي .

والثاني : سرير الصبي المعروف ، حكاه الكلبي أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(259/484)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾

روي أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها ، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه .

قال ابن عباس : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس ، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله ، فكان الحمل والولادة في ثلاث ساعات من النهار .

وقال الكلبي : ولدت حيث لم يشعر بها قومها ، ومكثت أربعين يوماً للنفاس ، ثم أتت قومها تحمله ، فلما رأوها ومعها الصبي حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين ؛ فقالوا منكِرين : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي جئت بأمر عظيم كالآتي بالشي يفتريه .

قال مجاهد : "فريا" عظيماً .

وقال سعيد بن مسعدة : أي مختلقاً مفتعلاً ؛ يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد .

والولد من الزنى كالشيء المفترى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة : 12] أي بولد يقصد إلحاقه بالزوج وليس منه .

يقال : فلان يفرِي الفرِيّ أي يعمل العمل البالغ ، وقال أبو عبيدة : الفريّ العجيب النادر ؛ وقاله الأخفش .

قال : فرياً عجيباً .

والفَرْي القطع كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع القول بكونه عجيباً نادراً .

وقال قطرب : الفري الجديد من الأسقية ؛ أي جئت بأمر جديد بديع لم تسبقي إليه .

وقرأ أبو حيوة : "شَيْئاً فَرْياً" بسكون الراء .

وقال السدي ووهب بن منبه : لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل ، فاجتمع رجالهم ونساؤهم ، فمدّت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحمُلت كذلك .

وقال آخر : ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى ؛ فتحامى الناس من أن يضربوها ، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها ، وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون ؛ فقالوا : "يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً" أي عظيماً ؛ قال الراجز :

قد أَطعَمتْنِي دَقَلاً حَوْلِيًا . . .

مُسوِّساً مُدَوِّداً حَجْرِيًا

(260/484)

قد كنتِ تَفْرِين بِهِ الفرِيًا . . .

أي (تعظمينه) .

قوله تعالى : ﴿ يا أخت هَارُونَ ﴾ اختلف الناس في معنى هذه الأخوة ، ومن هارون ؟

فقيل : هو هارون أخو موسى ؛ والمراد من كنا نظنها مثل هارون في العبادة تأتي بمثل هذا .

قيل : على هذا كانت مريم من ولد هارون أخي موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده ؛ كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وللعربي يا أخا العرب .

وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون ؛ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسم هارون أخي موسى ، وكان أمثل رجل في بني إسرائيل ؛ قاله الكلبي .

وقيل : هارون هذا رجل صالح في ذلك الزمان تبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم اسمه هارون .

وقال قتادة : كان في ذلك الزمان في بني إسرائيل عابد منقطع إلى الله عز وجل يسمى هارون فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبلُ ؛ إذ كانت موقوفة على خدمة البيع ؛ أي يا هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لذلك .

وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : إن مريم ليست بأخت هارون أخي موسى ؛ فقالت له عائشة : كذبت .

فقال لها : يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر ، وإلا فإني أجد بينهما من المدّة ستمائة سنة .

قال : فسكتت .

وفي صحيح مسلم " عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمتُ نجران سألوني فقالوا : إنكم تقرؤون "يا أخت هارون" وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك ، فقال : "إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم" " وقد جاء في بعض طرقه في غير الصحيح أن النصارى قالوا له : إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون وبينهما في المدّة ستمائة سنة ؟ ! قال المغيرة : فلم أدر ما أقول ؛ وذكر الحديث .

والمعنى أنه اسم وافق اسماً .

ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء ؛ والله أعلم .

(261/484)

قلت : فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهارون زمان مديد .

قال الزمخشري : كان بينهما وبينه ألف سنة أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى وهارون ؛ وإن صح فكما قال السدي لأنها كانت من نسله ؛ وهذا كما تقول للرجل من قبيلة : يا أخا فلان .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " إن أخا صُدَاء قد أذَّن فمن أذَّنَ فهو يُقيم " وهذا هو القول الأوّل .

ابن عطية : وقالت فرقة بل كان في ذلك الزمان رجل فاجر اسمه هارون فنسبوها إليه على جهة التعيير والتوبيخ ؛ ذكره الطبري ولم يسمّ قائله .

قلت : ذكره الغزنوي عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقاً مَثَلاً في الفجور فنسبت إليه .

والمعنى : ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها ؟ ! وهذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح .

وذلك يوجب عندنا الحدّ وسيأتي في سورة "النور" القول فيه إن شاء الله تعالى .

وهذا القول الأخير يردّه الحديث الصحيح ، وهو نص صريح فلا كلام لأحد معه ، ولا غبار عليه .

والحمد لله .

وقرأ عمر بن لجأ التَّيْمي "مَا كَانَ أَبَاكِ امْرُأُ سَوْءٍ" .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت ب"إني نذرت للرحمن صوماً" وإنما ورد بأنها أشارت ، فيقوى بهذا قول من قال : إن أمرها ب"قولي" إنما أريد به الإشارة .

ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا : استخفافها بنا أشدّ علينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة التقرير : "كيف نكلم من كان فِي المهدِ صبياً" و"كان" هنا ليس يراد بها الماضي ؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبياً ، وإنما هي في معنى هو (الآن) .

وقال أبو عبيدة : "كان" هنا لغو ؛ كما قال :

وجِيرانٍ لنا كانوا كرامِ . . .

وقيل : هي بمعنى الوجود والحدوث كقوله : "وَإِنْ كَانَ ذو عُسْرَةٍ" وقد تقدّم .

وقال ابن الأنباري : لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت "صبياً" ، ولا أن يقال "كان" بمعنى حدث ، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر ، تقول : كان الحَرُّ وتكتفي به .

والصحيح أن "من" في معنى الجزاء و"كان" بمعنى يكن ؛ والتقدير : من يكن في المهد صبياً فكيف نكلمه ؟ ! كما تقول : كيف أعطي من كان لا يقبل عطية ؛ أي من يكن لا يقبل .

والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الفرقان : 10] أي إن يشأ يجعل .

وتقول : من كان إليّ منه إحسان كان إليه مني مثله ، أي من يكن منه إلى إحسان يكن إليه مني مثله .

"والمهد" قيل : كان سريراً كالمهد .

وقيل : "المهد" هاهنا حجر الأم .

وقيل : المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوَّم في المهد لصغره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فأتت به ﴾ قيل إتيانها كان من ذاتها .

قيل : طهرت من النفاس بعد أربعين يوماً وكان الله تعالى قد أراها آيات واضحات ، وكلمها عيسى ابنها وحنت إلى الوطن وعلمت أن عيسى سيكفيها من يكلمها فعادت إلى قومها .

وقيل : أرسلوا إليها لتحضري إليها بولدك ، وكان الشيطان قد أخبر قومها بولادتها وفي الكلام حذف أي فلما رأوها وابنها ﴿ قالوا ﴾ قال مجاهد والسدّي : الفري العظيم الشنيع .

وقرأ أبو حيوة فيما نقل ابن عطية ﴿ فرياً ﴾ بسكون الراء ، وفيما نقل ابن خالويه فرئاً بالهمز ، و﴿ هارون ﴾ شقيقها أو أخوها من أمّها ، وكان من أمثل بني إسرائيل ، أو ﴿ هارون ﴾ أخو موسى إذ كانت من نسله ، أو رجل صالح من بني إسرائيل شبهت به ، أو رجل من النساء وشبهوها به أقوال .

والأولى أنه أخوها الأقرب .

وفي حديث المغيرة حين خصمه نصارى نجران في قوله تعالى ﴿ يا أخت هارون ﴾ والمدة

بينهما طويلة جداً فقال له الرسول : " ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم " وأنكروا عليها ما جاءت به وأن أبويها كانا صالحين ، فكيف صدرت منك هذه الفعلة القبيحة وفي هذا دليل على أن الفروع غالباً تكون زاكية إذا زكت الأصول ، وينكر عليها إذا جاءت بضد ذلك .

وقرأ عمر بن لجا التيمي الشاعر الذي كان يهاجي جريراً ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء ﴾ لجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة وحسن ذلك قليلاً كونها فيها مسوغ جواز الابتداء وهو الإضافة ، ولما اتهموها بما اتهموها نفوا عن أبويها السوء لمناسبة الولادة ، ولم ينصوا على إثبات الصلاح وإن كان نفي السوء يوجب الصلاح ونفي البغاء يوجب العفة لأنهما بالنسبة إليهما نقيضان .

روي أنها لما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك .

وقيل : هموا برجمها حتى تكلم عيسى فتركوها .

﴿ فأشارت ﴾ أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه .

وقيل : كان المستنطق لعيسى زكريا .

ويروى أنهم لما أشاروا إلى الطفل قالوا : استخفافها بنا أشد علينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة الإنكار والتهكم بها أي إن من كان في المهد يُربيّ لا يكلم ، وإنما أشارت إليه لما تقدم لها من وعده أنه يجيبهم عنها ويغنيها عن الكلام .

وقيل : بوحي من الله إليها .

و﴿ كان ﴾ قال أبو عبيدة : زائدة .

وقيل : تامّة وينتصب ﴿ صبياً ﴾ على الحال في هذين القولين ، والظاهر أنها ناقصة فتكون بمعنى صار أو تبقى على مدلولها من اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي ، ولا يدل ذلك على الانقطاع كما لم يدل في قوله ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ وفي قوله ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ والمعنى ﴿ كان ﴾ وهو الآن على ما كان ، ولذلك عبر بعض أصحابنا عن ﴿ كان ﴾ هذه بأنها ترادف لم يزل وما ردّ به ابن الأنباري كونها زائدة من أن الزائدة لا خبر لها ، وهذه نصبت ﴿ صبيا ﴾ خبراً لها ليس بشيء لأنه إذ ذاك ينتصب على الحال ، والعامل فيها الاستقرار .

وقال الزمخشري : كان لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة والدال عليه معنى الكلام وأنه مسوق للتعجب ، ووجه آخر أن يكون ﴿ نكلم ﴾ حكاية حال ماضية أي كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس ﴿ صبياً ﴾ .

﴿ في المهد صبيا ﴾ فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا انتهى .

والظاهر أن ﴿ من ﴾ مفعول بنكلم .

ونقل عن الفراء والزجّاج أن ﴿ من ﴾ شرطية و﴿ كان ﴾ في معنى يكن وجواب الشرط محذوف تقديره فكيف ﴿ نكلم ﴾ وهو قول بعيد جداً .

وعن قتادة أن ﴿ المهد ﴾ حجر أمه .

وقيل : سريره .

وقيل : المكان الذي يستقر عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(265/484)

وقال أبو السعود :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا ﴾

أي جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم عندما طهرت من نفاسها ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ أي حاملةً له ﴿ قَالُواْ ﴾ مؤنبين لها ﴿ يا مريم لَقَدْ جِئْتَ ﴾ أي فعلت ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي عظيماً بديعاً منكراً من فرَى الجلدَ أي قطعه ، أو جئتِ مجيئاً عجيباً عبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب .

﴿ ياأخت هارون ﴾ استئنافٌ لتجديد التعييرِ وتأكيدِ التوبيخ عنَوا به هارونَ النبيَّ عليه السلام ، وكانت مِن أعقاب مَن كان معه في طبقة الأخوة ، وقيل : كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة ، وقيل : هو رجلٌ صالح أو طالح كان في زمانهم شبّهوها به ، أي كنت عندنا مثله في الصلاح أو شتموها به ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْء وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ تقريرٌ لكون ما جاءت به فِرّياً منكراً وتنبيهٌ على أن ارتكابَ الفواحش من أولاد الصالحين أفحشُ .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أنْ كلّموه ، والظاهر أنها حينئذ بينت نذرَها وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أُمرت ، ففيه دَلالةٌ على أن المأمورَ به بيانُ نذرها بالإشارة لا بالعبارة ، والجمعُ بينهما مما لا عهدَ به ﴿ قَالُواْ ﴾ منكرين لجوابها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى المهد صَبِيّاً ﴾ ولم نعهَد فيما سلف صبياً يكلمه عاقل ، وقيل : (كان) لإيقاع مضمونِ الجملة في زمان ماضٍ مبهمٍ صالحٍ لقريبه وبعيده ، وهو ها هنا لقريبه خاصة بدليل أنه مَسوقٌ للتعجب ، وقيل : هي زائدة والظرفُ صلة مَنْ وصبياً حال من المستكنّ فيه أو هي تامة أو دائمة كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾

أي جاءتهم مع ولدها حاملة إياه على أن الباء للمصاحبة ولو جعلت للتعدية صح أيضاً .

والجملة في موضع الحال من ضمير مريم أو من ضمير ولدها .

وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيد بن منصور .

وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها قيل : إنها حنت إلى الوطن وعلمت أن ستكفي أمرها فأتت به فلما دخلت عليهم تباكوا ، وقيل : هموا برجمها حتى تلكم عيسى عليه السلام .

وجاء في رواية عن الحبر أنها لما انتبذت من أهلها وراء الجبل فقدوها من محرابها فسألوا يوسف عنها فقال : لا علم لي بها وإن مفتاح باب محرابها عند زكريا فطلبوا زكريا وفتحوا الباب فلم يجدوها فاتهموه فاخذوه ووبخوه فقال رجل : إني رأيتها في موضع كذا فخرجوا في طلبها فسمعوا صوت عقعق في رأس الجذع الذي هي من تحته فانطلقوا إليه فلما رأتهم قد أقبلوا إليها احتملت الولد إليهم حتى تلقتهم به ثم كان ما كان .

فظاهر الآية والاخبار أنها جاءتهم به من غير طلب منهم ، وقيل : أرسلوا إليها لتحضري إلينا بولدك وكان الشيطان قد أخبرهم بولادتها فحضرت إليهم به فلما رأوهما ﴿ قَالُواْ يا

مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ ﴾ فعلت ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ قال قتادة : عظيماً ، وقيل : عجيبا .

وأصله من فرى الجلد قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد ، وقيل : من أفراه كذلك .

واختير الأول لأن فعيلا إنما يصاغ قياساً من الثلاثي .

وعدم التفرقة بينه وبين المزيد في المعنى هو الذي ذهب إليه صاحب القاموس .

وفي الصحاح عن الكسائي أن الفرى القطع على وجه الإصلاح والإفراء على وجه الإفساد .

وعن الراغب مثل ذلك .

وقيل الإفراء عام .

وإياً ما كان فقد استعير الفرى لما ذكر في تفسيره .

وفي البحر أنه يستعمل في العظيم من الأمر شراً أو خيراً قولاً أو فعلاً ، ومنه في وصف عمر رضي الله تعالى عنه فلم أر عبقرياً يفري فريه ، وفي المثل جاء يفري الفرى .

(267/484)

ونصب ﴿ شَيْئًا ﴾ على أنه مفعول به .

وقيل على أنه مفعول مطلق أي لقد جئت مجيئاً عجيباً ، وعبر عنه بالشيء تحقيقاً

للاستغراب .

وقرأ أبو حيوة فيما نقل ابن عطية ﴿ فَرِيّاً ﴾ بسكون الراء وفيما نقل ابن خالويه ﴿ فرأ ﴾ بالهمزة .

﴿ يَا أُخْتَ هارون ﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ .

وليس المراد بهرون أخا موسى بن عمران عليهما السلام لما أخرج أحمد .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي .

والطبراني .

وابن حبان .

وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون ﴿ فَأَرْسِلْ إلى هارون ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : "ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم "بل هو على ما روي عن الكلبي أخ لها من أبيها .

وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد عن قتادة قال : هو رجل صالح في بني إسرائيل .

وروي عنه أنه قال ذكر لنا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً من بني إسرائيل كلهم يسمى هارون .

والأخت على هذا بمعنى المشابهة وشبهوها به تهكماً أو لما رأوا قبل من صلاحها ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه رجل طالح فشبهوها به شتماً لها .

وقيل : المراد له هارون أخو موسى عليهما السلام ، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم أيضاً عن السدى .

وعلي بن أبي طلحة .

وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة فوصفها بالأخوة لكونها وصف أصلها .

وجوز أن يكون هارون مطلقاً على نسله كهاشم .

وتميم ، والمراد بالأخت أنها واحدة منهم كما يقال أخا العرب وهو المروى عن السدى .

﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْء وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ تقرير لكون ما جاءت به فريا أو تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش .

وفيه دليل على أن الفروع غالباً تكون زاكية إذا زكت الأصول وينكر عليها إذا جاءت بضد ذلك .

وقرأ عمر بن بجاء التيمي الشاعر الذي كان يهاجي جريراً ﴿ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ بجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة.

وحسن ذلك قليلاً وجود مسوغ الابتداء فيها وهو الإضافة.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أن كلموه.

قال شيخ الإسلام: والظاهر أنها بينت حينئذ نذرها وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالإشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به ﴿ قَالُواْ ﴾ منكرين لجوابها، وفي بعض الآثار أنها لما أشارت إليه أن كلموه قالوا: استخفافها بنا أشد من زناها حاشاها ثم قالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ قال قتادة: المهد حجر أمه، وقال عكرمة: المرباة أي المرجحة، وقيل: سريره.

وقيل: المكان الذي يستقر عليه.

واستشكلت الآية بأن كل من يكلمه الناس كان في المهد صبياً قبل زمان تكليمه فلا يكون محلاً للتعجب والإنكار.

وأجاب الزمخشري عن ذلك بوجهين، الأول أن كان الإيقاع مضمون لجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة والدال عليه أن الكلام مسوق للتعجب

فيكون المعنى كيف نكايم من كان بالأمس وقريباً منه من هذا الوقت في المهد وغرضهم من ذلك استمرار حال الصبي به لم يبرح بعد عنه ولو قيل : من هو في المهد لم يكن في تلك الوكادة من حيث السابق كالشاهد على ذلك ، ومن على هذا موصولة يراد بها عيسى عليه السلام .

الثاني أن يكون ﴿ نُكَلِّمُ ﴾ حكاية حال ماضية ومن موصوفة ، والمعنى كيف نكلم الموصوفين بأنهم في المهد أي ما كلمناهم إلى الأن حتى نكلم هذا ، وفي العدول عن الماضي إلى الحال إفادة التصوير والاستمرار .

وهذا كما في الكشف وجه حسن ملائم .

وقال أبو عبيدة : كان زائدة لمجرد التأكيد من غير دلالة على الزمان و ﴿ صَبِيّاً ﴾ حال مؤكدة والعامل فيها الاستقرار ، فقول ابن الأنباري .

(269/484)

إن كان نصبت هنا الخبر والزائدة لا تنصبه ليس بشيء ، والمعنى كيف نكلم من هو في المهد الآن حال كونه صبياً ، وعلى قول من قال : إن كان الزائدة لا تدل على حدث لكنها تدل على زمان ماض مقيد به ما زيدت فيه كالسيرافي لا يندفع الإشكال بالقول بزيادتها .

وقال الزجاج : الأجود أن تكون من شرطية لا موصولة ولا موصوفة أي من كان في المهد فكيف نكلمه وهذا كما يقال كيف أعظم من لا يعمل بموعظتي والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء فلا إشكال في ذلك ، ولا يخفى بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(270/484)

وقال القاسمى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي : عظيماً منكراً .

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ استئناف لتجديد التعبير ، وتأكيد التوبيخ ، وتقرير لكون ما جاءت به فرياً . وهارون هو النبيّ الشهير ، صلوات الله عليه يعنون أنها مثله في الصلاح . لأن الأخ والأخت يستعمل بمعنى المشابه كثيراً .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا ﴾ منكرين لجوابها : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ ولم يعهد تكليم عاقل لصبيّ في المهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 97 ﴾

(271/484)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) ﴾

لما اطمأنت مريم بسبب ما رأت من الآيات الخارقة للعادة التي تقدم ذكرها آنفاً - أتت به (أي بعيسى) قومها تحمله غير محتشمة ولا مكترثة بما يقولون ، فقالوا لها : ﴿ يامريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ ! قال مجاهد وقتادة وغير واحد : « فرياً » أي عظيماً . وقال سعيد بن مسعدة : « فرياً » اي مختلفاً مفتعلاً . وقال أبو عبيدة والأخفش : « فريا » اي عجيباً نادراً .

(272/484)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يفهم من الآيات القرآني أن مرادهم بقولهم ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي منكراً عظيماً ، لأن الفري فعيل من الفرية ، يعنون به الزنى ، لأن ولد الزنى كالشيء المفترى المختلق ، لأن الزانية تدعي إلحاقه بمن ليس أباه . ويدل على أن مرادهم بقولهم « فريا » الزنى قوله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ [النساء : 156] لأن ذلك البهتان العظيم الذي هو ادعاؤهم أنها زنت ، وجاءت

بعيسى من ذلك الزنى (حاشاها وحاشاه من ذلك) هو المراد بقولهم لها : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ ويدل لذلك قوله تعالى بعده : ﴿ يا أخت هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ والبغي الزانية كما تقدم . يعون كان أبواك عفيفين لا يفعلان الفاحشة ، فمالك أنت ترتكبينها ! ! ومما يدل على أن ولد الزنى كالشيء المفترى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة : 12] قال بعض العلماء : معنى قوله تعالى : ﴿ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ أي ولا يأتين بولد زنى يقصدن إلحاقه برجل ليس أباه ، هذا هو الظاهر الذي دل عليه القرآن في معنى الآية . وكل عمل أجاده عامله فقد فراه لغةن ومنه قول الراجز وهو زرارة بن صعب بن دهر :

قد أطعمتني دقلا حوليا . . . مسوساً مدوداً حجريا

قد كنت تفرين به الفريا . . . يعنى تعملين به العمل العظيم . والظاهر أنه يقصد أنها تأكله أكلاً لما عظيماً .

(273/484)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يا أخت هَارُونَ ﴾ ليس المراد به هارون بن عمران أخا موسى كما يظنه بعض الجهلة . وإنما هو رجل آخر صالح من بني إسرائيل يسمى

هارون . والدليل على أنه ليس هارون أخا موسى ما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحة : حدثنا أبو بكر بن شيبة ، ومحمد بن عبد الله بن نمير ، وأبو سعيد الأشج ، ومحمد بن المثنى الغنزي . واللفظ لابن نمير قالوا : حدثنا ابن إدريس عن أبيه ، عن سماك بن حرب ، عن علقمة بن وائل ، عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألوني فقالوا : إنكم تقرؤون ﴿ ياأخت هَارُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : « إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين منهم »

(274/484)

اه ، هذا لفظ مسلم في الصحيح . وهو دليل على أنه رجل آخر غير هارون أخي موسى ، ومعلوم أن هارون أخا موسى قبل مريم بزمن طويل . وقال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) في قول الزمخشري : إنما عنوا هارون النَّبي ما نصه : لم أجده هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند ، ورواه الطبري عن السدي قوله وليس بصحيح . فإن عند مسلم والنسائي والترمذي عن المعيرة بن شعبة قال : بعثني النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى نجران فقالوا لي : أرأيتم شيئاً يقرؤونه « يا أخت هارون » وبين موسى وعيسى ما شاء

الله من السنين ، فلم أدر ما أجيبهم ؟ فقال لي النَّبي صلى الله عليه وسلم : « هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم » وروى الطبري من طريق ابن سرين : نبئت أن كعباً قال : إن قوله تعالى ﴿ ياأخت هَارُونَ ﴾ ليس بهارون أخي موسى ، فقالت عائشة : كذبت ؟ فقال لها : يا أم المؤمنين ، إن كان النَّبي صلى الله عليه وسلم قال فهو أعلم ، وإلا فأنا أجد بينهم ستمائة سنة – انتهى كلام ابن حجر .

(275/484)

وقال صاحب الدر المنثور في قوله تعالى ﴿ ياأخت هَارُونَ ﴾ : أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد وعبد بن حميد ، ومسلم والترمذي والنسائي ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن حبان والطبراني ، وابن مردوية والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران . . إلى آخر الحديث كما تقدم أنفاً . وبهذا الحديث الصحيح الذي رأيت إخراج هؤلاء الجماعة له ، وقد قدمناه بلفظه عند مسلم في صحيحه – تعلم أن قول من قال : إن المراد هارون أخو موسى باطل سواء قيل إنها أخته ، أو أن المراد بأنها أخته أنها من ذريته ، كما يقال للرجل : يا أخا تميم ، والمراد يا أخا بني تميم ، لأنه من ذرية تميم . ومن هذا القبيل قوله : ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾ [الأحقاف : 21] ، لأن

هوداً إنما قيل له أخو عاد لأنه من ذريته ، فهو أخو بني عاد ، وهم المراد بعاد في الآية لأن المراجد بها القبيلة لا الجد . وإذا حققت أن المراد بهارون في الآية غير هاورن أخي موسى ، فاعلم أن بعض العلماء : قال : إن لها أخاً اسمه هارون . وبعضهم يقول : إن هارون المذكور رجل من قولها مشهور بالصلاح ، وعلى هذا فالمراد بكونها أخته أنها تشبهه في العبادة والتقوى . وإطلاق اسم الأخ على النظير المشابه معروف في القرآن وفي كلام العرب ، فمنه في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف : 48] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين ﴾ [الإسراء : 27] الآية ، وقوله تعالى ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 202] ، ومنه في كلام العرب قوله :

وكل أخ يفارقه أخوه . . . لعمر أبيك إلا الفرقدان

فجلع الفرقدين أخوين .

وكثيراً ما تطلق العرب اسم الأخ على الصديق والصاحب ، ومن إطلاقه على الصاحب قول القلاخ بن حزن :

أخا الحرب لباسا إليها جلالها . . . وليس بولاج الخوالف أعقلا

فقوله : « أخا الحرب » يعنى صاحبها . ومنه قول الراعي وقيل لأبي ذؤيب :

عشية سعدي لو تراءت بدومة . . . تجر دونه وحجيج

قلى دينه واهتاج للشوق إنها . . . على النأي إخوان العزاء هيوج

فقوله « إخوان العزاء » يعني أصحابا لصبر .

(277/484)

قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ .

معنى إشارتها إليه : أنهم يكلمونه فيخبرهم بحقيقة الأمر . والدلي على أن هذا هو مرادها بإشارتها إليه قوله تعالى بعده : ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ فالفعل الماضي الذي هو « كان » بمعنى الفعل الماضرع المقترت بالحال كما يدل عليه السياق . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(278/484)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾

دلت الفاء على أنّ مريم جاءت أهلها عقب انتهاء الكلام الذي كلّمها ابنها .

وفي إنجيل لوقا : أنها بقيتْ في بيت لحم إلى انتهاء واحد وأربعين يوماً ، وهي أيام التطهير من دم النّفاس ، فعلى هذا يكون التّعقيب المستفاد من الفاء تعقيباً عرفياً مثل : تزوّج فوُلد له .

و﴿ قَوْمَهَا ﴾ : أهل محلتها .

وجملة ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ حال من تاء ﴿ أتت .

﴾ وهذه الحال للدلالة على أنها أتت معلنة به غير ساترة لأنها قد علمت أن الله سيبرئها ممّا يُتهم به مِثل من جاء في حالتها .

وجملة ﴿ قالُوا يا مَرْيَم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً .

وقال قومها هذه المقالة توبيخاً لها .

وفَرِيّ : فعيل من فَرَى من ذوات الياء .

ولهذا اللفظ عدّة إطلاقات ، وأظهر محامله هنا أنه الشنيع في السوء ، قاله مجاهد والسدّي ، وهو جاءٍ من مادة افتَرى إذا كذب لأن المرأة تنسب ولدها الذي حملت به من زنى إلى زوجها كذباً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ [الممتحنة : 12] .

ومن أهل اللغة مَن قال : إن الفريّ والفرية مشتقان من الإفراء بالهمز ، وهو قطع الجلد لإفساده أو لتحريقه ، تفرقة بين أفرى وفَرى ، وأن فرى المجرد للإصلاح .

والأخت : مؤنث الأخ ، اسم يضاف إلى اسم آخر ، فيطلق حقيقة على ابنة أبوي ما أضيفت إلى اسمه أو ابنة أحد أبويه .

ويطلق على من تكون من أبناء صاحب الاسم الذي تضاف إليه إذا كان اسم قبيلة كقولهم : يا أخا العرب ، كما في حديث ضيف أبي بكر الصديق قوله لزوجه : "يا أخت بني فراس ما هذا ؟" ، فإذا لم يذكر لفظ (بني) مضافاً إلى اسم جد القبيلة كان مقدّراً ، قال سهل بن مالك الفزاري:

يا أخت خير البدو والحضارة . . .

كيف تَرَيْن في فتى فزارة

يريد يا أخت أفضل قبائل العرب من بدوها وحضرها .

(279/484)

فقوله تعالى : ﴿ يا أُخْتَ هارُونَ ﴾ يحتمل أن يكون على حقيقته ، فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحاً في قومه ، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ ، أي ما كان لأخت

مثله أن تفعل فعلتك ، وهذا أظهر الوجهين .

ففي "صحيح مسلم" وغيره عن المغيرة ابن شعبة قال : "بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تَقرؤون ﴿ يا أُخْتَ هارُونَ ﴾ ومُوسى قبلَ عيسى بكذا وكذا ؟ قال المغيرة : فلم أدر ما أقول ، فلما قدمتُ على رسول الله ذكرت ذلك له ، فقال : ألم يعلموا أنهم كانوا يُسمُّون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم" أ هـ .

ففي هذا تجهيل لأهل نجران أن طعنوا في القرآن على توهم أن ليس في القوم من اسمه هارون إلاّ هارون الرسول أخا موسى .

ويحتمل أن معنى ﴿ يا أُخْتَ هارُونَ ﴾ أنها إحدى النساء من ذرّية هارون أخي موسى ، كقول أبي بكر : يا أخت بني فراس .

وقد كانت مريم من ذرية هارون أخي موسى من سبط لاوي .

ففي إنجيل لوقا كان كاهن اسمه زكرياء من فرقة أبِيّا وامرأتُه من بنات هارون واسمها إليصابات ، وإليصابات زوجة زكرياء نسيبة مريم ، أي ابنة عمّها ، وما وقع للمفسرين في نسب مريم أنها من نسل سليمان بن داوود خطأ .

ولعل قومها تكلموا باللفظين فحكاه القرآن بما يصلح لهما على وجه الإيجاز .

وليس في هذا الاحتمال ما ينافي حديث المغيرة بن شعبة .

والسّوْء بفتح السين وسكون الواو : مصدر ساءه ، إذا أضرّ به وأفسد بعض حاله ،

فإضافة اسمٍ إليه تفيد أنه من شؤونه وأفعاله وأنه هو مصدر له .

فمعنى ﴿ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ رَجلَ عمل مفسد .

ومعنى البغي تقدّم قريباً .

وعنوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بأمر ليس من شأن أهلها ، أي أتت بسوء ليس من شأن أبيها وبغاء ليس من شأن أمّها ، وخالفت سيرة أبويها فكانت امرأة سوء وكانت بغياً ؛ وما كان أبوها امرأ سوء ولا كانت أمها بغياً فكانت مبتكرة الفواحش في أهلها .

(280/484)

وهم أرادوا ذمّها فأتوا بكلام صريحه ثناء على أبويها مقتض أن شأنها أن تكون مِثل أبويها .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) ﴾

أي أشارت إليه إشارة دلّت على أنها تُحيلهم عليه ليسألوه عن قصته ، أو أشارت إلى أن يسمعوا منه الجواب عن توبيخهم إياها وقد فهموا ذلك من إشارتها .

ولما كانت إشارتها بمنزلة مراجعة كلام حكى حِوارهم الواقع عقب الإشارة بجملة القول مفصولةً غير معطوفة .

والاستفهام : إنكار ؛ أنكروا أن يكلموا من ليس من شأنه أن يتكلم ، وأنكروا أن تحيلهم

على مكالمته ، أي كيف نترقب منه الجواب أو كيف نلقي عليه السؤال ، لأن الحالتين تقتضيان التكلم .

وزيادة فعل الكون في ﴿ مَن كَانَ فِي المَهدِ ﴾ للدلالة على تمكن المظروفية في المهد من هذا الذي أحيلوا على مكالمته ، وذلك مبالغة منهم في الإنكار ، وتعجب من استخفافها بهم .

ففعل (كان) زائد للتوكيد ، ولذلك جاء بصيغة المضي لأن (كان) الزائدة تكون بصيغة الماضي غالباً .

وقوله ﴿ فِي المَهْدِ ﴾ خبر (مَن) الموصولة .

و ﴿ صَبِيّاً ﴾ حال من اسم الموصول .

و(المَهْدِ) فراش الصبي وما يمهد لوضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(281/484)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾

ونعجب للسيدة مريم ، فبدل أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس ، أو

تنتقل به إلى مكان آخر في فيافي الأرض إذا بها تحمله ، وتذهب به ، وتبادر به قومها ، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحجة التي معها ، والتي ستوافيها على يد وليدها .

لذلك لما سأل بعض المستشرقين الإمام محمد عبده رحمه الله في باريس : بأيِّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حديث الإفْكِ ؟ سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل ، لكنهم يرددونه كأنهم لا يفهمون .

فأجاب الشيخ رحمه الله ببساطة : بالوجه الذي قابلتْ به مريم قومها وهي تحمل وليدها . أي : بوجه الواثق من البراءة ، المطمئن إلى تأييد الله ، وأنه سبحانه لن يُسْلِمها أبداً ؛ لذلك لما نزلتْ براءة عائشة في كتاب الله قالوا لها : اشكري النبي ، فقالت : بل أشكر الله الذي برأني من فوق سبع سموات .

فلما رآها القوم على هذه الحال قالوا فيها قولاً غليظاً : ﴿ يا مريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ [مريم : 27] فرياً : الفَرْيُ للجلد : تقطيعه ، والأمر الفري : الذي يقطع معتاداً عند الناس فليس له مثيل ، أو من الفِرْية وهو تعمد الكذب .

ثم قالوا لها : ﴿ يا أخت هَارُونَ مَا كَانَ ﴾

قولهم لمريم : ﴿ ياأخت هَارُونَ ﴾ [مريم : 28] هذا كلام جارح وتقريع ومبالغة منهم في تعييرها ، فنسبوها إلى هارون الذي سُمِّي على اسم النبي ، فأنتِ من بيت صلاح

ونشأت في طاعة الله ، فكيف يصدر منك هذا الفعل ؟ كما ترى أنت سيدة محجبة يصدر منها في الشارع عمل لا يتناسب ومظهرها فتلومها على هذا السلوك الذي لا يُتصوّر من مثلها .

(282/484)

وقوله : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ ﴾ [مريم : 28] الرجل السوء هو الذي إنْ صحبْتَه أصابك منه سوء ، ونالك بالأذى ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] قلنا : إن البَغيَّ : هي المرأة التي تبغي الرجال وتدعوهم إليها ، فالمراد : من أين لك هذه الصفة ، وأنت من أسرة خَيِّرة صالحة ؟

وفي هذا دليل على أن نَضْج الأُسَرِ يؤثر في الأبناء ، فحين نُكوِّن الأسرة المؤمنة والبيت الملتزم بشرع الله ، وحين نحتضن الأبناء ونحوطهم بالعناية والرعاية ، فسوف نستقبل جيلاً مؤمناً واعياً نافعاً لنفسه ولمجتمعه .

إذن : فقولهم : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] اتهام صريح لمريم ، وتأكيد على أنها وقعتْ في محظور وكأنهم مصرون على رَمْيها بالفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ ﴾

أي : حين قال القوم ما قالوا أشارتْ إلى الوليد وهي واثقة أنه سيتكلم ، مطمئنة إلى أنها لا تحمل دليل الجريمة ، بل دليل البراءة .

فلما أشارتْ إليه تقول لقومها : اسألوه ، تعجَّبُوا : ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] ونلاحظ في قولهم أنهم لم يستبعدوا أنْ يتكلّمَ الوليد ، فلم يقولوا : كيف يتكلم مَنْ كان في المهد صبياً ؟ بل قالوا : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ ﴾ [مريم : 29] أي : نحن ، فاستبعدوا أنْ يكلموه ، فكأنهم يطعنون في أنفسهم وفي قدرتهم على فَهْم الوليد إنْ كلَّمهم .

والمهد : هو المكان الممهد المعَدّ لنوم الطفل ، لأن الوليد لا يقدر أن يبعد الأذى عن نفسه ، فالكبير مثلاً يستطيع أنْ يُمهد لنفسه مكان نومه ، وأن يُخرِج منه ما يُؤرِّق نومه وراحته ، وعنده وَعْي ، فإذا آلمه شيء في نومه يستطيع أنْ يتحلَّل من الحالة التي هو عليها ، وينظر ماذا يؤلمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(283/484)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ إذ انتبذت ﴾ أي انفردت ﴿ من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ قال : قبل المشرق شاسعاً متنحياً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ قال : مكاناً أظلتها الشمس أن يراها أحد منهم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلةً ، لأن مريم اتخذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذوا ميلاده قبلة ، وإنما سجدت اليهود على حرف ، حين نتق فوقهم الجبل ، فجعلوا يتخوفون وهم ينظرون إليه ، يتخوفون أن يقع عليهم ، فسجدوا سجدة رضيها الله فاتخذوها سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : إن أهل الكتاب ، كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه ، وما صرفهم عنه إلا قول ربك : ﴿ فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ قال : خرجت منهم مكاناً شرقياً ، فصلوا قبل مطلع الشمس .

(284/484)

وأخرج ابن عساكر من طريق داود بن أبي هند ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما بلغت مريم ، فإذا هي في بيتها منفصلة ، إذ دخل عليها رجل بغير إذن ، فخشيت أن يكون دخل عليها ليغتالها فقالت : ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ قال : ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكياً ﴾ قالت : ﴿ أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴾ قال : ﴿ كذلك قال ربك ﴾ فجعل جبريل يردد ذلك عليها وتقول : ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ وتغفلها جبريل ، فنفخ في جيب درعها ، ونهض عنها ، واستمر بها حملها ، فقالت : إن خرجت نحو المغرب ، فالقوم يصلون نحو المغرب ، ولكن أخرج نحو المشرق ، حيث لا يراني أحد ، فخرجت نحو المشرق ، فبينما هي تمشي ، إذ جاءها المخاض ، فنظرت هل تجد شيئاً تستتر به ؟ فلم تر إلا جذع النخلة ، فقال : أستتر بهذا الجذع من الناس . وكان تحت الجذع نهر يجري ، فانضمت إلى النخلة ، فلما وضعته ، خر كل شيء يعبد من دون الله في مشارق الأرض ومغاربها ساجداً لوجهه . وفزع إبليس ، فخرج فصعد فلم ير شيئاً ينكره ، وأتى المشرق فلم ير شيئاً ينكره ، وجعل لا يصبر فأتى المغرب لينظر ، فلم ير شيئاً ينكره . فبينا هو يطوف إذ مر بالنخلة ، فإذا هو بامرأة معها غلام قد ولدته ، وإذا بالملائكة قد أحدقوا بهَا ، وبابنها وبالنخلة فقال : ههنا حدث الأمر ، فمال إليهم فقال : أي شيء هذا الذي حدث ؟ فكلمته الملائكة فقالوا : نبي ولد بغير ذكر . قال : أما والله لأضِلَّنَ به أكثر العالمين . أضل اليهود فكفروا به ، وأضل النصارى

فقالوا : هو ابن الله . قال : وناداها ملك من تحتها ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال إبليس : ما حملت أنثى إلا بعلمي ، ولا وضعته إلا على كفي ، ليس هذا الغلام ! لم أعلم به حين حملته أمه ، ولم أعلم به حين وضعته .

(285/484)

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر من طريق السدي ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس وعن مرة بن مسعود - رضي الله عنهما - قالا : خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها ، فلما طهرت إذ هي برجل معها ﴿ فتمثل لها بشراً ﴾ ففزعت ، وقال : ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ فخرجت وعليها جلبابها فأخذ بكمها ، فنفخ في جيب درعها ، - وكان مشقوقاً من قدامها - فدخلت النفخة صدرها ، فحملت فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها ، فلما فتحت لها الباب التزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم ، أشعرت أني حبلى . قالت مريم : أشعرت أيضاً أني حبلى ، فقالت امرأة زكريا : فإني وجدت ما في بطني يسجد للذي في بطنك . فذاك قوله : ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ فولدت امرأة زكريا يحيى . ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت يا ليتني مت قبل هذا ﴾

الآية ﴿ فناداها ﴾ جبريل ﴿ من تحتها ألاَّ تحزني ﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بني إسرائيل : إن مريم ولدت ، فلما أرادوها على الكلام ، أشارت إلى عيسى فتكلم فقال : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ الآيات . فلما ولد لم يبق في الأرض صنم إلا خرَّ لوجهه .

(286/484)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ، عن الضحاك رضي الله عنه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ يقول : قص ذكرها على اليهود والنصارى ومشركي العرب ﴿ إذ انتبذت ﴾ يعني خرجت ﴿ من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ قال : كانت خرجت من بيت المقدس مما يلي المشرق ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾ وذلك أن الله لما أراد أن يبتدئها بالكرامة ، ويبشرها بعيسى ، وكانت قد اغتسلت من المحيض فتشرفت ، وجعلت بينها وبين قومها ﴿ حجاباً ﴾ يعني جبلاً فكان الجبل بين مجلسها وبين بيت المقدس ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ يعني جبريل ﴿ فتمثل لها بشراً ﴾ في صورة الآدميين ﴿ سوياً ﴾ يعني معتدلاً شاباً أبيض الوجه جعداً قططاً حين اخضر شاربه ، فلما نظرت إليه قائماً بين يديها ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن

منك إن كنت تقياً ﴾ وذلك أنها شبهته بشاب كان يراها ويمشي معها يقال له يوسف من بني إسرائيل ، وكان من خدم بيت المقدس ، فخافت أن يكون الشيطان قد استزله ، فمن ثم قالت : ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ يعني إن كنت تخاف الله . قال جبريل : وتبسم ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ يعني لله مطيعاً من غير بشر . ﴿ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ﴾ يعني زوجاً ﴿ ولم أك بغياً ﴾ أي مومسة .

(287/484)

قال جبريل : ﴿ كذلك ﴾ يعني هكذا ﴿ قال ربك هو على هين ﴾ يعني خلقه من غير بشر . ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ يعني عبرة ، والناس هنا للمؤمنين خاصة ، ورحمة لمن صدق بأنه رسول الله . ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ يعني كائناً أن يكون من غير بشر . فدنا جبريل فنفخ في جيبها ، فدخلت النفخة جوفها ، فاحتملت كما تحمل النساء في الرحم والمشيمة ، ووضعته كما تضع النساء ، فأصابها العطش ، فأجرى الله لها جدولاً من الأردن ، فذلك قوله : ﴿ قد جعل ربك من تحتك سرياً ﴾ والسري ، الجدول . وحمل الجذع من ساعته ﴿ رطباً جنياً ﴾ فناداها من تحتها جبريل ﴿ هزي إليك بجذع النخلة

﴿ لم يكن على رأسها سقف ، وكانت قد يبست منذ دهر طويل ، فأحياها الله لها وحملت ، فذلك قوله : ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ يعني طرياً بغباره ﴿ فكلي ﴾ من الرطب ﴿ واشربي ﴾ من الجدول ﴿ وقري عيناً ﴾ بولدك . فقال : فكيف بي إذا سألوني من أين هذا ؟ . . قال لها جبريل : ﴿ فإما ترين ﴾ يعني فإذا رأيت ﴿ من البشر أحداً ﴾ فأعنتك في أمرك ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ يعني صمتاً في أمر عيسى ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ في أمره . حتى يكون هو الذي يعبر عني وعن نفسه . قال : ففقدوا مريم من محرابها ، فسألوا يوسف ، فقال : لا علم لي بها ، وأن مفتاح محرابها مع زكريا . فطلبوا زكريا وفتحوا الباب وليست فيه ، فاتهموه فأخذوه ووبخوه ، فقال رجل : إني رأيتها في موضع كذا ، فخرجوا في طلبها ، فسمعوا صوت عقيق في رأس الجذع الذي مريم من تحته ، فانطلقوا إليه فذلك قول الله : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ قال ابن عباس : لما رأت بأن قومها قد أقبلوا إليها ، احتملت الولد إليهم حتى تلقتهم به ، فذلك قوله : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ أي لا تخاف ريبة ولا تهمة ، فلما نظروا إليها شق أبوها مدرعته ، وجعل التراب على رأسه ، وإخوتها وآل زكريا ﴿ فقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ يعني عظيماً ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما

كانت أمك بغياً ﴾ يعني زانية . فأنَّى أتيت هذا الأمر مع هذا الأخ الصالح والأب الصالح والأم الصالحة ؟ ! ﴿ فأشارت إليه ﴾ تقول لهم : أن كلموه ، فإنه سيخبركم ﴿ فإني نذرت للرحمن صوماً ﴾ أن لا أكلمكم في أمره ، فإنه سيعبر عني ، فيكون لكم آية وعبرة ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ يعني من هو في الخرق طفلاً لا ينطق ، فأنطقه الله فعبر عن أمه ، وكان عبرة لهم فقال : ﴿ إني عبد الله ﴾ فلما أن قالها ، ابتدأ يحيى وهو ابن ثلاث سنين ، فكان أول من صدق به فقال : إني أشهد أنك عبد الله ورسوله .

لتصديق قول الله : ﴿ ومصدقاً بكلمة من الله ﴾ فقال عيسى : ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ إليكم ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ قال ابن عباس – رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" البركة التي جعلها الله لعيسى ، أنه كان معلماً مؤدباً حيثما توجه " ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ يعني وأمرني ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ فلا أعقها . قال ابن عباس حين قال : ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ قال : زكريا : الله أكبر ! فأخذه فضمه إلى صدره ، فعلموا أنه خلق من غير بشر ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ يعني متعظماً سفاكاً للدم . ﴿ والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ يقول الله : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ يعني يشكون بقوله لليهود ، ثم أمسك عيسى عن الكلام حتى بلغ مبلغ الناس .

وأخرج ابن أبي شيبة . عن أبي حاتم ، وأبو نعيم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني ، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر وأنا أسمع .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حين حملت وضعت .

وأخرج ابن عساكر ، عن الحسن رضي الله عنه قال : بلغني أن مريم حملت لسبع أو تسع ساعات ، ووضعته من يومها .

(289/484)

وأخرج ابن عساكر من طريق عكرمة رضي الله عنه ، عن ابن عباس قال : وضعت مريم لثمانية أشهر ، ولذلك لا يولد مولود لثمانية أشهر إلا مات لئلا تسب مريم بعيسى .

وأخرج الحاكم ، عن زيد العمى قال : ولد عيسى يوما عاشوراء .

(290/484)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن نوف قال : كانت مريم عليها السلام فتاة بتولاً ، وكان زكريا زوج أختها كفلها فكانت معه ، فكان يدخل عليه يسلم عليها ، فتقرب إليه فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، فدخل عليها زكريا مرة ، فقربت إليه بعض ما كانت تقرب ﴿ قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، هنالك دعا زكريا ربه ﴾ [آل عمران : 38 - 39] إلى قوله : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا زمراً ﴾ [آل عمران : 42] ﴿ سوياً ﴾ صحيحاً . ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم ﴾ كتب لهم ﴿ أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ قال : فبينما هي جالسة في منزلها ، إذا رجل قائم بين يديها قد هتك الحجب ، فلما أن رأته قالت : ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ قال فلما ذكرت الرحمن فزع جبريل عليه السلام قال : ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ فنفخ في جيبها جبريل ، فحملت حتى إذا أثقلت وجعت ما يجع النساء ، وكانت في بيت النبوة ، فاستحيت وهربت حياء من قومها ، فأخذت نحو المشرق ، وأخذ قومها في طلبها ، فجعلوا يسألون رأيتم فتاة كذا وكذا ؟ فلا يخبرهم أحد . وأخذها ﴿ المخاض إلى جذع النخلة ﴾ فتساندت إلى النخلة قالت : ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ قال : حيضة من حيضة ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : جبريل من أقصى الوادي ﴿ ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : جدولاً ﴿

وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ فلما قال لها جبريل : اشتد ظهرها وطابت نفسها ، فقطعت سرته ولفته في خرقة وحملته ، فلقي قومها راعي بقر ، وهم في طلبها .

(291/484)

قالوا : يا راعي ، هل رأيت فتاة كذا وكذا ؟ قال : لا ولكن رأيت الليلة من بقري شيئاً لم أره منها قط فيما خلا ! قال : رأيتها باتت سجداً نحو هذا الوادي ، فانطلقوا حيث وصف لهم ، فلما رأتهم مريم جلست وجعلت ترضع عيسى ، فجاؤوا حتى وقفوا عليها ﴿ فقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ قال : أمراً عظيماً ﴿ فأشارت إليه ﴾ أن كلموه ، فعجبوا منها : قالوا : ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ والمهد حجرها ، فلما قالوا ذلك : ترك عيسى ثديها واتكأ على يساره ثم تكلم ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ قال : واختلف الناس فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب لم أستحب

النصارى الحجب على مذابحهم ؟ قال : إنما يستحب النصارى الحجب على مذابحهم ومناسكهم ، لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ قال : بعث الله إليها ملكاً فنفخ في جيبها ، فدخل في الفرج .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ قال : جبريل .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ الآية قال : نفخ جبريل في درعها ، فبلغت حيث شاء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عطاء بن يسار : إن جبريل أتاها في صورة رجل فكشف الحجاب ، فلما رأته تعوذت منه ، فنفخ في جيب درعها فبلغت ، فذكر ذلك في المدينة ، فهجر زكريا وترك ، وكان قبل ذلك يستفتى ويأتيه الناس ، حتى إن كان ليسلم على الرجل فما يكلمه .

(292/484)

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي بن كعب في قوله : ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ قال : تمثل لها روح عيسى في صورة بشر فحملته . قال : حملت الذي خاطبها ، دخل في فيها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي وائل في قوله : ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ قال : لقد علمت مريم أن التقي ذو نهية .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ قال : إنما خشيت أن يكون إنما يريدها عن نفسها . ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ زعموا أنه نفخ في جيب درعها وكمها .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ لأهب لك ﴾ مهموزة بالألف ، وفي قراءة عبد الله " ليهب لك " بالياء .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ غلاماً زكياً ﴾ قال : صالحاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ولم أك بغياً ﴾ قال زانية .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مكاناً قصياً ﴾ قال نائياً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ مكاناً قصياً ﴾ قال : قاصياً وفي قوله : ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ قال :

ألجأها .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ قال : ألجأها قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت حسان بن ثابت وهو يقول :

إذا شددنا شدة صادقة . . . فأجأناكم إلى سفح الجبل

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ قال : اضطرها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ قال فأداها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ قال : كان جذعاً يابساً .

(293/484)

وأخرج عبد بن حميد من طريق هلال بن خباب ، عن أبي عبيد الله ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع ﴾ نخلة يابسة قد جيء به ليبنى به بيت يقال له بيت لحم ، فحركته فإذا هو نخلة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي قدامة قال : أنبت لمريم نخلة ، تعلق بها كما تعلق المرأة بالمرأة عند الولادة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ قال : لم أخلق ولم أك شيئاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة في قوله : ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ قال : حيضة ملقاة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ قال : حيضة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن نوف البكالي ، عن الضحاك في قوله : ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ قال حيضة ملقاة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ قال : تقول لا أعرف ولا أدري من أنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس رضي الله عنه في قوله : ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ قال : هو السقط والله تعالى أعلم بالصواب .

وأخرج أبو عبيد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن علقمة أنه قرأ " فخاطبها من تحتها " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة ، قال الذي ناداها هو جبريل .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الضحاك وعمرو بن ميمون مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن البراء ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : ملك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : جبريل من أسفل الوادي .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : عيسى .

(294/484)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : هو عيسى .

واخرج ابن المنذر ، عن أبي بن كعب قال الذي خاطبها : هو الذي حملته في جوفها ، دخل من فيها .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر ، عن زر بن حبيش أنه قرأ ﴿ فناداها من تحتها ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فناداها من تحتها ﴾ أي الملك من تحت النخلة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن قال : من قرأ من تحتها فهو جبريل ، ومن قرأ من تحتها ، فهو عيسى .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي بكر بن عياش قال : قرأ عاصم بن أبي النجود ﴿ فناداها من تحتها ﴾ بالنصب قال : وقال عاصم : من قرأ بالنصب فهو عيسى ، ومن قرأها بالخفض ، فهو جبريل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : نبياً وهو عيسى .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن جرير بن حازم قال : سألني محمد بن عباد بن جعفر ما يقول أصحابكم في قوله ؟ ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : فقلت له : سمعت قتادة يقول : الجدول . قال : فأخبر قتادة عني فإنما نزل القرآن بلغتنا إنه الرجل السري .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ يريد نفسه أي سرى أسرى منه ، قيل فالذين يقولون السري البحر قال : ليس كذلك لو كان كذلك لكان

يكون إلى جنبها ولا يكون النهر تحتها .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن النجار ، عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن السري الذي قال الله لمريم : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ نهر ، أخرجه الله لها لتشرب منه " .

وأخرج الطبراني في الصغير وابن مردويه ، عن البراء بن عازب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله :

" ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : النهر " .

(295/484)

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن البراء في قوله : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : هو الجدول ، وهو النهر الصغير .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : نهر عيسى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن عثمان بن محصن قال : سئل

ابن عباس عن قوله : ﴿ سرياً ﴾ قال : الجدول . أما سمعت قول الشاعر وهو يقول :

سلم تر الدالي منه أزورا . . . إذا يعج في السري هرهرا

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والطستي ، عن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ تحتك سرياً ﴾ قال : السري النهر الصغير ، وهو الجدول . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

سهل الخليقة ماجد ذو نائل . . . مثل السريّ تمده الأنهار

وأخرج عبد بن حميد ، عن الضحاك في قوله : ﴿ سريا ﴾ قال : الجدول .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عمرو بن ميمون وإبراهيم النخعي مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة أن الحسن تلا هذه الآية ، وإلى جنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : إن كان لسريا ، وإن كان لكريماً فقال حميد : يا أبا سعيد ، إنه الجدول فقال له : لم تزل تعجبنا مجالستك ، ولكن غلبتنا عليك الأمراء .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة قال : السري الماء .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ سرياً ﴾ قال : نهراً بالسريانية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ سرياً ﴾ قال نهراً بالقبطية .

وأخرج ابن عساكر ، عن سفيان بن حسين في قوله : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال : تلاها الحسن فقال : كان والله ﴿ سرياً ﴾ يعني عيسى - عليه السلام - فقال له خالد بن صفوان : يا أبا سعيد ، إن العرب تسمي الجدول السري ، فقال : صدقت .

(296/484)

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ قال : حركيها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف ، عن مجاهد ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ قال : كانت عجوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن البراء أنه قرأ " يساقط عليك " بالياء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قرأ " يساقط عليك " بالياء يعني الجذع .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مسروق أنه قرأ ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ بالتاء .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ تساقط ﴾ مثقلة بالتاء .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن طلحة الإيابي أنه قرأ ﴿ تساقط عليك رطباً ﴾ مثقلة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي نهيك أنه قرأ " تسقط عليك رطباً " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ رطباً جنياً ﴾ قال : طرياً .

وأخرج الخطيب في تالي التلخيص ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ قال : بغباره .

وأخرج ابن الأنباري والخطيب ، عن أبي حباب مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي روق قال : انتهت مريم إلى جذع ليس له رأس ، فأنبت الله له رأساً ، وأنبت فيه رطباً وبسراً ومدباً وموزاً ، فلما هزت النخلة ، سقط عليها من جميع ما فيها .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن أبي قدام قال : أنبتت لمريم نخلة تعلق بها كما تعلق المرأة عند الولادة .

(297/484)

وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب النبوي والعقيلي وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر ، عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام ، وليس من

الشجر شجرة تلقح غيرها " وقال صلى الله عليه وسلم : " أطعموا نساءكم الوَّلد الرطب ، فإن لم يكن رطب ، فتمر فليس من الشجر شجرة أكرم من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران " .

وأخرج ابن عساكر ، عن أبي سعيد الخدري قال : " سألنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مماذا خلقت النخلة ؟ قال : " خلقت النخلة والرمان والعنب من فضل طينة آدم عليه السلام " " .

وأخرج ابن عساكر ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أطعموا نساءكم في نفاسهن التمر ، فإنه من كان طعامها في نفاسها التمر : خرج ولدها ولداً حليماً ، فإنه كان طعام مريم ، حيث ولدت عيسى ، ولو علم الله طعاماً هو خير لها من التمر لأطعمها إياه " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن شقيق قال : لو علم الله أن شيئاً للنفساء خير من الرطب لأمر مريم به .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عمرو بن ميمون قال ، ليس للنفساء خير من الرطب ، أو التمر وقال : إن الله قال : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن الربيع بن خيثم قال : ليس للنفساء عندي دواء مثل الرطب ، ولا للمريض مثل العسل .

وأخرج ابن عساكر ، عن الشعبي قال : كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب أن رسلاً أتتني من قبلك ، فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير ! تخرج مثل أذان الحمير ، ثم تشقق عن مثل اللؤلؤ الأبيض ، ثم تصير مثل الزمرد الأخضر ، ثم تصير مثل الياقوت الأحمر ، ثم تينع وتنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل ، ثم تيبس فتكون عصمة للمقيم ، وزاداً للمسافر ، فإن لم تكن رسلي صدقتني ، فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة ، فكتب إليه عمر أن رسلك قد صدقتك ، هذه الشجرة عندنا : وهي التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى .

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (26) ﴾

أخرج ابن مردويه وابن المنذر وابن عساكر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ قال : صمتاً .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي مثله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف

وابن مردويه ، عن أنس بن مالك أنه كان يقرأ ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ صمتاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأها ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ صمتاً وقال : ليس إلا أن حملت فوضعت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ قال : كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام ، كما يصوم من الطعام ، إلا من ذكر الله .

(299/484)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن حارثة بن مضرب قال : كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان ، فسلم أحدهما ، ولم يسلم الآخر ، ثم جلسا . فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال : إنه نذر صوماً لا يكلم اليوم إنسياً . فقال عبد الله : بئس ما قلت ! إنما كانت تلك المرأة ، فقالت ذلك ، ليكون عذراً لها إذا سئلت ؟ - وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا - فتكلم وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر فإنه خير لك .

وأخرج ابن الأنباري ، عن الشعبي قال : في قراءة أبي بن كعب ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ صمتاً .

(300/484)

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وابن عساكر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ قال : بعد أربعين يوماً بعد ما تعافت من نفاسها .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ قال : عظيماً .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن قتادة في قوله : ﴿ لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ قال : عظيماً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : كان في زمان بني إسرائيل في بيت المقدس عند عين سلوان عين ، فكانت المرأة إذا قارفت ، أتوها بها فشربت منها ، فإن كانت بريئة لم تضرها ، وإلا ماتت . فلما حملت مريم أتوها بها على بغلة فعثرت بها ، فدعت الله أن يعقم رحمها ، فعقم من يومئذ ، فلما أتتها شربت منها فلم تزدد إلا خيراً ، ثم دعت الله أن لا يفضح بها امرأة مؤمنة ، فغارت العين .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، " عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون ؟ يا

أخت هارون ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا : قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : " ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم " .

وأخرج الخطيب وابن عساكر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ يا أخت هارون ﴾ الآية . قال كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ، ولا يعرفون بالفساد في الناس ، وفي الناس من يعرف بالصلاح ويتوالدون به ، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به ، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته ، وليس بهرون أخي موسى ، ولكن هرون آخر . ذكر لنا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً من بني إسرائيل كلهم يسمون هرون .

(301/484)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان في قوله : ﴿ يا أخت هارون ﴾ قال : سمعنا أنه اسم وافق اسماً .

واخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال : نبئت أن كعباً قال : إن قوله : ﴿ يا أخت هارون ﴾ ، ليس بهرون أخي موسى ، فقالت له عائشة : كذبت . فقال : يا أم المؤمنين ، إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قاله : فهو أعلم وأخبر ، وإلا ، فإني أجد بينهما ستمائة سنة ،

فسكتت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة في قوله : ﴿ يا أخت هارون ﴾ قال : نسبت إلى هرون بن عمران لأنها كانت من سبطه ، كقولك يا أخا الأنصار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي قال : كانت من سبط هرون ، فقيل لها : ﴿ يا أخت هارون ﴾ فدعيت إلى سبطه ، كالرجل يقول للرجل : يا أخا بني ليث يا أخا بني فلان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ يا أخت هارون ﴾ قال : كان هرون من قوم سوء زناة فنسبوها إليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي بكر بن عيش قال : في قراءة أبي قالوا : يا ذا المهد .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) ﴾

أخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ فأشارت إليه ﴾ أن كلموه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فأشارت إليه ﴾ قال : أمرتهم بكلامه . وفي قوله : ﴿ في المهد ﴾ قال في الحجر .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عمرو بن ميمون قال : إن مريم لما ولدت أتت به قومها ، فأخذوا لها الحجارة ليرموها ، فأشارت إليه فتكلم فتركوه .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة . قال : ﴿ المهد ﴾ المرباة . قال إبراهيم : المرباة ، المرجحة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن هلال بن يساف قال : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : صاحب جريج ، وعيسى ، وصاحب الحبشية .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : تكلم في المهد أربعة : عيسى ، وصاحب يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة ابنة فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(302/484)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ :

" به " في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ فاعل " أَتَتْ " ، أي : أَتَتْ مصاحِبَةً له نحو : جاء بثيابه ، أي : ملتبساً بها . ويجوز أَنْ تكونَ الباءُ متعلّقةً بالإتيان . وأمَّا تَحَمُّلُه فيجوز أن يكونَ حالاً ثانيةً مِنْ فاعل " أَتَتْ " . ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من الهاء في " به " . وظاهرُ كلام أبي البقاء أنها حالٌ من ضمير مريم وعيسى معاً وفيه نظرٌ .

قوله : " شيئاً " مفعولٌ به ، أي : فَعَلْتِ . أو مصدرٌ ، أي : نوعاً من المجيء فَرِيّاً . والفَرِيُّ :

العظيم من الأمر ، يقالُ في الخير والشرِّ . وقيل : الفَرِيُّ : العجيب . وقيل المُفْتَعَلُ . ومن الأول : الحديثُ في وصفِ عمرَ رضي الله عنه : فلم أرَ عبقَرِيًّا يَفْرِيْ فَرِيَّة " . والفَرْيُ : قَطْعُ الجِلْدِ للخَرْزِ والإِصلاح . والإِفراء : إفسادُه . وفي المثل : جاء يَفْري الفَرِيَّ ، أي : يعمل العملَ العظيم . وقال :

3233- فَلأَنْتَ تَفْرِيْ ما خَلَقْتَ وبَعْ . . . ضُ القومِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

وقرأ أبو حيوة فيما نَقَل عنه ابن خالويه " فَرِيْئاً " بالهمز . وفيما نقل ابن عطية " فَرْياً " بسكون الراء .

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) ﴾

وقرأ عُمَرُ بن لجأ ﴿ مَا كَانَ أَباكِ امرؤ سَوْءٍ ﴾ جَعَلَ النكرةَ الاسمَ ، والمعرفةَ الخبرَ ، كقوله :

3234- . . . . . يكونُ

مِزاجُها عَسَلٌ وماءُ

[وكقوله :]

3235 . . . . . ولا يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكِ الوَدَاعا

وهنا أحسنُ بوجودِ الإِضافةِ في الاسم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ ﴾ :

الإِشارةُ معروفةٌ تكونُ باليد والعين وغير ذلك وألفُها عن ياءٍ . وأنشدوا لكثيِّر :

(303/484)

3230- فقلتُ وفي الأحشاءِ داءٌ مُخامِرٌ . . . ألا حَبَّذا يا عَزُّ ذاك التَّشاُيرُ

قوله : ﴿ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ في "كان" هذه أقوالٌ . أحدُها : أنها زائدةٌ وهو قولُ أبي عبيد ، أي : كيف نُكَلِّمُ مَنْ في المهد . و "صَبِيًّا" على هذا نصبٌ على الحالِ من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرورِ الواقع صلةً . وقد رَدَّ أبو بكرٍ هذا القولَ - أعني كونَها زائدةً - بأنها لو كانَتْ زائدةً لَما نَصَبَتِ الخبرَ ، وهذه قد نصَبتْ "صَبيًّا" . وهذا الردُّ مردودٌ بما ذكرتُه مِنْ نصبِه على الحال لا الخبرِ .

الثاني : أنها تامةٌ بمعنى حَدَث ووُجد . والتقدير : كيف نكلِّم مَنْ وُجْد صبيًّا ، و "صَبِيًّا" حال من الضمير في "كان" .

الثالث : أنها بمعنى صار ، أي : كيف نُكَلِّم مَنْ صار في المهد صَبِيًّا ، و "صَبِيًّا" على هذا خبرُها ، فهو كقوله :

3237- . . . . . قَطا

الحَزْن قد كانَتْ فِراخاً بُيُوضُها

الرابع : أنها الناقصةُ على بابها مِنْ دلالتِها على اقتران مضمونِ الجملة بالزمان الماضي مِنْ غيرِ تَعَرُّضٍ للانقطاع كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 96] ، ولذلك يُعَبِّر عنها بأنها ترادِف " لم تَزَلْ " . قال الزمخشري : " كان " لإيقاع مضمون الجملة في زمانٍ ماضٍ مبهمٍ صالحٍ للقريبِ والبعيد . وهو هنا لقريبه خاصةً ، والدالُّ عليه معنى الكلام ، وأنه مسوقٌ للتعجب . ووجه آخر : وهو أَنْ يكونَ " نُكَلِّمُ " حكاية حالٍ ماضيةٍ ، أي : كيف عُهِد قبل عيسى أَنْ يُكَلِّمَ الناسَ صبيًّا في المهد حتى نُكَلِّمَه نحن " ؟

(304/484)

وأمَّا " مَنْ " فالظاهرُ أنَّها موصولةٌ بمعنى الذي . ويَضْعُفُ جَعْلُها نكرةً موصوفة ، أي : كيف نُكَلِّم شخصاً أو مولوداً . وجَوَّز الفراء والزجاج فيها أَنْ تكون شرطيةً . و " كان " بمعنى " يكنْ " ، وجوابُ الشرطِ : إمَّا متقدِّمٌ وهو " كيف نُكَلِّم " ، أو محذوفٌ لدلالةِ هذا عليه ، اي : مَنْ يكنْ في المهدِ صبياً فكيف نُكَلِّمه ؟ فهي على هذا مرفوعةُ المحلِّ بالابتداءِ ، وعلى ما قبله منصوبتُه ب " نكلِّم " . وإذا قيل بأنَّ " كان " زائدةٌ . هل تتحمَّل ضميراً أم لا ؟ فيه خلاف ، ومَنْ جَوَّز استدلَّ بقوله :

3238- فكيف إذا مَرَرْتَ بدارِ قومٍ . . . وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ

فرفع بها الواوَ . ومَنْ منع تأوّل البيتَ بأنها غيرُ زائدةٍ ، وأنّ خبرَها هو " لنا " قُدِّم عليها ، وفُصِل بالجملة بين الصفة والموصوف .

وأبو عمروٍ يُدغم الدالَ في الصاد . والأكثرون على أنه إخفاءٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 592.595 ﴾

(305/484)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) ﴾

بسط قومُها فيها لسانَ الملامةِ لما رَأَوْها قد وَلَدَتْ - وظاهرُ الحالِ كان معهم - فقالوا لها على سبيل الملامة : يا مَنْ كنا نَعُدُّكِ في الصلاح بمنزلة هارون المعروف بالسداد والصلاح . . . مِنْ أين لكِ هذه الحالة الشنعاء ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون . ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم ، فقالوا : يا شبيهته في الفساد . . ما هذا الولد ؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يا أخت هارون ، ويا مَن في حسابنا وظَنَنَّا ما كان أبواكِ فيهما سوء ولا فساد . . . كيف أتيتِ بهذه الكبيرة الفظيعة ؟ !

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) ﴾

في الظاهر أشارت إلى الولد ، وفي الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهم ما قرب وما بعد وقالوا : كيف نكلِّم مَنْ هو أهل بأن يُنَوَّم في المهد ؟ !

ف "كان" ها هنا في اللفظ صلة . . . وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 426 . 427 ﴾

(306/484)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/485)

الجزء السادس والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 30 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 33 ﴾ من نفس السورة

(4/485)

قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

(32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما كانت هذه العبارة مؤذنة بذلك استأنف قوله : ﴿ قال ﴾ أي واصفاً نفسه بما ينافي أوصاف الأخابث ، مؤكداً لإنكارهم أمره فقال : ﴿ إني عبد الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له صفات الكمال لا أتعبد لغيره ، إشارة إلى الاعتقاد الصحيح فيه ، وأنه لا يستعبده شيطان ولا هوى ﴿ ءاتاني الكتاب ﴾ أي التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الصحف على صغر سني ﴿ وجعلني ﴾ أي في علمه ﴿ نبياً ﴾ ينبىء بما يريد في الوقت الذي يريد ، وقيل في ذلك : فانبئكم به ﴿ وجعلني مباركاً ﴾ بأنواع البركات ﴿ أين ما ﴾ في أي مكان ﴿ كنت ﴾ فيه .

ولما سبق علمه سبحانه أنه يدعي في عيسى الإلهية أمره أن يقول : ﴿ وأوصاني بالصلاة ﴾ له طهرة للنفس ﴿ والزكاة ﴾ طهرة للمال فعلاً في نفسي وأمراً لغيري ﴿ ما دمت حياً ﴾ ليكون ذلك حجة على من أطراه لأنه لا شبهة في أن من يصلي لإله ليس بإله ﴿ وبراً ﴾ أي وجعلني براً ، أي واسع الخلق طاهره .

ولما كان السياق لبراءتها فبين الحق في وصفه ، صرح ببراءتها فقال : ﴿ بوالدتي ﴾ أي التي أكرمها الله بإحصان الفرج والحمل بي من غير ذكر ، فلا والد لي غيرها ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ بأن أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق ، إنما أفعل ذلك بمن يستحق ، وفيه إيماء إلى أن التجبر المذموم فعل أولاد الزنا ، وذلك أنه يستشعر ما عنده من النقص فيريد أن يجبره بتجبره ، ثم أخبر بما له من الله من الكرامة الدائمة مشيراً إلى أنه لا يضره عدو ، وإلى أنه عبد لا يصلح أن يكون إلهاً وإلى البعث فقال : ﴿ والسلام ﴾ أي جنسه ﴿ عليَّ ﴾ فلا يقدر أحد على ضرري ﴿ يوم ولدت ﴾ فلم يضرني الشيطان ومن يولد لا يكون إلهاً ﴿ ويوم أموت ﴾ كذلك أموت كامل البدن والدين ، لا يقدر أحد على انتقاصهما مني كائناً من كان ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ يوم القيامة كما تقدم في يحيى عليه السلام ، إشارة إلى أنه في البشرية مثله سواء لم يفارقه أصلاً إلا في كونه من غير ذكر ، وإذا كان جنس السلام عليه كان اللعن على أعدائه ، فهو بشارة لمن صدقه فإنه منه ، ونذارة لمن كذبه ، ولم يكن لنبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثل هذه الخارقة لئلا يلتبس حاله بالكهان ، لأن قومه لا عهد لهم بالخوارق إلا عندهم ، وإذا تقرر ذلك في نفوسهم من الصغر صعب زواله ، ولم يكن هناك ما ينفيه حال الصغر ، فعوض عن ذلك إنطاق الرضعاء كمبارك اليمامة وغيره ، وإنطاق

الحيوانات العجم ، بل والجمادات كالحجارة وذراع الشاة المسمومة والجذع اليابس وغيرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 531.532 ﴾

(6/485)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع : الصفة الأولى : قوله : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ﴾ وفيه فوائد : الفائدة الأولى : أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سبباً للوهم الذي ذهبت إليه النصارى ، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهماً من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة ، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية .

الفائدة الثانية : أنه لما أقر بالعبودية فإن كان صادقاً في مقاله فقد حصل الغرض وإن كان كاذباً لم تكن القوة قوة إلهية بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهاً .

الفائدة الثالثة : أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم

عليها السلام ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبودية نفسه كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم ، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها .

الفائدة الرابعة : وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة .

وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد ، واعلم أن مذهب النصارى متخبط جداً ، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز ، ومع ذلك فإنا نذكر تقسيماً حاصراً يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول : إما أن يعتقدوا كونه متحيزاً أو لا ، فإن اعتقدوا كونه متحيزاً أبطلنا قولهم بإقامة الدلالة على حدوث الأجسام ، وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه .

(7/485)

وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم لأن ذلك لا يعقل إلا في الأجسام فإذا لم يكن

جسماً استحال ذلك ثم نقول للناس قولان في الإنسان : منهم من قال إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها ومنهم من يقول إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الأجسام فنقول : هؤلاء النصارى ، إما أن يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل في بدن المسيح أو في نفسه ، أو يقولوا لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهاً ، أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا : إنه على سبيل التشريف اتخذه ابناً كما اتخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلاً فهذه هي الوجوه المعقولة في هذا الباب ، والكل باطل ، أما القول الأول بالاتحاد فهو باطل قطعاً ، لأن الشيئين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد ، إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً ، فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل ، وإن عدما وحصل ثالث فهو أيضاً لا يكون اتحاداً بل يكون قولاً بعدم ذينك الشيئين ، وحصول شيء ثالث ، وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالوجود لأنه يستحيل أن يقال : المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال .

وأما الحلول فلنا فيه مقامان : الأول : أن التصديق مسبوق بالتصور فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة : أحدها : كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في

السمسم والنار في الفحم ، واعلم أن هذا باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسماً وهم وافقونا على أنه ليس بجسم .

(8/485)

وثانيها : حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول : المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعاً لحصول محله فيه ، وهذا أيضاً إنما يعقل في حق الأجسام لا في حق الله تعالى .

وثالثها : حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات فنقول : هذا أيضاً باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجاً فكان ممكناً فكان مفتقراً إلى المؤثر ، وذلك محال ، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته في حق الله تعالى امتنع إثباته .

المقام الثاني : احتج الأصحاب على نفي الحلول مطلقاً بأن قالوا : لو حل لحل ، إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان ، فالقول بالحلول باطل ، وإنما قلنا : إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لأن ذلك يقتضي إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان ، لأنا دللنا على أن الله قديم .

وعلى أن الجسم محدث ، ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجاً إلى المحل والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته لا يكون واجباً لذاته ، وإنما قلنا : إنه لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل لأنه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاته وحلوله في المحل أمر جائز ، والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم أن يكون حلوله في المحل أمراً زائداً على ذاته وذلك محال لوجهين :

أحدهما : أن حلوله في المحل لو كان زائداً على ذاته لكان حلول ذلك الزائد في محله زائداً على ذاته أو لزم التسلسل وهو محال .

والثاني : أن حلوله في ذلك لما كان زائداً على ذاته فإذا حل في محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة ، وذلك محال لأنه لو كان قابلاً للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته ، وكانت حاصلة أزلاً ، وذلك محال لأن وجود الحوادث في الأزل محال ، فحصول قابليتها وجب أن يكون ممتنع الحصول فإن قيل لم لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل .

(9/485)

لأنه يلزم ، إما حدوث الحال أو قدم المحل ، قلنا : لا نسلم وجوب أحد الأمرين ، ولم لا يجوز أن يقال : إن ذاته تقتضي الحلول بشرط وجود المحل ففي الأزل ما وجد المحل فلم يوجد

شرط هذا الوجوب فلا جرم لم يجب الحلول ، وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب سلمنا أنه يلزم ، إما حدوث الحال أو قدم المحل فلم لا يجوز .

قوله : إنا دللنا على حدوث الأجسام ، قلنا : لم لا يجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلاً أو نفساً أو هيولى على ما يثبته بعضهم ، ودليلكم على حدوث الأجسام لا يقبل حدوث هذه الأشياء ، قوله ثانياً : لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجاً إلى المحل ، قلنا : لا نسلم وجوب أحد الأمرين بل ههنا احتمالان آخران : أحدهما : أن العلة وإن امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة إلى المعلول فلم لا يجوز أن يقال : إن ذاته غنية عن ذلك المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها في ذلك المعلول فيكون وجوب حلولها في ذلك المحل من معلولات ذاته ، وقد ثبت أن العلة وإن استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لا يقتضي احتياجها إلى المعلول .

الثاني : أن يقال إنه في ذاته يكون غنياً عن المحل وعن الحلول ، إلا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول ، فالمفتقر إلى المحل صفة من صفاته وهي حلوله في ذلك المحل فأما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الإضافية إلى الغير افتقار ذاته إلى الغير وذلك لأن جميع الصفات الإضافية الحاصلة له مثل كونه أولاً وآخراً ومقارناً ومؤثراً ومعلوماً ومذكوراً مما لا يتحقق إلا عند حصول التحيز ، وكيف لا والإضافات لا بد في تحققها من أمرين ، سلمنا ذلك فلم لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل .

قوله يلزم أن يكون حلوله فيه زائداً عليه ، ويلزم التسلسل ، قلنا : حلوله في المحل لما كان جائزاً كان حلوله في المحل زائداً عليه .

(10/485)

أما كون ذلك الحلول حالاً في المحل أمر واجب فلا يلزم أن يكون حلول الحلول زائداً عليه فلا يلزم التسلسل .

قوله ثانياً : يلزم أن يصير محل الحوادث ، قلنا : لم لا يجوز ذلك قوله يلزم أن يكون قابلاً للحوادث في الأزل ، قلنا : لا شك أن تمكنه من الإيجاد ثابت له إما لذاته أو لأمر ينتهي إلى ذاته ، وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثراً في الأزل فكل ما ذكرتموه في المؤثرية فنحن نذكره في القابلية ، والجواب : أنا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الأسئلة ، فنقول : ذاته ، إما أن تكون كافية اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية في ذلك فإن كان الأول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا إنه يلزم إما قدم المحل أو حدوث الحال .

وإن كان الثاني كان كونه مقتضياً لذلك الحلول أمراً زائداً على ذاته حادثاً فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله في محل حدوث شيء فيه لكن يستحيل أن يكون

قابلاً للحوادث ، وإلا لزم أن يكون في الأزل قابلاً لها وهو محال على ما بيناه ، وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لأنه تعالى لذاته قادر على الإيجاد في الأزل فهو قادر على الإيجاد فيما لا يزال فههنا أيضاً لو كانت ذاته قابلة للحوادث لكانت في الأزل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور .

هذا تمام القول في هذه الأدلة ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخر .

أحدها : أنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه ، والمراد من الكلمة العلم .

فنقول : العلم لما حل في عيسى ففي تلك الحالة إما أن يقال إنه بقي في ذات الله تعالى أو ما بقي فيها فإن كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين .

(11/485)

وذلك غير معقول ولأنه لو جاز أن يقال العلم الحاصل في ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل في ذات الله تعالى بعينه ، فلم لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى ، وإن كان الثاني لزم أن يقال : إن الله تعالى لم يبق عالماً بعد حلول علمه في عيسى عليه السلام وذلك مما لا يقوله عاقل .

وثانيها : مناظرة جرت بيني وبين بعض النصارى ، فقلت له هل تسلم أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا ؟ فإن أنكرت لزمك أن لا يكون الله تعالى قديماً لأن دليل وجوده هو العالم فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل ، وإن سلمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ، فنقول إذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت أن كلمة الله تعالى ما دخلت في زيد وعمرو بل كيف أنها ما حلت في هذه الهرة وفي هذا الكلب ، فقال لي : إن هذا السؤال لا يليق بك لأنا إنما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، فإذا لم نجد شيئاً من ذلك ظهر على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد أو الحلول ، فقلت له : إني عرفت من هذا الكلام أنك ما عرفت أول الكلام لأنك سلمت لي أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فإذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة فأكثر ما في الباب أنه وجد ما يدل على حصوله في حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل في حق زيد وعمرو ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول ، فثبت أنك مهما

جوزت القول بالاتحاد والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد وذلك الحلول في حق كل واحد بل في حق كل حيوان ونبات ولا شك أن المذهب الذي يسوق قائله إلى مثل هذا القول الركيك يكون باطلاً قطعاً ، ثم قلت له : وكيف دل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على ما قلت ؟ أليس أن انقلاب العصا ثعباناً أبعد من انقلاب الميت حياً فإذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على إلهيته فبأن لا يدل هذا على آلهية عيسى أولى .

(13/485)

وثالثها : أنا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لأنه كان مجتهداً في العبادة والعبادة لا تليق إلا بالعبيد فإنه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى إن اليهود قتلوه ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية .

ورابعها : المسيح إما أن يكون قديماً أو محدثاً والقول بقدمه باطل لأنا نعلم بالضرورة أنه ولد وكان طفلاً ثم صار شاباً وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر ، وإن كان محدثاً كان مخلوقاً ولا معنى للعبودية إلا ذلك ، فإن قيل : المعنى بإلهيته أنه حلت صفة

الآلهية فيه ، قلنا : هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح (إلا) عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالإلهية .

وخامسها : أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد فإن كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه فإذن قد اشتركا من بعض الوجوه ، فإن لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر ، وإن حصل الامتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك ، فيلزم وقوع التركيب في ذات الله وكل مركب ممكن ، فالواجب ممكن هذا خلف محال هذا كله على الاتحاد والحلول .

أما الاحتمال الثالث : وهو أن يقال معنى كونه إلهاً أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف في هذا العالم فهذا أيضاً باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه ولو كان قادراً على خلق الأجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكراً يذبون عنه .

وأما الاحتمال الرابع : وهو أنه اتخذه ابناً لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية وليس فيه كثير خطأ إلا في اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال : إني عبد الله .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ آتاني الكتاب ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلف الناس فيه فالجمهور على أنه قال هذا الكلام حال صغره وقال أبو القاسم البلخي إنه إنما قال ذلك حين كان كالمراهق الذي يفهم وإن لم يبلغ حد التكليف أما الأولون فلهم قولان : أحدهما : أنه كان في ذلك الصغر نبياً .

الثاني : روى عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : المراد بأن حكم وقضى بأنه سيبعثني من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد إلى حال الصغر .

ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبياً ، واحتج من نص على فساد القول الأول بأمور : أحدها : أن النبي لا يكون إلا كاملاً والصغير ناقص الخلقة بحيث يعد هذا التحدي من الصغير منفراً بل هو في التنفير أعظم من أن يكون امرأة .

وثانيها : أنه لو كان نبياً في هذا الصغر لكان كمال عقله مقدماً على ادعائه للنبوة إذ النبي لا بد وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله في ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدماً على التحدي وإنه غير جائز .

وثالثها : أنه لو كان نبياً في ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان الأحكام ، وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ما كان نبياً في ذلك الوقت .

أجاب الأولون عن الكلام الأول بأن كون الصبي ناقصاً ليس لذاته بل الأمر يرجع إلى صغر

جسمه ونقصان فهمه ، فإذا أزال الله تعالى هذه الأشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة إلى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل .

(15/485)

وعن الكلام الثاني لم لا يجوز أن يقال إكمال عقله وإن حصل مقدماً على دعواه إلا أنه معجزة لزكريا عليه السلام ، أو يقال : إنه إرهاص لنبوته أو كرامة لمريم عليها السلام وعندنا الإرهاص والكرامات جائزة ، وعن الكلام الثالث لم لا يجوز أن يقال مجرد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع والأحكام جائز ثم بعد البلوغ أخذ في شرح تلك الأحكام ، فثبت بهذا أنه لا امتناع في كونه نبياً في ذلك الوقت وقوله : ﴿ آتاني الكتاب ﴾ يدل على كونه نبياً في ذلك الوقت فوجب إجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة ، أما قول أبي القاسم البلخي فبعيد وذلك لأن الحاجة إلى كلام عيسى عليه السلام إنما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام .

المسألة الثانية :

اختلفوا في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لأن الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة ، وقال أبو مسلم : المراد هو الإنجيل لأن الألف

واللام ههنا للجنس أي آتاني من هذا الجنس ، وقال قوم : المراد هو التوراة والإنجيل لأن الألف واللام تفيد الاستغراق .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في أنه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبياً لأن قوله : ﴿ آتاني الكتاب وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ يدل على أن ذلك كان قد حصل من قبل إما ملاصقاً لذلك الكلام أو متقدماً عليه بأزمان ، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبياً وأمره بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلى الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة فقيل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها فلهذا أشارت إليه بالكلام .

(16/485)

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ قال بعضهم أخبر أنه نبي ولكنه ما كان رسولاً لأنه في ذلك الوقت ما جاء بالشريعة ومعنى كونه نبياً أنه رفيع القدر على الدرجة وهذا ضعيف لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصاً إذا قرن إليه ذكر الشرع وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ ﴾ فلقائل أن يقول كيف جعله مباركاً والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة فلما جاء صار بعضهم يهوداً وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحق إلا القليل ، والجواب ذكروا في "تفسير المبارك" وجوهاً : أحدها : أن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير فمعناه جعلني ثابتاً على دين الله مستقراً عليه .

وثانيها : أنه إنما كان مباركاً لأنه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق فإن ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أسلمت أم عيسى عليها السلام عيسى إلى الكتاب فقالت للمعلم : أدفعه إليك على أن لا تضربه فقال له المعلم : اكتب فقال : أي شيء أكتب ، فقال : اكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال : هل تدري ما أبجد ؟ فعلاه بالدرة ليضربه فقال : يا مؤدب لا تضربني إن كنت لا تدري فاسألني فأنا أعلمك الألف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من أداء الحق إلى الله .

وثالثها : البركة الزيادة والعلو فكأنه قال : جعلني في جميع الأحوال غالباً مفلحاً منجحاً لأني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعلياً بالحجة فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء .

ورابعها : مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، عن قتادة أنه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص فقالت : طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به ، فقال عيسى عليه السلام مجيباً لها : طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً .

أما قوله : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل إنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ وَأَوْصَانِى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ فإن قيل كيف أمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلاً صغيراً والقلم مرفوع عنه على ما قاله صلى الله عليه وسلم :

" رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يبلغ " الحديث وجوابه من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فلعل المراد أنه تعالى أوصاه بهما وبأدائهما في الوقت المعين له وهو وقت البلوغ .

الثاني : لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغاً عاقلاً تام الأعضاء والخلقة وتحقيقه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ ﴾ [آل عمران : 59] فكما أنه تعالى خلق آدم تاماً كاملاً دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام ، وهذا القول الثاني

أقرب إلى الظاهر لقوله : ﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته ولكن لقائل أن يقول لو كان الأمر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصاً كامل الأعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجباً فكان ينبغي أن لا يعجبوا فلعل الأول أن يقال إنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل مرة أخرى .

(18/485)

الصفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِى ﴾ أي جعلني براً بوالدتي وهذا يدل على قولنا : إن فعل العبد مخلوق لله تعالى لأن الآية تدل على أن كونه براً إنما حصل بجعل الله وخلقه وحمله على الألطاف عدول عن الظاهر ثم قوله : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِى ﴾ إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها .

قال صاحب "الكشاف" : جعل ذاته براً لفرط بره ونصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفني بها واحد .

الصفة السابعة ؛ قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ وهذا أيضاً يدل على قولنا لأنه لما

بين أنه جعله براً وما جعله جباراً فهذا إنما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جباراً وغيره بار بأمه ، فإن الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ، ومعلوم أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك في معرض التخصيص وقوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً ﴾ أي ما جعلني متكبراً بل أنا خاضع لأني متواضع لها ولو كنت جباراً لكنت عاصياً شقياً .

وروي أن عيسى عليه السلام قال : قلبي لين وأنا صغير في نفسي وعن بعض العلماء لا تجد العاق إلا جباراً شقياً وتلا : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ ولا تجد سيىء الملكة إلا مختالاً فخوراً وقرأ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أيمانكم إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ .

الصفة الثامنة : هي قوله : ﴿ والسلام عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعضهم : لام التعريف في السلام منصرف إلى ما تقدم في قصتي يحيى عليه السلام من قوله : ﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾ [مريم : 15] أي السلام الموجه إليه في المواطن الثلاثة موجه إلي أيضاً وقال صاحب "الكشاف" : الصحيح أن يكون هذا التعريف تعويضاً باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه أن اللام للاستغراق فإذا قال : ﴿ والسلام عَلَيَّ ﴾ فكأنه قال وكل السلام علي وعلى أتباعي فلم يبق للأعداء إلا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] بمعنى أن العذاب على من كذب وتولى ، وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض .

المسألة الثانية :

روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيى أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت على نفسي وأجاب الحسن فقال : إن تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه .

المسألة الثالثة :

(20/485)

قال القاضي : السلام عبارة عما يحصل به الأمان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى ، ولا بد في الأنبياء من أن

يكونوا مستجابي الدعوة وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات في كل الأحوال ، واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لا سيما وهم من أشد الناس بحثاً عن أحواله وأشد الناس غلواً فيه حتى زعموا كونه إلهاً ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلم ، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها ففي تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم في المهد وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 178 . 185 ﴾

(21/485)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

قِيلَ : إنَّهُ عَنَى زَكَاةَ الْمَالِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ التَّطْهِيرَ مِنْ الذُّنُوبِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِصِفَاتِ الْحَمْدِ وَالْخَيْرِ إذَا أَرَادَ تَعْرِيفَهَا إلَى غَيْرِهِ لَا عَلَى جِهَةِ الِافْتِخَارِ ، وَهُوَ أَيْضًا مِثْلُ قَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ تَعْرِيفًا لِلْمَلِكِ بِحَالِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/485)

وقال الماوردى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾

وإنما قدم إقراره بالعبودية ليبطل به قول من ادعى فيه الربوبية وكان الله هو الذي أنطقه بذلك لعلمه بما يتقوله الغالون فيه .

﴿ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ أي سيؤتيني الكتاب .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وسيجعلني نبياً ، والكلام في المهد من مقدمات نبوته .

الثاني : أنه كان في حال كلامه لهم في المهد نبياً كامل العقل ولذلك كانت له هذه المعجزة ، قاله الحسن . وقال الضحاك : تكلم وهو ابن أربعين . [يوماً] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : نبياً ، قاله مجاهد .

الثاني : آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر .

الثالث : معلماً للخير ، قاله سفيان .

الرابع : عارفاً بالله وداعياً إليه .

﴿ وأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : الدعاء والإخلاص . الثاني : الصلوات ذات الركوع والسجود .

ويحتمل ثالثاً : أن الصلاة الإستقامة مأخوذ من صلاة العود إذا قوّم اعوجاجه بالنار .

﴿ وَالزَّكَاة . . ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : زكاة المال .

الثاني : التطهير من الذنوب .

ويحتمل ثالثاً : أن الزكاة الاستكثار من الطاعة ، لأن الزكاة في اللغة النماء والزيادة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : بما برأها به من الفاحشة .

الثاني : بما تكفل لها من الخدمة .

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الجبار الجاهل بأحكامه ، الشقي المتكبر عن عبادته .

الثاني : أن الجبار الذي لا ينصح ، والشقي الذي لا يقبل النصيحة .

ويحتمل ثالثاً : أن الجبار الظالم للعباد ، والشقي الراغب في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ . . . ﴾ الآية . فيه وجهان :

(23/485)

أحدهما : يعني بالاسلام السلامة ، يعني في الدنيا ، ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ يعني في القبر ، ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ يعني في الآخرة ، لأن له أحوالاً ثلاثاً : في الدنيا حياً ، وفي القبر ميتاً ، وفي الآخرة مبعوثاً ، فسلم في أحواله كلها ، وهو معنى قول الكلبي .

الثاني : يعني بالسلام ﴿ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ سلامته من همزة الشيطان فإنه ليس مولود يولد إلا همزه الشيطان وذلك حين يستهل ، غير عيسى فإن الله عصمه منها . وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي أُعِذُهَا وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ يعني سلامته من ضغطة القبر لأنه غير مدفون في الأرض ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ لم أر فيه على هذا الوجه ما يُرضي .

ويحتمل أن تأويله على هذه الطريقة سلامته من العرض والحساب لأن الله ما رفعه إلى السماء إلا بعد خلاصه من الذنوب والمعاصي .

قال ابن عباس ثم انقطع كلامه حتى بلغ مبلغ الغلمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(24/485)

وقال ابن عطية :

قال لهم عيسى من مرقده ﴿ إني عبد الله ﴾ الآية

وروي أنه قام متكئاً على يساره وأشار إليهم بسبابته اليمنى ، و ﴿ الكتاب ﴾ هو الإنجيل ويحتمل أن يريد التوراة والإنجيل ، ويكون الإيتاء فيهما مختلفاً ، و ﴿ آتاني ﴾ معناه قضي

بذلك وأنفذه في سابق حكمه وهذا نحو قوله تعالى ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] ، وغير هذا . وأمال الكسائي " آتاني وأوصاني " والباقون لا يميلون ، قال أبو علي الأمالة في ﴿ آتاني ﴾ أحسن لأن في ﴿ أوصاني ﴾ مستعلياً . و ﴿ مباركاً ﴾ قال مجاهد معناه نفاعاً ، وقال سفيان معلم خير وقيل آمراً بمعروف ناهياً عن منكر ، وقال رجل لبعض العلماء ما الذي أعلن من علمي قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه . وأسند النقاش عن الضحاك أنه قال ﴿ مباركاً ﴾ معناه قضاء للحوائج (ع) وقوله ﴿ مباركاً ﴾ يعم هذه الوجوه وغيرها . و ﴿ الصلاة والزكاة ﴾ قيل هما المشروعتان في البدن والمال ، وقيل زكاة الرؤوس في الفطر ، وقيل ﴿ الصلاة ﴾ الدعاء ﴿ والزكاة ﴾ التطهير من كل عيب ونقص ومعصية . وقرأ " دُمت " بضم الدال عاصم وجماعة ، وقرأ " دِمت " بكسرها أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو وجماعة ، وقرأ الجمهور " وبَراً " بفتح الباء وهو الكثير البر ونصبه على قوله ﴿ مباركاً ﴾ ، وقرأ أبو نهيك وأبو مجلز وجماعة " بِراً " بكسر الباء فقال بعضها نصبه على العطف على قوله ﴿ مباركاً ﴾ فكأنه قال وذا بر فاتصف بالمصدر كعدل ونحوه ، وقال بعضهما نصبه بقوله ﴿ وأوصاني ﴾ أي " وأوصاني براً بوالدتي " حذف الجار كأنه يريد " وأوصاني ببر والدتي " . وحكى الزهراوي هذه القراءة " وبرٍّ " بالخفض عطفاً على ﴿ الزكاة ﴾ ، وقوله ﴿ بوالدتي ﴾ بيان لنه لا والد له ، وبهذا القول برأها قومها .

(25/485)

و " الجبار " المتعظم وهي خلق مقرونة بالشقاء لأنها مناقضة لجميع الناس فلا يلقى صاحبها من أحد إلا مكروهاً ، وكان عيسى عليه السلام في غاية التواضع ، يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب ويأوي حيث جنة الليل لا مسكن له . قال قتادة وكان يقول : سلوني فإن لين القلب صغير في نفسي . وقد تقدم ذكر تسليمه على نفسه وإذلاله في ذلك ، وذكر المواطن التي خصها لأنها أوقات حاجة الإنسان إلى رحمة الله . وقال مالك بن أنس رضي الله عنه في هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر أخبر عيسى بما قضي من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت . وفي قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا إن هذا الأمر عظيم . وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ثم عاد الى حالة الأطفال حتى مشى على عادة البشر . وقالت فرقة : إن عيسى كان أوتي الكتاب وهو في ذلك السن وكان يصوم ويصلي وهذا في غاية الضعف مصرح بجهالة قائلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(26/485)

وقال ابن الجوزى :

قال السدي : فلما سمع عيسى كلامهم ، لم يزد على أن ترك الرَّضاع ، وأقبل عليهم بوجهه ، فقال : إِني عبد الله .

قال المفسرون : إِنما قدَّم ذِكر العبودية ، ليُبطلَ قول من ادَّعى فيه الربوبية .

وفي قوله : ﴿ آتانيَ الكتاب ﴾ أسكن هذه الياء حمزة .

وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : أنه آتاه الكتاب وهو في بطن أُمه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقيل : علم التوراة والإِنجيل وهو في بطن أُمه .

والثاني : قضى أن يؤتيني الكتاب ، قاله عكرمة .

وفي "الكتاب" قولان .

أحدهما : أنه التوراة .

والثاني : الإِنجيل .

قوله تعالى : ﴿ وجعلني نبيّاً ﴾ هذا وما بعده إِخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه إِيَاه مما سيظهر ويكون .

وقيل : المعنى : يؤتيني الكتاب ويجعلني نبيّاً إِذا بلغتُ ؛ فحلَّ الماضي محلَّ المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ وإِذ قال الله يا عيسى ﴾ [المائدة : 116] .

وفي وقت تكليمه لهم قولان .

أحدهما : أنه كلَّمهم بعد أربعين يوماً .

والثاني : في يومه .

وهو مبنيٌّ على ما ذكرنا من الزمان الذي غابت عنهم فيه مريم .

قوله تعالى : ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنتُ ﴾ روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال : " نفّاعاً حيثما توجهت " وقال مجاهد : معلِّماً للخير .

وفي المراد "بالزكاة" قولان .

أحدهما : زكاة الأموال ، قاله ابن السائب .

والثاني : الطهارة ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وبَرّاً بوالدتي ﴾ قال ابن عباس : لمَّا قال هذا ، ولم يقل : "بوالديّ" علموا أنه وُلد من غير بَشَر .

قوله تعالى : ﴿ ولم يجعلني جباراً ﴾ أي : متعظِّماً ﴿ شقيّاً ﴾ عاصياً لربه ﴿ والسَّلام عليَّ يومَ وُلدتُ ﴾ قال المفسرون : السلامة عليَّ من الله يوم وُلدتُ حتى لم يضرَّني شيطان .

وقد سبق تفسير الآية [مريم : 15] .

فإن قيل : لم ذكر ها هنا "السلام" بألف ولام ، وذكره في قصة يحيى بلا ألف ولام ؟ فعنه جوابان .

(27/485)

أحدهما : أنه لمّا جرى ذِكر السلام قبل هذا الموضع بغير ألف ولام ، كان الأحسن أن يَرِد ثانية بألف ولام ، هذا قول الزجاج .

وقد اعتُرِض على هذا القول ، فقيل : كيف يجوز أن يعطف هذا وهو قول عيسى ، على الأول وهو قول الله عز وجل ؟ !

وقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : عيسى إنما يتعلَّم من ربّه ، فيجوز أن يكون سمع قول الله في يحيى ، فبنى عليه وألصقه بنفسه ، ويجوز أن يكون الله عز وجل عرَّف السلام الثاني لأنه أتى بعد سلام قد ذكره ، وأجراه عليه غير قاصدٍ به إتباع اللفظ المحكيّ ، لأن المتكلِّم ، له أن يغيّر بعض الكلام الذي يحكيه ، فيقول : قال عبد الله : أنا رَجُل منصف ، يريد : قال لي عبد الله : أنتَ رَجُل منصِف .

والجواب الثاني : أن سلاماً والسلام لغتان بمعنى واحد ، ذكره ابن الأنباري . انتهى انتهى .

اهـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ وهي :

الثانية : فقيل : كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه ، واتكأ على يساره ، وأشار إليهم بسبابته اليمنى ، و ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ فكان أوّل ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته ، رداً على من غلا من بعده في شأنه والكتاب الإنجيل ؛ قيل : آتاه في تلك الحالة الكتاب ، وفهمه وعلمه ، وآتاه النبوّة كما علم آدم الأسماء كلها ، وكان يصوم ويصلي .

وهذا في غاية الضعف على ما نبينه في المسألة بعد هذا .

وقيل : أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل ، وإن لم يكن الكتاب منزلاً في الحال ؛ وهذا أصح .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً ﴾ أي ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلّماً له .

التُّسْتَرِيّ : وجعلني آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأرشد الضال ، وأنصر المظلوم ، وأغيث الملهوف .

﴿ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة ﴾ أي لأؤدّيهما إذا أدركني التكليف ، وأمكنني أداؤهما ، على القول الأخير الصحيح .

﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ ما في موضع نصب على الظرف أي دوام حياتي .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾ قال ابن عباس : لما قال "وَبَرًّا بِوَالِدَتِي" ولم يقل بوالديّ علم أنه شيء من جهة الله تعالى .

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً ﴾ أي متعظماً متكبراً يقتل ويضرب على الغضب .

وقيل : الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقّاً قطّ .

﴿ شَقِيّاً ﴾ أي خائباً من الخير .

ابن عباس : عاقاً .

وقيل : عاصياً لربه .

وقيل : لم يجعلني تاركاً لأمره فأشقى كما شقي إبليس لما ترك أمره .

الثالثة : قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر ! أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره ، وبما هو كائن إلى أن يموت .

(29/485)

وقد روي في قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا : إن هذا لأمر عظيم .

وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ، ثم عاد إلى حالة الأطفال ، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، فكان نطقه إظهار براءة أمه لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة ، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة .

ولم يُنقَل أنه دام نطقه ، ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر ، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولادة لكان مِثله مما لا ينكتم ، وهذا كله مما يدل على فساد القول الأول ، ويصرح بجهالة قائله .

ويدل أيضاً على أنه تكلم في المهد خلافاً لليهود والنصارى .

والدليل على ذلك إجماع الفِرق على أنها لم تُحَدّ .

وإنما صحّ براءتها من الزنى بكلامه في المهد .

ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة ، والقرون الخالية الماضية ، فهو مما يثبت حكمه ، ولم ينسخ في شريعة أمره .

وكان عيسى عليه السلام في غاية التواضع ؛ يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويجلس على التراب ، ويأوي حيث جَنّه الليل ، لا مسكن له ، صلى الله عليه وسلم .

الرابعة : الإشارة بمنزلة الكلام ، وتُفهِم ما يُفهِم القول .

كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال : "فأشارت إليه" وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا : "كيف نكلم" وقد مضى هذا في "آل عمران" مستوفى .

الخامسة : قال الكوفيون : لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه .

وروي مثله عن الشعبي ، وبه قال الأوزاعيّ وأحمد وإسحاق ، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه ، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة ، فلم يكن قاذفاً ؛ ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة .

قالوا : واللعان عندنا شهادات ، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع .

(30/485)

قال ابن القصار : قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ما عدا العربية ، فكذلك إشارة الأخرس .

وما ذكروه من الإجماع في شهادة الأخرس فغلط .

وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته ، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة ، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ .

قال ابن المنذر : والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام ، فينبغي أن

يكون القذف مثل ذلك .

قال المهلب : وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : " بعثت أنا والساعة كهاتين " نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة .

وفي إجماع العقول على أن العِيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام .

﴿ والسلام عَلَيَّ ﴾ أي السلامة عليّ من الله تعالى .

قال الزجاج : ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن في الثانية ذكر الألف واللام .

وقوله : ﴿ يَوْمَ وُلِدْتُّ ﴾ يعني في الدنيا .

وقيل : من همز الشيطان كما تقدّم في "آل عمران" .

﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ يعني في القبر .

﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ يعني في الآخرة ؛ لأن له أحوالاً ثلاثة : في الدنيا حياً ، وفي القبر ميتاً ، وفي الآخرة مبعوثاً ؛ فسلم في أحواله كلها ؛ وهو معنى قول الكلبي .

ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان .

وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رأته امرأة يُحيِي الموتى ، ويُبرىء الأكمة والأبرص في سائر آياته فقالت : طوبى للبطن الذي حملك ، والثدي الذي أرضعك ؛ فقال

لها عيسى عليه السلام : طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى واتبع ما فيه وعمل به . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(31/485)

وقال أبو حيان :

وروي أنه قام متكئاً على يساره وأشار إليهم بسبابته اليمنى ، وأنطقه الله تعالى أولاً بقوله ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ ردّاً للوهم الذي ذهبت إليه النصارى .

وفي قوله ﴿ عبد الله ﴾ والجمل التي بعده تنبيه على براءة أمّه مما اتهمت به لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بالنبوة والخلال الحميدة إلاّ مبرأة مصطفاة و ﴿ الكتاب ﴾ الإنجيل أو التوراة أو مجموعهما أقوال .

وظاهر قوله ﴿ وجعلني نبياً ﴾ أنه تعالى نبأه حال طفوليته أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً .

وقيل : إن ذلك سبق في قضائه وسابق حكمه ، ويحتمل أن يجعل الآتي لتحققه كأنه قد وجد ﴿ وجعلني مباركاً ﴾ قال مجاهد : نفاعاً .

وقال سفيان : معلم خير .

وقيل : آمراً بمعروف ، ناهياً عن منكر .

وعن الضحاك : قضاء للحوائج و ﴿ أينما كنت ﴾ شرط وجزاؤه محذوف تقديره ﴿ جعلني مباركاً ﴾ وحذف لدلالة ما تقدم عليه ، ولا يجوز أن يكون معمولاً لجعلني السابق لأن ﴿ أين ﴾ لا يكون إلاّ استفهاماً أو شرطاً لا جائز أن يكون هنا استفهاماً ، فتعينت الشرطية واسم الشرط لا ينصبه فعل قبله إنما هو معمول للفعل الذي يليه ، والظاهر حمل الصلاة والزكاة على ما شرع في البدن والمال .

وقيل : ﴿ الزكاة ﴾ زكاة الرؤوس في الفطر .

وقيل الصلاة الدعاء ، و ﴿ الزكاة ﴾ التطهر .

و ﴿ ما ﴾ في ﴿ ما دمت ﴾ مصدرية ظرفية .

وقال ابن عطية .

وقرأ ﴿ دمت ﴾ بضم الدال عاصم وجماعة .

وقرأ ﴿ دمت ﴾ بكسر الدال أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو انتهى .

(32/485)

والذي في كتب القراءات أن القراء السبعة قرؤوا ﴿ دمت حياً ﴾ بضم الدال ، وقد طالعنا جملة من الشواذ فلم نجدها لا في شواذ السبعة ولا في شواذ غيرهم على أنها لغة تقول ﴿ دمت ﴾ تدام كما قالوا مت تمات ، وسبق أنه قرىء ﴿ وبراً ﴾ بكسر الباء فإما على حذف مضاف أي وذا بر ، وإما على المبالغة جعل ذاته من فرط بره ، ويجوز أن يضمر فعل في معنى أوصاني وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد ، ومن قرأ ﴿ وبراً ﴾ بفتح الباء ، فقال الحوفي وأبو البقاء : إنه معطوف على ﴿ مباركاً ﴾ وفيه بعد للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجملة التي هي ﴿ أوصاني ﴾ ومتعلقها ، والأولى إضمار فعل أي وجعلني ﴿ براً ﴾ .

وحكى الزهراوي وأبو البقاء أنه قرىء وبر بكسر الباء والراء عطفاً على ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ .

وقوله : ﴿ بوالدتي ﴾ بيان محل البر وأنه لا والد له ، وبهذا القول برأها قومها .

والجبار كما تقدم المتعاظم وكان في غاية التواضع يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب حيث جنه الليل لا مسكن له ، وكان يقول : سلوني فإني لين القلب صغير في نفسي ، والألف واللام في ﴿ والسلام ﴾ للجنس .

قال الزمخشري : هذا التعريف تعريض بلعنة متهمي مريم وأعدائهما من اليهود ، وحقيقته أن اللام للجنس فإذا قال : وجنس السلام على خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم ،

ونظيره ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ يعني إن العذاب على من كذب وتولى ، وكان المقام مقام مناكرة وعناد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض .

وقيل : أل لتعريف المنكر في قصة يحيى في قوله ﴿ وسلام ﴾ نحو ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ فعصى فرعون الرسول أي وذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إليّ .

وسبق القول في تخصيص هذه المواطن .

وقرأ زيد بن علي ﴿ يوم ولدت ﴾ أي يوم ولدتني جعله ماضياً لحقته تاء التأنيث ورجح وسلام عليّ والسلام لكونه من الله وهذا من قول عيسى عليه السلام .

وقيل : سلام عيسى أرجح لأنه تعالى أقامه في ذلك مقام نفسه فسلم نائباً عن الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(33/485)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيّ على سؤال نشأ من سياق النظمِ الكريم ، كأنه قيل : فماذا كان

بعد ذلك ؟ فقيل : قال عيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ﴾ أنطقه الله عز وجل بذلك آثَرَ ذي أثيرٍ تحقيقاً للحق وردًّا على من يزعُم ربوبيته ، قيل : كان المستنطِقُ لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام ، وعن السدي رضي الله عنه : لما أشارت إليه غضِبوا وقالوا : لَسُخرَيتُها بنا أشدُّ علينا مما فعلت ، وروي أنه عليه السلام كان يرضَع فلما سمع ذلك ترك الرَّضاعَ وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار إليهم بسبابته فقال ما قال الخ ، وقيل : كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ﴿ الكتاب ﴾ أي الإنجيلَ ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ ﴿ وَجَعَلَنِى ﴾ مع ذلك ﴿ مُبَارَكاً ﴾ نفّاعاً معلِّماً للخير ، والتعبيرُ بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتومِ أو بجعل ما في شرف الوقوعِ لا محالة واقعاً ، وقيل : أكمله الله عقلاً واستنبأه طفلاً ﴿ أَيْنَمَا كُنتُ ﴾ أي حيثما كنت ﴿ واوصانى بالصلاة ﴾ أي أمرني بها أمراً مؤكداً ﴿ والزكاة ﴾ زكاةِ المال إن ملكتُه أو بتطهير النفسِ عن الرذائل ﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ في الدنيا .

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِى ﴾ عطفٌ على مباركاً أي جعلني بارًّا بها ، وقرىء بالكسر على أنه مصدرٌ وصف به مبالغةً ، أو منصوبٌ بمضمر دل عليه أوصاني ، أي وكلفني بَرًّا ، ويؤيده القراءةُ بالكسر والجر عطفاً على الصلاة والزكاة والتنكيرُ للتفخيم ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ عنيداً لله تعالى لفَرْط تكبّره .

﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ كما هو على يحيى ، على أن التعريفَ للعهد والأظهرُ أنه للجنس والتعريضِ باللعن على أعدائه ، فإن إثباتَ جنسِ السلام لنفسه تعريضٌ بإثبات ضدّه لأضداده كما في قوله تعالى : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ فإنه تعريضٌ بأن العذابَ على من كذّب وتولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(35/485)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال عيسى عليه السلام ﴿ إِنِّى عَبْدُ الله ﴾ روى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ما قالوا ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته فقال ما قال ، وقيل إن زكريا عليه السلام أقبل عليه يستنطقه فقال ذلك وذكر عبوديته لله تعالى أولاً لأن الاعتراف بذلك على ما قيل أول مقامات السالكين .

وفيه رد على من يزعم ربوبيته ، وفي جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء والله سبحانه أجل من أن يصطفي ولد الزنا وذلك من المسلمات عندهم ، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح ، وقيل لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة .

واختلف في أنه بعد أن تكلم بما ذكر هل بقي يتكلم كعادة الرجال أو لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان وعده عليه السلام في عداد الذين تكلموا في المهد ثم لم يتكلموا إلى وقت العادة ظاهر في الثاني ﴿ أُمُّ الكتاب ﴾ الظاهر أنه الإنجيل .

وقيل التوراة .

وقيل مجموعهما ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ .

﴿ وَجَعَلَنِى ﴾ مع ذلك ﴿ مُبَارَكاً ﴾ قال مجاهد نفاعاً ومن نفعه إبراء الأكمه والأبرص .

وقال سفيان : معلم الخير آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .

وعن الضحاك قاضياً للحوائج ، والأول أولى لعمومه ، والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما في القضاء المحتوم أو بجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع .

وقيل أكمله الله تعالى عقلاً واستنبأه طفلاً وروي ذلك عن الحسن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس أن عيسى عليه السلام درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه وذلك قوله : ﴿ آتانى الكتاب ﴾ [مريم : 30] ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي حيثما كنت .

(36/485)

وفي "البحر" أن هذا شرط وجزاؤه محذوف تقديره جعلني مباركاً وحذف لدلالة ما تقدم عليه ، ولا يجوز أن يكون معمولاً لجعلني السابق لأن أين لا تكون إلا استفهاماً أو شرطاً والأول لا يجوز هنا فتعين الثاني واسم الشرط لا ينصبه فعل قبله وإنما هو معمول للفعل الذي يليه .

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ ﴾ أي أمرني بهما أمراً مؤكداً .

والظاهر أن المراد بهما ما شرع في البدن والمال على وجه مخصوص .

وقيل المراد بالزكاة زكاة الفطر .

وقيل المراد بالصلاة الدعاء وبالزكاة تطهير النفس عن الرذائل ، ويتعين هذا في الزكاة على ما نقل عن ابن عطاء الله وإن كان منظوراً فيه من أنه لا زكاة على الأنبياء عليهم السلام لأن الله تعالى نزههم عن الدنيا فما في أيديهم لله تعالى ولذا لا يورثون أو لأن الزكاة تطهير وكسبهم طاهر .

وقيل لا يتعين لأن ذلك أمر له بإيجاب الزكاة على أمته وهو خلاف الظاهر ، وإذا قيل يحمل للزكاة على الظاهر فالظاهر أن المراد ﴿ أوصاني ﴾ بأداء زكاة المال أن ملكته فلا مانع من أن يشمل التوقيت بقوله سبحانه : ﴿ والزكواة مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ مدة كونه عليه السلام في السماء ، ويلتزم القول بوجوب الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام هناك كذا قيل .

وأنت تعلم أن الظاهر المتبادر من المدة المذكورة مدة كونه عليه الصلاة والسلام حياً في الدنيا على ما هو المتعارف وذلك لا يشمل مدة كونه عليه السلام في السماء ، ونقل ابن عطية أن أهل المدينة .

وابن كثير .

وأبا عمرو قرأوا ﴿ دُمْتُ ﴾ بكسر الدال ولم نجد ذلك لغيره نعم قيل إن ذلك لغة .

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِى ﴾ عطف على ﴿ مُبَارَكاً ﴾ [مريم : 31] على ما قال الحوفي وأبو البقاء ، وتعقبه أبو حيان بأن فيه بعداً للفصل بالجملة ومتعلقها اختار إضمار فعل أي وجعلني باراً بها ، قيل هذا كالصريح في أنه عليه السلام لا والد له فهو أظهر الجمل في الإشارة إلى براءتها عليها السلام .

(37/485)

وقرىء ﴿ براً ﴾ بكسر الباء ووجه نصبه نحو ما مر في القراءة المتواترة ، وجعل ذاته عليه السلام براً من باب فإنما هي إقبال وإدبار ، وجوز أن يكون النصب بفعل في معنى ﴿ أوصاني ﴾ أي وألزمني أو وكلفني براً فهو من باب :

علفتها تبناً وماءً بارداً . . .

وأقرب منه على ما في "الكشف" لأنه مثل زيداً مررت به في التناسب وإن لم يكن من بابه .

وجوز أن يكون معطوفاً على محل ﴿ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ كما قيل في قراءة ﴿ أَرْجُلِكُمْ ﴾ بالنصب ، وقيل إن أوصى قد يتعدى للمفعول الثاني بنفسه كما وقع في "البخاري" أوصيناك ديناً واحداً ، والظاهر أن الفعل في مثل ذلك مضمن معنى ما يتعدى بنفسه ، وحكى الزهراوي .

وأبو البقاء أنه قرىء ﴿ وبر ﴾ بكسر الباء والراء وهو معطوف على الصلاة والزكاة قولاً واحداً ، والتنكير للتفخيم ﴿ بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ أي لم يقض على سبحانه بذلك في علمه الأزلي ، وقد كان عليه السلام في غاية التواضع يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب ولم يتخذ مسكناً ، وكان عليه السلام يقول : سلوني فإني لين القلب صغير في نفسي .

﴿ والسلام عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ تقدم الكلام في وجه تخصيص هذه المواطن بالذكر فتذكر فما في العهد من قدم .

والأظهر بل الصحيح أن التعريف للجنس جيء به تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها عليها السلام من اليهود فإنه إذا قال جنس السلام على خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] يعني أن العذاب على من كذب وتولى ، وكان المقام مقام مناكرة وعناد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض .

(38/485)

والقول بأنه لتعريف العهد خلاف الظاهر بل غير صحيح لا لأن المعهود سلام يحيى عليه الصلاة والسلام وعينه لا يكون سلاماً لعيسى عليه الصلاة والسلام لجواز أن يكون من قبيل ﴿ هذا الذى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة : 25] بل لأن هذا الكلام منقطع عن ذلك وجوداً وسرداً فيكون معهوداً غير سابق لفظاً ومعنى على أن المقام يقتضي التعريض ويفوت على ذلك التقدير لأن التقابل إنما ينشأ من اختصاص جميع السلام به عليه كذا في "الكشف" والاكتفاء في العهد به لتصحيحه بذكره في الحكاية لا يخفى حاله وسلام يحيى عليه السلام قيل لكونه من قول الله تعالى أرجح من هذا السلام لكونه من قول عيسى عليه السلام ، وقيل هذا أرجح لما فيه من إقامة الله تعالى إياه في ذلك مقام نفسه مع إفادة

اختصاص جميع السلام به عليه السلام فتأمل .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ يَوْمَ وُلِدْتُّ ﴾ بتاء التأنيث وإسناد الفعل إلى والدته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(39/485)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) ﴾

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿ أَتَتْ بِهِ ﴾ أي بعيسى ، وجملة : ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ في محل نصب على الحال ، وكان إتيانها إليهم من المكان القصيّ التي انتبذت فيه ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿ فَقَالُوا ﴾ منكرين لذلك ﴿ يا مريم لَقَدْ جِئْتَ ﴾ أي فعلت ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ قال أبو عبيدة : الفرّي : العجيب النادر ، وكذا قال الأخفش .

والفرّي : القطع ، كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع بكونه عجيباً نادراً .

وقال قطرب : الفرّي الجديد من الأسقية ، أي جئت بأمر بديع جديد لم تسبقي إليه .

وقال سعيد بن مسعدة : الفرّي : المختلق المفتعل ، يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد ،

والولد من الزنا كالشيء المفترى ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ بِبهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة : 12] وقال مجاهد : الفرّي : العظيم .

﴿ يا أخت هارون ﴾ .

قد وقع الخلاف في معنى هذه الأخوّة ، وفي هارون المذكور من هو ؟ فقيل : هو هارون أخو موسى ، والمعنى : أن من كانت نظنها مثل هارون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا وقيل : كانت مريم من ولد هارون أخي موسى ، فقيل : لها يا أخت هارون ، كما يقال لمن كان من العرب : يا أخا العرب وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون وقيل : هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت وقيل : بل كان في ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون ، فنسبوها إليه على وجهة التعيير والتوبيخ ، حكاه ابن جرير ولم يسمّ قائله وهو ضعيف ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْء وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ هذا فيه تقريره لما تقدّم من التعيير والتوبيخ ، وتنبيه على أن الفاحشة من ذرّية الصالحين مما لا ينبغي أن تكون .

(40/485)

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام كما تقدّم ، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها ،

وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها ، فيمكن أن يقال : إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم .

قال أبو عبيدة : في الكلام حشو زائد .

والمعنى : كيف نكلم صبياً في المهد كقول الشاعر :

وجيران لنا كانوا كرام . . . وقال الزجاج : الأجود أن تكون من في معنى الشرط والجزاء ، والمعنى : من يكون في المهد صبياً فكيف نكلمه .

ورجحه ابن الأنباري وقال : لا يجوز أن يقال : إن ﴿ كان ﴾ زائدة وقد نصبت ﴿ صبياً ﴾ ، ويجاب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل ، وهو ﴿ نكلم ﴾ كما سبق تقديره .

وقيل : إن ﴿ كان ﴾ هنا هي التامة التي بمعنى الحدوث والوجود .

وردّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، والمهد هو : شيء معروف يتخذ لتنويم الصبي .

والمعنى : كيف نكلم من سبيله أن ينوّم في المهد لصغره .

وقيل : هو هنا حجر الأمّ .

وقيل : سرير كالمهد ، فلما سمع عيسى كلامهم ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ﴾ فكان أوّل ما نطق به ، الاعتراف بالعبودية لله ﴿ آتاني الكتاب ﴾ أي الإنجيل ، أي حكم لي بإيتائي الكتاب والنبوّة في الأزل ، وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال ولا قد صار نبياً وقيل : إنه آتاه الكتاب وجعله نبياً في تلك الحال ، وهو بعيد ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي حيثما كنت ، والبركة أصلها من بروك البعير ، والمعنى : جعلني ثابتاً في دين الله ، وقيل : البركة هي : الزيادة والعلوّ ، فكأنه قال : جعلني في جميع الأشياء زائداً عالياً منجحاً .

(41/485)

وقيل : معنى المبارك : النفاع للعباد ، وقيل : المعلم للخير ، وقيل : الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر .

﴿ وأوصاني بالصلاة ﴾ أي أمرني بها ﴿ والزكواة ﴾ زكاة المال ، أو تطهير النفس ﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ أي مدة دوام حياتي ، وهذه الأفعال الماضية هي من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع تنبيهاً على تحقيق وقوعه لكونه قد سبق في القضاء المبرم .

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾ معطوف على ﴿ مباركاً ﴾ واقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم في تلك الحال أنه لم يكن له أب ، وقرىء : " وبراً " بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ الجبار : المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ، والشقيّ العاصي لربه .

وقيل الخائب .

وقيل العاقّ .

﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ قال المفسرون : السلام هنا بمعنى السلامة أي : السلامة عليّ يوم ولدت ، فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت ولا أغواني عند الموت ولا عند البعث .

وقيل : المراد به التحية .

قيل : واللام للجنس .

وقيل : للعهد ، أي وذلك السلام الموجه إلى يحيى في هذه المواطن الثلاثة موجه إليّ .

قيل : إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدّة التي تتكلم فيها الصبيان في العادة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ قال : بعد أربعين يوماً بعد ما تعافت من نفاسها .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرؤون ﴿ يا أخت هارون ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال : فرجعت

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ "

(42/485)

وهذا التفسير النبوّي يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أنس قال : كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها في بطن أمه ، فذلك قوله : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ءاتَانِىَ ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ آتاني الكتاب ﴾ الآية ، قال : قضى أن أكون كذلك .

وأخرج الإسماعيلي في معجمه ، وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه وابن النجار عن أبي هريرة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قول عيسى : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ قال : " جعلني نفاعاً للناس أينما اتجهت " وأخرج ابن عديّ وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً ﴾ قال : معلماً ومؤدّباً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ يقول : عصياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾

أنطقه الله بذلك . أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ، ردّاً على من يزعم ربوبيته ونبوّته : ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ أي : الإنجيل : ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أي : كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم ، أو جعل الآتي ، لا محالة ، كأنه وجد : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ أي : أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي .

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾

أي : مستكبراً عن طاعته وأمره .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ أي : الذي فصلت نعوته الجليلة وخصائصه الباهرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 97.98 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن أول كلمة نطق لهم بها عيسى وهو صبي في مهده أنه عبد الله ، وفي ذلك أعظم زجر للنصارى عن دعواهم أنه الله ، أو ابنه أو إله معه ! وهذه الكلمة التي نطق بها عيسى في أول خطابه لهم ذكرها الله جل وعلا عنه في مواضع أخر . كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : 72] وقوله في « آل عمران » : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : 51] ، وقوله في « الزخرف » ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف « 63-64] ، وقوله هنا في سورة » مريم « : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم : 36] ، وقوله : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : 117] . الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

(45/485)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ التحقيق فيه إن شاء الله : أنه عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل لتحقق الوقوع منزلة الوقوع . ونظائره في القرآن كثيرة . كقوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ [الزمر : 68-70] . ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا ﴾ [الزمر : 68-71] . وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : 73] .

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل . تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل ، ونظائرها كثيرة في القرآن . وهذا الذي ذكرنا – من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى : ﴿ آتَانِيَ الكتاب ﴾ الخ بمعنى المستقبل هو الصواب إن شاء الله . خلافاً لمن زعم أنه نبيء وأوتي الكتاب في حال صباه لظاهر اللفظ . وقوله ﴿ وجلعني مباركاً ﴾ أي كثير البركات . لأنه يعلم الخير ويدعو إلى الله ، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله . وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية ﴿ مباركاً أين ما كنت ﴾ : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفاعاً حيث كنت . وقال ابن حجر في (الكافي الشاف) : أخرجه أبو نعيم (في

الحلية) في ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبس هريرة بهذا وأتم . وقال : تفرد به هشيم عن يونس ، وعنه شعيب بن محمد الكوفي ، ورواه ابن مردويه من هذا الوده اه .

(46/485)

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ قال الحوفي وأبو البقاء : هو معطوف على قوله ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً ﴾ [مريم : 31] . وقال أبو حيان (في البحر) : وفيه بعد للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجملة التي هي » أوصاني « ومتعلقها .

(47/485)

والأولى أنه منصوب بفعل مضمر . أي وجعلني براً بوالدتي . ولما قال بوالدتي ولم يقل بوالدي – علم أنه أمر من قبل الله . كما ذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقد قدمنا معنى « الجبار والشقي » . وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية : « شقياً » أي خائباً من الخير . ابن عباس : عاماً وقيل عاصياً لربه . وقيل : لم يجعلني تاركاً لأمره فأشقى كما شقي إبليس – اه كلام القرطبي .

تنبيه

احتج مالك رحمه الله بهذه الآية على القدرية . قال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : قال مالك بن انس رحمه الله تعالى في هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر . أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(48/485)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

كلام عيسى هذا مما أهملته أناجيل النصارى لأنهم طووا خبر وصولها إلى أهلها بعد وضعها ، وهو طيّ يتعجب منه .

ويدل على أنها كتبت في أحوال غير مضبوطة ، فأطلع الله تعالى عليه نبيئه صلى الله عليه وسلم

والابتداء بوصف العبودية لله ألقاه الله على لسان عيسى لأن الله علم بأن قوماً سيقولون : إنه ابن الله .

والتعبير عن إيتاء الكتاب بفعل المضي مراد به أن الله قدّر إيتاءه إياه ، أي قدّر أن يوتيني الكتاب .

والكتاب : الشريعة التي من شأنها أن تكتب لئلا يقع فيها تغيير .

فإطلاق الكتاب على شريعة عيسى كإطلاق الكتاب على القرآن .

والمراد بالكتاب الإنجيل وهو ما كتب من الوحي الذي خاطب الله به عيسى .

ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة فيكون الإيتاء إيتاءَ علم ما في التوراة كقوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ [مريم : 12] فيكون قوله ﴿ وجعلني نبيئاً ﴾ ارتقاء في المراتب التي آتاه الله إياها .

والقول في التعبير عنه بالماضي كالقول في قوله و ﴿ ءاتانِي الكِتَابَ ﴾ .

والمبارَك : الذي تُقارن البركةُ أحوالَه في أعماله ومحاورته ونحو ذلك ، لأن المبارك اسم مفعول من باركه ، إذا جعله ذا بركة ، أو من بَارك فيه ، إذا جعل البركة معه .

والبركة : الخير واليمن .

ذلك أن الله أرسله برحمة لبني إسرائيل ليُحلّ لهم بعض الذي حُرم عليهم وليدعوَهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيروا من دينهم ، فهذه أعظم بركة تقارنه .

ومن بركته أن جعل الله حُلوله في المكان سبباً لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير ، ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقُسَاة والمفسدون انقلبوا صالحين

وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة ، ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأميين من صيادين وعشّارين فصاروا دُعاة هدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة .

(49/485)

وبهذا يظهر أن كونه مباركاً أعم من كونه نبيئاً عموماً وجهياً ، فلم يكن في قوله ﴿ وجعلني نبيئاً ﴾ غُنية عن قوله ﴿ وجعلني مُبَاركاً ﴾ .

والتعميم الذي في قوله ﴿ أين مَا كُنتُ ﴾ تعميم للأمكنة ، أي لا تقتصر بركته على كونه في الهيكل بالمقدس أو في مجمع أهل بلده ، بل هو حيثما حلّ تحلّ معه البركة .

والوصاية : الأمر المؤكد بعمل مستقبل ، أي قدّر وصيتي بالصلاة والزكاة ، أي أن يأمرني بهما أمراً مؤكداً مستمراً ، فاستعمال صيغة المضي في ﴿ أوصاني ﴾ مثل استعمالها في قوله ﴿ ءاتَانِي الكِتَابَ ﴾ .

والزّكاة : الصدقة .

والمراد : أن يصلّي ويزكّي .

وهذا أمر خاص به كما أمر نبيئنا صلى الله عليه وسلم بقيام الليل ، وقرينة الخصوص قوله ﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ لدلالته على استغراق مدة حياته بإيقاع الصلاة والصدقة ، أي أن

يصلي ويتصدّق في أوقات التمكن من ذلك ، أي غير أوقات الدعوة أو الضرورات .

فالاستغراق المستفاد من قوله ﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ استغراقٌ عرفي مراد به الكثرة ؛ وليس المراد الصلاة والصدقة المفروضتين على أمته ، لأن سياق الكلام في أوصاف تميّز بها عيسى عليه السلام ، ولأنه لم يأت بشرع صلاة زائدة على ما شرع في التوراة .

والبَرّ بفتح الباء : اسم بمعنى البار .

وتقدم آنفاً .

وقد خصه الله تعالى بذلك بين قومه ، لأن برّ الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل يومئذ ، وبخاصة الوالدة لأنها تستضعف ، لأن فرط حنانها ومشقتها قد يجرئان الولد على التساهل في البرّ بها .

والجبّار : المتكبر الغليظ على الناس في معاملتهم .

وقد تقدم في سورة هود (59) قوله : ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾

والشقيّ : ﴿ الخاسر والذي تكون أحواله كدرة له ومؤلمة ، وهو ضدّ السعيد .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ في آخر سورة هود (105) .

ووصف الجبار بالشقي باعتبار مآله في الآخرة وربما في الدنيا .

وقوله والسَّلامُ عليَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ إلى آخره ، تنويه بكرامته عند الله ، أجراه على لسانه ليعلموا أنه بمحل العناية من ربّه ، والقول فيه تقدّم في آية ذكر يحيى .

وجيء بالسَّلامُ هنا معرّفاً باللام الدالة على الجنس مبالغة في تعلّق السلام به حتى كان جنس السلام بأجمعه عليه .

وهذا مؤذن بتفضيله على يحيى إذ قيل في شأنه ﴿ وسَلام عليه يومُ ولد ﴾ [مريم : 15] ، وذلك هو الفرق بين المعرّف بلام الجنس وبين النكرة .

ويجوز جعل اللام للعهد ، أي سلام إليه ، وهو كناية عن تكريم الله عبده بالثناء عليه في الملأ الأعلى وبالأمر بكرامته .

ومن هذا القبيل السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ [الأحزاب : 56] ، وما أمرنا به في التشهد في الصلاة من قول المتشهد : "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته" .

ومؤذن أيضاً بتمهيد التّعريض باليهود إذ طعنوا فيه وشتموه في الأحوال الثلاثة ، فقالوا : ولد من زنى ، وقالوا : مات مصلوباً ، وقالوا : يحشر مع الملاحدة والكفرة ، لأنهم يزعمون أنه كفر بأحكام من التوراة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

وكأنه قال للقوم : لا تتكلموا أنتم ، أنا الذي سأتكلم . ثم بادرهم بالكلام : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله ﴾ [مريم : 30] وهكذا استهلّ عيسى عليه السلام كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى ، وفي هذه دليل على أنه قد يُقال فيه أنه ليس عبداً ، وأنه إله أو شريك للإله .

لذلك كانت أو كلمة نطق بها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله ﴾ [مريم : 30] فالمعجزة التي جاءتْ بي لا تمنع كَوْني عبداً لله ؛ لذلك لو سألتَ الذين يعتقدون في عيسى عليه السلام أنه إله أو شريك للإله : إنكم تقولون أنه تكلّم في المهد ، فماذا قال ؟ فلا يعترفون بقوله أبداً ؛ لأن قوله ونُطْقه : ﴿ إِنِّي عَبْدُ الله ﴾ [مريم : 30] ينفي معتقدهم من أساسه .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ آتَانِيَ الكتاب ﴾ [مريم : 30] لكن كيف آتاه الكتاب وهو ما يزال وليداً في مَهْده ؟ قالوا : على اعتبار أنه أمرٌ مفروغ منه ، وحادث لا شَكَّ فيه ، كأنه يقول : أنا أَهْل لأنْ أتحمل أَمانةَ السماء إلى أهل الأرض . مع أن الكتاب لم يأتِ بعد ، إلا أنه مُلقَّن لقَّنه ربه الكتاب بالفعل ، وإنْ لم يأت الوقت الذي يُبلِّغ فيه هذا الكتاب .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ [مريم : 30] فسلوكي سلوك قويم ، ولا يمكن أن يكون فيَّ مطعَنٌ بعد ذلك ، وإنْ كان هناك مطعن فهو بعيد عني ، ولا ذنبَ لي فيه .

ثم يقول : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾

أي : وشرَّع لي أيضاً ما دُمْت حياً . . وقد قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليبرِّىء أمه الصِّدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها في أعزِّ شيء لديْها ؛ ولذلك لم يكُنْ ليُجدي أيّ كلام منها ، وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ [مريم : 26] .

(52/485)

ثم يقول : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي ﴾

فلِمَ ذكر والدته هنا ؟ ولِمَ حرص على تقرير برِّه بها ؟ قالوا : لأن البعض قد يظن أن عيسى عليه السلام حينما يكبر ويعرف قصة خَلْقه ، وأن أمه أتَتْ به من غير أب ، ودون أنْ يمسسْها بشر قد تترك هذه المسألة ظلالاً في نفسه وتُساوِره الشكوك في أمه ، فأراد أنْ يقطع كل هذه الظنون .

ذلك لأنه هو نفسه الدليل ، وهو نفسه الشاهد على براءة أمه ، والدليل لا يُشكِّك في

المدلول ، فكأنه يقول للقوم : إياكم أنْ تظنوا أني سأتجرأ على أمي ، أو يخطر ببالي خاطر سوء نحوها .

ثم يقول : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ [مريم : 32] فنفى عن نفسه صفة الجبروت والقسوة والتعاظم ؛ لأن الرسول لأبدَّ أنْ يكون ليّنَ الجانب رفيقاً بقومه ؛ لأنه أتى ليُخرِج الناس مِمَّا أَلِفُوه من الفساد إلى ما يثقل عليهم من الطاعة .

والإنسان بطبعه حين يألَف الفساد يكره مَنْ يُخرِجه عن فساده ، فمن الطبيعي أن يتعرّض النبي لاستفزاز القوم وعنَادهم ومكابرتهم ، فلو لم يكُنْ ليّن الجانب ، رقيق الكلمة ، يستميل الأذن لتسمع والقلوب لتعي ما صلح لهذه المهمة .

لذلك يخاطب الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] .

ومعنى ﴿ شَقِيّاً ﴾ [مريم : 32] أي : عاصياً ، وما أبعدَ مَنْ هذه صفاته عن معصية الله التي يشقى بسببها الإنسان .

ثم يقول تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ ﴾

سبق أن قلنا في قصة يحيى عليه السلام : إن هذه الأحداث أعلام ثلاثة في حياة الإنسان : يوم مولده ، ويوم موته ، ويوم أنْ يُبعث يوم القيامة . فما وجه السلامة في هذه الأحداث بالنسبة لعيسى عليه السلام ؟

قوله : ﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ ﴾ [مريم : 33] لأن يوم مولده مَرَّ بسلام ، رغم ما فيه من عجائب ، فلم يتعرَّض له أحد بسوء ، وهو الوليد الذي جاء من دون أب ، وكان من الممكن أنْ يتعرّض له ولأمه بعض المتحمسين الغيورين بالإيذاء ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ومَرَّ الميلاد بسلام عليه وعلى أمه .

﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ [مريم : 33] لأنهم أخذوه ليصلبوه ، فنجّاه الله من أيديهم ، وألقى شبهه على شخص آخر ، ورفعه الله تعالى إلى السماء .

﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 33] فليس هناك من الرسل مَنْ سيسأل هذه الأسئلة ، ويناقش هذه المناقشة التي نُوقِشها عيسى في الدنيا :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا آمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة : 116117] .

وليس هذا قَدْحاً في مكانة عيسى عليه السلام ؛ لأن ربَّه تبارك وتعالى يعلم أنه ما قال لقومه

إلا ما أُمِرَ به ، ولكن أراد سبحانه توبيخ القوم الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، فوجْه السلام في يوم ﴿ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 33] أنه نُوقِش في الدنيا وبُرّئتْ ساحته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(54/485)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة في قوله : ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ الآية . قال : قضى فيما قضى أن أكون كذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أنس قال : كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه . فذلك قوله : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ .

وأخرج الإسماعيلي في معجمه وأبو نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق وابن مردويه وابن النجار في تاريخه ، عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " قول عيسى

عليه السلام ﴿ وجعلني مباركاً أين ما كنت ﴾ قال : جعلني نفاعاً للناس أين اتجهت " .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وجعلني مباركاً أين ما كنت ﴾ قال : معلماً ومؤدباً .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وجعلني مباركاً أين ما كنت ﴾ قال : معلماً للخير .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : الذي يعلم الناس الخير يستغفر له كل دابة حتى الحوت في البحر .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ وجعلني مباركاً ﴾ قال : هادياً مهدياً .

وأخرج البيهقي في الشعب وابن عساكر ، عن مجاهد ﴿ وجعلني مباركاً ﴾ قال : نفاعاً للناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن نوف (وبراً بوالدتي) أي ليس لي أب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ يقول : عصياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان قال : الجبار الشقي الذي يُقبلُ على الغضب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب قال : إنك لا تكاد تجد عاقاً ، إلا تجده جباراً ، ثم قرأ ﴿ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : فقرات ابن آدم ثلاث : يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث ، وهي التي ذكر عيسى في قوله : ﴿ والسلام عليّ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق مجاهد ، عن ابن عباس قال : ما تكلم عيسى بعد الآيات التي تكلم بها حتى بلغ مبلغ الصبيان .

وأخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ، أن الله أطلق لسان عيسى مرة أخرى في صباه ، فتكلم ثلاث مرات ، حتى بلغ ما يبلغ الصبيان يتكلمون ، فتكلم محمداً بتحميد لم تسمع الآذان بمثله ، حيث أنطقه طفلاً ، فقال : اللهم أنت القريب في علوك ، المتعالي في دنوك ، الرفيع على كل شيء من خلقك ، أنت الذي نفذ بصرك في خلقك ، وحارت الأبصار دون النظر إليك ، أنت الذي أشرقت بضوء نورك دجى الظلام ، وتلألأت بعظمتك أركان العرش نوراً ، فلم يبلغ أحد بصفته صفتك ، فتباركت اللهم خالق الخلق بعزتك ، مقدر الأمور بحكمتك مبتدئ الخلق بعظمتك ثم أمسك الله لسانه حتى بلغ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ : هذه شرطيةٌ . وجوابُها : إمَّا محذوفٌ مَدْلولٌ عليه بما تقدَّمَ ، أي : أينما كنتُ جَعَلني مباركاً ، وإمَّا متقدِّمٌ عند مَنْ يرى ذلك . ولا جائزٌ أن تكونَ استفهاميةً ؛ لأنه يلزمُ أَنْ يعملَ فيها ما قبلها ، وأسماءُ الاستفهامِ لها صدرُ الكلامِ ، فيتعيَّنُ أن تكونَ شرطيةً لأنها منحصرةٌ في هذين المعنيين .

قوله : " ما دُمْتُ " " ما " مصدريةٌ ظرفيةٌ وتقدُّمُ [ما] على " دام " شرطٌ في إعمالها . والتقدير : مدةَ دوامي حياً . ونقل ابن عطية عن عاصمٍ وجماعة أنهم قرؤوا " دُمْتُ " بضم الدال ، وعن ابن كثير وأبي عمرو وأهلِ المدينة " دِمت " بكسرها ، وهذا لم نَرَه لغيره وليس هو موجوداً في كتب القراءات المتواترة والشاذة التي بين أيدينا ، فيجوز أن يكون اطَّلَعَ عليه في مصحفٍ غريب . ولا شك أنَّ في " دام " لغتين ، يقال : دُمْتَ تَدُوْم ، وهي اللغةُ العالية ، ودِمْتَ تَدام كخِفْتَ تَخاف ، وهذا كما تقدم لك / في مات يموت ومات يَمات .

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَرّاً ﴾ : العامَّةُ بفتحِ الباء ، وفيه تأويلان ، أحدُهما : أنه منصوبٌ نَسَقاً

على " مباركاً " ، أي : وجَعَلَنِي بَرّاً . والثاني : أنَّه منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ . واخْتِير هذا على الأولِ لأنَّ فيه فَصْلاً كثيراً بجملةِ الوصيَّةِ ومتعلِّقِها .

(57/485)

وقُرِئ " بِرّاً " بكسرِ الباءِ : إمَّا على حَذْفِ مضاف ، وإمَّا على المبالغة في جَعْلِه نفسَ المصدر . وقد تقدَّم في البقرة أنه يجوز أن يكونَ وصفاً على فِعْل . وحكى الزهراويُّ وأبو البقاء أنه قُرِئ بكسر الباء والراء . وتوجيهُه : أنه نَسَقٌ على " الصلاة " ، أي : وأوصاني بالصلاةِ وبالزكاةِ وبالبِرِّ . و " بوالَدَيَّ " متعلقٌ بالبَرّ أو البِرّ .

قوله : ﴿ والسلام ﴾ : الألفُ واللامُ فيه للعهدِ ؛ لأنه قد تقدَّمَ لفظُه في قولِه : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم : 15] ، فهو كقولِه ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ [المزمل : 1516] ، أي : ذلك السلامُ الموجَّه إلى يحيى مُوَجَّهٌ إليَّ . وقال الزمخشري - بعد ذِكْرِه ما قدَّمْتُه - : " والصحيحُ أن يكونَ هذا التعريفُ تعريضاً باللعنةِ على متهمي مريمَ عليها السَّلامِ وأعدائِها من اليهود . وتحقيقُه : أنَّ اللامَ للجنسِ ، فإذا قال وجنسُ السَّلامِ عليَّ خاصة فقد عَرَّضَ بأنَّ ضِدَّه عليكم . وتنظيرُه : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] .

قوله : ﴿ يَوْمَ وُلِدْتُّ ﴾ منصوبٌ بما تضمنَه " عليَّ " من الاستقرار . ولا يجوز نَصْبُه ب " السَّلام " للفَصْلِ بين المصدرِ ومعمولِه . وقرأ زيد بن على " وَلَدَتْ " جعله فعلاً ماضياً مسنداً لضميرِ مريمَ ، والتاءُ للتأنيث . و " حَيّاً " حالٌ مؤكِّدَةٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 595.597 ﴾

(58/485)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

لما قالوا ذلك أنطق اللَّهُ عيسى حتى قال : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، فظهرت براءةُ ساحتها بكلام عيسى قبل أن يتكلم مثلُه . وجرى على لسانه حتى قال : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ؛ ليُقَال للنصارى إنْ صَدَقَ عيسى أنه عبدُ الله بطل قولُكم إنه ثالث ثلاثة ، وإن كذب فالذي يكذب لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عَبْدَ هواه ، ولا في أسْرِ شيءٍ سواه فَمَنْ تحرر مِنْ غيره فهو في الحقيقة عَبْدُه .

﴿ ءَاتَانِىَ الكِتَابَ ﴾ أي سيؤتيني الكتاب أو آتاني في سابق حكمه .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ بفضله . وفي الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحقُّ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك في حال ولادته ؛ لم تَكُنْ منه بَعْدُ عبادةٌ وأخبر أن الله جعله نبياً .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) ﴾

أي نافعاً للخلْق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَّةِ التي فيها هلاكهم ، ومَنْ استضاء بنوره نجا . . فهذه بركاتُه التي كانت تصل إلى الخلْق . ومَنْ بركاتِه إغاثةُ الملهوف ، وإعانةُ الضعيف ، ونصرة المظلوم ، ومواساة الفقير ، وإرشاد الضال ، والنصيحة للخَلْق ، وكفُّ الأذى عنهم وحَمْلُ الأذى منهم .

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي لم يجعلني غيرَ قابلٍ للنصيحة .

ويقال ﴿ شَقِيًّا ﴾ : أي متكبراً متجبراً . ويقال مختوماً بكُفْرٍ .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ﴾

قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج : " السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته " . . فشتان ما هما !

(59/485)

والسلام بمعنى السلامة ، أي سلامة لي يوم الولادة مما نسبوا إليَّ من قول النصارى في مجاوزة الحدِّ في المدح ، ومما وصفني به اليهود من الذمِّ ، فَلَسْتُ كما قالت الطائفتان جميعاً .

وسلام عليَّ يوم أموت ؛ ففي ذلك اليوم تكون لي سلامةٌ حتى تكون بالسعادة وفاتي .

وسلام عليّ يوم أُبْعَثُ ؛ أي سلامةٌ لي في الأحوالِ مِمَّا يُبْتَلَى به غيرُ أهل الوصال . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 427 . 428 ﴾

(60/485)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ كهيعص ﴾

قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص بنصب الهاء والياء ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر والكسائي بكسر الهاء والياء ، وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء ونصب الياء ، وقرأ حمزة وابن عامر بنصب الهاء وكسر الياء ، وقرأ نافع بين الكسر والفتح وهو اختيار أبي عبيدة ؛ ومعنى هذا كله واحد .

قال ابن عباس في تفسير قوله : ﴿ كهيعص ﴾ ، قال : كاف فالله كاف لخلقه بالرزق

والعطف عليهم ، والهاء فالله الهادي للخلق ، وأما الياء فيد الله مبسوطة على خلقه بالرزق لهم والعطف عليهم ، وأما العين فالله تعالى عالم بخلقه وأمورهم ، وأما الصاد فالله تعالى صادق بوعده .

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : هو اسم الله الأعظم ، وروي عنه أنه قال : هو قسم أقسم الله بكهيعص ، ويقال : هي حروف تدل على ابتداء السور نحو ﴿ الر ﴾ و ﴿ المر ﴾ وغيرهما .

ثم قال : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ ، معناه على طريق ابن عباس باسم الله الكافي الهادي العالم الصادق ذكر رحمة ربك عبده زكريا بالرحمة .

ومن قال : هو ابتداء السورة ، فمعناه اقرأ ﴿ كهيعص ﴾ من قال إنه قسم ، فمعناه ورب كهيعص إنه ذكر عبده زكريا بالرحمة .

ثم قال : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ ، يعني : في هذه السورة ، ومعناه : ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة ، ذكره بالرحمة لا يكون إلا بالله تعالى ففي الآية تقديم وتأخير يقول : ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة ، وهو زكريا بن ماثان ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيّاً ﴾ ، يقول : دعا ربه نداءً خفياً ، يقول : أخفاه وأسره من قومه ، ويقال : دعا ربه دعاء سراً ، لأنه علم أن دعاء السر أنفع وأسرع إجابة ، ويقال : دعا ربه نداءً خفياً يعني : خالصاً .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ ، أي ضعف عظمي ، ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ ؛ يعني : أخذ في الرأس شيباً وبياضاً .

(61/485)

﴿ شِيباً ﴾ صار نصباً بالتمييز ، والمعنى : اشتعل الرأس من الشيب ، يقال للشيب إذا كثر جداً قد اشتعل رأس فلان بالشيب .

ثم قال : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ ، يعني : لم تكن تخيب دعائي عندك إذا دعوتك .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى مِن وَرَائِى ﴾ ، يعني : خشيت ، ويقال : أعلم الموالي يعني : الورثة ، ويقال : بنو العم ، ويقال : العصبة من ورائي ، يعني : من بعد موتي .

خاف أن يَرِثَهُ غير الولد .

وروي عن قتادة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يَرْحَمُ اللهُ تَعَالَى زَكَرِيَّا وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَثَةٍ" .

وروي عن سعيد بن العاص أنه قال : أملى علي عثمان ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى ﴾ بنصب الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء ، ويقال : يعني : ذهبت الموالي .

وقال أبو عبيدة : لولا خلاف الناس لاتبعنا عثمان فيها .

ثم قال : ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ ، يعني : عقيماً لم تلد ؛ ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ ، يعني : ولداً .

﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ .

وقال عكرمة : يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة ، وهكذا قال الضحاك ؛ وقال بعضهم : يرثني يعني : علمي وسنتي ، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون مالاً .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ " .

وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دَرَاهِمَ وَلا دَنَانِيرَ ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا هذا العِلْمَ " ويقال : لأنه رأى من الفتن وغلبة أهل الكفر ، فيخاف على إفساد مواليه إن لم يكن أحد يقوم مقامه ويخولهم بالموعظة .

(62/485)

قرأ أبو عمرو والكسائي : ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ ﴾ بجزم كلا الثاءين على معنى جواب الأمر والشرط ، أي أنك إذا وهبت لي ولياً يرثني ؛ وقرأ الباقون : ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ ﴾ بالضم ؛

وقال أبو عبيدة : وهذا أحب إلي .

قال معناه هب لي الذي هذه حاله وصفته ، لأن الأولياء قد يكون منهم الوراثة وغيره ، فيقول : هب لي الذي يكون ورائي وارث النبوة .

ثم قال : ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ ، يعني : صالحاً زكياً .

﴿ رَضِيّاً يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغلام اسمه يحيى ﴾ ، يعني : أوحى الله تعالى وأرسل إليه جبريل وأن جبريل عليه السلام أدى إليه الرسالة من الله عز وجل .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ وقد بيّن ذلك في سورة آل عمران ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى المحراب أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 39] .

ثم قال هنا : ﴿ بغلام اسمه يحيى ﴾ ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ ، يعني : لم نجعل لزكريا من قبل يحيى ولداً يسمى يحيى ، ويقال : لم يكن قبله أحد يسمى بذلك الاسم ، ويقال : لم يكن بذلك الاسم في زمانه أحد وإنما سمي يحيى ، لأنه حي بالعلم والحكمة التي أوتيها ؛ ويقال : لأنه حي به المجالس ، ويقال : لأنه حيي به عقر أمه ، ويقال ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي نظيراً ومثالاً .

قرأ حمزة ﴿ نُبَشِّرُكَ ﴾ وقرأ الباقون بالتشديد وضم النون ونصب الباء وكسر الشين ﴿ نُبَشِّرُكَ ﴾ .

فقال زكريا عند ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ ، يقول : يا سيدي ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غلام ﴾ ، يعني : من أين يكون لي ولد ؟ ويقال : إنما قال ذلك على وجه الدعاء لله تعالى ، فقال : يا رب من أين يكون لي ولد ؟ ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ من الولد ، ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ ، يقول : تحول العظم مني يابساً ، ومنه يقال : قلب عات إذا كان قاسي القلب غير لين ، ويقال لكل شيء انتهى فقد عتى .

ولم يكن زكريا شاكّاً في بشارة الله عز وجل ، ولكن أحب أن يعلم من أي وجه يكون .

قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص والكسائي ﴿ عِتِيّاً ﴾ بكسر العين وكذلك ﴿ صِلِيّاً ﴾ وَ ﴿ جِثِيّاً ﴾ ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ إلا أن عاصماً خالفهما في ﴿ بُكِيّاً ﴾ ، والباقون كلها بالضم ، وكأن أبا عبيدة اختار الضم ، لأنه أفصح اللغتين وهي قراءة أبي .

﴿ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ﴾ له جبريل عليه السلام ﴿ كذلك ﴾ ، يعني : هكذا كما قلت إنك ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن الكبر عِتِيّاً قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ولكن الله عز وجل ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ، يعني : خلقه عليَّ يسير ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ﴾ يحيى ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ وَقَدْ ﴾ بالألف مؤخرة والنون مقدمة والباقون

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ ﴾ وهو اختيار أبي عبيدة قال زكريا عليه السلام ﴿ رَبِّ اجعل لِّى ءايَةً ﴾ في الولد .

روى أسباط ، عن السدي قال : لما بشر زكريا عليه السلام جاءه الشيطان فقال : إن هذا النداء الذي نوديته ليس من الله ، وإنما هو من الشيطان ليسخر بك .

ولو كان من الله عز وجل ، لأوحاه إليك كما كان يوحي إليك ، ف ﴿ قَالَ ﴾ عند ذلك : ﴿ رَبِّ اجعل لِّى ءايَةً ﴾ أعلم بها أن هذا النداء منك .

(64/485)

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى له : ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثلاث لَيَالٍ سَوِيّاً فَخَرَجَ ﴾ ، يعني : علامتك أن لا تستطيع أن تكلم الناس ثلاث ليال وأنت صحيح سليم من غير خرس ولا مرض .

ورجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها ، ووضع الولد في رحمها ؛ فلما أصبح اعتقل لسانه عن كلام الناس .

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾ ، أي من المسجد .

﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ ، يعني : أشار إليهم وأوما إليهم ، ويقال : كتب كتاباً وألقاه على الأرض ولم يقدر أن يتكلم به .

﴿ أَن سَبِّحُواْ ﴾ ، يعني : صلوا لله تعالى ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ ، يعني : غدوة وعشياً .

فعرف عند ذلك أنه آية الولد .

قوله عز وجل : ﴿ وَعَشِيّاً يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ ، يعني : أوحى الله تعالى إليه أن : ﴿ وَعَشِيّاً يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ ، يعني : بجد ومواظبة ﴿ وَاتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ ، يعني : أجرينا الحكمة على لسانه في حال صغره ، وذلك أنه مرّ بصبيان يلعبون ، فقالوا له : تعال حتى نلعب .

فقال لهم : ما للعب خلقنا .

ويقال : ﴿ خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ ، أي بعد عون من الله تعالى ، ويقال بكثرة الدرس .

﴿ ءاتيناه الحكم صَبِيّاً ﴾ ، يعني : النبوة والفقه والخير كله ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ ، يعني : آتيناه رحمة من عندنا ؛ وأصله من حنين الناقة على ولدها ﴿ وزكواة ﴾ ، يعني : وصدقة منا ، ويقال : التطهير ، ويقال : صلاحاً في دينه .

وقال سعيد بن جبير الزكاة : التزكية .

﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ ، يعني : مطيعاً لربه ، ﴿ وَبَرّا بوالديه ﴾ ، يعني : مطيعاً لهما ولا يعصيهما .

﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً ﴾ ، يعني : لم يكن قتّالاً ، والجبار الذي يقتل على الغضب ويضرب على الغضب ﴿ عَصِيّاً ﴾ ، يعني : لم يكن عصياً لربه ؛ والعصيّ والعاصي واحد .

قوله عز وجل : ﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾ ، أي السلام من الله عز وجل والسعادة تناله ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ ، أي حين ولد ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ ، يعني : حين يموت ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ ، أي حين يبعث حياً .

وروى قتادة عن الحسن أن يحيى عليه السلام قال لعيسى عليه السلام حين التقيا : أنت خير مني .

فقال عيسى صلوات الله عليه : بل أنت خير مني ، سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي .

وروي عن بعض الصحابة أنه قال : ما من الناس أحد إلا وهو يلقى الله عز وجل يوم القيامة ذو ذنب إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام وروي عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أَذْنَبَ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلا هَمّ بِامْرَأَةٍ " .

قوله : ﴿ واذكر فِى الكتاب مَرْيَمَ إِذِ انتبذت ﴾ ، يعني : اذكر في القرآن خبر مريم ، ومعناه : اقرأ عليهم ما أنزل عليك في القرآن من خبر مريم ﴿ إِذِ انتبذت ﴾ يعني : اعتزلت وتنحت ﴿ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ ، يعني : مشرقة الشمس في دار أهلها .

﴿ فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾ ، يعني : ضربت وأرخت من دونهم ستراً .

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ ، يعني : بعثنا إليها جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ ، يعني : تشبه لها في صورة شاب تامّ الخلق فدنا منها ، فأنكرت مريم مكان الرجل .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ ، يعني : إن كنت مطيعاً لله .

وإنما قالت ذلك ، لأن التقي إذا وعظ بالله عز وجل اتعظ وخاف ، والفاسق يخوف بالسلطان ، والمنافق يخوف بالناس ؛ فالتقيّ يخوف بالله .

ويقال : في الآية مضمر ومعناه احذر إن كنت تقياً .

﴿ قَالَ ﴾ لها جبريل : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِاَهَبَ لَكِ غلاما زَكِيّاً ﴾ ، يعني : ولداً صالحاً .

قرأ أبو عمرو ونافع في إحدى الروايتين ﴿ أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ بالياء ، وقرأ الباقون ﴿ لِاَهَبَ ﴾ .

(66/485)

فمن قرأ ﴿ لِيَهَبَ ﴾ ، فمعناه ليهب الله لك ومن قرأ ﴿ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ يكون فيه مضمر .

ومعناه : إنما أنا رسول ربك قال : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غلاما زَكِيّاً ﴾ يعني : قال ربك وهذا اختيار أبي عبيدة ، وهو موافق لخط المصاحف .

﴿ قَالَتْ ﴾ مريم لجبريل عليه السلام : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ ، يعني : من أين يكون لي ولد ؟ ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ ، يعني : لم يقربني زوج ، ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ ؛ يعني : لم أك فاجرة .

﴿ قَالَ ﴾ لها جبريل : ﴿ كذلك ﴾ ، يعني : هكذا كما قلت .

﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ ، يعني : خلقه عليّ يسير ، ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ يعني : عبرة لبني إسرائيل ، ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ؛ أي ونعمة منا .

﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ ، يعني : قضاء كائناً .

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ يعني : حملت مريم بعيسى عليه السلام وقال وهب بن منبه : إن مريم حملت بعيسى عليه السلام تسعة أشهر ، وقال بعضهم : ثمانية أشهر ؛ فتلك آية ، لأنه لا يعيش مولود في ثمانية أشهر .

وروي في بعض الروايات ، عن ابن عباس أنه قال : ما هي إلا أن حملت ثم وضعت ، وقال مقاتل : حملت في ساعة ووضعت في ساعة .

﴿ فانتبذت بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ ، يعني : انفردت بولادتها مكاناً بعيداً .

قال القتبي : القصيُّ أشد بعداً من القاصي .

ثم قال : ﴿ فَأَجَاءهَا المخاض ﴾ ، يعني : جاء بها وألجأها المخاض ، يعني : الطلق بولادة عيسى عليه السلام ﴿ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ ، أي أصل النخلة .

قال ابن عباس : النخلة اليابسة في شدة الشتاء ، يعني : الطلق .

﴿ قَالَتْ يا أيها لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ ، يعني : شيئاً متروكاً لم أذكر ، ويقال للشيء الحقير الذي إذا ألقي ينسى نسيٌ ؛ وقال قتادة : يعني : لا أعرف ولا أدري من أنا ؛ وقال عكرمة : يعني : جيفة ملقاة ، وهكذا قال الضحاك ؛ وقال ربيعة بن أنس ؛ يعني : سقطاً .

(67/485)

قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿ وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ بنصب النون والباقون ﴿ نَسِيّاً ﴾ بكسر النون ، قال أبو عبيد : وبالكسر نقرؤها ، لأنها كانت أكثر في لغة العرب وأفشاها عليها أهل الحرمين والبصرة .

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ ؛ قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص ﴿ مِنْ ﴾

بالكسر ، يعني : الملك ، وهكذا قرأ مجاهد والحسن ، والباقون ﴿ مِنْ ﴾ بالنصب يعني به عيسى عليه السلام وقال أبو عبيد : بالأولى نقرأ يعني : بالكسر ، لأن قراءتها أكثر والمعنى فيها أعمّ ، لأنه إذا قال : ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ فإنما هو عيسى خاصة .

﴿ أَلاَّ تَحْزَنِى ﴾ بولادة عيسى وبمكان الجدب ، ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ ؛ أي نهراً صغيراً بجبال ؛ ويقال : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ ، أي بيتاً ، فذكر هذا القول عند ابن حميد فأنكره وقال : هو الجدول .

ألا ترى أنه قال : ﴿ فَكُلِى واشربى ﴾ .

قال مجاهد : السريّ بالسريانية ، وقال سعيد بن جبير : بالنبطية .

﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ ؛ يقول : حركي أصل النخلة ﴿ تساقط عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ ، أي غضاً طرياً .

(68/485)

قرأ حمزة ﴿ تساقط ﴾ بنصب التاء وتخفيف السين ، وأصله تتساقط إلا أنه حذفت منه إحدى التاءين للتخفيف وهذا كقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] وأصله تتسوى ، وكقوله

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هؤلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيارِهِم تظاهرون عليْهِم بالإثم والعدوان وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تفادوهم وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذلك مِنكُمْ إِلاَّ خِزْىٌ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العذاب وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[البقرة : 85] ، وكقوله ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [مريم : 90] وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿ تساقط ﴾ بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف يعني : أن النخلة تساقط عليك ، وقرأ الباقون بالنصب وتشديد السين ونصب القاف ، لأن التشديد أقيم مقام التاء التي حذفت .

وروي عن البراء بن عازب أنه كان يقرأ ﴿ يُسَاقِط ﴾ بالياء يعني : أن الجذع يساقط عليك ، وقرأ بعضهم : ﴿ نُسَاقِطُ ﴾ بالنون ومعناه ونحن نساقط عليك ، وروي أنها كانت نخلة بلا رأس وكان ذلك في الشتاء ، فجعل الله تعالى لها رأساً وأنبت فيها رطباً ، فذلك قوله : ﴿ النخلة تساقط عَلَيْكِ رُطَباً ﴾ أي غضاً طرياً .

قيل لها : ﴿ فَكُلِى ﴾ من الرطب ، ﴿ واشربى ﴾ من النهر ، ﴿ وَقَرِّى عَيْناً ﴾ ؛ أي طيبي نفساً بولادة عيسى .

وقال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندي دواء إلا الرطب ولا للمريض إلا العسل .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ ، يعني : إن رأيت أحداً من الناس ، ﴿ فَقُولِى ﴾ إن سألك أحد شيئاً فقولي : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ ، يعني : صمتاً .

وروي عن ابن عباس في بعض الروايات أنه كان يقرأ ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ للرحمن ﴾ .

﴿ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ ؛ يعني : قولي ذلك بالإشارة لا بالقول ، وكان المتقدمون يصومون من الكلام كما يصومون من الطعام .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا ﴾ ؛ وذلك أن مريم حملت عيسى عليه السلام ودخلت على أهلها ، وكان أهلها أهل بيت صالحين .

﴿ قَالُواْ ﴾ لها أي قومها : ﴿ قَالُواْ يامريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ ، يعني : أتيت وفعلت أمراً عظيماً منكراً ، لا يعرف منك ولا من أهل بيتك ﴿ فَأَرْسِلْ إلى هارون ﴾ ، يعني : هارون بن ماثان ، وكان من أمثل بني إسرائيل ﴿ فَأَرْسِلْ إلى هارون ﴾ ، يعني : يا شبه هارون في الصلاة والصلاح ، ويقال : كان رجل سوء يسمى هارون فعيّروها به وشبهوها بهارون ، ويقال : كان لها أخ يقال له هارون من أبيها ولم يكن من أمها ، وذكر أن أهل الكتاب قالوا : كيف تقولون إن مريم أخت هارون وكان بينهما ستمائة سنة ؟ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ عَلَيْهِمْ السَّلاَمُ " يعني : أن أخا مريم سُمِّي باسم هارون النبي عليه السلام .

ثم قال : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ ﴾ ، يعني : زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ ، يعني : فاجرة .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ ، يعني : أشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه ، يعني : كلموا عيسى .

﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى المهد صَبِيّاً ﴾ ؟ يعني : من هو في الحجر وهو رضيع .

(70/485)

ويقال : معناه كيف نكلم من هو يكون في المهد ؟ ويقال : معناه كيف نكلم من يكون في المهد صبياً ؟ فأنطق الله تعالى عيسى ، فتكلم و ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ الله ﴾ ، فأول الكلام الذي تكلم به ردّ على النصارى ، لأنه أقر بأنه عبد الله ورسوله .

ثم قال : ﴿ الكتاب وَجَعَلَنِى ﴾ ؛ روي عن ابن عباس أنه قال : معناه علمني الكتاب في بطن أمي ، ويقال : معناه يؤتيني الكتاب وهو الإنجيل ، ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ ؛ أي أكرمني الله تعالى بأن جعلني نبياً ، ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً ﴾ ؛ يعني : جعلني معلماً للخلق ﴿ أَيْنَمَا كُنتُ ﴾ ، يعني : حيث ما كنت ، ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ ﴾ ؛ يعني : أوصاني وأمرني بإتمام الصلاة وإعطاء الزكاة ﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَتِى ﴾ ، يعني : جعلني رحيماً

بوالدتي ، ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ ؛ يعني : لم يخذلني حتى صرت به جباراً عصياً .

﴿ والسلام عَلَىَّ ﴾ ؛ يعني : السلام عليَّ من الله تعالى ﴿ يَوْمَ وُلِدْتُّ ﴾ يعني : حين ولدت ، ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ ؛ يعني : حين أموت ، ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ ؛ يعني : أبعث يوم القيامة .

فكلمهم بهذا ثمّ سكت ، فلم يتكلم حتى كان قدر ما يتكلم الغلمان . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بحر العلوم جـ 2 صـ 367.374 ﴾

(71/485)

وقال الثعلبى :

قوله عزّ وجلّ ﴿ كهيعص ﴾

قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء ، ضدّه شامي وحمزة وخلف ، بكسرهما ، والكسائي ، بفتحهما ، ابن كثير وعاصم ويعقوب ، واختلفوا في معناها .

فقال ابن عباس : هو اسم من أسماء الله عزّ وجلّ ، وقيل : إنّه اسم الله الأعظم ، وقال قتادة : هو اسم من اسماء القرآن ، وقيل : هو اسم السورة ، وقال عليّ بن أبي طالب وابن

عباس : هو قَسم أقسم الله تعالى به ، وقال الكلبي : هو ثناء أثنى الله عزّ وجلّ به [على] نفسه .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن حامدُ بن محمد ، قال أبو عبد الله محمد بن زياد القوقسي ، قال أبو عمّار عن جرير ، عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله عزّ وجلّ ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف من كريم ، والهاء من هاد ، والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم ، والصاد من صادق ، وقال الكلبي أيضاً : معناه : كاف لخلقه ، هاد لعباده ، يده فوق أيديهم ، عالم ببريته ، صادق في وعده ﴿ ذِكْرُ ﴾ رُفع بكهيعص وإن شئت قلت : هذا ذكر ﴿ رَحمة ربّكَ عَبْدَهُ زَكَريا ﴾ ، وفيه تقديم وتأخير ، معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته وزكريا في موضع نصب .

وقرأ بعضهم عبده زكرّيا بالرفع على أنّ الفعل له ﴿ إذْ نادى ﴾ دعا ﴿ ربّهُ ﴾ فى محرابه حيث يقرب القربان ﴿ نداءً خفيّاً ﴾ دعاء سرّاً من قومه فى جوف الليل ، مخلصاً فيه لم يطلع عليه أحد إلّا الله عزّ وجلّ قال ﴿ رَبِّ إنِّي وَهَنَ ﴾ ضعف ﴿ العظم مِنّي واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ شمطاً ، يقول : شخت وضعفت ، ومن الموت قربت ﴿ ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً ﴾ يقول : يا رب عوّدتني الإجابة فيما كنت تجيبني إذا دعوتك ولا تخيّبني .

قوله ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي ﴾ قرأ عثمان ويحيى بن يعمر ، (خفت) بفتح الخاء والفاء وكسر التاء مشدّدا الموالي بسكون الياء بمعنى ذهب الموالي وقلّت ، الباقون : (خفت) بكسر الخاء وضم التاء من الخوف ، الموالي نصباً ، خاف أن يرثه غير الولد ، وقيل : خاف عليهم تبديل دين الله عزّ وجلّ وتغيير أحكامه وأن لا يحسنوا الخلافة له على أُمّته ، فسأل ربّه ولداً صالحاً يأمنه على أُمّته ، والموالي بنو العمّ وقيل : الاولي والولي والمولى في كلام العرب واحد ، وقال مجاهد : العصبة ، وقال أبو صالح : الكلالة ، وقال الكلبي : الورثة من ورائي من بعد موتي ﴿ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً ﴾ لا تلد ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ﴾ أعطني من عندك ﴿ وَلِيّاً ﴾ ابناً ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ وقرأ يحيى بن يعمر ويحيى بن وثاب والأعمش وأبو عمرو والكسائي بالجزم فيهما على جواب الدّعاء ، وقرأ الباقون بالرفع على الحال والصفة ، أي وليّاً وارثاً ، وقرأ ابن عبّاس ويحيى بن يعمر : يرثني ، وأرث ﴿ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ النبّوة ، يعني يرث النبوّة والعلم ، وقال الحسن : معناه يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوّة والحبورة ، وقال الكلبي : هو يعقوب بن ماثان اخو زكريا وليس يعقوب أب يوسف ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ أي صالحاً براً تقياً مرضيّاً ، وقال أبو صالح : معناه : اجعله نبياً كما جعلت أباه نبيّاً .

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهاني وشعيب بن محمد البيهقي قالا : أخبرنا : مكّي بن

عبدان عن أحمد بن الأزهر عن روح بن عبادة عن سعيد عن قتادة عن بشر بن نهيك " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ يقول عند ذلك : " رحم الله زكريا ، ما كان عليه من ورثة " " .

(73/485)

قوله ﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ فيه إضمار وإختصار ، يعني فاستجاب دعاءه فقال : ﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ ﴾ ولد ذكر ﴿ اسمه يحيى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ قال قتادة والكلبي : لم يُسمَّ أحدٌ قبله يحيى ، وهي رواية عكرمة عن ابن عباس ، وقال سعيد بن جبير وعطاء : لم نجعل له شبيهاً ، ومثله دليله قوله تعالى ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] أي مِثلاً وعدلاً ، وهي رواية مجاهد عن ابن عباس ، وتأويل هذا القول أنّه لم يكن له مثل لأنّه لم يهمّ بمعصيته قط وقيل : لم يكن له مثل فى أمر النساء لأنه كان سيّداً وحصورا وقال علي بن أبي طالب عن ابن عباس : لم تلد العواقر مثله ولداً ، وقيل : إن الله تعالى اشترط القبل لأنه جل ذكره أراد أن يخلق بعده من هو أفضل منه وهو محمّد عليه السلام ، وقيل : إنّ الله تعالى لم يرد بهذا القول جميع الفضائل كلّها ليحيى ، وقيل : إنما أراد في بعضها لأن الخليل والكم عليهما السلام كانا قبله وكانا أفضل منه .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً ﴾ أي وامرأتي عاقر كقوله ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] أي من هو في المهد صبيّ ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ أي يبساً ، قال قتادة : نحول العظمْ يقال : ملك عات إذا كان قاسي القلب غير ليّن ، وقال أبو عبيد : هو كل مبالغ فى شر أو كفر فقد عتا وعسا ، وقرأ أُبيّ وابن عباس عسيّاً ، وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي عتياً بكسر العين ومثله جثيّاً وصليّاً وبُكيّاً والباقون بالضم فيهما وهما لغتان .

(74/485)

﴿ قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ﴾ ، من قبْل يحيى ، ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِي آيَةً ﴾ آيةً على حمل امرأتي ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ أي صحيحاً سليماً من غير ما بأس ولا خرس ، وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلّون إذ خرج عليهم زكريّا متغيراً لونه فأنكروه فقالوا له : مالك يا زكريّا ؟ فاوحى أي أومى إليهم ، ويقال : كتب في الأرض أن سبّحوا وصلّوا لله عزّ وجلّ بُكرةً وعشياً والسبحة الصلاة .

قوله ﴿ يا يحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ بجدّ ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم ﴾ يعني الفهم ﴿ صَبِيّاً ﴾

يعني في حال صباه ، وقال معمّر : جاء صِبيان إلى يحيى بن زكريّا فقالوا : اخرج بنا نلعب ، فقال : ما للّعب خلقت ، فأنزل الله عزّ وجلّ وآتيناه الحكم صبيّا ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ رحمة من عندنا ، قال الحطيئة لعمر بن الخطّاب :

تحنّنْ عليَّ هداك المليك . . . فإن لكلّ مقام مقالاً

أي ترحم ، ومنه قوله : حنانيك مثل سعديك ، قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا . . . حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وأصله من حنين الناقة .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن عبد الله بن سليمان عن عثمان عن حريز بن عبد الحميد عن أبي خالد عن عكرمة عن ابن عبّاس قال : ما أدري ما حناناً إلا أن يكون بعطف رحمة الله عز وجلّ على عباده .

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن حامد بن محمد عن بشر بن موسى عن هوذة عن عوف بلغني في قوله الله عزّ وجلّ ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال : الحنان : المحبّة ﴿ وَزَكَاةً ﴾ قال ابن عباس يعني بالزكاة طاعة الله عزّ وجلّ والإخلاص .

وقال الضحاك : هي الفعل الزاكي الصالح ، وقال الكلبي : يعني صدقة تصدق والده بها على أبويه ، وقيل : بركة ونماء وزيادة . وقيل : جعلناه طاهراً من الذنوب .

﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ مسلماً مخلصاً مطيعاً .

أخبرنا سعيد بن محمد وعبد الله بن حامد قالا : أخبرنا علي بن عبدان ، حدّثنا أبو الأزهر ، حدّثنا ابن القطيعي قال : سمعت الحسن قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده ما من الناس عبد إلاّ قد همّ بخطيئة أو عملها غير يحيى بن زكريا " .

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ ﴾ باراً بهما لا يعصيهما ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً ﴾ قالا : متكبراً .

قال الحلبي : الجبّار الذي يضرب ويقتل على الغضب .

﴿ عَصِيّاً ﴾ شديد العصيان لربّه .

﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ ﴾ قال الحلبي : سلام له منّا حين ولد وحين يموت وحين يبعث حيّاً .

أخبرنا أبو محمد الأصفهاني وأبو صالح النيسابوري قالا : أنبأنا أبو حاتم التميمي ، حدثنا أبو الازهر السّليطيّ ، حدثنا رؤبة ، حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن أن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا فقال له عيسى : استغفر لي فأنت خير مني ، وقال يحيى : استغفر لي ، أنت خير منّي ، فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلّمتُ على نفسي وسلَّم الله عليك .

﴿ واذكر فِي الكتاب ﴾ القرآن ﴿ مَرْيَمَ ﴾ وهي ابنة عمران بن ماثان ﴿ إِذِ انتبذت ﴾ .

قال قتادة : انفردت . الكلبي : تنحّت وأصله من النبذة بفتح النون وضمّها وهي الناحبة ، يعني إنها اعتزلت وجلست ناحية ﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ يعني مشرقة ، وهي مكان في الدار مما يلي المشرق ، جلست فيها لأنها كانت في الشتاء .

قال الحسن : اتّخذت النصارى المشرق قبلة لأنّ مريم انتبذت مكاناً شرقياً ﴿ فاتخذت ﴾ فضربت ﴿ مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾ قال ابن عباس : ستراً ، قال مقاتل : جعلت الجبل بينها وبين قومها ، قال عكرمة : إن مريم كانت تكون في المسجد ما دامت طاهراً ، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد ، فبينا هي تغتسل من الحيض إذ عرض لها جبرئيل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سويّ الخَلْق .

(76/485)

فذلك قوله ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا ﴾ يعني جبرئيل (عليه السلام) وقيل : روح عيسى ابن مريم اضافة إليه على التخصيص والتفضيل ﴿ فَتَمَثَّلَ ﴾ فتصور لها بشراً آدمياً سويّاً لم ينقص منه شيء وإنما أرسله في صورة البشر لتثبت مريم عليها السلام وتقدر على استماع كلامه ، ولو نزّله على صورته التي هو عليها لفزعت ونفرت عنه ولم تقدر على

استماع كلامه ، فلمّا رأته مريم ﴿ قَالَتْ إِني أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ مؤمنا مطيعاً .

قال علي بن أبي طالب : علمت أن التقيّ ذو نهية ، وقيل : كان تقي رجل من أعدل الناس في ذلك الزمان فقالت : إنْ كنت في الصلاح مثل التقي فإني أعوذ بالرحمن منك ، كيف يكون رجل اجنبي وامرأة اجنبية في حجاب واحد ؟ قال لها جبرئيل ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ ﴾ أي يقول لأهب لك ، وقرأ أبو عمرو ليهب بالياء ولداً ﴿ غُلاَماً زَكِيّاً ﴾ صالحاً تقياً ﴿ قَالَتْ ﴾ مريم ﴿ أَنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ولم يقربني روح ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ فاجرة وإنما حُذفت الهاء منه لأنه مصروف عن وجهه .

قال جبرئيل ﴿ كذلك ﴾ كما قلتِ يا مريم ولكن قال ربّك وقيل هكذا ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ خلْق ولد من غير أب ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً ﴾ علامة هذه ﴿ لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لمن تبعه على دينه .

﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ معدوداً مسطوراً في اللوح المحفوظ .

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ وذلك أن جبرئيل عليه السلام رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت حين لبسته ، وقيل : نفخ جبرئيل من بعيد نفخاً فوصل الريح إليها فحملت ، فلمّا حملت ﴿ فانتبذت ﴾ خرجت وانفردت ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ بعيداً من أهلها من وراء الجبل ، ويقال اقصى الدار .

قال الكلبي : قيل لابن عمّ لها يقال له يوسف : إن مريم حملت من الزنا لأن يقتلها الملك وكانت قد سميت له فأتاها فاحتملها ، فهرب بها ، فلما كان ببعض الطريق أراد يوسف ابن عمّها قتلها فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال له : إنّه من روح القدس فلا تقتلها ، فتركها ، ولم يقتلها فكان معها .

واختلفوا في مدّة حملها ووقت وضعها ، فقال بعضهم : كان مقدار حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، ومنهم من قال : ثمانية أشهر وكان ذلك آية أُخرى لأنّه لم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غير عيسى ، وقيل : ستّة أشهر ، وقيل : ثلاث ساعات ، وقيل : ساعة واحدة .

قال ابن عباس : ما هو إلاّ أن حملت فوضعت ولم يكن بين الحمل والانتباذ إلّا ساعة : لأنّ الله تعالى لم يذكر بينهما فصلاً .

وقال مقاتل بن سليمان : حملته مريم في ساعة وصوّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها ، وهي بنت عشر سنين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى .

﴿ فَأَجَآءَهَا المخاض ﴾ ألجأها وجاء بها المخاض ، وفي قراءة عبد الله آواها المخاض يعني الحمل ، وقيل : الطلق .

﴿ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ وكانت نخلة يابسة في الصحراء في شدّة الشتاء ولم يكن لها سعف .

وروى هلال بن خبّاب عن أبي عبيد الله قال : كان جذعاً يابساً قد جيء به ليبنى به بيت يقال له بيت لحم .

﴿ قَالَتْ ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : نسياً بفتح النون ، والباقون بالكسر ، وهما لغتان مثل : الوَتر والوِتر والحَجر والحِجر والجَسر والجِسر ، وهو الشيء المنسي .

قال ابن عباس : يعني شيئاً متروكاً ، وقال قتادة : شيئاً لا يذكر ولا يعرف ، وقال عكرمة والضحاك ومجاهد : حيضة ملقاة .

(78/485)

قال الربيع : هو السقط وقال مقاتل : يعني كالشيّ الهالك . قال عطاء بن أبي مسلم : يعني لم أُخلق ، وقال الفرّاء : هو ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، وقال أبو عبيد : هو ما نُسي

واغفل من شئ حقير . قال الكميت :

اتجعلنا جسراً لكلب قضاعة . . . ولست بنسي في معد ولا دخل

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا حاجب بن محمد قال : حدّثنا محمد بن حمّاد قال : حدّثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنّها قالت : لوددت أني إذا متُ كنت نسياً منسياً .

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي : من تحتها بكسر الميم وهو جبرئيل (عليه السلام) ناداها من سفح الجبل ، وقرأ الباقون من تحتها بفتح الميم وهو عيسى لما خرج من بطنها ناداها : ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ قال الحسن : يعني عيسى كان والله عبداً سرياً أي رفيعاً ، وقال سائر المفسّرين : هو النهر الصغير ، وقيل معنى قوله سبحانه ﴿ تَحْتَكِ ﴾ إنّ الله تعالى جعل النهر تحت أمرها إن أمرته أن يجري جرى وإن أمرته بالإمساك أمسك ، كقوله عزّ وجلّ فيما أخبر عن فرعون ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي ﴾

[الزخرف : 51] أي من تحت أمري ، قال ابن عباس : فضرب جبرئيل : ويقال عيسى : برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى وحييت النخلة بعد يبسها فأورقت وأثمرت وأرطبت ، وقيل لمريم ﴿ وهزى إِلَيْكِ ﴾ أي حرّكي ﴿ بِجِذْعِ النخلة ﴾ يقول العرب :

هزّه وهزّ به كما يقال : خذ الخطام وخذ بالخطام ، وتعلّق بزيد وتعلق زيداً ، وخذ رأسه وخذ برأسه ، وامدد الحبل ، وامدد بالحبل ، والجذع : الغصن ، والجذع : النخلة نفسها .

(79/485)

﴿ تُسَاقِطْ ﴾ قرأ البراء بن عازب ويعقوب وأبو حاتم وحمّاد ونصير : يساقط بالياء ، وقرأ حفص تُساقِط بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف ، وقرأ الأعمش وحمزة وأبو عبيد : تَسّاقَط بفتح التاء والقاف وتشديد السين ، فمن أَنَّث ردَّه إلى النخلة ومن ذكّر ردّه ألى الجذع والتشديد على الإدغام والتخفيف على الحذف .

﴿ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ غصناً رطباً ساعة جُني .

وقال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض من العسل .

وقال عمرو بن ميمون : ما أدري للمرأة إذا عسُر عليها ولدها خير من الرطب لقول الله سبحانه ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ .

وقالت عائشة رضي الله عنه : إنَّ من السنّة أن يمضغ التمر ويدلك به فم المولود ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُمضغ التمر ويحنّك به أولاد الصحابة .

﴿ فَكُلِي ﴾ يا مريم من الرطب ﴿ واشربي ﴾ من النهر ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ وطيبي

نفساً ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ فسألك عن ولدكِ أو لامكِ عليه ﴿ فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ يقال : إنّ الله أمرها أن تقول هذا اشارة ويقال : أمرها أن تقوله نطقاً ثم تمسك عن الكلام بعد هذا .

﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ يقال : كانت تكلّم الملائكة ولا تكلّم الإنس .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ قال الكلبي : احتمل يوسف النجّار مريم وابنها عيسى (عليه السلام) إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يوماً حتى تعالت من نفاسها ثم جاء بها ﴿ فَأَتَتْ ﴾ مريم ﴿ بِهِ ﴾ بعيسى تحمله بعد أربعين يوماً ، فكلّمها عيسى في الطريق فقال : يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه ، فلمّا دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين .

(80/485)

﴿ قَالُواْ يا مريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ فظيعاً منكراً عظيماً ، قال أبو عبيدة : كل من عجب أو عمل فهو فري ، " قال النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه : فلم أر عبقرياً يفري فريه " أي يعمل عمله ، قال الراجز :

قد أطعمتني دقلاً حوليا . . . مسوسا مدوداً حجرياً

قد كنت تفرين به الفريا .

أي كنت تكثيرن فيه القول وتعظمينه .

﴿ ياأخت هَارُونَ ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم " انّما عنوا هارون النبي اخا موسى لأنها كانت من نسله " .

وقال قتادة وغيره : كان هارون رجلاً صالحاً من أتقياء بني إسرائيل وليس بهارون أخي موسى ، ذُكر لنا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون الفاً كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل ، وقال المغيرة بن شعبة : قال لي أهل نجران قوله : ﴿ ياأخت هَارُونَ ﴾ وقد كان بين موسى وعيسى من السنين ما قد كان ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى اللّه عليه وآله فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمّون بالانبياء والصالحين من قبلهم .

وقال الكلبي : كان هارون أخا مريم من أبيها ليس من أُمها وكان أمثل رجل في بني إسرائيل ، وقيل : إن هارون كان من أفسق بني إسرائيل وأظهرهم فساداً فشبّهوها به ، وعلى هذا القول الأُخت ها هنا بمعنى الشبه لا بمعنى النسبة ، والعرب تسمي شبه الشيء أُخته وأخاه ، قال الله سبحانه ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف : 48] أي شبهها .

﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ﴾ عمران ﴿ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴾ حنّة ﴿ بَغِيًّا ﴾ زانية فمن أين لك هذا الولد ؟ ﴿ فَأَشَارَتْ ﴾ مريم إلى عيسى أن كلّموه فقالوا ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ أي من هو في المهد وهو حجرها ، وقيل : هو المهد بعينه وقد كان حشواً للكلام ولا معنى له كقوله ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] أي أنتم خير أُمة وكقوله ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 93] أي هل أنا ، وكقول الناس إن كنتَ صديقي فصلني ، قال زهير :

أجرت عليه حرّة أرحبيّة . . . وقد كان لون الليل مثل الأرندج

وقال الفرزدق :

فكيف إذا رأيت ديار قومي . . . وجيران لنا كانوا كرام

أي وجيران لنا كرام ، قال وهب : فأتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى : انطق بحجّتك إن كنت أُمِرْتَ بها ، فقال عند ذلك وهو ابن أربعين يوماً . وقال مقاتل : هو يوم ولد .

﴿ إِنِّي عَبْدُ الله ﴾ فأقرّ على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ما تكلم تكذيباً للنصارى وإلزاماً للحجة عليهم .

قال عمرو بن ميمون : إن مريم لما أتت قومها بعيسى اخذوا لها الحجارة ليرموها فلمّا تكلّم

عيسى تركوها ، قالوا : ثم لم يتكلّم عيسى بعد هذا حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان .

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : خمسة تكلّموا قبل إبّان الكلام : شاهد يوسف ، وولد ماشطة بنت فرعون ، وعيسى ، وصاحب جريج ، وولد المرأة التي أحرقت في الأُخدود .

(82/485)

فأمّا شاهد يوسف فقد مرَّ ذكره ، وأمّا ولد الماشطة ، فأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن خالد بن الحسن قال : حدَّثنا داود بن سليمان قال : حدَّثنا عبد بن حميد قال : حدَّثنا الحسن بن موسى قال : حدَّثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أُسري به مرّت به رائحة طيبة فقال : يا جبرئيل ما هذه الرائحة ؟ قال : ماشطة بنت فرعون كانت تمشطها فوقع المشط من يدها ، فقالت : بسم الله ، فقالت ابنته : أبي ؟ فقالت : لا بل ربّي وربّك وربّ أبيك .

فقالت : أخبر بذلك أبي قالت : نعم ، فأخبرته فدعا بها فقال : من ربّك ؟ قالت : ربّي وربّك في السماء ، فأمر فرعون ببقرة من نحاس فأُحميت فدعا بها وبولدها فقالت : إن لي

إليك حاجة قال : ما هي ؟ قالت : تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها جميعاً فقال : ذلك لك علينا من الحق ، فأمر بأولادها فألقى واحداً واحداً حتى إذا كان آخر ولدها وكان صبيّا مرضعاً فقال : اصبري يا أُماه فإنّا على الحق ، قال : ثم أُلقيت مع ولدها " .

(83/485)

وأمّا صاحب جريج فأخبرنا عبد الله بن حامد الاصبهاني قال : أخبرنا محمد بن الحسين الزعفراني قال : حدّثنا أحمد بن الخليل قال : حدّثنا يونس بن محمد المؤدب ، قال : حدّثنا الليث ابن سعد عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرنا عبد الله [بن حامد] قال : أخبرنا محمد بن خالد بن الحسن قال : حدّثنا راشد بن سليمان قال : حدّثنا عبد بن حميد قال : حدّثنا هاشم بن القاسم قال : حدّثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنّ رجلاً يقال له جريج كان راهباً يتعبّد في صومعته فأتته أُمّه لتسلّم عليه فنادته : يا جريج اطلع إليّ انظر إليك ، فوافقته يصلّي فقال : أُمّي وصلاتي لرّبي ، أُوثر صلاتي لرّبي على أُمّي ، فانصرفت ثم جاءت الثانية فنادته : يا جريج كلّمني فوافقته يصلّي فاختار صلاته ، ثمّ جاءته الثالثة فاختار صلاته فقالت : إنّه أبى أن يكلّمني ، اللهمّ لا تمته

حتى تنظر في وجهه زواني المدينة ، قال : ولو دعت عليه أن يفتن لفتن " .

قال : وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره ، فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها فحملت فولدت غلاماً فقيل لها : ممّن هذا ؟ فقالت : من صاحب الصومعة ، فأتوه وهدّموا صومعته وانطلقوا به إلى ملكهم ، فلمّا مرَّ على حوانيت الزواني خرجن ، فتبسم وعرف أنّه دعاء أُمّه ، فقالوا : لم يضحك حين مرَّ على الزواني ؟ فلمّا أُدخل على ملكهم قال جريح : أين الصبي الذي ولدت ؟ فأتي به فقال له جريح : مَنْ أبوك ؟ قال : أبي فلان الراعي ، فابرأ الله سبحانه جريحاً وأعظمه الناس ، وقالوا : نبني لك ديرك بالذهب والفضة قال : لا ولكن أعيدوه كما كان ، ثمّ علاه .

وأمّا ولد صاحبة الأُخدود فسنذكرها في موضعها إن شاء الله .

(84/485)

﴿ آتَانِيَ الكتاب ﴾ يعني يؤتيني الكتاب لفظه ماض ومعناه مستقبل ، وقيل : إنه أخبر عمّا كتب له في اللوح المحفوظ كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم متى كُتبتَ نبياً ؟ قال : " كُتبتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد " .

وقيل : معناه علمني وألهمني التوراة في بطن أُمّي .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً ﴾ معلماً للخير ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وقيل : مباركاً على من اتّبع ديني وأمري ﴿ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً ﴾ أي وجعلني براً ﴿ بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ .

أخبرنا شعيب بن محمد البيهقي وعبد الله بن حامد قالا : أخبرنا مكّي بن عبدان ، قال : حدّثنا أحمد بن الأزهر قال : حدّثنا روح بن عبادة قال : حدّثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا ان امرأة رأت عيسى ابن مريم يُحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص في آيات أذن اللّه له فيهنّ فقالت : طوبى للبطن الذي حملك والثدي الذي أُرضعت به ، فقال ابن مريم يجيبها : طوبى لمن تلا كتاب الله واتّبع ما فيه ولم يكن جباراً شقيّاً ، وكان يقول : سلوني فإنّ قلبي ليّن وإنيّ صغير في نفسي ، ممّا أعطاه الله سبحانه من التواضع .

﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 205.215 ﴾

(85/485)

وقال الزمخشرى :

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم مكية [إلا آيتي 58 و 71 فمدنيتان] وآياتها 98 [نزلت بعد سورة فاطر] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة مريم (19) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (3)

كهيعص قرأ بفتح الهاء «1» وكسر الياء حمزة، وبكسرهما عاصم، وبضمهما الحسن. وقرأ الحسن ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ أي: هذا المتلوّ من القرآن ذكر رحمة ربك. وقرئ: ذكر، على الأمر «2». راعى سنة اللّه في إخفاء دعوته، لأنّ الجهر والإخفاء عند اللّه سيان، فكان الإخفاء أولى، لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة «3». أو أسره من مواليه الذين خافهم. أو خفت صوته لضعفه وهرمه، كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات، وسمعه تارات.

---

(1). قوله «كهيعص قرأ بفتح الهاء» عبارة النسفي. قرأ علي ويحيى بكسر الهاء والياء، ونافع بين الفتح والكسر، وإلى الفتح أقرب. وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء. وحمزة بعكسه. وغيرهم بفتحهما. (ع)

(2). قوله «و قرأ الحسن ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ أي هذا الخ» يحتاج إلى تحرير، فان الرفع قراءة

الجمهور . وقوله «ذكر على الأمر» أى ورَحْمَةِ رَبِّكَ بالنصب . (ع)

(3) . قوله «في إبان الكبرة والشيخوخة» في الصحاح : الكبر في السن ، والاسم الكبرة بالفتح . وفيه أيضا :

شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك : جاء على أصله ، وشيخوخة اه وليس فيه شيوخة . وفيه أيضا : إبان الشيء بالكسر والتشديد : وقته وأوانه . (ع)

(86/485)

واختلف في سنّ زكريا عليه السلام ، فقيل : ستون ، وخمس وستون ، وسبعون ، وخمس وسبعون ، وخمس وثمانون .

[سورة مريم (19) : آية 4]

قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

قرئ وَهَنَ بالحركات الثلاث ، وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن . ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصدا

إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها . إدغام السين في الشين عن أبى عمرو . شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ ، باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس : اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . توسل إلى اللّه بما سلف له من الاستجابة . وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال : أنا الذي أحسنت إلىّ وقت كذا . فقال : مرحبا بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته .

[سورة مريم (19) : الآيات 5 إلى 6]

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

كان مواليه - وهم عصبته إخوته وبنو عمه - شرار بنى إسرائيل ، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدّلوه ، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدى به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه مِنْ وَرائِي بعد موتى . وقرأ ابن كثير : من وراي ، بالقصر ، وهذا الظرف لا يتعلق بخِفْتُ لفساد المعنى ، ولكن بمحذوف . أو بمعنى الولاية في الموالي : أى خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي . أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي .

وقرأ عثمان ومحمد بن على وعلى بن الحسين رضى اللّه عنهم . خفت الموالي من ورائي ، وهذا على معنيين ، أحدهما : أن يكون وَرائِي بمعنى خلفي وبعدي ، فيتعلق الظرف بالموالي : أى قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين ، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولىّ يرزقه . والثاني : أن يكون

(87/485)

بمعنى قدامى ، فيتعلق بخِفْتُ ، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقوّ واعتضاد مِنْ لَدُنْكَ تأكيد لكونه وليا مرضيا ، بكونه مضافا إلى اللّه تعالى وصادرا من عنده ، وإلا - فهب لي وليا يرثني - كاف ، أو أراد اختراعا منك بلا سبب لأنى وامرأتى لا نصلح للولادة يَرِثُنِي وَيَرِثُ الجزم جواب الدعاء ، والرفع صفة . ونحوه رِدْءاً يُصَدِّقُنِي وعن ابن عباس والجحدري : يرثنى وارث آل يعقوب ، نصب على الحال . وعن الجحدري : أو يرث ، على تصغير وارث ، وقال : غليم صغير . وعن على رضى اللّه عنه وجماعة : وارث من آل يعقوب :

أى يرثني به وارث ، ويسمى التجريد في علم البيان ، والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم ، لأنّ الأنبياء لا تورّث المال . وقيل يرثني الحبورة وكان حبرا ، ويرث من آل يعقوب الملك . يقال :

ورثته وورثت منه لغتان . وقيل «من» للتبعيض لا للتعدية ، لأنّ آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء ، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق . وقيل : هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا . وقيل : يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود .

[سورة مريم (19) : آية 7]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)

سَمِيًّا لم يسمّ أحد بيحيى قبله ، وهذا شاهد على أنّ الأسامى السنع جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحى في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ، حتى قال القائل في مدح قوم :

سنع الأسامى مسبلى أزر حمر تمس الأرض بالهدب «1»

وقال رؤبة للنسابة البكري - وقد سأله عن نسبه - : أنا ابن العجاج ، فقال : قصرت وعرفت .

وقيل : مثلا وشبيها عن مجاهد ، كقوله هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا وإنما قيل للمثل «سمىّ» لأنّ كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير ، فكل واحد منهما سمىّ لصاحبه ، ونحو «يحيى» في أسمائهم «يعمر ، ويعيش» إن كانت التسمية عربية ، وقد سموا بيموت أيضا ، وهو يموت ابن المزرع ، قالوا : لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم

بمعصية قط ، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر ، وأنه كان حصورا .

---

(1) . يقال سنع الرجل كظرف ، فهو سنيع أى جميل ، وأسنع ، والمرأة سنعاء ، وسنع جمع أسنع : أى أسماؤهم حسنة ، فهي أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ، والحمر : صفة الأزر ، وتمس : صفة أخرى لها . وهدب الشيء : طرفه ، والمناسب للمعنى أن المراد به الجمع ، ويمكن أن يكون ضمنه مفردا كقفل ، وجمعا كفلك . ويجوز أنه اسم جمع ، ولذلك جاء في واحده هدبة . ومس الأرض بالأطراف : كناية عن طولها ، بل عن غناهم وثروتهم اللازم له ذلك .

(88/485)

[سورة مريم (19) : آية 8]

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)

أى كانت على صفة العقر حين أنا شاب وكهل ، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين ، أفحين اختل السببان جميعا أرزقه ؟ فإن قلت : لم طلب أولا وهو وامرأته على صفة العتىّ والعقر «1» ، فلما أسعف بطلبته استبعدوا واستعجب ؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخرا كان على منهاج واحد : في أنّ اللّه غنى عن الأسباب ، أى بلغت عتيا : وهو اليبس والجساوة في المفاصل

والعظام كالعود القاحل «2» .

يقال : عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية . أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا . وقرأ ابن وثاب وحمزة والكسائي بكسر العين ، وكذلك صليا ، وابن مسعود بفتحهما «3» فيهما . وقرأ أبيّ ومجاهد : عسيا «4» .

[سورة مريم (19) : آية 9]

قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9)

كَذلِكَ الكاف رفع ، أى الأمر كذلك تصديق له ، ثم ابتدأ قالَ رَبُّكَ أو نصب بقال ، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ونحوه وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ وقرأ الحسن : وهو على هين ، ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأول : أى الأمر كما قلت ، وهو على ذلك يهون على . ووجه آخر : وهو أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد اللّه ، لا إلى قول زكريا . و«قال» محذوف في كلتا القراءتين : أى قال هو عليّ هين قال وهو عليّ هين ، وإن شئت لم تنوه ، لأن اللّه هو المخاطب ، والمعنى أنه قال ذلك ووعده

---

(1) . قال محمود : «ان قلت لم طلب أولا وهو وامرأته على صفة العتي . . . الخ» قال أحمد : وفيما أجاب به نظر ، لأنه التزم أن زكريا استبعد ما وعده اللّه عز وجل بوقوعه ، ولا يجوز للنبي النطق بما لا يسوغ ، لمثل هذه الفائدة التي عينها الزمخشري ويمكن حصولها

بدونه ، فالظاهر في الجواب – والله أعلم – أن طلبة زكريا إنما كانت ولدا من حيث الجملة ، وبحسب ذلك أجيب ، وليس في الاجابة ما يدل على أنه يولد له وهو هرم ، ولا أنه من زوجته وهي عاقر ، فاحتمل عنده أن يكون الموعود وهما بهذه الحالة ، واحتمل أن تعاد لهما قوتهما وشبابهما ، كما فعل الله ذلك لغيرهما .

أو أن يكون الولد من غير زوجته العاقر ، فاستبعد الولد منهما وهما بحالهما ، فاستخبر أيكون وهما كذلك ، فقيل :

كذلك ، أى : يكون الولد وأنتما كذلك ، فقد انصرف الإيعاد إلى عين الموعود فزال الاشكال ، والله أعلم . [. . . . .]

(2) . قوله «كالعود القاحل» أى اليابس ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «بفتحهما» لعله بفتحها . (ع)

(4) . قوله «عسيا» في الصحاح : عسى الشيخ يعسو عسيا : ولى وكبر ، مثل عتا . (ع)

(89/485)

وقوله الحق شَيْئاً لأن المعدوم ليس بشيء . أو شيئا يعتدّ به «1» ، كقولهم : عجبت من لا شيء ، وقوله :

إذا رأى غير شيء ظنّه رجلا «2»

وقرأ الأعمش والكسائي وابن وثاب: خلقناك.

[سورة مريم (19): آية 10]

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (10)

أى اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به. قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح سوىّ الخلق، ما بك خرس ولا بكم. دل ذكر الليالي هنا، والأيام في آل عمران، على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن.

[سورة مريم (19): آية 11]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

أوحى: أشار عن مجاهد، ويشهد له إِلَّا رَمْزاً. وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض سَبِّحُوا صلوا، أو على الظاهر، وأن: هي المفسرة.

[سورة مريم (19): آية 12]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12)

أى خذ التوراة بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد الْحُكْمَ الحكمة. ومنه:

واحكم كحكم فتاة الحي «3»

---

(1). قال محمود: «إنما قيل ذلك لأن المعدوم ليس بشيء أو شيئا يعتد به... الخ» قال

أحمد : قسر أولا على ظاهر النفي الصرف وهو الحق ، لأن المعدوم ليس شيئًا قطعا ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن المعدوم الممكن شيء .

ومن ثم كافح الزمخشري عن البقاء على التفسير الأول إلى الثاني بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة . فجعل المنفي الشيئية المعتد بها ، وإن كانت الشيئية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم ، والحق بقاء الظاهر في نصابه .

(2) وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

يقول : وضاقت الأرض على أعدائنا ، لأن كل مسلك يريدونه يظنون أحدا منا فيه فيرجعون ، فاستعير الضيق الحسى لذلك على طريق التصريح ، حتى كان الهارب منهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا منا ، فيرجع خوفا ، والشيء هو الموجود وغيره هو المعدوم ، ولكن استعير للشيء الحقير التافه لعدم الاعتداد بكل على طريق التصريح ، وذلك ليصح وقوع الرؤية عليه .

(3) واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الثمد

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد

فحبسوه فألفوه كما وجدت ستا وستين لم تنقص ولم تزد

للنابغة واسمه زياد ، يخاطب النعمان بن المنذر ، والفتاة : زرقاء اليمامة التي يضرب بها المثل في حدة البصر ، نظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت : ليت الحمام ليه . إلى

حمامتيه . ونصفه قديه . ثم الحمام مية . فوقع في شبكة صياد ، فوجدوه ستا وستين حمامة ، ونصفه ثلاثة وثلاثون ، فإذا ضم الكل إلى حمامتها صار مائة ، والحمام : كل ذى طوق من الطيور . وسراع : جمع سريع ، وصفه به لأنه جمع في المعنى ، وبوارد لأنه مفرد في اللفظ . ويروى «شراع» بالشين المشالة جمع شارع . والثمد : الماء القليل . وروى الحمام ونصفه بالرفع ، على إهمال ليتما . وبالنصب على إعمالها ، لأن «ما» زائدة لا كافة ، وإلا وجب الإهمال . وروى «أو نصفه» فأو بمعنى الواو ، والكلام على تقدير مضاف ، لأنها تمنت أن يكون هذا الحمام ومقدار نصفه لها . وإلى حمامتنا : متعلق بمحذوف ، أى : منضما إليها . وقد : اسم بمعنى حسب ، أضيفت إلى ياء المتكلم بغير نون الوقاية ، كما يقال : حسبي : ويحتمل أن الياء حرف إطلاق ، فلا إضافة ولكنها متعينة في كلام زرقاء ، والهاء فيه للسكت ، وهو يرجح الاضافة في كلام النابغة ، والفاء فيه زائدة لتحسين اللفظ كفاء فقط ، وكلاهما بمعنى انته ، وكأنها فاء الجواب ، أى : إذا بلغت هذا الحد فانته كما أفاده السعد في مطوله ، وحبسوه ينبغي تشديده ليسلم الشعر من الخبل ، وهو نوع من الزحاف يقبح دخوله هنا .

ويروى «حسبوه» بتقديم السين على الباء .

(90/485)

يقال حكم حكما كحلم ، وهو الفهم للتوراة والفقه في الدين عن ابن عباس . وقيل : دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبى فقال : ما للعب خلقنا ، عن الضحاك . وعن معمر : العقل ، وقيل النبوّة ، لأنّ اللّه أحكم عقله في صباه وأوحى إليه .

[سورة مريم (19) : الآيات 13 إلى 14]

وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (14)

حَناناً رحمة لأبويه وغيرهما ، وتعطفا وشفقة . أنشد سيبويه :

وقالت حنان ما أتى بك ها هنا أذو نسب أم أنت بالحي عارف «1»

وقيل : حنانا من اللّه عليه . وحنّ : في معنى ارتاح واشتاق ، ثم استعمل في العطف والرأفة ، وقيل للّه «حنان» كما قيل «رحيم» على سبيل الاستعارة . والزكاة : الطهارة ، وقيل الصدقة ، أى :

يتعطف على الناس ويتصدّق عليهم :

[سورة مريم (19) : آية 15]

وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

---

(1) وأحدث عهد من أمينة نظرة على جانب العلياء إذ أنا واقف

فقالت حنان ما أتى بك ها هنا أذو نسب أم أنت بالحي عارف

لمنذر بن درهم الكلبي ، يقول : وأقرب عهد : أى لقاء ورؤية لأمينة محبوبتى تصغير آمنة ، هو نظرة منى لها بجانب تلك البقعة ، إذ أنا واقف هناك : أى حين وقوفي بها . وفيه إشعار بأنه كان واقفا يترقب رؤيتها ، فلما رأته هي قالت له : حنان أى أمرى حنان ورحمة لك ، وهو من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لنيابة الخبر عن الفعل ، لأنه مصدر محول عن النصب . وقولها «ما أتى بك ها هنا» استفهام تعجبي . أذو نسب : أى أأنت ذو نسب أم أنت عارف بهذا الحي ؟ ويجوز أن «أ ذو نسب» بدل من ما الاستفامية : أى الذي حملك على المجيء هنا أو الذي ذلك عليه صاحب قرابة من الحي أى معرفتك به ؟ ويجوز أن الاستفهام حقيقى حكته على لسان غيرها ، لتلقنه الجواب بقولها :

أذو نسب . . .

الخ ، مع معرفتها سبب مجيئه وهو حبها ، ربما يسأله أحد من أهلها فيجيبه بأحد هذين الجوابين .

(91/485)

سلم اللّه عليه في هذه الأحوال ، قال ابن عيينة : إنها أوحش المواطن .

[سورة مريم (19) : الآيات 16 إلى 17]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (17)

إِذِ

بدل من مَرْيَمَ

بدل الاشتمال ، لأنّ الأحيان مشتملة على ما فيها . وفيه أنّ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا ، لوقوع هذه القصة العجيبة فيه . والانتباذ : الاعتزال والانفراد ، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقى بيت المقدس ، أو من دارها معتزلة عن الناس . وقيل : قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشيء يسترها ، وكان موضعها المسجد ، فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها ، فإذا طهرت عادت إلى المسجد ، فبينما هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمى شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوىّ الخلق ، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئا . أو حسن الصورة مستوى الخلق ، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه . ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت باللّه من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبرا لعفتها . وقيل : كانت

في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه ، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب ، فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلى رأسها ، فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك .

وقيل : قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس . وقيل : إنّ النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكانا شرقيا . الروح : جبريل ، لأنّ الدين يحيا به وبوحيه . أو سماه اللّه روحه على المجاز محبة له وتقريبا ، كما تقول لحبيبك : أنت روحي . وقرأ أبو حيوة : روحنا ، بالفتح ، لأنه سبب لما فيه روح العباد ، وإصابة الرّوح عند اللّه الذي هو عدّة المقرّبين في قوله فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ أو لأنه من المقرّبين وهم الموعودون بالروح ، أى : مقرّبنا وذا روحنا .

[سورة مريم (19) : آية 18]

قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18)

أرادت إن كان يرجى منك أن تتقى اللّه وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به ، فإنى عائذة به منك كقوله تعالى بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

[سورة مريم (19) : الآيات 19 إلى 20]

قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

أى إنما أنا رسول من استعذت به لِأَهَبَ لَكِ

لأكون سببا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع «1» . وفي بعض المصاحف : إنما أنا رسول ربك أمرنى أن أهب لك . أو هي حكاية لقول اللّه تعالى .

[سورة مريم (19) : آية 21]

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21)

جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه ، كقوله تعالى مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب . والبغىّ : الفاجرة التي تبغى الرجال ، وهي فعول عند المبرد «بغوى» فأدغمت الواو في الياء . وقال ابن جنى في كتاب التمام : هي فعيل ، ولو كانت فعولا لقيل «بغوّ» كما قيل : فلان نهوّ عن المنكر وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً تعليل معلله محذوف أى : ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك . أو هو معطوف على تعليل مضمر ، أى لنبين به قدرتنا ولنجعله آية . ونحوه : وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وقوله وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ . مَقْضِيًّا مقدّرا مسطورا في اللوح

لا بدّ لك من جريه عليك. أو كان أمرا حقيقا بأن يكون ويقضى لكونه آية ورحمة. والمراد بالآية: العبرة والبرهان على قدرة اللّه، وبالرحمة: الشرائع والألطاف، وما كان سببا في قوّة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح. فهو جدير بالتكوين.

[سورة مريم (19): آية 22]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (22)

عن ابن عباس: فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت. وقيل: كانت مدّة الحمل ستة أشهر. وعن عطاء وأبى العالية والضحاك: سبعة أشهر. وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى. وقيل: ثلاث ساعات. وقيل:

حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة، حين زالت الشمس من يومها.

وعن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة، كما حملته نبذته. وقيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة. وقيل: بنت عشر، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل. وقالوا: ما من

---

(1). قوله «في الدرع» في الصحاح «درع المرأة» قميصها. (ع)

مولود إلا يستهلّ غيره «1» فَانْتَبَذَتْ بِهِ أى اعتزلت وهو في بطنها ، كقوله :

تدوس بنا الجماجم والتّريبا «2»

أى تدوس الجماجم ونحن على ظهورها ، ونحوه قوله تعالى تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ أى تنبت ودهنها فيها : الجار والمجرور في موضع الحال قَصِيًّا بعيدا من أهلها وراء الجبل . وقيل : أقصى الدار . وقيل : كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف ، فلما قيل : حملت من الزنا ، خاف عليها قتل الملك ، فهرب بها فلما كان ببعض الطريق حدّثته نفسه بأن يقتلها ، فأتاه جبريل فقال : إنه من روح القدس فلا تقتلها ، فتركها .

[سورة مريم (19) : آية 23]

فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23)

فَأَجاءَهَا أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه . ونظيره «آتى» حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء ، ولم تقل : أتيت المكان وآتانيه فلان . قرأ ابن كثير في رواية الْمَخاضُ بالكسر . يقال : مخضت الحامل مخاضا ومخاضا ، وهو تمخض الولد في بطنها «3» .

طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة ، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء ، والتعريف لا يخلو : إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس ، فإذا قيل : جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل . وإمّا أن يكون تعريف الجنس ، أى : جذع هذه الشجرة خاصة ، كأن اللّه تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو حرسة النفساء الموافقة لها ، ولأن النخلة أقل شيء صبرا على البرد ، وثمارها إنما هي من جمارها ، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها . قرئ مِتُّ بالضم والكسر . يقال : مات يموت ومات يمات . النسيّ : ما من حقه أن يطرح وينسى ، كخرقة الطامث ونحوها ، كالذبح : اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وعن

---

(1) . قوله «ما من مولود إلا يستهل غيره» في الصحاح «استهل الصبى» أى صاح عند الولادة . (ع)

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة 138 من الجزء الأول فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . قوله «و هو تمخض الولد في بطنها» في الصحاح «تمخض اللبن واستمخض» أى تحرك في الممخضة ، وكذلك الولد إذا تحرك في بطن الحامل . (ع)

يونس : العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا : انظروا أنساءكم ، أى : الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ «1» . تمنت لو كانت شيئا تافها لا يؤبه له ، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسى وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه ، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشوّر «2» من الناس على حكم العادة البشرية ، لا كراهة لحكم اللّه ، أو لشدّة التكليف عليها إذا بهتوها «3» وهي عارفة ببراءة الساحة وبضدّ ما قرفت به ، من اختصاص اللّه إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام : أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبا يعاب به ويعنف بسببه ، أو لخوفها على الناس أن يعصوا اللّه بسببها . وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وحفص نَسْياً بالفتح . قال الفراء : هما لغتان كالوتر والوتر ، والجسر والجسر . ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر . كالحمل . وقرأ محمد بن كعب القرظي «نسأ» بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ، ينسؤه أهله لقلته ونزارته . وقرأ الأعمش مَنْسِيًّا بالكسر على الإتباع ، كالمغيرة والمنخر .

[سورة مريم (19) : آية 24]

فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)

مِنْ تَحْتِها هو جبريل عليه السلام. قيل: كان يقبل الولد كالقابلة. وقيل: هو عيسى، وهي قراءة عاصم وأبى عمرو. وقيل تَحْتِها أسفل من مكانها، كقوله تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة، فصاح بها أَلَّا تَحْزَنِي وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص مِنْ تَحْتِها وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى. وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة. وقرأ زرّ وعلقمة: فخاطبها من تحتها.

سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن السريّ فقال: «هو الجدول «4»». قال لبيد:

---

(1). قوله «و الشظاظ» في الصحاح «الشظاظ» العود الذي يدخل في عروة الجوالق. وفيه «الجوالق» وعاء: (ع)

(2). قوله «من فرط الحيا والتشور من الناس» خوف إظهار العورة. أفاده الصحاح. (ع)

(3). قوله «إذا بهتوها وهي عارفة... الخ» اتهموها بما ليس فيها. وقرفت: اتهمت. (ع) [.....]

(4). أخرجه الطبراني في الصغير وابن عدى من رواية أبى سنان سعيد بن سنان عن أبى إسحاق عن البراء عن النبي صلى اللّه عليه وسلم. في قوله تعالى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا قال: السرى النهر. قال الطبراني لم يرفعه عن أبى إسحاق إلا أبو سنان رواه عنه

معاوية بن يحيى وهو ضعيف وأخرجه عند الرزاق عن الثوري عن أبى إسحاق عن البراء موقوفا ، وكذا ذكره البخاري تعليقا عن وكيع عن إسرائيل عن أبى إسحاق . ورواه ابن مردويه من طريق آدم عن إسرائيل كذلك . وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبى إسحاق موقوفا . وفي الباب عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال «إن السرى الذي قال اللّه تعالى لمريم : نهر أخرجه اللّه لتشرب منه ، أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عكرمة عن ابن عمر . ورواية عن أيوب بن نهيك ، ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة .

(95/485)

فتوسّطا عرض السّري فصدّعا مسجورة متجاورا قلّامها «1»

وقيل : هو من السرو «2» . والمراد : عيسى . وعن الحسن : كان واللّه عبدا سريا . فإن قلت .

ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ؟ قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة ، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل ، وأن لها أمورا إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع

من شأنها .

[سورة مريم (19) : الآيات 25 إلى 26]

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

تُساقِطْ فيه تسع قراآت : تساقط ، بإدغام التاء . وتتساقط ، بإظهار التاءين . وتساقط ، بطرح الثانية . ويساقط ، بالياء وإدغام التاء . وتساقط ، وتسقط ، ويسقط ، وتسقط ، ويسقط : التاء للنخلة ، والياء للجذع . ورطبا تمييز أو مفعول على حسب القراءة . وعن المبرد :

جواز انتصابه بهزّى وليس بذاك . والباء في بِجِذْعِ النَّخْلَةِ صلة للتأكيد ، كقوله تعالى وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ أو على معنى : افعلي الهزّ به ، كقوله :

يجرح في عراقيبها نصلى «3»

قالوا : التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك ، وقالوا : كان من العجوة .

وقيل : ما للنفساء خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ، وقيل : إذا عسر ولادها لم

---

(1) فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عردت أقدامها

فتوسطا عرض السرى فصدعا مسجورة متجاورا قلامها

للبيد من معلقته ، يصف حمارا وحشيا بأنه مضى خلف أتانه نحو الماء وقدمها أمامه .

وأقدامها : اسم كان ، وألحقه التاء لاكتساب الأقدام التأنيث من الضمير المضاف إليه .

وقيل : لأنه بمعنى التقدمة التي هي مصدر قدمها المضاعف كالتقديم . وعادة خبر كان .

و«إذا هي عردت» بالتضعيف أى تأخرت وجبنت ، فتوسطا : أى الحمار والأتان ،

عرض السرى : أى ناحية النهر الصغير وجانبه ، فصدعا : أى شقا عينا مسجورة مملوءة ،

وكان المقام للاضمار ، فأظهر ليتأتى الوصف . أو للتجربة ، أو العين من النهر ، وليست

هي هو وهذا أوجه . والقلام - كرمان - :

القاقلى ، وقيل مطلق النبات ، وتجاوزه : كناية عن كثرته .

(2) . قوله «وقيل هو من السرو» في الصحاح «السرو» سخاء في مروءة . (ع)

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 578 فراجعه إن شئت اه

مصححه .

(96/485)

يكن لها خير من الرطب . عن طلحة بن سليمان جَنِيًّا بكسر الجيم للإتباع ، أى جمعنا لك

في السرىّ والرطب فائدتين ، إحداهما : الأكل والشرب ، والثانية سلوة الصدر ، لكونهما

معجزتين ، وهو معنى قوله فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً أى وطيبي نفسا ولا تغتمي وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك . وقرئ : وَقَرِّي بالكسر لغة نجد فَإِمَّا تَرَيِنَّ بالهمز : ابن الرومي . عن أبى عمرو : وهذا من لغة من يقول : لبأت بالحج ، وحلأت السويق «1» ، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال صَوْماً صمتا . وفي مصحف عبد اللّه : صمتا . وعن أنس بن مالك مثله . وقيل : صياما ، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم ، وقد نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صوم الصمت «2» ، لأنه نسخ في أمته ، أمرها اللّه بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المنهمين لها في الكلام لمعنيين ، أحدهما : أن عيسى صلوات اللّه عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها . والثاني : كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم . وفيه أن السكوت عن السفيه واجب . ومن أذل الناس : سفيه لم يجد مسافها . قيل : أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة .

وقيل : سوغ لها ذلك بالنطق إِنْسِيًّا أى أكلم الملائكة دون الإنس

[سورة مريم (19) : الآيات 27 إلى 28]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)

الفرىّ : البديع ، وهو من فرى الجلد يا أُخْتَ هارُونَ كان أخاها من أبيها من أمثل بنى إسرائيل . وقيل : هو أخو موسى صلوات اللّه عليهما . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم :

«إنما عنوا هرون النبيّ «3»» وكانت من أعقابه في طبقة الإخوة ، بينها وبينه ألف سنة وأكثر . وعن السدى : كانت من أولاده ، وإنما قيل : يا أخت هرون ، كما يقال يا أخا همدان ، أى : يا واحدا منهم . وقيل : رجل صالح أو طالح في زمانها ، شبهوها به ، أى : كنت عندنا مثله في الصلاح ، أو شتموها به ، ولم ترد إخوة النسب ، ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى

---

(1) . قوله «يقول لبأت بالحج وحلأت السويق» والكثير : لبيت بالحج ، وحليت السويق ، أى : جعلته حلوا . (ع)

(2) . لم أره هكذا وأخرج عبد الرزاق من حديث جابر بلفظ «لا صمت يوم إلى الليل» وفيه حزام بن عثمان وهو ضعيف ولأبى داود من حديث على مثله . وقد تقدم في تفسير النساء .

(3) . لم أجده هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند ورواه الطبري عن السدى . قوله وليس بصحيح . فان عند مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة . قال «بعثني النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى نجران فقالوا لي : أرأيتم شيئا يقرءونه يا أُخْتَ هارُونَ وبين موسى وعيسى ما شاء اللّه من السنين فلم أدر ما أجيبهم فقال لي النبي صلى اللّه عليه وسلم هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم» وروى الطبري من طريق ابن سيرين «نبئت أن كعبا قال إن قوله تعالى يا أُخْتَ هارُونَ ليس بهارون أخى موسى

فقالت له عائشة «كذبت . فقال لها يا أم المؤمنين إن كان النبي صلى اللّه عليه وسلم قال فهو أعلم وإلا فأنا أجد بينهما ستمائة سنة» .

(97/485)

هرون تبركا به وباسمه ، فقالوا : كنا نشبهك بهرون هذا . وقرأ عمر بن لجاء التيمي ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار ، فلبثوا فيه أربعين يوما حتى تعلت من نفاسها «1» ، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال : يا أماه ، أبشري فإني عبد اللّه ومسيحه ، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك . وقيل :

هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام . فتركوها .

[سورة مريم (19) : آية 29]

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ أى هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه . وقيل : كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام . وعن السدى : لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا أشدّ علينا من زناها . وروى أنه كان يرضع ، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه ، واتكأ على

يساره وأشار بسبابته. وقيل: كلمهم بذلك، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان كانَ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو ها هنا لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام، وأنه مسوق للتعجب. ووجه آخر: أن يكون نُكَلِّمُ حكاية حال ماضية، أى: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيا في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا.

[سورة مريم (19): الآيات 30 إلى 33]

قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

أنطقه اللّه أوّلا بأنه عبد اللّه ردا لقول النصارى الْكِتابَ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوّته، فقيل: أعطيها في طفوليته: أكمل اللّه عقله، واستنبأه طفلا نظرا في ظاهر الآية. وقيل: معناه إنّ ذلك سبق في قضائه. أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «نفاعا حيث كنت «2»» وقيل: معلما للخير.

---

(1). قوله «حتى تعلت من نفاسها» في الصحاح «تعلى» أى علا في مهلة. وتعلت المرأة من نفاسها: أى سلمت، وتعلى الرجل من علته. (ع)

(2) . أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبى هريرة بهذا وأتم منه . وقال تفرد به هشيم عن يونس وعنه شعيب بن محمد الكوفي ورواه ابن مردويه من هذا الوجه .

(98/485)

وقرئ وَبَرًّا عن أبى نهيك ، جعل ذاته برا لفرط بره . أو نصبه بفعل في معنى أوصانى وهو كلفنى ، لأن أوصانى بالصلاة وكلفنيها واحد وَالسَّلامُ عَلَيَّ قيل : أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله ، كقولك : جاءنا رجل ، فكان من فعل الرجل كذا . والمعنى : ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلىّ . والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعنة على متهمى مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود . وتحقيقه أن اللام للجنس ، فإذا قال :

وجنس السلام علىّ خاصة فقد عرض بأن ضدّه عليكم . ونظيره قوله تعالى وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى يعنى أنّ العذاب على من كذب وتولى ، وكان المقام مقام مناكرة وعناد ، فهو مئنة لنحو هذا من التعريض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 16.3﴾

(99/485)

وقال النسفى :

﴿ كهيعص ﴾

قال السدي : هو اسم الله الأعظم ، وقيل : هو اسم للسورة .

قرأ علي ويحيى بكسر الهاء والياء ، ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب ، وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء ، وحمزة بعكسه ، وغيرهم بفتحهما ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ خبر مبتدأ أي هذا ذكر ﴿ عَبْدَهِ ﴾ مفعول الرحمة ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ بالقصر : حمزة وعلي وحفص وهو بدل من ﴿ عبده ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ ظرف للرحمة ﴿ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ دعاه دعاء سرا كما هو المأمور به وهو أبعد عن الرياء وأقرب إلى الصفاء ، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في أوان الكبر لأنه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ هذا تفسير الدعاء وأصله "يا ربي" فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿ إِنِّى وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ ضعف .

وخص العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية والمراد أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ،

﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ تمييز أي فشا في رأسي الشيب واشتعلت النار إذا تفرقت في التهابها وصارت شعلاً ، فشبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في الشعر وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار .

(100/485)

ولا ترى كلاماً أفصح من هذا ، ألا ترى أن أصل الكلام يا رب قد شخت إذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما ، وأقوى منه ضعف بدني وشاب رأسي ففيه مزيد التقرير للتفصيل ، وأقوى منه وهنت عظام بدني ، ففيه عدول عن التصريح إلى الكناية فهي أبلغ منه ، وأقوى منه أنا وهنت عظام بدني ، وأقوى منه إني وهنت عظام بدني ، وأقوى منه إني وهنت العظام من بدني ففيه سلوك طريقي الإجمال والتفصيل ، وأقوى منه إني وهنت العظام مني ففيه ترك توسيط البدن ، وأقوى منه ﴿ إني وهن العظم مني ﴾ لشمول الوهن العظام فرداً فرداً باعتبار ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحه حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد ، ولهذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهي الاستعارة فحصل اشتعل شيب رأسي ، وأبلغ منه اشتعل رأسي شيباً لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لإفادة شمول الاشتعال الرأس إذ

وزان اشتعل شيب رأسي واشتعل رأسي شيباً ، وزان اشتعل النار في بيتي واشتعل بيتي ناراً والفرق نير ، ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز ، وأبلغ منه واشتعل الرأس مني شيباً لما مر ، وأبلغ منه ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ ففيه اكتفاء بعلم المخاطب إنه رأس زكريا بقرينة العطف على ﴿ وهن العظم ﴾ ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول أي بدعائي إياك ﴿ رَبّ شَقِيّاً ﴾ أي كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم سعيداً به غير شقي فيه .

يقال : سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها وشقي إذا خاب ولم ينلها .

وعن بعضهم أن محتاجاً سأله وقال : أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا وقت حاجته وقضى حاجته .

(101/485)

﴿ وَإِنّي خِفْتُ الموالى ﴾ هم عصبته أخوته وبنو عمه وكانوا شرار بني إسرائيل فخافهم أن يغيروا الدين وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته فطلب عقباً صالحاً من صلبه يقتدي به في إحياء الدين ﴿ مِن وَرَائِى ﴾ بعد موتي ، وبالقصر وفتح الياء ك ﴿ هداي ﴾ : مكى .

وهذا الظرف لا يتعلق ب ﴿ خفت ﴾ لأن وجود خوفه بعد موته لا يتصور ولكن

بمحذوف ، أو بمعنى الولاية في الموالي أي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي ، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ عقيماً لا تلد ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ﴾ اختراعا منك بلا سبب لأن امرأتي لا تصلح للولادة ﴿ وَلِيّاً ﴾ ابنا يلي أمرك بعدي .

﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ ﴾ برفعهما صفة ل ﴿ ولياً ﴾ أي هب لي ولداً وارثاً مني العلم ومن آل يعقوب النبوة ، ومعنى وراثة النبوة أنه يصلح لأن يوحى إليه ولم يرد أن نفس النبوة تورث .

ويجزمهما : أبو عمرو وعلي على أنه جواب للدعاء يقال : ورثته وورثت منه ﴿ مِنْ ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ يعقوب بن إسحاق ﴿ واجعله رَبّ رَضِيّاً ﴾ مرضياً ترضاه أو راضياً عنك وبحكمك فأجاب الله تعالى دعاءه وقال : ﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشّرُكَ بغلام اسمه يحيى ﴾ تولى الله تسميته تشريفاً له .

﴿ نبشرك ﴾ بالتخفيف : حمزة ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ لم يسم أحد بيحيى قبله وهذا دليل على أن الاسم الغريب جدير بالأثرة .

وقيل : مثلاً وشبيها ولم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد بين شيخ وعجوز وأنه كان حصوراً ، فلما بشرته الملائكة .

به

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى ﴾ كيف ﴿ يَكُونُ لِي غلام ﴾ وليس هذا باستبعاد بل هو استكشاف أنه بأي طريق يكون أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال أم يحولان شابين ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ أي بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود اليابس من أجل الكبر والطعن في السن العالية ﴿ عتياً ﴾ و ﴿ صلياً ﴾ و ﴿ جثياً ﴾ و ﴿ بكياً ﴾ بكسر الأوائل : حمزة وعلي وحفص إلا في ﴿ بكيا ﴾ .

﴿ قَالَ كذلك ﴾ الكاف رفع أي الأمر كذلك تصديق له ثم ابتدأ ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أو نصب ب ﴿ قال ﴾ وذلك إشارة إلى مبهم يفسره ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي خلق يحيى من كبيرين سهل ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ﴾ أو جدتك من قبل يحيى .

﴿ خلقناك ﴾ حمزة وعلي ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ لأن المعدوم ليس بشيء ﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِّى ءايَةً ﴾ علامة أعرف بها حبل امرأتي ﴿ قَالَ ءايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِياً ﴾ حال من ضمير تكلم أي حال كونك سوى الأعضاء واللسان يعني علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح ما بك خرس ولا بكم .

ودل ذكر الليالي هنا والأيام في "آل عمران" على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن ، إذ ذكر الأيام يتناول ما بإزائها من الليالي وكذا ذكر الليالي يتناول ما بإزائها من الأيام عرفاً ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾ من موضع صلاته وكانوا ينتظرونه ولم يقدر

أن يتكلم ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ أشار بإصبعه ﴿ أَن سَبّحُواْ ﴾ صلوا و"أن" هي المفسرة ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ صلاة الفجر والعصر ﴿ يَا يحيى ﴾ أي وهبنا له يحيى وقلنا له بعد ولادته وأوان الخطاب يا يحيى ﴿ خُذِ الكتاب ﴾ التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ حال أي بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم ﴾ الحكمة وهو فهم التوراة والفقه في الدين ﴿ صَبِيّاً ﴾ حال.

(103/485)

قيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال: ما للعب خلقنا ﴿ وَحَنَاناً ﴾ شفقة ورحمة لأبويه وغيرهما عطفاً على الحكم ﴿ مّن لَّدُنَّا ﴾ من عندنا ﴿ وزكواة ﴾ أي طهارة وصلاحاً فلم يعمد بذنب ﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ مسلماً مطيعا.

﴿ وَبَرّا بوالديه ﴾ وباراً بهما لا يعصيهما ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً ﴾ متكبراً ﴿ عَصِيّاً ﴾ عاصياً لربه ﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾ أمان من الله له ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من فتاني القبر ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ من الفزع الأكبر.

قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن.

﴿ واذكر ﴾ يا محمد ﴿ فِى الكتاب ﴾ القرآن ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أي اقرأ عليهم في القرآن

قصة مريم ليقفوا عليها ويعلموا ما جرى عليها ﴿ إِذْ ﴾ بدل من مريم بدل اشتمال إذ الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه ﴿ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي اعتزلت ﴿ مَكَاناً ﴾ ظرف ﴿ شَرْقِياً ﴾ أي تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس أو من دارها معتزلة عن الناس .

وقيل : قعدت في مشرقه للاغتسال من الحيض ﴿ فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾ جعلت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها لتغتسل وراءه ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ جبريل عليه السلام والإضافة للتشريف ، وإنا سمي روحاً لأن الدين يحيا به وبوحيه ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً ﴾ أي فتمثل لها جبريل في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر ﴿ سَوِيّاً ﴾ مستوى الخلق .

وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ أي إن كان يرجى منك أن تتقي الله فإني عائذة به منك .

(104/485)

﴿ قَالَ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أمنها مما خافت وأخبر أنه ليس بآدمي بل هو رسول من استعاذت به ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ بإذن الله تعالى ، أو لأكون سببا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع ﴿ ليهب لك ﴾ أي الله : أبو عمرو ونافع .

﴿ غلاما زَكِيّاً ﴾ ظاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير والبركة .

﴿ قَالَتْ أَنَّى ﴾ كيف ﴿ يَكُونُ لِي غلام ﴾ ابن ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ زوج بالنكاح ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ فاجرة تبغي الرجال أي تطلب الشهوة من أي رجل كان ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين ، والبغي فعول عند المبرد "بغوي" فقلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت العين إتباعاً ولذا لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق في "امرأة صبور وشكور" وعند غيره هي "فعيل" ولم تلحقها الهاء لأنها بمعنى "مفعولة" وإن كانت بمعنى فاعلة فهو قد يشبه به مثل ﴿ إن رحمة الله قريب ﴾ [الأعراف : 56] ﴿ قَالَ ﴾ جبريل ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كما قلت : لم يمسسك رجل نكاحاً أو سفاحاً ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي إعطاء الولد بلا أب عليَّ سهل ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ تعليل معلله محذوف أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك ، أو هو معطوف على تعليل مضمر أي لنبين به قدرتنا ولنجعله آية للناس أي عبرة وبرهاناً على قدرتنا ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لمن أمن به ﴿ وَكَانَ ﴾ خلق عيسى ﴿ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ مقدراً مسطوراً في اللوح فلما أطمأنت إلى قوله دنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي الموهوب وكانت

سنها ثلاث عشرة سنة أو عشراً أو عشرين ﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ اعتزلت وهو في بطنها ، والجار والمجرور في موضع الحال ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته .

وقيل : ستة أشهر .

وقيل : سبعة .

وقيل : ثمانية : ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى .

(105/485)

وقيل : حملته في ساعة ووضعته في ساعة ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل وذلك لأنها لما أحست بالحمل هربت من قومها مخافة اللائمة .

﴿ فَأَجَاءهَا ﴾ جاء بها .

وقيل : ألجأها وهو منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، ألا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد ﴿ المخاض ﴾ وجمع الولادة ﴿ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ أصلها وكان يابسة وكان الوقت شتاء وتعريفها مشعر بأنها كانت نخلة معروفة وجاز أن يكون التعريف للجنس أي جذع هذه الشجرة كأنه تعالى أرشدها إلى النخلة

ليطعمها منها الرطب لأنه حرسة النفساء أي طعامها .

ثم ﴿ قَالَتْ ﴾ جزعاً مما أصابها ﴿ ياليتنى مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ اليوم ﴿ مِتُّ ﴾ مدني وكوفي غير أبي بكر ، وغيرهم : بالضم .

يقال : مات يموت ومات يمات ﴿ وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر .

بفتح النون : حمزة وحفص ، بالكسر : غيرهما ومعناهما واحد وهو الشيء الذي حقه أن يطرح وينسى لحقارته ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ ﴿ مَن ﴾ أي الذي تحتها ف ﴿ من ﴾ فاعل وهو جبريل عليه السلام لأنه كان بمكان منخفض عنها ، أو عيسى عليه السلام لأنه خاطبها من تحت ذيلها .

﴿ من تحتها ﴾ مدني وكوفي سوى أبي بكر والفاعل مضمر وهو عيسى عليه السلام ، أو جبريل والهاء في ﴿ تحتها ﴾ للنخلة .

ولشدة ما لقيت سليت بقوله ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِى ﴾ لا تهتمي بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس و"أن" بمعنى أي ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ ﴾ بقربك أو تحت أمرك إن أمرته أن يجري جري وإن أمرته أن يقف وقف ﴿ سَرِيّاً ﴾ نهراً صغيراً عند الجمهور ، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السري فقال : هو الجدول .

وعن الحسن : سيداً كريماً يعني عيسى عليه السلام .

وروي أن خالد بن صفوان قال : له إن العرب تسمي الجدول سرياً فقال الحسن : صدقت ورجع إلى قوله .

(106/485)

وقال : ابن عباس رضي الله عنهما : ضرب عيسى أو جبريل عليهما السلام بعقبه الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى النهر اليابس فاخضرت النخلة وأثمرت وأينعت ثمرتها فقيل لها

﴿ وَهُزِّي ﴾ حركي ﴿ إِلَيْكَ ﴾ إلى نفسك ﴿ بِجِذْعِ النخلة ﴾ قال أبو علي : الباء زائدة أي هزي جذع النخلة .

﴿ تساقط عَلَيْكِ ﴾ بإدغام التاء الأولى في الثانية : مكي ومدني وشامي وأبو عمرو وعلي وأبو بكر ، والأصل تتساقط بإظهار التاءين ﴿ وتساقط ﴾ بفتح التاء والقاف وطرح التاء الثانية وتخفيف السين : حمزة .

و ﴿ يساقط ﴾ بفتح الياء والقاف وتشديد السين : يعقوب وسهل وحماد ونصير .

و ﴿ تساقط ﴾ حفص من المفاعلة .

و ﴿ تُسقِطْ ﴾ و ﴿ يُسقِطْ ﴾ وتَسقُطْ ويَسقُطْ التاء للنخلة والياء للجذع فهذه تسع

قراءات ﴿ رُطَباً ﴾ تمييز أو مفعول به على حسب القراءة ﴿ جَنِيّاً ﴾ طرياً وقالوا : التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت .

وقيل : ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض من العسل ﴿ فَكُلِى ﴾ من الجني ﴿ واشربى ﴾ من السري ﴿ وَقَرّى عَيْناً ﴾ بالولد الرضي و ﴿ عينا ﴾ تمييز أي طيبي نفساً بعيسى وارفضي عنك ما أحزنك ﴿ فَإِمَّا ﴾ أصله إن ما فضمت إن الشرطية إلى ما وأدغمت فيها ﴿ تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً فَقُولِى إِنّى نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك فقولي إني نذرت للرحمن صمتاً وإمساكاً عن الكلام ، وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب .

وقيل : صياماً حقيقة وكان صيامهم فيه الصمت فكان إلتزامُه إلتزامَه ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت فصار ذلك منسوخاً فينا .

وإنما أمرت أن تنذر السكوت لأن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرىء به ساحتها ولئلا تجادل السفهاء ، وفيه دليل على أن السكوت عن السفيه واجب وما قُدعَ سفيه بمثل الإعراض ولا أطلق عنانه بمثل العراض .

(107/485)

وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة وقد تسمى الإشارة كلاماً وقولاً ألا ترى أن قول الشاعر في وصف القبور

وتكلمت عن أوجه تبلى . . .

وقيل : كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام أو سوغ لها هذا القدر بالنطق ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ آدميا .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ ﴾ بعيسى ﴿ قَوْمَهَا ﴾ بعد ما طهرت من نفاسها ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ حال منها أي أقبلت نحوهم حاملة إياه فلما رأوه معها ﴿ قَالُواْ يا مريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ بديعاً عجيباً والفري القطع كأنه يقطع العادة ﴿ يَا أُخْتَ هارون ﴾ وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بني إسرائيل ، أو هو أخو موسى عليه السلام وكانت من أعقابه وبينهما ألف سنة وهذا كما يقال يا أخا همدان أي يا واحداً منهم ، أو رجل صالح أو طالح من زمانها شبهوها به في الصلاح أو شتموها به ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ﴾ عمران ﴿ امرأ سَوْء ﴾ زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴾ حنة ﴿ بَغِيّاً ﴾ زانية ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ إلى عيسى أن يجيبهم وذلك أن عيسى عليه السلام قال لها : لا تحزني وأحيلي بالجواب علي .

وقيل : أمرها جبريل بذلك .

ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا و ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ ﴾ حدث ووجد ﴿ فِى المهد ﴾ المعهود ﴿ صَبِيّاً ﴾ حال ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ الله ﴾ ولما أسكتت بأمر الله

لسانها الناطق أنطق الله لها اللسان الساكت حتى اعترف بالعبودية وهو ابن أربعين ليلة أو ابن يوم ، روي أنه أشار بسبابته وقال بصوت رفيع ﴿ إني عبد الله ﴾ وفيه رد لقول النصارى ﴿ آتانيالكتاب ﴾ الإنجيل ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ روي عن الحسن أنه كان في المهد نبياً وكلامه معجزته .

وقيل : معناه أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد

.

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ نفاعاً حيث كنت أو معلماً للخير ﴿ وَأَوْصَانِى ﴾ وأمرني ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ إن ملكت مالاً .

(108/485)

وقيل : صدقة الفطر أو تطهير البدن ، ويحتمل وأوصاني بأن آمركم بالصلاة والزكاة ﴿ مَا دُمْتُ حَياً ﴾ نصب على الظرف أي مدة حياتي ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِى ﴾ عطفاً على ﴿ مباركاً ﴾ أي باراً بها أكرمها وأعظمها ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً ﴾ متكبراً ﴿ شَقِيّاً ﴾ عاقاً ﴿ والسلام عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ ﴾ ﴿ يوم ﴾ ظرف والعامل فيه الخبر وهو ﴿ علي ﴾ ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ أي ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه

إلي إن كان حرف التعريف للعهد ، وإن كان للجنس فالمعنى وجنس السلام علي ، وفيه تعريض باللعنة على أعداء مريم وابنها لأنه إذا قال : وجنس السلام على ، وفيه تعريف باللغة على أعداء مريم وابنها لأنه إذا قال وجنس السلام عليّ ، فقد عرض بأن ضده عليكم إذ المقام مقام مناكرة وعناد فكان مئنة لمثل هذا التعريض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 28 . 34 ﴾

(109/485)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ كهيعص ﴾ أمال أبو عمرو الهاء لأن ألفات أسماء التهجي ياءات وابن عامر وحمزة الياء ، والكسائي وأبو بكر كليهما ، ونافع بين بين ونافع وابن كثير وعاصم يظهرون دال الهجاء عند الذال ، والباقون يدغمونها .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ خبر ما قبله إن أول السورة أو بالقرآن ، فإنه مشتمل عليه أو خبر محذوف أي : هذا المتلو ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ ، أو مبتدأ حذف خبره أي فيما يتلى عليك ذكرها ، وقرىء ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ ﴾ على الماضي و ﴿ ذكر ﴾ على الأمر . ﴿

عَبْدَهُ ﴾ مفعول الرحمة أو الذكر على أن الرحمة فاعله على الاتساع كقولك : ذكرني جود زيد . ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ بدل منه أو عطف بيان له .

﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيان ، والإخفاء أشد إخباتاً وأكثر إخلاصاً أو لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر ، أو لئلا يطلع عليه مواليه الذين خافهم ، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته . واختلف في سنه حينئذ فقيل ستون ، وقيل سبعون ، وقيل خمس وسبعون ، وقيل خمس وثمانون ، وقيل تسع وتسعون .

(110/485)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ تفسير للنداء والوهن الضعف ، وتخصيص العظم لأنه دعامة البدن وأصل بنائه ولأنه أصلب ما فيه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن وتوحيده لأن المراد به الجنس ، وقرىء و﴿ هن ﴾ و﴿ وهن ﴾ بالضم والكسر ونظيره كمل بالحركات الثلاث . ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ شبه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار وانتشاره وفشوه في الشعر باشتعالها ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة وأسند الاشتعال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة ، وجعله مميزاً إيضاحاً للمقصود ، واكتفى باللام على الإضافة للدلالة على أن علم المخاطب بتعين المراد يغني عن التقييد . ﴿ وَلَمْ أَكُنْ

بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ بل كلما دعوتك استجبت لي وهو توسل بما سلف معه من الاستجابة ، وتنبيه على أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً فإجابته معتادة ، وأنه تعالى عوده بالإجابة وأطمعه فيها ، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى ﴾ يعني بني عمه وكانوا أشرار بني إسرائيل ، فخاف أن لا يحسنوا خلافته على أمته ويبدلوا عليهم دينهم . ﴿ مِن وَرَائِى ﴾ بعد موتي ، وعن ابن كثير بالمد والقصر بفتح الياء وهو يتعلق بمحذوف ، أو بمعنى "الموالى" أي خفت فعل الموالي من ورائي ، أو الذين يلون الأمر من ورائي . وقرىء "خفت الموالي من ورائي" أي قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعدي ، أو خفوا ودرجوا قدامي ، فعلى هذا كان الظرف متعلقاً ب ﴿ خِفْتُ ﴾ . ﴿ وَكَانَتِ امرأتى عَاقِرًا ﴾ لا تلد . ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ﴾ فإن مثله لا يرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك ، فإني وامرأتي لا نصلح للولادة . ﴿ وَلِيّاً ﴾ من صلبي .

(111/485)

﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ صفتان له وجزمهما أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء ، والمراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال . وقيل يرثني الحبورة فإنه كان حبراً ، ويرث من آل يعقوب الملك ، وهو يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة

والسلام . وقيل يعقوب كان أخا زكريا أو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام .

وقرىء "يرثني وارث آل يعقوب" على الحال من أحد الضميرين ، وأو "يرث" بالتصغير لصغره ، ووارث من آل يعقوب على أنه فاعل ﴿ يَرِثُنِى ﴾ وهذا يسمى التجريد في علم البيان لأنه جرد عن المذكور أولاً مع أنه المراد . ﴿ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ ترضاه قولاً وعملاً .

﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغلام اسمه يحيى ﴾ جواب لندائه ووعد بإجابة دعائه وإنما تولى تسميته تشريفاً له . ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ لم يسم أحد بيحيى قبله ، وهو شاهد بأن التسمية بالأسامي الغريبة تنويه للمسمى . وقيل سمياً شبيهاً كقوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ لأن المتماثلين يتشاركان في الاسم ، والأظهر أنه أعجمي وإن كان عربياً فمنقول عن فعل كيعيش ويعمل . وقيل سمي به لأنه حيي به رحم أمه ، أو لأن دين الله حيي بدعوته .

(112/485)

﴿ قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِى غلام وَكَانَتِ امرأتى عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ جساوة وقحولاً في المفاصل ، وأصله عتو وكقعود فاستثقلوا توالي الضمتين والواوين فكسروا التاء

فانقلبت الواو الأولى ياء ، ثم قلبت الثانية وأدغمت وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ عِتِيّاً ﴾ بالكسر ، وإنما استعجب الولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافاً بأن المؤثر فيه كمال قدرته وأن الوسائط عند التحقيق ملغاة ولذلك : ﴿ قَالَ ﴾ أي الله تعالى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقاً له . ﴿ كذلك ﴾ الأمر كذلك ، ويجوز أن تكون الكاف منصوبة ب ﴿ قَالَ ﴾ في : ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ وذلك إشارة إلى مبهم يفسره . ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ويؤيد الأول قراءة من قرأ ﴿ وَهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي الأمر كما قلت ، أو كما وعدت وهو على ذلك يهون علي ، أو كما وعدت وهو عليّ هين لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب ، ومفعول قال الثاني محذوف . ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ بل كنت معدوماً صرفاً ، وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء ، وقرأ حمزة والكسائي "وقد خلقناك" .

﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِّي ءَايَةً ﴾ علامة أعلم بها وقوع ما بشرتني به . ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ سَوِيُّ الخَلْقِ ما بك من خرس ولا بكم ، وإنما ذكر الليالي هنا والأيام في "آل عمران" للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام ولياليهن .

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب ﴾ من المصلى أو من الغرفة . ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ فأومأ إليهم لقوله ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ . وقيل كتب لهم على الأرض . ﴿ أَن سَبِّحُواْ ﴾ صلوا أو

نزهوا ربكم. ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ طرفي النهار، ولعله كان مأموراً بأن يسبح ويأمر قومه بأن يوافقوه، و﴿ أَن ﴾ تحتمل أن تكون مصدرية وأن تكون مفسرة.

(113/485)

﴿ يَا يحيى ﴾ على تقدير القول. ﴿ خُذِ الكتاب ﴾ التوراة. ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واستظهار بالتوفيق. ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ يعني الحكمة وفهم التوراة، وقيل النبوة أحكم الله عقله في صباه واستنبأه.

﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ ورحمة منا عليه أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما عطف على الحكم. ﴿ وزكواة ﴾ وطهارة من الذنوب أو صدقة أي تصدق الله به على أبويه، أو مكنه ووفقه للتصديق على الناس. ﴿ وَكَانَ تَقِيّا ﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي.

﴿ وَبَرّاً بوالديه ﴾ وباراً بهما. ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ عاقاً أو عاصي ربه.

﴿ وسلام عَلَيْهِ ﴾ من الله. ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم. ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من عذاب القبر. ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ من عذاب النار وهو القيامة.

﴿ واذكر فِى الكتاب ﴾ في القرآن. ﴿ مَرْيَمَ ﴾ يعني قصتها. ﴿ إِذِ انتبذت ﴾

اعتزلت ، بدل من ﴿ مَرْيَمَ ﴾ بدل الاشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها ، أو بدل الكل لأن المراد ب ﴿ مَرْيَمَ ﴾ قصتها وبالظرف الأمر الواقع فيه وهما واحد ، أو ظرف لمضاف مقدر وقيل ﴿ إِذْ ﴾ بمعنى أن المصدرية كقولك : أكرمتك إذ لم تكرمني فتكون بدلاً لا محالة . ﴿ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ شرقي بيت المقدس ، أو شرقي دارها ، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة ومكاناً ظرف أو مفعول لأن ﴿ انتبذت ﴾ متضمن معنى أتت .

﴿ فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾ ستراً . ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ قيل قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا حاضت وتعود إليه إذا طهرت فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة شاب أمرد سوي الخلق لتستأنس بكلامه ، ولعله لتهييج شهوتها به فتنحدر نطفتها إلى رحمها .

(114/485)

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ ﴾ من غاية عفافها . ﴿ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ تتقي الله وتحتفل بالاستعاذة ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فإني عائذة منك ، أو

فتتعظ بتعويذي أو فلا تتعرض لي ، ويجوز أن يكون للمبالغة أي إن كنت تقياً متورعاً فإني أتعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ الذي استعذت به . ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غلاما ﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع ، ويجوز أن يكون حكاية لقول الله تعالى ، ويؤيده قراءة أبي عمرو والأكثر عن نافع ويعقوب بالياء . ﴿ زَكِيّاً ﴾ طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح .

﴿ قَالَتْ أَنى يَكُونُ لِى غلام وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ ولم يباشرني رجل بالحلال ، فإن هذه الكنايات إنما تطلق فيه ، أما الزنا فإنما يقال فيه خبث بها وفجر ونحو ذلك ويعضده عطف قوله : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ عليه وهو فعول من البغي قلبت واوه ياء وأدغمت ثم كسرت الغين اتباعاً ولذلك لم تلحقه التاء ، أو فعيل بمعنى فاعل ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة ، أو للنسب كطالق .

﴿ قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ أي ونفعل ذلك لنجعله آية أو لنبين به قدرتنا ولنجعله ، وقيل عطف على ليهب على طريقة الالتفات . ﴿ ءَايَةً لِلنَّاسِ ﴾ علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا . ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ على العباد يهتدون بإرشاده . ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ أي تعلق به قضاء الله في الأزل ، أو قدر وسطر في اللوح أو كان أمراً حقيقاً بأن يقضى ويفعل لكونه آية ورحمة .

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ بأن نفخ في درعها فدخلت النفخة في جوفها وكان مدة حملها سبعة أشهر ، وقيل ستة ، وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره ، وقيل ساعة كما حملته نبذته وسنها ثلاث عشرة سنة ، وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين . ﴿ فانتبذت بِهِ ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها كقوله :

تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ وَالتَرِيبَا . . . والجار والمجرور في موضع الحال . ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار .

﴿ فَأَجَاءَهَا المخاض ﴾ فألجأها المخاض ، بالكسر وهما مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج . ﴿ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة ، وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء ، والتعريف إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثم غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها . ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ استحياء من الناس ومخافة لومهم ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر ﴿ مت ﴾ من مات يموت . ﴿ وَكُنتُ نَسْياً ﴾

ما من شأنه أن ينسى ولا يطلب ونظيره الذبح لما يذبح ، وقرأ حمزة وحفص بالفتح وهو لغة فيه أو مصدر سمي به ، وقرىء به وبالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته .

﴿ مَّنْسِيّاً ﴾ منسي الذكر بحيث لا يخطر ببالهم وقرىء بكسر الميم على الاتباع .

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ عيسى ، وقيل جبريل كان يقبل الولد ، وقيل تحتها أسفل من مكانها . وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص وروح "من تحتها" بالكسر والجر على أن في نادى ضمير أحدهما ، وقيل الضمير في تحتها النخلة . ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِى ﴾ أي لا تحزني أو بأن لا تحزني . ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ جدولاً . هكذا روي مرفوعاً ، وقيل سرياً من السرو وهو عيسى عليه الصلاة والسلام .

(116/485)

﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ وأميليه إليك ، والباء مزيدة للتأكيد أو افعلي الهز والأمالة به ، أو ﴿ هزي ﴾ الثمرة بهزه والهز تحريك بجذب ودفع . ﴿ تساقط عَلَيْكِ ﴾ تتساقط فأدغمت التاء الثانية في السين وحذفها حمزة ، وقرأ يعقوب بالياء وحفص "تساقط" من ساقطت بمعنى أسقطت ، وقرىء "تتساقط" و"تسقط" و"يسقط" فالتاء للنخلة والياء للجذع . ﴿ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ تمييز أو مفعول . روي أنها كانت نخلة يابسة لا

رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء ، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخوصاً ورطباً .

وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها فإن مثلها لا يتصور لمن يرتكب الفواحش ، والمنبهة لمن رآها على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل ، وأنه ليس ببدع من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام ولذلك رتب عليه الأمرين فقال :

﴿ فَكُلِي واشربي ﴾ أي من الرطب وماء السرى أو من الرطب وعصيره . ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ وطيبي نفسك وارفضي عنها ما أحزنك ، وقرىء ﴿ وقَرى ﴾ بالكسر وهو لغة نجد ، واشتقاقه من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره ، أو من الفرقان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين للمحبوب وسخنتها للمكروه . ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ فإن تري آدمياً ، وقرىء "ترئن" على لغة من يقول لبأت بالحج لتآخ بين الهمزة وحرف اللين . ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ صمتاً وقد قرىء به ، أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم . ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ بعد أن أخبرتكم بنذري وإنما أكلم الملائكة وأناجي ربي . وقيل أخبرتهم بنذرها بالإشارة وأمرها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه قاطع في قطع الطاعن .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ ﴾ أي مع ولدها . ﴿ قَوْمَهَا ﴾ راجعة إليهم بعد ما طهرت من النفاس . ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ حاملة إياه . ﴿ قَالُواْ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي بديعاً منكراً من فري الجلد .

﴿ يَا أُخْتَ هارون ﴾ يعنون هرون النبي عليه الصلاة والسلام وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة ، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة . وقيل هو رجل طالح أو صالح كان في زمانهم شبهوها به تهكماً أو لما رأوا قبل من صلاحها أو شتموها به . ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ تقرير لأن ما جاءت به فري ، وتنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أي كلموه ليجيبكم . ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى المهد صَبِيّاً ﴾ ولم نعهد صبياً في المهد كلمه عاقل ، و ﴿ كَانَ ﴾ زائدة والظرف صلة من .

و ﴿ صَبِيّاً ﴾ حال من المستكن فيه أو تامة أو دائمة كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أو بمعنى صار .

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ الله ﴾ أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أول المقامات والرد على من يزعم ربوبيته . ﴿ ءَاتَانِىَ الكتاب ﴾ الإنجيل . ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ .

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً ﴾ نفاعاً معلماً للخير ، والتعبير بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه ، أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع وقيل أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً . ﴿ أَيْنَمَا كُنتُ ﴾ حيث كنت . ﴿ وَأَوْصَانِى ﴾ وأمرني . ﴿ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ زكاة المال إن ملكته أو تطهير النفس عن الرذائل . ﴿ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ .

(118/485)

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِى ﴾ وباراً بها عطف على ﴿ مُبَارَكاً ﴾ ، وقرىء بالكسر على أنه مصدر وصف به أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني ، أي وكلفني براً ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفاً على "الصلاة" . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ عند الله من فرط تكبره .

﴿ والسلام عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ كما هو على يحيى والتعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه ، فإنه لما جعل جنس السلام على نفسه عرض بأن ضده عليهم كقوله تعالى : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 3 .

﴿ 15

وقال الخازن :

﴿ كهيعص ﴾

قال ابن عباس ؛ هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقيل اسم القرآن ، وقيل للسورة ويل هو قسم أقسم الله تعالى به .

عن ابن عباس قال ؛ الكاف من كريم وكبير ، والهاء من هاد ، والياء من رحيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق ، وقيل معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق في وعده .

﴿ ذكر ﴾ أي هذا الذي نتلو عليك ذكر ﴿ رحمة ربك عبده زكريا ﴾ قيل معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته ﴿ إذ نادى ﴾ اي دعا ﴿ ربه ﴾ في المحراب ﴿ نداء خفياً ﴾ أي دعاء سراً من قيامه في جوف الليل ، وقيل راعى سنة الله في إخفاء دعائه لأن الجهر والإسرار عند الله تعالى سيان ، ولكن الإخفاء أولى ، وقيل خفت صوته لضعفه سقوط الأضراس ﴿ واشتعل الرأس ﴾ أي ابيض الشعر ﴿ شيباً ﴾ أي شمطاً ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ أي عودتني الإجابة فما مضى ولم تخيبني ، وقيل معناه لما دعوتني إلى

الإيمان آمنت ولم اشق بترك الإيمان ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ أي من بعد موتي والموالي هم بنو العم وقيل العصبة وقيل الكلالة وقيل جميع الورثة ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ أي لا تلد ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ أي أعطني من عندك ولداً مرضياً ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ أي ولياً ذا رشاد ، وقيل أراد به يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والعلم ، وقيل أراد به الحبورة ، لأن زكريا كان رأس الأحبار ، والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأن الأنبياء لم يرثوا المال وإنما يورثون العلم ، ويبعد عن زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يشفق على ماله أن يرثه بنو عمه ، وإنما خاف أن يضيع بنو عمه دين الله ويغيروا أحكامه ، وذلك لما أن شاهد من بني إسرائيل تبديل الدين وقتل الأنبياء .

فسأل ربه ولداً صالحاً يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع وهذا قول ابن عباس ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أي براً تقياً مرضياً .

(120/485)

قوله تعالى ﴿ يا زكريا ﴾ المعنى استجاب الله له دعائه فقال يا زكريا ﴿ إنا نبشرك بغلام ﴾ أي بولد ذكر ﴿ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ أي لم يسم أحد قبله يحيى وقيل معناه لم نجعل له شبهاً مثلاً ، وذلك لأنه لم يعص الله ولم يهم بمعصية قط وقال ابن عباس : لم

تلد العواقر مثله ولداً ، قيل لم يرد الله تعالى بذلك اجتماع الفضائل كلها ليحيى ، وإنما أراد بعضها لأن الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه ﴿ قال رب أنى يكون لي ﴾ أي من أين يكون لي ﴿ غلام وكانت امرأتي عاقراً ﴾ أي وامرأتي عاقر ﴿ وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ أي يأساً يريد بذلك نحول الجسم ودقة العظام ونحول الجلد ﴿ قال كذلك قال ربك هو علي هين ﴾ أي يسير ﴿ وقد خلقتك من قبل ﴾ أي من قبل يحيى ﴿ ولم تك شيئاً وقال رب اجعل لي آية ﴾ أي دلالة على حمل امرأتي ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ أي صحيحاً سليماً من غير بأس ولا خرس ، وقيل ثلاث ليال متتابعات والأول أصح قيل إنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فإذا أراد ذكر الله انطلق لسانه .

قوله : ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي من الموضع الذي كان يصلي فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون ، إذ خرج إليهم زكريا متغيراً لونه فأنكروا ذلك عليه ، وقالوا له ما لك ﴿ فأوحى ﴾ أي فأوما وأشار ﴿ إليهم ﴾ وقيل كتب لهم في الأرض ﴿ أن سبحوا ﴾ أي صلوا لله ﴿ بكرة وعشيا ﴾ المعنى أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشياً فيأمرهم بالصلاة ، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع من الكلام خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة .

قوله ﴿ يا يحيى ﴾ فيه إضمار ومعناه وهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى ﴿ خذ الكتاب ﴾ أي التوراة ﴿ بقوة ﴾ أي بجد واجتهاد ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ قال ابن عباس : يعني النبوة ﴿ صبياً ﴾ وهو ابن ثلاث سنين وذلك أن الله تعالى حكم عقله وأوحى إليه ، فإن قلت كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا .

قلت لأن أصل النبوة مبني على خرق العادات ، إذا ثبت هذا فلا تمنع صيرورة الصبي نبياً ، وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير وعن بعض السلف قال من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو من أوتي الحكم صبياً ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ أي رحمة من عندنا قال الحطيئة يخاطب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه :

تحنن علي هداك المليك . . .

فإن لكل مقام مقالا

(122/485)

أي ترحم علي ﴿ وزكاة ﴾ قال ابن عباس : يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص ، وقيل هي العمل الصالح ، ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ليدعوهم إلى طاعة

ربهم وعملاً صالحاً في أخلاصه ﴿ وكان تقياً ﴾ أي مسلماً مخلصاً مطيعاً ، وكان من تقواه إنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها قط ﴿ وبراً بوالديه ﴾ أي باراً لطيفاً بهما محسناً إليهما لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ الآية ﴿ ولم يكن جباراً ﴾ الجبار المتكبر وقيل الذي يقتل ويضرب على الغضب ، وقيل الجبار الذي لا يرى لأحد على نفسه حقاً وهو التعظيم بنفسه يرى أن لا يلزمه قضاء لأحد ﴿ عصياً ﴾ قيل هو أبلغ من المعاصي والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب وهو من صفات المؤمنين ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ معناه وأمان له من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم وأمان له يوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حياً من عذاب يوم القيامة ، وقيل أوحش ما يكون الخلق في ثلاث مواطن يوم يولد لأنه يرى نفسه خارجاً من مكان قد كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قوماً ما شاهدهم قط ، ويوم يبعث لأنه يرى مشهداً عظيماً فأكرم الله تعالى يحيى في هذه المواطن كلها فخصه بالسلامة فيها .

(123/485)

قوله ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أي في القرآن ﴿ مريم إذا انتبذت ﴾ أي تنحت واعتزلت ﴿ من أهلها ﴾ أي من قومها ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ أي مكاناً في الدار ما يلي المشرق ، وكان ذلك اليوم شاتياً شديد البرد فجلست في مشرقه تفلي رأسها وقيل إن مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل ، قيل ولهذا المعنى اتخذت النصارة المشرق قبلة ﴿ فاتخذت ﴾ أي فضربت ﴿ من دونهم حجاباً ﴾ قال ابن عباس أي ستراً وقيل جلست وراء جدار ، وقيل إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها ، حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد ، فبينما هي تغتسل من الحيض قد تجردت ، إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه سوي الخلق فذلك .

قوله تعالى ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ يعني جبريل ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ أي سوي الخلق لم ينقص من الصورة الآدمية شيئاً ، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ، وقيل المراد من الروح روح عيسى جاءت في صورة بشر فحملت به والقول الأول أصح ، فلما رأت مريم جبريل عليه السلام يقصد نحوها بادرته من بعيد ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ أي مؤمناً مطيعاً لله تعالى ، دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وروعها .

فإن قلت إنما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت إن كنت تقياً .

قلت هذا كقول القائل إن كنت مؤمناً فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً من الظلم ، كذلك ها هنا معناه ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور ﴿ قال ﴾ لها جبريل عليه السلام ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب ﴾ أسند الفعل إليه وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به ﴿ لك غلاماً زكياً ﴾ قال ابن عباس ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب ﴿ قالت ﴾ مريم ﴿ أنى يكون لي ﴾ أي من أين يكون لي ﴿ غلام ولم يمسسني بشر ﴾ أي ولم يقربني زوج ﴿ ولم أك بغياً ﴾ أي فاجرة تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح ولم يكن ها هنا واحد منهما ﴿ قال ﴾ جبريل ﴿ كذلك قال ربك ﴾ أي هكذا قال ربك ﴿ هو علي هين ﴾ أي خلق ولدك بلا أب ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ أي علامة لهم ودلالة على قدرتنا ﴿ ورحمة منا ﴾ أي ونعمة لمن تبعه على دينه إلى بعثه محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أي محكوماً مفروغاً من لا يرد ولا يبدل .

قوله ﴿ فحملته ﴾ قيل إن جبريل رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت حين لبست الدرع ، وقيل مد جيب درعها بأصبعه ثم نفخ في الجيب ، وقيل نفخ في كمها وقيل في ذيلها ، وقيل في فيها ، وقيل نفخ من بعيد فوصل النفخ إليها فحملت بعيسى عليه السلام في الحال ﴿

فانتبذت به ﴾ أي فلما حملته تنحت بالحمل وانفردت ﴿ مكاناً قصياً ﴾ أي بعيداً من أهلها .

قال ابن عباس : أقصى الوادي ، وهو بيت لحم فراراً من أهلها وقومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج .

(125/485)

قال ابن عباس : كان الحمل الولادة في ساعة واحدة وقيل حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها ، وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر الحوامل من النساء ، وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر ، وذلك آية أخرى له لأنه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش ، وقيل ولد لستة أشهر وهي بنت عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل ستة عشر سنة وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى ، وقال وهب : إن مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار ، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي يمنة جبل صهيون ، وكانا يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم من أهل زمانها أحد أشد عبادة واجتهاداً منها وأول من علم بحمل مريم يوسف ، فبقي متحيراً في أمرها كلما أراد أن يتهمها ذكر عباتها وصلاحها

وأنها لم تغب عنه ، وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر منها من الحمل فأول ما تكلم به أن قال إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن أتكلم به أشفي صدري ، فقالت : قل قولاً جميلاً ، قال أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل ينبت شجر بغير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت نعم ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ألم تر أن الله أنبت الشجر بالقدرة من غير غيث أو تقول إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجر حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها قال يوسف : لا أقول هذا ولكن أقول إن الله تعالى يقدر على كل شيء يقول له كن فيكون ، قالت له مريم : ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى .

فعند ذلك زال ما عنده من التهمة وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل .

فلما دنت ولادتها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك فذلك قوله تعالى ﴿ فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ .

(126/485)

قوله : ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ أي ألجأها وجاء بها والمخاض وجع الولادة ﴿ إلى جذع النخلة ﴾ وكانت نخلة يبست في الصحراء في شدة البرد ولم يكن لها سعف ، وقيل التجأت إليها تستند إليها وتستمسك بها من شدة الطلق ، ووجع الولادة ﴿ قالت يا ليتني مت قبل هذا ﴾ تمنت الموت استحياء من الناس وخوفاً من الفضيحة ﴿ وكنت نسياً منسياَ ﴾ يعني شيئاً حقيراً متروكاً لم يذكر ، ولم يعرف لحقارته وقيل جيفة ملقاة ، وقيل معناه أنها تمنت أنها لم تخلق ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قيل إن مريم كانت على أكمة وجبريل وراء الأكمة تحتها ، وقيل ناداها من سفح الجبل وقيل هو عيسى وذلك أنه لما خرج من بطن أمه ناداها ﴿ أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ أي نهراً .

قال ابن عباس : ضرب جبريل عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام برجله في الأرض فظهرت عين ماء عذبة ، وجرت وقيل كان هناك نهر يابس فجرى فيه الماء بقدرة الله سبحانه وتعالى وجنت النخلة اليابسة ، فأورقت وأثمرت وأرطبت وقيل معنى تحتك تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى ، وإن أمرته بالإمساك أمسك وقيل معنى سرياً أي عيسى وكان عبداً سرياً رفيعاً ﴿ وهزي إليك ﴾ أي حركي إليك ﴿ بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ قيل الجنى الذي بلغ الغاية جاء أوان اجتنائه .

قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل ﴿ فكلي واشربي ﴾ أي مريم كلي من الرطب واشربي من النهر ﴿ وقري عيناً ﴾ أي طيبي نفساً ، وقيل قري عيناً بولدك عيسى ، يقال أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينيك عن النظر إلى غيره ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ معناه يسألك عن ولدك ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ أي صمتاً ، قيل كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي ، وقيل إن الله أمرها أن تقول هذا إشارة وقيل أمرها أن تقول هذا القول نطقاً ثم تمسك عن الكلام بعده وإنما منعت من الكلام لأمرين أحدهما : أن يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في أزالة التهمة عنها وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل أولى .

والثاني : كراهة مجادلة السفهاء وفيه السكوت عن السفيه واجب ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ يقال إنها كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس .

(128/485)

قوله تعالى ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ قيل إنها لما ولدت عيسى عليه السلام حملته في الحال إلى قومها وقيل إن يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى إلى غار فمكث فيه أربعين يوماً حتى طهرت من نفاسها ، ثم حملته إلى قومها فكلمها عيسى في الطريق فقال : يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه ، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين ﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ أي عظيماً منكراً وقيل معناه جئت بأمر عجيب وبديع ﴿ يا أخت هارون ﴾ أي شبيهة هارون قيل كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل شبهت به في عفتها وصلاحها وليس المراد الأخوة في النسب ، قيل إنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألف من بني إسرائيل كلهم يسمى هارون سوى سائر الناس (م) عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت خراسان سألوني فقالوا : إنكم تقرؤون يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سألته عن ذلك فقال :

" إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم " .

وقيل كان هارون أخا مريم لأبيها ، وقيل كان من أمثل رجل في بني إسرائيل وقيل إنما عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم ، وقيل كان هارون في بني إسرائيل فاسقاً أعظم الفسق فشبهوها به ﴿ ما كان أبوك ﴾ يعني عمران ﴿ امرأ

سوء ﴾ قال ابن عباس : زانياً ﴿ وما كانت أمك ﴾ يعني حنة ﴿ بغياً ﴾ أي زانية فمن أين لك هذا الولد .

(129/485)

﴿ فأشارت إليه ﴾ أي أشارت مريم إلى عيسى أن كلمهم ، قال ابن مسعود : لما لم يكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها ، وقيل لما أشارت إليه غضب القوم وقالوا مع ما فعلت أتسخرين بنا ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ قيل أراد بالمهد الحجر وهو حجرها ، وقيل هو المهد بعينه قيل لما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم ، وقيل لما أشارت إليه ترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه ﴿ قال إني عبد الله ﴾ قال وهب : أتاها زكرياء عند مناظرتها اليهود ، فقال لعيسى : انطق بحجتك إن كنت أمرت بها ، فقال عند ذلك عيسى وهو ابن أربعين يوماً ، وقيل : بل يوم ولد إني عبد الله أقر على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ما تكلم لئلا يتخذ إلهاً .

فإن قلت إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن أمه وأن عيسى لم ينص على ذلك ، وإنما نص على إثبات عبوديته لله تعالى .

قلت كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن أمه ، فلهذا أول ما تكلم

باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل إزالة التهمة عن الأم ، لأن الله تعالى لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في زنا ، والتكلم بإزالة التهمة عن أمه لا يفيد إزالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى فكان الاشتغال بذلك أو ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ قيل معناه سيجعلني نبياً ويؤتيني الكتاب وهو الإنجيل وهذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ وهو كما قيل للنبي (صلى الله عليه وسلم) متى كنت نبياً قال : "كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد " وقال الأكثرون إنه أوتي الإنجيل ، وهو صغير وكان يعقل عقل الرجال الكمل وعن الحسن أنه ألهم التوراة وهو في بطن أمه ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ معناه أني نفاع أينما توجهت ، وقيل معلماً للخير أدعوا إلى الله وإلى توحيده وعبادته وقيل مباركاً على من يتبعني ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ أي أمرني بهما وكلفني فعلهما .

(130/485)

فإن قلت كيف يؤمر بالصلاة والزكاة ، في حال طفوليته وقد قال (صلى الله عليه وسلم) " رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يبلغ " الحديث . . .

قلت إن قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل المراد أوصاه بأدائهما في الوقت المعين لهما وهو البلوغ ، وقيل إن الله تعالى صيره حين انفصل

عن أمه بالغاً عاقلاً وهذا القول أظهر في سياق قوله ﴿ ما دمت حياً ﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه إليه في زمان جميع حياته حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل الأرض بعد رفعه ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ أي جعلني براً بوالدتي ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ أي عاصياً لربي متكبراً على الحق بل ، وأنا خاضع متواضع وروي أنه قال : قلبي لين وأنا صغير في نفسي ، وقال بعض العلماء لا تجد العاق إلا جباراً شقياً وتلا هذه الآية ، وقيل الشقي الذي يذنب ولا يتوب .

﴿ والسلام علي يوم ولدت ﴾ أي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان ﴿ ويوم أموت ﴾ أي عند الموت من الشرك ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ أي من أهوال يوم القيامة فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ثم سكت عيسى فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 238 . 245 ﴾

(131/485)

وقال ابن جزى :

﴿ كهيعص ﴾

قد تكلمنا في أول البقرة على حروف الهجاء ، وكان علي بن أبي طالب يقول في دعائه : يا

كهيعص فيحتمل أن تكون الجملة عنده اسماً من أسماء الله تعالى ، أو ينادي بالأسماء التي اقتطعت منها هذه الحروف ﴿ ذِكْرُ ﴾ تقديره هذا ذكر ﴿ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ وصفه بالعبودية تشريفاً له ، وإعلاماً له بتخصيصه وتقريبه ، ونصب عبده على أنه مفعول لرحمة ، فإنها مصدر أضيف إلى الفاعل ، ونصب المفعول ، وقيل : هو مفعول بفعل مضمر ، تقديره : رحمة عبده وعلى هذا يوقف على ما قبله وهذا ضعيف ، وفيه تكلف الإضمار من غير حاجة إليه ، وقطع العامل عن العمل بعد تهيئته له ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ يعني دعاه ﴿ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ أخفاه لأنه يسمع الخفي كما يسمع الجهر ، ولأن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء ، ولئلا يلومه الناس على طلب الولد ﴿ إِنِّي وَهَنَ ﴾ أي ضعف ﴿ واشتعل ﴾ استعارة للشيب من اشتعال النار ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي قد سعدت بدعائي لك فيما تقدم ، فاستجب لي في هذا ، فتوسل إلى الله بإحسانه القديم إليه .

(132/485)

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالى ﴾ يعني : الأقارب قيل : خاف أن يرثوه دون نسله ، وقيل : خاف أن يضيعوا الدين من بعده ﴿ مِن وَرَآءِى ﴾ أي من بعدي ﴿ عَاقِراً ﴾ أي عقيماً ﴿

فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ يعني وارثاً يرثني ، قيل : يعني وراثة المال ، وقيل : وراثة العلم والنبوة وهو أرجح لقوله صلى الله عليه وسلم : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث " وكذلك ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ العلم والنبوة ، وقيل : الملك ، ويعقوب هنا هو يعقوب بن إسحاق على الأصح ﴿ رَضِيّاً ﴾ أي مرضياً فهو فعيل : بمعنى مفعول ﴿ سَمِيّاً ﴾ يعني من سُمي باسمه ، وقيل : مثيلاً ونظيراً ، والأول أحسن هنا ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ تعجب واستبعاد أن يكون له ولد مع شيخوخته وعقم امرأته ، فسأل ذلك أولاً لعلمه بقدرة الله عليه ، وتعجب منه لأنه نادر في العادة ، وقيل : سأله وهو في سنّ من يرجوه ، وأجيب بعد ذلك بسنين وهو قد شاخ ﴿ عِتِيّاً ﴾ قيل : يبساً في الأعضاء والمفاصل ، وقيل : مبالغة في الكبر ﴿ كذلك ﴾ الكاف في موضع رفع ، أي الأمر كذلك ، تصديقاً له فيما ذكر من كبره وعقم امرأته ، وعلى هذا يوقف على قوله . كذلك . ثم يبتدأ : قال ربك ، وقيل : إن الكاف في موضع نصب بقال ، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره : هو عليّ هين ﴿ اجعل لي آيَةً ﴾ أي علامة على حمل امرأته ﴿ سَوِيّاً ﴾ أي سليماً غير أخرس ، وانتصابه على الحال من الضمير في تكلم ، والمعنى أنه لا يكلم الناس مع أنه سليم من الخرس ، وقيل : إن سوياً يرجع إلى الليالي أي مستويات ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار ، وقيل : كتب في التراب إذ كان لا يقدر على الكلام ﴿ أَن سَبِّحُواْ ﴾ قيل : معناه صلوا ، والسبحة في اللغة الصلاة ، وقيل : قولوا سبحان الله ﴿ يا يحيى ﴾ التقدير قال الله ليحيى بعد ولادته : ﴿

خُذِ الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أي في العلم به والعمل به ﴿ وآتيناه الحكم صَبِيّاً ﴾ قيل :

(133/485)

الحكم ، معرفة الأحكام ، وقيل : الحكمة ، وقيل : النبوة ﴿ وَحَنَاناً ﴾ قيل : معناه رحمة وقال ابن عباس : لا أدري ما الحنان ﴿ وزكاوة ﴾ أي طهارة ، وقيل ، ثناء كما يزكى الشاهد .

﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ ﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم والكتاب القرآن ﴿ إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي اعتزلت منهم وانفردت عنهم ﴿ مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ أي إلى جهة الشرق ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا ﴾ يعني جبريل ، وقيل : عيسى ، والأول هو الصحيح ؛ لأن جبريل هو الذي تمثل لها باتفاق ﴿ قَالَتْ إِني أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ لما رأت الملك الذي تمثل لها في صورة البشر ، قد دخل عليها خافت أن يكون من بني آدم ، فقالت له هذا الكلام ، ومعناه : إن كنت ممن يتقي الله فابعد عني ، فإني أعوذ بالله منك ، وقيل : إن تقيا اسم رجل معروف بالشرّ عندهم وهذا ضعيف وبعيد ﴿ لأَهَبَ لَكِ غلاما زَكِيّاً ﴾ الغلام الزكيّ هو عيسى عليه السلام ، وقرئ ليهب بالياء ، والفاعل فيه هو

ضمير الرب سبحانه وتعالى ، وقرئ بهمزة التكلم ، وهو جبريل ، وإنما نسب الهبة إلى نفسه ، لأنه هو الذي أرسله الله بها ، أو يكون قال ذلك حكاية عن الله تعالى ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ البغيّ هي المرأة المجاهرة بالزنا ، ووزن بغيّ فعول ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً ﴾ الضمر للولد واللام تتعلق بمحذوف تقديره : لنجعله آية فعلنا ذلك .

(134/485)

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ يعني : في بطنها وكانت مدة حملها ثمانية أشهر ، وقال ابن عباس : حملته وولدته في ساعة ﴿ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ أي بعيداً ، وإنما بعدت حياء من قومها أن يظنوا بها الشر ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ معناه : ألجأها وهو منقول من جاء بهمزة التعدية ﴿ المخاض ﴾ أي النفاس ﴿ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ رُوي أنها احتضنت الجذع لشدة وجع النفاس ﴿ قَالَتْ ياليتني مِتُّ ﴾ إنما تمنت الموت خوفاً من إنكار قومها ، وظنهم بها الشر ، ووقوعهم في دمها وتمني الموت جائز في مثل هذا ، وليس هذا من تمني الموت لضر نزل بالبدن فإنه منهي عنه .

(135/485)

﴿ وَكُنتُ نَسْياً ﴾ النِسْي الشيء الحقير الذي لا يؤبه له ، وقال بفتح النون وكسرها ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ قرئ من بفتح الميم وكسرها ، وقد اختلف على كلتا القراءتين ، هل هو جبريل أو عيسى ، وعلى أنه جبريل قيل : إنه كان تحتها كالقابلة ، وقيل : كان في مكان أسفل من مكانها ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ تفسير للنداء ، فأن مفسرة ﴿ سَرِيّاً ﴾ جدولاً وهي ساقية من ماء كان قريباً من جذع النخلة ، روي أن النبي صلى الله عليه وسلم فسره بذلك وقيل : يعني عيسى فإن السري الرجل الكريم ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ كان جذعاً يابساً ، فخلق الله فيه الرطب كرامة لها وتأنيساً ، وقد استدل بعض الناس بهذه الآية على أن الإنسان ينبغي له أن يتسبب في طلب الرزق ، لأن الله أمر مريم بهز النخلة ، والباء في بجذع زائدة كقوله : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] ﴿ تساقط عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ الفاعل بتساقط النخلة ، وقرئ بالياء والفاعل على ذلك الجذع ، ورطباً تمييز ، والجني معناه : الذي طاب وصلح لأن يجتنى ﴿ فَكُلِي واشربي ﴾ أي كلي من الرطب ، واشربي من ماء الجدول ، وهو السري ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ أي طيبي نفساً بما جعل الله لك من ولادة نبي كريم ، أو من تيسير المأكول والمشروب ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ ﴾ هي إن الشرطية دخلت عليها ما الزائدة للتأكيد ، وترين فعل خوطبت به المرأة ، ودخلت عليه النون الثقيلة للتأكيد ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ﴾ أي صمتاً عن الكلام ، وقيل :

يعني الصيام لأن من شرطه في شريعتهم الصمت ، وإنما أمرت بالصمت صيانة لها عن الكلام ، مع المتهمين لها ، ولأن عيسى تكلم عنها ، فإخبارها بأنها نذرت الصمت بهذا الكلام ، وقيل : بالإشارة ، ولا يجوز في شريعتنا نذر الصمت ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا ﴾ لما رأت الآيات : علمت أن الله سيبين عذرها ، فجاءت به من المكان القصي إلى قومها ﴿

(136/485)

شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي شنيعاً وهو من الفرية .

﴿ يا أخت هارون ﴾ كان هارون عابداً من بني إسرائيل ، شبهت به مريم في كثرة العبادة فقيل لها أخته بمعنى أنها شبهه ، وقيل : كان أخاها من أبيها ، وكان رجلاً صالحاً ، ويل : هو هارون النبي أخو موسى وكانت من ذريته ، فأخت على هذا كقولك : أخو بني فلان أي واحد منهم ، ولا يتصور على هذا القول أن تكون أخته من النسب حقيقة ، فإن بين زمانهما دهراً طويلاً ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ إي إلى ولدها ليتكلم وصمتت هي كما أمرت ﴿ كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ كان بمعنى يكون ، والمهد هو المعروف ، وقيل المهد هنا حجرها ﴿ آتَانِيَ الكتاب ﴾ يعني الإنجيل ، أو التوراة والإنجيل ﴿ مُبَارَكاً ﴾ من البركة وقيل : نفاعاً ، وقيل : معلماً للخير . واللفظ أعم من ذلك ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة

﴿ هما المشروعتان ، وقيل : الصلاة هنا الدعاء ، والزكاة : التطهير من العيوب ﴿ وَبَرّاً ﴾ معطوف على مباركاً ، روي أن عيسى تكلم بهذا الكلام وهو في المهد ، ثم عاد إلى حالة الأطفال على عادة البشر ، وفي كلامه هذا ردّ على النصارى ، لأنه اعترف أنه عبد الله ، وردّ على اليهود لقوله : وجعلني نبياً ﴿ والسلام عَلَيَّ ﴾ أدخل لام التعريف هنا لتقدّم السلام المنكر في قصة يحيى ، فهو كقولك : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل ، وقال الزمخشري : الصحيح أن هذا التعريف تعريض بلغة من اتهم مريم كأنه قال : السلام كله عليّ لا عليكم ، بل عليكم ضدّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 3 ـ 5 ﴾

(137/485)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة مريم

عليها السلام مكية

وهي ثمان وتسعون آية ، وسبعمائة واثنان وستون كلمة ، وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

﴿ بسم اللّه ﴾ المنزه عن كل شائبة نقص القادر على كل ما يريد ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم

نواله سائر مخلوقاته ﴿ الرحيم ﴾ بسائر خلقه ، واختلف في تفسير قوله تعالى:

﴿ كهيعص ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء اللّه تعالى ، وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن ، وقيل : هو اسم اللّه الأعظم ، وقيل : هو اسم السورة ، وقيل : قسم أقسم اللّه به . وعن الكلبي : هو ثناء أثنى اللّه به على نفسه ، وعنه معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق في وعده .

وعن ابن عباس قال : الكاف من كريم وكبير ، والهاء من هاد ، والياء من رحيم ، والعين من عليم وعظيم ، والصاد من صادق ، وقيل : إنه من المتشابه الذي استأثر اللّه تعالى بعلمه ، وقد تقدّم الكلام على ذلك في أوّل سورة البقرة ، وقرأ نافع بإمالة الهاء والياء بين بين وأمالهما محضة شعبة والكسائي وأمال الهاء محضة أبو عمرو وابن عامر وحمزة ، وللسوسي في الياء خلاف في الإمالة محضة والفتح والباقون ، وهم ابن كثير وحفص بفتحهما بلا خلاف ولجميع القراء في العين المدّ والتوسط ، وقوله تعالى:

﴿ ذكر ﴾ مبتدأ محذوف الخبر تقديره مما يتلى عليكم أو خبر محذوف المبتدأ تقديره المتلو ذكر أو هذا ذكر ﴿ رحمت ربك ﴾ وقوله تعالى : ﴿ عبده ﴾ مفعول رحمة لأنها مصدر بني على التاء لأنها دالة على الوحدة ورسمت بتاء مجرورة ، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف بالتاء على الرسم الباقون وقوله تعالى : ﴿ زكريا ﴾ بيان له .

تنبيه : اعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة قصص جملة من الأنبياء .

الأولى : هذه القصة وهي قصة زكريا فيحتمل أن المراد من قوله تعالى : ﴿ رحمة ربك ﴾ أنه عني عبده زكريا في كونه رحمة وجهان : أحدهما : أنه يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعة ، والثاني : أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأن اللّه تعالى لما شرع له صلى الله عليه وسلم طريقته في الإخلاص والابتهال في جميع الأمور إلى اللّه تعالى صار ذلك لطفاً داعياً له ولأمته إلى تلك الطريقة ، فكان زكريا رحمة ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي يرحم بها عبده زكريا

﴿ إذ نادى ربه نداء ﴾ مشتملاً على دعاء ﴿ خفياً ﴾ أي : سراً جوف الليل ؛ لأنه أسرع إلى الإجابة وإن كان الجهر والإخفاء عند اللّه سيان ، وقيل : أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمن الشيخوخة ، وقيل : أسره من مواليه الذين خافهم ، وقيل : خفت صوته لضعفه وهرمه ، كما جاء في صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات .

فإن قيل : من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفياً ؟ .

أجيب : بوجهين ، الأول : أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن صوته كان ضعيفاً لنهاية ضعفه بسبب الكبر فكان نداءً نظراً إلى القصد خفياً نظراً إلى الواقع ، الثاني

: أنه دعا في الصلاة لأن اللّه تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن اللّه يبشرك ﴾ (آل عمران ،)

وكون الإجابة في الصلاة يدلّ على كون الدعاء فيها فيكون النداء فيها خفياً .

تنبيه : في ناصب إذ ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ذكر ولم يذكر الحوفي غيره ، والثاني : رحمة ولم يذكر الجلال المحلى غيره وذكر الوجهين أبو البقاء ، والثالث : أنه بدل من زكريا بدل اشتمال لأن الوقت مشتمل عليه ثم كأنه قيل : ما ذلك النداء ؟ فقيل:

(139/485)

﴿ قال ربّ ﴾ بحذف الأداة للدلالة على غاية القرب ﴿ إني وهن ﴾ أي : ضعف جداً ﴿ العظم مني ﴾ أي : هذا الجنس الذي هو أقوى ما في بدني ولو جمع لأوهم أنه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله : ﴿ واشتعل الرأس ﴾ أي : مني ﴿ شيباً ﴾ تمييز محوّل عن الفاعل أي : انتشر الشيب في شعره كما ينتشر شعاع النار في الحطب وإني أريد أن أدعوك ﴿ ولم أكن بدعائك ﴾ أي : بدعائي إياك ﴿ رب شقياً ﴾ أي : خائباً فيما مضى فلا تخيبني فيما يأتي وإن كان ما أدعو به في غاية البعد في العادة لكنك فعلت مع أبي إبراهيم مثله فهو دعاء وشكر واستعطاف ، ثم عطف على قوله : إني وهن قوله:

﴿ وإني خفت الموالي ﴾ أي : الذين يلوني في النسب كبني العم أن يسيئوا الخلافة ﴿ من ورائي ﴾ أي : في بعض الزمان الذي بعدي ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ لا تلد أصلاً بما دل عليه فعل الكون ﴿ فهب لي ﴾ أي : فتسبب عن شيخوختي وضعفي وتعويدك لي بالإجابة وخوفي من سوء خلافة أقاربي ويأسي عن الولد عادة بعقم امرأتي وبلوغي من الكبر حدّاً لا حراك بي معه أني أقول لك : يا قادر على كل شيء هب لي ﴿ من لدنك ﴾ أي : من الأمور المستبطنة المستغربة التي عندك لم تجرها على مناهج العادات والأسباب المطردات ﴿ ولياً ﴾ أي : ابناً من صلبي

﴿ يرثني ﴾ في جميع ما أنا فيه من العلم والنبوّة والعمل ﴿ ويرث ﴾ زيادة على ذلك ﴿ من آل يعقوب ﴾ جزءاً مما خصصتهم به من المنح وفضلتهم به من النعم ومحاسن الأخلاق ومعالي الشيم فإن الأنبياء لا يورثون المال ، وقيل : يرثني الحبورة أي : العلم بتحبير الكلام وتحسينه فإنه كان حبراً هو بالفتح والكسر وهو أفصح ، يقال : للعالم بتحبير الكلام وتحسينه وهو يعقوب بن إسحاق عليهما السلام .

وقيل : يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوّة ولفظ الإرث يستعمل في المال وفي العلم والنبوّة ، أما في المال فلقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ (الأحزاب ،) ، وأما في النبوة فلقوله تعالى : ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾ (غافر ،)

الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم "العلماء ورثة الأنبياء" ولأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما يورثون العلم وخص اسم يعقوب اقتداء به نفسه إذ قال ليوسف عليه السلام : ﴿ ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ﴾ (يوسف ،)

ولأن إسرائيل قد صار علماً على الأسباط كلهم وكانت قد غلبت عليهم الأحداث ، وقرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الثاء المثلثة فيهما على أنهما جواب الأمر إذ تقديرهما إن تهب يرث والباقون بالضم فيهما على أنهما صفة واعتراض بأن زكريا دعا اللّه تعالى أن يهبه ولداً يرثه مع أن يحيى قتل قبله فلم يجبه إلى أرثه منه وأجيب : بأن إجابة دعاء الأنبياء غالبة لا لازمة فقد يتخلف لقضاء اللّه تعالى بخلافه كما في دعاء إبراهيم عليه السلام في حق أبيه وكما في دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله : "وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها" ، ولما كان من قضاء اللّه تعالى وقدره أن يوجد يحيى نبياً صالحاً ثم يقتل استجيب دعاء زكريا في إيجاده دون إرثه . ولما ختم دعاءه بقوله : ﴿ واجعله رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ رضياً ﴾ أي : مرضياً عندك ، أجابه اللّه تعالى بقوله تعالى:

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾ يرث كما سألت ﴿ اسمه يحيى ﴾ وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك في آخر السورة .

تنبيه : يحيى اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وقيل : منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر ، وإنما تولى تعالى تسميته تشريفاً له قال تعالى : ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ (مريم ،)

أي : مسمى بيحيى ، قال قتادة والكلبي : لم يسمّ أحد قبله بيحيى .

(141/485)

تنبيه : سمياً مأخوذ من السمّو وفيه دلالة لقول البصريين إن الاسم من السمو ، ولو كان من الوسم لقيل وسيماً ، وقال سعيد بن جبير وعطاء : لم نجعل له شبهاً ومثلاً كما قال تعالى : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ أي : مثلاً والمعنى أنه لم يكن له مثل لأنه لم يعص ولم يهمّ بمعصية قط ، وردّ هذا لأن هذا يقتضي تفضيله على الأنبياء قبله كإبراهيم وموسى وليس كذلك ، وقيل : لم يكن له ميل إلى أمر النساء لأنه كان سيداً وحصوراً ، وعن ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولداً ، ثم كأنه قيل : فما قال في جواب هذه البشارة العظيمة ؟ فقيل:

﴿ قال ﴾ عالماً بصدقها طالباً لتأكيدها وللتلذذ بترديدها وهل ذلك من امرأته أو من غيرها ؟ وهل إذا كان منها يكونان على حالتهما من الكبر أو غيرها غير طائش ولا عجل ؟ ﴿ رب ﴾ أيها المحسن إليّ بإجابة الدعاء دائماً ﴿ أنّى ﴾ أي : من أين وكيف

وعلى أي : حال ﴿ يكون لي غلام ﴾ يولد في غاية القوة والنشاط والكمال في الذكورة ﴿ وكانت ﴾ أي والحال أنه كانت ﴿ امرأتي ﴾ إذ كانت شابة ﴿ عاقراً ﴾ غير قابلة للولد وأنا وهي شابان فلم يأتنا ولد لاختلال أحد السبيلين فكيف بها وقد أيست ؟ قال الجلال المحلي : بلغت ثماناً وتسعين سنة ﴿ وقد بلغت ﴾ أنا ﴿ من الكبر عتياً ﴾ من عتا يبس أي : نهاية السنّ ، قال الجلال المحلي : مائة وعشرين سنة وبما تقرر سقط ما قيل لم تعجب زكريا عليه السلام بقوله : أنى يكون لي غلام مع أنه هو الذي طلب الغلام ، وقرأ حفص وحمزة والكسائي عتياً وصلياً وجثياً بكسر عين الأوّل وصاد الثاني وجيم الثالث وضم الباقون ، وأما بكياً فكسر الباء الموحدة حمزة والكسائي وضمها الباقون ، وأصل عتي عتو وكسرت التاء تخفيفاً وقلبت الواو الأولى ياء لمناسبة الكسرة ، والثانية ياء لتدغم فيها وإنما استعجب للولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافاً بأن المؤثر فيه كامل القدرة وأن الوسايط عند المحققين ملغاة ولذلك

(142/485)

﴿ قال ﴾ أي : اللّه تعالى كما قال الأكثرون لأن زكريا إنما كان يخاطب اللّه ويسأله بقوله : رب إني وهن العظم مني أو الملك المبلغ للبشارة تصديقاً له لقوله تعالى : ﴿ فنادته الملائكة

وهو قائم يصلي في المحراب إن اللّه يبشرك بيحيى ﴾ (آل عمران ،)

وأيضاً فإنه لما قال : وقد بلغت من الكبر عتياً قال : ﴿ كذلك ﴾ أي : الأمر كذلك فهو خبر مبتدأ محذوف ثم علله بقوله : ﴿ قال ربك ﴾ أي : الذي عوّدك بالإحسان فدل ذلك على أنه كلام الملك ، قال ابن عادل : ويمكن أن يجاب بأنه يحتمل أن يحصل النداآن نداء اللّه تعالى ونداء الملك ، ثم ذكر مقول القول فقال : ﴿ هو ﴾ أي : خلق يحيى منكما على هذه الحالة ﴿ عليّ ﴾ أي : خاصة ﴿ هين ﴾ أي : بأن أردّ عليك قوّة الجماع وأفتق رحم امرأتك للعلوق ﴿ وقد خلقتك ﴾ أي : قدّرتك وصوّرتك وأوجدتك ﴿ من قبل ولم ﴾ أي : والحال أنك لم ﴿ تك شيئاً ﴾ بل كنت معدوماً صرفاً وفيه دليل على أنّ المعدوم ليس بشيء ولإظهار اللّه تعالى هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها ، وقرأ حمزة والكسائي بعد القاف بنون بعدها ألف والباقون بعد القاف بتاء مضمومة . ولما تاقت نفسه إلى سرعة المبشر به

﴿ قال رب اجعل لي ﴾ على ذلك ﴿ آية ﴾ أي : علامة تدلني على وقوعه ﴿ قال آيتك ﴾ على وقوع ذلك ﴿ أن لا تكلم الناس ﴾ أي : لا تقدر على كلامهم بخلاف ذكر اللّه تعالى ﴿ ثلاث ليال ﴾ أي : بأيامها كما في آل عمران ثلاثة أيام حال كونك ﴿ سوياً ﴾ من غير خرس ولا مرض وجعلت الآية الدالة عليه سكوت ثلاثة أيام ولياليهن من غير ذكر اللّه دلالة على اخلاصه وانقطاعه بكليته إلى اللّه تعالى دون غيره

﴿ فخرج ﴾ عقب إعلام اللّه تعالى له بهذا ﴿ على قومه من المحراب ﴾ أي : من المسجد وهم ينتظرونه أن يفتح لهم الباب متغيراً لونه فأنكروه وهو منطلق اللسان بذكر اللّه تعالى منحسبه عن كلام الناس فقالوا : مالك يا نبيّ اللّه ؟ ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي : أشار بشفتيه من غير نطق ، وقال مجاهد : كتب لهم في الأرض ﴿ أن سبحوا ﴾ أي : أوجدوا التنزيه والتقديس للّه تعالى بالصلاة وغيرها ﴿ بكرة وعشياً ﴾ أي : أوائل النهار وأواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حملت امرأته بيحيى ، قال الجلال المحلي : وبعد ولادته بسنين قال اللّه تعالى له:

﴿ يا يحيى خذ الكتاب ﴾ أي : التوراة ﴿ بقوة ﴾ أي : جدّ ثم إن اللّه تعالى وصفه بصفات الأولى قوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ قال ابن عباس النبوّة ﴿ صبياً ﴾ قال الجلال المحلي : تبعاً للبغوي ابن ثلاث سنين أي : أحكم اللّه عقله في صباه واستنبأه وقيل المراد بالحكم الحكمة وفهم التوراة فقرأ التوراة وهو صغير . قال البغوي : وعن بعض السلف من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبياً . الصفة الثانية قوله تعالى: ﴿ وحناناً ﴾ أي : وآتيناه رحمة وهيبة ووقاراً ورقة قلب ورزقاً وبركة ﴿ من لدنّا ﴾ أي

: من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة . الصفة الثالثة قوله تعالى : ﴿ وزكاة ﴾ أي : وآتيناه طهارة في دينه ، قال ابن عباس : يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص ، وقال قتادة : هي العمل الصالح ، وقال الكلبي : يعني صدقة تصدّق اللّه بها على أبويه . الصفة الرابعة قوله تعالى : ﴿ وكان ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ تقياً ﴾ أي : مخلصاً مطيعاً ، روي أنه لم يعمل خطيئة ولم يهمّ بها . الصفة الخامسة قوله تعالى:

﴿ وبراً بوالديه ﴾ أي : بارّاً لطيفاً بهما محسناً إليهما لأنه لا عبادة بعد تعظيم اللّه تعالى أعظم من برّ الوالدين يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً ﴾ (الإسراء ،)

(144/485)

. الصفة السادسة قوله تعالى ﴿ ولم يكن جباراً ﴾ أي : متكبراً والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ (الحجر ،) ، وقال تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (آل عمران ،)

ولأن رأس العبادة معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف

نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التجبر والترفع ولذلك لما تجبر إبليس وتمرد صار مبعداً عن رحمة اللّه تعالى وعن المؤمنين ، وقيل : الجبار هو الذي لا يرى لأحد على نفسه حقاً وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من أنه لا يلزمه قضاء حق لأحد ، وقيل : هو كل من عاقب على غضب نفسه . الصفة السابعة قوله تعالى : ﴿ عصياً ﴾ أي : عاقاً أو عاصي ربه وهو أبلغ من العاصي كما أن العليم أبلغ من العالم . الصفة الثامنة قوله تعالى: ﴿ وسلام عليه ﴾ منا ﴿ يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ . فإن قيل : لم خص هذه الأوقات الثلاثة ؟

أجيب : بوجوه:

الأول : قال محمد بن جرير الطبري : وسلام عليه يوم ولد أي : أمان من اللّه تعالى عليه يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم ويوم يموت أي : أمان من اللّه من عذاب القبر ، ويوم يبعث أي : ومن عذاب اللّه يوم القيامة .

الثاني : قال ابن عيينة أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن ؛ يوم ولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوماً ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى في محشر عظيم ، فأكرم اللّه تعالى يحيى عليه السلام فخصه بالسلام في هذه المواطن .

الثالث : قال عبد اللّه بن نفطوية : وسلام عليه يوم ولد أي : أوّل ما يرى في الدنيا ويوم يموت أي : أول يوم يرى فيه أمر الآخرة ، ويوم يبعث حياً أي : أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم

القيامة وإنما قال : حياً تنبيهاً على كونه من الشهداء لأنه قتل ، وقد قال تعالى ﴿ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (آل عمران ،)

(145/485)

فروع : الأول : هذا السلام يمكن أن يكون من اللّه وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين ففيه دلالة على تشريفه لأن الملائكة لا يسلمون إلا عن أمر اللّه تعالى .

الثاني : ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ سلام على نوح ﴾ (الصافات ،)

﴿ سلام على إبراهيم ﴾ (الصافات ،)

لأنه تعالى قال يوم ولد وليس كذلك سائر الأنبياء .

الثالث : روي أن عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام : أنت أفضل مني لأن اللّه تعالى قال : سلام عليه وأنا سلمت على نفسي ، قال الرازي : وهذا ليس بقوي لأن سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام اللّه تعالى على يحيى لأن عيسى معصوم لا يفعل إلا ما أمر اللّه تعالى انتهى ولكن بين السلامين مزية .

تنبيه : هذه القصة قد ذكرت في آل عمران بقوله تعالى : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب

وجد عندها رزقاً ﴾ (آل عمران ،)

إلى أن قال : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم ﴾ (آل عمران ،)

لأن زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع في حق نفسه فدعا وقد وقعت المخالفة في ذكر ما هنا وهناك في الألفاظ من وجوه ، الأول منها : أن اللّه تعالى صرّح في آل عمران بأن المنادي هو الملائكة بقوله تعالى : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ (آل عمران ،)

وفي هذه السورة الأكثر على أن المنادي بقوله يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى هو اللّه تعالى وأجيب : بأن اللّه تعالى هو المبشر سواء كان بواسطة أم لا ، الثاني : أنه قال تعالى في آل عمران : ﴿ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ﴾ (آل عمران ،)

(146/485)

فذكر أولاً كبر سنه ثم عقر امرأته ، وفي هذه السورة قال : ﴿ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ ، وأجيب بأن الواو لا تقتضي الترتيب ، الثالث : قال في آل عمران وقد بلغني الكبر ، وقال هنا : وقد بلغت من الكبر عتياً وأجيب بأن ما

بلغك فقد بلغته ، الرابع : قال في آل عمران : ﴿ آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ﴾ ، وقال هنا : ثلاث ليال سوياً وأجيب بأن الآيتين دلتا على أن المراد ثلاثة أيام بلياليهنّ كما مرّ .

القصة الثانية قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ولما كانت قصة عيسى عليه السلام أغرب من قصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من خلق الولد لا من أب البتة وأحسن طرق التعليم والفهم الأخذ من الأقرب فالأقرب مرتقياً إلى الأصعب فالأصعب ، أشار إلى ذلك بتغيير السياق فقال عاطفاً على ما تقديره اذكر هذا لهم

﴿ واذكر ﴾ بلفظ الأمر ﴿ في الكتاب ﴾ أي : القرآن ﴿ مريم ﴾ أي : قصتها وهي ابنة عمران خالة يحيى كما في الصحيح من حديث أنس بن مالك بن صعصعة الأنصاري في حديث الإسراء "فلما خلصت فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة" ثم أبدل من مريم بدل اشتمال فقال : ﴿ إذ ﴾ أي : اذكر ما اتفق لها حين ﴿ انتبذت ﴾ أي : كلفت نفسها أن اعتزلت وانفردت ﴿ من أهلها ﴾ حالة ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ أي : شرقي بيت المقدس . وقال الرازي : شرقي دارها ، وعن ابن عباس إني لأعلم خلق اللّه تعالى لأي شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى : ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ فاتخذت ميلاد عيسى قبلة ، واقتصر الجلال المحلي على الشرق من الدار وتردّد البيضاوي بينهما فقال : شرقيّ بيت

المقدس أو شرقي دارها انتهى ، ويحتمل أن يكون شرقي بيت المقدس هو شرقي دارها فلا مخالفة

(147/485)

﴿ فاتخذت ﴾ أي : أخذت بقصد وتكلف ودل على قرب المكان بالإتيان بالجارّ فقال : ﴿ من دونهم ﴾ أي : أدنى مكان من مكانهم ﴿ حجاباً ﴾ أي : أرسلت ستراً تستتر به لغرض صحيح وليس بمذكور ، واختلف المفسرون فيه على وجوه:

أحدها : أنها طلبت الخلوة كيلا تشتغل عن العبادة .

ثانيها : أنها عطشت فخرجت إلى المفازة تستقي .

ثالثها : أنها كانت في منزل زوج أختها زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه ، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها وثوبها فانفجرت لها الشمس فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك كما قال تعالى :

﴿ فأرسلنا ﴾ لأمر يدل على عظمتنا ﴿ إليها روحنا ﴾ أي : جبريل عليه السلام ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب لئلا يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها غماً ﴿ فتمثل لها ﴾ أي : تشبح بشين معجمة ثم باء موحدة ثم حاء مهملة وهو

روحاني بصورة الجسماني ﴿ بشراً سوياً ﴾ في خلقه حسن الشكل .

رابعها : أنها قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها ، وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا حاضت وتعود إليه إذا طهرت فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل بعد لبسها ثيابها متمثلاً بصورة شاب أمرد سوي الخلق تستأنس بكلامه إذ لو أتاها في الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه ، قال البيضاوي : ولعله لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها أي : مع أمنها الفتنة لعفتها ، قال الرازي : وكل هذه الوجوه محتملة وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها .

ولما رأت مريم جبريل نحوها

(148/485)

﴿ قالت إني أعوذ ﴾ أي : أعتصم ﴿ بالرحمن ﴾ ربي الذي رحمته عامة لجميع خلقه ﴿ منك ﴾ أي : أن تقربني وفتح ياء أني نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المدّ ، ولما تفرست فيه بما أنار اللّه تعالى من بصيرتها وأصفى من سريرتها التقوى قالت ﴿ إن كنت تقياً ﴾ أي : مؤمناً مطيعاً ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي : إني عائذة منك أو نحو ذلك دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها

وورعها فإن قيل : إنما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت : إن كنت تقياً ؟

أجيب : بأن هذا كقول القائل إن كنت مؤمناً فلا تظلمني أي : ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً لك من الظلم كذلك هنا ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنها لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله تعالى : ﴿ وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ (البقرة ،)

أي : إن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن اللّه تعالى يخشى في حال دون حال ، وقيل : كان في ذلك الزمان إنسان فاجر يتبع النساء اسمه تقي فظنت مريم أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت منه ، قال الرازي : والأول هو الوجه . ولما علم جبريل عليه السلام خوفها

(149/485)

﴿ قال ﴾ مجيباً لها بما معناه : إني لست ممن تخشين أن يكون متهماً مؤكداً لأجل استعاذتها ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ أي : الذي عذت به فأنا لست متهماً بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسالة وعبر باسم الرب المقتضى للإحسان لطفاً بها ، ولأن هذه السورة مصدرة بالرحمة ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده وقوله : ﴿ ليهب لك ﴾ قرأ ورش

وأبو عمرو وقالون بخلاف عنه بالياء أي : ليهب اللّه تعالى لك ، وقرأ الباقون بالهمز أي : لأهب أنا لك وفي مجازه وجهان ، الأول : أن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي ينفخ في جيبها بأمر اللّه تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها وإضافة الفعل إلى من هو سبب مستعمل ، قال اللّه تعالى في الأصنام : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ (إبراهيم ،) ، الثاني : أن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة . ثم بيّن الموهوب بقوله : ﴿ غلاماً ﴾ أي : ولداً ذكراً في غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله : ﴿ زكياً ﴾ أي : نبياً طاهراً من كل ما يدنس البشر نامياً على الخير والبركة ﴿ قالت ﴾ مريم ﴿ أنّى ﴾ أي : من أين وكيف ﴿ يكون لي غلام ﴾ ألده ﴿ ولم يمسسني بشر ﴾ بنكاح ﴿ ولم أك بغياً ﴾ أي : زانية فتعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لأنها قد عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل ، والعادة عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداءً وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحدّ ولأنها كانت منفردة للعبادة ومن يكون كذلك لا بدّ أن يعرف قدرة اللّه تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ما قيل ، قولها ولم يمسسني بشر يدخل تحته قولها : ولم أك بغياً ولهذا اقتصر عليه في سورة آل عمران بقولها : ﴿ قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ (آل عمران ،)

فلم تذكر البغي ، ويجوز أن يقال : إنها أفردت ذكر البغي مع دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه فهو نظير قوله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ (البقرة ،)

وقوله تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة ،)

﴿ قال ﴾ لها جبريل عليه السلام الأمر ﴿ كذلك ﴾ من خلق غلام منك بغير أب . ولما كان لسان الحال قائلاً كيف يكون بغير سبب أجاب جبريل بقوله : ﴿ قال ربك هو ﴾ أي : المذكور وهو إيجاد الولد على هذه الهيئة ﴿ عليّ ﴾ وحدي لا يقدر عليه غيري ﴿ هيّن ﴾ أي : بأن ينفخ بأمري جبريل فيك فتحملي به ولكون ما ذكر في معنى العلة عطف عليه ﴿ ولنجعله ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ آية للناس ﴾ أي : علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية في يحيى عليه السلام وبه تمام القسمة الرباعية في خلق البشر فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لا من ذكر ولا أنثى وبقية أولاده من ذكر وأنثى معاً ﴿ ورحمة منا ﴾ على العباد يهتدون به ﴿ وكان ﴾ ذلك كله ﴿ أمراً مقضياً ﴾ به في علمي وقوله تعالى:

﴿ فحملته ﴾ فيه حذف تقديره فنفخنا فيها فحملته دل على ذلك قوله تعالى في سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ (الأنبياء ،) ، واختلف في النافخ فقال بعضهم : كان النفخ من اللّه تعالى لهذه الآية ولأنه تعالى قال : ﴿ إن مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم ﴾ (آل عمران ،)

ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل ، وفي حق آدم النافخ هو اللّه تعالى قال تعالى : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ (الحجر ،)

(151/485)

فكذا ههنا ، وقال بعضهم : النافخ جبريل لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام : ﴿ لأهب لك ﴾ على أحد القراءتين أنه النافخ ، واختلف في كيفية نفخه فقيل : إن جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ في جيبها فحملت حين لبسته ، وقيل : مدّ إلى جيب درعها أصابعه ونفخ في الجيب ، وقيل : نفخ في كمّ قميصها ، وقيل : في فيها ، وقيل : نفخ جبريل نفخاً من بعيد فوصل النفخ إليها فحملت بعيسى في الحال ، وقيل : نفخ في ذيلها فدخلت النفخة في صدرها فحملت فجاءت أختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت أنها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا : إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك

فذلك قوله تعالى : ﴿ مصدقاً بكلمة من اللّه ﴾ (آل عمران ،)

وقيل : حملت وهي بنت ثلاث عشرة سنة ، وقيل : بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل ، قال الرازي : وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأقوال المذكورة . ثم عقب بالحمل قوله : ﴿ فانتبذت به ﴾ أي : فاعتزلت به وهو في بطنها حالة ﴿ مكاناً قصياً ﴾ أي : بعيداً من أهلها أو من المكان الشرقي ، وأشار إلى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب في قوله:

﴿ فأجاءها ﴾ أي : فأتى بها وألجأها ﴿ المخاض ﴾ وهو تحرك الولد في بطنها للولادة ﴿ إلى جذع النخلة ﴾ وهو ما برز منها من الأرض ولم يبلغ الأغصان وكأنّ تعريفها لأنه لم يكن في تلك البلاد الباردة غيرها فكانت كالعلم لما فيها من العجب لأن النخل من أقل الأشجار صبراً على البرد ولعلها ألجئت إليها دون غيرها من الأشجار على كثرتها لمناسبة حال النخلة لها لأنها لا تحمل إلا باللقاح من ذكر النخل فحملها بمجرّد هزها أنسب شيء بإتيانها بولد من غير والد فكيف إذا كان ذلك في غير وقته ، وكانت يابسة مع مالها فيها من المنافع بالاستناد إليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية في نفعها وغير ذلك والخرسة بخاء معجمة مضمومة طعام النفساء وهو مراد الجوهري بقوله : طعام الولادة .

قال ابن عباس : الحمل والولادة في ساعة واحدة ، وقيل : ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها ، وقيل : كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل : كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لأنه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدّة وعاش ، وقيل : ولد لستة أشهر . ولما كان ذلك أمراً صعباً عليها جداً كان كأنه قيل : يا ليت شعري ما كان حالها ؟ فقيل : ﴿ قالت ﴾ لما حصل عندها من خوف العار ﴿ يا ليتني مت ﴾ وأشارت إلى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جارّ ﴿ قبل هذا ﴾ أي : الأمر العظيم ، وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي مت بكسر الميم والباقون بالضم ﴿ وكنت نسياً ﴾ أي : شيئاً من شأنه أن يطرح وينسى ﴿ منسياً ﴾ أي : متروكاً بالفعل لا يخطر على بالٍ .

فإن قيل : لم قالت ذلك مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إليها ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين ؟ .

أجيب عن ذلك بأجوبة : الأول : أنها تمنت ذلك استحياء من الناس فأنساها الاستحياء بشارة الملائكة بعيسى . الثاني : أنّ عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك كما روي عن أبي بكر رضي اللّه عنه أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر تقع

على الشجر وتأكل من الثمر وددت أني ثمرة ينقرها الطائر ، وعن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تبنة من الأرض فقال : يا ليتني هذه التبنة ولم أكن شيئاً ، وعن علي رضي الله عنه يوم الجمل : ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وعن بلال : ليت بلالاً لم تلده أمه فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم . الثالث : لعلها قالت ذلك لئلا يقع في المعصية من يتكلم فيها وإلا فهي راضية بما بشرت به ، وقرأ حفص وحمزة نسياً بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى:

(153/485)

﴿ فناداها من تحتها ﴾ قرأه نافع وحفص وحمزة بكسر من وجر التاء من تحتها والباقون بفتح من ونصب تحتها وأمال ألف ناداها حمزة والكسائي إمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ، وفي المنادي أوجه .

أحدها : أنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير .

ثانيها : أنه جبريل عليه السلام وأنه كالقابلة للولد .

(154/485)

ثالثها : أن المنادي على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر هو جبريل وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم ، قال الرازي : والأول أقرب وصدر به البيضاوي واقتصر الجلال المحلي على الثاني ، والمعنى على الأول أن اللّه تعالى أنطقه لها حين ولدته تطييباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل من علو شأن ذلك الولد ، وعلى الثاني أن اللّه تعالى أرسله إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها في أوّل الأمر تذكيراً للبشارات المتقدمة والضمير في تحتها للسيدة مريم وعلى تقدير أن يكون المنادي هو عيسى فهو ظاهر ، وإن كان جبريل فقيل : إنه كان تحتها يقبل الولد كالقابلة ، وقيل : تحتها أسفل من مكانها ، وقيل : الضمير فيه للنخلة أي : ناداها من تحتها ﴿ أن لا تحزني ﴾ يجوز في أن أن تكون مفسرة لتقدمها ما هو بمعنى القول ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وأن تكون الناصبة و ﴿ لا ﴾ حينئذٍ نافية وحذف النون للنصب ومحل ﴿ أن ﴾ إما نصب أو جرّ لأنها على حذف حرف الجر أي : فناداها بكذا ﴿ قد جعل ربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ تحتك ﴾ في هذه الأرض التي لا ماء جار فيها ﴿ سرياً ﴾ أي : جدولاً من الماء تطيب به نفسك ، قال الرازي : اتفق المفسرون إلا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السري : هو النهر والجدول سمي بذلك لأن الماء يسري فيه ، وأما الحسن وابن زيد فإنهما جعلا السري هو عيسى والسري هو النبيل الجليل يقال :

فلان من سروات قومه أي : أشرافهم ، واحتج من قال : هو النهر بأن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السري فقال : "هو الجدول"

وبقوله تعالى : ﴿ فكلي واشربي ﴾ فدل على أنه النهر حتى يضاف الماء إلى الرطب فتأكل وتشرب ، واحتج من قال : إنه عيسى بأن النهر لا يكون تحتها بل إلى جنبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد أنه جعل النهر تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها كقول فرعون : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ (الزخرف ،)

(155/485)

لأن هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج إلى هذا المجاز وأيضاً فإنه موافق لقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأجيب : بأن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت .

تنبيه : إذا قيل بأن السري هو النهر ففيه وجهان ؛ الأول : قال ابن عباس : إن جبريل ضرب برجله الأرض ، وقيل : عيسى فظهر عين ماء عذب وجرى ، وقيل : كان هناك ماء جار ، قال ابن عادل : والأول أقرب لأن قوله قد جعل ربك تحتك سرياً يدل على الحدوث في ذلك الوقت ولأن الله تعالى ذكره تعظيماً لشأنها ، وقيل : كان هناك نهر يابس أجرى الله فيه الماء

وحييت النخلة اليابسة وأورقت وأثمرت وأرطبت ، قال أبو عبيدة والفراء : لسري هو النهر مطلقاً ، وقال الأخفش : هو النهر الصغير .

﴿ وهزي إليك ﴾ أي : أوقعي الهز وهو جذب بتحريك ﴿ بجذع النخلة ﴾ أي : التي أنت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها ﴿ تساقط عليك ﴾ من أعلاها ﴿ رطباً جنياً ﴾ طرياً آية أخرى عظيمة روي أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر ، وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل اللّه تعالى لها رأساً وخوصاً ورطباً ، وقرأ حمزة بفتح التاء والسين مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء وتشديد السين مفتوحة وفتح القاف .

تنبيه : الباء في بجذع زائدة والمعنى هزّي إليك جذع النخلة كما في قوله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ (البقرة ،)

(156/485)

قال الفراء : تقول العرب : هزه وهزيه وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة ، وقال الأخفش : يجوز أن يكون على معنى هزي إليك رطباً بجذع النخلة أي : على جذعها ورطباً تمييز وجنياً صفته والرطب اسم جنس بخلاف تخم فإنه جمع لتخمة

والفرق : أنهم التزموا تذكيره فقالوا : هو الرطب وتأنيث ذلك فقالوا : هي التخم فذكروا الرطب باعتبار الجنس وأنثوا التخم باعتبار الجمعية ، قال ابن عادل : وهو فرق لطيف والرطب ما قطع قبل يبسه وجفافه وخص الرطب بالذكر قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وهذه الأفعال الخارقة للعادة كرامات لمريم أو إرهاص لعيسى ، وفي ذلك تنبيه على أنّ من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل وتطييب لنفسها فلذلك قال:

﴿ فكلي ﴾ أي : من الرطب ﴿ واشربي ﴾ من السري أو كلي من الرطب واشربي من عصيره ، ﴿ وقرّي عيناً ﴾ أي : وطيبي نفسك وارفضي عنها ما أحزنها ، وقدّم الأكل على الشرب لأن حاجة النفساء إلى الرطب أشدّ من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدم .

فإن قيل : إن مضرة الخوف أشدّ من مضرة الجوع والعطش لأن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن ، روي أنه أجيعت شاة فقدّم إليها علف وعندها ذئب فبقيت الشاة مدّة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها خوفاً من الذئب ، ثم كسر رجلها وقدم إليها العلف فتناولت العلف مع ألم البدن فدل ذلك على أن ألم الخوف أشدّ من ألم البدن ، وإذا كان كذلك فلم قدّم ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف ؟

أجيب : بأنّ هذا الخوف كان قليلاً لأنّ بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدّمت فما كانت تحتاج إلا إلى التذكير مرة أخرى ، وقيل : قرّي عيناً بولدك عيسى وقيل : بالنوم فإنّ المهموم لا ينام ، وقوله : ﴿ فإمّا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية في ما الزائدة ﴿ ترينّ ﴾ حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين ، ﴿ من البشر أحداً ﴾ ينكر عليك ﴿ فقولي ﴾ يا مريم لذلك المنكر جواباً له مع التأكيد تنبيهاً على البراءة لأن البريء يكون ساكناً لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه ، ﴿ إني نذرت للرحمن ﴾ أي : الذي عمت رحمته ﴿ صوماً ﴾ أي : إمساكاً عن الكلام في شأنه وغيره مع الإناسي بدليل ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ فإنّ كلامي يقبل الردّ والمجادلة ، ولكن يتكلم عني المولود الذي كلامه لا يقبل الدفع وأمّا أنا فأنزه نفسي عن مجادلة السفهاء ، قالوا : ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهاً فلا أكلم إلا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر .

وقيل : صياماً لأنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالاً على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزاً في شرعهم ، وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا ؟ قال القفال : لعله يجوز لأنّ الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر بذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس ،

وروي أنه دخل أبو بكر رضي اللّه عنه على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر : إنّ الإسلام قد هدم هذا فتكلمي .

(158/485)

تنبيه : اختلفوا في أنها هل قالت لهم إني نذرت للرحمن صوماً ؟ فقال قوم : إنها ما تكلمت معهم بذلك لأنها كانت مأمورة بأنها تأتي بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها سكتت وأشارت برأسها وقال آخرون : إنها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم أنها نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا بعد هذا الكلام

﴿ فأتت ﴾ أي : فلما سمعت هذا الكلام اشتدّ قلبها وزال حزنها فأتت ﴿ به ﴾ أي : عيسى ﴿ قومها ﴾ وإن كان فيهم قوّة المحاولة لكل ما يريدون إتيانه البرئ الموقن بأنّ الله معه حالة كونها ﴿ تحمله ﴾ غير مبالية بأحد ولا مستحيية واختلفوا في أنها كيف أتت به ؟ فقيل : ولدته ثم حلمته في الحال إلى قومها ، وقيل : احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار ومكثت فيه أربعين يوماً حتى طهرت من نفاسها ثم حملته إلى قومها فكلمها في الطريق فقال يا أمّاه أبشري فإني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبيّ بكوا

وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على التعيين ثم كأنه قيل فلما أتت به قومها ماذا قالوا لها فقيل ﴿ قالوا يا مريم ﴾ ما هذا الولد ؟ لأنّ حالها في إتيانها به أمر عجيب ﴿ لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ أي : عظيماً منكراً فيكون ذلك منهم على وجه الذمّ فهو من أفرى الجلد يقال أفريت الأديم إذا قطعته على جهة الإفساد لا من فريته يقال فريته قطعته على جهة الإصلاح ويدل على أنّ مرادهم الأوّل قولهم بعده

﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ﴾ أي : زانياً ﴿ وما كانت أمّك بغياً ﴾ أي : زانية فمن أين لك هذا الولد لأنّ هذا القول ظاهره التوبيخ وفي هارون هذا أربعة أقوال ؛

(159/485)

أحدها : أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح والمراد أنك كنت في الزهد كهارون فكيف صرت هكذا ؟ وروي أنّ هارون هذا لما مات تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل تبركاً باسمه ، سوى سائر الناس شبهوها به على معنى إنا ظننا أنك مثله في الصلاح وليس المراد منه الأخوّة في النسب كقوله تعالى :

﴿ إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ (الإسراء ،)

وروى المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألوني فقالوا : إنكم تقرؤون يا أخت

هارون ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : "إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم" قال ابن كثير وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً فإنّ بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على من عنده أدنى علم وكأنه غرّه في أوّل التوراة أنّ مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه وجنوده فاعتقد أنّ هذه هي تلك وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح المتقدّم .

الثاني : أنه هارون أخو موسى لأنها كانت من نسله كما يقال التميمي يا أخا تميم وللهمداني يا أخا همدان أي : يا واحداً منهم .

الثالث : أنه كان فاسقاً في بني إسرائيل فنسبت إليه أي : شبهوها به .

الرابع : أنه كان لها أخ من أبيها يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به قال الرازي وهذا هو الأقرب لوجهين ؛ الأول : أنّ الأصل في الكلام الحقيقة فيحمل الكلام على أخيها المسمى بهارون الثاني : أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح فحينئذٍ يصير التوبيخ أشدّ لأن من كان حال أبويه وأخيه بهذا الحال يكون صدور الذنب منه أفحش

﴿ فأشارت إليه ﴾ أي : لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت إلى عيسى عليه السلام أنه هو الذي يجيبكم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدي لما أشارت إليه غضبوا وقالوا سخريتها بنا أشدّ من زناها ثم ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ﴾ لم يبلغ سنّ هذا الكلام الذي لا يقوله إلا الأكابر العقلاء بل الأنبياء والتعبير بكان يدل على أنه عند الإشارة إليه لم يحوجهم إلا أن يكلموه بل حين سمع المحاورة ورأى الإشارة بدا منه قول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابة يمينه وقيل : كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان

تنبيه : في كان هذه أقوال أحدها : إنها زائدة وهو قول أبي عبيد أي : كيف نكلم من في المهد وصبياً على هذا نصب على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صلة .

ثانيها : أنها تامّة بمعنى حدث ووجدوا والتقدير كيف نكلم من وجد صبياً ؟ وصبياً حال من الضمير في كان قال الرازي وهذا هو الأقرب .

الثالث : أنها بمعنى صار أي : كيف نكلم من صار في المهد صبياً وصبياً على هذا خبرها ، فإن قيل : كيف عرفت مريم من حال عيسى أنه يتكلم ؟

أجيب : بأنّ جبريل أو عيسى عليه السلام لما ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت صار ذلك كالتنبيه لها على أنّ المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي إلى زكريا أو إليها على سبيل الكرامة واختلفوا في المهد فقيل : هو حجرها لما روي أنها أخذته عليه السلام في خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فأشارت إليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعد لها المهد وقيل : هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبياً سبيله أن ينام في المهد وقال وهب : أتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى : انطق بحجتك إن كنت أمرت بها فوصف نفسه بثمان صفات الصفة الأولى:

﴿ قال إني عبد الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له صفات الكمال لا أتعبد لغيره وفي ذلك إشارة إلى أنّ عبد الله لا يتخذ إلهاً من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

الصفة الثانية : قوله تعالى ﴿ آتاني الكتاب ﴾ واختلف في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لأنّ الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم هو الإنجيل لأنّ الألف واللام ههنا للجنس وقال قوم التوراة والإنجيل لأنّ الألف واللام

تفيد الاستغراق واقتصر البيضاوي على الأوّل والبقاعي على الثالث وزاد عليه والزبور وغيرها من الصحف .

الصفة الثالثة : قوله ﴿ وجعلني نبيا ﴾ واختلف في معنى ذلك فقيل معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً وأتى بلفظ الماضي بجعل المحقق وقوعه كالواقع كما في قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ (النحل ،)

وقيل : هو إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبياً قال كنت وآدم بين الروح والجسد وقال الأكثرون أوتي الإنجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وقال الحسن أُلهم التوراة وهو في بطن أمه . الصفة الرابعة قوله:

(162/485)

﴿ وجعلني مباركاً ﴾ بأنواع البركات ﴿ أينما ﴾ أي في أي مكان ﴿ كنت ﴾ وذكروا في تفسير المبارك وجوها .

أحدها : أنّ البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتاً على دين الله تعالى مستمرّاً عليه .

ثانيها : إنما كان مباركاً لأنه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق فإن ضلوا فمن

قبل أنفسهم لا من قبله ، روى الحسن عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : سلمت أم عيسى عيسى إلى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه إليك على أن لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال : أيّ شيء أكتب ؟ فقال : اكتب أبجد ، فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد ؟ فعلاه بالدرّة ليضربه فقال : يا مؤدّب لا تضربني إن كنت لا تدري فاسألني فإنني أعلمك ؛ الألف من آلاء الله والباء من بهائه والجيم من جماله والدال من أداء الحق إلى الله تعالى" .

ثالثها : البركة الزيادة والعلوّ فكأنه قال : جعلني في جميع الأحوال منجحاً مفلحاً لأني ما دمت أتقي الله في الدنيا أكون مستعلياً على الغير بالحجة فإذا جاء الوقت المعلوم أكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء .

رابعها : مباركاً على الناس من حيث يحصل بسبب دعائه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وعن قتادة أنّ امرأة رأته وهو يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به فقال عيسى مجيباً لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً

تنبيه : قوله : أينما كنت يدل على أنّ حاله لم يتغير كما قيل أنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف .

الصفة الخامسة قوله : ﴿ وأوصاني بالصلاة ﴾ له طهرة للنفس ﴿ والزكاة ﴾ طهرة للمال

فعلاً في نفسي وأمراً لغيري ﴿ ما دمت حيا ﴾ ليكون ذلك حجة على من ادّعى أنه إله لأنه لا شبهة في أنّ من يصلي إلى إله ليس بإلاه .

(163/485)

فإن قيل : كيف يؤمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلاً والقلم مرفوع عن الصغير لقوله صلى الله عليه وسلم "رفع القلم عن ثلاث" الحديث . أجيب بوجهين ؛ الأوّل : أنّ ذلك لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فيكون المعنى أوصاني بأدائهما في وقت وجوبهما عليّ وهو وقت البلوغ ، الثاني : أنّ عيسى لما انفصل صيره الله بالغاً عاقلاً تامّ الخلقة ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ (آل عمران ،) فكما أنه تعالى خلقه آدم تاماً كاملاً دفعة فكذا القول في عيس عليه السلام ، قال الرازي : وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ لقوله ما دمت حياً فهذ يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه جميع زمان حياته .

فإن قيل : لو كان الأمر كذلك لكان القوم حين رأوه رأوا شخصاً كامل الأعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجباً فكان ينبغي أن لا يتعجبوا .

أجيب : بأنه تعالى جعله مع صغر جثته قويّ التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء

الصلاة والزكاة والآية والة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل .

الصفة السادسة قوله:

﴿ وبرّا ﴾ أي : وجعلني بارا ولما كان السياق لبراءة والدته قال : ﴿ بوالدتي ﴾ أي : التي أكرمها الله تعالى بإحصان الفرج والحمل بي من غير ذكر وفي ذلك إشارة إلى تنزيه أمّه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها .

الصفة السابعة : قوله : ﴿ ولم يجعلني جباراً ﴾ متعاظماً ﴿ شقياً ﴾ أي : عاصياً بأن أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق إنما أفعل ذلك بمن يستحق وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال قلبي لين وإني ضعيف في نفسي وعن بعض العلماء لا أجد العاق إلا جباراً شقياً ولا أجد سي الملكية إلا مختالاً فخوراً وتلا وما ملكت أيمانكم أنّ الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً الصفة الثامنة : قوله:

(164/485)

﴿ والسلام ﴾ من الله ﴿ عليّ ﴾ فلا يقدر أحد على ضرّي ﴿ يوم ولدت ﴾ فلا يضرني شيطان ﴿ ويوم أموت ﴾ فلا يضرني أيضاً ومن يولد ويموت فليس بإلاه ﴿ ويوم أبعث

حياً ﴾ يوم القيامة كما تقدم في يحيى عليه السلام وفي ذلك إشارة إلى أنه في البشرية مثله سواء لم يفارقه أصلاً إلا في كونه من غير ذكر وإذا كان جنس السلام عليه كان اتباعه كذلك ولم يبق لأعدائه إلا اللعن ، ونظيره قول موسى عليه السلام ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ (طه)

بمعنى أنّ العذاب على من كذب وتولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 95. 115 ﴾

(165/485)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/486)

الجزء السادس والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 34 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

(4/486)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان في ذلك من أقوال عيسى وأحواله – المنادية بالحاجة للتنقل في أطوار غيره من البشر والكرامة من الله – أعظم البيان عن بعده عما ادعى فيه النصارى من الإلهية واليهود من أنه لغير رشده ، نبه على ذلك مشيراً إليه بأداة البعد فقال مبتدئاً : ﴿ ذلك ﴾ أي الولد العظيم الشأن ، العلي الرتبة ، الذي هذه أحواله وأقواله البعيدة عن صفة الإله وصفة من ارتاب في أمره ؛ ثم بين اسم الإشارة أو أخبر فقال : ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ أي وحدها ليس لغيرها فيه بنوة أصلاً ، وهي من أولاد آدم ، فهو كذلك ؛ ثم عظم هذا البيان تعظيماً آخر فقال : ﴿ قول ﴾ أي هو – أي نسبته إلى مريم فقط – قول ﴿ الحق ﴾ أي الذي يطابقه الواقع ، أو يكون القول عيسى نفسه كما أطلق عليه في غير هذا الموضع "كلمة " من تسمية المسبب باسم السبب وهو على هذه القراءة خبر بعد خبر أو بدل أو خبر مبتدأ محذوف ، وعلى قراءة عاصم وابن عامر بالنصب ، هو اغراء ، أي الزموا ذلك وهو نسبته إلى مريم عليهما السلام وحدها ثم عجب من ضلالهم فيه بقوله : ﴿ الذي فيه يمترون ﴾ أي يشكون شكاً يتكلفونه ويجادلونه به مع أن أمره في غاية الوضوح ، ليس موضعاً للشك أصلاً ؛ ثم دل على كونه حقاً في كونه ابن مريم لا غيرها بقوله رداً على من

ضل : ﴿ ما كان ﴾ أي ما صح ولا تأتي ولا تصور في العقول ولا يصح ولا يتأتى لأنه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة ﴿ لله ﴾ الغني عن كل شيء ﴿ إن يتخذ ﴾ ولما كان المقام يقتضي النفي العام ، أكده ب " من " فقال : ﴿ من ولد ﴾ .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص ، أشار إلى ذلك بالتنزيه العام بقوله : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه عن كل نقص من احتياج إلى ولد أو غيره ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ أي أمر كان ﴿ فإنما يقول له كن ﴾ أي يريده ويعلق قدرته به ﴿ فيكون ﴾ من غير حاجة إلى شيء أصلاً ، فكيف ينسب إلى الاحتياج إلى الإحبال والإيلاد والتربية شيئاً فشيئاً كما أشار إليه الاتخاذ .

(5/486)

ولما كان لسان الحال ناطقاً عن عيسى عليه الصلاة والسلام بأن يقول : وقد قضاني الله فكنت كما أراد ، فأنا عبد الله ورسوله فاعتقدوا ذلك ولا تعتقدوا سواه من الأباطيل ، عطف عليه في قراءة الحرميين وأبي عمرو قوله : ﴿ وإن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ ربي وربكم ﴾ أي أحسن إلى كل منا بالخلق والرزق ، لا فرق بيننا في أصل ذلك ﴿ فاعبدوه ﴾ وحده لتفرده بالإحسان كما أعبده ، وقراءة الباقين بالكسر على أنه مقول

عيسى عليه السلام الماضي ، ويكون اعتراض ما تقدم من كلام الله بينهما للتأكيد والاهتمام .

ولما كان اشتراك الخلائق في عبادة الخالق بعمل القلب والجوارح علماً وعملاً أعدل الأشياء ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ هذا ﴾ أي الذي أمرتكم به ﴿ صراط مستقيم ﴾ لأنا بذلنا الحق لأهله بالاعتقاد الحق والعمل الصالح ، ولم يتفضل أحد منا فيه على صاحبه .

ولما كان المنهج القويم بحيث يكون سبباً للاجتماع عند كل صحيح المزاج ، عجب منهم في استثمار غير ذلك منه فقال : ﴿ فاختلف ﴾ أي فتسبب عن هذا السبب للاجتماع أنه اختلف ﴿ الأحزاب ﴾ الكثيرون .

(6/486)

ولما كان الاختلاف لم يعم جميع المسائل التي في شرعهم قال : ﴿ من بينهم ﴾ أي بني إسرائيل المخاطبين بذلك خاصة لم تكن فيهم فرقة من غيرهم في هذه المقالة القويمة التي لا تنبغي لمن له أدنى مسكة أن يتوقف في قبولها ، فمنهم من أعلم أنها الحق فاتبعها ولم يحد عن صوابها ، ومنهم من أبعد في الضلال عنها بشبه لا شيء أوهي منها ؛ روي عن قتادة أنه اجتمع من أحبار بني إسرائيل أربعة : يعقوب ونسطور وملكا وإسرائيل ، فقال يعقوب : عيسى هو

الله نزل إلى الأرض فكذبه الثلاثة واتبعه اليعقوبية ، وقال نسطور : عيسى ابن الله فكذبه الاثنان واتبعه النسطورية ، وقال ملكاً : عيسى أحد ثلاثة : الله إله ، ومريم إله ، وعيسى إله ، فكذبه الرابع واتبعه طائفة ، وقال إسرائيل : عيسى عبد الله كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاتبعه فريق من بني إسرائيل ، ثم اقتتل الأربعة فغلب المؤمنون وقتلوا وظهرت اليعقوبية على الجميع - ذكر معناه أبو حيان وابن كثير ورواه عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿ فويل ﴾ أي فتسبب عن اختلافهم أنا نقول : ويل ﴿ للذين كفروا ﴾ منهم ومن غيرهم ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ في جمعه لجميع الخلائق ، وما فيه من الأهوال والقوارع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 532.534 ﴾

(7/486)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم وابن عامر : ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ بالنصب وعن ابن مسعود : ﴿ قَالَ الحق ﴾ و ﴿ قَالَ الله ﴾ وعن الحسن : ﴿ قَوْلُ الحق ﴾ بضم القاف وكذلك في الأنعام قوله : ﴿ الحق ﴾ والقول والقال القول في معنى واحد كالرهب والرهب والرهب ، أما ارتفاعه فعلى أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله أو على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عند الله الحق لا الباطل ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

لا شبهة أن المراد بقوله : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ الإشارة إلى ما تقدم وهو قوله : ﴿ إِنِّى عَبْدُ الله ءاتَانِىَ الكتاب ﴾ [مريم : 30] أي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم وفي قوله : ﴿ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله .

فأما قوله ﴿ الحق ﴾ ففيه وجوه : أحدها : وهو أن نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق وذلك لأن الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن نقول عيسى كلمة الله وبين أن نقول عيسى قول الحق .

وثانيها : أن يكون المراد : "ذلك عيسى ابن مريم القول الحق" إلا أنك أضفت الموصوف إلى الصفة فهو كقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 95] وفائدة قولك : القول الحق تأكيد ما ذكرت أولاً من كون عيسى عليه السلام ابناً لمريم .

وثالثها : أن يكون ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووصفنا له هو قول الحق فكأنه تعالى وصفه أولاً ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى ابن مريم ثم ذكر أن هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى أنه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية ويكون في معنى إن هذا لهو الحق اليقين .

(8/486)

فأما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فالمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران ، روي أن عيسى عليه السلام لما رفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للأول ما تقول في عيسى ؟ فقال : هو إله والله إله وأمه إله ، فتابعه على ذلك ناس وهم الإسرائيلية ، وقيل للرابع ما تقول ؟ فقال : هو عبد الله ورسوله وهو المؤمن المسلم ، وقال أما تعلمون أن عيسى كان يطعم وينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك ؟ فخصمهم .

أما قوله : ﴿ مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ فهو يحتمل أمرين : أحدهما : أن ثبوت الولد له محال فقولنا : ﴿ مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ كقوله ما كان لله أن يقول لأحد إنه ولدي لأن هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكماله فقوله : ﴿ مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن

وَلَدٍ ﴾ كقولنا : ما كان لله أن يظلم أي لا يليق ذلك بحكمته وكمال إلهيته ، واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير أنه ليس لله أن يفعل كل شيء لأنه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الإيجاد أي ليس له هذا الاختيار وأجاب أصحابنا عنه بأنه الكذب محال على الله تعالى فلا جرم قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ أما قوله : ﴿ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما قال ﴿ سبحانه ﴾ ثم قال عقيبه : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ كان كالحجة على تنزيهه عن الولد وبيان ذلك أن الذي يجعل ولداً لله ، إما أن يكون قديماً أزلياً أو يكون محدثاً فإن كان أزلياً فهو محال لأنه لو كان واجباً لذاته لكان واجب الوجود أكثر من واحد .

هذا خلف .

(9/486)

وإن كان ممكناً لذاته كان مفتقراً في وجوده إلى الواجب لذاته غنياً لذاته فيكون الممكن محتاجاً لذاته فيكون عبداً له لأنه لا معنى للعبودية إلا ذلك ، وأما إن كان الذي يجعل ولداً

يكون محدثاً فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وإيجاده وهو المراد من قوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فيكون عبداً له لا ولداً له فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولد .

المسألة الثانية :

احتج الأصحاب بقوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ على قدم كلام الله تعالى قالوا : لأن الآية تدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له : كن فيكون فلو كان قوله كن محدثاً لافتقر حدوثه إلى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال ، فثبت أن قول الله قديم لا محدث ، واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه : أحدها : أنه تعالى أدخل عليه كلمة إذا وهذه الكلمة دالة على الاستقبال فوجب أن لا يحصل القول إلا في الاستقبال .

وثانيها : أن حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ ﴾ يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء والمتأخر عن غيره محدث .

وثالثها : الفاء في قوله : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ يدل على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك القول من غير فصل فيكون قول الله متقدماً على حدوث الحادث تقدماً بلا فصل والمتقدم على المحدث تقدماً بلا فصل يكون محدثاً ، فقول الله محدث .

واعلم أن استدلال الفريقين ضعيف ، أما استدلال الأصحاب فلأنه يقتضي أن يكون قوله :

﴿كُنَّ﴾ قديماً وذلك باطل بالاتفاق ، وأما استدلال المعتزلة فلأنه يقتضي أن يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والأصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه إنما المدعي قدم شيء آخر .

المسألة الثالثة :

من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم أنه تعالى إذا أحدث شيئاً قال له كن وهذا ضعيف لأنه ، إما أن يقول له كن قبل حدوثه أو حال حدوثه .

(10/486)

فإن كان الأول كان ذلك خطاباً مع المعدوم وهو عبث وإن كان الثاني فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والإرادة فأي تأثير لقوله كن فيه ، ومن الناس من زعم أن المراد من قوله : ﴿كُنَّ﴾ هو الخليق والتكوين وذلك لأن القدرة على الشيء غير وتكوين الشيء غير فإن الله سبحانه قادر في الأزل وغير مكون في الأزل ، ولأنه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون لها ، والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون لأنا نقول المكون إنما حدث لأن الله تعالى كونه فأوجده ، فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا المكون إنما وجد بتكوين الله تعالى نازلاً منزلة قولنا المكون إنما وجد بنفسه وذلك محال ،

فثبت أن التكوين غير المكون فقوله : ﴿كُنَّ﴾ إشارة إلى الصفة المسماة بالتكوين ، وقال آخرون قوله : ﴿كُنَّ﴾ عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته في الممكنات .

فإن وقوعها بتلك القدرة والإرادة من غير امتناع واندفاع يجري مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لأوامر مولاه ، فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وَإِنَّ الله رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن ، ومعناه ولأنه ربي وربكم فاعبدوه ، وقرأ الكوفيون وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء ، وفي حرف أبي ﴿ إِنَّ الله ﴾ بالكسر من غير واو أي بسبب ذلك فاعبدوه .

المسألة الثانية :

أنه لا يصح أن يقول الله : ﴿ وَإِنَّ الله رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى ، وفيه قولان : الأول : التقدير فقل يا محمد إن الله ربي وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة في أن عيسى هو عبد الله .

الثاني : قال أبو مسلم الأصفهاني : الواو في وإن الله عطف على قول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ءاتَانِىَ الكتاب ﴾ [مريم : 30] كأنه قال : إني عبد الله وإنه ربي وربكم فاعبدوه ، وقال وهب بن منبه عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه ومولده ونعته أن الله ربي وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ يدل على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى على خلاف قول المنجمين إن مدبر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب ويدل أيضاً على أن الإله واحد لأن لفظ الله اسم علم له سبحانه فلما قال : ﴿ إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى وذلك يدل على التوحيد ، أما قوله : ﴿ فاعبدوه ﴾ فقد ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية فههنا الأمر بالعبادة وقع مرتباً على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه إنما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه رباً لنا ، وذلك يدل على أنه تعالى إنما تجب عبادته لكونه منعماً على الخلائق بأصول النعم وفروعها ، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام لما منع أباه من عبادة الأوثان قال : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ يعني أنها لما لم تكن منعمة على العباد لم تجز عبادتها ، وبهذه الآية ثبت أن الله تعالى لما كان رباً ومربياً

لعباده وجب عبادته ، فقد ثبت طرداً وعكساً تعلق العبادة بكون المعبود منعماً ، أما قوله : ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يعني القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة صراط مستقيم وأنه سمي هذا القول بالصراط المستقيم تشبيهاً بالطريق لأنه المؤدي إلى الجنة ، أما قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ ففي الأحزاب أقوال : الأول : المراد فرق النصارى على ما بينا أقسامهم .

الثاني : المراد النصارى واليهود فجعله بعضهم ولداً وبعضهم كذاباً .

(12/486)

الثالث : المراد الكفار الداخل فيهم اليهود والنصارى والكفار الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم وإذا قلنا المراد بقوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ أي قل يا محمد إن الله ربي وربكم ، فهذا القول أظهر لأنه لا تخصيص فيه ، وكذا قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مؤكد لهذا الاحتمال ، وأما قوله : ﴿ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فالمشهد إما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به أو الشهادة وما يتعلق بها .

أما الأول : فيحتمل أن يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب ، والجزاء في القيامة أو مكان الشهود فيه وهو الموقف ، أو وقت الشهود ، وأما الشهادة فيحتمل أن

يكون المراد شهادة الملائكة والأنبياء وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال ، وأن يكون مكان الشهادة أو وقتها ، وقيل : هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه ، وإنما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لأنه لا شيء أعظم مما يشاهد في ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة ، ولا شيء من المنافع أعظم مما هنالك من الثواب ولا بد من المضار أعظم مما هنالك من العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 185 . 188 ﴾

(13/486)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ ذِلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الحق هو الله تعالى .

الثاني : عيسى وسماه حقاً لأنه جاء بالحق .

الثالث : هو القول الذي قاله عيسى من قبل .

﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يشكّون ، قاله الكلبي .

الثاني : يختلفون لأنهم اختلفوا في الله وفي عيسى ، فقال قوم هو الله ، وقال آخرون هو ابن الله ، وقال آخرون هو ثالث ثلاثة . وهذه الأقاويل الثلاثة للنصارى .

وقال المسلمون : هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم .

ونسبته اليهود إلى غير رشدة فهذا معنى قوله : ﴿ الَّذِي فِيهِ تَفْتَرُونَ ﴾ بالفاء معجمة من فوق .

قال ابن عباس ففرّ بمريم ابن عمها معها ابنها إلى مصر فكانوا فيها اثنتي عشرة سنة حتى مات الملك الذي كانوا يخافونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(14/486)

وقال ابن عطية :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

(15/486)

المعنى قل يا محمد لمعاصريك من اليهود والنصارى ﴿ ذلك ﴾ الذي منه قصة ﴿ عيسى بن مريم ﴾ وإنما قدرنا في الكلام قل يا محمد لأنه يجيء في الآية بعد ، " وأن الله ربي وربكم " هذه مقالة بشر وليس يقتضي ظاهر الآية قائلاً من البشر سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد يتحمل أن يكون قوله ﴿ ذلك عيسى ﴾ الى قوله ﴿ فيكون ﴾ إخباراً لمحمد إعتراضاً أثناء كلام عيسى ، ويكون قوله " وأن " بفتح الألف عطفاً على قوله ﴿ الكتاب ﴾ [مريم : 30] . وقد قال وهب بن منبه : عهد عيسى إليهم " أن ربي وربكم " ، ومن كسر الألف عطف على قوله ﴿ إني عبد الله ﴾ [مريم : 30] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي وعامة الناس " قولُ الحق " برفع القول على معنى هذا قول الحق . وقرأ عاصم وابن عامر وابن أبي إسحاق " قولَ الحق " بنصب القول على المصدر . قال أبو عبد الرحمن المقري : كان يجالسني ضرير ثقة فقال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم يقرأ " قولَ الحق " نصباً ، قال أبو عبد الرحمن : وكنت أقرأ بالرفع فجنبت فصرت أقرأ بهما جميعاً . وقرأ عبد الله بن مسعود " قال الله " بمعنى كلمة الله ، وقرأ عيسى " قال الحق " وقرأ نافع والجمهور " يمترون " بالياء على الكناية عنهم ، وقرأ نافع أيضاً وأبو عبد الرحمن وداود بن أبي هند " تمترون " بالتاء على الخطاب لهم ، والمعنى تختلفون أيها اليهود والنصارى فيقول بعضهم هو لزنية ونحو هذا وهم اليهود ، ويقول بعضهم هو الله تعالى فهذا هو امتراؤهم ، وسيأتي شرح ذلك من بعد هذا . وقوله ﴿ ما كان لله أن

يتخذ ﴾ معناه النفي وهذا هو معنى هذه الألفاظ حيث وقعت ثم يضاف الى ذلك بحسب حال المذكور فيها إما نهي وزجر كقوله تعالى : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا ﴾ [التوبة : 120] وإما تعجيز كقوله تعالى ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ [النمل : 60] ، وإما تنزيه كهذه الآية . و﴿ من ولد ﴾ ، دخلت ﴿ من ﴾ مؤكدة

(16/486)

للجحد لنفي الواحد فما فوقه مما يحتله نظير هذه العبارة إذا لم تدخل ﴿ من ﴾ ، وقوله ، ﴿ قضى أمراً ﴾ ، أي واحداً من الأمور وليس بمصدر أمر يأمر ، فمعنى ﴿ قضى ﴾ أوجد أو أخرج من العدم ، وهذه التصاريف في هذه الأفعال من مضي واستقبال هي بحسب تجوز العرب واتساعها ، وقد تقدم القول في ﴿ كن فيكون ﴾ . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع " وأن الله " بفتح الألف وذلك عطف على قوله هذا ﴿ قول الحق ﴾ ، " وإن الله ربي " ، كذلك وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي " وإن " بكسر الألف وذلك بين على الاستئناف وقرأ أبي بن كعب " إن الله " بكسر الألف دون واو . وقوله ﴿ فاعبدوه ﴾ وقف ثم ابتداء ﴿ هذا صراط ﴾ أي ما أعلمتكم به عن الله تعالى من

وحدانيته ونفي الولد عنه وغير ذلك مما يتنزه عنه طريق واضح مفض إلى النجاة ورحمته .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾

(17/486)

هذا ابتداء خبر من الله تعالى لمحمد عليه السلام بأن بني اسرائيل اختلفوا أحزاباً أي فرقاً ، وقوله ﴿ من بينهم ﴾ معناه أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا المختلفين . وروي في هذا عن قتادة أن بني اسرائيل جمعوا من أنفسهم اربعة أحبار غاية في المكانة والجلالة عندهم وطلبوهم بأن يبينوا أمر عيسى فقال احدهم : عيسى هو الله نزل إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات ثم صعد ، فقال له الثلاثة كذبت واتبعه اليعقوبية ، ثم قيل للثلاثة فقال أحدهم : عيسى ابن الله فقال له الاثنان كذبت واتبعه النسطورية ، ثم قيل للاثنين فقال أحدهم عيسى أحد ثلاثة الله إله ، ومريم إله ، وعيسى إله ، فقال له الرابع كذبت واتبعه الإسرائيلية ، فقيل للرابع فقال عيسى عبد الله وكلمته ألقاها الى مريم فاتبع كل واحد من الأربعة فريقاً من بني اسرائيل ثم اقتتلوا فغلب المؤمنون وقتلوا وظهرت اليعقوبية على الجميع . وروي أن في ذلك نزلت ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : 21] . و"

الويل " الحزن والثبور ، وقيل ويل واد في جهنم ، و ﴿ مشهد يوم عظيم ﴾ هو مشهد يوم القيامة ويحتمل أن يراد ب ﴿ مشهد يوم عظيم ﴾ يوم قتل المؤمنون حين اختلف الأحزاب ، وقد أشار إلى هذا المعنى قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(18/486)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾

قال الزجاج : أي ، ذلك الذي قال : إِني عبد الله ، هو ابن مريم ، لا ما تقول النصارى : إِنه ابن الله ، وإِنه إِله .

قوله تعالى : ﴿ قولَ الحق ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : "قولُ الحق" برفع اللام .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، ويعقوب : بنصب اللام .

قال الزجاج : من رفع "قولُ الحق" فالمعنى : هو قولُ الحق ، يعني هذا الكلام ؛ ومن نصب ، فالمعنى : أقول قول الحقّ .

وذكر ابن الأنباري في الآية وجهين .

أحدهما : أنه لما وُصف بالكلمة جاز أن يُنعت بالقول .

والثاني : أن في الكلام إِضماراً ، تقديره : ذلك نبأُ عيسى ، ذلك النبأ قول الحق .

قوله تعالى : ﴿ الذي فيه يمترون ﴾ أي : يشكُّون .

قال قتادة : امترت اليهود فيه والنصارى ، فزعم اليهود أنه ساحر ، وزعم النصارى أنه ابن الله وثالث ثلاثة .

قرأ أبو مجلز ، ومعاذ القارىء ، وابن يعمر ، وأبو رجاء : "تمترون" بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ ما كان لِلهِ أن يتَّخِذ مِن ولد ﴾ قال الزجاج : المعنى : أن يتخذ ولداً .

و"مِنْ" مؤكِّدة تدل على نفي الواحد والجماعة ، لأن للقائل أن يقول : ما اتخذت فرساً ، يريد : اتخذت أكثر من ذلك ، وله أن يقول : ما اتخذت فرسين ولا أكثر ، يريد : اتخذت فرساً واحداً ؛ فإذا قال : ما اتخذت من فرس ، فقد دلَّ على نفي الواحد والجميع .

قوله تعالى : ﴿ كن فيكون ﴾ وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عبلة : "فيكونَ" بالنصب ، وقد ذكرنا وجهه في [البقرة 117] .

قوله تعالى : ﴿ وإِنّ الله ربِّي وربُّكم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "وأنّ الله" بنصب الألف .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "وإِن الله" بكسر الألف .

وهذا من قول عيسى ؛ فمن فتح ، عطفه على قوله : ﴿ وأوصاني بالصَّلاة والزَّكاة ﴾

وبأن الله ربّي ؛ ومن كسر ، ففيه وجهان .

أحدهما : أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ إِنِّي عبد الله ﴾ .

(19/486)

والثاني : أن يكون مستأنفاً .

قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب مِنْ بينهم ﴾

قال المفسرون : "مِنْ" زائدة ، والمعنى : اختلفوا بينهم .

وقال ابن الأنباري : لما تمسَّك المؤمنون بالحق ، كان اختلاف الأحزاب بين المؤمنين مقصوراً عليهم .

وفي الأحزاب قولان .

أحدهما : أنهم اليهود والنصارى ، فكانت اليهود تقول : إنه لغير رِشْدَةٍ ، والنصارى تدَّعي فيه ما لا يليق به .

والثاني : أنهم فِرَق النصارى ، قال بعضهم : هو الله ، وقال بعضهم : ابن الله ، وقال بعضهم : ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ بقولهم في المسيح ﴿ مِنْ مَشْهَدِ يومٍ عظيمٍ ﴾ أي : من حضورهم ذلك اليوم للجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(20/486)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

أي ذلك الذي ذكرناه عيسى ابن مريم فكذلك اعتقدوه ، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة ، وأنه ابن يوسف النجار ، ولا كما قالت النصارى : إنه الإله أو ابن الإله .

﴿ قَوْلُ الحق ﴾ قال الكسائي : "قَوْلُ الْحَقِّ" نعت لعيسى ؛ أي ذلك عيسى ابن مريم (قَوْلُ الحَقِّ) .

وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله ؛ والحق هو الله عز وجل .

وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق .

وقيل : التقدير هذا الكلام قول الحق .

قال ابن عباس : يريد هذا كلام عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل ؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال : ﴿ وَعْدَ الصدق الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف

: 16] أي الوعد الصدق .

وقال : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ [يوسف : 109] أي ولا الدار الآخرة .

وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر "قَوْلَ الْحَقِّ" بالنصب على الحال ؛ أي أقول قولاً حقاً .

والعامل معنى الإشارة في "ذلك" .

الزجاج : هو مصدر أي أقول قول الحق ؛ لأن ما قبله يدل عليه .

وقيل : مدح .

وقيل : إغراء .

وقرأ عبد الله "قَالُ الحقِّ" .

وقرأ الحسن "قُولُ الحقِّ" بضم القاف ، وكذلك في "الأنعام" "قَوْلُهُ الْحَقُّ" .

والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد ، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْبِ .

﴿ الذي ﴾ من نعت عيسى .

﴿ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكون ؛ أي ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون القول الحق .

وقيل : "يمترون" يختلفون .

ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع ؛ فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من

أحيا وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية .

فقالت الثلاثة : كذبت .

(21/486)

ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، قال : هو ابن الله وهم النّسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، الله إله وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى .

قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا فظُهِر على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقسط مِنَ الناس ﴾ [آل عمران : 21] .

وقال قتادة : وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً فهذا معنى قوله : "الذي فيه تمترون" بالتاء المعجمة من فوق وهي قراءة أبي عبد الرحمن السُّلَمي وغيره .

قال ابن عباس : فمر بمريم ابن عمها ومعها ابنها إلى مصر فكانوا فيها اثنتي عشرة سنة حتى مات الملك الذي كانوا يخافونه ؛ ذكره الماوردي .

قلت : ووقع في تاريخ مصر فيما رأيت وجاء في الإنجيل ؛ الظاهر أن السيد المسيح لما ولد في بيت لحم كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً ، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار في الحلم وقال له : قم فخذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، فإن هيرودس مزمع أن يطلب عيسى ليهلكه ، فقام من نومه : وامتثل أمر ربه ، وأخذ السيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر ، وفي حال مجيئه إلى مصر نزل ببئر البَلَسان التي بظاهر القاهرة ، وغسلت ثيابه على ذلك البئر ، فالبَلَسان لا يطلع ولا ينبت إلا في تلك الأرض ، ومنه يخرج الدهن الذي يخالط الزيت الذي تعمّد به النصارى ، ولذلك كانت قارورة واحدة في أيام المصريين لها مقدار عظيم ، وتقع في نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعاً جليلاً جداً ، وتكون أحبّ إليهم من كل هدية لها قدر .

(22/486)

وفي تلك السّفْرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين وقسقام المعروفة الآن بالمحرقة ، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن ، ويحضرون إليها في عيد الفصح من كل مكان ؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر ، ومنها عاد إلى الشام .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي ما ينبغي له ولا يجوز ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ "من" صلة للكلام ؛ أي أن يتخذ ولداً .

و"أن" في موضع رفع اسم "كان" أي ما كان لله أن يتخذ ولداً ؛ أي ما كان من صفته اتخاذ الولد ، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أن يكون له ولد .

﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تقدم في "البقرة" مستوفى .

﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح "أن" وأهل الكوفة "وإن" بكسر الهمزة على أنه مستأنف .

تدل عليه قراءة أبيّ "كُنْ فَيَكُونُ" .

إنَّ الله" بغير واو على العطف على "قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ" .

وفي الفتح أقوال : فمذهب الخليل وسيبويه أن المعنى ؛ ولأن الله ربي وربكم ، وكذا "وأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ" ف"أن" في موضع نصب عندهما .

وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام ، وأجاز أن يكون أيضاً في موضع خفض بمعنى ؛ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبأن الله ربي وربكم .

وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بمعنى ؛ والأمر أن الله ربي وربكم .

وفيها قول خامس : حكى أبو عبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله ، وهو أن يكون المعنى :

وقضى أن الله ربي وربكم ؛ فهي معطوفة على قوله : "أمراً" من قوله : "إِذَا قَضَى أَمْراً"

والمعنى إذا قضى أمراً وقضى أن الله .

ولا يبتدأ ب"أن" على هذا التقدير ، ولا على التقدير الثالث .

ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية .

﴿ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي دين قويم لا اعوجاج فيه .

(23/486)

قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ "من" زائدة ؛ أي اختلف الأحزاب بينهم .

وقال قتادة : أي ما بينهم .

فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام فاليهود بالقدح والسحر .

والنصارى قالت النسطورية منهم : هو ابن الله .

والملكانية ثالث ثلاثة .

وقالت اليعقوبية : هو الله ؛ فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصرت .

وقد تقدّم هذا في "النساء" .

وقال ابن عباس : المراد بالأحزاب الذين تحزبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي من شهود يوم القيامة ، والمشهد بمعنى المصدر ، والشهود الحضور .

ويجوز أن يكون الحضور لهم ، ويضاف إلى الظرف لوقوعه فيه ، كما يقال : ويل لفلان من قتال يوم كذا ؛ أي من حضوره ذلك اليوم .

وقيل : المشهد بمعنى الموضع الذي يشهده الخلائق ، كالمحشر للموضع الذي يحشر إليه الخلق .

وقيل : فويل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور ، فأجمعوا على الكفر بالله ، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(24/486)

وقال أبو حيان :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

الإشارة بذلك إلى المولود الذي ولدته مريم المتصف بتلك الأوصاف الجميلة ، و ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ و ﴿ عيسى ﴾ خبره و ﴿ ابن مريم ﴾ صفة لعيسى أو خبر بعد خبر أو بدل ، والمقصود ثبوت بنوّته من مريم خاصة من غير أب فليس بابن له كما يزعم النصارى ولا لغير رشدة كما يزعم اليهود .

وقرأ زيد بن عليّ وابن عامر وعاصم وحمزة وابن أبي إسحاق والحسن ويعقوب ﴿ قول الحق ﴾ بنصب اللام ، وانتصابه على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي هذه الأخبار عن ﴿ عيسى ﴾ أنه ﴿ ابن مريم ﴾ ثابت صدق ليس منسوباً لغيرها ، أي إنها ولدته من غير مس بشر كما تقول هذا عبد الله الحق لا الباطل ، أي أقول ﴿ الحق ﴾ وأقول قول ﴿ الحق ﴾ فيكون ﴿ الحق ﴾ هنا الصدق وهو من إضافة الموصوف إلى صفته أي القول ﴿ الحق ﴾ كما قال ﴿ وعد الصدق ﴾ أي الوعد الصدق وإن عنى به الله تعالى كان القول مراداً به الكلمة كما قالوا كلمة الله كان انتصابه على المدح وعلى هذا تكون الذي صفة للقول ، وعلى الوجه الأول تكون ﴿ الذي ﴾ صفة للحق .

وقرأ الجمهور ﴿ قول ﴾ برفع اللام .

وقرأ ابن مسعود والأعمش قال بألف ورفع اللام .

وقرأ الحسن ﴿ قول ﴾ بضم القاف ورفع اللام وهي مصادر كالرهب والرهب والرهب وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو أي نسبته إلى أمه فقط ﴿ قول الحق ﴾

فتتفق إذ ذاك قراءة النصب وقراءة الرفع في المعنى .

وقال الزمخشري : وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر أو بدل انتهى .

وهذا الذي ذكر لا يكون إلاّ على المجاز في قول وهو أن يراد به كلمة الله لأن اللفظ لا يكون الذات .

وقرأ طلحة والأعمش في رواية زائدة قال : بألف جعله فعلاً ماضياً ﴿ الحق ﴾ برفع القاف على الفاعلية ، والمعنى قال الحق وهو الله ﴿ ذلك ﴾ الناطق الموصوف بتلك الأوصاف هو ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ و ﴿ الذي ﴾ على هذا خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي .

(25/486)

وقرأ عليّ كرم الله وجهه والسلمي وداود بن أبي هند ونافع في رواية والكسائي في رواية ﴿ تمترون ﴾ بتاء الخطاب والجمهور بياء الغيبة ، وامترى افتعل إما من المرية وهي الشك ، وإما من المراء وهو المجادلة والملاحاة ، وكلاهما مقول هنا قالت اليهود ساحر كذاب ، وقالت النصارى ابن الله وثالثها ثلاثة وهو الله ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ هذا تكذيب للنصارى في دعواهم أنه ابن الله ، وإذا استحالت البنوة فاستحالة الإلهية مستقلة

أو بالتثليث أبلغ في الاستحالة ، وهذا التركيب معناه الانتفاء فتارة يدل من جهة المعنى على الزجر ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ وتارة على التعجيز ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ وتارة على التنزيه كهذه الآية ، ولذلك أعقب هذا النفي بقوله ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه عن الولد إذ هو مما لا يتأتى ولا يتصور في المعقول ولا تتعلق به القدرة لاستحالته ، إذ هو تعالى متى تعلقت إرادته بإيجاد شيء أوجده فهو منزه عن التوالد .

وتقدم الكلام على الجملة من قوله ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ وإن الله ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف .

وقرأ أُبي بالكسر دون واو ، وقرأ الحرميان وأبو عمرو ﴿ وإن ﴾ بالواو وفتح الهمزة ، وخرجه ابن عطية على أن يكون معطوفاً على قوله هذا ﴿ قول الحق ﴾ ﴿ وإن الله ربي ﴾ كذلك .

وخرجه الزمخشري على أن معناه ولأنه ربي وربكم فاعبدوه كقوله ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ انتهى .

وهذا قول الخليل وسيبويه وفي حرف أبي أيضاً ، وبأن ﴿ الله ﴾ بالواو وباء الجر أي بسبب ذلك فاعبدوه .

وأجاز الفراء في ﴿ وإن ﴾ يكون في موضع خفض معطوفاً على والزكاة ، أي ﴾

وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ وبأن الله ربي وربكم انتهى .

وهذا في غاية البعد للفصل الكثير ، وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بمعنى الأمر ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾ .

(26/486)

وحكى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء أن يكون المعنى ، وقضى ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾ فهي معطوفة على قوله ﴿ أمراً ﴾ من قوله ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ والمعنى ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ وقضى ﴿ إن الله ﴾ انتهى .

وهذا تخبيط في الإعراب لأنه إذا كان معطوفاً على ﴿ أمراً ﴾ كان في حيز الشرط ، وكونه تعالى ربنا لا يتقيد بالشرط وهذا يبعد أن يكون قاله أبو عمرو بن العلاء فإنه من الجلالة في علم النحو بالمكان الذي قل أن يوازنه أحد مع كونه عربياً ، ولعل ذلك من فهم أبي عبيدة فإنه يضعف في النحو والخطاب في قول ﴿ وربكم ﴾ قيل لمعاصري رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من اليهود والنصارى أمر الله تعالى أن يقول لهم ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾ أي قل لهم يا محمد هذا الكلام .

وقيل : الخطاب للذين خاطبهم عيسى بقوله ﴿ إني عبد الله ﴾ الآية وإن الله معطوف

على الكتاب ، وقد قال وهب عهد عيسى إليهم ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾ ومن كسر الهمزة عطف على قوله ﴿ إني عبد الله ﴾ فيكون محكياً .

يقال : وعلى هذا القول يكون قوله ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾ -إلى- ﴿ وإن الله ﴾ حمل اعتراض أخبر الله تعالى بها رسوله عليه السلام .

والإشارة بقوله ﴿ هذا ﴾ أي القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة ، هو الطريق المستقيم الذي يفضي بقائله ومعتقده إلى النجاة ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ هذا إخبار من الله للرسول بتفرق بني إسرائيل فرقاً ، ومعنى ﴿ من بينهم ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا هم المختلفين لم يقع الاختلاف سببه غيرهم .

و ﴿ الأحزاب ﴾ قال الكلبي : اليهود والنصارى .

وقال الحسن : الذين تحزبوا على الانبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس انتهى .

فالضمير في ﴿ بينهم ﴾ على هذا ليس عائداً على ﴿ الأحزاب ﴾ .

وقيل : ﴿ الأحزاب ﴾ هنا المسلمون واليهود والنصارى .

وقيل : هم النصارى فقط .

وعن قتادة إن بني إسرائيل جمعوا أربعة من أحبارهم .

فقال أحدهم : عيسى هو الله نزل إلى الأرض وأحيا من أحيا وأمات من أمات ، فكذبه الثلاثة واتبعته اليعقوبية .

ثم قال أحد الثلاثة : عيسى ابن الله فكذبه الاثنان واتبعته النسطورية ، وقال أحد الاثنين : عيسى أحد ثلاثة الله إله ، ومريم إله ، وعيسى إله فكذبه الرابع وأتبعته الإسرائيلية .

وقال الرابع : عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فاتبعته فرقة من بني إسرائيل ثم اقتتل الأربعة ، فغلب المؤمنون وظهرت اليعقوبية على الجميع فروي أن في ذلك نزلت ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ﴾ آية آل عمران ، والأربعة يعقوب ونسطور وملكا وإسرائيل .

وبين هنا أصله ظرف استعمل اسماً بدخول ﴿ من ﴾ عليه .

وقيل : ﴿ من ﴾ زائدة .

وقيل البين هنا البعد أي اختلفوا فيه لبعدهم عن الحق .

و ﴿ مشهد ﴾ مفعل من الشهود وهو الحضور أو من الشهادة ويكون مصدراً ومكاناً وزماناً ، فمن الشهود يجوز أن يكون المعنى من شهود هول الحساب والجزاء في يوم القيامة ، وإن يكون من مكان الشهود فيه وهو الموقف ، وأن يكون من وقت الشهود ومن الشهادة ، يجوز أن يكون المعنى من شهادة ذلك اليوم وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر ، وأن يكون من مكان الشهادة ، وأن يكون من وقت الشهادة

واليوم العظيم على هذه الاحتمالات يوم القيامة .

وعن قتادة : هو يوم قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب وقيل ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه يوم اختلافهم ، وتقدم الكلام على التعجب الوارد من الله في قوله تعالى ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ وأنه لا يوصف بالتعجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(28/486)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى من فُصّلت نعوتُه الجليلةُ ، وما فيه من معنى البُعد للدِلالة على علو مرتبتِه وبُعد منزلتِه وامتيازِه بتلك المناقبِ الحميدةِ عن غيره ونزولِه منزلةَ المشاهَد المحسوس ﴿ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ لا ما يصفه النصارى ، وهو تكذيبٌ لهم فيما يزعُمونه على الوجه الأبلغِ والمنهاج البرهانيِّ حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ بالنصب على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لقال : إني عبد الله الخ ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله ، وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هو قولُ الحق الذي لا ريب فيه ، والإضافةُ للبيان والضميرُ للكلام السابق لتمام القصة ،

وقيل : صفةُ عيسى أو بدلُه أو خبرٌ ثانٍ ومعناه كلمةُ الله ، وقرىء قالَ الحقّ وقول الحق فإن القولَ والقال في معنى واحد ﴿ الذى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكون أو يتنازعون ، فيقول اليهودُ : ساحرٌ ، والنصارى : ابنُ الله ، وقرىء بتاء الخطاب .

﴿ مَا كَانَ للَّهِ ﴾ أي ما صح وما استقام له تعالى ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه ﴾ تكذيبٌ للنصارى وتنزيهٌ له تعالى عما بَهتوه وقوله تعالى : ﴿ إِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ تبكيتٌ لهم ببيان أن شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يعلّق به إرادتَه فيكونَ حينئذ بلا تأخير ، فَمَنْ هذا شأنُه كيف يُتوهّم أن يكون له ولد وقرىء فيكونَ بالنصب على الجواب .

(29/486)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الله رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ من تمام كلامِ عيسى عليه السلام ، قيل : هو عطف على قوله : ﴿ إِنِّى عَبْدُ الله ﴾ داخلٌ تحت القولِ وقد قرىء بغير واو ، وقرىء بفتح الهمزة على حذف اللام أي ولأنه تعالى ربي وربُّكم فاعبُدوه كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ وقيل : معطوفٌ على الصلاة ﴿ هذا ﴾ أي الذي ذكرتُه من التوحيد ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضِلُّ سالكُه والفاء في قوله تعالى : ﴿

فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهاً على سوء صنيعِهم بجعلهم ما يوجب الاتفاقَ منشأً للاختلاف ، فإن ما حُكي من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصاً قاطعةً في كونه عبدَه تعالى ورسولَه قد اختلفت اليهودُ والنصارى بالتفريط والإفراط ، أو فرّق النصارى ، فقالت النُّسطورية : هو ابنُ الله ، وقالت اليعقوبية : هو الله هبط إلى الأرض ثم صعِد إلى السماء تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وقالت الملكانية : هو عبدُ الله ونبيُّه .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهم المختلفون عبّر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحُكم ﴿ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي من شهود يومٍ عظيمِ الهول والحساب والجزاء وهو يومُ القيامة ، أو من وقت شهودِه أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وهو أن يشهد عليهم الملائكةُ والأنبياءُ عليهم السلام وألسنتُهم وآذانُهم وأيديهم وأرجلُهم وسائرُ آرابِهم بالكفر والفسوق ، أو من وقت الشهادة أو من مكانها ، وقيل : هو ما شهِدوا به في حق عيسى وأمِّه عليهما السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(30/486)

وقال الآلوسى :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة .

وفيه إشارة إلى علو رتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المحسوس المشاهد .

وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ عِيسَى ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ابن مَرْيَمَ ﴾ صفة عيسى أو خبر بعد خبر أو بدل أو عطف بيان والأكثرون على الصفة .

والمراد ذلك هو عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني حيث جعل موصوفاً بأضداد ما يصفونه كالعبودية لخالقه سبحانه المضادة لكونه عليه السلام إلهاً وابناً لله عز وجل فالحصر مستفاد من فحوى الكلام ، وقيل : هو مستفاد من تعريف الطرفين بناءً على ما ذكره الكرماني من أن تعريفهما مطلقاً يفيد الحصر ، وهو على ما فيه مخالف لما ذكره أهل المعاني من أن ذلك مخصوص بتعريف المسند باللام أو بإضافته إلى ما هي فيه ك ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ [يونس : 1] على ما في بعض شروح الكشاف .

وقيل استفادته من التعريف على ما ذكروه أيضاً بناءً على أن عيسى مؤول بالمعرف باللام أي المسمى بعيسى وهو كما ترى فعليك بالأول .

﴿ قَوْلَ الحق ﴾ نصب على المدح.

والمراد بالحق الله تعالى وبالقول كلمته تعالى ، وأطلقت عليه عليه السلام بمعنى أنه خلق بقول كن من غير أب .

وقيل : نصب على الحال من عيسى ، والمراد بالحق والقول ما سمعت .

وقيل : نصب على المصدر أي أقول قول الحق .

وقيل : هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة منصوب بأحق محذوفاً وجوباً .

وقال شيخ الإسلام : هو مصدر مؤكد لقال إني عبد الله الخ وقوله سبحانه : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وفيه بعد .

و ﴿ الحق ﴾ في الأقوال الثلاثة بمعنى الصدق .

والإضافة عند جمع بيانية وعند أبي حيان من إضافة الموصوف إلى الصفة .

(31/486)

وقرأ الجمهور ﴿ قَوْلَ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه ، والضمير المقدر للكلام السابق أو لتمام القصة .

وقيل : صفة لعيسى أو بدل من أو خبر بعد خبر لذلك أهو الخبر وعيسى بدل أو عطف

بيان .

والمراد في جميع ذلك كلمة الله تعالى .

وقرأ ابن مسعود ﴿ قَالَ الحق ﴾ .

وقال الله برفع ﴿ قَالَ ﴾ فيهما .

وعن الحسن ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ بضم القاف واللام .

والقول والقال والقول بمعنى واحد كالرهب والرهب والرهب .

ونص أبو حيان على أنها مصادر .

وعن ابن السكيت القال وكذا القيل اسم لا مصدر .

وقرأ طلحة .

والأعمش في رواية ﴿ قَالَ الحق ﴾ برفع لام ﴿ قَالَ ﴾ على أنه فعل ماض ورفع ﴿ الحق ﴾ على الفاعلية ، وجعل ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ على هذا مقول القول أي قال الله تعالى ذلك الموصوف بما ذكر عيسى ابن مريم ﴿ الذى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكون أو يتنازعون فيقول اليهود : هو ساحر وحاشاه ويقول النصارى : ابن الله سبحان الله عما يقولون .

والموصول صفة القول أو الحق أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي الخ وذلك بحسب اختلاف التفسير والقراءة .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي .

وداود بن أبي هند .

ونافع في رواية .

والكسائي كذلك ﴿ تَمْتَرُونَ ﴾ بتاء الخطاب .

﴿ مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه ﴾

أي ما صح وما تستقام له جل شأنه اتخاذ ذلك وهو تكذيب للنصارى وتنزيه له عز وجل عما افتروه عليه تبارك وتعالى وقوله جل وعلا : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تبكيت له ببيان أن شأنه تعالى شأنه إذا قضى أمراً من الأمور أن يوجد بأسرع وقت فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وهو من أمارات الاحتياج والنقص .

وقرأ ابن عامر ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب على الجواب .

﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾

(32/486)

عطف على ما قال الواحدي على قوله ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ﴾ [مريم : 30] فهو من تمام قول عيسى عليه السلام تقريراً لمعنى العبودية والآيتان معترضتان ، ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وقرأ أبي بغير واو .

والظاهر أنه على هذا بتقدير القول خطاباً لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد إن الله الخ .

وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو ﴿ وَأَنْ ﴾ بالواو وفتح الهمزة .

وخرجه الزمخشري على حذف حرف الجر وتعلقه باعبدوه أي ولأنه تعالى ربي وربكم فاعبدوه وهو كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ [الجن : 18] وهو قول الخليل وسيبويه .

وأجاز الفراء أن يكون أن وما بعدها في تأويل مصدر عطفاً على ﴿ الزكواة ﴾ (مريم 31) أي وأوصاني بالصلاة والزكاة وبأن الله ربي وربكم الخ .

وأجاز الكسائي أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أن الله ربي وربكم .

وحكى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء أنه عطف على ﴿ أَمْراً ﴾ من قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ [مريم : 35] أي إذ قضى أمراً وقضى أن الله ربي وربكم وهو تخبيط

في الإعراب فلعله لا يصح عن أبي عمرو فإنه من الجلالة في علم النحو بمكان ، وقيل : إنه عطف على [مريم : 30] وأكثر الأقوال كما ترى .

وفي حرف أبي رضي الله تعالى عنه أيضاً ﴿ وبأن ﴾ بالواو وباء الجر وخرجه بعضهم بالعطف على الصلاة أو الزكاة وبعضهم بأنه متعلق باعبدوه أي بسبب ذلك فاعبدوه ، والخطاب إما لمعاصري عيسى عليه السلام وإما لمعاصري نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ قَبْلَ هذا ﴾ أي ما ذكر من التوحيد ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضل سالكه

وقوله تعالى :

﴿ فاختلف الاحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾

(33/486)

لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهاً على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فإن ما حكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصاً قاطعة في كونه عبد الله تعالى ورسوله قد اختلف اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط فالمراد بالأحزاب اليهود والنصارى وهو المروى عن الكلبي ، ومعنى ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا هم المختلفين ، و﴿ بَيْنَ ﴾ ظرف استعمل اسماً بدخول من عليه .

ونقل في "البحر" القول بزيادة من .

وحكى أيضاً القول بأن البين هنا بمعنى البعد أي اختلفوا فيه لبعدهم عن الحق فتكون سببية ولا يخفى بعده ، وقيل : المراد بالأحزاب فرق النصارى فإنهم اختلفوا بعد رفعه عليه السلام فيه فقال : نسطور هو ابن الله تعالى عن ذلك أظهره ثم رفعه ، وقال يعقوب : هو الله تعالى هبط ثم صعد وقال ملكاً : هو عبد الله تعالى ونبيه ، وفي الملل والنحل أن الملكانية قالوا : إن الكلمة يعني أقنوم العلم اتحدت بالمسيح عليه السلام وتدرعت بناسوته .

وقال أيضاً : إن المسيح عليه السلام ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم وقد ولدت مريم إلهاً قديماً أزلياً والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معاً ، وقد قدمنا من أمر النصارى ما فيه كفاية فليتذكر ، وقيل المراد بهم المسلمون واليهود والنصارى .

(34/486)

وعن الحسن أنهم الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما قص عليهم قصة عيسى عليه السلام اختلفوا فيه من بين الناس ، قيل : إنهم مطلق الكفار فيشمل اليهود والنصارى والمشركين الذين كانوا في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم وغيرهم ؛ ورجحه

الإمام بأنه لا مخصص فيه ، ورجح القول بأنهم أهل الكتاب بأن ذكر الاختلاف عقيب قصة عيسى عليه السلام يقتضي ذلك ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فالمراد بهم الأحزاب المختلفون ، وعبر عنهم بذلك إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحكم ، وإذا قيل بدخول المسلمين أو الملكانية وقيل : إنهم قالوا بأنه عليه السلام عبد الله ونبيه .

في الأحزاب ، فالمراد من الذين كفروا بعض الأحزاب أي فويل للذين كفروا منهم ﴿ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي من مشهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن تشهد الملائكة والأنبياء عليهم السلام عليهم وألسنتهم وسائر جوارحهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها .

وقيل : هو ما شهدوا به في حق عيسى عليه السلام وأمه وعظمه لعظم ما فيه أيضاً كقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف : 5] .

وقيل هو يوم قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب وهو كما ترى .

والحق أن المراد بذلك اليوم يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(35/486)

وقال القاسمي :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

أي : لا ما يصفه به النصارى . وهو تكذيب لهم ، فيما يزعمونه ، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانيّ . حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه : ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي : ومَن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟

وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 59 – 60] ، ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده ، بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [36] أي : قويم . من اتبعه رشد وهدى . ومن خالفه ضلَّ وغوى .

تنبيهات في فوائد هذه القصة :

(36/486)

الأول : لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ، ولداً زكيّاً طاهراً مباركاً ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرهما في آل عِمْرَان ، وههنا ، وفي سورة الأنبياء . يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه . وأنه على ما يشاء قدير . ومريم هي بنت عِمْرَان . من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل . وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها في سورة آل عِمْرَان . وأنها نذرتها محررة للعبادة . وأنه تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً فنشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى الناسكات المتبتلات . وكانت في كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقاً . كما تقدم في سورة آل عِمْرَان .

الثاني : استدل بقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [17] ، من قال بنبوة مريم . واستُدل بقوله تعالى عنها : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ [23] ، على جواز تمني المنون لمثل تلك الحال . وبقوله تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [25] على التسبب في الرزق ، وتكلف الكسب وإليه أشار القائل :

~ألم تر أنَّ اللهَ قالَ لمريمٍ وهُزّي إليكِ الجِذْعَ يَسَّاقَط الرطَبْ

~ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّهِ إليها ، ولكن كل شيء لَهُ سَبَبْ

في الآية أصل لما يقوله الأطباء ، إن الرطب ينفع النساء . واستدل بقوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ بعدَ : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ على أن الحالف لا يتكلم أو لا يكلم فلاناً لا يحنث بالإشارة . وعلى أن السكوت عن السفيه واجب ، كما استنبطه الزمخشري ، قال : ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهاً . وفي قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ معنى قولهم في المثل : من أشبه أباه فما ظلم . وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش .

الثالث : نقل الرازيّ عن القاضي في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ [33] ، الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان . ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات . فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى فعله بيحيى . ولا بد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة . وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة : وهي يوم الولادة ويوم البعث . فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخالفات في كل الأحوال .

الرابع : قال القاشانيّ : وإنما تمثل لها بشراً سويّ الخلق حسن الصورة ، لتتأثر نفسها به وتستأنس . فتتحرك على مقتضى الجبلة . ويسري الأثر من الخيال في الطبيعة . فتتحرك شهوتها فتنزل كما يقع في المنام من الاحتلام وتنقذف نطفتها في الرحم فيتخلق منه الولد . وقد مرّ أن الوحي قريب من المنامات الصادقة ، لهذه [؟ ؟] القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما في النوم . فكل ما يرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا قلباً والاتصالات التي لها بالأرواح القدسية ، يسري في النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن . وإنما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة . لأنه ثبت في العلوم الطبيعية أن منيّ الذكر في تكوّن الولد ، بمنزلة الأنفحة [في المطبوع : الإنفحة] في الجبن . ومني الأنثى بمنزلة اللبن ، أي : العقد من منيّ الذكر والانعقاد من منيّ الأنثى . لا على معنى أن منيّ الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنيّ الأنثى بالقوة المنعقدة, بل على معنى أن القوة العاقدة في منيّ الذكر أقوى . والمنعقدة في منيّ الأنثى أقوى . وإلا لم يمكن أن يتحدا شيئاً واحداً . ولم ينعقد منيّ الذكر حتى يصير جزءاً من الولد . فعلى هذا إذا كان مزاج الأنثى قوياً ذكورياً ، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القويّة القوى ، وكان مزاج كبدها حارّاً ، كان المنيُّ المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذي ينفصل من كليتها اليسرى . فإذا اجتمعا في الرحم ، كان مزاج الرحم قويّاً في الإمساك والجذب ، قام المنفصل في

الكلية اليمنى ، مقام الذكر في شدة قوة العقد . والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منيّ الأنثى في قوة الانعقاد ، فيتخلق الوالد هذا . وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس ، متقوية ، يسري أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، ويغير المزاج ويمد جميع القوى في أفعالها بالمدّ الروحانيّ ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا

(39/486)

ينضبط بالقياس . والله أعلم .

ثم قال في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾ في اللوح مقدراً في الأزل . وعن ابن عباس : فاطمأنت إليه بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ﴾ فدنا منها فنفخ في جيب الدرع ، أي : البدن ، وهو سبب إنزالها على ما ذكرنا . كالغلمة مثلاً والمعانقة التي كثيراً ما تصير سبباً للإنزال . وقيل : إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها . والحق أنه روح القدس . لأنه كان السبب الفاعليّ لوجوده كما قال : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ﴾ . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة في الرحم ، واستقرارها فيه ، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح . انتهى .

الخامس : التمثّل مشتق من المثل . ومعناه التصور . وفيه دليل على أن الملَك يتشكل بشكل البشر .

قال إمام الحرمين : تمثلُ جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه . لم يعيده إليه بعدُ .

وجزم ابن عبد السلام : بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها موجباً لموته ، بل يجوز أن يبقى في الجسد حيّاً . لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً ، بل بعادة أجراها الله تعالى في بعض خلقه ، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة .

(40/486)

وقال البلقينيّ : ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه . بل يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكله الأصليّ . إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل . وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته . ومثال ذلك القطن ، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً . فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة ، وذاته لم تتغير . وهذا على سبيل التقريب . والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه . الظاهر أيضاً أن القدر

الزائد لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرائي فقط . والله أعلم . كذا قال ابن حجر في فتح الباري .

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب ، واقتفاء ما لم يحط بكنهه . فالخوض فيه عبث ينتهي خائضه إلى حيث ابتدأ . لأنه من عالم الغيب الذي لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل . ولم يرد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فيه نص قاطع . وكل ما كان كذلك فليس من شاننا أن نبحث فيه . فاعرف ذلك فإنه ينفعك في مواضع عديدة .

السادس : قال بعضهم : أصل كلمة عيسى : يسوع . فحرفه اليهود إلى عيسو تهكماً فحوله العرب إلى عيسى تشبهاً باسم موسى . ولبدل الواو بالألف سبب مبنيّ على قواعد اللغة العبرانية ، بل والعربية . انتهى .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾

(41/486)

أي : اختلف قول أهل الكتاب في عيسى ، بعد بيان أمره ووضوح حاله . وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر . وانقسمت النصارى في أمره انقساماً يفوت الحصر . وكله ضلال وشرك وكفر .

وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه . وهذا من فضله تعالى ومنّه : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني بالذين كفروا ، المختلفين . عبّر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحكم . وفي مَشْهَدِ ستة أوجه . لأنه مصدر ميميّ أو اسم زمان أو مكان . وعلى كل فهو إما من الشهود أي : الحضور أو الشهادة . وهذا معنى قول الزمخشريّ : أي : في شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة . أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود . أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها .

وقيل : معناه ما شهدوا به في عيسى وأمه فعظمه لعظم ما فيه أيضاً . كقوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف : 5] ، وفيه وعيد لهم وتهديد شديد . وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 98. 101 ﴾

(42/486)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

اعلم أن هذا الحرف فيه قراءتان سبعيتان : قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ بضم اللام . وقرأه ابن عامر وعاصم ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ بالنصب . والإشارة في قوله « ذلك » راجعة إلى المولود المذكور في الآيات المذكورة قبلل هذا . وقوله « ذلك » مبتدأ ، « وعيسى » ، خبره ، و « ابن مريم » نعت ل « عيسى » وقيل بدل منه . وقيل خبر بعد خبر .

وقوله ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ على قراءة النصب مؤكد لمضمون الجملة . وإلى نحوه اشار ابن مالك بقوله في الخلاصة :

والثاني كابني أنت حقاً صرفاً . . . وقيل منصوب على المدح : وأما على قراءة الجمهور بالرفع « فقول الحق » خبر مبتدأ محذوف ، أي هو اي نسبته غلى أمه فقط قوله الحق . قال أبو حيان . وقال الزمخشري : وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر ، أو بدل ، أو خبر مبتدأ محذوف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : اعلم أن لفظة « الحق » في قوله هنا « قول الحق » فيها للعلماء وجهان :

الأول – أن المراد بالحق ضد الباطل بمعنى الصدق والثبوت . كقوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ

وَهُوَ الحق ﴾ [الأنعام : 66] وعلى هذا القول فإعراب قوله « قول الحق » على قراءة النصب أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كما تقدم . وعلى قراءة الرفع فهو خبر مبتدأ محذوف كما تقدم . ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في « آل عمران » في القصة بعينها : ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّنَ الممترين ﴾ [آل عمران : 60] .

(43/486)

الوجه الثاني – أن المراد بالحق في الآية الله جل وعلا . لأن من أسمائه « الحق » كقوله : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الله هُوَ الحق المبين ﴾ [النور : 25] ، وقوله ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ [الحج : 6] الآية . وعلى هذا القول فإعراب قوله تعالى ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ على قراءة النصب أنه منصوب على المدح . وعلى قراءة الرفع فهو بدل من « عيسى » أو خبر ، بعد خبر ، بعد خبر وعلى هذا الوجه ف « قول الحق » ، هو « عيسى » كما سماه الله كلمة في قوله : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ﴾ [النساء : 171] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح ﴾ [آل عمران : 45] الآية . وإنما سمي « عيسى » كلمة لأن الله أوجده بكلمته التي هي « كن » فكان . كما قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثمَّ قَالَ لَهُ كُن ﴾ [آل عمران : 59] . والقول والكلمة على هذا الوجه

من التفسير بمعنى واحد .

وقوله : ﴿ الذي فِيهِ يَمْتَرُون ﴾ أي يسكون . فالامتراء افتعال من المرية وهي الشك .

وهذا الشك الذي وقع للكفار نهى الله عنه المسلمين على لسان نبيهم في قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين ﴾

(44/486)

[آلعمران : 59-60] وهذا القول الحق الذي أوضح الله به حقيقة الأمر في شأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بعد نزوله على نبينا صلى الله عليه وسلم - أمره ربه أن يدعو من حاجة في شأن عيسى إلى المباهلة . ثم أخبره أن ما قص عليه من خبر عيس هو القصص الحق ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ الله عَلَى الكاذبين إِنَّ هذا لَهُوَ القصص الحق ﴾ [آل عمران : 61-62] الآية . ولما نزلت ودعا النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران إلى المباهلة خافوا الهلاك وأدوا كما هو مشهور .

(45/486)

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)

(46/486)

اعلم أولاً أن لفظ « ما كان » يدل على النفي ، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع ، كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ [التوبة : 120] الآية . وتارة يدل على التعجيز ، كقوله تعالى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ [النمل : 59-60] الآية . وتار يدل على التنزيه ، كقوله هنا ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ وقد اعقبه بقوله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزيهاً له ان اتخاذ الولد وكل ما لا يليق بكماله وجلاله . فقوله ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ بمعنى ما يصح ولا يتأتى ولا يتصور في حقه جل وعلا أن يتخذ ولداً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . والآية كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم :

92] . وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم « عيسى ابن الله » وما نزه عنه جل وعلا نفسه هنا من الولد المزعوم كذباً كعيسى – نزه عنه نفسه في مواضع أخر ، كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ﴾ [النساء : –171] إلى قوله ﴿ إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [النساء : 171] الآية . والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْاْ للرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 88–91] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم مستوفى في سورة « الكهف » .

(47/486)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِذَا قضى أَمْراً ﴾ أي أراد قضاءه ، بدليل قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب ، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] الآية ، أي إذا أردتم القيام إليها ، وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] أي إذا أردت قراءة القرآن ، كما تقدم مستوفى .

وقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ زيدت فيه لفظة « من » المفعول به لتأكيد العموم . وقد تقرر في الأصول أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة « من » لتوكيد العموم كانت نصاً صريحاً في العموم ، وتطرد زيادتها للتوكيد المذكور قبل النكرة في سياق النفي في ثلاثة مواضع : قبل الفاعل كقوله تعالى : ﴿ مَّا آتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [القصص : 46] ، وقبل المفعول كهذه الآية ، وكقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : 25] الآية : وقبل المبتدأ كقوله ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] .

(48/486)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)

(49/486)

أظهر الأقوال في « الأحزاب » المذكورة في هذه الآية – أنهم فرق اليهود والنصارى الذي اختلفوا في شأن عيسى . فقالت طائفة : هو ابن زنى . وقالت طائفة : هو ابن الله . وقالت طائفة : هو الله . وقالت طائفة : هو إله مع الله . ثم إن الله توعد الذين كفروا منهم بالويل لهم من شهود يوم القيامة . وذلك يشمل من كفر بالتفريط في عيسى كالذي قال إنه ابن زنى . ومن كفر بالإفراط فيه كالذي قالوا إنه الله أو ابنه . وقوله « ويلٌ كلمة عذب . فهو مصدر لا فعل له من لفظه . وسوغ الابتداء به وهو نكرة كونه في معنى الدعاء . والظاهر أن المشهد في الآية مصدر ميمي . أي فويل لهم من شهود ذلك اليوم اي حضروه لما سيلاقونه فيه من العذاب . خلافاً لمن زعم أن المشهد في الآية اسم مكان . أي فويل لهم من ذلك المكان الذي يشهدون فيه تلك الأهوال والعذاب . والأول هو الظاهر وهو الصواب إن شاء الله تعالى . وهذا المعنى الذي ذكره أيضاً في سورة » الزخرف « في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف : 63-65] وما اشار إليه في الآيتين : من أن الذين كفروا بالإفراط أو التفريط في عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، أنه لم يعاجلهم بالعذاب ، وانه يؤخر عذابهم إلى الوقت المحدد لذلك – أشار له في مواضع أخر . كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : 104] ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ

(50/486)

مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : 53] .

وبالجملة فاللهتعالى يمهل الظالم إلى وقت عذابه ، ولكنه لا يمهله . وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : » إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته « – ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المصير ﴾ [الحج : 48] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ قال أبو حيان في (البحر) : ومعنى قوله » من بينهم « أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا هو المختلفين – انتهى محل الغرض منه .

(51/486)

قوله ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ صيغتا تعجب. ومعنى الآية الكريمة: أن الكفار يوم القيامة يسمعون ويبصرون الحقائق التي أخبرتهم بها الرسل سمعاً وأبصاراً عجيبين، وانهم في دار الدنيا في ضلال وغفلة لا يسمعون الحق ولا يبصرونه. وهذا الذي بينه تعالى في هذه الآية الكريمة - بينه في مواضع أخر. كقوله في سمعهم وإبصارهم يوم القيامة: ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 12]، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق: 22]، وكقوله في غفلتهم في الدنيا وعدم إبصارهم وسمعهم: ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 1]، وقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: 7]، وقوله: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: 18]، وقوله: ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ [هود: 24] الآية. والمراد بالأعمى والأصم: الكفار. والآيات بمثل هذا كثيرة. واعلم أن صيغة التعجب إذا كانت على وزن أفعل به فهي فعل عند الجمهور، وأكثرهم يقولون إنه فعل ماض جاء على صورة الأمر. وبعضهم يقول: إنه فعل أمر لإنشاء التعجب، وهو الظاهر من الصيغة، ويؤيده دخول نون التوكيد عليه. كقول الشاعر:

ومستبدل من بعد غضيباً صريمه . . . فأحر به من طول فقر وأحريا

لأن الألف في قوله « وأحريا » مبدلة من نون التوكيد الخفيفة على حد قوله في الخلاصة :

وأبدلتها بعد فتح ألفاً . . . وقفاً كما تقول في قفن قفا

(52/486)

والجمهور أيضاً على أن صيغة التعجب الأخرى التي هي ما أفعله فعل ماض . خلافاً

لجماعة من الكوفيين في قولهم : إنها بدليل تصغيرها في قول العرجي :

يا ما أميليح غزلاناً شدن لنا . . . من هؤليا تكم لضال السمر

قالوا والتصغير لا يكون إلا في الأسماء . وأجاب من خالفهم بأن تصغيرها في البيت المذكور

شاذ يحفظ ولا يقاس عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(53/486)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

اعتراض بين الجُمل المقولة في قوله : ﴿ قال إني عَبْدُ الله ﴾ [مريم : 30] مع قوله : ﴿ وإن الله ربي وربكم ﴾ [مريم : 36] ، أي ذلك المذكور هو عيسى ابن مريم لا كما تزعم النصارى واليهود .

والإشارة لتمييز المذكور أكمل تمييز تعريضاً بالرد على اليهود والنصارى جميعاً ، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة ، ورفعه النصارى إلى مقام الإلهية ، وكلاهما مخطىء مبطل ، أي ذلك هو عيسى بالحق ، وأما من تصفونه فليس هو عيسى لأن استحضار الشخص بصفات غير صفاته تبديل لشخصيته ، فلما وصفوه بغير ما هو صفته جُعلوا بمنزلة من لا يعرفونه فاجتلب اسم الإشارة ليتميز الموصوف أكمل تمييز عند الذين يريدون أن يعرفوه حق معرفته .

والمقصود بالتمييز تمييز صفاته الحقيقية عن الصفات الباطلة التي ألصقوها به لا تمييزُ ذاته عن الذوات إذ ليست ذاته بحاضرة وقت نزول الآية ، أي تلك حقيقة عيسى عليه السلام وصفته .

و ﴿ قَوْلُ الحقّ ﴾ قرأهُ الجمهور بالرفع ، وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، ويعقوب بالنصب ؛ فأما الرفع فهو خبرٍ ثانٍ عن اسم الإشارة أو وصف لِعيسى أو بدل منه ، وأما النصب فهو حال من اسم الإشارة أو من عيسى .

ومعنى ﴿ قَولَ الحقّ ﴾ أن تلك الصفات التي سمعتم هي قول الحق ، أي مَقول هو الحق وما

خالفها باطل ، أو أن عيسى عليه السلام هو قول الحق ، أي مقول الحق ، أي المكون من قول (كُن) ، فيكون مصدراً بمعنى اسم المفعول كالخلق في قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله ﴾ [لقمان : 11] .

وجَوّز أبو علي الفارسي أن يكون نصب ﴿ قَولَ الحقّ ﴾ بتقدير : أحُقُّ قولَ الحق ، أي هو مصدر مؤكّد لمضمون الجملة قبله منصوب بفعل محذوف وجوباً ، تقديره : أحُقّ قولَ الحق .

ويجوز أن يكون ﴿ قَولَ الحقّ ﴾ مصدراً نائباً عن فعله ، أي أقول قول الحق .

وعلى هذين الوجهين يكون اعتراضاً .

(54/486)

ويجوز أن يكون ﴿ قَولَ ﴾ مصدراً بمعنى الفاعل صفة لِعيسَى أو حالاً منه ، أي قائل الحق إذ قال : ﴿ إنِّي عَبْدُ الله ءاتانِي الكِتَابَ إلى قوله : ﴿ أُبعثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 30 33] .

و ﴿ الَّذي فيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ صفة ثانية أو حال ثانية أو خبر ثان عن ﴿ عيسى ابنُ مريمَ ﴾ على ما يناسب الوجوه المتقدمة .

والامتراء : الشكّ ، أي الذي فيه يشكون ، أي يعتقدون اعتقاداً مَبناه الشك والخطأ ، فإن عاد الموصول إلى القول فالامتراء فيه هو الامتراء في صدقه ، وإن عاد إلى عيسى فالامتراء فيه هو الامتراء في صفاته بين رافع وخافض .

وجملة ﴿ مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ من ولد ﴾ تقرير لمعنى العبودية ، أو تفصيل لمضمون جملة ﴿ الذي فيه يمترون ﴾ فتكون بمنزلة بدل البعض أو الاشتمال منها ، اكتفاءً بإبطال قول النصارى بأن عيسى ابن الله ، لأنه أهم بالإبطال ، إذ هو تقرير لعبودية عيسى وتنزيه لله تعالى عما لا يليق بجلال الألوهيّة من اتخاذ الولد ومن شائبة الشرك ، ولأنه القول الناشيء عن الغلوّ في التقديس ، فكان فيما ذكر من صفات المدح لعيسى ما قد يقوي شبهتهم فيه بخلاف قول اليهود فقد ظهر بطلانه بما عُدد لعيسى من صفات الخير .

وصيغة ﴿ ما كان لله أن يتّخذ ﴾ تفيد انتفاء الولد عنه تعالى بأبلغ وجه لأنّ لام الجحود تفيد مبالغة النّفي ، وأنه مما لا يلاقي وجود المنفي عنه ، ولأن في قوله : ﴿ أن يتخذَ ﴾ إشارة إلى أنه لو كان له ولد لكان هو خَلَقَه ، واتّخذه فلم يَعْدُ أن يكون من جملة مخلوقاته ، فإثبات البنوّة له خُلْف من القَوْل .

(55/486)

وجملة ﴿ إذا قَضَى أمراً إنما يَقُولُ لهُ كُن فيَكُونُ ﴾ بيان لجملة ﴿ ما كان لله أن يتَّخِذ من ولدٍ ﴾ ، لإبطال شبهة النصارى إذ جعلوا تكوين إنسان بأمر التكوين عن غير سبب معتاد دليلاً على أن المكوّن ابن لله تعالى ، فأشارت الآية إلى أن هذا يقتضي أن تكون أصول الموجودات أبناء لله وإن كان ما يقتضيه لا يخرج عن الخضوع إلى أمر التكوين .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) ﴾

يجوز أن يكون هذا بقيةً لكلام جرى على لسان عيسى تأييداً لبراءة أمّه وما بينهما اعتراض كما تقدم آنفاً .

والمعنى : تعميم ربوبية الله تعالى لكل الخلق .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ورويس عن يعقوب همزة ﴿ وأَنَّ ﴾ مفتوحة فخرجه الزمخشري أنه على تقدير لام التعليل ، فإن كان من كلام عيسى فهو تعليل لقوله ﴿ فاعبدوهُ ﴾ على أنه مقدّم من تأخير للاهتمام بالعِلّة لكونها مقررة للمعلول ومثبته له على أسلوب قوله تعالى : ﴿ وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [الجنّ : 18] ويكون قوله ﴿ فَاعبُدُوهُ ﴾ متفرعاً على قوله ﴿ إني عَبْدُ الله ﴾ [مريم : 30] بعد أن أُردف بما تعلّق به من أحوال نفسه .

ولما اشتمل مدخول لام التعليل على اسم الجلالة أضمر له فيما بعد .

وتقدير النظم هكذا : فاعبدوا الله لأنه ربّي وربكم .

ويجوز أن يكون عطفاً على قوله ﴿ بالصلاة والزكواة ﴾ [مريم : 31] ، أي وأوصاني بأنّ الله ربّي وربكم ، فيكون بحذف حرف الجر وهو مطرد مع (أنّ) .

ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ الحَقّ ﴾ من قوله ﴿ قَولَ الحَقّ ﴾ [مريم : 34] على وجه جعل ﴿ قَولَ ﴾ بمعنى قائل ، أي قائل الحق وقائل إن الله ربّي وربّكم ، فإن همزة ﴿ أنَّ ﴾ يجوز فتحها وكسرها بعد مادة القول .

(56/486)

وإن كان ممّا خوطب النبي صلى الله عليه وسلم بأنْ يقوله كان بتقدير قول محذوف ، أو عطفاً على ﴿ مَرْيَمَ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ واذْكُرْ فِي الكتاب مَرْيَمَ ﴾ [مريم : 16] ، أي اذْكر يا محمد أن الله ربّي فكذلك ، ويكون تفريع ﴿ فاعبدوه ﴾ على قوله : ﴿ مَا كانَ للهِ أن يتَّخِذَ من وَلَدٍ سبحانه ﴾ [مريم : 35] إلى آخره . . .

وقرأه ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وخَلَف ، ورَوْح عن يعقوب بكسر همزة ﴿ إنَّ ﴾ .

ووجهها ظاهر على كلا الاحتمالين .

وجملة ﴿ هَذا صِراطٌ مسْتَقِيم ﴾ تذييل وفذلكة لما سبقه على اختلاف الوجوه .

والإشارة إلى مضمون ما تقدّم على اختلاف الوجوه .

والمراد بالصراط المستقيم اعتقاد الحق ، شُبه بالصراط المستقيم على التشبيه البليغ ، شُبه الاعتقاد الحق في كونه موصولاً إلى الهدى بالصراط المستقيم في إيصاله إلى المكان المقصود باطمئنان بال ، وعُلم أن غير هذا كبنَيّات الطريق مَن سلكها ألقت به في المخاوف والمتالف كقوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام : 153] .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾

الفاء لتفريع الإخبار بحصول الاختلاف على الإخبار بأن هذا صراط مستقيم ، أي حادَ عن الصراط المستقيم الأحزابُ فاختلفوا بينهم في الطرائق التي سلكوها ، أي هذا صراط مستقيم لا يختلف سالكوه اختلافاً أصلياً ، فسلك الأحزاب طرقاً أخرى هي حائدة عن الصراط المستقيم فلم يتفقوا على شيء .

وقوله ﴿ مِن بينهم ﴾ متعلّق باخْتَلَفَ .

و(من) حرف توكيد ، أي اختلفوا بينهم .

والمراد بالأحزاب أحزاب النصارى ، لأن الاختلاف مؤذن بأنهم كانوا متفقين ولم يكن اليهود موافقين النصارى في شيء من الدين .

وقد كان النصارى على قول واحد على التّوحيد في حياة الحواريين ثم حدث الاختلاف في تلاميذهم .

(57/486)

وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ﴾ في سورة النساء (171) أن الاختلاف انحلّ إلى ثلاثة مذاهب : المَلْكَانِيّة (وتسمى الجاثُليقيّة) ؛ واليعقوبية ، والنسطورية .

وانشعبت من هذه الفرق عدّة فِرق ذكرها الشهرستاني ، ومنها الاليانة ، والبليارسية ، والمقدانوسية ، والسبالية ، والبوطينوسية ، والبولية ، إلى فرق أخرى .

منها فرقة كانت في العرب تسمى الرّكوسية ورد ذكرها في الحديث : أن النبي قال لعدي بن حاتم : إنّك رَكُوسي .

قال أهل اللغة هي نصرانية مشوبة بعقائد الصابئة .

وحدثت بعد ذلك فرقة الاعتراضية (البُرُوتِسْتان) أتباع (لوثير) .

وأشهر الفرق اليوم هي الملكانية (كاثوليك) ، واليعقوبية (أرثودوكس) ، والاعتراضية (بُرُوتستان) .

ولما كان اختلافهم قد انحصر في مرجع واحد يرجع إلى إلهية عيسى اغتراراً وسوءَ فهم في معنى لفظ (ابن) الذي ورد صفة للمسيح في الأناجيل مع أنه قد وصف بذلك فيها أيضاً أصحابه .

وقد جاء في التوراة أيضاً أنتم أبناء الله .

وفي إنجيل متي الحواري وإنجيل يوحنا الحواري كلمات صريحة في أن المسيح ابن إنسان وأن الله إلهُ وربُّه ، فقد انحصرت مذاهبهم في الكفر بالله فلذلك ذُيل بقوله فَوَيْلٌ لِلذين كَفَرُوا مِن مَشْهَدِ يومٍ عَظِيمٍ ﴾ ، فشمل قولُه (الَّذِينَ كَفَرُوا) هؤلاء المخبرَ عنهم من النصارى وشمل المشركين غيرهم .

والمشهد صالح لمعان ، وهو أن يكون مشتقاً من المشاهدة أو من الشهود ، ثمّ إما أن يكون مصدراً ميمياً في المعنيين أو اسم مكان لهما أو اسم زمان لهما ، أي يوم فيه ذلك وغيره .

والويل حاصل لهم في الاحتمالات كلها وقد دخلوا في عموم الذين كفروا بالله ، أي نفوا وحدانيته ، فدخلوا في زمرة المشركين لا محالة ، ولكنهم أهل كتاب دون المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(58/486)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

﴿ ذلك ﴾ [مريم : 34] أي : ما تقدّم من قصة عيسى عليه السلام ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ [مريم : 34] أي : يقولها الله تعالى قَوْلَة حَقٍّ ، والحق هو الله ، فالذي قَصّ عليك هذا القَصَص هو الله ، وقوله الحق الذي لا باطلَ فيه ، فيكون الحق الذي هو ضد الباطل ، فالمعنيان ملتقيان .

أو : يكون المراد بقول الحق كلمة (كُنْ) التي بها يتمّ الخَلْق .

ثم يقول تعالى : ﴿ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : 34] من المراء : وهو الاختلاف والجدال بالباطل ، فالحق سبحانه يعلم أنهم سيشكُّون فيه ، ويتجادلون بالباطل ، وأنهم سيقولون فيه الأقاويل ، وكأن الله تعالى يقول لهم : اتركوا هذه الأقاويل والأباطيل في شأن عيسى وخُذُوا بما أخبرتُكم به من خبره ، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ ﴾

لماذا تكلم الحق سبحانه هنا عن نفي الولد بالذات ؟

قالوا : لأن مسألة الشريك لله تعالى تُنفَى بأولية العقل ، فإنْ كان كُلُّ إله صالحاً للفعل وللترك ، فهذه صورة مُكرّرة لا تناسب الإله ، وإنْ كان هذا إلهاً لكذا وهذا إله لكذا ، فما عند

أحدهما نقص في الآخر ، وهذا محال في الإله ، ولو أن هناك إلهاً آخر لذهب كل منهما بجزء ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] .

لذلك نفى مسألة الولد ؛ لأنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لقصة عيسى عليه السلام ؛ لأن الولد من الممكن أنْ يُستبعَد فيه الدليل ، لماذا ؟ لأن دليله اتخاذُ الولد أو حُبُّ الولد ، والإنسان يحب الولد ويسعى إليه ، لماذا ؟

(59/486)

قالوا : لأن الإنسان ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحبّ أن يكون له امتداد في الدنيا وذِكْر من بعده ، فالإنسان يتمسّح في الدنيا حتى بعد موته ، وهو لا يدري أن ذِكْر الإنسان لا يأتي بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح .

إذن : فحبُّ الولد هنا لاستدامة استبقاء الحياة ، وهذا مُحَال في حَقِّ الله تبارك وتعالى ؛ لأنه الباقي الذي لا يزول .

وقد يتخذ الولد ليكون عِزْوة لأبيه وسَنداً ومُعِيناً ، وهذا دليل الضَّعْف ، والحق سبحانه هو القويّ الذي لا يحتاج إلى معونة أحد . إذن : فاتخاذ الولد أمر منفيّ عنه تبارك وتعالى ،

فهو أمر لا يليق بمقام الألوهية ، ويجب أنْ تُنزِّه الله تعالى أن يكون له ولد ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ [مريم : 35] .

وسبحان تدل على التنزيه المطلق لله تعالى تنزيهاً له في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فهو سبحانه ليس كمثله شيء ، وإنْ وجدتَ صفة مشتركة بينك وبين الله كأنْ يكونَ لله تعالى وجه ويد ، ولكَ وجه ويد ، فإياك أنْ تنزل بالمستوى الأعلى فتقول : وجهه كوجهي ، أو يده كيدي ، لأن لك وجوداً ولله تعالى وجود ، فهل وجودك كوجود الله ؟

وجودك مسبوق بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده تعالى لم يُسبَق بعدم ولا يلحقه العدم ، فعليك إذن أن تقول في مثل هذه المسائل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] .

والمتتبع لمادة (سَبَّح) في القرآن الكريم يجد أنها جاءت بكل الصِّيَغ :

الماضي : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [الحديد : 1] .

والمضارع : ﴿ يُسَبِّحُ للَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الجمعة : 1] .

والأمر في : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] .

(60/486)

فما دام الكون كله سبَّح لله ، ولم ينقطع عن تسبيحه ، بل ما زال مُسبِّحاً ، فلما خلق الخلق أمرهم بالتسبيح ؛ لأنهم جزء من منظومة الكون المسبّح ، وعليهم أنْ ينتظموا معه ، ولا يكونوا نشازاً في كون الله .

أما المصدر (سبحان) فقد جاء ليدل على التنزيه المطلق لله تعالى ، حتى قبل أن يخلق الخَلْق ، التنزيه ثابت له تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزِّهه كما في قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1] .

لأن المسألة عجيبة وفوق إدراك العقل ، فقد جاء بالمصدر (سبحان) الدالّ على التنزيه المطلَق لله ، كأنه تعالى يُحذّر الذين يُحكِّمون عقولهم ، ولا يُحكِّمون قدرة الله الذي خلقهم بقانون الزمان والمكان والبُعْد والمسافة ، فكُلُّ فعل يتناسب قوةً وقدرةً مع فاعله .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم : 35] ذلك لأن الآية في خَلْق عيسى عليه السلام مخالفة للنواميس كلها ، وخارقة للعادة التي أَلِفها الناس ، فإياك أنْ تتعجب من فِعْل الله تعالى في يحيى ، حيث جاء به مع عطب الآلات ، أو تتعجب من خَلْق عيسى حيث جاء به مع نقص الآلات .

وإياك أنْ تتعَجَّب من كلام عيسى وهو في المهد صَبِياً ، فهي أمور نعم خارقة للعادة وللنواميس ، فخُذْها في إطار (سبحانه) وتنزيهاً له ؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئاً لا يعالجه

بعمل ومُزاولة ، وإنما يعالجه (بكُنْ) فيكون .

ولا تظن أن خَلْق الأشياء متوقف على هذا الأمر (كُنْ) ، فإن كان الفعل مُكوّناً من (كاف) و (نون) فقبل أن تنطق النون يكون الشيء موجوداً ، لكن (كُنْ) هو أقصر ما يمكن تصوّره لنا ، والحق سبحانه يخاطبنا بما يُقرِّب هذه المسألة إلى عقولنا ، وإلا فإرادته سبحانه ليستْ في حاجة إلى قول (كُنْ) فما يريده الله يكون بمجرد إرادته .

(61/486)

كما أنك لو أمعنتَ النظر في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم : 35] تجد (يقُولُ لَهُ) أي : للشيء ، فكأن الشيء موجود بالفعل ، موجود أزلاً ، فالأمر بكُنْ ليس لإيجاده من العدم ، بل لمجرد إظهاره في عالم الواقع .

ثم يقول : ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾

الرب : هو المتولّي للتربية والرعاية . والتربية تعني أن يأخذ المربِّي المربَّى بالرياضة إلى مَا يصلحه لأداء مهمته والقيام بها ، كما لو أردتَ مهندساً تُربّيه تربيه مهندس ، وإن أردت طبيباً تربية تربية طبيب . ونحن هنا أمام قوم أشركوا بالله ، ونحتاج لداعية يُخرِجهم من الشرك إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة .

فالمعنى : ما دام أن الله تعالى ربي وربكم ، والمتولّي لتربيتنا جميعاً ، فلا بُدَّ أن يُربّى لكم مَنْ يصلحكم ؛ لأنه تعالى لا يخاطبكم مباشرة ، بل سيبعثني إليكم أبلغكم رسالته ، وأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له ، وما دام الله ربي وربكم فمن الواجب أنْ تُطيعوه ﴿ فاعبدوه ﴾ [مريم : 36] والعبادة أنْ يطيعَ العابدُ معبوده في أوامره وفي نواهيه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ ﴾ [البينة : 5] .

ثم يقول تعالى : ﴿ هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم : 36] أي : الذي لا التواءَ فيه ولا اعوجاجَ ، وهو الطريق الذي يُوصِّلك لمقصودك من أقرب طريق ، وبأقلّ مجهود ، ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾

الأحزاب : أي الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من قومه ، فمنهم مَنْ قال : هو إله ، ومنهم مَن قال : ابن إله . وآخر قال : هو ثالث ثلاثة . ومنهم مَنْ رماه بالسحر وقال عنه بعضهم : ابن زنى نستغفر الله مما يقوله الظالمون والكافرون .

(62/486)

والأحزاب : جمع حِزْب ، وهم طائفة من الناس اجتمعوا حول مبدأ من المبادىء ، ورأْي مَن الآراء يدافعون عنه ويعتقدونه ، ويسيرون في حياتهم على وفقه ، ويُخضِعون حركة حياتهم لخدمته .

ومعنى : ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ [مريم : 37] يعني من داخل المؤمنين به ومن أتباع عيسى أنفسهم ، فالذين قالوا عنه هذه الأباطيل ليسو من أعدائه ، بل من المؤمنين به .

وهكذا اختلف القوم في أمر عيسى ، وكان لكل منهم رَأْي ، وجميعها مُنَافِية للصواب بعيدة عن الحقيقة ؛ لذلك توعّدهم الخالق سبحانه بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : 37] .

فقد قلتم في عيسى ما قُلْتم في الدنيا ، وخُضْتم فيه بما أحببتُمْ من القول ؛ لأن الله تعالى جعل إرادتكم نافذة على جوار حكم ، وأعطاكم حرية الفعل والاختيار ، فوجَّهتم جوار حكم واخترتم ما يُغضب الله ، فكأن عقوبة الدنيا لا تناسب ما فعلوه ، ولأبدَّ لهم من عقوبة آجلة في الآخرة تناسب ما حدث منهم في حَقِّ نبيهم وفي حَقِّ ربهم تبارك وتعالى .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : 37] ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وسماه المشهد العظيم ؛ لأنه يوم مشهود يشهده الجميع ؛ لأن العذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده

إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذي يراه كل الخَلْق .

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذِّب ، فربما تحمَّل هو العذاب في نفسه أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جمعياً ، ويرونه في هذه المهانة وهذه الذلة وقد كان في الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً ، لا شكَّ أن رؤيتهم له في هذه الحالة تكون أنكَى له وأبلغ .

(63/486)

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنهم في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام : 27] هذا منهم مجرد كلام : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنعام : 28] أي : ظهر لهم ما كانوا يخفون ولم يقُلْ يخفَى عنهم ، كأنهم كانوا يعلمون عنه شيئاً ولكنهم أخفوْه .

وقال عنهم : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12] .

فلماذا أبصروا وسمعوا الآن ؟ لأنهم كانوا يسمعون في الدنيا عن غير وَعْي ، فينكرون

ويُبصرون آيات الله في الكون ولا يؤمنون ، أما في الآخرة فقد انكشفتْ لهم الحقائق التي طالما أنكَروها ، ولم يَعُدْ هناك مجال للمكابرة أو الإنكار ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(64/486)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (مريم : 37) ، وفي سورة الزخرف : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (الزخرف : 65) ، للسائل أن يسأل عن قوله : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وقوله في الأخرى : (لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) وما وجه تخصيص كل آية منهما بما ورج فيها وعن قوله في الأولى : (مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وفي الثانية : (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) ؟ فهذان سؤالان .

(65/486)

والجواب عن الأول منها : أن الكفر بالله سبحانه أعظم من كل خطيئة ، والذي لا ينفع معه شيء من أعمال البر ، فهو أعظم من الظلم ، ثم قد يوصف الكافر بالظلم إشارة إلى الصفة اللازمة له من ظلمه نفسه بكفره وشنيع مرتكبه ، فيشعر إذ ذاك هذا الوصف إذا ورد تابعاً للكفر ولفظ الكفر منطوق به أو مفهوم من سياق الكلام بزيادة توجب زيادة التنكيل ، قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ) (النساء : 168) ، فقوله في آية سورة مريم : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (مريم : 37) معقب بها قوله تعالى : (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (مريم : 34-36) ، ثم قال : (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (مريم : 37) ، والمراد اختلافهم في نبي الله عيسى ، عليه السلام ، حيث قال بعضهم : هو الله ، وبعضهم يقول : ابن الله ، وبعضهم : ثالث ثلاثه ، فهذا اختلافهم ، وقال تعالى : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ، فومهم بالكفر الذي هو ضابط أقوالهم وأم مرتكباتهم ، وأخبر باستحقاق الويل لهم لكفرهم من شهود ذلك اليوم الفاضح لهم على رؤوس الأشهاد ، وفيه قال تعالى : (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) (هود : 103) ، وفيه يقول الأشهاد : (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ

أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (هود : 18) ، ثم ذكرهم في آية الزخرف بصفتهم من الظلم اللازم لكفرهم

(66/486)

، وليناسب بذلك ما تقدم من وهم من أعتمد غير الله سبحانه ، فقرن بمعتمده في العذاب وهو المقول فيه : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف : 36) ، فقيل فيه وفي متخذه : (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) (الزخرف : 39) ، والظلم هنا ظلم الكفر من عبد عيسى ، عليه السلام ، من الأحزاب المذكور اختلافهم في خاصته دون متخذه بحال هؤلاء ، فوسموا بالظلم كوسن من تقدم فقيل : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) ، وظلم هؤلاء كفر كحال من تقدم ، فتناسب هذا ، ولم يقع في آية سورة مريم ما يطلب بمناسبة ، فوصفوا هناك بالكفر بخلاف آية الزخرف ، فجاء كل على ما يجب ، ثم قال (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (الزخرف : 65) ، فذكر العذاب المعقب به ذلك اليوم المشهود ، ووصف اليوم بالإيلام وإن كان المؤلم إنما هو العذاب مبالغة في شدة الإيلام من عذاب ذلك اليوم ، كما قالوا : نهارك صائم وليلك قائم ، وهذا العذاب ثان عن قيامهم في ذلك المشهود وسوء حالهم فيه ، وجاء ذلك على الترتيب الذي استقر عليه

الكتاب العزيز ، فذكر في المتقدم من الآيتين المتقدم وجوداً من حالهم الأخراوي ، وفي الآية الثانية ترتيب ما هو ثان عن ذلك ، وجاء كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 326. 327 ﴾

(67/486)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق ﴾ قال : الله عز وجل ، الحق .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ الذي فيه يمترون ﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج من كل قوم عالمهم فتشاوروا في عيسى حين رُفِعَ ، فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيى من أحيى وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية فقالت الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه . فقال : هو ابن الله ، وهم النسطورية . فقال اثنان : كذبت . ثم قال أحد الإثنين للآخر

: قل فيه . قال : هو ثالث ثلاثة : الله إله ، وعيسى إله ، وأمه إله . وهم الإسرائيلية وهم ملوك النصارى . فقال الرابع : كذبت . . هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال ، فاقتتلوا فظهر على المسلمين . فذلك قول الله ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ [آل عمران : 21] قال قتادة : وهم الذين قال الله ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، فاختلف القوم ، فقال المرء المسلم : أنشدكم . . . هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام ، وأن الله لا يطعم الطعام ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فهل تعلمون أن عيسى كان ينام ، وأن الله لا ينام ؟ قالوا : اللهم نعم . فخصمهم المسلمون فانسل القوم ، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ ، وأصيب المسلمون ، فأنزل الله في ذلك القرآن ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ [مريم : 37] .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال : هم أهل الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(68/486)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ " عيسى " خبراً ل " ذلك " ، ويجوز أَنْ يكونَ بدلاً أو عطفَ بيانٍ . و " قولُ الحق " خبره . ويجوز أَنْ يكونَ " قولُ الحق " خبرَ مبتدأ مضمر ، أي : هو قولُ : و " ابن مريم " يجوز أَنْ يكونَ نعتاً أو بدلاً أو بياناً أو خبراً ثانياً .

وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر " قولَ الحق " بالنصبِ والباقون بالرفع . فالرفعُ على ما تقدَّم . قال الزمخشري : " وارتفاعُه على أَنَّه خبرٌ بعد خبرٍ ، أو بدلٌ " قال الشيخ : " وهذا الذي ذكرَه لا يكونُ إلا على المجازِ في قولٍ : وهو أن يُراد به كلمةُ الله ؛ لأنَّ اللفظَ لا يكون الذاتَ " . والنصب : يجوز فيه أَنْ يكونَ مصدراً مؤكّداً لمضمون الجملة كقولِك : " هو عبدُ الله الحقَّ لا الباطِلَ ، أي : أقولُ قولَ الحق ، فالحقُّ الصدقُ وهو مِنْ إضافةِ الموصوف إلى صفتِه ، أي : القول الحق ، كقولِه : ﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ [الاحقاف : 16] ، أي : الوعدَ الصدقَ .

ويجوز أن يكونَ منصوباً على المدح ، أي : أُريد بالحقِّ الباريْ تعالى ، و " الذي " نعتٌ للقول إنْ أُرِيْدَ به عيسى ، وسُمِّي قولاً كما سُمِّي كلمةً لأنه عنها نشأ . وقيل : هو منصوبٌ بإضمار أعني . وقيل : هو منصوبٌ على الحالِ من " عيسى " . ويؤيِّد هذا ما نُقِل عن الكسائي في توجيهِ الرفعِ : أنه صفةٌ لعيسى .

وقرأ الأعمشُ " قالُ " برفع اللام ، وهي قراءةُ ابن مسعودٍ أيضاً . وقرأ الحسن " قُوْلُ " بضم القاف ورفع اللام ، وهي مصادر لقال . يقال : قال يَقُول قَوْلاً وقالاً وقُوْلاً ، كالرَّهْبِ والرَّهَبِ والرُّهْب . وقال أبو البقاء : " والقال : اسمٌ [للمصدرِ] مثل : القيل ، وحُكي " قُولُ الحق " بضمِّ القاف مثل " الرُّوْح " وهي لغةٌ فيه " . قلت : الظاهرُ أنَّ هذه مصادرٌ كلُّها ، ليس بعضُها اسماً للمصدرِ ، كما تقدَّم تقريرُه في الرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب .

وقرأ طلحةُ والأعمش " قالَ الحقُّ " جعل " قال " فعلاً ماضياً ، و " الحقُّ " فاعلٌ به ، والمرادُ به الباري تعالى . أي : قال اللهُ الحقُّ : إنَّ عيسى هو كلمةُ الله ، ويكونُ قولُه ﴿ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف .

وقرأ علي بن أبي طالب والسُّلَمي وداود بن أبي هند ونافع والكسائي في رواية عنهما " تَمْتَرون " بتاء الخطاب . والباقون بياءِ الغَيْبة . وتَمْتَرُون تَفْتَعِلُون : إمَّا مِنْ المِرْية وهي الشكُّ ، وإمَّا من المِراء وهو الجدالُ .

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) ﴾

وتقدَّم الكلامُ على نصبِ " فيكونَ " وما قيل فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَ ﴾ :

قرأ ابن عامرٍ والكوفيون " وإنَّ " بكسر " إنَّ " على الاستئناف ، ويؤيِّدها قراءةُ أُبَيّ ﴿ إِنَّ اللهَ ﴾ بالكسر دون واو .

وقرأ الباقون بفتحها ، وفيها أوجهٌ ، أحدُها : أنها على حَذْفِ حرفِ الجرّ متعلّقاً بما بعده ، والتقدير : ولأنَّ اللهَ ربي وربُّكم فاعبُدوه ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ [الجن : 18] والمعنى لوَحْدانيَّته أَطِيْعوه . وإليه ذهب الزمخشري تابعاً للخليل وسيبويه .

(70/486)

الثاني : أنها عطفٌ على " الصلاةِ " والتقدير : وأوصاني بالصلاةِ وبأنَّ اللهَ . وإليه ذهب الفراء ، ولم يذكر مكيٌّ غيرَه . ويؤيِّده ما في مصحف أُبَيّ " وبأنَّ اللهَ ربي " بإظهار الباءِ الجارَّة . وقد استُبْعِد هذا القول لكثرةِ الفواصلِ بين المتعاطفَيْن . وأمَّا ظهورُ الباءِ في مصحفِ أُبَيّ فلا يُرَجِّحُ هذا لأنها باءُ السببيةِ ، والمعنى : بسبب أنَّ اللهَ ربي وربُّكم فاعبُدوه فهي كاللام .

الثالث : أَنْ تكونَ " أنَّ " وما بعدها نَسَقاً على " أمراً " المنصوبِ ب " قَضَى " والتقدير :

وإذا قضى أمراً ، وقضى أنَّ اللهَ ربي وربُّكم . ذكر ذلك أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء . واستبعد الناسُ صحةَ هذا النقلِ عن أبي عمرو ؛ لأَّنه من الجلالةِ في العِلْم والمعرفة بمنزلٍ يمنعُه من هذا القولِ ؛ وذلك لأَّنه إذا عَطَفَ على " أمراً " لزم أن يكونَ داخلاً في حَيِّز الشرطِ ب " إذا " ، وكونُه تبارك وتعالى ربُّنا لا يتقيَّد بشرطٍ البتةَ ، بل هو ربُّنا على الإطلاق . ونسبوا هذا الوهمَ لأبي عبيدةَ كان ضعيفاً في النحو ، وعَدُّوا له غَلَطاتٍ ، ولعلَّ ذلك منها .

الرابع : أَنْ يكونَ في محلِّ رفعٍ خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ ، تقديرُه : والأمرُ أنَّ اللهَ ربي وربُّكم . ذُكِر ذلك عن الكسائي ، ولا حاجةَ إلى هذا الإضمارِ .

الخامس : أَنْ/ يكونَ في محلِّ نصبٍ نَسَقاً على " الكتاب " في قولِه " قال : إني عبد الله آتاني الكتابَ " على أن يكونَ المخاطَبُ بذلك معاصِري عيسى عليه السلام ، والقائلُ لهم ذلك عيسى . وعن وَهْب : عَهِدَ إليهم عيسى أنَّ اللهَ ربي وربُّكم . قال هذا القائل : ومَنْ كسرَ الهمزةَ يكون قد عَطَفَ ﴿ إنَّ الله ﴾ على قوله " إني عبدُ الله " فهو داخِلٌ في حَيِّز القولِ . وتكون الجملُ من قوله ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ إلى آخرها جملَ اعتراض ، وهذا من البُعْدِ بمكانٍ .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن مَّشْهِدِ ﴾ : " مَشْهد " مَفْعَل : إمَّا من الشهادة ، وإمَّا من الشهود وهو الحضورُ . و " مَشْهد : هنا يجوز أن يُراد به الزمانُ أو المكان أو المصدر : فإذا كان من الشهادة ، والمراد به الزمان ، فتقديره : مِنْ وقتِ شهادة . وإن أريد به المكانُ فتقديره : من مكانِ شهادة يوم . وأنْ أريد به المصدرُ فتقديرُه : من شهادةِ ذلك اليومَ ، وأَنْ تشهدَ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم والملائكةُ والأنبياءُ . وإذا كان من الشهود وهو الحضورُ فتقديرُه : مِنْ شهود الحساب والجزاء يوم القيامة ، أو من مكانِ الشهود فيه وهو الموقفُ أو من وقتِ الشهود ؟ وإذا كان مصدراً بحالتيه المتقدمتين فتكون إضافتُه إلى الظرف من بابِ الاتساعِ ، كقوله ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] . ويجوز أَنْ يكونَ المصدرُ مضافاً لفاعِله على أن يُجْعَلَ اليومُ شاهداً عليهم : إمَّا حقيقة وإمَّا مجازاً .

أهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 597.602 ﴾

(72/486)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

أي الذي قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيكون بقول إله ؟

وقد شكَّ فيه أكثر الخَلْق فَرَدَّه قومٌ وقَبِله قومٌ ، والفَرق بينهم افي استحقاقه .

وقوله : ﴿ قَوْلَ الحَقِّ ﴾ أي يكون بقوله الحق وهو :

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾

لا يجوز أن يكون له وَلَدٌ على الحقيقة ؛ لأنه واحد ، والوَلَدُ بعضُ والده .

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة . ولا يجوز عليه التبني لأحدٍ لَعَدَمِ الجنسية بينهما .

وقوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً . . . ﴾ إذا أراد إحداثَ شيءٍ خَلَقَه بقدرته ، وخاطَبَه بأمر التكوين ، ولا يتعصَّى عليه – في التحقيق – مقدور .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ أي أمرني بأن تعلموا ذلك ؛ وأمرني بتبليغ رسالتي ، واتباع ما شَرَعَ اللَّهُ من العبادات .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) ﴾

فَمَنْ عُجِنَتْ بماءِ السعادةِ طينتُه أَطَاعَ في عاجله وما ضاع في آجله ، ومَنْ أَقْصَتْه القِسْمة

السابقة لم تُدْنِه الخِدْمَةُ اللاحقة ، وسَيَلْقَوْنَ غِبَّ هذا الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 428 . 429 ﴾

(73/486)

من فوائد الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قال رحمه الله :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16)

التفسير :

هذه الآيات تحدث عن قصة مريم ، وعن ميلاد المسيح عيسى ابن مريم ، على تلك الصورة العجيبة ، التي جاءت على غير مألوف المواليد من الأحياء فى عالم البشر خاصة .

وقد ذكرت هذه القصة فى سورة آل عمران ، تالية لقصة ميلاد يحيى ، كما جاءت على هذا الترتيب هنا . .

غير أننا إذ نكتفى بما قلنا فى تفسير الآيات الواردة عن هذه القصة فى آل عمران . . نودّ أن نفسر هنا بعض المفردات ، ثم نشير إلى ما لا بد من الإشارة إليه من مضامين القصة الواردة هنا . .

انتبذت : انتحت ناحية ، وأخذت مكانا خاصا . . وفى التعبير عن هذا بالانتباذ ، ما يشير إلى أنها كانت فى حال خاصة ، تتكرّه فيها أن تختلط بالناس . .

والرّوح : الملك ، ويغلب أن يكون وصفا خاصا بجبريل عليه السلام . .

والبغيّ : الفاجرة الزانية . . وهو من البغي والعدوان . .

أجاءها المخاض : ألجأها واضطرها . . والمخاض ما يعترى المرأة وقت الولادة .

والنّسى المنسيّ : الشيء التافه الذي لا يحرص أصحابه على الإمساك به ، ولا يذكرونه إذا ضاع منهم . .

والسّرىّ : النهر الصغير ، الذي يسرى فى رقة وسكون . . والسّرىّ : العظيم من الناس ، المحمود فيهم . .

(74/486)

والشيء الفرىّ : هو الغريب العجيب ، الذي يجىء على غير مألوف الناس ، فيفرى : أي يخرق عاداتهم . .

والذي نريد أن نشير إليه من هذه القصة :

أولا : قوله تعالى : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ »

هو تنويه بشأنها ، وذلك بإفساح مكان لها فى القرآن الكريم ، تذكر فيه ، مع من يذكر من عباد اللّه المخلصين . .

وثانيا : فى سورة آل عمران ، جاء قوله تعالى : « إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » (45 : آل عمران) . .

فالخطاب موجه إلى مريم من جماعة من الملائكة . . وهنا فى سورة مريم يكون الخطاب بينها وبين ملك واحد : « فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا »

.

« قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا »

. . فما وجه هذا الخلاف فى الموضعين ، والقصة واحدة ؟ .

ونقول : إن المراد بالملائكة هناك هو عالم الملائكة ، الممثل فى واحد أو أكثر كما فى قوله تعالى : « الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » (173 : آل عمران) حيث يصح أن يكون القائل واحدا من الناس لا جماعة منهم . .

والذي يشهد لهذا أنه حين استمعت مريم إلى ما حدثها به عالم الملائكة وأظهرت عجبا واعتراضا على ما حدّثت به. كان الذي تولى دفع هذا العجب

وردّ هذا الاعتراض ، ملك واحد . . كما جاء فى قوله تعالى : « قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ » (47 : آل عمران) . .

وثالثا : لم تشر الآيات فى آل عمران إلى أن أحدا من الملائكة قد تمثل لها فى صورة بشر ، وهنا قد أشارت الآيات إلى أن « الروح » قد تمثل لها بشرا سويا . .

فما جاء هنا مكمل للصورة التي جاءت هناك ، شارح لها ، على حين يمكن أن تستقل كل صورة بالكشف عن الحدث ، دون أن يختلف وجه الحقيقة بينهما . .

(75/486)

ورابعا : فى قوله تعالى : « فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ » إشارة إلى أن عيسى عليه السلام قد ولد ميلادا طبيعيا من رحم أمه ، كما يولد غيره من الناس ، وكما تلد الأمهات أبناءهن . . وأن مريم قد حملت به حملا طبيعيا ، حتى إذا استوفت مدة حمله ، وأحست بالمخاض لجأت إلى جذع نخلة ، واستندت إليها ، حتى تجد القوة على دفع الحمل من رحمها . .

وخامسا : قوله تعالى : « فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » . .

اختلف فى المنادى لها : أهو ملك ؟ أم وليدها الذي بدأ يتحرك إلى العالم الخارجي ؟ . .

والذي نأخذ به ، هو أن المنادى لها ، لا يكون ملكا ، إذ لو كان ملكا لناداها من علوّ ، وهو الجهة المتنزل منها . . وأنه إذا كان المنادى ملكا فلم يجىء إليها من تحت لا من فوق ؟ وإذن

فالمنادى لها هو من كان تحتها بالفعل ، وهو وليدها ! . .

وفى حديث وليدها إليها فى هذا الوقت ، ما يكشف لها عن التجربة التي ستواجه بها قومها منه ، حين تدعوه إلى الكلام ، فيتكلم . . ولو أن عيسى لم يكن قد تكلم إليها ، وأسمعها صوته من قبل ، لما وجدت الجرأة على أن تلقى قومها بالطفل ، ثم تلقاهم بهذا التحدّى ، وهو أن تدعوهم إلى الاستماع إليه ! ومما يؤيد هذا الرأى قراءة من قرأ : « فَناداها مِنْ تَحْتِها » باعتبار « من اسم موصول » يقع فاعلا ، للفعل ، « نادى » . .

وسادسا : فى قوله تعالى : « يا أُخْتَ هارُونَ » . .

اختلف فى هرون هذا . . من يكون ؟ أهو هرون النبىّ أخو موسى ؟

أم هو أخ لها من أبيها ؟ أم هو رجل صالح معروف بين قومها بالتقوى ؟ أم هو رجل فاجر يضرب به المثل عندهم لكل من يأتى منكرا ؟

والذي نأخذ به أن « هارون » هذا هو هارون النبىّ ، وقد أضيفت إليه ، ولم تضف إلى موسى ، لأنها كانت من نسل هارون ، ولأن موسى لم يعقب نسلا . .

(76/486)

وأضيفت إليه إضافة أخوة ، لا إضافة بنوّة ، لأن أبناء هرون ، وذريته المتعاقبة منهم لم يكونوا على حال واحدة من الاستقامة والتقوى ، ففيهم الصالح ، وفيهم الفاسد ، . . فهى وإن كانت بنت هرون نسبا ، هى أخته وصنوه استقامة وصلاحا ! . .

وسابعا : قوله تعالى : « ذِلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ما كانَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ » . .

هو تعقيب على القصة ، وعلى ميلاد هذا المولود على تلك الصورة التي أوقعت كثيرا من الناس فى الضلال ، فاتخذوا منه إلها ، وجعلوه وجها من وجوه ثلاثة جعلوها للّه ، هى الأب ، والابن ، وروح القدس . .

وهذا التعقيب ، قد يكون على لسان عيسى عليه السّلام . . كاشفا به عن حقيقته ، وأنه إن يكن قد ولد لغير أب ، أو تكلّم يوم مولده ، فإن ذلك لم يكن ليخرجه عن حدود البشرية ، ولم يكن ليجعل له إلى الألوهية سبيلا من أي وجه ، وعلى أية صفة . . وقد يكون ذلك قولا ينبغى أن يقوله كل من يستمع إلى آيات اللّه التي تحدّث بها القرآن ، عن مولد عيسى ، فيصدّق بها ، وينظر من خلالها إلى جلال اللّه وعظمته ، وتفرّده بالخلق والأمر . .

فالذين يمترون فى عيسى ، ويجادلون فى أمره ، بين من يرميه بأنه ابن سفاح ، وبين من يقول إنه إله أو ابن إله ـ هؤلاء الذين يمترون فيه ، قد كشف لهم عيسى عن وجهه ، وتحدث إليهم بلسانه . . إنه عيسى بن مريم ، وذلك هو القول الحق الذي ينبغى أن يقال فيه . . فهو ابن امرأة ، لم تجىء به من رجل ، وإنما من نفخة تلقتها من روح اللّه . . وانتماؤه أولا وأخيرا إلى أمّه ، التي حملت به ، ووضعته وأرضعته . . أما القول بأنه ابن اللّه ، فهو قول آثم ، سفيه « ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ . . سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ولو شاء ـ سبحانه ـ أن يخرج عيسى إلى هذه الدنيا من غير أب أو أم لما كان ذلك بالمعجز لقدرة اللّه . . « إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (59 : آل عمران) .

ويكفى أن يكون آخر ما نطق به عيسى أن قال : « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » ويكفى أن يكون آخر ما نطق به فى مهده : « وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ » ـ يكفى هذا ليكون شهادة تبطل كل قول يقال فيه ، غير الذي نطق هو به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 8 صـ 729 . 733 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك المشهد عظيم الجمع ، شديد الزحام مستوي الأرض ، بعيد الأرجاء ، كان حاله مقتضياً لئلا يطلعوا على غير ما يليهم من أهواله ، فقال في جواب من يقول : وما عسى أن يسمعوا أو يبصروا فيه ، معلماً بأن حالهم في شدة السمع والبصر جديرة بأن يعجب منها : ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ أي ما أشد سمعهم وما أنفذ بصرهم ! ﴿ يوم يأتوننا ﴾ سامعين لكل أهواله ، مبصرين لسائر أحواله ، فيطلعون بذلك على جميع ما أدى عمله في الدنيا إلى ضرهم في ذلك اليوم ، وجميع ما كان ينفعهم لو عملوه ، فيندمون حيث لا ينفعهم الندم ، ويتمنون المحال من الرجوع إلى الدنيا ونحوه ليتداركوا فلا يجابون إلى ذلك ، بل يسلك بهم في كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم ، فيكونون بسلوك ذلك – وهم يعلمون ضرره عمياً وبكماً وصمّاً ، لأنهم لا ينتفعون بمداركهم كما كانوا في الدنيا كذلك ، لكنهم – هكذا كان الأصل ، وإنما أظهر فقال : ﴿ لكن الظالمون ﴾ تنبيهاً على الوصف الذي أحلهم ذلك المحل ﴿ اليوم

في ضلال مبين ﴾ لا يسمعون ولا يبصرون .

ولما كان هذا الذي تقدم إنذاراً بذلك المشهد ، كان التقدير : أنذر قومك ذلك المشهد وما يسمعونه فيه ويبصرونه ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ نفسه في ذلك المشهد العظيم ، يوم تزل القدم ، ولا ينفع الندم ، للمسيء على إساءته ، وللمحسن على عدم ازدياده من الإحسان .

(79/486)

ولما كان ﴿ يوم ﴾ مفعولاً ، لا ظرفاً ، أبدل منه ، أو علل الإنذار فقال : ﴿ إذ ﴾ أي حين ، أو لأنه ، وعبر عن المستقبل بالماضي ، إيذاناً بأنه أمر حتم لا بد منه فقال : ﴿ قضي الأمر ﴾ أي أمره وفرغ منه بأيسر شأن وأهون أمر ، وقطعنا أنه لا بد من كونه ﴿ وهم ﴾ حال من ﴿ أنذرهم ﴾ أي والحال أنهم الآن ﴿ في غفلة ﴾ عما قضينا أن يكون في ذلك الوقت من أمره ، لا شعور لهم بشيء منه ، بل يظنون أن الدهر هكذا حياة وموت بلا آخر ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ بأنه لا بد من كونه ؛ وفي الصحيح ما يدل على أن يوم الحسرة حين يذبح الموت فقد روى مسلم عن أبي سعيد ـ رضى الله عنهم ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيقال : يا أهل الجنة ! هل تعرفون

هذا ، فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم ! هذا الموت ، ويقال : يا أهل النار ! هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم ! هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة ! خلود فلا موت ، ويا أهل النار ! خلود فلا موت ، ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي وراية : فذلك قوله ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ " " الآية .

وأما الغفلة ففي الدنيا ، روى ابن حبان في صحيحه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ إذ قضي الأمر وهم في غفلة ﴾ قال في الدنيا .

قال المنذري : وهو في مسلم بمعناه في آخر حديث .

ولما كان الإرث هو حوز الشيء بعد موت أهله ، وكان سبحانه قد قضى بموت الخلائق أجمعين ، وأنه يبقى وحده ، عبر عن ذلك بالإرث مقرراً به مضمون الكلام السابق ، فقال مؤكداً تكذيباً لقولهم : إن الدهر لا يزال هكذا ، حياة لقوم وموت لآخرين ﴿ إنا نحن ﴾ بعظمتنا التي اقتضت ذلك ولا بد ، وأفاد الأصبهاني أن تأكيد اسم ﴿ إن ﴾ أفاد أن الإسناد إليه سبحانه لا إلى أحد من جنده ﴿ نرث الأرض ﴾ فلا ندع بها عامراً من عاقل ولا غيره .

(80/486)

ولما كان العاقل أقوى من غيره ، صرح به بعد دخوله فقال : ﴿ ومن عليها ﴾ أي من العقلاء ، بأن نسلبهم جميع ما في أيديهم ﴿ وإلينا ﴾ لا إلى غيرنا من الدنيا وجبا برتها إلى غير ذلك ﴿ يرجعون ﴾ معنى في الدنيا وحساً بعد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 535.534 ﴾

(81/486)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قالوا : التعجب هو استعظام الشيء مع الجهل بسبب عظمه ، ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعظم سبب حصول ، قال الفراء قال سفيان : قرأت عند شريح : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات : 12] فقال : إن الله لا يعجب من شيء إنما يعجب من لا يعلم فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال : إن شريحاً شاعر يعجبه علمه ، وعبد الله أعلم بذلك منه قرأها :

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ومعناه أنه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب في قلوبهم ، وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء إلى الله تعالى ، وإذا عرفت هذا فنقول : للتعجب صفتان : إحداهما : ما أفعله .

والثانية : أفعل به كقوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ والنحويون ذكروا له تأويلات : الأول : قالوا : أكرم بزيد أصله أكرم زيد أي صار ذا كرم كأغد البعير أي صار ذا غدة إلا أنه خرج على لفظ الأمر ومعناه الخبر كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الأمر كقوله تعالى : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ [البقرة : 228] ، ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن ﴾ [البقرة : 233] ، ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [مريم : 75] أي يمد له الرحمن مداً ، وكذا قولهم : رحمه الله خبر وإن كان معناه الدعاء والباء زائدة .

الثاني : أن يقال إنه أمر لكل أحد بأن يجعل زيداً كريماً أي بأن يصفه بالكرم ، والباء زائدة مثل قوله : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] ولقد سمعت لبعض الأدباء فيه تأويلاً .

(82/486)

ثالثاً : وهو أن قولك أكرم بزيد يفيد أن زيداً بلغ في الكرم إلى حيث كأنه في ذاته صار كرماً حتى لو أردت جعل غيره كريماً فهو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك ، كما أن من قال : أكتب بالقلم فمعناه أن القلم هو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه .

أحدها : وهو المشهور الأقوى أن معناه ما أسمعهم وما أبصرهم والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم ، وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صماً وعمياً في الدنيا ، وقيل : معناه التهديد مما سيسمعون وسيبصرون مما يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم .

وثانيها : قال القاضي ويحتمل أن يكون المراد أسمع هؤلاء وأبصرهم أي عرفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا .

وثالثها : قال الجبائي : ويجوز أسمع الناس بهؤلاء وأبصرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الإتيان بمثل فعلهم أما قوله : ﴿ لكن الظالمون اليوم فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ ففيه قولان : الأول : لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وفي الآخرة يعرفون الحق .

والثاني : ﴿ لكن الظالمون اليوم فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ وهم في الآخرة في ضلال عن الجنة بخلاف المؤمنين ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ فلا شبهة في أنه أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن ينذر من في زمانه فيصلح بأن يجعل هذا كالدلالة على أن قوله فاختلف الأحزاب أراد به اختلاف جميعهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وأما الإنذار فهو التخويف من العذاب لكي يحذروا من ترك عبادة الله تعالى وأما يوم الحسرة فلا شبهة في أنه يوم القيامة من حيث يكثر التحسر من أهل النار وقيل يتحسر أيضاً في الجنة إذا لم يكن من السابقين الواصلين إلى الدرجات العالية والأول هو الصحيح لأن الحسرة غم وذلك لا يليق بأهل الثواب ، أما قوله تعالى : ﴿ إِذْ قُضِىَ الأمر ﴾ ففيه وجوه : أحدها : إذ قضى الأمر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب .

وثانيها : إذ قضى الأمر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف والأول أقرب لقوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فكأنه تعالى بين أنه ظهرت الحجج والبينات وهم في غفلة وهم لا يؤمنون .

وثالثها : روي أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : قضى الأمر : " فقال حين يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرح وأهل النار غماً على غم " واعلم أن الموت عرض فلا يجوز أن يصير جسماً حيوانياً بل

المراد أنه لا موت ألبتة بعد ذلك وأما قوله : ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي عن ذلك اليوم وعن كيفية حسرته وهم لا يؤمنون أي بذلك اليوم ثم قال بعده : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي هذه الأمور تؤول إلى أن لا يملك الضر والنفع إلا الله تعالى : ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي إلى محل حكمنا وقضائنا لأنه تعالى منزه عن المكان حتى يكون الرجوع إليه وهذا تخويف عظيم وزجر بليغ للعصاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 189.188 ﴾

(84/486)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني لئن كانوا في لدنيا صماً عمياً عن الحق فما أسمعهم له وأبصرهم به في الآخرة يوم القيامة ، قاله الحسن ، وقتادة .

الثاني : أسمع بهم اليوم وأبصر كيف يصنع بهم يوم القيامة يوم يأتوننا ، قاله أبو العالية .

ويحتمل ثالثا : أسمع أمّتَك بما أخبرناك من حالهم فستبصر يوم القيامة ما يصنع بهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يوم القيامة إذا قضي العذاب عليهم ، قاله الكلبي .

الثاني : يوم الموت إذ قضى الموت انقطاع التوبة واستحقاق الوعيد ، قاله مقاتل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(85/486)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾

أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم يرجعون إلينا ويرون ما نصنع بهم من العذاب ، فإن إعراضهم حينئذ يزول ويقبلون على الحقيقة حين لا ينفعهم الإقبال عليها وهم في الدنيا صم عمي إذ لا ينفعهم النظر مع إعراضهم ، ثم قال : لكنهم اليوم في الدنيا ﴿ في ضلال ﴾ وهو جهل المسلك ، و" المبين " في نفسه وإن لم يبين لهم ، وحكى الطبري عن أبي العالية أنه قال ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ ، هي بمعنى الأمر لمحمد عليه السلام أي أسمع الناس اليوم وأبصرهم بهم وبحديثهم ماذا يصنع بهم من العذاب إذ أتوا محشورين مغلوبين ، وقوله ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ ، الآية ، الخطاب أيضاً في هذه الآية لمحمد عليه السلام والضمير في ﴿ أنذرهم

﴿ لجميع الناس ، واختلف في ﴿ يوم الحسرة ﴾ فقال الجمهور وهو يوم ذبح الموت ، وفي هذا حديث صحيح ، وقع في البخاري وغيره ، أن الموت يجاء به في صورة كبش أملح ، وفي بعض الطرق كأنه كبش أملح ، وقال عبيد بن عمير كأنه دابة فيذبح على الصراط بين الجنة والنار وينادى : يا أهل الجنة خلود لا موت فيها ويا أهل النار خلود لا موت ، ويروى أن أهل النار يشرئبون خوفاً على ما هم فيه . والأمر المقضي ، هو ذبح الكبش الذي هو مثال الموت وهذا عند حذاق العلماء ، كما يقال : تدفن الغوائل وتجعل التراب تحت القدم ، ونحو ذلك ، وعند ذلك تصيب أهل النار حسرة لا حسرة مثلها ، وقال ابن زيد وغيره ﴿ يوم الحسرة ﴾ هو يوم القيامة ، وذلك أن أهل النار قد حصلوا من أول أمرهم في سخط الله وأمارته فهم في حال حسرة ، و" الأمر المقضي " على هذا هو الحتم عليهم بالعذاب وظهور إنفاذ ذلك عليهم ، وقال ابن مسعود ﴿ يوم الحسرة ﴾ حين يرى الكفار مقاعدهم التي فاتتهم في الجنة لو كانوا مؤمنين ، ويحتمل ان يكون ﴿ يوم الحسرة ﴾ اسم جنس لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عدة ، ومنها يوم الموت ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال وغير ذلك .

(86/486)

وقوله ﴿ وهم في غفلة ﴾ ، يريد في الدنيا الآن ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ كذلك . وقوله ﴿ نرث ﴾ ، تجوز وعبارة عن فناء المخلوقات وبقاء الخالق فكأنها وراثة ، وقرأ عاصم ونافع وأبو عمرو والحسن والأعمش " يرجعون " بالياء ، وقرأ الأعرج " ترجعون " بالتاء من فوق ، وقرأ أبو عبد الرحمن وابن أبي إسحاق وعيسى " يرجِعون " بالياء من تحت مفتوحة وكسر الجيم ، وحكى عنهم أبو عمرو والداني " ترجعون " بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(87/486)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَسْمِع بهم وَأَبْصِرْ ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الخبر ؛ فالمعنى : ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة ، سمعوا وأبصروا حين لم ينفعهم ذلك لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا يحتاجون معه إِلى نظر وفِكر فعلموا الهدى وأطاعوا ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أَسْمِع بحديثهم اليوم ، وأبصِرْ كيف يُصنَع بهم ﴿ يوم يَأتوننا ﴾ ، قاله أبو العالية .

قوله تعالى : ﴿ لكن الظالمون ﴾ يعني : المشركين والكفار ﴿ اليومَ ﴾ يعني : في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأَنْذِرهم ﴾ أي : خوّف كفَّار مكة ﴿ يومَ الحسرة ﴾ يعني : يوم القيامة يتحسَّر المسيء إذ لم يُحْسِن ، والمقصِّر إذ لم يَزْدَدْ من الخير .

وموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرةٌ ، فمن ذلك ما روى أبو سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، قيل : يا أهل الجنة ، فيشرئبُّون وينظرون ، وقيل : يا أهل النار فيشرئبُّون وينظرون ، فيُجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيقال لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : هذا الموت ، فيُذبَح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ؛ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وأَنذِرهم يومَ الحسرة إذْ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ " .

قال المفسرون : فهذه هي الحسرة إذا ذُبِح الموت ، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة ، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار .

(88/486)

ومن موجبات الحسرة ، ما روى عديُّ بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " "يؤتى يوم القيامة بناسٍ إلى الجنة ، حتى إذا دَنَوْا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها ، نودوا : أن اصرفوهم عنها ، لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرةٍ مَا رَجَعَ الأوَّلُون بمثلها ، فيقولون : يا ربنا لو أدخلْتَنا النار قبل أن تُرِيَنا ما أريتَنا كان أهون علينا ؛ قال : ذلك أردتُ بكم ، كنتم إذا خَلَوْتُمْ بارزتموني بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ، تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم ، هِبْتم الناس ولم تهابوني ، وأجللتم الناس ولم تُجِلُّوني ، تركتم للناس ولم تتركوا لي ، فاليوم أُذيقكم العذاب مع ما حرمتكم من الثواب " .

ومن موجبات الحسرة ما روي عن ابن مسعود قال : ليس من نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة ، وبيت في النار ، ثم يقال : يعني لهؤلاء : لو عملتم ، ولأهل الجنة : لولا أن منَّ الله عليكم .

ومن موجبات الحسرة : قطع الرجاءِ عند إطباق النار على أهلها .

قوله تعالى : ﴿ إذ قُضي الأمر ﴾ قال ابن الأنباري : "قُضي" في اللغة بمعنى : أُتقن وأُحكم ، وإنما سمّي الحاكم قاضياً ، لإتقانه وإحكامه ما ينفّذ .

وفي الآية اختصار ، والمعنى : إذ قضي الأمر الذي فيه هلاكهم .

وللمفسرين في الأمر قولان .

أحدهما : أنه ذبح الموت ، قاله ابن جريج ، والسدي .

والثاني : أن المعنى : قُضي العذاب لهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وهم في غفلة ﴾ أي : هم في الدنيا في غفلة عما يُصنَع بهم ذلك اليوم ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ بما يكون في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنّا نحن نرث الأرض ﴾ أي : نُميت سكَّانها فنرثها ﴿ ومَنْ عليها وإِلينا يُرْجَعون ﴾ بعد الموت .

(89/486)

فإن قيل : ما الفائدة في "نحن" وقد كفت عنها "إنّا" ؟

فالجواب : أنه لما جاز في قول المعظِّم : "إِنّا نفعل" أن يوهم أن أتباعه فعلوا ، أبانت "نحن" بأن الفعل مضاف إِليه حقيقة .

فإن قيل : فلم قال : "ومَنْ عليها" وهو يرث الآدميين وغيرهم ؟ !

فالجواب : أن "مَنْ" تختص أهل التمييز ، وغيرُ المميِّزين يدخلون في معنى الأرض ويجرون مجراها ، ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(90/486)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾

قال أبو العباس : العرب تقول هذا في موضع التعجب ؛ فتقول : أسمع بزيد وأبصر بزيد أي ما أسمعه وأبصره .

قال : فمعناه أنه عَجَّب نبيه منهم .

قال الكلبي : لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر ، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] .

وقيل : "أسمع" بمعنى الطاعة ؛ أي ما أطوعهم لله في ذلك اليوم .

﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ يعني في الدنيا .

﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وأيّ ضلال أبين من أن يعتقد المرء في شخص مثله حملته الأرحام ، وأكل وشرب ، وأحدث واحتاج أنه إله ؟ ! ومن هذا وصفه فهو أصم أعمى ولكنه سيبصر ويسمع في الآخرة إذا رأى العذاب ، ولكنه لا ينفعه ذلك ؛ قال معناه قتادة وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت في الجنة فيتحسر عليه .

وقيل : تقع الحسرة إذا أعطي كتابه بشماله .

﴿ إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ أي فُرِغ من الحساب ، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أَمْلَح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت قال ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ "

(91/486)

خرجه البخاري بمعناه عن ابن عمر ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، والترمذي عن أبي سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن صحيح .

وقد ذكرنا ذلك في كتاب "التذكرة" وبينا هناك أن الكفار مخلّدون بهذه الأحاديث والآي رداً على من قال : إن صفة الغضب تنقطع ، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون وهامان وقارون وأشباههم يدخلون الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي نميت سكانها فنرثها .

﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازي كلاًّ بعمله ، وقد تقدّم هذا في "الحجر" وغيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(92/486)

وقال أبو حيان :

قال الحسن وقتادة : لئن كانوا صماً وبكماً عن الحق فما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة ، ولكنهم يسمعون ويبصرون حيث لا ينفعهم السمع ولا البصر .

وعن ابن عباس أنهم أسمع شيء وأبصره .

وقال علي بن عيسى : هو وعيد وتهديد أي سوف يسمعون ما يخلع قلوبهم ، ويبصرون ما يسود وجوههم .

وعن أبي العالية : إنه أمر حقيقة للرسول أي ﴿ أسمع ﴾ الناس اليوم وأبصرهم ﴿ بهم ﴾ وبحديثهم ماذا يصنع بهم من العذاب إذا أتوا محشورين مغلولين ﴿ لكن الظالمون ﴾ عموم يندرج فيه هؤلاء الأحزاب الكفارة وغيرهم من الظالمين ، و ﴿ اليوم ﴾ أي في دار الدنيا .

وقال الزمخشري : أوقع الظاهر أعني الظالمين موقع الضمير إشعاراً بأن لا ظلم أشد من

ظلمهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم ، والمراد بالضلال المبين إغفال النظر والاستماع انتهى .

﴿ وأنذرهم ﴾ خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) والضمير لجميع الناس .

وقيل : يعود على الظالمين .

و ﴿ يوم الحسرة ﴾ يوم ذبح الموت وفيه حديث .

وعن ابن زيد : يوم القيامة .

وقيل : حين يصدر الفريقان إلى الجنة والنار وعن ابن مسعود : حين يرى الكفارة مقاعدهم التي فاتتهم من الجنة لو كانوا مؤمنين .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون ﴿ يوم الحسرة ﴾ اسم جنس لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عدة ، ومنها يوم الموت ، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال وغير ذلك انتهى .

و ﴿ إذ ﴾ بد من ﴿ يوم الحسرة ﴾ .

قال السدّي وابن جريج : ﴿ قُضِي الأمر ﴾ ذبح الموت .

وقال مقاتل : قضى العذاب .

وقال ابن الأنباري المعنى ﴿ إذ قضي الأمر ﴾ الذي فيه هلاككم .

وقال الضحاك : يكون ذلك إذا برزت جهنم ورمت بالشرر .

وعن ابن جريج أيضاً : إذا فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

وقيل إذا ﴿ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ وقيل : إذا يقال ﴿ امتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وقيل : إذا قضى سد باب التوبة وذلك حين تطلع الشمس من مغربها .

﴿ وهم في غفلة ﴾ .

(93/486)

قال الزمخشري : متعلق بقوله ﴿ في ضلال مبين ﴾ عن الحسن ﴿ وأنذرهم ﴾ إعراض وهو متعلق بأنذرهم أي ﴿ وأنذرهم ﴾ على هذه الحال غافلين غير مؤمنين .

وقال ابن عطية : ﴿ وهم في غفلة ﴾ يريد في الدنيا الآن ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ كذلك انتهى .

وعلى هذا يكون حالاً والعامل فيه ﴿ وأنذرهم ﴾ والمعنى أنهم مشتغلون بأمور دنياهم معرضون عما يراد منهم ، والظاهر أن يكون المراد بقوله ﴿ وقضي الأمر ﴾ أمر يوم القيامة .

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ تجوز وعبارة عن فناء المخلوقات وبقاء الخالق فكأنها وراثة .

وقرأ الجمهور ﴿ يرجعون ﴾ بالياء من تحت مبنياً للمفعول ، والأعرج بالتاء من فوق .

وقرأ السلمي وابن أبي إسحاق وعيسى بالياء من تحت مبنياً للفاعل على وحكى عنهم الداني بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(94/486)

وقال أبو السعود :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾

تعجّبٌ من حِدّة سمعِهم وأبصارِهم يومئذ ، ومعناه أن أسماعَهم وأبصارهم ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ للحساب والجزاء أي يوم القيامة جديرٌ بأن يُتعجَّب منها بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُمياً ، أو تهديدٌ بما سيسمعون ويُبصرون يومئذ ، وقيل : أُمر بأن يُسمِعَهم ويُبصرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه ، والجارُّ والمجرورُ على الأول في موقع الرفعِ وعلى الثاني في حيز النصب ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ لا تُدرك غايتُه حيث أغفلوا الاستماعَ والنظرَ بالكلية ، ووضعُ الظالمين موضعَ الضمير للإيذان بأنهم في ذلك ظالمون لأنفسهم .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة ﴾

أي يوم يتحسر الناسُ قاطبةً ، أما المسيءُ فعلى إساءته وأما المحسنُ فعلى قلة إحسانِه ﴿

إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ أي فُرِغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار . روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك ، فقال : " حين يجاء بالموت على صورة كبشٍ أملحَ فيذبح والفريقان ينظرون ، فينادي المنادي يا أهلَ الجنة خلودٌ فلا موت ويا أهلَ النار خلود فلا موت ، فيزداد أهلُ الجنة فرحاً إلى فرح وأهلُ النار غمًّا إلى غم " وإذ بدلٌ من يومَ الحسرة أو ظرفٌ للحسرة فإن المصدرَ المعرّفَ باللام يعمل في المفعول الصريح عند بعضِهم فكيف بالظرف ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي عما يُفعل بهم في الآخرة ﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر في قوله تعالى : ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي مستقرون في ذلك وهم في تينك الحالتين ، وما بينهما اعتراضٌ ، أو من مفعول أنذِرْهم أي أنذرهم غافلين غيرَ مؤمنين فيكون حالاً متضمنةً لمعنى التعليل .

(95/486)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ لا يبقى لأحد غيرِنا عليها وعليهم مُلكٌ ولا مِلك ، أو نتوفى الأرضَ ومن عليها بالإفناء والإهلاك توَفيَ الوارثِ لإرثه ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي يُردّون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالاً أو اشتراكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾

تعجيب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذٍ .

ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ للحساب والجزاء أي يوم القيامة جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صماً وعمياً .

وروي ذلك عن الحسن .

وقتادة .

وقال علي بن عيسى : هو وعيد وتهديد أي سوف يسمعون ما يخلع قلوبهم ويبصرون ما يسود وجوههم .

وعن أبي العالية أنه أمر حقيقة للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه .

والجار والمجرور على الأولين في موضع الرفع على القول المشهور .

وعلى الأخير في محل نصب لأن ﴿ أَسْمِعْ ﴾ أمر حقيقي وفاعله مستتر وجوباً .

وقيل : في التعجب أيضاً إنه كذلك .

والفاعل ضمير المصدر ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ لا يدرك غايته حيث اغفلوا الاستماع والنظر بالكلية .

ووضع ﴿ الظالمين ﴾ موضع الضمير للإيذان بأنهم في ذلك ظالمون لأنفسهم .

والاستدراك على ما نقل عن أبي العالية يتعلق بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ . ﴾ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ أي الظالمين على ما هو الظاهر .

وقال أبو حيان : الضمير لجميع الناس أي خوفهم ﴿ يَوْمَ الحسرة ﴾ يوم يتحسر الظالمون على ما فرطوا في جنب الله تعالى .

وقيل : الناس قاطبة ، وتحسر المحسنين على قلة إحسانهم ﴿ إِذْ قُضِىَ الأمر ﴾ أي فرغ من الحساب وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار وذبح الموت ونودي كل من الفريقين بالخلود .

وعن السدي .

وابن جريج الاقتصار على ذبح الموت ، وكان ذلك لما روى الشيخان .

والترمذي .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رأوه ثم ينادي مناد يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت وكلهم قد رأوه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ وأنذرهم " الآية .

وفي رواية عن ابن مسعود أن يوم الحسرة حين يرى الكفار مقاعدهم من الجنة لو كانوا مؤمنين ، وقيل : حين يقال لهم وهم في النار ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] وقيل : حين يقال ﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ [يس : 59] .

وقال الضحاك : ذلك إذا برزت جهنم ورمت بالشرر ، وقيل : المراد بذلك يوم القيامة مطلقاً ، وروي ذلك عن ابن زيد وفيه حسرات في مواطن عديدة ، ومن هنا قيل : المراد بالحسرة جنسها فيشمل ذلك حسرتهم فيما ذكر وحسرتهم عند أخذ الكتب بالشمائل وغير ذلك والمراد بقضاء الأمر الفراغ من أمر الدنيا بالكلية ويعتبر وقت ذلك ممتداً ، وقيل : المراد بيوم الحسرة يوم القيامة كما روي عن ابن زيد إلا أن المراد بقضاء الأمر الفراغ مما يوجب الحسرة ، وجوز ابن عطية أن يراد بيوم الحسرة ما يعم يوم الموت .

وأنت تعلم أن ظاهر الحديث السابق وكذا غيره كما لا يخفى على المتتبع قاض بأن يوم

الحسرة يوم يذبح الموت وينادي بالخلود .

ولعل التخصيص لما أن الحسرة يومئذٍ أعظم الحسرات لأنه هناك تنقطع الآمال وينسد باب الخلاص من الأهوال .

(98/486)

ومن غريب ما قيل : إن المراد بقضاء الأمر سد باب التوبة حين تطلع الشمس من مغربها وليس بشيء ، و﴿ إِذْ ﴾ على سائر الأقوال بدل من ﴿ يَوْمِ ﴾ أو متعلق بالحسرة والمصدر المعرف يعمل بالمفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال الزمخشري : متعلق بقوله تعالى شأنه : ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ عن الحسن ، ووجه ذلك بأن الجملتين في موضع الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور أي مستقرون في ذلك وهم في تينك الحالتين ، واستظهر في الكشف العطف على قوله تعالى :

﴿ الظالمون فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [مريم : 38] أي هم في ضلال وهم في غفلة ؛ وعلى الوجهين تكون جملة ﴿ أَنذَرَهُمْ ﴾ معترضة والواو اعتراضية ، ووجه الاعتراض أن الإنذار مؤكد ما هم فيه من الغفلة والضلال ، وجوز أن يكون ذلك متعلقاً بأنذرهم على أنه

حال من المفعول أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين .

وتعقب بأنه لا يلائم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [النازعات : 45]

وقال في "الكشف" : أنه غير وارد لأن ذلك بالنسبة إلى النفع وهذا بالنسبة إلى تنبيه الغافل لبيان أن النفع في الآخرة وهذه وظيفة الأنبياء عليهم السلام عن آخرهم ، ثم لو سلم لا مناقضة كما في قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] كيف وقد تكرر هذا المعنى في القرآن إلى قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ فَهُمْ غافلون ﴾ [يس : 6] وأما إن قوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ نفي مؤكد يشتمل على الماضية والآتية فلا يسلم لو جعل حالاً ولو سلم فقد علم جوابه مما سبق وما على الرسول إلا البلاغ .

نعم لا نمنع أن الوجه الأول أرجح وأشد طباقاً للمقام ، وحاصل المعنى على الأخير أنذرهم لأنهم في حالة يحتاجون فيها للإنذار .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾

(99/486)

لا يبقى لأحد غيره تعالى ملك ولا ملك فيكون كل ذلك له تعالى استقلالاً ظاهراً وباطناً دون ما سواه وينتقل إليه سبحانه انتقال الموروث من المورث إلى الوارث ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] أو نتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفي الوارث لإرثه واستيفائه إياه ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي يردون إلى الجزاء لا إلى غيرنا استقلالاً أو اشتراكاً .

وقرأ الأعرج ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ بالتاء الفوقية .

وقرأ السلمي .

وابن أبي إسحاق .

وعيسى بالياء التحتية مبنياً للفاعل ، وحكى عنهم الداني أنهم قرؤا بالتاء الفوقية والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(100/486)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى المتصف بالأوصاف السابقة .

قال الزجاج : ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى ابن مريم ، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إله .

وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب : ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ بالنصب .

وقرأ الباقون بالرفع .

فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح ، أو على أنه مصدر مؤكد لقال : إني عبد الله ، قاله الزجاج .

ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى أي ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ ، قاله الكسائي .

وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله ، والحق هو الله عزّ وجلّ .

وقال أبو حاتم : المعنى : هو قول الحق .

وقيل التقدير : هذا لكلام قول الحق .

وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين .

وقيل : الإضافة للبيان .

وقرىء " قال الحق " وروي ذلك عن ابن مسعود ، وقرأ الحسن : " قول الحق " بضم القاف ، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد ، و ﴿ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ صفة لعيسى أي : ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون قول الحق ، ومعنى ﴿ يمترون ﴾ : يختلفون ، على أنه من المماراة ، أو يشكوا على أنه من المرية .

وقد وقع الاختلاف في عيسى ؛ فقالت اليهود : هو ساحر ، وقالت النصارى : هو ابن الله .

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ أي ما صحّ ولا استقام ذلك ، ف " أن " في محل رفع على أنها اسم كان .

قال الزجاج : " من " في ﴿ من ولد ﴾ مؤكدة تدلّ على نفي الواحد والجماعة ؛ ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزّه وتقدّس عن مقالتهم هذه ، ثم صرح سبحانه بما هو شأنه تعالى سلطانه فقال : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي : إذا قضى أمراً من الأمور فيكون حينئذٍ بلا تأخير .

(101/486)

وقد سبق الكلام على هذا مستوفى في البقرة ، وفي إيراده في هذا الموضع تبكيت عظيم للنصارى ، أي من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح " أن " .

وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها ، وهو من تمام كلام عيسى ، وقرأ أبيّ : " إن الله " بغير واو ، قال الخليل وسيبويه : في توجيه قراءة النصب بأن المعنى : ولأن الله ربي وربكم ،

وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض عطفاً على الصلاة ، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على ﴿ أمراً ﴾ .

﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي ذكرته لكم من أنه ربي وربكم ، هو الطريق القيم الذي لا اعوجاج فيه ولا يضلّ سالكه .

﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ .

" من " زائد للتوكيد ، والأحزاب : اليهود والنصارى ، أي فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى ، فاليهود قالوا إنه ساحر ، كما تقدّم ، وقالوا : إنه ابن يوسف النجار ، والنصارى اختلفت فرقهم فيه ، فقالت النسطورية منهم : هو ابن الله .

وقالت الملكانية : هو ثالث ثلاثة .

وقالت اليعقوبية : هو الله تعالى ، فأفرطت النصارى وغلت ، وفرّطت اليهود وقصرت ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهم المختلفون في أمره ﴿ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم .

وقيل : المعنى : فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا في موضع التعجب ، فيقولون : أسمع تريد وأبصر به ، أي ما أسمعه وأبصره ، فعجب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم منهم ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ أي للحساب والجزاء ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي : في الدنيا ﴿ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي واضح ظاهر ، ولكنهم أغفلوا التفكر ، والاعتبار والنظر في الآثار .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة ﴾ أي يوم يتحسرون جميعاً ، فالمسيء يتحسر على إساءته ، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿ إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ أي فرغ من الحساب وطويت الصحف ، وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وجملة : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ في محل نصب على الحال أي غافلين عما يعمل بهم ، وكذلك جملة ﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات ، فكأنه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعاً ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي يردّون إلينا يوم القيامة فنجازي كلا بعمله ، وقد تقدّم مثل هذا في سورة الحجر .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ قال : الله الحقّ عزّ وجلّ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم ، فامتروا في عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية ؛ فقالت الثلاثة : كذبت ، ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، فقال : هو ابن الله ، وهم النسطورية ؛ فقال اثنان كذبت ؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، الله إله ، وعيسى إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ، وهم ملوك النصارى ؛ فقال الرابع : كذبت ، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا ، فظهروا على المسلمين ، فذلك قول الله سبحانه :

﴿ وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقسط مِنَ الناس ﴾ [آل عمران : 21] .

قال قتادة : وهم الذين قال الله : ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، فاختصم القوم ، فقال المرء المسلم : أنشدكم بالله هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله لا يطعم ؟ قالوا : اللّهم نعم ، قال : فهل تعلمون أن عيسى كان ينام

وأن الله لا ينام ؟ قالوا : اللّهم نعم ، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم ، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذٍ وأصيب المسلمون ، فأنزل الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ يقول الكفار يومئذٍ : أسمع شيء وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ قال : ذلك يوم القيامة .

(104/486)

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون إليه فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون إليه فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ويقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت " ، ثم قرأ رسول الله صلى الله

عليه وسلم : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة ﴾ الآية ، وأشار بيده وقال : " أهل الدنيا في غفلة "

وأخرج النسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن جرير من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : يوم الحسرة : هو من أسماء يوم القيامة ، وقرأ ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يا حسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] وعلى هذا ضعيف ، والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(105/486)

وقال القاسمى :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾

تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ . ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صماً عمياً . والآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة : 12] الآية ، أي : يقولون ذلك حين لا يجدي عنهم شيئاً . ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى : ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ أي : في الدنيا : ﴿ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

﴿ لإغفالهم الاستماع والنظر . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون . قال الزمخشريّ : أوقع الظاهر أعني الظالمين موقع الضمير ، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر ، حين يجدي عليهم ويسعدهم .

تنبيه :

إنما أوِّل التعجب في الآية بما ذكر ، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب ، لأن صدوره من الله تعالى محال . إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام ما لا يدرى سببه . ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب . والمعنى تعجبوا من سمعهم وأبصارهم حيث لا ينفعهم ذلك . فهي كقوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] ، أفاده الشهاب .

(106/486)

وهذه طريقة المتكلمين في تأويل ما يشترك في الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات المروية . وطريقة السلف المحققين إثبات ما ورد به السمع مع نفي التشبيه . إذ لا اتحاد بين صفات الخالق وصفات المخلوق . فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذي يجب أن يكون عليه جل جلاله . فما يقدر في حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال ، لا يجب

أن يكون في حقه تعالى مستلزماً لذلك . كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا ، يستلزم النقص والحاجة ، ما يجب تنزيه الله عنه . وكذلك الوجود والقيام بالنفس فينا ، يستلزم احتياجاً إلى خالق يجعلنا موجودين . والله منزه في وجوده عما يحتاج إليه وجودنا . فنحن وصفاتنا وأفعالنا . مقرونون بالحاجة إلى الغير . والحاجة لنا أمر ذاتيّ لا يمكن أن يخلو عنه . وهو سبحانه ، الغِنَى له أمر ذاتيّ لا يمكن أن يخلو عنه . فهو بنفسه حيّ قيوم واجب الوجود ، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء . فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الكمال ، من العلم والقدرة وغير ذلك ، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان ، لم يجب أن لا يكون لله ذات ولا صفات ولا أفعال ، وأن لا يقدر ولا يعلم . لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا . فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات ، إذا قدر أنه في حقنا ملازم لحاجة وضعف ، لم يجب أن يكون في حق الله تعالى ملازماً لذلك . هذا ما قرره الإمام تقي الدين بن تيمية في خلال بعض فتاويه . وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكلية لأمثال هذا الموضوع . فاحفظه .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾

أي : فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار ، وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ أي : وهم اليوم مستغرقون في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة : ﴿

وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون به اليوم وسيعاينونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 102.103 ﴾

(107/486)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) ﴾

الحسرة : اشد الندم والتلف على الشيء الذي فات ولا يمكن تداركه . والإنذار : الأعلام المقترن بتهديد . أي أنذ الناس يوم القيامة . وقيل له يوم الحسرة لشدة ندم الكفار فيه على التفريط . وقد يندم فيه المؤمنون على ما كان منهم من التقصير وقد اشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِينَ ﴾ [غافر : 18] الآية ، وقوله ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 46] .

(108/486)

وأشار إلى ما يحصل فيه من الحسرة في مواضع أخر . كقوله : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : 56] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : 31] الآية ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : 167] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ أي في غفلة الدنيا معرضون عن الآخرة . وجملة « وهم في غفلة » حالية ، والعامل فيها « أنذرهم » أي انذرهم في حال غفلتهم غير مؤمنين . خلافاً لمنقال : إن العامل في الجملة الحالية قوله قبل هذ « في ضلال مبين » . وقد جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله هنا « إذ قضي الأمر » أي ذبح الموت . قال البخاري رحمه الله في صحيحه : (باب قوله عز وجل : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد : يا أهل الجنة فيبشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه . ثم ينادي يا أهل الناء فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه . فيذبح . ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت » ثم قرأ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ [

مريم : 39] وهؤلاء في غفلة الدنيا وهم لا يؤمنون « - انتهى منه صحيح البخاري .

والحديث مشهور متفق عليه - وقراءة النَّبي صلى الله عليه وسلم الآية بعد ذكره ذبح الموت تدل على أن المراد بقوله » إذ قضي الأمر « إي ذبح الموت . وفي معناه أقوال أخر غير هذا تركناها لدلالة الحديث الصحيح على المعنى الذي ذكرنا .

(109/486)

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)

معنى قوله جل وعلا في هذه الآية : إنه يرث الأرض ومن عليها : أنه يمين جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، ويبقى هو جل وعلا لأنه الحي الذي لا يموت ، ثم يرجعون إليه يوم القيامة . وقد أشار غلى هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 26-27] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ [الحجر : 23] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(110/486)

وقال ابن عاشور :

﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾

صيغتا تعجب ، وهو تعجب على لسان الرسول والمؤمنين ، أو هو مستعمل في التعجيب ، والمعنيان متقاربان ، وهو مستعمل كناية أيضاً عن تهديدهم ، فتعيّن أن التعجيب من بلوغ حالهم في السوء مبلغاً يتعجب من طاقتهم على مشاهدة مناظره وسماع مكارهه .

والمعنى ؛ ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم ، أي ما أقدرهم على السمع والبَصَر بما يكرهونه .

وقريب هو من معنى قوله تعالى : ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ [البقرة : 175] .

وجُوز أن يكون ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ غير مستعمل في التعجب بل صادفَ أن جاء على صورة فعل التعجب ، وإنما هو على أصل وضعه أمر للمخاطب غير المعيّن بأن يَسمع ويُبصر بسببهم ، ومعمول السمع والبصر محذوف لقصد التعميم ليشمل كل ما يصح أن يُسمع وأن يُبصر .

وهذا كناية عن التهديد .

وضمير الغائبين عائد إلى (الذين كفروا) ، أي أعجب بحالهم يومئذ من نصارى وعبدة الأصنام .

والاستدراك الذي أفاده قوله ﴿ لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾ راجع إلى ما يفيده التقييد بالظرف في قوله ﴿ يوم يأتوننا ﴾ من ترقب سوء حالهم يوم القيامة الذي يقتضي الظن بأنهم الآن في سعة من الحال .

فأفيد أنهم متلبسون بالضلال المبين وهو من سوء الحال لهم لما يتبعه من اضطراب الرأي والتباس الحال على صاحبه .

وتلك نكتة التقييد بالظرف في قوله ﴿ اليوم في ضلال مبين ﴾ .

والتعبير عنهم بـ ﴿ الظالمون ﴾ إظهار في مقام الإضمار .

ونكتته التخلص إلى خصوص المشركين لأن اصطلاح القرآن إطلاق الظالمين على عبدة الأصنام وإطلاق الظلم على عبادة الأصنام ، قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) ﴾

عقّب تحذيرهم من عذاب الآخرة والنداء على سوء ضلالهم في الدنيا بالأمر بإنذارهم استقصاء في الإعذار لهم .

(111/486)

والضمير عائد إلى الظالمين ، وهم المشركون من أهل مكة وغيرهم من عبدة الأصنام لقوله ﴿ وهم إ يؤمنون وقوله ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ [مريم : 40] .

وانتصب ﴿ يوم الحسرة على أنه مفعول خلَف عن المفعول الثاني لأنذرهم ، لأنه بمعنى أنذرهم عذاب يوم الحسرة .

والحسرة : الندامة الشديدة الداعية إلى التلهف .

والمراد بيوم الحسرة يوم الحساب ، أضيف اليوم إلى الحسرةِ لكثرة ما يحدث فيه من تحسر المجرمين على ما فرطوا فيه من أسباب النجاة ، فكان ذلك اليوم كأنه مما اختصت به الحسرة ، فهو يوم حسرة بالنسبة إليهم وإن كان يوم فرح بالنسبة إلى الصالحين .

واللام في الحسرة على هذا الوجه لام العهد الذهني ، ويجوز أن يكون اللام عوضاً عن المضاف إليه ، أي يوم حسرة الظالمين .

ومعنى قضى الأمر : تُمّم أمر الله بزجهم في العذاب فلا معقب له .

ويجوز أن يكون المراد بالأمر أمر الله بمجيء يوم القيامة ، أي إذ حشروا .

و(إذ) اسم زمان ، بدل من يوم الحسرة .

وجملة وهم في غفلة حال من الأمر وهي حال سببية ، إذ التقدير : إذ قضي أمرهم .

والغفلة : الذهول عن شيء شأنُه أن يعلم .

ومعنى جملة الحال على الاحتمال الأول في معنى الأمرِ الكناية عن سرعة صدور الأمر

بتعذيبهم ، أي قضي أمرهم على حين أنهم في غفلة ، أي بهت .

وعلى الاحتمال الثاني تحذير من حلول يوم القيامة بهم قبل أن يؤمنوا كقوله ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ [الأعراف : 187] ، وهذا أليق بقوله : ﴿ وهم لا يؤمنون .

ومعنى وهم لا يؤمنون استمرار عدم إيمانهم إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة .

فاختيار صيغة المضارع فيه دون صيغة اسم الفاعل لما يدلّ عليه المضارع من استمرار الفعل وقتاً فوقتاً استحضاراً لذلك الاستمرار العجيب في طوله وتمكنه .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) ﴾

تذييل لختم القصة على عادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها .

(112/486)

والكلام موجّه إلى المشركين لإبلاغه إليهم .

وضمير ﴿ يرجعون عائد إلى من عليها وإلى ما عاد إليه ضمير الغيبة في ﴿ وأنذرهم ﴾ [مريم : 39] .

وحقيقة الإرث : مصير مال الميت إلى من يبقى بعده .

وهو هنا مجاز في تمحض التصرف في الشيء دون مشارك .

فإن الأرض كانت في تصرف سكانها من الإنسان والحيوان كلّ بما يناسبه ، فإذا هلك الناس والحيوان فقد صاروا في باطن الأرض وصارت الأرض في غير تصرفهم فلم يبق تصرف فيها إلا لخالقها ، وهو تصرف كان في ظاهر الأمر مشتركاً بمقدار ما خولهم الله التصرف فيها إلى أجلٍ معلوم ، فصار الجميع في محض تصرف الله ، ومن جملة ذلك تصرفه بالجزاء .

وتأكيد جملة ﴿ إنا نحن نرث الأرض بحرف التوكيد لدفع الشك لأن المشركين ينكرون الجزاء ، فهم ينكرون أن الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى .

وأما ضمير الفصل في قوله نحن نرث الأرض فهو لمجرد التأكيد ولا يفيد تخصيصاً ، إذ لا يفيد ردّ اعتقادٍ مخالفٍ لذلك .

وظهر لي : أن مجيء ضمير الفصل بمجرد التأكيد كثير إذا وقع ضمير الفصل بعد ضمير آخر نحو قوله ﴿ إنني أنا الله ﴾ في سورة طه (14) ، وقوله : ﴿ وهم بالأخرة هم كافرون ﴾ في سورة يوسف (37) .

وأفاد هذا التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنهم لا مفرّ لهم من الكون في قبضة الربّ الواحد الذي أشركوا بعبادته بعضَ ما على الأرض ، وأن آلهتهم ليست بمرجوة لنفعهم إذ ما هي إلاّ مما يرثه الله .

وبذلك كان موقع جملة وإلينا يرجعون بيّناً ، فالتقديم مفيد القصر ، أي لا يرجعون إلى

غيرنا .

ومحمل هذا التقديم بالنسبة إلى المسلمين الاهتمام ومحمله بالنسبة إلى المشركين القصر كما تقدم في قوله : إنا نحن نرث الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(113/486)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ [مريم : 38]

أي : أسمع بهم وأبْصِر بهم ، وهذه من صِيَغ التعجُّب على وزن (أفعل به) يعني ما أشدّ سمعهم ، وما أشدّ بصرهم ، فهم الآن يُرهِفون السمع ويُدقِّقون النظر حتى إن الإنسان ليتعجب من سمعهم الدقيق ، وبصرهم المحيط بعد أن كانوا في الدنيا يضعون أصابعهم في آذانهم فلا يسمعون ، ويستغشون ثيابهم فلا يبصرون ، كانوا في عَمىً عن آيات الله الواضحات التي تثبت صِدْق الرسل ، وعن الآيات التي تحمل الأحكام ، وعن الآيات الكونية التي تدلُّ على قدرة الصانع الحكيم .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : 38] أي : أسمع بهم وأبصر بهم في هذا اليوم يوم القيامة ، والإنسان بحكم خَلْق الله تعالى له ، واستخلافه في الأرض جعل له السيطرة على جوارحه

فهو يأمرها فتطيعه ، فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخّرة لإرادته ، فلسانك تستطيع أنْ تنطقَ ب لا إله إلا الله . كما تستطيع أن تقول : لا إله أو تقول : الله ثالث ثلاثة . واللسان مِطْواع لك لا يعصاك في هذه أو تلك ، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفَل لَك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أأردتَ الخير الذي وجّهك إليه أم أردتَ الشر الذي نهاك عنه ؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الأرادة ، ويبطل سلطانها على الجوارح في يوم يُنادِي فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] يومها ستشهد الجوارح على صاحبها ، وكما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] .

ويقول تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت : 21] .

(114/486)

لم لا ؟ وقد تحررتْ الجوارح من قَيْد الإرادة ، وجاء الوقت لتشتكي إلى الله ، وتنطق بكلمة الحق التي كتمتْها تحت وطأة الإرادة وقهْرها .

وسبق أن ضربنا مثالاً لذلك بمجموعة من الجنود يسيرون تحت إمْرة قائدهم المباشر ، ويأتمرون بأمره ، ويطيعونه طاعة عمياء ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى انطلقتْ ألسنتُهم بالشكوى من تعسُّف قائدهم وغَطْرسته .

ثم يقول تعالى : ﴿ لكن الظالمون اليوم فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم : 38] فيا ليتهم فهموا هذه المسألة ، لكنهم ظلموا ، وما ظلموا إلا أنفسهم ، فالله تبارك وتعالى لا يضره كفر الكافرين ، ولا ينقص من مُلْكه تعالى وسلطانه ، لكن كيف يظلم الإنسان نفسه ؟

يظلم الإنسان نفسه ؛ لأنه صاحب عَقْل واعٍ يستقبل الأشياء ويميزها ، وصاحب نفس شهوانية تصادم بشهواتها العاجلة هذا العقل الواعي ، وتصادم المنهج الرّباني الذي يأمرها بالخير وينهاها عن الشر ، هذه النفس بشهواتها تدعو الإنسان إلى مرادها وتوُقِعه في المتعة الوقتية واللذة الفانية التي تستوجب العذاب وتُفوّت عليه الخير الباقي والنعيم الدائم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة ﴾ [مريم : 39] الإنذار : هو التحذير من شر قادم .

والحسرة : هي الندم البالغ الذي يصيب النفس الإنسانية حينما يفوتها خير لا يمكن تداركه ، وحينما تلقى شيئاً لا تستطيع دفعه أما الندم فيكون حزناً على خير فاتَكَ ، لكن يمكن تداركه ، كالتلميذ الذي يخفق في امتحان شهر من الشهور فيندم ، لكنه يمكنه تدارك هذا

الإخفاق في الشهر التالي ، أما إذا أخفق في امتحان آخر العام فإنه يندم ندماً شديداً ، ويتحسَّر على عام فات لا يمكن تداركُ الخسارة فيه .

لذلك سيقول الكفار يوم القيامة : ﴿ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : 31] .

(115/486)

والمعنى : يا حسرتنا تعالَىْ فهذا أوانك ، واحضري فقد فاتتْ الفرصة إلى غير رجعة .

إذن : فيوم الحسرة هو يوم القيامة ، حيث لن يعود أحدٌ ليتدارك ما فاته من الخير في الدنيا ، وليتَ العقول تعي هذه الحقيقة ، وتعمل لها وهي ما تزال في سَعَة الدنيا .

ومعنى : ﴿ إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ [مريم : 39] أي : وقع وحدث ، ولا يمكن تلافيه ، ولم يَعُدْ هناك مجال لتدارُكِ ما فات ؛ لأن الذي قضى هذا الأمر وحكم به هو الله تبارك وتعالى الذي لا يملك أحدٌ ردَّ أمرِه أو تأخيره عن موعده أو مناقشته فيه ، فسبحانه ، الأمر أمره ، والقضاء قضاؤه ، ولا إله إلا هو .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنةِ الجنةَ ، ويُدخِل أهلَ النارِ النارَ يأتي بالموت على هيئة كبش ، فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه ، ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه ، فيميت

الله الموت ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت " .

وهكذا قضى اللهُ الأمرَ ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنُّون أن الموت سيأتي ليُخرجهم مما هُمْ فيه من العذاب ويريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخّصاً وذبحه أمامهم ، فلا موتَ بعد الآن فقد مات الموت .

لذلك يخبر عنهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ يامالكِ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : 39] .

الغفلة : أن يصرف الإنسان ذِهْنه عن الفكر في شيء واضح الدليل على صحته ؛ لأن الحق تبارك وتعالى ما كان لِيُعذّب خَلْقه إلا وقد أظهر لهم الأدلة التي يستقبلها العقل الطبيعي فيؤمن بها .

(116/486)

فالذي لا يؤمن إذن : إما غافل عن هذه الأدلة أو متغافل عنها أو جاحد لها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

ومن الغفلة غفلتهم عن الموت ، وقد قالوا : من مات قامت قيامته .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً ، وأبهمه مكاناً ، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت ؛ لأن إبهامه يجعل الإنسان على استعداد للقائه في أيّ وقت ، وبأيّ سبب ، وفي أيّ مكان ، فالموت يأتي غفلة ؛ لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو في بطن أمه ، ويموت بعد يوم ، أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب ؟ السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أي أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب

.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض ﴾

كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ نَرِثُ الأرض ﴾ [مريم : 40] وهي والكون كله مِلْك له تعالى ؟ قالوا : لأنه تبارك وتعالى هو المالك الأعلى ، وقد ملَّك من خَلْقه من ملَّك ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فليس لأحد ملك على شيء ، ليس للإنسان سيطرة حتى على جوارحه وأعضائه ، فالأمر كله يومئذ لله تعَالى ، فيُردّ المُلْك إلى صاحبه الأعلى ، ولا أحدَ يرث هذا المُلْكَ إلا الله تعالى .

لذلك ، فالذين اغترُّوا بنعم الله في الدنيا فظنوا أن لهم مثْلها في الآخرة ، فقال أحدهم : ﴿

وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] نقول له : لا ، صحيح ستُردّ إلى ربك ، لكن لن يكون لك عنده شيء ؛ لأن الذي ملّكك في الدنيا ملّكك من باطن مِلكيته تعالى ، فإذا ما جاءت الآخرة كان هو الوارث الوحيد .

(117/486)

وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : 40] أي : أن الأمر لا يتوقف على أنْ نرث مُلْكهم ، ويذهبوا هم لحال سبيلهم ، بل سنرث مُلْكهم ، ثم يرجعون إلينا لنحاسبهم فلن يخرجوا هم أيضاً من قبضة الملكية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(118/486)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) (مريم : 39) ، وفي سورة المؤمن : (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ) (غافر : 18) ، والمراد في الآيتين

تذكريهم بالقيامة وأهوالها ، ثم اختلفت العبارة في الكناية ، ففي سورة مريم : (يَوْمَ الْحَسْرَةِ) ، وفي سورة المؤمن : (يَوْمَ الْآزِفَةِ) ، فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن اليوم المشار إليه يشتمل على موقف ومواطن مهولة وأحوال مختلفة ، وبحسب ذلك تختلف العبارة والأخبار لاختلاف المقاصد والمواطن ، ألا ترى قوله تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) (المؤمنون : 101) ، وقوله تعالى : (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) (الصافات : 27) ، وقوله تعالى : (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (الصافات : 24) ، وقوله : (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) (الرحمن : 39) ، ولا شك في أن هذا في مواططن مختلفة ، وبحسب ذلك اختلفت الكناية كما أضيف إليه اليوم هنا ، فيوم الحسرة عبارة عن الوقت الذي يحصل فيه العلم اليقين لأهل النار بتأبيد خلودهم واستمرار عذابهم إلى غير نهاية ، ويتأكد لأهل الجنة علمهم بذلك ، فلا أشد فرحاً من أهل الجنة يومئذ ، ولا أشد حسرة من أهل النار ، وفي هذا ورد الخبر الصحيح من أنه إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ينادي يا

(119/486)

أهل الجنة فيشرئبون ، وينادي يا أهل النار كذلك ، ويؤتى بالموت فيقال لهذا هل تعرفونه فيقولون نعم . . . الحديث ، إلى قوله فيه : يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل الناء خلود لا موت ، فإذا ذلك تعظم حسرتهم ويشتد كربهم ، ونص الحديث على ما رُويناه في صحيح مسلم عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، زاد أبو كريب فيوقف بين الجنة والنار ، واتفقنا في سياقي الحديث فقيل : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، قال : ويقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيذبح ، قال : ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (مريم : 39) ، وأشار إلى الدنيا .

قلت وهذا الحديث من مشكلات الأحاديث ، وله وجه من التأويل يرفع إشكاله ، وقد تفسرت مظنة الحسرة في قوله تعالى : (إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) والمراد به استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار كما ورد في الخبر ، وحق لمن تقدم ذكره قبل هذه الآية ممن وقع في العظيمة من أمر عيسى ، عليه السلام ، حين قالوا : ابن الله مع إقرارهم بالبعث الأخراوي والجزاء ، فحق لهم أن يذكروا تحذيراً وتخويفاً بمثل هذا ، ولم يتقدم الآية ذكر غيرهم ، فهذا أوض تناسب .

وأما آية سورة المؤمن فقد ورد قبلها قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (غافر : 14) ، ثم تابع الكلام معه إلى الآية من قوله : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ) (غافر : 18) ، فخوفوا بإسراع أمر الساعة وتعجيل وقوعها كما قال سبحانه (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء : 1) ، أزف الشيء أسرع ومنه قوله تعالى : (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ) (النجم : 57-58) ، وتأمل ما اتصل بقوله : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ) (غافر : 18) ، وقوله : (إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ) (غافر : 18) ، فقد تناسب هذا ووضح ، أما ما ورد في الآيتين فهو على أتم مناسبة ، وإن عكس (الوارد) على ما بينا لا يلائم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 327.328 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ يقول الكفار يومئذ أسمع شيء وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ قال : اسمع قوم وأبصر قوم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ قال : ذلك والله يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم في قوله : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ قال : والله ذلك يوم القيامة ، سمعوا حين لم ينفعهم السمع ، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ ، فيشرفون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ ، فيشرفون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ، فيقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت " ثم قرأ رسول الله صلى

الله عليه وسلم : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة ﴾ وأشار بيده وقال : " أهل الدنيا في غفلة " " .

(122/486)

وأخرج النسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ قال : ينادى يا أهل الجنة ، فيشرفون ، وينادى يا أهل النار ، فيشرفون وينظرون ، فيقال : ما تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، فيجاء بالموت في صورة كبش أملح ، فيقال : هذا الموت فيقرب ويذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود لا موت ، ويا أهل النار ، خلود ولا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ قال : يصوّر الله الموت في صورة كبش أملح ، فيذبح فييأس أهل النار من الموت فيما يرجونه ، فتأخذهم الحسرة من أجل الخلود في النار .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يأتي الموت

في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادي مناد يا أهل الجنة ، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، ولا يبقى أحد في عليين ولا في أسفل درجة من الجنة إلا نظر إليه ، ثم ينادي يا أهل النار ، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في ضحضاح من النار ولا أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادي يا أهل الجنة ، هو الخلود أبد الآبدين .

ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين ، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرحة ماتوا ، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا ، فذلك قوله : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ يقول : إذا ذبح الموت .

وأخرج ابن جرير من طريق علي ، عن ابن عباس يوم الحسرة ، هو من أسماء يوم القيامة .

وقرأ ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ [الزمر : 56] .

(123/486)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز : أنه كتب إلى عامله بالكوفة ، أما بعد : فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت ، فجعل مصيرهم إليه ، فقال : فيما أنزل في كتابه

الصادق الذي أنزله بعلمه ، وأشهد ملائكته على خلقه أنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(124/486)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ :

هذا لفظُه أمرٌ ومعناه التعجبُ ، وأصَحُّ الأعاريبِ فيه كما تقرَّر في علم النحو : أنَّ فاعلَه هو المجرورِ بالباءِ ، والباءُ زائدةٌ ، وزيادتُها لازمةٌ إصلاحاً للَّفظِ ، لأنَّ أَفْعِلْ أمراً لا يكون فاعلُه إلا ضميراً مستتراً ، ولا يجوزُ حَذْفُ هذه الباءِ إلا مع أَنْ وأنَّ كقوله :

3239- تَرَدَّدَ فيعا ضَوْءَها وشُعاعُها . . . فَاَحْصِنْ وأَزْيِنْ لامرِئٍ أن تَسَرْبَلا

أي : بأَنْ تَسَرْبَلَ ، فالمجرور مرفوعُ المحلِّ ، ولا ضميرِ في أَفْعَلِ . ولنا قولٌ ثانٍ : إن الفاعلَ مضمرٌ ، والمرادُ به المتكلمُ كأنَّ المتكلمَ يأمر نفسَه بذلك والمجرورُ بعده في محلِّ نصب ، ويُعزَى هذا للزجاج .

ولنا قول ثالث : أن الفاعلَ ضميرُ المصدرِ ، والمجرورَ منصوبُ المحلِّ أيضاً ، والتقديرُ :

أحسِنْ يا حُسْنُ بزيدٍ . ولشَبَهِ هذه الفاعلِ عند الجمهور بالفَضْلَة لفظاً جاز حَذْفُه للدلالةِ عليه كهذه الآيةِ فإنَّ تقديرَه : وأَبْصِرْ بهم . وفيه أبحاثٌ موضوعُها كتبُ النحو .

وقوله ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ معمولٌ ل " أَبْصِرْ " . ولا يجوز أن يكونَ معمولاً ل " أَسْمِعْ " لأنه لا يُفْصَلُ بين فعلِ التعجبِ ومعمولِه ، ولذلك كان الصحيحُ أنه لا يجوزُ أن تكونَ المسألة من التنازع . وقد جَوَّزه بعضُهم ملتزماً إعمالَ الثاني ، وهو خلافُ قاعدةِ الإعمال . وقيل بل هو أمرٌ حقيقةً ، والمأمورُ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : أَسْمِعِ الناسَ وأَبْصِرْهم بهم وبحديثهم : ماذا يُصنع بهم من العذاب ؟ وهو منقولٌ عن أبي العالية .

(125/486)

وقوله " اليوم " منصوبٌ بما تضمنَّه الجارُّ مِنْ قولِه " في ضلال مبين " ، أي : لكن الظالمون استقروا في ضلال مبين اليوم . ولا يجوز أن يكون هذا الظرفُ هو الخبرَ ، والجارُّ لغوٌ ؛ لئلا يُخْبَر عن الجثةِ بالزمان بخلافِ قولك : القتال اليوم في دارِ زيدٍ ، فإنه يجوز الاعتباران .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ :

يجوز أن يكونَ منصوباً بالحَسْرَة ، والمصدرُ المعرَّفُ بأل يعملُ في المفعولِ الصريح عند بعضِهم

فكيف بالظرف ؟ ويجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " يوم " فيكون معمولاً ل " أَنْذر " كذا قال أبو البقاء والزمخشري وتبعهما الشيخُ ، ولم يَذْكر غيرَ البدل .

وهذا لا يجوز أُن كان الظرف باقياً على حقيقته ؛ إذ يستحيل أَنْ يعملَ المستقبل في الماضي ، فإن جَعَلْتَ " اليوم " مفعولاً به ، أي : خَوِّفْهم نفسَ اليومِ ، أي : إنهم يخافون اليومَ نفسَه ، صَحَّ ذلك لخروجِ الظرفِ إلى حَيِّزِ المفاعيل الصريحة .

وقوله : ﴿ لكن الظالمون ﴾ من إيقاعِ الظاهرِ موقعَ المضمرِ .

قوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ جملتان حاليتان وفيهما قولان ، أحدهما : أنهما حالان من الضميرِ المستترِ في قولِه ﴿ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، أي : استقرُّوا في ضلالٍ مبين على هاتين الحالتين السَّيِّئتين . والثاني : أنهما حالان مِنْ مفعولِ " أَنْذِرْهُم " أي : أَنْذِرهم على هذه الحالِ وما بعدَها ، وعلى الاولِ يكون قولُه ﴿ وَأَنْذِرْهُم ﴾ اعتراضاً .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) ﴾

وقرأ العامَّةُ "يُرْجَعون" بالياء من تحت مبنياً للمفعول . والسلمي وابن أبي إسحاق وعيسى مبنياً للفاعل ، والأعرج بالتاء مِنْ فوقُ مبنياً للمفعول على الخطاب ، ويجوز أن يكونَ التفاتاً وأن لا يكونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 602.604﴾

(127/486)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾

تصير معارفهم ضرورية ، وأحوالُهم كلُّها معكوسةً ، الحُجَّة تتأكَّد عليهم ، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم ، والرحمةُ لا تتعلَّق بهم ، فلا تُرْحَم شكاتُهم ، ولا يُسْمَعُ نداؤُهم .

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) ﴾

تقوم الساعةُ بغتةً ، وتصادفهم القيامةُ وهم غيرُ مستعدين لها فيتحسَّرون على ما فاتهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سَبَقَتْ لقوم الشقاوةُ – وهم في محو العَدَم ، ولآخرين السعادة – وهم بنعت العدم – ولم يكن من أُولئك جُرْم بَعْدُ ، ولا مِنْ هؤلاء وِفَاقٌ بعدُ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) ﴾

يريد به إذا قَبَضَ أرواحَ بني آدم بجملتهم ، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ ، وليس يريد به استحداث مُلْكِه ، وهو اليومَ مالِكُ الأرض ومَنْ عليها ، ومالكُ الكونِ وما فيه .

ويقال إن زكريا قال – لمَّا سأل الولد : ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : 6] وقال تعالى في صفة بني إسرائيل : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَآءِيلَ ﴾ [الشعراء : 59] وقال : ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأعراف : 128] ، ولما انتهى إلى هذه الأمة قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ . . فشتان بين مَنْ وارِثُه الوَلَدُ وبين مَنْ وارِثُه الأَحَدُ !

ويقال هان على العبد المسلم إذل مات إذا كان الحقُّ وارثَه . . . . وهذا مخلوق يقول في صفه مخلوق :

فإنْ يكُ عتَّابٌ مضى لسبيله . . . فما مات من يبقى له مِثْلُ خالدِ .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتَا بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ [آل عمران : 168] لماذا ؟ لِأَنَّ وارثَهم اللَّهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 429 430. ﴾

(128/486)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾

التفسير : هذا شروع في ابتداء خلق عيسى ولا ريب أن خلق الولد بين شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد من غير أب ، فلهذا أخرت قصة عيسى عن قصة يحيى ترقياً من باب التفهم من الأدنى إلى الأعلى . وقوله " إذ " بدل الاشتمال من مريم لأن الأزمان مشتملة على ما فيها ، وفي هذا الإبدال تفخيم لشأن الوقت كوقوع قصتها العجيبة فيه . والانتباه " افتعال " من النبذ الطرح كأنها ألقت نفسها إلى جانب معتزلة عن الناس في مكان يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها . قال ابن عباس : من ههنا اتخذت النصارى المشرق قبلة ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾ لا بد لهذا الاحتجاب من غرض صحيح فمن المفسرين من قال : إنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود ، فلما طهرت جاء جبريل عليه السلام ، وقيل : طلبت الخلوة لأجل العبادة . وقيل : في مشربة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو شيء يسترها . وقيل : كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه ، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها بابها فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها ، فانفجر السقف لها فخرجت وجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك وذلك قوله : ﴿ فأرسلنا إليها

روحنا ﴾ يعني جبرائيل لأن الدين يحيا به وبوحيه ، والإضافة للتشريف والتسمية مجاز كما تقول لمن تحبه إنه روحي ﴿ فتمثل لها ﴾ حال كونه ﴿ بشراً سوياً ﴾ تام الخلق أو حسن الصورة . وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، وتدرع الروحاني كجبريل مثلاً تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالصغير غير مستبعد ، والذين اعتقدوا أن جبرائيل جسماني جوزوا أن يكون له أجزاء أصلية قليلة وأجزاء فاضلة ، فبتلك الأجزاء الأصلية يكون متمكناً من التشبه بصورة الإنسان ، ولندرة أمثال هذه الأمور لا يلزم منها قدح في العلوم العادية المستندة إلى الإحساس . فلا يلزم الشك في أن زيداً الذي نشاهده الآن هو الذي

(129/486)

شاهدناه بالأمس . قوله : ﴿ إن كنت تقياً ﴾ أي إن كان يرجى منك أن تتقي الله وترجع بالاستعاذة به فإني عائذة به منك . وقيل : إنه كان في ذلك العصر إنسان فاجر اسمه تقي وكان يتتبع النساء فظننت أن ذلك المتمثل هو ذلك الشخص فاستعاذت بالله . وقيل : " إن " نافية أي ما كنت تقياً حين استحللت النظر إلي وخلوت بي . وحين علم جبريل خوفها ﴿ قال إنما أنا رسول ربك ﴾ أرسلني ﴿ لأهب لك ﴾ أو ليهب لك ﴿ غلاماً زكياً ﴾

طاهراً من الذنوب ينمو على النزاهة والعفة . وكيف زال خوفها بمجرد القيل ؟ احتمل أن يكون قد ظهر لها معجزة من جهة زكريا أو إرهاصاً لعيسى أو إلهاماً من الله سبحانه . وهل تقدر الملائكة على تركيب الأجزاء وخلق الحياة والنطق حتى صح قول جبرائيل ﴿ لأهب لك ﴾ ؟ قال : اجتمعت الأمة على أن لا قدرة للأجسام على إيجاد الجواهر وإعدامها وإلا فلا استبعاد في تأثير بعض الأجسام في بعضها الخاصية خصها الله بها . ووجه صحة هذه القراءة أن جبرائيل صار سبباً في الهبة بالنفخ في الدرع .

(130/486)

﴿ قالت ﴾ استغراباً من حيث العادة لا تشكيكاً في قدرة الله ﴿ أنى يكون لي غلام ﴾ ولم تقل ههنا " رب " إما لأنها تخاطب جبرائيل ، وإما اكتفاء بما سلف في آل عمران ﴿ ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ﴾ هي الفاجرة التي تبغي الرجال . عن المبرد أن أصله بغوى على " فعول " قلبت الواو ياء ثم أدغمت في الياء وكسرت الغين للمناسبة . وعن ابن جنى أنه " فعيل " وإلا لقيل بغو كنهو عن المنكر خصصت بعدما عممت لزيادة الاعتبار بهذا الخزي تبرئة لساحتها عن الفحشاء . ولما جرى في أول القصة من تمثل جبرائيل لها بصورة البشر حتى ظنت أنه يريدها بسوء فاستعاذت بالرحمن منه بخلاف هذه القصة في آل عمران .

فإنها بنيت على الأمن والبشارة بقوله : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ﴾ [آل عمران : 45] فلم تحتج إلى هذه الزيادة . وقال جار الله : المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه في قوله : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ [البقرة : 237] ﴿ أو لمستم النساء ﴾ [النساء : 43] وإنما يقال في الزنا " فجر بها " و " خبث بها " ونحو ذلك ولا يليق به الكنايات والآداب . قلت لو سلم هذا من حيث اللغة إلا أنه لا بد لزيادة قوله : ﴿ ولم أك بغياً ﴾ في هذا المقام من فائدة وقد عرفت ما سنح لنا والله أعلم . ﴿ قال كذا قال ربك هو عليّ هين ﴾ تفسيره كما مر في قصة زكريا ﴿ ولنجعله ﴾ أي ولنجعل الغلام أو خلقه ﴿ آية للناس ﴾ يستدل بها على كمال اقتدارنا على إبداع الغرائب فعلنا ذلك ، ويجوز أن يكون معطوفاً على تعليل مضمر يتعلق بما يدل عليه ﴿ هين ﴾ أي تخلقه لنبين به قدرتنا ﴿ ولنجعله آية ﴾ وقد مر مثل هذا في قوله : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه ﴾ [يوسف : 21] ﴿ ورحمة منا ﴾ على عبادنا لأن كل نبي رحمة لأمته فبه يهدون إلى صلاح الدارين ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ مقدراً في اللوح أو أمراً حقيقاً بأن يقضي به لكونه آية ورحمة ، وهذا مبني على أن رعاية الأصلح واجبة على الله . وههنا

إضمار قال ابن عباس : فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت . وقيل : في ذيلها فوصلت إلى الفرج . وقيل : في فمها . وقيل : إن النافخ هو الله كقوله ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [ص : 72] وعلى هذا يقع تقديم ذكر جبرائيل كالضائع ولا سيما في قراءة من قرأ ﴿ لأهب لك ﴾ قيل : حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة .

(132/486)

وقيل : بنت عشرين وقد حاضت حيضتين قبل أن تحمل . وكم مدة حملها ؟ عن ابن عباس في رواية تسعة أشهر كما في سائر النساء لأنها لو كانت مخالفة لهن في هذه العادة لناسب أن يذكرها الله تعالى في أثناء مدائحها . وقيل : ثمانية أشهر ولم يعش مولود لثمانية إلا عيسى . قال أهل التنجيم : إنما لا يعيش لأنه يعود إلى تربية القمر وهو مغير معفن بسرعة حركته وغلبة التبريد والترطيب عليه . وعن عطاء وأبي العالية والضحاك : سبعة أشهر . وقيل : ستة أشهر . وقيل : حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها . وعن ابن عباس في رواية أخرى : كما حملته نبذته لقوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله ﴾ إلى قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] ولفا آت

التعقيب في قوله : ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض ﴾ وعلى هذا فالمكان القصي هو أقصى الدار أو وراء الجبل بعيداً من أهلها . ومعنى انتبذت به اعتزلت متلبسة به وهو في بطنها . وقصى مبالغة قاص . وروى الثعلبي عن وهب قال : إن مريم لما حملت فأول من عرف هو يوسف النجار ابن عمها و كانت سميت له ، وكانا يخدمان المسجد ولا يعلم من أهل زمانهما أكثر عبادة وصلاحاً منهما . فقال لها : إنه وقع في نفسي من أمرك شيء ولا أحب أن أكتمه عنك . فقالت : قل قولاً جميلاً . فقال : أخبريني يا مريم هل نبت زرع بغير بذر ؟ قالت : نعم . ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ! أو تقول : إن الله لا يقدر على الإنبات حتى يستعين بالماء ، ألم تعلم أن الله تعالى خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ! فقال يوسف : لا أقول هذا ولكني أقول : إن الله قادر على ما يشاء ، وزالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لضيق قلبها واستيلاء الضعف عليها من الحمل . فحين دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك ، فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له ، فلما بلغت تلك الدار

(133/486)

أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة . قال جار الله : منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . لا يقال : جئت المكان وأجاءنيه زيد كما يقال بلغته وأبلغنيه ، ونظيره " آتى " حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء ولم يقل " أتيت المكان وآتانيه فلان " . قلت : حاصله تخصيص باء التعدية بعد تعميم و ﴿ المخاض ﴾ بفتح الميم وجع الولادة . قال الجوهري : مخضت الناقة بالكسر مخاضاً مثل سمع سماعاً . قيل : طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة .

يروى أنه كان جذعاً لنخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة خضرة ، وكان الوقت شتاء والتعريف إما كتعريف النجم والصعق لكون ذلك الجذع مشهوراً هناك ، وإما للجنس أي جذع هذه الشجرة خاصة أرشدت إليها لتطعم منها الرطب الذي هو خرسة النفساء أي طعامها الموافق لها ، ولأن النخلة أقل الأشياء صبراً على البرد ولا تثمر إلا باللقاح فكان ظهور ذلك الرطب من ذلك الجذع في الشتاء من دون لقاح وإبار دليلاً على حصول الولد من غير ذكر قال في الكشاف : النسي اسم ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها ، ونظير الذبح لما من شأنه أن يذبح . وعن يونس : أن العرب إذا ارتحلوا قالوا : انظروا أنساءكم يعنون العصا والقدح والشظاظ ونحوها . تمنت لو كانت شيئاً يعبأ به فحقه أن ينسى في العادة .

ومعنى ﴿ منسياً ﴾ أنه قد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه . وإنما تمنت ذلك لما لحقها من فرط الحياء والخجل ، أو لأنهم بهتوا وهي عارفة ببراءة ساحتها فشق ذلك عليها ، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها . ومن قرأ ﴿ نسياً ﴾ بالفتح فقد قال الفراء : هما لغتان كالوتر والوتر . ويجوز أن يكون تسمية بالمصدر كالحمل . وقرىء ﴿ نسأ ﴾ بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته ﴿ فناداها من تحتها ﴾ الذي هو تحتها أو إنسان تحتها يعني جبريل بناء على أنه كان يقبل الولد كالقابلة ، أو أراد أسفل من مكانها لأن مريم كانت أقرب إلى الشجرة منه ، أو كان جبريل تحت الأكمة وهي فوقها فصاح بها لا تحزني . وعن الحسن وسعيد بن جبير أن المراد به عيسى لأن ذكر عيسى أقرب ، ولأن موضع اللوث لا يليق بالملك ، ولأن الصلة يجب أن تكون معلومة للسامع والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو الولد ويجري القولان فيمن قرأ بكسر الميم . وعن عكرمة وقتادة أن الضمير في تحتها للنخلة . قوله : ﴿ سرياً ﴾ جمهور المفسرين على أن السريّ هو الجدول . وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم سمي بذلك لأن الماء يسري فيه . وقيل : هو من السر ومعناه سخاء في مروءة : ويقال : فلان من سروات قومه أي من أشرافهم . وجمع السري سراة وجمع سراة سروات . عن الحسن : كان والله عبداً سرياً حجة هذا القائل أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جنبها ولا يمكن أن يقال : المراد أن النهر

تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها كما في قوله : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف : 51] لأنه خلاف الظاهر . وأجيب بأن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق . وكل من كان أبعد منه كان تحت . وأراد أن النهر تحت الأكمة وهي فوقها . وأيضاً حمل السري على النهر موافق قوله :

(135/486)

﴿ واويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ [المؤمنون : 50] وقوله : ﴿ فكلي واشربي ﴾ يروى أن جبريل ضرب برجله فظهر ماء عذب . وقيل : كان هناك ماء جار ، والأول أقرب لأن قوله ﴿ قد جعل ربك ﴾ مشعر بالأحداث في ذلك الوقت . قال القفال : الجذع من النخلة هو الأسفل وما دون الرأس الذي عليه الثمرة . وقال قطرب : كل خشبة في أصل شجرة هي جذع ، والباء في قوله : ﴿ بجذع النخلة ﴾ كالزائد لأن العرب تقول هزة وهز به والمعنى حركي جذع النخلة أو افعلي الهز به . و ﴿ رطباً ﴾ تمييز ومفعول تساقط على حسب القراءات اللازمة والمتعدية . وعن الأخفش المراد جواز انتصابه ب ﴿ هزي ﴾ أي هزي إليك رطباً جنياً بجذع النخلة أي على جذعها . والجني المأخوذ طرياً . والظاهر أنه ما أثمر إلا الرطب وقد صار نخلاً . وقيل : إنه كان على حاله وإنه أثمر مع

الرطب غيره . قالوا : إذا عسر ولادة المرأة لم يكن لها خير من الرطب ، والتمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وكذا التحنيك . والمراد أنه جمع لها فائدتان في السري والرطب : إحداهما الأكل والشرب وقدم الأكل مع أن ذكر السري مقدم لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال من الدماء ، والثانية سلوة الصدر لكونهما معجزين لزكريا أو إرهاصاً لعيسى أو كرامتين لمريم وأشار إلى هذه بقوله : ﴿ وقري عيناً ﴾ لأن قرّة العين تلزم قوة القلب والتسلي من الهموم والأحزان .

(136/486)

وقيل : إن ألم النفس أشد من ألم البدن ، فلم قدم دفع ألم البدن على دفع ألم القلب ؟ وأجيب بأن الخوف النفسي كان قليلاً لتقدم بشارة جبريل فكان التذكر كافياً ﴿ فإما ترين ﴾ أصله ترأيين مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت نون الإعراب للجزم ثم ياء الضمير للساكنين وذلك بعد لحوق نون التأكيد وقد مر في قوله : ﴿ وما يبلغن عندك الكبر ﴾ [الإسراء : 23] إذاً لتأكيد هذه الصورة يقصد به أن الشرط مما سيقع غالباً فإن مريم لا بد أن ترى أحداً من البشر عادة . عن أنس بن مالك : الصوم هنا الصمت . وعن ابن عباس مثله . وقال أبو عبيدة : كان ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم . وقيل : أراد

الصيام إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم . قال القفال : لعل مثل هذا النذر يجوز في شرعنا لأن الاحتراز عن كلام البشر يجرد الفكر لذكر الله تعالى وهو قربة ، ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق والتشديد ولا حرج في الإسلام . وفي الكشاف : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت . وروي أنه دخل أبو بكر الصديق على امرأة وقد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر : إن الإسلام هدم هذا فتكلمي . وفي أمرها بهذا النذر معنيان : أحدهما أن كلام عيسى أقوى في إزالة التهمة وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى ، والثاني أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعرض ومن أذل الناس سفيه لم يجد مشافهاً .

(137/486)

وكيف أخبرتهم بالنذر ؟ قيل : بالإشارة وإلا لزم النقض . وقيل : خص هذا الكلام بالقرينة العقلية . وقوله : ﴿ إنسياً ﴾ أراد المبالغة في نفي الكلام أو أراد أني أكلم الملائكة دون الإنس وهذا أشبه بقوله : ﴿ فإما ترين من البشر ﴾ . ﴿ فأتت به ﴾ أي بعيسى ﴿ قومها تحمله ﴾ الجملة حال . عن وهب : قال أنساها كربة الميلاد وما سمعت من الناس ما كان من بشارة الملائكة ، فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته فأقبلت به إلى

قومها . وعن ابن عباس : أن يوسف النجار انتهى بمريم إلى غار فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى طهرت من نفاسها ، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال : يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه . فلما دخلت به على قومها تباركوا وقالوا : ﴿ لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ بديعاً من فرى الجلد ، وليس في هذا ما يوجب تعييراً أو ذماً لأن أمرها كان خارجاً عن المعتاد ، ويحتمل أن يراد إنه أمر منكر خارج عن طريق العفة والصلاح فيكون توبيخاً ويؤكده قولهم : ﴿ يأخت هرون ﴾ الآية .

(138/486)

واختلفوا في هارون فقيل : كان أخاها من أبيها من أمثل بين إسرائيل وهذا أظهر لأن حمل اللفظ على الحقيقة أولى من غيره . وقيل : يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم عنوا هارون النبي أخا موسى عليهما السلام وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة وبينهما ألف سنة وأكثر . وعن السدي : كانت من أولاده والمراد أنها واحدة منهم كما يقال يا أخا همدان أي يا واحداً منهم . وقيل : أرادوا رجلاً صالحاً في زمانها أي كنت عندنا مثله في الصلاح . ويحكى أنه تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون تبركاً به وباسمه . وقيل : كان رجلاً طالحاً معلناً بالفسق فسموها به وبالتشبيه بسيرته . ويروى

أنهم هموا برجمها ﴿ فأشارت إليه ﴾ أي أن عيسى هو الذي يحكم . وبم عرفت ذلك ؟ إما بأن كلمها في الطريق أو بالإلهام أو بالوحي إلى زكريا أبو بقول جبريل على أن أمرها بالسكوت بعد ما سبق من البشارة قيل : كان المستنطق لعيسى زكريا . وعن السدي . لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا من زناهم ثم ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد ﴾ قال جار الله : "كان " لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مبهم يصلح للقريب والبعيد ، وههنا للزمان القريب عن الحال بدلالة الحال ، أو هو حكاية حال ماضية أي كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس ﴿ صبياً ﴾ في المهد حتى تكلم هذا ، ويحتمل أن يقال : "كان " زائدة نظراً إلى أصل المعنى وإن كان يفيد زيادة ارتباط مع رعاية الفاصلة ، أو هي تامة ﴿ صبياً ﴾ حال مؤكدة .

(139/486)

ويرى أنه كان يرضع فلما سمع مقالتهم ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وتكلم مع جاره وأشار بسبابته قائلا : ﴿ إني عبد الله ﴾ فكان فيه أوّلاً رد قول النصارى : ﴿ آتاني الكتاب ﴾ هو الإنجيل والتوراة أي فهمها . وقيل : أكلم الله عقله واستنبأه طفلاً بل في بطن أمه . وقيل : أراد أنه سبق في قضائه ، أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد والأول أظهر

وصغر الجسم لا مدح في كمال العقل وخرق العادة فيه أكذا قالوا إن كمال عقله في ذلك الوقت خارق للعادة . فيكون المعجز متقدماً على التحدي وهو غير جائز ولو كان نبياً في ذلك الوقت وجب أن يشتغل ببيان الشرائع والأحكام ولو وقع ذلك لاشتهر ونقل . والجواب أن بعض معجزات النبي لا بد أن يكون مقروناً بالتحدي ، أما الكل فممنوع ، وبعبارة أخرى لا بد أن يكون مقروناً بفعل خارق عن العادة ، ولكن كل فعل خارق للعادة فإنه لا يلزم اقترانه بالتحدي ، وكذا الكلام في بيان الشرائع فإن بعض أوقات النبي لا بد أن يقترن به التحدي دون كل أوقاته وحالاته ، على أنه أشار إلى بعض التكاليف بقوله : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ كما يجيء . وعن بعضهم أنه كان نبياً لقوله : ﴿ وجعلني نبياً ﴾ ولكنه ما كان رسولاً لأنه ما جاء بالشريعة في ذلك الوقت ومعنى كونه نبياً أنه رفيع القدر عليّ الدرجة ، وضعف بأن النبي في عرف الشرع أخص من ذلك . ومعنى قوله : ﴿ مباركاً أينما كنت ﴾ نفاعاً حيثما كنت روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل معلماً للخير ، وضلال كثير من أهل الكتاب باختلافهم فيه لا يقدح في منصبه كما قيل :

عليّ نحت القوافي من معادنها . . . وما عليّ إذا لم تفهم البقر

(140/486)

وهذه سنة الله في أنبيائه ورسله كلهم ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً ﴾ [الفرقان : 31] يروى أن مريم سلمت عيسى إلى المكتب فقالت للمعلم . أدفعه إليك على أن لا تضربه فقال له : اكتب . فقال له : أي شيء أكتب ؟ فقال : اكتب " أبجد " فقال : لا أكتب شيئاً لا أدري . ثم قال : إن لم تعلم ما هو فأنا أعلمك . الألف من آلاء الله ، والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله ، والدال من أداء الحق إلى الله . وقيل : البركة أصلها من بروك البعير والمعنى جعلني ثابتاً في دين الله مستقراً فيه . وقيل : البركة هي الزيادة والعلو فكأنه قال : جعلني في جميع الأشياء غالباً منجحاً إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء عن قتادة أنه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص فقالت : طوبى لبطن حملتك وثدي أرضعت به . فقال عيسى عليه السلام مجيباً لها : طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يك جباراً شقياً .

(141/486)

﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ أي بأدائهما إما في وقتهما المعين وهو وقت البلوغ ، وإما في الحال بناء على أنه كان مع صغره كامل العقل تام التركيب بحيث يقوى على أداء التكاليف ويؤيده قوله ﴿ ما دمت حياً ﴾ وقيل : الزكاة ههنا صدقة الفطر . وقيل :

تطهير البدن البدن من دنس الآثام . وقيل : أوصاني بأن آمركم بهما . وفي قوله : ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ دلالة وإشارة إلى تبرئة أمه من الزنا وإلا لم يكن الرسول المعصوم مأموراً بالبر بها . قال بعض العلماء : لا تجد العاق إلا جباراً شقياً وتلا قوله : ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ ولا تجد سيىء الملكة إلا مختالاً فخوراً . وقرأ ﴿ وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ [النساء : 36] وإنما نفى عن عيسى الشقاوة ولم ينف عنه المعصية كما نفى عن يحيى لما جاء في الخبر " ما أحد من بني آدم إلا أذنب أو هم بذنب إلا يحيى بن زكريا " ومن عقائد أهل السنة أن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر . قوله : ﴿ والسلام عليّ ﴾ قالت العلماء : إنما عرف السلام ههنا بعد تنكيره في قصة يحيى لأن النكرة إذا تكررت تعرفت على أن تعريف الجنس قريب من تنكيره . وقيل : إن الأول من الله والقليل عنه كثير .

قليل منك يكفيني . . . قليلك لا يقال له قليل

وإني لأرضى منك يا هند بالذي . . . لو أبصره الواشي لفرت بلابله

بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى . . . وبالوعد حتى يسأم الوعد آمله

(142/486)

والثاني من عيسى والكثير منه لا يبلغ معشار سلام الله . عن بعضهم أن عيسى عليه السلام قال ليحيى : أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت على نفسي . وأجاب الحسن بأن تسليمه على نفسه هو تسليم الله عليه . وقال جار الله : في هذا التعريف تعريض باللعنة على متهمي مريم وأعدائها من اليهود لأنه إذا زعم أن جنس السلام خاصته فقد عرض بأن ضده عليهم نظيره في قصة موسى ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] يعني أن العذاب على من كذب وتولى . يروى أنه كلمهم بهذه الكلمات ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان . وعن اليهود والنصارى أنهم أنكروا تكلم عيسى في المهد قائلين إن هذه الواقعة مما يتوفر الدواعي على نقلها ، فلو وجدت لاشتهرت وتواترت مع شدة غلو النصارى فيه وفي مناقبه . وأيضاً إن اليهود مع شدة عداوتهم له لو سمعوا كلامه في المهد بالغوا في قتله ودفعه في طفوليته . وأجاب المسلمون من حيث العقل بأنه لولا كلامه الذي دلهم على براءتها من الذي قذفوها به لأقاموا عليها الحد ولم يتركوها ، ولعل حاضري يشتغلوا وقتئذ بدفعه والله أعلم . ﴿ ذلك ﴾ الموصوف بالصفات المذكورة من قوله : ﴿ إني عبد الله ﴾ إلى آخره هو ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ وفي كونه ابن لهذه المرأة نفى كونه ابناً على ما زعمت الضالة وأكد هذا المعنى بقوله : ﴿ قول الحق ﴾ فإن كان الحق هو اسم الله فهو كقوله : "كلمة الله " وانتصابه على المدح ، وإن كان بمعنى الثابت والصدق فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة كقولك " هو عبد الله الحق " و ﴿

قول الحق ﴿ من إضافة الموصوف إلى الصفة مثل

﴿ حق اليقين ﴾ [الواقعة : 95] قد مر آنفاً . وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر ، أو بدل ، أو خبر مبتدأ محذوف . ومعنى ﴿ تمترون ﴾ تشكون من المرية الشك ، أو المراد يتمارون من المراء اللجاج وذلك أن اليهود قالوا : ساحر كذاب ، وقالت النصارى ابن الله وثالث ثلاثة .

(143/486)

ثم صرح ببطلان معتقدم فقال : ﴿ ما كان الله ﴾ ما صح له وما استقام ﴿ أن يتخذ من ولده ﴾ كما لا يستقيم أن يكون له شريك ، وقد مر مثل هذه الآية في سورة البقرة . والذي نزيده ههنا أن بعضهم قال : معنى الآية ما كان لله أن يقول لأحد إنه ولدي لأن هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمته تعالى . وزعم الجبائي بناء على هذا التفسير أنه ليس لله أن يفعل كل شيء لأن قوله : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ كقولنا " ما كان لله أن يظلم " فلا يليق شيء منها بحكمته وكمال إلهيته . وأجيب بأن الكذب على الله محال ، والظلم تصرف في ملك الغير فلا يتصوّر في حقه . فإن أردتم هذا المعنى فلا نزاع ، وإن أردتم شيئاً آخر فما الدليل على استحالته ؟ ! احتج بعض الأشاعرة بالآية على قدم كلام الله لأن قوله

: ﴿ كن ﴾ إن كان قديماً فهو المطلوب ، وإن كان محدثاً احتاج في حدوثه إلى قوله آخر وتسلسل . واستدلت المعتزلة بها على حدوث كلامه قالوا : إن قوله : ﴿ إذا قضى ﴾ للاستقبال وذلك القول متأخر عن القضاء المحدث ، والمتأخر عن المحدث محدث . وأيضاً الفاء في ﴿ فيكون ﴾ للتعقيب والقول متقدم عليه بلا فصل ، والمتقدم على المحدث بزمان قليل محدث ، وكلا الاستدلالين ضعيف لأنه لا نزاع في حدوث الحروف وإنما النزاع في كلام النفس . وأيضاً قوله : ﴿ كن ﴾ عبارة عن نفاذ قدرته ومشيئته وإلا فليس ثم قول لأن الخطاب مع المعدوم عبث ومع الموجود تحصيل الحاصل . ومن الناس من زعم أن المراد من قوله : ﴿ كن ﴾ هو صفة التكوين فإنها زائدة على صفة القدرة لأنه قادر على عوالم أخر سوى هذا وغير مكون لها ، ولعل هذا الزاعم سمى تعلق القدرة بالمقدور تكويناً . ومن قرأ ﴿ وأن الله ﴾ بالفتح فمعناه ولأن الله ﴿ ربي وربكم فاعبدون ﴾ وفيه أن الربوبية هي سبب العبادة فمن لم تصح ربوبيته لم يستحق أن يعبد ، ولا رب بالحقيقة إلا الله لانتهاء جميع الوسائط والأسباب إليه ، فلا يستحق العبادة إلا هو .

(144/486)

وههنا نكتة هي أن الله تعالى لا يصح أن يقول : ﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ فالتقدير قل : يا محمد بعد إظهار البراهين الباهرة على أن عيسى عبد الله ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾ قال أبو مسلم الأصفهاني : إنه من تتمة كلام عيسى وما بينهما اعتراض . وعن وهب بن منبه : عهد إليهم حين أخبرهم عن حاله وصفته أن كلنا عبيد الله تعالى ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي من بين أهل الكتاب . قال الكلبي : هم اليهود والنصارى . وقيل : النصارى اختلفوا ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى علماء زمانهم وهم يعقوب ونسطور وملكا فقيل للأول : ما تقول في عيسى ؟ فقال : هو الله هبط إلى الأرض فخلق وأحيا ثم صعد إلى السماء فتبعه على ذلك خلق كثير وهم اليعقوبية . وسئل الثاني فقال : هو ابن الله فتابعه جم غفير وهم النسطورية ، وسئل الثالث فقال : كذبوا وإنما كان عبداً مخلوقاً نبياً يطعم وينام فصارا خصمه وهو المؤمن المسلم . وقيل : كانوا أربعة والرابع اسمه إسرائيل فقال : هو إله وأمه إله والثلاثة أقانيم والروح واحد . واعلم أن بحث الحلول والاتحاد فيه طول وقد ينجر الكلام فيه إلى مقامات يصعب الترقي إليها ، فلذلك ضل فيه من ضل وزل عنه من زل والله سبحانه أعلى من جميع ذلك وأجل ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ أي من شهودهم هذا الجزاء والحساب في ذلك اليوم ، أو من زمان شهودهم ، أو من مكان شهودهم فيه وهو الموقف . ويحتمل أن يكون المشهد ومن الشهادة أي من يشهد عليهم الملائكة والأنبياء أو جوارحهم فيه بالكفر والقبائح ، أو من مكان

الشهادة أو وقتها . وقيل : هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه يوم ولادته . ومعنى " من " التعليل أي الويل لهم من أجل المشهد وبسببه قال أهل البرهان : إنما قال ههنا ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ وفي حم الزخرف ﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ [الآية : 65] لأن الكفر أبلغ من الظلم ، وقصة عيسى في هذه السورة مشروحة وفيها ذكر نسبتهم إياه إلى الله حتى قال : ﴿ ما

(145/486)

كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ فذكر بلفظ الكفر ، وقصتهم في الزخرف مهملة فوصفهم بلفظ دونه وهو الظلم . قلت : ويحتمل أن يقال : الظلم إذا أريد به الشرك كان أخص من الكفر فعمم أولاً ثم خصص لأن البيان بالمقام الثاني أليق ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ صيغتان للتعجب والمراد أن هاتين الحاستين منهم جديران بتعجب منهما في ذلك اليوم بعد ما كانوا صماً وعمياً في الدنيا ، وذلك لكشف الغطاء ولحاق العيان بالخبر . والتعجب استعظام الشيء بسبب عظمه ، ثم جوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير سبب . قال سفيان : قرأت عند شريح ﴿ بل عجبت

ويسخرون ﴾ [الصافات : 12] فقال : إن الله لا يعجب من شيء إنما يعجب من لا يعلم .

(146/486)

فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال : إن شريحاً شاعر يعجبه علمه وعبد الله أعلم بذلك منه . والمعنى أنه صدر من الله فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب في قلوبهم . وقيل : معنى الآية التهدد بما سيسمعون وسيبصرون مما يسوءهم . وقيل : أراد أسمع بهؤلاء وأبصر أي عرفهم مآل القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا عن الإتيان بمثل فعلهم . وقال الجبائي أن يراد أسمع الناس بهؤلاء وأبصرهم ليعتبروا بسوء عاقبتهم والوجه هو الأول يؤيده قوله : ﴿ لكن الظالمون ﴾ أي لكنهم فوضع المظهر موضع المضمر . ﴿ اليوم ﴾ وهو يوم التكليف ﴿ في ضلال مبين ﴾ حيث أغفلوا النظر والاستماع وتركوا الجد والاجتهاد في تحصيل الزاد للمعاد وهو ﴿ يوم الحسرة ﴾ لتحسر أهل النار فيه . وقيل : أهل الجنة أيضاً إذا رأى الأدنى مقام الأعلى ، والأول أصح لأن هذه الخواطر لا توجد في الجنة لأنها دار السرور . و ﴿ إذ ﴾ بدل من يوم الحسرة أو منصوص بالحسرة . ومعنى ﴿ قضي الأمر ﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار . وعن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه سئل عنه فقال : " يؤتى بالموت فيذبح كما يذبح الكبش والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح وأهل النار غماً إلى غم " قال أرباب المعقول : إن الموت عرض فلا يمكن أن يصير حيواناً فالمراد أنه لا موت بعد ذلك . عن الحسن ﴿ وهم في غفلة ﴾ متعلق بقوله : ﴿ في ضلال مبين ﴾ وقوله : ﴿ وأنذرهم ﴾ اعتراض . ويحتمل أن يتعلق ب ﴿ أنذرهم ﴾ أي أنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين . ويحتمل أن يكون " إذ " ظرفاً ل ﴿ أنذر ﴾ أي أنذرهم حين قضي الأمر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب . ثم أخبر عنهم أنهم في غفلة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ ثم قرر بقوله : ﴿ إنا نحن نرث ﴾ أن أمور الدنيا كلها تزول وأن الخلق كلهم يرجعون إلى حيث لا يملك الحكم إلا الله وفيه من التخويف والإنذار ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 487.476 ﴾

(147/486)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾

﴿ كاف . ها . يا . عين . صاد ﴾ . .

هذه الأحرف المتقطعة التي تبدأ بها بعض السور ، والتي اخترنا في تفسيرها أنها نماذج من الحروف التي يتألف منها هذا القرآن ، فتجيء نسقاً جديداً لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات ، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل ما تصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن .

وبعدها تبدأ القصة الأولى . قصة زكريا ويحيى . والرحمة قوامها . والرحمة تظللها . ومن ثم يتقدمها ذكر الرحمة : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ . .

تبدأ القصة بمشهد الدعاء . دعاء زكريا لربه في ضراعة وفي خفية :

﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً . قال : رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً ، فهب لي من لدنك ولياً ، يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضياً ﴾ . .

إنه يناجي ربه بعيداً عن عيون الناس ، بعيداً عن أسماعهم . في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال : ﴿ رب . . ﴾ بلا واسطة حتى ولا حرف النداء . وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى . والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم . ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم

قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ؛ وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه .

(148/486)

وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظم . وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن . فالعظم هو أصلب ما فيه ، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه . ويشكو إليه اشتعال الرأس شيبا . والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد .

ووهن العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه . .

ثم يعقب عليه بقوله : ﴿ ألم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ معترفاً بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه ، فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في فتوته وقوته . فما أحوجه الآن في هرمه وكبرته أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه .

فإذا صور حاله ، وقدم رجاءه ، ذكر ما يخشاه ، وعرض ما يطلبه . . إنه يخشى من بعده . يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه . وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها وهو أحد أنبياء

بني إسرائيل البارزين وأهله الذين يرعاهم ومنهم مريم التي كان قيماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه وماله الذي يحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه .

وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله ، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته . . قيل لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث . .

﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ . . لم تعقب فلم يكن له من ذريته من يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته .

ذلك ما يخشاه . فأما ما يطلبه فهو الولي الصالح ، الذي يحسن الوراثة ، ويحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده : ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ .

ولا ينسى زكريا ، النبي الصالح ، أن يصور أمله في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته : ﴿ واجعله رب رضيا ﴾ لا جباراً ولا غليظاً ، ولا متبطراً ولا طموعاً . ولفظة ﴿ رضي ﴾ تلقي هذه الظلال . فالرضي الذي يرضى ويرضي . وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله .

(149/486)

ذلك دعاء زكريا لربه في ضراعة وخفية . والألفاظ والمعاني والظلال والإيقاع الرخي . كلها تشارك في تصوير مشهد الدعاء .

ثم ترتسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى . . فالرب ينادي من الملأ الأعلى : ﴿ يا زكريا ﴾ . . ويعجل له البشرى : ﴿ إنا نبشرك بغلام ﴾ ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشره به : ﴿ اسمه يحيى ﴾ . وهو اسم فذ غير مسبوق : ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ . .

إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة ، وناجاه في خفية ، وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو . والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالي من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله . وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء . فإذا هو يواجه الواقع . . إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتياً ، وهن عظمه واشتعل شيبه ، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه : فكيف يا ترى سيكون له غلام ؟ إنه ليريد أن يطمئن ، ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام : ﴿ قال : رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ ﴾ .

إنه يواجه الواقع ، ويواجه معه وعد الله . وإنه ليثق بالوعد ، ولكنه يريد أن يعرف كيف

يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه . وهي حالة نفسية طبيعية . في مثل موقف زكريا النبي الصالح . الإنسان ! الذي لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله !

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله : أن هذا هين على الله سهل . ويذكره بمثل قريب في نفسه : في خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن . وهو مثل لكل حي ، ولكل شيء في هذا الوجود :

﴿ قال : كذلك قال ربك : هو عليَّ هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ .

وليس في الخلق هين وصعب على الله . ووسيلة الخلق للصغير والكبير ، وللحقير والجليل واحدة : كن . فيكون .

(150/486)

والله هو الذي جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفاني لا ينسل ؛ وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب في الرجل . وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء . وإن كان كل شيء هيناً على القدرة : إعادة أو إنشاء .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلاً . فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه

الاستجابة . . ويؤدي بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاماً . . وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوي معافى في جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة .

﴿ قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ . .

وكان ذلك :

﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ . .

ذلك ليعيشوا في مثل الجو الذي يعيش فيه ، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .

ويترك السياق زكريا في صمته وتسبيحه ، ويسدل عليه الستار في هذا المشهد ويطوي صفحته ليفتح الصفحة الجديدة على يحيى ؛ يناديه ربه من الملأ الأعلى :

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة . . ﴾ .

لقد ولد يحيى وترعرع وصار صبياً ، في الفجوة التي تركها السياق بين المشهدين . على طريقة القرآن في عرضه الفني للقصص ، ليبرز أهم الحلقات والمشاهد ، وأشدها حيوية وحركة .

وهو يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة . لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم ، يدل على مكانة يحيى ، وعلى استجابة الله لزكريا ، في أن يجعل له من ذريته ولياً ، يحسن الخلافة بعده في العقيدة وفي العشيرة . فها هو ذا أول موقف ليحيى هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى . ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ . . والكتاب هو التوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى ، وعليه كان يقوم انبياؤهم يعلمون به ويحكمون . وقد ورث يحيى أباه زكريا ، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة . .

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى :

﴿ وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة ، وكان تقياً ﴾ . .

فهذه هي المؤهلات التي زوده الله بها وأعده وأعانه على احتمال ما كلفه إياه عندما ناداه . .

آتاه الحكمة صبياً . فكان فذاً في زاده ، كما كان فذا في اسمه وفي ميلاده . فالحكمة تأتي متأخرة . ولكن يحيى قد زود بها صبياً .

وآتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه ؛ إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به .

والحنان صفة ضرورية للنبي المكلف رعاية القلوب والنفوس ، وتألفها واجتذابها إلى الخير

في رفق .

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ؛ يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس ، فيطهرها ويزكيها .

﴿ وكان تقياً ﴾ موصولاً بالله ، متحرجاً معه ، مراقباً له ، يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سره ونجواه .

ذلك هو الزاد الذي آتاه الله يحيى في صباه ، ليخلف أباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفيا . فاستجاب له ربه ووهب له غلاماً زكياً . .

(152/486)

وهنا يسدل الستار على يحيى كما أسدل من قبل على زكريا . وقد رسم الخط الرئيسي في حياته ، وفي منهجه ، وفي اتجاهه . وبرزت العبرة من القصة في دعاء زكريا واستجابة ربه له ، وفي نداء يحيى وما زوده الله به . ولم يعد في تفصيلات القصة بعد ذلك ما يزيد شيئاً في عبرتها ومغزاها . .

والآن فإلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى . . إنها قصة ميلاد عيسى . وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية

ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل ! وهي أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلاً وإنشائه على هذه الصورة ، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله ، ويكون حادثاً فذاً لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها ! لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب ، على غير السنة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ؛ ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال ، إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان !

(153/486)

لقد جرت بسنة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء ، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث . . جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر في

تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة ، ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم عليه السلام ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلماً بارزاً على حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ .

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه ، فجعلت تضفي على عيسى ابن مريم عليه السلام صفات ألوهية ، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ، وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد .

والقرآن في هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ، ويبرز دلالتها الحقيقية ، وينفي تلك الخرافات والأساطير .

والسياق يخرج القصة في مشاهد مثيرة ، حافلة بالعواطف والانفعالات ، التي تهز من يقرؤها هزاً كأنما هو يشهدها :

﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً . فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت

تقياً . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ؟ قال : كذلكِ قال ربكِ هو عليَّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا . . وكان أمراً مقضياً ﴾ . .

(154/486)

فهذا المشهد الأول فتاة عذراء . قديسة ، وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد . لا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة حتى لتنسب إلى هارون أبي سدنة المعبد الإسرائيلي المتطهرين ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم .

ها هي ذي تخلو إلى نفسها لشأن من شؤونها التي تقتضي التواري من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم . . ولا يحدد السياق هذا الشأن ، ربما لأنه شأن خاص جداً من خصوصيات الفتاة . .

وها هي ذي في خلوتها ، مطمئنة إلى انفرادها . ولكن ها هي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة . . إنه رجل مكتمل سوي : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ . . وها هي ذي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته في

هذا المكان الخالي : ﴿ قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ فالتقيّ ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان . .

وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة ، التي نشأت في وسط صالح ، وكفلها زكريا ، بعد أن نذرت لله جنينا . . وهذه هي الهزة الأولى .

﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ . . وليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل . وهذا الرجل السوي الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً ، وهما في خلوة وهذه هي الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة في عرضها ! فتسأل في صراحة : كيف ؟

(155/486)

﴿ قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشر ، ولم أك بغياً ؟ ﴾ . . هكذا في صراحة . وبالألفاظ المكشوفة . فهي والرجل في خلوة . والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً . فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً ؟ وما يخفف من روع الموقف ان يقول لها : ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ ولا أنه مرسل ليهب لها غلاماً طاهراً غير مدنس المولد ،

ولا مدنس السيرة ، ليطمئن بالها . لا . فالحياء هنا لا يجدي ، والصراحة أولى . . كيف ؟ وهي عذراء لم يمسسها بشر ، وما هي بغي فتقبل الفعلة التي تجيء منها بغلام !

ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاماً إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى . وهذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري .

﴿ قال : كذلك قال ربك : هو عليَّ هين . ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ﴾ . .

فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه ، هين على الله . فأمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون ، كل شيء هين ، سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره . والروح يخبرها بأن ربها يخبّرها بأن هذا هين عليه . وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس ، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته . ورحمة لبني إسرائيل أولاً وللبشرية جميعاً ، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه .

بذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء . . ولا يذكر السياق ماذا كان بعد الحوار ، فهنا فجوة من فجوات العرض الفني للقصة . ولكنه يذكر أن ما أخبرها به من أن يكون لها غلام وهي عذراء لم يمسسها بشر ، وأن يكون هذا الغلام آية للناس ورحمة من الله . أن هذا قد انتهى أمره ، وتحقق وقوعه : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ كيف ؟ لا يذكر هنا عن ذلك شيئاً .

ثم تمضي القصة في مشهد جديد من مشاهدها ؛ فتعرض هذه العذراء الحائرة في موقف آخر أشد هولاً : ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ؛ قالت : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ . .

وهذه هي الهزة الثالثة . .

إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته . هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة ؟ إن هذا جائز . فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية ، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية . . كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتختصر المراحل اختصاراً ؛ ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة .

. ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين . فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها . . فلنشهد مريم تنتبذ مكاناً قصياً عن أهلها ، في موقف أشد هولاً من موقفها الذي أسلفنا . فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق ، بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة . ثم تواجه الآلام الجسدية

بجانب الآلام النفسية . تواجه المخاض الذي ﴿ أجاءها ﴾ إجاءة إلى جذع النخلة ، واضطرها اضطراراً إلى الاستناد عليها . وهي وحيدة فريدة ، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ، ولا علم لها بشيء ، ولا معين لها في شيء . . فإذا هي قالت : ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها . وهي تتمنى لو كانت ﴿ نسياً ﴾ : تلك الخرقة التي تتخذ لدم الحيض ، ثم تلقى بعد ذلك وتنسى !

وفي حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى :

(157/486)

﴿ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلي واشربي وقري عيناً ، فإما ترين من البشر أحداً فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ . .

يا لله ! طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها . يطمئن قلبها ويصلها بربها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها . ويدلها على حجتها وبرهانها !

لا تحزني . . ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ فلم ينسك ولم يتركك ، بل أجرى لك تحت

قدميك جدولاً سارياً الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطباً . فهذا طعام وذاك شراب . والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء . ﴿ فكلي واشربي ﴾ هنيئاً . ﴿ وقري عيناً ﴾ واطمئني قلباً . فأما إذا واجهت أحداً فأعلنيه بطريقة غير الكلام ، أنك نذرت للرحمن صوماً عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة . ولا تجيبي أحداً عن سؤال . .

ونحسبها قد دهشت طويلاً ، وبهتت طويلاً ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنياً . . ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها . وإلى أن حجتها معها . . هذا الطفل الذي ينطلق في المهد . . فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها . . ﴿ فأتت به قومها تحمله . . ! ﴾ . . فلنشهد هذا المشهد المثير :

إننا لنتصور الدهشة التي تعلو وجوه القوم ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون في نطاق ضيق محدود وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة . . يرونها تحمل طفلاً !

﴿ قالوا : يا مريم لقد جئت شيئاً فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً ! ﴾

إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب : ﴿ يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ فظيعاً مستنكراً .

(158/486)

ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير : ﴿ يا أخت هارون ﴾ النبي الذي تولى الهيكل هو وذريته من بعده والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل . فيا للمفارقة بين تلك النسبة التي تنتسبينها وذلك الفعل الذي تقارفينه ! ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً ﴾ حتى تأتي بهذه الفعلة التي لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا !

وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب التي لقنها إياها :

﴿ فأشارت إليه ﴾ . . فماذا نقول في العجب والغيظ الذي ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ؛ ثم تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها !

﴿ قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟ ﴾ .

ولكن ها هي ذي الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى :

﴿ قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أين ما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ .

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله . فليس هو ابنه كما تدعي فرقة . وليس هو إلهاً كما تدعي فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعي فرقة . ويعلن أن الله جعله نبياً ، لا ولداً ولا شريكاً . وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته . والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته . فله إذن حياة محدودة ذات أمد . وهو يموت ويبعث . وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً . . والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه . وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولا جدالاً . ولا يزيد السياق القرآني شيئاً على هذا المشهد . لا يقول : كيف استقبل القوم هذه الخارقة . ولا ماذا كان بعدها من أمر مريم وابنها العجيب . ولا متى كانت نبوته التي أشار إليها وهو يقول :

﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ . . ذلك أن حادث ميلاد عيسى هو المقصود في هذا الموضع . فحين يصل به السياق إلى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالغرض المقصود في أنسب موضع من السياق ، بلهجة التقرير ، وإيقاع التقرير :

﴿ ذلك عيسى ابن مريم . قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد . سبحانه . إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون . وإن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم ﴾ . .

ذلك عيسى ابن مريم ، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه في مولده . . ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته . ذلك هو يقول قول الحق الذي فيه يمترون ويشكون . يقولها لسانه ويقولها الحال في قصته : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ تعالى وتنزه فليس من شأنه أن يتخذ ولداً .

والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعاف للنصرة . والله باق لا يخشى فناء ، قادر لا يحتاج معيناً . والكائنات كلها توجد بكلمة كن . وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون . . فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين . . وينتهي ما يقوله عيسى عليه السلام ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس ، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك : ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ . . فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير . . وهذا هو المقصود بذلك

التعقيب في لغة التقرير وإيقاع التقرير .

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب في أمر عيسى فيبدو هذا الاختلاف مستنكراً نابياً في ظل هذه الحقيقة الناصعة :

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ . .

(160/486)

ولقد جمع الإمبراطور الروماني قسطنطين مجمعاً من الأساقفة وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفاً فاختلفوا في عيسى اختلافاً شديداً ، وقالت كل فرقة فيه قولاً . . قال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء . وقال بعضهم : هو ابن الله ، وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن والروح القدس . وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله وهو إله وأمه إله . وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته . وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى . ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مائة وثمانية اتفقوا على قول . فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين وشرد المعارضين وبخاصة الموحدين .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر

الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله ، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر ، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين :

﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ .

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم . بهذا التنكير للتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة ، في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار .

ثم يأخذ السياق في التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا . وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس :

﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾ . .

فما أعجب حالهم ! . . لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم !

(161/486)

﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ . . يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها ، فهي الغالبة على جوه ، البارزة فيه . أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات : ﴿ إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم ، موصول بالغفلة التي هم فيها سادرون .

أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شك فيه ؛ فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله ، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ! :

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2301 . 2309 ﴾

(162/486)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ الأزلي ﴿ مريم ﴾ القلب ﴿ إذا انتبذت من أهلها ﴾ تفردت من أهل الدنيا متوجهاً إلى جانب شروق النور الإلهي ﴿ فاتخذت من دونهم ﴾ حجاب الخلوة والعزلة ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ وهو نور الإلهام الرباني والخاطر

الرحماني كقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ كما تمثل روح التوحيد بحروف " لا إله إلا الله " لانتفاع الخلق به . و ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك ﴾ ظناً منها أنه يشغلها عن الله . ﴿ قال إنما أنا رسول ﴾ الوارد الرباني ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ طاهراً عن لوث الظلمة الأنسية وهو النفس المطمئنة القدسية . ﴿ ولم يمسسني بشر ﴾ خاطر من عالم البشرية ﴿ ولم أك بغياً ﴾ أطلب غير ما خلقت لأجله وهو التوجه إلى عالم الروح المجرد ﴿ فحملته ﴾ بالقوة القريبة من الفعل ﴿ فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ لافتقاره إلى العبور على منازل الشريعة والطريقة ﴿ فأجاءها ﴾ مخاض الطلب والتعب ﴿ إلى جذع النخلة ﴾ وهي كلمة " لا إله إلا الله " التي كان أصلها ثابتاً في أرض نفسها ﴿ قالت يا ليتني مت قبل هذا ﴾ قال بعض أهل التحقيق : هذه كلمة يذكرها الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم .

(163/486)

قال عليّ عليه السلام يوم الجمل : يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة . وعن بلال : ليت بلالاً لم تلده أمه . وقيل : إن مريم قالت ذلك لعلمها بأن الله تعالى يدخل النار خلقاً كثيراً بسبب تهمتها وبسبب الغلو والتقصير في حق ابنها قلت : إن مريم القلب قالت يا ليتني مت

عن اللذات الجمسية قبل هذا الوقت الذي فزت باللذات الحقيقية وكنت نسياً منسياً ، لإن الخمول راحة والشهرة آفة ﴿ فناداها ﴾ بلسان الحال من تحت تصرفها من آلات القوى ﴿ أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك ﴾ أي تحت تصرفك ﴿ سرياً ﴾ هو الغلام الموعود أو جدول الكشوف والعلوم الدينية ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ بالمداومة على الذكر ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ من المشاهدات والمكاشفات حالاً فحالاً ﴿ فكلي واشربي ﴾ من خوان الأفضال وبحر النوال من مادته " أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني " ﴿ وقري عينا ﴾ بأنوار الجمال في حجرة الوصال ﴿ فأما ترين ﴾ من السوانح البشرية ﴿ أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ كما قيل الدنيا يوم ولنا فيه صوم أي الالتفات لغير الله . ﴿ فأتت به قومها ﴾ من عادة الجهال إنكار أحوال أهل الكمال . ﴿ يا أخت هرون ﴾ النفس المطمئنة أو الأمارة بناء على أن هارون كان صالحاً أو طالحاً ﴿ وكان أبوك ﴾ وهو الروح المفارق ﴿ إمرأ سوء وما كانت أمك ﴾ وهي القالب ﴿ بغياً ﴾ تستأنس إلى غير عالم الطبيعة التي خلقت لأجلها ﴿ فأشارت إليه ﴾ فيه أن هذا القوم هم أهل الإشارات ﴿ في المهد ﴾ مهد السر وذلك المتولد من نفخ الروح في مريم القالب ليس ابناً لله ولا محلاً له ولا نفسه . ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ فقوم عبدوا الله لأجله ، وقوم عبدوه طمعاً في جنته ، وقوم عبدوا الهوى وذلك قوله : ﴿

فويل للذين كفروا ﴾ ﴿ أسمع بهم ﴾ أي بأهل الله ﴿ وأبصر يوم يأتوننا ﴾ فإنهم بالله يسمعون وبه يبصرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 487 . 488 ﴾

(164/486)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] هو وأمثاله على الصحيح سر من أسرار الله تعالى ، وقيل في وجه افتتاح هذه السورة به : إن الكاف إشارة إلى الكافي الذي اقتضاه حال ضعف زكريا عليه السلام وشيخوخته وعجزه ، والهاء إشارة إلى الهادي الذي اقتضاه عنايته سبحانه به وإراءة مطلوبه له ، والياء إشارة إلى الواقي الذي اقتضاه حال خوفه من الموالي ، والعين إشارة إلى العالم الذي اقتضاه إظهاره لعدم الأسباب ، والصاد إشارة إلى الصادق الذي اقتضاه الوعد ، والإشارة في القصتين إجمالاً إلى أن الله تعالى شأنه يهب بسؤال وغير سؤال .

وطبق بعض أهل التأويل ما فيهما على ما في الأنفس فتكلفوا وتعسفوا .

وفي نذر الصوم والمراد به الصمت إشارة إلى ترك الانتصار للنفس فكأنه قيل لها عليها السلام : اسكتي ولا تنتصري فإن في كلامك وانتصارك لنفسك مشقة عليك وفي سكوتك

أظهار ما لنا فيك من القدرة فلزمت الصمت فلما علم الله سبحانه صدق انقطاعها إليه أنطق جل وعلا عيسى عليه السلام ببراءتها ، وذكر أنه عليه السلام طوى كل وصف جميل في مطاوي قوله : ﴿ إِنِّى عَبْدُ الله ﴾ [مريم : 30] وذلك لما قلوا من أنه لا يدعى أحد بعبد الله إلا إذا صار مظهراً لجميع الصفات الإلهية المشير إليها الاسم الجليل ، وجعل على هذا قوله : ﴿ آتانى الكتاب ﴾ [مريم : 30] الخ كالتعليل لهذه الدعوى .

وذكروا أن العبد مضافاً إلى ضميره تعالى أبلغ مدحاً مما ذكر وأن صاحب ذلك المقام هو نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكأن مرادهم أن العبد مضافاً إلى ضميره سبحانه كذلك إذا لم يقرن بعلم كـ ﴿ عبده زكريا ﴾ وإلا فدعوى الاختصاص لا تتم فليتدبر .

وذكر ابن عطاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ [مريم : 32] إن الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا ينتصح نعوذ بالله سبحانه من أن يجعلنا كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(165/486)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 53 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذم الضالين في أمر المسيح ، وعلق تهديدهم بوصف دخل فيه مشركو العرب ، فأنذرهم بصريح تكذيبهم بالبعث ، وغيرهم بأنهم لسوء أعمالهم كالمكذبين به ، وختم ذلك بأنه الوارث وأن الرجوع إليه ، ودخل في ذلك الإرث بغلبة أنبيائه وأتباعهم على أكثر أهل الأرض برجوع أهل الأديان الباطلة إليهم حتى يعم ذلك جميع أهل الأرض في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام ، وكان إبراهيم عليه السلام لكثرة أولاده من العرب والروم وأهل الكتابين وراثاً لأكثر الأرض ، وكان مثل زكريا في هبة الولد على كبر سنه وعقم زوجه ، أتبع ذلك قوله : ﴿ واذكر ﴾ أي يا محمد ! ﴿ في الكتاب ﴾ أي الذي أنزل عليك وتبلغه للناس وتعلمهم أن هذه القصة من القرآن ﴿ إبراهيم ﴾ أعظم آبائكم الذي نهى أباه عن

الشرك يا من يكفرون تقليداً للآباء ! ثم علل تشريفه بذكره له على سبيل التأكيد المعنوي بالاعتراض بين البدل والمبدل منه ، واللفظي ب " إن " بقوله منبهاً على أن مخالفتهم له بالشرك والاستقسام بالأزلام ونحو ذلك تكذيب بأوصافه الحسنة : ﴿ إنه كان ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ صديقاً ﴾ أي بليغ الصدق في نفسه في أقواله وأفعاله ، والتصديق بكل ما يأتيه مما هو أهل لأن يصدق لأنه مجبول على ذلك ولا يكون كذلك إلا وهو عامل به حق العمل فهو أبلغ من المخلص ﴿ نبياً ﴾ أي يخبره الله بالأخبار العظيمة جداً التي يرتفع بها في الدارين وهو أعظم الأنبياء بعد محمد - على جميعهم أفضل الصلاة والسلام كما رواه الحافظ أبو البزار بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنهم - وأكده وكذا أكد فيما بعده من الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا مقرين بنبواتهم تنزيلاً لهم منزلة المنكر ، لجريهم في إنكارهم نبوة البشر على غير مقتضى عليهم .

(5/487)

ولما تكفل ما تقدم من هذه السورة بنفي الشريك بقيد كونه ولداً ، أتبع ذلك من قصته ما ينفي الشريك ليقتدي به أولاده في ذلك إذ كانوا يقلدون الآباء وليس في آبائهم مثله ، فقال مبدلاً من ﴿ إبراهيم ﴾ ﴿ إذ قال ﴾ أي اذكر وقت قوله ﴿ لأبيه ﴾ هادياً له من تيه

الضلال بعبادة الأصنام مستعطفاً له في كل جملة بقوله : ﴿ يا أبت ﴾ .

ولما كان العاقل لا يفعل فعلاً إلا لثمره ، نبهه على عقم فعله بقوله : ﴿ لم تعبد ﴾ مريداً بالاستفهام المجاملة ، واللطف والرفق واللين والأدب الجميل في نصحه له كاشفاً الأمر غاية الكشف بقوله : ﴿ ما لا يسمع ولا يبصر ﴾ أي ليس عنده قابلية لشيء من هذين الوصفين ليرى ما أنت فيه من خدمته أو يجيبك إذا ناديته حالاً أو مآلاً .

ولما كان الأعمى الأصم قد ينفع بكلام أو غيره ، قال : ﴿ ولا يغني عنك شيئاً ﴾ من الإغناء .

ولما نبهه على أن ما يعبده لا يستحق العبادة ، بل لا تجوز عبادته ، لنقصه مطلقاً ثم نقصه عن عابده ، ولن يكون المعبود دون العابد أصلاً ، وكان أقل ما يصل إليه بذلك مقام الحيرة ، نبهه على أنه أهل للهداية ، فقال مكرراً لوصفه المذكور بالعطف والود : ﴿ يا أبت ﴾ وأكد علماً منه أنه ينكر أن يكون ابنه أعرف منه بشيء فقال : ﴿ إني قد جاءني ﴾ من المعبود الحق ﴿ من العلم ما لم يأتك ﴾ منه ﴿ فاتبعني ﴾ أي فتسبب عن ذلك أني أقول لك وجوباً على النهي عن المنكر ونصيحة لما لك علي من الحق : اجتهد في تبعي ﴿ أهدك صراطاً سوياً ﴾ لا عوج فيه ، كما أني لو كنت معك في طريق محسوس وأخبرتك أن أمامنا مهالك لا ينجو منها أحد ، وأمرتك أن تسلك مكاناً غير ذلك ، لأطعتني ، لو عصيتني فيه عدك كل أحد غاوياً .

ولما بين أنه لا نفع فيما يعبده ، ونبهه على الوصف المقتضي لوجوب الاقتداء به ، بين له ما في عبادة معبوده من الضر فقال : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ فإن الأصنام ليس لها دعوة أصلاً ، والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقاً على لسان كل ولي له ، فتعين أن يكون الآمر بذلك الشيطان ، فكان هو المعبود بعبادتها في الحقيقة ؛ ثم علل هذا النهي فقال : ﴿ إن الشيطان ﴾ البعيد من كل خير المحترق باللعنة ، وذكر الوصف الموجب للإملاء للعاصي فقال : ﴿ كان للرحمن ﴾ المنعم بجميع النعم القادر على سلبها ، ولم يقل : للجبار - لئلا يتوهم أنه ما أملى لعاصيه مع جبروته إلا للعجز عنه ﴿ عصياً ﴾ بالقوة من حين خلق ، وبالفعل من حين أمره بالسجود لأبيك آدم فأبى فهو عدو لله وله ، والمطيع للعاصي لشيء عاص لذلك الشيء ، لأن صديق العدو عدو .

فلما بين له أنه بذلك عاص للمنعم ، خوفه من إزالته لنعمته فقال : ﴿ يا أبت إني أخاف ﴾ لمحبتي لك وغيرتي عليك ﴿ أن يمسك عذاب ﴾ أي عذاب كائن ﴿ من الرحمن ﴾ أي الذي هو ولي كل من يتولاه لعصيانك إياه ﴿ فتكون ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن تكون ﴿ للشيطان ﴾ وحده وهو عدوك المعروف العداوة ﴿ ولياً ﴾ فلا يكون لك نصرة أصلاً

، مع ما يوصف به من السخافة باتباع العدو الدني ، واجتناب الولي العلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 535.537 ﴾

(7/487)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ربي إنه ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ مخلصاً ﴾ بفتح اللام : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير المفضل . الباقون بكسرها . ﴿ إبراهام ﴾ وما بعده : هشام والأخفش عن ابن ذكوان ﴿ إذا ابتلي ﴾ بالياء التحتانية وكذلك في سورة الحج : قتيبة ﴿ نورث ﴾ بالتشديد : رويس .

الوقوف : ﴿ إبراهيم ﴾ ط ﴿ نبياً ﴾ 5 ﴿ شيئاً ﴾ 5 ﴿ سوياً ﴾ 5 ﴿ لا تعبد الشيطان ﴾ ط ﴿ عصياً ﴾ 5 ﴿ ولياً ﴾ 5 ﴿ يا إبراهيم ﴾ طج وقد يوصل ويوقف على ﴿ آلهتي ﴾ . ﴿ ملياً ﴾ 5 ﴿ سلام عليك ﴾ ج للابتداء بسين الاستقبال مع أن القائل واحد ﴿ لك ربي ﴾ ط ﴿ حفياً ﴾ 5 ﴿ وأدعو ربي ﴾ ز لانقطاع النظم والوصل أولى لأن عسى لطمع الإجابة بالدعاء ﴿ شقياً ﴾ 5 ﴿ من دون

الله ﴾ لا لأن ما بعده جواب لما ﴿ ويعقوب ﴾ ط ﴿ نبياً ﴾ 5 ﴿ نبياً ﴾ 5 ﴿ علياً ﴾ 5 ﴿ موسى ﴾ ز للابتداء بأن مع أن المراد بالذكر إخلاص موسى ﴿ نبياً ﴾ 5 ﴿ نجياً ﴾ 5 ﴿ نبياً ﴾ 5 ﴿ إسماعيل ﴾ ز لما مر ﴿ نبياً ﴾ 5 ج للآية مع العطف ﴿ والزكاة ﴾ ط ﴿ مرضيا ﴾ 5 ﴿ إدريس ﴾ ز ﴿ نبياً ﴾ 5 ﴿ علياً ﴾ 5 ﴿ مع نوح ﴾ ز على تقدير ومن ذريته إبراهيم وما بعده قوم إذا تتلى عليهم ، وكذا وجه من وقف على ﴿ ذرية آدم ﴾ أو على ﴿ إسرائيل ﴾ والأصح أن الكل عطف على ذرية آدم والوقف على قوله : ﴿ واجتبينا ﴾ لئلا يحتاج إلى الحذف وليرجع ثناء السجود والبكاء إلى الكل ﴿ وبكيا ﴾ 5 ﴿ عياً ﴾ 5 ﴿ شيئاً ﴾ 5 لا بناء على أن ﴿ جنات ﴾ بدل من ﴿ الجنة ﴾ 5 ﴿ بالغيب ﴾ ط ﴿ مأتيا ﴾ 5 ﴿ سلاماً ﴾ 5 ﴿ وعشياً ﴾ 5 ﴿ تقياً ﴾ 5 ﴿ بأمر ربك ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ ذلك ﴾ ج لأن قوله : ﴿ وما كان ﴾ معطوف على ﴿ نتنزل ﴾ مع وقوع العارض ﴿ نسياً ﴾ ج 5 ، لأن ما بعده بدل أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ لعبادته ﴾ ط ﴿ سمياً ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 489 ﴾

(8/487)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

القصة الثالثة : قصة إبراهيم عليه السلام .

اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبوداً سوى الله تعالى ، وهؤلاء فريقان : منهم من أثبت معبوداً غير الله حياً عاقلاً فاهماً وهم النصارى ، ومنهم من أثبت معبوداً غير الله جماداً ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الأوثان والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم فلما بين تعالى ضلال الفريق الأول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان فقال : ﴿ واذكر فِى الكتاب ﴾ والواو في قوله واذكر عطف على قوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [مريم : 2] كأنه لما انتهت قصة عيسى وزكريا عليهما السلام قال قد ذكرت حال زكريا فاذكر حال إبراهيم وإنما أمر بذكره لأنه عليه السلام ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخباراً عن الغيب ومعجزاً قاهراً دالاً على نبوته .

وإنما شرع في قصة إبراهيم عليه السلام لوجوه : أحدها : أن إبراهيم عليه السلام كان أب العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ [الحج : 78] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إبراهيم إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] فكأنه تعالى قال للعرب إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : 23] ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدراً هو إبراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الأوثان وإن كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان وبالجملة فاتبعوا إبراهيم إما تقليداً وإما استدلالاً .

وثانيها : أن كثيراً من الكفار في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وبين أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الأب على جانب الدليل رد على الأب الأشرف الأكبر الذي هو إبراهيم عليه السلام .

وثالثها : أن كثيراً من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال على ما قال الله تعالى : ﴿ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : 22] و ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا لَهَا عابدين ﴾ [الأنبياء : 53] فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام

التمسك بطريقة الاستدلال تنبيهاً لهؤلاء على سقوط هذه الطريقة ثم قال تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ وفي الصديق قولان : أحدهما : أنه مبالغة في كونه صادقاً وهو الذي يكون عادته الصدق لأن هذا البناء ينبىء عن ذلك يقال رجل خمير وسكير للمولع بهذه الأفعال .

(10/487)

والثاني : أنه الذي يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهوراً به والأول أولى وذلك لأن المصدق بالشيء لا يوصف بكونه صديقاً إلا إذا كان صادقاً في ذلك التصديق فيعود الأمر إلى الأول فإن قيل أليس قد قال تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون والشهداء ﴾ [الحديد : 19] قلنا : المؤمنون بالله ورسله صادقون في ذلك التصديق واعلم أن النبي يجب أن يكون صادقاً في كل ما أخبر عنه لأن الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق وإلا لزم الكذب في كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقاً في كل ما يقول ، ولأن الرسل شهداء الله على الناس على ما قال الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] والشهيد إنما يقبل قوله : إذا لم يكن كاذباً .

فإن قيل : فما قولكم في إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 63] و ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ قلنا قد شرحنا في تأويل هذه الآيات بالدلائل الظاهرة أن شيئاً من ذلك ليس بكذب فلما ثبت أن كل نبي يجب أن يكون صديقاً ولا يجب في كل صديق أن يكون نبياً ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبي فلهذا انتقل من ذكر كونه صديقاً إلى ذكر كونه نبياً .

وأما النبي فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس وأي رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده .

وقوله : ﴿ كَانَ صِدِّيقاً ﴾ قيل : إنه صار وقيل إن معناه وجد صديقاً نبياً أي كان من أول وجوده إلى انتهائه موصوفاً بالصدق والصيانة .

(11/487)

قال صاحب "الكشاف" : هذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبدله أعني إبراهيم وإذ قال ونظيره قولك رأيت زيداً ونعم الرجل أخاك ويجوز أن يتعلق إذ بكان أو بصديقاً نبياً أي كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات أما قوله : ﴿ يا أبت ﴾ فالتاء عوض عن ياء الإضافة ولا يقال يا أبتي لئلا يجمع بين العوض والمعوض

عنه وقد يقال : يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء واعلم أنه تعالى حكى أن إبراهيم عليه السلام تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام .

النوع الأول : قوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ ووصف الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية وبيان ذلك من وجوه : أحدها : أن العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها إلا من له غاية الإنعام وهو الإله الذي منه أصول النعم وفروعها على ما قررناه في تفسير قوله : ﴿ وإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ [مريم : 36] وقال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] الآية وكما يعلم بالضرورة أنه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم تكن منعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها .

وثانيها : أنها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها فأي فائدة في عبادتها ، وهذا ينبهك على أن الإله يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات حتى يكون العبد آمناً من وقوع الغلط للمعبود .

وثالثها : أن الدعاء مخ العبادة فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته وإذا كانت لا تبصر بتقرب من يقترب إليها فأي منفعة في ذلك التقرب .

ورابعها : أن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عارياً عن كل ذلك ، والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالأفضل عبادة

الأخس .

وخامسها : إذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فأي فائدة في عبادتها .

(12/487)

وسادسها : إذا كانت لا تحفظ أنفسها عن الكسر والإفساد على ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه كسرها وجعلها جذاذاً فأي رجاء للغير فيها واعلم أنه عاب الوثن من ثلاثة أوجه .

أحدها : لا يسمع .

وثانيها : لا يبصر .

(13/487)

وثالثها : لا يغني عنك شيئاً كأنه قال له : بل الإلهية ليست إلا لربي فإنه يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر ، كما قال : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] ويقضي الحوائج :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : 62] واعلم أن قوله ههنا ﴿ لِمَ تَعْبُدُ ﴾ محمول على نفس العبادة وأما قوله في المقام الثالث : ﴿ لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ لا يقال ذلك بل المراد الطاعة لأنهم ما كانوا يعبدون الشيطان فوجب حمله على الطاعة ولأنا نقول ليس إذا تركنا الظاهر ههنا لدليل وجب ترك الظاهر في المقام الأول بغير دليل فإن قيل : إما أن يقال إن أبا إبراهيم كان يعتقد في تلك الأوثان أنها آلهة بمعنى أنها قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات أو يقال إنه ما كان يعتقد ذلك بل كان يعتقد أنها تماثيل الكواكب والكواكب هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ، فتعظيم تماثيل الكواكب بموجب تعظيم الكواكب أو كان يعتقد أن هذه الأوثان تماثيل أشخاص معظمة عند الله تعالى من البشر فتعظيمها يقتضي كون أولئك الأشخاص شفعاء لهم عند الله تعالى أو كان يعتقد أن تلك الأوثان طلسمات ركبت بحسب اتصالات مخصوصة للكواكب قلما يتفق مثلها ، وأنها مشفع بها ، أو غير ذلك من الأعذار المنقولة عن عبدة الأوثان ، فإن كان أبو إبراهيم من القسم الأول كان في نهاية الجنون لأن العلم بأن هذا الخشب المنحوت في هذه الساعة ليس خالقاً للسموات والأرض من أجلى العلوم الضرورية ، فالشاك فيه يكون فاقداً لأجلى العلوم الضرورية فكان مجنوناً والمجنون لا يجوز إيراد الحجة عليه والمناظرة معه ، وإن كان من القسم الثاني فهذه الدلائل لا تقدح في شيء من ذلك لأن ذلك المذهب إنما يبطل بإقامة الدلالة على أن الكواكب ليست

أحياء ولا قادرة على خلق الأجسام وخلق الحياة ومعلوم أن الدليل المذكور ههنا لا يفيد ذلك المطلوب فعلمنا أن هذه الدلالة عديمة الفائدة على كل التقديرات ، قلنا : لا نزاع أنه لا

(14/487)

يخفى على العاقل أن الخشبة المنحوتة لا تصلح لخلق العالم وإنما مذهبهم هذا على الوجه الثاني ، وإنما أورد إبراهيم عليه السلام هذه الدلالة عليهم لأنهم كانوا يعتقدون أن عبادتها تفيد نفعاً إما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات أو على سبيل أن الكواكب تنفع وتضر ، فبين إبراهيم عليه السلام أنه لا منفعة في طاعتها ولا مضرة في الإعراض عنها فوجب أن لا تحسن عبادتها .

النوع الثاني : قوله : ﴿ يا أبت إِنِّى قَدْ جَاءِنِى مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعنى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ ومعناه ظاهر وطمع في التمسك به أهل التعليم وأهل التقليد أما أهل التعليم فقالوا : إنه أمره بالإتباع في الدين وما أمره بالتمسك بدليل لا يستفاد إلا من الإتباع ، وأما أهل التقليد فقد تمسكوا به أيضاً من هذا الوجه ، ومن الناس من طعن أنه أمره بالإتباع لتحصل الهداية ، فإذن لا تحصل الهداية إلا باتباعه ، ولا تبعية إلا إذا اهتدى لقولنا إنه لا بد من اتباعه فيقع الدور وإنه باطل .

"والجواب" عن الأول : أن المراد بالهداية بيان الدليل وشرحه وإيضاحه ، فعند هذا عاد السائل فقال : أنا لا أنكر أنه لا بد من الدلالة ، ولكني أقول الوقوف على تلك الدلالة لا يستفاد إلا ممن له نفس كاملة بعيدة عن النقص والخطأ ، وهي نفس النبي المعصوم أو الإمام المعصوم فإذا سلمت أنه لا بد من النبي في هذا المقصود فقد سلمت حصول الغرض ، أجاب المجيب وقال أنا ما سلمت أنه لا بد في الوقوف على الدلائل من هداية النبي ، ولكني أقول هذا الطريق أسهل وإن إبراهيم عليه السلام دعاه إلى الأسهل والجواب عن سؤال الدور أن قوله : ﴿ فاتبعني ﴾ ليس أمر إيجاب بل أمر إرشاد .

(15/487)

والنوع الثالث : قوله : ﴿ يا أبت لا تَعْبُدِ الشيطان إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ أي لا تطعه لأنه عاص لله فنفره بهذه الصفة عن القبول منه ، لأنه أعظم الخصال المنفرة ، واعلم أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان إلا كونه عاصياً لله ولم يذكر معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر في عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره وأطبق على ذهنه ، وأيضاً فإن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعيف الرأي ، ومن كان كذلك كان حقيقاً أن لا يلتفت إلى رأيه ولا يجعل لقوله وزن فإن قيل : إن هذا القول

يتوقف على إثبات أمور : أحدها : إثبات الصانع .

وثانيها : إثبات الشيطان .

وثالثها : إثبات أن الشيطان عاص لله .

ورابعها : أنه لما كان عاصياً لم تجز طاعته في شيء من الأشياء .

وخامسها : أن الاعتقاد الذي كان عليه ذلك الإنسان كان مستفاداً من طاعة الشيطان ، ومن شأن الدلالة التي تورد على الخصم أن تكون مركبة من مقدمات معلومات مسلمة ، ولعل أبا إبراهيم كان منازعاً في كل هذه المقدمات ، وكيف والمحكى عنه أنه ما كان يثبت إلهاً سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الإله الرحمن وإذا لم يسلم وجوده ، فكيف يمكنه تسليم أن الشيطان كان عاصياً للرحمن ، ثم إن على تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام أن مذهبه مقتبس من الشيطان ، بل لعله يقلب ذلك على خصمه ، قلنا : الحجة المعول عليها في إبطال مذهب آزر هو الذي ذكره أولاً من قوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ فأما هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة ، وعلى هذا التقدير يسقط السؤال .

النوع الرابع : قوله : ﴿ يا أبت إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ قال الفراء : معنى أخاف أعلم .

والأكثرون على أنه محمول على ظاهره ، والقول الأول إنما يصح لو كان إبراهيم عليه السلام عالماً بأن أباه سيموت على ذلك الكفر وذلك لم يثبت فوجب إجراؤه على ظاهره فإنه كان يجوز أن يؤمن فيصير من أهل الثواب ويجوز أن يصر فيموت على الكفر ، فيكون من أهل العقاب ، ومن كان كذلك كان خائفاً لا قاطعاً ، واعلم أن من يظن وصول الضرر إلى غيره فإنه لا يسمى خائفاً إلا إذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر إليه تألم قلبه كما يقال أنا خائف على ولدي أما قوله : ﴿ فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ فذكروا في الولي وجوهاً :

أحدها : أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار والولاية سبب للمعية وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وإن لم يجز حمله إلى الولاية الحقيقية لقوله تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] وقال : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت : 25] وحكى عن الشيطان أنه يقول لهم : ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم : 22] واعلم أن هذا الإشكال إنما يتوجه إذا كان المراد من العذاب عذاب الآخرة ، أما إذا كان المراد منه عذاب الدنيا فالإشكال ساقط .

وثانيها ؛ أن يحمل العذاب على الخذلان أي إني أخاف أن يمسك خذلان الله فتصير موالياً للشيطان ويبرأ الله منك على ما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشيطان وَلِيّاً مِّن دُونِ الله فَقَدْ

خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 119] .

وثالثها : ولياً أي تالياً للشيطان ، تليه كما يسمى المطر الذي يأتي تالياً ولياً فإن قيل قوله : ﴿ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالاً من العذاب نفسه وأعظم ، فما السبب لذلك .

(17/487)

"والجواب" : أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال : ﴿ ورضوان مِّنَ الله أَكْبَرُ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 72] فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام في غاية الحسن لأنه نبه أولاً على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان ثم أمره باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقروناً باللطف والرفق فإن قوله في مقدمة كل كلام ﴿ يا أبت ﴾ دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب ، وختم الكلام بقوله ﴿ إِنِّى أَخَافُ ﴾ وذلك يدل على شدة تعلق قلبه

بمصالحه وإنما فعل ذلك لوجوه : أحدها : قضاء لحق الأبوة على ما قال تعالى :

﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء : 23] والإرشاد إلى الدين من أعظم أنواع الإحسان ، فإذا انضاف إليه رعاية الأدب والرفق كان ذلك نوراً على نور .

وثانيها : أن الهادي إلى الحق لا بد وأن يكون رفيقاً لطيفاً يورد الكلام لا على سبيل العنف لأن إيراده على سبيل العنف يصير كالسبب في إعراض المستمع فيكون ذلك في الحقيقة سعياً في الإغواء .

وثالثها : ما روى أبو هريرة أنه قال عليه السلام : " أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أنك خليلي فحسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي وأن أسكنه حظيرة قدسي وأدنيه من جواري " والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 190 . 194 ﴾

(18/487)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

(19/487)

قوله : ﴿ واذكر ﴾ بمعنى واتل وشهر ، لان الله تعالى هو الذكر ، و ﴿ الكتاب ﴾ هو القرآن وهذا وشبهه من لسان الصدق الذي أبقاه الله عليهم ، و" الصديق " ، فعيل بناء مبالغة من الصدق ، وقرأ أبو البرهسم " إنه كان صادقاً " ، والصدق عرفه في اللسان وهو مطرد في الأفعال والخلق ، ألا ترى أنه يستعار لما لا يعقل فيقال صدقني الطعام كذا وكذا قفيزاً ، ويقال عود صدق للصلب الجيد ، فكان إبراهيم عليه السلام يوصف بالصدق على العموم في أفعاله وأقواله وذلك يغترق صدق اللسان الذي يضاد الكذب ، وأبو بكر رضي الله عنه وصف ب " صدّيق " لكثرة ما صدق في تصديقه بالحقائق وصدق في مبادرته الى الإيمان وما يقرب من الله تعالى ، و" الصديق " مراتب ألا ترى أن المؤمنين صديقون لقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ [الحديد : 19] . وقوله ﴿ يا أبت ﴾ ، اختلف النحاة في التاء من ﴿ أبت ﴾ ، فمذهب سيبويه أنها عوض عن ياء الإضافة والوقوف عنده عليها بالهاء ، ومذهب الفراء أن يوقف عليها بالتاء ، لان الياء التي للإضافة عنده منوية وجمهور القراء على كسر التاء ، وفي مصحف ابن مسعود " واأبت " بواو للنداء ، وقرأ ابن عامر والأعرج وأبو جعفر . " يا أبتَ " بفتح التاء ، ووجهها أنه أراد " يا أبتا " فحذف الألف وترك الفتحة دالة عليها ، ووجه آخر أن تكون التاء المقحمة كالتي في قوله يا طلحة وفي هذا نظر وقد لحن هارون هذه القراءة ،

والذي ﴿ لا يسمع ولا يبصر ﴾ ، هو الصنم ولو سمع وأبصر كما هي حالة الملائكة وغيرهم ممن عبد لم يحسن عبادتها ، لكن بين إبراهيم عليه السلام بنفي السمع والبصر شنعة الرأي في عبادتها وفساده . وقوله ﴿ قد جاءني ﴾ يدل على أن هذه المقاولة هي بعد أن نبئ ، و" الصراط السوي " ، معناه الطريق المستقيم ، وهو طريق الإيمان ، وقوله ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ ، مخاطبة بر واستعطاف على حالة كفره . وقوله ﴿ لا تعبد الشيطان ﴾ يحتمل أن يكون

(20/487)

أبوه ممن عبد الجن ويحتمل أن يجعل طاعة الشيطان المعنوي في عبادة الأوثان والكفر بالله عبادة له . و" العصى " ، فعيل من عصى يعصي اذا خالف الأمر ، وقوله ﴿ أخاف أن يمسك ﴾ قال الطبري وغيره ﴿ أخاف ﴾ بمعنى أعلم .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر عندي أنه خوف على بابه ، وذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن في وقت هذه المقاولة يائساً من إيمان أبيه ، فكان يرجو ذلك وكان يخاف أن لا يؤمن ويتمادى على كفره الى الموت فيمسه العذاب ، و" الولي " الخالص المصاحب القريب بنسب أو مودة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إِبراهيم ﴾

أي : اذكر لقومك قصته .

وقد سبق معنى الصِّدِّيق في [النساء : 69] .

قوله تعالى : ﴿ ولا يغني عنكَ شيئاً ﴾ أي : لا يدفع عنكَ ضرّاً .

قوله تعالى : ﴿ إِني قد جاءني من العِلْم ﴾ بالله والمعرفة ﴿ مالم يأتك ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لا تعبد الشيطان ﴾ أي : لا تُطعه فيما يأمر به من الكفر والمعاصي .

وقد شرحنا معنى "كان" آنفاً .

و ﴿ عَصِيّاً ﴾ أي : عاصياً ، فهو "فعيل" بمعنى "فاعل" .

قوله تعالى : ﴿ إِني أخاف أن يَمَسَّكَ عذاب من الرحمن ﴾ قال مقاتل : في الآخرة ؛ وقال غيره : في الدنيا ، ﴿ فتكونَ للشيطان وليّاً ﴾ أي : قريناً في عذاب الله ، فجرت المقارنة مجرى الموالاة .

وقيل : إنما طمع إبراهيم في إيمان أبيه ، لأنه حين خرج من النار قال له : نِعْمَ الإله إلهك يا إبراهيم ، فحينئذ أقبل يعظه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(22/487)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾

المعنى : واذكر في الكتاب الذي أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره .

وقد تقدّم معنى الصدّيق في "النساء" واشتقاق الصدق في "البقرة" فلا معنى للإعادة .

ومعنى الآية : اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده ، فإنه كان حنيفاً مسلماً وما كان يتخذ الأنداد ، فهؤلاء لم يتخذون الأنداد ؟ ! وهو كما قال : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾ وهو آزر وقد تقدّم .

﴿ يا أبت ﴾ قد تقدّم القول فيه في "يوسف" ﴿ لِمَ تَعْبُدُ ﴾ أي لأي شيء تعبد : ﴿ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ يريد الأصنام .

﴿ يا أبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ أي من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد

الموت ، وأن من عبد غير الله عذب ﴿ فاتبعني ﴾ إلى ما أدعوك إليه .

﴿ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ أي أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة .

﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ أي لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر ، ومن أطاع شيئاً في معصية فقد عبده .

﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ "كان" صلة زائدة .

وقيل : كان بمعنى صار .

وقيل : بمعنى الحال ؛ أي هو للرحمن .

وعصيا وعاص بمعنى واحد ؛ قاله الكسائي .

﴿ يا أبت إني أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن ﴾ أي إن متَّ على ما أنت عليه .

ويكون "أَخَافُ" بمعنى أعلم .

ويجوز أن يكون "أَخَافُ" على بابها فيكون المعنى : إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب .

﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ أي قريناً في النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(23/487)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

﴿ واذكر ﴾ خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والمراد اتل عليهم نبأ ﴿ إبراهيم ﴾ وذاكره ومورده في التنزيل هو الله تعالى ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر قصة مريم وابنها عيسى واختلاف الأحزاب فيهما وعبادتهما من دون الله ، وكانا من قبيل من قامت بهما الحياة ذكر الفريق الضال الذي عبد جماداً والفريقان وإن اشتركا في الضلال ، والفريق العابد الجماد أضل ثم ذكر قصة إبراهيم مع أبيه عليه السلام تذكيراً للعرب بما كان إبراهيم عليه من توحيد الله وتبيين أنهم سالكو غير طريقه ، وفيه صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما أخبر به وأن ذلك متلقى بالوحي والصديق من أبنية المبالغة وهو مبني من الثلاثي للمبالغة أي كثير الصدق ، والصدق عرفه في اللسان ويقابله الكذب ، وقد يستعمل في الأفعال والخلق وفيما لا يعقل يقال : صدقني الطعام كذا وكذا قفيزاً ، وعود صدق للصلب الجيد فوصف إبراهيم بالصدق على العموم في أقواله وأفعاله ، والصديقية مراتب ألا ترى إلى وصف المؤمنين بها في قوله ﴿ من النبيين والصدّيقين ﴾ ومن غريب النقل ما ذهب إليه بعض النحويين من أن فعيلاً إذا كان من متعد جاز أن يعمل فتقول هذا شريب مسكر كما أعملوا عند البصريين فعولاً وفعالاً ومفعالاً .

وقال الزمخشري : والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسوله ، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أي كان مصدقاً لجميع الأنبياء وكتبهم وكان ﴿ نبياً ﴾ في نفسه لقوله تعالى ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ وكان بليغاً في الصدق لأن ملاك أمر النبوة الصدق ومصدق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك ، وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبدله أعني ﴿ إبراهيم ﴾ .

(24/487)

و ﴿ إذ قال ﴾ نحو قولك : رأيت زيداً ونعم الرجل أخاك ، ويجوز أن تتعلق ﴿ إذ ﴾ بكان أو ب ﴿ صديقاً نبياً ﴾ أي كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات انتهى .

فالتخريج الأول يقتضي تصرف ﴿ إذ ﴾ وقد تقدم لنا أنها لا تتصرف ، والتخريج الثاني مبني على أن كان الناقصة وأخواتها تعمل في الظروف وهي مسألة خلاف .

والتخريج الثالث لا يصح لأن العمل لا ينسب إلاّ إلى لفظ واحد ، أما أن ينسب إلى مركب من مجموع لفظين فلا ، وجائز أن يكون معمولاً لصديقاً لأنه نعت إلاّ على رأي الكوفيين ،

ويحتمل أن يكون معمولاً لنبياً أي منبأ في وقت قوله لأبيه ما قال ، وأن التنبئة كانت في ذلك الوقت وهو بعيد .

وقرأ أبو البرهثيم إنه كان صادقاً .

وفي قوله ﴿ يا أبت ﴾ تلطف واستدعاء بالنسب .

وقرأ ابن عامر والأعرج وأبو جعفر ﴿ يا أبت ﴾ بفتح التاء وقد لحن هارون هذه القراءة ، وتقدم الكلام على ﴿ يا أبت ﴾ في سورة يوسف عليه السلام ، وفي مصحف عبد الله وا أبت بواو بدل ياء ، واستفهم إبراهيم عليه السلام عن السبب الحامل لأبيه على عبادة الضم وهو منتف عنه السمع والبصر والإغناء عنه شيئاً تنبيهاً على شنعة الرأي وقبحه وفساده في عبادة من انتفت عنه هذه الأوصاف .

وخطب الزمخشري فقال : انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقل وانسلخ عن قضية التمييز كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحاً في ذلك نصيحة ربه جل وعلا .

حدث أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام إنك خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار ، تدخل مداخل

الأبرار " ، كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أظله تحت عرشي وأسكنه حظيرة القدس ، وأدنيه من جواري .

(25/487)

وسرد الزمخشري بعد هذا كلاماً كثيراً من نوع الخطابة تركناه .

و﴿ ما لا يسمع ﴾ الظاهر أنها موصولة ، وجوزوا أن تكون نكرة موصوفة ومعمول ﴿ يسمع ﴾ و﴿ يبصر ﴾ منسي ولا ينوي أي ما ليس به استماع ولا إبصار لأن المقصود نفي هاتين الصفتين دون تقييد بمتعلق .

و﴿ شيئاً ﴾ .

إما مصدر أو مفعول به ، ولما سأله عن العلة في عبادة الصنم ولا يمكن أن يجد جواباً ، انتقل معه إلى إخباره بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأته ولم يصف أباه بالجهل إذ يغني عنه السؤال السابق .

وقال ﴿ من العلم ﴾ على سبيل التبعيض أي شيء من العلم ليس معك ، وهذه المحاورة تدل على أن ذلك كان بعد ما نبىء ، إذ في لفظ ﴿ جاءني ﴾ تجدد العلم ، والذي جاءه الوحي الذي أتى به الملك أو العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها أو توحيد الله وإفراده

بالالوهية والعبادة أقوال ثلاثة ﴿ فاتبعني ﴾ على توحيد الله بالعبادة وارفض الأصنام ﴿ أهدك صراطاً مستقيماً ﴾ وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبادة .

وانتقل من أمره باتباعه إلى نهيه عن عبادة الشيطان وعبادته كونه يطيعه في عبادة الأصنام ثم نفره عن عبادة الشيطان بأنه كان عصياً للرحمن ، حيث استعصى حين أمره بالسجود لآدم فأبى ، فهو عدوّ لك ولأبيك آدم من قبل .

وكان لفظ الرحمن هنا تنبيهاً على سعة رحمته ، وأن من هذا وصفه هو الذي ينبغي أن يعبد ولا يعصى ، وإعلاماً بشقاوة الشيطان حيث عصى من هذه صفته وارتكب من ذلك ما طرده من هذه الرحمة ، وإن كان مختاراً لنفسه عصيان ربه لا يختار لذريته من عصى لأجله إلاّ ما اختار لنفسه من عصيانهم .

﴿ يا أبت إني أخاف ﴾ قال الفرّاء والطبري ﴿ أخاف ﴾ أعلم كما قال

(26/487)

﴿ فخشينا أن يرهقهما ﴾ أي تيقنا ، والأولى حمل ﴿ أخاف ﴾ على موضوعه الأصلي لأنه لم يكن آيساً من إيمانه بل كان راجياً له وخائفاً أن لا يؤمن وأن يتمادى على الكفر فيمسه العذاب ، وخوّفه إبراهيم سوء العاقبة وتأدّب معه إذ لم يصرّح بلحوق العذاب

به بل أخرج ذلك مخرج الخائف ، وأتى بلفظ المس الذي هو ألطف من المعاقبة ونكر العذاب ، ورتب على مس العذاب ما هو أكبر منه وهو ولاية الشيطان كما قال في مقابل ذلك ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي من النعيم السابق ذكره ، وصدر كل نصيحة بقوله ﴿ يا أبت ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً .

وقيل : الولاية هنا كونه مقروناً معه في الآخرة وإن تباغضاً وتبرأ بعضهما من بعض .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير إني أخاف أن تكون ولياً في الدنيا للشيطان فيمسك في الآخرة عذاب من الرحمن .

وقوله ﴿ أن يمسك عذاب من الرحمن ﴾ لا يعين أن العذاب يكون في الآخرة ، بل يحتمل أن يحمل العذاب على الخذلان من الله فيصير موالياً للشيطان ، ويحتمل أن يكون مس العذاب في الدنيا بأن يبتلى على كفره بعذاب في الدنيا فيكون ذلك العذاب سبباً لتماديه على الكفر وصيرورته إلى ولاية الشيطان إلى أن يوافي على الكفر كما قال ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ وهذه المناصحات تدل على شدة تعلق قلبه بمعالجة أبيه ، والطماعية في هدايته قضاء لحق الأبوة وإرشاداً إلى الهدى " لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(27/487)

وقال أبو السعود :

﴿ واذكر ﴾ عطف على أنذِرْهم ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي في السورة أو في القرآن ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي اتلُ على الناس قصته وبلِّغها إياهم كقوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهيم ﴾ فإنهم ينتمون إليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يُقلِعون عما هم فيه من القبائح ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً ﴾ ملازماً للصدق في كل ما يأتي ويذر ، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صدّق به غيوبَ الله تعالى وآياتِه وكتبَه ورسلَه ، والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لتعليل موجبِ الأمر فإن وصفه عليه السلام بذلك من دواعي ذكرِه ﴿ نَبِيّاً ﴾ خبرٌ آخرُ لكان مقيدٌ للأول مخصِّصٌ له كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ مّنَ النبيين والصديقين ﴾ الآية ، أي كان جامعاً بين الصدّيقية والنبوة ولعل هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهم تخصيصِ الصدّيقية بالنبوة فإن كلَّ نبيَ صديقٌ .

(28/487)

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ بدلُ اشتمالٍ من إبراهيمَ وما بينهما اعتراضٌ مقررٌ لما قبله أو متعلق بكان أو بنبياً ، وتعليقُ الذكر بالأوقات مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث قد مر سرُّه

مراراً ، أي كان جامعاً بين الأثَرتين حين قال ﴿ لأَبِيهِ ﴾ آزرَ متلطفاً في الدعوة مستميلاً له ﴿ يا أبت ﴾ أي يا أبي فإن التاء عوضٌ عن ياء الإضافة ولذلك لا يجتمعان ، وقد قيل : يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ﴾ ثناءَك عليه عند عبادتِك له وجؤارِك إليه ﴿ وَلاَ يَبْصِرُ ﴾ خضوعَك وخشوعَك بين يديه ، أو لا يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمُبصَرات فيدخُل في ذلك ما ذكر دخولاً أولياً ﴿ وَلاَ يُغْنِى ﴾ أي لا يقدر على أن يغنيَ ﴿ عَنكَ شَيْئاً ﴾ في جلب نفعٍ أو دفع ضُرّ ، ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسنَ منهاجٍ وأقومَ سبيل ، واحتج بحسن أدبٍ وخلقٍ جميل لئلا يركبَ متنَ المكابرة والعناد ولا يُنكّبَ بالكلية عن مَحَجّة الرشاد ، حيث طَلب منه علةَ عبادتِه لما يستخفّ به عقلُ كل عاقل من عالم وجاهلٍ ويأبى الركونّ إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي الغايةُ القاصية من التعظيم مع أنها لا تحِقّ إلا لمن له الاستغناءُ التامُّ والإنعامُ العام : الخالقِ الرازقِ المحيي المميتِ المثيبِ المعاقب ، ونبّه على أن العاقل يجب أن يفعل كلَّ ما يفعل لداعيةٍ صحيحة وغرضٍ صحيح ، والشيءُ لو كان حياً مميّزاً سميعاً بصيراً قادراً على النفع والضرِّ مطيقاً بإيصال الخير والشر لكن كان ممكِناً لاستنكف العقلُ السليمُ عن عبادته ، وإن كان أشرفَ الخلائق لما يراه مِثْلَه في الحاجة والانقيادِ للقدرة القاهرة الواجبة ، فما ظنُّك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الإحياءِ عينٌ ولا أثرٌ ثم دعاه إلى أن يتبعه

ليهديَه إلى الحق المبين ، لِما أنه لم يكن محفوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السويّ مصدّراً لدعوته بما مر

(29/487)

من الاستمالة والاستعطاف حيث قال :

﴿ يا أبت إِنّى قَدْ جَاءِنى مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ولم يسِمْ أباه بالجهل المُفرِط وإن كان في أقصاه ولا نفسَه بالعلم الفائق وإن كان كذلك ، بل أبرز نفسه في صورة رفيقٍ له أعرفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق ، فاستماله برفق حيث قال : ﴿ فاتبعنى أَهْدِكَ صراطا سَوِيّاً ﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب منجياً عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب ، ثم ثبّطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كلُّ عاقل ببيانِ أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلبٌ لضرر عظيم ، فإنه في الحقيقة عبادةُ الشيطانِ لِما أنه الآمرُ به فقال : ﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ فإن عبادتك للأصنام عبادةٌ له إذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها وقوله : ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ تعليلٌ لموجب النهي وتأكيدٌ له ببيان أنه مستعصٍ على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم ، ولا ريب في أن المطيعَ للعاصي عاصٍ وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيقٌ بأن يسترد منه النعم وينتقم منه ، والإظهارُ

في موضع الإضمار لزيادة التقريرِ ، والاقتصارُ على ذكر عصيانه من بين سائر جناياتِه لأنه مَلاكُها أو لأنه نتيجةُ معاداتِه لآدمَ عليه السلام وذريته ، فتذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرضُ لعنوان الرحمانية لإظهار كمالِ شناعة عصيانِه .

(30/487)

وقوله : ﴿ يا أبت إِنّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مّنَ الرحمن ﴾ تحذيرٌ من سوء عاقبةِ ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤُه بما ابتُلِيَ به معبودُه من العذاب الفظيع ، وكلمةُ مِن متعلقةٌ بمضمر وقع صفةً للعذاب مؤكدةٌ لما أفاده التنكيرُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، وإظهارُ الرحمن للإشعار بأن وصفَ الرحمانية لا يدفع حلولَ العذاب كما في قوله عز وجل : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبّكَ الكريم ﴾ ﴿ فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ أي قريناً له في اللعن المخلّد ، وذكرُ الخوف للمجاملة وإبرازِ الاعتناء بأمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(31/487)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

﴿ واذكر ﴾ عطف على ﴿ أَنذَرَهُمْ ﴾ [مريم : 39] عند أبي السعود ، وقيل : على اذكر السابق ، ولعله الظاهر ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي هذه السورة أو في القرآن ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي اتل على الناس قصته كقوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهيم ﴾ [الشعراء : 69] وإلا فذاكر ذلك في الكتاب هو الله تعالى كما في "الكشاف" : ، وفيه أنه عليه الصلاة والسلام لكونه الناطق عنه تعالى ومبلغ أوامره ونواهيه وأعظم مظاهره سبحانه ومجاليه كأنه الذاكر في الكتاب ما ذكره ربه جل وعلا ومناسبة هذه الآية لما قبلها اشتمالها على تضليل من نسب الألوهية إلى الجماد اشتمال ما قبلها على ما أشار إلى تضليل من نسبها إلى الحي والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن الفريق الثاني أضل .

ويقال على القول الأول في العطف : إن المراد أنذرهم ذلك واذكر لهم قصة إبراهيم عليه السلام فإنهم ينتمون إليه صلى الله عليه وسلم فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً ﴾ أي ملازم الصدق لم يذكب قط ﴿ نَّبِيٍّ ﴾ استنبأه الله تعالى وهو خبر آخر لكان مقيد للأول مخصص له أي كان جامعاً بين الوصفين .

ولعل هذا الترتيب للمبالغة في الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فإن كل نبي صديق ، وقيل : الصديق من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله ، وفي "الكشاف"

الصديق من أبنية المبالغة والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أي كان مصدقاً بجميع الأنبياء وكتبهم وكان نبياً في نفسه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ جَاء بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ [الصافات : 37] أو كان بليغاً في الصدق لأن ملاك أمر النبوة الصدق ومصدق الله تعالى بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك انتهى .

(32/487)

وفيه إشارة إلى أن المبالغة تحتمل أن تكون باعتبار الكم وأن تكون باعتبار الكيف ولك أن تريد الأمرين لكون المقام مقام المدح والمبالغة ، وقد ألم بذلك الراغب ، وأما أن التكثير باعتبار المفعول كما في قطعت الحبال فقد عده في "الكشف" من الأغلاط فتأمل ، واستظهر أنه من الصدق لا من التصديق ، وأيد بأنه قرىء ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادقا ﴾ وبأنه قلما يوجد فعيل من مفعل والكثير من فاعل ، وفسر بعضهم النبي هنا برفيع القدر عند الله تعالى وعند الناس .

والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فإن وصفه عليه السلام بذلك من دواعي ذكره وهي على ما قيل اعتراض بين المبدل منه وهو إبراهيم والبدل وهو إذ في قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ وتعقبه صاحب الفرائد بأن الاعتراض بين البدل والمبدل منه بدون الواو بعيد عن الطبع ، وفيه منع ظاهر ، وفي "البحر" أن بدلية إذ من ﴿ إبراهيم ﴾ [مريم : 41] تقتضي تصرفها والأصح أنها لا تتصرف وفيه بحث ، وقيل : إذ ظرف لكان وهو مبني على إن كان الناقصة وأخواتها تعمل في الظروف وهي مسألة خلافية ، وقيل : ظرف لِ ﴿ نبياً ﴾ [مريم : 41] أي منبىء في وقت قوله : ﴿ لأبيهِ ﴾ وتعقب بأنه يقتضي أن الاستنباء كان في ذلك الوقت ، وقيل : ظرف لِ ﴿ صديقاً ﴾ [مريم : 41] ، وفي "البحر" لا يجوز ذلك لأنه قد نعت الأعلى رأى الكوفيين ، وفيه أن ﴿ نَبِيّاً ﴾ خبر كما ذكرنا لا نعت ، نعم تقييد الصديقية بذلك الوقت لا يخلو عن شيء .

وقيل ظرف لصديقاً نبياً وظاهره أنه معمول لهما معاً ، وفيه أن توارد عاملين على معمول واحد غير جائز على الصحيح ، والقول بأنهما جعلا بتأويل اسم واحد كتأويل حلو حامض بمز أي جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء عليهم السلام حين خاطب أباه لا يخفى ما فيه ، والذي يقتضيه السياق ويشهد به الذوق البدلية وهو بدل اشتمال ، وتعليق الذكر بالأوقات مع أن المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث قد مر سره مراراً فتذكر .

(33/487)

﴿ يَا أَبَت ﴾ أي يا أبي فإن التاء عوض من ياء الإضافة ولذلك لا يجمع بينهما إلا شذوذاً كقوله : يا أبتي أرقني القذان ، والجمع في يا أبتا قيل بين عوضين وهو جائز كجمع صاحب الجبيرة بين المسح والتيمم وهما عوضان عن الغسل وقيل المجموع فيه عوض ، وقيل : الألف للإشباع وأنت تعلم حال العلل النحوية .

وقرأ ابن عامر .

والأعرج .

وأبو جعفر ﴿ يا أبت ﴾ بفتح التاء ، وزعم هارون أن ذلك لحن والحق خلافه وفي مصحف عبد الله ﴿ واأبت ﴾ بوا بدل ياء والنداء بها في غير الندبة قليل ، وناداه عليه السلام بذلك استعطافاً له .

وأخرج أبو نعيم .

والديلمي عن أنس مرفوعاً حق الوالد على ولده أن لا يسميه إلا بما سمى إبراهيم عليه السلام به أباه يا أبت ولا يسميه باسمه ، وهذا ظاهر في أنه كان أباه حقيقة ، وصحح جمع أنه كان عمه وإطلاق الأب عليه مجاز ﴿ يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ﴾ ثناءك عليك عند عبادتك له وجؤارك إليه ﴿ وَلاَ يَبْصِرُ ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه أولاً يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات فيدخل في ذلك ما ذكر دخولاً أولياً ، وما موصولة

وجوزوا أن تكون نكرة موصوفة ﴿ وَلاَ يُغْنِى ﴾ أي لا يقدر على أن يغني ﴿ عَنكَ شَيْئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الاغناء فهو نصب على المفعولية أو المصدرية .

(34/487)

ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق ليس له من هاج لئلا يركب متن المكابرة والعناف ولا ينكب بالكلية عن سبيل الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والأنعام العام الخالق الرازق المحيء المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشيء لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً قادراً على النفع والضر لكن كان ممكناً لاستنكف ذو العقل السليم عن عبادته وإن كان أشرف الخلائق لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبية فما ظنك بجماد مصنوع ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر .

ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق المبين لما أنه لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي مصدراً لدعوته بما مر من الاستعطاف حيث قال :

﴿ يا أبت إِنّى قَدْ جَاءِنى مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك بل أبرز نفسه في صورة رقيق له يكون أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال : ﴿ فاتبعنى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب منحياً عن الضلال المؤدي إلى مهاوي الردى والمعاطب .

وقوله : ﴿ جَاءِنى ﴾ ظاهر في أن هذه المحاورة كانت بعد أن نبىء عليه السلام ، والذي جاءه قيل العلم بما يجب لله تعالى وما يمتنع في حقه وما يجوز على أتم وجه وأكمله .

وقيل : العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها .

وقيل : العلم بما يعم ذلك ثم ثبطه عما هو عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال :

(35/487)

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾

فإن عبادتك الأصنام عبادة له إذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها .

وقوله : ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ تعليل لموجب النهي وتأكيد له ببيان أنه مستعص على من شملتك رحمته وعمتك نعمته .

ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه ، وللإشارة إلى هذا المعنى جيء بالرحمن .

وفيه أيضاً إشارة إلى كمال شناعة عصيانه .

وفي الاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام فتذكيره داع لأبيه عن الاحتراز عن موالاته وطاعته ، والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير .

وقوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾

تحذي من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام والخوف كما قال الراغب توقع المكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة فهو غير مقطوع فيه بما يخاف .

ومن هنا قيل : إن في اختياره مجاملة .

وحمله الفراء .

والطبري على العلم وليس بذاك .

وتنوين ﴿ عَذَابِ ﴾ على ما اختاره السعد في المطول يحتمل التعظيم والتقليل أي عذاب

هائل أو أدنى شيء منه وقال لا دلالة للفظ المس وإضافة العذاب إلى الرحمن على ترجيح الثاني كما ذكره بعضهم لقوله تعالى : ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : 14] ولأن العقوبة من الكريم الحليم أشد اه .

(36/487)

واختار أبو السعود أنه للتعظيم ، وقال : كلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذتية بالفخامة الإضافية ، وإظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الانفطار : 6] انتهى ، وفي "الكشف" أن الحمل على التفخيم ﴿ فِى عَذَابِ ﴾ كما جوزه صاحب المفتاح مما يأباه المقام أي لأنه مقام إظهار مزيد الشفقة ومراعاة الأدب وحسن المعاملة وإنما قال ﴿ مِّنَ الرحمن ﴾ لقوله أولاً ﴿ كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ [مريم : 44] وللدلالة على أنه ليس على وجه الانتقام بل ذلك أضياً رحمة من الله تعالى على عباده وتنبيه على سبق الرحمة الغضب وإن الرحمانية لا تنافي العذاب بل الرحيمية على ما عليه الصوفية فقد قال المحقق القونوي في تفسير الفاتحة .

الرحيم كما بينا لأهل اليمين والجمال والرحمن الجامع بين اللطف والقهر لأهل القضية

الأخرى والجلال إلى آخر ما قال ، وأيد الحمل على التفخيم بقوله : ﴿ فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ أي قريناً تليه ويليك في العذاب فإن الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مس العذاب العظيم .

وأجيب عن كون المقام مقام إظهار مزيد الشفقة وهو يأبى ذلك بأن القسوة أحياناً من الشفقة أيضاً كما قيل :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما . . .

فليقس أحياناً على من يرحم

وقد تقدم هذا مع أبيات أخر بهذا المعنى ، ويكفي في مراعاة الأدب والمجاملة عدم الجزم باللحوق .

والمس وإن كان مشعراً بالقلة عند الجلة لكن قالوا : إن الكثرة والعظمة باعتبار ما يلزمه ويتبعه لا بالنظر إليه في نفسه فإنه غير مقصود بالذات وإنما هو كالذوب مقدمة للمقصود فيصح وصفه بكل من الأمرين باعتبارين .

(37/487)

وكأني بك تختار التفخيم لأنه أنسب بالتخويف وتدعى أنه ههنا من معدن الشفقة فتدبر وجوز أن يكون ﴿ فَتَكُونُ ﴾ الخ مترتباً على مس العذاب القليل والولي من الموالاة وهي المتابعة والمصادقة .

والمراد تفريع الثبات على حكم تلك الموالاة وبقاء آثارها من سخط الله تعالى وغضبه ، ولا مانع من أن يتفرع من قليل أمر عظيم .

ثم الظاهر أن المراد بالعذاب عذاب الآخرة وتأوله بعضهم بعذاب الدنيا وأراد به الخذلان أو شيئاً آخر مما أصاب الكفرة في الدنيا من أنواع البلاء وليس بذاك ، وزعم بعضهم أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والأصل إني أخاف أن تكون ولياً للشطان أي تابعاً له في الدنيا فيمسك عذاب من الرحمن أي في العقبى وكأنه أشكل عليه أمر التفريع فاضطر لما ذكر وقد أغناك الله تعالى عن ذلك بما ذكرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(38/487)

وقال القاسمى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً ﴾

بليغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه : ﴿ نَبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ أي : مُتَلَطِّفاً في

دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ أي : فلا يدفع ضرّاً ولا يجلب نفعاً .

قال أبو السعود : ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج ، وأقوم سبيل . واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل . لئلا يركب متن المكابرة والعناد . ولا ينكب ، بالكلية ، عن محجة الرشاد . حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم . مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام ، والإنعام العام . الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب . ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل ، لداعية صحيحة وغرض صحيح . والشيء لو كان حيّاً مميزاً سميعاً بصيراً ، قادراً على النفع والضر ، مطيقاً بإيصال الخير والشر ، لكن كان ممكناً ، لاستنكف العقل السليم عن عبادته . وإن كان أشرف الخلائق . لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة . فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟ .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾

أي : وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل : ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ أي : معتدلاً لا إفراط فيه بعبادة من لا يستحق ، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق ، وكذا في

باب الأخلاق والأعمال . قال المهايميّ : أي : وإن كان حق الابن اتباع الأب في العرف ، لكنه باطل . لأن الحق اتباع الصواب .

(39/487)

قال الزمخشريّ : ثَنَّى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً . فلم يسِمْ أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ . فلا تستنكف . وهب أني وإياك في مسير ، وعندي معرفة بالهداية دونك ، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه .

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ﴾ .

ثلّث عليه السلام بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة ، مستجلب لضرر عظيم ، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان . لما أنه الآمر به والمسوّل له ، وقوله : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ ﴾ الخ تعليل لموجب النهي وتأكيد له ، ببيان أنه مستعص على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم . ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص . والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير . والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته ، لأنه ملاكها . والتعرض لعنوان الرحمانية ، لإظهار كمال

شناعة عصيانه . أفاده أبو السعود .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾

لكونك عصيته ووالیت عدوّه ، فيقطع رحمته عنك ، كما قطعها عن الشيطان : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ أي : مقارناً له ومشاركاً معه في عذابه .

قال الزمخشريّ : ربّعَ عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة ، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال . ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرّح بأن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : ﴿ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ ﴾ فذكر الخوف والمس ونكّر العذاب . وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه ، أكبر من العذاب . وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربعة بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 103.105 ﴾

(40/487)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

أمر الله جل وعلا نبيه « محمداً » صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : أن يذكر في

الكتاب الذي هو القرآن العظيم المنزل إليه من الله « إبراهيم » عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ويتلو على الناس في القرآن نبأه مع قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر . وكرر هذا المعنى المذكور في هذه الآيات أخر من كتابه جل وعلا . فهذا الذي أمر به نبيه هنا من ذكره في الكتاب إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ الآية – أوضحه في سورة « الشعراء » في قوله : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء : 69-70] . فقوله هنا ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [مريم : 41] هو معنى قوله : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وزاد في « الشعراء » أن هذا الذي قاله لأبيه من النهي عن عبادة الأوثان قال أيضاً لسائر قومه . وكرر تعالى الإخبار عنه بهذا النهي لأبيه وقومه عن عباد الأوثان في مواضع أخر . كقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : 74] ، وقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 70-77] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ

التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُواْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ قالوا أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين ﴾ [الأنبياء : 51-56] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : 26-27] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ﴾ [الصافات : 83-87] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤُاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ﴾ [الزخرف : 26] الظرف الذي هو « إذ » بدل اشتمال من « إبراهيم » في قوله : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ ﴾ [مريم : 41] كما تقدم نظيره في قوله :

﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ إِذِ انتبذت ﴾ [مريم : 16] الآية . وقد قدمنا هناك إنكار بعضم لهذا الإعراب . وجملة ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ [مريم : 41] معترضة بين البدل والمبدل منه على الإعراب المذكور . والصديق صيغة مبالغة من الصدق . لشدة صدق إبراهيم في معاملته مع ربه وصدق لهجته ، كما شهد الله له بصدق معاملته في قوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ [النجم : 37] ، وقوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] .

ومن صدقه في معاملته ربه : رضاه بأن يذبح ولده ، وشروعه بالفعل في لك طاعة لربه . مع أ الولد فلذة من الكبد .

لكنما أولادنا بيننا . . . أكبادنا تمشي على الأرض

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ [الصافات : 103-105] الآية .

ومن صدقه في معاملته معع ربه : صبره على الإلقاء في النار . كما قال تعالى : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 67] ، وقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار ﴾ [العنكبوت : 24] الآية .

وذكر علماء التفسير في قصته أنهم لما رموه إلى النار لقيه جبريل فسأله : هل لك حاجة ؟

فقال : أما إليك فلا ! وأما إلى الله فنعم . فقال له : لم لا تسأله ؟ فقال : علمه بحالي كاف عن سؤالي ؟ ؟

(43/487)

ومنصدقه في معاملته ربه : صبره على مفارقة الأهل والوطن فراراً لدينه . كما قال تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [العنكبوت : 26] وقد هاجر من سواد العراق إلى دمشق : وقد بين جل وعلا في مواضع أخر أنه لم يكتف بنهيهم عن عبادة الأوثان وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ، بل زاد عل ذلك أنه كسرها وجعلها جذاذاً وترك الكبير من الأصنام ، ولما سألوه هل هو الذي كسرها قال لهم : إن الذي فعل ذلك كبير الأصنام ، وأمرهم بسؤال الأصنام إن كانت تنطق . كما قال تعالى عنه : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ

وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 57-67] ، وقال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : 91-96] . فقوله ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴾ أي مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيمينه حتى جعلها جذاذاً ، أي

(44/487)

قطاعاً متكسرة من قولهم : جذه إذا قطعه وكسره .

(45/487)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ أي كثير الصدق يعرف منه أن الكذبات الثلاث المذكورة في الحديث عن إبراهيم كلها في الله تعالى ، وأنها في الحقيقة من الصدق لا من الكذب بمعناه الحقيقي ، وسيأتي إن شاء الله زيادة إيضاح لهذا في سورة « الأنبياء » :

وقوله تعالى عن إبراهيم ﴿ يا أبت ﴾ التاء فيه عوض عن ياء المتلكم ، فالأصل يا أبي كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وفي النداء أبت أمت عرض . . . واكسر أو فتح ومن اليا التا عوض

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ لِمَ تَعْبُدُ ﴾ أصله « ما » الاستفهامية ، فدخل عليها حرف الجر الذي هو « اللام » فحذف ألفها على حد قوله في الخلاصة :

وما في الاستفهام غن جرت حذف . . . ألفها وأولها الها إن تقف

ومعلوم إن القراءة سنة متبعة لا تجور بالقياس . ولذا يوقف على « لم » بسكون الميم لا بهاء السكت كما في البيت . ومعنى عبادته للشيطان في قوله ﴿ لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي . فذلك الشرك شرك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : 60-61] كما تقدم هذا المبحث مستوفى في سورة « الإسراء » وغيرها .

(46/487)

والآية تدل على أن الكفار المعذبين يوم القيامة أولياء الشيطان . لقوله هنا ﴿ إِنِي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ والآيات الدالة على أن الكفار أولياء الشيطان كثيرة ، وقد قدمنا كثيراً من ذلك في سورة الكهف وغيرها ، كقوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان ﴾ [النساء : 76] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران : 175] الآية ، أي يخوفكم أولياءه . وقوله : ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله ﴾ [الأعراف : 30] الآية إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم . وكل من كان الشيطان يزين له الكفر والمعاصي فيتبعه في ذلك في الدنيا فلا ولي له في الآخرة إلا الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : 63] ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة .

(47/487)

وقوله تعالى في هذا الآية الكريمة : ﴿ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ يعني ما علمه الله من الوحي ما ألهمه وهو صغير ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 51] ومحاجة إبراهيم لقومه كما ذكرنا بعض الآيات الدالة

عليها أثنى الله بها على إبراهيم ، وبين أنها حجة الله آتاها نبيه إبراهيم . كما قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [الأنعام : 83] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ [الأنعام : 80] الآية ، وكون الآيات المذكورة واردة في محاجته لهم المذكورة في سورة « الأنعام » لا ينافي ما ذكرنا . لأن أصل المحاجة في شيء واحد وهو توحيد الله جل وعلا ، وإقامة الحجة القاطعة على أنه لا معبود إلى هو وحده جل وعلا في سورة « الأنعام » وفي غيرها . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(48/487)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

قد تقدم أن من أهم ما اشتملت عليه هذه السورة التنويه بالأنبياء والرسل السالفين .

وإذ كان إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء وأوّل من أعلن التوحيد إعلاناً باقياً ، لبنائه له هيكلَ التوحيد وهو الكعبة ، كان ذكر إبراهيم من أغراض السورة ، وذُكر عقب قصة عيسى لمناسبة وقوع الرد على المشركين في آخر القصة ابتداء من قوله تعالى : ﴿ فويل

للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 37] إلى قوله : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ [مريم : 40] .

ولما كان إبراهيم قد جاء بالحنيفية وخالفها العرب بالإشراك وهم ورثة إبراهيم كان لتقديم ذكره على البقية الموقع الجليل من البلاغة .

وفي ذلك تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم على ما لقي من مشركي قومه لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم .

وقد جرى سَرد خبر إبراهيم عليه السلام على أسلوبِ سرد قصة مريم عليها السلام لما في كل من الأهمية كما تقدم .

وتقدم تفسير ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ في أول قصة مريم (16) .

والصديق بتشديد الدال صيغة مبالغة في الاتصاف ، مثل الملك الضّليل لقب امرىء القيس ، وقولهم : رجل مِسيّك : أي شحيح ، ومنه طعام حرّيف ، ويقال : دليل خِرّيت ، إذا كان ذا حذق بالطرق الخفية في المفاوز ، مشتقاً من الخَرت وهو ثقب الشيء كأنه يثقب المسدودات ببصره .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ [يوسف : 46] .

وصف إبراهيم بالصدّيق لفرط صدقه في امتثال ما يكلفه الله تعالى لا يصده عن ذلك ما

قد يكون عذراً للمكلف مثل مبادرته إلى محاولة ذَبح ولده حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا ، فالصدق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصفة في الموصوف بها ، كما في قول تأبّط شرّاً :

(49/487)

إني لمهد من ثنائي فقاصد به لابن عم الصّدّق شُمس بن مالكوتأكيد هذا الخبر بحرف التوكيد وبإقحام فعل الكون للاهتمام بتحقيقه زيادة في الثناء عليه .

وجملة ﴿ إنه كان صديقاً نبيا واقعة موقع التعليل للاهتمام بذكره في التلاوة ، وهذه الجملة معترضة بين المبدل منه والبدل ، فإن (إذ) اسم زمان وقع بدلاً من إبراهيم ، أي اذكر ذلك خصوصاً من أحوال إبراهيم فإنه أهمّ ما يذكر فيه لأنه مظهر صديقيته إذ خاطب أباه بذلك الإنكار .

والنبي : فعيل بمعنى مفعول ، من أنبأه بالخبر .

والمراد هنا أنه منبّأ من جانب الله تعالى بالوحي .

والأكثر أن يكون النبي مرسلاً للتبليغ ، وهو معنى شرعي ، فالنبي فيه حقيقة عرفية .

وتقدم في سورة البقرة (246) عند قوله : ﴿ إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً ﴾ ، فدل ذلك على أن قوله لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر إنما كان عن وحي من الله ليبلغ

قومه إبطال عبادة الأصنام .

وقرأ الجمهور نبيا بياء مشددة بتخفيف الهمزة ياء لثقلها ولمناسبة الكسرة .

وقرأه نافع وحده (نبيئاً) بهمزة آخره ، وبذلك تصير الفاصلة القرآنية على حرف الألف ، ومثل تلك الفاصلة كثير في فواصل القرآن .

وقوله : إذ قال لأبيه الخ بدل اشتمال من (إبراهيم) .

و(إذ) اسم زمان مجرد عن الظرفية لأن (إذ) ظرف متصرف على التحقيق .

والمعنى : اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه فإن ذلك الوقت أجدر أوقات إبراهيم بأن يذكر .

وأبو إبراهيم هو (آزار) تقدم ذكره في سورة الأنعام .

وافتتح إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أن الحضرة مغنية عن النداء قصداً لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه .

قال الجد الوزير رحمه الله فيما أملاه عليّ ذات ليلة من عام 1318 ه فقال:

(50/487)

علم إبراهيم أن في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق وبخاصة الآباء مع أبنائهم ، فتوجه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة إيماء إلى أنه مخلص له النصيحة ،

وألقى إليه حجّة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطىء ، منبّهاً على خطئه عندما يتأمل في عمله ، فإنه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالاً ففطِن بخطل رأيه وسفاهة حلمه ، فإنه لو عبد حيّاً مميزاً لكانت له شبهة ما .

وابتدأ بالحجة الراجعة إلى الحِسّ إذ قال له : لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر فذلك حجة محسوسة ، ثم أتبعها بقوله : ولا يغني عنك شيئاً ، ثم انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد من ابنه بقوله : ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ [مريم : 43] ، فلما قضى حق ذلك انتقل إلى تنبيهه على أن ما هو فيه أثر من وساوس الشيطان ، ثم ألقى إليه حجة لائقة بالمتصلبين في الضلال بقوله : ﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا ﴾ [مريم : 45] ، أي إن الله أبلغ إليك الوعيد على لساني ، فإن كنتَ لا تجزم بذلك فافرض وقوعه فإنّ أصنامك لم تتوعدك على أن تفارق عبادتها .

وهذا كما في الشعر المنسوب إلى علي رضي الله عنه:

زعم المنجّم والطّبيب كلاهما لا تحشر الأجسام قلت : إليكما إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما قال : وفي النداء بقوله : ﴿ يا أبت ﴾ أربع مرات تكريرٌ اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب .

ونَظَّرَ ذلك بتكرير لقمان قوله : ﴿ يا بني ﴾ [لقمان : 13 16] ثلاث مرات ، قال : بخلاف قول نوح لابنه : ﴿ يا بني اركب معنا ﴾ [هود : 42] مرة واحدة دون تكرير لأنّ ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز" .

انتهى كلامه بما يقارب لفظه .

(51/487)

وأقول : الوجه ما بني عليه من أن الاستفهام مستعمل في حقيقته ، كما أشار إليه صاحب "الكشاف" ، ومكنى به عن نفي العلّة المسؤول عنها بقوله : ﴿ لم تعبد ، فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه ، فهو من التورية في معنيين يحتملهما الاستفهام .

وأبت : أصله أبي ، حذفوا ياء المتكلم وعوضوا عنها تاء تعويضاً على غير قياس ، وهو خاص بلفظ الأب والأم في النداء خاصة ، ولعله صيغة باقية من العربية القديمة .

ورأى سيبويه أن التاء تصير في الوقف هاء ، وخالفه الفراء فقال : ببقائها في الوقف .

والتاء مكسورة في الغالب لأنها عوض عن الياء والياء بنت الكسرة ولما كسروها فتحوا الياء وبذلك قرأ الجمهور .

وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر : (يأبتَ) بفتح التاء دون ألف بعدها ، بنَاء على أنهم يقولون (

يا أبتَا) بألف بعد التاء لأن ياء المتكلم إذا نودي يجوز فتحها وإشباع فتحتها فقرأه على اعتبار حذف الألف تخفيفاً وبقاء الفتحة .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) ﴾

إعادة ندائه بوصف الأبوّة تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة المستفاد من النداء الأول .

قال في "الكشاف" : "ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً ، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال : إن معي طائفة من العلم ليست معك ، وذلك عِلم الدلالة على الطريق السويّ ، فلا تستنكف ، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه" أ هـ .

ذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم لأنه كان كبير ديانة قومه .

وأراد إبراهيم علم الوحي والنبوءة .

(52/487)

وتفريع أمره بأن يتبعه على الإخبار بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالِم بأن يُتبع مركوزة في غريزة العقول لم يزل البشر يتقصّون مظانّ المعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتقاءِ ما

يضر ، قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [النحل : 43]

وفي قوله : ﴿ أهدك صراطاً سوياً استعارة مكنية ؛ شبه إبراهيم بهادي الطريق البصير بالثنايا ، وإثبات الصراط السويّ قرينة التشبيه ، وهو أيضاً استعارة مصرحة بأن شبه الاعتقاد الموصل إلى الحق والنجاة بالطريق المستقيم المبلغ إلى المقصود .

ويا أبت تقدّم الكلام على نظيره قريباً .

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) ﴾

إعادة النداء لزيادة تأكيد ما أفاده النداء الأول والثاني .

والمراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام ؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها ، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر ، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : 23] ، ففي الكلام إيجاز لأن معناه : لا تعبد الأصنام لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس ، وعبادتَها من وساوس الشيطان للذين سنّوا سنن عبادتها ، ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها ، فمن عَبَد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالاً معلوماً .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ وتقدم في سورة النساء (117) .

وفي هذا تبغيض لعبادة الأصنام ، لأن في قرارة نفوس الناس بغض الشيطان والحذر من كيده .

وجملة إن الشيطان كان للرحمان عصياً تعليل للنهي عن عبادته وعبادة آثار وسوسته بأنه شديد العصيان للرب الواسع الرحمة .

(53/487)

وذكر وصف عصياً الذي هو من صيغ المبالغة في العصيان مع زيادة فعل (كَانَ) للدلالة على أنه لا يفارق عصيان ربه وأنه متمكن منه ، فلا جرم أنه لا يأمر إلا بما ينافي الرحمة ، أي بما يفضي إلى النقمة ، ولذلك اختير وَصف الرحمان من بين صفات الله تعالى تنبيهاً على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته ، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع .

وإظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار ، إذ لم يقل : إنه كان للرحمان عصيّاً ، لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه ، ولزيادة التنفير من الشيطان ، لأن في ذكر صريح اسمه تنبيهاً إلى النفرة منه ، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها .

وتقدّم الكلام على يا أبت قريباً .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) ﴾

لا جرم أنه لما قرر له أن عبادته الأصنام اتّباع لأمر الشيطان عصيّ الرحمان انتقل إلى توقع حرمانه من رحمة الله بأن يحلّ به عذاب من الله ، فحذره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمتهم وسوء عاقبتهم ، ولكنهم يندمجون فيهم عن ضلال بمآل حالهم .

وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحلّ به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة ؛ عبر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنُه أن يرحم إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته مَن شأنه سعة الرحمة .

والولي : الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحدة وأمرهما جميع ؛ فكني بالولاية عن المقارنة في المصير .

والتعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى بأن لا يُثبت أمراً فيما هو من تصرف الله ، وإبْقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلّص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان .

ومعنى : ﴿ فتكون للشيطان وليا فتكون في اتباع الشيطان في العذاب .

وتقدّم الكلام على يا أبت قريباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى في استهلال سورة مريم عن ميلاد سيدنا يحيى لزكريا ، وعن ميلاد سيدنا المسيح بن مريم ، أراد أن يعرض لنا موكباً من مواكب الرسالات التي أرسلها الله نوراً من السماء لهداية الأرض ، فقال :

﴿ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ ﴾ [مريم : 41] .

فهو أبو الأنبياء وقمتهم ؛ لأن الله تعالى مدحه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] .

فليس هناك فرد يحتوي على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها ، لكن المجموع يحتويها فهذا شجاع قوي البنية ، وهذا ذكي ، وهذا حادّ البصر ، وهذا نابغ في الطب ، وهذا في الزراعة ، مواهب متفرقة بين البشر ، لا يجمعها واحد منه ، فلا طاقته ولا حياته ولا مجهوده يستطيع أن يكون موهوباً في كل شيء ، فالكمال كله مُوزّع في الخَلْق ، إلا إبراهيم ، فقد كان عليه السلام يساوي في مواهبه أمةً بأكملها .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ [مريم : 41] صِدّيق : من مادة صدق ، ومعناها : تكلّم بواقع ؛ لأن الكذب أنْ يتكلّم بغير واقع . وهذا يُسمَّى : صادق في ذاته ، أما قولنا :

صِدّيق أي : مبالغة في الصدق ، فقد بلغ الغاية في تصديق ما يأتي من الحق تبارك وتعالى ، فهو يطيع ويُذعِن ولا يناقش ، كما رأينا من أم موسى عليه السلام لما قال لها الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص : 7] .

بالله ، أي أم يمكن أن تُصدّق هذا الكلام ، وتنصاع لهذا الأمر ؟ وكيف تُنجّي ولدها من شر أو موت مظنون بموت مُحقَّق ؟

(55/487)

إذن : فهذا كلام لا يُصدَّق ، وفوق نطاق العقل عند عامة الناس ، أما في موكب الرسالات فالأمر مختلف ، فساعة أنْ سمعتْ أم موسى هذا النداء لم يساورها خاطر مخالف لأمر الله ، ولم يراودها شَكٌّ فيه ؛ لأن وارد الله عند هؤلاء القوم لا يُعارض بوارد الشيطان أبداً ، وهذه قضية مُسلَّمة عند الرسل .

إذن : الصِّدِّيق هو الذي بلغ الغاية في تصديق الحق ، فيورثه الله شفافية وإشراقاً بحيث يهتدي إلى الحق ويُميّزه عن الباطل من أول نظرة في الأمر ودون بحث وتدقيق في المسألة ؛ لأن الله تعالى يهبُكَ النور الذي يُبدّد عندك غيامات الشك ، ويهبك الميزان الدقيق الذي تزنُ به الأشياء ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾

[الأنفال : 29] .

ومن هنا سُمِّي أبو بكر رضي الله عنه صِدِّيقاً ، ليس لأنه صادق في ذاته ، بل لأنه يُصدِّق كل ما جاءه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج الذي كذَّب به كثيرون ، ماذا قال ؟ قال : " إنْ كان قال فقد صدق " .

فالأمر عنده متوقف على مجرد قول رسول الله ، فهذا هو الميزان عنده ، وطالما أن رسول الله قد قال فهو صادق ، هكذا دون جدال ، ودون مناقشة ، ودون بَحْث في ملابسات هذه المسألة ؛ لذلك من يومها وهو صِدِّيق عن جدارة .

والسيدة مريم قال عنها الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : 75]

فسماها صديقة ؛ لأنها صدَّقتْ ساعة أنْ قال لها الملَك : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً ﴾ [مريم : 19] .

فوثقتْ بهذه البشارة ، وأخذتْها على أنها حقيقة واقعة ، فلما جاء الوليد أشارت إليه وهي على ثقة كاملة ويقين تام أنه سينطق ويتكلم .

إذن : فالصِّديق ليس هو الذي يَصدُق ، بل الذي يُصدّق . وهكذا كان خليل الله إبراهيم (صديقاً) وكان أيضاً (نبياً) لأن الإنسان قد يكون صديقاً يعطيه الله شفافية خاصة ، وليس من الضروري أن يكون نبياً ، كما كانت مريم صِدّيقة وأبو بكر صِدّيقاً ، فهذه إذن صفة ذاتية إشراقية من الله ، أما النبوة فهي عطاء وتشريع يأتي من أعلى ، وهُدى يأتي من السماء يحمل النبي مسئوليته ؟ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يا أبت ﴾

هذا الحديث من إبراهيم عليه السلام لأبيه على اعتبار أنه نبي جاء ليُعدّل سلوك الناس على وَفْق منهج الله ، وأوّلهم أبوه ، وقد ذكره القرآن هكذا بأبوته لإبراهيم دون أن يذكر اسمه ، إلا في آية واحدة قال فيها : ﴿ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [الأنعام : 74] .

وهذه الآية أحدثتْ إشكالاً فظنَّ البعض أن آزر هو أبو إبراهيم الحقيقي الصُّلبي ، وهذا القول يتعارض مع الحديث النبوي الشريف الذي يُوضّح طهارة أصْل النبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : " أنا خيار من خيار ، ما زِلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات " .

إذن : فأصول النبي إلى آدم " طاهر متزوج طاهرة " ، فلو قلنا : إن آزر الذي قال الله في حقه : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] هو أبو إبراهيم ، لكَانَ في ذلك تعارض مع الحديث النبوي ، فكيف يكون من آباء محمد صلى الله عليه وسلم مثل هذا

الكافر ؟

ولو تأملنا إطلاقات الأُبوّة في القرآن الكريم لخرجنا من هذا الإشكال ، فالقرآن تكلم عن الأبوة الصُّلْبية المباشرة ، وتكلم عن الأُبوة غير المباشرة في الجد وفي العم ، فسمَّى الجد أباً ، والعم أباً ؛ لأنه يشترك مع أبي في جدي ، فله واسطة استحق بها أن يُسمَّى أباً . وفي القرآن نصَّان : أحدهما : يُطلِق على الجد أباً ، والآخر يُطلِق على العم أباً .

فالأول في قوله تعالى من قصة يوسف عليه السلام :

(57/487)

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ [يوسف : 36] .

فاختاروا يوسف لتأويل رؤياهم ؛ لأنهم رأوه من المحسنين ، فكأن الإحسان له مقاييس معروفة حتى عند غير المحسن ، فلما تعرَّضوا لأمر يُهمهم لم يلجئوا إلا لهذا الرجل الطيب ، فمقاييس الكمال محترمة ومعتبرة حتى عند فاقد الكمال .

فلما قالوا له ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ [يوسف : 36] علم أنهم متتبعون حركاته

وتصرفاته ، وكيف سلوكه بينهم ، فأراد أنْ يزيدهم مما عنده من إشراقات ، فأمْره ليس مجرد سلوك طيب وسيرة حسنة بينهم ، بل عنده أشياء أخرى ، فقال : ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : 37] .

ثم ترك الإجابة عن سؤالهم ، وأخذ في الحديث فيما يخصّه كنبيّ وداعية إلى الله ، فأخبرهم أن ما عنده من مواهب هو عطاء من الله ، وليس هو بأذكى منهم ، فقال : ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ * واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف : 3738] .

ثم يلفت نظر رفاقه إلى بطلان ما هم عليه من عبادة أرباب متفرقين لم ينفعوهم بشيء ، فها هم يتركونهم ويلجئون إلى يوسف الذي له رَبٌّ واحد :

﴿ ياصاحبي السجن ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] .

(58/487)

وهكذا كان يوسف النبي الداعية حريصاً على نَشْر دعوته وهداية مَنْ حوله ، حتى وهو في سجنه ما نسِيَ مهمته ، وما قصَّر في دعوته ، فلما فرغ من موعظته واستطاع بلباقة أنْ يُسمعِهم ما يريد ، وإلاّ لو أجابهم عن سؤالهم من بداية الأمر لانصرفوا عن هذه الموعظة ،

وما أعاروها اهتماماً .

والآن يعود إلى سؤالهم وتفسير رؤياهم : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخر فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : 41] .

شَاهِدُنا في هذه القصة هو قوله تعالى : ﴿ واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف : 38] ويوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، فسمَّى الأجداد آباءً .

وقد يُسمَّى العَمُّ أباً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة : 133] فعَدَّ إسماعيلَ في آباء يعقوب ، وهو عَمَّه .

إذن : لو أن القرآن الكريم حينما تحدث عن أبي إبراهيم فقال (لأبيه) في كل الآيات لا نصرف المعنى إلى الأُبوة الصُّلْبية الحقيقية ، أما أنْ يقول ولو مرة واحدة ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [الأنعام : 74] فهذا يعني أن المراد عمه ؛ لأنه لا يُؤتي بالعَلَم بعد الأبوة إلا إذا أردنا العم ، كما نقول نحن الآن حين نريد الأبوة الحقيقية : جاء أبوك هكذا مبهمة دون تسمية ، وفي الأبوة غير الحقيقية نقول : جاء أبوك فلان .

وبناءً عليه فقد ورد قوله تعالى : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [الأنعام : 74] مرة واحدة ، ليثبت لنا أن آزر ليس هو الأب الصُّلْبي لإبراهيم ، وإنما هو عَمَّه ، وبذلك يسْلَم لرسول الله صلى الله عليه وسلم طهارة نسبه ونقاء سِلْسلته إلى آدم عليه السلام .

وقوله : ﴿ يا أبت ﴾ [مريم : 42] وكان التركيب العربي يقتضي أن يقول : يا أبي ، إلا أنهم يحذفون ياء المتكلم ويُعوِّضون عنها بالتاء ، فلماذا ؟ قالوا : لأن (أبت) لها مَلْحظ دقيق ، فهو يريد أنْ يُثبت أنه وإنْ كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين : الأب والأم . فجاء بالتاء التي تشير إلى الجانب الآخر ؛ لذلك نجدها لا تُقال إلا في الحنانية المطلقة (يَا أَبَتِ) كما لو ماتتْ الأم مثلاً ، فقام الأب بالمهمتين معاً ، وعوض الأبناء حنان الأم المفقود .

وقوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] يبدو من أسلوب إبراهيم عليه السلام مع أبيه أدَبُ الدعوة ، حيث قدَّم الموعظة على سبيل الاستفهام حتى لا يُشعِر أباه بالنقص ، أو يُظهِر له أنه أعلم منه .

﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] نلحظ أنه لم يقُلْ من البداية : لِمَ تعبد الشيطان ، بل أخّر هذه الحقيقة إلى نهاية المناقشة ، وبدل أنْ يقولَ الشيطان حلّل شخصيته ، وأبان عناصره ، وكشف عن حقيقته : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يُغني عنك شيئاً ، فهذه الصفات لا تكون في المعبود ، وهي العِلَّة في أنْ تتجنبَ عبادة ما دون الله من شجر أو حجر أو شيطان ، وخصوصاً في بيئة إبراهيم عليه السلام وكانت

مليئة بالأوثان والأصنام .

لأن العبادة ماذا تعني ؟ تعني طاعةَ عابدٍ لمعبود في أَمْره ونَهْيه ، فالذين يعبدون ما دون الله من صنم أو وَثَنٍ أو شمس أو قمر ، بماذا أمرتْهم هذه المعبودات ؟ وعن أيِّ شيء نهتْهُم ؟ وماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ ما المنهج الذي جاءتْ به حتى تستحقَّ العبادة ؟ لا يوجد شيء من هذا كله ، إذن : فعبادتهم باطلة .

ثم يقول : ﴿ يا أبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي ﴾

(60/487)

يُكرِّر نبي الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى ، وكأنه يريد أنْ يثير في أبيه غريزة الحنان ، ويُوقِظ عنده أواصر الرحم ، كأنه يقول له : إن كلامي معك كلام الابن لأبيه ، كما نفعل نحن الآن إنْ أراد أحدنا أنْ يُحنّن إليه قلب أبيه يقول : يا والدي كذا وكذا . . يا أبي اسمع لي .

وكذلك حال إبراهيم عليه السلام حيث نادى أباه هذا النداء في هذه الآيات أربع مرات متتاليات ، وما ذلك إلا لحرصه على هدايته ، والأخْذ بيده إلى الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم : 43] أي : لا تظن يا أبي أنِّي متعالم عليك ، أو أنِّي أفضل ، أو أذكى منك ، فهذا الكلام ليس من عندي ، بل من أعلى

مني ومنك ، فلا غضاضةَ في سماعه والانصياع له ، وهو رسالة كُلِّفْتُ بإبلاغك إياها ، وهذا الذي جاءني من العلم لم يأتِكَ أنت ، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله ، فالمسألة ليستْ ذاتية بين ولد وعمه ، أو ولد وأبيه ، إنها مسألة عامة تعدَّتْ حدود الأُبوة والعمومة .

ولذلك لما تحدَّثْنا في سورة الكهف عن قصة موسى والخضر عليهما السلام ، قلنا : إن العبد الصالح التمس لموسى عُذْراً ؛ لأنه تصرَّف بناءً على علم عنده ، ليس عند موسى مثله ، فقال له : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ [الكهف : 68] وكذلك قال إبراهيم لأبيه حتى لا تأخذه العِزّة ، ويأنف من الاستماع لولده .

ثم يقول : ﴿ فاتبعني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ [مريم : 43] لأن هذا المنهج الذي أدعوك إليه ليس من عندي ، بل من أعلى مني ومنك ، والصراط السَّويّ : هو الطريق المستقيم الذي يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة ، وفي أقصر وقت .

ثم يقول : ﴿ يا أبت لا تَعْبُدِ الشيطان ﴾

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)

(61/487)

نلحظ أن إبراهيم في بداية محاورته لأبيه قال : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] وهنا يقول : ﴿ لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ [مريم : 44] مع أن الشيطان يمكن أن يسمع ويبصر ، فكيف يكون ذلك ؟

قالوا : لأن الشيطان هو الذي يُسوِّل عبادة الصنم أو الشجر أو الشمس أو القمر ، فالأمر مردود إليه وهو سببه ، إلا أن إبراهيم عليه السلام حَلَّل المسألة المباشرة ؛ لأن أباه يعبد صنماً لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يُغني عنه شيئاً ، وهذا بشهادتهم أنفسهم ، كما جاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : 7273] .

فهذا استفهام ، ولا يستفهم مُستفهِم مجادل ممَّن يجادله عن شيء ، إلا وقد عَلِم أن الجواب لا بُدَّ أن يكون في صالحه ؛ لأنه ائتمنه على الجواب . إذن : فعبادة ما دون الله مردُّها إلى إغواء الشيطان .

ثم يستطرد إبراهيم قائلاً : ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ [مريم : 44] عصياً : مبالغة في العصيان ، فالشيطان ليس عاصياً ، بل عَصِياً يعصي أوامر الله بلَدَدٍ وعناد .

ثم يقول : ﴿ يا أبت إني أَخَافُ ﴾

مازال خليل الله يتلطف في دعوة أبيه فيقول : ﴿ يَمَسَّكَ عَذَابٌ ﴾ [مريم : 45] ولم يقُلْ مثلاً : يصيبك . فهو لا يريد أنْ يصدمه بهذه الحقيقة ، والمسُّ : هو الالتصاق الخفيف ،

وكأنه يقول له : إن أمرك يُهمني ، وأخاف عليك مجرد هبو التراب أن ينالك . وهذا منتهى الشفقة عليه والحرص على نجاته .

ثم يقول : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم : 45] أي : قريباً منه ، وتابعاً له يصيبك من العذاب مَا يصيبه ، وتُعذّب كما يُعذّب .

(62/487)

وهكذا انتهتْ هذه المحاورة التي احتوتْ أربعة نداءات حانية ، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعوه ولده ويُقدِّم له النُّصْح ، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً ، وسَلْسَلَتْها تسلْسُلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه .

وقد راعى الحق تبارك وتعالى جوانب النفس البشرية فأمر أنْ تكونَ الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا تجمع على المدعو قسوة الدعوة ، وقسوة أنْ يترك ما أَلِف ، ويخرج منه إلى ما لم يألف .

فأنت حين تدعو شخصاً إلى الله فإنما تُخرِجه عن الفساد الذي أَلِفه ، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً ، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً ، وها تان مصيبتان آخذتان

بزمامه ، فما أحوجه لأسلوب لَيِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك .

وما أشبه الداعية في هذا الموقف بالذي يحتال ليخلص الثوب الحرير من الأشواك ، أما إنْ نهرته وقسوْتَ عليه فسوف يُعرض عنك وينصرف عن دعوتك ، ويظلّ على ما هو عليه من الفساد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

ويقولون : النصح ثقيل فلا تُرسِلْه جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، وقالوا : الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/487)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً من " إبراهيم " بدلَ اشتمال كما تقدَّم في ﴿ إِذِ انتبذت ﴾ [مريم : 16] وعلى هذا فقد فَصَل بين البدلِ والمبدلِ منه بقولِه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ نحو : رأيت زيداً – ونِعْم الرجلُ – أخاك " . وقال الزمخشري :

" ويجوز أن يتعلَّقَ " إذ " ب " كان " أو ب " صِدّيقاً نبيّاً " ، أي : كان جامعاً لخصائص الصِّدّيقين والأنبياء حين طلب خاطب أباه تلك المخاطباتِ " . ولذلك جَوَّز أبو البقاء أن يعمل فيه ﴿ صِدّيقاً نبيّاً ﴾ أو معناه .

قال الشيخ : " الإعرابُ الأولُ – يعني البدليةَ – يقتضي تصرُّفَ " إذ " وهي لا تتصرَّفُ ، والثاني فيه إعمالُ " كان " في الظرف وفيه خلافٌ ، والثالث لا يكون العاملُ مركباً من مجموع لفظَيْنِ بل يكون العملُ منسوباً للفظٍ واحدٍ . ولا جائز أن يكونَ معمولاً ل " صِدّيقاً " لأنه قد وُصِفَ ، إلا عند الكوفيين . ويَبْعُدُ أن يكونَ معمولاً ل " نبيّاً " لأنه يقتضي أنَّ التَّنْبِئَةَ كانت في وقتِ هذه المقالة " .

قلت : العاملُ فيه ما لَخَّصه أبو القاسم ونَضَّده بحسنِ صناعتِه من مجموع اللفظين كما رأيتَ في قوله " أي : كان جامعاً / لخصائصِ الصِّدّيقين والأنبياء حين خاطب أباه " .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) ﴾

وقد تَقَدَّمت قراءةُ ابن عامر " يا أَبَتِ " وفي مصحف عبد الله " وا أبتِ " ب " وا " التي للنُّدْبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 604.605 ﴾

(64/487)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

الصِدِّيق الكثير الصدق ، الذي لا يمازج صِدْقَه شوبٌ .

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصِدِّيق لا يناقِضُ سِرُّهُ عَلَنَه .

ويقال هو الذي لا يشهد غيرَ الله مُثْبِتاً ولا نافياً .

ويقال هو المستجيب لِمَا يُطَالَب به جملةً وتفصيلاً .

ويقال هو الواقفُ مع اللَّهِ في عموم الأوقات على حدّ الصدق .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) ﴾

دلَّت الآيةُ على استحقاقِ المعبودِ الوصفَ بالسمع والبصرِ على الكمال دون نُقْصانٍ فيه ، وكذلك القول في القدرة على الضَّرِّ والنفع .

وإذا رجع العبدُ إلى التحقيق عَلِمَ أن كلَّ الخَلْق لا تَصْلُحُ قدرةُ واحدٍ منهم للإبداع والإحداث ، فمن عَلَّق قلبه بمخلوق ، وأو تَوَهَّمَ شظية منه من النفي والإثبات فَقَدْ ضَاهَى عَبَدَةَ الأصنام .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) ﴾

أَمَرَه باتباعه لمَّا ترجح عليه جانبُه في كَوْنِ الحقّ معه – وإنْ كان أكبرَ منه سِنّاً ، وبيّن أن الخلاص في اتباع أهل الحقّ ، وأنَّ الهلاكَ في الابتداع والتطوع في مغاليط الطرق .

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) ﴾

بيّن أنَّ العلةَ في منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فبَانَ أنه لا ينبغي أَنْ تكون طاعةٌ لِمَنْ يَعْصِي اللَّهَ بحالٍ .

ويقال أساسُ الدِّين هِجْرَانُ أَرباب العصيان .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) ﴾

(65/487)

لم يغادِرْ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه ، ولم ينفعه جميل وعظه ، ولم تنجع فيه كثْرَةُ نُصْحه ؛ فإنَّ مَنْ اقْصَتْه سوابِقُ التقدير لم تُخَلِّصْه لواحقُ التدبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 430.432 ﴾

(66/487)

قوله تعالى ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما وصل إلى هذا الحد من البيان ، كان كأنه قيل : ماذا كان جوابه ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ مقابلاً لذلك الأدب العظيم والحكمة البالغة الناشئة عن لطافة العلم بغاية الفظاظة الباعث كثافة الجهل ، منكراً عليه في جميع ما قال بإنكار ما بعثه عليه من تحقير آلهته :

﴿ أراغب ﴾ قدم الخبر لشدة عنايته والتعجيب من تلك الرغبة والإنكار لها ، إشارة إلى أنه لا يفعلها أحد ؛ ثم صرح له بالمواجهة بالغلظة فقال : ﴿ أنت ﴾ وقال : ﴿ عن ءالهتي ﴾ بإضافتها إلى نفسه فقط ، إشارة إلى مبالغته في تعظيمها ؛ والرغبة عن الشيء : تركه عمداً .

ثم ناداه باسمه لا بلفظ النبوة المذكر بالشفقة والعطف زيادة في الإشارة إلى المقاطعة وتوابعها فقال : ﴿ يا إبراهيم ﴾ ثم استأنف قوله مقسماً : ﴿ لئن لم تنته ﴾ عما أنت عليه ﴿ لأرجمنك ﴾ أي لأقتلنك ، فإن ذلك جزاء المخالفة في الدين ، فاحذرني ولا تتعرض لذلك مني وانته ﴿ واهجرني ﴾ أي ابعد عني ﴿ ملياً ﴾ أي زماناً طويلاً لأجل ما صدر منك هذا الكلام ، وفي ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتأسية فيما كان يلقى من الأذى ، ويقاسي من قومه من العناء ، ومن عمه أبي لهب من الشدائد والبلايا - بأعظم آبائه وأقربهم به شبهاً ﴿ قال ﴾ أي إبراهيم عليه السلام مقابلاً لما كان من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العلم : ﴿ سلام عليك ﴾ أي أنت سالم مني ما لم أومر فيك بشيء ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ سأستغفر ﴾ بوعد لا خلف فيه ﴿ لك ربي ﴾ أي المحسن إليّ بأن أطلب لك منه غفران ذنوبك بأن يوفقك للاسلام الجابّ لما قبله ، لأن هذا كان قبل أن يعلم أنه عدو لله محتوم بشقاوته بدليل عدم جزمه بعذابه في قوله : ﴿ إني أخاف أن يمسك ﴾ .

(68/487)

ثم علل إقدامه على ذلك إشارة إلى أنه مقام خطر بما له من الإذلال لما له من مزيد القرب فقال : ﴿ إنه كان بي ﴾ أي في جميع أحوالي ﴿ حفيّاً ﴾ أي مبالغاً في إكرامي مرة بعد مرة وكرة إثر كرة ، ثم عطف على عدوه بالإحسان وعده بما سأل فيه الهجرة فقال :

﴿ وأعتزلكم ﴾ أي جميعاً بترك بلادكم ؛ وأشار إلى أن من شرط المعبود أن يكون أهلاً للمناداة في الشدائد بقوله : ﴿ وما تدعون ﴾ أي تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ الذي له الكمال كله ، فمن أقبل عليه وحده أصاب ، ومن أقبل على غيره فقد خاب ولم يقيد الاعتزال بزمن ، بل أشار إلى أنهم ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم ﴿ وأدعوا ﴾ أي أعبد ﴿ ربي ﴾ وحده لاستحقاقه ذلك مني بتفرده بالإحسان إليّ ، ثم دعا لنفسه بما نبههم به على خيبة مسعاهم فقال غير جازم بإجابة دعوته وقبول عبادته إجلالاً لربه وهضماً لنفسه : ﴿ عسى ألاّ أكون ﴾ أي كوناً ثابتاً كأنه احترز بذلك عما لا بد للأولياء منه في الدنيا من البلاء ﴿ بدعاء ربي ﴾ المتفرد بالإحسان إلي ﴿ شقياً ﴾ كما كنتم أنتم أشقياء بعبادة ما عبدتموه ، لأنه لا يجيب دعاءكم ولا ينفعكم ولا يضركم .

ولما رأى من أبيه ومعاشريه ما رأى ، عزم على نشر شقة النوى مختاراً للغربة في البلاد على غربة الأضداد ، فكان كما قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمة الله :

وما غربة الإنسان في شقة النوى . . .

ولكنها والله في عدم الشكل

وإني غريب بين بست وأهلها . . .

وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

(69/487)

وحقق ما عزم عليه ؛ ثم بين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه وإجابة دعائه فقال : ﴿ فلما اعتزلهم ﴾ أي بالهجرة إلى الأرض المقدسة ﴿ وما يعبدون ﴾ أي على الاستمرار ﴿ من دون الله ﴾ الجامع لجميع معاني العظمة التي لا ينبغي العبادة لغيره ﴿ وهبنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ له ﴾ كما هو الشأن في كل كن ترك شيئاً لله ﴿ إسحاق ﴾ ولداً له لصلبه من زوجته العاقر العقيم بعد تجاوزها سن اليأس وأخذه هو في السن إلى حد لا يولد لمثله ﴿ ويعقوب ﴾ ولداً لإسحاق وخصهما بالذكر للزومهما محل إقامته وقيامهما بعد موته بخلافته فيه وأما إسماعيل عليه السلام فكان الله سبحانه هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعاً إلى المسجد الحرام وإيحائه به تلك المشاعر العظام فأخروه بالذكر جاعلاً له أصلاً برأسه ؛ ثم صرح بما وهب لأولاده جزاء على هجرته فقال : ﴿ وكلاً ﴾ أي منهما ﴿ جعلنا نبياً ﴾ عالي المقدار ، ويخبر بالأخبار كما جعلنا إبراهيم عليه السلام نبياً ﴿ ووهبنا لهم ﴾ كلهم ﴿ من رحمتنا ﴾ أي شيئاً عظيماً جداً ، بالبركة في الأموال

والأولاد وإجابة الدعاء ، واللطف في القضاء وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة ﴿ وجعلنا لهم ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ لسان صدق عليّاً ﴾ أي ذكراً صادقاً رفيع القدر جداً يحمدون به ويثنى عليهم من جميع أهل الملل على كر الأعصار ، ومر الليل والنهار ، وعبر باللسان عما يوجد به ، وفي ذلك ترغيب في الهجرة ثانياً بعد ما رغب فيها بقصة أهل الكهف أولاً ، وأشار إليها بقوله في ﴿ سبحان ﴾ ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق ﴾ [الإسراء : 80] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 537.539 ﴾

(70/487)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) ﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد ، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان ، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ ، وأورد كل ذلك مقروناً باللطف والرفق ، قابله أبوه بجواب يضاد ذلك ، فقابل حجته بالتقليد ، فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم ﴾ فأصر على ادعاء إلهيتها جهلاً وتقليداً وقابل

وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم ، وقابل رفقه في قوله : ﴿ يا أبت ﴾ [مريم : 44] بالعنف حيث لم يقل له يا بني بل قال : ﴿ يا إِبْرَاهِيمَ ﴾ وإنما حكى الله تعالى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ليخفف على قلبه ما كان يصل إليه من أذى المشركين فيعلم أن الجهال منذ كانوا على هذه السيرة المذمومة ، أما قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ اِلَهَتِى يا إبراهيم ﴾ فإن كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان لأنه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة فما فائدة هذا القول . وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجة لا فائدة فيها ، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها فإن الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها فكأن أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهة ، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه ، أما قوله : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرنى مَلِيّاً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الرجم ههنا قولان : الأول : أنه الرجم باللسان ، وهو الشتم والذم ، ومنه قوله : ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ﴾ [النور : 4] أي بالشتم ، ومنه الرجيم ، أي المرمي باللعن ، قال مجاهد : الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم .

والثاني : أنه الرجم باليد ، وعلى هذا التقدير ذكروا وجوهاً : أحدها : لأرجمنك بإظهار أمرك للناس ليرجموك ويقتلوك .

وثانيها : لأرجمنك بالحجارة لتتباعد عني .

وثالثها : عن المؤرج لأقتلنك بلغة قريش .

ورابعها : قال أبو مسلم لأرجمنك المراد منه الرجم بالحجارة إلا أنه قد يقال ذلك في معنى الطرد والإبعاد اتساعاً ، ويدل على أنه أراد الطرد قوله تعالى : ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾

واعلم أن أصل الرجم هو الرمي بالرجام فحمله عليه أولى ، فإن قيل : أفما يدل قوله تعالى : ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ على أن المراد به الرجم بالشتم ؟ قلنا : لا ، وذلك لأنه هدده بالرجم إن بقي على قربه منه وأمره أن يبعد هرباً من ذلك فهو في معنى قوله : ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ .

المسألة الثانية :

في قوله تعالى : ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ قولان : أحدهما : المراد واهجرني بالقول .

والثاني : بالمفارقة في الدار والبلد وهي هجرة الرسول والمؤمنين أي تباعد عني لكي لا

أراك وهذا الثاني أقرب إلى الظاهر .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ مَلِيّاً ﴾ قولان : الأول : ملياً أي مدة بعيدة مأخوذ من قولهم أتى على فلان ملاوة من الدهر أي زمان بعيد .

والثاني : ملياً بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح يقال فلان ملي بكذا إذا كان مطيقاً له مضطلعاً به .

المسألة الرابعة :

عطف اهجرني على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك ، أي فاحذرني واهجرني لئلا أرجمنك ، ثم إن إبراهيم عليه السلام لما سمع من أبيه ذلك أجاب عن أمرين .

(72/487)

أحدهما : أنه وعده التباعد منه ، وذلك لأن أباه لما أمره بالتباعد أظهر الانقياد لذلك الأمر وقوله : ﴿ سلام عَلَيْكَ ﴾ توادع ومتاركة كقوله تعالى : ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ [القصص : 55] ، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج ،

وعلى أنه تحسن مقابلة الإساءة بالإحسان ، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له ، ألا ترى أنه وعده بالاستغفار ، ثم إنه لما ودع أباه بقوله : ﴿ سلام عَلَيْكَ ﴾ ضم إلى ذلك ما دل به على أنه وإن بعد عنه فاشفاقه باق عليه كما كان وهو قوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ واحتج بهذه الآية من طعن في عصمة الأنبياء ، وتقريره أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز لأنه استغفر لأبيه وهو كافر والاستغفار للكافر لا يجوز ، فثبت بمجموع هذه المقدمات أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز ، إنما قلنا إنه استغفر لأبيه لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ سلام عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ وقوله : ﴿ واغفر لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 86] وأما أن أباه كان كافراً فذاك بنص القرآن وبالإجماع ، وأما أن الاستغفار للكافر لا يجوز فلوجهين .

الأول : قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] .

(73/487)

الثاني : قوله في سورة الممتحنة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] إلى قوله ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] وأمر الناس إلا في هذا الفعل فوجب

أن يكون ذلك معصية منه ، "والجواب" : لا نزاع إلا في قولكم الاستغفار للكافر لا يجوز فإن الكلام عليه من وجوه : أحدها : أن القطع على أن الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف إلا بالسمع ، فلعل إبراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر فلا جرم استغفر لأبيه .

وثانيها : أن الاستغفار قد يكون بمعنى الاستماحة ، كما في قوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ [الجاثية : 14] والمعنى سأسأل ربي أن لا يجزيك بكفرك ما كنت حياً بعذاب الدنيا المعجل .

وثالثها : أنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار ولعل في شرعه جواز الاستغفار للكافر الذي يرجي منه الإيمان ، والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِى قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم ﴾ [التوبة : 113] فبين أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم .

(74/487)

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] فدلت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن ، فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه ، فإن قيل فإذا كان الأمر كذلك فلم منعنا من التأسي به في قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] إلى قوله ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] قلنا الآية تدل على أنه لا يجوز لنا التأسي به في ذلك لكن المنع من التأسي به في ذلك لا يدل على أن ذلك كان معصية .

فإن كثيراً من الأشياء هي من خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لنا التأسي به مع أنها كانت مباحة له عليه السلام .

ورابعها : لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الأولى وحسنات الأبرار سيئآت المقربين ، أما قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ أي لطيفاً رفيقاً يقال أحفى فلان في المسألة بفلان إذا لطف به وبالغ في الرفق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ [محمد : 37] أي وإن لطفت المسألة والمراد أنه سبحانه للطفه بي وإنعامه عليّ عودني الإجابة فإذا أنا استغفرت لك حصل المراد فكأنه جعله بذلك على يقين إن هو تاب أن يحصل له الغفران .

"الجواب الثاني" من الجوابين قوله : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ الاعتزال للشيء هو التباعد عنه والمراد أني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضاً وأبعد عنكم وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفع ويضر والذي خلقني وأنعم علي فإنكم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك ، فواجب على مجانبتكم ومعنى قوله : ﴿ عسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيّا ﴾ أرجو أن لا أكون كذلك ، وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] وأما قوله : ﴿ شَقِيّاً ﴾ مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم على ما قرره أولاً في قوله : ﴿ لَمْ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] .

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) ﴾

(76/487)

اعلم أنه ما خسر على الله أحد فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره لم يضره ذلك ديناً ودنيا ، بل نفعه فعوضه أولاداً أنبياء

ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولاً إلى خلقه ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة فصار جعله تعالى إياهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة ، ثم بين تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم من النبوة ما وهب ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان ، كما عبر باليد عما يعطي باليد وهو العطية ، واستجاب الله دعوته في قوله : ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ [الشعراء : 84] فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم وقال عز وجل : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ [الحج : 78] ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ [النحل : 123] قال بعضهم : إن الخليل اعتزل عن الخلق على ما قال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [مريم : 48] فلا جرم بارك الله في أولاده فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ .

وثانيها : أنه تبرأ من أبيه في الله تعالى على ما قال : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] لا جرم أن الله سماه أباً للمسلمين فقال : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ [الحج : 78] .

وثالثها : تل ولده للجبين ليذبحه على ما قال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات :

103] لاجرم فداه الله تعالى على ما قال : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 107] .

(77/487)

ورابعها : أسلم نفسه فقال : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] فجعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فقال : ﴿ قُلْنَا يا نَارُ كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 69] .

وخامسها : أشفق على هذه الأمة فقال : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 129] لاجرم أشركه الله تعالى في الصلوات الخمس ، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

وسادسها : في حق سارة في قوله : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ [النجم : 37] لاجرم جعل موطىء قدميه مباركاً : ﴿ واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى ﴾ [البقرة : 125] .

وسابعها : عادى كل الخلق في الله فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 77] لاجرم اتخذه الله خليلاً على ما قال : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً ﴾ [النساء :

125] ليعلم صحة قولنا أنه ما خسر على الله أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 194.197 ﴾

(78/487)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾

رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيِّ قَالُوا : " دَهْرًا طَوِيلًا " .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ : " مَلِيًّا : سَوِيًّا سَلِيمًا مِنْ عُقُوبَتِي " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ فُلَانٌ مَلِيٌّ بِهَذَا الْأَمْرِ إذَا كَانَ كَامِلَ الْأَمْرِ فِيهِ مُضْطَلِعًا بِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(79/487)

وقال الماوردى :

قال تعالى : ﴿ . . . لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : بالحجارة حتى تباعد عني ، قاله الحسن .

الثاني : لأرجمنك بالذم باللسان والعيب بالقول ، قاله الضحاك ، والسدي ، وابن جريج .

﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : دهراً طويلاً ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وابن جبير ، والسدي ، ومنه قول مهلهل .

فتصدعت صم الجبال لموته . . . وبكت عليه المرملات ملياً

الثاني : سوياً سليماً من عقوبتي ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء .

الثالث : حيناً ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ هذا سلام إبراهيم على أبيه ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه سلام توديع وهجر لمقامه على الكفر ، قاله ابن بحر .

الثاني : وهو أظهر أنه سلام بر وإكرام ، فقابل جفوة أبيه بالبر تأدية لحق الأبوة وشكراً لسالف التربية .

ثم قال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : سأستغفر لك إن تركت عبادة الأوثان .

الثاني : معناه سأدعوه لك بالهداية التي تقتضي الغفران . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : مُقَرّباً .

الثاني : مُكْرِماً .

الثالث : رحيماً ، قاله مقاتل .

الرابع : عليماً ، قاله الكلبي .

الخامس : متعهداً .

قوله تعالى : ﴿ . . . وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : جعلنا لهم ذكراً جميلاً وثناءً حسناً ، قاله ابن عباس ، وذلك أن جمع الملك بحسن الثناء عليه .

الثاني : جعلناهم رسلاً لله كراماً على الله ، ويكون اللسان بمعنى الرسالة : قال الشاعر :

أتتني لسان بني عامر . . . أحاديثهما بعد قول ونكر .

ويحتمل قولاً [ثالثاً] أن يكون الوفاء بالمواعيد والعهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(80/487)

وقال ابن عطية :

قال آزر وهو تارخ ﴿ أراغب أنت عن آلهتي ﴾

والرغبة ميل النفس ، فقد تكون الرغبة في الشيء وقد تكون عنه ، وقوله ﴿ أراغب ﴾ رفع بالابتداء و ﴿ أنت ﴾ فاعل به يسد مسد الخبر وحسن ذلك وقربه اعتماد " راغب " على ألف الاستفهام ، ويجوز أن يكون " راغب " خبراً مقدماً و ﴿ أنت ﴾ ابتداء والأول أصوب وهو مذهب سيبويه .

وقوله ﴿ عن آلهتي ﴾ ، يريد الأصنام وكان فيما روي ينحتها وينجرها بيده ويبيعها ويحض عليها فقرر ابنه إبراهيم على رغبته عنها على جهة الإنكار عليه ثم أخذ يتوعده ، وقوله ﴿ لأرجمنك ﴾ اختلف فيه المتأولون ، فقال السدي وابن جريج والضحاك : معناه بالقول ، أي لأشتمنك ﴿ واهجرني ﴾ أنت إذا شئت مدة من الدهر ، أو سالماً حسب الخلاف الذي سنذكره . وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه ﴿ لأرجمنك ﴾ بالحجارة ، وقالت فرقة : معناه لأقتلنك ، وهذان القولان بمعنى واحد ، وقوله ﴿ واهجرني ﴾ على هذا التأويل إنما يترتب بأنه أمر على حياله كأنه قال : إن لم تنته لأقتلنك بالرجم ، ثم قال له ﴿ واهجرني ﴾ أي مع انتهائك كأنه جزم له الأمر بالهجرة وإلا فمع الرجم لا تترتب الهجرة و ﴿ ملياً ﴾ معناه دهراً طويلاً مأخوذ من الملوين وهما الليل والنهار وهذا قول الجمهور والحسن ومجاهد وغيرهما فهو ظرف ، وقال ابن عباس وغيره ﴿ ملياً ﴾ معناه سليماً

منا سوياً فهو حال من ﴿ إبراهيم ﴾ عليه السلام ، وتلخيص هذا أن يكون بمعنى قوله مستبداً بحالك غنياً عني ملياً بالاكتفاء .

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾

(81/487)

قرأ أبو البرهسم " سلاماً عليك " بالنصب ، واختلف أهل العلم في معنى تسلميه عليه ، فقال بعضهم هي تحية مفارق وجوزوا تحية الكافر وأن يبدأ بها . وقال الجمهور : ذلك التسليم بمعنى المسالمة لا بمعنى التحية ، قال الطبري معناه أمنة مني لك ، وهذا قول الجمهور وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام ، وقال النقاش : حليم خاطب سفيهاً كما قال ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، ورفع السلام بالابتداء ، وجاز ذلك مع نكرته لأنها نكرة مخصصة فقربت من المعرفة ولأنه في موضع المنصوب الذي هو سلمت سلاماً وهذا كما يجوز ذلك في ما هو في معنى الفاعل كقولهم شراً أهرّ ذا ناب ، هذا مقال سيبويه ، وقوله تعالى ﴿ سأستغفر ﴾ معناه سأدعو الله تعالى في أن يهديك فيغفر لك بإيمانك وهذا أظهر من أن يتأول على إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم أنه لم يعلم أن الله لا يغفر لكافر ، وقد يجوز أن يكون إبراهيم عليه السلام أول نبي أوحي إليه أن لا يغفر لكافر ، لأن هذه العقيدة

إنما طريقها السمع ، فكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه ذلك ، وإبراهيم عليه السلام إنما تبين له في أبيه أنه عدو لله بأحد وجهين إما بموته على الكفر كما روي وإما بأن أوحي إليه تعسف الحتم عليه ، وقال مكي عن السدي : أخره بالاستغفار الى السحر ، وهذا تعسف ، وإنما ذكر ذلك في أمر يعقوب وبنيه وأما هذا فوعد باستغفار كثير مؤتنف فالسين متمكنة . و" الحفي " المبتهل المتلطف وهذا شكر من إبراهيم لنعم الله تعالى عليه ، ثم أخبره أنه يعتزلهم أي يصير عنهم بمعزل ، ويروى أنهم كانوا بأرض كوثا فرحل إبراهيم عليه السلام حتى نزل الشام وفي سفرته تلك لقي الجبار الذي أخدم هاجر بسارة الحديث بطوله ، و﴿ تدعون ﴾ بمعنى تعبدون ، وقوله ﴿ عسى ﴾ ترج ، في ضمنه خوف شديد ، وقوله ﴿ فلما اعتزلهم ﴾ الى آخر الآية ، إخبار من الله تعالى لمحمد عليه السلام أنه لما رحل عن بلد أبيه وقومه عوضه الله من ذلك

(82/487)

ابنه ﴿ إسحاق ﴾ وابنه ﴿ يعقوب ﴾ وجعل له الولد تسلية وشداً لعضده ، و﴿ إسحاق ﴾ أصغر من إسماعيل ، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة فحملت ب ﴿ إسحاق ﴾ هذا ما روي ، وقوله ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ يريد العلم والمنزلة

والشرف في الدنيا والنعيم في الأخرة ، كل ذلك من رحمة الله ، و" لسان الصدق " هو الثناء الباقي عليهم أخر الأبد ، قاله ابن عباس . واللسان في كلام العرب المقالة الذائعة كانت في خير أو شر ومنه قول الشاعر : [البسيط] .

إني أتتني لسان لا أسر بها . . . من علو لا كذب فيها ولا سخر

وقال آخر : [الوافر]

" ندمت على لسان فات مني " . . . وإبراهيم الخليل وبنوه معظمون في جميع الأمم والملل صلى الله عليهم أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(83/487)

وقال ابن الجوزى :

فأجابه أبوه : ﴿ أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إِبراهيم ﴾ !

أي : أتارك عبادتها أنت ؟ !

﴿ لئن لم تنته ﴾ عن عيبها وشتمها ﴿ لأرجمنَّك ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : بالشتم والقول ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : بالحجارة حتى تتباعدَ عني ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ واهجرني مليّاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : اهجرني طويلاً ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والفرّاء ، والأكثرون .

قال ابن قتيبة : اهجرني حيناً طويلاً ، ومنه يقال : تَمَلّيت حبيبك .

والثاني : اجتنبني سالماً قبل أن تصيبَك عقوبتي ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك ؛ فعلى هذا يكون من قولهم : فلان مليٌّ بكذا وكذا : إذا كان مضطلعاً به ، فالمعنى : اهجرني وعرضك وافر ، وأنت سليم من أذايَ ، قاله ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ قال سلام عليكَ ﴾ أي : سَلِمتَ من أن أُصيبَك بمكروه ، وذلك أنه لم يؤمَر بقتاله على كفره ، ﴿ سأستغفر لكَ ربّي ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : سأسأل الله لك توبةً تنال بها مغفرته .

والثاني : أنه وعده الاستغفار وهو لا يعلم أن ذلك محظور في حقّ المُصرّين على الكفر ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ إنه كان بي حفيّاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لطيفاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد ، والزجاج .

والثاني : رحيماً ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : بارّاً عوّدني منه الإجابة إذا دعوتُه ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وأَعتزِلُكم ﴾ أي : وأتنحّى عنكم ، ﴿ و ﴾ أعتزلُ ﴿ ما تدعون من دون الله ﴾ يعني : الأصنام .

وفي معنى "تَدْعُون" قولان .

أحدهما : تَعْبُدون .

(84/487)

والثاني : أن المعنى : وما تدعونه ربّاً ، ﴿ وأدعو ربِّي ﴾ أي : وأعبُده ﴿ عسى ألاَّ أكون بدعاء ربِّي شقيّاً ﴾ أي : أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شَقِيتُم أنتم بعبادة الأصنام ، لأنها لا تنفعهم ولا تُجيب دعاءَهم ﴿ فلما اعتزلهم ﴾ قال المفسرون : هاجر عنهم إلى أرض الشام ، فوهب الله له إسحاق ويعقوب ، فآنس الله وحشته عن فراق قومه بأولادٍ كرامٍ .

قال أبو سليمان : وإنما وهب له إسحاق ويعقوب بعد إسماعيل .

قوله تعالى : ﴿ وكلاً ﴾ أي : وكلاًّ من هذين .

وقال مقاتل : "وكلاًّ" يعني : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ جعلناه نبيّاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ قال المفسرون : المال والولد والعِلْم والعمل ، ﴿ وجعلنا لهم لسان صِدْق عليّاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : ذِكْراً حَسَناً في النّاس مرتفعاً ،

فجميع أهل الأديان يتولَّون إبراهيم وذريَّته ويُثنون عليهم ، فوضع اللسان مكان القول ، لأن القول يكون باللسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(85/487)

وقال القرطبى :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم ﴾

أي أترغب عنها إلى غيرها .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً ﴾ قال الحسن : يعني بالحجارة .

الضحاك : بالقول ؛ أي لأشتمنك .

ابن عباس : لأضربنك .

وقيل : لأظهرن أمرك .

﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ .

قال ابن عباس : أي اعتزلني سالم العرض لا يصيبنَّك مني معرّة ؛ واختاره الطبري ، فقوله : "ملياً" على هذا حال من إبراهيم .

وقال الحسن ومجاهد : "ملياً" دهراً طويلاً ؛ ومنه قول المهلهل :

فَتَصدَّعَتْ صُمُّ الجبالِ لموته . . .

وبَكَت عليه المُرْمِلاَتُ مليًّا

قال الكسائي : يقال هجرته مليًّا ومَلْوة ومُلْوة ومَلاَوة ومُلاَوة ، فهو على هذا القول ظرف ، وهو بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل منه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ ﴾ لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد ؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره .

والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة لا التحية ؛ قال الطبري : معناه أمنة مني لك .

وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام .

وقال النقاش : حليم خاطب سفيهاً ؛ كما قال : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] .

وقال بعضهم في معنى تسليمه : هو تحية مفارق ؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها .

قيل لابن عيينة : هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال : نعم ؛ قال الله تعالى : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ [الممتحنة : 8] .

وقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الممتحنة : 4] الآية ؛ وقال إبراهيم لأبيه : "سلام عليك" .

(86/487)

قلت : الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة ؛ وفي الباب حديثان صحيحان : روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه " خرجه البخاري ومسلم .

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد : " أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فَدَكِيّة ، وأردف وراءه أسامة بن زيد ؛ وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وفي المجلس عبد الله بن رَوَاحة ، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة ، خمر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه ، ثم قال : لا تُغبِّروا علينا ، فسلّم عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم " ؛ الحديث .

فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء ، لأن ذلك إكرام ، والكافر ليس أهله .

والحديث الثاني يجوز ذلك .

قال الطبري : ولا يعارَض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة ، فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر ؛ وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم ، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص .

وقال النَّخَعي : إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام ؛ فبان بهذا أن حديث أبي هريرة " لا تبدؤوهم بالسلام " إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام ، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قِبلهم ، أو حقّ صحبة أو جوار أو سفر .

قال الطبري : وقد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب .

وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه ؛ قال علْقَمة : فقلت له يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن يبدؤوا بالسلام ؟ ! قال : نعم ؛ ولكن حقّ الصحبة .

وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه ؛ فقيل له في ذلك فقال : أمرنا أن نفشي السلام .

(87/487)

وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه ، فقال : إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك ، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك .

وروي عن الحسن البصري أنه قال : إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم .

قلت : وقد احتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذي معناه التحية إنما خص به هذه الأمة ؛ لحديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله تعالى أعطى أمتي ثلاثاً لم تعط أحداً قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة " الحديث ؛ ذكره الترمذي الحكيم ؛ وقد مضى في الفاتحة بسنده .

وقد مضى الكلام في معنى قوله : "سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي" .

وارتفع السلام بالابتداء ، وجاز ذلك مع نكرته لأنه نكرة مخصصة فقرنت المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ : الحفي المبالغ في البرّ والإلطاف ؛ يقال : حَفِي به وتَحفَّى إذا بَرَّه .

وقال الكسائي يقال : حَفِي بي حِفَاوة وحِفْوة .

وقال الفراء : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ أي عالماً لطيفاً يجيبني إذا دعوته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ : العزلة المفارقة وقد تقدّم في "الكهف" بيانها .

وقوله : ﴿ عسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ قيل : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولداً يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه .

ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي آنسنا وحشته بولد ؛ عن ابن عباس وغيره .

وقيل : "عسى" يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا في المستقبل .

وقيل : دعا لأبيه بالهداية .

ف"عسى" شك لأنه كان لا يدري هل يستجاب له فيه أم لا ؟ والأول أظهر .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ أي أثنينا عليهم ثناء حسناً ؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم .

واللسان يذكر ويؤنث ؛ وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(88/487)

وقال أبو حيان :

﴿ قَال ﴾ أي أبوه ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ استفهم استفهام إنكار ، والرغبة عن الشيء تركه عمداً وآلهته أصنامه ، وأغلظ له في هذا الإنكار وناداه باسمه ولم يقابل ﴿ يا أبت ﴾ بيا بني .

قال الزمخشري : وقدم الخبر على المبتدأ في قوله ﴿ أراغب أنت عن آلهتي ﴾ لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعني وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وإن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد .

وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عما كان يلقى من مثل

ذلك من كفار قومه انتهى .

والمختار في إعراب ﴿ أراغب أنت ﴾ أن يكون راغب مبتدأ لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام ، و﴿ أنت ﴾ فاعل سد مسد الخبر ، ويترجح هذا الإعراب على ما أعربه الزمخشري من كون ﴿ أراغب ﴾ خبراً و﴿ أنت ﴾ مبتدأ بوجهين :

أحدهما : أنه لا يكون فيه تقديم ولا تأخير إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدأ .

والثاني : أن لا يكون فصل بين العامل الذي هو ﴿ أراغب ﴾ وبين معموله الذي هو ﴿ عن آلهتي ﴾ بما ليس بمعمول للعامل ، لأن الخبر ليس هو عاملاً في المبتدأ بخلاف كون ﴿ أنت ﴾ فاعلاً فإن معمول ﴿ أراغب ﴾ فلم يفصل بين ﴿ أراغب ﴾ وبين ﴿ عن آلهتي ﴾ بأجنبي إنما فصل بمعمول له .

ولما أنكر عليه رغبته عن آلهته توعده مقسماً على إنفاذ ما توعده به إن لم ينته ومتعلق ﴿ تنته ﴾ محذوف واحتمل أن يكون عن مخاطبتي بما خاطبتني به ودعوتني إليه ، وأن يكون ﴿ لئن لم تنته ﴾ عن الرغبة عن آلهتي ﴿ لأرجمنك ﴾ جواب القسم المحذوف قبل ﴿ لئن ﴾ .

قال الحسن : بالحجارة .

وقيل : لأقتلنك .

وقال السدي والضحاك وابن جريج : لأشتمنك .

قال الزمخشري : فإن قلت : علام عطف ﴿ واهجرني ﴾ ؟ قلت : على معطوف عليه محذوف يدل عليه ﴿ لأرجمنك ﴾ أي فاحذرني ﴿ واهجرني ﴾ لأن ﴿ لأرجمنك ﴾ تهديد وتقريع انتهى .

(89/487)

وإنما احتاج إلى حذف ليناسب بين جملتي العطف والمعطوف عليه ، وليس ذلك بلازم عند سيبويه بل يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية .

فقوله ﴿ واهجرني ﴾ معطوف على قوله ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ وكلاهما معمول للقول .

وانتصب ﴿ ملياً ﴾ على الظرف أي دهراً طويلاً قاله الجمهور والحسن ومجاهد وغيرهما ، ومنه الملوان وهما الليل والنهار والملاوة بتثليث حركة الميم الدهر الطويل من قولهم : أمليت لفلان في الأمر إذا أطلت له .

وقال الشاعر :

فعسنا بها من الشباب ملاوة . . .

فالحج آيات الرسول المحبب

وقال سيبويه : سير عليه مليّ من الدهر أي زمان طويل .

وقال ابن عباس وغيره : ﴿ ملياً ﴾ معناه سالماً سوّياً فهو حال من فاعل ﴿ واهجرني ﴾ .

قال ابن عطية : وتلخيص هذا أن يكون بمعنى قوله مستنداً بحالك غنياً عني ﴿ ملياً ﴾ بالاكتفاء .

وقال السدي : معناه أبداً .

ومنه قول مهلهل :

فتصدعت صم الجبال لموته . . .

وبكت عليه المرملات ملياً

وقال ابن جبير : دهراً ، وأصل الحرف المكث يقال : تمليت حيناً .

وقال الزمخشري : أو ﴿ ملياً ﴾ بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح فلان ملي بكذا إذا كان مطيقاً له مضطلعاً به انتهى .

﴿ قال سلام عليك ﴾ .

قرأ أبو البرهثيم : سلاماً بالنصب .

قال الجمهور : هذا بمعنى المسالمة لا بمعنى التحية ، أي أمنة مني لك وهؤلاء لا يرون ابتداء الكافر بالسلام .

وقال النقاش حليم : خاطب سفيهاً كقوله ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾

وقيل : هي تحية مفارق ، وجوز قائل هذا تحية الكافر وإن يبدأ بالسلام المشروع وهو مذهب سفيان بن عيينة مستدلاً بقوله تعالى ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ﴾ الآية وبقوله ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ الآية .

(90/487)

و ﴿ قال ﴾ إبراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ وما استدل به متأول ، ومذهبهم محجوج بما ثبت في صحيح مسلم : " لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام " ورفع ﴿ سلام ﴾ على الابتداء ونصبه على المصدر ، أي سلمت سلاماً دعاء له بالسلامة على سبيل الاستمالة ، ثم وعده بالاستغفار وذلك يكون بشرط حصول ما يمكن معه الاستغفار وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبادة ، وهذا كما يرد الأمر والنهي على الكافر ولا يصح الامتثال إلاّ بشرط الإيمان .

ومعنى ﴿ سأستغفر لك ﴾ أدعو الله في هدايتك فيغفر لك بالإيمان ولا يتأول على إبراهيم عليه السلام أنه لم يعلم أن الله لا يغفر لكافر .

قال ابن عطية : ويجوز أن يكون إبراهيم عليه السلام أول نبيّ أوحي إليه أن الله لا يغفر لكافر

لأن هذه الطريقة إنما طريقها السمع ، وكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه ، وذلك أنه إنما تبين له في أبيه أنه عدو لله بأحد وجهين : إما بموته على الكفر كما روي ، وإما أن يوحي إليه الحتم عليه .

وقال الزمخشري : ولقائل أن يقول الذي يمنع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع ، فأما القضية العقلية فلا تأباه ، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل ، والذي يدل على صحته قوله تعالى ﴿ إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ فلو كان شارطاً للإيمان لم يكن مستنكراً ومستثنى عما وجب فيه .

وقول من قال إنما استغفر له لأنه وعده أن يؤمن مستدلاً بقوله ﴿ إلاّ عن موعدة وعدها إياه ﴾ فجعل الواعد آزر والموعود إبراهيم عليه السلام ليس بجيد لاعتقابه في هذه الآية الوعد بالاستغفار بعد ذلك القول الجافي من قوله ﴿ لئن لم تنته ﴾ الآية .

فكيف يكون وعده بالإيمان ؟ ولأن الواعد هو إبراهيم ويدل عليه قراءة حماد الراوية وعدها إياه .

والحفي المكرم المحتفل الكثير البر والألطاف ، وتقدم شرحه لغة في قوله ﴿ كأنك حفي عنها ﴾ وقال ابن عباس : رحيماً .

وقال الكلبي : حليماً .

وقال القتبي : باراً .

وقال السدي : حفيك من يهمه أمرك ، ولما كان في قوله ﴿ لأرجمنك ﴾ فظاظة وقساوة قلب قابله بالدعاء له بالسلام والأمن ووعده بالاستغفار قضاء لحق الأبوة ، وإن كان قد صدر منه إغلاظ .

ولما أمره بهجره الزمان الطويل أخبره بأنه يتمثل أمره ويعتزله وقومه ومعبوداتهم ، فهاجر إلى الشام قيل أو إلى حران وكانوا بأرض كوثاء ، وفي هجرته هذه تزوج سارة ولقي الجبار الذي أخدم سارة هاجر ، والأظهر أن قوله ﴿ وأدعو ربي ﴾ معناه وأعبد ربي كما جاء في الحديث : " الدعاء العبادة " لقوله ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء ﴿ رب هب لي حكماً ﴾ إلى آخره ، وعرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ مع التواضع لله في كلمة ﴿ عسى ﴾ وما فيه من هضم النفس .

وفي ﴿ عسى ﴾ ترج في ضمنه خوف شديد ، ولما فارق الكفار وأرضهم أبدله منهم أولاداً أنبياء ، والأرض المقدّسة فكان فيها ويتردد إلى مكة فولد له إسحاق وابنه يعقوب تسلية له وشدّاً لعضده ، وإسحاق أصغر من إسماعيل ، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة ثم حملت بإسحاق .

وقوله ﴿ من رحمتنا ﴾ قال الحسن : هي النبوة .

وقال الكلبي : المال والولد ، والأحسن أن يكون الخير الديني والدنيوي من العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة .

ولسان الصدق : الثناء الحسن الباقي عليهم آخر الأبد قاله ابن عباس ، وعبر باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية .

واللسان في كلام العرب الرسالة الرائعة كانت في خير أو شر .

قال الشاعر :

إني أتتني لسان لا أسر بها . . .

وقال آخر :

ندمت على لسان كان مني . . .

ولسان العرب لغتهم وكلامهم .

استجاب الله دعوته ﴿ واجعل لي لسان صدق ﴾ في الآخرين فصيره قدوة حتى عظمه أهل الأديان كلهم وادعوه .

(92/487)

وقال تعالى ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ و ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وأعطى ذلك ذريته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم ، كما أعلى ذكرهم وأثنى عليهم كما أعلى ذكره وأثنى عليه .

جثا : قعد على ركبتيه ، وهي قعدة الخائف الذليل يجثو ويجثي جثواً وجثاية .

حتم الأمر : أوجبه .

الندى والنادي : المجلس الذي يجتمع فيه لحادثة أو مشورة .

وقيل : مجلس أهل الندى وهو الكرم .

وقيل : المجلس فيه الجماعة .

قال حاتم :

فدعيت في أولى الندى . . .

ولم ينظر إليّ بأعين خزر

الري : مصدر رويت من الماء ، واسم مفعول أي مروي قاله أبو علي .

الزي : محاسن مجموعة من الزي وهو الجمع .

كلا : حرف ردع وزجر عند الخليل وسيبويه والأخفش والمبرد وعامة البصريين ، وذهب الكسائي ونصر بن يوسف وابن واصل وابن الأنباري إلى أنها بمعنى حقاً ، وذهب النضر بن شميل إلى أنها حرف تصديق بمعنى نعم ، وقد تستعمل مع القسم .

وذهب عبد الله بن محمد الباهلي إلى أن كلا رد لما قبلها فيجوز الوقف عليها وما بعدها استئناف ، وتكون أيضاً صلة للكلام بمنزلة إي والكلام على هذه المذاهب مذكور في النحو .

الضد : العون يقال : من أضدادكم أي أعوانكم ، وكان العون سمي ضداً لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه : الأز والهز والاستفزاز أخوات ، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ، ومنه أزيز المرجل وهو غليانه وحركته .

وفد يفد وفداً ووفوداً ووفادة : قدم على سبيل التكرمة ، الأدّ والإدّ : بفتح الهمزة وكسرها العجب .

وقيل : العظيم المنكر والأدّة الشدة ، وأدنيّ الأمر وآدني أثقلني وعظم علي أدّاً .

الهد : قال الجوهري هدّاً البناء هداً كسره .

وقال المبرد : هو سقوط بصوت شديد ، والهدة صوت وقع الحائط ونحوه يقال : هديهد بالكسر هديداً .

وقال الليث : الهد الهدم الشديد .

الركز : الصوت الخفي ، ومنه ركز الرمح غيب طرفه في الأرض ، والركاز المال المدفون .

وقيل : الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم .

قال الشاعر :

فتوجست ركز الأنيس فراعها . . .

عن ظهر غيب والأنيس سقامها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(94/487)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل : فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائحَ الواجبةَ القَبولِ ؟ فقيل : قال مُصرًّا على عِناده : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَن ءَالِهَتِى يا إبراهيم ﴾ أي أمُعرضٌ ومنصرفٌ أنت عنها بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب ، كأن الرغبةَ عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلاً عن ترغيب الغير عنها وقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ تهديدٌ وتحذير عما كان عليه من العِظة والتذكير أي والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهي عن عبادتهم لأرجُمنك

بالحجارة، وقيل: باللسان ﴿ واهجرنى ﴾ أي فاحذَرْني واتركني ﴿ مَلِيّاً ﴾ أي زماناً طويلاً أو ملياً بالذهاب مطيقاً به.

(95/487)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما سلف ﴿ سلام عَلَيْكَ ﴾ توديعٌ ومُتاركةٌ على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه بعدُ ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ أي أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوح به تعليلُ قوله تعالى: ﴿ واغفر لِابى ﴾ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ والاستغفارُ بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه وإنما المحظورُ استدعاءُ المغفرة له مع بقائه على الكفر فإنه مما لا مساغَ له عقلاً ولا نقلاً، وأما الاستغفارُ له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضيةُ العقل وإنما الذي يمنعه السمعُ، ألا يرى إلى أنه عليه السلام قال لعمه أبي طالب: لأزال أستغفر لك ما لم أُنْهَ عنه فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية، والاشتباه في أن هذا الوعدَ من إبراهيمَ عليه السلام، وكذا قولُه: لأستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله: ﴿ واغفر لِابى ﴾ الآية، إنما كان قبل انقطاعِ رجائِه عن إيمانه لعدم تبيّن أمرِه لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ كما مر في تفسير سورة التوبة ، واستثناؤه عما يؤتسى به في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ لا يقدح في جوازه لكن لا لأن ذلك كان قبل ورودِ النهي أو لموعِدة وعدها إياه كما قيل ، لِما أن النهيَ إنما ورد في شأن الاستغفارِ بعد تبيّن الأمرِ وقد كان استغفارُه عليه السلام قبل التبيُّن فلم يتناولْه النهيُ أصلاً ، وأن الوعدَ بالمحظور لا يرفع حظرَه بل لأن المرادَ بما يؤتسى به ما يجب الائتساءُ به حتماً لوجود الوعيدِ على الإعراض عنه بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر

(96/487)

وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ فاستثناؤه عن ذلك إنما يفيد عدمَ وجوبِ استدعاء الإيمان للكافر الموجوّ إيمانُه لا سيما وقد انقطع ذلك عند ورودِ الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحدٌ من العقلاء ، وأما عدمُ جوازه قبل تبيّن الأمرِ فلا دِلالةَ للاستثناء عليه قطعاً ، وتوجيهُ الاستثناءِ إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفارِ بقوله : ﴿ واغفر لِأبِى ﴾ الآية ، لأنها كانت هي الحاملةَ له عليه السلام عليه ، وتخصيصُ تلك العِدَة بالذكر دون ما وقع هاهنا لورودها على نهج التأكيدِ القسَميّ ، وأما جعلُ الاستغفارِ دائراً عليها وترتيبُ

التبرُّؤ على تبيّن الأمرِ فقد مر تحقيقُه في تفسير سورة التوبة . وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً ﴾ أي بليغاً في البرّ والإلطاف تعليلٌ لمضمون ما قبله .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ أي أتباعد عنك وعن قومك ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ بالمهاجَرة بديني حيث لم تؤثّرْ فيكم نصائحي .

﴿ وَأَدْعُو رَبِّى ﴾ أعبدُه وحده ، وقد جُوّز أن يراد به دعاؤُه المذكورُ في تفسير سورةِ الشعراء ، ولا أن يبعُد أُيرادَ به استدعاءُ الولد أيضاً بقوله : ﴿ رَبّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ حسبما يساعده السباق والسياق ﴿ عسى أَن لا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيّا ﴾ أي خائباً ضائعَ السعي ، وفيه تعريضٌ بشقائهم في عبادة آلهتِهم ، وفي تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضعِ ومراعاة حسنِ الأدب والتنبيهِ على حقيقة الحقّ من أن الإجابةَ والإثابةَ بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوبِ ، وأن العبرةَ بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصّةِ بالعليم الخبير ما لا يخفى .

(97/487)

﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ بدلَ مَنْ فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عَقيبَ المهاجرة فإن المشهورَ أن

الموهوبَ حينئذ إسماعيلُ عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ إثرَ دعائِه بقولِه : ﴿ رَبّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ ولعل ترتيبَ هِبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمالِ عِظَم النّعم التي أعطاها الله تعالى إياه بمقابلة مَن اعتزلهم من الأهل والأقرباء فإنهما شجرتا الأنبياء لهما أولادٌ وأحفادٌ أُولو شأنٍ خطير وذوو عددٍ كثير . هاذ وقد روي أنه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولاً حَرّان وتزوج بسارةَ وولدت له إسحاقَ ووُلد لإسحاقَ يعقوبُ والأولُ هو الأقربُ الأظهر ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كلَّ واحد منهما أو منهم وهو مفعولٌ أولٌ لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ لا بعضَهم دون بعض .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مّن رَّحْمَتِنَا ﴾ هي النبوةُ ، وذكرُها بعد ذكر جعلِهم نبياً للإيذان بأنها من باب الرحمةِ ، وقيل : هي المالُ والأولادُ وما بُسط لهم من سَعة الرزقِ ، وقيل : هو الكتابُ والأظهر أنها عامةٌ لكل خير ديني ودنيوي أُوتوه مما لم يُؤتَه أحدٌ من العالمين ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ يفتخر بهم الناسُ ويثنون عليهم استجابةً لدعوته بقوله : ﴿ اجعل لّى * لِسَانَ صِدْقٍ فِى الاخرين ﴾ والمرادُ باللسان ما يوجد به من الكلام ولسانُ العرب لغتُهم ، وإضافتُه إلى الصدق ووصفُه بالعلو للدلالة على أنهم أحِقّاءُ بما يثنون عليهم وأن محامِدَهم لا تخفى على تباعد الأعصارِ وتبدُّل الدول وتحوُّل المِلل والنِحَل . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل ؟ قال مصراً على عناده مقابلاً الاستعطاف واللطف بالفظاظة والغلظة : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ اختار الزمخشري كون ﴿ راغب ﴾ خبراً مقدماً ﴿ الحق وَأَنتَ ﴾ مبتدأ وفيه توجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب من التعجيب .

وذهب أبو البقاء وابن مالك وغيرهما إلى أن ﴿ أَنتَ ﴾ فاعل الصفة لتقدم الاستفهام وهو مغن عن الخبر وذلك لئلا يلزم الفصل بين ﴿ أَرَاغِبٌ ﴾ ومعموله وهو ﴿ عَنْ آلِهَتِي ﴾ بأجنبي هو المبتدأ وأجيب بأن ﴿ عَنْ ﴾ متعلق بمقدر بعد أنت يدل عليه أراغب .

وقال "صاحب الكشف" : المبتدأ ليس أجنبياً من كل وجه لا سيما والمفصول ظرف والمقدم في نية التأخير والبليغ يلتفت لفت المعنى بعد أن كان لما يرتكبه وجه مساغ في العربية وإن كان مرجوحاً .

ولعل سلوك هذا الأسلوب قريب من ترجيح الاستحسان لقوة أثره على القيا ، ولا خفاء أن زيادة الإنكار إنما نشأ من تقديم الخبر كأنه قبل أراغب أنت عنها لا طالب لها راغب فيها

منبهاً له على الخطأ في صدوفه ذلك ولو قيل : أترغب لم يكن من هذا الباب في شيء انتهى ، ورجح أبو حيان إعراب أبي البقاء ومن معه بعدم لزوم الفل فيه وبسلامة الكلام عليه عن خلاف الأصل في التقديم والتأخير ، وتوقف البدر الدماميني في جواز ابتدائية المؤخر في مثل هذا التركيب وإن خلا عن فصل أو محذور آخر كما في أطالع الشمس وذلك نحو أقائم زيد للزوم التباس المبتدا بالفاعل كما في ضرب زيد فإنه لا يجوز فيه ابتدائية زيد .

(99/487)

وأجاب الشمني بأن زيداً في الأول يحتمل أمرين كل منهما بخلاف الأصل وذلك إجمال لا لبس بخلافه في الثاني فتأمل ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أي والله لئن لم تنته عما أنت عليه من النهي عن عبادتها والدعوة إلى ما دعوتني إليه لأرجمنك بالحجارة على ما روى عن الحسن ، وقيل : باللسان والمراد لأشتمنك وروى ذلك عن ابن عباس .

وعن السدي .

والضحاك .

وابن جريج ، وقدر بعضهم متعلق النهي الرغبة عن الآلهة أي لئن لم تنته عن الرغبة عن آلهتي

لأرحمنك وليس بذاك ﴿ واهجرني ﴾ عطف على محذوف يدل عليه التهديد أي فاحذرني وارتكني وإليك ذهب الزمخشري .

ولعل الداعي لذلك وعدم اعتبار العطف على المذكور أنه لا يصح أو لا يحسن التخالف بين المتعاطفين إنشائية وإخبارية ، وجواب القسم غير الاستعطافي لا يكون إنشاء وليست الفاء في فاحذرني عاطفة حتى يعود المحذور .

ومن الناس من عطف على الجملة السابقة بناء على تجويز سيبويه العطف مع التخالف في الاخبار والإنشاء والتقدير أوقع في النفس ﴿ مَلِيّاً ﴾ أي دهراً طويلاً عن الحسن .

ومجاهد .

وجماعة ، وقال السدي : أبداً وكأنه المراد ، وأصله على ما قيل من الإملاء أي الإمداد وكذا الملاوة بتثليث الميم وهي بمعناه ومن ذلك الملوان الليل والنهار ونصبه على الظرفية كما في قول مهلهل :

فتصدعت صم الجبال لموته . . .

وبكت عليه المرملات ملياً

وأخرج ابن الأنباري عن ابن عباس أنه فسره بطولاً ولم يذكر الموصوف فقيل هو نصب على المصدرية أي هجراً ملياً ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن المعنى سالماً سوياً والمراد قادراً على الهجر مطيقاً له وهو حينئذ حال من فاعل ﴿ اهجرني ﴾ أي اهجرني ملياً

بالهجران والذهاب عني قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح ، وكأنه على هذا من تملي بكذا تمتع به ملاوة من الدهر .

(100/487)

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما سلف ﴿ سلام عَلَيْكَ ﴾ توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة فإن ترك الإساءة للمسيء إحسان أي لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ، وهو نظير ما في قوله تعالى : ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ في قوله ، وقيل : هو تحية مفارق ، وجوز قائل هذا تحية الكافر وأن يبدأ بالسلام المشروع وهو مذهب سفيان بن عيينة مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ لاَّ ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم ﴾ [الممتحنة : 8] الآية ، وقوله سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] الآية ، وما استدل به متأول وهو محجوج بما ثبت في "صحيح مسلم" : "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام" وقرىء ﴿ سَلاَماً ﴾ بالنصب على المصدرية والرفع على الابتداء ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ أي استدعيه سبحانه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك إلى الايمان كما يلوح به تعليل قوله : ﴿ واغفر

لِابِى ﴾ بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 86] كذا قيل فيكون استغفاره في قوة قوله : ربي اهده إلى الايمان وأخرجه من الضلال .

(101/487)

والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين تحتم أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه كما أنه لا رب في عدم جوازه عند تبين ذلك لما فيه من طلب المحال فإن ما أخبر الله تعالى بعدم وقوعه محال وقوعه ولهذا تبين له عليه السلام بالوحي على أحد القولين المذكورين في سورة التوبة أنه لا يؤمن تركه أشد الترك فالوعد والإنجاز كانا قبل التبين وبذلك فارق استغفاره عليه السلام لأبيه استغفار المؤمنين لأولي قرابتهم من المشركين لأنه كان بعد التبين ولذا لم يؤذنوا بالتأسي به عليه السلام في الاستغفار ، قال العلامة الطيبي : إنه تعالى بين للمؤمنين إن أولئك أعداء الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ لا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ [الممتحنة : 1] وأن لا مجال لإظهار المودة بوجه ما ثم بالغ جل شأنه في تفصيل عداوتهم بقوله عز وجل : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسوء وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة : 2] ثم حرضهم تعالى على قطيعة الأرحام بقوله سبحانه ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أرحامكم وَلاَ أولادكم يَوْمَ القيامة ﴾ [الممتحنة : 3

] ثم سلاهم عز وجل بالتأسي في القطيعة بإبراهيم عليه السلام وقومه بقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بَرَاء مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى شأنه : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لاَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] فاستثنى من المذكور ما لم يحتمله المقام كما احتمله ذلك المقام للنص القاطع يعني لكم التأسي بإبراهيم عليه السلام مع هؤلاء الكفار في القطيعة والهجران لا غير فلا تجاملوهم ولا تبدوا لهم الرأفة والرحمة كما أبدى إبراهيم عليه السلام لأبيه

(102/487)

في قوله سأستغفر لك لأنه لم يتبين له حينئذ أنه لا يؤمن كما بدا لكم كفر هؤلاء وعداوتهم انتهى .

واعترض بأن ما ذكر ظاهر في أن الاستغفار الذي وقع من المؤمنين لأولى قرابتهم فنهوا عنه لأنه كان بعد التبين كان كاستغفار إبراهيم عليه السلام بمعنى طلب التوفيق للتوبة والهداية للايمان ، والذي اعتمده كثير من العلماء أن قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] الآية نزل في استغفاره صلى الله عليه وسلم لعمه

أبي طالب بعد موته وذلك الاستغفار مما لا يكون بمعنى طلب الهداية أصلاً وكيف تعقل الهداية بعد الموت بل لو فرض استغفاره عليه الصلاة والسلام له كان قبل الموت لا يتصور أيضاً أن يكون بهذا المعنى لأن الآية تقتضي أنه كان بعد تبين أنه من أصحاب الجحيم ، وإذا فسر بتحتم الموت على الكفر كان ذلك دعاء بالهداية إلى الايمان مع العلم بتحتم الموت على الكفر ومحاليته إذا كانت معلومة لنا بما مر فهي أظهر شيء عنده صلى الله عليه وسلم بل وعند المقتبسين من مشكاته عليه الصلاة والسلام ، وهو اعتراض قوي بحسب الظاهر وعليه يجب أن يكون استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه بذلك المعنى في حياته لعدم تصور ذلك بعد الموت وهو ظاهر .

(103/487)

وقد قال الزمخشري في جواب السؤال بأنه كيف جاز له عليه السلام أن يستغفر للكافر وأن يعده ذلك ؟ قالوا : أراد اشتراط التوبة عن الكفر وقالوا إنما استغفر له بقوله : ﴿ واغفر لِابِى ﴾ [الشعراء : 86] لأنه وعده أن يؤمن ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة : 114] ثم قال : ولقائل أن يقول : الذي منع من الاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع ويدل على صحته أنه استثنى

قول إبراهيم عليه السلام ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ ﴾ لك في آية ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] الخ عما وجبت فيه الاسوة ولو كان بشرط الايمان والتوبة لما صح الاستثناء ، وأما كون الوعد من أبيه فيخالف الظاهر الذي يشهد له قراءة الحسن وغيره ﴿ وَعَدَهَا أَبَاهُ ﴾ [التوبة : 114] بالباء الموحدة ، قال في "الكشف" :

واعترض الإمام حديث الاستثناء بأن الآية دلت على المنع من التأسي لا أن ذلك كان معصية فجاز أن يكون من خواصه ككثير من المباحات التي اختص بها النبي صلى الله عليه وسلم وليس بشيء لأن الزمخشري لم يذهب إلى أن ما ارتكبه إبراهيم عليه السلام كان منكراً بل إنما هو منكر علينا لورود السمع .

واعترض "صاحب التقريب" بأن نفي اللازم ممنوع فإن الاستثناء عما وجبت فيه الأسوة دل على أنه غير واجب لا على أنه غير جائز فكان ينبغي عما جازت في الأسوة بدل عما وجبت الخ والآية لا دلالة فيها على الوجوب .

والجواب أن جعله مستنكراً ومستثنى يدل على أنه منكر لا الاستثناء عما وجبت فيه فقط وإنما أتى الاستنكار لأنه مستثنى عن الأسوة الحسنة فلو اؤتسى به فيه لكان أسوة قبيحة ، وأما الدلالة على الوجوب فبينة من قوله تعالى آخراً : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر ﴾ [الممتحنة : 6] كما تقرر في "الأصول" .

والحاصل أن فعل إبراهيم عليه السلام يدل على أنه ليس منكراً في نفسه وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ ﴾ [التوبة : 113] الخ يدل على أنه الآن منكر سمعاً وأنه كان مستنكراً في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً بعد ما كان غير منكر ولذا تبرأ منه وهو ظاهر إلا أن الزمخشري جعل مدرك الجواز قبل النهي العقل وهي مسألة خلافية وكم قائل أنه السمع لدخوله تحت بر الوالدين والشفقة على أمة الدعوة بل قيل : إن الأول مذهب المعتزلة وهذا مذهب أهل السنة انتهى مع تغيير يسير .

واعترض القول بأنه استنكر في زمن إبراهيم عليه السلام بعد ما كان غير منكر بأنه لو كان كذلك لم يفعله نبينا صلى الله عليه وسلم وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام فعله لعمه أبي طالب .

وأجيب بجواز أنه لم يبلغه إذ فعل عليه الصلاة والسلام ، والتحقيق في هذه المسألة أن الاستغفار للكافر الحي المجهول العاقبة بمعنى طلب هدايته للايمان مما لا محذور فيه عقلاً ونقلاً وطلب ذلك للكافر المعلوم أنه قد طبع على قلبه وأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن وعلم أن لا تعليق في أمره أصلاً مما لا مساغ له عقلاً ونقلاً ، ومثله طلب المغفرة للكافر مع بقائه على الكفر على ما ذكره بعض المحققين ، وكان ذلك على ما قيل لما فيه من إلغاء أمر الكفر الذي لا شيء يعدله من المعاصي وصيرورة التكليف بالايمان الذي لا شيء يعدله من الطاعات

عبثاً مع ما في ذلك مما لا يليق بعظمة الله عز وجل ، ويكاد يلحق بذلك فيما ذكر طلب المغفرة لسائر العصاة مع البقاء على المعصية إلا أن يفرق بين الكفر وسائر المعاصي ، وأما طلب المغفرة للكافر بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وإنما يمنعه السمع وفرق بينه وبين طلبها للكافر مع بقائه على الكفر بعدم جريان التعليل السابق فيه ويحتاج ذلك إلى تأمل .

(105/487)

واستدل على جواز ذلك عقلاً بقوله صلى الله عليه وسلم لعمه : " لا أزال أستغفر لك ما لم أنه " فنزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] الآية ، وحمل قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم ﴾ [التوبة : 113] على معنى من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا كفاراً والتزم القول بنزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] بعد ذلك وإلا فلا يتسنى استغفاره صلى الله عليه وسلم لعمه بعد العلم بموته كافراً وتقدم السماع بأن الله تعالى لا يغفر الكفر ، وقيل لا حاجة إلى التزام ذلك لجواز أن يكون عليه الصلاة والسلام ولوفور شفقته وشدة رأفته قد حمل الآية على أنه تعالى لا يغفر الشرك إذا لم يشفع فيه أو

الشرك الذي تواطأ فيه القلب وسائر الجوارح وعلم من عمه أنه لم يكن شركه كذلك فطلب المغفرة حتى نهى صلى الله عليه وسلم ، وقيل غير ذلك فتأمل ، فالمقام محتاج بعد إلى كلام والله تعالى الموفق .

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً ﴾ بليغاً في البر والإكرام يقال حفي به إذا اعتنى بإكرامه .

والجملة تعليل لمضمون ما قبلها ، وتقديم الظرف لرعاية الفواصل مع الاهتمام .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ الظاهر أنه عطف على ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ ﴾ [مريم : 47] والمراد أتباعد عنك وعن قومك ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ بالمهاجرة بديني حيث لم تؤثر فيكم نصائحي .

يروى أنه عليه السلام هاجر إلى الشام ، وقيل إلى حران وهو قريب من ذلك وكانوا بأرض كوثا .

(106/487)

وفي هجرته هذه تزوج سارة ولقي الجبار الذي أخدم سارة هاجر ، وجوز حمل الاعتزال على الاعتزال بالقلب والاعتقاد وهو خلاف الظاهر المأثور ﴿ وادعوا ربّى ﴾ أي أعبده سبحانه وحده كما يفهم من اجتناب غيره تعالى من المعبودات وللتغاير بين العبادتين غوير

بين العبارتين ، وذكر بعضهم أنه عبر بالعبادة أولاً لأن ذلك أوفق بقول أبيه ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ اِلَهَتِى ﴾ [مريم : 46] مع قوله فيما سبق : ﴿ يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ﴾ [مريم : 42] الخ ، وعبر ثانياً بالدعاء لأنه أظهر في الاقبال المقابل للاعتزال .

وجوز أن يراد بذلك الدعاء مطلقاً أو ما حكاه سبحانه في سورة الشعراء وهو قوله : ﴿ رَبّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ [الشعراء : 83] وقيل لا يبعد أن يراد استدعاء الولد أيضاً بقوله : ﴿ رَبّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ [الصافات : 100] حسبما يساعده السياق والسباق ﴿ عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبّى شَقِيّا ﴾ خائباً ضائع السعي .

وفيه تعريض بشقاوتهم في عبادة آلهتهم .

وفي تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الإثابة والإجابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى .

﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾

بالمهاجرة إلى ما تقدم ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ بدل من فارقهم من أبيه وقومه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة .

والمشهور أن أول ما وهب له عليه السلام من الأولاد إسماعيل عليه السلام لقوله تعالى : ﴿

فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 101] بقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ [الصافات : 100] وكان من هاجر فغارت سارة فحملت بإسحق عليه السلام فلما كبر ولد له يعقوب عليه السلام .

(107/487)

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التي أعطاها الله تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء فإنهما شجرتا الأنبياء ولهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير مع أنه سبحانه أراد أن يذكر إسماعيل عليه السلام بفضله على الانفراد .

وروى أنه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولاً حران وتزوج سارة وولدت له إسحاق وولد لاسحق يعقوب .

والأول هو الأقرب الأظهر ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كل واحد من إسحاق ويعقوب أو منهما ومن إبراهيم عليه السلام وهو مفعول أول لقوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة إلى من عداهم بل بالنسبة إلى بعضهم أي كل واحد منهم ﴿ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ لا بعضهم دون بعض ، ولا يظهر في هذا الترتيب على الوجه الثاني في ﴿ كَلاًّ ﴾ كون

إبراهيم عليه السلام نبياً قبل الاعتزال .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾

قال الحسن : النبوة .

ولعل ذكر ذلك بعد ذكر جعلهم أنبياء للإيذان بأن النبوة من باب الحرمة التي يختص بها من يشاء .

وقال الكلبي : هي المالي والولد .

وقيل : هو الكتاب والأظهر أنه عامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه مما لم يؤت أحد من العالمين ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ تفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته عليه السلام بقوله : ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الاخرين ﴾ [الشعراء : 84] وزيادة على ذلك .

والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام فهو مجاز بعلاقة السببية كاليد في العطية ولسان العرب لغتهم .

ويطلق على الرسالة الرائعة كما في قول أعشى باهلة :

إني أتتني لسان لا أسر بها . . .

ومنه قول الآخر :

ندمت على لسان كان مني . . .

(108/487)

وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وإن محامدهم لا تخفى كأنها نار على علم على تباعد الأعصار وتبدل الدول وتغير الملل والنحل ، وخص بعضهم لسان الصدق بما يتلى في التشهد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم والعموم أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(109/487)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ ﴾ أي : أبوه مصرّاً على عناده لفرط غلوّه في الضلال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي : أمعرض ومنصرف أنت عنها . وإنما قدم الخبر على المبتدأ ، لأنه كان أهم عنده . وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة ، على ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلاً عن ترغيب الغير عنها . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وقوله : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ تهديد متناه . أي : لئن لم تنته عن القول فيها ، وعن نصحك ، لأرجمنك بالحجارة : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ أي : تباعد عني زماناً طويلاً .

﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ أي : مبالغاً في اللطف بي .

وفي جوابه بقوله عليه السلام : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ مقابلة السيئة بالحسنة . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ [الفرقان : 63] ، أي : لا أصيبك بمكروه بعدُ . ولكن سأدعو ربي أن يغفر لك . كما قال : ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي ﴾ [الشعراء : 86] ، قال الزمخشري : وفي الآية دليل على جواز متاركة المنصوح ، والحال هذه . ويجوز أن يكون دعا له بالسلامة ، استمالة له . ألا ترى أنه وعده بالاستغفار ؟

وفي " الإكليل " : استدل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام .

(110/487)

وقال ابن كثير : قد استغفر إبراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام . وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق في قوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : 41] . وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام . وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل

في ذلك . حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] ، يعني إلا في هذا القول ، فلا تتأسّوا به . ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 113 - 114] ، وقوله :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ أي : أتباعد عنك وعن قومك بالهجرة : ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من أصنامكم .

(111/487)

قال الزمخشري : المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائطها . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : < الدعاء هو العبادة > . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [49] ، ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أي : أعبده وحده : ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أي : خائباً ضائع السعي . وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء

آلهتهم ، مع التواضع لله بكلمة : ﴿ عَسَى ﴾ ، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى .

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وذلك بالمهاجرة إلى الشام : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ أي : جعلنا له بنين وحفدة ، أنبياء قرّت عينه بهم في حياته بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة الفجرة . وقوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾

أي : ما عُرف فيهم من النبوّة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أي : ثناءً حسناً . عبّر باللسان عما يوجد باللسان . كما عبّر باليد عما يطلق باليد وهي العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثني عليهم ، وأن مجاهدتهم لا تخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 105.107 ﴾

(112/487)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

قوله : ﴿ واذكر ﴾ معطوف على " وأنذر " ، والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهيم ﴾ [الشعراء : 69] ، وجملة ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً ﴾ تعليل لما تقدّم من الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يذكره ، وهي معترضة ما بين البدل والمبدل منه ، والصدّيق : كثير الصدق ، وانتصاب ﴿ نبياً ﴾ على أنه خبر آخر لكان ، أي اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين ، و ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم ، وتعليق الذكر الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة ، وأبو إبراهيم هو آزر على ما تقدّم تقريره ، التاء في ﴿ يا أبت ﴾ عوض عن الياء ، ولهذا لا يجتمعان ، والاستفهام في ﴿ لِمَ تَعْبُدُ ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿ مَا لاَ يَسْمَعُ ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿ وَلاَ يَبْصِرُ ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التي تفعلها مريداً بها الثواب ، يجوز أن يحمل نفي السمع والإبصار على ما هو أعمّ من ذلك ، أي لا يسمع شيئاً من المسموعات ، ولا يبصر شيئاً من المبصرات ﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ من الأشياء ، فلا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً ، وهي الأصنام التي كان يعبدها آزر .

أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح ، وصدّر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه ، وامتثالاً لأمر ربه .

ثم كرّر دعوته إلى الحق فقال : ﴿ يا أبت إِنّى قَدْ جَاءِنى مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه ، وأنه قد تجدّد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ، ويقتدر به على إرشاد الضالّ ، ولهذا أمره باتباعه فقال : ﴿ فاتبعني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ مستوياً موصلاً إلى المطلوب منجياً من المكروه .

ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال : ﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ أي لا تطعه ، فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ حين ترك ما أمر به من السجود لآدم ، ومن أطاع من هو عاصٍ لله سبحانه فهو عاصٍ لله ، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم وتحلّ به النقم .

قال الكسائي : العصيّ والعاصي بمعنى واحد .

ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال : ﴿ يا أبت إِنّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مّنَ الرحمن ﴾ قال الفراء : معنى أخاف هنا : أعلم .

وقال الأكثرون : إن الخوف هنا محمول على ظاهره ، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه ، ومعنى الخوف على الغير : هو أن يظنّ وصول الضرر إلى ذلك الغير ﴿ فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ أي إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه في النار واللعنة ، فتكون بهذا السبب موالياً ، أو تكون بسبب موالاته في العذاب

معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه :

﴿ الاخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الزخرف : 67] .

وقيل : الوليّ بمعنى التالي .

(114/487)

وقيل : الوليّ بمعنى القريب ، أي تكون للشيطان قريباً منه في النار ، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة ، فقَال ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، والمعنى : أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف إلى غيره ؟ ثم توعده فقال : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي بالحجارة .

وقيل : باللسان ، فيكون معناه : لأشتمنك .

وقيل : معناه لأضربنك .

وقيل : لأظهرنّ أمرك ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ أي زماناً طويلاً .

قال الكسائي : يقال هجرته ملياً وملوة وملاوة ، بمعنى : الملاوة من الزمان ، وهو الطويل ، ومنه قول مهلهل :

فتصدّعت صمّ الجبال لموته . . . وبكت عليه المرملات ملياً

وقيل : معناه اعتزلني سالم العرض لا تصيبك مني معرّة ، واختار هذا ابن جرير ، فملياً على هذا منتصب على الحال من إبراهيم وعلى القول الأوّل منتصب على الظرفية ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿ قَالَ سلام عَلَيْكَ ﴾ أي تحية توديع ومتاركة كقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] .

وقيل : معناه : أمنة مني لك ، قاله ابن جرير .

وإنما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله ، والأوّل أولى ، وبه قال الجمهور .

وقيل : معناه الدعاء له بالسلامة ، استمالة له ورفقاً به ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفاً له وطمعاً في لينه وذهاب قسوته :

والشيخ لا يترك أخلاقه . . . حتى يوارى في ثرى رمسه

وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر ، وتحق عليه الكلمة ، ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ .

(115/487)

بعد قوله : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة : 114] وجملة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ تعليل لما قبلها ؛ والمعنى : سأطلب لك المغفرة من الله ، فإنه كان بي كثير البرّ واللطف .

يقال : حفي به وتحفّى إذا برّه .

قال الكسائي : يقال حفي بي حفاوة وحفوة .

وقال الفراء : إنه كان بي حفياً ، أي عالماً لطيفاً يجيبني إذا دعوته .

ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة فقال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي أهاجر بديني عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحي ولا نجعت فيكم دعوتي ﴿ وادعوا ربّي ﴾ وحده ﴿ عسى أَن لا أَكُونَ بِدُعَاء ربّى شَقِيّا ﴾ أي خائباً .

وقيل : عاصياً .

قيل : أراد بهذا الدعاء : هو أن يهب الله له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله ويطمأن إليهم عند وحشته .

وقيل : أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدري هل يستجاب له فيه أم لا ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ أي جعلنا هؤلاء الموهوبين له ، أهلاً وولداً بدل الأهل الذين فارقهم ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً

﴿ أي كل واحد منهما ، وانتصاب ﴿ كلا ﴾ على أنه المفعول الأوّل لجعلنا قدّم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم أي كل واحد منهم جعلنا نبياً ، لا بعضهم دون بعض ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوّة هي من باب الرحمة .

وقيل : المراد بالرحمة هنا : المال ، وقيل : الأولاد ، وقيل : الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ لسان الصدق : الثناء الحسن ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية .

(116/487)

وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد .

وقد أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قال : لأشتمنك ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ قال : حيناً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ قال : اجتنبني

سوياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : اجتنبني سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وعكرمة ﴿ مَلِيّاً ﴾ دهراً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : سالماً .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ قال : لطيفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ قال : يقول : وهبنا له إسحاق ويعقوب ابن ابنه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ قال : الثناء الحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(117/487)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾

بين جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين : إن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين ، وأيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر . ومن عذا الله تعالى وولاية الشيطان – خاطبه هذا الخطاب العنيف ، وسماه باسمه ولم يقل له يا بني في مقابلة قوله له يا أبت . وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان اي معرض عنها لا يريدها . لأنه لا يعيد غلا الله وحده جل وعلا . وهدده جل وعلا . وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمنه (قيل بالحجارة وقيل باللسان شتماً) والأول أظهر . ثم أمره بهجره مليا أي زماناً طويلاً ، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضاً جوابه العنيف بغاية الرفق واللين في قوله : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ الآية . وخاطب إبراهيم لأبيه الجاهل بقوله ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ ﴾ قد بين جل وعلا أنه خطاب عباده المؤمنين للجهال إذا خاطبوهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] وما ذكره تعالى هنا من ان إبرايهم لما أقنع أباه بالحجة القاطعة ، قابله ابوه بالعنف والشدة – بين في مواضع أخر أنه هو عادة الكفار المتعصبين لأصنامهم ، كلما أفحموا بالحجة القاطعة لجؤوا إلى استعمال القوة ، كقوله تعالى عن إبراهيم لما قال له الكفار عن أصنامهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 65] قال ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء

: 67] فلما أفحمهم بهه الحجة لجؤوا إلى القوة ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ

(118/487)

فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 68] . ونظيره قوله تعلى عن قوم إبراهيم : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار ﴾ [العنكبوت : 24] الآية ، وقوله عن قوم لوط لما أفحمهم بالحجة : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : 56] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ ﴾ يعني لا ينالك مني أذى ولا مكروه ، بل ستسلم مني فلا أوذيك .

وقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ وعد من إبراهيم لأبيه باستغفاره له ، وقد وفى بذلك الوعد ، كما قال تعالى عنه ﴿ واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضآلين ﴾ [الشعراء : 86] ، وكما قال تعالى عنه : ﴿ رَبَّنَا اغفر لي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ [إبراهيم : 41] .

ولكن الله بين له أنه عدو لله تبرا منه ، ولم يستغفر له بعد ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ

لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

(119/487)

[التوبة : 114] والموعدة المذكورة هي قوله هنا ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ الآية . ولما اقتدى المؤمنون بإبراهيم فاستغفروا لموتاهم المشركين ، واستغفر النَّبي صلى الله عليه وسلم لعمه أب طالب – انزل الله فيهم ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : 113] . ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية . وبين في سورة « الممتحنة » أن الاستغفار للمشركين مستثنى من الأسوة بإبراهيم ، والأسوة الإقتداء ، وذلك في قوله تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِّنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا ﴾ [الممتحنة : 4] – إلى قوله – ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] الآية ، أي فلا اسوة لكم في إبراهيم في ذلك . ولما ندم المسلمون على استغفارهم للمشركين حين قال فيهم : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] الآية – بيّض الله تعالى أنهم معذورون في

ذلك . لأنه لم يبين لهم منع ذلك قبل فعله ، وذلك في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة : 115] .

(120/487)

وقوله في هذه الآية : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي ﴾ يجوز فيه أن يكون « راغب » خبراً مقدماً ، و « أنت » مبتدأ مؤخراً ، وأن يكون « اراغب » مبتدأ و « أنت » فاعل سد مسد الخبر . ويترجح هذا الإعراب الأخير على الأول من وجهين : الأول – أنه لا يكون فيه تقديم ولا تأخير . والأصل في الخبر التاخير كما هو معلوم . الوجه الثاني – هو ألا يكون فصل بين العامل الذي هو « أراغب » وبين معموله الذي هو « عن آلهتي » بما ليس بمعمول للعامل . لأن الخبر اليس هو عاملاً في المبتدأ ، بخلاف كون « أنت » فاعلاً . فإنه معمول « اراغب » فلم يبن « أراغب » وبين « عن آلهتي » بأجنبي ، وإنما فصل بينهما بمعمول المبتدأ الذي هو فاعله الساد مسده خبره . والرغبة عن الشيء : تركه عمداً للزهد فيه ، وعدم الحاجة إليه ، وقد قدمنا في سورة « النساء » الفرق بين قولهم : رغب عنه ، وقولهم : رغب فيه في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ [النساء : 127] الآية . والتحقيق في قوله « ملياً » أن المراد به الزمن الطويل ومنه قول مهلهل :

فتصدعت صم الجبال لموته . . . وبكت عليه المرملات مليا

وأصله واوي اللام . لأنه من الملاوة وهي مدة العيش . ومن ذلك قيل ليل والنهار . الملوان :

ومنه قول ابن مقبل :

إلا يا دار الحي بالسبعان . . . أمل عليها بالبلي الملوان

وقوله الآخر :

نهار وليل دائم ملواهما . . . على كل حال المرء يختلفان

وقيل الملوان في بيت ابن مقبل : طرفا النهار . وقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ أي لطيفاً بي .

(121/487)

كثير الإحسان إلي . وجمله ﴿ واهجرني ﴾ [مريم : 46] عطف على جملة ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم : 46] وذلك دليل على جواز عطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية ، ونظير ذلك من كلام العرب قول امرىء القيس :

وإن شفائس عبرة إن سفحتها . . . وهل عند رسم دارس من معول

فجملة « وإن شفائي » خبرية ، وجلمة « وهل عند رسم » الخ إنشائية معطوفة عليها .

وقول الآخر أيضاً :

تناغى غزالا عتد باب ابن عامر . . . وكحل ماقيل الحسان بإثمد

وهذا هو الظاهر كما قاله أبو حيان عن سيبويه . وقال الزمخشري في الكشاف : فإن قلت : علام عطف ﴿ واهجرني ﴾ قلت على معطوف عليه محذوف يدل عليه « لأرجمنك » أي فاحذرني واهجرني . لأن ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ تهديد وتقريع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(122/487)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾

فصلت جملة :

لوقوعها في المحاورة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

والاستفهام للإنكار إنكاراً لتجافي إبراهيم عن عبادة أصنامهم .

وإضافة الآلهة إلى ضمير نفسه إضافة ولاية وانتساب إلى المضاف لقصد تشريف المضاف إليه .

وقد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعُنجهية بعكسِ ما في كلام إبراهيم من اللّين والرقة ، فدلّ ذلك على أنه كان قاسيَ القلب ، بعيد الفهم ، شديد التصلّب في الكفر .

وجملة أراغب أنت جملة اسمية مركبة من مبتدأ وفاعل سدّ مسدّ الخبر على اصطلاح النحاة طرداً لقواعد التركيب اللفظي ، ولكنهم لما اعتبروا الاسم الواقع ثانياً بعد الوصف فاعلاً سادّاً مسدّ الخبر فقد أثبتوا لذلك الاسم حكم المسند إليه وصار للوصف المبتدأ حكم المُسند .

فمن أجل ذلك كان المصير إلى مثل هذا النظم في نظر البلغاء هو مقتضى كون المقام يتطلّب جملة اسمية للدلالة على ثباتٍ المسند إليه ، ويتطلّب الاهتمام بالوصف دون الاسم لغرض يوجب الاهتمام به ، فيلتجىء البليغ إلى الإتيان بالوصف أولاً والإتيان بالاسم ثانياً .

ولمّا كان الوصف له عملُ فعله تعين على النحاة اعتبار الوصف مبتدأ لأن للمبتدأ عراقةً في الأسماء ، واعتباره مع ذلك متطلّباً فاعلاً ، وجعلوا فاعله سادّاً مسدّ الخبر ، فصار للتركيب شبهان .

والتحقيقُ أنه في قوّة خبر مقدم ومبتدأ مؤخر .

ولهذا نظر الزمخشري في الكشاف إلى هذا المقصد فقال : قُدم الخبر على المبتدأ في قوله : أراغب أنت عن آلهتي لأنه كان أهمّ عنده وهو به أعنى أ هـ .

ولله دره ، وإن ضاع بين أكثر الناظرين دُرُّه .

فدل النظم في هذه الآية على أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكن الرغبة عن آلهتهم من نفسه ، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنها موضع عَجب .

(123/487)

والنداء في قوله يا إبراهيم تكملة لجملة الإنكار والتعجب ، لأنّ المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله ، كأنه في غيبة عن إدراك فعله ، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه ، فينبغي الوقف على قوله يا إبراهيم .

وجملة لئن لم تنته لأرجمنك مستأنفة .

واللام موطئة للقسم تأكيداً لكونه راجمهُ إن لم ينته عن كفره بآلهتهم .

والرجم : الرمي بالحجارة ، وهو كناية مشهورة في معنى القتل بذلك الرمي .

وإسنادُ أبي إبراهيم ذلك إلى نفسه يحتمل الحقيقة ؛ إما لأنه كان من عادتهم أن الوالد يتحكم في عقوبة ابنه ، وإما لأنه كان حاكماً في قومه .

ويحتمل المجاز العقلي إذ لعله كان كبيراً في دينهم فيرجم قومُه إبراهيمَ استناداً لحكمه بمروقه عن دينهم .

وجملة واهجرني مليا عطف على جملة لئن لم تنته لأرجمنك ؛ وذلك أنه هدّده بعقوبة آجلة

إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم ، وبعقوبة عاجلة وهي طردهُ من معاشرته وقطع مكالمته .

والهجر : قطع المكالمة وقطع المعاشرة ، وإنما أمر أبو إبراهيم ابنَه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره ليدلّ على أن هذا الهجران في معنى الطرد والخَلْع إشعاراً بتحقيره .

ومليا : طويلاً ، وهو فعيل ، ولا يعرف له فعل مجرد ولا مصدر .

فمليّ مشتق من مصدر مُمات ، وهو فعيل بمعنى فاعل لأنه يقال : أملى له ، إذا أطال له المدة ، فيأتون بهمزة التعدية ، فمليا صفة لمصدر محذوف منصوب على المفعولية المطلقة ، أي هجراً مَليّاً ، ومنه الملاوة من الدهر للمدة المديدة من الزمان ، وهذه المادة تدلّ على كثرة الشيء .

ويجوز أن ينتصب على الصفة لظرف محذوف ، أي زماناً طويلاً ، بناء على أن المَلا مقصوراً غالب في الزمان فذكره يغني عن ذكر موصوفه كقوله تعالى : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ [القمر : 13] ، أي سفينة ذات ألواح .

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾

(124/487)

سلام عليك سلام توديع ومتاركة .

وبادرهُ به قبل الكلام الذي أعقبه به إشارة إلى أنه لا يسوءه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومرضاته .

ومن حلم إبراهيم أن كانت متكارته أباه مثوبة بالإحسان في معاملته في آخر لحظة .

والسلام : السلامة .

و(على) للاستعلاء المجازي وهو التمكن .

وهذه كلمة تحية وإكرام ، وتقدمت آنفاً عند قوله ﴿ وسلام عليه يوم ولد ﴾ [مريم : 15] .

وأظهر حرصه على هداه فقال ﴿ سأستغفر لك ربي ، أي أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر ، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي ، إذ لم يكن إبراهيم تلقى نهياً من الله عن الاستغفار للمشرك .

وهذا ظاهر ما في قوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : 114] .

واستغفاره له هو المحكي في قوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ [الشعراء : 86] .

وجملة ﴿ سأستغفر لك ربي مستأنفة ، وعلامة الاستقبال والفعل المضارع مؤذنان بأنه

يكرر الاستغفار في المستقبل .

وجملة إنه كان بي حفيا تعليل لما يتضمنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة استجابة لدعوة إبراهيم بأن يوفق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذِ الإشراك .

والحَفيّ : الشديد البِر والإلطاف .

وتقدم في سورة الأعراف (187) عند قوله : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾

وجملة وأعتزلكم عطف على جملة سأستغفر لك ربي ، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إياكم الآن ، لأن المضارع غالب في الحال .

أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى ، وهو المحكي بقوله تعالى : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : 99] ، وقد خرج من بَلد الكلدان عازماً على الالتحاق بالشام حسب أمر الله تعالى .

رأى إبراهيم أن هجرانه أباه غير مغن ، لأن بقية القوم هم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعاً ، ولذلك قال له ﴿ وأعتزلكم .

(125/487)

وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى أبي إبراهيم وقومه تنزيلاً لهم منزلة الحضور في ذلك المجلس ، لأن أباه واحد منهم وأمرهم سواء ، أو كان هذا المقال جرى بمحضر جماعة منهم .

وعُطف على ضمير القوم أصنامُهم للإشارة إلى عداوته لتلك الأصنام إعلاناً بتغيير المنكر .

وعبر عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله ما تدعون من دون الله للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّة اعتزاله إياهم وأصنامَهم : بأن تلك الأصنام تعبد من دون الله وأن القوم يعبدونها ، فذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم .

والدعاء : العبادة ، لأنها تستلزم دعاء المعبود .

وزاد على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعو الله احتراساً من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم ، ولذا بيّن لهم أنه بعكس ذلك يدعو الله الذي لا يعبدونه .

وعبّر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربّه وحده من بينهم ، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي ، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك .

وجملة وعسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً في موضع الحال من ضمير وأدعوا أي راجياً أن لا

أكون بدعاء ربي شقياً .

وتقدم معناه عند قوله ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ في هذه السورة (4) .

وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهرانيهم تعريض بأنهم أشقياء بدعاء آلهتهم .

(126/487)

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

طُوي ذكر اعتزاله إياهم بعد أن ذكر عزمه عليه إيجازاً في الكلام للعلم بأن مثله لا يعزم أمراً إلاّ نفذ عزمه ، واكتفاءً بذكر ما ترتّب عليه من جعل عزمه حدثاً واقعاً قد حصل جزاؤه عليه من ربّه ، فإنه لما اعتزل أباه وقومه واستوحش بذلك الفراق وهبه الله ذرية يأنس بهم إذْ وهبه إسحاق ابنه ، ويعقوب ابن ابنه ، وجعلهما نبيئين .

وحسبك بهذه مكرمة له عند ربّه .

وليس مجازاة الله إبراهيم مقصورة على أن وهبه إسحاق ويعقوب ، إذ ليس في الكلام ما يقتضي الانحصار ، فإنه قد وهبه إسماعيل أيضاً ، وظهرت موهبته إياه قبل ظهور موهبة إسحاق ، وكل ذلك بعد أن اعتزل قومَه .

وإنما اقتُصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل فلم يقل : وهبنا له إسماعيل

وإسحاق ويعقوب ، لأن إبراهيم لما اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قريبته ، فهي قد اعتزلت قومها أيضاً إرضاء لربها ولزوجها ، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه ، وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب ؛ ولأن هذه الموهبة لما كانت كِفاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهِبةَ من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب .

أما إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيداً عن إبراهيم في مكة ليكون جارَ بيت الله .

وإنه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما .

وقد خصّ إسماعيل بالذكر استقلالاً عقب ذلك ، ومِثْلُه قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ [ص : 45] ثم قال : ﴿ واذكر إسماعيل ﴾ في سورة ص (48) ، وقد قال في آية الصافات (99 101) ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم ﴾ إلى أن قال : وبشرناه بإسحاق نبيا م الصالحين فذكر هنالك إسماعيل عقب قوله : إني ذاهب إلى ربي سيهدين إذ هو المراد بالغلام الحليم .

والمراد بالهبة هنا : تقدير ما في الأزل عند الله لأن ازدياد إسحاق ويعقوب كان بعد خروج إبراهيم بمدة بعد أن سَكَن أرض كنعان وبعد أن اجتاز بمصر ورجع منها .

وكذلك ازدياد إسماعيل كان بعد خروجه بمدة وبعد أن اجتاز بمصر كما ورد في الحديث وفي التوراة ، أو أُريد حكاية هبة إسحاق ويعقوب فيما مضى بالنسبة إلى زمن نزول القرآن تنبيهاً بأن ذلك جزاؤه على إخلاصه .

والنكتة في ذكر يعقوب أن إبراهيم رآه حفيداً وسُرّ به ، فقد ولد يعقوب قبل موت إبراهيم بخمس عشرة سنة ، وأن من يعقوب نشأت أمّة عظيمة .

وحرف (لما) حرف وجودٍ لوجودٍ ، أي يقتضي وجود جوابه لأجل وجود شرطه فتقتضي جملتين ، والأكثر أن يكون وجود جوابها عند وجود شرطها ، وقد تكون بينهما فترة فتدل على مجرد الجزائية ، أي التعليل دون توقيت ، وذلك كما هنا .

وضمير لهم عائد إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .

و(من) في قوله ﴿ ومن ذريتهما محسن ﴾ [الصافات : 113] إما حرف تبعيض صفة لمحذوف دلّ عليه ﴿ وهبنا ، أي موهوباً من رحمتنا .

وإما اسم بمعنى بَعض بتأويل ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ في سورة البقرة (8) .

وإن كان النحاة لم يثبتوا لكلمة (مِن) استعمالها اسماً كما أثبتوا ذلك لكلمات (الكاف) و (عن) و (على) لكن بعض موارد الاستعمال تقتضيه ، كما قال التفتازاني في حاشية

الكشاف ، وأقرّه عبْد الحكيم .

وعلى هذا تكون (مِن) في موضع نصب على المفعول به لفعل وهبنا ، أي وهبنا لهم بعضَ رحمتنا ، وهي النبوءة ، لأنها رحمة لهم ولمن أرسلوا إليهم .

واللسان : مجاز في الذكر والثناء .

ووصف لسان بصدق وصفاً بالمصدر .

الصدق : بلوغ كمال نوعه ، كما تقدم آنفاً ، فلسان الصدق ثناء الخير والتبجيل ، ووصف بالعلوّ مجازاً لشرف ذلك الثناء .

وقد رتّب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيباً بديعاً إذ جوزي بنعمة الدنيا وهي العقب الشريف ، ونعمة الآخرة وهي الرحمة ، وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق ، إذ لا يذكر به إلا من حصل النعمتين .

وتقدم اختلاف القراء في نبيئًا عند ذكر إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(128/487)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾

الفعل (رغب) يحمل المعنى وضده حَسْب حرف الجر بعده ، نقول : رغب في كذا . أي : أحبه وذهب إليه ، ورَغب عن كذا أي : كرهه واعتزله ، فمعنى ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم ﴾ [إبراهيم : 46] أي : تاركها إلى غيرها ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] أي : تركها إلى مِلَّة أخرى .

ونلاحظ أن الفعل رَغِب لم يأْتِ مقترناً بعده بفي إلا مرة واحدة ، وإنْ كانت (في) مُقدَّرة بعد الفعل ، وهذا في قوله تعالى عن نكاح يتامى النساء : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ [النساء : 127] .

والرغبة في الشيء تعني حُبه وعِشْقه ، والرغبة في الطريق الموصّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التي تُوصّلك إلى ما ترغب فيه ، وهذا المعنى واضح في قصة أصحاب الجنة في سورة (ن) حيث يقول تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ [القلم : 1720]

.

فقد اتفقوا على قَطْف ثمار بستانهم في الصباح ، ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفي الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

﴿ لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ ﴾ [القلم : 24] .

(129/487)

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حَرَمُوا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قالوا إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم : 2627] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالو : ﴿ عسى رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ إِنَّآ إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [القلم : 32] .

أي : راغبون في الطريق الموصّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب في الله . قل : أنا راغب إلى الله ، فالمسألة ليست حُباً فقط بل حُباً بثمن وسَعْي وعَمل يُوصّلك إلى ما تحب . إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين في ربكم ارغبوا إليه أولاً .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ [التوبة : 58] أي : يعيبك في توزيعها ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة : 58] فهم إذن لا يحبون الله ، وإنما يحبون العطاء والعَرَض الزائل ، بدليل أنهم لما مُنِعُوا

سخطوا وصرفوا نظرهم عن دين الله كمَنْ قال الله فيهم :

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ [الحج : 11] .

لذلك يُعدّل لهم الحق سبحانه سلوكهم ، ويرشدهم إلى المنهج القويم : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ آتَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى الله رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة : 59] أي : آخذين الوسيلة الموصّلة إليه ، فالذي يرغب في حب الله عليه أنْ يرغبَ في الطريق الموصّل إليه .

(130/487)

ثم يقول أبو إبراهيم : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم : 46] أي : تترك هذه المسألة التي تدعو إليها . والرجْم : هو الرمي بالحجارة ، ويبدو أن عملية الرجم كانت طريقة للتعذيب الشديد ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ [الكهف : 20] .

﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] أي : ابتعد عني وفارقني ﴿ مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] المليّ : البُرْهة الطويلة من الزمن . ومنها الملاوة : الفترة الطويلة من الزمن ، والملوَان : الليل

والنهار .

فماذا قال نبي الله إبراهيم لعمه بعد هذه القسوة ؟ لم يخرج إبراهيم عن سَمْته العادل ، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . قال : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ وكأن إبراهيم عليه السلام يريد أنْ يَلفِتَ نظر عمه ، ويؤكد له أنه في خطر عظيم يستوجب العذاب من الله ، وهذا أمر يُحزِنه ولا يُرضيه ، وكيف يترك عمه دون أنْ يأخذَ بيده ؟ فقال له أولاً : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم : 47] أي : سلام مني أنا ، سلام أقابل به ما بدر منك فأمْري معك سلام ، فلن أقابلَك بمثل ما قُلْت ، ولن أُغلِظ لك ، ولن ينالك مني أذىً ، ولن أقول لك : أُفٍّ .

لكن السلام منِّي أنا لا يكفي ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ لك سلاماً أيضاً من الله تعالى ؛ لأنك وقعت في أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب ، وأخشى ألاّ يكونَ لك سلام من الله .

لذلك قال بعدها : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم : 47] كأنه يعتذر عن قوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم : 47] فأنا ما قُلْتُ لك : سلام عليك إلا وأنا أنوي أن أستغفرَ لك ربي ، حتى يتمّ لك السلام إنْ رجعتَ عن عقيدتك في عبادة الأصنام ، وهو بذلك يريد أنْ يُحنِّنه ويستميل قلبه .

ثم أخبر عن الاستغفار في المستقبل فلم يقُلْ استغفرتُ ، بل ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ ﴾ [مريم : 47] يريد أنْ يُبرىء استغفاره لعمه من المجاملة والنفاق والخداع ، وربما لو استغفرتُ لك الآن لظِنتُ أنّي أجاملك ، أما ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ﴾ [مريم : 47] أي : بعيداً عنك ليكون دعاءً عن ظَهْر غيب ، وهو أَرْجَى للقبول عند الله .

ثم يقول : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47] يريد أنْ يُطمِئن عمه إلى أن له منزلة عند الله ، فإذا استغفر له ربه فإنه تعالى سيقبل منه .

وحَفياً : من الفعل حَفِيَ يَحْفَي كرَضِي يرضى ، ويأتي بعده حرف جر يُحدّد معناها .

تقول : حفيٌّ به : أي بالغٍ في إكرامه إكراماً يستوعب متطلبات سعادته ، وقابله بالحفاوة : أي بالإكرام الذي يتناسب مع ما يُحقِّق له السعادة .

وهذا أمر نسبيّ يختلف باختلاف الناس ، فمنهم مَنْ تكون الحفاوة به مجرد أنْ تستقبلَه ولو على حصيرة ، وتُقدِّم له ولو كوباً من الشاي ، ومن الناس مَنْ يحتاج إلى الزينات والفُرُش الفاخرة والموائد الفخمة ليشعر بالحفاوة به .

ونقول : حَفِيٌّ عنه : أي بالغ في البحث عنه ليعرف أخباره ، وبلغ من ذلك مبلغاً شَقَّ عليه وأضناه ، وبالعامية يقولون : وصلتُ له بعد ما حفيتُ ، ومن ذلك قوله تعالى عن الساعة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [

الأعراف : 187] أي : كأنك معنيٌّ بالساعة ، مُغْرم بالبحث عنها ، دائم الكلام في شأنها

.

(132/487)

إذن : المعنى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47] أي : أن ربي يبالغ في إكرامي إكراماً يُحقِّق سعادتي ، ومن سعادتي أن الله يغفر لك الذنب الكبير الذي تُصِرّ عليه ، وكأنه عليه السلام يُضخِّم أمرينْ : يُضخِّم الذنب الذي وقع فيه عمه ، وهو الكفر بالله ، ويُعظِّم الرب الذي سيستغفر لعمه عنده ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47] .

وما دام ربي حَفِيّاً بي فلن يخذلني ، كيف وقد جعلني نبياً واحتفى بي ، فكُنْ مطمئناً إنْ أنت تُبْتَ مما أنت عليه من المعتقدات الباطلة ، إنه سيغفر لك . وكأن إبراهيم عليه السلام يؤكد لعمه على منزلته عند ربه ، وما على عمه إلا أنْ يسمع كلامه ، ويستجيب لدعوته .

وظَلَّ إبراهيم عليه السلام يستغفر لعمه كما وعده ، إلى أنْ تبيَّن له أنه عدو لله فانصرف عند ذلك ، وتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا آيَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] .

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن

دُونِ اللهِ ﴾

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)

اعتزل : ترك صحبة إلى خير منها ولو في اعتقاده ، وهنا يلفتنا الحق سبحانه إلى إن الإنسان حين يجادل في قضية ، ويرى عند خَصْمه لدداً وعناداً في الباطل ، لا يطيل معه الكلام حتى لا يُؤصِّل فيه العناد ، ويدعوه إلى كبرياء الغَلَبة ولو بالباطل .

(133/487)

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يُعلِّم المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنْ أرادوا البحث في أمره صِدْقاً أو كذباً والعياذ بالله ، أنْ يبحثوه مَثْنى أو فُرَادى ، ولا يبحثوه بَحْثاً جماهيرياً غوغائياً ؛ لأن العمل الغوغائي بعيد عن الموضوعية يستتر فيه الواحد في الجماعة ، وقد يحدث ما لا تُحمد عُقباه ولا يعرفه أحد .

والغوغائية لا يحكمها عقل ولا منطق ، والجمهور كما يقولون : عقله في أذنيه . وسبق أن قلنا : إن كليوباترا حين هُزِمت وحليفها صَوّروا هذه الهزيمة على أنها نصر ، كما حدث كثيراً على مَرِّ التاريخ ، وفيها يقول الشاعر :

أَسْمَعُ الشَّعْبَ دُيُونُ . . . كَيْفَ يُوحُونَ إِلَيْه

مَلأَ الجوَّ هِتافاً . . . بحياتيْ قاتِليْه

أثَّر البُهتانُ فيه . . . وَانْطلَي الزُّورُ عليْه

يَالَهُ مِنْ بَبَّغَاءٍ . . . عقلُه في أُذُنَيْه

إذن : فالجمهرة لا تُبدي رأياً ، ولا تصل إلى صواب .

يقول الحق سبحانه للمعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ : 46] .

فبَحْث مثل هذا الأمر يحتاج إلى فردَيْن يتبادلان النظر والفِكْر والدليل ويتقصيَّان المسألة ، فإنْ تغلّب أحدهما على الآخر كان الأمر بينهما دون ثالث يمكن أنْ يشمتَ في المغلوب ، أو يبحثه فرد واحد بينه وبين نفسه فينظر في شخص رسول الله ، وما هو عليه من أدب وخُلق ، وكيف يكون مع هذا مجنوناً ؟ وهل رأينا عليه أمارات الجنون ؟ والذين قالوا عنه : ساحر لماذا لم يسحرهم كما سحر التابعين له ؟

إذن : لو أدار الشخص الواحد هذه الحقائق على ذِهْنه ، واستعرض الآراء المختلفة لاهتدى وحده إلى الصواب ، فالاعتزال أمر مطلوب إنْ وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل مع الحق لا تُؤصِّل الجدل والعناد في نفس الخَصْم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء : 97]

.

أي : كانت الفرصة أمامكم لتتركوا هذه البُقْعة إلى غيرها من أرض الله الواسعة ، وكأن الحق تبارك وتعالى يُلفت نظرنا إلى أن الأرض كلها أرض الله ، فأرض الله الواسعة ليست هي مصر أو سوريا أو ألمانيا ، بل الأرض كلها بلا حواجز هي أرض الله ، فمَنْ ضاق به مكانٌ ذهب إلى غيره لا يمنعه مانع ، وهل يوجد هذا الآن ؟ هل تستطيع أن تخترق هذه الحواجز ودونها نظم وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] .

أي : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام وهذا من المبادىء التي جعلها الخالق سبحانه للإنسانية ، فلما استحدثَ الإنسانُ الحواجز والحدود ، وأقام الأسوار والأسلاك ومنع الأنام من الحركة في أرض الله نشأ في الكون فساد كبير ، فإنْ ضاق بك موضع لا تجد بديلاً عنه في غيره ، وإنْ عِشْتَ في بيئة غير مستقيمة التكوين كتب عليك أنْ تشقى بها طوال حياتك .

وقلنا : إن هذه الحدود وتلك الحواجز أفرزتْ أرضاً بلا رجال ، ورجالاً بلا أرض ، ولو

تكاملتْ هذه الطاقات لاستقامتْ الدنيا .

ومسألة الاعتزال هذه ، أو الهجرة من أرض الباطل ، أو من بيئة لا ينتصر فيها الحق وردتْ في نصوص عِدَّة بالنسبة لسيدنا إبراهيم عليه السلام منها قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 6871] .

(135/487)

فترك إبراهيم الأرض التي استعصتْ على منهج الله إلى أرض أخرى ، وهاجر بدعوته إلى بيئة صالحة لها من أرض الشام .

نعود إلى اعتزال إبراهيم عليه السلام للقوم ، لا لطلب الرزق وسَعة العيش ، بل الاعتزال من أجل الله وفي سبيل مبدأ إيماني يدعو إليه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [مريم : 48] وأول ما نلحظ أن في هذه النص عدولاً ، حيث كان الكلام عن العبادة : ﴿ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ [مريم : 42] ، ﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ [مريم : 44] .

والقياس يقتضي أن يقول : وأعتزلكم وما تعبدون . . وأدعو ربي . أي : أعبده ، إلا أنه عدل عن العبادة هنا وقال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ ﴾ [مريم : 48] فلماذا ؟

قالوا : لأن الإنسان لا ينصرف عن ربه وعن وحدانيته تعالى إلا حين يستغني ، فإنْ ألجأتْهُ الأحداث واضطرته الظروف لا يجد ملجأ إلا إلى الله فيدعو . إذن : فالعبادة ستصل قَطْعاً إلى الدعاء ، وما دُمْتَ ستضطر إلى الدعاء فليكُنْ من بداية الأمر :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [مريم : 48] .

إذن : استخدم الدعاء بدل العبادة ؛ لأنني أعبد الله في الرخاء ، فإنْ حدثتْ لي شِدَّةٌ لا أجد إلا هو أدعوه .

وقوله : ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ [مريم : 48] أي : عسى ألاَّ أكون شقياً بسبب دعائي لربي ؛ لأنه تبارك وتعالى لا يُشقي مَنْ عبده ودعاه ، فإنْ أردتَ المقابل فَقُلْ : الشقيُّ مَنْ لا يعبد الله ولا يدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾

قوله : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم : 49] لم يذكر هنا إسماعيل ؛ لأن إسحق جاء جزاءً من الله لإبراهيم على صبره في مسألة ذَبْح إسماعيل ، وما حدث من تفويضهما الأمر لله تعالى ، والتسليم لقضائه وقَدرِه ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ [الصافات : 103] أي : إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 103107] .

ولم يقتصر الأمر على الفداء ، بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ [الصافات : 112] فلما امتثل لأمر الله في الولد الأول وهبنا له الثاني .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ [الأنبياء : 72] .

كأن الحفيد نافلة وزيادة في عطاء الذرية ، ومبالغة في الإكرام .

ثم يتمنُّ الله على الجميع بأن يجعلَهم أنبياء ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ [مريم : 49] فليس الامتنان بأنْ وهب له إسحاق ومن بعده يعقوب ، بل بأنْ جعلهم أنبياء ، وهذه جاءت بشرى لإبراهيم ، وكان حظّه أنْ يرعى دعوة الله حياً ، ويطمع أنْ تكونَ في ذريته من بعده ، وكانت هذه هي فكرة زكريا عليه السلام فكلهم يحرصون على الذرية لا للعزوة والتكاثر وميراث عَرَضِ الدنيا ، بل لحمل منهج الله وامتداد الدعوة فيهم والقيام بواجبها .

انظر إلى قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] أي : حَمَّله تشريعات فقام بها على أتمِّ وجه وأدّاها على وجهها الصحيح ، فلما علم الله منه عِشْقه للتكليف أتمها عليه : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] فتثور مسألة الإمامة في نفس إبراهيم ، ويطمع أنْ تكونَ في ذريته من بعده فيقول : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة : 124] لذلك يُعدِّل الحق سبحانه فكرة إبراهيم عن الإمامة ، ويضع المبدأ العام لها ، فهي ليستْ ميراثاً ، إنها تكليف له شروط .

﴿ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] .

فالظالمون لا يصلحون لهذه المهمة . فوعي إبراهيم عليه السلام هذا الدرس ، وأخذ هذا المبدأ ، وأراد أنْ يحتاط به في سؤاله لربه بعد ذلك ، فلما دعا ربه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات ﴾ [البقرة : 126] فاحتاط لأنْ يكونَ في بلده ظالمون ، فقال : ﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر ﴾ [البقرة : 126] .

لكن جاء قياس إبراهيم هنا في غير محله ، فعدَّل الله له المسألة ؛ لأنه يتكلم في أمر خاص بعطاء الربوبية الذي يشمل المؤمنَ والكافر ، والطائعَ والعاصي ، فقد ضمن الله الرزق

للجميع فلا داعي للاحتياط في عطاء الربوبية ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : 126] .

إذن : فهناك فارق بين العطاءين : عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والإمامية في منهج الله ، فعطاء الربوبية رِزْق يُسَاق للجميع وخاضع للأسباب ، فمَنْ أخذ بأسبابه نال منه مَا يريد ، أما عطاء الألوهية فتكليف وطاعة وعبادة .

(138/487)

يقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ [مريم : 50] المراد بالرحمة النبوة ؛ لذلك لما قال أهل العظمة والجاه المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وكأنهم استقلُّوا رسول الله أن يكون في هذه المنزلة ، رَدَّ عليهم القرآن : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] .

إذن : فعطاؤه تعالى في النبوات رحمةٌ أشاعها الله في ذرية إبراهيم .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : 50] أي : كلمة صدق وحق ثابت مطابق للواقع ، ولسان الصِّدْق يعني مَدْحاً في موضعه ، وثناءً بحق لا مجاملةَ فيه ، والثناء يكون باللسان ، وها نحن نذكر هذا الرَّكب من الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب بالثناء الحسَن والسيرة الطيبة ، ونأخذهم قدوة ، وهذا كله من لسان الصدق ، ويبدو أنها دعوةُ إبراهيم حين قال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين * واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 8384] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(139/487)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

أخرج أبو نعيم والديلمي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حق الوالد على ولده أن لا يسميه إلا بما سمى إبراهيم أباه يا أبت ولا يسميه باسمه " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لأرجمنك ﴾ قال : لأشتمنك

﴿ واهجرني ملياً ﴾ قال : حيناً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ واهجرني ملياً ﴾ قال : اجتنبني سالماً قبل أن يصيبك مني عقوبة .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة في قوله : ﴿ واهجرني ملياً ﴾ قال : سالماً .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ واهجرني ملياً ﴾ قال : حيناً .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله : ﴿ واهجرني ملياً ﴾ ما الملي ؟ قال : طويلاً ، قال فيه المهلهل :

وتصدعت شم الجبال لموته . . . وبكت عليه المرملات ملياً

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ قال : لطيفاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ قال : عوده الإجابة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ قال : يقول

وهبنا له إسحق ولداً ، ويعقوب ابن ابنه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ قال الثناء الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(140/487)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ ﴾ :

يجوز فيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكون " راغبٌ " مبتدأً لاعتمادِه على همزةِ الاستفهام ، و " أنت " فاعلٌ سَدَّ مَسَدَّ الخبر . والثاني : أنه خبر مقدمٌ ، و " أنت " مبتدأ مؤخر ورُجِّح الأولُ بوجهين ، أحدهما : أنه ليس فيه تقديمٌ ولا تأخير ؛ إذ رتبةُ الفاعلِ التأخيرُ عن رافعِه . والثاني أنه لا يلزم فيه الفصلُ بين العاملِ ومعمولِه بما ليس معمولاً للعامل ؛ وذلك لأنَّ ﴿ عَنْ آلِهَتِي ﴾ متعلقٌ ب " راغِبٌ " ، فإذا جُعل " أنت " فاعلاً فقد فُصِل بما هو كالجزءِ من العامل ، بخلافِ جَعْلِه خبراً فإنه أجنبي إذ ليس معمولاً ل " راغبٌ " .

قوله : " مَلِيّاً " في نصبه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه منصوبٌ على الظرفِ الزماني ، أي : زمناً طويلاً ، ومنه " المَلَوان " للَّيلِ والنهارِ ، ومُلاوةُ الدَّهْر بتثليث الميم قال :

3240- فَعُسْنا بها من الشَّبابِ مَلاوةً . . . فالحجُّ آياتُ الرسولِ المحبّبِ

وأنشد السدّي على ذلك لمهلهل :

3241- فتصدَّعَتْ صُمُّ الجبالِ لموْته . . . وبَكَتْ عليه المُرْمِلاتُ مَلِيّا

والثاني : أنه منصوبٌ على الحال معناه : سالماً سَوِيّاً . كذا فسَّره ابن عباس : فهو حالٌ مِنْ فاعلِ " اهْجُرْني " ، وكذلك فَسَّره ابنُ عطيةَ قال : " معناه : مُسْتَبداً ، أي : غنيّاً من قولهم هو مَلِيٌّ بكذا وكذا " . قال الزمخشري : " أي : مُطيقاً " والثالث : أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : هَجْراً مَلِيّاً يعني : واسعاً متطاولاً كتطاول الزمان الممتد .

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾

وقرأ أبو البرهسم " سَلاماً " بالنصب ، وتوجيهُها واضحٌ مِمَّا تقدَّم .

(141/487)

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ : " وكُلاًّ " مفعولٌ مقدم هو الأول ، و " نبيًا " هو الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 605. 607 ﴾

(142/487)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) ﴾

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَاإِبْرَاهِيمُ ﴾ .

منّاه إبراهيمُ بجميل العُقْبَى ، فقابله بتوعدُّ العقوبة فقال :

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مِلِيّاً ﴾ .

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة .

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾

وهذا قبل أن ييأسَ من إيمانه ، إذا كانت لديه بعدُ بقيةٌ من الرجاء في شأنه ، فلمَّا تحقق أنه مختومٌ له بالشقاوة .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا

﴿ (48) ﴾

﴿ وَمَا تَدْعُونَ ﴾ : أي ما تعبدون ، ﴿ وَأَدْعُوا رَبِّي ﴾ : أي أعبده .

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

لما أَيِسَ من أصلِه آنسَه اللَّهُ بما أكرمه من نَسْلِه ، فأنبتهم نباتاً حسناً ، ورزقهم النبوةَ ، ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام فقال :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 432 ﴾

(143/487)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان موسى أول من نوه الله بأسمائهم ، على لسانه في التوراة ، وأظهر محامدهم ، وشهر

مناقبهم ، وتوارث ذلك أبناؤهم منه حتى شاع أمرهم وذاع ، وملأ الأسماع ، وطار في الأقطار ، حتى عم البراري والبحار ، عقب ذكرهم بذكره فقال : ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أي الذي لا كتاب مثله في الكمال ﴿ موسى ﴾ أي الذي أنقذ الله به بني إسرائيل من العبودية والذل حتى تمكنوا من آثار آبائهم ، وكان موافقاً لأبيه إبراهيم عليهم السلام في أن كلاً منهما أراد ملك زمانه الذي ادعى الربوبية قتله خوفاً على ملكه منه ، فأنجاه الله منه ، وأمر موسى أعجب لأنه سبحانه أنجاه من الذبح بالذباح ، ثم علل ذكره له بقوله : ﴿ إنه كان ﴾ أي كوناً عريقاً فيه ﴿ مخلصاً ﴾ لله تعالى في توحيده وجميع أعماله كما أشارت إليه قراءة الجمهور – من غير كلفة في شيء ، في ذلك لأن الله أخلصه له كما في قراءة الكوفيين بالفتح ﴿ وكان رسولاً ﴾ إلى بني إسرائيل والقبط ﴿ نبياً ﴾ ينبئه الله بما يريد من وحيه لينبىء به المرسل إليهم ، فيرفع بذلك قدره ، فصار الإخبار بالنبوة عنه مرتين : إحداهما في ضمن ﴿ رسولاً ﴾ والأخرى صريحاً مع إفهام العلو باشتقاقه من النبوة ، وبكون النبأ لا يطلق عليه غالباً إلا على خبر عظيم ، فصار المراد : رسولاً عالياً مقداره ويخبر بالأخبار الجليلة ، وفيه دفع لما يتوهم من أنه رسول عن بعض رسله كما في أصحاب يس ؛ وعطف على ذلك دليله الدال على ما صدرت به السورة من الرحمة ، فرحمه بتأنيس وحشته وتأهيل غربته بتلذيذه بالخطاب وإعطائه الكتاب فقال : ﴿ وناديناه ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ فأنبأناه هنالك – حين كان متوجهاً

إلى مصر – بأنه رسولنا ، ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ، فكان لبني إسرائيل به من العجائب في رحمتهم بإنزال الكتاب ، والإلذاذ بالخطاب ، من جوف السحاب ، وفي إماتتهم لما طلبوا الرؤية ، ثم إحيائهم وغير ذلك ما يجل عن الوصف على ما هو

(144/487)

مذكور في التوراة ، وتقدم كثير منه في هذا الكتاب ﴿ وقربناه ﴾ بما لنا من العظمة تقريب تشريف حال كونه ﴿ نجيّاً ﴾ نخبره من أمرنا بلا واسطة من النجوى وهي السر والكلام بين الاثنين كالسر ، والتشاور كما في يوسف ويأتي في المجادلة ﴿ ووهبنا له ﴾ أي هبة تليق بعظمتنا ﴿ من رحمتنا ﴾ له لما سألنا ﴿ أخاه ﴾ أي معاضدة أخيه وبينه بقوله : ﴿ هارون ﴾ حال كونه ﴿ نبياً ﴾ أو هو بدل أي نبوته شددنا به أزره ، وقوينا به أمره ، وكان يخلفه من قومه عند ذهابه إلى ساحة المناجاة ، ومع ذلك فأشركوا بي صورة عجل ، فلا تعجب من غرورهم للعرب مع مباشرتهم لهذه العظائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 539.540 ﴾

(145/487)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) ﴾

(القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام)

اعلم أنه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور : أحدها : أنه كان مخلصاً فإذا قرىء بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاختباء كأن الله تعالى اصطفاه واستخلصه وإذا قرىء بالكسر فمعناه أخلص لله في التوحيد في العبادة والإخلاص هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده ، ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به ، فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الأمرين .

وثانيها : كونه رسولاً نبياً ولا شك أنهما وصفان مختلفان لكن المعتزلة زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبي وكل نبي رسول ومن الناس من أنكر ذلك وقد بينا الكلام فيه في سورة الحج في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج : 52] .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ من اليمين أي من ناحية اليمين والأيمن صفة الطور أو الجانب .

ورابعها : قوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ ولما ذكر كونه رسولاً قال : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ وفي قوله

: ﴿ قربناه ﴾ قولان : أحدهما : المراد قرب المكان عن أبي العالية قربه حتى سمع صرير القلم حيث كتبت التوراة في الألواح .

والثاني : قرب المنزلة أي رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة ، قال القاضي : وهذا أقرب لأن استعمال القرب في الله قد صار بالتعارف لا يراد به إلا المنزلة وعلى هذا الوجه يقال في العبادة تقرب ، ويقال في الملائكة عليهم السلام إنهم مقربون وأما ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ فقيل فيه أنجيناه من أعدائه وقيل هو من المناجاة في المخاطبة وهو أولى .

(146/487)

وخامسها : قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان هرون عليه السلام أكبر من موسى عليهما السلام ، وإنما وهب الله له نبوته لا شخصه وأخوته وذلك إجابة لدعائه في قوله : ﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى هارون أَخِى اشدد بِهِ أَزْرِى ﴾ [طه : 29-32] فأجابه الله تعالى إليه بقوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ [طه : 36] وقوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : 35] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 197 . 198 ﴾

(147/487)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ﴾

والطور جبل بالشام ناداه الله من ناحيته اليمنى . وفيه وجهان :

أحدهما : من يمين موسى . الثاني : من يمين الجبل ، قاله مقاتل .

﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قربه من الموضع الذي شرفه وعظمه بسماع كلامه .

الثاني : أنه قربه من أعلى الحجب حتى سمع صريف القلم ، قاله ابن عباس ، وقال غيره : حتى سمع صرير القلم الذي كتب به التوراة .

الثالث : أنه قربه تقريب كرامة واصطفاء لا تقريب اجتذاب وإدناء لأنه لا يوصف بالحلول في مكان دون مكان فيقرب من بعد أو يبعد من قرب ، قاله ابن بحر .

وفي قوله : ﴿ نَجِيّاً ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مأخوذ من النجوى ، والنجوى لا تكون إلا في الخلوة ، قاله قطرب .

الثاني : نجاه لصدقه مأخوذ من النجاة .

الثالث : رفعه بعد التقريب مأخوذ من النجوة وهو الإرتفاع ، قال الحسن لم يبلغ موسى من الكلام الذي ناجاه به شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾

هذا أمر من الله عز وجل بذكر ﴿ موسى ﴾ بن عمران عليه السلام على جهة التشريف ، له وأعلمه ب ﴿ إنه كان مخلصاً ﴾ ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " مخلِصاً " بكسر اللام وهي قراءة الجمهور أي أخلص نفسه لله ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم " مخلَصاً " بفتح اللام وهي قراءة أبي رزين ويحيى وقتادة أي أخْلَصَهُ الله للنبوءة والعبادة كما قال تعالى ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ [ص : 46] . و" الرسول " من الأنبياء الذي يكلف تبليغ أمة ، وقد يكون نبياً غير رسول ، وقوله ﴿ وناديناه ﴾ هو تكليم الله تعالى ، و ﴿ الطور ﴾ الجبل المشهور في الشام ، وقوله ﴿ الأيمن ﴾ صفة للجانب ، وكانت على يمين موسى بحسب وقوفه فيه ، وإلا فالجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة ولا يوصف بشيء من ذلك إلا بالاضافة الى ذي يمين ويسار ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ الأيمن ﴾ مأخوذاً من اليمن كأنه قال الأبرك والأسعد ، فيصح على هذا أن يكون صفة للجانب وللجبل بجملته ، وقوله ، ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال الجمهور هو تقريب التشريف

بالكلام والنبوءة ، وقال ابن عباس : بل أدني موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام وقاله ميسرة ، وقال سعيد : أردفه جبريل ، و" النجي " ، فعيل من المناجاة وهي المسارّة بالقول ، وقال قتادة ﴿ نجياً ﴾ معناه نجا بصدقة وهذا مختل ، وإنما " النجي " المنفرد بالمناجاة ، وكان ﴿ هارون ﴾ عليه السلام أسن من موسى وطلب من الله أن يشد أزره بنبوته ومعونته فأجابه الله تعالى إلى ذلك وعدها في نعمه عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(149/487)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنه كان مخلصاً ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم : "مُخْلِصاً" بكسر اللام .

وقرأ حمزة ، والكسائى ، وحفص عن عاصم بفتح اللام .

قال الزجاج : المُخْلِص ، بكسر اللام : الذي وحَّد الله ، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غيرَ دَنِسة ، والمُخْلَص ، بفتح اللام : الذي أخلصه الله ، وجعله مختاراً خالصاً من الدَّنَس .

قوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً ﴾ قال ابن الأنباري : إنما أعاد "كان" لتفخيم شأن النبيّ المذكور .

قوله تعالى : ﴿ وناديناه من جانب الطُّور ﴾ أي : من ناحية الطُّور ، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زَبِير .

قال ابن الأنباري : [إنما] خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم ، ومن كلامهم : عن يمين القِبلة وشمالها ، يعنون : مما يلي يمين المستقبِل لها وشماله ، فنقلوا الوصف إلى ذلك اتّساعاً عند انكشاف المعنى ، لأن الوادي لا يَدَ لَهُ فيكون له يمين .

وقال المفسرون : جاء النداء عن يمين موسى ، فلهذا قال : "الأيمن" ، ولم يُرِد به يمين الجبل .

قوله تعالى : ﴿ وقرَّبناه نجيّاً ﴾ قال ابن الأنباري : معناه : مناجياً ، فعبَّر "فَعيل" عن "مُفَاعِل ، كما قالوا : فلان خليطي وعشيري : يعنون : مخالطي ومُعاشري .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : "وقرَّبناه" قال : حتى سمع صريف القلم حين كتب له في الألواح .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أي : من نعمتنا عليه إذ أجبنا دعاءه حين سأل أن نجعل معه أخاه وزيراً له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب موسى ﴾

أي واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى .

﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ في عبادته غير مرائي .

وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام ؛ أي أخلصناه فجعلناه مختاراً .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ أي كلمناه ليلة الجمعة .

﴿ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ أي يمين موسى ، وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر ؛ قاله الطبري وغيره ؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال .

﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ نصب على الحال ؛ أي كلمناه من غير وحي .

وقيل : أدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلمناه .

وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ أي أدني حتى سمع صريف الأقلام .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ وذلك حين سأل فقال : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَرُونَ أَخِي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) ﴾

قرأ الكوفيون ﴿ مخلصاً ﴾ بفتح اللام وهي قراءة أبي رزين ويحيى وقتادة ، أي أخلصه الله للعبادة والنبوة .

كما قال تعالى ﴿ إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ وقرأ باقي السبعة والجمهور بكسر اللام أي أخلص العبادة عن الشرك والرياء ، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله .

ونداؤه إياه هو تكليمه تعالى إياه .

و ﴿ الطور ﴾ الجبل المشهور بالشام ، والظاهر أن ﴿ الأيمن ﴾ صفة للجانب لقوله في آية أخرى ﴿ جانب الطور الأيمن ﴾ بنصب الأيمن نعتاً لجانب الطور ، والجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة ولكن كان على يمين موسى بحسب وقوفه فيه ، وإن كان من اليمن احتمل أن يكون صفة للجانب وهو الراجح ليوافق ذلك في الآيتين ، واحتمل أن يكون صفة للطور إذ معناه الأسعد المبارك .

قال ابن القشيري : في الكلام حذف وتقديره ﴿ وناديناه ﴾ حين أقبل من مدين ورأى النار

من الشجرة وهو يريد من يهديه إلى طريق مصر ﴿ من جانب الطور ﴾ أي من ناحية الجبل .

﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال الجمهور : تقريب التشريف والكلام واليوم .

وقال ابن عباس : أدنى موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام ، وقاله أبو العالية وميسرة .

وقال سعيد : أردفه جبريل على السلام .

قال الزمخشري : شبهه بمن قربه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك انتهى .

ونجى فعيل من المناجاة بمعنى مناج كالجليس ، وهو المنفرد بالمناجاة وهي المسارة بالقول .

وقال قتادة : معنى نجاه صدقه ومن في من رحمتنا للسبب أي من أجل رحمتنا له أو للتبعيض أي بعض رحمتنا .

قال الزمخشري : و ﴿ أخاه ﴾ على هذا الوجه بدل و ﴿ هارون ﴾ عطف بيان كقولك رأيت رجلاً أخاك زيداً انتهى .

(152/487)

والذي يظهر أن أخاه مفعول بقوله ﴿ ووهبنا ﴾ ولا ترادف من بعضاً فتبدل منها ، وكان هارون أسن من موسى طلب من الله أن يشد أزره بنبوته ومعونته فأجابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(153/487)

وقال أبو السعود :

﴿ واذكر فِي الكتاب موسى ﴾

قُدّم ذكرُه على ذكر إسماعيلَ لئلا ينفصِل عن يعقوبَ عليهما السلام ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ موحّداً أخلصَ عبادتِه عن الشرك والرياء ، أو أسلم وجهَه لله تعالى وأخلص نفسَه عما سواه ، وقرىء مخلَصاً على أن الله تعالى أخلصه ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قُدّم رسولاً مع كونه أخلصَ وأعلى .

﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾

الطورُ جبلٌ بين مصرَ ومدْيَنَ ، والأيمنُ صفةٌ للجانب أي ناديناه من ناحيته اليُمنى من اليمين وهي التي تلي يمينَ موسى عليه السلام ، أو من جانبه الميمونِ من اليُمن ومعنى ندائِه منه أنْ تمثّل له الكلامُ من تلك الجهة ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ تقريبَ تشريفٍ ، مُثّل حالُه عليه السلام

بحال من قرّبه المِلكُ لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجياً أي مناجياً حالٌ من أحد الضميرين في ناديناه أو قربناه ، وقيل : مرتفعاً لما روي أنه عليه السلام رُفع في السموات حتى سمع صَريفَ القلم .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا ﴾ أي من أجل رحمتِنا ورأفتِنا له أو بعضِ رحمتنا ﴿ أَخَاهُ ﴾ أي معاضَدةَ أخيه ومؤازرَتَه إجابةً لدعوته بقوله : ﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى هارون أَخِى ﴾ لا نفسَه لأنه كان أكبرَ منه عليهما السلام ، وهو على الأول مفعولٌ لوهبنا وعلى الثاني بدلٌ وقوله تعالى : ﴿ هارون ﴾ عطف بيان له وقوله تعالى : ﴿ نَبِيّاً ﴾ حال منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(154/487)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾

قيل قدم ذكره على إسماعيل عليهما السلام لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليه السلام .

وقيل : تعجيل لاستجلال أهل الكتاب بعدما فيه استجلاب العرب .

﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ موحداً أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله عز

وجل وأخلص عن سواه .

وقرأ الكوفيون .

وأبو رزين .

ويحيى .

وقتادة ﴿ مُخْلِصاً ﴾ بفتح اللام على أن الله تعالى أخلصه ﴿ وَكَانَ رَسُولاً ﴾ مرسلاً من جهة الله تعالى إلى الخلق بتبليغ ما يشاء من الأحكام ﴿ نَبِيّاً ﴾ رفع القدر على كثير الرسل عليهم السلام أو على سائر الناس الذين أرسل إليهم فالنبي من النبوة بمعنى الرفعة .

ويجوز أن يكون من النبأ وأصله نبىء أي المنبىء عن الله تعالى بالتوحيد والشرائع ورجح الأول بأنه أبلغ قيل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " لست بنبيء الله تعالى بالهمزة ولكن نبي الله تعالى " لمن خاطبه بالهمز وأراد أن يغض منه .

والذي ذكره الجوهري أن القائل أراد أنه عليه الصلاة والسلام أخرجه قومه من نبأ فأجابه صلى الله عليه وسلم بما يدفع ذلك الاحتمال .

ووجه الإتيان بالنبي بعد الرسول على الأول ظاهر ووجه ذلك على الثاني موافقة الواقع بناء على أن المراد أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه سبحانه .

واختار بعضهم أن المراد من كلا اللفظين معناهما اللغوي وأن ذكر النبي بعد الرسول لما أنه ليس كل مرسل نبياً لأنه قد يرسل بعطية أو مكتوب أو نحوهما .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾

الطور جبل بين مصر ومدين والأيمن صفة لجانب لقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ جَانِبِ الطور الايمن ﴾ [طه : 80] بالنصب أي ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين المقابل لليسار .

والمراد به يمين موسى عليه السلام أي الناحية التي تلي يمينه إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة .

(155/487)

ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن وهو البركة وهو صفة لجانب أيضاً أي من جانبه الميمون المبارك .

وجوز على هذا أن يكون صفة للطور والأولى أولى ، والمراد من ندائه من ذلك ظهور كلامه تعالى من تلك الجهة ، والظاهر أنه عليه السلام إنما سمع الكلام اللفظي ، وقال بعض : إن الذي سمعه كان بلا حرف ولا صوت وأنه عليه السلام سمعه بجميع أعضائه من جميع الجهات وبذلك يتيقن أن المنادي هو الله تعالى ، ومن هنا قيل : إن المراد ناديناه مقبلاً من جانب الطور المبارك وهو طور ما وراء طور العقل ، وفي الاخبار ما ينادي على خلافه ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته

واصطفاه لمصاحبته ورفع الوسائط بينه وبينه ، ﴿ ونجيا ﴾ فعيل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس ونديم بمعنى منادم من المناجاة المسارة بالكلام ونصبه على الحالية من أحد ضميري موسى عليه السلام في ناديناه وقربناه أي ناديناه أو قربناه حال كونه مناجياً ، وقال غير واحد ، مرتفعاً على أنه من النجو وهو الارتفاع .

فقد أخرج سعيد بن منصور .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن جبرائيل عليه السلام أردفه حتى سمع صرير القلم والتوراة تكتب له أي كتابة ثانية وإلا ففي الحديث الصحيح الوارد في شأن محاجة آدم وموسى عليهما السلام أنها كتبت قبل خلق آدم عليه السلام بأربعين سنة ، وخبر رفعه عليه السلام إلى السماء حتى سمع صرير القلم رواه غير واحد وصححه الحاكم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعلى ذلك لا يكون المعراج مطلقاً مختصاً بنبينا صلى الله عليه وسلم بل المعراج الأكمل ، وقيل معنى ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ بصدقه وروى ذلك عن قتادة ولا يخفى بعده .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا ﴾

أي من أجل رحمتنا له ﴿ أَخَاهُ ﴾ أي معاضدة أخيه وموازرته إجابة لدعوته بقوله ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي ﴾ [طه : 29 ، 30] لا نفسه عليه السلام لأنه كان أكبر من موسى عليه السلام سنا فوجوده سابق على وجوده وهو مفعول ﴿ وَهَبْنَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هارون ﴾ عطف بيان له ، وقوله سبحانه ﴿ نَبِيّاً ﴾ حال منه ، ويجوز أن تكون من للتبعيض قيل وحينئذ يكون ﴿ أَخَاهُ ﴾ بدل بعض من كل أو كل من كل أو اشتمال من من ، وتعقب بأنها إن كانت اسماً مرادفة لبعض فهو خلاف الظاهر وإن كانت حرفاً فإبدال الاسم من الحرم مما لم يوجد في كلامهم ، وقيل : التقدير وهبنا له شيئاً من رحمتنا فأخاه بدل من شيئاً المقدر وأنت تعلم أن الظاهر هو كونه مفعولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(157/487)

وقال القاسمى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً ﴾

بكسر اللام أي : أخلص العبادة عن الشرك وأسلم وجهه لله . وقرئ بفتحه . أي : أخلصه الله ، أي : اصطفاه ، كما قال : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف : 144] ، ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ أي : من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدها فوجدها ثمة . فنودي عندها : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ أي : مناجياً ، أي : كليما . إذ كلمناه بلا واسطة . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ ليشد أزره في أداء الرسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 108 ﴾

(158/487)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) ﴾

اعلم أن في قوله « مخلصاً » قارءتين سبعيتن : قرأه عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام بصيغة اسم المفعول ، والمعنى على هذه القراءة أن الله استخلصه واصطفاه : ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا موسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : 144] الآية . مما يماثل هذه القراءة في القرآن قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ

بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ [ص : 46] فالذين أخلصهم الله هم المخلصون بفح اللام ، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « مخلصاً » بكسر اللام بصيغة اسم الفاعل . كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ [الزمر : 14] الآية .

(159/487)

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)

قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : يقول تعالى ذكره : وناديناه موسى من ناحية الجبل . ويعني بالإيمن يمين موسى . لأن الجبل لا يمين له ولا شمال ، وإنما ذلك كما يقال : قام عن يمين القبلة وعن شمالها ، وهذه القصة جاءت مبينة في مواضع متعددة من كتاب الله تعالى . وذلك أن موسى لما قضى الأجل الذي بينه وبين صهره ، وسار باهله راجعاً من مدين إلى مصر آنس من جانب الطور ناراً ، فذهب إلى تلك النار ليجد عندها من يدله على الطريق ، وليأتي بجذوة منها ليوقد بها النار لأهله ليصطلوا بها . فناداه الله وأرسله إلى فرعون ، وشفعه في أخيه هارون فأرسله معه ، وأراه في ذلك الوقت معجزة العصا واليد ليستأنس بذلك قبل حضوره عند فرعون . لأنه لما رأى العصا في المرة

الأولى صارت ثعباناً ولى مدبراً ولم يعقب . فلو فعل ذلك عندما انقلبت ثعباناً لما طالبه فرعون وقومه بآية لكان غير ذلك لائق ، ولأجل هذا مرن عليها في أول مرة ليكون مستأنساً غير خائف منها حين تصير ثعباناً مبيناً قال تعالى في سورة « طه » : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يا موسى إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى وَأَنَا اخترتك فاستمع لِمَا يوحى إِنَّنِي أَنَا الله لا إله إِلا أَنَاْ فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكريا ﴾ [طه9-14] ، وقوله : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ هو معنى قوله في « طه » : ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يا موسى إِنِّي أَنَاْ رَبُّك ﴾ .

(160/487)

وقوله ﴿ بقبس ﴾ أي شهاب . بدليل قوله في « النمل » : ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلِونَ ﴾ [النمل : 7] وذلك هو المراد بالجذوة في قوله : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار ﴾ [القصص : 29] ، وقوله : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ [طه : 10] أي من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها . لأنهم كانوا ضلوا الطريق ، والزمن زمن برد ، وقوله : ﴿ آنَسْتُ نَاراً ﴾ [طه : 10] اي ابصرتها . وقوله : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : 12]

قال بعض العلماء : لأنهما كانتا من جلد حمار غير ذكي ، ويروى هذا عن كعب وعكرمة وقتادة ، نقله عنهم القرطبي وغيره . وروي أيضاً عن علي والحسن والزهري كما رواه عنهم صاحب الدر المنثور ، ونقله ابن كثير عن علي وأبي أيوب وغير واحد من السلف .

ويروى هذا القول عن غير من ذكرز وجاء فيه حديث مرفوع من حديث عبد الله بن مسعود رواه الترمذي وغيره ولا يصح . وفيه أقوال أخر للعلماء غير ذلك . وأظهرها عندي والله تعالى أعلم : أن الله امره بخلع نعليه أي نزعهما من قدميه ليعلمه التواضع لربه حين ناده ، فإن نداء الله لعبده أمر عظيم ، يستوجب من العبد كمال التواضع والخضوع .

(161/487)

والله تعالى أعلم . وقول من قال : إنه أمر بخلعهما احتراماً للبقعة يدل له أنه أتبع أمره بخلعهما بقوله : ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ﴾ [طه : 12] وقد تقرر في (مسك الإيماء والتنبيه) : أن « إن » من حروف التعليل . وأظهر الأقوال في قوله « طوى » : أنه اسم للوادي ، فه بدل من الوادي أو عطف بيان . وفيه اقوال أخر غير ذلك . وقوله : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ [طه : 13] أي اصطفيتك برسالتي ، كقوله : ﴿ إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ [الأعراف : 144] ومعنى الاستعلاء في قوله : ﴿ عَلَى النار ﴾ [طه :

10] أن المصطلين بالنار يستعلون المكان القريب منها . ونظير ذلك من كلام العرب قول الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

(162/487)

قال تعالى في سورة « النمل » : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ إِني آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ الله رَبِّ العالمين يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ [النمل : 6-9] فقوله في « النمل » : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ ﴾ هو معنى قوله في « مريم » : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] . وقوله في « طه » : ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يا موسى ﴾ [طه : 11] الآية ، وقوله : ﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [النمل : 7] هو معنى قوله في « طه » : ﴿ إِذْ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ [طه : 10] اي من يدلني على الطريق فيخبرني عنها فآتيكم بخبره عنها . وقال تعالى في سورة « القصص » : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة أَن يا موسى إني أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ [القصص : 29-30] الآية . فالنداء في هذه الاية هو المذكور في « مريم » ، وطه . و « النمل » وقد بيَّن هنا أنه نودي من شاطىء الوادء الأيمن في البعقة المباركة من الشجرة . فدلت الآيات على أن الشجرة التي رأى فيها النار عن يمين الجبل الذي هو الطور ، وفي يمين الوادي المقدي الذي هو طوى على القول بأن طوى اسم له . وقد قدمنا قول ابن جرير : أن المراد يمين موسى . لأن الجبل ومثله الوادي لا يمين له ولا شمال . وقال ابن كثير في قوله ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن ﴾ أي من جانب

(163/487)

الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر ﴾ [القصص : 44] فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه اه منه – وهو معنى قوله : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] الآية ، وقوله :

(164/487)

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : 46] الآية .

والنداء المذكور في جميع الآيات المذكورة – نداء الله له . فهو كلام الله أسمعه نبيه موسى .

ولا يعقل أنه كلام مخلوق ، ولا كلام خلقه الله في مخلوق كما يزعم ذلك بعض الجهلة الملاحدة .

إذا لا يمكن أن يقول غير الله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ [النمل : 9] ، ولا أن يقول : ﴿ إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَا فاعبدني ﴾ [طه : 14] ولو فرض أن الكلام المذكور قاله مخلوق افتراي على الله ، كقول فرعون ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] على سبيل فرض المحال – فلا يمكن أن يذكره الله في معرض أنه حقو وصواب .

فقوله : ﴿ إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَا فاعبدني ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ [النمل : 9] – صريح في ان الله هو المتكلم بذلك صراحة لا تحتمل غير ذلك . كما هو معلوم عند من له أدنى معرفة بدين الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة ﴾ [القصص : 30] قال الزمخشري في الكشاف : « من » الأولى والثانية لابتداء الغاية . أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة و ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ بدل من قوله ﴿ مِن شَاطِىءِ الوادي ﴾ بدل اشتمال . لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء . كقوله : ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : 33] .

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوادي الأيمن ﴾ الآية : قال المهدوي : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه ، وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء – انتهى منه . وشاطئ الوادي جانبه . وقال بعض أهل العلم : معنى « الأيمن » في قوله : ﴿ مِن شَاطِئِ الوادي الأيمن ﴾ . وقوله : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] من اليمن والبركة . لأن تلك البلاد بارك الله فيها . وأكثر أهل العلم على أن النار التي رآها موسى « نور » وهو يظنها ناراً . وفي قصته أنه رأى النار تشتعل فيها وهي لا تزداد إلا خضرة وحسناً . قيل هي شجرة عوسج . وقيل شجرة عليق . وقيل شجرة عناب . وقيل سمرة . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى في سورة « النمل » : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] اختلفت عبارات المفسرين في المراد ب ﴿ من في النار ﴾ في هذه الآية في سورة « النمل » فقال بعضهم : هو الله جل وعلا ، وممن روي عنه هذا القول : ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب قالوا : « بورك من في النار » اي تقدس الله

وتعالى . وقالوا : كان نور رب العالمين في الشجرة . واستدل من قال بهذا القول بحديث أبي موسى الثابت في الصحيح : ان النَّبي صلى الله عليه وسلم قال :

(166/487)

« إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

قال مقيده عفا الله عنه : وهذا القول بعيد من ظاهر القرآن . ولا ينبغي أن يطلق على الله أنه في النار التي في الشجرة . سواء قلنا : إنها نار أو نور ، سبحانه جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ! وتأويل ذلك ب ﴿ بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ [النمل : 8] سلطانه وقدرته لا يصح . لأن صرف كتاب الله عن ظاهره المتبادر منه لا يجوز إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب الله أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم – وبه تعلم أن قول أبي حيان في « البحر المحيط » : قال ابن عباس ، وابن جبير ، والحسن وغيرهم : أراد بمن في النار ذاته . وعبر بعضهم بعبارات شنيعة مردودة بالنسبة إلى الله تعالى . وإذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول على حذف . أي بورك من قدرته وسلطانه في النار اه أنه أصاب في

تنزيهه لله عن تلك العبارات ، ولم يصب فيما ذكر من التأويل . والله أعلم . وقال بعضهم : إن معنى ﴿ بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ اي بوركت النار لأنها نور . وبعده عن ظاهر القرآن ايضاً واضح كما ترى . وقال بعضهم : أن ﴿ بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ أي بروكت الشجرة التي تتقد فيها النار . وبعده عن ظاهر القرآن أيضاً وضاح كما ترى . وإطلاق لفظة « من » على الشجرة وعلى ما في النار من أمر الله غير مستقيم في لغة العرب التي نزل بها القرآن العظيم كما ترى .

(167/487)

وأقرب الأقوال في معنى الآية إلى ظاهر القرآن العظيم – قول من قال : إن في النار التي هي نور الملائكة وحولها ملائكة وموسى . وأن معنى ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ أي الملائكة الذي هم في ذلك النور ومن حولها . اي وبروك الملائكة الذين هم حولها ، وبورك موسى لأنه حولها معهم . وممن يروى عنه هذا : السدي . وقال الزمخشري (في الكشاف) : ومعنى أن ﴿ بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ، ومكانها البقعة التي حصلت فيها ، وفي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة ﴾ [القصص : 30] وتدل عليه

قراءة أبي « أن تباركت النار ومن ولها » . وعنه « بوركت النار .

وقال القرطبي رحمه الله في قوله ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النار ﴾ : وهذا تحية من الله لموسى ، وتكرمة له كما حيَّا إبراهين على إلسنة الملائكة حين دخلوا إليه قال : رحمه الله وبركاته عليكم أهل البيت .

(168/487)

وقوله ﴿ مَنْ فِي النار ﴾ نائب فاعل « بورك » والعرب تقول : بارك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك . فهي أربع لغات . قال الشاعر :

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئا . . . وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

وقال أبو طالب بن عبد المطلب برثي مسافر بن أبي عمرة بن أمية :

ليت شعري مسافر بن أبي عم . . . رو وليت يقولها المحزون

بورك الميت الغريب كما . . . بروك نبع الرمان والزيتون

وقال آخر :

فبورك في بنيك وفي بنيهم . . . إذا ذكروا ونحنو لك للفداء

(169/487)

والآيات في هذه القصة الدالة على أنه أراه آية اليد والعصا ليتمرن على ذلك قبل حضوره عند فرعون وقومه ، وأنه ولى مدبراً خوفاً منها في المرة الأولى لما صارت ثعباناً – جاءت في مواضع متعددة . كقوله تعالى في سورة « طه » : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء آيَةً أُخرى ﴾ [طه : 19-22] . فقوله ﴿ وَلاَ تَخَفْ ﴾ يدب على أنه فزع منها لما صارت ثعباناً مبيناً . كما جاء مبيناً في « النمل والقصص » .

وقوله في آيي « طه » هذه ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ أي من غير برص . وفيه ما يسميه البلاغيون احتراساً ، وكقوله تعالى في سورة « النمل » : ﴿ يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا موسى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سواء فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء فِي تِسْعِ آيَاتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [النمل : 9-12] الآية . وقوله في « القصص » : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنين اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [القصص : 31-32] .

والرهانان المشار إليهما بقوله ﴿ فذانك برهانان ﴾ هما اليد والعصا . فلما تمرن موسى على البرهانين المذكورين ، وبلغ

(170/487)

الرسالة هووأخوه إلى فرعون ملئه طالبوه بآية تدل على صدقه – فجاءهم بالبرهانين المذكورين ، ولم يخف من الثعبان الذي صارت العصا إياه كما قال تعالى : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء : 30-33] ونحوها من الآيات .

وقوله في « النمل ، والقصص » : ﴿ ولم يعقب ﴾ أي لم يرجع من فراره منها . يقال : عقب الفارس إذا كر بعد الفرار . ومنه قوله :

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب . . . ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

(171/487)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ أي قرّب الله موسى في حال كونه نجياً . أي مناجياً لربه . وإتيان الفعيل بمعنى الفاعل كثير كالعقيد والجليس . وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : روى ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى هو القطان ، حدثنا سفيان عن عطاء بن يسار ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ قال : ادنى حتى سمع صريق القلم . وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم . يعنون صريف القلم بكتابة التوراة . وقال السدي ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ قال : أدخل في السماء فكلم . وعن مجاهد نحوه . وقال عبد الرزاق عن معمون عن قتادة ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ قال نجيا بصدقه – اه محل الغرض من كلام ابن كثير رحمه الله تعالى .

وقوله تعالى في طه : ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ [طه : 31] اي قوني به . والأزر : القوة . وآزره : اي قواه . وقوله في القصص : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : 35] اي سنقويك به . وذلك لأن العضد هو قوام اليد ، وبشدتها تشتد اليد ، قال طرفة :

أبني لبيني لستمو بيد . . . إلا يداً ليست لها عضد

وقوله [القصص : 34] أي معيناً ، لأن الردء اسم لكل ما يعان به ، ويقال ردأته اي أعنته .

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)

معنى الآية الكريمة : أن الله وهب لموسى نبوة هارون . والمعنى أنه سأله ذلك فآتاه سؤله . وهذا المعنى أوضحه تعالى في آيات أخر ، كقوله في سورة « طه » عنه : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه : 29-32] - إلى قوله ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ [طه : 36] ، وقوله في « القصص » : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 33-35] ، وقوله في سورة « الشعراء » : ﴿ وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى أَنِ ائت القوم الظالمين قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلاَّ فاذهبا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 10-16] فهذه الآيات تبين أنه سأل ربه أن يرسل معه أخاه ، فأجاب ربه جل وعلا سؤاله في ذلك . وذلك يبين أن الهبة في قوله : ﴿ ووهبنا ﴾ هي في الحقيقة واقعة على رسالته لا على نفس هارون ، لأن هارون أكبر من موسى ، كما قاله أهل التاريخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾

أفضت مناسبة ذكر إبراهيم ويعقوب إلى أن يذكر موسى في هذا الموضع لأنه أشرف نبي من ذرية إسحاق ويعقوب .

والقول في جملة ﴿ واذكر وجملة إنه كان كالقول في نظيريهما في ذكر إبراهيم عدا أن الجملة هنا غير معترضة بل مجرد استئناف .

وقرأ الجمهور مخلصاً بكسر اللام من أخلص القاصر إذا كان الإخلاص صفته .

والإخلاص في أمر ما : الإتيانُ به غير مشوب بتقصير ولا تفريط ولا هوادة ، مشتق من الخلوص ، وهو التمحض وعدم الخلط .

والمراد هنا : الإخلاص فيما هو شأنه ، وهو الرسالة بقرينة المقام .

وقرأه حمزة ، وعاصم ، والكسائي ، وخلف بفتح اللام من أخلصه ، إذا اصطفاه .

وخُص موسى بعنوان (المخلص) على الوجهين لأن ذلك مزيته ، فإنه أخلص في الدعوة إلى الله فاستخف بأعظم جبار وهو فرعون ، وجادله مجادلة الأكفاء ، كما حكى الله عنه في

قوله تعالى في سورة الشعراء (18 ، 19) : ﴿ قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ إلى قوله : قال أولو جئتك بشيء مبين .

وكذلك ما حكاه الله عنه بقوله : ﴿ قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ [القصص : 17] ، فكان الإخلاص في أداء أمانة الله تعالى ميزته .

ولأن الله اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه المَلك بالوحي ، فكان مخلَصاً بذلك ، أي مصطفى ، لأن ذلك مزيته قال تعالى ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ [طه : 41] .

والجمع بين وصف موسى لأنه رسول ونبيء .

وعطف ﴿ نبيئاً على رسولاً مع أن الرسول بالمعنى الشرعي أخص من النبي ، فلأن الرسول هو المرسلَ بوحي من الله ليبلغ إلى الناس فلا يكون الرسول إلا نبيئاً ، وأما النبي فهو المنبّأ بوحي من الله وإن لم يؤمر بتبليغه ، فإذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبيء وليس رسولاً ، فالجمع بينهما هنا لتأكيد الوصف ، إشارة إلى أن رسالته بلغت مبلغاً قوياً ، فقوله نبيئاً تأكيد لوصف رسولاً .

(174/487)

وتقدم اختلاف القراء في لفظ نبيئاً عند ذكر إبراهيم .

وجملة وناديناه عطف على جملة إنه كان مخلصاً فهي مثلها مستأنفة .

والنداء : الكلام الدال على طلب الإقبال ، وأصله : جهر الصوت لإسماع البعيد ، فأطلق على طلب إقبال أحد مجازاً مرسَلاً ، ومنه ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ [الجمعة : 9] ، وهو مشتق من الندى بفتح النون وبالقصر وهو بُعد الصوت .

ولم يسمع فعله إلاّ بصيغة المفاعلة ، وليست بحصول فعل من جانبين بل المفاعلة للمبالغة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ في سورة البقرة (171) ، وعند قوله : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ﴾ في سورة آل عمران (193) .

وهذا النداء هو الكلام الموجه إليه من جانب الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي ﴾

في سورة الأعراف (144) ، وتقدم تحقيق صفته هناك ، وعند قوله تعالى : ﴿ حتى يسمع كلام اللَّه ﴾ في سورة براءة (6) .

والطّور : الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر ، ويقال له : طور سيناء .

وجانبه : ناحيته السفلى ، ووصفه بالأيمن لأنه الذي على يمين مستقبل مشرق الشمس ، لأن جهة مشرق الشمس هي الجهة التي يضبط بها البشر النواحي .

والتقريب : أصله الجعل بمكان القرب ، وهو الدنو وهو ضد البعد .

وأريد هنا القرب المجازي وهو الوحي .

فقوله : نَجِيّاً ﴾ حال من ضمير ﴿ موسى ﴾ ، وهي حال مؤكدة لمعنى التقريب .

ونجّي : فعيل بمعنى مفعول من المناجاة .

وهي المحادثة السرية ؛ شُبّه الكلام الذي لم يكلم بمثله أحداً ولا أطْلَع عليه أحداً بالمناجاة .

وفعيل بمعنى مفعول ، يجيء من الفعل المزيد المجرد بحذف حرف الزيادة ، مثل جليس ونديم ورضيع .

(175/487)

ومعنى هبة أخيه له : أن الله عزّزه به وأعانه به ، إذ جعله نبيئاً وأمره أن يرافقه في الدعوة ، لأن في لسان موسى حُبسة ، وكان هارون فصيح اللسان ، فكان يتكلم عن موسى بما يريد إبلاغه ، وكان يستخلفه في مهمات الأمة .

وإنما جعلت تلك الهبة من رحمة الله لأن الله رحم موسى إذ يسّر له أخاً فصيح اللسان ، وأكمله بالإنباء حتى يعلم مراد موسى مما يبلغه عن الله تعالى .

ولم يوصف هارون بأنه رسول إذ لم يرسله الله تعالى ، وإنما جعله مبلّغاً عن موسى .

وأما قوله تعالى : ﴿ فقولا إنا رسولا ربك ﴾ [طه : 47] فهو من التغليب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(176/487)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾

وهذا أيضاً ركْب من ركْب النبوات ، وقد أخذ قصة موسى عليه السلام حَيِّزاً كبيراً من كتاب الله لم تأخذه قصة نبي آخر ، مما دعا الناس إلى التساؤل عن سبب ذلك ، حتى بنو إسرائيل يُفضّلون أنفسهم على الناس بأنهم أكثر الأمم أنبياءً ، وهذا من غبائهم ؛ لأن هذه تُحسَب عليهم لا لهم ، فكثرة الأنبياء فيهم دليل على عنادهم وغطرستهم مع أنبيائهم . فما من أمة حيَّرتْ الأنبياء ، وآذتْهم كبني إسرائيل ؛ لذلك كَثُرَ أنبياؤهم ، والأنبياء أطباء القِيَم وأُسَاة أمراضها ، فكثرتهم دليل تفشّي المرض ، وأنه أصبح مرضاً عُضَالاً يحتاج في علاجه لا لطبيب واحد ، بل لفريق من الأطباء .

والبعض يظن أن قصة موسى في القرآن مجرد حكاية تاريخ ، كما نقول نحن ونقصُّ : كان يا ما كان حدث كذا وكذا ، ولو كانت قصة موسى في القرآن مجرد حكاية تاريخ لجاءتْ مرة

واحدة . لكنها ليست كذلك ؛ لأن الحكمة من قَصِّها على رسول الله كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

إذن : فالهدف من هذا القَصَص تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته لقومه ؛ لأنه سيتعرض لمواقف وشدائد كثيرة يحتاج فيها إلى تثبيت ومواساة وتسلية ، فكلما جَدَّ بينه وبين قومه أمر قال له ربه : اذكر موسى حين فعل كذا وكذا ، وأنت خاتم الرسل ، وأنت التاج بينهم ، فلا بُدَّ لك أنْ تتحمَّل وتصبر .

أما لو نزلت مثل هذه القصة مرة واحدة لكان التثبيت بها مرة واحدة ، وما أكثر الأحداث التي تحتاج إلى تثبيت في حياة الدعوة .

(177/487)

لذلك نجد خصوم الإسلام يتهمون القرآن بالتكرار في قصة موسى عليه السلام ، وهذا دليلٌ على قصورهم في فَهْم القرآن ، فهذه المواضع التي يروْنَ فيها تكراراً ما هي إلا لقطات مختلفة لموضوع واحد ، لكن لكل لقطة منها موقع وميلاد ، فإذا جاء موقعها وحان ميلادها نزلتْ .

ومما رأوا فيه تكراراً ، وليس كذلك قوله تعالى عن موسى عليه السلام طفلاً : ﴿ عَدُوٌّ لِّي

وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه : 39] ونتساءل : متى تستعر العداوة بين عدوين ؟ إنْ كانت العداوة من طرف واحد فإن الطرف الآخر يقابلها بموضوعية ودون لَدَدٍ في الخصومة إلى أنْ تهدأ العداوة بينهما ، فهو عدو دون عداوة ، فحينما يراه صاحب العداوة على هذا الخُلق يصرف ما في نفسه من عداوة له ، كما قال تعالى :

﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] .

أمّا إنْ كانت العداوة بين عدوَّين حقيقيين : هذا عدو وهذا عدو ، هنا تستعر العداوة ، وتزكو نارها ، ويحتدم بينهما صراع ، ولا بُدَّ أنْ يصرَع أحدهما الآخر .

والحق تبارك وتعالى حينما تكلّم عن موسى وفرعون ، جعل العداوة مرة من موسى في قوله تعالى :

﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] .

فالعداوة هنا من موسى ليفضح الله أمر فرعون ، فها هو يأخذ موسى ويُربِّيه ، وهو لا يعلم أنه عدو له ، وعلى يديْه ستكون نهايته غريقاً ، فالمقاييس عنده خاطئة ، وهو يدَّعِي الألوهية .

ومرة أخرى يُثبت العداوة من فرعون في قوله تعالى :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه : 39] .

فالعداوة هنا من فرعون : إذن : فالعداوة من الطرفين ، لذلك فالمعركة بينهما كانت حامية

.

(178/487)

كذلك من المواضع التي ظنوا بها تكراراً قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : 7] .

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ [طه : 3839] .

والمستشرقون أحدثوا ضجة حول هذه الآيات : لأنهم لا يفهمون أسلوب القرآن ، وليست لديهم الملَكَة العربية للتلقّي عن الله ، فهناك فَرْق بين السياقين ، فالكلام الأول : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص : 7] هذه أحداث لم تقع بعد ، إنها ستحدث في المستقبل ، والكلام مجرد إعداد أم موسى للأحداث قبل أنْ تقعَ .

أمّا المعنى الثاني فهو مباشر للأحداث وقت وقوعها ؛ لذلك جاء في عبارات مختصرة كأنها

برقيات حاسمة لتناسب واقع الأحداث :

﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم ﴾ [طه : 39] .

كما أن الآية الأولى ذكرت : ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي اليم ﴾ [القصص : 7] ولم تذكر التابوت كما في الآية الأخرى : ﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم ﴾ [طه : 39] .

إذن : ليس في المسألة تكرار كما يدّعي المغرضون ؛ فكل منهما تتحدث عن حال معين ومرحلة من مراحل القصة .

(179/487)

ثم يقول تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ [مريم : 51] من خَلّصَ شيئا من أشياء ، أي : استخرج شيئاً من أشياء كانت مختلطة به ، كما نستخلص مثلاً العطور من الزهور ، فقد أخذت الجيد وتركت الرديء ، وبالنسبة للإنسان نقول : فلان مُخلص لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة لتخدم كل حركة في الحياة ، وكل مَلَكَة من ملَكَاته ، أو جهاز من أجهزته له مهمة يؤديها ، إلا أنها قد تدخل عليها أشياء ليست من مهمته ، أو تخرج عن غاياتها فتحدث فيه بعض الشوائب ، فيحتاج الإنسان لأنْ يُخلِّص نفسه من هذه الشوائب .

فمثلاً ، الحق تبارك وتعالى جعل التقاء الرجل والمرأة لهدف محدد ، وهو بقاء النوع ؛ لذلك تجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا بالعقل والاختيار إذا أدى كُلٌّ من الذكر والأنثى هذه المهمة لا يمكن أنْ تُمكِّن الأنثى الذكر منها ، وكذلك الذكر لا يأتي الأنثى إذا علم من رائحتها أنها حامل .

إذن : وقف الحيوان بهذه الغريزة عند مهمتها ، وهي حفظ النوع ، لكن الإنسان لم يقف بهذه الغريزة عند حدودها ، بل جعلها مُتعةً شخصية يأتي حِفْظ النوع تابعاً لها .

وكذلك الحال في غريزة الطعام ، فالإنسان إذا جاع يحتاج بغريزته إلى أنْ يأكلَ ، والحكمة من ذلك استبقاء الحياة ، لا الامتلاء باللحم والشحم . فالحيوان يقف بهذه الغريزة عند حَدِّها ، فإذا شبع لا يمكن أنْ تُجبره على عود برسيم واحد فوق ما أكل .

أما في الإنسان فالأمر مختلف تماماً ، فيأكل الإنسان حتى الشِّبَع ، ثم حتى التُّخْمة ، ولا مانع بعد ذلك من الحلو والمشروبات وخلافه ؛ لذلك وضع لنا الخالق سبحانه وتعالى المنهج الذي يُنظِّم لنا هذه الغريزة ، فقال تعالى : ﴿ وكُلُواْ واشربوا ولاَ تسرفوا ﴾ [الأعراف : 31] .

وفي الحديث الشريف : " بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثُلث لطعامه ، وثُلث لشرابه ، وثُلث لنفَسِه " .

ومن الغرائز أيضاً غريزة حب الاستطلاع ، فالإنسان يحب أن يعرف ما عند الآخر ليحدث بين الناس الترقي اللازم لحركة الحياة ، ومعرفة أسرار الله في الكون ، وهذا هو الحد المقبول أما أن يتحول حب الاستطلاع إلى التجسس وتتبّع عورات الآخرين ، فهذا لا يُقبل ويُعَدُّ من شوائب النفوس ، يحتاج إلى أنْ نُخلِّص أنفسنا منه .

إذن : لكل غريزة حكمة ومهمة يجب ألاَّ نخرج عنها ، والمُخْلَص هو الذي يقف بغرائزه عند حَدِّها لا يتعدَّاها ويخلصها من الشوائب التي تحوط بها . وهذه الصفة إمّا أنْ يكرم الله بها العبد فيُخلِّصه من البداية من هذه الشوائب ، أو يجتهد هو ليُخلّص نفسه من شوائبها باتباعه لمنهج الله . هذا هو المُخْلَص : أي الذي خلص نفسه .

لذلك ، يقولون : من الناس مَنْ يصِل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله . وقد جعل الله تعالى الأنبياء مخْلَصين من بدايتهم ، ليكونوا جاهزين لهداية الناس ، ولا يُضيِّعون أوقاتهم في تخليص أنفسهم من شوائب الحياة وتجاربها .

ألم يستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وعشرين سنة يُعلِّم الناس كيف يُخلِصون أنفسهم ؟ فكيف إنْ كان النبي نفسه في حاجة لأنْ يُخلص نفسه ؟

ولمكانة هؤلاء المخْلَصين ومنزلتهم تأدَّب إبليس وراعى هذه المنزلة حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 8283] .

لأن هؤلاء لا يقدر إبليس على غوايتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ [مريم : 51] لأن من عباد الله مَنْ يكون مُخْلَصاً دون أن يكون نبياً أو رسولاً كالعبد الصالح مثلاً ؛ لذلك أخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه جمع له كل هذه الصفات .

(181/487)

والرسول : مَنْ أُوحي إليه بشرع يعمل به ويُؤْمَر بتبليغه لقومه ، أما النبي ، فهو مَنْ أُوحِي إليه بشرع يعمل به لكن لم يُؤْمَر بتبليغه . إذن : فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً ؛ لأن النبي يعيش على منهج الرسول الذي يعاصره أو يسبقه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] أيمن الطور ، أَمْ أيمن موسى ؟ أيّ مكان لا يُقال له أيمن ولا أيسر ، إنما الأيمن والأيسر بالنسبة لك أو لغيرك ، فالذي تعتبره أنت يميناً يعتبره غيرُك يساراً ، ولا يُقال للمكان أيمن ولا أيسر إلا إذا قِسْته إلى شيء ثابت كالقِبْلة مثلاً فتقول : أيمن القبلة ، وأيسر القبلة ، وخلف القِبْلة ، وأمام القِبْلة .

إذن : فقوله : ﴿ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] أي : أيمن موسى ، وهو مُقبل

على الجبل ، وهذه لقطة مختصرة من القصة جاءت مُفصَّلة في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً ﴾ [القصص : 29] .

وقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] أي : قرَّبناه لِنُنَاجيه بكلام . والنجيّ : هو المنَاجِي الذي يُسِرُّ القول إلى صاحبه ، كما جاء في الحديث الشريف : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الآخر ، فإن ذلك يُحزِنه " .

وقد قرَّب الله تعالى موسى ليناجيه ؛ لأن هذه خصوصية لموسى عليه السلام ، فكلام الله لموسى خاصٌّ به وحده لا يسمعه أحد غيره ، فإنْ قلتَ : فكيف يكلّمه الله بكلام ، ويسمى مناجاة ؟ قالوا : لأنه تعالى أسمعه موسى ، وأخفاه عن غيره ، فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سِراً . وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ، ولا يُسمع ذاك .

(182/487)

وبعض المفسرين يرى أن (الأيمن) ليس من اليمين ، ولكن من اليُمْن والبركة . و ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ ﴾ [مريم : 52] أي : من حضرة الحق تبارك وتعالى . لكن هل حضرة الحق قُرْب منه ، أم موسى هو الذي قَرُب من حضرة الحق سبحانه ؟ كيف نقول إن الله قرب منه وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد ، فالتقريب إذن لموسى عليه السلام .

وهكذا جمع الحق تبارك وتعالى لموسى عدةٍ خصال ، حيث جعله مخلَصاً ورسولاً ونبياً ، وخَصَّه بالكلام والمناجاة ، ثم يزيده هِبةً أخرى في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ وهب الله لموسى أخاه هارون رحمةً بموسى ؛ لأن هارون كان مُعيناً لأخيه ومساندا له في مسألة الدعوة ، وهذه لم تحدث مع نبي آخر أن يجعل الله له معيناً في حمل هذه المهمة ؛ لذلك قال موسى عليه السلام : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : 34] .

والرِّدْء : هو المعين . وهكذا أعطانا الحق تبارك وتعالى لقطة سريعة من موكب النبوة في قصة موسى ، ولمحة مُوجَزة هنا أتى تفصيلها في موضع آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(183/487)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (مريم : 52-53) ، وفي سورة الفرقان : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) (الفرقان : 35) ، ومقصود الآيتين تأييد موسى ، عليه السلام ، بأخيه هارون ، ثم اختلف الوصف بالنبوة والوزارة مع اتحاد المقصود ، للسائل أن يسأل عن ذلك ؟

(184/487)

والجواب عنه ، والله أعلم : محصل طي تمهيد وهو أن السور المتردد فيها ذكر الرسل ، عليهم السلام ، منوطاً فيها ذكرهم بذكر أممهم ، وما كان من معاندة الأمم وتكذيبهم ، وأخذ المكذبين بمرتكباتهم ، ولا تكاد تجد سورة منها وارد فيها ذكرهم إلا على ما ذكرنا ، وأكثر تلك السور استيفاء لهذا الغرض سور ثلاث ، وهي : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، ثم يليها في ذلك سورة قد أفلح ، وقل ما تجد سورة ورد فيها قصة منها واحدة فصاعداً إلا جارية على ما ذكرته ، وربما أجمل ذلك في بعضها مع تحصيل ما ذكرنا من أخذ الأمم بعد تكذيبهم ، وآخر سورة ذكرت فيها قصصهم معتمداً فيها ما اطرد من أخذ كل أمة بتكذيبها ، وآخر سورة ذكرت فيها قصصهم معتمداً فيها ما اطرد من أخذ كل أمة بتكذيبها ، وبيان ما به أهلكت من الغرق والريح والصيحة والخاصب وعنيف الأخذ بالعزة والاقتدار سورة القمر مع إيجاز القصص ، ولم يرد في غير هذه السورة الوفاء بما ذكرنا ،

وإنما خصت هذه السورة ببيان كيفية أخذ المكذبين كما بينته في كتاب البرهان ، ثم إن سورة مريم تضمنت طائفة عظيمة فصل ذكر بعضهم وأجمل ذكر البعض ، وقد تجرد فيها من الإخبار بأحوالهم ذكر التعريف بخصائص من منحهم وعلى أقدارهم ، وما أيدوا به من ذلك ، من غير أن يشوب هذا ذكر شيء من تكذيب من كذب منهم ، إلا ما ورد في ذكر إبراهيم عليه السلام ، من قول أبيه له : (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ . . . .) (مريم : 46) ، ولم يذكر من حال قومه ، عليه السلام ، شيء ، ولا ذكر فيما بعد ولا فيما تقدم من هذه السورة (إلا خصائصهم ومنحهم العلية التي بها امتازوا عمن سواهم من صالحي الأمم) كما تقيدت به مما ذكرنا .

(185/487)

ثم إن النبوة أعظم خصائصهم التي تساووا في تحمل أمانتها ، وأفردوا ، عليهم الصلاة والسلام ، (بها) ، ولم يشاركهم فيها غيرهم ، أما اسم الوزارة والوصف بها فليس مما يخصهم ولا مما أفردوا به ، فلم يكن وصف هارون ، عليه السلام ، هنا (بها) ليناسب هذا القصد العلي ولا ليلائمه . وأما قوله تعالى في سورة الفرقان : (وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) (الفرقان : 35) فمرتب على سؤال موسى عليه السلام في سورة طه في

قوله : (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ) (طه : 29-30) ، فأعطى عليه السلام مطلبه . قال تعالى : (وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) ، ورد هذا على الترتيب المتقرر في المصحف . ثم إن ما اتصل بهذه الآية وآية سورة مريم مما قبلهما وبعدهما يستدعي التناسب في مقاطع الآي وفواصلها ، فلم يكن ورود الآيتين في السورتين على غير ما ورد ليناسب ، فجاء ذلك على ما يجب من الوجهين المذكورين ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 328.330 ﴾

(186/487)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ إنه كان مخلصاً ﴾ بنصب اللام .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ قال : النبي وحده الذي تكلم ، وينزل عليه ولا يرسل ، ولفظ ابن أبي حاتم الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى إلى أحدهم ، ولا يرسل إلى أحدهم ، والرسل الأنبياء الذين

يوحى إليهم ويرسلون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ جانب الطور الأيمن ﴾ قال : جانب الجبل الأيمن ﴿ وقربناه نجيا ﴾ قال : نجا بصدقه .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية في قوله : ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال : قربه حتى سمع صرير القلم .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن ميسرة ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال : أدني حتى سمع صرير القلم في الألواح وهو يكتب التوراة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال : أردفه جبريل ، حتى سمع صرير القلم والتوراة تكتب له .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال : ادخل في السماء فكلم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب ، حجاب نور وحجاب ظلمة ، حجاب نور وحجاب ظلمة ، حجاب نور وحجاب ظلمة ، فما زال موسى يقرب حتى كان بينه وبينه حجاب ، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف : 143] .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة في المصنف وهناد في الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير

وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿ وقربناه نجياً ﴾ حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح.

(187/487)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سينا قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا، فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ قال: كان هرون أكبر من موسى ولكن إنما وهب له نبوّته. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(188/487)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَجِيّاً ﴾ : حالٌ مِنْ مفعولِ " قَرَّبْناه " وأصلُه نَجِيْوا ، لأنه مِنْ نجا يَنْجو ، والأَيمَن : الظاهر أنه صفةٌ لجانب بدليل أنه تبعه في قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ [طه : 80] . وقيل : إنه صفةٌ للطور ؛ إذ اشتقاقُه من اليُمْن والبركة .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ : في " مِنْ " هذه وجهان ، أحدهما : أنها تعليليةٌ ، أي : مِنْ أَجْل رحمتِنا . و " أخاه " على هذا مفعولٌ به ، و " هرون " بدلٌ أو عطف بيان ، أو منصوبٌ بإضمار أَعْني ، و " نَبِيَّاً " حالٌ . والثاني : أنها تبعيضيةٌ ، أي : بعض رحمتِنا . قال الزمخشري : " وأخاه على هذا بدلٌ ، وهرونَ عطف بيان " . قال الشيخ : " الظاهرُ أنَّ " أخاه " مفعولُ " وَهَبْنَا " ، ولا تُرادِفُ " مِنْ " بعضً فَتُبْدِلُ " أخاه " منها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 607 ﴾

(189/487)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾

مُخْلَصاً خالصاً لله ، ولم يكن لغيرِه بوجهٍ ؛ فلم تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يستفزه طمع نحو إيثار حظٍ ، ولم يُغْضِ في اللَّهِ على شيءٍ .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) ﴾

للنجوى مزية على النداء ، فجمع له الوصفَيْن : النداءَ في بدايته ، والسماعَ والنجوى في نهايته ؛ فوقَفَه الحقُّ وناداه ، وفي جميع الحالين تولاّه .

﴿ مِن جَانِبِ الطُّورِ ﴾ : ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) ﴾

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبيّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 433 ﴾

(190/487)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 54 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 58 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إسماعيل عليه الصلاة والسلام هو الذي ساعد أباه إبراهيم عليه السلام في بناء البيت الذي كان من الأفعال التي أبقى الله بها ذكره ، وشهر أمره وكان موافقاً لموسى عليه السلام في ظهور آية الماء الذي به حياة كل شيء وإن كانت آية موسى عليه السلام انقضت بانقضائه ، وآيته هو باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهي التي كانت سبب حياته وماؤها ببركته أفضل مياه الأرض ، وجعل سبحانه آية الماء التي أظهرها له سبب حفظه من الجن والإنس والوحش وسائر المفسدين ، إشارة إلى أنه سبحانه يحيي بولده محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي غذاه بذلك الماء ورباه عند ذلك البيت إلى أن اصطفاه برسالته ، فحسدته اليهود وأمرت بالتعنت عليه - ما لم يحي بغيره ، ويجعله قطب الوجود كما خصه - من بين آل إبراهيم عليه السلام - بالبيت الذي هو كذلك قطب الوجود ، ويشفي به من داء الجهل ، ويغني به من مرير الفقر ، كما جعل ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم ، وكان - صلى الله عليه وسلم - آخر من شيد قدرهم ، وأعظم من أعلى ذكرهم ،

عقب ذكره بذلك فقال : ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أباك الأقرب ﴿ إسماعيل ﴾ ابن إبراهيم عليهما السلام الذي هم معترفون بنبوته ، ومفتخرون برسالته وأبوته ، فلزم بذلك فساد تعليلهم إنكار نبوتك بأنك من البشر ، ثم علل ذكره والتنويه بقدره بقوله معلماً بصعوبة الوفاء بالتأكيد : ﴿ إنه كان ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ صادق الوعد ﴾ في حق الله وغيره لمعونة الله له على ذلك ، بسبب أنه لا يعد وعداً إلا مقروناً بالاستثناء كما قال لأبيه حين أخبرهم بأمر ذبحه ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ فكن أبي كذلك ولا تقولن لشي إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، وخصه بالمدح به - وإن كان الأنبياء كلهم كذلك - لقصة الذبح فلا يلزم منه تفضيله ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ نبأه الله بأخباره ، وأرسله إلى قومه جرهم قاله الأصبهاني .

(5/488)

وأتى أهل البراري بدين أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام فأحياها الله بنور الإيمان الناشىء عن روح العلم ووصفه بالرسالة زيادة على وصف أخيه إسحاق عليهما السلام وتقدم في أمر موسى عليه السلام سر الجمع بين الوصفين ؛ وفي صحيح مسلم وجامع الترمذي - عن واثلة بن الأسقع - رضى الله عنهم - " أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل

عليه السلام " وفي رواية الترمذي " أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل " ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة ﴾ التي هي طهرة البدن وقرة العين وخير العون على جميع المآرب ﴿ والزكاة ﴾ التي هي طهرة المال ، كما أوصى الله بذلك جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتقدم في هذه السورة أنه سبحانه وتعالى أوصى بذلك عيسى عليه السلام ﴿ وكان عند ربه ﴾ لعبادته على حسب ما أقامته ربوبيته ﴿ مرضياً ﴾ فاقتد أنت به فإنه من أجل آبائك ، لتجمع بين طهارة القول والبدن والمال ، فتنال رتبة الرضا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 540 . 541 ﴾

(6/488)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) ﴾

(القصة الخامسة قصة إسماعيل عليه السلام)

اعلم أن إسمعيل هذا هو إسمعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، واعلم أن الله تعالى وصف إسماعيل عليه السلام بأشياء : أولها : قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ وهذا الوعد

يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس .

أما الأول : فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئاً مما يؤمر به من طاعة ربه وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة .

وأما الثاني : فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة ، وأيضاً وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به حيث قال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] ويروى أن عيسى عليه السلام قال له رجل : انتظرني حتى آتيك فقال عيسى عليه السلام : نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء لحاجة إلى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنه واعد رجلاً ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى إلى قريب من غروب الشمس " وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعاداً إلى أي وقت ينتظره فقال : إن واعده نهاراً فكل النهار وإن واعده ليلاً فكل الليل ، وسئل إبراهيم بن زيد عن ذلك فقال : إذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره إلى وقت صلاة أخرى .

وثانيها : قوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ وقد مر تفسيره .

وثالثها : قوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكواة ﴾ والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة ، هذا إذا حمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة فإن حمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله أي من كان في داره في ذلك الوقت بذلك وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقته عليهم في الدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس ، وقيل : كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] ﴿ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] وأيضاً فهم أحق أن يتصدق عليهم فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى ، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها طاعة الله تعالى والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء .

ورابعها : قوله ؛ ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ وهو في نهاية المدح لأن المرضى عند الله هو

الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 199.198 ﴾

(8/488)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾

وصفه بصدق الوعد لأنه وعد رجلاً أن ينتظره ، قال ابن عباس : حولاً حتى أتاه . وقال يزيد الرقاشي : انتظره اثنين وعشرين يوماً . وقال مقاتل : انتظره ثلاثة أيام .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يأمر قومه فسماهم أهله .

الثاني : أنه بدأ بأهله قبل قومه . وفي الصلاة والزكاة ما قدمناه . وهو على قوله الجمهور : إسماعيل بن إبراهيم . وزعم بعض المفسرين أنه ليس بإسماعيل بن إبراهيم لأن إسماعيل مات قبل إبراهيم ، وإن هذا هو إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إل قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم فاستعفاه ورضي بثوابه وفوض أمرهم إليه في عفوه أو عقوبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾

وهو أيضاً من لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام ، و ﴿ إسماعيل ﴾ هو أبو العرب اليوم وذلك أن اليمينة والمضرية ترجع الى ولد ﴿ إسماعيل ﴾ وهو الذي أسكنه أبوه بواد غير ذي زرع وهو الذبيح في قوله الجمهور وقالت فرقة الذبيح إسحاق .

قال القاضي أبو محمد : والأول يترجح بجهات منها قول الله تبارك وتعالى ، ومن وراء إسحاق يعقوب فولد قد بشر أبواه أنه سيكون منه ولد هو حفيد لهم كيف يؤمر بعد ذلك بذبحه وهذه العدة قد تقدمت وجهة أخرى وهي أن أمر الذبح لا خلاف بين العلماء أنه كان بمنى عند مكة وما روي قد أن إسحاق دخل تلك البلاد ، وإسماعيل بها نشأ وكان أبوه يزور مراراً كثيرة يأتي من الشام ويرجع من يومه على البراق وهو مركب الأنبياء ، وجهة أخرى وهي قول النبي عليه السلام " أنا ابن الذبيحين " وهو أبوه عبد الله لأنه فدي بالإبل من

الذبح ، والذبيح الثاني هو أبوه إسماعيل ، وجهة أخرى وهي الآيات في سورة الصافات وذلك أنه لما فرغ من ذكر الذبح وحاله ، قال

(10/488)

﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ [الصافات : 112] ، فترتيب تلك الآيات يكاد ينص على أن الذبيح غير إسحاق ، ووصفه الله تعالى ب " صِدق الوعد " لأنه كان مبالغاً في ذلك ، روي أنه وعد رجلاً أن يلقاه في موضع فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته فلما كان في اليوم الآخر جاء الرجل فقال له ما زلت هنا في انتظارك منذ أمس ، وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة وهذا بعيد غير صحيح والأول أصح ، وقد فعل مثله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعث ، ذكره النقاش وخرجه الترمذي وغيره ، وذلك في مبايعة وتجارة وقيل وصفه ب " صدق الوعد " لوفائه بنفسه في أمر الذبح أذ قال ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ [الكهف : 69] وقال سفيان بن عيينة : أسوأ الكذب إخلاف الميعاد ورمي الأبرياء بالتهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " العدة دين فناهيك بفضيلة الصدق " في هذا و ﴿ أهله ﴾ ، يريد بهم قومه وأمته ، قاله الحسن ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود " وكان يأمر قومه " . وقوله ﴿ مرضياً ﴾ أصله مرضوياً لقيت الواو

وهي ساكنة الياء فأبدلت ياء وأدغمت ثم كسرت الضاد للتناسب في الحركات ، وقرأ ابن أبي عبلة " وكان عند ربه مرضواً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(11/488)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ : نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ لَمَحْتُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ أَسْمَعَهَا مِنْ أَحَدٍ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إسْمَاعِيلَ إنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ الْآيَةَ ، فَكَّرْت مِنْ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ وَأَنَا بِدِيَارِ مِصْرَ فِي إفْرَادِهِ عَنْ أَبِيهِ وَأَخِيهِ وَالْفَصْلِ بَيْنَهُمَا بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوَقَعَ فِي خَاطِرِي أَنَّهُ لِكَوْنِهِ جَدُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذُكِرَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ تَعْظِيمًا لِقَدْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَكَّرْت الْآنَ فِيهِ بِالتِّلَاوَةِ فَلَمَحْت ذَلِكَ وَزِيَادَةً عَلَيْهِ وَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي أَثْنَى عَلَيْهِ بِهَا .

وَمِنْ جُمْلَتِهَا وَهُوَ خِتَامُهَا ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ وَالْمَرْضِيُّ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ الصَّفْوَةُ وَالْخُلَاصَةُ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصْطَفًى مِنْهُ .

وَمِنْ جُمْلَتِهَا ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ وَإِذَا كَانَ أَهْلُهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَهُوَ بِصِفَةِ

صِدْقِ الْوَعْدِ وَالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ وَهُمَا أَعْنِي إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلَهُ أَصْلًا فِي غَايَةِ الزَّكَاءِ وَالْخَيْرِ فَهُوَ وَأَهْلُهُ جُرْثُومَةُ نُورٍ نَشَأَ مِنْهَا أَعْظَمُ مِنْهَا ، وَهُوَ النُّورُ الْأَعْظَمُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 68 ﴾

(12/488)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾

هذا عامّ فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين الناس .

وقال مجاهد : لم يَعِد ربَّه بوعدٍ قطُّ إلا وفى له به .

فإن قيل : كيف خُصَّ بصدق الوعد إسماعيل ، وليس في الأنبياء من ليس كذلك ؟

فالجواب : أن إسماعيل عانى [في الوفاء] بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء ، فأُثني عليه بذلك .

وذكر المفسرون : أنه كان بينه وبين رجل ميعاد ، فأقام ينتظره مدة فيها لهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أقام حَوْلاً ، قاله ابن عباس .

والثاني : اثنين وعشرين يوماً ، قاله الرقاشي .

والثالث : ثلاثة أيام ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً ﴾ إلى قومه ، وهم جُرْهُم .

﴿ وكان يأمر أهله ﴾ قال مقاتل : يعني : قومه .

وقال الزجاج : أهله : جميعُ أُمَّته .

فأما الصلاة والزكاة ، فهما العبادتان المعروفتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ

﴾

(13/488)

وقال القرطبى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِسْمَاعِيلَ ﴾ اختلف فيه ؛ فقيل : هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضي بثوابه ، وفوض أمرهم إليه في عفوه وعقوبته .

والجمهور أنه إسماعيل الذبيح أبو العرب بن إبراهيم .

وقد قيل : إن الذبيح إسحاق ؛ والأول أظهر على ما تقدّم ويأتي في "والصافات" إن شاء الله تعالى .

وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصدّيق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

الثانية : صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضدّه وهو الخلف مذموم ، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدّم بيانه في "براءة" .

وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد .

واختلف في ذلك ؛ فقيل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدي .

هذا في قول من يرى أنه الذبيح .

وقيل : وعد رجلاً أن يلقاه في موضع فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان في اليوم الآخر جاء ؛ فقال له ؛ ما زلت هاهنا في انتظارك منذ أمس .

وقيل : انتظره ثلاثة أيام .

وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثه ؛ ذكره النقاش وخرجه الترمذي وغيره عن عبد الله بن أبي الحَمْساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئت فإذا

هو في مكانه ؛ فقال : " يا فتى لقد شققت عليّ أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك " لفظ أبي داود .

وقال يزيد الرقاشي : انتظره إسماعيل اثنين وعشرين يوماً ؛ ذكره الماورديّ .

وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة .

وذكره الزمخشري عن ابن عباس أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة .

(14/488)

وذكره القشيري قال : فلم يبرح من مكانه سنة حتى أتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال : إن التاجر الذي سألك أن تقعد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له .

وهذا بعيد ولا يصح .

وقد قيل : إن إسماعيل لم يَعِد شيئاً إلا وَفَّى به ، وهذا قول صحيح ، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية ؛ والله أعلم .

الثالثة : من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " العِدة دَيْن " وفي الأثر " وأي المؤمن واجب " أي في أخلاق المؤمنين .

وإنما قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضاً لإجماع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد

بمال ما كان ليَضْرِب به مع الغرماء ؛ فلذلك قلنا إيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به .

والعرب تمتدح بالوفاء ، وتذم بالخلف والغدر ، وكذلك سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :

متى ما يقلْ حُرٌّ لصاحبِ حاجةٍ . . .

نَعَمْ يقضِها والحرُّ للوايِ ضامن

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر ، وعلى الخلف الذم .

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده ، ووفى بنذره ؛ وكفى بهذا مدحاً وثناء ، وبما خالفه ذماً .

الرابعة : قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له : نعم ، ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى يلزمه .

قال مالك : ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال نعم ، وثَمَّ رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان .

وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعيّ والشافعي وسائر الفقهاء : إن العِدة لا يلزم منها شيء لأنها منافع لم يقبضها في العارية لأنها طارئة ، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها .

وفي البخاري ﴿ واذكر فِي الكتاب إِسْمَاعِيل إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ ؛ وقضى ابن

أَشْوَع بالوعد وذكر ذلك عن سَمُرة بن جُنْدب .

قال البخاري : ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أَشْوَع .

الخامسة : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ قيل : أرسل إسماعيل إلى جُرْهم .

(15/488)

وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا ، وخص إسماعيل بالذكر تشريفاً له .

والله أعلم .

السادسة : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ قال الحسن : يعني أمته .

وفي حرف ابن مسعود "وكان يأمر أهله جُرْهم وولده بالصلاة والزكاة" .

﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ أي رضياً زاكياً صالحاً .

قال الكسائي والفراء : من قال مرضيّ بناه على رضيت ؛ قالا .

وأهل الحجاز يقولون : مرضوّ .

وقال الكسائي والفراء : من العرب من يقول رِضَوَان ورِضَيَان فرضوان على مرضوّ ،

ورِضيان على مرضيّ ولا يجيز البصريون أن يقولوا إلا رِضوان وربوان .

قال أبو جعفر النحاس : سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول : يخطئون في الخط فيكتبون ربا

بالياء ثم يخطئون فيما هو أشدّ من هذا فيقولون رِبيان ولا يجوز إلا رِبوَان ورِضوَان ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ [الروم : 39] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(16/488)

وقال أبو حيان :

و ﴿ إسماعيل ﴾ هو ابن إبراهيم أبو العرب يمنّيها ومضريها وهو قول الجمهور .

وقيل : إنه إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فشجوا جلدة رأسه فخيره فيما شاء من عذابهم فاستعفاه ورضي بثوابه وفوض أمرهم إليه في عفوه وعقوبته ، وصدق وعده أنه كانت منه مواعيد لله وللناس فوفي بالجميع ، فلذلك خص بصدق الوعد .

قال ابن جريج : لم يعد ربه موعدة إلاّ أنجزها ، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح ، ووعد رجلاً أن يقيم له بمكان فغاب عنه مدة .

قيل : سنة .

وقيل : اثني عشر يوماً فجاءه ، فقال : ما برحت من مكانك ؟ فقال : لا والله ، ما كنت لأخلف موعدي .

﴿ وكان يأمر أهله ﴾ .

قال الحسن : قومه وأمته ، وفي مصحف عبد الله وكان يأمر قومه .

وقال الزمخشري : كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ، ولأنهم أولى من سائر الناس

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ و ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ أي ترى أنهم أحق فتصدق عليهم بالإحسان الديني أولى .

وقيل : ﴿ أهله ﴾ أمته كلهم من القرابة وغيرهم ، لأن أمم النبيين في عداد أهاليهم ، وفيه أن حق الصالح أن لا يألو نصحاً للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين ، وأن يخطيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في ذلك انتهى .

وقال أيضاً ذكر إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً كالتلقيب نحو الحليم الأواه والصديق ، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

(17/488)

وقرأ الجمهور ﴿ مرضياً ﴾ وهو اسم مفعول أي مرضو وفاعل بقلب واوه ياء لأنها طرف بعد واو ساكنة ، والساكن ليس بحاجز حصين فكأنها وليت حركة ، ولو بنيت من ذوات الواو مفعلاً لصار مفعلاً لأن الواو لا تكون طرفاً وقبلها متحرك في الأسماء المتمكنة غير المتقيدة بالإضافة ، ألا ترى أنهم حين سموا بيغزو الغازي من الضمير قالوا : بغز حين صار اسماً ، وهذا الإعلال أرجح من التصحيح ، ولأنه اعتل في رضي وفي رضيان تثنية رضي .

وقرأ ابن أبي عبلة : مرضواً مصححاً .

وقالت العرب : أرض مسنية ومسنوة ، وهي التي تسقى بالسواني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(18/488)

وقال أبو السعود :

﴿ واذكر فِى الكتاب إسماعيل ﴾

فُصّل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناءِ بأمره بإيراده مستقلاً وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ تعليلٌ لموجب الأمر ، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف لكمال

شهرته به وناهيك أنه وعَدَ الصبرَ على الذبح بقوله : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ فوفّى ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ فيه دِلالةٌ على أن الرسولَ لا يجب أن يكون صاحبَ شريعةٍ ، فإن أولادَ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام كانوا على شريعته .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة ﴾ اشتغالاً بالأهم وهو أن يُقْبل الرجلُ بالتكميل على نفسه مَنْ هو أقربُ الناس إليه قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ ﴿ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوةٌ يؤتسى بهم ، وقيل : أهلُه أمتُه فإن الأنبياءَ عليهم السلام آباءُ الأمم ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ لاتصافه بالنعوت الجليلةِ التي من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(19/488)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾

الظاهر أنه ابن إبراهيم عليهما السلام كما ذهب إليه الجمهور وهو الحق ، وفصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه عليهم السلام لإبراز كمال الاعتناء بأمره بإيراده مستقلاً ، وقيل : إنه

إسماعيل بن حزقيل بعثه الله تعالى إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم فاستعفاه ورضي بثوابه سبحانه وفوض أمرهم إليه عز وجل في العفو والعقوبة وروى ذلك الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه وغالب الظن أنه لا يصح عنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ تعليل لموجب الأمر ، وإيراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته بذلك .

وقد جاء في بعض الاخبار أنه وعد رجلاً أن يقيم له بمكان فغاب عنه حولاً فلما جاءه قال له : ما برحت من مكانك فقال : لا والله ما كنت لأخلف موعدي ، وقيل : غاب عنه اثني عشر يوماً ، وعن مقاتل ثلاثة أيام ، وعن سهل بن سعد يوماً وليلة والأول أشهر ورواه الإمامية أيضاً عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ؛ وإذا كان هو الذبيح فناهيك في صدقه أنه وعد أباه الصبر على الذبح بقوله : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] فوفى .

وقال بعض الأذكياء طال بقاؤه : لا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى هذا الوعد والصدق فيه من أعظم ما يتصور .

﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ الكلام فيه كالكلام في السابق بيد أنهم قالوا هنا : إن فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة مستقلة فإن أولاد إبراهيم عليهم السلام كانوا على شريعته وقد اشتهر خلافه بل اشترط بعضهم فيه أن يكون صاحب كتاب أيضاً

والحق أنه ليس بلازم ، وقيل : إن المراد بكونه صاحب شريعة أن يكون له شريعة بالنسبة إلى المبعوث إليهم وإسماعيل عليه السلام كذلك لأنه بعث إلى جرهم بشريعة أبيه ولم يبعث إبراهيم عليه السلام إليهم ولا يخفى ما فيه .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة ﴾

(20/488)

اشتغالاً بالأهم وهو أن يبدأ الرجل بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقرب الناس إليه قال الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ [الشعراء : 214] .

﴿ وأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاَةِ ﴾ [طه : 132] ﴿ قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [التحريم : 6] أو قصدا إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوة يؤتسى بهم .

وقال الحسن : المراد بأهله أمته لكون النبي بمنزلة الأب لأمته ، ويؤيد ذلك أن في مصحف عبد الله وكان يأمر قومه والمراد بالصلاة والزكاة قيل معناهما المشهور ، وقيل : المراد بالزكاة مطلق الصدقة ، وحكى أنه عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة ليلاً والصدقة نهاراً ، وقيل المراد بها تزكية النفس وتطهيرها ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله وهو اسم مفعول وأصله مرضوو فأعل بقلب واوه ياء لأنها طرف بعد واو ساكنة

فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وقلبت الضمة كسرة.

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ مرضوا ﴾ من غير إعلال، وعن العرب أنهم قالوا: أرض مسنية ومسنوة وهي التي تسقى بالسواني. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(21/488)

وقال القاسمى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾

وهو ابن إبراهيم عليهما السلام. وإنما فَصَل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه، لإبراز كمال الاعتناء بأمره، بإيراده مستقلاً. وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ تعليل للأمر. وإيراده عليه السلام بهذا الوصف، وإن شاركه فيه بقية الأنبياء، تشريفاً له وإكراماً. ولأنه المشهور من خصاله. وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح، فوفىّ به حيث قال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: 102]، وهذا أعظم ما يتصور فيه. وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة. ولذا كان ضدها نفاقاً، كما صرّحت به الأخبار ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أي: كان يبدأ أهله في

الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم . ولأنهم أولى من سائر الناس : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : 214] ، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ [طه : 132] ، ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : 6] ، ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم ؟ فالإحسان الدينيّ أولى . أفاده الزمخشري ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ أي : لاتصافه بالنعوت الجليلة التي منها ما ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 109.108 ﴾

(22/488)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) ﴾

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة – أن يرك في الكتاب وهو هذا القرآن العظيم (جده إسماعيل) ، وأثنى عليه أعني إسماعيل بأنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً . ومما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده : أنه وعد أباه بصبره له على ذبحه ثم وفى بهذا الوعد . ومن وفى بوعده في تسليم نفسه للذبح فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يا بني إني أرى فِي

المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤْمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] فهذا وعده . وقد بين تعالى وفاءه به في قوله : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : 103] الآية . والتحقيق أن الذبيح هو إسماعيل . وقد دلت على ذلك آيتان من كتاب الله تعالى دلالة واضحة لا لبس فيها .

وسنوضح ذلك إن شاء الله غاية الإيضاح في سورة « الصافات » . وثناؤه جل ولا في هذه الآية الكريمة على نبيه إسماعيل بصدق الوعد يفهم من دليل خطابه – أعني مفهوم مخالفته – أن إخلاف الوعد مذموم . وهذا المفهوم قد جاء مبيناً في مواضع أخر من كتاب الله تعالى . كقوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : 77] وقوله ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2-3] إلى غير ذلك من الآيات . وفي الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

(23/488)

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة ﴾ . قد بين في موضاع أخر – أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك الذي أثنى الله به على جده إسماعيل ،

كقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] . . الآية .

ومعلوم أنه امتثل هذا الأمر . وكقوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] الآية . ويدخل في ذلك أمرهم أهليهم بالصلاة والزكاة . إلى غير ذلك من الآيات .

مسألة

اختلف العلماء في لزوم الوفاء بالعهد . فقال بعضهم : يلزم الوفاء به مطلقاً . وقال بعضهم : لا يلزم مطلقا . وقال بعضهم : إن أدخله بالوعد في ورطة لزم الوفاء به ، وإلا فلا . ومثاله – ما لو قال له : تزوج . فقال له : ليس عندي ما اصدق له الزوجة . فقال : تزوج والتزم لها الصداق وأنا أدفعه عنك ، فتزوج على هذا الأساس ، فإنه قد أدخله بوعده في ورطة التزام الصداق . واحتج من قال يلزمه : بأدلة منها آيات من كتاب الله دلت بظاهر عمومها على ذلك وبأحاديث .

(24/488)

فالآيات كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 34] ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] الآية ، وقوله تعالى : ﴿

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل : 91] الآية ، وقوله هنا : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] الآية ، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث كحديث « العدة دين » فجعلها ديناً دليل على لزومها . قال صاحب كشف الخفار ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس : « العدة دين ، رواه الطبراني في الأوسط والقضاعي وغيرهما عن ابن مسعود بلفظ قال : لا يعد أحدكم صبية ثم لا ينجز له ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : » العدة دين « ورواه أبو نعيم عنه بلفظ : إذا وعد أحدكم صبية فلينجز له : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر بلفظ » عطية « ورواه البخاري في الأدب المفرد موقوفاً ، ورواه الطبراني والديلمي عن علي مرفوعاً بلفظ : » الوعد بالعدة مثل الدين أو أشد « اي وعد الواعد . وفي لفظ له » عدة المؤمن دين . وعدة المؤمن كالأخذ باليد « وللطبراني في الأوسط عن قياث بن أشيم الليثي مرفوعاً : » العدة عطية « . وللخرائطي في المكارم عن الحسن البصري مرسلاً : ان امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فلم تجد عنده ، فقالت : عدني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » إن العدة عطية « وفي رواية لهما عن الحسن أنه قال : سأل رجل النَّبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فقال : » ما عندي ما أعطيك « قال : في المقاصد بعد ذكر الحديث وطرقه : وقد أفردته مع ما يلائمه بجزء – انتهى منه . وقد علم

في الجامع الصغير على هذا الحديث من رواية علي عند الديلمي في مسند الفردوس بالضعف .

(25/488)

وقال شارحه المناوي : وفيه دارم بين قبيصة ، قال الذهبي : لا يعرف اه . ولكن قد مر لك أن طرقه متعددة . وقد روي عن غير علي من الصحابة كما قدمنا روايته عن ابن مسعود ، وقياث بن أشيم الكناني الليثي رضي الله عنهما . وسيأتي في هذا المبحث إن شاء الله أحاديث صحيحة ، دالة على الوفاء بالوعد .

واحتج من قالك بأن الوعد لا يلزم الوفاء به بالإجماع – على أن من وعد رجلاً بمال إذا فلس الواعد لا يضرب للموعود بالوعد مع الغرماء ، ولا يكون مثل ديونهم اللازمة بغير الوعد ، حكى الإجماع على هذا ابن عبد البر . كما نقله عنه القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ، وفيه مناقشة . وحجة من فرق بين إدخاله غياه في ورطة بالوعد فيلزم . وبين عدم إدخاله إياه فيها فلا يلزم أنه إذا أدخله في ورطة بالوعد ثم رجع في الوعد وتركه في الورطة التي أدخله فيها .

(26/488)

فقد أضر به . وليس لمسلم ان يضر بأخيه ، الحديق « لا ضرر ولا ضرار » .

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسيره هذه الآية : قال مالك : ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال نعم ، وثم رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان .

(27/488)

وقال أبو حنيفة وأصحابه ، والأوزاعي ، والشافعي وسائر الفقهاء إن العدة لا يلزم منها شيء ، لأنها منافع لم يقبضها في العارية لأنها طارئة ، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها . وفي البخاري : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] وقضى ابن أشوع بالوعد ، وذكر ذلك عن سمرة بن جندب ، قال البخاري : ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أشوع اه كلام القرطبي . وكلام البخاري الذي ذكر القرطبي بعضهن هو قوله في آخر كتاب « الشهادات » : باب من أمر بإنجاز الوعد ، وفعله الحسن وذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وقضى ابن الأشوع بالوعد ، وذكر ذلك عن سمرة وقال المسور بن مخرمة : سمعت النَّبي

صلى الله عليه وسلم ، وذكر صهراً له ، قال وعدني فوفى لي ، قال أبو عبد الله : ورايت إسحاق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أشوع : حدثنا إبراهيم بن حمزة ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد اللهك أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أخبره قال أخبرني أبو سفيان : أن هرقل قال له : سألتك ماذا يأمركم . فزعمت أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . قال : وهذه صفى نبي . حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيب نافع بن مالك بن ابي عامر عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا وعد أخلف » حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام عن ابن جريج قالك أخبرني عمرو بن دينار عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال : لما مات النَّبي صلى الله عليه وسلم جاء أبا بكل مال من قبل العلاء بن الحضرمي فقال أبو بكر : من كان له على النَّبي صلى الله عليه وسلم دين ، أو كانت له قبله عدة فليأتنا . قال جابر : فقلت وعدني رسول الله صلى

الله عليه وسلم ان يعطيني هكذا وهكذا ، فبسط يديه ثلاث مرات . قال جابر : فعد في يدي خمسمائة ، ثم خمسمائة ، ثم خمسمائة . حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، أخبرنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير : قال : سالني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسالت ابن عباس ، قال : قضى أكثرهما وأطيبهما .

(29/488)

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل – انتهى من صحيح البخاري . وقوله في ترجمة الباب المذكور « وفلعه الحسن » يعني الأمر بإنجاز الوعد . ووجه احتجاجه بآية ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] أن الثناء عليه بصدق الوعد يفهم منه أن إخلافه مذموم فاعله ، فلا يجوز . وابن الأشوع المذكور هو سعيد بن عمرو بن أشوع الهمداني الكوفي ، كان تفسير إسحاق بن راهوية وهو إسحاق بن إبراهيم الذي ذكر البخاري أنه رآه يحتج بحديث ابن أشوع ، كما قاله ابن حجر في « الفتح » . والمراد أنه كان يحتج به في القول بوجوب إنجاز الوعد . وصهر النَّبي صلى الله عليه وسلم الذي أثنى عليه بوفائه له بالوعد هو أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أسره

المسلمون يوم بدر كافراً ، وقد وعده برد ابنته زينب إليه وردها إليه . خلافاً لمن زعم أن الصهر المذكور أبو بكر رضي الله عنه . وقد ذكر البخاري في البال المذكور أربعة أحاديث في كل واحد منها دليل على الوفاء بإنجاز الوعد .

الأول – حديث أبي سفيان بن حب في قصة هرقل وهو طرف من حديث صحيح مشهور . ووجه الدلالة منه في قوله : « فزعمت أنه أمركم بالصلاة والعفاف والوفاء وأداء الأمانة » فإن جميع المذكورات في هذا الحديث مع الوفاء بالعهد كلها واجبة ، وهي الصلاة والصدق والعفاف وأداء الأمانة . وقد ذكر بعد ذلك أن هذه الأمور صفة نبي والاقتداء بالأنبياء واجب .

الثاني – حديث أبي هريرة في آية المنافق . ومحل الدليل منه قوله « وأذا وعد أخلف » فكون إخلاف الوعد من علامات المنافق يدل على أن المسلم لا يجوز له أن يتسم بسمات المنافقين .

الثالث – حديث جابر في قصته مع أبي بكر . ووجه الدلاة منه أن أبا بكر قال : من كان له على النَّبي صلى الله عليه وسلم دين أو كانتله قبله عدة . . الحديث . فجعل العدة كالدين ، وأنجز لجابر ما وعده النَّبي صلى الله عليه وسلم من المال : فدل ذلك على الوجوب .

(30/488)

الرابع – حديث ابن عباس في أي الأجلين قضى موسى : ووجه الدلالة منه أنه قضى أطيبهما وأكثرهما ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل . فعلى المؤمنين الاقتداء بالرسل ، وأن يفعلوا إذا قالوا . وفي الاستدلال بهذه الأحاديث مناقشات من المخالفين . ومن أقوى الأدلة في الوفاء بالعهد قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 3] لأن المقت الكبير من الله على عدم الوفاء بالقول يدل على التحريم الشديد في عدم الوفاء به .

(31/488)

وقال ابن حجر في « الفتح » في الكلام على ترجمة الباب المذكورة قال المهلب : إنجاز الوعد مأمور به مندوب إليه عند الجميع وليس بفرض : لاتفاقهم على أن الموعود لا يضارب بما وعد به مع الغرماء اه . ونقل الإجماع في ذلك مردود ، فإن الخلاف مشهور لكن القائل به قليل : وقال ابن عبد البر وابن العربي أجل من قال به عمر بن العزيز – انتهى محل الغرض من كلام الحافظ في الفتح ، وقال أيضاً وخرج بعضهم الخلاف في هذه المسألة على الخلاف في الهبة ، هل تلك بالقبض أو قبله .

فإذا علمت أقوال أهل العلم في هذه المسألة . وما استدل به كل فريق منهم – فاعلم أن الذي يظهر لي في هذه المسألة والله تعالى أعلم : أن إخلاف الوعد لا يجوز ، لكونه من علامات المنافقين ، ولأن الله يقول : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ وظاهر عمومه يشمل إخلاف الوعد ولكن الواعد إذا امتنع من إنجاز الوعد لا يحكم به ولا يلزم به جبراً . بل يؤمر به ولا يجبر عليه . لأن أكثر علماء الأمة على أنه لا يجبر على الوفاء به لأنه وعد بمعروف محض . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(32/488)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾

خصّ إسماعيل بالذكر هنا تنبيهاً على جدارته بالاستقلال بالذكر عقب ذكر إبراهيم وابنه إسحاق ، لأن إسماعيل صار جدّ أمة مستقلة قبل أن يصير يعقوب جدّ أمة ، ولأن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم وشريكُه في بناء الكعبة .

وتقدم ذكر إسماعيل عند قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل

﴾ في سورة البقرة (127) .

وخصه بوصف صدق الوعد لأنه اشتهر به وتركه خُلقاً في ذريته .

وأعظم وعْدٍ صدقَه وعدُه إياه إبراهيم بأن يجده صابراً على الذبح فقال ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ [الصافات : 102] .

وجعله الله نبيئاً ورسولاً إلى قومه ، وهم يومئذ لا يعدون أهله أمه وبنيه وأصهاره من جُرهم .

فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ثم إن أمة العرب نشأت من ذريته فهم أهله أيضاً ، وقد كان من شريعته الصلاة والزكاة وشؤون الحنيفية ملة أبيه إبراهيم .

ورضى الله عنه : إنعامه عليه نعماً كثيرة ، إذ باركه وأنمى نسله وجعل أشرف الأنبياء من ذريته ، وجعل الشريعة العظمى على لسان رسول من ذريته .

وتقدم اختلاف القراء في قراءة نبيئاً بالهمز أو بالياء المشددة .

وتقدم توجيه الجمع بين وصف رسول ونبيء عند ذكر موسى عليه السلام آنفاً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(33/488)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] ما الميزة هنا وكل الرسل كانوا صادقي الوعد ؟ قالوا : لأن هناك صفة تبرز في شخص ويتميز بها ، وإن كانت موجودة في غيره ، فالذي يصدُق في وعد أعطاه ، أو كلمة قالها صدق في أمر يملكه ويتعلق به .

أما إسماعيل عليه السلام فكان صادق الوعد في أمر حياة أو موت ، أمر يتعلق بنفسه ، حين قال لأبيه : ﴿ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] .

وليت الأمر جاء مباشرة ، إنما رآه غيره ، وربما كانت المسألة أيسَر لو أن الولد هو الذي رأى أباه يذبحه ، لكنها رُؤْيا رآها الأب ، والرؤيا لا يثبت بها حكم إلا عند الأنبياء . فكان إسماعيل دقيقاً في إجابته حينما أخبره أبوه كأنه يأخذ رأيه في هذا الأمر : ﴿ إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى ﴾ [الصافات : 102] .

فخاف إبراهيم عليه السلام أن يُقبل على ذَبْح ولده دون أن يخبره حتى لا تأتي عليه فترة يمتلىء غيظاً من أبيه إذا كان لا يعرف السبب ، فأحبَّ إبراهيم أن يكون استسلامُ ولده للذبح قُرْبَى منه لله ، له أجْرُها وثوابها .

قال إسماعيل عليه السلام لأبيه إبراهيم : ﴿ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ [الصافات : 102

] .

والوعد الذي صدق فيه قوله : ﴿ ستجدني إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] وصدق إسماعيل في وعده ، واستسلم للذبح ، ولم يتردد ولم يتراجع ؛ لذلك استحق أنْ يميزه ربه بهذه الصفة ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] .

(34/488)

فلما رأى الحق تبارك وتعالى استسلام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لقضاء الله رفع عنه قضاءه وناداه : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 104107] فكانت نتيجة الصبر على هذا الابتلاء أنْ فدى الله الذبيح ، وخلَّصه من الذبح ، ثم أكرم إبراهيم فوق الولد بولد آخر : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ [الأنعام : 84] .

وهذه لقطة قرآنية تُعلِّمنا أن المسلم إذا استسلم لقضاء الله ، ورَضِي بقدره فسوف يجني ثمار هذا الاستسلام ، والذي يطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضون به ، والحق تبارك وتعالى لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم ترْضَ .

وحين تسلم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيّن لك وجه الخير فيه . إذن : عليك أن تحترم القدر وترضى به ؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاء الله عن الخلق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أيّ شباب ؟ وأيّة متعة هذه ؟ وقد فارق في صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة ؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

إنه في نعيم لو عرفتَه لتمنيتَ أن تكون مكانه ، ويكفي أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص في الجنة ؛ لأنهم طلقاء فيها يمرحون كما يشاؤون ؛ لذلك يسمونهم (دعاميص الجنة) .

(35/488)

وآخر يعترض لأن زميله في العمل رُقّي حتى صار رئيساً له ، فإذا به يحقد عليه ويحقره ، وتشتعل نفسه عليه غضباً ، وكان عليه أن يتساءل قبل هذا كله : أأخذ زميله شيئاً من

مُلْك الله دون قضائه وقدره ، إذن : فعليك إذا لم تحترم هذا الزميل أن تحترم قدر الله فيه ، فما أخذَ شيئاً غصباً عن الله .

لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اسمعوا وأطيعوا ، ولو وُلِّي عليكم عبد حبشيّ ، كأنّ رأسَه زبيبة " .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة ﴾

أي : من خصال إسماعيل العظيمة التي ذكرها الله تعالى له : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة ﴾ [مريم : 55] أي : زوجته . والحق تبارك وتعالى لا يهتم بخَصْلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده ، تساوي كونه صادقَ الوعد وكونه رسولاً ونبياً ، فمَنْ أراد أنْ يتصفَ بصفة من صفات النبوة ، فعليه أنْ يأمرَ أهله بالصلاة والزكاة .

لكن ، لماذا اختص أهله بالذات ؟ اختص أهله لأنهم البيئة المباشرة التي إنْ صَلُحتْ للرجل صَلُحَ له بيته ، وصَلُحَتْ له ذريته ، إذا كان الرجل يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرات في اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان ، فليس له مجال في بيت يصلي أهله الخمس صلوات .

لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " رحم الله امرأ استيقظ من الليل ، فصلَّى ركعتين ثم أيقظ أهله فإن امتنعتْ نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّتْ ركعتين ، ثم أيقظتْ زوجها ، فإنِ امتنع نضحتْ في وجهه الماء " .

إذن : فكل رجل وكل امراة يستطيع في كل ليلة أن يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول ؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والرسل ، فليس بعد تشريعه تشريع ، وليس بعد كتابه كتاب ؛ لأن أمته ستحمل رسالته من بعده ، وكل مؤمن منهم يعلم من الإسلام حُكْماً فهو خليفة لرسول الله في تبليغه .

(36/488)

كما قال تعالى : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : 143] فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وعليكم أنْ تشهدوا أنكم بلّغتُم الناس ، وما دُمْتم بلَّغتم الناس مَنْطِقاً ولفظاً فلا بُدَّ أنْ يكون سلوكاً أيضاً ، لأن لكم في رسول الله أسوة حسنة .

ودائماً ما يقرن الحق تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة ، والصلاة تأخذ بعض الوقت ، والزكاة تأخذ المال الذي هو فرع العمل الذي هو فرع الوقت ، فإنْ كانت الزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، فالصلاة تأخذ الوقت نفسه . إذن : ففي الصلاة زكاة أبلغ من الزكاة .

وإنْ كان في الزكاة نماء المال وبركته وإنْ كانت في ظاهرها نقصاً ففي الصلاة نماء الوقت وبركته ، فإياك أنْ تقول : أنا مشغول ، ولا أجد وقتاً للصلاة ؛ لأن الدقائق التي ستصلي فيها فَرْض ربك هي التي ستُشِيع البركة في وقتك كله .

كما أنك حين تقف بين يَدَيْ ربك في الصلاة تأخذ شحنة إيمانية نوارنية تُعينك على أداء مهمتك في الحياة ، وتعرض نفسك على ربِّك وخالقك وصانعك ، ولن تُعدم خيراً ينالك من هذا اللقاء .

ولك أنْ تتصوّر صنعةً تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، هل يصيبها عُطْل أو عَطَب ؟ ! وإنْ كان المهندس الصانع يعالج بأشياء مادية فلأنه حِسِّيٌّ مشهود ، أما الخالق سبحانه فهو غَيْب يصلحك من حيث لا تدري .

وإنْ كان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو حريص عليها من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ [مريم : 55] أي : رضي الله عنه ، ليس لخصال الخير التي وصفه بها ، بل من بدايته ، فقد رضي عنه فاختاره رسولاً ونبياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(37/488)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) ﴾

أخرج الحاكم من طريق سمرة عن كعب قال : كان إسماعيل نبي الله الذي سماه صادق الوعد ، وكان رجلاً فيه حدة مجاهداً أعداء الله ، ويعطيه الله النصر عليهم ، والظفر ، وكان شديد الحرب على الكفار ، لا يخاف في الله لومة لائم ، صغير الرأس ، غليظ العنق ، طويل اليدين والرجلين ، يضرب بيديه ركبتيه وهو قائم ، صغير العينين ، طويل الأنف ، عريض الكتف ، طويل الأصابع ، بارز الخلق ، قوي شديد عنيف على الكفار ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكانت زكاته القربات إلى الله من أموالهم ، وكان لا يعد أحداً شيئاً إلا أنجزه ، فسماه الله ﴿ صادق الوعد ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ قال : لم يعد ربه عدة قط إلا أنفذها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان الثوري قال : بلغني أن إسماعيل وصاحباً له أتيا قرية ، فقال له صاحبه : إما أن أجلس وتدخل فتشتري طعاماً زادنا ، وإما أن أدخل فاكفيك ذلك ، فقال له إسماعيل : بل ادخل أنت وأنا أجلس أنتظرك ، فدخل ثم نسي فخرج ، فأقام مكانه حتى كان الحول من ذلك اليوم ، فمر به الرجل ، فقال له : أنت ههنا حتى الساعة ؟ قال : قلت لك لا أبرح حتى تجيء ، فقال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن سهل بن سعد قال : أن إسماعيل عليه السلام وعد رجلاً أن يأتيه ،

فجاء ونسي الرجل ، فظل به إسماعيل ، وبات حتى جاء الرجل من الغد ، فقال : ما برحت من ههنا ؟ قال : لا ، قال : إني نسيت ، قال : لم أكن لأبرح حتى تأتيني . ولذلك ﴿ كان صادق الوعد ﴾ .

وأخرج مسلم عن واثلة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة " .

(38/488)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد الخلائق يوم القيامة في اثني عشر نبياً منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب " .

وأخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : أول من نطق بالعربية ووضع الكتاب على لفظه ومنطقه ثم جعله كتاباً واحداً - مثل بسم الله الرحمن الرحيم - الوصول - حتى فرق بينه ولده إسماعيل .

وأخرج ابن سعد ، عن عقبة بن بشير ، أنه سأل محمد بن علي من أول من تكلم بالعربية ؟ قال : إسماعيل بن إبراهيم ، وهو ابن ثلاثة عشرة سنة . قلت : فما كان كلام الناس قبل ذلك ؟ قال العبرانية .

وأخرج ابن سعد ، عن الواقدي ، عن غير واحد من أهل العلم ، أن إسماعيل ألهم من يوم ولد لسان العرب ، وولد إبراهيم أجمعون على لسان إبراهيم .

وأخرج ابن سعد ، عن علي بن رباح اللخمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل العرب من ولد إسماعيل " .

وأخرج ابن سعد ، عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة قال : قبر أم إسماعيل تحت الميزاب ، بين الركن والبيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(39/488)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَرْضِيّاً ﴾ :

العامَّةُ على قراءته كذلك معتلاًّ وأصلُه مَرْضُوْوٌ ، بواوين : الأولى زائدةٌ كهي في مَضْروب ، والثانية لام الكلمة لأنه من الرِّضْوان ، فأُعِلَّ بقلب الواو ياءً وأُدْغِمَتْ الأخيرة ياءً ، واجتمعت الياءُ والواو فقُلبت الواوُ ياءً وأُدْغمت ويجوز النطقُ بالأصلِ . وقد تقدَّم تحريرُ

هذا . وقرأ ابن أبي عبلة بهذا الأصلِ وهو الأكثرُ ، ومن الإعلالِ قولُه :

3242- لقد عَلِمَتْ عِرْسِي مُلَيْكَةُ أنني . . . أنا المَرْءُ مَعْدِيَّاً عليه وعادِيا

وقالوا : أَرْضٌ مَسْنِيَّةٌ ومَسْنُوَّة ، أي : مُسْقاة بالسَّانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 607.608 ﴾

(40/488)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفِداء . وصدق الوعد لأنه حفظ العهد . وكان يأمر أهله بالصلاة - بأمر الله أياه - وبالزكاة ، ويشتمل هذه على أمره إياهم بالعيادة البدنية والمالية حيثما وكيفما كان .

﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ وكان هذا أشرفَ خِصاله وأَجلَّ صفاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 433.434 ﴾

(41/488)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إسماعيل عليه السلام قد رفع بالسكنى حياً إلى أعلى مكان في الأرض رتبة ، وكان أول نبي رمى بالسهام ، وكان إدريس عليه السلام – مع رفعته إلى المكان العلي – أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، وخط بالقلم ، وخاط الثياب ولبس الجبة وكان أغربهم قصة ، وأعجبهم أمراً ، وأقدمهم زمناً ، ختم به هذه القصص تأييداً لهذا النبي الكريم ، بما بين له من القصص التي هي أغرب مما أمر اليهود بالتعنت فيه ، وإشارة إلى أن الله تعالى يؤتي أتباعه من علوم إدريس الأرضية والسماوية مما يستحق أن يحفظ بالخط ويودع بطون الكتب لضيق الصدور عن حفظه ما لم يؤته أمة من الأمم ، وأنه يجمع شملهم ، وترهيباً للمتعنتين بأنهم إن لم ينتهوا وضع فيهم السلاح كما فعل إدريس عليه السلام بكفار زمانه فقال : ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أي الجامع لكل ما يحتاج

إليه من القصص المتقدمين والمتأخرين ﴿ إدريس ﴾ أي الذي هو أبعد ممن تعنت بهم اليهود زماناً ، وأخفى منهم شأناً ، وهو جد أبي نوح عليه السلام واسمه حنوخ بمهملة ونون وآخره معجمة ﴿ إنه كان صديقاً ﴾ أي صادقاً في أقواله وأفعاله ، ومصدقاً بما أتاه عن الله من آياته على ألسنة الملائكة ﴿ نبياً ﴾ ينبئه الله تعالى بما يوحيه إليه من الأمر العظيم ، رفعة لقدره ، فينبىء به الناس الذين أرسل إليهم ﴿ ورفعناه ﴾ جزاء منا له على تقواه وإحسانه ، رفعة تليق بعظمتنا ، فأحللناه ﴿ مكاناً علياً ﴾ أي الجنة أو السماء الرابعة ، وهي التي رآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها ليلة الإسراء ؛ قال ابن قتيبة في المعارف : وفي التوراة أن أخنوخ أحسن قدام الله فرفعه إليه – انتهى .

(42/488)

وفي نسخة ترجمه التوراة وهي قديمة جداً وقابلتها مع بعض فضلاء الربانيين من اليهود وعلى ترجمة سعيد الفيومي بالمعنى وكان هو القارىء ما نصه : وكانت جميع حياة حنوخ ثلاثمائة وخمساً وستين سنة ، فأرضى حنوخ الله ففقد لأن الله غيبه ، وفي نسخة أخرى : لأن الله قبله ، وفي أخرى : لأن الله أخذه .

وهو قريب مما قال ابن قتيبة ، لأن أصل الكلام عبراني ، وإنما نقله إلى العربي المترجمون ،

فكل ترجم على قدر فهمه من ذلك اللسان ، ويؤيد أن المراد الجنة ما في مجمع الزوائد للحافظ نور الدين الهيثمي عن معجمي الطبراني – الأوسط والأصغر إن لم يكن موضوعاً : حدثنا محمد بن واسط ثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي ثنا حجاج بن محمد بن أبي غسان محمد بن مطرف عن زيد ابن أسلم عن عبيد الله بن أبي رافع عن أم سلمة - رضى الله عنهم - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

" إن إدريس عليه السلام كان صديقاً لملك الموت فسأله أن يريه الجنة والنار ، فصعد بإدريس فأراه النار ففزع منها ، وكاد يغشى عليه فالتف عليه ملك الموت بجناحه ، فقال ملك الموت : أليس قد رأيتها ؟ قال : بلى ! ولم أر كاليوم قط ، ثم انطلق به حتى أراه الجنة فدخلها فقال له ملك الموت : انطلق ! قد رأيتها ، قال : إلى أين ؟ قال ملك الموت : حيث كنت ، قال إدريس : لا والله ! لا أخرج منها بعد إذ دخلتها ، فقيل لملك الموت : أليس أنت أدخلته إياها وأنه ليس لأحد دخلها أن يخرج منها " .

وقال : لا يروى عن أم سلمة إلا بهذا الإسناد ، وقال الحافظ نور الدين : إبراهيم المصيصي متروك .

قلت وفي لسان الميزان لتلميذه شيخنا حافظ العصر ابن حجر عن الذهبي أنه كذاب ، وعن ابن حبان أنه كان يسوي الحديث ، أي يدلس تدليس التسوية .

وفي تفسير البغوي عن وهب قريب من هذا ، وفيه أنه سأل ملك الموت أن يقبض روحه ويردها إليه بعد ساعة ، فأوحى الله إليه أن يفعل ، وفيه أنه احتج في امتناعه من الخروج بأن كل نفس ذائقة الموت وقد ذاقه ، وأنه لا بد من ورود النار وقد وردها ، وأنه ليس أحد يخرج من الجنة ، فأوحى الله إلى ملك الموت : بإذني دخل الجنة – يعني : فخلِّ سبيله – فهو حي هناك .

وفي تفسير البغوي أيضاً عن كعب وغيره أن إدريس عليه السلام مشى ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال : يا رب ! فكيف بمن يحملها ؟ اللهم ! خفف عنه من ثقلها ، فخفف عنه فسأل ربه عن السبب فأخبره فسأل أن يكون بينهما خلة ، فأتاه فسأله إدريس عليه السلام أن يسأل ملك الموت أن يؤخر أجله ، فقال : لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، وأنا مكلمه ، فرفع إدريس عليه السلام فوضعه عند مطلع الشمس ، ثم أتى ملك الموت وكلمه فقال : ليس ذلك إليّ ، ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيتقدم في نفسه ، قال : نعم ! فنظر في ديوانه فقال : إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس ، قال : فإني أتيتك وتركته هناك ، قال : انطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات ، فوالله ما بقي من أجل إدريس – عليه السلام – شيء ، فرجع الملك فوجده ميتاً . (1)

ومن جيد المناسبات أن إسماعيل وإدرس عليهما الصلاة والسلام اشتركا في البيان بالعلم واللسان ، فإسماعيل عليه السلام أول من أجاد البيان باللسان ، وإدريس عليه السلام أول من أعرب الخطاب بالكتاب ، فقد روى الطبراني عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أول من فتق لسانه بهذه العربية إسماعيل عليه السلام "

ولأحمد عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام " .

---

(1) لا يخفى ما فى هذه الأخبار من الإسرائيليات المنكرة . والله أعلم .

(44/488)

ولما انقضى كشف هذه الأخبار ، العلية المقدار ، الجليلة الأسرار ، شرع سبحانه ينسب أهلها بأشرف نسبهم ، ويذكر أمتن سببهم هزاً لمن وافقهم في النسب إلى الموافقة في السبب فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتب ، الشرفاء النسب ﴿ الذين أنعم الله ﴾ بما له من صفات الكمال التي بها أقام آدم عليه السلام وهم في ظهره ، مع ما طبعه عليه من الأمور المتضادة حتى نجاه من مكر إبليس ، ونجى بها نوحاً عليه السلام وهم في صلبه من ذلك

الكرب العظيم ، وإبراهيم عليه السلام وهم في قواه مع اضطرام النار وإطفاء السن وإصلاد العظم ، وأعلى بها إسرائيل عليه السلام وبنيه في سوط الفراق وامتهان العبودية وانتهاك الاتهام حتى كان أبناؤه معدن الملوك والأنبياء ، ومحل الأتقياء والأصفياء ، إلى غير ذلك من جليل الأنبياء وعظيم الأصطفاء والاجتباء ﴿ عليهم ﴾ بما خصهم به من مزيد القرب إليه ، وعظيم المنزلة لديه ؛ وبين الموصول بقوله : ﴿ من النبيين ﴾ أي المصطفين للنبوة الذين أبنأهم الله بدقائق الحكم ، ورفع محالهم بين الأمم ، وأنبؤوا الناس بجلائل الكلم ، وأمروهم بطاهر الشيم .

ولما كانوا بعض بني آدم الذين تقدم أنا كرمناهم ، قال إشارة إلى ما في ذلك من النعمة عليهم وهم يرونها : ﴿ من ذرية ءادم ﴾ صفينا أبي البشر الذي خلقه الله من التراب بيده ، وأسجد له ملائكته ، وإدريس أحقهم بذلك .

(45/488)

ولما كان في إنجاء نوح عليه السلام وإغراق قومه من القدرة الباهرة ما لا يخفى ، نبه عليه بنون العظمة في قوله مشيراً إلى أعظم النعمة عليهم بالتبعيض ، وإلى أن نبيهم من ذريته كما كان هو من ذرية إدريس عليه السلام الذي هو من ذرية آدم ، فكما كان كل منهم رسولاً

فكذلك هو وإبراهيم أقربهم إلى ذلك : ﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ صفينا أول رسول أرسلناه بعد افتراق أهل الأرض وإشراكهم ، من خلص العباد ، وأهل الرشاد ، وجعلناه شكوراً ، وإبراهيم أقربهم إلى ذلك ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ خليلنا الذي كان له في إعدام الأنداد ما اشتهر به من فضله بين العباد ، وإسماعيل وإسحاق أولاهم بذلك ، ثم يعقوب

﴿ وإسرائيل ﴾ صفينا ، وهم الباقون : موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم بنت داود – على جميعهم أفضل الصلاة والسلام – فكما كان هؤلاء رسلاً وهم من ذرية إبراهيم الذي هو من ذرية نوح فكذا نبيكم الذي هو من ذرية إسماعيل الذي هو من إبراهيم لصلبه وهو أول أولاده كما كان إسرائيل من ذريته ، فالإرسال من ذرية من هو ابنه لصلبه أولى من الإرسال من ذرية من بينه وبينه واسطة ، وإلا كان بنو إسرائيل أشرف منكم وأبوهم أشرف من أبيكم ، فلا تردوا الكرامة ، يا من يتنافسون في المفاخرة والزعامة

﴿ وممن هدينا ﴾ إلى أقوم الطرق ﴿ واجتبينا ﴾ أي فعلنا بهم فعل من يتخير الشيء وينتقيه بأن أسبغنا عليهم من النعم ما يجل عن الوصف ؛ وعطف الأوصاف بالواو إشارة إلى التمكن فيها .

(46/488)

ولما ذكر ما حباهم به ، ذكر ما تسبب عن ذلك فقال مستأنفاً ﴿ إذا تتلى عليهم ءايات الرحمن ﴾ العام النعمة ، فكيف بهم إذا أعلاهم جلال أو خصتهم رحمة من جلائل النعم ، من فيض الجود والكرم ، فسمعوا خصوص هذا القرآن ﴿ خروا سجداً ﴾ للمنعم عليهم تقرباً إليه ، لما لهم من البصائر المنيرة في ذكر نعمه عليهم وإحسانه إليهم ﴿ وبكياً ﴾ خوفاً منه وشوقاً إليه ، فوصفهم بسرعة الخشوع من ذكر الله الناشىء عن دوام الخضوع والناشىء عنه الإسراع بالسجود في حالة البكاء ، وجعلهما حالتين بالعطف بالواو لعراقة المتحلي بهما في كل منهما عل انفراده ، وعبر بالاسم في كل من السجود والبكاء ، إشارة إلى أن خوفهم دائم كما أن خضوعهم دائم لعظمة الكبير الجليل ، لأن تلك الحضرة لا تغيب عنهم أصلاً ، وإن حصل غير البكاء فللتأنيس لمن أرسلوا إليه ليوصلوه إلى قريب من رتبتهم بحسن عشرتهم على تفاوت المراتب ، وتباين المطالب ، وحذف ذكر الأذقان لدلالتها – كما تقدم في سبحان – على نوع دهشة ، فهي – وإن أعلت صاحبها عمن لم يبلغها – حالة دون مقام الراسخين في حضرة الجلال ، لأنهم – مع كونهم في الذروة من مقام الخوف – في أعلى درجات الكمال من حضور الفكر وانشراح الصدر – لتلقي واردات الحق وإلقائها إلى الخلق ، انظر إلى ثبات الصديق ـ رضى الله عنهم ـ – لعلو مقامه عن غيره – عند وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه أوفاهم من المحبة مشرباً ، وأصفاهم مورداً ، وأوفرهم حزناً ، وأكثرهم غماً وهماً ، حتى أنه اعتراه لذلك مرض السل حتى مات به وجداً وأسفاً

ومن هنا تعلم السر في إرسال النبي - صلى الله عليه وسلم - الأنبجانية التي ألهت في الصلاة بأعلامها في الصلاة إلى أبي جهم لأنه - رضى الله عنهم - ربما كان من أهل الجمع في الصلاة فلا يرى غيره سبحانه فناء عن كل فان بخلاف النبي فإنه لكماله متمكن في كل من مقامي الجمع والفرق في كل حالة ولهذا يرى من خلفه في الصلاة ولا يخفى عليه خشوعهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 541 . 545 ﴾

(47/488)

فصل

قال ابن كثير :

قال الله تعالى واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ هذا وهو في عمود نسب رسول الله صلى الله عليه و سلم على ما ذكره غير واحد من علماء النسب وكان أول بني آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الخط

بالرمل فقال إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ويسمونه هرمس الهرامسة ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء وقوله تعالى ورفعناه مكانا عليا هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به وهو في السماء الرابعة وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف

(48/488)

قال سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر فقال له ما قول الله تعالى لإدريس ورفعناه مكانا عليا فقال كعب أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم لعله من أهل زمانه فأحب أن يزداد عملا فأتاه خليل له من الملائكة فقال إن الله أوحى إلي كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى ازداد عملا فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرا فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس قال هو ذا على ظهري فقال ملك الموت فالعجب بعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في

الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل ورفعناه مكانا عليا ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها وعنده فقال لذلك الملك سل لي ملك الموت كم بقي من عمري فسأله وهو معه كم بقي من عمره فقال لا أدري حتى أنظر فنظر فقال إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر وهذا من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة وقول ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ورفعناه مكانا عليا قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففي هذا نظر وإن أراد أنه رفع حيا إلى السماء ثم قبض هناك فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار والله أعلم

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ورفعناه مكانا عليا رفع إلى السماء السادسة فمات بها وهكذا قال الضحاك والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهد وغير واحد وقال الحسن البصري ورفعناه مكانا عليا قال إلى الجنة وقال قائلون رفع في حياة أبيه يرد بن مهلاييل والله أعلم وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل

(49/488)

قال البخاري ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن الياس هو إدريس واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء أنه لما مر به عليه السلام قال له مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قالوا فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قال له وهذا لا يدل ولا بد لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيدا أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البداية والنهاية حـ 1 صـ 99. 100 ﴾

(50/488)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) ﴾

(القصة السادسة قصة إدريس عليه السلام)

اعلم أن إدريس عليه السلام هو جد أبي نوح عليه السلام وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ قيل سمي إدريس لكثرة دراسته واسمه أخنوخ ووصفه الله تعالى بأمور : أحدها :

أنه كان صديقاً .

وثانيها : أنه كان نبياً وقد تقدم القول فيهما .

وثالثها : قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ وفيه قولان : أحدهما : أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : 4] فإن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود .

الثاني : أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عال وهذا أولى ، لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان لا في الدرجة ثم اختلفوا فقال بعضهم إن الله رفعه إلى السماء وإلى الجنة وهو حي لم يمت ، وقال آخرون : بل رفع إلى السماء وقبض روحه سأل ابن عباس رضي الله عنهما كعباً عن قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ قال : جاءه خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة فإذا ملك الموت يقول بعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة ، وأنا أقول كيف ذلك وهو في الأرض فالتفت إدريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك . (1)

واعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى السماء لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة ، ولذلك قال في حق الملائكة : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ ﴾ [الأنبياء : 19] وههنا آخر القصص .

---

(1) تقدم الرد على مثل هذا الخبر وأنه من الإسرائيليات .

(51/488)

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾

اعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء ثم جمعهم آخراً فقال : ﴿ أُولَئِكَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم ﴾ أي بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه وأولئك إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس ، ثم جمعهم في كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح ، والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام ، فقد كان سابقاً على نوح على ما ثبت في الأخبار والذين هم من ذرية من حمل مع نوح هو إبراهيم عليه السلام لأنه من ولد سام بن نوح وإسمعيل وإسحق ويعقوب من ذرية إبراهيم ثم خص بعضهم بأنهم من ولد إسرائيل أي يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الأم فرتب الله سبحانه وتعالى أحوال الأنبياء عليهم السلام الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبهاً بذلك على أنهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم مزيد في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء ، ثم بين أنهم ممن هدينا واجتبينا

منبهاً بذلك على أنهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم ، ولأنه اختارهم للرسالة ثم قال : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ تتلى عليهم أي على هؤلاء الأنبياء فبين تعالى أنهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذي عند تلاوة آيات الله يخرون سجداً وبكياً خضوعاً وخشوعاً وحذراً وخوفاً ، والمراد بآيات الله ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم .

(52/488)

وقال أبو مسلم المراد بالآيات التي فيها ذكر العذاب المنزل بالكفار وهو بعيد لأن سائر الأيات التي فيها ذكر الجنة والنار إلى غير ذلك أولى أن يسجدوا عنده ويبكوا فيجب حمله على كل آية تتلى مما يتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، لأن كل ذلك إذا فكر فيه المتفكر صح أن يسجد عنده وأن يبكي ، واختلفوا فقال بعضهم في السجود : إنه الصلاة وقال بعضهم : المراد سجود التلاوة على حسب ما تعبدنا به وقيل : المراد الخضوع والخشوع والظاهر يقتضي سجوداً مخصوصاً عند التلاوة ثم يحتمل أن يكون المراد سجود التلاوة للقرآن ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لا لأجل ذكر السجود في الآية ، قال الزجاج في بكياً : جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود ثم

قال الإنسان في حال خروره لا يكون ساجداً فالمراد خروا مقدرين للسجود ومن قال في بكياً إنه مصدر فقد أخطأ لأن سجداً جمع ساجد وبكياً معطوف عليه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتلو القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا "

وعن صالح المري قال : قرأت القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه .

(53/488)

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن نزل بحزن فاقرأوه بحزن " وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما اغرورقت عين به بماء إلا حرم الله على النار جسدها " وعن أبي هريرة رضي الله عنه : " لا يلج النار من بكى من خشية الله " وقال العلماء : يدعو في سجود التلاوة بما يليق بها فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك وإن قرأ سجدة سبحان قال : اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك وإن قرأ هذه السجدة قال : اللهم

اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آيات كتابك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 199 . 201 ﴾

(54/488)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾

فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ سَامِعَ السَّجْدَةِ وَتَالِيهَا سَوَاءٌ فِي حُكْمِهَا وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا يَسْجُدُونَ ؛ لِأَنَّهُ مَدَحَ السَّامِعِينَ لَهَا إذَا سَجَدُوا وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ تَلَا سَجْدَةً يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ فَنَزَلَ وَسَجَدَهَا وَسَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ﴾ .

وَرَوَى عَطِيَّةُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ قَالُوا : " السَّجْدَةُ عَلَى مَنْ سَمِعَهَا " .

وَرَوَى أَبُو إسْحَاقَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَنْظَلَةَ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : قَرَأْتُ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ سَجْدَةً فَقَالَ : " إنَّمَا السَّجْدَةُ عَلَى مَنْ جَلَسَ لَهَا " ، وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ عَنْ عُثْمَانَ مِثْلَهُ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ أَوْجَبَا السَّجْدَةَ عَلَى مَنْ جَلَسَ لَهَا ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ لِلسَّجْدَةِ بَعْدَ

أَنْ يَكُونَ قَدْ سَمِعَهَا ؛ إذْ كَانَ السَّبَبُ الْمُوجِبُ لَهَا هُوَ السَّمَاعُ ، ثُمَّ لَا يَخْتَلِفُ حُكْمُهَا فِي الْوُجُوبِ بِالنِّيَّةِ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْبُكَاءَ فِي الصَّلَاةِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ لَا يُفْسِدُهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(55/488)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن إدريس رفع إلى السماء الرابعة ، وهذا قول أنس بن مالك في حديث مرفوع ، وأبي سعيد الخدري ، وكعب ، ومجاهد .

الثاني : رفعه إلى السماء السادسة ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وهو مرفوع في السماء .

واختلفوا في موته فيها على قولين :

أحدهما : أنه ميت فيها ، قاله مقاتل وقيل أنه مات بين السماء الرابعة والخامسة .

الثاني : أنه حيّ فيها لم يمت مثل عيسى . روى ابن إسحاق أن إدريس أول من أُعْطِي النبوة من ولد آدم وأول من خط بالقلم ، وهو أخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث

بن آدم . وحكى ابن الأزهر عن وهب بن منبه أن إدريس أول من اتخذ السلاح وجاهد في سبيل الله وسبى ، ولبس الثياب وإنما كانوا يلبسون الجلود ، وأول من وضع الأوزان والكيول ، وأقام علم النجوم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ . . . خَرّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾

أي سُجّداً لله ، وبكياً جمع باك ، ليكون السجود رغبة والبكاء رهبة . وقد روي في الحديث : " فَهذَا السُّجُودُ فَأَينَ البُكَاءُ ؟ " يعني هذه الرغبة فأين الرهبة ؟ لأن الطاعة لا تخلص إلا بالرغبة والرهبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(56/488)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) ﴾

﴿ إدريس ﴾ عليه السلام هو من أجداد نوح عليه السلام ، وهو أول نبي بعث الى أهل الأرض ، فيما روي ، من بعد آدم ، وهو أول من خط بالقلم وكان خياطاً ، ووصفه الله ب " الصدق " والوجه أن يحمل ذلك على العموم في الأحاديث والأعمال . قال ابن مسعود هو الياس بعث إلى قومه بأن لا يقولوا لا إله إلا الله . ويعملوا ما شاؤوا فأبوا فأهلكوا ، والأشهر

أنه لم يبعث بإهلاك أمة وإنما نبىء فقط واختلف الناس في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ .

(57/488)

فقال جماعة من العلماء هو رفع النبوءة والتشريف والمنزلة وهو في السماء كما سائر الأنبياء ، وقالت فرقة : بل رفع الى السماء ، قال ابن عباس : كان ذلك بأمر الله كما رفع عيسى وهنالك مات ، وقال مجاهد إلا أنه قال : ولم يمت ، وكذلك قال وهب وقال كعب الأحبار لابن عباس كان له خليل من الملائكة فحمله على على جناحه وصعد به حتى بلغ السماء الرابعة فلقي هنالك ملك الموت فقال له إنه قيل لي اهبط إلى السماء الرابعة فاقبض فيها روح ﴿ إدريس ﴾ وإني لأعجب كيف يكون هذا ، فقال له الملك الصاعد هذا ﴿ إدريس ﴾ معي فقبض روحه وروي أن هذا كله كان في السماء السادسة قاله ابن عباس ، وكذلك هي رتبته في حديث الإسراء في بعض الروايات وحديث أنس بن مالك وأبي هريرة في الإسراء يقتضي أنه في السماء الرابعة . وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم ﴾ الإشارة ب ﴿ أولئك ﴾ إلى من تقدم ذكره ، وقوله ﴿ من ذرية آدم ﴾ يريد ﴿ إدريس ﴾ ونوحاً وممن حمل مع نوح إبراهيم عليه السلام ، ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾

وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ومن ذرية ﴿ إسرائيل ﴾ موسى وهارون وزكرياء ويحيى ومريم . وقوله ﴿ وممن هدينا ﴾ معناه وأولئك ممن هدينا ، لأن هدى الله قد ناله غير هؤلاء . ﴿ واجتبينا ﴾ معناه اصطفينا واخترنا وكأنه من جبيت المال إذا جمعته ومنه جباية المال وكأن جابيه يصطفيه ، وقرأ الجمهور " إذا تتلى " بالتاء من فوق وقرأ نافع وشيبة ، وأبو جعفر " إذا يتلى " بالياء ، و" الآيات " هنا الكتب المنزلة ، و﴿ سجداً ﴾ نصب على الحال لأن مبدأ السجود سجود ، وقرأ عمر بن الخطاب والجمهور " بكياً " قالت فرقة : هو جمع باك كما يجمع عاث وجاث على عثيّ وجثي ، وقال فرقة : هو مصدر بمعنى البكاء التقدير وبكوا ﴿ بكياً ﴾ واحتج الطبري ومكي لهذا القول بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه روي أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال " هذا السجود فأين البكي " يعني البكاء ، واحتجاجهم بهذا فاسد لأنه يحتمل

(58/488)

أن يريد عمر رضي الله عنه " فأين الباكون " ، فلا حجة فيه لهذا وهذا الذي ذكروه عن عمر ذكره أبو حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأ ابن مسعود ويحيى والأعمش "

وبكياً " بكسر الباء وهو مصدر على هذه القراءة لا يحتمل غير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(59/488)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ورفعناه مكاناً عَلِيّاً ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه في السماء الرابعة ، روى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج : أنه رأى إِدريس في السماء الرابعة ، وبهذا قال أبو سعيد الخدريّ ، ومجاهد ، وأبو العالية .

والثاني : أنه في السماء السادسة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثالث : أنه في الجنة ، قاله زيد بن أسلم ، وهذا يرجع إِلى الأول ، لأنه قد روي أن الجنة في السماء الرابعة .

والرابع : أنه في السماء السابعة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

وفي سبب صعوده إِلى السماء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان يصعد له من العمل مِثْلُ ما يصعد لجميع بني آدم ، فأحبَّه مَلَك الموت ، فاستأذن اللهَ في خُلَّته ، فأذن له ، فهبط إليه في صورة آدمي ، وكان يصحبه فلما عرفه ، قال إنّي أسألك حاجة ، قال : ما هي ؟ قال : تذيقني الموت ، فلعلّي أعلم ما شدّته فأكون له أشدّ استعداداً ؛ فأوحى الله إليه أن اقبض روحه ساعةً ثم أَرْسِله ، ففعل ، ثم قال : كيف رأيتَ ؟ قال : كان أشدّ مما بلغني عنه ، وإني أُحب أن تريَني النار ، قال : فحمله ، فأراه إيّاها ؛ قال : إني أُحِبُّ أن تريَني الجنة ، فأراه إياها ، فلما دخلها وطاف فيها ، قال له ملك الموت : اخرج ، فقال : والله لا أخرج حتى يكون الله تعالى يُخرجني ؛ فبعث الله مَلَكاً فحكم بينهما ، فقال : ما تقول يا مَلَك الموت ؟ فقصَّ عليه ما جرى ؛ فقال : ما تقول يا إدريس ؟ قال : إن الله تعالى قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقة الموت ﴾ [آل عمران : 185] ، وقد ذُقْتُه ، وقال : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] ، وقد وردتُها ، وقال لأهل الجنة : ﴿ وما هم منها بمُخْرَجين ﴾ [الحجر : 48] ، فوالله لا أخرج حتى يكون الله يُخرجني ؛ فسمع هاتفاً من فوقه يقول : بإذني دخل ، وبأمري فعل ، فخلِّ سبيله ؛ هذا معنى ما رواه زيد بن أسلم مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فإن سأل سائل فقال : من أين لإِدريس هذه الآيات ، وهي في كتابنا ؟ ! فقد ذكر ابن الأنباري عن بعض العلماء ، قال : كان الله تعالى قد أعلم إِدريس بما ذكر في القرآن من وجوب الورود ، وامتناع الخروج من الجنة ، وغير ذلك ، فقال ما قاله بعلم .

(61/488)

والثاني : أن ملَكاً من الملائكة استأذن ربه أن يهبط إِلى إِدريس ، فأذن له ، فلما عرفه إِدريس ، قال : هل بينك وبين ملك الموت قرابة ؟ قال : ذاك أخي من الملائكة ، قال : هل تستطيع أن تنفعني عند ملك الموت ؟ قال سأكلّمه فيك ، فيرفق بك ، اركب بين جناحيّ ، فركب إِدريس ، فصعد به إِلى السماء ، فلقي ملك الموت ، فقال : إِن لي إِليك حاجة ، قال : أعلم ما حاجتك ، تكلّمني في إِدريس وقد محي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أَجَله إِلا نصف طرفة عين ؟ ! فمات إِدريس بين جناحي الملَك ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : فقبض ملك الموت روح إِدريس في السماء السادسة .

والثالث : أن إِدريس مشى يوماً في الشمس ، فأصابه وهجها ، فقال : اللهم خفّف ثقلها عمَّن يحملها ، يعني به الملك الموكَّل بالشمس ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرّها مالا يعرف ، فسأل الله عز وجل عن ذلك ، فقال : إِن عبدي إِدريس سألني أن

أُخفِّف عنكَ حِملها وحرَّها ، فأجبْتُه ، فقال : يا رب اجمع بيني وبينه ، واجعل بيننا خُلَّة ، فأَذِن له ، [فأتاه] ، فكان مما قال له إدريس : اشفع لي إلى ملك الموت ليؤخّر أجَلي ، فقال : إن الله لا يؤخّر نفساً إذا جاء أَجَلُها ، ولكن أُكلّمه فيك ، فما كان مستطيعاً أن يفعل بأحد من بني آدم فعل بك ، ثم حمله الملك على جناحه ، فرفعه إلى السماء ، فوضعه عند مطلع الشمس ، ثم أتى ملكَ الموت فقال : إن لي إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفَّعَ بي إليك لتؤخّر أجَله ، قال : ليس ذاك إليَّ ، ولكن إن أحببتَ أعلمتُه متى يموت ، فنظر في ديوانه ، فقال : إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً ، ولا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس ، فقال : إني أتيتك وتركته هناك ، قال : انطلق ، فما أراك تجده إلا ميتاً ، فوالله ما بقي من أجله شيء ، فرجع الملك فرآه ميتاً .

وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وكعب في آخرين .

(62/488)

فهذا القول والذي قبله يدلاّن على أنه ميت ، والقول الأول يدل على أنه حيّ .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾

يعني الذين ذكرهم من الأنبياء في هذه السورة ﴿ من ذُرِّيَّة آدم ﴾ يعني إدريس ﴿ وممن

حَمَلْنا مع نوح ﴾ يعني إبراهيم ، لأنه من ولد سام بن نوح ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ يريد : إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ وإسرائيل ﴾ يعني : ومن ذرية إسرائيل ، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى .

قوله تعالى : ﴿ وممن هَدَينا ﴾ أي : هؤلاء كانوا ممن أرشَدْنا ، ﴿ واجتَبَيْنَا ﴾ أي : واصطَفَيْنا .

قوله تعالى : ﴿ خرُّوا سُجَّداً ﴾ قال الزجاج : "سُجَّداً" حال مقدَّرة ، المعنى : خرُّوا مقدِّرين السجود ، لأن الإنسان في حال خروره لا يكون ساجداً ، ف "سُجَّداً" منصوب على الحال ، وهو جمع ساجد "وبُكيّاً" معطوف عليه ، وهو : جمع باكٍ ، فقد بيَّن الله تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وبَكَوْا من خشية الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(63/488)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾

إدريس عليه السلام أوّل من خط بالقلم ، وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأوّل من

نظر في علم النجوم والحساب وسيرها .

وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى .

وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر .

قال الزمخشري : وقيل سمي إدريسُ إدريسَ لكثرة درسه كتاب الله تعالى ؛ وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفاً ، فامتناعه من الصرف دليل على العجمة ؛ وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاس كما يزعمون ؛ ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت ؛ ومن لم يحقق ولم يتدرّب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات ؛ ويجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريباً من ذلك فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس .

قال الثعلبي والغزنوي وغيرهما : وهو جدّ نوح وهو خطأ ؛ وقد تقدّم في "الأعراف" بيانه . وكذا وقع في السيرة أن نوحاً عليه السلام بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس النبي فيما يزعمون ؛ والله تعالى أعلم .

وكان أوّل من أعطي النبوّة من بني آدم ، وخط بالقلم .

ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدريّ وغيرهما :

يعني السماء الرابعة .

وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقاله كعب الأحبار .

وقال ابن عباس والضحاك : يعني السماء السادسة ؛ ذكره المهدوي .

قلت : ووقع في البخاري عن شرِيك بن عبد الله بن أبي نَمِر قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، الحديث ، وفيه : كل سماء فيها أنبياء قد سماهم منهم إدريس في الثانية .

(64/488)

وهو وَهَمٌ ، والصحيح أنه في السماء الرابعة ؛ كذلك رواه ثابت البُنَانِيّ عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره مسلم في الصحيح .

وروى مالك بن صعصعة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة " خرجه مسلم أيضاً .

وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما : " أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس ، فقال : يا رب أنا مشيت يوماً فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد ! اللهم خَفِّف عنه من ثقلها .

يعني الملك الموكل بفلك الشمس ؛ يقول إدريس : اللهم خَفِّف عنه من ثقلها واحمل عنه من حرها .

فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يعرف ، فقال : يا رب خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه ؟ فقال الله تعالى : "أما إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته" فقال : يا رب اجمع بيني وبينه ، واجعل بيني وبينه خلة .

فأذن الله له حتى أتى إدريس ، وكان إدريس عليه السلام يسأله .

فقال : أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت ، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي ، فأزداد شكراً وعبادة .

فقال الملك : لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ؛ فقال للملك : قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسي .

قال : نعم .

ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ، ثم قال لملك الموت : لي صديق من بني آدم تشفّع بي إليك لتؤخر أجله .

فقال : ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت عِلمه أعلمته متى يموت .

قال : "نعم" ثم نظر في ديوانه ، فقال : إنك تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبداً .

قال : "وكيف" ؟ قال : لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس .

قال : فإني أتيتك وتركته هناك ؛ قال : انطلق فما أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء .

فرجع الملك فوجده ميتاً "

(65/488)

وقال السدّي : إنه نام ذات يوم ، واشتدّ عليه حرّ الشمس ، فقام وهو منها في كرب ؛ فقال : اللهم خفف عن ملك الشمس حرها ، وأعنه على ثقلها ، فإنه يمارس ناراً حامية .

فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسي من نور ، عنده سبعون ألف ملك عن يمينه ، ومثلها عن يساره يخدمونه ، ويتولون أمره وعمله من تحت حكمه ؛ فقال ملك الشمس : يا رب من أين لي هذا ؟ .

قال : " دعا لك رجل من بني آدم يقال له إدريس " ثم ذكر نحو حديث كعب .

قال فقال له ملك الشمس : أتريد حاجة ؟ قال : نعم وددت أني لو رأيت الجنة .

قال : فرفعه على جناحه ، ثم طار به ، فبينما هو في السماء الرابعة التقى بملك الموت ينظر في السماء ، ينظر يميناً وشمالاً ، فسلم عليه ملك الشمس ، وقال : يا إدريس هذا ملك الموت فسلم عليه ؛ فقال ملك الموت : سبحان الله ! ولأي معنى رفعته ها هنا ؟ قال :

رفعته لأريه الجنة .

قال : فإن الله تعالى أمرني أن أقبض روح إدريس في السماء الرابعة .

قلت : يا رب وأين إدريس من السماء الرابعة ، فنزلت فإذا هو معك ؛ فقبض روحه فرفعها إلى الجنة ، ودفنت الملائكة جثته في السماء الرابعة ، فذلك قوله تعالى : "ورفعناه مكاناً عِلياً" .

قال وهب بن منبه : كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض في زمانه ، فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن ربه في زيارته فأذن له ، فأتاه في صورة آدمي ، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار ؛ فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل .

ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس ؛ وقال له : من أنت ! قال : أنا ملك الموت ؛ استأذنت ربي أن أصحبك فأذن لي ؛ فقال : إن لي إليك حاجة .

قال : وما هي ؟ قال : أن تقبض روحي .

فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه ؛ فقبضه وردّه الله إليه بعد ساعة ، وقال له ملك الموت : ما الفائدة في قبض روحك ؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له أشدّ استعداداً .

(66/488)

ثم قال له إدريس بعد ساعة : إن لي إليك حاجة أخرى .

قال : وما هي ؟ قال : أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار ؛ فأذن الله تعالى له في رفعه إلى السموات ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق قال : أرني الجنة ؛ فأدخله الجنة ، ثم قال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرّك .

فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها .

فبعث الله تعالى بينهما ملكاً حكماً ، فقال : ما لك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] وأنا ذقته ، وقال : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] وقد وردتها ؛ وقال : ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : 48] فكيف أخرج ؟ قال الله تبارك وتعالى لملك الموت : " بإذني دخل الجنة وبأمري يخرج " فهو حي هنالك فذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ قال النحاس : قول إدريس : "وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ" يجوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس ، ثم نزل القرآن به .

قال وهب بن منبه : فإدريس تارة يرتع في الجنة ، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ﴾ يريد إدريس وحده .

﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يريد إبراهيم وحده .

﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب .

﴿ و ﴾ من ذرية ﴿ إِسْرَائِيلَ ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى .

فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم .

﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ أي إلى الإسلام : ﴿ واجتبينا ﴾ بالإيمان .

﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن ﴾ .

(67/488)

وقرأ شِبل بن عباد المكي "يتلى" بالتذكير لأن التأنيث غير حقيقي مع وجود الفاصل .

﴿ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ وصفهم بالخشوع لله والبكاء .

وقد مضى في "سبحان" .

يقال : بكى يبكي بكاء وبُكًى وبُكيًا ، إلا أن الخليل قال : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن

؛ أي ليس معه صوت كما قال الشاعر :

بكت عينِي وحُقَّ لها بكاها . . .

وما يغنِي البكاءُ ولا العَوِيلُ

"وسُجَّداً" نصب على الحال "وبُكِيّاً" عطف عليه .

الثانية : في هذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب .

قال الحسن : "إذا تتلى عليهِم آيات الرحمنِ خروا سجداً وبكيا" في الصلاة .

وقال الأصم : المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، ويبكون عند ذكرها .

والمروي عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون ويبكون عند تلاوته ؛ قال الكيا : وفي هذه الآية دلالة من قوله على أن القرآن هو الذي كان يتلى على جميع الأنبياء ، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصاً بإنزاله إليه .

الثالثة : احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على وجوب سجود القرآن على المستمع والقارىء .

قال الكيا : وهذا بعيد ، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى .

وضم السجود إلى البكاء ، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى وآياته ، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند آية مخصوصة .

الرابعة : قال العلماء : ينبغي لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها ، فإن قرأ سورة السجدة "الاما تَنْزِيلُ" قال : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك .

وإن قرأ سجدة "سبحان" قال : اللهم اجعلني من الباكين إليك ، الخاشعين لك .

وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم ، المهديين الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(68/488)

وقال أبو حيان :

و ﴿ إدريس ﴾ هو جد أبي نوح وهو أخنوخ ، وهو أول من نظر في النجوم والحساب ، وجعله الله من معجزاته وأول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكان خياطاً وكانوا قبل يلبسون الجلود ، وأول مرسل بعد آدم وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل .

وقال ابن مسعود : هو إلياس بعث إلى قومه بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ويعملوا ما شاؤوا فأبوا وأهلكوا .

و﴿ إدريس ﴾ اسم أعجمي منع من الصرف للعلمية والعجمة ، ولا جائز أن يكون إفعيلاً من الدرس كما قال بعضهم لأنه كان يجب صرفه إذ ليس فيه إلاّ سبب واحد وهو العلمية .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون معنى ﴿ إدريس ﴾ في تلك اللغة قريباً من ذلك أي من معنى الدرس ، فحسبه القائل مشتقاً من الدرس .

والمكان العلي شرف النبوة والزلفى عند الله ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة انتهى .

وقاله جماعة وهو رفع النبوة والتشريف والمنزلة في السماء كسائر الأنبياء .

وقيل : بل رفع إلى السماء .

قال ابن عباس : كان ذلك بأمر الله كما رفع عيسى كان له خليل من الملائكة فحمله على جناحه وصعد به حتى بلغ السماء الرابعة ، فلقي هنالك ملك الموت فقال له : إنه قيل لي اهبط إلى السماء الرابعة فاقبض فيها روح إدريس وإني لأعجب كيف يكون هذا ، فقال له الملك الصاعد : هذا إدريس معي فقبض روحه .

وروي أن هذا كله كان في السماء السادسة قاله ابن عباس .

وكذلك هي رتبته في حديث الإسراء في بعض الروايات من حديث أبي هريرة وأنس يقتضي أنه في السماء الرابعة .

وعن الحسن : إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة .

وقال قتادة : يعبد الله مع الملائكة في السماء السابعة ، وتارة يرفع في الجنة حيث شاء .

وقال مقاتل : هو ميت في السماء .

(69/488)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره في هذه السورة من الأنبياء و﴿ من ﴾ في ﴿ من النبيين ﴾ للبيان ، لأن جميع الأنبياء منعم عليهم و﴿ من ﴾ الثانية للتبعيض ، وكان إدريس ﴿ من ذرية آدم ﴾ لقربه منه لأنه جد أبي نوح وإبراهيم من ذرية من حمل من نوح ، لأنه من ولد سام بن نوح ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ إسحاق وإسماعيل ويعقوب وإسرائيل معطوف على إبراهيم ، وزكريا ويحيى وموسى وهارون من ذرية إسرائيل ، وكذلك عيسى لأن مريم من ذريته .

﴿ وممن هدينا ﴾ يحتمل العطف على ﴿ من ﴾ الأولى أو الثانية ، والظاهر أن ﴿ الذين ﴾ خبر لأولئك .

﴿ وإذا تتلى ﴾ كلام مستأنف ، ويجوز أن يكون ﴿ الذين ﴾ صفة لأولئك والجملة الشرطية خبر .

وقرأ الجمهور ﴿ تتلى ﴾ بتاء التأنيث .

وقرأ عبد الله وأبو جعفر وشيبة وشبل بن عباد وأبو حيوة وعبد الله بن أحمد العجلي عن حمزة وقتيبة في رواية وورش في رواية النحاس ، وابن ذكوان في رواية التغلي بالياء .

وانتصب ﴿ سجداً ﴾ على الحال المقدرة قاله الزجّاج لأنه حال خروره لا يكون ساجداً ، والبكي جمع باك كشاهد وشهود ، ولا يحفظ فيه جمعه المقيس وهو فعلة كرام ورماة والقياس يقتضيه .

وقرأ الجمهور ﴿ بكياً ﴾ بضم الباء وعبد الله ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي بكسرها اتباعاً لحركة الكاف كعصي ودلي ، والذي يظهر أنه جمع لمناسبة الجمع قبله .

قيل : ويجوز أن يكون مصدر البكا بمعنى بكاء ، وأصله بكو وكجلس جلوساً .

وقال ابن عطية : و ﴿ بكياً ﴾ بكسر الباء وهو مصدر لا يحتمل غير ذلك انتهى .

وقوله ليس بسديد لأن اتباع حركة الكاف لا تعين المصدرية ، ألا تراهم قرؤوا ﴿ جثياً ﴾ بكسر الجيم جمع جاث ، وقالوا عصي فاتبعوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(70/488)

وقال أبو السعود :

﴿ واذكر فِى الكتاب إِدْرِيسَ ﴾

وهو سِبطُ شَيْثٍ وجدُّ أبي نوحٍ فإنه نوحُ بنُ لمك بن متوشلح بنِ أُخنوخ وهو إدريسُ عليه السلام ، واشتقاقُه من الدّرس يُرده منعُ صرفِه . نعم لا يبعُد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلُقّب به لكثرة دراسته . روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفةً وأنه أولُ من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً ﴾ ملازماً للصدق في جميع أحوالِه ﴿ نَبيّاً ﴾ خبرٌ آخرُ لكان مخصّصٌ للأول ، إذ ليس كلُّ صدّيق نبياً .

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾

هو شرفُ النبوة والزُّلفى عند الله عز وجل ، وقيل : علوُّ الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ وقيل : الجنة ، وقيل : السماءُ السادسةُ أو الرابعة . روي عن كعب وغيره في سبب رفعِ إدريسَ عليه السلام أنه سُئل ذاتَ يوم في حاجة فأصابه وهَجُ الشمس ، فقال : يا رب إني قد مشَيتُ فيها يوماً وقد أصابني منها ما أصابني ، فكيف من يحمِلها مسيرةَ خمسِمائة عام في يوم واحد ؟ اللهم خففْ عنه من ثِقَلها وحرِّها ، فلما أصبح المَلَك وجد من خفة الشمس وحرِّها ما لا يُعرف ، فقال : يا رب ما الذي قضيت فيه ؟ قال : " إن عبدي إدريسَ سألني أن أخففَ عنك حَملَها وحرَّها فأجبتُه " قال : يا رب اجعل بيني وبينه خُلّةً ، فأذِن الله تعالى له فرفعه إلى السماء .

(71/488)

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة الكريمة وما فيه من معنى البُعد للإشارة بعلوّ رُتَبهم وبُعد منزلتِهم في الفضل وهو مبتدأٌ وقوله تعالى : ﴿ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم ﴾ صفتُه أي أنعم عليهم بفنون النِعَم الدينيةِ والدنيويةِ حسبما أشير إليه مجملاً وقوله تعالى : ﴿ مّنَ النبيين ﴾ بيان للموصول وقوله تعالى : ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ﴾ بدلٌ منه بإعادة الجارّ ويجوز أن تكون كلمةُ (من) فيه للتبعيض لأن المنعَمُ عليهم أعمُّ من الأنبياء وأخصُّ من الذرية .

(72/488)

﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أي ومن ذرية مَنْ حملنا معه خصوصاً وهم مَنْ عدا إدريسَ عليه السلام ، فإن إبراهيمَ كان من ذرية سامِ بنِ نوح ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم ﴾ وهم الباقون ﴿ وإسراءيل ﴾ عطفٌ على إبراهيمَ أي ومن ذرية إسرائيلَ وكان منهم موسى وهارونُ وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وفيه دليلٌ على أن أولادَ البناتِ من الذرية ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجتبينا ﴾ أي ومن جملة من هدينا هم إلى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة

، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ خبرٌ لأولئك ويجوز أن يكون الخبرُ هو الموصولُ ، وهذا استئنافاً مَسوقاً لبيان خشيتِهم من الله تعالى وإخباتِهم له مع ما لهم من علوّ الرتبة وسمُوّ الطبقة في شرف النسَب وكمالِ النفس والزُلفى من الله عز سلطانه ، وسجّداً وبُكياً حالان من ضمير خروا أي ساجدين باكين . عن النبي صلى الله عليه وسلم : " اتلوا القرآن وابكُوا فإن لم تبكُوا فتباكوا " والبُكِيُّ جمع باكٍ كالسُّجّد جمع ساجد ، وأصله بُكُويٌ فاجتمعت الواوُ والياء وسُبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواوُ ياء وأُدغمت الياءُ في الياء ، وحُرّكت الكافُ بالكسر المجانس للباء ، وقرىء يُتلى بالياء التحتانيةِ لأن التأنيثَ غيرُ حقيقي ، وقرىء بِكِيّاً بكسر الباء للإتباع ، قالوا : ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليق بآياتها فهنا يقول : اللهُم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفي آية الإسراء يقول اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك وفي آية التنزيل السجدة يقول اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرينعن أمرك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(73/488)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾

هو نبي قبل نوح وبينهما على ما في زالمستدرك" عن ابن عباس ألف سنة وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث ابن آدم عليه السلام ، وعن وهب بن منبه أنه جد نوح عليه السلام ، والمشهور أنه جد أبيه فإنه ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو أول من نظر في النجوم والجساب وجعل الله تعالى ذلك من معجزاته على ما في "البحر" وأول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط وكان خياطاً وكانوا قبل يلبسون الجلود وأول مرسل بعد آدم ، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل ، وعن ابن مسعود أنه الياس بعث إلى قومه أن يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا ما شاؤا فأبوا وأهلكوا والمعول عليه الأول وإن روى القول بأنه الياس بن أبي حاتم بسند حسن عن ابن مسعود ، وهذا اللفظ سرياني عند الأكثرين وليس مشتقاً من الدرس لأن الاشتقاق من غير العربي مما لم يقل به أحد وكونه عربياً مشتقاً من ذلك يرده منع صرفه ، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة دراسته ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ هو كما تقدم .

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾

هو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى كما روي عن الحسن وإليه ذهب الجبائي .

وأبو مسلم ، وعن أنس .

وأبي سعيد الخدري .

وكعب .

ومجاهد السماء الرابعة ، وعن ابن عباس .

والضحاك السماء السادسة وفي رواية أخرى عن الحسن الجنة لا شيء أعلا من الجنة ،

وعن النابغة الجعدي أنه لما أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر الذي آخره :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا . . .

وإنا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

قال عليه الصلاة والسلام له : إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال إلى الجنة يا رسول الله قال :

أجل إن شاء الله تعالى .

(74/488)

وعن قتادة أنه عليه السلام يعبد الله تعالى مع الملائكة عليهم السلام في السماء السابعة

ويرتع تارة في الجنة حيث شاء ، وأكثر القائلين برفعه حسا قائلون بأنه حيث حيث رفع ،

وعن مقاتل أنه ميت في السماء وهو قول شاذ .

وسبب رفعه على ما روي عن كعب وغيره (1) أنه مر ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال : يا رب إني مشيت يوماً في الشمس فأصابني منها ما أصابني فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال : يا رب خلقتني لحمل الشمس فماذا الذي قضيت فيه قال : إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال : يا رب فاجمع بيني وبينه واجعل بيني وبينه خلة فأذن له حتى أتى إدريس ثم إنه طلب منه رفعه إلى السماء فأذن الله تعالى له بذلك فرفعه ، وأخرج ابن المنذر عن عمر مولى عفرة يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن إدريس كان نبياً تقياً زكياً وكان يقسم دهره على نصفين ثلاثة أيام يعلم الناس الخير وأربعة أيام يسيح في الأرض ويعبد الله تعالى مجتهداً وكان يصعد من عمله وحده إلى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع أعمال بني آدم وأن ملك الموت أحبه في الله تعالى فأتاه حين خرج للسياحة فقال له : يا نبي الله إني أريد أن تأذن لي في صحبتك فقال له إدريس وهو لا يعرفه : إنك لن تقوى على صحبتي قال : بلى إني أرجو أن يقويني الله تعالى على ذلك فخرج معه يومه ذلك حتى إذا

كان من آخر النهار مرا براعي غنم فقال ملك الموت : يا نبي الله إنا لا ندري حيث نمسي فلو أخذنا جفرة من هذه الغنم فافطرنا عليها فقال له : لا تعد إلى مثل هذا أتدعوني إلى أخذ ما ليس لنا من حيث نمسي يأتينا الله تعالى برزق فلما أمسى أتاه الله تعالى بالرزق الذي كان يأتيه فقال لملك الموت تقدم فكل فقال : لا والذي أكرمك بالنبوة ما اشتهى فأكل وحده وقاما جميعاً إلى الصلاة ففتر إدريس ونعس ولم يفتر الملك ولم ينعس فعجب منه وصغرت عنده عبادته مما رأى ثم أصبحا فساحا فلما كان آخر النهار مرا بحديقة عنب فقال له مثل ما قال أولاً فلما أمسيا أتاه الله تعالى بالرزق فدعاه إلى الأكل فلم يأكل

---

(1) ساق هذه الرواية القرطبي في التفسير : 11 / 118 ، وابن الجوزي في "زاد المسير" : (5 / 243) وقال : وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وكعب في آخرين . وعقب ابن كثير على هذه الروايات وأمثالها بأن فيها غرابة ونكارة ، وهي من أخبار كعب الأحبار من الإسرائيليات . انظر : تفسير ابن كثير : 3 / 127 .

وقاما إلى الصلاة وكان من أمرهما ما كان أولاً فقال له إدريس : لا والذي نفسي بيده ما أنت من بني آدم فقال : أجل لست منهم وذكر له أنه ملك الموت فقال : أمرت في بأمر فقال : لو

أمرت فيك بأمر ما ناظرتك ولكني أحبك في الله تعالى وصحبتك له فقال له : إنك معي هذه المدة لم تقبض روح أحد من الخلق قال : بلى إني معك وإني أقبض نفس من أمرت بقبض نفسه في مشارق الأرض ومغاربها وما الدنيا كلها عندي إلا كمائدة بين يدي الرجل يتناول منها ما شاء فقال له : يا ملك الموت أسألك بالذي أحببتني له وفيه إلا قضيت لي حاجة أسألكها فقال : سلني يا نبي الله فقال : أحب أن تذيقني الموت ثم ترد على روحي فقال : ما أقدر إلا أن أستأذن فاستأذن ربه تعالى فأذن له فقبض روحه ثم ردها الله تعالى إليه فقال له ملك الموت : يا نبي الله كيف وجدت الموت ؟ قال : أعظم مما كنت أحدث وأسمع ثم سأله رؤية النار فانطلق إلى أحد أبواب جهنم فنادى بعض خزنتها فلما علموا أنه ملك الموت ارتعدت فرائصهم وقالوا : أمرت فينا بأمر فقال لو أمرت فيكم بأمر ما ناظرتكم ولكن نبي الله تعالى إدريس سألني أن تروه لمحة من النار ففتحوا له قدر ثقب المخيط فأصابه ما صعق منه فقال ملك الموت : اغلقوا فغلقوا وجعل يمسح وجه إدريس ويقول : يا نبي الله تعالى ما كنت أحب أن يكون هذا حظك من صحبتي فلما أفاق سأله كيف رأيت ؟ قال : أعظم مما كنت أحدث وأسمع ثم سأله أن يريه لمحة من الجنة ففعل نظير ما فعل قبل فلما فتحوا له أصابه من بردها وطيبها وريحانها ما أخذ بقلبه فقال : يا ملك الموت إني أحب أن أدخل الجنة فآكل أكلة من ثمارها وأشرب شربة من مائها فلعل ذلك أن يكون أشد لطلبتي ورغبتي فدخل وأكل وشرب فقال له ملك الموت : أخرج يا نبي الله تعالى قد أصبت

حاجتك حتى يردك الله عز وجل مع الأنبياء عليهم السلام يوم القيامة فاحتضن بساق شجرة من أشجارها وقال : ما أنا بخارج وإن شئت أن أخاصمك خاصمتك فأوحى الله

(77/488)

تعالى إلى ملك الموت قاضه الخصومة فقال له : ما الذي تخاصمني به يا نبي الله تعالى فقال إدريس : قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 581] وقد ذقته وقال سبحانه : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 17] وقد وردتها وقال جل وعلا لأهل الجنة ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : 84] أفأخرج من شيء ساقه الله عز وجل إلي فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت خصمك عبدي إدريس وعزتي وجلالي إن في سابق علمي أن يكون كذلك فدعه فقد احتج عليك بحجة قوية "

الحديث والله تعالى أعلم بصحته وكذا بصحة ما قبله من خبر كعب ، وهذا الرفع لاقتضائه علو الشأن ورفعة القدر كان فيه من المدح ما فيه وإلا فمجرد الرفع إلى مكان عال حسا ليس بشيء :

فالنار يعلوها الدخان وربما . . .

يعلو الغبار عمائم الفرسان

وادعى بعضهم أن الأقرب أن العلو حسي لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية ؛

وتعقب بأن فيه نظراً لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه كقوله :

وكن في مكان إذا ما سقطت . . .

تقوم ورجلك في عافية

فتأمل

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾

(78/488)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة الكريمة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو مرتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم ﴾ أي بفنون النعم الدينية الدنيوية حسبما أشير إليه مجملاً خبره على ما استظهره في البحر ، والحصر عند القائل به إضافي بالنسبة إلى غير الأنبياء الباقين عليهم الصلاة والسلام لأنهم معروفون بكونهم منعماً عليهم فينزل الأنعام على غيرهم منزلة العدم ، وقيل : يقدر مضاف أي بعض الذين أنعم الله عليهم وقوله تعالى : ﴿ مّنَ النبيين ﴾ بيان للموصول ، وقيل : من تبعيضية بناءً على أن المراد أولئك المذكورون الذين أنعم الله تعالى عليهم بالنعم المعهودة

المذكورة هنا فيكون الموضوع والمحمول مخصوصاً بمن سمعت وهم بعض النبيين وعموم المفهوم المراد من المحمول في نفسه ومن حيث هو في الذهن لا ينافي أن يقصد به أمر خاص في الخارج كما لا يخفى ؛ واختير حمل التعريف في الخبر عن الجنس للمبالغة كما في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] ، والمحذور مندفع بما ذكرنا و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ﴾ قيل بيانية والجار والمجرور بدل من الجار والمجرور السابق والمجرور بدل من المجرور بإعادة الجار وهو بدل بعض من كل بناء على أن المراد ذريته الأنبياء وهي غير شاملة لآدم عليه السلام ولا يخفى بعده ، وقيل : هي تبعيضية لأن المنعم عليه أخص من الذرية من وجه لشمولها بناءً على الظاهر المتبادر منها غير من أنعم عليه دونه ولا يضر في ذلك كونها أعم منها من وجه لشموله آدم والملك .

ومؤمني الجن دونها ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أي ومن ذرية من حملناهم معه عليه السلام خصوصاً وهم من عدا إدريس عليه السلام لما سمعت من أنه قبل نوح .

وإبراهيم عليه السلام كان بالإجماع من ذرية سام بن نوح عليهما السلام ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم ﴾ وهم الباقون .

(79/488)

﴿ وإسراءيل ﴾ عطف على ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل أي يعقوب عليه السلام وكان منهم موسى وهارون وزكريا .

ويحيى .

وعيسى .

عليهم السلام ، وفي الآية دليل على أن أولاد البنات من الذرية لدخول عيسى عليه السلام ولا أب له ، وجعل إطلاق الذرية عليه بطريق التغليب خلاف الظاهر ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجتبينا ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ﴾ ومن للتبعيض أي ومن جملة من هدينا هم إلى الحق واخترناهم للنبوة والكرامة .

وجوز أن يكون عطفاً على قوله سبحانه : ﴿ مّنَ النبيين ﴾ .

ومن للبيان وأورد عليه أن ظاهر العطف المغايرة فيحتاج إلى أن يقال : المراد ممن جمعنا له بين النبوة والهداية والاجتباء للكرامة وهو خلاف الظاهر ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِنَّ ءايات الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ استئناف مساق لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له سبحانه مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه .

وقيل : خبر بعد خبر لاسم ازشارة ، وقيل : إن الكلام انقطع عند قوله تعالى : ﴿ وإسراءيل ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ خبر مبتدأ محذوف وهذه الجملة صفة لذلك المحذوف أي وممن هدينا واجتبينا قوم إذا تتلى عليهم الخ ، ونقل ذلك عن أبي مسلم ، وروى بعض الإمامية عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أنه قال : نحن عنينا بهؤلاء القوم ، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر جداً وحال روايات الإمامية لا يخفى على أرباب التمييز ، وظاهر صنيع بعض المحققين اختيار أن يكون الموصول صفة لاسم الإشارة على ما هو الشائع فيما بعد اسم الإشارة وهذه الجملة هي الخبر لأن ذلك امدح لهم ، ووجه ذلك ظاهر عند من يعرف حكم الأوصاف والأخبار ، وسجداً جمع ساجد وكذا بكيا جمع باك كشاهد وشهود وأصله بكوى اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وحركت الكاف بالكسر لمناسبة الياء وجمعه المقيس بكاة كرام ورماة إلا أنه لم يسمع على ما في "البحر" وهو مخالف لما في "القاموس" وغيره ، وجوز بعضهم أن يكون مصدر بكى كجلوساً مصدر جلس وهو خلاف الظاهر ، نعم ربما يقتضيه ما أخرجه ابن أبي الدنيا في البكاء .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الشعب عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال : هذا السجود فأين البكى ، وزعم ابن عطية أن ذلك متعين في قراءة عبد الله .

ويحيى .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي ﴿ بكيا ﴾ بكسر أوله وليس كما زعم لأن ذلك اتباع ، وظاهر أنه لا يعين المصدرية .

(81/488)

ونصب الاسمين على الحالية من ضمير ﴿ الرحمن خَرُّواْ ﴾ أي ساجدين وباكين والأول حال مقدرة كما قال الزجاج ، والظاهر أن المراد من السجود معناه الشرعي والمراد من الآيات ما تضمنته الكتب السماوية سواء كان مشتملاً على ذكر السجود أم لا وسواء كان متضمناً لذكر العذاب المنزل بالكفار أم لا ، ومن هنا استدل بالآية على استحباب السجود والبكاء عند تلاوة القرآن .

وقد أخرج ابن ماجه .

وإسحاق بن راهويه .

والبزار في مسنديهما من حديث سعيد بن أبي وقاص مرفوعاً " أتلوا القرآن وأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا " وقيل : المراد من السجود سجود التلاوة حسبما تعبدنا به عند سماع بعض الآيات القرآنية فالمراد بآيات الرحمن آيات مخصوصة متضمنة لذكر السجود ، وقيل : المراد منه الصلاة وهو قول ساقط جداً ، وقيل : المراد منه الخشوع والخضوع ، والمراد من الآيات ما تضمن العذاب المنزل بالكفار وهذا قريب من سابقه ، ونقل الجلال السيوطي عن الرازي أنه استدل بالآية على وجوب سجود التلاوة وهو كما قال الكيا : بعيد ، وذكروا أنه ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بآياتها فههنا يقول : اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك ، وفي آية الإسراء اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك ، وفي آية تنزيل السجدة اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك ورحمتك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك .

وقرأ عبد الله .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وشبل بن عباد .

وأبو حيوة .

وعبد الله بن أحمد العجلي عن حمزة .

وقتيبة في رواية .

وورش في رواية النحاس .

وابن ذكوان في رواية التغلبي ﴿ يتلى ﴾ بالياء التحتية لأن التأنيث غير حقيقي ولوجود الفاصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(82/488)

وقال القاسمى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّا ﴾

هو شرف النبوّة والزلفى عند الله تعالى . فالعلوّ معنويّ . أو رفعه بجسده حيّاً إلى السماء . قال الشهاب : قيل : والثاني أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية ، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه ، كقوله :

~وكن في مَكانٍ إذَا مَا سَقَطتَ تَقُومُ وَرِجلاكَ في عَافيَة

انتهى . ومما يؤيد الثاني ما روي في الصحيحين عن أنس في حديث المعراج ؛ أنه صلوات الله عليه رأى إدريس في السماء الرابعة . وإدريس هو إلياس الآتي ذكره في سورة الصافات .

ويسمى في التوراة إيليا . ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب ، قد يكون التنزيل الكريم في هذه الآية أشار إليه والله أعلم . وقوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ ﴾

إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام . وما فيه من معنى البعد ، للإشعار بعلوّ رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بفنون النعم الدينية والدنيوية : ﴿ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ أي : هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ أي : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة . مع ما لهم من علوّ الرتبة . وسموّ الزلفى عنده تعالى . وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة .

(83/488)

قال ابن كثير : أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم : أن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ سورة مريم فسجد

. وقال : هذا السجود فأين البُكي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 110.109 ﴾

(84/488)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾

الإشارة في قوله ﴿ أولئك ﴾ راجعة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة الكريمة . وقد بين الله هنا أنه أنعم عليهم واجتباهم وهداهم . وزاد على هذا في سورة « النساء » بيان جميع من أنعم عليهم من غير الأنبياء في قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله والرسول فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] . وبين في سورة الفاتحة : أن صراط الذين أنعم عليهم غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين في قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم وَلاَ الضآلين ﴾ [الفاتحة : 6-7] . وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : قال السدي وابن جرير رحمهما الله : فالذي عنى به من ذرية آدم : « إدريس » . والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح : « إبراهيم » . والذي عنى

به من ذرية إبراهيم : « إسحاق ويعقوب وإسماعيل » . والذي عنى به من ذرية إسرائيل : « موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم » . قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس فإنه جد نوح .

(85/488)

قلت : هذه هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وقد قيل : إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذاً من حديث الإسراء حيث قال في سلامه على النَّبي صلى الله عليه وسلم : مرحباً بالنَّبي الصالح ، والأخ الصالح ، ولم يقل والولد الصالح ، كما قال آدم وإبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة السلام – انتهى الغرض من كلام ابن كثير رحمه الله تعالى .

وقال ابن كثير أيضاً في تفسير هذه الآية الكريمة : يقول تعالى هؤلاء النَّبيون ، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط . بل جنس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ، إلى أن قال في آخر كلامه : ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة « الأنعام » : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ

نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: 83] ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام: 84] -إلى قوله- ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام: 90] -اه. وقد قال تعالى في صفة هؤلاء المذكورين في «الأنعام»: ﴿ واجتبيناهم وَهَدَيْنَاهُمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: 87]. كما قال في صفة هؤلاء المذكورين في سورة «مريم» ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجتبينا ﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ بين فيه أن هؤلاء الأنبياء المذكورين إذا تتلى عليهم آيات ربهم بكوت وسجدوا.

(86/488)

وأشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر بالنسبة إلى المؤمنين لا خصوص الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء: 107-109]، وقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ﴾ [المائدة: 83]، وقوله تعالى: ﴿

إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [الأنفال : 2] ، وقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] . فكل هذه الآيات فيها الدلالة على أنهم إذا سمعوا آيات ربهم تتلى تأثروا تاثراً عظيماً ، يحصل منه لبعضهم البكاء والسجود . ولبعضهم قشعريرة الجلد ولين القلوب والجلود ، ونحو ذلك . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ جمع باك . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية من سورة « مريم » فسجد وقال : هذا السجود ، فاين البكى ؟ يريد البكاء . وهذا الموضع من عزائم السجود بلا خلاف بين العلماء في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(87/488)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾

إدريس : اسم جعل علماً على جد أبي نوح ، وهو المسمى في التوراة (أُخنُوخ) .

فنوح هو ابن لامك بن متُوشالح بن أُخنوخ ، فلعل اسمه عند نسّابي العرب إدريس ، أو أن

القرآن سماه بذلك اسماً مشتقاً من الدرس لما سيأتي قريباً .

واسمه (هرمس) عند اليونان ، ويُزعم أنه كذلك يسمى عند المصريين القدماء ، والصحيح أن اسمه عند المصريين (تُوت) أو (تحُوتي) أو (تهوتي) لهجات في النطق باسمه .

وذكر ابن العِبْري في "تاريخه" : "أن إدريس كان يلقب عند قدماء اليونان (طريسمجيسطيس) ، ومعناه بلسانهم ثلاثي التعليم ، لأنه كان يصف الله تعالى بثلاث صفات ذاتية وهي الوجود والحكمة والحياة" أ هـ .

ولا يخفى قرب الحروف الأولى في هذا الاسم من حروف إدريس ، فلعل العرب اختصروا الاسم لطوله فاقتصروا على أوله مع تغيير .

وكان إدريس نبيئاً ، ففي الإصحاح الخامس من سفر التكوين "وسار أُخنوخ مع الله" .

قيل : هو أول من وضع للبشر عمارة المدن ، وقواعد العلم ، وقواعد التربية ، وأول من وضع الخط ، وعلّم الحساب بالنجوم وقواعدَ سير الكواكب ، وتركيب البسائط بالنّار فلذلك كان علم الكيمياء ينسب إليه ، وأوّل من علم الناس الخياطة .

فكان هو مبدأ من وضع العلوم ، والحضارة ، والنظم العقليّة .

فوجه تسميته في القرآن بإدريس أنّه اشتق له اسم من الفرس على وزن مناسب للأعلام العجميّة ، فلذلك منع من الصرف مع كون حروفه من مادة عربية ، كما منع إبليس من

الصرف ، وكما منع طالوت من الصرف .

وتقدّم اختلاف القراء في لفظ ﴿ نبيئاً عند ذكر إبراهيم .

وقوله ورفعناه مكاناً علياً وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ قال جماعة من المفسرين هو رفع مجازي .

والمراد : رفع المنزلة ، لما أوتيه من العلم الذي فاق به على من سلفه .

ونقل هذا عن الحسن .

وقال به أبو مسلم الأصفهاني .

(88/488)

وقال جماعة : هو رفع حقيقي إلى السماء ، وفي الإصحاح الخامس من سفر التكوين "وسار أخنوخ مع الله ولم يُوجد لأنّ الله أخذه" ، وعلى هذا فرفعه مثل رفع عيسى عليه السلام .

والأظهر أن ذلك بعد نزع روحه وروْحنة جثته .

ومما يذكر عنه أنّه بقي ثلاث عشرة سنة لا ينام ولا يأكل حتى تَرَوْحَن ، فرفع .

وأما حديث الإسراء فلا حجة فيه لهذا القول لأنه ذكر فيه عدة أنبياء غيره وجدوا في السماوات .

ووقع في حديث مالك بن صعصعة عن الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماوات أنه وجد إدريس عليه السلام في السماء وأنه لمّا سلّم عليه قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح .

فأخذ منه أنّ إدريس عليه السلام لم تكن له ولادةٌ على النبي صلى الله عليه وسلم لأنّه لم يقل له والابن الصالح ، ولا دليل في ذلك لأنه قد يكون قال ذلك اعتباراً بأخوّة التوحيد فرجحها على صلة النسب فكان ذلك من حكمته .

على أنّه يجوز أن يكون ذلك سهواً من الراوي فإن تلك الكلمة لم تثبت في حديث جابر بن عبد الله في "صحيح البخاري" .

وقد جزم البخاري في أحاديث الأنبياء بأن إدريس جد نوح أو جدّ أبيه .

وذلك يدلّ على أنّه لم ير في قوله "مرحباً بالأخ الصالح" ما يُنافي أن يكون أباً للنبيء صلى الله عليه وسلم

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾

الجملة استئناف ابتدائي ، واسم الإشارة عائد إلى المذكورين من قوله ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكرياء ﴾ [مريم : 2] إلى هنا .

والإتيان به دون الضمير للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة

لأجل ما ذكر مع المشار إليهم من الأوصاف ، أي كانوا أحرياء بنعمة الله عليهم وكونهم في عداد المهديين المجتبيْن وخليقين بمحبتهم لله تعالى وتعظيمهم إياه .

(89/488)

والمذكور بعد اسم الإشارة هو مضمون قوله ﴿ أنعم الله عليهم ﴾ وقوله ﴿ وممّن هدينا واجتبينا ﴾ ، فإن ذلك أحسن جزاء على ما قدموه من الأعمال ، ومن أعطوه من مزايا النبوءة والصديقية ونحوهما .

وتلك وإن كانت نعماً وهداية واجتباء فقد زادت هذه الآية بإسناد تلك العطايا إلى الله تعالى تشريفاً لها ، فكان ذلك التشريف هو الجزاء عليها إذ لا أزيد من المجازَى عليه إلاّ تشريفه .

وقرأ الجمهور ﴿ من النّبيّين بياءين بعد الموحدة .

وقرأه نافع وحده بهمزة بعد الموحدة .

وجملة إذَا تتلى عَليهم ءَاياتُ الرَّحْمانِ ﴾ مستأنفة دالة على شكرهم نعم الله عليهم وتقريبه إياهم بالخضوع له بالسجود عند تلاوة آياته وبالبكاء .

والمراد به البكاء الناشىء عن انفعال النفس انفعالاً مختلطاً من التعظيم والخوف .

و ﴿ سُجداً جمع ساجد .

وبُكيّاً جمع بَاك .

والأول بوزن فُعّل مثل عُذَّل ، والثاني وزنه فعُول جمع فاعل مثل قوم قعود ، وهو يائي لأنّ فعله بكى يبكي ، فأصله : بُكُويٌ .

فلما اجتمع الواو والياء وسبق إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وحركت عين الكلمة بحركة مناسبة للياء .

وهذا الوزن سماعي في جمع فاعل ومثله .

وهذه الآية من مواضع سجود القرآن المروية عن النبي اقتداء بأولئك الأنبياء في السجود عند تلاوة القرآن ، فهم سجدوا كثيراً عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم ، ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا .

وأثنت على سجودهم قصداً للتشبه بهم بقدر الطاقة حين نحن متلبسون بذكر صنيعهم .

وقد سجد النبي عند هذه الآية وسنّ ذلك لأمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(90/488)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾

ما زال القرآن يعطينا لقطاتٍ من موكب الرسالات والنبوات . وإدريس عليه السلام أوّل نبي بعد آدم عليه السلام ، فهو إدريس بن شيث بن آدم . وبعد إدريس جاء نوح ثم إبراهيم ، ومنه جاءت سلسلة النبوات المختلفة .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ [مريم : 56] .

تحدثنا عن معنى الصِّدِّيق في الكلام عن إبراهيم عليه السلام ، والصِّدِّيق هو الذي يبالغ في تصديق ما جاءه من الحق ، فيجعل الله له بذلك فُرْقاناً وإشراقاً يُميّز به الحق فلا يتصادم معه شيطان ؛ لأن الشيطان قد ينفذ إلى عقلي وعقلك .

أما الوارد من الحق سبحانه وتعالى فلا يستطيع الشيطان أن يعارضه أو يدخل فيه ، لذلك فالصِّدِّيق وإن لم يكُنْ نبياً فهو مُلْحق بالأنبياء والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله والرسول فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] .

وكذلك كان إدريس عليه السلام (نبياً) ولم يقُلْ : رسولاً نبياً ، لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين ، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾

مكاناً عالياً في السماء ، رِفْعه معنوية ، أو رِفْعة حِسّية ، خُذْها كما شئتَ ، لكن إياك أنْ تجادل : كيف رفعه ؟ لأن الرِّفْعة من الله تعالى ، والذي خلقه هو الذي رفعه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أولئك الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم ﴾

(91/488)

قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ [مريم : 58] أي : الذين تقدَّموا وسبق الحديث عنهم من الأنبياء والرسل ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ [مريم : 58] أي : مباشرة مثل إدريس عليه السلام ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [مريم : 58] الذين جاءوا بعد إدريس مباشرة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [مريم : 58] أي : الذين جاءوا بعد نوح .

وقد انقسموا إلى فرعين من ذرية إبراهيم .

الأول : فرع إسحق الذي جاء منه جمهرة النبوة ، بداية من يعقوب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم زكريا ويحيى ، ثم ذو الكفل ، ثم أيوب ، ثم النون .

والفرع الآخر : فرع إسماعيل عليه السلام الذي جاء منه جماع جواهر النبوة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَإِسْرَائِيلَ ﴾ [مريم : 58] هو نبيّ الله يعقوب ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجتبينا ﴾ [مريم :

58] الذي هديناهم واجتبيناهم . أي : اخترناهم واصطفيناهم للنبوة ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ [مريم : 58] .

لماذا قال ﴿ آيَاتُ الرحمن ﴾ [مريم : 58] ولم يقُلْ : آيات الله ؟ قالوا : لأن آيات الله تحمل منهجاً وتكليفاً ، وهذا يشقُّ على الناس ، فكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تفهموا أن الله يُكلّفكم بالمشقة ، وإنما يُكلّفكم بما يُسعِد حركة حياتكم وتتساندون ، ثم يسعدكم به في الآخرة ؛ لذلك اختار هنا صفة الرحمانية .

وقوله : ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ [مريم : 58] لم يقُل : سجدوا ، بل سقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض . وهذا انفعال قَسْري طبيعي ، لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير ، فالساجد يستطيع أنْ يسجدَ بهدوء ونظام ، أما الذي يخرُّ فلا يفكر في ذلك ، وهذا أشبه بقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 26] أي : سقط عليهم فجأة .

(92/488)

وهذا الانفعال يُسمُّونه " انفعال نزوعي " ناتج عن الوجدان ، والوجدان ناتج عن الإدراك ، وهذه مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع . والإنسان له حواس

يُدرِك بها : العين والأذن والأنف واللسان . . الخ .

فهذه وسائل إدراك المحسّات ، فإذا أدركتَ شيئاً بحواسّك تجد له تأثيراً في نفسك ، إما حُباً وإماً بُغْضاً ، إما إعجاباً وإما انصرافاً ، وهذا الأثر في نفسك هو الوجدان ، ثم يصدر عن هذا الوجدان حركة هي " النزوع " .

فمثلاً ، لو رأيتَ وردة جميلة فهذه الرؤيا " إدراك " ، فإنْ أُعجبْتَ بها وسُرِرْتَ فهذا " وجدان " ، فإنْ مددْتَ يدك لتقطفها فهذا " نزوع " . والشرع لا يحاسبك على الإدراك ولا على الوجدان ، لكن حين تمد يدك لقطف هذه الوردة نقول لك : قفْ فهذه ليست لك ، ولا يمنعك الشارع ويتركك ، إنما يمنعك ويوحي لك بالحلِّ المناسب لنزوعك ، فعليك أنْ تزرع مثلها ، فتكون مِلْكاً لك أو على الأقل تستأذن صاحبها .

كذلك الحال فيمن تسمّع لكلام الله وقرآنه يدرك القرآن بسمعه فينشأ عنه حلاوة ومواجيد في نفسه ، وهذا هو الوجدان الذي ينشأ عنه انفعال نُزوعي ، فلا يجد إلا أنْ يخر ساجداً لله تعالى .

والنزوع هنا لم يُكنْ نزوعاً ظاهرياً بل وأيضاً داخلياً ، ففاضت أعينهم بالدمع ﴿ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ [مريم : 58] .

وقد عُولج هذا المعنى في عِدّة مواضع أُخَر ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤمنوا إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ [الإسراء : 107

] .

ومعنى : للأذقان : مبالغة في الخضوع والخشوع واستيفاء السجود ؛ لأن السجود يكون أولاً على الجبهة ثم الأنف لكن على الأذقان ، فهذا سجود على حَقٍّ ، وليس كنقْر الديكَة كما يقولون .

(93/488)

إذن : فأهل الكتاب كانوا على علم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه سيأتي بالقرآن على فَتْرة من الرسل ، وها هم الآن يسمعون القرآن ؛ لذلك يقولون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : 108] .

ومن النزوع الانفعالي أيضاً قوله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ﴾ [المائدة : 83] .

وقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] .

فلماذا يُؤثِّر الانفعال بالقرآن في كُلِّ هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان ؟ قالوا : لأن الذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم ، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم

عنه وتعي ، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط ، بل يخاطب كل ذرة من ذرّات تكوينك ؛ لذلك تخِرُّ الأعضاء ساجدة ، وتدمع العيون ، وتقشعر الجلود ، وتلين القلوب ، كيف لا والمتكلم هو الله ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(94/488)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) ﴾

أخرج الحكم عن سمرة قال : كان إدريس أبيض طويلاً ضخم البطن عريض الصدر قليل شعر الجسد كثير شعر الرأس ، وكانت إحدى عينيه أعظم من الأخرى ، وكانت في صدره نكتة بيضاء من غير برص ، فلما رأى الله من أهل الأرض ما رأى من جورهم واعتدائهم في أمر الله ، رفعه الله إلى السماء السادسة ، فهو حيث يقول ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن إدريس أقدم من نوح ، بعثه الله إلى قومه ، فأمرهم الله أن يقولوا لا إله إلا الله ، ويعملوا بما شاء ، فأبوا ، فأهلكهم الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال : كان إدريس خياطاً . وكان لا يغرز إلا قال : سبحان الله ، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل منه عملاً ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه ، فقال يا رب ائذن لي فاهبط إلى إدريس . فأذن له ، فأتى إدريس فسلم عليه ، وقال : إني جئتك لأحدثك ، فقال : كيف تحدثني وأنت ملك وأنا إنسان ، ثم قال إدريس هل بينك وبين ملك الموت شيء ؟ قال الملك : ذاك أخي من الملائكة ، فقال : هل يستطيع أن ينسئني عند الموت ؟ قال : أما أن يؤخر شيئاً أو يُقدّمَهُ فلا ، ولكن سأكلمه لك ، فيرفق بك عند الموت ، فقال : اركب بين جناحي ، فركب إدريس ، فصعد إلى السماء العليا ، فلقي ملك الموت إدريس بين جناحيه ، فقال له الملك إن لي إليك حاجة ، قال : علمت حاجتك ، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة ، ولم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات إدريس بين جناحي الملك .

(95/488)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : سألت كعباً عن رفع إدريس ﴿ مكاناً علياً ﴾ فقال : كان عبداً تقياً رفع له من العمل الصالح ما رفع لأهل

الأرض في زمانه ، فعجب الملك الذي كان يصعد عليه عمله ، فاستأذن ربه قال : رب ، ائذن لي آتي عبدك هذا فأزوره ، فأذن له ، فنزل قال : يا إدريس ، أبشرْ ، فإنه رفع لك من العمل الصالح ما لا رفع لأهل الأرض ، قال : وما علمك ؟ ! قال إني ملك . قال : وإن كنت ملكاً ؟ قال : فإني على الباب الذي يصعد عليه عملك . قال : أفلا تشفع إلى ملك الموت ، فيؤخر من أجلي لأزداد شكراً وعبادة ؟ قال الملك : ﴿ لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ [المنافقون : 11] قال : قد علمت ، ولكنه أطيب لنفسي ، فحمله الملك على جناحه ، فصعد به إلى السماء فقال : يا ملك الموت ، هذا عبد تقي ، نبي رفع له من العمل الصالح ما لا يرفع لأهل الأرض ، وإني أعجبني ذلك ، فاستأذنت ربي عليه ، فلما بشرته بذلك ، سألني لأشفع له إليك لتؤخر له من أجله ؛ ليزداد شكراً وعبادة .

قال : ومن هذا ؟ قال : إدريس ، فنظر في كتاب معه حتى مر باسمه ، فقال : والله ما بقي من أجل إدريس شيء ، فمحاه ، فمات مكانه .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال : رفع إلى السماء السادسة فمات فيها .

وأخرج الترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه ، عن قتادة في قوله : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال : حدثنا أنس بن مالك ، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال : في السماء الرابعة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد رضي الله عنه ، والربيع مثله .

(96/488)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في الآية قال : رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت .

وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إدريس هو إلياس .

وأخرج ابن المنذر ، عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن إدريس كان نبياً تقياً زكياً ، وكان يقسم دهره على نصفين : ثلاثة أيام يعلم الناس الخير ، وأربعة أيام يسيح في الأرض ، ويعبد الله مجتهداً . وكان يصعد من عمله وحده إلى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع أعمال بني آدم ، وإن ملك الموت أحبه في الله ، فأتاه حين خرج للسياحة فقال له : يا نبي الله ، إني أريد أن تأذن لي في صحبتك . فقال له إدريس – وهو لا يعرفه – إنك لن تقوى على صحبتي . قال : بلى ، إني أرجو أن يقويني الله على

ذلك ، فخرج معه يومه ذلك حتى إذا كان من آخر النهار مر براعي غنم ، فقال ملك الموت لإدريس : يا نبي الله ، إنا لا ندري حيث نمسي ، فلو أخذنا جفرة من هذه الغنم فأفطرنا عليها ؟ فقال له إدريس : لا تعد إلى مثل هذا ، تدعوني إلى أخذ ما ليس لنا ، من حيث نمسي يأتي الله برزق ! فلما أمسى أتاه الله بالرزق الذي كان يأتيه ، فقال لملك الموت : تقدم فكل . فقال ملك الموت : لا والذي أكرمك بالنبوة ما أشتهي . فأكل إدريس وقاما جميعاً إلى الصلاة ، ففتر إدريس وكل ومل ونعس ، وملك الموت لا يفتر ولا يمل ولا ينعس ، فعجب منه وقال : قد كنت أظن أني أقوى الناس على العبادة فهذا أقوى مني ! فصغرت عنده عبادته عندما رأى منه . ثم أصبحا فساحاً ، فلما كان آخر النهار مرا بحديقة عنب فقال ملك الموت لإدريس : يا نبي الله ، لو أخذنا قطفاً من هذا العنب لأنا لا ندري حيث نمسي .

(97/488)

فقال إدريس : ألم أنهك عن هذا وأنت حيث تمسي يأتينا الله برزق ! فلما أمسى أتاه الله الرزق الذي كان يأتيه فأكل إدريس ، فقال لملك الموت هلم فكل . فقال : لا والذي أكرمك بالنبوة يا نبي الله ، لا أشتهي . فعجب ! ثم قاما إلى الصلاة ففتر إدريس أيضاً ، وكل ومل ، وملك الموت لا يكلّ ولا يفتر ولا ينعس . فقال له عند ذلك إدريس : لا والذي نفسي بيده ما

أنت من بني آدم ! فقال له ملك الموت عنده ذلك : أجل لست من بني آدم . فقال له إدريس : فمن أنت ؟ قال : أنا ملك الموت . فقال له إدريس : أمرتَ فيَّ بأمر ؟ فقال له : لو أمرت فيك بأمر ما ناظرتك ، ولكني أحبك في الله ، وصحبتك له . فقال له إدريس : يا ملك الموت ، إنك معي ثلاثة أيام بلياليها لم تقبض روح أحد من الخلق ؟ قال : بلى والذي أكرمك بالنبوة يا نبي الله ، إني معك من حين رأيت ، وإني أقبض نفس من أمرت بقبض نفسه في مشارق الأرض ومغاربها ، وما الدنيا عندي إلا بمنزلة المائدة بين يدي الرجل ، يمد يده ليتناول منها ما شاء . فقال له إدريس : يا ملك الموت ، أسألك بالذي أحببتني له وفيه ألا قضيت لي حاجة أسألكها ؟ فقال له ملك الموت : سلني ما أحببت يا نبي الله . فقال : أحب أن تذيقني الموت ، وتفرق بين روحي وجسدي حتى أجد طعم الموت ، ثم ترد إلي روحي . فقال له ملك الموت – عليه السلام – : ما أقدر على ذلك ، إلا أن استأذن فيه ربي ، فقال له إدريس – عليه السلام – فاستأذنه في ذلك . فعرج ملك الموت إلى ربه ، فأذن له ، فقبض نفسه وفرق بين روحه وجسده ، فلما سقط إدريس عليه السلام ميتاً ، رد الله إليه روحه ، وطفق يمسح وجهه وهو يقول : يا نبي الله ، ما كنت أريد أن يكون هذا حظك من صحبتي ! فلما أفاق ، قال له ملك الموت : يا نبي الله ، كيف وجدت ؟ قال : يا ملك الموت ، قد كنت أحدث وأسمع ، فإذا هو أعظم مما كنت أحدث وأسمع ! ثم قال : يا ملك الموت ، أريد منك حاجة أخرى قال : وما هي ؟ قال : تريني النار حتى أنظر إلى

(98/488)

لمحة منها . فقال له ملك الموت : وما لك وللنار ، إني لأرجو أن لا تراها ، ولا تكون من أهلها ، قال : بلى أريد ذلك ؛ ليكون أشد لرهبتي وخوفي منها ! فانطلق إلى باب من أبواب جهنم فنادى بعض خزنتها فأجابوه ، وقالوا : من هذا ؟ قال : أنا ملك الموت – فارتعدت فرائصهم – قالوا : أمرت فينا بأمر ؟ فقال : لو أمرت فيكم بأمر ما ناظرتكم ، ولكن نبي الله إدريس – عليه السلام – سألني أن تروه لمحة من النار .

(99/488)

ففتحوا له قدر ثقب المخيط فأصابه من حرها ولهبها وزفيرها ما صعق ! فقال ملك الموت : أغلقوا ! فأغلقوا ، فمسح ملك الموت وجهه وهو يقول : يا نبي الله ، ما كنت أحب أن يكون هذا حظك من صحبتي . فلما أفاق قال له ملك الموت : يا نبي الله ، كيف رأيت ؟ قال : يا ملك الموت ، كنت أحدث وأسمع ، فإذا هو أعظم مما كنت أحدث وأسمع ! فقال له : يا ملك الموت ، قد بقيت لي حاجة أخرى لم يبق غيرها . قال : وما هي ؟ قال : تريني لمحة

من الجنة . قال له ملك الموت – عليه السلام : يا نبي الله أبشر ! فإنك إن شاء الله من خيار أهلها ، وأنها إن شاء الله مقيلك ومصيرك . فقال : يا ملك الموت ، إني أحب أن أنظر إليها ، ولعل ذلك أن يكون أشد لشوقي وحرصي وطلبي ! فذهب به إلى باب من أبواب الجنة ، فنادى بعض خزنتها فأجابوه ، فقالوا : من هذا ؟ قال : ملك الموت . فارتعدت فرائصهم ، وقالوا : أمرت فينا بشيء ؟ فقال : لو أمرت فيكم بشيء ما ناظرتكم ، ولكن نبي الله إدريس – عليه السلام – سأل أن ينظر إلى لمحة من الجنة فافتحوا . فلما فتح أصابه من بردها وطيبها وريحانها ما أخذ بقلبه فقال : يا ملك الموت ، إني أحب أن أدخل الجنة فآكل أكلة من ثمارها ، وأشرب شربة من مائها ، فلعل ذلك أن يكون أشد لطلبتي ورغبتي وحرصي . فقال : ادخل . فدخل فأكل من ثمارها ، وشرب من مائها . فقال له ملك الموت ، اخرج يا نبي الله ، قد أصبت حاجتك حتى يردك الله مع الأنبياء يوم القيامة . فاحتضن بساق شجرة من شجر الجنة وقال : ما أنا بخارج منها ، وإن شئت أن أخاصمك خاصمتك . فأوحى الله إلى ملك الموت ، قاضه الخصومة . فقال له ملك الموت : ما الذي تخاصمني به يا نبي الله ؟ فقال إدريس : قال الله تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ [آل عمران : 185] فقد ذقت الموت الذي كتبه الله على خلقه مرة واحدة . وقال الله : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ [مريم : 76] وقد وردتها ، أفأردها مرة بعد مرة ؟ وإنما كتب

الله ورودها على خلقه مرة واحدة ، وقال لأهل الجنة : ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ [الحجر : 48] أفأخرج من شيء ساقه الله إليّ ؟ فأوحى الله إلى ملك الموت ، خصمك عبدي إدريس ، وعزتي وجلالي : إن في سابق علمي قبل أن أخلقه أنه لا موت عليه إلا الموتة التي ماتها ، وأنه لا يرى جهنم إلا الورد الذي وردها ، وأنه يدخل الجنة في الساعة التي دخلها ، وأنه ليس بخارج منها ، فدعه يا ملك الموت ، فقد خصمك وإنه احتج عليك بحجة قوية . فلما قر قرار إدريس في الجنة ، وألزمه الله دخولها قبل الخلائق ، عجب الملائكة إلى ربهم فقالوا : ربنا خلقتنا قبل إدريس بكذا وكذا ، ألف سنة ، ولم نعصك طرفة عين ، وإنما خلقت إدريس منذ أيام قلائل ، فأدخلته الجنة قبلنا ؟ فأوحى الله إليهم : يا ملائكتي ، إنما خلقتكم لعبادتي وتسبيحي وذكري ، وجعلت فيها لذتكم ، ولم أجعل لكم لذة في مطعم ولا مشرب ولا في شيء سواها ، وقوّيتكم عليها ، وجعلت في الأرض الزينة والشهوات واللذات والمعاصي والمحارم ، وإنه اجتنب ذلك كله من أجلي ، وآثر هواي على هواه ، ورضاي ومحبتي على رضاه ومحبته ، فمن أراد منكم أن يدخل مدخل

إدريس فليهبط إلى الأرض ، فليعبدني بعبادة إدريس ، ويعمل بعمل إدريس ، فإن عمل مثل إدريس أدخله مدخل إدريس ، وإن غير أو بدل استوجب مدخل الظالمين .

(101/488)

فقالت الملائكة : ربنا لا نطلب ثواباً ، ولا تصيبنا بعقاب ، رضينا بمكاننا منك يا رب ، وفضيلتك إيانا . وانتدب ثلاثة من الملائكة : هاروت وماروت ، وملك آخر رضوا به ، فأوحى الله إليهم : " أما إذا اجتمعتم على هذا فاحذروا إن نفعكم الحذر ، فإني أنذركم ، اعلموا أن أكبر الكبائر عندي أربع : – فما عملتم سواها غفرته لكم ، وإن عملتموها لم أغفر لكم " . قالوا وما هي ؟ قال : أن لا تعبدوا صنماً ولا تسفكوا دماً ولا تشربوا خمراً ولا تطؤوا محرماً . فهبطوا إلى الأرض على ذلك ، فكانوا في الأرض على مثل ما كان عليه إدريس : يقيمون أربعة أيام في سياحتهم ، وثلاثة أيام يعلمون الناس الخير ، ويدعونهم إلى عبادة الله تعالى وطاعته . حتى ابتلاهم الله بالزهرة ، وكانت من أجمل النساء . فلما نظروا إليها افتتنوا بها – أراد الله ولما سبق عليهم في علمه مع خذلان الله إياهم – فنسوا ما تقدم إليهم ، فسألوها نفسها . قالت لهم : نعم . ولكن لي زوج لا أقدر على ما تريدون مني إلا أن تقتلوه ، وأكون لكم . فقال بعضهم لبعض : إنا قد أمرنا أن لا نسفك دماً ، ولا نطأ

محرماً ، ولكن نفعل هذا مع هذا ، ثم نتوب من هذا كله . فلما أحس الثالث بالفتنة ، عصمه الله من ذلك كله بالسماء فدخلها فنجا ، وأقام هاروت وماروت لما كتب عليهما ، فنشدا على زوجها فقتلاه . فلما أراداها ، قالت : لي صنم أعبده ، وأنا أكره معصيته وخلافه ، فإن أردتما ، فاسجدا له سجدة واحدة . فدعتهما الفتنة إلى ذلك ، فقال أحدهما لصاحبه : إنا قد أمرنا أن لا نسفك دماً ولا نطأ محرماً ، ولكنا نفعله ، ثم نتوب من جميعه ، فسجدوا لذلك الصنم . فلما أراداها قالت لهما : قد بقيت لي حاجة أخرى قالا : وما هي ؟ قالت : لي شراب لا يطيب لي من العيش إلا به . قالا : وما هو ؟ قالت : الخمر . فدعتهما الفتنة إلى ذلك ، فقال أحدهما لصاحبه : إنا قد أمرنا أن لا نشرب خمراً فقال الآخر : إنا قد أمرنا أن لا نسفك دماً ، ولا نطأ

(102/488)

محرماً ، ولكنا نفعله ، ثم نتوب من جميعه .

فشربا الخمر . فلما أراداها قالت : قد بقيت لي حاجة أخرى . قالا : وما هي ؟ قالت : تعلماني الذي تعرجان به إلى السماء . فعلماها إياه ، فلما تكلمت به عرجت إلى السماء ، فلما انتهت إلى السماء مسخت نجماً ، فلما ابتليا بما ابتليا به ، عرجا إلى السماء ، فغلقت

أبواب السماء دونهما ، وقيل لهما أن السماء لا يدخلها خطاء ، فلما منعا من دخول السماء ، وعلما أنهما قد افتتنا وابتليا ، عجا إلى الله بالدعاء والتضرع والإبتهال ، فأوحى الله إليهما : حل عليكما سخطي ، ووجبت فيما تعرضتما ، واستوجبتما ، وقد كنتما مع ملائكتي في طاعتي وعبادتي ، حتى عصيتما فصرتما بذلك إلى ما صرتما إليه من معصيتي وخلاف أمري ، فاختارا إن شئتما عذاب الدنيا وإن شئتما عذاب الآخرة . فعلما أن عذاب الدنيا وإن طال فمصيره إلى زوال ، وأن عذاب الآخرة ليس له زوال ولا انقطاع ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما ببابل معلقين منكوسين مقرنين إلى يوم القيامة .

(103/488)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند ، عن بعض أصحابه قال : كان ملك الموت صديقاً لإدريس عليه السلام ، فقال له إدريس يوماً : يا ملك الموت ، قال : لبيك . قال : أمتني ، فأرني كيف الموت ؟ قال له ملك الموت : سبحان الله يا إدريس ! ، إنما يفر أهل السموات والأرض من الموت ، وتسألني أن أريك كيف الموت ؟ قال : إني أحب أن أراه ، فلما ألح عليه قال له : يا إدريس ، أنا عبد مملوك مثلك ، وليس إليّ من الأمر شيء . قال : فصعد ملك الموت فقال : رب إن عبدك سألني أن أريه الموت كيف هو ؟ قال الله له :

فأمته . فقال له ملك الموت : يا إدريس ، إنما يفر الخلق من الموت ، قال : فأرني . فلما مات بقي ملك الموت لا يستطيع أن يرد نفسه إليه ، فقال : يا رب ، قد ترى ما إدريس فيه ؟ فرد الله إليه روحه ، فمكث ما شاء حياً ، ثم قال يا ملك الموت : أدخلني الجنة فأنظر إليها ؟ قال له : يا إدريس ، إنما أنا عبد مملوك مثلك ليس إليّ من الأمر شيء ، فألح عليه فقال ملك الموت : يا رب ، إن عبدك إدريس قد ألح عليّ فسألني أن أدخله الجنة فيراها ؟ وقد قلت له : إنما أنا عبد مثلك ، وليس إليّ من الأمر شيء . قال الله : فأدخله الجنة قال : إن الله علم من إدريس ما لا أعلم أنا ، فاحتمله ملك الموت فأدخله الجنة ، فكان فيها ما شاء الله ، فقال له ملك الموت : اخرج بنا . قال : لا . قال الله : ﴿ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ﴾ [الصافات : 58] وقال الله : ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ [الحجرات : 48] وما أنا بخارج منها . قال ملك الموت : يا رب ، قد تسمع ما يقول عبدك إدريس . قال الله له : صدق عبدي هو أعلم منك ، فاخرج منها ودعه فيها .

فقال الله : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ .

(104/488)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً علياً ﴾ [مريم : 57 – 58] قال : كان إدريس أول نبي بعثه الله في الأرض . وإنه كان يعمل فيرفع عمله مثل نصف أعمال الناس ، ثم إن ملكاً من الملائكة أحبه فسأل الله أن يأذن له فيأتيه ، فأذن له فأتاه فحدثه بكرامته على الله فقال : يا أيها الملك ، أخبرني كم بقي من أجلي لعلي أجتهد لله في العمل . قال : يا إدريس ، لا يعلم هذا إلا الله . قال : فهل تستطيع أن تصعد بي إلى السماء ؟ ؛ فأنظر في ملك الله ؛ فأجتهد لله في العمل . قال : لا . إلا أن تشفع ، فتشفع فأمر به ، فحمله تحت جناحيه فصعد به حتى إذا بلغ السماء السادسة ، استقبل ملك الموت نازلاً من عند الله فقال : يا ملك الموت ، أين تريد ؟ قال : أقبض نفس إدريس . قال : وأين أمرت أن تقبض نفسه ؟ قال : في السماء السادسة . فذهب الملك ينظر إلى إدريس ، فإذا هو برجليه يخفقان قد مات ، فوضعه في السماء السادسة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ قال : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم . أما من ذرية آدم : فإدريس ونوح ، وأما من حمل مع نوح : فإبراهيم – وأما ذرية إبراهيم : فإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب . وأما بني اسرئيل :

فموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ واجتبينا ﴾ قال خلصنا .

(105/488)

وأخرج عبد بن حميد ، عن قيس بن سعد قال : جاء ابن عباس حتى قام على عبيد بن عمير وهو يقص فقال : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ [مريم : 42] ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾ [مريم : 54] الآية ﴿ واذكر في الكتاب إدريس ﴾ الآية . حتى بلغ ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ قال ابن عباس : ﴿ ذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : 6] وأثن على من أثنى الله عليه .

وأخرج ابن أبي الدنيا في البكاء ، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب : أنه قرأ سورة مريم فسجد ، ثم قال : هذا السجود فأين البكاء ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(106/488)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾

قوله : ﴿ مِّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ﴾ : " مِن " الأولى للبيان ؛ لأنَّ كلَّ الأنبياء مُنَعَّمٌ عليهم ، فالتبعيضُ مُحالٌ ، والثانيةُ للتبعيض ، فمجرورُها بدلٌ مما قبلَه بإعادة العاملِ ، بدلُ بعضٍ من كل .

قوله : " وإسرائيلَ " عطفٌ على " إبراهيمَ " .

قوله : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ يحتمل أَنْ يكونَ عطفاً على ﴿ مِّنَ النبيين ﴾ ، وأن يكونَ عطفاً على ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ .

قوله : ﴿ إِذَا تتلى ﴾ جملةٌ شرطيةٌ فيها قولان ، أظهرهما : أنها لا مَحَلَّ لها لاستئنافِها . والثاني : أنها خبرُ " أولئك " ، والموصولُ قبلها صفةٌ لاسم الإشارة ، وعلى الأول يكون الموصولُ نفسَ الخبر . وقرأ العامَّةُ " تُتلى " بتاءين مِنْ فوقُ . وقرأ عبد الله وشيبةُ وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وورشٌ عن نافع في رواياتٍ شاذة بالياء أولاً مِنْ تحتُ ، والتأنيثُ مجازيٌّ فلذلك جاء في الفعلِ الوجهان .

قوله : " سُجَّدا " حالٌ مقدرة . قال الزجاج : " لأنهم وقتَ الخُرورِ ليسوا سُجَّداً " .

و "بُكِيًّا " فيه وجهان ، أظهرهما : أنه جمع باكٍ ، وليس بقياسِه ، بل قياسُ جَمْعِه على فُعَلة ، كقاضٍ وقُضاة ، ولم يُسمع فيه هذا الأصلُ . وقد تقدَّم أنَّ الأخوين يكسِران فاءَه على الإتباع . والثاني : أنه مصدرٌ على فُعُوْل نحو : جَلَسَ جُلُوْساً ، وقَعَدَ قُعوداً . والأصلُ فيه على كِلا القولين بُكُوْي بواوٍ وياء ، فأُعِلَّ الإعلالَ المشهور في مثله . وقال ابن عطية : " وبكيًّا بكسر [الباء] وهو مصدرٌ لا يحتمل غيرَ ذلك " . قال الشيخ : " وليس بسديدٍ بل الإتباعُ جائزٌ فيه " . وهو جمعٌ كقولِهم عُصِيّ ودُلِيّ ، جمع عَصا ودَلْو ، وعلى هذا فيكون " بكيًّا " : إمَّا مصدراً مؤكداً لفعلٍ محذوف ، أي : وبَكَوْا بُكِيًّا ، أي : بكاءً ، وإمَّا مصدراً واقعاً موقع الحال ، أي : باكين أو ذوي بكاءً ، أو جُعِلوا [نفس] البكاءِ مبالغةً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 608. 609 ﴾

(108/488)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾

الصِّدِّيق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مَذْقٌ ، ويكون قائماً بالحقِّ للحق ، ولا يكون فيه نَفَسٌ لغير الله .

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ : درجة عظيمة في التربية لم يُسَاوِه فيها أَحَدٌ .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾

أقامهم بشواهد الجمع ، وأخبر أن مِنَّتَه كامِنَةٌ في تخصيصِهم بأحوالهم ، وتأهيلهم لِمَا رقَّاهم إليه من المآل ، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم . ومما أنعم به عليهم من الخصائص رِقَّةُ قلوبِهم ؛ فهم إذ تُتْلَى عليهم الآياتُ سجدوا ، وسجودُ ظواهرِهم يدل على سجود سرائرهم بما حقَّقَ لهم من شواهد الجمع ، وأمارة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق ؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية ، وبِنعَت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 434 ﴾

(109/488)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

أي ذلك الذي قال إني عبد الله ، عيسى ابن مريم ، لا ما يقول النصارى إنه إله .

﴿ قَوْلَ الحق ﴾ ، يعني : خبر الصدق .

قرأ عاصم وابن عامر ﴿ قَوْلَ ﴾ بنصب اللام ، والباقون بالضم ؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه أقول الحق ، ومن قرأ بالضم معناه وهو قول الحق .

﴿ الذى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ، يعني : يشكون في عيسى عليه السّلام ويختلفون فيما بينهم .

ثم كذبهم في قولهم فقال : ﴿ مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ ، يعني : عيسى .

ثم نزّه عن الولد فقال : ﴿ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً ﴾ ، يعني : إذا أراد أن يخلق خلقاً مثل عيسى ، ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، قرأ ابن عامر ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقون بالضم ، وقرأ بعضهم : ﴿ تَمْتَرُونَ ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة ، وقراءة العامة بالياء لأنها ليست فيها مخاطبة .

﴿ وَإِنَّ الله رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ ؛ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ بالنصب على معنى البناء ، والباقون ﴿ وَأَنَّ الله ﴾ بالكسر على معنى الابتداء وهي قراءة أبي عبيدة ؛ وفي قراءة أبيّ ﴿ إِنَّ الله ﴾ بغير واو فتكون قراءته شاهدة على الكسر .

ثم قال : ﴿ فاعبدوه ﴾ ، يعني : وحدوه وأطيعوه .

﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ، يعني : هذا الإسلام طريق مستقيم .

﴿ فاختلف الاحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ ، يعني : الكفار من أهل النصارى من بينهم ، يعني :

بينهم في عيسى وتفرقوا ثلاثة فرق : قالت النسطورية : عيسى ابن الله ، واليعقوبية قالوا : إن الله هو المسيح ، والملكانية قالوا : إن الله ثالث ثلاثة .

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ ، يعني : الشدة من العذاب ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، يعني : من عذاب يوم القيامة ، بأن عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه ، ويقال : ويل صخرة في جهنم .

(110/488)

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكن الظالمون ﴾ ، أي المشركون .

﴿ اليوم ﴾ ، يعني : في الدنيا ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ ، أي في خطأ بيّن لا يسمعون الهدى ولا يبصرون ولا يرغبون فيه .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة ﴾ ، يقول : وأنذرهم يا محمد أي خوفهم بهول يوم القيامة ، ﴿ إِذْ قُضِىَ الأمر ﴾ ؛ يعني : فرغ من الأمر إذا دخل أهل الجنة الجنة ، ودخل أهل النار النار ، وهو يوم القيامة .

﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ ، يعني : هم في الدنيا في غفلة من تلك الندامة والحسرة .

﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يعني : لا يصدقون بالبعث .

قال : حدثنا محمد بن الفضل قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا إبراهيم بن يوسف قال : حدثنا إسماعيل بن جعفر المدني ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي مسلمة ، عن الزهري ، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يَؤْتَى بِالمَوْتِ فَيُوقَفُ عَلَى الصِّرَاطِ ، فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيطلعُونَ .

وَيُقَالُ : يا أَهْلَ النَّارِ ، فيطلعونَ .

فيقالُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هذا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَم يَا رَبَّنَا ، هَذا المَوْتُ .

قال : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ على الصِّرَاطِ ، ثم يقالُ : للفريقينِ .

خُلُودٌ لا مَوْتَ فِيهَا أبداً " .

وروى الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، فذلك قوله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ الآية .

نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ ، يعني : نميت أهل الأرض كلهم ومن عليها ، ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة .

﴿ واذكر فِى الكتاب إبراهيم ﴾ ، يعني : خبر إبراهيم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ ، يعني : صادقاً .

وقال الزجاج : الصديق اسم للمبالغة في الصدق ، يقال : كل من صدق بتوحيد الله عز

وجل وأنبيائه عليهم السلام وفرائضه وعمل بما صدق فيه فهو صديق ، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق .

(111/488)

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾ ، وهو آزر بن تارخ بن تاخور وكان يعبد الأصنام : ﴿ لأَبِيهِ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ﴾ دعاءك ﴿ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ عبادتك ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ ﴾ من عذاب الله عز وجل ﴿ شَيْئاً ﴾ ؛ قرأ ابن عامر : ﴿ يَا أَبَتَ ﴾ بالنصب ، والباقون بالكسر ، وكذلك ما بعده .

والعرب تقول في النداء : يا أبت ولا تقول يا أبتي .

ثم قال : ﴿ شَيْئاً يا أبت إِنِّى قَدْ جَاءِنِى مِنَ العلم ﴾ من الله تعالى من البيان ، ﴿ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ أنه من عند غير الله ، عذبه الله في الآخرة بالنار .

﴿ فاتبعنى ﴾ ، يعني : أطعني فيما أدعوك ، ويقال : اتبع دين الله ؛ ﴿ أَهْدِكَ ﴾ ، يعني : أرشدك ﴿ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ ، يعني : طريقاً عدلاً قائماً ترضاه .

﴿ سَوِيّاً يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ ، يعني : لا تطع الشيطان ، فمن أطاع شيئاً فقد عبده .

﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ ، يعني : عاصياً .

ثم قال : ﴿ عَصِيّاً يا أبت إِنّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ ﴾ ، يعني : أعلم أن يمسك ﴿ عَذَابِ ﴾ ، إن أقمت على كفرك يصيبك عذاب .

﴿ مّنَ الرحمن ﴾ ، ﴿ فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ ؛ يعني : قريناً في النار .

﴿ قَالَ ﴾ له أبوه : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ اِلهَتِى ﴾ ، يعني : أتارك أنت عبادة آلهتي ؟ ﴿ اِلهَتِى يا إبراهيم لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لارْجُمَنَّكَ ﴾ ، يقول : إن لم تنته عن مقالتك ولم ترجع عنها ، لأسبنك وأشتمنك .

وكل شيء في القرآن من الرجم فهو القتل غيرها هنا ، فإن ها هنا المراد به السبُّ والشتم .

﴿ واهجرنى مَلِيّاً ﴾ ، يعني : تباعد عني حيناً طويلاً ولا تكلمني ؛ وقال السدي : ﴿ مَلِيّاً ﴾ تعني أبداً ، وقال قتادة : ﴿ واهجرنى مَلِيّاً ﴾ يعني : تباعد عني سالماً ؛ ويقال : لا تُكلّمني دهراً طويلاً .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم : ﴿ سلام عَلَيْكَ ﴾ ، يعني : أكرمك الله بالهدى ؛ ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ ، يعني : سأدعو لك ربي .

(112/488)

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً ﴾ ، يعني : باراً عوّدني الإجابة إذا دعوته ، ويقال : تحفَّيتُ بالرجل إذا بالغتُ في إكرامه ، وهذا قول القتبي ، ويقال : ﴿ حَفِيّاً ﴾ يعني : عالماً يستجيب لي إذا دعوته ، وكان يستغفر له ما دام أبوه حياً ؛ فلما مات كافراً ، ترك الاستغفار له وكان يرجو أن يهديه الله عز وجل .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ يعني : وأترككم ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ ، يعني : أترك عبادة ما تعبدون من دون الله عز وجل ، ﴿ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَى أَن لا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيّا ﴾ ؛ يعني : لا يخيبني إذا دعوته ، فهاجر إلى بيت المقدس .

﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ ، يعني : أكرمناه بالولد وهو إسحاق وولد الولد وهو يعقوب .

وقال بعض الحكماء : من هاجر في طلب رضاء الله عز وجل ، أكرمه الله عز وجل في الدنيا والآخرة ؛ كما أن إبراهيم هاجر من قومه في طلب رضى الله تعالى عنه ، فأكرمه الله تعالى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام والثناء العمل الصالح .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ ، يعني : إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أكرمناهم بالنبوة ، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ ؛ يعني : من نعمتنا المال والولد في الدنيا ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ للرَّجُلِ الصَّالِح " .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ ، يعني : أكرمناهم بالثناء الحسن ، وكل أهل دين يقولون دين إبراهيم بزعمهم .

﴿ واذكر فِي الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ ، يعني : أخلصه الله عز وجل ، ويقال : ﴿ مُخْلِصاً ﴾ يعني : جعله الله مختاراً خالصاً .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم بنصب اللام يعني : أخلصه الله عز وجل ويقال : مخلصاً من الكفر والمعاصي وقرأ الباقون ﴿ مُخْلِصاً ﴾ بالكسر يعني : مخلصاً في العمل .

(113/488)

﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ إلى بني إسرائيل ، ﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الايمن ﴾ ، يعني : من يمين موسى ولم يكن للجبل يمين ولا شمال ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ ، أي كلمناه بلا وحي ؛ وقال الكلبي : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ وقربناه حتى سمع صرير القلم في اللوح ، وقال السدي : أدخل في السماء الدنيا وكلم ، وقال الزجاج : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ مناجياً .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا ﴾ من نعمتنا ﴿ أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ ، فكان معه وزيراً معيناً .

﴿ واذكر فِي الكتاب إسماعيل ﴾ ، يعني : اذكر في القرآن خبر إسماعيل .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ ، إذا وعد أنجز .

قال مقاتل : إن إسماعيل وعد رجلاً أنْ ينتظره ، فقام مكانه ثلاثة أيام للميعاد ، حتى رجع الرجل إليه ؛ وقال في رواية الكلبي : كان ميعادُه الذي وعد فيه صاحبه انتظره حتى حال الحول ، وقال مجاهد : إنه كان صادق الوعد ، يعني : لم يعد شيئاً إلا وفى به .

﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ ، يعني : كان رسولاً إلى قومه ، نبياً يُخبر عن الله عز وجل .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ ، يعني : أهل دينه وقومه ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً ﴾ ، يعني : بإتمام الصلاة وإيتاء الزكاة .

﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ ، يعني : صالحاً ذكياً .

﴿ واذكر فِى الكتاب إِدْرِيسَ ﴾ ، يعني : خبر إدريس .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ ، يعني : صادقاً يُخبر عن الله عز وجل ، وذكر عن وهب بن منبه أنه قال : إنما سمي إدريس لكثرة ما يدرس من كتاب الله عز وجل والسنن ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وهو أول من لبس ثوب القطن ؛ وكانوا من قبل ذلك يلبسون جلود الضأن ، واسمه أخنوخ ويقال إلياس .

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ ، يعني : الجنة ؛ وقال مجاهد : يعني : في السماء الرابعة .

قال : أخبرني الثقة بإسناده ، عن ابن عباس أنه سئل كعب الأحبار عن إدريس فقال كعب : إن إدريس كان رجلاً خياطاً ، وكان يقوم الليل ويصوم النهار ولا يفتر عن ذكر الله عز وجل ، وكان يكتسب فيتصدق بالثلثين .

فأتاه ملك من الملائكة يقال له إسرافيل ، فبشره بالجنة وقال له : هل لك من حاجة ؟ قال : وددت أني أعلم إلى متى أجلي فأزداد خيراً .

فقال له : ما أعلمه ، ولكن إن شئت حملتك إلى السماء .

قال : فحمله إلى السماء ، فلقي ملك الموت ، فسأله عن أجله ، ففتح كتاباً معه فقال : لم يبق من أجلك إلا ست ساعات أو سبع ساعات ، وقال : أُمرتُ أن أقبض نفسك ها هنا ، فقبض نفسه في السماء ، فذلك رفع مكانه .

وروى الكلبي ، عن زيد بن أسلم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن إدريس جد أبي نوح ؛ وكان أهل الأرض يومئذ بعضهم مؤمناً وبعضهم كافراً ، فكان يصعد لإدريس من العمل ما كان يصعد لجميع بني آدم ، فأحبه ملك الموت ، فاستأذن الله تعالى في خلته ، قال : فأذن له .

قال : فهبط إليه في صورة غير صورته ، على صورة آدمي لكيلا يعرفه فقال : يا إدريس إني أحب أن أصحبك وأكون معك .

فقال له إدريس : إنك لا تطيق ذلك .

قال : أنا أرجو أن يقويني الله عز وجل على ذلك ، فكان معه يصحبه .

وكان إدريس يسيح النهار كله صائماً ؛ فإذا جنّه الليل أتاه رزقه حيث يمسي ، فيفطر عليه ثم يحيي الليل كله .

فساحا النهار كله صائمين ، حتى إذا أمسيا أتى إدريس رزقه فأكله ودعا الآخر ، فقال : لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه ، فيطعم إدريس ثم يستقبلا الليل بالصلاة .

فإدريس تناله السآمة والفترة من الليل والآخر لا يسأم ولا يفتر ، فجعل إدريس يتعجب منه ثم أصبحا صائمين فساحا ، حتى إذا جنهما الليل أتى إدريس رزقه فجعل يطعم ودعا الآخر فقال : لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه فيطعم .

(115/488)

ثم استقبلا الليل كله فإدريس تناله السآمة والفترة والآخر لا يسأم ولا يفتر ، فجعل إدريس يتعجب منه ثم أصبحا اليوم الثالث صائمين ، فساحا فمرا على كرم قد أينع وطاب فقال : يا إدريس لو أنا أخذنا من هذا الكرم فأكلنا .

فقال إدريس : ما أرى صاحبه فأشتريه منه وإني لأكره أن آخذ بغير ثمن .

قال : فمضيا حتى مرا على غنم فقال : يا إدريس لو أخذنا من هذا الغنم شاة فأكلنا من لحمها فقال له إدريس : إنك معي منذ ثلاثة أيام ، فلو كنت آدمياً لطعمت ؛ وإني لأدعوك كل ليلة إلى الحلال فتأبى علي ، فكيف تدعوني إلى الحرام أن آخذه ؟ فبصحبة ما بيني وبينك إلا ما أنبأتني من أنت .

قال : إنك ستعلم .

قال : أخبرني من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت .

ففزع حين قال أنا ملك الموت .

قال : فإني أسألك حاجة .

قال : ما هي قال : أن تذيقني الموت .

قال : ما لي من ذلك شيء وليس لك بد من أن تذوقه .

قال : فإنه قد بلغني عنه شدة ؛ ولعلي أعلم ما شدته ، فأكون له أشد استعداداً .

قال : فأوحى الله عز وجل إلى ملك الموت أن يقبض روحه ساعة ثم يرسله .

قال : فقبض نفسه ساعة ثم أرسله ، فقال : كيف رأيت ؟ قال : لقد بلغني عنه شدة فلقد كان أشد مما بلغني عنه .

قال : فإني أسألك حاجة أُخرى .

قال : ما هي ؟ قال : أحب أن تُريني النار .

قال : ما لي من ذلك شيء ، ولكن سأطلب لك ، فإن قدرت عليه فعلت .

فسأل ربه ، فأمره فبسط جناحه فحمله عليه ، حتى صعد به إلى السماء فانتهى به إلى باب من أبواب النار فدقه فقيل : من هذا ؟ فقال : ملك الموت .

فقال : مرحباً بأمين الله عز وجل ، فهل أمرت فينا بشيء ؟ فقال : لو أمرت فيكم بشيء لم أناظركم ، ولكن هذا إدريس سألني أن أريه النار ، فأحب أن تروها إياه .

ففُتح منها بشيء ، فجاءت بأمر عظيم ، فخرّ إدريس مغشياً عليه ؛ فحمله ملك الموت وحبسه في ناحية حتى أفاق فقال له ملك الموت ؛ ما أحببت أن يصيبك هذا في صحبتي ، ولكن سألتني فأحببت أن أسعفك .

(116/488)

قال : فإني أسألك حاجة أخرى ، لا أسألك غيرها .

قال : ما هي ؟ قال : أحب أن تريني الجنة .

قال : ما لي من ذلك شيء ، ولكن سأطلب لك فإن قدرت عليه فعلت .

فانطلق به إلى خزنة الجنة ، فدق باباً من أبوابها فقيل : من هذا ؟ فقال : أنا ملك الموت .

فقالوا : مرحباً بأمين الله عز وجل ، هل أمرت فينا بشيء ؟ فقال : لو أمرت فيكم بشيء لم

أناظركم ، ولكن هذا إدريس سألني أن أريه الجنة فأحب أن تروها إياه .

قال : ففتح له الباب فدخل فنظر إلى شيء لم ينظر مثله قط ، فطاف فيها ساعة ثم قال له ملك الموت : انطلق بنا فلنخرج .

فانطلق إلى شجرة فتعلق بها ثم قال : والله لا أخرج ، حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني .

فقال ملك الموت : إنه ليس حينها ولا زمانها ، ولكن طلبت إليهم لترى ، فانطلق بنا .

فأبى عليه فقبض الله ملكاً من الملائكة فقال له ملك الموت : اجعل هذا الملك حكماً بيني وبينك ؟ قال : نعم .

قال الملك : ما هو يا ملك الموت ؟ فأخبره بالقصة ، ثم نظر الملك إلى إدريس قال : ما تقول يا إدريس ؟ قال : أقول إن الله يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القيامة فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ مَتَاعُ الغرور ﴾ [آل عمران : 185] ويقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71] وقد وردتها وقال لأهل الجنة : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : 48] .

فوالله لا أخرج منها حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني .

قال : فسمع هاتفاً يقول : بإذني دخل وبإذني فعل فخل سبيله ، فذلك قوله عز وجل : ﴿

وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ "

أي الجنة ؛ ويقال : ورفعناه في القدر والمنزلة ، ويقال : ورفعناه في النبوة والعلم .

(117/488)

ثم قال عز وجل : ﴿ أولئك ﴾ ، يعني : إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس وسائر الأنبياء ﴿ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ من سائر الأنبياء وهم ولد نوح إلا إدريس ، يعني : حملناهم على السفينة وهم في صلب نوح وأولاده ، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم وإسراءيل ﴾ وهو يعقوب ؛ ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ يعني : أكرمنا بالنبوة ، ويقال : أكرمنا بالإسلام ، ﴿ واجتبينا ﴾ ؛ يعني : واصطفينا بعد هؤلاء .

﴿ أُولَئِكَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم ﴾ ، يعني : القرآن ، ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ ؛ يعني : يسجدون ويبكون من خوف الله عز وجل .

بكيّ : جمع باكي .

وقوله : ﴿ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ منصوب على الحال ، وقال بعضهم : ﴿ بُكِياً ﴾ مصدر بكى يبكي بكياً ، وقال الزجاج : من قال مصدر فهو خطأ ، لأن ﴿ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾

جمع ساجد ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ عطف عليه فهو جمع باك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 374.380 ﴾

(118/488)

وقال الثعلبى :

﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق ﴾

يعني هو قول الحق ، وقيل : رفع على التكرير يعني ذلك عيسى ابن مريم وذلك قول الحق ، وقيل : هو نعت لعيسى يعني ذلك عيسى بن مريم كلمة الله ، والحق هو الله سبحانه . وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب قول بالنصب يعني قال قول الحق ﴿ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكّون ويقولون غير الحق ، فقالت اليهود : ساحر كذّاب ، وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة ، ثمّ كذّبهم فقال : ﴿ مَا كَانَ للهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ أي ما كان من صفته اتّخاذ الولد ، وقيل : اللام منقولة يعني ما كان الله ليتخذ من ولد ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه ﴿ إِذَا قضى أَمْراً ﴾ كان في علمه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ الله ﴾ يعني وقضى أن الله ، وقرأ أهل الكوفة إنّ الله بالكسر على الاستيناف ﴿ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا ﴾ الذي ذكرت ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ يعني النصارى ،

وانّما سمّوا أحزاباً لأنهّم تجزأوا ثلاث فرق في أمر عيسى : النسطورية والملكانيّة والمار يعقوبية .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ يعني ما أسمعهم وأبصرهم ، على التعجّب ، وذلك أنهم سمعوا يوم القيامة حين لم ينفعهم السمع ، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر .

قال الكلبي : لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين يقول الله سبحانه وتعالى لعيسى ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ الآية [المائدة : 116] .

﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكن الظالمون اليوم فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر ﴾ أي فرغ من الحساب وأُدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار وذبح الموت ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ من الدنيا .

(119/488)

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان قال : أخبرنا مكّي بن عبدان قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : "يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنّة

والنار فيقال : يا أهل الجنّة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبّون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت فيؤمر به فيذبح ثمّ ينادي المنادي : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى زنهم "

، ثمَّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ وأشار بيده في الدنيا .

قال مقاتل : لولا ما قضى الله سبحانه وتعالى من تخليد أهل النار وتعميرهم فيها لماتوا حسرة حين رأوا ذلك .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي نميتهم ويبقى الرب عزّ وجلّ فيرثهم .

﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فنجزيهم بأعمالهم .

﴿ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً ﴾ مؤمناً موقناً صدوقاً ﴿ نَّبِيّاً ﴾ رسولاً رفيعاً ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾ آزر وهو يعبد الأوثان ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ﴾ صوتاً ﴿ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ شيئاً ﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ ﴾ لا ينفعك ولا يكفيك ﴿ شَيْئاً ﴾ يعني الأصنام ﴿ يا أبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم ﴾ والبيان بعد الموت وأنّ من غيره عذّبه ﴿ مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعني ﴾ على ديني ﴿ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ مستوياً .

﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ لا تطعه ، لم تصل ، له ولم تصم وإنّ من أطاع شيئاً فقد

عبده ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ عاصياً عاتياً ، وكان بمعنى الحال أي هو ، وقيل بمعنى : صار .

(120/488)

﴿ يا أبت إني أَخَافُ ﴾ أعلم ﴿ أَن يَمَسَّكَ ﴾ يصيبك ﴿ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن ﴾ لقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَخَافَآ ﴾ [البقرة : 229] وقوله ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا ﴾ [البقرة : 229] وقيل : معناه إنّي أخاف أن ينزل عليك عذاباً في الدنيا ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ قريناً في النار ، فقال له أبوه مجيباً له ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم ﴾ تارك عبادتهم وزاهد فيهم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ لئن لم تسكت وترجع عن مقالتك ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قال الضحاك ومقاتل والكلبي : لأشتمنّك ، وقال ابن عباس : لأضربنّك ، وقيل لأُظهرنّ أمرك ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ قال الحسن وقتادة وعطاء : سالماً ، وقال ابن عباس : واعتزلني سالم العرض لا يصيبنّك منّي معرّة ، وقال الكلبي : اتركني واجتنبني طويلاً فلا تكلّمني ، وقال سعيد بن جبير : دهراً ، وقال مجاهد وعكرمة : حيناً ، وأصل الحرف المكث ، ومنه يقال : تملّيت حيناً ، والملوان الليل والنهار .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ ﴾ أي سلمت منيّ لا أصيبك بمكروه ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ

لَكَ رَبِي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ قال ابن عباس ومقاتل : لطيفاً رحيماً ، وقيل : بارّاً ، وقال مجاهد : عوّده الإجابة ، وقال الكلبي : عالماً يستجيب لي إذا دعوته .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يعني وأعتزل ما تعبدون من دون الله ، قال مقاتل : كان اعتزاله اياهم أنه فارقهم من كوثى فهاجر منها إلى الأرض المقدسة .

﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ يعني عسى أن يجيبني ولا يخيّبني ، وقيل : معناه عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام .

(121/488)

﴿ فَلَمَّا اعتزلهم ﴾ ما تَدْعُون : تعبدون ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يعني الأصنام فذهب مهاجراً ﴿ وَهَبْنَا لَهُ ﴾ بعد الهجرة ﴿ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ نعمتنا ، قال الكلبي : المال والولد ، وقيل : النبوّة والكتاب ، بيانه قوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ يعني ثناءً حسناً رفيعاً في كلّ أهل الأديان ، وكلّ أهل دين يتولّونهم ويثنون عليهم .

﴿ واذكر فِي الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ يعني غير مرائي ، قال مقاتل : مسلماً موحداً ، وقرأ أهل الكوفة : مخلَصاً بفتح اللام يعني أخلصناه واخترناه ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ ﴾ دعوناه وكلّمناه ليلة الجمعة ﴿ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ يعني يمين موسى ، والطور : جبل بين مصر ومدين ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ يعني رفعناه من سماء إلى سماء ومن حجاب إلى حجاب حتى لم يكن بينه وبينه إلاّ حجاب واحد .

وأخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال : أخبرنا مكّي بن عبدان قال : حدّثنا أبو الأزهر قال : حدّثنا أسباط عن عطاء بن السائب عن ميسرة ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ قال : قرّبه حتى سمع صريف القلم ، والنجيّ : المناجي كالجليس والنديم .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ وذلك حين سأل موسى ربّه عزّ وجلّ فقال : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾ [طه : 29-30] وحين قال ﴿ فَأَرْسِلْ إلى هَارُونَ ﴾ [الشعراء : 13] فأجاب الله دعاءه .

(122/488)

﴿ واذكر فِي الكتاب إِسْمَاعِيلَ ﴾ يعني ابن إبراهيم ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ كان إذا وعد أنجز ، وذلك أنّه وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه فأقام إسماعيل مكانه

ثلاثة أيام للميعاد حتى يرجع إليه الرجل ، قاله مقاتل ، وقال الكلبي : انتظره حتى حال الحول عليه . ﴿ وَكَانَ رَسُولاً ﴾ إلى قومه ﴿ نَّبِيّاً ﴾ مخبراً عن الله سبحانه .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ يعني قومه وكذلك هو في حرف ابن مسعود ﴿ بالصلاة والزكاة وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ صالحاً زاكياً .

﴿ واذكر فِي الكتاب إِدْرِيسَ ﴾ وهو جدّ أبي نوح ، فسمّي إدريس لكثرة درسه الكتب ، واسمه أخنوخ وكان خيّاطاً ، وهو أوّل من كتب بالقلم وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط وأول من تكلّم في علم النجوم والحساب ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ يعني الجنة .

وقال الضّحاك : رفع إلى السماء السادسة ، وقيل : الرابعة .

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصبهاني وشعيب بن محمد البيهقي قالا : أخبرنا مكي بن عبدان التميمي قال : حدّثنا أحمد بن الأزهر قال : حدّثنا روح قال : حدّثنا سعيد عن قتادة في قوله ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ قال : حدّثنا أنس بن مالك بن صعصعة " أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما عرج به إلى السماء قال : أتيت على إدريس في السماء : الرابعة ".

وكان سبب رفعه على ما قاله ابن عباس وكعب وغيرهما أنّه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال : يا ربّ أنا مشيت يوماً فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد ؟ اللهمّ خفّف عنه من ثقلها واحمل عنه حرّها ، فلمّا أصبح الملك وجد من خفّة الشمس وحرّها ما لا يعرف ، فقال : يا ربّ خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه ؟ قال : أما إنّ عبدي إدريس سألني أن اخفّف عنك حملها وحرّها فأجبته ، فقال : يا ربّ اجمع بيني وبينه واجعل بيني وبينه خلّة ، فأذن له حتى أتى إدريس وكان يسأله إدريس فكان ممّا سأله أن قال له : أُخبرت أنّك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي فازداد شكراً وعبادة ، فقال الملك : لا يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها قال : قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسي ، فقال : نعم أنا مكلّمه لك فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بني آدم فهو فاعله لك ، ثم حمله ملك الشمس على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ، ثمّ أتى ملك الموت فقال : حاجة لي إليك ، فقال : أفعل كلّ شيء أستطيعه قال : صديق لي من بني آدم تشفّع بي إليك لتؤخّر أجله قال : ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت أعلمته أجله متى يموت فيقدّم في نفسه ، قال : نعم ، فنظر في ديوانه وأخبر باسمه فقال : إنك كلّمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً ، قال : وكيف ؟ قال : لا أجده

يموت إلا عند مطلع الشمس ، قال : إنّي اتيتك وتركته هناك ، قال : انطلق فما أراك تجده إلاّ وقد مات ، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء ، فرجع الملك فوجده ميّتاً

(124/488)

وقال وهب : كان يرفع لإدريس كلّ يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه ، فعجبت منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربّه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم ، وكان إدريس صائماً يصوم الدهر ، فلّما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس فقال له الليلة الثالثة : إنيّ أُريد أن أعلم من أنت ، قال : أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك فأَذن لي ، قال : فلي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قال : تقبض روحي ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن اقبض روحه ، فقبض روحه وردّها الله عليه بعد ساعة .

قال له ملك الموت : ما الفائدة في سؤالك قبض الروح ؟ قال : لأذوق كرب الموت وغمّته فأكون له أشدّ استعداداً ، ثم قال إدريس له : لي إليك حاجة أُخرى ، قال : وما هي ؟ قال : ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجّنة وإلى النار ، فأذن الله له في رفعه إلى السماوات ، فلمّا قرب من النار قال : حاجة قال : وما تريد ؟ قال : تسأل مالكاً حتى يفتح لي بابها

فأردها ، ففعل ثمّ قال : فكما أريتني النار فأرني الجّنة ، فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنّة ، ثم قال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرّك فتعلّق بشجرة وقال : لا أخرج منها ، فبعث الله ملكاً حكماً بينهما ينظر في قولهما فقال له الملك : ما لك لا تخرج؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] وقد ذقته ، وقال ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] وقد وردتها ، وقال ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : 48] فلست أخرج ، فأوحى الله سبحانه إلى ملك الموت : دخل الجنة وبأمري يخرج ، فهو حيّ هناك فذلك قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ .

(125/488)

﴿ أولئك الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ في السفينة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ إلى الإسلام ﴿ واجتبينآ ﴾ على الأنام ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن ﴾ يعني القرآن ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ جمع باك تقديره من الفعل فعول مثل ساجد وسجود وراكع وركوع وقاعد وقعود ، جمع على لفظ المصدر ، نزلت في مؤمني أهل الكتاب ، عبد الله سّلام وأصحابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 205. 221 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

قرأ عاصم وابن عامر قَوْلَ الْحَقِّ بالنصب . وعن ابن مسعود : قال الحق ، وقال اللّه – وعن الحسن : قول الحق ، بضم القاف ، وكذلك في الأنعام قَوْلُهُ الْحَقُّ والقول والقال والقول بمعنى واحد ، كالرهب والرهب والرهب . وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر ، أو بدل ، أو خبر مبتدأ محذوف . وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة اللّه ، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق ، كقولك : هو عبد اللّه حقا . والحق لا الباطل ، وإنما قيل لعيسى «كلمة اللّه» و«قول الحق» لأنه لم يولد إلا بكلمة اللّه وحدها ، وهي قوله كُنْ من غير واسطة أب ، تسمية للسبب باسم السبب ، كما سمى العشب بالسماء ، والشحم بالنداء ويحتمل إذا أريد بقول الحق عيسى ، أن يكون الحق اسم اللّه عزّ وجل ، وأن يكون بمعنى الثبات والصدق ، ويعضده قوله الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ أى أمره حق يقين وهم فيه شاكون يَمْتَرُونَ يشكون . والمرية : الشك . أو يتمارون : يتلاحون «1» ، قالت اليهود : ساحر كذاب ، وقالت النصارى : ابن اللّه وثالث ثلاثة . وقرأ على بن أبى طالب رضى

اللّه عنه :

تمترون ، على الخطاب . وعن أبيّ بن كعب : قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون .

[سورة مريم (19) : آية 35]

ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)

كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه ، وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه ، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه

---

(1) . قوله «يتلاحون» التلاحي بمعنى التنازع كما في الصحاح . وعبارة النسفي : أو يختلفون ، من المراء ، فقالت اليهود . . . الخ . (ع)

(127/488)

الولد ، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئا من الأجناس كلها أوجده بكن ، كان منزها من شبه الحيوان الوالد . والقول ها هنا مجاز ، ومعناه : أنّ إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف ، فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور الممتثل .

[سورة مريم (19) : آية 36]

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)

قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن . ومعناه : ولأنه ربى وربكم فاعبدوه ، كقوله وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً والأستار وأبو عبيد بالكسر على الابتداء . وفي حرف أبيّ : إن اللّه ، بالكسر بغير واو ، وبأن اللّه ، أى : بسبب ذلك «1» فاعبدوه .

[سورة مريم (19) : آية 37]

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)

الْأَحْزابُ اليهود والنصارى عن الكلبي . وقيل النصارى لتحزبهم ثلاث فرق : نسطورية ويعقوبية وملكانية . وعن الحسن : الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها . وقيل : هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه .

[سورة مريم (19) : الآيات 38 إلى 40]

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40)

لا يوصف اللّه تعالى بالتعجب وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب

منهما بعد ما كانوا صما وعميا في الدنيا . وقيل : معناه التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم . أوقع الظاهر أعنى الظالمين موقع الضمير : إشعارا بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ويسعدهم . والمراد بالضلال المبين : إغفال النظر والاستماع قُضِيَ الْأَمْرُ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار . وعن النبي صلى

---

(1) . قوله «و بأن اللّه أى بسبب ذلك» لعله : أى بأن اللّه . ويمكن أنه عطف على أن اللّه ، ويكون في حرف أبى القراءتان . (ع) (2 - كشاف - 3)

(128/488)

اللّه عليه وسلم أنه سئل عنه أى عن قضاء الأمر فقال : «حين يذبح الكبش والفريقان ينظران» «1» وإذ بدل من يوم الحسرة . أو منصوب بالحسرة وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ متعلق بقوله في ضلال مبين عن الحسن . وأنذرهم : اعتراض . أو هو متعلق بأنذرهم ، أى : وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين . يحتمل أنه يميتهم ويخرب ديارهم ، وأنه يفنى أجسادهم ويفنى الأرض ويذهب بها .

[سورة مريم (19) : الآيات 41 إلى 45]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (41) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45)

الصدّيق : من أبنية المبالغة . ونظيره الضحيك والنطيق . والمراد ، فرط صدقه وكثرة ما صدّق به من غيوب اللّه وآياته وكتبه ورسله ، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أى : كان مصدقا بجميع الأنبياء وكتبهم ، وكان نبيا في نفسه ، كقوله تعالى بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ أو كان بليغا في الصدق ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق ، ومصدق اللّه بآياته ومعجزاته حرىّ أن يكون كذلك ، وهذه الجملة وقعت اعتراضا بين المبدل منه وبدله ، أعنى إبراهيم . وإِذْ قالَ

نحو قولك : رأيت زيدا ، ونعم الرجل أخاك . ويجوز أن يتعلق إذ بكان أو بصديقا نبيا ، أى : كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات .

والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم ، كقوله وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ وإلا فاللّه عز وجل هو ذاكره ومورده في تنزيله . التاء في يا أَبَتِ عوض من ياء الإضافة ، ولا يقال يا أبتى ، لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه . وقيل : يا أبتا ، لكون الألف بدلا من الياء ، وشبه ذلك سيبويه بأينق ، وتعويض الياء فيه عن الواو

الساقطة.

انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع

---

(1) . لم أجده هكذا . وفي الصحيحين عن أبى سعيد الخدري مرفوعا «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح - الحديث» وفيه وكلهم قد رآه فيذبح . ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ الآية وأخرجاه عن ابن عمر نحوه دون قراءة الآية . وفي الباب عن أبى هريرة عند ابن حبان والحاكم والنسائي . وأخرجه البخاري دون ذكر الذبح . وأخرجه أبو يعلى والبزار من حديث أنس .

وفي آخره «فيأمن هؤلاء . وينقطع رجاء هؤلاء» .

(129/488)

الذي عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز ، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة : كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق «1» ، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن ، منتصحا في ذلك بنصيحة

ربه عز وعلا ، حدّث أبو هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم «أوحى اللّه إلى إبراهيم عليه السلام :

إنك خليلي ، حسن خلقك ولو مع الكفار ، تدخل مداخل الأبرار»

،

فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه : أظله تحت عرشي ، وأسكنه حظيرة القدس ، وأدنيه من جواري . وذلك أنه طلب منه أو لا العلة في خطئه طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن المعبود لو كان حيا مميزا ، سميعا بصيرا ، مقتدرا على الثواب والعقاب ، نافعا ضارا ، إلا أنه بعض الخلق : لاستخفّ عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولسجل عليه بالغيّ المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين . قال اللّه تعالى وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم ، فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام : وهو الخالق الرزاق ، المحيي المميت ، المثيب المعاقب ، الذي منه أصول النعم وفروعها . فإذا وجهت إلى غيره – وتعالى علوا كبيرا أن تكون هذه الصفة لغيره – لم يكن إلا ظلما وعتوا وغيا وكفرا وجحودا ، وخروجا عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم ، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور ؟ فلا يسمع – يا عابده – ذكرك له وثناءك عليه ، ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له ، فضلا أن يغنى عنك بأن

تستدفعه بلاء فيدفعه ، أو تسنح لك حاجة فيكفيكها . ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف ، وهب أنى وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه .

ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه : بأن الشيطان – الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوّك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال وعدوّ أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم – هو الذي ورّطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك ، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان ، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنايتي الشيطان

---

(1) . قوله «في أحسن اتساق وساقه أرشق» في الصحاح «الاتساق» الانتظام . وفيه أيضا «رجل رشيق» أى حسن القد لطيفه . (ع)

(2) . أخرجه الطبراني في الأوسط وابن عدى ، والحكيم الترمذي في النوادر من حديث أبى هريرة وفيه مؤمل ابن عبد الرحمن الثقفي عن أبى أمية بن يعلى الثقفي وهما ضعيفان [. . . . .]

إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذرّيته كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه . ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره «1» ما هو فيه من التبعة والوبال ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له وأن العذاب لا صق به ، ولكنه قال : أخاف أن يمسك عذاب ، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب ، وذلك أن رضوان اللّه أكبر من الثواب نفسه ، وسماه اللّه تعالى المشهود له «2» بالفوز العظيم حيث قال وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان اللّه ، أكبر من العذاب نفسه وأعظم ، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله يا أَبَتِ توسلا إليه واستعطافا . ف

ما

في ما لا يَسْمَعُ

وما لَمْ يَأْتِكَ يجوز أن تكون موصولة وموصوفة ، والمفعول في لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ منسى غير منوي ، كقولك : ليس به استماع ولا إبصار شَيْئاً

يحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون في موضع المصدر ، أى : شيئا من الغناء ، ويجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين . والثاني : أن يكون مفعولا به من قولهم : أغن عنى وجهك إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فيه تجدد العلم عنده .

[سورة مريم (19) : آية 46]

قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

لما أطلعه على سماجة صورة أمره ، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة ، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات ، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد ، فناداه باسمه ، ولم يقابل يا أَبَتِ بيا بنىّ ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد . وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه لَأَرْجُمَنَّكَ لأرمينك بلساني ، يريد الشتم والذمّ ، ومنه الرَّجِيمِ المرمىّ باللعن . أو لأقتلنك ، من رجم الزاني . أو لأطردنك رميا بالحجارة .

وأصل الرجم : الرمي بالرجام «3» مَلِيًّا زمانا طويلا من الملاوة : أو مليا بالذهاب عنى

---

(1) . قوله «وبما يجره» لعله وما يجره ، فيكون عطفا على سوء العاقبة . (ع)

(2) . قوله «وسماه اللّه تعالى المشهود له» لعله «مشهود له بأن رضوانه أكبر من الثواب»

فليحرر . (ع)

(3) . قوله «و أصل الرجم الرمي بالرجام» أى الحجارة الضخام ، كذا في الصحاح . (ع)

(131/488)

والهجران قبل أن أثخنك بالضرب ، حتى لا تقدر أن تبرح . يقال : فلان ملىّ بكذا ، إذا كان مطيقا له مضطلعا به . فإن قلت : علام عطف وَاهْجُرْنِي ؟ قلت : على معطوف عليه محذوف يدل عليه لَأَرْجُمَنَّكَ أى فاحذرنى واهجرني ، لأن لَأَرْجُمَنَّكَ تهديد وتقريع .

[سورة مريم (19) : الآيات 47 إلى 48]

قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)

قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سلام توديع ومتاركة ، كقوله تعالى لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ وقوله وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه . ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له . ألا ترى أنه وعده الاستغفار . فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده «1» ذلك ؟ قلت :

قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر ، كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان ، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط الوضوء والنصاب .

وقالوا : إنما استغفر له بقوله وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ لأنه وعده أن يؤمن .

واستشهدوا عليه بقوله تعالى وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ

ولقائل أن يقول : إنّ الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع ، فأمّا القضية العقلية فلا تأباه ، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع ، بناء على قضية العقل ، والذي يدل على صحته قوله تعالى إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ فلو كان شارطا للإيمان لم يكن مستنكرا ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة . وأمّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فالواعد هو إبراهيم لا آزر ، أى : ما قال وَاغْفِرْ لِأَبِي إلا عن قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وتشهد له قراءة حماد الرواية : وعدها أباه . واللّه أعلم حَفِيًّا الحفىّ : البليغ في البر والإلطاف ، حفى به وتحفى به وَأَعْتَزِلُكُمْ أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام . المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائطها . ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم «الدعاء هو العبادة «2»» ويدل

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم استغفر لأبيه وهو كافر . . . الخ» قال أحمد : وهذه لمظ من الاعتزال ، مستطيرة من شرر شر قاعدة التحسين والتقبيح . والحق أن العقل لا مدخل

له في أن يحكم بحكم اللّه تعالى قبل ورود الشرع به ، ثم لم يوف الزمخشري بها ، فانه جعل العقل يسوغ الاستغفار ، وجعل الشرع مانعا منه ، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهدمة ، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل في الإلهيات ، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه . وأما ما يظهر العقل خلافه . فلا .

(2) . أخرجه أبو داود وبقية أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من حديث النعمان بن بشير . وأخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار والطبراني وابن ابى حاتم والطبري من حديثه وأخرجه ابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضى اللّه عنهما .

(132/488)

عليه قوله تعالى فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه اللّه في سورة الشعراء . عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا مع التواضع للّه بكلمة عَسى وما فيه من هضم النفس .

[سورة مريم (19) : الآيات 49 إلى 50]

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (49)

وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

ما خسر على اللّه أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه، فعوّضه أولادا مؤمنين أنبياء مِنْ رَحْمَتِنا هي النبوّة عن الحسن. وعن الكلبي: المال والولد، وتكون عامّة في كل خير دينى ودنيوى أوتوه. لسان الصدق: الثناء الحسن. وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية. قال:

إنى أتتنى لسان لا أسر بها «1»

يريد الرسالة. ولسان العرب: لغتهم وكلامهم. استجاب اللّه دعوته وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ فصيره قدوة حتى ادّعاه أهل الأديان كلهم. وقال عز وجل مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ وَمِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً، ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وأعطى ذلك ذرّيته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم، كما أعلى ذكره وأثنى عليه.

[سورة مريم (19): آية 51]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (51)

المخلص - بالكسر -: الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء. أو أخلص نفسه وأسلم وجهه للّه. وبالفتح: الذي أخلصه اللّه. الرسول: الذي معه كتاب من الأنبياء: والنبىّ: الذي ينبئ عن اللّه عز وجل وإن لم يكن معه كتاب، كيوشع.

[سورة مريم (19): آية 52]

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)

---

(1) إنى أتتنى لسان لا أسر به من علو لا كذب فيه ولا سحر

فجاشت النفس لما جاء فلهم وراكب جاء من تثليث معتمر

للأعشى الباهلي ، لما جاء الناعي بقتل المنتشر أخيه . عبر باللسان عن الكلام مجازا ، لأنه آلته . وأنث الفعل لتأويل الفاعل بالكلمة أو الرسالة ، وذكر فيما بعد نظرا للظاهر ، من علو بالبناء على الفتح ، أى : من أعلى نجد ، والسخر : مصدر سخر كتعب . وجاشت القدر : غلت وارتفع ما فيها . والتجوز بالجيشان عن حرارة القلب مشهور والفل : الفئة . وتثليث : اسم موضع ممنوع من الصرف . وراكب : عطف على «فلهم» ، و«معتمر» نعته ، وجاء الثاني بدل .

(133/488)

الأيمن من اليمين : أى من ناحيته اليمنى . أو من اليمن صفة للطور ، أو للجانب . شبهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة ، حيث كلمه بغير واسطة ملك . وعن أبى العالية قرّبه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة .

[سورة مريم (19) : آية 53]

وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53)

مِنْ رَحْمَتِنا من أجل رحمتنا له وترأفنا عليه: وهبنا له هرون. أو بعض رحمتنا، كما في قوله وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا. وأَخاهُ على هذا الوجه بدل. وهارُونَ عطف بيان، كقولك: رأيت رجلا أخاك زيدا. وكان هرون أكبر من موسى، فوقعت الهبة على معاضدته وموازرته كذا عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

[سورة مريم (19): الآيات 54 إلى 55]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

ذكر إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان ذلك موجودا في غيره من الأنبياء، تشريفا له وإكراما، كالتلقيب بنحو: الحليم، والأوّاه، والصدّيق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. عن ابن عباس رضى اللّه عنه: أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان، فانتظره سنة. وناهيك أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى، حيث قال سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم، ولأنهم أولى من سائر الناس وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ، قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نارًا ألا ترى أنهم أحق بالتصدّق عليهم، فالإحسان الديني أولى. وقيل أَهْلَهُ أمته كلهم من القرابة وغيرهم، لأنّ أمم النبيين في عداد أهاليهم. وفيه أنّ من

حق الصالح أن لا يألو نصحا للأجانب فضلا عن الأقارب والمتصلين به ، وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك .

[سورة مريم (19) : الآيات 56 إلى 57]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57)

قيل : سمى إدريس لكثرة دراسته كتاب اللّه عزّ وجل ، وكان اسمه أخنوخ ، وهو غير صحيح ، لأنه لو كان أفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية ، فكان منصرفا ، فامتناعه من الصرف دليل العجمة . وكذلك إبليس أعجمى ، وليس من الإبلاس كما يزعمون ،

(134/488)

ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت ، ومن لم يحقق ولم يتدرّب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات . ويجوز أن يكون معنى إِدْرِيسَ في تلك اللغة قريبا من ذلك ، فحسبه الراوي مشتقا من الدرس . المكان العلى : شرف النبوّة والزلفى عند اللّه وقد أنزل اللّه عليه ثلاثين صحيفة ، وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ، وأوّل من خاط الثياب ولبسها ، وكانوا يلبسون الجلود . وعن أنس بن مالك

رضى اللّه عنه يرفعه إنه رفع إلى السماء الرابعة «1» . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إلى السماء السادسة «2» . وعن الحسن رضى اللّه عنه . إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة . وعن النابغة الجعدي : أنه لما أنشد عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الشعر الذي آخره :

بلغنا السّماء مجدنا وسناؤنا وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا «3»

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «إلى أين يا أبا ليلى» قال : إلى الجنة «4» .

---

(1) . أخرجه الترمذي من رواية شيبان عن قتادة عن أنس بهذا . وقال هو عندي مختصر من حديث الاسراء الذي رواه سعيد وهمام عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة .

(2) . أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عطية عنه .

(3) ولا خير في حلم إذا لم يكن له بواد وتحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

للنابغة الجعدي ، أنشده أمام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : إلى أين يا أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة بك يا رسول اللّه ، فقال : لا يفضض اللّه فاك . فعمر فوق مائتي عام ، وكان إذا سقطت له سن نبت بدلها . والحلم : الأناة والعقل . والبادرة : الكلمة تصدر حال

الغضب . وشبه الحلم بالماء على طريق المكنية . والصفاء والتكدير :

تخييل ، والمراد بالجهل : عجلة الاقدام على عظائم الأمور . والإيراد جعل الشيء واردا .

والإصدار : جعله صادرا . والمراد تسبب في وجوده وإعظامه وفي تحقيره وإعدامه .

ويحتمل أنه شبه الأمر المعضل بحيوان يورده صاحبه إلى الماء تارة ويرجعه أخرى ، على طريق المكنية ، والإيراد والإصدار تخييل . ويجوز أن فاعل أورد ضمير الجهل ، وفاعل أصدر ضمير الحليم ، أى : إذا تسبب الجهل والشجاعة في أمر خطاء أرجعه الحليم وأبطله ، فلا بد من اجتماع الحلم والجرأة معا حتى يكمل الرجل . ومجدنا وسناؤنا بالرفع بدلا من فاعل بلغنا . وقيل : هما مفعولان فهما بالنصب . وانظر ما وجهه ، ولعله أنهما ظرفان اعتباريان ، أى : بلغنا السماء في المجد والسناء . أو بدلان من السماء ، بأن شبههما بها ، ثم أطلقها عليهما وأبدلهما منها ، وهو أوجه من الظرفية . ولو قيل على النصب : أنهما تمييزان ، كان وجيها ، لكنه على رأى الكوفيين القائلين بجوازه معرفة ، ولما ادعى بلوغ السماء بنى عليه ما يبنى على المحسوس فقال : وإنا لنرجو مظهرا فوق ذلك .

(4) . أخرجه البزار وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل لها من طريق يعلى بن الأشرف عنه وله طريق أخرى عند البيهقي وذكر القصيدة .

[سورة مريم (19) : آية 58]

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (58)

أُولئِكَ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. و«من» في مِنَ النَّبِيِّينَ للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً لأن جميع الأنبياء منعم عليهم. ومن الثانية للتبعيض، وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبى نوح. وإبراهيم عليه السلام من ذرية من حمل مع نوح: لأنه من ذرية سام بن نوح، وإسماعيل من ذرية إبراهيم. وموسى وهرون وزكريا ويحيى من ذرية إسرائيل. وكذلك عيسى: لأنّ مريم من ذرّيته وَمِمَّنْ هَدَيْنا يحتمل العطف على من الأولى والثانية. إن جعلت الذين خبرا لأولئك كان إِذا تُتْلى كلاما مستأنفا. وإن جعلته صفة له كان خبرا. قرأ شبل بن عباد المكي: يتلى، بالتذكير، لأن التأنيث غير حقيقى مع وجود الفاصل. البكى: جمع باك، كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا «1»» وعن صالح المري رضى اللّه عنه: قرأت القرآن على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في المنام فقال لي: «هذه القراءة يا صالح، فأين البكاء»؟ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: إذا قرأتم

سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه .

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إن القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا «2»»

وقالوا : يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها ، فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال : اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة سبحان قال : اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين ، الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 16 . 25 ﴾

---

(1) . أخرجه إسحاق والبزار من طريق عبد الرحمن بن أبى مليكة عن ابن أبى مليكة عن عبد الرحمن بن السائب عن سعيد بلفظ «إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا - الحديث» ومن هذا الوجه أخرجه أو يعلى والحارث . والبيهقي في الشعب . وإسماعيل أيضا لين .

(2) . أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس بلفظ «فاقرؤه بحزن» وإسناده ضعيف . ورواه أبو يعلى والعقيلي . وأبو نعيم في ترجمة رباح بن عمرو العبسي من حديث أبى بريدة عن أبيه بلفظ «اقرءوا القرآن بحزن فانه نزل بحزن» .

وقال النسفى :

﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

﴿ ذلك ﴾ مبتدأ ﴿ عِيسَى ﴾ خبره ﴿ ابن مَرْيَمَ ﴾ نعته أو خبر ثان أي ذلك الذي قال : إني كذا وكذا عيسى ابن مريم لا كما قالت النصارى : إنه إله أو ابن الله ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ كلمة الله فالقول الكلمة والحق الله ، وقيل : له كلمة الله لأنه ولد بقوله كن بلا واسطة أب .

وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من عيسى .

ونصبه شامي وعاصم على المدح أو على المصدر أي أقول قول الحق هو ابن مريم وليس بإله كما يدعونه ﴿ الذى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكون من المرية الشك أو يختلفون من المراء ، فقالت اليهود : ساحر كذاب ، وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة .

﴿ مَا كَانَ للَّهِ ﴾ ما ينبغي له ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ جيء ب ﴿ من ﴾ لتأكيد النفي ﴿ سبحانه ﴾ نزه ذاته عن اتخاذ الولد ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ بالنصب شامي أي كما قال : لعيسى كن فكان من غير أب ومن كان متصفاً بهذا كان منزها أن يشبه الحيوان الوالد ﴿ وَإِنَّ الله رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ بالكسر شامي وكوفي على الابتداء وهو من كلام عيسى يعني كما أنا عبده فأنتم عبيده ، علي وعليكم أن

نعبده .

ومن فتح عطف على ﴿ بالصلاة ﴾ أي وأوصاني بالصلاة وبالزكاة وبأن الله ربي وربكم ، أو علقه بما بعده أي لأن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴿ هذا ﴾ الذي ذكرت ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ الحزب الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها وهم ثلاث فرق : نسطورية ويعقوبية وملكانية ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ من بين أصحابه أو من بين قومه أو من بين الناس ، وذلك أن النصارى اختلفوا في عيسى حين رفع ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى قول ثلاثة كانوا عندهم أعلم أهل زمانهم وهم : يعقوب ونسطور وملكان .

فقال يعقوب : هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء .

وقال : نسطور كان ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه .

(137/488)

وقال الثالث : كذبوا كان عبداً مخلوقاً نبياً فتبع كل واحد منهم قوم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ من الأحزاب إذ الواحد منهم على الحق ﴿ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة أو من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وأن تشهد

عليهم

الملائكة والأنبياء وجوارحهم بالكفر ، أو من مكان الشهادة أو وقتها ، أو المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه وجعله عظيماً لفظاعة ما شهدوا به في عيسى ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ الجمهور على أن لفظه أمر ومعناه التعجب والله تعالى لا يوصف بالتعجب ولكن المراد أن إسماعهم وإبصارهم جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعمياً في الدنيا .

قال قتادة : إن عموا وصموا عن الحق في الدنيا فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم ! و ﴿ بهم ﴾ مرفوع المحل على الفاعلية "كأكرم بزيد" فمعناه كرم زيد جداً ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أقيم الظاهر مقام المضمر أي لكنهم اليوم في الدنيا بظلمهم أنفسهم حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ووضعوا العبادة في غير موضعها ﴿ فِى ضلال ﴾ عن الحق ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر وهو اعتقادهم عيسى إلها معبوداً مع ظهور آثار الحدث فيه إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم .

(138/488)

﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ خوفهم ﴿ يَوْمَ الحسرة ﴾ يوم القيامة لأنه يقع فيه الندم على مافات ، وفي الحديث " إذا رأوا منازلهم في الجنة أن لو آمنوا " ﴿ إِذْ ﴾ بدل من ﴿ يوم الحسرة ﴾ أو ظرف للحسرة وهو مصدر ﴿ قُضِيَ الأمر ﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ هنا عن الاهتمام لذلك المقام ﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يصدقون به ﴿ وهم ﴾ ﴿ وهم ﴾ حالان أي وأنذرهم على هذا الحال غافلين غير مؤمنين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي نتفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهلك والفناء وذكر من لتغليب العقلاء ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ بضم الياء وفتح الجيم وفتح الياء : يعقوب أي يردون فيجازون جزاءً وفاقاً .

﴿ واذكر ﴾ لقومك ﴿ فِى الكتاب ﴾ القرآن ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قصته مع أبيه ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً نَّبِيّاً ﴾ بغير همز وهمزة نافع .

قيل : الصادق المستقيم في الأفعال والصديق المستقيم في الأحوال ، فالصديق من أبنية المبالغة ونظيرة الضحيك والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله أي كان مصدقاً لجميع الأنبياء وكتبهم وكان نبياً في نفسه ، وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين إبراهيم وبين ما هو بدل منه وهو .

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ وجاز أن يتعلق ﴿ إذا ﴾ ب ﴿ كان ﴾ أو ب ﴿ صديقاً نبياً ﴾ أي كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات والمراد بذكر

الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [الشعراء : 69] وإلا فالله عز وعلا هو ذاكره ومورده في تنزيله ﴿ لأَبِيهِ يا أبت ﴾ بكسر التاء وفتحها .

(139/488)

ابن عامر والتاء عوض من ياء الإضافة ولا يقال يا أبتي لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ المفعول فيهما منسي غير منوي ويجوز أن يقدر أي لا يسمع شيئاً ولا يبصر شيئاً ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ يحتمل أن يكون شيئاً في موضع المصدر أي شيئاً من الإغناء وأن يكون مفعولاً به من قولك أغن عني وجهك أي بعد ﴿ يا أبت إِنِّى قَدْ جَاءِنِى مِنَ العلم ﴾ الوحي أو معرفة الرب ﴿ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ "ما" في ﴿ ما لا يسمع ﴾ و ﴿ ما لم يأتك ﴾ يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة ﴿ فاتبعنى أَهْدِكَ ﴾ أرشدك ﴿ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ مستقيماً ﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ لا تطعه فيما سوّل من عبادة الصنم ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ عاصياً .

(140/488)

﴿ يا أبت إِنّى أَخَافُ ﴾ قيل أَعلم ﴿ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مّنَ الرحمن فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ قرينا في النار تليه ويليك فانظر في نصيحته كيف راعى المجاملة والرفق والخلق الحسن كما أمر ففي الحديث " "أوحي إلى إبراهيم إنك خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار" " فطلب منه أولاً العلة في خطئه طلب منه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم الأنبياء كان محكوماً عليه بالغي المبين فكيف بمن يعبد حجراً أو شجراً لا يسمع ذكر عابده ولا يرى هيئات عبادته ولا يدفع عنه بلاء ولا يقضي له حاجة ؟ ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال : إن معي شيئاً من العلم ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوي ، فهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه ، ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي عصى الرحمن الذي جميع النعم منه أوقعك في عبادة الصنم وزينها لك فأنت عابده في الحقيقة ، ثم ربَّع بتخويفه سوء العاقبة وما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به وأن العذاب لاصق به بل قال : أخاف أن يمسك عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل كأنه قال : إني أخاف أن يصيبك نَفَيان من عذاب الرحمن وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر

من الثواب في نفسه وصدر كل نصيحة بقوله ﴿ يا أبت ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً وإشعاراً بوجوب احترام الأب وإن كان كافراً فثم.

(141/488)

﴿ قَالَ ﴾ آزر توبيخاً : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ اِلَهَتِى يا إبراهيم ﴾ أي أترغب عن عبادتها فناداه باسمه ولم يقابل ﴿ يا أبت ﴾ ب "يا بني" وقدم الخبر على المبتدأ لأنه كان أهم عنده ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ عن شتم الأصنام ﴿ لأَرْجُمْنَّكَ ﴾ لأقتلنك بالرجام أو لأضربنك بها حتى تتباعد أو لأشتمنك ﴿ واهجرنى ﴾ عطف على محذوف يدل عليه ﴿ لأرجمنك ﴾ تقديره فاحذرني واهجرني ﴿ مَلِيّاً ﴾ ظرف أي زماناً طويلاً من الملاوة ﴿ قَالَ سلام عَلَيْكَ ﴾ سلام توديع ومتاركة أو تقريب وملاطفة ولذا وعده بالاستغفار بقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة بأن يهديك للإسلام ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً ﴾ ملطفاً بعموم النعم أو رحيماً أو مكرماً والحفاوة الرأفة والرحمة والكرامة.

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ أراد بالاعتزال المهاجرة من أرض بابل إلى الشام ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي ما تعبدون من أصنامكم ﴿ وادعوا ﴾ وأعبد ﴿ رَبّى ﴾ ثم قال تواضعاً

وهضماً للنفس ومعرضاً بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ﴿ عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيّا ﴾ أي كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ فلما اعتزل الكفار ومعبودهم ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إسحاق ﴾ ولداً ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ نافلة ليستأنس بهما ﴿ وَكُلاًّ ﴾ كل واحد منهما ﴿ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ أي لما ترك الكفار الفجار لوجهه عوضه أولاداً مؤمنين أنبياء ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ هي المال والولد ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ ثناء حسناً وهو الصلاة على إبراهيم وآل إبراهيم في الصلوات ، وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية ﴿ عَلِيّاً ﴾ رفيعاً مشهوراً .

(142/488)

﴿ واذكر فِى الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ كوفي : غير المفضل ، أي أخلصه الله واصطفاه ، و ﴿ مخلِصا ﴾ بالكسر غيرهم أي أخلص هو العبادة لله تعالى فهو مخلص بماله من السعادة بأصل الفطرة ، ومخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء والنبي الذي ينبىء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع ﴿ وناديناه ﴾ دعوناه وكلمناه ليلة الجمعة ﴿ مِن جَانِبِ الطور

﴿ هو جبل بين مصر ومدين ﴿ الأيمن ﴾ من اليمين أي من ناحية اليمين ، والجمهور على أن المراد أيمن موسى عليه السلام لأن الجبل لا يمين له ، والمعنى أنه حين أقبل من مدين يريد مصر نودي من الشجرة وكانت في جانب الجبل على يمين موسى عليه السلام ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ ﴾ تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان ﴿ نَجِيّاً ﴾ حال أي مناجياً كنديم بمعنى منادم .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا ﴾ من أجل رحمتنا له وترؤفنا عليه ﴿ أَخَاهُ ﴾ مفعول ﴿ هارون ﴾ بدل منه ﴿ نَبِيّاً ﴾ حال أي وهبنا له نبوة أخيه وإلا فهارون كان أكبر سناً منه .

﴿ واذكر فِى الكتاب إسماعيل ﴾ هو ابن إبراهيم في الأصح ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ وافيه .

وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يعود إليه فانتظره سنة في مكانه حتى عاد ، وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى .

(143/488)

وقيل لم يعد ربه موعداً إلا أنجزه ، وإنما خصه بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له ولأنه المشهور من خصاله ﴿ وَكَانَ رَسُولاً ﴾ إلى جرهم ﴿ نَبِيّاً ﴾ مخبراً منذراً ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ أمته لأن النبي أبو أمته وأهل بيته وفيه دليل على أنه لم يداهن غيره ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ يحتمل أنه إنما خصت هاتان العبادتان لأنهما أما العبادات البدنية والمالية ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ قرئ ﴿ مرضوا ﴾ على الأصل ﴿ واذكر فِى الكتاب إِدْرِيسَ ﴾ هو أخنوخ أول مرسل بعد آدم عليه السلام ، وأول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر في علم النجوم والحساب واتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل .

وقولهم سمي به لكثرة دراسته كتب الله لا يصح لأنه لو كان "أفعيلاً" من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفاً فامتناعه من الصرف دليل العجمة ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ هو شرف النبوة والزلفى عند الله .

وقيل : معناه رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة ، وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فيها .

وعن الحسن : إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة وذلك أنه حبب لكثرة عبادته إلى الملائكة فقال : لملك الموت أذقني الموت يهن عليّ ففعل ذلك بإذن الله فحيي وقال : أدخلني النار

أزدد رهبة ففعل ، ثم قال : أدخلني الجنة أزدد رغبة ، ثم قال : اخرج فقال : قد ذقت الموت ووردت النار فما أنا بخارج من الجنة فقال الله عز وجل : بإذني فعل وبإذني دخل فدعه .

(144/488)

﴿ أَوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكرياء إلى إدريس ﴿ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين ﴾ "من" للبيان لأن جميع الأنبياء منعم عليهم ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ﴾ "من" للتبعيض وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبي نوح ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح لأنه ولد سام بن نوح ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ وإسراءيل ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل أي يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى لأن مريم من ذريته ﴿ وَمِمَّن ﴾ يحتمل العطف على "من" الأولى والثانية ﴿ هَدَيْنَا ﴾ لمحاسن الإسلام ﴿ واجتبينا ﴾ من الأنام أو لشرح الشريعة وكشف الحقيقة ﴿ إذا تتلى عليهم ءايات الرحمن ﴾ أي إذا تليت عليهم كتب الله المنزلة وهو كلام مستأنف .

إن جعلت ﴿ الذين ﴾ خبراً ل ﴿ أولئك ﴾ وإن جعلته صفة له كان خبراً .

﴿ يتلى ﴾ بالياء : قتيبة لوجود الفاصل مع أن التأنيث غير حقيقي ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ سقطوا على وجوههم رغبةً ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ باكين رهبة جمع باكٍ كسجود وقعود في جمع ساجد وقاعد في الحديث " اتلوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا " وعن صالح المري : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح : " هذه القراءة فأين البكاء ؟ " ويقول في سجود التلاوة سبحان ربي الأعلى ثلاثاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 34 . 39 ﴾

(145/488)

وقال البيضاوى :

﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

أي الذي تقدم نعته هو عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى ، وهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ثم عكس الحكم . ﴿ قَوْلَ الحق ﴾ خبر محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه ، والإِضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة . وقيل صفة ﴿ عِيسَى ﴾ أو بدل أو خبر ثان ومعناه كلمة الله . وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب ﴿ قَوْلَ ﴾ بالنصب

على أنه مصدر مؤكد . وقرىء "قال الحق" وهو بمعنى القول . ﴿ الذى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ في أمره يشكون أو يتنازعون ، فقالت اليهود ساحر وقالت النصارى ابن الله وقرىء بالتاء على الخطاب .

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه لله تعالى عما بهتوه .

﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تبكيت لهم ، فإن من إذا أراد شيئاً أوجده ب ﴿ كُن ﴾ كان منزهاً عن شبه الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإناث ، وقرأ ابن عامر ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب على الجواب .

﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ سبق تفسيره في سورة "آل عمران" ، وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿ وَأَنْ ﴾ بالفتح على ولأن وقيل إنه معطوف على ﴿ الصلاة ﴾ .

(146/488)

﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ اليهود والنصارى . أو فرق النصارى ، النسطورية قالوا إنه ابن الله ، ويعقوبية قالوا هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وملكانية قالوا هو عبد الله ونبيه . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ من شهود يوم عظيم

هوله وحسابه وجزاؤه ، وهو يوم القيامة أو من وقت الشهود أو من مكانه فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وآرابهم وأرجلهم بالكفر والفسق ، أو من وقت الشهادة أو من مكانها . وقيل هو ما شهدوا به في عيسى وأمه .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ تعجب معناه أن أسمَاعهم وأبصارهم . ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ أي يوم القيامة جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صماً عمياً في الدنيا ، أو التهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ . وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه ، والجار والمجرور على الأول في موضع الرفع وعلى الثاني في موضع النصب ﴿ لكن الظالمون اليوم فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أوقع الظالمون موقع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم ، وسجل على إغفالهم بأنه ضلال بين .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة ﴾ يوم يتحسر الناس المسيء على إساءته والمحسن على قلة إحسانه . ﴿ إِذْ قُضِىَ الأمر ﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار ، وإذ بدل من اليوم أو ظرف ل ﴿ لحسرة ﴾ . ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ حال متعلقة بقوله ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ وما بينهما اعتراض ، أو ب ﴿ أَنذِرْهُمْ ﴾ أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين ، فتكون حالاً متضمنة للتعليل .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ لا يبقى غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك ، أو

تتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفي الوارث لإرثه . ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يردون للجزاء .

(147/488)

﴿ واذكر فِي الكتاب إبراهيم إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً ﴾ ملازماً للصدق ، أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله . ﴿ نَبِيّاً ﴾ استنبأه الله .

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ بدل من ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وما بينهما اعتراض ، أو متعلق ب ﴿ كَانَ ﴾ أو ب ﴿ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ . ﴿ لأَبِيهِ يا أبت ﴾ التاء معوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبتا ، وإنما تذكر للاستعطاف ولذلك كررها . ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ فيعرف حالك ويسمع ذكرك ويرى خضوعك . ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ في جلب نفع أو دفع ضر ، دعاه إلى الهدى وبين ضلاله واحتج عليه أبلغ احتجاج وأرشقه برفق وحسن أدب ، حيث لم يصرح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ويأبى الركون إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم ، ولا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام وهو الخالق الرازق المحيي المميت المعاقب المثيب ، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح ، والشيء لو كان حياً مميزاً سميعاً

بصيراً مقتدراً على النفع والضر ولكن كان ممكناً ، لاستنكف العقل القويم من عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة ، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر ، ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق القويم والصراط المستقيم لما لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي فقال :

﴿ يا أبت إِنّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعنى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق ، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع مستلزم للضر ، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان من حيث إنه الآمر به فقال :

(148/488)

﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ ولما استهجن ذلك بين وجه الضر فيه بأن الشيطان مستعص على ربك المولي للنعم كلها بقوله : ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاص وكل عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه ، ولذلك عقبه بتخويفه سوء عاقبته وما يجر إليه فقال :

﴿ يا أبت إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً ﴾ قريناً في اللعن

والعذاب تليه ويليك ، أو ثابتاً في موالاته فإنه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب . وذكر الخوف والمس وتنكير العذاب إما للمجاملة أو لخفاء العاقبة ، ولعل اقتصاره على عصيان الشيطان من بين جناياته لإرتقاء همته في الربانية ، أو لأنه ملاكها أو لأنه من حيث إنه نتيجة معاداته لآدم وذريته منبه عليها .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم ﴾ قابل استعطافه ولطفه في الارشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ : بيا بني ، وأخره وقدم الخبر على المبتدأ وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب ، كأنها مما لا يرغب عنه عاقل ثم هدده فقال : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبة عنها . ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بلساني يعني الشتم والذم أو بالحجارة حتى تموت ، أو تبعد مني . ﴿ واهجرني ﴾ عطف على ما دل عليه ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي فاحذرني واهجرني . ﴿ مَلِيّاً ﴾ زماناً طويلاً من الملاوة أو ملياً بالذهاب عني .

﴿ قَالَ سلام عَلَيْكَ ﴾ توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة ، أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بعد ما يؤذيك ولكن : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ لعله يوفقك للتوبة والإيمان ، فإن حقيقة الاستغفار للكافر إستدعاء التوفيق لما يوجب مغفرته وقد مر تقريره في سورة التوبة ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ بليغاً في البر والإلطاف .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ بالمهاجرة بديني . ﴿ وَأَدْعُو رَبِّى ﴾ وأعبده وحده . ﴿ عسى أَن لا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيّا ﴾ خائباً ضائع السعي مثلكم في دعاء آلهتم ، وفي تصدير الكلام ب ﴿ عَسَى ﴾ التواضع وهضم النفس ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل غير واجبتين ، وأن ملاك الأمر خاتمته وهو غيب .

﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ بالهجرة إلى الشام . ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ بدل من فارقهم من الكفرة ، قيل إنه لما قصد الشام أتى أولاً حران وتزوج بسارة وولدت له إسحق وولد منه يعقوب ، ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء أو لأنه أراد أن يذكر إسمعيل بفضله على الانفراد . ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ وكلا منهما أو منهم .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّنْ رَّحْمَتِنَا ﴾ النبوة والأموال والأولاد . ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم ، استجابة لدعوته ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخرين ﴾ والمراد باللسان ما يوجد به ، ولسان العرب لغتهم وإضافته إلى الصدق وتوصيفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتحول الدول وتبدل الملل .

﴿ واذكر فِى الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ موحداً أخلص عبادته عن الشرك

والرياء ، أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه ، وقرأ الكوفيون بالفتح على أن الله أخلصه . ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم ﴿ رَسُولاً ﴾ مع أنه أخلص وأعلى .

(150/488)

﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ من ناحيته اليمنى من اليمين ، وهي التي تلي يمين موسى من جانبه الميمون من اليمن بأن تمثل له الكلام من تلك الجهة . ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ ﴾ تقريب تشريف شبهه بمن قربه الملك لمناجاته . ﴿ نَجِيّاً ﴾ مناجياً حال من أحد الضميرين . وقيل مرتفعاً من النجوة وهو الارتفاع . لما روي أنه رفع فوق السموات حتى سمع صرير القلم .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا ﴾ من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا . ﴿ أَخَاهُ ﴾ معاضدة أخيه وموازرته إجابة لدعوته ﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى ﴾ فإنه كان أسن من موسى ، وهو مفعول أو بدل على تقدير أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض . ﴿ هارون ﴾ عطف بيان له . ﴿ نَبِيّاً ﴾ حال منه .

﴿ واذكر فِى الكتاب إسماعيل إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ ذكره بذلك لأنه المشهور به

والموصوف بأشياء في هذا الباب لم تعهد من غيره ، وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح فقال : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ فوفى . ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة ، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته . ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكواة ﴾ اشتغالاً بالأهم وهو أن يقبل الرجل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل ، قال الله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ ﴿ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ وقيل أهله أمته فإن الأنبياء آباء الأمم . ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله .

(151/488)

﴿ واذكر فِى الكتاب إِدْرِيسَ ﴾ وهو سبط شيث وجد أبي نوح عليهم الصلاة والسلام ، واسمه أخنوخ واشتقاق إدريس من الدرس يرده منع صرفه ، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة درسه ، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وأنه أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب . ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ . ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ يعني شرف النبوة والزلفى عند الله . وقيل الجنة . وقيل السماء السادسة أو الرابعة .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم الصلاة والسلام . ﴿ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿ مِنَ النبيين ﴾ بيان للموصول . ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ بدل منه بإعادة الجار ، ويجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ فيه للتبعيض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية . ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أي ومن ذرية من حملنا خصوصاً ، وهم من عدا إدريس فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح . ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم ﴾ الباقون . ﴿ وإسراءيل ﴾ عطف على ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل ، وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية . ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ ومن جملة من هدينا هم إلى الحق . ﴿ واجتبينا ﴾ للنبوة والكرامة . ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيًّا ﴾ خبر ل ﴿ أولئك ﴾ إن جعلت الموصول صفته ، واستئناف إن جعلته خبره لبيان خشيتهم من الله وإخباتهم له مع ما لهم من علو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله تعالى . وعن النبي الصلاة والسلام " اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكو فتباكوا " والبكي جمع باك كالسجود في جمع ساجد . وقرىء "يتلى" بالياء لأن التأنيث غير حقيقي ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ بِكياً ﴾ بكسر الباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 23.15 ﴾

وقال الخازن :

﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾

أي ذلك الذي قال إني عبد الله هو عيسى بن مريم ﴿ قول الحق ﴾ أي هذا الكلام هو القول الحق أضاف القول إلى الحق ، وقيل هو نعت لعيسى يعني بذلك عيسى بن مريم كلمة الله الحق والحق هو الله ﴿ الذي فيه يمترون ﴾ أي يشكون ويختلفون فقائل يقول هو ابن الله وقائل يقول ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ثم نزه نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى ﴿ ما كان لله أن يتخذ ولد ﴾ أي ما كان من صفاته اتخاذ الولد لا ينبغي له ذلك ﴿ سبحانه إذا قضى أمراً ﴾ أي إذا أراد أن يحدث أمراً ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي لا يتعذر عليه اتخاذه على الوجه الذي أراده ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ هذا إخبار عن عيسى أنه قال ذلك يعني لأن الله ربي وربكم لا رب للمخلوقات سواه ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي هذا الذي أخبرتكم به أن الله أمرني به هو الصراط المستقيم الذي يؤدي إلى الجنة ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ يعني النصارى سموا أحزاباً لأنهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عيظم ﴾ يعني يوم القيامة حين .

﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر

أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ويبصروا في الدنيا ، وقيل معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع ويصدع قلوبهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾ قيل أراد باليوم الدنيا ، يعني أنهم في الدنيا في خطأ بين وفي الآخرة يعرفون الحق ، وقيل : معناه لكن الظالمون في الآخرة في ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين .

(153/488)

قوله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ يعني خوف يا محمد كفار مكة يوم الحسرة ، سمي بذلك لأن المسيء يتحسر هلا أحسن العمل والمحسن هلا زاد في الإحسان ، يدل عليه ما روى أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " ما من أحد يموت إلا ندم قالوا ما ندمه يا رسول الله قال : إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع " أخرجه الترمذي .

قوله أن لا يكون نزع النزع عن الشيء : الكف عنه ، وقال أكثر المفسرين يعني بيوم الحسرة حين يذبح الموت .

(ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال : رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يؤتى بالموت

كهيئة كبش أملح فينادي مناد يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادي مناد آخر يا أهل النار فيشرفون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت " ثم قرأ .

﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ وأشار بيده إلى الدنيا وزاد الترمذي فيه " فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار " قوله كهيئة كبش أملح والأملح : المختلط بالبياض والسواد ، قوله فيشرفون يقال إلى الشيء إذا تطلع ينظر إليه ومالت نحوه نفسه .

(154/488)

قوله فيذبح بين الجنة والنار اعلم أن الموت عرض ليس بجسم في صورة كبش أو غيره فعلى هذا يتأول الحديث ، على أن الله تعالى يخلق هذا الجسم وهو حيوان فيذبح فيموت فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود ، وكذلك حال أهل الجنة والنار بعد الاستقرار فيهما لا زوال لهما ولا انتقال (ق) عن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح ثم

ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم "

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يدخل الجنة أحد إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ولا يدخل النار أحد إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة " أخرجه البخاري .

وقوله تعالى ﴿ إذا قضي الأمر ﴾ أي فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت ﴿ وهم في غفلة ﴾ أي عما يراد بهم في الآخرة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ أي نميت سكان الأرض جميعاً ويبقى الله سبحانه وتعالى وحده فيرثهم ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ فنجزيهم بأعمالهم .

(155/488)

قوله ويبقى ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ أي كثير الصدق وهو مبالغة في كونه صديقاً ، وقيل الصدِّيق الكثير التصديق قيل من صدق الله في وحدانيته وصدق أنبياءه ورسله وصدق بالبعث بعد الموت وقام بالأوامر فعمل بها فهو صديق ، ولما قربت رتبة الصديق من رتبة النبي انتقل من ذكر كونه صديقاً إلى ذكر كونه نبياً ، والنبي العالي

في الرتبة بإرسال الله إياه وإي رتبة أعلى من رتبة من جعله الله تعالى واسطة بينه وبين عباده ﴿ إذ قال لأبيه ﴾ يعني آزر وهو يعبد الأصنام ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ﴾ يعني صوتاً ﴿ ولا يبصر ﴾ لا ينظر شيئاً ﴿ ولا يغني عنك ﴾ أي يكفيك ﴿ شيئاً ﴾ وصف الأصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح في الإلهية ، وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها إلا من له ولاية الإنعام وله أوصاف الكمال وهو الله تعالى فلا يستحق العبادة إلا هو ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ﴾ يعني بالله والمعرفة ﴿ ما لم يأتك فاتبعني ﴾ أي على ديني ﴿ أهدك صراطاً سوياً ﴾ أي مستقيماً ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ أي لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والشرك .

﴿ إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ أي عاصياً ﴿ يا أبت إني أخاف ﴾ أي أعلم ، وقيل هو على ظاهره لأنه يمكن أن يؤمن فيكون من أهل الجنة ، أو يصر على الكفر فيكون من أهل النار فحمل الخوف على ظاهره أولى .

(156/488)

واعلم أن إبراهيم رتب هذا الكلام في غاية الحسن مقروناً بالتلطف والرفق ، فإن قوله في مقدمة كلامه يا أبت دليل على شدة الحب والرغبة في صرفه عن العقاب وإرشاده إلى

الصواب ، لأنه نبه أولاً على ما يدل على المنع من عبادة الأصنام ثم أمره باتباعه في الإيمان ، ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي بقوله إني أخاف ﴿ أن يَمَسَّكَ ﴾ أي يصيبك ﴿ عذاب من الرحمن ﴾ أي إن أقمت على الكفر ﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ أي قريناً في النار ، وقيل صديقاً له في النار ، وإنما فعل إبراهيم هذا مع أبيه لأمور أحدها : لشدة تعلق قلبه بصلاحية أبيه وأداء حق الأبوة والرفق به ، وثانيها : أن النبيّ الهادي إلى الحق لا بد أن يكون رفيقاً لطيفاً حتى يقبل منه كلامه ، وثالثها : النصح لكل أحد فالأب أولى ﴿ قال ﴾ يعني أباه مجيباً له ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ أي أتاركها أنت وتارك عبادتها ﴿ لئن لم تنته ﴾ أي ترجع وتسكت عن عيبك آلهتنا وشتمك إياها ﴿ لأرجمنك ﴾ قال ابن عباس : معناه لأضربنك ، وقيل لأقتلنك بالحجارة ، وقيل لأشتمنك ، وقيل لأبعدنك عني بالقول القبيح والقول الأول هو الصحيح ﴿ واهجرني ﴾ أي اجتنبني قال ابن عباس : اعتزلني سالماً لا يصيبنك مني معرة ﴿ مليئاً ﴾ أي دهراً طويلاً .

(157/488)

﴿ قال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ سلام عليك ﴾ أي سلمت مني لا أصيبك بمكروه وذلك لأنه لم يؤمن بقتاله على كفره ، وقيل هذا سلام هجران ومفارقة ، وقيل هو سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ ، قيل إنه لما أعياه أمره وعده أن يراجع الله فيه فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له ، وقيل معناه سأسأل لك ربي توبة تنال بها المغفرة ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ أي براً لطيفاً والمراد أنه يستجيب لي إذا دعوته لأنه عودني الإجابة لدعائي ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أي أفارقكم وأفارق ما تعبدون من دون الله وذلك أنه فارقهم وهاجر إلى الأرض المقدسة ﴿ وأدعو ربي ﴾ أي أعبد ربي الذي خلقني وأنعم علي ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ أي أرجو أن لا أشقى بدعاء ربي وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام ، ففيه التواضع له مع التعريض بشقاوتهم .

قوله ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ أي ذهب مهاجراً ﴿ وهبنا له ﴾ أي بعد الهجرة ﴿ إسحاق ويعقوب ﴾ أي آنسنا وحشته من فراقهم بأولاد أكرم على الله من أبيه ﴿ وكلاً جعلنا نبياً ﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ أي مع ما وهبنا لهم من النبوة وهبنا لهم المال والولد وذلك أنه بسط لهم في الدنيا من سعة الرزق وكثرة الأولاد ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ يعني ثناء حسناً رفيعاً في أهل كل دين حتى دعا لهم أهل الأديان كلهم فهم يتولونهم ويثنون عليهم .

(158/488)

قوله ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً ﴾ قرىء بكسر اللام أي أخلص العبادة ، والطاعة لله تعالى ولم يراء وقرىء بالفتح أي مختاراً اختاره الله تعالى ثم استخلصه واصطفاه ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ فهذان وصفان مختلفان فكل رسول نبي ولا عكس ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾ أي من ناحية يمين موسى ، والطور جبل معروف بين مصر ومدين ويقال إن اسمه الزبير ، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودي يا موسى إني أنا رب العالمين ﴿ وقربناه ﴾ قال ابن عباس : قربه وكلمه ومعنى التقريب إسماعه كلامه وقيل رفعه على الحجب حتى سمع صرير الأقلام ، وقيل معناه رفع قدره ومنزلته أي وشرفناه بالمناجاة وهو قوله تعالى ﴿ نجياً ﴾ أي مناجياً ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ وذلك أن موسى دعا ربه فقال واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي فأجاب الله دعوته ، وأرسل إلى هارون ولذلك سماه هبة له وكان هارون أكبر من موسى .

(159/488)

قوله ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾ هو إسماعيل بن إبراهيم وهو جد النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ قيل إنه لم يعد شيئاً إلا وفى به وقيل إنه وعد رجلاً أن يقوم مكانه حتى يرجع الرجل فوقف إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد ، حتى رجع إليه الرجل وقيل إنه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفى به ، فوصفه الله بهذا الخلق الحسن الشريف ، سئل الشعبي عن الرجل يعد ميعاداً إلى أي وقت ينتظر فقال إن وعده نهاراً فكل النهار وإن وعده ليلاً فكل الليل ، وسئل بعضهم عن مثل ذلك فقال إن وعده في وقت صلاة ينتظر إلى وقت صلاة أخرى ﴿ وكان رسولاً ﴾ إلى جرهم ، وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم أسماعيل بوادي مكة حين خلفهم إبراهيم ، وجرهم هو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ وقحطان أبو قبائل اليمن ﴿ نبياً ﴾ أي مخبراً عن الله تعالى ﴿ وكان يأمر أهله ﴾ أي قومه وجميع أمته ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ قال ابن عباس : يريد الصلاة المفروضة عليهم وهي الحنيفية التي افترضت علينا ، وقيل كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاة والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم ﴿ وكان عند ربه مرضياً ﴾ أي قائماً لله بطاعته وقيل رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية في المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات .

قوله ﴿ وإذكر في الكتاب إدريس ﴾ هو جد أبي نوح واسمه أخنوخ ، سمي إدريس لكثرة دراسة الكتب وكان خياطاً وهو أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب وليس

المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار ، وأول من نظر في علم الحساب .

﴿ إنه كان صديقاً نبياً ﴾ وذلك أن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قيل هي الرفعة بعلو المرتبة في الدنيا ، وقيل إنه رفع إلى السماء .

(160/488)

وهو الأصح يدل عليه ما روى أنس بن مالك بن صعصعة " عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج " متفق عليه وكان سبب رفع إدريس إلى السماء الرابعة على ما قاله كعب الأحبار وغيره : أنه سار يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال : يا رب إني مشيت يوماً فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يا رب خلقتني لحر الشمس فما الذي قضيت فيه ؟ قال إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها ، فأجبته قال يا رب فاجمع بيني وبينه واجعل بيني وبينه خلة فأذن له حتى أتى إدريس ، فكان إدريس يسأله ما سأله أن قال إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي لعلي ازداد شكراً

وعبادة فقال الملك

﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ، ثم أتى ملك الموت فقال له إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله ، فقال ملك الموت ليس لي ذلك ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال : إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً .

قال وكيف ذلك فقال لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس .

قال إني أتيتك وتركته هناك قال انطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من عمر إدريس شيء فرجع الملك فوجده ميتاً وقال وهب : كان يرفع لإدريس فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان إدريس يصوم الدهر ، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى الطعام فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال ، فأنكره إدريس وقال له في الليلة الثالثة : إني أريد أن أعلم من أنت قال : أنا ملك الموت ، استأذنت ربي أن أصحبك فقال لي إليك حاجة قال وما هي قال تقبض روحي .

(161/488)

فأوحى الله إليه أن اقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح؟ قال لأذوق كرب الموت وغمه فأكون أشد استعداداً له .

ثم قال له إدريس لي إليك حاجة أخرى .

قال وما هي قال ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار فأذن الله له فرفعه فلما قرب من النار قال لي إليك حاجة قال وما هي قال أريد أن أسأل مالكاً أن يرفع أبوابها فأراها .

ففعل قال فكما أريتني النار فأرني الجنة .

فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود إلى مقرك فتعلق بشجرة ، وقال ما أخرج منها فبعث الله إليه ملكاً حكماً بينهما قال له الملك ما لك لا تخرج؟ قال لأن الله تعالى قال ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وقد ذقته ثم قال ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ فأنا وردتها وقال ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ فلست أخرج فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج فهو حي هناك فذلك قوله تعالى ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت .

فقال قوم هو ميت واستدل بالأول .

وقال قوم هو حي واستدل بهذا .

وقالوا أربعة من الأنبياء أحياء أثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس .

وإثنان في السماء وهما إدريس وعيسى .

قوله : ﴿ أولئك الذي أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ أولئك إشارة إلى المذكورين في هذه السورة أنعم الله عليهم بالنبوة وغيرها ما تقدم وصفه ﴿ من ذرية آدم ﴾ يعني إدريس ونوحاً ﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ أي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة يريد إبراهيم لأنه ولد سام بن نوح ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ يعني إسحاق وإسماعيل ويعقوب ﴿ وإسرائيل ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب وهم موسى ويحيى وهارون وزكريا وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم فرتب الله تعالى أحوال الأنبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منها بذلك على أنهم كما شرفوا بالنسب ثم قال تعالى ﴿ ومن هدينا واجتبينا ﴾ أي هؤلاء من أرشدنا واصطفينا وقيل من هدينا إلى الإسلام واجتبينا على الأنام ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً ﴾ جمع ساجد ﴿ وبكياً ﴾ جمع باك ، أخبر الله تعالى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكوا خضوعاً وخشوعاً وخوفاً حذراً .

والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم ، وقيل المراد من الآيات ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد ففيه استحباب البكاء خشوع القلب عند سماع القرآن .

(فصل)

وسجدة سورة مريم من عزائم سجود القرآن ، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه السجدة ، وقيل يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد أن يدعو بما يناسب تلك السجدة ، فإن قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين إليك والخاشعين لك .

وإن قرأ سجدة مريم قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك .

وإن سجد سجدة ألم السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 245 . 251 ﴾

(163/488)

وقال ابن جزى :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

﴿ قَوْلَ الحق ﴾ بالرفع خبر مبتدأ تقديره : هذا قول الحق ، أو بدل أو خبر بعد خبر ، وبالنصب على المدح بفعل مضمر ، أو على المصدرية من معنى الكلام المتقدم ﴿ فِيهِ

يَمْتَرُونَ ﴾ أي يختلفون فهو من المراء ، أو يشكون فهو من المِرية ، والضمير لليهود والنصارى ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي ﴾ من كلام عيسى وقرئ بفتح الهمز تقديره ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه ، وبكسرها لابتداء الكلام ، وقيل : هو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : يا محمد قل لهم ذلك عيسى بن مريم ، وأن الله ربي وربكم ، والأول أظهر ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ هذا ابتداء إخبار ، والأحزاب اليهود والنصارى ، لأنهم اختلفوا في أمر عيسى اختلافاً شديداً ، فكذبه اليهود وعبده النصارى ، والحق خلاف أقوالهم كلها ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ معناه من تلقائهم ، ومن أنفسهم وأن الاختلاف لم يخرج عنهم ﴿ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة ، على أنهم في الدنيا في ضلال مبين .

﴿ يَوْمَ الحسرة ﴾ هو يوم يؤتى بالموت في صورة كبش فيذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود لا موت ، وقيل : هو يوم القيامة وانتصاب يوم على المفعولية ، لا على الظرفية ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ يعني في الدنيا ، فهو متعلق بقوله في ضلال مبين أي بأنذرهم .

(164/488)

﴿ صِدِّيقاً ﴾ بناء مبالغة من الصدق أو من التصديق ، ووصفه بأنه صدّيق قبل الوحي نُبِّئ بعده ، ويحتمل أنه جمع الوصفين ﴿ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ يعني الأصنام ﴿ صراطا سَوِيّاً ﴾ أي قويما ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قيل : يعني الرجم بالحجارة وقيل : الشتم ﴿ واهجرني مَلِيّاً ﴾ أي حيناً طويلاً ، وعطف اهجرني على محذوف تقديره احذر رجمي لك ﴿ قَالَ سلام عَلَيْكَ ﴾ وداع مفارقة ، وقيل : مسالمة لا تحية لأن ابتداء الكافر بالسلام لا يجوز ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ﴾ وعد ، وهو الذي أشير إليه بقوله : عن موعدة وعدها إياه قال ابن عطية ، معناه : سأدعو الله أن يهديك فيغفر لك بإيمانك ، وذلك لأن الاستغفار للكافر لا يجوز ، وقيل : وعده أن يستغفر له مع كفره ، ولعله كان لم يعلم أن الله لا يغفر للكفار حتى أعلمه بذلك ، ويقوي هذا القول قوله : ﴿ واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالّين ﴾ [الشعراء : 86] ، ومثل ثذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ﴿ حَفِيّاً ﴾ أي باراً متلطفاً .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ ﴾ أي ما تعبدون ﴿ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ هما ابنه وابن ابنه ، وهبهما الله له عوضاً من أبيه وقومه الذين اعتزلهم ﴿ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ النبوّة ، وقيل : المال والولد ، واللفظ أعم من ذلك ، لسان صدق يعني الثناء الباقي عليهم إلى آخر الدهر .

﴿ مُخْلِصاً ﴾ بكسر اللام أي أخلص نفسه وأعماله لله وبفتحها أي أخلصه الله للنبوّة والتقريب ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ النبي أعم من الرسول ، لأن النبي كل من أوحى الله إليه ، ولا يكون رسولاً حتى يرسله الله إلى الناس مع النبوة ، فكل رسول نبيّ وليس كل نبي رسول ﴿ وناديناه ﴾ هو تكليم الله له ﴿ الطور ﴾ وهو الجبل المشهور بالشام ﴿ الأيمن ﴾ صفة للجانب ، وكان على يمين موسى حين وقف عليه ويحتمل أن يكون من اليمن ﴿ نَجِيّاً ﴾ النجي فعيل وهو المنفرد بالمناجاة وقيل : هو من المناجاة ، والأول أصح ﴿ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ من سببية أو للتبعيض ، وأخاه على الأول مفعول وعلى الثاني بدل ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ روي انه وعد رجلاً إلى مكان فانتظره فيه سنة ، وقيل : الإشارة إلى صدق وعده في قصة الذبح في قوله ﴿ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] ، وهذا يدل على قول ما قال : إن الذبيح هو إسماعيل .

﴿ إِدْرِيسَ ﴾ هو أول نبيّ بعث إلى أهل الأرض بعد آدم ، وهو أول من خط بالقلم ، ونظر في علم النجوم وخاط الثياب ، وهو من أجداد نوح عليه السلام ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ في حديث الإسراء : وإنه في السماء الرابعة ، وقيل : يعني رفعة النبوة وتشريف منزلته . والأول أشهر ورجحه الحديث ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى كل من ذكر في هذه السورة ، من زكريا إلى إدريس ﴿ مِّنَ النبيين ﴾ من هنا للبيان ، والتي بعدها للتبعيض ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ

﴿ يعني نوحاً وإدريس ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا ﴾ يعني إبراهيم ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعني إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ وَإِسْرَائِيلَ ﴾ يعني أن من ذريته موسى وهارون ومريم وعيسى وزكريا ويحيى ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ يحتمل العطف على من الأولى أو الثانية ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ جمع باك ووزنه فعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 5 ـ 7 ﴾

(166/488)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾

﴿ ذلك ﴾ أي : الذي تقدّم نعته بقوله : ﴿ إني عبد الله ﴾ إلى آخره هو ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ لا ما يصفه النصارى بقولهم أنه الله أو ابنه أو إله ثالث فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني حيث جعل الموصوف بأضداد ما يصفونه وفي ذلك تنصيص على أنه ابن هذه المرأة وقوله تعالى : ﴿ قول الحق ﴾ قرأ عاصم وابن عامر بنصب اللام على أنه مصدر مؤكد والباقون بالرفع على أنه خبر محذوف أي : هو قول الحق الذي لا ريب فيه والإضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة ثم عجب تعالى من ضلالهم فيه بقوله تعالى ﴿ الذي فيه يمترون ﴾ أي : يشكون شكاً يتكلفونه ويجادلون

فيه فتقول اليهود ساحر وتقول النصارى ابن الله مع أنّ أمه امرأة في غاية الوضوح ليس موضعاً للشك أصلاً ثم دل على كونه حقاً في كونه ابناً لأمّه مريم لا غيرها بقوله رداً على من ضلّ

﴿ ما كان ﴾ أي : ما صح ولا يتأتى ولا يتصوّر في العقول ولا يصح ولا يأتي لأنه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة ﴿ لله ﴾ الغني عن كل شيء ﴿ أن يتخذ من ولد ﴾ وأكده بمن لأنّ المقام يقتضي النفي العام ، ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى ذلك بالتنزيه العام بقوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزه عن كل نقص أي : من احتياج إلى ولد أو غيره ثم علل ذلك بقوله عز وجل ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ أي : أيّ أمر كان أي : أراد أن يحدثه ﴿ فإنما يقول له كن ﴾ أي : يريده ويعلق قدرته به وقوله تعالى : ﴿ فيكون ﴾ قرأه ابن عامر بنصب النون بتقدير أن أو على الجواب والباقون بالرفع بتقدير هو وقوله:

(167/488)

﴿ وإنّ الله ربي وربكم ﴾ إخبار عن عيسى عليه السلام أنه قال ذلك وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها بتقدير حذف حرف الجرّ متعلق بما بعده والتقدير ولأنّ الله ربي وربكم ﴿ فاعبدوه ﴾ وحده لتفرده بالإحسان كما

أعبده كقوله تعالى : ﴿ وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ (الجحر ،) ، والمعنى لوحدانيته أطيعوه وقيل : إنه عطف على الصلاة والتقدير وأوصاني بالصلاة وبأنّ الله وإليه ذهب الفراء ﴿ هذا ﴾ أي : الذي أمرتكم به ﴿ صراط ﴾ أي : طريق ﴿ مستقيم ﴾ أي : يقود إلى الجنة وقرأ قنبل بالسين وخلف بإشمام الصاد والباقون بالصاد الخالصة ، واختلف في قوله تعالى:

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ فقيل هم النصارى واختلافهم في عيسى أهو ابن الله أو إله معه أو ثالث ثلاثة وسموا أحزاباً لأنهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية ، وقيل : هم اليهود والنصارى فجعله بعضهم ولداً وبعضهم كذاباً ، وقيل : هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ابن عادل : وهذا هو الظاهر لأنه لا تخصيص فيه ويؤيده قوله تعالى : ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ أي : شدّة عذاب لهم ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ أي : حضور يوم القيامة وأهواله وقوله تعالى:

(168/488)

﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ أي : بهم ، صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ في الآخرة لأنّ حالهم في شدّة السمع والبصر جديرة بأن يتعجب منها فيندمون حيث لا ينفعهم الندم ويتمنون المحال من الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا فلا يجابون إلى ذلك بل يسلك بهم في كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم وقوله تعالى : ﴿ لكن الظالمون ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر والأصل ولكنهم ﴿ اليوم ﴾ أي : في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي : بين بذلك الضلال صموا عن سماع الحق وعموا عن إبصاره أي : اعجب منهم يا مخاطب في سمعهم وإبصارهم في الآخرة بعد أن كانوا في الدنيا صماً وعمياً ، وقيل : معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون ما يسوءهم ويصدع قلوبهم ثم إنّ الله تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه بقوله:

﴿ وأنذرهم ﴾ أي : خوّفهم ﴿ يوم الحسرة ﴾ هو يوم القيامة يتحسر فيه المسيء على ترك الإحسان والمحسن على عدم الازدياد من الإحسان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من أحد يموت إلا ندم قالوا وما ندمه يا رسول الله قال إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع" وفي قوله تعالى : ﴿ إذ قضى الأمر ﴾ وجوه:

أحدها : إذ قضى الأمر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب .

ثانيها : إذ قضى الأمر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف .

ثالثها : قضى الأمر فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت كما روى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى : ﴿ إذ قضي الأمر ﴾ فقال : "حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح وأهل النار غماً إلى غم" وقوله تعالى : ﴿ وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ جملتان حاليتان وفيهما قولان ؛ أحدهما : أنهما حالان من الضمير المستتر في قوله في ضلال مبين أي : استقرّوا في ضلال مبين على هاتين الحالتين السيئتين ، والثاني : أنهما حالان من مفعول أنذرهم أي : أنذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى الأوّل يكون قوله وأنذرهم اعتراضاً والمعنى وهم في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة وهم لا يصدّقون بذلك اليوم ولما كان الإرث هو حوز الشيء بعد موت أهله وكان سبحانه وتعالى قد قضى بموت الخلائق أجمعين وأنه تعالى يبقى وحده عبّر عن ذلك بالإرث مقرّراً به مضمون الكلام السابق فقال مؤكداً تكذيباً لقولهم : إنّ الدهر لا يزال هكذا حياة لناس وموت لآخرين

﴿ إنّا نحن ﴾ بعظمتنا التي اقتضت ذلك ﴿ نرث الأرض ﴾ فلا ندع بها شيئاً من عاقل ولا غيره ولما كان العاقل أقوى من غيره صرح به بعد دخوله فقال ﴿ ومن عليها ﴾ أي : من

العقلاء بأن نسلبهم جميع ما في أيديهم ﴿ وإلينا ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ يرجعون ﴾ فنجازيهم بأعمالهم .

القصة الثالثة : قصة إبراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم ﴾ أي : خبره وقرأ هشام إبراهام بألف بعد الهاء والباقون بالياء وإنما أمر الله تعالى نبيه بالذكر لذلك ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلده مشتغلين بالتعليم ومطالعة الكتب فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخباراً عن الغيب ومعجزاً باهراً دالاً على نبوّته ، وإنما ذكر الاعتبار بقصة إبراهيم عليه السلام لوجوه:

(170/488)

الأوّل : أنّ منكري التوحيد والذين أثبتوا توحيداً ومعبوداً سوى الله تعالى فريقان منهم من أثبت معبوداً غير الله تعالى حياً عاقلاً وهم النصارى ، ومنهم من أثبت معبوداً غير الله تعالى جماداً ليس بحيّ ولا عاقل وهم عبدة الأوثان والفريقان وإن اشتركا في الضلال ، إلا أنّ ضلال عبدة الأوثان أعظم فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الأوّل تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان .

الثاني : أنّ إبراهيم عليه السلام كان أبا العرب وكانوا مقرّين بعلوّ شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى أبيكم إبراهيم ، وقال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ (البقرة ،)

فكأنه تعالى قال للعرب : إن كنتم مقلدين لأبيكم على قولكم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ (الزخرف ،)

فأشرف آبائكم وأعلاهم قدراً هو إبراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الأصنام والأوثان ، وإن كنتم مستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان وبالجملة فاتبعوا إبراهيم إمّا تقليداً وإمّا استدلالاً .

الثالث : أنّ كثيراً من الكفار في زمان النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وهو أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ثم قال تعالى في صفة إبراهيم ﴿ إنه كان ﴾ جبلةً وطبعاً ﴿ صدّيقاً ﴾ أي : بليغ الصدق في نفسه في أقواله وأفعاله أي : كان من أوّل وجوده إلى انتهائه موصوفاً بالصدق والصيانة وسيأتي الكلام على قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ (الأنبياء ،)

﴿ وإني سقيم ﴾ (الصافات ،)

في محله ولما كانت مرتبة النبوّة أرفع من مرتبة الصدّيقية قال تعالى : ﴿ نبيا ﴾ أي : استنبأه الله تعالى:

(171/488)

إذ لا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى ﴿ إذ قال ﴾ بدل من إبراهيم وما بينهما اعتراض أو متعلق بكان أو بصدّيقاً نبياً أي : كان جامعاً لخصائص الصدّيقين والأنبياء حين قال ﴿ لأبيه ﴾ آزر هادياً له من تيه الضلال بعبادة الأصنام مستعطفاً له في كل جملة بقوله : ﴿ يا أبت ﴾ والتاء عوض عن ياء الإضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء في الوصل والباقون بكسرها وأمّا الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ، ثم إنّ الله تعالى حكى عنه أيضاً : أنه تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام النوع الأوّل قوله : ﴿ لم تعبد ﴾ مريداً بالاستفهام المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل في نصحه له كاشفاً الأمر غاية الكشف بقوله : ﴿ ما لا يسمع ولا يبصر ﴾ أي : ليس عنده قابلية لشيء من هذين الوصفين ليرى ما أنت فيه من خدمته أو يجيبك إذا ناديته حالاً أو مآلاً ﴿ ولا يغني عنك شيئاً ﴾ في جلب نفع ودفع ضرّ فوصف الأوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة في الآلهية وبيان ذلك من وجوه:

أحدها : أنّ العبادة غاية التعظيم فلا تستحق إلا لمن له غاية الإنعام وهو الإله الذي منه أصول النعم وفروعها على ما تقرّر في تفسير قوله : ﴿ وإنّ الله ربي وربكم ﴾ (مريم ،) وكما أنه لا يجوز الاشتغال بشكر ما لم تكن منعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها .

وثانيها : أنها إذا لم تسمع ولا تبصر ولا تميز من يطيعها عمن يعصيها فأيّ فائدة في عبادتها ؟ وهذا تنبيه على أنّ الإله يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات .

وثالثها : أنّ الدعاء مخ العبادة فإذا لم يسمع الوثن دعاء الداعي فأيّ منفعة في عبادته وإذا لم يبصر تقرّب من يتقرّب إليه فأيّ منفعة في ذلك التقرّب .

ورابعها : أنّ السامع المبصر الضارّ النافع أفضل ممن كان عارياً عن كل ذلك والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالأفضل عبودية الأخس .

(172/488)

وخامسها : إن كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى بها منفعة ولا يخاف من ضررها فأيّ فائدة في عبادتها ؟ .

وسادسها : إذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والإفساد حين جعلها إبراهيم عليه

السلام جذاذاً فأي رجاء فيها للغير ؟ فكأنه عليه السلام قال : ليست الإلهية إلا لرب يسمع ويبصر ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، النوع الثاني : قوله:

﴿ يا أبت إني قد جاءني ﴾ من المعبود الحق ﴿ من العلم ما لم يأتك ﴾ منه ﴿ فاتّبعني ﴾ أي : فتسبب من ذلك أني أقول لك وجوباً عليّ للنهي عن المنكر ونصيحة لما لك عليّ من الحق اجتهد في تبعي ﴿ أهدك صراطاً ﴾ أي : طريقاً ﴿ سوياً ﴾ أي : مستقيماً كما أني لو كنت معك في طريق محسوس وأخبرتك أنّ أمامنا مهلكاً لا ينجو منه أحد وأمرتك أن تسلك مكاناً غير ذلك لأطعتني ولو عصيتني فيه عدّك كل أحد غاوياً .

النوع الثالث : قوله:

﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ فإنّ الأصنام ليس لها دعوة أصلاً والله تعالى قد حرّم عبادة غيره مطلقاً على لسان كل وليّ فتعين أن يكون الآمر بذلك الشيطان فكأنه هو المعبود بعبادتها في الحقيقة ثم علل هذا النهي بقوله ﴿ أنّ الشيطان ﴾ البعيد من كل خير المحترق باللعنة ﴿ كان للرحمن عصياً ﴾ بالقوّة من حين خلق وبالفعل من حين أمره بالسجود لأبيك آدم عليه السلام فأبى فهو عدوّ لله وله والمطيع للعاصي لشيء عاص لذلك الشيء لأنّ صديق العدوّ عدوّ .

(173/488)

فإن قيل : هذا القول يتوقف على إثبات أمور ؛ أحدها : إثبات الصانع ، وثانيها : إثبات الشيطان ، وثالثها : أنّ الشيطان عاص ، ورابعها : أنه لما كان عاصياً لم تجز طاعته ، وخامسها : أن الاعتقاد الذي كان عليه آزر مستفاد من طاعة الشيطان ومن شأن الدلالة التي تورد على الشخص أن تكون مركبة من مقدّمات معلومة ليسلمها الخصم ولعلّ إبراهيم كان منازعاً في هذه المقدّمات وكيف والمحكي عنه أنه ما كان يثبت إلهاً سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الرحمن وإذا لم يسلم وجوده فكيف يسلم أنّ الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرّد هذا الكلام أنّ مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يغلب ذلك على خصمه ؟ وأجيب : بأنّ الحجة المعوّل عليها في إبطال مذهب آزر هو قوله : ﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ﴾ وهذا الكلام جرى مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة فيسقط السؤال .

النوع الرابع قوله:

﴿ يا أبت إني أخاف ﴾ لمحبتي لك وعزتي عليك ﴿ أن يمسك عذاب ﴾ أي : كائن ﴿ من الرحمن ﴾ الذي هو مولى كل من تولاه لعصيانك إياه ﴿ فتكون ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أن تكون ﴿ للشيطان ولياً ﴾ أي : ناصراً وقريناً في النار ولما دعا إبراهيم عليه السلام أباه إلى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الأوثان وأردف تلك الدلائل

بالوعظ البليغ وأورد كل ذلك مقروناً بالرفق واللطف قابله أبوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا أن

n

(174/488)

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي ﴾ بإضافتها إلى نفسه فقط إشارة إلى مبالغته في تعظيمها والرغبة عن الشيء تركه عمداً فأصر على ادعاء إلهيتها جهلاً وتقليداً وقابل قوله بالرفق يا أبت بالعنف حيث لم يقل يا بنيّ بل قال ﴿ يا إبراهيم ﴾ وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم بقوله مقسماً ﴿ لئن لم تنته ﴾ عما أنت عليه ﴿ لأرجمنك ﴾ أي : لأقتلنك أو لأرجمنك بالحجارة حتى تموت أو تبعد عني أو بالكلام القبيح فاحذرني ﴿ واهجرني ﴾ أي : بعد عني بالمفارقة من الدار والبلد وهي كهجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أي : تباعد عني ﴿ مليا ً ﴾ أي : دهراً طويلاً لكي لا أراك ، وقيل : اهجرني بالقول ولا تخاطبني دهراً طويلاً لأجل ما صدر منك من هذا الكلام وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتأسية فيما كان يلقى من الأذى ويقاسي من قومه من العناد ومن عمه أبي لهب من الشدائد بأعظم آبائه وأقربهم به شبهاً ، فلما سمع إبراهيم

عليه السلام كلام أبيه أجاب بأمرين أحدهما أن

﴿ قال ﴾ له مقابلاً لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العقل والعلم ﴿ سلام عليك ﴾ توديع ومتاركة أي : سلمت مني لا أصيبك بمكروه ما لم أؤمر فيك بشيء فإنه لم يؤمر بقتاله على كفره كقوله : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ (القصص ،)

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (الفرقان ،)

وهذا يدل على جواز متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج وعلى أنه يحسن مقابلة الإساءة بالإحسان ويجوز أن يكون دعاء له بالسلامة استمالة ، ألا ترى أنه وعده بالاستغفار فيكون سلام برّ ولطف وهو جواب الحليم للسفيه كقوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ (الفرقان ،)

(175/488)

ثم استأنف قوله : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ أي : المحسن إليّ بأن أطلب لك منه غفران ذنوبك بأن يوفقك للإسلام ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ أي : مبالغاً في إكرامي مرّة بعد مرّة وكرّة في إثر كرّة وقد وفىّ بوعده بقوله المذكور في الشعراء : ﴿ واغفر لأبي ﴾ (الشعراء ،)

وهذا قبل أن يتبين له أنه عدوّ لله كما ذكره في براءة ، وثانيهما : أنه قال له انقياداً لأمر أبيه ﴿ وأعتزلكم ﴾ أي : جميعاً بترك بلادكم وأشار إلى أنّ من شرط المعبود أن يكون أهلاً للمناداة في الشدائد بقوله ﴿ وما تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ الذي له الكمال كله فمن أقبل عليه وحده أصاب ومن أقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر ﴿ وأدعو ﴾ أي : أعبد ﴿ ربي ﴾ وحده لاستحقاقه ذلك مني ولم يقيد الاعتزال بزمن بل أشار إلى أنهم ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم ثم دعا لنفسه بما ينبههم به على خسة مسعاهم فقال غير جازم بإجابة دعوته وقبول عبادته إجلالاً لربه وهضماً لنفسه ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربي ﴾ المنفرد بالإحسان إليّ ﴿ شقياً ﴾ أي : كما شقيتم بعبادة الأصنام فإنها لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضرّكم ولما رأى من أبيه ومعاشرته ما رأى عزم على غربة مشقة النوى مختاراً للغربة في البلاد على غربة الأضداد فكان كما قال الإمام أبو سليمان الخطابي:

*وما غربة الإنسان في شقة النوى

** ولكنها والله في عدم الشكل

*وإني غريب بين بست وأهلها

** وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

وحقق ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه وإجابة دعائه فقال:

﴿ فلما اعتزلهم ﴾ أي : بالهجرة إلى الأرض المقدّسة ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ لم يضرّه ذلك ديناً ولا دنيا بل نفعه وعوّضه الله أولاداً كما قال تعالى ﴿ وهبنا له ﴾ كما هو الشأن في كل من ترك شيئاً لله ﴿ إسحاق ﴾ ولداً له لصلبه من زوجته العاقر العقيم بعد تجاوزها سنّ اليأس وأخذه هو في السنّ إلى حد لا يولد لمثله ﴿ ويعقوب ﴾ ولداً لإسحاق وخصهما بالذكر للزومهما محل إقامته وقيامهما بعد موته بخلافته فيه وأمّا إسماعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعاً إلى المسجد الحرام وإحيائه تلك المشاعر العظام فأفرده بالذكر جاعلاً له أصلاً برأسه بقوله بعد ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾ فترك ذكره مع إسحاق الذي هو أخوه لذلك ثم صرح بما وهب لأولاده جزاءً على هجرته بقوله تعالى : ﴿ وكلاً ﴾ أي : منهما ﴿ جعلنا نبياً ﴾ عالي المقدار ويخبر بالأخبار العظيمة كما جعلنا إبراهيم عليه السلام نبياً

﴿ ووهبنا لهم ﴾ كلهم ﴿ من رحمتنا ﴾ أي : شيئاً منها عظيماً من النسل الطاهر والذرّية الطيبة وإجابة الدعاء واللطف في القضاء والبركة في المال والأولاد وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ وهو الثناء الحسن وعبر

باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطية واستجاب الله تعالى دعوته في قوله تعالى : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ (الشعراء ،)

فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم فقال تعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ (الحج ،)

وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره أوّلها أنه اعتزل عن الخلق على ما قال ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ فلا جرم بارك الله له في أولاده فقال : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾ . ثانيها : أنه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل ﴿ فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرّأ منه ﴾ (التوبة ،)

(177/488)

لا جرم سماه الله أبا المسلمين فقال : ملة أبيكم إبراهيم ثالثها : تلّ ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال تعالى : ﴿ وتله للجبين ﴾ (الصافات ،)

لا جرم فداه الله تعالى على ما قال ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ (الصافات ،)

. رابعها : أسلم نفسه فقال : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ فجعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه فقال : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ (الأنبياء ،)

خامسها : أشفق على هذه الأمّة فقال : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ (البقرة ،)

لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات في قوله : ﴿ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ﴾ سادسها : وفي حق سارة في قوله تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ (النجم ،) لا جرم جعل موطئ قدميه مباركاً ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (البقرة ،) سابعها : عادى كل الخلق في الله فقال فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين فاتخذه الله خليلاً كما قال : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (النساء ،)

ليعلم صحة قولنا ما خير على الله أحداً .

القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى

(178/488)

﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أي : الذي لا كتاب مثله في الكمال ﴿ موسى ﴾ أي : الذي أنقذ الله به بني إسرائيل من العبودية ثم إنّ الله تعالى وصفه بأمور أحدها قوله تعالى : ﴿ إنه كان مخلصاً ﴾ قرأه عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام أي : مختاراً اختاره الله تعالى واصطفاه وقيل أخلصه الله تعالى من الدنس والباقون بالكسر أي : أخلص التوحيد لله والعبادة ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الأمرين . ثانيها : قوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً ﴾ إلى بني إسرائيل والقبط

﴿ نبياً ﴾ ينبئه الله بما يريد من وحيه لينبئ به المرسل إليهم فيرتفع بذلك قدره فلذلك صرح بها بعد دخولها في الرسالة ضمناً إذ كل رسول نبيّ وليس كل نبيّ رسولاً خلافاً للمعتزلة فإنهم زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبيّ وكل نبيّ رسول وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى في سورة الحج عند قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ﴾ (الحج ،)

ثالثها : قوله تعالى:

﴿ وناديناه ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ من جانب الطور ﴾ هو اسم جبل ﴿ الأيمن ﴾ أي : الذي يلي يمين موسى حين أقبل من مدين فأنبأناه هناك حين كان متوجهاً إلى مصر بأنه رسولنا ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون فكان لبني إسرائيل به من العجائب في رحمتهم بإنزال الكتاب والإلذاذ بالخطاب من جوف السحاب وفي إماتتهم لما طلبوا الرؤية ثم إحيائهم وغير ذلك ما يجل عن الوصف . رابعها : قوله تعالى ﴿ وقرّبناه ﴾ بما لنا من العظمة تقريب تشريف حالة كونه ﴿ نجياً ﴾ نخبره من أمرنا بلا واسطة من النجوى وهي السر والكلام بين اثنين كالسر وقيل قرب مكان أي : مكاناً عالياً ، عن أبي العالية أنه قرب حتى سمع صرير القلم حيث يكتب التوراة في الألواح وقيل أنجيناه من أعدائه ، خامسها : قوله تعالى:

﴿ ووهبنا له ﴾ أي : هبة تليق بعظمتنا ﴿ من رحمتنا ﴾ أي : من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا ﴿ أخاه ﴾ أي : معاضدة أخيه وموازرته لا شخصه وإخوته وذلك إجابة لدعوته ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون ﴾ (طه : ،)

فإنه كان أسن من موسى

تنبيه : أخاه مفعول أو بدل على تقدير أن تكون من للتبعيض وقوله : ﴿ هارون ﴾ عطف بيان وقوله ﴿ نبياً ﴾ حال منه هي المقصودة بالهبة .

القصة الخامسة : قصة إسماعيل عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾ بن إبراهيم عليهما السلام الذين هم معترفون بنبوّته ومفتخرون برسالته وأبوّته فلزم من ذلك فساد تعليلهم إنكار نبوّتك بأنك من البشر ثم إنّ الله تعالى وصف إسماعيل بأمور :

أوّلها : قوله تعالى : ﴿ إنه كان ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ صادق الوعد ﴾ في حق الله وفي حق غيره لمعونة الله له على ذلك بسبب أنه لا يعد وعداً إلا مقروناً بالاستثناء كما قال لأبيه حين أخبره بأمر ذبحه : ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ (الصافات ،)

وخصه بالمدح به وإن كان الأنبياء كلهم كذلك لقصة الذبح فلا يلزم منه تفضيله مطلقاً

وروي عن ابن عباس أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة وروي أنّ عيسى

عليه السلام قال له رجل انتظرني حتى آتيك فقال عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء إلى حاجته إلى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هناك للميعاد ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنه واعد رجلاً ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى إلى غروب الشمس" وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعاداً إلى أيّ وقت ينتظره ؟ قال : فإن واعده نهاراً فكل النهار وإن واعده ليلاً فكل الليل ، وسئل إبراهيم بن زيد عن ذلك فقال : إذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره إلى وقت صلاة أخرى .

ثانيها : قوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ قد مرّ تفسيره . وثالثها : قوله تعالى:

(180/488)

﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة ﴾ أي : التي هي طهرة البدن وقرّة العين وخير العون على جميع المآرب ﴿ والزكاة ﴾ أي : التي هي طهرة المال كما أوصى الله تعالى بذلك جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمراد بالأهل قومه ، وقيل : أهله جميع أمته كان رسولاً إلى جرهم قاله الأصفهاني وإلى أهل تلك البراري بدين أبيه إبراهيم والمراد بالصلاة قال ابن عباس : يريد التي افترضها الله تعالى عليهم قال البغوي وهي الحنيفية التي افترضت علينا قيل كان يبدأ بأهله في الأمر بالعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك

الأقربين ﴾ (الشعراء ،)

﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ (طه ،)

﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ (التحريم ،)

وبالزكاة قال ابن عباس إنها طاعة الله والإخلاص فكأنه تأوّله على ما يزكو به الفاعل عند ربه تعالى والظاهر كما قال ابن عادل إنّ الزكاة إذا قرنت بالصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة .

رابعها : قوله تعالى : ﴿ وكان عند ربه ﴾ بعبادته على حسب ما أمره به ﴿ مرضياً ﴾ وهذا في نهاية المدح لأنّ المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات فاقتد أنت به فإنه من أجلّ آبائك لتجمع بين طهارة القول والبدن والمال فتنال رتبة الرضا .

القصة السادسة : قصة إدريس عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أي : الجامع لكل ما يحتاج إليه حتى ما يحتاج إليه من قصص المتقدّمين والمتأخرين ﴿ إدريس ﴾ وهو جدّ أبي نوح عليه السلام قيل : سمي إدريس لكثرة دراسته الكتب واسمه أحنوخ بمهملة ونون وآخره خاء معجمة وصفه الله تعالى بأمور أحدها : وثانيها : قوله تعالى : ﴿ إنه كان صدّيقاً نبياً ﴾ أي : صادقاً في أفعاله وأقواله ومصدّقاً بما آتاه الله من آياته وعلى ألسنة الملائكة ، ثالثها : قوله تعالى:

﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ وفيه قولان:

أحدهما : أنه من رفع المنزلة كقوله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ (الإنشراح ،)

(181/488)

فإنّ الله تعالى شرّفه بالنبوّة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أوّل من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب وأوّل من خاط الثياب ولبسها وكانوا من قبله يلبسون الجلود وأوّل من اتخذ السلاح وقاتل الكفار .

وثانيهما : أنه من رفعة المكان ثم اختلفوا فقال بعضهم : رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة وهي التي رآه النبيّ صلى الله عليه وسلم بها ليلة الإسراء وقيل : إلى الجنة وهو حيّ لا يموت وقالوا أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في الأرض الخضر وإلياس واثنان في السماء عيسى وإدريس وقال وهب كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق له ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس وقال له الليلة الثالثة : إني أريد أن أعلم من أنت ، قال أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك فقال : لي إليك حاجة قال ما هي قال تقبض

روحي فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه ، فقبض روحه وردّها إليه بعد ساعة ، فقال له ملك الموت : ما الفائدة في سؤالك قبض الروح ؟ قال لأذوق كرب الموت وغمته فأكون أشدّ استعداد له ، ثم قال له إدريس : إنّ لي إليك حاجة أخرى ، قال : وما هي قال ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار فأذن الله تعالى له في ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال : لي إليك حاجة ، قال : وما تريد ؟ قال : تسأل مالكاً أن يفتح أبوابها فأردها ، ففعل ثم قال : كما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود إلى مكانك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله تعالى ملكاً حكماً بينهما ، فقال له الملك : ما لك لا تخرج ؟ قال : إنّ الله تعالى قال : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (آل عمران ،)

(182/488)

وقد ذقته ، وقال: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (مريم ،)

وقد وردتها وقال : ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ (الحجر ،)

فلست أخرج فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبإذني لا يخرج فهو حيّ هناك ، وقال آخرون : بل رفع إلى السماء وقبض روحه .

وقال كعب الأحبار : إنّ إدريس سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يا رب إني مشيت يوماً فكيف يمشي من يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهمّ خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرّها ما لا يعرفه فقال : يا رب خففت عني حرّ الشمس فما الذي قضيت فيه ؟ فقال تعالى : إنّ عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرّها فأجبته قال يا رب اجعل بيني وبينه خلة ، فأذن له حتى أتى إدريس فكان إدريس يسأله فكان مما سأله أن قال له : إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي ليؤخر أجلي فازداد شكراً وعبادة ، فقال الملك : لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال لي حاجة إليك لي صديق من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيقدّم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال : إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس ، قال : إني أتيتك وتركته هناك ، قال : فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء فرجع الملك فوجده ميتاً . ولما انقضى كشف هذه الأخبار العلية المقدار الجليلة الأسرار شرع سبحانه وتعالى ينسب أهلها بأشرف نسبهم ويذكر المنن بينهم ، فقال عز من قائل:

﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة الشرفاء النسب المذكورون في هذه السورة من لدن زكريا إلى إدريس وهو مبتدأ وقوله ﴿ الذين أنعم الله عليهم ﴾ بما خصهم به من مزيد القرب إليه وعظيم المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى ﴿ من النبيين ﴾ أي : المصطفين بالنبوّة الذين أنبأهم الله تعالى بدقائق الحكم ورفع محالهم بين الأمم بيان لهم وهو في معنى الصفة وما بعده إلى جملة الشرط صفة للنبيين فقوله : ﴿ من ذرية آدم ﴾ أي : إدريس لقربه منه لأنه جدّ أبي نوح ﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ في السفينة أي : إبراهيم ابن ابنه سام ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ أي : إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ و ﴾ من ذرية ﴿ إسرائيل ﴾ وهو يعقوب أي : موسى وهارون وزكريا ويحيى وكذا عيسى لأنّ مريم من ذريته ﴿ وممن هدينا ﴾ إلى أقوم الطرق ﴿ واجتبينا ﴾ للنبوّة والكرامة أي : من جملتهم . وخبر أولئك ﴿ إذا تتلى عليهم ﴾ من أيّ : تالٍ كان ﴿ آيات الرحمن خرّوا سجداً ﴾ للمنعم عليهم تقرّباً إليه لما لهم من البصائر النيرة في ذكر نعمه عليهم وإحسانه إليهم ﴿ وبكياً ﴾ خوفاً منه وشوقاً إليه فكونوا مثلهم

تنبيه : سجداً حال مقدرة قال الزجاج لأنهم وقت الخرور ليسوا سجداً وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك وليس بقياس بل قياس جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الأصل وأصل بكيا بكوياً قلبت الواو ياء والضمة كسرة ، واختلف في هذا السجود فقال

بعضهم : إنه الصلاة وقال بعضهم : سجود التلاوة على حسب ما تعبدوا به . قال الرازي : ثم يحتمل أن يكون المراد سجود القرآن ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بسجود فيفعلون ذلك لأجل ذكر السجود في الآية انتهى .

(184/488)

وروى ابن ماجه وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا" وعن صالح المزني قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وعن ابن عباس : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ما غرغرت عين بماء إلا حرّم الله تعالى على النار جسدها" وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إن القرآن نزل محزناً فإذا قرأتموه فتحازنوا" وعن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "لا يلج النار من بكى من خشية الله" .

وقال العلماء : يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال : اللهمّ اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المتكبرين عن أمرك ، وإذا قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين إليك الآسفين لك ، وإن قرأ

هذه قال : اللهمّ اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائي بكيا بكسر الباء والباقون بضمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿السراج المنير حـ 4 صـ 115.128﴾

(185/488)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثمانون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/489)

الجزء التاسع والثمانون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 59 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 65 ﴾ من نفس السورة

(4/489)

قوله تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من المقاصد العظيمة تبكيت اليهود ، لأنهم أهل الكتاب وعندهم من علوم الأنبياء ما ليس عند العرب وقد استرشدوهم واستنصحوهم ، فقد كان أوجب الواجبات عليهم محض النصح لهم ، فأبدى سبحانه من تبكيتهم ما تقدم إلى أن ختمه بأن جميع الأنبياء كانوا لله سجداً ولأمره خضعاً ، عقب ذلك بتوبيخ هو أعظم داخل فيه وهو أشد مما تقدم لمن خاف الله ورسله فقال : ﴿ فخلف من بعدهم ﴾ أي في بعض الزمان الذي بعد هؤلاء الأصفياء سريعاً ﴿ خلف ﴾ هم في غاية الرداءة ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ الناهية عن الفحشاء والمنكر التي هي طهرة الأبدان ، وعصمة الأديان ، وأعظم الأعمال ، بتركها أو تأخيرها عن وقتها والإخلال بحدودها ، فكانوا لما سواها أضيع ، فأظلمت قلوبهم فأعرضوا عن داعي العقل ﴿ واتبعوا ﴾ أي بغاية جهدهم ﴿ الشهوات ﴾ التي توجب العار في الدنيا والنار في الآخرة ، فلا يقربها من يستحق أن يعد بين الرجال ، من تغيير أحكام الكتاب وتبديل ما فيه مما تخالف الأهواء كالرجم في الزنا ، وتحريم الرشى والربا ، ونحو ذلك ، وأعظمه كتم البشارة بالنبي العربي الذي هو من ولد إسماعيل ﴿ فسوف يلقون ﴾ أي يلابسون – وعدا لا خلف فيه بعد طول المهلة – جزاء فعلهم هذا ﴿ غيّاً ﴾ أي شراً يتعقب ضلالاً عظيماً ، فلا يزالون في عمى عن طريق الرشاد لا يستطيعون إليه سبيلاً ، وهم على بصيرة من أنهم على خطأ وضلال ، ولكنهم مقهورون

على ذلك بما زين لهم منه حتى صارت لهم فيه أتم رغبة ، وذلك أعظم الشر ، ولم يزل سبحانه يستدرجهم بالنعم إلى أن قطعوا بالظفر والغلبة حتى أناخت بهم سطوات العزة ، فأخذوا على غرة ، ولا أنكأ من الأخذ على هذه الصفة بعد توطين النفس على الفوز ، وهو من وادي قوله

(5/489)

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ [الإسراء : 97] مع قوله ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ وجزاء من كان هذا ديدنه في الدنيا والآخرة معروف لكل من له أدنى بصيرة أنه العار ثم النار ، وأيضاً فإن من ضل أخطأ طريق الفلاح من الجنة وغيرها فخاب ، ومن خاب فقد هلك ؛ قال أبو علي الجبائي : والغي هو الخيبة في اللغة – انتهى . ويجوز أن يراد بالغي الهلاك ، إما من قولهم – أغوية – وزن أثفية – أي مهلكة ، وإما من تسمية الشيء باسم ما يلزمه .

ولما أخبر تعالى عنهم بالخيبة ، فتح لهم باب التوبة ، وحداهم إلى غسل هذه الحوبة ، بقوله : ﴿ إلا من تاب ﴾ أي مما هو عليه من الضلال ، بإيثار سفساف الأعمال ، على أوصاف الكمال ، فحافظ على الصلاة ، وكف نفسه عن الشهوات ﴿ وءامن ﴾ بما أخذ عليه به

العهد ﴿ وعمل ﴾ بعد إيمانه تصديقاً له ﴿ صالحاً ﴾ من الصلوات والزكاة وغيرها ، ولم يؤكدهما لما أفهمته التوبة من إظهار عمل الصلاة التي هي أم العبادات ﴿ فأولئك ﴾ العالو الهمم ، الطاهرو الشيم ﴿ يدخلون الجنة ﴾ التي وعد المتقون ﴿ ولا يظلمون ﴾ من ظالم ما ﴿ شيئاً ﴾ من أعمالهم ؛ ثم بينها بقوله : ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة لا ظعن عنها بوجه من الوجوه ﴿ التي وعد الرحمن ﴾ الشامل النعم ﴿ عباده ﴾ الذين هو أرحم بهم من الوالدة بولدها ؛ وعبر عنهم بوصف العبودية للإشعار بالتحنن ، وعداً كائناً ﴿ بالغيب ﴾ الذي لا اطلاع لهم عليه أصلاً إلا من قبلنا ، فآمنوا به فاستحقوا ذلك بفضله سبحانه على إيمانهم بالغيب .

ولما كان من شأن الوعود الغائبة – على ما يتعارفه الناس بينهم – احتمال عدم الوقوع ، بين أن وعده ليس كذلك بقوله : ﴿ إنه كان ﴾ أي كوناً هو سنة ماضية ﴿ وعده مأتيّاً ﴾ أي مقصوداً بالفعل ، فلا بد من وقوعه ، فهو كقوله تعالى ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ [الإسراء : 108] .

ولما كانت الجنة دار الحق ، وكان أنكأ شيء لذوي الأقدار الباطل ، وكان أقل ما ينكأ منه سماعه ، نفى ذلك عنها أبلغ وجه فقال : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي شيئاً ما من الباطل الذي لا ثمرة له .

ولما كانت السلامة ضد الباطل من كل وجه ، قال : ﴿ إلا ﴾ أي لكن ﴿ سلاماً ﴾ لا عطب معه ولا عيب ولا نقص أصلاً فيه ، وأورد على صورة الاستثناء من باب قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

ويحسن أن يراد باللغو مطلق الكلام ؛ قال في القاموس : لغا لغواً : تكلم .

أي لا يسمعون فيها كلاماً إلا كلاماً يدل على السلامة ، ولا يسمعون شيئاً يدل على عطب أحد منهم ولا عطب شيء فيها .

ولما كان الرزق من أسباب السلامة قال : ﴿ ولهم رزقهم ﴾ أي على قدر ما يتمنونه ويشتهونه على وجه لا بد من إتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا يمن عليهم به ﴿ فيها بكرة وعشياً ﴾ أي دواماً ، لا يحتاجون إلى طلبه في وقت من الأوقات ، وفي تفسير عبد الرزاق عن مجاهد : وليس فيها بكرة ولا عشي ، لكنهم يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا .

أي أنهم خوطبوا بما يعرفون كما أشار إليه تأخير الظرف إذ لو قدم لأوهم بعدهم عن ذلك بالجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 545. 547﴾

(7/489)

فصل

قال الفخر:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الأنبياء بصفات المدح ترغيباً لنا في التأسي بطريقتهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال: فخلف من بعدهم خلف، وظاهر الكلام أن المراد من بعد هؤلاء الأنبياء خلف من أولادهم يقال: خلفه إذا أعقبه ثم قيل في عقب الخير خلف بفتح اللام وفي عقب الشر خلف بالسكون، كما قالوا: وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث: "في الله خلف من كل هالك" وفي الشعر للبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم.. وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ثم وصفهم بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات فإضاعة الصلاة في مقابلة قوله: ﴿خَرُّوا

سُجَّداً ﴾ [السجدة : 15] واتباع الشهوات في مقابلة قوله : ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ لأن بكاءهم يدل على خوفهم واتباع هؤلاء لشهواتهم يدل على عدم الخوف لهم وظاهر قوله : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ تركوها لكن تركها قد يكون بأن لا تفعل أصلاً وقد يكون بأن لا تفعل في وقتها وإن كان الأظهر هو الأول وأما اتباع الشهوات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب واحتج بعضهم بقوله : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ ﴾ على أن تارك الصلاة كافر ، واحتج أصحابنا بها في أن الإيمان غير العمل لأنه تعالى قال : ﴿ وآمَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فعطف العمل على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه ، أجاب الكعبي عنه : بأنه تعالى فرق بين التوبة والإيمان والتوبة من الإيمان فكذلك العمل الصالح يكون من الإيمان وإن فرق بينهما ، وهذا الجواب ضعيف لأن عطف الإيمان على التوبة يقتضي وقوع المغايرة بينهما لأن التوبة عزم على الترك والإيمان إقرار بالله تعالى وهما متغايران ، فكذا في هذه الصورة .

(8/489)

ثم بين تعالى أن من هذه صفته ﴿ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ وذكروا في الغي وجوهاً : أحدها : أن كل شر عند العرب غي وكل خير رشاد ، قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وثانيها : قال الزجاج : ﴿ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ أي يلقون جزاء الغي ، كقوله تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] أي مجازاة الآثام .

وثالثها : غياً عن طريق الجنة .

ورابعها : الغي واد في جهنم يستعيذ منه أوديتها والوجهان الأولان أقرب فإن كان في جهنم موضع يسمى بذلك جاز ولا يخرج من أن يكون المراد ما قدمنا لأنه المعقول في اللغة ، ثم بين سبحانه أن هذا الوعيد فيمن لم يتب ، وأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم ، وههنا سؤالان : الأول : الاستثناء دل على أنه لا بد من التوبة والإيمان والعمل الصالح وليس الأمر كذلك ، لأن من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة ، أو كانت المرأة حائضاً فإنه لا يجب عليها الصلاة والزكاة أيضاً غير واجبة ، وكذا الصوم فههنا لو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع أنه لم يصدر عنه عمل فلم يجز توقف الأجر على العمل الصالح ، و الجواب أن هذه الصورة نادرة ، والمراد منه الغالب .

السؤال الثاني : قوله : ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ هذا إنما يصح لو كان الثواب مستحقاً على العمل ، لأنه لو كان الكل بالتفضل لاستحال حصول الظلم لكن من مذهبكم أنه لا استحقاق للعبد بعمله إلا بالوعد .

الجواب : أنه لما أشبهه أجرى على حكمه .

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) ﴾

(9/489)

اعلم أنه تعالى لما ذكر في التائب أنه يدخل الجنة وصف الجنة بأمور : أحدها : قوله ؛ ﴿ جنات عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ والعدن الإقامة وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان في الدنيا التي لا تدوم ولذلك فإن حالها لا يتغير في مناظرها فليست كجنان الدنيا التي حالها يختلف في خضرة الورق وظهور النور والثمر وبين تعالى أنها : وعد الرحمن لعباده وأما قوله : ﴿ بالغيب ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أنه تعالى وعدهم إياها وهي غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها .

والثاني : أن المراد وعد الرحمن للذين يكونون عباداً بالغيب أي الذين يعبدونه في السر بخلاف المنافقين فإنهم يعبدونه في الظاهر ولا يعبدونه في السر وهو قول أبي مسلم .

والوجه الأول : أقوى لأنه تعالى بين أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل ، لذلك قال بعده : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ أما قوله : ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ فقيل إنه مفعول بمعنى فاعل والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها ، قال الزجاج : كل ما وصل إليك فقد

وصلت إليه وما أتاك فقد أتيته والمقصود من قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ بيان أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد وحاصل والمراد تقرير ذلك في القلوب .

(10/489)

وثانيها : قوله : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سلاما ﴾ [مريم : 62] واللغو من الكلام ما سبيله أن يلغي ويطرح وهو المنكر من القول ونظيره قوله : ﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاغية ﴾ [الغاشية : 11] وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو حيث نزه الله تعالى عنه الدار التي لا تكليف فيها وما أحسن قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ باللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] ، ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ [القصص : 55] أما قوله : ﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : أن فيه إشكالاً وهو أن السلام ليس من جنس اللغو فكيف استثنى السلام من اللغو والجواب عنه من وجوه : أحدها : أن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة وأهل الجنة لا حاجة بهم إلى هذا الدعاء فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام .

وثانيها : أن يحمل ذلك على الاستثناء المنقطع .

وثالثها : أن يكون هذا من جنس قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . بهن فلول من قراع الكتائب

البحث الثاني : أن ذلك السلام يحتمل أن يكون من سلام بعضهم على بعض أو من تسليم الملائكة أو من تسليم الله تعالى على ما قال تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23 ، 24] وقوله : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ وفيه سؤالان : السؤال الأول : أن المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق إليهم بكرة وعشياً ليس من الأمور المستعظمة .

(11/489)

والجواب من وجهين : الأول : قال الحسن أراد الله تعالى أن يرغب كل قوم بما أحبوه في الدنيا ولذلك ذكر أساور من الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والأرائك التي هي الحجال المضروبة على الأسرة وكانت من عادة أشراف العرب في اليمن ولا شيء كان

أحب إلى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك .

الثاني : أن المراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان صباحاً ومساء وبكرة وعشياً تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين .

السؤال الثاني : قال تعالى : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ [الإنسان : 13] وقال عليه السلام : " لا صباح عند ربك ولا مساء " والبكرة والعشي لا يوجدان إلا عند وجود الصباح والمساء .

والجواب المراد أنهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشي إلا أنه ليس في الجنة غدوة وعشي إذ لا ليل فيها ويحتمل ما قيل إنه تعالى جعل لقدر اليوم علامة يعرفون بها مقادير الغداة والعشي ويحتمل أن يكون المراد لهم رزقهم متى شاءوا كما جرت العادة في الغداة والعشي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 201 . 203 ﴾

(12/489)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : " أَضَاعُوهَا بِتَأْخِيرِهَا عَنْ مَوَاقِيتِهَا " وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ التَّفْرِيطُ فِي النَّوْمِ إنَّمَا التَّفْرِيطُ أَنْ يَدَعَهَا حَتَّى يَدْخُلَ وَقْتُ الْأُخْرَى ﴾ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : " أَضَاعُوهَا بِتَرْكِهَا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(13/489)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ الآية .

في الفرق بين الخَلْف بتسكين اللام والخلف بتحريكها وجهان :

أحدهما : أنه بالفتح إذا خلفه من كان من أهله ، وبالتسكين إذا خلفه من ليس من أهله .

الثاني : أن الخَلْف بالتسكين مستعمل في الذم ، وبالفتح مستعمل في المدح قال لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خلفٍ كجلد الأجْرب

وفي هذا الخلف قولان :

أحدهما : أنهم اليهود من بعد ما تقدم من الأنبياء ، قاله مقاتل . الثاني : أنهم من المسلمين .

فعلى هذا في قوله ﴿ من بَعْدِهِم ﴾ قولان :

أحدهما : من بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، من عصر الصحابة وإلى قيام الساعة كما روى الوليد بن قيس حكاه إبراهيم عن عبيدة .

الثاني : إنهم من بعد عصر الصحابة . روى الوليد بن قيس عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَكُونُ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً ﴿ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾ " . الآية .

وفي إضاعتهم الصلاة قولان :

أحدهما : تأخيرها عن أوقاتها ، قال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز .

الثاني : تركها ، قاله القرظي .

ويحتمل ثالثاً : أن تكون إضاعتها الإخلال باستيفاء شروطها .

﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه واد في جهنم ، قالته عائشة وابن مسعود .

الثاني : أنه الخسران ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه الشر ، قاله ابن زيد .

الرابع : الضلال عن الجنة . الخامس : الخيبة ، ومنه قول الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . . ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

من يغو : أي من يخب .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : الكلام الفاسد .

الثاني : الخلف ، قاله مقاتل .

﴿ إِلاَّ سَلاَماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا السلامة .

الثاني : تسليم الملائكة عليهم ، قاله مقاتل .

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فيه وجهان :

(14/489)

أحدهما : أن العرب إذا أصابت الغداء والعشاء نعمت ، فأخبرهم الله أن لهم في الجنة غداء وعشاء ، وإن لم يكن في الجنة ليل ولا نهار .

الثاني : معناه مقدار البكرة ومقدار العشي من أيام الدنيا ، قاله ابن جريج . وقيل إنهم يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وغلق الأبواب ، ومقدار النهار . برفع الحجب وفتح الأبواب .

ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم ، والعشي بعد فراغهم من لذاتهم ، لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(15/489)

وقال ابن عطية :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾

" الخَلف " بفتح اللام القرن يأتي بعد آخر يمضي ، والابن بعد الأب ، وقد يستعمل في سائر الأمور . " والخْلف " بسكون اللام مستعمل إذا كان الآتي مذموماً هذا مشهور كلام العرب وقد ذكر عن بعضهم أن الخَلف والخْلف بمعنى واحد وحجة ذلك قول الشاعر :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا . . . لأولنا في طاعة الله تابع

وقرأ الجمهور " الصلاة " بالإفراد ، وقرأ الحسن " أضاعوا الصلوات " بالجمع ، وكذلك في مصحف ابن مسعود ، والمراد ب " الخلف " من كفر أو عصى بعد من بني إسرائيل ، وقال مجاهد : المراد النصارى خلفوا بعد اليهود وقال محمد بن كعب ومجاهد وعطاء : هم قوم من أمة محمد آخر الزمان ، أي يكون في هذه الامة من هذه صفته لا أنهم المراد بهذه الآية ،

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "كان الخلف بعد ستين سنة" وهذا عرف إلى يوم القيامة وتتجدد أيضاً المبادئ، واختلف الناس في "إضاعة الصلاة" منهم، فقال محمد بن كعب القرظي وغيره: "كانت اضاعة كفر وجحد بها". وقال القاسم بن مخيمرة وعبد الله بن مسعود: "كانت اضاعة أوقاتها والمحافظة على أوانها" وذكره الطبري عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في حديث طويل. و﴿ الشهوات ﴾ عموم وكل ما ذكر من ذلك فمثال، و"الغي" الخسران والحصول في الورطات ومنه قول الشاعر: [الطويل]

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره... ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

(16/489)

وبه فسر ابن زيد هذه الآية، وقد يكون "الغي" أيضاً بمعنى الضلال فيكون على هذا هنا حذف مضاف تقديره "يلقون جزاء الغي" وبهذا فسر الزجاج. وقال عبد الله بن عمرو وابن مسعود "غي" واد في جهنم وبه وقع التوعد في هذه الآية، وقيل "غي وآثام، نيران في جهنم" رواه أبو أمامة الباهلي عن النبي عليه السلام. وقوله ﴿ إلا من تاب ﴾ استثناء يحتمل الاتصال والانقطاع، وقوله ﴿ وآمن ﴾ يقتضي أن الإضافة أولاً هي إضاعة كفر

هذا مع اتصال الاستثناء ، وعليه فسر الطبري . وقرأ الجمهور "يُدخَلون" بضم الياء وفتح الخاء ، وقرأ الحسن كل ما في القرآن "يَدخُلون" بفتح الياء وضم الخاء ، وقوله ﴿ جنات عدن ﴾ ، وقرأ جمهور الناس "جناتِ عدن" بنصب الجنات على البدل من قوله ﴿ يدخلون الجنة ﴾ ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وأبو حيوة "جناتُ" برفعها على تقدير تلك الجنات ، وقرأ علي بن صالح "جنةَ" على الإفراد والنصب وكذلك في مصحف ابن مسعود وقرأها الأعمش ، و"العدن" الإقامة المستمرة ، قوله ﴿ بالغيب ﴾ أي أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم ، وفي هذا مدح لهم عن سرعة إيمانهم وبدراهم إذ لم يعاينوا .

(17/489)

و "المأتي" مفعول على بابه ، والآتي هو الإنجاز والفعل الذي تضمنه الوعد ، وكان إيتانه إنما يقصد به "الوعد" الذي تقدمه . وقالت جماعة من المفسرين : هو مفعول في اللفظ بمعنى فاعل بمعنى آت وهذا بعيد ، والنظر الأول أصوب ، و"اللغو" الساقط من القول ، وهو أنواع مختلفة كلها ليست في الجنة ، وقوله ﴿ إلا سلاماً ﴾ ، استثناء منقطع ، المعنى لكن يسمعون كلاماً هو تحية الملائكة لهم في كل الأوقات . وقوله ﴿ بكرة وعشياً ﴾ ، يريد في التقدير أي يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم والليلة من الزمن ، ويروى أن أهل

الجنة تنسد لهم الأبواب بقدر الليل في الدنيا فهم يعرفون البكرة عند انفتاحها والعشي عند انسدادها ، وقال مجاهد : ليس بكرة ولا عشياً لكن يؤتى به على قدر ما كانوا يشتهون في الدنيا ، وقد ذكر نحوه قتادة ، أن تكون مخاطبة بما تعرفه العرب وتستغربه في رفاهة العيش ، وجعل ذلك عبارة عن أن رزقهم يأتي على أكمل وجوهه . وقال الحسن : خوطبوا على ما كانت العرب تعلم من أفضل العيش وذلك أن كثيراً من العرب إنما كان يجد الطعام المرة في اليوم وهي غايته ، وكان عيش أكثرهم من شجر البرية ومن الحيوان ونحوه ألا ترى قول الشاعر : [المنسرح]

عصرته نطفة تضمنها . . . لصب توقى مواقع السبل

أو وجبة من جناة أشكله . . . إن لم يزغها بالقوس لم تنلِ

الوجبة الأكلة في اليوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(18/489)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خَلْفٌ ﴾

قد شرحناه في [الأعراف : 169] .

وفي المراد بهذا الخَلْف ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم اليهود ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : اليهود والنصارى ، قاله السدي .

والثالث : أنهم من هذه الأُمَّة ، يأتون عند ذهاب صالحي أُمة محمد صلى الله عليه وسلم يتبارَوْن بالزنا ، ينزو بعضهم على بعض في الأزقّة زناة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين العقيلي ، والحسن البصري : "الصلوات" على الجمع .

وفي المراد باضاعتهم إِياها قولان .

أحدهما : أنهم أخَّروها عن وقتها ، قاله ابن مسعود ، والنخعي ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم بن مخيمرة .

والثاني : تركوها ، قاله القرظي ، واختاره الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ واتَّبَعوا الشهوات ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي : وذلك مثل استماع الغناء ، وشرب الخمر ، والزنا ، واللهو ، وما شاكل ذلك مما يقطع عن أداء فرائض الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ فسوف يلقون غيّاً ﴾ ليس معنى هذا اللقاء مجرد الرؤية ، وإِنما المراد به الاجتماع والملابسة مع الرؤية .

وفي المراد بهذا الغيّ ستة أقوال .

أحدها : أنه وادٍ في جهنم ، روراه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه قال كعب .

والثاني : أنه نهر في جهنم ، قاله ابن مسعود .

والثالث : أنه الخسران ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أنه العذاب ، قاله مجاهد .

والخامس : أنه الشرُّ ، قاله ابن زيد ، وابن السائب .

والسادس : أن المعنى : فسوف يلقون مجازاة الغي ، كقوله : ﴿ يلقَ أثاماً ﴾ [الفرقان : 68] أي : مجازاة الآثام ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن ﴾ فيه قولان .

أحدهما : تاب من الشرك ، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مقاتل .

والثاني : تاب من التقصير في الصلاة ، وآمن من اليهود والنصارى .

(19/489)

قوله تعالى : ﴿ جناتِ عدن ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : "جناتُ" برفع التاء .

وقرأ الحسن البصري ، والشعبي ، وابن السميفع : "جنةُ عدن" على التوحيد مع رفع التاء .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو المتوكل الناجي : "جنةَ عدن" على التوحيد مع نصب التاء .

وقوله : ﴿ التي وعد الرحمنُ عباده بالغيب ﴾ أي : وعدهم بها ، ولم يَروْها ، فهي غائبة عنهم .

قوله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتيّاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : آتياً ، قال ابن قتيبة : وهو "مفعول" في معنى "فاعل" ، وهو قليل أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به .

وقال الفراء : إنما لم يقل : آتياً ، لأن كل ما أتاك ، فأنت تأتيه ؛ ألا ترى أنك تقول : أتيت على خمسين سنة ، وأتت عليَّ خمسون [سنة] ؟ .

والثاني : مبلوغاً إليه ، قاله ابن الأنباري .

وقال ابن جريج : "وعده" هاهنا : موعوده ، وهو الجنة ، و"مأتيّاً" : يأتيه أولياؤه .

قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه التخالف عند شرب الخمر ، قاله مقاتل .

والثاني : ما يلغى من الكلام ويؤثَم فيه ، قاله الزجاج .

وقال ابن الأنباري : اللغو في العربية : الفاسد المطَّرَح .

قوله تعالى : ﴿ إلا سلاماً ﴾ قال أبو عبيدة : السلام ليس من اللغو ، والعرب تستثني

الشيء بعد الشيء وليس منه ، وذلك أنها تضمر فيه ، فالمعنى : إلا أنهم يسمعون فيها سلاماً .

وقال ابن الأنباري : استثنى السلام من غير جنسه ، وفي ذلك توكيد للمعنى المقصود ، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام ، فليس يسمعون لغواً البتَّة ، وكذلك قوله : ﴿ فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 77] ، إذا لم يخرج من عداوتهم لي غير رب العالمين ، فكلُّهم عدو .

وفي معنى هذا السلام قولان .

أحدهما : أنه تسليم الملائكة عليهم ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم لا يسمعون إلا ما يسلِّمهم ، ولا يسمعون ما يؤثمهم ، قاله الزجاج .

(20/489)

قوله تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها بُكْرة وعَشِيّاً ﴾ قال المفسرون : ليس في الجنة بُكْرة ولا عشيَّة ، ولكنَّهم يُؤتَوْن برزقهم على مقدار ما كانوا يعرفون في الغداة والعشي .

قال الحسن : كانت العرب لا تعرف شيئاً من العيش أفضل من الغداء والعشاء ، فذكر الله لهم ذلك .

وقال قتادة : كانت العرب إذا أصاب أحدُهم الغداءَ والعشاء أُعجب به ، فأخبر الله أن لهم في الجنة رزقهم بكرة وعشيّاً على قدر ذلك الوقت ، وليس ثَمَّ ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونُور .

وروى الوليد بن مسلم قال : سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى : ﴿ بُكْرة وعشيّاً ﴾ فقال : ليس في الجنة ليل ولا نهار ، هم في نور أبداً ، ولهم مقدار الليل والنهار ، يعرفون مقدار الليل بارخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(21/489)

وقال القرطبى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي أولاد سوء .

قال أبو عبيدة : حدّثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : ذلك عند قيام الساعة ، وذهاب صالحي هذه الأمة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض في

الأزِقة زنًى .

وقد تقدّم القول في "خَلْفٌ" في "الأعراف" فلا معنى للإعادة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ وقرأ عبد الله والحسن "أَضَاعُوا الصَّلَوَاتِ" على الجمع .

وهو ذمّ ونص في أن إضاعة الصلاة من الكبائر التي يوبق بها صاحبها ولا خلاف في ذلك .

وقد قال عمر : ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .

واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية ؛ فقال مجاهد : النصارى خلفوا بعد اليهود .

وقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد أيضاً وعطاء : هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان ؛ أي يكون في هذه الأمة من هذه صفته لا أنهم المراد بهذه الآية .

واختلفوا أيضاً في معنى إضاعتها ؛ فقال القرظي : هي إضاعة كفر وجحد بها .

وقال القاسم بن مخيمرة ، وعبد الله بن مسعود : هي إضاعة أوقاتها ، وعدم القيام بحقوقها وهو الصحيح ، وأنها إذا صليت مخلًّى بها لا تصح ولا تجزىء ؛ ل " قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي صلى وجاء فسلم عليه : "ارجع فصل فإنك لم تصل" ثلاث مرات " خرجه مسلم ، وقال حذيفة لرجل يصلي فطفف : منذ كم تصلي هذه الصلاة ؟ قال منذ أربعين عاماً .

قال : ما صليت ، ولو مت وأنت تصلي هذه الصلاة لمت على غير فطرة محمد صلى الله

عليه وسلم .

ثم قال : إن الرجل ليخفف الصلاة ويتم ويحسن .

(22/489)

خرجه البخاري واللفظ للنسائي ، وفي الترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تجزىء صلاة لا يقيم فيها الرجل " يعني صلبه في الركوع والسجود ؛ قال : حديث حسن صحيح ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ؛ يرون أن يقيم الرجل صلبه في الركوع والسجود ؛ قال الشافعي وأحمد وإسحاق : من لم يقم صلبه في الركوع والسجود فصلاته فاسدة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " تلك الصلاة صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً " وهذا ذم لمن يفعل ذلك .

وقال فروة بن خالد بن سنان : استبطأ أصحاب الضحاك مرة أميراً في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقرأ الضحاك هذه الآية ، ثم قال : والله لأن أدعها أحبّ إلي من أن أضيّعها .

وجملة القول في هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه ، ولا دين لمن لا صلاة له .

وقال الحسن : عطلوا المساجد ، واشتغلوا بالصنائع والأسباب .

"وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ" أي اللذات والمعاصي .

الثالثة : روى الترمذي وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبي أنه أتى المدينة فلقي أبا هريرة فقال له : يا فتى ألا أحدّثك حديثاً لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ قلت : بلى .

قال : "إن أوّل ما يحاسَب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته وهو أعلم انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئاً قال انظروا هل لعبدي من تطوّع فإن كان له تطوّع قال : أكملوا لعبدي فريضته من تطوّعه ثم توّخذ الأعمال على ذلك" .

قال يونس : وأحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لفظ أبي داود .

(23/489)

وقال : حدّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا حماد حدّثنا داود بن أبي هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الداريّ عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى .

قال : "ثم الزكاة مثل ذلك" "ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك" .

وأخرجه النسائي عن همام عن الحسن عن حُرَيث بن قَبِيصة عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر قال همام : لا أدري هذا من كلام قتادة أو من الرواية فإن انتقص من فريضته شيء قال : انظروا هل لعبدي من تطوّع فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك " خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شيء قال : انظروا هل تجدون له من تطوّع يكمل ما ضيع من فريضته من تطوّعه ثم سائر الأعمال تجري على حسب ذلك " قال النسائي : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال : حدّثنا النضر بن شميل قال : أنبأنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أكملها وإلا قال الله عز وجل : انظروا لعبدي من تطوّع فإن وجد له تطوّع قال : أكملوا به الفريضة "

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب "التمهيد" : أما إكمال الفريضة من التطوّع فإنما يكون والله أعلم فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها ، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك ؛ وأما من تركها ، أو نسي ثم ذكرها ، فلم يأت بها عامداً ، واشتغل بالتطوّع عن أداء فرضها وهو ذاكر له ، فلا تكمل له فريضة من تطوّعه ، والله أعلم .

(24/489)

وقد روي من حديث الشاميين في هذا الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السَّكُوني عن عبد الله بن قُرْط عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من تسبيحاته حتى تتم " قال أبو عمر : وهذا لا يحفظ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه ، وليس بالقوّي ؛ وإن كان صح كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه وليست في الحكم بتامة (والله أعلم) .

قلت : فينبغي للإنسان أن يحسن فرضه ونفله حتى يكون له نفل يجده زائداً على فرضه يقرّبه من ربه ، كما قال سبحانه وتعالى : " وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه " الحديث .

فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض فحكمه في المعنى حكم الفرض .

ومن لا يحسن أن يصلي الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفل ؛ لا جرم تنفل الناس في أشدّ ما يكون من النقصان والخلل لخفته عندهم ، وتهاونهم به ، حتى كأنه غير معتد به .

ولعمر الله لقد يشاهد في الوجود من يشار إليه ، ويظن به العلم تنفله كذلك ؛ بل فرضه إذ ينقره نقر الديك لعدم معرفته بالحديث ؛ فكيف بالجهال الذين لا يعلمون .

وقد قال العلماء : ولا يجزىء ركوع ولا سجود ، ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين ، حتى يعتدل راكعاً وواقفاً وساجداً وجالساً .

وهذا هو الصحيح في الأثر ، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر .

وهذه رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك .

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" .

وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو ؟ ! بل كل ذلك غير صحيح ولا مقبول ؛ لأنه وقع على غير المطلوب .

والله أعلم .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى : "واتبعوا الشهواتِ" هو من بنى (المشيد) وركب المنظور ، ولبس المشهور .

قلت : الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه .

وفي الصحيح : " حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات " وما ذكر عن علي رضي الله عنه جزء من هذا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ قال ابن زيد : شراً أو ضلالاً أو خيبة ، قال :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . .

ومن يَغْوَ لا يعدمْ على الغَيِّ لائما

وقال عبد الله بن مسعود : هو وادٍ في جهنم .

والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون هذا الغيّ ؛ كما قال جل ذكره : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] .

والأظهر أن الغيّ اسم للوادي سمي به لأن الغاوين يصيرون إليه .

قال كعب : يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر ، ثم قرأ الآية ﴿ فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ أي هلاكاً وضلالاً في جهنم .

وعنه : غيٌّ واد في جهنم أبعدها قعراً ؛ وأشدّها حراً ، فيه بئر يسمى البهيم ، كلما خبت جهنم فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم .

وقال ابن عباس : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وأن أودية جهنم لتستعيذ من حره ، أعدّ الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصر على الزنى ، ولشارب الخمر المدمن عليه ، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً ليس منه .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ أي من تضييع الصلاة واتباع الشهوات ، فرجع إلى طاعة ربه .

﴿ وَآمَنَ ﴾ به ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ .

قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر "يُدْخَلُون" بفتح الخاء .

وفتح الياء الباقون .

﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء ، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبعمائة .

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ بدلاً من الجنة فانتصبت .

قال أبو إسحاق الزجاج : ويجوز "جَنَّاتُ عَدْنٍ" على الابتداء .

قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان "جَنَّةَ عدنٍ" لأن قبله ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ .

﴿ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ أي من عبده وحفظ عهده بالغيب .

وقيل : آمنوا بالجنة ولم يروها .

﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ "مأتيا" مفعول من الإتيان .

وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه ؛ تقول : أتت عليّ ستون سنة وأتيت على ستين سنة .

ووصل إليّ من فلان خير ووصلت منه إلى خير .

وقال القتبي : "مأتيا" بمعنى آتٍ فهو مفعول بمعنى فاعل .

و"مأتيا" مهموز لأنه من أتى يأتي .

ومن خفف الهمزة جعلها ألفاً .

وقال الطبري : الوعد هاهنا الموعود وهو الجنة ؛ أي يأتيها أولياؤه .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ أي في الجنة .

واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به .

ومنه الحديث : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت " ويروى "لغيت" وهي لغة أبي هريرة ؛ كما قال الشاعر :

وَرَبِّ أَسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ . . .

عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

قال ابن عباس : اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى ؛ أي كلامهم في الجنة حمد الله وتسبيحه .

﴿ إِلاَّ سَلاَماً ﴾ أي لكن يسمعون سلاماً فهو من الاستثناء المنقطع ، يعني سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملك عليهم ، قاله مقاتل وغيره .

والسلام اسم جامع للخير ؛ والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ أي لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ؛ أي في قدر هذين الوقتين ؛ إذ لا بكرة ثَمَّ ولا عشياً ؛ كقوله تعالى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12] أي قدر شهر ؛ قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما .

وقيل : عرّفهم اعتدال أحوال أهل الجنة ؛ وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرة وعشيا .

قال يحيى بن أبي كثير وقتادة : كانت العرب في زمانها من وجد غداء وعشاء معاً فذلك هو الناعم ؛ فنزلت .

وقيل : أي رزقهم فيها غير منقطع ، كما قال : " لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ " وهو كما تقول : أنا أصبح وأمسي في ذكرك .

أي ذكري لك دائم .

ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم ، والعشي بعد فراغهم من لذاتهم ؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال .

وهذا يرجع إلى القول الأوّل .

وروى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن أبي أويس قال : قال مالك بن أنس : طعام المؤمنين في اليوم مرتان ، وتلا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ ثم قال : وعوّض الله عز وجل المؤمنين في الصيام السحور بدلاً من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم .

وقيل : إنما ذكر ذلك لأن صفة الغداء وهيئته غير صفة العشاء وهيئته ؛ وهذا لا يعرفه إلا الملوك .

وكذلك يكون في الجنة رزق الغداء غير رزق العشاء تتلون عليهم النعم ليزدادوا تنعماً وغبطة .

وخرج الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" من حديث أبان عن الحسن وأبي قِلابة قالا : "

قال رجل : يا رسول الله هل في الجنة من ليل ؟ قال : "وما هيّجك على هذا" قال : سمعت الله تعالى يذكر في الكتاب ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فقلت : الليل بين البكرة والعشي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يردُّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ وتأتيهم طُرَف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة" " وهذا في غاية البيان لمعنى الآية ، وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" .

وقال العلماء : ليس في الجنة ليل ولا نهار ، وإنما هم في نور أبداً ؛ إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب .

ذكره أبو الفرج الجوزيّ والمهدويّ وغيرهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(28/489)

وقال أبو حيان :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾

نزل ﴿ فخلف ﴾ في اليهود عن ابن عباس ومقاتل ، وفيهم وفي النصارى عن السدي ، وفي قوم من أمّة الرسول يأتون عند ذهاب صالحيها يتبارزون بالزنا ينزو في الأزقة بعضهم على بعض عن مجاهد وقتادة وعطاء ومحمد بن كعب القرظي .

وعن وهب : هم شرّا بو القهوة ، وتقدم الكلام على ﴿ خلف ﴾ في الأعراف ، وإضاعة الصلاة تأخيرها عن وقتها قاله ابن مسعود والنخعي والقاسم بن مخيمرة ومجاهد وإبراهيم وعمر بن عبد العزيز .

وقال القرظي واختاره الزجّاج : إضاعتها الإخلال بشروطها .

وقيل : إقامتها في غير الجماعات .

وقيل : عدم اعتقاد وجوبها .

وقيل : تعطيل المساجد والاشتغال بالصنائع .

والاسباب ، و ﴿ الشهوات ﴾ عام في كل مشتهى يشغل عن الصلاة وذكر الله .

وعن عليّ من بني الشديد وركب المنظور ولبس المشهور .

وقرأ عبد الله والحسن وأبو رزين العقيلي والضحاك وابن مقسم الصلوات جمعاً .

والغيّ عند العرب كل شر ، والرشاد كل خير .

قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . .

ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

وقال الزجاج : هو على حذف مضاف أي جزاء غي كقوله ﴿ يلق أثاماً ﴾ أي مجازة آثام .

وقال ابن زيد : الغي الخسران والحصول في الورطات .

وقال عبد الله بن عمرو وابن مسعود وكعب : غيّ واد في جهنم .

وقال ابن زيد : ضلال .

وقال الزمخشري : أو ﴿ غياً ﴾ عن طريق الجنة .

وحكى الكرماني : آبار في جهنم يسيل إليها الصديد والقيح .

وقيل : هلاك .

وقيل : شر .

وقرىء فيما حكى الأخفش ﴿ يلقون ﴾ بضم الياء وفتح اللام وشد القاف .

﴿ إلا من تاب ﴾ استثناء ظاهره الاتصال .

وقال الزجاج : منقطع ﴿ وآمن ﴾ هذا يدل على أن تلك الإضاعة كفر ، وقرأ الحسن ﴿ يدخلون ﴾ مبنياً للفاعل ، وكذا كل ما في القرآن من ﴿ يدخلون ﴾ .

وقرأ كذلك هنا الزهري وحميد وشيبة والأعمش وابن أبي ليلى وابن مناذر وابن سعدان .

(29/489)

وقرأ ابن غزوان عن طلحة : سيدخلون بسين الاستقبال مبنياً للفاعل .

وقرأ الجمهور جنات نصباً جمعاً بدلاً من ﴿ الجنة ﴾ ﴿ ولا يظلمون شيئاً ﴾ اعتراض أو حال .

وقرأ الحسن وأبو حيوة وعيسى بن عمر والأعمش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو ﴿ جنات ﴾ رفعاً جمعاً أي تلك جنات وقال الزمخشري الرفع على الابتداء انتهى يعني والخبر ﴿ التي ﴾ .

وقرأ الحسن بن حي وعليّ بن صالح جنة عدن نصباً مفرداً ورويت عن الأعمش وهي كذلك في مصحف عبد الله .

وقرأ اليماني والحسن وإسحاق الأزرق عن حمزة جنة رفعاً مفرداً و ﴿ عدن ﴾ إن كان علماً شخصياً كان التي نعتاً لما أضيف إلى ﴿ عدن ﴾ وإن كان المعنى إقامة كان ﴿ التي ﴾ بدلاً .

وقال الزمخشري : ﴿ عدن ﴾ معرفة علم لمعنى العدن وهو الإقامة ، كما جعلوا فينة وسحر وأمس في من لم يصرفه أعلاماً لمعاني الفينة والسحر والأمس ، فجرى العدن كذلك .

أو هو علم الأرض الجنة لكونه مكان إقامة ، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلاّ موصوفة ، ولما ساغ وصفها بالتي انتهى .

وما ذكره متعقب .

أما دعواه أن عدناً علم لمعنى العدن فيحتاج إلى توقيف وسماع من العرب ، وكذا دعوى العلمية الشخصية فيه .

وأما قوله ولو لا ذلك إلى قوله موصوفة فليس مذهب البصريين لأن مذهبهم جواز إبدال النكرة من المعرفة وإن لم تكن موصوفة ، وإنما ذلك شيء قاله البغداديون وهم محجوجون بالسماع علم ما بيناه في كتبنا في النحو ، فملازمته فاسدة .

وأما قوله : ولما ساغ وصفها بالتي فلا يتعين كون التي صفة ، وقد ذكرنا أنه يجوز إعرابه بدلاً و ﴿ بالغيب ﴾ حال أي وعدها وهي غائبة عنهم أو وهم غائبون عنها لا يشاهدونها ، ويحتمل أن تكون الباء للسبب أي بتصديق الغيب والإيمان به .

وقال أبو مسلم : المراد الذين يكونون عباداً بالغيب أي الذين يعبدونه في السر ، والظاهر أن ﴿ وعده ﴾ مصدر .

فقيل : ﴿ مأتياً ﴾ بمعنى آتياً .

وقيل : هو على موضوعه من أنه اسم المفعول .

(30/489)

وقال الزمخشري : ﴿ مأتياً ﴾ مفعول بمعنى فاعل ، والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها ، أو هو من قولك أتى إليه إحساناً أي كان وعده مفعولاً منجزاً ، والقول الثاني وهو قوله : والوجه مأخوذ من قول ابن جريج قال : ﴿ وعده ﴾ هنا موعوده وهو الجنة ، و ﴿ مأتياً ﴾ يأتيه أولياؤه انتهى .

﴿ إلا سلاماً ﴾ استثناء منقطع وهو قول الملائكة ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ وقيل : يسلم الله عليهم عند دخولها .

ومعنى ﴿ بكرة وعشياً ﴾ يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم والليلة من الزمن .

وقال مجاهد : لا بكرة ولا عشي ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا .

وقد ذكر نحوه قتادة أن تكون مخاطبة بما تعرف العرب في رفاهة العيش .

وقال الحسن : خوطبوا على ما كانت العرب تعلم من أفضل العيش ، وذلك أن كثيراً من العرب إنما كان يجد الطعام المرة في اليوم ، وكان عيش أكثرهم من شجر البرية ومن الحيوان .

وقال الزمخشري : اللغو فضول الكلام وما لا طائل تحته ، وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها .

وما أحسن قوله ﴿ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً ﴾ ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ الآية أي أن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم ﴿ لغواً ﴾ فلا يسمعون لغواً إلاّ ذلك فهو من وادي قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

أو ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ إلاّ قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة على الاستثناء المنقطع ، أو لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ، ودار السلام هي دار السلامة وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء .

فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الكلام .

وقال أيضاً : ولا يكون ثم ليل ولا نهار ولكن على التقدير .

ولأن المتنعم عند العرب من وجد غداءً وعشاءً .

وقيل : أراد دوام الرزق ودروره كما تقول : أنا عند فلان صباحاً ومساءً وبكرةً وعشياً ، ولا يقصد الوقتين المعلومين انتهى . انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

يقال : لعَقِب الخير خلفٌ بفتح اللام ولعقِب الشرِّ خلْفٌ بالسكون أي فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوءٍ ﴿ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ وقرىء الصلواتِ أي تركوها أو أخّروها عن وقتها ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ من شرب الخمر واستحلالِ نكاحِ الأختِ من الأب والانهماكِ في فنون المعاصي . وعن علي رضي الله عنه عندهم مِنْ بناء المشيَّد وركوبِ المنظور ولُبس المشهور ﴿ فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ أي شراً فإن كلَّ شر عند العرب غيٌّ وكل خير رشادٌ كقوله

فمن يلقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمرَه . . . ومن يغْوِ لا يعدَمْ على الغي لائما

وعن الضحاك جزاءَ غيٍ كقوله تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ أو غياً عن طريق الجنة ، وقيل : " غَيٌّ وادٍ في جهنمَ تستعيذ منه أوديتُها " وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يدل على أن الآيةَ في حق الكفرة ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بما في حيز الصلة ، وما فيه من معنى البُعد لما مرّ مراراً ، أي فأولئك المنعوتون بالتوبة والإيمانِ والعمل الصالح ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ بموجب الوعدِ المحتوم وقرىء يُدْخَلون على البناء للمفعول .

﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ أي لا يُنقَصون من جزاء أعمالِهم شيئاً ، أو لا ينقصون شيئاً من النقص ، وفيه تنبيهٌ على أن كفرَهم السابقَ لا يضرهم ولا ينقُص أجورَهم .

(32/489)

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدلٌ من الجنةَ بدلَ البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراضٌ أو نصبٌ على المدح ، وقرىء بالرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هي أو تلك جنات الخ . أو مبتدأ خبرُه التي وعد الخ ، وقرىء جنة عدْنَ نصباً ورفعاً ، وعدْنُ علمٌ لمعنى العَدْن وهو الإقامةُ كما أن فيْنةَ وسحرَ وأمسَ فيمن لم يصرِفها أعلامٌ لمعاني الفينةِ وهي الساعة التي أنت فيها والسحرِ والأمسِ فجرى لذلك مجرى العدْن ، أو هو علمٌ لأرض الجنة خاصةً ولولا ذلك لما ساغ إبدالُ ما أضيف إليه من الجنة بلا وصفٍ عند غير البصريين ولا صفةٍ بقوله تعالى : ﴿ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ ﴾ وجعلُه بدلاً منه خلافُ الظاهر فإن الموصولَ في حكم المشتقّ وقد نصّوا على أن البدَل بالمشتق ضعيفٌ ، والتعرضُ لعنوان الرحمة للإيذان بأن وعدَها وإنجازَه لكمال سَعةِ رحمته والباء في قوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ متعلقةٌ بمضمر هو حالٌ من المضمر العائدِ إلى الجنات أو من عباده ، أي وعدها إياهم ملتبسةً أو ملتبسين بالغيب ، أي غائبةً عنهم غيرَ حاضرة أو غائبين عنها لا يرَوْنها وإنما

آمنوا بها بمجرد الإخبار ، أو بمضمر هو سببُ الوعدِ أي وعدها إياهم بسبب إيمانِهم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ أي موعدُه كائناً ما كان فيدخل فيه الجناتُ الموعودةُ دخولاً أولياً ، ولما كانت هي مثابةً يُرجَع إليها قيل : ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ أي يأتيه مَنْ وُعِد له لا محالة بغير خُلْف ، وقيل : هو مفعولٌ بمعنى فاعل ، وقيل : مأتياً أي مفعولاً مُنجَزاً من أتى إليه إحساناً أي فعَله .

(33/489)

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ أي فضولَ كلامٍ لا طائلَ تحته وهو كنايةٌ عن عدم صدورِ اللغو من أهلها ، وفيه تنبيهٌ على أن اللغوَ مما ينبغي أن يُجتنَب عنه في هذه الدارِ ما أمكن ﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ استثناءٌ منقطِعٌ أي لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم أو تسليمَ بعضهم على بعض ، أو متصلٌ بطريق التعليقِ بالمُحال أي لا يسمعون لغواً ما إلا سلاماً فحيث استحال كونُ السلامِ لغواً استحال سماعُهم له بالكلية كما في قوله

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم . . . بهنّ فُلولٌ من قراع الكتائبِ

أو على أن معناه الدعاءُ بالسلامة وهم أغنياءُ عنه فهو من باب اللغو ظاهراً وإنما فائدتُه الإكرامُ وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ واردٌ على عادة المتنعّمين في

هذه الدار ، وقيل : المرادُ دوامُ رزقِهم ودُرورُه وإلا فليس فيها بكرةٌ ولا عشيٌّ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(34/489)

وقال الآلوسي :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

أي جاء بعدهم عقب سوء فإن المشهور في الخلف ساكن اللام ذلك والمشهور في مفتوح اللام ضده ، وقال أبو حاتم : الخلف بالسكون الأولاد الجمع والواحد فيه سواء وبالفتح البدل ولداً كان أو غيره ، وقال النضر بن شميل : الخلف بالتحريك والإسكان القرن السوء أما الصالح فالتحريك لا غير ، وقال ابن جرير : أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام وفي الذم بتسكينها وقد يعكس ، وعلى استعمال المفتوح في الذم جاء قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . .

وبقيت في خلف كجلد الأجرب

﴿ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ ﴾ وقرأ عبد الله .

والحسن .

وأبو رزين العقيلي .

والضحاك .

وابن مقسم ﴿ الصلوات ﴾ بالجمع وهو ظاهر ، ولعل الأفراد للاتفاق في النوع ، وإضاعتها على ما روي عن ابن مسعود .

والنخعي .

والقاسم بن مخيمرة .

ومجاهد .

وإبراهيم .

وعمر بن عبد العزيز تأخيرها عن وقتها ، وروى ذلك الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ، واختار الزجاج أن إضاعتها الاختلال بشروطها من الوقت وغيره ، وقيل : إقامتها في غير جماعة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أن إضاعتها تركها ، وقيل : عدم اعتقاد وجوبها ، وعلى هذا الآية في الكفار وعلى ما قبله لا قطع ، واستظهر أنها عليه في قوم مسلمين بناءً على أن الكفار غير مكلفين بالفروع إلا أن يقال : المراد أن من شأنهم ذلك فتدبر ، وعلى ما قبلهما في قوم مسلمين قولاً واحداً .

والمشهور عن ابن عباس .

ومقاتل أنها في اليهود ، وعن السدي أنها فيهم وفي النصارى ، واختير كونها في الكفرة

مطلقاً لما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً وعليه بني حسن موقع حكاية قول جبريل عليه السلام الآتي ، وكونها في قوم مسلمين من هذه الأمة مروى عن مجاهد .

وقتادة .

وعطاء .

(35/489)

وغيرهم قالوا : إنهم يأتون عند ذهاب الصالحين يتبادرون بالزنا ينزو بعضهم على بعض في الأزقة كالأنعام لا يستحيون من الناس ولا يخافون من الله تعالى : ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ وانهمكوا في المعاصي المختلفة الأنواع ، وفي "البحر" ﴿ الشهوات ﴾ عام في كل مشتهى يشغل عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى ، وعد بعضهم من ذلك نكاح الأخت من الأب وهو على القول بأن الآية فيما يعم اليهود لأن من مذهبهم فيما قيل ذلك وليس بحق .

والذي صح عنهم أنهم يجوزون نكاح بنت الأخ وبنت الأخت ونحوهما ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه من بني المشيد وركب المنظور ولبس المشهور ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ أخرج ابن جرير .

والطبراني .

وغيرهما من حديث أبي أمامة مرفوعاً أنه نهر في أسفل جهنم يسيل فيه صديد أهل النار وفيه لو أن صخرة زنة عشر عشراوات قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ثم تنتهي إلى غي وأثام ، ويعلم منه سر التعبير بسوف يلقون .

وأخرج جماعة من طرق عن ابن مسعود أنه قال : الغي نهر أو واد في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات ، وحكى الكرماني أنه آبار في جهنم يسيل إليها الصديد والقيح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن الغي السوء ، ومن ذلك قول مرقش الأصغر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . .

ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

وعن ابن زيد أنه الضلال وهو المعنى المشهور ، وعليه قيل المراد جزاء غي .

وروي ذلك عن الضحاك واختاره الزجاج ، وقيل : المراد غياً عن طريق الجنة .

وقرىء فيما حكى الأخفش ﴿ يُلْقُون ﴾ بضم الياء وفتح اللام وشد القاف .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾

استثناء منقطع عند الزجاج .

وقال في "البحر" : ظاهره الاتصال ، وأيد بذكر الإيمان كون الآية في الكفرة أو عامة لهم ولغيرهم لأن من آمن لا يقال إلا لمن كان كافراً إلا بحسب التغليظ ، وحمل الإيمان على الكامل خلاف الظاهر ، وكذا كون المراد إلا من جمع التوبة والإيمان ، وقيل : المراد من الإيمان الصلاة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [البقرة : 143] ويكون ذكره في مقابلة إضاعة الصلاة وذكر العمل الصالح في مقابلة اتباع الشهوات ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ بموجب الوعد المحتوم ، ولا يخفى ما في ترك التسويف مع ذكر أولئك من اللطف .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

وأبو بكر .

ويعقوب ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ بالبناء للمفعول من أدخل .

وقرأ ابن غزوان عن طلحة "سيدخلون" بسين الاستقبال مبنياً للفاعل ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً أو لا ينقصون شيئاً من النقص ، وفيه تنبيه على أن فعلهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم .

واستدل المعتزلة بالآية على أن العمل شرط دخول الجنة .

وأجيب بأن المراد ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ بلا تسويف بقرينة المقابلة وذلك بتنزيل الزمان السابق على الدخول لحفظهم فيه عما ينال غيرهم منزلة العدم فيكون العمل شرطاً لهذا الدخول لا للدخول مطلقاً ، وأيضاً يجوز أن يكون شرطاً لدخول جنة عدن لا مطلق الجنة ، وقيل هو شرط لعدم نقص شيء من ثواب الأعمال وهو كما ترى ، وقيل غير ذلك .

واعترض بعضهم على القول بالشرطية بأنه يلزم أن لا يكون من تاب وآمن ولم يتمكن من العمل الصالح يدخل الجنة .

وأجيب بأن ذلك من الصور النادرة والأحكام إنما تناط بالأعم الأغلب فتأمل .

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ الجنة ﴾ [مريم : 60] بدل البعض لاشتمالها عليها اشتمال الكل على الجزء بناءً على ما قيل : إن ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ علم لإحدى الجنات الثمان كعلمية بنات أوبر .

(37/489)

وقيل : إن العلم هو جنة عدن إلا أنه أقيم الجزء الثاني بعد حذف الأول مقام المجموع كما في شهر رمضان فكان الأصل جنات جنة عدن .

والذي حسن هذه الإقامة أن المعتبر علميته في المنقول الإضافي هو الجزء الثاني حتى كأنه

نقل وحده كما قرر في موضعه من كتب النحو المفصلة .

وفي "الكشف" إذا كانت التسمية بالمضاف والمضاف إليه جعلوا المضاف إليه في نحوه مقدر العلمية لأن المعهود في كلامهم في هذا الباب الإضافة إلى الأعلام والكنى فإذا أضافوا إلى غيرها أجروه مجراها كأبي تراب ألا ترى أنهم لا يجوزون إدخال اللام في ابن داية وأبي ترابي ويوجبونه في نحو امرىء القيس وماء السماء كل ذلك نظراً إلى أنه لا يغير من حاله كالعلم إلى آخر ما فيه .

ويدل على ذلك أيضاً منعه من الصرف في بنات أوبر .

وأبي قترة .

وابن داية إلى غير ذلك فجنات عدن على القولين معرفة أما على الأول فللعلمية ، وأما على الثاني فللإضافة المذكورة وإن لم يكن عدن في الأصل علماً ولا معرفة بل هو مصدر عدن بالمكان يعدن ويعدن أقام به .

واعتبار كون عدن قبل التركيب علماً لإحدى الجنات يستدعي أن تكون الإضافة في ﴿ جَنَّةُ عَدْنٍ ﴾ من إضافة الأعم مطلقاً إلى الأخص بناءً على أن المتبادر من الجنة المكان المعروف لا الأشجار ونحوها وهي لا تحسن مطلقاً بل منها حسن كشجر الأراك ومدينة بغداد ومنها قبيح كإنسان زيد ولا فارق بينهما إلا الذوق وهو غير مضبوط .

وجوز أن يكون "عدن" علماً للعدن بمعنى الإقامة كسحر علم للسحر وأمس للأمس وتعريف "جنات" عليه ظاهر أيضاً ، وإنما قالوا ما قالوا تصحيحاً للبدلية لأنه لو لم يعتبر التعريف لزم إبدال النكرة من المعرفة وهو على رأي القائل لا يجوز إلا إذا كانت النكرة موصوفة وللوصفية بقوله تعالى : ﴿ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ ﴾ وجوز أبو حيان اعتبار ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ نكرة على معنى جنات إقامة واستقرار وقال : إن دعوى إن عدنا علم لمعنى العدن يحتاج إلى توقيف وسماع من العرب مع ما في ذلك مما يوهم اقتضاء البناء . وكذا دعوى العلمية الشخصية فيه .

وعدم جواز إبدال النكرة من المعرفة إلا موصوفة شيء قاله البغداديون وهم محجوجون بالسماع .

ومذهب البصريين جواز الإبدال وإن لم تكن النكرة موصوفة "1" وقال أبو علي : يجوز ذلك إذا كان في إبدال النكرة فائدة لا تستفاد من المبدل منه مع أنه لا تتعين البدلية لجواز النصب على المدح ، وكذا لا يتعين كون الموصول صفة لجواز الإبدال اه بأدنى زيادة .

وتعقب إبدال الموصول بأنه في حكم المشتق .

وقد نصوا على أن إبدال المشتق ضعيف .

ولعل أبا حيان لا يسلم ذلك .

ثم إنه جوز كون ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل كل .

وكذا جوز كونه عطف بيان .

وجملة ﴿ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [مريم : 60] على وجهي البدلية .

والعطف اعتراض أو حال .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

وعيسى بن عمر .

والأعمش .

وأحمد بن موسى عن أبي عمرو ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بالرفع ، وخرجه أبو حيان على أنه خبر مبتدأ محذوف أي تلك جنات ، وغيره على أنها مبتدأ والخبر الموصول .

وقرأ الحسن بن حي .

وعلي بن صالح ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بالنصب والإفراد ورويت عن الأعمش وهي كذلك في مصحف عبد الله .

وقرأ اليماني .

والحسن في رواية .

وإسحاق الأزرق عن حمزة ﴿ جَنَّةُ عَدْنٍ ﴾ بالرفع والإفراد والعائد إلى الموصول محذوف أي وعدها الرحمن ، والتعرض لعنوان الرحمة للإيذان بأن وعدها وإنجازه لكما سعة رحمته سبحانه وتعالى ، والباء في قوله عز وجل : ﴿ بالغيب ﴾ للملابسة وهي متعلقة بمضمر هو حال من العائد أو ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أي غائبة عنهم غير حاضرة أو غائبين عنها لا يرونها أو للسببية وهي متعلقة بوعد أي وعدها إياهم بسبب تصديق الغيب الإيمان به ، وقيل : هي صلة ﴿ عِبَادِهِ ﴾ على معنى الذين يعبدونه سبحانه بالغيب أي في السر وهو كما ترى ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الرحمن ، وجوز كون الضمير للشأن ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ أي موعوده سبحانه وهو الجنات كما روي عن ابن جريج أو موعوده كائناً ما كان فيدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً كما قيل ، وجوز إبقاء الوعد على مصدريته وإطلاقه على ما ذكر للمبالغة .

والتعبير بكان للإيذان بتحقق الوقوع أي كان ذلك ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ أي يأتيه من وعد له لا محالة ، وقيل : ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ مفعول بمعنى فاعل أي آتيا ، وقيل : هو مفعول من أتى إليه إحساناً أي فعل به ما يعد إحساناً وجميلاً والوعد على ظاهره .

ومعنى كونه مفعولاً كونه منجزاً لأن فعل الوعد بعد صدوره وإيجاده إنما هو تنجيزه أي إنه كان وعده عباده منجزاً .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾

فضول كلام لا طائل تحته بل هو جار مجرى اللغاء وهو صوت العصافير ونحوها من الطير .

(40/489)

والكلام كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها ، وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغي أن يجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن ، وعن مجاهد تفسير اللغو بالكلام المشتمل على السب ، والمراد لا يتسابون والتعميم أولى ﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ استثناء منقطع ، والسلام إما بمعناه المعروف أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم السلام عليهم أو تسليم بعضهم على بعض أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص أي لكن يسمعون كلاماً سالماً من العيب والنقص ، وجوز أن يكون متصلاً وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفي سماع اللغو بالطريق البرهاني الأقوى .

والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير ولولا ذلك لم يقع موقعه من الحسن والمبالغة ، وقيل : اتصال الاستثناء على أن معنى السلام الدعاء بالسلامة من الآفات وحيث أن

أهل الجنة أغنياء عن ذلك إذ لا آفة فيها كان السلام لغواً بحسب الظاهر وإن لم يكن كذلك نظراً للمقصود منه وهو الإكرام وأظهار التحابب ، ولذا كان لائقاً بأهل الجنة .

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ وارد على عادة المتنعمين في هذه الدار ، أخرج ابن المنذر عن يحيى بن كثير قال : كانت العرب في زمانها إنما لها أكلة واحدة فمن أصاب أكلتين سمي فلان الناعم فأنزل الله تعالى هذا يرغب عباده فيما عنده ، وروي نحو ذلك عن الحسن ، وقيل : المراد دوام رزقهم ودروره وإلا فليس في الجنة بكرة ولا عشي لكن جاء في بعض الآثار أن أهل الجنة يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب ، وأخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" من طريق أبان عن الحسن .

(41/489)

وأبي قلابة قالا : " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هل في الجنة من ليل ؟ قال : وما هيجك على هذا ؟ قال : سمعت الله تعالى يذكر في الكتاب ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فقلت : الليلة من البكرة والعشي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرواح

على الغدو وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة عليهم السلام" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 16 صـ ﴾

(42/489)

وقال القاسمي :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾

وقرئ الصلوات بالجمع أي : المتضمنة للسجود والأذكار ، المستدعية للبكاء . وإذا أضاعوها ، فهم لما سواها من الواجبات أضيع . لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد : ﴿ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ أي : فأتوا بما ينافي البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال ، من الانهماك في المعاصي التي هي بريد الكفر : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ أي : شرّاً . قال الزمخشريّ : كل شر عند العرب غيّ ، وكل خير رشاد . قال المرقش :

فمن يلقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمرَهُ ومن يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغيّ لائمَا

أي من يفعل خيراً ، يحمد الناس أمره . ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله . وقيل : أراد الشاعر بالخير المال . وبالغي الفقر أي : ومن يفتقر . ومنه القائل :

~والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي . ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

أي الثكل . ويجوز أن يكون المعنى جزاء غيّ . كقوله تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] ، أي : شرّاً وعقاباً . فأطلق عليه كما أطلق الغيّ على مجازاته المسببة عنه ، مجازاً أو : ﴿ غَيّاً ﴾ ضلالاً عن طريق الجنة . فهو بمعناه المشهور .

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾

أي : عن ترك الصلوات واتباع الشهوات : ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ متعلق بمضمر العائد إلى الجنات . أو من عباده أي : وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب . أي : غائبة عنهم غير حاضرة . أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار . أو بمضمر هو سبب للوعد أي : وعدها إياهم بسبب إيمانهم ، أفاده أبو السعود : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ أي : لا يخلفه .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً ﴾

أي : لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته . وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . قال الزمخشري رحمه الله : فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه . حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها . وما أحسن قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ [الفرقان : 72] ، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : 55] ، نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا .

ومعنى : ﴿ إِلَّا سَلاماً ﴾ أي : تسليماً . تسليم الملائكة عليهم ، أو بعضهم على بعض ، على الاستثناء المنقطع كما قال : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً ﴾ [الواقعة : 25 - 26] ، ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 110.112 ﴾

(44/489)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾

الضمير في قوله « من بعدهم » راجع إلى النَّبيين المذكورين في قوله تعالى ﴿ أولئك الذين

أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [مريم : 58] الآية . أي فخلف من بعد أولئك النَّبيين خلف ، أي أولاد سوء . قال القرطبي رحمه الله في تفسير سورة « الأعراف » قال أبو حاتم : الخلف بسمون اللام – : الأولاد ، الواحد والجمع فيه سواء . والخلف – بفتح اللام – البدل ولداً كان أو غريباً . وقال ابن الأعرابي : الخلف – بالفتح – الصالح . والبسكون : الطالح . قال البيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ومنه قيل للرديء من الكالم : خلف . ومنه المثل السائر « سمت ألفاً ونطق خلفاً » .

فخلف في الذم بالإسكان ، وخلف بالفتح في المدح . هذا هو المستعمل المشهور . قال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » وقد يستعمل كل و كل واحد منهما موضع الآخر . قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا . . . لأولنا في طاعة الله تابع

وقال آخر :

إنا وجدنا خلفاً بئس الخلف . . . أغلق بابه ثم حلف

لا يدخل البواب إلا من عرف . . . عبداً إذا ما ناء بالجمل وقف

ويروى خضف ، اي درم – انتهى منه . والردم : الضراط .

ومعنى الآية الكريمة : أن هذا الخلف الشيىء الذي خلف من بعد أولئك النَّبيين الكران كان من صفاتهم القبيحة : أنهم أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات . واختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة ، فقال بعضهم : المراد بإضاعتها تأخيرها عن وقتها . وممن يروى عنه هذا القول ابن مسعود ، والنخعي ، والقاسم بن مخيمرة ، ومجاهد ، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية : إن هذا القول هو الصحيح . وقال بعضهم : إضاعتها الإخلال بشروطها ، وممن اختار هذا القول الزجاج ، وقال بعضهم : المراد بإضاعتها حجد وجوبها . ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي ، وقيل : إضاعتها في غير الجماعات . وقيل : إضاعتها تعطيل المساجد ، والاشتغال بالصنائع والأسباب .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وكل هذه الأقوال تدخل في الآية . لأن تأخيرها عن وقتها ، وعدم إقامتها في الجماعة ، والإخلال بشروطها ، حجد وجوبها ، وتعطيل المساجد منها – كل لك إضاعة لها ، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت ، واختلف العلماء أيضاً في الخلف المذكورين من هم ؟ فقيل : هو اليهود . ويروى عن ابن عباس ومقاتل . وقيل : هو اليهود والنصارى ، ويروى عن السدي . وقيل : هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم

يأتون عند ذهاب الصالحين منها ، يركب بعضهم بعضا في الأزقة زنى . ويروى عن مجاهد وعطاء وقتادة ومحمد بن كعب القرظي .

(46/489)

وقيل : إنهم أهل الغرب . وفيهم أقوال أخر .

قال مقيدة عفا الله عنه : وكونهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليس بوجيه عندي . لأن قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ صيغة تدل على الوقوع في الزن الماضي ، ولا يمكن صرفها إلى المستقبل إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما ترى . والظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكافر الذين خلفوا أنبياءهم وصالحيهم قبل نزول الآية ، فاضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية ، واتباع الشهوات المذكور في الآية عام في اتباع كل مشتهى يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة ، وعن علي رضي الله عنه : من بنى المشيد ، وركب المنظور ، ولبس المشهور – فهو ممن اتبع الشهوات .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ .

اعلم أولاً أن العرب تطلق على كل شر . والرشاد على كل خير . قال المرقش الأصغر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . . ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

(47/489)

فقوله « ومن يغو » يهني ومن يقع في شر . والإطلاق المشهور هو أن الغي الضلال . وفي المراد بقوله « غيا » في الآية أقوال متقاربة ، منها – أن الكلام على حذف مضاف ، اي فسوف يلقون جزاء غي ، ولا شك أنه سيلقون جزاء ضلالتهم . وممن قال بهذا القول : الزجاج . ونظير هذا التفسير قوله تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] عند من يقول إن معناه يلق مجازاة أثامه في الدنيا ، ويشبه هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] ، وقوله : ﴿ أولئك مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النار ﴾ [البقرة : 174] . فأطلق النار على ما أكلوا في بطونهم في الدنيا من المال الحرام لأنها جزاؤه . كما أطلق الغي والأثام على العذاب لأنه جزاؤهما . ومنها – أن الغي في الآية الخسران والحصول في الورطات . وممن روي عنه هذا القول : ابن عباس ، وابن زيد . وروي عن ابن زيد أيضاً « غياً » اش شراً أو ضلالاً أو خيبة . وقال بعضهم : إن المراد بقوله « غيا » في الآية : واد في جهنم من قيح ، لأنه يسيل فيه قيح أهل الناء وصديدهم ، وهو بعيد القعر خبيث

الطعم . وممن قال بهذا ابن مسعود ، والبراء بن عازب . وروي عن عائشة ، وشفي بن ماتع .

وجاء حديث مرفوع بمقتضى هذا القول من حديث أبي أمامة وابن عباس فيه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن غياً واد في جهنم » كما في حديث ابن عباس . وفي حديث أبي أمامة : أن غيا ، وأثاما : نهران في أسفل جهنم ، يسييل فيهما صديد أهل النار . والظاهر أنه لم يصح في ذلك شيء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية حديث ابي أمامة صدي بن عجلان الباهلي الذي أشرنا له آنفاً ، ثم قال : هذا حديث غريب ورفعه منكر .

(48/489)

وقيل : إن معنى فسوف يلقون غياً أي ضلالاً في الآخرة عن طريق الجنة ، ذكره الزمخشري . وفيه أقوال أخر ، ومدار جميع الأقوال في ذلك على شيء واحدن وهو : أن أولئك الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات سوف يلقون يوم القيامة عذاباً عظيماً .

فإذا عرفت كلام العلماء في هذه الآية الكريمة ، وأن الله تعالى توعد من أضاع الصلاة واتبع الشهوات بالغي الذي هو الشر العظيم والعذاب الأليم .

فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في ذم الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتهديدهم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الذين هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ [الماعون : 4-7] ، وقوله في ذم المنافقين : ﴿ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 142] ، وقوله فيهم أيضاً : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة : 54] . وأشار في مواضع كثيرة إلى ذك الذين يتبعون الشهوات وتهديدهم ، كقوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : 12] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 47] إلى غير ذلك من الآيات . ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة : أن الخلف الطيبين لا يضيعون الصلاة ، ولا يتبعون الشهوات ، وقد اشار تعالى إلى هذا في مواضع من كتابه . كقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 1-2] - إلى قوله - ﴿ والذين

هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أولئك هُمُ الوارثون الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 9-11] ، إلى عير ذلك من الآيات . وكقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 40-41] إلى غير ذلك من

(50/489)

الآيات .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة :

المسالة الأولى – أجمع العلماء على أن تارك الصلاة ، الجاحد لوجوبها كافر ، وأنه يقتل كفراً ما لم يتب . والظاهر أنت ترك ما لا تصح الصلاو دونه كالوضوء وغسل الجنابة كتركها . وجحد وجوبه كجحد وجوبها .

المسالة الثانية – اختلف العلماء في تارك صلاة عمداً تهاوناً وتكاسلاً مع اعترافه بوجوبها ، هل هو كافر أو مسلم . وهل يقتل كفراً أو حداً أو لا يقتل . فذهب بعض أهل العلم إلى أنه كافر مرتد يستتاب ، فإن تاب فذلك . وإن لم يتب قتل كفراً . وممن قال بهذا : الإمام أحمد رحمه الله في أصح الوايتين . وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وبه قال ابن

المبارك ، وإسحاق بن راهوية ، ومنصور الفقيه من الشافعية . ويروى أيضاً عن أبي الطيب بن سلمة من الشافعية .

(51/489)

وهو رواية ضعيفة عن مالك . واحتج أهل هذا القول بأدلة ، منها قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [التوبة : 11] الآيو . ويفهم من مفهوم الآية : انهم إن لم يقيموا الصلاة لم يكونوا من إخوان المؤمنين ، ومن انتفت عنهم إخوة المؤمنين فهم من الكافرين ، لأن الله يقوله : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] الآية . ومنها حديث جابر الثابت في صحيح مسلم عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من طريقين . لفظ المتن في الأولى منهما : سمعت النّبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » ولفظ المتن في الأخرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » – انتهى منه . وهو واضح في أن تارك الصلاة كافر ، لأن عطف الشرك على الكفر فيه تأكيد قوي لكونه كافراً . ومنها حديث أم سلمة ، وحديث عوف بن مالك الآتيين الدالين على قتال الأمراء إذا لم يصلوا ، وهما في صحيح مسلم مع حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه قال : بايعنا رسول الله

على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا ، وإلا ننازع الأمر أهله . قال : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » فدل مجموع الأحاديث المذكورة أن ترك الصلاة كفر بواح عليه من الله برهان . وقد قدمنا هذه الأحاديث المذكورة في سورة « البقرة » . وهذا من أقوى أدلة أهل هذا القول . ومنها حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » أخرجه الإمام أحمد ، وأصحاب السنن ، وابن حبان والحاكم . وقال الشوكاني في (نيل الأوطار) في هذا الحديث : صححه النسائي ، والعراقي . وقال النووي في شرح (المهذب) : رواه الترمذي والنسائي ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وقال

(52/489)

الحاكم في المستدرك بعد أن ساق هذا الحديث بإسناده : هذا حديث صحيح الإسناد ، لا تعرف له علة بوجه من الوجوه . فقد احتجا جميعاً بعبد الله بن بريدة عن أبيه . واحتج مسلم بالحسين بن واقد ، ولم يخرجاه بهذا اللفظ . ولهذا الحديث شاهد صحيح على شرطهما جميعاً . أخبرنا أحد بن سهل الفقيه ببخارى ، حدثنا قيس بن أنيف ، حدثنا

قتيبة بن سعيد ، حدثنا بشر بن المفضل ، عن الجريري عن عبد الله بن شقيق ، عن أبي هريرة قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة . وأقره الذهبي على تصحيحه لحديث بريدة المذكور . وقال في أثر ابن شقيق عن أبي هريرة المذكور : لم يتكلم عليه وإسناده صالح .

قال مقيده عفا الله عنه : والظاهر أن قوله الحافظ الذهبي رحمه الله « لم يتكلم عليه » سهو منه ، لأنه تكلم عليه في كلامه على حديث بريدة المذكور آنفاً ، حيث قال : ولهذا الحديث شاهد صحيح على شرطهما جميعاً .

(53/489)

يعني اثر ابن شقيق المذكور كما ترى . وقال النووي في شرح المهذب : وعن عبد الله بن شقيق العقيلي التابعي المتفق على جلالته : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة . رواه الترمذي في كتاب الإيمان بإسناد صحيح – اه منه ، وقد ذكر النووي رحمه الله في كلامه هذا الاتفاق على جلالة ابن شقيق المذكور مع أن فيه نصباً . وقال المجد في المنتقى : وعن عبد الله بن شقيق العقيلي كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخره . ثم قال : رواه الترمذي اه ، ولا يخفى

عليك أن رواية الحاكم فيها أبو هريرة ورواية الترمذي ليس فيها أبو هريرة . وديث بريدة بن الحصيب ، وأثر ابن شقيق المذكور أن فيها الدلالة الواضحة على أن ترك الصلاة عمداً تهاوناً كفر ولو أقر تاركها بوجوبها . وبذلك يعتضد حديث جابر المذكور عند مسلم .

ومن الأدلة الدالة على أن ترك الصلاة كفر – ما رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عبد الله بن عمر بن العاص عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة . ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفروعون وهامان وأبي بن خلف » اه . وهذا الحديث أوضح دلالة على كفر تارك الصلاة ، لأن انتفاء النور والبرهان والنجاة ، والكينونة مع فروعون وهامان وقاورن وابي بن خلف يوم القيامة اوضح دليل على الكفر كما ترى . وقال الخيثمي في (مجمع الزوائد) في هذه الحديث : رواه احمد والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال أحمد ثقات اه . وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا ، منها ما هو ضعيف ، ومنها ما هو صالح للاحتجاج ، وذكر طرفاً منها الهيثمي في مجمع الزوائد . وفيما ذكرناه كفاية .

(54/489)

وذهبت جماعة من أهل العلم إلى تارك الصلاة عمداً تهاوناً وتكالاً غذا كان معترفاً بوجوبها غير كافر ، وأنه يقتل حداً كالزاني المحصن لا كفراً . وهذا هو مذهب مالك وأصحابه ، وهو مذهب الشافعي وجمهور أصحابهن وعزاه النووي في شرح المهذب للأكثرين من السلف والخلف ، وقال في شرح مسلم : ذهب مالك والشافعي رحمهما الله تعالى والجماهير من السلف والخلف – غلى أنه لا يكفر بلا يفسق ويستتاب . فإن تاب وإلا قتلناه حداً كالزاني المحصن ولكنه يقتل بالسيف اه .

واعلم أن هذا القول يحتاج إلى الدليل من جهتين وهما عدم كفره ، وأنه يقتل .

(55/489)

وهذه أدلتهم على الأمرين معاً . أما أدلتهم على أنه يقتل :

فمنها قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : 5]

فإن الله تعالى في هذه الاية اشترط في تخلية سبيلهم إقامتهم الصلاة . ويفهم من مفهوم الشرط أنهم إن لم يقيموها لم يخل سبيلهم وهو كذلك .

(ومنها) ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا

الزكانة . فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » اه .

فهذا الحديث الصحيح يدل على أنهم لا تعصم دماؤهم ولا أموالهم إلا بإقامة الصلاة كما ترى .

(ومنها) ما أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بعث علي رضي الله عنه هو باليمن إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم بذهبية فقسمها بين أربعة . فقال رجل : يا رسول الله ، اتق الله . فقال : « ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ؟ ! » ثم ولى الرجل ، فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه ؟ فقال : « لا ، لعله أن يكون يصلي » فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا اشق بطونهم » مختصر من حديث متفق عليه . فقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح « لا » يعني لا تقتله . وتعليله ذلك بقوله « لعله ان يكون يصلي » فيه الدلالة الواضحة على النهي عن قتل المصلي . ويفهم منه أنه إن لم يصل يقتل ، وهو كذلك .

(56/489)

ومنها ما رواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد اسلم ، ولكم من رضي وتابع » قالوا : يا رسول الله ، ألا نقاتلهم ؟ قال : « لا ما صلوا » هذا هذا لفظ مسلم في صحيحه . و « ما » في قوله « ما صلوا » مصدرية ظرفية . اي لا تقاتلوهم مدة كونهم يصلون . ويفهم منه أنهم غن لم يصلوا قوتلوا ، وهو كذلك ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال في حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان » فحديث أم سلمة هذا ونحو حديث عوف بن مالك الآتي يدل على قتل من لم يصل ، وبضميمة حديث عبادة بن الصامت يُعلم ذلك يظهر الدليل على الكفر بترك الصلاة . لأنه قال في حديث عبادة بن الصامت : « إلا أن تروا كفراً بواحاً .

(57/489)

. « الحديث . وأشار في حديث أم سلمة وعوف بن مالك : إلى أنهم إن تركوا الصلاة قوتلوا . فدل ذلك على أن تركها من الكفر البواح . وهذا من أقوى أدلة أهل القول الأول . وحديث عرف بن مالك المذكور هو ما رواه مسلم في صحيحه عنه عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم بلفظ قال : » خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضوهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم « قيل : يا رسول الله ، أفلا ننابذهم بالسيف ؟ قال : » لا ، ما اقاموا فيكم الصلاة . . « الحديث .

وفيه الدلالة الواضحة على قتالهم إذا لم يقيموا الصلاة كما ترى .

ومن أدلة أهل هذا القول على قتل تارك الصلاة : ما رواه الأئمة الثلاثة : مالك في موطئه ، والشافعي ، وأحمد في مسنديهما ن عن عبيد بن عدي بن الخيار : أن رجلاً من الأنصار حدثه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس يساره يستأذنه في قتل رجل من المنافقين . فجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : » أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ « قال الأنصاري : بلى يا رسول الله ، ولا شهادة له ! قال : » أليس يشهد ان محمداً رسول الله ؟ « قال : بلى ولا شهادة له ! قال : » أليس يصلي ؟ « قال : بلى ولا صلاة له . قال : » أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم « اه . وفي رواية عنهم : هذا هو خلاصة أدلة أهل هذا القول على قتل تارك الصلاة . واعلم أن جمهور من قال بقتله يقولون إنه يقتل بالسيف . وقال بعضهم : يضرب بالخشب حتى يموت . وقال ابن سريج : ينخس بحديدة او يضرب بخشبة ، ويقال له : صل وإلا قتلناك ، ولا يزال يكرر عليه حتى يصلي أو يموت .

واختلفوا في استتابته . فقال بعضهم : يستاب ثلاثة ايام . فإن تاب وإلا قتل . وقال بعضهم : لا يستتاب . لأنه يقتل حدا والحدود لا تسقط بالتوبة . وقال بعضهم : إن لم يبق من الضروري غلا قدر ركعة ولم يصل قتل . وبعضهم يقول : لا يقتل حتى يخرج وقتها .

والجمهور على أنه يقتل صلاة واحدة ، وهو ظاهر الأدلة . وقيل : لا يقتل حتى يترك أكثر من واحدة . وعن الإمام أحمد روايتان : إحداهما أنه لا يقتل حتى يضيق وقت الصلاة الثانية المتروكة مع الأولى . والأخرى لا يقتل حتى يضيق وقت الرابعة .

قال مقيدة عفا الله نه وغفر له : اظهر الأقوال عندي أنه يقتل بالسيف وأنه يستتاب ، للإجماع على قبول توبته إذا تاب . والأظهر أنه يستتاب في الحال ، ولا يمهل ثلاثة أيام وهو يمتنع من الصلاة لظواهر النصوص المذكورةن وأنه لا يقتل حتى لا يبقى من الوقت الضروري ما يسع ركعة بسجدتيها . واللهم عند الله تعالى . وأما أدلة أهل هذ القول على عدم كفرهن فمنها قوهل تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 116] . ومنها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي رواه مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن يحيى بن حبان ، عن ابن محيريز : أن رجلاً من بني كنانة يدعى المخدجي مع رجلاً بالشام يكنى أبا محمد يقول : إن الوتر واجب . فقال المخدجي : فرحت : غلى عبادة بن الصامت فاعترضت له وهو رائح غلى المسجد فأخبرته بالذي قال أبو محمد ، فقال عبادة : كذب أبو محمد ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة . ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخلة الجنة » اه منه بلفظه . وفي سنن ابي داود : حدثنا القعنبي عن مالكن عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن حبان ، غلى آخر الإسناد والمتن كلفظ الموطأ الذي ذكرتا . وفي سنن النسائي : أخبرنا قتيبة عن مالك عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن يحيى بن حبان . إلى آخر الإسناد والمتن كاللفظ المذكور . وفي سنن ابن ماجة : حدثنا محمد بن بشارن ثنا ابن أبي عدي عن شعبة ، عن عبد ربه بن سعيد ، عن محمد بن يحيى بن حبان ، عن ابن محيريز عن المخدجي ، عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس صلوات افتراضهن الله على عباده . . » إلى آخر الحديث المذكور بمعناه قريباً من لفظه . ومعلوم ان رجال هذا الأسانيد ثقات معروفون إلا

المخدجي المذكور وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وبتوثيقه تعلم صحة الحديث المذكور ، وله شواهد يعتضد بها ايضاً . قال أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن حرب الواسطي ، ثنا يزيد يعني ابن هارون ، ثنا محمد بن مطرف ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله الصنابحي قال زعم أبو محمد : أن الوتر واجب . فقال عبادة بن الصامت كذب أبو

(60/489)

محمد ، أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس صلوات افترضهن الله . . » إلى آخر الحديث بمعناه . وعبد الله الصنابحي المذكور قيل إنه صحابي مدني . وقيل : هو عبد الرحمن بن عسيلة المرادي أبو عبد الله الصنابحي ، وهو ثقة من كبار التابعين ، قدم المدينة بعد وفاة النَّبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أيام ، مات في خلافة عبد الملك . وعلى كلا التقديرين فرواية الصنابحي المذكور إما رواية صحابي أو تابعي ثقة ، وبها تعتضد رواية المخدجي المذكور . ورجال سند أبي داود هذا غير عبد الله الصنابحي ثقات ، معروفون لا مطعن فيهم .

(61/489)

وبذلك تعلم صحة حديث عبادة بن الصامت المذكور .

وقال الزرقاني (في شرح الموطأ) : وفيه – يعني حديث عبادة المذكور – ان تارك الصلاة لا يكفر ولا يتحتم عذابه . بل هو تحت المشيئة وبنص الحديث ، وقد أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، من طريق مالك ، وصححه ابن حبان ، والحاكم ، وابن عبد البر . وجاء من وجه آخر عن عبادة بنحوه في أبي داود ، والنسائي ، والبيهقي ، وله شاهد عند محمد بن نصر من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . اه منه .

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله في (نيل الأوطار * : ولهذا الحديث شاهد من حديث أبي قتادة عند ابن ماجه ، ومن حديث كعب بن عجرة عند أحمد ، ورواه أبو داود عن الصنابحي اه ، محل الغرض منه .

وقال النووي (في شرح المهذب) بعد أن ساق حديث عبادة بن الصامت المذكور : هذا حديث صحيح رواه أبو داود وغيره بأسانيد صحيحة . وقال ابن عبد البر : هو حديث صحيح ثابت ، لم يختلف عن مالك فيه . فإن قيل : كيف صححه ابن عبد البر مع أنه قال : إن المخدجي المذكور في سنده جهول ؟ فالجواب عن هذا من جهتين : الأولى – أن صحته من قبيل الشواهد التي ذكرنا ، فإنها تصيره صحيحاً . والثانية – هي ما قدمنا من توثيق ابن حبان المخدجي المذكور . وحديث عبادة المذكور فيه الدلالة الواضحة على أن ترك

الصلاة ليس بكفر ، لأن كونه تحت المشيئة المذكور فيه دليل على عدم الكفر لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 116] .

ومن أدلة هذا القول على تارك الصلاة المقر بوجوبها غير كافر – ما رواه الإمام أحمد واصحاب السنن عن أبي هريرة قالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة ، فإن اتمها وإلا قيل انظروا هل له من تطوع ، فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه . ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك » اه .

(62/489)

وقال الشوكاني رحمه الله في (نيل الأوطار) : الحديث أخرجه أبو داود من ثلاث طرق : طريقين متصلين بابي هريرة . والطريق الثالث متصل بتميم الداري . وكلها لا مطعن فيها ، ولم يتطكلم عليه وهو ولا المنذري بما يوجب ضعفه . وأخرجه النسائي من طريق إسنادها جيد ورجالها رجال الصحيح كما قال العراقي وصححها ابن القطان . واخرج الحديث الحاكم (في المستدرك) وقال : هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وفي الباب عن تميم الداري عند ابي داود وابن ماجه بنحو حديث أبي هريرة ، قال العراقي : وإسناده

صحيح ، وأخرجه الحاكم (في المستدرك) وقال : إسناده صحيح على شرط ميلم اه محل الغرض منه .

ووجه الاستدلال بالحديث المذكور على عدم كفر تارك الصلاة – أن نقصان الصوات المكتوبة وإتمامها من النوافل يتناول بعمومه ترك بعضها عمداً ، كما يقتضيه ظاهر عموم اللفظ كما ترى .

(63/489)

وقال المجد (في المنتقى) بعد أن ساق الأدلة التي ذكرنا على عدم كفر تارك الصلاة المقر بوجوبها عمداً ما نصه : ويعتضد هذا المذهب عمومات ، منها ما روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنه والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » متفق عليه .

وعن انس بن مالك أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال ومعاذ رديفه على الرجل : « يا معاذ » ، قال لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً ، ثم قال : « ما من عبد يشهد إلا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه على النار » قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر بها الناس

فيستبشروا ؟ قال : « إذاً يتكلوا » فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً . اي خوفاً من الإثم بترك الخبر به . متفق عليه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » رواه مسلم . وعنه أيضاً : ان النَّبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » رواه البخاري اه محل الغرض منه .

(64/489)

وقالت جماعة من أهل العلم ، منهم الإمام ابو حنيفة رحمه الله وأصحابه ، وجماعة من أهل الكوفة ، وسفيان الثورين والمزني صاحب الشافعي : إن تارك الصلاة عمداً تكاسلاً وتهاوناً مع إقراره بوجوبها لا يقتل ولا يكفر . بل يعزر ويحبس حتى يصلي واحتجوا على عدم كفره بالأدلة التي ذكرنا آنفاً لأهل القول الثاني . واحتجوا لعدم قتله بأدلة ، منها حديث ابن مسعود المتفق عليه الذي قدمناه في سورة « المائدة » وغيرها : « لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث ، ولم يذكر منها ترك الصلاة . فدل ذلك على أنه غير موجب للقتل . قالوا : والأدلة التي ذكرتم على قتله إنما دلت عليه بمفاهيمها أعني مفاهيم المخالفة كما تقدم

إيضاحه . وحديث ابن مسعود دل على ما ذكرنا بمنطوقه والمنطوق مقدم على المفهوم . مع أن المقرر في أصول الإمام أبي حنيفة رحمه الله : أنه لا يعتبر المفهوم المعروف بدليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة – وعليه فإنه لا يعترف بدللاة الأحاديث المذكورة على قتله . لأنها إنما دلت عليه بمفهوم مخالفتها ، وحديث ابن مسعود دل على ذلك بمنطوقه .

(65/489)

ومنها قياسهم ترك الصلاة على ترك الصوم والحج مثلاً . فإن كل واحد منهما من داعائم الإسلام ولم يقتل تاركها ، فكذلك الصلاة .

أما الذين قالوا بأنه كافر ، وأنه يقتل . فقد أجابوا عن حديث ابن مسعود : بأنه عام يخصص بالأحاديث الدالة على قتل تارك الصلاة . وعن قياسه على تارك الحج والصوم : بأنه فاسد الاعتبار لمخالفته للأحاديث المذكورة الدالة على قتله . وعن الأحاديث الدالة على عدم الكفر : بأن منها ما هو عام يخصص بالأحاديث الدالة على كفره . ومنها ما هو ليس كذلك كحديث عبادة بن الصامت الدال على أنه تحت المشيئة . فالأحاديث الدالة على كفره مقدمة عليهن لأنها أصح منه ، لأن بعضها في صحيح مسلم وفيه التصريح بكفره وشركه .

ومنها حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه ، ومع حديث أم سلمة وعرف بن مالك في صحيح مسلم كما تقدم إيضاحه .

(66/489)

ورد القائلون بأنه غير كافر أدلة مخالفيهم – بأن المراد بالكفر في الأحاديث المذكورة كفر دون كفر . وليس المراد الكفر المخرج عن ملة الإسلام . واحتجوا لهذا بأحاديث كثيره يصرح فيها النَّبي صلى الله عليه وسلم بالكفر ، وليس مراده الخروج عن ملة الإسلام . قال المجد (في المنتقى) : وقد حملوا احاديث التكفير على كفر النعمة ، أو على معنى قد قارب الكفر وقد جاءت أحاديث في غير الصلاة أريد بها ذلك . فروى ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه : وعن أبي ذر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر ، ومن ادعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه . وعن أي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » رواه أحمد ومسلم . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان عمر يحلف « وأبى » فنهاه النَّبي صلى الله عليه وسلم وقال : « من حلف بشيء

دون الله فقد أشرك » رواه أحمد . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن » انتهى منه بلفظه . وأمثاله وأمثاله في السنة كثيرة جداً . ومن ذلك القبيل تسمية الرياء شركاً . ومنه الحديث الصحيح في البخاري وغيره أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت النار فلم ار منظراً كاليوم أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء » قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : « بكفرهن » قيل : يكفرن الله ؟ قال : « يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت ما رايت منك خيراً قط »

(67/489)

هذا لفظ البخاري في بعض المواضع التي أخرج فيها الحديث المذكور . وقد اطلق فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم اسم الكفر عليهن . فلما استفسروه عن ذلك تبين ان مراده غير الكفر المخرج عن ملة الإسلام .

هذا هو حاصل كلام العلماء وأدلتهم في مسالة ترك الصلاة عمداً مع الاعتراف بوجوبها . وأظهر الأقوال أدلة عندي : قول من قال إنه كافر . وأجرى الأقوال على مقتضى الصناعة الأصولية وعلوم الحديث قول الجمهور : إنه كفر غير مخرج عن الملة لوجوب الجمع بين الأدلة

إذا أمكن . وإذا حمل الكفر والشرك المذكوران في الأحاديث على الكفر الذي لا يخرج عن الملة حصل بذلك الجمع بين الأدلة والجمع واجب إذا أمكن . لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما كما هو معلوم في الأصول وعلم الحديث . وقال النووي (في شرح المهذب) بعد أن اق أدلة من قالوا إنه غير كافر ما نصه : ولم يزل المسلمون يورثون تارك الصلاة ويرورثون عنه ولم كان كافراً لم يغفر له ولم يرث ولم يورث .

وأما الجواب عما احتج به من كفره من حديث جابر وبريدة ، ورواية ابن شقيق – فهو أن كل ذلك محمول على أنه شارك الكافر في بعض أحكانه وهو القتل . وهذا التأويل متعين للجمع بين نصوص الشرع وقواعده التي ذكرناها – انتهى محل الغرض منه .

المسألة الثالثة

أجمع العلماء على أن من نسي الصلاة أو نام عنها حتى خرج وقتها يجب عليه قضاؤها .

وقد دلت على ذلك ادلة صحيحة :

(منها) ما رواه الشخان في صحيحيهما عن انس بن مالك رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك » .

(ومنها) ما رواه مسلم عن انس أيضاً مرفوعاً : « إذا رقد احدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكريا ﴾ » .

(ومنها) ما رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها . فإن الله يقول : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكريا ﴾ » .

(ومنها) ما رواه النسائي ، والترمذي وصححه ، عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : ذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم نومهم عن الصلاة ؟ فقال : « إنه ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط في اليقظة ، فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها » .

(ومنها) ما رواه مسلم ، والإمام أحمد ، عن أبي قتادة في قصة نومهم عن صلاة الفجر قال : ثم اذن بلال بالصلاة . فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ، ثم صلى الغداة فصنع كما كان يصنع كل يوم .

(69/489)

(ومنها) ما أخرجه الإمام أحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحهما ، وابن أبي شيبة ، والطبراني وغيرهم ، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : سرينا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم . فلما كان آخر الليل عرسنا فلم نستيقظ حتى أيقظنا حر الشمس ،

فجهل الرجل منا بقولم دهشاً إلى طهوره ، ثم أمر بلالاً فاذن ، ثم صلى الركعتين قبل الفجر ، ثم أقام فصلينا . فقالوا : يا رسول الله ، ألا نعيدها في وقتها الغد ؟ فقال : « أينهاكم ربكم تعالى عن الربا ويقبله منكم » ؟ اه . وأصل حديث عمران هذا في الصحيحين . وليس فيهما ذكر الأذان والإقامة ، ولا قوله : فقالوا يا رسول الله إلا نعيدها إلى آخره .

والحاصل ان قضاء النائم والناسي لا خلاف بين العلماء . وقد دلت عليه الأحاديث التي ذكرنا وأمثالها مما لم نذكره .

المسالة الرابعة

اعلم أن التحقيق أنه يجب تقديم الصلوات الفوائت على الصلاة الحاضر . والدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش . قال يا رسول الله ، ما كدت اصل العصر حتى كادت الشمس تغرب ؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : « والله ما صليتها » فقمنا إلى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها . فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرباه . فهذا الحديث المتفق عليه فيه التصريح بان النَّبي صلى الله عليه وسلم صلى العصر قضاء بعد غروب الشمس وقدمها على المغرب . وهو نص صحيح صريح في تقديم الفائتة على الحاضرة . والمقرر في الأصول : أن أفعال النَّبي صلى الله عليه وسلم المجردة من قرينة الودوب وغيره تحمل على الوجوب ، لعموم النصوص

الواردة بالتاسي به صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله . وللاحتياط في الخروج من عهدة التكليف .

(70/489)

ومن أظهر الأدلة في ذلك أنه لما خلع نعله في الصلاة فخله أصحابه نعالهم تأسياً به صلى الله عليه وسلم قبل ان يعلموا أن جبريل أخبره أن بباطنها أذى ، وسألهم صلى الله عليه وسلم لم خلعوا نعالهم ؟ وأجابوا بأنهم رأوه خلع نعله وهو فعل مجرد من قرائن الوجوب وغيره – أقرهم على ذلك ولم ينكر عليهم . فدل ذلك على لزوم التاسي به في أفعاله المجردة من القرائن . والحديث وإن ضعفه بعضهم بالإرسال فقد رجح بعضهم صله .

والأدلة الكثيرة على وجوب التاسي به صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة شاهدة له . وإلى كون أفعاله صلى الله عليه وسلم المجردة من القرائن تحمل على الوجوب أشار في مراقي السعود في كتاب السنة بقوله :

وكل ما الصفة فيه تجهل . . . فللوجوب في الأصح يجعل

(71/489)

وفي حمله على الوجوب مناقشات معروفة في الأصول . انظرها في (نشر البنود) وغيره .

ويعتضد ما ذكرنا من أن فعله المجرد الذي هو تقديم العصر الفائتة على المغرب الحاضرة يقتضي الوجوب بقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا ما رأيتموني أصلي » وقال الحافظ في (فتح الباري) في استدلال البخاري على تقديم الأولى من الفوائت . فالأولى بفعل النَّبي صلى الله عليه وسلم المذكور ما نصه : ولا ينهض الاستدلال به لمن يقول بترتيب الفوائت ، إلا إذا قلنا : إن أفعال النبي صلى الله عليه وسلم المجردة للوجوب . اللهم إلا أن يستدل له بعموم قوله : « صلوا كما رأيتموني اصلي » .

وقد اعتبر ذلك الشافعية في أشياء غير هذا – انتهى منه .

ونحن نقول : اظهر أن الأفعال المجردة تقتضي الوجوب كما جزم به صاحب المراقي في البيت المذكور ، وكذلك عموم حديث : « صلوا كما رأيتموني أصلي » يقتضي ذلك ايضاً .

والعلم عند الله تعالى

واعلم أنه إن تذك فائتة في وقت حاضرة ضيق . فقج اختلف العلماء : هل يقدم الفائتة وإن خرج وقت الحاضرة أولاً – إلى ثلاثة مذاهب :

الأول – أنه يقدم الفائتة وإن خرج وقت الحاضرة . وهذا هو مذهب مالك وجل أصحابه .

الثاني – أن يبدأ بالحاضرة محافظة على الوقتز وهو مذهب الشافعي وابي حنيفة وأصحابه وأكثر أصحاب الحديث .

الثالث – أنه يخير في تقديم ما شاء منهما . وهو قول أشهب من أصحاب مالك . قال عياض : ومحل الخلاف إذا لم تكثر الصلوات الفوائت . فأما إذا كثرت فلا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة . واختلفوا في حد القليل في ذلك . فيقل صلاة يوم . وقيل أربع صلوات .

المسألة الخامسة

(72/489)

أما ترتيب الفوائت في أنفسها فأكثر أهل العلم على وجوبه مع الذكر لا مع النسيان . وهو الأ؟هرك وقال الشافعي رحمه الله : لا يجب الترتيب فيه بل يندب ؛ وهو مروي عن طاوس ، والحسن البصري ، ومحمد بن الحسن ، وأبي ثور ، وداود . وقال بعض أهل العلم : الترتيب واجب مطلقاً ، قلت الفوائت أم كثرت . وبه قال أحمد وزفر . وعن أحمد رحمه الله : لو نسي الفوائت صحت الصلوات التي صلى بعدها . وقال أحمد وإسحاق : لو ذكر فائتة وهو في حاضرة تم التي هو فيها ثم قضى الفائتة ، ثم يجب غعادة الحاضر . واحتج لهم بحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من نسي

صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليعد الصلاة التي نسي ، ثم ليعد الصلاة التي صلاها مع الإمام » قال النووي في (شرح المهذب) وهذا حديث ضعيف ، ضعفه موسى بن هارون الجمال (بالحاء) الحافظ . وقال أبو زرعة الرازي . ثم البيهقي : الصحيح أنه موقوف .

قال مقيدة عفا الله عنه : والأظهر عندي وجوب ترتيب الفوائت في أنفسها الأولى فالأولى .

(73/489)

والدليل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري ، وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما . قال النسائي في سننه : اخبرنا عمر بن علي قال : حدثنا يحيى قال : حدثنا ابن أبي ذئب قال : حدثنا سعيد بن ابي سعيد ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد ، عن أبيه قال : شغلنا المشركون يوم الخندق عن صلاة الظهر حتى غربت الشمس ، وذلك قبل أن ينزل في القتال ما نزل . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَكَفَى اللهُ المؤمنين القتال ﴾ [الأحزاب : 9] فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً فأقام لصلاة الظهر فصلاها كما كان يصليها لوقتها ، ثم اقام العصر فصلاها كما كان يصليها في وقتها ، ثم أذن للمغرب فصلاها كما كان يصليها في وقتها اه . فهذا الإسناد صحيح كما ترى ، ورجاله ثقات معروفون . فعمرو بن علي هو

أبو حفص الفلاس وهو ثقة حافظ ، ويحيى هو القطان وجلالته معروفة . وكذكلك ابن أبي ذئب جلالته معروفة . وسعيد بن سعيد هو المقبري وهو ثقة . وعبد الرحمن بن ابي سعيد الخدري ثقة . فهذا إسناد صحيح كما ترى ، وفيه التصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم رتب الفوائت في القضاء : الأولى فالأولى .

(74/489)

وقد قدمنا أن أفعاله المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب على الأصح ، وان ذلك يعتضد بحديث مالك بن الحويرث الثابت في الصحيح : « صلوا كما رأيتموني أصلي » وحديث أبي سعيد هذا أخرجه ايضاً الإمام أحمد . قال الشوكاني في (نيل الأوطار) : ورجال إسناده رجل الصحيح . وقال الشوكاني أيضاً عن ابن سيد الناس اليعمري : إن حديث أبي سعيد رواه الطحاوي عن المزني عن الشافعي : حدثنا ابن أبي فديك ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : وهذا إسناد صحيح جليل اه . وقال النسائي في سننه : اخبرنا هناد عن هشيم ، عن أبي الزبير ، عن نافع بن جبير ، عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله : إن المشركين شغلوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق ، فأمر بلالاً فأذن ، ثم اقام فصلى الظهر ، ثم اقام فصلى العصر

، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء اه . أخبرنا القاسم بن زكريا بن دينار قال : حدثنا حسين بن علي ، عن زائدة قال : حدثنا سعيد بن ابي عروبة قال : حدثنا هشام : أن أبا الزبير المكي حدثهم عن نافع بن جبير : ان أبا عبيدة بن عبد اله بن مسعود حدثهم أن عبد الله بن مسعود قال : كما في غزوة فحسبنا المشركون عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء . فلما انصرف المشركون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً فأقام لصلاة الظهر فصلينا ، وأقام لصلاة العصر فصلينا ، وأقام لصلاة المغرب فصلينا ، وأقام لصلاة العشاء فصلينا ، ثم طاف علينا فقال :

(75/489)

« ما على الأرض عصابة يذكرون الله عز وجل غيركم » اه . وحديث ابن مسعود هذا أخرجه الترمذي أيضاً . قال الشوكاني رحمه الله في (نيل الأوطار) : إن إسناده لا بأس به .

قال مقيده عفا الله عنه : والظاهر أن إسناد حديث ابن مسعود هذا لا يخلو من ضعف ، لأنه روايه عنه ابنه أبو عبيدة ، وروايته عنه مرسلة لأنه لم يسمع منه . ولكن هذا المرسل يعتضد بحديث ابي سعيد الذي قدمنا آنفاً أنه صحيح ، ومن يحتج من العلماء بالمرسل

يحتج به ولو لم يعتضد بغيره .

واعلم أن حديث أبي سعيد وابن مسعود المذكورين لا يعارضهما ما في الصحيحين من كونهم شغلوهم عن العصر وحدها . لأن ما فيهما زيادة ، فزيادة العدول مقبولة (من حفظ حجة على من لم يحفظ) وبه تعلم أن ما ذكره ابن العربي من تقديم ما في الصحيحين على الزيادة التي في حديث أبي سعيد وابن مسعود خلاف التحقيق .

تنبيه

(76/489)

اعلم أن الآئمة الأربعة وأصحابهم وجماهير فقهاء الأمصار : على أن من نسي صلاة أو نام عنها قضاها وحدها ولا تلزمه زيادة صلاة اخرى . قال البخاري في صحيحه : (باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة) وقال إبراهيم : من ترك صلاة واحد عشرين سنة لم يعد إلا تلك الصلاة الواحدة . حدثنا أبو نعيم ، وموسى بن إسماعيل قالا : حدثنا همام ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك » . ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكريا ﴾ [طه : 14] قال موسى : قال همام : سمعته يقول بعد ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكريا ﴾ حدثنا همام ، حدثنا

قتادة ، حدثنا انس عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه اه . وقال في (الفتح الباري) في الكلام على هذا الحديق وترجمته قال علي بن المنيرك صرح البخاري بغثبات هذا الحكم مع كونه مما اختلف فيه لقوّة دليله ، ولكنه على وفق القياس ، إذ الواجب خمس صلوات لا أكثر . فمن قضى الفائتة كمل العدد المأمور به ، ولكونه على مقتضى ظاهر الخطاب . لقول الشارع « فليصلها » ولم يذكر زيادة ، وقال أيضاً : « لا كفارة لها ، إلا ذلك » فاستفيد من هذا الحصر ان لا يجب غير إعادتها . وذهب مالك إلى أن من ذكر بعد أن صلى صلاة أنه لم يصل التي قبلها فإنه يصل التي ذكر ، ثم يصلي التي كان صلاها مراعاة للترتيب – انتهى منه . فإن قيل : جاء في صحيح مسلم في بعض طرق حديث أبي قتادة في قصة نوم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن صلاة الصبح حتى ضربتهم الشمس ما نصه : ثم قالك يعني (النبي صلى الله عليه وسلم) :

(77/489)

« أما إنه ليس في النوم تفريط غنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى . فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها . فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها » اه . فقوله في هذا الحديث : فإذا كان الغد الخ يدل على أنه يقضي الفائتة مرتين : الأولى عند

ذكرها ، والثانية : عند دخول وقتها من الغد ؟ فالجواب ما ذكره النووي في شرحه للحديث المذكور قال : وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها » فمعناه أنه إذا فاتته صلاة فقضاها لا يتغير وقتها ويتحول في المستقبل ، بل يبقى كما كان ، فإذا كان الغد صلى صلاة الغد في وقتها المعتاد ولا يتحول . وليس معناه أنه يقضي الفائتة مرتين : مرة في الحال ، ومرة في الغد ، وإنما معناه ما قدمناه . فهذا هو الصواب في معنى هذا الحديث . وقد اضطربت اقوال العلماء فيه . واختار المحققون ما ذكرته والله أعلم انتهى منه . وهذا الذي فسر به هذه الرواية هو الذي يظهر لنا صوابه والعلم عند الله تعالى . ولكن جاء في سنن أبي داود في بعض طرق حديث أبي قتادة في قصة النوم عن الصلاة المذكورة ما نصه : « فمن أدرك منكم صلاة الغد من غد صالحاً فليقض معها مثلها » اه . وهذا اللفظ صريح في أنه يقضي الفائتة مرتين ، ولا يحمل المعنى الذي فسر به النووي وغيره لفظ رواية مسلم .

(78/489)

وللعلماء عن هذه الرواية أجوبة ، قال ابن حجر في (فتح الباري) بعد أن اشار إلى رواية أبي داود المذكور ما نصه : قال الخطابي : لا أعلم أحداً قال بظاهره وجوباً ، قال : ويشبه

أن يكون الأ/ر فيه للاستحباب ليجوز فضيلة الوقت في القضاء انتهى . ولم يقل أحد من السلف باستحباب ذلك أيضاً بل عدُّوا الحديث غلطاً من روايه . حكى ذلك الترمذي وغيرع عن البخاري . ويؤيده ما رواه النسائي من حديث عمران بن حصين أنهم قالوا : يا رسول الله ، ألا نقضيها لوقتها من الغد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينهاكم الله عن الربا ويأخذه منكم » اه كلام صاحب الفتح . وحديث عمران المذكور قد قدمناه وذكرنا من أخرجه . والعلم عند الله تعالى .

المسالة السادسة

اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن ترك الصلاة عمداً تكاسلاً حتى خرج وقتها وهو معترف بجوبها . هل يجب عليه قضاءها أو لا يجب عليه . فقد قدمنا خلاف العلماء في كفره ، فعلى القول بأنه كافر مرتد يجري على الخلاف في المرتدن هل يجب عليه قضاء ما فاته في زمن ردته أو لا يجب عليه .

واعلم أولاً أن الكافر تارة يكون كافراً اصلياً لم يسبق عليه إسلام ، وتارة يكون كافراً بالردة عن دين الإسلام بعد أن مسلماً .

أما الكافر الأصلي فلا يلزمه قضاء ما تركه من العبادات في حال كفره وهذا لا خلاف فيه بين علماء المسلمين. لأن الله تعالى يقول: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: 38] وقد أسلم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم خلق كثير فلم يامر أحداً منهم بقضاء شيء فائت كفره.

وأما المرتد ففيه خلاف بين العلماء معروف. قال بعض أهل العلم: لا يلزمه قضاء ما تركه في زمن ردته، ولا في زمن إسلامه قبل ردته، لأن الردة تحبط جميع عمله وتجعله كالكافر الأصلي عياذاً بالله تعالى. وإن كان قد حج حجة الإسلام ابطلتها ردته على هذا القول. فعليه إعادتها إذا رجع إلى الإسلام. وتمسك م قال بهذا بظاهر قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: 5]. وقال بعض أهلم العلم: يلزمه قضاء ما تركه من العبادات في زمن ردته وزمن إسلامه قبل ردته، ولا تجب عليه إعادة حجة الإسلام. لأن الردة لم تبطلها. واحتج من قال بهذ بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَائِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة ﴾ [البقرة: 217] الآية. فجعل الموت على الكفر شرطاً في حبوط العمل. وبالأول قال مالك، ومن وافقه. وبالثاني قال الشافعي، ومن وافقه. وهم روايتان عن الإمام أحمد. وقد ذكرنا في غير هذا الموضع: أن قول الشافعي ومن وافقه في هذه المسالة أجرى

على الأصول . لوجوب حمل المطلق على المقيد ، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا .

(80/489)

وأما على قول الجمهور بأنه غير كافر فقد اختلفوا أيضاً في وجوب القضاء عليه . اعلم أولاً أن علماء الأصول اختلفوا في الأمر بالعبادة المؤقتة بوقت معين ، هل هو يستلزم الأمر بقضائها بعد خروج وقتها من غير احتياج إلى امر جديد بالقضاء أو لا يستلزم القضاء بعد خروج الوقت ، ولا بد للقضاء من أمر جديد ، فذهب ابو بكر الرازي من الحنفية وفاقاً لجمهور الحنفية إلى أن الأمر بالعبادة الموقتة يستلزم الأمر بقضائها بعد خروج الوقت من غير احتياج إلى أمر جديد ، واستدلوا لذلك بقاعدة هي قولهم : الأمر بالمركب أمر بكل جزء من أجزائه ، فإذا تعذر بعض الأجزاء لزم فعل بعضها الذي لم يعتذر . فالأمر بالعبادة الموقتة كالصلوات الخمس أمر بمركب من شيئين : الأول منهما : فعل العبادة . والثاني : كونها مقترنة بالوقت المعين لها ، فغذا خرج الوقت تعذر أحدهما عليه ، لأن الأمر بالمركب أمر بأجزائه .

وهذا القول صدر به ابن قدامة في (روضة الناظر) وعزاه هو والغزالي في (المستصفى)

إلى بعض الفقهاء .

وذهب جمهور أهل الأصول إلى أن الأمر بالعبادة الموقتة لا يستلزم الأمر بقضائها بعد خروج الوقت واستدلوا لذلك بقاعدة وهي (أن تخصيص العبادة بوقت معين دون غيره من الأوقات لا يكون إلا لمصلحة تختص بذلك الوقت دون غيره ، إذ لو كانت المصلحة في غيره من الأوقات لما كان لتخصيصه دونها فائدة) ، قالوا فتخصيصه الصلوات بأوقاتها المعينة ، والصوم برمضان مثله ، كتخصيص الحج بعرفات ، والزكاة بالمساكين والصلاة بالقبلة ، والقتل بالكافر ونحو ذلك .

(81/489)

واعلم أن الذين قالوا : إن الأمر لا يستلزم القضاء ، وهو الجمهور – اختلفوا في إعادة الصلاة المتروكة عمداً على قولهم : إن تاركها غير كافر ، فذهب جمهورهم إلى وجوب إعادتها ، قالوا : نحن نقول : إن القضاء لا بد له من أمر جديد ، ولكن الصلاة المتروكة عمداً جاءت على قضائها أدلة ، منها : قياس العامد على الناسي والنائم ، المنصوص على وجوب القضاء عليهما ، قالوا : فإذا وجب القضاء على النائم ، والناسي فهو واجب على العامد من باب أولى ، وقال النووي في شرح المهذب : ومما يدل على وجوب القضاء حديث ابي

هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المجامع في نهار رمضان أن يصوم يوماً مع الكفارة ، اي بدل اليوم الذي أفسده بالجماع عمداً . ورواه البيهقي بإسناد جيد ، وروى بو داود نحوه – انتهى كلام النووي .

ومن اقوى الأدلة على وجوب الأدلة على وجوب القضاء على التارك عمداً عموم الحديث الصحيح الذي قدمناه في سورة « الإسراء » الذي قال فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم : « فدين الله أحق أن يقضى » ، فقوله : « دين الله » اسم جنس مضاف إلى معرفة فهو عام في كل دين ، كقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ ﴾ [إبراهيم : 34] الآية ، فهو عام في كل نعمة . ولا شك أن الصلاة المتروكة عمداً دين الله في ذمة تاركها ن فدل عموم الحديث على أنها حقيقة جديرة بأنتقضى ، ولا معارض لهذا العموم .

وقال بعض أهل العموم : ليس على التارك الصلاة عمداً قضاء ، لأن القضاء يحتاج إلى أمر جديد ولم يأت أمر جديد بقضاء التارك عمداً . ومن قال بهذا ابن حزم واختاره أبو العباس بن تيمية رحمه الله . وإلى هذه المسألة أشار في مراقي السعود بقوله :

والأمر لا يستلزم القضاء . . . بل هو بالأمر الجديد جاء

لأنه في زمن معين . . . يجي لما عليه من نفع بني

وخالف الرازي إذ المركب . . . لكل جزء حكمه ينسحب

تنبيه

(82/489)

سبب اختلاف العلماء هذه المسألة : أنها تجاذبها أصلان مختلفان : فنظرت كل طائفة إلى أحد الأصلين المختلفين :

أحدهما : الأمر بالمركب أمر بأجزائه . وإليه نظر الحنفية ومن وافقهم .

والثاني : الأمر بالعبادة في وقت معين لا يكون إلا لمصلحة تختص بالوقت المذكور ، وإليه نظر الجمهور . ومثل هذا من الأشياؤ التي تكون سبباً للاختلاف في المسألة كما أشار له الشيخ ميارة في التكميل بقوله :

وإن يكن في الفرع تقريران . . . بالمنع والجواز فالقولان

(83/489)

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه وعد عباده المؤمنين المطيعين جنات عدن . ثم بين أنه وعده مأتي . بمعنى أنهم يأتونه وينالون م وعدوا به . لأنه جل وعلا لا يخلف الميعاد .

وأشار لهذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ [الروم: 6] الآية. وقوله: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [الرعد: 31]، وقوله: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الميعاد فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [آل عمران: 194-195] الآية، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء: 107-108]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل: 17-18]، وقوله تعالى: ﴿ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وَعِدَ المتقون كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ [الفرقان: 15-16] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ مأتياً ﴾ اسم مفعول أتاه إذا جاءه. والمعنى: أنهم لا بد أن يأتون ما وعدوا به. خلافاً لمن زعم أن ﴿ مأتياً ﴾ صيغة مفعول أريد بها الفاعل. أي كان وعده آتياً، إذ لا داعي لهذا مع وضوح ظاهر الآية.

تنبيه

مثل بعض علماء البلاغة بهذه الآية لنوع من أنواع البدل. وهو بدل الكل من البعض، قالوا:

﴿ جنات عدن ﴾ بدل من الجنة في قوله : ﴿ أولئك يدخلون الجنة ﴾ بدل كل من بعض .

(84/489)

قالوا : ومن أمثلة بدل الكل من البعض قوله :

رحم الله أعظما دفنوها . . . بسجستان طلحة الطلحات

« فطلحة » بدل من قوله « أعظماً » بدل من كل بعض . وعليه فأقسام البدل ستة : بدل الشيء من الشيء . وبدل البعض من الكل . وبدل الكل من البعض . وبدل الاشتمال . وبدل البداء . وبدل الغلط .

قال مقيده عفا الله عنه : ولا يتعين عندي في الآية والبيت كون البدل بدل كل من بعض ، بل يجوز أن يكون بدل الشيء من الشيء ، لأن الألف واللام في قوله : ﴿ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ [مريم : 60] للجنس ، وإذا كان للجنس جاز أن يراد بها جميع الجنات ، فيكون قوله : ﴿ جنات عدن ﴾ بدلاً من ﴿ الجنة ﴾ بدل الشي من الشي ، لأن المراد بالأول الجمع كما تقدم كثير من أمثلة ذلك . والعظم في البيت كناية عن الشخص المذكور جميعه ، أعظمه وغيرها من بدنه ، وعبر هو عنه بالأعظم .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المؤمنين إذا أدخلهم ربهم جنات عدن التي وعدهم ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنات المذكورة ﴿ لَغْواً ﴾ أي كلاماً تافهاً ساقطاً كما يسمع في الدنيا . واللغو : هو فضول الكلام ، وما لا طائل تحته . ويدخل فيه فحش الكلام وباطله ، ومنه قول رؤبة وقيل العجاج :

ورب أسراب حجيج كظم . . . عن اللغا ورفث التكلم

كما تقدم في سورة « المائدة » .

والظاهر أن قوله ﴿ إِلاَّ سَلاَماً ﴾ استثناء منقطع ، أي لكن يسمعون فيها سلاماً ، لأنهم يسلم بعضهم على بعض ، وتسلم عليهم الملائكة ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [إبراهيم : 23] الآية ، وقوله : ﴿ جوَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد 23-24] الآية . كما تقدم مستوفى .

وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء في غير هذا الموضع أيضاً كقوله في «الواقعة» : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ [الواقعة : 25-26] ، وقد جاء هذا الاستثناء المنقطع في آيات أخر من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ ما لهم من علم إلا اتباع الظن ﴾ الآية : وقوله : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ [الليل : 19-20] ، وقوله : ﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56] ، وكقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء : 29] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . فكل الاستثناءات المذكورة في هذه الآيات منقطعة . نظير ذلك من كلام العرب في الاستثناء المنقطع قول نابغة ذبيان :

وقفت فيها أصيلالاً أسائلها . . . عيت جواباً وما بالربع من أحد

إلا الأواري لأياً ما أبينها . . . والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

«فالأواري» التي هي مرابط الخيل ليست من جنس «الأحد» . وقول الفرزدق :

وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن . . . لها خاطب إلا السنان وعامله

وقول جران العود :

وبلدة ليس بها أنيس . . . إلا اليعافير وإلا العيس

«فالسنان» ليس من جمس «الخاطب» و «اليعافير والعيس» ليس واحد منهما من

جنس « الأنيس » . وقول ضرار بن الأزور :

أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة . . . ولله بالعبد المجاهد أعلم

عيشة لا تغني الرماح مكانها . . . ولا النيل إلا المرفي المصمم

وبهذا ذكرنا تعلم صحة وقوع الاستثناء المنقطع كما عليه جماهير الأصوليين خلافاً للإمام أحمد بن حنبل وبعض الشافعية القائلين : بأن الاستثناء المنقطع لا يصح ، لأن الاستثناء إخراج ما دخل في اللفظ ، وغير جنس المستثنى منه لم يدخل في اللفظ أصلاً حتى يخرج بالاستثناء .

تنبيهات

(87/489)

الأول – اعلم أن تحقيق الفرق بين الاستثناء المتصل والمنقطع يحصل بأمرين يتحقق بوجودهما أن الاستثناء متصل .

(88/489)

وإن اختل واحد منهما فهو منقطع : الأول – أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه ، نحو : جاء القوم إلا زيداً . إن كان من غير جنسه فهو منقطع ، نحو : جاء القوم إلا حماراً .

والثاني – أن يكون الحكم على المستثنى بنقيض الحكم على المستثنى منه . ومعلوم أن نقيض الإثبات النفي كالعكس . ومن هنا كان الاستثناء من النفي إثباتاً ، ومن الإثبات نفياً . فإن كان الحكم على المستثنى ليس نقيض الحكم على المستثنى منه فهو منقطع ولو كان المستثنى من جنس المستثنى منه . فقوله تعالى : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56] استثناء منقطع على التحقيق ، مع أن المستثنى من جنس المستثنى منه . وكذلك قوله : ﴿ لاَ تَأْكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء : 29] وإنما كان منقطعاً في الآيتين لأنه لم يحكم على المستثنى بنقيض الحكم على المستثنى منه . فنقيض : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت ﴾ : هو يذوقون فيها الموت . وهذا النقيض الذي هو ذوق الموت في الآخرة لم يحكم به على المستثنى بل حكم بالذوق في الدنيا . ونقيض ﴿ لاَ تَأْكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ كلوها بالباطل ولم يحكم به في المستثنى .

فتحصل إن انقطاع الاستثناء قسمان : أحدهما بالحكم على غير جنس المستثنى منه . كقولك : رأيت أخويك إلا ثوباً . الثاني : بالحكم بغير النقيض . نحوك رأيت أخويك إلا زيداً

لم يسافر .

التنبيه الثاني

(89/489)

اعلم أنه يبنى على الخلاف في صحة الاستثناء المنقطع بعض الفروع الفقهية . فلو اقر رجل لآخر فقال له : علي الف دينار إلا ثوباً . فعلى القول بعدم صحة الاستثناء المنقطع يكون قوله « إلا ثوباً » وتسقط قيمة الثوب من الألف . والذين قالوا تسقط قيمته اختلفوا في توجيهه على القولين : أحدهما – أنه مجاز ، وإنه أطلق الثوب وأراد قيمته . والثاني : أن فيه إضماراً . أي حذف مضاف ، يعني : إلا قيمة ثوب . فمن قال بقدم المجاز على الإضمار قال « إلا ثوباً » مجاز ، أطلق الثوب وأراد القيمة . كإطلاق الدم على الدية . ومن قال يقدم الإضمار على المجاز قال « إلا ثوباً » أي غلا قيمة ثوب . واعتمد صاحب مراقي السعود تقديم المجاز على الإضمار في قوله :

وبعد تخصيص مجاز قبلي . . . الإضمار فالنقل على المعول

ومعنى البيت : أن المقدم عندهم التخصيص ، ثم المجاز ، ثم الإضمار ، ثم النقل . مثال تقديم التخصيص على المجاز إذا احتمل اللفظ كل واحد منهما – قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا

المشركين ﴾ [التوبة : 5] يحتمل تخصيص ، لأن بعض المشركين كالذميين والمعاهدين أخرجهم دليل مخصص لعموم المشركين . ويحتمل عند القائلين بالمجاز أنه مجاز مرسل ، أطلق فيه الكل أراد البعض . فيقد التخصيص لأمرين : أحدهما – أن اللفظ يبقى حقيقة فيما لم يخرجه المخصص ، والحقيقة مقدمة على المجاز الثاني – أن اللفظ يبقى مستصحباً في الأفراد الباقية بعد التخصيص من غير احتياج إلى قرينة .

(90/489)

ومثال تقديم المجاز على الإضمار عند احتمال اللفظ لكل واحد منهما – قول السيد لعبده الذي هو أكبر منه سناً : أنت أبي ، يحتمل أنه مجاز مرسل ، من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم . أي أنت عتيق . لأن الأبوة يلزمها العتق . ويحتمل الإضمار . أي أنت مثل أبي في الشفقة والتعظيم . فعلى الأول يعتق . وعلى الثاني لا يعتق . ومن أمثلته المسالة التي نحن بصددها . ومثال تقديم الإضمار على النقل عند احتمال اللفظ لكل واحد منهما قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ الربا ﴾ [البقرة : 275] يحتمل الإضمار . أي أخذ الربا وهو لزيادة في بيع درهم بدرهمين مثلاً . وعلى هذا لو حذف الدرهم الزائد لصح البيع في الدرهم بالدرهم . ويحتمل نقل الربا إلى معنى العقد . فيمتنع عقد بيع الدرهم بالدرهمين . ولو

حذف الزائد فلا بد من عقد جديد مطلقاً .

قال مقيده عفا الله عنه : وعلى هذين الوجهين اللذين ذكروهما في « له علي ألف دينار إلا ثوباً » وهما الإضمار والنقل يرجع الاستثناء إلى كونه متصلاً ، لأن قيمة الثوب من جنس الألف التي أقر بها . سواء قلنا إن القيمة مضمرة ، أو قلنا إنها مُعبر عنها بلفظ الثوب .

التنبيه الثالث

اعلم أن الخلاف في صحة الاستثناء المنقطع هو في الحقيقة خلاف لفظي . لأن الذين منعوه لم يمنعوه بالكلية ، وإنما قالوا : إنه ليس من الاستثناء الحقيقي ، لأن أداة الاستثناء فيه بمعنى لكن ، فهو إلى الاستدراك أقرب منه إلى الاستثناء . وبعض القائلين بالاستثناء المنقطع يقول : إن الثوب في المثال المتقدم لغو ، ويعد ندماً من المقر بالألف . والنسبة بين الاستثناء المتصل والمنقطع عند القائلين به قيل إنها نسبة تواطؤ . وقيل : إنها من قبيل الاشتراك .

وإلى مسألة الاستثناء المنقطع والفرق بينه وبين المتصل أشار في مراقي السعود بقوله :

والحكم بالنقيض للحكم حصل . . . لما عليه الحكم قبل متصل

وغيره منقطع ورجحا . . . جوازه وهو مجاز أوضحا

فلتنم ثوباً بعد ألف درهم . . . الحذف والمجاز أو للندم

وقيل بالحذف لدى الإقرار . . . والعقد معنى الواو فيه جار

بشركة وبالتواطي قالا . . . بعض وأوجب فيه الاتصالا

وما ذكرنا من أن الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً ﴾ منقطع هو الظاهر . وقيل : هو من قبيل تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كقول نابغة ذبيان :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر :

فما يك في من عيب فإني . . . جبان الكلب مهزول الفصيل

وعلى هذا القول فالآية كقوله : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ [الأعراف : 126] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : 74] ونحو ذلك من الآيات كما تقدم مستوفى في سورة « براءة » .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فيه سؤال معروف ، وهو أن يقال : ما وجه ذكر البكرة والعشين مع أن الجنة ضياء دائم ولا ليل فيها .

(92/489)

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة :

الأول – أن المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن ، كقول : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12] أي قدر شهر . وروي معنى هذا عن ابن عباس ، وابن جريج وغيرهما .

الجواب الثاني – أن العرب كانت في زمنها ترى أن من وجد غداءً وعشاءً فذلك الناعم ، فنزلت الآية مرغبة لهم وإن كان ما في الجنة أكثر من ذلك . ويروى هذا عن قتادة ، والحسن ، ويحيى بن أبي كثير .

الجواب الثالث – أن العرب تعبر عم الدوام بالبكرة والعشي ، والمساء والصباح ، كما يقول الرجل : أنا عند فلان صباحاً ومساءً ، وبكرة وعشياً . يريد الديمومة ولا يقصد الوقتين المعلومين .

الجواب الرابع – أن تكون البكرة هو الوقت الذي قبل اشتغالهم بلذاتهم . والعشي : هو الوقت الذي بعد فراغهم من لذاتهم ، لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال . وهذا يرجع معناه إلى الجواب الأول .

(93/489)

الجواب الخامس – هو ما رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا : قال رجل : يا رسول الله ، هل في الجنة من ليل ؟ قال : « وما يهيجك على هذا ؟ » قال : سمعت الله تعالى يذكر ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فقلت : الليل بين البكرة والعشي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس هناك ليل ، إنما هو ضوء ونور ، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو ، تأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة » انتهى بواسطة نقل صاحب الدر المنثور والقرطبي في تفسيره . وقال القرطبي بعد أن نقل هذا : وهذا في غاية البيان لمعنى الآية . وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) ثم قال : وقال العلماء ليس في الجنة ليل ولا نهار ، وإنما هو في نور أبداً ، إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب . ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب ، وفتح الأبواب . ذكره أبو الفرج الجوزي والمهدوي وغيرهما اه منه . وهذا الجواب الأخير الذي ذكره الحكيم الترمذي عن الحسن وأبي قلابة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم راجع إلى جواب الأول . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(94/489)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) ﴾

فرع على الثناء عليهم اعتبارٌ وتنديد بطائفة من ذرياتهم لم يقتدوا بصالح أسلافهم وهم المعني بالخَلْف .

والخَلْف بسكون اللام عقب السُوء ، و بفتح اللام عقب الخير .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ في سورة الأعراف (169) .

وهو هنا يشمل جميع الأمم التي ضلّت لأنها راجعة في النّسب إلى إدريس جدّ نوح إذ هم من ذرية نوح ومن يرجع أيضاً إلى إبراهيم ، فمنهم من يدلي إليه من نسل إسماعيل وهم العرب .

ومنهم من يدلي إليْه من نسل يعقوب وهم بنو إسرائيل .

ولفظ من بعدهم ﴾ يشمل طبقات وقروناً كثيرة ، ليس قيداً لأنّ الخلف لا يكون إلاّ من بعد أصله وإنّما ذُكر لاستحضار ذهاب الصالحين .

والإضاعة : مجاز في التفريط بتشبيهه بإهمال العَرْض النفيس ، فرطوا في عبادة الله واتبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه أنفسهم ممّا هو فساد .

وتقدم قوله تعالى : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ في سورة الكهف (30) .

والصلاة : عبادة الله وحده .

وهذان وصفان جامعان لأصناف الكفر والفسوق ، فالشرك إضاعة للصلاة لأنّه انصراف عن الخضوع لله تعالى ، فالمشركون أضاعوا الصلاة تماماً ، قال تعالى : ﴿ قالوا لم نك من المصلّين ﴾ [المدثر : 43] .

والشرك : اتباع للشّهوات ، لأنّ المشركين اتّبعوا عبادة الأصنام لمجرد الشهوة من غير دليل ، وهؤلاء هم المقصود هنا ، وغير المشركين كاليهود والنصارى فَرطوا في صلوات واتبعوا شهوات ابتدعوها ، ويشمل ذلك كله اسم الغيّ .

والغيّ : الضلال ، ويطلق على الشرّ ، كما أطلق ضده وهو الرشَد على الخير في قوله تعالى : ﴿ أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ [الجنّ : 10] وقوله ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ [الجنّ : 21] .

(95/489)

فيجوز أن يكون المعنى فسوف يلقون جزاء غيّهم ، كقوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ [الفرقان : 68] أي جزاء الآثام .

وتقدم الغيّ في قوله تعالى : ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي وقوله ﴿ وإن يروا سبيل الغي

يتخذوه سبيلاً ﴾ كلاهما في سورة الأعراف (202و 146) .

وقرينة ذلك مقابلته في ضدهم بقوله فأُولَئِكَ يدْخُلونَ الجنّة ﴾ .

وحرف (سوف) دال على أن لقاءهم الغيّ متكرر في أزمنة المستقبل مبالغة في وعيدهم وتحذيراً لهم من الإصرار على ذلك .

وقوله ﴿ فأُولَئِكَ يدْخُلونَ الجنّة ﴾ جيء في جانبهم باسم الإشارة إشادة بهم وتنبيهاً لهم للترغيب في توبتهم من الكفر .

وجيء بالمُضارع الدّال على الحال للإشارة إلى أنهم لا يُمْطَلُون في الجزاء .

والجنّة : عَلَم لدار الثواب والنّعيم .

وفيها جنّات كثيرة كما ورد في الحديث : " أَو جَنَّةٌ واحدة هي إنّها لجنان كثيرة "

والظلم : هنا بمعنى النقص والإجحاف والمطل .

كقوله ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً في سورة الكهف (33) .

وشي : اسم بمعنى ذات أو موجود وليس المراد مصدر الظلم .

وذكر شيئاً في سياق النفي يفيد نفي كل فرد من أفراد النقص والإجحاف والإبطاء ، فيعلم انتفاء النقص القوي بالفحوى دفعاً لما عسى أن يخالج نفوسهم من الانكسار بعد الإيمان يظن أنّ سبق الكفر يَحط من حسن مصيرهم .

وجَنَّات ﴾ بدل من ﴿ الجنّة .

جيء بصيغة جمع جنات مع أن المبدل منه مفرد لأنه يشتمل على جنات كثيرة كما علمت ، وهو بدل مطابق وليس بدل اشتمال .

وعَدْن : الخلد والإقامة ، أي جنات خلد ووصفها بالتي وعد الرحمان عباده ﴿ لزيادة تشريفها وتحسينها .

وفي ذلك إدماج لتبشير المؤمنين السابقين في أثناء وعد المدعوين إلى الإيمان .

والغيب : مصدر غاب ، فكل ما غاب عن المشاهدة فهو غيب .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في أول البقرة (3) .

(96/489)

والباء في بالغيب للظرفية ، أي وعدها إياهم في الأزمنة الغائبة عنهم .

أي في الأزل إذ خلقها لهم .

قال تعالى : ﴿ أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : 133] .

وفيه تنبيه على أنها وإن كانت محجوبة عنهم في الدنيا فإنها مهيئة لهم .

وجملة ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ تعليل لجملة ﴿ التي وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ أي يدخلون الجنة وعداً من الله واقعاً .

وهذا تحقيق للبشارة .

والوعد : هنا مصدر مستعمل في معنى المفعول .

وهو من باب كَسا ، فالله وعد المؤمنين الصالحين جنات عدن .

فالجنات لهم موعودة من ربهم .

والمأتِي : الذي يأتيه غيره .

وقد استعير الإتيان لحصول المطلوب المترقب ، تشبيهاً لمن يحصل الشيء بعد أن سعى لتحصيله بمن مشى إلى مكان حتى أتاه .

وتشبيهاً للشيء المحصل بالمكان المقصود .

ففي قوله ﴿ مأتِيّا تمثيلية اقتصر من أجزائها على إحدى الهيئتين ، وهي تستلزم الهيئة الأخرى لأنّ المأتي لا بد له من آت .

وجملة لا يسْمعُونَ فيها لغْواً ﴾ حال من ﴿ عبَادَه ﴾ .

واللغو : فضول الكلام وما لا طائل تحته .

وإنفاؤه كناية عن انتفاء أقل المكدرات في الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ [الغاشية : 11] ، وكناية عن جعل مجازاة المؤمنين في الجنة بضد ما كانوا يلاقونه في الدنيا من أذى المشركين ولغوهم .

وقوله ﴿ إلاَّ سلاما ﴾ استثناء منقطع وهو مجاز من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه كقول

النّابغة:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

أي لكن تسمعون سلاماً .

قال تعالى : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ [إبراهيم : 23] وقال ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ [الواقعة : 25 ، 26] .

والرزق : الطعام .

وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات ذلك ودوامه ، فيفيد التكرر المستمر وهو أخص من التكرر المفاد بالفعل المضارع وأكثر .

وتقديم الظرف للاهتمام بشأنهم ، وإضافة رزق إلى ضميرهم لزيادة الاختصاص .

(97/489)

والبُكرة : النصف الأول من النهار ، والعَشي : النصف الأخير ، والجمع بينهما كناية عن استغراق الزمن ، أي لهم رزقهم غير محصور ولا مقدّر بل كلما شاءوا فلذلك لم يذكر اللّيل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [مريم : 59]

أي : أن المسائل لم تستمر على ما هي عليه من الكلام السابق ذِكْره ، بل خَلَفَ هؤلاء القوم (خَلْفٌ) والخَلْف : هم القوم الذين يخلُفون الإنسان : أي : يأتون بعده أو من ورائهم .

وهناك فَرْق بين خَلْف وخَلَف : الأولى : بسكون اللام ويُراد بها الأشرار من عَقِب الإنسان وأولاده ، والأخرى : بفتح اللام ويُراد بها الأخيار . لذل ، فالشاعر حينما أراد أنْ يتحسَّر على أهل الخير الذي مَضَوْا قال :

ذَهَبَ الذِينَ يُعاشُ فِي أكْنَافِهِمْ . . . وبَقِيتُ فِي خَلْف كجِلْدِ الأجْرَبِ

فماذا تنتظر من هؤلاء الأشرار ؟ لا بُدّ أنْ يأتي بعدهم صفات سوء ﴿ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ [مريم : 59] إذن : هم خَلْف فاسد ، فأول ما أضاعوا أضاعوا الصلاة التي هي عماد الدين ، وأَوْلَى أركانه بالأداء .

صحيح أن الإسلام بُني على عِدّة أركان ، لكن بعض هذه الأركان قد يسقط عن المسلم ، ولا يُطْلب منه كالزكاة والحج والصيام ، فيبقى ركنان أساسيان لا يسقطان عن المسلم بحال

من الأحوال ، هما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة .

وسُئِلْنَا مرة من بعض إخواننا في الجزائر : لماذا نقول لمن يؤدي فريضة الحج : الحاج فلان ، ولا نقول للمصلى : المصلى فلان ، أو المزكَّى فلان ، أو الصائم فلان ؟

فقلت للسائل : لأن الحج تتم نعمة الله على العبد ، وحين نقول : الحاج فلان . فهذا إشعار وإعلام أن الله أتمَّ له النعمة ، واستوفى كل أركان الإسلام ، فمعنى أنه أدَّى فريضة الحج أنه مستطيع مالاً وصحة ، وما دام عنده مال فهو يُزكِّي ، وما دام عنده صحة فهو يصوم ، وهو بالطبع يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤدي الصلاة ، وهكذا تمَّتْ له بالحج جميع أركان الإسلام .

(99/489)

ثم يقول تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] هذه العبارة أخذها المتمحّكون الذين يريدون أنْ يدخلوا على القرآن بنقد ، فقالوا : الغَيُّ هو الشر والضلال والعقائد الفاسدة ، وهذه حدثتْ منهم بالفعل في الدنيا فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فكيف يقول : فسوف يلقوْنه في المستقبل ؟

لكن المراد بالغيّ هنا أي : جزاء الغي وعاقبته . كما لو قُلْت : أمْطرتْ السماء نباتاً ،

فالسماء لم تُمطر النبات ، وإنما الماء الذي يُخرِج النبات ، كذلك غيّهم وفسادهم في الدنيا هو الذي جَرَّ عليهم العذاب في الآخرة .

إذن : المعنى : فسوفَ يلقْونَ عذاباً وهلاكاً في الآخرة .

ومع ذلك ، فالحق تبارك وتعالى لرحمته بخَلْقه شرع لهم التوبة ، وفتح لهم بابها ، ويفرح بهم إنْ تابوا ؛ لذلك فالذين اتصفُوا بهذه الصفات السيئة فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات لا ييأسون من رحمة الله ، مادام بابُ التوبة مفتوحاً .

وفَتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم الله بها المجتمع كله من أصحاب الشهوات والانحرافات ، وإلاَّ لو أغقلنا الباب في وجوههم لَشقِيَ بهم المجتمع ، حيث سيتمادَوْن في باطلهم وغَيِّهم ، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله .

والتوبة تكون من العبد ، وتكون من الرب تبارك وتعالى ، فتشريع التوبة وقبولها من الله وإحداث التوبة من العبد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا ﴾ [التوبة : 118] أي : شرعها لهم ليتوبوا فيقبل توبتهم ، فهي من الله أولاً وأخيراً ؛ لذلك يأتي هذا الاستثناء . ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾

وللتوبة شروط يجب مراعاتها ، وهي : أن تُقلِع عن الذنب الذي تقع فيه ، وأن تندم على ما بدر منك ، وإنْ تنوي وتعزم عدم العودة إليه مرة أخرى . وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدْتَ فلن تُقْبلَ منك التوبة ، فقد تتعرض لظروف تُوقِعك في الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العَوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قَصْد ودون إصرار . وإلاّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقُلْت : أذنب ثم أتوب ، فمن يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أن تتوبَ ؟ إذن : فبادر بها قبل فَوات أوانها .

هذه إذن شروط التوبة إنْ كانت في أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفّر لها شرط آخر وهو رَدُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت ترد ، أو التبرع بها في وجوه الخير على أنْ ينويَ ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [مريم : 60] معنى : وآمن بعد أنْ تاب ، تعني أن ما أحدثه من معصية خدش إيمانه ، فيحتاج إلى تجديده . وهذا واضح في الحديث الشريف :

" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " .

فساعةَ مباشرة هذه المعاصي تنتفي عن الإنسان صفة الإيمان ؛ لأن إيمانه غاب في هذه اللحظة ؛ لأنه لو استحضر الإيمان وما يلزمه من عقوبات الدنيا والآخرة ما وقع في هذه

المعاصي .

لذلك قال : (وَآمَنَ) أي : جدّد إيمانه ، وأعاده بعد توبته ، ثم ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [مريم : 60] ليصلح به ما أفسده بفعل المعاصي .

والنتيجة : ﴿ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 60] وفي موضع آخر ، كان جزاء مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً : ﴿ فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : 70] .

فلماذا كُلُّ هذا الكرم من الله تعالى لأهل المعاصي الذين تابوا ؟ قالوا : لأن الذي أَلِفَ الشهوة واعتاد المعصية ، وأدرك لذَّته فيها يحتاج إلى مجهود كبير في مجاهدة نفسه وكَبْحها ، على خلاف مَنْ لم يتعوّد عليها ، لذلك احتاج العاصون إلى حافز يدفعهم ليعودوا إلى ساحة ربهم .

(101/489)

لذلك قال سبحانه : ﴿ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ [مريم : 60] دون أنْ يُعيَّروا بما فعلوه ؛ لأنهم صَدَقُوا التوبة إلى الله ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 60] وبقدر ما تكون التوبة صادقة ، والندم عليها عظيماً ، وبقدر ما تلوم نفسَك ، وتسكب الدمْع على

معصيتك بقدر ما يكون لك من الأجر والثواب ، وبقدر ما تُبدّل سيئاتك حسناتٍ . وكُلُّ هذا بفضل الله وبرحمته .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن ﴾

قوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ [مريم : 61] أي : إقامة دائمة ؛ لانك قد تجد في الدنيا جنات ، وتجد أسباب النعيم ، لكنه نعيم زائل ، إمّا أنْ تتركه أو يتركك . إذن : فكُلُّ نعيم الدنيا لا ضامنَ له .

وجنات عَدْن ليست هي مساكن أهل الجنة ، بل هي بساتين عمومية يتمتع بها الجميع ، بدليل أن الله تعالى عطف عليها في آية أخرى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ [التوبة : 72] .

وقوله : ﴿ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ [مريم : 61] والوعْد : إخبار بخير قبل أوانه ؛ ليشجع الموعود على العمل لينالَ هذا الخير ، وضِدّه الوعيد : إخبار بشَرٍّ قبل أوانه ليحذره المتوعد ، ويتفادى الوقوع في أسبابه .

واختبار هنا اسم الرحمن ليُطمِئنَ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وَعْداً وَفَى . وقد وعدنا الله تعالى في قرآن فآمنّا بوعده غيْباً ﴿ وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ [مريم : 61] .

وحجة الإيمان بالغيب فيما لم يوجد بعد المشهد الذي نراه الآن ، فالكون الذي نشاهده قد خُلِق على هيئة مُهندسةٍ هندسةً لا يوجد أبدعُ منها ، فالذي خلق لنا هذا الكون العجيب المتناسق إذا أخبرنا عن نعيم آخر دائم في الآخرة ، فلا بُدَّ أن نُصدّق ، ونأخذ من المشاهدَ لنا دليلاً على ما غاب عَنَّا ؛ لذلك نؤمن بالآخرة إيماناً غيبياً ثقةً مِنَّا في قدرته تعالى التي رأينا طَرَفاً منها في الدنيا .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ [مريم : 61] فما دام الرحمن تبارك وتعالى هو الذي وعد ، فلا بُدَّ أن يكون وعدُه (مَأْتِياً) أي : مُحقّقاً وواقعاً لا شَكَّ فيه ، ووعْده تعالى لا يتخلَّف و (مَأْتِياً) أي نأتيه نحن ، فهي اسم مفعول .

وبعض العلماء يرى أن (مَأْتِياً) بمعنى آتياً ، فجاء باسم المفعول ، وأراد اسم الفاعل ، لكن المعنى هنا واضح لا يحتاج إلى هذا التأويل ؛ لأن وعد الله تعالى مُحقَّق ، والموعود به ثابت في مكانه ، والماهر هو الذي يسعى إليه ويسلك طريقه بالعمل الصالح حتى يصل إليه .

ثم يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة في الجنة : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾

اللغو : هو الكلام الفُضولي الذي لا فائدة منه ، فهو يضيع الوقت ويُهْدِر طاقة المتكلم وطاقة

المستمع ، وبعد ذلك لا طائلَ من ورائه ولا معنى له .

والكلام هنا عن الآخرة ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ [مريم : 62] فإن كانوا قد سمعوا لَغْواً كثيراً في الدنيا فلا مجالَ للغو في الآخرة . ثم يستثني من عدم السماع ﴿ إِلاَّ سَلاَماً ﴾ [مريم : 62] والسلام ليس من اللغو ، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [يونس : 10] .

(103/489)

وقد يُرَادُ بالسلام السلامة من الآفات التي عاينوها في الدنيا ، وهم في الآخرة سالمون منها ، فلا عاهة ولا مرضَ ولا كَدَّ ولا نصبَ . لكن نرجح هنا المعنى الأول أي : التحية ؛ لأن السلام في الآية مما يُسْمَع .

فإنْ قُلْتَ : فكيف يستثنى السلام من اللَّغْو ؟ نقول : من أساليب اللغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كأن نقول : لا عيبَ في فلان إلا أنه شجاع ، وكنت تنتظر أنْ نستثني من العيب عَيْباً ، لكن المعنى هنا : إنْ عددتَ الشجاعة عيباً ، ففي هذا الشخص عَيْب ، فقد نظرنا في هذا الشخص فلم نجد به عَيْباً ، إلا إذا ارتكبنا مُحَالاً وعددنا الشجاعة عيباً .

وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم .

ومن ذلك قول الشاعر :

ولاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ . . . بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] لم يقُل الحق سبحانه وتعالى : وعلينا رزقهم ، بل : ولهم رزقهم : أي أنه أمر قد تقرّر له وخُصِّص لهم ، فهو أمر مفروغ منه . والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وهو في الآخرة على قَدْر عمل صاحبه من خير في الدنيا .

ومن رحمة الله تعالى بعباده من أهل الجنة أنْ نزعَ ما في صدورهم من غِلٍّ ومن حسد ومن حقد ، فلا يحقد أحدٌ على أحد أفضل مرتبة منه ، ولا يشتهي من نعيم الجنة إلا على قَدْر عمله ودرجته ، فإنْ رأى مَنْ هو أفضل منه درجةً لا يجد في نفسه غِلاً منه ، أو حِقْداً عليه ؛ لأن موجب الغِلِّ في الدنيا أنْ ترى مَنْ هو أفضل منك .

أما في الآخرة فسوف ترى هذه المسألة بمنظار آخر ، منظار النفس الصافية التي لا تعرف الغلَّ ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : 47] .

فإنْ رأيت مَنْ هو أعلى منك درجةً فسوف تقول : إنه يستحق ما نال من الخير والنعيم ، فقد كان يجاهد نفسه وهواه في الدنيا . ويكفي في وَصْف ما في الجنة من الرزق والنعيم قوله تعالى : ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا إذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر " .

إذن : ففي الجنة أشياء لا تقع تحت إدراكنا ؛ لذلك ليس في لغتنا ألفاظ تُعبِّر عن هذا النعيم ؛ لأنك تضع في اللغة اللفظ الذي أدركتَ معناه ، وفي الجنة أشياء لا تدركها ولا عِلْمَ لك بها ؛ لذلك حينما يريد الحق تبارك وتعالى أن يصِفَ لنا نعيم الجنة بصفة بما نعرف من نعيم الدينا : نخل وفاكهة ورمان ولحم طير وريحان .

ويقول : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد : 15] .

مع الفارق بين هذه الأشياء في الدنيا والآخرة . ويكفي أن تعرف الفرق بين خمر الدنيا وما فيها من سوء في طعمها ورائحتها واغتيالها للعقل ، وبين خمر الآخرة التي نفى الله عنها السوء ، فقال : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 47] .

وقوله : ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرة وعشياً ، وليس في الجنة وقت لا بُكْرة ولا عَشِياً ، لا لَيْل ولا نهار ؟ نقول : إن الحق تبارك وتعالى يخاطبنا على

قَدْر عقولنا ، وما نعرف نحن من مقاييس في الدنيا ، وإلاّ فنعيم الجنة دائم لا يرتبط بوقت ، كما قال سبحانه : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا ﴾ [الرعد : 35] .

وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 1011] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(105/489)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) (مريم : 59-60) ، وفي سورة الفرقان : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان : 68-70) ، للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى : (وَعَمِلَ صَالِحًا) وفي الثانية (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) ؟ وعن قوله في

الأولى في جزائهم (فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) (وفي الجزاء في الثانية : (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) ؟

(106/489)

والجواب : أن الآية الأولى ورد قبلها بعد ذكر المنعم عليهم ومن اهتدى بهديهم قوله : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (مريم : 59) ، وهذا قول موجز مجمل ، فناسبه الإيجاز في قوله (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا . . . .) الآية ، فتناسبا في التقابل الإيجازي كما تناسبا أيضاً في الفواصل ومقاطع الآي ، وذلك قوله تعالى : (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) وقوله : (وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) ، والمسهل من القراء يقول : شيا فيقف الياء المشددة . وأما قوله في آية الفرقان : (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان : 70) فإطناب يناسب التفصيل الواقع قبله في قوله : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) (الفرقان : 68) ، ثم قال : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) ، يريد ما ذكر المتصف بتقوى الله بتركه والتنزه عن مواقعة شيء منه - (يَلْقَ أَثَامًا) (الفرقان : 68) ، ثم فسر ما يلقاه (بقوله) : (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ، أي يكثر عليه ويزداد (

وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان : 69-70) ، فحصل بإزاء مضاعفة العذاب لفاعل ذلك تبديل السيئات بالحسنات إلى الغفران والرحمة ، فإيجاز بإيجاز وإطناب بإطناب مناسبة بين الجواب وما جووب به ، وكل على ما يجب ، ولا يسوغ العكس على ما تمهد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 330 ﴾

(107/489)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ [61] يعني معاينة الحق بمعنى القرب الذي جعله بينه وبينهم ، فيرى العبد قلبه في قرب الحق مشهوداً في غيب الغيب ، وغيب الغيب هو نفس الروح وفهم العقل وفطنة المراد بالقلب ، فإن نفس الروح موضع العقل ، وهو موضع القدس ، والقدس متصل بالعرش ، وهو اسم من أسماء العرش ، وجعل الله تعالى للنفس جزءاً من ألف جزء من الروح ، بل أقل من ذلك ، فإذا صارت إرادة الروح إرادة النفس أعطيا فيما بينهما الفطنة والذهن ، والفطنة إمام الذهن ، والفهم إمام

الذهن ، والفطنة حياة ، والفهم عيش ، وإنما يفهم الكلام رجلان : واحد يحب أن يفهم لكي يتكلم به في موضع ، فليس له حظ منه إذ ذاك ، وآخر يسمعه فيشغله العمل به عن غيره ، وهذا أعز من الكبريت الأحمر ، وأعز من كل عزيز ، وهو في المتحابين في الله .

والتفهم بكلف والفطنة لا تنال بالتكلف ، وهو العمل بالإخلاص له ، فإن لله تعالى عباداً في الجنة لو حجبوا عن اللقاء طرفة عين لاستغاثوا فيها كما يستغيث أهل النار في النار ، لأنهم عرفوه ، أفلا ترون إلى الكليم عليه السلام حيث لم يصبر عن رؤيته لما وجد حلاوة مناجاته حتى قال : « إلهي ، ما هذا الصوت العيراني الذي غلب على قلبي منك ؟ قد سمعت صوت الوالدة الشفيقة ، وصوت الطير في الهواء ، فما سمعت صوتاً أجلب لقلبي من هذا الصوت » .

وكان موسى عليه السلام بعد ذلك كلما رأى جبلاً أسرع إليه ، وصعد عليه ؛ شوقاً إلى كلامه جل جلاله .

وقد كان رجل من بني إسرائيل لا يذهب موسى إلى مكان إلا مشى بحذائه ، ولا يجلس مجلساً إلا جلس بحذائه ، حتى تأذى موسى عليه السلام منه ، قيل له : إنك أذيت نبي الله .

قال : إنما أريد أن أنظر إلى الفم الذي كلّم الله به .

فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] فقال : يا موسى ، إنه لن يراني خليقة في الأرض إلا مات .

فقال : « رب أرني أنظر إليك وأموت ، أحب إلي من أن لا أنظر إليك وأحيى » .

فمن أخلص لله قلبه له فاشتاق إليه وصل إليه .

وقد كان أبو عبيد الله الخواص يصيح ببغداد فيقول : أنا من ذكرك جائع لم أشبع ، أنا من ذكرك عطشان لم أرو ، واشوقاه إلى من يراني ولا أره ، ثم يأتي دجلة وعليه ثياب فيرمي نفسه فيها ، فيغوص في موضع ويخرج من موضع آخر وهو يقول : أنا من ذكرك جائع لم أشبع ، أنا من ذكرك عطشان لم أرو ، واشوقاه إلى من يراني ولا أراه ، والناس على الشط يبكون .

وجاء رجل إلى سهل يوماً والناس مجتمعون عليه فقال : يا أبا محمد انظر إيش عمل بك وإيش يوقع لك ، فلم يؤثر ذلك على سهل ، وقال : هو المقصود هو المقصود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 99.100 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ ﴾ :

فيه وجهان ، أظهرهما : أنه استثناءٌ متصلٌ . وقال الزجاج : " هو منقطعٌ " وهذا بناءً منه على أنَّ المُضَيِّعَ للصلاة من الكفار .

وقرأ عبد الله والحسن والضحاك وجماعةٌ " الصلوات " جمعاً . والغَيُّ تقدم .

وقرأ الحسنُ هنا وجميعَ ما في القرآن "يُدْخَلون " مبنياً للمفعول . ونقل الأخفش أنه قُرِئ " يُلَقَّوْن " بضم الياء وفتح اللام وتشديدِ القاف ، مِنْ لقَّاه مضعفاً . وستأتي هذه القراءة لبعض السبعة في آخر الفرقان . و " شيئاً " ، إمَّا / مصدرٌ ، أي : شيئاً من الظلم ، وإمَّا مفعولٌ به .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ :

العامَّةُ على كسر التاء نصباً على أنها بدل مِن " الجنةَ " ، وعلى هذه القراءةِ يكون قولُه ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه اعتراضٌ بين البدلِ والمبدلِ منه . الثاني : أنه حالٌ ، كذا قال الشيخ . وفيه نظرٌ : من حيث إن المضارع المنفيِّ ب " لا " كالمُثْبَتِ في أنه لا تباشِرُه واوُ الحالِ .

وقرأ أبو حيوة والحسن وعيسى بن عمر والأعمش " جناتُ " بالرفع وفيه وجهان ،

أحدُهما : أنه خبرُ مبتدٍ مضمرٍ تقديرُه : تلك ، أو هي جناتُ عدنٍ . الثاني : - وبه قال الزمخشري - أنها مبتدأ ، يعني ويكون خبرُها ﴿ التي وَعَدَ ﴾ .

(110/489)

وقرأ الحسن بن حيّ وعلي بن صالح والأعمشُ في روايةٍ " جَنَّةَ عَدْنٍ " نصباً مفرداً .

واليماني والحسنُ والأزرقُ عن حمزةَ " جنةُ " رفعاً مفرداً ، وتخريجُها واضحٌ مِمَّا تقدَّم . قال الزمخشري : " لَمَّا كانت مشتملةٌ على جناتِ عدنٍ أُبْدِلَتْ منها كقولِك : " أَبْصَرْتُ دارَكَ القاعةَ والعلاليَّ " ، و " عَدْنٍ " معرفةٌ علمٌ بمعنى العَدْنِ وهو الإقامةُ كما جعلوا فينةَ وسحَرَ وأمسَ - فيمن لم يَصْرِفْه - أعلاماً لمعاني الفنية والسَّحَر والأمس ، فجرى مَجْرى العَدْن لذلك ، أو هو عَلَمٌ لأرضِ الجنةِ لكونِها دارَ إقامة ، ولولا ذلك لَما ساغَ الإبدالُ لأنَّ النكرةَ لا تُبْدَلُ من المعرفةِ إلاَّ موصوفةً ، ولَما ساغ وصفُها بالتي " .

قال الشيخ : " وما ذكره متعقَّبٌ : أمَّا دعواه أنَّ عَدْناً ، عَلَمٌ لمعنى العَدْنِ فيحتاج إلى تَوْقيفٍ وسَماعٍ من العرب ، وكذا دعوى العَلَميةِ الشخصيةِ فيه . وأمَّا قولُه " ولولا ذلك " إلى قوله " موصوفة " فليس مذهبَ البصريين ؛ لأنَّ مذهبَهم جوازُ إبدالِ النكرةِ من المعرفةِ وإن لم تكون موصوفةً ، وإنما ذلك شيءٌ قاله البغداديون ، وهم مَحْجُوْجون بالسَّماعِ على ما بيَّناه

، وملازمتُه فاسدةٌ . وأمَّا قولُه " ولَما ساغَ وصفُها ب " التي " فلا يتعيَّن كون " التي " صفةً ، وقد ذَكَرْنا أنه يجوزُ إعرابُه بدلاً " .

قلت : الظاهر أنَّ " التي " صفةٌ ، والتمسُّكُ بهذا الظاهرِ كافٍ ، وأيضاً فإنَّ الموصولَ في قوةِ المشتقات ، وقد نَصُّوا على أنَّ البدلَ بالمشتقِّ ضعيفٌ فكذا ما في معناه .

قوله : " بالغيبِ " فيه وجهان : أحدهما : أن الباءَ حاليةٌ . وفي صاحب الحالِ احتمالان ، أحدُهما : ضميرُ الجنَّة وهو عائدُ الموصولِ ، أي : وعَدَعا ، وهي غائبةٌ عنهم لا يُشاهدونها . والثاني : أن يكونَ مِنْ " عبادَة " ، أي : وهم غائبون عنها لا يَرَوْنها ، إنما آمنوا بمجردِ الإخبار منه .

(111/489)

والوجه الثاني : أن الباءَ سببيةٌ ، أي : بسببِ تصديقِ الغيب ، وبسببِ الإيمان به .

قوله : " إنه كان " يجوز في هذا الضميرِ وجهان ، أحدُهما : أنه ضميرُ الباري تعالى يعودُ على الرحمن ، أي : إنَّ الرحمن كان موعدُه مَأْتِيًا .

والثاني : أنه ضميرُ الأمرِ والشأن ؛ لأنه مَقامُ تعظيمٍ وتفخيمٍ ، وعلى الأول يجوز أَنْ يكونَ في " كان " ضميرٌ هو اسمُها يعودُ على اللهِ تعالى ، و " وعدُه " بدلٌ من ذلك الضميرِ بدلُ

اشتمال ، و " مَأْتِيّاً " خبرُها . ويجوز أَنْ لا يكون فيها ضميرُ ، بل هي رافعةٌ لـ " وَعِدُه " و " مَأْتِيّاً " ، الخبرُ أيضاً ، وهو نظير : " إنَّ زيداً كان أبوه منطلقاً " .

ومَأْتِيّاً فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مفعولٌ على بابِهِ ، والمرادُ بالوعدِ الجنةُ ، أُطْلِقَ عليها المصدرُ أي موعوده نحو : دِرْهَمٌ ضَرْبُ الأميرِ . وقيل : الوَعْدُ مصدرٌ على بابه ومَأْتِيّاً مفعولٌ بمعنى فاعِل ولم يَرْتضِه الزمخشريُّ فإنه قال : " قيل في " مَأْتِيّاً " مفعولٌ بمعنى فاعِل . والوجهُ : أنَّ الوعدَ هو الجنة ، وهم يَأْتونَها ، أو هو مِنْ قولِك : أتى إليه إحساناً ، أي : كان وعدُه مفعولاً مُنْجزاً " .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) ﴾

قوله : ﴿ إِلاَّ سَلاَماً ﴾ :

أبدى الزمخشريُّ فيه ثلاثةَ أوجهٍ أحدُها : أَنْ يكونَ معناه : إنْ كان تَسْلِيمُ بعضِهم على بعض – أو تسليمُ الملائكة عليهم – لغواً ، فلا يسمعون لغواً إلى ذلك فهو مِنْ وادي قولِه :

3234– ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم . . . بهنَّ فُلولٌ من قراعِ الكتائبِ

(112/489)

الثاني : أنهم لا يَسْمعون فيها إلا قولاً يَسْلَمون فيه من العيبِ والنقيصةِ ، على الاستثناء المنقطع . الثالث : أنَّ معنى السلامِ هو الدعاءُ بالسلامةِ ، ودارُ السلام هي دارُ السلامةِ ، وأهلُها عن الدعاءِ بالسلامةِ أغنياءُ ، فكان ظاهرُه من باب اللَّغْوِ وفُضولِ الحديث ، لولا ما فيه من فائِدةِ الإكرامِ .

قلت : ظاهرُ هذا أنَّ الاستثناء على الأول وأخر متصلٌ ؛ فإنه صرَّح بالمنقطع في الثاني . أمَّا اتصالُ الثالثِ فواضحٌ ، لأنه أَطْلَقَ اللغوَ على السلامِ بالاعتبارِ الذي ذكره ، وأمَّا الاتصالُ في الأولِ فَعَسِرٌ ؛ إذ لا يُعَدُّ ذلك عيباً ، فليس من جنس الأول ، وسيأتي تحقيقُ هذا إنْ شاء الله تعالى عند قوله تعالى ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 614.610 ﴾

(113/489)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) ﴾

الذين حادوا عن طريقهم ، وضيعّوا حقّ الشرع ، وتخطوا واجبَ الأمر ، وزاغوا عن طريق الرشد ، وأخلوا بآداب الشرع ، وانخرطوا في سِلْكِ متابعة الشهوات – سيلقون عن قريبٍ ما يستوجبونه ، ويُعَامَلُون بما يستحقونه ، ويُعَاملون بما يستحقونه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً ﴾ .

فأولئك الذين تداركتْهم الرحمةُ الأزلية ، وسيبقون في النعم السرمدية . يستنجز الحقُّ لهم عِدَاتِهم ، ويُوَصّلُهم إلى درجاتهم ، ويُحَقّق لهم ما وعدهم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ : لأن ما أُتِيتَه فقد أتاك أو ما أَتَاكَ فقد أتيته .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ : فإن أسماعَهم مصونةٌ عن سماعِ الأغيارِ ، لا يسمعون إلا من اللَّهِ وبالله ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ .

(114/489)

كانوا يعدون مَنْ عنده طعام البكرة والعشية مِنْ جملة المياسيرِ والأغنياءِ لكونهم فقراءَ ؛ إنْ وجدوا غَداءَهم ففي الغالب يَعْدِمُونَ عشاءَهم ، وإنْ وجدوا عشاءَهم فَقَلَّما كانوا يجدون غداءَهم . ويقال في : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ فيها ﴾ [النحل : 57] : بمقدار الغدو والعشي من الزمان في الجنة أي كالوقت . ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة ؛ فللأشباحِ رِزْقٌ من مطعومٍ ومشروب ، وللأرواحِ رزقٌ من سماعٍ وشهود ، ولكلٍ – على قَدْرِ استحقاقه – قِسْطٌ معلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 435 ﴾

(115/489)

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما باينت بهذه الأوصاف دار الباطل ، أشار إلى علو رتبتها وما هو سببها بقوله : ﴿ تلك الجنة ﴾ بأداة البعد لعلو قدرها ، وعظم أمرها ﴿ التي نورث ﴾ أي نعطي عطاء الإرث

الذي لا نكد فيه من حين التأهل له بالموت ولا كد ولا استرجاع ﴿ من عبادنا ﴾ الذين أخلصناهم لنا ، فخلصوا عن الشرك نية وعملاً ﴿ من كان ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ تقياً ﴾ أي مبالغاً في التقوى ، فهو في غاية الخوف منا لاستحضاره أنه عبد ؛ قال الرازي في اللوامع : وما تقرب أحد إلى ربه بشيء أزين عليه من ملازمة العبودية وإظهار الافتقار ، والعبد يكون ذليلاً بأوصافه ، عزيزاً بأوصاف الحق تعالى - انتهى .

وذلك إشارة إلى سبب إيراثها التقوى .

(116/489)

ولما كرر سبحانه الوصف بالتقى في هذه السورة ثلاث مرات ، وختمه بأنه سبب للمقصود بالذات ، وهو الراحة الدائمة بالوراثة لدار الخلد على وجه الإقامة المستمرة ، وصفة الملك الذي لا كدر فيه بوجه ولا تخلف عن مراد ، أتبعه ما بعده إشارة إلى ما تنال به التقوى ، وهو الوقوف مع الأمر مراقبة للأمر على ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ [الإسراء : 105] لأنه لما كان العلم واقعاً بأن جميع سورة الكهف شارحة لمسألتين من مسائل قريش ، وبعض سورة سبحان شارح للثالثة ، ولطول الفصل صدرت قصة ذي القرنين بقوله ﴿ ويسألونك ﴾ إعلاماً بعطفها على مسألة الروح المصدرة بمثل ذلك ، وجاءت سورة مريم كاشفة -

تبكيتاً لأهل الكتاب الكاتمين للحق – عن أغرب من تلك القصص وأقدم زماناً وأعظم شأناً من أخبار الأنبياء المذكورين ومن أسرع التبديل بعدهم بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات ، فثبت بذلك أن هذا كله مرتب لإجابة سؤالهم وأنه كلام الله قطعاً ، إذ لو كان من عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما وعدهم الإجابة في الغد إلا وهو قادر عليها ، لما هو معلوم قطعاً من رزانة عقله ، وغزارة فطنته ، ومتانة رأيه ، ولو قدر على ذلك ما تركهم يتكلمون في عرضه بما الموت أسهل منه ، لما علم منه من الشهامة والأنفة والبعد عما يقارب الشين ، وبان بذلك أن الله سبحانه وعز شأنه ما أجمل أمر الروح ولا أخر الإجابة خمس عشرة ليلة أو أقل أو أكثر من عجز ولا جهل ، وثبت بذلك كله وبما بين من صنعه لأهل الكهف ولذي القرنين وفي ولادة يحيى وعيسى وإسحاق عليهم الصلاة والسلام تمام قدرته المستلزم لكمال علمه ، وكان الإخبار عن ذلك مطابقاً للواقع الذي ثبت بعضه بالنقل الصحيح وبعضه بأدلة العقل القاطعة ، ثبت مضمون قوله تعالى ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ وأن هذا الكتاب قيم لا عوج فيه ، فعطف عليه الجواب عن قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبرئيل عليه الصلاة والسلام " لقد أبطات عليّ يا جبرئيل حتى سؤت ظناً "

(117/489)

ونحوه مما ذكر في أسباب النزول ، فقال على لسان جبرئيل عليه الصلاة والسلام : ﴿ وما نتنزل ﴾ أي أنا ولا أحد من الملائكة بإنزال الكتاب ولا غيره ﴿ إلا بأمر ربك ﴾ المحسن إليك في جميع الأمر في التقديم والتأخير لئلا يقع في بعض الأوهام أنه حق في نفسه ، ولكنه نزل بغير أمره سبحانه ، ووقع الخطاب مقترناً بالوصف المفهم لمزيد الإكرام تطييباً لقلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإشارة إلى أنه محسن إليه ، ولفظ التنزل مشير إلى الإكرام ، وهو التردد مرة بعد مرة ووقتاً غب وقت ، ولا يكون إلا لذلك لأن النزول للعذاب يقتضي به الأمر في مثل لمح البصر ، وكان هذا عقب ذكر القيامة بذكر الجنة كما كان المعطوف عليه عقب

(118/489)

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ [الإسراء : 7] وكما كان ختام مسائلهم بذكر الآخرة في قوله ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ [الكهف : 98] - إلى آخر السورة ليكون ذلك أشد تثبيتاً للبعث وأعظم تأكيداً ، وإن استطلت هذا العطف مع بعد ما بين المعطوف والمعطوف عليه واستعظمته واستنكرته لذلك واستبعدته فقل : لما كشفت هذه السورة عن هذه القصص الغريبة ، وكان المتعنتون ربما قالوا : نريد أن يخبرنا هذا الذي ينزل عليك بجميع أنباء الأقدمين وأخبار الماضين ، قال جواباً عن ذلك أن قيل : ما أنزلنا

عليك بأخبار هؤلاء إلا بأمر ربك ، وما نتنزل فيما يأتي أيضاً إلا بأمر ربك ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ له ما بين أيدينا ﴾ أي من المكان والزمان وما فيهما ﴿ وما خلفنا ﴾ من ذلك ﴿ وما بين ذلك ﴾ وهو نحن والمكان والزمان اللذان نحن بهما وما فوقه وتحته ، ونحن نعلم ذلك ونعمل على حسب ما نعلم ، فلا نتصرف في ملكه إلا بأمره ﴿ وما كان ﴾ على تقدير من التقادير ﴿ ربك نسياً ﴾ أي ذا نسيان لشيء من الأشياء فيترك تفصيل أمر الروح ، ويؤخر الجواب عن الوقت الذي وعدتهم فيه لخفاء شيء من ذلك عليه ، ولا ينسى ما يصلحك فيحتاج إلى مذكر به ، ولا ينسى أحداً منا فينزل في وقت نسيانه له بل هو دائم الاطلاع على حركتنا وسكناتنا ، فنحن له في غاية المراقبة ، وهو سبحانه يصرفنا بحسب الحكمة في كل وقت تقتضيه حكمته ، لا يكون شيء من ذلك إلا في الوقت الذي حده له وأراده فيه ، ولا يخرج شيء من الأشياء وإن دق عن مراده .

(119/489)

ويجوز أن يقال في التعبير بصيغة فعيل أنه لا يتمكن العبد من الغيبة عن السيد بغير إذنه إلا أن كان بحيث يمكن أن يغفل وأن تطول غفلته وتعظم لكونه مجبولاً عليها ، أو أنه لما استلبث الوحي في أمر الأسئلة التي سألوا عنها من الروح وما معها خمس عشرة ليلة أو أكثر أو أقل –

على اختلاف الروايات ، فكان ذلك موهماً للأغبياء أنه نسيان ، وكان مثل ذلك لا يفعله إلا كثير النسيان ، نفى هذا الوهم بما اقتضاه من الصيغة ونفى قليل ذلك وكثيرة في السورة التي بعدها ضماً لدليل العقل بقوله

﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ [طه : 52] لما اقتضاه السياق ، فأتى في كل أسلوب بما يناسبه مع الوفاء بما يجب من حق الاعتقاد ، وهذه الآية مع ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ و ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ [الإسراء : 88] مثل ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ [هود : 3] - الآيتين في سورة هود عليه السلام ، على ما قدمت في بيانه غير أن ما جمع هناك فصل هنا في أول الجواب على أسئلتهم بآية ﴿ قل لئن اجتمعت ﴾ وأثنائه بآية ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ وآخره بهذه الآية ، لتكون الآيات رابطة على هذه الأجوبة وتوابعها وضابطة لها كالشهب والحرس الشديد بالنسبة إلى السماء ، فلا يبغيها متعنت من جهة من جهاتها كيداً إلا رد خاسئاً ، ولا يرميها بقادح ألا كان رميه خاطئاً .

(120/489)

ولما وصف سبحانه وتعالى بنفوذ الأمر واتساع العلم على وجه ثبت به ما أخبر به عن الجنة ، فثبت أمر البعث ، أتبع ذلك ما يقرره على وجه أصرح منه وأعم فقال مبدلاً من

﴿ ربك ﴾ : ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ اللتين نحن من جملة ما فيهما من عباده ﴿ وما بينهما ﴾ منا ومن غيرنا من الأحياء وغيرها ﴿ فاعبده ﴾ بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي له من مثلك ﴿ واصطبر ﴾ أي اصبر صبراً عظيماً بغاية جهدك على كل ما ينبغي الاصطبار عليه كذلك ﴿ لعبادته ﴾ أي لأجلها فإنها لا تكون إلا عن مجاهدة شديدة ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ أي متصفاً بوصف من أوصافه اتصافاً حقيقياً ، أو مسمى باسمه ، العلمَ الواقع موقع لأنه لا مماثل له حتى ولا في مجرد الاسم ، وإيراده بصورة الاستفهام كالدعوى بدليلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 547.550 ﴾

(121/489)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾

وفيه أبحاث : الأول : قوله : ﴿ تِلْكَ الجنة ﴾ هذه الإشارة إنما صحت لأن الجنة غائبة .

وثانيها : ذكروا في نورث وجوهاً الأول : نورث استعارة أي نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث .

الثاني : أن المراد أنا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له إلى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل هذا النقل إرثاً قاله الحسن .

الثالث : أن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمراتها باقية وهي الجنة فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يرث الوارث المال من المتوفى .

ورابعها : معنى من كان تقياً من تمسك باتقاء معاصيه وجعله عادته واتقى ترك الواجبات ، قال القاضي : فيه دلالة على أن الجنة يختص بدخولها من كان متقياً والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك .

والجواب : الآية تدل على أن المتقي يدخلها وليس فيها دلالة على أن غير المتقي لا يدخلها وأيضاً فصاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه أنه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق لأن المتقي جزء من مفهوم قولنا المتقي عن الكفر وإذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل تحته فالآية بأن تدل على أن صاحب الكبيرة يدخل الجنة أولى من أن تدل على أنه لا يدخلها .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) ﴾

اعلم أن في الآية إشكالاً وهو أو قوله : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [

مريم : 63] كلام الله وقوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل .

(122/489)

والجواب أنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كما أن قوله سبحانه : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] هو كلام الله وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ [آل عمران : 51] كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر ، واعلم أن ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ خطاب جماعة لواحد وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ويحتمل في سببه ما روي أن قريشاً بعثت خمسة رهط إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم فسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود : نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسألوه عنهن فإن أخبركم بخصلتين منهما فاتبعوه ، فاسألوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح قال فجاءوا فسألوه عن ذلك لم يدر كيف يجيب فوعدهم أن يجيبهم بعد ذلك ، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً وقيل خمسة عشر يوماً فشق عليه ذلك مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه

، فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أبطأت عني حتى ساء ظني واشتقت إليك قال إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست فأنزل الله تعالى هذه الآية وأنزل قوله : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [الكهف : 23 ، 24] وسورة الضحى ثم أكدوا ذلك بقولهم : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أي هو المدبر لنا في كل الأوقات الماضي والمستقبل وما بينهما أو الدنيا والآخرة وما بينهما فإنه يعلم إصلاح التدبير مستقبلاً وماضياً وما بينهما والغرض أن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته وحكمته لا اعتراض لأحد عليه فيه وقال أبو مسلم قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ

(123/489)

رَبِّكَ ﴾ يجوز أن يكون قول أهل الجنة والمراد وما نتنزل الجنة إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا أي في الجنة مستقبلاً وما خلفنا مما كان في الدنيا وما بين ذلك أي ما بين الوقتين وما كان ربك نسياً لشيء مما خلق فيترك إعادته لأنه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ويتصل به : ﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ أي بل هو ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده ﴾

قال القاضي وهذا مخالف للظاهر من وجوه : أحدها : أن ظاهر التنزل نزول الملائكة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله بأمر ربك وظاهر الأمر بحال التكليف أليق ، وثانيها : أنه خطاب من جماعة لواحد وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض في الجنة .

وثالثها : أن ما في سياقه من قوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً * رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ لا يليق إلا بحال التكليف ولا يوصف به الرسول صلى الله عليه وسلم فكأنهم قالوا للرسول وما كان ربك يا محمد نسياً يجوز عليه السهو حتى يضرك إبطاؤنا بالتنزل عليك إلى مثل ذلك ثم ههنا أبحاث :

البحث الأول : قال صاحب "الكشاف" التنزل على معنيين : أحدهما : النزول على مهل .

والثاني : بمعنى النزول على الإطلاق والدليل عليه أنه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتاً بعد وقت ليس إلا بأمر الله تعالى .

البحث الثاني : ذكروا في قوله : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ وجوهاً :

أحدها : له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومن مكان إلى مكان إلا بأمره ومشيئته فليس لنا أن ننقلب من السماء إلى الأرض إلا بأمره .

وثانيها : له ما بين أيدينا ما سلف من أمر الدنيا وما خلفنا ما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك وما بين النفختين وهو أربعون سنة .

وثالثها : ما مضى من أعمارنا وما غبر من ذلك والحال التي نحن فيها .

ورابعها : ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا .

وخامسها : الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض وعلى كل التقديرات فالمقصود أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فكيف نقدم على فعل إلا بأمره وحكمه .

البحث الثالث : قوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي تاركاً لك كقوله : ﴿ مَا وَعْدَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] أي ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك ، أما قوله : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فالمراد أن من يكون رباً لها أجمع لا يجوز عليه النسيان إذ لا بد من أن يمسكها حالاً بعد حال وإلا بطل الأمر فيهما وفيمن يتصرف فيهما ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى ، لأن فعل العبد حاصل بين السماء والأرض .

والآية دالة على أنه رب لكل شيء حصل بينهما ، قال صاحب "الكشاف" : رب السموات والأرض بدل من ربك ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السموات والأرض فاعبده واصطبر لعبادته فهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الأداء والإبلاغ وفيما يخصه من العبادة فإن قيل لم لم يقل واصطبر على عبادته بل قال واصطبر لعبادته قلنا : لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته .

(125/489)

والمعنى أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك من إلقاء أهل الكتاب إليك الأغاليط عن احتباس الوحي عنك مدة وشماتة المشركين بك ، أما قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ فالظاهر يدل على أنه تعالى جعل علة الأمر بالعبادة والأمر بالمصابرة عليها أنه لا سمي له ، والأقرب هو كونه منعماً بأصول النعم وفروعها وهي خلق الأجسام والحياة والعقل وغيرها فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه ، فإذا كان هو قد أنعم عليك بغاية الإنعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة ، ومن الناس من قال : المراد أنه سبحانه ليس له شريك في اسمه وبينوا ذلك من وجهين : الأول :

أنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شيء سواه وعن ابن عباس رضي الله عنهما لا يسمى بالرحمن غيره .

الثاني : هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل ؟ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية ، والقول الأول هو الصواب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 203.205 ﴾

(126/489)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ : " مَثَلًا وَشَبِيهًا " وقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " لَمْ تَلِدْ مِثْلَهُ الْعَوَاقِرُ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ مِثْلًا " .

وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ : " لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِاسْمِهِ " .

وَقِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى إلَهًا غَيْرُهُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه قول أهل الجنة : إننا لا ننزل موضعاً من الجنة إلا بأمر الله ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه قول جبريل عليه السلام ، لما ذكر أن جبريل أبطأ على النبي صلى الله عليه وسلم باثنتي عشرة ليلة ، فلما جاءه قال : " غِبْتَ عَنِّي حَتَّى ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ كُلَّ ظَنٍّ " . فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

ويحتمل وجهين :

أحدهما : إذا أُمِرْنَا نزلنا عليك .

الثاني : إذا أَمَرَكَ ربك نَزَّلَنا عليك الأمر على الوجه الأول متوجهاً إلى النزول ، وعلى الثاني متوجهاً إلى التنزيل .

﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ من الآخرة ، ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ من الدنيا .

﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ يعني ما بين النفختين ، قاله قتادة .

والثاني : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أي ما مضى أمامنا من الدنيا ، ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ ما يكون بعدنا من الدنيا والآخرة . ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ما مضى من قبل وما يكون من بعد ، قاله ابن جرير .

ويحتمل ثالثاً : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ : السماء ، ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ : الأرض . ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ما بين السماء والأرض .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي ما نسيك ربك .

الثاني : وما كان ربك ذا نسيان .

قوله عز وجل : ﴿ . . . . هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني مِثْلاً وشبيهاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، مأخوذ من المساماة .

الثاني : أنه لا أحد يسَمى بالله غيره ، قاله قتادة ، والكلبي .

الثالث : أنه لا يستحق أحد أن يسمى إلهاً غيره .

الرابع : هل تعلم له من ولد ، قاله الضحاك ، قال أبو طالب :

أمّا المسمى فأنت منه مكثر . . . لكنه ما للخلود سبيلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(128/489)

وقال ابن عطية :

﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾

وقرأ الجمهور " نوْرث " بسكون الواو ، وقرأ الأعمش " نورثها " وقرأ الحسن والأعرج وقتادة " نوَرّث " بفتح الواو وشد الراء .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

(129/489)

قرأ الجمهور " وما نتنزل " بالنون كأن جبريل عن نفسه والملائكة ، وقرأ الأعرج وما " يتنزل " بالياء على أنه خبر من الله أن جبريل لا يتنزل ، قال هذا التأويل بعض المفسرين ، ويرده قوله ﴿ ما بين أيدينا ﴾ لأنه لا يطرد معه وإنما يتجه أن يكون خبراً من جبريل أن القرآن لا يتنزل إلا بأمر الله في الأوقات التي يقدرها . ورويت قراءة الأعرج بضم الياء ، وقرأ ابن مسعود " إلا بقول ربك " ، وقال ابن عباس وغيره : سبب هذه الآية ، أن النبي عليه السلام أبطأ عنه

جبريل مرة فلما جاءه قال " يا جبريل قد اشتقت اليك أفلا تزورنا أكثر مما تزورنا " فنزلت هذه الآية . وقال مجاهد والضحاك : سببها أن جبريل تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم عند قوله في السؤالات المتقدمة في سورة الكهف " غداً أخبركم " حتى فرح بذلك المشركون واهتم رسول الله صلى عليه وسلم ، ثم جاء جبريل ونزلت هذه في ذلك المعنى ، فهي كالتي في الضحى ، وهذه الواو التي في قوله ﴿ وما نتنزل ﴾ هي عاطفة جملة كلام على أخرى وواصلة بين القولين وإن لم يكن معناهما واحداً . وحكى النقاش عن قوم أن قوله ﴿ وما نتنزل ﴾ متصل بقوله ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ [مريم : 19] ، وهذا قول ضعيف ، وقوله ﴿ ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ لفظ يحتاج إلى ثلاث مراتب ، واختلف المفسرون فيها ، فقال أبو العالية " ما بين الأيدي " في الدنيا بأسرها الى النفخة الأولى ، " وما خلف " الآخرة من وقت البعث ﴿ وما بين ذلك ﴾ ما بين النفختين . وقال ابن جريج " ما بين الأيدي " هو ما مر من الزمن قبل إيجاد من في الضمير ، " وما خلف " هو ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة ﴿ وما بين ذلك ﴾ هو مدة الحياة .

(130/489)

قال القاضي أبو محمد : والآية إنما المقصد بها الإشعار بملك الله تعالى لملائكه وأن قليل تصرفهم وكثيره إنما هو بأمره وانتقالهم من مكان إلى مكان ، إنما هو بحكمته إذ الأمكنة له وهم له ، فلو ذهب بالآية إلى أن المراد ب " ما بين الأيدي وما خلف " الأمكنة التي فيها تصرفهم ، والمراد ب ﴿ ما بين ذلك ﴾ هم أنفسهم ومقاماتهم لكان وجهها كأنه قال نحن مقيدون بالقدرة لا ننتقل ولا نتنزل إلا بأمر ربك . وقال ابن عباس وقتادة فيما روي وما أراه صحيحاً عنهما " ما بين الأيدي هي الآخرة وما خلف هو الدنيا " وهذا مختل المعنى إلا على التشبيه بالمكان لأن ما بين اليد إنما هو ما تقدم وجوده في الزمن بمثابة التوارة والإنجيل من القرآن وقول أبي العالية إنما يتصور في بني آدم وهذه المقالة هي للملائكة فتأمله .

(131/489)

وقوله ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ أي ممن يلحقه نسيان بعثنا إليكم في وقت المصلحة به فإنما ذلك عن قدر له أي فلا تطلب أنت يا محمد الزيارة أكثر مما شاء الله هذا ما تقتضيه قوة الكلام على التأويل الواحد أو فلا تهتم يا محمد بتأخيري ولا تلفت لفرح المشركين بذلك على التأويل الثاني و ﴿ نسياً ﴾ فعيل من النسيان والذهول عن الأمور ، وقالت فرقة ﴿ نسياً ﴾ هنا معناه تاركاً ، ع : وفي هذا ضعف لأنه إنما نفي النسيان مطلقاً فيتمكن ذلك في

النسيان الذي هو نقص وأما الترك فلا ينتفي مطلقاً ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وتركهم في ظلمات ﴾ [البقرة : 17] وقوله ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ [الكهف : 99] فلو قال نسيك أو نحوه من التقييد لصح حمله على الترك ، ولا حاجة لنا أن نقول إن التقييد في النية لأن المعنى الآخر أظهر . وقرأ ابن مسعود " وما بين ذلك وما نسيك ربك " وروى أبو الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهي عافيته فاقبلوا " ثم تلا هذه الآية وقوله ﴿ رب ﴾ بدل من قوله ﴿ وما كان ربك ﴾ ، وقوله ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ أمر بحمل تكاليف الشرع وإشعار ما بصعوبتها كالجهاد والحج والصدقات فهي شريعة تحتاج الى اصطبار أعاننا الله عليها بمنه . وقرأ الجمهور " هل تعلم " بإظهار اللام ، وقرأ بن نصر عن أبي عمرو بإدغام اللام في التاء وهي قراءة عيسى والأعمش والحسن وابن محيصن قال أبو علي : سيبويه يجيز إدغام اللام في الطاء والتاء والدال والثاء والضاد والزاي والسين ، وقرأ أبو عمرو " وهل ثوب " بإدغامها في الثاء وإدغامها في التاء أحق لأنها أدخل معها في الفم ومن إدغامها في التاء ما روي من قول مزاحم العقيلي : [الطويل]

فذر ذا ولكن هل تعين متيماً . . . على ضوء برق آخر الليل ناصب

وقوله ﴿ سمياً ﴾ ، قال قوم : وهو ظاهر اللفظ معناه موافقاً في الاسم وهذا يحسن فيه أن يريد بالاسم ما تقدم من قوله ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ أي هل تعلم من يسمى بهذا ويوصف بهذه الصفة ؟ وذلك أن الأمم والفرق لا يسمون بهذا الأسم وثناً ولا شيئاً سوى الله تعالى ، وأما الألوهية والقدرة وغير ذلك فقد يوجه السمي فيها وذلك باشتراك لا بمعنى واحد . وقال ابن عباس وغيره : قوله ﴿ سمياً ﴾ معناه مثيلاً أو شبيهاً أو نحو ذلك ، وهذا قول حسن ، وكأن السمي بمعنى المسامي والمضاهي فهو من السمو ، وهذا القول يحسن في هذه الآية ولا يحسن فيما تقدم في ذكر يحيى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(133/489)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة ﴾

الإِشارة إِلى قوله : ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نُورِث ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والشعبي ، وقتادة ،

وابن أبي عبلة : بفتح الواو وتشديد الراء .

قال المفسرون : ومعنى "نورث" : نعطي المساكن التي كانت لأهل النار – لو آمنوا للمؤمنين .

ويجوز أن يكون معنى "نورث" : نعطي ، فيكون كالميراث لهم من جهة أنها تمليك مستأنف .

وقد شرحنا هذا في [الأعراف : 43] .

قوله تعالى : ﴿ وما نتنزَّل إلا بأمر ربّك ﴾ وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر : "وما يَتنزَّل" بياء مفتوحة .

وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا" " ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : " أن الملَك أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه ، فقال : لعلِّي أبطأتُ ، قال : "قد فعلتَ" ، قال : وما لي لا أفعل ، وأنتم لا تتسوَّكون ، ولا تقصُّون أظفاركم ، ولا تُنَقُّون براجمكم " ، فنزلت الآية ، قاله مجاهد .

قال ابن الأنباري : البراجم عند العرب : الفصوص التي في فصول ظهور الأصابع ، تبدو إذا جُمعت ، وتغمض إذا بُسطت .

والرواجب : ما بين البراجم ، بين كل برجمتين راجبة .

والثالث : " أن جبريل احتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله [قومه] عن قصة أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، والروح ، فلم يدر ما يجيبهم ، ورجا أن يأتيَه جبريل بجواب ، فأبطأ عليه ، فشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم مشقَّة شديدة ، فلما نزل جبريل قال له : "أبطأتَ عليَّ حتى ساء ظني ، واشتقتُ إليك" ، فقال جبريل : إنِّي كنتُ أَشْوَق ، ولكنِّي عبدٌ مأمور ، إذا بُعثتُ نزلتُ ، وإذا حُبستُ احتبستُ " ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة ، وقتادة ، والضحاك .

وفي سبب احتباس جبريل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولان .

(134/489)

أحدهما : لامتناع أصحابه من كمال النظافة ، كما ذكرنا في حديث مجاهد .

والثاني : لأنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف ، فقال : "غداً أُخبركم" ، ولم يقل : إن شاء الله ؛ وقد سبق هذا في سورة [الكهف : 24] .

وفي مقدار احتباسه عنه خمسة أقوال .

أحدها : خمسة عشر يوماً ؛ وقد ذكرناه في (الكهف) عن ابن عباس .

والثاني : أربعون يوماً ، قاله عكرمة ، ومقاتل .

والثالث : اثنتا عشرة ليلة ، قاله مجاهد .

والرابع : ثلاثة أيام ، حكاه مقاتل .

والخامس : خمسة وعشرون يوماً ، حكاه الثعلبي .

وقيل : إن سورة (الضحى) نزلت في هذا السبب .

والمفسرون على أن قوله : "وما نتنزل إلا بأمر ربّك" قول جبريل .

وحكى الماوردي : أنه قول أهل الجنة إذا دخلوها ، فالمعنى : ما ننزل هذه الجنان إلا بأمر الله .

وقيل : ما ننزل موضعاً من الجنة إلا بأمر الله .

وفي قوله : ﴿ ما بين أيدينا وما خلفنا ﴾ قولان .

أحدهما : ما بين أيدينا : الآخرة ، وما خلفنا : الدنيا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، ومقاتل .

والثاني : ما بين أيدينا : ما مضى من الدنيا ، وما خلفنا : من الآخرة ، فهو عكس الأول ، قاله مجاهد .

وقال الأخفش : ما بين أيدينا : قبل أن نُخلَق ، وما خلفنا : بعد الفناء .

وفي قوله تعالى : ﴿ وما بين ذلك ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : ما بين الدنيا والآخرة ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : ما بين النفختين ، قاله مجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية .

والثالث : حين كوّنّا ، قاله الأخفش .

قال ابن الأنباري : وإنما وحّد ذلك ، والإشارة إلى شيئين .

أحدهما : "ما بين أيدينا" .

والثاني : "ما خلفنا" ، لأن العرب توقع ذلك على الاثنين والجمع .

قوله تعالى : ﴿ وما كان ربك نَسِيّاً ﴾ النَّسِيُّ ، بمعنى الناسي .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : ما كان تاركاً لك منذ أبطأ الوحي عنك ، قاله ابن عباس .

وقال مقاتل : ما نسيك عند انقطاع الوحي عنك .

(135/489)

والثاني : أنه عالم بما كان ويكون ، لا ينسى شيئاً ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فاعبُده ﴾ أي : وحّده ، لأن عبادته بالشّرك ليست عبادة ، ﴿ واصطبر لعبادته ﴾ أي : اصبر على توحيده ؛ وقيل : على أمره ونهيه .

قوله تعالى : ﴿ هل تعلم له سميّاً ﴾ روى هارون عن أبي عمرو أنه كان يُدغم "هل تعلم" ،

ووجهه أن سيبويه يجيز إدغام اللام في التاء والثاء والدال والزاي والسين والصاد والطاء ، لأن آخر مخرج من اللام وقريب من مخارجهن .

قال أبو عبيدة : إذا كان بعد "هل" تاء ، ففيه لغتان ، بعضهم يُبين لام "هل" ، وبعضهم يدغمها .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : مِثْلاً وشبهاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : هل تعلم أحداً يسمّى "اللهَ" غيرُه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له : خالق وقادر ، إلا هو ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(136/489)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الجنة التي ﴾

أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها ﴿ نُورِثُ ﴾ بالتخفيف .

وقرأ يعقوب "نُوَرِّثُ" بفتح الواو وتشديد الراء .

والاختيار التخفيف ؛ لقوله تعالى : "ثم أورثنا الكتاب" .

﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ قال ابن عباس : أي من اتقاني وعمل بطاعتي .

وقيل : هو على التقديم والتأخير ، تقديره : نورث من كان تقياً من عبادنا .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

روى الترمذي عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : "ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا" قال : فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية " قال هذا حديث حسن غريب .

ورواه البخاري : حدّثنا خلاد بن يحيى حدّثنا عمر بن ذرّ قال : سمعت أبي يحدّث عن سعيد بن جبير " عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : "ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ " الآية ؛ قال : كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم " وقال مجاهد : " أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه ، فقال : "ما الذي أبطأك" قال : كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تأخذون من شواربكم ، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبَكم ، ولا تستاكون ؛ قال مجاهد : فنزلت الآية في هذا " وقال مجاهد أيضاً وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي : احتبس جبريل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح

ولم يدر ما يجيبهم ، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه ؛ قال عكرمة : فأبطأ عليه أربعين يوماً .

وقال مجاهد : اثنتي عشرة ليلة .

وقيل : خمسة عشر يوماً ؛ وقيل : ثلاثة عشر .

وقيل : ثلاثة أيام .

(137/489)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " "أبطأت عليّ حتى ساء ظني واشتقت إليك" فقال جبريل عليه السلام : إني كنت أشوق ، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حُبست احتبست " ، فنزلت الآية : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ وأنزل ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 31] .

ذكره الثعلبي والواحدي والقشيري وغيرهم .

وقيل : هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر ربك .

وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل .

وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل : تكون غير متصلة بما قبلها ، والقرآن سور ، ثم السور تشتمل على جمل ، وقد تنفصل جملة عن جملة .

"وَمَا نَتَنَزَّلُ" أي قال الله تعالى : قل يا جبريل ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ .

وهذا يحتمل وجهين : أحدهما : إنا إذا أمرنا نَزَلنا عليك .

الثاني : إذا أمرك ربك نزّلنا عليك ، فيكون الأمر على (الوجه) الأوّل متوجهاً إلى النزول ، وعلى الوجه الثاني متوجهاً إلى التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ﴾ أي لله .

﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أي علم ما بين أيدينا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ قال ابن عباس وابن جريج : ما مضى أمامنا من أمر الدنيا ، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة "وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ" البرزخ .

وقال قتادة ومقاتل : "له ما بين أيدينا" من أمر الآخرة "وما خلفنا" ما مضى من الدنيا "وما بين ذلك" ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة .

الأخفش : "ما بين أيدينا" ما كان قبل أن نخلق "وما خلفنا" ما يكون بعد أن نموت "وما بين ذلك" ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت .

وقيل : "ما بين أيدينا" من الثواب والعقاب وأمور الآخرة .

"وما خلفنا" ما مضى من أعمالنا في الدنيا "وما بين ذلك" أي ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة .

(138/489)

ويحتمل خامساً : "ما بين أيدينا" السماء "وما خلفنا" الأرض "وما بين ذلك" أي ما بين السماء والأرض .

وقال ابن عباس في رواية : "له ما بين أيدينا" يريد الدنيا إلى الأرض "وما خلفنا" يريد السموات وهذا على عكس ما قبله "وما بين ذلك" يريد الهواء ؛ ذكر الأوّل الماوردي والثاني القشيريّ .

الزمخشري : وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها ، والحال التي نحن فيها .

ولم يقل : ما بين ذينك لأن المراد ما بين ما ذكرنا ؛ كما قال : ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] أي بين ما ذكرنا .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي ناسياً إذا شاء أن يرسل إليك أرسل .

وقيل : المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي .

وقيل : المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها ، ولا ينسى شيئاً منها .

قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما ومالكهما ومالك ما بينهما ؛ فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان .

﴿ فاعبده ﴾ أي وحِّده لذلك .

وفي هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى ؛ كما يقوله أهل الحق ، وهو القول الحق ؛ لأن الرب في هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك ، وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض ، دخل في ذلك اكتساب الخلق ، ووجبت عبادته ؛ لما ثبت أنه المالك على الإطلاق ، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود .

﴿ واصطبِر لِعِبَادَتِهِ ﴾ أي لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحي عنك ، بل اشتغل بما أمرت به .

وأصل اصطبر اصتبر ، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما ، فأبدل من التاء طاء ؛ كما تقول من الصوم : اصطام ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولداً أو نظيراً ؛ أو مثلاً ؛ أو شبيهاً يستحق مثل اسمه الذي هو الرحمن .

وقاله مجاهد .

مأخوذ من المساماة .

وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : هل تعلم أحداً سمي الرحمن .

قال النحاس : وهذا أجلّ إسناد علمته روي في هذا الحرف ، وهو قول صحيح ؛ لا يقال الرحمن إلا الله .

قلت : وقد مضى هذا مبيناً في البسملة .

والحمد لله .

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد "هل تعلم له سمِيا" قال : مثلاً .

ابن المسيب : عدلاً .

قتادة والكلبي : هل تعلم أحداً يسمي الله تعالى غير الله ، أو يقال له الله إلا الله .

وهل بمعنى لا ؛ أي لا تعلم . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(140/489)

وقال أبو حيان :

وقرأ الجمهور ﴿ نورث ﴾ مضارع أورث ، والأعمش نورثها بإبراز الضمير العائد على

الموصول ، والحسن والأعرج وقتادة ورويس وحميد وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو بفتح الواو وتشديد الراء .

والتوريث استعارة أي تبقى عليه الجنة كما يبقى على الوارث مال الموروث ، والأتقياء يلقون ربهم قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ، فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى .

وقيل : أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا .

﴿ وما نتنزل إلاّ بأمر ربك ﴾ أبطأ جبريل عن الرسول مرة ، فلما جاء قال : " يا جبريل قد اشتقت إليك أفلا تزورنا أكثر مما تزورنا " ؟ فنزلت .

وقال مجاهد والضحاك : سببها أن جبريل عليه السلام تأخر في السؤالات المتقدمة في سورة الكهف وهي كالتي في الضحى ، وتنزل تفعل وهي للمطاوعة وهي أحد معاني تفعل ، تقول : نزلته فتنزل فتكون لمواصلة العمل في مهلة ، وقد تكون لا يلحظ فيه ذلك إذا كان بمعنى المجرد كقولهم : تعدى الشيء وعداه ولا يكون مطاوعاً فيكون تنزل في معنى نزل .

كما قال الشاعر :

فلست لأنسى ولكن لملاك . . .

تنزل من جو السماء يصوب

وقال الزمخشري : التنزل على معنيين : معنى النزول على مهل ، ومعنى النزول على

الإطلاق .

كقوله :

فلست لأنسى البيت

لأنه مطاوع نزّل ونزّل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بهذا الموضع هو النزول على مهل ، والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتاً غبّ وقت انتهى .

وقال ابن عطية : وهذه الواو التي في قوله ﴿ وما نتنزل ﴾ هي عاطفة جملة كلام على أخرى واصلة بين القولين ، وإن لم يكن معناهما واحداً .

وحكى النقاش عن قوم أن قوله و ﴿ ما نتنزل ﴾ متصل بقوله ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ وهذا قول ضعيف انتهى .

(141/489)

والذي يظهر في مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر قصة زكريا ومريم وذكر إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس ثم ذكر أنهم أنعم تعالى عليهم وقال ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من ذرية إبراهيم ، وذكر تعالى أنه خلف بعد هؤلاء خلف وهم اليهود والنصارى أصحاب الكتب لأن غيرهم لا يقال فيهم أضاعوا

الصلاة إنما يقال ذلك فيمن كانت له شريعة فرض عليهم فيها الصلاة بوحي من الله تعالى ، وكان اليهود هم سبب سؤال قريش للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) تلك المسائل الثلاث ، وأبطأ الوحي عنه ففرحت بذلك قريش واليهود وكان ذلك من اتباع شهواتهم ، هذا وهم عالمون بنبوّة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله تعالى ﴿ وما نتنزل ﴾ تنبيهاً على قصة قريش واليهود ، وأن أصل تلك القصة إنما حدثت من أولئك الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وختماً لقصص أولئك المنعم عليهم لمخاطبة أشرفهم محمد (صلى الله عليه وسلم) واستعذاراً من جبريل عليه السلام للرسول بأن ذلك الإبطاء لم يكن منه إذ لا يتنزل إلاّ بأمر الله تعالى ، ولما كان إبطاء الوحي سببه قصة السؤال وكونه (صلى الله عليه وسلم) لم يقرن أن يجيبهم بالمشيئة ، وكان السؤال متسبباً عن اتباع اليهود شهواتهم وخفيات خبثهم اكتفى بذكر النتيجة المتأخرة عن ذكر ما آثرته شهواتهم الدنيوية وخبثهم .

قال أبو العالية : ما بين الأيدي الدنيا بأسرها إلى النفخة الأولى ، وما خلف ذلك الآخرة من وقت البعث ، وما بين ذلك ما بين النفختين .

قال ابن عطية : وقول أبي العالية إنما يتصور في بني آدم ، وهذه المقالة هي للملائكة فتأمله .

وقال ابن جريج : ما بين الأيدي هو ما مر من الزمان قبل الإيجاد ، وما خلف هو ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة ، وما بين ذلك هو مدة الحياة .

وفي كتاب التحرير والتحبير ﴿ ما بين أيدينا ﴾ الآخرة ﴿ وما خلفنا ﴾ الدنيا رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال ابن جبير وقتادة ومقاتل وسفيان .

وقال مجاهد : عكسه .

وقال الأخفش : ﴿ ما بين أيدينا ﴾ قبل أن نخلق ﴿ وما خلفنا ﴾ بعد الفناء ﴿ وما بين ذلك ﴾ ما بين الدنيا والآخرة .

وقال مجاهد وعكرمة وأبو العالية : ما بين النفختين .

وقال الأخفش : حين كوننا .

وقال صاحب الغينان : ﴿ ما بين أيدينا ﴾ نزول الملائكة من السماء ، ﴿ وما خلفنا ﴾ من الأرض ﴿ وما بين ذلك ﴾ ما بين السماء والأرض .

قال ابن القشيري مثل قول ابن جريج ، ثم قال : حصر الأزمنة الثلاثة وهي أن كلها لله هو منشئها ومدبر أمرها على ما يشاء من تقديم إنزال وتأخيره انتهى .

وفيه بعض تلخيص وتصرف .

وقال ابن عطية : إنما القصد الإشعار بملك الله تعالى لملائكته ، وأن قليل تصرفهم وكثيره

إنما هو بأمره وانتقالهم من مكان إلى مكان إنما هو بحكمته إذ الأمكنة له وهم له ، فلو ذهب بالآية إلى أن المراد بما بين الأيدي وما خلف الأمكنة التي فيها تصرفهم والمراد بما بين ذلك هم أنفسهم ومقاماتهم لكان وجهاً كأنه قال : نحن مقيدون بالقدرة لا ننتقل ولا نتنزل إلاّ بأمر ربك انتهى .

وما قاله فيه ابن عطية له إلى آخره ذهب إلى نحوه الزمخشري قال له : ما قدامنا وما خلفنا من الجهات والأماكن .

وما نحن فيها ، فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلاّ بأمر المليك ومشيئته ، والمعنى أنه محيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلاّ صادراً عما توجبه حكمته ويأمرنا ويأذن لنا فيه انتهى .

وقال البغوي : له علم ما بين أيدينا .

(143/489)

وقال أبو مسلم وابن بحر : ﴿ وما نتنزل ﴾ الآية ليس من كلام الملائكة وإنما هو من كلام أهل الجنة بعضهم لبعض إذا دخلوها وهي متصلة بالآية الأولى إلى قوله ﴿ وما بين ذلك ﴾ أي ما ننزل الجنة إلاّ بأمر ربك له ﴿ ما بين أيدينا ﴾ أي في الجنة مستقبلاً ﴿ وما خلفنا

﴿ مما كان في الدنيا وما بينهما أي ما بين الوقتين .

وحكى الزمخشري هذا القول فقال : وقيل هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة أي وما ننزل الجنة إلاّ بإذن من الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة ، اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازي عليها .

ثم قال تعالى تقريراً لهم ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ لأعمال العاملين غافلاً عما يجب أن يثابوا به ، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذي ملكوت السموات والأرض وما بينهما انتهى .

وقال القاضي : هذا مخالف للظاهر من وجوه .

أحدهما : أن ظاهر التنزيل نزول الملائكة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ولقوله ﴿ بأمر ربك ﴾ فظاهر الأمر بحال التكليف أليق .

وثانيها : خطاب من جماعة لواحد ، وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض في الجنة .

وثالثها : أن ما في مساقه ﴿ وما كان ربك نسياً رب السموات والأرض ﴾ لا يليق بحال التكليف ولا يوصف به الرسول انتهى .

وقرأ الجمهور ﴿ وما نتنزل ﴾ بالنون عنى جبريل نفسه والملائكة .

وقرأ الأعرج بالياء على أنه خبر من الله .

قيل : والضمير في يتنزل عائد على جبريل عليه السلام .

قال ابن عطية : ويردّه له ﴿ ما بين أيدينا ﴾ لأنه لا يطرد معه وإنما يتجه أن يكون خبراً عن جبريل أن القرآن لا يتنزل إلا بأمر الله في الأوقات التي يقدرها وكذا قال الزمخشري على الحكاية عن جبريل ، والضمير للوحي انتهى .

(144/489)

ويحمل ذلك القول على إضمار أي وما يتنزل جبريل إلاّ بأمر ربك قائلاً له ﴿ ما بين أيدينا ﴾ أي يقول ذلك على سبيل الاستعذار في البطء عنك بأن ربك متصرف فينا ليس لنا أن نتصرف إلاّ بمشيئته ، وإخبار أنه تعالى ليس بناسيك وإن تأخر عنك الوحي .

وارتفع ﴿ رب السموات ﴾ على البدل أو على خبر مبتدإٍ محذوف .

وقرأ الجمهور ﴿ هل تعلم ﴾ بإظهار اللام عند التاء .

وقرأ الأخوان وهشام وعليّ بن نصر وهارون كلاهما عن أبي عمرو والحسن والأعمش وعيسى وابن محيصن بالإدغام فيهما .

قال أبو عبيدة : هما لغتان وعلى الإدغام أنشدوا بيت مزاحم العقيلي :

فذر ذا ولكن هل تعين متيماً . . .

على ضوء برق آخر الليل ناصب

وعدي فاصطبر باللام على سبيل التضمين أي اثبت بالصبر لعبادته لأن العبادة تورد شدائد ، فاثبت لها وأصله التعدية بعلى كقوله تعالى ﴿ واصطبر عليها ﴾ والسميّ من توافق في الاسم تقول : هذا سميك أي اسمه مثل اسمك ، فالمعنى أنه لم يسم بلفظ الله شيء قط ، وكان المشركون يسمون أصنامهم آلهة والعزّى إله وأما لفظ الله فلم يطلقوه على شيء من أصنامهم .

وعن ابن عباس : لا يسمى أحد الرحمن غيره .

وقيل : يحتمل أن يعود ذلك على قوله ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي هل تعلم من يسمى أو يوصف بهذا الوصف ، أي ليس أحد من الأمم يسمى شيئاً بهذا الاسم سوى الله .

وقال مجاهد وابن جبير وقتادة ﴿ سمياً ﴾ مثلاً وشبيهاً ، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً .

قال ابن عطية : وكان السميّ بمعنى المسامي والمضاهي فهو من السمو ، وهذا قول حسن ولا يحسن في ذكر يحيى انتهى .

يعني لم نجعل له من قبل ﴿ سمياً ﴾ .

وقال غيره : يقال فلان سميّ فلان إذا شاركه في اللفظ ، وسمِّيه إذا كان مماثلاً له في صفاته

الجميلة ومناقبه .

ومنه قول الشاعر :

فأنت سمي للزبير ولست للزبير . . .

سمياً إذ غدا ما له مثل

وقال الزجاج : هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له خالق وقادراً إلاّ هو .

وقال الضحاك : ولداً رداً على من يقول ولد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(145/489)

وقال أبو السعود :

﴿ تِلْكَ الجنة ﴾

مبتدأٌ وخبرٌ جيء به لتعظيم شأنِ الجنةِ وتعيينِ أهلِها ، فإن ما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتِها وعلوِّ رتبتها ﴿ التى نُورِثُ ﴾ أي نورثها ﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ أي نُبقيها عليهم بتقواهم ونمتّعهم بها كما نُبقي على الوارث مالَ مُورِّثه ونمتّعه به ، والوِراثةُ أقوى ما يستعمل في التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث إنها لا تُعقَبُ

بفسخ ولا استرجاعٍ ولا إبطالٍ ، وقيل : يُورَّث المتقون من الجنة المساكنَ التي كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادةً في كرامتهم ، وقرىء نورّث بالتشديد .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ (حكايةٌ لقول جبريلَ حين استبطأه رسولُ الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهفِ وذي القرنين والروح ، فلم يدرِ كيف يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوماً أو خمسةَ عشرَ فشق ذلك عليه مشقةً شديدة ، وقال المشركون : وَدَّعَه ربُّه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك) وأنزل الله عز وجل هذه الآيةَ وسورةَ الضحى ، والتنزّل النزولُ على مَهل لأنه مطاوعٌ للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزولِ كما يطلق التنزيلُ على الإنزال ، والمعنى وما ننزِل وقتاً غَبَّ وقتٍ إلا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمتُه ، وقرىء وما يَتنزَّل بالياء والضمير للوحي ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان ولا نتنزّل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته .

(146/489)

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي تاركاً لك يعني أن عدمَ النزل لم يكن إلا لعدم الأمر به لحكمة بالغةٍ فيه ، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعِه إياك كما زعمَتِ الكفرة ، وفي إعادة اسمِ الربّ

المُعربِ عن التبليغ إلى الكمال اللائقِ مضافاً إلى ضميره عليه السلام من تشريفه والإشعارِ بعلة الحكمِ ما لا يخفى ، وقيل : أولُ الآية حكايةُ قولِ المتقين حين يدخُلون الجنة مخاطِباً بعضُهم بعضاً بطريق التبجّح والابتهاج ، والمعنى وما نتنزّل الجنةَ إلا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالكُ الأمورِ كلّها سالِفها ومُتَرقَّبها وحاضرِها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضلِه وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ تقريرٌ لقولهم من جهة الله تعالى أي وما كان ناسياً لأعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها .

وقوله تعالى : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بيانٌ لاستحالة النسيان عليه تعالى فإن مَن بيده ملكوتُ السموات والأرض وما بينهما كيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحتِه سبحانه الغفلةُ والنسيانُ ؟ وهو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أو بدلٌ من ربك ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاعبده واصطبرِ لِعِبَادَتِهِ ﴾ لترتيب ما بعدها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى ربَّ السمواتِ والأرض وما بينهما ، وقيل : من كونه تعالى غيرَ تارك له عليه السلام أو غيرَ ناس لأعمال العاملين ، والمعنى : فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر من الربوبية الكاملةِ فاعبده الخ ، فإن إيجابَ معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين عرفتَ أنه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمالَ العاملين كائناً مَنْ كان فأقبِلْ على عبادته واصطبرْ على مشاقّها ولا تحزن بإبطال الوحي وهُزْؤ الكفرةِ ، فإنه يراقبك ويراعيك ويلطُف بك في الدنيا والآخرة .

وتعديةُ الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما في قوله تعالى : ﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ لتضمينه معنى الثباتِ للعبادة فيما تورِد عليه من الشدائد والمشاقّ ، كقولك للمبارز : اصطبرْ لقرنك أي اثبُت له فيما يورِد عليك من شدائده ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ السمِيُّ الشريكُ في الاسم والظاهرُ أن يراد به هاهنا الشريكُ في اسم خاص قد عُبّر عنه تعالى بذلك وهو ربُّ السموات والأرض وما بينهما ، والمرادُ بإنكارُ العلم ونفيُه إنكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجهٍ وآكَدِه ، فالجملةُ تقريرٌ لما أفاده الفاء من علّية ربوبيته العامةِ لوجوب عبادتِه بل لوجوب تخصّصها به تعالى ببيان استقلالِه عز وجل بذلك الاسمِ وانتفاءِ إطلاقِه على الغير بالكلية حقاً أو باطلاً .

وقيل : المرادُ هو الشريكُ في الاسم الجليلِ فإن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسمّوا الصنم بالجلالة أصلاً ، وقيل : هو الشريكُ في اسم الإله والمرادُ بالتسمية التسميةُ على الحق ، فالمعنى هل تعلم شيئاً يسمى بالاستحقاق إلها ؟ وأما التسميةُ على الباطل فهي كلا تسميةٍ ، فتقريرُ الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين من الإشعار باستحقاق العبادةِ فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾

استئناف جىء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فاسم الإشارة مبتدأ ﴿ والجنة ﴾ خبر له والموصول صفة لها والجملة بعده صلته والعائد محذوف أي نورثها ، وبذلك قرأ الأعمش .

وقرأ الحسن .

والأعرج .

وقتادة .

ورويس .

وحميد .

وابن أبي عبلة .

وأبو حيوة .

ومحبوب عن أبي عمرو ﴿ التى نُورِثُ ﴾ بفتح الواو وتشديد الراء والمراد نبقيها على من

كان تقياً من ثمرة تقواه ونمتعه بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به فالايراث مستعار للإبقاء ، وإيثاره على سائر ما يدل على ذلك كالبيع والهبة لأنه أتم أنواع التمليك من حيث أنه لا يعقب بفسح ولا استرجاع ولا إبطال ، وقيل : يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا .

(149/489)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : ليس من أحد الأوله في الجنة منزل وأزواج فإذا كان يوم القيامة ورث الله تعالى المؤمن كذا وكذا منزلا من منازل الكفار وذلك قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ ﴾ الآية ، ولا يخفى أن هذا إن صح فيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى العين والرأس وإلا فقد قيل عليه : إنه ضعيف لأنه يدل على أن بعض الجنة موروث والنظم الجليل يدل على أنها كلها كذلك ولأن الايراث ينبىء عن ملك سابق لا على فرضه مع أنه لا داعي للفرض هنا لكن تعقب بأنه يكفي في الإيراث كون الموروث كان موجوداً لكن بشرط التقوى بناء على ما ذهب إليه بعضهم في قولع تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ ﴾ [مريم : 61] حيث قال : المراد من العباد ما يعم المؤمن التقي وغيره ووعد غير المؤمن اتقي مشروط بالإيمان والتوقى ، نعم اختار الأكثرون أن

المراد من العباد هناك المتقون والمراد منهم هنا الأعم ، والمراد من التقي من آمن وعمل صالحاً على ما قيل ، ولا دلالة في الآية على أن غيره لا يدخل الجنة مطلقاً ، وأخرج ابن أبي حاتم عن داود بن أبي هند أنه الموحد فتذكر ولا تغفل .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

حكاية قول جبرائيل صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، فقد روي أنه احتبس عنه صلى الله عليه وسلم أياما حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فلم يدر عليه الصلاة والسلام كيف يجيب حتى حزن واشتد عليه ذلك وقال المشركون : إن ربه ودعه وقلاه فلما نزل قال له عليه الصلاة والسلام : يا جبريل احتبست عني حتى ساء ظني واشتقت إليك فقال : إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست وأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الضحى قاله غير واحد ، فهو من عطف القصة على القصة على ما قاله الخفاجي .

(150/489)

وفي الكشف وجه وقوع ذلك هذا الموقع أنه تعالى لما فرغ من أقاصيص الأنبياء عليهم السلام تثبيتاً له صلى الله عليه وسلم وذنب بما أحدث بعدهم الخلوف واستثنى الإخلاف

وذكر جزاء الفريقين عقب بحكاية نزول جبريل عليه السلام وما رماه المشركون به من توديع ربه سبحانه إياه زيادة في التسلية وإن الأمر ليس على ما زعم هؤلاء الخلوف وأدمج فيه مناسبته لحديث التقوى بما دل على أنهم مأمورون في حركة وسكون منقادون مفوضون لطفاً له ولأمته صلى الله عليه وسلم ولهذا صرح بعده بقوله تعالى : ﴿ فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : 65] وفيه انك لا ينبغي أن تكثرت بمقالة المخالفين إلى أن تلقى ربك سعيداً ، وعطف عليه مقالة الكفار بياناً لتباين ما بين المقالتين ومعا عليه الملك المعصوم وازنسان الجاهل الظلوم فهو استطراد شبيه بالاعتراض حسن الموقع انتهى ، ولا يأبى ما تقدم في سبب النزول ما أخرجه أحمد .

والبخاري .

والترمذي .

والنسائي .

وجماعة في سببه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه الصلاة والسلام : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ " لجواز أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك في أثناء محاورته السابقة أيضاً واقتصر في كل رواية على شيء مما وقع في المحاورة ، وقيل : يجوز أن يكون النزول متكرراً نعم ما ذكر في التوجيه إنما يحسن على بعض الروايات السابقة في المراد

بالخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

وقال بعضهم : إن التقدير هذا ، وقال جبريل : وما نتنزل الخ وبه يظهر حسن العطف ووجهه انتهى وتعقب بأنه لا محصل له .

(151/489)

وحكى النقاش عن قوم أن الآية متصلة بقول جبريل عليه السلام أولاً ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِاَهَبَ لَكِ غلاما زَكِيّاً ﴾ [مريم : 19] وهو قول نازل عن درجة القبول جداً ، والتنزل النزول على مهل لأنه مطاوع نزل يقال نزلته فتنزل ، وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل ، وعلى ذلك قوله :

فلست لإنسى ولكن لملأك . . .

تنزل من جو السماء يصوب

إذ لا أثر للتدرج في مقصود الشاعر ، والمعنى ما نتنزل وقتاً غب وقت إلا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته سبحانه ، وقرأ الأعرج دوما يتنزل ﴾ بالياء والضمير للوحي بقرينة الحال ، وسبب النزول والكلام لجبريل عليه السلام ، وقيل : إن الضمير له عليه السلام والكلام له عز وجل أخبر سبحانه أنه لا يتنزل جبريل إلا بأمره تعالى قائلاً : ﴿ ﴾ بالياء

والضمير للوحي بقرينة الحال ، وسبب النزول والكلام لجبريل عليه السلام ، وقيل : إن الضمير له عليه السلام والكلام له عز وجل أخبر سبحانه أنه لا يتنزل جبريل إلا بأمره تعالى قائلاً : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ ما قدامنا من الزمان المستقبل ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ من الزمان الماضي ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ المذكور من الزمان الحال فلا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره سبحانه ومشيئته عز وجل ، وقال ابن جريج : ما بين الأيدي هو ما مر من الزمان قبل الإيجاد وما خلف هو ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة وما بين ذلك هو مدة الحياة ، وقال أبو العالية : ما بين الأيدي الدنيا بأسرها إلى النفخة الأولى وما خلف ذلك الآخرة من وقت البعث وما بين ذلك ما بين النفختين وهو أربعون سنة ، وفي كتاب التحرير والتحبير ما بين الأيدي الآخرة وما خلف الدنيا ورواه العوفي عن ابن عباس وبه قال ابن جبير .

وقتادة ومقاتل .

(152/489)

وسفيان ، وقال الأخفش : ما بين الأيدي هو ما قبل الخلق وما خلف هو ما بعد الفناء وما بين ذلك ما بين الدنيا والآخرة فلما آت على هذه الأقوال من الزمان .

وقال صاحب الفنيان : ما بين أيدينا السماء وما خلفنا الأرض وما بين ذلك ما بين الأرض

والسماء ، وقيل : ما بين الأيدي الأرض وما خلف السماء وقيل : ما بين الأيدي المكان الذي ينتقلون إليه وما خلف المكان الذي ينتقلون منه وما بين ذلك المكان الذي هم فيه فالما آت من الأمكنة ، واختار بعضهم تفسيرها بما يعم الزمان والمكان ، والمراد أنه تعالى المالك لكل ذلك فلا ننتقل من مكان إلى مكان ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بإذنه عز وجل .

وقال البغوي : المراد له علم ما بين أيدينا الخ أي فلا نقدم على ما لم يكن موافق حكمته سبحانه وتعالى :

واختار بعضهم التعميم أي له سبحانه ذلك ملكاً وعلماً ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي تاركاً أنبياءه عليهم السلام ويدخل صلى الله عليه وسلم في ذلك دخولاً أولياً أي ما كان عدم النزول إلا لعدم الأمر به ولم يكن عن ترك الله تعالى لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة وإنما كان لحكمة بالغة ، وقيل : النسيان على ظاهره يعني أنه سبحانه لاحاطة علمه وملكه لا يطرأ عليه الغفلة والنسيان حتى يغفل عنك وعن الإيحاء إليك وإنما كان تأخير الإيحاء لحكمة علمها جلشأنه ، واختير الأول لأن هذا المعنى لا يجوز عليه سبحانه فلا حاجة إلى نفيه عنه عز وجل مع أن الأول هو الأوفق لسبب النزول .

(153/489)

ورجح الثاني بأنه أوفق بصيغة المبالغة فإنها باعتبار كثرة من فرض التعلق به وهي أتم على الثاني مع ما في ذلك من إبقاء اللفظ على حقيقته ، وكثيراً ما جاء في القرآن نفي ما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى وفيه نظر ، نعم لا شبهة في أن المتبادر الثاني وأمر الأوفقية لسبب النزول سهل ، وفي إعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ إلى الكمال اللائق مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه صلى الله عليه وسلم والاشعار بعلة الحكم ما لا يخفى ، وقال أبو مسلم .

وابن بحر : أول الآية إلى ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ من كلام المتقين حين يدخلون الجنة والتنزل فيه من النزول في المكان ، والمعنى وما نحل الجنة ونتخذها منازل إلا بأمر ربك تعالى ولطفه وهو سبحانه مالك الأمور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدنا وما نجده من لطفه وفضله ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ تقرير من جهته تعالى لقولهم أي وما كان سبحانه تاركاً لثواب العاملين أو ما كان ناسياً لأعمالهم والثواب عليها حسبما وعد جل وعلا ، وفيه أن حمل التنزل على ما ذكر خلاف الظاهر .

وأيضاً مقتضاه بأمر ربنا لأن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم كما في الوجه الأول غير ظاهر إلا أن يكون حكاه الله تعالى على المعنى لأن ربهم وربه واحد ولو حكى على لفظهم لقيل ربنا ، وإنما حكى كذلك ليجعل تمهيداً لما بعده ، وكون ذلك خطاب جماعة المتقين لواحد منهم بعيد وكذا "وما كان ربك نسيا" إذ لم يقل ربهم .

وأيضاً لا يوافق ذلك سبب النزول بوجه ، وكأن القائل إنما اختاره ليناسب الكلام ما قبله ويظهر عطفه عليه .

وقد تحقق أنا في غنى عن ارتكابه لهذا الغرض .

وقوله تعالى :

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

(154/489)

بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة عظمته وجلاله الغفلة والنسيان أو ترك وقلاء من اختاره واصطفاه لتبليغ رسالته ، و"رب" خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السموات الخ أو بدل من ﴿ رَبَّكَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] والفاء في قوله سبحانه ﴿ فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ لترتيب ما بعدها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما ، وقيل : من كونه تعالى غير تارك له عليه الصلاة والسلام أو غير ناس لأعمال العاملين ، والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الالة فاعبده الخ فإن إيجاب معرفته سبحانه كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين

عرفت أنه عز وجل لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بابطاء الوحي وكلام الكفرة فإنه سبحانه يراقبك ويراعيك ويلطف بك في الدنيا والآخرة.

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ رَبّ السموات ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ فاعبده ﴾ والفاء زائدة على رأي الأخفش وهو كما رتى.

(155/489)

وجوز الزمخشري أن يكون قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم: 64] من تتمة كلام المتقين على تقدير أن يكون ﴿ رَبّ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ولم يجوز ذلك على تقدير الابدال لأنه لا يظهر حينئذ ترتب قوله سبحانه: ﴿ فاعبده ﴾ الخ عليه لأنه من كلام الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في الدنيا بلا شك، وجعله جواب شرط محذوف على تقدير ولما عرفت أحوال أهل الجنة وأقوالهم فأقبل على العمل لا يلائم كما في الكشف فصاحة التنزيل للعدول عن السبب الظاهر إلى الخفي، وتعدية الاصطبار باللام مع أن المعروف تعديته بعلى كما في قوله تعالى: ﴿ واصطبر عليها ﴾ [طه: 132] لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز: اصطبر لقرنك

أي أثبت له فيما يورد عليك من شداته ، وفيه إشارة إلى ما يكابد من المجاهدة وأن المستقيم من ثبت لذلك ولم يتزلزل وشمة من معنى رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ أي مثلا كما جاء في رواية جماعة عن ابن عباس .

ومجاهد .

وابن جبير .

وقتادة وأصله الشريك في الاسم ، وإطلاقه على ذلك لأن الشركة في الاسم تقتضي المماثلة ، وقال ابن عطية : السمى على هذا بمعنى المسامى والمضاهي ، وأبقاه بعضهم على الأصل ، واستظهر أن يراد ههنا الشريك في اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والأرض ، وقيل : المراد هو الشريك في الاسم الجليل فإن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا ، وقيل : المراد هو الشريك فيما يختص به تعالى كالاسم الجليل والرحمن ، ونقل ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً ؛ وقيل : هو الشريك في اسم الاله ، والمراد بالتسمية التسمية على الحق وأما التسمية على الباطل فهي كلا تسمية ، وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن ذلك قال : السمى الولد وأنشد له قول الشاعر :

أما السمى فأنت منه مكثر . . .

والمال مال يغتدي ويروح

وروي ذلك أيضاً عن الضحاك ، وأياً ما كان فالمراد بإنكار العلم ونفيه إنكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده ، والجملة تقرير لوجوب عبادته عز وجل وإن اختلف الاعتبار حسب اختلاف الأقوال فتدبر .

وقرأ الاخوان .

وهشام .

وعلي بن نصر .

وهارون كلاهما عن أبي عمرو .

والحسن .

والأعمش والأعمش وعيسى .

وابن محيصن ﴿ هتعلم ﴾ بادغام اللام في التاء وهو على ما قال أبو عبيدة لغة كالإظهار وأنشدوا لذلك قول مزاحم العقيلي :

فذرذا ولكن هتعين متيما . . .

على ضوء برق آخر الليل ناصب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) ﴾

قفّى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلاه في الشرف .

وقدّمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب ، أي واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح اللام ، أي جعلناه مختاراً وأخلصناه ، وقرأ الباقون بكسرها ، أي أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد ﴿ إِنَّهُ كَانَ رَسُولاً نبياً ﴾ أي أرسله الله إلى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التي شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبيّ بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوّة ، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوي لا الشرعي ، والله أعلم .

وقال النيسابوري : الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء ، والنبيّ الذي ينبىء عن الله عزّ وجلّ وإن لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعمّ قبل الأخص ، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله في طه : ﴿ ا ربّ موسى وهارون ﴾ [طه : 70] انتهى .

﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ أي كلمناه من جانب الطور ، وهو جبل بين مصر

ومدين اسمه زبير ، ومعنى الأيمن : أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى ، فإن الشجرة كانت في ذلك الجانب والنداء وقع منها ، وليس المراد : يمين الجبل نفسه .

فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال ؛ وقيل : معنى الأيمن : الميمون ، ومعنى النداء : أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ أي أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجيّ بمعنى المناجي كالجليس والنديم ، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام ، مثلت حاله بحال من قرّبه الملك لمناجاته .

قال الزجاج : قربه منه في المنزلة حتى سمع مناجاته وقيل : إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم .

روي هذا عن بعض السلف .

(158/489)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا ﴾ أي من نعمتنا ، وقيل : من أجل رحمتنا ، و ﴿ هارون ﴾ عطف بيان ، و ﴿ نَبِيّاً ﴾ حال منه ، وذلك حين سأل ربه قال : ﴿ واجعل لّي وَزِيراً مّنْ أَهْلِى * هارون أَخِي ﴾ [طه : 29 30] .

ووصف الله سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كونه جميع الأنبياء كذلك ، لأنه كان

مشهوراً بذلك مبالغاً فيه ، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك ، وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالي ، حتى قيل : إنه انتظر لبعض من وعده حولاً .

والمراد بإسماعيل هنا : هو إسماعيل بن إبراهيم ، ولم يخالف في ذلك إلا من لا يعتدّ به فقال : هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضي بثوابه ، وقد استدل بقوله تعالى في إسماعيل : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته .

وقيل : إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكواة ﴾ قيل : المراد بأهله هنا أمته .

وقيل : جرهم ، وقيل : عشيرته كما في قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] والمراد بالصلاة والزكاة هنا : هما العبادتان الشرعيتان ويجوز أن يراد معناهما اللغوي ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ أي رضياً زاكياً صالحاً .

قال الكسائي والفراء : من قال مرضيّ بنى على رضيت ، قالا : وأهل الحجاز يقولون مرضوّ .

﴿ واذكر فِي الكتاب إِدْرِيسَ ﴾ اسم إدريس أخنوخ ، قيل : هو جدّ نوح ، فإن نوحاً هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جد أبي نوح .

ذكره الثعلبي وغيره ، وقد قيل : إن هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية .

وهو أوّل من خط بالقلم ونظر في النجوم والحساب ، وأوّل من خاط الثياب .

قيل : وهو أوّل من أعطي النبوّة من بني آدم .

(159/489)

وقد اختلف في معنى قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ فقيل : إن الله رفعه إلى السماء الرابعة .

وقيل : إلى السادسة .

وقيل : إلى الثانية .

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث الإسراء وفيه : ومنهم إدريس في الثانية ، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر .

والصحيح أنه في السماء الرابعة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن المراد برفعه مكاناً علياً : ما أعطيه من شرف النبوّة .

وقيل : إنه رفع إلى الجنة .

﴿ أُولَئِكَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين ﴾ الإشارة إلى المذكورين من أوّل السورة إلى هنا ، والموصول صفته ، و ﴿ من النبيين ﴾ بيان للموصول ، و ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ * ءادَمَ ﴾ بدل منه بإعادة الخافض .

وقيل : إن " من " في ﴿ من ذرية ﴾ آدم للتبعيض ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أي : من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس ، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم ﴾ وهم الباقون ﴿ وإسراءيل ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل ، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى .

وقيل : إنه أراد بقوله : ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ﴾ إدريس وحده ، وأراد بقوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ إبراهيم وحده ، وأراد بقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأراد بقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إسراءيل ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ أي : من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿ واجتبينا ﴾ بالإيمان ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً ﴾ وهذا خبر لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو ﴿ الذين أنعم الله عليهم ﴾ وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه .

وقد تقدّم في سبحان بيان معنى خرّوا سجداً : يقال : بكى يبكي بكاءً وبكياً .

قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ، أي ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر :

بكت عيني وحقّ لها بكاها . . . وما يغني البكاء ولا العويل

و﴿ سجدا ﴾ منصوب على الحال .

قال الزجاج : قد بيّن الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا ، وقد استدلّ بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة .

ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر أضدادهم تنفيراً للناس عن طريقتهم فقال : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي عقب سوء .

قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير : خلف بفتح اللام ، ولعقب الشر خلف بسكون اللام ، وقد قدّمنا الكلام على هذا في آخر الأعراف ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ قال الأكثر : معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها وقيل : أضاعوا الوقت وقيل : كفروا بها وجحدوا وجوبها وقيل : لم يأتوا بها على الوجه المشروع .

والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرّة أو أحدها دخولاً

أوّلياً .

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقيل : في اليهود وقيل : في النصارى وقيل : في قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يأتون في آخر الزمان ، ومعنى ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ الغيّ : هو الشرّ عند أهل اللغة ، كما أن الخير : هو الرشاد ، والمعنى : أنهم سيلقون شرّاً لا خيراً .

وقيل : الغيّ الضلال ، وقيل : الخيبة .

وقيل : هو اسم وادٍ في جهنم وقيل : في الكلام حذف ، والتقدير : سيلقون جزاء الغيّ ، كذا قال الزجاج ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] .

أي جزاء أثام .

(161/489)

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي تاب مما فرط منه من تضييع الصلوات و اتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملاً صالحاً ، وفي هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا في المسلمين ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وابن

كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر " يدخلون " بضم الياء وفتح الخاء ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقص من أجورهم شيء وإن كان قليلاً ، فإن الله سبحانه يوفي إليهم أجورهم .

وانتصاب ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ على البدل من الجنة ، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة .

قال الزجاج : ويجوز " جنات عدن " بالرفع على الابتداء ، وقرىء كذلك .

قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان جنة عدن ، يعني : بالإفراد ، مكان الجمع وليس هذا بشيء ، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التي هي بمنزلة الأنواع للجنس .

وقرىء بنصب الجنات على المدح ، وقد قرىء جنة بالإفراد ﴿ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ هذه الجملة صفة لجنات عدن ، و ﴿ بالغيب ﴾ في محل نصب على الحال من الجنات ، أو من عباده ، أي متلبسة ، أو متلبسين بالغيب ، وقرىء : بصرف عدن ، ومنعها على أنها علم لمعنى العدن وهو الإقامة ، أو علم لأرض الجنة ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ أي : موعوده على العموم ، فتدخل فيه الجنات دخولاً أوّلياً .

قال الفراء : لم يقل آتياً ، لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، وكذا قال الزجاج .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ هو الهذر من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن

عدم صدور اللغو منهم ؛ وقيل : اللغو : كل ما لم يكن فيه ذكر الله ﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ هو استثناء منقطع : أي سلام بعضهم على بعض ، أو سلام الملائكة عليهم .

(162/489)

وقال الزجاج : السلام اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ، والمعنى : أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ قال المفسرون : ليس في الجنة بكرة ولا عشية ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء ﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه .

قرأ يعقوب " نورّث " بفتح الواو وتشديد الراء ، وقرأ الباقون بالتخفيف .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : نورّث من كان تقياً من عبادنا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ قال : النبي الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل .

ولفظ ابن أبي حاتم : الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد .

والرسل : الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ قال : جانب الجبل الأيمن ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ قال : نجا بصدقه .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال : قربه حتى سمع صريف القلم ، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال : حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح .

وأخرجه الديلمي عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هارون ﴾ قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن إنما وهب له نبوّته .

(163/489)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ قال : كان إدريس خياطاً ، وكان لا يغرز غرزة إلا قال : سبحان الله ، وكان يمسي حين يمسي وليس على الأرض أفضل عملاً منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال : يا ربّ ائذن لي فأهبط إلى

إدريس ، فأذن له فأتى إدريس فقال : إني جئتك لأخدمك ، قال : كيف تخدمني وأنت ملك وأنا إنسان ؟ ثم قال إدريس : هل بينك وبين ملك الموت شيء ؟ قال الملك : ذاك أخي من الملائكة ، قال : هل تستطيع أن تنفعني ؟ قال : أما يؤخر شيئاً أو يقدّمه فلا ، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت ، فقال : اركب بين جناحيّ ، فركب إدريس فصعد إلى السماء العليا فلقي ملك الموت وإدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : إن لي إليك حاجة ، قال : علمت حاجتك تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات إدريس بين جناحي الملك .

وأخرج ابن أبي شيبة في الصنف ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سألت كعباً فذكر نحوه ، فهذا هو من الإسرائيليات التي يرويها كعب .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : "رفع إدريس إلى السماء السادسة" .

وأخرج الترمذي وصححه ، وابن المنذر وابن مردويه قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة " وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : إدريس هو إلياس .

وحسنه السيوطي .

(164/489)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : ﴿ أُولَئِكَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم ﴾ إلى آخره ، قال : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم ؛ أما من ذرية آدم : فإدريس ونوح ؛ وأما من حمل مع نوح فإبراهيم ، وأما ذرية إبراهيم : فإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب ؛ وأما ذرية إسرائيل : فموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ قال : هم اليهود والنصارى .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال : هم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله في السماء .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ قال : ليس إضاعتها تركها قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه ، ولكن إضاعتها : إذا لم يصلها لوقتها .

وأخرج أحمد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،

والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا هذه الآية ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ الآية قال : " يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿ فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ ، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر " وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللبن ، قلت : يا رسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال :

(165/489)

" قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا " ، قلت : ما أهل اللبن ؟ قال : " قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات " وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، والحاكم وصححه عن عائشة ، أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربرياً ولا بربرية ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " هم الخلف الذين قال الله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ " وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ قال : خسراً .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ قال : الغيّ نهر ، أو وادٍ في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم ، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات .

وقد قال بأنه وادٍ في جهنم البراء بن عازب .

وروى ذلك عنه ابن المنذر والطبراني .

وأخرج ابن جرير والطبراني والبيهقي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن صخرة زنة عشر عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ، ثم تنتهي إلى غيّ وأثام " قلت : وما غيّ وأثام ؟ قال : " نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكر الله في كتابه : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ [الفرقان : 68] " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الغيّ وادٍ في جهنم " وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ قال : باطلاً .

وأخرج سعيد ابن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ قال : يؤتون به في الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا : قال رجل : يا رسول الله ، هل في الجنة من ليل ؟ قال : " وما هيجك على هذا " ؟ قال : سمعت الله يذكر في الكتاب : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فقلت : الليل من البكرة والعشي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس هناك ليل ، وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ ، تأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة " وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما من غداة من غدوات الجنة ، وكل الجنة غدوات ، إلى أنه يزف إلى وليّ الله فيها زوجة من الحور العين وأدناهنّ التي خلقت من الزعفران " قال بعد إخراجه : قال أبو محمد : هذا حديث منكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(167/489)

وقال القاسمي :

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً ﴾

وهم المتصفون بشعب الإيمان ، المسرودة في مواضع شتى من آي القرآن . ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص ، مثبتاً له ، وعقبه بما أحدثه الخلف ، وذكر جزاءهم – عقبه بحكاية نزول جبريل عليه السلام ، ردّاً لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلا يزوره ، تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بأن الحال ليس على ما زعمه هؤلاء الخلف . فقال سبحانه :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾

أي : ينسى شيئاً ما ، بل لا يفيض علماً ولا ينزل ملكاً إلا لحكمة يستعد لها الحال ، أي : فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه إياك . وفي إعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ إلى الكمال اللائق ، مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من تشريفه والإشعار بعلة الحكم ، ما لا يخفى . وقوله تعالى :

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

(168/489)

أي : من التوابع والنجميات والسحب وغير ذلك . قال بعض علماء الفلك : الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع . وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه في البقرة ، من أن

السموات عني بها الكواكب ، والأرض كوكب منها . قال أبو السعود : الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى . فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما ، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان . وهو خبر محذوف . أو بدل من ربك ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أي : اثبت لها على الدوام . وقوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ أي : مثلاً وكفؤاً ، فتلتفت إليه وتقبل بوجهك نحوه ، فيفيض عليك مطلوبك . والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده . أي : إذا صح أن لا مثل له ، ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بدٌّ من التسليم لأمره والقيام بعبادته ، والاصطبار على مشاقّها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 112 ﴾

(169/489)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) ﴾

الإشارة في قوله « تلك » إلى ما تقدم من قوله : ﴿ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ [مريم : 60-61] الآية . وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يورث المتقين من عباده جنته . وقد بين هذا المعنى أيضاً في

مواضع أخر ، كقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 1-2] - إلى قوله - ﴿ أولئك هُمُ الوارثون الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 10-11] وقوله : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] الآيات ، وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ [الزمر : 73] الآية ، وقوله : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] ، إلى غير ذلك من الآيات . ومعنى إيراثهم الجنة : الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل نعيم وسرور . قال الزمخشري في (الكشاف) : نورث أي نبقي عليه الجنة كما نبقي على لوارث مال الموروث ، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم ، وثمرتها باقية وهي الجنة . فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى . وقال بعض أهل العلم : معنى إيراثهم الجنة أن الله تعالى خلق لكل نفس منزلاً في الجنة . ومنزلاً في النار . فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ أراهم منازلهم في النار لو كفروا وعصوا الله ليزداد سرورهم وغبطتهم ؛ وعند ذلك يقولون ﴿ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ [الأعراف : 43] الآية . وكذلك يرى أهل النار منازلهم في الجنة لو آمنوا واتقوا الله لتزداد ندامتهم وحسرتهم ، وعند ذلك يقول الواحد منهم : ﴿ لَوْ أَنَّ الله

هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ [الزمر : 57] . ثم إنه تعالى يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار ، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة فيرثون منازل أهل النار في الجنة . وهذا هو معنى الإيراث المذكور على هذا القول .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد جاء حديث يدل لما ذُكر من أن لكل أحد منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ، إلا أن حمل الآية عليه غير صواب ، لأن أهل الجنة يرثون من الجنة منازلهم المعدة لهم بأعمالهم وتقواهم ، كما قد قال تعالى : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] ونحوها من الآيات . ولو فرضنا نهم يرثون منازل أهل النار فحمل الآية على ذلك يوهم أنهم ليس لهم في الجنة إلا ما أورثوا من منازل أهل النار والواقع بخلاف ذلك كما ترى . والحديث المذكور هو ما رواه الإمام أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني فيكون له شكر . وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لولا أن الله هداني فيكون عليه حسرة » اه . وعلم في الجامع الصغير على هذا الحديث علامة الصحة . وقال شارحه المناوي : قال الحاكم صحيح على شرطهما وأقره الذهبي . وقال الهيثمي رجال أحمد رجال الصحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ

﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ تلك الجنّة ﴾ مستأنفة ابتدائية .

واسم الإشارة لزيادة التمييز تنويهاً بشأنها وأجريت عليها الصفة بالموصول وصلته تنويهاً بالمتقين وأنهم أهل الجنة كما قال تعالى : ﴿ أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : 133] .

و ﴿ نورث ﴾ نجعل وارثاً ، أي نعطي الإرث .

وحقيقة الإرث : انتقال مال القريب إلى قريبه بعد موته لأنّه أولى الناس بماله فهو انتقال مقيّد بحالة .

واستعير هنا للعطيّة المدّخرة لمعطاها ، تشبيهاً بمال المَوروث الذي يصير إلى وارثه آخر الأمر .

وقرأ الجمور ﴿ نورث بسكون الواو بعد الضمة وتخفيف الراء ، وقرأه رويس عن يعقوب : نوَرّث بفتح الواو تشديد الراء من ورّثه المضاعف .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

موقع هذه الآية هنا غريب .

فقال جمهور المفسرين : إن سبب نزولها أنّ جبريل عليه السلام أبطأ أياماً عن النزول إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنّ النبي ودّ أن تكون زيارة جبريل له أكثر مما هو يزوره فقال لجبريل : " ألا تزورنا أكثر ممّا تزورنا " فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية . أي إلى قوله ﴿ نَسِيًّا ﴾ ، رواه البخاري والترمذي عن ابن عبّاس .

وظاهره أنه رواية وهو أصح ما روي في سبب نزولها وأليقه بموقعها هنا .

ولا يلتفت إلى غيره من الأقوال في سبب نزولها .

والمعنى : أن الله أمر جبريل عليه السلام أن يقول هذا الكلام جواباً عنه ، فالنظم نظم القرآن بتقدير : وقل ما نتنزل إلاّ بأمر ربّك ، أي قل يا جبريل ، فكان هذا خطاباً لجبريل ليبلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قرآناً .

فالواو عاطفة فعل القول المحذوف على الكلام الذي قبله عطف قصة على قصة مع اختلاف المخاطب ، وأمرَ الله رسوله أن يقرأها هنا ، ولأنّها نزلت لتكون من القرآن .

(172/489)

ولا شك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك لجبريل عليه السلام عند انتهاء قصص الأنبياء في هذه السورة فأثبتت الآية في الموضع الذي بلغ إليه نزول القرآن .

والضمير لجبريل والملائكة ، أعلم الله نبيئه على لسان جبريل أن نزول الملائكة لا يقع إلاّ عن أمر الله تعالى وليس لهم اختيار في النزول ولقاء الرّسل ، قال تعالى : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ [الأنبياء : 27] .

و ﴿ نتنزل ﴾ مرادف ننزّل ، وأصل التنزّل : تكلّف النزول ، فأطلق ذلك على نزول الملائكة من السماء إلى الأرض لأنّه نزول نادر وخروج عن عالمهم فكأنه متكلّف .

قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها ﴾ [القدر : 4] .

واللاّم في "له" للملك ، وهو ملك التصرف .

والمراد بـ ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ ما هو أمامنا ، وبـ ﴿ وَمَا خَلْفَنَا : ﴾ ما هو وراءنا ، وبـ ﴿ ومَا بَيْنَ ذَلِكَ : ﴾ ما كان عن أيمانهم وعن شمائلهم ، لأن ما كان عن اليمين وعن الشمال هو بين الأمام والخلف .

والمقصود استيعاب الجهات .

ولمّا كان ذلك مخبراً عنه بأنه ملك لله تعين أن يراد به الكائنات التي في تلك الجهات ، فالكلام مجاز مرسل بعلاقة الحلول ، مثل ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] ، فيعمّ جميع الكائنات ، ويستتبع عمومَ أحوالها وتصرفاتها مثل التنزل بالوحي .

ويستتبع عموم الأزمان المستقبل والماضي والحال ، وقد فسر بها قوله ﴿ ما بين أيدينا وما خَلْفنا وما بينَ ذِلكَ ﴾ .

وجملة ﴿ ومَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ على هذا الوجه من الكلام الملقّن به جبريل جواباً للنبيء صلى الله عليه وسلم

و﴿ نسِيّاً : صيغة مبالغة من نَسيَ ، أي كثيرَ النسيان أو شديده .

والنسيان : الغفلة عن توقيت الأشياء بأوقاتها ، وقد فسروه هنا بتارك ، أي ما كان ربّك تاركك وعليه فالمبالغة منصرفة إلى طول مدّة النسيان .

(173/489)

وفسر بمعنى شديد النسيان ، فيتعين صرف المبالغة إلى جانب نسبة نفي النسيان عن الله ، أي تحقيق نفي النسيان مثل المبالغة في قوله

﴿ وما ربّك بظلام للعبيد ﴾ [فصّلت : 46] فهو هنا كناية عن إحاطة علم الله ، أي إن تنزلنا بأمر الله لما هو على وفق علمه وحكمته في ذلك ، فنحن لا نتنزل إلاّ بأمره .

وهو لا يأمرنا بالتنزل إلاّ عند اقتضاء علمه وحكمته أن يأمرنا به .

وجوز أبو مسلم وصاحب "الكشاف" : أنّ هذه الآية من تمام حكاية كلام أهل الجنة بتقدير فعل يقولون حالاً من قوله ﴿ من كان تقياً ﴾ [مريم : 63] ، أي وما نتنزل في هذه الجنة إلاّ بأمر ربّك الخ ، وهو تأويل حسن .

وعليه فكاف الخطاب في قوله ﴿ بأمر ربك ﴾ خطاب كلّ قائل لمخاطبه ، وهذا التجويز بناء على أنّ ما روي عن ابن عباس رأي له في تفسير الآية لا تتعيّن متابعته .

وعليه فجملة ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ من قول الله تعالى لرسوله تذييلاً لما قبله ، أو هي من كلام أهل الجنّة ، أي وما كان ربّنا غافلاً عن إعطاء ما وعدنا به .

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

جملة مستأنفة من كلام الله تعالى كما يقتضيه قوله ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ إلى آخره ذيل به الكلام الذي لقنه جبريل المتضمن : أن الملائكة لا يتصرفون إلاّ عن إذن ربّهم وأنّ أحوالهم كلّها في قبضته بما يفيد عموم تصرفه تعالى في سائر الكائنات ، ثمّ فرع عليه أمر الرسول عليه السلام بعبادته ، فقد انتقل الخطاب إليه .

وارتفع ﴿ رَبُّ السموات ﴾ على الخبرية لمبتدأ محذوف ملتزم الحذف في المقام الذي يذكر فيه أحد بأخبار وأوصاف ثم يراد تخصيصه بخبر آخر .

وهذا الحذف سمّاه السكاكي بالحذف الذي اتّبِع فيه الاستعمال كقول الصولي أو ابن الزّبير بفتح الزاي وكسر الموحدة:

سأشكر عَمْرَاً إنْ تراختْ منيتي . . .

أياديَ لم تُمنَنْ وإنْ هيَ جلّتِ

فتىً غيرُ محجوب الغنى عن صديقه . . .

ولا مظهرُ الشكوى إذا النعل زلّت

(174/489)

والسماوات : العوالم العلوية .

والأرض : العالم السفلي ، وما بينهما : الأجواء والآفاق .

وتلك الثلاثة تعم سائر الكائنات .

والخطاب في ﴿ فَاعبُدهُ واصْطَبِر ﴾ و ﴿ هَلْ تَعْلَمُ ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم

وتفريع الأمر بعبادته على ذلك ظاهر المناسبة ويحصل منه التخلّص إلى التنويه بالتّوحيد

وتفظيع الإشراك .

والاصطبار : شدّة الصبر على الأمر الشاق ، لأنّ صيغة الافتعال تَرِد لإفادة قوّة الفعل .

وكان الشأن أن يعدى الاصطبار بحرف (على) كما قال تعالى : ﴿ وامر أهلك بالصلاة

واصطبر عليها ﴾ [طه : 132] ولكنه عدي هنا باللاّم لتضمينه معنى الثّبات .

أي اثبت للعبادة ، لأنّ العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس ، وقد يغلب بعضها بعض

النّفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

في صلاة العشاء : " هي أثقل صلاة على المنافقين " فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها وفيها أصناف جمّة تحتاج إلى ثبات العزيمة ، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه ، فعدي الفعل باللاّم كما يقال : اثبت لعُدَاتك .

وجملة ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ واقعة موقع التعليل للأمر بعبادته والاصطبار عليها .

والسميّ هنا الأحسن أن يكون بمعنى المُسامي ، أي المماثل في شؤونه كلها .

فعن ابن عباس أنه فسّره بالنظير ، مأخوذاً من المساماة فهو فعيل بمعنى فاعل ، لكنه أخذ من المزيد كقول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع . . .

أي المُسمع .

وكما سمي تعالى الحكيم ، أي المُحكم للأمور ، فالسميّ هنا بمعنى المماثل في الصفات بحيث تكون المماثلة في الصفات كالمساماة .

والاستفهام إنكاري ، أي لا مسامي لله تعالى ، أي ليس من يساميه ، أي يضاهيه ، موجوداً .

وقيل السميّ : المماثل في الاسم .

كقوله في ذكر يحيى ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ [مريم : 7] .

والمعنى : لا تعلم له مماثلاً في اسمه الله ، فإن المشركين لم يسموا شيئاً من أصنامهم الله باللاّم وإنّما يقولون للواحد منها إله ، فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمة باسمه كناية عن اعتراف الناس بأن لا مماثل له في صفة الخالقية ، لأنّ المشركين لم يجترئوا على أن يدعوا لآلهتهم الخالقية .

قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان : 25] .

وبذلك يتمّ كون الجملة تعليلاً للأمر بإفراده بالعبادة على هذا الوجه أيضاً .

وكنّي بانتفاء العلم بسميّه عن انتفاء وجود سميّ له ، لأنّ العلم يستلزم وجود المعلوم ، وإذا انتفى مماثله انتفى من يستحق العبادة غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(176/489)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله : ﴿ تِلْكَ الجنة ﴾ [مريم : 63]

أي : التي يعطينا صور لها هي : ﴿ التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 63] أ

ي : يرثونها ، فهل كان في الجنة أحد قبل هؤلاء ، فَهُم يرثونه ؟

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الخَلْق عرف منهم مَنْ سيؤمن باختياره ، ومَنْ سيكفر باختياره ، علم مَنْ سيطيع ومَنْ سيعصي ، فلم يُرغِم سبحانه عباده على شيء ، إنما علم ما سيكون منهم بطلاقة علمه تعالى ، إلا أنه تعالى أعدَّ الجنة لتسع جميع الخَلْق إنْ أطاعوا ، وأعدَّ النار لتسع جميع الخَلْق إنْ عَصَوْا ، فلن يكون هناك إذن زحام ولا أزمة إسكان ، إنْ دخل الناس جميعاً الجنة ، أو دخلوا جميعاً النار .

إذن : حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ ، أين تذهب أماكنهم التي أُعِدَّتْ لهم في الجنة ؟ تذهب إلى أهل الجنة ، فيرثونها بعد أنْ حُرم منها هؤلاء .

ثم يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

هنا ينتقل السياق إلى موضوع آخر ، فبعد أنْ تحدَّث عن الجنة وأهلها عرض لأمر حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يحدث له حين ينزل عليه الوحي ، وقلنا : إن الوحي ينزل بواسطة جبريل عليه السلام ، وهو مَلَكٌ ، على محمد صلى الله عليه وسلم وهو بشر .

ولقاء جبريل بقانون ملكيته بمحمد صلى الله عليه وسلم بقانون بشريته لا يمكن أن يتم إلاَّ بتقارب هذيْن الجنسين وعملية تغيير لا بُدَّ أنْ تطرأ على أحدهما ، إما أَنْ ينزل المَلَكُ على صورة بشرية ، وإما أن يرتفع ببشرية الرسول إلى درجة تقرب من المَلَك ليأخذ عنه ، وذلك

ما كان يحدث لرسول الله حين يأتيه الوحي .

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم هذا التغيير فقال : " . . . فغطَّني حتى بلغ مني الجهْد . . . " وكان صلى الله عليه وسلم يتفصَّد جبينه عرقاً لما يحدث في جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يُسرِّي عنه تذهب هذه الأعراض .

(177/489)

وقد أخبر بعض الصحابة ، وكان يجلس بجوار رسول الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم يضع رُكْبته على رُكْبته ، فلما نزل على رسول الله الوحي قال الصحابي : شعرتُ برُكْبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحي وهو دابة كانت الدابة تئط أي : تنخ من ثِقَل الوحي ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل : 5] .

إذن : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعب بعد هذا اللقاء ويشقُّ عليه ، حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضي الله عنها يقول : " زَمِّلوني زَمِّلوني " أو " دَثِّروني دَثِّروني " كأن به حمى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحي أولاً .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الوحي يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا

ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحي ، فيتشوق إليه من جديد ، كما يشتاق الإنسان لمكانٍ يحبه دونه الأشواك ومصاعب الطريق ، فالحب للشيء يحدث علمية كالتخدير ، فلا تشعر في سبيله بالتعب .

وقلنا : لما فتر الوحي عن رسول الله شمت فيه الكفار وقالوا : إن رَبَّ محمد قد قلاه يعني : أبغضه وتركه .

وهذا القول دليل على غبائهم وحماقتهم ، كيف وقد كانوا بالأمس يقولون عنه : ساحر وكذاب ؟ ففي البغض يتذكرون أنه له رباً منع عنه الوحي ، وحين دعاهم إلى الإيمان بهذا الرب قالوا : من أين جاء بهذا الكلام ؟

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : 14] إذن : كانت مسألة الوحي شاقة على رسول الله .

فأراد الحق سبحانه أن يعطي هؤلاء درساً من خلال درس كونيّ مشاهد يشهد به المؤمن والكافر ، هذا الأمر الكونيّ هو الزمن ، وهو ينقسم إلى ليل ونهار ، ولكل منهما مهمته التي خلقه الله من أجلها ، كما قال سبحانه :

﴿ والليلِ إذَا يغشى * والنهارِ إذَا تجلى ﴾ [الليل : 12] .

فإياك أنْ تُغيّر مهمة الليل إلى النهار ، أو مهمة النهار إلى الليل .

ثم يرد عليهم قائلاً : ﴿ والضحى * والليلِ إذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 14] .

والمعنى : إنْ كان النهار لحركة الحياة واستبقائها ، والليل للراحة والسكون ، فهما آيتان متكاملتان لا مُتضادتان ، وليس معنى أن يأتي الليل بسكونه أن النهار لن يأتي من بعد ، بل سيأتي نهار آخر ، وستستمر حركة الحياة .

وكذلك الأمر إنْ فترَ الوحي عن رسول الله ، فلا تظنوا أنه انقطع إلى غير رَجْعة ، بل هي فترة ليرتاح فيها رسول الله ، كالليل الذي ترتاحون فيه من عناء العمل في النهار ، ومن هنا كانت الحكمة في أنْ يُقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى على ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] .

ونلحظ في هذا التعبير دِقّة الإعجاز في أداء القرآن ، حيث قال : ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ [ضحى : 3] بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع يكون لمَنْ تحب ولمَنْ تكره ، أما في القِلَى فلم يقُلْ : قَلاَك . لأن القِلَى لا يكون إلا لمَنْ تكره .

ومعنى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ الضحى : 4] الآخرة أي : الفترة الأخيرة من

نزول الوحي خَيْر لك من الفترة الأولى ؛ لأنها ستكون أوسع ، وستأتيك بلا تَعَب ولا مشقة ، وفعلاً نزلت جمهرة القرآن بعد ذلك في يُسْر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(179/489)

وهكذا كان الأمر في الآية التي نحن بصددها : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 64] فيقال : إنها نزلت حينما قال الكفار : إن ربَّ محمد قد قلاه ، أو أنها نزلت بعد أن سأل كفار مكة الأسئلة الثلاثة التي تحدثنا عنها في سورة الكهف . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : " سأخبركم غداً " لكن الوحي لم يأته مدة خمسة عشر يوماً ، فشقَّ ذلك عليه وحزِنَ له فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 64] أي : الملائكة لا تنزل إلا بأمر ، ولا تغيب إلا بأمر .

ثم يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ [مريم : 64] .

قوله تعالى : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ [مريم : 64] أي : الذي أمامنا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ [مريم : 64] أي : في الخلف ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ [مريم : 64] أي : ما بين الأمام والخلف ، فماذا بين الأمام والخلف ؟ ليس بين الأمام والخلف إلا أنت . فسبحانه وتعالى المالك ،

الذي له الملك والمملوك ، وله المكان والمكين ، وله الزمان والزمين .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] هل يرسل الحق تبارك وتعالى رسولاً ، ثم ينساه هكذا دون إمداد وتأييد ؟ فسبحانه تنزَّه عن الغفلة وعن النيسان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض ﴾

أولاً : ما علاقة قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] بقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [مريم : 65] ؟

قالوا : لأن هذا الكون العظيم بسمائه وأرضه ، وما فيه من هندسة التكوين وإبداع الخلق قائم بقيومية الله تعالى عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] .

(180/489)

فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون ، والحق تبارك وتعالى لا تأخذه سنة ولا نوم . فما دام الأمر كذلك ، وأنه تعالى يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وأنه تعالى قيُّوم لا ينسى ولا يغفل وبه يقوم الكون . فهو إذن يستحق العبادة والطاعة فيما أمر ، وقد أعطاك قبل أن يُكلّفك عطاء لا تستطيع

أنت أن تفعله لنفسك ، ثم تركك تربع في هذا النعيم خمس عشرة سنة دون أنْ يُكلِّفك بشيء من العبادات .

لذلك هنا يقول تعالى : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : 65] وقد أكّد القرآن الكريم في آيات كثيرة مسألة الوحدانية ، وأنه رَبٌّ واحد فقال : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [مريم : 65] .

وقال : ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

وقال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأولين ﴾ [الشعراء : 26] .

لأن القدماء ، ومنهم مثلاً قدماء المصريين كانوا يجعلون رباً للسماء ، ورباً للأرض ، ورباً للجو ، ورباً للأموات ، ورباً للزرع . . إلخ وما دام هو سبحانه رب كل شيء فقد رتب العبادة على الربوبية . والعبادة : طاعة معبود فيما أمر وفيما نهى ، وكيف لا نطيع الله ونحن خَلْقه وصَنْعته ، ونأكل رزقه ، ونتقلب في نعمه ؟ وفي ريفنا يقول الرجل لولده المتمرد عليه : (مَنْ يأكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ولا بُدَّ أن نعلم أن الله تعالى له الكمال المطلق قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية . فإن قلتَ : فلماذا إذن يُكلِّف الخَلْق بالأمر والنهي ؟ نقول : كلَّف الله الخَلْق لتستمر حركة الحياة وتتساند الجهود ولا تتصادم ، فيحدث في

حياتهم الارتقاء ويسعدوا بها ، إنما لو تركهم وأهواءهم لَفسدتِ الحياة ، فأنت تبني وغيرك يهدم .

(181/489)

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض ﴾ [المؤمنون : 71] .

إذن : التشريعات جُعلَتْ لصالحنا نحن : ﴿ فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : 65] لأن العبادة فيها مشقة ، فلا بُدَّ لها من صبر ؛ لأنها تأمرك بأشياء يشقُّ عليك أنْ تفعلها ، وينهاك عَنْ أشياء يشقُّ عليك أن تتركها لأنك أَلِفْتها .

والصبر يكون منا جميعاً ، يصبر كُلٌّ مِنَّا على الآخر ؛ لأننا أبناء أغيار ، فإن صبرتَ على الأذى صبر الناس عليك إنْ حدث منك إيذاء لهم ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 3] .

والحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا : إن أذنب أحد في حَقْك ، أو أساء إليك فاغفر له كما تحب

أن أغفر لك ذنبك ، واعفوَ عن سيئتك .

يقول تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة أَن يؤتوا أُوْلِي القربى والمساكين والمهاجرين فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : 22] .

ولا تظن أن صبرك على أذى الآخرين أو غفرانك لهم تطوُّع من عندك ؛ لأنه لن يضيع عليك عند الله ، وستُردُّ لك في سيئة تُغفَر لك . حتى مَنْ فُضِح مثلاً أو ادُعي عليه ظُلْماً لا يضيعها الله ، بل يدّخرها له في فضيحة سترها عليه ، فمَنْ فُضِح بما لم يفعل ، سُتر عليه ما فعل .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] ؟ سبق أن تكلمنا في معنى (السَّميّ) وقد اختلف العلماء في معناها ، قالوا : السَّميُّ : الذي يُساميك ، أي : أنت تسمو وهو يسمو عليك ، أو السَّميّ : النظير والمثيل .

(182/489)

والحق سبحانه وتعالى ليس له سميٌّ يُساميه في صفات الكمال ، وليس له نظير أو مثيل أو شبيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصمد * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 14] .

وللسميِّ معنى آخر أوضحناه في قصة يحيى ، حيث قال تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 7] أي : لم يسبق أنْ تسمَّى أحد بهذا الاسم . وكذلك الحق تبارك وتعالى لم يتسمَّ أحدٌ باسمه ، لا قبل هذه الآية ، ولا بعد أنْ أطلقها رسول الله تحدّياً بين الكفار والملاحدة الذين يتجرؤون على الله . فلماذا لم يجرؤ أحد من هؤلاء أنْ يُسمى ولده الله ؟

الحقيقة أن هؤلاء وإنْ كانوا كفاراً وملاحدة إلا أنهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله ، ويعترفون بوجوده ، ويخافون من عاقبة هذه التسمية ، ولا يأمنون أنْ يصيبهم السوء بسببها .

إذن : لم تحدث ، ولم يجرؤ أحد عليها ؛ لأن الله تعالى قالها وأعلنها تحدياً ، وإذا قال الله تعالى ، ملَكَ اختيار الخَلْق ، وعلم أنهم لن يجرؤوا على هذه الفعلة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(183/489)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ قال : هم اليهود والنصارى .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ قال : من هذه الأمة يتراكبون في الطرق ، كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله في السماء .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ قال : عند قيام الساعة - ذهاب صالح أمة محمد - ينزو بعضهم إلى بعض في الآزقة زناة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ يقول : تركوا الصلاة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ قال : ليس إضاعتها تركها قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه ، ولكن إضاعتها

إذا لم يصلها لوقتها .

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم في قوله : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ قال : صلوها لغير وقتها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن القاسم بن مخيمرة في قوله : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ قال : أخروا الصلاة عن ميقاتها ولو تركوها كفروا .

وأخرج ابن أبي حاتم والخطيب في المتفق والمفترق ، عن عمر بن عبد العزيز في قوله : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ قال : لم يكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا المواقيت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن كعب قال : والله إني لأجد صفة المنافقين في التوراة : شرابين للقهوات : تباعين للشهوات ، لعانين للكعبات ، رقادين عن العتمات ، مفرطين في الغدوات ، تراكين للصلوات تراكين للجمعات ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن الأشعث قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام أن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عني محجوبة .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : اغتسلت أنا وآخر ، فرآنا عمر بن الخطاب ، وأحدنا ينظر إلى صاحبه ، فقال : إني لأخشى أن تكونا من الخلف الذين قال الله فيهم : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ .

وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي سعيد الخدري : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا هذه الآية ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ فقال : يكون خلف من عبد ستين سنة ﴿ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ ثم يكون خَلَفٌ : يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومنافق وفاجر " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه ، عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " " سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللين " قلت يا رسول الله ، ما أهل اللين ؟ قال : قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن عائشة أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربرياً ، ولا بربرية ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " هم الخلف الذين قال الله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " يكون في أمتي من يقتل على الغضب ، ويرتشي في الحكم ، ويضيع الصلوات ، ويتبع الشهوات ، ولا تردّ له راية " قيل : يا رسول الله ، أمؤمنون هم ؟ قال : بالإيمان يقرؤون " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ قال : خسراً .

(185/489)

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في البعث من طرق ، عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ قال : الغي نهر أو واد في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات .

وأخرج ابن المنذر والبيهقي في البعث ، عن البراء بن عازب في الآية قال : الغي ، واد في جهنم بعيد القعر منتن الريح .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم

ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ثم تنتهي إلى غي وأثام ، قلت : وما غي وأثام ؟ قال : نهران في أسفل جهنم يسيل فيها صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكر الله في كتابه ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ [الفرقان : 68] " .

وأخرج ابن مردويه من طريق نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الغي واد في جهنم " .

وأخرج البخاري في تاريخه ، عن عائشة في قوله : ﴿ غياً ﴾ قالت : نهر في جهنم .

وأخرج ابن المنذر ، عن شقي بن ماتع قال : إن في جهنم وادياً يسمى ﴿ غياً ﴾ يسيل دماً وقيحاً ، فهو لمن خلق له .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ يلقون غياً ﴾ قال : سوءاً ﴿ إلا من تاب ﴾ قال : من ذنبه ﴿ وآمن ﴾ قال : بربه ﴿ وعمل صالحاً ﴾ قال : بينه وبين الله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ قال باطلاً .

وأخرج عبد بن حميد وهناد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ قال : لا يستبون . وفي قوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال : ليس فيها بكرة ولا عشي يؤتون به على النحو الذي يحبون من البكرة والعشي .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال : يؤتون به في الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الوليد بن مسلم قال : سألت زهير بن محمد ، عن قوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال : ليس في الجنة ليل ولا شمس ولا قمر ، هم في نور أبداً ، ولهم مقدار الليل والنهار ، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن ، وأبي قلابة قالا : قال رجل يا رسول الله ، هل في الجنة من ليل ؟ قال : وما هيجك على هذا ؟ ! قال : سمعت الله يذكر في الكتاب ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ فقلت الليل من البكرة ، والعشي ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ليس هناك ليل ، وإنما هو ضوء نور ، يرد الغدو على الرواح ، والرواح على الغدوّ ، وتأتيهم طرف الهدايا من الله ، لمواقيت الصلوات التي كانوا يصلون فيها في الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة " .

وأخرج ابن المنذر ، عن يحيى بن أبي كثير قال : كانت العرب في زمانها إنما لها أكلة واحدة ، فمن أصاب أكلتين ، سمي فلاناً الناعم . فأنزل الله تعالى يرغب عباده فيما عنده ﴿ ولهم

رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن قال : كانوا يعدون النعيم ، أن يتغدى الرجل ، ثم يتعشى . قال الله لأهل الجنة : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من غداة من غدوات الجنة ، كل الجنة غدوات ، إلا أن يزف إلى وليّ الله تعالى فيها زوجة من الحور العين أدناهن التي خلقت من زعفران " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ تلك الجنة التي نورث ﴾ بالنون مخففة .

(187/489)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن شوذب في قوله : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا ﴾ قال : ليس من أحد إلا وله في الجنة منزل وأزواج ، فإذا كان يوم القيامة ، ورث الله المؤمن كذا وكذا منزلاً من منازل الكفار . فذلك قوله : ﴿ من عبادنا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن داود بن أبي هند في قوله : ﴿ من كان تقياً ﴾ قال : موحداً .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا "

فنزلت : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ إلى آخر الآية . زاد ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم ، فكان ذلك الجواب لمحمد .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أي البقاع أحب إلى الله وأيها أبغض إلى الله ؟ قال : ما أدري حتى أسأل جبريل ، وكان قد أبطأ عليه فقال : لقد أبطأت عليّ حتى ظننت أن بربي عليّ موجدة ! . . . فقال : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال : " أبطأ جبريل على النبي – صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ثم أنزل ، فقال له النبي – صلى الله عليهه وسلم – " ما نزلت حتى اشتقت إليك " فقال له جبريل : " أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور " فأوحى الله إلى جبريل أن قل له : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي قال : احتبس جبريل عن النبي – صلى الله عليه وسلم – بمكة حتى حزن واشتد عليه ، فشكا إلى خديجة ، فقالت خديجة : لعل ربك قد ودعك أو قلاك ، فنزل جبريل بهذه الآية : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [الضحى : 2] قال : يا جبريل ، احتبست عني حتى ساء ظني ، فقال جبريل : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد قال : " لبث جبريل عن النبي - صلى الله عليه وسلم اثني عشرة ليلة ، فلما جاءه قال : " لقد رثت حتى ظن المشركون كل ظن " فنزلت الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال : " أبطأت الرسل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أتاه جبريل فقال : " ما حبسك عني " قال : كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنقون براجمكم ، ولا تأخذون شواربكم ولا تستاكون وقرأ ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : احتبس جبريل ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وحزن فأتاه جبريل وقال : يا محمد : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا ﴾ يعني من الدنيا ﴿ وما خلفنا ﴾ يعني من الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة ﴿ له ما بين أيدينا ﴾ قال : الدنيا ﴿ وما خلفنا ﴾ قال : الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - ﴿ له ما بين أيدينا ﴾ قال

: من أمر الآخرة ﴿ وما خلفنا ﴾ من أمر الدنيا ﴿ وما بين ذلك ﴾ ما بين الدنيا والآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما بين ذلك ﴾ قال : ما بين النفختين .

وأخرج هناد وابن المنذر ، عن أبي العالية ﴿ وما بين ذلك ﴾ قال : ما بين النفختين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ قال : ﴿ ما كان ربك ﴾ لينساك يا محمد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبزار والطبراني وابن مردويه والبيهقي في سننه والحاكم وصححه ، عن أبي الدرداء رفع الحديث قال : ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئاً . ثم تلا ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله .

(189/489)

وأخرج الحاكم عن سلمان " سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن [ ] والفراء فقال : " الحلال ما أحل الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه ، وما سكت عنه

فهو مما عفا عنه " " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ قال : هل تعلم للرب مثلاً أو شبها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ قال : ليس أحد يسمى الرحمن غيره .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد ؟ .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ قال : هل تعلم له ولداً ؟ قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الشاعر وهو يقول :

أما السمي فأنت منه مكثر . . . والمال مال يغتدي ويروح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(190/489)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) ﴾

قوله : ﴿ نُورِثُ ﴾ : قرأ الأعمش " نُورِثها " بإبراز عائدِ الموصول . وقرأ الحسن والأعرج وقتادة " نُوَرِّثُ " بفتحِ الواوِ وتشديد الراء مِنْ " وَرَّثَ " مضعّفاً .

قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ :

قال ابن عطية : " الواو عاطفةٌ جملةَ كلامٍ على أخرى ، واصلةٌ بين القولين وإن لم يكن / معناهما واحداً " . وقد أغربَ النقاشُ في حكايته لقولٍ : وهو أنَّ قولَه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ ، متصلٌ بقولِه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ [مريم : 19] . وقال أبو البقاء : " وما نَتَنَزَّل ، أي : وتقول الملائكةُ " فجَعَلَه معمولاً لقولٍ مضمر . وقيل : هو من كلامِ أهل الجنة وهو أقربُ مِمَّا قبله .

وتَتَنَزَّل مطاوعُ نَزَّل بالتشديدِ ويقتضي العملَ في مُهْلة وقد لا يقتضيها . قال الزمخشري : " التَنَزُّلُ على معنيين : معنى النزولِ على مَهْلٍ ، ومعنى النزولِ على الإطلاق كقوله :

3244- فَلَسْتُ لإنسيٍّ ولكنْ لمَلأكٍ . . . تَنَزَّلَ مِنْ جوِّ السَّماءِ يصوبُ

لأنه مطاوع نَزَّل ، ونزَّل يكون بمعنى أَنْزَلَ ، ويكون بمعنى التدريج ، واللائقُ بهذا الموضعِ هو

النزولُ على مَهْلٍ ، والمراد : أنَّ نزولَنا في الأحايين وقتاً غِبَّ وقتٍ " . قلت : وقد تقدم أنه يُفَرِّق بين نزَّل وأنزل في أول هذا الموضع .

(191/489)

وقرأ العامَّةُ " نَتَنَزَّل " بنون الجمع . وقرأ الأعرج "يَتَنزَّل " بياء الغيبة . وفي الفاعل حينئذ قولان ، أحدهما : أنه ضميرُ جبريل . قال ابن عطية : " ويَرُدُّه قولُه " له لما بين أيدينا وما خَلْفَنَا " لأنه يَطَّرِدُ معه ، وإنما يتجه أن يكون خبراً عن جبريل أنَّ القرآن لا يَتَنَزَّل إلا بأمر الله في الأوقات التي يُقَدِّرها " . وقد يُجاب عما قال ابن عطية : بأنَّه على إضمار القول : أي : قائلاً : " له ما بين أيديدنا " .

الثاني : أنه يعود على الوَحْي ، وكذا قال الزمخشري على الحكاية عن جبريل ، والضميرُ للوحي ، ولا بد من إضمار هذا القول الذي ذكرتُه أيضاً .

قوله : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ استدلَّ بعضُ النحاة على أنَّ الأزمنةَ ثلاثةٌ : ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ بهذه الآية ، وهو كقول زهير :

3245- وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قبلَه . . . ولكنني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ

قوله : ﴿ رَّبُّ السماوات ﴾ :

فيه ثلاثةُ أقوال ، أحدها : كونُه بدلاً مِنْ " ربُّك " . الثاني : كونُه خبرَ مبتدأ ، أي : هو ربُّ . الثالث : كونُه مبتدأً ، والخبرُ الجملةُ الأمريةُ بعده وهذا ماشٍ على رأْيِ الأخفش : أنه يُجَوِّزُ زيادةَ الفاء في خبر المبتدأ مطلقاً .

قوله : لعبادتِه " متعلَّقٌ ب " اصْطَبِرْ " وكان مِنْ حَقِّه تعديتُه ب " على " لأنها صلتُه كقولِه : ﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] ولكنه ضُمِّن معنى الثبات ، لأنَّ العبادةَ ذاتُ تكاليفَ قَلَّ مَنْ يَثْبُتُ لها فكأنه قيل : واثْبُتْ لها مُصْطَبِراً .

قوله : " هل تعلم " أدغم الأخَوان وهشام وجماعة لام " هل " في التاء ، وأنشدوا على ذلك بيت مزاحم العقيلي .

3246- فدَعْ ذا ولكن هَتِّعِيْنُ مُتَيَّماً . . . على ضوءِ بَرْقٍ آخرَ الليلِ ناصِبِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 616.614 ﴾

(192/489)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) ﴾

فالجنة للأتقياء من هذه الأمة مُعَدّةٌ له ، والرحمة لعُصاةِ المسلمين مُدَّخرةٌ لهم ، الجنة لُطْفٌ من الله تعالى ، والرحمةُ وَصْفٌ لله تعالى . وقوله : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ : فَعَبْدُه على الخصوصية مَنْ كان اليومَ في قيد أمره . وقوله : ﴿ مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ : قوم يتقون المعاصي والمخالفات ، وقوم يتقون الشهواتِ ، وآخرون يتقون الغفلاتِ ، وآخرون يتقون شهود كُلَّ غيره .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾

إن الملائكةَ – عليهم السلام – أبداً يَنْزِلون بإذن الحقّ تعالى ، فبعضهم بإنجاد المظلومين ، وبعضهم بإغاثة الملهوفين ، وبعضهم بتدمير الجاحدين ، وبعضهم بنصرة المؤمنين ، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجميعن . واللَّهُ – سبحانه – لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفْظٍ وإنعامٍ ، أو إمهالٍ ونكَال . . . .

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65) ﴾

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربَّها ، ويكون مالكها ، ويكون قادراً عليها .

وإذا وجدت فهو فاعلها ، فمعنى كون فعل الشيء لفاعله أنه في مقدوره وجوده .

ويقال إذا كان ربَّ الأكابرِ من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغر من الضعفاء ، وقيمةُ العَبْدِ بمالِكه وقَدْرِه ، لا بثمنه في نَفْسِه وخَطَره .

قوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ أي قِفْ حيثما أمرك ، ودَعْ ما يقع لك ، وخَلِّ رأيك وتدبيرك .

قوله ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ : الاصطبار غاية الصبر .

(193/489)

قوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ : أي كفواً ونظيراً . ويقال هل تعرف أحداً يسمى " الله " غيرَ اللَّهِ ؟ ويقال أَنَّي بالنظير . . . وهو بالقِدَمِ متوحد ! والتشبيه يقتضي التسوية بين المتشابهين ، ولا مِثْلَ له . . . لا موجوداً ولا موهوماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 436 ﴾

(194/489)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

التفسير : إن الذين أثبتوا معبوداً سوى الله منهم من أثبت معبوداً حياً عاقلاً كالنصارى ،

ومنهم من عبد معبوداً جماداً كعبدة الأوثان ، وكلا الفريقين ضال إلا أن الفريق الثاني أضل . وحين بين ضلال الفريق الأول شرع في بيان ضلال الفريق الثاني تدرجاً من الأسهل إلى الأصعب . وإنما بدأ بقصة إبراهيم عليه السلام لأنه كان أبا العرب وكانوا مقرين بعلوّ شأنه وكمال دينه فكأنه قال لهم : إن كنتم مقلدين فقلدوه في ترك عبدة الأوثان وعبادتها ، وإن كنتم مستدلين فانظروا في الدلائل التي ذكرها على أبيه . والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [الشعراء : 69] وإلا فهو سبحانه هو الذي يذكره في تنزيله . وقوله : ﴿ إذ قال ﴾ بدل من ﴿ إبراهيم ﴾ وما بينهما اعتراض ، ولمكان هذا الاعتراض صار الوقف على ﴿ إبراهيم ﴾ مطلقاً . وجوز في الكشاف أن يتعلق " إذ " ب ﴿ كان ﴾ أو ب ﴿ صديقاً نبياً ﴾ أي كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات .

(195/489)

والصديق من أبنية المبالغة فهي إما مبالغة صادق لأن ملاك أمر النبوة الصدق ، وإما مبالغة مصدق وذلك لكثرة تصديقه الحق وهذا أيضاً بالحقيقة يعود إلى الأول ، لأن مصدق الحق لا يعتبر تصديقه . إلا إذا كان صادقاً جداً في أقواله مصدقاً لجميع من تقدم من الأنبياء

والكتب ، وكان نبياً في نفسه رفيع القدر عند الله وعند الناس بحيث جعل واسطة بينه وبين عباده . وقيل : إن "كان" بمعنى "صار" والأصح أنه بمعنى الثبوت والاستمرار أي إنه لم يزل موصوفاً بالصدق والنبوة في الأوقات الممكن له ذلك فيها . والتاء في ﴿ يا أبت ﴾ عوض من ياء الإضافة وقد مر في أول سورة يوسف . أورد على أبيه الدلائل والنصائح وصدر كلاً منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلب أبيه وامتثالاً لأمر ربه على ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أوحى الله إلى إبراهيم إنك خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي وأسكنه حظيرة القدس وأدنيه من جواري" فقوله : ﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر " منسيّ المفعول لا منويه فإن الغرض نفي الفعلين على الإطلاق دون التقييد . و "ما" موصولة أو موصوفة أي الذي لا يسمع أو معبوداً لا يسمع و ﴿ شيئاً ﴾ مفعول به من قوله : "أغن عني وجهك" أي ادفعه . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر أي شيئاً من الإغناء ، وعلى هذا يجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين أي لا يسمع شيئاً من السماع إلى آخره . وحاصل الدليل أن العبادة غاية الخضوع فلا يستحقها إلا أشرف الموجودات لا أخسها وهو الجماد غاية عذرهم عن تلك هي أنها تماثيل أشياء يتصوّر نفعها أو ضرها كالكواكب وغيرها فيقال لهم : أليس الكواكب وسائر الممكنات تنتهي في

الاحتياج إلى واجب الوجود ؟ فإذا جعل شيء من هذه الأشياء معبوداً فقد شورك الممكن والواجب في نهاية التعظيم وهذا مما ينبو عنه الطبع السليم ، ورفع الوسائط من

(196/489)

البين أدخل في الإخلاص وأقرب إلى الخلاص . وقوله : ﴿ يا أبت أني قد جاءني ﴾ تنبيه ونصيحة وفيه أن هذا العلم تجدد له حصوله فيكون أقرب إلى التصديق . وفي قوله : ﴿ من العلم ما لم يأتك ﴾ فائدة هي أنه لم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال : إن معي طائفة من العلم ليست معك فلا تستنكف ، وهب أنا في مفازة وعندي معرفة بالدلالة دونك ﴿ فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ مستوياً مؤدّياً إلى المقصود وهو صلاح المعاش والمعاد .

استدل أرباب التعليم بالآية بأنه لا بد من الاتباع . وأجيب بأنه لا يلزم من اتباع النبي اتباع غيره . والإنصاف أن هذه الطريق أسهل .

(197/489)

ثم أكد المعنى المذكور بنصيحة أخرى زاجرة عما هو عليه فقال : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ أي لا تطعه فإن عبادة الأصنام هي طاعة الشيطان . ثم أسقط حصة نفسه إذ لم يقل إن الشيطان عدوّ لبني آدم بل قدّم حق ربه فقال : ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ حين ترك أمره بالسجود عناداً واستكباراً لا نسياناً وخطأً ، نبهه بهذه النصيحة على وجود الرحمن ثم على وجود الشيطان ، وأن الرحمن مصدر كل خير ، والشيطان مظهر كل شر بدلالة الموضوع اللغوي ، وهذا القدر كافٍ من التنبيه لمن تأمل وأنصف . ثم بين الباعث على هذه النصحية فقال : ﴿ يا أبت إني أخاف ﴾ وفيه مع التخويف من سواء العاقبة أنواع من الأدب إذ ذكر الخوف والمس ونكر العذاب . قال الفراء : معنى أخاف أعلم . والأكثرون على أنه محمول على ظاهره لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن جازماً بموت أبيه على الكفر وإلا لم يشتغل بنصحه . والخوف على الغير ظن وصول الضرر إلى ذلك الغير مع تألم قلبه من ذلك كما يقال : أنا خائف على ولدي . وذكروا في الولي وجوهاً منها : أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار والمعية سبب الولاية أو مسببها غالباً ، وإطلاق أحدهما على الآخر مجاز . وليس هناك ولاية حقيقة لقوله : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ﴾ [الزخرف : 67] ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ [إبراهيم : 22] ومنها أن حمل العذاب على الخذلان ومنها أن الولي بمعنى التالي والتابع قال جار الله : جعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أتباعه وأوليائه أكبر من نفس

العذاب ، لأن ولاية الشيطان في مقابلة رضا الرحمن وقال عز من قائل : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] وإذا كان رضوان الله أكبر من نعيم الجنة فولاية الشيطان أعظم من عذاب النار . ثم إن الشيخ قبل ملاطفات إبراهيم بالفظاظة والغلظة قائلاً ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ فقدم الخبر على المبتدأ إشعاراً بأنه عنده أعنى . وفي هذا الاستفهام ضرب من

(198/489)

التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته . وفي قوله : ﴿ يا إبراهيم ﴾ دون أن يقول : " يا بني " في مقابلة ﴿ يا أبت ﴾ تهاون به كيف لا وقد صرح بالإهانة قائلاً ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ باللسان أي لأشتمنك أو باليد أي لأقتلنك وأصله الرمي بالرجام . ثم ههنا إضمار أي فاحذرني ﴿ واهجرني ملياً ﴾ أي زماناً طويلاً من الملاوة ، أو أراد ملياً بالذهاب والهجران . مطيقاً له قوياً عليه قبل أن أثخنك بالضرب .

فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على التمرد والجهالة ﴿ قال سلام عليك ﴾ يعني سلام توديع ومتاركة كقوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان : 63] وفيه أن متاركة المنصوح إذا ظهر منه آثار اللجاج من سنن المرسلين ، ويحتمل أن يكون قد دعا له

بالسلامة استمالة له ورفقاً به بدليل قوله : ﴿ سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّاً ﴾ بليغاً في البر والإلطاف وقد مر في آخر " الأعراف " .

(199/489)

احتج بالآية بعض من طعن في عصمة الأنبياء قال : إنه استغفر لأبيه الكافر وهو منهي عنه لقوله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] الآية . ولقوله في الممتحنة ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] إلى قوله : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ [الممتحنة : 4] فلو لم يكن هذا معصية لم يمنع من التأسي به . والجواب لعل إبراهيم عليه السلام في شرعه لم يجد ما يدل على القطع بتعذيب الكافر أو لعل بهذا الفعل منه من باب ترك الأولى ، أو لعل الاستغفار بمعنى الاستبطاء كقوله : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ [الجاثية : 14] والمعنى سأسأل ربي أن يخزيك بكفرك ما دمت حياً . والجواب في الحقيقة ما مر في آخر سورة التوبة في قوله عز من قائل ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : 114] والمنع من التأسي لا يدل على المعصية ، فلعل الاستغفار مع ذلك الشرط كان من خصائصه كما أن كثيراً من الأمور كانت مباحة للرسول الله صلى الله عليه

وسلم هي محرمة علينا . ثم صرح بما تضمنه السلام من التوديع والهجران فقال : ﴿ وأعتزلكم ﴾ أي أهاجر إلى الشام ﴿ و ﴾ أعتزل ﴿ ما تدعون ﴾ أي ما تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ وقد يعبر بالدعاء عن العبادة لأنه منها ومن وسائطها ، يدل على هذا التفسير قوله : ﴿ فلما أعتزلهم وما يعبدون ﴾ أما قوله : ﴿ وأدعو ربي ﴾ فيحتمل معنيين : العبادة والدعاء كما يجيء في سورة الشعراء . وفي قوله : ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم وعبادتها مع التواضع وهضم النفس المستفاد من لفظ ﴿ عسى ﴾ .

(200/489)

قال العلماء : ما خسر على الله أحد فإن إبراهيم لما ترك أباه الكافر وقومه فراراً بدينه عوّضه الله أولاداً مؤمنين أنبياء وذلك قوله : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ووهبنا لهم ﴾ شيئاً ﴿ من رحمتنا ﴾ عن الحسن : هي النبوة . وعن الكلبي : المال والولد . والأظهر أنها عامة في ذلك كل خير ديني ودنيوي ولسان الصدق والثناء الحسن ، عبر باللسان عما يوجد به كما عبر باليد عما يطلق بها وهو العطية وقد مر تحقيق الإضافة في أول يونس في قوله : ﴿ قدم صدق ﴾ [يونس : 2] تبرأ إبراهيم من أبيه ابتغاء مرضاة

الله فسماه الله أبا بالمؤمنين ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ [الحج : 78] ، وتل ولده للجبين فداه الله بذبح عظيم ، وأسلم نفسه لرب العالمين فجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وأشفق على هذه الأمة فقال وابعث فيهم رسولاً ، فأشركه الله في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخمس ، ووفى في حق سارة كما قال تعالى :

(201/489)

﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ [النجم : 37] فجعل موطىء قدمه مباركاً ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة : 125] وعادى كل الخلق في الله حين قال ﴿ فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين ﴾ [الشعراء : 77] فلا جرم اتخذه الله خليلاً . ثم قفى قصة إبراهيم بقصة موسى عليه السلام لأنه تلوه في الشرف . والمخلص بكسر اللام الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء وأخلص وجهه لله ، وبالفتح الذي أخلصه الله و ﴿ كان رسولاً نبياً ﴾ الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء والنبي الذي ينبىء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعم قبل الأخص إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله في طه ﴿ برب هرون وموسى ﴾ [طه : 7] ﴿ الأيمن ﴾ من اليمين أي من ناحية اليمنى من موسى أو هو من اليمن صفة للطور أو للجانب ﴿ وقربناه ﴾ حال كونه

﴿ نجياً ﴾ أي مناجياً شبه تكليمه إياه من غير واسطة ملك بتقريب بعض الملوك واحداً من ندمائه للمناجاة والمسارة . وعن أبي العالية أن التقريب حسي ، قربه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة والأول أظهر ، ومنه قولهم للعبادة " تقرب " وللملائكة " أنهم مقربون " . ﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أي من أجلها أي بعض رحمتنا فيكون ﴿ أخاه ﴾ بدلاً و ﴿ هرون ﴾ عطف بيان كقولك " رأيت رجلاً أخاك زيداً " . و ﴿ نبياً ﴾ حال من هارون . قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى فتنصرف الهبة إلى معاضدته وموازرته . وذلك بدعاء موسى في قوله : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ [طه : 29] وخص إسماعيل بن إبراهيم بصدق الوعد وإن كان الأنبياء كلهم صادقين فيما بينهم وبين الله أو الناس ، لأنه المشهور المتواصف من خصاله من ذلك : أنه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفى به . وعن ابن عباس أنه وعد صاحباً له أن ينتظره فانتظره سنة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه واعد رجلاً ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى إلى قريب من غروب الشمس . وسئل الشعبي عن الرجل يعد

ميعاده إلى أي وقت ينتظره ؟ فقال : إذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره إلى وقت صلاة أخرى . وكان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لغيرهم ولأن الابتداء بالإحسان الديني والدنيوي بمن هو أقرب أولى ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [التحريم : 6] " بدأ من تعول " ويحسن أن يقال : أهله أمته كلهم أقارب أو أباعد من حيث إنه يلزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة من قضاء حقوق النصيحة والشفقة ورعاية مصالحهم الدينية والدنيوية . وعلى القولين يندرج في الصلاة الصلوات المفروضة والمندوبة كصلاة التهجد وغيرها ، وأما الزكاة فالأقرب أنها الصدقة المفروضة . وعن ابن عباس أنها طاعة الله والإخلاص لأن فاعلها يزكو بها عند الله .

وأما إدريس فالأصح أنه اسم عجمي بدليل منع الصرف كما مر مراراً في آدم ويعقوب وغيرهما . وقيل : " افعيل " من الدرس لكثرة دراسته كتاب الله ، ولعل معناه بالأعجمية قريب من الدراسة فظنه القائل مشتقاً منها .

(203/489)

وفي رفعته أقوال منها : أن المكان العليّ شرف النبوة والزلفى عند الله ، وقد أنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ، وأول من خاط

الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود ، واسمه أخنوخ من أجداد نوح لأنه نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وأهل التنجيم بعضهم يسمونه هرمس ولهم نوادر في استخراج طوالع المواليد ينسبونه إليه . وقيل : إن الله تعالى رفعه إلى السماء وإلى الجنة وهو حي لم يمت . وقال آخرون : رفع إلى السماء وقبض روحه . عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن قوله : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال : جاء خليل من الملائكة فسأله أن يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه ، فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به ، فلما كان في السماء الرابعة إذ بملك الموت يقول : بعثت لأقبض روح إدريس في السماء الرابعة وأنا أقول : كيف ذلك وهو في الأرض ؟ فالتفت إدريس فرأى ملك الموت فقبض روحه هناك . وعن ابن عباس أنه رفع إلى السماء السادسة . وعن الحسن : المراد أنه رفع إلى الجنة ولا شيء أعلى منها . ﴿ أولئك ﴾ المذكورون من لدن زكريا إلى إدريس هم ﴿ الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ " من " للبيان لأن جميع الأنبياء منعم عليهم ﴿ من ذرية آدم ﴾ هي للتبعيض وكذا في قوله : ﴿ وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ﴾ والمراد بمن هو من ذرية آدم إدريس لقربه منه ، وبذرية من حمل مع نوح إبراهيم عليه السلام لأنه من ولد سام بن نوح ، وبذرية إبراهيم وإسماعيل ، وبذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم لأن مريم من ذريته . ﴿ وممن هدينا ﴾ يحتمل العطف على من الأولى والثانية وفي هذا الترتيب تنبيه على أن هؤلاء الأنبياء اجتمع لهم مع كمال الأحساب شرف الأنساب ، وأن

جميع ذلك بواسطة هداية الله وبمزية اجتنائه واصطفائه . ثم إن جعلت ﴿ الذين ﴾ خبراً ﴿ لأولئك ﴾ كان ﴿ إذا يتلى ﴾ كلاماً مستأنفاً ، وإن جعلته صفة له كان خبراً وقد عرفت

(204/489)

في الوقوف سار الوجوه من قرأ ﴿ يتلى ﴾ بالتذكير لأن تأنيث الآيات غير حقيقي والفاصل حاصل . والبكي جمع باكٍ " فعول "كسجود في " ساجد " أبدلت الواو ياء وأدغمت وكسر ما قبلها للمناسبة . ومن زعم أنه مصدر فقد سها لأنها قرينة سجداً . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا " أراد بالآيات التي فيها ذكر العذاب وقال غيره : إطلاق الآيات والحديث المذكور يدل على العموم لأن كل آية إذا فكر فيها المفكر صح أن يسجد عندها ويبكي .

قلت : لعل المراد بآيات الله ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة ، لأن القرآن حينئذ لم يكن منزلاً واختلفوا في السجود . فقيل : هو الخشوع والخضوع . وقيل : الصلاة . وقيل : سجدة التلاوة على حسب ما تعبدنا به . ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا يتعبدون بالسجود . قال الزجاج : الإنسان في حال خروره لا يكون ساجداً فالمراد خروا متهيئين

للسجود . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرؤا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن " وعن ابن عباس : إذا قرأتم سجدة " سبحان " فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . وقالت العلماء : يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بها فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال : اللَّهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة " سبحان " قال : اللَّهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك . وإن قرأ ما في هذه السورة قال : اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك .

(205/489)

ولما مدح هؤلاء الأنبياء ترغيباً لغيرهم من سيرتهم وصف أضدادهم لتنفير الناس عن طريقتهم قائلاً ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ وهو عقب السوء كما مر في آخر " الأعراف " فإضاعة الصلاة في مقابلة الخرور سجداً ، واتباع الشهوات بإزاء البكاء . عن بان عباس : هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب . وعن إبراهيم النخعي ومجاهد : أضاعوها بالتأخير . وعن علي رضي الله عنه في قوله : ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ من بني الشديد وركب المنظور ولبس المشهور . وعن قتادة

: هو في هذه الأمة ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ قال جار الله : كل شر عند العرب غي وكل خير رشاد . وقال الزجاج : هو على حذف المضاف أي جزاء غي كقوله : ﴿ ويلق أثاماً ﴾ [الفرقان : 68] أي مجازاة أثام . وقيل : غياً من طريق الجنة . وقيل : هو وادٍ في جهنم تستعيذ منه أوديتها احتج بعضهم بقوله : ﴿ إلا من تاب وآمن ﴾ على أن تارك الصلاة كافر وإلا لم يحتج إلى تجديد الإيمان . والجواب أنه إذا كان المذكورون هم الكفرة أو اليهود – كما رويناه عن ابن عباس – سقط الاستدلال . واحتجت الأشاعرة في أن العمل ليس من الإيمان لأن العطف دليل التغاير . وأجاب الكعبي بأنه عطف الإيمان على التوبة مع أنها من الإيمان ، ومنع من أن التوبة من الإيمان ولكنها شرطه لأنها العزم على الترك والإيمان إقرار باللسان ، وإنما حذف الموصوف ههنا وقال في الفرقان ﴿ وعمل عملاً صالحاً ﴾ [الفرقان : 70] لأنه أوجز في ذكر المعاصي فأوجز في التوبة وأطال هناك فأطال هناك . وهذا الاستثناء بحسب الغالب فقد يتوب عن كفره ويؤمن ولم يدخل بعد وقت الصلاة ، أو كانت المرأة حائضاً ثم مات فهو من أهل النجاة مع أنه لم يعمل صالحاً .

(206/489)

ومعنى ﴿ لا يظلمون شيئاً ﴾ لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم بل يضاعف لهم تفضلاً تنبيهاً على أن تقدم الكفر لا يضرهم بعد أن يتوبوا ، ويحتمل أن ينتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المصدر أي شيئاً من الظلم . ومعنى ﴿ جنات عدن ﴾ قد مر في سورة التوبة في قوله : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ [التوبة : 72] وصفها الله تعالى بالإقامة والدوام خلاف ما عليه جنان الدنيا . ولما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت منها ، ويحتمل انتصابها عل الاختصاص وكذا انتصاب " التي " . قال جار الله : عدن علم بمعنى العدن وهو الإقامة وهو علم لأرض الجنة لكونها مكان إقامة ولولا ذلك لما ساغ الإبدال ، لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصوفة . ولما ساغ وصفها ب " التي " ومعنى ﴿ بالغيب ﴾ مع الغيبة أي وعدوها وهي غائبة عنهم غير حاضرة ، أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها ، أو الباء للسببية أي وعدها عباده بسبب تصديق الغيب والإيمان به خلاف حال المنافقين . وقوله : ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ بالأول أنسب وهو مفعول بمعنى " فاعل " ، أو على أصله لأن ما أتاك فقد أتيته . وجوز في الكشاف أن يكون من قولك : " أتى إليك إحساناً " أي كان وعده مفعولاً منجزاً . قوله : ﴿ إلا سلاماً ﴾ استثناء متصل على التأويل لأن اللغو فضول الكلام وما لا طائل تحته كما تقدم في يمين اللغو في " البقرة " وفي " المائدة " أي إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً إلا ذلك كقولهم " عتابك السيف " . أو استثناء منقطع أي لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون

فيه من العيب والنقيصة ، ويجوز أن يكون متصلاً بتأويل آخر وهو أن معنى السلام الدعاء بالسلامة وأهل دار السلام عن الدعاء بالسلامة أغنياء ، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام . وفي الآية تنبيه ظاهر على وجوب اتقاء اللغو حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها . ثم إنه سبحانه من عادته ترغيب

(207/489)

كل قوم بما أحبوه في الدنيا فلذلك ذكر أساور من الذهب والفضة لبس الحرير التي كانت للعجم والأرائك التي هي الحجال المضروبة على الأسرة ، وكانت من عادة أشراف اليمن ولا شيء كان أحب إلى العرب من الغداء والعشاء لأنها العادة الوسطى المحمودة لمتنعمين منهم فوعدهم بذلك قائلاً : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعيشاً ﴾ هذا قول الحسن . ولا يكون ثم ليل ولا نهار ولكن على التقدير أي يأكلون على مقدار الغداة على العشي . وقيل : أراد دوام الرزق كما تقول : أنا عند فلان صباحاً ومساء تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين .

وقوله : ﴿ تلك الجنة التي نورث ﴾ كقوله في " الأعراف " ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها ﴾ [الأعراف : 43] وهي استعارة أي تبقى عليهم الجنة كما يبقى على

الوارث مال الموروث منه . قال القاضي : في الآية دلالة على أن الجنة يختص بدخولها من كان متقياً غير مرتكب للكبائر . وأجيب بمنع الاختصاص وبأنه يصدق على صاحب الكبيرة . أنه اتقى الكفر .

(208/489)

سئل ههنا أن قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث ﴾ كلام الله وقوله بعده : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ خطاب ليس من كلام الله فما وجه العطف بينهما : وأجيب بأنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح ، فظاهر قوله : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ خطاب جماعة لواحد وإنه لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول كما روي أن قريشاً بعثت خمسة رهط إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم . فسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه ، وقالت اليهود : نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمان اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسألوه عنهن ، فإن أخبركم بخصلتين منها فاتبعوه ، فاسألوه عن فئة أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب ، فوعدهم الجواب ولم يقل : إن شاء الله . فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً – وقيل خمسة عشر يوماً – فشق عليه ذلك مشقة شديدة . وقال المشركون : ودعه ربه وقلاه .

فنزل جبرائيل عليه السلام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أبطأت عني حتى ساء ظني واشتقت إليك . " قال : كنت أشوق ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذ حبست احتبست . فأنزل الله الآية وأنزل قوله : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً ﴾ [الكهف : 23] وسورة الضحى . ومعنى التنزل على ما يليق بهذا الموضع هو النزول على مهل أي نزلنا في الأحايين وقتاً غب وقت ليس إلا بأمر الله عزوجل . ثم أكد جبرائيل ما ذكره بقوله : ﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا ﴾ من الجهات والأماكن أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة وما بينهما من المكان والزمان الذي نحن فيه فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيئته . وقيل : له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة ﴿ وما بين ذلك ﴾ وهو ما بين النفختين أربعون سنة . وقيل : ما مضى . من أعمارنا وما غبر منها والحال التي نحن فيها أو ما قبل وجودنا وبعد

(209/489)

فنائنا . وقيل : الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا . والسماء التي وراءنا ، وما بين السماء والأرض وعلى الأقوال فالمراد أنه المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فكيف يقدم على فعل إلا بأمره !

وقال أبو مسلم : في وجه النظم إن قوله : ﴿ وما نتنزل ﴾ من قول أهل الجنة لمن بحضرتهم أي ما ننزل الجنة إلا بأمر ربك .

أما قوله : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ فعلى القول الأول معناه أنه ما كان امتناع النزول إلا لعدم الإذن ولم يكن لترك الله إياكم لقوله : ﴿ ما ودّعك ربك وما قلى ﴾ [الضحى : 3] وعلى قول غير أبي مسلم هو تأكيد لإحاطته تعالى بجميع الأشياء ، وأنه لا يجوز عليه أن يسهو عن شيء ما ألبته . وعلى قول أبي مسلم المراد أنه ليس ناسياً لأعمال العاملين فيثيب كلاً منهم بحسب عمله فيكون من تتمة حكاية قول أهل الجنة ، أو ابتداء كلام من الله تعالى خطاباً لرسوله ويتصل به قوله : ﴿ رب السموات والأرض ﴾ أي بل هو ربهما ﴿ وما بينهما فاعبده ﴾ الفاء للسببية لأن كونه رب العالمين سبب موجب لأن يعبد ﴿ واصطبر لعبادته ﴾ لم يقل " على عبادته " لأنه جعل العبادة بمنزلة القرن في قولك للمحارب " اصطبر لقرنك " أي أوجد الاصطبار لأجل مقاومته . ثم أكد وجوب عبادته بقوله : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ أي ليس له مثل ونظير حتى لا تخلص العبادة له ، وإن عديم النظير لا بد أن يصبر على مواجب إرادته وتكاليفه خصوصاً إذا كانت فائدتها راجعة إلى المكلف .

وقيل : أراد أنه لا شريك له في اسمه وبيانه في وجهين : أحدهما أنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله عى الوثن إلا أنهم لم يطلقوا لفظ الله على من سواه . وعن ابن عباس : أراد لا يسمى بالرحمن غيره . قلت : وهذا صحيح ولعله هو السر في أنه لم يكرر لفظ " الرحمن " في سورة

تكريره في هذه السورة . وثانيهما هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل أن التسمية على الباطل كلا تسمية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 489 . 498 ﴾

(210/489)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾

انتهت قصة ميلاد عيسى بكشف ما في أسطورة الولد من نكارة وكذب وضلال ؛ وهي التي يستند إليها بعض أهل الكتاب في عقائدهم الفاسدة . وتليها في السورة حلقة من قصة إبراهيم تكشف عما في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال كذلك . وإبراهيم هو الذي ينتسب إليه العرب . ويقول المشركون : إنهم سدنة البيت الذي بناه هو وإسماعيل . وتبدو في هذه الحلقة شخصية إبراهيم الرضي الحليم . . تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته التي يحكي القرآن الكريم ترجمتها بالعربية ، وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه . كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة ، فيها الأنبياء وفيها الصالحون . وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا واتبعوا

الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنه لهم أبوهم إبراهيم . هم هؤلاء المشركون . .

ويصف الله إبراهيم بأنه كان صديقاً نبياً . ولفظة صديق تحتمل معنى أنه كثير الصدق وأنه كثير التصديق . وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . . ﴾ .

(211/489)

بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه ، وعلمه إياه ؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه : ﴿ يا أبت ﴾ ويسأله : ﴿ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ؟ ﴾ والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى . وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى . فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان . بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً . إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو

حال قريش الذين يواجههم الإسلام .

هذه هي اللمسة الأولى التي يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه . ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذي جاءه من الله فهداه . ولو أنه أصغر من أبيه سناً وأقل تجربه ، ولكن المدد العلوي جعله يفقه ويعرف الحق ؛ فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم ، ليتبعه في الطريق الذي هدي إليه :

﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا ﴾ . .

فليست هناك غضاضة في أن يتبع الوالد ولده ، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى . فإنما يتبع ذلك المصدر ، ويسير في الطريق إلى الهدى .

وبعد هذا الكشف عما في عبادة الأصنام من نكارة ، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه . يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان ، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن ، فهو يخشى أن يغضب الله عليه فيقضي عليه أن يكون من أتباع الشيطان .

﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان . إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ .

والشيطان هو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذي يعبدها كأنما يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمن . وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً . فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة ؛ وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة . . نقمة تقوده إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب .

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسي ، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد :

﴿ قال : أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرني مليا ﴾ .

أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ، وكاره لعبادتها ومعرض عنها ؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة ؟ فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع : ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ ! فاغرب عن وجهي وابعد عني طويلاً . استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة : ﴿ واهجرني مليا ﴾ .

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى . وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب . وذلك شأن الإيمان مع الكفر ؛ وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر .

ولم يغضب إبراهيم الحليم . ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه :

﴿ قال : سلام عليك . سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ .

سلام عليك . . فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد . سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان ، بل يرحمك فيرزقك الهدى . وقد عودني ربي أن يكرمني فيجيب دعائي . وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك ، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة . وأدعو ربي وحده ، راجياً بسبب دعائي لله ألا يجعلني شقياً .

(213/489)

فالذي يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة . . وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره . فهو لا يرى لنفسه فضلاً ، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة !

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره ، فلم يتركه الله وحيداً . بل وهب له ذرية وعوضه خيراً :

﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب .

وكلاً جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا . وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ . .

وإسحاق هو ابن إبراهيم ، رزقه من سارة وكانت قبله عقيماً ويعقوب هو ابن إسحاق : ولكنه يحسب ولداً لإبراهيم لأن إسحاق رزقه في حياة جده ، فنشأ في بيته وحجره ، وكان كأنه ولده المباشر ؛ وتعلم دياناته ولقنها بنيه . وكان نبياً كأبيه .

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم . . والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة في جو السورة ، ولأنها هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله وديارة ، وتؤنسه في وحدته واعتزاله .

﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ . . فكانوا صادقين في دعوتهم ، مسموعي الكلمة في قومهم . يؤخذ قولهم بالطاعة وبالتبجيل .

ثم يمضي السياق مع ذرية إبراهيم : مستطرداً مع فرع إسحق فيذكر موسى وهارون :

﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ . .

(214/489)

فيصف موسى بأنه كان مخلصاً استخلصه الله له ومحضه لدعوته . وكان رسولاً نبياً .

والرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس . والنبي لا يكلف إبلاغ

الناس دعوة إنما هو في ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله . وكان في بني إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى والحكم بالتوراة التي جاء بها من عند الله : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ ويبين فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن (الأيمن بالنسبة لموسى إذ ذاك) وتقريبه إلى الله لدرجة الكلام . الكلام القريب في صورة مناجاة . ونحن لا ندري كيف كان هذا الكلام ، وكيف أدركه موسى . . أكان صوتاً تسمعه الأذن أم يتلقاه الكيان الإنساني كله . ولا نعلم كيف أعد الله كيان موسى البشري لتلقي كلام الله الأزلي . . إنما نؤمن أنه كان . وهو على الله هين أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق ، وهو بشر على بشريته ، وكلام الله علوي على علويته . ومن قبل كان الإنسان إنساناً بنفخة من روح الله . .

ويذكر رحمة الله بموسى في مساعدته بإرسال أخيه هارون معه حين طلب إلى الله أن يعينه به ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴾ وظل الرحمة هو الذي يظلل جو السورة كله .

ثم يعود السياق إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم . فيذكر إسماعيل أبا العرب : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا ﴾ . .

وينوه من صفات إسماعيل بانه كان صادق الوعد .

وصدق الوعد صفة كل نبي وكل صالح ، فلا بد أن هذه الصفة كانت بارزة في إسماعيل بدرجة تستدعي إبرازها والتنويه بها بشكل خاص .

(215/489)

وهو رسول فلا بد أن كانت له دعوة في العرب الأوائل وهو جدهم الكبير . وقد كان في العرب موحدون أفراد قبيل الرسالة المحمدية ، فالأرجح أنهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل . ويذكر السياق من أركان العقيدة التي جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بهما أهله . . ثم يثبت له أنه كان عند ربه مرضياً . . والرضى سمة من سمات هذه السورة البارزة في جوها وهي شبيهة بسمة الرحمة ، وبينهما قرابة !

وأخيراً يختم السياق هذه الإشارات بذكر إدريس :

﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا . ورفعناه مكاناً عليا ﴾ .

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس . ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم وليس من أنبياء بني إسرائيل فلم يرد ذكره في كتبهم . والقرآن يصفه بأنه كان صديقاً نبياً ويسجل له أن الله رفعه مكاناً عليا . فأعلى قدره ورفع ذكره . .

وهناك رأي نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه ، ويقول به بعض الباحثين في الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة " أوزريس " المصرية القديمة . كما أن يحيى تعريب لكلمة يوحنا . وكلمة اليسع تعريب لكلمة إليشع . . وأنه هو الذي صيغت حوله أساطير كثيرة . فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم . وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق بأوزريس الذي جعلوه إلهاً لهم . وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء .

وعلى أية حال فنحن نكتفي بما جاء عنه في القرآن الكريم ؛ ونرجح أنه سابق على أنبياء بني إسرائيل .

يستعرض السياق أولئك الأنبياء ، ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركي العرب أو من مشركي بني إسرائيل : فإذا المفارقة صارخة والمسافة شاسعة والهوة عميقة والفارق بعيد بين السلف والخلف :

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا . إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً

وبكيا . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا . . . ﴾ .

والسياق يقف في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية ﴿ من ذرية آدم ﴾ . ﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ . ﴿ ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ﴾ . فآدم يشمل الجميع ، ونوح يشمل من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين : ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل . وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم . . صفتهم البارزة : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا ﴾ .

. فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ؛ ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكياً . .

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله . . خلف من بعدهم خلف ، بعيدون عن الله . ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ فتركوها وجحدوها ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ واستغرقوا فيها . فما أشد المفارقة ، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء !

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين . يتهددهم بالضلال

والهلاك : (فسوف يلقون غيا ﴾ والغي الشرود والضلال ، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك .

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمى :

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً . جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب . إنه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً . ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ . .

(217/489)

فالتوبة التي تنشئ الإيمان والعمل الصالح ، فتحقق مدلولها الإيجابي الواضح . . تنجي من ذلك المصير فلا يلقى أصحابها ﴿ غياً ﴾ إنما يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً . يدخلون الجنة للإقامة . الجنة التي وعد الرحمن عباده إياها فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها . ووعد الله واقع لا يضيع . .

ثم يرسم صورة للجنة ومن فيها . . ﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ﴾ فلا فضول في الحديث ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضي .

صوت السلام . . والرزق في هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب ولا كد . ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من التخلف أو النفاد : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ فما يليق الطلب ولا القلق في هذا الجو الراضي الناعم الأمين . .

﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ . . فمن شاء الوراثة فالطريق معروف : التوبة والإيمان والعمل الصالح . أما وراثة النسب فلا تجدي . فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيّين وممن هدى الله واجتبى ؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فلم تنفعهم وراثة النسب ﴿ فسوف يلقون غيّا ﴾ . .

ويختم هذا الدرس بإعلان الربوبية المطلقة لله ، والتوجيه إلى عبادته والصبر على تكاليفها . ونفي الشبيه والنظير :

﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا . رب السماوات والأرض وما بينهما ، فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا ؟ ﴾ . .

وتتضافر الروايات على أن قوله : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك . . ﴾ مما أمر جبريل عليه السلام أن يقوله للرسول صلى الله عليه وسلم رداً على استبطائه للوحي فترة لم يأته فيها جبريل . فاستوحشت نفسه ، واشتاقت للاتصال الحبيب . فكلف جبريل أن يقول له : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ فهو الذي يملك كل شيء من أمرنا :

﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ وهو لا ينسى شيئاً ، إنما ينزل الوحي عندما تقتضي حكمته أن ينزل ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ فناسب بعد ذلك أن يذكر الاصطبار على عبادة الله مع إعلان الربوبية له دون سواه :

﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ .

. فلا ربوبية لغيره ، ولا شرك معه في هذا الكون الكبير .

﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ . . اعبده واصطبر على تكاليف العبادة . وهي تكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدي المعبود ، والثبات في هذا المرتقى العالي . اعبده واحشد نفسك وعبئ طاقتك للقاء والتلقي في ذلك الأفق العلوي . . إنها مشقة . مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ، ومن كل هاتف ومن كل التفات . . وإنها مع المشقة للذة لا يعرفها إلا من ذاق . ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة ، وإلا بالتجرد لها ، والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة . فهي لا تفشي سرها ولا تمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعاً .

﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ . . والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر . إنما هي كل نشاط : كل حركة . كل خالجة . كل نية . كل اتجاه . وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دو سواه . مشقة تحتاج إلى الاصطبار . ليتوجه القلب في كل نشاط

من نشاط الأرض إلى السماء . خالصاً من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات ، وشهوات النفس ، ومواضعات الحياة .

إنه منهج حياة كامل ، يعيش الإنسان وفقه ، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة انه يتعبد الله ؛ فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء . وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة .

فاعبده واصطبر لعبادته . . فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود والذي تتجه إليه الفطرة والقلوب . . ﴿ هل تعلم له سمياً ؟ ﴾ . هل تعرف له نظيراً ؟ تعالى الله عن السمي والنظير . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2310.2315 ﴾

(219/489)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ الأزلي ﴿ إبراهيم ﴾ القلب ﴿ إنه كان صديقاً ﴾ للتصديق ثلاث مراتب : صادق صدق في أقواله ، وصادق صدق في أخلاقه وأحواله ، وصديق صدق في قيامه مع الله في الله بالله وهو الفانى عن نفسه الباقي بربه ﴿ إذ قال

لأبيه ﴾ الروح الذي يعبد صنم الدنيا بتبعية النفس ﴿ فقد جاءني من العلم ﴾ اللدني ﴿ ما لم يأتك ﴾ لما ذكرنا أن القلب محل للفيض الإلهي أقبل من الروح كالمرآة فإنها تقبل النور لصفائها وينعكس النور عنها لكثافتها وصقالتها ﴿ وهبنا له إسحاق ﴾ السر ﴿ ويعقوب ﴾ الخفي ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾ أسمعنا موسى القلب من جانب طور الروح لا من جانب وادي النفس الذي هو على أيسر ﴿ وكان يأمر أهله ﴾ أي الجسم والنفس والقلب والروح بالصلاة له توجه كل منهم توجهاً يليق بحاله ، وبالزكاة أي تزكية كل واحد منهم من الأخلاق الذميمة ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿ خروا ﴾ بقلوبهم على عتبة العبودية ﴿ سجداً ﴾ بالتسليم للأحكام الأزلية ﴿ وبكياً ﴾ بكاء السمع يذوبان الوجود على نار الشوق والمحبة ﴿ عباده بالغيب ﴾ أي بغيبتهم عن الوجود قبل التكوين كقوله :

(220/489)

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ [التوبة : 111] ﴿ ولهم رزقهم ﴾ رؤية الله على ما جاء في الحديث : " وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوّاً وعشياً " ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ المقدور في علم الله ، وتنادى أهل العزة من

سرادقات العزة أن يا أهل الطبيعة أفيقوا من المتمنيات فإنا ما ننزل من عالم الغيب . إلا بأمر ربك ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ ليحتاج إلى تذكير متمن ، بل هو رب سموات الأرواح وأرض الأجساد وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار له ﴿ فاعبده ﴾ بأركان الشريعة بجسدك وبآداب الطريقة بنفسك وبالإعراض عن الدنيا والإقبال على المولى بقلبك وبالفناء في الله والبقاء به بروحك وبسرك . ﴿ هل تعلم له ﴾ نظيراً في المحبوبية لك . والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 498 .

499 ﴾

(221/489)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(64) ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الأخير من سورة مريم , وهي سورة مكية , عدد آياتها 98 بعد البسملة , وقد سميت بهذا الأسم لورود قصة السيدة مريم ابنة عمران فيها , ومعجزة ولادتها للسيد المسيح (عليه السلام) , وهي عذراء لم يمسسها بشر , ومعجزة كلامه (عليه السلام) , وهو في المهد دفاعا عن أمه (شرفها الله) التي حاول اليهود (عليهم لعنة الله) أن ينالوا من شرفها , كما لوثوا سيرة كل نبي أرسل إليهم . . . . ! !

والمحور الرئيسي لسورة مريم يدور حول قضية العقيدة بأبعادها المختلفة , وفي مقدمتها توحيد الله , توحيدا مطلقا فوق كل خلقه , وتنزيهه (سبحانه وتعالي) عن كل وصف لايليق بجلاله من مثل نسبة الولد أو الشريك إليه , والتأكيد علي طلاقة قدرته التي لاتحدها حدود , ولايقف أمامها عائق ; وترسيخ عقيدة البعث , والحساب , والجنة , والنار , وإثبات وحدة رسالة السماء التي أنزلها ربنا (تبارك وتعالي) علي فترة من الرسل , وسماها باسم الإسلام , والدعوة إلي الاجتهاد في القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها , وإقامة عدل الله فيها , وإشاعة الأمن والفضيلة في أرجائها والتذكير بالآخرة والتحذير من أهوالها . . . ! !

ولتأكيد هذه المعاني تعرض سورة مريم لجوانب من القصص المتعلق بعدد من أنبياء الله ,

ولمصارع مكذبيهم في الدنيا من الكفار والمشركين , ولمصيرهم الأسود في الآخرة . . . . ! !

وتبدأ سورة مريم بخمسة من الحروف المقطعة , وهي (كهيعص) , وقد وردت بهذه الصيغة مرة واحدة في القرآن كله .

وهذه الفواتح

(222/489)

الهجائية أو (الحروف المقطعة) تتكون من أربعة عشر حرفا , جمعت في أربع عشرة صيغة , ورد كل منها مرة واحدة إلا أربعا منها هي : (ألم) , وقد تكررت ست مرات في القرآن الكريم , (الر) , وقد تكررت خمس مرات , (طسم) , وقد تكررت مرتين , و (حم) , وقد تكررت بمفردها ست مرات , وتكررت مرة سابعة في الصيغة الخماسية (حم * عسق) , وبذلك يكون مجموع الصيغ المكررة تسع عشرة , ومجموع الصيغ غير المكررة عشر صيغ , وتضم هذه الفواتح الهجائية أسماء نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين , وقد استفتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم .

وهذه الفواتح الهجائية هي من أسرار القرآن العظيم , التي توقف عن الخوض فيها أعداد

من علماء المسلمين مكتفين بتفويض الأمر فيها إلي الله (سبحانه وتعالي) , ورأي عدد آخر ضرورة الاجتهاد في تفسيرها وفهم دلالاتها , وإن لم يصلوا بعد إلي إجماع في ذلك , فمنهم من رأي فيها رموزا إلي كلمات أو معان , أو أعداد معينة , أو أسماء للسور التي وردت في أوائلها ; ومنهم من رأي فيها وسيلة قرع لأسماع وقلوب القارئين للقرآن أو المستمعين إليه , حتي يتهيأوا لتلقي كلام الله ; ومنهم من رأي فيها معجزة لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) من حيث نطقه بأسماء الحروف , وهو أمي , والأمي ينطق بأصوات الحروف دون معرفة أسمائها ; ومنهم من رأي فيها تنبيها عن إعجاز القرآن الكريم الذي صيغ من جنس تلك الحروف الهجائية التي يتكلم بها العرب , ويعجزون عن الإتيان بشئ من مثله وقد يكون فيها كل ذلك , وغيره مما لايعلمه إلا الله (تعالي) ; هذا وقد جمع عدد من المفسرين هذه الحروف في مجموعات من الجمل من أشهرها : نص حكيم قاطع له سر .

وبعد هذا الاستهلال المميز استعرضت السورة الكريمة ضراعة نبي الله زكريا (عليه السلام) إلي الله (تعالي) , خفية , أن يهبه ذرية صالحة , وقد بلغ منه الكبر

مبلغا , وكانت امرأته عاقرا , وكيف استجاب الله لدعائه , ووهبه يحيي نبيا , وسيدا , وحصورا , وكانت ولادته من أم عاقر , وأب طاعن في السن معجزة ناطقة بطلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود .

ثم انتقلت السورة إلي قصة السيدة مريم البتول (عليها رضوان الله) , وحملها دون أن يمسها بشر , ووضعها لنبي الله عيسي (علي نبينا وعليه السلام) ; وإنطاق الله (تعالي) لهذا الوليد المبارك , وهو في المهد , وما رافق هذه المعجزات من مشاهد وأحداث تؤكد عبودية المسيح لله الخالق (سبحانه وتعالي) , وذلك بنطقه المدون في سورة مريم بالنص التالي :

قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا * وبارا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا * والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا *(مريم :30 ـ 33) .

وتستمر الآيات مؤكدة اختلاف كل من اليهود والنصاري حول شخص المسيح (علي نبينا وعليه السلام) , وانحراف غالبية أتباعه عن منهجه , وانقسامهم إلي العديد من الفرق ; وانغماسهم في بحور من الضلال المبين , ولذلك تتهددهم الآيات بيوم القيامة ومشاهده المفزعة كما تؤكد تنزيه الله (تعالي) عن الولد , وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) : ذلك عيسي ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا

قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لايؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون *

(مريم :34.40) .

وبعد ذلك تعرض سورة مريم لجانب من قصة نبي الله إبراهيم (علي نبينا وعليه السلام) وحواره مع أبيه ,

(224/489)

وثباته علي الحق الذي شرح الله صدره له , وإكرام الله (تعالي) له بذرية صالحة من الأنبياء علي الرغم من كبر سنه ; وأتبعت ذلك بالحديث عن سلسلة من أنبياء الله (علي نبينا وعليهم من الله السلام) , ومنهم موسي , وهارون , وإسماعيل , وإدريس , وجميعهم من ذرية آدم (عليه السلام) , ومنهم من هو ممن حملهم الله (تعالي) مع نوح , ومنهم من هو من ذرية كل من إبراهيم , ويعقوب (عليهما السلام) , وممن هدي الله واجتبي , وقد استغرق الحديث عن هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء ثلثي سورة مريم تقريبا .

وقد ألمحت السورة الكريمة إلي انحراف الذين جاءوا من بعد هذه السلسلة الصالحة , فحادوا عن منهج الله , وفيهم تقرأ الآيات :

فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا * إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون شيئا *(مريم :60,59)

واستعرضت السورة جانبا من وصف الجنة ; ثم انتقلت إلي تأكيد حقيقة أن الملائكة لاتتنزل إلا بأمر الله , وتوصي الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) .ومن ثم توصي آتباعه. بالاصطبار علي عبادة الله وجعلها محورا للحياة , فتقول :

وماتتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك وما كان ربك نسيا * رب السماوات والأرض ومابينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا *(مريم :65,64) .

وتعرج السورة الكريمة إلي انكار الكثيرين لحقيقة البعث , وتذكرهم بخلقهم الأول من العدم , وتهددهم بحشرهم جثيا علي ركبهم حول جهنم , وإلقائهم جثيا فيها , ونجاة المتقين من هذا المشهد الرهيب .

وتشير سورة مريم إلي تفاخر الكفار والمشركين في هذه الدنيا بشيء من حطامها الفاني , ومتاعها الزائل , وتستنكر تعاليهم علي المسلمين , وتعييرهم لهم بفقرهم , وترد عليهم بقول الحق (تبارك وتعالي) : قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتي إذا

رأوا مايوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا *(مريم :75) .

وتذكر السورة الكريمة بالهالكين من الأمم السابقة ; وبأن الله (تعالي) يمد للضالين في غيهم حتي إذا أخذهم لم يفلتهم , ويزيد الذين اهتدوا هدي , وأنه لايبقي من هذه الحياة الدنيا إلا العمل الصالح .

وتستعرض السورة مواقف بعض الكفار والمشركين في استعلائهم علي الحق وأهله , وصلفهم في التعامل مع الله ومع خلقه , وتطالب الآيات رسول الله (صلي الله عليه وسلم) أن يصبر علي أذاهم وبألا يعجل عليهم لأن حساب الله ينتظرهم في يوم يصفه الحق (تبارك وتعالي) بقوله :

يوم نحشر المتقين إلي الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلي جهنم وردا *(مريم :86,85)

وعاودت سورة مريم الاستنكار الشديد من قبل الله (تعالي) ومن قبل الكون كله لادعاءات المبطلين نسبة الولد - زورا - إلي الله (تعالي) , وهو (سبحانه) المنزه عن هذا النقص , المتصف بكل صفات الكمال المطلق , وفي ذلك نزلت الآيات بقول الحق (تبارك

وتعالي):

وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وماينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * (مريم :'88-92) .

وتختتم السورة الكريمة بالقرار الإلهي :

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا *(مريم :6)

وبأن القرآن الكريم قد يسره ربنا (تبارك وتعالي) علي لسان هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه مسلم) ليبشر به المتقين , وينذر به قوما لدا .

وتعاود سورة مريم التذكير - في آخر آياتها - بالأمم البائدة التي أهلكها الله (تعالي) عقابا علي كفرها , وتسأل رسول الله (صلي الله عليه وسلم) : هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم همسا ؟ كما توجه السؤال إلي كل الخلق لعلهم يعتبرون , وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي):

وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا *(مريم :98) .

والحقائق التاريخية والعلمية التي أوردتها سورة مريم أكثر من أن تحصي في مقال واحد , ولذا فسوف أقصر الحديث هنا علي آية واحدة هي الآية رقم (65) , التي جاءت فيها الإشارة إلي (السماوات والأرض , وما بينهما) , وقبل تبيان الدلالة العلمية التي يمكن استخلاصها من تلك الآية المباركة لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح دلالتها .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا *(مريم :65)

* ذكر ابن كثير (رحمه الله) مانصه : . . . وقوله (رب السماوات والأرض وما بينهما) أي خالق ذلك ومدبره , والحاكم فيه والمتصرف الذي لامعقب لحكمه ,(فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) قال ابن عباس : هل تعلم للرب مثلا أو شبيها . وقال عكرمة , عن ابن عباس : ليس أحد يسمي الرحمن غيره تبارك وتعالي وتقدس اسمه .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) مانصه : وهو (رب) مالك (السماوات

والأرض)(وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته) أي : آصبر عليها (هل تعلم له سميا) أي مسمي بذلك ؟ لا . . . .

(227/489)

---

* وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما نصه : . . . . رب السماوات والأرض وما بينهما فلا ربوبية لغيره , ولا شرك معه في هذا الكون الكبير . (فاعبده واصطبر لعبادته) . . . اعبده واصطبر علي تكاليف العبادة , وهي تكاليف الارتقاء إلي أفق المثول بين يدي المعبود , والثبات في هذا المرتقي العالي . أعبده واحشد نفسك وعبئ طاقتك للقاء , والتلقي في ذلك الآفق العلوي . . . . إنها مشقة , مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل مشاغل , ومن كل هاتف , ومن كل التفات . . . وإنها مع المشقة للذة لايعرفها إلا من ذاقها , ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة , وإلا بالتجرد لها , والاستغراق فيها , والتحفز لها بكل جارحة وخالجة , فهي لاتفشي سرها , ولاتمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها , ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعا .

(فاعبده واصطبر لعبادته) . . . والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر , إنما هي كل نشاط : كل حركة , كل خالجة , كل نية , كل اتجاه , وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا

كله إلي الله وحده دون سواه , مشقة تحتاج إلي الاصطبار ليتوجه القلب في كل نشاط من أنشطة الأرض إلي

السماء , خالصا من أوشاب الأرض , وأوهاق الضرورات , وشهوات النفس , ومواضعات الحياة .

إنه منهج حياة كامل , يعيش الإنسان وفقه , وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله , فيرتفع في نشاطه كله إلي أفق العبادة الطاهر الوضئ . وإنه لمنهج يحتاج إلي الصبر والجهد والمعاناة . (فاعبده واصطبر لعبادته) . . فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود الذي تتجه إليه الفطر والقلوب . . (هل تعلم له سميا ؟) هل تعرف له نظيرا ؟ تعالي الله عن السمي وعن النظير . . . .

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن (رحمة الله رحمة واسعة) مانصه :(هل تعلم له سميا) نظيرا أو شبيها يستحق العبادة لربوبيته وألوهيته , وكمال تنزهه عن النقائص , واتصافه بصفاته الجليلة .

(228/489)

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : فهو سبحانه الخالق المالك للسماوات والأرض وما بينهما , والمدبر لشئونهما , والمستحق وحده للعبادة , فاعبده أيها المخاطب , وثابر علي عبادته صابرا مطمئنا , فهو سبحانه المستحق - وحده - للعبادة , وليس له نظير يستحق العبادة , أو يسمي باسم من أسمائه . . . .

* وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبه خيرا) ما نصه :

(رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده) أي هو رب العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده (واصطبر لعبادته) أي اصبر علي تكاليف العبادة (هل تعلم له سميا) أي هل تعلم له شبيها ونظيرا ؟ .

السماوات والأرض وما بينهما في القرآن الكريم

ورد تعبير (السماوات والأرض وما بينهما) في ثمانية عشر موضعا من القرآن الكريم , كما جاء تعبير (السماء والأرض وما بينهما) في موضعين من كتاب الله , وبذلك يكون مجموع مرات ورود هذه الإشارة العلمية الدقيقة عشرين مرة علي النحو التالي :

(1) . . . . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله علي كل شيء قدير *

(المائدة : 17)

(2) . . . . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير (المائدة :18) .

(3) وماخلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل (الحجر :85) .

(4) رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا (مريم :65) .

(5) له مافي السماوات وما في الأرض وما بينهما وماتحت الثري (طه :6) .

(6) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين (الأنبياء :16) .

(7) الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوي علي العرش الرحمن فاسأل به خبيرا (الفرقان :59) .

(8) قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (الشعراء :24) .

(229/489)

---

(9) أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمي وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (الروم :8) .

(10) الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوي علي العرش

مالكم من دونه من ولي ولاشفيع أفلا تتذكرون (السجدة :4) .

(11) رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق (الصافات :5) .

(12) أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب (ص :10) .

(13) وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (ص :27) .

(14) رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار (ص :66) .

(15) وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون (الزخرف :85) .

(16) رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (الدخان :7) .

(17) وماخلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين (الدخان :38) .

(18) ماخلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمي والذين كفروا عما أنذروا معرضون (الأحقاف :3) .

(19) ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما

في ستة أيام وما مسنا من لغوب (ق :38) .

(20) رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا (النبأ :37) .

وقد احتار المفسرون في شرح دلالة التعبيرين القرآنيين :(السماوات والأرض وما بينهما) , و (السماء والأرض وما بينهما) فمنهم من قال : إنها دلالة علي أن جميع الموجودات هي من خلق الله (تعالي) , وملك يمينه , وتحت قهره , وسلطانه , لأن الله تعالي هو المالك لكل شيء , ومنهم من قال : إن هذا النص يشير إلي سائر أجرام السماء من نجوم وكواكب وأقمار وأتربة كونية , وغازات وطاقات يتألف الكون منها , ومنهم من مر بها في صمت ودون أدني تعليق , ولكن هناك آيتين من آيات القرآن الحكيم تلقيان الضوء علي دلالة هذا النص القرآني المعجز (السماوات والأرض وما بينهما) , أو (السماء والأرض وما بينهما) في الأولي منهما يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (البقرة :164) .

ومن هذه الآية الكريمة يتضح أن السحاب هو مما بين السماء والأرض .

وفي الآية الثانية يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله علي كل

شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما

(الطلاق :12) .

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن هناك مسافات بينية تفصل كل سماء عن التي تليها , كما تفصل كل أرض عن التي تليها , وتفصل كلا من السماء الدنيا , وباقي السماوات السبع عن الأرض , ولايتأتي ذلك إلا إذا كانت الأرض في مركز السماوات .

ويروي عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) قوله : سبحان الله عدد ماخلق في السماء , سبحان الله عدد ماخلق في الأرض ,

سبحان الله عدد ماخلق بينهما , سبحان الله عدد ماهو خالق . . . .

(231/489)

وقوله صلي الله عليه وسلم : أطت السماء أطا , وحق لها أن تئط . . . , ما من أربع أصابع إلا وفيها ملك قائم أو راكع أو ساجد يعبد ربه . . . .

ما بين السماوات والأرض في العلوم المكتسبة

تجمع العلوم المكتسبة علي أن كلا من المادة والطاقة يملأ فسحة الكون بتركيز مختلف , لأن خلق كل من المكان والزمان ; والمادة والطاقة قد تزامن مع عملية الانفجار العظيم (فتق

الرتق) , فلا يمكن تصور مكان بلا زمان , ولا زمان بلا مكان , كما لايمكن تصور مكان وزمان بغير مادة وطاقة . فكل من المادة والطاقة يتكثف في مختلف أجرام السماء بتركيز مختلف , كما يوجد بكثافات قليلة ومتباينة بين كل جرم والآخر , وتحرك المادة والطاقة بين السماء الدنيا وأجرامها من الأمور الثابتة علميا , التي أكدتها الدراسات الفلكية , ومن أمثلتها تخلق النجوم من الدخان الكوني , وعودتها إليه بانفجارها في دورة حياة النجوم , ومن امثلتها كذلك انتثار الكواكب وعودة مادتها إلي الغبار الكوني أو إلي الشهب والنيازك التي إما أن تحترق أو تتهاوي علي عدد من أجرام السماء .

وقد فصلنا في مقال سابق تركيب كل نطاق من نطق الغلاف الغازي للأرض , وتناقص تركيز كل من المادة والطاقة بالارتفاع فيه حتي يتداخل في تركيب الجزء الأسفل من السماء الدنيا مكونا خليطا من مادتهما لعله المقصود بالبينية الفاصلة بين الأرض والسماء الدنيا ; وهذه المادة الفاصلة بين السماء والأرض تكونت باختلاط ما تصاعد من فوهات البراكين مع ما كان حول الأرض من مادة ما بين الكواكب فتكون الخليط المعروف باسم الغلاف الغازي للأرض وهو خليط مكون من مادة الأرض , ومادة السماء الدنيا فحق له أن يفصل بين كل منهما بوصف القرآن الكريم له بصفة البينية (السماء والأرض وما بينهما) .

وأول نطق الغلاف الغازي للأرض هو نطاق الرجع أو نطاق التغيرات الجوية

أو نطاق الطقس , ويمتد من مستوي سطح البحر إلي ارتفاح نحو 17 كيلومترا فوق خط الاستواء (ويتناقص هذا السمك إلي ما بين 8,6 كيلومترات فوق القطبين ; ويختلف فوق مناطق العروض الوسطي باختلاف ظروفها الجوية فينكمش إلي ما دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض ويتمدد إلي نحو 13 كيلومترا في مناطق الضغط المرتفع) .

ويضم نطاق الرجع نحو ثلث كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%) , وتتناقص درجة الحرارة فيه باستمرار مع الارتفاع حتي تصل إلي ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء , وذلك في قمة هذا النطاق المعروفة باسم مستوي الركود الجوي , ويتناقص عنده الضغط إلي نحو عشر قيمته عند سطح البحر .

وفي هذا النطاق يتكثف بخار الماء الصاعد من الأرض مكونا السحب , ومنها يهطل كل من المطر والبرد والثلج بإذن الله , وتحدث ظواهر الرعد والبرق , والعواصف , والدوامات وتيارات الحمل الهوائية , وغير ذلك من حركات الرياح , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :(. . . والسحاب المسخر بين السماء والأرض . . . .) (البقرة :164) .

وعلي ذلك فإن نطاق الرجع ومن فوقه بقية نطق الغلاف الغازي للأرض حتي حدود

النطاق المغناطيسي يمثل فاصلا حقيقيا بين الأرض والسماء الدنيا , وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلي هذه (البينية) من قبل ألف وأربعمائة سنة يعتبر ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله , لم يصل إليها علم البشر إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين .

الأهمية العلمية للتعبير القرآني السماوات والأرض وما بينهما

إضافة إلي سبق القرآن الكريم بالإشارة في عشرين موضعا منه إلي (ما بين السماء والأرض) أو (ما بين السماوات والأرض) , وهو سبق علمي حقيقي لم تدركه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , فإن هذه الإشارة المعجزة تحوي من الحقائق العلمية مايفوق هذا الكشف العلمي أهمية وجدارة , وذلك لأن أول مايمكن

(233/489)

استنتاجه من هذا النص القرآني هو توسط الأرض للسماء الدنيا وللسماوات السبع كلها , لأنها متطابقة يغلف الخارج منها الداخل , وهي حقيقة لايمكن للإنسان أن يصل إليها لأنه - علي الرغم من تقدمه العلمي , والتقني المذهل - محدود بحدود حسه وعقله , وبحدود مكانه (أي وجوده علي كوكب الأرض) , وبحدود زمانه أي عمره , ومن هنا فإن الإنسان لايستطيع أن يدرك من الكون إلا جزءا صغيرا من السماء الدنيا , وهذا الجزء الصغير ملئ

بالغيوب من مثل الثقوب السود , المادة الداكنة , الكتل المفقودة , وغيرها مما يرغم علماء الفلك والفيزياء الفلكية علي الاعتراف بان أقصي مايمكن إدراكه في الجزء المشاهد من الكون لا يتعدي العشرة بالمائة من مجموع المادة والطاقة الموجودة فيه .

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يؤكدان توسط الأرض للكون

* إن مقابلة القرآن الكريم (في مئات من آياته) للأرض مع السماء أو مع السماوات. علي ضآلة أبعاد الأرض بالنسبة إلي أبعاد السماوات. يؤكد أهمية موقع الأرض من الكون .

* إن ذكر القرآن الكريم للنصين (السماوات والأرض وما بينهما) , و (السماء والأرض وما بينهما) في عشرين موضعا منه يؤكد مركزية الأرض من السماء الدنيا , ومن مجموع السماوات السبع ; وذلك لأن هذه البينية لايمكن أن تتم لو لم تكن الأرض في مركز السماوات السبع .

* ويؤكد ذلك جمع القرآن الكريم لأقطار السماوات والأرض في وصف واحد كما جاء في قول الحق (تبارك وتعالي) :

يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان (الرحمن :33) .

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه , مرورا بمركزه , فإذا توحدت أقطار السماوات والأرض فمعني ذلك أن الأرض لابد وأن تكون في مركز الكون .

* ويؤكد ماسبق حديث رسول الله (صلي الله عليه وسلم) الذي يرويه مجاهد عنه بقوله (عليه

(234/489)

الصلاة والسلام) : إن الحرم حرم مناء من السماوات السبع والأرضين السبع أي في وضع متوسط منها ; لأن الوصف مناء معناه قصده وعلي حذاه .

ومن أقوال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) البيت المعمور منا مكة أي في مقابلتها وبمحاذاتها .

ويروي كل من قتادة والسدي عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) أنه قال يوما لأصحابه : هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم , قال : فإنه مسجد في السماء السابعة بحيال الكعبة , لو خر لخر عليها , يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك , إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم .

* ويزيد ذلك تأكيدا حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم الذي يروي عنه أنه قال فيه : كانت الكعبة خشعة علي الماء , فدحيت منها الأرض ; والخشعة هي أكمة متواضعة .

وتأتي أبحاث الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين (رحمه الله رحمة واسعة) لتؤكد توسط

مكة لليابسة , فتبرز جانبا من جوانب التكريم المادي الملموس لهذا المكان الطيب الطاهر الذي فضله ربنا (تبارك وتعالي) علي كل أماكن الأرض فجعل فيه كعبته المشرفة أول بيت عبد الله فيه علي الأرض , وجعلها قبلة للمصلين حيثما كانوا , وللحج والعمرة للقادرين من المسلمين , ولو لمرة واحدة في العمر ليتعرضوا لبركات هذا المكان الذي جعل الله (سبحانه وتعالي) الصلاة فيه بمائة ألف صلاة كما أخبرنا الحبيب المصطفي (صلي الله عليه وسلم) .

ويأتي العلم في أوج عطائه ليؤكد لنا توسط مكة ليابسة الأرض , وتأتي أحاديث رسول الله (صلي الله عليه وسلم) مؤكدة قيام موقع الكعبة المشرفة الذي هو أصل اليابسة علي حيال البيت المعمور في السماء السابعة , ويأتي القرآن الكريم مؤكدا توسط الأرض للسماوات السبع حتي تبقي الكعبة المشرفة مركز الكون بأسره , وهي حقيقة لايمكن للعلوم المكتسبة أن تصل إليها أبدا . . . ! !

فسبحان الذي خلق الأكوان وأنشأ نظمها بعلمه وجعل الكعبة مركزا لكونه . . . ! !

(235/489)

وسبحان الذي أنزل القرآن , أنزله بعلمه علي خاتم أنبيائه ورسله , وتعهد بحفظه فحفظ بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) , وحفظ حفظا كاملا : كلمة كلمة , وحرفا حرفا , وآية آية , وسورة سورة بنفس الترتيب الذي جمع به علي عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , والموجود في بلايين المصاحف والاسطوانات والأشرطة الممغنطة , والذي نقل لنا متواترا عبر بلايين الصدور ولايزال يحفظ في البلايين منها وذلك خلال الألف والأربعمائة سنة الماضية , وإلي أن يرث الله تعالي الأرض ومن عليها . . . !

فالحمد لله منزل القرآن الكريم , والصلاة والسلام علي الرسول الخاتم الذي تلقاه , ونقله إلينا بأمانة , وعاش به . . . وله , فأقام أعظم دولة عرفها التاريخ , ولعل الله تعالي أن يعيننا علي أن نعيد للقرآن الكريم دولته وسط الفوضي العالمية التي اجتاحت الأرض كلها في غيبة الاحتكام إلي شريعة الله . . . ! ! ووسط السقوط بين مخالب طواغيت الأرض . . . . ! ! ! وما ذلك علي الله بعزيز , وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محتوى الملفات المرفقة تم ترتيبه بمعرفة الدكتور زغلول النجار ، وهو الذي أعطانا هذا الـ CD وفقه الله .

شبكة التفسير والدراسات القرآنية

من الآيات الكونية

في القرآن الكريم

بقلم الدكتور : زغلول النجار

41776 . . . السنة 125–العدد . . . 2001 . . . ابريل . . . 23 . . . 29 من محرم 1422 هـ . . . الأثنين

في مطلع الحديث عن كتاب الله لابد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التي منها أنه كلام الله المعجز , الموحي به إلي خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربي مبين , والمنقول عنه (صلوات الله وسلامه عليه) نقلا متواترا بلا أدني شبهة , بنفس النص الذي نجده في المصاحف التي خطت أو طبعت علي مر العصور , ومسجلا في صدور الحفاظ جيلا بعد جيل , ومن ثم علي مختلف صور الأشرطة والاسطوانات الممغنطة , والذي نزلت آياته منجمة علي مدي ثلاث وعشرين سنة ,

(236/489)

وكتبت في حياة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عقب الوحي بكل مجموعة منها مباشرة ثم رتبت تلك الآيات في مائة وأربع عشرة (114) سورة بتوقيف من الله (سبحانه وتعالي) الذي تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظا كاملا , بنفس اللغة التي نزل بها , كلمة كلمة , وحرفا حرفا , بينما تعرضت الكتب السماوية السابقة كلها إما

للضياع التام , أو للتحريف والتبديل والتغيير , ولذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يتعبد بتلاوته , والذي لاتصلح الصلاة الا بقراءة فاتحته وعدد من آياته , والذي لايغني عنه من الاحاديث أو الأذكار أو الأدعية شيء , لانه الوحي السماوي الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم محفوظا بحفظ الله كلمة كلمة وحرفا حرفا بنفس اللغة التي أوحي بها وقد تحدي ربنا تبارك وتعالي كلا من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مجتمعين متظاهرين فقال عز من قائل :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (الإسراء :88)

كما سخر ربنا (تبارك وتعالي) ممن ادعي من المشركين أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد افتراه , وهو النبي الأمي الذي لايعرف

القراءة أو الكتابة لحكمة يعلمها الله , فقد تحدي الله تعالي العرب علي ما كانوا عليه من علم بأسرار العربية وأسباب البلاغة. أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات , أو حتي بسورة من مثله , ولايزال هذا التحدي قائما دون أن يستطيع بشر مجابهته علي الرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرنا علي مجئ التنزيل بقول الله تعالي :

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل انتم

مسلمون)[هود :13 و 14]

وعلي قول الحق تبارك وتعالي :

(237/489)

(وان كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[البقرة :23]

وقد عجزت القدرات البشرية , ولا تزال عاجزة عن أن تداني كتاب الله في روعة بيانه , أو في كمال صفاته , ودقة دلالاته , وصدق أنبائه , وسمو معانيه , وعدالة تشريعه , أو في نهجه وصياغته , وتمام أحاطته بطبائع النفس البشرية , وقدرته علي التعامل معها وهدايتها , ودقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلي بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي التسليم) ومن هنا كان القول (بإعجاز القرآن)

أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

تتعدد أوجه الإعجاز في كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه , فكل آية من آياته فيها اعجاز لفظي وبياني ودلالي , وكل مجموعة من الآيات , وكل سورة من السور طالت أم قصرت , بما

فيها من قواعد عقدية , أو أوامر تعبدية , أو قيم أخلاقية , أو ضوابط سلوكية , أو إشارات علمية , إلي شيء من أشياء هذا الكون الفسيح ومافيه من ظواهر وكائنات , وكل تشريع , وكل قصة , وكل واقعة تاريخية , وكل وسيلة تربوية , وكل نبوءة مستقبلية , كل ذلك يفيض بجلال الربوبية , ويتميز عن كل صياغة انسانية ويشهد للقرآن بالتفرد كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتي بشيء من مثله .

وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز في كتاب الله , وكان منهم من رأي ذلك في جمال بيانه , ودقة نظمه , وكمال بلاغته , أو في روعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها , وقدرتها علي مخاطبة الناس علي اختلاف مداركهم وأزمانهم , واشعاعها بجلال الربوبية في كل آية من آياته .

(238/489)

ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن في كمال تشريعه , ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله , أو في استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي السلام) , مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس .

ومنهم من رأي إعجاز القرآن الكريم في منهجه التربوي الفريد , وأطره النفسية السامية والعلمية في نفس الوقت , والثابتة علي مر الأيام , أو في إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة , أو في إشاراته إلي العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن معروفا لأحد من البشر وقت نزول القرآن ولالمئات من السنين بعد ذلك النزول , ومنهم من رأي إعجاز القرآن في صموده علي مدي يزيد علي أربعة عشر قرنا لكل محاولات التحريف التي قامت بها قوي الشر المتعددة

متمثلة في الكفرة والمشركين والملاحدة علي مدي تلك القرون العديدة وذلك لأن الله تعالي تعهد بحفظه فحفظ قال تعالي :

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون

[الحجر : آية 9]

ومن العلماء من يري إعجاز القرآن في ذلك كله وفي غيره مما يقصر الحديث دونه .

الإعجاز النظمي للقرآن الكريم

كانت الكثرة الكاثرة من القدامي والمعاصرين علي حد سواء قد ركزوا اهتمامهم علي ناحية نظم القرآن الكريم فهذا ابن عطية الأندلسي (ت 546 هـ) يذكر في مقدمة تفسيره (1/278) مانصه :

إن الله قد أحاط بكل شيء علما , فإذا ترتبت اللفظة من القرآن , علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولي , وتبين المعني بعد المعني , ثم كذلك من أول القرآن الي آخره , والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول , ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لايحيط بذلك , فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوي من الفصاحة , وبهذا يبطل قول من قال : ان العرب كان في قدرتهم الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك , والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط , ولهذا نري البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا , ثم ينظر فيها فيغير منها , وهلم جرا , وكتاب الله لو نزعت منه لفظة , ثم أدير لسان العرب علي لفظة أحسن منها لم يوجد . . . وقامت الحجة علي العالم بالعرب , اذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة .

وهذا هوالأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أحد العلماء المعاصرين يكتب فصلا في اعجاز القرآن (كتقديم لترجمته لكتاب الظاهرة القرآنية للمفكر الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي (يرحمه الله) يحدد فيه الاعجاز في دائرة البيان والنظم حيث يقول : ان الآيات القليلة من القرآن , ثم الآيات الكثيرة , ثم القران كله , أي ذلك كان في تلاوته علي سامعيه من العرب , الدليل الذي يطالبه بان يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر , وذلك من وجه واحد , هو وجه البيان والنظم .

واذا صح ان قليل القرآن

وكثيره سواء من هذا الوجه , ثبت أن ما في القرآن جملة , من حقائق الأخبار عن الأمم السابقة , ومن أنباء الغيب , ومن دقائق التشريع , ومن عجائب الدلالات علي ما لم يعرفه البشر من أسرار الكون الا بعد القرون المتطاولة من تنزيله , كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب , وهو ان يستبينوا في نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم , ومن وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين . . .

(240/489)

ولكن اذا جاز هذا التحديد علي موقف التحدي من مشركي العرب ـ علي الرغم من عدم وجود الدليل علي ذلك ـ فانه بالقطع لايجوز علي اطلاقه , خاصة أن العرب اليوم في جملتهم قد فقدوا الحس اللغوي الذي تميز به أسلافهم , وأن التحدي بالقرآن للانس والجن متظاهرين هو تحد مستمر قائم الي يوم الدين , مما يؤكد أن ما في القرآن من أمور الغيب , وحقائق التاريخ , ومن فهم دقيق لمكنون النفس البشرية وحسن الخطاب في هدايتها وإرشادها وتربيتها , ومن مختلف الصور التي ضربت لعجائب آيات الله في خلقه , ومن غير ذلك مما اكتشفه ولايزال يكتشفه (في كتاب الله) متخصصون في كل حقل من حقول المعرفة , لايمكن أن يبقي بمعزل عن ذلك التحدي المفضي الي الاعجاز القرآني , والدال

علي أن القرآن كلام الله .

نشأة منهج التفسير العلمي لكتاب الله

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تشير الي الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات) , والي صور من نشأتها , ومراحل تكونها , والي العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها , والسنن الالهية التي تحكمها , وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة , وتفهم للحكمة , وما يستوجبه من ايمان بالله , وشهادة بكمال صفاته وافعاله , وهو - سبحانه وتعالي - الخالق الباريء المصور الذي أبدع ذلك الخلق بعلم وقدرة وحكمة لاتحدها حدود , ولايفيها حقها وصف .

وقد أحصي الدارسون من هذه الاشارات الكونية في كتاب الله مايقدر بحوالي الألف آية صريحة , بالاضافة إلي آيات أخري عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة , وبدوام اتساع دائرة المعرفة الانسانية , وتكرار تأمل المتأملين في كتاب الله , وتدبر المتدبرين لآياته - جيلا بعد جيل , وعصرا بعد عصر - لن ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة في كتاب الله مايؤكد علي تحقق الوعد الالهي الذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) :

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد)[فصلت : آية 53]

وبدهي أن يتباين موقف العلماء من تلك الاشارات الكونية في كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم , وباتساع دائرة المعرفة الانسانية في مجال الدراسات الكونية (التي تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية) من عصر الي عصر , وأول من بسط القول في ذلك الامام الغزالي (ت 505 هـ) في كتابيه إحياء علوم الدين وجواهر القرآن والذي رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا و أن من صور اعجاز القرآن اشتماله علي كل شيء , وأن كل شيء , وأن كل العلوم تشعبت من القرآن , حتي علم الهيئة , والنجوم , والطب الي آخر ماذكر .

وتبع الإمام الغزالي في ذلك كثيرون , كان من أشهرهم في القديم العلامة الشيخ الفخر الرازي (ت 606 هـ) , وفي الحديث فضيلة الشيخ طنطاوي جوهري (ت 1359 هـ) , مما أدي الي بروز المنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم , والذي يعتمد في تفسير الاشارات الكونية الواردة في كتاب الله علي ضوء من معطيات العلوم الحديثة , مع تفاوت في ذلك من عصر الي عصر . ويعتبر تفسير الرازي المعنونمفاتيح الغيب أول تفسير يفيض في بيان المسائل العلمية والفلسفية , خاصة مايتعلق منها بعلم الهيئة , وغير ذلك من العلوم والفنون

التي كانت معروفة في زمانه , والتي كان هو علي معرفة بها .

أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهري

(242/489)

والمعنون الجواهر في تفسير القرآن الكريم فيعتبر أضخم تفسير ينهج النهج العلمي , اذ يقع في خمسة وعشرين جزءا كبارا , حاول فيها الشيخ (يرحمه الله) تفسير القرآن الكريم تفسيرا يتجاوب مع روح العصر , وما وصلت اليه المعارف الانسانية في مجال دراسات الكون ومافيه من أجرام سماوية , ومن عوالم الجمادات والأحياء , ومن الظواهر الكونية التي تصاحبها , والسنن الالهية التي تحكمها , ليبرهن للقاريء أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وايضاح غفل عنه كثير من السابقين , وأنه بحق ينطوي علي كل ما وصل , وماسيصل اليه البشر من معارف .

هذا , وقد نعي الشيخ الجوهري (يرحمه الله) علي علماء المسلمين اهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم , وتركيز جهودهم علي الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله : لماذا ألف علماء الاسلام عشرات الألوف من الكتب في علم الفقه , وعلم الفقه ليس له في القرآن الا آيات قلائل لاتصل إلي مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه , وقل جدا

في علوم الكائنات التي لاتكاد تخلو منها سورة ؟ .

ولذا فاننا نجده في مطلع تفسيره يتوجه بنداء الي المسلمين يقول فيه : يا أمة الاسلام , آيات معدودات في الفرائض (يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعا من علم الرياضيات , فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها . . . هذا زمان العلوم , وهذا زمان ظهور الاسلام . . . هذا زمان رقيه , ياليت شعري , لماذا لانعمل في آيات العلوم الكونية مافعله أباؤنا في علوم الميراث ؟ ثم يضيف : ان نظام التعليم الاسلامي لابد من ارتقائه , فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن بل هي علوم لفظه , وما نكتبها اليوم (يقصد في تفسيره) , علوم معناه . . . .

ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من اشارات الي مختلف الدراسات الحديثة , بل انه

قد استعان في هذا التفسير ـ الفريد من نوعه ـ بكثير من صور النباتات والحيوانات والمظاهر الكونية , والوسائل التجريبية , كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية , وكذلك الأرقام العددية التي ينظمها حساب الجمل المعروف .

وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير (كما اعتبر من قبل) جنوحا الي الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم علي غير مقاصدها التشريعية والايمانية , استنادا الي الحقيقة المسلمة ان القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها , ولاجداول المواد وخصائصها , ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها , وانما هو في الأصل كتاب هداية , كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات , وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة , والقرآن العظيم حين يلفت نظر الانسان الي مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال علي قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره ومن قبيل إقامة الحجة البينة علي الجاحدين من الكافرين والمشركين , ومن قبيل التأكيد علي إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل مافيه وعلي حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود الي رحمة ذلك الخالق العظيم .

فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا (يرحمه الله) يكتب في مقدمة تفسيره المنار مانصه : . . . . . وقد زاد الفخر الرازي صارخا آخر عن القرآن هو مايورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة علي ماكانت عليه في عهده , كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها , وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي جوهري) بايراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة , فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية , فصولا طويلة - بمناسبة كلمة مفردة , كالسماء أو الأرض - من علوم الفلك والنبات والحيوان

, تصد القاريء عما أنزل الله لأجله القرآن .

وعلي

(244/489)

الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمي قديما وحديثا , الا أن عددا كبيرا من العلماء المسلمين ظل مؤمنا بأن الاشارات الكونية في كتاب الله أي الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون علي اجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد . تبقي بيانا من الله , خالق الكون ومبدع الوجود , ومن ثم فهي حق مطلق , وصورة من صور الاعجاز في كتاب الله . الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وان ذلك قد لايتضح إلا للراسخين في العلم من المتخصصين في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية (كل في حقل تخصصه) , وحتي هؤلاء يظل يتسع ادراكهم لذلك الاعجاز باتساع دائرة المعرفة الانسانية جيلا بعد جيل , وعصرا بعد عصر , مصداقا لقول الحق تبارك وتعالي :

(إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين) [ص : 87 و 88]

ولقول رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في وصفه للقرآن الكريم بأنه لاتنقضي عجائبه , ولا يخلق من كثرة الرد : .

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في مختلف مجالات المعرفة الانسانية ـ في كل عصر وفي كل جيل ـ أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من المام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها , ومن الحديث وعلومه , والفقه وأصوله , وعلم الكلام وقواعده , مع معرفة بعادات المجتمع العربي الأول , واحاطة بأسباب النزول , وبالمأثور في التفسير , وبالسيرة النبوية المطهرة , وباجتهاد أعلام السابقين من أئمة المفسرين , وغير ذلك من الشروط التي حددها علماء التفسير وأصوله , ثم تقوم تلك الطائفة علي شرح آيات الكتاب الحكيم ـ كل فيما يخصه ـ حتي تستبين للناس جوانب من الاعجاز في كتاب الله , لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذي نعيشه . وحتي يتحقق قول الله تعالي في محكم كتابه :

(لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) [الأنعام : آية 67]

وانطلاقا من ذلك الفهم , ظهرت مؤلفات

عديدة تعالج قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله من أشهرها في القديم كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات

والجواهر المعدنية لمحمد بن احمد الاسكندراني الطبيب (وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري) .

ورسالة عبد الله فكري (وهو من وزراء المعارف السابقين في مصر في مطلع هذا القرن) والتي يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من نصوص القرآن الكريم في ذلك , وكتاب الاسلام والطب الحديث لعبد العزيز اسماعيل , ورياض المختار لأحمد مختار (الغازي) , وكتابا معجزة القرآن في وصف الكائنات و التفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد , وكتابا في سنن الله الكونية و الاسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي , واعجاز القرآن في علم طبقات الأرض لمحمد محمود ابراهيم , و العلوم الطبيعية في القرآن ليوسف مروة , وسلسلة كتب كل من محمد جمال الدين الفندي وعبد الرزاق نوفل في نفس الموضوع , وكتاب أضواء من القرآن علي الانسان ونشأة الكون والحياة لعبد الغني الخطيب , والقرآن والعلم لأحمد محمود سليمان , ومن اشارات العلوم في القرآن الكريم لعبد العزيز سيد الأهل , و محاولة لفهم عصري للقرآن لمصطفي محمود , وتفسير الآيات الكونية لعبد الله شحاتة , والاسلام والعلم التجريبي ليوسف السويدي , والقرآن تفسير الكون والحياة لمحمد العفيفي , وكتاب الانجيل والقرآن والعلم لموريس بوكاي , وكتاب خلق الانسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار , هذا بالاضافة الي ماظهر مؤخرا من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الاعجاز العلمي في القرآن وردت مجمعة في كتب اسلامية

متعددة , أو متناثرة في كثير من التفاسير التي حررت في النصف الأخير من هذا القرن .

هذا من جهة , ومن جهة أخري فقد تعرض هذا المنهج ـ بحق أحيانا , وبغير ذلك في أحيان أخري كثيرة ـ للمزيد من

(246/489)

النقد والتجريح الذي أسس علي أن معجزة القرآن هي في الأصل معجزة بيانه الذي أدرك اساطين اللغة العربية فيه , ومنذ سماع أولي آياته , أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر , وأن علينا أن نفهم الاسلام كما بينه نبي الاسلام (صلوات الله وسلامه عليه) وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية في القرآن عن جادة الطريق إما عن قصور في فهم الحقائق العلمية , أو انتفاء لشروط القدرة علي الاجتهاد في التفسير , أو لكليهما معا ,

وعلي الرغم من ذلك كله , فقد تمكن هذا السيل من الكتابات عن الاعجاز العلمي في آي القرآن الكريم من تهيئة النفوس لقبول ذلك المنهج , حتي قام المجلس الاعلي للشئون الاسلامية في مصر بتشكيل عدد من اللجان العلمية التي ضمت الي علماء القرآن وتفسيره , والحديث ورجاله والفقه وأصوله , والشريعة وعلومها , واللغة العربية وآدابها , والتاريخ

الاسلامي وتفاصيله , عددا من كبار العلماء والباحثين والمفكرين في مختلف جنبات المعرفة الانسانية , وقد قام كل هؤلاء بمدارسة كتاب الله في اجتماعات طالت لسنين كثيرة , ثم تبلورت في تفسير موجز تحت اسم المنتخب في تفسير القرآن , كتب بأسلوب عصري وجيز , سهل مبسط , واضح العبارة , بعيد عن الخلافات المذهبية , والتعقيدات اللفظية والمصطلحات الفنية , وقد أشير في هوامشه الي ما ترشد اليه الآيات القرآنية من نواميس الحياة وأسرار الكون , ووقائعه العلمية التي لم تعرف الا في السنوات الأخيرة , والتي خصها ذلك التفسير في مقدمته بأنه لايمكن الا أن يكون القرآن قد أشار اليها لأنه ليس من كلام البشر , ولكنه من كلام خلاق القوي والقدر , الذي وعد بذلك في محكم هذا الكتاب فقال (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق او لم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد)[فصلت : آية 53]

كما تمت الاشارة في مقدمة هذا التفسير

الوجيز إلي أنه سيتلوه تفسير آخر وسيط في شيء من البسط والتفصيل يليه المفصل إن شاء الله تعالي .

حجة المعارضين لتعبير الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

وقبل استعراض مواقف المفسرين في عصرنا الحاضر من الآيات الكونية في كتاب الله (أي الآيات التي تحتوي علي إشارات لبعض أشياء هذا الكون من مثل السماوات والأرض , والشمس والقمر , والنجوم والكواكب , والجبال والأحجار , والأنهار والبحار , والرياح والسحاب والمياه , والرعد والبرق , ومراحل الجنين في الإنسان , وبعض صور الحيوان ومنتجاته والنبات , ومحاصيله وثماره وغير ذلك) لابد لنا من الإشارة الي أن بعض الكتاب من القدامي والمعاصرين ـ علي حد سواء . . قد اعترض علي استخدام لفظ معجزة ومشتقاته في الإشارة الي عجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بشئ من مثله , أو إلي أستعصاء تقليد القرآن الكريم علي الجهد البشري واستعلائه عليه , لأنه كلام الله تعالي , المغاير لكلام البشر جملة وتفصيلا , ولو أنه أنزل بأسلوب يفهمه البشر وقت نزوله وفي كل عصر من العصور التالية لنزوله إلي أن يرث الله تعالي الأرض ومن عليها .

وحجة المعترضين علي لفظ معجزة ومشتقاته تقوم علي أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر في كتاب الله بالمعني الشائع اليوم , ولا في الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة وإن وردت مشتقاته للدلالة علي عدد من المعاني القريبة أو المغايرة قليلا لذلك في ستة وعشرين موضعا من القرآن الكريم بألفاظ أعجز , ومعجزين , ومعاجزين وعجوز وأعجاز وتصريفاتها ودلالاتها في تلك المواضع قد تبعد قليلا عما أريد التعبير عنه بلفظ المعجزة

عند علماء اللغة , خاصة أن القرآن الكريم قد أشار دوما إلي مدلول المعجزة بلفظ آية (بصيغة المفرد والمثني والجمع) في أكثر من 380 موضعا منها قول الحق تبارك وتعالي :

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه)

[الأنعام : أية 37]

وقوله (عز من قائل) :

(248/489)

(وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية)[البقرة : آية 118]

وقوله تعالي :

(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك)[البقرة : أية 145]

وقوله :

(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة)[البقرة : آية 211]

وقوله تعالي علي لسان أحد أنبياء بني إسرائيل :

(وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت . . . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . .)

[البقرة : آية 248]

قوله تعالي علي لسان نبيه صالح (عليه السلام) مخاطبا قومه :

(. . . هذه ناقة الله لكم آية . . . .)

[الأعراف : الآية 73]

وقوله علي لسان فرعون وقومه وهم يعارضون سيدنا موسي (علي نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) :

(وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) [الأعراف : أية 132]

وهذه حجة مردودة لأن التعبير عن إعجاز القرآن قد استخدم منذ القرون الهجرية الأولي , ولم يجد علماء المسلمين من الصحابة والتابعين غضاضة في استخدام هذا التعبير علي الرغم من عدم وروده بهذا المعني في كتاب الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 66 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 72 ﴾ من نفس السورة

(4/490)

قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تبين بذلك وبما ذكر في هاتين السورتين مما سألوا عنه ومن غيره شمولُ علمه وتمام قدرته لا سيما في إيجاد البشر تارة من التراب ، وتارة من ذكر وأنثى في حكم العدم ، وتارة من أنثى بلا ذكر ، وثبت ذلك كله ، فانكشفت الشبه ، وتضاءلت موجبات المراء ، وانقمعت

مخيلات الفتن ، عجب منها في إنكارهم البعث وهم يشاهدون ما ذكر من قدرته وعلمه ، عاطفاً على التعجب في قولهم ﴿ وقالوا ءاذا كنا ﴾ تعجيباً أشد من ذلك فقال : ﴿ ويقول ﴾ بلفظ المضارع المؤذن بالتجدد بعد هذا البيان المقتضي حتماً لاعتقاده البعث فضلاً عن إنكار مرة من المرات ، ليخبر عنها بصيغة الماضي ، فكيف بالمداومة على ذلك المشار إليها بصيغة المضارع ؛ وعبر بالمفرد وإن كان للجنس لأن الإنكار على الواحد يستلزم الإنكار على المتعدد فقال : ﴿ الإنسان ﴾ أي الذي خلقناه ولم يك شيئاً ، مع ما فضلناه به من العقل ، ونصبنا له من الدلائل ، فشغله الإنس بنفسه عن التأمل في كمال ربه منكراً مستبعداً : ﴿ أءذا ما مت ﴾ ثم دل على شدة استبعاده لذلك بقوله مخلصاً للام الابتداء إلى التوكيد سالخاً لها عما من شأنها الدلالة عليه من الحال لتجامع ما يخلص للاستقبال : ﴿ لسوف أخرج ﴾ أي يخرجني مخرج ﴿ حياً ﴾ أي بعد طول الرقاد ، وتفتت الأجزاء والمواد ، وجاء بهذه التأكيدات لأن ما بعد الموت وقت كون الحياة منكرة على زعمه ، والعامل في ﴿ إذا ﴾ فعل من معنى ﴿ أخرج ﴾ لا هو ، لمنع لام الابتداء لعمله فيما قبله ؛ ثم قابل إنكاره الباطل بإنكار هو الحق فقال عطفاً على يقول أو على ما تقديره : ألا يذكر ما لنا من تمام القدرة بخلق ما هو أكبر من ذلك من جميع الأكوان : ﴿ أو لا يذكر ﴾ بإسكان الذال على قراءة نافع وابن عامر وعاصم إشارة إلى أنه أدنى ذكر من هذا يرشده

إلى الحق ، وقراءة الباقين بفتح الذال والكاف وتشديدهما يشير إلى أنه - لاستغراقه في الغفلة - يحتاج إلى تأمل شديد ﴿ الإنسان ﴾ أي الآنس بنفسه ، المجترىء بهذا الإنكار

(5/490)

على ربه وقوفاً مع نفسه ﴿ أنا خلقناه ﴾ وأشار الجار إلى سبقه بالعدم فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل جدله هذا أي بما لنا من القدرة والعظمة .

ولما كان المقام لتحقيره بكونه عدماً ، أعدم من التعبير عن ذلك ما أمكن إعدامه ، وهو النون ، لتناسب العبارة المعتبر فقال : ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ أصلاً ، وإنا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته فلا ينكر ذلك .

ولما كان كلام الكافر صورته صورة استفهام ، وهو جحد في الحقيقة وإنكار ، وكان إنكار المهدَّد لشيء يقتدر عليه المهدد سبباً لأن يحققه لما مقسماً عليه ، قال تعالى مجيباً عن إنكاره مؤذناً بالغضب عليهم بالإعراض عنهم مخاطباً لنبيه - صلى الله عليه وسلم - تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره : ﴿ فوربك ﴾ المحسن إليك بالانتقام منهم .

ولما كان الإنكار للبعث يلزم منه الاحتقار ، أتى بنون العظمة ، استمر في هذا التحلي بهذا المظهر إلى آخر وصف هذا اليوم فقال : ﴿ لنحشرنهم ﴾ بعد البعث ﴿ والشياطين ﴾

الذين يضلونهم بجعل كل واحد منهم مع قرينه الذي أضله ، في سلسلة ﴿ ثم لنحضرنهم ﴾ بعد طول الوقوف ﴿ حول جهنم ﴾ التي هم بها مكذبون ، يحيطون بها لضيق رأسها وبعد قعرها ، حال كونهم ﴿ جثياً ﴾ على الركب من هول المطلع وشدة الذل ، مستوقرين تهيؤوا للمبادرة إلى امتثال الأوامر ﴿ ثم لننزعن ﴾ أي لنأخذن أخذاً بشدة وعنف ﴿ من كل شيعة ﴾ أي فرقة مرتبطة بمذهب واحد .

ولما كان التقدير : لننزعن أغناهم ، وهم الذين إذا نظرت إلى كل واحد منهم بخصوصه حكمت بأنه أغنى الناس ، علم أنهم بحيث يحتاج إلى السؤال عنهم لإشكال أمرهم فقال : ﴿ أيهم أشد على الرحمن ﴾ الذي غمرهم بالإحسان ﴿ عتياً ﴾ أي تكبراً متجاوزاً للحد ، انتزاعاً يعلم به أهل الموقف أنه أقل من القليل ، وأوهى أمراً من القتيل ، وأن له سبحانه – مع صفة الرحمة التي غمرهم إحسانها وبرها – صفات أخرى من الجلال والكبرياء والجبروت والانتقام .

(6/490)

ولما تقدم ما هو في صورة الاستفهام ، أتبعه ما يزيل ما قد يقع بسببه من بعض الأوهام ، فقال : ﴿ ثم ﴾ وعزتنا ! ﴿ لنحن ﴾ لشمول علمنا وكمال قدرتنا وعظمتنا ﴿ أعلم ﴾ من

كل عالم ﴿ بالذين هم ﴾ لظواهرهم وبواطنهم ﴿ أولى بها ﴾ أي جهنم ﴿ صلياً ﴾ وبالذين هم أولى بكل طبقة من دركاتها من جميع الخلق من المنتزعين وغيرهم ، فلا يظن بنا أنا نضع أحداً في غير دركته أو غير طبقته من دركته ؛ وعطف هذه الجمل بأداة البعد مقرونة بنون العظمة لبعد مراتبها وتصاعدها في ذرى العليا وترقيها ، تهويلاً للمقام وتعظيماً للأمر لاستبعادهم له ، على أنه يمكن أن تكون الحروف الثلاثة للترتيب الزماني ، وهو في الأولين واضح ، وأما في الثالث فلأن العلم كناية عن الإصلاء ، لأن من علم ذنب عدوه – وهو قادر – عذبه ، فكأنه قيل : لنصلين كلاً منهم النار على حسب استحقاقه لأنا أعلم بأولويته لذلك .

ولما كانوا بهذا الإعلام ، المؤكد بالإقسام ، من ذي الجلال والإكرام ، جديرين بإصغاء الأفهام ، إلى ما يوجه إليها من الكلام ، التفت إلى مقام الخطاب ، إفهاماً للعموم فقال : ﴿ وإن ﴾ أي وما ﴿ منكم ﴾ أيها الناس أحد ﴿ إلا واردها ﴾ أي داخل جهنم ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ كان ﴾ هذا الورود ؛ ولما كان المعنى أنه لا بد من من إيقاعه ، أكده غاية التأكيد فأتى بأداة الوجوب فقال : ﴿ على ربك ﴾ الموجد لك المحسن إليك بإنجاء أمتك لأجلك ﴿ حتماً ﴾ أي واجباً مقطوعاً به ﴿ مقضياً ﴾ لا بد من إيقاعه ؛ قال الرازي في اللوامع : ما من مؤمن – إلا الأنبياء – إلا وقد تلطخ بخلق سوء ولا ينال السعادة الحقيقية إلا بعد تنقيته ، وتخليصه من ذلك إنما يكون بالنار .

(7/490)

ولما كان الخلاص منها بعد ذلك مستبعداً ، قال مشيراً إليه بأداة البعد : ﴿ ثم ننجي ﴾ أي تنجية عظيمة على قراءة الجماعة ، ومطلق إنجاء على قراءة الكسائي ، وكأن ذلك باختلاف أحوال الناس مع أن المطلق لا ينافي المقيد ﴿ الذين اتقوا ﴾ أي كانوا متقين منها بأن تكون عليهم حال الورود برداً وسلاماً ﴿ ونذر الظالمين ﴾ أي نترك على أخبث الأحوال الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها واستمروا على ذلك فكانوا في أفعالهم خابطين كالأعمى ﴿ فيها جثياً ﴾ كما كانوا حولها لا يهتدون إلى وجه يخلصون به منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 550.552 ﴾

(8/490)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ أئذا ﴾ مثل ﴿ أئنكم ﴾ في " الأنعام " ﴿ يذكر ﴾ من الذكر : ابن عامر

ونافع وعاصم وسهل وروح والمعدل عن زيد . والآخرون بتشديد الذال من التذكر مدغماً . ﴿ ثم ننجي ﴾ من الإنجاء : عليّ وروح والمعدل عن زيد . الآخرون بالتشديد ﴿ خير مقاماً ﴾ بضم الميم : ابن كثير . الباقون بفتحها . ﴿ رياً ﴾ بالتشديد أبو جعفر ونافع عن ورش وابن ذكوان والأعشى وحمزة في الوقف ، وعن حمزة أيضاً بالهمزة في الوقف ليدل على أصل اللغة . الآخرون بهمز بعدها يا ﴿ وولداً ﴾ وما بعده بضم الواو سكون اللام : حمزة وعليّ . الآخرون بفتحهما ﴿ يكاد ﴾ على التذكير : نافع وعليّ ﴿ ينفطرن ﴾ من الانفطار : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وخلف وابن عامر والمفضل وأبو بكر وحماد والخزاز عن هبيرة . الباقون ﴿ يتفطرن ﴾ من التفطر .

(9/490)

الوقوف : ﴿ حياً ﴾ 5 ﴿ شيئاً ﴾ 5 ﴿ جثياً ﴾ 5 ج للآية وللعطف ﴿ عتياً ﴾ 5 ج لذلك ﴿ صلياً ﴾ 5 ﴿ واردها ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتصال المعنى ﴿ مقضياً ﴾ 5 تقريباً للنجاة من الورود مع أن " ثم " لترتيب الأخبار ﴿ جثياً ﴾ 5 ﴿ آمنوا ﴾ لا لأن ما بعده مفعول " قال " ﴿ نديا ﴾ 5 ﴿ ورئياً ﴾ 5 ﴿ مدّاً ﴾ 5 لأن " حتى " لانتهاء مدد الضلالة أو لابتداء الرؤية وجواب " إذا " محذوف وهو " آمنوا " ﴿ الساعة

﴿ ط لابتداء التهديد ﴿ جنداً ﴾ 5 ﴿ هدى ﴾ 5 ﴿ مرداً ﴾ 5 ﴿ وولداً ﴾ 5 ط لأبتداء الاستفهام للتقريع ﴿ عهداً ﴾ ط 5 للردع ﴿ كلاً ﴾ ط ﴿ مداً ﴾ 5 لا للعطف ﴿ فرداً ﴾ 5 ﴿ عزاً ﴾ 5 ﴿ كلاً ﴾ ط ﴿ ضدّاً ﴾ 5 ﴿ أزاً ﴾ 5 لا للتعجيل ﴿ عليهم ﴾ ط ﴿ عدّاً ﴾ 5 ط ﴿ وفداً ﴾ 5 ط ﴿ ورداً ﴾ 5 لئلا تشتبه الجملة بالوصف لهم ﴿ عهداً ﴾ 5 م حذرا من إيهام العطف ﴿ ولداً ﴾ 5 ط ﴿ إدّاً ﴾ 5 لا لأن ما بعده صفة ﴿ هداً ﴾ 5 لا لأن التقدير لأن دعوا ﴿ ولداً ﴾ 5 ج لاحتمال ما بعده الحال والاستئناف ﴿ ولداً ﴾ 5 ط ﴿ عبداً ﴾ 5 ط ﴿ فرداً ﴾ 5 ﴿ ودّاً ﴾ 5 ﴿ من قرن ﴾ ط ﴿ ركزاً ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 500 ﴾

(10/490)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلاً سأل وقال هذه العبادات لا

منفعة فيها في الدنيا ، وأما في الآخرة فقد أنكرها قوم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر أن الاشتغال بالعبادة مفيد فلهذا حكى الله تعالى قول منكري الحشر فقال : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ وإنما قالوا ذلك على وجه الإنكار والاستبعاد ، وذكروا في الإنسان وجهين : أحدهما : أن يكون المراد الجنس بأسره فإن قيل كلهم غير قائلين بذلك فكيف يصح هذا القول ؟ قلنا الجواب من وجهين : الأول : أن هذه المقالة لما كانت موجودة فيما هو من جنسهم صح إسنادها إلى جميعهم ، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً وإنما القاتل رجل منهم .

والثاني : أن هذا الاستبعاد موجود ابتداء في طبع كل أحد إلا أن بعضهم ترك ذلك الاستبعاد المبني على محض الطبع بالدلالة القاطعة التي قامت على صحة القول به .

الثاني : أن المراد بالإنسان شخص معين فقيل : هو أبو جهل ، وقيل : هو أبي بن خلف ، وقيل : المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ، ثم إن الله تعالى أقام الدلالة على صحة البعث بقوله : ﴿ أَوْلاَ يَذْكُرُ الإِنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ والقراء كلهم على ﴿ يُذْكَرِ ﴾ بالتشديد إلا نافعاً وابن عامر وعاصماً فقد خففوا ، أي أو لا يتذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل وإذا قرىء أو لا يذكر فهو أقرب إلى المراد إذ الغرض التفكر والنظر في أنه إذا خلق من قبل لا من شيء فجائز أن يعاد ثانياً .

قال بعض العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً ، ونظيره قوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : 79] وقوله : ﴿ وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن المعدوم ليس بشيء وهو ضعيف لأن الإنسان عبارة عن مجموع جواهر متألفة قامت بها أعراض وهذا المجموع ما كان شيئاً ، ولكن لم قلت إن كل واحد من تلك الأجزاء ما كان شيئاً قبل كونه موجوداً ؟ فإن قيل : كيف أمر تعالى الإنسان بالذكر مع أن الذكر هو العلم بما قد علمه من قبل ثم تخللهما سهو ؟ قلنا : المراد أو لا يتفكر فيعلم خصوصاً إذا قرىء أو لا يذكر الإنسان بالتشديد أما إذا قرىء أو لا يذكر بالتخفيف فالمراد أو لا يعلم ذلك من حال نفسه لأن كل أحد يعلم أنه لم يكن حياً في الدنيا ثم صار حياً ، ثم إنه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه .

أحدها : قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ﴾ وفائدة القسم أمران : أحدهما : أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين .

والثاني : أن في إقسام الله تعالى باسمه مضافاً إلى اسم رسوله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه صلى الله عليه وسلم ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله : ﴿ فَوَرَبِّ

السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [الذاريات : 23] والواو في ﴿ الشياطين ﴾ ويجوز أن تكون للعطف وأن تكون بمعنى مع وهي بمعنى مع أوقع ، والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة .

(12/490)

وثانيها : قوله : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنم ثم إنه تعالى يحضرهم على أذل صورة لقوله تعالى : ﴿ جِثِيّاً ﴾ لأن البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز ، فإن قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية : 28] والسبب فيه جريان العادة أن الناس في مواقف المطالبات من الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من الاستنظار والقلق ، أو لما يدهمهم من شدة الأمر الذي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم ، وإذا كان هذا عاماً للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار ؟ قلنا : لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور في الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل في حقهم .

وثالثها : قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ والمراد بالشيعة وهي فعلة كفرقة وفئة الطائفة التي شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة قال تعالى : ﴿ إِنَّ

الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام : 159] والمراد أنه تعالى يحضرهم أولا حول جهنم جثياً ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمرداً في كفره خص بعذاب أعظم لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعاً لغيره ، وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد وليس عذاب من يورد الشبه في الباطل كعذاب من يقتدي به مع الغفلة قال تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] .

(13/490)

وقال : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] فبين تعالى أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتواً وأشد تمرداً ليعلم أن عذابه أشد ، ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب ، فلذلك قال في جميعهم : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ ولا يقال أولى إلا مع اشتراك القوم في العذاب ، واختلفوا في إعراب أيهم فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد وسيبويه على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلة حتى لو جيء به لأعرب وقيل أيهم هو أشد .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾

واعلم أنه تعالى لما قال من قبل : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ﴾ [مريم : 68] ثم قال : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ [مريم : 68] أردفه بقوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ يعني جهنم واختلفوا فقال بعضهم المراد من تقدم ذكره من الكفار فكنى عنهم أولاً كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة ، قالوا : إنه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار ويدل عليه أمور : أحدها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها .

والثاني : قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [الأنبياء : 102] ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها .

وثالثها : قوله : ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءامِنُونَ ﴾ [النحل : 89] وقال الأكثرون : إنه عام في كل مؤمن وكافر لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فلم يخص .

(14/490)

وهذا الخطاب مبتدأ مخالف للخطاب الأول ، ويدل عليه قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ أي من الواردين من اتقى ولا يجوز أن يقال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ إلا والكل واردون والأخبار المروية دالة على هذا القول ، ثم هؤلاء اختلفوا في تفسير الورود فقال بعضهم : الورود الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة ، واحتجوا على أن الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ [يوسف : 19] ومعلوم أن ذلك الوارد ما دخل الماء وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ ﴾ [القصص : 23] وأراد به القرب .

ويقال : وردت القافلة البلدة وإن لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية أن الجن والإنس يحضرون حول جهنم : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71] أي واجباً مفروغاً منه بحكم الوعيد ثم ننجي أي نبعد الذين اتقوا عن جهنم وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] ومما يؤكد هذا القول ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية فقالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فقال عليه السلام فمه ثم ننجي الذين اتقوا " ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازماً .

(15/490)

القول الثاني : أن الورود هو الدخول ويدل عليه الآية والخبر ، أما الآية فقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] وقال : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ والمبعد هو الذي لولا التبعيد لكان قريباً فهذا إنما يحصل لو كانوا في النار ، ثم إنه تعالى يبعدهم عنها ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ وهذا يدل على أنهم يبقون في ذلك الموضع الذي وردوه وهم إنما يبقون في النار فلا بد وأن يكونوا قد دخلوا النار ، وأما الخبر فهو أن عبد الله بن رواحة قال : " أخبر الله عن الورود ولم يخبر بالصدور ، فقال عليه السلام :

" يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجي الذين اتقوا " وذلك يدل على أن ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبي صلى الله عليه وسلم ما أنكر عليه في ذلك وعن جابر : " أنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتى أن للناس ضجيجاً من بردها " .

والقائلون بهذا القول يقولون : المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر ألبتة بل مع الغبطة والسرور وذلك لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] ولأن الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف ، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف ، ولأنه صحت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الملائكة تبشر في القبر من كان من أهل الثواب بالجنة حتى يرى مكانه في الجنة ويعلمه " وكذلك القول في حال المعاينة فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكون في أمرهم ، وإنما تؤثر هذه الأحوال في أهل النار لأنهم لا يعلمون كونهم من أهل النار والعقاب ، ثم اختلفوا في أنه كيف يندفع عنهم ضرر النار ، فقال بعضهم : البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها ما لا نار فيه ، ويكون من المواضع التي يسلك فيها إلى دركات جهنم ، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل في جهنم فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار ، والكفار يكونون في وسط النار .

وثانيها : أن الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : "يردونها كأنها إهالة" وعن جابر بن عبد الله : " أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بأن نرد النار فيقال لهم : قد وردتموها وهي خامدة " وثالثها : أن حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء

الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله برداً وسلاماً عليهم ، كما في حق إبراهيم عليه السلام .

وكما أن الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطي فكان يصير دماً ويشربه الإسرائيلي فكان يصير ماء عذباً . (1)

---

(1) هذه إحدى الآيات التسع التي كانت عذابا لفرعون وأهله في مصر ، وأكرم اللّه بها نبيه موسى والتي عد منها في قوله :

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) [الأعراف : 133] ، والمراد بالقبط هنا أتباع فرعون وهم سكان مصر قديما .

(17/490)

واعلم أنه لا بد من أحد هذه الوجوه في الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا في النار مع المعاقبين ، فإن قيل : إذا لم يكن على المؤمنين عذاب في دخولهم النار فما الفائدة في ذلك الدخول ؟ قلنا فيه وجوه : أحدها : أن ذلك مما يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منه .

وثانيها : أن فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها .

وثالثها : أن فيه مزيد غم على أهل النار من حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين بل وعند الأولياء وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون إليه .

ورابعها : أن المؤمنين إذا كانوا معهم في النار يبكتونهم فزاد ذلك غماً للكفار وسروراً للمؤمنين .

وخامسها : أن المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم صحة الدلائل فما كانوا يقبلون تلك الدلائل ، فإذا دخلوا جهنم معهم أظهروا لهم أنهم كانوا صادقين فيما قالوا ، وأن المكذبين بالحشر والنشر كانوا كاذبين .

وسادسها : أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة كما قال الشاعر :

وبضدها تتبين الأشياء . . فأما الذين تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] فقد بينا أنه أحد ما يدل على الدخول في جهنم وأيضاً فالمراد عن عذابها وكذا قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [الأنبياء : 102] فإن قيل : هل ثبت بالأخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها إلى الجنة ؟ قلنا : ثبت بالأخبار أن المحاسبة تكون في الأرض أو حيث كانت الأرض ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض ﴾ [إبراهيم : 48] وجهنم قريبة من الأرض والجنة في السماء ففي

موضع المحاسبة يكون الاجتماع فيدخلون من ذلك الموضع إلى جهنم ثم يرفع الله أهل الجنة وينجيهم ويدفع أهل النار فيها .

(18/490)

أما قوله : ﴿كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ فالحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى المحتوم بالحتم كقولهم : خلق الله وضرب الأسير ، واحتج من أوجب العقاب عقلاً فقال : إن قوله : ﴿كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ يدل على وجوب ما جاء من جهة الوعيد والأخبار لأن كلمة على للوجوب والذي ثبت بمجرد الأخبار لا يسمى واجباً .

والجواب أن وعد الله تعالى لما استحال تطرق الخلف إليه جرى مجرى الواجب أما قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين ﴾ قرىء ننجي وننجي وينجي على ما لم يسم فاعله ، قال القاضي : الآية دالة على قولنا في الوعيد لأن الله تعالى بين أن الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو وهم المتقون والفاسق لا يكون متقياً ، ثم بين تعالى أن من عدا المتقين يذرهم فيها جثياً فثبت أن الفاسق يبقى في النار أبداً .

(19/490)

قال ابن عباس : المتقي هو الذي اتقى الشرك بقول لا إله إلا الله ، واعلم أن الذي قاله ابن عباس هو الحق الذي يشهد الدليل بصحته ، وذلك لأن من آمن بالله وبرسله صح أن يقال : إنه متق عن الشرك ومن صدق عليه أنه متق عن الشرك صدق عليه أنه متق لأن المتقي جزء من المتقي عن الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد ، فثبت أن صاحب الكبيرة متق وإذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار لعموم قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ فصارت هذه الآية التي توهموها دليلاً من أقوى الدلائل على فساد قولهم : قال القاضي : وتدل الآية أيضاً ، على فساد قول من يقول : إن من المكلفين من لا يكون في الجنة ولا في النار ، قلنا : هذا ضعيف لأن الآية تدل على أنه تعالى ينجي الذين اتقوا وليس فيها ما يدل على أنه ينجيهم إلى الجنة ، ثم هب أنها تدل على ذلك ولكن الآية تدل على أن المتقين يكونون في الجنة والظالمين يبقون في النار فيبقى ههنا قسم ثالث خارج عن القسمين وهو الذي استوت طاعته ومعصيته فتسقط كل واحدة منهما بالأخرى فيبقى لا مطيعاً ولا عاصياً ، فهذا القسم إن بطل فإنما يبطل بشيء سوى هذه الآية فلا تكون هذه الآية دالة على الحصر الذي ادعاه ومن المعتزلة من تمسك في الوعيد بقوله : ﴿ وَنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ ولفظ الظالمين لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم مراراً كثيرة في هذا الكتاب ، أما قوله : ﴿ جِثِيّاً ﴾ قال

صاحب "الكشاف" قوله : ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد نجاتهم وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 206.210 ﴾

(20/490)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾

فيها قولان :

أحدهما : أن جهنم اسم من أسماء النار .

الثاني : أنه إسم لأعمق موضع في النار ، كالفردوس الذي هو اسم لأعلى موضع في الجنة .

﴿ جِثِيّاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : [جماعات] ، قاله الكلبي والأخفش .

الثاني : بُروكاً على الرُّكَب ، قاله عطية .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ ﴾ الشيعة الجماعة المتعاونون . قال مجاهد : والمراد بالشيعة الأمة لاجتماعهم وتعاونهم .

وفي ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ ﴾ وجهان :

أحدهما : لننادين ، قاله ابن جريج .

الثاني : لنستخرجن ، قاله مقاتل .

﴿ عِتِيّاً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أهل الإفتراء بلغة بني تميم ، قاله بعض أهل اللغة .

الثاني : جرأة ، قاله الكلبي .

الثالث : كفراً ، قاله عطية .

الرابع : تمرداً .

الخامس : معصية .

قوله عز وجل : ﴿ . . . أَوْلَى بِهَا صليّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدها : دخولاً ، قاله الكلبي .

الثاني : لزوماً .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنّ مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾

فيه قولان :

أحدهما : يعني الحمى والمرض ، قاله مجاهد . روى أبو هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود رجلاً من أصحابه فيه وعك وأنا معه ، فقال رسول الله : " أَبْشِرْ فَإِنَّ

اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ " أي في الآخرة .

الثاني : يعني جهنم . ثم فيه قولان :

أحدهما : يعني بذلك الكافرين يردونها دون المؤمن ؛ قاله عكرمة ويكون قوله : ﴿ وَإِن مِّنْكُمْ ﴾ أي منهم كقوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ أي لهم .

الثاني : أنه أراد المؤمن والكافر . روى ابن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " الزَّالُّونَ وَالزَّالاَّت يَومَئذٍ كَثِيرٌ " وفي كيفية ورودها قولان :

(21/490)

أحدهما : الدخول فيها . قال ابن عباس : ليردنها كل بر وفاجر . لكنها تمس الفاجر دون البر . قال وكان دعاء من مضى : اللهم أخرجني من النار سالماً ، وأدخلني الجنة عالماً .

والقول الثاني : أن ورود المسلم عليها الوصول إليها ناظراً لها ومسروراً بالنجاة منها ، قاله ابن مسعود ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 23] أي وصل . وكقول زهير بن أبي سلمى :

ولما وردن الماء زُرْقاً جِمامُه . . . وضعن عِصيَّ الحاضر المتخيمِ

ويحتمل قولاً ثالثاً : أن يكون المراد بذلك ورود عرضة القيامة التي تجمع كل بر وفاجر :

﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : قضاء مقتضياً ، قاله مجاهد . الثاني : قسماً واجباً ، قاله ابن مسعود . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(22/490)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

﴿ الإنسان ﴾ اسم للجنس يراد به الكافر ، وروي أن سبب هذه الآية هو أن رجالاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه ، وذكر أن القائل هو أبي خلف جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم مرفت فنفخ فيه وقال أيبعث هذا وكذب وسخر ، وقيل إن القائل هو العاصي بن وائل ، وقرأ الأعرج وأبو عمرو " ائذا مامت " بالاستفهام الظاهر ، وقرأت فرقة " إذا " دون ألف استفهام وقد تقدم هذا مستوعباً ، وقرأت فرقة بكسر الميم ، وقرأت فرقة " مُت " بضمها . واللام في قوله ﴿ لسوف ﴾ مجلوبة على الحكاية لكلام تقدم بهذا المعنى كأن

قائلاً قال للكافر إذا مت يا فلان لسوف تخرج حياً فقرر الكافر على الكلام على جهة الاستبعاد وكرر اللام حكاية للقول الأول . وقرأ جمهور الناس " أُخرَج " بضم الهمزة وفتح الراء ، وقرأ الحسن بخلاف وأبو حيوة " أَخرُج " بفتح الهمزة وضم الراء . وقوله ﴿ أو لا يذكر ﴾ احتجاج خاطب الله تعالى به نبيه عليه السلام رداً على مقالة الكافر . وقرأ نافع وعاصم وابن عامر " ويذكر " ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي " يذكّر " بشد الذال والكاف ، وقرأ أبي بن كعب " يتذكر " والنشأة الأولى والإخراج من العدم إلى الوجود أوضح دليل على جواز البعث من القبور ثم قرر وأوجبه السمع ، وقوله ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ دليل على أن المعدوم لا يسمى ﴿ شيئاً ﴾ وقال أبو علي الفارسي أراد ﴿ شيئاً ﴾ موجوداً .

(23/490)

قال القاضي أبو محمد : وهذه نزعة اعتزالية فتأملها وقوله ﴿ فوربك ﴾ الآية وعيد يكون ما نفوه على أصعب وجوهه ، والضمير في قوله ﴿ لنحشرهم ﴾ عائد للكفار القائلين ما تقدم ، ثم أخبر أنه يقرن بهم ﴿ الشياطين ﴾ المغوين لهم . وقوله ﴿ جثياً ﴾ جمع جاث كقاعد وقعود وجالس وجلوس وأصله جثووا وليس في كلام العرب واو متطرفة قبلها

ضمة فوجب لذلك أن تعل ، ولم يعتد ها هنا بالساكن الذي بينهما لخفته . وقلة حوله فقلبت ياء فجاء جثوياً فاجتمع الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياء ثم أدغمت ثم كسرت التاء للتناسب بين الكسرة والياء . وقرأ الجمهور " جُثياً " و" صُلياً " [مريم : 70] بضم الجيم والصاد ، وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش " جِثياً " و" صِلياً " [ذاته] بكسر الجيم والصاد وأخبر الله تعالى أنه يحضر هؤلاء المنكرين للبعث مع الشياطين فيجثون حول جهنم وهي قعدة الخائف الذليل على ركبتيه كالأسير . ونحوه قال قتادة ﴿ جثياً ﴾ معناه على ركبهم وقال ابن زيد : الجثي شر الجلوس ، و" الشيعة " الفرقة المرتبطة بمذهب واحد المتعاونة فيه كأن بعضهم يشيع بعضاً أي ينبه ، ومنه تشييع النار بالحطب وهو وقدها به شيئاً بعد شيء ، ومنه قيل للشجاع مشيع القلب فأخبر الله أنه ينزع ﴿ من كل شيعة ﴾ أعتاها وأولاها بالعذاب فتكون تلك مقدمتها إلى النار .

قال أبو الأحوص : المعنى نبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً ، ثم أخبر تعالى في الآية بعد ، أنه أعلم بمستحقي ذلك وأبصر لأنه لم تخف عليه حالهم من أولها إلى آخرها . وقرأ بعض الكوفيين ومعاذ بن مسلم وهارون القاري " أيَّهم " بالنصب ، وقرأ الجمهور " أيُّهم " بالرفع ، إلا أن طلحة والأعمش سكنا ميم " أيهمْ " واختلف الناس في وجه رفع " أي " ، فقال الخليل رفعه على الحكاية بتقدير الذي يقال فيه من أجل عتوه " أيُّهم " أشد وقرنه بقول الشاعر : [

الكامل]

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل . . . فأبيت لا حرج ولا محروم

(24/490)

أي فأبيت يقال فيَّ لا حرج ولا محروم . ورجح الزجاج قول الخليل وذكر عنه النحاس أنه غلط سيبويه في قوله في هذه المسألة ، قال سيبويه : ويلزم على هذا أن يجوز أضرب السارق الخبيث أي الذي يقال له ع : وليس بلازم من حيث هذه أسماء مفردة والآية جملة وتسلط الفعل على المفرد أعظم منه على الجملة ، ومذهب سيبويه أن " أيُّهم " مبني على الضم إذ هي اخت " الذي ولما " وخالفتهما في جواز الإضافة فيها فأعربت لذلك ، فلما حذف من صلتها ما يعود عليها ضعفت فرجعت الى البناء ، وكأن التقدير " أيُّهم " هو أشد . قال أبو علي : حذف ما الكلام مفتقر إليه فوجب البناء ، وقال يونس : علق عنها الفعل وارتفعت بالابتداء ، قال أبو علي : معنى ذلك أنه معمل في موضع من كل شيعة إلا أنه ملغى لأنه لا تعلق جملة إلا أفعال الشك كظننت ونحوها مما لم يتحقق وقوعه ، وقال الكسائي ﴿ لننزعن ﴾ أريد به لننادين فعومل معاملة الفعل المراد فلم يعمل في " أي " وقال المبرد " أيُّهم " متعلق ب ﴿ شيعة ﴾ فلذلك ارتفع ، والمعنى من الذين تشايعوا " أيهم "

أشد كأنهم يتبارون إلى هذا ويلزمه أن يقدر مفعولاً ل " ننزع " محذوفاً . وقرأ طلحة بن مصرف " أيهم أكبر " . و﴿ عتيا ﴾ مصدر أصله عتووا وعلل بما علل ﴿ جثياً ﴾ وروى أبو سعيد الخدري " أنه يندلق عنق من النار فيقول إني أمرت بكل جبار عنيد " فتلتقطهم الحديث .

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) ﴾

(25/490)

أي نحن في ذلك النزع لا نضع شيئاً غير موضعه لأنا قد أحطنا علماً بكل أحد فالأولى بصلي النار نعرفه ، و" الصلي " مصدر صلي يصلي إذا باشره قال ابن جريج : المعنى ﴿ أولى ﴾ بالخلود ، وقوله ﴿ وإن ﴾ منكم إلا واردها ﴾ قسم ، والواو تقتضيه ، ويفسره قول النبي عليه السلام " من مات له ثلاث من الولد لم تمسه النار إلا تحلة القسم " وقرأ ابن عباس وعكرمة وجماعة " وإن منهم " بالهاء على إرادة الكفار فلا شغب في هذه القراءة ، وقالت فرقة من الجمهور القارئين ﴿ منكم ﴾ المعنى قل لهم يا محمد فإنما المخاطب منكم الكفرة وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول ، وقال الأكثر المخاطب العالم كله ولا بد من " ورود " الجميع ، واختلفوا في كيفية " ورود " المؤمنين فقال ابن مسعود وابن عباس وخالد بن

معدان وابن جريج وغيرهم : " ورود " دخول لكنها لا تعدو على المؤمنين ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم بحقيقة ما نجوا منه ، وروى عن ابن عباس أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي : أما أنا وأنت فلا بد أن نردها ، فأما أنا فينجيني الله منها ، وأما أنت فما أظنه ينجيك . وقالوا : في القرآن أربعة أوراد معناها الدخول هذه أحدها ، وقوله تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ [هود : 98] ، وقوله ﴿ ونسوق المجرمين الى جهنم وردا ً ﴾ [مريم : 86] ، وقوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : 98] ، وقالوا كان من دعاء بعض السلف " اللهم أدخلني النار سالماً وأخرجني منها غانماً " . وروى جابر بن عبد الله عن النبي عليه السلام أنه قال " الورود في هذه الآية هو الدخول " وأشفق كثير من العلماء من تحقق الورود والجهل بالصدر ، وقالت فرقة بل هو ورود إشراف وإطلاع وقرب كما تقول وردت الماء إذا جئته ، وليس يلزم ان تدخل فيه ، وقال حسب المؤمنين بهذا هولاً ومنه قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : 23] ، وروت فرقة

(26/490)

أن الله تعالى يجعل يوم القيامة النار جامدة الأعلى كأنها اهالة . فيأتي الخلق كلهم ، برهم وفاجرهم ، فيقفون عليها ثم تسوخ بأهلها ويخرج المؤمنون الفائزون لم ينلهم ضر ، قالوا فهذا هو " الورود " وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا يدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية " ، فقالت يا رسول الله وأين قول الله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فمه ثم ننجي الذين اتقوا " ، ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾

(27/490)

[الأنبياء : 101]ع : وهذا ضعيف وليس هذا موضع نسخ وقال عبد الله بن مسعود : ورودهم هو جوازهم على الصراط وذلك أن الحديث الصحيح تضمن " أن الصراط مضروب على جسر جهنم فيمر الناس كالبرق وكالريح وكالجواد من الخيل على مراتب ثم يسقط الكفار في جهنم وتأخذهم كلاليب " ، قالوا فالجواز على على الصراط هو " الورود " الذي تضمنته هذه الآية ، وقال مجاهد : ورود المؤمنين هو الحمى التي تصيب في دار الدنيا ، وفي الحديث " الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء " ، وفي الحديث " الحمى حظ كل مؤمن من النار " ، وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل مريض

عاده من الحمى : إن الله تعالى يقول هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من نار الآخرة فهذا هو الورود : و" الحتم " الأمر المنفذ المجزوم ، وقرأ أبي بن كعب وابن عباس " ثم ننجي " بفتح الثاء من " ثَم " على الظرف ، وقرأ ابن أبي ليلى " ثَمة " بفتح الثاء وهاء السكت ، وقرأ نافع وابن كثير وجمهور من الناس " ننَجّي " بفتح النون الثانية وشد الجيم ، وقرأ يحيى والأعمش " ننْجي " بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم ، وقرأت فرقة " نُجّي " بنون واحدة مضمونة وجيم مشددة ، وقرأ علي بن أبي طالب " ثَم " بفتح الثاء " ننحي " بالحاء غير منقوطة . و﴿ الذين اتقوا ﴾ معناه اتقوا الكفر ، وقال بعض العلماء لا يضيع أحد بين الإيمان والشفاعة . ﴿ ونذر ﴾ دالة على أنهم كانوا فيها ، والظلم هنا هو ظلم الكفر ، وقد تقدم القول في قوله ﴿ جثياً ﴾ ، وقرأ ابن عباس " الذين اتقوا منها ونترك الظالمين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(28/490)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويقول الإِنسان ﴾

سبب نزولها أن أُبيَّ بن خلف أخذ عظماً بالياً ، فجعل يفتّه بيده ويذريه في الريح ويقول :

زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وروى عطاء عن ابن عباس : أنه الوليد بن المغيرة .

قوله تعالى : ﴿ لسوف أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ إن قيل : ظاهره ظاهر سؤال ، فأين جوابه ؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري .

أحدها : أن ظاهر الكلام استفهام ، ومعناه معنى جحد وإنكار ، تلخيصه : لستُ مبعوثاً بعد الموت .

والثاني : أنه لمّا استفهم بهذا الكلام عن البعث ، أجابه الله عز وجل بقوله : ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإنسان ﴾ ، فهو مشتمل على معنى : نعم ، وأنت مبعوث .

والثالث : أن جواب سؤال هذا الكافر في [يس : 78] عند قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مَثَلاً ﴾ ، ولا يُنكَر بُعْد الجواب ، لأن القرآن كلَّه بمنزلة الرسالة الواحدة ، والسورتان مكيّتان .

قوله تعالى : ﴿ أولا يَذكر الإنسانُ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : بفتح الذال مشددة الكاف .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر : "يَذْكُرُ ، ساكنة الذال خفيفة .

وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل الناجي : "أَوَلا يتذكَّر الإنسان" بياء وتاء .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن : "يذْكُر" بياء من غير تاء ساكنة الذال مخففة مرفوعة الكاف ، والمعنى : أَوَلا يتذكَّر هذا الجاحد أوَّل خلقه ، فيستدل بالابتداء على الإِعادة ؟ ! ﴿ فوربك لنحشرنَّهم ﴾ يعني : المكذِّبين بالبعث ﴿ والشياطينَ ﴾ أي : مع الشياطين ، وذلك أن كل كافر يُحشَر مع شيطانه في سلسلة ، ﴿ ثم لنُحْضِرَنَّهم حول جهنَّم ﴾ قال مقاتل : أي : في جهنم ، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخلَه ، تقول : جلس القوم حول البيت : إِذا جلسوا داخله مطيفين به .

وقيل : يجثون حولها قبل أن يدخلوها .

(29/490)

فأما قوله : ﴿ جِثِيّاً ﴾ فقال الزجاج : هو جمع جاثٍ ، مثل قاعدٍ وقعودٍ ، وهو منصوب على الحال ، والأصل ضم الجيم ، وجاء كسرها إِتباعاً لكسرة الثاء .

وللمفسرين في معناه خمسة أقوال .

أحدها : قعوداً ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : جماعات جماعات ، روي عن ابن عباس أيضاً .

فعلى هذا هو جمع جثْوة وهي المجموع من التراب والحجارة .

والثالث : جثيّاً على الرُّكَب ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والزجاج .

والرابع : قياماً ، قاله أبو مالك .

والخامس : قياماً على رُكَبهم ، قاله السدي ، وذلك لضيق المكان بهم .

قوله تعالى : ﴿ لَنَنْزِعَنّ مِنْ كل شيعة ﴾ أي : لنأخذنّ من كل فِرقة وأُمّة وأهل دين ﴿ أَيُّهم أَشَدُّ على الرحمن عِتِيّاً ﴾ أي : أعظمهم له معصية ، والمعنى : أنه يُبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى ، وبالأكابر جُرْماً ، والرؤوس القادة في الشرِّ .

قال الزجاج : وفي رفع "أَيُّهم" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على الاستئناف ، ولم تعمل "لننزعنّ" شيئاً ، هذا قول يونس .

والثاني : أنه على معنى الذي يقال لهم : أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتِيّاً ؟ قاله الخليل ، واختاره الزجاج ، وقال : التأويل : لننزعنّ الذي من أجل عُتُوِّه يقال : أيُّ هؤلاء أَشَدُّ عِتِيّاً ؟ وأنشد :

وَلَقَدْ أَبِيتُ عن الفَتَاةِ بمنزلٍ . . .

فأبيت لا حَرِجٍ ولا محروم

المعنى : أبيت بمنزلة الذي يقال له : لا هو حَرِجٍ ولا محروم .

والثالث : أن "أيُّهم" مبنية على الضم ، لأنه خالفت أخواتها ، فالمعنى : أيُّهم هو أفضل .

وبيان خلافها لأخواتها أنك تقول : اضرب أيُّهم أفضل ، ولا يَحْسُن : اضرب مَنْ أفْضل ،

حتى تقول : من هو أفضل ، ولا يَحْسُن : كُلْ ما أطيب ، حتى تقول : ما هو أطيب ، ولا خُذْ ما أفضل ، حتى تقول : الذي هو أفضل ، فلما خالفت "ما" و"مَنْ" و"الذي" بُنيت على الضم ، قاله سيبويه .

(30/490)

قوله تعالى : ﴿ هُمْ أَوْلى بها صِلِيّاً ﴾ يعني : أن الأَوْلى بها صِلِيّاً الذين هم أشدُّ عِتِيّاً ، فيُبْتَدَأُ بهم قبل أتباعهم .

و"صِلِيّاً" : منصوب على التفسير ، يقال : صَلي النار يصلاها : إذا دخلها وقاسى حَرَّها .

قوله تعالى : ﴿ وإِنْ منكم إلا واردها ﴾ في الكلام إِضمار تقديره : وما منكم أحد إلا وهو واردها .

وفيمن عُني بهذا الخطاب قولان .

أحدهما : أنه عامّ في حق المؤمن والكافر ، هذا قول الأكثرين .

وروي عن ابن عباس أنه قال : هذه الآية للكفار .

وأكثر الروايات عنه كالقول الأول .

قال ابن الأنباري : ووجه هذا أنه لما قال : "لَنُحْضِرَنَّهم" وقال : "أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتِيّاً" كان التقدير : وإن منهم ، فأبدلت الكاف من الهاء ، كما فعل في قوله : ﴿ إنّ هذا كان لكم جزاءً ﴾ [الانسان : 22] المعنى : كان لهم ، لأنه مردود على قوله : ﴿ وسقاهم ربُّهم ﴾ [الانسان : 21] ، وقال الشاعر :

شَطَّتْ مزارَ العاشقين فأصبحتْ . . .

عَسِراً عليّ طلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ

أراد : طلابها .

وفي هذا الورود خمسة أقوال .

أحدها : أنه الدخول .

روى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الورود : الدخول لا يبقى بَرّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار أو قال : لجهنم ضجيجاً من بردهم " وروي عن ابن عباس أنه سأله نافع بن الأزرق عن هذه الآية ، فقال له : "أمّا أنا وأنت فسندخلها ، فانظر أيُخرجنا الله عز وجل منها ، أم لا ؟" فاحتج بقوله تعالى ﴿ فأوردهم النار ﴾ [هود : 98] وبقوله تعالى : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : 98] .

وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول : أُنبئت أني وارد ، ولم أُنبَّأ أني صادر .

وحكى الحسن البصري : أن رجلاً قال لأخيه : يا أخي هل أتاك أنك واردٌ النار ؟ قال : نعم ؛ قال : فهل أتاك أنك خارجٌ منها ؟ قال : لا ؛ قال : ففيم الضحك ؟ ! وقال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قالوا : ألم يَعِدْنا ربُّنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم : بلى ، ولكن مررتم بها وهي خامدة .

وممن ذهب إلى أنه الدخول : الحسن في رواية ، وأبو مالك .

وقد اعتُرِض على أرباب هذا القول بأشياء .

فقال الزجاج : العرب تقول : وردت بلد كذا ، ووردت ماء كذا : إذا أشرفوا عليه وإن لم يدخلوا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماءَ مدين ﴾ [القصص : 33] ، والحجة القاطعة في هذا القول قوله تعالى : ﴿ أولئك عنها مبعَدون .

لا يسمعون حسيسها ﴾ [الأنبياء : 101 ، 102] ، وقال زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ . . .

وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

أي : لما بلغن الماء قمن عليه .

قلت : وقد أجاب بعضهم عن هذه الحجج ، فقال : أما الآية الأولى ، فإن موسى لما أقام حتى استقى الماء وسقى الغنم ، كان بلبثه ومباشرته كأنه دخل ؛ وأما الآية الأخرى : فإنها تضمنت الإخبار عن أهل الجنة حين كونهم فيها ، وحينئذ لا يسمعون حسيسها .

وقد روينا آنفاً عن خالد بن معدان أنهم يمرُّون بها ، ولا يعلمون .

والثاني : أن الورود : الممرُّ عليها ، قاله عبد الله بن مسعود ، وقتادة .

وقال ابن مسعود : يَرِد الناس النار ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ، فأولُهم كلمح البرق ، ثم كالريح ، ثم كحُضْر الفرس [ثم كالراكب في رحله] ، ثم كشدِّ الرحل ، ثم كمشيه .

والثالث : أن ورودها : حضورها ، قاله عبيد بن عمير .

والرابع : أن ورود المسلمين : المرور على الجسر ، وورود المشركين : دخولها .

قاله ابن زيد .

(32/490)

والخامس : أن ورود المؤمن إليها : ما يصيبه من الحمَّى في الدنيا ، روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال : الحمَّى حظّ كل مؤمن من النار ، ثم قرأ : "وإنْ منكم إلا واردها" فعلى هذا مَن حُمَّ من المسلمين ، فقد وردها .

قوله تعالى : ﴿ كان على ربك ﴾ يعني : الورود ﴿ حتماً ﴾ والحتم : ايجاب القضاء ، والقطع بالأمر .

والمقضيُّ : الذي قضاه الله تعالى ، والمعنى : إنه حتم ذلك وقضاه على الخلق .

قوله تعالى : ﴿ ثم ننجِّي الذين اتَّقَوْا ﴾ وقرأ ابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن يعمر ، وابن أبي ليلى ، وعاصم الجحدري : "ثَمَّ" بفتح الثاء .

وقرأ الكسائي ، ويعقوب : "نُنْجي" مخففة .

وقرأت عائشة ، وأبو بحرية ، [وأبو الجوزاء الربعي : "ثم يُنجي" بياء مرفوعة قبل النون خفيفة الجيم مكسورة .

وقرأ أُبيّ بن كعب] ، وأبو مجلز ، وابن السميفع ، وأبو رجاء : "ننحِّي" بحاء غير معجمة مشددة .

وهذه الآية يحتج بها القائلون بدخول جميع الخلق ، لأن النجاة : تخليص الواقع في الشيء ، ويؤكِّده قوله تعالى : ﴿ ونذر الظالمين فيها ﴾ ولم يقل : ونُدخلهم ؛ وإنما يقال : نذَر ونترك لمن قد حصل في مكانه .

ومن قال : إن الورود للكفار خاصة ، قال : معنى هذا الكلام : نخرج المتَّقين من جملة من يدخل النار .

والمراد بالمتقين : الذين اتَّقَوْا الشرك ، وبالظالمين : الكفار .

وقد سبق معنى قوله تعالى : ﴿ جِثِيّاً ﴾ [مريم : 68] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(33/490)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾

الإنسان هنا أبيّ بن خلف ، وجد عظاماً بالية ففتتها بيده ، وقال : زعم محمد أنا نبعث بعد الموت ؛ قاله الكلبي ؛ ذكره الواحدي والثعلبي والقشيري .

وقال المهدوي : نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه ، وهو قول ابن عباس .

واللام في "لسوف أخرج حيا" للتأكيد .

كأنه قيل له : إذا ما مت لسوف تبعث حياً فقال : "أئذا ما مت لسوف أخرج حياً" ! قال : ذلك منكراً فجاءت اللام في الجواب كما كانت في القول الأول ، ولو كان مبتدئاً لم تدخل اللام ؛ لأنها للتأكيد والإيجاب وهو منكر للبعث .

وقرأ ابن ذكوان "إذا ما مِت" على الخبر .

والباقون بالاستفهام على أصولهم في الهمز .

وقرأ الحسن وأبو حيوة "لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا" ؛ قاله استهزاء لأنهم لا يصدقون بالبعث .

والإنسان هاهنا الكافر .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ ﴾ أي أولا يذكر هذا القائل ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل سؤاله وقوله هذا القول ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ فالإعادة مثل الابتداء فلم يناقض .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ، وأهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر "أَوَلاَ يَذَّكَّرُ" .

وقرأ شيبة ونافع وعاصم ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ ﴾ بالتخفيف .

والاختيار التشديد وأصله يتذكر ؛ لقوله تعالى : إنما يتذكر أولو الألباب" وأخواتها .

وفي حرف أبيّ "أَوَلاَ يَتَذَكَّرُ" وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفة لخط المصحف .

ومعنى "يَتَذَكَّرُ" يتفكر ، ومعنى "يَذْكُرُ" يتنبه ويعلم ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين .

﴿ والشياطين ﴾ أي ولنحشرن الشياطين قرناء لهم .

قيل : يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ؛ كما قال : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات : 22] .

الزمخشري : والواو في "والشَّياطِين" يجوز أن تكون للعطف وبمعنى مع ، وهي بمعنى مع أوقع .

والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ؛ يقرنون كل كافر مع شيطان في سلسلة .

فإن قلت هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين ؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين ، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة .

فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم في المحشر ، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة ، وسروراً إلى سرور ، ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم ؛ فتزداد مساءتهم وحسرتهم ، وما يغظيهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم .

فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثياً ؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون من المحشر إلى شاطىء جهنم عَتْلا على حالهم التي كانوا عليها في الموقف ، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم .

وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو ؛ قال الله تعالى : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ كلٌّ على الحالة المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثي أهلها على الركب .

لما في ذلك من الاستيفاز والقلق ، وإطلاق الجُثَا خلاف الطمأنينة ؛ أو لما يدهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثواً .

وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطيء جهنم .

على أن "جثيا" حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين ؛ لأنه من توابع التواقف للحساب ، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب .

ويقال : إن معنى ﴿ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ أي جثياً على ركبهم ؛ عن مجاهد وقتادة ؛ أي أنهم لشدّة ما هم فيه لا يقدرون على القيام .

(35/490)

"وحول جهنم" يجوز أن يكون داخلها ؛ كما تقول : جلس القوم حول البيت أي داخله مطيفين به ؛ فقوله : "حول جهنم" على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول .

ويجوز أن يكون قبل الدخول .

و"جثيا" جمع جاثٍ .

يقال : جثا على ركبتيه يَجْثو ويَجْثِي جُثوًّا وجُثيا على فعول فيهما .

وأجثاه غيره .

وقوم جُثيٌّ أيضاً ؛ مثل جلس جلوساً وقوم جلوس ، وجِثى أيضاً بكسر الجيم لما بعدها من الكسر .

وقال ابن عباس : "جثيا" جماعات .

وقال مقاتل : جمعاً جمعاً ؛ وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوَة وجِثوة ثلاث لغات ، وهي الحجارة المجموعة والتراب المجموع ؛ فأهل الخمر على حدة ، وأهل الزنى على حدة ، وهكذا ؛ قال طرفة :

تَرَى جُثْوتين من تُراب عليهما . . .
صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ

وقال الحسن والضحاك : جاثية على الركب .

وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ على ما تقدّم .

وذلك لضيق المكان ؛ أي لا يمكنهم أن يجلسوا جلوساً تاماً .

وقيل : جثياً على ركبهم للتخاصم ؛ كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] .

وقال الكميت :

هم تَرَكُوا سَرَاتَهُمُ جثيًّا . . .

وهم دون السّراةِ مقرَّنينَا

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أي لنستخرجن من كل أمة وأهل دين ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ النحاس : وهذه آية مشكلة في الإعراب ؛ لأن القراء كلهم يقرؤون "أيهم" بالرفع إلا هارون القارىء الأعور فإن سيبويه حكى عنه : "ثم لننزِعن مِن كل شِيعةٍ أَيَّهُمْ" بالنصب أوقع على أيهم لننزعن .

قال أبو إسحاق في رفع "أيهم" ثلاثة أقوال ؛ قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيبويه : إنه مرفوع على الحكاية ؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذي يقال من أجل عتوه أيهم أشدّ على الرحمن عتيا ؛ وأنشد الخليل ، فقال :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلٍ . . .

فأبيتُ لا حرِجٍ ولا محروم

(36/490)

أي فأبيت بمنزلة الذي يقال له لا هو حَرِجٍ ولا محروم .

وقال أبو جعفر النحاس : ورأيت أبا إسحاق يختار هذا القول ويستحسنه ؛ قال : لأنه

معنى قول أهل التفسير .

وزعم أن معنى "ثم لننزعن من كل شيعة" ثم لننزعن من كل فرقة الأعتى فالأعتى .

كأنه يبتدأ بالتعذيب بأشدّهم عتيا ثم الذي يليه ؛ وهذا نص كلام أبي إسحاق في معنى الآية .

وقال يونس : "لننزعن" بمنزلة الأفعال التي تلغى ورفع "أيهم" على الابتداء .

المهدوي : والفعل الذي هو "لننزعن" عند يونس معلق ؛ قال أبو علي : معنى ذلك أنه يعمل في موضع "أيهم أشدّ" لا أنه ملغى .

ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل "لننزعن" ، إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقق وقوعه .

وقال سيبويه : "أَيُّهُمْ" مبني على الضم لأنها خالفت أخواتها في الحذف ؛ لأنك لو قلت : رأيت الذي أفضل ومن أفضل كان قبيحاً ، حتى تقول من هو أفضل ، والحذف في "أيهم" جائز .

قال أبو جعفر : وما علمت أحداً من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه في هذا ، وسمعت أبا إسحاق يقول : ما يبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما ؛ قال : وقد علمنا أن سيبويه أعرب أياً وهي مفردة لأنها تضاف ، فكيف يبنيها وهي مضافة ؟ ! ولم يذكر أبو إسحاق فيما علمت إلا هذه الثلاثة الأقوال .

أبو عليّ : إنما وجب البناء على مذهب سيبويه ؛ لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع افتقار إليه ، كما حذف في : "من قبل ومن بعد" ما يتعرفان به مع افتقار المضاف إلى المضاف إليه ؛ لأن الصلة تبين الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصصه .

قال أبو جعفر : وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التي ذكرها أبو إسحاق ؛ قال الكسائي : "لننزعن" واقعة على المعنى ، كما تقول : لبست من الثياب ، وأكلت من الطعام ، ولم يقع "لننزعن" على "أيهم" فينصبها .

(37/490)

زاد المهدوي : وإنما الفعل عنده واقع على موضع "من كل شيعة" وقوله : "أيهم أشد" جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء ؛ ولا يرى سيبويه زيادة "من" في الواجب .

وقال الفراء : المعنى ثم لننزعن بالنداء ، ومعنى "لننزعن" لننادين .

المهدوي : ونادى فعل يعلق إذا كان بعده جملة ، كظننت فتعمل في المعنى ولا تعمل في اللفظ .

قال أبو جعفر : وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول في "أيهم" معنى الشرط

والمجازاة ، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها ؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا ، كما تقول : ضربت القوم أيهم غضب ؛ والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا .

قال أبو جعفر : فهذه ستة أقوال ، وسمعت علي بن سليمان يحكي عن محمد بن يزيد قال : "أيهم" متعلق "بشيعة" فهو مرفوع بالابتداء ؛ والمعنى : ثم لننزعن من الذين تشايعوا أيهم ؛ أي من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدّ على الرحمن عتياً ؛ وهذا قول حسن .

وقد حكى الكسائي أن التشايع التعاون .

و"عتيا" نصب على البيان .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ أي أحق بدخول النار .

يقال : صَلَى يَصْلَى صُليا ، نحو مضى الشيء يمضي مُضِيا إذا ذهب ، وهوى يهوي هُوِيا .

وقال الجوهري : ويقال صليت الرجل ناراً إذا أدخلته النار وجعلته يَصلاها ؛ فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصَلَّيته تصلية .

وقرىء "ويُصَلَّى سَعِيراً" .

ومن خفف فهو من قولهم : صَلِي فلان بالنار (بالكسر) يصلى صُلِياً احترق ؛ قال الله تعالى : "هُمْ أَوْلَى بِهَا صُلِيًّا" .

قال العجاج :

واللَّهِ لولا النارُ أن نصلاها . . .

ويقال أيضاً : صلي بالأمر إذا قاسى حره وشدّته .

قال الطُّهَوِي :

وَلاَ تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ . . .

صَلُوا بالحرب حِيناً بعد حينِ

واصطليت بالنار وتصلّيت بها .

قال أبو زبيد :

وقد تَصلَّيتُ حَرَّ حَرْبِهِمُ . . .

(38/490)

كَما تَصلَّى المقْرَورُ من قَرَسِ

وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره إذا كان شجاعاً لا يُطاق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ هذا قسم ، والواو يتضمنه .

ويفسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تَحِلَّة القسم " قال الزهري : كأنه يريد هذه الآية : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا

﴿ ذكره أبو داود الطيالسي ؛ فقوله : "إلا تحِلة القسم" يخرج في التفسير المسند ؛ لأن القسم المذكور في هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ .

وقد قيل : إن المراد بالقسم قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾ [الذاريات : 1] إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات : 5] والأوّل أشهر ؛ والمعنى متقارب .

الثانية : واختلف الناس في الورود ؛ فقيل : الورود الدخول ؛ روي عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الورود الدخول لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ " أسنده أبو عمر في كتاب "التمهيد" .

وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم .

وروي عن يونس أنه كان يقرأ "وإن منكم إلا واردِها" الورود الدخول ؛ على التفسير للورود ، فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن .

(39/490)

وفي مسند الدارمي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فأوّلهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحُضْر الفرس ثم كالراكب الجِدّ في رَحْله ثم كشدّ الرجل في مشيته " وروي عن ابن عباس أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي : أما أنا وأنت فلا بد أن نردها ، أما أنا فينجيني الله منها ، وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك .

وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود والجهل بالصدر ؛ وقد بيناه في "التذكرة" .

وقالت فرقة : الورود الممر على الصراط .

وروي عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدي ، ورواه السدي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاله الحسن أيضاً ؛ قال : ليس الورود الدخول ، إنما تقول : وردت البصرة ولم أدخلها .

قال : فالورود أن يمرّوا على الصراط .

قال أبو بكر الأنباري : وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغة ، واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها .

وكان هؤلاء يقرؤون "ثَمَّ" بفتح الثاء "نُنَجِّي الَّذينَ اتَّقَوْا" .

واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى قوله : "أولئك عنها مبعدون" عن

العذاب فيها ، والإحراق بها .

قالوا : فمن دخلها وهو لا يشعر بها ، ولا يحس منها وجعاً ولا ألماً ، فهو مبعد عنها في الحقيقة .

ويستدلون بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ بضم الثاء ؛ ف"ثم" تدل على نجاء بعد الدخول .

(40/490)

قلت : وفي صحيح مسلم : " ثم يُضرَبُ الجسر على جهنم وتَحُلُّ الشفاعة فيقولون اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّم" قيل : يا رسول الله وما الجِسرُ ؟ قال : "دَحْضٌ مَزِلّةٌ فيه خَطَاطيفُ وكَلاَليبُ وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شُوَيْكَة يقال لها السَّعْدان فيمرُّ المؤمنون كطرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرّكاب فناجٍ مُسلَّمْ ومخدوشٌ مُرْسَل ومَكْدُوس في نار جهنم " الحديث .

وبه احتج من قال : إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول فيها .

وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب .

وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة .

﴿ وَّنَذَرُ الظالمين ﴾ أي يؤمر بهم إلى النار قال الله تعالى : "وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ" أي أشرف عليه لا أنه دخله .

وقال زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ . . .

وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخيِّمِ

وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل النار أحدٌ من أهل بدر والحديبية " قالت فقلت : يا رسول الله وأين قول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فَمَه ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ " .

أخرجه مسلم من حديث أم مُبَشِّر ؛ قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة .

الحديث .

ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] .

وقال مجاهد :

ورود المؤمنين النار هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا ، وهي حظ المؤمن من النار فلا يردها .

(41/490)

روى أبو هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً من وعك به ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول "هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظّه من النار" "

أسنده أبو عمر قال : حدّثنا عبد الوارث بن سفيان قال : حدّثنا قاسم بن أصبغ قال : حدّثنا محمد بن إسماعيل الصائغ قال : حدّثنا أبو أسامة قال : حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسماعيل بن عبيد الله (عن أبي صالح) الأشعري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً فذكره .

وفي الحديث : " الحُمَّى حَظُّ المؤمن من النار " وقالت فرقة : الورود النظر إليها في القبر ، فينجّي منها الفائز ، ويصلاها من قدر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى .

واحتجوا بحديث ابن عمر : " إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ " الحديث .

وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال : في قول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قال : هذا خطاب للكفار .

وروي عنه أنه كان يقرأ "وإن مِنهم" رداً على الآيات التي قبلها في الكفار : قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً وَإِن مِّنكُمْ ﴾ وكذلك قرأ عكرمة وجماعة ؛ وعليها فلا شغْب في هذه القراءة .

وقالت فرقة : المراد ب"منكم" الكفرة ؛ والمعنى : قل لهم يا محمد .

وهذا التأويل أيضاً سهل التناول ؛ والكاف في "منكم" راجعة إلى الهاء في "لنحشرنهم والشياطين .

(42/490)

ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا" فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء ؛ فقد عرف ذلك في قوله عز وجل : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً

﴾ [الإنسان : 21] معناه كان لهم ، فرجعت الكاف إلى الهاء .

وقال الأكثر : المخاطب العالم كله ، ولا بد من ورود الجميع ، وعليه نشأ الخلاف في الورود .

وقد بينا أقوال العلماء فيه .

وظاهر الورود الدخول ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : "فتمسّه النار" لأن المسيس حقيقته في اللغة المماسة ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين .

قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رماداً .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ؛ فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونُجِّي منها .

نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالماً ، وخرج منها غانماً .

فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعاً يردونها كما دل عليه حديث جابر أوّل الباب ؛ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بَوْنٌ .

وقال ابن الأنباري محتجاً لمصحف عثمان وقراءة العامة : جائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ كما قال :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان : 21 22] فأبدل الكاف من الهاء .

وقد تقدم هذا المعنى في "يونس" .

(43/490)

الثالثة : الاستثناء في قوله عليه السلام : "إلا تَحِلَّة القَسَم" يحتمل أن يكون استثناء منقطعاً : لكن تحلة القسم ؛ وهذا معروف في كلام العرب ؛ والمعنى ألا تمسه النار أصلاً ؛ وتم الكلام هنا ثم ابتدأ "إلا تحلة القسم" أي لكن تحلة القسم لا بد منها في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة ، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار " والجُنَّة الوقاية والستر ، ومن وُقي النار وسُتر عنها فلن تمسّه أصلاً ، ولو مسّته لما كان موقى .

الرابعة : هذا الحديث يفسر الأوّل لأن فيه ذكر الحِسْبة ؛ ولذلك جعله مالك بأثره مفسراً له .

ويقيد هذا الحديث الثاني أيضاً ما رواه البخاريّ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه

وسلم : " من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث كان له حجاباً من النار أو دخل الجنة "

فقوله عليه السلام : " لم يبلغوا الحِنْث " ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم ولم يبلغوا أن يلزمهم حِنْث دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة والله أعلم لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم استحال أن يُرحَموا من أجل (من) ليس بمرحوم .

وهذا إجماع من العلماء في أن أطفال المسلمين في الجنة ، ولم يخالف في ذلك إلا فرقة شذت من الجبرية فجعلتهم في المشيئة ؛ وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم ، ولا يجوز على مثلهم الغلط ، إلى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الآحاد الثقات العدول ؛ وأن قوله عليه الصلاة والسلام : " الشقيّ من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه " الحديث مخصوص ، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد في بطن أمه ولم يشقَ بدليل الأحاديث والإجماع .

(44/490)

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله تعالى عنها : " يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب

آبائهم " ساقط ضعيف مردود بالإجماع والآثار ، وطلحة بن يحيى الذي يرويه ضعيف لا يحتج به .

وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرّج عليه وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة بن إياس المزني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم

" أن رجلاً من الأنصار مات له ابن صغير فَوَجد عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما يَسرك ألا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدتَه يَستفتح لك" فقالوا : يا رسول الله أله خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : "بل للمسلمين عامة" " قال أبو عمر : هذا حديث ثابت صحيح ؛ بمعنى ما ذكرناه مع إجماع الجمهور ؛ وهو يعارض حديث يحيى ويدفعه .

قال أبو عمر : والوجه عندي في هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه ، واجتنب الكبائر ، وصبر واحتسب في مصيبته ؛ فإن الخطاب لم يتوجه في ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا ، وهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نسخ قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قولُه : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] وهذا ضعيف ، وهذا ليس موضع نسخ .

وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها .

وفي الخبر : "تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي" .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ كَانَ على ربِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ الحتم إيجاب القضاء ؛ أي كان ذلك حتماً .

"مقضيا" أي قضاه الله تعالى عليكم .

وقال ابن مسعود : أي قسماً واجباً .

(45/490)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ أي نخلصهم ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ وهذا مما يدل على أن الورود الدخول ؛ لأنه لم يقل : وندخل الظالمين .

وقد مضى هذا المعنى مستوفى .

والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو .

وقالت المرجئة : لا يدخل .

وقالت الوعيدية : يخلّد .

وقد مضى بيان هذا في غير موضع .

وقرأ عاصم الجحدريّ ومعاوية بن قرة "ثُمَّ نُنْجِي" مخففة من أنجى .

وهي قراءة حميد ويعقوب والكسائي .

وثَقَّل الباقون .

وقرأ ابن أبي ليلى "ثَمَّهْ" بفتح الثاء أي هناك .

و"ثَمَّ" ظرف إلا أنه مبني لأنه غير محصّل فبنى كما بنى ذا ؛ والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف في الوصل ، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت في الوصل تاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(46/490)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

قيل : سبب النزول أن رجلاً من قريش قيل هو أُبَيّ بن خلف جاء بعظم رفات فنفخ فيه ، وقال للرسول : أيبعث هذا ؟ وكذب وسخر ، وإسناد هذه المقالة للجنس بما صدر من بعضهم .

كقول الفرزدق :

فسيف بني عبس وقد ضربوا به . . .

نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله نبا بيدي ، ورقاء وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي ، أو للجنس الكافر المنكر للبعث أو المعنى أُبَيّ بن خلف ، أو العاصي بن وائل ، أو أبو جهل ، أو الوليد بن المغيرة أقوال .

وقرأ الجمهور ﴿ أئذا ﴾ بهمزة الاستفهام .

وقرأت فرقة منهم ابن ذكوان بخلاف عنه إذا بدون همزة الاستفهام .

وقرأ الجمهور ﴿ لسوف ﴾ باللام .

وقرأ طلحة بن مصرف سأخرج بغير لام وسين الاستقبال عوض سوف ، فعلى قراءته تكون إذاً معمولاً لقوله سأخرج لأن حرف التنفيس لا يمنع من عمل ما بعده من الفعل فيما قبله ، على أن فيه خلافاً شاذاً وصاحبه محجوج بالسماع .

قال الشاعر :

فلما رأته آمناً هان وجدها . . .

وقالت أبونا هكذا سوف يفعل

فهكذا منصوب بفعل وهو بحرف الاستقبال .

وحكى الزمخشري أن طلحة بن مصرف قرأ لسأخرج ، وأما على قراءة الجمهور وما نقله الزمخشري من قراءة طلحة فاللام لام الابتداء فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، فيقدر العامل

محذوفاً من معنى ﴿ لسوف أخرج ﴾ تقديره إذا ما مت أبعث .

وقال الزمخشري : فإن قلت لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال ، فكيف جامعت حرف الاستقبال ؟ قلت : لم تجامعها إلاّ مخلصة للتوكيد كما أخلصت الهمزة في يا الله للتعويض ، واضمحل عنها معنى التعريف انتهى .

(47/490)

وما ذكر من أن اللام تعطي معنى الحال مخالف فيه ، فعلى مذهب من لا يقول ذلك يسقط السؤال ، وأما قوله كما أخلصت الهمزة إلى آخره فليس ذلك إلاّ على مذهب من يزعم أن الأصل فيه إله ، وأما من يزعم أن أصله لاه فلا تكون الهمزة فيه للتعويض إذ لم يحذف منه شيء ، ولو قلنا إن أصله إله وحذفت فاء الكلمة لم يتعين أن الهمزة فيه في النداء للتعويض ، إذ لو كانت للعوض من المحذوف لثبتت دائماً في النداء وغيره ، ولما جاز حذفها في النداء قالوا : يا الله بحذفها وقد نصوا على أن قطع همزة الوصل في النداء شاذ .

وقال ابن عطية : واللام في قوله ﴿ لسوف ﴾ مجلوبة على الحكاية لكلام تقدم بهذا المعنى كأن قائلاً قال للكافر : إذا مت يا فلان لسوف تخرج حياً ، فقرر الكلام على الكلام على جهة الاستبعاد ، وكرر اللام حكاية للقول الأول انتهى .

ولا يحتاج إلى هذا التقدير ولا أن هذا حكاية لقول تقدم ، بل هذا من الكافر استفهام فيه معنى الجحد والإنكار ، ومن قرأ إذا ما أن تكون حذفت الهمزة لدلالة المعنى عليه ، وإما أن يكون إخباراً على سبيل الهزء والسخرية بمن يقول ذلك إذ لم يرد به مطابقة اللفظ للمعنى .

وقرأ الجمهور ﴿ أُخرج ﴾ مبنياً للمفعول .

وقرأ الحسن وأبو حيوة مبنياً للفاعل .

وقال الزمخشري : وإيلاؤه أي وإيلاء الظرف حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ، ومنه جاء إنكارهم فهو كقولك للمسيء إلى المحسن أحين تمت عليك نعمة فلأن أسأت إليه .

وقرأ أبو بحرية والحسن وشيبة وابن أبي ليلى وابن مناذر وأبو حاتم ومن السبعة عاصم وابن عامر ونافع ﴿ أو لا يذكر ﴾ خفيفاً مضارع ذكر .

وقرأ باقي السبعة بفتح الذال والكاف وتشديدهما أصله يتذكر أدغم التاء في الذال .

وقرأ أُبَيّ يتذكر على الأصل .

قال الزمخشري : الواو عاطفة لا يذكر على يقول ، ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف انتهى .

وهذا رجوع منه إلى مذهب الجماعة من أن حرف العطف إذا تقدمته الهمزة فإنما عطف ما بعدها على ما قبلها ، وقدمت الهمزة لأن لها صدر الكلام ، وكان مذهبه أن يقدر بين الهمزة والحرف ما يصلح أن يعطف عليه ما بعد الواو فيقر الهمزة على حالها ، وليست مقدمة من تأخير وقد رددنا عليه هذه المقالة .

﴿ أنّا خلقناه من قبل ﴾ أي أنشأناه واخترعناه من العدم الصرف إلى الوجود ، فكيف ينكر النشأة الثانية وهذه الحجة في غاية الاختصار والإلزام للخصم ، ويسمى هذا النوع الاحتجاج النظري وبعضهم يسميه المذهب الكلامي ، وقد تكرر هذا الاحتجاج في القرآن : ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ إشارة إلى العدم الصرف وانتفاء الشيئية عنه يدل على أن المعدوم لا يسمى شيئاً .

وقال أبو علي الفارسي : ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ موجود أو هي نزعة اعتزالية والمحذوف المضاف إليه ﴿ قبل ﴾ في التقدير قدره بعضهم ﴿ من قبل ﴾ بعثه ، وقدره الزمخشري ﴿ من قبل ﴾ الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه انتهى .

ولما أقام تعالى الحجة الدامغة على حقية البعث أقسم على ذلك باسمه مضافاً إلى رسوله تشريفاً له وتفخيماً ، وقد تكرر هذا القسم في القرآن تعظيماً لحقه ورفعاً منه كما رفع من شأن السماء والأرض بقوله ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ والواو في ﴿ والشياطين ﴾ للعطف أو بمعنى مع يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ، يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة وهذا إذا كان الضمير في ﴿ لنحشرنهم ﴾ للكفرة وهو قول ابن عطية وما جاء بعد ذلك فهو من الإخبار عنهم وبدأ به الزمخشري ، والظاهر أنه عام للخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم ولم يفرق بين المؤمنين والكافرين كما فرق في الجزاء ، وأحضروا جميعاً وأوردوا النار ليعاين المؤمنون الأهوال التي نجوا منها فيسروا بذلك ويشمتوا بأعدائهم الكفار ، وإذا كان الضمير عاماً فالمعنى يتجاثون عند موافاة شاطىء جهنم كما كانوا في الموقف متجاثين لأنه من توابع التوافق للحساب قبل الوصول إلى الثواب والعقاب .

وقال تعالى في حالة الموقف ﴿ وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ﴾ و ﴿ جثياً ﴾ حال مقدرة .

وعن ابن عباس : قعوداً ، وعنه جماعات جماعات جمع جثوة وهو المجموع من التراب والحجارة .

وقال مجاهد والحسن والزجّاج : على الركب .

وقال السدّي قياماً على الركب لضيق المكان بهم .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ جثياً ﴾ و ﴿ عتياً ﴾ و ﴿ صلياً ﴾ بكسر الجيم والعين والصاد والجمهور بضمها ﴿ ثم لننزعن ﴾ أي لنخرجن كقوله ﴿ ونزع يده ﴾ وقيل : لنرمين من نزع القوس وهو الرمي بالسهم ، والشيعة الجماعة المرتبطة بمذهب .

قال أبو الأحوص : يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً .

وقال الزمخشري : يمتاز من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم ، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب فقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم ، والضمير في ﴿ أيهم ﴾ عائد على المحشورين المحضرين .

(50/490)

وقرأ الجمهور ﴿ أيهم ﴾ بالرفع وهي حركة بناء على مذهب سيبويه ، فأيهم مفعول بننزعن وهي موصولة : و ﴿ أشد ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة صلة لأيهم وحركة إعراب على مذهب الخليل ويونس على اختلاف في التخريج .

و ﴿ أيهم أشد ﴾ مبتدأ وخبر محكي على مذهب الخليل أي الذين يقال فيهم ﴿ أيهم أشد ﴾ .

وفي موضع نصب فيعلق عنه ﴿ لننزعن ﴾ على مذهب يونس ، والترجيح بين هذه

المذاهب مذكور في علم النحو .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون النزع واقعاً على من كل شيعة كقوله ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ أي ﴿ لننزعن ﴾ بعض ﴿ كل شيعة ﴾ فكأن قائلاً قال : من هم ؟ فقيل إنهم أشد ﴿ عتياً ﴾ انتهى .

فتكون ﴿ أيهم ﴾ موصولة خبر مبتدأ محذوف ، وهذا تكلف وادعاء إضمار لا ضرورة تدعو إليه ، وجعل ما ظاهره أنه جملة واحدة جملتين ، وقرن الخليل تخريجه بقول الشاعر :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل . . .

فأبيت لا حرج ولا محروم

أي فأبيت يقال فيّ لا حرج ولا محروم ، ورجح الزجاج قول الخليل وذكر عنه النحاس أنه غلط سيبويه في هذه المسألة .

قال سيبويه : ويلزم على هذا أن يجوز اضرب السارق الخبيث الذي يقال له قيل ، وليس بلازم من حيث هذه أسماء مفردة والآية جملة وتسلط الفعل على المفرد أعظم منه على الجملة .

ومذهب الكسائي أن معنى ﴿ لننزعن ﴾ لنناذين فعومل معاملته فلم تعمل في أي انتهى .

ونقل هذا عن الفراء .

قال المهدوي : ونادى تعلق إذا كان بعده جملة نصب فتعمل في المعنى ولا تعمل في اللفظ .

وقال المبرد : ﴿ أيهم ﴾ متعلق بشيعة ، فلذلك ارتفع والمعنى من الذين تشايعوا ﴿ أيهم أشد ﴾ كأنهم يتبادرون إلى هذا ، ويلزم أن يقدر مفعولاً ﴿ لننزعن ﴾ محذوفاً وقدر أيضاً في هذا المذهب من الذين تشايعوا ﴿ أيهم ﴾ أي من الذين تعاونوا فنظروا ﴿ أيهم أشد ﴾ .

قال النحاس : وهذا قول حسن .

وقد حكى الكسائي أن التشايع هو التعاون .

(51/490)

وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول : في ﴿ أيهم ﴾ معنى الشرط ، تقول : ضربت القوم أيهم غضب ، والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا فعلى هذا يكون التقدير إن اشتد عتوهم أو لم يشتد .

وقرأ طلحة بن مصرف ومعاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء وزائدة عن الأعمش ﴿ أيهم ﴾ بالنصب مفعولاً بلننزعنّ ، وهاتان القراءتان تدلان على أن مذهب سيبويه أنه لا يتحتم فيها البناء إذا أضيفت وحذف صدر صلتها ، وقد نقل عنه تحتم البناء وينبغي أن يكون فيه على مذهبه البناء والإعراب .

قال أبو عمرو الجرمي : خرجت من البصرة فلم أسمع منذ فارقت الخندق إلى مكة أحداً يقول لأضربن أيهم قائم بالضم بل بنصبها انتهى .

وقال أبو جعفر النحاس : وما علمت أحداً من النحويين إلاّ وقد خطأ سيبويه ، وسمعت أبا إسحاق يعني الزجاج يقول : ما تبين أن سيبويه غلط في كتابه إلاّ في موضعين هذا أحدهما .

قال : وقد أعرب سيبويه أياً وهي مفردة لأنها تضاف فكيف يبنيها وهي مضافة ؟ .

و﴿ على الرحمن ﴾ متعلق بأشد .

و﴿ عتياً ﴾ تمييز محول من المبتدإ تقديره ﴿ أيهم ﴾ هو عتوه ﴿ أشد على الرحمن ﴾ وفي الكلام حذف تقديره فيلقيه في أشد العذاب ، أو فيبدأ بعذابه ثم بمن دونه إلى آخرهم عذاباً .

وفي الحديث : " إنه تبدو عنق من النار فتقول : إني أمرت بكل جبار عنيد فتلتقطهم " وفي بعض الآثار : "يحضرون جميعاً حول جهنم مسلسلين مغلولين ثم يقدم الأكفر فالأكفر" .

قال ابن عباس : ﴿ عتياً ﴾ جراءة .

وقال مجاهد : فجراً .

وقيل : افتراء بلغة تميم .

وقيل : ﴿ عتياً ﴾ جمع عات فانتصابه على الحال .

﴿ ثم لنحن أعلم ﴾ أي نحن في ذلك النزع لا نضع شيئاً غير موضعه ، لأنا قد أحطنا علماً بكل واحد فأولى بصلى النار نعلمه .

قال ابن جريج : أولى بالخلود .

وقال الكلبي ﴿ صلياً ﴾ دخولاً .

وقيل : لزوماً .

وقيل : جمع صال فانتصب على الحال وبها متعلق بأولى .

والواو في قوله ﴿ وإن منكم ﴾ للعطف .

(52/490)

وقال ابن عطية : ﴿ وإن منكم إلاّ واردها ﴾ قسم والواو تقتضيه ، ويفسره قول النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " من مات له ثلاث من الولد لم تمسه النار إلاّ تحلة القسم " انتهى .

وذهل عن قول النحويين أنه لا يستغنى عن القسم بالجواب لدلالة المعنى إلاّ إذا كان الجواب باللام أو بأن ، والجواب هنا جاء على زعمه بأن النافية فلا يجوز حذف القسم على ما نصوا .

وقوله والواو تقتضيه يدل على أنها عنده واو القسم ، ولا يذهب نحوي إلى أن مثل هذه

الواو واو قسم لأنه يلزم من ذلك حذف المجرور وإبقاء الجار ، ولا يجوز ذلك إلاّ إن وقع في شعر أو نادر كلام بشرط أن تقوم صفة المحذوف مقامه كما أولوا في قولهم : نعم السير على بئس العير ، أي على عير بئس العير .

وقول الشاعر :

والله ما زيد بنام صاحبه . . .

أي برجل نام صاحبه .

وهذه الآية ليست من هذا الضرب إذ لم يحذف المقسم به وقامت صفته مقامه .

وقرأ الجمهور ﴿ منكم ﴾ بكاف الخطاب ، والظاهر أنه عام للخلق وأنه ليس الورود الدخول لجميعهم ، فعن ابن مسعود والحسن وقتادة هو الجواز على الصراط لأن الصراط ممدود عليها .

وعن ابن عباس : قد يرد الشيء ولم يدخله كقوله ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ ووردت القافلة البلد ولم تدخله ، ولكن قربت منه أو وصلت إليه .

قال الشاعر :

فلما وردن الماء زرقاً جمامة . . .

وضعن عصى الحاضر المتخيم

وتقول العرب : وردنا ماء بني تميم وبني كلب إذا حضروهم ودخلوا بلادهم ، وليس يراد به

الماء بعينه .

وقيل : الخطاب للكفار أي قل لهم يا محمد فيكون الورود في حقهم الدخول ، وعلى قول من قال الخطاب عام وأن المؤمنين والكافرين يدخلون النار ولكن لا تضر المؤمنين ، وذكروا كيفية دخول المؤمنين النار بما لا يعجبني نقله في كتابي هذا لشناعة قولهم إن المؤمنين يدخلون النار وإن لم تضرهم .

وقرأ ابن عباس وعكرمة وجماعة وإن منهم بالهاء للغيبة على ما تقدم من الضمائر .

(53/490)

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالورود جثوهم حولها وإن أريد الكفار خاصة فالمعنى بيِّن ، واسم ﴿ كان ﴾ مضمر يعود على الورود أي كان ورودهم حتماً أي واجباً قضي به .

وقرأ الجمهور ﴿ ثم ﴾ بحرف العطف وهذا يدل على أن الورود عام .

وقرأ عبد الله وابن عباس وأبيّ وعليّ والجحدري وابن أبي ليلى ومعاوية بن قرة ويعقوب ثَمَّ بفتح الثاء أي هناك ، ووقف ابن أبي ليلى ثمه بهاء السكت .

وقرأ الجمهور : ﴿ ننجي ﴾ بفتح النون وتشديد الجيم .

وقرأ يحيى والأعمش والكسائي وابن محيصن بإسكان النون وتخفيف الجيم .

وقرأت فرقة نجي بنون واحدة مضمومة وجيم مشددة .

وقرأ علي : ننحي بحاء مهملة مضارع نحى ، ومفعول ﴿ اتقوا ﴾ محذوف أي الشرك والظلم هنا ظلم الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(54/490)

وقال الثعالبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾

الإنسان : اسمُ جِنْس يرادُ به الكافرون ، وروي أَنَّ سببَ نزُولِ هذه الآية هو : أَن رجالاً من قريشٍ كانُوا يقولون هذا ونحوه ، وذكر : أَن القائِلَ هو أُبيُّ بْنُ خَلَفٍ .

ورُوِي أَن القائل هو العَاصِي بْنُ وَائِل ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ دَلِيلٌ على أَنَّ المعدومَ لا يسمى شَيْئاً .

وقال : أَبو علي الفارسي : أَراد شَيْئاً موجُوداً .

قال *ع* : وهذه من أبي علي نزعةٌ اعتزالية ؛ [فتأملها] ، والضمير في ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ عائدٌ على الكفَّارِ القائلين ما تقدم ، ثم أَخبر تعالى : أَنه يقرن بهمِ الشياطِينَ المغوين لهم ،

و ﴿ جِثِيّاً ﴾ جمعُ جَاثٍ ، فأخبر سبحانه : أَنه يحضر هؤلاءِ المُنْكِرينَ البعْثَ مع الشياطين [المغوِينَ] ، فيجثُون حول جهنَّم ؛ وهو قعودُ لخائفِ الذَّليل على رُكْبتيْهِ كالأَسِير ، ونحوِه .

قال ابنُ زيدٍ : الجَثْيُ : شَرُّ الجلُوسَ ، و«الشيعة» : الفِرْقَةُ المرتبطة بمذهبٍ وَاحدٍ ، المتعاونةِ فيه ، فأخبر سبحانه أَنه ينزعِ مِنْ كُلِّ شيعةٍ أَعْتاها وأَولاَها بالعذاب ، فتكون مقدمتها إلى النَّار .

قال أَبو الأَحْوص : المعنى : نبدأُ بالأَكَابر جرماً ، وأيّ وهنا بُنِيَتْ لَمَّا حُذِف الضميرُ العَائِدُ عليها مِنْ صَدْر صِلَتها ، وكان التقدِيْرُ : أَيُّهم هو أَشَدُّ ، و ﴿ صِلِيّاً ﴾ : مصدَرٌ صَلِيَ يَصْلَى إذَا باشَرَهُ .

(55/490)

وقوله عزَّ وجل : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قَسَمٌ ، والواو تَقْتَضِيه ، ويفسّره قولهُ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاَثَةُ أَوْلاَدٍ ، لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ " وقرأ ابن عباس ، وجماعَةٌ : «وإِنْ مِنْهُمْ» بالهَاءِ على إرَادة الكُفَّار .

قال *ع* : ولا شغب في هذه القراءة ، وقالت فِرْقَةٌ من الجمهور القارئين «منكم» .

المعنى : قُلْ لهم يا محمَّدُ ، فالخِطَاب ب ﴿ مِنْكُمْ ﴾ للكفرة ، وتأويل هؤلاءِ أَيضاً سَهْلُ التناوُلِ .

وقال الأكثرُ : المخاطَبُ العَالَمُ كلّه ، ولا بُدّ مِنْ وُرُودِ الجميع ، ثم اختلفوا في في كَيْفِيَّةِ ورود المُؤْمِنِينَ ، فقال ابنُ عباسٍ ، وابنُ مسعودٍ ، وخالدُ بن مَعْدَانَ ، وابنُ جُرَيْجٍ ، وغيرُهم : هو ورودُ دخولٍ ، لكنَّها لا تعدو عليهم ، ثم يُخْرِجَهم اللّهُ عز وجل منها بعدَ مَعْرِفتهم حَقِيقَةَ ما نَجَوْا منه .

وروى جابرُ بنُ عبدِ اللّهِ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أَنه قال : " الوُرُودُ فِي هَذِهِ الآيَةِ هُوَ الدُّخُولُ " ، وقد أَشْفَقَ كَثِيرٌ من العلماء من تحقُّقِ الورودِ مع الجَهْلِ بالصَّدَرِ جعلنا اللّه تعالى من الناجين بفضله ورحمته - ، وقالت فِرْقَة : بَلْ هُو ورودُ إِشْرَافٍ ، واطِّلاعٍ ، وقُرْبٍ ، كما تقول : وردتُ الماءَ ؛ إذا جِئْتَه ، وليس يلزم أَن تدخل فيه ، قالوا : وحَسْبُ المُؤْمِن بهذا هَوْلاً ؛ ومنه قولُه تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : الآية23] .

وروت فرقة أثراً : أنّ الله تعالى يجعلُ النَّار يوم القيامة جامدةَ الأعلى كأنها إهالةٌ فيأتي الخلقُ كلُّهم ؛ برُّهم وفاجرُهم فيقفون عليها ثم تسوخُ بأَهلِها ويخرجُ المؤمنون الفائزون لم ينلهم ضرٌّ قالوا فهذا هو الورودُ .

قال المهدوي : وعن قتادةَ قال : يرد النَّاسُ جهنَّمَ وهي سَوْدَاءُ مظلِمةٌ ، فأَما المؤْمنُونَ فأَضَاءَتْ لهم حَسَناتُهم ، فَنَجَوْا منها ، وأما الكفارُ فأوبقتهم سَيِّئَاتُهم ، واحتبسوا بذنوبهم . [انتهى] .

وروت حَفْصَةُ – رضي اللّه عنها – أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : " لاَيَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَالحُدَيْبِيَةِ قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّه ، وأَيْنَ قَوْلُ اللّهِ تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : فَمَهْ ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ "

ورجح الزجاجُ هذا القَوْلَ ؛ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحسنى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] .

* ت * : وحديثُ حفصةَ هذا أَخرجهُ مُسْلِم ، وفيه : «أَفلم تَسْمَعِيهِ يقولُ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ .

وروى ابنُ المبارك في «رُقائقه» أنه لما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ ذهب ابن رواحة إلى بيته فبكى : [فَجَاءَتِ امرأته ، فَبَكَتْ] ، وَجَاءَتْ الخَادِمُ فَبَكَتْ ، وجَاءَ أَهْلُ البَيْتِ فَجَعَلُوا يَبْكُونَ ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عَبْرَتُهُ ، قَالَ : يَا أَهْلاَهُ ، مَا يُبْكِيكُمْ ، قَالُوا : لاَ نَدْرِي ، وَلَكِنْ رَأَيْنَاكَ بَكَيْتَ فَبَكَيْنَا ، فَقَالَ : آيَةٌ نَزَلَتْ على رَسُولِ اللّه صلى الله عليه

وسلم يُنْبِئُنِي فِيهَا رَبِّي أَنِي وَارِدُ النَّارَ ، وَلَمْ يُنْبِئْنِي أَنِّي صَادِرٌ عَنْهَا ، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي .

انتهى .

(57/490)

وَقال ابنُ مَسْعُودٍ : ورودُهُمْ : هو جَوَازُهُمْ على الصِّراطِ ، وذلك أَنَّ الحديث الصَّحيحَ تضمن أَنَّ الصراط مَضْرُوبٌ على مَتْنِ جهنم .

والحَتْمُ : الأَمْر المنفذُ المجْزُوم ، و ﴿ الذين اتقوا ﴾ : معناه اتَّقَوْا الكُفْر ﴿ ونَذَرُ ﴾ دالةٌ على أَنهم كَانُوا فيها .

قال أَبو عُمَر بنُ عَبْدِ البَرِّ في «التمهيد» بعد أَن ذكر روَاية جابر ، وابنِ مَسْعُودٍ في الوُرُودِ ، وروي عن كَعْبٍ أَنه تَلاَ ؟ ﴿ وإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فقال : أَتَدْرُونَ مَا وُرُودُهَا ؟ إنه يُجَاءُ بجهنَّم فتُمْسكُ للناس كأَنها مَتْن إِهَالَة : يعني : الوَدَك الذي يجمد على القِدْر من المرقَةِ ، حَتَّى إذا استقرت عليها أَقدَام الخَلاَئِق : بَرّهم وفَجارُهم ، نَادَى مُنَادٍ : أَنْ خُذِي أَصْحَابك ، وذَرِي أَصْحَابِي ، فيُخْسَفُ بكلِّ وليٍّ لها ، فَلَهِيَ أَعلَمُ بهم مِنَ الوَالِدَة بولَدِهَا ، وينجو المُؤْمِنُونَ نَدِيَّة ثيابهم .

وروي هذا المعنى عن أَبي نَضْرَةَ ، وزاد : وهو معنى قولِه تَعَالَى : ﴿ فاستبقوا الصراط فأنى يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 66] . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(58/490)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَقُولُ الإنسان ﴾

المرادُ به إما الجنسُ بأسره وإسنادُ القول إلى الكل لوجود القولِ فيما بينهم وإن لم يقله الجميع ، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً وإنما القاتلُ واحدٌ منهم وإما البعضُ المعهودُ منهم وهم الكفرةُ أو أُبيُّ بنُ خلف فإنه أخذ عظاماً باليةً ففتّها وقال : يزعُم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال ، أي يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ أي أُبعث من الأرض ، أو من حال الموت ، وتقديمُ الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لما أن المنكرَ كونُ ما بعد الموت وقت الحياة ، وانتصابُه بفعل دل عليه أُخرجُ لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهي ها هنا مخلَصةٌ للتوكيد مجرّدةٌ عن معنى الحال ، كما خلَصت الهمزةُ واللامُ للتعويض في يا ألله فساغ اقترانُها بحرف الاستقبال ، وقرىء إذا ما مِتّ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر .

﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسان ﴾ من الذكر الذي يراد به التفكرُ ، والإظهارُ في موقع الإضمار لزيادة التقريرِ والإشعارِ بأن الإنسانيةَ من دواعي التفكرِ فيما جرى عليه من شؤون التكوينِ المُنْحِية بالقلع عن القول المذكور ، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان ، والهمزةُ للإنكار التوبيخيّ والواوُ لعطف الجملة المنفيةِ على مقدّر يدلُّ عليه يقول ، أي أيقول ذلك ولا يذكر ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ الحالة التي هو فيها وهي حالةُ بقائِه ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ أي والحالُ أنه لم يكن حينئذ شيئاً أصلاً ، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالةِ المنافيةِ للخلق بالكلية مع كونه أبعدَ من الوقوع فلأَنْ نبعثَه بجمع الموادّ المتفرّقة وإيجادِ مثلِ ما كان فيها من الأعراض أَوْلى وأظهرُ ، فما له لا يذكُره فيقعَ فيما يقع فيه من النكير وقرىء يذّكّر ويتذكر على الأصل .

(59/490)

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ إقسامُه باسمه عزّت أسماؤه مضافاً إلى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمرِ بالإشعار بعلّيته وتفخيمِ شأنِه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلتِه ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ لنجمعَن القائلين بالسَّوق إلى المحشر بعد ما أخرجناهم من الأرض أحياءً ، ففيه إثباتٌ للبعث بالطريق البرهانيّ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كأنه أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن التصريح به ، وإنما

المحتاجُ إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال ﴿ والشياطين ﴾ معطوفٌ على الضمير المنصوب أو مفعول معه . روي أن الكفرةَ يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تُغْويهم ، كلٌّ منهم مع شيطانه في سلسلة ، وهذا وإن كان مختصاً بهم لكن ساغ نسبتُه إلى الجنس باعتبار أنهم لما حُشروا وفيهم الكفرةُ مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعاً كما ساغ نسبةُ القولِ إلى المحكيّ إليه مع كون القائل بعضَ أفراده ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ ليرى السعداءُ ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غِبطةً وسروراً وينالَ الأشقياءُ ما ادخّروا لِمَعادهم عُدّةً ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتِتهم بهم ، والجِثيُّ جمع جاثٍ من جثا إذا قعد على ركبتيه ، وأصلُه جُثُوْوٌ بواوين فاستُثقل اجتماعُهما بعد ضمتين فكسرت الثاءُ للتخفيف فانقلبت الواوُ ياءً وأُدغمت فيها الياء الأولى وكُسرت الجيم إتباعاً لما بعدها وقرىء بضمها ، ونصبُه على الحالية من الضمير البارز أي لنُحضرنهم حول جهنم جاثين على رُكَبهم لما يدهَمُهم من هول المطلَعِ أو لأنه من توابع التواقُفِ للحساب قبل التواصُل إلى الثواب والعقاب ، فإن أهلَ الموقف جاثون كما ينطِق به قوله تعالى : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ على ما هو المعتادُ في مواقف التقاول ، وإن كان المرادُ بالإنسان الكفرةَ فلعلهم يساقون من الموقف إلى شاطىء جهنم جُثاةً إهانةً بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة .

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أي من كل أمةٍ شايعت ديناً من الأديان ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ أي مَنْ كان منهم أعصى وأعتى فنطرَحهم فيها ، وفي ذكر الأشدّ تنبيهٌ على أنه تعالى يعفو عن بعضٍ من أهل العصيان . وعلى تقدير تفسير الإنسانِ بالكفرة فالمعنى إنا نميز من كل طائفةٍ منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو نُدخل كلاًّ منهم طبقتَها اللائقةَ به . وأُيهم مبنيٌّ على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يُبنى كسائر الموصولاتِ لكنه أُعرب حملاً على كلٍ وبعض للزوم الإضافة ، وإذا حُذف صدرُ صلتِه زاد نقصُه فعاد إلى حقه ، وهو منصوبُ المحل بننزعنّ ولذلك قرىء منصوباً ، ومرفوعٌ عند غيره بالابتداء على أنه استفهاميٌّ وخبرُه أشدُّ والجملةُ محكيةٌ ، والتقديرُ لننزعَنّ من كل شيعةٍ الذين يقال لهم أُيهم أشدُّ ، أو مُعلّقٌ عنها لننزعن لتضمّنه معنى التمييزِ اللازمِ للعلم ، أو مستأنفةٌ والفعل واقعٌ على كل شيعة كقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ و (على) للبيان فيتعلق بمحذوف كأنّ سائلاً قال : على مَنْ عتَوا ؟ فقيل : على الرحمن ، أو متعلقٌ بأفعل وكذا الباءُ في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ أي هم أولى بالنار وهم المنتزَعون ، ويجوز أن يراد بهم وبأشدّهم عِتيًّا رؤساءُ الشِيَع فإن عذابَهم مضاعفٌ لضلالهم وإضلالهم ، والصِّليّ كالعِتيّ صيغةً وإعلالاً وقرىء بضم الصاد .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ التفاتٌ لإظهار مزيدِ الاعتناءِ بمضمون الكلامِ ، وقيل : هو خطابٌ للناس من غير التفاتٍ إلى المذكور ، ويؤيد الأولَ أنه قرىء وإن منهم أي منكم أيها الإنسانُ ﴿ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ أي واصلُها وحاضرٌ دونها يمرّ بها المؤمنون وهي خامدةٌ وتنهار بغيرهم . وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال : " إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ قال بعضُهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نردَ النار ؟ فيقال لهم : قد وردتُموها وهي خامدةٌ " وأما قولُه تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فالمرادُ الإبعادُ عن عذابها ، وقيل : ورودُها الجوازُ على الصراط الممدودِ عليها ﴿ كَانَ ﴾ أي ورودُهم إياها ﴿ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ أي أمراً محتوماً أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لا بد من وقوعه ألبتةَ ، وقيل : أقسم عليه ﴿ ثُمَّ نُنَجّى الذين اتقوا ﴾ الكفرَ والمعاصيَ مما كانوا عليه من حال الجُثُوّ على الركب على الوجه الذي سلف فيُساقون إلى الجنة ، وقرىء نُنْجي بالتخفيف ويُنْجي ، وينجَى على البناء للمفعول ، وقرىء ثَمةَ نُنَجّي بفتح الثاء أي هناك ننجيهم ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ فِيهَا جِثِيّاً ﴾ منهاراً بهم كما كانوا ، قيل : فيه

دليلٌ على أن المراد بالورود الجثُوُّ حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفجرةَ بعد تجاثيهم حولها ويُلقى الفجرةُ فيها على هيئاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(62/490)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَقُولُ الإِنسانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾

أخرج ابن النذر عن ابن جريج أنها نزلت في العاصي بن وائل ، عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل : في أبي جهل ، وعن الكلبي في أبي بن خلف أخذ عظاماً باليا فجعل يفته بيده ويذريه في الريح ويقول : زعم فلان أنا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا إن هذا شيء لا يكون أبداً فأل في ﴿ الإنسان ﴾ على ما قيل للعهد والمراد به أحد هؤلاء الأشخاص ، وقيل : المراد بالإنسان جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث . وقال غير واحد : يجوز أن تكون أل للجنس ويكون هناك مجاز في الطرف بأن يطلق جنى الإنسان ويراد بعض أفراده كما يطلق الكل على بعض أجزائه أو يكون هناك مجاز في الإسناد بأن يسند إلى الكل ما صدر عن البعض كما يقال : بنو فلان قتلوا قتيلاً والقاتل واحد منهم ، ومن ذلك قوله :

فسيف بني عبس وقد ضربوا . . .

نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

واعترض هذا بأنه يشترط لصحة ذلك الإسناد رضا الباقين بالفعل أو مساعدتهم عليه حتى يعد كأنه صدر منهم ، ولا شك أن بقية أفراد الإنسان من المؤمنين لم يرضوا بهذا القول .

وأجاب بعض مشترطي ذلك للصحة بأن الإنكار مركوز في طبائع الكل قبل النظر في الدليل فالرضا حاصل بالنظر إلى الطبع والجبلة .

وقال الخفاجي : الحق عدم اشتراط ذلك لصحته وإنما يشترط لحسنه نكتة يقتضيها مقام الكلام حتى يعد الفعل كأنه صدر عن الجميع فقد تكون الرضا وقد تكون المظاهرة وقد تكون عدم الغوث والمدد ولذا أوجب الشرع القسامة والدية وقد تكون غير ذلك ، وكأن النكتة هنا انه لما وقع بينهم إعلان قول لا ينبغي أن يقال مثله وإذا قيل لا ينبغي أن يترك قائله بدون منه أو قتل جعل ذلك بمنزلة الرضا حثا لهم على إنكاره قولاً أو فعلاً انتهى .

(63/490)

وقيل : لعل الحق أن الإسناد إلى الكل هنا للإشارة إلى قلة المؤمنين بالبعث على الوجه الذي أخبر به الصادق ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [يوسف : 103] فتأمل ، وعبر بالمضارع إما استحضار للصورة الماضية لنوع غرابة ، وإما لإفادة الاستمرار التجددي فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور ، والهمزة للإنكار وإذا ظرف متعلق بفعل محذوف دل عليه ﴿ أَخْرَجَ ﴾ ولم يجوزوا تعلقه بالمذكور لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبله ، وعد ابن عطية توسط سوف مانعاً من العمل أيضاً ، ورد عليه بقوله :

فلما رأته آمنا هان وجدها . . .

وقالت أبونا هكذا سوف يفعل

وغير ذلك مما سمع ، ونقل عن الرضى أنه جعل إذاً هنا شرطية وجعل عاملها الجزاء وقال : إن كلمة الشرط تدل على لزوم الجزاء للشرط ، ولتحصيل هذا الغرض عمل في إذا جزاؤه مع كونه بعد حرف لا يعمل ما بعده فيما قبله كالفاء في

﴿ فَسَبِّحْ ﴾ [الحجر : 98] وإن في قولك : إذا جئتني فإني مكرم ولام الابتداء في قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ ، ومختار الأكثرين أن إذا هنا ظرفية ، وما ذكره الرضى ليس بمتفق عليه ، وتحقيق ذلك في كتب العربية ، وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه أي ائذا ما مت وصرت رميماً لسوف الخ .

واللام هنا لمجرد التوكيد ، ولذا ساغ اقترانها بحرف الاستقبال ، وهذا على القول بأنه إذا

دخلت المضارع خلصته للحال ، وأما على القول بأنها لا تخلصه فلا حاجة إلى دعوى تجريدها للتوكيد لكن الأول هو المشهور وما في ﴿ إِذَا مَا ﴾ للتوكيد أيضاً .

(64/490)

والمراد من الإخراج الإخراج من الأرض أو من حال الفناء والخروج على الأول حقيقة وعلى الثاني مجاز عن الانتقال من حال إلى أخرى ، وإيلاء الظرف همزة الإنكار دون الإخراج لأن ذلك الإخراج ليس بمنكر مطلقاً وإنما المنكر كونه وقت اجتماع الأمرين فقدم الظرف لأنه محل الإنكار ، والأصل في المنكر أن يلي الهمزة ، ويجوز أن يكون المراد إنكار وقت ذلك بعينه أي إنكار مجيء وقت فيه حياة بعد الموت يعني أن هذا الوقت لا يكون موجوداً وهو أبلغ من إنكار الحياة بعد الموت لما أنه يفيد إنكاره بطريق برهاني ، وبعضهم لم يقدر معطوفاً واعتبر زمان الموت ممتدا لا أول زهوق الروح كما هو المتبادر ، وقيل : لا حاجة إلى جميع ذلك لأنهم إذا أحالوه في حالة الموت علم احالته إذا كانوا رفاتاً بالطريق الأولى ، وأيا ما كان فلا اشكال في الآية .

وقرأ جماعة منهم ابن ذكوان بخلاف عنه ﴿ إِذَا ﴾ بدون همزة الاستفهام وهي مقدرة معه لدلالة المعنى على ذلك ، وقيل : لا تقدير والمراد الأخبار على سبيل الهزء والسخرية بمن

يقول ذلك .

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿ سأخرج ﴾ بسين الاستقبال وبغير لام ، وعلى ذلك تكون إذاً متعلقة بالفعل المذكور على الصحيح ، وفي رواية أخرى عنه ﴿ لسأخرج ﴾ بالسين واللام .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة ﴿ كَمَا أَخْرَجَ ﴾ مبنياً للفاعل .

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾

من الذكر الذي يراد به التفكر ، والأظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية من دواعي التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المانعة عن القول المذكور وهو السر في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان على ما قيل .

(65/490)

والهمزة للإنكار التوبيخي وهي على أحد المذهبين المشهورين في مثل هذا التركيب داخلة على محذوف معطوف عليه ما بعد والتقدير ههنا أيقول ذلك ولا يذكر ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه ، وقيل : أي من قبل بعثه ﴿ وَلَمْ يَكُ

شَيْئاً ﴾ أي والحال أنه لم يكن حينئذ موجوداً فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بإعادة ما عدم منه وقد كان متصفاً بالوجود في وقت على ما اختاره بعض أهل السنة أو بجمع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الاعراض على ما اختاره بعض آخر منهم أيضاً أولى وأظهر فما له لا يذكره فيقه فيما يقع فيه من النكير ، وقيل : إن العطف على ﴿ يقول ﴾ [مريم : 66] المذكور سابقاً .

والهمزة لإنكار الجمع لدخولها على الواو المفيدة له ، ولا يخل ذلك بصدارتها لأنها بالنسبة إلى جملتها فكأنه قيل ، أيجمع بين القول المذكور وعدم الذكر : ومحصله أيقول ذلك ولا يذكر أنا خلقناه الخ .

وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ يُذْكَرِ ﴾ بفتح الذال والكاف وتشديدهما ، وأصله يتذكر فادغم التاء في الذال وبذلك قرى أبي .

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ اقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتحقيق الأمر بالإشعار بعلته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أي لنجمعن القائلين ما تقدم بالسوق إلى المحشر بعد ما أخرجناهم أحياء ، وفي القسم على ذلك دون البعث إثبات له على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غني عن التصريح به بعد بيان إمكانه بما تقدم من الحجة البالغة وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من

الأهوال ، وكون الضمير للكفرة القائلين هو الظاهر نظراً إلى السياق وإليه ذهب ابن عطية . وجماعة .

ولا ينافي ذلك إرادة الواحد من الإنسان كما لا يخفى .

(66/490)

واستظهر أبو حيان أنه للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ﴿ والشياطين ﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه .

روي أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا يغوونهم كل منهم مع شيطانه في سلسلة ، ووجه ذلك على تقدير عود الضمير للناس أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعاً على طرز ما قيل في نسبة القول إلى الجنس ، وقيل : يحسر كل واحد من الناس مؤمنهم وكافرهم مع قرينه من الشياطين ولا يختص الكافر بذلك .

وقد يستأنس له بما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً " ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن قالوا : وإياك يا رسول الله قال : وإياي إلا أن الله تعالى أعانني عليه فاسلم فلا يأمرني إلا بخير " ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ باركين على

الركب ، وأصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الأول ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء فادغمت الياء في الياء وكسرت الجيم اتباعاً لما بعدها .

وقرأ غير واحد من السبعة بضمها وهو جمع جاث في القراءتين ، وجوز الراغب كونه مصدراً نظير ما قيل في بكى وقد مر ، ولعل إحضار الكفرة بهذه الحال إهانة لهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة .

وقال بعضهم : إن المحاسبة تكون حول جهنم فيجثون لمخاصمة بعضهم بعضاً ثم يتبرأ بعضهم من بعض ، وقال السدى : يجثون لضيق المكان بهم فالحال على القولين مقدرة بخلافه على ما تقدم .

(67/490)

وقيل : إنها عليه مقدرة أيضاً لأن المراد الجثى حول جهنم ، ومن جعل الضمير للكفرة وغيرهم قال : إنه يحضر السعداء والأشقياء حول جهنم ليرى السعداء ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسروراً وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم ويجثون كلهم ثم لما يدهمهم من هول المطلق أو

لضيق المكان أو لأن ذلك من توابع التواقف للحساب والتقاول قبل الوصول إلى الثواب والعقاب ، وقيل : إنهم يجثون على ركبهم إظهاراً للذل في ذلك الموطن العظيم ، ويدل على جثى جميع أهل الموقف ظاهر قوله تعالى :

﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية : 28] لكن سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما هو ظاهر في عدم جثى الجميع من الأخبار والله تعالى أعلم ، والحال قيل : مقدرة ، وقيل : غيره مقدرة إلا أنه أسند ما للبعض إلى الكل ، وجعلها مقدرة بالنسبة إلى السعداء وغير مقدرة بالنسبة إلى الأشقياء لا يصح ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر ﴿ جِثِيّاً ﴾ بجماعات على أنه جمع جثوة وهو المجموع من التراب والحجارة أي لنحضرنهم جماعات .

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾

أي جماعة تشايعت وتعاونت على الباطل أو شاعت وتبعت الباطل على ما يقتضيه كون الآية في الكفرة أو جماعة شاعت ديناً مطلقاً على ما يقتضيه كونها في المؤمنين وغيرهم ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ أي نبوا عن الطاعة وعصياناً ، وعن ابن عباس جراءة ، وعن مجاهد كفرا ، وقيل : افتراء بلغة تميم ، والجمهور على التفسير الأول ، وهو على سائر التفاسير مصدر وفيه القراءتان السابقتان في ﴿ جثيا ﴾ [مريم : 68] .

وزعم بعضهم أنه فيهما جمع جاث وهو خلاف الظاهر هنا ، والنزع الاخراج كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ [الأعراف : 108] والمراد استمرار ذلك أي إنا نخرج ونفرز من كل جماعة من جماعات الكفر أعصاهم فأعصاهم إلى أن يحاط بهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم وذلك قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾

فالمراد بالذين هم أولى المنتزعون باعتبار الترتيب ، وقد يراد بهم أولئك باعتبار المجموع فكأنه قيل : ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء وهم أولى بالصلى من بين سائر الصالين ودركاتهم أسفل وعذابهم أشد ففي الكلام إقامة المظهر مقام المضمر ، وفسر بعضهم النزع بالرمي من نزعت السهم عن القوس أي رميته فالمعنى لنرمين فيها الأعصى فالأعصى من كل طائفة من تلك الطوائف ثم لنحن أعلم بتصليتهم ؛ وحمل الآية على البدء بالأشد فالأشد مروى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

وجوز أن يراد باشدهم عتيا رؤساء الشيع وأئمتهم لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالاً مضلين قال الله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت :

13].

وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن قتادة وعليه لا يجب الاستمرار والإحاطة .

(69/490)

وأورد على القول بالعموم أن قوله تعالى : ﴿ أَشَدَّ عِتِيّاً ﴾ [مريم : 69] يقتضي اشتراك الكل في العتى بل في أشديته وهو لا يناسب المؤمنين ، وأجيب عنه بأن ذلك من نسبة ما للبعض إلى الكل والتفضيل على طائفة لا يقتضي مشاركة كل فرد فرد فإذا قلت : هو أشجع العرب لا يلزمه وجود الشجاعة في جميع أفرادهم ، وعلى هذا يكون في الآية إيماء إلى التجاوز عن كثير حيث خص العذاب بالأشد معصية ، و ﴿ أَيُّهُم ﴾ [مريم : 69] مفعول ﴿ ننزعن ﴾ وهو اسم موصول بمعنى الذي مبني على الضم محله النصب و ﴿ أَشَدَّ ﴾ [مريم : 69] خبر مبتدأ محذوف أي هو أشد والجملة صلة والعائد المبتدأ و ﴿ على الرحمن ﴾ [مريم : 69] متعلق بأشد ﴿ وعتيا ﴾ تمييز محول عن المبتدأ ، ومن زعم أنه جمع جعله حالا ، وجوز في الجار أن يكون للبيان فهو متعلق بمحذوف كما في سقيالك ، ويجوز بعتيا ، أما إن كان وصفاً فبالاتفاق ، وأما إذا كان مصدراً فعند القائل بجواز تقدم معمول المصدر لا سيما إذا كان ظرفاً ، وكذا الكلام في ﴿ ووصى بِهَا ﴾ من

قوله تعالى : ﴿ هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ فإنه جوز أن يكون الجار للبيان وأن يكون متعلقاً بأولى وأن يكون متعلقاً بصليا ، وقد قرىء بالضم والكسر ، وجوز فيه المصدرية والوصفية ، وهو على الوصفية حال وعلى المصدرية تمييز على طرز ما قيل في ﴿ عِتِيّاً ﴾ [مريم : 69] إلا أنه جوز فيه أن يكون تمييزاً عن النسبة بين ﴿ أُوْلِى ﴾ والمجرور وقد أشير إلى ذلك فيما مر .

(70/490)

والصلى من صلى النار كرضى وبها قاسى حرها ، وقال الراغب : يقال صلى بالنار وبكذا أي بلى به ، وعن الكلبي أنه فسر الصلى بالدخول ، وعن ابن جريج أنه فسره بالخلود ، وليس كل من المعنيين بحقيقي له كما لا يخفى ، ثم ما ذكر من بناء أي هنا هو مذهب سيبويه ، وكان حقها أن تبنى في كل موضع كسائر الموصولات لشبهها الحرف بافتقارها لما بعدها من الصلة لكنها لما لزمت الإضافة إلى المفرد لفظاً أو تقديراً وهي من خواص الأسماء بعد الشبه فرجعت إلى الأصل في الأسماء وهو الأعراب ولأنها إذا أضيفت إلى نكرة كانت بمعنى كل وإذا أضيفت إلى معرفة كانت بمعنى بعض فحملت في الإعراب على ما هي بمعناه وعادت هنا عنده إلى ما هو حق الموصول وهو البناء لأنه لما حذف صدر

صلتها إزداد نقصها المعنوي وهو الإبهام والافتقار للصلة بنقص الصلة التي هي كجزئها فقويت مشابهتها للحرف ، ولم يرتض كثير من العلماء ما ذهب إليه .

قال أبو عمرو الجرمي : خرجت من البصرة فلم أسمع منذ فارقت الخندق إلى مكة أحداً يقول : لأضربن أيهم قائم بالضم ، وقال أبو جعفر : النحاس ما علمت أحداً من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه في هذه المسألة .

وقال الزجاج : ما تبين أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما فإنه يقول باعراب أي إذا أفردت عن الإضافة فكيف يبنيها إذا أضيفت .

وقد تكلف شيخنا علاء الدين أعلا الله تعالى مقامه في عليين للذب عن سيبويه في ذلك بما لا يفي بمؤنة نقله ، وقد ذكرنا بعضاً منه في حواشينا على شرح القطر للمصنف .

نعم يؤيد ما ذهب إليه سيبويه من المفعولية قراءة طلحة بن مصرف .

ومعاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء .

(71/490)

وزائدة عن الأعمش ﴿ أَيُّهُم ﴾ بالنصب لكنها ترد ما نقل عنه من تحتم البناء إذا أضيفت وحذف صدر صلتها ، وينبغي إذا كان واقفاً على هذه القراءة أن يقول بجواز الأمرين فيها

حينئذ ، وقال الخليل : مفعول ﴿ ننزعن ﴾ [مريم : 69] موصول محذوف وأي هنا استفهامية مبتدأ وأشد خبره والجملة محكية بقول وقع صلة للموصول المحذوف أي لننزعن الذين يقال فيهم : أيهم أشد ، وتعقب بأنه لا معنى لجعل ﴿ النزع ﴾ لمن يسأل عنه بهذا الاستفهام ، وأجيب بأن ذلك مجاز عن تقارب أحوالهم وتشابهها في العتو حتى يستحق أن يسأل عنها أو المراد الذين يجاب بهم عن هذا السؤال ، وحاصله لننزعن الأشد عتيا وهو مع تكلفه فيه حذف الموصول مع بعض الصلة وهو تكلف على تكلف ومثله لا ينقاس ، نعم مثله في الحذف على ما قيل قول الشاعر :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل . . .

فأبيت لا حرج ولا محروم

وذهب الكسائي .

والفراء إلى ما قاله الخليل إلا أنهما جعلا الجملة في حل نصب بننزعن ، والمراد لننزعن من يقع في جواب هذا السؤال ، والفعل معلق بالاستفهام ، وساغ تعليقه عندهما لأن المعنى لننادين وهما يريان تعليق النداء وإن لم يكن من أفعال القلوب وإلى ذلك ذهب المهدوي ، وقيل : لما كان النزع متضمناً معنى الإفراز والتمييز وهو مما يلزمه العلم عومل معاملة العلم فساغ تعليقه .

ويونس لا يرى التعليق مختصاً بصنف من الأفعال بل سائر أصناف سواء في صحة التعليق عنده ، وقيل : الجملة الاستفهامية استئنافية والفعل واقع على ﴿ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ [مريم : 69] على زيادة من في الاثبات كما يراه الأخفش أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة بجعل ﴿ مِنْ ﴾ مفعولاً لتأويلها باسم ، ثم إذا كان الاستئناف بيانياً واقعاً في جواب من المنزوعون ؟ احتيج إلى التأويل كأن يقال : المراد الذين يقعون في جواب ﴿ أيهم أشد ﴾ [مريم : 69] أو نحو ذلك ، وإذا كانت أي على تقدير الاستئناف ووقوع الفعل على ما ذكر موصولة لم يحتج إلى التأويل إلى أن في القول بالاستئناف عدولاً عن الظاهر من كون الكلام جملة واحدة إلى خلاف الظاهر من كونه جملتين .

ونقل بعضهم عن المبرد أن ﴿ أَيُّهُم ﴾ [مريم : 69] فاعل ﴿ شِيعَةٍ ﴾ [مريم : 69] لأن معناه يشيع ، والتقدير لننزعن من كل فريق يشيع أيهم هو أشد ، وأي على هذا على ما قال أبو البقاء .

ونقل عن الرضي بمعنى الذي ، وفي "البحر" قال المبرد : أيهم متعلق بشيعة فلذلك ارتفع ، والمعنى من الذي تشايعوا أيهم أشد كأنهم يتبادرون إلى هذا .

ويلزمه أن يقدر مفعولاً لننزعن محذوفاً ، وقدر أيضاً في هذا المذهب من الذين تشايعوا أيهم أشد على معنى من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشد ، قال النحاس : وهذا قول حسن انتهى ، وهو خلاف ما نقل أولاً ، ولعمري أن ما نسب إلى المبرد أولاً وأخيراً أبرد من يخ ، وقيل : إن الجملة استفهامية وقعت صفة لشيعة على معنى لننزعن من كل شيعة مقول فيهم أيهم أشد أي من كل شيعة متقاربي الأحوال ، ومن مزيدة والنزع الرمي ، وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول في أيهم معنى الشرط تقول : ضربت القوم أيهم غضب ، والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا قال أبو حيان : فعلى هذا يكون التقدير هنا إن اشتد عتوهم أو لم يشتد انتهى وهو كما ترى ، والوجه الذي ينساق إليه الذهن ويساعده اللفظ والمعنى هو ما ذهب إليه سيبويه ومدار ما ذهب إليه في أي من الأعراب والبناء هو السماع في الحقيقة ، وتعليلات النحويين على ما فيها إنما هي بعد الوقوع ، وعدم سماع غيره لا يقدح في سماعه فتدبر .

﴿ وَإِن مّنكُمْ ﴾ التفات إلى خطاب الإنسان سواء أريد منه العموم أو خصوص الكفرة لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام .

وقيل : هو خطاب للناس وابتداء كلام منه عز وجل بعد ما أتم الغرض من الأول فلا التفات أصلاً .

ولعله الأسبق إلى الذهن لكن قيل يؤيد الأول قراءة ابن عباس .

وعكرمة .

وجماعة ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ ﴾ أي وما منكم أحد ﴿ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ أي داخلها كما ذهب إلى ذلك جمع كثير من سلف المفسرين وأهل السنة ، وعلى ذلك قول تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

وقوله تعالى في فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] .

(74/490)

واحتج ابن عباس بما ذكر على ابن الأزرق حين أنكر عليه تفسير الورود بالدخور وهو جحار على تقدير عموم الخطاب أيضاً فيدخلها المؤمن إلا أنها لا تضره على ما قيل ، فقد أخرج أحمد .

والحكيم الترمذي .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

وجماعة عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن .

وقال آخر : يدخلونها جميعاً ثم ينجى الله تعالى الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه فذكرت له فقال : وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يبق بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم عليه السلام حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم ثم ينجى الله تعالى الذين اتقوا " وقد ذكر الإمام الرازي لهذا الدخول عدة فوائد في "تفسيره" فليراجع .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن الأنباري .

والبيهقي عن الحسن الورود المرور عليها من عير دخول ، وروى ذلك أيضاً عن قتادة وذلك بالمرور على الصراط الموضوع على متنها على ما رواه جماعة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، ويمر المؤمن ولا يشعر بها بناء على ما أخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

والحكيم .

وغيرهم عن خالد بن معدان قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ربنا ألم تعدنا أن نرد

النار قال : بلى ولكنكم مررتم عليها وهي خامدة ، ولا ينافي هذا ما أخرجه الترمذي .

والطبراني .

(75/490)

وغيرهما عن يعلى ابن أمية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تقول النار للمؤمن : يوم القيامة جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي " لجواز أن لا يكون متذكراً هذا القول عند السؤال أو لم يكن سمعه لاشتغاله ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال في الآية : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها وورود المشركين أن لا يدخلوها ، ولا بد على هذا من ارتكاب عموم المجاز عند من لا يرى جواز استعمال اللفظ في معنيين ، وعن مجاهد أن ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا لما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : " الحمى من فيح جهنم " ولا يخى خفاء الاستدلال به على المطلوب .

واستدل بعضهم على ذلك بما أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود رجلاً من أصحابه وعكا وأنه معه فقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله تعالى يقول هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار في الآخرة وفيه خفاء أيضاً " والحق أنه لا دلالة فيه على عدم ورود المؤمن المحموم في الدنيا النار في الآخرة ،

وقصارى ما يدل عليه أنه يحفظ من ألم النار يوم القيامة ، وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أن الورود الحضور والقرب كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 23] واختار بعضهم أن المراد حضورهم جاثين حواليها ، واستدل عليه بما ستعلمه إن شاء الله تعالى ، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] لأن المراد مبعدون عن عذابها ، وقيل : المراد إبعادهم عنها بعد أن يكونوا قريباً منها ﴿ كَانَ ﴾ أي ورودهم إياها ﴿ على رَبِّكَ حَتْماً ﴾ أمراً واجباً كما روى عن ابن عباس ، والمراد بمنزلة الواجب في تحتم الوقوع إذ لا يجب على الله تعالى شيء عند أهل السنة ﴿ مَّقْضِيّاً ﴾ قضى بوقوعه البتة .

(76/490)

وأخرج الخطيب عن عكرمة أن معنى كان حتماً مقضياً كان قسماً واجباً ، وروى ذلك أيضاً عن ابن مسعود .

والحسن .

وقتادة ، قيل : والمراد منه إنشاء القسم ، وقيل : قد يقال : إن ﴿ على رَبِّكَ ﴾ المقصود منه اليمين كما تقول : لله تعالى على كذا إذ لا معنى له إلا تأكد اللزوم والقسم لا يذكر إلا لمثله

، وعلى ورد في كلامهم كثيراً للقسم كقوله :

على إذا ما جئت ليلى أزورها . . .

زيارة بيت الله رجلان حافياً

فإن صيغة النذر قد يراد بها اليمين كما صرحوا به ، ويجوز أن يكون المراد بهذه الجملة القسم كقولهم : عزمت عليك إلا فعلت كذا انتهى ، ويعلم مما ذكر المراد من القسم فيما أخرجه البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه .

وغيرهم عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم " .

وقال أبو عبيدة .

وابن عطية وتبعهما غير واحد : إن القسم في الخبر إشارة إلى القسم في المبتدأ أعني ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ ، وصرح بعضهم أن الواو فيه للقسم ، وتعقب ذلك أبو حيان بأنه لا يذهب نحوي إلى أن مثل هذه الواو واو قسم لأنه يلزم من ذلك حذف المجرور وإبقاء الجار

وهو لا يجوز إلا أن وقع في شعر أو نادر كلام بشرط أن تقوم صفة المحذوف مقامه كما في قوله :

والله ما ليلى ينام صاحبه . . .

وقال أيضاً : نص النحويون على أنه لا يستغنى عن القسم بالجواب لدلالة المعنى إلا إذا كان الجواب باللام أو بأن وأين ذلك في الآية ، وجعل ابن هشام تحلة القسم كناية عن القلة وقد شاع في ذلك ، ومنه قوله كعب :

تخذي على يسرات وهي لاحقة . . .

ذوابل مسهن الأرض تحليل

(77/490)

فإن المعنى مسهن الأرض قليل كما يحلف الإنسان على شيء ليفعلنه فيفعل منه اليسير ليتحلل به من قسمه ثم قال : إن فيما قاله جماعة من المفسرين من أن القسم على الأصل وهو إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ الخ نظراً لأن الجملة لا قسم فيها إلا إن عطفت على الجمل التي أجيب بها القسم من قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ إلى رخرها وفيه بعد انتهى .

والخفاجي جوزا الحالية والعطف ، وقال : حديث البعد غير مسموع لعدم تخلل الفاصل وهو كما ترى ، ولعل الأسلم من القيل والقال جعل ذلك مجازاً عن القلة وهو مجاز مشهور فيما ذكر ، ولايعكر على هذا ما أخرجه أحمد .

والبخاري في تاريخه .

والطبراني .

وغيرهم عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله تعالى متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ " .

فإن التعليل صحيح مع إرادة القلة من ذلك أيضاً فكأنه قيل : لم ير النار إلا قليلاً لأن الله تعالى أخبر بورود كل أحد إياها ولا بد من وقوع ما أخبر به ولولا ذلك لجاز أن لا يراها أصلاً .

﴿ ثُمَّ نُنَجّى الذين اتقوا ﴾

بالإخراج منها على ما ذهب إليه الجمع الكثير ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ على ركبهم كما روى عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة .

وابن زيد ، وهذه الآية ظاهرة عندي في أن المراد بالورود الدخول وهو الأمر المشترك .

وقال بعضهم : إنها دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وذلك لأن ننجي .

(78/490)

﴿ وَنَذَرُ ﴾ تفصيل للجنس فكأنه قيل ننجي هؤلاء ونترك هؤلاء على حالهم الذي احضروا فيه جاثين ، ولا بد على هذا من أن يكون التقدير في حواليها ، وأنت تعلم أن الظاهر عدم التقدير والجثو لا يوجب ذلك ، وخولف بين قوله تعالى : ﴿ اتقوا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ الظالمين ﴾ ليؤذن بترجيح جانب الرحمة وأن التوحيد هو المنجي والإشراك هو المردى فكأنه قيل : ثم ننجي من وجد منه تقوى ما وهو الاحتراز من الشرك ونهلك من اتصف بالظلم أي بالشرك وثبت عليه ، وفي إيقاع ﴿ نَّذَرٍ ﴾ مقابلاً لننجي إشعار بتلك اللطيفة أيضاً ، قال الراغب : يقال فلان يذر الشيء أي يقذفه لقلة اعتداده به .

ومن ذلك قيل لقطعة اللحم التي لا يعتد بها وذر ، وجيء بثم للإيذان بالتفاوت بين فعل الخلق وهو ورودهم النار وفعل الحق سبحانه وهو النجاة والدمار زماناً ورتبة قاله العلامة الطيبي طيب الله تعالى ثراه ، والذي تقتضيه الآثار الواردة في عصاة المؤمنين أن يقال : إن التنجية المذكورة ليست دفعية بل تحصل أولاً فأولاً على حسب قوة التقوى وضعفها حتى

يخرج من النار من في قلبه وزن ذرة من خير وذلك بعد العذاب حسب معصيته وما ظاهره من الأخبار كخبر جابر السابق إن المؤمن لا تضره النار مؤول بحمل المؤمن على المؤمن الكامل لكثرة الأخبار الدالة على أن بعض المؤمنين يعذبون .

(79/490)

ومن ذلك ما أخرجه الترمذي عن جابر رضي الله تعالى عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمماً ثم تدركهم الرحمة فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغناء في حميل السيل " ومن هنا حظر بعض العلماء أن يقال في الدعاء : اللهم اغفر لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم جميع ذنوبهم أو اللهم لا تعذب أحداً من أملا محمد صلى الله عليه وسلم هذا ، وقال بعضهم : إن المراد من التنجية على تقدير أن الخطاب خاص بالكفرة أن يساق الذين اتقوا إلى الجنة بعد أن كانوا على شفير النا ، روجيء بثم لبيان التفاوت بين ورود الكافرين النار وسوق المذكورين إلى الجنة وأن الأول للإهانة والآخر للكرامة ، وأنت تعلم أن الذين يذبه بهم إلى الجنة من الذين اتقوا من غير دخول في النار أصلاً ليسوا إلا الخواص .

والمعتزلة خصوا الذين اتقوا بغير أصحاب الكبائر وأدخلوهم في الظالمين واستدلوا بالآية على خلودهم في النار وكانوا ظالمين .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وابن مسعود .

وأبي رضي الله تعالى عنهم .

والجحدري .

ومعاوية بن قرة .

ويعقوب ﴿ ثُمَّ ﴾ بفتح الثاء أي هناك .

وابن أبي ليلى ﴿ ثمه ﴾ بالفتح مع هاء السكت وهو ظرف متعلق بما بعده .

وقرأ يحيى .

والأعمش .

والكسائي .

وابن محصين .

ويعقوب ﴿ ثُمَّ نُنَجّى ﴾ بتخفيف الجيم .

وقرىء ﴿ ينجي ﴾ وينجي بالتشديد والتخفيف مع البناء للمفعول ، وقرأت فرقة ﴿

نجى ﴾ بنون واحدة مضمومة وجيم مشددة ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ ننحى ﴾ بحاء مهملة ، وهذه القراءة تؤيد بظاهرها تفسير الورود بالقرب والحضور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(80/490)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) ﴾

قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ أي قال الله سبحانه : قل يا جبريل .

وما نتنزل ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استبطأ نزول جبريل عليه ، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل عليه إلا بأمر الله .

قيل : احتبس جبريل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ؛ وقيل : خمسة عشر وقيل : اثني عشر وقيل : ثلاثة أيام ؛ وقيل : إن هذا حكاية عن أهل الجنة ، وأنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان ﴿ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ والأوّل أولى بدلالة ما قبله ، ومعناه يحتمل وجهين : الأوّل : وما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل .

والثاني : وما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك الذي يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك ، والتنزل : النزول على مهل ، وقد يطلق على مطلق النزول .

ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ أي من الجهات والأماكن ، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة ، وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه ، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيئته ، وقيل : المعنى : له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ، وهو ما بين النفختين وقيل : الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا ، والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض وقيل : ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التي نحن فيها .

(81/490)

وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : أن الله سبحانه هو المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة ، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه ، وقال : ﴿ وما بين ذلك ﴾ ولم يقل وما بين ذينك ، لأن المراد : وما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي ، وقيل : المعنى إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئاً وقيل : المعنى : وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذي يرسل فيه رسله .

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي خالقهما وخالق ما بينهما ، ومالكهما ومالك ما بينهما ، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه .

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعبادته والصبر عليها فقال : ﴿ فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ والفاء للسببية لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد ، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدّى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ الاستفهام للإنكار .

والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة ، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له ، هذا مبنيّ على أن المراد بالسميّ : هو الشريك في المسمى وقيل : المراد به : الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب ، فقيل : المعنى إنه لم يسمّ شيء من الأصنام ولا غيرها بالله قط ، يعني : بعد دخول الألف واللام التي عوّضت عن الهمزة ولزمت .

وقيل : المراد : هل تعلم أحداً اسمه الرحمن غيره ؟ قال الزجاج : تأويله والله أعلم : هل تعلم له سمياً يستحق أن يقال له : خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ، وعلى هذا لا سميّ لله في جميع أسمائه ، لأن غيره وإن سمي بشيء من أسمائه ، فللّه سبحانه حقيقة ذلك الوصف ، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا : نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله .

﴿ وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ قرأ الجمهور على الاستفهام ، وقرأ ابن ذكوان : " إذا ما متّ " على الخبر ، والمراد بالإنسان ها هنا : الكافر ، لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث وقيل : اللام في الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض ، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم ، والمراد بقوله : ﴿ أخرج ﴾ أي من القبر ، والعامل في الظرف فعل دلّ عليه أخرج ، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها .

﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي ، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها ، والمراد بالذكر هنا : إعمال الفكر ، أي ألا يتفكر هذا الجاحد في أوّل خلقه فيستدلّ بالابتداء على الإعادة ، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة ، لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعاً واختراعاً ، لم يتقدّم عليه ما يكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدّم عليها

النشأة الأولى فكانت كالمثال لها ، ومعنى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ : قبل الحالة التي هو عليها الآن ، وجملة : ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ في محل نصب على الحال ، أي والحال أنه لم يكن حينئذٍ شيئاً من الأشياء أصلاً ، فإعادته بعد أن كان شيئاً موجوداً أسهل وأيسر .

قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل الكوفة إلا عاصماً " ﴿ أو لا يذكر ﴾ بالتشديد ، وأصله يتذكر .

(83/490)

وقرأ شيبة ونافع وعاصم وابن عامر " يذكر " بالتخفيف ، وفي قراءة أبيّ : " أو لا يتذكر " .

ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها ، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافاً إلى رسوله تشريفاً له وتعظيماً ، فقال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ ومعنى ﴿ لنحشرنهم ﴾ : لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا ، والواو في قوله : ﴿ والشياطين ﴾ للعطف على المنصوب ، أو بمعنى مع .

والمعنى : أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم الله مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم ، وهذا ظاهر على جعل اللام في الإنسان للعهد ، وهو الإنسان الكافر ، وأما على جعلها

للجنس فكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ الجثي جمع جاث ، من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثواً ، وهو منتصب على الحال ، أي جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب ، أو لكون الجثي على الركب شأن أهل الموقف كما في قوله سبحانه : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية : 28] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ جثياً ﴾ : جماعات ، وأصله ، جمع جثوة ، والجثوة هي : المجموع من التراب أو الحجارة .

قال طرفة :

أرى جثوتين من تراب عليهما . . . صفائح صم من صفيح منضد

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ الشيعة : الفرقة التي تبعت ديناً من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشري فقال : هي الطائفة التي شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام : 159] .

ومعنى ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ من كان أعصى لله وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغيّ والفساد أعصاهم وأعتاهم ، فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم .

والعتيّ ها هنا مصدر كالعتوّ ، وهو التمرّد في العصيان .

وقيل : المعنى لننزعن من أهل كلّ دين قادتهم ورؤساءهم في الشرّ .

وقد اتفق القراء على قراءة ﴿ أيهم ﴾ بالضم إلا هارون الغازي فإنه قرأها بالفتح .

قال الزجاج : في رفع أيهم ثلاثة أقوال : الأوّل : قول الخليل بن أحمد إنه مرفوع على الحكاية ، والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشدّ .

وأنشد الخليل في ذلك قول الشاعر :

وقد أبيت من الفتاة بمنزل . . . فأبيت لا حرج ولا محروم

أي فأبيت بمنزلة الذي يقال له هو لا حرج ولا محروم .

قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق ، يعني : الزجاج ، يختار هذا القول ويستحسنه .

القول الثاني : قول يونس : وهو أن ﴿ لننزعنّ ﴾ بمنزلة الأفعال التي تلغى وتعلق .

فهذا الفعل عنده معلق عن العمل في أيّ ، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه .

القول الثالث : قول سيبويه : إن أيهم ها هنا مبنيّ على الضم ، لأنه خالف أخواته في الحذف ، وقد غلط سيبويه في قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج : ما تبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما ، وللنحويين في إعراب ﴿ أيهم ﴾ هذه في هذا الموضع كلام طويل .

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ يقال : صلى يصلي صلياً مثل مضى الشيء يمضي مضياً ، قال الجوهري : يقال صليت الرجل ناراً إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته إلقاءً كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصليته تصلية ومنه :

﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ [الإنشقاق : 12] ومن خفف فهو من قولهم : صلي فلان النار بالكسر يصلى صلياً احترق ، قال الله تعالى : ﴿ الذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ قال العجاج :

والله لولا النار أن تصلاها . . . ومعنى الآية : أن هؤلاء الذين هم أشدّ على الرحمن عتياً هم أولى بصليها ، أو صليهم أولى بالنار .

(85/490)

﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ الخطاب للناس من غير التفات ، أو للإنسان المذكور ، فيكون التفاتاً ، أي ما منكم من أحد إلا واردها ، أي واصلها .

وقد اختلف الناس في هذا الورود .

فقيل : الورود : الدخول ويكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم .

وقالت فرقة : الورود : هو المرور على الصراط وقيل : ليس الورود الدخول إنما هو كما

يقول : وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] .

قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها ، ومما يدلّ على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 23] فإن المراد : أشرف عليه لا أنه دخل فيه ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقاً حمامه . . . وضعن عصي الحاضر المتخيم

ولا يخفى أن القول بأن الورود هو : المرور على الصرط ، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه ، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنّة ، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك ، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابهما ، أو بحمله على المضيّ فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ أي كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً قد قضى سبحانه أنه لا بدّ من وقوعه لا محالة .

وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله ، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرّق الخلف إليه .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ أي : اتقوا ما يوجب النار ، وهو الكفر بالله ومعاصيه ، وترك ما شرعه ، وأوجب العمل به .

(86/490)

قرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة " ننجي " بالتخفيف من أنجى ، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائي ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وقرأ ابن أبي ليلى : " ثُمَّ نذر " بفتح الثاء من ثم ، والمراد بالظالمين : الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار ، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض ، والجثيّ جمع جاثٍ وقد تقدّم قريباً تفسير الجثيّ وإعرابه .

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ " فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية .

وزاد ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وكان ذلك الجواب لمحمد .

وأخرج ابن مردويه من حديث أنس قال : "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ البقاع أحبّ إلى الله ، وأيها أبغض إلى الله ؟ قال : " ما أدري حتى أسأل " ، فنزل جبريل ، وكان قد أبطأ عليه ، فقال : " لقد أبطأت عليّ حتى ظننت أن بربي عليّ موجدة " ، فقال : ﴿

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : أبطأ جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ثم نزل ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما نزلت حتى اشتقت إليك " ، فقال له جبريل : أنا كنت إليك أشوق ، ولكني مأمور ، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ .

وهو مرسل .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : أبطأت الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتاه جبريل فقال له : " ما حبسك عني " ؟ قال : وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنقون براجمكم ، ولا تأخذون شواربكم ، ولا تستاكون ؟ وقرأ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ " .

وهو مرسل أيضاً .

(87/490)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ قال : من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قال : من أمر الدنيا ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ قال : ما بين الدنيا والآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ قال : ما بين النفختين .

وأخرج ابن المنذر عن أبي العالية مثله .

وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي ، والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث قال : " ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ " وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ قال : هل تعرف للربّ شبهاً أو مثلاً ؟ وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عنه : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ ؟ قال : ليس أحد يسمى الرحمن غيره .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد ؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وَيَقُولُ الإنسان ﴾ قال : العاص بن وائل ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ جِثِيّاً ﴾ قال : قعوداً ، وفي قوله : ﴿ عِتِيّاً ﴾ قال : معصية .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ عِتِيّاً ﴾ قال : عصياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ ﴾ قال : لننزعن من أهل كل دين

قادتهم ورؤوسهم في الشرّ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : نحشر الأوّل على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً ، ثم قرأ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ عِتِيّاً ﴾ .

(88/490)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ قال : يقول : إنهم أولى بالخلود في جهنم .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الذين اتقوا ﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له ، فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه صُمَّتَاً : إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردها .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ " وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن

منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس ، فقال ابن عباس : الورود : الدخول ، وقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

وقال : وردوا أم لا ؟ وقرأ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [هود : 98] أوردوا أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وأخرج الحاكم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قال : وإن منكم إلا داخلها .

وأخرج هناد والطبراني عنه في الآية قال : ورودها الصراط .

(89/490)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وابن الأنباري وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليرد الناس كلهم النار ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ، فأوّلهم كلمح البرق ، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب في رحله ، ثم كشدّ الرحل ، ثم كمشيه " وقد روي نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ " يقول : " مجتاز فيها "

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية " قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قالت : ألم تسمعيه يقول : ﴿ ثُمَّ نُنَجّي الذين اتقوا ﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم " ، ثم قرأ سفيان ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ .

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه ، وأبو يعلى والطبراني وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوّعاً لا يأخذه سلطان : لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ " والأحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جدّاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ قال : قضاء من الله .

وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن عكرمة حتماً مقضياً قال : قسماً واجباً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ قال : باقين فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(90/490)

وقال القاسمى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾

أي : يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أأخرج بعد ما لبثت في القبر مدة .

﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾

أي : قبل جعله تراباً ونطفة . وكان عدماً صرفاً لا وجود له في الأعيان . فلا تبعد إعادته

.

قال أبو السعود : وفي الإظهار موضع الإضمار ، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعي التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنخية بالقلع عن القول المذكور . وهو السرّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان . أي : ما أعجب الإنسان في إنكاره وعدم تذكره لما ذكر ، وهو الذي أعطى العقل لينظر في العواقب ، وأنعم عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف المنعم فيشكره ، ويعبده فيجازى على فعله .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أي : لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغووهم وأضلهم عن الحق : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ جمع جاث . من جثا إذا قعد على ركبتيه . وذلك لهول المطلع . فلا يستطيعون قياماً . كقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية : 28] .

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ﴾ أي : لنخرجن إلى النار ، من كل فرقة ، الذي هو أشد على الرحمن ، الذي رحمه بإنزال الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل ﴿ عِتِيّاً ﴾ أي : جراءة بإيثار الشهوات على أمره وعدم مبالاته به .

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً ﴾ وهم المنتزعون . فإنهم أولى الشيع . إذ ضلوا ، لأجل لذّات الدنيا وشهواتها . فصاروا أولى بالصليّ بها . فيخصّون بعذاب مضاعف .

(91/490)

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ أي : ليس أحد منكم ، من برّ وفاجر ، إلا وهو يَرِدُها ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾ أي : حكماً جزماً مقطوعاً به .

﴿ ثُمَّ ﴾ أي : بعد الورود والإحضار للتعريف : ﴿ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ أي : لا يمكنهم التجاوز عنها .

قال الزمخشريّ : فيه دليل على أن المراد بالورود ، الجثوّ حواليها . وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة ، بعد تجاثيهم . وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 113.114 ﴾

(92/490)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

قال بعض أهل العلم : نزلت هذه الآية في أبي بن خلف ، وجد عظاماً بالية ففتتها بيده وقالك زعم محمد أنا نبعث بعد الموت ؟ قاله الكلبي ، وذكره الواحدي والثعلبي . وقال المهدوي : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وأصحابه ، وهو قول ابن عباس . وقيل : نزلت في العص بن وائل . وقيل : في أبي جهل ، وعلى كل واحد من هذه الأقوال فقد أسند تعالى هذا القول لجنس الإنسان وهو صادر من بعض أفراد الجنس ، لأن من أساليب العربية إسناد الفعل إلى المجموع ، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم . ومن أظهر الأدلة القرآنية في ذلك

قراءة حمزة والكسائي ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم ﴾ [البقرة : 191] من القتل في الفعلين ، أي فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر كما تقدم مراراً . ومن أظهر الشواهد العربية في ذلك قول الفرزدق :

فسيف بني عبس وقد ضربوا به . . . نبا بيدي ورقاء عن راس خالد

فقد اسند الضرب إلى بني عبس ، مع أنه صح بأن الضارب الذي بيده السيف هو ورقاء وهو ابن زهير بن جذيمة العبسي . وخالد هو ابن جعفر الكلابي . وقصة قتله لزهير المذكور مشهورة .

وقد بين تعالى في هذه الآية : : أي هذا الإنسان الكفار يقول منكراً البعث : أئذا مت لسوف أخرج حياً ، زعماً منه أنه إذا مات لا يمكن أن يحيا بعد الموت . وقد رد الله عليه مقالته هذه بقوله : ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ يعني : أيقول الإنسان مقالته هذه في إنكار البعث ، ولا يذكر أنا أوجدناه الإيجاد الأول ولم يك شيئاً ، بل كان عدماً فأوجدناه ، وإيجادنا له المرة الأولى دليل قاطع على قدرتنا على إيجاده بالبعث مرة أخرى .

(93/490)

وهذا البرهان الذي أشار له هنا قدمنا الآيات الدالة عليه في سورة «البقرة والنحل» وغيرهما ، كقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78-79] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة : 62] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] الآية وقوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 51] ، وقوله ، ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] الآية . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 104] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه .

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه صلى الله عليه وسلم عن ربه : «يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني . اما تكذيبه أياي فقول لن يعيدني كما بدأني ؛ وليس أول الخلق أهول علي من آخره . وأما أذاه إياي فقول إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

فإن قيل : اين العامل في الظرف الذي هو ﴿ إذا ﴾ فالجواب : أنه منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط ؛ وتقديره : أأخرج إذا ما مت أي حين يتمكّن في الموت والهلاك أخرج حياً . يعني لا يمكن ذلك . فإن قيل : لم لا تقول بأنه منصوب ب ﴿ أخرج ﴾ المذكور في قوله ﴿ لسوف أخرج حياً ﴾ على العادة المعروفة ، من أن العامل في ﴿ إذا ﴾ هو جزاؤها ؟ فالجواب : أن لام الابتداء في قوله : ﴿ لسوف أخرج حياً ﴾ مانعة من عمل ما بعدها فيما قبلها كما هو معلوم في علم العربية . فلا يجوز أن تقول : اليوم الزَيْدٌ قائم ؛ تعني لزيد قائم اليوم . وما زعمه بعضهم من أن حرف التنفيس الذي هو سوف مانع من عمل ما بعده فيما قبله أيضاً ، حتى إنه على قراءة طلحة بن مصرف ﴿ أئذا ما مت سأخرج حياً ﴾ بدون اللام يمتنع نصب ﴿ إذا ﴾ ب ﴿ أخرج ﴾ المذكورة ، فهو خلاف التحقيق .

والتحقيق أن حرف التنفيس لا يمنع من عمل ما بعده فيما قبله . ودليله وجوده في كلام العرب ؛ كقول الشاعر :

فما رأته آمنا هان وجدها . . . وقالت أبونا هكذا سوف يفعل

فقوله « هكذا » منصوب بقوله « يفعل » كما أوضحه ابو حيان في البحر . ولعيه فعلى قراءة طلحة بن مصرف فقوله : ﴿ إذا ﴾ منصوب بقوله ﴿ أخرج ﴾ لعدم وجود اللام فيها وعدم منع حرف التنفيس من عمل ما بعده فيما قبله .

تنبيه

فإن قلت : لام الإبتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال ، فكيف جاكعت حرف التنفيس الدال على الاستقبال ؟ فالجواب : أن اللام هنا جرِّدت من معنى الحال ، وأخلصت لمعنى التوكيد فقط . ولذلك جامعت حرف الاستقبال كما بينه الزمخشري في الكشاف ، وتعقبه أبو حيان في البحر المحيط بأن من علماء العربية من يمنع أن اللام المذكورة تعطي معنى الحال ، وعلى قوله يسقط الإشكال من أصله . والعلم عند الله تعالى .

(95/490)

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)

لما أقام الله جل وعلا البرهان على البعث بقوله : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم : 67] أسم جل وعلا بنفسه الكريمة ، أنه يحشرهم أي الكافرين المنكرين للبعث وغيرهم من الناس ، ويحشرهم معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم في الدنيا ، وانه يحضرهم حول جهنم جثياً . وهذان الأمران اللذان ذكرهما في هذه الآية الكريمة أشار إليهما في غير هذا الموضع . أما حشره لهم ولشياطينهم فقد أشار إليه في قوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ فاهدوهم إلى صِرَاطِ

الجحيم ﴾ [الصافات : 22-23] على أحد التفسيرات . وقوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَنَا قَالَ يالَيت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين فَبِئْسَ القرين ﴾ [الزخرف : 38] .

وأما إحضارهم حول جهنم جثياً فقد أشار له في قوله : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 28] ، قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ جِثياً ﴾ كمع جاث . والجاثي اسم فاعل جثا يجثوا جثواً . وحثى يجثي جثياً : إذا جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه . والعادة عند العرب : أنهم إذا كانوا في موقف ضَنكٍ وأمر شديد ، جثوا على ركّبهم ، ومنه قول بعضهم :

فمن للحماةِ ومن للكماةِ . . . إذا ما الكماةُ جثوا للرُّكَبْ

إذا قيل مات أبو مالكٍ . . . فتى المكرمات قريع العربْ

وكون معنى قوله ﴿ جِثياً ﴾ في هذه الآية ، وقوله ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ الآية – أنه جثيهم على ركبهم هو الظاهر ، وهو قول الأكثر ، وهو الإطلاق المشهور في اللغة ؛ ومنه قول الكميت :

هم تركوا سراتهم جثياً . . . وهم دون السراة مقرنينا

وعن ابن عباس في قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ جِثِيَاً ﴾ أن معناه جماعات . وعن مقاتل ﴿ جِثِياً ﴾ : أي جمعاً جمعاً ، وهو على هذا القول جمع « جثوة » مثلثة الجيم ، وهي الحجارة المجموعة والتراب المجموع . فأهل الخمر يحضرون حول جهنم على حدة ، وأهل الزِّنى على حدة ؛ وأهل السرقة على حدة . . ؛ وهكذا . ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد في معلقته :

ترى جثوتين من تراب عليهما . . . صفائح صم من صفيح منضد

هكذا قال بعض أهل العلم : ولكنه يرد عليه أن فعلة كجثوة لم يعهد جمعها على فعول كجثى . وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائى وحفص ﴿ جِثِياً ﴾ بكسر الجيم إتباعاً للكسرة بعده وقرأ الباقون ﴿ جثيا ﴾ بضم الجيم على الأصل .

(97/490)

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70)

قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ لننزعن ﴾ أي لنستخرجن ﴿ من كلِّ شِيعةٍ ﴾ اي من كل أمة أهل دين واحد . وأصل الشيعة فعلة كفرقة ، وهي الطّائفة التي شاعت غيرها أي

تبعته في هدى أو ضلال ؛ تقول العرب : شاعه شياعاً : إذا تبعه .

وقوله تعالى : ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ .

أي لنستخرجن ولنميزن من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم ، وأعتاهم فأعتاهم ، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر ، والإضلال والضلال . وهذا هو الظاهر في معنى الآية الكريمة : أن الرؤساء القادة في الكفر يعذبون قبل غيرهم ويشدد عليهم العذاب لضلالهم وإضلالهم .

(98/490)

وقد جاءت آيات من كتاب الله تعالى تدل على هذا ، كقوله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : 13] ، وقوله : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : 25] ولأجل هذا كان في أمم النار أولى وأخرى . فالأولى : التي يبدأ بعذابها وبدخولها النار . والأخرى التي تدخل بعدها على حسب تفاوتهم في أنواع الكفر والضلال ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ ادخلوا في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِكُمْ مِّن الجن والإنس فِي النار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 38-39] .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ يعني : أنه جل وعلا أعلم بمن يستحق منهم أن يصلي النار ، وهو من أولى بذلك . وقد بين الرؤساء والمرؤوسين كلهم ممن يستحق ذلك في قوله ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ الآية والصلى مصدر النار كرضى يصلاها صلياً (بالضم والكسر) إذا قاسى ألمها ، وباشر حرها .

(99/490)

واختلف العلماء في وجه رفع « اي » مع أنه منصول ؛ لأنه مفعول ﴿ لننزعن ﴾ فذهب سيبويه ومن تبعه إلى أن لفظة « أي » موصوله ، وأنه مبنية على الضم إذا كانت مضافة وصدر ضير محذوف كما هنا . وعقده ابن مالك في الخلاصة بقوله :

أي كما وأعربت ما لم تُضف . . . وصدر وصلها ضمير انحذف

وبعضهم أعرب مطلقاً . . الخ .

ويدل على صحة قول سيبويه رحمه الله قول غسان بن وعلة :

إذا ما لقِيت بني مالك . . . فسلم على أيهم أفْضل

والرواية بضم ﴿ أيهم ﴾ وخالف الخليل ويونس وغيرهما سيبويه في « أي » المذكورة .

فقال الخليل : إنها في الآية استفهامية محكية بقول مقدر والتقدير : ثم لننزعن من كل شيعة الذي يقال فيه أيهم اشد ؛ وأنشد الخليل لهذا المعنى الذي ذهب إليه قول الشاعر :

(100/490)

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل . . . فأبيت لا حرج ولا محروم

أي فأبيت بمنزلة الذي يقال له : لا هو حرج ولا محروم . وأما يونس فذهب إلى أنها استفهامية أيضاً ؛ لكنه حكم بتعليق الفعل قبلها بالاستفهام لأن التعليق عنده لا يختص بأفعال القلوب ، واحتج لسيبويه على الخليل ويونس ومن تبعهما ببيت غسان بن وعلة المذكور آنفاً ، لأن الرواية فيه بضم ﴿ أيهم ﴾ مع أن حروف الجر ، لا يضمر بينها وبين معمولها قول ولا تعلق على الأصوب ، وإن خالف فيه بعضهم ببعض التاويلات . وبما ذكرنا تعلم أن ما ذكره بعضهم من أن جميع النحويين غلطوا سيبويه في قوله هذا في « أي » في هذه الآية الكريمة خلاف التحقيق . والعلم عند الله تعالى . وقرأه حمزة والكسائي وحفص ﴿

عتياً ﴾ بكسر العين . و ﴿ صِلياً ﴾ بكسر الصاد للإتباع . وقرا الباقون بالضم فيهما على الأصل .

(101/490)

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)

اختلف العلماء في المراد بورود النار في هذه الآية الكريمة على أقوال :

الأول : أن المراد بالورود الدُّخول ، ولكن الله يصرفُ أذاها عن عباده المتقين عند ذلك الدخول .

الثاني : أن المراد بورود النار المذكور : الجواز على الصراط ، لأنه جسر منصوب على متن جهنم .

الثالث : أن الورود المذكور هو الإشراف عليها والقرب منها .

الرابع : أن حظ المؤمنين من ذلك الورود هو حر الحمى في دار الدنيا . وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن فغلبته فيه دليل استقرائي على عدم خروجه من

معنى الآية . وقد قدمنا أمثلة لذلك . فإذا علمت ذلك – فاعلم أن ابن عباس رضي الله عنهما استدل على المارد بورود النار في الآية بمثل ذلك الدليل الذي ذكرنا أنه من أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك .

(102/490)

وإيضاحه – أن ورود النار جاء في القرآن في آيات متعددة ، والمراد في كلو احدة منها الدخول . فاستدل بذلك ابن عباس على أن « الورود في هذه الآية التي فيها النزاع هو الدخول » ، لدلالة الآيات الأخى على ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] قال : فهذا ورد دخول ، وكقوله : ﴿ لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 99] فهو ورود دخول أيضاً ، وكقوله : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] وبهذا استدل ابن عباس على نافع بن الأزرق في « أن الورود الدخول » .

واحتج من قال بأن الورود : الإشراف والمقاربة بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 23] الآية . قال : فهذا ورود مقاربة وإشراف عليه . وكذا قوله تعالى : ﴿

فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ [يوسف : 19] الآية . ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

فما وردن الماء زرقاً جمامه . . . وضهن عصي الحاضر المتخيم

قالوا : والعرب تقول : وردت القافلة البلد وإن لم تدخله ، ولكن قربت منه . واحتج من قال بأن الورود في الآية التي نحن بصددها – ليس نفس الدخول بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101 –102] قالوا : إبعادهم عنها المذكور في هذه الآية يدل على عدم دخولهم فيها ؛ فالورود غير الدخول .

(103/490)

واحتج من قال : بأن ورود النار في الآية بالنسبة للمؤمنين – حر الحمى في دار الدنيا – بحديث « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » وهو حديث متفق عليه من حديث عائشة وأسماء ابنيت أبي بكر ، وابن عمر ورافع بن خديج رضي الله عنهم .

(104/490)

ورواه البخاري أيضاً مرفوعاً عن ابن عباس .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد دلت على أن الورود في الآية معناه الدخول – أدلة : الأول – هو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن جميع ما في القرآن من ورود النار معناه دخولها غير محل النزاع ، فدل ذلك على أن محل النزاع كلك ، وخير ما يفس به القرآن القرآن . الدليل الثاني – هو أن في نفس الآية قرينة دالة على ذلك ، وهي أنه تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم بقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ بين مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورود المذكور بقوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا ﴾ اي نترك الظالمين فيها – دليل على أن ورودهم لها دخولها فيها ، إذ لو لم يدخلوها لم يقل : ونذر الظالمين فيها . بل يقول : ونُدخل الظالمين ، وهذا واضح كما ترى وكذلك قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ دليل على أنهم وقعوا فيما من شأه أنه هلكة ، ولذا عطف على قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ .

(105/490)

الدليل الثالث – ما روي من ذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال صاحب الدر المنثور في الكلام على هذه الآية الكريمة : أخرج أحمد وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وابن المنذر ، وابن ابي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردوية ، والبيهقي في البعث ، عن ابي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن . وقال بعضهم : يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذي اتقوا . فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فذكرت له ذلك فقال وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه : صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها : فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فِيها جثياً » اه . وقال ابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) في هذا الحديث : رواه أحمد وابن أبي شيبى ، وعبد بن حميد قالوا : حدثنا سليمان بن حرب ، وأخرجه أبو يعلى والنسائي في الكنى ، والبيهقي في الشعب في باب النار ، والحكيم في النوادر ، كلهم من طريق سليمان قال : حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان ، عن كثير بن زياد عن ابي سمية قال : اختلفنا في الورود فسألنا جابراً فذكر الحديث أم من اللفظ الذي ذكره الزمخشري . وخالفهم كلهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الإسناد فقال عن سمية الأزدية عن عبد الرحمن بن شيبة بدل أبي سمية عن جابر اه . وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا غالب بن

سليمان ، عن كثير بن زياد البرساني ، عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن .

(106/490)

وقال بعضهم : يدخولونها جميعاً ثم ينجي الله الذي اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت : إنا اختلفنا في الورود فقال : يدخلونها جيمعاً . ثم ذكر الحديث المتقدم . ثم قال ابن كثير رحمه الله : غريب ولم يخرجوه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر ان الإسناد المذكور لا يقل عن درجة الحسن لأن طبقته الأولى سليمان بن حرب ، وهو ثقة إمام حافظ مشهور . وطبقته الثانية : أبو صالح أو أبو سلمة غالب بن سليمان العتكي الجهضمي الخراساني أصله من البصرة ، وهو ثقة . وطبقته الثالثة : كثر بن زياد أبو سهل البرسانس بصري نزل بلخ ، وهو ثقة . وطبقته الرابعة : أبو سمية وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، قاله ابن حجر في تهذيب التهذيب : وبتوثيق أبي سمية المذكور تتضح صحة الحديث ، لأن غيره من رجال هذا الإسناد ثقات معرفون ، مع أن حديث جابر المذكور يعتضد بظاهر القرآن وبالآيات الأخى التي استدل بها ابن عباس – وآثار جاءت عن علماء السلف رضي الله عنهم كما ذكره ابن كثير عن خالد بن معدان

، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، وذكره هو وابن جرير عن أبي ميسرة ، وذكره ابن كثير عن عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري ، كلهم يقولون : إنه ورود رخول . وأجاب من قال : بأن الورود في الآية الدخول عن قوله تعالى : ﴿ أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] بأنهم مبعدون عن عذابها وألمها . فلا ينافي ذلك وردوهم إياها من غير شعورهم بألم ولا حر منها كما أوضحناه في كتابنا (دفع الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على هذه الآية الكريمة .

(107/490)

وأجابوا عن الاستدلال بحديث « الحمى من فيح جهنم » بالقول بموجبه ، قالوا : الحديث حق صحيح ولكنه لا دليل فيه لمحل النزاع ، لأن السياق صريح في أن الكلام في النار في الآخرة وليس في حرارة منها في الدنيا ، لأن أول الكلام قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ [مريم : 68] - إلى أن قال - ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فدل على أن كل ذلك في الآخرة لا في الدنيا كما ترى . والقراءة في قوله : ﴿ جثيا ﴾ كما قدمنا في قوله ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ . وقوله : ﴿ ثم ننجي ﴾ قراءة الكسائي بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم ، وقرأه الباقون بفتح النون

الثانية وتشديد الجيم . وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) أن جماعة رووا عن ابن مسعود : « أن ورود النار – المذكور في الآية – هو المرور عليها ، لأن الناس تمر على الصراط وهو جسر منصوب على متن جهنم » وأن الحسن وقتادة روي عنهما نحو ذلك ايضاً .

(108/490)

وروي عن ابن مسعود أيضاً مرفوعاً : « أنهم يردونها جيمعاً ويصدرون عنها بحسب أعمالهم » . وعنه أيضاً تفسير « الورود بالوقوف عليها » . والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في الآية الكريمة : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ يعني أن ورودهم النار المذكور كان حتماً على ربك مقضياً ، أي أمراً واجباً مفعولاً لا محالة ، والحتمك الوجب الذي لا محيد عنه ، ومنه قوله أمية بن ابي الصلت الثقفي :

عبادك يخطؤون وأنت رب . . . يكفيك المنايا والحتوم

فقوله : « والحتوم » جمع حتم ، يعنى الأمور الواجبة التب لا بد من وقوعها . وما ذكره جماعة من أهل العلم من أن المراد بقوله : ﴿ حتماً مقضياً ﴾ قسماً واجباً « ، كما روي عن عكرمة وابن مسعود ومجاهد وقتادة وغيرهم – لا يظهر كل الظهور .

واستدل من قال : إن في الآية قسماً بحديث ابي هريرة الثابت في الصحيحين . قال البخاري في صحيحه : حدثنا علي ، حدثنا سفيان قال : سمعت الزهري عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : » لا يموت لمسلم ثلاثة من الولدِ فيلج النار إلا تلحة القسم « قال أبو عبد الله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ اه . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : » لا يموت لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولدِ فتمسه النار إلا تحلة القسم « حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وعمرو الناقد ، وزهيير بن حرب قالوا . حدثنا سفيان بن عيينة (ح) وحدثنا عبد بن حميد ، وابم رافع ، عن عبد الرزاق ، أخبرنا معمر كلاهما عن الزهري بإسناد مالك ، وبمعنى حديثه إلا أن في حديث سفيان » فيلج النار إلا تحلة القسم « اه . قالوا : المراد بالقسم المذكور في هذا الحديث الصحيح هو قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ وهو معنى ما ذكرنا عن البخاري في قوله : قال ابو عبد الله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ . واللذين استدلوا بالحديث المذكور على أن الآية الكريمة قسماً

اختلفوا في موضع القسم من الآية ، فقال بعضهم : هو مقدر دل عليه الحديث المذكور على أن الآية الكريمة قسماً اختلفوا في موضع القسم من الآية ، فقال بعضهم : هو مقدر دل عليه الحديث المذكور ، اي والله وإن منكم إلا وادها . وقال بعضهم : هو معطوف على القسم قبله ، والمعطوف على القسم قسم ، والمعنى : فوربِّك لنحشرنهم والشياطين وربك إن منكم إلا واردها ، وقال بعضهم : القسم المذكور مستفاد من قوله : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ أي قسماً واجباً كما قدمناه عن ابن مسعود ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة .

(110/490)

وقال بعضهم : يحتمل أن يكون المراد بالقسم ما دل على القطع والبت من السياق . فإن قوله تعالى : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ تذييل وتقرير لقوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ وهذا بمنزلة القسم في تأكيد الإخبار . بل هذا أبلغ للحصر في الآية بالنفي والإثبات . قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن الآية ليس يتعين فيها قسم . لأنها لم تقترن بأداة من أدوات القسم ، ولا قرينة واضحة دالة على القسم ، ولم يتعين عطفها على القسم . والحكم بتقدير قسم في كتاب الله دون قرينة ظاهرة فيه زيادة على

معنى كلام الله بغير دليل يجب الرجوع إليه . وحديث أبي هريرة المذكور المتفق عليه لا يتعين منه أن في الآية قسماً . لأن من أساليب اللغة العربية التعبير بتحلة القسم عن القلة الشديدة وإن لن يكن هناك قسم أصلاً . يقولون : ما فعلت كذا إلا تحلة القسم ، يعنون إلا فعلاً قليلاً جداً قدر ما يحلل به الحالف قسمه . وهو أسلوب معروف في كلام العرب ، ومنه قول كعب بن زهير في وصف ناقته :

تخذي على يسرات وهي لاصقة . . . ذوابل مسهن الأرض تحليل

(111/490)

يعني : أن قوائم ناقته لا تمس الأرض لشدة خفتها إلا قدر تحليل القسم ، ومعلوم أنه لا يمين من ناقته أنها تمس الأرض حتى يكون ذلك المس تحليلاً لها كما ترى . وعلى هذا املعنى المعروف : فمعنى قوله صلى الله عليه وسلم « إلا تحلة » أي لا يلج النار إلا ولوجاً قليلاً جداً لا ألم فيه ولا حر ، كما قدمنا في حديث جابر المرفوع . وأقرب أقوال من قالوا : إن في الآية قسماً قوله من قال إنه معطوف على قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ [مريم : 68] لأن الجمل المذكورة بعده معطوفة عليه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ ﴾ [مريم : 96] وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ ﴾ [مريم : 70] لدلالة قرينة لام

القسم في الجمل المذكورة على ذلك . أما قوله : ﴿ كَانَ على ربِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ فهو محتمل للعطف أيضاً ، ومحتمل للاستئناف . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(112/490)

وقال المظهرى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسانُ ﴾

المراد به الجنس فإن قول بعضهم يسند إلى الجنس أو بعضهم المعهود قال البغوي المراد به أبى ابن خلف الجمحي كان منكرا للبعث روى انه أخذ عظما باليا ففتتها وقال يزعم محمد انا نبعث . بعد ما نموت - فحكى اللّه تعالى قوله حيث قال أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ من الأرض أو من حالة الموت حَيًّا (66) تقديم الظرف وايلاؤه حرف الإنكار لكون المنكر كون ما بعد الموت الحيوة - والظرف متعلق بفعل - دل عليه أخرج لا به لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبله - واللام ها هنا لمجرد التأكيد من غير ارادة معنى الحال - قرأ ابن ذكوان بهمزة واحدة مكسورة على صورة الخبر بحذف همزة الاستفهام في اللفظ والمراد معنى الإنكار والباقون بهمزتين .

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ قرأ نافع وعاصم وابن عامر بإسكان الذال وضم الكاف مخففك على وزن ينصر والباقون بفتح الكاف والذال مشددا أصله بتذكّر أدغمت التاء في الذال ومعناه يتفكر عطف على يقول أورد همزة الاستفهام بين المعطوف والمعطوف عليه لانكار الجمع بينهما وكان الأصل إدخالها على المعطوف عليه لكن أريد الدلالة على ان المنكر بالذات هو المعطوف وانكار المعطوف عليه انما نشأ منه أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67) أصلا مع ان إيجاز المعدوم الصرف اعجب من جمع المواد بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيها من الاعراض.

(113/490)

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾

أقسم بنفسه مضافا إلى نبيه تفخيما لشان النبي صلى اللّه عليه وسلم والفاء للسببية فإن إنكارهم البعث سبب لحشرهم مع الشياطين إلى جهنم لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ مفعول معه وجاز كونه معطوفا قال البغوي يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) حال من الضمير المنصوب قال ابن عباس يعنى جماعات جمع جثوة - وقال الحسن والضحاك جمع جاث أى جاثين على الركب - وقال السدىّ قائمين على

الركب بضيق المقام قلت يحضر اللّه حول جهنم جميع الناس السعداء والأشقياء ليزداد السعداء غبطة وسرورا حين يرون ما نجاهم اللّه منه ويزداد الأشقياء وحسرة وغيظا من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب أخرج عبد اللّه بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي عن عبد اللّه ابن نابتة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كانى أراكم بالكرم دون جهنّم جاثين - ثم قرأ سفيان راوى الحديث وترأى كلّ امّة جاثية الآية - قال ابن حجر المراد بالكرم المكان العالي الّذي يكون عليه أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم وكلمة ثم تدل على تراخى حضورهم حول جهنم من الحشر وذلك لاحتباسهم دهرا طويلا في الموقف قبل أن يفصل بينهم .

(114/490)

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أى من كل أمة واهل دين وأصله من شاع يشيع شيعا وشيوعا ومشاعا وشيوعة كديمومة وشيعانا محركة ذاع وفشا وشيعة الرجل بالكسر اتباعه والضارة والفرقة علحدة - ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث كذا في القاموس قلت وانما يطلق الشيعة على اتباع الرجل وأنصاره لأن الشيوع والانتشار يستلزم التقوية والاتباع والأنصار ينتشرون ويتقوى بهم امر المتبوع قال الجوهري الشياع الانتشار

والتقوية يقال شاع الحديث أى كثر وقوى وشاع القوم انتشروا وكثروا وشيعت النار بالحطب قوت بها والشيعة من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه - ولما كان كل أمة أهل دين ينتشرون بدينهم ويتقوى بهم أمرهم اطلق ها هنا عليه أَيُّهُمْ أَشَدُّ أى هو أشد عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) أى استكبارا أو تجاوزا عن الحد في العصيان كذا في القاموس - أو نبوا عن الطاعة قال البغوي قال ابن عباس يعنى جرأة وقال مجاهد فجورا - وكلمة عنيّا تميز من نسبة أشد يعنى أيهم أشد عتوة على الرّحمن وكلمة ايّ ها هنا في محل النصب على المفعولية لننزعنّ عند سيبويه - قال البيضاوي كان حقه ان يبنى كسائر الموصولات لشبهها بالحروف كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض الملزوم الاضافة وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى أصله - وعند الخليل مرفوع اما بالابتداء على انه استفهامى وخبره أشد والجملة محكية وتقديره لننزعنّ من كلّ شيعة الذين يقال فيهم ايّهم أشدّ - أو معلق عنها لننزعنّ لتضمّنه معنى التميز اللازم للعلم أو مستانفة وكلمة من للتبعيض أى لننزعنّ بعض كل شيعة أو زائدة والفعل واقع على كل شيعة واما لشيعة لانها بمعنى يشيع وعلى للبيان - .

(115/490)

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (70) أى لنحن اعلم بالّذين هم اولى بالصلي اوصليهم بالنار اولى - وكلمة ثم ها هنا للتراخى في الرتبة كما في قوله تعالى ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا - أو يقال هذا الكلام كناية عن قولهم ثم لنعذبنهم

فلا إشكال إذا التعذيب متاخر من الإحضار قيل اعلم ها هنا بمعنى العليم لاختصاص هذا العلم به تعالى وجاز ان يقال ان الكرام الكاتبين وغيرهم من الملائكة أيضا يعلمون الفاجر من التقى والسعيد من الشقي واللّه تعالى أعلم بذلك - قرأ حمزة والكسائي وحفص جثيّا وعتيّا وصليّا بكسر اوائلها كما ذكرنا في قوله تعالى وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا - والجمهور بضمها وهى على وزن فعول كما ذكرنا وقوله من كلّ شيعة ان كان يعمم الكفار والعصاة من المؤمنين ففى ذكر أشد تنبيه على انه تعالى يعفو كثيرا من أهل العصيان - ولو خص ذلك بالكفار على ما يقتضيه السياق كما اختاره البغوي واكثر المفسرين فالمراد انه يميّز طوائفهم أعتاهم فاعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب - أو يدخل كلّا طبقتها الّتي أعدت لهم أخرج ابن أبى حاتم والبيهقي عن ابن مسعود رضى اللّه عنه في الآية قال يحشر الأول على الاخر حتى إذا تكاملت العدة اثارهم ثم يبدا بالاكابر فالاكابر جرما ثم قرأ فو ربّك لنحشرنّهم إلى قوله عتيّا - وأخرج هناد عن أبى الأحوص في الآية قال يبدء الأكابر فالاكابر جرما - .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ ﴾

إن نافية ومنكم صفة لمحذوف أى ان أحد منكم إِلَّا وارِدُها أى جهنم قيل القسم مضمر أى واللّه ما منكم الّا واردها بدليل ما ورد في الأحاديث الا تحلة القسم وسنذكرها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً الحتم مصدر حتم الأمر إذا وجب يعنى واجبا أوجبه اللّه على نفسه مَقْضِيًّا (71) قضاه اللّه عليكم بان وعده وعدا لا يمكن خلفه . . . . . .

ثُمَّ نُنَجِّي عطف على مضمون ما سبق تقديره نوردكم جميعا في جهنم ثمّ ننجّى - قرأ الكسائي بالتخفيف من الافعال والباقون بالتشديد من التفعيل الَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك فيساقون إلى الجنة بلا تعذيب أو بعد التعذيب وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ أى الكافرين فِيها أى في النار جِثِيًّا (72) جميعا وقيل جاثين على الركب والمراد بالورود الدخول وإن كان بطريق المرور على الصراط الّذي هو على متن جهنم - وقال قوم من أهل الأهواء ليس المراد بالورود الدخول فانه من يدخلها لا ليخرج منها ابدا وقالوا النار لا يدخلها مؤمن ابدا لقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها - بل المراد به الحضور والروية فانهم يحضرون جميعا موضع الحساب وهو بقرب جهنم - ثم ينجى اللّه المتقين يأمرهم إلى الجنة ويذر الظالمين فيها جثيا يأمرهم إلى النار - نظيره قوله تعالى ولمّا ورد ماء مدين وقد كان موسى اشرف عليه ولم يدخله ويؤيده

ما رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند لا بأس به عن معاذ بن أنس عن النبي صلى اللّه عليه وسلم انه قال من حرس وراء المسلمين في سبيل اللّه متطوعا لا يأخذ السلطان لم ير النار بعينه الا تحلة القسم وان اللّه تعالى يقول وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها - قلنا اطلاق الورود على الاشراف والحضور والروية تجوز لا يجوز ارتكابه الا لضرورة ولا ضرورة ها هنا ويأبى عن هذا التأويل قوله تعالى ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا لأن الانجاء والترك فيها لا يتصور الا بعد الدخول ولا دليل في الحديث على عدم الدخول فانه يثبت الروية تحلة القسم ولا ينفى الدخول ومعنى قوله تعالى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ بعد ورودهم لا يسمعون حسيسها إذ ابعدوا - وقيل لا يسمعون حسيسها عند ورودهم النار لأن اللّه تعالى يجعلها عليهم بردا وسلما - أخرج هناد والطبراني والبيهقي عن خالد بن معدان قال إذا ادخل أهل الجنة الجنة قالوا ربنا الم تعدنا انا نرد النار - قال بلى ولكنّكم مررتم عليها وهى خامدة وأخرج ابن عدى والطبراني عن يعلى بن امية عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى ولنا على كون الورود بمعنى الدخول ولو على سبيل المرور ما أخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن أبى سميّه قال اختلفنا

في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن - وقال بعضنا يدخلونها جميعا ثمّ ننجى الّذين اتّقوا فلقيت جابر بن عبد اللّه فذكرت له فقال وأهوى بإصبعيه إلى اذنيه صمننا ان لم أكن سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها - فيكون على المؤمن بردا وسلما كما كانت على ابراهيم - حتى ان للنار ضجيجا من بردهم ثمّ ننجّى الّذين اتّقوا ونذر الظّالمين فيها جثيّا - وذكر البغوي انه روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الأزرق

(118/490)

ما روى عن ابن عباس رضى اللّه عنه في معنى الورود - فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فتلا ابن عباس إنّكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنّم أنتم لها واردون - أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع أما أنت وأنا سنروها وأنا أرجو أن يخرجنى اللّه وما أرى اللّه ليخرجك بتكذيبك - وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقي عن مجاهد قال خاصم نافع بن الأزرق فذكر نحو ذلك وقال قراح ابن عباس انّكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنّم وأنتم

(119/490)

لها واردون قال وردوا أم لا وقرأ يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النّار أوردها أم لا – اما انا وأنت فسندخلها فانظر هل تخرج منها أم لا وأخرج من طريق العوفى عن ابن عباس في قوله تعالى ان منكم الّا واردها يعنى البر والفاجر الم تسمع قوله تعالى فاوردهم النّار وبئس الورد المورود وقوله تعالى ونسوق المجرمين إلى جهنّم وردا – وأخرج الحاكم عن ابن مسعود انه سئل عن قوله تعالى وان منكم الّا واردها قال وان منكم الّا داخلها وأخرج البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال لا يبقى أحد الا دخلها فهذه الآيات مفسرة للورود بالدخول – وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن مسعود في قوله تعالى وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم فاوّلهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحفر ؟ ؟ ؟ الفرس ثم كالراكب في رحله ثم كشد الرجل ثم كمشيه وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال يرد الناس جميعا ورودهم قيامهم حول النار ثم يصدون عن الصراط بأعمالهم فمنهم مثل البرق ومنهم من يمرّ مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ومنهم من يمر كاجز والخيل ومنهم من يمرّ كاجود الا ؟ ؟ ؟ ل ومن يمرّ كعدو الرجل حتى ان آخرهم سيرا نوره على موضع إبهام قدميه يمر يتكفاء به الصراط وأخرجها الشيخان عن أبى هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار الا تحلة القسم – ثم قرأ سفيان وان منكم الّا

واردها - وأخرج الطبراني عن عبد بن بشير الأنصاري قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من قات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم يرد الا عابر سبيل يعنى الجواز على الصراط - وأخرج ابن جرير عن غنيم بن قيس قال ذكروا ورود النار فقال كعب تمسك النّار الناس كانها بين اهالة حتى يستوى عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم - ثم ينادى مناد أن

(120/490)

أمسكي أصحابك ودعي أصحابي - قال فيخسف بكل ولى لها هى اعلم بهم من الرجل بولده يخرج المؤمنون ندية ثيابهم قال السيوطي فسر بعض علماء أهل السنة الورود بالدخول وهو أحد القولين في الآية ورجّهه القرطبي واستشهد بحديث جابر ونحوه ومنه بعضهم بالمرور على الصراط ورحجه النووي واستشهد بما روى عن ابن مسعود وفيه ذكر المرور على الصراط وحديث أبى هريرة ونحوهما قلت إذا كان الصراط على متن جهنم فالمرور يستلزم الدخول ولا يقضى الدخول الوقوع في النار ألبتة ولذلك قلت فالمراد بالورود الدخول وان كان على طريق المرور على الصراط جميعا بين الأحاديث فان قيل قول الحسن الورود الممر عليها من غير ان يدخلها (كذا أخرج البيهقي عنه) على ان المروي غير

الدخول – قلت المراد بالدخول في قول الحسن الوقوع والاستقرار في النار لا مطلق الدخول هكذا

(121/490)

فيما أخرج هناد عن حفصة انها قالت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم انى لارجو ان لا يدخلها أحد شهد بدر أو الحديبية – قالت يا رسول اللّه أليس اللّه يقول وان منكم الّا واردها كان على ربّك حتما مقضيّا – قال الم تسمعية قال ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا – المراد فيه بعدم الدخول عدم الوقوع والاستقرار بدليل قوله الم تسمعيه قال ثمّ ننجّى – فان هذا الجواب صريح في ان المراد بعدم الدخول عدم الاستقرار الّذي مفاد الانجاء وقال السيوطي قد اشفق كثير من السلف من تحقيق الورود واحتمال الصدور – أخرج هناد واحمد في الزهد وسعيد بن منصور والحاكم والبيهقي عن حازم بن أبى حازم رضى اللّه عنه قال بكى عبد اللّه بن رواحة رضى اللّه عنه فقالت امرأته ما يبكيك قال انى انبئت انى وارد النار ولم انباء انى صادر وأخرج هناد والبيهقي عن أبى إسحاق قال قام أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل إلى فراشة فقال ليت أمي لم تلد في فقالت امرأته لم فقال لأن اللّه أخبرنا انا واردو النار ولم يبين انا صادرون عنها وأخرج أحمد في

الزهد عن الحسن قال قال رجل لاخيه هل أتاك انّك وارد النار قال نعم فقال فهل أتاك انك صادر عنها قال لا – قال ففيم الضحك إذا فما رئى ضاحكا حتّى مات – . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المظهرى حـ 6 صـ 109.114 ﴾

(122/490)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » . .

هو إنكار لهذا القول المنكر الذي يقوله الذين لا يؤمنون بالبعث ، وهو استبعادهم أن يبعث الموتى ، بعد أن تبلى أجسادهم ، وتحلل وتصير ترابا . .

والإنسان هنا ليس إنسانا بعينه ، وإنما هو جنس للإنسان ، يدخل فيه كل من يقول هذا القول ، ويعتقده . .

وقوله تعالى : « أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً » . .

هو ردّ على هذا الإنسان الذي يمثل الإنسانية الضالة المنكرة للبعث ، التي يقال على لسانها هذا القول : « أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ؟ » أفلا يذكر هذا الإنسان كيف كان

خلقه ؟ ثم ألا يذكر أين كان هو قبل أن يولد ؟ لقد كان عدما ، لا وجود له ، ثم صار هذا الكائن الذي يقف من ربّه موقف المحادّ المحارب ؟

(123/490)

ثم لينظر هذا الإنسان : أخلق مخلوق من عدم . . أهون ، أم خلق مخلوق من بقايا مخلوق ؟ لينظر فى هذه القضية على مستواه البشرىّ ، وسيرى أن إيجاد شىء من عدم مستحيل استحالة مطلقة ، أما إيجاد شىء من حطام شىء ، فهو واقع فى حدود الإمكان ، المتاح للإنسان . . ! !

فإذا كان ذلك كذلك فى حدود الإنسان ، المخلوق ، الضعيف . . أفيعجز اللّه القادر القوىّ ، الذي خلق الإنسان من عدم - أن يعيد هذا الإنسان مرة أخرى ، بعد أن يرجعه إلى العدم ، أو ما يشبه العدم ؟ . .

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا . . وَنَسِيَ خَلْقَهُ . . قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ . . وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (78 - 79 : يس) . .

قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا . . »

الخطاب هنا للنبىّ ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، وفى القسم له بربّه وإضافته إلى ربّه ،

تكريم عظيم له ، واستدناء له من ربّه ، وإفضاء إليه بهذا الخبر ، الذي يردع الظالمين ويفزعهم . .

فهؤلاء المشركون ، الضالون ، المكذبون بيوم الدّين ، سيحشرون مع الشياطين ، حشرا واحدا ، يجمع بينهم . . إذ كانوا على شاكلة واحدة . . ثم هم بعد هذا الحشر مدعرون إلى جهنم ، يساقون إليها سوقا ، ويجتمعون حولها ، جاثين على ركبهم ، فى هوان وذلة ، حيث يشهدون بأعينهم المنزل الذي سينزلونه منها ! قوله تعالى :

« ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا » . .

ننزعن : نخرجنّ ، والنزع إخراج الشيء بشدة وقوة ، وقهر .

والشيعة : الجماعة على رأى واحد ، يلتقون عنده ، ويتناصرون عليه . .

والعتىّ : العتو ، والمشاقّة ، والخلاف القائم على الظلم . .

(124/490)

والصّلىّ : الاصطلاء بالنار والقرب منها ، والمراد به هنا : الاحتراق بها . .

والآيتان تصوران بعض مشاهد القيامة ، وما يقع للظالمين ، والضالين ، من أهوال فى هذا

اليوم العظيم . .

ففى هذا اليوم يحضر المجرمون جميعا ، حول جهنّم ، جاثين على ركبهم ، حيث لا يستطيعون القيام على أرجلهم ، مما أصابهم من هول ، انحلّت به عزائمهم ، وانهدّت منه قواهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيامٍ » (45 : الذاريات) . .

ثم إذا اجتمع جمع هؤلاء المجرمين حول جهنم ، انتزع من بينهم أئمة الضلال فيهم ، وقادة الكفر منهم ، ثم يلقى بهم فى جهنم ، حيث يشهد أتباعهم بأعينهم ما يلقون من بلاء ، سيلقونه هم عما قليل ، وحيث يرى هؤلاء الأئمة أن زعامتهم وإمامتهم فى الدنيا ، لم تكن إلّا وبالا عليهم ، وأن أتباعهم أحسن حالا منهم ، وأن مواقع الضّلال والفتن ، وإن كانت كلها سوءا ووبالا ، فإن المتأخر فيها خير من المتقدم ، والتابع أدنى إلى السلامة من المتبوع . .

وفى المثل : « كن فى الفتنة ذنبا » ! . وفى قوله تعالى : « أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا » . فى هذا ما يسأل عنه . .

وهو : لم عدّى المصدر « عتىّ » بحرف الجرّ « على » الذي يفيد الاستعلاء . .

بمعنى « أيهم أشد عتيّا على الرحمن » . . وكان يمكن أن يكون النظم هكذا :

« أيهم أشد للرحمن عتيّا » بتعدية المصدر بحرف الجرّ « اللام » الذي يفيد الملك ، ثم التفلّت من هذا الملك ! ! فما سرّ هذا ؟

نقول : . والله أعلم . إنّ ذكر الصفة الكريمة « الرحمن » هنا ، دون صفات المولى جلّ وعلا ،

كالقوىّ والعزيز ، والقادر - إن هذا يشير إلى شناعة هذا الجرم الذي يتلبس به المجرمون ، ويتخذون به موقفا معاديا ، ومحاربا ،

(125/490)

لأرحم الراحمين ، الذي لو شاء لمسخهم قردة وخنازير ، ولو شاء لرماهم بكل داء ، ولأخذ سمعهم ، وأبصارهم ، وسلط عليهم من الأوبئة ما يجعل أنفاسهم تتقطع أنينا وصراخا . . إلى غير ذلك مما فى قدرة اللّه ، ومما رأوا منه ما رأوا فى بعض الناس منهم . . فهؤلاء المجرمون - وتلك رحمة اللّه بهم - يخرجون عن طاعة الرحمن ، بل ويحاربونه ، بل ويستعلون على الولاء له ، والانقياد لأمره . .

والصّورة تمثل معركة بين هؤلاء العتاة المجرمين ، وبين رحمة اللّه . . حيث تدعوهم الرحمة إلى رحابها ، وتفسح لهم الطريق إليها ، وهم يتأبّون عليها ، ويتفلّتون منها . . فهم فى هذا أشبه بالمغالبين لرحمة اللّه ، وهذا أسوأ ما يمكن أن تكون عليه حال إنسان . . من شقاء غليظ ، لا تنفذ إليه فيه بارقة من رجاء فى عافية ، أو خروج من بلاء . . !

الآيات : (71 - 72) [سورة مريم (19) : الآيات 71 الى 72]

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ

الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72)

التفسير :

قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا » .

[جهنم . . هل يردها الناس جميعا ؟]

الضمير فى واردها يعود إلى جهنم ، المذكورة فى قوله تعالى : « ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » . .

(126/490)

أمّا الضمير فى « منكم » فقد اختلف فيه ويكاد إجماع المفسّرين ينعقد على أن المراد به الناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم . . بمعنى أن كلّ إنسان ، حتى الأنبياء ، والرسل ، سيردون النار ويمرّون بها ، ويشهدون أهوالها ، دون أن يصيبهم منها أذى ، بل ستكون بردا ، وسلاما عليهم . . ويأتون على هذا الرأى بأحاديث ، وأقوال تشهد له ! ! ثم يقوى من هذا الرأى عندهم قوله تعالى : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا » ! ثم هم - من جهة أخرى - يدفعون ما قد يثور فى النفس من تخوّف على المؤمنين من هذه

التجربة التي يمرّون بها ، والتي إن سلمت منها أجسامهم ، فلن تسلم منها مشاعرهم - هم يدفعون هذا ، بأن المؤمنين حين يمرّون بجهنم ، ثم يخلصون منها إلى الجنة ، يشهدون عظمة النعمة وجلالها ، التي أنعم اللّه بها عليهم ، إذ عافاهم من هذا البلاء العظيم ، الذي رأوه رأى العين ! ! ونحن نردّ هذا القول ، ونأخذ بما هو أولى وأكرم بكرم اللّه ، وفضله ، وقدرته على إبلاغ نعمته إلى عباده المخلصين ، خالصة من كل شائبة أو كدر ! فنقول : إن الضمير فى « منكم » يعود إلى هؤلاء المجرمين الذين سيقوا إلى جهنم ، واجتمعوا حولها جاثين على ركبهم ، لم يدخلوها بعد . . ثم ينتزع من بينهم أئمتهم ، وقادة الضلال والكفر فيهم ، فيلقى بهم فى جهنم . . كما جاء فى قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا » .

وإلى هنا لم يكن قد انكشف أمر الأتباع ، المتعلقين بهؤلاء الأئمة . .

فجاء قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها » ليكشف لهؤلاء الأتباع عن مصيرهم

وأنهم مأخوذون بما أخذ به هؤلاء القادة الذين سبقوهم إلى جهنم ! « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها . . كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا » أي أمرا قضى به اللّه سبحانه وتعالى على الظالمين ، من

الكافرين ، والمشركين ، وأصحاب الضلالات أن يردوا جهنم ، وأن يقفوا على هذا المورد الوبيل ، كما يقول سبحانه وتعالى : « إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً » (140 : النساء) وكما يقول جل شأنه : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (119 : هود) وكما يقول سبحانه : « إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ » (98 : الأنبياء) . . فجهنم هى الحكم الذي قضى به الحق جل وعلا على أهل الشّقوة من الناس . .

ثم إنه ليس يصحّ أن يكون من تكريم المؤمنين فى هذا اليوم ، وعلى رأسهم الأنبياء ، والرسل والصديقون ، والأولياء ، والأبرار ، والشهداء - ليس يصح أن يكون من مظاهر تكريمهم أن يدخلوا فى هذه التجربة القاسية ، وأن يردوا هذا المورد الجهنمى ، وهم إنما سعوا إلى اللّه ، وأحبّوا لقاءه ، ليخلصوا من أكدار الدنيا . . فهل مما يقع فى التصور أن يكون أول ما يلقونه فى الآخرة ، هو هذا الوجه الكريه المشئوم منها ، وهو جهنم ؟

وكيف يرد المؤمنون وعلى رأسهم الأنبياء والرسل ، هذا المورد الذي لا يرده إلّا الخاطئون ، والذي يصفه الحق تبارك وتعالى بقوله عن فرعون :

« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » (98 : هود) ؟

ثم كيف ، والله سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ

(128/490)

لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ »

(101.103 : الأنبياء) فهذا صريح قول الله تعالى ، فيما يلقى المؤمنون الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، من كرامة ، وتكريم ، فى هذا اليوم ، إنهم مبعدون عن جهنم ، لا يسمعون حسيسها . . فكيف يردونها ؟ ثم كيف يدخلونها ؟ إنه على أي حال دخول فى محيط هذا البلاء العظيم ، وإن خرجوا منه من غير أن يصيبهم من لظاها أذى ! والمثل يقول : « حسبك من شرّ سماعه » فكيف بلقائه ، والانغماس فيه ؟

ـ أما قوله تعالى : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا » . . فهو معطوف على قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا » . .

فهذه الآيات تصور موقف الضالين والكافرين يوم القيامة ، وما يلقون من بلاء وهوان ، وأنهم

جميعا واردون جهنم على دفعات . . الرؤساء أولا . . ثم المرءوسون ثانيا . .

.وفى قوله تعالى : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » بيان لما يكون للمتقين ، ولعباد اللّه المكرمين فى هذا اليوم من تكريم ، حيث يفوزون بالنجاة من هول هذا اليوم ، ومن عذابه الأليم . . كما يقول سبحانه « فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » (11 : الإنسان) . .

أما أهل الشّقوة فيتركون على ما هم فيه من بلاء وضنك ، ونكال ، حيث يشهدون بأعينهم هذا الركب الميمون ، تزفه ملائكة الرحمن ، إلى جنات النعيم ، وإلى ما يرزقون فيها من كل طيب وكريم . .

(129/490)

وتقديم الفصل هنا فى أمر أصحاب النار ، على الفصل فى أصحاب الجنة ، هو الذي تجىء عليه أحداث القيامة يومئذ ، حيث يؤتى بالمجرمين أولا . ثم يقضى فيهم بدخول النار . . ثم يجاء بالمؤمنين فيقضى فيهم بدخول الجنة . .

وحكمة هذا ، هى أن يعجل لأهل النار بالنار ، حتى تنقطع آمالهم من أول الأمر ، بأن لا مكان لهم فى الجنة ، وأن لا مطمع لهم فى أن يكونوا من الناجين ، وذلك مما لا يتحقق ، لو

بدىء بالفصل فى أصحاب الجنة ، حيث يعيش المجرمون لحظات تداعبهم فيها الآمال ، وتتحرك فى نفوسهم الأطماع أنهم قد يكونون فى هؤلاء الآخذين طريقهم إلى الجنة ، وأن دورهم لم يأت بعد ، كما يقول سبحانه :

« وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ . . وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ . . لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ » (46 : الأعراف) .

وفى تقديم الفصل فى أصحاب النار على الفصل فى أصحاب الجنة ، جاء قوله تعالى : « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً . . » (69 ـ 73 : الزمر) .

(130/490)

وجاء قوله تعالى أيضا : « يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »

(105 . 108 : هود) .

هذا ويمكن أن تؤوّل الآية الكريمة على وجه آخر ، وهو أن قوله تعالى :

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها » يراد به أهل النار جميعا ، على اختلاف حظوظهم السيئة منها . . سواء فى هذا من يخلدون فى النار من الكافرين والمشركين والمنافقين ، أو من كان من المؤمنين ، أصحاب الكبائر والصغائر . .

ثم يجىء قوله تعالى بعد ذلك : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا » محتملا أن يراد به بعض أهل النار ، وهم أولئك المؤمنون من أصحاب المنكرات . . فهؤلاء - لا شك - غير مخلدين فى النار ، وإنما هم فيها أشبه بالمسجونين سجنا مؤقتا ، سيخرجون منه حتما بعد استيفاء المدة المحكوم على كل واحد منهم بها . . ثم بعد هذا قوله تعالى : « وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا » مبينا المصير الذي يعيش فيه الظالمون من الكافرين ، والمشركين ، والمنافقين ، بعد أن انكشف المصير الذي صار إليه من كانوا معهم فى النار من عصاة المؤمنين . . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 8 صـ 753 . 761 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

لما تضمن قوله ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ [مريم : 65] إبطالَ عقيدة الإشراك به ناسب الانتقالُ إلى إبطال أثر من آثار الشرك .

وهو نفي المشركين وقوع البعث بعد الموت حتى يتمّ انتقاض أصلي الكفر .

فالواو عاطفة قصة على قصة ، والإتيان بفعل ﴿ يَقول ﴾ مضارعاً لاستحضار حالة هذا القول للتعجيب من قائله تعجيب إنكار .

والمراد بالإنسان جَمع من الناس بقرينة قوله بعده ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ [مريم : 68] ، فيراد من كانت هاته مقالتَه وهم معظم المخاطبين بالقرآن في أوّل نزوله .

ويجوز أن يكون وصفٌ حُذف ، أي الإنسان الكافر ، كما حذف الوصفُ في قوله تعالى : ﴿ يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [الكهف : 79] ، أي كلّ سفينة صالحة ، فتكون كقوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [القيامى : 3 ، 4] .

وكذلك إطلاق الناس على خصوص المشركين منهم في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ [البقرة : 21] إلى قوله ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : 23] فإن ذلك خطاب للمشركين .

وقيل تعريف ﴿ الإنسان ﴾ للعهد لإنسان معين .

فقيل ، قائل هذا أُبَي بن خلف ، وقيل : الوليد بن المغيرة .

والاستفهام في ﴿ أإذا ما متّ لسوف أخرج حياً ﴾ إنكار لتحقيق وقوع البعث ، فلذلك أتي بالجملة المسلّطِ عليها الإنكار مقترنةً بلام الابتداء الدالة على توكيد الجملة الواقعة هي فيها ، أي يقول لا يكون ما حققتموه من إحيائي في المستقبل .

ومتعلق ﴿ أُخرَجُ ﴾ محذوف أي أُخرج من القبر .

وقد دخلت لام الابتداء في قوله ﴿ لسَوفَ أُخرَجُ حيّاً ﴾ على المضارع المستقبل بصريح وجود حرف الاستقبال ، وذلك حجّة لقول ابن مالك بأن لام الابتداء تدخل على المضارع المراد به الاستقبال ولا تخلصه للحال .

(132/490)

ويظهر أنه مع القرينة الصريحة لا ينبغي الاختلاف في عدم تخليصها المضارع للحال ، وإن صمّم الزمخشري على منعه ، وتأول ما هنا بأنّ اللام مزيدة للتوكيد وليست لام الابتداء ، وتأوله في قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] بتقدير مبتدأ محذوف ، أي ولأنت سوف يعطيك ربّك فترضى ، فلا تكون اللام داخلة على المضارع ، وكلّ ذلك تكلّف لا مُلجىء إليه .

وجملة ﴿ أو لا يذكر الإنسان ﴾ معطوفة على جملة ﴿ يقول الإنسان ﴾ ، أي يقول ذلك ومن النكير عليه أنّه لا يتذكّر أنا خلقناه من قبل وجوده .

والاستفهام إنكار وتعجيب من ذهول الإنسان المنكر البعث عن خلقه الأول .

وقرأ الجمهور ﴿ أو لا يذْكُر بسكون الذال وضمّ الكاف من الذُكر بضم الذال .

وقرأه أبو جعفر بفتح الذال وتشديد الكاف على أن أصله يتَذكر فقلبت التاء الثانية ذالاً لقرب مخرجيهما .

والشيء : هو الموجود ، أي إنا خلقناه ولم يك موجوداً .

و(قَبْلُ) من الأسماء الملازمة للإضافة .

ولما حذف المضاف إليه واعتبر مضافاً إليه مجملاً ولم يراع له لفظ مخصوص تقدّم ذكره بنيت (قبلُ) على الضمّ ، كقوله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ [الروم : 40] .

والتقدير : إنا خلقناه من قبل كلّ حالة هو عليها ، والتقدير في آية سورة الروم : لله الأمر من

قبلِ كل حَدث ومِن بعده .

والمعنى : الإنكار على الكافرين أن يقولوا ذلك ولا يتذكروا حال النشأة الأولى فإنها أعجب عند الذين يَجرون في مداركهم على أحكام العادة ، فإن الإيجاد عن عدم من غير سبق مثال أعجبُ وأدعى إلى الاستبعاد من إعادة موجودات كانت لها أمثلة .

ولكنها فسدت هياكلها وتغيرت تراكيبها .

وهذا قياس على الشاهد وإن كان القادر سواءً عليه الأمران .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾

الفاء تفريع على جملة ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ﴾ [مريم : 67] ، باعتبار ما تضمنته من التهديد .

وواو القسم لتحقيق الوعيد .

(133/490)

والقسم بالرب مضافاً إلى ضمير المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم إدماج لتشريف قدره .

وضمير ﴿ لنحشرنهم ﴾ عائد إلى ﴿ الإنسان ﴾ [مريم : 66] المراد به الجنس

المفيد للاستغراق العرفي كما تقدم ، أي لنحشرن المشركين .

وعطف (الشياطين) على ضمير المشركين لقصد تحقيرهم بأنهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده ، وللإشارة إلى أن الشياطين هم سبب ضلالهم الموجب لهم هذه الحالة ، فحشرهم مع الشياطين إنذار لهم بأن مصيرهم هو مصير الشياطين وهو محقق عند الناس كلهم .

فلذلك عطف عليه جملة ﴿ ثم لنُحضِرنّهم حول جهنّم جثيّاً ﴾ ، والضميرُ للجميع .

وهذا إعداد آخر للتقريب من العذاب فهو إنذار على إنذار وتدرج في إلقاء الرّعب في قلوبهم .

فحرف ﴿ ثم للترتيب الرتبي لا للمهلة إذ ليست المهلة مقصودة وإنما المقصود أنهم ينقلون من حالة عذاب إلى أشد .

وجثيّاً ﴾ حال من ضمير ﴿ لنحضرنهم ﴾ ، والجُثيّ : جمع جَاثٍ .

ووزنه فُعول مثل : قاعد وقُعود وجالس وجُلوس ، وهو وزن سماعيّ في جمع فاعل .

وتقدّم نظيره ﴿ خروا سجداً وبكياً ﴾ [مريم : 58] ، فأصل جُثي جُثُور بواوَين لأن فعله واوي ، يقال : جثا يَجثو إذا بَرك على ركبتيه وهي هيئة الخاضع الذليل ، فلمّا اجتمع في جثوٌ واوان استثقلا بعد ضمّة الثاء فصير إلى تخفيفه بإزالة سبب الثقل السابق وهو الضمة فعوضت بكسر الثاء ، فلمّا كسرت الثاء تعين قلب الواو الموالية لها ياءً للمناسبة

فاجتمع الواو والياء وسبق أحدهما بالسكون فقلبت الواو الأخرى ياء وأدغمتا فصار جثي .

وقرى حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف بكسر الجيم وهو كسر إتباع لحركة الثاء .

وهذا الجثو هو غير جثوّ الناس في الحشر المحكيّ بقوله تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ [الجاثية : 28] فإن ذلك جثوّ خضوع لله ، وهذا الجثوّ حول جهنّم جثوّ مذلّة .

والقول في عطف جملة ﴿ ثمّ لننزعنّ من كلّ شيعة ﴾ كالقول في جملة ﴿ ثمّ لنحضرنهم ﴾ .

(134/490)

وهذه حالة أخرى من الرّعب أشدّ من اللتين قبلها وهي حالة تمييزهم للإلقاء في دركات الجحيم على حسب مراتب غلوّهم في الكفر .

والنزع : إخراج شيء من غيره ، ومنه نزع الماء من البئر .

والشيعة : الطائفة التي شاعت أحداً ، أي اتّبعته ، فهي على رأي واحد .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ﴾ في سورة الحِجر (10

) .

والمراد هنا شيع أهل الكفر ، أي من كلّ شيعة منهم .

أي ممن أحضرناهم حول جهنّم .

والعُتِيّ : العصيان والتجبّر ، فهو مصدر بوزن فُعول مثل : خروج وجلوس ، فقلبت الواو ياء .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف بكسر العين إتباعاً لحركة التاء كما تقدّم في جثياً .

والمعنى : لنميزنّ من كلّ فرقة تجمعها محلة خاصة من دين الضلال من هو من تلك الشيعة أشدّ عصياناً لله وتجبّراً عليه .

وهذا تهديد لعظماء المشركين مثل أبي جهل وأميّة بن خلف ونظرائهم .

و(أيّ) اسم موصول بمعنى (ما) و (من) .

والغالب أن يحذف صدر صلتها فتبنى على الضم .

وأصل التركيب : أيهم هو أشدّ عتياً على الرحمان .

وذكر صفة الرحمان هنا لتفظيع عتوّهم ، لأنّ شديد الرّحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان .

ولمّا كان هذا النّزع والتمييز مجملاً ، فقد يزعم كل فريق أن غيره أشدّ عصياناً ، أعلم الله

تعالى أنّه يعلم من هو أولى منهم بمقدار صُلي النّار فإنّها دركات متفاوتة .

والصُلْيُ : مصدر صَلِيَ النار كرضي ، وهو مصدر سماعي بوزن فعول .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف بكسر الصاد اتباعاً لحركة اللاّم ، كما تقدم في جثيّاً .

وحرفا الجر يتعلقان بأفعلي التفضيل .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(135/490)

لمّا ذكر انتزاع الذين هم أولى بالنّار من بقية طوائف الكفر عطف عليه أنّ جميع طوائف الشرك يدخلون النار ، دفعاً لتوهم أنّ انتزاع من هو أشد على الرحمان عتياً هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب ؛ بأن يحسبوا أنّ كبراءهم يكونون فداء لهم من النّار أو نحو ذلك ، أي وذلك الانتزاع لا يصرف بقية الشيع عن النّار فإن الله أوجب على جميعهم النّار .

وهذه الجملة معترضة بين جملة ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ [مريم : 68] الخ وجملة ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا ﴾ [مريم : 73] الخ . . .

فالخطاب في ﴿ وإن منكم ﴾ التفات عن الغيبة في قوله ﴿ لنحشرنّهم ولنحضرنّهم ﴾ [

مريم : 68] ؛ عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة فإن ضمير الخطاب أعرَف من ضمير الغيبة .

ومقتضى الظاهر أن يقال : وإن منهم إلا واردها .

وعن ابن عبّاس أنّه كان يقرأ ﴿ وإن منهم .

وكذلك قرأ عِكرمة وجماعة .

فالمعنى : وما منكم أحد ممن نُزِع من كلّ شيعة وغيرِه إلاّ واردُ جهنّم حتماً قضاه الله فلا مبدل لكلماته ، أي فلا تحسبوا أن تنفعكم شفاعتهم أو تمنعكم عزّة شِيعكم ، أو تُلقون التبعة على سادتكم وعظماء أهل ضلالكم ، أو يكونون فداء عنكم من النّار .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ [الحجر : 42 ، 43] ، أي الغاوين وغيرهم .

وحرف (إنْ) للنفي .

والورود : حقيقته الوصول إلى الماء للاستقاء .

ويطلق على الوصول مطلقاً مجازاً شائعاً ، وأما إطلاق الورود على الدخول فلا يُعرف إلا أن يكون مجازاً غير مشهور فلا بد له من قرينة .

وجملة ﴿ ثمّ ننجي الذين اتّقوا ﴾ زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنّهم خالدون في العذاب ، فليس ورودهم النّار بموقّت بأجل .

و ﴿ ثمّ ﴾ للترتيب الرتبي تنويهاً بإنجاء الذين اتّقوا وتشويهاً بحال الذين يبقون في جهنم جُثيّاً .

فالمعنى : وعلاوة على ذلك ننجي الذين اتّقوا من ورود جهنم .

وليس المعنى : ثمّ ينجي المتقين من بينهم بل المعنى أنهم نَجَوْا من الورود إلى النّار .

وذكر إنجاء المتقين : أي المؤمنين ، إدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين .

وجملة ﴿ ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ عطف على جملة ﴿ وإن منكم إلاّ واردها ﴾ .

والظالمون : المشركون .

والتعبير بالّذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار .

والأصل : ونذركم أيها الظالمون .

ونذر : نترك ، وهو مضارع ليس له ماض من لفظه ، أمات العرب ماضي (نذر) استغناء عنه بماضي (ترك) ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ في سورة الأنعام (91) .

فليس الخطاب في قوله وإن منكم إلاّ واردها ﴾ لجميع النّاس مؤمنهم وكافِرِهم على معنى

ابتداء كلام ؛ بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النّار مع الكافرين ثم يُنْجوَن من عذابها ، لأنّ هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق ، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة ، ولأنّ فضل الله على المؤمنين بالجنّة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مَساقاً واحداً ، كيف وقد صُدّر الكلام بقوله

﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ﴾ [مريم : 68] وقال تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمان وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ً ﴾ [مريم : 85 ، 86] ، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين .

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ [الحجر : 43] عقب قوله ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : 42] .

فلا يتوهم أن جهنّم موعد عباد الله المخلصين مع تقدّم ذكره لأنّه ينبو عنه مقام الثناء .

(137/490)

وهذه الآية مثار إشكال ومحطّ قيل وقال ؛ واتفق جميع المفسرين على أن المتّقين لا تنالهم نار جهنّم ، واختلفوا في محل الآية فمنهم من جعل ضمير ﴿ منكُم ﴾ لجميع المخاطبين

بالقرآن ، ورووه عن بعض السلف فصدمَهم فساد المعنى ومنافاة حكمة الله والأدلّة الدالة على سلامة المؤمنين يومئذ من لقاء أدنى عذاب ، فسلكوا مسالك من التّأويل ، فمنهم من تأوّل الورود بالمرور المجرد دون أن يمس المؤمنين أذى ، وهذا بُعد عن الاستعمال ، فإن الورود إنما يراد به حصول ما هو مودع في المَورد لأنّ أصله من وُرود الحوض .

وفي آي القرآن ما جاء إلاّ لمعنى المصير إلى النّار كقوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ [الأنبياء : 98 ، 99] وقوله ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ [هود : 98] وقوله ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرداً ﴾ [مريم : 86] .

على أن إيراد المؤمنين إلى النّار لا جدوى له فيكون عبثاً ، ولا اعتداد بما ذكره له الفخر ممّا سمّاه فوائد .

ومنهم من تأوّل ورود جهنّم بمرور الصراط ، وهو جسر على جهنّم ، فساقوا الأخبار المروية في مرور الناس على الصراط متفاوتين في سُرعة الاجتياز .

وهذا أقل بُعداً من الذي قبله .

وروى الطبري وابن كثير في هذين المحملين أحاديث لا تخرج عن مرتبة الضعف مما رواه أحمد في "مسنده" والحكيمُ التّرمذي في "نوادر الأصول" .

وأصح ما في الباب ما رواه أبو عيسى الترمذي قال : "يرد النّاس النّار ثمّ يصدرون عنها بأعمالهم" الحديث في مرور الصراط .

(138/490)

ومن النّاس من لفق تعضيداً لذلك بالحديث الصحيح : أنه "لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النّار إلاّ تَحلة القسم" فتأول تحلة القسم بأنها ما في هذه الآية من قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلاَّ واردها ﴾ وهذا محمل باطل ، إذ ليس في هذه الآية قسم يتحلل ، وإنّما معنى الحديث : إن من استحق عذاباً من المؤمنين لأجل معاص فإذا كان قد مات له ثلاثة من الولد كانوا كفارة له فلا يلج النّار إلاّ ولوجاً قليلاً يشبه ما يفعل لأجل تحلة القسم ، أي التحلل منه .

وذلك أن المقسم على شيء إذا صعب عليه بر قسمه أخذ بأقل ما يتحقق فيه ما حلف عليه ، فقوله "تحلة القسم" تمثيل .

ويروى عن بعض السلف روايات أنّهم تخوفوا من ظاهر هذه الآية ، من ذلك ما نقل عن عبد الله بن رواحة ، وعن الحسن البصري ، وهو من الوقوف في موقف الخوف من شيء محتمل .

وذكر فعل ﴿ نَذَرُ ﴾ هنا دون غيره للإشعار بالتحقير ، أي نتركهم في النار لا نعبأ بهم ، لأن في فعل الترك معنى الإهمال .

والحتم : أصله مصدر حتمه إذ جعله لازماً ، وهو هنا بمعنى المفعول ، أي محتوماً على الكافرين ، والمقضي : المحكوم به .

وجُثِيّ تقدم .

وقرأ الجمهور ﴿ ثمّ تنَجِّي ﴾ بِفَتح النون الثانية وتشديد الجيم ، وقرأه الكسائي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(139/490)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

ما المراد بالإنسان ؟ الإنسان تُطلق ويُراد بها عموم أي إنسان مثل : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ [المعارج : 19] ويُراد بها خصوصية لبعض الناس ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 54] فالمراد بالناس هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أو قوله تعالى : ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] فالمراد : ناسٌ مخصوصون .

والمعنى هنا : ﴿ وَيَقُولُ الإنسان ﴾ [مريم : 66] أي : الكافر الذي لا يؤمن بالآخرة ، ويستبعد الحياة بعد الموت : ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ [مريم : 66]

والاستفهام هنا للإنكار ، لكن هذه مسألة الردُّ عليها سَهْل مَيْسور ، فيقول تعالى : ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان ﴾

فلأنْ يُعادَ الإنسانُ من شيء أهونُ من إنْ يعاد من لا شيء ؛ لذلك قال تعالى في توضيح هذه المسألة : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] مع أن الخالق سبحانه وتعالى لا يُقال في حقه تعالى هَيِّن وأهون ، أو صعب وأصعب ، ولكنه يحدثنا بما نفهم وبما نعلم في أعرافنا .

ففي عُرْفنا نحن أن تنشيء من موجود أسهل من أنْ تنشيء من عدم ، وإنْ كان فعل العبد يقوم على المعالجة ومزاولة الأسباب ، ففِعْل الخالق سبحانه إنما يكون بقوله للشيء "كُنْ فيكون" .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 28]

.

ولما سُئِل الإمام علي كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب اللهُ الناسَ جميعاً في وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد .

(140/490)

فقوله : ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان ﴾ [مريم : 67] أي : لو تذكّر هذه الحقيقة ما كذَّب بالبعث ، وقد عولجت هذه المسألة أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] .

فلو تذكَّر خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . ثم يأتي الجواب منطقياً : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] .

وهنا أيضاً يكون الدليل : ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 67] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ﴾ [مريم : 68] الحشر : أن يبعثهم الله من قبورهم ، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغْرونهم بالمعصية ويُزينونها لهم .

﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ [مريم : 68] يقال : جثا يجثو فهو جَاثٍ . أي :

ينزل على ركبتيه ، وهي دلالة على الذِّلة والانكسار والمهانة التي لا يَقْوى معها على القيام .

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ﴾

النزع : خَلْع الشيء من أصله بشدة ، ولا يقال : نزع إلا إذا كان المنزوع متماسكاً مع المنزوع منه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] كأنهم كانوا مُتمسّكين به حريصين عليه .

(141/490)

وقوله : ﴿ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ [مريم : 69] أي : جماعة متشايعون على رأي باطل ، ويقتنعون به ، ويسايرون أصحابه : ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ [مريم : 69] العتي : وهو الذي بلغ القمة في الجبروت والطغيان ، بحيث لا يقف أحد في وجهه ، كما قلنا كذلك في صفة الكِبَر ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ [مريم : 8] لأنه إذا جاء الكبر لا حيلةَ فيه ، ولا يقدر عليه أحد .

ومعلوم أن رسالات السماء لما نزلتْ على أهل الأرض كان هناك أناس يُضارون من هذه الرسالات في أنفسهم ، وفي أموالهم ، وفي مكانتهم وسيادتهم ، فرسالات الله جاءتْ لتؤكد حَقّاً ، وتثبت وحدانية الله ، وسواسية الخَلْق بالنسبة لمنهج الله .

وهناك طغاة وجَبَّارون وسادة لهم عبيد ، وفي الدنيا القوى والضعيف ، والغني والفقير ، والسليم والمريض ، فجاءت رسالات السماء لِتُحدِث استطراقاً للعبودية .

فَمن الذي يُضَار ويَغْضَب ويعادي رسالات السماء ؟ إنهم هؤلاء الطغاة الجبارون ، أصحاب السلطة والمال والنفوذ ، ولا بُدَّ أن لهؤلاء أتباعاً يتبعونهم ويشايعونهم على باطلهم .

فإذا كان يوم القيامة ويوم الحساب ، فبمَنْ نبدأ ؟ الأنكَى أن نبدا بهؤلاء الطغاة الجبابرة ، ونقدم هؤلاء السادة أمام تابعيهم حتى يروهم أذلاء صاغرين ، وقد كانوا في الدنيا طغاةً متكبرين ، كذلك لنقطع أمل التابعين في النجاة .

فربما ظَنُّوا أن هؤلاء الطغاة الجبابرة سيتدخلون ويدافعون عنهم ، فقد كانوا في الدنيا خدمهم ، وكانوا تابعين لهم ومناصرين ، فإذا ما أخذناهم أولاً وبدأنا بهم ، فقد قطعنا أمل التابعين في النجاة .

(142/490)

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 83] أي : من كبارهم وطُغَاتهم ، ليرى التابعون مصارع

المتبوعين ، ويشهد الضعفاء مصارع الأقوياء ، فينقطع أملهم في النجاة .

وفي حديث القرآن عن فرعون ، وقد بلغ قمة الطغيان والجبروت حيث ادَّعى الألوهية ، فقال عنه : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] فهو قائدهم ومقدمتهم إلى جهنم ، كما كان قائدهم إلى الضلال في الدنيا ، فهو المعلم وهم المقلّدون .

فعليه إذن وزْران : ضلاله في نفسه ، ووزْر إضلاله لقومه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 79] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين ﴾

صلياً : اصطلاء واحتراقاً في النار من صَلِيَ يصْلَى : أي دخل النار وذاق حرَّها . أما : اصطلى أي : طلب هو النار ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل : 7] .

والمعنى : أننا نعرف مَنْ هو أَوْلى بدخول النار أولاً ، وكأن لهم في ذلك أولويات معروفة ؛ لأنهم سيتجادلون في الآخرة ويتناقشون ويتلاومون وسيدور بينهم مشهد فظيع رَهيب يفضح ما اقترفوه .

فالتابع والمتبوع ، والعابد والمعبود ، كُلٌّ يُلقي باللائمة على الآخر ، اسمعهم وهم يقولون : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم

لَعْناً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب: 6768] .

وفي آية أخرى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ﴾ [البقرة: 166] .

(143/490)

وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف: 67] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾

وهذا خطاب عام لجميع الخَلْق دون استثناء، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ [مريم: 72] إذن: فالورود هنا يشمل الأتقياء وغيرهم .

فما معنى الورود هنا؟ الورود أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا أي: أخْذ الماء دون أنْ تشرب منه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ ﴾ [القصص: 23] أي: وصل إلى الماء .

إذن: معنى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم: 71] أي: أنكم جميعاً مُتقون ومجرمون، سترِدُون النار وتروْنها؛ لأن الصراط الذي يمرُّ عليه الجميع مضروب على مَتْن

جهنم .

وقد ورد في ذلك حديث أبي سعيد الخدري قال قال صلى الله عليه وسلم : " يوضع الصراط بين ظهراني جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان ، ثم يستجيز الناس ، فنَاجٍ مُسلَّم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس ومكدوس فيها " .

فإذا ما رأى المؤمن النار التي نجاه الله منها يحمد الله ويعلم نعمته ورحمته به .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ورد أي : أتى وشرب منه ويستدلون بقوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [هود : 98] أي : أدخلهم . لكن هذا يخالف النسق العربي الذي نزل القرآن به ، حيث يقول الشاعر :

وَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه . . . وَضَعْنَا عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ

أي : حينما وصلوا إلى الماء ضربوا عنده خيامهم ، فساعةَ أنْ وصلوا إليه وضربوا عنده خيامهم لم يكونوا شَرِبوا منه ، أو أخذوا من مائه ، فمعنى الورود أي : الوصول إليه دون الشُّرب من مائه .

(144/490)

وأصحاب هذه الرأي الذين يقولون ﴿ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] أي : داخلها يستدلون كذلك بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 72] يقولون : لو أن الورود مجرد الوصول إلى موضع الماء دون الشرب منه أو الدخول فيه ما قال تعالى : ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا ﴾ [مريم : 72] ولقال : ثم يُنجِّي اللهُ الذين اتقوا ويُدخِل الظالمين . . لكن ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين ﴾ [مريم : 72] فيها الدليل على دخولهم جميعاً النار .

فعلى الرأي الأول : الورود بمعنى رؤية النار دون دخولها ، تكون الحكمة منه أن الله تعالى يمتنُّ على عباده المؤمنين فيُريهم النار وتسعيرها ؛ ليعلموا فضل الله عليهم ، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجاة من هذه النار ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185] .

ويمكن فَهْم الآية على المعنى الآخر : الورود بمعنى الدخول ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الأشياء ، وخلق لكل شيء طبيعةً تحكمه ، وهو سبحانه وحده القادر على تعطيل هذه الطبيعة وسلبها خصائصها .

كما رأينا في قصة إبراهيم عليه السلام ، فيكون دخول المؤمنين النارَ كما حدث مع إبراهيم ، وجَعْلها الله تعالى عليه بَرْداً وسلاماً ، وقد مكَّنكم الله منه ، فألقوه في النار ، وهي على طبيعتها بقانون الإحراق فيها ، ولم يُنزِل مثلاً على النار مطراً يُطفِئها ليوفر لهم كل أسباب

الإحراق ، ومع ذلك ينجيه منها لتكون المعجزة ماثلةً أمام أعينهم .

وكما سلب الله طبيعة الماء في قصة موسى عليه السلام فتجمد وتوقفت سيولته ، حتى صار كل فِرْقٍ كالطوْد العظيم ، فهو سبحانه القادر على تغيير طبائع الأشياء . إذن : لا مانع من دخول المؤمنين النارَ على طريقة إبراهيم عليه السلام ﴿ قُلْنَا يا نار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] .

(145/490)

ثم يُنجِّي الله المؤمنين ، ويترك فيها الكافرين ، فيكون ذلك أنْكَى لهم وأغيظ .

ثم يقول تعالى : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71] الحَتْم : هي الشيء الذي يقع لا محالةَ ، والعبد لا يستطيع أنْ يحكم بالحتمية على أيّ شيء ؛ لأنه لا يملك المحتوم ولا المحتوم عليه . فقد تقول لصديقك : أحتم عليك أنْ تزورني غداً ، وأنت لا تملك من أسباب تحقيق هذه الزيارة شيئاً ، فمَنْ يدريك أن تعيشَ لغد ؟ ومَنْ يدريك أن الظروف لن تتغير وتحُول دون حضور هذا الصديق ؟

إذن : أنت لا تحتم على شيء ، إنما الذي يُحتِّم هو القادر على السيطرة على الأشياء بحيث لا يخرج شيء عن موارده .

فإنْ قلتَ : فمَنِ الذي حتَّم على الله ؟ حتَّم الله على نفسه تعالى ، وليست هناك قوة أخرى حتَّمتْ عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [الأنعام : 54]

.

ثم يؤكد هذا الحتم بقوله : ﴿ مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71] أي : حكم لا رجعةَ فيه ، وحُكْم الله لا يُعدِّله أحد ، فهو حكم قاطع . فمثلاً : حينما قال كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر .

لكن الحق تبارك وتعالى يريد قَطْع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكفارون : 16] .

(146/490)

وقَطْع العلاقات هنا ليس كالذي نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كل منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه ، إنما قَطْع العلاقات مع الكفار قَطْعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أننا قد نعيد

العلاقات معكم مرة أخرى ؛ لذلك تكرَّر النفي في هذه السورة ، حتى ظنّ البعض أنه تكرار ؛ ذلك لأنهم يستقبلون القرآن بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك في المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . فلن يُرغمنا أحد على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

لذلك أتى بعد سورة (الكافرين) سورة الحكم : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فلا ثانيَ له يُعدِّل عليه ، فكلامه تعالى وحكمه نهائي وحَتْماً مقضياً لا رجعةَ فيه ولا تعديل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾

جِثياً : من جَثَا يجثُو أي : قعد على رُكَبه دلالة على المهانة والتنكيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(147/490)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ الآية.

هذه الآية الكريمة تدل على أن كل الناس لابد لهم من ورود النار وأكد ذلك بقوله: ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾ وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن بعض الناس مبعد عنها لا يسمع لها حساً وهي قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ, لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ الآية.

والجواب هو ما ذكره الألوسي وغيره من أن معنى قوله: ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ : أي عن عذاب النار وألمها .

وقيل: المراد إبعادهم عنها بعد أن يكونوا قريبا منها , ويدل للوجه الأول ما أخرجه الإمام أحمد والحكيم الترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وجماعة عن أبي سمية قال: "اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن وقال آخر : يدخلونها جميعا ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر ابن عبد الله رضي الله عنه فذكرت ذلك له, فقال – وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه –: صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم عليه السلام حتى أن للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا" .

وروى جماعة عن ابن مسعود أن ورود النار هو المرور عليها" ؛ لأن الناس تمر على الصراط وهو جسر منصوب على متن جهنم .

وأخرج عبد بن عبد حميد وابن الأنباري والبيهقي عن الحسن الورود: المرور عليها من غير دخول.

وروى ذلك أيضا عن قتادة قاله الألوسي.

واستدل القائلون بأن الورود نفس الدخول كابن عباس بقوله تعالى: ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ﴾ وقوله: ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ، فالورود في ذلك كله بمعنى الدخول واستدل القائلون بأن الورود القرب منها من غير دخول بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ ، وقول زهير:

فلما وردن الماء زرفاً جمامة

وضعن عصى الحاضر المتخيم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 192. 193 ﴾

(148/490)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

قوله : ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ ﴾ : " إذا " منصوبةٌ بفعلٍ مقدرٍ مدلولٍ عليه بقوله تعالى ﴿ لَسَوْفَ أُخْرَجُ ﴾ تقديرُه : إذا مِتُّ أُبْعَثُ أو أُحيا . ولا يجوز أن يكونَ العاملُ فيه " أُخْرِج " لأنَّ ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها . قال أبو البقاء : " لأنَّ ما بعد اللامِ وسوف لا يَعْمل فيما قبلها كإنَّ " قلت : قد جَعَلَ المانعَ مجموعَ الحرفين : أمَّا اللامُ فمُسَلَّمٌ ، وأمَّا حرفُ التنفيسِ فلا مَدْخَلَ له في المنع ؛ لأنَّ حرفَ التنفيسِ يَعْمَلُ ما بعده فيما قبله . تقول : زيداً سأضرب ، وسوف أضرب ، ولكنْ فيه خلافٌ ضعيفٌ ، والصحيحُ الجوازُ ، وأنشدوا عليه :

3247- فلمَّا رَأَتْع أمُّنا هانَ وَجْدُها . . . وقالت : أبونا هكذا سوف يَفْعَلُ

ف " هكذا " منصوب ب " يَفْعَل " بعد حرف التنفيس .

وقال ابن عطية : واللامُ في قوله : " لَسَوْف " مجلوبةٌ على الحكاية لكلامٍ تقدَّم بهذا المعنى ، كأنَّ قائلاً قال للكافر : إذا مِتَّ يا فلان لسوف تُخْرَجُ حَيّاً ، فقرَّر الكلامَ على الكلام على جهةِ الاستبعادِ ، وكرَّر اللامَ حكايةً للقول الأول " .

قال الشيخ : " ولا يُحتاج إلى هذا التقدير ، ولا أن هذا حكايةُ لقولٍ تقدَّمَ ، بل هو من كلامِ الكافرِ ، وهو استفهامٌ فيه معنى الجحدِ والاستبعادِ " .

(149/490)

وقال الزمخشري : " لامُ الابتداءِ الداخلةُ على المضارع تعطي معنى الحالِ فكيف جامَعَتْ حرفَ الاستقبال ؟ قلت : لم تجامِعْها إلا مُخْلّصَةً للتوكيد كما أَخْلَصَت الهمزةُ في " يا الله " للتعويض ، واضمحلَّ عنها معنى التعريف " . قال الشيخ : " وما ذَكَرَ مِنْ أنَّ اللامَ تعطي الحالَ مخالَفٌ فيه ، فعلى مذهبِ مَنْ لا يرى ذلك يُسْقط السؤال . وأمَّا قولُه : " كما أَخْلَصَت الهمزة " فليس ذلك إلا على مذهبِ مَنْ يزعم أنَّ أصلَه إلاه ، وأمَّا مِنْ يزعم أنَّ أصله : لاه ، فلا تكون الهمزةُ فيه للتعويضِ ؛ إذ لم يُحْذَفْ منه شيءٌ ، ولو قلنا : إن أصلَه إلاه ، وحُذِفَتْ فاءُ الكلمة ، لم يتعيَّنْ أنَّ الهمزةَ فيه في النداء للتعويض ، إذ لو كانَتْ عوضاً من المحذوف لَثَبَتَتْ دائماً في النداء وغيرِه ، ولَمَات جاز حذفُها في النداء ، قالوا : " يا الله " بحَذْفِها ، وقد نَصُّوا على أن [قطعَ] همزةِ الوصل في النداء شاذ " .

وقرأ الجمهور " أإذا " بالاستفهامِ وهو استبعادٌ كما تقدَّم . وقرأ ابن ذكوان بخلافٍ عنه وجماعةٌ " إذا " بهمزةٍ واحدة على الخبر ، أو للاستفهامِ وحذَف أداتَه للعلمِ بها ، ولدلالةِ القراءةِ الأخرى عليها .

وقرأ طلحة بن مصرف " لَسَأَخْرَجُ " بالسين دون سوف ، هذا نَقْلُ الزمخشريِّ عنه ، وغيرُه نَقَل عنه " سَأَخْرُج " دونَ لامِ ابتداء ، وعلى هذه القراءةِ يكونُ العاملُ في الظرف نفسَ " أُخْرَج " ، ولا يمنع حرفُ التنفيسِ على الصحيح .

وقرأ العامَّةُ " أُخْرَجُ " مبنياً للمفعول . والحسن وأبو حيوة " أَخْرِجُ " مبنياً للفاعل . و " حَيّاً

" حالٌ مؤكِّدة لأنَّ مِنْ لازمِ خروجِه أن يكونَ " حَيّاً " وهو كقولِه : ﴿ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 33] .

(150/490)

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وجماعة " يَذْكُرُ " مخففاً مضارعَ " ذكر " ، والباقون بالتشديد مضارعَ تَذَكَّر ، والأصل " يتذكَّر " فأُدْغِمَتْ التاءُ في الذال . وقد قرأ بهذا الأصلِ وهو يَتَذَكَّر : أُبَيٌّ .

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) ﴾

والهمزةُ في قوله ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ﴾ مؤخرةٌ عن حرف العطف تقديراً كما هو قول الجمهور . وقد رَجَع الزمخشري إلى رأي الجمهورِ هنا فقال : " الواوُ عَطَفَتْ ﴿ لَا يَذْكُرُ ﴾ على " يقول " / ووُسِّطَتْ همزةُ الإنكار بين المعطوف وحرفِ العطف " ومذهبُه أَنْ يُقَدَّرَ بين حرفِ العطفِ وهمزة الاستفهام جملةٌ يُعْطَف عليها ما بعدها ، وقد فعل هذا – أعني الرجوعَ إلى قولِ الجمهور – في سورة الأعراف كما نبَّهت عليه في موضعِه .

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ، أي : مِنْ قبلِ بَعْثه . وقَدَّره الزمخشري " من قبلِ الحالةِ التي هو فيها

وهي حالةُ بقائه " .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ﴾

(151/490)

قوله : ﴿ جِثِيّاً ﴾ : حالٌ مقدرةٌ مِنْ مفعولِ " لَنُحْضِرَنَّهُمْ " و " جِثِيّاً " جمعُ جاثٍ جمعٌ على فُعُوْل نحو : قاعِد وقُعود وجالِس وجُلوس . وفي لامِه لغتان ، إحداهما الواو ، والأخرى الياء يُقال : جثا يَجْثُو جُثُوّاً ، وجَثِي يَجْثِي جثاية ، فعلى التقدير الأول يكون أصلَه " جُثُوْوٌ " بواوين : الأُوْلى زائدةٌ علامةً للجمع ، والثانيةُ لامُ الكلمةِ ، ثم أُعِلَّتْ إعلالَ عِصِيّ ودُلِيّ ، وتقدَّم تحقيقُه في " عِتِيّاً " . وعلى الثاني يكون الأصل جُثُوْياً ، فَأُعِلَّ إعلالَ هَيِّن ومَيِّت .

وعن ابن عباس : أنه بمعنى جماعاتٍ جماعاتٍ جمعَ جُثْوَة ، وهو : المجموعُ من التراب والحجارة . وفي صحتِه عنه نظرٌ من حيث إنَّ فُعْلَة لا يُجمع على فُعُوْل . ويجوز في " جِثِيّاً " أن يكون مصدراً على فُعول ، وأصلُه كما تقدَّم في حالِ كونِه جمعاً : إمَّا جُثُوٌّ ، وإمَّا جُثُوْيٌ .

وقد تقدَّم " أنَّ الأخوين يكسران فاءَه ، والباقون يَضُمونها .

والجُثُوُّ : القُعُودُ على الرُّكَب .

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ﴾

قوله : ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ : في هذه الآيةِ أقوالٌ كثيرةٌ ، أظهرُها عند الجمهور من المعربين ، وهو مذهب سيبويه : أن " أيُّهم " موصولةٌ بمعنى الذي ، وأنَّ حركتَها بناءٍ بُنِيَتْ عند سيبويه ، لخروجها عن النظائر ، و " أَشَدُّ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، والجملةُ صلةٌ ل " أيُّهم " ، و " أيُّهم " وصلتُها في محل نصب مفعولاً بها بقوله " لَنَنْزِعَنَّ " .

ول " ايّ " أحوالٌ أربعةٌ ، أحدُها : تُبْنى فيها وهي - كما في الآيةِ - أَنْ تضافَ ويُحْذَفَ صدرُ صلتِها ، ومثلُه قولُ الشاعر :

3248- إذا ما أَتَيْتَ بني مالكٍ . . . فَسَلِّمْ على أيُّهم أَفْضَلُ

بضم " أيُّهم " وتفاصيلُها مقررةٌ في موضوعات النحو .

(152/490)

وزعم الخليل رحمه الله أنَّ " أيُّهم " هنا مبتدأٌ ، و " أشدُّ " خبرُه ، وهي استفهاميةٌ والجملةُ محكيةٌ بقولٍ مقدر والتقدير : لننزِعَنَّ من كل شيعةٍ المقولِ فيهم : أيُّهم أشدُّ . وقوّى الخليلُ تخريجَه بقول الشاعر :

3249- ولقد أَبَيْتُ من الفتاةِ بمنزلٍ . . . فَأَبَيْتُ لا حَرِجٌ ولا مَحْرُوْمُ

وقال تقديره : فَأَبيْتُ يُقال فيَّ : لا حَرَجٌ ولا محرومُ .

وذهب يونسُ إلى أنَّها استفهاميةٌ مبتدأةٌ ، ما بعدها خبرُها كقولِ الخليلِ ، إلا أنه زعم أنها مُعَلَّقَةٌ ل " نَنْزِعَنَّ " فهي في محلِّ نصب ، لأنَّه يُجَوِّز التعليقَ في سائر الأفعال ، ولا يخصُّه بأفعالِ القلوب ، كما يَخُصُّه بها الجمهور .

وقال الزمخشري : " ويجوز أَنْ يكونَ النَّزْعُ واقعاً على ﴿ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ [مريم : 50] ، أي : لَنَنْزِعَنَّ بعضَ كلِّ شيعةٍ فكأنَّ قائلاً قال : مَنْ هم ؟ فقيل : أيُّهم أشدُّ عِتِيًّا " . فجعل " أيُّهم " موصولةً أيضاً ، ولكن هي في قوله خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أي : هم الذين هم أشدُّ " .

قال الشيخ : وهذا تكلُّفُ ما لا حاجةَ إليه ، وادِّعاءُ إضمارٍ غيرِ مُحْتاجٍ إليه ، وجَعْلُ ما ظاهرُه أنه جملةٌ واحدةٌ جملتين " .

وحكى أبو البقاء عن الأخفش والكسائي أنَّ مفعولَ لَنَنْزِعَنَّ ﴿ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ و " مِنْ " مزيدةٌ ، قال : وهما يجيزان زيادةَ " مِنْ " ، و " أيُّ " استفهامٍ " ، أي : للنزِعَنَّ كلَّ شيعة .

وهذا يُخالِفُ في المعنى تخريجَ الجمهورِ ؛ فإنَّ تخريجَهم يُؤَدِّي إلى التبعيضِ ، وهذا يؤدي إلى العمومِ ، إلا أَنْ تجعلَ " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ لا للتغيض فيتفق التخريجان .

وذهب الكسائي إلى أنَّ معنى " لننزِعَنَّ " لننادِيَنَّ ، فعومل معامَلَته ، فلم يعمل في " أيّ " .

قال المهدوي : " ونادى يُعَلَّق إذا كان بعده جملةُ نصبٍ ، فيعملُ في المعنى ، ولا يعملُ في اللفظِ " .

وقال المبرد : " أُيهم " متعلِّقٌ ب " شيعةٍ " فلذلك ارتفع ، والمعنى : من الذين تشايَعُوا أُيهم أشدُّ ، كأنهم يتبارَوْن إلى هذا " .

ويَلْزَمُه على هذا أَنْ يُقَدِّر مفعولاً ل " نَنْزِعَنَّ " محذوفاً . وقَدَّر بعضُهم في قولِ المبرد : من الذين تعاونوا فنظروا أُيهم . قال النحاس : " وهذا قولٌ حسنٌ ، وقد حكى الكسائي تَشايَعُوا بمعنى تعاونوا " . قلت : وفي هذه العبارة المنسوبةِ للمبرد قلقٌ ، ولا بَيَّنَ الناقلُ عنه وجهَ الرفع على ماذا يكون ، وبيَّنه أبو البقاء ، لكنْ جَعَلَ " أُيهم " فاعلاً لِما تَضَمَّنَتْهُ " شيعة " من معنى الفعلِ ، قال : " التقدير : لننزِعَنَّ من كلِّ فريقٍ يُشَيَّع أُيُّهم ، وهي على هذا بمعنى الذي " .

ونُقِل عن الكوفيين أنَّ " أُيهم " في الآية بمعنى الشرط . والتقدير : إنْ اشتدَّ عُتُوُّهم ، أو لم يَشْتَدَّ ، كما تقول : ضربْتُ القومَ أُيهم غَضِبَ ، المعنى : إنْ غضبوا أو لم يَغْضبوا .

وقرأ طلحة بن مصرِّف ومعاذ بن مسلم العراء أستاذُ الفراءِ وزائدةُ عن الأعمش " أُيُّهم " نصباً . قلت : فعلى هذه القراءة والتي قبلَها : ينبغي أَنْ يكونَ مذهبُ سيبويهِ جوازَ إعرابِها وبنائِها ، وهو المشهورُ عند النَّقَلَةِ عنه ، وقد نُقِل عنه أَنَّه يحتِّم بناءَها . قال النحاس : " ما علمتُ أحداً من النحويين إلا وقد خطَّأ سيبويه " قال : " وسمعت أبا إسحاق الزجاج يقول : " ما تبيَّن لي أن سيبويه غَلِط في كتابه إلا في موضعين ، هذا أحدُهما " قال " وقد أعرب سيبويه " أيّاً " وهي مفردةٌ لأنها مُضافةٌ ، فكيف يبنيها مضافةً " ؟ وقال الجرميُّ : " خرجت من البصرة فلم أسمع منذ فارَقْتُ الخندقَ إلى مكة أحداً يقول : " لأَضْرِبَنَّ أُيُّهم قائمٌ " بالضمِّ بل يَنْصِبُ " .

و﴿ عَلَى الرحمن ﴾ متعلقٌ ب " أشدُّ " ، و " عِتِيّاً " منصوبٌ على / التمييز ، وهو مُحَوَّلٌ عن المبتدأ ، إذ التقديرُ : أُيُّهم هو عتوُّه أشدُّ ، ولا بدَّ مِنْ محذوفٍ يَتِمُّ به الكلامُ ، التقدير : فَنُلْقِيهِ في العذابِ ، أو فنبدأ بعذابه . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : بِمَ تتعلَّقُ على والباء ؟ فإنَّ تعلُّقَهما بالمَصْدَرَيْن لا سبيلَ إليه " . قلت : هما للبيان لا للصلةِ ، أو يتعلَّقان ب " أَفْعَل " ، أي : عُتُوُّهم أشدُّ على الرحمنِ ، وصَلْيُهم أَوْلَى بالنار كقولهم : " هو أَشَدُّ على خَصْمه ، وهو أَوْلَى بكذا " .

قلت : يعني ب " على " قولَه " على الرحمن " ، وبالباء قولَه " بالذين هم " . وقوله "

بالمصدر " يعني بهما " عِتيًا " و " صِلِيًّا " وأمَّا كونُه لا سبيلَ إليه فلأنَّ المصدرَ في نيةِ الموصولِ ، ولا يتقدَّم معمولُ الموصولِ عليه .

(155/490)

وجَوَّزَ بعضهم أَنْ يكونَ " عِتِيًّا " و " صِلِيًّا " في هذه الآيةِ مصدرين كما تَقَدَّمَ ، وجَوَّزَ أَنْ يكونا جمعَ عاتٍ وصالٍ فانتصابُهما على هذا الحال . وعلى هذا يجوزُ أَنْ تتعلقَ على والباء بهما لزوالِ المحذورِ المذكورِ .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ﴾

قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ ﴾ : في هذه الواوِ وجهان ، أحدهما : أنها عاطفةٌ هذه الجملةَ على ما قبلَها . وقال ابن عطية " ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قَسَمٌ والواو تَقْتَضيه ، ويُفَسِّره قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ماتَ له ثلاثٌ من الولد لم تَمَسَّه النار إلا تَحِلَّةَ القسمِ " قال الشيخ : " وذَهِلَ عن قولِ النحويين إنه لا يُستغنى عن القسمِ بالجواب لدلالةِ المعنى ، إلا إذا كان الجوابُ باللامِ أو ب " إنْ " والجوابُ هنا على زَعْمه ب " إنْ " النافيةِ فلا يجوز حَذْفُ القسم على ما نَصُّوا . وقوله : " والواو تَقْتَضِيه " يدلُّ على أنها عنده واوُ القسم ، ولا يذهبُ نحويٌّ إلى أنَّ مِثْلَ هذه الواوِ واوُ قسمٍ لأنه يلزمُ مِنْ ذلك حَذْفُ المجرورِ

وإبقاءُ الجارِّ ، ولا يجوز ذلك إلا إنْ وَقَعَ في شعرٍ أو نادرِ كلامٍ بشرط أن تقومَ صفةُ المحذوف مَقامَه ، كما أوَّلوا في قولهم : "نِعْمَ السيرُ على بئسَ العَيْرُ" ، أي : على عَيْرٍ بئسَ العَيْرُ ، وقولِ الشاعر :

3250- واللهِ ما ليلى بنامِ صاحِبُهْ . . . أي : برجلٍ نام صاحبُهْ ، وهذه الآيةُ ليست من هذا الضَّرْبِ ؛ إذ لم يُحْذَفِ المُقْسَمُ به وقامَتْ صفتُه مَقامَه " .

و"إنْ" حرفُ نفيٍ ، و"منكم" صفةٌ لمحذوفٍ تقديرُه : وإنْ أحدٌ منكم . ويجوز أن يكونَ التقديرُ : وإن منكم إلا مَنْ هو واردُها . وقد تقدَّم لذلك نظائرُ .

(156/490)

والخطابُ في قولِه "منكمْ" يَحْتمل الالتفاتَ وعدمَه . قال الزمخشري : "التفاتٌ إلى الإنسان ، ويَعْضُدُه قراءةُ ابن عباس وعكرمةَ "وإنْ منهم" أو خطابٌ للناس مِنْ غير التفاتٍ إلى المذكور" .

والحَتْمُ : القضاءُ والوجوبُ . حَتَمَ ، أي : أوجب [وحَتَمَه] حتماً ، ثم يُطلق الحتم على الأمر المحتوم مقوله تعالى : "هذا خَلْقُ اللهِ" و"هذا دِرْهَمٌ ضَرْبُ الأميرِ" . و"على ربِّك" متعلِّقٌ ب "حَتْم" لأنه في معنى اسمِ المفعول ، ولذلك وصَفَه ب "مَقْضِيّاً" .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾

وقرأ العامَّةُ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّيْ ﴾ بضمِّ "ثمَّ" على أنَّها العاطفةُ وقرأ عليٌّ بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباسٍ وأُبيٌّ والجحدريُّ ويعقوبُ "ثَمَّ" بفتحها على أنها الظرفيةُ، ويكون منصوباً بما بعده، أي: هناك نُنَجِّي الذين اتَّقَوا .

وقرأ الجمهور "نُنَجِّيْ" بضم النونِ الأولى وفتحِ الثانية وتشديدِ الجيم، مِنْ "نجَّى" مضعفاً . وقرأ الكسائي والأعمش وابن محيصن "نُنْجِي" مِنْ أَنْجى . والفعلُ على هاتين مضارعٌ .

وقرأَتْ فِرقةٌ "نُجِّيْ" بنونٍ واحدةٍ مضمومةٍ وجيمٍ مشددة . وهو على هذه القراءةِ ماضٍ مبني للمفعول، وكان مِنْ حق قارئها أن يفتحَ الياءَ، ولكنه سكَّنه تخفيفاً . وتحتمل هذه القراءةُ توجيهاً آخرَ سيأتي في قراءة متواترةٍ آخرَ سورةِ الأنبياء . وقرأ عليُّ بن أبي طالب أيضاً "نُنَجِّي" بحاءٍ مهملة، من التَّنْحِيَة .

ومفعول "اتَّقوا" إمَّا محذوفٌ مرادٌ للعلمِ به، أي: اتَّقُوا الشركَ والظلمَ .

قوله: جِثِيًّا "إمَّا مفعولٌ ثانٍ إنْ كان "نَذَرُ" يتعدَّى لاثنين بمعنى نترك ونُصَيِّر، وإمَّا حالٌ إنْ جَعَلْتَ "نَذَرُ" بمعنى نُخَلِّيْهم . و "جِثِيًّا" على ما تقدَّم .

و " فيها " يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " نَذَرُ " ، وأَنْ يتعلَّقَ ب " جِثِيّاً " إنْ كان حالاً ، ولا يجوزُ ذلك فيه إنْ كان مصدراً . ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " جِثِيّاً " لأنه في الأصلِ صفةٌ لنكرةٍ قُدِّم عليها فَنُصِبَ حالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 616. 628﴾

(158/490)

فصل

قال القرطبى :

باب كيف الجواز على الصراط وصفته ومن يحبس عليه ويزل عنه ، وفي شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته عند ذلك ، وفي ذكر القناطر قبله والسؤال عليها وبيان قوله تعالى : وإن منكم إلا واردها

روي عن بعض أهل العلم أنه قال : لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل في سبع قناطر ، أما القنطرة الأولى : فيسأل عن الإيمان بالله ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن أجاز بها مخلصاً ، والإخلاص قول وعمل جاز ، ثم يسأل على القنطرة الثانية عن الصلاة ، فإن جاؤ

بها تامة جاز ، ثم يسأل على القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان ، فإن جاء به تاماً جاز ، ثم يسأل على القنطرة الرابعة عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة فإن جاء بهما تامتين جاز ، ثم يسأل في القنطرة السادسة عن الغسل والوضوء فإن جاء بهما تأمين جاز ، ثم يسأل في السابعة وليس في القناطر أصعب منها فيسأل عن ظلامات الناس .

وذكره أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة : أنه إذا لم يبق في الموقف إلا المؤمنون والمسلمون والمحسنون والعارفون والصديقون والشهداء والصالحون والمرسلون ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق فيقول الله تعالى : يا أهل الموقف من ربكم ؟ فيقولون : الله ، فيقول لهم : أتعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش ، لو جعلت البحار السبع في نقره إبهامه لما ظهرت ، فيقول لهم بأمر الله : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة إبهامه لما ظهرت فيقول لهم أنا ربكم : فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيتجلى لهم الرب سبحانه في صورة غير صورته التي كانوا يعرفونه ، وسمعوا وهو يضحك فيسجدون له جميعهم ، فيقول : أهلا بكم ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه فيمر بهم على الصراط . والناس أفواج : المرسلون ، ثم النبيون ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم

المؤمنون ، ثم العارفون ، ثم المسلمون . منهم المكبوب لوجهه ، ومنهم المحبوس في الأعراف ، ومنهم قوم قصروا عن تمام الإيمان . فمنهم من يجوز الصراط مائة عام ، وآخر يجوز على ألف ، ومع ذلك كله لن تحرق النار من رأى ربه عياناً لا يضام في رؤيته .

فتوهم نفسك يا أخي إذا صرت على الصراط ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة قد لظى سعيرها وعلا لهيبها وأنت تمشي أحياناً وتزحف أخرى ، قال :

أبت نفسي تتوب فما احتيالي إذا برز العباد لذي الجلال

وقاموا من قبورهم سكارى بأوزار كأمثال الجبال

وقد نصب الصراط لكي يجوزوا فمنهم من يكب على الشمال

ومنهم من يسير لدار عدن تلقاه العرائس بالغوالي

يقول له المهمين يا وليي غفرت لك الذنوب فلا تبالي

وقال آخر :

إذا مد الصراط على جحيم تصول على العصاة وتستطيل

فقوم في الجحيم لهم ثبور وقوم في الجنان لهم مقيل

وبان الحق وانكشف الغطاء وطال الويل واتصل العويل

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيؤذن لهم وترسل

الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولهم كالبرق الخاطف .

قال : قلت بأبي أنت وأمي وأي شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تر إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم صلى الله عليه وسلم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل ولا يستطيع السير إلا زاحفاً .

قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه فمخدوش ناج ، ومكردس في النار ، والذي نفس محمد بيده : إن قعر جهنم لسبعون خريفاً ؟

وروي من حديث حذيفة أيضاً . وذكر مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وفيه: ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون : اللهم سلم سلم قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة

(160/490)

تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان : فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنم الحديث وسيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى .

وفي رواية قال أبو سعيد الخدري : بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف وفي رواية أرق من الشعر رواها مسلم .

وخرج ابن ماجه حديث أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يوضع الصراط بينم ظهراني جهنم على حسك كحسك السعدان ، ثم يستجيز الناس فناج مسلم ومخدوج به ثم ناج ومحتبس به ومنكوس فيها .

وذكر ابن المبارك قال : حدثنا هشام بن حسان ، عن موسى ، عن أنس عن عبيد بن عمير [أن الصراط مثل السيف على جسر جهنم وأن لجنبتيه كلاليب وحسكا ، والذي نفسي بيده إنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر] .

وأخبرنا رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال قال : [بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر وعلى بعض الناس مثل الوادي الواسع] أعمل .

قال : وأخبرنا عوف عن عبد بن سفيان العقيلي قال : [يجوز الناس يوم القيامة على الصراط على قدر إيمانهم وأعمالهم ، فيجوز الرجل كالطرف في السرعة وكالسهم المرمى وكالطائر السريع الطيران وكالفرس الجواد المضمر ويجوز الرجل يعدو عدواً ، والرجل يمشي مشياً حتى سكون آخر من ينجو يحبو حبواً] .

وذكر هناد بن السري ، حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا سفيان ، حدثنا سلمة بن كهيل

عن أبي الزعفراء قال : قال عبد الله [يأمر الله بالصراط فيضرب على جهنم] . قال : [فيمر الناس على قدر أعمالهم . أولهم كلمح البرق ، ثم كمر الريح ، ثم كأسرع البهائم ، ثم كذلك حتى يمر الرجل سعياً وحتى يمر الرجل ماشياً ، ثم يكون آخرهم يتلبط على بطنه يقول يا رب لم أبطأت بي ؟ فيقول : لم أبطئ بك إنما أبطأ بك عملك] .

قال : و

(161/490)

حدثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن قتادة قال : قال عبد الله ابن مسعود : [تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمون المنازل بأعمالكم] .

أبو داود ، عن معاذ بن أنس الجهني ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من حمى مؤمناً من منافق أراه قال : بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشيء شينه حبسه الله عز وجل على جسر جهنم حتى يخرج مما قال .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الزالون على الصراط كثير . وأكثر من يزل عنه النساء ذكره أبو الفرج بن الجوزي .

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : فإذا صار الناس على طرف الصراط نادى ملك

من تحت العرش : يا فطرة الملك الجبار جوزوا على الصراط ، وليقف كل عاص منكم وظالم . فيا لها من ساعة ما أعظم خوفها وما أشد حرها ، يتقدم فيها من كان في الدينا ضعيفاً مهيناً ، ويتأخر عنها من كان في الدنيا عظيماً مكيناً ، ثم يؤذن لجميعهم بعد ذلك بالجواز على الصراط على قدر أعمالهم في ظلمتهم وأنوارهم ، فإذا عصف الصراط بأمتي نادوا : وامحمداه فأبادر من شدة إشفاقي عليهم وجبريل آخذ بحجزتي ، فأنادي رافعاً صوتي رب أمتي أمتي لا أسألك اليوم نفسي ، ولا فاطمة ابنتي والملائكة قيام عن يمين الصراط ويساره ينادون : رب سلم سلم . وقد عظمت الأهوال واشتدت الأوجال ، والعصاة يتساقطون عن اليمين والشمال والزبانية يتلقونهم بالسلاسل والأغلال وينادونهم : أما نهيتم عن كسب الأوزار ؟ أما خوفتم عذاب النار ؟ أما أنذرتم كل الإنذار ، أما جاءكم النبي المختار ؟ ذكره أبو الفرج بن الجوزي أيضاً في كتاب روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق .

فتفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك ، واضطراب

قلبك ، وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار ، المنعة لك من المشي على بساط الأرض ، فضلاً عن حدة الصراط . فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثاني ، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت إليهم كيف ينكسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم ، وتعلو أرجلهم فيا له من منظر ما أفظعه ، ومرتقى ما أصبعه ، ومجاز ما أضيقه .

فصل : ذهب بعض من تكلم على أحاديث هذا الباب في وصف الصراط بأنه أدق من الشعر وأحد من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي . ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وغموضها . وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي : دقيق . فضرب المثل له بدقة الشعر . فهذا والله أعلم من هذا الباب .

ومعنى قوله : وأحد من السيف : أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى إلى الملائكة في إجازة الناي على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومضيه إسراعاً منهم إلى طاعته وامتثاله . ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحدة وقوة ضاربة في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد .

وإما أن يقال : إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر ، فذلك مدفوع بما

وصف من أن الملائكة يقومون بجنبيه وأن فيه كلاليب وحسكاً أي أن من يمر عليك يقع على بطنه ، ومنهم من يزل ثم يقوم . وفيه أن من الذين يمرون عليه من يعطى النور بقدر موضع قدميه . وفي ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه موطئ الأقدام ومعلوم أن رقة الشعر لا يحتمل هذا كله . وقال بعض الحفاظ : إن هذه اللفظة ليست ثابتة .

قال المؤلف : ما ذكره القاتل مردود بما ذكرنا من الأخبار ، وأن الإيمان يجب بذلك . وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن فيجزيه أو يمشيه ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة ولا استحالة في ذلك ، للآثار

(163/490)

الواردة في ذلك وثباتها بنقل الأئمة العدول ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . ؟

وعن يحيى بن اليمان : رأيت رجلاً نام وهو أسود الرأس واللحية شاب يملأ العين ، فرأى في منامه كأن الناس قد حشروا ، وإذا بنهر من نار ، وجسر يمر الناس عليه ، فدعى فدخل الجسر ، فإذا هو كحد السيف يمر يميناً وشمالاً ، فأصبح أبيض الرأس واللحية .

فصل : أحاديث هذا الباب تبين لك معنى الورود المذكور في القرآن في قوله عز وجل : وإن منكم إلا واردها .

روي عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار أنهم قالوا : الورود المرور على الصراط . رواه السدي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وذكر أبو بكر النجاد ، سلمان قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدة السليطي ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي قال : حدثنا سليم بن منصور بن عمار قال : حدثني أبي منصور بن عمار قال : حدثني بشر بن طلحة الخزامي ، عن خالد بن الدريك ، عن يعلى منبه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي وقيل : الورود الدخول .

روي عن ابن مسعود وعن ابن عباس أيضاً وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم ، وحديث أبي سعيد الخدري نص في ذلك على ما يأتي ، فيدخلها العصاة بجرائمهم ، والأولياء بشفاعتهم .

وروي عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الورد الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن رجل عن خالد بن معدان قال : قالوا ألم يعدنا ربنا أنا نرد النار فقال : إنكم مررتم بها وهي خامدة .

قال ابن المبارك وأخبرنا سعيد الجيزي عن أبي الليل ، عن غنيم ، عن أبي العوام ، عن كعب أنه

(164/490)

تلا هذه الآية : وإن منكم إلا واردها قال : هل تدرون ما ورودها ؟ قالوا : الله أعلم . قال : فإن ورودها أن يجاء بجهنم وتمسك للناس كأنها متن إهالة حتى إذا استقرت عليها أقدام الخلق برهم وفاجرهم نادى مناد : أن خذي أصحابك ، وذري أصحابي . فتخسف بكل ولي لها . لهي أعلم بهم من الوالد بولده وينجو المؤمنون .

وقال مجاهد : ورود المؤمنين هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا وهي حظ المؤمن من النار فلا يردها .

وأسند أبو عمر بن عبد البر في ذلك حديثاً في التمهيد ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً من وعك به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبشر فإن الله تعالى يقول : هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار .

وقالت طائفة : الورود النظر إليها في القبر فينجي منها الفائز ، ويصلاها قدر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى ، واحتجوا بحديث ابن عمر : [إن

أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي] الحديث .

وقيل : المراد بالورود الإشراف على جهنم والإطلاع عليها والقرب منها . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة ونذر الظالمين أي يؤمر بهم إلى النار ، قال الله تعالى : ولما ورد ماء مدين أي أشرف عليه لا أنه دخله وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يدخل النار أحد من أهل بدر ، والحديبية قال : فقلت يا رسول الله : وأين قول الله عز وجل : وإن منكم إلا واردها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم ننجي الذين اتقوا خرجه مسلم من حديث أم مبشر قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند حفصة . الحديث .

وقيل : الخطاب للكفار في قوله تعالى : وإن منكم إلا واردها روى وكيع ، عن شعبة ، عن عبد الله بن

(165/490)

السائب ، عن رجل ، عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل : وإن منكم إلا واردها قال : هذا خطاب للكفار . وروي عنه أنه كان يقرأ وإن منهم رداً على الآيات التي قبلها من

الكفار قوله : فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم وأيهم أشد . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا * وإن منكم . وكذلك قرأ عكرمة وجماعة .

وقالت فرقة : المراد منكم : الكفرة . والمعنى : قل لهم يا محمد وإن منكم .

وقال الجمهور : المخاطب العالم كله ولا بد من ورود الجميع وعليه نشأ الخلاف في الورود كما ذكرنا والصحيح أن الورود : الدخول لحديث أبي سعيد كما ذكرنا .

وفي مسند الدرامي أبي محمد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب في رحله ، ثم كشد الرجل في مشيه .

وقال صلى الله عليه وسلم : لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم خرجه الأئمة . قال الزهري كأنه يريد هذه الآية وإن منكم إلا واردها ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده ، وهذا يبين لك ما ذكرناه لأن المسيس حقيقته في اللغة المماسة إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين ، قال : خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا إنا نرد النار ؟ فيقال : قد وردتموها فلقيتموها رماداً .

قلت : والذي يجمع شتات الأقوال : أن يقال إن من وردها ، ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجي منها ، نجانا الله منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها سالماً ، وخرج منها

غانماً .

وروي ابن جريج عن عطاء قال : قال أبو راشد الحروري لابن عباس لا يسمعون حسيسها فقال له ابن عباس : أمجنون أنت ؟ فأين قوله تعالى : وإن منكم إلا واردها وقوله : فأوردهم النار وقوله : إلى جهنم وردا ً . ولقد كان من

(166/490)

دعاء من مضى اللهم أخرجني من النار سالماً وأدخلني الجنة فائزاً .

وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود ، والجهل بالصدر ، كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه يقول : ليت أمي لم تلدني فتقول له امرأته : يا أبا ميسرة إن الله قد أحسن إليك وهداك إلى الإسلام ، قال : أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار ولم يبين لنا أنا صادرون .

وعن الحسن قال : قال رجل لأخيه أي أخي هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم قال : فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا . قال : ففيم الضحك إذاً ؟ قال : فما رئي ضاحكاً حتى مات .

وروي عن ابن عباس أنه قال في هذ المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي : [أما أنا وأنت فلا

بد أن يدرها فأما أنا فينجيني الله منها وأما أنت فما أظنه ينجيك] .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي عاصم قال : بكى ابن رواحة فبكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : بكيت حين رأيتك تبكي . فقال عبد الله : إني علمت أني وارد النار فما أدري أناج منها أم لا ؟ وفي معناه قيل :

وقد أتانا ورود النار ضاحية حقا يقيناً ، ولما يأتنا الصدر

باب ما جاء في شعار المؤمنين على الصراط

الترمذي عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شعار المؤمنين على الصراط : رب سلم سلم ، قال : حديث غريب .

وفي صحيح مسلم : ونبيكم صلى الله عليه وسلم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم وقد تقدم .

باب فيمن لا يوقف على الصراط طرفة عين

(167/490)

ذكر الوائلي أبو نصر في كتاب الإبانة : أخبرنا محمد بن الحجاج قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الربعي ، حدثنا علي بن الحسين أبو عبيد قال : حدثنا زكريا ابن يحيى أبو السكن

قال : حدثني عبد الله بن صالح الهماني قال : حدثني أبو همام القرشي ، عن سليمان بن المغيرة ، عن قيس بن مسلم ، عن طاووس ، عن أبي هريرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث الجنة فلا تحدث في دين الله حدثاً برأيك . قال : وهذا غريب الإسناد والمتن حسن .

باب منه

أبو نعيم قال : حدثنا سليمان بن أحمد ، قال : حدثنا خير بن عرفة قال : حدثنا هانئ بن المتوكل قال : حدثنا ربيعة سليمان بن ربيعة ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحسن الصدقة في الدنيا جاز على الصراط . ومن قضى حاجة أرملة أخلف الله في تركته . قال : هذا حديث غريب من حديث محمد ، تفرد بن سليمان عن موسى .

وذكر الختلي أبو القاسم ، حدثنا عثمان بن سعيد أبو عمرو الأنطاكي قال : حدثنا علي بن الهيثم ، حدثنا إبراهيم بن بشار ، حدثنا شيخ يكنى أبا جعفر قال : رأيت في منامي كأني واقف على قناطر جهنم فنظرت إلى هول عظيم ، فجعلت أفكر في نفسي كيف العبور على هذه ؟ فإذا قائل يقول من خلفي : يا عبد الله ضع حملك واعبر فقلت : وما حملي ؟ قال : دع الدنيا واعبر ، قال : وحدثني أبو بكر خليفة الحارث بن خليفة قال : قال : حدثنا

عمرو بن جرير ، حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال : سمعت أبا الدرداء يقول لابنه : يا بني لا يكن بيتك إلا المسجد ، فإن المساجد بيوت المتقين سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من يكن المسجد بيته ، ضمن الله له بالروح والرحمة والجواز على الصراط .

(168/490)

قلت : وهذا الحديث يصحح ما ذكرناه من الرؤيا فإن من سكن المسجد واتخذه بيتاً وأعرض عن الدنيا وأهله وأقبل إلى الآخرة وعمل لها .

باب ثلاثة مواطن لا يخطئها النبي صلى الله عليه وسلم لعظم الأمر فيها وشدته

الترمذي عن أنس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشفع لي يوم القيامة قال : أنا فاعل إن شاء الله . قال : فأين أطلبك ؟ قال :أول ما تطلبني على الصراط ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : فاطلبني عند الميزان . قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فاطلبني عند الحوض ، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن . قال : هذا حديث حسن ، وقد تقدم من حديث عائشة أنه عليه السلام قال : أما ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً عند الميزان وعند تطاير الصحف وعند الصراط .

باب في تلقي الملائكة للأنبياء وأممهم بعد الصراط وفي هلاك أعدائهم

ابن المبارك ، عن عبد الله بن سلام قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأنبياء نبياً نبياً ، وأمة أمة حتى يكون آخرهم مركزاً محمد وأمته ، ويضرب الجسر على جهنم وينادي مناد أين أحمد وأمته ؟ فيقول نبي الله صلى الله عليه وسلم وتتبعه أمته برها وفاجرها ، حتى إذا كان على الصراط طمس الله ابصار أعدائه فتهافتوا في النار يميناً وشمالاً ويمضي النبي صلى الله عليه وسلم والصالحون معه فتتلقاهم الملائكة فيدلونهم على طريق الجنة على يمينك على شمالك ، حتى ينتهي إلى ربه فيوضع له كرسي من الجانب الآخر ، ثم يدعى نبي نبي وأمة أمة ، حتى يكون آخرهم نوحاً ، رحم الله نوحاً .

باب ذكر الصراط الثاني وهو القنطرة التي بين الجنة والنار

(169/490)

اعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين : أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب أو من يلتقطه عنق النار فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم حسبوا على صراط آخر خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء

الله لأنهم قد عبروا ا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه .

البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في الدنيا .

فصل : قلت : معنى يخلص المؤمنون من النار أي يخلصون من الصراط المضروب على النار ، ودل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال قال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حسبوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه سلام عليكم بمعنى التحية طبتم فادخلوها خالدين .

وقد ذكر الدراقطني حديثاً ذكر فيه : أن الجنة بعد الصراط .

قلت : ولعله أراد بعد القنطرة بدليل حديث البخاري والله أعلم . أو يكون ذلك في حق من دخل النار وخرج بالشفاعة فهؤلاء لا يحبسون بل إذا خرجوا بثوا على أنهار الجنة على ما يأتي بيانه في الباب بعد هذا إن شاء الله تعالى .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أصحاب الجنة محبوسون على قنطرة بين

الجنة والنار يسألون عن فضول أموال كانت بأيديهم . ولا تعارض بين هذا وبين حديث البخاري ، فإن الحديثين مختلفا

(170/490)

المعنى لاختلاف أحوال الناس ، وكذلك لا تعارض بين قوله عليه السلام لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة وبين قول عبد الله بن سلام إن الملائكة تدلهم على
طريق الجنة يميناً وشمالاً ، فإن هذا يكون فيمن لم يحبس على قنطرة ولم يدخل النار فيخرج منها فيطرح على باب الجنة . وقد يحتمل أن يكون ذلك في الجميع ، فإذا وصلت بهم الملائكة إلى باب الجنة كان كل أحد منهم أعرف بمنزلة في الجنة وموضعه فيها منه بمنزله كان في الدنيا والله أعلم وهو معنى قوله ويدخلهم الجنة عرفها لهم قال أكثر أهل التفسير : إذا دخل أهل الجنة الجنة يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم .

وقيل : إن هذا التعريف إلى المنازيل بدليل ، وهو أن الملك الموكل بعمل العبد يمشي بين يديه وحديث أبي سعيد الخدري يرده والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 381.394 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى موت)

الموت أَنواع ، كما أَنَّ الحياة أَنواع .

فمن الموت ما هو بإِزاءِ القوّة النّامية الموجودة فى الإِنسان والحيوان والنبات ، نحو قوله تعالى : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ ، لم يقل : مَيْتَة لأَنَّ المَيْتَ يستوى فيه المذكَّر والمؤنث .

وموتٌ هو زوال القوّة الحسّاسة ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ .

وموت هو زوال القوّة العاقلة ، وهى الجهالة ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ، وإِيّاه قَصَد بقوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ .

ومنها النوم ؛ كما يقال : النوم موت خفيف ، والموت نوم ثقيل ، وعلى هذا النحو سمّاه الله توفِّيا ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ ، وقد مات يموت ويَمَات أَيضاً .

وأَكثر من يتكلَّم بها طيِّىءٌ .

وقد تكلَّم بها سائر العرب ، قال :

*بُنَيَّتى يا خَيْرة البنات * عيشى ولا تأْمَنُ أَن تماتى*

وقال يونس : يميت لغة ثالثة فيها ، فهو ميّت ومَيْتَ ، وقوم مَوْتَى وأَموات وميّتون .

وأَصل ميّت مَيْوِت على فيعِل ، ثم أدغم ، ثم يخفَّف فيقال : مَيْت .

قال عَدِىُّ بن الرَّعْلاَءُ :

*ليس من مات فاستراح بِمَيْتٍ * إِنَّمَا المَيْت مَيِّت الأَحياءِ*

*إِنما المَيْتُ مَن يَعيش ذليلاً * كاسفاً بالُه قليل الرَّجَاءِ*

قال الفراءُ : يقال لمن لم يمت : إِنه مائت عن قليل وميّت ، ولا يقال لمن مات : هذا مائت .

والموت : السّكون ، ماتت الرِّيح أَى سكنت .

ومات الرّجل وهَوّم أَى نام .

ومات الثوبُ أَى بَلى .

والمَوْتة : الواحدة من الموت .

ومَوْت مائت كلَيلٍ لائلٍ ، والمُواتِ – بالضم – : الموت .

والمَوَات – بالفتح – : ما لا روح فيه .

والمَوَات أَيضاً : الأَرض لا مالك لها من بنى آدم ، ولا يَنتفِع بها أَحد .

والمَوَتان : خلاف الحيوان .

وفى المثل : اشتر المَوَتان ، ولا تشتر الحَيَوان .

أَى اشتر الأَرضين والدُّور ولا تشتر الرّقيق والدّواب .

والمَوَتان من الأَرض : الَّتى لم تُحْيَ بعد .

وفى الحديث : "مَوَتان الأَرض لله ولرسوله ، فمن أَحيا منها شيئاً فهو له" .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قيل : نفى الموت عنهم والمراد نفيُه عن أَرواحهم ، تنبيهاً على ما هم فيه من النعيم .

وقيل : نفى عنهم / الحزن المذكور فى قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ المراد زوال القوّة الحيوانيّة ، ومفارقة الروّح البدَن .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ قيل معناه : ستموت تَنْبيهاً على أَنه لابدّ لكلّ أَحد من الموت ، وقيل : بل إشارة إلى ما يعترى الإنسان دائماً من التحَلّل والنقص ؛ فإن البشر ما دام فى الدّنيا يموت جزءا فجزءا .

والمَيْتة من الحيوان : ما مات بغير تذكية .

والمستميت : المتعرّض للموت الذى لا يُبالى فى الحرب من الموت .

والمستميت للأَمر : المسترسل .

والمُوتة – بالضمّ – شِبْه الجنون والصَّرْع ، كأَنه من موت العلم والعقل .

ومنه رجل مَوْتان القلب وامرأَة مَوْتانة .

وأَماته الله ومَوّته للمبالغة .

وأَمات فلان : إذا مات له ابن أَو بنون ، وكذلك الناقة والمرأَة ، فهى مُمِيت ومميتة ، وجمعها : مَمَاويت .

وأَمات الشىء طبخاً : بالغ فى نضجه ، وموّتت الإِبلُ : ماتت ، فهو لازم ومتعدّ .

قال مجنون عامر :

*فعُروةُ مات موتاً مستريحاً * فها أَنا ذا أُموَّتُ كُلَّ يوم*

والمتماوت من صفة الناسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 536 .

538 ﴾

(173/490)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

أنكروا حديثَ البعثِ غاية الإنكار ، فأقام الحّجَة عليهم بالنشأة الأولى ؛ فقال : إن الذي قدر على خَلْقِ في الابتداء وهم نُطَفٌ ضعفاء ، وقَبْل كانوا في أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأمهاتِ فَفَطَرَهمُ ، وعلى ما صَوَّرَهم ، وفي الوقت الذي أراد – عن بطون أمهاتهم أَخْرَجَهُم .

قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ فيه دليل على صحة أهل البصائر أَنّ المعدومَ لم يك شيئاً في حال عَدَمِه .

ويقال أبطل لهم كلَّ دعوى حيث ذَكَّرَهم نَسبَهم وكَوْنَهم مِنَ العَدَمِ .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ﴾

نحشرهم جميعاً فيجتمعون في العَرْصَةِ ثم يختلف مُنْقَلَبُهم ؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكاتٍ بعضها أسفل من بعض – واسمُ جهنم يجمع أماكنهم . ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هي دَرَجَاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض – واسمُ الجنة يشتمل على جميع مساكنهم .

ويقال التفاوتُ في الجنةِ بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين .

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ﴾

مَنْ تَقدَّمَ عليهم في الإضلال والضلال ضوعف عليه غداً العذاب والأغلال .

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) ﴾

ينزل في كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها ، فمن كان عتوُّه اليومَ أشدَّ غلوا كان في النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ﴾

(174/490)

كلٌّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضيْرَ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (. . .) والزلل ؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً . وقوم يردونها – كما في الخبر : " إن للنار عند مرورهم عليها إذوابةً كإذوابةِ اللَّبَن ، فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أو ليس وعدنا جهنم على طريق ؟ فيقال لهم . عبرتم وما شعرتم "

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾

يُنَجِّي مَنْ كان مؤمناً ، بعضهم قَبْلَ بعض ، وبعضهم بَعْدَ بعض ، ولكن لا يبقى من المؤمنين مَنْ لا ينجيهم . ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها ، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء ، وتُطْبَقُ عليهم أبوابُ جهنم ، وينقطع منهم الرجاء والأمل .

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم ؛ فزيادة التقوى توجِب لهم التعجيل في النجاة ؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ ، ومن منقطع ، ومن محترق . . . إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 437.439 ﴾

(175/490)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/491)

الجزء الحادى والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 73 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 84 ﴾ من نفس السورة

(4/491)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا جديراً بالقبول لقيام الأدلة على كمال قدرة قائله ، وتنزهه عن إخلاف القول ، لبراءته من صفات النقص ، قال معجباً من منكره عاطفاً على قوله ﴿ ويقول الإنسان ﴾ : ﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ أي الناس ، من أيّ تال كان ﴿ ءاياتنا ﴾ حال كونها ﴿ بينات ﴾ لا مرية فيها ، بأن تكون محكمات ، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات ، أو ببيان النبي - صلى الله عليه وسلم - فهي حال مؤكدة أو كاشفة ﴿ قال الذين كفروا ﴾ بآيات ربهم البينة ، جهلاً منهم ونظراً إلى ظاهر الحياة الدنيا الذي هو مبلغهم من العلم ﴿ للذين ءامنوا ﴾ أي لأجلهم أو مواجهة لهم ، إعراضاً عن الاستدلال بالآيات ، ووجوه دلالتها البينات ، بالإقبال على هذه الشبهة الواهية - وهي المفاخرة بالمكاثرة في الدنيا - من قولهم : ﴿ أي الفريقين ﴾ نحن - بما لنا من الاتساع ، أم أنتم - بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ﴿ خير مقاماً ﴾ أي موضع قيام أو إقامة - على قراءة ابن كثير بضم الميم والجماعة بفتحها : ﴿ وأحسن نديا ﴾ مجمعاً ومتحدثاً باعتبار ما في كل من الرجال ، وما لهم من الزي والأموال ، ويجعلون ذلك الامتحان بالإنعام والإحسان دليلاً على رضى الرحمن ، مع التكذيب والكفران ، ويغفلون عن أن في ذلك - مع التكذيب بالبعث - تكذيباً مما

يشاهدونه منا من القدرة على العذاب بإحلال النقم ، وسلب النعم ، ولو شئنا لأهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به ﴿ وكم أهلكنا ﴾ بما لنا من العظمة .

(5/491)

ولما كان المراد استغراق الزمان ، لم يأت بالجار إعلاماً بأن المتقدمين كلهم كانوا أرغد عيشاً وأمكن حالاً فقال : ﴿ قبلهم من قرن ﴾ أي شاهدوا ديارهم ، ورأوا آثارهم ؛ ثم وصف كم بقوله : ﴿ هم ﴾ أي أهل تلك القرون ﴿ أحسن ﴾ من هؤلاء ﴿ أثاثاً ﴾ أي أمتعة ﴿ ورئياً ﴾ أي منظراً ، فكأنه قيل : فما يقال لهم ؟ فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهم رداً عليهم وقطعاً لمعاذيرهم وهتكاً لشبههم : هذا الذي افتخرتم به لا يدل على حسن الحال في الآخرة ، بل على عكس ذلك ، فقد جرت عادته سبحانه أنه ﴿ من كان في الضلالة ﴾ مثلكم كوناً راسخاً بسط له في الدنيا وطيب عيشه في ظاهر الحال فيها ، ونعم بأنواع الملاذ ، وعبر عن أن ذلك لا يكاد يتخلف عن غير من حكم بإلزامه المسكنة من اليهود بلام الأمر ، إيذاناً بوجوده وجود المأمور به الممتثل في قوله : ﴿ فليمدد ﴾ وأشار إلى التحلي لهم بصفة الإحسان بقوله : ﴿ له الرحمن ﴾ أي العام الامتنان ﴿ مداً ﴾ في العاجلة بالبسط في الآثار ، والسعة في الديار ، والطول في الأعمار ، وإنفاقها فيما يستلذ من الأوزار الكبار ، فيزيده

العزيز الجبار بذلك ضلالة ، فيا له من خسار ، وتباب وتبار ، لمن له استبصار ، ولا نزال نمد هل استدراجاً ﴿ حتى ﴾ وحقق أخذهم بأداة التحقيق فقال : ﴿ إذا رأوا ﴾ أي كل من كفر بالله بأعينهم وإن ادعوا أنهم يتعاضدون ويتناصرون ، ولذلك جمع باعتبار المعنى ﴿ ما يوعدون ﴾ من قبل الله ﴿ إما العذاب ﴾ في الدنيا بأيدي المؤمنين أو غيرهم ، أو في البرزخ ﴿ وإما الساعة ﴾ التي هم بها مكذبون ، وعن الاستعداد لها معرضون ، ولا شيء يشبه أهوالها ، وخزيها ونكالها .

(6/491)

ولما كان الجواب : علموا أن مكانهم شر الأماكن ، وأن جندهم أضعف الجنود ، عبر عنه بقوله تهديداً : ﴿ فسيعلمون ﴾ إذا رأوا ذلك ﴿ من هو شر مكاناً ﴾ أي من جهة المكان الذي قوبل به المقام ﴿ وأضعف جنداً ﴾ هم أو المؤمنون ، أي أضعف من جهة الجند الذي أشير به إلى النديّ ، لأن القصد من فيه ، وكأنه عبر بالجند لأن قصدهم المغالبة وما كل من في النديّ يكون مقاتلاً .

ولما كان هذا لكونه استدراجاً زيادة في الضلال ، قابله بقوله ، عطفاً على ما تقدم تقديره تسبيباً عن قوله ﴿ فليمدد ﴾ وهو : فيزيده ضلالاً ، أو على موضع ﴿ فليمدد ﴾ :

﴿ ويزيد الله ﴾ وعبر بالاسم العلم إشارة إلى التجلي لهم بجميع الصفات العلى ليعرفوه حق معرفته ﴿ الذين اهتدوا هدى ﴾ عوض ما زوى عنهم ومنعهم من الدنيا لكرامتهم عنده مما بسطه للضلال لهوانه عليه ؛ فالآية من الاحتباك : ذكر السعة بالمد للضال أولاً دليلاً على حذف الضيق بالمنع للمهتدي ثانياً ، وزيادة الهداية ثانياً دليلاً على حذف زيادة الضلال أولاً ، وأشار إلى أنه مثل ما خذل أولئك بالنوال ، وفق هؤلاء لمحاسن الأعمال ، بإقلال الأموال فقال : ﴿ والباقيات ﴾ ثم وصفها احترازاً من أفعال أهل الضلال بقوله :

﴿ الصالحات ﴾ أي من الطاعات والمعارف التي شرحت لها الصدور ، فأنارت بها القلوب ، وسلمت من إحباط الذنوب ، فأوصلت إلى علام الغيوب ﴿ خير عند ربك ﴾ مما متع به الكفرة ومدوا به – على تقدير التنزل إلى تسميته خيراً ، وإضافة الرب إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إشارة إلى أنه يربيها تربية تبلغ أقصى ما يرضيه في كل تابعيه ؛ ثم بين جهة خيرية هذا بقوله : ﴿ ثواباً ﴾ أي من جهة الثواب ﴿ وخير مرداً ﴾ أي من جهة العاقبة يوم الحسرة وهو كالذي قبله ، أو على قولهم : الصيف أحر من الشتاء بمعنى أنه في حره أبلغ منه في برده .

فالكفرة يردون إلى خسارة وفناء ، والمؤمنون إلى ربح وبقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 553 ـ 554 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم أنهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا : لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل وأعداءه المعروضين عن خدمته في العز والراحة ، ولما كان الأمر بالعكس فإن الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء ، والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والذل دل على أن الحق ليس مع المؤمنين ، هذا حاصل شبهتهم في هذا الباب ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم .

بقي بحثان :

الأول : قوله : ﴿ آياتنا بينات ﴾ يحتمل وجوهاً : أحدها : أنها مرتلات الألفاظ مبينات

المعاني إما محكمات أو متشابهات فقد تبعها البيان بالمحكمات أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً .

وثانيها : أنها ظاهرات الإعجاز تحدى بها فما قدروا على معارضتها .

وثالثها : المراد بكونها آيات بينات أي دلائل ظاهرة واضحة لا يتوجه عليها سؤال ولا اعتراض مثل قوله تعالى في إثبات صحة الحشر : ﴿ أَوْلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 67] .

(8/491)

البحث الثاني : قرأ ابن كثير : ﴿ مَقَاماً ﴾ بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل ، والباقون بالفتح وهو موضع القيام ، والمراد والندى المجلس يقال : ندى وناد ، والجمع الأندية ، ومنه قوله : ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ [العنكبوت : 29] وقال : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ [العلق : 17] ويقال : ندوت القوم أندوهم إذا جمعتهم في المجلس ، ومنه دار الندوة بمكة وكانت مجتمع القوم .

ثم أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) ﴾

وتقرير هذا الجواب أن يقال : إن من كان أعظم نعمة منكم في الدنيا قد أهلكهم الله تعالى وأبادهم ، فلو دل حصول نعم الدنيا للإنسان على كونه حبيباً لله تعالى لوجب في حبيب الله أن لا يوصل إليه غماً في الدنيا ووجب عليه أن لا يهلك أحداً من المنعمين في دار الدنيا وحيث أهلكهم دل إما على فساد المقدمة الأولى وهي أن من وجد الدنيا كان حبيباً لله تعالى ، أو على فساد المقدمة الثانية وهي أن حبيب الله لا يوصل الله إليه غماً ، وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكرتموه من الشبهة ، بقي البحث عن تفسير الألفاظ فنقول : أهل كل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم (وهم أحسن) في محل النصب صفة (لكم) ، ألا ترى أنك لو تركت (هم) لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية ، والأثاث متاع البيت ، أما رئياً فقرىء على خمسة أوجه لأنها إما أن تقرأ بالراء التي ليس فوقها نقطة ، أو بالزاي التي فوقها نقطة فأما الأول ، فإما أن يجمع بين الهمزة والياء أو يكتفي بالياء .

أما إذا جمع بين الهمزة والياء ففيه وجهان : أحدهما : بهمزة ساكنة بعدها ياء وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت رئياً .

والثاني : ريئاً على القلب كقولهم راء في رأى ، أما إن اكتفينا بالياء فتارة بالياء المشددة على قلب الهمزة ياء ، والإدغام ، أو من الري الذي هو النعمة والترفه ، من قولهم : ريان من النعيم .

والثاني : بالياء على حذف الهمزة رأساً ووجهه أن يخفف المقلوب وهو ريئاً بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها ، وأما بالزاي المنقطة من فوق زياً فاشتقاقه من الزي وهو الجمع ، لأن الزي محاسن مجموعة ، والمعنى أحسن من هؤلاء ، والله أعلم .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾

اعلم أن هذا الجواب الثاني عن تلك الشبهة وتقريره لنفرض أن هذا الضال المتنعم في الدنيا قد مد الله في أجله وأمهله مدة مديدة حتى ينضم إلى النعمة العظيمة المدة الطويلة ، فلا بد وأن ينتهي إلى عذاب في الدنيا أو عذاب في الآخرة بعد ذلك سيعلمون أن نعم الدنيا ما تنقذهم من ذلك العذاب فقوله : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ مذكور في مقابلة قولهم : ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ [مريم : 73] ﴿ وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ في مقابلة قولهم : ﴿ أَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] فبين تعالى أنهم وإن ظنوا في الحال أن منزلتهم أفضل من حيث فضلهم الله تعالى بالمقام والندى فسيعلمون من بعد أن الأمر بالضد من ذلك وأنهم شر مكاناً فإنه لا مكان شر من النار والمناقشة في الحساب .

﴿ وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ فقد كانوا يظنون وهم في الدنيا أن اجتماعهم ينفع فإذا رأوا أن لا ناصر لهم في الآخرة عرفوا عند ذلك أنهم كانوا في الدنيا مبطلين فيما ادعوه .

(10/491)

بقي البحث عن الألفاظ وهو من وجوه : أحدها : مد له الرحمن أي أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك وأنه مفعول لا محالة كالمأمور الممتثل ليقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر : 37] وكقولهم : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] وثانيها : أن قوله : ﴿ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ يدل على أن المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لأن قوله ﴿ وَإِمَّا الساعة ﴾ المراد منه يوم القيامة ثم العذاب الذي يحصل قبل يوم القيامة يمكن أن يكون هو عذاب القبر ويمكن أن يكون هو العذاب الذي سيكون عند المعاينة لأنهم عند ذلك يعلمون ما يستحقون ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد تغير أحوالهم في الدنيا من العز إلى الذل ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى المرض ، ومن الأمن إلى الخوف ، ويمكن أن يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد ما نالهم يوم بدر ، وكل هذه الوجوه مذكورة ، واعلم أنه تعالى بين بعد ذلك أنه كما يعامل الكفار بما ذكره فكذلك يزيد

المؤمنين المهتدين هدى ، واعلم أنا نبين إمكان ذلك بحسب العقل ، فنقول : إنه لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطاً بالبعض فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم ولا امتناع في كون بعض العلم مشروطاً بالبعض ، فمن اهتدى بالهداية التي هي الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يعطي الهداية التي هي المشروط ، فصح قوله : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾ مثاله الإيمان هدى والإخلاص في الإيمان زيادة هدى ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص ، هذا إذا أجرينا لفظ الهداية على ظاهره ومن الناس من حمل الزيادة في الهدى على الثواب أي ويزيد الله الذين اهتدوا ثواباً على ذلك الاهتداء ومنهم من فسر هذه

(11/491)

الزيادة بالعبادات المترتبة على الإيمان ، قال صاحب "الكشاف" : يزيد معطوف على موضع فليمدد لأنه واقع موقع الخبر وتقديره من كان في الضلالة يمد له الرحمن مداً ويزيد أي يزيد في ضلال الضلال بخذلانه بذلك المد ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ، ثم إنه تعالى بين أن ما عليه المهتدون هو الذي ينفع في العاقبة فقال : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ وذلك لأن ما عليه المهتدون ضرر قليل متناه يعقبه نفع عظيم غير متناه ، والذي

عليه الضالون نفع قليل متناه يعقبه ضرر عظيم غير متناه ، وكل أحد يعلم بالضرورة أن الأول أولى ، وبهذا الطريق تسقط الشبهة التي عولوا عليها واختلفوا في المراد بالباقيات الصالحات فقال المحققون إنها الإيمان والأعمال الصالحة سماها باقية لأن نفعها يدوم ولا يبطل ومنهم من قال المراد بها بعض العبادات ولعلهم ذكروا ما هو أعظم ثواباً فبعضهم ذكر الصلوات وبعضهم ذكر التسبيح وروي عن أبي الدرداء قال :

" جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عوداً يابساً فأزال الورق عنه ثم قال : إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله يحط الخطايا حطاً كما يحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة ، وكان أبو الدرداء يقول : لأعلمن ذلك ولأكثرن منه حتى إذا رآني جاهل حسب أني مجنون " .

(12/491)

والقول الأول أولى لأنه تعالى إنما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا ينقطع فبعض العبادات وإن كان أنقص ثواباً من البعض فهي مشتركة في الدوام فهي بأسرها باقية صالحة نظراً إلى آثارها التي هي الثواب ثم إنه تعالى أخبر أنها : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ

ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ ولا يجوز أن يقال : هذا خير إلا والمراد أنه خير من غيره فالمراد إذن أنها خير مما ظنه الكفار بقولهم : ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 210.212 ﴾

(13/491)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : منزل إقامة في الجنة أو النار .

والثاني : يعني كلام قائم بجدل واحتجاج أي : أمّن فلجت حجته بالطاعة خير أم من دحضت حجته بالمعصية ، وشاهده قول لبيد :

ومقام ضيق فرجتهْ . . . بلساني وحسامي وجدل

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أفضل مجلساً .

الثاني : أوسع عيشاً .

ويحتمل ثالثاً : أيهما خير مقاماً في موقف العرض ، من قضى له بالثواب أو العقاب ؟

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ منزل إقامة في الجنة أو في النار ، وقال ثعلب : المقام بضم الميم : الإقامة ، وبفتحها المجلس .

قوله تعالى : ﴿ أَثَاثاً وَرِءْيًا ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الأثاث : المتاع ، والرئي : المنظر ، قاله ابن عباس . قال الشاعر :

أشاقت الظعائن يوم ولوا . . . بذي الرئي الجميل من الأثاث .

الثاني : أن الأثاث ما كان جديداً من ثياب البيت ، والرئي الارتواء من النعمة .

الثالث : الأثاث ما لا يراه الناس . والرئي ما يراه الناس .

الرابع : معناه أكثر أموالاً وأحسن صوراً .

ويحتمل خامساً : أن الأثاث ما يعد للاستعمال ، والرئي ما يعد للجمال .

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يزيدهم هدى بالمعونة في طاعته والتوفيق لمرضاته .

الثاني : الإيمان بالناسخ والمنسوخ ، قاله الكلبي ومقاتل ، فيكون معناه : ويزيد الله الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ .

ويحتمل ثالثاً : ويزيد الله الذين اهتدوا إلى طاعته هدى إلى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(14/491)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

قرأ الأعرج وابن محيصن وأبو حيوة " يتلى " بالياء ، من تحت ، وسبب هذه الآية أن كفار قريش لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين فيقرأ عليه القرآن ويبهره بآيات النبي عليه السلام ، كان الكافر منهم يقول إن الله إنما يحسن لأحب الخلق إليه وإنما ينعم على أهل الحق ونحن قد أنعم الله علينا دونكم فنحن أغنياء وأنتم فقراء ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارة فهذا المعنى ونحوه هو المقصود بالتوقيف في قوله ﴿ أي الفريقين ﴾ ، وقرأ نافع وابن عامر " مَقاماً " بفتح الميم ﴿ ولا مَقام لكم ﴾ [الأحزاب : 13] بالفتح أيضاً ، وهو المصدر من قام أو الظرف منه أي موضع القيام ، وهذا يقتضي لفظ المقام إلا أن المعني في هذه الآية يحرز أنه واقع على الظرف فقط ، وقرأ أبيّ ﴿ في مُقام أمين ﴾ [الدخان : 51] بضم الميم ، وقرأ ابن كثير " مُقاماً " بضم الميم وهو ظرف من أقام وكذلك أيضاً يجيء

المصدر منه مثل ﴿ مجراها ومرساها ﴾ [هود : 41] وقرأ ﴿ في مَقام أمين ﴾ [الدخان : 51] ﴿ ولا مَقام لكم ﴾ [الأحزاب : 13] بالفتح ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم جميعهن بالفتح ، وروى حفص عن عاصم " لا مُقام لكم " بالضم . و " الندي " والنادي المجلس فيه الجماعة ومن قول حاتم الطائي :

فدعيت في أولى الندي . . . ولم ينظر إليَّ بأعين خزر

(15/491)

وقوله ﴿ وكم ﴾ مخاطبة من الله تعالى لمحمد خبر يتضمن كسر حجتهم واحتقار أمرهم لأن التقدير : هذا الذي افتخروا به لا قدر له عند الله وليس بمنج لهم فكم أهلك الله من الأمم لما كفروا وهو أشد من هؤلاء وأكثر أموالاً وأجمل منظراً . و " القرن " الأمة يجمعها العصر الواحد ، واختلف الناس في قدر المدة التي اذا اجتمعت لأمة سميت تلك الامة قرناً ، فقيل مائة سنة ، وقيل ثمانون ، وقيل سبعون ، وقد تقدم القول في هذا غير مرة ، و " الأثاث " المال العين والعرض والحيوان وهو اسم عام واختلف هل هو جمع أو إفراد . فقال الفراء : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالمتاع ، وقال خلف الأحمر : هو جمع واحدة أثاثة كحمامة وحمام ومنه قول الشاعر : [الوافر]

أشاقتك الظعائن يوم بانوا . . . بذي الزي الجميل من الأثاث

وأنشد أبو العباس : [الوافر]

لقد علمت عرينة حيث كانت . . . بأنا نحن أكثرهم أثاثاً

وقرأ نافع بخلاف وأهل المدينة " وريّاً " بياء مشددة ، وقرأ ابن عباس فيما روي عنه وطلحة " وريا " بياء مخففة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي " ورءياً " بهمزة بعدها ياء على وزن رعياً ، ورويت عن نافع وابن عامر رواها أشهب عن نافع وقرأ أبو بكر عن عاصم " وريئاً " بياء ساكنة بعدها همزة وهو على القلب وزنه فلعاً وكأنه من راع وقال الشاعر : [الطويل]

وكل خليل راءني فهو قائل . . . من اجلك هذا هامة اليوم أو غد

(16/491)

فأما القراءتان المهموزتان فهما من رؤية العين الرئي اسم المرئي والظاهر للعين كالطحن والسقي ، قال ابن عباس الرئي المنظر قال الحسن " وريا " معناه صوراً وأما المشددة الياء فقيل هي بمعنى المهموزة إلا أن الهمزة خففت لتستوي رؤوس الآي ، وذكر منذر بن سعيد عن بعض أهل العلم أنه من " الري " في السقي كأنه أراد أنهم خير منهم بلاداً وأطيب أرضاً

وأكثر نعماً إذ جملة النعم إنما هي من الري والمطر ، وأما القراءة المخففة الياء فضعيفة الوجه ، وقد قيل هي لحن ، وقرأ سعيد بن جبير ويزيد البربري وابن عباس أيضاً " وزياً " بالزاي وهو بمعنى الملبس وهيئته تقول زييت بمعنى زينت ، وأما قوله ﴿ قل من كان الضلالة ﴾ الآية فقول يحتمل معنيين ، أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء والابتهال كأنه يقول الأضل منا أو منكم " مد " الله له أي أملى له حتى يؤول ذلك إلى عذابه ، والمعنى الأخر أن يكون بمعنى الخبر كأنه يقول من كان ضالاً من الأمم فعادة الله فيه أنه " يمد " له ولا يعاجله حتى يفضي ذلك إلى عذابه في الآخرة ، فاللام في قوله ﴿ فليمدد ﴾ على المعنى الأول لام رغبة في صيغة الأمر ، وعلى المعنى الثاني لام أمر دخلت في معنى الخبر ليكون أوكد وأقوى وهذا موجود في كلام العرب وفصاحتها .

﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾

(17/491)

﴿ حتى ﴾ في هذه الآية حرف ابتداء دخلت على جملة وفيها معنى الغاية ، و﴿ إذا ﴾ شرط ، وجوابها في قوله ﴿ فسيعلمون ﴾ والرؤية رؤية العين ، و﴿ العذاب ﴾ و﴿ الساعة ﴾ بدل من ﴿ ما ﴾ التي وقعت عليها ﴿ رأوا ﴾ و﴿ إما ﴾ هي المدخلة للشك في أول الكلام والثانية عطف عليها ، و﴿ العذاب ﴾ يريد به عذاب الدنيا ونصرة المؤمنين عليهم ، و" الجند " النصرة والقائمون بأمر الحرب ، و﴿ شر مكاناً ﴾ بإزاء قولهم ﴿ خير مقاماً ﴾ [مريم : 73] ﴿ وأضعف جنداً ﴾ بإزاء قولهم ﴿ أحسن نديا ﴾ [مريم : 72] ولما ذكر ضلالة الكفرة وارتباكهم في الافتخار بنعم الدنيا وعماهم عن الطريق المستقيم عقب ذلك بذكر نعمته على المؤمنين في أنهم يزيدهم ﴿ هدى ﴾ في الارتباط إلى الأعمال الصالحة والمعرفة بالدلائل الواضحة وزيادة العلم دأباً .

(18/491)

قال الطبري عن بعضهم المعنى بناسخ القرآن ومنسوخه ع : وهذا مثال وقوله ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ إشارة الى ذلك الهدى الذي يزيدهم الله تعالى أي وهذه النعم على هؤلاء ﴿ خير ﴾ عند الله ﴿ ثواباً ﴾ وخير مرجعاً . والقول في زيادة الهدى سهل بين الوجوه ، وأما ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ فقال بعض العلماء هو كل عمل صالح يرفع الله

به درجة عامله ، وقال الحسن هي " الفرائض " ، وقال ابن عباس هي " الصلوات الخمس " وروي عن النبي عليه السلام " أنها الكلمات المشهورات سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر " وقد قال رسول الله عليه السلام لأبي الدرداء " خذهن يا أبا الدرداء ، قبل أن يحال بينك وبينهن فهن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة " وروي عنه عليه السلام أنه قال يوماً " خذوا جنتكم ، قالوا يا رسول الله أمن عدو حضر قال : من النار ، قالوا ما هي يا رسول الله ، قال : سبحان الله ، ولا إله الا الله ، والله أكبر ، وهن الباقيات الصالحات " وكان أبو الدرداء يقول إذا ذكر هذا الحديث : لأهللن ، ولأكبرن الله ، ولأسبحنه حتى إذا رآني الجاهل ظنني مجنوناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(19/491)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا تُتْلى عليهم ﴾

يعني : المشركين ﴿ آياتنا ﴾ يعني : القرآن ﴿ قال الذين كفروا ﴾ يعني : مشركي قريش ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : لفقراء المؤمنين ﴿ أيُّ الفريقين خيرٌ مَقاماً ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو

، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم [مَقاماً] بفتح الميم .

وقرأ ابن كثير بضم الميم .

قال أبو علي الفارسي : المقام : اسم المثوى ، إن فُتحت الميم أو ضُمَّتْ .

قوله تعالى : ﴿ وأحسن نديًّا ﴾ والنديُّ والنادي : مجلس القوم ومجتمَعهم .

وقال الفراء : النديُّ والنادي ، لغتان .

ومعنى الكلام : أنحن خير ، أم أنتم ؟ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس ، فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ وقد بينا معنى القرن في [الأنعام : 6] وشرحنا الاثاث في [النحل : 80] .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَرِئْيَاً ﴾ فقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "ورئياً" بهمزة بين الراء والياء في وزن : "رِعيا" ؛ قال الزجاج : ومعناها : منظراً ، من "رأيت" .

وقرأ نافع ، وابن عامر : "رِيّاً" بياء مشددة من غير همز ، قال الزجاج : لها تفسيران .

أحدهما : أنها بمعنى الأولى .

والثاني : أنها من الرِّيّ ، فالمعنى : منظرهم مرتوٍ من النعمة ، كأن النعيم بَيِّنٌ فيهم .

وقرأ ابن عباس ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي سريج عن الكسائي : "زيّاً" بالزاي المعجمة مع تشديد الياء من غير همز .

قال الزجاج : ومعناها : حسن هيئتهم .

قوله تعالى : ﴿ قل من كان في الضلالة ﴾

(20/491)

أي : في الكفر والعمى عن التوحيد ﴿ فليمدد له الرحمن ﴾ قال الزجاج : وهذا لفظ أمر ، ومعناه الخبر ، والمعنى : أن الله تعالى جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها ، قال ابن الأنباري : خاطب الله العرب بلسانها ، وهي تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر ، يقول أحدهم : إن زارنا عبد الله فلنُكْرِمْه ، يقصد التوكيد ، وينبِّه على أني أُلزم نفسي إكرامه ؛ ويجوز أن تكون اللام لام الدعاء على معنى : قل يا محمد : مَنْ كان في الضلالة فاللَّهم مُدَّ له في النِّعَم مَدّاً .

قال المفسرون : ومعنى مدّ الله تعالى له : إمهالُه في الغَيّ .

﴿ حتى إذا رأوا ﴾ يعني الذين مَدَّهم في الضلالة .

وإنما أخبر عن الجماعة ، لأن لفظ "مَن" يصلح للجماعة .

ثم ذكر ما يوعدون فقال : ﴿ إمَّا العذاب ﴾ يعني : القتل ، والأسر ﴿ وإمَّا الساعة ﴾ يعني : القيامة وما وُعدوا فيها من الخلود في النار ﴿ فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً ﴾ في

الآخرة ، أهم ، أم المؤمنون ؟ لأن مكان هؤلاء الجنة ، ومكان هؤلاء النار ، ﴿ و ﴾ يعلمون بالنصر والقتل من ﴿ أضعف جنداً ﴾ جندهم ، أم جند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا ردٌّ عليهم في قولهم : ﴿ أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيّاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : ويزيد الله الذين اهتدَوا بالتوحيد إيماناً .

والثاني : يزيدهم بصيرةً في دينهم .

والثالث : يزيدهم بزيادة الوحي إيماناً ، فكلما نزلت سورة زاد إيمانهم .

والرابع : يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ .

والخامس : يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ .

قال الزجاج : المعنى : إن الله تعالى يجعل جزاءهم أن يزيدهم يقيناً ، كما جعل جزاء الكافر أن يمدَّه في ضلالته .

قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قد ذكرناها في سورة [الكهف : 46] .

قوله تعالى : ﴿ وخير مردّاً ﴾ المردُّ هاهنا مصدر مثل الردّ ، والمعنى : وخيرٌ ردّاً للثواب على عامليها ، فليست كأعمال الكفار التي خسروها فبطلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِيِّنَاتٍ ﴾

أي على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ [مريم : 66] .

وقال فيهم : ﴿ وَنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ أي هؤلاء إذا قرىء عليهم القرآن تعزَّزوا بالدنيا ، وقالوا : فما بالنا إن كنا على باطل أكثر أموالاً وأعز نفراً .

وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه المحقّ في دينه ، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيراً ولا في المسلمين غنياً ، ولم يعلموا أن الله تعالى نَحَّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا ، وفرط الميل إليها .

و"بيناتٍ" معناه مرتَّلات الألفاظ ، ملخصة المعاني ، مبينات المقاصد ؛ إما محكمات ، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات ، أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً .

أو ظاهرات الإعجاز تُحدّي بها فلم يقدر على معارضتها .

أو حججاً وبراهين .

والوجه أن تكون حالاً مؤكدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً ﴾ [البقرة : 91] لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججاً .

﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يريد مشركي قريش النضر بن الحارث وأصحابه .

﴿ لِلَّذِينَ آمنوا ﴾ يعني فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت فيهم قشافة ، وفي عيشهم خشونة ، وفي ثيابهم رثاثة ؛ وكان المشركون يرجلون شعورهم ، ويدهنون رؤوسهم ، ويلبسون خير ثيابهم ، فقالوا : للمؤمنين : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ .

قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد "مُقَاماً" بضم الميم وهو موضع الإقامة .

ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإقامة .

الباقون "مَقَاماً" بالفتح ، أي منزلاً ومسكناً وقيل : المقام الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة ؛ أي أيّ الفريقين أكثر جاهاً وأنصاراً .

"وَأَحْسَنُ نَدِيًّا" أي مجلساً ؛ عن ابن عباس .

(22/491)

وعنه أيضاً المنظر وهو المجلس في اللغة وهو النادي .

ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم .

وناداه جالسه في النادي قال :

أنادي به آل الوليد وجعفرَا . . .

والنديّ على فعيل مجلس القوم ومتحدّثهم ، وكذلك الندوة والنادي (والمُنْتَدى) والمُنَتَدَّى ، فإن تفرق القوم فليس بنديّ ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من أمة وجماعة .

﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ أي متاعاً كثيراً ؛ قال :

وفَرْعٍ يَزينُ المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ . . .

أَثيثٍ كقِنْوِ النَّخلَةِ المُتَعَثْكِلِ

والأثاث متاع البيت .

وقيل : هو ما جدّ من الفَرْش والخُرْثيّ ما لُبس منها ، وأنشد الحسن بن عليّ الطوسي فقال :

تقادم العهد من أم الوليد بنا . . .

دهراً وصار أثاث البيت خُرْثيّا

وقال ابن عباس : هيئة .

مقاتل : ثيابا .

﴿ وَرِءْياً ﴾ أي منظَراً حسناً .

وفيه خمس قراءات : قرأ أهل المدينة "ورِيًّا" بغير همز .

وقرأ أهل الكوفة "ورِئيا" بالهمز .

وحكى يعقوب أن طلحة قرأ "وَرِياً" بياء واحدة مخففة .

وروى سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس : "هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وزِيًّا" بالزاي ؛ فهذه أربع قراءات .

قال أبو إسحاق : ويجوز "هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وريْئًا" بياء بعدها همزة .

النحاس : وقراءة أهل المدينة في هذا حسنة وفيها تقريران : أحدهما : أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء ، وأدغمت الياء في الياء .

وكان هذا حسناً لتتفق رؤوس الآيات لأنها غير مهموزات .

وعلى هذا قال ابن عباس : الرئي المنظر ؛ فالمعنى : هم أحسن أثاثاً ولباساً .

والوجه الثاني : أن جلودهم مرتوية من النعمة ؛ فلا يجوز الهمز على هذا .

وفي رواية ورش عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر "ورئيا" بالهمز تكون على الوجه الأوّل .

وهي قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو من رأيت على الأصل .

وقراءة طلحة بن مُصَرِّف "وريا" بياء واحدة مخففة أحسبها غلطاً .

وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء ، ثم حذفت إحدى اليائين .

المهدوي : ويجوز أن يكون "رِيْئاً" فقلبت ياء فصارت ريا ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت .

وقد قرأ بعضهم "وريا" على القلب وهي القراءة الخامسة .

وحكى سيبويه رَاءَ بمعنى رأى .

الجوهري : من همزه جعله من المنظر من رأيت ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة .

وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي فقال :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا . . .

بذِي الرِّئي الجميلِ من الأثاث

ومن لم يهمز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رَوِيت ألوانهم وجلودهم رِيًّا ؛ أي امتلأت وحسنت .

وأما قراءة ابن عباس وأبيّ بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكي ويزيد البربري "وزِيا"

بالزاي فهو الهيئة والحسن .

ويجوز أن يكون من زَوَيتُ أي جمعت ، فيكون أصلها زِويا فقلبت الواو ياء .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " زُويت لي الأرض " أي جمعت ؛ أي فلم يغن ذلك عنهم شيئًا من عذاب الله تعالى ؛ فليعش هؤلاء ما شاؤوا فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا ؛ أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة ﴾ أي في الكفر ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ أي فليدعه في طغيان جهله وكفره ؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ؛ أي من كان في الضلالة مدّه الرحمن مداً حتى يطول اغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه .

نظيره : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] وقوله : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : 110] ومثله كثير ؛ أي فليعش ما شاء ، وليوسع لنفسه في العمر ؛ فمصيره إلى الموت والعقاب .

وهذا غاية في التهديد والوعيد .

(24/491)

وقيل : هذا دعاء أمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ تقول : من سرق مالي فليقطع الله تعالى يده ؛ فهو دعاء على السارق .

وهو جواب الشرط .

وعلى هذا فليس قوله : "فليمدد" خبراً .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال : "رأوا" لأن لفظ "من" يصلح للواحد والجمع .

و"إذا" مع الماضي بمعنى المستقبل ؛ أي حتى يروا ما يوعدون .

والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر ؛ وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار .

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ أي تنكشف حينئذٍ الحقائق .

وهذا رد لقولهم : "أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا" .

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى ﴾

أي ويثبت الله المؤمنين على الهدى ، ويزيدهم في النّصرة ، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم .

وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذي كفر به غيرهم ؛ قال معناه الكلبي ومقاتل .

ويحتمل ثالثاً : أي "ويزيد الله الذين اهتدوا" إلى الطاعة "هدى" إلى الجنة ؛ والمعنى متقارب .

وقد تقدّم القول في معنى زيادة الأعمال وزيادة الإيمان والهدى في "آل عمران" وغيرها .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ تقدّم في "الكهف" القول فيها .

﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ أي جزاء : ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ أي في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا .

و"المَرَدّ" مصدر كالرد ؛ أي وخير رداً على عاملها بالثواب ؛ يقال : هذا أَرَدُّ عليك ، أي أنفع لك .

وقيل : "خير مرداً" أي مرجعاً فكل أحد يردّ إلى عمله الذي عمله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(25/491)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾

نزلت في النضر بن الحارث وأصحابه ، كان فقراء الصحابة في خشونة عيش ورثاثة سربال

والمشركون يدهنون رؤوسهم ويرجلون شعورهم ويلبسون الحرير وفاخر الملابس ، فقالوا للمؤمنين : ﴿ أي الفريقين خير مقاماً ﴾ أي منزلاً وسكناً ﴿ وأحسن نديا ﴾ ولما أقام الحجة على منكري البعث وأتبعه بما يكون يوم القيامة أخبر عنهم أنهم عارضوا تلك الحجة الدامغة بحسن شارتهم في الدنيا ، وذلك عندهم يدل على كرامتهم على الله .

وقرأ أبو حيوة والأعرج وابن محيصن يتلي بالياء والجمهور بالتاء من فوق كان المؤمن يتلو على الكافر القرآن وينوه بآيات النبيّ (صلى الله عليه وسلم) فيقول الكافر : إنما يحسن الله لأحب الخلق إليه وينعم على أهل الحق ، ونحن قد أنعم علينا دونكم فنحن أغنياء وأنتم فقراء ، ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارة .

ومعنى ﴿ بينات ﴾ مرتلات الألفاظ ملخصات المعاني أو ظاهرات الإعجاز أو حججاً وبراهين .

و ﴿ بينات ﴾ حال مؤكدة لأن آياته تعالى لا تكون إلاّ بهذا الوصف دائماً .

وقرأ الجمهور ﴿ مقاماً ﴾ بفتح الميم .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد والجعفي وأبو حاتم عن أبي عمر وبضم الميم واحتمل الفتح والضم أن يكون مصدراً أو موضع قيام أو إقامة ، وانتصابه على التمييز .

ثم ذكر تعالى كثرة ما أهلك من القرون ممن كان أحسن حالاً منهم في الدنيا تنبيهاً على أنه تعالى يهلكهم ويستأصل شأفتهم كما فعل بغيرهم واتعاظاً لهم إن كانوا ممن يتعظ ، ولم يغن

عنهم ما كانوا فيه من حسن الأثاث والري ، ويعني إهلاك تكذيب لما جاءت به الرسل .

و﴿ من قرن ﴾ تبيين لكم و﴿ كم ﴾ مفعول بأهلكنا .

وقال الزمخشري : و﴿ هم أحسن ﴾ في محل النصب صفة لكم .

ألا ترى أنك لو تركت ﴿ هك ﴾ لم يكن لك بد من نصب ﴿ أحسن ﴾ على الوصفية انتهى .

(26/491)

وتابعه أبو البقاء على أن ﴿ هم أحسن ﴾ صفة لكم ، ونص أصحابنا على أن ﴿ كم ﴾ الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها ، فعلى هذا يكون ﴿ هم أحسن ﴾ في موضع الصفة لقرن ، وجمع لأن القرن هو مشتمل على أفراد كثيرة فروعي معناه ، ولو أفرد الضمير على اللفظ لكان عربياً فصار كلفظ جميع .

قال ﴿ لما جميع لدينا محضرون ﴾ وقال : نحن جميع منتصر فوصفه بالجمع وبالمفرد وتقدم تفسير الأثاث في سورة النحل .

وقرأ الجمهور ﴿ ورئياً ﴾ بالهمزة من رؤية العين فعل بمعنى مفعول كالطحن والسقي .

وقال ابن عباس : الرئي المنظر .

وقال الحسن : معناه صوراً .

وقال الزهري وأبو جعفر وشيبة وطلحة في رواية الهمداني وأيوب وابن سعدان وابن ذكوان وقالون وريا بتشديد الياء من غير همز ، فاحتمل أن يكون مهموز الأصل من الرواء والمنظر سهلت همزته بإبدالها ياء ثم أدغمت الياء في الياء ، واحتمل أن يكون من الريّ ضد العطش لأن الريان من الماء له من الحسن والنضارة ما يستحب ويستحن ، كماله منظر حسن من وجه آخر مما يرى ويقابل .

وقرأ أبو بكر في رواية الأعمش عن عاصم وحميد ﴿ ورئياً ﴾ بياء ساكنة بعدها همزة وهو على القلب ووزنه فلعا ، وكأنه من راء .

قال الشاعر :

وكل خليل رآني فهو قائل . . .

من أجل هذا هامة اليوم أو غد

وقرىء ورياءً بياء بعدها ألف بعدها همزة ، حكاها اليزيدي وأصله ورئاء من المراءاة أي يرى بعضهم بعضاً حسنه .

وقرأ ابن عباس ، فيما روي عنه طلحة وريا من غير همز ولا تشديد ، فتجاسر بعض الناس وقال هي لحن وليس كذلك بل لها توجيه بأن تكون من الرواء ، وقلب فصار ﴿ ورئياً ﴾ ثم نقلت حركة الهمزة إلى الياء وحذفت ، أو بأن تكون من الريّ وحذفت إحدى

الياءين تخفيفاً كما حذفت في لا سيما ، والمحذوفة الثانية لأنها لام الكلمة لأن النقل إنما حصل للكلمة بانضمامها إلى الأولى فهي أولى بالحذف .

(27/491)

وقرأ ابن عباس أيضاً وابن جبير ويزيد البربري والأعسم المكي وزياً بالزاي مشدد الياء وهي البزة الحسنة ، والآلات المجتمعة المستحسنة .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾

﴿ فليمدد ﴾ يحتمل أن يكون على معناه من الطلب ويكون دعاء ، وكان المعنى الأضل منا ومنكم مدّ الله له ، أي أملى له حتى يؤول إلى عذابه .

وكان الدعاء على صيغة الطلب لأنه الأصل ، ويحتمل أن يكون خبراً في المعنى وصورته صورة الأمر ، كأنه يقول : من كان ضالاً من الأمم فعادة الله له أنه يمدد له ولا يعاجله حتى يفضي ذلك إلى عذابه في الآخرة .

وقال الزمخشري : أخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وإنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ أو كقوله ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ والظاهر أن ﴿ حتى ﴾ غاية لقوله ﴿

فليمدد ﴾ والمعنى إن الذين في الضلالة ممدود لهم فيها إلى أن يعاينوا العذاب بنصرة الله المؤمنين أو الساعة ومقدماتها .

وقال الزمخشري : في هذه الآية وجهان أحدهما أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها ، والآيتان اعتراض بينهما أي قالوا ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ﴾ ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ أي لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿ إما العذاب ﴾ في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم ، وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً ، وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه ، وأنهم ﴿ شر مكاناً وأضعف جنداً ﴾ لا ﴿ خير مقاماً وأحسن نديا ﴾ وأن المؤمنين على خلاف صفتهم .

(28/491)

انتهى هذا الوجه وهو في غاية البعد لطول الفصل بين قوله قالوا : ﴿ أي الفريقين ﴾ وبين الغاية وفيه الفصل بجملتي اعتراض ولا يجيز ذلك أبو علي .

قال الزمخشري : والثاني أن يتصل بما يليها فذكر نحواً مما قدمناه ، وقابل قولهم خير مكاناً

بقوله ﴿ شر مكاناً ﴾ وقوله ﴿ وأحسن نديا ﴾ بقوله ﴿ وأضعف جنداً ﴾ لأن الندي هو المجلس الجامع لوجوه القوم والأعوان ، والأنصار والجند هم الأعوان ، والأنصار و ﴿ إما العذاب وإما الساعة ﴾ بدل من ما المفعولة برأوا .

و ﴿ من ﴾ موصولة مفعولة بقوله ﴿ فسيعلمون ﴾ وتعدى إلى واحد واستفهامية ، والفعل قبلها معلق والجملة في موضع نصب .

ولما ذكر إمداد الضال في ضلالته وارتباكه في الافتخار بنعم الدنيا عقب ذلك بزيادة هدى للمهتدي وبذكر ﴿ الباقيات ﴾ التي هي بدل من تنعمهم في الدنيا الذي يضمحل ولا يثبت .

و ﴿ مرداً ﴾ معناه مرجعاً وتقدم تفسير ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ في الكهف .

وقال الزمخشري : ﴿ يزيد ﴾ معطوف على موضع فليمدد لأنه واقع موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة مداً ويمد له الرحمن ﴿ ويزيد ﴾ أي يزيد في ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه انتهى .

ولا يصح أن يكون ﴿ ويزيد ﴾ معطوفاً على موضع ﴿ فليمدد ﴾ سواء كان دعاء أم خبراً بصورة الأمر لأنه في موضع الخبر إن كانت ﴿ من ﴾ موصولة أو في موضع الجواب إن كانت ﴿ من ﴾ شرطية ، وعلى كلا التقديرين فالجملة من قوله ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ عارية من ضمير يعود على من يربط جملة الخبر بالمبتدأ أو جملة الشرط

بالجزاء الذي هو فليمدد وما عطف عليه لأن المعطوف على الخبر خبر ، والمعطوف على جملة الجزاء جزاء ، وإذا كانت أداة الشرط اسماً لا ظرفاً تعين أن يكون في جملة الجزاء ضميره أو ما يقول مقامه ، وكذا في الجملة المعطوفة عليها .

(29/491)

وقال الزمخشري : هي ﴿ خير ﴾ ﴿ ثواباً ﴾ من مفاخرات الكفار ﴿ وخير مرداً ﴾ أي وخير مرجعاً وعاقبة أو منفعة من قولهم ليس لهذا الأمر مرد وهل يرد مكاني زيداً .

فإن قلت : كيف قيل خير ثواباً كان لمفاخراتهم ثواباً حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه ؟ قلت : كأنه قيل ثوابهم النار على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم .

وقوله :

شجعاء جربها الذميل تلوكه . . .

أصلاً إذا راح المطي غراثاً

وقوله :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

ثم بنى عليه خير ثواباً وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له عقابك

النار .

فإن قلت : فما وجه التفضيل في الخبر كان لمفاخرهم شركاء فيه ؟ قلت : هذا من وجيز كلامهم يقولون : الصيف أحر من الشتاء أي أبلغ في حره من الشتاء في برده انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(30/491)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ﴾

الآية إلى آخرها حكايةٌ لما قالوا عند سماعِ الآياتِ الناعية عليهم فظاعةَ حالِهم ووخامةَ مآلِهم ، أي وإذا تتلى على المشركين ﴿ ءاياتنا ﴾ التي من جملتها هاتيك الآياتُ الناطقةُ بحسن حالِ المؤمنين وسوءِ حال الكفرةِ وقوله تعالى : ﴿ بينات ﴾ أي مِرتّلاتِ الألفاظ مبيَّناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بيّناتِ الإعجاز ، حالٌ مؤكدةٌ من آياتنا ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي قالوا ، ووضعُ الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادّين له ، أو قال الذين مرَدوا منهم على الكفر ومرَنوا على العتوّ والعِناد وهم النضْرُ بنُ الحارثِ وأتباعُه الفجرةُ واللام في قوله تعالى : ﴿

لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ للتبليغ كما في مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نبيُّهُمْ ﴾ وقيل : لامُ الأجْل كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي قالوا لأجلهم وفي حقهم ، والأولُ هو الأولى لأن قَبولَهم ليس في حق المؤمنين فقط كما ينطِق به قوله تعالى : ﴿ أَىُّ الفريقين ﴾ أيُّ المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا : أينا ﴿ خَيْرٌ ﴾ نحن أو أنتم ﴿ مَقَاماً ﴾ أي مكاناً ، وقرىء بضم الميم أي موضِعَ إقامةٍ ومنزلٍ ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ أي مجلِساً ومجتمَعاً . يروى أنهم كانوا يرجّلون شعورَهم ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرةِ ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين ، يريدون بذلك أن خيريّتَهم حالاً وأحسنيّتَهم مآلاً مما لا يقبل الإنكارَ وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزُلفاهم عنده ، إذ هو العيارُ على الفضل والنقصانِ والرفعة والضَّعة وأن من ضرورته هوانَ المؤمنين عليه تعالى لقصور حظِّهم العاجلِ ، وما هذا القياسُ العقيمُ والرأيُ السقيم إلا لكونهم جهَلةً لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وذلك مبلغُهم من العلم

(31/491)

فرُدَّ عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ أي كثيراً من القرون التي كانت أفضلَ منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعادٍ

وثمودَ وأضرابِهم من الأمم العاتيةِ قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا ، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى ، كأنه قيل : فلينتظِرْ هؤلاءِ أيضاً مثلَ ذلك (فكم) مفعولُ أهلكنا و (من قرن) بيانٌ لإبهامها ، وأهلُ كل عصرٍ قَرنٌ لمن بعدهم لأنهم يتقدّمونهم ، مأخوذٌ من قَرْن الدابة وهو مقدّمها وقوله تعالى : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ في حيز النصبِ على أنه صفةٌ لكم وأثاثاً تمييزُ النسبة وهو متاعُ البيت ، وقيل : هو ما جدّ منه ، والخُرْثيُّ ما لُبس منه ورثّ والرِئْيُ المنظرُ ، فِعْلٌ من الرؤية لما يُرَى ، كالطِّحْن لما يُطحَن ، وقرىء رِيًّا على قلب الهمزة ياءً وإدغامِها أو على أنه من الرِّيّ وهو النعمةُ والتُّرفةُ ، وقرىء ريئاً على القلب وريَا بحذف الهمزة وزيَا بالزاي المعجمة من الزَّيّ وهو الجمعُ فإنه عبارةٌ عن المحاسن المجموعة .

(32/491)

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ لما بيّن عاقبةَ أمرِ الأمم المهلَكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظِ العاجلة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب هؤلاء المفتخِرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآلِ أمر الفريقين ، إما على وجه كليَ متناولٍ لهم ولغيرهم من المنهمكين في اللَّذة الفانية المبتهجين بها على أن (مَن) على عمومها ، وإما على

وجه خاصَ بهم على أنهم عبارةٌ عنهم ووصفُهم بالتمكن لذمهم والإشعارِ بعلة الحُكم ، أي مَنْ كان مستقراً في الضلالة مغموراً بالجهل والغَفلةِ عن عواقب الأمورِ فليمدُد له الرحمن أي يُمدّ له ويُمهِله بطول العمُرِ وإعطاءِ المال والتمكينِ من التصرفات ، وإخراجُه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحِكمة لقطع المعاذير كما ينبىء عنه قوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا ﴾ وقيل : المرادُ به الدعاءُ بالمد والتنفيس ، واعتبارُ الاستقرارِ في الضلال لما أن المد لا يكون إلا للمُصِرّين عليها إذ رُبّ ضالَ يهديه الله عز وجل ، والتعرضُ لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية ، وقوله تعالى :

(33/491)

﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ غايةٌ للمدّ الممتدّ لا لقول المفتخِرين كما قيل ، إذ ليس فيه امتدادٌ بحسب الذات وهو ظاهرٌ ولا استمرارٌ بحسب التكرار لوقوعه في حيّز جوابِ إذا ، وجمعُ الضمير في الفعلين باعتبار معنى مَنْ كما أن الإفرادَ في الضميرين الأولين باعتبار لفظِها وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ تفصيلٌ للموعود بدلٌ منه على سبيل البدل فإنه إما العذابُ الدنيويُّ بغلَبة المسلمين واستيلائِهم عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسْراً ،

وإما يومُ القيامة وما لهم فيه من الخزي والنّكالُ على منع الخلوّ دون منع الجمعِ ، فإن العذابَ الأخرويَّ لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ جوابُ الشرط والجملةُ محكيةٌ بعد حتى ، أي حتى إذا عاينوا ما يوعَدون من العذاب الدنيويِّ أو الأخرويِّ فقط فسيعلمون حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ من الفريقين بأن يشاهدوا الأمرَ على عكس ما كانوا يقدّرونه فيعلمون أنهم شرٌ مكاناً لا خيرٌ مقاماً ﴿ وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ أي فئةً وأنصاراً لا أحسنُ نديا كما كانوا يدّعونه ، وليس المرادُ أن له ثمّةَ جنداً ضعفاءَ كلا ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ وإنما ذُكر ذلك رداً لما كانوا يزعمون أن لهم أعواناً من الأعيان وأنصاراً من الأخيار ويفتخرون بذلك في الأندية والمحافل .

(34/491)

﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾

كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حال المهتدين إثرَ بيانِ حال الضالين ، وقيل : عطفٌ على فليمدُدْ لأنه في معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل : مَن كان في الضلالة يُمده الله ويزيد المهتدين هدايةً كقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ وقيل : عطفٌ على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن إمهالَ الكافر وتمتيعَه بالحياة ليس لفضله عقّب ذلك ببيان

أن قصورَ حظّ المؤمنِ منها ليس لنقصه ، بل لأنه تعالى أراد به ما هو خيرٌ من ذلك وقوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ ﴾ على تقديرَي الاستئنافِ والعطف كلامٌ مستأنفٌ وارد من جهته تعالى لبيان فضل أعمالِ المهتدين غيرُ داخل في حيز الكلام الملقّن لقوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي الطاعات التي تبقى فوائدُها وتدوم عوائدُها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس ، وما قيل من قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خيرٌ عند الله تعالى ، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره لتشريفه عليه السلام ﴿ ثَوَاباً ﴾ أي عائدةً مما يَتمتّع به الكفرةُ من النعم المُخدَجةِ الفانية التي يفتخرون بها لا سيما ومآلُها النعيمُ المقيمُ ، ومآلُ هذه الحسرةِ السرمدية والعذاب الأليم كما أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ أي مرجعاً وعاقبةً ، وتكريرُ الخيرِ لمزيد الاعتناءِ ببيان الخيريةِ وتأكيدٌ لها وفي التفصيل مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيريّةٌ في العاقبة تهكّمٌ بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(35/491)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ﴾

الآية إلى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم أي وإذا تتلى على المشركين ﴿ ءاياتنا ﴾ التي من جملتها الآيات السابقة ﴿ بينات ﴾ أي ظاهرات الإعجاز تحدي بها فلم يقدر على معارضتها أو مرتلات الألفاظ ملخصات المعنى مبينات المقاصد إما محكمات أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً ، والوجه كما في "الكشاف" أن يكون ﴿ بينات ﴾ حالاً مؤكدة لمضمون الجملة وإن لم يكن عقدها من اسمين لأن المعنى عليه .

وقرأ أبو حيوة .

والأعرج .

وابن محيصن ﴿ وَإِذَا يتلى ﴾ بالياء التحية لأن المفروع مجازي التأنيث مع وجود الفاصل ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي قالوا .

ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر وأصروا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث وأتباعه الفجرة فإن الآية نزلت فيهم .

واللام في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ للتبليغ كما في قلت له كذا إذا خاطبته به ، وقيل لام الأجل أي قالوا لأجلهم وفي حقهم ، ورجح الأول بأن قولهم ليس في حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ أَىُّ الفريقين ﴾ أي المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا : أينا ﴿

خَيْرٌ ﴾ نحن أو أنتم ﴿ مَقَاماً ﴾ أي مكاناً ومنزلاً ، وأصله موضع القيام ثم استعمل لمطلق المكان .

وقرأ ابن كثير .

وابن محيصن .

وحميد .

والجعفي .

وأبو حاتم عن أبي عمرو ﴿ مَقَاماً ﴾ بضم الميم وأصله موضع الإقامة ، والمراد به أيضاً المنزلة والمكان فتتوافق القراءتان .

(36/491)

وجوز في البحر احتمال المفتوح والمضمون للمصدرية على أن الأصل مصدر قام يقوم ، والثاني مصدر أقام يقيم ، ورأيت في بعض المجموعات كلاماً ينسب لأبي السعود عليه الرحمة في الفرق بين المقام بالفتح والمقام بالضم وقد سأله بعضهم عن ذلك بقوله :

يا وحيد الدهر يا شيخ الأنام . . .

نبتغي فرق المقام والمقام

وهو أن الأول يعني المفتوح الميم موضع قيام الشيء أعم من أن يكون قيامه فيه بنفسه أو بإقامة غيره ومن أن يكون ذلك بطريق المكث فيه أو بدونه ، والثاني موضع إقامة الغير إياه أو موضع قيامه بنفسه قياماً ممتداً ، فإن كان الفعل الناصب ثلاثياً فمقتضى المقام هو الأول ، وكذا إن كان رباعياً ولم يقصد بيان كون المقام موضع قيام المضاف إليه بإقامة غيره أو موضع قيامه الممتد ، وأما إذا قصد ذلك فمقتضاه الثاني كما إذا قلت : أقيمت تاء القسم مقام الواو تنبيهاً على أنها خلف عن الباء التي هي الأصل من أحرم القسم .

ومقامات الكلمات كلها وإن كانت منوطة بوضع الواضع لكن مقامها المنوط بأصل الوضع لكونه مقاماً أصلياً لها قد نزل منزلة موضع قيامها بأنفسها وجعل مقامها المنوط بالاستعمال الطارىء جارياً مجرى المقام الاضطراري لذوات الاختيار ، هذا إذا كان المقام ظرفاً أو إذا كان مصدراً ميمياً والفعل الناصب رباعي فحقه ضم الميم انتهى المراد منه .

وأنت تعلم أنه في هذا المقام ليس منصوباً على الظرفية ولا على المصدرية بل منصوب على التمييز وهو محول عن المبتدأ على ما قيل : أي الفريقين مقامه خير ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ أي مجلساً ومجتمعاً ، وفي "البحر" هو المجلس الذي يجتمع فيه لحادثة أو مشورة .

وقيل : مجلس أهل الندى أي الكرم .

(37/491)

وكذا النادي يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ويتطيبون ويلبسون مفاخر الملابس ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين الذين لا يقدرون على ذلك إذا تليت عليهم الآيات ، قال الإمام : ومرادهم من ذلك معارضة المؤمنين كأنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل كان حالكم في ألدنيا أحسن وأطيب من حالنا لأن الحكيم لا يليق به أن يوق أولياءه المخلصين في العذاب والذل وأعداه المعرضين عن خدمته في العز والراحة لكن الكفار كانوا في النعمة والراحة والمؤمنين كانوا بعكس ذلك فعلم أن الحق ليس مع المؤمنين ، وهذا مع ظهور أنه قياس عقيم ناشيء من رأسي سقيم نقضه الله تعالى وأبطله بقوله سبحانه :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ .

وحاصلة أن كثراً ممن كان أعظم نعمة منكم في الدنيا كعاد وثمود .

واضرابهم من الأمم العاتية قد أهلكهم الله تعالى فلو دل حصول نعمة الدنيا للإنسان على كونه مكرماً عند الله تعالى وجب أن لا يهلك أحداً من المتنعمين في الدنيا ، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى كأنه قيل فلينظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك ، و ﴿ كَمْ ﴾ خبرية للتكثير مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ ، وقدمت لصدارتها ، وقيل : استفهامية والأول هو الظاهر و ﴿ مِّن قَرْنٍ ﴾ بيان لإبهامها .

والقرن أهل كل عصر ، وقد اختلف في مدته وهو من قرن الدابة سمي به لتقدمه ، ومنه

قرن الشمس لأول ما يطلع منها .

و﴿ هُمْ أَحْسَنُ ﴾ في حيز النصب على ما ذهب إليه الزمخشري وتبعه أبو البقاء صفة لكم ورده أبو حيان بأنه قد صرح الأصحاب بأن كم سواء كان خبرية أو استفهامية لا توصف ولا يوصف بها ، وجعله صفة ﴿ قَرْنٍ ﴾ وضمير الجمع لاشتمال القرن على أفراد كثيرة ولو أفرد الضمير لكان عربياً أيضاً .

(38/491)

ولا يرد عليه كما قال الخفاجي : كمن من رجل قام وكم من قرية هلكت بناء على أن الجار والمجرور يتعين تعلقه بمحذوف هو صفة لكم كما ادعى بعضهم أن الرضى أشار إليه لأنه يجوز في الجار والمجرور أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف والجملة مفسرة لا محل لها من الإعراب فما ادعى غير مسلم عنده ، و﴿ أَثَاثاً ﴾ تمييز وهو متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها واحدها أثاثة ، وقيل : لا واحد لها وقيل : الأثاث ماجد من المتاع والخرثي ما قدم وبلى ، وأنشد الحسن بن علي الطوسي :

تقادم العهد من أم الوليد بنا . . .

دهراً وصار أثاث البيت خرثياً

والرئى المنظر كما قال ابن عباس .

وغيره ، وهو فعل بمعنى مفعول من الرؤية كالطحن والسقي .

وقرأ الزهري .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وطلحة في رواية الهمداني .

وأيوب .

وابن سعدان .

وابن ذكوان .

وقالون ﴿ ريا ﴾ بتشديد الياء من غير همز فاحتمل أن يكون من ذلك على قلب الهمزة ياء وإدغامها .

واحتمل أن يكون من الري ضد العطش والمراد به النضارة والحسن .

وقرأ أبو بكر في رواية الأعمش ﴿ ريئا ﴾ بياء ساكنة بعدها همزة وهو على القلب ووزنه فلعا ، وقرىء ﴿ رياء ﴾ بيداء بعدها ألف بعدها همزة حكاها اليزيدي .

ومعناها كما في "الدر المصون" مراءاة بعضهم بعضاً .

وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ ريا ﴾ بحذف الهمزة والقصر فتجاسر بعض

الناس وقال : هي لحز ، وليس كذلك بل خرجت على وجهين أحدهما أن يكون الأصل ﴿ ريا ﴾ بتشديد الياء فخفف بحذف إحدى الياءين وهي الثانية لأنها التي حصل بها الثقل ولأن الآخر محل التغيير وذلك كما حذفت في لا سيما .

والثاني أن يكون الأصل ﴿ ريئا ﴾ بياء ساكنة بعدها همزة فنقلت حركة الهمزة إلى الياء ثم حذفت على القاعدة المعروفة .

وقرأ ابن عباس أيضاً .

وابن جبير .

ويزيد البربري .

والأعصم المكي ﴿ زيا ﴾ بالزاي وتشديد الياء وهو المحاسن المجموعة يقال : زواه زيا بالفتح أي جمعه ، ويراد منه الأثاث أيضاً كما ذكره المبرد في قول الثقفي :

(39/491)

أشاقتك الظعائن يوم بانوا . . .

بذي الزي الجميل من الأثاث

والظاهر في الآية المعنى الأولى .

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة ﴾ الخ

أمر منه تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ الدنيوية على المؤمنين ببيان مآل أمر الفريقين إما على وجه كلي متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين في اللذة الفانية المبتهجين بها على أن من على عممها ، وإما على وجه خاص بهم على أنها عبارة عنهم .

ووصفهم بالتمكن في الضلالة لذمهم والاشعار بعلة الحكم أي من كان مستقراً في الضلالة مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ أي يمد سبحانه له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال والتمكن من التصرفات فالطلب في معنى الخبر ، واختير للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر : 37] فيكون حاصل المعنى من كان في الضلالة فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مداً ، وجوز أن يكون ذلك للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] وحاصل المعنى من كان في الضلالة فعاده الله تعالى أن يمد له ويستدرجه ليزداد إثماً ، وقيل : المراد الدعاء بالمد إظهاراً لعدم بقاء عذر بعد هذا البيان الواضح فهو على أسلوب ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ [يونس : 88] إن حمل على الدعاء ، قال في "الكشف" : الوجه الأول أوفق بهذا المقام ، والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكامها ﴿ حتى إِذَا

رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ إلى آخرها غاية للمد وجمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى من كما أن الأفراد في الضميرين الأولين باعتبار لفظها ، وما اسم موصول والجملة بعده صلة والعائد محذوف أي الذي يوعدونه ، واعتبار ما مصدرية خلاف الظاهر .

(40/491)

وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ بدل من ﴿ مَا ﴾ وتفصيل للموعود على طريقة منع الخلو ، والمراد بالعذاب الدنيوي بغلبة المؤمنين واستيلائهم عليهم ، والمراد بالساعة قيل : يوم القيامة وهو الظاهر .

وقيل : ما يشمل حين الموت ومعاينة العذاب ومن مات فقد قامت قيامته وذلك لتتصل الغاية بالمغيا فإن المد لا يتصل بيوم القيامة ، وأجيب بأن أمر الفاصل سهل لأن أمور هذه الدنيا لزوالها وتقضيها لا تعد فاصلة كما قيل : ذلك في قوله تعالى : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] وقوله تعالى : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ جواب الشرط وهما في الحقيقة الغاية إن قلنا : إن المجموع هو الكلام أو مفهومه فقط إن قلنا : إنه هو الكلام والشرط قيد له ، و ﴿ حتى ﴾ عند ابن مالك جارة وهي لمجرد الغاية لا جارة ولا عاطفة عند الجمهور وهكذا هي كلما دخلت على إذا الشرطية وهي منصوبة بالشرط أو الجزاء على الخلاف المشهور

، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، والمراد حتى إذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوي أو الأخروي فقط فسيعلمون حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ من الفريقين بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون أنهم شر مكاناً لا خير مقاماً ، وفي التعبير بالمكان هنا دون المقام المقبر به هناك مبالغة في إظهار سوء حالهم ﴿ وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ أي فئة وأنصاراً لا أحسن نديا ، ووجه التقابل أن حسن الندى باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم .

(41/491)

وقيل : إن المراد من الندى هناك من فيه كما يقال المجلس العالي للتعظيم وليس المراد أن له ثمة جنداً ضعيفاً كلا ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف : 43] وإنما ذكر ذلك رداً لما كانوا يزعمونه من أن لهم أعواناً من شركائهم ، والظاهر أن من موصولة وهي في محل نب مفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ وتعدى إلى واحد لأن العلم بمعنى المعرفة ، وجملة ﴿ هُوَ شَرٌّ ﴾ صلة الموصول .

وجوز أبو حيان كونها استفهامية والعلم على بابه والجملة في موضع نصب سادة مسد المفعولين وهو عند أبي البقاء فصل لا مبتدأ .

وجوز الزمخشري وظاهر صنيعه اختياره أن يكون ما تقدم غاية لقول الكفرة ﴿ أي الفريقين خَيْرٌ ﴾ [مريم : 73] الخ .

وقوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ [مريم : 74] الخ ﴿ وَقُلْ مَن كَانَ ﴾ الخ جملتان معترضتان للإنكار عليهم أي لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عن أما العذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين وإما يوم القيامة وما ينالهم فيهم من الخزي والنكال فحينئذ يعلمون أن الأمر على عكس ما قدروه وتعقبه في البحر بأنه في غاية البعد لطول الفصل بين الغاية والمغيا مع أن الفصل بجملتي اعتراض فيه خلاف أبي علي فإنه لا يجيزه ، وأنت تعلم أيضاً بعد إصلاح أمر انقطاع القول حين الموت وعدم امتداده إلى يوم القيامة أن اعتبار استمرار القول وتكرره لا يتم بدون اعتبار استمرار التلاوة لوقوع القول في حيز جواب إذا وهو كما ترى .

(42/491)

﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾

كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين إثر بيان حال الضالين كما اختاره أبو السعود ، واختار الزمخشري وتبعه أبو البقاء أنه عطف على موضع ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ [مريم : 75]

الخ ولم يجوزه أبو حيان سواء كان ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ دعاء أو خبراً في صورة الطلب لأنه في موضع الخبر إن كانت من موصولة ، وفي موضع الجزاء أن كانت شرطية وموضع المعطوف موضع المعطوف عليه والجملة التي جعلت معطوفة خالية من ضمير يربط الخبر بالمبتدأ والجواب بالشرط ، وقيل عليه أيضاً : إن العطف غير مناسب من جهة المعنى كما أنه غير مناسب من جهة الإعراب إذ لا يتجه أن يقال : من كان في الضلالة يزيد الله الذي اهتدوا هدى .

وأجيب عن هذا بأن المعنى من كان في الضلالة زيد في ضلالته وزيد في هداية أعدائه لأنه مما يغيظه وعما سبق بأن من شرطية لا موصولة .

واشتراط ضمير يعود من الجزاء على اسم الشرط غير الظرف ممنوع وهو غير متفق عليه عند النحاة كما في "الدر المصون" مع أنه مقدر كما سمعت ولا يخفى أن هذا العطف لا يخلو عن تكلف ، واختار البيضاوي أنه عطف على مجموع قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ فِى الضلالة فَلْيَمْدُدْ ﴾ [مريم : 75] الخ ليتم التقابل فإنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يجيبهم عن قولهم للمؤمنين ﴿ أي الفريقين ﴾ [مريم : 73] الخ فليأت بذكر القسمين أصالة .

قال الطيبي : فكأنه قيل : من كان في الضلالة من الفريقين فليمهله الله تعالى وينفس في مدة حياته ليزيد في الغي ويجمع الله تعالى له عذاب الدارين ومن كان في الهداية منهما يزيد الله تعالى هدايته فيجمع سبحانه له خير الدارين .

وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم وفيه معنى قول حسان :

أتهجوه ولست له بكفء . . .

فشركما لخيركما فداء

(43/491)

في الدعاء والاحتراز عن المواجهة ، وفي "الكشف" أن هذا أولى مما اختاره الزمخشري ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قد تقدمت الأقوال المأثورة في تفسيرها ، واختير أنها الطاعات التي تبقى فوائدها وتدوم عوائدها لعموم وكلها ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ بمعناه المتعارف ، وقيل : عائدة مما متع به الكفرة من النعم المخدجة الفنية التي يفتخرون بها ﴿ وَخَيْرٌ ﴾ من ذلك أيضاً ﴿ مَّرَدّاً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة لأن عاقبتها المسرة الأبدية والنعيم المقيم وعاقبة ذلك الحسرة السرمدية والعذاب الأليم .

وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من اللطف والتشريف ما لا يخفى .

وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها .

وفي الآية على ما ذكره الزمخشري ضرب من التهجم بالكفرة حيث أشارت إلى تسمية

جزائهم ثواباً .

والمفاضلة على ما قال على طريقة الصيف أحر من الشتاء أي أبلغ في حره من الشتاء في برده وليست على التهكم لأنك لو قلت : النار خير من الزمهرير أو بالعكس تهكماً كان التهكم على بابه في المفضل والمفضل عليه وذلك مما لا يتمش فيما نحن فيه .

وحاصل ما أراده أن المراد ثواب هؤلاء أبلغ من ثواب أولئك أي عقابهم .

وقول "صاحب التقريب" فيه : إنه غير معلوم جوابه كيف لا وقد سبقت الرحمة الغضب وفي الجنة من الضعف والافضال ما لا يقادر قدره والنار من عدله تعالى ، وقوله : إنه غير مناسب لمقام التهديد مع ما فيه من المنع يرد عليه أن الكلام مبني على التقابل وأنه على المشاكلة في قولهم : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وأحسن نديا ﴾ [مريم : 37] فوعد هؤلاء ليس لمجرد تهديد أولئك بل مقصود لذاته قاله في "الكشف" .

(44/491)

وقال صاحب الفرائد : ما قاله الزمخشري بعيد عن الطبع والاستعمال وليس في كلامهم ما يشهد له ، ويمكن أن يقال : المراد ثواب الأعمال الصالحة في الآخرة خير من ثوابهم في الدنيا وهو ما حصل لهم منها من الخير بزعمهم ومما أوتوا من المال والجاه والمنافع الحاصلة منهما اه

، ورد إنكاره له بأن الزجاج ذكره في قوله تعالى : ﴿ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التى وَعِدَ المتقون ﴾ [الفرقان : 15] وأن له نظائر .

والبعد عن الطبع في حيز المنع .

وقال بعض المحققين : إن أفعل في الآية للدلالة على الاتصاف بالحدث وعلى الزيادة المطلقة كما قيل في يوسف عليه السلام أحسن إخوته وهي إحدى حالاته الأربع التي ذكرها بعض علماء العربية ، فالمعنى أن ثوابهم ومردهم متصف بالزيادة في الخيرية على المتصف بها بقطع النظر عن هؤلاء المفتخرين بدنياهم فلا يلزم مشاركتهم في الخيرية فتأمل .

والجملة على ما ذهب إليه أبو السعود على تقديري الاستئناف والعطف فيما قبلها مستأنفة واردة من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين غير داخلة في حيز الكلام الملقن لقوله سبحانه : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، وقال العلامة الطيبي : الذي يقتضيه النظم الكريم أن هذه الجملة تتميم لمعنى قوله سبحانه : ﴿ وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى ﴾ ومشتملة على تسلية قلوب المؤمنين مما عسى أن يختلج فيها من مفاخرة الكفرة شيء كما أن قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ إلى جُنداً ﴾ [مريم : 75] تتميم لوعيدهم ، وكلاهما من تتمة الأمر بالجواب عن قولهم : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] ، وجعل التعبير بخير وارداً على طريق المشاكلة .

وما ذكره من كون ذلك من تتمة الجواب هو المنساق إلى الذهن إلا أن ظاهر الخطاب يأباه

وقد يتكلف له ، ولعلنا قد أسلفنا في هذه السورة ما ينفعك في أمره فتذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(45/491)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أي : الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً ﴾ أي : موضعاً ومكاناً : ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ أي : مجتمعاً للقوم ، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظاً من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأعمر نادياً وأكثر طارقاً ووارداً ، أي : فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم على الحق ؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] ، وقال قوم نوح : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : 111] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : 53] .

وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ أي : متاعاً : ﴿ وَرِئْياً ﴾ أي : منظراً وهيئة من عظم الجاه ، فما أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً . كما قال تعالى عن قوم فرعون المغرَقين : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الدخان : 25 - 26] ، و : ﴿ وَرِئْياً ﴾ فعل بمعنى مفعول كالطّحن .

(46/491)

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً ﴾ أي : من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور . وهم المذكورون قبل ، ومن شاكلهم ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ أي : يمدّ له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال . وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة ، لقطع المعاذير . كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر : 37] ، أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ [آل عِمْرَان : 178] ، وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس والإمهال . أي : فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله ، إما بعذاب يصيبه ، وإما الساعة بغتة . وقد بين سبحانه غاية المد بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا

يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً ﴾ أي : فئة وأنصاراً .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ أي : الأعمال التي تبقى فوائدها : ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً ﴾ أي : مرجعاً . وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 115.116 ﴾

(47/491)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) ﴾

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ خير مقاماً ﴾ قرأه ابن كثير بضم الميم . والباقون بفتحها . وقوله : ﴿ ورئْيا ﴾ قرأه قالون وابن ذكوان « ورياً » بتشديد الياء من غير همز . وقرأه الباقون بهمزة ساكنة بعد الراء وبعدها ياء مخففة .

ومعنى الآية الكريمة : أن كفار قريش كانوا إذا يتلوا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه آيات هذا القرآن ، في حال كونها بينات اي مرتلات الألفاظ ، واضحات المعاني

، بينات المقاصد ، إما محكمات جاءت واضحة ، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات ، أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً ، او ظاهرات الإعجاز تحدي بها فلم يقدر على معارضتها - أو حججا وبراهين .

والظاهر أن قوله : ﴿ بيّناتٍ ﴾ حال مؤكدة . لأن آيات الله لا تكون إلا كذلك . و نظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً ﴾ [البقرة : 91] أي إذا تتلى عليهم آيات الله في حال كونها متصفة بما ذكرنا عارضوها واحتجوا على بطلانها ن وأن الحق معهم لا معمن يتلوها بشبهة ساقطة لا يحتج بها إلا من لا عقل له . ومضمون شبهتهم المذكورة : أنهم يقولون لهم : نحن أوفر منكم حظاً في الدنيا ، فنحن أحسن منكم منازل ، وأحسنن منكم متاعاً ، وأحسن منكم منظراً ، فلولا أننا أفضل عند الله منكم لما آثرنا عليكم في الحياة الدنيا ، وأعطانا من نعيمها وزينتها ما لم يعطكم .

(48/491)

فقوله : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ أي نحن وأنتم أينا خير مقاماً . والمقام على قراءة ابن كثير بضم محل الإقامة ، وهو المنازل والأمكنة التي يسكنونها . وعلى قراءة الجمهور فالمقام بفتح الميم مطان القيام وهو موضع قيامهم وهو مساكنهم ومنازلهم . وقيل : وهو موضع

القيام بالأمور الجليلة ، والأول هو الصواب .

وقوله : ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ اي مجلساً ومجتمعاً . والاستفهام في قوله : ﴿ أَيُّ الفريقين ﴾ الظاهر أنه استفهام تقرير . ليحملوا به ضعفاء المسلمين الذين هم في تقشف ورثاثة هيئة على أن يقولوا أنتم خير مقاماً وأحسن نديا منا . وعلى كل خال فلا خلاف أن مقصودهم بالاستفهام المذكور أنهم – أي كفار قريش – خير مقاماً وأحسن نديا من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وأن ذلك هو دليلهم على أنه على الحق ، وأنهم على أكرم على الله من المسلمين . وما في التلخيص وشروحه من أن السؤال ب « أي » في الآية التي نحن بصددها سؤال بها عما يميز أحد المشتركين في أمر يعمُّها كالعادة في أي غلط منهم . لأنهم فسروا الآية الكريمة بغير معناها الصحيح . والصواب ما ذكرناه إن شاء الله تعالى .

واستدلالهم هذا بحظهم في الحياة الدنيا على حظهم يوم القيامة ، وأن الله ما أعكاهم في الدنيا إلا لمكانتهم عنده ، واستحقاقهم لذلك لسخافة عقولهم – ذكره الله تعالى في مواضع من كتابه .

(49/491)

كقوله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 11] ، وقوله تعالى : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 53] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : 35] ، وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55-56] ، وقوله ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] ، وقوله ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 35-36] ، وقوله : ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] ، إلى غير ذلك من الآيات . فكل هذه الآيات دالة على أنهم لجهلهم يظنون أن الله لم يعطهم نصيباً من الدنيا إلا لرضاه عنهم ، ومكانتهم عنده ، وأن الأمر في الآخرة سيكون كذلك .

وقد ابطل الله تعالى دعواهم هذه في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ والمعنى : أهلكنا قرونا كثيرة ، أي أمماً كانت قبلهم وهو أكث نصيباً في الدنيا منهم ، فما معهم ما كان عندهم من زينة ومتاعها من إهلاك الله إياهم لما عصوا وكذبوا رسله ، فلو كان الحظ والنصيب في الدنيا

يدل على رضا الله والمكانة عنده لما أهلك الذين من قبلكم ، الذين هم أحسن أثاثاً ورئياً منكم .

(50/491)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وكم ﴾ هي الخبرية ، ومعناها الإخبار بعدد كثير ، وهي في حمل نصب على المفعول به لأهلكنا ، أي أهلكنا كثيراً . ﴿ ومن ﴾ مبينة ل ﴿ كم ﴾ وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم . قيل : سموا قرناً لاقترانهم في الوجود . والأثاث : متاع البيت . وقيل هو الجديد من الفرس . وغير الجديد منها يسمى « الخرثي » بضم الخاء وسكون الراء والثاء المثلثة بعدها ياء مشددة . وأنشد لهذا التفصيل الحسن بن علي الطُّوسي قول الشاعر :

تقادم العهد من أم الوليد بنا . . . دهراً وصار أثاث البيت خرثيا

والإطلاق المشهور في العربية هو إطلاق الأثاث على متاع البيت مطلقاً . قال الفراء : لا واحد له . ويطلق الأثاث على المال أجمع : الإبل ، والغنم ، والعبيد ، والمتاع . والواحد أثاثة . وتاثث فلان : إذا أصال رياشاً ، قاله الجوهري عن أبي زيد . وقوله ﴿ ورئْيا ﴾ على قراءة الجمهور مهموزاً ، أي أحسن منظراً وهيئة ، وهو فعل بمعنى مفعول من رأى

البصرية . والمراد به الذي تراه العين من هيأتهم الحسنة ومتاعهم الحسن . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي في هذا المعنى قوله :

أشافتك الظغائن يوم بانوا . . . بذي الرئي الجميل من الأثاث

وعلى قراءة قالون وابن ذكوان بتشديد الياء من غير هكز . فقال بعض العلماء : معناه معنى القراءة الأوى ، إلا أن الهمزة أبدلت ياءً فأدغمت في الياء .

(51/491)

وقال بعضهم : لا همز على قراءتهما أصلاً بل عليها فهو من الري الذي هو النعمة والرتفه ، من قولهم : هو ريان من النعيم ، وهي رياً منه . وعلى هذا فالمعنى أحين نعمة وترفها . والأول أظهر عندي . والله تعالى أعلم .

والآيات التي ابطل الله بها دعواهم هذه كثيرة . كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] . وقوله : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ

إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : 44-45] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا آوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] . والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً . وقد قدمنا شيئاً من ذلك .

وقوله الكفار الذي حكاه الله عنهم في هذه الآية الكريمة ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ الظاهر فيه أن وجه ذكرهم للمقام والندي : ان المقام هو محل السكنى الخاص لكل واحد منهم . والندي محل اجتماع بعضهم ببعض ، فإذا كان كل منهم للكفار أحسن من نظيره عند المسلمين دل ذلك على أن نصيبهم في الدنيا أوفر من نصيب أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت . ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر :

يومان يوم مقاماتٍ وأنديةٍ . . . ويوم سيرٍ إلى الأعداء تأويب

(52/491)

والمقامات : جمع مقامة بمعنى المقام . والأندية : جمع نادٍ بمعنى الندى وهو مجلس القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتأْتون في نادِيكم المنكر ﴾ فالنادي والندي يطلقان على المجلي ، وعلى القوم الجالسين فيه . وكذلك المجلس يطلق على القوم الجالسين ، ومن إطلاق الندي على المكان قول الفرزدق :

وما قام منا قائم في ندينا . . . فينطلق إلا بالتي هي أعرفُ

وقوله تعالى هنا : ﴿ وأحسن نديا ﴾ . ومن إطلاقه على القوم قوله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 17-18] . ومن إطلاق المجلس على القوم الجالسين فيه قول ذي الرمة :

لهم مجلس صهب السبال أذلة . . . سواسية أحرارها وعبيدها

والجملة في قوله : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ : قال الزمخشري : هي في محل نصب صفة لقوله : ﴿ كم ﴾ ألا ترى أنك لو تركت لفظة ﴿ هم ﴾ لم يكن لك بد من نصب ﴿ أحسن ﴾ على الوصفية اه - وتابع الزمخشري أبو البقاء على ذلك . وتعقبه أبو حيان في البحر بأن بعض علماء النحو نصوا على أن « كم » سواءً كانت استفهامية أو خبريه لا توصف ولا يوصف لها . قال : وعلى هذا يكون ﴿ هم أحسن ﴾ في موضع الصفة ل ﴿ قرن ﴾ وجمع نعت القرن اعتباراً لمعنى القرن ، وهذا هو الصواب عند ب لا ما ذكره الزمخشري وأبو البقاء . وصيغة التفضيل في قوله : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ تلزمها « من » لتجردها من الإضافة والتعريف ، إلا أنها محذوفة لدلالة المقام عليها . والتقدير : هم أحسن أثاثاً ورِئياً منهم ، على حد قوله في الخلاصة :

وأفعل التفضيل صِله أبداً . . . تقديراً أو لفظاً بمن إن جردا

فإن قيل : أين مرجع الضمير في هذه الآية الكريمة في قوله : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بيّنَاتٍ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ الآية ؟ فالجواب – أنه راجع إلى الكفار المذكورين في قوله : ﴿ وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ ﴾ [مريم : 66] الآية ، وقوله : ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 72] قاله القرطبي . والله تعالى أعلم .

(54/491)

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75)

في معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء ، وكلاهما يشهد له قرآن :

(55/491)

الأول – أن الله جل وعلا أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه الكلمات كدعاي المباهلة بينه وبين المشركين . وإيضاح معناه : قل يا نبي الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم ، وأن الدليل على ذلك أنهم خير منكم مقاماً أحسن منكم نديا – من كان منا ومنكم في الضلالة أي كفر والضلال عن طرق الحق فليمدد له الرحمن مداً ، أي فأملها الرحمن إمهالاً فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه ، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله ، وهو : إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين ، كقوله ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة : 14] أبو بغير ذلك . وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على الكفر . وعلى ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله ﴿ فليمدد ﴾ على بابها . وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال على الضال من الفريقين ، حتى يرى ما يوعده من الشر وهو على أقبح حال من الكفر والضلال . واقتصر على هذا التفسير ابن كثير وابن جرير ، وهو الظاهر من صيغة الطلب في قوله ﴿ فليمدد ﴾ ونظير هذا المعنى في القرآن قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الكاذبين ﴾ [آل عمران : 61] لأنه على ذلك التفسير يكون في كلتا الآيتين دعاء بالشر على الضال من الطائفتين . وكذلك قوله تعالى في اليهود : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 94] في « البقرة والجمعة

» عند من يقول : إن المراد بالتمني الدعاء بالموت على الكاذبين من الطائفتين ، وهو اختيار ابن كثير . وظاهر الآية لا يساعد عليه .

(56/491)

الوجه الثاني – أن صيغة الطلب في قوله ﴿ فليمدد ﴾ يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين . وعليه فالمعنى : أن الله أجرى العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتى يرى ما يوعده ، وهو في غفلة وكفر وضلال .

وتشهد لهذا الوجه آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] الآية ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا آوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : 44] الآية ، كما قدمنا قريباً بعض الآيات الدالة عليه .

ومما يؤيد هذا الوجه ما أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال في حرف أبي : « قل من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة » اه قاله صاحب الدر المنثور .

(57/491)

ومثل هذا من جنس التفسير لا من جنس القراءة . فإن قيل على هذا الوجه . ما النكتة في إطلاق صيغة الطلب في معنى الخبر ؟ فالجواب – أن الزمخشري أجاب في كشافه عن ذلك . قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ أي مد له الرحمن ، يعنى أمهله وأملى له في العمر . فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة ، كالمأمور به الممتثل لتنقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر : 37] اه محل الغرض منه . وأظهر الأقوال عندي في قوله : ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ أنه متعلق بما قبله يليه ، والمعنى : فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رأى ما يوعد علم أن الأمر على خلاف ما كان يظنز وقال الزمخشري : إن ﴿ حتى ﴾ في هذه الآية التب تحكي بعدها الجمل . واستدل على ذلك بمجيء الجملة الشرطية بعدها .

وقوله ﴿ ما يوعدون ﴾ لفظة ﴿ ما ﴾ مفعول به ل ﴿ إِذَا رَأَوْاْ ﴾ . وقوله . ﴿ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ بدل من المفعول به الذي هو ﴿ ما ﴾ ولفظة ﴿ من ﴾ من قوله ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ ﴾ الآية ، قال بعض العلماء : هي موصوله في محل نصب على لمفعول به ليعلمون . وعليه فعلم هنا عرفانية تتعدى إلى مفعول واحد . وقال بعض

أهل العلم : ﴿ من ﴾ استفهامية والفعل القلبي الذي هو يعلمون معلق بالاستفهام . وهذا أظهر عندي .

(58/491)

وقوله : ﴿ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ في مقابلة قولهم : ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم . والندي : المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم . والجند هو الأنصار والأعوان ، فالمقابلة المذكورة ظاهرة . وقد دلت آية من كتاب الله على إطلاق ﴿ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ . والمراد اتصاف الشخص بالشر لا المكان . وهو قوله تعالى : ﴿ قالوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ [يوسف : 77] فتفضيل المكان في الشر ها هنا الظاهر أن المراج به تفضيله إخوته في الشر على نفسه فيما نسبوا إليه من شر السرقة لا نفس المكان . اللهم إلا أن يراد بذلك المكان المعنوي : اي أنتم شر منزلة عند الله تعالى .

وقوله في هذه الآيات المذكورة مقاماً ، ونديا ، وأثاثاً ، ومكاناً وجُنداً كل واحد منها تمييز

محول عن الفاعل ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

والفاعل المعنى انصبن بافعلا . . . مفضلاً كأنت أعلى منزلا

(59/491)

قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾ دليل على رجحان القول الثَّاني في الآية المتقدمة . وأن المعنى : أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة ، ومن اهتدى زاده الله هدى . والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة ، كقوله في الضلال ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] ، وقوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] الآية ، كما قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على هذا المعنى .

وقال في الهدى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] ، وقال : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : 4] ، وقال : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] الآية : وقد جمع بينهما في آيات أخر . كقوله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ

يَزِيدُ الظالمين إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [الإسراء : 82] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 124-125] كما تقدم إيضاحه .

(60/491)

وقوله : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّا ﴾ تقدم إضاحه في سورة « الكهف » .

فإن قيل : ظاهر الآية أن لفظة ﴿ خير ﴾ في قوله : ﴿ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّا ﴾ صيغة تفضيل ، والظاهر أن المفضل عليه هو جزاء الكافرين . ويدل لذلك ما قاله صاحب الدر المنثور ، قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ . يعني خير جزاء من جزاء المشركين . ﴿ وخير مرداً ﴾ يعني مرجعاً من مرجعهم إلى النار .

والمعروف في العربية أن صيغة التفضيل تقتضي مشاركة المفضل عليه . في أصل المصدر ، مع أن المفضل يزيد فيه على المفضل عليه . والخيرية منفية بتاتاً عن جزاء المشركين وعن

مردهم ، فلم يشاركوا في ذلك المسلمين حتى يفضلوا عليهم .

فالجواب – أن الزمخشري في كشّافه حاول الجواب عن هذا السؤال بما حاصله : أنه كأنه قيل ثوابهم النار ، والجنة خير منها على طريقة قول بشر بن أبي حازم :

غضبت تميم أن تقتل عامر . . . يوم النسار فأعتبوا بالصليم

فقوله : « أعتبوا بالصلين » يعني أرضوا بالسيف ، أي لا رضى لهم عندنا إلا السيف لقتلهم به . ونظيره قول عمرو بن معدي كرب :

وخيلٍ قد دلفت لها بخيل . . . تحية بينهم ضرب وجيع

أي لا تحية بينهم إلا الضرب الوجيع . وقول الآخر :

شجاء جرتها الذميل تلوكه . . . أصلاً إذا راح المطي غراثا

يعني أن هذه الناقة لا جرة لها تخرجها من كرشها فتمضغها إلا السير ، وعلى هذا المعنى فالمراد : لا ثواب لهم إلا النار .

(61/491)

وباعتبار جعلها ثواباً بهذا المعنى فضل عليها ثواب المؤمنين . هذا هو حاصل جواب الزمخشري مع أيضاحنا له .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ويظهر لي في الآية جواب آخر أقرب من هذا ، وهو أنا قدمنا أن القرآن والسنة الصحيحة دلا على أن الكافر يجازي بعمله الصالح في الدنيا ، فإذا بر والديه ونفس عن المكروب ، وقرى الضيف ، ووصل الرحم مثلاً يبتغي بذلك وجه الله فإن الله يثيبه في الدنيا ، كما قدمنا دلالة الآيات عليه ، وحديث أنس عند مسلم . فثوابه هذا الراجع إليه من عمله في الدنيا ، هو الذي فضل الله عليه في الآية ثواب المؤمنين . وهذا واضح لا إشكال فيه . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(62/491)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

عطف على قوله ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ [مريم : 66]

وهذا صنف آخر من غرور المشركين بالدنيا وإناطتهم دلالة على السعادة بأحوال طيب العيش في الدنيا فكان المشركون يتشففون على المؤمنين ويرون أنفسهم أسعد منهم .

والتّلاوة : القراءة .

وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان ﴾ في البقرة (102) ، وقوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ في أول الأنفال (2) .

كان النبي يقرأ على المشركين القرآن فيسمعون آيات النعي عليهم وإنذارهم بسوء المصير ، وآيات البشارة للمؤمنين بحسن العاقبة ، فكان المشركون يكذّبون بذلك ويقولون : لو كان للمؤمنين خير لعُجل لهم ، فنحن في نعمة وأهل سيادة ، وأتباع محمّد من عامة الناس ، وكيف يفوقوننا بل كيف يستوون معنا ، ولو كنا عند الله كما يقول محمد لمنّ على المؤمنين برفاهية العيش فإنّهم في حالة ضنك ولا يساوون فلو أقصاهم محمد عن مجلسه لاتّبعناه ، قال تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 52 ، 53] ، وقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف : 11] .

فلأجل كون المشركين كانوا يقيسون هذا القياس الفاسد ويغالطون به جعل قولهم به معلّقاً بزمان تلاوة آيات القرآن عليهم .

فالمراد بالآيات البيّنات : آيات القرآن ، ومعنى كونها بيّنات : أنّها واضحات الحجّة عليهم ومفعمة بالأدلّة المقنعة .

واللاّم في قوله ﴿ للّذين آمنوا ﴾ يجوز كونها للتّعليل ، أي قالوا لأجل الذين آمنوا ، أي من أجل شأنهم ، فيكون هذا قول المشركين فيما بينهم .

(63/491)

ويجوز كونها متعلقة بفعل ﴿ قَالَ ﴾ لتعديته إلى متعلّقه ، فيكون قولهم خطاباً منهم للمؤمنين .

والاستفهام في قولهم ﴿ أيُّ الفريقين ﴾ تقريريّ .

وقرأ من عدا ابن كثير ﴿ مَقاماً ﴾ بفتح الميم على أنه اسم مكان مِن قام ، أطلق مجازاً على الحظ والرفعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] ، فهو مأخوذ من القيام المستعمل مجازاً في الظهور والمقدرة .

وقرأه ابن كثير بضم الميم من أقام بالمكان ، وهو مستعمل في الكون في الدنيا .

والمعنى : خيرٌ حياةً .

وجملة ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ خطاب من الله لرسوله .

وقد أهلك الله أهل قرون كثيرة كانوا أرفه من مشركي العرب متاعاً وأجمل منهم منظراً .

فهذه الجملة معترضة بين حكاية قولهم وبين تلقين النبي صلى الله عليه وسلم ما يجيبهم به

عن قولهم ، وموقعها التهديد وما بعدها هو الجواب .

والأثاث : متاع البيوت الذي يُتزين به ، و ﴿ رئياً ﴾ قرأه الجمهور بهمزة بعد الراء وبعد الهمزة ياء على وزن فِعْل بمعنى مفعول كذبح ، من الرؤية ، أي أحسن مَرئِيّاً ، أي منظراً وهيئة .

وقرأه قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر "رِيّاً" بتشديد الياء بلا همزة إما على أنّه من قلب الهمزة ياء وإدغامها في الياء الأخرى ، وإما على أنّه من الرِيّ الذي هو النعمة والترفه ، من قولهم : ريّان من النّعيم .

وأصله من الريّ ضد العطش ، لأنّ الريّ يستعار للتنعم كما يستعار التلهّف للتألّم .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾

هذا جواب قولهم ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] .

لقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم كشف مغالطتهم أو شبهتهم ؛ فأعلمهم بأن ما هم فيه من نعمة الدنيا إنما هو إمهال من الله إيّاهم ، لأنّ ملاذ الكافر استدراج .

(64/491)

فمعيار التفرقة بين النّعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده وبين النعمة التي هي استدراج لمن كفر به هو النظر إلى حال من هو في نعمة بين حال هدى وحال ضلال .

قال تعالى في شأن الأولين : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] .

وقال في شأن الآخرين ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ [المؤمنون : 55 ، 56] .

والمعنى : أن من كان منغمساً في الضلالة اغترّ بإمهال الله له فركبه الغرور كما ركبهم إذ قالوا ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ً .

واللاّم في قوله فليمدد له الرحمان مداً ﴾ لام الأمر أو الدعاء ، استعملت مجازاً في لازم معنى الأمر ، أي التحقيق ، أي فسيمد له الرحمان مداً ، أي إن ذلك واقع لا محالة على سنّة الله في إمهال الضُّلال ، إعذاراً لهم ، كما قال تعالى : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : 37] ، وتنبيهاً للمسلمين أن لا يغتروا بإنعام الله على الضُّلال حتى أنّ المؤمنين يَدْعُون الله به لعدم اكتراثهم بطول مدة نعيم الكفّار .

فإن كان المقصود من ﴿ قُل ﴾ أن يقول النبي ذلك للكفّار فلام الأمر مجرد مجاز في التحقيق ، وإن كان المقصود أن يبلّغ النبيءُ ذلك عَن الله أنه قال ذلك فلامُ الأمر مجاز أيضاً وتجريد بحيث إنّ الله تعالى يأمر نفسه بأن يمد لهم .

والمدّ : حقيقته إرخاء الحبل وإطالته ، ويستعمل مجازاً في الإمهال كما هنا ، وفي الإطالة كما في قولهم : مدّ الله في عمرك .

و﴿ مَدّاً ﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله ، أي فليمدد له المدّ الشديد ، فيسينتهي ذلك .

و﴿ حتى ﴾ لغاية المد ، وهي ابتدائية ، أي يمدّ له الرحمان إني أن يَروا ما يوعدون ، أي لا محيص لهم عن رؤية ما أوعدوا من العذاب ولا يدفعه عنه طول مدّتهم في النّعمة .

فتكون الغاية مضمون الجملة التي بعدها ﴿ حتى ﴾ لا لفظاً مفرداً .

(65/491)

والتقدير : يمدّ لهم الرحمان حتى يروا العذاب فيعلموا من هو أسعد ومن هو أشقى .

وحرف الاستقبال لتوكيد حصول العلم لهم حينئذ وليس للدّلالة على الاستقبال لأنّ الاستقبال استفيد من الغاية .

و﴿ إمّا ﴾ حرف تفصيل ل ﴿ ما يوعدون ﴾ ، أي ما أوعدوا من العذاب إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة ، فإن كلّ واحد منهم لا يعدو أن يرى أحد العذابين أو كليهما .

وانتصب لفظ ﴿ العذاب ﴾ على المفعولية ل ﴿ يَروْا .

وحرف إما ﴾ غير عاطف ، وهو معترض بين العامل ومعموله ، كما في قول تأبّط شراً :

هما خطتّا إمّا إسارٍ ومِنّةٍ

وإما دممٍ والموت بالحر أجدر

بجرّ (إسار ، ومنّة ، ودم) .

وقوله ﴿ شرّ مكاناً وأضعف جنداً ﴾ مقابل قولهم ﴿ خيرٌ مقاماً وأحسن نديّاً ﴾ [مريم : 73] فالمكان يرادف المقام ، والجند الأعوان ، لأنّ الندي أريد به أهله كما تقدم ، فقوبل ﴿ خيرٌ نديّاً ﴾ بـ ﴿ أضعفُ جنداً ﴾ .

وجملة ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ معطوفة على جملة ﴿ من كان في الضلالة فليمدد له الرحمان مدّاً ﴾ لما تضمنه ذلك من الإمهال المفضي إلى الاستمرار في الضلال ، والاستمرار : الزيادة .

فالمعنى على الاحتباك ، أي فليمدد له الرحمان مداً فيزدَدْ ضلالاً ، ويمدّ للذين اهتدوا فيزدادوا هدىً .

وجملة ﴿ والباقيات الصالحات خير ﴾ عطف على جملة ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ .

وهو ارتقاء من بشارتهم بالنجاة إلى بشارتهم برفع الدرجات ، أي الباقيات الصالحات خير من السلامة من العذاب التي اقتضاها قوله تعالى : ﴿ فسيعلمون من هو شرّ مكاناً وأضعفُ جنداً ﴾ ، أي فسيظهر أن ما كان فيه الكفرة من النعمة والعزّة هو أقلّ مما كان

عليه المسلمون من الشظف والضعف باعتبار المآلين ، إذ كان مآل الكفرة العذاب ومَآل المؤمنين السلامة من العذاب وبعدُ فللمؤمنين الثواب .

(66/491)

والباقيات الصالحات : صفتان لمحذوف معلوم من المقام ، أي الأعمال الباقي نعيمها وخيرها ، والصالحات لأصحابها هي خير عند الله من نعمة النجاة من العذاب .

وقد تقدّم وجه تقديم الباقيات على الصالحات عند الكلام على نظيره في أثناء سورة الكهف .

والمردّ ، المرجع .

والمراد به عاقبة الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(67/491)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

هذا حوار دار بين المؤمنين والكافرين ، المؤمنين وكانوا عادةً هم الضعفاء الذين لا يقدرون حتى على حماية أنفسهم ، وليس لهم جاه ولا سيادة يحافظون عليها ، وجاء منهج الله في صالحهم يُسوِّي بين الناس جميعاً : السادة والعبيد ، والقوي والضعيف .

فطبيعي أنْ يُقابلَ هذا الدين بالتكذيب من كفار مكة ، أهل الجاه والسيادة ، وأهل القوة الذين يأخذون خَيْر الناس من حولهم ، أما الضعفاء فقد آمنُوا بدين الله في وقت لم يكن لديهم القوة الكافية لحماية أنفسهم ، فعندما نزل قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

قال عمر رضي الله عنه وما أدراك مَنْ هو عمر ؟ قال : أيّ جمع هذا ؟ وأيُّ هزيمة ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟

وفي هذه الآونة ، يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة . فلما جاء نصر الله للمؤمنين ، وتأييده لهم في بدر . قال عمر : صدق الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

وفي هذا الحوار يُعيِّر الكفار المؤمنين بالله : ماذا أفادكم الإيمان بالله وها أنتم على حال من الضعف والهوان والذِّلة وضيق العيش ؟ أيرضي ربٌّ أن يكون المؤمنون به على هذه الحال ، وأعداؤه والكافرون به هم أهل الجاه والسيادة وسَعة الرزق ؟

وهكذا فتَن الله بعضهم ببعض ، كما قال سبحانه : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام : 53] .

(68/491)

فالمؤمن والكافر ، والغني والفقير ، والصحيح والمريض ، كُلٌّ منهم فتنة للآخر ليُمحّص الله الإيمان ، ويختبر اليقين في قلوب المؤمنين ؛ لأن الله تعالى يعدهم لحمل رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا كلها في جميع أزمنتها وأماكنها ، فلا بُدَّ أن يختار لهذه المهمة أقوياء الإيمان الذين يدخلون في الإسلام ، ليس لمغنم دنيوي ، بل لحمل رسالته والقيام بأعبائه ، فهذا هو المؤمن المؤتمن على حَمْل منهج الله .

ومن ذلك ما نراه من أن مناهج الباطل في الدنيا مَنْ يدعو إليها يرشو المدعو ويعطيه ، أمّا منهج الله فيأخذ منه ليختبره وليُمحصه .

فكيف يكون الغني فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغني ؟ الغني مفتون بالفقير حيث هو في سَعَة من العيش والفقير في ضيق ، الغني يأكل حتى التُّخمة والفقير جائع ، ويرتدي الغني الفاخر من الثياب والفقير عريان . فهل سيعرف نعمة الله عليه ويؤدي حقها ؟

والفقير مفتون بالغني حين يراه على هذه الحال ، فهل سيصبر على هذه الشدة ؟ أم

سيعترض على ما قدّره الله له ، ويحقد على الغنيّ .

ولو علم الفقير أن الفقر درس تدريبي أُجْرِي لجنود الحق الذين يحملون منهج الله إلى خَلْق الله في كل زمان ومكان ، وأن هذه قسمة الله بين خَلْقه لَمَا اعترض على قسمة الله ، ولَمَا حقد على صاحب الغني .

وكذلك يُفتَن الصحيح بالمريض والمريض بالصحيح ، فالصحيح يعيش مع نعمة الله بالعافية ، أما المريض فيعيش مع المنعم سبحانه ، كما جاء في الحديث القدسي : " يا ابْن آدم ، مرضْتُ فَلِم تعُدْني . فيقول : وكيف أعودك وأنت ربّ العاليمن ؟ قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمت أنك لو عُدّتَه لوجدتني عنده " .

(69/491)

لذلك ترى أهل الأمراض من المؤمنين يتألم زُوّارهم من أمراضهم ، في حين أنهم في أُنْس بالله يشغلهم عن أمراضهم وعن آلامهم ، ومَنِ الذي يزهد في معية الله ؟ إذن : لو حقد المريض على السليم فهو مفتون به ، وكان يجب عليه أن يعلم : إنْ كان الصحيح في معية النعمة فهو في معية المنعِم سبحانه وتعالى .

وسيدنا نوح عليه السلام بعد أن لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كان جواب

قومه : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي ﴾ [هود : 27] فكان أتباع نوح في نظرهم حثالة القوم ، ثم حاولوا أنْ يُغروه بهم ليطردهم ، فهم ضِعاف لا جاهَ له ولا سلطان ، فما كان منه إلا أنْ قال : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 29] .

وقال في آية أخرى : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله وَلاَ أَعْلَمُ الغيب وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تزدري أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْراً الله أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظالمين ﴾ [هود : 31] .

فعلى مَرِّ الأزمان واختلاف الرسالات كان الكفار تزدري أعينهم الفقراء والضعفاء المؤمنين ، ويحاولون طردهم وإخراجهم من ديارهم ، ألم يقل الحق تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنعام : 52] .

وهكذا جاء اللقطة التي معنا : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بينات قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمنوا أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] .

قوله : ﴿ آيَاتُنَا بينات ﴾ [مريم : 73] الآيات : جمع آية وهي الشيء العجيب الذي يتحدث به ، وتُطلق كما قلنا على الآيات الكونية التي تثبت قدرة الله تعالى ، وتلفتنا إلى بديع صُنْعه كآيات الليل والنهار والشمس والقمر ، وتُطلق على المعجزات التي تُثبت صِدْق الرسول ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 9093] .

كما تُطلق الآيات على آيات القرآن التي تحمل الأحكام ، وهذه هي المرادة هنا ؛ لأن آيات القرآن تنطوي فيها كل الآيات .

وقوله : ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمنوا أَيُّ الفريقين ﴾ [مريم : 73] أي : لقد ارتضينا حكمكم في هذه المسألة : نحن الكفار في سَعَة ، وأنتم يا أهلَ الإيمان في ضيق ، فأيّ الفريقين خير مقاماً ؟ والله بمقاييسكم أنتم . فأنتم خير ، أمّا بمقياس الأعلى والأبقى فنحن .

والمقام بفتح الميم : اسم لمكان قيامك من الفعل : قام .

أما " مُقام " بضم الميم ، فمِنْ أقام . والمراد هنا ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ [مريم : 73] أي : مكاناً يقوم فيه على الآخر أي : بيت كبير وأثاث ومجلس يتباهى به على غيره .

(71/491)

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] الإنسان عادةً له بيت يَأويه ، وله مجلس يَأوي إليه ، ويجلس فيه مع أصحابه وأحبابه يُسمُّونه " حجرة الجلوس " أو " المندرة " ، وفيها يجلس كبير القوم ومن حوله أهله وأتباعه ، كما نقول في العامية : (عامل قعر مجلس) ؛ لذلك إذا قام أنفضَّ المجلس كله ؛ لأنهم تابعون له ، كما قال الشاعر :

وانفضَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المجلِسُ . . . وهناك النادي ، وهو المكان الذي يجتمع فيه عظماء القوم والأعيان ، بدل أنْ يكون لكل منهم مجلسه الخاص ، كما نرى الآن : نادى الرياضيين ونادى القضاة . . إلخ إذن : فالنادي دليلٌ على أنهم متفقون ومتكاتفون ومتكتلون ضد الإسلام وضد الحق .

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ [العلق : 17] ومن ذلك ما كان يُسمَّى قبل الإسلام " دار الندوة " ، وكانوا يجتمعون فيها ليدبروا المكائد لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن النادي ما كان مأخوذاً لعمل المنكر والفاحشة والعياذ بالله ، فيجتمعون فيه لكُلِّ ما هو خبيث من شُرْب الخمر والرقص والفواحش ، كما في قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ [العنكبوت : 29] .

وفي هذا دليل على شيوع الفاحشة و القِحَةِ بين القادرين والمجاهرة بها ، فلم يكونوا يقترفونها سِرّاً ، بل في جَمْع من رُوَّاد هذه الأماكن .

والنادي أو المنتدَى مأخوذ من النَّدَى أي : الكرم ، ولما مدحَتْ المرأة العربية زوجها قالت : رَفيع العِماد ، كثير الرماد ، قريب البيت من الناد .

والمعنى : أن بيته أقرب البيوت إلى النادي ، فهو مَقْصد الناس في قضاء حاجياتهم .

(72/491)

إذن : كان قول الكفار للمؤمنين : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] موضع فتنة للفريقين ، فقال المؤمنون : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] وقال الكفار : ما دام أن الله حبانا في الدنيا وهو الرزاق ، فلا بد أنْ يَحْبُوَنَا في الآخرة ، لكن لم تتعرض الآيات للقول المقابل من المؤمنين ، إنما جاء الرد عليهم من طريق آخر ، فقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾

كم : خبرية تدل على الكثرة التي لا تُحصَى ، وأن المقول بعدها وقع كثيراً ، كأن يقول لك صاحبك : أنت ما عملتَ معي معروفاً أبداً ، فتُعدِّد له صنائع المعروف التي أسديتها إليه ، فتقول : كم فعلتُ معك كذا ، وكم فعلتُ كذا .

والقرن : هم الجماعة المتعايشون زماناً . بحيث تتداخل بينهم الأجيال ، فترى الجدَّ والأب والابن والحفيد معاً ، وقد قدَّروا القرن بمائة عام . كما يُطلَق القرن على الجماعة الذين يجتمعون على مُلك واحد ، أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً .

والأثاث : هو فراش البيت ، وهذا أمر يتناسب وإمكانات صاحبه .

والرِّئْى : على وزن فِعْل ، ويراد به المفعول أي : المرئي ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 107] فذبْح بمعنى : مذبوح .

وورد في قراءة أخرى : (أَحْسَنُ أَثَاثاً وزِيّاً) وهي غير بعيدة عن المعنى الأول : لأن الزيّ أيضاً من المرئي ، إلا أنه يتكوّن من الزي والذي يرتديه ، والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه ، وقد افتخر الكفار بذلك ، في حين كان المؤمنين شُعْثاً غُبْراً يرتدون المرقَّع والبالي من الثياب .

(73/491)

وقد جاء الاختلاف في بعض ألفاظ القرآن من قراءة الأخرى ؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على مَلَكَة العربي وفصاحته التي تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْب المعنى المناسب للسياق ، وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف في العصر الأموي . فمثلاً النَّبْرة في كلمةٍ دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى : نون أو تاء أو ثاء . ومن أسفل تقرأ : باء أو ياء .

والعربي لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد ، فكلمة (رئْيَا) تقرأ (زيا) والمعنى غير بعيد .

ومن ذلك كلمة ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء : 94] قرأها بعضهم (فتثبتوا) وكلمة ﴿ صِبْغَةَ ﴾ [البقرة : 138] قرأها بعضهم (صنعة) ، ودليل فصاحتهم أن الاختلاف في مثل هذه الحروف لا يؤدي إلى اختلاف المعنى .

لذلك ، كان العربي قديماً يغضب إنْ كُتِب إليه كتاب مُشَكل ، لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة . ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب ؛ لأن العربي في هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد ، فهي بالنسبة له مَلَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم . أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ [

مريم : 74] لأنهم قالوا : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حَمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة ، وكيف صار الأمر إليهم ؟

(74/491)

الحق تبارك وتعالى يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين ، فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم ، بل هي عطاء من الله وفِتْنة ، حتى إذا أخذكم أخذكم عن عِزَّة وجاهٍ ؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغيظ ، أما إنْ أخذهم على حال ذِلَّة وَهَوان لم يكن لأخذه هذا الأثر فيهم .

فالحق سبحانه يُملي لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم ، على حَدِّ قول الشاعر :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةً . . . فَلمَّا رأَوْهَا أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ

فأطمعهم في البداية ، ثم أخذهم وخيَّب آمالهم في النهاية .

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذي بلغ به العطش مَبْلغاً ، فطلب الماء ، فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فِيهِ ، واستشرف الريِّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد ، وألمهُ أعظم ، ولو لم يأتِه بالماء لكان أهونَ عليه .

إذن : حينما تُجرون مُقارنة بينكم وبين المؤمنين وتُعيّرونهم بما معكم من زينة الدنيا ، فقد قارنتم الوسائل وطرحتُم الغايات ، ومن الغباء أنْ نهتم بالوسائل وننسى الغايات ، فلكي تكون المقارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين ، بداية ونهاية .

ومثال ذلك : فلاح مجتهد في زراعته يعتني بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضه كل يوم ، وآخر ينعَم بالثياب النظيفة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك ، وينظر إلى صاحبه الذي أجهده العمل ، ويرى نفسه أفضل منه ، فإذا ما جاء وقت الحصاد وجد الأول ثُمرة تعبه ونتيجة مجهوده ، وجلس الآخر حزيناً محروماً . فلابُدَّ أن تأخذ في الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات .

لذلك وُفِّق الشاعر حين قال :

ألاَ مَنْ يُرِينِي غَايَتِي قَبْل مذْهَبِي . . . ومِنْ أينْ والغَايَاتُ بَعْد المذَاهِبِ ؟

وقد عزل الكفار الوسيلة في الدنيا عن الغاية في الآخرة ، فتباهوا وعَيَّروا المؤمنين : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] .

(75/491)

وفي قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت : 24] .

وهكذا اتفقوا على الإحراق ، ونجَّى الله نبيه وخيَّب سَعْيهم ، ثم كانت الغاية في الآخرة :

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 25] .

فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلةً عن غايتها .

وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على هؤلاء المغترِّين بنعمة الله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ [مريم : 74] وكما قال في آيات أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ [الفجر : 610] .

وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تهُبَّ عليهم عواصف الرمال ، فتطمس حضارتهم ، وتجعلهم أثراً بعد عَيْن .

فدعاهم إلى النظر في التاريخ ، والتأمّل في عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين ، وما عساه أنْ يُغني عنهم من المقام والندىّ الذي يتباهون به ، وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التي تنتظرهم في الآخرة ؟

وكأن الحق تبارك وتعالى لا يردّ عليهم بكلام نظري يقول : إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب ، بل يعطيهم مثالاً من الواقع .

ويخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ [غافر : 77] أي : من القهر والهزيمة والانكسار ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا ، فلن يفلت من عذاب الآخرة .

(76/491)

والقرآن حين يدعوهم إلى النظر في عاقبة من قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم : 74] فإنما يحثُّهم على أخْذ العِبْرة والعِظَة ممَّنْ سبقوهم ، ويستدل بواقع شيء حاضر على صِدْق غيْبٍ آتٍ ، فالحضارات التي سبقتهم والتي لم يوجد مثلها في البلاد ، وكان من صفاتها كذا وكذا ، ماذا حدث لهم ؟ فهل أنتم أشدّ منهم قوة ؟ وهل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من المكذّبين ؟

هذا من ناحية الواقع ، أما الغيب فيعرض له القرآن في مشهد آخر ، حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ

حَافِظِينَ ﴾ [المطففين : 2933] .

هذا المشهد في الدنيا ، فما بالهم في الآخرة ؟ : ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : 3435] .

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى المؤمنين فيقول : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 36] .

يعني : بعد ما رأيتموه من عذابهم ، هل قدرنا أنْ نُجازيهم عَمَّا فعلوه بكم من استهزاء في الدنيا ؟ وعلى كُلٍّ فإن استهزاءهم بكم في الدنيا موقوت الأجل ، أما ضِحْككم الآن عليهم فأمر أبديّ لا نهايةَ له . فأيُّ الفريقين خَيْر إذن ؟

فإياكم أنْ تغرّكم ظواهر الأشياء ، أو تخدعكم بَرقات النعيم وانظروا إلى الغايات والنهايات ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46] .

(77/491)

وفي سورة الأعراف لقطة أخرى من مواقف القيامة ، حيث يقول أصحاب الأعراف لأهل النار : ﴿ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف : 48] ثم يلتفتون إلى المؤمنين في الجنة : ﴿ أَهَؤُلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف : 49] فأين أنتم منهم الآن ؟

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾

قوله : (قل) أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [مريم : 75] أي : يُمهله ويستدرجه ؛ لأنه رَبٌّ للجميع ، وبحكم ربوبيته يعطي المؤمن والكافر ، وكما يعين المؤمن بالنصر ، كذلك يعين الكافر بمراده ، كما في قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً ﴾ [البقرة : 10] .

لأنهم ارتاحوا إليه ، ورَضُوا به ، وطلبوا منه المزيد .

﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن ﴾ [مريم : 75] أي : في الدنيا وزينتها ، كما قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

وفي موضع آخر يقول : إياك أنْ تعجبك أموالهم وأولادهم ؛ لأنها فتنة لهم ، يُعذِّبهم بها في الدنيا بالسَّعْي في جمع الأموال وتربية الأولاد ، ثم الحسرة على فقدهما ، ثم يُعذِّبهم بسببها في الآخرة : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 55] .

ثم يقول تعالى : ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ [مريم : 75]

.

(78/491)

العذاب : عذاب الدنيا . أي : بنصر المؤمنين على الكافرين وإهانتهم وإذلالهم ﴿ وَإِمَّا الساعة ﴾ [مريم : 75] أي : ما ينتظرهم من عذابها ، وعند ذلك : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ [مريم : 75] لكنه عِلْم لا يُجدي ، فقد فات أوانه ، فالموقف في الآخرة حيث لا استئناف للإيمان ، فالنكاية هنا أعظم والحسرة أشدّ .

لكن ، ما من مناسبة ذكر الجند هنا والكلام عن الآخرة ؟ وماذا يُغني الجند في مثل هذا اليوم ؟ قالوا : هذا تهكُّم بهم كما في قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ [الصافات : 2223] ، فهل أَخْذهم إلى النار هداية ؟

ثم يلتفت إليهم : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين * قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ

لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ [الصافات : 2530] .

أي : لم نُجبركم على شيء ، مجرد أنْ أشرَنْا لكم أطعتمونا .

لذلك ، سيقولون في موضع آخر : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [فصلت : 29] .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76) ﴾

قلنا : إن للهداية معنيَيْن : هداية بمعنى الدلالة على الخير وبيان طريقه ، وهداية المعونة والتوفيق للإيمان ، فمَنْ صدّق في الأُولى أعانه الله على الأخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

(79/491)

وقوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [مريم : 76]

الباقيات الصالحات : هي الأعمال الصالحة التي كانت منك خالصةً لوجه الله : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [مريم : 76] هذه هي الغاية التي ننتظرها ونسعى إليها ، فساعةَ أنْ تقارن السُّبل الشاقة فاقْرِنها بالغاية المسعدة ، فيهون عليك عناء العبادة ومشقّة

التكليف .

وقوله : ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [مريم : 76] أي : مرجعاً تُرَدُّ إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(80/491)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) ﴾

قوله : ﴿ مَّقَاماً ﴾ :

قرأ ابن كثير " مُقاماً " بالضم ، ورُوِيَتْ عن أبي عمرو ، وهي قراءةُ ابن محيصن . والباقون بالفتح . وفي كلتا القراءتين يحتمل أَنْ يكونَ اسمَ مكانٍ أو اسمَ مصدر ، إمَّا من " قام " ثلاثياً ، أو مِنْ " أقام " ، أي : خير مكانِ قيامٍ أو إقامةٍ .

والنَّدِيُّ : فَعِيل ، أصلُه نَدِيْوٌ لأنَّ لامَه واوا ، يقال : نَدَوْتُهم أَنْدَوْهم ، أي : أَتَيْتُ ناديَهم ، والنادي مثلُه . ومنه ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ [العلق : 17] ، أي : أهل نادية . والنَّدِيُّ

والنادي : مجلسُ القومِ ومُتَحَدّثُهم . وقيل : هو مشتقٌ من النَّدى وهو الكَرَمُ ؛ لأن الكرماء يجتمعون فيه ، وانْتَدَيْتُ المكانَ والمُنْتدى كذلك . وقال حاتم :

3251- ودُعِيْتُ في أَوْلَى النَّدِيِّ ولم . . . يُنْظَرْ إليَّ بأَعْيُنٍ خُزْرِ

والمصدرُ : النَّدْوُ . و " مَقاماً " و " نَدِيًّا " منصوبان على التمييز من أفْعل .

وقرأ أبو حيوةَ والأعرجُ وابن محيصن "يُتْلَى " بالياء مِنْ تحتُ ، والباقون/ بالتاءِ من فوقُ

واللامُ في " للذين " يحتمل أَنْ تكونَ للتبليغِ ، وهو الظاهر ، وأن تكونَ للتعليلِ .

قوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ :

"كم " مفعولٌ مقدمٌ واجبُ التقديم ؛ لأنَّ له صدرَ الكلامِ لأنها إمَّا : استفهاميةٌ أو خبريةٌ ، وهي محمولةٌ على الاستفهاميةِ ، و " أَهلَكْنا " مُتَسَلِّطٌ على "كم " أي : كثيراً من القرون أَهْلَكْنا . و " مِنْ قَرنٍ " تمييزٌ ل "كَمْ " مُبَيِّنٌ لها .

(81/491)

قوله : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ ﴾ في هذه الجملةِ وجهان ، أحدهما : - وإليه ذهب الزمخشري وأبو البقاء - أَنَّها في محلِّ نصب ، صفةً ل "كم " . قال الزمخشري : " ألا ترى أَنَّك لو أَسْقَطْتَ " هم " لم يكن لك بَدٌّ مِنْ نصبِ " أحسنُ " على الوصفية " . وفي هذا نظرٌ لأَنَّ النَّحْويين نَصُّوا

: على أنَّ "كم" استفهاميةٌ كانت أو خبريةً لا تُوْصَفُ ولا يُوْصَفُ بها . الثاني : أنها في محلِّ جرٍّ صفةً ل "قَرْن" ولا محذورَ في هذا ، وإنما جُمِعَ في قوله : "هم" لأنَّ قَرْناً وإن كان لفظُه مفرداً فمعناه جمعٌ ، ف "قَرْن" كلفظِ "جميع" و "جميع" يجوز مراعاةُ لفظِه تارةً فيُفْرَدُ كقولِه تعالى : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر : 44] ومراعاةُ معناه أخرى فيُجمع مالَه كقوله تعالى : ﴿ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : 32] .

قوله : "ورِئْياً" الجمهورُ على "رِئْياً" الجمهورُ على "رِئْيا" بهمزةٍ ساكنةٍ بعدَها ياءٌ صريحةٌ وَصْلاً ووقفاً ، وحمزةُ إذا وَقَفَ يُبْدِلُ هذه الهمزةَ ياءً على أصلِه في تخفيفِ الهمز ، ثم له بعد ذلك وجهان : الإظهارُ اعتباراً بالأصل ، والإدغامُ اعتباراً باللفظ ، وفي الإظهار صعوبةٌ لا تَخْفَى ، وفي الإدغامِ إيهامُ أنها مادةٌ أخرى : وهو الرَّيُّ الذي بمعنى الامتلاء والنَّضارة ، ولذلك تَرَكَ أبو عمرٍو أصلَه في تخفيفِ همزِه .

وقرأ قالون عن نافع ، وابن ذكوان عن ابن عامر "ورِيَّا" بياءٍ مشددةٍ بعد الراءِ ، فقيل : هي مهموزةُ الأصلِ ، ثم أُبْدِلَتِ الهمزةُ ياءً وأُدْغِمَتْ . والرِّأْيُ بالهمز ، قيل : مِنْ رُؤْيةِ العَيْن ، وفِعْل فيه بمعنى مَفْعول ، أي : مَرْئِيٌّ . وقيل من الرُّواء وحُسْنِ المنظر . وقيل : بل هو مِنَ الرَّيِّ ضد العطش وليس مهموزَ الأصلِ ، والمعنى : أحسنُ منظراً لأنَّ الرِّيَّ والامتلاءَ أحسنُ مِنْ ضِدَّيْهما .

وقرأ حميد وأبو بكر بن عاصم في روايةِ الأعشى " وَرِيْئاً " بياءٍ ساكنةٍ بعدَها همزةٌ وهو مقلوبٌ مِنْ " رِئْياً " في قراءةِ العامَّةِ ، ووزنه فِلْعٌ ، وهو مِنْ راءه يَرْآه كقولِ الشاعر :

3252- وكلُّ خليلٍ راءَني فهو قائلٌ . . . مِنَ أجلِكَ : هذا هامةُ اليومِ أوغدِ

وفي القلب من القلبِ ما فيه .

ورَوَى اليزيديُّ قراءةَ " ورِياء " بياءٍ بعدها ألف ، بعدها همزة ، وهي من المُراءاة ، أي : يُرِيْ بعضُهم حُسْنَ بعضٍ ، ثم خَفَّف الهمزةَ الأولى بقلبِها ياءً ، وهو تخفيفٌ قياسيٌّ .

وقرأ ابنُ عباس أيضاً في رواية طلحة " وَرِيَا " بياء فقط مخففةٍ . ولها وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ أصلُها كقراءةِ قالون ، ثم خَفَّفَ الكلمةَ بحذفِ إحدى الياءَيْن ، وهي الثانية لأنَّ بها حَصَلَ الثِّقَلُ ، ولأنَّها لامُ الكلمةِ ، والأواخرُ أَحْرَى بالتغيير . والثاني : أن يكونَ أصلُها كقراءةِ حميد " وَرِيْئا " بالقلب ، ثم نَقَلَ حركةَ الهمزةِ إلى الياءِ قبلها ، وحَذَفَ الهمزةَ على قاعدةِ تخفيفِ الهمزةِ بالنقل ، فصار " وَرِيا " كما ترى . وتجاسَرَ بعضُ الناسِ فجعل هذه القراءةَ لَحْناً ، وليس اللاحنُ غيرَه ، لخَفَاءِ توجيهِها عليه .

وقرأ ابن عباس أيضاً وابنُ جُبَيْر وجماعةٌ " وزِيَّا " بزايٍ وياءٍ مشددة ، والزِّيُّ : البِزَّةُ الحسنة والآلاتُ المجتمعة ، لأنه مِنْ زَوَى كذا يَزْوِيه ، أي : يَجْمعه ، والمُتَزَيِّنُ يَجْمع الأشياء التي تُزَيِّنه

وتُظْهِرُ زِيَّه .

قوله : ﴿ مَن كَانَ فِي الضلالة ﴾ :

(83/491)

" مَنْ " يجوز ان تكونَ شرطيةً ، وهو الظاهر ، وأن تكونَ موصولةً ، ودخلت الفاءُ في الخبرِ لِما تَضَمَّنه الموصولُ مِنْ معنى الشرط . وقولُه : " فَلْيَمْدُدْ " فيه وجهان ، أحدُهما : أنه طَلَبٌ على بابه ، ومعناه الدُّعاءُ . والثاني : لفظُه لفظُ الأمرِ ، ومعناه الخبر . قال الزمخشري : أي : مَدَّ له الرحمنُ ، بمعنى أَمْعَلَه فأُخْرِجَ على لفظِ الأمرِ إيذاناً بوجوبِ ذلك . أو فَمُدَّ له في معنى الدعاء بأن يُمْهِلَه الله ويُنَفِّسَ في مدةِ حياتِه " .

قوله : " حتى إذا " في " حتى " هذه ما تقدَّمَ في نظائرِها مِنْ كونِها : حرفَ جرٍّ أو حرفَ ابتداءٍ ، وإنما الشأنُ فيما هي غايةٌ له على كلا القولين . فقال الزمخشري : " وفي هذه الآيةِ وجهان : أن تكونَ موصولةً ، بالآيةِ التي هي رابعَتُها ، والآيتان اعتراضٌ بينهما ، أي : قالوا : أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأَحْسَنُ نَدِيّاً ، حتى إذا رَأَوْا ما يُوْعَدون ، أي : لا يَبْرَحون يقولون هذا القولَ ويَتَوَلَّعُون [به] لا يَتَكافَوْن عنه إلى أن يُشاهدون الموعودَ رأيَ العينِ " وذكر كلاماً حسناً .

ثم قال : " والثاني : أن تتصلَ بما يليها ، والمعنى أنَّ الذينَ في الضلالةِ ممدودٌ لهم " وذكر كلاماً طويلاً . ثم قال : " إلى أَنْ يُعاينوا نُصْرَةَ / اللهِ للمؤمنين ، أو يشاهدوا السَّاعة ومُقَدّماتها . فإنْ قلت : " حتى " هذه ما هي ؟ قلت : هي التي تُحْكى بعدها الجملُ ، ألا ترى الجملةَ الشرطيةَ واقعةً بعدها ، وهي ﴿ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ . . . فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الشيخ : – مُسْتبعداً للوجه الأول – " وهو في غاية البُعْدِ لطولِ الفَصْلِ بين قولِه : " قالوا أيُّ الفريقينِ " وبين الغايةِ ، وفيه الفصل بجملتيْ اعتراس ولا يُجيزه أبو علي " . وهذا الاستبعادُ قريبٌ . وقال أبو البقاء : " حتى " يُحْكَى ما بعدها ههنا ، وليست متعلقةً بفعلٍ " .

(84/491)

قوله : ﴿ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ قد عَرَفْتَ [ما] في " إمَّا " : من كونِها حرفَ عطفٍ أولا ، ولا خلاف أن أحدَ معانيها التفصيل كما في الآية الكريمة . و " العذابَ " و " الساعةَ " بدلانِ مِنْ قوله : ﴿ مَا يُوعَدُونَ ﴾ المنصوبةِ ب " رَأَوْا " و " فَسَيَعْلمون " جوابُ الشرط .

و ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ يجوز أَنْ تكونَ " مَنْ " موصولةً بمعنى الذي ، وتكونَ مفعولاً ل "

يَعْلَمون " . ويجوزُ أَنْ تكونَ استفهاميةً في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، و " هو " مبتدأٌ ثانٍ ، و " شَرٌّ " خبرُه ، والمبتدأُ والخبرُ خبرُ الأول . ويجوز أَنْ تكونَ الجملةُ مُعَلَّقةً لفعل الرؤيةِ فالجملةُ في محلِّ نصبٍ على التعليق .

قوله : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ ﴾ :

في هذه الجملةِ وجهان ، أحدهما : أنها لا مَحَلَّ لها لاستئنافِها ، فإنها سِيْقَتْ للإخبار بذلك . وقال الزمخشري : " إنها معطوفةٌ على موضعِ " فَلْيَمْدُدْ " لأنه واقعٌ موقعَ الخبر ، تقديرُه : " مَنْ كان في الضلالة مَدَّ – أو يَمُدُّ – له الرحمنُ ويَزيدُ " . قال الشيخ : ولا يَصِحُّ أَنْ يكونَ " ويَزيدُ " معطوفاً على " فَلْيَمْدُدْ " سواءً كان دعاءً أم خبراً بصورةِ الأمر ؛ لأنه في موضع الخبرِ إنْ كانت " مَنْ " موصولةً ، أو في موضعِ الجوابِ إن كانت " مَنْ " شرطيةً ، وعلى كلا التقديرين فالجملةُ مِنْ قولِه : " ويزيدُ اللهُ الذين اهتدَوا هدىً عاريةٌ من ضميرٍ يعود على " مَنْ " يَرْبِطُ جملةَ الخبرِ بالمبتدأ ، أو جملةَ الشرطِ بالجزاء الذي هو " فَلْيَمْدُدْ " وما عُطِفَ عليه ؛ لأنَّ المعطوفَ على الخبر خبرٌ ، والمعطوفَ على جملةِ الجزاءِ جزاءٌ . وإذا كانت اداةُ الشرطِ اسماً لا ظرفاً تَعَيَّنَ أَنْ يكونَ في جملة الجزاءِ ضميرُه أو ما يقوم مَقامه ، وكذا في الجملةِ المعطوفةِ عليها " .

قلت : وقد ذكر أبو البقاء أيضاً كما ذكر الزمخشري . وقد يُجاب عمَّا قالاه : بأنَّا نختار على هذا التقدير أَنْ تكونَ " مَنْ " شرطيةً . قوله : " لا بُدَّ من ضميرٍ يعود على اسمِ الشرطِ غيرِ الظرف " ممنوعٌ لأنَّ فيه خلافاً قدَّمْتُ تحقيقَه وما يُسْتَدَلُّ به عليه في سورة البقرة . فقد يكون الزمخشريُّ وأبو البقاء من القائلين بأنه لا يُشْتَرَطُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 628.634 ﴾

(86/491)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) ﴾

يعني إذا قُرِئَتْ عليهم آياتُ القرآن قابلوها بالردّ والجحد والعتو والزيغ ، ويَدَّعُون أنهم على حقٍ ، ولا يعتمدون في ذلك إلا على الحَدْس والظَّنّ .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) ﴾

أي إن هؤلاء ينخرطون في سِلْكِ مَنْ تَقَدَّمهم ، كما سلكوا في الريب منهاجهم ، وسَيَلْقَوْن ما يستوجبونه على سوء أعمالهم .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾

إن الله تعالى يُمْهِلُ الكفارَ ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم ، ويَغْتَرُّوا بسلامةِ أحوالهم ، فينسونه في غفلة الإمهال والاغترار بسلامة أحوالهم ، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب حسبانهم .

قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ . . . ﴾ أي يحل بهم موعودُ العقوبة عاجلاً أو قيام الساعة آجلاً ، فعند ذلك يتضح لهم ما تعامَوْا عنه من شدة الانتقام ، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ .

أي يُغْنيهم بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم ، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس ، فإذا مَتَعَ نهارُ العرفانِ فلا ظلمة ولا تهمة .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ : الشهادةُ بالربوبيةِ خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص .

ويقال : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ : التي تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ ﴾ لأن في استحقاقِ القبول زيادةً للهدى ؛ فيصير عِلْمُ اليقين عينَ

اليقين ، وعينُ يقينهم حَقَّ اليقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 439 . 440 ﴾

(87/491)

قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمن هذا من التهديد بذلك اليوم ما يقطع القلوب ، فيوجب الإقبال على ما ينجي منه ، عجب من حال من كفر به ، موبخاً له ، منكراً عليه ، عاطفاً على ما أرشد إليه السياق فقال معبراً عن طلب الخير بالرؤية التي هي الطريق إلى الإحاطة بالأشياء علماً وخبرة ، وإلى صحة الخبر عنها : ﴿ أفرءيت ﴾ أي أرأيت الذي يعرض عن هذا اليوم فرأيت

﴿ الذي ﴾ زاد على ذلك بأن ﴿ كفر بآياتنا ﴾ الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات ﴿ وقال ﴾ جراءة منه وجهلاً ؛ أو يقال : إنه لما هول أمر ذلك اليوم .

وهتك أستار مقالاتهم ، وبين وهيها ، تسبب عن ذلك التعجيبُ ممن يقول : ﴿ لأوتين ﴾ أي والله في الساعة على تقدير قيامها ممن له الإيتاء هنالك ﴿ مالاً وولداً ﴾ أي عظيمين ، فلم يكفه في جهله تعجيز القادر حتى ضم إليه إقدار العاجز .

(88/491)

ولما كان ما ادعاه لا علم له به إلا بأحد أمرين لا علم له بواحد منهما ، أنكر عليه قوله ذلك بقوله : ﴿ أطلع الغيب ﴾ الذي هو غائب عن كل مخلوق ، فهو في بعده عن الخلق كالعالي الذي لا يمكن أحداً منهم الاطلاع عليه ، وتفرد به الواحد القهار ﴿ أم اتخذ ﴾ أي بغاية جهده ﴿ عند الرحمن ﴾ العام الرحمة بالإنعام على الطائع والانتقام من العاصي ثواباً للطائع ﴿ عهداً ﴾ عاهده عليه بأنه يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها له على وجهها ليقف سبحانه فيه عند قوله .

ولما كان كل من الأمرين : إطلاع الغيب واتخاذ العهد ، وكذا ما ادعاه لنفسه ، وما يلزم عن

اتخاذ العهد من القرب ، منتفياً قال : ﴿ كلاَّ ﴾ أي لم يقع شيء من هذين الأمرين ، ولا يكون ما ادعاه فليرتفع عنه صاغراً .

(89/491)

ولما كان النفي هنا عن الواحد مفهماً للنفي عما فوقه اكتفى به ، ولما رد ذلك استأنف الجواب لسؤال من كأنه قال : فماذا يكون له ؟ بقوله مثبتاً السين للتوكيد في هذا التهديد : ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ أي نحفظه عليه حفظ من يكتبه لنوبخه به ونعذبه عليه بعد الموت فيظهر له بعد طول الزمان أن ما كان فيه ضلال يؤدي إلى الهلاك لا محالة ، ويجوز أن تكون السين على بابها من المهلة ، وكذا الكتابة ، والإعلام بذلك للحث على التوبة قبل الكتابة ، وذلك من عموم الرحمة ﴿ ونمد له من العذاب مداً ﴾ باستدراجه بأسبابه من كثرة النعم من الأموال والأولاد المحببة له في الدنيا ، المعذبة له فيها ، بالكدح في جمعها والمخاصمة عليها الموجبة له التمادي في الكفر الموجب لعذاب الآخرة ، وإتيان بعضه في إثر بعض ﴿ إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : 85] ﴿ ونرثه ﴾ بموته عن جميع ذلك ؛ ثم أبدل من ضميره قوله : ﴿ ما يقول ﴾ أي من المال والولد فنحول بينه وبينهم بعد البعث كما فعلنا بالموت كحيلولة الوارث بين الموروث وبين

الموروث عنه ﴿ ويأتينا ﴾ في القيامة ﴿ فرداً ﴾ مسكيناً منعزلاً عن كل شيء لا قدرة له على مال ولا ولد ، قلا عز له ، ولا قوة بشيء منهما ؛ روى البخاري في التفسير عن خباب - رضى الله عنهم - قال : كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً ، فجئت أتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، قلت : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يحييك ، وفي رواية : حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإني لمبعوث من بعد الموت ؟ قلت : نعم ! قال : فذرني حتى أموت ثم أبعث فسوف أوتى مالاً وولداً فأقضيك ، فنزلت هذه الآية ﴿ أفرأيت الذي - إلى قوله : فرداً ﴾ .

(90/491)

ولما أخبر تعالى بالبعث ، وذكر أن هذا الكافر يأتيه على صفة الذل ، أتبعه حال المشركين مع معبوداتهم ، فقال معجباً منهم عاطفاً على قوله ويقول الإنسان : ﴿ واتخذوا ﴾ أي الكفار ، وجمع لأن نفي العز عن الواحد قد لا يقتضي نفيه عما زاد ﴿ من دون الله ﴾ وقد تبين لهم أنه الملك الأعلى الذي لا كفوء له ﴿ ءالهة ليكونوا لهم ﴾ أي الكافرين ﴿ عزاً ﴾ لينقذوهم من العذاب .

ولما بين أنه لا يعزه مال ولا ولد ، وكان نفع الأوثان دون ذلك بلا شك ، نفاه بقوله : ﴿ كلاَّ ﴾

بأداة الردع ، لأن ذلك طلب للعز من معدن الذل من العبيد الذين من اعتز لهم ذل ، فإنهم مجبولون على الحاجة ، ومن طلب العز للدنيا طلبه من العبيد لا محالة ، فاضطر قطعاً - لبنائهم على النقص - إلى ترك الحق واتباع الباطل ، فكانت عاقبة أمره الذل وإن طال المدى ، فإن الله تعالى ربما أمهل المخذول إلى أن ينتهي في خذلانه إلى أن يستحق لباس الذل ؛ ثم بين سبحانه ذلك بما يكون منهم يوم البعث فقال : ﴿ سيكفرون ﴾ أي الآلهة بوعد لا خلف فيه وإن طال الزمان ﴿ بعبادتهم ﴾ أي المشركين ، فيقولون لهم ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ [يونس : 28] ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166] ﴿ ويكونون عليهم ﴾ أي الكفار ؛ ووحد إشارة إلى اتفاق الكلمة بحيث إنهم لفرط تضامنهم كشيء واحد فقال : ﴿ ضداً ﴾ أي أعداء فيكسبونهم الذل ، وكذا يفعل الكفار مع شركائهم ويقولون ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فيقع بينهم العداوة كما قال تعالى ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ [العنكبوت : 25] .

(91/491)

ولما كان من المستبعد عندهم جواز رجوعهم عنهم فضلاً عن كفرهم بهم ، دل على وقوعه بما يشاهد منهم من الأفعال المنافية لرزانة الحلم الناشئة عن وقار العلم ، فقال :

﴿ ألم تر أنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ أرسلنا الشياطين ﴾ الذين خلقناهم من النار ، إرسالاً مستعلياً بالإبعاد والإحراق ﴿ على الكافرين ﴾ أي العريقين في الكفر ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ أي تحركهم تحريكاً شديداً ، وتزعجهم في المعاصي والدنايا التي لا يشكون في قباحتها وعظيم شناعتها وهم أشد الناس عيباً لفاعليها وذماً لمرتكبيها إزعاجاً عظيماً بحيث يكونون في تقلبهم ذلك مثل الماء الذي يغلي في القدر ، ومثل الشرر المتطاير الذي هو أشد شيء منافاة لطبع الطين وملاءمة لطبع النار ، فلما ثبت بذلك المدعى ، تسبب عنه النهي عما اتصفوا به من خفة السفه وطيش الجهل فقال : ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ بشيء مما تريد به الراحة منهم .

ولما كانت مراقبة ناصر الإنسان لعدوه في الحركات والسكنات أكبر شاف للولي ومفرح ، وأعظم غائظ للعدو ومزعج ومخيف ومقلق ، علل ذلك بقوله دالاًّ على أن زمنهم قصير جداً بذكر العد : ﴿ إنما نعد لهم ﴾ بإمهالنا لهم وإدرارنا النعم عليهم ﴿ عداً ﴾ لأنفاسهم فما فوقها لا نغفل عنهم بوجه ، فإذا جاء أجلهم الذي ضربناه لهم ، محونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، لا يمكنهم أن يفوتونا ، فاصبر فما أردنا بإملائنا لهم إلا إشقاءهم وإرداءهم لا تنعيمهم وإعلاءهم ، فهو من قصر الموصوف على صفته إفراداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 555 . 557 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل أولاً على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين ، وأجاب عنها أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعناً في القول بالحشر فقال :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بآياتنا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ قرأ حمزة والكسائي ولداً وهو جمع ولد كأسد في أسد أو بمعنى الولد كالعرب في العرب ، وعن يحيى بن يعمر ولداً بالكسر ، وعن الحسن نزلت الآية في الوليد بن المغيرة والمشهورة أنها في العاص بن وائل ، قال خباب بن الأرت : كان لي عليه دين فاقتضيته فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد قلت : لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم لا حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث فقال : فإني إذا مت بعثت ؟ قلت : نعم .

(93/491)

قال : إني بعثت وجئتني فسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك ، وقيل : صاغ خباب له حلياً فاقتضاه فطلب الأجرة فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون ، وأن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً فأنا أقضيك ثم ، فإني أوتي مالاً وولداً حينئذ ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ قال صاحب "الكشاف" : أطلع الغيب من قولهم أطلع الجبل أي ارتقى إلى أعلاه ويقال مر مطلعاً لذلك الأمر أي غالباً له مالكاً له والاختيار في هذه الكلمة أن تقول : أو قد بلغ من عظم شأنه أنه ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار ، والمعنى أن الذي ادعى أن يكون حاصلاً له لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الأمرين ، إما علم الغيب وإما عهد من عالم الغيب فبأيهما توصل إليه ؟ وقيل : في العهد كلمة الشهادة عن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول ؟ ثم إنه سبحانه بين من حاله ضد ما ادعاه ، فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ أي هو مخطىء فيما يقوله ويتمناه فإن قيل لم قال : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ بسين التسويف وهو كما قاله كتب من غير تأخير قال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] قلنا فيه وجهان : أحدهما : سيظهر له ويعلم أنا كتبنا .

الثاني : أن المتوعد يقول للجاني سوف أنتقم منك وإن كان في الحال في الانتقام ويكون غرضه من هذا الكلام محض التهديد فكذا ههنا ، أما قوله تعالى : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ أي نطول له من العذاب ما يستأهله ونزيده من العذاب ونضاعف له من المدد ويقال مده وأمده بمعنى ويدل عليه قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام ويمد له بالضم ، أما قوله ونرثه ما يقول أي يزول عنه ما وعده من مال وولد فلا يعود كما لا يعود الإرث إلى من خلفه وإذا سلب ذلك في الآخرة يبقى فرداً فلذلك قال : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ فلا يصح أن ينفرد في الآخرة بمال وولد : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] ، والله أعلم .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) ﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في مسألة الحشر والنشر ، تكلم الآن في الرد على عباد الأصنام فحكى عنهم أنهم إنما اتخذوا آلهة لأنفسهم ليكونوا لهم عزاً ، حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ، ينقذونهم من الهلاك .

ثم أجاب الله تعالى بقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة ، وقرأ ابن نهيك : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ أي كلهم سيكفرون بعبادة هذه الأوثان وفي محتسب ابن جني كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه كل هذا الاعتقاد والرأي كلا ، قال صاحب الكشاف : إن صحت هذه الرواية فهي كلا التي هي للردع قلب الواقف عليها ألفها نوناً كما في قواريرا واختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ سَيَكْفُرُونَ ﴾ يعود إلى المعبود أو إلى العابد فمنهم من قال إنه يعود إلى المعبود ، ثم قال بعضهم : أراد بذلك الملائكة لأنهم في الآخرة يكفرون بعبادتهم ويتبرءون منهم ويخاصمونهم وهو المراد من قوله : ﴿ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] وقال آخرون : إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ومن الناس من قال الضمير يرجع إلى العباد أي أن هؤلاء المشركين يوم القيامة ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] أما قوله : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ فذكر ذلك في مقابلة قوله : ﴿ لَهُمْ عِزّاً ﴾ [مريم : 81] والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أن يكونون عليهم ضداً لما قصدوه وأرادوه كأنه قيل : ويكونون عليهم ذلا لهم لا عزاً أو يكونون عليهم عوناً والضد العون ، يقال من أضدادكم أي من أعوانكم وكأن العون يسمى ضداً لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه ، فإن قيل : ولم وحد ؟ قلنا : وحد توحيد قوله عليه السلام : " وهم يد على من سواهم " لاتفاق

كلمتهم فإنهم كشيء واحد لفرط انتظامهم وتوافقهم ، ومعنى كون الآلهة عوناً عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها واعلم أنه تعالى لما ذكر حال هؤلاء الكفار مع الأصنام في الآخرة ذكر بعده حالهم مع

(96/491)

الشياطين في الدنيا فإنهم يسألونهم وينقادون لهم فقال : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج الأصحاب بهذه الآية على أن الله تعالى مريد لجميع الكائنات فقالوا قول القائل : أرسلت فلاناً على فلان موضوع في اللغة لإفادة أنه سلطه عليه لإرادة أن يستولي عليه . قال عليه السلام : سم الله وأرسل كلبك عليه إذا ثبت هذا فقوله : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ يفيد أنه تعالى سلطهم عليهم لإرادة أن يستولوا عليهم وذلك يفيد المقصود ثم يتأكد هذا بقوله : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ فإن معناه إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين لتؤزهم أزاً ويتأكد بقوله :

﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ ﴾ [الإسراء : 64] قال القاضي : حقيقة اللفظ

توجب أنه تعالى أرسل الشياطين إلى الكفار كما أرسل الأنبياء بأن حملهم رسالة يؤدونها إليهم فلا يجوز في تلك الرسالة إلا ما أرسل عليه الشياطين من الإغواء فكان يجب في الكفار أن يكونوا بقبولهم من الشياطين مطيعين وذلك كفر من قائله ، ولأن من العجب تعلق المجبرة بذلك لأن عندهم أن ضلال الكفار من قبله تعالى بأن خلق فيهم الكفر وقدر الكفر فلا تأثير لما يكون من الشيطان وإذا بطل حمل اللفظ في ظاهره فلا بد من التأويل فنحمله على أنه تعالى خلى بين الشياطين وبين الكفار وما منعهم من إغوائهم وهذه التخلية تسمى إرسالاً في سعة اللغة .

(97/491)

كما إذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال : أرسل كلبه عليه وإن لم يرد أذى الناس ، وهذه التخلية وإن كان فيها تشديد للمحنة عليهم فهم متمكنون من أن لا يقبلوا منهم ويكون ثوابهم على ترك القبول أعظم والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] هذا تمام كلامه ونقول لا نسلم أنه لا يمكن حمله على ظاهره فإن قوله : ﴿ أَرْسَلْنَا الشياطين ﴾ لو أرسلهم الله إلى الكفار لكان الكفار مطيعين له بقبول قول الشياطين ، قلنا

الله تعالى ما أرسل الشياطين إلى الكفار بل أرسلها عليهم والإرسال عليهم هو التسليط لإرادة أن يصير مستولياً عليه ، فأين هذا من الإرسال إليهم ، قوله : ضلال الكافر من قبل الله تعالى فأي تأثير للشيطان فيه ؟ قلنا : لم لا يجوز أن يقال : إن إسماع الشيطان إياه تلك الوسوسة يوجب في قلبه ذلك الضلال بشرط سلامة فهم السامع لأن كلام الشيطان من خلق الله تعالى فيكون ذلك الضلال الحاصل في قلب الكافر منتسباً إلى الشيطان وإلى الله تعالى من هذين الوجهين ، قوله لم لا يجوز أن يكون المراد بالإرسال التخلية قلنا : كما خلى بين الشيطان والكفرة فقد خلى بينهم وبين الأنبياء ثم إنه تعالى خص الكافر بأنه أرسل الشيطان عليه فلا بد من فائدة زائدة ههنا ولأن قوله : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ أي تحركهم تحريكاً شديداً كالغرض من ذلك الإرسال فوجب أن يكون الأز مراداً لله تعالى ويحصل المقصود منه فهذا ما في هذا الموضع ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(98/491)

قال ابن عباس : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ أي تزعجهم في المعاصي إزعاجاً نزلت في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط قال صاحب الكشاف : الأز والهز والاستفزاز أخوات في معنى

التهييج وشدة الإزعاج أي تغريهم على المعاصي وتحثهم وتهيجهم لها بالوساس والتسويلات ، أما قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته به أي لا تعجل عليهم بأن يهلكوا أو يبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ ﴾ [الأحقاف : 35] عن ابن عباس أنه كان إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد دخول قبرك ، آخر العدد فراق أهلك .

وعن ابن السماك رحمه الله أنه كان عند المأمون فقرأها فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد .

وذكروا في قوله : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ وجهين آخرين : الأول : نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها .

والثاني : نعد الأوقات إلى وقت الأجل المعين لكل أحد الذي لا يتطرق إليه الزيادة والنقصان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 213.215 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا . . . ﴾

اختلف فيمن نزلت هذه الآية فيه على قولين :

أحدهما : في العاص بن وائل السهمي ، قاله جبار وابن عباس ومجاهد .

الثاني : في الوليد بن المغيرة ، قاله الحسن .

﴿ . . . مَالاً وَوَلَداً ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ ووُلْداً ﴾ بضم الواو ، وقرأ الباقون بفتحها ، فاختلف في ضمها وفتحها على وجهين :

أحدهما : أنهما لغتان معناهما واحد ، يقال ولَدَ ووُلْد ، وعَدَم وعُدْم ، وقال الحارث ابن حلزة .

ولقد رأيت معاشراً . . . قد ثمَّروا مالاً ووُلْدا

والثاني : أن قيساً الوُلْد بالضم جميعاً ، والولد بالفتح واحداً .

وفي قوله تعالى : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾

وجهان :

أحدهما : أنه أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله على طاعته وعبادته ، قاله الكلبي .

الثاني : أنه أراد في الدنيا ، وهو قول الجمهور . وفيه وجهان محتملان :

أحدهما : إن أقمت على دين آبائي وعبادة ألهتي لأوتين مالاً وولداً .

الثاني : معناه لو كنت أقمت على باطل لما أوتيت مالاً وولداً .

﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : معناه أعلم الغيب أنه سيؤتيه على كفره مالاً وولداً .

الثاني : أعلم الغيب لما آتاه الله على كفره .

﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني عملاً صالحاً قدمه ، قاله قتادة .

الثاني : قولاً عهد به الله إليه ، حكاه ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الله يسلبه ما أعطاه في الدنيا من مال وولد .

الثاني : يحرمه ما تمناه في الآخرة من من مال وولد .

﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بلا مال ولا ولد .

الثاني : بلا ولي ولا ناصر .

قوله عز وجل : ﴿ . . . سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : سيجحدون أن يكونوا عبدوها لما شاهدوا من سوء عاقبتها .

الثاني : سيكفرون بمعبوداتهم ويكذبونهم .

(100/491)

﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أعواناً في خصومتهم ، قاله مجاهد .

الثاني : قرناء في النار يلعنونهم ، قاله قتادة .

الثالث : يكونون لهم أعداء ، قاله الضحاك .

الرابع : بلاء عليهم ، قاله ابن زيد .

الخامس : أنهم يكذبون على ضد ما قدروه فيهم وأمّلوه منهم ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : تزعجهم إزعاجاً حتى توقعهم في المعاصي ، قاله قتادة .

الثاني : تغويهم إغواء ، قاله الضحاك .

الثالث : تغريهم إغراء بالشر : إمض إمض في هذا الأمر حتى توقعهم في النار ، قاله ابن عباس .

قوله عز وجل : ﴿ . . . إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : نعد أعمالهم عداً ، قاله قطرب .

الثاني : نعد أيام حياتهم ، قاله الكلبي .

الثالث : نعد مدة إنظارهم إلى وقت الإنتقام منهم بالسيف والجهاد ، قاله مقاتل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(101/491)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ أفرأيت الذي كفر ﴾ الآية ،

الفاء في قوله ﴿ أفرأيت ﴾ عاطفة بعد ألف الأستفهام وهي عاطفة جملة على جملة ، و ﴿ الذي كفر ﴾ يعني به العاصي بن وائل السمهي ، قاله جمهور المفسرين ، وكان خبره أن خباب بن الأرت كان قيناً في الجاهلية فعمل له عملاً واجتمع له عنده فجاءه يتقاضاه فقال له العاصي لا أنصفك حتى تكفر بمحمد ، فقال خباب : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يبعثك ، قال العاصي : أو مبعوث أنا بعد الموت ؟ قال خباب نعم ، قال : فإنه إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دينك ، فنزلت الآية في ذلك ، وقال الحسن

نزلت الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي وقد كانت للوليد أيضاً أقوال تشبه هذا الغرض ، وقرأ ابن كثير وابو عمرو " وولَداً " على معنى اسم الجنس بفتح الواو واللام وكذلك في سائر ما في القرآن إلا في سورة نوح ﴿ ماله وولده ﴾ [نوح : 21] فإنما قرأ بضم الواو وسكون اللام ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر بفتح الواو في كل القرآن ، وقرأ حمزة والكسائي " ووُلْداً " بضم الواو وسكون اللام وكذلك في جميع القرآن ، وقرأ ابن مسعود " وِلْداً " بكسر الواو وسكون اللام ، واختلف مع ضم الواو فقال بعضهم : هو جمع " ولد كأسد وأسد " واحتجوا بقول الشاعر : [مجزوء الكامل]

فلقد رأيت معاشراً . . . قد ثمروا مالاً وولداً

وقال بعضهم هو بمعنى الولد واحتجوا بقول الشاعر : [الطويل]

فليت فلاناً كان في بطن أمه . . . وليت فلاناً كان ولد حمار

(102/491)

قال أبو علي في قراءة حمزة والكسائي ما كان منه مفرداً قصد به المفرد ، وما كان منه جمعاً قصد الجمع ، وقال الأخفش : الولد الابن والابنة ، والولد الأهل والوالد وقال غيره : والولد بطن الذي هو منه ، حكاه أبو علي في الحجة ، وقوله ﴿ أطلع الغيب ﴾ توقيف والألف

للاستفهام وحذفت ألف الوصل للاستغناء عنها ، واتخاذ العهد معناه بالإيمان والأعمال الصالحة ، و﴿ كلا ﴾ زجر ورد ، ثم أخبر تعالى أن قول هذا الكافر سيكتب على معنى حفظه عليه ومعاقبته به . وقرأ " سنكتب " بالنون أبو عمرو والحسن وعيسى ، وقرأ عاصم والأعمش " سيُكتب " بياء مضمومة ، ومد العذاب هو إطالته وتعظيمه وقوله ﴿ ما يقول ﴾ أي هذه الأشياء التي سمى أنه يؤتاها في الآخرة يرث الله ما له منها في الدنيا فإهلاكه وتركه لها ، فالوراثة مستعارة ويحتمل أن يكون خيبته في الآخرة كوراثة ما أمل . وفي حرف ابن مسعود " ونرثه ما عنده " ، وقال النحاس ﴿ نرثه ما يقول ﴾ معناه نحفظه عليه لنعاقبه ، ومنه قول النبي عليه السلام " العلماء ورثة الأنبياء " أي حفظة ما قالوا فكأن هذا المجرم يورث هذا المقالة . وقوله ﴿ فرداً ﴾ يتضمن ذلته وقلة انتصاره .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) ﴾

(103/491)

اتخذ افتعل من أخذ لكنه يتضمن إعداداً من المتخذ وليس ذلك في أخذ ، والضمير في ﴿ اتخذوا ﴾ لعبادة الأوثان والآلهة الأصنام ، وكل ما عبد من دون الله ، ومعنى قوله ﴿ عزاً ﴾ العموم في النصرة والمنفعة وغير ذلك من وجوه الخير ، وقوله ﴿ كلا ﴾ زجر ، وردع ،

وهذا المعنى لازم ل ﴿ كلا ﴾ فإن كان القول المردود منصوصاً عليه بأن المعنى ، وإن لم يكن منصوصاً عليه فلا بد من أمر مردود يتضمنه القول كقوله عز وجل ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ [العلق : 6] فإن قوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : 5] يتضمن مع ما قبله أن الإنسان يزعم من نفسه ويرى أن له حولاً ما ولا يتفكر جداً في أن الله علمه ما لم يعلم وأنعم عليه بذلك وإلا كان معمور جهل ، وقرأ الجمهور "كلا" على ما فسرناه ، وقرأ أبو نهيك "كَلاً" بفتح الكاف والتنوين حكاه عنه أبو الفتح وهو نعت ل ﴿ آلهة ﴾ وحكى عنه أبو عمرو الداني "كُلاً" بضم الكاف والتنوين وهو منصوب بفعل مضمر يدل عليه سيكفرون تقديره يرفضون أو ينكرون أو يجحدون أو نحوه ، واختلف المفسرون في الضمير الذي في ﴿ سيكفرون ﴾ وفي ﴿ بعبادتهم ﴾ فقالت فرقة : الأول للكفار والثاني للمعبودين والمعنى أنه سيجيء يوم القيامة من الهول على الكفار والشدة ما يدفعهم الى جحد الكفر وعبادة الأوثان ، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] وقالت فرقة : الأول للمعبودين والثاني للكفار والمعنى أن الله تعالى يجعل للأصنام حياة تنكر بها ومعها عبادة الكفار وأن يكون لها من ذلك ذنب ، وأما المعبود من الملائكة وغيرهم فهذا منهم بين . وقوله ﴿ ضداً ﴾ معناه يجيئهم منهم خلاف ما كانوا أملوه فيؤول ذلك بهم الى ذلة ضد ما أملوه من العز وهذه الصفة عامة ، وقال قتادة

﴿ ضداً ﴾ معناه قرناء ، وقال ابن عباس : معناه أعواناً ، وقال لضحاك : أعداء ، وقال ابن زيد : بلاء ، وقيل غير هذا مما لفظ القرآن أعم منه وأجمع

(104/491)

للمعنى المقصود ، والضد هنا مصدر وصف به الجمع كما يوصف به الواحد ، وحكى الطبري عن أبي نهيك أنه قرأ "كل" بالرفع ورفعها بالابتداء ، وقوله ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين ﴾ الآية ، الرؤية في الآية رؤية القلب ، و ﴿ أرسلنا ﴾ معناه سلطنا أو لم نخل بينهم وبينهم فكله تسليط وهو مثل قوله نقيض له شيطان وتعديته ب ﴿ على ﴾ دال على أن تسليط ، و ﴿ تؤزهم ﴾ معناه تغليهم وتحركهم الى الكفر والضلال قال قتادة تزعجهم إزعاجاً ، قال ابن زيد : تشليهم أشلاء ومنه أزيز القدر وهو غليانه وحركته ومنه الحديث أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم " فوجدته يصلي وهو يبكي ولصدره أزيز كأزيز المرجل " وقوله ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ أي لا تستبطىء عذابهم وتحب تعجيله ، وقوله ﴿ نعد لهم عداً ﴾ أي مدة نعمتهم وقبيح أعمالهم لنصيرهم إلى العذاب إما في الدنيا وإلا ففي الأخرة ، قال ابن عباس : نعد أنفاسهم .

قال القاضي أبو محمد : وما تضمنته هذه الألفاظ من الوعيد بعذاب الآخرة هو العامل في

قوله ﴿ يوم ﴾ ويحتمل أن يعمل فيه لفظ مقدر تقديره واذكر أو احذر ونحو هذا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(105/491)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : ما روى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث مسروق عن خبَّاب [بن الأرتِّ] قال : كنت رجلاً قَيْنَاً [أي : حداداً] وكان لي على العاص بن وائل دَيْن ، فأتيته أتقاضاه ، فقال : [لا] والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ، ثم تُبعث .

قال : فإني إذا مِتُّ ثم بُعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد ، فأعطيتك ، فنزلت فيه هذه الآية ، إلى قوله تعالى : ﴿ فرداً ﴾ .

والثاني : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، وهذا مروي عن الحسن .

والمفسرون على الأول .

قوله تعالى : ﴿ لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : بفتح الواو .

وقرأ حمزة ، والكسائي : بضم الواو .

وقال الفراء : وهما لغتان ، كالعُدم ، والعَدم ، وليس يجمع ، وقيس تجعل الوُلد جمعاً ، والوَلد ، بفتح الواو ، واحداً .

وأين زعم هذا الكافر أن يؤتى المال والولد ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه أراد في الجنة على زعمكم .

والثاني : في الدنيا .

قال ابن الأنباري : وتقدير الآية : أرأيته مصيباً ؟ !

قوله تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الغيبَ ﴾ قال ابن عباس في رواية : أَعَلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو ، أم لا ؟ ! وقال في رواية أخرى : أَنَظَرَ في اللوح المحفوظ ؟ !

قوله تعالى : ﴿ أم اتَّخذ عند الرحمن عهداً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أم قال : لا إله إلا الله ، فأرحمه بها ؟ ! قاله ابن عباس .

والثاني : أم قدَّم عملاً صالحاً ، فهو يرجوه ؟ ! قاله قتادة .

والثالث : أم عهد إليه أنه يدخله الجنة ؟ ! قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ كلاَّ ﴾ أي : ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتَى المال والولد .

ويجوز أن يكون معنى "كلاَّ" أي : إِنه لم يطَّلع الغيبَ ، ولم يتخذ عند الله عهداً .

(106/491)

﴿ سنكتب ما يقول ﴾ أي : سنأمر الحفظة بإثبات قوله عليه لنجازيَه به ، ﴿ ونَمُدُّ له من العذاب مَدّاً ﴾ أي : نجعل بعض العذاب على إِثر بعض .

وقرأ أبو العالية الرياحي ، وأبو رجاء العطاردي : "سيكتب" "ويرثه" بياء مفتوحة .

قوله تعالى : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ فيه قولان .

أحدهما : نرثه ما يقول أنه له في الجنة ، فنجعله لغيره من المسلمين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء .

والثاني : نرث ما عنده من المال ، والولد ، باهلاكنا إِياه ، وإِبطال ملكه ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال قتادة .

قال الزجاج : المعنى : سنسلبه المال والولد ، ونجعله لغيره .

قوله تعالى : ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ أي : بلا مال ولا ولد .

قوله تعالى : ﴿ واتخَذوا من دون الله آلهة ﴾

يعني : المشركين عابدي الأصنام ﴿ ليكونوا لهم عِزّاً ﴾ قال الفراء : ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ كلاَّ ﴾ أي : ليس الأمر كما قدَّروا ، ﴿ سيكفرون ﴾ يعني الأصنام بجحد عبادة المشركين ، كقوله تعالى : ﴿ ما كانوا إِيانا يعبدون ﴾ [القصص : 63] لأنها كانت جماداً لا تعقل العبادة ، ﴿ ويكونون ﴾ يعني : الأصنام ﴿ عليهم ﴾ يعني : المشركين ﴿ ضِدّاً ﴾ أي : أعواناً عليهم في القيامة ، يكذِّبونهم ويلعنونهم .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أنَّا أرسلنا الشياطين ﴾ قال الزجاج : في معنى هذا الإِرسال وجهان .

أحدهما : خلَّينا بين الشياطين وبين الكافرين فلم نعصمهم من القبول منهم .

والثاني : وهو المختار : سَلَّطناهم عليهم ، وقيَّضْناهم لهم بكفرهم .

﴿ تَؤُزُّهم أَزّاً ﴾ أي : تزعجهم إزعاجاً حتى يركبوا المعاصي .

وقال الفراء : تزعجهم إلى المعاصي ، وتغريهم بها .

قال ابن فارس : يقال : أزَّه على كذا : إذا أغراه به ، وأزَّتْ القِدْر : غَلَتْ .

قوله تعالى : ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ أي : لا تعجل بطلب عذابهم .

وزعم بعضهم أن هذا منسوخ بآية السيف ، وليس بصحيح ، ﴿ إِنما نَعُدُّ لهم عدّاً ﴾ في هذا المعدود ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أنفاسهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال طاووس ، ومقاتل .

والثاني : الأيام ، والليالي ، والشهور ، والسنون ، والساعات ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنها أعمالهم ، قاله قطرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(108/491)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾

روى الأئمة واللفظ لمسلم عن خباب قال كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد .

قال : فقلت له : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث .

قال : وإني لمبعوث من بعد الموت ؟ ! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد .

قال وكيع : كذا قال الأعمش ؛ فنزلت هذه الآية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ إلى قوله : "ويأتينا فرداً" .

في رواية قال : كنت قَيْناً في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملاً ، فأتيته أتقاضاه .

خرجه البخاري أيضاً .

وقال الكلبي ومقاتل : كان خباب قيناً فصاغ للعاص حلياً ثم تقاضاه أجرته ، فقال العاص : ما عندي اليوم ما أقضيك .

فقال خباب : لست بمفارقك حتى تقضيني ؛ فقال العاص : يا خباب ما لك ؟ ! ما كنت هكذا ، وأن كنت لحسن الطلب .

فقال خباب : إني كنت على دينك فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لدينك .

قال : أولستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ؟ قال خباب : بلى .

قال : فأخرني حتى أقضيك في الجنة استهزاء فوالله لئن كان ما تقول حقاً إني لأقضيك فيها ، فوالله لا تكون أنت يا خباب وأصحابك أولى بها مني ، فأنزل الله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ يعني العاص بن وائل ؛ الآيات .

﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ قال ابن عباس : أنظر في اللوح المحفوظ ؟! .

وقال مجاهد : أعلم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا ؟ ! ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ قال قتادة والثوريّ : أي عملاً صالحاً .

وقيل : هو التوحيد .

وقيل : هو من الوعد .

وقال الكلبي : عاهد الله تعالى أن يدخله الجنة .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردٌّ عليه ؛ أي لم يكن ذلك ؛ لم يطلع الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً ، وتم الكلام عند قوله : "كَلاَّ" .

وقال الحسن : إن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة .

والأول أصح لأنه مدوّن في الصحاح .

(109/491)

وقرأ حمزة والكسائي "وَوُلْداً" بضم الواو ، والباقون بفتحها .

واختلف في الضم والفتح على وجهين : أحدهما : أنهما لغتان معناهما واحد ، يقال وَلَد ووُلْد كما يقال عَدَم وعُدْم .

وقال الحارث بن حِلّزة :

ولقد رأيتُ معاشراً . . .

قد ثَمَّرُوا مَالاً ووُلْداً

وقال آخر :

فليتَ فلاناً كان في بطن أُمّه . . .

وليت فلاناً كان وُلْدَ حِمارِ

والثاني : أن قيساً تجعل الوُلد بالضم جمعاً والولد بالفتح واحداً .

قال الماوردي : وفي قوله تعالى : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ وجهان : أحدهما : أنه أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته ؛ قاله الكلبي .

الثاني : أنه أراد في الدنيا ، وهو قول الجمهور ؛ وفيه وجهان محتملان : أحدهما : إن أقمت على دين آبائي وعبادة آلهتي لأوتين مالاً وولداً .

الثاني : ولو كنت على باطل لما أوتيت مالاً وولداً .

قلت : قول الكلبي أشبه بظاهر الأحاديث ، بل نصها يدل على ذلك ؛ قال مسروق :

سمعت خبّاب بن الأرتّ يقول : جئت العاص بن وائل السَّهْميّ أتقاضاه حقاً لي عنده .

فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد .

فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث .

قال : وإني لميت ثم مبعوث ؟ ! فقلت : نعم .

فقال : إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك ؛ فنزلت ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ الآية ؛

قال الترمذيّ : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ ألفه ألف استفهام لمجيء "أم" بعدها ، ومعناه التوبيخ ، وأصله أاطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل .

(110/491)

فإن قيل : فهلا أتوا بمدّة بعد الألف فقالوا : آطلع كما قالوا : "آللّه خير" ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ ﴾ [الأنعام : 143] قيل له : كان الأصل في هذا "أاللّه" "أالذكرين" فأبدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الاستفهام والخبر ؛ وذلك أنهم لو قالوا : اللّه خير بلا مدّ لالتبس الاستفهام بالخبر ، ولم يحتاجوا إلى هذه المدّة في قوله : "أطلع" لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة ، وذلك أنك تقول في الاستفهام : أطلع ؟ أفترى ؟ أصطفى ؟ أستغفرت ؟ بفتح الألف ، وتقول في الخبر : اِطلع ، اِفترى ، اِصطفى ، اِستغفرت لهم بالكسر ، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر .

قوله تعالى : "كَلاَّ" ليس في النصف الأول ذكر "كلاّ" وإنما جاء ذكره في النصف الثاني .

وهو يكون بمعنيين : أحدهما : بمعنى حقّاً .

والثاني : بمعنى لا .

فإذا كانت بمعنى حقاً جاز الوقف على ما قبله ، ثم تبتدىء "كلا" أي حقّاً .

وإذا كانت بمعنى لا ، كان الوقف على "كلا" جائزاً ، كما في هذه الآية ؛ لأن المعنى : لا ليس الأمر كذا .

ويجوز أن تقف على قوله : "عَهْداً" وتبتدىء "كلا" أي حقاً "سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ" .

وكذا قوله تعالى : ﴿ لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ ﴾ [المؤمنون : 100] يجوز الوقف على "كلا" وعلى "تركت" .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ .

قَالَ كَلاَّ ﴾ [الشعراء : 14] الوقف على "كلا" لأن المعنى ؛ لا وليس الأمر كما تظن "فاذهبا" .

فليس للحق في هذا المعنى موضع .

وقال الفراء : "كلا" بمنزلة سوف لأنها صلة ، وهي حرف ردّ فكأنها "نعم" و"لا" في الاكتفاء .

قال : وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها ؛ كقولك : كلاّ وربّ الكعبة ؛ لا تقف على كلاّ ؛ لأنه بمنزلة إي ورب الكعبة .

قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ والقمر ﴾ [المدثر : 32] فالوقف على "كلاّ" قبيح لأنه صلة لليمين .

وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول في "كلا" مثل قول الفراء .

وقال الأخفش : معنى كلا الردع والزجر .

وقال أبو بكر بن الأنباري : وسمعت أبا العباس يقول : لا يوقف على "كلا" في جميع القرآن ؛ لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها .

والقول الأول هو قول أهل التفسير .

قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي سنحفظ عليه قوله فنجازيه به في الآخرة .

﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ أي سنزيده عذاباً فوق عذاب .

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي نسلبه ما أعطيناه في الدنيا من مال وولد .

وقال ابن عباس وغيره : أي نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه .

وقيل : نحرمه ما تمناه في الآخرة من مال وولد ، ونجعله لغيره من المسلمين .

﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ أي منفرداً لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾

يعني مشركي قريش .

و"عِزًّا" معناه أعواناً ومنعة ؛ يعني أولاداً .

والعِزّ المطر الجُودُ أيضاً ؛ قاله الهروي .

وظاهر الكلام أن "عِزًّا" راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله .

ووحد لأنه بمعنى المصدر ؛ أي لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله ؛ فقال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم ؛ أي ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها ؛ كما قال : ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] .

وذلك أن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة .

﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ أي أعواناً في خصومتهم وتكذيبهم .

عن مجاهد والضحاك : يكونون لهم أعداء .

ابن زيد : يكونون عليهم بلاء فتحشر آلهتهم ، وتركب لهم عقول فتنطق ، وتقول : يا رب عذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك .

و"كلا" هنا يحتمل أن تكون بمعنى لا ، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا ؛ أي حقاً "سيكفرون بِعِبادتهِم" .

(112/491)

وقرأ أبو نهيك : "كَلاًّ سيكفرون" بالتنوين .

وروي عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها .

قال المهدوي : "كلا" ردع وزجر وتنبيه ورد لكلام متقدم ، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتنبيه عليه كقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ [العلق : 6] فلا يوقف عليها على هذا ، ويوقف عليها في المعنى الأول ؛ فإن صلح فيها المعنيَان جميعاً جاز الوقف عليها والابتداء بها .

فمن نوّن "كلا" من قوله : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ ؛ ونصبه بفعل مضمر ؛ والمعنى كَلَّ هذا الرأي والاعتقاد كَلاًّ ، يعني اتخاذهم الآلهة "لِيكونوا لهم عِزا" فيوقف على هذا على "عِزا" وعلى "كَلاًّ" .

وكذلك في قراءة الجماعة ، لأنها تصلح للرد لما قبلها ، والتحقيق لما بعدها .

ومن روى ضم الكاف مع التنوين ، فهو منصوب أيضاً بفعل مضمر ، كأنه قال : سيكفرون "كُلاًّ سيكفرون بِعِبادتهِم" يعني الآلهة .

قلت : فتحصل في "كلاّ" أربعة معان : التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقاً ، والنفي ، والتنبيه ، وصلة للقسم ، ولا يوقف منها إلا على الأول .

وقال الكسائي : "لا" تنفي فحسب ، و"كلا" تنفي شيئاً وتثبت شيئاً ، فإذا قيل : أكلت تمراً ، قلت : كلا إني أكلت عسلاً لا تمراً ، ففي هذه الكلمة نفي ما قبلها ، وتحقق ما

بعدها .

والضد يكون واحداً ويكون جمعاً ، كالعدوّ والرسول .

وقيل : وقع الضد موقع المصدر ؛ أي ويكونون عليهم عوناً ؛ فلهذا لم يجمع ، وهذا في مقابلة قوله : "لِيكونوا لهم عِزاً" والعز مصدر ، فكذلك ما وقع في مقابلته .

ثم قيل : الآية في عبدة الأصنام ، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل ؛ جرياً على توهم الكفرة .

وقيل : فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين ؛ فالله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾

(113/491)

أي سلطناهم عليهم بالإغواء ، وذلك حين قال لإبليس : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء : 64] .

وقيل : "أرسلنا" أي خلينا ؛ يقال : أرسلت البعير أي خليته ، أي خلينا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول منهم .

الزجاج : قَيَّضنا .

﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ قال ابن عباس : تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية .

وعنه : تغريهم إغراء بالشر : امض امض في هذا الأمر ، حتى توقعهم في النار .

حكى الأول الثعلبي ، والثاني الماوردي ، والمعنى واحد .

الضحاك : تغويهم إغواء .

مجاهد : تشليهم إشلاء ، وأصله الحركة والغَلَيان ، ومنه الخبر المرويّ " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قام إلى الصلاة ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء" " وائتزت القِدر ائتزازاً اشتد غليانها .

والأَزُّ التّهييج والإغراء ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ أي تغريهم على المعاصي .

والأز الاختلاط .

وقد أززت الشيء أؤزه أزّاً أي ضممتُ بعضه إلى بعض .

قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي تطلب العذاب لهم .

﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ قال الكلبي : آجالهم ؛ يعني الأيام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب .

وقال الضحاك : الأنفاس .

ابن عباس : أي نعدّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدّ سنيهم .

وقيل : الخطوات .

وقيل : اللذات .

وقيل : اللحظات .

وقيل : الساعات .

وقال قطرب : تعدّ أعمالهم عدًّا .

وقيل : لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثماً .

روي : أن المأمون قرأ هذه السورة ، فمرّ بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء ، فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد .

وقيل في هذا المعنى :

حياتُك أنفاسٌ تُعدّ فكلّما . . .

مَضَى نَفَسٌ منك انتقصت به جُزْءَا

يميتك ما يحييك في كل ليلة . . .

(114/491)

ويَحدُوك حَادٍ ما يُريد به الهُزءا

ويقال : إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس : اثنا عشر ألف نفس في اليوم ، واثنا عشر ألفاً في الليلة والله أعلم فهي تعد وتحصى إحصاء ، ولها عدد معلوم ، وليس لها مدد ، فما أسرع ما تنفد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(115/491)

وقال أبو حيان :

﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾

نزلت في العاص بن وائل عمل له خباب بن الأرث عملاً وكان قيناً ، فاجتمع له عنده دين فتقاضاه فقال : لا أنصفك حتى تكفر بمحمد ، فقال خباب : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ويبعثك .

فقال العاصي : أو مبعوث أنا بعد الموت ؟ فقال خباب : نعم ، قال : فائت إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دينك .

وقال الحسن : نزلت في الوليد بن المغيرة وقد كانت للوليد أيضاً أقوال تشبه هذا الغرض ، ولما كانت رؤية الأشياء سبيلاً إلى الإحاطة بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت بمعنى

أخبر ، والفاء للعطف أفادت التعقيب كأنه قيل : أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر عقيب قصة أولئك ، والآيات : القرآن والدلالات على البعث .

وقرأ الجمهور ﴿ ولداً ﴾ أربعتهن هنا ، وفي الزخرف بفتح اللام والواو ويأتي الخلاف في نوح .

وقرأ الأعمش وطلحة والكسائي وابن أبي ليلى وابن عيسى الأصبهاني بضم الواو وإسكان اللام ، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى على الجنس لا ملحوظاً فيه الإفراد وإن كان مفرد اللفظ ، وعلى هذه القراءة فقيل هو جمع كأسد وأسد ، واحتج قائل ذلك بقول الشاعر :

ولقد رأيت معاشراً . . .

قد ثمروا مالاً وولداً

وقيل : هو مرادف للولد بالفتحتين واحتجوا بقوله :

فليت فلاناً كان في بطن أمه . . .

وليت فلاناً كان ولد حمار

وقرأ عبد الله ويحيى بن يعمر بكسر الواو وسكون اللام والهمزة في اطلع للاستفهام ، ولذلك عادلتها ﴿ أم ﴾ .

وقرىء بكسر الهمزة في الابتداء وحذفها في الوصل على تقدير حذف همزة الاستفهام

لدلالة ﴿ أم ﴾ عليها كقوله :

بسبع رمين الجمر أم بثمان . . .

يريد أبسبع ، وجاء التركيب في أرأيت على الوضع الذي ذكره سيبويه من أنها تتعدى لواحد تنصبه ، ويكون الثاني استفهاماً فأطلع وما بعده في موضع المفعول الثاني لأرأيت ، وما جاء من تركيب أرأيت بمعنى أخبرني على خلاف هذا في الظاهر ينبغي أن يرد إلى هذا بالتأويل .

(116/491)

قال الزمخشري : ﴿ أطلع الغيب ﴾ من قولهم : أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه واطلع الثنية .

قال جرير :

لاقيت مطلع الجبال وعوراً . . .

وتقول : مر مطلعاً لذلك الأمر أي عالياً له مالكاً له ، ولاختيار هذه الكلمة شأن تقول : أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار ، والمعنى أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلاّ بأحد هذين الطريقين ، إما علم الغيب ، وإما

عهد من عالم الغيب فبأيهما توصل إلى ذلك .

والعهد .

قيل كلمة الشهادة .

وقال قتادة : هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول .

وعن الكلبي : هل عهد الله إليه أن يؤتيه ذلك .

و﴿ كلا ﴾ ردع وتنبيه على الخطأ الذي هو مخطىء فيما تصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه .

وقرأ أبو نهيك ﴿ كلا ﴾ بالتنوين فيهما هنا وهو مصدر من كلّ السيف كلاً إذا نبا عن الضريبة ، وانتصابه على إضمار فعل من لفظه وتقديره كلوا كلاً عن عبادة الله أو عن الحق .

ونحو ذلك ، وكنى بالكتابة عن ما يترتب عليها من الجزاء .

فلذلك دلت السين التي للاستقبال أي سنجازيه على ما ما يقول .

وقال الزمخشري : فيه وجهان .

أحدهما : سيظهر له ونعلمه أنّا كتبنا قوله على طريقه قوله :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ . . .

أي تبين وعلم بالانتساب أني لست ابن لئيمة .

والثاني : أن المتوعد يقول للجاني سوف أنتقم منك يعني أنه لا يبخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان ، واستأخر فجردها هنا لمعنى الوعيد انتهى .

وقرأ الجمهور ﴿ سنكتب ﴾ بالنون والأعمش بياء مضمومة والتاء مفتوحة مبنياً للمفعول ، وذكرت عن عاصم ﴿ ونمد ﴾ أي نطول له ﴿ من العذاب ﴾ الذي يعذب به المستهزئون أو نزيده من العذاب ونضاعف له المدد .

وقرأ عليّ بن أبي طالب ﴿ ونمد له ﴾ يقال مده وأمده بمعنى ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أُي نسلبه المال والولد فنكون كالوارث له .

وقال الكلبي : نجعل ما يتمنى من الجنة لغيره .

(117/491)

وقال أبو سهيل : نحرمه ما يتمناه من المال والولد ونجعله لغيره .

قال الزمخشري : ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله في الدنيا مالاً وولداً ، وبلغت به أشعبيته أن تألّى على الله في قوله ﴿ لأوتين ﴾ لأنه جواب قسم مضمر ، ومن يتألَّ على الله يكذبه فيقول الله عز وعلا : هب أنّا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه منه في العاقبة ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ غداً بلا مال ولا ولد كقوله تعالى

﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ الآية فما يجدي عليه تمنيه وتأليه .

ويحتمل أن هذا القول إنما يقوله ما دام حياً ، فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ﴿ ويأتينا ﴾ رافضاً له ﴿ منفرداً ﴾ عنه غير قائل له انتهى .

وقال النحاس : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ معناه نحفظه عليه للعاقبة ومنه العلماء ورثة الأنبياء أي حفظة ما قالوه انتهى .

و ﴿ فرداً ﴾ تتضمن ذلته وعدم أنصاره ، و ﴿ يقول ﴾ صلة ﴿ ما ﴾ مضارع ، والمعنى على الماضي أي ما قال .

والضمير في ﴿ واتخذوا ﴾ لعبادة الأصنام وقد تقدم ما يعود عليه وهم الظالمون في قوله ﴿ ونذر الظالمين ﴾ فكل ضمير جمع ما بعده عائد عليه إن كان مما يمكن عوده عليه ، واللام في ﴿ ليكونوا ﴾ لام كي أي ﴿ ليكونوا ﴾ أي الآلهة ﴿ لهم عزاً ﴾ يتعززون بها في النصرة والمنفعة والإنقاذ من العذاب .

﴿ كلا ﴾ قال الزمخشري : ﴿ كلا ﴾ ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة .

وقرأ ابن نهيك ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ أي سيجحدون ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ كقولك : زيد مررت بغلامه وفي محتسب ابن جنيّ ﴿ كلا ﴾ بفتح الكاف والتنوين ، وزعم أن معناه كل هذا الرأي والإعتقاد كلاً ، ولقائل أن يقول إن صحت هذه الرواية فهي ﴿ كلا ﴾ التي للردع قلب الواقف عليها ألفها نوناً كما في قواريراً انتهى .

فقوله وقرأ ابن نهيك الذي ذكر ابن خالويه وصاحب اللوامح وابن عطية وأبو نهيك بالكنية وهو الذي يحكى عنه القراءة في الشواذ وأنه قرأ ﴿ كلا ﴾ بفتح الكاف والتنوين وكذا حكاه عنه أبو الفتح .

(118/491)

وقال ابن عطية وهو يعني ﴿ كلا ﴾ نعت للآلهة قال : وحكى عنه أي عن أبي نهيك أبو عمر والداني ﴿ كلا ﴾ بضم الكاف والتنوين وهو منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ سيكفرون ﴾ تقديره يرفضون أو يتركون أو يجحدون أو نحوه .

وأما قول الزمخشري ولقائل أن يقول إلى آخره فليس بجيد لأنه قال إنها التي للردع ، والتي للردع حرف ولا وجه لقلب ألفها نوناً وتشبيهه بقواريراً ليس بجيد لأن قواريراً اسم رجع به إلى أصله ، فالتنوين ليس بدلاً من ألف بل هو تنوين الصرف .

وهذا الجمع مختلف فيه أيتحتم منع صرفه أم يجوز ؟ قولان ، ومنقول أيضاً أن لغة للعرب يصرفون ما لا ينصرف عند غيرهم ، فهذا التنوين إما على قول من لا يرى بالتحتم أو على تلك اللغة .

وذكر الطبري عن أبي نهيك أنه قرأ كل بضم الكاف ورفع اللام ورفعه على الابتداء والجملة

بعده الخبر ، وتقدم ظاهر وهو الآلهة وتلاه ضمير في قوله ليكونوا فالأظهر أن الضمير في ﴿ سيكفرون ﴾ عائد على أقرب مذكور محدث عنه .

فالمعنى أن الآلهة سيجحدون عبادة هؤلاء إياهم كما قال : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ وفي آخرها ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾

وتكون ﴿ آلهة ﴾ هنا مخصوصاً بمن يعقل ، أو يجعل الله للآلهة غير العاقلة إدراكاً تنكر به عبادة عابديه .

ويجوز أن يكون الضمير للمشركين ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا كما قالوا ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ لكن قوله ﴿ ويكونون ﴾ يرجح القول الأول لاتساق الضمائر لواحد ، وعلى القول الآخر يختلف الضمائر إذ يكون في ﴿ سيكفرون ﴾ للمشركين وفي ﴿ يكونون ﴾ للآلهة .

ومعنى ﴿ ضداً ﴾ أعواناً قاله ابن عباس .

وقال الضحاك : أعداءً .

وقال قتادة : قرناء .

وقال ابن زيد : بلاءً .

وقال ابن عطية : معناه يجيئهم منه خلاف ما كانوا أمّلوه فيؤول بهم ذلك إلى ذلة ضد ما أملوه من العز ، فالضد هنا مصدر وصف به الجمع كما يوصف به الواحد .

وقال الزمخشري : والضد العون وحد توحيد وهم يد على من سواهم لإتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم ، ومعنى كونهم عوناً عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم ولأنهم عذبوا بسبب عبادتهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) ﴾

﴿ أرسلنا ﴾ معناه سلطناً أو لم نخل بينهم وبينهم مثل قوله ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ وتعديته بعلى دليل على أنه تسليط و ﴿ تؤزهم ﴾ تحركهم إلى الكفر .

وقال قتادة : تزعجهم .

وقال ابن زيد : تشليهم .

وقال الزمخشري : تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات ، والمعنى خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم ، والمراد تعجيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة من الكفار وأقاويلهم .

عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه أي لا تعجل عليهم بأن يهلكوا فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلاّ أيام محصورة وأنفاس معدودة كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد

فيها لوعدت ونحوه قوله تعالى ﴿ ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار ﴾ انتهى .

وقيل ﴿ نعد ﴾ أعمالهم لنجازيهم .

وقيل : آجالهم فإذا جاء أحللنا العقوبة بهم .

وقيل : أيامهم التي سبق قضاؤنا أن نمهلهم إليها .

وقيل : أنفاسهم ، وانتصب ﴿ يوم ﴾ باذكر أو احذر مضمرة أو على تقدير يكون ذلك جواباً لسؤال مقدر تقديره متى يكون ذلك أو سيكفرون بعبادتهم أو بيكونون عليهم ضداً أو معنى بعداً ، وتضمن العدّ والإحصاء معنى المجازاة ، أو ﴿ يوم نحشر ﴾ ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف أو بلا يملكون ، وكلها مقول في نصب ﴿ يوم ﴾ والأوجه الأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(120/491)

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتنا ﴾

أي بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث ، نزلت في العاص بنِ وائلٍ كان لخبّابِ بنِ الأرتّ عليه

مالٌ فاقتضاه فقال : لا ، حتى تكفرَ بمحمد ، قال : لا والله لا أكفرُ به حياً ولا ميْتاً ولا حين بُعِثتُ ، قال : فإذا بُعث جئني فيكونُ لي ثمّةَ مالٌ وولدٌ فأعطِيَك ، وفي رواية قال : لا أكفر به حتى يُميتك ثم تُبعثَ ، فقال : إني لميّتٌ ثم مبعوثٌ ؟ قال : نعم ، قال : دعني حتى أموتَ وأُبعث فسأوتى مالاً وولداً فأقضيَك فنزلت . فالهمزةُ للتعجيب من حاله والإيذانِ بأنها من الغرابة والشناعةِ بحيث يجب أن تُرى ويُقضَى منها العجب ، ومن فرّق بين ألم ترَ وأرأيتَ بعد بيان اشتراكِهما في الاستعمال لقصد التعجيبِ بأن الأولَ يعلّق بنفس المتعجبِ منه ، فيقال : ألم ترَ إلى الذي صنع كذا بمعنى انظُرْ إليه فتعجَّبْ من حاله ، والثاني يعلّق بمثل المتعجَّب منه ، فيقال : أرأيتَ مثْلَ الذي صنع كذا بمعنى أنه من الغرابة بحيث لا يُرى له مِثْلٌ فقد حفِظ شيئاً وغابت عنه أشياءُ ، وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل : ﴿ أَرَءَيْتَ الذى يُكَذِّبُ بالدين ﴾ والفاءُ للعطف على مقدّر يقتضيه المقام أي أنظَرْتَ فرأيتَ الذي كفر بآياتنا الباهرةِ التي حقُّها أن يؤمِنَ بها كلُّ من يشاهدها ﴿ وَقَالَ ﴾ مستهزئاً بها مصدّراً لكلامه باليمين الفاجرةِ : والله ﴿ لأُوتَيَنَّ ﴾ في الآخرة ﴿ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ أي انظُر إليه فتعجّبْ من حالته البديعةِ وجُرْأتِه الشنيعة ، هذا هو الذي يستدعيه جزالةُ النظمِ الكريم وقد قيل : إن أرأيت بمعنى أخبِرْ والفاءُ على أصلها والمعنى أخبِرْ بقصة هذا الكافرِ عقيبَ حديثِ أولئك الذين قالوا :

﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ الآية ، وأنت خبيرٌ بأن المشهورَ استعمالُ أرأيت في معنى أخبرني بطريق الاستفهامِ جارياً على أصله أو مُخْرَجاً إلى ما يناسبه من المعاني لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره ، وقرىء وُلْداً على أنه جمع وَلَد كأُسْد جمعُ أسد أو على لغة فيه كالعُرْب والعَرَب .

وقوله تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ ردٌّ لكلمته الشنعاء وإظهارٌ لبطلانها إثرَ ما أشير إليه من التعجب منها ، أي قد بلغ من عظمة الشأنِ إلى أن قد ارتقى إلى علم الغيب الذي يستأثر به العليمُ الخبير حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وأقسم عليه ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ بذلك فإنه لا يُتوصَّل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين ، والتعرضُ لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمةِ لإيتاء ما يدّعيه ، وقيل : العهدُ كلمةُ الشهادة ، وقيل : العملُ الصالح فإن وعدَه تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراةٌ مع اللعين بحسب منطوقِ مقالِه كما أن كلامَه مع خبّاب كان كذلك .

وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ له عن التفوّه بتلك العظيمةِ وتنبيهٌ على خطْأته ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي سنُظهر أنا كتبنا قوله ، كقوله

إذا ما انتسبْنا لم تِلدْني لئيمةٌ . . . أي يتبينُ أني لم تلدني لئيمة ، أو سننتقم منه انتقامَ مَنْ كتب جريمةَ الجاني وحفِظها عليه ، فإن نفسَ الكَتَبة لا تكاد تتأخر عن القول ، كقوله عز وعلا : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ فمبنى الأولِ تنزيلُ إظهارِ الشيءِ الخفيِّ منزلةَ إحداثِ الأمرِ المعدومِ بجامع أن كلاًّ منهما إخراجٌ من الكمُون إلى البروز فيكون استعارةً تبعيةً مبنية على تشبيه إظهارِ الكتابةِ على رؤوس الأشهاد بإحداثها ، ومدارُ الثاني تسميةُ الشيء باسم سببِه فإن كتابةَ جريمةِ المجرمِ سببٌ لعقوبته قطعاً ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ مكانَ ما يدّعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد ، أي نطوّل له من العذاب ما يستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكُفره وافترائِه على الله سبحانه وتعالى واستهزائِه بآياته العِظام ، ولذلك أُكّد بالمصدر دَلالةً على فرط الغضب .

﴿ وَنَرِثُهُ ﴾ بموته ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ أي مسمَّى ما يقول ومصداقَه وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد ، وفيه إيذانٌ بأنه ليس لما يقوله مصداقٌ موجودٌ سوى ما ذكر أي ننزِع عنه ما آتيناه ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَرْداً ﴾ لا يصحبه مالٌ ولا ولدٌ كان له في الدنيا فضلاً أن يؤتى ثمةَ زائداً ، وقيل : نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة ونعطيه ما يستحقه ويأباه معنى الإرث ، وقيل : المرادُ بما يقول نفسُ القول المذكور لا مسمّاه ، والمعنى إنما يقول هذا القولَ ما دام حياً فإذا قبضناه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضاً له منفرداً عنه ، وأنت

خبير بأن ذلك مبنيٌّ على أن صدورَ القول المذكورِ عنه بطريق الاعتقادِ وأنه مستمرٌّ على التفوّه به راجٍ لوقوع مضمونِه ، ولا ريب في أن ذلك مستحيلٌ ممن كفر بالبعث وإنما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليقِ أداءِ دَيْنه بالمُحال .

(123/491)

﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ ءالِهَةً ﴾ حكايةٌ لجناية عامةٍ للكل مستتبِعةٌ لضدّ ما يرجُون ترتّبه عليها إثرَ حكاية مقالةِ الكافرِ المعهودِ واستتباعِها لنقيض مضمونِها ، أي اتخذوا الأصنامَ آلهةً متجاوزين الله تعالى ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ أي ليُعزَّزوا بهم بأن يكونوا لهم وصلةً إليه عز وجل وشفعاءَ عنده .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك الاعتقادِ وإنكارٌ لوقوع ما علّقوا به أطماعَهم الفارغة ﴿ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ أي ستجحد الآلهةُ بعبادتهم لها بأن يُنطِقَها الله تعالى وتقولَ : ما عبدتمونا ، أو سينكر الكفرةُ حين شاهدوا سوءَ عاقبة كفرهم عبادتَهم لها كما في قوله تعالى : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنا مُشْرِكِينَ ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ على الأول تكون الآلهةُ التي كانوا يرجون أن تكون عِزاً ضدّاً للعز أي ذلاً وهُوناً ، أو تكون عوناً عليهم وآلةً لعذابهم حيث تُجعل وَقودَ النار وحصَبَ جهنم ، أو حيث كانت عبادتُهم

لها سبباً لعذابهم ، وإطلاقُ الضدّ على العَون لما أن عَونَ الرجل يُضادُّ عدوَّه وينافيه بإعانته له عليه ، وعلى الثاني يكون الكفرةُ ضداً وأعداءً للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبُدونها . وتوحيدُ الضدّ لوَحدة المعنى الذي عليه تدور مُضادّتهم فإنهم بذلك كشيء واحدٍ كما في قوله عليه السلام : " وهم يدٌ على مَنْ سواهم " وقرىء كَلاًّ بفتح الكاف والتنوين على قلب الألفِ نوناً في الوقف قلْبَ ألفِ الإطلاق في قوله

أقِليّ اللومَ عاذِلَ والعِتابَن . . . وقولي إن أصبتُ لقد أصابنْ

أو على معنى كَلَّ هذا الرأيُ كلاًّ ، وقرىء كلاّ على إضمار فعل يفسّره ما بعده أي سيجحدون ، كلاّ سيكفرون الخ .

(124/491)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾

تعجيبٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطَقت به الآياتُ الكريمةُ السالفةُ وحكتْه عن هؤلاء الكفرةِ الغُواة والمَرَدةِ العُتاةِ من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيلِ ، والتمادي في الغي ، والانهماكِ في الضلال ، والإفراطِ في العِناد ، والتصميمِ على الكفر من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم ، والإجماعِ على مدافعة الحقّ بعد اتضاحِه وانتفاءِ الشك عنه بالكلية ،

وتنبيهٌ على أن جميعَ ذلك منهم بإضلال الشياطينِ وإغوائِهم لا لأن مسوّغاً ما في الجملة ، ومعنى إرسالِ الشياطينِ عليهم إما تسليطُهم عليهم وتمكينُهم من إضلالهم وإما تقييضُهم لهم ، وليس المرادُ تعجيبَه عليه السلام من إرسالهم عليهم كما يوهمه تعليقُ الرؤية به ، بل مما ذُكر من أحوال الكفرةِ من حيث كونُها من آثار إغواءِ الشياطينِ كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ فإنه إما حالٌ مقدّرةٌ من الشياطين أو استئنافٌ وقع جواباً عما نشأ من صدر الكلامِ ، كأنه قيل : ماذا يفعل الشياطينُ بهم حينئذ ؟ فقيل : تؤزّهم أي تُغريهم وتُهيّجهم على المعاصي تهييجاً شديداً بأنواع الوساوسِ والتسويلات ، فإن الأزَّ والهزّ والاستفزازَ أخواتٌ معناها شدةُ الإزعاج .

﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بأن يُهلَكوا حسبما تقتضيه جناياتُهم ويَبيدوا عن آخرهم وتطهُرَ الأرض من فساداتهم ، والفاء للإشعار بكون ما قبلها مَظِنّةً لوقوع المنهيِّ مُحوجةً إلى النهي كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ تعليلٌ لموجب النهي ببيان اقترابِ هلاكهم أي لا تستعجلْ بهلاكهم فإنه لم يبقَ لهم إلا أيامٌ وأنفاسٌ نعدّها عداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(125/491)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتنا ﴾

أي بآياتنا التي من جملتها آيات البعث .

أخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والطبراني .

وابن حبان .

وغيرهم عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاصي بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث قال : فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك فأنزل الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ الخ .

(126/491)

وفي رواية أن خباباً قال له لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حياً ولا ميتاً ولا إذا بعثت فقال العاصي : فإذا بعثت جئتني الخ ، وفي رواية أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أتوه يتقاضون ديناً لهم عليه فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى قال : موعدكم الآخرة والله لأوتين مالاً وولداً ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به فنزلت ، وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقد كانت له أقوال تشبه ذلك ، وقال أبو مسلم : هي عامة في كل من له هذه الصفة ، والأول هو الثابت في كتب الصحيح ، والهمزة للتعجيب من حال ذلك الكافر والإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقضي منها العجب ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقها أن يؤمن بها كل من وقف عليها ﴿ وَقَالَ ﴾ مستهزأ بها مصدراً كلامه باليمين الفاجرة والله ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ في الآخرة واردة في الدنيا كما حكاه الطبرسي عن بعضهم تأباه الأخبار الصحيحة إلا أن يحمل الإيتاء على ما قيل على الإيتاء المستمر إلى الآخرة أي لأوتين إيتاء مستمراً ﴿ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ والمراد انظر إليه فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة ، وقيل : إن الرؤية مجاز عن الإخبار من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، والاستفهام مجاز عن الأمر به لأن المقصود من نحو قولك : ما فعلت أخبرني فهو إنشاء تجوز به عن إنشاء آخر والفاء على أصلها .

والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ

مَّقَاماً ﴾ [مريم : 73] الآية ، وقيل : عقيب حديث من قال : ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ ﴾ [مريم : 66] الخ ، وما قدمنا في معنى الآية هو الأظهر واختاره العلامة أبو السعود .

(127/491)

وتعقب الثاني بقوله : أنت خبير بأن المشهور استعمال ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ في معنى أخبرني بطريق الاستفهام جارياً على أصله أو مخرجاً إلى ما يناسبه من المعاني لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره وإرادة أخبرني هنا مما لا يكاد يصح كما لا يخفى .

وقيل : المراد لأوتين في الدنيا ويأباه سبب النزول ، قال العلامة : إلا أن يحمل على الإيتاء المستمر إلى الآخرة فحينئذٍ ينطبق على ذلك .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

والأعمش .

وطلحة .

وابن أبي ليلى .

وابن عيسى الأصبهاني ﴿ وَلَدًا ﴾ بضم الواو وسكون اللام فقيل : هو جمع ولد كأسد

وأسد وأنشدوا له قوله :

ولقد رأيت معاشرا . . .

قد ثمروا مالاً وولداً

وقيل هو لغة في ولد كالعرب والعرب ، وأنشدوا له قوله :

فليت فلاناً كان في بطن أمه . . .

وليت فلاناً كان ولد حمار

والحق أنه ورد في كلام العرب مفرداً وجمعاً وكلاهما صحيح هنا .

وقرأ عبد الله .

ويحيى بن يعمر ﴿ وَلَدًا ﴾ بكسر الواو وسكون اللام وهو بمعنى ذلك ، وقوله تعالى :

﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ رد لكلمته الشنعاء وإظهار لبطلانها إثر ما أشير إليه بالتعجيب منها ، فالجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، وقيل : إنها في محل نصب واقعة موقع مفعول ثان لأرأيت على أنه بمعنى أخبرني وهو كما ترى ، والهمزة للاستفهام ، والأصل أأطلع فحذفت همزة الوصل تخفيفاً ، وقرىء ﴿ أَطَّلَعَ ﴾ بكسر الهمزة وحذف همزة الاستفهام لدلالة أم عليها كما في قوله :

بسبع رمين الجمر أم بثمان . . .

والفعل متعد بنفسه وقد يتعدى بعلى وليس بلازم حتى تكون الآية من الحذف والإيصال ، والمراد من الطلوع الظهور على وجه العلو والتملك ولذا اختير على التعبير بالعلم ونحوه أي أقد بلغ من عظمة الشأن إلى أن ارتقى علم الغيب الذي استأثر به العليم الخبير جل جلاله حتى ادعى علم أن يؤتى في الآخرة مالاً وولد وأقسم عليه ، وعن ابن عباس أن المعنى أنظر في اللوح المحفوظ ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ قال لا إله إلا الله يرجو بها ذلك ، وعن قتادة العهد العمل الصالح الذي وعد الله تعالى عليه الثواب ، فالمعنى أعلم الغيب أم عمل عملاً يرجو ذلك في مقابلته .

وقال بعضهم : العهد على ظاهره .

والمعنى أعلم الغيب أم أعطاه الله تعالى عهداً وموثقاً وقال له : إن ذلك كائن لا محالة .

ونقل هذا عن الكلبي ، وهذه مجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أن كلامه كذلك ، والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيتاء ما يدعيه .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر عن التفوه بتلك العظيمة ، وفي ذلك تنبيه على خطئه .

وهذا مذهب الخليل .

وسيبويه .

والأخفش .

والمبرد .

وعامة البصريين في هذا الحرف وفيه مذاهب لعلنا نشير إليها إن شاء الله تعالى ، وهذا أول موضع وقع فيه من القرآن ، وقد تكرر في النصف الأخير فوقع في ثلاثة وثلاثين موضعاً ولم يجوز أبو العباس الوقف عليه في موضع .

وقال الفراء : هو على أربعة أقسام ، أحدها : ما يحسن الوقف عليه ويحسن الابتداء به .

(129/491)

والثاني : ما يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء به ، والثالث : ما يحسن الابتداء به ولا يحسن الوقف عليه ، والرابع : ما لا يحسن فيه شيء من الأمرين ، أما القسم الأول ففي عشرة مواضع ما نحن فيه وقوله تعالى : ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا كَلاَّ ﴾ [مريم : 81 ، 82] وقوله سبحانه : ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ ﴾ [المؤمنون : 100] وقوله عز وجل : ﴿ الذين أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاء كَلاَّ ﴾ [سبأ : 27] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ ﴾ [المعارج : 38 ، 39] وقوله جل وعلا : ﴿ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ ﴾ [المدثر : 15 ، 16] وقوله عز اسمه : ﴿ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً كَلاَّ ﴾ [المدثر : 52 ، 53] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ ﴾ [الفجر : 16 ، 17] وقوله تبارك اسمه :

﴿ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلاَّ ﴾ [الهمزة: 3، 4] وقوله تعالى شأنه: ﴿ ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلاَّ ﴾ [المعارج: 14، 15] فمن جعله في هذه المواضع رداً لما قبله وقف عليه ومن جعله بمعنى ألا التي للتنبيه أو بمعنى حقاً ابتدأ به وهو يحتمل ذلك فيها، وأما القسم الثاني ففي موضعين قوله جل جلاله حكاية ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلاَّ ﴾ [الشعراء: 14، 15] وقوله عز شأنه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ ﴾ [الشعراء: 61، 62] وأما الثالث ففي تسعة عشر موضعاً قوله تعالى شأنه: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [المدثر: 54] ﴿ كَلاَّ والقمر ﴾ [المدثر: 32] ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ [الانفطار: 9] ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾ [القيامة: 26] ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة: 11] ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ [القيامة: 20] ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ: 4] ﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عبس: 23] ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على

(130/491)

قُلُوبِهِمْ ﴾ [المطففين: 14] ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ [الفجر: 17] ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الفجار ﴾ [المطففين: 7] ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الأبرار ﴾ [المطففين: 18] ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ ﴾ [المطففين: 15] ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض ﴾ [الفجر: 21] ﴿ كَلاَّ

إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ [العلق : 6] ﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ [العلق : 15] ﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ ﴾ [العلق : 19] [التكاثر : 3 ، 5] لأنه ليس للرد في ذلك ، وأما القسم الرابع ففي موضعين ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 4] ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 5] فإنه لا حسن الوقف على ثم لأنه حرف عطف ولا على كلا لأن الفائدة فيما بعد ، وقال بعضهم : إنه يحسن الوقف على كلاَّ في جميع القرآن لأنه بمعنى انته إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ والقمر ﴾ [المدثر : 32] لأنه موصول باليمين بمنزلة قولك أي وربي ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي سنظهر إنا كتبنا قوله كقوله :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . .

ولم تجدي من أن تقري به بداً

(131/491)

أي إذا انتسبنا علمت وتبين أني لست بابن لئيمة أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجاني وحفظها عليه فإن نفس كتبة ذلك لا تكاد تتأخر عن القول لقوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] وقوله سبحانه جل وعلا : ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 80] فمبنى الأول تنزيل إظهار الشيء الخفي منزلة إحداث الأمر

المعدوم بجامع أن كلاً منهما إخراج من الكمون إلى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه إظهار الكتابة على رؤوس الأشهاد بإحداثها ومدار الثاني تسمية الشيء باسم سببه فإن كتبة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعاً قاله أبو السعود ، وقيل : إن الكتابة في المعنى الثاني استعارة للوعيد بالانتقام وفيه خفاء ، وقال بعضهم : لا مجاز في الآية بيد أن السين للتأكيد ، والمراد نكتب في الحال ورد بأن السين إذا أكدت فإنما تؤكد الوعد أو الوعيد وتفيع أنه كائن لا محالة في المستقبل .

وأما إنها تؤكد ما يراد به الحال فلا كذا قيل : فليراجع .

وقرأ الأعمش ﴿ سيكتب ﴾ بالياء التحتية والبناء للمفعول والبناء للمفعول وذكرت عن عاصم ﴿ يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد أي نطول له من العذاب ما يستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له من المدد يقال : مده وأمده بمعنى ، وتدل عليه قراءة علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ وَنَمُدُّ ﴾ بالضم وهو بهذا المعنى يجوز أن يستعمل باللام وبدونها ومعناه على الأول نفعل المدله وهو أبلغ من نمده وأكد بالمصدر إيذاناً بفرط غضب الله تعالى عليه لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام نعوذ بالله عز وجل مما يستوجب الغضب .

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي نسلب ذلك ونأخذه بموته أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مسماه ومصداقه وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد يقول الرجل : أنا أملك كذا فتقول : ولي فوق ما تقول ، والمعنى على المضي وكذا في ﴿ يقول ﴾ [مريم : 79] السابق ، وفيه إيذان بأنه ليس لما قال مصداق موجود سوى ما ذكر ، وما إما بدل من الضمير بدل اشتمال وإما مفعول به أي نرث منه ما آتيناه في الدنيا ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَرْداً ﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له فضلاً أي يؤتى ثمة زائداً ، وفي حرف ابن مسعود ﴿ وَنَرِثُهُ مَا عِندَهُ وَيَأْتِينَا فَرْداً لا مَّالَ لَهُ وَلاَ وَلَداً ﴾ وهو ظاهر في المعنى المذكور ، وقيل : المعنى نحرمه ما زعم أنه يناله في الآخرة من المال والولد ونعطيه لغيره من المستحقين ، وروي هذا عن أبي سهل ، وتفسير الإرث بذلك تفسير باللازم و ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ مراد منه مسماه أيضاً والولد الذي يعطى للغير ينبغي أن يكون ولد ذلك الغير الذي كان له في الدنيا وإعطاؤه إياه بأن يجمع بينه وبينه حسبما يشتهيه وهذا مبني على أنه لا توالد في الجنة .

وقد اختلف العلماء في ذلك فقال جمع : منهم مجاهد .

وطاوس .

وإبراهيم النخعي : بعدم التوالد احتجاجاً بما في حديث لفيط رضي الله تعالى عنه الطويل الذي عليه من الجلالة والمهابة ونور النبوة ما ينادي على صحته ، وقال فيه أبو عبد الله بن منده لا ينكره إلا جاحد أو جاهل ، وقد خرجه جماعة من أئمة السنة من قوله : قلت يا رسول الله أولنا فيها أزواج أو منهن مصلحات ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " المصلحات للمصلحين تلذذونهن ويلذذنكم مثل لذاتكم في الدنيا غير أن لا تتوالد " وبما روي عن أبي ذر العقيلي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل الجنة لا يكون لهم ولد " وقالت فرقة بالتوالد احتجاجاً بما أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي " وقال حسن غريب ، وبما أخرجه أبو نعيم عن أبي سعيد أيضاً قيل يا رسول الله أيولد لأهل الجنة فإن الولد من تمام السرور ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " نعم والذي نفسي بيده وما هو إلا كقدر ما يتمنى أحدكم فيكون حمله ورضاعه وشبابه " وأجابت عما تقدم بأن المراد نفى أن يكون توالد أو ولد على الوجه المعهود في الدنيا .

وتعقب ذلك بأن الحديث الأخير ضعيف كما قال البيهقي .

والحديث الأول قال فيه السفاريني : أجود أسانيده إسناد الترمذي وقد حكم عليه

بالغرابة وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق التاجي .

وقد اضطرب لفظه فتارة يروى عنه إذا اشتهى الولد وتارة أنه يشتهي الولد وتارة إن الرجل من أهل الجنة ليولد له وإذا قلنا بأن له على الرواية السابقة سنداً حسناً كما أشار إليه الترمذي فلقائل أن يقول : إن فيه تعليقاً بالشرط وجاز أن لا يقع ، وإذا وإن كانت ظاهرة في المحقق لكنها قد تستعمل لمجرد التعليق الأعم .

(134/491)

وأما الجواب عن الحديثين السابقين بما مر فأوهن من بيت العنكبوت كما لا يخفى ، وبالجملة المرجح عند الأكثرين عدم التوالد ورجح ذلك السفاريني بعشرة أوجه لكن للبحث في أكثرها مجال والله تعالى أعلم .

وقيل : المراد بما يقول نفس القول المذكور لا مسماه ، والمعنى إنما يقول هذا القول ما دام حياً فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضاً له مفرد عنه .

وتعقب بأن هذا مبني على صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وأنه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب في أن ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وإنما قال ما قال بطريق الاستهزاء .

وأجيب بأنا لا نسلم البناء على ذلك لجواز أن يكون المراد إنما يقول ذلك ويستهزىء ما دام حياً فإذا قبضناه حلنا بينه وبين الاستهزاء بما ينكشف له ويحل به أو يقال : إن مبنى ما ذكر على المجاراة مع اللعين كما تقدم .

قيل : المعنى نحفظ قوله لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به ويأتينا على فقره ومسكنته فرداً من المال والولد لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه فيجتمع عليه أمران أمران تبعة قوله ووباله وفقد المطموع فيه ، وإلى تفسير الإرث بالحفظ ذهب النحاس وجعل من ذلك ﴿ العلماء وَرَثَةِ الأنبياء ﴾ أي حفظة ما قالوه ، وأنت خبير بأن حفظ قوله قد علم من قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ .

وفي "الكشاف" يحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله تعالى مالاً وولداً في الدنيا وبلغت به أشعبيته أن تألى على ذلك فقال سبحانه هب أنا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه منه في العاقبة ويأتينا غداً فرداً بلا مال ولا ولد كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ [الأنعام : 94] فما يجدي عليه تمنيه وتأليه انتهى ، ولا يخفى أنه احتمال بعيد جداً في نفسه ومن جهة سبب النزول ، والتكلف لتطبيقه عليه لا يقر به كما لا يخفى و ﴿ فَرْداً ﴾ حال على جميع الأقوال لكن قيل .

إنه حال مقدرة حيث أريد حرمانه عن المال والولد وإعطاء ذلك لمستحقه لأن الانفراد عليه يقتضي التفاوت بين الضال والمهتدي وهو إنما يكون بعد الموقف بخلاف ما إذا أريد غير ذلك مما تضمنته الأقوال لعدم اقتضائه التفاوت بينهما وكفاية فردية الموقف في الصحة وإن كانت مشتركة.

وزعم بعضهم أن الحال مقدرة على سائر الأقوال لأن المراد دوام الانفراد عن المال والولد أو عن القول المذكور والدوام غير محقق عند الإتيان بل مقدر كما في قوله تعالى: ﴿ ادخلوها خالدين ﴾ [الزمر: 73] ولا يخفى ما فيه.

﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ ءالِهَةً ﴾

حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها إثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها أي اتخذ الكفرة الظالمون الأصنام أو ما يعمهم وسائر المعبودات الباطلة آلهة متجاوزين الله تعالى: ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ أي ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة إليه عز وجل وشفعاء عنده.

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم وزجر عن ذلك، وفيه إنكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة ﴿ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ أي ستجحد الآلهة عبادة أولئك الكفرة إياها وينطق الله تعالى من لم يكن ناطقاً منها فتقول جميعاً ما عبدتمونا كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَءَا الذين أَشْرَكُواْ

شُرَكَآءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلآء شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ [النحل : 86] أو ستنكر الكفرة حين يشاهدون عاقبة سوء كفرهم عبادتهم إياها كما قال سبحانه : ﴿ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

(136/491)

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ على الأول على ما قيل تكون الآلهة التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزاً ضداً للعز أي ذلاً وهواناً أو أعواناً عليهم كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وهو أظهر من التفسير السابق ، وكونهم أعواناً عليهم لأنهم يلعنونهم ، وقيل : لأن عبادتهم كانت سبباً للعذاب .

وتعقب بأن هذا لم يحدث يوم القيامة وظاهر الآية الحدوث ذلك اليوم والأمر فيه هين ، وقيل : لأنهم يكونون آلة لعذابهم حيث يجعلون وقود النار وحصب جهنم وهذا لا يتسنى إلا على تقدير أن يراد بالآلهة الأصنام ، وإطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه بإعانته له عليه ، وعلى الثاني يكون الكفرة على الآلهة أي أعداء لها من قولهم : الناس عليكم أي أعداؤكم ، ومنه اللهم كن لنا ولا تكن علينا ضداً أي منافين ما

كانوا عليه كافرين بها بعد ما كانوا يعبدونها فعليهم على ما قيل خبر يكون ، ﴿ وضداً ﴾ حال مؤكدة والعداوة مرادة مما قبله ، وقيل : إنها مرادة منه وهو الخبر و ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ ﴾ في موضع الحال ، وقد فسره بأعداء الضحاك وهو على ما نقل عن الأخفش كالعدو يستعمل مفرداً وجمعاً .

وبذلك قال صاحب القاموس وجعل ما هنا جمعاً ، وأنكر بعضهم كونه مما يطلق على الواحد والجمع ، وقال : هو للواحد فقط وإنما وحد هنا لوحدة المعنى الذي يدور عليه مضادتهم فإنهم بذلك كالشيء الواحد كما في قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه النسائي وهم يد على من سواهم ، وقال صاحب الفرائد : إنما وحد لأنه ذكر في مقابلة قوله تعالى : ﴿ عِزّاً ﴾ [مريم : 81] وهو مصدر يصلح لأن يكون جمعاً فهذا وإن لم يكن مصدراً لكن يصلح لأن يكون جمعاً نظراً إلى ما يراد منه وهو الذل ، وهذا إذا تم فإنما يتم على المعنى الأول ، وقد صرح في "البحر" أنه على ذلك مصدر يوصف به الجمع كما يوصف به الواحد فليراجع .

(137/491)

وقرأ أبو نهيك هنا وفيما تقدم ﴿ كَلاَّ ﴾ بفتح الكاف والتنوين فقيل إنها الحرف الذي للردع إلا أنه نوى الوقف عليها فصار ألفها كألف الإطلاق ثم أبدلت تنويناً ، ويجوز أن لا يكون نوى الوقف بل أجريت الألف مجرى ألف الإطلاق لما أن ألف المبنى لم يكن لها أصل ولم يجز أن تقع روياً ويسمى هذا تنوين الغالي وهو يلحق الحروف وغيرها ويجامع الألف واللام كقولك :

أقلي اللوم عاذل والعتابن . . .

وقولي إن أصبت لقد أصابن

وليس هذا مثل ﴿ قَوَارِيرَاْ ﴾ [الإنسان : 15] كما لا يخفى خلافاً لمن زعمه .

وفي محتسب ابن جني أن ﴿ كَلاَّ ﴾ مصدر من كل السيف إذا نبا وهو منصوب بفعل مضمر من لفظه ، والتقدير هنا كل هذا الرأي والاعتقاد كلا ، والمراد ضعف ضعفاً ، وقيل : هو مفعول به بتقدير حملوا ﴿ كَلاَّ ﴾ ويقال نظير ذلك فيما تقدم ، وقال ابن عطية : هو نعت لآلهة ، والمراد به الثقيل الذي لا خير فيه والإفراد لأنه بزنة المصدر وهو كما ترى ، والأوفق بالمعنى ما تقدم وإن قيل فيه تعسف لفظي وإنه يلزم عليه إثبات التنوين خطا كما في أمثال ذلك .

وحكى أبو عمرو الداني عن أبي نهيك أنه قرأ ﴿ كَلاَّ ﴾ بضم الكاف والتنوين وهي على هذا منصوبة بفعل محذوف دل عليه ﴿ سَيَكْفُرُونَ ﴾ على أنه من باب الاشتغال نحو

زيداً مررت به أي يجحدون كلا أي عبادة كل من الآلهة ففيه مضاف مقدر وقد لا يقدر .

وذكر الطبري عنه أنه قرأ ﴿ كُلٌّ ﴾ بضم الكاف والرفع وهو على هذا مبتدأ .

والجملة بعده خبره .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾

(138/491)

قيضناهم وجعلناهم قرناء لهم مسلطين عليهم أو سلطناهم عليهم ومكناهم من إضلالهم ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهييجاً شديداً بأنواع التسويلات والوساوس فإن الأز والهز والاستفزاز أخوات معناها شدة الإزعاج ، وجملة ﴿ تَؤُزُّهُمْ ﴾ إما حال مقدرة من الشياطين أو استئناف وقع جواباً عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل : ماذا تفعل الشياطين بهم ؟ فقيل تؤزهم الخ .

والمراد من الآية تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم مما تضمنته الآيات السابقة الكريمة من قوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ ﴾ [مريم : 66] إلى هنا وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل والتمادي في الغي والانهماك في الضلال والإفراط في العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا

عاطف يثنيهم والإجماع على مدافعة الحق بعد إيضاحه وانتفاء الشرك عنه بالكلية وتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم لا لأن هناك قصوراً في التبليغ أو مسوغاً في الجملة ، وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهي تذييل لتلك الآيات لما ذكر .

وليس المراد منها تعجيبه عليه الصلاة والسلام من إرسال الشياطين عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوالهم من حيث كونها من آثار إغواء الشياطين كما ينبىء عن ذلك قوله سبحانه : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ .

﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيد عن آخرهم وتطهر الأرض من خباثاتهم ، والفاء للإشعار بكون ما قبلها مظنة الوقوع المنهي عنه محوجة إلى النهي كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ [طه : 117] .

(139/491)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ تعليل لموجب النهي ببيان اقتراب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدها عداً أي قليلة كما قيل في قوله تعالى : ﴿ دراهم مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف : 20] ولا ينافي هذا ما مر من أنه يمد لمن كان في الضلالة أي يطول لأنه بالنسبة

لظاهر الحال عندهم وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله عز وجل ، وقيل : إن التعليل بما ذكر دل أن أنفاسهم وأيامهم تنته بانتهاء العد ولا شك أنها على كثرتها يستوفي إحصاؤها في ساعة فعبر بهذا المعنى عن القليل فكأنه قيل : ليس بينك وبين هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد فيها لوعدت ، وهذا ليس مبنياً على أن كل ما يعد فهو قليل انتهى ، والأول هو الظاهر وهذا أبعد مغزى ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخول قبرك ، وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد ولله تعالى در من قال :

إن الحبيب من الأحباب مختلس . . .

لا يمنع الموت بواب ولا حرس

وكيف يفرح بالدنيا ولذتها . . .

فتى يعد عليه اللفظ والنفس

وقيل : المراد إنما نعد أعمالهم لنجازيهم عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(140/491)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : كل من اتخذ شيئًا يتعزز به من دون الله وطاعته انقلب عليه ذُلاً وهوانًا ، ولذلك قيل : « من تعزز بمخلوق مات عزه » . فإن أردت عزًا لا يفنى فلا تتعزز بعز يفنى ، وهو التعزز بالمال أو الجاه ، أو غير ذلك مما يفنى ، وسيأتي عند قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ [فاطر : 10] . ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنَافِقون : 8] زيادة بيان . وكما أرسل الحق تعالى الشياطين على الكافرين تزعجهم إلى المعاصي أرسل الملائكة والواردات الإلهية إلى المؤمنين تنهضهم إلى طاعة الله ، وتزعجهم إلى السير لمعرفة الله . فالملائكة تحرك العبد إلى الطاعة ، والواردات تزعجه إلى الحضرة ، تخرجه عن عوائده وتدمغ له مِن علائقه ، وعوائقه ، حتى ينفرد لحضرة الحق : وفي الحكم : « الوارد يأتي من حضرة قهار ، لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه ؛ ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ . وقال أيضاً : » متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك ؛ « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » .

وقال القشيري على قوله : ﴿ تؤزهم أزًّا ﴾ : أي : تزعجهم إزعاجًا ، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وظلمة ، وخاطر الحقِّ يكون بَروْحٍ وسكون ، وهذه إحدى الفوارق بينهما .

انتهى انتهى . ا هـ قلت : ومن الفوارق أيضاً : أن خاطر الحق لا يأمر إلا بالخير مع برودة وانشراح في القلب وسكون وأناة . . . وفي الحديث : « العجلة من الشيطان ، والأناة من الرحمن » ه . بخلاف خاطر الشيطان ؛ فإنه لا يأمر إلا بالشر ، وقد يأمر بالخير إذا كان يجرُّ به إلى الشر ، وعلامته أن يكون فيه ظلمة ودَخن وعجلة وبطش ، وقد استوفى الكلام عليهم في النصيحة الكافية . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 362 ﴾

(141/491)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) ﴾

الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله : ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ أي : هؤلاء إذا قرىء عليهم القرآن تعذروا بالدنيا ، وقالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أطيب من حالنا ، ولم يكن بالعكس ، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أولياءه ويعزّ أعداءه ، ومعنى البينات : الواضحات التي لا

تلتبس معانيها .

وقيل : ظاهرات الإعجاز .

وقيل : إنها حجج وبراهين ، والأوّل أولى .

وهي حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة ، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم .

وقيل : المراد بالذين كفروا هنا : هم المتمردّون المصرّون منهم ، ومعنى قالوا ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ قالوا : لأجلهم .

وقيل : هذه اللام هي لام التبليغ كما في قوله : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نبيُّهُمْ ﴾ [البقرة : 247] أي خاطبوهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿ أَىُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ المراد بالفريقين : المؤمنون والكافرون ، كأنهم قالوا : أفريقنا خير أم فريقكم ؟ قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد " مقاماً " بضم الميم ، وهو موضع الإقامة ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإقامة ، وقرأ الباقون بالفتح أي منزلاً ومسكناً .

وقيل : المقام : الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة ، والمعنى : أي الفريقين أكبر جاهاً وأكثر أنصاراً وأعواناً ، والنديّ والنادي : مجلس القوم ومجتمعهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ [العنكبوت : 29] .

وناداه جالسه في النادي ، ومنه دار الندوة ، لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم ، ومنه أيضاً قول الشاعر :

أنادي به آل الوليد جعفرا . . . ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ القرن : الأمة والجماعة ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ورئيا ﴾ الأثاث : المال أجمع ، الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع .

وقيل : هو متاع البيت خاصة .

وقيل : هو الجديد من الفرش .

وقيل : اللباس خاصة .

واختلفت القراءات في : ﴿ ورئياً ﴾ فقرأ أهل المدينة وابن ذكوان " وريا " بياء مشدّدة ، وفي ذلك وجهان : أحدهما : أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء في الياء والمعنى على هذه القراءة : هم أحسن منظراً وبه قول جمهور المفسرين ، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس ، أو حسن الأبدان وتنعمها ، أو مجموع الأمرين .

وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير : " ورئياً " بالهمز ، وحكاها ورش عن نافع ، وهشام عن ابن عامر ، ومعناها معنى القراءة الأولى .

قال الجوهري : من همز جعله من المنظر من رأيت ، وهو ما رأته العين من حال حسنة

وكسوة ظاهرة ، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا . . . بذي الرئي الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز : إما أن يكون من تخفيف الهمزة ، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم رياً ، أي امتلأت وحسنت .

وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدي .

وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة ، فقيل : إن هذه القراءة غلط ، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين ، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالزاي مكان الراء ، وروي مثل ذلك عن أبيّ بن كعب وسعيد بن جبير والأعصم المكي واليزيدي .

والزيّ : الهيئة والحسن .

قيل : ويجوز أن يكون من زويت أي : جمعت ، فيكون أصلها زوياً فقلبت الواو ياء ، والزيّ محاسن مجموعة .

(143/491)

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة ﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ، أي من كان مستقرّاً في الضلالة ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر ، فالمراد به الخبر ، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة لتنقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر : 37] . أو للاستدراج كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] وقيل : المراد بالآية الدعاء بالمد والتنفيس .

قال الزجاج : تأويله أن الله جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمدّه فيها ، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول : أفعل ذلك وآمر به نفسي ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ يعني : الذين مدّ لهم في الضلالة ، وجاء بضمير الجماعة اعتباراً بمعنى من ، كما أن قوله : ﴿ كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ ﴾ اعتبار بلفظها ، وهذه غاية للمدّ ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ هذا تفصيل لقوله : ﴿ ما يوعدون ﴾ أي هذا الذي توعدون هو أحد أمرين : إما العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ، وإما يوم القيامة وما يحلّ بهم حينئذٍ من العذاب الأخروي ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو جواب على المفتخرين ، أيّ هؤلاء القائلون : ﴿ أيّ الفريقين خير مقاماً ﴾ إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوي بأيدي

المؤمنين ، أو الأخروي ، فسيعلمون عند ذلك من هو شرّ مكاناً من الفريقين ، وأضعف جنداً منهما ، أي أنصاراً وأعواناً .

(144/491)

والمعنى : أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكاناً لا خير مكاناً ، وأضعف جنداً لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين ؛ وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جنداً ضعفاء ، بل لا جند لهم أصلاً كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف : 43] .

ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة ، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾ وذلك أن بعض الهدى يجرّ إلى البعض الآخر ، والخير يدعو إلى الخير وقيل : المراد بالزيادة : العبادة من المؤمنين ، والواو في ﴿ ويزيد ﴾ للاستئناف ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين وقيل : الواو للعطف على ﴿ فليمدد ﴾ وقيل : للعطف على جملة ﴿ من كان في الضلالة ﴾ .

قال الزجاج : المعنى أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافرين أن يمدّهم في ضلالتهم ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ هي الطاعات

المؤدية إلى السعادة الأبدية ، ومعنى كونها خيراً عند الله ثواباً : أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ المردّ ها هنا مصدر كالردّ ، والمعنى : وخير مردّاً للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التي خسروا فيها ، والمردّ : المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً .

(145/491)

ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ أي أخبرني بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقب حديث أولئك ، وإنما استعملوا أرأيت بمعنى أخبر ، لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه ، والآيات تعمّ كل آية ومن جملتها آية البعث ، والفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام ، أي أنظرت فرأيت ، واللام في ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ هي الموطئة للقسم ، كأنه قال : والله لأوتينّ في الآخرة مالاً وولداً ، أي أنظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتأليه على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته .

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله ، فقال : ﴿ أَطَّلَعَ ﴾ على ﴿ الغيب ﴾ أي أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾

بذلك ، فإنه لا يتوصل إلى العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين وقيل : المعنى : أنظر في اللوح المحفوظ ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ؛ وقيل : معنى ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ أم قال : لا إله إلا الله فأرحمه بها .

وقيل : المعنى أم قدّم عملاً صالحاً فهو يرجوه .

واطلع مأخوذ من قولهم : اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه .

وقرأ حمزة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش : " وولداً " بضم الواو ، والباقون بفتحها ، فقيل : هما لغتان معناهما واحد ، يقال : ولد وولد كما يقال : عدم وعُدم ، قال الحارث بن حلزّة :

ولقد رأيت معاشرا . . . قد ثمروا مالاً وولداً

وقال آخر :

فليت فلاناً كان في بطن أمه . . . وليت فلاناً كان ولد حمار

وقيل : الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد .

وقد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله : ﴿ لأوتينّ مالاً وولداً ﴾ أنه يؤتى ذلك في الدنيا .

وقال جماعة : في الجنة ، وقيل : المعنى : إن أقمت على دين آبائي لأوتين .

وقيل : المعنى : لو كنت على باطل لما أوتيت مالاً وولداً .

﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ : "كلا" حرف ردع وزجر ، أي ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد ، سيكتب ما يقول أي سنحفظ عليه ما يقوله فنجاز به في الآخرة ، أو سنظهر ما يقول ، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ أي نزيده عذاباً فوق عذابه مكان ما يدّعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد ، أو نطوّل له من العذاب ما يستحقه وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء .

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي نميته فنرثه المال والولد الذي يقول إنه يؤتاه .

والمعنى : مسمى ما يقول ومصداقه .

وقيل : المعنى نحرمه ما تمناه ونعطيه غيره .

﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ أي يوم القيامة لا مال له ولا ولد ، بل نسلبه ذلك ، فكيف يطمع في أن نؤتيه .

وقيل : المراد بما يقول : نفس القول لا مسماه ، والمعنى : إنما يقول هذا القول ما دام حياً ، فإذا أمتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضاً له منفرداً عنه ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ أَيُّ الفريقين

خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ قال : قريش تقوله لها ولأصحاب محمد .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ قال : المنازل ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ قال : المجالس ، وفي قوله : ﴿ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ قال : المتاع والمال ﴿ ورئياً ﴾ قال : المنظر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ : فليدعه الله في طغيانه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال في حرف أبيّ : "قل من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة" .

(147/491)

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ ﴾ من حديث خباب بن الأرت قال : كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإني إذا متّ ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ قال : لا إله

إلا الله يرجو بها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ قال : ماله وولده .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(148/491)

وقال القاسمي :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ ﴾

أي : في الآخرة : ﴿ مَالاً وَوَلَداً ﴾ أي : انظر إلى هذا القائل المجترىء على الغيب ما أكفره

.

﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ أي : بذلك ، لأنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين .

﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي : نحفظه عليه للمُؤَاخَذَة به : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً ﴾ بمضاعفته له ، جزاءً لاستهزائه .

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي : ننزع عنه ما آتيناه من مال وولد ، فلا يبقيان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ أي : في الحشر ، لا يصحبه مال ولا ولد . فما يجدي

عليه تمنّيه وتألّيه .

وقد روى البخاريّ : عن خَبَّاب رضي الله عنه ، قال : كنت قيناً – حدّاداً – في الجاهلية بمكة . فعملت للعاص بن وائل سيفاً ، فجئت أتقاضاه فقال : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد . قلت : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال . فذرني حتى أموت ، ثم أبعث فسوف أوتى مالاً وولداً فأقضيك . فنزلت الآية . قال ابن عباس : فضرب الله مثله في القرآن .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ أي : ليتعززوا بهم ، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عزّ وجلّ ، وشفعاء عنده .

(149/491)

﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي : ستجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي : يريدون إهلاكهم ، إذا أوقعوهم في هلاك دعوى الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 5 – 6] [في المطبوع يدعوا] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [النحل : 86] [في المطبوع ندعوا] ، قيل : المراد بالآلهة من عُبِدَ من ذوي العلم . لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم . وقيل : الأصنام . بأن يخلق الله فيهم قوة النطق ، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء . وقيل : الأعم منهما ، وهو الأظهر .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي : بأن سلّطناهم عليهم ومكّنّاهم من إضلالهم . أو قيضناهم لهم يغلبون عليهم : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ أي : تغريهم [في المطبوع : تغريزهم] وتهيجهم على المعاصي ، بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، تهيجاً شديداً . قال الزمخشريّ : الأز والهز والاستفزاز أخوات . ومعناها التهييج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم وملاحاتهم ومعاندتهم للرسل ، واستهزاؤهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه ، وانهماكهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم . فهذه الآية كالتذييل لما قبلها وقوله تعالى :

﴿ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم . والفاء للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهيّ عنه ، محوجة إلى النهي . يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ تعليل لموجب النهي ، ببيان اقتراب هلاكهم . أي : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ [الأحقاف : 35] .

قال الشهاب : العدّ كناية عن القلة . وقلته لتقضّيه وفنائه ، كما قال المأمون ما كان ذا عدد ، ليس له مدد ، فما أسرع ما نفد ولا ينافي هذا ما مرّ أنه يمد لمن كان في الضلالة . أي : يطوّل . لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم . وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله . ولله در القائل :

~إن الحبيبَ من الأحباب مختلَسُ لا يمنع الموتَ بوّابٌ ولا حَرَسُ

~وكيف يفرحُ بالدنيا ولذّتِهَا فتى يُعَدُّ عليه اللفظُ والنَّفَسُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 116.118 ﴾

(151/491)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) ﴾

أخرج الشيخان وغيرهما من غير وجه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : « جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده . فقال : لا أعطيك حتى تكفُر بمحمدٍ صلى الله عليه ويلم . فقلت : لا ؟ حتى تموت ثُمَّ تبعث . قال : وإني لميت ثم مبعوث ؟ ؟ قلت نعم . قال : إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك . فنزلت هذه الآية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] . وقال بعض أهل العلم : إن مراده بقوله : ﴿ أُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ الاستهزاء بالدين وبخباب بن الأرت رضي الله عنه ، والظاهر – أنه زعم أنه يؤْتى مالا وولداً قياساً منه للآخرة على الدنيا ، كما بينا الآيات الدالة على ذلك . كقوله : ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصلت : 50] ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [المؤمنون : 55–56] الآية ، قوله : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : 35] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه . وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي ﴿ وولداً ﴾ بضم الواو الثانية وسكون اللام . وقرأه الباقون بفتح الواو واللام معاً ، وهما لغتان معناهما واحد كالعرب والعرب ، والعد والعدم . ومن إطلاق العرب الولد بضم الواو وسكون اللام كقراءة حمزة والكسائي قول الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشراً . . . قد ثمروا مالاً وولدا

وقول رؤبة :

الحمد لله العزيز فرداً . . . لم يتخذ منولد شيءٍ ولدا

وزعم بعض علماء العربية : أن الولد بفتح الواو واللام مفرد . وأن الود بضم الواو وسكون اللام جمع له .

كأسد بالفتح يجمع على أسْد بضم فسكون . والظار عدم صحة هذا .

ومما يدل على أن » الولد « بالضم ليس بجمع قول الشاعر :

فليت فلاناً كان في بطن أمه . . . وليت فلاناً كان ولد حمار

لأن » الولد « في هذا البيت بضم الواو وسكون اللام ، وهو مفرد قطعاً كما ترى .

(152/491)

قوله تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً كَلاَّ ﴾ .

اعلم أن الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة رد على العاص بن وائل السهمي قوله : إنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً ، بالدليل المعوف عند الجدليين بالتقسيم والترديد ، وعند الأصوليين بالسبر والتقسيم . وعند المنطقيين بالشرطي المنفصل .

وضابط هذا الدليل العظيم أنه متركب من أصلين : أحدهما – حصر أوصاف المحل بطريق من طرق الحص ﴿ ، وهو المعبر عنه بالتقسين عند الأصوليين والجدليين ، وبالشرطي المنفصل عند المنطقيين .

والثاني – هو اختيار تلك الأوصاف المحصورة ، وإبطال ما هو باطل منها وإبقاء ما هو صحيح منها كما ستى إيضاحه إن شاء الله تعالى . وهذا الأخير هو المعبر عنه عند الأصوليين « بالسبر » ، وعند الجدليين « بالترديد » ، وعند المنطقيين ، بالاستثناء في الشرطي المنفصل . والتقسيم الصحيح في هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة ، والسبر الصحيح يبطل اثنين منها ويصحح الثالث وبذلك يتم إلقام العاص بن وائل الحجر في دعواه : أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً .

أما وجه حصر أوصاف المحل في ثلاثة فهو أنا نقول : قولك إنك تؤتي مالاً وولداً يوم القيامة لا يخلو مستندك فيه من واحد كم ثلاثة أشياء :

الأول – أن تكون اطلعت على الغيب ، وعلمت أن إيتاك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله في اللوح المحفوظ .

والثاني – أن يكون الله أعطاك عهداً بذلك ، فإنه إن أعطاك عهداً لن يخلفه .

الثالث – أن تكون قلت ذلك افتراءً على الله من غير عهد ولا اطلاع غير .

وقد ذكر تعالى القسمين الأولين في قوله : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ مبطلاً لهما بأداة الإنكار . ولا شك أن كلا هذين القسمين باطل . لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب . ولم يتخذ عند الرحمن عهدا . فتعين القسم الثالث وهو أنه قال ذلك افتراءً على الله . وقد أشار تعالى إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع وهو قوله ، ﴿ كَلاَّ ﴾ أي لأنه يلزمه ليس الأمر كذلك ، لم يطلع الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً ، بل قال ذلك افتراءً على الله ، لأنه لو كان أحدهما حاصلاً لم يستوجي الردع عم مقالته كما ترى . وهذا الدليل الذي أبطل به دعوى ابن وائل هذه هو الذي أبطل به بعينه دعوى اليهود : أ ، هم لن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودة في سورة « البقرة » قسم اطلاع الغيب المذكور في « مريم » لدلالة ذكره في « مريم » على قصده في « البقرة » كما ان كذبهم الذي صرح به في « البقرة » لم يصرح به في « مريم » لأن ما في « البقرة » يبين ما في « مريم » لأن القرآن العظيم يبين بعضه بعضاً .

(154/491)

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 80] فالأوصاف هنا هي الأوصاف الثلاثة المذكورة في « مريم » كما أوضحنا ، وما حذف منها يدل عليه ذكره في « مريم » فاتخاذ العهد ذكره في « البقرة ومريم » معاً والكذب في ذلك على الله صرح به في « البقرة » بقوله : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 80] وأشار له في « مريم » على المقصود في « البقرة » كما أوضحنا .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة .

المسألة الأولى

(155/491)

اعلم أن هذا الدليل الذي هو السبر والتقسيم تكرر وروده في القرآن العظيم ، وقد ذكرنا الآن مثالين لذلك أحدهما في « البقرة » والثاني في « مريم » كما أوضحناه آنفاً . وذكر السيوطي في الإتقان في كلام على جدل القرآن مثالاً واحداً للسبر والتقسيمن ومضمون المثال الذي ذكره باختصارن هو ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين ﴾ [الأنعام : 143] الآيتين ، فكأن الله يقول للذين حرموا بعض الإناث

كالبحائر والسوائب دون بعضها ، وحرموا بعض الذكور كالحامي دون بعضها : لا يخلوا تحريمكم لبعض ما ذكر دون بعضه من أن يكون معللاً بعلة معقولة أو تعبدياً . وعلى أنه معلل بعلة فإما أن تكون العلة في المحرم من الإناث الأنوثة ، ومن الذكور الذكورة . أو تكون العلة فيهما معاً التخلق في الرحم ، واشتمالها عليهما ، هذه هي اقسام التي يمكن ادعاء إناطة الحكم بها . ثم بعد حصر الأوصاف بهذا التقسيم نرجع إلى سبر الأقسان المذكورة . اي اختبارها ليتميز الصحيح من الباطل فنجدها كلها باطلة بالسبر الصحيح ، لأن كون العلة الذكورة يقتضي تحريم كل ذكر وأنتم تحلون بعض الذكور ، فدل ذلك على بطلان التعليل بالذكورة لقادح النقص الذي هو عدم الاطراد .

(156/491)

وكون العلة الأنثوية يقتضي تحريم كل أنثى كما ذكرنا فيما قبله . وكون العلة اشتمال الرحم عليهما يقتضي تحريم الجمع . وإلى هذا الإبطال أشار تعالى بقوله : ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ [الأنعام : 143] أي فلو كانت العلة الذكورة حرم كل ذكر . ولو كانت الأنوثة لحرمت كل أنثى . ولو كانت اشتمال الرحم عليهما لحرم الجميع . وكون ذلك تعبدياً يقتضي أن الله وصاكم به لا واسطة . إذ لم يأتكم منه رسول

بذلك . فدل ذلك على أنه باطل أيضاً ، وأشار تعالى إلى بطلانه بقوله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بهذا ﴾ [الأنعام : 144] ثم بين أن ذلك التحريم بغير دليل من أشنع الظلم ، وأنه كذب مفترى وإضلال بقوله :

(157/491)

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : 144] ثم أكد عدم التحريم في ذلك بقوله : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ [الأنعام : 145] .

والحاصل – أن إبطال جميع الأوصاف المذكورة دليل على بطلان الحكم المذكور كما أوضحنا . ومن أمثلة السبر والتقسيم في القرآن قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ [الطور : 35] فكأنه تعالى يقول : لا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح . الأولى – أن يكونوا خُلقوا من غير شيء أي بدون خالق أصلاً . الثانية – أن يكونوا خلقوا أنفسهم . الثالثة – أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم . ولا شك أن القسمين الأولين باطلان ، وبطلانهما ضروري كما ترى ، فلا حاجة إلى إقامة

الدليل عليه لوضوحه . والثالث – هو الحق الذي لا شك فيه ، وهو جلا وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جل وعلا .

واعلم أن المنطقيين والأصوليين والجدليين كل منه يستعملون هذ الدليل في غرض ليس هو غرض الآخر من استعمال ، إلا أن استعماله عند الجدليين أعم من استعماله عند المنطقيين والأصولين .

المسألة الثانية

(158/491)

اعلم أن مقصود الجدلين من هذا الدليل معرفة الصحيح والباطل من أوصاف محل النزاع ، وهو عنكم يتركب من أمرين : الأول – حصر أوصاف المحل . والثاني – إبطال الباطل منها وتصحيح مطلقاً ، وقد تكون باطلة كلها فيتحقق بطلان الحكم المستند إليها ، كآية ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾ [الأنعام : 143] المتقدمة . وقد يكون بعضها باطلاً وبعضها صحيحاً : كآية « مريم والبقرة ، والطور » التي قدمنا إيضاح هذا الدلي في كل واحدة منها . وهذا الدليل أعم نفعاً ، وأكثر فائدة على طريق الجدليين منه على طريق الأصوليين والمنطقيين .

المسألة الثالثة

اعلم أن السبر والتقسيم عند الأصوليين يستعمل في شيء خاص ، وهو استنباط علة الحكم الشرعي بمسلك السبر والتقسيم . وضابط هذا المسلك عند الأصوليين أمران : الأول – هو حصر أوصاف الأصل المقيس عليه بطريق من طرق الحصر التي سنذكر بعضها إن شار الله تعالى . والثاني – إبطال ما ليس صالحاً للعلة بطريق من طرق الإبطال التي سنذكر أيضاً بعضها إن شار اله تعالى . وزاد بعضهم أمراً ثالثاً – وهو الإجماع على أن حكم الأصل معلل في الجملة لا تعبدي ، والجمهور لا يشترطون هذا الأخير ، والحاصل – أنه هذا الدليل يتركب عند الأصوليين من أمرين . الأول – حصر أوصاف المحل . والثاني – إبطال ما ليس صالحاً للعة ، فإن كان الحصر والإبطال معاً قطعيين فهو دليل قطعي ، وإن كانا ظنين أو أحدهما ظنياً فهو دليل ظني . ومثال ما كان الحصر والإبطال فيه قطعيين قول تعالى :

(159/491)

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ [الطور : 35] لأن حصر أوصاف المحل في الأقسام الثلاثة قطعي لا شك فيهن لأنهم إما إن يخلقوا من غير شيء أو يخلقوا أنفسهم أو يخلقهم خالق غير انفسهم . لا رابع البتة . وإبطال القسمين الأولين قطعي لا شك فيهك

فيتعين أن الثالث حق لا شك فيه . وقد حذف في الآية لظهوره . فدلالة هذا السبر والتقسيم على عبادة الله وحده قطعية لا شك فيها ، وإن كان المثال بهذه الآية للقطعي من هذا الدليل إنما يصح على المراد به عند الجدليين دون الأصوليين ، لأن المراد التمثيل للقطعي من هذا الدليل ولو بمعناه الأعم ، والقطعي منه لا يمكن الاختلاف فيه . واما الظني فإن العلماء يختلفون فيه لاختلاف ظنون المجتهدين عند نظرهم في المسائل . وقد اختلفوا في الربا في أشياء كثيرة كالتفاح ونحوه . والنورة ونحوها بسبب اختلافهم في إبطال ما ليس بصالح فيقول بعضهمك هذا وصف يصح إبطاله ، ويقول الآخر : هو ليس بصالح فيلزم إبطاله كقولهم مثلاً في حصر أوصاف البر الذي هو الأصل مثلاً المحرم فيه الربا إذا أريد القياس الذرة عليه مثلاً ، أما ان يكون علية تحريم الربا في البر الكيل أو الطعم أو الاقتيات والادخار أوهما وغلبة العيش به أو المالية والملكية فيقول المالكي غير الاقتيات والادخار باطل ، والكيل هو العلة التي هي مناط الحكم ، ويستدل على ذلك بأحاديث كحديث حيان بن عبيد الله عند الحاكم ، وفيه بعد ذكر الستة التي يمنع فيها الربا . وكذلك كل ما يكال أو يوزن وبالحديث الصحيح الذي فيه . وكذلك الميزان كما قدمناه مستوفى في سورة البقرة في الكلام على آية الربا . ويقول الشافعي غير الطعم باطلن والعلة في تحريم الربا في البر الطعم ، ويستدل بحديث معمر بن عبد الله مسلم « الطعام بالطعام مثلاً بمثل » الحديث كما

تقدم إيضاحه أيضاً في البقرة . وهذا النوع من القياس الذي يختلف المجتهدون في العلة فيه هو المعروف عند أهل الأصول

(160/491)

بمركب الأصل ، وأشار إليه في مراقي السعود بقوله :

وإن يكن لعلتين اختلفا . . . تركب الأصل لدى من سلفا

وأشار إلى مركب الوصف بقوله :

مركب الوصف غذا الخصم منع . . . وجود ذا الوصف في الأصل المتبع

والقياس المركب بنوعة المذكورين لا تنهض الحجة به على الخصم خلافاً لبعض الجدليين .

وإلى كون رده بالنسبة للخصم المخالف هو المختار . أشار في مراقي السعود بقوله :

ورده انتفى وقيل يقبل . . . وفي التقدم خلاف ينقل

والضمير في قوله « ورده » راجع إلى لمركب بنعيه وهذا هو الحق . فلا تنهض الحجة بقول الشافعي إن العلة في تحريم الربا في البر الطعم – على الحنفي والحنبلي القائِلين إنها الكيل كالعكس وهكذا . أما في حق المجتهد ومقلّديه فظنه المذكور حجة ناهضة له ولمقلديه .

واعلم أن لحصر اوصاف المحل طِرقاً .

منها أنْ يكون الحصر عقلياً كما قدمنا في آية ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ [الطور : 35] . وكقولك : إنا أنْ يكون النَّبي صلى الله عليه وسلم عالماً بهذا الأمر الذي تدعوا الناس إليه أو غير عالم به : كما يأتي إيضاحه . فأوصاف المحل محصورة في الأمرين المذكورين إذا لا ثالث البتة . أنه لا واسطة بين الشيء ونقيضه كما هو معروف . ومنها أن يدل على الحصر المذكور إجماع . ومثل بعض الأصوليين بإجبار البكر البالغة على النكاح عند من يقول به . فإن علة الإجبار إما الجهل بالمصالح ، وأما البكارة : فإن ق لالمعترض : أين دليل حصر الأوصاف في الأمرين ؟ أجيب – بأنه الإجماع على عدم التعليل بغيرهما ن فلو ادعى المستدل حصر أوصاف المحل ، فقال المعترض : أين دليل الحصر ؟ فقال المستدلك بحثتُ بحثاً تاماً عن أوصاف المحل فلم أجد غير ما ذكرت ، أو قال : الأصل عدم غير ما ذكرت ، فالصحيح أن هذا يكفيه في إثبات الحصر . فإن قال المعترض : أنا أعلم وصفاً زائداً لم تذكره . قيل له : بينه ، فإن لم يبينه سقط اعتراضه . وإن بيَّن وصفاً زائداً على الأوصاف التي ذكرها المستدل بطل حصر المستدل بمجرد إبداء المعترض الوصفَ الزائد . إلا أن يبين المستدل أنه لا يصلح العلية فيكون إذاً وجوده وعدمه سواءً .

وقول من قالك أنه لا يكفيه قوله : بحثتُ فلم أجد غير هذا – خلاف التحقيق . وأشار في مراقي السعود إلى هذا المسلك من مسالك العلة بقوله :

والسبر والتقسيم قسم رابع . . . أن يحصر الأوصاف فيه جامع

ويبطل الذي لها لا يصلح . . . فما بقي تعيينه متضح

معترض الحصر في دفعه يرد . . . يحثت ثم بعد بحثي لم أجد

أو انعقاد ما سواها الأصل . . . وليس في الحصر لظن حظل

وهو قطعي إذا ما نميا . . . للقطع والظني سواه وعيا

حجية الظني عند الأكثر . . . في حق ناظر وفي المناظر

إن يبد وصفاً زائداً معترض . . . وفي به دون البيان الغرض

وقطع ذي السبر إذاً منحتم . . . والأمر في إبطاله منبهم

(162/491)

وقوله في هذه الأبيات « في حق ناظر وفي المناظر » محله ما لم يدع المناظر علة غير اعلته ، وإن ادعاها فلا تكون علة أحدهما حجة على الآخر ، كما أوضحناه آنفاً ، وكما أشار له بقوله المذكور آنفاً « ورده انتفى . . » الخ .

وإذا حصل حصر أوصاف المحل فإبطال غير الصالح منها له طرق معروفة :

(منها) بيان أو الوصف طردي محض ، إما بالنسبة إلى جميع الأحكام كالطول والقصر ، البياض والسواد ، أو بالنسبة إلى خصوص الحكم المتنازع في ثبوته أو نفيه ، كالذكورة والأنوثة بالنسبة إلى بات العتق ، فإنه لا فرق في أحكام العتق بين الذكر والأنثى ، لأن الذكورة والأنوثة بالنسبة إليه وصفان طرديان وإن كانا غير طرديين في غير العتق كالإرث والشهادة ، والقضاء وولاية النكاح.

(163/491)

فإن الذكر في ذلك ليس كالأنثى . ويعرف كون الوصف طردياً (اي لا مدخل له في التعليل أصلاً) باستقراء موارد الشرع ومصادره ، أما مطلقاً ، وإما في بعض الأبواب دون بعضها كما قدمناه آنفاً .

ومثال إبطال الطردي في جميع الأحكام – ما جار في بعض روايات الحديث في المجامع في رمضان . فإن في بعض الروايات أنه أعرابي . وفي بعضها أنهُ جاء ينتف شعره ويضرب صدره . والقاعدة المقرَّرة في الأصول : أن المثال لا يعترض . لأن المراد منه بيان القاعدة .

ويكفي فيه الفرض ومطلق الاحتمال ، كما أشار له في مراقي السعود بقوله :

والشأن لا يعترض المثال . . . إذ قد كفى الغرض والاحتمال

(164/491)

فإذا عرفت ذلك فاعلم : أنه كونه أعرابياً ، وكونه جاء يضرب صدره وينتف شعره من أوصف المحل في هذا الحكم وهي أوصاف يجب غبطالها وعدم تعليل وجوب الكفار بها . لأنها أوصاف طردية لا تحصل من إناطة الحكم بها فائدة أصلاً ، فالأعرابي وغيره في ذلك سواء . ومن جاء في سكينة ووقار ، ومن جاء يضرب صدره وينتف شعره في ذلك سواء أيضاً . ومثال الإبطال يكون الوصف طريداً في الباب الذي فيه النزاع دون غيرِهِ وحديث « من أعتق شركاً له في عبد وكان له مال يبلغ ثمن العبدِ قوم العبد عليه قيمة عدل ، فأعطى شركاءه حصصهم وعتق عليه العبد . . » الحديث ، وهو متفق عليه من حديث ابن عمر ، وقد قدمنا في سورة « الإسراء والكهف » فلفظُ العبد الذكر في هذا الحديث وصف طرديز فمن أعتق شركاً له في أمة فكذلك . لأنه عرف من استقراء الشرع أن الذكورة والأنوثة بالنسبة إلى العتق وصفان طرديان لا تناط بهما أحكام العتق ، وإن كانت الذكورة والأنوثة غير طرديين في غير العتق كالميراث والشهادة كما تقدم ، والوصف الطردي

في اصطلاح أهل الأصول : هو ما عُلمَ من الشرع إلغاؤه وعدم اعتباره ، لأنه ليس في إناطة الحكم به مصلحة أصلاً فهو خالٍ من المناسبة ، ومن طرق الإبطال بعد ثبوت الحصر إلا تظهر للوصف مناسبة . والمناسبة في اصطلاح أهل الأصول : هي كون إناطة الحكم بالوصف تترتب عليها مصلحة فعدم المناسبة المذكورة من طرق إبطاله في مسلك السبر ، وإن كان عدم ظهر المناسبة في الوصف لا يبطله في بعض المسالك غير السبر كالإيماء على الأصح والدوران .

فالأحوال ثلاثة :

الأول : ان تظهر المناسبة ، وظهورها لا بد منه في مسلك السبر ومسلك المناسبة والإخالة .

الثاني : إلا تظهر المناسبة ولا عدمها . وهذا يكفي في الدوران والإيماء على الصحيح .

الثالث : ان يظهر عدم المناسبة ، فيكون الوصف طردياً كما تقدم قريباً .

(165/491)

ومن طرق الإبطال بعد ثبوت الحصر – كون الوصف ملغي وإن كان مناسباً للحكم المتنازع فيه ، ويكون الإلغاء باستقلال الوصف المستبقي بالحكم دونه في صورة مجمع عليها .

حكاه الفهري . ومثاله – قول الشافعي : إن الكيل والاقتيات ونحو ذلك أوصاف ملغاة بالنسبة إلى تحريم الربا في ملء كفٍّ من البُرِّ . لأنه لا يُكال ولا يُقات لقتله . فعلة تحريم الربا فيه الطعم لاستقلال علة الطعم بالحكم دون غيرها من الأوصاف في هذه الصورة ، والقصد مطلق التمثيل ، لا مناقشه الأمثلة .

ومن طرق الإبطال بعد ثبوت الحصر – كونُ الوصف الذي أبقاهُ المستدل متعدياً من محل الحكم إلى غيره ، والوصفُ الَّذي يريد المعترض إبقاءَه قاصرٌ على محل الحكم . قال صاحب (الضياء اللامع) : وذلك يشبه تعارضَ العلة المتعدية والقاصرة ، وهو كما قال ، ومثاله : أختلاف الأَئمة رحمهم الله في علة الكفارة في الإفطار عمداً في نهار رمضان . فبعضهم يقول : العلة في ذلك خصوص الجماع . وبعضهم يقول : العلة في ذلك انتهاك حرمة رمضان . فكونُ الوصف المعلل به في هذا الحكم الجماع يقتضي عدم التعدي عن محل الحكم إلى غيره ، فلا تكون كفارة غلا في الجماع خاصة . وكونه في هذا الحكم انتهاكُ حرمة رمضان يقضي التعدي من محل الحكم إلى غيره ، فتلزم الكفارة في الأكل والشرب عمداً في نهار رمضان بجامع انتهاك حرمة رمضان في الجميع من جمَاع وأكلٍ وشُربٍ ، فيترجح هذا

الوصف بكونه متعدياً على الآخر لقصوره على حمل الحكم وقصدنا التمثيل لا مناقشة الأمثلة ، ولا ينافي ما ذكرنا أن ياتي من يقول : العلة الجِمَاع بمرجحات أخر لعلته ، وأشار في مراقي السعود إلى طرق الإبطال المذكورة بقوله :

أبطل لما طردا يرى ويبطل . . . غير مناسب له المنخرل

كذلك بالإلغا وإن قد ناسيا . . . ويتعدى وصفه الذي اجتبى

هذا هو حاصل كلام أهل الأصول في المقصود عندهم بهذا الدليل الذي هو السبر والتقسيم .

المسالة الرابعة

(167/491)

اعلم أن المقصود من هذا الدليل المذكور عند المنطقيين يخالف المقصود منه عند الأصوليين والجدليين . فالتقسم عند المنطقيين لا يكون إلا في الوصاف التي بينها تنافٍ وتنافر ، وهذا التقسيم هم المعبَّر عنه عندهم بالشرطي المنفصل . ومقصودهم من ذكر تلك الأوصاف المتنافية هم أنْ يستدلوا بوجود بعضها على عدم بعضها ، أو بعدمه على ووجوده ، وهذا هو المعبر عنه عندهم (بالاستثناء في الشرطي المنفصل) وحرف

الاستثناء عندهم هو « لكن » والتنافي المذكور بين الأوصاف المذكورة يحصره العقل في ثلاثة أقسام :

لأنه إما أن يكون في الوجود والعدم معاً ، أو الوجود فقط ، أو العدم فقط ، ولا رابع البتة .

فإن كان في الوجود والعدم معاً فهي عندهم الشرطية المنفصلة المعروفة بالحقيقية ، وهي مانعة الجميع والخلو معاً ، ولا تتركب إلا من النقيضين ، او من الشيء ومساوي نقيضه وضابطها أن طرفيها لا يجتمعان معاً ولا يرتفعان معاً . بل لا بد من وجود أحدهما وعدم الآخر ، وعدم اجتماعها لما بينهما من المنافرة والعناد في الوجود ، وعدم ارتفاعهما لما بينهم في العدم ، وضروبها الأربعة منتجة ، كما لو قلت : العدد إما زوج أنتج فهو فرد .

(168/491)

ولو قلت : لكنه غير فرد أنتج فهو زوج . وضابط قياسها أنه يرجع إلى الاستدلال بعدم النقيض ، أو مساوية على وجود النقيض ، أو مساوية كعكسه .

وإن كان التنافر والعناد بين طرفيها في الوجود فقط – فهي مانعة الجمع المجوزة للخلو ، ولا يلزم فيها خصر الأوصافن ولا تتركب إلا من قضية وأخص من نقيضها ، وضابطها : ان طرفيها لا يجتمعان لما بينهما من المنافرة والعناد في الوجود ، ولا مانع من ارتفاعهما لعدم

العناد والمنافرة بينهما في العدم ، ومانعة الجمع المذكورة ينتج من قياسها ضربان ، ويعقم منه ضربان . ومثالها قولك : الجسم إما أبيض ، وإما أسود ، فإن استثناء عين كل واحد من الطرفين ينتج نقيض الآخر . بخلاف استثناء نقيض أحدهما فلا ينتج شيئاً . فلو قلت : الجسم إما أبيض ، وإما أسود لكنه أبيض ، أنتج فهو غير أسود . وإن قلت : لكنه أسود أنتج فهو غير أبيض . بخلاف ما لو قلت : لكنه غير أبيض فلا ينتج كونه أسود . لأن غير الأبيض صادق بالأسود وغيره . وكذلك لو قلت : لكنه غير أسود فلا ينتج كونه أبيض لصدق غير الأسود بالأبيض وغيره ، فلا مانع من انتفاء الطرفين وكون جسم غير ابيض وغير أسود . لأن مانعة الجميع تجوز الخلو منا لطرفين بأن يكونا معدومين معاً . وإنما جاز فيها الخلو من الطرفين معاً لواحد من سببين .

الأول – وجود واسطة أخرى غير كرفي القضية المذكورة . فقولنا في المثال السابق : الجسم إما أبيض ، وإما أسود يجوز فيه الخلو عن البياض والسواد لوجوده واسطة أخرى من الألوان غير السواد والبياض . كالحمرة والصفرة مثلاً . فالجسم الأحمر مثلاً غير ابيض ولا أسود .

(169/491)

السبب الثاني – ارتفاع المحل ، كقولك : الجسم إما متحرك أو ساكن ، فإنه إن إنعدم بعض الأجسام التي كانت موجودة ورجع إلى العدم بعد الوجود فإنه يرتفع عنه كل من طرفي القضية المذكورة فلا يقال للمعدوم : هو ساكن ولا متحرك ، لأن المعدوم ليس بشيء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9] ، وقوله ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 68] .

وإن كان العناد والمنافرة بين طرفيها في العدم فقط – فهي مانعة الخلو المجوزة للجمع . وهي عكس التي ذكرنا قبلها تصوراً وإنتاجاً ، ولا تتركب إلا من قضية وأعم من نقيضها .

وضابطها – أن طرفيها لا يرتفعان لما بينهما منا لمنافرة والعناد في العدم ، ولا مانع من اجتماعهما لعدم المنافرة والعناد بينهما في الوجود . ومثالها : الجسم إما غير أبيض ، وإما غير أسود ، فإن هذا المثال قد يجتمع فيه الطرفان فلا مانع من وجود جسم موصوف بأنه غير أبيض وغير أسود ، كالأحمر فإنه غير أبيض وغير أسود ، ولكنه لا يمكن بحال وجود جسم خالٍ من طرفي هذه القضية التي مثلنا بها ، فيكو خالياً من كونه غير ابيض وغير أسود .

(170/491)

لأنك إذا نفيت غير أبيض أثبت أنه أبيض ، لأنه نفي النفي إثبات . وإذا أثبت أنه أبيض استحال ارتفاع الطرف الثاني الذي هو غير الأسود لأن الأبيض موصوف ضرورة بأنه غير أسود ، وهكذا في الطرف الآخر . لأنك إذا نفيت غير اسود أثبت أنه أسود ، وإذا أثبت أنه أسود لزم ضرورة أنه غير أبيض ، وهو عين الآخر من طرفي القضية المذكورة ، وقياس هذه ينتج منه الضربان العقيمان في قياس التي قبلها ، ويعقم منه الضربان المنتجان في قياس التي قبلها . فتبين أن استثناء نقيض كل واحد من الطرفين في قياس هذه الأخيرة ينتج عين الآخر ، وأن استثناء عين الواحد منهما لا ينتج شيئاً .

فقولنا في المثال السابق : الجسم إما غير أبيض وإما غير أسود لو قلت فيه لكنه أبيض أنتج ، فهو غير أسود . ولو قلت : لكنه أسود أنتج فهو غير أبيض ، بخلاف ما لو قلت : لكنه غير أبيض فلا ينتج نفي الطرَف الآخر ولا وجوده ، لأن غير الأبيض يجوز أن يكون أسود ، ويجوز أن يكون غير أسود بل أحمر أو اصفر . وكذلك لو قلتك لكنه غير أسود لم يلزم منه نفي الطرف الآخر ولا إثباته ، لأن غير الأسود يجوز أن يكون ابيض وغير أبيض لكونه أحمر مثلاً – هذه خلاصة موجزة عن هذا الدليل المذكور في نظر المنطقيين .

المسالة الخامسة

اعلم أن لهذا الدليل آثاراً تاريخية ، وسنذكر هنا إن شاء الله بعضها .

فمن ذلك – أن هذا الدليل العظيم جاء في التاريخ : أنه أول سبب لضعف المحنة العظمى

على المسلمين في عقائدهم بالقول بخلق القرآن العظيم . وذلك أن محنة القول بخلق القرآن نشأت في أيام المأمون ، واستفحلت جداً في ايام المعتصم ، واستمرت على ذلك في أيام الواثق . وهي في جميع ذلك التاريخ قائمة على ساق وقدم .

ومعلوم ما وقع فيها من قتل بعض أهل العلم الأفاضل وتعذيبهم ، واضطرار بعضهم إلى المداهنة بالقول خوفاً .

(171/491)

ومعلوم ما وقع فيها لسيد المسلمين في زمنه « الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل » تغمده الله برحمته الواسعة ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً من الضرب المبرح أيام المعتصم . وقد جاء أن أول مصدر تاريخي لضعف هذه المحنة وكبح جماحها هو هذا الدليل العظيم .

قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في الكلام على ترجمة « أحمد بن أبي دَؤَاد » :

أخبرنا محمد بن الفرج بن علي البزار ، أخبرنا عبد الله بن إبراهيم بن ماسين حدثنا جعفر بن شعيب الشاشي ، حدثني محمد بن يوسف الشاشي ، حدثني إبراهيم بن منبه قال : سمعت طاهر بن خلف يقول : سمعت محمد بن الواثق الذي يقال له المهتدي بالله يقول : كان

أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً احضرنا ذلك المجلس ، فأتى الشيخ مخضوب مقيد فقال ابي : ائذنوا لأبي عبد الله وأصحابه (يعني ابن أبي دؤاد) قال : فأدخل الشيخ والواثق في مصلاة فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

(172/491)

فقال به : لا سلم الله عليك ! فقال : أمير المؤمنين ، بئس ما أدبك مؤدبك ! قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : 86] والله ما حييتني بها ولا بأحسن منها . فقال ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين . فقال له : سل : فقال له الشيخ : ما تقول في القرآن ؟ فقال مخلوق : فقال : هذا شيء عَلِمه النَّبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الراشدون ؟ أم شيء لم يعلَموه ؟ فقالك شيء لم يعلموه . فقال سبحان الله ! شيء لم يعلمه النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت ! ؟ قال : فخجل . فقال : اقلني والمسألة بحالها . قال نعم . قال : ما تقول في القرآن ؟ فقال مخلوق . فقال شيء علمه النَّبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر والخلفاء الراشدون أو لم يعلموه ؟ فقال : علموه ولم يدعوا الناس إليه قال : أفلا وسعك ما وسعهم ! ؟ قال : ثم قام أبي فدخل مجلس الخلوة

واستلقى على قفاه ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت ! سبحان الله ! شيء علمه النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم ، والخلفاء الراشدون ولم يدعوا الناس إليه ، أفلا وسعك ما وسعهم ؟ ؟ ثم دعا عماراً الحاجب ، فأمر أن يرفع عنه القيود ويعطيه أربعمائة دينار ، ويأذن له في الرجوع ، وسقط من عينه ابن أبي داؤد ، ولم يمتحن بعد ذلك أحداً . اه منه .

وذكر ابن كثير في تاريخه هذه القصة عن الخطيب البغدادي ، ولما انتهى من سياقها قال : ذكره الخطيب في تاريخه بإسناد فيه بعض من لا يعرف اه .

ويستأنس لهذه القصة بما ذكره الخطيب وغيره : من أن الواثق تاب من القول بخلق القرآن .

(173/491)

قال ابن كثير في البداية والنهاية : قال الخطيب : وكان ابن أبي داؤد استولى على الواثق وحمله على التشديد في المحنة ، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن : قال : ويقال إن الواثق رجع عن ذلك قبل موته . فأخبرني عبد الله بن أبي الفتح ، أنبأ أحمد بن إبراهيم بن الحسن ، ثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة ، حدثني حامد بن العباس ، عن رجل عن المهتدي : أن

الواثق مات وقد تاب من القول بخلق القرآن . وعلى كل حال فهذه القصة لم تزل مشهورة عند العلماء ، صحيحة الاجتجاج فيها إلقام الخصم الحجر .

(174/491)

وحاصل هذه القصة التي ألقمَ بها الشيخ الذي كان مكبلاً بالقيود يراد قتله أحمد بن أبي دؤاد حجراً ، هو هذا الدليل العظيم الذي هو السبر والتقسيم : فكان الشيخ المذكور يقول لابن أبي دؤاد : مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها لا تخلوا بالتقسيم الصحيح من أحد الأمرين : إما أن يكون النَّبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون عالمين بها أو غير عالمين بها ولا واسطة بين العلم وغيره . فلا قسم ثالث البتة . ثم إنه رجع بالسبر الصحيح إلى القسمين المذكورين فبين أن السبر الصحيح يظهر أن أحمد بن أبي دؤاد ليس كل تقدير من التقديرين .

أما على كون النَّبي صلى الله عليه وسلم كان عالماً بها هو وأصحابه ، وتركوا الناس ولم يدعوهم إليها – فدعوة ابن أبي دؤاد إليها مخالفة لما كان عليه النَّبي واصحابه من عدم الدعوة لها ، وكان يسعه ما وسعهم .

وأما على كون النَّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه غير عالمين بها فلا يمكن لابن أبي دؤاد

أن يدعي أنه عالم بها مع عدم علمهم بها . فظهر ضلاله على كل تقدير ، ولذلك سقط من عين الواثق ، وترك الواثق لذلك امتحان أهل العلم . فكان هذا الدليل العظيك أول مصدر تاريخي لضعف هذه المحنة الكبرى . حتى أزالها الله بالكلية على يد المتوكل رحمه الله ، وفي هذا منقبة تاريخية عظيمة لهذا الدليل المذكور .

ومن آثار هذا الدليل التاريخي – ما ذكره بعض المؤرخين : من أن عبد الله بن همام السلولي وشي به واشٍ إلى عبيد الله بن زياد . فأدخل ابن زياد الواشي في محل قريب من مجلسه ، ثم نادى ابن همام السلولي وقال له : ما حملك على أن تقول في كذا وكذا . . ؟ ! فقال السلولي : اصلح الله الأمير ! والله ما قلت شيئاً من ذلك ! ! فأخرج ابن زياد الواشي ، وقال : هذا أخبرني أنك قلت ذلك . فسكت ابن همام هنية ثم قال مخاطباً للواشي :

وأنت امرؤ ائتمنتك خالياً . . . فخنت وإما قلت قولان بلا علم

فأنت من الأمر الذي بيننا . . . بمنزلة بين الخيانة والإثمِ

(175/491)

فقال ابن زياد : صدقت ! وطرد الواشي . وحاصل هذين البيتين اللَّين طرد بهما ابن زياد الواشي يتعرض للسولي بشوء بسببهما – هو هذا الدليل العظيم المذكور . فكأنه يقول له :

لا يخلو قولك هذا من أحد أمرين : إما أن أكون ائتمنتك على سرٍّ فأفشيته . وإما أن تكون قلته علي كذباً . ثم رجع بالسبر إلى القسمين المذكورين فبين أن الواشي مرتكب ما لا ينبغي على كل تقدير من التقديرين ، لأنه إذا كان ائتمنه على سر فأفشاه فهو خائن له ، وإن كان قال عليه ذلك كذباً وافتراءً فالأمر واضح .

المسألة السادسة

اعلم أن بين الدليل التاريخي العظيم يوضح غاية الإيضاح موقف المسلمين الطبيعي من الحضارة الغربية .

(176/491)

وبذلك الإيضاح التام يتميز النافع من الضار ، والحسن من القبيح ، والحق من الباطل . وذلك أن الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية المذكورة تشتمل على نافع وضار : أما النافع منها – فهو من الناحية المادية وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن ابينه . وما تضمنه من المنافع للإنسان أعظم مم كان يدخل تحت التصور ، فقد خدمت الإنسان خدمات هائلة من حين أنه جسد حيواني . وأما الضار 0 فهو إهمالها بالكلية للناحية التب هي راس كل خيرن ولا خير البتة في الدنيا بدونها ، وهي التربية الروحية

للإنسان وتهذيب أخلاقه . وذلك لا يكون إلا بنور الوحي السَّماوي الذي يوضح للإنسان طريق السعادة ، ويرسم له الخطط الحكمية في كل ميادين الحياة الدنيا والآخرة ، ويجعله على صلة بربه في كل أوقاته .

فالحضارة الغربية غنية بأنواع المنافع من الناحية الأولى ، مفلسة إفلاساً كلياً من الناحية الثانية .

ومعلوم أن طغيان المادة على الروح يهدد العالم أجمع بخطر داهمٍ ، وهلاك مستأصل ، كما هو شاهد الآن . وحل مشكلته لا يمكن البتة إلا بالاستضاءة بنور الوحي السماوي الذي هو تشريع خالق السماوات والأرض ، لأن من أطغته المادة حتى تمرد على خالقه ورازقه لا يفلح أبداً .

والتقسيم الصحيح يحصر أوصاف المحل الذي هو الموقف من الحضارة الغربية في أربعة أقسام لا خامس لها ، حصراً عقلياً لا شك فيه .

الأول ترك الحضارة المذكورة نافعها وضارها .

الثاني أخذها كلها وضارها ونافعها .

الثالث أخذ ضارها وترك نافعها .

الرابع أخذ نافعها وترك ضارها . فنرجع بالسبر الصحيح إلى هذه الأقسام الأربعة ، فنجد ثلاثةً منها باطلة بلا شك ، وواحداً صحيحاً بلا شك .

أما الثلاثة الباطلة : فالأول منها تركها كلها ، ووجه بطلانه واضح ، لأن عدم الاشتغال بالتقدم المادي يؤدي إلى الضعف الدائم ، والتواكل والتكاسل ، ويخالف الأمر السماوي في قوله جل وعلا : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : 60] الآية .

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى . . . حتَّى يراق على جوانبهِ الدم

القسم الثاني من الأقسام الباطلة – أخذها ، لأن ما فيها من الانحطاط الخلقي وضياع القيم الروحية والمثل العليا للإنسانية – أوضح من أن أبينه . ويكفي في ذلك ما فيها من التمرد على نظام السماء ، وعدم طاعة خالق هذا الكون جل وعلا ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] . ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ [الشورى : 21] . والقسم الثَّالث من الأقسام الباطلة – هو أخذ الضار وترك النافع ، ولا شك أن هذا لا يفعله من له اقل تميز . فتعينت صحة القسم الرابع بالتقسيم والسبر الصحيح ، وهو أخذ النافع وترك الضار .

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يفعل ، فقد انتفع بحفر الخندق في غزوة الأحزاب ، مع أن ذلك خطة عسكرية كانت للفرس ، أخبره بها سلمان فأخذ بها .

ولم يمنعه من ذلك أن أصلها للكفار . وقد هم صلى الله عليه وسلم بأن يمنع وطء المراضع خوفاً على أولادهن ، لأن العرب كانوا يظنون أن الغيلة (وهي وطء المراضع) تضعف ولدها وتضره ، ومن ذلك قول الشاعر :

فوارس لم يغالوا في رضاع . . . فتتبوا في أكفهم السيوف

فأخبرته صلى الله عليه وسلم فارس والروم بأنهم يفعلون ذلك ولا يضر اولادهم ، فأخذ صلى الله عليه وسلم منهم تلك الخطة الطيبة ، ولم يمنعه من ذلك أن أصلها من الكفار .

وقد انتفع صلى الله عليه وسلم بدلالة ان الأُرقط الدؤلي له في سفر الهجرة على الطريق ، مع انه كافر .

فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة العربية – هو أن يتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية ، ويحذورا مما جنته من التمر على خالق الكون جل وعلا فتصلح لهم الدنيا والآخرة . والمؤسف ! أن أغلبهم يعكسون القضية ، فيأخذون منها الانحطاط الخلقي ، والانسلاخ من الدين ، والتباعد من طاعة خالق الكون ، ولا يحصلون على نتيجة مما فيها من النفع المادي فخسروا الدينا والآخرة ذلك هو

الخسران المبين .

وما أحسن الدين والدنيا إذا اجمعا . . . وأقبح الكفر واللإفلاس بالرجل

وقد قدمنا طرفاً نافعاً في كون الدين لا ينافي التقدم المادي في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] فأغنى ذلك عن إعادته هنا . وقد عرف في تاريخ النَّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه – أنهم كانوا يسعوم في التقدم في جميع الميادين مع المحافظة على طاعة خالق السموات والأرض جل وعلا .

(179/491)

وأظهر الأقوال عندي في معنى العهد في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ أن المعنى : أم أعطاه اله عهداً أنه سيفعل له ذلك ، بدليل قوله تعالى في نظيره في سورة البقرة : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ ﴾ [البقرة : 80] . وخير ما يفسر به القرآن القرآن . وقيل : العهد المذكور : العم الصالح . وقيل شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه سيكتب ما قاله ذلك الكفار افتراء عليه . من أنه يوم القيامة يؤتى مالاً وولداً مع كفر بالله ، وأ ، ه يمتد له من العذاب مداً . قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ : أي يزيده عذاباً فوق عذاب . وقال الزمخشري في الكشاف : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ أي نطول له من العذاب ما يستأهله . ونعذبه بالنوع الذي يعذب به المستهزؤون . أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد ، يقال : مده وأمده بمعنى .

(180/491)

وتدل عليه قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ وتمد له ﴾ بالضم وأكد ذلك بالمصدر . وذلك من فرط غضب الله . نعوذ به من التعرض لما يستوجب غضبه اه .

وأصل المدد لغة : الزيادة ، ويدل لذلك المعنى قول تعالى في أكابر الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله : ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ (*) ﴾ [النحل : 88] ، وقوله في الأتباع والمتبوعين : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 38] .

وقوله في هذه الآية : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي ما يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من مال وولد ، أي

نسلبه منه في لدنيا ما أعطيناه من المال والولد بإهلاكنا إياه . وقيل : نحرمه ما تمناه من المال والولد في الآخرة ، ونجعله للمسلمين . ويدل للمعنى الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : 40] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ [الحجر : 23] كما تقدم إيضاحه في هذه السورة الكريمة .

وقوله : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ أي منفرداً لا مال له ولا ولد ولا خدم ولا غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] ، والآية ، وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ [مريم : 95] كما تقدم إيضاحه .

فإن قيل : كيف عبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة بحرف التنفيس الدال على الاستقبال في قوله ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ مع أن ما يقوله الكافر يكتب بلا تأخير . بدليل قوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] ؟

فالجواب أنا لزمخشري في كشافه تعرض للجواب عن هذا السؤال بما نصه : قلت فيه جهان : أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله : على طريقة قول زائد بن صعصعة الالفقعسي :

إذ ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . . ولم تجدي من أن تقري لها بدا

أي تبين وعلى بالانتساب أني لست بان لئيمة . والثاني – أن المتوعّد يقول للجاني : سوف أنتقم منك . يعني أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزما ن واستأجر ، فجردها هنا لمعنى الوعيد اه منه بلفظه . إلا أنا زدنا اسم قائل البيت وتكلمته .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أنه يكتب ما يقول هذا الكفار ذكر نحوه في مواضع متعددة من كتابه ، كقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : 21] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 80] ، وقوله تعالى : ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] ، وقوله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : 19] . وقوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ [آل عمران : 181] ، وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : 9–12] وقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] . وقوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 13–14] : إلى غير ذلك من الآيات .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار المتقدم ذكرهم في قوله : ﴿ وَنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 72] اتخذوا من دون الله آلهة أي معبوداتٍ من أصنام وغيرها يعبدونها من دون الله ، وانهم عبدوهم لأجل أن يكون لهم عزاً أي أنصاراً وشفعاء ينقذونهم ن عذاب الله . كما أوضح تعالى مرادهم ذلك في قوله : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] فتقريبهم إياهم إلى الله زلفى في زعمهم هو عزهم الذي أملوه بهم . وكقوله تعالى عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] الآية . فالشفاعة عند الموت عند الله عز لهم بهم يزعمونه كذباً وافتراءً على الله . كما بينه بقوله تعلى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأَرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ كلا ﴾ زجر وررزدع لهم عن ذلك الظن الفاسد الباطل . اي ليس الأمر كذلك ! لا تكون المعبودات التي عبدتم من دون الله عزاً لكم ، بل تكون بعكس

ذلك . فيكون عليكم ضداً ، اي أعواناً عليكم في خصوكتكم وتكذيبكم والتبرؤ منكم .

وأقوال العلماء في الآية تدور حول هذا الذي ذكرنا . كقول ابن عباس ﴿ ضداً ﴾ اي أعواناً وقول الضحاك ﴿ ضداً ﴾ أي أعداء . . وقول قتادة ﴿ ضِداً ﴾ أي قرناء في النار يعلن بعضهم بعضاً ، وكقول ابن عطية ﴿ ضداً ﴾ يجيئهم منهم خلاف ما أملوه فيؤول بهم ذلك إلى الذل والهوان ، ضد ما أملوه من العز .

(183/491)

وهذا المعنى الذي ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : بينه ايضاً في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 5-6] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : 13-14] إلى غير ذلك من الآيات . وضمير الفاعل في قوله : ﴿ سيكفرون ﴾ فيه وجهان للعلماء ، وكلاهما يشهد له قرآن . إلا أن لأحدهما قرينة ترجحة على الآخر .

الأول – أن واو الفاعل في قوله : ﴿ سيكفرون ﴾ راجعة إلى المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله . أما العاقل منها فلا إشكال فيه . وأما غير العاقل بالله قادر على أن يخلق له إدراكاً يخاطب به من عبده ويكفر به بعبادته إياه . ويدل لهذا الوجه قوله تعالى عنهم : ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هؤلاءآء شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

(184/491)

[النحل : 86] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس : 28–29] ، إلى غير ذلك من الآيات .

الوجه الثاني – أن العابدين هو الذين يكفرون بعبادتهم شركاءهم وينكرونها ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، وقوله عنهم : ﴿ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، وقوله عنهم ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ [غافر : 74] الآية ، إلى غير ذلك من

الآيات .

والقرينة المرجحة للوجه الأول – أن الضمير في قوله ﴿ وَيَكُونُونَ ﴾ راجع للمعبودات . وعليه فرجوع الضمير في ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ للمعبودات أظهر . لانسجام الضمائر بعضها مع بعض .

أما على القول الثاني – فإن يكون ضمير ﴿ يكفرون ﴾ للعابدين ، وضمير ﴿ يكونون ﴾ للمعبودين ، وتفريق الضامئر خلاف الظاهر . والعلم عند الله تعالى .

وقوله من قال من العلماء . إن ﴿ كلا ﴾ في هذه الآية متعلقة بما بعدها لا بما قبلها ، وأن المعنى : كلا سيكفرون اي حقاً سيكفرون بعبادتهم محتمل ، ولكن الأول أظهر منه وأرجح ، وقائله أكثر . والعلم عند الله تعالى ، وفي قوله ﴿ كلا ﴾ قراءات شاذة تركنا الكلام عليها لشذوذها .

ووقوله في هذه الآية : ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ أفرد فيه العز مع أن المراد الجمع . لأن أصله مصدر على حد قوله في الخلاصة :

ونعتوا بمصدر كثير . . . فالتزموا الإفراد والتذكيرا

والإخبار بالمصدر يجري على حكم النعت به . وقوله ﴿ ضداً ﴾ مفرداً أيضاً أريد به الجمع . قال ابن عطية : لأنه مصدر في الأصل . حكاه عنه أبو حيان في البحر . وقال الزمخشري : الضد العون ، وحد توحيد قوله عليه السلام : « هم يد على من سواهم » لاتفاق كلمتهم ، وأنهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم .

(186/491)

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83)

قوله : ﴿ أَرْسَلْنَا الشياطين ﴾ الآية : أي سلطانهم عليهم وقيضناهم لهم . وهذا هو الصواب . خلافاً لمن زعم أن معنى ﴿ أَرْسَلْنَا الشياطين ﴾ الآية : أي خلينا بينهم وبينهم ، ولم نعصمهم من شرهم . يقال : أسلت البعير اي خليته .

وقوله : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ : الأز والهز والاستفزاز بمعنى ، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج . فقوله ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ أي تهيجهم وتزعجهم إلى الكفر والمعاصي .

وأقوال أهل العلم في الآية راجعة إلى ما ذكرنا : كقول ابن عباس ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ : اي تغويهم إغْواءً « . وكقول مجاهد ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ : أي تشليهم إشلاءً . وكقول قتادة ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ أي تزعجهم إزعاجاً . وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة – من أنه

سلط الشياطين على الكافرين ، وقيضهم لهم يضلونهم عن الحق بينه في مواضع أخر من كتابة . كقوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : 25] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل ﴾ [الزخرف : 36-37] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس ﴾ [الأنعام : 128] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 202] ، إلى غير ذلك من الآيات .

(187/491)

قوله : ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا تستعجل وقوع العذاب بهم فإن الله حدد له أجلاً معيناً معدوداً . فإذا انتهى ذلك الأجل جاءهم العذاب . فقوله : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ اي نعد الأعوام والشهور والأيام التي دون وقت هلاكهم ، فإذا جاء الوقت المحدد لذلك أهلكناهم . والعرب تقول : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه .

ولما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة – من أن هلاك الكفار حدد له أجل معدود ذكره في مواضع كثيرة من كتابه . كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ

يلبثوا إلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف : 35] ، قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب ﴾ [العنكبوت : 53] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : 104] ، وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود : 8] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] ، قوله تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : 24] ، وقوله : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار ﴾ [البقرة : 126] الآية ، وقوله : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 17] إلى غير ذلك من الآيات .

وروي أن المأمون قرأ هذه السورة الكريمة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء . فأشار إلى ابن السماك أن يعظه . فقالك إنذا كانتا لأفاس بالعدد ولم يكن لها مدد ، فما اسرع ما تنفد .

والأظهر في الآية هو ما ذكرنا من أن العد المذكور عد الأعوام والأسام والسهور من أجل المحدد .

(188/491)

وقال بعض أهل العلم . هو عد أنفاسهم . كما أشار إليه ابن السماك في موعظته للمأمون التي ذكرنا إن صح ذلك . وعن ابن عباس رضي الله عنهما « أنه كان إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد : فراق أهلك . آخر العدد : دخول قبرك » .

وقال بعض اهل العلم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ اي نعد أعمالهم لنجازيهم عليها . والظّاهر هو ما قدمنا . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(189/491)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) ﴾

تفريع على قوله ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما متّ لسوف أخرج حياً ﴾ [مريم : 66] وما اتصل به من الاعتراض والتفريعات .

والمناسبة : أن قائل هذا الكلام كان في غرور مثل الغرور الذي كان فيه أصحابه .

وهو غرور إحالة البعث .

والآية تشير إلى قصة خبّاب بن الأرتّ مع العاصي بن وائل السهمي .

ففي "الصحيح" : أن خبّاباً كان يصنع السيوف في مكة ، فعمل للعاصي بن وائل سَيفاً

وكان ثمنه دَيناً على العاصي ، وكان خبّاب قد أسلم ، فجاء خبّاب يتقاضى دَينه من العاصي فقال له العاصي بن وائل : لا أقضيكه حتى تكفر بمحمّد ، فقال خبّاب (وقد غضب) : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثمّ يبعثك .

قال العاصي : أو مبعوثٌ أنا بعد الموت ؟ قال : نعم .

قال (العاصي متهكماً) : إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دَينَك" .

فنزلت هذه الآية في ذلك .

فالعاصي بن وائل هو المراد بالذي كفر بآياتنا .

والاستفهام في ﴿ أفرأيت ﴾ مستعمل في التعجيب من كفر هذا الكافر .

والرؤية مستعارة للعلم بقصته العجيبة .

نُزلت القصة منزلة الشيء المشاهد بالبصر لأنه من أقوى طرق العلم .

وعبر عنه بالموصول لما في الصلة من منشأ العجب ولا سيما قوله ﴿ لأُوتين مالاً وولداً ﴾ .

والمقصود من الاستفهام لفت الذهن إلى معرفة هذه القصة أو إلى تذكرها إن كان عالماً بها .

والخطاب لكل من يصلح للخطاب فلم يُرد به معيّن .

ويجوز أن يكون خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم

والآيات : القرآن ، أي كفر بما أنزل إليه من الآيات وكذب بها .

ومن جملتها آيات البعث .

والوَلَد : اسم جَمْع لوَلَد المفرد ، وكذلك قرأه الجمهور ، وقرأ حمزة والكسائي في هذه السورة في الألفاظ الأربعة "ووُلْد" بضمّ الواو وسكون اللام فهو جمع ولد ، كأسد وأسد .

(190/491)

وجملة ﴿ أطلّع الغيب ﴾ جواب لكلامه على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامه على ظاهر عبارته من الوعد بقضاء الدّين من المال الذي سيجده حين يبعث ، فالاستفهام في قوله ﴿ أطلع الغيب ﴾ إنكاري وتعجيبي .

و ﴿ أطّلع ﴾ افتعل من طلع للمبالغة في حصول فعل الطلوع وهو الارتقاء ، ولذلك يقال لمكان الطلوع مطْلَع بالتخفيف ومُطّلع بالتشديد .

ومن أجل هذا أطلق الاطلاع على الإشراف على الشيء ، لأنّ الذي يروم الإشراف على مكان محجوب عنه يرتقي إليه من عُلّو ، فالأصل أن فعل (اطّلع) قاصر غير محتاج إلى التعدية ، قال تعالى : ﴿ قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ [الصافات :

54 ، 55] ، فإذا ضُمن ﴿ اطّلع معنى أشرَف عُدي بحرف الاستعلاء كقوله تعالى : ﴿ لو اطَّلعتَ عليهم لولّيتَ منهم فراراً ﴾ وتقدّم إجمالاً في سورة الكهف (18) .

فانتصب الغيب ﴾ في هذه الآية على المفعولية لا على نزع الخافض كما توهمه بعض المفسرين .

قال في "الكشاف" : "ولاختيار هذه الكلمة شأنٌ ، يقول : أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب" أ هـ .

فالغيبُ : هو ما غاب عن الأبصار .

والمعنى : أأشرف على عالم الغيب فرأى مالاً وولداً معَدّينِ له حين يأتي يوم القيامة أو فرأى ماله وولده صائرين معه في الآخرة لأنه لما قال فسيكون لي مال وولد عنى أن ماله وولده راجعان إليه يومئذ أم عهد الله إليه بأنّه معطيه ذلك فأيقن بحصوله ، لأنه لا سبيل إلى معرفة ما أعد له يوم القيامة إلا أحد هذين إما مكاشفة ذلك ومشاهدته ، وإما إخبار الله بأنه يعطيه إياه .

ومتعلّق العهد محذوف يدلّ عليه السياق .

تقديره : بأن يعطيه مالاً وولداً .

و ﴿ عند ﴾ ظرف مكان ، وهو استعارة بالكناية بتشبيه الوعد بصحيفة مكتوبة بها تعاهُد وتعاقد بينه وبين الله موضوعة عند الله ، لأن الناس كانوا إذا أرادوا توثيق ما يتعاهدون عليه كتبوه في صحيفة ووضعوها في مكان حصين مشهور كما كتب المشركون صحيفة القطيعة بينهم وبين بني هاشم ووضعوها في الكعبة .

وقال الحارث بن حلزة:

حذر الجور والتطاخي وهل ينقض

ما في المهارق الأهواءُ

ولعلّ في تعقيبه بقوله ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ إشارة إلى هذا المعنى بطريق مراعاة النظير .

واختير هنا من أسمائه ﴿ الرحمن ﴾ ، لأن استحضار مدلوله أجدر في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر ، ولأن في ذكر هذا الاسم توركاً على المشركين الذين قالوا ﴿ وما الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] .

و ﴿ كَلاّ ﴾ حرف ردع وزجر عن مضمون كلام سابق من متكلّم واحد ، أو من كلام يحكى عن متكلم آخر أو مسموع منه كقوله تعالى : ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي ﴾ [الشعراء : 61 ، 62] .

والأكثر أن تكون عقب آخر الكلام المبطَل بها ، وقد تُقُدِّمَ على الكلام المبطَل للاهتمام

بالإبطال وتعجيله والتشويق إلى سماع الكلام الذي سيرد بعدها كما في قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح أسفر إنها لإحدى الكبر ﴾ [المدثر : 32 35] على أحد تأويلين ، ولِما فيها من معنى الإبطال كانت في معنى النّفي ، فهي نقيض إي وأجلْ ونحوهما من أحرف الجواب بتقدير الكلام السابق .

والمعنى : لا يقع ما حكى عنه من زعمه ولا من غرُوره ، والغالب أن تكون متبعة بكلام بعدها ، فلا يعهد في كلام العرب أن يقول قائل في ردّ كلام : كَلاّ ، ويسكت .

ولكونها حرف ردع أفادت معنى تامّاً يحسن السكوت عليه .

فلذلك جاز الوقف عليها عند الجمهور ، ومنع المبرد الوقف عليها بناء على أنها لا بد أن تُتبع بكلام .

وقال الفراء : مواقعها أربعة:

موقع يحسن الوقف عليها والابتداء بها كما في هذه الآية .

(192/491)

وموقع يحسن الوقف عليها ولا يحسن الابتداء بها كقوله : ﴿ فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهبا ﴾ [الشعراء : 14 ، 15] .

وموقع يحسن فيه الابتداء بها ولا يحسن الوقف عليها كقوله تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ [عبس : 11] .

وموقع لا يحسن فيه شيء من الأمرين كقوله تعالى:

﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ [التكاثر : 4] .

وكلام الفراء يبين أنّ الخلاف بين الجمهور وبين المبرد لفظي لأنّ الوقف أعم من السكوت التام .

وحرف التنفيس في قوله ﴿ سنكتب ﴾ لتحقيق أنّ ذلك واقع لا محالة كقوله تعالى : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ [يوسف : 98] .

والمد في العذاب : الزيادة منه ، كقوله : ﴿ فليمدد له الرحمان مداً ﴾ [مريم : 75] .

و ﴿ ما يقول ﴾ في الموضعين إيجاز ، لأنه لو حكي كلامه لطال .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ﴾ [آل عمران : 183] ، أي وبقربان تأكله النار ، أي ما قاله من الإلحاد والتهكم بالإسلام ، وما قاله من المال والولد ، أي سنكتب جزاءَه ونهلكه فنرثه ما سمّاه من المال والولد ، أي نرث أعيان ما ذكر أسماءه ، إذ لا يعقل أن يورث عنه قولُه وكلامه .

ف ﴿ ما يقول ﴾ بدل اشتمال من ضمير النصب في ﴿ نرثه ﴾ ، إذ التقدير : ونرث ولده وماله .

والإرث : مستعمل مجازاً في السلب والأخذ ، أو كناية عن لازمه وهو الهلاك .

والمقصود : تذكيره بالموت ، أو تهديده بقرب هلاكه .

ومعنى إرث أولاده أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله ، فإن العاصي وَلَدَ عمَراً الصحابي الجليل وهشاماً الصحابي الشهيد يوم أجنادين ، فهنا بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم ونكاية وكمد للعاصي بن وائل .

والفرد : الذي ليس معه ما يصير به عدداً ، إشارة إلى أنّه يحشر كافراً وحده دون ولده ، ولا مال له ، و ﴿ فرداً ﴾ حال .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) ﴾

(193/491)

عطف على جملة ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت ﴾ [مريم : 66] فضمير ﴿ اتخذوا ﴾ عائد إلى الذين أشركوا لأنّ الكلام جرى على بعض منهم .

والاتخاذ : جعل الشخص الشيءَ لنفسه ، فجعل الاتخاذ هنا الاعتقاد والعبادة .

وفي فعل الاتخاذ إيماء إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر الله به كما قال تعالى عن إبراهيم : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ [الصافات : 95] .

وفي قوله ﴿ من دون الله ﴾ إيماء إلى أن الحق يقتضي أن يتّخذوا الله إلهاً ، إذ بذلك تقرّر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليقة ، وعليه دلّت العقول الراجحة .

ومعنى ﴿ ليكون لهم عزاً ﴾ ليكونوا مُعزّين لهم ، أي ناصرين ، فأخبر عن الآلهة بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنّهم نفس العزّ ، أي إن مجرد الانتماء لها يكسبهم عزّاً .

وأجرى على الآلهة ضمير العاقل لأنّ المشركين الذين اتخذوهم توهموهم عقلاء مدبرين .

والضميران في قوله : ﴿ سيكفرون ويَكونون يجوز أن يَكونا عائدين إلى آلهة ، أي سينكر الآلهةُ عبادةَ المشركين إيّاهم ، فعبر عن الجحود والإنكار بالكفر ، وستكون الآلهة ذُلّاً ضد العزّ .

والأظهر أن ضمير سيكفرون ﴾ عائد إلى المشركين ، أي سيكفر المشركون بعبادة الآلهة فيكون مقابل قوله ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ .

وفيه تمام المقابلة ، أي بَعد أن تكلفوا جعلهم آلهةً لهم سيكفرون بعبادتهم ، فالتعبير بفعل ﴿ سيكفرون ﴾ يرجح هذا الحمل لأن الكفر شائع في الإنكار الاعتقادي لا في مطلق الجحود ، وأن ضمير ﴿ يكونون ﴾ للآلهة وفيه تشتيت الضمائر .

ولا ضير في ذلك إذ كان السياق يُرجع كلاًّ إلى ما يناسبه ، كقول عباس بن مرداس:

عُدنا ولولا نحن أحدق جمعهم . . .

بالمسلمين وأحرزوا ما جَمّعوا

أي : وأحرز جَمْع المشركين ما جمّعه المسلمون من الغنائم .

ويجوز أن يكون ضميرا ﴿ سيكفرون ويكونون راجعين إلى المشركين .

(194/491)

وأن حرف الاستقبال للحصول قريباً ، أي سيكفر المشركون بعبادة الأصنام ويدخلون في الإسلام ويكونون ضداً على الأصنام يهدمون هياكلها ويلعنونها ، فهو بشارة للنبيء بأن دينه سيظهر على دين الكفر .

وفي هذه المقابلة طباق مرتين .

والضد : اسم مصدر ، وهو خلاف الشيء في الماهية أو المعاملة .

ومن الثاني تسمية العدو ضدّاً .

ولكونه في معنى المصدر لزم في حال الوصف به حالة واحدة بحيث لا يطابق موصوفه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) ﴾

استئناف بياني لجواب سؤال يجيش في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من إيغال الكافرين في الضلال جماعتهم وآحادهم ، وما جرّه إليهم من سوء المصير ابتداء من قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مِتّ لسوف أخرج حياً ﴾ [مريم : 66] ، وما تخلل

ذلك من ذكر إمهال الله إياهم في الدنيا ، وما أعد لهم من العذاب في الآخرة .

وهي معترضة بين جملة ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ [مريم : 81] وجملة ﴿ يوم نحشر المتقين ﴾ [مريم : 85] .

وأيضاً هي كالتذييل لتلك الآيات والتقرير لمضمونها لأنها تَستخلص أحوالهم ، وتتضمن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إمهالهم وعدم تعجيل عقابهم .

والاستفهام في ﴿ ألم تر ﴾ تعجيبي ، ومثله شائع في كلام العرب يجعلون الاستفهام على نفي فعل .

والمراد حصول ضده بحثّ المخاطب على الاهتمام بتحصيله ، أي كيف لم تر ذلك ، ونزّل إرسال الشياطين على الكافرين لاتضاح آثاره منزلة الشيء المرئي المشاهد ، فوقع التعجيب من مَرآه بقوله : ألم تر ذلك .

والأزُّ : الهزّ والاستفزاز الباطني ، مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتد غليانها .

شبه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم واختلاق أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعة وسكون ، فهو استعارة فتأكيده بالمصدر ترشيح .

(195/491)

وإرسال الشياطين عليهم تسخيرهم لها وعدم انتفاعهم بالإرشاد النبّوي المنقد من حبائلها ، وذلك لكفرهم وإعراضهم عن استماع مواعظ الوحي .

وللإشارة إلى هذا المعنى عُدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله ﴿ على الكافرين ﴾ .

وجعل ﴿ تؤزهم ﴾ حالاً مقيّداً للإرسال لأنّ الشياطين مرسلة على جميع الناس ولكن الله يحفظ المؤمنين من كيد الشياطين على حسب قوّة الإيمان وصلاح العمل ، قال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : 42] .

وفرع على هذا الاستئناف وهذه التسلية قوله : ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ أي فلا تستعجل العذاب لهم إنما نُعدّ لهم عَدّاً ، وعبر بـ ﴿ تَعجل عليهم ﴾ معدى بحرف الاستعلاء إكراماً للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن نزل منزلة الذي هلاكهم بيده .

فنهى عن تعجيله بهلاكهم .

وذلك إشارة إلى قبول دعائه عند ربّه ، فلو دعا عليهم بالهلاك لأهلكهم الله كيلا يُردّ دعوة نبيئه صلى الله عليه وسلم لأنه يقال : عَجل على فلان بكذا ، أي أسرع بتسليطه عليه ، كما يقال : عجِل إليه إذا أسرع بالذهاب إليه كقوله : ﴿ وعجلت إليك ربّ لترضى ﴾ [طه : 84] ، فاختلاف حروف تعدية فعل عجل ينبىء عن اختلاف المعنى المقصود بالتعجيل .

ولعل سبب الاختلاف بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ في سورة

الأحقاف (35) أنّ المراد هنا استعجال الاستئصال والإهلاك وهو مقدّر كونه على يد النبي ، فلذلك قيل هنا : فلا تعجل عليهم ﴾ ، أي انتظر يومهم الموعود ، وهو يوم بدر ، ولذلك عقب بقوله : ﴿ إنّما نعدّ لهم عدّاً ، أي نُنظرهم ونؤجلهم ، وأنّ العذاب المقصود في سورة الأحقاف هو عذاب الآخرة لوقوعه في خلال الوعيد لهم بعذاب النار لقوله هنالك:

(196/491)

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف : 34 ، 35] .

والعدّ : الحساب .

و ﴿ إنّما ﴾ للقصر ، أي ما نحن إلا نَعُدّ لهم ، وهو قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً ، أي نعد لهم ولسنا بناسين لهم كما يظنون ، أو لسنا بتاركينهم من العذاب بل نؤخرهم إلى يوم موعود .

وأفادت جملة ﴿ إنما نعدّ لهم عدّاً ﴾ تعليل النهي عن التعجيل عليهم لأن ﴿ إنما ﴾ مركبة من (إنّ) و (ما) وإنّ تفيد التعليل كما تقدّم غير مرّة .

وقد استعمل العدّ مجازاً في قصر المدّة لأن الشيء القليل يُعدّ ويحسب .

وفي هذا إنذار باقتراب استئصالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(197/491)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) ﴾

نلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا هذا الشخص الذي قال هذه المقولة ولم يُعيّنه ، وإنْ كان معلوماً لرسول الله الذي خُوطب بهذا الكلام ؛ وذلك لأن هذه المقولة يمكن أنْ تُقال في زماننا وفي كل زمان ، إذنْ : فليس المهم الشخص بل القول نفسه . وقد أخبر عنه أنه أمية بن خلف ، أو العاصي بن وائل السَّهْمي .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ [مريم : 77] يعني : ألم تَرَ هذا ، كأنه يستدلّ بالذي رآه على هذه القضية ﴿ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] ويروي أنه قال : إنْ كان هناك بَعْثٌ فسوف أكون في الآخرة كما كنت في الدنيا ، صاحبَ مال وولد .

كما قال صاحب الجنة لأخيه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] .

والإنسان لا يعتزّ إلا بما هو ذاتيّ فيه ، وليس له في ذاتيته شيء ، وكذلك لا يعتز بنعمة لا يقدر على صيانتها ، ولا يصون النعمة إلا المنعِم الوهاب سبحانه إذن : فَلِمَ الاغترار بها ؟

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] .

ويقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الملك : 28] .

ثم يردُّ الحق تبارك وتعالى على هذه المقولة الكاذبة : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ ﴾

(198/491)

يعني : أَقُلْتَ هذا القول مُتطوّعاً به من عند نفسك ، أم اطلعتَ على الغيب ، فعرفتَ منه ما سيكون لك في الآخرة : ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 78] أي : أعطاه الله تعالى عهداً بأن يكون له في الآخرة كما له في الدنيا ، فإمّا هذه وإمّا هذه ، فأيُّهما توافرتْ لك حتى تجزم بهذا القول ؟

وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا

بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القيامة إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : 3539] .

والمراد : مَنْ يضمن لهم هذا الذي يدَّعونه ؟

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أدخل على مؤمن سروراً فقد أخذ العهد من الله " ، " ومَنْ صلى الصلوات بفرائضها وفي وقتها فقد أخذ العهد من الله " .

فمَنْ هؤلاء الذين لهم عَهْد من الله تعالى ألاَّ يدخلهم النار ؟

والعَهْد : الشيء الموثّق بين اثنين ، والعهد إنْ كان بين الناس فهو عَهْد غير موثوق به ، فقد ينفذ أو لا ينفذ ؛ لأن الإنسانَ أبنُ أغيار ، ويمكن أنْ تحُول الظروف بينه وبين ما وعد به ، أما إنْ كان العهد من الله تعالى المالك لكل شيء ، وليست هناك قوة تبطل إرادته تعالى ، فهو العَهْد الحقّ الموثوق به ، والذي لا يتخلف أبداً .

فحين تعاهد ربك على الإيمان فإنك لا تضمن ما يطرأ عليك من الأغيار ، أما حين يعاهدك ربك على الجزاء ، فثِقْ أنه نافذ لا يُخلَف .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن ينصحَ الإمام علياً رضي الله عنه قال : " أدعو الله أن يجعل لك عهداً في قلوب المؤمنين " .

أي : حُباً ومودة في قلوبهم ، وما دام أن الله أعطاه هذا العهد ، فهو نافذ مُحقَّق .

واختار هنا اسم الرحمن لما فيه من صفة الرحمانية التي تناسب المعونة على الوفاء .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾

كلا : أداة لنفي ما قيل قبلها وإبطاله ، أي : قوله : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 7778] ثم يأتي ما بعد كلا حُجة ، ودليلاً على النفي .

وقد ورد هذا الحرف (كَلاَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ * كَلاَّ ﴾ [الفجر : 1517] .

فالحق تبارك وتعالى ينفي الكلام السابق ؛ لأن النعمة وسَعَة الرزق ليست دليل إكرام ، كما أن الفقر وضِيق الرزق ليس دليل إهانةٍ ، فكلاهما ابتلاء واختبار كما أوضحتْ الآيات ، فإتيان النعمة في حَدِّ ذاته ليس هو النعمة إنما النعمة هي النجاح في الابتلاء في الحالتين .

فقد يعطيك الله المال فلا تصرفه فيما أحلَّ الله ، فيكون لك فتنة وتخفق في الاختبار ، إذن : لم يكرمك بالمال ، بل جعله لك وسيلة إغواء وإغراء ، فبيدك يتحوَّل المال إلى نعمة أو نقمة ، ويكون إكراماً أو إهانة .

وقوله تعالى :

﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ [مريم : 79] .

لقد جاءت كلمة (سَنَكْتُبُ) حتى لا يؤاخذه سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنه فعله ، ولكن بما كتب عليه وليقرأه بنفسه ، وليكون حجة عليه ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

(200/491)

يقول تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب في الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم ، أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ [مريم : 79] أي : يزيده في العذاب ، لأن المد هو أن تزيد الشيء ، ولكن مرة تزيد في الشيء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتي بخيط وتفرده إلى آخره ، وقد تصله بخيط آخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيده في العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾

أي : في حين ينتظر أنْ نزيدَه ونعطيه سنأخذ منه ﴿ وَنَرِثُهُ ﴾ [مريم : 80] أي : نأخذ منه كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : 40] .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ [القصص : 58] .

فكأن قوله تعالى : ﴿ وَنَرِثُهُ ﴾ [مريم : 80] تقابل قوله : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً ﴾ [مريم : 77] وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ [مريم : 80] تقابل ﴿ وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] ، فسيأتينا من القيامة فَرْداً ، ليس معه من أولاده أحد يدفع عنه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ﴾

آلهة : جمع إله ، وهو المعبود و الرب الذي أوجدك من عَدَم ، وأمدّك من عُدْم ، وتولاّك بالتربية ، فعطاء الألوهية تكليف وعبادة ، وعطاء الربوبية نِعَم وهِبَات . إذن : فمَنْ أَوْلى بعبادتك ومَنْ أحقّ بطاعتك ؟

هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة من شمس ، أو قمر ، أو حجر ، أو شجر ، بماذا تعبَّدتكم هذه الآلهة ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أي شيء نهتْكُم ؟ وبماذا أنعمتْ عليك ؟ وأين كانت وأنت جنين في بطن أمك ؟

إن أباك الذي رباك وأنت صغير وتكفَّل بكل حاجياتك ، وأمك التي حملتْك في بطنها وسهرتْ على راحتك ، هما أوْلَى الناس بطاعتك ، ولا ينبغي أنْ تُقدِّم على أمرهما أمراً .

أما أنْ يستحوذَ عليك آخرون ، ويكون لهم طاعتك وولاؤك دون أبويْك فهذا لا يجوز وأنت في رَيْعان شبابك وأَوْج قوتك .

لذلك ، من أصول التربية أنْ يُربّي الآباء أبناءهم على السمع والطاعة لهم ، ونُحذِّرهم من طاعة الآخرين خاصة غير المؤتمنين على التربية ، من العامة في الشارع ، أو أصدقاء السُّوء الذين يجرُّون الأبناء على مَا لا تُحمد عُقباه .

والآن نُحذّر أبناءنا من السَّيْر مع شخص مجهول ، أو قبول طعام ، أو شراب منه . وما نراه في عصرنا الحاضر يُغني عن الإطالة في هذه المسالة . هذه إذن مناعة يجب أنْ تُعطَى للأبناء ، كالمناعة ضد الأمراض تماماً .

وهكذا الحالُ فيمَنْ اتخذوا من دون الله آلهة وارتاحوا إلى إله لا تكليفَ له ولا مشقةَ في عبادته ، إله يتركهم يعبدونه كما يحلو لهم ، إنهم أخذوا عطاء الربوبية فتمتّعوا بنعمة الله ، وتركوا عطاء الألوهية فلم يعبدوه سبحانه وتعالى .

ولما كان الإنسان متديناً بطبعه فقد اختار هؤلاء ديناً على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، واتخذوا آلهة لا أمرَ لها ولا تكليفَ . ومن ذلك ما نراه من كثير من المثقفين الذين يأخذون

دين الله على هواهم ، ويطيعون أعداء الله في قضايا بعيدة كل البُعْد عن دين الله ، وهم أصحاب ثقافة وعقول ناضجة ، ومع ذلك يُقنعون أنفسهم أنهم على دين وأنهم على الحق

.

ثم يقول تعالى : ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ [مريم : 81] العز : هو الغَلَبة والامتناع من الغير ، بحيث لا ينال أحد منه شيئاً ، يقولون : فلان عزيز أي : لا يُغلب .

ولنا أن نسأل : ما العزة في عبادة هذه الآلهة ؟ وما الذي سيعود عليكم من عبادتها ؟

لذلك يردُّ عليهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾

(202/491)

كلا : تنفي أن يكون لهؤلاء عِزٌّ في عبادة ما دون الله ، بل ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ [مريم : 82] .

هذه الآلهة نفسها ستكفر بعبادتهم ، وتنكر أن تكون هي آلهة من دون الله ، وأكثر من ذلك ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] أي : في حين اتخاذها الكفار آلهة من دون الله وطلبوا العزة في عبادتها تنقلب عليهم ، وتكون ضِدّاً لهم وخَصْماً .

والضد : هو العدو المخالف لك ، والذي يحاول أنْ ينكِّل بك . وفي القرآن الكريم حوارات

كثيرة بين هذه المعبودات ومَنْ عبدوها ، فمثلاً الذين عبدوا الملائكة واتخذوها آلهةً من دون الله : يسأل الله الملائكة : ﴿ أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ ؟ [سبأ : 40] فيُجيبون : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : 41] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166]

.

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن هؤلاء : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : 5] .

إذن : ما ظنَّه الكفار عِزّاً ومَنَعة صار عليهم ضِدّاً وعداوة ، كالفتاة التي قالتْ لأبيها : يا أبتِ ما حملك على أنْ تقبلني مخطوبة لابن فلان ؟ أي : ماذا أعجبك فيه ؟ قال : يا بُنيّتي إنهم أهل عِزٍّ وأهل جاهٍ وشرف وأهل قوة ومنعة ، فقالت : يا أبتِ لقد قدَّرْتَ أن يكون بيني وبين ابنهم وُدٌّ ، ولم تُقدِّر أن يكون بيني وبينه كراهية ، فإن حدثتْ الكراهية سيكون ما قلته ضدك ، وستشْقى أنت بهذا العزّ وبهذا الجاه .

ومن الناس من اتخذ من المال إلهاً ، على حَدّ قَوْل الشاعر :

وَللمالِ قَوْمٌ إنْ بَدا المالُ قَائِلاً . . . أَنَا المالُ قالَ القومُ إيَّاكَ نعبُدُ

وهؤلاء الذين يعبدون المال ، ويروْن فيه القوة ، ويعتزُّون به لا يدرون أنه سيكون وَبَالاً ونَكالاً عليهم يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : 35] .

وهكذا ، كلما زاد حرصه على المال زاد كَيُّه . وتلحظ في الآية الترتيب الطبيعي لموقف السؤال حين يقف السائلُ الفقير أمام الغني اللئيم ، فأوّل ما يطالع السائل يتغيّر وجهه ، ثم يُشيح عنه بوجهه ، فيعطيه جَنْبه ، ثم يُدير له ظهره مُعْرِضاً عنه ، وبنفسِ هذا الترتيب يكون العذاب ويكون الكيُّ والعياذ بالله . وينقلب المال الذي ظَنّ العزة فيه إلى نكَالٍ ووبَالٍ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 6] .

حتى الجوارح التي تمتعتْ بمعصيتك في الدنيا ستشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] .

ذلك لأنك غفلتَ عمَّنْ كان يجب ألاَّ تغفل عنه ، وذكرت مَنْ كان يجب ألاَّ تذكره ، فالإله الحق الذي غفلْتَ عنه يطلبك الآن ويحاسبك ، والإله الباطل الذي اتخذته يتخلى عنك ويُسلمِك للهلاك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ﴾

الأزُّ : هو الهزُّ الشديد بعنف أي : تزعجهم وتُهيجهم ، ومثْله النزغ في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله ﴾ [الأعراف : 200] .

(204/491)

والأَزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل ليهيجه على المعصية والشر ، كما يأتي هذا المعنى أيضاً بلفظ الطائف ، كما في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 201] .

وهذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين ﴾ [مريم : 83] تثير سؤالاً : إذا كان الحق تبارك وتعالى يكره ما تفعله الشياطين بالإنسان المؤمن أو الكافر ، فلماذا أرسلهم الله عليه ؟

أرسل الله الشياطين على الإنسان لمهمة يؤدونها ، هذه المهمة هي الابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2]

.

إذن : فهم يُؤدُّون مهمتهم التي خُلِقوا من أجلها ، فيقفوا للمؤمن ليصرفوه عن الإيمان فيُمحص

الله المؤمنين بذلك ، ويُظهر صلابة مَنْ يثبت أمام كيد الشيطان .

وقلنا : إن للشيطان تاريخاً مع الإنسان ، بداية من آدم عليه السلام حين أَبى أن يطيع أمر الله له بالسجود لآدم ، فطرده الله تعالى وأبعده من رحمته ، فأراد الشيطان أنْ ينتقمَ من ذرية آدم بسبب ما ناله من آدم ، فقال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] .

وقال : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] .

وهكذا أعلن عن منهجه وطريقته ، فهو يتربص لأصحاب الاستقامة ، أما أصحاب الطريق الأعوج فليسوا في حاجة إلى إضلاله وغوايته .

لذلك نراه يتهدد المؤمنين : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ [الأعراف : 17] .

(205/491)

ومعلوم أن الجهات ست ، يأتي منها الشيطان إلا فوق وتحت ؛ لأنهما مرتبطتان بعزِّ الألوهية من أعلى ، وذُلِّ العبودية من أسفل ، حين يرفع العبد يديه لله ضارعاً وحين يخرُّ لله ساجداً ؛ لذلك أُغلِقَتْ دونه هاتان الجهتان ؛ لأنهما جهتا طاعة وعبادة وهو لا يعمل إلا في الغفلة ينتهزها من الإنسان .

والمتأمل في مسألة الشيطان يجد أن هذه المعركة وهذا الصراع ليس بين الشيطان وربه تبارك وتعالى ، بل بين الشيطان والإنسان ؛ لأنه حين قال لربه تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] التزم الأدب مع الله .

فالغواية ليست مهارة مني ، ولكن إغويهم بعزتك عن خَلْقك ، وتركُكَ لهم الخيارَ ليؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذه هي النافذة التي أنفذ منها إليهم ، بدليل أنه لا سلطانَ لي على أهلك وأوليائك الذين تستخلصهم وتصطفيهم : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 83] .

وهنا أيضاً يثار سؤال : إذا كان الشيطان لا يقعد إلا على الصراط المستقيم ليُضلَّ أهله ، فلماذا يتعرَّض للكافر ؟

نقول : لأن الكافر بطبعه وفطرته يميل إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم ، وها هو الكون بآياته أمامه يتأمله ، فربما قاده التأمل في كَوْن الله إلى الإيمان بالله ؛ لذلك يقعد له الشيطان على هذا المسلْك مسلْك الفكر والتأمل ليحُول بينه وبين الإيمان بالخالق عز وجل .

فالشيطان ينزغك ، إما ليحرك فيك شهوة ، أو ليُنسِيك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلَّا الشيطان ﴾ [الكهف : 63] .

وقال : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : 68] .

وكثير من الإخوان يسألون : لماذا في الصلاة بالذات تُلِحُّ علينا مشاكل الحياة ومشاغل الدنيا ؟

(206/491)

نقول : هذه ظاهرة صحية في الإيمان ، لأن الشيطان لولا علمه بأهمية الصلاة ، وأنها ستُقبل منك ويُغفر لك بها الذنوب ما أفسدها عليك ، لكن مشكلتنا الحقيقية أننا إذا أعطانا الشيطان طرفَ الخيط نتبعه ونغفل عن قَوْل ربنا تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله ﴾ [فصلت : 36] .

فما عليك ساعةَ أنْ تشعر أنك ستخرج عن خطِّ العبادة والإقامة بين يدي الله إلاَّ أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى وإنْ كنت تقرأ القرآن ، لك أنْ تقطعَ القراءة وتستعيذ بالله منه ، وساعةَ أن يعلم منك الانتباه لكيده وألاعيبه مرة بعد أخرى سينصرف عنك ويأس من الإيقاع بك .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً باللص ؛ لأنه لا يحوم حول البيت الخرب ، إنما يحوم حول البيت العامر ، فإذا ما اقترب منه تنبّه صاحب البيت وزجره ، فإذا به يلوذ بالفرار ، وربما قال اللص في نفسه : لعل صاحب البيت صاح مصادفة فيعاود مرة أخرى ، لكن صاحب

الدار يقظٌ منتبه ، وعندها يفرُّ ولا يعود مرة أخرى .

ويجب أن نعلم أن من حيل الشيطان ومكائده أنه إذا عَزَّ عليه إغواؤك في باب ، أتاك من باب آخر ؛ لأنه يعلم جيداً أن للناس مفاتيح ، ولكل منا نقطة ضعف يُؤتَى من ناحيتها ، فمن الناس مَنْ لا تستميله بقناطير الذهب ، إنما تستميله بكلمة مدح وثناء . وهذا اللعين لديه (طفاشات) مختلفة باختلاف الشخصيات .

لذلك من السهل عليك أنْ تُميِّز بين المعصية إنْ كانت من النفس أم من الشيطان : النفس تقف بك أمام شهوة واحدة تريدها بعينها ولا تقبل سواها ، فإنْ حاولتَ زحزحتها إلى شهوة أخرى أبتْ إلا ما تريد ، أما الشيطان فإنْ عزَّتْ عليك معصية دعاك إلى غيرها ، المهم أن يُوقِع بك .

(207/491)

فالحق تبارك وتعالى يُحذرنا الشيطان ؛ لأنه يحارب في الإنسان فطرته الإيمانية التي تُلح عليه بأن للكون خالقاً قادراً ، والدليل على الوجود الإلهي دليل فطري لا يحتاج إلى فلسفة ، كما قال العربي قديماً : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير . . سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟ !

وكذلك ، فكل صاحب صنعة عالم بصنعته وخبير بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] .

إذن : فالأدلة الإيمانية أدلة فطرية يشترك فيها الفيلسوف وراعي الشاة ، بل ربما جاءت الفلسفة فعقَّدتْ الأدلة .

ولنا وقفة مع قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين ﴾ [مريم : 83] ومعلوم أن عمل الشيطان عمل مستتر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : 27] .

فكيف يخاطب الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [مريم : 83] وهي مسألة لا يراها الإنسان ؟

نقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [مريم : 83] بمعنى ألم تعلم ؟ فعدَل عن العلم إلى الرؤيا ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] والنبي صلى الله عليه وسلم لم يَرَ هذه الحادثة ، فكيف يخاطبه ربه عنها بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [الفيل : 1] ؟

ذلك ، ليدلك على أن إخبار الله لك أصحُّ من إخبار عينك لك ؛ لأن رؤية العين بما تخدعك ، أمّا إعلام الله فهو صادق لا يخدعك أبداً . فعلمك من إخبار الله لك أَوْلَى وأوثق من علمك بحواسِّك .

والشياطين : جمعه شيطان ، وهو العاصي من الجنّ ، والجن خَلْق مقابل للإنسان قال الله عنهم : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾ [الجن : 11] فَمنْ هم دون الصالحين ، هم الشياطين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾

تمنّى النبي صلى الله عليه وسلم لو أن الله أراحه من رؤوس الكفر وأعداء الدعوة ، فقال تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ [مريم : 84] فالله يريد أنْ تطول أعمارهم ، وتسوء فعالهم ، وتكثر ذنوبهم ، فالكتبة يعدُّون عليهم ويُحْصُون ذنوبهم .

ومعنى : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ [مريم : 84] أنها مسألة ستنتهي ؛ لأن كل ما يُعَدّ ينتهي ، إنما الشيء الذي لا يُحصَى ولا يَعُدُّ فلا ينتهي ، كما في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] .

لأن نِعَم الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ ولا تنتهي ؛ لذلك سُبِقَتْ بإن التي تفيد الشكّ ، فهي مسألة لا يجرؤ أحد عليها ؛ لأن : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .

وها نحن نرى علم الإحصاء وما وصل إليه من تقدّم حتى أصبح له جامعات وعلماء متخصصون أدخلوا الإحصاء في كل شيء ، لكن لم يفكر أحد منهم أنْ يُحصِي نِعَم الله في كَوْنه ، لماذا ؟ لأن الإقبال على العَدّ معناه ظن أنك تستطيع أنْ تنتهي ، وهم يعلمون تماماً

أنهم مهما عَدُّوا ومهما أَحْصَوا فلن يصِلُّوا إلى نهاية .

إذن : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ [مريم : 84] نُحصي سيئاتهم ونَعدُّ ذنوبهم قبل أن تنتهي أعمارهم ، وكلما طالت الأعمار كثرتْ الذنوب ، وكل ما ينتهي بالعدد ينتهي بالمُدد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(209/491)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

أخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ ويقول الإنسان ﴾ الآية قال : قالها العاصي بن وائل .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ لسوف أخرج ﴾ برفع الألف ﴿ أولا يذكر الإنسان ﴾ خفيفة بنصب الياء ورفع الكاف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ جثياً ﴾ قال : قعوداً . وفي قوله ﴿ عتياً ﴾ قال : معصية .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ عتيا ﴾ قال : عصيا .

وأخرج الحاكم ، عن ابن عباس قال : لا أدري كيف قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ عتياً ﴾ أو ﴿ جثياً ﴾ فإنهما جميعاً بالضم .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي في البعث ، عن عبد الله بن باباه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين" .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ جثياً ﴾ برفع الجيم ﴿ وعتياً ﴾ برفع العين وصليا برفع الصاد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ حول جهنم جثياً ﴾ قال : قياماً .

وأخرج ابن المنذر . عن ابن جريج ﴿ ثم لننزعن ﴾ قال لنبدأن .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ثم لننزعن ﴾ الآية : قال : ﴿ لننزعن من كل ﴾ أهل دين قادتهم ورؤوسهم في الشر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾ قال : في الدنيا .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي الأحوص ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ الآية . قال : يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن ابن مسعود قال : يحشر الأوّل على الآخر ، حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً ، ثم قرأ ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ إلى قوله : ﴿ عتياً ﴾ . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لننزعن من كل شيعة ﴾ قال : من كل أمة أشد على الرحمن ﴿ عتياً ﴾ قال : كفراً .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ يقول : إنهم أولى بالخلود في جهنم .

وأخرج الحرث بن أبي أسامة وابن جرير بسند حسن عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم ، وزيد في سعتها كذا وكذا ، وجمع الخلائق بصعيد واحد ، جنهم وإنسهم ، فإذا كان ذلك اليوم قيضت هذه السماء الدنيا عن أهلها على وجه الأرض ، ولأهل السماء وحدهم أكثر من أهل الأرض جنهم وإنسهم بضعف ، فإذا نثروا على وجه الأرض ، فزعوا إليهم فيقولون : أفيكم ربنا ؟ فيفزعون من قولهم ويقولون : سبحان ربنا ! ليس فينا وهو آت .

ثم تقاض السماء الثانية ، ولأهل السماء الثانية وحدهم ، أكثر من أهل السماء الدنيا ، ومن جميع أهل الأرض ، بضعف جنهم وإنسهم ، فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض فيقولون : أفيكم ربنا ؟ فيفزعون من قولهم ، ويقولون : سبحان ربنا ! ليس فينا وهو آت ، ثم تقاض السموات : سماء سماء ، كلما قيضت سماء عن أهلها ، كانت أكثر من أهل السموات التي تحتها ، ومن جميع أهل الأرض بضعف ، فإذا نثروا على أهل الأرض ، يفزع إليهم أهل الأرض ، فيقولون لهم مثل ذلك ، فيرجعون إليهم مثل ذلك ، حتى تقاض السماء السابعة ، فلأهل السماء السابعة ، أكثر من أهل ست سموات ، ومن جميع أهل الأرض بضعف ، فيجيء الله فيهم ، والأمم جثيّ صفوف ، فينادي مناد : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ، ليقم الحامدون لله على كل حال ، فيقومون ، فيسرحون إلى الجنة ، ثم ينادي الثانية : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ، أين الذين كانت ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [السجدة : 16] فيقومون فيسرحون إلى الجنة ، ثم ينادي الثالثة ، ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؟ أين الذين ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون

يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ [النور : 37] فيقومون فيسرحون إلى الجنة . فإذا أخذ كل من هؤلاء ثلاثة ، خرج عنق من النار فأشرف على الخلائق له عينان تبصران ولسان فصيح فيقول : إني وكلت منكم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، فتلقطهم من الصفوف لقط الطير حب السمسم ، فتحبس بهم في جهنم ، ثم تخرج ثانية فتقول : إني وكلت منكم بمن آذى الله تعالى ورسوله ، فتلقطهم من الصفوف لقط الطير حَبَّ السمسم ، فتحبس بهم في جهنم ، ثم تخرج ثالثة فتقول : إني وكلت بأصحاب التصاوير ، فتلقطهم من الصفوف لقط الطير حب السمسم ، فتحبس بهم في جهنم ، فإذا أخذ من هؤلاء ثلاثة ، ومن هؤلاء ثلاثة : نشرت الصحف ، ووضعت الموازين

(212/491)

، ودعي الخلائق للحساب .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : يدخلونها جميعاً ﴿ ثم ينجي الله الذين اتقوا ﴾ فلقيت جابر بن عبد الله ، فذكرت له فقال : وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه صمتاً ، إن لم أكن

سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم ﴿ ثم ينجّي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس فقال ابن عباس : الورود الدخول : وقال نافع : لا .

فقرأ ابن عباس ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : 98] وقال : وردوا أم لا ، وقرأ ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ [هود : 98] أوردوا أم لا ، أما أنا وأنت فسندخلها ، فانظر هل نخرج منها أم لا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال : يردُهَا البَرّ والفاجر . ألم تسمع قوله : ﴿ فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ [هود : 98] وقوله : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ [مريم : 86] .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس : أن رجالاً من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – كانوا يطلبون العاص بن وائل بدين فأتوه يتقاضونه ، فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى . قال : فإن موعدكم

الآخرة . والله لأوتين مالاً وولداً ، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به . فقال الله : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ الآيات .

(213/491)

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن قال : كان لرجل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - دين على رجل من المشركين فأتاه يتقاضاه ، فقال ألست مع هذا الرجل ؟ قال : نعم . قال أليس يزعم أن لكم جنة وناراً وأموالاً وبنين ؟ قال : بلى . قال : اذهب ، فلست بقاضيك إلا ثمة . فأنزلت ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ إلى قوله : ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ أطلع الغيب ﴾ يقول : أطلعه الله الغيب ؟ يقول : ما له فيه ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ بعمل صالح قدمه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : لا إله إلا الله ، يرجو بها . والله أعلم .

وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ونرثه ما

يقول ﴾ قال : ماله وولده .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ قال : ماله وولده ، وذاك الذي قال العاص بن وائل .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ قال : ما عنده . وهو قوله : ﴿ لأوتين مالاً وولداً ﴾ في حرف ابن مسعود ﴿ ونرثه ما عنده ويأتينا فرداً ﴾ لا مال له ولا ولد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي نهيك أنه قرأ ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ برفع الكاف . قال : يعني الآلهة كلها ، إنهم ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ قال : أعواناً .

(214/491)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ قال : أوثانهم يوم القيامة في النار ، تكون عليهم عوناً ، يعني أوثانهم تخاصمهم وتكذبهم يوم القيامة في النار .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما – في قوله : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ قال : حسرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ قال : قرناء في النار يلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ قال : أعداء .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ ما الضد ؟ قال : قال فيه حمزة بن عبد المطلب :

وان تكونوا لهم ضداً نكن لكم . . . ضدا بغلباء مثل الليل مكتوم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ قال : تغويهم إغواء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ تؤزهم ﴾ قال : تحرض المشركين على محمد وأصحابه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ تشليهم أشلاء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ قال : تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ ألم تر أنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ قال : كقوله : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً ﴾ [الزخرف : 36] .

(215/491)

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ قال : توقدهم وقوداً . قال فيه الشاعر :

حكيم أمين لا يبالي بخلبة . . . إذا أزه الأقوام لم يترمرم

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنما نعد لهم عداً ﴾ يقول : أنفاسهم التي يتنفسون في الدنيا ، فهي معدودة ، كسنهم وآجالهم .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي جعفر محمد بن علي في قوله : ﴿ إنما نعد لهم عداً ﴾ قال : كل شيء حتى النفس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ :

عطفٌ بالفاء إيذاناً بإفادةِ التعقيبِ كأنه قيل : أَخْبَرَ أيضاً بقصة هذا الكافر عَقِيْبَ قصةِ أولئك . و " أَرَأَيْتَ " بمعنى أَخْبَرَني كما قد عَرَفْتَه . والموصولُ هو المفعول الأول ، والثاني هو الجملةُ الاستفهاميةُ مِنْ قولِه ﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ و " لأُوْتَيَنَّ " جوابُ قسمٍ مضمرٍ ، والجملةُ القسميةُ كُلُّها في محلِّ نصبٍ بالقول .

وقوله هنا : " وَوَلَداً " وفيها ﴿ قَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 88 ، 91] . موضعان . وفي الزخرف ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ [الآية : 81] وفي نوح ﴿ مَالُهُ وَوَلَدُهُ ﴾ [الآية : 21] . قرأ الأربعةَ الأخَوان بضم الواو وسكونِ اللام . وافقهما ابن كثير وأبو عمرو . . . على الذي في نوحٍ دون السورتين ، والباقون وهم نافعٌ وابن عامر وعاصمٌ قرؤوا ذلك كلَّه بفتح الواو واللام .

فأمَّا القراءةُ بفتحتين فواضحةٌ وهو اسمٌ مفردٌ قائمٌ مقامَ الجمع . وأمَّا قراءةُ الضمِّ

والإِسكانِ ، فقيل : هي كالتي قبلها في المعنى ، يقال : وَلَدَ ووُلْد ، كما يقال : عَرَب وعُرْب ، وعَدَمَ وعُدْم . وقيل : بل هي جمع لوَلَد نحو : أَسَد وأُسْد ، وأُنْشَدوا على ذلك :

3253- ولقد رَأَيْتُ معاشراً . . . قد ثَمَّروا مالاً ووُلْدا

وأنشدوا شاهداً على أنَّ الوَلَدَ والوُلْد مترادِفان الآخر :

3254- فَلَيْتَ فلاناً كان في بَطْنِ أمِّه . . . وليت فلاناً كان وُلْدَ حمارِ

وقرأ عبد الله ويحيى بن يعمر " ووِلْدا " بكسر الواو ، وهي لغةٌ في الوَلَد ، ولا يَبْعُدُ أَنْ يكون هذا من باب الذَّبْح والرَّعْي ، فيكون وِلْدٌ بمعنى مَوْلود ، وكذلك في الذي بفتحتين نحو : القَبَض بمعنى المَقْبوض .

قوله : ﴿ أَطَّلَعَ ﴾ :

(217/491)

هذه همزةُ استفهامٍ سَقَطَ من أجلها همزةُ الوصل . وقد قُرِئ بسقوطِها دَرْجاً وكَسْرِها ابتداءً على أنَّ همزةَ الاستفهام قد حُذِفَتْ لدلالةِ " أم " عليها كقوله :

3255- لَعَمْرُكَ ما أَدْري وإن كنتُ داريا . . . بسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أم بثمانِ

واطَّلع مِنْ قولِهم : اطَّلَعَ فلانٌ الجبلَ ، أي : ارتقى أَعْلاه . قال جرير :

3256- . . . . . لا

قَيْتُ مُطَّلَعَ الجِبالِ وُعُوْرا

ف " الغيبَ " ، مفعول به ، لا على إسقاط حرف الجر ، أي : على الغيبِ ، كما زعمه بعضُهم .

﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) ﴾

قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ : للنحويين في هذه اللفظةِ ستةُ مذاهبَ . أحدها : - وهو مذهبُ جمهور البصريين كالخليل وسيبويه وأبي الحسن الأخفش وأبي العباس - أنها حرفُ رَدْعٍ وزَجْر ، وهذا معنىً لائقٌ بها حيث وَقَعَتْ في القرآن ، وما أحسنَ ما جاءَتْ في هذه الآيةِ حيث زَجَرَتْ وَرَدَعَتْ ذلك القائلَ/ . والثاني : - وهو مذهبُ النَّضْر بن شميل أنها حرفُ تصديقٍ بمعنى نعم ، فتكون جواباً ، ولا بُدَّ حينئذٍ مِنْ أَنْ يتقدَّمَها شيءٌ لفظاً أو تقديراً . وقد تُسْتعمل في القسم . والثالث : - وهو مذهب الكسائي وأبي بكر بن الأنباري ونصير بن يوسف وابن واصل - أنها بمعنى حقاً . والرابع - وهو مذهبُ أبي عبد الله محمد بن الباهلي - أنها رَدٌّ لما قبلها وهذا قريبٌ من معنى الرَّدْع . الخامس : أنها صلةٌ في الكلام بمعنى " إي " كذا قيل . وفيه نظرٌ فإنَّ " إي " حرفُ جوابٍ ولكنه مختصٌّ بالقسم . السادس : أنها حرفُ استفتاحٍ وهو قولُ أبي حاتم . ولتقريرِ هذه المواضعِ موضوعٌ هو أليقُ بها قد حققتُها بحمدِ الله تعالى فيه .

وقد قُرِئ هنا بالفتح والتنوين في "كَلاَّ" هذه، وتُرْوى عن أبي نُهَيْك . وسيأتي لك ان الزمخشريَّ يحكي هذه القراءةَ ويَعْزِيْها لابن نُهَيْك في قوله: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ ﴾ [مريم: 82] ويحكي أيضاً قراءةً بضم الكاف والتنوين، ويَعْزِيْها لابن نهيك أيضاً . فأمَّا قولُه: " ابن نهيك " فليس لهم ابنُ نهيك، إنما لهم ابو نُهَيْك بالكُنْية .

وفي قراءةِ الفتحِ والتنوينِ أربعةُ اوجهٍ، أحدُها: أنه منصوبٌ على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ مِنْ لفظها تقديرُه: كَلُّوا كَلاًّ، أي: أَعْيَوْا عن الحق إعْياءً، أو كَلُّوا عن عبادةِ الله لتهاونِهم بها، من قولِ العرب: "كَلَّ السيفُ" إذا نَبا عن الضَّرْب، وكَلَّ زيد، أي: تَعِبَ . وقيل: المعنى: كَلُّوا في دَعْواهم وانقطعوا . والثاني: أنَّه مفعولٌ به بفعلٍ مقدرٍ من معنى الكلام تقديره: حَمَلُوا كَلاًّ، والكَلُّ أيضاً: الثِّقْل . تقول: فلان كَلٌّ على الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ ﴾ [النحل: 76] والثالث: أنَّ التنوينَ بدلٌ مِنْ ألف "كَلاَّ" وهي التي يُراد بها الرَّدْعُ والزَّجْر، فيكونُ صَرْفاً أيضاً .

قال الزمخشري : " ولقائلٍ أَنْ يقول : إنْ صَحَّتْ هذه الروايةُ فهي "كَلاَّ" التي للردع ، قَلَبَ الواقفُ عليها ألفَها نوناً كما في قوله : ﴿ قَوَارِيرَاْ ﴾ [الإنسان : 15] . قال الشيخ : " وهذا ليس بجيد لأنه قال : " التي للرَّدْع " والتي للرَّدْعِ حرفٌ ولا وجهَ لقَلْبِ ألفِها نوناً ، وتشبيهُه ب " قواريراً " ليس بجيدٍ لأن " قواريراً " اسمٌ رُجِعَ به إلى أصلِه ، فالتنوينُ ليس بدلاً مِنْ ألف بل هو تنوينُ الصَّرْف ، وهذا الجمعُ مختلفٌ فيه : أيتحتَّم مَنْعُ صَرْفه أم يجوز ؟ قولان ومنقول أيضاً أنَّ لغةَ بعضِ العرب يصرفون ما لا يَنْصَرِفُ فهذا القولُ : إمَّا على قولِ مَنْ لا يَرَى بالتحتُّم ، أو على تلك اللغة " .

والرابع : أنه نعتٌ ل " آلهة " قاله ابن عطية . وفيه نظرٌ ، إذ ليس المعنى على ذلك . وقد يظهر له وجهٌ : أن يكونَ قد وَصَفَ الآلهة بالكَلِّ الذي هو المصدرُ بمعنى الإعياءُ والعَجْز ، كأنه قيل : آلهةً كالَّيْنَ ، أي : عاجزين منقطعين ، ولمَّا وَصَفهم بالمصدر وَحَّده .

﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) ﴾

وروى ابن عطية والدانيُّ وغيرُه عن أبي نهيك أنه قرأ "كُلاَّ" بضم الكافِ والتنوين . وفيها تأويلان ، أحدهما : أن ينتصِبَ على الحالِ ، أي : سيكفرون جميعاً . كذا قَدَّره أبو البقاء واستبعدَه . والثاني : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ ، أي : يَرْفُضون أو يَجْحَدون أو يُتْرَكُون كُلاًّ ، قاله ابن عطية .

وحكى ابن جرير أنَّ أبا نهيك قرأ "كُلٌّ" بضم الكاف ورفع اللام منونةً على أنَّه مبتدأ ،

والجملةُ الفعليةُ بعد خبرُه . وظاهرُ عبارةِ هؤلاء أنه لم يُقرأ بذلك إلا في "كُلاَّ" الثانية .

وقرأ عليٌّ بن أبي طالب "ونُمِدُّ" مِنْ أَمَدَّ . وقد تقدَّم القولُ في مَدَّه وأمدَّه :

(220/491)

قوله : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 80] يجوز في "ما" وجهان ؛ أحدهما : أَنْ تكونَ مفعولاً بها . والضميرُ في "نَرِثُه" منصوبٌ على إسقاط الخافضِ تقديرُه : ونَرِثُ منه ما يقولُه . الثاني : أن تكونَ بدلاً من الضمير في "نَرِثُه" بدلَ الاشتمال . وقدَّر بعضُهم مضافاً قبل الموصولِ ، أي : نَرِثُه معنى ما يقول ، أو مُسَمَّى ما يقول ، وهو المال والولد ؛ لأنَّ نفس القول لا يُورَّث .

و"فَرْداً" : حال : إمَّا مقدَّرةٌ نحو : ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] أو مقارنةٍ ، وذلك مبنيٌّ على اختلافٍ في معنى الآية مذكور في الكشاف .

والضمير في ﴿ سَيَكْفُرُونَ ﴾ يجوز أن يعودَ على الآلهةِ لأنه أقربُ مذكور ، ولأنَّ الضميرَ في "يكونون" أيضاً عائدٌ عليهم فقط . ومثلُه : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ [النحل : 86] ثم قال : ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ . وقيل : يعود على المشركين" . ومثلُه قولُه : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] . إلا أنَّ فيه

عَدَمَ توافقِ الضمائرِ إذ الضميرُ في "يكونون" عائدٌ على الآلهة، و "بعبادتهم" مصدرٌ مضافٌ إلى فاعِلِه إنْ عاد الضميرُ في "عبادتهم" على المشركين العابدين، وإلى المفعولِ إنْ عاد إلى الآلهة.

(221/491)

وقوله: "ضِدّاً" إنما وَحَّده، وإن كان خبراً عن جَمْع، لأحدِ وجهين: إمَّا لأنَّه مصدرٌ في الأصلِ، والمصادرُ مُوَحَّدةٌ مُذَكَّرَةٌ، وإمَّا لأنه مفردٌ في معنى الجمع. قال الزمخشري: "والضِّدُّ: العَوْنُ، وُحِّدَ توحيدَ "وهم يَدٌ على مَنْ سواهم" لاتفاق كلمتِهم، وأنَّهم كشيءٍ واحدٍ لفَرْطِ تَضامُّهم وتوافُقِهم والضِّدُّ: العَوْن والمُعاوَنَة. ويقال: مِنْ أضدادكم، أي: أَعْوانكم". قيل: وسُمِّي العَوْنُ ضِدّاً لأنه يُضادُّ مَنْ يُعاديك ويُنافيه بإعانتِك له عليه. وفي التفسير: أنَّ الضدَّ هنا الأعداءُ. وقيل: القِرْن. وقيل: البلاءُ وهذه تناسِبُ معنى الآية.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) ﴾

قوله: ﴿ أَزّاً ﴾: مصدر مؤكِّدٌ والأَزُّ والأَزيز والهَزُّ والاستفزاز. قال الزمخشري: "أَخَواتٌ، وهو التَّهييجُ وشِدَّةُ الإزعاج". والأَزُّ أيضاً: شِدَّةُ الصوتِ، ومنه "أَزَّ المِرْجَلُ

أَزًّا " وأَزِيْزاً : أي : غلا واشتد غَلَيانُه حتى سُمع له صوتٌ . وفي الحديث : " فكان له أَزِيز " ، أي : للجِذْع حين فارقه النبيُّ [صلى الله] عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 634. 641 ﴾

(222/491)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ضد)

الضِّدّان : الشيئان اللذان تحت جنس واحد ، وينافى كلّ واحد منهما الآخر فى أَوصافه الخاصّة ، وبينهما أَبْعَد البُعْد ؛ كالسّواد والبياض ، والخير والشر .

وما لم يكونا تحت جنس واحد لا يقال لهما الضدّان ؛ كالحَلاوة والحركة .

قالوا : والضدّ أَحد المتقابلات ، فإِن المتقابلَين هما الشيئان المختلفان اللذان كلّ واحد قُبَالةَ الآخر ، ولا يجتمعان فى شىء واحد [فى وقت واحد] .

وذلك أَربعة أَشياء : الضدّان ؛ كالبياض والسّواد ، والمتضايِفان ؛ كالضِّعْف والنصف ، والوجود والعدم ، [و] كالبصر والعمى ، والموجِبة والسّالبة فى الأَخبار ، نحو : كلّ إِنسان

ههنا ، وليس كل إنسان بههنا .

وكثير من المتكلّمين وأَهل اللغة يجعلون كلّ ذلك من المتضادّات ، ويقولون : الضدّان : مالا يصحّ اجتماعهما فى محلّ واحد .

وقيل : الله تعالى لا نِدّ له ولا ضِدّ له ؛ لأَنَّ الندّ هو الاشتراك فى الجوهر ، والضدّ هو أَن يعتقب الشَّيئان المتنافيان فى جنس واحد ، والله تعالى منزَّه عن أَن يكون له جوهر ، فإِذاً لا ضدّ له ولا نِدّ .

والضَّدِيد بمعنى الضدّ ، والجميع : أَضداد ، يقال : / لاضدّ له ولا ضَدِيد ، أَى لا نظير له ولا كُفْء له .

وقال أَبو عمرو الضِدّ : مثل الشىء ، والضدّ : خلافه : (فُسّرا به) من الأَضداد .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ ، قال الفرّاءُ : أَى عَوْنا ، فلذلك وحَّده .

وقال عِكْرِمة : أَى أَعداء .

وقال الأَخفش : الضِدّ يكون واحدًا ويكون جمعًا .

وقال الأَزهرىّ : يعنى الأَصنام التى عبدها الكفَّار تكون أعوانًا على عابديها .

وضادّه ، وهما متضادّان ، أَى لا يجوز اجتماعهما فى وقت واحد ، كالليل والنَّهار . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 463 ـ 464 ﴾

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الإرسال)

وقد ورد فى التنزيل على سبعة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى التَّسليط ﴿ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أَى سُلِّطُوا .

الثَّانى : بمعنى البعث والتَّصديق : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ ﴿ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ .

الثالث : بمعنى الفتح : ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ .

الرّابع : بمعنى الإِخراج : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ ﴾ أَى مخرجوها .

الخامس : بمعنى التَّوجيه : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أَى وجّه ، ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾ .

السّادس : بمعنى الاطلاق من العذاب : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

السّابع : بمعنى إِنزال المَطَر : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ .

وأَصل الرّسْل الانبعاث على التؤدة ، ناقة رَسْلة : سهلة السّير ، وإِبل مَرَاسيل : منبعثة

انبعاثاً سهْلاً .

وسيأْتى فى باب الرّاءِ تمامُه إن شَاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 98 ﴾

(224/491)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) ﴾

أخْبِرْ بقصة ذلك الكافر الذي قال بيمين – من غير حجة – لأُعْطَيَنَّ مالاً وولداً ، ورأى أن يكون ليمينه تصديق ، فهل هو :

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78)

هل يقول ما يقول بتعريفِ منا ؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً ؟ ليس الأمر كذلك ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً ، أو أمَّلَ منه أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له ، ويَصْدُقُ ظَنُّه لأنه على عهد مع الله تعالى ، والله تعالى لا يخلف عهده .

﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) ﴾

كلا . . . ليس الأمر على ما يقول ، وليس لقولهم تحقيق ، بل سنمد لهم من العذاب مداً أي سنطيل في العذاب مدتهم .

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ . . . ﴾ لن نُمَتِّعَه بأولاده وَحَشمِه وخَدَمِهِ وقَوْمه ، ويعود إلينا منفرداً عنهم .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) ﴾

حكموا بظنهم الفاسدِ أنَّ أصنامَهم تمنعهم ، وأنَّ ما عبدوه من دون الله تعالى توجِبُ عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلةً . . . وهيهات ! هيهات أن تكون لمغاليط حسبانهم تحقيق ، بل إذا حُشِرُوا وحُشِرَتْ أصنامُهم تَبَرَّأَتْ أصنامُهم منهم ، وما أمَّلُوا نفعاً منها عاد ضرراً عليهم .

ويقال طلبوا العِزَّ في أماكن الذل ، فأخفقوا في الطلب ، ونُفُوا عن المراد .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) ﴾

تؤزهم أي تزعجهم ، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة ، وخاطر الحقِّ يكون بَروْحٍ وسكينة ، وهذه إحدى الدلائل بينهما .

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) ﴾

الأنفاس في الحكم معدودة ؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها . وإذا انتهى الأَجَلُ فلا تنفع بعد

ذلك الحِيَلُ ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 440 . 442 ﴾

(225/491)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/492)

الجزء الثانى والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 85 ﴾ من سورة مريم

وحتى الآية ﴿ 98 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/492)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين مآل حال الكافرين في آلهتهم ودليله ، أتبعه بوقته فقال : ﴿ يوم ﴾ أي يكفرون بعبادتهم يوم ﴿ نحشر المتقين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ؛ ولما تقدمت سورة النعم العامة النحل ، وأتبعت سورة النعم الخاصة بالمؤمنين وبعض العامة ، مثل ﴿ ولقد كرمنا بني

آدم ﴾ [الإسراء : 70] ، ثم سورتي الخاصة بالصالحين الكهف وهذه ، قال : ﴿ إلى الرحمن ﴾ فيدخلهم دار الرضوان ، فذكر الاسم الدال على عموم الرحمة ، وكرره في هذه السورة تكريراً دل على ما فهمته ، وربما أيد ذلك افتتاح النحل بنعمة البيان على هذا الإنسان التي عبر عنها بالخصيم ، وختام هذه بالقوم اللد من حيث رد مقطع هذه التي كانت بالنظر إلى النعم شيئاً واحداً على مطلعها ﴿ وفداً ﴾ أي القادمين في إسراع ورفعة وعلى ، كما تقدم الوفود على الملوك ، فيكونون في الضيافة والكرامة .

ولما ذكر ما يدل على كرامة أوليائه ، أتبعه ما يدل على إهانة أعدائه فقال : ﴿ ونسوق المجرمين ﴾ أي بالكفر وغيره من المعصية ، كالبهائم سوقاً عنيفاً مزعجاً حثيثاً ﴿ إلى جهنم ﴾ بسطوة المنتقم الجبار ﴿ ورداً ﴾ أي عطاشاً ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أي لا يملك أحد من القسمين أن يَشفَع ولا أن يشفَّع فيه ﴿ إلا من اتخذ ﴾ أي كلف نفسه واجتهد في أن أخذ ﴿ عند الرحمن عهداً ﴾ بما وفقه له من الإيمان والطاعة التي وعده عليها أن يشفع أو أن يشفع فيه ؛ فالآية من الاحتباك : ذكر الرحمن أولاً دليلاً على المنتقم ثانياً ، وجهنم ثانياً دليلاً على حذف الجنة أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 558.557 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم بين سبحانه ما سيظهر في ذلك اليوم من الفصل بين المتقين وبين المجرمين في كيفية الحشر فقال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال صاحب الكشاف : نصب يوم بمضمر أي يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف أو اذكر يوم نحشر ويجوز أن ينتصب بلا يملكون عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إن المتقين إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رحال الذهب " ثم تلا هذه الآية .

وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

قال القاضي هذه الآية أحد ما يدل على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين لأن المتقين من الابتداء يحشرون على هذا النوع من الكرامة فهم آمنون من الخوف فكيف يجوز أن تنالهم الأهوال ؟

المسألة الثانية :

المشبهة احتجوا بالآية وقالوا قوله : ﴿ إِلَى الرحمن ﴾ يفيد أن انتهاء حركتهم يكون عند

الرحمن وأهل التوحيد يقولون المعنى يوم نحشر المتقين إلى محل كرامة الرحمن .

المسألة الثالثة :

طعن الملحد فيه فقال قوله : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ هذا إنما يستقيم أن لو كان الحاشر غير الرحمن أما إذا كان الحاشر هو الرحمن فهذا الكلام لا ينتظم ، أجاب المسلمون بأن التقدير يوم نحشر المتقين إلى كرامة الرحمن أما قوله : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرداً ﴾ فقوله : ﴿ نَسُوقُ ﴾ يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء ، والورد اسم للعطاش ، لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش .

(6/492)

وحقيقة الورود السير إلى الماء فسمي به الواردون أما قوله : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ أي فليس لهم والظاهر أن المراد شفاعتهم لغيرهم أو شفاعة غيرهم لهم فلذلك اختلفوا ، وقال بعضهم : لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون وقال بعضهم : بل المراد لا يملك غيرهم أن يشفعوا لهم وهذا الثاني أولى لأن حمل الآية على الأول يجري مجرى إيضاع الواضحات وإذا ثبت ذلك دلت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر لأنه قال عقيبه :

﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ والتقدير أن هؤلاء لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم إلا إذا كانوا قد اتخذوا عند الرحمن عهداً التوحيد والنبوة فوجب أن يكون داخلاً تحته ومما يؤكد قولنا : ما روى ابن مسعود أنه عليه السلام قال لأصحابه ذات يوم :

" أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً ؟ قالوا ؛ وكيف ذلك ؟ قال : يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتبعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة " ، فظهر بهذا الحديث أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه دلالة الآية على أن الشفاعة لأهل الكبائر وقال القاضي : الآية دالة على مذهبه وقد ظهر أن الآية قوية في الدلالة على قولنا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 215.216 ﴾

(7/492)

وقال الماوردى :

﴿ . . . وَفْداً ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ركباناً ، قاله الفراء .

الثاني : جماعة ، قاله الأخفش .

الثالث : زوّاراً ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مشاة ، قاله الفراء .

الثاني : عطاشاً .

الثالث : أفراداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(8/492)

وقال ابن عطية :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن ﴾

(9/492)

و" الحشر " الجمع ، وقد صار في عرف ألفاظ الشرع البعث من القبور ، وقرأ الحسن يوم " الحشر المتقون ويساق المجرمون " ، وروي عنه " ويسوق المجرمين " بالياء . و" المتقون " هم المؤمنون الذين غفر لهم ، وظاهر هذه الوفادة أنها بعد انقضاء الحساب ، وإنما هي النهوض الى الجنة ، وكذلك سوق المجرمين إنما هو لدخول النار . و﴿ وفداً ﴾ قال المفسرون معناه ركباناً وهي عادة الوفود لأنهم سراة الناس وأحسنهم شكلاً فشبه أهل الجنة بأولئك لا أنهم في معنى الوفادة إذ هو مضمن الانصراف ، وإنما المراد تشبيههم بالوفد هيئة وكرامة ، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم يجيئون ركباناً على النوق المحلاة بحلية الجنة خطمها من ياقوت وزبرجد ونحو هذا ، وروي عن عمر بن قيس الملائي أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة هي في غاية الحسن ، وروي " أنهم يركب كل أحد منهم ما أحب فمنهم من يركب الإبل ومن يركب الخيل ومن يركب السفن فتجيء عائمة بهم " ، وقد ورد في الضحايا أنها مطاياكم إلى الجنة ، وفي أكثرها بعد ، لكن ذكرناه بحسب الجمع للأقوال و" السوق " يتضمن هواناً لأنهم يحفزون من ورائهم ، و" الورد " العطاش قاله ابن عباس وأبو هريرة والحسن ، وهم القوم الذين يحتفزون من عطشهم لورود لماء ، ويحتمل أن يكون المصدر المعنى نوردهم ﴿ ورداً ﴾ وهكذا يجعله من رأى في القرآن أربعة أوراد في النار وقد تقدم ذكر ذلك في هذه السورة ، واختلف المتأولون في الضمير في قوله ﴿ يملكون

﴿ فقالت فرقة : هو عائد على المجرمين ، أي ﴿ لا يملكون ﴾ أن يشفع لهم ولا سبيل لهم إليها ، وعلى هذا التأويل فهم المشركون خاصة ، ويكون قوله ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ استثناء منقطعاً ، أي لكن من اتخذ عهداً يشفع له ، والعهد على هذا الإيمان قال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله . وفي الحديث " يقول الله تعالى يوم القيامة من كان له عندي عهد فليقم " وفي الحديث " خمس صلوات كتبهن

(10/492)

الله على العباد فمن جاء بهن تامة كان له عند الله عهد أن يدخل الجنة " والعهد أيضاً الإيمان وبه فسر قوله ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] ويحتمل أن يكون " المجرمون " يعم الكفرة والعصاة ثم أخبر أنهم ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ إلا العصاة المؤمنون فإنهم يشفع فيهم فيكون الإستثناء متصلاً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله " فيقول يا محمد أنها ليست لك ولكنها لي . وقالت فرقة : الضمير في قوله ﴿ لا يملكون ﴾ للمتقين ، قوله ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ أي إلا من كان له عمل صالح مبرز يحصل به في حيز من يشفع وقد تظاهرت الأحاديث بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفعون ، روي عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن في أمتي رجلاً يدخل الله بشفاعته الجنة أكثر من بني تميم " ، قال قتادة : وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين ، وقال بعض هذه الفرقة معنى الكلام ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ أي لا يملك المتقون الشفاعة إلا لهذه الصنيفة فيجيء ﴿ من ﴾ في التأويل الواحد للشافعين ، وفي الثاني للمشفوع فيهم ، وتحتمل الآية أن يراد ب ﴿ من ﴾ محمد عليه السلام وبالشفاعة الخاصة لمحمد العامة للناس ، ويكون الضمير في ﴿ يملكون ﴾ لجميع أهل المواقف ، ألا ترى أن سائر الأنبياء يتدافعون الشفاعة حتى تصير إليه فيقوم إليها مدلاً ، فالعهد على هذا النص على أمر الشفاعة ، وقوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [الأسراء : 79] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(11/492)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين ﴾

قال بعضهم : هذا متعلق بقوله : "ويكونون عليهم ضداً ، يوم نحشر المتقين" وقال بعضهم : تقديره : اذكر لهم يوم نحشر المتقين ، وهم الذين اتَّقَوْا الله بطاعته واجتناب معصيته .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : "يَوم يحشُر" بياء مفتوحة ورفع الشين "ويَسُوق" بياء مفتوحة ورفع السين .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن البصري ، ومعاذ القارىء ، وأبو المتوكل الناجي : "يوم يُحشَر" بياء مرفوعة وفتح الشين "المتقون" رفعاً "ويُسَاق" بألف وياء مرفوعة "المجرمون" بالواو على الرفع .

والوفد : جمع وافد ، مثل : ركَبْ ، ورَاكِب ، وصَحْب ، وصاحِب .

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والفراء : الوفد : الركبان .

قال ابن الأنباري : الركبان عند العرب : ركَّاب الإِبل .

وفي زمان هذا الحشر قولان .

أحدهما : أنه من قبورهم إِلى الرحمن ، قاله علي بن أبي طالب .

والثاني : أنه بعد الحساب ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ ونسوق المجرمين ﴾ يعني : الكافرين ﴿ إِلى جهنم وِرداً ﴾ قال ابن عباس ، وأبو هريرة ، والحسن : عِطَاشاً .

قال أبو عبيدة : الوِرد : مصدر الورود .

وقال ابن قتيبة : الوِرد : جماعة يَرِدون الماء ، يعني : أنهم عطاش ، لأنه لا يَرِد الماءَ إِلا العطشان .

وقال ابن الأنباري : معنى قوله " "وِرْداً" : واردين .

قوله تعالى : ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أي : لا يشفعون ، ولا يُشفَع لهم .

قوله تعالى : ﴿ إلا من اتَّخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال الزجاج : جائز أن يكون "مَن" في موضع رفع على البدل من الواو والنون ، فيكون المعنى : لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ؛ وجائز أن يكون في موضع نصب على استثناءٍ ليس من الأول ، فالمعنى : لا يملك الشفاعة المجرمون ، ثم قال : "إلا" على معنى "لكن" ﴿ مَن اتخَذ عند الرحمن عهداً ﴾ فإنه يملك الشفاعة .

والعهد هاهنا : توحيد الله والإيمان به .

وقال ابن الأنباري : تفسير العهد في اللغة : تقدمة أمر يُعْلَم ويُحْفَظ ، من قولك : عهدت فلاناً في المكان ، أي : عرفته ، وشهدته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(12/492)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾

في الكلام حذف ، أي إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته .

كقوله : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : 99] وكما في الخبر : " من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " والوفد اسم للوافدين ، كما يقال : صَوْم وفَطْر وزَوْر ؛ فهو جمع الوافد ، مثل رَكْب وراكب وصَحْب وصاحب ، وهو من وفد يفد وَفْداً ووفوداً ووِفادة ، إذا خرج إلى ملك في فتح أو أمر خطير .

الجوهري : يقال وفد فلان على الأمير ، أي ورد رسولاً فهو وافد ، والجمع وفد مثل صاحب وصَحْب ، وجمع الوفد وِفاد ووفود ، والاسم الوِفادة وأوفدته أنا إلى الأمير ، أي أرسلته .

وفي التفسير : "وفداً" أي ركباناً على نجائب طاعتهم .

وهذا لأن الوافد في الغالب يكون راكباً ، والوفد الركبان ووحد ؛ لأنه مصدر .

ابن جريج : وفدا على النجائب .

وقال عمرو بن قيس الْمُلائي : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح ، فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك .

فيقول : كذلك كنتُ في الدنيا أنا عملك الصالح ، طالما ركبتك في الدنيا اركبني اليوم ، وتلا ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ وإن الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة وأنتن ريح ، فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا إلا أن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك .

فيقول : كذلك كنتُ في الدنيا أنا عملك السّيىء طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك .

وتلا ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] .

ولا يصح من قِبل إسناده .

قاله ابن العربي في "سراج المريدين" .

وذكر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري ، عن ابن عباس بلفظه ومعناه .

(13/492)

وقال أيضاً عن ابن عباس : من كان يحب ركوب الخيل وفد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تَبول ، لجمها من الياقوت الأحمر ، ومن الزبرجد الأخضر ، ومن الدر الأبيض ، وسروجها من السندس والاستبرق ، ومن كان يحب ركوب الإبل فعلى نجائب لا تَبْعَر ولا تبول ، أزمتها من الياقوت والزبرجد ، ومن كان يحب ركوب السفن فعلى سفن من زبرجد وياقوت ، قد أمنوا الغرق ، وأمنوا الأهوال .

وقال أيضاً عن علي رضي الله عنه : ولما نزلت الآية قال علي رضي الله عنه : يا رسول اللها إني قد رأيت الملوك ووفودهم ، فلم أر وفداً إلا ركباناً فما وفد الله ؟ فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " أما إنهم لا يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وزمامها الزبرجد فيركبونها حتى يقرعوا باب الجنة " ولفظ الثعلبي في هذا الخبر عن عليّ أبين .

وقال عليّ لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله ! إني رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفداً إلا ركباناً .

قال : " يا عليّ إذا كان المنصرَف من بين يدي الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمتها الذهب على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم مراكبهم فتهوي بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ " .

قلت : وهذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف ، وأما إذا خرجوا من القبور فمشاةً حُفاةً عُراة غُرلاً إلى الموقف ؛ بدليل حديث ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال :

" يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله تعالى حُفَاةً عُرَاة غُرْلاً " الحديث .

خرجه البخاري ومسلم ، وسيأتي بكماله في سورة "المؤمنون" إن شاء الله تعالى .

وتقدّم في "آل عمران" من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه والحمد لله تعالى .

ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء ، فيكون حديث ابن عباس مخصوصاً ؛ والله أعلم .

وقال أبو هريرة : "وفداً" على الإبل .

ابن عباس : ركباناً يؤتون بنوق من الجنة ؛ عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها .

وقال عليّ : ما يحشرون والله على أرجلهم ، ولكن على نوق رحالها من ذهب ، ونجب سروجها يواقيت ، إن هَمُّوا بها سارت وإن حركوها طارت .

وقيل : يفدون على ما يحبون من إبل أو خيل أو سفن ، على ما تقدّم عن ابن عباس .

والله أعلم .

وقيل : إنما قال "وفداً" لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالبِشارات ، وينتظرون الجوائز ، فالمتقون ينتظرون العطاء والثواب .

﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ السوق الحثّ على السير .

و"وِردا" عِطاشا ؛ قاله ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن .

والأخفش والفراء وابن الأعرابي : حفاة مشاة .

وقيل : أفراداً .

وقال الأزهري : أي مشاة عِطاشا ، كالإبل ترد الماء ؛ فيقال : جاء وِرد بني فلان .

القشيري : وقوله : "وِرداً" يدل على العطش ؛ لأن الماء إنما يورد في الغالب للعطش .

وفي "التفسير" : مشاة عِطاشاً تتقطع أعناقهم من العطش ، وإذا كان سوق المجرمين إلى النار فحشر المتقين إلى الجنة .

وقيل : "وِردا" أي الورود ؛ كقولك : جئتك إكراماً لك أي لإكرامك ، أي نسوقهم لورود النار .

قلت : ولا تناقض بين هذه الأقوال ، فيساقون عِطاشاً حفاة مشاة أفراداً .

قال ابن عرفة : الوِرد القوم يردون الماء ، فسمي العطاش ورداً لطلبهم ورود الماء ؛ كما تقول : قوم صَوْم أي صيام ، وقوم زَوْر أي زوّار ، فهو اسم على لفظ المصدر ، واحدهم وارد .

والوِرد أيضاً الجماعة التي ترد الماء من طير وإبل .

والورد الماء الذي يوردُ .

وهذا من باب الإيماء بالشيء إلى الشيء .

والورد الجزء (من القرآن) يقال : قرأت وِردي .

والوِرد يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت .

فظاهره لفظ مشترك .

وقال الشاعر يصف قَلِيبا :

يَطْمو إذا الوِرْدُ عليه الْتَكَّا . . .

أي الورّاد الذين يريدون الماء .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ أي هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشيء من غير جنسه ؛ أي لكن "من اتخذ عِند الرحمنِ عهداً" يشفع ؛ ف"من" في موضع نصب على هذا .

وقيل : هو في موضع رفع على البدل من الواو في "يملكون" ؛ أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ فإنه يملك ؛ وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً .

و"المجرمين" في قوله : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ يعم الكفرة والعصاة ، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون ، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول : يا محمد إنها ليست لك ولكنها لي " خرجه مسلم بمعناه ، وقد تقدّم .

وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيُشفَّعون ؛ وعلى القول الأول

يكون الكلام متصلاً بقوله : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ فلا تقبل غداً شفاعة عبدة الأصنام لأحد ، ولا شفاعة الأصنام لأحد ، ولا يملكون شفاعة أحد لهم ؛ أي لا تنفعهم شفاعة ؛ كما قال : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ [المدثر : 48] .

وقيل : أي نحشر المتقين والمجرمين ولا يملك أحد شفاعة ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ أي إذا أذن له الله في الشفاعة .

كما قال : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] .

وهذ العهد هو الذي قال "أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً" وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الأعمال الصالحة التي يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع .

وقال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله .

(16/492)

وقال مقاتل وابن عباس أيضاً : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوّة لله ، ولا يرجو إلا الله تعالى .

وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : " أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً " قيل : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال :

"يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك (فلا تكلني إلى نفسي) فإنك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقرِّبني من الشر وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعاً ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(17/492)

وقال أبو حيان :

وعدى ﴿ نحشر ﴾ بإلى ﴿ الرحمن ﴾ تعظيماً لهم وتشريفاً .

وذكر صفة الرحمانية التي خصهم بها كرامة إذ لفظ الحشر فيه جمع من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهر ، فجاءت لفظة ﴿ الرحمن ﴾ مؤذنة بأنهم يحشرون إلى من يرحمهم ، ولفظ السوق فيه إزعاج وهو إن عدِّي بإلى جهنم تفظيعاً لهم وتبشيعاً لحال مقرهم .

ولفظة الوفد مشعرة بالإكرام والتبجيل كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عنده .

وعن عليّ : على نوق رحالها ذهب ، وعلى نجائب سرجها ياقوت .

وعنه أيضاً إنهم يجيئون ركباناً على النوق المحلاة بحلية الجنة خطمها من ياقوت وزبرجد .

وروى عمرو بن قيس الملائي أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة هي في غاية الحسن ، روى أنه يركب كل أحد منهم ما أحب من إبل أو خيل أو سفن تجيء عائمة بهم .

والظاهر أن هذه الوفادة بعد انقضاء الحساب وأنها النهوض إلى الجنة كما قال ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ وشبهوا بالوفود لأنهم سراة الناس وأحسنهم شكلاً وليست وفادة حقيقية لأنها تتضمن الإنصراف من الموفود عليه ، وهؤلاء مقيمون أبداً في ثواب ربهم وهو الجنة والورد العطاش قاله ابن عباس وأبو هريرة والحسن ، والورد مصدر ورد أي سار إلى الماء .

قال الراجز :

ردي ردي ورد قطاة صماً . . .

كدرية أعجبها برد الماء

ولما كان من يرد الماء لا يرده إلاّ لعطش ، أطلق الورد على العطاش تسمية للشيء بسببه .

وقرأ الحسن والجحدري يحشر المتقون ويساق المجرمون مبنياً للمفعول ، والضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ عائد على الخلق الدال عليهم ذكر المتقين والمجرمين إذ هم قسماه ، والاستثناء

متصل و﴿ من ﴾ بدل من ذلك الضمير أو نصب على الاستثناء ﴿ ولا يملكون ﴾ استئناف إخبار .

وقيل : موضه نصب على الحال من الضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ ويكون عائداً على المجرمين .

والمعنى غير مالكين أن يشفع لهم ، ويكون على هذا الاستثناء منقطعاً .

(18/492)

وقيل : الضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ عائد على المتقين والمجرمين ، والاستثناء متصل .

وقيل : عائد على المتقين ، واتخاذ العهد هو العمل الصالح الذي يحصل به في حيِّز من يشفع .

وتظافرت الأحاديث على أن أهل العلم والصلاح يشفعون فيشفعون .

وفي الحديث : " إن في أمتي رجلاً يدخل الله بشفاعته أكثر من بني تميم " وقال قتادة : كنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين .

وقال بعض من جعل الضمير للمتقين : المعنى لا يملك المتقون ﴿ الشفاعة ﴾ إلاّ لهذا الصنف ، فعلى هذا يكون من اتخذ المشفوع فيهم ، وعلى التأويل الأول يكون من اتخذ الشافعين فالتقدير على التقدير الثاني ﴿ لا يملكون الشفاعة لأحد إلاّ من اتخذ ﴾ فيكون

في موضع نصب كما قال :

فلم ينج إلاّ جفن سيف ومئزرا . . .

أي لم ينج شيء إلا جفن سيف .

وعلى هذه الأقوال الواو ضمير .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون يعني الواو في ﴿ لا يملكون ﴾ علامة للجمع كالتي في أكلوني البراغيث ، والفاعل من ﴿ اتخذ ﴾ لأنه في معنى الجمع انتهى .

ولا ينبغي حمل القرآن على هذه اللغة القليلة مع وضوح جعل الواو ضميراً .

وذكر الأستاذ أبو الحسن بن عصفور أنها لغة ضعيفة .

وأيضاً قالوا : والألف والنون التي تكون علامات لا ضمائر لا يحفظ ما يجيء بعدها فاعلاً إلاّ بصريح الجمع وصريح التثنية أو العطف ، إما أن تأتي بلفظ مفرد يطلق على جمع أو على مثنى فيحتاج في إثبات ذلك إلى نقل ، وأما عود الضمائر مثناة ومجموعة على مفرد في اللفظ يراد به المثنى ، والمجموع فمسموع معروف في لسان العرب على أنه يمكن قياس هذه العلامات على تلك الضمائر ، ولكن الأحفظ أن لا يقال ذلك إلاّ بسماع .

وقال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب يعني من على تقدير حذف المضاف أي إلاّ شفاعة من ﴿ اتخذ ﴾ .

والعهد هنا .

قال ابن عباس : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله .

وفي الحديث : " من قال : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله كان له عند الله عهد " وقال السدي : العهد الطاعة .

(19/492)

وقال ابن جريج : العمل الصالح .

وقال الليث : حفظ كتاب الله .

وقيل : عهد الله إذنه لمن شاء في الشفاعة من عهد الأمير إلى فلان بكذا ، أي أمره به أي لا يشفع إلاّ المأمور بالشفاعة المأذون له فيها .

ويؤيده ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرحمن ﴾ ﴿ لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المجرمون يعم الكفرة والعصاة ثم أخبر أنهم ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ إلاّ العصاة المؤمنون فإنهم سيشفع فيهم ، فيكون الاستثناء متصلاً .

وفي الحديث : " لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلاّ الله ، فيقول : يا محمد إنها ليست لك ولكنها لي " انتهى .

وحمل المجرمين على الكفار والعصاة بعيد .

وقال ابن عطية أيضاً : ويحتمل أن يراد بمن اتخذ محمد عليه الصلاة والسلام وبالشفاعة الخاصة لمحمد العامة للناس .

وقوله تعالى ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ والضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ لأهل الموقف انتهى .

وفيه بعض تلخيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(20/492)

وقال أبو السعود :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين ﴾

منصوبٌ على الظرفية بفعل مؤخّرٍ قد حُذف للإشعار بضيق العبارةِ عن حصره وشرحِه لكمال فظاعةِ ما يقع فيه من الطامّة والدواهي العامة ، كأنه قيل : يوم نحشر المتقين أي نجمعهم ﴿ إِلَى الرحمن ﴾ إلى ربهم الذي يغمرُهم برحمته الواسعة ﴿ وَفْداً ﴾ وافدين عليه كما يفد الوفودُ على الملوك منتظِرين لكرامتهم وإنعامِهم .

﴿ وَنَسُوقُ المجرمين ﴾ كما تُساق البهائم ﴿ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ عِطاشاً فإن مَنْ يرد الماءَ

لا يوردُه إلا العطشُ ، أو كالدوابّ التي ترِد الماءَ نفعل بالفريقين من الأفعال ما لا يخفى ببيانه نطاقُ المقال ، وقيل : منصوبٌ على المفعولية بمضمر مقدمٍ خوطب به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، أي اذكر لهم بطريق الترغيبِ والترهيبِ يوم نحشر الخ ، وقيل : على الظرفية لقوله تعالى :

(21/492)

﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾

والذي يقتضيه مقامُ التهويلِ وتستدعيه جزالةُ التنزيل أن ينتصبَ بأحد الوجهين الأولَين ويكونُ هذا استئنافاً مبيناً لبعض ما فيه من الأمور الدالةِ على هوله ، وضميرُه عائداً إلى العباد المدلولِ عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما ، وقيل : إلى المتقين خاصة ، وقيل : إلى المجرمين من الكفرة وأهلِ الإسلام ، والشفاعةُ على الأولين مصدرٌ من المبنيّ للفاعل وعلى الثالث ينبغي أن تكون مصدراً من المبنيّ للمفعول وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ على الأول استثناءٌ متصلٌ مِن لا يملكون ، ومحلُّ المستثنى إما الرفعُ على البدل أو النصبُ على أصول الاستثناءِ والمعنى لا يملك العبادُ أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعَدّ له بالتحلّي بالإيمان والتقوى أو من أُمر بذلك ، من قولهم : عهدِ الأميرُ إلى فلان بكذا

إذا أمرَه به ، فيكون ترغيباً للناس في تحصيل الإيمانِ والتقوى المؤدّي إلى نيل هذه الرتبةِ ، وعلى الثاني استثناءٌ من الشفاعة على حذف المضافِ والمستثنى منصوبٌ على البدل أو على أصل الاستثناءِ ، أي لا يملك المتقون الشفاعةَ إلا شفاعةَ من اتخذ العهد بالإسلام فيكون ترغيباً في الإسلام ، وعلى الثالث استثناءٌ مِنْ لا يملكون أيضاً والمستثنى مرفوعٌ على البدل أو منصوبٌ على الأصل والمعنى لا يملك المجرمون أن يَشفع لهم إلا مَنْ كان منهم مسلماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(22/492)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن ﴾

أي ركباناً كما أخرجه جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهة قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقلت : يا رسول الله هل الوفد إلا الركب ؟ فقال عليه الصلاة والسلام

: " والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مثل مد البصر وينتهون إلى باب الجنة " الحديث ، وهذه النوقف من الجنة كما صرح به في حديث أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد .

وغيره موقوفاً على علي كرم الله تعالى وجهه ، وروي عن عمرو بن قيس أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة هي في غاية الحسن ، ويروى أنه يركب كل منهم ما أحب من إبل أو خيل أو سفن تجيء عائمة بهم ، وأصل الوفد جمع وافد كالوفود والأوفاد والوفد من وفد إليه وعليه يفد وفداً ووفوداً ووفادة وإفادة قدم وورد .

وفي النهاية الوفد هم القوم يجتمعون ويردون البلاد واحدهم وافد وكذلك الذين يقصدون الأمراء لزيارة واسترفاد وانتجاع وغير ذلك ، وقال الراغب : الوفد والوفود هم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج ، ومنه الوفد من الإبل وهو السابق لعيرها ، وهذا المعنى الذي ذكره هو المشهور ، ومن هنا قيل : إن لفظة الوفد مشعرة بالإكرام والتجيل حيث آذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفود الملوك وليس المراد حقيقة الوفادة من سائر الحيثيات لأنها تتضمن الانصارف من الموفود عليه والمتقون مقيمون أبداً في ثواب ربهم عز وجل .

والكلام على تقدير مضاف أي إلى كرامة الرحمن أو ثوابه وهو الجنة أو إلى دار كرامته أو نحو ذلك ، وقيل : الحشر إلى الرحمن كناية عن ذلك فلا تقدير ، وكان الظاهر الضمير بأن يقال يوم نحشر المتقين إلينا إلا أنه اختير الرحمن إيذاناً بأنهم يجمعون من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة إلى من يرحمهم .

قال القاضي : ولاختيار الرحمن في هذه السورة شأن ، ولعله أن مساق الكلام فيها لتعداد النعم الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها فكأنه قيل : هنا يوم نحشر المتقين إلى ربهم الذي غمرهم من قبل برحمته وشملهم برأفته وحاصله يوم نحشرهم إلى من عودهم الرحمة وفي ذلك من عظيم البشارة ما فيه ، وقد قابل سبحانه ذلك بقوله جل وعلا :

﴿ وَنَسُوقُ المجرمين ﴾ كما تساق البهائم ﴿ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ أي عطاشاً كما روي عن ابن عباس .

وأبي هريرة .

والحسن .

وقتادة .

ومجاهد ، وأصله مصدر ورد أي سار إلى الماء ، قال الراجز :

ردي ردي ورد قطاة صما . . .

كدرية أعجبها برداً لما

وإطلاقه على العطاش مجاز لعلاقة اللزوم لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش ، وجوز أن يكون المراد من الورد الدواب التي ترد الماء والكلام على التشبيه أي نسوقهم كالدواب التي ترد الماء ، وفي "الكشف" في لفظ الورد تهكم واستخفاف عظيم لا سيما وقد جعل المورد جهنم أعاذنا الله تعالى منها برحمته فلينظر ما بين الجملتين من الفرق العظيم .

وقرأ الحسن .

والجحدري ﴿ يُحْشَرُ المتقون كَرِهَ المجرمون ﴾ ببناء الفعلين للمفعول .

واستدل بالآية على أن أهوال القيامة تختص بالمجرمين لأن المتقين من الابتداء يحشرون مكرمين فكيف ينالهم بعد ذلك شدة ؛ وفي "البحر" الظاهر أن حشر المتقين إلى الرحمن وفداً بعد انقضاء الحساب وامتياز الفريقين وحكاه ابن الجوزي عن أبي سليمان الدمشقي وذكر ذلك النيسابوري احتمالاً بحثاً في الاستدلال السابق .

(24/492)

وأنت تعلم أن ذلك لا يتأتى على ما سمعت في الخبر المروى عن علي كرم الله تعالى وجهه فإنه صريح في أنهم يركبون عند خروجهم من القبور وينتهون إلى باب الجنة وهو ظاهر في

أنهم لا يحاسبون .

وقال بعضهم : إن المراد بالمتقين الموصوفون بالتقوى الكاملة ولا يبعد أن يدخلوا الجنة بلا حساب فقد صحت الأخبار بدخول طائفة من هذه الأمة الجنة كذلك ، ففي "الصحيحين" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : " عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن يكون أمتي فقيل : هذا موسى وقومه ثم قيل : انظر فرأيت سواداً كثيراً فقيل : هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر أصحابه فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم هؤلاء أبناؤنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون " والحديث .

وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعين ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي "

وأخرج الإمام أحمد .

والبزار .

والطبراني عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : هلا استزدته ؟ قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج بين يديه وبسط باعيه وحثى " قال هشام : هذا من الله عز وجل لا يدري ما عدده ؛ وأخرج الطبراني .

(25/492)

والبيهقي عن عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال : "احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً لا يخرج إلا إلى صلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه حدث حدث قال : لم يحدث الأخير إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً لا حساب وإني سألت ربي في هذه الثلاث أيام المزيد فوجدت ربي ماجداً كريماً فأعطاني مع كل واحد سبعين ألفاً " الخبر إلى غير ذلك من الأخبار وفي بعضها ذكر من يدخل الجنة بغير حساب بوصفه كالحامدين الله تعالى شأنه في السراء والضراء وكالذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع وكالذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى وكالذي يموت في طريق مكة ذاهباً أو راجعاً وكطالب العلم والمرأة المطيعة لزوجها والولد البار بوالديه وكالرحيم الصبور وغير ذلك ، ووجه الجمع بين الأخبار ظاهر ويلزم .

على تخصيص المتقين بالموصوفين بالتقوى الكاملة دخول عصاة المؤمنين في المجرمين أو عدم احتمال الآية على بيان حالهم ، واستدل بعضهم بالآية على ما روى من الخبر على عدم إحضار المتقين جثياً حول جهنم فما يدل على العموم مخصص بمثل ذلك فتأمل والله تعالى الموفق ، ونصب ﴿ يَوْمٍ ﴾ على الظرفية بفعل محذوف مؤخر أي يوم نحر ونسوق نفعل بالفريقين من الأفعال ما لا يحيط ببيانه نطاق المقال ، وقيل : على المفعولية بمحذوف مقدم خوطب به سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أي اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ ، وقيل : على الظرفية بـ ﴿ نعد ﴾ [مريم : 84] باعتبار معنى المجازاة ، وقيل : بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ [مريم : 82] .

وقيل بقوله جل وعلا ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] وقيل : بقوله تعالى شأنه :

(26/492)

﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ والذي يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الأولين ويكون هذا استئنافاً مبيناً لبعض ما في ذلك اليوم من الأمور الدالة على هوله ، وضمير الجمع لما يعم المتقين والمجرمين أي العباد مطلقاً وقيل : للمتقين ، وقيل : للمجرمين من أهل الايمان وأهل الكفر ﴿ والشفاعة ﴾ ، على الأولين مصدر

المبنى للفاعل وعلى الثالث ينبغي أن يكون مصدر المبني للمفعول .

وقوله تعالى : ﴿ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ استثناء متصل من الضمير على الأول ومحل المستثنى إما الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء ، والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من اتصف منهم بما يستأهل معه أن يشفع وهو المراد بالعهد ، وفسره ابن عباس بشهادة أن لا إله إلا الله والتبري من الحول والقوة عدم رجاء أحد إلا الله تعالى ، وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه .

والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قرأ الآية وقال : إن الله تعالى يقول يوم القيامة : "من كان له عني عهد فليقم فلا يقوم إلا من قال هذا في الدنيا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعله لي عهداً عندك تؤديه إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد" ، وأخرج ابن أبي شيبة عن مقاتل أنه قال : العهد الصلاح ، وروى نحوه عن السدي .

وابن جريج ، وقال الليث : هو حفظ كتاب الله تعالى ، وتسمية ما ذكر عهداً على سبيل التشبيه ، وقيل : المراد بالعهد الأمر والإذن من قولهم : عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به أي لا يملك العباد أن يشفعوا إلا من أذن الله عز وجل له بالشفاعة وأمره بها فإنه يملك ذلك ، ولا يأبى ﴿ عِندَ ﴾ الاتخاذ أصلاً فإنه كما يقال : أخذت الإذن في كذا يقال : اتخذته ، نعم في قوله تعالى : ﴿ عِندَ الرحمن ﴾ نوع إباء عنه مع أن الجمهور على الأول ، والمراد بالشفاعة على القولين ما يعم الشفاعة في دخول الجنة والشفاعة في غيره ونازع في ذلك المعتزلة فلم يجوزوا الشفاعة في دخول الجنة والاخبار تكذبهم ، فعن أبي سعيد الخدري قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل من أمتي ليشفع للفئام من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته وإن الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته ، وجوز ابن عطية أن يراد بالشفاعة الشفاعة العامة في فصل القضاء وبمن اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم وبالعهد الوهد بذلك في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] وهو خلاف الظاهر جداً ، وعلى الوجه الثاني في ضمير الجمع الاستثناء من الشفاعة بتقدير مضاف وهو متصل أيضاً .

وفي المستثنى الوجهان السابقان أي لا يملك المتقون الشفاعة إلا شفاعة من اتخذ عند

الرحمن عهداً ، والمراد به الايمان ، وإضافة المصدر إلى المفعول .

وقيل : المستثنى منه محذوف على هذا الوجه أي لا يملك المتقون الشفاعة لأحد إلا من اتخذ الخ أي إلا لمن اتصف بالايمان .

وجوز أن يكون الاستثناء من الشفاعة بتقدير المضاف على الوجه الأول في الضمير أيضاً ، وأن يكون المصدر مضافاً لفاعله أو مضافاً لمفعوله .

(28/492)

وجوز عليه أيضاً أن يكون المستثنى منه محذوفاً كما سمعت ، وعلى الوجه الثالث الاستثناء من الضمير وهو متصل أيضاً ، وفي المستثنى الوجهان أي لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان مؤمناً فإنه يملك أن يشفع له .

وقيل : الاستثناء على تقدير رجوع الضمير إلى المجرمين منقطع لأن المراد بهم الكفار ، وحمل ذلك على العصاة والكفار بعيد كما قال أبو حيان ، والمستثنى حينئذ لازم النصف عند الحجازيين جائز نصبه وإبداله عند تميم .

وجوز الزمخشري أن تكون الواو في ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ علامة الجمع كالتي في أكلوني البراغيث والفاعل ﴿ مَنِ اتخذ ﴾ لأنه في معنى الجمع .

وتعقبه أبو حيان بقوله : لا ينبغي حمل القرآن على هذه اللغة القليلة مع وضوح جعل الواو ضميراً ، وذكر الأستاذ أبو الحسن بن عصفور أنها لغة ضعيفة ، وأيضاً فالواو والألف والنون التي تكون علامات لا يحفظ ما يجيء بعدها فاعلاً إلا بصريح الجمع وصريح التثنية أو العطف إما أن يأتي بلفظ مفرد يطلق على جمع أو مثنى فيحتاج في إثباته إلى نقل ، وإما عود الضمائر مثناة ومجموعة على مفرد في اللفظ يراد به المثنى والمجموع فمسموع معروف في لسان العرب فيمكن قياس هذه العلامات على تلك الضمائر ولكن الأحوط أن لا يقال ذلك إلا بسماع انتهى .

وتعقبه أيضاً ابن المنير بأن فيه تعسفاً لأنه إذا جعل الواو علامة لمن ثم أعاد على لفظها بالإفراد ضمير ﴿ اتخذ ﴾ كان ذلك إجمالاً بعد إيضاح وهو تعكيس في طريق البلاغة التي هي الإيضاح بعد الاجمال والواو على إعرابه وإن لم تكن عائدة على من إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد لها ثم قال : فتنبه لهذا النقد فإنه أروج من النقد .

وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

انتهى ، ومنه يعلم القول بجواز رجوع الضمير لها أولاً باعتبار معناها وثانياً باعتبار لفظها لا يخلو عن كدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(29/492)

وقال القاسمي :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾

أي : وافدين عليه . وأصل الوفود القدوم على العظماء للعطايا والاسترفاد . ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم ، المزورِ والزائرِ .

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ أي : عطاشاً . وفي ذكرهم بالسَّوْق إشعار بإهانتهم واستخفافهم . كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورد : الذهاب إلى الماء ، ويطلق على الذاهبين إليه . وقوله تعالى :

﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾

الضمير لأصناهم المتقدم ذكرها في قوله : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ [81] ، ردٌّ على عابديهم في دعواهم أنهم شفعاؤهم عند الله . واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح . أي : لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى . وجوز أن يكون العهد بمعنى الإذن والأمر . يقال : أخذت الإذن في كذا واتخذته بمعنى . من باب عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به . أي : لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة ، المأذون له فيها . وتعضده مواضع في التنزيل : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : 26] ، ﴿ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ

إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : 23] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : 109] ، ونحوه هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : 86] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 119 ﴾

(30/492)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المتقين الذين كانوا يتقونه في دار الدنيا بامتثال أمره واجتناب نهيه يحشرون إليه يوم القيامة في حال كونهم وفداً . والوفد على التحقيق : جمع وافد كصاحب وصحب . وراكب وركب . وقدمنا في سورة « النحل » أن التحقيق أن الفعل بفتح فسكون من صيغ جموع الكثرة للفاعل وصفاً ، وبينا شواهد ذلك من العربية ، وإن أغفله الصرفيون . والوافد : من يأتي إلى الملك مثلاً في أمر له شأن . وجمهور المفسرين على أن معنى قوله ﴿ وفداً ﴾ أي ركباناً . وبعض العلماء يوقل : هو ركبان على نجائب

من نور من مراكب الدار الآخرة . وبعضهم يقول : يحشرون ركباناً على صور من أعمالهم الصالحة في الدنيا في غاية الحسن وطيب الرائحة .

(31/492)

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : قال ابن أبي حام حدثنا ابو سعيد الأشج ، حدثنا ابن خالد عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن مرزوق ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ فيقول : لا إلا أن الله قد طيب ريحك ، وحسن وجهك ، فيقول : أنا عملك الصالح ، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه ، فطالما ركبتك في الدنيا فهلم اركبني . فذلك قوله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ وقال علي بن طلحة عن ابن عباس ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : ركباناً « . وقال ابن جرير : حدثني ابن المثنى ، حدثني ابن مهدي عن سعيد عن إسماعيل عن رجل عن أبي هريرة » ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : على الإبل : « . وقال ابن جريج : على النجائب . وقال الثوري : على الإبل النوق . وقال قتادة ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : إلى الجنة . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد

في مسند أبيه : حدثنا سويد بن سعيد ، أخبرنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق ، حدثنا النعمان بن سعيد قال : كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه فقرأ هذه الآية ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : والله ما على أرجلهم يحشرون . ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم يرَ الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ! ! » وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به ، وزاد عليها : « رحائل من ذهب ، وأزمتها الزبرجد . . » « ، والباقي مثله . وروى ابن أبي حاتم هنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً عن علي قال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي ، حدثننا سلمة بن جعفر البجلي ، سمعت أبا معاذ البصري يقول :

إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ هذه الآية ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ فقال : ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم :

(32/492)

« وَالذي نفسي بيده ، إِنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيضٍ لها أَجنحة وعليها رحائل الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مد البصر ، فينتهوم إلى شجرةٍ ينبعُ من أصلها عينان فيشربون من إحداهما فتغسل ما في بطونهم في دنس ، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً ، وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة من ياقوت حمراء على صفائح الذهب . فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين يا علي . فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعث قيمها ليفتح له فإذا فإذا رآه خر له (قال سلمة : أراه قال ساجداً) فيقول ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك ، فيتبعه ويقفوا اثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه . . » إلى آخر الحديث بطوله . وفي آخر السياق : هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً . وقد رويناه في المقدمات من كلام علي رضي الله عنه ، وهو أشبه بالصحة . والله أعلم . وركوبهم المذكور إنما يكون من المحشر إلى الجنة ، أما من القبر فالظاهر أنهم يحشرون مشاة . بدليل حديث ابن عباس الدال على أنهم يحشرون حفاة عراة غرلاً . هذا هو الظاهر وجزم به القرطبي . والله تعالى أعلم .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ السوف معروف . والمجرمون : جمع تصحيح للمجرم ، وهو اسم فاعل الإجرام . والإجرام : ارتكاب الجريمةن وهو الذنب الذي يستحق صاحبه به النكال والعذاب . ولم يأت الإجرام في القرآن إلا من

أَجرم الرباعي على وزن أَفعل . ويجوز إتيانه في اللغة بصيغة الثلاثي فتقول : جَرم يجْرمُ كضرب يضرِب . والفاعل منه جارم ، والمفعول مجْروم ، كما هو ظاهر ، ومنه قوله عمرو بن البراقة النهمي :

وننصر مولانا ونعلم أنه . . . كما الناس مجروم عليه وجارمُ

(33/492)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ورداً ﴾ أي عطاشاً . وأصل الورد : الإتيان إلى الماء ، ولما كان الإتيان إلى الماء لا يكون إلا من العطش أطلق هنا اسم الورد على الجماعة العطاش ، أعاذنا الله والمسلمين من العطش في الآخرة والدنيا . ومن إطلاق الورد على المسير إلى الماء قول الراجز يخاطب ناقته :

ردي ردي ورد قطاة صما . . . كدرية أعجبها برد الما

واختلف العلماء في العامل الناصب لقوله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين ﴾ فقيل منصوب ب ﴿ يَمْلِكُونَ ﴾ [مريم : 87] بعده . أي لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين . واختاره أبو حيان في البحر . وقيل : منصوب ب « اذكر » أو احذر مقدراً . وفيه أقواله غير ذلك . وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة «

الزمر » : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين قِيلَ ادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 72-73] .

(34/492)

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

قد قدمنا في ترجمه هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في الآية وجهان أو أوجه من التفسير كلها حق ، وكل واحد منها يشهد له قرآن فإنا نذكر الجميع وأدلته من كتاب الله تعالى لأنه كله حق ، فإذا علمت ذلك فاعلم – أن هذه الآية الكريمة من ذلك النوع . قال بعض أهل العلم : الواو في قوله ﴿ لا يملكون ﴾ راجعة إلى ﴿ المجرمين ﴾ المذكورين في قوله ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ ﴾ [مريم : 86] اي لا يملك المجرمون الشَّفَاعة ، أي لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب . وهذا الوجه من التفسير تشهد هل آيات من كتاب الله . كقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ

شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ [المدثر : 48] ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100-101] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأَزِفَةِ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] الآية . وقوله : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] مع قوله : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ [الزمر : 7] ، إلى غير ذلك من الآيات .

(35/492)

وهذا الوجه يفهم منه بالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم ، لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم غيرهم لكفرهم فشفاعتهم في غيرهم ممتوعة من باب أولى . وعلى كون الواو في ﴿ لا يملكون ﴾ راجعة إلى ﴿ المجرمين ﴾ فالاستثناء منقطه و « من » في محل نصب . والمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يملكون الشفاعة ، أي بتمليك الله إياهم وإذنه لهم فيها . فيملكون الشافعون بما ذكرنا ويستحقها به المشفوع لهم ، قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، وقال : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ، وقال : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ ويرضى ﴾ [النجم : 26] .

وقال بعض أهل العلم : الواو في قوله ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ راجعة إلى « المتقين والمجرمين » جميعاً المذكورين في قوله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 85-86] وعليه فالاستثناء في قوله ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ : متصل . و ﴿ من ﴾ من بدل من الواو في « لا يملكون » اي لا يملك من جميعهم أحد الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون . والعهد : العمل الصالح . والقول بأنه لا إله إلا الله وغيره من الأقوال يدهل في ذلك . اي إلا المؤمنون فإنهم يشفع بعضهم في بعض . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : 109] . وقد بين تعالى في مواضع اخر : أن المعبودات التي يعبدونها من دون الله لا تملك الشفاعة ، وأن من شهد بالحق يملكها بإذن الله له في ذلك ، وهو قوله تعالى :

(36/492)

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ [الزخرف : 86] الآية : أي لكن من شهد بالحق يشفع بإذن الله له في ذلك . وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُبْلِسُ المجرمون وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الروم :

12-13] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ [يونس : 18] الآية . والأحاديث في الشفاعة وأنواعها كثيرة معروفة . والعلم عند الله تعالى .

وفي إعراب جملة ﴿ لا يملكون ﴾ وجهان : الأول - أنها حالية . اي نسوق المجرمين إلى جهنم في حال كونهم لا يملكون شفاعة . أو نحشر المتقين ونسوق المجرمين في حال كونهم لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ منهم عند الرحمن عهداً . والثاني - أنها مستأنفة للإخبار ، حكاه أبو حيان في البحر . ومن أقوال العلماء في العهد المذكور في الآية : أنه المحافظة على الصلوات الخمس ، واستدل من قال ذلك بحديث عبادة بن الصامت الذي قدمنا الكلام على قوله تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [مريم : 59] الآية .

(37/492)

وقال بعضهم : العهد المذكور : هو أن يقول العبد كل صباح ومساء . اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فلا تكلني إلى نفسي . فإنك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقربني من الشر ، وإني لا أثق إلا برحمتك . فاجعل لي عندك

عهداً توفينيه يوم القيامة نادى منادٍ اين الذين لهم عند الله عهد ؟ فيقوم فيدخل الجنة – انتهى . ذكره القرطبي بهذا اللفظ مرفوعاً عن ابن مسعود . وذكر صاحب الدر المنثور أنه أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححة ، وابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه ، وليس فيه قوله : فإذا قال ذلك الخ . وذكر صاحب الدر المنثور أيضاً : أن الحكيم الترمذي أخرج نحوه مرفوعاً عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

والظاهر أن المرفوع لا يصح . والذي يظهر لي أن العهد في الآية يشمل الإيمان بالله وامتثال أمره واجتناب نهيه . خلافاً لمن زعم أن العهد في الآية كقول العرب : عهد الأمير إلى فلان بكذا . اي أمره به . اي لا يشفع غلا من أمره الله بالشفاعة . فهذا القول ليس صحيحاً في المراد بالآية وإن كان صحيحاً في نفسه . وقد دلت على صحته آيات من كتاب الله . كقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، وقوله : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ ويرضى ﴾ [النجم : 26] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : 23] ، وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ [طه : 109] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 88] الآيات ، قد تكلمنا عليها وعلى الآيات التي بمعناها في القرآن في مواضع متعددة ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) ﴾

إتمام لإثبات قلة غَناء آلهتهم عنهم تبعاً لقوله : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ [مريم : 82] .

فجملة : ﴿ لا يملكون الشّفاعة ﴾ هو مبدأ الكلام ، وهو بيان لجملة : ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ .

والظرف وما أضيف الظرف إليه إدماجٌ بينت به كرامة المؤمنين وإهانة الكافرين .

وفي ضمنه زيادة بيان لجملة ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ بأنهم كانوا سبب سَوقهم إلى جهنم ورداً ومخالفتهم لحال المؤمنين في ذلك المشهد العظيم .

فالظرف متعلّق بـ ﴿ يملكون ﴾ وضمير ﴿ لا يملكون ﴾ عائد للآلهة .

والمعنى : لا يقدرون على أن ينفعوا من اتخذوهم آلهة ليكونوا لهم عزّاً .

والحشر : الجمع مطلقاً ، يكون في الخير كما هنا ، وفي الشرّ كقوله : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [

الصافات : 22 ، 23] ، ولذلك أتبع فعل ﴿ نحشر ﴾ بقيد ﴿ وَفداً ﴾ ، أي حَشْر الوفود إلى الملوك ، فإن الوفود يكونون مُكرمين ، وكانت لملوك العرب وكرمائهم وفود في أوقات ، ولأعيان العرب وفادات سنويّة على ملوكهم وسادتهم ، ولكلّ قبيلة وفادة ، وفي المثل : "إن الشّقِيّ وافد البراجم" .

وقد اتّبع العرب هذه السنّة فوفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم لأنّه أشرف السادة .

وسنةُ الوفود هي سنة تسع من الهجرة تلت فتحَ مكة بعموم الإسلام بلاد العرب .

وذكر صفة ﴿ الرَّحمن ﴾ هنا واضحة المناسبة للوفد .

والسوق : تسيير الأنعام قُدام رعاتها ، يجعلونها أمَامهم لترهب زجرهم وسياطهم فلا تتفلّت عليهم ، فالسوق : سير خوفٍ وحذر .

وقوله ﴿ ورداً ﴾ حال قصد منها التشبيه ، فلذلك جاءت جامدة لأن معنى التشبيه يجعلها كالمشتق .

والوِرد بكسر الواو : أصله السير إلى الماء ، وتسمى الأنعامُ الواردة وِرداً تسمية على حذف المضاف ، أي ذات ورد ، كما يسمى الماء الذي يرده القوم ورداً .

(39/492)

قال تعالى : ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ [هود : 98] .

والاستثناء في ﴿ إلاّ من اتخذ عند الرحمان عهداً ﴾ استثناء منقطع ، أي لكن يملك الشفاعة يومئذ من اتخذ عند الرحمان عهداً ، أي من وعده الله بأن يشفع وهم الأنبياء والملائكة .

ومعنى ﴿ لا يملكون ﴾ لا يستطيعون ، فإنّ المِلك يطلق على المقدرة والاستطاعة .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ في سورة العقود (76) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(40/492)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) ﴾

الحق تبارك وتعالى أعطانا صوراً متعددة ومشاهد مختلفة ليوم القيامة ، فأعطانا صورة للمعبود الباطل ، وللعابدين للباطل ، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش ، وأعطانا صورة لمن تعاونوا على الشر ، ولِمَنْ تعاونوا على الخير . وهذه صورة أخرى تعرض للمتقين في ناحية ، والمجرمين في ناحية ، فما هي صورة المتقين ؟

نحشر : أي : نجمع ، والوفد هم الجماعة تردُ على المِلك لأخْذ عطاياه ، جمعها وفود ، والواحد وافد . وهذه حال المتقين حين يجمعهم الله يوم القيامة وَفْداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى . ولا تظن أنهم يُحشَرون ما شين مثلاً ، لا ، بل كل مؤمن تقي يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها ، رَحْلها من ذهب ، وأزمّتها من الزبرجد .

وفي المقابل يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ ﴾

نسوق : والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] ولم يقل مثلاً : نقودهم ؛ لأن القائد يكون من الأمام ، وربما غافله أحدهم وشرد منه .

وقوله تعالى : ﴿ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] الوِرْد : هو الذَّهَاب للماء لطلب الريّ ، أما النار فمحلُّ اللظى والشُّواظ واللهب والحميم . فلماذا سُمّي إتيان النار بحرّها وِرْداً ؟

وهذا تهكُّم بهم ، كما جاء في آيات أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه ﴾ [الكهف : 29] .

وأنت ساعةَ تسمع (يغاثوا) تنتظر الخير وتأمل الرحمة ، لكن هؤلاء يُغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] في توبيخ عُتَاة

الكفر والإجرام . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : 7] والبشرى لا تكون إلا بشيء . سَار .

(41/492)

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] تهكُّم ، كما تقول للولد المهمل الذي أخفق في الامتحان : مبروك عليك السقوط .

ثم يقول تعالى : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ ﴾

الكافر حين يباشر العذاب يطمع أول ما يطمع في أن يشفعَ له مبعوده ، ويُخرجه ممَّا هو فيه لكِنْ هيهات ، ألم تقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 56] .

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء يوم القيامة : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ [مريم : 87] لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن أخذ الإذن بها ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 87] .

والعهد الذي تأخذه على الله بالشفاعة أنْ تُقدِّم من الحسنات ما يسع تكاليفك أنت ، ثم

تزيد عليها ما يؤهلُك لأن تشفع للآخرين ، والخير لا يضيع عند الله ، فما زاد عن التكليف فهو في رصيدك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ولا يهمل مثقال ذرة .

وعلى المؤمن مهما كان مُسْرفاً على نفسه ساعةَ يرى إنساناً مُقبلاً على الله مُستزيداً من الطاعات أنْ يدعوَ له بالمزيد ، وأن يفرح به ؛ لأن فائض طاعاته لعله يعود عليك ، ولعلك تحتاج شفاعته في يوم من الأيام . أما مَنْ يحلو لهم الاستهزاء والسخرية من أهل الطاعات ، كما أخبر الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ ﴾ [المطففين : 2932] .

(42/492)

فكيف ستقابل أهل الطاعات ، وتطمع في شفاعتهم بعد ما كان منك ؟ فإنْ لم تكُنْ طائعاً فلا أقلَّ من أنْ تحب الطائعين وتتمسح بهم ، فهذه في حَدِّ ذاتها حسنةٌ لك ترجو نفعها يوم القيامة .

وما أشبه الشفاعة في الآخرة بما حدث بيننا من شفاعة في الدنيا ، فحين يستعصي عليك

قضاءُ مصلحة يقولون لك : اذهب إلى فلان وسوف يقضيها لك . وفعلاً يذهب معك فلان هذا ، ويقضي لك حاجتك ، فلماذا قُضِيتْ على يديه هو ؟ لا بُد أن له عند صاحب الحاجة هذه أياديَ لا يستطيع معها أنْ يرد له طلباً .

إذن : لا بُدَّ لمن يشفع أن يكون له رصيد من الطاعات يسمح له بالشفاعة ، وإذا تأملت لوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مَنْ قدّم رصيداً إيمانياً وسع تكليفه وتكليف أمته ، ألم يخبر عنه ربه بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 61] لذلك وجبت له الشفاعة ، وأُذِن له فيها .

والحق تبارك وتعالى لا يغفل الرصيد في خَلقه أبداً ، فكل ما قدَّمت من طاعات فوق ما كلَّفك الله به مُدَّخَر لك ، حتى إن الإنسان إذا اتُّهِم ظلماً ، وعُوقِب على عمل لم يرتكبه فإن الله يدَّخرها له ويستر عليه ما ارتكبه فعلاً فلا يُعاقب عليه .

فالعهد إذن في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 87] أن تدخل مع ربك في مقام الإحسان ، ولا يدخل هذا المقام إلا مَنْ أدَّى ما عليه من تكليف ، وإلا فكيف تكون مُحسِناً وأنت مُقصِّر في مقام الإيمان ؟

وأقرأ إنْ شئت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [الذاريات : 1516] ما العلة ؟ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن

الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 1619] .

(43/492)

فالمحسن مَنْ يُؤدِّي من الطاعات فوق ما فرض الله عليه ، ومن جنس ما فرض ، فالله تعالى لم يُكلِّفنا بقيام الليل والاستغفار بالأسحار ، ولم يفرض علينا صدقة للسائل والمحروم ، ولا بُدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين (حق) و (حق معلوم) هنا قال (حق) فقط ؛ لأن الكلام عن الصدقة أما الحق المعلوم ففي الزكاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(44/492)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) ﴾

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن ابن عباس في قوله :

﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال : ركباناً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن أبي هريرة ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال : على الإبل .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال : على نجائب رواحلها من زمرد وياقوت ، ومن أي لون شاء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال : إلى الجنة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الربيع ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال : يفدون إلى ربهم ، فيكرمون ويعطون ويحيون ويشفعون .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا " .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي ، " عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال : أما والله ما يحشرون على أقدامهم ، ولا يساقون

سوقاً ، ولكنهم يؤتون من الجنة ، لم تنظر الخلائق إلى مثلها : رحالها الذهب ، وأزمتها الزبرجد ، فيقعدون عليها ، حتى يقرعوا باب الجنة " .

(45/492)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد وفي زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في البعث ، عن علي رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ فقال : أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقاً ، ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة ، لم تنظر الخلائق إلى مثلها ، عليها رحال الذهب ، وأزمتها الزبرجد ، فيركبون عليها ، حتى يطرقوا باب الجنة .

(46/492)

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق ، " عن علي قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قلت : يا رسول الله ، هل الوفد إلا الركب ؟ قال النبي – صلى الله عليه وسلم – والذي

نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر ، وينتهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء ، على صفائح الذهب وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحدى العينين فتغسل ما في بطونهم من دنس ، ويغتسلون من الأخرى ، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً ، فيضربون بالحلقة على الصفيحة ، فلو سمعت طنين الحلقة يا علي ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتستخفها العجلة ، فتبعث قيمها فيفتح له الباب ، فإذا رآه خر له ساجداً ، فيقول : ارفع رأسك فإنما أنا قيمك ، وكلت بأمرك . فيتبعه ويقفو أثره ، فتستخف الحوراء العجلة ، فتخرج من خيام الدر والياقوت ، حتى تعتنقه ، ثم تقول : أنت حبي ، وأنا حبك وأنا الراضية ، فلا أسخط أبداً ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً ، وأنا الخالدة فلا أموت أبداً ، وأنا المقيمة فلا أظعن أبداً ، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع بني على جندل اللؤلؤ والياقوت طرائق حمر ، وطرائق خضر ، وطرائق صفر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها . وفي البيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون فراشاً ، عليها سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء الحلل ، يقضي جماعهن في مقدار ليلة من لياليكم هذه ، تجري من تحتهم الأنهار ؛ أنهار مطردة ﴿ أنهار من ماء غير آسن ﴾ [محمد : 15] صاف ليس فيه كدور ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ [

محمد : 15] ولم يخرج من ضروع الماشية . ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ [محمد : 15] لما يعصرها الرجال

(47/492)

بأقدامها . ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ [محمد : 15] لم يخرج من بطون النحل ، فيستحلي الثمار فإن شاء أكل قائماً ، وإن شاء أكل قاعداً ، وإن شاء أكل متكئاً ، فيشتهي الطعام فيأتيه طير بيض أجنحتها فيأكل من جنوبها ، أي لون شاء ، ثم تطير فتذهب ، فيدخل الملك فيقول : ﴿ سلام عليكم ﴾ [الزمر : 73] ﴿ تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف : 43] " .

(48/492)

وأخرج ابن أبي حاتم ، من طريق مسلم بن جعفر البجلي قال : سمعت أبا معاذ البصري : أن علياً قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون بنوق لها أجنحة عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور تلألأ ، كل خطوة

منها مد البصر ، فينتهون إلى شجرة ، ينبع من أصلها عينان ، فيشربون من احداهما ، فيغسل ما في بطونهم من دنس ، ويغتسلون من الأخرى ، فلا تشعث أبشارهم ، ولا أشعارهم بعدها أبداً ، وتجري عليهم نضرة النعيم ، فيأتون باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب ، فيضربون بالحلقة على الصفحة ، فيسمع لها طنين فيبلغ كل حوراء : أن زوجها قد أقبل ، فتبعث قيمها فيفتح له ، فإذا رآه خر له ساجداً فيقول : ارفع رأسك إنما أنا قيمك وكلت بأمرك ، فيتبعه ويقفو أثره ، فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ثم تقول : أنت حبي وإنا حبك ، وأنا الخالدة التي لا أموت ، وأنا الناعمة التي لا أبأس ، وأنا الراضية التي لا أسخط ، وأنا المقيمة التي لا أظعن ، فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق : أصفر وأحمر وأخضر ، ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها ، في البيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون حشية ، على كل حشية سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من باطن الحلل ، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه ، الأنهار من تحتهم تطرد : ﴿ أنهار من ماء غير آسن ﴾ [محمد : 15] قال : صاف لا كدر فيه ، ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ [محمد : 15] قال : لم يخرج من ضروع الماشية ، ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ [محمد : 15] قال : لم تعصرها الرجال بأقدامها ، ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ [محمد : 15] قال : لم يخرج من بطون

النحل فيستحلي الثمار ، فإن شاء أكل قائماً وإن شاء أكل قاعداً ، وإن شاء أكل متكئاً .

ثم تلا ﴿ ودانية عليهم

(49/492)

ظلالها ﴾ [الإنسان : 14] الآية . فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض وربما قال : أخضر ، فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها أي الألوان شاء ، ثم يطير فيذهب فيدخل الملك فيقول : ﴿ سلام عليكم ﴾ ﴿ تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ قال : عطاشاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة في قوله : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ قال : ظماء إلى النار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ قال : متقطعة أعناقهم من العطش .

وأخرج ابن المنذر ، عن أبي هريرة : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ قال : عطاشاً .

وأخرج هناد ، عن الحسن مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوّة ، ولا يرجو إلا الله .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مقاتل بن حيان ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : العهد الصلاح .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرني ، ومن سرني فقد اتخذ عند الرحمن عهداً ، ومن اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار . إن الله لا يخلف الميعاد " .

(50/492)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : إن الله يقول يوم القيامة : " من كان له عندي عهد فليقم ، فلا يقوم إلا من قال هذا في الدنيا . قولوا اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا إنك أن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعله لي عندك عهداً تؤديه إلي يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد " .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة – قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً – جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهن شيئاً ، فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه " .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال في دبر كل صلاة – بعدما سلم – هؤلاء الكلمات : كتبه ملك في رق فختم بخاتم ، ثم دفعها إليّ يوم القيامة ، فإذا بعث الله العبد من قبره ، جاءه الملك ومعه الكتاب ينادي : أين أهل العهود ؟ حتى تدفع إليهم ، والكلمات أن تقول : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم – إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك ، فلا تكلني إلى نفسي ،

فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل رحمتك لي عهداً عندك تؤديه إلي يوم القيامة : إنك لا تخلف الميعاد " وعن طاوس : أنه أمر بهذه الكلمات فكتبت في كفنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(51/492)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ :

منصوبٌ ب " سَيَكْفرون " أو ب " يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ أو ب " نَعُدُّ " تَضَمَّن معنى المجازاة ، أو بقوله : " لا يَمْلكون " الذي بعده ، أو بمضمرٍ وهو " اذْكُرْ " أو احْذَرْ . وقيل : هو معمولٌ لجوابِ سؤالٍ مقدر ، كأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقيل : يكون يوم يُحْشَرُ . وقيل : / تقديرُه : يوم نَحْشُر ونَسُوق نَفْعَلُ بالفريقين ما لا يُحيط به الوصفُ .

قوله : " وَفْداً " نصبٌ على الحال ، وكذلك " وِرْداً " . والوَفْدُ : الجماعة الوافِدُون . يُقال : وَفَدَ يَفِدُ وَفْداً ووُفُوداً ووِفادَةً ، أي : قَدِمَ على سبيل التَّكرِمة ، فهو في الأصل مصدرٌ ثم أُطْلِق على الأشخاصِ كالصَّفِّ . وقال أبو البقاء : " وَفْدُ جُمعُ وافِد مثل راكِب ورَكْب

وصاحِب وصَحْب " وهذا الذي قاله ليس مَذهبَ سيبويه لأنَّ فاعِلاً لا يُجْمَعُ على فَعْل عند سيبويه . وأجازه الأخفش . فأمَّا رَكْبٌ وصَحْبٌ فأسماءُ جمعٍ لا جَمْعٌ بدليلِ تصغيرها على ألفاظها ، قال :

3257- أَخْشَى رُجَيْلاً ورُكَيْباً غادِيا . . . فإن قلت : لعلَّ أبا البقاء أراد الجمعَ اللغويَّ . فالجواب : أنَّه قال بعد قوله : " والوِرْدُ اسمٌ لجمعِ وارِد " فَدَلَّ على أنه قصد الجمعَ صناعةً المقابلَ لاسمِ الجمع .

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) ﴾

والوِرْدُ : اسمٌ للجماعةِ العِطاشِ الواردينَ للماءِ ، وهو في الأصلِ أيضاً مصدرٌ أُطْلِقَ على الأشخاص يقال : وَرَدَ الماءَ يَرِدُه وِرْداً ووُرُوْداً . قال الشاعر :

3258- رِدِي رِدي وِرْدَ قَطاةٍ صَمَّا . . . كُدْرِيَّةٍ أَعجَبَها بَرْدُ المَا

وقال أبو البقاء : " هو اسمٌ لجمعِ وارِد . وقيل : هو بمعنى وارِد . وقيل هو محذوفٌ مِنْ " وارِد " وهو بعيدٌ " يعني أنه يجوز أَنْ يكونَ صفةً على فِعْل .

وقرأ الحسن والجحدريُّ "يُحْشَر المتقون، ويُساق المجرمون" على ما لم يُسَمَّ فاعلُه .

قوله: ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ :

في هذه الجملةِ وجهان، أحدهما: أنها مستأنفةٌ سِيْقت للإخبارِ بذلك . والثاني: أنها في محلِّ نصبٍ على الحال مِمَّا تقدَّم . وفي هذه الواوِ قولان، أحدهما: أنها علامةٌ للجمع ليسَتْ ضميراً البتَّة، وإنما هي علامةٌ كهي في لغةِ "أكلوني البراغيث" والفاعلُ "مِنْ اتَّخَذَ" لأنه في معنى الجمع . قاله الزمخشري . وفيه بُعْدٌ، وكأنه قيل: لا يملك الشفاعةَ إلا المتخذون عَهْداً . قال الشيخ: "ولا ينبغي حَمْلُ القرآنِ على هذه اللغةِ القليلةِ مع وضوحِ جَعْلِ الواوِ ضميراً . وقد قال الأستاذ أبو الحسن ابنُ عصفور: إنها لغة ضعيفة" .

قلت: قد قالوا ذلك في قوله تعالى: ﴿ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة: 71] ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأنبياء: 3] فلهذا الموضعِ بهما أُسْوَةٌ .

ثم قال الشيخ: "وأيضاً فالألفُ والواوُ والنونُ التي تكون علاماتٍ لا ضمائرَ لا يُحْفَظُ ما يجيءُ بعدها فاعلاً إلا بصريح الجمع وصريحِ التثنية أو العطفِ، أمَّا أنْ يأتيَ بلفظٍ مفردٍ، ويُطلَقَ على جمع أو مثنى، فيُحتاج في إثباتِ مثلِ ذلك إلى نَقْلٍ . وأمَّا عُوْدُ الضمائرِ مثناةً أو مجموعةً على مفردٍ في اللفظِ يُراد به المثنى والمجموعُ فمسموعٌ معروفٌ في لسانِ العرب، على أنه يمكنُ قياسُ هذه العلاماتِ على تلك الضمائرِ، ولكن الأَحْوَطُ أن لا يُقال إلا بسماعٍ" .

والثاني : أن الواوَ ضميرٌ . وفيما تعود عليه حينئذٍ أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : انها تعودُ على الخَلْق جميعِهم لدلالة ذِكْر الفريقين – المُتَّقين والمجرمين – عليهم ، إذ هما قِسْماه . والثاني : أنه يعودُ على المتقين والمجرمين ، وهذا لا تظهر مخالفتُه للأولِ أصلاً لأنَّ هذين القسمين هما الخَلْقُ كله . والثالث : أنه يعودُ على المُتَّقين فقط أو المجرمين فقط ، وهو تَحَكُّمٌ . قوله : ﴿ إلاَّ مَنِ اتخذ ﴾ هذا الاستثناءُ يترتيب على عَوْدِ الواو على ماذا ؟ فإنْ قيل بأنَّها تعودُ على الخَلْقِ أو على الفريقَيْن المذكورَيْن أو على المتَّقين فقط فالاستثناءُ حينئذٍ متصلٍ .

وفي محلِّ المستثنى الوجهان المشهوران : إمَّا على الرفعُ على البدلِ ، وإمَّا النصبُ على أصلِ الاستثناء . وإنْ قيل : إنه يعودُ على المجرمينَ فقط كان استثناءً منقطعاً ، وفيه حينئذٍ اللغتان المشهورتان : لغةُ الحجازِ التزامُ النصبِ ، ولغةُ تميمٍ جوازُه مع جوازِ البدلِ كالمتصل . وجَعَلَ الزمخشريُّ هذا الاستثناء من " الشفاعة " على حَذْفِ مضافٍ تقديرُه : لا يملكونَ الشفاعةَ إلا شفاعةَ مَنِ اتَّخذ ، فيكون نصبُه على وَجْهَي البدلِ وأصلِ الاستثناء ، نحو : " ما رأيت أحداً إلا زيداً " . وقال بعضُهم : إن المستثنى منه محذوفٌ والتقديرُ : لا يملكون الشفاعةَ لأحدٍ لِمَن اتَّخَذَ عند الرحمن عَهْداً ، فَحُذِفَ المستثنى منه للعلم به فهو كقول الآخر :

3259- نجا سالمٌ والنفسُ منه بشِدْقِهِ . . . ولم يَنْجُ إلا جَفْنَ سَيْفٍ ومِئْزَرا

أي : ولم يَنْجُ شيءٌ .

(54/492)

وجَعَلَ ابنُ عطية الاستثناءَ متصلاً وإن عاد الضميرُ في ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ على المجرمين فقط على أَنْ يُراد بالمجرمين الكفرةُ والعُصاةُ من المسلمين . قال الشيخ : " وحَمْلُ المجرمين على الكفارِ والعُصاة بعيدٌ " . قلت : ولا بُعْدَ فيه ، وكما اسْتَبْعَدَ إطلاقَ المجرمين على العصاة كذلك يَسْتَبعد غيرُه إطلاقَ المُتَّقين على العُصاة ، بل إطلاقُ المجرمِ على العاصي أشهرُ مِنْ إطلاقِ المتَّقي عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 641 . 645 ﴾

(55/492)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) ﴾

قيل ركباناً على نجائب طاعاتهم ، وهم مختلفون ؛ فَمِنْ راكبٍ على صدور طاعاته ، ومن راكبٍ على مراكب هِمَمِه ، ومن راكبٍ على نجائب أنواره . ومِنْ محمولٍ يحمله الحقُّ في عقباه كما يحمله اليومَ في دنياه . وليس محمولُ الحقِّ كمحمول الخَلْق !

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) ﴾

فأولئك يُساقون بوصف العِزَّ ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذُّلِّ ، فيجمعهم في السَّوْقِ ، ولكن يُغَاير بينهم في معانيه . . . . فشتَّان ما هما ! !

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87) ﴾

وذلك العهدُ حِفْظُهم في دنياهم ما أُخِذَ عليهم – يومَ الميثاق – من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 442 ﴾

(56/492)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي

الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبطل مطلق الشفعاء ، وكان الولد أقرب شفيع ، وكانوا قد ادعوا له ولداً ، أبطل دعواهم فيه لينتفي كل شفيع خاص وعام ، فينتفي كل عز راموه بشفاعة آلهتهم وغيرها .

(57/492)

فقال عاطفاً على قوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ موجباً منهم : ﴿ وقالوا ﴾ أي الكفرة ﴿ اتخذ الرحمن ﴾ أي الذي لا منعم غيره ، فكل أحد محتاج إليه وهو غني عن كل أحد ﴿ ولداً ﴾ قالت اليهود : عزير ، والنصارى : المسيح ، والمشركون : الملائكة ، مع قيام الأدلة على استحالته عليه سبحانه ؛ ثم استأنف الالتفات إلى خطابهم بأشد الإنكار ، إيماء إلى تناهي الغضب فقال : ﴿ لقد ﴾ أي وعزتي ! لقد ﴿ جئتم شيئاً إدّاً ﴾ أي عظيماً ثقيلاً منكراً ؛ ثم بين ثقله بقوله : ﴿ تكاد السماوات ﴾ على إحكامها ، مع بعدها من أصحاب هذا القول ﴿ يتفطرن ﴾ أي يأخذن في الانشقاق ﴿ منه ﴾ أي من هذا

الشيء الإدّ ﴿ وتنشق الأرض ﴾ على تحتها شقاً نافذاً واسعاً ﴿ وتخر ﴾ أي تسقط سريعاً ﴿ الجبال ﴾ على صلابتها ﴿ هداً ﴾ كما ينفسخ السقف تحت ما لا يحتمله من الجسم الثقيل ، لأجل ﴿ أن ادعوا ﴾ أي سموا ﴿ للرحمن ﴾ الذي كل ما سواه نعمة منه ﴿ ولداً ﴾ هذا المفعول الثاني ، وحذف الأول لإرادة العموم ﴿ وما ينبغي ﴾ أي ما يصح ولا يتصور ﴿ للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ لأنه غير محتاج إلى الولد بوجه ، ومع ذلك فهو محال ، لأن الولد لا يكون إلا مجانساً للوالد ، ولا شيء من النعم بمجانس للمنعم المطلق الموجد لكل ما سواه ، فمن دعا له ولداً قد جعله كبعض خلقه ، وأخرجه عن استحقاق هذا الاسم ، ثم أقام الدليل على غناه عن ذلك واستحالته عليه ، تحقيقاً لوحدانيته ، وبياناً لرحمانيته ، فهدم بذلك الكفر بمطلق الشريك بعد أن هدم الكفر بخصوص الولد فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ كل من ﴾ أي شيء من العقلاء ، فهو نكرة موصوفة لوقوعها بعد كل وقوعها بعد رب ﴿ في السماوات والأرض ﴾ الذين ادعوا أنهم ولد وغيرهم ﴿ إلا ﴾ .

(58/492)

ولما كان من العبد من يعصي على سيده ، عبر بالإتيان فقال : ﴿ ءاتي الرحمن ﴾ العام بالإحسان ، أي منقاد له طوعاً أو كرهاً في كل حالة وكل وقت ﴿ عبداً ﴾ مسخراً مقهوراً

خائفاً راجياً ، فكيف يكون العبد ابناً أو شريكاً ؟ فدلت الآية على التنافي بين العبودية والولدية ، فهي من الدليل على عتق الولد والوالد إذا اشتريا .

ولما كان من المستبعد معرفة الخلائق كلهم ، أتبعه بقوله : ﴿ لقد ﴾ أي والله لقد ﴿ أحصاهم ﴾ كلهم إحاطة بهم ﴿ وعدهم ﴾ ولما كان ذلك لا يكاد يصدق ، أكده بالمصدر فقال : ﴿ عداً ﴾ قبل خلقهم من جميع جهات العبد ولوازمها ، فلم يوجد ولم يولد ، ولم يعدم أو يصب أحد منهم إلا في حينه الذي عده له ، وقد يكون الإحصاء قبل الوجود في عالم الغيب والعد بعد الوجود ﴿ وكلهم ﴾ أي وكل واحد منهم ﴿ ءاتيه يوم القيامة ﴾ بعد بعثه من الموت ﴿ فرداً ﴾ على صفة الذل ، موروثاً ماله وولده الذي كنا أعطيناه في الدنيا قوة له وعزاً ، لأنه لا موجود غيره يقدر على حراسة نفسه من الفناء ، فهو لا شك في قبضته ، فكيف يتصور في بال أو يقع في خيال أن يكون شيء من ذلك له ولداً أو معه شريكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 558 . 559 ﴾

(59/492)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) ﴾

اعلم أنه تعالى لما رد على عبده الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولداً : ﴿ وَقَالَتِ اليهود عَزِيزٌ ابن الله وَقَالَتِ النصارى المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : 30] وقالت العرب الملائكة بنات الله والكل داخلون في هذه الآية ومنهم من خصها بالعرب الذي أثبتوا أن الملائكة بنات الله قالوا لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة أما الآن فإنه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الأوثان تكلم في إفساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة لكونهم بنات الله أما قوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ فقرىء إداً بالكسر والفتح .

قال ابن خالويه الإد والأد العجب وقيل المنكر العظيم والأدة الشدة وأدنى الأمر وآدنى أثقلي .

قرىء يتفطرن بالتاء بعد الياء أعني المعجمة من تحتها واختلفوا في يكاد فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها وبعضهم بالتاء من فوق ، والانفطار من فطرة إذا شقه والتفطر من فطره إذا شققه وكرر الفعل فيه وقرأ ابن مسعود يتصدعن وقوله : ﴿ وَتَخِرُّ الجبال هَدًّا ﴾ أي تهد هداً أو مهدودة أو مفعول له أي لأنها تهد والمعنى أنها تتساقط أشد ما يكون تساقط البعض على البعض ، فإن قيل من أين يؤثر القول بإثبات الولد لله تعالى في انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال ؟ قلنا فيه وجوه : أحدها : أن الله سبحانه وتعالى يقول أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها

لولا حلمي وأني لا أعجل بالعقوبة كما قال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر : 41] .

وثانيها : أن يكون استعظاماً للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده .

(60/492)

وثالثها : أن السموات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول وهذا تأويل أبي مسلم .

ورابعها : أن السموات والأرض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها أما قوله : ﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في إعرابه ثلاثة أوجه .

أحدها : أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه أو منصوباً بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل أي هذا لأن دعوا أو مرفوعاً بأنه فاعل ﴿ هَدّاً ﴾ أي هدها دعاء الولد للرحمن ، والحاصل أنه تعالى بين أن سبب تلك الأمور العظيمة هذا القول .

المسألة الثانية :

إنما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيهاً على أنه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده من قبل أن أصول النعم وفروعها ليست إلا منه .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ دَعَوْا للرحمن ﴾ هو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلباً للعموم والإحاطة بكل من ادعى له ولداً أو من دعا بمعنى نسب الذي هو مطاوعة ما في قوله صلى الله عليه وسلم :

" من ادعى إلى غير مواليه " قال الشاعر :

(61/492)

إنا بني نهشل لا ندعى لأب . . أي لا ننتسب إليه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِى للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ أي هو محال ، أما الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها ، وأما التبني فلأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل ، وكل ذلك لا يليق به ، ثم قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض إِلاَّ اتِى الرحمن عَبْداً ﴾ والمراد أنه ما من معبود لهم في

السموات والأرض من الملائكة والناس إلا وهو يأتي الرحمن أي يأوي إليه ويلتجىء إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد ، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة والأول أولى لأنه لا تخصيص فيه وقوله : ﴿ لَّقَدْ أحصاهم وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم ، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 218.217 ﴾

(62/492)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾

فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ مِلْكَ الْوَالِدِ لَا يَبْقَى عَلَى وَلَدِهِ فَيَكُونُ عَبْدًا لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ شَاءَ وَأَنَّهُ يُعْتَقُ عَلَيْهِ إذَا مَلَكَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى فَرَّقَ بَيْنَ الْوَلَدِ وَالْعَبْدِ ، فَنَفَى بِإِثْبَاتِهِ الْعُبُودِيَّةَ النُّبُوَّةَ .

وَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ بِالشِّرَى ﴾ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : النَّاسُ غَادِيَانِ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا وَمُشْتَرٍ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا ﴾ ، وَلَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ أَنْ يَبْتَدِئَ لِنَفْسِهِ عِتْقًا بَعْدَ الشِّرَى ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ : مُعْتِقُهَا بِالشِّرَى ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ ﴾ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : " فَيَشْتَرِيَهُ فَيَمْلِكَهُ " وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ اسْتِئْنَافَ مِلْكٍ آخَرَ بَعْدَ الشِّرَى بَلْ يَمْلِكُهُ بِالشِّرَى .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُعْتَقُ عَلَيْهِ بِنَفْسِ الشِّرَى أَنَّ وَلَدَ الْحُرِّ مِنْ أَمَتِهِ حُرُّ الْأَصْلِ وَلَا يَحْتَاجُ إلَى اسْتِئْنَافِ عِتْقٍ ، وَكَذَلِكَ الْمُشْتَرِي لِابْنِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ احْتَاجَ الْمُشْتَرِي لِابْنِهِ إلَى اسْتِئْنَافِ عِتْقٍ لَاحْتَاجَ إلَيْهِ أَيْضًا الِابْنُ الْمَوْلُودُ مِنْ أَمَتِهِ ؛ إذْ كَانَتْ الْأَمَةُ مَمْلُوكَةً .

(63/492)

فَإِنْ قِيلَ : إنَّ وَلَدَ أَمَتِهِ مِنْهُ حُرُّ الْأَصْلِ فَلَمْ يَحْتَجْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إلَى اسْتِئْنَافِ عِتْقٍ ، وَالْوَلَدُ الْمُشْتَرَى مَمْلُوكٌ فَلَا يَعْتِقُ بِالشِّرَى حَتَّى يَسْتَأْنِفَ لَهُ عِتْقًا .

قِيلَ لَهُ : اخْتِلَافُهُمَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَا يَمْنَعُ وَجْهَ الِاسْتِدْلَالِ مِنْهُ عَلَى مَا وَصَفْنَا فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَبْقَى لَهُ مِلْكٌ عَلَى وَلَدِهِ وَأَنَّهُ وَاجِبٌ أَنْ يَعْتِقَ عَلَيْهِ إذَا مَلَكَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ لَهُ

أَنْ يَبْقَى لَهُ مِلْكٌ عَلَى

وَلَدِهِ لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ مِنْ أَمَتِهِ رَقِيقًا إلَى أَنْ يُعْتِقَهُ .

(64/492)

وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْوَلَدُ الْمَوْلُودُ مِنْ أَمَتِهِ وَالْوَلَدُ الْمُشْتَرَى فِي كَوْنِ الْأَوَّلِ حُرَّ الْأَصْلِ وَكَوْنِ الْآخَرِ مُعْتَقًا عَلَيْهِ ثَابِتَ الْوَلَاءِ مِنْهُ ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْوَلَدَ الْمُشْتَرَى قَدْ كَانَ مِلْكًا لِغَيْرِهِ فَلَا بُدَّ إذَا اشْتَرَاهُ مِنْ وُقُوعِ الْعَتَاقِ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَقِرَّ مِلْكُهُ ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ إيقَاعُ الْعِتْقِ فِي مِلْكِ بَائِعِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ وَقَعَ الْعَتَاقُ فِي مِلْكِهِ لَبَطَلَ الْبَيْعُ ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ الْعِتْقِ ، وَلَا يَصِحُّ أَيْضًا وُقُوعُهُ فِي حَالِ الْبَيْعِ ؛ لِأَنَّ حُصُولَ الْعِتْقِ يَنْفِي صِحَّةَ الْبَيْعِ فِي الْحَالِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا فَوَجَبَ أَنْ يَعْتِقَ فِي الثَّانِي مِنْ مِلْكِهِ ، وَلَا يَصِحُّ أَيْضًا وُقُوعُ الْعَتَاقِ فِي حَالِ الْمِلْكِ ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ إيقَاعُ عِتْقٍ لَا فِي مِلْكٍ فَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَعْتِقَ فِي الثَّانِي مِنْ مِلْكِهِ ، وَأَمَّا الْوَلَدُ الْمَوْلُودُ فِي مِلْكِهِ مِنْ جَارِيَتِهِ فَإِنَّا لَوْ أَثْبَتْنَا لَهُ مِلْكًا فِيهِ كَانَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِتْقِ فِي حَالِ الْمِلْكِ ، فَلَا جَائِزَ أَنْ يَثْبُتَ مِلْكُهُ مَعَ وُجُودِ مَا يُنَافِيهِ وَهُوَ اسْتِحْقَاقُ الْعَتَاقِ فِي تِلْكَ الْحَالِ فَكَانَ حُرَّ الْأَصْلِ وَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ مِلْكٌ فِيهِ ، وَلَوْ ثَبَتَ مِلْكُهُ ابْتِدَاءً فِيهِ لَكَانَ مُسْتَحَقًّا بِالْعِتْقِ فِي حَالِ مَا يُرِيدُ إثْبَاتَهُ لِوُجُودِ سَبَبِهِ الْمُوجِبِ لَهُ وَهُوَ مِلْكُهُ لِلْأُمِّ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ إثْبَاتُ مِلْكٍ يَنْتَفِي فِي حَالِ وُجُودِهِ ، وَاخْتِلَافُهُمَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ

لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ مِلْكُهُ لِوَلَدِهِ فِي الْحَالَيْنِ مُوجِبًا لِعِتْقِهِ وَحُرِّيَّتِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(65/492)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : لَقَدْ كَادَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَنْ يُقِيمُوا عَلَيْنَا السَّاعَةَ بِقَوْلِهِمْ هَذَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ .

وَصَدَقَ ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ عَظِيمٌ سَبَقَ الْقَضَاءَ وَالْقَدْرَ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْبَارِئَ لَا يَضَعُهُ كُفْرُ الْكَافِرِ ، وَلَا يَرْفَعُهُ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِ ، وَلَا يَزِيدُ هَذَا فِي مُلْكِهِ ، كَمَا لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ ، مَا جَرَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا عَلَى الْأَلْسِنَةِ ، وَلَكِنَّهُ الْقُدُّوسُ الْحَكِيمُ الْحَلِيمُ ، فَلَمْ يُبَالِ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا يَقُولُهُ الْمُبْطِلُونَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَمْلِكَ ابْنَهُ وَوَجْهُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْوَلَدِيَّةَ وَالْعَبْدِيَّةَ فِي طَرَفَيْ تَقَابُلٍ ، فَنَفَى إحْدَاهُمَا ، وَأَثْبَتَ الْأُخْرَى ، وَلَوْ اجْتَمَعَتَا لَمَا كَانَ لِهَذَا الْقَوْلِ فَائِدَةٌ يَقَعُ الِاحْتِجَاجُ بِهَا ، وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَيْهَا ، وَالتَّبَرِّي مِنْهَا ؛ وَلِهَذَا أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ أَمَةَ الرَّجُلِ إذَا حَمَلَتْ فَإِنَّ وَلَدَهَا فِي بَطْنِهَا حُرٌّ لَا رِقَّ فِيهِ بِحَالٍ ، وَمَا جَرَى فِي أُمِّهِ مَوْضُوعٌ عَنْهُ ، وَلَوْ لَمْ يُوضَعْ عَنْهُ ، فَلَا خِلَافَ فِي الْوَلَدِ ، وَبِهِ يَقَعُ الِاحْتِجَاجُ .

وَإِذَا اشْتَرَى الْحُرُّ أَبَاهُ وَابْنَهُ عَتَقَا عَلَيْهِ ، حِينَ يَتِمُّ الشِّرَاءُ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَنْ يَجْزِيَ وَلَدٌ وَالِدَهُ إلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ ﴾ . فَهَذَا نَصٌّ .

وَالْأَوَّلُ دَلِيلٌ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى ؛ فَإِنَّ الْأَبَ إذَا لَمْ يَمْلِكْ ابْنَهُ مَعَ عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ عَلَيْهِ فَالِابْنُ بِعَدَمِ مِلْكِ الْأَبِ أَوْلَى مَعَ قُصُورِهِ عَنْهُ ، وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ هَذَا الْوَلَدَ مَمْلُوكٌ لِغَيْرِهِ ، فَإِذَا أَزَالَ مِلْكَ الْغَيْرِ بِالشِّرَاءِ إلَيْهِ تَبْطُلُ عَنْهُ ، وَعَتَقَ ، وَالْتَحَقَ بِالْأَوَّلِ ، وَفِي ذَلِكَ تَفْرِيعٌ وَتَفْصِيلٌ

مَوْضِعُهُ شَرْحُ الْحَدِيثِ ، وَمَسَائِلُ الْفِقْهِ ، فَلْيُنْظَرْ فِيهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(67/492)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) ﴾

الضمير في ﴿ قالوا ﴾ للكفار من العرب في قولهم للملائكة بنات الله وللنصارى ولكل من كفر بهذا النوع من الكفر ، وقوله ﴿ جئتم شيئاً ﴾ بعد الكناية عنهم بمعنى قل لهم يا محمد ، و" الإد " الأمر الشنيع الصعب وهي الدواهي والشنع العظيمة ، ويروى عن النبي عليه السلام أن هذه المقالة أول ما قيلت في العالم شاك الشجر وحدثت ، وفي نسخة ، وحدثت مرائره واستعرت جهنم وغضبت الملائكة وقرأ الجمهور ، " إداً " بكسر الهمزة ، وقرأ أبو عبد الرحمن " أداً " بفتح الهمزة ، ويقال إد وأد وآد بمعنى ، وقرأ ابن كثير هنا وفي حم عسق " تكاد " بالتاء " يتفطرون " بياء وفتح الطاء وشدها ، ورواها حفص عن عاصم ، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر " تكاد " بالتاء " ينفطِرن " بياء ونون وكسر الطاء ، وقرأ نافع والكسائي " يكاد " بالياء على زوال علامة التأنيث " يتفطَّرن " بالياء والتاء

وشد الطاء وفتحها في الموضعين ، وقرأ حمزة وابن عامر في مريم مثل أبي عمرو وفي عسق مثل ابن كثير وقال أبو الحسن الأخفش " تكاد " بمعنى تريد ، وكذلك قوله تعالى ﴿ أكاد أخفيها ﴾ [طه : 15] وأنشد على أن كاد بمعنى أراد قول الشاعر : [الكامل]

كادت وكدت وتلك خير إرادة . . . لو عاد من زمن الصبابة ما مضى

ولا حجة في هذا البيت وهذا قول قلق ، وقال الجمهور : إنما هي استعارة لشنعة الأمر أي هذا حقه لو فهمت الجمادات قدره وهذا المعنى مهيع للعرب فمنه قول جرير : [الكامل]

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

ومنه قول الآخر : [الطويل]

ألم تر صدعاً في السماء مبيناً . . . على ابن لبينى الحارث بن هشام

وقال الآخر : [الوافر]

وأصبح بطن مكة مقشعراً . . . كأن الأرض ليس بها هشام

(68/492)

والانفطار الانشقاق على غير رتبة مقصودة والهد الانهدام والتفرق في سرعة ، وقال محمد بن كعب : كاد أعداد الله أن يقيموا علينا الساعة ، وقوله ﴿ وما ينبغي ﴾ نفي على جهة

التنزيه له عن ذلك ، وقد تقدم ذكر هذا المعنى ، وأقسام هذا اللفظ في هذه السورة ، وقوله ﴿ إن كل من في السموات ﴾ الآية ﴿ إن ﴾ نافية بمعنى ما ، وقرأ الجمهور " آتي الرحمن " بالإضافة ، وقرأ طلحة بن مصرف " آتٍ الرحمن " بتنوين " آت " والنصب في النون ، وقرأ ابن مسعود " لما آتى الرحمن " ، واستدل بعض الناس بهذه الآية على أن الولد لا يكون عبداً وهذا انتزاع بعيد ، و﴿ عبداً ﴾ حال ، ثم أخبر تعالى عن إحاطته ومعرفته بعبيده فذكر الإحصاء ، ثم كرر المعنى بغير اللفظ ، وقرأ ابن مسعود " لقد كتبهم وعدهم " ، وفي مصحف أبيّ " لقد أحصاهم فأجملهم عدداً " .

وقوله ﴿ عداً ﴾ تأكيد للفعل وتحقيق له ، وقوله ﴿ فرداً ﴾ يتضمن معنى قلة النصر والحول والقوة لا مجير له مما يريد الله به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(69/492)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمن ولداً ﴾

يعني : اليهود ، والنصارى ، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله ﴿ لقد جئتم شيئاً إِدّاً ﴾ أي : شيئاً عظيماً من الكفر .

قال أبو عبيدة : الإِدُّ ، والنُّكْر : الأمر المتناهي العِظَم .

قوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطَّرن ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : "تكاد" بالتاء .

وقرأ نافع ، والكسائي : "يكاد" بالياء .

وقرءا جميعاً : "يتفطرن" بالياء والتاء مشددة الطاء ، وافقهما ابن كثير ، وحفص عن عاصم في "يتفطَّرن" وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : "ينفطرن" بالنون .

وقرأ حمزة ، وابن عامر في ﴿ مريم ﴾ مثل أبي عمرو ، وفي [عسق : 5] مثل ابن كثير .

ومعنى "يتفطَّرن منه" : يقاربن الانشقاق من قولكم .

قال ابن قتيبة : وقوله تعالى : "هدّاً" أي : سقوطاً .

قوله تعالى : ﴿ أن دَعَوْا ﴾ قال الفراء : من أن دعوا ، ولأَن دعوا .

وقال أبو عبيدة : معناه : أن جعلوا ، وليس هو من دعاء الصوت ، وأنشد :

أَلا رُبَّ مَنْ تَدْعُو نَصِيحاً وَإِن تَغِب . . .

تَجِدْهُ بغَيْبٍ غيرَ مُنْتَصِحِ الصَّدْرِ

قوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ أي : ما يصلح له ، ولا يليق به اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي مجانسة ، وكل متخذ ولداً يتخذه من جنسه ، والله تعالى منزَّهٌ عن أن يجانس شيئاً ، أو يجانسه ، فمحال في حقه اتخاذ الولد ، ﴿ إِن كلُّ ﴾ أي : ما كل ﴿

مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمنِ ﴾ يوم القيامة ﴿ عبداً ﴾ ذليلاً خاضعاً .

والمعنى : أن عيسى وعزيراً والملائكة عبيد له .

قال القاضي أبو يعلى : وفي هذا دلالة على أن الوالد إذا اشترى ولده ، لم يبق ملكه عليه ، وإنما يعتق بنفس الشراء ، لأن الله تعالى نفى البُنُوَّة لأجل العبودية ، فدل على أنه لا يجتمع بنوَّةٌ ورِقٌ .

(70/492)

قوله تعالى : ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أي : علم عددهم ﴿ وعدَّهم عدّاً ﴾ فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم مع كثرتهم ﴿ وكلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ بلا مال ، ولا نصير يمنعه .

فإن قيل : لأيَة علَّة وحَّد في "الرحمن" و"آتيه" وجمع في العائد في "أحصاهم ، وعدَّهم" .

فالجواب : أن لكل لفظ توحيد ، وتأويل جمع ، فالتوحيد محمول على اللفظ ، والجمع مصروف إلى التأويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(71/492)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾

يعني اليهود والنصارى ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله .

وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي وعاصم وخلف : "وُلْداً" بضم الواو وإسكان اللام ، في أربعة مواضع : من هذه السورة قوله تعالى : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] وقد تقدّم ، وقوله : "أَن دَعَوْا للرحمن وُلْداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وُلْداً" .

وفي سورة نوح : ﴿ مَالُهُ وَوَلَدُهُ ﴾ [نوح : 21] .

ووافقهم في "نوح" خاصة ابن كثير ومجاهد وحميد وأبو عمرو ويعقوب .

والباقون في الكل بالفتح في الواو واللام ، وهما لغتان مثل العَرب والعُرب والعَجم والعُجم .

قال :

ولقد رأيت معاشرا . . .

قد ثَمَّرُوا مالاً ووُلْدا

وقال آخر :

وليتَ فلاناً كان في بطنِ أمّهِ . . .

وليت فلاناً كان وُلْد حمارِ

وقال في معنى ذلك النابغة :

مَهْلاً فداءً لكَ الأقوامُ كلُّهم . . .

وما أُثَمِّر من مالٍ ومِن وَلَدِ

ففتح .

وقيس يجعلون الوُلْد بالضم جمعا والوَلَد بالفتح واحداً .

قال الجوهري : الوَلَد قد يكون واحداً وجمعاً ، وكذلك الوُلْد بالضم .

ومن أمثال بني أسد : وُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبيْكِ .

وقد يكون الوُلْد جمع الوَلَد مثل أُسْد وأسد : والوِلد بالكسر لغة في الوُلْد .

النحاس : وفرق أبو عبيد بينهما ؛ فزعم أن الوَلَد يكون للأهل والوَلَد جميعاً .

قال أبو جعفر : وهذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة ؛ ولا يكون الوَلَد والوُلْد إلا ولد الرجل ، ووَلَد وَلَده ، إلا أن وَلَداً أكثر في كلام العرب ؛ كما قال :

مَهْلاً فداءً لَكَ الأقوامُ كلُّهم . . .

وما أُثَمِّر مِنْ مالٍ ومن وَلَدِ

قال أبو جعفر وسمعت محمد بن الوليد يقول : يجوز أن يكون وُلْد جمع وَلَد ، كما يقال وَثَن ووُثْن وأَسَد وأُسْد ، ويجوز أن يكون وَلَد ووُلْد بمعنى واحد ؛ كما يقال عَجَم وعُجْم وعَرَب وعُرْب كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ أي منكراً عظيماً ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

قال الجوهري : الإِدّ والإِدّة الداهِية والأمر الفظيع ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ وكذلك الآدُّ مثل فاعل .

وجمع الإِدة إِدَدٌ .

وأَدَّت فلاناً داهِيةٌ تؤُدُّه أَدًّا (بالفتح) والإِدُّ أيضاً الشدّة .

(والآدُّ الغلبة والقوة) قال الراجز :

نَضَوْنَ عَنّي شدَّةً وأَدًّا . . .

من بَعْدِ ما كُنْتُ صُمُلاًّ جَلْداً

انتهى كلامه .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي "أَدًّا" بفتح الهمزة .

النحاس : يقال أد يؤد أدًّا فهو آد والاسم الإِدّ ؛ إذا جاء بشيء عظيم منكر .

وقال الراجز :

قد لَقِي الأقران مِنّي نُكْرَا . . .

داهِيةً دهياء إِدًّا إِمْراً

عن غير النحاس؛ الثعلبي: وفيه ثلاث لغات "إدًّا" بالكسر وهي قراءة العامة، "وأَدًّا" بالفتح وهي قراءة السُّلَمي، و"آدٌّ" مثل مادّ، وهي لغة لبعض العرب؛ رويت عن ابن عباس وأبي العالية؛ وكأنها مأخوذة من الثقل (يقال): آدَه الحمل يَأُوده أَوْداً أثقله.

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السماوات ﴾ قراءة العامة هنا وفي "الشورى" بالتاء.

وقراءة نافع ويحيى والكسائي "يكاد" بالياء لتقدم الفعل.

﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أي يتشققن.

وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشد الطاء من التفطر هنا وفي "الشورى".

ووافقهم حمزة وابن عامر في "الشورى".

وقرأا هنا "ينفطِرن" من الانفطار: وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل في السورتين.

وهي اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الانفطار: 1] وقوله: ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل: 18].

وقوله: ﴿ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ أي تتصدع.

﴿ وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ قال ابن عباس: هدماً أي تسقط بصوت شديد.

وفي الحديث " اللهم إني أعوذ بك من الهدِّ والهَدَّة " قال شمر : قال أحمد بن غياث المروزي : الهدّ الهدم والهدّة الخسوف .

وقال الليث : هو الهدم الشديد ؛ كحائط يهدّ بمرة ؛ يقال : هدَّني الأمر وهدّ ركني أي كسرني وبلغ مني ؛ قاله الهروي .

الجوهري : وهدّ البناء يهدّه هدّاً كسره وضعضعه ، وهدّته المصيبة أي أوهنت ركنه ، وانهدّ الجبل انكسر .

الأصمعي : والهدّ الرجل الضعيف ؛ يقول الرجل للرجل إذا أوعده : إني لَغير هدٍّ أيْ غيرُ ضعيف .

وقال ابن الأعرابي : الهدّ من الرجال الجواد الكريم ، وأما الجبان الضعيف فهو الهِدّ بالكسر ؛ وأنشد :

لَيسُوا بهِدّين في الحُرُوب إذا . . .
تُعْقَدُ فوقَ الحرَاقِفِ النُّطُقُ

والهَدَّة صوت وقع الحائط ونحوه ، تقول منه : هَدَّ يهِدُّ (بالكسر) هَدِيداً .

والهادُّ صوت يسمعه أهل الساحل ، يأتيهم من قبل البحر له دويٌّ في الأرض ، وربما كانت منه الزلزلة ، ودويُّه هديده .

النحاس : "هَدًّا" مصدر ؛ لأن معنى "تَخِرُّ" تُهَدّ .

وقال غيره : حال أي مهدودة : ﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ "أن" في موضع نصب عند الفراء بمعنى لأن دعوا ومن أن دعوا ، فموضع "أن" نصب بسقوط الخافض .

وزعم الفراء أن الكسائي قال : هي في موضع خفض بتقدير الخافض .

وذكر ابن المبارك : حدثنا مِسْعر ، عن وأصل ، عن عون بن عبد الله قال : قال عبد الله بن مسعود : إن الجبل ليقول للجبل يا فلان هل مر بك اليوم ذاكر لله ؟ فإن قال نعم سُرَّ به .

(74/492)

ثم قرأ عبد الله ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ الآية ؛ قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير ؟ ! قال : وحدّثني عوف عن غالب بن عجرد قال : حدّثني رجل من أهل الشام في مسجد مِنىً ، قال : إن الله تعالى لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر ، لم تك في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة ، وكان لهم منها منفعة ، فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة بني آدم تلك الكلمة العظيمة ، قولهم : اتخذ الرحمن ولداً ؛ فلما قالوها اقشعرت الأرض وشاك الشجر .

وقال ابن عباس : اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار ، والبحار وما فيها من الحيتان ،

فصار من ذلك الشوك في الحيتان ، وفي الأشجار الشوك .

وقال ابن عباس أيضاً وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميع المخلوقات إلا الثقلين ، وكادت أن تزول ، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم ، وشاك الشجر ، واكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا : اتخذ الله ولداً .

وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة ، لقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ قال ابن العربي : وصدق فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر ، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر ، ولا يرفعه إيمان المؤمن ، ولا يزيد هذا في ملكه ، كما لا ينقص ذلك من ملكه ، لما جرى شيء من هذا على الألسنة ، ولكنه القدوس الحكيم الحليم ، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون .

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ نفى عن نفسه سبحانه وتعالى الولد ؛ لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث على ما بيناه في "البقرة" أي لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز في حقه ؛ لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس .

قال :

في رأس خَلْقَاء من عَنْقَاء مُشْرِفَةٍ . . .

ما ينبغي دونها سَهْلٌ ولا جَبَلُ

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) ﴾

"إن" نافية بمعنى ما ؛ أي ما كل من في السموات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مقرّاً له بالعبودية ، خاضعاً ذليلاً كما قال : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : 87] أي صاغرين أذلاء ؛ أي الخلق كلهم عبيده ، فكيف يكون واحد منهم ولداً له عز وجل ؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً .

و"آتي" بالياء في الخط ، والأصل التنوين فحذف استخفافاً وأضيف .

الثانية : في هذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكاً للوالد ، خلافاً لمن قال : إنه يشتريه فيملكه ولا يعتق عليه إلا إذا أعتقه .

وقد أبان الله تعالى المنافاة بين الأولاد والملك ، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات

عتق عليه .

ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبدية في طرفي تقابل ؛ فنفى أحدهما وأثبت الآخر ، ولو اجتمعا لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها .

وفي الحديث الصحيح : " لا يَجْزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه " خرجه مسلم .

فإذا لم يملك الأب ابنه مع مرتبته عليه ، فالابن بعدم ملك الأب أولى لقصوره عنه .

(76/492)

الثالثة : ذهب إسحاق بن راهويه في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : " من أعتق شركاً له في عبد " أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم فلا يكمل على من أعتق شركاً في أنثى ، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم ، فإنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى ؛ لأن لفظ العبد يراد به الجنس ، كما قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبيد قطعاً .

وتمسك إسحاق بأنه قد حكى عبدة في المؤنث .

الرابعة : روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول

الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لي كفواً أحد " وقد تقدّم في "البقرة" وغيرها وإعادته في مثل هذا الموضع حسن جداً .

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ أي علم عددهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ تأكيد ؛ أي فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا في أسمائه سبحانه المحصِي ؛ أعني في السنة من حديث أبي هريرة ؛ خرجه الترمذي ، واشتقاق هذا الفعل يدل عليه .

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني : ومنها المحصِي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور ، واشتداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق ، وقد قال : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] .

ووقع في تفسير ابن عباس أن معنى ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ يريد أقروا له بالعبودية ، وشهدوا له بالربوبية .

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) ﴾

أي واحداً لا ناصر له ولا مال معه ينفعه ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 88 89] فلا ينفعه إلا ما قدم من عمل ، وقال : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ ﴾ على لفظ كل وعلى المعنى آتوه .

وقال القشيري : وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكل عبيده ، فكيف رضيتم له ما لا ترضون لأنفسكم .

وقد رد عليهم في مثل هذا ، في أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنات ، ويقولون : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، وقولهم : الأصنام بنات الله .

وقال : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام : 136] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(78/492)

وقال أبو حيان :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾

الضمير في ﴿ قالوا ﴾ عائد على بعض اليهود حيث قالوا عزير ابن الله ، وبعض النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله ، وبعض مشركي العرب حيث قالوا : الملائكة بنات الله ﴿ لقد جئتم ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ لقد جئتم ﴾ أو يكون التفاتاً خرج من الغيبة إلى الخطاب زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله والتعرض لسخطه وتنبيه على عظيم ما قالوا .

وقرأ الجمهور ﴿ إداً ﴾ بكسر الهمزة وعليّ بن أبي طالب وأبو عبد الرحمن بفتحها أي شيئاً أداً حذف المضاف وأقيم المصدر مقامه .

وقرأ نافع والكسائي يكاد بالياء من تحت وكذا في الشورى وهي قراءة أبي حيوة والأعمش .

وقرأ باقي السبعة بالتاء .

وقرأ ينفطرن مضارع انفطر وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وابن عامر هنا وهي قراءة أبي بحرية والزهري وطلحة وحميد واليزيدي ويعقوب وأبي عبيد .

وقرأ باقي السبعة ﴿ يتفطرن ﴾ مضارع تفطر والتي في الشورى قرأها أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالياء والنون وباقي السبعة بالياء والتاء والتشديد .

وقرأ ابن مسعود يتصدعن وينبغي أن يجعل تفسيراً لمخالفتها سواد المصحف المجمع عليه ، ولرواية الثقاة عنه كقراءة الجمهور .

وقال الأخفش ﴿ تكاد ﴾ تريد وكذلك قوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ وأنشد شاهداً على

ذلك قول الشاعر :

وكادت وكدت وتلك خير إرادة . . .

لو عاد من زمن الصبابة ما مضى

ولا حجة في هذا البيت ، والمعروف أن الكيدودة مقاربة الشيء وهذه الجمل عند الجمهور من باب الاستعارة لبشاعة هذا القول ، أي هذا حقه لو فهمت الجمادات قدره وهذا مهيع للعرب .

قال جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . .

سور المدينة والجبال الخشع

وقال آخر :

ألم تر صدعاً في السماء مبيناً . . .

على ابن لبني الحارث بن هشام

وقال الآخر :

فأصبح بطن مكة مقشعرّاً . . .

كأن الأرض ليس بها هشام

وقال آخر :

بكى حارث الجولان من فقد ربه . . .

وحوران منه خاشع متضائل

حارث الجولان : موضع .

(79/492)

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال ، ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات ؟ قلت : فيه وجهان أحدهما أن الله يقول : كدت أفعل هذه بالمسوات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي ووقاري ، وإني لا أعجل بالعقوبة كما قال

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض ﴾ الآية .

والثاني : أن يكون استعظاماً للكلمة ، وتهويلاً من فظاعتها ، وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه .

وقواعده ، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر انتهى .

وقال ابن عباس إن هذا الكلام فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلاّ

الثقلين وكدن أن يزلن منه تعظيماً لله تعالى .

وقيل : المعنى كادت القيامة أن تقوم فإن هذه الأشياء تكون حقيقة يوم القيامة .

وقيل : ﴿ تكاد السموات يتفطرن ﴾ أي تسقط عليهم ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي تخسف بهم ﴿ وتخر الجبال هدّاً ﴾ أي تنطبق عليهم .

وقال أبو مسلم : تكاد تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول ، وانتصب ﴿ هدّاً ﴾ عند النحاس على المصدر قال : لأن معنى ﴿ تخرّ ﴾ تنهد انتهى .

وهذا على أن يكون ﴿ هداً ﴾ مصدراً لهد الحائط يهد بالكسر هديداً وهداً وهو فعل لازم .

وقيل ﴿ هداً ﴾ مصدر في موضع الحال أي مهدودة ، وهذا على أن يكون ﴿ هداً ﴾ مصدر هد الحائط إذا هدمه وهو فعل متعد ، وأجاز الزمخشري أن يكون مفعولاً له أي لأنها تهد ، وأجاز الزمخشري في ﴿ أن دعوا ﴾ ثلاثة أوجه .

قال أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه كقوله :

على حالة لو أن في القوم حاتماً . . .

على جوده لضن بالماء حاتم

وهذا فيه بعد لكثرة الفصل بين البدل والمبدل منه لجملتين ، قال : ومنصوباً بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل أي ﴿ هداً ﴾ لأن دعوا علل الخرور بالهد ، والهد بدعاء الولد للرحمن ، وهذا فيه بعد لأن الظاهر أن ﴿ هداً ﴾ لا يكون مفعولاً بل مصدر من معنى ﴿ وتخر ﴾ أو في موضع الحال ، قال : ومرفوعاً بأنه فاعل ﴿ هداً ﴾ أي هدها دعاء الولد للرحمن ، وهذا فيه بعد لأن ظاهر ﴿ هداً ﴾ أن يكون مصدراً توكيدياً ، والمصدر التوكيدي لا يعمل ولو فرضناه غير توكيد لم يعمل بقياس إلاّ إن كان أمراً أو مستفهماً عنه ، نحو ضربا زيداً ، واضربا زيداً على خلاف فيه .

وأما إن كان خبراً كما قدره الزمخشري أي هدها دعاء الرحمن فلا ينقاس بل ما جاء من ذلك هو نادر كقوله :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم . . .

أي وقف صحبي .

وقال الحوفي وأبو البقاء ﴿ أن دعوا ﴾ في موضع نصب مفعول له ، ولم يبينا العامل فيه .

وقال أبو البقاء أيضاً : هو في موضع جر على تقدير اللام ، قال : وفي موضع رفع أي الموجب لذلك دعاؤهم ، ومعنى ﴿ دعوا ﴾ سموا وهي تتعدّى إلى اثنين حذف الأول منهما ، والتقدير سموا معبودهم ولداً للرحمن أي بولد لأن دعا هذه تتعدى لاثنين ، ويجوز دخول

الباء على الثاني تقول : دعوت ولدي بزيد ، أو دعوت ولدي زيداً .

وقال الشاعر :

دعتني أخاها أم عمرو ولم أكن . . .

أخاها ولم أرضع لها بلبان

وقال آخر :

ألا رب من يدعي نصيحاً وإن يغب . . .

تجده بغيب منك غير نصيح

وقال الزمخشري : اقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلباً للعموم والإحاطة بكل ما دعا له ولداً ، قال أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام : " من ادّعى إلى غير مواليه " وقول الشاعر :

إنّا بني نهشل لا ندعي لأب . . .

أي لا ننتسب إليه انتهى .

وكون ﴿ دعوا ﴾ هنا بمعنى سموا هو قول الأكثرين .

وقيل : ﴿ دعوا ﴾ بمعنى جعلوا .

و ﴿ ينبغي ﴾ مطاوع لبغي بمعنى طلب ، أي وما يتأتى له إتخاذ الولد لأن التوالد مستحيل والتبني لا يكون إلاّ فيما هو من جنس المتبنى ، وليس له تعالى جنس و ﴿ ينبغي ﴾ ليس من الأفعال التي لا تتصرف بل سمع لها الماضي قالوا : أنبغى وقد عدّها ابن مالك في التسهيل من الأفعال التي لا تتصرف وهو غلط و ﴿ من ﴾ موصولة بمعنى الذي أي ما كل الذي في السموات وكل تدخل على الذي لأنها تأتي للجنس كقول تعالى ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ ونحو :

وكل الذي حملتّني أتحمل . . .

وقال الزمخشري : ﴿ من ﴾ موصوفة لأنها وقعت بعد كل نكرة وقوعها بعد رب في قوله :

رب من أنضجت غيظاً صدره . . .

انتهى .

والأولى جعلها موصولة لأن كونها موصوفة بالنسبة إلى الموصولة قليل .

وقرأ عبد الله وابن الزبير وأبو حيوة وطلحة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ويعقوب إلاّ آتٍ بالتنوين ﴿ الرحمن ﴾ بالنصب والجمهور بالإضافة و ﴿ آتي ﴾ خبر ﴿ كل ﴾ وانتصب ﴿ عبداً ﴾ على الحال .

وتكرر لفظ ﴿ الرحمن ﴾ تنبيهاً على أنه لا يستحق هذا الاسم غيره ، إذ أصول النعم

وفروعها منه ومن في السموات والأرض يشمل من اتخذوه معبوداً من الملائكة وعيسى وعزيراً بحكم ادعائهم صحة التوالد أو بحكم زعمهم ذلك فأشركوهم في العبادة إذ خدمة الأبناء خدمة الآباء ، فأخبر تعالى أنه ما من معبود لهم في السموات أو في الأرض إلاّ يأتي الرحمن عبداً منقاداً لا يدعيّ لنفسه شيئاً مما نسبوه إليه .

ثم ذكر تعالى أنه ﴿ أحصاهم ﴾ وأحاط بهم وحصرهم بالعدد ، فلم يفته أحد منهم وانتصب ﴿ فرداً ﴾ على الحال أي منفرداً ليس معه أحد ممن جعلوه شريكاً ، وخبر ﴿ كلهم آتيه ﴾ ﴿ فرداً ﴾ وكلّ إذا أضيف إلى معرفة ملفوظ بها نحو كلهم وكل الناس فالمنقول أنه يجوز أن يعود الضمير مفرداً على لفظ كل ، فتقول : كلكم ذاهب ، ويجوز أن يعود جمعاً مراعاة للمعنى فتقول : كلكم ذاهبون .

(82/492)

وحكى إبراهيم بن أصبغ في كتاب رؤوس المسائل الإتفاق على جواز الوجهين ، وعلى الجمع جاء لفظ الزمخشري في تفسير هذه الآية في الكشاف ﴿ وكلهم ﴾ متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره ، وقد خدش في ذلك أبو زيد السهيلي فقال : كل إذا ابتدئت وكانت مضافة لفظاً يعني إلى معرفة فلا يحسن إلاّ إفراد الخبر حملاً على المعنى ، تقول : كلكم

ذاهب أي كل واحد منكم ذاهب ، هكذا هذه المسألة في القرآن والحديث والكلام الفصيح فإن قلت : في قوله ﴿ وكلهم آتيه ﴾ إنما هو حمل على اللفظ لأنه اسم مفرد قلنا : بل هو اسم للجمع واسم الجمع لا يخبر عنه بإفراد ، تقول : القوم ذاهبون ، ولا تقول : القوم ذاهب وإن كان لفظ القوم كلفظ المفرد ، وإنما حسن كلكم ذاهب لأنهم يقولون كل واحد منكم ذاهب فكان الإفراد مراعاة لهذا المعنى انتهى .

ويحتاج في إثبات كلكم ذاهبون بالجمع ونحوه إلى سماع ونقل عن العرب ، أما إن حذف المضاف المعرفة فالمسموع من العرب الوجهان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(83/492)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾

حكايةٌ لجناية اليهودِ والنصارى ومن يزعُم من العرب أن الملائكةَ بناتُ الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً إثرَ حكاية عبَدةِ الأصنام بطريق عطفِ القصة على القصة وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ ردٌّ لمقالتهم الباطلةِ وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفاتِ المنبىءِ عن

كمال السخطِ وشدةِ الغضب المُفصِح عن غاية التشنيعِ والتقبيحِ ، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحةِ والجهل والجراءة ، والإدُّ بالكسر والفتح العظيمُ المنكر ، والإدّةُ الشدةُ وأدَني الأمرُ وآدَني أثقلني وعظُم عليّ ، أي فعلتم أمراً منكراً شديداً لا يقادَر قدرُه ، فإن جاء وأتى يستعملان في معنى فعَلَ فيُعدّيَان تعدِيتَه وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السموات ﴾ الخ ، صفةٌ لإدًّا أو استئنافٌ لبيان عِظَم شأنه في الشدة والهول ، وقرىء يكاد بالتذكير ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ يتشقّقن مرةً بعد أخرى من عِظم ذلك الأمر ، وقرىء ينفطرْن والأول أُبلغُ لأن تفعّل مطاوِعُ فعّل ، وانفعلَ مطاوعُ فعَل ولأن أصل التفعّل التكلف .

﴿ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ أي تكاد وتنشقّ الأرض ﴿ وَتَخِرُّ الجبال ﴾ أي تسقُط وتتهدم ، وقوله تعالى : ﴿ هَدّاً ﴾ مصدرٌ مؤكّدٌ لمحذوف هو حالٌ من الجبال أي تُهدّ هدًّا أو مصدرٌ من المبنيّ للمفعول مؤكّدٌ لتخِرُّ على غير المصدر لأنه حينئذ بمعنى التهدّم والخرُور ، كأنه قيل : وتخِرّ الجبال خروراً أو مصدرٌ بمعنى المفعول منصوبٌ على الحالية أي مهدودةً ، أو مفعول له أي لأنها تُهَدّ ، وهذا تقريرٌ لكونه إدًّا والمعنى أن هَولَ تلك الكلمةِ الشنعاءِ وعِظمَها بحيث لو تَصوّرتْ بصورة محسوسة لم تُطِقْ بها هاتيك الأجرامُ العِظامُ وتفتّتت من شدتها أو أن فظاعتَها في استجلاب الغضَبِ واستيجابِ السَّخَط بحيث لولا حِلْمُه تعالى لخُرِّب العالمُ وبُدِّدت قوائمُه غضباً على من تفوه بها .

﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾

منصوبٌ على حذف اللام المتعلقةِ بتكاد أو مجرورٌ بإضمارها ، أي تكاد السموات يتفطرّن والأرضُ تنشق والجبالُ تخِرّ لأَن دعَوا له سبحانه ولداً ، وقيل : اللامُ متعلقةٌ بهدًّا ، وقيل : الجملةُ بدلٌ من الضمير المجرورِ في منه كما في قوله

(85/492)

على جوده لضنّ بالماء حاتِمُ . . . وقيل : خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي الموجبُ لذلك أنْ دعوا الخ ، وقيل : فاعلُ هدًّا أي هدّها دُعاءُ الولد ، والأولُ هو الأولى ودعَوا من دعا بمعنى سمَّى المتعدّي إلى مفعولين ، وقد اقتُصر على ثانيهما ليتناولَ كل ما دُعيَ له ولداً ، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعُه ادّعى إلى فلان أي انتسب إليه وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِى للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ حالٌ من فاعل قالوا أو دعَوا ، مقرّرةٌ لبطلان مقالتهم واستحالةِ تحقق مضمونها ، أي قالوا : اتخذ الرحمن ولداً أو أنْ دَعوا للرحمن ولداً ، والحال أنه ما يليق به تعالى اتخاذُ الولد ولا يُتطلب له لو طُلب مثلاً لاستحالته في نفسه ، ووضعُ الرحمن موضع الضمير للإشعار بعلة الحُكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمةٌ أو مُنعَمٌ عليه ،

فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأُ النعمِ ومولى أصولِها وفروعِها حتى يتوهَّم أن يتخذه ولداً ؟ وقد صرح له قومٌ به عز قائلاً : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض ﴾ أي ما منهم أحدٌ من الملائكة والثقلين ﴿ إِلاَّ اتِى الرحمن عَبْداً ﴾ إلا وهو مملوكٌ له يأوي إليه بالعبودية والانقيادِ ، وقرىء آتٍ الرحمن على الأصل ﴿ لَّقَدْ أحصاهم ﴾ أي حصَرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحدٌ من حِيطة علمِه وقبضة قدرتِه وملكوتِه ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أي عد أشخاصَهم وأنفاسَهم وأفعالَهم وكلُّ شيء عنده بمقدار ﴿ وَكُلُّهُمْ ءاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ أي كلُّ واحدٍ منهم آتٍ إياه تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار ، وفي صيغة الفاعلِ من الدِلالة على إتيانهم كذلك ألبتةَ ما ليس في صيغة المضارعِ لو قيل : يأتيه ، فإذا كان شأنُه تعالى وشأنُهم كما ذكر فأنى يُتوهم احتمالُ أن يتخذ شيئاً منهم ولداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(86/492)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾

حكاية لجناية القائلين عزيز ابن الله .

وعيسى ابن الله .

والملائكة بنات الله من اليهود والنصارى والعرب تعالى شأنه عما يقولون علواً كبيراً إثر حكاية جناية من عبد ما عبد من دونه عز وجل بطريق عطف القصة على القصة فالضمير راجع لمن علمت وإن لم يذكر صريحاً لظهور الأمر .

وقيل : راجع للمجرمين .

وقيل : للكافرين .

وقيل : للكافرين .

وقيل : للضالمين .

وقيل : للعباد المدلول عله بذكر الفريقين المتقين والمجرمين .

وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل مع أنهم لم يرضوه وقد تقدم البحث فيه .

وقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾

رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبىء عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة ، وقيل : لا التفات والكلام بتقدير قل لهم لقد جئتم الخ ، والإد بكسر الهمزة كما في قراءة الجمهور وبفتحها كما قرأ السلمي العجب كما قال ابن خالويه .

وقيل : العظيم المنكر والإدة لشدة وأدنى الأمر وآدنى اثقلني وعظم على .

وقال الراغب : الاد المنكر فيه جلبة من قولهم : ادت الناقة تئد أي رجعت حنينها ترجيعاً شديداً .

وقيل : الاد بالفتح مصدر وبالكسر اسم أي فعلتم أمراً عجيباً أو منكراً شديداً لا يقادر قدره فإن جاء وأتى يستعملان بمعنى فعل فيتعديان تعديته .

وقال الطبرسي : هو من باب الحذف والإيصال أي جئتم بشيء إد .

﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ في موضع الفة لِ ﴿ إدّاً ﴾ [مريم : 89] أو استئناف لبيان عظم شأنه في الشدة والهول ، والتفطر على ما ذكره الكثي التشقق مطلقاً ، وعلى ما يدل عليه كلام الراغب التشقق طولاً حيث فسر الفطر وهو منه بالشق كذلك ، وموارد الاستعمال تقتضي عدم التقييد بما ذكر .

(87/492)

نعم قيل : إنها تقتضي أن يكون الفطر من عوارض الجسم الصلب فإنه يقال : إنا مفطور ولا يقال : ثوب مفطور بل مشقوق ، وهو عندي في أعراف الرد والقبول وعليه يكون في نسبة التفطر إلى السموات والانشقاق إلى الأرض في قوله تعالى : ﴿ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ إشارة

إلى أن السماء أصلب من الأرض ، والتكثير الذي تدل عليه صيغة التفعل قيل في الفعل لأنه الأوفق بالمقام ، وقيل : في متعلقه ورجح بأنه قد قرأ أبو عمرو .

وابن عامر .

وحمزة وأبو بكر عن عاصم .

ويعقوب .

وأبو بحرية .

والزهري .

وطلحة .

وحميد .

واليزيدي .

وأبو عبيد ﴿ ينفطرن ﴾ مضارع انفطر وتوافق القراءتين يقتضي ذلك ، وبأنه قد اختير الانفعال في تنشق الأرض حيث لا كثرة في المفعول ولذا أول ﴿ مِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] بالأقاليم ونحوه كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ووجهه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السموات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلاً نوعاً ما من العصيان لم يكن لها ألف ما بالمعصية ولا كذلك الأرض فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض .

وقرأ ابن مسعود ﴿ يتصدعن ﴾ قال في "البحر" : وينبغي أن يجعل ذلك تفسيراً لا قراءة لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه ولرواية الثقات عنه أنه قرأ كالجمهور انتهى .

ولا يخفى عليك أن في ذلك كيفما كان تأييداً لمن ادعى أن الفطر من عوارض الجسم الصلب بناء على ما في "القاموس" من أن الصدع شق في شيء صلب .

وقرأ نافع .

والكسائي .

وأبوحيوة .

والأعمش ﴿ بالكافرين يَكَادُ ﴾ بالياء من تحت ﴿ وَتَخِرُّ الجبال ﴾ تسقط وتنهد ﴿ هَدّاً ﴾ نصب على أنه مفعول طلق لتخر لأنه بمعنى تنهد كما أشرنا إلينا وإليه ذهب ابن النحاس .

وجوز أن يكون مفعولاً لا مطلقاً لتنهد مقدراً .

والجملة في موضع الحال ، وقيل : هو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحال من هد المعتدى أي مهدودة .

وجوز أن يكون مفعولاً له أي لأنها تنهد على أنه م هد اللازم بمعنى انهدم ومجيئه لازماً مما صرح به أبو حيان وهو إمام اللغة .

والنحو فلا عبرة ممن أنكره ، وحينئذ يكون الهد من فعل الجبال فيتحد فاعل المصدر والفعل المعلل به ، وقيل : إنه ليس من فعلها لكنها إذا هدها أحد يحصل لها الهد فصح أن يكون مفعولاً له ، وفي الكلام تقرير لكون ذلك إداً والكيد ودة فيه على ظاهرها من مقاربة الي ء .

وفسرها الأخفش هنا .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] بالإرادة وأنشد شاهداً على ذلك قول الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير إرادة . . .

لو عاد من زمن الصبابة ما مضى

ولا حجة له فيه ، والمعنى إن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصور بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفرقت أجزاؤها من شدتها أو أن حق تلك الكلمة لو فهمتها تلك الجمادات العظام أن تتفطر وتنشق وتخر من فظاعتها ، وقيل : المعنى كادت القيامة أن تقوم فإن هذه الأشياء تكون حقيقة يوم القيامة ، وقيل : الكلام كناية عن غضب الله تعالى على قائل تلك الكلمة وأنه لولا حلمه سبحانه وتعالى لوقع ذلك وهلك

القائل وغيره أي كدت أفعل ذلك غضباً لولا حلمي .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إن الشكر فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكدن أن يزلن منه تعظيماً لله تعالى وفيه إثبات فهم لتلك الأجرام والأجسام لائق بهن .

وقد تقدم ما يتعلق بذلك .

وفي "الدر المنثور" في الكلام على هذه الآية ، أخرج أحمد في الزهد .

وابن المبارك .

وسعيد بن منصور .

وابن أبي شيبة .

وأبو الشيخ في العظمة وابن أبي حاتم .

والطبراني .

والبيهقي في شعب الايمان من طريق عون عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان هل مر بك اليوم أحد ذاكر لله تعالى فإذا قال : نعم استبشر قال عون : أفلا يسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير هن للخير أسمع وقرأ ﴿ وَقَالُواْ ﴾ [مريم : 88] الآيات اه وهو ظاهر في الفهم .

وقال ابن المنير : يظهر لي في الآية معنى لم أره لغيري وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد استعار لدلالة هذه الأجرام على وجوده عز وجل موصوفاً بصفات الكمال الواجبة له سبحانه أن جعلها مسبحة بحمده قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] ومما دلت عليه السموات والأرض والجبال بل وكل ذرة من ذراتها أن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

فالمعتقد نسبة الولد إليه عز وجل قد عطل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله تعالى وتقديسه فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها إبطال صورها بالهد والانفطار والانشقاق اه .

واعترض عليه بأن الموجودات إنما تدل على خالق قادر عالم حكيم لدلالة الأثر على المؤثر والقدرة على المقدور واتقان العمل يدل على العمل والحكمة وأما دلالتها على الوحدانية

فلا وجه له ولا يثبت مثله بالشعر .

ورد بأنها لو لم تدل جاء حديث التمانع كما حققه المولى الخيالي في "حواشيه" على شرح عقائد النسفي للعلامة الثاني .

وقال بعضهم : إنها تدل على عظم شأنه تعالى وأنه لا يشابهه ولا يدانيه شيء فلزم أن لا يكون له شريك ولا ولد لأنه لو كان كذلك لكان نظيراً عز وجل .

ولذا عبر عن هذه الدلالة بالتسبيح والتنزيه .

ولعل ما أشرنا إليه أولى وأدق ، وليس مراد من نسب الولد إليه عز وجل إلا الشرك فتأمل ، والجمهور على أن الكلام لبيان بشاعة تلك الكلمة على معنى أنها لو فهمتها الجمادات لاستعظمتها وتفتت من بشاعتها .

(90/492)

ونحو هذا مهيع للعرب ، قال الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . .

سور المدين والجبال الخشع

وقال الآخر :

فاصبح بطن مكة مقشعرا . . .

كان الأرض ليس بها هشام

وقال الآخر :

ألم تر صدعاً في السماء مبينا . . .

على ابن لبيني الحرث بن هشام

إلى غير ذلك ذلك وهو نوع من المبالغة ويقبل إذا اقترن بنحو كاد كما في الآية الكريمة ، وقد بين ذلك في محله .

﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ بتقدير اللام التعليلية .

ومحله بعد الحذف نصب عند سيبويه وجر عند الخليل والكسائي ، وهو علة للعلية التي تضمنها ﴿ مِنْهُ ﴾ لكن باعتبار ما تدل عليه الحال أعني قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنبَغِى للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾

وقيل : علة لتكاد الخ ، واعترض بأن كون لِ ﴿ تَكَادُ ﴾ [مريم : 90] الخ معللاً بذلك قد علم من ﴿ مِنْهُ ﴾ [مريم : 90] فيلزم التكرار .

وأجيب بما لا يخلو عن نظر .

وقيل : علة لِ ﴿ هدّاً ﴾ [مريم : 90] وهو علة للخرور ، وقيل ليس هناك لام مقدرة بل أن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بالإبدال من الهاء من منه كما في قوله :

على حالة لو أن في القوم حاتما . . .

على جوده لضن بالماء حاتم

بجر حاتم بالإبدال من الهاء في وجوده ، واستبعده أبو حيان للفصل بجملتين بين البدل والمبدل منه ، وقيل : المصدر مرفوع على أنه خبر محذوف أي الموجب لذلك دعاؤهم للرحمن ولداً وفيه بحث .

وقيل : هو مرفوع على أنه فاعل هدا ويعتبر مصدراً مبنياً للفاعل أي هدها دعاؤهم للرحمن ولداً .

وتعقبه أبو حيان بأن فيه بعداً لأن الظاهر كون هذا المصدر تأكيدياً والمصدر التأكيدي لا يعمل ولو فرض غير تاكيدي لم يعمل بقياس إلا إذا إذا كان أمراً كضربا زيداً أو بعد استفهام كاضربا زيداً وما هنا ليس أحد الأمرين وما جاء عاملاً وليس أحدهما كقوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم . . .

نادر .

والتزام كون ما هنا من النادر لا يدفع البعد .

(91/492)

ولعل ما ذكرناه أدق الأوجه وأولاها فتدبر والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل .

و ﴿ دَّعَوَا ﴾ عند الأكثرين بمعنى سموا .

والدعاء بمعنى التسمية يتعدى لمفعولين بنفسه كما في قوله :

دعتني أخاها أم عمرو ولم أكن . . .

أخاها ولم أرضع لها بلبان

وقد يتعدى للثاني بالباء فيقال دعوت ولدي بزيد واقتصر هنا على الثاني وحذف الأول دلالة على العموم والإحاطة لكل ما دعى له عز وجل ولداً من عيسى .

وعزير عليهما السلام .

وغيرهما .

وجوز أن يكون من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ما في قوله صلى الله عليه وسلم : " من ادعى إلى غير مواليه " وقول الشاعر :

أنا بني نهشل لا ندعى لاب . . .

عنه ولا هو بالابناء يشرينا

فيتعدى لواحد ، والجار والمجرور جوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ وَلَدًا ﴾ وأن يكون متعلقاً بما عنده ، وجملة ﴿ مَا يَنبَغِى ﴾ حال من فاعل ﴿ دَّعَوَا ﴾ ، وقيل : من فاعل ﴿ قَالُواْ ﴾ [مريم : 88] ، ﴿ وينبغي ﴾ مضارع انبغى مطاوع بغي

بمعنى طلب وقد سمع ماضيه فهو فعل متصرف في الجملة ، وعده ابن مالك في التسهيل من الأفعال التي لا تتصرف وغلطه في ذلك أبو حيان ، ويمكن أن يقال : مراده أنه لا يتصرف تاماً ، ﴿ وَأَنْ يَتَّخِذِ ﴾ في تأويل مصدر فاعله ، والمراد لا يليق به سبحانه اتخاذ الولد ولا يتطلب له عز وجل لاستحالة ذلك في نفسه لاقتضائه الجزئية أو المجانسة واستحالة كل ظاهرة ، ووضع الرحمن موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمة أو منعم عليه وأين ذلك ممن هو مبدأ النعم وموالي أصولها وفروعها .

وقد أشير إلى ذلك بقوله سبحانه :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض ﴾

(92/492)

أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿ إِلا اِتِى الرحمن عَبْداً ﴾ أي إلا وهو مملوك له تعالى يأوي إليه عز وجل بالعبودية والانقياد لقضائه وقدره سبحانه وتعالى فالاتيان معنوي ، وقيل : هو حسي ، والمراد إلا ءاتى محل حكمه وهو أرض المحشر منقاداً لا يدعى لنفسه شيئاً مما نسبوه إليه وليس بذاك كما لا يخفى ، و ﴿ مِنْ ﴾ موصولة بمعنى الذي و ﴿ كُلُّ ﴾ تدخل عليه لأنه يراد منه الجنس كما قيل في قوله تعالى ﴿ والذى جَاء بالصدق ﴾ [

الزمر : 33] وقوله :

وكل الذي حملتني أتحمل . . .

وقيل : موصوفة لأنها وقعت بعد ﴿ كُلٌّ ﴾ نكرة وقوعها بعد رب في قوله :

رب من أنضجت غيظاً صدره . . .

قد تمنى لي موتاً لم يطع

ورجح في البحر الأول بأن مجيئها موصوفة بالنسبة إلى مجيئها موصولة قليل : وقرأ عبد الله .

وابن الزبير وأبو حيوة .

وطلحة .

وأبو بحرية .

وابن أبي عبلة .

ويعقوب ﴿ ءات ﴾ بالتنوين ﴿ مُّقْتَدِرِ الرحمن ﴾ بالنصب على الأصل .

ونصب ﴿ عَبْداً ﴾ في القراءتين على الحال .

واستدل بالآية على أن الوالد لا يملك ولده وأنه يعتق عليه إذا ملكه .

﴿ لَقَدِ ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله .

﴿ أحصاهم وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أي عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار .

﴿ وَكُلُّهُمْ ءاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾

(93/492)

أي منفرداً من الأتباع والأنصار منقطعاً إليه تعالى غاية الانقطاع محتاجاً إلى إعانته ورحمته عز وجل فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولداً وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، وقيل : أي كل واحد من أهل السموات والأرض العابدين والمعبودين آتيه عز وجل منفرداً عن الآخر فينفرد العابدون عن الآلهة التي زعموا أنها أنصار أو شفعاء والمعبودون عن الأتباع الذين عبدوهم وذلك يقتضي عدم النفع وينتفي بذلك المجانسة لمن بيده ملكوت كل شيء تبارك وتعالى ، وفي ﴿ ءاتِيهِ ﴾ من الدلالة على إتيانهم كذلك البتة ما ليس في يأتيه فلذا اختير عليه وهو خبر ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ وكل إذا أضيف إلى معرفة ملفوظ بها نحو كلهم أو كل الناس فالمنقول أنه يجوز عود الضمير عليه مفرداً مراعاة للفظه فيقال كلكم ذاهب ، ويجوز عوده عليه جمعاً مراعاة لمعناه فيقال : كلكم ذاهبون .

وحكى إبراهيم بن أصبغ في كتاب رؤس المسائل الاتفاق على جواز الأمرين ، وقال أبو زيد السهيلي : إن كلا إذا ابتدىء به وكان مضافاً لفظاً أي إلى معرفة لم يحسن إلا أفراد الخبر حملاً على المعنى لأن معنى كلكم ذاهب مثلاً كل واحد منكم ذاهب وليس ذلك مراعاة للفظ وإلا لجاز القوم ذاهب لأن كلا من كل والقوم اسم جمع مفرد اللفظ اه وفي البحر يحتاج في إثبات كلكم ذاهبون بالجمع إلى نقل عن العرب .

والزمخشري في تفسير هذه الآية استعمل الجمع وحسن الظن فيه أنه وجد ذلك في كلامهم ، وإذا حذف المضاف إليه المعرفة فالمسموع من العرب الوجهان ولا كلام في ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(94/492)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) ﴾

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه ، وتألوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل يتعززون بذلك .

قال الهروّي : معنى ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ : ليكونوا لهم أعواناً .

قال الفراء : معناه : ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة .

وقيل : معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها .

﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، والضمير في الفعل إما للآلهة أي ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه ، لأنها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك ، وإما للمشركين ، أي سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام ، ويدل على الوجه الأوّل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] وقوله : ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ [النحل : 86] ويدلّ على الوجه الثاني قوله تعالى : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وقرأ ابن أبي نهيك : " كلا " بالتنوين ، وروي عنه مع ذلك ضمّ الكاف وفتحها ، فعلى الضم هي بمعنى جميعاً ، وانتصابها بفعل مضمر ، كأنه قال : سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم ، وعلى الفتح يكون مصدراً لفعل محذوف تقديره : كل هذا الرأي كلا ، وقراءة الجمهور هي الصواب ، وهي حرف ردع وزجر ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ أي تكون هذه الآلهة التي ظنوها عزّاً لهم ضدّاً عليهم ، أي ضدّاً للعزّ وضدّ العزّ : الذلّ ، هذا على الوجه الأوّل ، وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للآلهة ضدّاً وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين :

أحدهما : أن معناه : خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعذهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الإسراء : 65] .

الوجه الثاني : أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ [الزخرف : 36] فمعنى الإرسال ها هنا : التسليط ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء : 64] ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية ، وهو ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ فإن الأزّ والهزّ والاستفزاز معناها : التحريك والتهييج والإزعاج ، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرّك الكافرين وتهيجهم وتغويهم ، وذلك هو التسليط لها عليهم ، وقيل : معنى الأزّ : الاستعجال ، وهو مقارب لما ذكرنا لأن الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وإزعاج ، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حالهم ، وللتنبيه له على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، وجملة : ﴿ تؤزهم أزّاً ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام ، كأنه قيل : ماذا تفعل الشياطين بهم ؟

﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر ،

وعنادهم للحق ، وتمرّدهم عن داعي الله سبحانه .

ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ يعني نعدّ الأيام والليالي والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم .

وقيل : نعدّ أنفاسهم .

وقيل خطواتهم .

وقيل : لحظاتهم .

وقيل : الساعات .

وقال قطرب : نعدّ أعمالهم .

وقيل : المعنى : لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثماً .

(96/492)

ثم لما قرّر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذٍ ، فقال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدّر ، أي اذكر يا محمد يوم الحشر .

وقيل : منصوب بالفعل الذي بعده ، ومعنى حشرهم إلى الرحمن : حشرهم إلى جنته ودار

كرامته ، كقوله : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [الصافات : 99] والوفد جمع وافد ، كالركب جمع راكب ، وصحب جمع صاحب ، يقال : وفد يفد وفداً إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهري .

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ السوق : الحثّ على السير ، والورد : العطاش قاله الأخفش وغيره .

وقال الفراء وابن الأعرابي : هم المشاة ، وقال الأزهري : هم المشاة العطاش ، كالإبل ترد الماء .

وقيل : ﴿ وردا ﴾ أي : للورد ، كقولك : جئتك إكراماً ، أي للإكرام ، وقيل : أفراداً .

قيل : ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشاً أفراداً ، وأصل الورد : الجماعة التي ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك .

والورد الماء الذي يورد .

وجملة : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون في ذلك اليوم من الأمور ، والضمير في ﴿ يملكون ﴾ راجع إلى الفريقين .

وقيل : للمتقين خاصة .

وقيل : للمجرمين خاصة ، والأوّل أولى .

ومعنى ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ : أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم .

وقيل : لا يملك غيرهم أن يشفع لهم ، والأوّل أولى ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأوّل أي لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعدّ لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمناً متقياً ، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله .

وقيل : معنى اتخاذ العهد أن الله أمره بذلك كقولهم : عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به .

وقيل : معنى اتخاذ العهد : شهادة أن لا إله إلا الله .

وقيل : غير ذلك .

(97/492)

وعلى الاتصال في هذا الاستثناء يكون محل " من " في ﴿ من اتخذ ﴾ الرفع على البدل ، أو النصب على أصل الاستثناء .

وأما على الوجه الثاني فالاستثناء منقطع ؛ لأن التقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ وهم المسلمون .

وقيل : هو متصل على هذا الوجه أيضاً ، والتقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلماً .

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي : " ولداً " بضم الواو وإسكان اللام ، وقرأ الباقون في الأربعة المواضع الأربعة في هذه السورة بفتح الواو واللام ، وقد قدّمنا الفرق بين القراءتين .

والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ، وفي قوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وفيه ردّ لهذه المقالة الشنعاء ، والإدّ كما قال الجوهري : الداهية والأمر الفظيع ، وكذلك الأدّة ، وجمع الأدّة أدد ، يقال : أدّت فلاناً الداهية تؤدّه أدا بالفتح .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : " أدّاً " بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بالكسر ، وقرأ ابن عباس وأبو العالية " آدّاً " مثل مادّاً ، وهي مأخوذة من الثقل ، يقال : أدّه الحمل يؤده : إذا أثقله .

قال الواحدي : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ أي عظيماً في قول الجميع ، ومعنى الآية : قلتم قولاً عظيماً .

وقيل : الإدّ : العجب ، والإدّة : الشدّة ، والمعنى متقارب ، والتركيب يدور على الشدّة والثقل .

﴿ يَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ قرأ نافع والكسائي وحفص ويحيى بن وثاب " يكاد " بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص " يتفطرن " بالتاء الفوقية ، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل ﴿ يتفطرن ﴾ بالتحتية من الانفطار ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] ، وقوله : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] وقرأ ابن مسعود : " يتصدّعن " والانفطار والتفطر : التشقق ﴿ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ أي وتكاد أن تنشق الأرض ، وكرر الفعل للتأكيد لأن تتفطرن وتنشق معناهما واحد ﴿ وَتَخِرُّ الجبال ﴾ أي تسقط وتنهدم ، وانتصاب ﴿ هَدّاً ﴾ على أنه مصدر مؤكد ؛ لأن الخرور في معناه ، أو هو مصدر لفعل مقدّر ، أي وتنهد هدّاً ، أو على الحال أي مهدودة ، أو على أنه مفعول له ، أي لأنها تنهد .

قال الهروي : يقال هدني الأمر وهدّ ركني ، أي كسرني وبلغ مني .

قال الجوهري : هدّ البناء يهدّه هدّاً كسره وضعضعه ، وهدّته المصيبة أوهنت ركنه ، وانهدّ الجبل ، أي انكسر ، والهدّة : صوت وقع الحائط ، كما قال ابن الأعرابي ، ومحل ﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ الجرّ بدلاً من الضمير في ﴿ منه ﴾ .

وقال الفراء : في محل نصب بمعنى لأن دعوا .

وقال الكسائي : هو في محل خفض بتقدير الخافض .

وقيل : في محل رفع على أنه فاعل ﴿ هدّاً ﴾ .

والدعاء بمعنى التسمية ، أي سموا للرحمن ولداً ، أو بمعنى النسبة أي نسبوا له ولداً .

﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه ؛ لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث ، والجملة في محل نصب على الحال ، أي قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، أو أن دعوا للرحمن ولداً ، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك .

(99/492)

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض ﴾ أي ما كل من في السموات والأرض ﴿ إِلا ﴾ وهو ﴿ آتِي ﴾ الله يوم القيامة مقرّاً بالعبودية خاضعاً ذليلاً كما قال : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين ﴾ [النمل : 87] أي صاغرين .

والمعنى : أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولداً له ؟ وقرى " آتٍ " على الأصل .

﴿ لَّقَدْ أحصاهم ﴾ أي حصرهم وعلم عددهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أي عدّ أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهم .

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ أي كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فرداً لا ناصر له ولا مال معه ، كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ [الشعراء : 88] .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ قال : أعواناً .

وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ ضِدّاً ﴾ قال : حسرة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ : تغويهم إغواءً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ قال : تحرّض المشركين على محمد وأصحابه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس : ﴿ وَفْداً ﴾ قال : ركباناً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة ﴿ وَفْداً ﴾ قال : على الإبل .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا " والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس : ﴿ وِرْداً ﴾ قال : عطاشاً .

وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوّة ، ولا يرجو إلا الله .

وأخرج ابن مردويه عنه في الآية قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ قال : إن الله يقول يوم القيامة : من كان له عندي عهد فليقم ، فلا يقوم إلا من قال هذا في الدنيا ، قولوا : اللّهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي تقربني من الشرّ وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعله لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرّني ، ومن سرّني فقد اتخذ عند الرحمن عهداً ، ومن

اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار ، إن الله لا يخلف الميعاد " وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جاءنا بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهم شيئاً فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه "

(101/492)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ قال : قولاً عظيماً ، وفي قوله : ﴿ يَكَادُ السموات ﴾ قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله سبحانه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك يرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وفي قوله : ﴿ وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ قال : هدماً .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، والطبراني والبيهقي في الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه ، يا فلان ، هل مرّ بك اليوم أحد ذكر الله ؟ فإذا قال : نعم ،

استبشر .

قال عون : أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير ؟ هنّ للخير أسمع ، وقرأ : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(102/492)

وقال القاسمي :

ولما قرر تعالى في هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، عطف عليه حكاية جنايتهم من دعوى النبوّة له ، مهولاً لأمرها . وكذا جناية أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمي بعض المخلوقات ابناً أو بنتاً له ، تعالى وتقدّس – عطف قصته على قصته بقوله :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ أي : عظيماً منكراً . وفي رد مقالتهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات ، إشعار بشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع ، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل . ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه :

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾

أي : يتشقّقن : ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ ﴾ أي : لأن : ﴿ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾ وذلك لغيرتها على المقام الرباني الأحديّ أن ينسب له ما ينزه عنه ويعر بحاجته ووجود كفء له وفنائه . وذلك لأن الولادة إنما تكون من الحيّ الذي له مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو سبحانه تنزه عن ذلك ، كما قال : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ أي : مملوكاً له يأوي إليه بالعبودية والذل .

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ ﴾ أي : حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ أي : منفرداً مجرداً من الأتباع والأنصار ، وعمن زعم أن له من الشفعاء . فإنهم منهم برآء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 120 ﴾

(103/492)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) ﴾

عطف على جملة ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت ﴾ [مريم : 66] أو على جملة ﴿

واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ [مريم : 81] إتماماً لحكاية أقوالهم ، وهو القول بأن لله ولداً ، وهو قول المشركين : الملائكة بنات الله .

وقد تقدم في سورة النحل وغيرها ؛ فصريح الكلام رد على المشركين ، وكنايته تعريض بالنّصارى الذين شابهوا المشركين في نسبة الولد إلى الله ، فهو تكملة للإبطال الذي في قوله تعالى آنفاً : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ﴾ [مريم : 35] الخ .

والضمير عائد إلى المشركين ، فيفهم منه أنّ المقصود من حكاية قولهم ليس مجرد الإخبار عنهم ، أو تعليم دينهم ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه ، وإنما قالوا ذلك تأييداً لعبادتهم الملائكة والجن واعتقادهم شفعاء لهم .

وذكر ﴿ الرّحمان ﴾ هنا حكاية لقولهم بالمعنى ، وهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يُقرون به ، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان ﴾ [الفرقان : 60] ، فهم إنما يقولون : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ كما حكي عنهم في آيات كثيرة منها آية سورة الكهف (4) .

فذكر الرحمن ﴾ هنا وضع للمرادف في موضع مرادفه ، فذكر اسم ﴿ الرحمان ﴾ لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه .

وفيه أيضاً إيماء إلى اختلال قولهم لمنافاة وصف الرحمان اتخاذ الولد كما سيأتي في قوله : ﴿ وما ينبغي للرحمان أن يتخذ ولداً ﴾ .

والخطاب في ﴿ لقد جئتم ﴾ للذين قالوا اتخذ الرحمان ولداً ، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد ، كما تقدم في قوله آنفاً : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] فلا يحسن تقدير : قل لقد جئتم .

وجملة ﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً ﴾ مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة ﴿ وقالوا اتّخذ الرحمان ولداً ﴾ من التشنيع والتفظيع .

(104/492)

وقرأ نافع والكسائي بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث ، وذلك جائز في الاستعمال إذا لم يكن الفعل رافعاً لضمير مؤنث متصل ، وقرأ البقية : ﴿ تكاد ﴾ بالتاء المثناة الفوقية ، وهو الوجه الآخر .

والتفطر : الانشقاق ، والجمع بينه وبين ﴿ وتنشق الأرض ﴾ تفنّن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ .

والخرور : السقوط .

ومن في قوله : ﴿ منه ﴾ للتعليل ، والضمير المجرور بمن عائد إلى ﴿ شيئاً إداً ﴾ ، أو إلى القول المستفاد من ﴿ قالوا اتخذ الرحمن ولداً .

والكلام جار على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيُغيّر كيانها .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وحفص عن عاصم ، والكسائي : يتفطرن بمثناة تحتية بعدها تاء فوقية .

وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، وخلف ، وأبو بكر عن عاصم ، بتحتية بعدها نون ، من الانفطار .

والوجهان مطاوع فطَر المضاعف أو فطر المجرد ، ولا يكاد ينضبط الفرق بين البنيتين في الاستعمال .

ولعلّ محاولة التّفرقة بينهما كما في الكشاف ﴾ و"الشافية" لا يطرد ، قال تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] ، وقال : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] ، وقرىء في هذه الآية : ﴿ ينفطرون وينفطرن ، والأصل توافق القرآتين في البلاغة .

والهدّ : هدم البناء .

وانتصب هَدّاً ﴾ على المفعولية المطلقة لبيان نوع الخرور ، أي سقوط الهَدم ، وهو أن يتساقط شظايا وقطعاً .

و﴿ أن دَعوا للرحمان ولداً ﴾ متعلّق بكل مِن ﴿ يتفطرن ، وتنشق ، وتخرّ ، وهو على

حذف لام الجرّ قبل (أنْ) المصدريّة وهو حذف مطرّد .

والمقصود منه تأكيد ما أفيد من قوله : منه ﴾ ، وزيادةُ بيانٍ لمعادِ الضمير المجرور في قوله ﴿ منه ﴾ اعتناء ببيانه .

ومعنى ﴿ دَعَوا ﴾ : نسبوا ، كقوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ [الأحزاب : 5] ، ومنه يقال : ادّعى إلى بني فلان ، أي انتسب .

(105/492)

قال بَشامة بن حَزْن النهشلي :

إنّا بني نَهشل لا نَدّعي لأب . . .

عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

وجملة ﴿ وما ينبغي للرحمان أن يتّخذ ولداً ﴾ عطف على جملة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمان ولداً .

ومعنى ما ينبغي ﴾ ما يتأتّى ، أو ما يجوز .

وأصل الانبغاء : أنّه مطاوع فعل بغى الذي بمعنى طلَب .

ومعنى ، مطاوعِته : التأثّر بما طُلب منه ، أي استجابةُ الطلب .

نقل الطيبي عن الزمخشري أنه قال في "كتاب سيبويه" : كل فعل فيه علاج يأتي مطاوعُه على الانفعال كصَرف وطلب وعلم ، وما ليس فيه علاج كعَدم وفقد لا يتأتى في مطاوعه الانفعال البتة" أ هـ .

فبان أن أصل معنى ﴿ ينبغي ﴾ يستجيب الطلب .

ولما كان الطلب مختلف المعاني باختلاف المطلوب لزم أن يكون معنى ﴿ ينبغي ﴾ مختلفاً بحسب المقام فيستعمل بمعنى : يتأتى ، ويمكن ، ويستقيم ، ويليق ، وأكثر تلك الإطلاقات أصله من قبيل الكناية واشتهرت فقامت مقام التصريح .

والمعنى في هذه الآية : وما يجوز أن يتّخذ الرحمان ولداً ، بناء على أن المستحيل لو طلب حصوله لما تأتّى لأنه مستحيل لا تتعلّق به القدرة ، لا لأنّ الله عاجز عنه ، ونحوُ قوله : ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ [الفرقان : 18] يفيد معنى : لا يستقيم لنا ، أو لا يُخوّل لنا أن نتخذ أولياء غيرك ، ونحو قوله : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ [يس : 40] يفيد معنى لا تسْتطيع .

ونحو ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ [يس : 69] يفيد معنى : أنه لا يليق به ، ونحو : ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ [ص : 35] يفيد معنى : لا يستجاب طلبه لطالبه إن طلبه ، وفرقٌ بين قولك : ينبغي لك أن لا تفعل هذا ، وبين لا ينبغي

لك أن تفعل كذا ، أي ما يجوز لجلال الله أن يتخذ ولداً لأنّ جميع الموجودات غيرَ ذاته تعالى يجب أن تكون مستوية في المخلوقية له والعبودية له .

(106/492)

وذلك ينافي البُنوة لأن بُنوة الإله جزء من الإلهية ، وهو أحد الوجهين في تفسير قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرّحمان ولد فأنا أول العابدين ﴾ [الزخرف : 81] ، أي لو كان له ولد لعبدتُه قبلكم .

ومعنى ﴿ آتي الرحمان عبداً ﴾ : الإتيان المجازي ، وهو الإقرار والاعتراف ، مثل : باء بكذا ، أصله رجع ، واستعمل بمعنى اعترَف .

و ﴿ عبداً ﴾ حال ، أي معترف لله بالإلهية غير مستقل عنه في شيء في حال كونه عبداً .

ويجوز جعل ﴿ آتي الرحمان ﴾ بمعنى صائر إليه بعد الموت ، ويكون المعنى أنّه يحيا عبداً ويحشر عبداً بحيث لا تشوبه نسبة البنوة في الدنيا ولا في الآخرة .

وتكرير اسم ﴿ الرّحمان ﴾ في هذه الآية أربع مرات إيماء إلى أن وصف الرحمان الثابت لله ، والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله وإن أنكروا لفظه ، ينافي ادعاء الولد له لأنّ الرحمان وصف يدلّ على عموم الرّحمة وتكثرها .

ومعنى ذلك : أنّها شاملة لكل موجود ، فذلك يقتضي أن كل موجود مفتقر إلى رحمة الله تعالى ، ولا يتقوم ذلك إلا بتحقق العبودية فيه .

لأنه لو كان بعض الموجودات ابناً لله تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالبنوة مساوياً له في الإلهية المقتضية الغنى المطلقَ ، ولأن اتخاذ الابن يتطلّبُ به متخذُه برّ الابن به ورحمته له ، وذلك ينافي كون الله مفيض كلّ رحمة .

فذكر هذا الوصف عند قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمان ولداً ﴾ وقوله ﴿ أن دعوا للرحمان ولداً ﴾ تسجيل لغباوتهم .

وذكره عند قوله : ﴿ وما ينبغي للرحمان أن يتّخذ ولداً ﴾ إيماء إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله .

وذكرُه عند قوله : ﴿ إلا آتي الرحمان عبداً ﴾ استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه وإقرارها له بملكه إياها .

وجملة ﴿ لقد أحصاهم ﴾ عطف على جملة ﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً ﴾ ، مستأنفة ابتدائية لتهديد القائلين هذه المقالة .

فضمائر الجمع عائدة إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ وقالوا اتخذ الرحمان ولداً ﴾ وما بعده .

وليس عائداً على ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ ، أي لقد علم الله كل من قال ذلك وعدّهم فلا ينفلت أحد منهم من عقابه .

ومعنى ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ إبطال ما لأجله قالوا اتخذ الله ولداً ، لأنهم زعموا ذلك موجب عبادتهم للملائكة والجنّ ليكونوا شفعاءهم عند الله ، فأيأسهم الله من ذلك بأن كل واحد يأتي يوم القيامة مفرداً لا نصير له كما في قوله في الآية السالفة : ﴿ ويأتينا فرداً .

وفي ذلك تعريض بأنهم آتون لما يكرهون من العذاب والإهانة إتيانَ الأعزل إلى من يتمكن من الانتقام منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(108/492)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) ﴾

هذا الكلام منهم عبث وافتراء ؛ لأنه متى كان اتخاذ هذا الولد ؟ في أيِّ قَرْن من القرون من ميلاد المسيح عليه السلام ؟ إن هذه المقولة لم تأْتِ إلا بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح ،

فما الموقف قبلها ؟ وما الذي زاد في مُلْك الله بعد أنْ جاء هذا الولد ؟

الشمس هي الشمس ، والنجوم هي النجوم ، والهواء هو الهواء ، إذن : موضوعية اتخاذ الولد هذه عبث ؛ لأنه لم يَزِدْ شيء في المُلْك على يد هذا الولد ، ولم تكن عند الله تعالى صفة مُعطلة اكتملتْ بمجيء الولد ؛ لأن الصفات الكمالية لله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق أيَّ شيء .

فهو سبحانه وتعالى خالق قبل أن يَخْلق ، ورازق قبل أنْ يَرزُق ، ومُحْيٍ قبل أنْ يحيى ، ومميت قبل أن يميت . فالبصفات أوجد هذه الأشياء ، فصفات الكمال فيه سبحانه موجودة قبل متعلقاتها .

وضربنا لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى بالشاعر الذي قال قصيدة . وقلنا : إنه قال القصيدة لأنه شاعر بدايةً ، ولولا أنه شاعر ما قالها .

لذلك يرد الحق سبحانه على هذا الافتراء بقوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾ [الكهف : 5] .

وهنا يرد عليهم بقوله : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً ﴾

والإدّ : المتناهي في النكْر والفظاعة ، وهو الأمر المستبشع ، من : آده الأمر . أي : أثقله ولم يَقْو عليه ، ومنه قوله تعالى في آية الكرسي : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة : 255] أي : لا يثقل عليه .

لكن ، لماذا جعل هذا الأمر إدّاً ومنكراً فظيعا ؟

قالوا : لأن اتخاذ الولد له مقاصد ، فالولد يُتخذ ليكون لك عِزْوة وقوة ؛ أو ليكون امتداداً لكل بعد موتك ، والحق سبحانه وتعالى هو العزيز ، الذي لا يحتاج إلى أحد ، وهو الباقي الدائم الذي لا يحتاج إلى امتداد .

(109/492)

إذن : فاتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا عِلةَ له ، كما أن اتخاذ الولد لله تعالى ينفي سواسية العبودية له سبحانه .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ ﴾

أي : فلسنا نحن فحسْب الذين ننكر هذا الأمر ، بل الجماد غير المكلف أيضاً ينكره ، فالسموات بقوتها وعظمها تتفطر أي : تتشقق ، وتكاد تكون مِزَعاً لهوْلِ ما قيل ، تقرب أن تنفطر لكن لماذا لم تنفطر بالفعل ؟ لم تنفطر ؛ لأن الله يمسكها : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] .

وفي الحديث القدسي : " قالت السماء يا رب ائذن لي أنْ أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يارب ائذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم

خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربّ ائذن لي أن أُغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال لهم : دعوني وخلقي لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم " .

فما العِلَّة في أن السماء تقرب أن تنفطر ، والأرض تقرب أن تنشق ، والجبال تقرب أن تخِرَّ ؟

﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) ﴾

هذه هي العلة والحيثية التي من أجلها يكاد الكونُ كلُّه أن يتزلزل ، ويثور غاضباً لهذه المقولة الشنيعة .

ثم يعقب الحق سبحانه فيقول : ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ ﴾ .

(110/492)

وعلينا هنا أنْ نُفرق بين نَفْي الحدث ونفي انبغاء الحدث ، فمثلاً في قول الحق تبارك وتعالى في شأن نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ [يس : 69] فنفى عنه قَوْل الشعر ، ونفي عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانٌّ أن النبي لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورِقَّة الإحساس غير متوافرة لديه صلى الله عليه

وسلم ، لكن رسول الله قادر على قَوْل الشعر إنْ أراد ، فهو قادر على الحدث ، إلا أنه لا ينبغي له .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : 92] فإنْ أراد سبحانه وتعالى أن يكون له ولد لَكانَ ذلك ، كما جاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81] .

أي : إن كان له سبحانه ولد فعلى العَيْن والرأس ، إنما هذه مسألة ما أرادها الحق سبحانه ، وما تنبغي له ، فكيف أدَّعي أنا أن لله ولداً هكذا من عندي ؟

وما حاجته تعالى للولد ، وقد قال في الآية بعدها : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض ﴾

ذلك لأن الخالق تبارك وتعالى خلق الإنسان ، وجعل له منطقة اختيار يفعل أو لا يفعل ، يؤمن أو لا يؤمن ، وكذلك جعل فيه منطقة قَهْر ، فالكافر الذي أَلِف الكفر ، وتعوَّد عليه ، وتمرد على الطاعة والإيمان ، هل يستطيع أنْ يتمرّد مثلاً على المرض أو يتمرَّد على الموت ، أو على الفقر ؟

إذن : فأنت مُختار في شيء وعَبْد في أشياء ، كما أن منطقة الاختيار هذه لك في الدنيا ، وليست لك في الآخرة . وسبق أنْ فرّقنا بين العباد والعبيد ، فالجميع : المؤمن والكافر عبيد لله تعالى ، أما العباد فهم الذين تنازلوا عن اختيارهم ومرادهم لمراد ربهم ، فجاءت

كُلُّ تصرفاتهم وفقاً لما يريده الله .

وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] .

(111/492)

ومعنى : ﴿ إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] أي : في الآخرة ، حيث تُلْغَى منطقة الاختيار ، ولا يستطيع أحد الخروج عن مراد الله تعالى ، ويسلب الملك من الجميع ، فيقول تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

وهو سبحانه القادر على العطاء ، القادر على السلب : ﴿ تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ ﴾

الإحصاء : هو العَدُّ ، وكانوا قديماً يستخدمون الحصَى أو النوى في العَدِّ ، لكن النوى فرع ملكية النخل ، فقد لا يتوفر للجميع ؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصَى ، ومنه كلمة الإحصاء .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة ﴾

أي . وحده ، ليس معه أهل أو أولاد أو عِزْوة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 3437] .

فكل مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : 2] .

وتأمَّل قوله : ﴿ آتِيهِ ﴾ [مريم : 95] فالعبد هو الذي يأتي بنفسه مُخْتاراً لا يُؤْتَى به ، فكأن الجميع منضبط على وقت معلوم ، إذا جاء يُهْرَع الجميع طواعيةً إلى الله عز وجل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(112/492)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) ﴾

قوله : ﴿ شَيْئًا إِدًّا ﴾ : العامَّةُ على كسر الهمزة مِنْ " إِدًّا " وهو الأمرُ العظيمُ المنكَرُ المتعجَّبُ منه . وقرأ أمير المؤمنين والسلمي بفتحها . وخَرَّجوه على حَذْفِ مضاف ، أي

: شيئاً أدّاً ، لأنّ الأدّ بالفتحِ مصدرٌ يُقال : أدّه الأمرُ ، وأدّني يَؤُدُّني أدّاً ، أي : أثْقَلني . وكان الشيخ ذكر أنّ الأَدّ والإِدّ بفتح الهمزة وكسرِها هو العَجَبُ . وقيل : هو العظيم المُنْكَر ، والإِدّة : الشِّدّة/ . وعلى قوله : " وإن الإِدّ والأدّ بمعنى واحد " ينبغي أَنْ لا يُحتاج إلى حَذْفِ مضاف ، إلا أَنْ يريدَ أنه أراد بكونِهما بمعنى العَجَب في المعنى لا في المصدرية وعَدَمِها .

قوله : ﴿ تَكَادُ ﴾ :

قرأ نافع والكسائي بالياءِ من تحتُ ، والباقون بالتاء مِنْ فوقُ ، وهما واضحتان إذ التأنيثُ مجازيٌّ ، وكذلك في سورة الشورى .

وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر وأبو بكر عن عاصمٍ وحمزةَ "يَنفَطِرْنَ" مضارع انْفَطَرَ . والباقون "يتفطَّرْن" مضارعَ تَفَطَّرَ بالتشديدِ في هذه السورة . وأمَّا التي في الشورى فقرأها حمزة وابنُ عامرٍ بالتاء والياء وتشديد الطاء والباقون على أصولِهم في هذه السورة . فتَلَخَّصَ من ذلك أن أبا عمرو وأبا بكر يقرآن بالتاء والنون في السورتين ، وأن نافعاً وابن كثير والكسائيَّ وحفصاً عن عاصم يقرؤون بالتاء والياء وتشديد الطاء فيهما ، وانَّ حمزة وابن عامر في هذه السورةِ بالتاء والنون ، وفي الشورى بالتاء والياء وتشديد الطاء .

فالانفِطارُ مِنْ "فَطَرَه" إذا شَقَّه ، والتفطُّر مِنْ "فطَّره" إذا شَقَّقَه ، وكَرَّر فيه الفعلَ . قال

أبو البقاء : " وهو هنا أَشْبَهُ بالمعنى " . أي : التشديد . و "يَتَفَطَّرْنَ" في محلِّ نصب خبراً ل " تكادُ " وزعم الأخفش أنها هنا بمعنى الإِرادة وأنشد :

(113/492)

3260- كادَتْ وكِدْتُ وتلك خيرُ إرادةٍ . . . لو عادَ مِنْ زمنِ الصَّبابةِ ما مَضَى

قوله : " هَدّاً " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه مصدرٌ في موضعِ الحال ، أي : مَهْدُودةً وذلك على أن يكونَ هذا المصدرُ مِنْ هدَّ زيدٌ الحائطَ يَهُدُّه هَدّاً ، أي : هَدَمه . والثاني : وهو قولُ أبي جعفر أنه مصدرٌ على غيرِ الصَّدْرِ لمَّا كان في معناه لأنَّ الخُرورَ السُّقوطُ والهَدْمُ ، وهذا على أن يكونَ مِنْ هَدَّ الحائطُ يَهِدُّ ، أي : انهدمَ ، فيكون لازماً . والثالث : أن يكونَ مفعولاً مِنْ أجله . قال الزمخشريُّ : " أي : لأنَّها تَهُدُّ " .

﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) ﴾

قوله : ﴿ أَن دَعَوْا ﴾ : في محلِّه خمسةُ أوجه ، أحدها : أنه في محلِّ نصبٍ على المفعولِ مِنْ أجله . قاله أبو البقاء والحوفي ، ولم يُبَيِّنا : ما العاملُ فيه ؟ ويجوز أَنْ يكونَ العاملُ " تكاد " أو " تَحِزُّ " أو " هَدّاً " أي : تَهِدُّ لأَنْ دَعَوْا ، ولكنَّ شَرْطَ النصبِ فيها مفقودٌ وهو اتِّحادُ الفاعلِ في المفعولِ له والعاملِ فيه ، فإن عَنَيا أنه على إسقاطِ اللامِ - وسقوطُ اللامِ يَطَّرِدُ مع

أنْ – فقريبٌ . وقال الزمخشري : " وأَنْ يكونَ منصوباً بتقديرِ سقوطِ اللام وأفضاءِ الفعلِ ، أي : هدّاً لأَنْ دَعَوْا ، عَلَّلَ الخرورَ بالهدّ ، والهدّ بدعاءِ الوَلَدِ للرحمن " . فهذا تصريحٌ منه بأَنَّه على إسقاطِ الخافضِ ، وليس مفعولاً له صريحاً .

الوجه الثاني : أَنْ يكونَ مجروراً بعد إسقاطِ الخافض ، كما هو مذهبُ الخليلِ والكسائي .

والثالث : أنه بدلٌ من الضمير في " مِنْه " كقولِه :

3261- على حالةٍ لو أنَّ في القومِ حاتماً . . . على جودِهِ لضَنَّ بالماءِ حاتِمِ

بجر " حاتم " الأخير بدلاً من الهاء في " جودِه " . قال الشيخ : " وهو بعيدٌ لكثرةِ الفصلِ بين البدلِ والمبدلِ منه بجملتين " .

(114/492)

الوجه الرابع : أَنْ يكونَ مرفوعاً ب " هَدّاً " . قال الزمخشري أي : هَدَّها دعاءُ الولدِ للرحمن " . قال الشيخ : " وفيه بُعْدٌ لأنَّ الظاهرَ في " هَدّاً " أن يكونَ مصدراً توكيدياً ، والمصدرُ التوكيديُّ لا يعملُ ، ولو فَرَضْناه غيرَ توكيديّ لم يَعْمَلْ بقياسٍ إلا إنْ كان أمراً أو مستفهماً عنه نحو : " ضَرْباً زيداً " و " أضَرْباً زيداً " على خلافٍ فيه . وأمّا إنْ كان خبراً ، كما قدَّره الزمخشري " أي : هَدَّها دعاءُ الوَلَدِ للرحمن " فلا يَنْقاس ، بل ما جاءَ من ذلك هو نادرٌ

كقولِ امرئِ القيس :

3262- وُقوفاً بها صَحْبِيْ عليَّ مطيَّهم . . . يقولون : لا تَهْلِكَ أَسَىً وتجمَّلِ

أي : وقف صحبي .

الخامس : أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه : المُوْجِبُ لذلك دعاؤهم ، كذا قَدَّره أبو البقاء .

و" دَعا " يجوز أَنْ يكونَ بمعنى سَمَّى فيتعدَّى لاثنين ، ويجوز جَرُّ ثانيهما بالباءِ . قال الشاعر :

3263- دَعَتْنِي أخاها أمُّ عمروٍ ولم أكنْ . . . أخاها ولم أَرْضَعْ بلَبانِ

دَعَتْني أخاها بعد ما كان بينَنا . . . من الفعلِ ما لا يَفْعَلُ الأَخَوانِ

وقول الآخر :

3264- ألا رُبَّ من يُدْعَى نَصيحاً وإنْ يَغِبْ . . . تَجِدْه بغَيْبٍ منكَ غيرَ نَصِيْحِ

وأوَّلُهما في الآية محذوفٌ . قال الزمخشري : " طلباً للعموم والإحاطة بكلِّ ما يُدْعَى له ولداً . ويجوز أن يكونَ مِنْ " دعا " بمعنى نَسَبَ الذي مُطاوِعُه ما في قولِه عليه السلام " مَنِ ادَّعَى إلى غير مَوالِيه " وقول الشاعر :

3265- إنَّا بني نَهْشَلٍ لا نَدَّعِيْ لأَبٍ . . . عنه ولا هو بالأَبناءِ يَشْرِيْنا

أي : لا نَنْتَسِبُ إليه .

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) ﴾

و ﴿ يَنبَغِي ﴾ : مضارع انْبَغَى . وانْبَغَى مطاوعُ لبَغَى ، أي : طَلَبَ ، و ﴿ أَن يَتَّخِذَ ﴾ فاعلُه . وقد عَدَّ ابن مالك "يَنْبَغي " في الأفعالِ التي لا تَتَصَرَّف . وهو مردودٌ عليه ، فإنه قد سُمِعَ فيه في الماضي قالوا : انْبَغَى .

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) ﴾

قوله : ﴿ مَن فِي السماوات ﴾ : يجوز في " مَنْ " أن تكونَ نكرةً موصوفة ، وصفتُها الجارُّ بعدها . ولم يذكر أبو البقاء غيرَ ذلك ، وكذلك الزمخشري . إلا أنَّ ظاهرَ عبارتِه يقتضي أنه لا يجوز / غيرُ ذلك ، فإنه قال : " مَنْ موصوفةٌ ؛ فإنها وقعَتْ بعد كل نكرةٍ وقوعَها بعد " رُبَّ " في قولِه :

3266- رُبَّ مَنْ أنضجْتُ غيظاً صدرَه . . . . . .

. . . . . .

انتهى . ويجوز أن تكونَ موصولةً . قال الشيخ : " أي : ما كلُّ الذي في السماوات ، و " كُلٌّ " تدخلُ على " الذي " لأنها تأتي للجنسِ كقولِه تعالى : ﴿ والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر : 33] ونحوه :

3267- وكلُّ الذي حَمَّلْتني أَتَحَمَّلُ . . . . . .

. . . . . .

يعني أنَّه لا بدَّ مِنْ تأويلِ الموصول بالعموم حتى تَصِحَّ إضافةُ "كل" إليه ، ومتى أُريد به معهودٌ بعينِه شَخَص واستحال إضافةُ "كل" إليه .

(116/492)

و ﴿ آتِي الرحمن ﴾ خبرُ "كلٌّ" جُعِل مفرداً حَمْلاً على لفظِها ولو جُمع لجاز وقد تقدَّم أولَ هذا الموضوعِ أنها متى أُضيفت لمعرفةٍ جاز الوجهان . وقد تكلَّم السهيليُّ في ذلك فقال : "كُلٌّ" إذا ابْتُدِئَتْ ، وكانتْ مضافةً لفظاً - يعني لمعرفةٍ - فلا يَحْسُنُ إلا إفرادُ الخبرِ حَمْلاً على المعنى . تقول : كلُّكم ذاهبٌ ، أي : كلُّ واحدٍ منكم ذاهبٌ ، هكذا هذه المسألةُ في القرآنِ والحديثِ والكلامِ الفصيح . فإنْ قلت : في قولِه : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ ﴾ [مريم : 95] إنما هو حَمْلٌ على اللفظ لأنه اسمٌ مفردٌ . قلنا : بل هو اسم للجمع ، واسمُ الجمع لا يُخْبَرُ عنه بإفراد . تقول : "القومُ ذاهبون" ولا تقولُ : ذاهبٌ ، وإن كان لفظُ "القوم" لفظَ المفردِ . وإنما حَسُن "كلُّكم ذاهب" لأنهم يقولون : كلُّ واحدٍ منكم ذاهبٌ ، فكان الإفرادُ مراعاةً لهذا المعنى " .

قال الشيخ : " ويَحتاج "كلُّكم ذاهبون " ونحوُه إلى سَماعٍ ونَقْلٍ عن العرب " . يُقَرِّر ما قاله السهيليُّ . قلت : وتسميةُ الإفرادِ حَمْلاً على المعنى غيرُ الاصطلاحِ ، بل ذلك حَمْلٌ على اللفظ ، الجمعُ هو الحَمْلُ على المعنى .

وقال أبو البقاء : " وَوُحِّدَ " آتِيْ " حَمْلاً على لفظ "كل " وقد جُمِعَ في موضعٍ آخرَ حَمْلاً على معناها " . قلت : قوله في موضعٍ آخرَ إنْ عَنَى في القرآن فلم يأتِ الجمعُ إلا " وكلٌّ " مقطوعةٌ عن الإضافة نحو : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : 87] وإنْ عَنَى في غيرِه فيَحْتاج إلى سماعٍ عن العرب كما تقدَّم .

والجمهورُ على إضافة " آتِي " إلى " الرحمن " . وقرأ عبد الله بن الزبير وأبو حيوة وطلحة وجماعة بتنوينه ونصب " الرحمن " .

وانتصبَ " عَبْداً " و " فَرْداً " على الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 653.645 ﴾

(117/492)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) ﴾

ما أعظم بهتانَهم في مقالتهم ! وما أشدَّ جرأتَهم في قبيح حالتهم ! لكنَّ الصمديةَ متقدّسةٌ عن عائدٍ يعود إليها من زَيْنٍ بتوحيدِ مُوَحّد ، أو شَيْنٍ بإلحاد مُلْحِد . . . فما شاهت إلاَّ وجوهُهم بما خاضوا فيه من مقالهم ، وما صاروا إليه من ضلالهم . كما لم يَتَجمَّلْ بما قاله الآخرون إلا القائل ، وما عاد إلا القائل مقابلٌ من عاجلٍ أو آجل .

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) ﴾

أنَّى بالولد وهو واحد ؟ ! وأنَّى بالولادة ولا جنسَ له وجوباً ولا جوازاً ؟ !

﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ . . . ﴾ : لا يَعْزُب عن عِلْمِه معلومٌ ، ولا ينفكُّ عن قدرته – مما يصح أن يقال حدوثه – موهوم .

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ لا خَدَمَ يصحبهم ، ولا حَشَمَ يلحقهم ، كلٌّ بنَفْسِهِ مشتغِلٌ ، وعن غيره منفرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 442 . 443 ﴾

(118/492)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما عم بهذا الحكم الطائع والعاصي ، وكان ذلك محزناً لأهل الطاعة باستشعار الذل في الدارين ، تحركت النفس إلى معرفة ما أفادتهم الطاعة ، واستأنف الجواب لذلك مبشراً لهم بقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا ﴾ تصديقاً لادعائهم الإيمان ، الأعمال ﴿ الصالحات سيجعل ﴾ تحقيقاً عما قليل عند بيعة العقبة ﴿ لهم الرحمن ﴾ الذي خصهم بالرضا بعد أن عمهم بالنعمة ، جزاء على انقيادهم له ، لأنه كان إما باختيارهم وإما برضاهم ﴿ وداً ﴾ أي حباً عظيماً في قلوب العباد ، دالاً على ما لهم عندهم من الود ؛ قال الأصبهاني : من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي تكسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع غيره أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع ابتدأ اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم – انتهى .

والمراد – والله أعلم – أنه لا يجعل سبحانه في قلب أحد من عباده الصالحين عليهم إحنة ،

لأن الود – كما قال الإمام أبو الحسن الحرالي : خلو عن إرادة المكروه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الروم ما يزيد ذلك وضوحاً ؛ روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إن الله إذا أحب عبداً دعا جبرئيل فقال : يا جبرئيل ! إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبرئيل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبرئيل فقال : يا جبرئيل ! إني أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبرئيل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض " .

(119/492)

ولما كان إنزال هذا القول الثقيل ثم تيسيره حفظاً وعملاً سبباً لما جعل لأهل الطاعة في الدنيا من الود بما لهم من التحلي والتزين بالصالحات ، والتخلي والتصون من السيئات ، الدال على ما لهم عند مولاهم من عظيم العز والقرب ، وكان التقدير : والذين كفروا ليكسبنهم الجبار بغضاً وذلاًّ ، فأخبر كلاًّ من الفريقين بما له بشارة ونذارة ، قال مسبباً عن إفصاح ذلك وإفهامه : ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي هذا القرآن ، الذي عجز عن معارضته

الإنس والجان ، والكتاب القيم والوحي الذي لا مبدل له بسبب إنزالنا إياه ﴿ بلسانك ﴾ هذا العربي المبين ، العذب الرصين ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ وهم الذين يجعلون بينهم وبين ما يسخط الله وقاية ، فلا يبطلون حقاً ولا يحقون باطلاً ، ومتى حصلت لهم هفوة بادروا الرجوع عنها بالمتاب ، بما لهم عندنا من العز الذي هو ثمرة العز المدلول عليه بما لهم منه في الدنيا ، لا لتحزنهم بأن ينزل فيه ما يوهم تسويتهم بأهل المعصية في كلتا الدارين ﴿ وتنذر به قوماً لدّاً ﴾ أشد في الخصومة ، يريدون العز بذلك ، لما لهم عندنا من الذل والهوان الناشىء عن المقت المسبب عن مساوىء الأعمال ، وأنا نهلكهم إن لم يرجعوا عن لددهم ، والألد هو الذي يتمادى في غيه ولا يرجع لدليل ، ويركب في عناد الحق ما يقدر عليه من الشر ، ولا يكون هذا إلا ممن يحتقر من يخاصمه ويريد أن يجعل الحق باطلاً ، تكبراً عن قبوله ، فينطبق عليه ما رواه مسلم في الإيمان عن صحيحه ، وأبو داود في اللباس من سننه ، والترمذي في البر من جامعه ، وابن ماجه في السنة من سننه عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

(120/492)

" لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط – " وفي رواية : " وغمص – الناس " وكلاهما بمعنى الاحتقار ، ومن كان هذا سبيله مرن على ذلك ومرد عليه ، فكان جديراً بأن يركبه الله أبطل الباطل : الكفر عند الموت ، فتحرم عليه الجنة ، فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ [الأعراف : 49] فيا ذل من تكبر على الحق ! ويا عز من تشرف بالذل للحق والعز على الباطل ! ولعمري لقد أجرى الله عادته – ولن تجد لسنة الله تحويلاً أن من تعود الجراءة بالباطل كان ذليلاً في الحق ، وإليه يشير قوله تعالى في وصف أحبابه ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ [المائدة : 54] .

ولما كان التقدير بعد ما أرشد إليه السياق من مفعول ﴿ ينذر ﴾ : فإنا قادرون على إهلاكهم وجميع ما نريد منهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وكم أهلكنا ﴾ بما لنا من العظمة ، ولما كان المراد التعميم ، أثبت الظرف عرياً عن الجار ، وأكد الخبر بإثبات من بعده فقال : ﴿ قبلهم من قرن ﴾ كانوا أشد منهم شدة ، وأكثر عدة ، وأوثق عدة ، فلم يبق إلا سماع أخبارهم ، ومشاهدة آثارهم ؛ ثم قال تصويراً لحالهم ، وتقريراً لمضمون ما مضى من مآلهم : ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ ببصر أو لمس ﴿ أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي صوتاً خفياً فضلاً عن أن يكون جلياً ، فقد ختمت السورة بما بدئت به من الرحمة لأوليائه ، والود

لأصفيائه ، والنعمة للذين خلفوا بعدهم من أعدائه ، بعد الرحمة للفريقين بهذا الكتاب بشارة ونذارة فحلت الرحمة على أوليائه ، وزلت عن أعدائه . والله الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 559. 561 ﴾

(121/492)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

اعلم أنه تعالى لما رد على أصناف الكفرة وبالغ في شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ وللمفسرين في قوله : ﴿ وُدّاً ﴾ قولان : الأول : وهو قول الجمهور أنه تعالى سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب الناس بها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصاً لأوليائه بهذه الكرامة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم ، والسين في سيجعل إما لأن السورة

مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا جاء الإسلام ، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية : " إذا أحب الله عبداً نادى جبريل قد أحببت فلاناً فأحبوه فينادي جبريل عليه السلام بذلك في السماء والأرض وإذا أبغض عبداً فمثل ذلك " وعن كعب قال : مكتوب في التوراة والإنجيل لا محبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على أهل السماء ، ثم على أهل الأرض وتصديق ذلك في القرآن قوله : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ .

القول الثاني : وهو اختيار أبي مسلم معنى : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ أي يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء ، يقال : آتيت فلاناً محبته ، وجعل لهم ما يحبون ، وجعلت له وده ، ومن كلامهم : يود لو كان كذا ، ووددت أن لو كان كذا أي أحببت ، ومعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أي محبوبهم في الجنة .

(122/492)

والقول الأول : أولى لأن حمل المحبة على المحبوب مجاز ، ولأنا ذكرنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكان ذلك أولى ، وقال أبو مسلم : بل القول الثاني

أولى لوجوه : أحدها : كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين .

وثانيها : أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر فكيف يمكن جعله إنعاماً في حق المؤمنين .

وثالثها : أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم لا أن الله تعالى فعله فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى .

والجواب عن الأول : أن المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة والأنبياء ، وروي عنه عليه السلام : أنه حكى عن ربه عز وجل أنه قال : " إذا ذكرني عبدي المؤمن في نفسه ذكرته في نفسي .

وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ أطيب منهم وأفضل "

وهذا هو الجواب عن الكلام الثاني لأن الكافر والفاسق ليس كذلك .

(123/492)

والجواب عن الثالث : أنه محمول على فعل الألطاف وخلق داعية إكرامه في قلوبهم ، أما قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع

هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق المضلين المبطلين فبين تعالى أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر ، ولولا أنه تعالى نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم فأما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وإنذار من خرج منهم فبين ، لكنه تعالى لما ذكر أنه يبشر به المتقين ذكر في مقابلته من هو في مخالفة التقوى أبلغ وأبلغهم الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه ويتشدد وهو معنى لداً ، ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضاً سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب ، ثم أكد تعالى في ذلك فقال : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ لأن الرسول عليه السلام إذا لم يحس منهم برؤية أو إدراك أو وجدان : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ وهو الصوت الخفي ، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض والركاز المال المدفون دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية ، والأقرب في قوله : ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ أن المراد به الانقراض بالموت وإن كان من المفسرين من حمله على العذاب المعجل في الدنيا ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 218 . 219 ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾

قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : فِي الْآخِرَةِ يُحِبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَحَبَّةِ الْوَالِدِ لِلْوَلَدِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : " وُدًّا فِي الدُّنْيَا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(125/492)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رَوَى مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَئِمَّةِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ إذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ : إنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ .

ثُمَّ يُنَادِي مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ : إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ؛ فَتُحِبُّهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ .

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا فَذَكَرَ مِثْلَهُ ﴾ .

وَفِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَحَادِيثُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَعْرَضْنَا عَنْهَا لِضَعْفِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى ابْنُ وَهْبٍ وَغَيْرُهُ عَنْ مَالِكٍ فِي حَدِيثِ : ﴿ اتَّقِ اللَّهَ يُحِبَّكَ النَّاسُ ، وَإِنْ كَرِهُوكَ ﴾ ، فَقَالَ : هَذَا حَقٌّ ، وَقَرَأَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الْآيَةَ .

وَقَرَأَ مَالِكٌ : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ .

وَهَذَا يُبَيِّنُ سَبَبَ حُبِّ اللَّهِ ، وَخَلْقَهُ الْمَحَبَّةَ فِي الْخَلْقِ ؛ وَذَلِكَ نَصٌّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَهُوَ أَحَدُ قِسْمَيْ الشَّرِيعَةِ مِنْ اجْتِنَابِ النَّهْيِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(126/492)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : حباً في الدنيا مع الأبرار ، وهيبة عند الفجار .

الثاني : يحبهم الله ويحبهم الناس ، قال الربيع بن أنس : إذا أحب الله عبداً ألقى له المحبة في قلوب أهل السماء ، ثم ألقاها في قلوب أهل الأرض .

ويحتمل ثالثاً : أن يجعل لهم ثناء حسناً . قال كعب : ما يستقر لعبد ثناء في الدنيا حتى يستقر من أهل السماء . وحكى الضحاك عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه جعل له ودّاً في قلوب المؤمنين .

قوله عز وجل : ﴿ قَوْماً لُّدّاً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : فجّاراً ، قاله مجاهد .

الثاني : أهل إلحاح في الخصومة ، مأخوذ من اللدود في الأفواه ، فلزومهم الخصومة بأفواههم كحصول اللدود في الأفواه ، قاله ابن بحر .

قال الشاعر :

بغوا لَدَدَي حَنقاً عليّ كأنما . . . تغلي عداوة صدرهم في مِرجل

الثالث : جدالاً بالباطل ، قاله قتادة ، مأخوذ من اللدود وهو شديد الخصومة . قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْخِصَامِ ﴾ وقال الشاعر :

أبيت نجياً للهموم كأنني . . . أخاصم أقواماً ذوي جدلٍ لُدّا

قوله عز وجل : ﴿ وِكْزاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : صوتاً ، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك .

الثاني : حِسّاً ، قاله ابن زيد .

الثالث : أنه ما لا يفهم من صوت أو حركة ، قاله اليزيدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(127/492)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾

ذهب أكثر المفسرين الى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحب من عباده حسبما في الحديث المأثور ، وقال عثمان بن عفان إنها بمنزلة قول النبي عليه السلام " من أسر سريرة ألبسه الله رداءها " وفي حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد إلا وله في السماء صيت فإن كان حسناً وضع في الأرض حسناً وإن سيئاً وضع كذلك " وقال عبد الرحمن بن عوف : إن الآية نزلت فيه وذلك أنه لما هاجر بمكة استوحش بالمدينة فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية في ذلك ، أي ستستقر نفوس المؤمنين ويودون حالهم ومنزلتهم ، وذكر النقاش أنها نزلت في علي بن أبي طالب ، قال ابن الحنفية : لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً وأهل بيته ، وقرأ الجمهور " وُداً " بضم الواو ، وقرأ

أبو الحارث الحنفي بفتح الواو ، ويحتمل أن تكون الآية متصلة بما قبلها في المعنى ، أي إن الله تعالى لما أخبر عن إيتان ﴿ كل من في السماوات والأرض ﴾ في حالة العبودية والانفراد أنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم ﴿ وداً ﴾ وهو ما يظهر عليهم من كرامته لأن محبة الله لعبد إنما هي ما يظهر عليه من نعمه وأمارات غفرانه له .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾

(128/492)

الضمير في ﴿ يسرنا ﴾ ، وهذا كقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] لأن المعنى يقتضي المراد وإن لم يتقدم ذكره ، ووقع التيسير في كونه بلسان محمد عليه السلام وبلغته المفهومة المبينة ، وبشارة ﴿ المتقين ﴾ هي الجنة والنعيم الدائم والعز في الدنيا ، و" القوم اللد " هم قريش ومعناه مجادلين مخاصمين بباطل ، والألد الخاصم المبالغ في ذلك ، وقال مجاهد ﴿ لداً ﴾ فجاراً ع : وهذا عندي فجور الخصومة ولا يلد إلا المبطل . والألد والألوى ، بمعنى واحد ، وفي الحديث " أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم " ثم لما وصفهم الله تعالى بأنهم لد وهي صفة سوء بحكم الشرع والحق وجب أن يفسد عليهم بالوعيد والتمثيل بإهلاك من كان أشد منهم وألد وأعظم قدراً ما كان يسرهم في أنفسهم

من الوصف بلد فإن العرب لجهالتها وعتوها وكفرها كانت تتمدح باللد وتراه إدراكاً وشهامة فمن ذلك قوله الشاعر : [الخفيف]

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً . . . وخصيماً ألد ذا مغلاق

فمثل لهم بإهلاك من قبلهم ليحتقروا أنفسهم ، ويبين صغر شأنهم وعبر المفسرون عن (اللد) بالفجرة وبالظلمة وتلخيص معناها ما ذكرناه ، و(القرن) الأمة ، و(الركز) الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم وإنما هو صوت الحركات وخشفتها ومنه قول لبيد :

فتوجست ركز الأنيس فراعها . . . عن ظهر غيب والأنيس سقامها

فكأنه يقول أو تسمع من أخبارهم قليلاً أو كثيراً أو طرفاً خفياً ضعيفاً وهذا يراد به من تقدم أمره من الأمم ودرس خبره ، وقد يحتمل أن يريد هل بقي لأحد منهم كلام أو تصويت بوجه من الوجوه فيدخل في هذا من عرف هلاكه من الأمم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(129/492)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سيجعل لهم الرحمن وُدّاً ﴾

قال ابن عباس : نزلت في علي عليه السلام ، وقال معناه : يحبُّهم ، ويُحبِّبُهم إلى المؤمنين .

قال قتادة : يجعل لهم وُدّاً في قلوب المؤمنين .

ومن هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله عبداً قال : يا جبريل ، إني أُحب فلاناً فأحبُّوه ، فينادي جبريل في السموات : إن الله يحب فلاناً فأحبّوه ، فيلقى حبُّه على أهل الأرض فيُحَبُّ " ، وذكر في البغض مثل ذلك .

وقال هرم بن حيان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل ، إلا أقبل الله عز وجل بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقَه مودّتهم ورحمتهم .

قوله تعالى : ﴿ فإنما يسَّرناه بلسانك ﴾ يعني : القرآن .

قال ابن قتيبة : أي ، سهّلناه ، وأنزلناه بلغتك .

واللُّدُّ ، جمع أَلَدّ ، وهو الخَصِمُ الجَدِل .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ هذا تخويف لكفار مكة ﴿ هل تُحِسُّ منهم من أحد ﴾ قال الزجاج : أي : هل ترى ، يقال : هل أحسستَ صاحبَك ، أي : هل رأيتَه ؟

والرِّكز : الصوت الخفيُّ ؛ وقال ابن قتيبة : الصوتُ الذي لا يُفْهَم ، وقال أبو صالح : حركة ، [والله تعالى أعلم] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ أي صدّقوا .

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ أي حباً في قلوب عباده .

كما رواه الترمذي من حديث سعد وأبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً نادى جِبرِيل إني قد أحببت فلاناً فأحبّه قال : فينادِي في السماءِ ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جِبريلَ إني أبغضت فلاناً فينادِي في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض » قال هذا حديث حسن صحيح .

وخرجه البخاري ومسلم بمعناه ، ومالك في الموطأ ، وفي نوادر الأصول .

وحدّثنا أبو بكر بن سابق الأموي قال : حدّثنا أبو مالك الْجَنْبي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة في صدور الصالحين والملائكة المقربين ثم تلا ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ » واختلف فيمن نزلت ؛ فقيل في علي رضي الله تعالى عنه ؛ روى البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : « قل يا علي اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في قلوب المؤمنين مودة » فنزلت

الآية؛ ذكره الثعلبي .

وقال ابن عباس : نزلت في عبد الرحمن بن عوف ؛ جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودة ، لا يلقاه مؤمن إلا وقّره ، ولا مشرك ولا منافق إلا عظّمه .

وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم .

وقيل : يجعل الله تعالى لهم مودّة في قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة .

قلت : إذا كان محبوباً في الدنيا فهو كذلك في الآخرة ؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمناً تقيا ، ولا يرضى إلا خالصاً نقياً ؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه .

(131/492)

روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريلَ عليه السلام فقال : إني أحب فلاناً فأحِبّه فيحِبه جبريل ثم ينادِي في السماء فيقول : إن الله يحِب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبداً دعا جبريل عليه السلام فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه

جبريل ثم ينادِي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض»

(132/492)

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أي القرآن؛ يعني بيناه بلسانك العربي وجعلناه سهلاً على من تدبره وتأمله.

وقيل: أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه.

﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ (أي المؤمنين) ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ اللّد جمع الألد وهو الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَدُّ الخصام ﴾ [البقرة: 204] وقال الشاعر:

أبيتُ نجيًّا للهمومِ كأنّني . . .

أخاصم أقواماً ذَوِي جَدلٍ لُدّا

وقال أبو عبيدة: الألد الذي لا يقبل الحق ويدّعي الباطل.

الحسن: اللد الصُّمّ عن الحق.

قال الربيع: صم آذان القلوب.

مجاهد: فجارا.

الضحاك : مجادلين في الباطل .

ابن عباس : شداداً في الخصومة .

وقيل : الظالم الذي لا يستقيم ؛ والمعنى واحد .

وخصوا بالإنذار ؛ لأن الذي لا عناد عنده يسهل انقياده .

(133/492)

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من أمة وجماعة من الناس ؛ يخوّف أهل مكة .

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ في موضع نصب ؛ أي هل ترى منهم أحداً وتجد .

﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ أي صوتاً ؛ عن ابن عباس وغيره ؛ أي قد ماتوا وحصلوا على أعمالهم .

وقيل : حِسًّا ؛ قاله ابن زيد .

وقيل : الركز ما لا يفهم من صوت أو حركة ؛ قاله اليزيدي وأبو عبيدة ؛ كركز الكتيبة ؛ وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد :

وتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأَنِيس فَرَاعَهَا . . .

عن ظَهْر غيبٍ والأَنِيس سَقَامُها

وقيل : الصوت الخفي .

ومنه ركَزَ الرُّمحَ إذا غيَّب طرفَه في الأرض .

وقال طرفة :

وَصادِقَتَا سَمْعِ التَّوَجُّسِ للسُّرَى . . .

لِرِكْزٍ خَفِيٍّ أو لصَوْتٍ مُنَدَّد

وقال ذو الرُّمة يصف ثوراً تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

إذا توجسَ رِكْزاً مقفِرٌ نَدُسٌ . . .

بِنبأةِ الصوتِ ما في سمعه كذب

أي ما في استماعه كذب ؛ أي هو صادق الاستماع .

والنَّدِس الحاذق ؛ فيقال : نَدِسٌ ونَدُس ؛ كما يقال : حَذِر وحَذُر ، ويَقِظٌ ويَقُظ .

والنبأة الصوت الخفيّ ، وكذلك الرِّكز ، والركاز المال المدفون . والله تعالى أعلم بالصواب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(134/492)

وقال أبو حيان :

والسين في ﴿ سيجعل ﴾ للاستقبال فاحتمل أن يكون هذا الجعل في الدنيا ، وجيء بأداة الاستقبال لأن المؤمنين كانوا بمكة حال نزول هذه السورة ، وكانوا ممقوتين من الكفرة ، فوعدهم الله بذلك إذا ظهر الإسلام وفشا .

واحتمل أن يكون ذلك في الدنيا على الإطلاق كما في الترمذي .

قال : " إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، قال : فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في الأرض " قال الله عز وجل : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ إلى آخر الحديث وقال : هذا حديث صحيح .

قال ابن عطية : ويحتمل أن تكون الآية متصلة بما قبلها في المعنى أي إن الله تعالى لما أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض في حال العبودية والانفراد ، أنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم ﴿ وداً ﴾ وهو ما يظهر عليهم من كرامته لأن محبة الله للعبد إنما هي ما يظهر عليه من نعمه وأمارات غفرانه انتهى .

وقال الزمخشري : وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم .

وقال أيضاً : والمعنى سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا

تعرض للأسباب التي يكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع مبرة أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم انتهى .

وقيل : في الكلام حذف والتقدير سيدخلهم دار كرامته ويجعل لهم ﴿ وداً ﴾ بسبب نزع الغل من صدورهم بخلاف الكفار ، فإنهم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ، وفي النار أيضاً يتبرأ بعضهم من بعض .

وقرأ الجمهور ﴿ وداً ﴾ بضم الواو .

وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتحها .

وقرأ جناح بن حبيش ﴿ وداً ﴾ بكسر الواو .

(135/492)

قيل : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن عوف كان اليهود والنصارى والمنافقون يحبونه ، وكان لما هاجر من مكة استوحش بالمدينة فشكا ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزلت .

وقيل : نزلت في المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ألقى الله لهم وداً في قلب

النجاشي ، وذكر النقاش أنها نزلت في عليّ بن أبي طالب .

وقال محمد بن الحنفية : لا تجد مؤمناً إلاّ وهو يحب علياً وأهل بيته انتهى .

ومن غريب هذا ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن يوسف الأنصاري الشاطبي رحمه الله تعالى لزبينا بن إسحاق النصراني الرسغي :

عدّي وتيم لا أحاول ذكرهم . . .

بسوء ولكني محب لهاشم

وما تعتريني في عليّ ورهطه . . .

إذا ذكروا في الله لومة لائم

يقولون ما بال النصارى تحبهم . . .

وأهل النهي من أعرب وأعاجم

فقلت لهم إني لأحسب حبهم . . .

سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وذكر أبو محمد بن حزم أن بغض عليّ من الكبائر .

والضمير في ﴿ يسرناه ﴾ عائد على القرآن ، أي أنزلناه عليك ميسراً سهلاً ﴿ بلسانك ﴾ أي بلغتك وهو اللسان العربي المبين .

﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي تخبرهم بما يسرهم وبما يكون لهم من الثواب على تقواهم واللد

جمع .

وقال ابن عباس : ﴿ لداً ﴾ ظلمة ، ومجاهد فجاراً ، والحسن صماً ، وأبو صالح عوجاً عن الحق ، وقتادة ذوي جدل بالباطل آخذين في كل لديد بالمراء أي في كل جانب لفرط لجاجهم يريد أهل مكة .

﴿ وكم أهلكنا ﴾ تخويف لهم وإنذار بالإهلاك بالعذاب والضمير في قوله ﴿ قبلهم ﴾ عائد على ﴿ قوماً لداً ﴾ و ﴿ هل تحس ﴾ استفهام معناه النفي أي لا تحس .

وقرأ الجمهور : ﴿ هل تحس ﴾ مضارع أحس .

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة وأبو جعفر المدني ﴿ تحس ﴾ بفتح التاء وضم الحاء .

وقرىء ﴿ تحس ﴾ من حسه إذا شعر به ومنه الحواس والمحسوسات .

وقرأ حنظلة ﴿ أو تسمع ﴾ مضارع أسمعت مبنياً للمفعول .

وقال ابن عباس : الركز الصوت الخفي .

قال ابن زيد الحس .

وقال الحسن : لما أتاهم عذابنا لم يبق منهم شخص يرى ولا صوت يسمع .

وقيل : المعنى ماتوا ونسي ذكرهم فلا يخبر عنهم مخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(137/492)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

لما فُصّلت قبائحُ أحوالِ الكفرة عُقّب ذلك بذكر محاسنِ أحوالِ المؤمنين ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ أي سيُحدث لهم في القلوب مودّةً من غير تعرضٍ منهم لأسبابها سوى ما لهم من الإيمان والعملِ الصالحِ ، والتعرضُ لعنوان الرحمانيةِ لما أن الموعودَ من آثارها . وعن النبي عليه الصلاة والسلام : " إذا أحبّ الله عبداً يقول لجبريلَ عليه السلام : إني أحبُّ فلاناً فأحِبَّه ، فيُحِبّه جبريلُ ثم ينادي في أهل السماء : إن الله أحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهلُ السماء ثم يوضع له المحبةُ في الأرض " . والسينُ لأن السورةَ مكيةٌ وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم أنجزه حين ربا الإسلامُ ، أو لأن الموعودَ في القيامة حين تُعرض

حسناتُهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغِلّ الذي كان في الدنيا ، ولعل إفرادَ هذا بالوعد من بين ما سيُؤْتَون يوم القيامة من الكرامات السنيةِ لِما أن الكفرةَ سيقع بينهم يومئذ تباغضٌ وتضادٌّ وتقاطعٌ وتلاعن .

﴿ فَإِنَّمَا يسرناه ﴾

أي القرآنَ ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بأن أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على ، وقيل : ضُمّن التيسيرُ معنى الإنزالِ أي يسرنا القرآنَ منزلين له بلغتك ، والفاءُ لتعليل أمرٍ ينساق إليه النظمُ الكريم ، كأنه قيل بعد إيحاءِ السورةِ الكريمة : بلِّغْ هذا المنزلَ أو بشر به وأنذر فإنما يسرناه بلسانك العربي المبين .

﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ أي الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهي ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ لا يؤمنون به لجَاجاً وعِناداً ، واللُّد جمعُ الألد وهو الشديدُ الخصومة اللَّجوجُ المعانِدُ .

(138/492)

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ وعدٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ضمن وعيدِ الكفرة بالإهلاك وحثٌّ له عليه الصلاة والسلام على الإنذار ، أي قَرْناً كثيراً

أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله ، أي هل تشعُر بأحد منهم وترى ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ أي صوتاً خفيفاً ، وأصلُ الرِكْز هو الخفاءُ ومنه رَكَز الرمحَ إذا غيَّب طرفه في الأرض ، والرِّكازُ المالُ المدفونُ المخفيُّ ، والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا يُرى منهم أحدٌ ولا يسمع منهم صوتٌ خفيّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(139/492)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

أي مودة في القلوب لإيمانهم وعملهم الصالح ، والمشهور أن ذلك الجعل في الدنيا .

فقد أخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وعبد بن حميد .

وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله تعالى

عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في الأرض فذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية " والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها ، والسين لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم سبحانه ذلك ، ثم نجزه حين كثر الإسلام وقوى بعد الهجرة ، وذكر أن الآية نزلت في المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وعد سبحانه أن يجعل لهم محبة في قلب النجاشي .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحاب بمكة منهم شيبة بن ربيعة .

وعقبه بن ربيعة .

وأمية بن خلف فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وعلى هذا تكون الآية مدنية ، وأخرج ابن مردويه .

والديلمي عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله تعالى وجهه : قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين وداً فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وكان محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه يقول : لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً

كرم الله تعالى وجهه وأهل بيته .

وروى الإمامية خبر نزولها في علي كرم الله تعالى وجهه عن ابن عباس .

والباقر .

(140/492)

وأيدوا ذلك بما صح عندهم أنه كرم الله تعالى وجهه قال : لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ولو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني ما أحبني وذلك أنه قضى فانقضي على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق " والمراد المحبة الشرعية التي لا غلو فيه ، وزعم بعض النصارى حبه كرم الله تعالى وجهه ، فقد أنشد الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي لابن إسحاق النصراني الرسغني :

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم . . .

بسوء ولكني محب لهاشم وما تعتريني في علي ورهطه

إذا ذكروا في الله لومة لائم يقولون ما بال النصارى تحبهم . . .

وأهل النهي من أعرب وأعاجم فقلت لهم إني لأحسب حبهم

سرى في قلوب الخلق حتى البهائم . . .

وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ثبت كذبك ، وأظن أن نسبة هذه الأبيات للنصراني لا أصل لها وهي من أبيات الشيعة بيت الكذب ، وكم لهم مثل هذه المكايد كما بين في التحفة الإثني عشرية ، والظاهر أن الآية على هذا مدنية أيضاً .

ثم العبرة على سائر الروايات في سبب النزول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وذهب الجبائي إلى أن ذلك في الآخرة فقيل في الجنة إذ يكونون إخواناً على سرر متقابلين ، وقيل : حين تعرض حسناتهم على رؤس الأشهاد وأمر السين على ذلك ظاهر .

(141/492)

ولعل أفراد هذا الوعد من بين ما سيولون يوم القيامة من الكرامات السنية لما أن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن ، وذكر في وجه الربط أنه لما فصلت قبائح أحوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن أحوال المؤمنين ، وقد يقال فيه بناء على أن ذلك في الآخرة : إنه جل شأنه لما أخبر بإتيان كل من أهل السموات والأرض إليه سبحانه يوم القيامة فرداً آنس المؤمنين بأنه جل وعلا يجعل لهم ذلك اليوم وداً ، وفسره ابن عطية على هذا الوجه بمحبته تعالى إياهم وأراد منها إكرامه تعالى إياهم ومغفرته سبحانه وتعالى

ذنوبهم ، وجوز أن يكون الوعد يجعل الود في الدنيا والآخرة ولا أراه بعيداً عن الصواب .

ولا يأبى هذا ولا ما قبله التعرض لعنوان الرحمانية لجواز أن يدعى العموم فقد جاء يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

وقرأ أبو الحرث الحنفي ﴿ وُدّاً ﴾ بفتح الواو وقرأ جناح بن حبيش ﴿ وُدّاً ﴾ بكسرها وكل ذلك لغة فيه وكذا في الوداد .

﴿ فَإِنَّمَا يسرناه ﴾ أي القرآن بأن أنزلناه ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أي بلغتك وهو في ذلك مجاز مشهور والباء بمعنى على أو على أصله وهو الإلصاق لتضمين ﴿ يَسَّرْنَا ﴾ معنى أنزلنا أي يسرناه منزلين له بلغتك ، والفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل : بعد إيحاء هذه السورة الكريمة بلغ هذا المنزل وأبر به وأنذر فإنما يسرناه بلسانك العرب المبين ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ المتصفين بالتقوى لامتثال ما فيه من الأمر والنهي أو الصائرين إليها على أنه من مجاز الأول ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ لا يؤمنون به لجاجاً وعناداً ، واللد جمع الألد وهو كما قال الراغب : الخصم الشديد التأبي ، وأصله الشديد اللديد أي صفحة العنق وذلك إذا لم يمكن صرفه عما يريده .

وعن قتادة اللذ ذو الجدل بالباطل الآخذون في كل لديد أي جانب بالمراء ، وعن ابن عباس تفسير اللديا بالظلمة ، وعن مجاهد تفسيره بالفجار ، وعن الحسن تفسيره بالصم ، وعن أبي صالح تفسيره بالعوج وكل ذلك تفسير باللازم ؛ والمراد بهم أهل مكة كما روى عن قتادة .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾

وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ضمن وعيد هؤلاء القوم بالإهلاك وحث له عليه الصلاة والسلام على الإنذار أي قرناً كثيراً أهلكنا قبل هؤلاء المعاندي ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، والاستفهام في معنى النفي أي ما تشعر بأحد منهم .

وقرأ أبو حيولا .

وأبو حرية .

وابن أبي عبلة .

وأبو جعفر المدني ﴿ تُحِسُّ ﴾ بفتح التاء وضم الحاء ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ أي صوتاً خفياً وأصل التركيب هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض والركاز للمال المدفون ، وخص بعضهم الركز بالصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم ، والأكثرون على الأول ، وخص الصوت الخفي لأنه الأصل الأكثر ولأن الأثر الخفي إذا زال فزوال غيره بطريق

الأولى .

والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا ترى منهم أحداً ولا تسمع منهم صوتاً خفياً فضلاً عن غيره ، وقيل : المعنى أهلكناهم بالكلية بحيث لا ترى منهم أحداً ولا تسمع من يخبر عنهم ويذكرهم بصوت خفي ، والحاصل أهلكناهم فلا عين ولا خبر ، والخطاب إما لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب .

وقرأ حنظلة "تسمع" مضارع اسمعت مبنياً للمفعول والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(143/492)

وقال الشوكانى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ أي حباً في قلوب عباده ، يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك ، كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب ، والسين في ﴿ سيجعل ﴾ للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول

الآية.

وقرىء " ودّاً " بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم.

ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصاً هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوّة، وبيان حال المعاندين فقال: ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بِلِسَانِكَ ﴾ أي يسرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه ﴾ الآية.

ثم علل ما ذكره من التيسير فقال: ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ أي المتلبسين بالتقوى، المتصفين بها ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ اللدّ: جمع الألد، وهو الشديد الخصومة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَدُّ الخصام ﴾ [البقرة: 204].

قال الشاعر:

أبيت نجياً للهموم كأنني . . . أخاصم أقواماً ذوي جدل لدّاً

وقال أبو عبيدة: الألدّ الذي لا يقبل الحق ويدّعي الباطل.

وقيل: اللدّ: الصم.

وقيل: الظلمة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من أمة وجماعة من الناس، وفي هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاك الكافرين ووعيد لهم ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، أي هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿ أَوْ تَسْمَعُ

لَهُمْ رِكْزاً ﴾ الركز : الصوت الخفي ، ومنه ركز الرمح : إذا غيب طرفه في الأرض .

قال طرفة :

(144/492)

وصادفتها سمع التوجس للسرى . . . لركز خفي أو لصوت مفند

وقال ذو الرمة :

إذا توجس ركزاً مقفر ندس . . . بنبأة الصوت ما في سمعه كذب

أي في استماعه كذب بل هو صادق الاستماع ، والندس : الحاذق ، والنبأة : الصوت الخفي .

وقال اليزيدي وأبو عبيد : الركز : ما لا يفهم من صوت أو حركة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ؛ أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الآية .

قال ابن كثير : وهو خطأ ، فإن السورة مكية بكمالها لم ينزل شيء منها بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ قال : محبة في قلوب المؤمنين .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ : " قل اللّهم اجعل لي عندك عهداً ، واجعل لي عندك ودّاً ، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة " ، فأنزل الله الآية في عليّ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ﴿ وُدّاً ﴾ قال : محبة في الناس في الدنيا .

(145/492)

وأخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن عليّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ ما هو ؟ قال : " المحبة الصادقة في صدور المؤمنين " وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إني قد أبغضت

فلاناً ، فينادي في أهل السماء ، ثم ينزل له البغضاء في الأرض " والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ قال : فجاراً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : صماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ قال : هل ترى منهم من أحد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ رِكْزاً ﴾ قال : صوتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(146/492)

وقال القاسمي :

ولما فصل مساوئ الكفرة ، تأثره بمحاسن البررة ، فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾

أي : يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، من غير تعرض للأسباب التي تكسب

الود . كذا قالوا في تأويله . وقال أبو مسلم : معناه أنه يهب لهم ما يحبون . قال : والود والمحبة سواء . آتيت فلاناً محبته . وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده . ومن كلامهم : وددت لو كان كذا . أي : أحببت . فمعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أي : محبوبهم في الجنة . ثم قال أبو مسلم : وهذا القول الثاني أولى لوجوه :

أحدها : كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين ؟

وثانيها : أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر ، فكيف يمكن جعله إنعاماً في حق المؤمنين ؟

وثالثها : أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم . فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى . انتهى . وقد حاول الرازيّ التمويه في اختيار الأول والجواب عن الثاني . والحق أحق .

وقوله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾

أي : سهلنا هذا القرآن بلغتك : ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، بالجنة : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ أي تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بني قريش . فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل ، لا يقبلون الحق واللدد شدة الخصومة . والباء في قوله : ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بمعنى على . أي : على لغتك . أو

ضمّن التيسير معنى الإنزال أي : يسرنا القرآن ، منزلين له بلغتك ، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه .

قال الزمخشريّ : هذه خاتمة السورة ومقطعها . فكأنه قال : بلّغ هذا المنزل ، أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه الخ ، أي : فالفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم .

(147/492)

وقال الرازيّ : بيّن به بهذا ، عظيم موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوَّة والحشر والنشر ، والرد على فرق المضلين المبطلين . وأنه يسَّر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم ، وقد ذكرهم بأبلغ وصف شَيِّء وهو اللدد . لأن الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه .

ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة ، فقال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾

أي : قوم لُدّ ، مثل هؤلاء ، إهلاكاً عظيماً : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي : تشعر به وتراه : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ أي : صوتاً خفيّاً .

والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء

صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 121.122 ﴾

(148/492)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر في القرآن لفظ عام ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه ، وقد قدمنا امثلة متعددة لذلك . فإذا علمت ذلك فاعلم – أنه جل وعلا في هذه الآية الكريمة ذكر أنه سيعجل لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات وداً . اي محبة في قلوب عباده . وقد صرح في موضع آخر بدخول نبيه موسى عليه وعلى نبينا والسلام في هذا العموم ، وذلك في قوله ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] الآية . وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله إذا احب عبداً دعا جبريل فقال يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض . وإن الله غذا أبغض

عبداً دعا جبريل ، فقال يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض » اه .

(149/492)

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه إنما يسر هذا القرآن بلسان هذا النبيِّ العربي الكريم ، ليبشر به المتقين ، وينذر به الخصوم الألَّداء ، وهم الكفرة . وما تضمنته هذه الآية الكريمة داء موضحاً في مواضع أخر . أما ما ذكر فيها من تيسير هذا القرآن العظيم فقد أوضحه في مواضع أخر ، كقوله في سورة « القمر » مكرراً لذلك ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17] ، وقوله في آخر « الدخان » : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : 58] وأما ما ذكر فيها من كونه بلسان هذا النَّبي العربي الكريم فقد ذكره في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 192-195] ، وقوله تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 1-2] ،

وقوله تعالى : ﴿ حمو الكتاب المبين إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : 1-3] ، وقوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ الآية - قد أوضحنا الآيات الدالة عليه في سورة « الكهف » وغيرها فأغنى ذلك عن إعادته هنا . وأظهر الأقوال في قول : ﴿ لداً ﴾ أنه جمع الأَلد ، وهو شديد الخصومة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام ﴾ [البقرة : 204] ، وقول الشاعر :

أبيت نجيا للهموم كأنني . . . أُخاصم أقواماً ذوي جدل لداً

(150/492)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) ﴾

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ في هذه الآية الكريمة هي الخبرية ، وهي في محل نصب لأنها مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ . و ﴿ مِّن ﴾ هي المبينة ل ﴿ كم ﴾ كما تقدم إيضاحه .

وقوله : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ اي هل ترى أحداً منهم ، أو تشعر به ، او تجده ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ اي صوتاً . وأصل الركز : الصوت الخفي . ومنه ركز الرمح :

إذاغيب طرفه وأخفاه في الأرض . ومن الركاز : وهو دفن جاهلي معيب بالدفن في الأرض . ومن إطلاق الركز على الصوت قوله لبيد في معلقته :

فتوجست ركز الأنيس فراعها . . . عن ظهر غيب والأنيس سقامها

وقول طرفة في معلقته :

وصادقتا سمع التوجس للسرى . . . لركز خفي أو لصوت مندد

وقول ذي الرمة :

إذا توجس ركزاً مقفر ندس . . . بنبأة الصوت ما في سمعه كذب

والاستفهام في قوله ﴿ هَلْ ﴾ يراد به النفي . والمعنى : أهلكنا كثيراً من الأمم الماضية فما ترى منهم أحد ولا تسمع لهم صوتاً . وما ذكره في هذه الآية من عدم رؤية أشخاصهمن وعدم سماع أصواتهم - ذكر بعضه في غير هذا الموضع . كقوله في عاد : ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 8] ، وقوله فيهم : ﴿ فَأُصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : 25] ، قوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج : 45] ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(151/492)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

يقتضي اتصال الآيات بعضها ببعض في المعاني أنّ هذه الآية وصف لحال المؤمنين يوم القيامة بضد حال المشركين ، فيكون حال إتيانهم غير حال انفرادٍ بل حال تأنس بعضهم ببعض .

ولمّا ختمت الآية قبلها بأن المشركين آتون يوم القيامة مفردين ، وكان ذلك مشعراً بأنهم آتون إلى ما من شأنه أن يتمنى المورّط فيه مَن يدفع عنه وينصره ، وإشعار ذلك بأنّهم مغضوب عليهم ، أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين ، وأنهم على العكس من حال المشركين ، وأنهم يكونون يومئذ بمقام المودّة والتبجيل .

فالمعنى : سيجعل لهم الرحمان أودّاء من الملائكة كما قال تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [فصلت : 31] ، ويجعل بين أنفسهم مودّة كما قال تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ ﴾ [الأعراف : 43] .

وإيثارُ المصدر ليفي بعدّة متعلقات بالودّ .

وفُسّر أيضاً جعل الودّ بأن الله يجعل لهم محبّة في قلوب أهل الخير .

رواه الترمذي عن قتيبة بن سعيد عن الدراوردي .

وليست هذه الزيادة عن أحد ممن روى الحديث عن غير قتيبة بن سعيد ولا عن قتيبة بن

سعيد في غير رواية الترمذي ، فهذه الزيادة إدراج من قتيبة عند الترمذي خاصة .

وفُسر أيضاً بأن الله سيجعل لهم محبة منه تعالى ، فالجعل هنا كالإلقاء في قوله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] .

هذا أظهر الوجوه في تفسير الودّ ، وقد ذهب فيه جماعات المفسرين إلى أقوال شتى متفاوتة في القبول .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) ﴾

إيذان بانتهاء السورة ، فإن شأن الإتيان بكلام جامع بعد أفنان الحديث أن يؤذن بأنّ المتكلم سيطوي بساطه .

وذلك شأن التذييلات والخواتم وهي ما يؤذن بانتهاء الكلام .

(152/492)

فلما احتوت السورة على عبر وقصص وبشارات ونذر جاء هنا في التنويه بالقرآن وبيان بعض ما في تنزيله من الحكم .

فيجوز جعل الفاء فصيحة مؤذنة بكلام مقدر يدلّ عليه المذكور ، كأنه قيل : بلّغ ما أنزلنا إليك ولو كره المشركون ما فيه من إبطال دينهم وإنذارهم بسوء العاقبة فما أنزلناه إليك إلاّ

للبشارة والنذارة ولا تعبأ بما يحصل مع ذلك من الغيظ أو الحقد .

وذلك أن المشركين كانوا يقولون للنبيء صلى الله عليه وسلم "لو كففت عن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه آرائنا لاتّبعناك" .

ويجوز أن تكون الفاء للتفريع على وعيد الكافرين بقوله : ﴿ لقد أحصاهم وعدم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم : 94 ، 95] .

ووعد المؤمنين بقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان وداً ﴾ [مريم : 96] .

والمفرّع هو مضمون ﴿ لِتُبَشر به ﴾ الخ ﴿ وتُنْذِر به ﴾ الخ ، أي ذلك أثر الإعراض عما جئتَ به من النذارة ، وأثر الإقبال على ما جئت به من البشارة مما يسرناه بلسانك فإنا ما أنزلناه عليك إلاّ لذلك .

وضمير الغائب عائد إلى القرآن بدلالة السيّاق مثل : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] .

وبذلك علم أن التيسير تسهيل قراءة القرآن .

وهذا إدماج للثناء على القرآن بأنه ميسّر للقراءة ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : 32] .

واللّسان : اللّغة ، أي بلغتك ، وهي العربية ، كقوله : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح

الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء : 192 195] ؛

فإن نزول القرآن بأفضل اللغات وأفصحها هو من أسباب فضله على غيره من الكتب

وتسهيل حفظه ما لم يسهل مثله لغيره من الكتب .

والباء للسببية أو المصاحبة .

وعبر عن الكفار بقوم لدّ ذمّاً لهم بأنهم أهل إيغال في المراء والمكابرة ، أي أهل تصميم على باطلهم ، فاللّددُ : جمع ألدّ ، وهو الأقوى في اللّدد ، وهو الإباية من الاعتراف بالحق .

(153/492)

وفي الحديث الصحيح : " أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخَصِم " ومما جره الإشراك إلى العرب من مذام الأخلاق التي خلطوا بها محاسن أخلاقهم أنهم ربما تمدحوا باللّدد ، قال بعضهم في رثاء البعض:

إن تحتَ الأحجار حزماً وعزماً . . .

وخصيماً ألدّ ذا مِغلاق

وقد حَسُن مقابلة المتقين بقوم لدّ ، لأن التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولَدَد .

وفيه تعريض بأن كفرهم عن عناد وهم يعلمون أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو

الحق ، كما قال تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

وإيقاع لفظ القوم عليهم للإشارة إلى أن اللّدد شأنهم ، وهو الصفة التي تقومت منها قوميتهم ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) ، وقوله تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ في سورة يونس (101) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) ﴾

لما ذكروا بالعناد والمكابرة أتبع بالتعريض بتهديدهم على ذلك بتذكيرهم بالأمم التي استأصلها الله لجبروتها وتعنّتها لتكون لهم قياساً ومثلاً .

فالجملة معطوفة على جملة ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ [مريم : 97] باعتبار ما تضمنته من بشارة المؤمنين ونذارة المعاندين ، لأنّ في التعريض بالوعيد لهم نذارة لهم وبشارة للمؤمنين باقتراب إراحتهم من ضرّهم .

و﴿ كم ﴾ خبرية عن كثرة العدد .

والقرن : الأمة والجيل .

ويطلق على الزمان الذي تعيش فيه الأمّة ، وشاع تقديره بمائة سنة .

و﴿ من ﴾ بيانية ، وما بعدها تمييز ﴿ كم ﴾ .

والاستفهام في ﴿ هل تُحسّ منهم من أحد ﴾ إنكاري ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه

وسلم تبعاً لقوله : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك أي ما تُحسّ ، أي ما تشعر بأحد منهم .

والإحساس : الإدراك بالحس ، أي لا ترى منهم أحداً .

(154/492)

والركز : الصوت الخفيّ ، ويقال : الرز ، وقد روي بهما قول لبيد :

وتَوَجّسَتْ رِكْزَ الأنيس فراعها . . .

عن ظهر عيب والأنيس سَقامُها

وهو كناية عن اضمحلالهم ، كني باضمحلال لوازم الوجود عن اضمحلال وجودهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(155/492)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

وُداً : مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلّق ، وقد جعل الحق تبارك وتعالى

كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تراه مُقبلاً عليك تقوم له وتبشُّ في وجهه ، وتُفسِح له في المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعوده إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح وتواسيه في الأحزان وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة .

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة في الدنيا بين الخَلْق جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، أمّا هنا : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم : 96] .

أي : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأنْ ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له : إني أحبك لله .

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فضلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة .

لذلك قال هرم بن حَيَّان رحمه الله : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه إلا فتح له قلوب المؤمنين جميعاً .

كما جاء في الحديث القدسي :

" ما أقبل عليَّ عبد بقلبه إلا أقلبتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً " أي : بالمودة والرحمة دون أسباب .

وفي الحديث القدسي : " إن الله إذا أحب عبداً نادى في السماء : إنني أحببتُ فلاناً فأحبُّوه ، وينادي جبريل في الأرض : إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه . ويوضع له القبول في الأرض " .

(156/492)

فيحبه كل مَنْ رآه عطية من الله وفضلاً ، دون سبب من أسباب المودة ، وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهب لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهي في يده تعالى يُوجّهها كيف يشاء .

وقد علَّمنا ربنا تبارك وتعالى في قوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : 86] أن نرد الجميل بأحسن منه ، فإنْ لم نقدر على الأحسن فلا أقلَّ من الرد بالمثل ، فإنْ كان هذا عطاء العبد ، فما بالك بعطاء الرب ؟

ومن ذلك ما جاء في الحديث الشريف : " من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في

عون أخيه " .

والعَوْن يقتضي مُعيناً ومُعَاناً ، ولا بُدّ أن يكون المعين أقوى من المعان ، فيفيض عليه من فضل ما عنده : صحة ، أو قدرة ، أو غنىً ، أو علماً .

وإعانةُ العبد لأخيه محدودة بقدراته وإمكاناته ، أمّا معونة الله لعبده فغير محدودة ؛ لأنها تناسب قدرة وإمكانات الحق تبارك وتعالى .

وهكذا عوَّدنا ربنا تبارك وتعالى حين نُضحّي بالقليل أنْ يعطينا الكثير وبلا حدود ، فضلاً من الله وكرماً . ألم تَرَ أن الحسنة عنده تعالى بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعف ؟ أليست هذه تجارة مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ على تِجَارَةٍ تُنجيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف : 10] .

وقال عنها : ﴿ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : 29] .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد منا المحبة المتبادلة التي تربط بين قلوبنا وتُؤلّف بيننا ، ثم يمنحنا سبحانه الثمن .

إذن : العملية الإيمانية لا تظن أنها إيثار ، بل الإيمان أثره ، وأنت حين تتصدق بكذا إنما تأمل ما عند الله من مضاعفة الأجر ، فالإيمان إذن أنانية عالية .

والحق سبحانه وتعالى يريد منا أنْ نعودَ على غيرنا بفضل ما نملك ، كما جاء في الحديث : " مَنْ كان عنده فضل مال فليعُدْ به على مَنْ لا مالَ له . . . " .

واعلم أن الله سيُعوّضك خيراً مما أعطيْتَ . ومثال ذلك ولله المثل الأعلى : هَبْ أن عندك ولدين ، أعطيتَ لكل منهما مصروفة ، فالأول اشترى به حلوى أكل منها ، وأعطى رفاقه ، والآخر بدّد مصروفه فيما لا يُجدي من ألعاب أو خلافه ، فأيهما تعطي بعد ذلك ؟ كذلك الحق سبحانه يعاملنا هذه المعاملة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾

الفاء هنا تفيد : ترتيب شيء على شيء فابحث في الجملة بعدها عن هذا الترتيب ، فالمعنى : بشّرِ المتقين ، وأنذر القوم اللُّد لأننا يسرنا لك القرآن .

ويسَّرنا القرآن : أي : طوعناه لك حِفْظاً وأداءً وإلقاء معانٍ ، فأنت تُوظِّفه في المهمة التي نزل من أجلها .

وتيسير القرآن ورد في آيات كثيرة ، كقوله تعالى في سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17] .

والمتأمل في تيسير القرآن يجد العجائب في أسلوبه ، فترى الآية تأتي في سورة بنص ، وتأتي في نفس السياق في سورة أخرى بنص آخر ، فالمسألة إذن ليست (أكلاشيه) ثابت ،

وليست عملية ميكانيكية صماء ، إنه كلام رب .

خُذْ مثلاً قوله تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ [المدثر : 5455] .

وفي آية أخرى : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الإنسان : 29] .

مرة يقول : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ [الإنسان : 29] ومرة يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس : 11] .

(158/492)

ونقف هنا أمام ملحظ دقيق في سورة (الرحمن) حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] ثم يأتي الحديث عنهما : فيهما كذا ، فيهما كذا إلى أنْ يصل إلى قاصرات الطرف فيقول : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ [الرحمن : 56] .

وكذلك في : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 62] فيهما كذا وفيهما كذا إلى أنْ يصل إلى الحور العين فيقول : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] .

ولك أنْ تتساءل : الحديث هنا عن الجنتين ، فلماذا عدل السياق عن (فيهما) إلى (فيهن)

في هذه النعمة بالذات ؟

قالوا : لأن نعيم الجنة مشترك ، يصح أنْ يشترك فيه الجميع إلا في نعمة الحور العين ، فلها خصوصيتها ، فكأن الحق تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجال ، ففي هذه المسألة يكون لكل منها جنته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد .

لذلك " لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة رأى فيها قصراً فابتعد عنه ، فلما سُئِل عن ذلك صلى الله عليه وسلم قال : " إنه لعمر ، وأنا أعرف غَيْرة عمر " .

فإلى هذه الدرجة تكون غيرة المؤمن ، وإلى هذه الدرجة تكون دِقَّة التعبير في القرآن الكريم .

ولولا أن الله تعالى أنزل القرآن ويسَّره لَمَا حفظه أحد فالنبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الآيات ، وحِين يسري عنه يمليها على الصحابة ، ويظل يقرؤها كما هي ، ولولا أن الله قال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ما تيسّر له ذلك .

ونحن في حفْظنا لكتاب الله تعالى نجد العجائب أيضاً ، فالصبي في سنِّ السابعة يستطيع حفْظ القرآن وتجويده ، فإنْ غفل عنه بعد ذلك تَفَلَّتَ منه ، على خلاف ما لو حفظ نصاً من النصوص في هذه السن يظل عالقاً بذهنه .

إذن : مسألة حفظ القرآن ليست مجرد استذكار حافظة ، بل معونة حافظ ، فإن كنت على وُدٍّ وأُلفة بكتاب الله ظلَّ معك ، وإنْ تركته وجفوْته تفلَّتَ منك ، كما جاء في الحديث الشريف :

" تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لَهُو أشدُّ تفصّياً من الإبل في عُقَلها " .

ذلك ؛ لأن حروف القرآن ليست مجرد حرف له رسم ومنطوق ، إنما حروف القرآن ملائكة تُصفّ ، فتكون كلمة ، وتكون آية ، فإنْ وددتَ الحرف ، وودتَ الكلمة والآية ، ودَّتْك الملائكة ، وتراصتْ عند قراءتك .

ومن العجائب في تيسير حفظ القرآن أنك إنْ أعلمتَ عقلك في القراءة تتخبّط فيها وتخطىء ، فإنْ أعدتَ القراءة هكذا على السليقة كما حفظت تتابعت معك الآيات وطاوعتك .

وتلحظ هنا أن القرآن لم يأْتِ باللفظ الصريح ، إنما جاء بضمير الغيبة في ﴿ يَسَّرْنَاهُ ﴾ [مريم : 97] لأن الهاء هنا لا يمكن أن تعود إلا على القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فضمير الغيبة هنا لا يعود إلا على الله تعالى .

وقوله : ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ [مريم : 97] أي : بلغتك ، فجعلناه قرآناً عربياً في أمة عربية ؛ ليفهموا عنك البلاغ عن الله في البشارة والنذارة ، ولو جاءهم بلغة أخرى لقالوا كما حكى

القرآن عنهم .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت : 44] .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : 97] .

والإنذار : التحذير من شَرّ سيقع في المستقبل ، واللَّدَد : عُنْف الخصومة ، وشراسة العداوة ، نقول : فلان عنده لَدَد أي : يبالغ في الخصومة ، ولا يخضع للحجة والإقناع ، ومهما حاولتَ معه يُصِرُّ على خصومته .

ويُنهي الحق سبحانه سورة مريم بقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾

(160/492)

الحق تبارك وتعالى يُسرّي عن نبيه صلى الله عليه وسلم ما يلاقي من عنت في سبيل دعوته ، كأنه يقول له : إياك أنْ ينالَ منك بُغْض القوم لك وكُرههم لمنهج الله ، إياك أنْ تتضاءلَ أمام جبروتهم في عنادك ، فهؤلاء ليسوا أعزَّ من سابقيهم من المكذبين ، الذين أهلكهم الله ، إنما أستبقى هؤلاء لأن لهم مهمة معك .

وسبق أن أوضحنا أن الذين نجوْا من القتل من الكفار في بعض الغزوات ، وحزن المسلمون

لنجاتهم ، كان منهم فيما بَعْد سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم : 98] .

كم : خبرية تفيد الكثرة ، من قرن : من أمة ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [مريم : 98] لأننا أخذناهم فلم نُبق منهم أثراً يحس .

ووسائل الحِسّ أو الإدراك كما هو معروف : العين للرؤية ، والأذن للسمع ، والأنف للشمّ ، واللسان للتذوق ، واليد للمس ، فبأيّ آداة من أدوات الحسّ لا تجد لهم أثراً .

وقوله : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ [مريم : 98] الركْز : الصوت الخفيّ ، الذي لا تكاد تسمعه . وهذه سُنَّة الله في المكذبين من الأمم السابقة كما قال سبحانه : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ والذين مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان : 37] .

أين عاد وثمود وإرم ذات العماد التي لم يُخلَق مثلها في البلاد ؟ وأين فرعون ذو الأوتاد ؟ فكل جبار مهما عَلَتْ حضارته ما استطاع أنْ يُبقي هذه الحضارة ؛ لأن الله تعالى أراد لها أنْ تزول ، وهل كفار مكة أشدّ من كل هؤلاء ؟

لذلك حين تسمع هذا السؤال : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ [مريم : 98] لا يسَعْك إلاَّ أنْ تُجيب : لا أحسُّ منهم من أحد ، ولا أسمع لهم ركزاً . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً ﴾ قال : قولاً عظيماً . وفي قوله : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه ﴾ الآية . قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق ، إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله : وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين . وفي قوله : ﴿ وتخر الجبال هدّاً ﴾ قال : هدماً .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عون ، عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان ، هل مر بك اليوم أحد ذكر الله ؟ فإذا قال نعم ، استبشر . قال عون : أفيسمعن الزور إذا قيل ، ولا يسمعن الخير ؟ ! هي للخير اسمع . وقرأ ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ الآيات .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن محمد بن المنكدر قال : بلغني أن الجبلين إذا أصبحا ، نادى أحدهما صاحبه يناديه باسمه فيقول : أي فلان ، هل مر بك ذاكر لله ؟ فيقول : نعم .

فيقول : لقد أقر الله عينك ، ولكن ما مر بي ذاكر لله عز وجل اليوم .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبي أمامة : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ " تكاد السموات ينفطرن " بالياء والنون ﴿ وتخر الجبال ﴾ بالتاء .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ يتفطرن منه ﴾ قال : الانفطار الانشقاق .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك في قوله : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه ﴾ قال : يتشققن من عظمة الله .

وأخرج ابن المنذر ، عن هرون قال : في قراءة ابن مسعود ﴿ تكاد السماوات يتفطرن ﴾ بالياء .

(162/492)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، عن عبد الله بن عوف : إنه لما هاجر إلى المدينة ؛ وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم : شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، فأنزل الله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والديلمي ، عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ : " قل : اللهم اجعل لي عندك عهداً ، واجعل لي عندك ودّاً ، واجعل لي في صدور المؤمنين

مودة " فأنزل الله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال : فنزلت في علي .

وأخرج الطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال : محبة في قلوب المؤمنين .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه ، " عن علي قال : سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن قوله : ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ ما هو ؟ قال : المحبة ، في قلوب المؤمنين ، والملائكة المقربين . يا علي ، إن الله أعطى المؤمن ثلاثاً . المنة والمحبة والحلاوة والمهابة في صدور الصالحين " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال : محبة في الناس في الدنيا .

وأخرج هناد ، عن الضحاك ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال : محبة في صدور المؤمنين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وهناد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال : يحبهم ويحبونه .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله عبداً ، نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً ، فأحبه . فينادي في السماء ، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض ، فذلك قول الله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ وإذا أبغض الله عبداً ، نادى جبريل : إني قد أبغضت فلاناً ، فينادي في أهل السماء ، ثم تنزل له البغضاء في أهل الأرض " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ثوبان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " " إن العبد ليلتمس مرضاة الله ، فلا يزال كذلك ، فيقول الله لجبريل : إن عبدي فلاناً يلتمس أن يرضيني ، فرضائي عليه ، فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقوله حملة العرش ، ويقوله الذين يلونهم ، حتى يقوله : أهل السموات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي الآية التي أنزل الله في كتابه ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ " وإن العبد ليلتمس سخط الله ، فيقول الله : يا جبريل ، إن فلاناً يسخطني ، ألا وإن غضبي عليه ؛ فيقول جبريل : غضب الله على فلان ، ويقوله حملة العرش ، ويقوله من دونهم ، حتى يقوله أهل السموات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض " " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن كعب قال : أجد في التوراة : أنه لم تكن محبة لأحد من أهل

الأرض ، حتى تكون بدؤها من الله تعالى ؛ ينزلها على أهل الأرض ، ثم قرأت القرآن فوجدت فيه ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ .

(164/492)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن ابن عباس بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطى المؤمن ثلاثة : المقة والملاحة والمودة والمحبة في صدور المؤمنين " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد سلام عليك أما بعد : فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله ، فإذا أحبه الله حببه إلى عباده ، وإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله ، فإذا أبغضه الله بغضه إلى عباده .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل عبد صيت ، فإن كان صالحاً وضع في الأرض ، وإن كان سيئاً وضع في الأرض " .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

: " إن المقة من الله ، والصيت من السماء ، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل : إني أحب فلاناً ، فينادي جبريل : إن ربكم يحب فلاناً فأحبوه ، فتنزل له المحبة في الأرض ، وإذا أبغض عبداً قال لجبريل : إني أبغض فلاناً ، فأبغضه ، فينادي جبريل : إن ربكم يبغض فلاناً فابغضوه ، فيجري له البغض في الأرض " .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾ قال : فجاراً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ لداً ﴾ قال : صماً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ لداً ﴾ قال : خصماء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة في قوله : ﴿ قوماً لداً ﴾ قال : جدلاً بالباطل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ﴿ قوماً لداً ﴾ قال : هم قريش .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ لداً ﴾ قال : لا يستقيمون .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ قال : هل ترى منهم من أحد .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ هل تحس منهم ﴾ برفع التاء وكسر الحاء ورفع السين ولا يدغمها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ قال : هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن في الآية قال : ذهب القوم فلا صوت ولا عين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ركزاً ﴾ قال : صوتاً .

وأخرج الطستي في مسائله ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ ركزاً ﴾ فقال : حساً . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

وقد توجس ركزاً مقفقد ندس . . . بنية الصوت ما في سمعه كذب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

قوله : ﴿ وُدّاً ﴾ : العامَّةُ على ضمِّ الواوِ . وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتحها ، وجناح بن حبيش بكسرِها ، فَيُحتمل أَنْ يكونَ المفتوحُ مصدراً ، والمضمومُ والمكسورُ اسمين .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله : ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ : يجوز أن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ على أنه حالٌ . واللِّسان هنا : اللغةُ ، أي : نَزَّلناه كائِناً بلسانِكَ . وقيل : هي بمعنى على ، وهذا لا حاجةَ إليه بل لا يظهرُ له معنى .

و " لُدّاً " جمع أَلَدّ " وهو الشديدُ الخصومةِ كالحُمْر جمعَ أَحْمر .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) ﴾

وقرأ الناسُ " تُحِسُّ " بضمِّ التاء وكسرِ الحاء مِنْ أَحَسَّ . وقرأ أبو حيوةَ وأبو جعفرٍ وابن أبي عبلة " تَحُسُّ " بفتح التاء وضم الحاء . وقرأ بعضُهم " تَحِسُّ " بالفتح والكسر ، من حَسَّه ، أي : شَعَرَ به ، ومنه " الحواسُّ الخَمس " .

و " منهم " حالٌ مِنْ " أحد " إذ هو في الأصلِ صفةٌ له ، و " مِنْ أحدٍ " مفعولٌ زِيْدَتْ فيه " مِنْ " .

وقرأ حنظلةُ " تُسْمَعُ " مضمومَ التاء ، مفتوحَ الميمِ مبنياً للمفعولِ ، و " رِكْزاً " مفعولٌ على كلتا القراءتين إلا أنه مفعولٌ ثانٍ في القراءة الشاذة . والرِّكْزُ الصوت الخفي دونَ نطقٍ بحروفٍ ولا فمٍ ، ومنه " رَكَزَ الرمحَ " ، أي : غَيَّبَ طَرَفَه في الأرضِ وأَخفاه ، ومنه الرِّكازُ ، وهو المال المدفونُ لخفائِه واستتاره . وأنشدوا :

3268- فَتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأنيسِ فَرَاعَها . . . عن ظهر غَيْبٍ ، والأَنِيْسُ سَقامُها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 653.654 ﴾

(167/492)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ود)

تقول : وَدِدْتُ لو تَفْعَل ذاكَ ، ووَدَدْتُ لو أَنَّك تفعل / ذاك ، أَوَدُّ وَدّاً ووُدّاً .

وَوَدَاداً ووَدَادَةً بالفتح فيهما ، أَى تمنَّيْت ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ ﴾ أَى يتمنَّى ، قال :

*وَدِدْتُ ودادةً لو أَنَّ حَظِّى * من الخُلاَّنِ أَلاَّ يَصْرِمُونِى *

وَدِدْتُ الرّجل أَوَدُّه وُدّاً ومَوَدَّة ومَوْدِدَةً ، عن الفرّاءِ ، بإظهار التَّضْعِيف [و] قال : وَدَدْتُه أَوَدُّه مثال وَضعْتُه أَضَعُهُ لغة فيها ، وأَنكرها البصريّون قال العجّاج :

*إِنَّ بَنِىَّ لَلَّئام زَهَدَهْ * لا يَجدُونِ لصَدِيق مَوْدِدَهْ*

وقوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ أَى بالكُتُب .

وقولُه عزَّ وجلّ ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ أَى وَدَّ المُنافِقون ما عَنِتَ المؤمنون فى دِينِهم .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾ ، قال ابنُ عبّاسٍ رضى الله عنهما : أَى مَحَبَّةً فى قلوبِ الناس .

وقال عُثمان بنُ عفَّان رضى الله عنه : "ما أَحَدٌ من الناسِ يعملُ خيراً أَو شَرّاً إِلاَّ وَدّ أَنَ الله يُرِى عَمَلَه" ، يعنى أَنَّه يُظْهِر ذلك عليه فيجعله لِباساً له فيُعرَف به .

والوِدُّ بالكسر والوَدِيدُ واحدٌ والجمع أُوُدّ ، مِثالِ قِدْحٍ وأَقْدُح وذِئْبٍ وأَذْؤُبٍ ، وهنم أَوِدّاءُ .

والوَدُودُ : المُحِبّ .

ورجالٌ وُدَدَاءُ .

والوَدُودُ فى صفاتِ الله تعالى ، قال ابن الأَنْبَارِىّ : هو المُحِبُّ لعباده .

ويستوى فى الوَدُود المذكَّرُ والمؤنَّث لكَوْنه وَصْفاً داخلاً على وَصْف للمُبالغة .

والتَوَدُّد : التَحَبُّبُ .

والتَوادُّ : التَحابُّ ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ إشارة إلى ما أَوْقَع بيهم من الأُلْفَة المذكورة فى قوله : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَاكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ومن المَوَدّة الَّتى هى المحبَّة المجرَّدة قولُه تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .

قال أَبو القاسم الراغب فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ : الوَدُودُ يتضمَّن ما دَخَل فى قوله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وقد تقدّم معنى مَحبَّةِ الله تعالى لعباده ومَحَبَّةِ العِباد له فى بصيرة الحُبّ .

وقال بعضُهم : محبَّة اللهِ لعباده هى مُراعاتُه لَهُم ، رُوِىَ أَنَّ الله تعالى قال لِمُوسى عليه السّلام : "أَنا لا أَغْفَلُ عن الصَّغِيرِ لِصِغَرِه ، ولا عن الكَبِيرِ لِكِبَرِه ، فأَنا الوَدُودُ الشَّكُور" .

ويصحّ أَن يكون ، معنى ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدّاً ﴾ معنى قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

ومن المَودَّة التى تقتضى معنى التمنى قوله تعالى : ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ نَهْىٌ

عن مُولاة الكُفَّار ومُظاهَرتهم كقوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ أَى بأَسْباب المَحبَّة من النَّصيحة ونحوها ، وتقدّم عن بعضهم تفسيرُه بالكُتُب .

والوُدّ بالضمّ وبالفتح : اسمُ صَنَم كان لقومِ نُوح عليه السلام ، ثم صار لكَلْب ، وكان بدُومَة الجَنْدل ، ومنه سُمّى عَبْدُ وُدّ .

وقرأَ أَبو جعفرٍ ونافعٌ ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ بالضمّ ، والباقون بالفتح .

والوَدّ : الوَتِدُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 183 . 185 ﴾

(169/492)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) ﴾

يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة ، وفي الخبر : " لا يزال العبد يتقربَ إليَّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه " .

ويقال يجعل لهم الرحمن وداً في قلوب عباده ، وفي قلوب الملائكة ، فأهل الخير والطاعة محبوبون مِنْ كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) ﴾

الكلام واحد والخطاب واحد ، وهو لقوم تيسير ، ولآخرين تخويف وتحذير فطوبى لِمَنْ يُسِّر لما وفِّق به ، والويل لمن خُوِّف بل خُذِلَ فيه . والقومُ بين موفقٍ ومَخْذُولٍ .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) ﴾

أثبتهم وأحياهم ، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم ، ثم بعد ذلك – لما شاء – أماتهم وأفناهم ، فبادوا بأجمعهم ، وهلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير ، وسَيُطَالبونَ – يومَ النشور – بالنقير والقطمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 443. 444 ﴾

(170/492)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

يعني : بقي بعد الأنبياء الذين ذكرناهم من أول السورة إلى هنا بقيات سوء ، وهم اليهود والنصارى .

يقال : في الرداءة خَلْفٌ بإسكان اللام وفي الصلاح خَلَفَ بفتح اللام .

ثم وصفهم فقال : ﴿ فَخَلَفَ مِن ﴾ ، يعني : عن وقتها ، ويقال : تركوها ، ويقال : تركوا الصلاة فلم يؤدُّوها وجحدوا بها فكفروا ، ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ ؛ يعني : وشربوا الخمر ، ويقال : استحلوا الزنى ، ويقال : استحلوا نكاح الأخت من الأب .

﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ ، يعني : شراً ، ويقال : وادي في جهنم يسمى غَيّاً ، ويقال : مجازاة الغيّ كما قال الله عز وجل ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] أي مجازاة الآثام .

ثم استثنى فقال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ ، يعني : رجع عن الكفر ﴿ وَامَنَ ﴾ ، يعني : صدق بتوحيد الله عز وجل ، ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ بعد التوبة .

﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ ، يعني : لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ صار خفضاً ، لأن معناه يدخلون في جنات عَدْنٍ .

﴿ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ ، يعني : ما غاب عن العباد والله عز وجل لا يغيب عنه شيء .

﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ ، يعني : جائياً كائناً وقال القتبي : ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ يعني : المفعول

بمعنى الفاعل ، يعني : جائياً ؛ وقال الزجاج : ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ مفعول من الإتيان ، لأن كل من وصل إليك فقد وصلت إليه وكل من أتاك فقد أتيته .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ ، يعني : في الجنة ﴿ لَغْواً ﴾ ، يعني : حَلفاً وباطلاً .

﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ ، يعني : ويسمعون السلام يسلم بعضهم على بعض .

(171/492)

وقال الزجاج : اللغو ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه ، والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة ، يعني : لا يسمعون إلا سلامهم .

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ ، يعني : طعامهم على مقدار البكرة والعشي ، وليس هناك بُكرة ولا عشيّ .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة قال : كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبهم ذلك ، فأخبرهم الله تعالى أن لهم في الجنة هذه الحالة ؛ وقال القتبي : الناس يختلفون في مطاعمهم ، فمنهم من يأكل وجبة أي مرة واحدة في كل يوم ، ومنهم من يأكل متى وجد بغير وقت ولا عداد ، ومنهم من يأكل الغداء والعشاء .

فأعدل هذه الأحوال كلها وأنفعها الغداء والعشاء .

والعرب تقول : عن ترك العشاء مهرمة ، ويذهب بلحم الكارة ، يعني : باطن الفخذ ، فجعل طعام أهل الجنة على قدر ذلك .

ثم قال عز وجل : ﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ يعني : مطيعاً لله عز وجل .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ وذلك حين أبطأ عليه الوحي ، وعند سؤال أهل مكة عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وأمر الروح عاتب المصطفى جبريل ، فقال الله تعالى : قل يا جبريل لمحمد ومعناه : قل : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ من أمر الدنيا ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ أي ما بين النفختين ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ يعني : لم يكن ينساك ربك حيث لم يوح إليك ، ويقال : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ من أمر الآخرة والثواب والعقاب ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ جميع ما مضى من أمر الدنيا ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ ما يكون في هذا الوقت منا .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي قد علم الله عز وجل ما كان وما يكون وما هو كائن حافظ لذلك ، ويقال : ما نسيك ربك وإن تأخر عنك الوحي .

(172/492)

وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " مَا مَنَعَكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا " فنزلت هذه الآية .

ثم قال ﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ أي : خالق السموات وخالق الأرض ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الخلق ، ويقال : ﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ أي مالكهما وعالم بهما وما فيهما .

﴿ فاعبده ﴾ أي : أطعه ﴿ واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ يعني : احبس نفسك على عبادته ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ يعني : هل تعلم أحداً يسمى الله سوى الله وهل تعلم أحداً يسمى الرحمن سواه ، ويقال هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون .

﴿ وَيَقُولُ الإنسان ﴾ يعني : أبي بن خلف ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ للبعث على معنى الاستفهام ، قال الله عز وجل : ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان ﴾ يعني أو لا يتعظ ويعتبر ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ قرأ : نافع وعاصم وابن عامر ﴿ أَوَلاَ يُذْكَرِ ﴾ بجزم الذال مع التخفيف يعني أو لا يعلم والباقون ﴿ أَوَلاَ يَذَّكَّرِ ﴾ ، بنصب الذال والتشديد ثم قال ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم الرب بنفسه ليبعثنهم وليجمعنهم يعني الذين أنكروا البعث .

﴿ والشياطين ﴾ يعني الشياطين ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ ﴾ يعني : لنجمعنهم ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ يعني : جميعاً .

قال أهل اللغة : الجثيُّ جمع جَاثِي مثل بارِك وبرك وساجد وسجد وقاعد وقعد ، أي على ركبهم ، ولا يقدرون على القيام .

قال الزجاج : الأصل في الجسم ، وجاز كسرها إتباعاً لكسر التاء وهو نصب على الحال ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ يعني : لنخرجن من كل شيعة من أهل كل دين ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ يعني : جرأة على الله عز وجل ، وهم القادة في الكفر وساداتهم ، نبدأ بهم فنعذبهم في النار .

(173/492)

وروي عن سفيان عن علي بن الأقمر عن أبي الأحوص في قوله ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ قال : يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ أي : أحق بالنار دخولاً .

﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قال بعضهم : أي داخلها ، المؤمن والكافر يدخلون على الصراط ، وهو ممدود على متن جهنم ، ويقال : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ يعني الكفار الذين تقدم ذكرهم .

وروى سفيان عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد أن نافع بن الأزرق خاصم ابن عباس وقال

: لا يردها مؤمن ، فقال ابن عباس : أما أنا وأنت فسندخلها ، فانظر بماذا نخرج منها إن خرجنا .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يمرون على الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى أن آخرهم مثل رجل نوره على إبهامي قدميه ، ثم يتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة كحدّ السيف عليه حسك كحسك العتاد ، وحافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس ، فبين مارٍ ناج ، وبين مخدوش مكدوش في النار ، والملائكة عليهم السلام يقولون : ربِّ سلِّم سلِّم .

وروى سفيان عن ثور بن خالد بن معدان قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : أَلَمْ يَعِدْنا رَبُّنَا أَنَّا نَرِدُ النَّارَ ؟ قال : إنكم قد مررتم بها وهي خامدة ، فذلك قوله عز وجل ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ يعني : الخلائق على الصرط ، والصراط في جهنم ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ يعني قضاء واجباً .

قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مندوست قال : حدثنا فارس بن مردويه قال : حدثنا محمد بن الفضل قال : حدثنا عدي بن عاصم قال : حدثنا يزيد بن هارون قال : حدثنا جرير عن أبي السليل عن غنيم بن قيس عن أبي العوام قال : قال كعب : هل تدرون ما قوله ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ ؟ قالوا : ما كنا نرى ورودها إلا دخولها .

قال : لا ، ولكن ورودها أن يجاء بجهنم كأنها متن إهالة ، حتى إذا استوت عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم نادى مناد : خذي أصحابك وذري أصحابي ، فتخسف بكلّ ولي لها وهي أعلم بهم من الوالد لولده ، وينجو المؤمنون نديَّة ثيابهم .

قال : وحدثني الثقة بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية كبا لها الناس كبوةً شديدة ، وحزنوا حتى بلغ الحزن كل مبلغ ، وليس أحداً إلا وهو يدخلها فأنشؤوا يبكون .

(175/492)

قال : ونزل بابن مظعون ضيف فقال لامرأته : هيئي لنا طعاماً فاستوصي بضيفك خيراً حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهى إليه وهم يبكون فقال : ما يُبْكِيكُمْ ؟ قالوا : نزلت هذه الآية ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ يقول : كائناً لا

يبقى أحد إلا دخلها ، فأنشأ عثمان بن مظعون يبكي ، ثم انصرف إلى منزله باكياً ، فلما أتى منزله سمعت امرأته بكاءه ، فأنشأت تبكي ، فلما سمع الضيف بكاءهما أنشأ يبكي ، فلما دخل عليهما عثمان قال لها : ما يبكيك ؟ قالت : سمعت بكاءك فبكيت ، فقال للضيف : وأنت ما يبكيك ؟ قال : عرفت أن الذي أبكاكما سيبكيني ، قال عثمان فابكوا وحق لكم أن تبكوا ، أنزل الله عز وجل اليوم على رسوله ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فمكثوا بعد هذه الآية سنتين ، ثم قال عز وجل : ﴿ ثُمَّ نُنَجّى الذين اتقوا ﴾ وروي في بعض الأخبار أنه نزل بعد ثلاثة أيام ﴿ ثُمَّ نُنَجّى الذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصي ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ يعني : المشركين جميعاً فيها ، ففرح المسلمون بها قرأ الكسائي . ﴿ نُنَجّى ﴾ بالتخفيف والباقون بالنصب والتشديد ، أنجى ينجي ونَجَّى ينجي بمعنى واحد .

(176/492)

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾ تعرض عليهم ، يعني واضحات قد بين فيها الحلال والحرام ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يعني أن النضر بن الحارث قال لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويقال : أهل مكة قالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَيُّ

الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ يعني أهل الدينين ، يعني : منزلاً ، قرأ ابن كثير ﴿ مَقَاماً ﴾ بضم الميم والباقون بالنصب ، فمن قرأ بالضم فهو الإقامة ، يقال : أقمت إقامة ومقاماً ، ومن قرأ بالنصب فهو المكان الذي يقام فيه ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ يعني : مجلساً ، وذلك أنهم لبسوا الثياب ، ودهنوا الرؤوس ، ثم قالوا للمؤمنين : أيُّ الفريقين خير منزلةً المسلمون أو المشركون ؟ وأرادوا أن يصرفوهم عن دينهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ يعني : أكثر أموالاً وَرِئْياً يعني : منظراً حسناً ، فلم يُغن عنهم ذلك من عذاب الله شيئاً .

قرأ نافع وابن عامر ﴿ وريّاً ﴾ بتشديد الياء بغير همز ، يعني النعمة ، والباقون ﴿ ورئياً ﴾ بالهمز بغير تشديد يعني المنظر .

قال أبو عبيد : وهكذا نقرأ مهموزاً لأنه من رؤية العين ، وإنما هي المنظر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَرِءياً قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة ﴾ يعني : قل يا محمد من كان في الكفر والشرك ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ يعني : يزيد له مالاً وولداً .

(177/492)

قوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ هذا لفظ الأمر ، ومعناه الخبر ، وتأويله أن الله عز وجل جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها ، ويمده فيها ، كما قال ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طغيانهم

يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: 15] ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ يعني في الآخرة من العذاب والثواب ﴿ إِمَّا العذاب ﴾ في الدنيا ﴿ وَإِمَّا الساعة ﴾ أي قيام الساعة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ يعني: فسيعرفون يوم القيامة ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ يعني: صنيعاً في الدنيا، ومنزلاً في الآخرة ﴿ وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ يعني: أقل عدداً وقوة ومنعة أهم أم المؤمنون، ﴿ وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى ﴾ يعني: يزيد الله عز وجل الذين آمنوا بالمنسوخ هدى بالناسخ ليعملوا بالناسخ دون المنسوخ، ويقال جعل جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم ويزيدهم بصيرة ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ثَوَابًا ﴾ وقد ذكرناه ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ يعني: وأفضل مرجعاً في الآخرة.

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتنا ﴾ يعني: بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ وَقَالَ لاَوتَيَنَّ ﴾ يعني: لأعطين ﴿ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ في الجنة.

روى أسباط عن السدي أن خباب بن الأرت كان صائغاً يعمل للعاص بن وائل حلياً، فجاء يسأله أجره، فقال له العاص: أنتم تزعمون أن لنا بعثة وجنة وناراً، فإذا كان يوم القيامة، فإني سأوتى مَالاً وَوَلَداً، وأعطيك منه، فنزل ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتنا وَقَالَ لاَوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ في الجنة.

قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو ﴿ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ بفتح اللام والواو في كل القرآن ، غير أن أبا عمرو قرأ في سورة نوح بالضم ، وهكذا روي عن مجاهد ، وقرأ حمزة والكسائي بضم الواو وجزم اللام من ها هنا إلى آخر السورة ، والتي في الزخرف ، والتي في سورة نوح ، وقال أبو عبيد : إنما قرأ هكذا لأنهما جعلا الوُلْد غير الوَلَد ، فيقال : الوُلْد جماعة الأهل ، والوَلَد واحد ، وقال الزجاج : الوُلْد مثل أسد وأُسْد ، وجائز أن يكون الوَلَد بمعنى الولد قال أبو عبيد والذي عندنا في ذلك أنهما لغتان ، والذي نختاره منهما بفتح اللام والواو .

قال الله عز وجل رداً على الكافرين ﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ يقول : أنظر في اللوح المحفوظ ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ يعني : أعقد عند الله عقد التوحيد وهو قول لا إله إلاّ الله ، ويقال : أعهد إليه أن يجعل له في الجنة ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو رد عليه لا يعطى له ذلك ، واعلم أنه ليس في النصف الأول كلا ، وأما النصف الثاني ففيه نيف وثلاثون موضعاً ، ففي بعض المواضع في معنى الرد للكلام الأول ، وفي بعض المواضع للتنبيه في معنى الافتتاح ، وفي بعض المواضع يحتمل كلا الوجهين .

فأول ذلك ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً كَلاَّ ﴾ تم الكلام عنده أي : كلا لم يطلع الغيب ولم يتخذ عهداً ، ثم ابتدأ ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ من ذلك قوله ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلاَّ ﴾ لا يقتلونك .

وأما الذي هو للتنبيه في معنى الافتتاح قوله عز وجل ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 3/2] وقوله عز وجل ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ من الكذب ، يعني : سنحفظ ما يقول ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب ﴾ يعني : نزيد له من العذاب ﴿ مَدّاً ﴾ يعني : بعضه على إثر بعضٍ ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ يعني : نعطيه غير ما يقول في الجنة ، ونعطي ما يدعي لنفسه لغيره ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ يعني : وحيداً بغير مال ولا ولد ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ يعني : منعة في الآخرة ﴿ كَلاَّ ﴾ رد عليهم أي لا يكون لهم منعة .

وتم الكلام .

ثم قال : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ يعني : الآلهة يجحدون عبادتهم ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ يعني : الآلهة تكون عوناً عليهم في العذاب ، ويقال : عدواً لهم في الآخرة ، ومن هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ طَلَبَ رِضَا المَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ عَادَ الحَامِدُ لَهُ ذَامّاً "

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين ﴾ يعني : ألم تخبر في القرآن أنا سلطنا الشياطين ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ مجازاة لهم ويقال : خلينا بينهم وبين الكفار فلم نعصمهم ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ يعني : تزعجهم إزعاجاً وتغريهم إغراءً حتى يركبوا المعاصي ، قال الضحاك : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ أي تأمرهم أمراً ، وقال الحسن : تقدمهم إقداماً إلى الشر ، وقال الكلبي : نزلت الآية في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بالعذاب ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ يعني : أيام الحياة ، ثم ينزل بهم العذاب ويقال : نعد عليهم النفس بعد النفس ويقال : الأيام والليالي والشهور قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين ﴾ يعني : اذكر يوم نحشر المتقين الذين اتقوا الشرك والفواحش ﴿ إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ يعني : ركباناً على النوق والوفد جمع الوافد مثل الركب جمع راكب والوفد الذي يأتي بالخبر والبشارة ويجازي بالحياة الكرامة .

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قرأ ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ ثم قال : أتدرون على أي شيء يحشرون أما والله ما يحشرون على أقدامهم ، ولكن يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها أرحال الذهب ، وأزمتها من الزبرجد ثم ينطلق بهم حتى يقرعوا باب الجنة .

وقال الربيع بن أنس يوفدون إلى ربهم فيكرمون ويعظمون ويشفعون ويحيون فيها بالسلام .

ويقال : ﴿ إِلَى الرحمن ﴾ يعني : إلى الرحمة وهي الجنة ويقال : ﴿ إِلَى الرحمن ﴾ يعني : إلى دار الرحمن .

ثم قال عز وجل ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ يعني : عطاشاً مشاة ، وأصله الورود على الماء والوارد على الماء يكون عطشاناً .

(181/492)

قال عز وجل : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ يعني : من جاء بلا إله إلا الله ، وقال سفيان الثوري : إلا من قدم عملاً صالحاً ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ يعني : اليهود والنصارى ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ يعني : قلتم قولاً عظيماً منكراً ويقال كذباً وزوراً ، قال عز وجل ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ يعني : من قولهم ﴿ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ يعني : تتصدع الأرض ﴿ وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ تصير الجبال كسراً ﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ يعني : بأن قالوا لله ولد .

(182/492)

روي عن بعض الصحابة أنه قال كان بنو آدم لا يأتون شجرة إلا أصابوا منها منفعة حتى قالت فجرة بني آدم اتَّخذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً اقشعرت الأرض وهلك الشجر ، وقرأ نافع والكسائي ﴿ يَكَادُ ﴾ بالياء على لفظ التذكير والباقون بالتاء لأن الفعل مقدم ، فيجوز كلاهما ، وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالتاء والباقون بالنون ومعناهما واحد مثل ينشق وتنشق ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا يَنبَغِى للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ يعني : ما اتخذ الله عز وجل ولداً ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض إِلاَّ اتِى الرحمن عَبْداً ﴾ يعني : أقر بالعبودية يعني : به الملائكة وعيسى وعزيراً وغيرهم ﴿ لَّقَدْ أحصاهم ﴾ يعني : حفظ عليهم أعمالهم ليجازيهم بها ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ يعني : علم عددهم ، ويقال : ﴿ أحصاهم ﴾ أي : حفظ أعمالهم فيجازيهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أي : علم عدد أنفاسهم وحركاتهم ﴿ وَكُلُّهُمْ ءاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ يعني : وحيداً بغير مال ولا ولد ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ يعني : يحبهم ويحببهم إلى الناس ، وقال كعب الأحبار : قرأت في التوراة أنها لم تكن محبة لأحد إلا كان بدؤها من الله تعالى ينزل إلى أهل السماء ثم ينزلها إلى أهل الأرض ، ثم قرأت القرآن فوجدته فيه وهو قوله ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ يعني : محبة في أنفس القوم ، روى سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِذَا أَحَبَّ الله عَبْداً نَادَى جِبْرِيْلَ

قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ المَحَبَّةُ فِي الأَرْضِ ، وَإِذَا أَبْغَضَ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ قَدْ أَبْغَضْتُ فُلاَنًا فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءَ

(183/492)

ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ " .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بِلِسَانِكَ ﴾ يعني : هَوَّنَا قراءة القرآن على لسانك ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ أي : الموحدين ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ أي جُدلاً بالباطل شديدي الخصومة ، هو جمع ألد مثل أصم وصم .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ يعني : من قبل قريش ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ يعني : هل ترى منهم من أحد ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ أي صوتاً خفياً ، والركز الصوت الذي لا يفهم ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 380.388 ﴾

(184/492)

وقال الثعلبي :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾

يعني من بعد النبيّين المذكورين ﴿ خَلْفٌ ﴾ وهم قوم سوء ، والخَلَفَ بالفتح الصالح ، والخلف بالحزم الطالح ، والخلف بسكون اللام الرديء من كلّ شيء ، وهم في هذه الآية اليهود ومن لحق بهم . وقال مجاهد وقتادة : في هذه الأُمّة .

﴿ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ أي تركوا الصلوات المفروضة ، قال ابن مسعود وإبراهيم والقاسم بن مخيمرة : أخّروها عن مواقيتها وصلّوها بغير وقتها .

وقال قرّة بن خالد : استبطأ الضحاك مرّة امتراءً في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب فقرأ هذه الآية ﴿ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ ثمَّ قال : والله لئن أدعها أحبّ إلىّ من أن اضيّعها ، وقرأ الحسن : اضاعوا الصلوات ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ قال مقاتل : استحلّو نكاح الأخت من الأب ، وقال الكلبي : يعني اللذات وشرب الخمر وغيره ، قال مجاهد : هذا عند اقتراب الساعة وذهاب صالحي أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض في السكك والأزقّة زناة .

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال : يكون خلف من بعد ستّين سنة ﴿ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ الآية .

وقال عليّ بن أبي طالب : " هذا إذا بني المشيد وركب المنظور ولبس المشهور " ، وقال

وهب : فخلف من بعدهم خلف شرّابون للقهوات ، لعّابون بالكعبات ، ركّابون للشهوات ، متبعون للذّات ، تاركون للجُمعات ، مضيّعون للصلوات ، وقال كعب : يظهر في آخر الزمان أقوام بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس ، ثمّ قرأ ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ .

(185/492)

﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ قال عبد الله بن مسعود : الغيّ نار في جهنّم ، وقال ابن عباس : الغيّ واد في جهنم وإنّ أودية جهنم لتستعيذ من حرّها ، أُعدّ ذلك الوادي للزاني المصرّ عليه ، ولشارب الخمر المدمن عليها ، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً . وقال عطاء : الغيّ واد في جهنم يسيل قيحاً ودماً . وقال وهب : الغيّ نهر في النار بعيد قعره ، خبيث طعمه ، وقال كعب : هو واد في جهنم أبعدها قعراً وأشدّها حرّاً ، فيه بئر تسمى البهيم كلّما خبت جهنّم فتح الله تلك البئر فسعّر بها جهنم ، وقال الضحاك : خسراناً وقيل : عذاباً ، وقيل : ألماً ، وقيل : كفراً .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً * جَنَّاتِ

عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ ولم يروها ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ يعني آتياً ، قال الأعشى :

وساعيت معصيّاً إليها وشاتها . أي عاصياً .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ لَغْواً ﴾ باطلاً وفحشاً وفضولاً من الكلام ، قال مقاتل : يميناً كاذبة ﴿ إِلاَّ سَلاَماً ﴾ استثناء من غير جنسه يعني بل يسمعون فيها سلاماً أي قولاً يسلمون منه ، وقال المفسّرون : يعني تسليم بعضهم على بعض تسليم الملائكة عليهم ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ يعني على مقدار طرفي النهار .

أخبرنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن جعفر بقراءتي عليه قال : حدّثنا أبو الحسن علي بن محمد بن سختويه قال : حدّثنا موسى بن هارون قال : حدّثنا بشر بن معاذ الضرير قال : حدّثنا عامذ بن سياق عن يحيى بن أبي كثير قال : كانت العرب في زمانها من وجد غداءً مع عشاء فذلك هو الناعم ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ قدر ما بين غدائهم وعشائهم .

أخبرنا محمد بن أحمد بن جعفر قال : حدّثنا علي بن محمد بن سختويه قال : حدّثنا موسى ابن هارون قال : حدّثنا داود بن رشيد قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : سألت زهير بن محمد عن قول الله سبحانه ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ قال : ليس في الجنة ليل ، هم في نور أبداً وإنّما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب ، ومقدار النهار برفع الحجب .

﴿ تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وقرأ يعقوب : نورّث بالتشديد ، والاختيار التخفيف ؛ لقوله ثُمَّ اَوْرَثْنَا ﴿ مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية .

أخبرنا عبد الله بن حامد وشعيب بن محمد قالا : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا أبو الأزهر قال : حدّثنا روح بن عبادة ، قال : حدّثنا عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : يا جبرئيل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا ؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ .

وقال مجاهد : " أبطأت الرّسل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثم أتاه جبرئيل فقال : ما حبسك ؟ فقال : وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصّون أظفاركم ولا تأخذون شواربكم ولا تستاكون " ؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية .

وقال عكرمة والضّحاك ومقاتل وقتادة والكلبي : " احتبس جبرئيل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والرّوح فلم يدر ما يجيبهم ، ورجا أن يأتيه جبرئيل بجواب ما سألوه فأبطأ عليهَ قال عكرمة : أربعين يوماً .

وقال مجاهد : اثنتي عشرة ليلة وقيل : خمس عشرةَ فشقّ ذلك على رسول الله صلى اللّه عليه وسلم مشقة شديدة ، وقال المشركون : ودّعه ربّه وقلاه ، فلمّا أنزل جبرئيل قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أبطأت عليَّ حتى ساء ظنّي واشتقت إليك " ، فقال له جبرئيل : إنيّ كنت أشوق إليك ولكنّي عبد مأمور إذا بُعثت نزلت وإذا حُبست احتبستُ " ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ وأنزل ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 1-3] .

وقيل : هذا إخبار عن أهل الجنة ، أنّهم يقولون عند دخولها : ما تتنزل هذه الجنان إلّا بأمر الله ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ قال مقاتل : له ما بين أيدينا من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ من أمر الدنيا ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ يعني بين النفختين ، وبينهما أربعون سنة ، وقيل : كان له ابتداء خلقنا وله كان منتهى آجالنا ، وله كان مدّة حياتنا .

ويقال : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ من الثواب والعقاب وأُمور الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ ما مضى من أعمالنا في الدنيا ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ أي ما يكون منّا إلى يوم القيامة . ويقال : ﴿ لَهُ مَا

بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ قيل أن يخلقنا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ بعد أن يميتنا ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ ما هو فيه من الحياة، ويقال ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ إلى الأرض إذا أردنا النزول إليها ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أي السماء إذا نزلنا منها ﴿ وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ يعني السماء والأرض، يريد أن كل ذلك لله سبحانه فلا تقدر على فعل إلاّ بأمره .

(188/492)

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي ناسياً إذا شاء أن يرسل إليك أرسل . ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ أي واصبر على عبادته ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ قال ابن عباس : مثلاً، وقال سعيد بن جبير : عدلاً، وقال الكلبي : هل تعلم أحداً يسمى الله غيره .

﴿ وَيَقُولُ الإنسان ﴾ يعني أُبيّ بن خلف الجمحي ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ ﴾ من القبر ﴿ حَيّاً ﴾ استهزاءً وتكذيباً منه بالبعث .

قال الله سبحانه ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ ﴾ أي يتذكّر ويتفكّر، والأصل يتذكر، وقرأ ابن عامر ونافع وعاصم ويعقوب يذكر بالتخفيف، والاختيار التشديد لقوله سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [الرعد : 19] ﴾ وأخواتها، يدل عليه قراءة أُبي ﴿ يتذكر الإنسان ﴾

يعني أُبيّ بن خلف الجمحي ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ ثمّ أقسم بنفسه فقال ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ لنجمعنّهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث ﴿ والشياطين ﴾ مع الشياطين يعني قرناءهم الذين أضلّوهم ، يُقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ يعني في جهنم ﴿ جِثِيّاً ﴾ قال ابن عباس : جماعات جماعات ، وقال مقاتل : جميعاً وهو على هذا القول جمع جثوة ، وقال الحسن والضحاك : جاثية على الركب وهو على هذا التأويل جمع جاث . قال الكميت :

همُ تركوا سراتهمُ جثيّاً . . . وهم دون السراة مقرنينا

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ لنَخرجنّ من كلّ أُمّة وأهل دين ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ عتوّاً قال ابن عباس : يعني جرأةً ، وقال مجاهد : فجوراً وكذباً ، قال مقاتل : علوّاً ، وقيل : غلوّاً في الكفر ، وقيل : كفراً ، وقال الكلبي : قائدهم رأسُهم في الشرّ .

(189/492)

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا الحسن بن علي قال : حدّثنا أبو أُسامة عن سفيان عن علي بن الأرقم عن أبي الأحوص قال : نبدأ بالأكابر

فالأكابر ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ أي أحقّ بدخول النار ، يقال : صلي يصلى صلياً مثل لقي يلقى لقيّاً وصلى يصلى صلياً مثل مضى يمضي مضياً .

(190/492)

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قيل : في الآية إضمار مجازه : والله إنْ منكم يعني ما منكم من أحد ألاّ واردها يعني النار ، واختلف الناس في معنى الورود حسب اختلافهم في الوعيد ، فأمّا الوعيد فإنّهم قالوا : إنّ من دخلها لم يخرج منها ، وقالت المرجئة : لا يدخلها مؤمن ، واتّفقوا على أنّ الورود هو الحضور والمرور ، فأمّا أهل السنّة فإنّهم قالوا : يجوز أن يعاقب الله سبحانه العصاة من المؤمنين بالنار ثم يخرجهم منها ، وقالوا : معنى الورود الدخول ، واحتجّوا ، بقول الله سبحانه حكاية عن فرعون ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] وقال في الأصنام وعبدتها ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] ﴿ لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ [الأنبياء : 99] فلو لم يكن الورود في هذه الآيات بمعنى الدخول لوجب أن يدخل الأصنام وعبدتها وفرعون وقومه الجنّة لأن من مرَّ على النار فلابّد له من الجنّة لأنه ليس بعد الدنيا دار إلاّ الجنّة أو النار ، والذي يدلّ على أنّ الورود هو الدخول قوله في سياق

الآية ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ والنجاة لا تكون إلاّ ممّا دخلت فيه وأنت ملقىً فيه ، قال الله سبحانه ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] واللغة تشهد لهذا ، تقول العرب : ورد كتاب فلان ، ووردتُ بلد كذا ، لا يريدون جزت عليها وإنّما يريدون دخلتها ، ودليلنا أيضاً من السنّة .

(191/492)

وأخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد الفقيه قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله المزني قال : حدّثنا محمد بن نصر بن منصور الصائغ الشيخ الصالح قال : حدّثنا سليمان بن حرب قال : حدّثنا أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سميّة قال : اختلفنا في الورود ها هنا بالبصرة فقال قوم : لا يدخلها مؤمن ، وقال آخرون : يدخلونها جميعاً ، فلقيت جابر بن عبد الله فسألته فأهوى بإصبعيه إلى أُذنيه وقال : صمّتا إن لم أكن سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الورود : الدخول ، لا يبقى بّر ولا فاجر إلاّ دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى أنّ للنار أو لجهنم ضجيجاً لمن تردهم ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ " .

وأخبرنا شعيب بن محمد وعبد الله بن حامد قالا : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا

أحمد بن الأزهر قال : حدّثنا روح بن عبدان قال : حدّثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنّ نافع بن الأزرق ما رأى ابن عباس يقول ابن عباس : الورود الدخول ويقول نافع ليس الورود الدخول فتلا ابن عباس ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] أدخل هؤلاء أم لا ؟ ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾

[هود : 98] أدخل هؤلاء أم لا ؟ والله أنا وأنت فسنردها ، وأنا أرجو أن يخرجني الله وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك .

وبإسناده عن ابن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله عليه السلام : ما من مسلم يموت له ثلاث من الولد إلاّ لم يلج النار إلاّ تحلّة القَسَم ثم قرأ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ .

وبإسناده عن روح قال : حدّثنا شعبة قال : أخبرني إسماعيل السدىّ عن مرّة الهمداني عن ابن مسعود في قوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قال : يردونها ثم يصدرون عنها بأعمالهم .

(192/492)

وبه عن روح عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، تمرّ الطائفة الأُولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجوَد الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثمّ يمرّون والملائكة يقولون : اللهمّ سلّم سلّم .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الاصبهاني قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الهروي قال : حدّثنا الحسين بن إدريس قال : حدّثنا سويد بن نصر عن عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن رجل عن الحسن قال : قال رجل لأخيه : أي أخ هل أتاك أنكّ وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنّك خارج منها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك إذاً ؟ قال : فما رؤي ضاحكاً حتى مات .

وبإسناده عن عبد الله بن المبارك عن مالك بن معول عن أبي إسحاق عن ابن ميسرة أنّه أوى إلى فراشه فقال : يا ليت أُمي لم تلدني ، فقالت امرأته : يا أبا ميسرة ، إنّ الله سبحانه قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام فقال : أجل ، ولكنّ الله قد بيّن لنا أنّا واردو النار ولم يبيّن لنا أنّا صادرون منها ، وأنشد في معناه :

لقد أتانا ورود النار ضاحية . . . حقّاً يقيناً ولمّا يأتِنا الصَّدَرُ

فإن قيل : فخبّرونا عن الأنبياء هل يدخلون النار ؟ يقال لهم : لا تطلق هذه اللفظة بالتخصيص فيهم بل نقول : إنّ الخلق جميعاً يردونها .

فإن احتجّوا بقوله ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 23] يقال لهم : إنّ موسى لم يمرّ على تلك البئر ، وإنّما استقى لابنتي شعيب وروى الأغنام وأقام ، وهو معنى الدخول ، والعرب تعبر عن الحي وأماكنهم بذكر الماء ، فتقول : ماء بني فلان .

(193/492)

فإن قيل : فكيف يجوز أن يدخلها من قد أخبر الله سبحانه أنّه لا يسمع حسيسها ولا يدخلها ؟ قيل : إن الله سبحانه أخبر عن وقت كونهم في الجنة أنّهم لا يسمعون حسيسها فيجوز أن يكونوا قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة لأن الله سبحانه لم يقل : لم يسمعوا حسيسها ويجوز أن لا يسمعوا حسيسها عند دخولهم إياها إذ الله عزّ وجلّ قادر على ان يجعلها عليهم برداً وسلاماً .

وكذلك تأويل قوله لا يَدْخُلونَ النّارَ أي لا يخلدون فيها ، أو لا يتألّمون ويتأذّون بها ، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا أبو الأزهر قال : حدّثنا مؤمّل بن إسماعيل عن أبي هلال عن قتادة عن أنس في قول الله سبحانه ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : 192] فقال : إنّك من تخلّد في النّار فقد أخزيته .

والدليل على أنّ الخلق جميعاً يدخلون النار ثمّ ينجي الله المؤمنين بعضهم سالمين غير آلمين وبعضهم معذّبين معاقبين ثم يدخلهم جميعاً الجنة برحمته ، ما أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال : أخبرنا حاجب بن محمد قال : حدّثنا محمد بن حامد الأبيوردي قال : حدّثنا أبو سعيد عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أُم مبشر " عن حفصة قالت : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : إنّي أرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية قالت : قلت : يا رسول الله أليس قد قال الله سبحانه ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ ؟ قال : أفلم تسمعيه يقول ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ "

(194/492)

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان قال : أخبرنا جبغوية بن محمد قال : أخبرنا صالح بن محمد بن عبد العزيز بن المسيّب عن الربيع بن بدر عن أبي مسعود عن العباس عن كعب أنّه قال في هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قال : ترفع جهنّم يوم القيامة كأنّها متن اهالة وتستوي أقدام الخلائق عليها ، فينادي مناد أن خذي أصحابك ودعي أصحابي ، فتخسف بهم وهي أعرف بهم من الوالدة بولدها ، ويمرّ

أولياء الله عزّ وجلّ بندي ثيابهم ، وقال خالد بن معدان : يقول أهل الجنة : ألم يعدنا ربّنا أن نرد النّار ؟ فيقال : بلى ولكنّكم مررتم بها وهي خامدة .

وروى خالد بن أبي الدريك عن يعلى بن منبّه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي " .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا أحمد بن عبد الحميد الحارثي قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن بن أبي حمّاد عن يحيى بن يمان عن عثمان الأسود عن مجاهد في قوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قال : من حُمَّ من المسلمين فقد وردها .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا يحيى بن سعيد القطان قال : حدّثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يخرج من النار من قال : لا إله إلاّ الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلاّ الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برّة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلاّ الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرّة " .

(195/492)

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ يعني اتقوا الشرك وهم المؤمنون ، وفي مصحف عبد الله : ثَمّ ننجي بفتح الثاء يعني هناك ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين ﴾ أي الكافرين ﴿ فِيهَا ﴾ في النار ﴿ جِثِيّاً ﴾ جميعاً ، وقيل : على الرُّكَب .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن خالد بن الحسن قال : حدّثنا داود بن سليمان قال : حدّثنا عبد بن حميد قال : حدّثنا سعيد بن عامر عن حشيش أبي محرز قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول : هبك ننجو بعد كم ننجو ؟

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بينات قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني النضر بن الحرث ودونه من قريش ﴿ لِلَّذِينَ آمنوا ﴾ يعني فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة ، وكان المشركون يرجّلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ منزلاً ومسكناً ، وقرأ أهل مكة مقاماً بالضّم أي إقامة ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ يعني مجلساً ، ومثله النادي ، ومنه دار الندوة لأنّ المشركين كانوا يجلسون فيها ويتشاورون في أُمورهم ، قال الله تعالى مجيباً لهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ أي متاعاً ، وقال ابن عباس : هيئة وقال مقاتل : ثياباً . ﴿ وَرِءْياً ﴾ أي منظراً ، وقرأ أُبي : وزّياً بالزاي وهو الهيئة .

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ أي فليدعه في طغيانه ويمهله في كفره

﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ إِمَّا العذاب ﴾ في الدنيا ﴿ وَإِمَّا الساعة ﴾ يعني القيامة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ أهم أم المؤمنون .

(196/492)

﴿ وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى ﴾ أي إيماناً ويقيناً يعني المؤمنين ، يقال : ويزيد الله الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ عاقبة ومرجعاً ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا أبو معاوية قال : حدّثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن خبّاب بن الأرتّ قال : كان لي دَين على العاص فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد قلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنّي إذا متّ ثم بعثت جئتني ، وسيكون لي ثَمّ مال وولد فأُعطيك ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

(197/492)

وقال الكلبي ومقاتل : كان خبّاب بن الأرتّ قيناً وكان يعمل للعاص بن وائل السهمي وكان العاص يؤخّر حقّه الشيء بعد الشيء إلى الموسم ، فكان حسن الطلب فصاغ له بعض الحلي فأتاه يتقاضاه الأجرة فقال العاص : ما عندي اليوم ما أقضيك ، فقال له الخباب : لست مفارقك حتى تقضي ، فقال له العاص : يا خبّاب مالك ؟ ما كنت هكذا وإن كنت حسن الطلب المخالطة ، فقال خبّاب : ذلك أنّي كنت على دينك فأمّا اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك فلا ، قال : أفلستم تزعمون أنّ في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ؟ قال الخبّاب : بلى ، قال : فأخرّني حتى أقضيك في الجنة استهزاءً فوالله لئن كان ما تقول حقاً فإنّي لأفضل فيها نصيباً منك ، فأنزل الله سبحانه ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ يعني العاص ﴿ وَقَالَ لأُوتَيَنَّ ﴾ لأُعطين ﴿ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الغيب ﴾ قال ابن عباس : أنظر في اللوح المحفوظ ؟ وقال مجاهد : أعلم علم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا ؟ ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ يعني أم قال : لا إله إلا الله ، وقال قتادة : يعني عملاً صالحاً قدّمه ، وقال الكلبي : عهد إليه أنّه يُدخله الجنة .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردٌّ عليه يعني لم يفعل ذلك ﴿ سَنَكْتُبُ ﴾ سنحفظ عليه ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ يعني المال والولد . ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ في الآخرة ليس معه شيء .

﴿ واتخذوا ﴾ يعني مشركي قريش ﴿ مِن دُونِ الله آلِهَةً ﴾ يعني الأصنام ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ

عِزّاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ في الآخرة ويتبرأون منهم ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ أعداء وقيل : أعواناً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ يعني سلّطناهم عليهم وذلك حين قال لإبليس ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء : 64] الآية .

(198/492)

﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ قال ابن عباس : تزعجهم ازعاجاً من الطاعة إلى المعصية . وقال الضحاك : يأمرهم بالمعاصي أمراً ، وقال سعيد بن جبير : تغريهم إغراءً وقال مجاهد : تشليهم أشلاءً وقال الأخفش : توهجهم ، وقال المؤرّخ : تحرّكهم ، وقال أبو عبيد : تغويهم وتهيجهم ، وقال القتيبي : تخرجهم إلى المعاصي ، وأصله الحركة والغليان ومنه الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم " ولجوفه أزيز كأزيز المرجل " .

﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بالعذاب ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ قال الكلبي : يعني الليالي والأيام والشهور والسنين ، وقيل : الأنفاس ، يقال : إنّ المأمون كان يقرأ سورة مريم وعنده الفقهاء فلمّا انتهى إلى هذه الآية التفت إلى محمد بن السماك مشيراً عليه بأن يعظه فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين ﴾ يعني الموحّدين ﴿ إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ أي جماعات وهو جمع وافد مثل راكب وركب وصاحب وصحب .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا عبد الله بن محمد قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا . . . . . وهب بن جرير عن شعبة عن إسماعيل بن أبي خالد عن رجل عن أبي هريرة ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : على الإبل ، وقال ابن عباس : ركباناً يؤتون بنوق عليها رحال الذهب ، وأزمّتها الزبرجد فيحملون عليها ، وقال عليّ بن أبي طالب : " ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها ذهب ، ونجائب سرجها يواقيت ، إن همّوا بها سارت ، وإن همّوا بها طارت " .

(199/492)

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا أحمد بن شاذان عن صعوبة بن محمد ، حدّثنا صالح ابن محمد عن إبراهيم بن عن صالح بن صدقة " أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الاية ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : قلت : يا رسول الله إني رأيت وفود الملوك فلم أرَ وفداً إلاّ ركبانا فما وفد الله ؟ قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : يا علي إذا كان المنصرف من بين يدي الله تلقّت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها

وأزمّتها الذهب ، على كلّ مركب حُلّة لا تساويها الدنيا ، فيلبس كلّ مؤمن حلّته ثم يستوون على مراكبهم فتهوى بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنة تتلقّاهم الملائكة ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] " .

وقال الربيع : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ قال : يفدون إلى ربهم فيكرمون ويعطون ويحيون ويشفعون ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين ﴾ يعني الكافرين ﴿ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ قال المفسّرون : عطاشى ، مشاة على أرجلهم قد تقطّعت أعناقهم من العطش ، والورد جماعة يردون الماء ، اسم على لفظ المصدر ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة * إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ يعني لا إله إلاّ الله ، ومن في موضع النصب على الاستثناء .

قال ابن عباس : يعني لا يشفع إلاّ من شهد أن لا إله إلاّ الله تبرّأ من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عزّ وجلّ .

وقال بعضهم : معناه إلاّ لمن اتخذ ، نظيره ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] قال مقاتل ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ يعني اعتقد بالتوحيد .

(200/492)

وقال قتادة : عمل بطاعة الله ، وروى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله علائم يقول لأصحابه ذات يوم : " أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهداً ؟ قالوا : كيف ذاك ؟ قال : يقول كلّ صباح ومساء : اللهمّ فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنّي أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنيّ أشهد أن لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك ، وأنّ محمّداً عبدك ورسولك ، وأنّك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ وتباعدني من الخير ، وإنّي لا أثق إلاّ برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفّينيه يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد ، فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند الرَّحْمن عهدٌ فيدخلون الجنة ؟ " .

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ يعني اليهود والنصارى ، ومن زعموا أنَّ الملائكة بنات الله ، وقرأ حمزة والكسائي وُلداً بضمّ الواو وجزم اللام وهي أربعة مواضع ها هنا ، وحرف في سورة الزخرف ، وحرف في سورة نوح ، والباقون بالفتح ، وهما لغتان مثل العرب والعُرب والعجم والعُجم .

قال الشاعر :

فليت فلاناً كان في بطن أُمّه . . . وليت فلاناً كان ولْد حمار

مخففاً وقيس بجعل الولد بالضم جمعاً والولد بالفتح واحداً .

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ قال ابن عباس : منكراً ، وقال قتادة ومجاهد : عظيماً ، وقال

الضحاك : فظيعاً وقال مقاتل : معناه لقد قلتم قولاً عظيماً ، نظيره قوله ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : 40] وإلادّ في كلام العرب أعظم الدواهي ، قال رؤبة :

(201/492)

نطح شيّ أد رؤوس الأداد . . . وفيه ثلاث لغات : إدّ بالكسر وهي قراءة العامة ، وأد بالفتح وهي قراءة السلمي ، وآد مثل ماد وهي لغة بعض العرب ﴿ تَكَادُ السماوات ﴾ قرأ نافع والكسائي بالياء لتقديم الفعل ، وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث السماوات ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ يتشقّقن منه وقرأ أبو عمرو ينفطرن بالنون من الانفطار وهو اختيار أبي عبد الله لقوله عز وجل ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] وقوله ﴿ السمآء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] الباقون بالتاء من التفطّر ﴿ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ قال ابن عباس : وقرأ مقاتل : وقطعاً وقال عطاء : هدماً ، أبو عبيد : سقوطاً ﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ يعني لأن دعوا ، ومن قرأ جعلوا وقالوا للرحمن ولداً ، قال ابن عباس وأُبي بن كعب : فزعت السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلاّ الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم وقالوا لله عزّ وجلّ ولد ، ثم نفى سبحانه عن نفسه الولد فقال ﴿

وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ يعني انه لا يفعل ذلك ولا يحتاج إليه ولا يوصف به ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ لا ولداً ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أنفاسهم وأيامهم فلا يخفى عليه شيء ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ ﴾ جائيه ﴿ يَوْمَ القيامة فَرْدا ﴾ وحيداً فريداً بعمله ليس معه شيء من الدنيا .

(202/492)

وأخبرنا عبد الله بن حامد ، حدّثنا محمد بن جعفر بن يزيد ، حدّثنا أحمد بن عبيد المؤدب ، حدّثنا عبد الرزاق ، وحدّثنا عبد الله ، نبّأ محمد بن الحسن ، نبّأ أحمد بن يوسف السلمي ، نبّأ عبد الرزاق ، حدّثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدّثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عزّ وجلّ : كذبني عبدي وشتمني ولم يكن له ذلك ، أما تكذيبه إياّي فأن يقول : لن يعيدنا كما بَدأنا ، وأمّا شتمه إياي فأن يقول : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم أَلد ولم أُولد ولم يكن لي كفؤاً أحد " .

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ أي حبّاً يحبّهم ويحبّبهم إلى عباده المؤمنين من أهل السماوات والأرضين .

أخبرنا عبد الخالق بن علىّ بن عبد الخالق أبو القاسم العاصي أنبأ أبو علي محمد بن أحمد

بن حمزه عن الحسن الصوّاف ببغداد ، قال أبو جعفر الحسن بن علي الفارسي ، عن إسحاق بن بشر الكوفي ، عن خالد بن يزيد عن يزيد الزيات ، عن أبي إسحاق السبيعي ، عن البراء عن عازب قال : " قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : يا علي قل : اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة ، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ " الآية .

وأخبرنا عبد الله بن حامد ، أنبأ عبدوس بن الحسين ، نبّأ أبو حاتم بن أبي أويس ، حدّثني مالك بن أنس عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : أنّه قال : " إذا أحبّ الله العبد قال لجبرئيل : يا جبرئيل قد أحببت فلاناً فأحّبه ، فيحبّه جبرائيل ثمّ ينادي في أهل السماء : إنّ الله عزّ وجلّ قد أحب فلاناً فأحبّوه ، فيحبّه أهل السماء ثم يضع له المحبّة في الأرض وإذا أبغض العبد ، قال مالك : لا أحسبه إلاّ قال فى البغض مثل ذلك " .

(203/492)

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن محمد بن يعقوب عن يحيى بن أبي طالب عن عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة في قوله ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ قال : إي والله ودّ في قلوب أهل

الإيمان ، وان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله عزّ وجلّ بقلوب أهل الإيمان إليه حتّى يورثه مودّتهم ورحمتهم .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ سهّلناه يعني القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ يا محمد ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ يعني المؤمنين ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ قال ابن عباس : شداداً في الخصومة وقال الضحاك : جدلاً بالباطل ، وقال مقاتل : خصماً ، وقال الحسن : صُمّاً ، وقال الربيع : صمّ آذان القلوب ، وهو جمع ألدّ يقال : رجل ألدّ إذا كان من عادته مخاصمة الناس .

وقال مجاهد : الألدّ الظالم الذي لا يستقيم ، وقال أبو عبيد : الألدّ الذي لا يقبل الحق ويدّعي الباطل ، قال الله تعالى ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام ﴾ [البقرة : 204] .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أنبأ أحمد بن محمد بن الحسين بن السوقي ، نبّأ أبو الازهر نبّأ أبو أُسامة عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدّ الخصم " .

ثمّ خوّف أهل مكة فقال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ ﴾ هل ترى ، وقيل : تجد منهم من أحد ﴿ أو تسمع لهم ركزاً ﴾ وهو الصوت الخفيّ ، قال ذو الرمّة :

وقد توجّس ركزاً من سنابكها . . . إذ كان صاحب أرض أو به الموم

قال أبو عبيدة : الركز : الصوت والحركة الذي لا يفهمه كركز الكتيبة ، وأنشد بيت لبيد :

وتوجّست ركز الأنيس فراعها . . . عن ظهر غيب والأنيس سقامها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 221.234 ﴾

(204/492)

وقال الزمخشرى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) ﴾

خلفه : إذا عقبه ، ثم قيل في عقب الخير «خلف» بالفتح ، وفي عقب السوء : خلف ، بالسكون ، كما قالوا «وعد» في ضمان الخير ، و«وعيد» في ضمان الشر . عن ابن عباس رضى اللّه عنه : هم اليهود ، تركوا الصلاة المفروضة ، وشربوا الخمر ، واستحلوا نكاح الأخت من الأب .

وعن إبراهيم ومجاهد رضى اللّه عنهما : أضاعوها بالتأخير . وينصر الأول قوله إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ يعنى الكفار . وعن على رضى اللّه عنه في قوله وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ من بنى الشديد ، وركب المنظور ، ولبس المشهور . وعن قتادة رضى اللّه عنه : هو في هذه الأمة . وقرأ ابن مسعود والحسن والضحاك رضى اللّه عنهم : الصلوات ، بالجمع .

كل شر عند العرب: غىّ، وكل خير: رشاد. قال المرقش:

فمن يلق خيرا تحمد النّاس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لائما «1»

وعن الزجاج: جزاء غىّ، كقوله تعالى يَلْقَ أَثاما أى مجازاة أثام. أو غيا عن طريق الجنة.

وقيل «غىّ» واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها. وقرأ الأخفش يُلْقُونَ.

[سورة مريم (19): آية 60]

إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60)

قرئ: يدخلون، ويدخلون: أى لا ينقصون شيئا من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه، بل يضاعف لهم، بيانا لأن تقدّم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك، من قولك: ما ظلمك أن تفعل كذا، بمعنى: ما منعك. أو لا يظلمون البتة، أى شيئا من الظلم.

[سورة مريم (19): آية 61]

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت مها، كقولك: أبصرت دارك القاعة والعلالي. و«عدن» معرفة علم، بمعنى العدن وهو الإقامة، كما جعلوا. فينة، وسحر، وأمس

---

(1) أمن حلم أصبحت تنكت واجما وقد تعترى الأحلام من كان نائما

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

للمرقش الأصغر صاحب فاطمة بنت المنذر ، والأكبر عم الأصغر وعم طرفة ، وهو صاحب أسماء ، والاستفهام للتوبيخ ، والحلم - بضمتين - : ما يراه النائم . والنكت : التخطيط والنقر في الأرض بإصبع ، أو عود ، كما يفعل المهموم المتفكر . والواجم : الحزين ، والواو للحال ، أى : والحال أن أضغاث الأحلام قد تعترى النائم ، فكان مجردة عن المعنى ، فمن يلق : أى يصادف خيرا في أفعاله ، يحمد الناس فعله ، أو شأنه . وإيقاع الحمد عليه لأنه سببه ، ومن يفعل غيا لا يعدم لائما يلومه على غيه . وقيل : أراد بالخير الغنى ، الفقر ، ويبعده مقام اللوم وعدم مناسبته لما قبله . وغوى يغوى : من باب ضرب : انهمك في الجهل ، وعدم يعدم - من باب علم - : فقده .

(205/492)

- فيمن لم يصرفه - أعلاما لمعانى : الفينة ، «1» والسحر ، والأمس ، فجرى مجرى العدن لذلك .

أو هو علم لأرض الجنة ، لكونها مكان إقامة ، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال ، لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصوفة ، ولما ساغ وصفها بالتي . وقرئ : جنات عدن . وجنة عدن بالرفع على الابتداء . أى : وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة . أو هم غائبون عنها لا

يشاهدونها . أو بتصديق الغيب والإيمان به . قيل في مَأْتِيًّا مفعول بمعنى فاعل .

والوجه أنّ الوعد هو الجنة وهم يأتونها . أو هو من قولك : أتى إليه إحسانا ، أى : كان وعده مفعولا منجزا .

[سورة مريم (19) : آية 62]

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)

اللغو : فضول الكلام وما لا طائل تحته . وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه ، حيث نزه اللّه عنه الدار التي لا تكليف فيها . وما أحسن قوله سبحانه وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ نعوذ باللّه من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا . أى : إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغوا ، فلا يسمعون لغوا إلا ذلك ، فهو من وادى قوله :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب «2»

أو لا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة ، على الاستثناء المنقطع «3» .

أو لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة «4» . ودار السلام : هي دار السلامة ، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء ، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث ، لولا ما فيه من

فائدة الإكرام .

---

(1) . قوله «لمعانى الفينة» في الصحاح «لقيته الفينة بعد الفينة» أى الحين بعد الحين . وإن شئت حذفت الألف واللام فقلت : لقيته فينة ، كما قالوا لقيته الندرى : وفي ندرى . (ع) [. . . . .]

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة 142 من الجزء الثاني فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . قال محمود : «يجوز أن يكون من قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وأن يكون استثناء منقطعا » قال أحمد : والفرق بين الوجهين أنه جعل الفلول عيبا على سبيل التجوز ، بتا لنفى العيب بالكلية ، كأنه يقول : إن كان فلول السيوف من القراع عيبا فإنهم ذوو عيب ، معناه : وإن لم يكن عيبا فليس فيهم عيب البتة ، لأنه لا شيء سوى هذا ، فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل .

(4) . عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يكون متصلا على أن يكون السلام هو الدعاء بالسلامة . . . الخ» قال أحمد :

وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة . لا كالأول الناشئ عن المجاز . وفي هذا الباب

بعد ، لأنه يقتضى البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول ، وحاش للّه ، فلا غول فيها ولا لغو .

(206/492)

من الناس من يأكل الوجبة «1» . ومنهم من يأكل متى وجد - وهي عادة المنهومين . ومنهم من يتغدى ويتعشى - وهي العادة الوسطى المحمودة ، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ، ولكن على التقدير ، ولأن المتنعم عند العرب من وجد غداء وعشاء . وقيل : أراد دوام الرزق ودروره ، كما تقول : أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا ، يريد : الديمومة ، ولا تقصد الوقتين المعلومين .

[سورة مريم (19) : آية 63]

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63)

نُورِثُ وقرئ : نورّث ، استعارة ، أى : نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورّث ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورّث الوارث المال من المتوفى . وقيل : أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا .

[سورة مريم (19) : آية 64]

وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

وَما نَتَنَزَّلُ حكاية قول جبريل صلوات اللّه عليه حين استبطأه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. روى أنه احتبس أربعين يوما. وقيل: خمسة عشر يوما، وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه، فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون: ودّعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم: أبطأت حتى ساء ظنى واشتقت إليك. قال: إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست. وأنزل اللّه سبحانه هذه الآية وسورة الضحى «2». والتنزل على معنيين: معنى النزول على مهل، ومعنى النزول على الإطلاق، كقوله:

---

(1). قوله «من الناس من يأكل الوجبة» أى يأكل كل يوم وليلة مرة، وقد وجب نفسه توجيبا إذا عودها ذلك، كذا في الصحاح. (ع)

(2). ذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي. فقالوا، احتبس، فذكره سواء، وكأنه ملفق عندهم، فقد ذكره ابن إسحاق في السيرة. قال حدثني شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس «أن قريشا جاءوا فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول - فذكر القصة - وفيها «فمكث فيما يذكرون خمسة عشرة

ليلة لا يحدث اللّه إليه في ذلك وصار لا يأتيه جبريل . فذكره بتغير وزيادة ونقص . ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريقه ومن طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس نحوه . وقال أبطأ عنه خمسة عشر يوما لتركه الاستثناء .

(207/492)

فلست لإنسىّ ولكن لملأك تنزّل من جو السّماء يصوب «1»

لأنه مطاوع نزل ، ونزل يكون بمعنى أنزل ، وبمعنى التدريج ، واللائق بهذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتا غب وقت ليس إلا بأمر اللّه ، وعلى ما يراه صوابا وحكمة ، وله ما قدامنا وَما خَلْفَنا من الجهات والأماكن وَما بَيْنَ ذِلكَ وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيئته ، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون ، وما يحدث ويتجدد من الأحوال ، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان ، فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وحكمة ، وأطلق لنا الإذن فيه . وقيل : ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة ، وما بين ذلك : ما بين النفختين وهو أربعون سنة . وقيل : ما مضى من أعمارنا وما غبر منها ، والحال التي نحن فيها . وقيل : ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا . وقيل :

الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا ، والسماء التي وراءنا ، وما بين السماء والأرض ، والمعنى : أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادرا عما توجبه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه . وقيل معنى وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا وما كان تاركا لك ، كقوله تعالى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى أى : ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به . وأما احتباس الوحى فلم يكن عن ترك اللّه لك وتوديعه إياك ، ولكن لتوقفه على المصلحة . وقيل : هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة ، أى : وما ننزل الجنة إلا بأن من اللّه علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها ، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة

---

(1) تعاليت أن تعزى إلى الانس جلة وللانس من يعزوك فهو كذوب

فلست باء نسى ولكن ملأكا تنزل من جو السماء يصوب

لرجل من عبد القيس ، يمدح النعمان بن المنذر . وقيل لأبى وجرة يمدح عبد اللّه بن الزبير . وتعزى : أى تنسب ، والجلة - بالضم وعاء التمر ، وبالكسر : الجماعة العظيمة ، جمع جليل ، وبالفتح : البعرة ، وهو تمييز محول من نائب عن الفاعل ، أى : تعاليت عن أن ينسب وعاءك أى : أصلك إلى الانس . وقوله : وللانس من يعزوك ، فيه تقديم معمول الصلة على الموصول . والمشهور منعه : لأنهم يتوسعون في الظروف ، وزيدت الفاء في خبر الموصول لأنه يشبه الشرط ، ولو جعل شرطا لكان فيه إثبات حرف العلة بعد الجازم للضرورة . والملأك

معفل ، بتقديم العين من الألوكة بالفتح وهي الرسالة ، وقال أبو عبيدة : هو مفعل على اسم المكان ، من لأك إذ أرسل ، ولعله جاء على مفعل لتصوير أن الرسول مكان الرسالة . وقال ابن كيسان : هو فعأل من الملك ، فالهمزة زائدة ، وعلى كل يخفف بالنقل فيقال فيه تلك .

والصوب : القصد أو الميل عند النزول ، ونصب ملأكا لأنه اسم لكن ، وما بعده صفته ، أي : ولكن ملأكا نازلا من السماء أنت . وفيه : أن المحدث عنه الممدوح لا الملك ، ويمكن أنه قلب للمبالغة كما قالوه في التشبيه المقلوب . ويحتمل أن تقديره : ولكنك كنت ملأكا ، وفيه بعد . والأوجه رواية الصحاح :

فلست لانسى ولكن لملأك

أي : فلست منسوبا لانسى ولكن لملك ، وبالغ في ذلك حتى جعله نازلا من جهة السماء ، يصوب : أي يقصد إلى جهة .

(208/492)

والمترقبة والحاضرة ، اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازى عليها ، ثم قال اللّه تعالى – تقريرا لقولهم – : وما كان ربك نسيا لأعمال العاملين غافلا عما يجب أن يثابوا به ، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذى ملكوت السماء والأرض وما بينهما ؟ ثم قال لرسوله

صلى اللّه عليه وسلم :

فحين عرفته على هذه الصفة ، فأقبل على العمل واعبده : يثبك كما أثاب غيرك من المتقين . وقرأ الأعرج رضى اللّه عنه : وما يتنزل ، بالياء على الحكاية عن جبريل عليه السلام والضمير للوحى .

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : إلا بقول ربك . يجب أن يكون الخلاف في النسى مثله في البغي .

[سورة مريم (19) : آية 65]

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بدل من ربك ، ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف ، أى هو رب السموات والأرض فَاعْبُدْهُ كقوله :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم «1»

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا من كلام المتقين ، وما بعده من كلام رب العزة . فإن قلت : هلا عدى اصْطَبِرْ بعلى التي هي صلته ، كقوله تعالى وَاصْطَبِرْ عَلَيْها ؟ قلت : لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب : اصطبر لقرنك ، أى اثبت له فيما يورد عليك من شدائد أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق ، فاثبت لها ولا تهن ، ولا يضق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط ، وعن احتباس

الوحى عليك مدة وشماتة المشركين بك . أى : لم يسم شيء باللّه قط ، وكانوا يقولون لأصنامهم : آلهة ، والعزى إله وأما الذي عوض فيه الألف واللام من الهمزة ، فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه .

---

(1) وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هيا

شاعره مجهول . أى : ورب قائلة . وخولان بالفتح اسم قبيلة باليمن ، وهو مبتدأ خبره ما بعده ، والفاء زائدة فيه على رأى الأخفش والفراء ، ومنع سيبويه زيادتها هنا ، لأن المبتدأ لم يشبه الشرط ، فخبره محذوف ، أى : خولان كرام فانكح أى تزوج فتاتهم ، أو هو خبر لمحذوف ، أى : هؤلاء خولان المعروفون بالكرم ، فتزوج بفتاتهم .

وبنى «أكرومة» من الكرم للدلالة على كثرة السكرم ، كما أن أعجوبة من التعجب للدلالة على كثرته ، والجملة حالية ، فيحتمل أنها مانعة من نكاح الفتاة ، أى قالت لي ذلك ، والحال أن أكرومة الحيين أى كريمة حى أبى وحى أمى خلو بالضم : خالية من الأرواح كما كانت ، فهي أولى من الفتاة بالزواج لقرابتها منى . ويحتمل أنها داعية إليه ، فالمعنى : قالت لي ذلك والحال أن الفتاة التي هي أكرومة الحيين ، أى حى أبيها وحى أمها من خولان ، على ما هي عليه من البكارة ، أو من الخلو من الأزواج لم تتزوج أحدا قبلي ، فهي حقيقة بأن أتزوجها لكرم طرفيها ، فعلم أن الكاف بمعنى على . ويجوز أن يشبه حالها الآن بحالها فيما مضى ،

فالكاف على أصلها . ويحتمل أن الواو للعطف ، أى : قالت ذلك ، وقالت : إنها خالية لم يطمثها أحد قبلك ، فهي حقيقة بالزواج لذلك ، لكنه بعيد .

(209/492)

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لا يسمى أحد الرحمن غيره . ووجه آخر : هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل ، لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتدّ بها كلا تسمية . وقيل :

مثلا وشبيها ، أى : إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده ، لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها .

[سورة مريم (19) : الآيات 66 إلى 67]

وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67)

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره ، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة . فإن قلت : لم جازت إرادة الأناسى كلهم ، وكلهم غير قائلين ذلك ؟ قلت : لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم ، صح إسناده إلى جميعهم ، كما يقولون : بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما

القاتل رجل منهم . قال الفرزدق :

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد «1»

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس مع قوله «نبا بيدي ورقاء» وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي .

فإن قلت : بم انتصب إِذا وانتصابه بأخرج ممتنع لأجل اللام ، لا تقول : اليوم لزيد قائم ؟ قلت :

بفعل مضمر يدل عليه المذكور . فإن قلت : لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال ، فكيف جامعت حرف الاستقبال ؟ «2» قلت : لم تجامعها إلا مخلصة للتوكيد كما أخلصت الهمزة في يا اللّه للتعويض واضمحل عنها معنى التعريف . و«ما» في إِذا ما للتوكيد أيضا ، فكأنهم قالوا :

أحقا أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك ؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد .

والمراد الخروج من الأرض ، أو من حال الفناء . أو هو من قولهم : خرج فلان عالما ، وخرج

---

(1) . للفرزدق وهذا لقبه ، واسمه همام أو هميم ، يريد : ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي ، أمره سليمان بن عبد الملك بضرب أعناق بعض أسرى الروم ، وأعطاه سيفا لا يقطع فقال : بل أضربهم بسيف أبى رغوان مجاشع ، يعنى نفسه ، فضرب عنق خالد

فانحرف السيف وارتفع عن المضرب ، فضحكوا منه . ونسب السيف والضرب إلى بنى عبس مع أنهما لواحد منهم ، تعظيما لهما وتفخيما . وجعله في اليدين إشارة إلى أنه كان مجمعا أمره وحازما عزمه غير متهاون . .

والمعنى : أن الحذر لا ينفع من القدر كما وقع لورقاء ، مع أنه في غاية الحرص ، لا سيما أمام الملك . ويجوز أنه يريد ذم بنى عبس .

(2) . قال محمود : «إن قلت كيف اجتمعت اللام وهي للحال مع حرف الاستقبال . . . الخ» قال أحمد :

ولاعتقاد تناقض الحرفين : منع الكوفيين اجتماعهما ، وإنما جردت اللام من معناها لتلائم «سوف» دون أن تجرد سوف لتلائم اللام ، لأنه لو عكس هذا للغت سوف ، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال . وأما اللام إذا جردت من الحال بقي لها التوكيد ، فلم تلغ ، فتعين ، والله أعلم .

(210/492)

شجاعا : إذا كان نادرا في ذلك ، يريد : سأخرج حيا نادرا على سبيل الهزؤ . وقرأ الحسن وأبو حيوة :

لسوف أخرج. وعن طلحة بن مصرف رضى اللّه عنه: لسأخرج، كقراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه: ولسيعطيك، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم، فهو كقولك للمسىء إلى المحسن: أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه: الواو عطفت لا يَذْكُرُ على يَقُولُ ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، يعنى: أيقول ذاك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى «1» فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، ثم أوقع التأليف مشحونا بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها، من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف. ولكن اختراعا وإبداعا من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته. وأما الثانية فقد تقدمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه. وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها، وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق. وقوله تعالى وَلَمْ يَكُ شَيْئاً دليل على هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ على أن رب العزة سواء عليه النشأتان، لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل، ولا يحتاج إلى احتذاء على مثال ولا استعانة بحكيم، ولا نظر في مقياس، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعا في بحر معاندته، وكشفا عن صفحة جهله. القراء كلهم على لا يَذْكُرُ بالتشديد إلا نافعا وابن عامر

---

(1). قال محمود: «ذكر اللّه الإنسان النشأة الأولى ليعترف بالأخرى... الخ» قال أحمد

: مذهب أهل السنة أن إعادة المعدوم جائزة عقلا ، ثم واقعة نقلا ، والمعتزلة وإن وافقت على ذلك ، إلا أنها تزعم أن المعدوم له ذات ثابتة في العدم ، يقضى عليها بأنها شيء فليس عندهم عدم صرف ونفى محض قبل الوجود ولا بعده ، فكأنهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم ، ولأنكروا إعادة المعدوم كما أنكره القدماء . وعقيدة أهل السنة هي المطابقة للآية ، لأن النشأة الأولى لم يتقدمها وجود ، ولأن المنشأ ابتداء لم يكن شيئا قبل ذلك . وأما النشأة الثانية فقد تقدمها وجود ، وكان المنشأ قبلها شيئا في زمان وجوده ، ثم عدم وبطلت شيئيته ، فظهر فرق ما بين النشأتين كما نطق به القرآن ، وأما المعتزلة فان قالوا : إن الأجسام يعدمها اللّه ثم يوجدها ، فقد قالوا الحق ، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشأتين ، لأن المعدوم فيهما كان شيئا قبل النشأة ، فان قالوا لا تنعدم الأجسام ، وإنما تتفرق ثم تجمع كما صرح به الزمخشري ، لأنه تفطن لأن القول بأن الأجسام تنعدم ثم يوجدها اللّه تعالى مع القول بأن المعدوم شيء – يبطل الفرق بين النشأتين ولم يطق ذلك ، وقد نطق به القرآن فالتزم أن الأجسام لا تنعدم ليتم له الفرق بين النشأة الثانية – وإنما هي على هذا التقرير جمع وتأليف لموجود – وبين النشأة الأولى التي هي إيجاد معدوم ، فتنبه لبعد غوره ، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب ، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار ، واللّه ولي التوفيق . ومعنى تفريق اللّه تعالى بين النشأتين : أن الجاحد متهافت لأنه اعترف بالأولى وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل ، وأنكر الثانية وهي

أسهل وأهون ، لأن ذلك راجع إلى قدرته تعالى . فان الكل لدى قدرة اللّه تعالى هين على سواه .

(211/492)

وعاصما رضى اللّه عنهم ، فقد خففوا . وفي حرف أبيّ : يتذكر مِنْ قَبْلُ من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه .

[سورة مريم (19) : الآيات 68 إلى 70]

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (70)

في إقسام اللّه تعالى باسمه تقدست أسماؤه مضافا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : تفخيم لشأن رسول اللّه ورفع منه ، كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ والواو في وَالشَّياطِينَ يجوز أن تكون للعطف ، وبمعنى مع ، وهي بمعنى «مع» أوقع . والمعنى : أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ، يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة . فإن قلت :

هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد الأناسى على العموم «1» فكيف

يستقيم حشرهم مع الشياطين ؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين .

فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء ؟ قلت : لم يفرّق بينهم وبينهم في المحشر ، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم اللّه منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطة وسرورا إلى سرور ، ويشمتوا بأعداء اللّه وأعدائهم ، فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء اللّه وشماتتهم بهم . فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثيا ؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص ، فالمعنى أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلا «2» على حالهم التي كانوا عليها في الموقف ، جثاة على ركبهم ، غير مشاة على أقدامهم ، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو . قال اللّه تعالى وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثى أهلها على الركب ، لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة . أو لما يدهمهم من شدّة الأمر التي

---

(1) . عاد كلامه . قال : «و الإنسان يحتمل أن يراد به العموم . . . الخ» قال أحمد : التبست عليه إرادة العموم بتناول العموم وبينهما بون ، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرز والصون ، فصرح بأن اللّه تعالى أراد بالإنسان العموم ، ومعنى إرادة العموم : أن يريد

اللّه تعالى نسبة كلمة الشك والكفر إلى كل فرد من أفراد الإنسان ، ومعاذ اللّه . وقد صرح الزمخشري بأن الناطق بكلمة الشك بعض الجنس ، ففي العبارة خلل كما ترى . والعبارة الصحيحة أن يقال : يحتمل أن يكون التعريف جنسيا ، فيكون عهديا ، فيكون اللفظ من أول وهلة خاصا ، واللّه أعلم .

(2) . قوله «عتلا» العتل : الجذب العنيف . أفاده الصحاح - (ع)

(212/492)

لا يطيقون معها القيام على أرجلهم ، فيحبون على ركبهم حبوا . وإن فسر بالعموم ، فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم ، على أن جثيا حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين ، لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب . والمراد بالشيعة - وهي «فعلة» كفرقة وفتية - الطائفة التي شاعت «1» ، أي تبعت غاويا من الغواة . قال اللّه تعالى إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً يريد : نمتاز من كل طائفة من طوائف الغيّ والفساد أعصاهم فأعصاهم ، وأعتاهم فأعتاهم . فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب . نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم .

أو أراد بالذين هم أولى به صليا : المنتزعين كما هم ، كأنه قال : ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء

، وهم أولى بالصلى من بين سائر الصالين ، ودركاتهم أسفل ، وعذابهم أشدّ . ويجوز أن يريد بأشدّهم عتيا : رؤساء الشيع وأئمتهم ، لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالا ومضلين .

قال اللّه تعالى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ ، وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ واختلف في إعراب أَيُّهُمْ أَشَدُّ فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية . تقديره : لننزعنّ الذين يقال فيهم أيهم أشد ، وسيبويه على أنه مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته ، حتى لو جيء به لأعرب . وقيل : أيهم هو أشد . ويجوز أن يكون النزع واقعا على مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ، كقوله سبحانه وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا أى لننزعن بعض كل شيعة ، فكأنّ قائلا قال : من هم ؟ فقيل : أيهم أشد عتيا .

وأيهم أشد : بالنصب عن طلحة ابن مصرف وعن معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء .

فإن قلت : بم يتعلق على والباء ، فإنّ تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه ؟ قلت : هما للبيان لا الصلة . أو يتعلقان بأفعل ، أى : عتوّهم أشد على الرحمن ، وصليهم أولى بالنار ، كقولهم : هو أشد على خصمه ، وهو أولى بكذا .

[سورة مريم (19) : الآيات 71 إلى 72]

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72)

وَإِنْ مِنْكُمْ التفات إلى الإنسان ، يعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضى اللّه عنهما :

وإن منهم . أو خطاب للناس «2» من غير التفات إلى المذكور ، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود دخولهم فيها وهي جامدة ، فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم . عن ابن عباس رضى اللّه

---

(1) . قوله «شاعت» في الصحاح : شاعه شياعا : تبعه . (ع)

(2) . قال محمود : «يحتمل أن يكون استئنافا خطابا للناس ، ويحتمل أن يكون التفاتا» قال أحمد : احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول ، فيكون المخاطبون أولا هم المخاطبين ثانيا ، إلا أن الخطاب الأول بلفظ الغيبة ، والثاني بلفظ الحضور . وأما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعا ، فالثاني ليس التفاتا ، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص لقوم معينين ، واللّه أعلم . [. . . . .]

(213/492)

عنه : يردونها كأنها إهالة . وروى دواية»

. وعن جابر بن عبد اللّه أنه سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك ؟ فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ، فيقال لهم : قد وردتموها وهي جامدة «2» . وعنه رضى اللّه عنه أنه سئل عن هذه الآية ؟ فقال :

سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول «الورود الدخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم ، حتى إنّ للنار ضجيجا من بردها» «3» وأما قوله تعالى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ فالمراد عن عذابها . وعن ابن مسعود والحسن وقتادة : هو الجواز على الصراط ، لأنّ الصراط ممدود عليها . وعن ابن عباس : قد يرد الشيء الشيء ولا يدخله ، كقوله تعالى وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ ووردت القافلة البلد ، وإن لم تدخله ولكن قربت منه . وعن مجاهد : ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا ، لقوله عليه السلام «الحمى من فيح جهنم» «4» وفي الحديث «الحمى حظ كل مؤمن من النار» «5» ويجوز أن يراد بالورود : جثوّهم حولها . وإن أريد الكفار خاصة ، فالمعنى بين .

الحتم : مصدر حتم الأمر إذا أوجبه ، فسمى به الموجب ، كقولهم : خلق اللّه ، وضرب الأمير ، أى : كان ورودهم واجبا على اللّه ، أوجبه على نفسه وقضى به ، وعزم على أن لا يكون غيره . قرئ نُنَجِّي وننجي ، وينجى وينجى ، على ما لم يسم فاعله . إن أريد الجنس بأسره فهو

---

(1) . قوله «كأنها إهالة وروى دواية» في الصحاح «الاهالة» الودك . وفيه أيضا «الدواية» الجليدة التي يوضع فيها اللبن والمرق . (ع)

(2) . روى عن جابر هكذا . قلت المحفوظ عن جابر ما سيأتى بعد . وروى ابن

إسحاق وأبو عبيد في الغريب وابن المبارك في الزهد من طريق ومعه خالد بن معدان . قال «إذا جاز المؤمنون الصراط نادى بعضهم بعضا : ألم يعدنا ربنا» فذكره ، ولم يذكره الواحدي والبغوي إلا من هذا الوجه .

(3) . رواه أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد . قالوا حدثنا سليمان بن حرب وأخرجه أبو يعلى والنسائي في الكنى والبيهقي في الشعب في باب النار ، والحكيم في النوادر . السادس عشر ، كلهم من طريق سليمان . قال حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبى سمية قال «اختلفنا في الورود ، فسألنا جابرا فذكر الحديث أتم منه» وخالفهم كلّهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الاسناد فقال : عن سمية الأزدية عن عبد الرحمن بن شيبة بدل أبى سمية – عن جابر .

(4) . متفق عليه من حديث عائشة رضى اللّه عنها .

(5) . أخرجه البزار عن عائشة بهذا . وقال : تفرد برفعه عثمان بن مخلد عن هشيم بن مغيرة عن إبراهيم عن الأسود عنها . وقال الدارقطني : عثمان لا بأس به ، لكن خولف في رفع هذا الحديث فرواه ببدل عن هشيم موقوفا . قلت : وقد روى مرفوعا من وجه آخر . أخرجه القضاعي من مسند الشهاب من طريق أحمد بن رشد الهلالي عن حميد بن عبد الرحمن الروالى عن الحسن بن صالح عن الحسن بن عمرو عن إبراهيم به . وزاد «وحمى ليلة تكفر خطايا سنة» في الباب عن أبى هريرة عن ابن ماجة والحاكم ، وعن أبى ريحانة

عند الطبراني ، وعن أبى أمامة عند أحمد . وعن عثمان عند القتيلى وعن سعد بن معاذ عند ابن سعد في الطبقات وعن أنس عند الطبراني بالأوسط . وكلها ضعيفة وهي بمعناه لا بلفظه .

(214/492)

ظاهر ، وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا أنّ المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار ، لا أنهم يواردونهم ثم يتخلصون . وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس والجحدري وابن أبى ليلى : ثم ننجي ، بفتح الثاء ، أى هناك . وقوله وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا دليل على أنّ المراد بالورود الجثوّ حواليها ، وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم ، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين .

[سورة مريم (19) : آية 73]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73)

بَيِّناتٍ مرتلات الألفاظ ، ملخصات المعاني ، مبينات المقاصد : إما محكمات أو متشابهات ، قد تبعها البيان بالمحكمات . أو بتبيين الرسول قولا أو فعلا . أو ظاهرات

الإعجاز تحدّى بها فلم يقدر على معارضتها . أو حججا وبراهين . والوجه أن تكون حالا مؤكدة كقوله تعالى وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لأن آيات اللّه لا تكون إلا واضحة وحججا لِلَّذِينَ آمَنُوا يحتمل أنهم يناطقون المؤمنون بذلك ويواجهونهم به ، وأنهم يفوهون به لأجلهم وفي معناهم ، كقوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ . قرأ ابن كثير مَقاماً بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل ، والباقون بالفتح وهو موضع القيام ، والمراد المكان والموضع .

والندىّ : المجلس ومجتمع القوم ، وحيث ينتدون « 1 » . والمعنى : أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم ، قالوا : أىّ الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظا من الدنيا حتى يجعل ذلك عيارا على الفضل والنقص ، والرفعة والضعة . ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على اللّه منهم .

[سورة مريم (19) : آية 74]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (74)

كَمْ مفعول أَهْلَكْنا ومِنْ تبيين لإبهامها ، أى : كثيرا من القرون أهلكنا .

وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم . وهُمْ أَحْسَنُ في محل النصب صفة لكم . ألا ترى أنك لو تركت هُمْ لم يكن لك بدّ من نصب أَحْسَنُ على الوصفية .

الأثاث : متاع البيت . وقيل : هو ماجد من الفرش . والخرثي : ما ليس منها . وأنشد الحسن بن على الطوسي :

---

(1) . قوله «حيث ينتدون» في الصحاح «ندوت» أى حضرت الندى . وانتديت : مثله . (ع)

تقادم العهد من أمّ الوليد بنا دهرا وصار أثاث البيت خرثيّا «1»

قرئ على خمسة أوجه رِءْياً وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول ، من رأيت . وريئا ، على القلب كقولهم راء في رأى . وريا ، على قلب الهمزة ياء والإدغام ، أو من الريّ الذي هو النعمة والترفه ، من قولهم : ريان من النعيم . وريا ، على حذف الهمزة رأسا ، ووجهه أن يخفف المقلوب وهو «رينا» بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها . وزيا ، واشتقاقه من الزيّ وهو الجمع : لأن الزيّ محاسن مجموعة ، والمعنى : أحسن من هؤلاء .

[سورة مريم (19) : آية 75]

قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (75)

أى مدّ له الرحمن ، يعنى : أمهله وأملى له في العمر ، فأخرج على لفظ الأمر إيذانا بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة ، كالمأمور به الممتثل ، لتقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أو كقوله تعالى إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً أو مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا في معنى الدعاء بأن يمهله اللّه وينفس في مدّة حياته . في هذه الآية وجهان . أحدهما : أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها ، والآيتان اعتراض بينهما ، أى قالوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ أى لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأى عين إِمَّا الْعَذابَ في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلا وأسرا وإظهار اللّه دينه على الدين كله على أيديهم . وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال ، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه ، وأنهم شر مكانا وأضعف جندا ، لا خير مقاما وأحسن نديا ، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم . والثاني : أن تتصل بما يليها . والمعنى : أن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم . والخذلان لا صق بهم لعلم اللّه بهم ، وبأن الألطاف لا تنفع فيهم وليسوا من أهلها . والمراد بالضلالة : ما دعاهم من جهلهم وغلوهم في كفرهم إلى القول الذي قالوه . ولا ينفكون عن ضلالهم إلى أن يعاينوا نصرة اللّه المؤمنين أو يشاهدوا الساعة ومقدّماتها . فإن قلت : حتى هذه ما هي ؟ قلت : هي التي تحكى بعدها الجمل . ألا ترى الجملة

(1) . أثاث البيت : أمتعته ولوازمه : والخرئى كالكرسى : العتيق من ذلك ، يقول : تقادم وتطاول بنا اللقاء من أم الوليد ، أى : تباعد زمنه . فدهرا : تمييز . ويجوز أنه ظرف ، أى : تباعد عهد اللقاء من محبوبتى زمنا طويلا وصار متاع البيت عتيقا قديما . وفيه تحسر على عدم اللقاء .

(216/492)

الشرطية واقعة بعدها وهي قوله إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً في مقابلة خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم .

والنديّ :

المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم . والجند : هم الأنصار والأعوان .

[سورة مريم (19) : آية 76]

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

وَيَزِيدُ معطوف على موضع فليمدد ، لأنه واقع موقع الخبر ، تقديره : من كان في الضلالة مدّ أو يمدّ له الرحمن . ويزيد : أى يزيد في ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه

وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ أعمال الآخرة كلها . وقيل : الصلوات . وقيل : سبحان اللّه والحمد لله ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ، أى هي خَيْرٌ ثَواباً من مفاخرات الكفار وَخَيْرٌ مَرَدًّا أى مرجعا وعاقبة ، أو منفعة ، من قولهم : ليس لهذا الأمر مردّ :

وهل يرد بكاى زندا «1»

فإن قلت : كيف قيل خير ثوابا كأنّ لمفاخراتهم ثوابا ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرا منه ؟ قلت :

كأنه قيل :

ثوابهم النار . على طريقة قوله : فأعتبوا بالصّيلم «2»

وقوله :

شجعاء جرّتها الذّميل تلوكه أصلا إذا راح المطي غراثا «3»

وقوله :

تحيّة بينهم ضرب وجيع «4»

ثم بنى عليه خير ثوابا . وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له : عقابك النار . فإن قلت : فما وجه التفضيل في الخير كأن لمفاخرهم شركا فيه ؟ قلت : هذا من وجيز كلامهم ، يقولون : الصيف أحرّ من الشتاء ، أى : أبلغ من الشتاء في برده .

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 525 فراجعه إن شئت اه

مصححه

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 105 فراجعه إن شئت اه مصححه

(3) . الشجع : سرعة نقل القوائم . والشجعاء : السريعة السير . والجرة - بالكسر - ، ما يجتره البعير من كرشه يمضغه . والذميل : نوع من السير . واللوك : المضغ . والأصل : جمع أصيل ، وهو من العصر للغروب . والرواح :

من الظهر إليه . والغراث : الجياع . يصف ناقته بسرعة السير ، وشبه السير عندها بجرتها ، يجامع سرعة الحركة وانطباع الناقة واستلذاذها لكل . وجعلها تبرزه شيئا فشيئا كالجرة للمبالغة . وفيه دلالة على خلو بطنها من العلف إذا راح ، أى : إذا كان غيرها لا يجد قوة على السير ، فالغرث : استعارة . ويجوز أن المعنى أنها سريعة في السير ولو كانت جائعة كغيرها من المطايا ، فالغرث حقيقته .

(4) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 60 فراجعه إن شئت اه مصححه

[سورة مريم (19) : الآيات 77 إلى 80]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ

عَهْداً (78) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (80)

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقا إلى الإحاطة بها علما وصحة الخبر عنها ، استعملوا «أ رأيت» في معنى «أخبر» والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو التعقيب ، كأنه قال : أخبر أيضا بقصة هذا الكافر ، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك أَطَّلَعَ الْغَيْبَ من قولهم :

أطلع الجبل : إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع «1» الثنية . قال جرير :

لاقيت مطّلع الجبال وعورا «2»

ويقولون : مرّ مطلعا لذلك الأمر ، أى عاليا له مالكا له ، ولاختيار هذه الكلمة شأن ، يقول : أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار . والمعنى : أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما توصل إلى ذلك ؟ قرأ حمزة والكسائي : ولدا ، وهو جمع ولد ، كأسد في أسد . أو بمعنى الولد كالعرب في العرب . وعن يحيى بن يعمر : ولدا ، بالكسر . وقيل في العهد :

كلمة الشهادة . وعن قتادة : هل له عمل صالح قدّمه فهو يرجو بذلك ما يقول ؟ وعن الكلبي : هل عهد اللّه إليه أنه يؤتيه ذلك ؟ عن الحسن رحمه اللّه : نزلت في الوليد بن المغيرة ،

والمشهور أنها في العاصي بن وائل . قال خباب بن الأرت : كان لي عليه دين فاقتضيته ، فقال : لا واللّه حتى تكفر بمحمد . قلت : لا واللّه لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث . قال : فإني إذا مت بعثت ؟ قلت : نعم . قال : إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك «3» . وقيل :

---

(1) . قوله «و طلع الثنية» في الصحاح «طلعت الجبل» بالكسر : علوته . (ع)

(2) إني إذا مضر عليّ تحدثت لاقيت مطلع الجبال وعورا

لجرير . ومضر : اسم قبيلة صرف للضرورة . ومطلع - بتشديد الطاء - : اسم مكان على صورة المفعول ، من اطلع المشدد ، وأصله : اطتلع ، بتاء الافتعال ، قلبت طاء وأدغمت فيها ما قبلها ، وهو نصب على الظرفية . والوعور :

جمع وعر ، أي : صعب مفعول لاقيت ، أو المفعول هو مطلع . ووعورا : حال ، لا سيما على رواية فتح واوه على أنه صيغة مبالغة ، يقول : إذا تقولت على مضر ما لا أرتضيه ، أو تكلمت في قتلى ، وجدت في مطالع الجبال أشياء صعابا فأعجز عن الهرب . أو المعنى : أنه يقتحم الصعاب ولا يبالي بها ويهرب منهم . وعلى الحالية : لاقيت مطلع الجبال حال كونه أماكن صعبة ، والمطلع متعدد لإضافته لمتعدد ، وعلى فتح الواو فظاهر .

(3) . متفق عليه من طريق مسروق عن خباب أتم منه . [. . . . .]

صاغ له خباب حليا فاقتضاه الأجر ، فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون ، وأن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا ، فأنا أقضيك ثم ، فإنى أوتى مالا وولدا حينئذ كَلَّا ردع وتنبيه على الخطأ أى : هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه . فإن قلت : كيف قيل سَنَكْتُبُ بسين التسويف ، وهو كما قاله كتب من غير تأخير ، قال اللّه تعالى ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله ، على طريقة قوله :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة «1»

أى تبين وعلم بالانتساب أنى لست بابن لئيمة . والثاني : أن المتوعد يقول للجاني : سوف أنتقم منك ، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر ، فجرد ها هنا لمعنى الوعيد وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا أى نطوّل له من العذاب ما يستأهله ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزءون . أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد . يقال : مده وأمده بمعنى ، وتدل عليه قراءة علىّ بن أبى طالب : ونمد له بالضم . وأكد ذلك بالمصدر ، وذلك من فرط غضب اللّه ، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ أى

نزوى عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة ونعطيه من يستحقه . والمعنى مسمى ما يقول .

ومعنى ما يَقُولُ وهو المال والولد . يقول الرجل : أنا أملك كذا ، فتقول له : ولى فوق ما تقول ، ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه اللّه في الدنيا مالا وولدا ، وبلغت به أشعبيته «2» أن تألى على ذلك في قوله لَأُوتَيَنَّ لأنه جواب قسم مضمر ، ومن يتأل على اللّه يكذبه ، فيقول اللّه عز وجل هب أنا أعطيناه ما اشتهاه ، إما نرثه منه في العاقبة ويأتينا فردا غدا بلا مال ولا ولد ، كقوله عز وجل وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى . . . الآية فما يجدى عليه تمنيه وتأليه .

ويحتمل أن هذا القول

---

(1) رمتني عن قوس العدو وباعدت عبيدة زاد اللّه ما بيننا بعدا

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدى من أن تقرى بها بدا

لزائد بن صعصعة النقعسى ، كانت له امرأة اسمها عبيدة فطمحت عليه وكانت أمها سرية ، فعرض لها بذلك ، يقول :

رمتني بأمر قبيح كأنه نبلة صادرة عن قوس العدو ، أو أبعدتنى عنها بعد النبلة عن القوس : أى تسببت في ذلك وبالغت في بعد الرمي ، و«زاد اللّه» جملة دعائية ، ثم قال : إذا أظهرنا نسبنا يتبين أنى لم تلدني لئيمة بخلافك ، ولم تجدى مفرا ولا غنى من إقرارك بتلك القضية .

ويجوز أن المعنى : أنه لا بد من إقرارك بأمك اللئيمة ، وعلم مرجع الضمير من ذكر المقابلة وهو أمه ، وهذا أدق في التبكيت . ويروى : به ، أى : بذلك النسب . وفي الالتفات من

الغيبة إلى الخطاب نوع من التشنيع والتوبيخ ، كأنه عجب الناس أولا من حالها ، ثم التفت يبكتها بلؤم أمها وأنها رقيقة .

(2) . قوله «أشعبيته» في الصحاح «أشعب» اسم رجل كان طماعا . وفي المثل : أطمع من أشعب اه . ومنه :

أخذت الأشعبية ، بمعنى : خصلة أشعب ، وهي الطمع . (ع)

(219/492)

إنما يقوله ما دام حيا ، فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ، ويأتينا رافضا له منفردا عنه غير قائل له ، أو لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه ، بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به ويَأْتِينا على فقره ومسكنته فَرْداً من المال والولد ، لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه ، فيجتمع عليه الخطبان : تبعة قوله ووباله ، وفقد المطموع فيه . فردا على الوجه الأول : حال مقدرة نحو فَادْخُلُوها خالِدِينَ لأنه وغيره سواء في إتيانه فردا حين يأتى ، ثم يتفاوتون بعد ذلك .

[سورة مريم (19) : الآيات 81 إلى 82]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ

ضِدًّا (82)

أى ليتعززوا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند اللّه شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب كَلَّا ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة. وقرأ ابن نهيك كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ أى سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم، كقولك: زيدا مررت بغلامه. وفي محتسب ابن جنى: كلا بفتح الكاف والتنوين، وزعم أن معناه كل هذا الرأى والاعتقاد كلا. ولقائل أن يقول: إن صحت هذه الرواية فهي كلا التي هي للردع، قلب الواقف عليها ألفها نونا كما في قواريرا. والضمير في سَيَكْفُرُونَ للآلهة، أى: سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون: واللّه ما عبدتمونا وأنتم كاذبون. قال اللّه تعالى وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ أو للمشركين: أى ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها. قال اللّه تعالى: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا في مقابلة لَهُمْ عِزًّا والمراد ضدّ العز وهو الذل والهوان، أى:

يكونون عليهم ضدا لما قصدوه وأرادوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلا، لا لهم عزا أو يكونون عليهم عونا، والضدّ: العون. يقال من أضدادكم: أى أعوانكم وكأن العون سمى ضدا لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه. فإن قلت: لم وحد؟ قلت: وحد توحيده قوله عليه السلام: «وهم يد على من سواهم «1»» لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء

واحد لفرط تضامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عونا عليهم : أنهم وقود النار وحصب جهنم ، ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها

---

(1) . هذا طرف من حديث لعلى رضى اللّه عنه ، أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وإسحاق والحاكم من طريق قيس بن عباد عن على رضى اللّه عنه «أنه أخرج من قراب سيفه كتابا عهد إليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا فيه - وذكره . وفيه هذا» وروى ابن ماجة من حديث ابن عباس رفعه قال «المسلمون تتكافأ دماؤهم . وهم يد على من سواهم - الحديث» وفي الباب عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، أخرجه أبو داود وابن ماجة وأحمد والبزار والطبراني من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده نحوه ، وعن عبد اللّه بن عمر ، أخرجه ابن حبان . وعن معقل ابن يسار أخرجه ابن ماجة .

(220/492)

وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين ، فإن المعنى : ويكونون عليهم - أى أعداءهم - ضدا ، أى : كفرة بهم ، بعد أن كانوا يعبدونها .

[سورة مريم (19) : آية 83]

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83)

الأز ، والهزّ ، والاستفزاز : أخوات ، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ، أى : تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات . والمعنى : خلينا بينهم وبينهم «1» ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرا . والمراد تعجيب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم ، وملاحتهم ، ومعاندتهم للرسل ، واستهزاؤهم بالدين :

من تماديهم في الغىّ وإفراطهم في العناد ، وتصميمهم على الكفر ، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه ، وإنهماكهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم

،

[سورة مريم (19) : آية 84]

فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84)

عجلت عليه بكذا : إذا استعجلته منه ، أى : لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا ، حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم ، وتطهر الأرض بقطع دابرهم ، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد فيها لو عدت . ونحوه قوله تعالى وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك . وعن ابن السماك

أنه كان عند المأمون فقرأها ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد .

[سورة مريم (19) : آية 85]

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85)

نصب يَوْمَ بمضمر ، أى يوم نَحْشُرُ ونسوق : نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف . أو اذكر يوم نحشر . ويجوز أن ينتصب بلا يملكون . ذكر المتقون بلفظ التبجيل ، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته ، كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم . وعن علىّ رضى اللّه عنه : ما يحشرون واللّه على أرجلهم ، ولكنهم على نوق رحالها ذهب ، وعلى نجائب سروجها ياقوت «2» .

---

(1) . قوله «و المعنى خلينا بينهم وبينهم» هذا هو الموافق لمذهب المعتزلة ، من أنه تعالى لا يفعل الشر . أما على مذهب أهل السنة من أنه تعالى يفعل الشر كالخير ، فالمناسب : سلطناهم عليهم . (ع)

(2) . أخرجه ابن أبى شيبة وعبد اللّه بن أحمد في زيادات المسند ، والطبري وابن أبى حاتم من رواية عبد الرحمن ابن إسحاق بن النعمان بن سعد بن على نحوه ، وأخرجه ابن أبى داود في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعا . ورواه ابن عدى من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما مرفوعا أيضا .

[سورة مريم (19) : آية 86]

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (86)

وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورود : العطاش لأنّ من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد : المسير إلى الماء ، قال :

ردى ردى ورد قطاة صمّا كدريّة أعجبها برد الما «1»

فسمى به الواردون . وقرأ الحسن : يحشر المتقون ، ويساق المجرمون .

[سورة مريم (19) : آية 87]

لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87)

الواو في لا يَمْلِكُونَ إن جعل ضميرا «2» فهو للعباد ، ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة . ويجوز أن تكون علامة للجمع ، كالتي في «أكلونى البراغيث» والفاعل مَنِ اتَّخَذَ لأنه في معنى الجمع ، ومحل مَنِ اتَّخَذَ رفع على البدل ، أو على الفاعلية . ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف ، أى : إلا شفاعة من اتخذ . والمراد : لا يملكون أن

يشفع لهم ، واتخاذ العهد : الاستظهار بالإيمان والعمل . وعن ابن مسعود أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم : «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند اللّه عهدا» قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : «يقول كل صباح ومساء : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا

---

(1) . يخاطب ناقته . وردى : أمر من الورود ، وتكريره للتوكيد . والورد : اسم مصدر منه أيضا ، أو اسم للماء المورود ، أى : ردى الماء كورود قطاء صماء لا تسمع صوت القانص فلا تنفر عن الماء : والكدر – بالضم – نوع من القطار مادى اللون ، والكدرية : نسبة إليه ، من نسبة الجزئى إلى كليه ، وهذه الياء هي الفارقة بين اسم الجنس وواحده ، كروم ورومي . وفيه تشبيه ناقته ضمنا بالقطاة في الخفة والسرعة . وصما والما : بالقصر ، فان رويا بالمد والسكون على أن الشعر من مشطور المنسرح الموقوف ، فمحله حرف الألف .

(2) . قال محمود : «يحتمل أن تكون الواو في لا يملكون ضميرا . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا الوجه تعسف من حيث أنه إذا جعله علامة لمن فقد كشف معناها وأفصح بأنها متناولة جمعا ، ثم أعاد على لفظها بالافراد ضمير اتخذ ، ففيه الاعادة على لفظها بعد الاعادة على معناها بما يخالف ذلك ، وهو مستنكر عندهم لأنه إجمال بعد إيضاح ، وذلك

تعكيس في طريق البلاغة ، وإنما محجتها الواضحة الإيضاح بعد الإجمال . والواو على إعرابه ، وإن لم تكن عائدة على من إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له ، فتنبه لهذا العقد ، فانه أروج من النقد :

وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

(222/492)

عبدك ورسولك ، وأنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبنى من الشر وتباعدني من الخير ، وأنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند الرحمن عهد ، فيدخلون الجنة ، «1» وقيل : كلمة الشهادة . أو يكون من «عهد الأمير إلى فلان بكذا» إذا أمره به ، أى لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها .

وتعضده مواضع في التنزيل وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى ، وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا .

[سورة مريم (19) : الآيات 88 إلى 91]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91)

قرئ إِدًّا بالكسر والفتح. قال ابن خالويه: الإدّ والأدّ: العجب. وقيل: العظيم المنكر. والإدّة: الشدّة. وأدنى الأمر وآدنى: أثقلنى وعظم علىّ إدّا تَكادُ قراءة الكسائي ونافع بالياء. وقرئ «ينفطرن» «2» الانفطار من فطره إذا شقه. والتفطر، من فطره إذا شققه وكرر الفعل فيه. وقرأ ابن مسعود: ينصدعن، أى تهد هدّا، أو مهدودة، أو مفعول له، أى: لأنها تهدّ. فإن قلت: ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن اللّه سبحانه يقول:

كدت أفعل هذا بالسماوات والأرض «3» والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من

---

(1). أخرجه الثعلبي قال: روى أبو وائل عن عبد اللّه بن مسعود - فذكره بتمامه، وروى ابن مردويه في تفسير الأحزاب من طريق عوف بن عبد اللّه عن رجل من بنى سليم عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه، قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «العهد أن تقول: اللهم فاطر السموات والأرض - الحديث أصغر مما ذكر» ورواه الحاكم من وجه آخر عن عون عن ابن ماجة عن الأسود عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ

الرَّحْمنِ عَهْداً قال اللّه تعالى يقول يوم القيامة : من كان له عندي عهد فليقم ، قال فقلنا :

فعلمنا يا أبا عبد الرحمن قال : فاقرؤا :

اللهم فاطر السموات والأرض – فذكره مختصرا ، وفي الباب عن أبي بكر رضى اللّه عنه ،

أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والسبعين بعد المائة .

(2) . قوله «و قرئ ينفطرن» يفيد أن القراءة المشهورة «يتفطرن» بالتاء . (ع)

(3) . قال محمود : «معناه : كدت أهدّ السموات وأفطر الأرض . . . الخ» قال أحمد :

ويظهر لي وراءها معنى آخر واللّه أعلم ، وذلك أن اللّه تعالى قد استعار لدلالتها على

وجوده عز وجل موصوفا بصفات الكمال الواجبة له ، أن جعلها تسبح بحمده . قال تعالى

تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ومما دلت عليه

السموات والأرض والجبال بل وكل ذرة من ذراتها : أن اللّه تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه

:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فالمعتقد نسبة الولد إلى اللّه تعالى قد عطل دلالة هذه الموجودات على تنزيه اللّه وتقديسه ،

فاستعير لابطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها ، إبطال صورها بالهد

والانفطار والانشقاق «فسبحان من قسم عباده ، فجعل العباد ، تستلذ فتسبح بتسبيح

داود ، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التوفيق مطرود مردود .

تفوّه بها ، لولا حلى ووقارى ، وأنى لا أعجل بالعقوبة كما قال إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً . والثاني : أن يكون استعظاما للكلمة ، وتهويلا من فظاعتها ، وتصويرا لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده ، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات : أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخرّ . وفي قوله لَقَدْ جِئْتُمْ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة ، وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على اللّه ، والتعرّض لسخطه ، وتنبيه على عظم ما قالوا . في أَنْ دَعَوْا ثلاثة أوجه : أن يكون مجرورا بدلا من الهاء في منه ، كقوله :

على حالة لو أنّ في القوم حاتما على جوده لضنّ بالماء حاتم «1»

ومنصوبا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل ، أى : هذا لأن دعوا ، علل الخرور بالهدّ ، والهدّ بدعاء الولد للرحمن . ومرفوعا بأنه فاعل هذا ، أى هدها دعاء الولد للرحمن . وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده ، لا يستحق هذا الاسم غيره ، من قبل أنّ أصول النعم وفروعها منه : خلق العالمين ، وخلق لهم جميع ما معهم ، كما

قال بعضهم : فلينكشف عن بصرك غطاؤه ، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه . فمن أضاف إليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن . هو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين ، فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني ، طلبا للعموم والإحاطة بكل ما دعى له ولدا . أو من دعا بمعنى نسب ، الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام «من ادعى إلى غير مواليه «2»» وقول الشاعر :

إنّا بنى نهشل لا ندّعى لأب «3»

أى لا ننتسب إليه .

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 438 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . لم أره بلفظ «من ادعي» وإنما هو عند مسلم بلفظ «انتمى» أخرجه من حديث على بن أبى طالب رفعه «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه – الحديث»

(3) إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

يكفيه إن نحن متنا أن يسر بنا وهو إذا ذكر الآباء يكفينا

لبشامة بن حزن النهشلي ، ويقال : ادعى فلان في بنى هاشم ولهم وإليهم ، أى : انتسب إليهم وادعى عنهم إذا انتسب لغيرهم . وعدل عنهم يقول : إنا لا ننتسب لأب غير نهشل ، وبنى نهشل : نصب على الاختصاص يفيد المدح ولا هو يشرينا ، أى يبيعنا ويستبدلنا

بأبناء غيرنا ، ثم قال : يكفيه منا سروره بنا إن متنا ولحقناه ، حيث أوجبنا له ولنا الثناء الجميل من شجاعتنا وحسن خصالنا . و«إن» بمعنى «إذا» لأن الموت لا شك فيه .

ويروى «أن يسب» بباء ، ولعل معناه : لا مسبة له غير موتنا في القتال ، يعنى : إن كان ذلك مسبة وليس كذلك ، ويمكن أن تعبيره بالكفاية ليفيد أنه مستغن عن المدح من جهة أبنائه عند التفاخر . وعند عد مآثر الآباء لا نحتاج لغيره ، فننتسب له لنشرف بشرفه .

(224/492)

[سورة مريم (19) : آية 92]

وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92)

انبغى : مطاوع «بغى» إذا طلب ، أى : ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلا ، لأنه محال غير داخل تحت الصحة . أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها . وأما التبني فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبنى ، وليس للقديم سبحانه جنس ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

[سورة مريم (19) : الآيات 93 إلى 95]

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

(94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95)

مَنْ موصوفة لأنها وقعت بعد كل نكرة ، وقوعها بعد رب في قوله :

ربّ من أنضجت غيظا صدره «1»

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة آتِي الرَّحْمنِ على أصله قبل الإضافة . الإحصاء الحصر والضبط يعنى : حصرهم بعلمه وأحاط بهم وَعَدَّهُمْ عَدًّا الذين اعتقدوا في الملائكة وعيسى وعزير

---

(1) رب من أنضجت غيظا قلبه قد تمنى لي موتا لم يطع

ويرانى كالشجا في حلقه عسرا مخرجه ما ينتزع

لم يضرني غير أن يحسدني فهو يزقو مثل ما يزقو الضوع

ويحيينى إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمى رتع

لسويد بن أبى كاهل اليشكري ، ويتعين أن «من» نكرة موصوفة ، لأن رب لا تجر إلا النكرة ، ونضج اللحم والعنب ونحوهما نضجا فهو نضيج وناضج : أدرك وبلغ أوانه واستوى ، أى : رب شخص طبخت قلبه من حر غيظه منى ولم يطع ، أى لا يستطاع تحمل سببه . والشجا : ما نشب في الحلق من عظم ونحوه . وعسرا الخ : حال منه . ومخرجه أى خروجه مرفوع بالوصف ، لم يضرني شيئا من الضرر غير الحسد ، من ضاره يضيره ضيرا إذا ضره ، فهو يزقو أى يصيح مثل صياح الضوع : وهو ذكر اليوم ، وكثر تشبيه العرض

المطعون فيه باللحم المأكول على طريق التصريحية ، ثم شبهه الشاعر بالمرعى المخصب ترتع فيه البهائم . أو شبه المغتاب بهيمة في المرعي على طريق المكنية والرتع تخييل . ويحتمل استعارته للأكل الملائم للحم ، ثم للطعن الملائم للعرض على طريق التصريح ، أى : إذا يخلو له عرضي اغتاب كما يريد . [. . . . .]

(225/492)

أنهم أولاد اللّه ، كانوا بين كفرين ، أحدهما : القول بأن الرحمن يصح أن يكون والدا . والثاني :

إشراك الذين زعموهم للّه أولادا في عبادته ، كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم ، فهدم اللّه الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ، ثم عقبه بهدم الكفر الآخر . والمعنى : ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتى الرحمن ، أى : يأوى إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا خاشيا راجيا ، كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم ، لا يدعى لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال . ونحوه قوله تعالى أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ وكلهم متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم وبجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم

وكميتهم ، لا يفوته شيء من أحوالهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم .

[سورة مريم (19) : آية 96]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96)

قرأ جناح بن حبيش وُدًّا بالكسر : والمعنى : سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصا منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاما لهم وإجلالا لمكانهم . والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم اللّه تعالى ذلك إذا دجا الإسلام . وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم . وروى أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لعلى رضى اللّه عنه : «يا علىّ قل اللهم اجعل لي عندك عهدا ، واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة «1»» فأنزل اللّه هذه الآية . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يعنى يحبهم اللّه ويحببهم إلى خلقه . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «يقول اللّه عز وجل يا جبريل قد أحببت فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في أهل السماء : إنّ اللّه قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يضع له المحبة في أهل الأرض»

» وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى اللّه إلا أقبل اللّه بقلوب العباد إليه .

---

(1) . أخرجه الثعلبي والطبراني في مسند حمزة الزيات ، وابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضى اللّه عنهما وفيه إسحاق بن بشر عن خالد بن زيد ، وهما متروكان .

(2) . متفق عليه من حديث أبى هريرة بمعناه .

(226/492)

[سورة مريم (19) : الآيات 97 إلى 98]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98)

هذه خاتمة السورة ومقطعها ، فكأنه قال : بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه بِلِسانِكَ أى بلغتك وهو اللسان العربي المبين ، وسهلناه وفصلناه لِتُبَشِّرَ بِهِ وتنذر .

واللدّ : الشداد الخصومة بالباطل ، الآخذون في كل لديد ، أى في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم ، يريد أهل مكة .

وقوله وَكَمْ أَهْلَكْنا تخويف لهم وإنذار . وقرئ تُحِسُّ من حسه إذا شعر به . ومنه الحواس والمحسوسات . وقرأ حنظلة تَسْمَعُ مضارع أسمعت . والركز : الصوت الخفي .

ومنه : ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض . والركاز : المال المدفون .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ، ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهرون وإسماعيل وإدريس ، وعشر حسنات بعدد من دعا اللّه في الدنيا وبعدد من لم يدع اللّه» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 26 . 48 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبيّ .

(227/492)

وقال النسفى :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾

فجاء من بعد هؤلاء المفضلين ﴿ خَلْفٌ ﴾ أولاد سوء وبفتح اللام العقب الخير .

عن ابن عباس : هم اليهود ﴿ أَضاعُوا الصلاة ﴾ تركوا الصلاة المفروضة ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ ملاذ النفوس .

وعن عليّ رضي الله عنه : من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور .

وعن قتادة رضي الله عنه : هو في هذه الأمة ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ جزاء غي وكل شر

عند العرب غي وكل خير رشاد .

وعن ابن عباس وابن مسعود : هو وادٍ في جهنم أعدّ للمصرين على الزنا وشارب الخمر وآكل الربا والعاق وشاهد الزور .

(228/492)

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ رجع عن كفره ﴿ وَآمَنَ ﴾ بشرطه ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ بعد إيمانه ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ بضم الياء وفتح الخاء : مكي وبصري وأبو بكر ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم أو لا يظلمون شيئاً من الظلم ﴿ جنات ﴾ بدل من ﴿ الجنة ﴾ لأن الجنة تشتمل على جنات عدن لأنها جنس أو نصب على المدح ﴿ عَدْنٍ ﴾ معرفة لأنها علم لمعنى العدن وهو الإقامة أو علم لأرض الجنة لكونها مقام إقامة ﴿ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ ﴾ أي عباده التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما سبق ذكرهم ولأنه أضافهم إليه وهو للاختصاص وهؤلاء أهل الاختصاص ﴿ بالغيب ﴾ أي وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها ﴿ إِنَّهُ ﴾ ضمير الشأن أو ضمير الرحمن ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ أي موعوده وهو الجنة ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ أي هم يأتونها ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ في

الجنة ﴿ لَغْواً ﴾ فحشاً أو كذباً أو ما لا طائل تحته من الكلام وهو المطروح منه ، وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره التي لا تكليف فيها ﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ أي لكن يسمعون سلاماً من الملائكة أو من بعضهم على بعض ، أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة فهو استثناء منقطع عند الجمهور .

وقيل : معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة ، كان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ أي يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ، ثم لأنهم في النور أبداً وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بإرخائها .

والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك .

(229/492)

وقيل أراد دوام الرزق كما تقول "أنا عند فلان بكرة وعشياً" تريد الدوام .

﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي نجعلها ميراث أعمالهم يعني ثمرتها وعاقبتها .

وقيل : يرثون المساكن التي كانت لأهل النار آمنوا لأن الكفر موت حكماً ﴿ مَن كَانَ تَقِيّاً

﴿ عن الشرك .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام قال : " يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا " فنزل ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ والتنزل على معنيين معنى النزول على مهل ومعنى النزول على الإطلاق والأول أليق هنا يعني أن نزولنا في الأحايين وقتاً غب وقت ليس إلا بأمر الله ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي له ما قدامنا وما خلفنا من الأماكن وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الملك ومشيئته ، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الأحوال لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بدل من ﴿ ربك ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السماوات والأرض .

ثم قال : لرسوله لما عرفت أنه متصف بهذه الصفات ﴿ فاعبده ﴾ فاثبت على عبادته ﴿ واصطبِر لِعِبَادَتِهِ ﴾ أي اصبر على مكافأة الحسود ، لعبادة المعبود ، واصبر على المشاق ، لأجل عبادة الخلاق ، أي لتتمكن من الإتيان بها ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ شبيها ومثلاً ، أو هل يسمى أحد باسم الله غيره لأنه مخصوص بالمعبود بالحق أي إذا صح أن لا معبود توجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على

مشاقها .

فتهافت أبيَّ بن خلف عظماً وقال : أنبعث بعدما صرنا كذا ؟ فنزل

(230/492)

﴿ وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ والعامل في ﴿ إذا ﴾ ما دل عليه الكلام وهو أبعث أي إذا ما مت أبعث وانتصابه ب ﴿ أخرج ﴾ ممتنع لأن ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها فلا تقول "اليوم لزيد قائم" ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال وتؤكد مضمون الجملة ، فلما جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحل معنى الحال .

و"ما" في "إذا ما" للتوكيد أيضاً فكأنه قال : "أحقًّا إنا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك" على وجه الاستنكار والاستبعاد .

وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ، ومنه جاء إنكارهم ﴿ أَوْلاَ يَذْكُرُ الإنسان ﴾ خفيف شامي ونافع وعاصم من الذكر ، والسائر بتشديد الذال والكاف وأصله يتذكر كقراءة أبيّ فأدغمت التاء في الذال أي أو لا يتدبر ، والواو عطفت ﴿ لا يذكر ﴾ على ﴿ يقول ﴾ ووسطت همزة الإنكار بين

المعطوف عليه وحرف العطف يعني أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر النشأة الأخرى فإن تلك أدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود .

وأما الثانية فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة وردها إلى ما كَانتَ عليه مجموعة بعد التفريق ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ هو ذليل على ما بينا وعلى أن المعدوم ليس بشيء خلافاً للمعتزلة ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أي الكفار المنكرين للبعث ﴿ والشياطين ﴾ الواو للعطف وبمعنى "مع" أوقع أي يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة .

(231/492)

وفي أقسام الله باسمه ومضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ حال جمع جاث أي بارك على الركب ووزنه "فعول" لأن أصله "جثوو" كسجود وساجد أي يعتلون من المحشر إلى شاطىء جهنم عتلا على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم .

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ طائفة شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ جرأة أو فجوراً أي لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغي أعتاهم فأعتاهم ، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب ، نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم .

وقيل : المراد بأشدهم عتياً الرؤساء لتضاعف جرمهم لكونهم ضلالاً ومضلين .

قال سيبويه : ﴿ أيهم ﴾ مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته وهو "هو" من "هو أشد" حتى لو جيء به لأعرب بالنصب ، وقيل : أيهم هو أشد وهذا لأن الصلة توضح الموصول وتبينه كما أن المضاف إليه يوضح المضاف ويخصصه ، فكما أن خذف المضاف إليه في "من قبلُ" يوجب بناء المضاف وجب أن يكون حذف الصلة أو شيء منها موجباً للبناء وموضعها نصب ب "نزع" ، وقال الخليل : هي معربة وهو مبتدأ وأشد خبره وهو رفع على الحكاية تقديره : لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن عتياً .

(232/492)

ويجوز أن يكون النزع واقعاً على ﴿ من كل شيعة ﴾ كقوله ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ أي لننزعن بعض كل شيعة فكأن قائلاً قال : من هم ؟ فقيل : أيهم أشد عتياً ، و"على"

يتعلق بأفعل أي عتوهم أشد على الرحمن ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا ﴾ أحق بالنار ﴿ صِلِيّاً ﴾ تمييز أو دخولاً والباء تتعلق ب ﴿ أولى ﴾ ﴿ وَإِن مّنكُمْ ﴾ أحد ﴿ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ داخلها والمراد النار والورود : الدخول عند علي وابن عباس رضي الله عنهم وعليه جمهور أهل السنة لقوله تعالى : ﴿ فأوردهم النار ﴾ [هود : 98] ولقوله تعالى ﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ [الأنبياء : 99] ولقوله ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ إذ النجاة إنما تكون بعد الدخول لقوله عليه السلام : " الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم وتقول النار للمؤمن : جز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي " وقيل : الورود بمعنى الدخول لكنه يختص بالكفار لقراءة ابن عباس ﴿ وإن منهم ﴾ وتحمل القراءة المشهورة على الإلتفات .

وعن عبد الله : الورود الحضور لقوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : 23] وقوله ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء : 101] وأجيب عنه بأن المراد عن عذابها .

وعن الحسن وقتادة : الورود المرور على الصراط لأن الصراط ممدود عليها فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار .

وعن مجاهد : ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا لقوله عليه السلام : " الحمى حظ كل مؤمن من النار " وقال رجل من الصحابة لآخر : أيقنت بالورود ؟ قال :

نعم.

قال: وأيقنت بالصدر؟ قال: لا.

قال: ففيم الضحك وفيم التثاقل؟ ﴿ كَانَ على ربِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ أي كان ورودهم واجباً كائناً محتوماً والحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى به الموجب كقولهم "ضرب الأمير".

(233/492)

﴿ ثُمَّ نُنَجّى ﴾ وعلي بالتخفيف ﴿ الذين اتقوا ﴾ عن الشرك وهم المؤمنون ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ فيه دليل على دخول الكل لأنه قال: ﴿ ونذر ﴾ ولم يقل وندخل، والمذهب أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لا محاله.

وقالت: المرجئة الخبيثة: لا يعاقب لأن المعصية لا تضر مع الإسلام عندهم.

وقالت المعتزلة: يخلد.

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي القرآن ﴿ بينات ﴾ ظاهرات الإعجاز أو حججاً وبراهين حال مؤكدة كقوله: ﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ [البقرة: 91] إذ آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججاً ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي مشركو قريش وقد رجلوا

شعورهم وتكلفوا في زيهم ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ للفقراء ورؤوسهم شعثة وثيابهم خشنة ﴿ أَيُّ الفريقين ﴾ نحن أم أنتم ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والمسكن.

وبالضم مكي وهو موضع الإقامة والمنزل ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ مجلسا يجتمع القوم فيه للمشاورة.

ومعنى الآية أن الله تعالى يقول: إذا أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبر فيها إلى الافتخار بالثروة والمال وحسن المنزل والحال فقال تعالى:

(234/492)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ ﴾ ف ﴿ كم ﴾ مفعول ﴿ أهلكنا ﴾ و ﴿ من ﴾ تبيين لإبهامها أي كثيراً من القرون أهلكنا وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم ﴿ هُمْ أَحْسَنُ ﴾ في محل النصب صفة ل ﴿ كم ﴾ ألا ترى أنك لو تركت ﴿ هم ﴾ كان أحسن نصباً على الوصفية ﴿ أَثَاثاً ﴾ هو متاع البيت أو ماجد من الفرش ﴿ وَرِئياً ﴾ منظراً وهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت و ﴿ رياً ﴾ بغير همز مشدداً: نافع وابن عامر على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم الإدغام، أو من الري الذي هو النعمة ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى

الضلالة ﴿ الكفر ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ جواب ﴿ من ﴾ لأنها شرطية وهذا الأمر بمعنى الخبر أي من كفر مد له الرحمن يعني أمهله وأملى له في العمر ليزداد طغياناً وضلالاً كقوله تعالى ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ [آل عمران : 178] وإنما أخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال .

﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ هي متصلة بقوله ﴿ خير مقاماً وأحسن نديا ﴾ وما بينهما اعتراض أي لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿ إِمَّا العذاب ﴾ في الدنيا وهو تعذيب المسلمين إياهم بالقتل والأسر ﴿ وَإِمَّا الساعة ﴾ أي القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال فهما بدلان مما يوعدون ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ منزلاً ﴿ وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ أعواناً وأنصاراً أي فحينئذٍ يعلمون أن الأمر على عكس ما قدروه وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً لا خير مقاماً وأحسن نديا ، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم .

وجاز أن تتصل بما يليها ، والمعنى إن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم لا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة .

وحتى هي التي يحكي بعدها الجمل ألا ترى أن الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله ﴿ إذا رأوا ما يوعدون .

فسيعلمون ﴾ ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾ معطوف على موضع ﴿ فليمدد ﴾ لوقوعه موضع الخبر تقديره : من كان في الضلالة مد أو يمد له الرحمن ويزيد أي يزيد في ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدين أي المؤمنين هدى ثباتاً على الاهتداء أو يقينا وبصيرة بتوفيقه ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أعمال الآخرة كلها أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ مما يفتحر به الكافر ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة تهكم بالكفار لأنهم قالوا للمؤمنين ﴿ أي الفرقين خير مقاماً وأحسن نديا ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتنا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ ثم .

وبضم الواو وسكون اللام في أربعة مواضع ههنا وفي الزخرف ونوح حمزة وعلي جمع ولد كأسد في أسد ، أو بمعنى الولد كالعرب في العرب .

ولما كانت رؤية الأشياء طريقاً إلى العلم بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت في معنى أخبر والفاء أفادت التعقيب كأنه قال : أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك .

وقوله ﴿ لأوتين ﴾ جواب قسم مضمر ﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ من قولهم "اطلع الجبل" إذا ارتقى إلى أعلاه ، الهمزه للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة أي انظر في اللوح المحفوظ فرأى منيته ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ مؤثقاً أن يؤتيه ذلك أو العهد كلمة الشهادة .

(236/492)

وعن الحسن : نزلت في الوليد بن المغيرة ، والمشهور أنها في العاص بن وائل ، فقد رُوي أن خباب بن الأرت صاغ للعاص بن وائل حلياً فاقتضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهباً وفضة فأنا أقضيك ثُم فإني أوتي مالاً وولداً حينئذ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه على الخطأ أي هو مخطىء فيما تصوره لنفسه فليرتدع عنه ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي قوله والمراد سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله لأنه كما قال : كتب من غير تأخير قال الله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] وهو كقوله

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . .

أي علم وتبين بالانتساب أني لست بابن لئيمة ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب ﴾ نزيده من العذاب كما يزيد في الافتراء والاجتراء من المدد ، يقال مده وأمده ﴿ مَدّاً ﴾ أكد بالمصدر لفرط غضبه تعالى .

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة والمعنى مسمى ما يقول وهو المال والولد ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ حال أي بلا مال ولا ولد كقوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ [الأنعام : 94] فما يجدي عليه تمينه وتألبه .

﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءالِهَةً ﴾ أي اتخذ هؤلاء المشركون أصناماً يعبدونها ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ أي ليعتزوا بآلهتهم ويكونوا لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عما ظنوا ﴿ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ الضمير للآلهة أي سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون ، أو للمشركين أي ينكرون أن يكونوا قد عبدوها كقوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] ﴿ وَيَكُونُونَ ﴾ أي المعبودون ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على المشركين ﴿ ضِدّاً ﴾ خصماً لأن الله تعالى ينطقهم فيقولون : يا رب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك .

(237/492)

والضد يقع على الواحد والجمع وهو في مقابلة ﴿ لهم عزاً ﴾ والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أي يكونون عليهم ضداً لما قصدوه أي يكونون عليهم ذلاً لا لهم عزاً ، وإن رجع الضمير في ﴿ سيكفرون ﴾ ﴿ ويكونون ﴾ إلى المشركين فالمعنى ويكونون عليهم أي

أعداءهم ضداً أي كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها ثم عجب نبيه عليه السلام بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ أي خليناهم وإياهم من أرسلت البعير أطلقته أو سلطانهم عليهم بالإغواء ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ تغريهم على المعاصي إغراء والأز والهز إخوان ومعناهما التهييج وشدة الإزعاج .

﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بالعذاب ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ أي أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء ، وقرأها ابن السماك عند المأمون فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ ركبانا على نوق رحالها ذهب وعلى نجائب سروجها ياقوت ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين ﴾ الكافرين سوق الأنعام لأنهم كانوا أضل من الأنعام ﴿ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ عطاشاً لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد المسير إلى الماء فيسمى به الواردون ، فالوفد جمع وافد كركب وراكب والورد جمع وارد .

ونصب ﴿ يوم ﴾ بمضمر أو يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يوصف أي اذكر يوم نحشر .

ذكر المتقون بأنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم ، والكافرون بأنهم يساقون إلى النار كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء استخفافاً بهم ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ حال .

والواو إن جعل ضميراً فهو للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة ، ويجوز أن يكون علامة للجمع كالتي في "أكلوني البراغيث" والفاعل من ﴿ اتخذ ﴾ لأنه في معنى الجمع ومحل ﴿ من اتخذ ﴾ رفع على البدل من واو ﴿ يملكون ﴾ أو على الفاعلية ، أو نصب على تقدير حذف المضاف أي إلا شفاعة من اتخذ والمراد لا يملكون أن يشفع لهم ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ بأن آمن .

في الحديث " من قال : لا إله إلا الله كان له عند الله عهد " وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم : " أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً " قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : " يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك وإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الذين كان لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة " أو يكون من عهد الأمير إلى

فلان بكذا إذا أمره به أي لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها .

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ أي النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة وهو التفات ، أو أمر نبيه عليه السلام بأن يقول لهم ذلك ؛ والإد العجب أو العظيم المنكر والإدة الشدة وأدّني الأمر أثقلني وعظم عليّ أدّاً ﴿ تَكَادُ السماوات ﴾ تقرب وبالياء نافع وعليّ ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ وبالنون بصري وشامي وحمزة وخلف وأبو بكر .

(239/492)

الانفطار من فطره إذا شقه والتفطر من فطره إذا شققه ﴿ مِنْهُ ﴾ من عظم هذا القول ﴿ وَتَنشَقُّ الأرض ﴾ تنخسف وتنفصل أجزاؤها ﴿ وَتَخِرُّ الجبال ﴾ تسقط ﴿ هَدّاً ﴾ كسراً أو قطعاً أو هدماً ، والهدة صوت الصاعقة من السماء وهو مصدر أي تهد هدّا من سماع قولهم أو مفعول له أو حال أي مهدودة ﴿ أَن دَعَوْا ﴾ لأن سموا ومحله جر بدل من الهاء في ﴿ منه ﴾ أو نصب مفعول له ، علل الخرور بالهد والهد بدعاء الولد للرحمن ، أو رفع فاعل ﴿ هداً ﴾ أي هدها دعاؤهم ﴿ للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِى للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ "انبغى" مطاوع بغى إذ طلب أي ما يتأتي له اتخاذ الولد وما يتطلب لو طلب مثلاً

لأنه محال غير داخل تحت الصحة ، وهذا لأن اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة وهو منزه عنهما .

وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره ، لأن أصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه ، فأنت وجميع ما عندك غطاؤه فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن

.

﴿ إِن كُلُّ مَن ﴾ نكرة موصوفة صفتها ﴿ فِى السماوات والأرض ﴾ وخبر ﴿ كل ﴾ ﴿ إِلاَّ ءَاتِي الرحمن ﴾ ووحد ﴿ آتى ﴾ و ﴿ آتيه ﴾ حملاً على لفظ ﴿ كل ﴾ وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل أي يأتيه ﴿ عَبْداً ﴾ حال أي خاضعاً ذليلاً منقاداً ، والمعنى ما كل من في السموات والأرض من الملائكة والناس إلا هو يأتي الله يوم القيامة مقراً بالعبودية ، والعبودية والبنوة تتنافيان حتى لو ملك الأب ابنه يعتق عليه ونسبة الجميع إليه نسبة العبد إلى المولى فكيف يكون البعض ولداً والبعض عبداً ! وقرأ ابن مسعود ﴿ آت الرحمن ﴾ على أصله قبل الإضافة ﴿ لَّقَدْ أحصاهم وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أي حصرهم بعلمه وأحاط بهم ﴿ وَكُلُّهُمْ ءاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ أي كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا مال ولا ولد أو بلا معين ولا ناصر .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ مودة في قلوب العباد قال الربيع يحبهم ويحببهم إلى الناس وفي الحديث يعطى المؤمن مِقَةً في قلوب الأبرار ومهابة في قلوب الفجار .

وعن قتادة وهرم : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه .

وعن كعب : ما يستقر لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر له في السماء .

﴿ فَإِنَّمَا يسرناه ﴾ سهلنا القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بلغتك حال ﴿ لِتُبَشّرَ بِهِ المتقين ﴾ المؤمنين ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ شداداً في الخصومة بالباطل أي الذين يأخذون في كل لديد أي شق من المراء والجدال جمْع ألدّ يَراد به أهل مكْة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ ﴾ تخويف لهم وإنذار ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مّنْ أَحَدٍ ﴾ أي هل تجد أو ترى أو تعلم والإحساس الإدراك بالحاسة ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ صوتاً خفياً ومنه الركاز أي لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يرى ولا صوت يسمع يعني هلكوا كلهم فكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 39 . 47 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء يقال خلف صدق بالفتح ، وخلف سوء بالسكون . ﴿ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها . ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي . وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ . من بنى الشديد ، وركب المنظور ، ولبس المشهور . ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيّاً ﴾ شراً كقوله :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمِد النَاس أَمْرَه . . . وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الغَيِّ لاَئِماً

أو جزاء غي كقوله تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ أو غياً عن طريق الجنة ، وقيل هو واد في جهنم يستعيذ منه أوديتها .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يدل على أن الآي في الكفرة . ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب على البناء للمفعول من أدخل . ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ ولا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ، ويجوز أن ينتصب ﴿ شَيْئاً ﴾

على المصدر ، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم .

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها ، أو منصوب على المدح ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وعدن لأنه المضاف إليه في العلم أو علم للعدن بمعنى الإقامة كبرة ولذلك صح وصف ما أضيف إليه بقوله : ﴿ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ أي وعدها إياهم وهي غائبة عنهم ، أو وهم غائبون عنها ، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب . ﴿ إِنَّهُ ﴾ إن الله . ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ الذي هو الجنة . ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة ، وقيل هو من أتى إليه إحساناً أي مفعولاً منجزاً .

(242/492)

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ فضول كلام . ﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ ولكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة ، أو تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض على الاستثناء المنقطع ، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم . . . بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وأهلها أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهراً وإنما فائدته الإكرام . ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة

والرغابة ، وقيل المراد دوام الرزق ودروره .

﴿ تِلْكَ الجنة التى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه ، والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ، ولا تبطل برد ولا إسقاط . وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادة في كرامتهم ، وعن يعقوب "نورث" بالتشديد .

(243/492)

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ حكاية قول جبريل عليه الصلاة والسلام حين استبطأه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيب ، ورجا أن يوحى إليه فيه بأبطأ عليه خمسة عشر يوماً ، وقيل أربعين يوماً حتى قال المشركون ودعه ربه وقلاه ، ثم نزل ببيان ذلك . والتنزل النزول على مهل لأنه مطاوع نزل وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل ، والمعنى وما ننزل وقتاً غب وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ، وقرىء "وما يتنزل" بالياء والضمير للوحي . ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن

والأحايين لا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ تاركاً لك أي ما كان عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة وإنما كان لحكمة رآها فيه .

وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة ، والمعنى وما ننزل الجنة إلا بأمر الله ولطفه ، وهو مالك الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ تقرير من الله لقولهم أي وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين وما وعد لهم من الثواب عليها وقوله :

(244/492)

﴿ رَبُّ السموات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بيان لامتناع النسيان عليه ، وهو خبر محذوف أو بدل من ﴿ ربك ﴾ ﴿ فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم مرتب عليه ، أي لما عرفت ربك لأنه لا ينبغي له أن ينساك ، أو أعمال العمال فأقبل على عبادته واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهزء الكفر ، وإنما عدي باللام لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما يورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمحارب : اصطبر لقرنك . ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ مثلاً يستحق أن يسمى إلهاً أو أحداً سمي الله

فإن المشتركين وإن سموا الصنم إلهاً لم يسموه الله قط ، وذلك لظهور أحديته تعالى ، وتعالى ذاته عن المماثلة بحيث لم يقبل اللبس والمكابرة ، وهو تقرير للأمر أي إذا صح أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها .

﴿ وَيَقُولُ الإنسان ﴾ المراد به الجنس بأسره فإن المقول مقول فيما بينهم وإن لم يقله كلهم كقولك : بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتل واحد منهم ، أو بعضهم المعهود وهم الكفرة أو أبي بن خلف فإنه أخذ عظاماً بالية ففتها وقال : يزعم محمد أننا نبعث بعدما نموت . ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ من الأرض أو من حال الموت ، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار لأن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة ، وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها ، وهي ها هنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام في يا ألله للتعويض فساغ اقترانها بحرف الاستقبال . وروي عن ابن ذكوان إذا ما مت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر .

﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان ﴾ عطف على ﴿ يقول ﴾ ، وتوسيط همزة الإنكار بينه وبين العاطف مع أن الأصل أن يتقدمهما للدلالة على أن المنكر بالذات هو المعطوف وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه فإنه لو تذكر وتأمل : ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ بل كان عَدَماً صرفاً ، لم يقل ذلك فإن أعجب من جمع المواد بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وقالون عن يعقوب ﴿ يذكر ﴾ من الذكر الذي يراد به التفكر ، وقرىء "يتذكر" على الأصل .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم باسمه تعالى مضافاً إلى نبيه تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ والشياطين ﴾ عطف أو مفعول معه لما روي أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم كل مع شيطانه في سلسلة ، وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغ نسبته إلى الجنس بأسره ، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا جميعاً معهم . ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً ، وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿ جِثِيّاً ﴾ على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع ، أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب ، وأهل الموقف جاثون لقوله تعالى ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ على المعتاد في مواقف التقاول ، وإن كان المراد بالإنسان الكفرة فلعلهم يساقون جثاة من الموقف

إلى شاطىء جهنم إهانة بهم ، أو لعجزهم عن القيام لما عراهم من الشدة . وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ جِثِيّاً ﴾ بكسر الجيم .

(246/492)

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ من كل أمة شاعت ديناً . ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ من كان أعصى وأعتى منهم فنطرحهم فيها ، وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان ولو خص ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب ، أو يدخل كلا طبقتها التي تليق به ، و ﴿ أَيُّهُم ﴾ مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات ، لكنه أعرب حملاً على ﴿ كل ﴾ وبعض للزوم الإِضافة وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوب المحل بننزعن ، ولذلك قرىء منصوباً ومرفوع عند غيره إما بالإِبتداء على أنه استفهامي وخبره ﴿ أشد ﴾ ، والجملة محكية وتقدير الكلام : ﴿ لَنَنزِعَنَّ ﴾ من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد ، أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم ، أو مستأنفة والفعل واقع على ﴿ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة ، وإما بشيعة لأنها بمعنى تشيع وعلى للبيان أو متعلق بافعل وكذا الباء في قوله :

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ أي لنحن أعلم بالذين هم أولى بالصلي ، أو صليهم أولى بالنار . وهم المنتزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم . وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ صِلِيّاً ﴾ بكسر الصاد .

(247/492)

﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ وما منكم التفات إلى الإنسان ويؤيده أنه قرىء ﴿ وَإِن منهم ﴾ . ﴿ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ إلا واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم . وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال : "إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ، فيقال لهم : قد وردتموها وهي خامدة" . وأما قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فالمراد عن عذابها . وقيل ورودها الجواز على الصراط فإنه ممدود عليها . ﴿ كَانَ على رَبّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ كان ورودهم واجباً أوجبه الله على نفسه وقضى به بأن وعد به وعداً لا يمكن خلفه . وقيل أقسم عليه .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الذين اتقوا ﴾ فيساقون إلى الجنة وقرأ الكسائي ويعقوب ننجي بالتخفيف ،

وقرىء ثم بفتح الثاء أي هناك . ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ منهاراً بهم كما كانوا ، وهو دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وإن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد تجاثيهم ، وتبقى الفجرة فيها منهاراً بهم على هيئاتهم .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ مرتلات الألفاظ مبينات المعاني بنفسها أو ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم وواضحات الإعجاز . ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لأجلهم أو معهم . ﴿ أَيُّ الفريقين ﴾ المؤمنين والكافرين . ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ موضع قيام أو مكاناً . وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ومنزل . ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ مجلساً ومجتمعاً والمعنى أنهم لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها والدخل عليها ، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى ، لقصور نظرهم على الحال وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا فرد عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله :

(248/492)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ و ﴿ كَمْ ﴾ مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ و ﴿ مّن قَرْنٍ ﴾ بيانه ، وإنما سمي أهل كل عصر قرناً أي مقدماً من قرن الدابة . وهو

مقدمها لأنه يتقدم من بعده ، وهم أحسن صفة لكم وأثاثاً تمييز عن النسبة وهو متاع البيت . وقيل هو ما جد منه والخرثي ما رث والرئي المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن والخبز ، وقرأ نافع وابن عامر "ريا" على قلب الهمزة وإدغامها أو على أنه من الري الذي هو النعمة ، وقرأ أبو بكر "ريا" على القلب ، وقرىء "ريا" بحذف الهمزة و"زيا" من الزي وهو الجمع فإنه محاسن مجموعة ، ثم بين أن تمتيعهم استدراج وليس بإكرام وإنما العيار على الفضل والنقص ما يكون في الآخرة بقوله :

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ فيمده ويمهله بطول العمر والتمتع به ، وإنما أخرجه على لفظ الأمر إيذاناً بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجاً وقطعاً لمعاذيره كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ وكقوله ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ غاية المد . وقيل غاية قول الذين كفروا للذين آمنوا أي قالوا أي الفريقين حتى إذا رأوا ما يوعدون . ﴿ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ تفصيل للموعود فإنه إما العذاب في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال . ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ من الفريقين بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدروه وعاد ما متعوا به خذلاناً ووبالاً عليهم ، وهو جواب الشرط والجملة محكية بعد ﴿ حتى ﴾ . ﴿ وَأَضْعَفُ جُنْداً ﴾

أي فئة وأنصاراً قابل به أحسن نديا من حيث إن حسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم .

(249/492)

﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾ عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله ، أراد أن يبين أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأن الله عز وجل أراد به ما هو خير له وعوضه منه ، وقيل عطف على فليمدد لأنه في معنى الخبر كأنه قيل من كان في الضلالة يزيد الله في ضلاله ويزيد المقابل له هداية . ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ الطاعات التي تبقى عائدتها أبد الآباد ، ويدخل فيها ما قيل من الصلوات الخمس وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ عائدة مما متع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التي يفتخرون بها سيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة والعذاب الدائم كما أشار إليه بقوله : ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ والخير ها هنا إما لمجرد الزيادة أو على طريقة قولهم الصيف أحر من الشتاء ، أي أبلغ في حره منه في برده .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ نزلت في العاص بن وائل كان لخباب

عليه مال فتقاضاه فقال له : لا حتى تكفر بمحمد فقال : لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث ، قال فإذا بعثت جئتني فيكون لي ثم مال وولد فأعطيك . ولما كانت الرؤية أقوى سند الإِخبار استعمل أرأيت بمعنى الإِخبار ، والفاء أصلها في التعقيب والمعنى : أخبر بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك . وقرأ حمزة والكسائي "ولداً" وهو جمع ولد كأسد في أسد أو لغة فيه كالعرب والعرب .

(250/492)

﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ أقد بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وتألى عليه . ﴿ أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين . وقيل العهد كلمة الشهادة والعمل الصالح فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه على أنه مخطىء فيما تصوره لنفسه . ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ سنظهر له أنا كتبنا قوله على طريقة قوله :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . . أي تبين أني لم تلدني لئيمة ، أو سننتقم منه انتقام من كتب

جريمة العدو وحفظها عليه فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ ونطول له من العذاب ما يستأهله ، أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه واستهزائه على الله جلت عظمته ، ولذلك أكده بالمصدر دلالة على فرط غضبه عليه . ﴿ وَنَرِثُهُ ﴾ بموته . ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ يعني المال والولد . ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ يوم القيامة . ﴿ فَرْداً ﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلاً أن يؤتى ثم زائداً وقيل ﴿ فَرْداً ﴾ رافضاً لهذا القول منفرداً عنه .

﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وصلة إلى الله وشفعاء عنده .

(251/492)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها . ﴿ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا لقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ أو سينكر الكفرة لسوء العاقبة أنهم عبدوها لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ يؤيد الأول إذا فسر الضد بضد العز ، أي ويكونون عليهم ذلاً ، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد

بها نيرانهم ، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها وتوحيده لوحدة المعنى الذي به مضادتهم ، فإنهم بذلك كالشيء الواحد ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وهم يد على من سواهم ﴾ وقرىء ﴿ كَلاَّ ﴾ بالتنوين على قلب الألف نوناً في الوقف قلب ألف الإطلاق في قوله :

أَقِلي اللَّوْمَ عَاذِلُ وَالعِتَابَنْ . . . أو على معنى كل هذا الرأي كلا وكلا على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ بأن سلطناهم عليهم أو قيضنا لهم قرناء . ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ تهزهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغي وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة .

﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم . ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ ﴾ أيام آجالهم . ﴿ عَدّاً ﴾ والمعنى لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين ﴾ نجمعهم . ﴿ إِلَى الرحمن ﴾ إلى ربهم الذي غمرهم برحمته ، ولاختبار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿ وَفْداً ﴾ وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم .

﴿ وَنَسُوقُ المجرمين ﴾ كما تساق البهائم . ﴿ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ عطاشاً فإن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش ، أو كالدواب التي ترد الماء .

﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ الضمير فيها للعباد المدلول عليها بذكر القسمين وهو الناصب لليوم . ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ إلا من تحلى بما يستعد به ويستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان والعمل الصالح على ما وعد الله تعالى ، أو إلا من اتخذ من الله إذناً فيها كقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ من قولهم : عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به ، ومحله الرفع على البدل من الضمير أو النصب على تقدير مضاف أي إلا شفاعة من اتخذ ، أو على الاستثناء . وقيل الضمير للمجرمين والمعنى : لا يملكون الشفاعة فيهم إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً يستعد به أن يشفع له بالإسلام .

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ الضمير يحتمل الوجهين لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن ينسب إليهم .

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على

الله تعالى ، والإِدِ بالفتح والكسر العظيم المنكر والإِدة الشدة وأدنى الأمر ، وآدني أثقلني وعظم عليَّ .

(253/492)

﴿ تَكَادُ السموات ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب "ينفطرن" ، والأول أبلغ لأن التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولأن أصل التفعل التكلف . ﴿ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ تهد هداً أو مهدودة ، أو لأنها تهد أي تكسر وهو تقرير لكونه أدا ، والمعنى ، أن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتت من شدتها ، أو أن فظاعتها مجلبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرب العالم وبدد قوائمه غضباً على من تفوه بها .

﴿ أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ يحتمل النصب على العلة ل ﴿ تَكَادُ ﴾ أول ﴿ هَدّاً ﴾ على حذف اللام وإفضاء الفعل إليه ، والجر بإضمار اللام أو بالإِبدال من الهاء في منه والرفع على أنه خبر محذوف تقديره الموجب لذلك ﴿ أَن دَعَوْا ﴾ ، أو فاعل ﴿ هَدّاً ﴾ أي هدها دعاء الولد للرحمن وهو من دعا بمعنى سمي المتعدي إلى مفعولين ، وإنما اقتصر على

المفعول الثاني ليحيط بكل ما دعي له ولداً ، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى إلى فلان إذا انتسب إليه .

﴿ وَمَا يَنبَغِى للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلاً لأنه مستحيل ، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عداه نعمة ومنعم عليه فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها ومولي أصولها وفروعها ، فكيف يمكن أن يتخذه ولداً ثم صرح به في قوله :

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السموات والارض ﴾ أي ما منهم . ﴿ إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد ، وقرىء ﴿ آتِ الرحمن ﴾ على الأصل .

﴿ لَّقَدْ أحصاهم ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه وقبضة قدرته . ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده بمقدار .

(254/492)

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ منفرداً عن الاتباع والأنصار فلا يجانسه شيء من ذلك ليتخذه ولداً ولا يناسبه ليشرك به .

﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم توضع له المحبة في الأرض " والسين إما لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دجا الإسلام ، أو لأن الموعود في القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل .

﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بِلِسَانِكَ ﴾ بلغتك ، والباء بمعنى على أو على أصله لتضمن ﴿ يسرناه ﴾ معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك . ﴿ لِتُبَشّرَ بِهِ المتقين ﴾ الصائرين إلى التقوى . ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ أشداء الخصومة آخذين في كل لديد ، أي شق من المراء لفرط لجاجهم فبشر به وأنذر .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ ﴾ تخويف للكفرة وتجسير للرسول صلى الله عليه وسلم على إنذارهم . ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه . ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ وقرىء ﴿ تسمع ﴾ من أسمعت والركز الصوت الخفي ، وأصل التركيب هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض ، والركاز المال المدفون . عن رسول الله " من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم

وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 23 . 37 ﴾

(255/492)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ فخلف من بعدهم ﴾

أي من بعد النبيين المذكورين ﴿ خلف ﴾ أي قوم سواء أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وتابعهم وقيل هم في هذه الأمة ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ أي تركوا الصلاة المفروضة . وقيل أخروها عن وقتها وهو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تأتي المغرب ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله وقيل اتبعوا المعاصي وشرب الخمور ، وقيل هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان بنزو بعضهم على بضع في الأسواق والأزقة ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ قال ابن عباس : الغي واد في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره أعد للزاني المصر عليه ، ولشارب الخمر المدمن له ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور وقيل هو وادٍ في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه يسيل قيحاً ودماً ، وقيل : واد في جهنم أبعدها قعراً وأشدها حراً فيه بئر تسمى الهيم

كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتستعر بها جهنم وقيل معنى غياً خسراناً وقيل هلاكاً وعذاباً ، وليس معنى يلقون يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية .

(256/492)

قوله تعالى ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ يعني إلا من تاب من التقصير في الصلوات والمعاصي وآمن من الكفر وعمل صالحاً بطاعة الله تعالى ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ أي لا ينقصون شيئاً ثم وصف الجنة فقال تعالى ﴿ جنات عدن ﴾ أي بساتين إقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فإنها لا تدوم ﴿ التي وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ أي إنهم لا يرونها فهي غائبة عنهم وهم غائبون عنها ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ أي آتياً وقيل معنى وعده موعود وهو الجنة مأتياً أي يأتيه أولياء الله وأهل طاعته ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي باطلاً وفحشاً وهو فضول الكلام ﴿ إلا سلاماً ﴾ يعني بل يسمعون فيها سلاماً والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن معنى السلامة ، وذلك أن أهل الجنة لا يسمعون فيها ما يؤلمهم ، وإنما يسمعون تسليمهم ، وقيل هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم ، وقيل هو تسليم الله عليهم ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال أهل التفسير : يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار كعادتهم في الدنيا وقيل إنهم

يعرفون وقت النهار برفع الحجب ، ووقت الليل بإرخاء الحجب ، وقيل المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق ولا تقتير ، وقيل : كانت العرب لا تعرف أفضل من الرزق الذي يؤتى به البكرة والعشي ، فوصف الله تعالى الجنة بذلك .

(257/492)

وقوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا ﴾ أي نعطي وننزل وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا ﴿ من كان تقياً ﴾ أي المتقين من عباده ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ (خ) عن ابن عباس : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ما تزرونا فنزلت وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا " الآية قال فكان هذا جواب جبريل لمحمد (صلى الله عليه وسلم) " وقيل احتبس جبريل عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) حين سأله اليهود عن أمر الروح وأصحاب الكهف ، ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك ، فقال له جبريل وإني كنت أشوق إليك ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا احبست احتبست " فأنزل الله تعالى وما نتنزل إلا بأمر ربك وأنزل الله تعالى ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ وقوله ﴿ له ما

بين أيدنا وما خلفنا ﴾ أي له علم ما بين أيدينا وما خلفنا ، وقيل أكد ذلك بقوله ما بين أيدينا وما خلفنا أي هو المدبر لنا في كل الأوقات الماضي والمستقبل ، وقيل معناه له ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا أي ما مضى من الدنيا ﴿ وما بين ذلك ﴾ أي من هذا الوقت إلى أن تقوم الساعة ، وقيل ما بين ذلك أي ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة ، وقيل ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما بقي منها وما بين ذلك مدة حياتنا ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ أي ناسياً أي ما نسيك ربك وما تركك ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ اي من يكون كذلك لا يجوز عليه النيسان لأنه لا بد أن يدبر أحوالها كلها ، وفيه دليل على أن فعل العبد خلق الله لأنه حاصل بين السموات والأرض فكان لله تعالى ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ أي اصبر على أمره ونهيه ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ قال ابن عباس : مثلاً وقيل هل تعلم أحداً يسمى الله غير

(258/492)

الله .

قوله تعالى ﴿ ويقول الإنسان ﴾ أي جنس الإنسان والمراد به الكفار الذين أنكروا البعث ، وقيل هو أبي بن خلف الجمحي وكان منكراً للبعث ﴿ أئذا ما مت لسوف أخرج حياً

﴿ قاله استهزاءً وتكذيباً للبعث قال الله تعالى ﴿ أولا يذكر الإنسان ﴾ أي يتذكر ويتفكر يعني منكر البعث ﴿ أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ والمعنى أولاً يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة .

قال بعض العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه ، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً ثم أقسم بنفسه فقال تعالى ﴿ فوربك ﴾ وفيه تشريف للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) ﴿ لنحشرنهم ﴾ أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث ﴿ والشياطين ﴾ أي مع الشياطين ، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ قال ابن عباس : جماعات وقيل جاثين على الركب لضيق المكان ، وقيل إن البارك على ركبتيه صورته كصورة الذليل .

فإن قلت هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات ، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثواً ﴿ ثم لننزعن ﴾ أي لنخرجن ﴿ من كل شيعة ﴾ أي من كل أمة وأهل دين من الكفار ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾ قال ابن عباس : يعني جرأة وقيل فجوراً وتمرداً ، وقيل قائدهم رئيسهم في الشرك ، والمعنى أنه يقدم في إدخال النار الأعتى ممن هو أكبر جرماً

وأشد كفراً .

وفي بعض الأخبار أنهم يحضرون جميعاً حول جهنم مسلسلين مغلولين ، ثم يقدم الأكفر فالأكفر فمن كان أشد منهم تمرداً في كفره خص بعذاب أعظم وأشد لأن عذاب الضال المضل واجب أن يكون فوق عذاب الضال التابع لغيره في الضلال .

(259/492)

وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب فلذلك قال في جمعيهم ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ ولا يقال أولى إلا مع اشتراك القوم في العذاب وقيل معنى الآية أنهم أحق بدخول النار .

قوله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ أي وما منكم إلا واردها وقيل القسم فيه مضمر أي والله ما منكم من أحد إلا واردها والورود هو موافاة المكان ، واختلفوا في معنى الورود ها هنا وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله واردها فقال ابن عباس الأكثرون : معنى الورود هنا الدخول ، والكناية راجعة إلى النار ، فيدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله الذين اتقوا منها ، يدل عليه ما روي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس في الورود فقال ابن عباس : هو الدخول فقال نافع : ليس الورود الدخول فقرأ ابن عباس ﴿ إنك وما تعبدون من دون الله

حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو أن يخرجني الله منها وما أرى الله أن يخرجك منها بتكذيبك فمن قال بدخول المؤمنين النار يقول من غير خوف ولا ضرر ولا عذاب البتة بل مع الغبطة والسرور لأن الله تعالى أخبر عنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر .

فإن قلت كيف يدفع عن المؤمنين حر النار وعذابها ، قلت يحتمل أن الله تعالى يخمد النار فتعبرها المؤمنون ، ويحتمل أن الله تعالى يجعل الأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار من النار محرقة والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين تكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت في حق إبراهيم عليه السلام ، وكما أن الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها فإن قلت إذا لم يكن على المؤمنين عذاب فما فائدة دخولهم النار .

(260/492)

قلت فيه وجوه ، أحدها : أن ذلك مما يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منه ، وثانيها : أن فيه مزيد غم على أهل النار ، حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها ، وثالثها : أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب الذي على الكفار صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة .

وقال قوم ليس المراد من الورود الدخول ، وقالوا لا يدخل النار مؤمن أبداً لقوله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها ﴾ فعلى هذا يكون المراد من الورود الحضور والرؤية ، لا الدخول كما قال تعالى ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أراد به الحضور ، وقال عكرمة الآية في الكفار فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها وروي عن ابن مسعود أنه قال وإن منكم إلا واردها ، يعني القيامة والكناية راجعة إليها والقول الأول أصح وعليه أهل السنة فإنهم جميعاً يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أي الشرك وهم المؤمنون والنجاة إنما تكون مما دخلت فيه ، يدل ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يموت لأحد من المؤمنين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم " وفي رواية " فيلج النار إلا تحلة القسم " أخرجاه في الصحيحين ، اراد بالقسم قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (م) عن أم مبشر الأنصارية أنها سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول عند حفصة " لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها قالت بلى يا رسول الله فانتهزها فقالت حفصة وإن منكم إلا واردها فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) قد قال الله تعالى ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ " .

وقال خالد بن معدان يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار ، فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة وفي الحديث " تقول النار للمؤمنين جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي " وروي عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال من حم المسلمين فقد وردها " وفي الخبر " الحمى كير من جهنم وهي حظ المؤمن من النار " (ق) عن عائشة عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال " الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء " قوله جهنم وهجها وحرها .

وقوله تعالى ﴿ كان على بك حتماً مقضياً ﴾ أي كان ورود جهنم قضاء لازماً قضاء الله تعالى عليكم وأوجبه .

﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أي الشرك ﴿ ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ اي جميعاً ، وقيل جاثين على الركب قالت المعتزلة في الآية دليل على صحة مذهبهم ، وفي أن صاحب الكبيرة والفاسق يخلد في النار بدليل أن الله بين أن الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو منها ، وهم المتقون والفاسق لا يكون متقياً فبقي في النار أبداً .

وأجيب عنه بأن المتقي هو الذي يتقي الشرك بقول لا إله إلا الله ويشهد لصحة ذلك أن من آمن بالله ورسوله ، صح أن يقول إنه متق من الشرك ومن صدق عليه أنه متق من الشرك صح أنه متق لأن المتقي جزء من المتقي من الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد ، فثبت أن صاحب الكبيرة متق وإذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار بعموم قوله تعالى ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ فصارت الآية التي توهمها دليلاً لهم من أقوى الدلائل على الفساد قولهم ، وهذا من حيث البحث وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على إخراج المؤمن الموحد من النار (خ) عن أنس بن مالك عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال " يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير " وفي رواية " من إيمان " (ق) عن أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : " هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا لا .

يا رسول الله .

قال هل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا لا يا رسول الله .

قال فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول الله من كان يعبد شيئاً فليتبعه فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة

فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا .

فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ، فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذٍ اللهم سلم سلم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا نعم .

(263/492)

قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ، ومنهم من ينجدل ثم ينجون حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجوهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أعضاء السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا ، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ثم يفرغ من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقابل بوجهه قبل النار فيقول يا رب اصرف وجهي عن النار فقد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها ، فيقول هل عيست إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك فيقول لا وعزتك فيعطي الله ما شاء من عهد

وميثاق .

فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل به على الجنة رأى نكهتها وبهجتها سكت ما شاء الله تعالى أن يسكت ، ثم يقول يا رب قدمني عند باب الجنة فيقول الله أليس قد أعطيت المواثيق والعهود أن لا تسأل غير الذي كنت سألت فيقول يا رب لا أكون أشقى خلقك فيقول فما عسيت أن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره فيقول وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، فيقول يا رب أدخلني الجنة . فيقول الله تبارك وتعالى ويحك يا ابن آدم ما أغدرك أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟ فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله منه ثم يؤذن له في دخول الجنة فيقول له تمنى فيتمنى .

حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله تمن كذا وكذا أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأماني قال الله لك ذلك ومثله معه "

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة " وعشرة أمثاله " قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا قوله لك ذلك ومثله معه .

قال أبو سعيد : سمعته يقول " لك ذلك وعشرة أمثاله " .

وفي رواية للبخاري قال " فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها فيقول أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا عرفناه .

فيأتيهم الله من الصورة التي يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه " قلت أما ما يتعلق بمعاني الحديث والكلام على الرؤية فسيأتي في تفسير سورة ن والقيامة ونتكلم ها هنا على شرح غريب ألفاظه ، قوله مثل شوك السعدان هو نبت ذو شوك معقف وهو من أجود مراعي الإبل .

وقوله فمنهم من يوبق بعمله يقال أوبقته الذنوب أي أهلكته .

والمنجدل المرمى المصورع وقيل هو المقطع .

والمعنى أنه تقطعه كلاليب الصراط حتى يقع في النار .

قوله وقد امتحشوا أي احترقوا ، وقيل هو أن تذهب النار الجلد وتبدي العظم .

قوله كما تنبت الحبة في حميل السيل ، الحبة بكسر الحاء وهي البذورات جميعاً وحميل السيل هو الزبد وما يلقيه الماء على شاطئه ، قوله قشبني ريحها أي آذاني والقشب السم فكأنه قال قد سمني ريحها .

قوله وأحرقني ذكاؤها أي اشتعالها ولهبها قوله رأى زهرتها الزهرة الحسن والنضارة

والبهجة .

(ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً للجنة رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى . فيقول الله تعالى له اذهب فادخل فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ، أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا ، فيقول أتسخر بي وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضحك حتى بدت نواجذه " فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة قوله حتى بدت نواجذه أي أضراسه وأنيابه ، وقيل هي آخر الأسنان .

(265/492)

عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمماً ثم تدركهم الرحمة ، قال فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة ، قال فيرش عليهم أهل الجنة من الماء فينبتون كما تنبت الحبة في حمالة السيل " أخرجه الترمذي الحمم الفحم والحمالة كل ما جاء به السيل ، فدلت الآية الأولى على أن الكل دخلوا النار ودلت الآية الثانية والأحاديث أن الله تعالى أخرج منها المتقين وجميع الموحدين

وترك فيها الظالمين وهم المشركون .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي دلائل واضحات ﴿ قال الذين كفروا ﴾ يعني النضر بن الحارث ومن دونه من كفار قريش ﴿ للذين آمنوا ﴾ يعني فقراء أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة ، وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم ﴿ أي الفريقين خير مقاماً ﴾ أي منزلاً ومسكناً وهو موضع الإقامة ﴿ وأحسن نديا ﴾ أي مجلساً فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ﴾ أي متاعاً وأموالاً وقيل أحسن ثياباً ولباساً ﴿ ورئياً ﴾ أي منظراً من الرؤية ﴿ قل من كان في ضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ هذا أمر بمعنى الخبر معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب ﴾ أي الأسر والقتل في الدنيا ﴿ وإما الساعة ﴾ يعني القيامة فيدخلون النار ﴿ فسيعلمون ﴾ أي عند ذلك ﴿ من هو شر مكاناً ﴾ أي منزلاً ﴿ وأضعف جنداً ﴾ أي أقل ناصراً والمعنى فيسعلمون أهم خير وهم في النار أم المؤمنون وهم في الجنة وهذا رد عليهم في قولهم أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ، قوله تعالى ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ أي إيماناً وإيقاناً على يقينهم ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿ خير عند ربك ثواباً وخير مرداً ﴾ أي عاقبة ومرجعاً .

قوله تعالى ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ الآية ، (ق) عن خباب بن الأرت قال كنت رجلاً قيناً في الجاهلية ، وكان لي على العاص بن وائل السهمي دين فأتيته أتقاضاه ، وفي رواية فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً فجئته أتقاضاه ، فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد .

فقلت لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث .

قال وإني لميت ثم مبعوث .

قلت بلى دعني حتى أموت وأبعث فسأوتي مالاً وولداً فأقضيك .

فنزلت ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ .

﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ يعني قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل يعني عمل عملاً صالحاً قدمه ، وقيل عهد إليه أنه يدخله الجنة ﴿ كلا ﴾ رد عليه يعني لم يفعل ذلك ﴿ سنكتب ﴾ سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه به في الآخرة ، وقيل يأمر الملائكة حتى يكتبوا ﴿ ما يقول ونمد له من العذاب مداً ﴾ أي نزيده عذاباً فوق العذاب ، وقيل نطيل مدة عذابه ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ معناه أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إياه وإبطال

ملكه ، وقيل يزول عنه ما عنده من مال وولد فيعود الإرث إلى من خلفه وإذا سلب ذلك بقي فرداً فذلك قوله ﴿ ويأتينا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فرداً ﴾ بلا مال ولا ولد فلا يصح أن يبعث في الآخرة بمال وولد .

قوله تعالى ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ يعني مشركي قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها ﴿ ليكونوا لهم عزاً ﴾ أي منعة يعني يكونوا شفعاء يمنعوهم من العذاب ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ يعني تجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤون منهم ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ أي أعواناً عليهم يكذبونهم ويلعنونهم وقيل أعداء لهم وكانوا أولياءهم في الدنيا .

(267/492)

قوله ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ أي سلطانهم عليهم ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ أي تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية والمعنى تحثهم وتحرضهم على المعاصي تحريضاً شديداً وفي الآية دليل على أن الله تعالى مدبر لجميع الكائنات ﴿ فلا يتعجل عليهم ﴾ أي لا تعجل بطلب عقوبتهم ﴿ إنا نعد لهم عداً ﴾ يعني الليالي والأيام والشهور والأعوام ، وقيل الأنفاس التي يتنفسونها في الدنيا إلى الأجل الذي أجل لعذابهم .

قوله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ أي اذكر لهم يا محمد اليوم الذي يجتمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى جنته وفداً أي جماعات .

قال ابن عباس : ركباناً قال أبو هريرة : على الإبل .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت .

﴿ ونسوق المجرمين ﴾ أي الكافرين ﴿ إلى جهنم ورداً ﴾ أي مشاة عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش ، والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد إلا بعد العطش وقيل يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمضي معهم حيث أمسوا "

قول تقيل معهم حيث قالوا من القيلولة وعنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة وصنفاً ركباناً وصنفاً على وجوههم .

قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوههم كل حدث وشوك " أخرجه الترميذي .

(268/492)

قوله ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ يعني لا إله إلا الله وقيل لا يشفع الشافعون إلا للمؤمنين ، وقيل لا يشفع إلا لمن قال لا إله إلا الله ، أي لا يشفع إلا للمؤمنين ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ يعني اليهود والنصارى ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله من العرب ﴿ لقد جئتم شيئاً إداً ﴾ قال ابن عباس منكراً ، وقيل معناه لقد قلتم قولاً عظيماً ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ من الانفطار وهو الشق ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي تخسف بهم ﴿ وتخر الجبال هداً ﴾ أي تسقط وتنطبق عليهم ﴿ أن دعوا ﴾ أي من أجل أن جعلوا ﴿ للرحمن ولداً ﴾ فإن قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال ومن أين تؤثر هذه الكلمة في هذه الجمادات .

قلت فيه وجهان أحدهما : أن الله تعالى يقول كدت أن أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي وإني لا أعجل بالعقوبة .

الثاني : أن يكون استعظاماً للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده .

قال ابن عباس فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولداً ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه .

(269/492)

فقال تعالى ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد ، ولا شبيه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله تعالى من سرور به واستعانة وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ﴾ أي آتيه يوم القيامة عبداً ذليلاً خاضعاً ، والمعنى أن الخلائق كلهم عبيده ﴿ لقد أحصاهم وعدهم عداً ﴾ أي عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ أي وحيداً ليس معه من أحوال الدنيا شيء .

قول ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ أي محبة قيل يحبهم

الله تعالى ويحببهم إلى عباده المؤمنين (ق) عن أبي هريرة عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال " إذا أحب الله سبحانه وتعالى عبداً دعا جبريل عليه السلام إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض " وفي رواية لمسلم قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل عليه السلام فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض " قال هرم بن حيان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم .

(270/492)

وقال : كعب مكتوب في التوراة لا محبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض وتصديق ذلك في القرآن ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ .

قوله تعالى ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي سهلنا القرآن ﴿ بلسانك ﴾ يا محمد ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ يعني المؤمنين ﴿ وتنذر به ﴾ أي القرآن ﴿ قوماً لداً ﴾ أي شداداً في الخصومة.

وقيل صماً عن الحق، وقيل الألد الظالم الذي لا يستقيم ولا يقبل الحق ويدعي الباطل ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ ختم الله تعالى هذه السورة بموعظة بليغة لأنهم إذا علموا وأيقنوا أنه لا بد من زوال الدنيا بالموت خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة في الآية فكانوا إلى الحذر من المعاصي أقرب.

ثم أكد ذلك فقال تعالى ﴿ هل تحس منهم ﴾ أي هل ترى، تجد منهم أي من القرون ﴿ من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي صوتاً خفياً قال الحسن: بادوا جميعاً لم يبق منهم عين ولا أثر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 251. 262 ﴾

(271/492)

وقال ابن جزى:

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

يقال في عقب الخير خلف بفتح اللام وفي عقب الشر خلف بالسكون وهو المعني هنا .

واختلف فيمن المراد بذلك ، فقيل : النصارى لأنهم خلفوا اليهود ، وقيل : كل من كفر وعصى من بعد بني إسرائيل ﴿ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ قيل : تركوها ، وقيل أخرجوها عن أوقاتها ﴿ يَلْقَونَ غَيّاً ﴾ الغي : الخسران ، وقد يكون بمعنى الضلال فيكون على حذف مضاف تقديره : يلقون جزاء غيّ ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ استثناء يحتمل الاتصال والانقطاع .

﴿ بالغيب ﴾ أي أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم ﴿ مَأْتِيّاً ﴾ وزنه مفعول ، فقيل : إنه بمعنى فاعل ، لأن الوعد هو الذي يأتي وقيل إنه على بابه لأن الوعد هو الجنة ، وهم يأتونها ﴿ لَغْواً ﴾ يعني ساقط الكلام ﴿ إِلاَّ سلاما ﴾ استثناء منقطع ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ قيل : المعنى أن زمانهم يقدر بالأيام والليالي ، إذ ليس في الجنة نهار ولا ليل ، وقيل : المعنى أن الرزق يأتيهم في كل حين يحتاجون إليه ، وعبر عن ذلك بالبُكرة والعشي على عادة الناس في أكلهم .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ حكاية قول جبريل حين غاب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أبطأت عني واشتقت إليك فقال : إني كنت أشْوَق ، ولكني عبد مأمور ؛ إذا بُعثت نزلت وإذا حُبست احتسبت . ونزلت هذه الآية ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ﴾ أي له ما قدامنا وما خلفنا ، وما نحن فيه من الجهات والأماكن ، فليس لنا الانتقال من مكان إلى مكان إلا بأمر الله ، وقيل ما بين أيدينا : الدنيا إلى النفخة الأولى في

الصور ، وما خلفنا : الآخرة ، وما بين ذلك : ما بين النفختين وقيل : ما مضى من أعمالنا وما بقي منها ، والحال التي نحن فيها ، والأول أكثر مناسبة لسياق الآية ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ هو فعيل من النسيان بمعنى الذهول وقيل بمعنى الترك ، والأول أظهر .

(272/492)

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ أي مثيلاً ونظيراً فهم من المسامي والمضاهي ، وقيل : من تسمى باسمه ، لأنه لم يتسم باسم الله غير الله تعالى ﴿ وَيَقُولُ الإنسان أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ هذه حكاية قول من أنكر البعث من القبور ، والإنسان هنا جنس يراد به الكفار ، وقيل : إن القائل لذلك أبي بن خلف ، وقيل أمية بن خلف ، والهمزة التي دخلت على أئذا ما مت للإنكار والاستبعاد ، واللام في قوله لسوف : سيقت على الحكاية لقول من قال بهذا المعنى ، والإخراج يراد به البعث .

﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن قَبْلُ ﴾ احتجاج على صحة البعث وردّ على من أنكره ، لأن النشأة الأولى دليل على الثانية ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ﴾ يعني قرناءهم من الشياطين الذين أضلوهم ، والواو للعطف أو بمعنى مع فيكون الشياطين مفعول معه ﴿ جِثِيّاً ﴾ جمع جاث ، ووزنه مفعول من قولك : جثا الرجل إذا جلس جلسة الذليل الخائف

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ الشيعة : الطائفة من الناس التي تتفق على مذهب أو اتباع إنسان ، ومعنى الآية أن ينزع من كل طائفة أعتاها فيقدمه إلى النار ، وقال بعضهم : المعنى نبدأ بالأكبر جرماً فالأكبر جرماً ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ اختلف في إعرابه ، فقال سيبويه : هو مبني على الضم ؛ لأنه حذف العائد عليه من الصلة ، وكأن التقدير : أيهم أشدّ فوجب البناء ، وقال الخليل : هو مرفوع على الحكاية تقديره : الذي قال له أشدّ ، وقال يونس : علق عنها الفعل وارتفعت بالابتداء ﴿ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ الصلي : مصدر صلى النار ، ومعنى الآية : أن الله يعلم من هو أولى بأن يصلى العذاب .

(273/492)

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ خطاب لجميع الناس عند الجمهور ، فأما المؤمنون فيدخلونها ، ولكنها تخمد فلا تضرهم ، فالورود على هذا بمعنى الدخول كقوله : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا واردون ﴾ [الأنبياء : 89] ، ﴿ أَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [هود : 98] ، بمعنى القدوم عليها كقوله ﴿ وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 33] ، والمراد بذلك جواز الصراط وقيل : الخطاب للكفار ، فلا إشكال ﴿ حَتْماً ﴾ أي أمراً لا بدّ منه ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ إن كان الورود بمعنى الدخول ، فنجاة الذين اتقوا بكون النار عليهم برداً

وسلاماً ، ثم بالخروج منها ، وإن كان بمعنى المرور على الصراط فنجاتهم بالجواز والسلامة من الوقوع فيها ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ الفريقان هم المؤمنون والكفار ، والمقام اسم مكان من قام ، وقرئ بالضم من أقام ، والنديّ المجلس ، ومعنى الآية : أن الكفار قالوا للمؤمنين : نحن خير منكم مقاماً : أي أحسن حالاً في الدنيا ، وأجمل مجلساً فنحن أكرم على الله منكم .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ كم مفعول بأهلكنا ، ومعنى الآية : رد على الكفار في قولهم المذكور : أي ليس حسن الحال في الدنيا دليلاً على الكرامة عند الله ، لأن الله قد أهلك من كان أحسن حالاً منكم في الدنيا ﴿ هُمْ أَحْسَنُ ﴾ قال الزمخشري : هذه الجملة في موضع نصب صفة لكم ﴿ أثاثا ﴾ أي متاع البيت ، وقال ابن عطية : هو اسم عام ، في المال العين والعروض والحيوان ، وهو اسم جمع ، وقيل هو جمع ، واحده أثاثه ﴿ وَرِءْياً ﴾ بهمزة ساكنة قبل الياء : معناه منظر حسن ، وهو من الرؤية ، والرئي اسم المرئي ، وقرئ بتشديد الياء من غير همز ، وهو تخفيف من الهمز ، فالمعنى متفق ، وقيل هو من ريِّ الشارب أي التنعم بالمشارب والمآكل ، وقرأ ابن عباس زيا بالزاي .

﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ أي يمهله ويملي له ، واختلف هل هذا الفعل دعاء أو خبر سيق بلفظ الأمر تأكيداً ﴿ حتى ﴾ هنا غاية للمدّ في الإضلال ﴿ إِمَّا العذاب ﴾ يعني عذاب الدنيا ﴿ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً ﴾ في مقابلة قولهم خير مقاماً وأحسن نديا .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ ذكر في [الكهف : 47] ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ ﴾ هو العاصي بن وائل ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ كان قد قال : لئن بعثت كما يزعم محمد ليكونن لي هناك مال وولد ﴿ أَطَّلَعَ الغيب ﴾ الهمزة للإنكار ، والرد على العاصي في قوله ﴿ كَلاَّ ﴾ ردّ له عن كلامه ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ إنما جعله مستقبلاً لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب في المستقبل ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ أي نزيد له فيه ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي نرث الأشياء التي قال إنه يؤتاها في الآخرة ، وهي المال والولد ، ووراثتها هي بأن يهلك العاصي ويتركها ، وقد أسلم ولداه هشام وعمرو رضي الله عنهما ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ أي بلا مال ولا ولد ولا ولي ولا نصير .

﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ قيل : إن الضمير في يكفرون للكفار وفي عبادتهم للمعبودين ، فالمعنى كقولهم : ما كنا مشركين ، وقيل : إن الضمير في يكفرون للمعبودين ، وفي عبادتهم للكفار ، فالمعنى كقولهم : ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 28] ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ معناه يكون لهم خلاف ما أمّلوه منهم فيصير العز الذي أمّلوه ذلة ، وقيل : معناه : أعداء ﴿ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ تضمن معنى سلطاناً له ولذلك تعدّى بعلى

﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ أي تزجهم إلى الكفر والمعاصي ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا تستبطئ عذابهم وتطلب تعجيله إنما ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ أي نعد مدّة بقائهم في الدنيا ، وقيل : نعدّ أنفاسهم .

(275/492)

﴿ وَفْداً ﴾ قيل : معناه ركباناً ، ومعنى الوفد لغة : القادمون وعادتهم الركوب فلذلك قيل ذلك ، وقيل مكرمون ، لأن العادة إكرام الوفود ﴿ وِرْداً ﴾ معناه عطاشاً لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة ﴾ الضمير يحتمل أن يكون للكفار ، والمعنى لا يملكون أن يشفعوا إلا لمن أتخذ عهداً أو لا يملكون أن يشفع منهم إلا من اتخذ عهداً ، أو يكون الضمير للفريقين إذ قد ذكروا قبل ذلك ؛ فالاستثناء أيضاً متصل ، ومن اتخذ : يحتمل أن يراد به الشافع أو المشفوع له ﴿ عَهْداً ﴾ يريد به الإيمان والأعمال الصالحة ، ويحتمل أن يريد به الإذن في الشفاعة . وهذا أرجح لقوله : لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ، والظاهر أن ذلك إشارة إلى شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الموقف حين ينفرد بها ، ويقول غيره من الأنبياء : نفسي نفسي .

﴿ شَيْئاً إِدّاً ﴾ أي شيئاً صعباً ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أي يتشققن من قول الكفار : اتخذ الله

ولداً ﴿ هَدّاً ﴾ أي انهداماً ﴿ أَن دَعَوْا ﴾ أي من أجل أن دعوا ﴿ للرحمن وَلَداً ﴾ وقرئ وُلْدا بضم الواو وإسكان اللام، وهي لغة .

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ ردّ على مقالة الكفار، والمعنى أن الكل عبيده، فكيف يكون أحد منهم ولداً، له، وإن نافية، وكل مبتدأ وخبره آتى الرحمن ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ هي المحبة والقبول الذي يجعله الله في القلوب لمن شاء من عباده، وقيل: إنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ يسرناه بِلِسَانِكَ ﴾ الضمير للقرآن وبلسانك أي بلغتك ﴿ قَوْماً لُّدّاً ﴾ جمع ألد، وهو الشديد الخصومة والمجادلة، والمراد بذلك قريش، وقيل: معناه فجارا ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ هو الصوت الخفي، والمعنى أنهم لم يبق منهم أثر، وفي ذلك تهديد لقريش. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 7. 10 ﴾

(276/492)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

التفسير : لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته بالتبعية أن يعبدوا الله ويصطبروا لعبادته كان لمنكر أن يعترض بأن هذه العبادات لا منفعة فيها في الدنيا لأنها مشقة ولا في الآخرة لاستبعاد حشر الأجساد إلى حالها ، فلا جرم حكى قول المنكر ليجيب عن ذلك فقال : ﴿ ويقول الإنسان ﴾ وهو للجنس لأن هذ الاستغراب مركوز في الطباع قبل النظر في الدليل ، أو لأن هذا القول إذا صدر عن بعض الأفراد صح إسناده إلى بني نوعه لأنه منهم كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً وإنما القاتل واحد منهم . وقيل : المراد بالإنسان ههنا شخص معين هو أبو جهل أو أبي بن خلف .

(277/492)

وقيل : بعض الجنس هم الكفرة . وانتصب " إذا " بفعل مضمر يدل عليه ﴿ أخرج ﴾ المذكور لا نفسه لأن ما بدعه لام الابتداء لا يعمل فيما قبله . لا تقول : اليوم لزيد قائم . وإنما جاز الجمع بين حرف الاستقبال وبين لام الابتداء المفيدة للحال ، لأن اللام ههنا خلصت لأجل التأكيد كما خلصت الهمزة في " يا الله " للتعويض ، واضمحل عنها معنى التعريف . و " ما " في " إذا " ما للتوكيد أيضاً وكأنهم قالوا مستنكرين : أحقاً أنا سنخرج أحياء حين تمكن فينا الفناء بالموت ؟ والمراد بالخروج إما الخروج من الأرض أو الخروج من حال الفناء

أو الندور من قوله : " خرج فلان عالماً " إذا كان نادراً في العلم فكأنه قال على سبيل الهزء : سأخرج حياً نادراً . وإنما قدم الظرف وأولى حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء الإنكار كقولك لمن أساء إلى محسنه " أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه " ؟ ! ولما كان الإنسان لا يصدر عنه هذا الإنكار إلا إذا لم يتذكر أو لم يذكر النشأة الأولى قال سبحانه منبهاً على ذلك ﴿ أو لا يذكر ﴾ وههنا إضمار تقديره أيقول ذلك ولا يذكر . وزعم جار الله أن الواو عطفت لا يذكر على يقول في قوله : ﴿ ويقول الإنسان ﴾ ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف الجر . قال العقلاء : لو اجتمعت الخلائق على إيراد حجة في البعث أوجز من هذه لم يقدروا عليها ، لأن خلق الذات مع الصفات أصعب من تغيير الذات في أطوار الصفات ، وهذا معلوم لكل صانع يتكرر عنه عمل ، لأن الأول لم يستقر بعد في خزانة خيال . والثاني قد ارتسم واستقر وثبت له مثال واحتذاء . وإذا كان حال من يتفاوت في قدرته الصعب والسهل كذلك ، فما الظن بمن لا يتوقف مقدوره إلا على مجرد تعلق الإرادة الأزلية به ؟ وفي قوله : ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ بحث قد مر في أول السورة مثله .

وحين نبه على النكتة الضرورية أكدها بالإقسام قائلاً ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ الفاء للاستئناف وهو يفيد الإعراض عن قصة والشروع في أخرى عقيبها والواو للقسم وشرف المقسم به دليل كمال العناية بالمقسم عليه ، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره ، والواو في ﴿ والشياطين ﴾ إما للعطف وإما بمعنى مع بناء على أن كل كافر مقرون مع شيطانه في سلسلة ، وإذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا مع الشياطين بل الكفرة ، وإن كان الضمير عائداً إلى منكري البعث فقط فلا إشكال . وكذا في قوله : ﴿ لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ أي جثياً على الركب غير مشاة على أقدامهم لما يدهشهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على الأرجل ، أو على العادة المعهودة في مواقف مطالبات الملوك ومقاولاتهم .

(279/492)

﴿ ثم لننزعن ﴾ لنميزن ﴿ من كل شيعة ﴾ طائفة شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة ، وقد سبق تفسيره في الأنعام . ﴿ أيهم أشد ﴾ قرىء بالنصب وهو ظاهر ، وأما المقتصرون على الضم فذهب سيبويه إلى أنها مبنية كيلا يلزم خلاف القياس من وجهين :

أحدهما إعراب أيّ مع أن من حق الموصول أن يبنى ، والآخر حذف المبتدأ مع الأصل فيه أن يكون مذكوراً والتقدير : أيهم هو أشد . وذهب الخليل إلى أنها معربة ولكنها لم تنصب على أن تكون مفعول ﴿ لننزعن ﴾ بل رفعت بتقدير الحكاية أي من كل شيعة مقول فيم أيهم أشد ، فيكون من كل شيعة مفعول ﴿ لننزعن ﴾ كقولك " أكلت من كل طعام " أي بعضاً من كل . ويجوز أن يقدّر لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد ، قال سيبويه : لو جاز " اضرب أيهم " أفضل على الحكاية لجاز " اضرب الفاسق الخبيث " أي الذي يقال له الفاسق الخبيث وهذا باب قلما يصار إليه في سعة الكلام . ومذهب يونس في مثله أن الفعل الذي قبل " أيّ " معلق عن العمل ، ويجيز التعليق في غير أفعال القلوب . ثم إن علقت قوله : ﴿ على الرحمن ﴾ ب ﴿ أشد ﴾ كقولهم : " هو أشد على خصمه " فظاهر ، وإن علقته بالمصدر فذلك لا سبيل إليه عند النحويين لأن المصدر لا يعمل فيما قبله . فالوجه أن يقال : إنه بيان للمحذوف فكأنه سئل إن عتوّه على من ؟ فقيل : على الرحمن . وكذا الكلام في ﴿ أولى بها صلياً ﴾ تعلق المجرور بأفعل من غير تأويل أو ب ﴿ صلياً ﴾ على التأويل . صلى فلان النار يصلى صلياً إذا احترق . أخبر أوّلاً أنه يميز من كل فرقة ضالة من هو أضل ثم بين بقوله : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ أنه يطرحهم أي أهل الضلال البعيد في النار على الترتيب يقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم ، ولا ريب أن الضال المضل يكون أولى بالتقدم من الضال ، وكذا الكافر المعاند بالنسبة إلى المقلد وإن كانوا جميعاً

مشتركين في شدة العتوّ . ويجوز أن يراد بالذين هم أولى المنتزعين كما هم كأنه قال : ثم لنحن أعلم

(280/492)

بتصلية هؤلاء وأنهم أولى بالصلى لكون دركاتهم أسفل .

﴿ وإن منكم ﴾ الخطاب للناس من غير التفات ، أو للإنسان المذكور فيكون التفاتاً ، وعلى التقديرين فإن أريد الجنس كأنه لم يكن في قوله : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ إشكال . ولكنه يشكل بأن المؤمنين كيف يردون النار ؟ وأجيب بما روي عن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " إذا دخل أهل الجنة قال بعضهم لبعض : أليس وعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم : قد وردتموها وهي خامدة "

وعنه أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للناس ضجيجاً من بردها " وأما قوله : ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ فالمراد عن عذابها . وعن ابن عباس : يردونها كأنها إهالة . ومنهم من لم يفسر الورود ههنا بالدخول

لأن ابن عباس قال : قد يرد الشيء الشيء ولم يدخله كقوله تعالى : ﴿ لما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : 33] ومعلوم أن موسى لم يدخل الماء ولكنه قرب منه . ويقال : وردت القافلة البلد إذا قربت منه ، فالمراد بالورود جثوهم حولها وعن ابن مسعود والحسن وقتادة : هو الجواز على الصراط لأن الصراط ممدود عليها . وعن مجاهد : هو مس الحمى جسده في الدنيا قال عليه السلام : " الحمى من فيح جهنم " وفي رواية " الحمى حظ كل مؤمن من النار " وإن أريد بالناس أو بالإنسان الكفرة فلا إشكال في ورودهم النار ولكنه لا يطابقه قوله : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ ووجه بأنه أراد أن المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار لا أنهم يوردونها يتخلصون .

(281/492)

أسئلة : كيف يندفع عنهم ضرر النار عند من فسر الورود بالدخول ؟ زعم بعضهم أن البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها مواضع خالية عن النار أشباه الطرق إلى دركات جهنم ، والمؤمنون يردون تلك المواضع . والأصح أنه سبحانه يزيل عنها طبيعة الإحراق بالنسبة إلى المؤمنين وهو على كل شيء قدير ، ولهذا لا تضر النار الملائكة الموكلين بالعذاب . ما الفائدة في إيراد المؤمنين النار إذا لم يعذبوا بها ؟ فيه وجوه منها : أن يزدادوا

سروراً إذا رأوا الخلاص منها . ومنها افتضاح الكافرين إذا اطلع المؤمنون عليهم . ومنها أن المؤمنين يوبخون الكفار ويسخرون منهم كما سخروا في الدنيا . ومنها أن يزيد التذاذهم بالجنة فبضدها تتبيّن الأشياء . هل ثبت في الأخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها ؟ قد ثبت أن الحاسبة تكون في الأرض أو في موضعها لقوله : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] وجهنم قريبة من الأرض والجنة في السماء . فالاجتماع يكون في موضع الحساب ثم يدخلون من ذلك الموضع إلى جهنم ، ثم يرفع الله أهل الجنة ويبقى أهل النار فيها . قلت : هذا على رأي الفلاسفة الإسلاميين ظاهر ، فالمحاسبة تكون في الأرض ومرور الكل يكون على كرة النار ، ثم يرفع أهل الكمال إلى السماء ويبقى الكفرة في النار ويؤيده قوله : ﴿ كان ﴾ أي الورود ﴿ على ربك حتماً ﴾ أي محتوماً مصدر بمعنى المفعول ﴿ مقضياً ﴾ قضى به وعزم أن لا يكون غيره ، وذلك أن العبور من جميع الجوانب على كرة النار .

(282/492)

وأجمعت المعتزلة بذلك على أن العقاب واجب على الله عقلاً . وقال الأشاعرة : شبه بالواجب من قبل استحالة يطرق الخلف إليه . وقد سبق أن المتقي عند المعتزلة من يجتنب

المعاصي كلها ، وعند غيرهم هو الذي اجتنب الشرك فقط ، وقد يهدم بالآية قاعدة القائل بمنزلة بين المنزلتين . وأجيب أن تنجية المتقين أعم من أن تكون إلى الجنة أو إلى غيرها ، هب أن تنجيتهم إلى الجنة إلا أن الذي طاعته ومعصيته سيان غير داخل في المتقين ولا في الظالمين فيبقى حكمة مسكوتاً عنه . ومن المعتزلة من تمسك بالوعيد بقوله : ﴿ ونذر الظالمين ﴾ ومنع أن الصيغة للعموم ، ولو سلم فمخصص بآيات الوعد لما ردّ على منكري البعث وقرر كيفية الحشر . قال : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ الآية ، والمراد أنهم عارضوا حجة الله بكلام أعوج فقالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أطيب من حالنا ولم يكن بالعكس ، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أولياءه ويعز أعداءه . يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون ثم يدّعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله عز وجل منهم قال جار الله : معنى بينات مرتلات الألفاظ ملخصات المعاني مبينات المقاصد ، إما محكمات أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات ، أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً ، أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على ما معارضتها ، أو حججاً وبراهين ، وعلى التقادير تكون حالاً مؤكدة كقوله : ﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ [البقرة : 91] لأن آيات الله لا تكون إلا بهذه الأوصاف .

ومعنى ﴿ للذين آمنوا ﴾ أنهم يخاطبونهم بذلك أو يفوهون به لأجلهم في شأنهم . والمقام بالضم موضع الإقامة أي المنزل ، وبالفتح موضع القيام ، والنديّ المجلس ومجتمع القوم حيث ينتدون . قوله : ﴿ أيّ الفريقين ﴾ يعني المؤمنين بالآيات والجاحدين لها من الكلام المنصف على زعمهم ، والمقصود نحن أوفر حظاً على ما يظهر منا في أحوال قيامنا وقعودنا ، وحسن الحال في الدنيا ظاهر على الفضل والرفعة وضده أمارة على النقص والضعة ، فأجابهم الله تعالى بقول : ﴿ وكم أهلكنا ﴾ أي كثيراً من المرات أهلكنا قبلهم أهل عصر و " من " بيان المهلك . ويجوز أن تكون زائدة للتأكيد و "كم " استفهامية لتقرير التكثير ، أو خبرية عند من يجوّز زيادتها في الموجب . و ﴿ هم أحسن ﴾ في محل النصب صفة ل " كم " أو الجر صفة ﴿ قرن ﴾ والأثاث متاع البيت وقد مر في النحل في قوله : ﴿ أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ [الآية : 80] قال الجوهري : من همز ﴿ رئياً ﴾ جعله من رأيت وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة ، ومن لم يهمزه فإما أن يكون على تخفيف الهمزة أي قلب الهمزة ياء وأدغم ، أو يكون من " رويت ألوانهم وجلودهم رياً " أي امتلأت وحسنت .

وقال جار الله : الري هو المنظر والهيئة " فعل " بمعنى " مفعول " . وقرىء بهمز قبله ياء على القلب كقولهم " راء " في " رأي " . وقرىء بالزاي المنقوطة واشتقاقه من الزي بالفتح وهو الجمع لأن الزي محاسن مجموعة . وفي الآية حذف التقدير أحسن من هؤلاء ، والحاصل أنه تعالى أهلك من كان أكثر مالاً وجمالاً منهم وذلك دليل على إفساد إحدى مقدمتيهم وهي أن كل من وجد الدنيا كان حبيب الله ، أو على فساد المقدمة الأخرى وهي أن كل من كان حبيباً لله فإنه لا يوصل إليه غماً . ثم بين أن مآل الضال إلى الخزي والنكال وإن طالت مدته وكثرت عدته ، وقوله : ﴿ فليمدد له الرحمن ﴾ خبر مخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب الإمهال وأنه مفعول لا محالة لتنقطع معاذير الضال ويقال له يوم القيامة ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : 37] أو ليزدادوا إثماً كقوله ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ [آل عمران : 178] أو هو في معنى الدعاء بأن يمهله الله عز وجل وينفس في مدة حياته . والغاية أحد الأمرين المذكورين أي انقطاع العذر أو ازدياد الإثم . أما قوله : ﴿ حتى إذا رأوا ﴾ إلى آخر . فقد قال في الكشاف : إنه يحتمل أن يكون متصلاً بقوله : ﴿ أي الفريقين ﴾ إلى آخره ، وما بينهما اعتراض قالوا : أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا حتى إذا رأوا ما يوعدون . والمعنى لا يزالون يتفوّهون بهذا القول مولعين به إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿ أما العذاب ﴾ في الدنيا وهو غلبة المسلمين بالقتل

والأسر وتغير أحوالهم من العز إلى الذل ومن الغنى إلى الفقر ، وأما يوم القيامة ، ويحتمل أن تتصل بما يليها والمراد أنهم لا ينفكون عن ضلالتهم وسوء مقالتهم إلى أن يعاينوا عذاب الدنيا ، أو الساعة ومقدماتها . وقوله : ﴿ فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً ﴾ في مقابلة قولهم : ﴿ خير مقاماً وأحسن نديا ﴾ لأن مقامهم هو مكانهم والنديّ المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم ، والجند

(285/492)

الأعوان ، ولا ريب أن مكان القتل والأسر شر مكان في الدنيا ومكان عذاب النار شر مكان في الآخرة . ولا شك أيضاً أنه لو كان لهم في الوقتين ناصر لم يلحقوهم من الخزي والنكال ما لحقهم .

وحين بيّن حال أهل الضلال أراد أن يبين حال أهل الكمال فقال : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ وذلك أن بعض الاهتداء يجر إلى البعض الآخر كالإيمان يجر إلى الإخلاص فيه كما أن بعض الغواية يجر إلى بعضها . ومنها من فسر الزيادة بالعبادات المرتبة على الإيمان . والواو في ﴿ ويزيد ﴾ للاستئناف . وقد تكلف جار الله فقال : إنه للعطف على معنى ﴿ فليمدد ﴾ أي يزيد في ضلال الضال بخذلانه ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه . وقد

مر في سورة الكهف أن الباقيات الصالحات فسرها الأكثرون بجميع الأعمال الصالحات المؤدية إلى السعادات الباقيات .

(286/492)

وفسرها بعضهم بما هي أعظم ثواباً منها كالصلوات الخمس وغيرها . وقوله : ﴿ خير ﴾ يقتضي غيراً يكون مشاركاً له في أصل الخيرية ويكون هذا خيراً منه ، فإن قدرنا ذلك شيئاً فيه خيرية كبعض الأعمال الدنيوية المباحة أو كسائر الأعمال الصالحة عند من يفسر الباقيات بمعنى الأخص فظاهر أنها خير ﴿ ثواباً وخير مرداً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة أو منفعة من قولهم : " هل لهذا الأمر مرد " إن قدرنا ذلك شيئاً لا ثواب فيه ولا خيرية كما زعم جار الله أن المراد هي خير ثواباً من مفاخرات الكفار ، فيكون إطلاق الثواب على عقاب الكفار من قبيل التهكم ومن باب قولهم : " تحية بينهم ضرب وجيع " . ويكون وجه التفضيل في الخير ما قيل في قولهم : " الصيف أحر من الشتاء " أي هو أبلغ في حره من الشتاء في برده ، ثم أردف مقالتهم الحمقاء بأخرى مثلها قائلا على سبيل التعجب ﴿ أفرأيت ﴾ كأنه قال : أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك . وإنما استعملوا " أرأيت " بمعنى " أخبر " لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه . عن

الحسن : نزلت في الوليد بن المغيرة ، والمشهور أنها في العاص بن وائل . قال خباب بن الأرث : كان لي عليه دين فاقتضيته ، وقيل : صاغ له حلياً فاقتضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ، فأنا أقضيك ، ثم فإني أوتي مالاً وولداً حينئذٍ . من قرأ ﴿ ولداً ﴾ بفتحتين فظاهر ، ومن قرأ بالضم فالسكون ، فإما جمع ولد كاسد في أسداً ، أو بمعنى الولد كالعرب والعرب ، فأنكر الله سبحانه عليه بقوله مستفهماً ﴿ أطلع الغيب ﴾ من قولهم " اطلع الجبل " أي ارتقى إلى أعلاه ، ولاختيار هذه الكلمة شأن كأنه قال : أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى عالم الغيب الذي تفرد به علام الغيوب ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ عن الكلبي : هل عهد الله إليه أن يؤتيه ذلك . وعن قتادة : هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول : وقيل : العهد

كلمة الشهادة ﴿ كلا ﴾ ردع وتنبيه على الخطأ فيما تصوره لنفسه وتمناه وفي قوله : ﴿ سنكتب ﴾ بسين التسويف مع أن الحفظة يكتبون ما قاله في الحلل دليل على أن السين جرد ههنا لمعنى الوعيد ، أو أراد سيظهر له نبأ الكتابة بالتعذيب والانتصار يؤيده قوله : ﴿ ونمد له ﴾ أي نطوّل له ﴿ من العذاب ﴾ ما يستأهله أمثاله من المستهزئين أو نزيده من

العذاب ونضاعف له من المدد . مده وأمده معنى .

ثم أكد المدد بالمصدر وهو مؤذن بفرط الغضب أعاذنا الله منه ، ثم عكس استهزاءه بقوله : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أي نمنع عنه منتهى ما زعم أنه يناله في الآخرة من المال والولد لأنه تألى على الله في قوله : ﴿ لأوتين ﴾ ومن يتأل على الله يكذبه لأن ذلك غاية الجراءة ونهاية الأشعبية .

(288/492)

والمراد هب أنا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه منه في العاقبة ﴿ ويأتينا ﴾ غداً ﴿ فرداً ﴾ بلا مال ولا ولد . وكلام صاحب الكشاف في الوجهين ملخبط فليتأمل فيه . وكذا في قوله : ﴿ فرداً ﴾ على الأول حال مقدرة نحو ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : 73] لأنه وغيره سواء في إتيانه فرداً حين يأتي ، ثم يتفاوتون بعد ذلك . وذلك أن الخلود لا يتحقق إلا بعد الدخول ، أما انفراده فمحقق في حالة الإتيان وتفاوت الحال بعد ذلك ، واشتراك الكل في الإتيان منفرداً لا مدخل له في المقصود فلا أدري ما حمله على هذا التكلف . قال : ويحتمل أن هذا القول : إنما يقوله ما دام حياً فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ، ويأتينا منفرداً عنه غير قائل له ، أو أراد أن هذا القول لا ننساه ولا نلغيه بل نثبته في صحيفته

لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به ، ويأتينا على فقره ومسكنته فرداً من المال والولد لم نعطه سؤله ومتمناه ، فيجتمع عليه خطبان تبعه قوله وفقد سؤله . وحين فرغ من الرد على منكري البعث شرع في الرد على عبدة الأصنام فبين أوّلاً عرضهم وذلك أن يتعززوا بآلهتهم وينتفعون بشفاعتهم ، ثم أنكر عليهم وردعهم بقوله : ﴿ كلا ﴾ ثم أخبر عن مآل حالهم بقوله ﴿ سيكفرون ﴾ فإن كان الضمير للمعبودين فهم إما الملائكة كقوله : ﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ﴾ [سبأ : 41] وإما الأصنام فلا يبعد أن ينطق الله الجماد بذلك كقوله : ﴿ وألقوا إليهم القول إنهم لكاذبون ﴾ [النحل : 86] وإن كان الضمير للعابدين فهو كقوله : ﴿ وألقوا إليهم القول إنهم لكاذبون ﴾ [النحل : 86] وإن ﴿ الأنعام : 23] أما الضمير في يكونون فللمعبودين ، وقوله : ﴿ عليهم ﴾ في مقابلة قوله : ﴿ لهم عزاً ﴾ وضد العز الهوان كأنه قيل : ويكونون عليهم ذلاً لهم عزاً ويحتمل أن يراد بالضد العون لأنه يضاد العدو ، ووحد لاتفاق كلمتهم وفرط تضامهم وتوافقهم كقوله صلى الله عليه وسلم : " وهم

يد على من سواهم " ومعنا كون الآلهة أضداداً أي أعواناً عليهم أنهم وقود النار وأن المشركين عذبوا بسبب عبادتها ، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ يكونون ﴾ للمشركين أي يكون المشركون كفرة بآلهتهم وأعداء لهم بعد أن كانوا يعبدونها .

وحيث بيّن مذاهب الفرق الضالة أراد أن يبين منشأها فقال : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا ﴾ الآية . والأز الهز والتهييج . قالت : الأشاعرة : في الآية دلالة على أنه تعالى مريد لجميع الكائنات لأن قول القائل : " أرسلت فلاناً على فلان " يفيد أنه سلطه عليه منه قوله صلى الله عليه وسلم : " سم الله وأرسل كلبك عليه " ويؤيده قوله : ﴿ تؤزهم ﴾ أي تغريهم على المعاصي وتحثهم عليها بالوسواس والتسويلات .

وقالت المعتزلة : أراد بهذا الإرسال التخلية بينهم وبينهم كما إذا لم يمنع الرجل من دخول بيت جيرانه . وحاصل كلامهم أنه أرسل الأنبياء وأرسل الشياطين ، ثم خلى بين المكلفين وبين الأنبياء والشياطين إلا أنه خص أولياءه بمزيد الألطاف حتى قبلوا قول الأنبياء ، ومنع أعداءه تلك الألطاف وهو المسمى بالخذلان فقبلوا قول الشياطين . ولما كان هذا الإرسال سبباً لهلاك الكفارة عداه ب " على " لا ب " إلى " قلت : لا يخفى أن استناد الكل إلى الله تعالى فنزاع الفريقين لفظيّ أو قريب منه . ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجل منه أي لا تعجل عليهم بأن يهلكوا فتستريح أنت والمسلمون من شرورهم فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة . قال ابن

عباس : نزلت في المستهزئين وهم خمسة رهط . وعنه أنه كان إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك ، وآخر العدد فراق أهلك ، وآخر العدد دخول قبرك . وعن ابن السماك أنه كان عن المأمون فقرأها فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد . وقال بعضهم :

إن الحبيب من الأحباب مختلس . . . لا يمنع الموت بواب ولا جرس

(290/492)

وكيف يفرح بالدنيا ولذتها . . . فتى يعد عليه اللفظ والنفس

ثم لما قرر أمر الحشر وأجاب عن شبه منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين وقتئذٍ فقال : ﴿ يوم نحشر ﴾ وانتصابه بمضمر متقدم أو متأخر أي اذكر يوم كذا وكذا ونفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف . ويجوز أن ينتصب ﴿ بلا يملكون ﴾ خص المتقون بالجمع إلى محل كرامة الرحمن وافدين . يقال : وفد فلان على الأمير وفادة أي ورد رسولاً فهو وافد والجمع وفد كصاحب وصحب . عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما يحشرون على أرجلهم ولكنهم على نوق رحالهم ذهب وعلى نجائب سروجها ياقوت " وخص المجرمون بالسوق إلى جهنم وردا ًأي وهم الذين يردون الماء ، وفيه من الإهانة ما فيه

كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . وقال جار الله : حقيقة الورد المسير إلى الماء فسمي به الواردون . قال بعض العلماء : في الآية دلالة على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين لأن المتقين من الابتداء يحشرون على هذا النوع من الكرامة فكيف ينالهم بعد ذلك شدة ؟ قلت : يحتمل أن يكون الحشر إلى الرحمن غير الحشر إلى الموقف ، فيراد بالحشر إلى الرحمن أي إلى دار كرامته وسوقهم إلى الجنة لقوله : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ [الزمر : 73] وهذا بعد امتياز الفريقين ، فالأمن الكلي فيما بعد هذه الحالة لا ينافي الخوف والدهشة فيما قبلها كما ورد في حديث الشفاعة وغيره . وقوله : ﴿ إلى الرحمن ﴾ دون أن يقول إلينا من وضع الظاهر موضع المضمر ، وفيه من البشارة ما فيه ولا يلزم منه التجسم للتأويل الذي ذكرناه ، والضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ للمكلفين المذكورين بقسمهم وفاعله ﴿ من اتخذ ﴾ على البدلية لأنه في معنى الجمع .

(291/492)

ويجوز أن تكون الواو علامة للجمع كالتي في " أكلوني البراغيث " فيكون ﴿ من اتخذ ﴾ فاعلاً والاستثناء مفرغاً . ويجوز أن ينتصب ﴿ من اتخذ ﴾ على الاستثناء أو على تقدير حذف المضاف أي إلا شفاعة . من اتخذه واختلف المفسرون في الشفاعة فقيل : لا

يملكون أن يشفعوا لغيرهم . وقيل : لا يملك غيرهم أن يشفعوا لهم . واتخاذ العهد الاستظهار بالأيمان والعمل ، أو بكلمة الشهادة وحدها والأول يناسب أصول المعتزلة ، والثاني يناسب أصول الأشاعرة . وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم : " أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يقول كل صباح ومساء : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الحياة بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك له وأن محمداً عبدك ورسولك فلا تكلني إلى نفسي فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذي لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة " ويجوز أن يكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به أي لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها كقوله : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله ﴾ [النجم : 26] .

(292/492)

وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولداً من اليهود والنصارى والعرب ، ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة . وفي قوله : ﴿ لقد جئتم ﴾ التفات من الغيبة إلى المخاطبة تسجيلاً عليهم بالجراءة والتعرض لسخطه . والأد الأمر العجيب أو المنكر ، والتركيب يدل على الشدة والثقل ومنه أدت الناقة تؤد إذا رجعت الحنين في جوفها . ويقال : فطره بالتخفيف إذا شقه ، ومطاوعه انفطر وبالتشديد للتكثير ، ومطاوعه تفطر وهذا البناء للتكثير . وانتصب ﴿ هذا ﴾ إما على المصدر لأن الخرور في معناه ، وإما لأن التقدير يهد هداً ، أو على الحال أي مهدودة ، أو على العلة أي لأنها تهد . ومحل ﴿ أن دعوا ﴾ إما مجرور بدلاً من الهاء في ﴿ منه ﴾ وإما منصوب بنزع الخافض أي هدّاً لأن دعوا ، علل الخرور بالهد والهد بالدعاء ، وإما مرفوع بأنه فاعل هد أي هدها الدعاء ، وخير الوجوه أوسطها كما في الوقوف والدعاء .

أما بمعنى التسمية فيكون المفعول الأول متروكاً طلباً للعموم والإحاطة بكل ما دعي ولداً له ، وإما بمعنى النسبة أي نسبوا إلى الرحمن ولداً . ﴿ وما ينبغي ﴾ لا يصح ولا يستقيم وهو في الأصل مطاوع بغى إذا طلب ، وإنما لا يصير مطلوباً لأنه محال . أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها ، وأما التبني فلأن القديم لا جنس له حتى يميل طبعه إليه ميل الوالد إلى الولد لمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم

الرحمن المختص به ، فليس أصول النعم وفروعها إلا منه كما قيل : لينكشف عن بصرك غطاؤه فأنت وجميع ما عندك عطاؤه ، وهذا من فوائد تكرير هذا الاسم في هذا المقام .

(293/492)

سؤال : كيف تؤثر هذه الكلمة في الجمادات حتى تنفطر وتنشق وتخر ؟ أجيب بأنه سبحانه كأنه يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند دعائهم الولد لي غضباً مني على من تفوّه بها لولا حلمي ، أو هو تصوير لأثر هذه الكلمة في الدنيا ، أو المراد أن هذا الاعتقاد يوجب أن تكون هذه الأجرام على ما ترى من النظام كقوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] وقال أبو مسلم : أراد أن هذه الأجرام كانت ممن يعقل كادت تفعل ذلك . ثم بين أن العابدين والمعبودين في السموات أو في الأرضين كلهم تحت قهره وتسخيره في الدنيا وفي الآخرة وأنه محيط بجهل أحوالهم وتفاصيلها فقال : ﴿ إن كل ﴾ " إن " نافية أي ليس فرد من أفراد الخلائق ﴿ إلا أتى الرحمن ﴾ إلا وهو ملتجىء إلى ربوبيته مقر بعبوديته . ثم أجمل حال المؤمنين بما لا مزيد عليه في باب الكرامة قائلاً ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ أي سيحدث لهم في القلوب مودّة من غير ما سبب من الأسباب المعهودة كقرابة أو اصطناع وذلك كما يقذف

في قلوب أعدائهم الرعب . والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله المودة بين الناس عند إظهار الإسلام ، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي : " يا عليّ قل اللَّهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وعن ابن عباس : يعني يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل : " يا جبرائيل قد أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض " وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه .

(294/492)

وعن كعب قال : مكتوب في التوراة : لا محبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض ، وتصديق ذلك في القرآن ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ هذا قول جمهور المفسرين . وعن أبي مسلم أن المراد أنه سهب لهم في الجنة ما يحبون ، واستعمال المصدر بمعنى المفعول كثير . وإنما صار إلى هذا القول لأن

المسلم التقي يبغضه الكفار وقد يبغضه المسلمون أكثرهم ، وقد يحصل مثل هذه المحبة للكفار والفساق فيكونون مرزوقين بميل الناس إلى اختلاطهم ومحبتهم فكيف يمكن جعله إنعاماً في حق المؤمنين . وأيضاً إن محبتهم في قلوبهم من فعلهم لا من فعل الله ، فحمل الكلام على إعطاء المنافع به أولى . وأجيب بأن المراد محبة الملائكة والأنبياء والصالحين ومثل هذه لا تحصل للكافر والفاسق ، وبأنه محمول على فعل الألطاف وخلق داعية إكرامه في قلوبهم . ثم عظم شأن ما في هذه السورة من التوحيد والنبوة وبيان الحشر والرد على الفرق الضالة قائلاً : ﴿ فإنما يسرناه ﴾ كأنه قال : بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فإنما أنزلناه بلسانك أي بلغتك وسهلناه وفصلناه لتبشر به وتنذر . واللد جمع الألد الشديد الخصومة بالباطل كقوله في "البقرة" ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ [البقرة : 204] يريد أهل مكة . ثم ختم السورة بما هو غاية في الإنذار ونهاية في التخويف لأنبائه عن انقضاء القرون الخالية بالفناء أو بالإفناء بحيث لم يبق منهم شخص يرى ولا صوت يسمع فيعلم منه أن مآل الباقين أيضاً إلى ذلك فيجتهدوا في تحصيل الزاد للمعاد ولا يصرفوا همتهم إلى ما هو بصدد الزوال والنفاد . والركز الصوت الخفي وركز الرمح تغيب طرفه في الأرض والركاز المال المدفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 501.512 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ فخلف من بعدهم ﴾

ولما وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الأنبياء بصفة المدح ترغيباً لنا في التأسي بهم ذكر بعدهم من هو بالضدّ منهم فقال:

﴿ فخلف من بعدهم ﴾ أي : في بعض الزمان الذي بعد هؤلاء الأصفياء سريعاً

﴿ خلف ﴾ في غاية الرداءة من أولادهم يقال خلفه إذا عقبه خلف سوء بإسكان اللام والخلف بفتح اللام الصالح كما قالوا وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث : "في الله خلف من كل هالك" وفي الشعر :

*ذهب الذي يعاش في أكنافهم

** وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وقال السدي : أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة : في ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ تركوا الصلاة المفروضة ، وقال ابن مسعود وإبراهيم : أخروها عن وقتها ، وقال سعيد بن المسيب : هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر حتى تغرب الشمس .

﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي : المعاصي قال ابن عباس : هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الأخت من الأب ، وقال مجاهد : هؤلاء قوم يظهرون في

آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الأسواق والأزقة ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ وهو كما قال وهب وابن عباس : واد في جهنم بعيد قعره تستعيذ منه أوديتها كما رواه الحاكم وصححه ، وقيل : هو الخسران وقيل هو الشر كقول القائل:

*فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره

**ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائما

على الغيّ متعلق بلائماً وقيل : يلقون جزاء الغي كقوله يلق أثاماً أي : مجازاة الآثام

تنبيه : قوله تعالى : يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية . ولما أخبر تعالى عن هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة وحداهم إلى غسل هذه الحوبة بقوله:

(296/492)

﴿ إلا من تاب ﴾ أي : مما هو عليه من الضلال وبادر بالأعمال وحافظ على الصلوات وكف نفسه عن الشهوات ﴿ وآمن ﴾ بما أخذ عليه به العهد ﴿ وعمل ﴾ بعد إيمانه تصديقاً له ﴿ صالحاً ﴾ من الصلوات والزكوات وغيرها ﴿ فأولئك ﴾ العالو الهمم الطاهرو الشيم ﴿ يدخلون الجنة ﴾ التي وعد المتقون ﴿ ولا يظلمون ﴾ من ظالم ما ﴿ شيئاً ﴾ من أعمالهم . فإن قيل : الاستثناء دل على أنه لا بدّ من التوبة والإيمان والعمل

الصالح وليس الأمر كذلك لأنّ من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضاً فإنه لا يجب عليهم الصلاة والزكاة أيضاً غير واجبة وكذلك الصوم فهذا لو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع أنه لم يصدر منه عمل فلم يجز توقف الأجر على العمل الصالح ؟

أجيب بأنّ هذه الصورة نادرة والأحكام إنما تناط بالأعمّ الأغلب

تنبيه : في هذا الاستثناء وجهان قال ابن عادل أظهرهما : أنه متصل وقال الزجاج : هو منقطع وهذا بناءً منه على أنّ المضيع للصلاة من الكفار ووافق الزجاج الجلال المحلي . ولما ذكر تعالى في التائب أنه يدخل الجنة وصفها بأمور أحدها قوله تعالى:

(297/492)

﴿ جنات عدن ﴾ أي : إقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها بالدوام على خلاف وصف الجنان في الدنيا التي لا تدوم ثم بيّن تعالى أنها ﴿ التي وعد الرحمن عباده ﴾ الذين هو أرحم بهم وقوله ﴿ بالغيب ﴾ فيه وجهان ؛ أحدهما : أنّ الباء حالية وفي صاحب الحال احتمالان ؛ أحدهما : ضمير الجنة وهو عائد الموصول أي : وعدها وهي غائبة عنهم لا يشاهدونها ، والثاني : عباده أي : وهم غائبون عنها لا يرونها إنما آمنوا بها بمجرّد

الأخبار منه . والوجه الثاني : أنّ الباء سببية أي : بسبب تصديق الغيب وسبب الإيمان به ولما كان من شأن الوعود الغائبة على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بيّن أنّ وعده ليس كذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه كان ﴾ أي : كوناً هو سنة ماضية ﴿ وعده مأتياً ﴾ أي : مقصوداً بالفعل فلا بدّ من وقوعه فهو كقوله إن كان وعد ربنا لمفعولا ثانيها قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ وهو فضول الكلام وما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه الدار الآخرة التي لا تكليف فيها ، وقد مدح الله تعالى أقواماً بقوله : ﴿ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً ﴾ (الفرقان ،)

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ (القصص ،)

نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا وقوله تعالى : ﴿ إلا سلاما ﴾ استثناء منقطع أي : ولكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة أو سلاماً من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ويجوز أن يراد باللغو مطلق الكلام قال في القاموس لغا لغواً تكلم ، فيكون الاستثناء متصلاً أي : لا يسمعون فيها كلاماً إلا كلاماً يدل على السلامة أو سلاماً من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض .

ثالثها : قوله تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها ﴾ أي : على ما يتمنونه ويشتهونه على وجه لا بدّ من إتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به ﴿ بكرةً وعشياً ﴾ أي : على قدرهما في الدنيا وليس في الجنة نهار ولا ليل بل ضوء ونور أبداً وقيل : إنهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بإرخائها ، فإن قيل : المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق إليهم بكرةً وعشياً ليس من الأمور المستعظمة أجيب بوجهين ؛ الأوّل : قال الحسن : أراد الله تعالى أن يرغب كل قوم بما أحبوه في الدنيا فلذلك ذكر أساور الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والأرائك التي هي الحجال المضروبة على الأسرّة وكانت عادة أشراف اليمن ولا شيء كان أحب إلى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك الثاني أنّ المراد دوام الرزق تقول أنا عند فلان صباحاً ومساءً وبكرةً وعشياً تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين ، وقيل : المراد رفاهية العيش وسعة الرزق أي : لهم رزقهم متى شاؤوا ، ولما باينت بهذه الأوصاف دار الباطل أشار إلى علوّ رتبتها وما هو سببها بقوله تعالى:

﴿ تلك الجنة ﴾ بأداة البعد لعلو قدرها وعظم أمرها ﴿ التي نورث من عبادنا ﴾ أي : نعطي عطاء الإرث الذي لا كدّ فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما يبقى للوارث مال الموروث وقيل تنقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له إلى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل

النقل إرثاً قاله الحسن ﴿ من كان تقياً ﴾ أي : المتقين من عباده .

فإن قيل : الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها ؟ .

(299/492)

أجيب : بأن الآية تدل على أن الجنة يدخلها المتقي وليس فيها دلالة على أن غير المتقي لا يدخلها وأيضاً صاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه أنه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق وإذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل الجنة فدلالة الآية على أنّ صاحب الكبيرة يدخلها أولى من أن تدل على أنه لا يدخلها .

واختلف في سبب نزول قول جبريل للنبيّ صلى الله عليه وسلم

﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ فقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا" فنزلت الآية وقال مجاهد : أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لعلى أبطأت قال : قد فعلت ، قال : ولم لا أفعل وأنتم لا تتسوّكون ولا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم وقال وما نتنزل إلا بأمر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبي احتبس جبريل عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح وسبب سؤالهم عن ذلك ما

روي "أنّ قريشاً بعثت خمسة رهط إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم وسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسلوه عنهنّ فإن أخبركم عن خصلتين فاتبعوه فسألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب فوعدهم أن يجيبهم غداً ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً وقيل خمسة عشر يوماً فشقّ ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم أبطأت حتى ساء ظني واشتقت إليك ، قال إني إليك أشوق ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست فنزلت هذه الآية وأنزل قوله تعالى : ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف ،)

(300/492)

وسورة الضحى" فإن قيل : قوله : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ كلام الله وقوله : وما نتنزل إلا بأمر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل ؟

أجيب : بأنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (البقرة ،)

وهذا كلام الله تعالى ثم عطف عليه قوله : ﴿ وأنّ الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ (مريم ،)

ثم علل جبريل قوله ذلك بقوله : ﴿ له ما بين أيدينا ﴾ أي : أمامنا من أمور الآخرة ﴿ وما خلفنا ﴾ أي : من أمور الدنيا ﴿ وما بين ذلك ﴾ أي : ما يكون من هذا الوقت إلى قيام الساعة أي : له علم ذلك جميعه وقيل : ما بين ذلك ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة وقيل ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك مدّة حياتنا وقيل : ما بين أيدينا بعد أن نموت وما خلفنا قبل أن نخلق وما بين ذلك مدّة الحياة وقيل : ما بين أيدينا الأرض إذا أردنا النزول إليها وما خلفنا السماء وما ينزل منها وما بين ذلك الهواء يريد أنّ ذلك كله لله فلا نقدر على شيء إلا بأمره ﴿ وما كان ربك ﴾ المحسن إليك ﴿ نسياً ﴾ بمعنى ناسيا أي : تاركاً لك بتأخير الوحي عنك لقوله تعالى : ﴿ ما ودّعك ربك وما قلى ﴾ (الضحى ،)

أي : وما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به وما كان ذلك عن ترك الله تعالى لك وتوديعه إياك ثم استدل على ذلك بقوله:

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ فلا يجوز عليه النسيان إذ لا بدّ أن يمسكهما حالاً

بعد حال وإلا لبطل الأمر فيهما وفيمن يتصرّف ، والآية دالة على أنّ الله تعالى رب لكل شيء حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى لأنّ فعل العبد حاصل بين السماء والأرض

(301/492)

تنبيه : يجوز في رب أن يكون بدلاً من ربك وأن يكون خبر مبتدأ مضمر أي : هو رب وقوله تعالى ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم مرتب على ما تقدّم أي : لما عرفت أنّ ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي من مثلك واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهزء الكفار بك .

فإن قيل : لم لم يقل واصطبر على عبادته لأنها صلته فكان حقه تعديه بعلى ؟

أجيب : بأنه ضمن معنى الثبات لأنّ العبادة ذات تكاليف قلّ من يثبت لها فكأنه قيل اثبت لها مصطبراً كقولك للمحارب اصبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ قال ابن عباس : هل تعلم له مثلاً أي : نظيراً فيما يقتضي العبادة والذي يقتضيها كون منعماً بأصول النعم وفروعها وهي خلق الأجسام والحياة والعقل وغيرها ، فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه وتعالى وإذا كان قد أنعم عليك بغاية الإنعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة .

وقال الكلبي هل تعلم أحداً تسمى الله غيره فإنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله تعالى على شيء . ولما أمر تعالى بالعبادة والمصابرة عليها فكأنّ سائلاً سأل وقال هذه العبادة .

لا منفعة فيها في الدنيا وأمّا في الآخرة فقد أنكرها بعضهم فلا بدّ من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر أنّ الاشتغال بالعبادة يفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى قول منكري الحشر فقال تعالى:

﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ قال الكلبيّ : نزلت في أبيّ بن خلف حين أخذ عظاماً بالية فتتها بيديه ويقول زعم لكم محمد أنا نبعث بعد ما نموت وقيل : نزلت في أبي جهل ، وقيل : المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم إنّ الله تعالى أقام الدليل على صحة البعث بقوله:

(302/492)

﴿ أولا يذكر الإنسان ﴾ أي : المجترئ بهذا الإنكار على ربه ﴿ أنّا خلقناه من قبل ﴾ أي : من قبل جدله ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ أصلاً وأنا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار

ما قدروا عليه إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أوّلاً . ونظيره قوله تعالى : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة ﴾ (يس ،)

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ (الروم ،)

وهو أهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة والباقون بفتح الذال مشدّدة وكذا الكاف .

فإن قيل : كيف أمر الله الإنسان بالتذكر مع أنّ التذكر هو العلم بما علمه من قبل ثم تخللهما سهو ؟

أجيب : بأنّ المراد أولاً يتفكر فيعلم خصوصاً إذا قرئ أولا يذكر مشدّداً ، أمّا إذا قرئ مخففاً فالمراد أولاً يعلم ذلك من حال نفسه لأنّ كل أحد يعلم أنه لم يكن حياً في الدنيا ثم صار حياً . ثم إنه تعالى لما قرّر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه أوّلها قوله تعالى:

﴿ فوربك ﴾ أي : المحسن إليك بالانتقام منهم ﴿ لنحشرنهم ﴾ بعد البعث

﴿ والشياطين ﴾ الذين يضلونهم بأن نحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة وفائدة القسم أمران:

أحدهما : أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين والثاني : في إقسام الله باسمه مضافاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض أنه لحق ﴾ (الذاريات ،)

والواو في والشياطين يجوز أن تكون للعطف وبمعنى مع وهو أولى . ثانيها : قوله تعالى ﴿ ثم لنحضرنهم ﴾ بعد طول الوقوف ﴿ حول جهنم ﴾ من خارجها ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله تعالى منها وخلصهم فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطتهم وسروراً إلى سرورهم ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغبطهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى ﴿ جثياً ﴾ حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس وأصله جثوو بواوين أو جثوى من جثا يجثو ويجثى لغتان .

فإن قيل : هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى : ﴿ وترى كل أمّة جاثية ﴾ (الجاثية ،)

ولأنّ العادة جارية بأنّ الناس في مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق أو لما يدهمهم من شدّة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم ، وإذا كان هذا حاصلاً للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار ؟

أجيب : بأنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب

مزيد ذلهم وقرأ حفص وحمزة والكسائي جثياً وعتياً وصلياً بكسر أوّلها والباقون بضمه

ثالثها : قوله تعالى:

﴿ ثم لننزعنّ ﴾ أي : لنأخذن أخذاً بشدّة وعنف ﴿ من كل شيعة ﴾ أي : فرقة مرتبطة بمذهب واحد ﴿ أيهم أشدّ على الرحمن ﴾ الذي غمرهم بالإحسان ﴿ عتياً ﴾ أي : تكبراً مجاوزاً للحدّ والمعنى أنّ الله تعالى يحضرهم أوّلاً حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدّهم تمرّداً في كفره خص بعذاب عظيم لأنّ عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعاً لغيره وليس عذاب من يتمرّد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدّة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب ، ولذلك قال تعالى في جميعهم:

(304/492)

﴿ ثم لنحن أعلم ﴾ من كل عالم ﴿ بالذين هم ﴾ بظواهرهم وبواطنهم ﴿ أولى بها ﴾ أي : بجهنم ﴿ صلياً ﴾ أي : دخولاً واحتراقاً فنبدأ بهم ولا يقال أولى إلا مع اشتراكهم وأصله صلوى من صلى بكسر اللام وفتحها

تنبيه : في إعراب أيهم أشدّ أقوال كثيرة أظهرها عند جمهور المعربين وهو مذهب سيبويه أن

أيهم موصولة بمعنى الذي وإن حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر وأشدّ خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لأيهم وأيهم وصلتها في محل نصب مفعول بها ، ولأيّ أحوال أربعة ذكرتها في شرح القطر . ولما كانوا بهذا الإعلام المؤكد بالإقسام من ذي الجلال والإكرام جديرين بإصغاء الأفهام إلى ما توجه إليها من الكلام التفت إلى مقام الخطاب إفهاماً للعموم فقال تعالى:

﴿ وإن ﴾ أي : وما ﴿ منكم ﴾ أيها الناس أحد ﴿ إلا واردها كان ﴾ ذلك الورود ﴿ على ربك ﴾ الموجد لك المحسن إليك ﴿ حتماً مقضياً ﴾ أي : حتمه وقضى به لا يتركه والورود موافاة المكان فاختلفوا في معنى الورود هنا . فقال ابن عباس والأكثرون : الورود ههنا هو الدخول والكناية راجعة إلى النار وقالوا يدخلها البرّ والفاجر ثم ينجي الله المتقين فيخرجهم منها ويدل على أنّ الورود هو الدخول قوله تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ (هود ،)

وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنّ نافع بن الأزرق مارى ابن عباس في الورود فقال ابن عباس : هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول ، فتلا ابن عباس ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ (الأنبياء ،)

أدخلها هؤلاء أم لا ؟ ثم قال : يا نافع أما والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو أن يخرجني الله منها وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى:

﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أي : الكفر منها ولا يجوز أن يقول ثم ننجي الذين اتقوا ﴿ ونذر الظالمين ﴾ بالكفر ﴿ فيها جثياً ﴾ على الركب ألا والكل واردون والأخبار المروية دالة على هذا القول روي أنّ عبد الله بن رواحة قال أخبر الله تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدر فقال صلى الله عليه وسلم "يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجي الذين اتقوا" فدلّ على أنّ ابن رواحة فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك وعن جابر أنه سأل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الورود الدخول ولا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتى أنّ للنار ضجيجاً من بردها" ولأنّ حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله تعالى محرقة مؤذية والأجزاء الملاصقة لأجزاء المؤمنين يجعلها برداً وسلاماً كما في حق إبراهيم عليه السلام وكما أنّ الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها وكما في الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطي فيكون دماً ويشربه الإسرائيلي فيكون ماء عذباً .

وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال : "إذا دخل أهل الجنة الجنة وقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهي

خامدة" وخامدة بخاء معجمة أي : ساكنة وروي بالجيم أي : باردة ولا بدّ من ذلك في الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا في النار مع المعاقبين .

فإن قيل : فإذا لم يكن على المؤمنين عذاب في دخولهم فما الفائدة في ذلك الدخول ؟

أجيب بوجوه ؛ أحدها : أنّ ذلك مما يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منها .

ثانيها : أنّ فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها .

ثالثها : أنّ فيه مزيد غم على أهل النار حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين .

(306/492)

رابعها : أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب صار سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة ، وقيل : المراد بالذين يردونها من تقدّم ذكرهم من الكفار فكنى عنهم أوّلاً كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة وعلى هذا القول فلا يدخل النار مؤمن واستدل له بقوله تعالى : ﴿ إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها ﴾ (الأنبياء : ،)

والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها بقوله تعالى :

﴿ وهم من فزع يومئذٍ آمنون ﴾ (النمل ،)

وروي عن مجاهد من حمّ من المؤمنين فقد وردها وفي الخبر الحمى كير من جهنم وهي حظ المؤمن من النار وفي رواية الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء وقوله من فيح جهنم أي : وهجها وحرّها وقال ابن مسعود وإن منكم إلا واردها يعني القيامة والكناية راجعة إليها قال البغوي والأوّل أصح وعليه أهل السنة وروي أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير وفي رواية من إيمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله له : اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول وجدتها ملأى فيقول الله : له اذهب فادخل الجنة فإنّ لك مثل الدنيا وعشر أمثالها فيقول له أتسخر بي وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه" فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة قوله حتى بدت نواجذه أي : أنيابه وأضراسه وقيل : هي أعلى الأسنان .

(307/492)

وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمماً ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل الحمم الفحم والغثاء كل ما جاء به السيل" وقرأ الكسائي ننجي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم ولما أقام تعالى الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث قال تعالى عطفاً على قوله ويقول الإنسان:

(308/492)

﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ أي : الناس من المؤمنين والكفار من أيّ تال كان ﴿ آياتنا ﴾ أي : القرآن حال كونها ﴿ بينات ﴾ أي : واضحات وقيل مرتبات الألفاظ ملخصات المعاني وقيل : ظاهرات الإعجاز ﴿ قال الذين كفروا ﴾ بآيات ربهم البينة جهلاً منهم ونظراً إلى ظاهر الحياة الدنيا الذي هو مبلغهم من العلم ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : لأجلّهم أو مواجهة لهم إعراضاً عن الاستدلال بالآيات بالإقبال على هذه الشبهة الواهية وهي المفاخرة بالمكاثرة في الدنيا من قولهم ﴿ أي الفريقين ﴾ نحن بما لنا من الاتساع أم أنتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ولو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن

من حالنا لأنّ الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في الذل وأعداءه المعرضين عن خدمته في العز والراحة وإنما كان الأمر بالعكس فإنّ الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والقلة هذا حاصل شبهتهم والقائل ذلك هو النضر بن الحارث وذووه من قريش للذين آمنوا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين أيّ الفريقين ﴿ خير مقاماً ﴾ أي : موضع قيام أو إقامة على قراءة ابن كثير بضم الميم والباقون بفتحها ففي كلتا القراءتين يحتمل أن يكون اسم مصدر أو اسم مكان إما من قام ثلاثياً أو من أقام

m

تنبيه : قالوا زيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يقولوا أخير منه ولا أشرّ منه لأنّ هاتين اللفظتين كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبتا إلا في فعل التعجب فقالوا أخير بزيد وأشرر بعمرو وما أخير زيداً وما أشر عمراً ، والعلة في إثباتهما في فعلي التعجب أنّ استعمال هذين اللفظين اسماً أكثر من استعمالهما فعلاً فحذفت الهمزة في موضع الكثرة

وبقيت على أصلها في موضع القلة ﴿ وأحسن نديا ﴾ أي : مجمعاً ومتحدثاً والنديّ المجلس يقال نديّ وناد والجمع الأندية منه ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ (العنكبوت ،)

وقال تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ (العلق ،)

ويقال ندوت القوم أندوهم إذا جمعتهم في مجلس ومنه دار الندوة وكانت تجمع القوم فجعلوا ذلك الامتحان بالإنعام والإحسان دليلاً على رضا الرحمن مع التكذيب والكفران وغفلوا عن أنّ في ذلك مع التكذيب بالبعث تكذيباً بما يشاهدون منا من القدرة على العقاب بإحلال النقم وسلب النعم ولو شئنا لأهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به .

﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ ثم بيّن إبهام كم بقوله : ﴿ من قرن ﴾ شاهدوا ديارهم ورأوا آثارهم ﴿ هم ﴾ أي : أهل تلك القرون ﴿ أحسن ﴾ من هؤلاء ﴿ أثاثاً ﴾ أي : أمتعة ﴿ ورئياً ﴾ أي : ومنظراً فلو دلّ حصول نعم الدنيا للإنسان على كونه حبيب الله لوجب أن لا يصل إلى هؤلاء غمّ في الدنيا وقرأ قالون وابن ذكوان بإبدال الهمزة ياء وإدغامها في الياء وقفاً ووصلاً وإذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياءً وله فيها الإدغام والإظهار

(310/492)

تنبيه : كم مفعول أهلكنا مقدّم واجب التقديم لأنّ له صدر الكلام لأنها إمّا استفهامية أو خبرية وهي محمولة على الاستفهامية أي : كثيراً من القرون أهلكنا ومن قرن تمييز لكم مبين لها وإنما سمى أهل كل عصر قرناً لأنهم يتقدّمون من بعدهم وقول البيضاوي وهم أحسن صفة لكم تبع فيه الزمخشريّ وغيره ورد بأن كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها فهم أحسن في محل جر صفة لقرن وجمعه نظراً للمعنى لأنّ القرن مشتمل على أفراد كثيرة ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ قل ﴾ لهؤلاء المبعدين ردّاً عليهم وقطعاً لمعاذيرهم وهتكاً لشبههم هذا الذي افتخرتم به لا يدل على حسن الحال في الآخرة بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى أنه ﴿ من كان في الضلالة ﴾ مثلكم كوناً راسخاً بسط له في الدنيا وطيب عيشه في ظاهر الحال فيها ونعم بأنواع الملاذ وقوله ﴿ فليمدد له الرحمن مدّاً ﴾ أمر بمعنى الخبر معناً فندعه في طغيانه ونمهله في كفره بالبسط في الآثار والسعة في الديار والطول في الأعمال وإنفاقها فيما يستلذ به من الأوزار ولا يزال يمدّ له استدراجاً ﴿ حتى إذا رأوا ﴾ أي : كل من كفر بأعينهم ﴿ ما يوعدون ﴾ من قبل الله ﴿ إمّا العذاب ﴾ في الدنيا بأيدي المؤمنين وغيرهم أو في البرزخ ﴿ وإما الساعة ﴾ أي : القيامة التي هم بها مكذبون وعن الاستعداد لها معرضون ولا شيء يشبه أهوالها وخزيها ونكالها ﴿ فسيعلمون ﴾ إذا رأوا ذلك ﴿ من هو شرّ مكاناً ﴾ أي : من جهة المكان الذي قوبل به المقام في قولهم خير مقاماً ﴿ وأضعف

جنداً ﴾ أي : أقل ناصراً أهم أم المؤمنون أي : أضعف من جهة الجند أي : الذي أشير به إلى النديّ في قولهم وأحسن نديا لأنهم في النار والمؤمنون في الجنة فهذا ردّاً عليهم في قولهم أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا

(311/492)

﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا ﴾ إلى الإيمان ﴿ هدى ﴾ بما ينزل عليهم من الآيات عوض ما زوى عنهم من الدنيا لكرامتهم عنده مما بسط للضلال لهوانهم عليه وأشار إلى أنّ مثل ما خذل أولئك بالنوال وفّق هؤلاء لمحاسن الأعمال بإقلال الأموال فقال عز من قائل

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي : الطاعات والمعارف التي شرحت لها الصدور وأنارت بها القلوب وأوصلت إلى علام الغيوب ﴿ خير عند ربك ﴾ مما متع به الكفرة والخيرية هنا في مقابلة قولهم أي : الفريقين خير مقاماً وقيل : الباقيات الصالحات هي الصلوات وقيل : التسبيح روى أبو الدرداء قال : "جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عوداً يابساً وأزال الورق عنه ثم قال : إنّ قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله تحط الخطايا كما يحط ورق هذه الشجرة الريح خذهنّ يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهنّ الباقيات الصالحات وهي من كنوز الجنة" فكان أبو الدرداء يقول : لأعملنّ ذلك ولأكثرنّ

عمله حتى إذا رآني الجهال حسبوا أني مجنون . قال الرازي : والقول الأوّل أولى لأنه تعالى إنما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها فلا تختص ببعض العبادات فهي بأسرها باقية صالحة نظراً إلى أثرها الذي هو الهداية ثم بيّن تعالى خيريتها بقوله تعالى ﴿ ثواباً ﴾ أي : من جهة الثواب ﴿ وخيرٌ مرداً ﴾ أي : من جهة العاقبة يوم الحسرة .

فإن قيل : لا يجوز أن يقال هذا خير إلا والمراد أنه خير من غيره والذي عليه الكفار لا خير فيه أصلاً أجيب بأنّ المراد خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاماً وأحسن نديا ، وقيل : هو كقولهم الصيف أحرّ من الشتاء بمعنى أنه في حرّه أبلغ منه في برده فالكفرة يردّون إلى فناء وخسارة والمؤمنون إلى ربح وبقاء .

ولما ذكر تعالى الدلائل أوّلاً على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عليهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعناً في القول بالحشر فقال تعالى:

(312/492)

﴿ أفرأيت الذي ﴾ أي : الذي يعرض عن هذا اليوم ويزيد على ذلك بأن ﴿ كفر بآياتنا ﴾ الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات ﴿ وقال ﴾ جرأة منه وجهلاً ﴿ لأوتينّ ﴾ أي : والله لأوتين في الساعة على تقدير قيامها ﴿ مالاً وولداً ﴾ أي : عظيمين فلم يكفه في جهله

تعجيز القادر حتى ضم إليه إقدار العاجز وقرأ حمزة والكسائي وولداً وكذا ولداً في جميع ما في هذه السورة بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام في الجميع يقال ولد وولد كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم أما القراءة بفتحتين فواضحة وهو اسم مفرد قائم مقام الجمع وأما قراءة الضم والإسكان فقيل : هي كالتي قبلها في المعنى وقيل : بل هي جمع لولد نحو أسد وأسد وأنشدوا على ذلك

*ولقد رأيت معاشراً **قد أثمروا مالاً وولداً

وأنشدوا شاهداً على أنّ الولد والولد مترادفان قول الآخر

*فليت فلاناً كان في بطن أمه **وليت فلاناً كان ولد حماره

ولما كان ما ادعاه لا علم به إلا بأحد أمرين لا علم له بواحد منهما أنكر قوله ذلك بقوله تعالى:

(313/492)

﴿ أطلع الغيب ﴾ الذي هو غائب عن كل مخلوق فهو في بعد عن الخلق كالعالي الذي لا يمكن أحداً منهم الاطلاع إليه وتفرد به الواحد القهار ﴿ أم اتخذ ﴾ أي : بغاية جهده ﴿ عند الرحمن عهداً ﴾ عاهده عليه بأن يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها على وجهها ليقف

سبحانه فيه عند قوله وقيل في العهد كلمة الشهادة ، وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول ، وعن الكلبي هل عهد الله إليه أن يؤتيه ذلك وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل قال خباب بن الأرت كان لي عليه دين فاقتضيته فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث قال : فإني إذا مت بعثت قلت : نعم قال : إذا بعثت جئني وسيكون لي ثمّ مال وولد فأعطيك وقيل : صاغ له خباب حُلياً فاقتضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأنّ في الجنة ذهباً وفضة وحريراً فأنا أقضيك ثم فإني أوتي مالاً وولداً فأعطيك حينئذٍ ثم إنه سبحانه وتعالى بيّن من حاله ضدّ ما ادعاه فقال تعالى:

﴿ كلا ﴾ وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ أي : هو مخطئ فيما يقول ويتمناه

﴿ سنكتب ﴾ أي : نحفظ عليه ﴿ ما يقول ﴾ فنجازيه به في الآخرة وقيل : نأمر الملائكة حتى يكتبوا عليه ما يقول ﴿ ونمدّ له من العذاب مدّاً ﴾ أي : نزيده بذلك عذاباً فوق عذاب كفره وقيل : نطيل مدّة عذابه

﴿ ونرثه ﴾ بموته ﴿ ما يقول ﴾ أي : ما عنده من المال والولد ﴿ ويأتينا ﴾ يوم القيامة ﴿ فرداً ﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلاً أن يؤتى ثمّ زائداً قال تعالى :

﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ (الأنعام ،)

وقيل : فرداً رافضاً لهذا القول منفرداً عنه ولما تكلم سبحانه وتعالى في مسألة الحشر والنشر تكلم الآن في الردّ على عباد الأصنام فقال:

(314/492)

﴿ واتخذوا ﴾ أي : كفار قريش ﴿ من دون الله ﴾ أي : الأوثان ﴿ آلهة ﴾ يعبدونها ﴿ ليكونوا لهم عزاً ﴾ أي : منفعة بحيث يكونون لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من الهلاك ثم أجاب تعالى بقوله تعالى:

﴿ كلا ﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ أي : تستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ (البقرة ،)

وفي آية أخرى : ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ (القصص ،)

وقيل : أراد بذلك الملائكة لأنهم كانوا يكفرون بعبادتهم ويتبرؤون منهم ويخصمونهم وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ (سبأ ،)

وقيل : إنّ الله تعالى يحي الأصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤوا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ويجوز أن يراد الملائكة والأصنام ﴿ ويكونون عليهم ضدّا ﴾ أي :

أعواناً وأعداءً .

فإن قيل : لم وحده وهو خبر عن جمع ؟

أجيب : بأنه إما مصدر في الأصل والمصادر موحدة مذكرة وإما لأنه مفرد في معنى الجمع

قال الزمخشري : والضدّ العون وحد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام : "وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامّهم وتوافقهم" انتهى . والحديث رواه أبو داوود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث لم يقل أيد . ولما ذكر تعالى ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم في الآخرة ذكر بعده ما لهم مع الشياطين في الدنيا وأنهم يتولونهم وينقادون إليهم فقال تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ ألم تر ﴾ أي : تنظر ﴿ أنّا أرسلنا ﴾ أي : سلطنا ﴿ الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ الأز والهز والاستفزاز أخوات ومعناها التهييج وشدّة الإزعاج أن تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات

(315/492)

﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ أي : تطلب عقوبتهم بأن يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم ﴿ إنما نعدّ لهم عدّاً ﴾ أي : ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم

إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ﴾ (الأحقاف ،)

وعن ابن عباس كان إذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك .

وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد ، وقيل : نعدّ أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها ، وقيل نعدّ الأوقات إلى وقت الأجل المعين لكل أحد الذي لا يتطرق إليه الزيادة والنقصان .

ثم بيّن تعالى ما سيظهر في ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين في كيفية الحشر فقال: ﴿ يوم ﴾ أي : واذكر يوم ﴿ نحشر المتقين ﴾ بإيمانهم ﴿ إلى الرحمن ﴾ أي : إلى محل كرامته وقوله تعالى ﴿ وفداً ﴾ حال أي : وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفداً ووفوداً ووفادة أي : قدم على سبيل التكرمة فهو في الأصل مصدر ثم أطلق على الأشخاص كالصف ، وقال أبو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب وراكب وصحب وصاحب وهذا الذي قاله ليس بمذهب سيبويه لأنّ فاعلاً لا يجمع على فعل عند سيبويه وأجازه الأخفش وجرى عليه الجلال المحلي فقال : وفد جمع وافد بمعنى راكب انتهى .

وقال ابن عباس : وفداً ركباناً ، وقال أبو هريرة على الإبل وقال عليّ رضي الله تعالى عنه

والله ما يحشرون على أرجلهم ولكن فوق نوق رحالها الذهب ونجائب سروجها يواقيت

إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت

(316/492)

﴿ ونسوق المجرمين ﴾ بكفرهم ﴿ إلى جهنم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وردا ً ﴾ حال أي : مشاة بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء وقيل : عطاش قد تقطعت أعناقهم من شدّة العطش لأنّ من يرد الماء لا يرد إلا بعطش وحقيقة الورد المسير إلى الماء وقوله تعالى:

﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ الضمير فيه للعباد المدلول عليهم بذكر المتقين والمجرمين وقيل للمتقين وقيل : للمجرمين وقوله تعالى : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ً ﴾ استثناء متصل على القولين الأوّلين ، منقطع على الثالث والمعنى أنّ الشافعين لا يشفعون إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا ً كقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ (الأنبياء ،)

ويدخل في ذلك أهل الكبائر من المسلمين إذ كل من اتخذ عند الرحمن عهدا ً وجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا ً وهو التوحيد فوجب دخوله تحته ويؤيده ما روى عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم : "أيعجز أحدكم أن

يتخذ عند كل صباح ومساء عند الله عهداً قالوا : وكيف ذلك قال : يقول كل صباح ومساء : اللهمّ فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأنّ محمداً عبدك ورسولك فلا تكلني إلى نفسي فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهد توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة" فظهر أنّ المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه الدلالة على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر ولما ردّ سبحانه وتعالى على عبدة الأوثان عاد إلى الردّ على من أثبت له ولداً بقوله تعالى:

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ أي : قالت اليهود : عزير ابن الله وقالت النصارى : المسيح ابن الله وقالت العرب : الملائكة بنات الله .

(317/492)

﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً ﴾ قال ابن عباس أي : منكراً وقال قتادة أي : عظيماً وقال ابن خالويه : الأدّ والإدّ العجب وقيل : العظيم المنكر والإدة الشدّة وأدّني الأمر وأدني أثقلني

وعظم عليّ وقرأ:

﴿ تكاد السموات ﴾ نافع والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ ﴿ يتفطرن منه ﴾ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففاً والباقون بعد الياء بتاء وفتح الطاء مشدّدة يقال انفطر الشيء وتفطر أي: تشقق وقراءة التشديد أبلغ لأنّ التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولأنّ أصل التفعل التكلف ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي: تنخسف بهم ﴿ وتخرّ الجبال هدّاً ﴾ أي: تسقط وتنطبق عليهم

﴿ أن ﴾ أي: من أجل أن ﴿ دعوا للرحمن ولداً ﴾ قال ابن عباس وكعب: فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولداً.

فإن قيل: كيف يؤثر القول في انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟

أجيب بوجوه؛ الأوّل: أنّ الله تعالى يقول كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوّه بها لولا حلمي وإني لا أعجل بالعقوبة، الثاني: أن يكون استعظاماً للكلمة وتهويلاً وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لقواعده وأركانه الثالث: أنّ السموات والأرض والجبال تكاد أن تفعل كذلك لو كانت تعقل هذا القول ثم نفى الله تعالى عن نفسه الولد بقوله تعالى:

﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ أي : ما يليق به اتخاذ الولد ؛ لأنّ ذلك محال أما الولادة المعروفة فلا مقالة في امتناعها وأمّا التبني فإنّ الولد لا بدّ وأن يكون شبيهاً بالوالد ولا شبيه لله تعالى لأنّ اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض إمّا من سرور أو استعانة أو ذكر جميل وكل ذلك لا يصح في حق الله تعالى

(318/492)

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ كل من في السموات والأرض ﴾ أي : أنّ كل معبود من الملائكة في السموات والأرض من الناس منهم العزير وعيسى ﴿ إلا آتي الرحمن ﴾ أي : ملتجئ إلى ربوبيته ﴿ عبداً ﴾ منقاداً مطيعاً ذليلاً خاضعاً كما يفعل العبيد ومن المفسرين كالجلال المحلي من حمله على يوم القيامة خاصة والأوّل أولى لأنه لا تخصيص في الآية

﴿ لقد أحصاهم ﴾ أي : حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزه وعلمه وقبضته وقدرته وكلهم تحت تدبيره وقهره ﴿ وعدّهم عدّاً ﴾ أي : عدّ أشخاصهم وأيامهم وأنفاسهم وأفعالهم فإنّ كل شيء عنده بمقدار لا يخفى عليه شيء من أمورهم .

﴿ وكلهم آتيه ﴾ أي : كل واحد منهم يأتيه ﴿ يوم القيامة فرداً ﴾ أي : وحيداً ليس معه

من الدنيا شيء من مال أو نصير يمنعه ولما رد سبحانه وتعالى على أصناف الكفرة وبالغ في شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال:

(319/492)

﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ أي : سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرّض منهم لأسبابها من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك . روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء قد أحبّ الله فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم توضع له المحبة في الأرض" وإذا أبغض الله العبد قال مالك لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك والسين في سيجعل إما لأنّ السورة مكية وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا قوي الإسلام والمعنى سيحدث لهم في القلوب مودة وإمّا أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله إلى خلقه بما يظهر من حسناتهم ، وروي عن كعب قال مكتوب في التوراة لا محبة لأحدٍ في الأرض حتى يكون ابتداؤها من السماء من الله عز وجل ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض ومصداق ذلك في القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودّاً وقال أبو مسلم معناه يهب لهم ما يحبون والودّ والمحبة سواء ، ولما

ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة التوحيد والنبوّة والحشر والردّ على فرق المبطلين بيّن تعالى أنه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله:

﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي : القرآن ﴿ بلسانك ﴾ أي : العربي أي : لولا أنه تعالى نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر ذلك لك ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي : المؤمنين ﴿ وتنذر ﴾ أي : تخوّف ﴿ به قوماً لدّاً ﴾ جمع ألد أي : جدل بالباطل وهم كفار مكة ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة عظيمة بليغة فقال تعالى:

(320/492)

﴿ وكم ﴾ أي : كثيراً ﴿ أهكلنا قبلهم من قرن ﴾ أي : أمّة من الأمم الماضية بتكذيب الرسل لأنهم إذا تأمّلوا وعلموا أنه لا بدّ من زوال الدنيا وأنه لا بدّ فيها من الموت وخافوا سوء العاقبة في الآخرة كانوا إلى الحذر من المعاصي أقرب . ثم أكد ذلك بقوله تعالى ﴿ هل تحس ﴾ أي : ترى وقيل : تجد ﴿ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي : صوتاً خفياً لا قال الحسن بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر أي : فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء .

تنبيه : الركز الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح أي : غيبه في الأرض وأخفاه ومنه الركاز وهو المال المدفون لخفائه واستتاره ، والحديث الذي ذكره البيضاوي

تبعاً للزمخشري وهو "من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدّق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله تعالى" حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 4 صـ 146.128﴾

(321/492)

وقال الشيخ سيد قطب:

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾

مضى السياق في السورة بقصص زكريا ومولد يحيى؛ ومريم ومولد عيسى؛ وإبراهيم واعتزاله لأبيه. ومن خلف بعدهم من المهتدين والضالين، وبالتعقيب على هذا القصص بإعلان الربوبية الواحدة، التي تستحق العبادة بلا شريك؛ وهي الحقيقة الكبيرة التي يبرزها ذلك القصص بأحداثه ومشاهده وتعقيباته.

وهذا الدرس الأخير في السورة يمضي في جدل حول عقائد الشرك وحول إنكار البعث. ويعرض في مشاهد القيامة مصائر البشر في مواقف حية حافلة بالحركة والانفعال، يشارك فيها الكون كله، سماواته وأرضه، إنسه وجنه، مؤمنوه وكافروه.

ويتنقل السياق بمشاهده بين الدنيا والآخرة ، فإذا هما متصلتان . تعرض المقدمة هنا في هذه الأرض ، وتعرض نتيجتها هنالك في العالم الآخر ، فلا تتجاوز المسافة بضع آيات أو بضع كلمات . مما يلقي في الحس أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان .

﴿ ويقول الإنسان : أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟ فوربك لنحشرنهم والشياطين ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا . ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ .

يبدأ المشهد بذكر ما يقوله ﴿ الإنسان ﴾ عن البعث . ذلك أن هذه المقولة قالتها صنوف كثيرة من البشر في عصور مختلفة ؛ فكأنما هي شبهة ﴿ الإنسان ﴾ واعتراضه المتكرر في جميع الأجيال :

﴿ ويقول الإنسان : أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ ﴾ . .

وهو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى . فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ؛ والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر :

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ؟ ﴾ .

ثم يعقب على هذا الإنكار والاستكبار بقسم تهديدي . يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ؛ أنهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه :

﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ . . ولن يكونوا وحدهم . فلنحشرنهم ﴿ والشياطين ﴾ فهم والشياطين سواء . والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود . .

وهنا يرسم لهم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثوّ الخزي والمهانة : ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ . . وهي صورة رهيبة وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ويلفحها حرها ، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها . وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع . .

وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتواً وتجبراً :

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .

. وفي اللفظ تشديد ، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع ؛ تتبعها صورة القذف في النار ، وهي الحركة التي يكملها الخيال !

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها ، فلا يؤخذ جزافاً من هذه الجموع التي لا تحصى .

والتي أحصاها الله فرداً فرداً :

﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ . . فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين !

وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ فهم يردون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتميز وتتلمظ ؛ ويرون العتاة ينزعون ويقذفون . ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ فتزحزح عنهم وينجون منها لا يكادون ! ﴿ ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ . .

ومن هذا المشهد المفزع الذي يجثوا فيه العتاة جثو الخزي والمهانة ، ويروح فيه المتقون ناجين . ويبقى الظالمون فيه جاثين . . من هذا المشهد إلى مشهد في الدنيا يتعالى فيه الكفار على المؤمنين ، ويعيرونهم بفقرهم ، ويعتزون بثرائهم ومظاهرهم وقيمهم في عالم الفناء :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات . قال الذين كفروا للذين آمنوا : أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ؟ ﴾ . .

إنها النوادي الفخمة والمجامع المترفة ؛ والقيم التي يتعامل بها الكبراء والمترفون في عصور الفساد . وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والمنتديات الفقيرة إلا من الإيمان . لا أبهة ولا زينة ، ولا زخرف ، ولا فخامة . . هذه وتلك تتقابلان في هذه الأرض وتجتمعان ! وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة : تقف بمالها وجمالها . بسلطانها وجاهها . بالمصالح تحققها ، والمغانم توفرها ، وباللذائذ والمتاع . وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع ، تهزأ بالمال والمتاع ، وتسخر من الجاه والسلطان ؛ وتدعو الناس إليها ، لا باسم لذة تحققها ، ولا مصلحة توفرها ، ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذي سلطان . ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردة من كل زخرف ، عاطلة من كل زينة ، معتزة بعزة الله دون سواه . . لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد والاستهتار ، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئاً في هذه الأرض ، إنما هو القرب من الله ، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب .

وهؤلاء هم سادة قريش تتلى عليهم آيات الله على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فيقولون للمؤمنين الفقراء : ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ؟ ﴾ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ، أم الفقراء الذين يلتفون حوله . أيهم خير مقاماً وأحسن نادياً ؟ النضير بن الحارث وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة وإخوانهم من السادة ، أم بلال وعمار وخباب وإخوانهم من المعدمين ؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيراً أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا قيمة لهم في مجتمع قريش ولا خطر ؟ وهم يجتمعون في بيت فقير عاطل كبيت

خباب ؟ ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب النوادي الفخمة والمكانة الاجتماعية البارزة ؟ .

إنه منطق الأرض . منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان .

(324/492)

وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء ، عاطلة من عوامل الإغراء . ليقبل عليها من يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات ؛ وينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع ، ومن يشتهي الزينة والزخرف ، ومن يطلب المال والمتاع .

ويعقب السياق على قولة الكفار التياهين ، المتباهين ، بما هم فيه من مقام وزينة بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين ، على ما كانوا فيه من مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين :

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾ . .

فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم وزينتهم ومظهرهم . ولم يعصمهم شيء من الله حين كتب عليهم الهلاك .

ألا إن هذا الإنسان لينسى . ولو تذكر وتفكر ما أخذه الغرور بمظهر ؛ ومصارع الغابرين من حوله تلفته بعنف وتنذره وتحذره ، وهو سادر فيما هو فيه ، غافل عما ينتظره مما لقيه من كانوا قبله وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً .

يعقب السياق بتلك اللفتة ثم يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم في صورة مباهلة بأن من كان من الفريقين في الضلالة فليزده الله مما هو فيه ؛ حتى يأتي وعده في الدنيا أو في الآخرة :

﴿ قل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جندا ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردا ﴾ . .

(325/492)

فهم يزعمون أنهم أهدى من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم أغنى وأبهى . فليكن ! وليدع محمد ربه أن يزيد الضالين من الفريقين ضلالاً ، وأن يزيد المهتدين منهما اهتداء . . حتى إذا وقع ما يعدهم ؛ وهو لا يعدو أن يكون عذاب الضالين في الدنيا بأيدي المؤمنين ، أو عذابهم الأكبر يوم الدين فعندئذ سيعرفون : أي الفريقين شر مكاناً وأضعف جندا .

ويومئذ يفرح المؤمنون ويعتزون ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردا ﴾ خير من كل ما يتباهى به أهل الأرض ويتيهون .

ثم يستعرض السياق نموذجاً آخر من تبجح الكافرين ، وقولة أخرى من أقوالهم يستنكرها ويعجب منها :

﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا ؟ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟ كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً . ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ﴾ . .

ورد في سبب نزول هذه الآيات بإسناده عن خباب بن الأرث قال : كنت رجلاً قيناً (حداداً) وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله ، لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث .

قال : فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثَم مال وولد ، فأعطيتك ! فأنزل الله : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالاً وولدا . . . ﴾ .

(326/492)

وقولة العاص بن وائل نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث ؛ والقرآن يعجب من أمره ، ويستنكر ادعاءه : ﴿ أطلع الغيب ؟ ﴾ فهو يعرف ما هنالك . ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ فهو واثق من تحققه ؟ ثم يعقب : ﴿ كلا ﴾ . وهي لفظة نفي وزجر . كلا لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الله عهداً ، إنما هو يكفر ويسخر ؛ فالتهديد إذن والوعيد هو اللائق لتأديب الكافرين السافرين : ﴿ كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ﴾ . . سنكتب ما يقول فنسجله عليه ليوم الحساب فلا يُنسى ولا يقبل المغالطة . . وهو تعبير تصويري للتهديد ، وإلا فالمغالطة مستحيلة ، وعلم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة . ونمد له من العذاب مداً ، فنزيده منه ونطيله عليه ولا نقطعه عنه ! ويستمر السياق في التهديد على طريقة التصوير أيضاً : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أي نأخذ ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت المورث ! ﴿ ويأتينا فردا ﴾ لا مال معه ولا ولد ولا نصير له ولا سند ، مجرداً ضعيفاً وحيداً فريداً .

فهل رأيت إلى هذا الذي كفر بآيات الله وهو يحيل على يوم لا يملك فيه شيئاً ؟ يوم يجرد من كل ما يملك في هذه الدنيا ؟ إنه نموذج من نماذج الكفار . نموذج الكفر والادعاء والاستهتار . .

ويستطرد السياق في استعراض ظواهر الكفر والشرك :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم

ضدا . ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا . يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا . لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ .

(327/492)

فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله يتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة ، والغلب والنصرة ، وكان فيهم من يعبد الملائكة ومن يعبد الجن ويستنصرونهم ويتقوون بهم . . كلا ! فسيكفر الملائكة والجن بعبادتهم ، وينكرونها عليهم ، ويبرأون إلى الله منهم ، ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ بالتبرؤ منهم والشهادة عليهم .

وإن الشياطين ليهيجونهم إلى المعاصي . فهم مسلطون عليهم ، مأذون لهم في إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم . .

﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ ولا يضق صدرك بهم ؛ فإنهم ممهلون إلى أجل قريب ، وكل شيء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود . . والتعبير يصور دقة الحساب تصويراً محسوساً ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ . . وإنه لتصوير مرهوب ، فيا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه ، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير . . إن الذي يحس أن رئيسه في الأرض يتتبع

أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان .

. فكيف بالله المنتقم الجبار ؟ !

وفي مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة العد والحساب . فأما المؤمنون فقادمون على الرحمن وفداً في كرامة وحسن استقبال : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ . وأما المجرمون فمسوقون إلى جهنم ورداً كما تساق القطعان . ﴿ ونسوق المجرمين إلى الجهنم وردا ﴾ . ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدم عملاً صالحاً فهو عهد له عند الله يستوفيه . وقد وعد الله من آمن وعمل صالحاً أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ولن يخلف الله وعداً .

ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين . ذلك حين يقول المشركون من العرب : الملائكة بنات الله . والمشركون من اليهود : عزير ابن الله . والمشركون من النصارى : المسيح ابن الله . . فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التي تنكرها فطرته ، وينفر منها ضميره :

﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئًا إدّاً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ . .

إن جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو : جو الغضب والغيرة والانتفاض ! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض ، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية ، والمساس بقداسة الذات العلية ، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره .

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال ، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف .

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق : ﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ﴾ حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع : ﴿ لقد جئتم شيئاً إدا ﴾ ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر ، ويغضب الكون كله لبارئه . وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته ؛ وتجافي ما وقر في ضميره وما استقر في كيانه ؛ وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ . .

وفي وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب :

﴿ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً ، فلا ولد ولا شريك ،

إنما خلق وعبيد .

وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان . . ﴿ لقد أحصاهم وعدهم عدا ﴾ فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ فعين الله على كل فرد . وكل فرد يقدم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد . حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان .

(329/492)

وفي وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة ، إذا المؤمنون في ظلال ندية من الود السامي :

ود الرحمن :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ .

.

وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، وروْح رضى يلمس النفوس . وهو ود يشيع في الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلئ به الكون كله ويفيض . .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادي في أهل

السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول في الأرض . وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضه أهل السماء ؛ ثم يوضع له البغضاء في الأرض " .

وبعد فإن هذه البشرى للمؤمنين المتقين ، وذلك الإنذار للجاحدين الخصيمين هما غاية هذا القرآن . ولقد يسره الله للعرب فأنزله بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم ليقرأوه :

﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّا ﴾ . .

وتختم السورة بمشهد يتأمله القلب طويلاً ؛ ويرتعش له الوجدان طويلاً ؛ ولا ينتهي الخيال من استعراضه

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ ﴾ .

(330/492)

وهو مشهد يبدؤك بالرجة المدمرة ، ثم يغمرك بالصمت العميق . كأنما يأخذ بك إلى وادي الردى ، ويقفك على مصارع القرون ؛ وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر ، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك ، والحياة التي كانت تنبض وتمرح . والأماني

والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع . . ثم إذا الصمت يخيم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار ، لا نأمة . لا حس . لا حركة . لا صوت . . ﴿ هل تحس منهم من أحد ؟ ﴾ انظر وتلفت ﴿ هل تسمع لهم ركزا ﴾ تسمع وأنصت . ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب . وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2317 . 2322 ﴾

(331/492)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ويقول ﴾ النفس الإنسانية لجهلها بالحقائق إذا مات عن الصفات البشرية ﴿ أخرج حياً ﴾ بالصفات الروحانية . ﴿ ولنحشرهم والشياطين ﴾ فلكل شخص قرين من الشياطين ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم ﴾ القهر والطبيعة ﴿ وإن منكم ﴾ من الأنبياء والأولياء والمؤمنين والكافرين إلا هو وارد هاوية الهوى بقدم الطبيعة ﴿ حتماً مقضياً ﴾ لأن حكمته الأزلية اقتضت خلق هذا النوع المركب من العلوي والسفلي ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ الهوى يقدم الشريعة على طريق الطريقة للوصول إلى الحقيقة ﴿ آياتنا

﴿ من الحقائق والأسرار ﴾ قال الذين كفروا ﴾ ستروا الحق ﴿ للذين آمنوا ﴾ تحقيقاً وإيقاناً ﴿ وكم أهلكنا ﴾ بحب الدنيا والإغراق في بحر الشهوات والإحراق بنار المناصب للعرضيات ﴿ أما العذاب ﴾ وهو الموت على الإنكار والغفلة ﴿ وإما الساعة ﴾ وهي الإماتة عن الصفات البشرية عند قيام قيامة الشوق والمحبة . ﴿ فسيعلمون ﴾ حزب الله من حزب الشيطان ﴿ ويزيد الله ﴾ بالترقي من الإيمان إلى الإيقان إلى العيان ﴿ أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ من فوائد ذكر اسم الرحمن ههنا أن الرحمانية أمهلتهم حتى قالوا ما قالوا وإلا فالألوهية مقتضية لإعدامهم في الحال ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ عن مشيئة وإرادة بخلافهم في الدنيا فإنهم يظنون أن لهم إرادة واختياراً . ﴿ فإنما يسرنا ﴾ فيه أنه لولا تيسير الله درايته على قلب النبي صلى الله عليه وسلم وإلا فكيف يسع ظروف الحروف المحدثة المتناهية حقائق كلامه الأزلية غير المتناهية ﴿ وكم أهلكنا ﴾ في تيه الضلالة ﴿ أو تسمع لهم ركزاً ﴾ بالثناء الحسن عليهم والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 512 ﴾

(332/492)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ واذكر فِى الكتاب إبراهيم إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً نَّبِيّاً ﴾ [مريم : 41] أمر للحبيب أن يذكر الخليل وما من الله تعالى به عليه من أحكام الخلة ليستشير المستعدين إلى التحلي بما أمكن لهم منها .

والصديق على ما قال ابن عطاء القائم مع ربه سبحانه على حد الصدق في جميع الأوقات لا يعارضه في صدقه معارض بحال ، وقال أبو سعيد الخزاز : الصديق الآخذ بأتم الحظوظ من كل مقام سنى حتى يقرب من درجات الأنبياء عليهم السلام ، وقال بعضهم : من تواترت أنوار المشاهدة واليقين عليه وأحاطت به أنوار العصمة .

وقال القاضي : هو الذي صعدت نفسه تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضة إلى أوج العرفان حتى اطلع على الأشياء وأخبر عنها على ما هي عليه ، ومقام الصديقية قيل : تحت مقام النبوة ليس بينهما مقام .

وعن الشيخ الأكبر قدس سره إثبات مقام بينهما وذكر أنه حصل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

والمشهور بهذا الوصف بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه وليس ذلك مختصاً به ، فقد أخرج أبو نعيم في المعرفة .

وابن عساكر .

وابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أبي ليلى الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الصديقون ثلاثة ، حبيب النجار مؤمن آل يس الذي قال : ﴿ قَالَ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ ، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ وعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه وهو أفضلهم ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يا أبت يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] "

الخ فيه من لطف الدعوة إلى اتباع الحق والإرشاد إليه ما لا يخفى .

(333/492)

وهذا مطلوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما إذا كان ذلك مع الأقارب ونحوهم قال : ﴿ سلام عليك ﴾ [مريم : 47] هذا سلام الأعراض عن الأغيار وتلطف الأبرار مع الجهال ، قال أبو بكر بن طاهر : أنه لما بدا من آزر في خطابه عليه السلام ما لا يبدو إلا من جاهل جعل جوابه السلام لأن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [مريم : 84] أي أهاجر عنكم بديني ، ويفهم .

منه استحباب هجر الاشرار .

وعن أبي تراب النخشبي صحبة الإشرار تورث سوء الظن بالاخبار ، وقد تضافرت الأدلة السمعية والتجربة على أن مصاحبتهم تورث القسوة وتثبط عن الخير ﴿ وادعوا ربّى عَسَى أَن لا أَكُونَ بِدُعَاء ربّى شَقِيّا ﴾ [مريم : 48] فيه من الدلالة على مزيد أدبه عليه السلام مع ربه عز وجل ما فيه ، ومقام الخلة يقتضي ذلك فإن من لا أدب له لا يصلح أن يتخذ خليلاً ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم : 49] كأن ذلك كان عوضاً عمن اعتزل من أبيه وقومه لئلا يضيق صدره كما قيل : ولما اعتزل نبينا صلى الله عليه وسلم الكون أجمع ما زاغ البصر وما طغى عوض عليه الصلاة والسلام بأن قال له سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] .

(334/492)

"واذكر" أيها الحبيب "في الكتاب موسى" الكليم "إنه كان مخلصاً" لله تعالى في سائر شؤونه ، قال الترمذي : المخلص على الحقيقة من يكون مثل موسى عليه السلام ذهب إلى الخضر على السلام ليتأدب به فلم يسامحه في شيء ظهر له منه ﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الايمن

وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] قالوا النداء بداية والنجوى نهاية ، النداء مقام الشوق والنجوى مقام كشف السر ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ [مريم : 53] قيل : علم الله تعالى ثقل الأسرار على موسى عليه السلام فاختار له هارون مستودعاً لها فهورون عليه السلام مستودع سر موسى عليه السلام ، ﴿ واذكر فِي الكتاب إسماعيل إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ [مريم : 54] بالصبر على بذل نفسه أو بما وعد به استعداده من كمال التقوى لربه جل وعلا والتحلي بما يرضيه سبحانه من الأخلاق ﴿ واذكر فِي الكتاب إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً نَّبِيّاً وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ [مريم : 56 ، 57] وهو نوع من القرب من الله تعالى به عليه عليه السلام .

وقيل : السماء الرابعة والتفضل عليه بذلك لما فيه من كشف بعض أسرار الملكوت أولئك الذين أنعم الله عليهم بما لا يحيط نطاق الحصر به من النعم الجليلة ﴿ أُولَئِكَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين ﴾ مما كشف لهم من آياته تعالى ، وقد ذكر أن القرآن أعظم مجلى لله عز وجل ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ [مريم : 58] من مزيد فرحهم بما وجدوه أو من خوف عدم استمرار ما حصل لهم من التجلي :

ونبكي إن نأوا شوقاً إليهم . . .

ونبكي إن دنوا خوف الفراق

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] قيل : الرزق ههنا مشاهدة الحق سبحانه ورؤيته عز وجل وهذا لعموم أهل الجنة وأما المحبوبون والمشتاقون فلا تنقطع عنهم المشاهدة لمحة ولو حجبوا لماتوا من ألم الحجاب ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] مثلا يلتفت إليه ويطلب منه شيء ، وقال الحسين بن الفضل : هل يستحق أحد أن يسمى باسم من أسمائه تعالى على الحقيقة ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71] وذلك لتظهر عظمة قهره جل جلاله وآثار سطوته لجميع خلقه عز وجل ثم ننجى الذين اتقوا جزاء تقواهم ﴿ ونذر الظالمين فيها جيثا ﴾ [مريم : 72] جزاء ظلمهم ، وهذه الآية كم أجرت من عيون العيون العيون .

(336/492)

فعن عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه أنه كان يبكي ويقول : قد علمت أني وارد النار ولا أدري كيف الصدر الصدر بعد الورود ، وعن الحسن كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه : هل أتاك أنك وارد ؟ فيقول : نعم

فيقول : هل أتاك أنك خارج ؟ فيقول لا فيقول : ففيم الضحك إذن ؟ ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [مريم : 75] لما افتخروا بحظوظ الدنيا التي لا يفتخر بها إلا ذوو الهمم الدنية رد الله تعالى عليهم بأن ذلك استدراج ليس بإكرام والإشارة فيه أن كل ما يشغل عن الله تعالى والتوجه إليه عز وجل فهو شر لطاحبه ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ [مريم : 85] ركبانا على نجائب النور ، وقال ابن عطاء : بلغني عن الصادق رضي الله عنه أنه قال : ركبانا على متون المعرفة ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض إِلا اتِى الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] فقيراً ذليلاً منقاداً مسلوب الأنانية بالكلية ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم : 96] في القلوب المفطورة على حب الله تعالى وذلك أثر محبته سبحانه لهم ، وفي الحديث " لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به " الخ ، ولا يشكل على هذا أنا نرى كثيراً من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ممقوتين لأن الذين يفتنونهم قد فطرت قلوبهم على الشر وإن لم يشعروا بذلك ، ومن هنا يعلم أن بغض الصالحين علامة خبث الباطل ﴿ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ [الحشر : 10] وقيل : معنى ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم : 96] سيجعل لهم لذة وحلاوة في الطاعة ، والأخبار تؤيد ما تقدم والله تعالى أعلم وله الحمد على اتمام تفسير سورة مريم ونسأله جل شأنه التوفيق لاتمام

تفسير سائر سور كتابه المعظم بحرمة نبيه صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(337/492)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (3)

الإعراب :

(ذكر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أو هذا " 1 " ، (عبده) مفعول به للمصدر رحمة منصوب (زكريّا) عطف بيان - أو بدل - من عبد ، منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

جملة : " (هذا) ذكر . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

3 - (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بـ (رحمة) " 2 " ، (نداء) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " نادى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه

الصرف :

(خفيّا) ، صفة مشبّهة من فعل خفيّ يخفى الثلاثيّ باب فرح ، وزنه فعيل وقد أدغمت ياء فعيل مع لامه

---

(1) يجوز أن يكون مبتدأ مؤخّر خبره محذوف أي في ما يتلى عليك ذكر . . .

(2) وأجاز العكبريّ تعليقه بذكر ، وفيه بعد .

(338/492)

البلاغة

- الاحتراس :

في قوله تعالى "نِداءً خَفِيًّا " .

والاحتراس : عبارة عن أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل أو لبس أو إيهام ، فيفطن لذلك حال العمل ، فيأتي في صلب الكلام بما يخلصه من ذلك كله .

وهو في هذه الآية الكريمة ، أتى بكلمة خفيا ، مراعاة لسنة اللّه في إخفاء دعوته ، لأن الجهر والإخفاء عند اللّه سيان ، فكان الأولى أن يحترس مما يوهم الرياء أمام الناس .

الفوائد

- الأحرف في أوائل السور :

تعرضنا سابقا لما قيل حول هذه الأحرف .

ولو صح لدينا نصّ من الحديث أو القرآن يقول لنا القول الفصل في معاني هذه الأحرف لأغنانا عن اجتهاد المجتهدين وطالما لم نقع على نص يريحنا من التأويل والترجيح فلا بد لنا من تأكيد ما ذهبنا إليه في حديث سابق والذي يتلخص بما يلي :

(339/492)

" بما أن لفظ هذه الأحرف كاف ، ها ، يا ، عين ، صاد ، هو نفس اللفظ الهجائي المتعارف عليه لدى علماء اللغة ، فما علينا إلا أن نذهب لتحقيق أحد الاعتبارين :

الأول : أن اللّه يريد فيما يريده من رسالة رسوله ، وإنزال الوحي عليه ، أن يعلمه ويعلمنا أحرف لغتنا ، لما لأحرف اللغة من دور خطير في رسالة العلم والمعرفة

وفي وسيلة التخاطب والتفاهم بين بني الإنسان ، والتي هي لحمة التفريق بين الإنسان وسائر الحيوان .

الثاني : أن يكون لهذه الأحرف الهجائية ، من القداسة والأسرار لدى اللّه ، كما يزعم

أرباب " الجمّل الكبير والجمّل الصغير ومن ينحو هذا النحو الذي يشبه السحر وما هو بالسحر ، أن يكون لها من المقام الخطير عند اللّه ، ما يجعلها موضوع قسمه ، ومحور اهتمامه واللّه أعلم .

[سورة مريم (19) : الآيات 4 إلى 6]

قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف حذفت منه أداة النداء ، منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف - أصله ربّي - و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (منّي) متعلّق بحال من العظم (الواو) عاطفة في الموضعين (شيبا) تمييز محوّل عن الفاعل منصوب (بدعائك) متعلّق بـ (شقيّا) ، وقد أضيف المصدر دعاء إلى المفعول أي (بدعائي إيّاك) ، (شقيّا) خبر أكن منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " النداء وجوابها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي وهن العظم . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " وهن العظم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " اشتعل الرأس . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة وهن العظم " 1 " .

وجملة : " لم أكن . . شقيّا " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " النداء : ربّ (الثانية) . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

5 – (الواو) عاطفة (من ورائي) متعلّق بحال من الموالي " 2 " ، (الواو) حاليّة قبل كانت (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هب) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (لي) متعلّق بـ (هب) ، (من لدنك) متعلّق بـ (هب) ، (وليّا) مفعول به منصوب .

وجملة : " إنّي خفت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " خفت الموالي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كانت امرأتي عاقرا " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " هب لي . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان هذا حالي فهب لي .

6 – (النون) للوقاية في (يرثني) ، (من آل) متعلّق بـ (يرث) ، (رضيّا) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " يرثني . . . " في محلّ نصب نعت لـ (وليّا) .

وجملة : " يرث من آل يعقوب . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يرثني .

---

(1) والرابط ضمير مقدّر أي : اشتعل الرأس منّي شيبا .

(2) يجوز تعليقه بالموالي لما في اللفظ من معنى الفعل أي الذين يلون الأمر من بعدي . . .

[. . . . .]

(341/492)

وجملة : " النداء : ربّ (الثالثة) " لا محلّ لها اعتراضيّة لتأكيد الاسترحام .

الصرف :

(شيبا) ، مصدر سماعيّ لفعل شاب يشيب باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وثمّة مصادر أخرى هي شيبة بفتح الشين ومشيب بفتح الميم وكسر الشين .

(الموالي) ، جمع مولى وهو القريب العاصب ، اسم وزنه مفعل بفتح الميم والعين .

(342/492)

(رضيّا) ، صفة مشبّهة من رضيّ يرضى باب فرح ، وزنه فعيل ، وقد أدغمت ياء فعيل مع اللام ، وأصلها واو من الرضوان ، فلمّا اجتمعت الياء والواو والأولى ساكنة قلبت ياء وأدغمت مع الياء الأخرى .

البلاغة

- الاستعارة :

في قوله تعالى " اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً " .

شبه انتشار الشيب ، وكثرته باشتعال النار في الحطب ، وأستعير الاشتعال للانتشار ، واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر . ففيه استعارة تبعية .

الفوائد

- دور " الشيب في الأدب العربي " عزّ شأنه وصف الشيب بالاشتعال ، فكما أن النار لذّاعة حرّاقة تؤلم من تلامسه ، فكذلك الشيب ، يؤلم الأشيب . كيف لا ، وقد صدت عنه الأوانس ، واقتحمته العيون ، وقد رمق ذلك ابن الرومي فقال :

وكنت جلاء للعيون من القذى فأصبحت تقذى بشيبي وترمد

هي الأعين النجل التي كنت تشتكي مواقعها في القلب والرأس أسود

ومنه قول أبي تمام :

يا نسيب التغام ذنبك أبقى حسناتي عند الحسان ذنوبا

لو رأى اللّه أن في الشيب خيرا جاورته الأبرار في الخلد شيبا

وإمام ذلك عمر بن أبي ربيعة حيث قال :

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي فأعرضن عني بالخدور الغواضر

وطيب اللّه ثرى شوقي ، حيث جلس على ضفاف " البردوني " في زحلة ، واستمع إلى وشوشات الحلي لدى الأوانس ، فهاجه ذلك ، وقد نيف على السبعين ، فقال :

شيّعت أحلامي بقلب باك ولمحت من طرق الملاح شباكي

ورجعت أدراج الشباب ووردة أمشي مكانهما على الأشواك

وفي الأدب العربي شعره ونثره حول الشيب ، والصباغ ، ونصل البياض من تحت السواد ، الكثير الكثير .

[سورة مريم (19) : آية 7]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)

الإعراب :

(زكريّا) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف في محلّ نصب (بغلام) متعلّق بـ (نبشّرك) ، (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان

(قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (سميّا) وهو مفعول به منصوب .

جملة : " النداء : يا زكريّا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا نبشّرك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " نبشّرك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " اسمه يحيى . . . " في محلّ جرّ نعت لغلام .

وجملة : " لم نجعل . . . " في محلّ جرّ نعت ثان لغلام " 1 " .

الصرف :

(سميّا) ، اسم مشتقّ وزنه فعيل بمعنى مفعول أي مسمّى ، وسمّي فيه إعلال بالقلب ، أصله سميو ، اجتمعت الياء والواو وجاءت الأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى .

الفوائد

1 - الاسم واشتقاقه :

في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، بحث طريف حول أصل " الاسم " واشتقاقه ، وحصيلة الخلاف ، أن البصريين يرون أنه مشتق من " السمو " ، والكوفيين يرون أنه مشتق من " السمة " وهي العلامة ولدى التحقيق يرجح رأي

البصريين .

وسما يسمو سموا إذا علا ، وكأن الاسم هو ما علا وظهر ، فأصبح علما على المسمّى .

إذن : الاسم كلمة تدل على المسمّى دلالة الإشارة دون الإفادة .

ويشتق من الاسم : أسميت وسمّيت ، وهما متعديان لمفعولين ، نحو : سمّيته

---

(1) أو في محلّ نصب حال من غلام لأنّه وصف .

(344/492)

عليّا ، ويجوز جره بحرف الجر والاسم قسمان اسم ذات : وهو ما وضع لمعنى قائم بنفسه ، مثل " زيد " . واسم معنى : وهو ما وضع لمعنى قائم بغيره ، مثل السواد والبياض والأخذ والعطاء إلخ . والاسم يكون ثلاثة أحرف أو أربعة أو خمسة ، فإذا أنقص عن ثلاثة ، فقد حذف منه الناقص وإن زاد عن خمسة ، فذلك بواسطة أحرف الزيادة ، وهي ليست من أصل الاسم . وللبحث توابع ، فاطلبها في المطولات من كتب النحو واللغة .

(345/492)

---

2 - أشرنا فيما سبق إلى الظرفين " قبل وبعد " وما يختصان به ونذكر القارئ مرة ثانية ، أن قبل وبعد ، إذا لحظ المضاف إليه ولم يذكر يبنيان على الضم ، نحو : " وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً " أي من قبل ذلك .

[سورة مريم (19) : آية 8]

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)

الإعراب :

(أنّى) اسم استفهام مبنيّ على السكون في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة متعلّق بحال من غلام أو من الياء في (لي) و(لي) متعلّق بمحذوف خبر يكون (الواو) حاليّة في الموضعين (من الكبر) متعلّق بـ (بلغت) " 1 " ، (عتيّا) مفعول به منصوب " 2 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء : ربّ " في محلّ نصب مقول القول " 3 "

---

(1) أو بمحذوف حال من (عتيّا) .

(2) أجاز العكبريّ أن يكون مصدرا في موضع الحال أي عاتيا أو ذا عتوّ ، وأن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر لأنه يلاقيه في المعنى ، وأن يكون تمييزا . . وكلّ ذلك على تقدير زيادة (من) وهو خلاف ما قرّره الجمهور من حالات زيادة (من) .

(3) يجوز أن تكون اعتراضيّة وجملة يكون لي غلام مقول القول .

وجملة : " يكون لي غلام . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : "كانت امرأتي عاقرا . . . " في محلّ نصب حال من الياء في (لي) .

وجملة : " بلغت . . . " في محلّ نصب حال أو معطوفة على جملة الحال

الصرف :

(عتيّا) ، مصدر عتا يعتو عتوّا – بضم العين وكسرها كبّر .

واللفظ هنا بكسر العين – وهي قراءة حفص – وفيه إعلال من عدّة وجوه ، أصله عتوو كقعود ، كسرت التاء تخفيفا لثقل الضمّتين فانقلبت الواو الأولى إلى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فأصبح عتيو ، ثمّ جرى قلب الواو الثانية ياء لمجيء الياء والواو ، والأولى ساكنة ، فأصبح عتيّ بضمّ العين وكسر التاء ، ثمّ كسرت العين للمجاورة فأصبح عتيّ .

البلاغة

– الإيجاز :

في قوله تعالى " أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ " .

الظاهر أن نبي اللّه زكريا ، استبعد ما وعده اللّه عز وجل بوقوعه . ولا يجوز للنبي النطق بما

لا يسوغ ، أو بما في ظاهره الإيهام ، فجاء الكلام موجزا ، وتقديره : هل تعاد لنا قوتنا وشبابنا فنرزق بغلام ؟ ! أو هل يكون الولد لغير الزوجة العاقر ؟ .

[سورة مريم (19) : آية 9]

قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9)

الإعراب :

(كذلك) خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر كذلك (عليّ) متعلّق بـ (هيّن) ، (الواو) حاليّة (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق

ب (خلقتك) ، (الواو) حاليّة (تك) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم السكون الظاهرة على النون المحذوفة للتخفيف ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (شيئا) خبر تك منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " (الأمر) كذلك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال ربّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " هو عليّ هيّن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قد خلقتك . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لم تك شيئا . . . " في محلّ نصب حال أو معطوفة على جملة الحال .

الصرف :

(هيّن) ، صفة مشبّهة من هان يهون وزنه فعيل ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله هيون التقت الياء مع الواو والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الثانية .

[سورة مريم (19) : الآيات 10 إلى 11]

---

(1) اختلف في فاعل الفعل ، فقيل هو اللّه جلّ وعلا ، وقيل هو الملك المبلّغ للبشارة وهو جبريل عليه السلام وإن لم يجر ذكره من قبل .

(2) كررت الجملة للاهتمام كما يقول الجمل في حاشيته .

(347/492)

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

الإعراب :

(لي) متعلّق بمفعول ثان لفعل اجعل (آية) مفعول به أوّل منصوب (آيتك) مبتدأ مرفوع ومضاف إليه (أن) حرف مصدريّ و(لا) نافية (ثلاث) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تكلّم) ، (ليال) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة

بسبب التنوين وهو تنوين العوض (سويّا) حال من الفاعل في فعل تكلّم أي وأنت سليم لا لعلّة " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ألّا تكلّم . . .) في محلّ رفع خبر المبتدأ آيتك .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء : ربّ . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة : " اجعل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة .

وجملة : " آيتك ألّا تكلّم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تكلّم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

11 - (الفاء) عاطفة (على قومه) متعلّق بـ (خرج) وكذلك (من المحراب) ، (الفاء) عاطفة (إليهم) متعلّق بفعل أوحى (أن) حرف تفسير " 3 " ، (بكرة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (سبّحوا) .

وجملة : " خرج . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الثانية .

وجملة : " أوحى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خرج .

---

(1) وإذا كان اللفظ عائدا على الليالي فهو نعت منصوب لـ (ثلاث ليال) .

(2) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة للاسترحام ، وجملة اجعل . . . هي مقول القول .

(3) أو هو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل (أن سبّحوا . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أوحى .

(348/492)

وجملة : " سبّحوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

الصرف :

(ليال) ، جمع ليلة أو ليل ، وقيل الليلة واحدة الليل ، اسم للوقت الممتدّ من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر أو طلوع الشمس ، وفيه حذف الياء لأنّه مجرّد من ال والإضافة شأن المنقوص .

(سويّا) ، صفة مشبّهة من سوي يسوى باب فرح وزنه فعيل ، وقد أدغمت ياء فعيل مع لامه .

(بكرة) ، الاسم من بكر إلى الشيء وعليه ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

[سورة مريم (19) : الآيات 12 إلى 15]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (14) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ

حَيًّا (15)

الإعراب :

(يحيى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف في محلّ نصب (بقوّة) متعلّق بحال من فاعل خذ و(الباء) للملابسة ، (الواو) استئنافيّة (الحكم) مفعول به ثان منصوب (صبيّا) حال منصوبة من ضمير المفعول .

جملة : " النداء : يا يحيى . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قال تعالى : يا يحيى . .

وجملة : " خذ الكتاب . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " آتيناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

13 – (الواو) عاطفة (حنانا) معطوف على الحكم " 1 " منصوب (لدن) اسم مبنيّ على السكون في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بنعت لـ (حنانا) ، (الواو) الأخيرة ، عاطفة – أو استئنافيّة – وجملة : "كان تقيّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناه – أو هي مستأنفة .

14 – (الواو) عاطفة (برّا) معطوف على (تقيّا) منصوب (بوالديه) متعلّق بـ (برّا) ، وعلامة الجرّ الياء (الواو) عاطفة (عصيّا) خبر ثان للناقص يكن .

وجملة : " لم يكن جبّارا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان تقيّا .

15 - (الواو) عاطفة (سلام) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (عليه) متعلّق بخبر المبتدأ (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالخبر ، ونائب الفاعل للفعلين (ولد ، يبعث) والفاعل للفعل (يموت) ضمير يعود على يحيى (حيّا) حال منصوب من نائب الفاعل .

وجملة : " سلام عليه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يكن جبّارا وجملة : " ولد . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يموت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يبعث . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

الصرف :

(صبيّا) ، صفة مشبّهة من صبا يصبو باب نصر ، وزنه فعيل ،

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف .

(2) جاء المبتدأ نكرة لأنّه دالّ على العموم وهو معنى المدح .

وفيه إعلال بالقلب ، أصله صبيو ، فلما اجتمعت الياء والواو في الكلمة وكانت الأولى منهما ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى (حنانا) ، مصدر سماعيّ لفعل

حنّ يحنّ باب ضرب ، عطف وأشفق ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وثمّة مصدر آخر هو حنّة أو هو مصدر مرّة .

(تقيّا) ، صفة مشبّهة من وقى يقي الثلاثيّ ، وزنه فعيل ، وقد أدغمت ياء فعيل مع لام الكلمة . وفيه إبدال فاء الكلمة - وهي الواو - تاء كما تقلب قبل تاء الافتعال لأنّ الواو تقلب إلى تاء إذا جاءت قبل تاء الافتعال .

(برّا) ، صفة مشبّهة من برّ يبرّ من بابي نصر وضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(عصيّا) ، صفة مشبّهة من عصى يعصي باب ضرب ، وزنه فعيل ، وقد أدغمت ياء فعيل مع لام الكلمة وهي الياء .

[سورة مريم (19) : الآيات 16 إلى 17]

(350/492)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (17)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في الكتاب) متعلّق بـ (اذكر) ، (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب بدل

اشتمال من مريم أو من محذوف هو مضاف أي خبر مريم (من أهلها) متعلّق بـ (انتبذت) ، (مكانا) مفعول به منصوب عامله انتبذت " 1 " .

---

(1) أو هو ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (انتبذت) .

(351/492)

جملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " انتبذت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه 17 - (الفاء) عاطفة (من دونهم) متعلّق بمفعول به ثان " 1 " ، (الفاء) عاطفة (إليها) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (الفاء) عاطفة (لها) متعلّق بـ (تمثّل) ، (بشرا) حال منصوبة " 2 " ، (سويّا) نعت لـ (بشرا) منصوب .

وجملة : " اتّخذت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة انتبذت . .

وجملة : " أرسلنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة اتّخذت .

وجملة : " تمثّل . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أرسلنا .

الصرف :

(شرقيّا) ، اسم منسوب إلى الشرق للجهة المعروفة ، وزنه فعليّ بفتح الفاء .

[سورة مريم (19) : آية 18]

قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18)

الإعراب :

(بالرحمن) متعلّق بـ (أعوذ) ، (منك) متعلّق بـ (أعوذ) ، (إن) حرف شرط جازم (كنت) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . . و(التاء) اسمه (تقيّا) خبر كنت منصوب .

جملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي أعوذ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أعوذ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من (حجابا) إذا ضمّن فعل اتّخذت معنى أرسلت أو وضعت .

(2) الذي سوّغ مجيء الحال جامدة أنّها وصفت . [. . . . .]

وجملة : " كنت تقيّا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف تقديره فاتركني أو فاتته عنّي .

[سورة مريم (19) : آية 19]

قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (اللام) للتعليل (أهب) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل أنا (لك) متعلّق بـ (أهب) " 1 " ، (غلاما) مفعول به منصوب (زكيّا) نعت لغلام منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن أهب . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (رسول) " 2 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أنا رسول . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أهب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

الصرف :

(أهب) ، فيه إعلال بالحذف فهو مضارع المثال وهب باب فتح وزنه أعل بفتحتين .

[سورة مريم (19) : آية 20]

قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

---

(1) الفعل وهب ينصب المفعول الثاني مباشرة : وهبتك المال أو بوساطة حرف الجرّ :

وهبت لك المال .

(2) أو متعلّق بفعل مقدّر يفسّره رسول أي أرسلني ربّك لأهب . . .

(353/492)

الإعراب :

(أنّى يكون لي غلام) مرّ إعرابها " 1 " ، (الواو) حاليّة ، والثانية عاطفة (أك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف (بغيّا) خبر أك منصوب .

جملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكون لي غلام . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم يمسسني بشر . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لم أك بغيّا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يمسسني

الصرف :

---

(1) في الآية (8) من هذه السورة .

(بغيّا) ، صفة مشبّهة من بغت تبغي ، لام الكلمة ياء . قيل وزنه فعيل ولم تلحقه تاء المؤنّث لأنّه من الصفات اللاحقة بالأنثى مثل حائض وطالق ، وقيل هو فعول – وهذا الوزن لا تلحقه التأنيث غالبا كصبور – وحينئذ فيه إعلال بالقلب إذ اجتمعت الواو والياء وجاءت الأولى ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الثانية ثمّ كسرت الغين اتباعا .

الفوائد

1 – أنّى الاستفهامية :

أنّى : تكون استفهامية ، وتكون شرطية .

والاستفهامية التي هي موضوع بحثنا تأتي على أربعة معان :

أ – بمعنى " من أين " نحو " أنّى لك هذا " أي من أين لك هذا ؟

ب – وتأتي بمعنى "كيف " نحو " أَنَّى شِئْتُمْ " ؟

ج – وتأتي بمعنى " متى " أي متى شئتم ؟

ء – وتأتي بمعنى " حيث " أي حيث شئتم . ولاختيار أحد المعاني الأربعة نعود لمقام الكلام . ليس إلا . . . !

[سورة مريم (19) : آية 21]

قالَ كَذَلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21)

الإعراب :

(قال . . هيّن) مرّ إعرابها " 1 " ، (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (نجعله) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (آية) مفعول به ثان (للناس) متعلّق بنعت لـ (آية) (منّا) متعلّق بنعت لـ (رحمة) .

والمصدر المؤوّل (أن نجعله . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره خلقناه كذلك لنجعله .

(الواو) استئنافيّة ، واسم (كان) ضمير يعود على الخلق المفهوم من سياق الآية (أمرا) خبر كان منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (الأمر) كذلك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو عليّ هيّن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " (خلقناه) لنجعله . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة هو عليّ هين .

---

(1) في الآية (9) من هذه السورة .

وجملة : "كان أمرا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مقضيّا) ، اسم مفعول من الثلاثيّ قضى ، فهو في الأصل على وزن مفعول أي مقضوي - بياء في آخره - فلمّا اجتمعت الواو والياء

والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ، ثمّ كسرت الضاد لمناسبة الياء .

[سورة مريم (19) : الآيات 22 إلى 26]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (22) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة في الفعلين (به) متعلّق بحال من فاعل انتبذت أي حاملة به (مكانا) مفعول به منصوب - أو ظرف مكان متعلّق بـ (انتبذت) " 1 " .

جملة : " حملته . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة أي :

فنفخ جبريل في جيبها فأحسّت بالحمل فحملته .

وجملة : " انتبذت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حملته .

23 - (الفاء) عاطفة (إلى جذع) متعلّق بـ (أجاء) بتضمينه ألجأها (يا) أداة تنبيه (ليتني) حرف مشبّه بالفعل للتمنّي و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير

---

(1) انظر الآية (16) من هذه السورة .

اسم ليت (قبل) ظرف منصوب متعلّق بـ (متّ) ، (هذا) في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (نسيا) خبر كنت منصوب .

وجملة : " أجاءها المخاض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انتبذت " 1 " .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ليتني متّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " متّ . . . " في محلّ رفع خبر ليت .

وجملة : "كنت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة متّ .

24 – (الفاء) عاطفة ، وفاعل (نادى) هو جبريل – أو عيسى – (من تحتها) متعلّق بـ (نادى) " 2 " ، (أن) حرف تفسير " 3 " ، (لا) ناهية (تحزني) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون و(الياء) فاعل (قد) حرف تحقيق (تحتك) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (سريّا) مفعول به أوّل منصوب .

وجملة : " ناداها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالت .

وجملة : " لا تحزني . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " قد جعل . . . " لا محلّ لها تعليل للنهي المتقدّم " 4 " .

25 – (الواو) عاطفة (إليك) متعلّق بـ (هزّي) بتضمينه معنى أميلي أو قربيّ (بجذع) متعلّق بحال من مفعول هزّي – أي هزّي الرطب كائنا بجذع النخلة " 5 " – ، (تساقط) مضارع مجزوم بجواب الطلب ، والفاعل هي أي النخلة

---

(1) هذا على القول بأنّ الحمل والمخاض والولادة تمّت في ساعة . . ويجوز أن تكون مستأنفة على القول بأنّ ذلك تمّ في تسعة أشهر .

(2) أو بمحذوف حال من فاعل نادى .

(3) أو هو حرف مصدريّ ونصب ، والفعل منصوب بالحرف وعلامة النصب حذف

النون ، ولا حينئذ نافية ، والمصدر المؤوّل مجرور بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (نادى) أي (بألّا تحزني . .) .

(4) أو هي استئناف بيانيّ .

(5) أو الباء حرف جرّ زائد داخل على مفعول هزّي .

(357/492)

(عليك) متعلّق بـ (تساقط) ، (جنيّا) نعت لـ (رطبا) .

وجملة : " هزّي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تحزني .

وجملة : " تساقط " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن تهزّي . . تساقط .

26 - (الفاء) رابطة لجواب مقدّر (عينا) تمييز منصوب محوّل عن فاعل (الفاء) استئنافيّة " (إمّا) (إن) " حرف شرط جازم . . و(ما) زائدة (ترينّ) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . - لأنه من الأفعال الخمسة - و(الياء) ضمير متصل في محلّ رفع فاعل ، و(النون) نون التوكيد (من البشر) متعلّق بحال من (أحدا) وهو مفعول به منصوب عامله ترينّ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قولي) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الياء)

فاعل (للرحمن) متعلّق بـ (نذرت) (صوما) مفعول به منصوب عامله نذرت (الفاء) عاطفة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أكلّم) . (إنسيّا) مفعول به .

وجملة : "كلي . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا هززت فتساقطت فكلي . . " 1 "

وجملة : " اشربي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلي .

وجملة : " قرّي عينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلي وجملة : " إمّا ترينّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قولي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّي نذرت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نذرت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لن أكلّم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نذرت " 2 " .

---

(1) أو هي معطوفة على جملة هزّي ، فلا محلّ لها أيضا .

(2) أو هي معطوفة على جملة مقول القول في محلّ نصب .

الصرف :

(قصيّا) ، صفة مشبّهة من قصا يقصو أو قصي يقصى الأول من باب نصر والثاني من باب فرح ، وزنه فعيل فإن كانت لامه واوا ففيه إعلال بالقلب أصله قصيو بسكون الياء ، اجتمعت الياء والواو الأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى . . وإن كانت اللام ياء فليس فيه إعلال ، وزنه فعيل .

(المخاض) ، هو مصدر مخضت تمخض الحامل باب فرح أي دنت ولادتها وأخذها الطلق . . وزنه فعال بفتح الفاء ، وثمّة مصدر آخر بكسر الفاء ، (جذع) اسم جامد ذات ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(النخلة) ، واحدة النخل ، اسم للشجرة المعروفة وزنه فعلة بفتح فسكون .

(متّ) ، فيه إعلال بالحذف ، معتلّ أجوف أسند إلى تاء الفاعل تحذف عينه ، وزنه فلت بكسر الفاء فكأنّه من فعل يفعل بكسر العين في الماضي وضمّها في المضارع ، فهو شاذ . وجاء في اللسان . . " قال سيبويه اعتلّت من فعل يفعل بكسر فضمّ . . ونظيرها في الصحيح فضل يفضل بكسر فضمّ " .

(نسيا) ، اسم للشيء ينسى ، وما يتركه المرتحلون من رذال متاعهم ، جمعه أنساء .

(منسيّ) ، اسم مفعول من نسي ينسى باب فرح ، وزنه مفعول وقد دخله الإعلال بالقلب ، أصله منسوي بياء في آخره قبلها واو ساكنة ، اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت

الواو إلى ياء وأدغمت مع الياء الأخرى .

(سريّا) ، اسم جامد للجدول أو النهر الصغير وزنه فعيل ولامه ياء لأنّه من سرى يسري – بياء في آخر المضارع وقد أدغمت ياء فعيل مع لامه ، والجمع سريان بكسر السين كرغيف رغفان . . هذا ويجوز أن يكون بمعنى

الرئيس أو الرجل الرفيع القدر ، فلامه واو لأنّه من سرو يسرو باب كرم ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله سريو ، اجتمعت الياء والواو والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ، وقصد به عيسى عليه السلام .

(رطبا) ، اسم جمع للناضج من البسر قبل أن يصير تمرا وزنه فعل بضمّ ففتح واحدته رطبة بضمّ ففتح والجمع رطاب بكسر الراء أو أرطاب .

(جنيّا) ، صفة مشبّهة من جنى يجني باب ضرب وهو ما طاب وصلح للاجتناء ، وزنه فعيل ، وقد أدغمت ياء فعيل مع لام الكلمة .

(359/492)

(ترينّ) ، فيه حذف عينه وهي الهمزة ، وحذف لامه وهي الألف ، أصله رأى . . فلمّا أسند إلى ياء المؤنّثة المخاطبة حذفت الألف لالتقاء الساكنين فأصبح ترأين . . (ثمّ)

نقلت حركة الهمزة إلى الراء قبلها ، فلمّا اجتمع ساكنان حذفت الهمزة فأصبح ترين – هذا قبل دخول نون التوكيد – فلمّا دخلت النون حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال " 1 " ، وحين التقت ياء الضمير الساكنة مع النون الأولى الساكنة من نون التوكيد الثقيلة كسرت ياء الضمير ، ووزن الفعل تفينّ بفتحتين ثمّ كسر .

(صوما) ، مصدر سماعيّ للثلاثي صام يصوم باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(إنسيّا) ، اسم منسوب إلى إنس ، اسم جنس أي الناس وزنه فعليّ بكسر فسكون .

البلاغة

– التعريف :

---

(1) وقد تحذف نون الرفع في حال الجزم والنصب .

في قوله تعالى " جِذْعِ النَّخْلَةِ " .

التعريف للنخلة لا يخلو : إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة ، كتعريف النجم والصعق ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس ، فإذا قيل : جذع النخلة ، فهم منه ذلك ، دون غيره من جذوع النخل . وإمّا أن يكون تعريف الجنس ، أي : جذع هذه

الشجرة خاصة ، كأن اللّه تعالى ، إنما أرشدها إلى النخلة ، ليطعمها منها الرطب

[سورة مريم (19) : الآيات 27 إلى 28]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (به) متعلّق بحال من فاعل أتت " 1 " ، (قومها) مفعول به منصوب

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (شيئا) مفعول به منصوب بتضمين جئت معنى فعلت " 2 " ، (فريّا) نعت لـ (شيئا) منصوب .

جملة : " أتت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تحمله . . . " في محلّ نصب حال من الفاعل أو من الهاء في (به) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) أي معتزّة أو متباهية ، ولا يمنع كونه معنى خاصّا . [. . . . .]

(2) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه أي جئت مجيئا غريبا .

وجملة : " يا مريم و(جوابها) . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جئت . . . " لا محلّ لها جواب القسم ، وجملة القسم جواب النداء .

28 - (أخت) منادى مضاف منصوب (هارون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة (ما) نافية في الموضعين .

وجملة : " النداء : يا أخت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " ما كان أبوك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ما كانت أمّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

الصرف :

(فريّا) ، صفة مشبّهة من فرى يفري باب ضرب بمعنى اختلف أو قطع وشقّ ، وزنه فعيل ، وقد أدغمت ياء فعيل مع لام الكلمة .

[سورة مريم (19) : آية 29]

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (كان) فعل ماض تامّ ، والفاعل هو " 1 " ، وهو العائد (في المهد) متعلّق بـ (كان) ، (صبيّا) حال منصوبة من فاعل كان .

جملة : " أشارت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون ناقصة قد ضمنّت معنى صار أو ما زال ، و(صبيّا) في ذلك خبر .

(362/492)

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "كيف نكلّم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كان في المهد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

[سورة مريم (19) : الآيات 30 إلى 33]

قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

الإعراب :

(آتاني) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف . .

و(النون) للوقاية ، و(الياء) مفعول به أوّل ، والفاعل هو أي اللّه (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (جعلني نبيّا) مثل آتاني الكتاب ، وكذلك (جعلني مباركا) ،

(أينما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بالجواب أو بالشرط

(كنت) فعل ماض تامّ . . . و(التاء) فاعل (الواو) عاطفة (بالصلاة) متعلّق بـ (أوصاني) ،

(ما) حرف مصدريّ ظرفيّ (دمت) فعل ماض ناقص . . و(التاء) اسمه (حيّا) خبر ما

دمت منصوب .

والمصدر المؤوّل (ما دمت . .) في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانيّة متعلّق بـ (أوصاني) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي عبد اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آتاني الكتاب . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " جعلني نبيّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتاني الكتاب .

وجملة : " جعلني مباركا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلني نبيّا .

وجملة : "كنت . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما

قبله أي : أينما كنت فقد جعلني نبيّا ومباركا .

وجملة : " أوصاني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتاني . . أو جعلني . .

32 - (الواو) عاطفة (برّا) مفعول به ثان لفعل محذوف تقديره جعلني " 1 " (بوالدتي)

متعلّق بـ (برّا) ، (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (جبّارا) مفعول به ثان منصوب عامله

لم يجعلني (شقيّا) نعت لـ (جبّارا) منصوب .

(1) أي ذا برّ بحذف مضاف . . أو وصف بالمصدر مبالغة .

(363/492)

وجملة : " (جعلني) برّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلني مباركا .

وجملة : " لم يجعلني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (جعلني) برّا .

33 - (الواو) عاطفة (عليّ) متعلّق بخبر المبتدأ (السلام) (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر وكذلك الظروف الأخرى المعطوفة عليه (حيّا) حال منصوبة من نائب الفاعل .

وجملة : " السلام عليّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يجعلني .

وجملة : " ولدت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أموت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أبعث . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

الصرف :

(أوصاني) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أوصيني ، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا وزنه أفعلني .

الفوائد

1 – آل عمران :

إن اللّه اصطفى آل عمران على العالمين ، وعمران والد مريم والدة المسيح ، ونحن نعلم جهاد المسيح في سبيل دعوة الناس إلى الحق والخير والإيمان باللّه وحده ، ونعلم أيضا كيف سخر اللّه للمسيح عليه السلام من التلاميذ ، الذين هم الحواريون ، فنشروا دينه فوق الكثير من أصقاع الأرض ، وقد أراد اللّه أن يكرم آل عمران ، فأنزل سورة من القرآن الكريم سميت باسمهم ، وهي ثاني سورة بعد البقرة ، وأراد أن يكرم مريم العذراء ، فخصها بسورة من كتابه الكريم ، هي السورة التي نحن بصددها الآن .

وما أحسب أن كتابا من الكتب السماوية أشاد بآل عمران ومريم والمسيح كما أشاد القرآن الكريم ، وأفاض بطهارتهما وتقديسهما وتنزيههما عن كل نقيصة أو بهتان .

(364/492)

فالقرآن الكريم ذكر أن مريم عذراء ، وأن الملك بشّرها بهذا الغلام الزكي ، فحملت به ، وابتعدت عن الناس ، وعانت من آلام وضعه حتى تمنت موتها قبل ذلك ، وقد خاطبها ولدها المسيح ، وهو في مهده ، وهدأ من روعها ، وطلب إليها أن تهزّ بجذع النخلة ، وتنعم

بما يتساقط عليها من الرطب الجني .

وكانت والدة مريم امرأة صالحة ، وكان أبوها رجلا صالحا تقيا نقيا ، فنذرت زوجته وليدها خادما للهيكل وعند ما وجدتها أنثى ، وليس الذكر كالأنثى ، ومع ذلك تقبلها ربها قبولا حسنا ، وأنبتها نباتا حسنا .

2 – لماذا منعت من الكلام ؟

إنه سؤال يثب إلى الذهن فاللسان ، والإجابة عليه بأن الله أمرها بأن تمتنع عن الكلام لأمرين :

أ – أن يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ، ليكون أقوى لحجتها ، وأرهص للمعجزة وإزالة عوامل الريبة المؤدية إلى اتهامها بما يشين .

ب – التنويه بكراهية المجادلة شرعا مع السفهاء وقد اقتنص الشاعر هذا المعنى فقال :

يخاطبني السفيه بكل قبح وأكره أن أكون له مجيبا

[سورة مريم (19) : آية 34]

ذِلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)

الإعراب :

(ذلك) مبتدأ في محلّ رفع (عيسى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة ، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (بن) نعت لعيسى مرفوع " 1 " ، (قول) مفعول مطلق لفعل

محذوف وهو مؤكّد لمضمون الجملة قبله أي أقول قول الحقّ " 2 " ، (الذي) في محلّ نصب نعت لقول (فيه) متعلّق بـ (يمترون) .

جملة : " ذلك عيسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يمترون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

الفوائد

1 - إثبات ألف " ابن " ، وحذفها :

---

(1) أو عطف بيان له ، أو بدل منه . . وقد يراد به الإخبار فيكون خبرا ثانيا وحينئذ يلزم إثبات الألف في ابن .

(2) يجوز أن يكون حالا من عيسى ، ويجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف تقديره أعني . .

أ - ابن : أصله " بنو " ويجمع على " بنين " . وقال بعضهم : أصله بكسر الباء قياسا على " بنت " .

ب - ما لا يعقل ، مثل " ابن مخاض ، وابن لبون " وابن عرس ، فيجمع بألف وتاء مثل " بنات

عرس " .

ج - يضاف ابن لما يخصصه ، مثل " ابن السبيل ، وابن الحرب ، وابن الدنيا " .

د - همزة " ابن " همزة وصل ، وكذلك همزة " ابنة " . تحذف في الوصل وتثبت في " الخط "

.

ه - ومن أحكامها أنها تحذف لفظا وخطا ، وذلك إذا ورد علم وبعده " ابن " صفة له ومضافا لعلم هو أب له . نحو " محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب " إلا إذا وقع في أول السطر فتكتب الهمزة خطا ولا تلفظ .

ملاحظة : قد خرج في قولهم : " و مضافا لعلم هو أب له " خرج المضاف إلى أم هو ابن لها . مثل " عيسى ابن مريم " .

[سورة مريم (19) : آية 35]

ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم لـ (كان) ، (ولد) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به ثان عامله يتّخذ والمفعول الأول محذوف أي : أن يتّخذ أحدا ولدا .

والمصدر المؤوّل (أن يتّخذ . . .) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

(سبحانه) مفعول مطلق لفعل محذوف . . و(الهاء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب

شرط مقدّر (إنّما) كافّة مكفوفة (كن) فعل أمر تامّ، والفاعل أنت

(الفاء) عاطفة - أو استئنافيّة - (يكون) مضارع تامّ مرفوع، والفاعل هو.

جملة: "ما كان للّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " (أسبّح) سبحانه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

(366/492)

وجملة: "قضى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة: "يقول . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "كن . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يكون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقول . . أو استئنافيّة.

[سورة مريم (19) : آية 36]

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ربّي) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . .

و(الياء) مضاف إليه (ربّكم) معطوف على ربّي بالواو مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هذا) مبتدأ في محلّ رفع (مستقيم) نعت للخبر (صراط) .

جملة : "إنّ اللّه ربّي . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل مقدّر أي :

قل . . وجملة القول المقدّر لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "اعبدوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتم مقرّين بربوبيّته فاعبدوه .

وجملة : "هذا صراط . . . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

[سورة مريم (19) : آية 37]

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (من بينهم) متعلّق بحال من الأحزاب (الفاء) عاطفة (ويل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (للذين) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ويل) (من مشهد) متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر (يوم) مضاف إليه مجرور .

جملة : "اختلف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "ويل للذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

الصرف :

---

(1) جاز البدء بالنكرة لما فيها من معنى الذمّ .

(367/492)

(مشهد) ، اسم زمان أو اسم مكان أو مصدر ميميّ من شهد الثلاثيّ ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، وشهد بمعنى حضر أو نطق بالشهادة . . فإذا كان من المعنى الأول فاسم الزمان يعني وقت الشهود ، واسم المكان يعني مكان الشهود أي الموقف ، والمصدر يعني حضور ذلك اليوم العصيب من إضافة المصدر إلى فاعله . وإذا كان من المعنى الثاني أي الشهادة فاسم الزمان يعني من وقت شهادة يوم ، واسم المكان يعني من مكان شهادة يوم ، والمصدر يعني شهادة ذلك اليوم أي أنّ اليوم يشهد على الناس إمّا حقيقة وإمّا مجازا .

[سورة مريم (19) : الآيات 38 إلى 39]

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39)

الإعراب :

(أسمع) فعل ماض جامد لإنشاء التعجّب مبنيّ على الفتح المقدّر لمجيئه على صورة الأمر

(الباء) حرف جرّ زائد و(هم) ضمير ، محلّه القريب الجرّ بالباء الزائدة ، ومحلّه البعيد الرفع على أنّه فاعل أسمع (أبصر) مثل أسمع ، والفاعل مقدّر أي أبصر بهم (يوم) ظرف زمان متعلّق بـ (أسمع ، أبصر) ، (لكن) حرف استدراك لا عمل له (الظالمون) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو (اليوم) ظرف متعلّق بـ (ضلال) ، (في ضلال) متعلّق بخبر المبتدأ الظالمون .

جملة : " أسمع بهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أبصر (بهم) . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يأتوننا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " الظالمون . . في ضلال . . . " لا محلّ لها في حكم التعليليّة .

(368/492)

---

39 - (الواو) عاطفة ، والضمير في (أنذرهم) مفعول به أوّل (يوم) مفعول به ثان منصوب على حذف مضاف أي : أنذرهم عذاب يوم الحسرة " 1 " ، (إذ) ظرف أستعير للمستقبل متعلّق بـ (الحسرة) " 2 " ، (الأمر) نائب الفاعل مرفوع (الواو) حاليّة في الموضعين (في غفلة) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (هم) و(لا) نافية

(1) يجوز أن يكون ظرفا متعلّقا بـ (أنذرهم) ، والمفعول الثاني مقدّر .

(2) أو هو بدل من يوم إذا أعرب (يوم) ظرفا .

(369/492)

وجملة : " أنذرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسمع بهم .

وجملة : " قضي الأمر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم في غفلة . . . " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (أنذرهم) .

وجملة : " هم لا يؤمنون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (أنذرهم) .

الصرف :

(غفلة) ، مصدر سماعيّ لفعل غفل يغفل باب نصر ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، وثمّة مصادر أخرى هي : غفول بضمّتين وغفل بفتحتين . .

البلاغة

- المجاز المرسل :

في قوله تعالى " لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " .

العلاقة حالية ، والمراد جهنم ، فأطلق الحال وأريد المحل ، لأن الضلال لا يحل فيه وإنما يحل

في مكانه ، وكذلك قوله في الآية اللاحقة : " وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ " والغفلة لا يحل فيها أيضا ، وإنما يحل بالمتالف التي توقع الغفلة أصحابها فيها .

الفوائد

1 – مواضع زيادة الباء :

تزاد الباء في ستة مواضع رئيسية :

أ – تزاد وجوبا في فاعل فعل التعجب في إحدى صيغتيه ، وهي : أفعل به نحو : " أحسن بعمر " ، فتعرب " أحسن " فعل ماض أتى على صيغة الأمر ، وعمر فاعل مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجرّ الزائد ، والباء حرف جر زائد أتى لاتساق اللفظ ، ومنه " أسمع بهم وأبصر " .

(370/492)

و تزاد كثيرا في فاعل "كفى " التي بمعنى حسب ، وهي فعل لازم ، نحو "كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً " وهي غير كفى التي بمعنى أجزأ أو أغنى ، فهذه لا تزاد بفاعلها الباء .

ب – تزاد أيضا في المفعول به ، نحو : " وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ " .

وقوله تعالى : وهزّي إليك بجزع النخلة .

ج – وتزاد في المبتدأ ، نحو " بحسبك درهم " ونحو خرجت فإذا بزيد ، وكيف بك " و المعنى كيف أنت " .

د – وتزاد في الخبر ، وهو قياسي في حالة السلب ، نحو " ليس زيد بقائم " " و ما ربك بغافل " أما في الموجب ، فمتوقف على السماع .

ه – وتزاد في الحال إذا كان عامل الحال منفيا . نحو .

فما رجعت بخائبة ركاب حكيم بن المسيّب منتها ها

و – وتزاد في التوكيد ، إذا كان بالنفس والعين ، نحو : رأيت خالدا بنفسه وبعينه .

2 – البغي :

أ – قال بعضهم : إن أصلها " بغوي " وقال البيضاوي : أصلها مفعول من البغي ، ولهما تعليلات في استحالتها إلى " بغيّ " .

ب – وقال بعضهم : إن " بغيّ " خاص بالمؤنث ، فيقال : امرأة بغي ، ولا يقال رجل بغي .

ج – واعترض بعضهم ، أنه نقل عن المصباح بأنه يقال : رجل بغي ، وامرأة بغي . ولعله من باب القياس والفرض ، وليس من واقع الاستعمال .

[سورة مريم (19) : آية 40]

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40)

الإعراب :

(نحن) ضمير منفصل أستعير لمحلّ النصب لتوكيد الضمير المتّصل في إنّا " 1 " (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على الأرض بالواو (عليها) متعلّق بمحذوف صلة من (إلينا) متعلّق بـ (يرجعون) مضارع مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل .

جملة : "إنّا . . نرث . . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

وجملة : "نرث . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "يرجعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة مريم (19) : الآيات 41 إلى 45]

---

(1) يجوز أن يكون مبتدأ خبره جملة نرث ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (41) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في الكتاب) متعلّق بحال من إبراهيم (نبيّا) خبر ثان منصوب .

جملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه كان صدّيقا . . . " في محلّ نصب حال من إبراهيم " 1 " .

وجملة : " كان صدّيقا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

42 – (إذ) ظرف مبنيّ متعلّق بـ (صدّيقا نبيّا) " 2 " ، (لأبيه) متعلّق بـ (قال) وعلامة الجرّ الياء (أبت) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الباء ، و(التاء) زائدة عوضا من ياء المتكلّم المحذوفة لا محل لها . .

و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (لم) حرف جرّ واسم استفهام في محلّ جرّ متعلّق بـ (تعبد) ، وحذفت الألف من ما لدخول حرف الجرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (لا) نافية في المواضع الثلاثة (عنك) متعلّق بـ (يغني) ، (شيئًا) مفعول به منصوب " 3 " أي شيئًا من نفع أو ضرر .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " النداء وجوابها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم تعبد . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا يسمع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا يبصر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسمع .

وجملة : " لا يغني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يبصر .

43 - (قد) حرف تحقيق (من العلم) متعلّق بـ (جاءني) ، ومن تبعيضيّة " 4 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل جاءني (يأتك)

---

(1) أو هي معترضة بين البدل والمبدل منه إذا أعرب إذ بدلا من (خبر إبراهيم) بحذف مضاف . . أو استئناف بياني .

(2) أو هو بدل من إبراهيم بحذف مضاف أي اذكر خبر إبراهيم إذ قال .

(3) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي شيئا من غناء .

(4) يجوز أن يتعلّق بمحذوف حال من (ما) وهي نكرة موصوفة .

مضارع مجزوم وعلامة الجزم حزف حرف العلّة ، والفاعل هو وهو العائد و(الكاف) مفعول به (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أهدك) مضارع مجزوم بجواب الطلب ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل أنا (صراطا) مفعول به ثان منصوب (سويّا) نعت لصراط منصوب .

وجملة : " يا أبت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : "إنّي قد جاءني . . . "لا محلّ لها جواب النداء . .

وجملة : "جاءني . . ما لم يأتك . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "لم يأتك . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "اتّبعني . . . "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت الهداية فاتّبعني . .

وجملة : "أهدك . . . "لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

44 - (لا) ناهية . وحرّك (تعبد) بالكسر لالتقاء الساكنين ، والفاعل أنت (للرحمن) متعلّق بـ (عصيّا) خبر كان .

وجملة : "يا أبت . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : "لا تعبد . . . "لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : "إنّ الشيطان كان . . . "لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : "كان للرحمن عصيّا . . . "في محلّ رفع خبر إنّ 45 - (عذاب) فاعل يمسّك مرفوع (من الرحمن) متعلّق بنعت لـ (عذاب) .

والمصدر المؤوّل (أن يمسّك . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أخاف .

(الفاء) عاطفة (تكون) مضارع ناقص – ناسخ – منصوب معطوف على (يمسّك) ، اسمه ضمير مستتر تقديره أنت (للشيطان) متعلّق بـ (وليّا) خبر تكون منصوب .

وجملة : " يا أبت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يمسّك عذاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تكون . . . " لا محلّ لها معطوفة على صلة الموصول الحرفيّ .

الفوائد

1 – منطق إبراهيم في الحجاج :

كان من حق القارئ علينا ، أن نقدم له نبذة عن حياة إبراهيم ، إلا أننا أرجأنا ذلك إلى مقام آخر ، وآثرنا أن نقدم له صورة عن طريقة إبراهيم في النصح والإرشاد وقد لفتت هذه الآيات أنظار الكثير من المفسرين ، لما فيها من حسن الأسلوب والتدرج في النصح ، والتلطف مع الوالد ، والآداب الجمة في الحجاج .

وبين أيدينا نصوص لكبار المفسرين ، حول ما تضمنته هذه الآيات ، من طرائق لعرض الأفكار ، وبلاغة الأسلوب وقد آثرنا أن نختار أجودها ، ونقدمها للقارىء ، شاهدا على

ما نحن بصدده وتقريره يقول الزمخشري كلاما طويلا ، حبذا لو تملّاه القارئ واستوعبه : " انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم ، والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقلاء ، وانسلخ عن قضية التمييز ، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة ، كيف رتّب الكلام معه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين ، والأدب الجميل ، والخلق الحسن ، منتصحا

(374/492)

في ذلك بنصيحة ربّه عزّ وعلا . وذلك أنه طلب منه أولا العلّة في خطئه طلب منبّه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن المعبود لو كان حيّا مميزا سميعا بصيرا مقتدرا على الثواب والعقاب ، نافعا ضارا ، إلا أنه بعض الخلق ، لاستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولسجل عليه بالغي المبين والظلم العظيم ، وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة ، فما ظنك بمن وجّه عبادته إلى جماد ، ليس به حس ولا شعور ، فلا يسمع يا عابده ذكرك له ، وثناءك عليه ، ولا يرى هيئات خضوعك وخشوعك ، فضلا أن يغني عنك ، بأن تستدفعه بلاء فيدفعه ، أو تستنح لك حاجة فيكفيكها . . . !

ثم ثنّى بدعوته إلى الحق ، مترفقا به متلطفا ، فلم يسمّ إياه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم

الفائق ، ولكنه قال : إن معي طائفة من العلم وشيئًا منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي ، فلا تستنكف ، وهب أني وإياك في مسير ، وعندي معرفة بالهداية دونك ، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه . . !

ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن ، الذي جميع ما عندك من النعم من عنده ، هو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال ، وعدو أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم وهو الذي ورطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك فأنت ان حققت النظر عابد الشيطان . . !

إلا أن إبراهيم عليه السلام ، لإمعانه في الإخلاص ، ولارتقاء همته في الربانية ، لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص منها برب العزة ، من عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته . كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره ، وأطبق على ذهنه .

ثم ربّع بتخويفه سوء العاقبة ، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : أخاف أن يمسّك عذاب ، فذكر الخوف والمسّ ، وذكر

العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب ، وذلك أن رضوان اللّه أكبر من الثواب نفسه ، وسماه اللّه تعالى المشهود له بالفوز العظيم ، فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان اللّه من العذاب نفسه وأعظم .

وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : " يا أَبَتِ "

توسّلا إليه واستعطافا . . أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظ العناد ، فناداه باسمه ، ولم يقابل قوله : " يا أَبَتِ "

بقوله " يا بني " ، وقدم الخبر على المبتدأ في قوله : " أَراغِبٌ أَنْتَ " لأنه كان أهم عنده ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم من آلهته " .

انتهى كلام الزمخشري ، في هذا الفصل من قصة إبراهيم مع أبيه ، وقصة تحطيم أصنام القوم وقصة إلقائه في النار ، وقصة نجاته منها ، حيث جعلها اللّه عليه بردا وسلاما . ويلي ذلك نزوحه عن بلاده في شرق العراق ، وهجرته في سبيل دينه إلى أرض كنعان في فلسطين .

2 – يا أَبَتِ

:

نعود للحديث عن حذف ياء المتكلم في بعض الحالات ، ونخص بالحديث هنا " يا أبت ويا أمت " . في ياء المتكلم في النداء لغات ، أما التاء في " يا أبت ويا أمت ففيها قولان " :

أحدهما أن هذه التاء هي تاء التأنيث ، مثلها مثل التاء في خالة وعمة ، وهذا رأي سيبويه والخليل بن أحمد .

وثانيهما أن هذه التاء عوضا عن ياء المتكلم المحذوفة . فالأصل : يا أبي ويا أمي ، فحذفت الياء لدلالة الكسرة عليها ، ثم عوّض عن الياء بهذه التاء ، ولذلك فلا نقول : يا أبتي ويا أمتي ، لئلا نجمع بين العوض والمعوض .

ورغم أن الرأي الأولى لاثنين من أساطين النحو واللغة ، فإني أرتاح للرأي الثاني وأرجحه على الأول ، أما أنت أيها القارئ فاختر منهما ما يرجح لديك ويتحكم فيه ذوقك ورأيك .

والله الموفق .

(376/492)

[سورة مريم (19) : آية 46]

قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (راغب) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محل رفع فاعل لاسم الفاعل سدّ مسدّ الخبر " 2 " ، (عن آلهتي) متعلّق بـ (راغب) ، (اللام) موطّئة

للقسم (إن) حرف شرط جازم (تنته) مضارع مجزوم علامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (اللام) لام القسم (أرجمنّك) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون التوكيد ، و(الكاف) مفعول به ، والفاعل أنا (الواو) عاطفة (مليّا) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل (اهجرني) ، أو هو حال من فاعل اهجرني إذا كان المعنى ممتّعا بعمرك أي سالما ، أو مفعول مطلق أي هجرا مليّا .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أراغب أنت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " النداء : يا إبراهيم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " لم تنته . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " أرجمنّك . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " اهجرني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مسبّبة عن قوله لأرجمنّك . . أي فاحذرني واهجرني مليّا .

---

(1) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة اعتمادها على استفهام . [. . . . .]

(2) يجوز أن يكون الضمير مبتدأ مؤخّرا و(راغب) خبرا مقدّما .

الصرف :

(مليّا) ، إمّا اسم يدلّ على الزمان الطويل ، وإمّا مشتقّ صفة مشبّهة من ملا يملو البعير بمعنى سار شديدا وعدا ، وأستعير لإطالة العمر ، فهو على وزن فعيل . . وفيه إعلال بالقلب أصله مليو ، اجتمعت الياء والواو وكانت الأولى ساكنت قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى .

[سورة مريم (19) : الآيات 47 إلى 48]

قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)

الإعراب :

(سلام) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (عليك) متعلّق بخبر المبتدأ (السين) حرف استقبال (لك) متعلّق بفعل أستغفر (بي) متعلّق بـ (حفيّا) خبر كان منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سلام عليك . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة : " سأستغفر . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " إنّه كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان بي حفيّا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

48 - (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على الضمير المخاطب في (أعتزلكم) ، (من دون) متعلّق بحال من

---

(1) صحّ البدء بالنكرة لما فيها من معنى الدعاء .

(2) أو لا محلّ لها اعتراضيّة ، وجملة أستغفر مقول القول في محلّ نصب .

(378/492)

العائد المحذوف أي ما تدعونه معبودا من دون اللّه (عسى) فعل ماض تامّ فاعله المصدر المؤوّل (ألّا أكون . .) في محلّ رفع ، (بدعاء) متعلّق بـ (شقيّا) وهو خبر أكون منصوب .

وجملة : " أعتزلكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سأستغفر . .

وجملة : " تدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أدعو . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعتزلكم . .

وجملة : " عسى ألّا أكون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : "أكون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

[سورة مريم (19) : الآيات 49 إلى 50]

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (49)

وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب وهبنا (ما يعبدون من دون اللّه) مرّ إعراب نظيرها " 2 " ، (له) متعلّق بـ (وهبنا) " 3 " ، (الواو) حاليّة (كلّا) مفعول به مقدّم (نبيّا) مفعول به ثان منصوب عامله جعلنا .

جملة : "اعتزلهم . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "يعبدون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل أدعو أي راجيا عدم كوني شقيّا بالدعاء .

(2) في الآية السابقة (48) .

(3) الفعل وهب يتعدّى إلى المفعول الثاني من غير حرف جرّ أو بوساطة حرف جرّ هو اللام .

وجملة : " وهبنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ نصب حال بتقدير قد " 1 " .

50 - (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (وهبنا) ، (من رحمتنا) متعلّق بـ (وهبنا) ، (لهم) الثاني متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلنا (لسان) مفعول به منصوب (عليّا) نعت للسان منصوب .

وجملة : " وهبنا لهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وهبنا له .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وهبنا لهم .

البلاغة

1 - المجاز المرسل :

في قوله تعالى " وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا " .

علاقته السببية ، كاليد في العطية ، ولسان العرب لغتهم . ويطلق على الرسالة الرائعة كما في قول الأعشى الباهلي : إنني أتتني لسان لا أسرّ بها .

---

(1) أو لا محلّ لها معطوفة على جملة وهبنا .

2 - الكناية في قوله تعالى : " وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا " كنّى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان ، لأن الثناء يكون باللسان ، فلذلك قال " لِسانَ صِدْقٍ " كما يكنى عن العطاء باليد .

[سورة مريم (19) : الآيات 51 إلى 53]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (51) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اذكر . . مخلصا) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) عاطفة (نبيّا) خبر كان ثان منصوب .

جملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه كان مخلصا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان مخلصا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كان رسولا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان مخلصا .

52 - (الواو) عاطفة (من جانب) متعلّق بـ (ناديناه) ، (نجيّا) حال منصوبة من الضمير المنصوب في (قرّبناه) .

وجملة : " ناديناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه كان مخلصا .

وجملة : " قرّبناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ناديناه .

53 - (الواو) عاطفة (وهبنا . . رحمتنا) مرّ إعراب نظيرها " 2 " ، (أخاه) مفعول به أوّل عامله وهبنا ، منصوب وعلامة النصب الألف (هارون) عطف بيان - أو بدل من أخاه - منصوب ، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (نبيّا) حال منصوبة من (أخاه) .

وجملة : " وهبنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قرّبناه .

(1) في الآية (41) من هذه السورة .

(2) في الآية (50) من هذه السورة .

(381/492)

[سورة مريم (19) : الآيات 54 إلى 55]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اذكر . . نبيّا) مرّ إعراب نظيرها " 1 " .

جملة : " اذكر . . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه كان صادق . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان صادق . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كان رسولا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان صادق .

55 – (الواو) عاطفة (بالصلاة) متعلّق بـ (يأمر) ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (مرضيّا) وهو خبر كان منصوب .

وجملة : " كان يأمر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان صادق . .

وجملة : " يأمر . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " كان . . مرضيّا " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان صادق .

الصرف :

(مرضيّا) اسم مفعول من رضي الثلاثيّ ، وفيه إعلال بالقلب مرّتين أولا قلب الواو ياء في الفعل أصله رضو – بكسر الضاد – لأنّ مصدره الرضوان ، فلمّا كسرت الضاد قلبت الواو ياء فأصبح رضي . . ثانيا قلب الواو ياء في اسم المفعول ، أصله مرضوي ، اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى .

---

(1) في الآية (41) من هذه السورة .

[سورة مريم (19) : الآيات 56 إلى 57]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اذكر . . نبيّا) مرّ إعراب نظيرها " 1 " .

جملة: " اذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إنّه كان صدّيقا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " كان صدّيقا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

57 - (الواو) عاطفة (مكانا) ظرف منصوب متعلّق بـ (رفعناه) ، (عليّا) نعت لـ (مكانا) منصوب.

---

(1) في الآية (41) من هذه السورة.

وجملة : " رفعناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه كان .

الصرف :

(إدريس) ، اسم علم أعجميّ وزنه على القياس العربي إفعيل بكسر الهمزة .

البلاغة

- الاستعارة :

في قوله تعالى " وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا " .

شبّه المكانة العظيمة ، والمنزلة السامية ، بالمكان العالي ، بطريق الاستعارة .

[سورة مريم (19) : آية 58]

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (58)

الإعراب :

(أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذين) خبر المبتدأ " 1 " ، في محلّ رفع (عليهم) متعلّق بـ (أنعم) ، (من النبيّين) متعلّق بحال من الضمير في (عليهم) ، (ذرّية) بدل من النبيّين بإعادة الجارّ (ممّن) متعلّق بما تعلّق به (من ذرّية) فهو معطوف عليه ، (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (حملنا) ، (من ذرّية إبراهيم) متعلّق بما تعلّق به (من ذرّية آدم) فهو معطوف عليه ، وكذلك (ممّن . .) فهو معطوف عليه أيضا (إذا) ظرف للزمن المستقبل

متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب خرّوا (تتلى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (عليهم) متعلّق بـ (تتلى) ، (سجّدا) حال منصوبة من فاعل خرّوا (بكيّا) معطوف على سجّدا منصوب .

جملة : " أولئك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنعم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " حملنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأولى .

وجملة : " هدينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " اجتبينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هدينا .

---

(1) يجوز أن يكون الموصول نعتا لاسم الإشارة - أو بدل ، أو عطف بيان - وحينئذ يصبح الخبر الشرط الآتي وفعله وجوابه : إذا تتلى . . .

وجملة : " تتلى . . آيات . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " خرّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(بكيّا) ، جمع باك ، اسم فاعل من بكى ، وبكيّ فيه إعلال بالقلب ، أصله بكوي كقعود جمع قاعد ، اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الأخرى ، ثمّ كسرت الكاف لمناسبة الياء .

[سورة مريم (19) : الآيات 59 إلى 62]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (من بعدهم) متعلّق بـ (خلف) بتضمينه معنى جاء (خلف) فاعل خلف مرفوع (الشهوات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سوف) حرف استقبال (غيّا) مفعول به منصوب .

جملة : " خلف . . خلف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أضاعوا . . . " في محلّ رفع نعت لخلف .

وجملة : " اتّبعوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أضاعوا .

وجملة : " سوف يلقون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن يعرضوا على الحساب فسوف يلقون . .

(385/492)

---

60 - (إلّا) أداة استثناء " 1 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء (صالحا) مفعول به منصوب (الفاء) استئنافيّة (أولئك) اسم إشارة مبتدأ خبره جملة يدخلون (لا) نافية (يظلمون) مضارع مبنيّ للمجهول . .

و(الواو) نائب الفاعل (شيئا) مفعول به بتضمين يظلمون معنى ينقصون أي : شيئا من الثواب " 2 " .

وجملة : " تاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تاب .

وجملة : " عمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمن .

وجملة : " أولئك يدخلون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدخلون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " لا يظلمون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يدخلون " 3 " .

61 - (جنّات) بدل من الجنّة منصوب ، وعلامة النصب الكسرة (التي) اسم موصول في محلّ نصب نعت لجنّات ، (بالغيب) متعلّق بحال من عباد أي مؤمنين بالغيب ، أو من الضمير العائد المحذوف أي الجنّة وهي غائبة عنهم والضمير في (إنّه) إمّا عائد على الرحمن ، أو هو ضمير الشأن .

---

(1) هي بمعنى لكن عند السيوطيّ ، فالاستثناء منقطع و(من) مبتدأ خبره جملة أولئك يدخلون ، والفاء زائدة لمشابهة المبتدأ للشرط ، واختار أبو حيّان الاستثناء المتّصل .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي : لا يظلمون ظلما ما . [. . . . .]

(3) يجوز أن تكون معترضة بين البدل (جنّات) وبين المبدل منه (جنّة) .

(386/492)

وجملة : " وعد الرحمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " إنّه كان وعده . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان وعده مأتيّا " في محلّ رفع خبر إنّ .

62 - (فيها) متعلّق بـ (يسمعون) ، (لغوا) مفعول به منصوب (إلّا) أداة استثناء (سلاما) منصوب على الاستثناء المنقطع (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم (رزقهم) مبتدأ

مؤخّر مرفوع (فيها) متعلّق بالخبر المحذوف (بكرة) ظرف زمان متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر.

وجملة: "لا يسمعون . . . "في محلّ نصب حال من جنّات عدن "1" .

وجملة: "لهم رزقهم . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يسمعون.

الصرف:

(مأتيّا) ، اسم مفعول من أتى الثلاثيّ وفيه إعلال بالقلب أصله مأتوي ، اجتمعت الواو والياء في الكلمة والأولى ساكنة ، قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ، وكسرت التاء لمناسبة الياء.

(بكرة) ، اسم بمعنى الغدوة ، وزنه فعلة . . وانظر الآية (11) من هذه السورة.

البلاغة

- توكيد المديح بما يشبه الذم وعكسه:

في قوله تعالى "إِلَّا سَلاماً" .

استثناء منقطع ، والسلام إمّا بمعناه المعروف ، أي لكن يسمعون تسليم الملائكة

---

(1) أو مقطوعة على الاستئناف فلا محلّ لها.

عليهم السلام عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، أو بمعنى الكلام السالم من العيب ، أي يسمعون كلاما سالما من العيب والنقص ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما في قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفي سماع اللغو بالطريق البرهاني الأقوى . والاتصال على هذا ، على طريق الفرض والتقدير ، ولولا ذلك لم يقع موقعه من الحسن والمبالغة .

[سورة مريم (19) : آية 63]

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63)

الإعراب :

(تلك) اسم إشارة مبني على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ (الجنّة) بدل من تلك مرفوع (التي) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ " 1 " ، (من

عبادنا) متعلّق بحال من الموصول الآتي (من) – نعت تقدّم على المنعوت – (من) موصول مفعول نورث في محلّ نصب .

جملة : " تلك الجنّة التي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نورث . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : "كان تقيّا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(نورث) ، فيه حذف الهمزة تخفيفا ، ماضيه أورث ، والأصل أن يقال نؤورث ، استثقلت الهمزة في اللفظ فحذفت .

---

(1) جاء اسم الموصول خبرا من غير ضمير الفصل لأنّ الجنّة سبق ذكرها في الآيات المتقدّمة .

البلاغة

– الاستعارة :

في قوله تعالى " تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا " .

أي : نبقي عليه الجنة ، كما نبقي على الوارث مال المورّث ، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة ، قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى .

فقد استعار الإرث لعطاء الجنة .

[سورة مريم (19) : الآيات 64 إلى 65]

وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية ، وفاعل (نتنزّل) نحن للتعظيم يعود على جبريل " 1 " ، (إلّا) أداة حصر (بأمر) متعلّق بـ (نتنزّل) ، (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم ، والموصول مبتدأ مؤخّر (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما ، والموصول الثاني معطوف على الأول (خلفنا) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما الثاني والموصول الثالث معطوف على الأول في محلّ رفع (بين) مثل الأول متعلّق بصلة ما الثالث (ما) نافية .

جملة : " ما تتنزّل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو يعود على الملائكة ككلّ ، فلا تعظيم .

(391/492)

وجملة : " له ما بين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما كان ربّك نسيّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما تتنزّل . .

65 - (ربّ) بدل من ربّك الثاني مرفوع " 1 " ، (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف على السموات بالواو (بينهما) مثل الأول " 2 " (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لعبادته) متعلّق بـ (اصطبر) ، (هل) حرف استفهام (له) متعلّق بحال من (سميّا) " 3 " ، (سميّا) مفعول به منصوب .

وجملة : " اعبده . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن عرفت ربوبيّته فاعبده .

وجملة : " اصطبر . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة اعبده .

وجملة : " تعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكدة للربوبيّة .

الصرف :

(نسيّا) ، صفة مشبّهة - أو مبالغة اسم الفاعل - وزنه فعيل .

(اصطبر) ، فيه إبدال تاء الافتعال إلى طاء لمجيئها بعد الصاد ، وأصله اصتبر .

الفوائد

-

سئل الرسول/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ عن أهل الكهف وذي القرنين والروح ، فطلب إلى جبريل أن يخبره بأمر هؤلاء ، فأبطأ عليه جبريل بالجواب خمسة عشر يوما ، وقيل أربعين ، حتى أذاع المشركون بأن ربه قد هجره وقلاه . فنزل الوحي قائلا " وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ "

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة مستأنفة .

(2) في الآية السابقة .

(3) أو متعلق بمحذوف مفعول به ثان لـ (تعلم) .

(392/492)

بعد أن قص على الرسول قصة أهل الكهف وذي القرنين ، وأجابهم جوابا شافيا بشأن الروح .

[سورة مريم (19) : الآيات 66 إلى 67]

وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ

وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الهمزة) للاستفهام (إذا) ظرف مبنيّ متعلّق بالجواب المحذوف والتقدير : أحيا أو أبعث " 1 " ، (ما) زائدة (اللام) لام الابتداء (أخرج) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع ، ونائب الفاعل أنا (حيّا) حال مؤكدة منصوبة .

جملة : " يقول الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " متّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سوف أخرج . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

67 - (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (لا) نافية (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (خلقناه) ، (الواو) واو الحال (يك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف (شيئا) خبر يكن منصوب .

---

(1) لا يجوز تعليقه بفعل أخرج لأنّ لام الابتداء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، إلّا إذا أعربنا اللام زائدة ، وهو ما اختاره السيوطيّ .

وجملة : " يذكر الإنسان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقول الإنسان .

وجملة : " خلقناه . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّا خلقناه . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله يذكر .

وجملة : " لم يكن شيئا . . . " في محلّ نصب حال .

[سورة مريم (19) : الآيات 68 إلى 70]

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (70)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (الواو) واو القسم (ربّك) مجرور بالواو متعلّق بمحذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم (نحشرنّهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع ، و(النون) نون التوكيد و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (الواو) عاطفة (الشياطين) معطوف على ضمير المفعول منصوب (ثمّ) حرف عطف (لنحضرنّهم) مثل لنحشرنّهم (حول) ظرف منصوب متعلّق بـ (نحضرنّهم) ، (جثيّا) حال منصوبة .

جملة : " (أقسم) بربّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نحشرنّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " نحضرنّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

69 - (ثمّ لننزعنّ) مثل ثم لنحشرنّ (من كلّ) متعلّق بـ (ننزعنّ) ، (أيّهم)

اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به عامله ننزعنّ " 1 " ، (أشدّ) خبر لمبتدأ محذوف

تقديره هو (على الرحمن) متعلّق بـ (عتيّا) ، وهو تمييز منصوب .

وجملة : " ننزعنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نحضرنّهم .

وجملة : " (هو) أشدّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (أيّ) .

70 - (اللام) لام القسم (بالذين) متعلّق بـ (أعلم) الخبر ، (بها) متعلّق بـ (أولى) ، (صليّا)

تمييز منصوب .

وجملة : " نحن أعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ننزعنّ وجملة : " هم أولى . . . "

لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

الصرف :

(جثيّا) جمع جاث ، اسم فاعل من جثا يجثو على وزن فاعل ، وقد حذفت ياؤه المنقلبة

عن واو - لانكسار ما قبلها - حذفت لالتقائها ساكنة مع سكون التنوين . . وجثيّ فيه

إعلال بالقلب أصله جثوي – بعد الإعلال السابق – على وزن قعود ، اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الثانية ثمّ كسرت الثاء لمناسبة الياء . . ثمّ كسرت الجيم للمجاورة .

(صليّا) ، مصدر قياسيّ من فعل صلي يصلى باب فرح وزنه فعول

---

(1) وهو قول الجمهور ، وسيبويه ، وقد بني الموصول على الضمّ لإضافته إلى الضمير وحذف منه صدر الصلة . . ولكن بعض المعربين يجعلون الضمّة ضمة الإعراب وفيها توجيهات متعدّدة :

الأول : – أيّ . . اسم استفهام مبتدأ مرفوع خبره أشدّ وهو على الحكاية أي : لننزعنّ من كلّ شيعة الفريق الذي يقال عنه أيهم أشد ؟ – وهذا قول الخليل – الثاني : – مثل الأول ولكنّ الجملة مفعول به لـ (ننزعنّ) المعلّق بالاستفهام ، ومعناه يميّزن فهو من معنى العلم – وهو قول يونس – الثالث : – مثل الأول ، ولكنّ الجملة مستأنفة و(من) زائدة – وهو قول الأخفش الذي يجيز زيادة من في الموجب – . . . وثمّة توجيهات أخرى للمبرّد والفرّاء فيها بعض تكلّف .

وأصله صلوي ، اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ، ثمّ كسرت اللام لمناسبة الياء ، وكسرت الصاد للمجاورة .

البلاغة

- فن القسم :

في قوله تعالى " فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ " .

وهذا الفن هو : أن يريد المتكلم الحلف على شيء ، فيحلف بما يكون فيه فخر له ، وتعظيم لشأنه ، أو تنويه لقدره أو ما يكون ذما لغيره ، أو جاريا مجرى الغزل والترقق ، أو خارجا مخرج الموعظة والزهد .

وفي هذا القسم أمران : أحدهما ، التأكيد للخبر ، والثاني : أن في إقسام اللّه تعالى باسمه - تقدست أسماؤه - مضافا إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) تفخيما لشأن رسول اللّه ورفعا منه ، كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى " فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ " .

الفوائد

- اختلاف النحاة حول " أيهم " :

سئل الكسائي لم لا يجوز أن نقول : " أيهم قام " . فقال : " أي كذا خلقت " أي هكذا وضعت وما قاله أبو البقاء بشأن " أيهم " قال : يقرأ أيهم بالنصب ، ويقرأ بالضم ، وفيه

قولان :

أ- أنها ضمة بناء : وهو مذهب سيبويه ، وأنها بنيت لأنها بمعنى الذي بـ- القول الثاني ، أنها ضمة إعراب : وفي هذا القول خمسة أوجه .

1 - أنها مبتدأ ، وأشد خبره .

2 - الثاني : كونه مبتدأ وخبرا واستفهاما .

3 - أيّ استفهامية ومن زائدة .

4 - أن " أيهم " مرفوع بشيعة .

5 - أن " ننزع " علقت عن العمل ، لأن معنى الكلام معنى الشرط ، والشرط لا يعمل فيما قبله . والتقدير : تشيعوا أم لم يتشيعوا . وهذا أبعد الخمسة عن الصواب . . . !

[سورة مريم (19) : الآيات 71 إلى 72]

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (إن) حرف نفي (منكم) متعلّق بخبر مقدّم " 1 " ، (إلّا) أداة حصر " 2 " ، (واردها) مبتدأ مؤخّر مرفوع ، واسم (كان) ضمير مستتر تقديره هو أي الورود المفهوم من سياق الكلام (على ربّك) متعلّق بـ (مقتضيّا) وهو نعت لخبر كان

(حتما) ، منصوب .

جملة : "إن منكم إلّا واردها "لا محلّ لها استئنافيّة" 3 " .

وجملة : "كان . . حتما . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة .

72 – (فيها) متعلّق بـ (جثيّا) وهو مفعول به ثان " 4 " .

---

(1) أو هو نعت لمبتدأ محذوف أي إن أحد منكم ، والخبر هو (واردها) .

(2) يجوز أن تكون للاستثناء إن قدّر الكلام قبلها تامّا أي منكم أحد – خبر مقدّم ومبتدأ مؤخّر – فـ (واردها) حينئذ بدل من أحد .

(3) أو معطوفة على جملة نحن أعلم . . فهي في حيّز جواب القسم لقوله : فوربك لنحشرنّهم .

(4) يجوز أن يكون حالا إذا كان (نذر) بمعنى نخلّيهم . . ويجوز أن يكون الجارّ متعلقا بحال من الظالمين أو بـ (نذر) .

وجملة : "ننجّي . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة إن منكم . .

وجملة : "اتّقوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " نذر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ننجّي .

الصرف :

(حتما) ، مصدر سماعيّ لفعل حتم الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

- الالتفات :

في قوله تعالى " وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها " .

يحتمل أن يكون استئنافا لخطاب الناس ، ويحتمل أن يكون التفاتا .

احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول ، فيكون المخاطبون أولا هم المخاطبين ثانيا ، إلا أن الخطاب الأول بلفظ الغيبة ، والثاني بلفظ الحضور ، وأما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعا ، فالثاني ليس التفاتا ، وإنما عدول إلى خطاب خاص لقوم معينين .

الفوائد

أي : تأتي هنا اسم استفهام يطلب بها تعيين الشيء مثل قوله تعالى : " أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا " -

[سورة مريم (19) : آية 73]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ

نَدِيًّا (73)

الإعراب :

(397/492)

(الواو) استئنافيّة (عليهم) متعلّق بـ (تتلى) ، (بيّنات) حال منصوبة وعلامة النصب الكسرة (للذين) متعلّق بـ (قال) ، (أيّ) اسم استفهام مبتدأ مرفوع خبره (خير) مرفوع ، (مقاما) تمييز منصوب (أحسن) معطوف على خير مرفوع (نديّا) تمييز منصوب .

جملة : " تتلى . . . آياتنا " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " أيّ الفريقين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(نديّا) ، اسم بمعنى النادي ، وزنه فعيل ، وفيه إعلال بالقلب أصله نديو فلامه واو من (ندوتهم ، أندوهم) أي أتيت ناديهم . . اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو

ياء وأدغمت مع الياء الأخرى.

[سورة مريم (19) : آية 74]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (74)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (كم) خبريّة كناية عن كثير مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (قبلهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (أهلكنا) ، (من قرن) تمييز كم (هم) ضمير منفصل مبتدأ خبره أحسن (أثاثا) تمييز منصوب.

جملة: "أهلكنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "هم أحسن أثاثا . . . " في محلّ جرّ نعت لقرن.

الصرف:

(رئيّا) ، صفة مشبّهة من رأى وزنه فعل بكسر فسكون بمعنى المرئيّ كذبح بمعنى المذبوح.

الفوائد

- "من" الداخلة على التمييز.

ثمة خلاف حول "من" هذه، فبعضهم جعلها للتبعيض، ولذلك لم تدخل على ما لا يجزّأ. وبعضهم قال: إنها زائدة، وهذا رأي سيبويه، ولهذا عطف "منتقبا" بالنصب على محل التمييز وليس على لفظه.

وقال ابن هشام والزمخشري بأنها لبيان الجنس ، فلا يمكن أن تكون زائدة ، لأنها لا تزاد في غير الإيجاب . فتأمل واختر هديت إلى الصواب .

(398/492)

[سورة مريم (19) : آية 75]

قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (75)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في الضلالة) خبر كان (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) لام الأمر (له) متعلّق بـ (يمدد) ، (مدّا) مفعول مطلق منصوب (حتّى) حرف ابتداء (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يوعدون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . و(الواو) نائب الفاعل (إمّا) حرف تقسيم وتجزئة (العذاب) بدل من ما منصوب ، ومثله (إمّا الساعة) ومعطوف عليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (مكانا) تمييز منصوب (أضعف) معطوف على شرّ مرفوع (جندا) تمييز منصوب .

---

(1) أو اسم استفهام مبتدأ خبره جملة : هو شرّ مكانا ، وجملة الاستفهام في محلّ نصب مفعول به لـ (يعلمون) المعلّقة عن العمل المباشر بالاستفهام . [. . . . .]

(399/492)

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من كان . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كان . . فليمدد " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يمدد له الرحمن . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " رأوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يوعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " سيعلمون . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " هو شرّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(مدّا) ، مصدر سماعيّ لفعل مدّ الثلاثيّ وزنه فعل بفتح فسكون .

(أضعف) ، اسم تفضيل من ضعف الثلاثي وزنه أفعل .

(جندا) اسم جمع جنسيّ بمعنى العسكر واحده جنديّ ، وجمعه أجناد وجنود ، ووزن جند فعل بضمّ فسكون .

البلاغة

- اللف والنشر المرتب :

في قوله تعالى " شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً " .

حيث رجع الأول إلى " خَيْرٌ مَقاماً " ، والثاني إلى " وَأَحْسَنُ نَدِيًّا " .

[سورة مريم (19) : آية 76]

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اهتدوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل (هدى) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (خير) ، (ثوابا) تمييز منصوب وكذلك (مردّا) .

جملة : " يزيد اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اهتدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " الباقيات . . خير . . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(مردّا) ، مصدر ميميّ من ردّ الثلاثيّ ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين .

الفوائد

- ضرب من التفضيل :

" الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا " ما من مؤمن إلا ويعلم أن الباقيات الصالحات كلها خير ، فما هو فحوى التفضيل في هذه الآية ؟

الجواب أن هذا الضرب من التفضيل يشبه قولنا : الصيف أشد حرا من الشتاء ، فليست المفاضلة هنا بين حر الصيف وحر الشتاء ، وإنما المفاضلة ما بين شدة الحر وشدة البرد ، فتبصّر ، ففي الأمر معنى لطيف للغاية .

وثمة رأي آخر في مضمون هذه الآية ، ومفاده أن التفضيل ورد على طريقة المشاكلة التي كثيرا ما ترد في آي القرآن ، والتي قد تعرضنا لها في غير موضع من هذا الكتاب .

[سورة مريم (19) : الآيات 77 إلى 80]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (78) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً (80)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (الفاء) استئنافيّة (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (بآياتنا) متعلّق بـ (كفر) ، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (أوتينّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع ، مبنيّ للمجهول و(النون) نون التوكيد ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (مالا) مفعول به منصوب .

جملة : " رأيت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أوتينّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم وجوابها في محلّ نصب مقول القول .

78 – (الهمزة) للاستفهام (أم) حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (عهدا) مفعول به أوّل منصوب .

وجملة : " اطّلع . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل (رأيت) بمعنى أخبرت .

وجملة : " اتّخذ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اطّلع .

79 – (كلّا) حرف ردع وزجر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (الواو) عاطفة (له) متعلّق بـ (نمدّ) ، (من العذاب) متعلّق بـ (نمدّ) " 1 " ، (مدّا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " سنكتب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " نمدّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نكتب .

80 – (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب بدل اشتمال من الضمير في (نرثه) ، أي نرث ما عنده من المال والولد " 2 " ، (الواو) عاطفة (فردا) حال منصوبة أي منفردا .

وجملة : " نرثه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نكتب .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يأتينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نكتب .

الصرف :

(فردا) ، اسم جامد بمعنى واحد ، وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) أو بمحذوف حال من (مدّا) .

(2) أو هو مفعول به لفعل نرث ، والضمير المتّصل الغائب منصوب على نزع الخافض أي : نرث منه ما يقول . . - قاله العكبري - . وإذا ضمّن فعل نرث معنى نحرم أو نسلب كان (ما) مفعولا ثانيا للفعل .

(402/492)

البلاغة

- المجاز العقلي :

في قوله تعالى " سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ " .

أي نأمر الملائكة بالكتابة ، فهو من إسناد الشيء إلى سببه .

[سورة مريم (19) : الآيات 81 إلى 82]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (آلهة) مفعول به أوّل منصوب

(اللام) لام التعليل (يكونوا) مضارع ناقص منصوب وعلامة النصب حذف النون . .

و(الواو) ضمير اسم يكون .

والمصدر المؤوّل (أن يكونوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (اتّخذوا) .

(لهم) متعلّق بحال من (عزّا) وهو خبر يكونوا منصوب .

جملة : "اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يكونوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(403/492)

---

82 - (كلّا) حرف ردع وزجر ، وضمير الفاعل في (سيكفرون) يعود على الآلهة

(بعبادتهم) متعلّق بـ (يكفرون) والضمير الغائب المضاف إليه يعود على المشركين ، أو يعود

على الآلهة (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بحال من (ضدّا) وهو خبر يكونون منصوب .

وجملة : "يكفرون . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل للردع .

وجملة : "يكونون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يكفرون .

الصرف :

(عزّا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ عزّ ، واستعمل وصفا للمبالغة وزنه فعل بكسر فسكون .

(ضدّا) ، صفة مشبّهة من ضدّ يضدّ باب نصر وزنه فعل بكسر فسكون ، وقد جاء في الآية دالا على ذات جمع أي أعداء ، وضدّ جمع بلفظ المفرد .

الفوائد

- كلّا ومذاهبها الستة .

أ- جمهور البصريين ، لم يخرج بها عن كونها حرف ردع وزجر ، ولعل هذا ما يتسق مع مواطن ورودها في القرآن الكريم .

ب - الكسائي ومن لفّ لفه ، يرى أنها بمعنى " حقّا " .

ج - مذهب عبد الله الباهلي ، أنها ردّ لما قبلها . وهذا يتوافق مع " الزجر والردع " .

د - وأما قول أبي حاتم ، فإنها " حرف استفتاح " .

ه - وذهب النضر بن شميل ، بأنها حرف تصديق بمعنى نعم ، وفيه نظر .

و - ثمة رأي سادس ، أنها صلة في الكلام ، وفيه نظر أيضا .

وإذا تبصرت وجدت الرأي الأول هو المستعمل لدى هذا الحرف ، وما عداه فاستعمالات قليلة ، ولعلّها ضعيفة .

[سورة مريم (19) : الآيات 83 إلى 87]

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً

(86) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87)

الإعراب :

(404/492)

(الهمزة) للاستفهام (تر) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (على الكافرين) متعلّق بـ (أرسلنا) (أزّا) مفعول مطلق منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّا أرسلنا . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

وجملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرسلنا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ . .

وجملة : " تؤزّهم . . . " في محلّ نصب حال من الشياطين أي تهيّجهم إلى المعاصي ، أو من الكافرين أي متحرّكين إلى المعاصي .

84 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (عليهم) متعلّق بـ (تعجل) ، (إنّما) كافّة ومكفوفة (لهم) متعلّق بمحذوف حال من (عدّا) وهو مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " لا تعجل . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن وقعوا في المعصية فلا تعجل عليهم بالعذاب .

وجملة : " نعدّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

85 – (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (نعدّ) " 1 " ، (إلى الرحمن) متعلّق بـ (وفدا) وهو حال منصوبة من المتّقين بمعنى وافدين .

وجملة : " نحشر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

86 – (الواو) عاطفة (إلى جهنّم) متعلّق بـ (نسوق) ، (وردا) حال منصوبة من المجرمين أي واردين .

وجملة : " نسوق . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نحشر .

87 – (لا) نافية (إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع " 2 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (عهدا) مفعول به أوّل منصوب .

وجملة : " لا يملكون . . . " في محلّ نصب حال ثانية من المجرمين " 3 " ،

الصرف :

(أزّا) ، مصدر أزّ يؤزّ باب نصر ، وأزّ يئزّ باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وثمّة مصادر أخرى هي : أزيز بفتح الهمزة وأزاز بفتحها .

(عدّا) ، مصدر سماعيّ لفعل عدّ يعدّ باب نصر ، وزنه فعل فتح فسكون .

(وفد) ، اسم جمع أو جمع وافد ، وهو المقبل على مكان ، وجمع وفد وفود ، ووزن وفد

فعل بفتح فسكون.

(وردا) ، اسم جمع بمعنى الواردين أو هو جمع وارد ، وزنه فعل بكسر فسكون.

---

(1) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر.

(2) أو المتّصل إذا كان ضمير (يملكون) يعود على المتّقين . . أو هو بدل من فاعل يملكون في محلّ رفع.

(3) أو هي منقطعة على الاستئناف لا محلّ لها.

(405/492)

[سورة مريم (19) : الآيات 88 إلى 91]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ولدا) مفعول به ثان . . والمفعول الأول مقدّر أي: (عزيزا) على قول اليهود أو (عيسى) على قول النصارى أو (الملائكة) على قول بعض العرب.

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " اتّخذ اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

89 - (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (شيئًا) مفعول به منصوب بتضمين جئتم معنى فعلتم " 1 " (إدًا) نعت لـ (شيئًا) منصوب .

وجملة : " جئتم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

90 - (منه) متعلّق بـ (يتفطّرن) ، (هدًا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى ، منصوب " 2 " .

وجملة : " تكاد السموات . . . " في محلّ نصب نعت لـ (شيئًا) ، وجملة : " يتفطّرن . . . " في محلّ نصب خبر تكاد .

وجملة : " تنشقّ الأرض . . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يتفطّرن .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه أي مجيئًا منكرا .

(2) أو هو مصدر في موضع الحال أي مهدودة .

وجملة : " تخرّ الجبال . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يتفطّرن .

91 - (أن) حرف مصدري (دعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف

المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل (للرحمن) متعلّق بـ (دعوا) ، (ولدا) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن دعوا . . .) في محلّ جرّ بلام تعليليّة محذوفة متعلّق بالأفعال الثلاثة : يتفطّرن ، وتنشقّ ، وتخرّ أي لأن دعوا . . . " 1 " .

وجملة : " دعوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(إدّا) ، صفة مشبّهة من أدته الداهية تؤدّه بالضمّ وتئده بالكسر وتأده بالفتح دهته ، وزنه فعل بكسر فسكون . والإدّ هو الداهية أو الأمر العظيم والجمع إداد بكسر الهمزة ، وإدد بكسرها .

(هدّا) ، مصدر سماعيّ لفعل هدّ الثلاثيّ باب نصر ، أو باب ضرب فيكون لازما بمعنى انهدم ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

- الالتفات :

في قوله تعالى " لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا " هذا الكلام رد لمقالتهم الباطلة ، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب ، والمفصح عن غاية التشنيع والتقبيح ، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة .

---

(1) اختلاف الفاعل بين الفعل والمصدر المؤوّل يمنع جعله مفعولا لأجله في محلّ نصب على رأي أبي حيّان.

(407/492)

[سورة مريم (19) : الآيات 92 إلى 93]

وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (للرحمن) متعلّق بـ (ينبغي) ، (يتّخذ ولدا) مثل نظيرها " 1 "

.

والمصدر المؤوّل (أن يتّخذ ولدا) في محلّ رفع فاعل ينبغي.

جملة: " ما ينبغي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ.

---

(1) في الآية (88) من هذه السورة.

---

93 - (إن) حرف نفي (كلّ) مبتدأ مرفوع (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة من (إلّا) أداة حصر (آتي) خبر المبتدأ كلّ مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (الرحمن) مضاف إليه مجرور (عبدا) حال من الضمير في آتي، منصوبة.

وجملة: "كلّ من . . . آتي" لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة.

[سورة مريم (19): الآيات 94 إلى 95]

لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95)

الإعراب:

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (وعدّا) مفعول مطلق منصوب.

جملة: "أحصاهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة.

وجملة: "عدّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أحصاهم.

95 - (الواو) عاطفة (كلّهم) مبتدأ مرفوع خبره آتيه، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ

(آتيه) (فردا) حال منصوبة من الضمير في آتيه .

وجملة : "كلّهم آتيه" . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم

[سورة مريم (19) : آية 96]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96)

الإعراب :

(السين) حرف استقبال (لهم) متعلّق بـ (يجعل) " 1 " ، (ودّا) مفعول به منصوب .

جملة : "إنّ الذين آمنوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "عملوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : "سيجعل . . الرحمن . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(ودّا) ، مصدر سماعيّ لفعل ودّ باب فرح ، وزنه فعل بضمّ فسكون . . وللفعل مصادر أخرى هي : ود بفتح الواو وكسرها ، ووداد بفتح الواو وكسرها وضمّها ، ووداده بفتح الواو ، ومودّة بفتح الميم ، ومودده بكسر الدال الأولى وفتح الثانية وفتح الميم ، ومودودة .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لفعل جعل بمعنى صيّر .

[سورة مريم (19) : آية 97]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97)

الإعراب :

(الفاء) تعليليّة (إنّما) كافّة ومكفوفة (بلسانك) متعلّق بحال من هاء الغائب (اللام) للتعليل

(تبشّر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (به) متعلّق بـ (تبشّر) .

والمصدر المؤوّل (أن تبشّر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يسّرناه) .

(الواو) عاطفة (تنذر به قوما) مثل تبشّر به المتّقين (لدّا) نعت لـ (قوما) منصوب .

جملة : " يسّرناه . . . " لا محلّ لها تعليل لمقدّر أي بلّغ ما أنزل فإنما يسرناه .

وجملة : " تبشّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تنذر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تبشّر .

الصرف :

(لدّا) ، جمع ألدّ زنة أفعل ، صفة مشبّهة من لدّ يلدّ باب نصر أي خاصم خصومة شديدة ، ووزن لدّ فعل بضمّ فسكون .

[سورة مريم (19) : آية 98]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98)

(410/492)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كم أهلكنا قبلهم من قرن) مرّ إعرابها " 1 " ، (هل) حرف استفهام للإنكار (منهم) متعلّق بحال من أحد - نعت تقدّم على المنعوت - (أحد) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لفعل تحسّ (أو) حرف عطف (لهم) متعلّق بحال من (ركزا) وهو مفعول به عاملة تسمع ، منصوب .

جملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تحسّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " تسمع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تحسّ .

الصرف :

(ركزا) ، اسم للصوت الخفيّ أو الحس ، وزنه فعل بكسر فسكون .

الفوائد

- كم الاستفهامية والخبرية :

تحدثنا فيما سبق عن كم بقسميها حديثا ضافيا والآن نعود فنذكر بإيجاز هذين القسمين ، قصد التذكير فحسب .

أ- فالاستفهامية : هي ما يكنى بها عن عدد مبهم ، يطلب تعيينه ، نحو : كم كتابا قرأت .

ب - الخبرية : هي ما يكنى بها عن العدد الكثير ، على طريق الإخبار ، نحو : كم مرة نصحناهم فلم ينتصحوا . . ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 16 صـ 268 .

344 ﴾

---

(1) في الآية (74) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون في محلّ جرّ نعت لقرن ، والجملة خبريّة بالمعنى .

(411/492)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(19) سورة مريم

مكيّة وآياتها ثمان وتسعون

[سورة مريم (19) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (3) قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

اللغة :

(وَهَنَ) : في المصباح : " وهن يهن من باب وعد ضعف فهو واهن في الأمر والعمل والبدن ، ووهنته أضعفته يتعدى ولا يتعدّى في لغة فهو موهون البدن والعظم والأجود أن يتعدى بالهمزة فيقال :

أوهنته والوهن بفتحتين لغة في المصدر ووهن يهن بكسرتين لغة قال أبو زيد : سمعت من الأعراب من يقرأ فما وهنوا " وفي القاموس وغيره : وهنه يهنه وهنا وأوهنه أضعفه ووهن وأوهن الرجل دخل في الوهن من الليل ووهن ووهن يهن ووهن يوهن وهنا ووهنا ووهن يوهن وهنا ضعف في الأمر أو العمل أو البدن وتوهّن البعير

اضطجع والطائر أثقل من أكل الجيف فلم يقدر على النهوض والوهن مصدر ومن الرجال أو الإبل : الغليظ القصير والوهن من الليل نحو منتصفه أو بعد ساعة منه والموهن من الليل كالوهن ، والوهنانة من النساء الكسلى عن العمل تنعما .

)

الْمَوالِيَ) : الذين يلونني في النسب كبني العم والموالي جمع مولى وهو العاصب .

(عاقِراً) : لا تلد ، قال في القاموس : عقرت تعقر عقرا وعقرا وعقارا وعقرت تعقر عقرا وعقارة وعقارة وعقرت المرأة أو الناقة صارت عاقرا أي حبس رحمها فلم تلد وعقر عقرا الأمر لم ينتج عاقبة وعقر عقرا الرجل دهش " .

(وَلِيًّا) : ابنا وهو أحد معانيه الكثيرة .

الاعراب :

(412/492)

(كهيعص ،) (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) كهيعص تقدم القول في فواتح السور واعرابها ومعانيها فارجع اليه وذكر خبر لمبتدأ محذوف أي هذا المتلو عليك من القرآن أو مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليك ذكر ، ورحمة ربك مضافة لذكر من اضافة المصدر لمفعوله والفاعل مستتر أي ذكر اللّه رحمة عبده زكريا وعبده مفعول به لرحمة وزكريا بدل من عبده أو عطف بيان له . (إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا) إذ ظرف لما مضى من الزمن وهو متعلق

برحمة ربك أي رحمة اللّه إياه وقت أن ناداه وقيل العامل فيه ذكر وقيل هو بدل اشتمال من زكريا ، وجملة نادى مضاف إليها الظرف والفاعل مستتر تقديره هو ونداء

(413/492)

مفعول مطلق وخفيا صفة . (قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) ربي منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وان واسمها وجملة وهن العظم خبرها ومني حال واشتعل عطف على وهن والرأس فاعل وشيبا تمييز محول عن الفاعل أي انتشر الشيب في رأسي وسيأتي سر هذه الاستعارة في باب البلاغة . (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) الواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم وأكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم واسمها مستتر تقديره أنا وشقيا خبرها وبدعائك متعلقان بشقيا ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة . (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً) وإني عطف على إني وهن والياء اسم ان وجملة خفت خبرها والموالي مفعول به ومن ورائي متعلقان بمحذوف أو بمعنى الولاية في الموالي ولا يجوز أن يتعلق بخفت لفساد المعنى ووجه فساده أن الخوف واقع في الحال لا فيما يستقبل فلو جعل من ورائي متعلقا بخفت لزم أن يكون الخوف واقعا في المستقبل أي بعد موته وهو كما ترى ، ظاهر الفساد وعبارة الزمخشري : " من ورائي بعد

موتي وقرأ ابن كثير من وراي بالقصر وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى ولكن بمحذوف أو بمعنى الولاية في الموالي أي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي ، وقرأ عثمان ومحمد بن علي وعلي بن الحسين رضي اللّه عنهم خفت الموالي من ورائي وهذا على معنيين أحدهما أن يكون ورائي بمعنى خلفي وبعدي فيتعلق الظرف بالموالي أي قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين . فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه ، والثاني أن يكون بمعنى قدّامي فيتعلق بخفت ويريد أنهم خفّوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقوّ واعتضاد . وقال ابن هشام في المغني " الثاني قوله تعالى : وإني خفت الموالي من ورائي ،

(414/492)

فإن المتبادر تعلق من بخفت وهو فاسد في المعنى والصواب تعلقه بالموالي لما فيه من معنى الولاية أي وخفت ولايتهم من بعدي وسوء خلافتهم أو بمحذوف هو حال من الموالي أو مضاف إليهم أي كائنين من ورائي أو فعل الموالي من ورائي وأما من قرأ خفت بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء فمن متعلقة بالفعل المذكور . وكانت امرأتي عاقرا الواو عاطفة وكان واسمها وخبرها . (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) الفاء الفصيحة أي وإلا فهب لي ، وهب

فعل أمر ولي متعلقان بهب ومن لدنك حال ووليا مفعول به لهب . (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

جملة يرثني صفة لوليا ولذلك رفعت وقرئ بالجزم على أنه جواب الطلب ويرث عطف على يرثني ومن آل يعقوب متعلقان بيرث ومفعول يرث محذوف تقديره الشرع والحكمة والعلم لأن الأنبياء لا تورث المال وقيل يرثني الحبورة وكان حبراً ويرث من آل يعقوب الملك فعلى هذا تكون الياء في يرثني منصوبة بنزع الخافض أي يرث مني الحبورة ، واجعله فعل دعاء وفاعل مستتر ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة ورضيا مفعول به ثان لا جعله .

وقد استشكل بعضهم جملة يرثني صفة بناء على أن نبي اللّه يحيى مات قبل والده بأن دعاء النبي قد يتخلف وذلك لأنه بموته قبله لم يرثه ومعلوم ما يورث من الأنبياء ورأى هذا المستشكل أن الجملة مستأنفة لا صفة وأجيب بأن دعاء الأنبياء قد يتخلف وقد وقع لنبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم أنه سأل في ثلاثة أمور فاستجيب له في اثنين وتأخرت الاجابة في الثالث وقد اعترض القول بالاستئناف بأن مفاد الجملة حينئذ الإخبار واخبار الأنبياء لا يتخلف قطعا وأجيب بأن هذا الاخبار باعتبار غلبة الظن لأن نبي اللّه زكريا لما كان مسنا غلب على

ظنه أنه متى وهب له ولد يرثه . هذا وقد ذكر الجلال السيوطي الإشكال في كتاب شرح عقود الجمان وذكر مثل الجواب الذي أوردناه آنفا ثم قال : " وأجاب الشيخ بهاء الدين بأن المراد إرث النبوة والعلم وقد حصل في حياته " . قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : " إنا معاشر الأنبياء لا نورث " ورواه البزاز بلفظ نحن معاشر إلخ وتمام الحديث :

" ما تركناه صدقة " ونصب معاشر على الاختصاص بفعل محذوف وجوبا تقديره أخص وما تركناه ما موصولة في محل رفع بالابتداء وتركنا صلته والعائد محذوف أي تركناه وصدقة خبر ما ، والحكمة في أن الأنبياء لا يورثون انه وقد وقع في قلب الإنسان شهوة موت مورثه ليأخذ ماله فنزّه اللّه أنبياءه وأهاليهم عن ذلك ولئلا يظن بهم مبطل انهم يجمعون المال لورثتهم ولأنهم كالآباء لأمتهم فيكون مالهم لجميع الأمة وهو معنى الصدقة العامة وأما قوله تعالى " فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ " وقوله " وورث سليمان " فالمراد الوراثة في العلم والنبوة وبهذا يندفع أن عدم الإرث مختص بنبينا صلى اللّه عليه وسلم ، فإن قيل إن اللّه أخبر عن بعضهم بقوله :

" واني خفت الموالي " إذ لا تخاف الموالي على النبوة أجيب بأنه خاف من الموالي الاختلاف من بعده الرجوع عن الحق فتمنى ولدا نبيا يقوم فيهم . بقي هنا شيء لا بد من التنويه به وهو أن الأنبياء هل يرثون ؟

قال صاحب التتمة : إن النبوة مانعة من الإرث وذكر البزاز الواعظ أنه روي : نحن معاشر الأنبياء لا نرث ولا نورث ويعارضه ما ذكر الماوردي في الاحكام السلطانية أنه صلى اللّه عليه وسلم ورث من أبيه أم أيمن الحبشية واسمها بركة وخمسة جمال وقطعة من غنم ومولاه شقران واسمه صالح وقد شهد بدرا وورث من أمه دارها ومن خديجة دارها .

البلاغة :

في هذه الآيات فنون عديدة نوجز القول فيها :

1- الاختراس في قوله " نِداءً خَفِيًّا "

(416/492)

و قد تقدم القول فيه وانه عبارة عن أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل أو لبس أو إيهام فيفطن لذلك حال العمل فيأتي في صلب الكلام بما يخلصه من ذلك كله وقد تقدمت أمثلة عديدة منه كما ستأتي له نظائر مشبهة وهو هنا في كلمة خفيا فقد أتى بها مراعاة لسنة اللّه في إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند اللّه سيان فكان الأولى به أن يحترس مما يوهم الرياء أمام الناس الذين يحكمون على الظاهر ويجهلون حقيقة الدخائل أو لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة ودفعا للفضول الذي يطلق الألسنة بمختلف

أنواع الملام وقيل احترس من مواليه الذين خافهم وقيل ليس في الأمر احتراس وانما الكلام جار على حقيقته لأن خفوت صوته ناتج عن ضعفه وهرمه حيث يخفت الصوت ويكل اللسان وتعشى العينان وتثقل الآذان على حدّ قول عوف بن محلم الخزاعي :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقد قيل في صفات الشيخ " صوته خفات ، وسمعه تارات " .

2- الاستعارة المكنية :

في قوله تعالى " وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً " شبّه الشيب بشواظ النار في بياضه وإثارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ ثم أخرجه مخرج الاستعارة المكنية وأسند الاشتعال إلى

مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس أي أم يقل رأسي اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة ونزيد على ذلك وجوه الشبه الأربعة الكامنة في هذا الخيال البعيد ، وهي :

آ- السرعة : وذلك أن النار حين تشتعل وتندلع أسنتها فإنها تسرع في التهام ما تمتد اليه وهكذا الشيب لا يكاد يخط الرأس حتى يمتد بسرعة عجيبة .

ب- تعذر التلافي : وذلك أن النار إذا شبت وتدافع شؤبوبها وتطاير لهيبها اجتاحت كل

ما تصادفه وذل لها الصخر والخشب على حد قول أبي تمام :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب

(417/492)

فيعنو لها الصخر ويذل الخشب ويستلسم لشؤبوبها كل ما يناله دون أن تجدي في ذلك حيلة وقد يتعذر على رجل الإطفاء إخماد لهيبها وكثيرا ما يصبح الماء بمثابة الحطب الذي يذكيها وكذلك الشيب ينتشر بسرعة غريبة في أجزاء الرأس ويتمادى في سرعته بحيث يتعذر بل يستحيل تلافيه ، وكثيرا ما يجنح الذين أصيبوا بالشيب إلى تغطية شيبهم بالأصابيغ الكاذبة ليخفوا حقيقتهم وليستهووا قلوب الغانيات فلن يبدل ذلك شيئًا من الواقع الراهن .

ج- الألم : وكما أن النار لذاعة كواءة تؤلم من تلامسه فكذلك الشيب يؤلم الأشيب وقد صدت عنه الغواني واقتحمته العيون على حد قول ابن الرومي :

وكنت جلاء للعيون من القذى فقد أصبحت تقذي بشيبي وترمد

هي الأعين النجل التي كنت تشتكي مواقعها في القلب والرأس أسود

وقول أبي تمام :

يا نسيب الثغام ذنبك أبقى حسناتي عند الحسان ذنوبا

لو رأى اللّه أن في الشيب خيرا جاورته الأبرار في الخلد شيبا

وجميع ذلك منقول عن عمر بن أبي ربيعة :

رأين الغواني الشيب لاح بعوارضي فأعرضن عني بالخدود النواضر

ويرحم اللّه شوقيا عند ما جلس على ضفاف البردوني في زحلة واستمع إلى وشوشات الحلي ووسوسات الأساور وألفى نفسه يرتقي إلى السبعين فصرخ :

شيعت أحلامي بقلب باك ولمت من طرق الملاح شباكي

ورجعت أدراج الشباب ووردة أمشي مكانهما على الأشواك

وبجانبي واه كأن خفوقه لمّا تلفت جهشة المتباكي

د- المصير : وكما أن مصير النار بعد أن تفعل أفاعيلها وتبلغ غايتها الخمود والانطفاء فالرماد كذلك مصير الإنسان وناهيك بهذا المصير إيلاما للنفس وارتماضا للقلب فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به فتأمل هذا الفصل ، فله على سائر الفصول الفضل .

هذا وقد أوجزنا القول في عدم إضافة الرأس بالاكتفاء بعلم المخاطب ولا بد من إيضاحه الآن فنقول أن للاستعارة مطلوبات ثلاثة :

المبالغة في التشبيه والظهور والإيجاز وكل استعارة تتناول واحدا من هذه المطلوبات أما هذه الاستعارة فقد تناولت المطلوبات الثلاثة بكاملها فإن الكلام أن يقال : شيب الرأس ولو جاء الكلام كذلك لأفاد الظهور فقط دون المبالغة واللفظ الأول يعطى عموم الشيب جميع نواحي الرأس كما انك إذا قلت : اشتعلت نار البيت صدق ذلك على اشتعال النار في بعض نواحيه دون بقيته بخلاف ما إذا قلت اشتعل البيت نارا فإن مفهوم ذلك اشتمال النار على كل البيت بجميع أجزائه فتنبه لهذا الفصل وإن طال بعض الطول فإنه كالحسن غير مملول .

هذا وقد اقتبس ابن دريد اشتعال الرأس شيبا فقال في مقصورته :

واشتعل المبيض في مسودّه مثل اشتعال النار في جزل الغضا

هذا ولما كان الشيب عندهم عيبا قالوا : هو أشيب أي وصفا على غير قياس لأن الوصف على أفعل انما يكون من فعل كفرح وشرطه

الدلالة على العيوب أو الألوان وقال الشهاب الخفاجي انه على وزن الوصف من المصائب الخلقية فعدوه من العيوب ، ولأبي الحسن الزوزني :

كفى الشيب عيبا ان صاحبه إذا أردت به وصفا له قلت أشيب

وكان قياس الأصل لو قلت شائبا ولكنه في جملة العيب يحسب

فشائب خطأ لم يستعمل .

(419/492)

هذا وفي قوله واشتعل الرأس شيبا فن الإطناب فقد انتقل أولا من شخت الدال على ضعف البدن وشيب الرأس إجمالا إلى هذا التفصيل لمزيد التقرير ، وثانيا من هذه المرتبة إلى ثالثة أبلغ منها وهي الكناية التي هي أبلغ من التصريح ، وثالثا من هذه المرتبة إلى رابعة أبلغ في التقرير وهي بناء الكناية على المبتدأ أي قولك : أنا وهنت عظام بدني ، ورابعا من هذه المرتبة إلى خامسة أبلغ وهي إدخال إن على المبتدأ أعني قولك إني وهنت عظام بدني ، وخامسا إلى مرتبة سادسة وهي سلوك طريق الإجمال ثم التفصيل أعني إني وهنت العظام من بدني ، وسادسا إلى مرتبة سابعة وهي ترك توسيط البدن لادعاء اختصاصها بالبدن بحيث لا يحتاج إلى التصريح بالبدن ، وسابعا إلى مرتبة ثامنة وهي ترك جمع العظم إلى الإفراد لشمول الوهن العظام فردا فردا .

3- التجريد :

وذلك في قوله تعالى " فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ

آلِ يَعْقُوبَ "

وقد قدمنا القول فيه مختصرا وسنورده الآن مستوفى :

فنقول ان التجريد هو أن ينتزع المتكلم من أمر ذي صفة أمرا آخر بمثاله له فيها مبالغة لكمالها فيه كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة إلى حيث يصح أن ينتزع منه موصوف آخر بتلك الصفة وهو أقسام :

أ- أن يكون بمن التجريدية كقولهم لي من فلان صديق حميم ومنه الآية الكريمة ومثله للقاضي الفاضل في وصف السيوف :

تمدا إلى الأعداء منها معاصسا فترجع من ماء الكلي بأساور

ب- أن يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه نحو قول ابن هانىء :

وضربتم هام الكماة ورعتم بيض الخدور بكل ليث مخدر

وقال أبو تمام :

هتك الظلام أبو الوليد بغرة فتحت لنا باب الرجاء المقفل

بأتم من قمر السماء وإن بدا بدرا وأحسن في العيون وأجمل

وأجل من قس إذا استنطقته رأيا وألطف في الأمور وأجزل

والمراد بأتم من قمر السماء نفس أبي الوليد .

ح- أن يكون بدخول في على المنتزع منه أو مدخول ضميره كقوله تعالى " لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ " أي في جهنم وهي دار الخلد ولكنه انتزع منها دارا أخرى للمبالغة وقال المتنبي :

تمضي المواكب والأبصار شاخصة منها إلى الملك الميمون طائر

قد حرن في بشر في تاجه قمر في درعه أسد تدمى أظافره

فإن الأسد هو نفس الممدوح ولكنه انتزع منه أسدا آخر تهويلا لأمره ومبالغة في اتصافه بالشجاعة والصولة .

د- أن يكون بدخول بين كقول ابن النبيه :

يهتز بين وشاحيها قضيب نقا حمائم الحلي في أفنانه صدحت

ه- ومنها أن يكون بدون توسط شيء كقول قتادة بن سلمة الحنفي :

فلئن بقيت لأرحلن بعزة تحوي الغنائم أو يموت كريم

عني بالكريم نفسه فكأنه انتزع من نفسه كريما مبالغة في كرمه ولذا لم يقل أو أموت ، ولأبي تمام :

ولو تراهم وإيانا وموقفنا في موقف البين لاستهلالنا زجل

من حرقة أطلقتها فرقة أسرت قلبا ومن غزل في نحره عذل

وقد طوى الشوق في أحشائنا بقرا عينا طوتهن في أحشائها الكلل

ومراده بالبقر العين الذين أخبر عنهم أولا بقوله ولو تراهم فكأنه انتزع منهم موصوفين بهذه الصفة مبالغة فيها .

ز- ومنها أن ينتزع الإنسان من نفسه شخصا آخر مثله في الصفة التي سيق الكلام لها ثم يخاطبه كقول أبي الطيب :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فكأنه انتزع من نفسه شخصا آخر مثله في فقد الخيل والمال ومنه قول الأعشى :

ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وقال أبو نواس وأبدع متغزلا :

يا كثير النوح في الدمن لا عليها بل على السكن

سنة العشّاق واحدة فإذا أحببت فاستنن

ومراده الخطاب مع نفسه ولذلك قال بعده :

ظن بي من قد كلفت به فهو يجفوني على الظنن

بات لا يعنيه ما لقيت عين ممنوع من الوسن

رشأ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن

هذا والتجريد كثير في الشعر وستأتي أمثلة منه في مواضع أخرى من هذا الكتاب .

[سورة مريم (19) : الآيات 7 إلى 15]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (14) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

اللغة :

(سَمِيًّا) : السمي : المسمّى وهو فعيل بمعنى مفعول وأصله سميو اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء أي مسمى بيحيى قال الزمخشري : " وهذا شاهد على أن الاسامي السنع جديرة بالاثرة وإياها كانت العرب

تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز حتى قال القائل في مدح قوم :

سنع الأسامي مسبلي أزر حمر تمس الأرض بالهدب

(422/492)

انتهى كلام الزمخشري وسنع الاسامي أي أسماؤهم حسنة يقال سنع الرجل كظرف فهو سنيع أي جميل وأسنع والمرأة سنعاء وسنع جمع أسنع كحمر في جمع أحمر من السناعة وهي الجمال كما أفاده في الصحاح أي أسماؤهم حسنة فهي أنبه وأنوه وأنزه عن النبز والحمر صفة الأزر وتمس صفة أخرى لها وهدب الشيء طرفه والمناسب للمعنى أن المراد به الجمع ويمكن أن تكون ضمته مفردا كقفل وجمعا كفلك ويجوز أنه اسم جمع ولذلك جاء في واحده هدبه ، ومس الأرض بالأطراف كناية عن طولها بل عن غناهم وقيل معنى السمي المثل والشبيه والشكل والنظير كما في القاموس وغيره فكل واحد منهما سمي لصاحبه ونحو يحيى في أسمائهم يعمر ويعيش إن كانت التسمية عربية وقد سموا بيموت أيضا وهو يموت بن المزرع وقيل هو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة .

(عِتِيًّا) : في المختار : " عتا من باب سما وعتيا أيضا بضم العين وكسرها وهو عات فالعاتي المجاوز للحد في الاستكبار وعتا الشيخ

يعتو عتوا بضم العين وكسرها كبر وولى " وقال الزمخشري : " أي بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل يقال عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا " (آيَةً) : علامة على حمل امرأتي .

(الْمِحْرابِ) : في القاموس : " المحراب : الغرفة ، وصدر البيت وأكرم مواضعه ومقام الامام من المسجد والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس " وأما المحراب المعروف الآن وهو طاق مجوف في حائط المسجد يصلي فيه الامام فهو محدث لا تعرفه العرب فتسميته محرابا اصطلاح للفقهاء ، هذا ما قاله الشهاب في حاشيته على البيضاوي ولكن المغني اللغوي الذي ذكره الفيروز بادي ينطبق عليه وهو " مقام الإمام في المسجد " .

(الْحُكْمَ) : الحكمة ومنه قول النابغة :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام شراع وارد الثمد

(423/492)

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسّبوه فألفوه كما ذكرت ستا وستين لم تنقص ولم تزد

والفتاة التي حكمت هي زرقاء اليمامة التي يضرب بها المثل في حدة البصر نظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت :

ليت الحمام ليه إلى حمامتيه

ونصفه قديه تم الحمام ميه

فوقع في شبكة صياد فحسبوه فوجدوه ستا وستين حمامة ونصفه ثلاث وثلاثون فإذا ضم الجميع إلى حمامتها صار مائة وشراع بكسر الشين ما يرفع وبه سمي الشراع وهو مثل الملاءة الواسعة يشرع وينصب على السفينة فتهب فيه الرياح فتمضي بالسفينة ، ويروى سراع جمع سريع وصفه به لأنه جمع في المعنى كما وصفه بوارد وهو مفرد لأنه مفرد في اللفظ وروى الحمام أو نصفه بالرفع على إهمال ليتما وبالنصب على أعمالها لأن ما الزائدة تكف ان وأخواتها ما عدا ليت فيجوز أعمالها وإلغاؤها وأو بمعنى الواو وقد بمعنى حسب فهي اسم أضيفت إلى ياء المتكلم بغير نون الوقاية كما يقال حسبي والفاء زائدة لتحسين اللفظ كفاء فقط وكلاهما بمعنى انته ، وحسبوه بتشديد السين ليسلم البيت من الخبن وهو نوع من الزحاف معيب وقيل الحكم العقل وقيل النبوة لأن اللّه أحكم عقله في صباه وأوحى اليه .

(وَحَناناً) : أي رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفا وشفقة وأنشد :

وقالت حنان ما أتى بك ها هنا أذو نسب أم أنت بالحي عارف

وهذا البيت لمنذر الكلبي وقبله ليتسق معناه :

وأحدث عهد من أمينة نظرة على جانب العلياء إذ أنا واقف

يقول : وأقرب عهد أي لقاء ورؤية لأمينة محبوبتي تصغير آمنة هو نظرة مني لها بجانب تلك البقعة إذ أنا واقف هناك أي حين وقوفي بها وفيه إشعار بأنه كان واقفا يترقب رؤيتها فلما رأته قالت له : حنان أي أمري حنان ورحمة لك وهو من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لأنه مصدر محول عن النصب وقولها : ما أتى بك ها هنا ؟

(424/492)

استفهام تعجبي أذو نسب أي أأنت ذو نسب أم أنت عارف بهذا الحي ويجوز أن يكون أذو نسب بدلا من ما الاستفهامية أي ما الذي حملك على المجيء هنا أو الذي دلّك عليه صاحب قرابة من الحي أي معرفتك به ويجوز أن الاستفهام حقيقي حكته على لسان غيرها لتلقنه الجواب بقولها : أذو نسب مع معرفتها سبب مجيئه وهو حبها فربما سأله أحد من أهلها فيجيبه بأحد هذين الجوابين وقيل حنانا من اللّه عليه ، وحنّ بمعنى ارتاح واشتاق ثم استعمل في الرأفة والعطف وقيل للّه حنان كما قيل رحيم على سبيل الاستعارة .

(عَصِيًّا)

: صيغة مبالغة وأصل عصيا عصييا بوزن فعيل أدغمت الياء فيه وأتى بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل لأن المنفي أصل العصيان لا المبالغة فيه .

الاعراب :

(يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى) يا حرف نداء وزكريا منادى مفرد علم مبني على الضم وقرىء زكرياء بالهمز على الأصل وإنا ان واسمها وجملة نبشرك خبرها والكاف مفعول به وبغلام جار ومجرور متعلقان بنبشرك واسمه مبتدأ ويحيى خبره والجملة الاسمية صفة لغلام . (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) الجملة صفة ثانية لغلام وله مفعول

نجعل الثاني ومن قبل حال وسميا مفعول نجعل الأول . (قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وأنى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بالاستقرار في خبر يكون ولي جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم وغلام اسمها المؤخر وكانت الواو للحال وكانت امرأتي عاقرا كان واسمها وخبرها والجملة حالية وقد بلغت من الكبر جملة حالية أيضا ومن الكبر متعلقان ببلغت أو بمحذوف حال من عتيا لأنه كان صفة له وتقدم عليه

وعتيا مفعول بلغت ولا تلتفت إلى الأعاريب التي تكلفها المعربون كاعرابها حالا وتمييزا ومن زائدة وهذا لا يليق بكتاب اللّه . (قالَ : كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً) قال فعل ماض وفاعله مستتر قيل يعود على اللّه تعالى وقيل على جبريل وكذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك أو نصب بقال أو بفعل محذوف تقديره أفعل كذلك والاشارة إلى مبهم يفسره هو على هين ، وقال ربك فعل وفاعل وهو مبتدأ وعلي متعلقان بهين وهين خبر هو ولقد الواو حالية وقد حرف تحقيق وخلقتك فعل وفاعل ومفعول به ومن قبل متعلقان بخلقتك والواو حالية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتك فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسم تك مستتر وشيئا خبر تك وجملة ولم تك شيئا حال متداخلة وسوف يأتي بحث الشيء بين أهل السنة والمعتزلة وبراعة المتنبي في هذا الباب . (قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) رب منادى وقد تقدم إعرابه واجعل فعل أمر ولي مفعول به ثان وآية مفعول به أول . (قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا) آيتك مبتدأ وأن وما في حيزها خبر

و الناس مفعول به وثلاث ليال نصب على الظرف والظرف متعلق بتكلم وسويا حال من فاعل تكلم أي حالة كونك بلا علة وسليم الأعضاء وقيل سويا نسب على الصفة لثلاث بمعنى أنها كاملات . (فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) الفاء استئنافية وخرج فعل وفاعل مستتر وعلى قومه متعلقان بمحذوف حال ومن المحراب متعلقان بخرج فأوحى عطف على خرج وأن تفسيرية لأنها وقعت بعد جملة فيها معنى القول وسبحوه فعل أمر وفاعل ومفعول به وبكرة ظرف زمان متعلق بسبحوه وعشيا عطف على بكرة ويجوز أن تكون أن مصدرية مفعولة بالإيحاء . (يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) يا يحيى منادى مفرد علم وخذ الكتاب فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وبقوة حال من فاعل خذ والباء للملابسة أي حال كونك ملتبسا بقوة واجتهاد وآتيناه الواو استئنافية وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به أول والحكم مفعول به ثان وصبيا حال من الهاء .

(وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا) وحنانا عطف على الحكم أي وآتيناه حنانا أي رحمة ورقة في قلبه وعطفا على الآخرين وقيل مفعول مطلق لفعل محذوف وهو بعيد ومن لدنا متعلقان بمحذوف صفة لحنان وزكاة عطف على حنانا وكان تقيا عطف على آتيناه وكان واسمها المستتر وتقيا خبرها . (وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا)

وبرا عطف على تقيا وبوالديه متعلقان ببرا ولم يكن عطف على وكان تقيا واسم يكن

مستتر تقديره هو وجبارا خبرها وعصيا نعت . (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

الواو استئنافية وسلام مبتدأ وساغ الابتداء به مع أنه نكرة لتضمنه معنى الدعاء وعليه خبر ويوم ظرف متعلق بسلام وجملة ولد مضافة للظرف وما بعده عطف عليه وحيا حال .

البلاغة :

الإيجاز

إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

(427/492)

و قد غفل شراحه عن حقيقة الخلاف المشتجر بين أهل السنة والاعتزال فذهبوا في تفسير هذا البيت كل مذهب قال ابن القطاع :

" قد أوخذ في هذا البيت فقيل : كيف يرى غير شيء ، وغير شيء معدوم والمعدوم لا يرى ؟ وفيه تناقض . وليس الأمر كما قالوا بل أراد غير شيء يعبأ به "

وقال أبو بكر الخوارزمي : " رأى في هذا البيت ليست من رؤية العين وإنما هو من رؤية

القلب يريد به التوهم وغير الشيء يجوز أن يتوهم ومثله كثير " وقال الواحدي : " إذا رأى غير شيء يعبأ به أو يفكر في مثله ظنه إنسانا يطلبه وكذلك عادة الخائف الهارب كقول جرير :

ما زال يحسب كل شيء بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالا

قال أبو عبيد : لما أنشد الأخطل قول جرير هذا قال : سرقه والله من كتابهم " يحسبون كل صيحة عليهم " ويجوز حذف الصفة وترك الموصوف دالا عليها كقوله عليه الصلاة والسلام : " لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد " أجمعوا على أن المعنى لا صلاة كاملة فاضلة ، ويقولون : هذا ليس بشيء يريدون شيئا جيدا . وقال بعض المتكلمين : إن الله خلق الأشياء من لا شيء فقيل هذا خطأ لأن لا شيء لا يخلق منه شيء ومن قال إن الله يخلق من لا شيء جعل لا شيء يخلق منه والصحيح أن يقال يخلق لا من شيء لأنه إذا قال لا من شيء نفى أن يكون قبل خلقه شيء يخلق منه الأشياء " والصحيح ما قاله : أي إذا رأى غير شيء يخاف منه ، ومن هذا الوادي " حتى إذا جاءه أم يجده شيئا " معناه يريده أو يطلبه أو يغنيه عن الماء أي شيئا نافعا مغنيا .

[سورة مريم (19) : الآيات 16 إلى 21]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21)

اللغة :

(انْتَبَذَتْ)

: الانتباذ الاعتزال والانفراد فقد تخلت مريم للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس أو من دارها معتزلة عن الناس الناس وقيل غير ذلك والتفاصيل في المطولات وفي المصباح : " وانتبذت مكانا اتخذته بمعزل يكون بعيدا عن القوم " .

(بَغِيًّا) : البغي : الفاجرة التي تبغي الرجال وهي فعول عند المبرد أي بغوي فأدغمت الواو في الياء وقال ابن جني في كتاب التمام " هي فعيل ولو كانت فعولا لقيل بغوّ كما قيل فلان نهوّ عن المنكر " وبغت فلانة بغاء بكسر الباء ومنه قيل للإماء البغايا لأنهن كنّ يباغين في الجاهلية يقال : قامت البغايا على رؤوسهم قال الأعشى :

والبغايا يركضن أكسية الاضريج والشرعبيّ ذا الأذيال

وفي القاموس وشرحه : " بغى يبغي من باب ضرب الشيء بغاء بضم الباء وبغيا بفتحها وبغى وبغية طلبه وبغى الرجل عدل عن الحق وعصى وبغى عليه استطال عليه وظلمه فهو باغ " فلعل إطلاقهم كلمة البغاء على العهر والزنا مأخوذ من هذا المعنى لأنه من دواعي ما يطلبه أهل الخنا والفجور .

الاعراب :

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا)

(429/492)

و اذكر الواو استئنافية واذكر فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت وفي الكتاب جار ومجرور متعلقان باذكر ومريم مفعول به وإذ : قال أبو البقاء ما نصه : في إذ أربعة أوجه أحدها أنها ظرف والعامل فيه محذوف تقديره واذكر خبر مريم إذ انتبذت والثاني أن تكون حالا من المضاف المحذوف والثالث أن يكون منصوبا بفعل محذوف أي وبيّن إذ انتبذت فهو على كلام آخر كما قال سيبويه في قوله تعالى " انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ " وهو في الظرف أقوى وان كان مفعولا به والرابع أن يكون بدلا من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان تشتمل على الجثث ذكره الزمخشري وهو بعيد لأن الزمان إذا لم يكن حالا من الجثة ولا خبرا عنها ولا وصفا لها لم

يكن بدلا منها وقيل إذ بمعنى أن المصدرية كقولك لا أكرمك إذ لم تكرمني أي لأنك لم تكرمني فعلى هذا يصح بدل الاشتمال أي واذكر مريم انتباذها .

واضطرب قول ابن هشام فيها فبينما يقول في صدد بحثه عن إذ " الوجه الثالث أن تكون بدلا من المفعول نحو " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ "

فإذ بدل اشتمال من مريم على حد البدل في :

" يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه " يعود فيقول : " وزعم الجمهور أن إذ لا تقع إلا ظرفا أو مضافا إليها وأنها في نحو " واذكروا إذ كنتم قليلا " ظرف لمفعول محذوف أي واذكروا نعمة اللّه إذ كنتم قليلا ، وفي نحو إذ انتبذت ظرف لمضاف إلى مفعول محذوف أي واذكر قصة مريم .

(430/492)

و قال شهاب الدين الحلبي المعروف بالسمين : " في إذ أوجه أحدها أنها منصوبة باذكر على أنها خرجت عن الظرفية إذ يستحيل أن تكون باقية على مضيها والعامل فيها ما هو نصّ في الاستقبال والثاني أنها منصوبة بمحذوف مضاف لمريم تقديره واذكر خبر مريم أو نبأها إذ انتبذت فإذ منصوبة بذلك الخبر أو النبأ ، الثالث أنها بدل من مريم بدل اشتمال قال

الزمخشري : لأن الأحيان مشتملة على ما فيها لأن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها لوقوع هذه القصة العجيبة فيه " وجملة انتبذت مضافة إلى إذ ومن أهلها حال ومكانا ظرف متعلق بانتبذت أي في مكان وشرقيا نعت ويجوز أن يعرب مكانا مفعولا به على أن معنى انتبذت أتت ، ونص المصباح يؤيد كونه مفعولا به فتأمله في باب اللغة . (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا)

الفاء عاطفة واتخذت فعل ماض وفاعل مستتر ومن دونهم مفعول به ثان وحجابا مفعول به أول فأرسلنا عطف على فاتخذت وإليها متعلقان بأرسلنا وروحنا مفعول به ، فتمثل عطف أيضا ولها متعلقان بتمثل وبشرا حال وسويا نعت وسوغ وقوع الحال جامدة وصفها وسيأتي مزيد بحث عنها في باب الفوائد . (قالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)

ان واسمها وجملة أعوذ خبرها والجملة مقول القول وبالرحمن متعلقان بأعوذ ومنك متعلقان بأعوذ أيضا وإن حرف شرط جازم وكنت فعل ماض ناقص والتاء اسمها وتقيا خبرها وجواب الشرط محذوف والمعنى إن كان يرجى منك أن تتقي اللّه وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك . (قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا)

إنما كافة ومكفوفة وأنا مبتدأ ورسول ربك خبر واللام للتعليل وأهب فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ولك متعلقان بأهب وغلاما مفعول به وزكيا صفة . (قالَتْ : أَنَّى يَكُونُ

لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)

أنى اسم استفهام بمعنى كيف وقد تقدم إعرابه في قصة زكريا ولم يمسسني الواو حالية ولم حرف نفي وقلب وجزم ويمسسني مضارع مجزوم بلم والياء مفعول به وبشر فاعل ، ولم أك بغيا : لم حرف نفي وقلب وجزم وأك مضارع مجزوم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف واسم أك مستتر وبغيا خبرها . (قالَ كَذَلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) كذلك خبر لمبتدأ محذوف وقد تقدم إعراب نظيرها . (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا) لنجعله تعليل معلله محذوف أي فعلنا ذلك أو هو معطوف على مضمر أي لنبين به قدرتنا ولنجعله آية وآية مفعول به ثان لنجعله وللناس صفة لآية ورحمة منا عطف على آية وكان أمرا مقضيا كان واسمها المستتر وخبرها ومقضيا صفة .

الفوائد :

معنى بشرا سويا :

تقدم بحث الحال الموطئة وانها ان تكون جامدة موصوفة وهذا أحد شروطها التي تبرر كونها جامدة وهو في الآية بشرا فهو حال من فاعل تمثل وهو الملك والاعتماد فيها على

الصفة وهي سويا وهو اسم مشتق لأنه صفة مشبهة ، وعبارة ابن هشام : " الثاني انقسامها بحسب قصدها لذاتها وللتوطئة بها إلى قسمين مقصودة وهو الغالب وموطئة وهي الجامدة الموصوفة نحو فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا

" واعترض بعضهم على هذا الاعراب فقال : ان دعوى الحال تقتضي أن المعنى متمثل لها في حال كونها بشرا ولا يخفى انه وقت التمثيل ملك لا بشر فالأقرب انه منصوب بنزع الخافض أي فتمثل لها ببشر أي تشبه به وتصور بصورته .

(432/492)

و اعلم أنه وقع هنا للبيضاوي ما لا يليق حيث قال : " أتاها جبريل عليه السلام بصورة شاب أمرد سوي الخلق لتستأنس بكلامه ولعله ليهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها " فقوله ليهيج إلخ عبارة غير لائقة بمريم مع التحقيق أن عيسى عليه السلام كان من عالم الأمر أي أمر التكوين الممثل بقوله تعالى : " إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " إذ ليس ثم قول ولا كان ولا يكون وهذا وجه المماثلة بين عيسى وآدم في قوله تعالى : " إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ " أي في التكوين بالأمر من غير واسطة ولا نطفة والنفخ المدلول عليه بقوله تعالى " فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا " من قبيل التمثيل استعير لإفاضة ما به الحياة

بالفعل على المادة القابلة لها . لا حقيقة النفخ التي هي إجراء الريح إلى جوف صالح لإمساكها والامتلاء بها .

ولا يصح الاعتذار للقاضي البيضاوي بأنه نظر إلى العادة الإلهية الجارية بخلق المسببات عقب الأسباب لأن السبب لا بد أن يكون تاما ونطفة المرأة وحدها ليست بسبب تام لحصول الولد وإنما تمثل لها بصورة حسنة لتأنس به ولا تنفر منه وتصغي اليه وترهف السمع لسماع البشرى وكان بصورة أمرد لإلف النساء إلى الأطفال ومن قرب منهن وعدم الاحتشام منهن . أما رواية الزمخشري فهي : " وقيل قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشيء يسترها وكان موضعها المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها فإذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي شاب وضيء الوجه ، جعد الشعر ، سوي الخلق ، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئا أو حسن الصورة مستوي الخلق وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه ولو بدا لها في

الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه " واستأنف الزمخشري كلامه فقال : " ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة ، الفائقة الحسن ، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها ، وسبرا لعفتها ، وقيل : كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك " .

ونختم هذا الفصل الذي خالفنا فيه شرط كتابنا لأهميته بتذييل للشيخ عبد الرزاق الكاشي وهذا هو نصه : " إنما تمثل لها بشرا سوي الخلق حسن الصورة ، لتتأثر نفسها به فتتحرك على مقتضى الجبلة أو يسري الأثر من الخيال في الطبيعة فتتحرك شهوتها فتنزل كما يقع في المنام من الاحتلام ، وانما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة لأنه ثبت في العلوم الطبيعية : أن مني الذكر في تولد الجنين بمنزلة الإنفحة من الجبن ، ومني الأنثى بمنزلة اللبن : أي العقد من مني الذكر والانعقاد من مني الأنثى ، لا على معنى أن مني الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومني الأنثى ينفرد بالقوة المنعقدة بل على معنى أن القوة العاقدة في مني الذكر أقوى ، وإلا لم يمكن أن يتحدا شيئا واحدا ولم ينعقد مني الذكر حتى يصير جزءا من الولد فعلى هذا إذا كان مزاج الأنثى قويا ذكوريا كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى وكان مزاج كبدها حارا كان المني الذي ينفصل عن كليتها اليمنى أحر كثيرا من المني الذي

ينفصل عن كليتها اليسرى فإذا اجتمعا في الرحم كان مزاج الرحم قويا في الإمساك والجذب قام المنفصل من الكلية اليمنى مقام مني الرجل في شدة قوة العقد والمنفصل من الكلية اليسرى مقام مني الأنثى في قوة الانعقاد فيخلق الولد .

(434/492)

هذا وخصوصا إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس متقوية به يسري أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ويغير المزاج ويمد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني فتصير أقدر على أفعالها بما لا يضبط في القياس " .

[سورة مريم (19) : الآيات 22 إلى 33]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (22) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ

امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبارَكًا أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31)

وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

اللغة :

(قَصِيًّا) : بعيدا من أهلها .

)

(435/492)

فَأَجاءَهَا) : يقال : جاء وأجاء لغتان بمعنى واحد والأصل في جاء أن يتعدى لواحد بنفسه فإذا دخلت عليه الهمزة كان القياس يقتضي تعديته لاثنين إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل فصار بمعنى ألجأه إلى كذا ألا تراك لا تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول بلغته وأبلغنيه ونظيره آتى حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء ولم تقل أتيت المكان وآتانيه فلان .

(الْمَخاضُ) : وجع الولادة ، وفي القاموس : مخض يمخض بتثليث الخاء في المضارع مخضا اللبن استخرج زبده فهو لبن مخيض وممخوض ومخض الشيء حركه شديدا ومخض الرأي قلبه وتدبر عواقبه حتى ظهر له الصواب ومخضت بكسر الخاء تمخض بفتحها الحامل مخاضا بكسر الميم ومخاضا بفتحها ومخضت بالبناء للمجهول ، ومخضت بتشديد الخاء وتمخضت الحامل دنا ولادها وأخذ الطلق فهي ماخض والجمع مخض بضم الميم وتشديد الخاء ومواخض . وللميم والخاء مجتمعتين معنى يكاد يكون متقاربا فهي تشير إلى الانزلاق ومنه مخر البحر والماء أي شقه مع صوت ومخط وامتخط معروفة .

(مِتُّ) : بكسر الميم وضمها يقال مات يمات ومات يموت .

(نَسْياً) : النسي بفتح النون وكسرها بمعنى المنسي كالذبح بمعنى المذبوح وكل ما من حقه أن يطرح ويرمى وينسى .

(سَرِيًّا) : السري فيه قولان : أحدهما أنه الرجل المرتفع القدر من سرو يسرو كشرف يشرف فهو سري فأعل إعلال سيد فلامه واو يقال هو سري من السراة والسروات ، قال بشامة بن حزن النهشلي :

وإن دعوت إلى جلّى ومكرمة يوما سراة كرام الناس فادعينا

والثاني أنه النهر الصغير ويناسبه فكلي واشربي ، واشتقاقه من سرى يسري لأن الماء يسري فيه فلامه على هذا ياء ، قال لبيد يصف حمارا وحشيا :

فمضى وقدّمها وكانت عادة منه إذا هي عردت أقدامها

فتوسّطا عرض السري فصدعا مسجورة متجاورا أقلامها

(436/492)

يقول إنه مضى خلف أتانه نحو الماء وقدمها أمامه وأقدامها اسم كان وألحقها التاء لأنها بمعنى التقدمة وعادة خبر كانت والتعريد التأخر والجبن فتوسطا أي الحمار والأتان عرض السري أي ناحية النهر الصغير فصدعا أي شقا عينا مسجورة أي مملوءة .

(رُطَباً جَنِيًّا) : الرطب بضم ففتح ما نضج من البسر قبل أن يصير تمرا والجني فعيل بمعنى فاعل أي صار طريا صالحا للاجتناء .

(وَقَرِّي عَيْناً) : أي طيبي نفسا ولا تغتمي وارفضي ما أحزنك يقال قرت عينه تقر بفتح العين وكسرها في المضارع وفي وصف العين بذلك تأويلان أولهما أنه مأخوذ من القر وهو البرد وذلك أن العين إذا فرح صاحبها كان دمعها باردا وإذا حزن كان دمعها حارا ولذلك قالوا في الدعاء عليه أسخن اللّه عينك والثاني انه من الاستقرار والمعنى أعطاه اللّه ما يسكن عينه فلا تطمح إلى غيره وفي المصباح : وقرت العين من باب ضرب قرة بالضم وقرورا بردت سرورا وفي لغة أخرى من باب تعب .

(صَوْماً) : صمتا وخيل صائمة وصيام قال :

خيل صيام وخيل غير صامتة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وقيل المراد بصائمة وغير صائمة واقفة وغير واقفة .

وصامت الريح ركدت وصام النهار وصامت الشمس كبّدت وجئته والشمس في مصامها وشاخ فصامت عنه النساء .

)

فَرِيًّا) : الفري البديع من فرى الجلد ، والفري العظيم من الأمر يقال في الخير والشر وقيل الفري العجيب وقيل المفتعل ومن الأول الحديث في وصف عمر بن الخطاب : فلم أرى عبقريا يفرى فريه ، والفري قطع الجلد للخرز والإصلاح ، وفي المختار : " فرى الشيء قطعه لاصلاحه وبا به رمى وفرى كذبا خلقه وافتراه واختلقه والاسم الفرية وقوله تعالى : " شَيْئاً فَرِيًّا " أي مصنوعا مختلقا وقيل عظيما وأفرى الأوداج قطعها وأفرى الشيء شقه فانفرى وتفرى أي انشق ، وقال الكسائي : أفرى الأديم قطعه على جهة الإفساد وفراه قطعه على جهة الإصلاح " .

الاعراب :

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) الفاء عاطفة على محذوف ، تقديره فنفخ جبريل في جيب درعها فحملته وسيأتي سر هذا التعقيب

في باب الفوائد فانتبذت عطف على فحملته وبه جار ومجرور في موضع نصب على الحال وقد رمق سماءه أبو الطيب المتنبي في قصيدة يمدح بها علي بن مكرم بن سيار التميمي ويصف الخيل :

كأن خيولنا كانت قديما تسقّى في قحوفهم الحليبا

فمرّت غير نافرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريبا

يريد أن خيولهم لم تنفر منهم كأنها كانت في صغرها تسقى في قحوف رءوسهم اللبن يعنى قحوف رءوس الأعداء والعرب كان من عادتها أن تسقي كرام خيولها اللبن وقحف الرأس ما انضم على أم الدماغ ، والجمجمة العظم الذي فيه الدماغ فوطئت رءوسهم وصدورهم ولم تنفر عنهم فكأنها ألفتهم والتريب والتربة واحدة الترائب وهو موضع القلادة ومن طريف الأخطاء أن بعضهم تصدى لشرح هذا البيت ولما لم يعرف معنى التريب قال بالحرف : والتريب والتراب لغة في التراب .

زاده اللّه فهما ! ! .

ومكانا مفعول فيه أو مفعول به وقد تقدم وقصيا صفة .

)

فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ) الفاء عاطفة للتعقيب وأجاءها فعل ماض ومفعول به مقدم والمخاض فاعل مؤخر والى جذع النخلة متعلقان بمحذوف حال وسيأتي السر في تعريف النخلة في باب البلاغة .

(قالَتْ : يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا) يا حرف نداء والمنادى محذوف أو يا لمجرد التنبيه وليت واسمها وجملة مت خبرها وهي فعل وفاعل والظرف منصوب لأنه أضيف وهو متعلق بمت وهذا مضاف اليه وكنت الواو عاطفة وكان واسمها ونسيا خبرها ومنسيا تأكيد لنسيا لأنه بمعناه ولك أن تعربه نعتا . (فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) الفاء عاطفة وناداها فعل ومفعول

به وفاعل مستتر يعود على الملك أو عيسى ومن تحتها متعلقان بناداها أي في مكان أسفل من مكانها أو بمحذوف حال من فاعل أي ناداها وهو تحتها وأن مفسرة لأن النداء فيه معنى القول دون حروفه ولا ناهية وتحزني مجزوم بلا ويجوز أن تكون مصدرية ، ولا نافية وتحزني منصوب بها وأن وما بعدها نصب بنزع الخافض المتعلق بالنداء والأول أسهل وقد

حرف تحقيق وجعل ربك فعل وفاعل وتحتك ظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لجعل وسريا هو المفعول الأول وسيأتي السرّ في علة انتزاع الحزن عنها بسبب وجود الطعام والشراب .

)

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا) : الواو عاطفة وهزي فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والياء هي الفاعل وإليك متعلقان بهزي وبجذع النخلة أورده بن هشام في مغني اللبيب شاهدا على زيادة الباء في المفعول به وأكثر المعربين على ذلك ولكن الزمخشري قال بعد ذكر وجه الزيادة ما معناه : يحتمل انه نزل هزي منزلة اللازم وإن كان متعديا ثم عداه بالباء كما يعدى اللازم والمعنى افعلي به الهز وتساقط مجزوم لأنه جواب الطلب وعليك متعلقان بتساقط ورطبا مفعول به وجنيا صفة ، وتساقط يتعدى بنفسه ومن أمثلته لا من شواهده لأن البحتري غير محتج بكلامه .

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وعن المبرد أن رطبا مفعول هزي وباء بجذع النخلة للاستعانة ولا يخفى ما فيه من التكلف بتأخير ما في حيز الأمر عن جوابه وستأتي أوجه زيادة الباء في باب الفوائد . (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً) الفاء الفصيحة أي إذا تم لك هذا كله فكلي ، وكلي فعل أمر والياء فاعل

و ما بعده عطف عليه وعينا تمييز من الفاعل لأنه منقول عنه إذ الأصل لتقر عينك . (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدا) الفاء عاطفة وإن شرطية أدغمت نونها بما الزائدة وترين فعل الشرط وأصله ترأيين بهمزة هي عين الفعل وياء مكسورة هي لامه وأخرى ساكنة هي ياء الضمير والنون علامة الرفع وقد حذفت لام الفعل لتحركها وانفتاح ما قبلها فقلبت ألفا فالتقت ساكنة مع ياء الضمير فحذفت لالتقاء الساكنين ، ومن البشر حال لأنه كان في الأصل صفة لأحدا وأحدا مفعول به . (فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) الفاء رابطة لجواب الشرط وقولي فعل أمر مبني على حذف النون والياء فاعل وإن واسمها وجملة نذرت خبرها والجملة مقول القول وسيرد إشكال أجبنا عنه في باب الفوائد ، وللرحمن متعلقان بنذرت وصوما مفعول به ، فلن الفاء استئنافية ولن حرف نفي ونصب واستقبال وأكلم منصوب بلن واليوم ظرف متعلق بأكلم وإنسيا مفعول به . (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) الفاء استئنافية وأتت فعل وفاعل مستتر والتاء للتأنيث وبه علقه أبو البقاء بمحذوف حال أي مصحوبة به وهو جميل ولا نرى مانعا بتعلقه بأتت وقومها مفعول به وجملة تحمله حال ثانية إما من ضمير مريم وإما من ضمير عيسى في به ، قالوا فعل

وفاعل ويا حرف نداء ومريم منادى واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجئت فعل وفاعل وشيئا مفعول به أي فعلت شيئا وفريا نعت ويجوز إعراب شيئا على المصدرية أي نوعا من المجيء غريبا .

)

يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) يا حرف نداء وأخت هارون منادى مضاف أي يا شبيهته ، وهارون رجل صالح شبهوها به في عفتها وصلاحها وليس المراد منه أخوة النسب وقيل إنما عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله والعرب تقول للتميمي

(440/492)

يا أخا تميم وقيل غير ذلك مما تراه في المطولات وما نافية وكان أبوك امرأ سوء كان واسمها وخبرها وما كا

التاريخ غير اسم مريم وهي تحتوي على عدة آيات في ميلاد المسيح كما وردت آيات أخرى في هذا الحادث الجليل .

ولقد اصطفى اللّه آل عمران كما اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم على العالمين ، وكان

عمران أبو مريم رجلا تقيا ورعا ، كما كانت زوجته صالحة تقية فلما حملت نذرت إلى اللّه أن يكون حملها خادما للهيكل فلما وضعت وتبين لها أنها أنثى ، وليس الذكر كالأنثى ، سمتها أمها مريم ولكن اللّه تقبلها في الهيكل بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا .

ولم يعش عمران حتى تشب مريم وتكبر فتوفي وهي صغيرة فكفلها زوج خالتها النبي زكريا وكانت مريم صادقة مباركة يفيض اللّه عليها من رزقه من حيث تعلم ولا تعلم فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا كثيرا فيسألها قائلا : يا مريم أنّى لك هذا فتجيبه : هو من عند اللّه .

(441/492)

وكانت مريم تتعبد في الهيكل بعيدا عن أهلها وعن الناس ، قد انتبذت مكانا شرقيا في الناصرة من مدينة الجليل ، وكانت مخطوبة لرجل من أبناء عمومتها اسمه يوسف النجار ولكن لم يتم زواجهما لأنها وهبت نفسها إلى اللّه ولكن اللّه تعالى شاء أن يهب إلى البشر من هذه الفتاة الطاهرة الكريمة التقية نبيا كريما ، ورسولا عظيما ، ويجعل منها ومن ابنها آية للناس كما قال تعالى " وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ " لم يتم زواج يوسف بمريم وبعث اللّه جبريل فبشرها بحملها بالسيد المسيح وهي في عزلتها تعبد

اللّه وتخلص له العبادة والتقوى فعجبت لذلك وأجفلت وقالت : كيف يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ، فكان الجواب عليها كما جاء في القرآن ، كما صور القرآن فزع مريم في سورة " مريم " حين جاءها الملك بهذه البشارة متمثلا لها في صورة إنسان ظهر لها في عزلتها ، على حين غرة من أمرها فاستعاذت باللّه منه فهدأ من روعها وأنبأها أنه مرسل من السماء ليهب لها غلاما زكيا فجاء في هذه السورة " واذكر في الكتاب مريم إلخ الآيات " وقد اتفق إنجيل لوقا وإنجيل برنابا والقرآن الكريم في حادث ولادة المسيح على أنه آية للناس ولم يكن نتيجة اتصال مريم بخطيبها يوسف النجار ، كما جاء في بعض الأناجيل الاخرى كإنجيل متى الذي نصّ على أن " يسوع بن يوسف النجار

ابن يعقوب بن متان بن اليعازر ، ابن اليهود بن أخيم " إلى آخر هذا النسب الذي يصل إلى يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام .

(442/492)

فالقرآن الكريم نزل بأن مريم عذراء وانه بعد بشارة الملك لها بهذا الغلام الزكي حملت به وانتبذت مكانا بعيدا عن الناس ، وعانت وحدها آلام وضعه حتى تمنت الموت قبل هذا كما جاء في القرآن الكريم " فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ " إلخ الآيات . خاطبها هذا الوليد الكريم

في مهده وهدأ من روعها ، وطلب إليها أن تستعين على ضعفها بالرطب الجني ، والماء الهني أو خاطبها الملك .

وكان أن وقع ما خشيته مريم من اتهامها بالسوء ، فلما جاءت به إلى قومها أنكروا عليها ، واتهموها بما هي براء منه ، فصامت عن الكلام وتولى الطفل الصغير في مهده الدفاع عن أمه الطاهرة النقية كما جاء في القرآن الكريم .

2- أسرار الفاءات :

وعدناك أن نتحدث عن أسرار الفاءات في قوله تعالى " فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ " في هذه الفاءات دليل على أن حملها به ووضعها إياه لأنه عطف الحمل والانتباذ إلى المكان الذي مضت اليه والمخاض الذي هو الطلق بالفاء وهي للفور ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التي هي للتراخي والمهلة ألا ترى أنه قد جاء في الأخرى : " قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره " فلما كان بين تقديره في البطن وإخراجه مدة متراخية عطف ذلك بثم وهذا بخلاف قصة مريم عليها

السلام ، فانها عطفت بالفاء وقد اختلف الناس في مدة حملها فقيل :

انه كحمل غيرها من النساء وقيل : لا بل كان مدة ثلاثة أيام ، وقيل :

أقل ، وقيل : أكثر ، وهذه الآية مزيلة للخلاف لأنها دلت صريحا على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل أخذا بما دلت عليه الآية . هذا ما ورد في المثل السائر لابن الأثير ، وقد رد ابن أبي الحديد في الفلك الدائر على ذلك بما أوردناه في سورة النحل من أن التعقيب على حسب ما يصح إما عقلا وإما عادة إلى أن يقول : وليست الفاء للفور الحقيقي الذي معناه حصول هذا بعد هذا بغير فصل ولا زمان كما توهمه هذا الرجل ألا ترى إلى قوله تعالى : " لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ " فإن العذاب متراخ عن الافتراء فلا يدل قوله تعالى في قصة مريم على أن الحمل والمخاض كانا في يوم واحد .

قلت :

قلت : بحث ابن أبي الحديد متجه والذي قاله ابن الأثير لا يخلو من ضعف وقد اختلف المفسرون في مدة حملها فقال ابن عباس تسعة أشهر كما في سائر النساء وقال عطاء وأبو العالية والضحاك سبعة أشهر وقال ابن عباس أيضا في ساعة واحدة وقال آخر لثمانية أشهر وقال آخرون ستة أشهر وقال آخرون ثلاث ساعات ورجح الامام الرازي انه في ساعة وقال : " ويمكن الاستدلال له بوجهين " وذكر في الوجه الاول ما قاله ابن الأثير وذكر في الوجه الثاني : " ان اللّه تعالى قال في وصفه : ان مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم خلقه من

تراب ثم قال له كن فيكون فثبت أن عيسى عليه السلام لما قال الله له كن فكان وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل انما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة " .

(444/492)

و مذهب الشافعية أن أكثر مدة الحمل أربع سنين وأقله ستة أشهر وقد ولد الضحاك بن مزاحم لستة عشر شهرا وشعبة ولد لسنتين وهرم بن سنان ولد لأربع سنين ولذلك سمي هرما ومالك بن أنس حمل به أكثر من ثلاث سنين ، والحجاج بن يوسف ولد لثلاثين شهرا ، ويقال انه كان يقول : اذكروا ليلة ميلادي ، ويقال : إن عبد الملك بن مروان حمل به ستة أشهر والشافعي حمل به أربع سنين أو أقل ، والحنفية يقولون للشافعية : ما جسر إمامكم أن يظهر إلى الوجود حتى توفي إمامنا ، ويجيبهم الشافعية بقولهم : بل إمامكم ما ثبت لظهور إمامنا .

القول الفصل في الفاء العاطفة :

والفاء في أصل وضعها للترتيب المتصل ، والترتيب على ضربين :

1 - الترتيب في المعنى : هو أن يكون المعطوف بها لاحقا متصلا بلا مهلة كقوله تعالى " خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ " والأكثر كون المعطوف بها متسببا عما قبله كقولك : أملته فمال

وأقمته فقام.

2- الترتيب في الذكر: وهو نوعان: أحدهما عطف مفصل على مجمل هو هو في المعنى كقولك توضأ فغسل وجهه ويديه ومسح رأسه ورجليه ومنه قوله تعالى: " وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي . . . " الآية.

وتكون عطفا لمجرد المشاركة في الحكم بحيث يحسن بالواو كقول امرئ القيس: " بين الدخول فحومل " .

(445/492)

و تختص الفاء بعطف ما لا يصلح كونه صلة على ما هو صلة كقولك الذي يطير فيغضب زيد الذباب فلو جعلت موضع الفاء واوا أو غيرها فقلت الذي يطير ويغضب زيد ، أو ثم يغضب زيد الذباب لم تجز المسألة لأن يغضب زيد جملة لا عائد فيها على الذي فلا يصلح أن يعطف على الصلة لأن شرط ما يعطف على الصلة أن يصلح وقوعه صلة فإن كان العطف بالفاء لم يشترط ذلك لأنها تجعل ما بعدها مع ما قبلها في حكم جملة واحدة لإشعارها بالسببية كأنك قلت: الذي ان يطر يغضب زيد الذباب وقد يعطف بالفاء متراخيا كقوله تعالى: " وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى " إما لتقدير متصل قبله

وإما لحمل الفاء على ثم .

الفاء الفصيحة :

وقد تحذف الفاء مع المعطوف بها إذا أمن اللبس وكذلك الواو فمن حذف الفاء قوله تعالى : " فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ " التقدير فامتثلتم فتاب عليكم وقوله تعالى : " فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ " معناه فأفطر فعليه عدة وهذه العاطفة على الجواب المحذوف يسميها أرباب المعاني " الفاء الفصيحة " قال صاحب الكشاف في قوله تعالى :

" وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ " تقديره فعملا به وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة وقالا الحمد لله .

وقال صاحب المفتاح : " هو إخبار عما صنع بهما وعما قالاه كأنه قيل : نحن فعلنا الإيتاء وهما فعلا الحمد وهذا الباب كثير في القرآن وهو من جملة فصاحته ولهذا أسماها أرباب المعاني الفاء الفصيحة .

أما ابن الحاجب فقد قال : ان المعتبر ما يعد في العادة مرتبا من غير مهلة فقد يطول الزمان والعادة تقضي في مثله بانتفاء المهلة وقد تقصر والعادة تقضي بالعكس فإن الزمن الطويل قد يستغرب بالنسبة إلى عظم الأمر فتستعمل الفاء وقد يستبعد الزمن القريب بالنسبة إلى طول أمر يقضي العرف بحصوله في زمان أقل منه ، والذي يظهر من كلام الجماعة أن استعمال الفاء فيما تراخى زمانه ووقوعه من الأول سواء قصر في أولا وإنما هو بطريق المجاز " .

وقال الجرمي : لا تفيد الترتيب في البقاع ولا في الأمطار بدليل " بين الدخول فحومل " مطرنا مكان كذا فمكان كذا إذا كان وقوع المطر فيهما في وقت واحد واعترض على معنى التعقيب بقوله تعالى :

" الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى " فإن إخراج المرعى لا يعقبه جعله غثاء أحوى أي يابسا أسود والجواب من وجهين :

آ- ان جملة فجعله غثاء أحوى معطوفة على جملة محذوفة وان التقدير فمضت مدة فجعله غثاء .

ب- ان الفاء نابت عن ثم والمعنى جعله غثاء وسيأتي تفصيل ذلك في حينه .

3- لما ذا انقشع الحزن عنها بسبب وجود الطعام والشراب ؟

ولا بد هنا من الاجابة على سؤال قد يرد فإن ظاهر الكلام يدل على أن حزنها سينقشع

بسبب وجود الطعام والشراب وذلك في قوله تعالى : " فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً " ومعلوم بأن حزنها لم يكن بسبب ذلك ، ولا هو ناجم عن فقدان الطعام والشراب ولكن السر في ذلك أن التسلية ونسيان الحزن لم يقعا بها من حيث أنهما طعام وشراب ولكن من حيث أنهما معجزة باهرة ترهص لها ، وتدحض باطل القوم وتثبت كذبهم وإرجافهم ، كما تثبت أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة وأنها بمعزل عما قرفوها به ثم ان الأمور الخارجة عن العادات لا يمكن إلا أن تكون إلهية ولحكمة نجهلها ومن ذلك ولادتها عيسى من غير فحل وهذا من عجائب الاساليب .

لما ذا منعت من الكلام ؟

(447/492)

و هناك سؤال آخر قد يثب إلى الذهن بعد هذا كله وهو : ان اللّه أمرها بأن تمتنع من الكلام لأمرين :

آ- أن يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها وأرهص للمعجزة وبالتالي لإزالة عوامل الريبة المؤدية إلى اتهامها بما يشين .

ب- تشريع الكراهية لأية مجادلة مع السفهاء وقد رمق الشاعر سماء هذا المعنى فقال :

يخاطبني السفيه بكل قبح وأكره أن أكون له مجيبا

4- مواضع زيادة الباء :

آ- في الفاعل وزيادتها تكون واجبة في فعل التعجب الوارد على صيغة الأمر نحو أحسن بزيد وعلة الزيادة إصلاح اللفظ وإعرابه أحسن فعل ماض مبني على فتح مقدر على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بالسكون العارض لأجل الصيغة وبزيد الباء حرف جر زائد وزيد فاعل

مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد وتكون غالبة وذلك في فاعل كفى التي بمعنى حسب والتي هي فعل لازم نحو كفى بالله شهيدا ولا تزاد الباء في فاعل كفى التي بمعنى أجزأ أو أغنى ولا التي بمعنى وقى والأولى متعدية لواحد نحو :

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

والثانية متعدية لاثنين كقوله تعالى " وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ " .

قال ابن هشام : " ووقع في شعر المتنبي زيادة الباء في فاعل كفى المتعدية لواحد قال :

كفى ثعلا فخرا بأنك منهم ودهر لأن أمسيت من أهله أهل

ولم أر من انتقد عليه " وقد استعجل ابن هشام بهذا الحكم فقد انتقد عليه ذلك أبو البقاء في شرحه الممتع للديوان وأفاض في إعراب البيت كما انتقد المعري أيضا ولسنا بصدد

التحقيق في ذلك فلعلك ترجع إلى شرح أبي البقاء والى مغني اللبيب .

ب- في المفعول به نحو قوله تعالى : " وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ " " وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ " وقول أبي الطيب :

كفى بجسمي نحولا انني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

(448/492)

ج- في المبتدأ نحو بحسبك درهم وخرجت فإذا بزيد وكيف بك فكيف اسم استفهام خبر مقدم وبك الباء حرف جر زائد والكاف في محل جر بالباء وفي محل رفع بالابتداء وقد نابت الكاف عن أنت لدخول حرف الجر والمعنى كيف أنت إذا كان الأمر حاصلا .

د- في الخبر وهو ينقاس في غير الموجب نحو ليس زيد بقائم وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون وفي غير الموجب متوقف على السماع .

ه- في الحال المنفي عاملها كقوله :

فما رجعت بخائبة ركاب حكيم بن المسيّب منتهاها

و- في التوكيد بالنفس والعين نحو جاء زيد بنفسه وبعينه .

5- مبحث هام حول كان :

قوله تعالى "كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا " جرينا في اعرابها على أنها ناقصة واسمها مستتر تقديره هو وصبيا خبرها وممن أعربها كذلك الزمخشري ووعدنا أن ننقل الخلاف الذي ثار حولها لطرافته ولما فيه من رياضة ذهنية :

أما أبو البقاء فقد أعربها زائدة أي من هو في المهد وصبيا حال من الضمير في الجار والضمير المنفصل المقدر كان متصلا بكان وقيل كان الزائدة لا يستتر فيها ضمير فعلى هذا لا تحتاج إلى تقدير هو بل يكون الظرف صلة من وقيل ليست زائدة بل هي كقوله " وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً " وقيل هي بمعنى صار وقيل هي التامة ومن بمعنى الذي وقيل شرطية وجوابها كيف .

وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين : في كان هذه أقوال :

آ- انها زائدة وهو قول أبي عبيد أي كيف نكلم من في المهد ، وصبيا على هذا نصب على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور والواقع صلة .

ب- انها تامة بمعنى حدث ووجد والتقدير كيف نكلم من وجد صبيا وصبيا حال من الضمير في كان .

ح- انها بمعنى صار أي كيف نكلم من صار في المهد صبيا ، وصبيا على هذا خبرها .

د – انها الناقصة على بابها من دلالتها على اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي من غير تعرض للانقطاع كقوله تعالى " وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً " ولذلك يعبر عنها بأنها ترادف لم يزل .

وقال ابن الأنباري في " أسرار العربية " كان هنا تامة وصبيا منصوب على الحال ولا يجوز أن تكون ناقصة لأنه لا اختصاص لعيسى عليه السلام في ذلك لأن كلا كان في المهد صبيا ولا عجب في تكليم من كان فيما مضى في حال الصبا .

وبعد كتابة ما تقدم وقعت على ما قاله أبو طاهر حمزة في رسالة له سماها " المنيرة المعربة عن شرف الاعراب " وأنقل لك خلاصته ففيه وجاهة وطرافة وهي تؤيد ما ذهبنا اليه من بقاء كان على وجهها قال :

" لكن الوجه ان كان من قصد الخبر الآن عن حالهم لأنهم أكبروا ذلك

في وقت كونه في المهد فكأنه قال : أكبروا تكليم صبي كائن في المهد طفلا فيكون الكون من لفظ المخبر لا من لفظهم كقول الحطيئة يصف الرياض :

يظل بها الشيخ الذي كان فانيا يدب على عوج له نخرات

فلم يك فانيا قبل دبيبه بل وقت دبيبه فذكر الكون من لفظ المخبر " .

قلت :

قلت : وهذا كله دندنة في غير طائل والأجود ما اخترناه واختاره الزمخشري ويأتي في المرتبة بعده أن تكون زائدة أما تقديرها تامة فبعيد جدا لأن عيسى لم يخلق ابتداء في المهد .

6- بغيا :

أصله بغويا اجتمعت فيه الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء ثم أدغم الياء في الياء وإلا لو كان فعيلا بمعنى فاعل لحقته التاء وقال البيضاوي : " وهو فعول من البغي قلبت واوه وأدغمت ثم كسرت العين اتباعا ولذلك لم تلحقه التاء أو فعيل بمعنى فاعل لم تلحقه التاء لأنه للمبالغة أو للنسب كطالق " وقال بعضهم : البغي خاص بالمؤنث فلا يقال رجل بغي انما يقال امرأة بغي لكن نقل بعضهم عن المصباح انه يقال رجل بغي كما يقال امرأة بغي .

(450/492)

]

سورة مريم (19) : الآيات 34 إلى 40]

ذِلكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ

سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40)

الإعراب :

(ذِلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) ذلك اسم اشارة مبتدأ وعيسى خبره وابن مريم بدل وقول الحق مفعول مطلق لفعل محذوف أي قلت ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عبد اللّه حقا واختار الزمخشري أن يكون منصوبا على المدح بفعل محذوف تقديره امدح ، هذا وقد فرق أبو حيان بين الاعرابين فقال :

" وانتصاب قول على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي هذه الأخبار عن عيسى بن مريم ثابت صدق ليس منسوبا لغيرها أي انها ولدته من غير مس بشر كما تقول هذا عبد اللّه الحق لا الباطل أي أقول الحق وأقول قول الحق فيكون الحق هو الصدق وهو من إضافة

الموصوف إلى الصفة " ، والذي نعت للقول إن أريد به عيسى وسمي قولا كما سمي كلمة لأنه عنها نشأ أو صفة للحق نفسه وفيه متعلقان بيمترون وجملة يمترون صلة الموصول . (ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ) ما نافية وكان فعل ماض ناقص ولله خبرها المقدم وأن يتخذ مصدر مؤول اسم كان ومن زائدة وولد مجرور بمن لفظا مفعول به منصوب محلا وسبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف . (إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) تقدم اعراب أمثالها كثيرا ونعيد اعراب فيكون الفاء استئنافية ويكون مرفوع أي فهو يكون وكان هنا تامة وقرئ بنصب فيكون بأن مضمرة بعد فاء السببية الواقعة بعد الطلب .

)

(452/492)

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة ولذلك كسرت همزة إن وقرئ بفتحها بحذف حرف الجر وان واسمها وربي خبرها وربكم عطف على ربي فاعبدوه الفاء الفصيحة وقد تقدم بحثها واعبدوه فعل أمر وفاعل ومفعول به وهذا مبتدأ وصراط خبر ومستقيم صفة لصراط والجملة حالية وسمي القول صراطا مستقيما تشبيها له بالطريق الآيل للنجاة . (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) الفاء

استئنافية واختلف الأحزاب فعل وفاعل ومن بينهم حال من الأحزاب والمعنى حال كون الأحزاب بعضهم وتفصيل اختلافهم وأنواع فرقهم يرجع إليها في الملل والنحل للشهرستاني وفي الفصل بين الملل والنحل لابن حزم الاندلسي وفي المطولات . (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) الفاء عاطفة وويل مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة لتضمنها معنى الدعاء وللذين خبر ويل وجملة كفروا صلة ومن مشهد متعلقان بويل ومشهد مصدر ميمي أي من شهودهم بمعنى حضورهم ويجوز أن يكون اسم زمان أو مكان . (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أسمع فعل ماض أتى على صيغة الأمر أو مبني على

الفتح المقدر على الآخر الساكن والباء حرف جر زيدت في الفاعل الذي أتى ضمير نصب أو جر لمناسبة الباء وقد تقدم بحث التعجب مفصلا والتعجب هنا مصروف إلى المخاطبين ، لكن مخففة مهملة والظالمون مبتدأ وفي ضلال خبر ومبين صفة وأوقع الظاهر موقع المضمر اشعارا بأن ظلمهم بلغ الغاية وأربى على النهاية ويوم يأتوننا متعلق بأسمع وأبصر . (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) أنذرهم فعل

أمر وفاعل مستتر ومفعول ويوم الحسرة ظرف متعلق بأنذرهم والأحسن أن يكون مفعولا به أي خوّفهم نفس اليوم وإذ متعلق بالحسرة والمصدر المعرف بأل يعمل في المفعول الصريح فكيف بالظرف ويجوز أن يكون بدلا من يوم الحسرة فيكون معمولا لأنذر وبذلك يتأكد أن يوم الحسرة مفعول به لا ظرف ، وهم الواو حالية وهم مبتدأ وفي غفلة خبر وهم لا يؤمنون جملة حالية منتظمة مع سابقتها والحالان إما من الضمير المستتر في قوله في ضلال مبين أي استقروا في ضلال مبين على هاتين الحالين السيئتين فتكون جملة وأنذرهم اعتراضا واما من المفعول في أنذرهم على هاتين الحالين السيئتين ، (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ) إن واسمها ونحن تأكيد لاسم نا الذي هو بمعنى نحن لأنه بمعناه وجملة نرث الأرض خبر إنا ومن عطف على الأرض وعليها متعلقان بمحذوف صلة من وإلينا متعلقان بيرجعون ويرجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ولك في الواو بقوله وإلينا أن تجعلها حالية أو عاطفة .

البلاغة :

المجاز المرسل في قوله " لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ " والعلاقة الحالية والمراد جهنم فأطلق الحال وأريد المحل لأن الضلال لا يحل فيه

وإنما يحل في مكانه وكذلك قوله : وهم في غفلة والغفلة لا يحل فيها أيضا وإنما يحل بالمتالف التي توقع الغفلة أصحابها فيها .

[سورة مريم (19) : الآيات 41 إلى 50]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (41) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45) قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

اللغة :

(الصِّدِّيقُ) : من أبنية المبالغة ونظيره الضحيّك والنّطّيق والمراد أنه بليغ الصدق في أقواله وأفعاله وفي تصديق غيوب اللّه تعالى وآياته وكتبه ورسله .

(مَلِيًّا) : دهرا طويلا .

(حَفِيًّا) :

في المختار : " وحفي به بالكسر حفاوة بفتح الحاء فهو حفي أي بالغ في إكرامه وإلطافه والعناية بأمره ، والحفي أيضا المستقصي في السؤال ومن الأول قوله تعالى : " إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا " ومن الثاني قوله تعالى :

الاعراب : (نَبِيًّا)

إذ اختلف المعربون فيها فعلقها الزمخشري وأبو البقاء وغيرهما بكان أو بصديقا نبيا أي كان جامعا لخصائص النبيين والصديقين حين خاطب أباه تلك المخاطبات وهذا مبني على عمل كان الناقصة وأخواتها في الظرف غير خبرها واسمها وفيه خلاف وأعربها الزمخشري وأبو البقاء وغيرهما أيضا بدلا من ابراهيم بناء على حذف مضاف أي نبأ ابراهيم فتكون جملة إنه كان صديقا نبيا معترضة وفيه أيضا انه مبني على تصرف إذ

و قد تقدم بحثها والقول بأنها لا تتصرف وجملة قال مضافة إليها الظرف ولأبيه متعلقان بقال ويا حرف نداء وأبت منادى مضاف لياء المتكلم المعوض عنها بالتاء وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك ولا يجوز الجمع بين المعوض والمعوض عنه فلا يقال يا أبتي ويقال يا أبتا لكون الألف بدلا من الياء وشبه ذلك سيبويه بأينق وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة وسيرد المزيد من هذا البحث في باب الفوائد مع ترجمة مستفيضة لسيبويه . ولم أصلها اللام الجارة وما الاستفهامية وقد تقدم أن ألفها تحذف إذا سبقها حرف جر وتنزل اللام معها منزلة الكلمة الواحدة فتكتب الألف ياء فتقول إلام وعلام وحتام وهي متعلقة مع مجرورها بتعبد وفاعل تعبد ضمير مستتر تقديره أنت وما اسم موصول مفعول به وجملة لا يسمع صلة وما بعدها معطوفة عليها وشيئا مفعول به أو مفعول مطلق وقد تقدم تقريره . (يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا) يا أبت تقدم اعرابها وان واسمها وجملة قد جاءني خبرها ومن العلم متعلقان بجاءني ومن للتبعيض وما اسم موصول فاعل وجملة لم يأتك صلة فاتبعني الفاء الفصيحة أي ان شئت الهداية والنجاة واتبعني فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به واهدك جواب الطلب ولذلك جزم والكاف مفعول به وصراطا مفعول به ثان أو منصوب بنزع الخافض وسويا صفة لصراطا . (يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا) لا ناهية وتعبد فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل

مستتر تقديره أنت والشيطان مفعول به وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر وللرحمن متعلقان بعصيا وعصيا خبر كان . (

يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا) إن واسمها وجملة أخاف خبرها وأن يمسك ظرف مؤول مفعول به لأخاف وعذاب فاعل يمسك ومن

الرحمن صفة لعذاب فتكون عطف على أن يمسك واسم تكون مستتر تقديره أنت وللشيطان متعلقان بوليا ، ووليا خبر تكون ومعنى الولي هنا القرين . (قالَ : أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ) الهمزة للاستفهام الانكاري وراغب مبتدأ وسوغ الابتداء اعتماده على أداة الاستفهام وأنت فاعل سد مسدّ الخبر وأعربه الزمخشري خبرا مقدما وأنت مبتدأ مؤخرا ولا موجب لذلك بعد وجود القاعدة وسيأتي تقريرها في باب الفوائد وما تخللها من أبحاث تذهل الألباب ، ويا حرف نداء وابراهيم منادى مفرد علم مبني على الضم . (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) اللام موطئة للقسم وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتنته فعل مضارع مجزوم بلم ولأرجمنك اللام واقعة في جواب القسم كما هي القاعدة في اجتماع القسم والشرط وأرجمنك فعل مضارع مبني على الفتح والفاعل

مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به واهجرني الواو عاطفة واهجرني معطوف على محذوف عند من يمنع عطف الانشائية على الخبرية والتقدير فاحذرني واهجرني ، على أن سيبويه يجيز عطف الجملة الخبرية على الجملة الانشائية فليس هذا التقدير بلازم ومليا ظرف زمان متعلق باهجرني وقيل هو حال من فاعل اهجرني ومعناه سالما سويا لا يصيبك من معرة . (قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا) سلام مبتدأ وسوغ

الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء والمراد بالدعاء هنا التوديع والازماع على الفراق وعليك خبر وسأستغفر السين للاستقبال وأستغفر فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وإنما جاز له الاستغفار للكافر الرجاء بأن يوفق إلى الايمان الموجب لغفران الذنوب ولك متعلقان بأستغفر وربي مفعول به وجملة إنه تعليلية لا محل لها وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وحفيا خبرها وبي متعلقان بحفيا . (وَأَعْتَزِلُكُمْ

(458/492)

وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

الواو عاطفة وأعتزلكم أي أترككم مرتحلا من بلادكم والفاعل مستتر والكاف مفعول به

وما الواو حرف عطف وما يجوز أن تكون موصولة أو مصدرية . وعلى كل حال موضعها نصب عطف على الكاف أو مفعول معه وجملة تدعون صلة ومن دون اللّه حال . (وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا) وأدعو عطف على أعتزلكم وفاعله مستتر تقديره أنا وربي مفعول به وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء واسمها مستتر وأن وما في حيزها هي الخبر واسم أكون مستتر تقديره أنا وبدعاء متعلقان بشقيا وربي مضاف لدعاء وشقيا خبر أكون . (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا) لما ظرفية حينية أو رابطة واعتزلهم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وما يعبدون من دون اللّه تقدم اعرابها أي تركهم فعلا من بابل إلى الأرض المقدسة وجملة وهبنا لا محل لها لأنها جواب لما وله متعلقان بوهبنا واسحق مفعول وهبنا ويعقوب عطف على اسحق وكلا مفعول به أول لجعلنا ونبيا هو المفعول الثاني . (وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ووهبنا عطف على وهبنا الأولى ولهم متعلقان بوهبنا أي لابراهيم وولديه ومن رحمتنا متعلقان بوهبنا أيضا وجعلنا عطف على وهبنا ولهم في موضع المفعول الثاني لجعلنا ولسان صدق هو المفعول الاول وعليا صفة للسان وهو الثناء الحسن كما سيأتي في باب البلاغة .

البلاغة :

1 – فن الاستدراج :

بلغت هذه الآيات ذروة البلاغة ، وانطوت على معاجز تذهل العقول فأول ما يطالعنا منها فن يعرف بالاستدراج وهو يقوم على

(459/492)

مخادعة المخاطب تقوم فيه الأقوال مقام الأفعال فلا يزال يترفق بالمخاطب ويداوره ويلاينه حتى يسقط في يده ويستلين ويعلن استسلامه وهو يشبه أصحاب الجدل في الكلام والمنطق والفلسفة ولكن أولئك يتصرفون في المغالطات القياسية أما الشاعر أو الكاتب فهو في استدراجه يتصرف في المغالطات الخطابية . وقد أحسن الامام الزمخشري في تحليل هذا الفن وان لم يسمه فحلل هذا الفصل تحليلا عجيبا وقد شاء ضياء الدين بن الأثير الذي استخرج هذا الفن أن يغير على فصل الزمخشري فنسفه برمته ونسبه اليه وسننصف الزمخشري من سالبيه فننقل فصله برمته وعلى طوله فهو كالحسن غير مملول .

" انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز ، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحا في ذلك بنصيحة

ربه عز وعلا . . . وذلك أنه طلب منه أولا العلة في خطئه طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه لأن المعبود لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا مقتدرا على الثواب والعقاب ، نافعا ضارا ، إلا أنه بعض الخلق لاستخفّ عقل من أهلّه للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولسجل عليه بالغي المبين والظلم العظيم وان كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة . . . فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور فلا يسمع يا عابده ذكرك له ، وثناءك عليه ، ولا يرى هيئات خضوعك وخشوعك له فضلا أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه أو تسنح لك حاجة فيكفيكها ، ثم ثنّى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا فلم يسم إياه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال :

(460/492)

إن معي طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف ، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضلّ وتتيه ، ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن ، الذي جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال ، وعدو أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم هو الذي ورطك في هذه

الضلالة وأمرك بها وزينها لك فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان إلا أن ابراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته ، كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه ، ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصق به ولكنه قال : أخاف أن يمسك عذاب ، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب وذلك أن رضوان اللّه أكبر من الثواب نفسه وسماه اللّه تعالى المشهود له بالفوز العظيم . . . فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان اللّه أكبر من العذاب نفسه وأعظم ، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله " يا أبت " توسلا إليه واستعطافا . . . أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه باسمه ولم يقابل قوله با أبت بقوله يا بني وقدم الخبر على المبتدأ في قوله " أراغب أنت " لأنه كان أهم عنده وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة ابراهيم عن آلهته " .

2- المجاز المرسل :

وفي قوله تعالى " وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا " مجاز مرسل من إطلاق اسم الآلة وهي اللسان لأنها آلة الكلام وإرادة ما ينشأ عنها فعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطاء فهو مجاز علاقته السببية .

الفوائد :

1- المبتدأ الصفة :

قد يرفع الوصف بالابتداء إن لم يطابق موصوفه تثنية أو جمعا فلا يحتاج إلى خبر بل يكتفي بالفاعل أو نائبه فيكون مرفوعا به سادا مسدّ الخبر بشرط أن يتقدم الوصف نفي أو استفهام وتكون الصفة حينئذ بمنزلة الفعل فلا تثنى ولا تجمع ولا توصف ولا تصغر ولا تعرف ويتناول الوصف اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والمنسوب ولا فرق بين أن يكون الوصف مشتقا نحو :

ما ناجح الكسولان وهل محبوب المجتهدون أو اسما جامدا فيه معنى الصفة نحو هل صخر هذان المعاندان فصخر مبتدأ وهو اسم جامد بمعنى الوصف لأنه بمعنى صلب قاس وهذان فاعل لصخر أغنى عن الخبر ، وما وحشي أخلاقك فوحشي مبتدأ وهو اسم جامد فيه معنى الصفة لأنه اسم منسوب فهو بمعنى اسم المفعول وأخلاقك نائب فاعل له أغنى عن الخبر ولا فرق بين أن يكون النفي والاستفهام بالحرف أو بغيره نحو : ليس كسول

ولداك وغير كسول أبناؤك وكيف سائر أخواك غير انه مع ليس يكون الوصف اسما لها والمرفوع بعده مرفوعا

به سادا مسد الخبر ومع غير ينتقل الابتداء إليها ويجر الوصف بالإضافة إليها ويكون ما بعد الوصف مرفوعا به سادا مسد الخبر وبذلك ينحل الإشكال الوارد في بيت أبي نواس :

غير مأسوف على زمن ينقضي بالهم والحزن

(462/492)

فغير مبتدأ لا خبر له بل لما أضيف اليه مرفوع يغني عن الخبر وذلك لأنه في معنى النفي والوصف بعده مجرور لفظا وهو في قوة المرفوع بالابتداء أي فحركة الرفع التي على غير هي التي يستحقها هذا الاسم بالاصالة لكنه لما كان مشغولا بحركة الجر لأجل الاضافة جعلت حركته التي كانت له بطريق الأصالة من حيث هو مبتدأ على بطريق العارية وعلى زمن في محل رفع نائب فاعل لمأسوف سد مسد الخبر وجملة ينقضي بالهم والحزن صفة لزمن وقد أورد بن هشام هذا البيت في مغني اللبيب وأورد وجهين آخرين تراهما بعيدين كل البعد وخاصة الثالث الذي اعترف ابن هشام بتصفه فليرجع إليهما .

فإن لم يقع الوصف بعد نفي أو استفهام فلا يجوز هذا الاستعمال فلا يقال مجتهد غلاماك بل

تجب المطابقة نحو مجتهدان غلاماك وحينئذ يكون خبرا مقدما وما بعده مبتدأ مؤخرا

وأجازه الكوفيون لأنهم لم يشترطوا اعتماد الصفة على النفي والاستفهام واستشهدوا بقوله

:

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقالة لهبي إذا الطير مرت

فأعربوا قوله بنو لهب فاعلا لخبير دون أن يعتمد على نفي أو استفهام واعتذر البصريون

عن البيت بأن خبيرا على وزن فعيل وفعيل على وزن المصدر كصهيل وزئير والمصدر يخبر

به عن المفرد أو المثنى

والجمع فأعطي حكم ما هو على زنته فهو على حد قوله تعالى " وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ "

، وقد شايع أبو الطيب الكوفيين لأنه من الكوفة ولأن له كلفا بمراغمة النحاة كما أشرنا إلى

ذلك غير مرة فقال بيته الممتع :

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

فمفترق مبتدأ وجاران فاعل سد مسد الخبر ولا يجوز أن تقول إن مفترقا خبر مقدم لأنه

كان يجب أن يطابق قوله جاران والحاصل :

انه إذا رفع الوصف ما بعده فله ثلاثة أحوال :

1 - وجوب الابتداء إذا لم يطابق ما بعده في التثنية والجمع نحو أقائم أخواك .

2- وجوب الخبرية إذا طابق ما بعده في التثنية والجمع نحو أقائمان أخواك .

3- جواز الوجهين إذا طابق ما بعده في التذكير والتأنيث نحو :

أقائم أخوك وأ قائمة أختك .

ومحل جواز الوجهين ما لم يوجد مانع وجعل بعض العلماء من الموانع في قوله تعالى " أ راغب أنت عن آلهتي " فتتعين الابتدائية للزوم الفصل إذا جعلته خبرا بينه وبين معموله وهو الجار والمجرور وردّ ذلك آخرون مدافعين عن الزمخشري بأن قوله عن آلهتي متعلق آخر أما الزمخشري وابن الحاجب فقد اشترطا في الأصل أن يكون المرفوع اسما ظاهرا ولكن الزمخشري نفسه أجاز إعراب أنت فاعلا لراغب .

2- عود إلى " يا أبت " :

تحدثنا عن اللغات في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم فأما التاء في يا أبت ويا أمت فتاء التأنيث بمنزلة التاء في قائمة وامرأة ، قال سيبويه :

سألت الخليل عن التاء في يا أبت لا تفعل ويا أمت فقال هذه التاء بمنزلة الهاء في خالة وعمة يعني أنها للتأنيث والذي يدل على أنها للتأنيث أنك تقول في الوقف يا أبه ويا أمه فتبدلها هاء في الوقف كقاعد وقاعده على حد خال وخاله وعم وعمه ودخلت هذه التاء كالعوض من ياء الاضافة والأصل يا أبي ويا أمي فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة قبلها ثم دخلت

التاء عوضا عنها ولذلك لا تجتمعان فلا تقول يا أبتي ولا يا أمتي لئلا يجمع بين المعوض والمعوض عنه ولا تدخل هذه التاء فيما له مؤنث من لفظه فلو قلت في يا خالي ويا عمي يا خالت ويا عمت لم يجز لأنه كان يلتبس بالمؤنث فأما دخول التاء على الأم فلا إشكال فيها لأنها مؤنثة .

وأما دخولها على الأب فلمعنى المبالغة كما في راوية وعلامة .

3- من هو سيبويه :

وقد تردد اسم سيبويه كثيرا ولا بد لنا من إلقاء نظرة عاجلة على قصة حياته لأن فيها فائدة ولأنه ترك لنا في نحو البصريين الكتاب الذي خلد إلى يومنا هذا ، وكان كتاب النحو الجامع حتى قيل فيه قرآن النحو .

فهو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي وهي نسبة إلى الحارث بن كعب قبيلة يمنية وهذه النسبة بالولاء فقد كان سيبويه فارسيا فأما لقبه فسيبويه وقد غلب عليه وهو فارسي مركب مزجي من سيب أي التفاح وبوى أي الرائحة فمعناه رائحة التفاح على قاعدة

الأوصاف باللغة الفارسية سمي بذلك لطيب رائحته أو لجماله وحسن خلقه وقيل مركب من سيب وويه اسم صوت ويذكر بعض العارفين باللسان الفارسي ان ويه في هذا اللسان معناها مثل وشبه ، فمعنى التركيب مثل التفاح وهكذا نفطويه : مثل النفط وعمرويه : مثل عمرو .

حكم سيبويه :

والجاري على الألسنة سيبويه بفتح الباء والواو والهاء مكسورة وهذا حكم شائع في الاعلام المختومة بويه جاء في الكتاب قول سيبويه :

" وعمرويه عندهم بمنزلة حضر موت في انه ضم الآخر إلى الأول وعمرويه في المعرفة مكسور في حال الجر والرفع والنصب غير منون وفي النكرة تقول هذا عمرويه آخر ورأيت عمرويه آخر " وتراه في الكتاب اقتصر على المشهور عند الناس وقد ينطق سيبويه بضم الباء وفتح الياء وسكون الهاء ويعزى هذا إلى العجم تجنبوا الصورة الأولى لأن ويه صوت ندبة .

مولده ونشأته :

ولد سيبويه في البيضاء من كورة إصطخر بفارس من أبوين فارسيين ولا يعرف على وجه اليقين تاريخ ولادته وقد انتقل إلى البصرة فتلقى العلم فيها وكانت هي والكوفة المصرين المبرزين في علوم العربية والدين ولا يعرف شيئا عن أسرته إلا ما ذكر أنه مات بين يدي أخيه

ولا ندري هل انتقلت معه إلى البصرة أسرته ونحن لا نرى لأبيه ذكرا ونرى بشارا يهجوه حين اشتهر أمره فيقول :

ظللت تغني سادرا في مساءتي وأمك بالمصرين تعطي وتأخذ

(465/492)

ويظهر من هذا أن أمه كانت معه في العراق ولا ندري هل تزوج وفي حديث للفراء أن سيبويه كانت له جارية تخدمه وفي طبقات النحاة أن جاريته مزقت جزازات كتابه فطلقها فهل يريد بجاريته زوجته أو يريد بتطليقها إخراجها من بيته ؟ والظاهر انه لم يكن له زوج ولا ولد وآية ذلك انه بعد أن أخفق في بغداد في قصته مع الكسائي – على ما يأتي – أم يعد إلى منزله بالبصرة .

كيف طلب النحو ؟

اختلف سيبويه إلى حماد بن سلمة شيخ الحديث والرواية في البصرة في عصره فألقى عليه حماد الحديث : " قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما من أحد من أصحابي إلا أخذت عليه ليس أبا الدرداء " فقال سيبويه ، وكان قد شدا شيئا من النحو : ليس أبو الدرداء فقال حماد لحنت يا سيبويه ، فقال سيبويه : لا جرم لأطلبن علما لا تلتحنني فيه

أبدا ، واتجه لدرس النحو فلزم الخليل وقد ظن سيبويه أن الواجب رفع ما بعد ليس ليكون اسما لها ولم يكن عرف أسلوب ليس في الاستثناء وقد عرض سيبويه لذلك في الكتاب وأشبعه بيانا وتعليلا .

بوادر نبوغه وحرية فكره :

وكان أكثر تلقيه عن الخليل حتى انه إذا قال : قال أو سألته فإنه يعني الخليل ، وكان الخليل قد عرف له قدره وثقابة ذهنه وقوة فطنته فأبثه علمه ونصح له في التعليم ، وأخذ عن غير الخليل : أخذ عن عيسى ابن عمر ويونس بن حبيب والأخفش الكبير أبي الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد ويذكر أبو زيد الأنصاري انه إذا قال سيبويه : أخبرني الثقة فإنما يعنيه وأول ما ظهر من بوادر نبوغه ما حدث به الأخفش قال : كنت عند يونس

فقيل له : قد جاء سيبويه فقال أعوذ بالله منه فجاء فسأله فقال : كيف تقول :

مررت به المسكين ؟ فقال جائز أن أجره على البدل من الهاء فقال له :

فمررت به المسكين بالرفع على معنى المسكين مررت به فقال هذا خطأ لأن المضمر قبل الظاهر فقال له : إن الخليل أجاز ذلك وأنشد فيه أبياتا فقال : هو خطأ ، قال فمررت به

المسكين بالنصب ؟ فقال جائز ، فقال على أي شي ء ؟ فقال على الحال ، فقال أليس أنت أخبرتني أن الحال لا تكون بالألف واللام ، فقال : صدقت ثم قال لسيبويه : فما قال صاحبك فيه ؟ يعني الخليل ، فقال سيبويه : قال انه ينصب على الترحم ، فقال : ما أحسن هذا ، ورأيته مغموما بقوله نصبته على الحال . وكان سيبويه مع إجلاله للخليل يزيف قوله ففي الكتاب : " وزعم الخليل انه يجوز أن يقول الرجل : هذا رجل أخو زيد إذا أردت أن تشبهه بأخي زيد وهذا قبيح لا يجوز إلا في موضع الاضطرار ولو جاز هذا لقلت هذا قصير الطويل تريد مثل الطويل فلم يجز هذا كما قبح أن تكون المعرفة حالا كالنكرة إلا في الشعر " .

بين سيبويه والكسائي :

وأتى الحظ والسعادة الكسائي وأصحابه فحلوا في بغداد محلا رفيعا وكان منهم مؤدبو أولاد الخلفاء وكانوا عند البصريين في النحو والأدب أقل منهم معرفة وأضعف أسبابا وقد رأى سيبويه– وهو إمام البصريين– أن يزاحمهم في مركزهم فقصد بغداد وعرض على البرامكة أن يجمعوا بينه وبين الكسائي ويناظره وكان واثقا انه سيكون له الفلح والظفر وبلغ الكسائي مقدم سيبويه وخشي مغبة المناظرة أن يزول سلطانه في بغداد فأتى جعفر بن يحيى بن برمك والفضل أخاه وقال : أنا وليكما وصاحبكما وهذا الرجل إنما قدم ليذهب محلي قالا

فاحتل لنفسك فإنا سنجمع بينكما ويبدو أن فارسية سيبويه يقابلها فارسية الكسائي فهو أيضا فارسي من ولد بهمن بن فيروز وكان أسديا بالولاء فلم يكن لسيبويه ما يجعله أقرب إلى قلوب البرامكة من الكسائي فدبر هو وأصحابه خطة كان لها ما توقعوه وهي : أن يتقدمه في مجلس المناظرة أصحابه فيسألوا سيبويه أسئلة ويتألبوا فيها عليه حتى إذا فترت همته وبان كلاله جاء الكسائي فوجد قرنا ذهب حده وعزب نشاطه فكان له ما أراد من صرعه وقد تقدمت قصة المسألة الزنبورية في موضع آخر من هذا الكتاب .

[سورة مريم (19) : الآيات 51 إلى 58]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (51) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ

وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (58)

الاعراب :

)

(468/492)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا) اذكر فعل أمر وفي الكتاب جار ومجرور متعلقان باذكر وموسى مفعول به وان واسمها وجملة كان خبرها ومخلصا خبر كان وكان رسولا نبيا عطف على كان الأولى . (وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا) وناديناه عطف على ما سبق وهو فعل وفاعل ومفعول به ومن جانب متعلقان بناديناه والطور مضاف اليه والأيمن صفة لجانب قالوا لأنه كان يلي يمين موسى حين أقبل من مدين وقربناه عطف على ناديناه ونجيا حال من أحد الضميرين في ناديناه أو قربناه وهو فعيل بمعنى فاعل أي مناجيا . (وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا) ووهبنا عطف أيضا وله متعلقان بوهبنا ومن رحمتنا متعلقان بوهبنا أيضا ومعنى من هنا التبعيض أي بعض رحمتنا أو للتعليل أي من أجل رحمتنا وأخاه مفعول به لوهبنا وهارون بدل ونبيا حال . (وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا) اعرابها

ظاهر وقد تقدم وجملة انه كان تعليلية . (وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) جملة يأمر خبر كان وأهله مفعول به وبالصلاة متعلقان بيأمر وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هو وعند ربه متعلقان بمرضيا ومرضيا خبر كان اجتمعت الياء والواو فقلبت الواو ياء وأدغمت في الأخرى . (وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا) تقدم اعراب مثيلاتها ولا بأس بذكر ما قاله الزمخشري بصدد إدريس وهذا نصه : " قيل سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب اللّه عز وجل وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه

إلا سبب واحد وهو العلمية فكان منصرفا فامتناعه من الصرف دليل العجمة وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاس كما يزعمون ولا يعقوب من العقب ولا إسرائيل باسرال كما زعم ابن السكيت ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات ويجوز أن يكون معنى إدريس في تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوي مشتقا من الدرس " وما أجمل حرية الرأي . (وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا) رفعناه فعل وفاعل ومفعول به ومكانا ظرف متعلق برفعناه وعليا صفة وقد رويت أساطير كثيرة حول هذا الرفع ومرجعها

المطولات.

(أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ) أولئك مبتدأ أي الأنبياء العشرة المذكورون في السورة والذين خبر أو بدل من اسم الاشارة وجملة أنعم اللّه عليهم صلة ومن النبيين حال ومن ذرية آدم بدل بإعادة الجار. (وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا) عطف على ما تقدم. (إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا) جملة إذا تتلى عليهم وجوابها استئنافية لا محل لها إذا أعربنا الذين خبرا وإذا أعربنا الذين بدلا فتكون هي الخبر وجملة خرّوا لا محل لها لأنها جواب إذا والواو في خروا فاعل وسجدا حال من الفاعل وبكيا عطف على سجدا جمع ساجد وباك والثاني شاذ لأن قياس فاعل من المنقوص أن يجمع على فعله كقاض وجمعه قضاة وباك وجمعه بكاة.

[سورة مريم (19) : الآيات 59 إلى 63]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ

الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63)

اللغة :

(خلف) : أي عقب وبعض اللغويين يستعملون الخلف بسكون اللام كما هنا في الشر فيقال خلف سوء وبفتحها في الخير فيقال خلف صالح ، قال في الكشاف : " خلفه إذا عقبه ثم قيل في عقب الخير خلف بالفتح وفي عقب السوء خلف بالسكون كما قالوا وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر " وقال اللحياني : الخلف بفتحتين الولد الصالح والخلف بفتح فسكون الرديء .

(غيًّا) : كل شر عند العرب غي وكل خير رشاد ، قال المرقش الأصغر :

أمن حلم أصبحت تنكت واجما وقد تعتري الأحلام من كان نائما

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائما

يقال غوي يغوى من باب ضرب انهمك في الجهل .

الاعراب :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) الفاء عاطفة وخلف فعل ماض ومن بعدهم حال وخلف فاعل وجملة أضاعوا الصلاة صفة لخلف واتبعوا الشهوات عطف على أضاعوا الصلاة والفاء الفصيحة أي إن شئت أن تعلم

عاقبتهم ، وسوف حرف استقبال ويلقون فعل مضارع وفاعل وغيا مفعول به .

)

(471/492)

إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً) إلا أداة استثناء و" من " إن جعلنا الاستثناء منقطعا كانت إلا بمعنى لكن ومن مستثنى واجب النصب ووجه الانقطاع أن المستثنى منه كفار والمستثنى مؤمنون وهذا اختيار الزجاج واختار أبو حيان الاتصال وربما كان أظهر لأنه خطاب صالح لكل أمة وفيها من آمن ومن كفر وعلى كل حال هو واجب النصب لأن الكلام تام موجب ، وجملة تاب صلة وآمن عطف على تاب وعمل عطف أيضا وصالحا يجوز أن يكون مفعولا به وأن يكون مفعولا مطلقا أي عملا صالحا ، فأولئك الفاء الفصيحة وأولئك مبتدأ وجملة يدخلون خبر والجنة مفعول به على السعة ولا يظلمون عطف على يدخلون وشيئا مفعول مطلق ولك أن تجعله مفعولا ثانيا بتضمين يظلمون معنى ينقصون . (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ) جنات بدل من الجنة وعدن مضاف إليه من عدن بالمكان أي أقام وقد جرى مجرى العلم ولذلك ساغ وصفها بالتي والتي صفة لجنات عدن وجملة وعد صلة والرحمن فاعل وعد وعباده

مفعول وبالغيب حال من عباده أي من المفعول والمعنى غائبة عنهم لا يشاهدونها ويحتمل أن يكون حالا من ضمير الجنة وهو الضمير العائد على الموصول أي وعدها وهم غائبون عنها لا يرونها .

(472/492)

)

إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) إن واسمها والضمير يعود على اللّه تعالى أي الرحمن والمعنى أن الرحمن كان وعده مأتيا أو انه ضمير الشأن لأنه مقام تعظيم وتفخيم والجملة تعليلية مستأنفة وجملة كان خبر إن واسم كان يعود على اللّه تعالى أيضا ووعده بدلا من ذلك الضمير بدل اشتمال ومأتيا خبرها ويجوز أن لا يكون فيها ضمير ، ووعده اسمها ومأتيا خبرها واختار الجلال وشراحه أن يكون مآتيا مفعول بمعنى فاعل أي آتيا ولم يرتضه الزمخشري فإنه قال : " قيل في مأتيا مفعول بمعنى فاعل والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها " والحقّ مع الزمخشري لأن ما تأتيه فهو يأتيك فلا موجب للتأويل . (لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا) الجملة حال من جنات عدن ولا نافية ويسمعون فعل مضارع والواو فاعل وفيها متعلقان بمحذوف حال أي حالة كونهم في الجنة ولغوا مفعول به أي مالا طائل تحته من

الكلام وهو ما يشقشق به أكثر الناس في مجالسهم من ثلب للآخرين وتدخل في شؤون الناس أو من حديث تافه أشبه بالفضول ، وإلا أداة حصر وسلاما بدل من لغوا أو يحمل على الاستثناء المنقطع وسيأتي تفصيل ذلك في باب البلاغة ولهم خبر مقدم ورزقهم مبتدأ مؤخر وفيها حال وبكرة ظرف متعلق بمعنى الاستقرار المستكن في الخبر المقدم وعشيا عطف على بكرة . (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا) اسم الاشارة مبتدأ والجنة خبر والتي صفة للجنة وجملة نورث صلة ومن اسم موصول مفعول نورث وجملة كان صلة واسم كان مستتر تقديره هو وجملة تقيا خبر كان .

البلاغة :

1- توكيد المديح بما يشبه الذم وعكسه :

في قوله تعالى " لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً " فن رفيع من

فنون البلاغة وهو توكيد المدح بما يشبه الذم وقد سبقت الاشارة اليه في المائدة ولم نقسمه آنذاك فنقول انه ينقسم إلى نوعين :

آ- أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح لذلك الشيء بتقدير دخولها في

صفة الذم المنفية ومنه قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فقد جعل الفلول عيبا على سبيل التجوز بتا لنفي العيب بالكلية كأنه يقول : إن كان فلول السيف من القراع عيبا فانهم ذوو عيب معناه إن لم يكن عيبا فليس فيهم عيب البتة لأنه لا شيء سوى هذا فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل .

ب- ان تثبت لشيء صفة مدح وتعقب ذلك بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى لذلك الشيء نحو : أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وقال النابغة أيضا :

فتى كملت أوصافه غير أنه جواد فما يبقي على المال باقيا

وأصل الاستثناء في هذا الضرب أن يكون منقطعا لكنه لم يقدّر متصلا بل بقي على حاله من الانقطاع لأنه ليس في هذا الضرب صفة ذم منفية عامة يمكن تقدير دخول صفة المدح فيها فحينئذ لا يستفاد التوكيد فيه إلا من الوجه الثاني من الوجهين المذكورين في الضرب الاول ولهذا كان الضرب الاول أبلغ لإفادته التأكيد من الوجهين .

إذا عرفت هذا فاعلم أن في الآية الكريمة : " لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما " ثلاثة أوجه :

آ- أن يكون معناه إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة لغوا فلا يسمعون لغوا إلا ذلك وهو بهذا من وادي قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ب- انهم لا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة وهذا يتعين فيه الاستثناء المنقطع .

(474/492)

ج- ان معنى السلام هو الدعاء بالسلامة وهي دار السلامة وأهلها أغنياء عن الدعاء بالسلامة فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام ، ففي الوجه الاول والثالث يتعين الاتصال في الاستثناء أما الأول فلجعل ذلك لغوا على سبيل التجوز والفرض وأما الثاني فواضح لأنه فيه اطلاق اللغو على السلام وأما الثالث فلحمل الكلام على ظاهره من دون تجوز أو فرض .

2- التشبيه التمثيلي البليغ :

وذلك في قوله تعالى " تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا " فقد شبه عطاء الجنة لهم بالعطاء الذي لا يرد وهو الميراث الذي يرثه الوارث فلا يرجع فيه المورث أي نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه والوارثة أقوى لفظ يستعمل في التمليك والاستحقاق من حيث أنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا تبطل برد ولا إسقاط والإرث في اللغة البقاء ، قال عليه الصلاة والسلام : " إنكم على إرث من إرث أبيكم

ابراهيم " أي على بقية من

بقايا شريعته والوارث الباقي من أسماء اللّه تعالى أي الباقي بعد فناء خلقه وهو في الشرع

انتقال مال الغير إلى الغير على سبيل الخلافة .

[سورة مريم (19) : الآيات 64 إلى 65]

وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

الإعراب :

)

(475/492)

وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) الجملة مستأنفة مسوقة لحكاية قول جبريل حيث استبطأه الرسول

عليه السلام لما سئل عن قصة أهل الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيب ، كما تقدم

، فأبطأ عليه خمسة عشر يوما وقيل أربعين حتى قال المشركون : ودعه ربه وقلاه ، فالواو

استئنافية وما نافية وتتنزل فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن وإلا بأمر ربك

استثناء من أعم الأحوال فإلا أداة حصر وبأمر متعلقان بمحذوف حال فالتنزل نزول فيه

إيطاء أو بمعنى النزول على الإطلاق ، قال الشاعر :

فلست لإنسيّ ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب

وهذا البيت لرجل من عبد القيس يمدح الملك النعمان بن المنذر وقيل لأبي وجرة يمدح عبد اللّه بن الزبير وقبله :

تعاليت ان تعزى إلى الانس جلة وللإنس من يعزوك فهو كذوب

أي لست منسوبا لإنسي ولكن لملك وبالغ في ذلك حتى جعله نازلا من جهة السماء يصوب أي يقصد إلى جهة معينة والملأك معفل بتقديم العين من الألوكة بالفتح وهي الرسالة وقال أبو عبيدة هو مفعل على اسم المكان من لأك إذا أرسل ولعله جاء على مفعل لتصوير أن الرسول مكان الرسالة وقال ابن كيسان : هو فعأل من الملك فالهمزة زائدة وعلى كل يخفف بالنقل فيقال ملك .

)

(476/492)

لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذِلِكَ) له خبر مقدم وما موصول مبتدأ مؤخر والجملة حال من ربك والظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول وأيدينا مضافة للظرف وما خلفنا

عطف على ما بين أيدينا وما بين ذلك عطف أيضا . (وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) الواو حرف عطف وما نافية وكان واسمها وخبرها . (رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما) رب السموات والأرض خبر لمبتدأ محذوف أي هو رب السموات والأرض ويجوز أن يعرب بدلا من ربك . (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) الفاء هي الفصيحة ولا حاجة لتأويل الكلام بجعلها عاطفة من باب عطف الإنشاء على الخبر أي إذا عرفت ربوبيته الكاملة فاعبده واصطبر عطف على اعبده ولعبادته متعلقان باصطبر وقد أحسن الزمخشري في الفهم حيث جعل العبادة بمنزلة القرن تقول للمحارب اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته وصولاته والمراد لا تضق ذرعا ولا تهن قوة إذا تأخر عنك الوحي ولا تبتئس لشماتة الكافرين فما هي إلا غمرة ثم تنجلي ، وظلمة ثم تنحسر وهل حرف

استفهام معناه النفي وتعلم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت وسميا مفعول به والسمي هو الشريك في الاسم .

الفوائد :

عطف الإنشاء على الخبر وبالعكس :

منعه البيانيون وبعض النحاة وأجازه بعض النحاة قال أبو حيان :

وأجاز سيبويه ذلك واستدل بقول امرئ القيس :

وإن شفائي عبرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معول

فجملة إن شفائي إلخ خبرية وجملة وهل عند رسم إلخ جملة انشائية عطفا على الخبرية

وقول الآخر :

تناغي غزالا عند باب ابن عامر وكحّل ماآقيك الحسان بإثمد

وقول الآخر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلوكما هيا

(477/492)

ورد ابن هشام هذه الأقوال فقال ردا على أبي حيان : " وأما ما نقله أبو حيان عن سيبويه فغلط عليه وأما بيت امرئ القيس فالاستفهام خرج معناه إلى النفي كما ذكرنا ، وأما قوله فانكح فتاتهم فهو معطوف على فعل أمر محذوف مفهوم من المبتدأ أي تنبه لخولان وأما وكحل ماآقيك إلخ فيتوقف على النظر فيما قبله من الأبيات وقد

يكون معطوفا على أمر مقدر يدل على المعنى أي فافعل كذا وكحل كما قيل في لأرجمنك واهجرني ان التقدير فاحذرني واهجرني مليا لدلالة لأرجمنك .

[سورة مريم (19) : الآيات 66 إلى 72]

وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (70)

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72)

اللغة :

(جِثِيًّا) : بضم الجيم وكسرها وبهما قرئ جمع جاث من جثا يجثو أجثى ويجثي لغتان : أي جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه فهو جاث .

(صِلِيًّا) : بكسر الصاد وضمها وبهما قرئ مصدر صلي بكسر اللام وفتحها النار أي دخلها .

(478/492)

الإعراب :

(وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

الواو استئنافية ويقول الإنسان فعل مضارع وفاعل وأل فيه للجنس والهمزة للاستفهام بمعنى النفي وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق بفعل محذوف دل عليه قوله لسوف أخرج لأن اللام تمنع من تعليقه بأخرج المذكورة لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها وما زائدة وجملة مت صلة واللام لام الابتداء وسوف حرف استقبال واخرج فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره أنا وحيا حال وساغ اجتماع اللام وهي تمحض الفعل للحال وسوف وهي تمحضه للاستقبال ان اللام هنا لمجرد التوكيد وإنما جردت اللام من معناها لتلائم سوف دون أن تجرد سوف من معناها لتلائم اللام لأنه لو عكس هذا للغت سوف إذ لا معنى لها سوى الاستقبال وأما اللام فانها إذا جردت من الحال بقي لها التوكيد فلم تلغ . (أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً) أولا : الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة ولا نافية ويذكر فعل مضارع معطوف على يقول ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف والإنسان فاعل وأنّا : ان واسمها وجملة خلقناه خبر أنا وان وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يذكر ومن قبل الجار والمجرور متعلقان بيذكر ولم الواو حالية ولم حرف نفي وقلب وجزم ويك فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسمها ضمير مستتر تقديره هو ، وشيئا خبر يك والمضاف إلى قبل محذوف تقديره قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه وقدره بعضهم قبل بعثه . (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ) الفاء عاطفة والواو للقسم وربك

مجرور بواو القسم وهما متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وفائدة هذا القسم سترد في باب البلاغة

(479/492)

و اللام واقعة في جواب القسم ونحشرنهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به والشياطين عطف على الهاء أو الواو بمعنى مع والشياطين مفعول معه . (ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) ثم حرف عطف للتراخي ولنحضرنهم عطف على لنحشرنهم وحول ظرف مكان متعلق بنحضرنهم وجهنم مضاف اليه وجثيا حال . (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا) ثم لننزعن عطف على لنحضرنهم ومن كل شيعة متعلقان بننزعن وأيهم اسم موصول بمعنى الذي وحركتها عند سيبويه حركة بناء لخروجها عن النظائر أي لأنها أضيفت وحذف صدر صلتها وهي في محل نصب مفعول به لننزعن وأشد خبر لمبتدأ محذوف والجملة صلة أي وعتيا تمييز وعلى الرحمن متعلقان بأشد أو بمحذوف حال وسيأتي مزيد بحث في هذه الآية في باب الفوائد . (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا) ثم حرف عطف للترتيب والتراخي واللام للابتداء ونحن مبتدأ وأعلم خبر وبالذين متعلقان بأعلم

وهم مبتدأ وأولى خبر والجملة صلة وبها متعلقان بأولى وصليا تمييز وقيل صليا جمع صال فانتصب على الحال وفي التمييز فائدة وهي التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب لاشتراكهم فيه . (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا) الواو عاطفة وإن نافية ومنكم صفة لمبتدأ محذوف تقديره أحد أي ما منكم أحد وإلا أداة حصر وواردها خبر وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو أي الورود وحتما خبرها ومقضيا صفة لحتما . (

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا) ثم ننجي عطف على ما تقدم وفاعل ننجي مستتر تقديره نحن والذين موصول مفعول واتقوا صلة ونذر عطف على ننجي والفاعل مستتر تقديره نحن والظالمين مفعول به وفيها متعلقان بنذر أو

بجثيا ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من جثيا لأنه في الأصل صفة لنكرة قدم عليها فنصب على الحال ، وجثيا حال أو تجعلها مفعولا ثانيا لنذر أي نتركهم فيها جثيا .

البلاغة :

1 - فن القسم :

في قوله تعالى " فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ " فن القسم وهو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له وتعظيم لشأنه أو تنويه لقدره أو ما يكون ذما لغيره أو جاريا مجرى الغزل والترقق أو خارجا مخرج الموعظة والزهد فقد أفاد القسم هنا أمران أحدهما أن العادة جرت بتأكيد الخبر باليمين والثاني أن في إقسام اللّه تعالى باسمه مضافا إلى رسوله صلى اللّه عليه وسلم رفعا منه لقدره وتنويها بشأنه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله " فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ " وسيأتي تحقيق ذلك في مواضعه .

وقد توسّع الشعراء في القسم لأن فيه حلاوة ورفعا لشأن المتغزل به ، وما ألطف قول عبد المحسن الصوري وهو من أبرع ما سمعنا :

يا غزالا قد رمى باللحظ قلبي فأصابا

بالذي ألهم تعذيبي ثناياك العذابا

والذي ألبس خديك من الورد نقابا

والذي أودع في فيك من الشهد شرابا

والذي صيّر حظي منك هجرا واجتنابا

ما الذي قالته عيناك لقلبي فأجابا

ولابن خفاجة الاندلسي :

لا وسحر بين أجفانكم فتن الحب به من فتنا

وحديث من مواعيدكم تحسد العين عليه الأذنا

ما رحلت العيس عن أرضكم فرأت عيناي شيئًا حسنا

وبلغ العباس بن الأحنف الغاية بقوله :

واني ليرضيني قليل نوالكم وإن كان لا أرضى لكم بقليل

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم من الود إلا عدتم بجميل

وأبدع أبو الطيب بقوله :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا

والوجد يقوى كما تقوى النوى أبدا والصبر ينحل في جسمي كما نحلا

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

(481/492)

بما بجفنيك من سحر صلي دنفا يهوى الحياة وأما إن صددت فلا

2- الافتنان :

وذلك في قوله تعالى " ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا " والافتنان هو أن يفتن المتكلم فيأتي في كلامه بفنين إما متضادين أو مختلفين أو متفقين والآية التي نحن بصددها

جمعت بين المتضادين :

جمعت بين الوعد والوعيد ، بين التبشير والتحذير وما يلزم من هذين الفنين من المدح للمختصين بالبشارة والذم لأهل النذارة وستأتي منه أمثلة عديدة في القرآن الكريم .

ومن الجمع بين المتضادين في الشعر قول عبد اللّه بن طاهر بن الحسين ونسبهما في الكامل لأبي دلف :

أحبك يا ظلوم وأنت مني مكان الروح من جسد الجبان

ولو أني أقول مكان روحي خشيت عليك بادرة الطعان

فانظر كيف جمع في هذا الشعر بين الغزل والحماسة والغزل لين والحماسة شدة وقال عنترة وأبدع :

إن تغد في دوني القناع فانني طب بأخذ الفارس المستلئم

وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب فإنه جمع فيه بين الغزل والحماسة والجد والهزل فأتى فيه بنادرة طريفة وطرفة غريبة حيث قال بعد وصفها بستر وجهها دونه بالقناع حتى صار ما بين بصره وبين وجهها كالليل المغدف الذي يحول بين الأبصار والمبصرات : انني طب بأخذ الفارس المستلئم يقول : إن تتبرقعي دوني فانني خبير لدربتي بالحرب بأخذ الفارس الذي سترته لأمته ، وحالت دوني ودون مقاتلته فأبرز

الجد في صورة الهزل فجاء في بيته مع الافتنان التندير الطريف وعبر عن معناه اللطيف بهذا

اللفظ الشريف .

وجمع الحطيئة بين المدح والهجاء في بيت واحد من قصيدة يمدح بها بغيضا ويهجو الزبرقان وقد شكاه الزبرقان بسببها إلى عمر بن الخطاب :

قد ناضلونا وسلوا من كنانتهم مجدا تليدا ونبلا غير أنكاس

(482/492)

و معنى هذا البيت لا يعرفه إلا من عرف أن عادة العرب إذا منوا على أسير أعطوه نبلا من نبلهم عليها اشارة تدلّ على أنها لأولئك القوم لا تزال في كنانته ، فقال الحطيئة لهذا الممدوح الذي عناه بهذا المدح :

إن عداك لما فاخروك سلوا من كنانتهم تلك التي أعطيتها لهم حتى مننت عليهم تشهد لك بأنهم عتقاؤك فكان هذا مجدا تليدا لك لا يقدرون على جحده تثبته لك هذه النبل التي ليست بأنكاس يعني الصائبات التي لا تنكب إذا ناضلت بها عن الغرض وهذا غاية المدح للممدوح ونهاية الهجاء لعداه إذ أخبر بأنهم مع معرفتهم بفضله عليهم يفاخرونه بما إذا أظهروه أثبت له الفضل عليهم وهذا غاية الجهل منهم والغباوة .

ومن الجمع بين الهجاء والمدح أو الفخر قول أبي العلاء المعري :

بأي لسان ذامني متجاهل عليّ وخفق الريح فيّ ثناء

تكلم بالقول المضلّل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

أتمشي القوافي تحت غير لوائنا ونحن على قوالها أمراء

ولا سار في عرض السماوة بارق وليس له من قومنا خفراء

فهو إذ يفخر بنفسه يهجو أبناء جنسه الذين يتطاولون وهم قصار ويدعون المعرفة والجهل يكتنفهم أولم يقل لهم مخاطبا :

غدوت مريض العقل والدين فالقني لتخبر أبناء العقول الصحائح

والروح العلائية معروفة فلا لزوم للشرح والتبسط .

أما الجمع بين التهنئة والتعزية فهو غريب حقا وهو يحتاج إلى الكثير من شفوف الطبع ورهافة الحس للاجادة فيه ومن أجمل ما سمعنا منه مثل قول المعزّي ليزيد بن معاوية عند ما جلس في دست الخلافة وأتت الوفود مهنئة معزية بأبيه فلما اجتمعوا لم يفتح على أحد بما فتح به لهم باب القول حتى تقدم هذا المتقدم ذكره فاستأذن في الكلام فلما أذن له قال : آجرك اللّه يا أمير المؤمنين على الرزية وبارك اللّه لك في العطية فلقد رزئت عظيما وأعطيت جسيما ، رزئت خليفة اللّه ، وأعطيت خلافة اللّه ، فاصبر على ما رزئت ، واشكر على ما أعطيت وأنشد :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة واشكر حباء الذي بالملك أصفاكا

لا رزء أصبح في الأقوام تعلمه كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

أصبحت راعي أمور الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاكا

وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا نعيت ولا نسمع بمنعاكا

ففتح للناس باب القول : فقالوا وكان له فضل السبق .

وقال أبو نواس للعباس بن الفضل يعزيه بالرشيد ويهنئه بخلافة الأمين :

تعزّ أبا العباس عن خير هالك بأكرم حي كان أو هو كائن

حوادث أيام تدور صروفها لهنّ مساو مرة ومحاسن

وفي الحيّ بالميت الذي غيّب الثرى فلا أنت مغبون ولا الموت غابن

3- فن الالتفات :

في قوله تعالى : " وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها . . . الخ " التفات على أحد القولين وهو مفرع على إرادة العموم من الأول فيكون المخاطبون أولا هم المخاطبين ثانيا إلا أن الخطاب الاول بلفظ الغيبة والثاني بلفظ الحضور واما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعا فالثاني ليس التفاتا وإنما هو عدول عن خطاب خاص لقوم معينين إلى خطاب العامة والقول في الورود على جهنم طويل يرجع فيه إلى المطولات .

الفوائد :

نقاش طويل حول أيهم :

(484/492)

وعدناك بمزيد من البحث حول أيهم في قوله تعالى " ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا " قال أبو حيان في شرح التسهيل : " وسأل الكسائي في حلقة يونس لم لا يجوز أعجبني أيهم قام فقال : أي كذا خلقت " أي كذا وضعت وقال ابن السراج موجها قول الكسائي بالمنع ما معناه إن أيا وضعت على العموم والإبهام فإذا قلت يعجبني أيهم يقوم فكأنك قلت يعجبني الشخص الذي يقع منه القيام كائنا من كان ولو قلت أعجبني أيهم قام لم يقع إلا على الشخص الذي قام فأخرجها ذلك عما وضعت له من العموم ولذلك يشترط في عاملها أن يكون مستقبلا متقدما عليها نحو " لننزعن من كل شيعة أيهم أشد " وذلك لأجل الفرق بين الشرطية والاستفهامية وبين الموصولة لأن الشرطية والاستفهامية لا يعمل فيهما إلا متأخر والمشهور عند الجمهور افرادها وتذكيرها وقد تؤنث وتثنى وتجمع عند بعضهم فتقول أية وأيان وأيتان وأيون وأيات وهي معربة فقيل مطلقا وهو قول الخليل ويونس والأخفش والزجاج والكوفيين وقال سيبويه تبنى على الضم إذا أضيفت لفظا وكان صدر

صلتها ضميرا محذوفا وقال الزجاج مستنكرا : ما تبين لي أن سيبويه غلط إلا في موضعين هذا أحدهما فإنه يسلم انها تعرب إذا أفردت فكيف يقول ببنائها إذا أضيفت .

وزعم المانعون أن أيا في الآية استفهامية وانها مبتدأ وأشد خبره ثم اختلفوا في مفعول ننزع فقال الخليل محذوف والتقدير لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد وقال يونس المفعول الجملة وعلقت ننزع عن العمل فيها وقال الكسائي والأخفش المفعول كل شيعة ومن زائدة وقد رد ابن هشام هذه الأقوال كلها حيث قال ويرد أقوالهم أن التعليق مختص بأفعال القلوب وانه لا يجوز أن يقال لأضربن الفاسق بالرفع بتقدير الذي يقال فيه هو الفاسق وانه لم يثبت زيادة من في الإيجاب .

(485/492)

و نورد هنا ما قاله أبو البقاء لوجازته وشموله قال " قوله أيهم أشد يقرأ بالنصب شاذا والعامل فيه لننزعن وهي بمعنى الذي ويقرأ بالضم وفيه قولان : أحدهما انها ضمة بناء وهو مذهب سيبويه وهي بمعنى الذي وانما بنيت ها هنا لأن أصلها البناء لأنها بمعنى الذي ومن الموصولات إلا أنها أعربت حملا على كل أو بعض فإذا وصلت بجملة تامة بقيت على الاعراب وإذا حذف العائد عليها بنيت لمخالفتها بقية الموصولات فرجعت إلى حقها

من البناء بخروجها عن نظائرها وموضعها نصب بنزع الخافض ، والقول الثاني هي ضمة الاعراب وفيه خمسة أقوال أحدها انها مبتدأ وأشد خبره وهو على الحكاية والتقدير لننزعن من كل شيعة الفريق الذي يقال أيهم فهو على هذا استفهام وهو قول الخليل والثاني كذلك في كونه مبتدأ وخبرا واستفهاما إلا أن موضع الجملة نصب بننزعن وهو فعل معلق عن العمل ومعناه التمييز وهو قريب من معنى العلم الذي يجوز تعليقه كقولك علمت أيهم في الدار وهو قول يونس والثالث أن الجملة مستأنفة وأي استفهام ومن زائدة أي لننزعن كل شيعة وهو قول الأخفش والكسائي وهما يجيزان زيادة من في الواجب ، والرابع أن أيهم مرفوع بشيعة لأن معناه تشيع والتقدير : لننزعن من كل فريق يشيع أيهم وهو على هذا بمعنى الذي وهو قول المبرد والخامس أن ننزع علقت عن العمل لأن معنى الكلام معنى الشرط والشرط لا يعمل فيما قبله والتقدير لننزعنهم تشيعوا أم لم يتشيعوا أو ان تشيعوا ومثله لأضربن أيهم غضب أي ان غضبوا أو لم يغضبوا وهو قول يحيى عن الفراء وهو أبعدها عن الصواب " .

[سورة مريم (19) : الآيات 73 إلى 76]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (74) قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

اللغة :

(مَقاماً) : بفتح الميم اسم مكان من قام أو مصدر ميمي وقرئ مقاما بالضم فيكون أيضا اسم مكان أو مصدرا ميميا من أقام الرباعي المزيد والمراد هنا موضع القوم .

(نَدِيًّا) : الندي المجلس ومجتمع القوم وحيث ينتدون ويقال النادي .

(أَثاثاً) : الأثاث : متاع البيت والمال ويقال أثّ يئث ويأث ويؤث أثاثا وأثوثا وأثاثة النبات أو الشعر : التفّ وكثر فهو أث وأثيث .

(رِءْياً) : فعل بمعنى مفعول ومعناه المنظر فهو كالطحن والذبح بمعنى المطحون والمذبوح من رأيت على القلب كقولهم راء في رأى أو من الري الذي هو النعمة والترف من قولهم ريان النعيم .

الاعراب :

)

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) الواو استئنافية وإذا شرط مستقبل وجملة تتلى مضافة للظرف وعليهم متعلقان بتتلى وآياتنا نائب فاعل وبينات حال من آياتنا أي واضحات مبينات المقاصد والمعاني وجملة قال الذين كفروا لا محل لها لأنها جواب .

(لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) للذين آمنوا متعلقان بقال وجملة آمنوا صلة وأي استفهامية مبتدأ وخير خبر ومقاما تمييز وأحسن عطف على خير ونديا تمييز .

(وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً) كم خبرية في محل نصب مفعول أهلكنا وأهلكنا فعل وفاعل ومن قرن تمييز غير صريح لكم لأن تمييز كم الخبرية كثير ما يكون مجرورا بمن وسيأتي تفصيل لذلك وهم مبتدأ وأحسن خبر والجملة في محل نصب صفة لكم الخبرية ألا ترى أنك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية هذا ما ذكره الزمخشري وتابعه أبو البقاء على أن هم أحسن صفة لكم ونص أصحابنا على أن كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها ، وأثاثا تمييز ورئيا عطف عليه ويجوز أن يكون صفة لقرن . (قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا) من اسم شرط جازم

مبتدأ وكان فعل الشرط وهو فعل ماض ناقص واسمها مستتر يعود على من وفي الضلالة خبر كان والفاء رابطة للجواب واللام لام الأمر ويمدد

(488/492)

فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وله متعلقان بيمدد والرحمن فاعل ومدا مفعول مطلق . (حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ) حتى حرف غاية وجر متعلق بالجواب وهو فسيعلمون وقيل مستأنفة أي تبدأ بعدها الجمل قال الشهاب في حاشية البيضاوي : وحتى هنا حرف ابتداء أي تبدأ بعدها الجمل أي تستأنف فليست جارة ولا عاطفة ، وهكذا حيث دخلت على إذ الشرطية ، وجملة رأوا مضافة للظرف وما مفعول به وجملة يوعدون صلة وإما حرف شرط وتفصيل والعذاب والساعة بدل من ما والمعنى : يستمرون في الطغيان إلى أن يعلموا إذا رأوا العذاب أو الساعة من هو شر مكانا وأضعف جندا .

(فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً) الفاء واقعة في جواب إذا وهذا ما يرجح جعل إذا للغاية وسيعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل ومن موصولة مفعول به وهو مبتدأ وشر خبر والجملة صلة ويجوز أن تكون من استفهامية في محل رفع بالابتداء وهو مبتدأ ثان وشر خبر المبتدأ الثاني وهو وخبره خبر من وعندئذ تكون الجملة معلقة لفعل

الرؤية فالجملة في محل نصب مفعول يعلمون . (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) لك أن تجعل الواو استئنافية فتكون الجملة مستأنفة ولك أن تجعلها عاطفة فتعطف الجملة على جملة الشرط المحكية بالقول أي وقل يزيد اللّه ويزيد اللّه الذين اهتدوا فعل مضارع وفاعل ومفعول به وجملة اهتدوا صلة وهدى تمييز أو مفعول به ثان ليزيد .

(وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا) والباقيات مبتدأ والصالحات صفة وخير خبر الباقيات وعند ربك الظرف متعلق بخير وثوابا تمييز وخير مردا عطف على خير ثوابا أي مرجعا وعاقبة ومغبة .

الفوائد :

1 - من الداخلة على التمييز :

اختلف في معنى من التي يصرح بها مع التمييز فقيل للتبعيض ولذلك لم تدخل في نحو طاب نفسا لأن نفسا ليست أعم من المبهم الذي انطوت عليه الجملة وقال الشلوبين : زائدة عند سيبويه لمعنى التبعيض ويدل على صحته انه عطف على موضعها نصبا قال الحطيئة :

طافت أمامة بالركبان آونة يا حسنه من قوام ما ومنتقبا

وأمامة بضم الهمزة اسم امرأة وآونة بالمد نصب على الظرفية والشاهد في قوله من قوام فإنه تمييز جر بمن الزائدة في الكلام الموجب ولهذا عطف منتقبا على محلها بالنصب وما زائدة لتوكيد الكلام وقال ابن هشام : انها لبيان الجنس وقد سبقه الزمخشري إلى ذلك لأن المشهور من مذاهب النحويين ما عدا الأخفش أن من لا تزاد إلا في غير الإيجاب .

2- معنى التفضيل :

قيل : ما معنى التفضيل في قوله " وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا " وهل ثمة من شك وهل للمفاخر شرك في الثواب والمرد وأجيب بجوابين أو لهما انه من وجيز كلامهم يقولون الصيف أحر من الشتاء أي أبلغ في حره من الشتاء في برده وثانيهما أن اسم التفضيل ذكر على سبيل المشاكلة لكلامهم السابق وقال الشهاب في حاشيته على البيضاوي : " وهذا جواب عما تخيل كيف فضلوا عليهم في خيرية الثواب والعاقبة والتفضيل يقتضي المشاركة وهم لا ثواب لهم وعاقبتهم لا خير فيها " .

[سورة مريم (19) : الآيات 77 إلى 84]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (78) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81)

كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84)

اللغة :

(أَطَّلَعَ) أصله أاطلع حذفت همزة الوصل وبقيت همزة الاستفهام المفتوحة واطلع يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال اطلع الأمر وعليه : علمه ويقال أيضا : اطّلع طلمع العدو بكسر الطاء وسكون اللام عرف باطن أمرهم وقد توهم بعضهم انه لا يتعدى إلا بعلى فأعرب الغيب بنزع الخافض وإنما هو من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع الثنية قال جرير :

إني إذا مضر عليّ تحدثت لاقيت مطلع الجبال وعورا

فمطلع اسم مكان من اطّلع المشدّد أصله اطتلع على بناء الافتعال فقلبت التاء طاء وأدغمت فيما قبلها وهو في البيت نصب على الظرفية والوعور جمع وعر أي صعب مفعول لاقيت أو مطلع هو المفعول به

ووعورا حال يقول : إذا تقولت على مضر مالا أرتضيه أو حدثتها نفسها بقتلي تمرست بالصعاب ولا أبالي بها وسيأتي مزيد بحث عن استعمالها في الآية في باب البلاغة .

(وَنَمُدُّ) : مضارع مد الشيء يمده من باب نصر أطاله وبسطه وجذبه ومدّ الحبل فامتدّ

وهذا ممدّ الحبل قال ابن مقبل :

وللشمس أسباب كأن شعاعها ممدّ حبال في خباء مطنّب

(491/492)

و تمدّد الأديم وطراف ممدّد وأمد الجيش وضم إليه ألف رجل مددا وللميم مع الدال خاصة التمدد كأن أصل المادة يشمل غيرها من الفروع وهذه من ميزات لغتنا العربية الخالدة ويقال مدحه وامتدحه أطال الثناء عليه ، ومدخ فلانا بالخاء المعجمة أمده بالعون خيرا كان أم شرا عمله ، وتمدخ تكبر وتطاول ولا يخفى ما في الكبرياء والتطاول من تمدد وانتفاخ ، ومدر المكان طاله وامتد اليه ومدر الحوض شد خصاص حجارته بالمدر وهو الطين العلك الذي لا يخالطه رمل وهو سريع الامتداد إذا طينت به الحائط أو سيعته ، ومدس الجلد ونحوه دلكه ليمتد ، ومدشت عينه : امتد عليها الظلام وارتخى عصبها ومدشت يده نحلت وضؤلت فظهرت للرائي ممتدة لقلة اللحم عليها . والمدش بفتحتين ظلمة تمتد على العين من جوع ورخاوة عصب اليد وتمدل بالمنديل شده على رأسه أو اعتم به وهو قريب من معنى الامتداد ، ومدّن المدائن بناها ومصرها وجدد بناءها فامتدت عرضا وطولا والمدينة مجتمع بيوت زادت وامتدت فسميت مدينة ومنها سميت

مدينة بيثرب ومدينة السلام أي بغداد والمدائن مدينة قرب بغداد كان فيها إيوان كسرى وسميت بالجمع لكبرها وامتدادها وفيها يقول البحتري سينيته ويشير إليها بقوله :

حضرت رحلي الهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عنسي

أتسلى عن الهموم وآسى لمحلّ من آل ساسان درس

ومدهه أي مدحه وقد تقدم والمدى الغاية الطويلة الممتدة وأمدى فلانا وماداه أمهله وأمدى الرجل تقدمت به السن وامتدت وتمادى في عيه دام على فعله وامتد في فجوره والمدية بضم الميم الشفرة الكبيرة الممتدة وهذا من غريب أمر لغتنا الشريفة .

(وَنَرِثُهُ) : أي نسلبه منه ونأخذه بأن نخرجه من الدنيا خاليا من ذلك والمراد نزوي عنه ما يقوله من أنه سيناله في الآخرة .

)

(492/492)

تَؤُزُّهُمْ) : الأز : الاستفزاز والتهيج وشدة الإزعاج وهذه من أغراب مواد اللغة العربية كلها تدل على هذا المعنى والأز أيضا شدة الصوت ومنه أز المرجل أزا وأزيزا أي غلا واشتد غليانه حتى سمع له صوت وفي الحديث " فكان له أزيز " وفي القاموس : وأزّت القدر تؤز

بالضم وتئز بالكسر أزا وأزيزا وأزازا بالفتح اشتد غليانها وأز النار أوقدها وأز الشيء حركه شديدا " وفي اللسان والأساس وغيرهما :

هالني أزيز الرعد وصدّعني أزيز الرحى وهزيزها وأزه على كذا :

أغراه به وحمله عليه بإزعاج وهو يأتز من كذا : يمتعض منه وينزعج وتأزر المجلس هاج بمن فيه جميع ذلك يدل على الحركة والانزعاج ، وأزب الماء يأزب بالضم والكسر جرى مسرعا والميزاب مجرى الماء والجمع مآزيب ، وأزج البيت بناه طولا وعرضا ، وأزحت قدمه زلت ، وأزر يأزر بالكسر بالشيء أحاط به والنبات التف وآزره مؤازرة عاونه وبادر إلى إغاثته والأزر القوة والظهر يقال شد به أزره أي ظهره والمئزر معروف ويقال شد للأمر مئزره إذا تشمر له وسارع اليه . وأزف

يأزف بالفتح أزفا وأزوفا اقترب وأزف الرجل عجل وآزفه إنزافا أعجله وأزفت الآزفة اقتربت القيامة وفلان يمشي الأزفى بثلاث حركات أي يمشي سريعا ، والمأزق المضيق وموضع الحرب ، وأزل يأزل وقع في ضيق وشدة ، وأزمه أزما وأزوما عضه والحبل أحكم فتله وتأزم القوم أصابتهم أزمة والأزمة بفتح الهمزة وسكون الزاي والآزمة الشدة والضيقة وأزمى الرجل حاذاه ودانا ه وجلس ازاءه أي أمامه وفي كل ذلك ما يدل على الحركة وحرف الزاي اجمالا يدل على ذلك وما هو قريب منه وسيأتيك ما هو معجب من غريب أمره .

(وَوَلَداً) : الولد اسم مفرد قائم مقام الجمع والولد بضم الواو وسكون وقد قرئ بها بمعنى

الولد فهما لغتان وقيل بل هي جمع لولد نحو أسد وأسد وعرب وعرب .

الاعراب :

)

(493/492)

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً) الهمزة للاستفهام التعجبي والفاء على حالها من التعقيب كأنه قال أخبرك أيضا بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك ورأيت هنا بمعنى أخبرني وقد تقدم بحثها مفصلا والذي هو مفعولها الأول وجملة كفر بآياتنا صلة وقال عطف على كفر ، لأوتين اللام جواب لقسم مقدر ونائب الفاعل مضمر تقديره أنا وما لا مفعول به ثان لأوتين وولدا عطف على ما لا . (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً) الهمزة للاستفهام واطلع فعل ماض وفاعله هو يعود على الكافر قيل هو العاصي بن وائل وستأتي قصته في باب الفوائد وأم حرف عطف معادل للهمزة واتخذ فعل ماض وفاعله مستتر يعود عليه وعند الرحمن مفعول به ثان لاتخذ وعهدا مفعول به أول .

(كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا) كلا حرف ردع وزجر وفيها أقوال كثيرة سنوردها في باب الفوائد وسنكتب فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن وصدره

بالسين من باب ما يقوله المتوعد لخصمه سوف أنتقم منك يعني لا تغتر بطول الزمان فإن الانتقام آتيك أو سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا ، وما مفعول به وجملة يقول صلة ونمد عطف على نكتب وله متعلقان بنمد ومن العذاب حال لأنه كان صفة لمدا ومدا مفعول مطلق أو مفعول به ان كان بمعنى المدد .

)

(494/492)

وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً) ونرثه عطف على نمد والفاعل نحن والهاء منصوب بنزع الخافض وما مفعول به والتقدير ونرث منه ما يقوله ويجوز أن تكون الهاء هي المفعول به وما بدل اشتمال من الهاء والمعنى نرث ما عنده من المال والأهل والولد وجملة يقول صلة ويأتينا عطف على ما تقدم والفاعل مستتر تقديره هو ونا ضمير فصل فاعل وفردا حال (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) واتخذوا فعل وفاعل وحذف المفعول الأول وهي الأوثان المفهومة من سياق الحديث ومن دون اللّه حال وآلهة هي المفعول الثاني ، ليكونوا اللام لام التعليل ويكونوا فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو اسمها ولهم حال وعزا خبر يكونوا . (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كلا

تقدم أنها حرف ردع وزجر لتعززهم بها سيكفرون فعل مضارع مرفوع وبعبادتهم متعلقان بيكفرون أي سيجحدون عبادتها وينكرونها ، فالمصدر أضيف إلى مفعوله ويكونون عطف على يكفرون والواو اسمها وعليهم حال وضدا خبر يكونون ووحّده وهم جمع لمحا لأصله لأنه في الأصل مصدر والمصادر لا تثنى ولا تجمع أو لأنه مفرد في معنى الجمع وللزمخشري في توحيد الضد كلام حسن سننقله في باب البلاغة . (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى
الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)

ألم الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله أنت وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر وأن واسمها وجملة أرسلنا خبرها والشياطين مفعول به وجملة تؤزهم حالية وأزا مفعول مطلق . (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذا كله فلا تعجل وعليهم متعلقان بتعجل وإنما كافة ومكفوفة وجملة نعد لهم حالية وعدا مفعول مطلق .

البلاغة :

1- الاستعارة المكنية :

1- الاستعارة المكنية في قوله " اطلع الغيب " فقد شبه الغيب المجهول الملثم بالاسرار بجبل شامخ الذرا لا يرقى الطير إلى مداه فهو مجهول تتحطم عليه آمال الذين يريدون استشفاف آفاقه وادراك تهاويله ثم حذف الجبل أي المشبه به وأخذ شيئا من خصائصه ولوازمه وهو الاطلاع والارتقاء واستشراف مغيباته والغرض من هذه الاستعارة السخرية البالغة كأنه يقول أو بلغ هذا مع حقارته وتفاهة أمره وصغار شأنه أن ارتقى إلى الغيب المحجب بالاسرار المطلسم بالخفاء ؟

2- توحيد الضد :

قال الزمخشري : " فإن قلت : لم وحّد ؟ قلت وحّد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام " وهم يد على من سواهم " لاتفاق كلمتهم وانهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم " والواو في يكفرون يجوز أن تعود على الآلهة أي يجحدون عبادتهم لها أو للمشركين أي ينكرونها لسوء المغبة والمصير .

الفوائد :

أوجه كلّا :

للنحاة في هذه اللفظة مذاهب ستة :

1- مذهب جمهور البصريين كالخليل وسيبويه وأبي الحسن الأخفش وأبي العباس المبرد

أنها حرف ردع وزجر وهذا معنى لائق بها حيث وقعت في القرآن الكريم وقد زجر بها العشاق لائميهم فقال أحدهم وهو عروة بن أذينة على الأرجح :

يقلن لقد بكيت فقلت : كلّا وهل يبكي من الطرب الجليد ؟

ولكن أصاب سواد عيني عويد قذى له طرف حديد

فقلن فما لدمعهما سواء أكلتا مقلتيك أصاب عود ؟

2- مذهب النضر بن شميل أنها حرف تصديق بمعنى نعم فتكون جوابا ولا بد حينئذ من شيء يتقدمها لفظا أو تقديرا .

3- مذهب الكسائي وأبي بكر بن الأنباري ونصر بن يوسف وابن واصل انها بمعنى حقا .

4- مذهب أبي عبد اللّه الباهلي أنها رد لما قبلها وهذا قريب من الأول .

5- انها صلة في الكلام بمعنى إي كذا قيل وفيه نظر فإن إي حرف جواب مختص بالقسم .

6- انها حرف استفتاح وهو قول أبي حاتم .

(496/492)

هذا وقد ذكرت كلا في خمس عشرة سورة مكية وجملة ما ذكرت ثلاث وثلاثون مرة.

[سورة مريم (19) : الآيات 85 إلى 98]

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (86) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87) وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91) وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94)

وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98)

اللغة:

(وَفْداً): الوفد مصدر وفد يفد وفدا ووفودا ووفادة وإفادة.

إلى أو على الأمير قدم وورد رسولا فهو وافد، وجمع وافد وهم القوم يجتمعون فيردون البلاد ويفدون على الأمير ونحوه.

(وِرْداً): القوم الواردون إلى الماء عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش.

(إِدًّا) : بالكسر والفتح العجب وقيل العظيم المنكر ولادة الشدة وآدني الأمر أثقلني وعظم علي إدا وفي القاموس " الإد والإدة بكسرهما العجب والأمر الفظيع والداهية والمنكر كالأد بالفتح وأدته الداهية تؤده بالضم وتئده بالكسر وتأده بالفتح دهته " .

(497/492)

(وُدًّا) : مودة ومحبة وفي المصباح " وودته أوده من باب تعب ودّا بفتح الواو وضمها أحببته والاسم المودة وودت لو كان كذا أيضا ودا وودادة تمنيته " وفي المختار : " الود بضم الواو وفتحها وكسرها المحبة فهي مثلثة الواو والأرجح الضم وبها قرأ السبعة وقرئ في غير السبعة بفتحها وكسرها ويحتمل أن يكون المفتوح مصدرا والمضموم والمكسور اسمين " .

(لُدًّا) : جمع ألد أي شديد الخصومة وجميل قول الزمخشري :

" اللد الشداد والخصومة بالباطل الآخذون في كل لديد أي في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم " وفي الأساس : " رجل ألد وألندد ويلندد وفيه لدد وقوم لدّ ولادّه ملادة ولدادا وهو شديد اللداد وتركت فلانا يتردد ويتلدد يتلفت وضربه على لديدي عنقه وهما صفحتاها وضربه على متلدّده على عنقه قال :

ولو شئت نجتني من القوم جسرة بعيدة بين العجب والمتلدّد

(رِكْزًا) : الركز الصوت الخفي ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض والركاز المال المدفون .

و(تُحِسُّ) : بضم التاء مضارع أحسّ وفي المصباح : " الحس والحسيس الصوت الخفي وحسه حسا فهو حسيس مثله قتله قتلا فهو قتيل وأحس الرجل الشيء إحساسا علم به يتعدى بنفسه مع الألف قال تعالى : " فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ " ، وربما زيدت فيه الباء فقيل أحس به على معنى شعر به وحسست به من باب قتل لغة فيه والمصدر الحس بالكسر يتعدى بالباء على معنى شعرت أيضا " .

الاعراب :

(498/492)

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً) الظرف منتصب بفعل محذوف قدره بعضهم باذكر وقدره الزمخشري بقوله " نصب يوم بمضمر أي يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف " وقال غيره العامل فيه قوله فيما بعد " لا يملكون " وجملة نحشر مضافة إلى الظرف وفاعل نحشر ضمير مستتر تقديره نحن والمتقين مفعول به والى الرحمن متعلقان بنحشر ووفدا حال وقد تكرر ذكر الرحمن في هذه السورة ست عشرة مرة . (وَنَسُوقُ

الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً) عطف على الجملة السابقة ووردا حال أيضا أي واردين كما يرد العطاش إليهم مشاة عطاشا يكاد يقتلهم الظمأ . (لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير حال الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ولا علاقة لها بالفريقين المتقدمين فلا نافية ويملكون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل تعود على الناس كلهم والشفاعة مفعول به وإلا أداة حصر ومن اسم موصول محله الرفع على البدل من

(499/492)

الواو أو النصب على الاستثناء المتصل وجملة اتخذ صلة وعند الرحمن ظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لاتخذ وعهدا هو المفعول الأول واختار أبو البقاء والزمخشري أن يكون الاستثناء منقطعا هذا وقد اضطربت الأقوال في هذه الآية ولهذا سنفرد بها بحثا خاصا في باب الفوائد . (وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً) جملة اتخذ الرحمن ولدا مقول القول واتخذ الرحمن ولدا فعل وفاعل ومفعول به . (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا) اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وجئتم فعل وفاعل وشيئا مفعول به وإدا صفة . (تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا) تكاد من أفعال المقاربة العاملة عمل كان والسموات اسمها وجملة يتفطرن خبرها والنون فاعل ومنه جار ومجرور متعلقان بيتفطرن

وتنشق الأرض فعل مضارع وفاعل وتخر الجبال فعل مضارع وفاعل وهدا مصدر في موضع الحال أي مهدودة أو مفعول مطلق لأنه مصدر على غير لفظ الفعل وانما هو مرادفه لأن الخرور هو السقوط والهدم واختار الزمخشري أيضا أن يكون مفعولا لأجله أي لأن تهد وهدّ يستعمل متعديا ولازما فعلى الوجه الاول هو متعد لأنه صيغ منه معنى اسم المفعول وعلى الثاني هو لازم لأن خر لازم ومرادفه يجب أن يكون مثله فتأمل هذا فانه دقيق . (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً) أن وما في حيزها مصدر فيه ثلاثة أوجه البدلية من الهاء في منه فهو كقوله :

على حالة لو أن في القوم حاتما على جوده لضنّ بالماء حاتم

فقد روي حاتم مجرورا لأنه بدل من ضمير جوده وسنتحدث في باب الفوائد عن هذا البيت والنصب بنزع الخافض والجار والمجرور في محل نصب مفعول لأجله علل الهدّ بدعاء الولد للرحمن والرفع بأنه فاعل هدا أي هدها دعاء الولد للرحمن .

(500/492)

و دعوا فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين وللرحمن متعلقان بدعوا وولدا مفعول دعوا الثاني والأول محذوف تقديره معبودهم لأن معنى دعوا

سموا وهي تتعدى لاثنين ويجوز دخول الباء على الثاني تقول دعوت ولدي بزيد ودعوت ولدي زيدا ، وقال الشاعر :

دعتني أخاها أم عمرو ولم أكن أخاها ولم أرضع لها بلبان

وقال آخر :

ألا رب من يدعى نصيحا وإن يغب تجده بغيب منك غير نصيح وقال الزمخشري : " اقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلبا للعموم والإحاطة بكل ما دعا له ولدا ، أو من دعا بمعنى الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام : من ادعى إلى غير مواليه وقول الشاعر :

إنا بني نهشل لا ندعي لأب عنه ولا هو لا بالأبناء يشرينا

أي لا تنسب إليه " . (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً) الواو حالية أو عاطفة وما نافية وينبغي فعل مضارع وللرحمن متعلقان به وأن يتخذ مصدر مؤول في محل رفع فاعل وولدا مفعول به .

(إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً) إن نافية وكل مبتدأ ومن مضاف اليه وفي السموات والأرض متعلقان بمحذوف صلة من ويجوز أن تكون من نكرة موصوفة بالجار والمجرور لأنها وقعت بعد كل نكرة ولعله أولى وإلا أداة حصر وآتي الرحمن خبر وعبدا حال

من الضمير المستتر في آتي . (لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وأحصاهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وعدهم عطف على أحصاهم وعدا مفعول مطلق . (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً) الواو عاطفة وكلهم مبتدأ وآتيه خبر ، وكل إذا أضيف إلى معرفة ملفوظ بها نحو كلهم وكل الناس فالمنقول أنه يجوز أن يعود الضمير مفردا على لفظ كل فتقول كلكم ذاهب ويجوز أن يعود جمعا مراعاة للمعنى فتقول كلكم ذاهبون أما إن حذف المضاف المعرفة فالمسموع من العرب الوجهان لأن الأول أنكره بعضهم ، ويوم القيامة ظرف متعلق بآتيه وفردا حال . (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا) ان واسمها وجملة آمنوا صلة وجملة عملوا الصالحات عطف على آمنوا وجملة سيجعل خبر ان ولهم مفعول يجعل الثاني والرحمن فاعل وودا مفعول يجعل الاول وهذا الجعل بالنسبة للدنيا طبعا أي يزرع في قلوبهم مودة من غير تودد منهم . (فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا) الفاء الفصيحة لأنها عطفت على مقدر كأنه قيل بلغ هذا المنزل عليك وبشر به وأنذر فإنما يسرناه وانما كافة ومكفوفة وقد أفادت التعليل لهذا المقدر ويسرناه فعل ماض وفاعل ومفعول به وبلسانك متعلقان بمحذوف حال أي جاريا ، لتبشر اللام للتعليل وتبشر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وبه متعلقان بتبشر والمتقين مفعول به وتنذر معطوف وبه متعلقان بتنذر وقوما مفعول به ولدا

صفة . (وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) كم خبرية مفعول مقدم لأهلكنا وقبلهم ظرف متعلق بأهلكنا ومن قرن تمييز وقد تقدم تقريره والمراد أمة . (

(502/492)

هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً) هل حرف للاستفهام الانكاري وتحس فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت ومنهم حال لأنه كان صفة لأحد ومن حرف جر زائد وأحد

مجرور بمن لفظا مفعول به منصوب محلا أو حرف عطف وتسمع عطف على تحس ولهم حال وركزا مفعول به .

البلاغة :

انطوت خواتيم سورة مريم على فنون عديدة :

أولها : التكرار فقد تكرر ذكر الرحمن كما قلنا ست عشرة مرة في السورة معظمها في خواتيمها والفائدة فيه انه هو الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره وخلق لهم جميع متطلباتهم التي بها قوام معايشهم فهل اعتبر الإنسان ؟ أم لا يزال الغطاء مسدولا على عينيه والوقر يغشى أذنيه ؟ فمن أضاف اليه ولدا جعله كالاناسي المخلوقة وأخرجه بذلك عن

استحقاق هذا الاسم الجدير به وحده .

وثانيها : الالتفات في قوله " لقد جئتم " التفت من الغيبة إلى الخطاب لمشافهتهم بالأمر المنكر الذي اجترحوه ، والبدع العجيب الذي ارتكبوه .

الفوائد :

1 – قلنا ان أقوال المعربين اضطربت في قوله تعالى لا يملكون الشفاعة إلى آخر الآية وقد اخترنا ما رأيناه – في نظرنا – أمثل الأوجه وننقل فيما يلي لمعا من أقوالهم مع التعليق عليها بما يناسب المقام فقد تورط الزمخشري ، وجلّ المعصوم ، بقوله " ويجوز أن تكون – أي الواو في يملكون – علامة للجمع كالتي في أكلوني البراغيث " من جهتين الأولى إنه نسب إلى القرآن وهو أبلغ الكلام أردأ اللغات

وأشدها نكرا حتى لقد ضرب المثل بقبحها والثانية انه إذا جعله علامة لمن فقد كشف معناه وأفصح بأنها متناولة جمعا ثم أعاد على لفظها بالإفراد ضمير اتخذ ففيه الاعادة على لفظها بعد الاعادة على معناها بما يخالف ذلك وهو مستنكر عندهم لأنه إجمال بعد إيضاح وذلك تعكيس على طريق البلاغة وانما محجتها الواضحة الإيضاح بعد الإجمال .

(503/492)

وقال البيضاوي : " إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا " إلا من تحلى بما يستعد به ويستأهل أن يشفع للعصاة من الايمان والعمل الصالح على ما وعد اللّه تعالى أو إلا من اتخذ من اللّه إذنا فيها كقوله تعالى :

" لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ " من قولهم عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به ومحل الرفع على البدل من الضمير أو النصب على تقدير مضاف أي إلا شفاعة من اتخذ " وهو شبيه بالرأي الذي جنحنا اليه إلا أنه جنح إلى القول بأن الاستثناء منقطع . وعبارة أبي حيان : " والضمير في لا يملكون عائد على الخلق الدال عليهم ذكر المتقين والمجرمين إذ هم قسماه والاستثناء متصل ومن بدل من ذلك الضمير أو نصب على الاستثناء ولا يملكون استئناف اخبار " ثم أورد أقوالا عديدة نضرب عنها صفحا .

وقال أبو البقاء " لا يملكون حال إلا من اتخذ في موضع نصب على الاستثناء المنقطع وقيل هو متصل على أن يكون الضمير في يملكون للمتقين والمجرمين وقيل هو في موضع رفع بدلا من الضمير في يملكون " .

وفي الكرخي شارح الجلالين " قوله أي الناس قدره تمهيدا لجعل الاستثناء في قوله إلا من اتخذ منصلا لدلالة ذكر الفريقين المتقين والمجرمين إذ هما قسماه وقيل ضمير يملكون عائد على المجرمين المراد بهم الكفار ، قال بعضهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون " وحسبنا ما تقدم فقد طال مجال القول .

2- عودة إلى بيت الفرزدق :

ونعود إلى بيت الفرزدق وهو من أبيات له يعتذر عما وقع منه في السفر مع دليله عاصم العنبري حين ضل عن الطريق والأبيات هي :

فلما تصافنا الأداوة أجهشت إلى غضون العنبري الجراضم

فجاء بجلمود له مثل رأسه ليشرب ماء القوم بين الصرائم

على حالة لو أن في القوم حاتما على جوده لضنّ بالماء حاتم

(504/492)

والتصافن اقتسام الماء القليل بالصفن وهو وعاء صغير لنحو الوضوء والأداوة ظرف الماء وجمعها أداوى وإيقاع التصافن عليها مجاز لأنها محل الماء والمراد تقاسمنا الماء فهو مجاز مرسل علاقته المحلية والجهش والإجهاش تضرع الإنسان إلى غيره وتهيئته للبكاء اليه كالصبي إلى أمه ، وغضون الجلد مكاسره ، وإسناد الإجهاش إليها مجاز عقلي أو مجاز مرسل علاقته المحلية أيضا لأنها محل ظهور أثره والجراضم واسع البطن كثير الأكل والمراد بالجلمود إناء صلب كبير مثل رأسه أي رأس العنبري وفيه إشارة بارعة إلى حمقه لأن افراط الرأس في العظم أمارة البلادة وفي الصلابة أيضا اشارة إلى ذلك وقوله بين الصرائم جمع

صريمة وهي منقطع الرمل إشارة إلى أنهم كانوا في مفازة عمياء لا ماء بها على حالة ضنكة بحيث لو ثبت في تلك الحالة أن حاتما في القوم مع جوده المشهور لبخل بالماء وعلى بمعنى في ورواية المبرد في كامله على ساعة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 161.53﴾

(505/492)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثالث والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/493)

الجزء الثالث والتسعون بعد الأربعمائة

(سورة طه)

(4/493)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة طه)

(5/493)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

روى عن النبى صلى الله عليه وسلَّم أنَّه قال : لا يقرأ أَهلُ الجنَّة من القرآن إلاَّ طه ويس .

وقال : مَنْ قرأَ سورة طه أَعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين .

وفى حديث علىّ : يا على مَنْ قرأَ سورة طه أَعطاه الله من الثواب مثل ثواب موسى وهارون ، وله بكلِّ آية قرأَها فَرْحَةٌ يومَ يخرج من قبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 316 ﴾

(6/493)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها الإعلام بإمهال المدعوين والحلم عنهم والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم ، زيادة في الشرف داعيهم (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى هذا المقصد الشريف دل اسمها بطريق الرمز والإشارة ، لتبيين أهل الفطنة والبصارة ، وذلك بما في أولها من الحروف

المقطعة ، وذلك أنه لما كان ختام سورة مريم حاملاً على الخوف من أن تهلك أمته (صلى الله عليه وسلم) قبل ظهور أمره الذي أمر الله به قاشتهار دعوته ، لقلة من آمن به منهم ، ابتدأه سبحانه بالطاء إشارة بمخرجها الذي هو من رأس اللسان وأصول الثنيتين العليين إلى قوة أمر وانتشاره ، وعلوه وكثرة أتباعه ، لأن هذا المخرج أكثر المخارج حروفاً ، وأشدها حركة وأوسعها انتشاراً ، وبما فيها من صفات الجهر والإطباق والاستعلاء والقلقلة إلى انقلاب ما هو فيه من الإسرار جهراً ، وما هو فيه من الرقة فخامة ، لأنها من حروف التفخيم ، وأنه يستعلي أمره ، وينتشر ذكره ، حتى يطبق جميع الوجود ويقلقل سائر الأمم ، ولكن يكون ذلك .

بما تشير إليه الهاء بمخرجها من أقصى الحلق .

على حد بعده من طرف اللسان مع طول كبير وتماد كثير ، وبما فيها من صفات الهمس والرخاوة والانفتاح والاستفال والخفاء مع مخافته وضعف كبير ، وهدوء وخفاء عظيم ، ومقاساة شدائد كبار ، مع نوع فخامة واشتهار ، وهو وإن كان اشتهاراً يسيراً يغلب هذا الضعف كله وإن كان قوياً شديداً ، وقراءة الإمالة للهاء تشير إلى شدة الضعف ، وقراءة التفخيم .

وهي الأكثر القراء .

مشيرة إلى فخامة القدر وقوة الأمر ، بما لهما من الانتفاخ ، وإن رئي أنه ليس كذلك (إنه ليخافه

(7/493)

ملك بني الأصفر) وإن كان معنى الحرفين : يا رجل ، فهو إشارة إلى قوته وعلو قدره ، وفخامة ذكره ، وانتشار أتباعه وعموم أمره ، وإن كانا إشارة إلى وطء الأرض فهو إلاحة إلى قوة التمكن وعظيم القدرة وبعدد الصيت حتى تصير كلها ملكاً له ولأتباعه ، وملكاً لأمرائه واشياعه .

والله أعلم .

وذكر ابن الفرات في تأريخه أن هجرة الحبشة كانت في السنة الثامنة من المبعث فالظاهر . على ما يأتي في إسلام عمر رضي الله عنه أن نزول هذه السورة أو أولها كان قرب هجرة الحبشة ، فيكون سبحانه قد رمز له (صلى الله عليه وسلم) على ما هو ألذ في محادثة الأحباب ، من صريح الخطاب ، بعدد مسمى الطاء إلى أن وهن الكفار الوهن الشديد . يقع في السنة التاسعة من نزولها ، وذلك في غزوة بدر الموعد في سنة أربع من الهجرة ، وبعدد اسمها إلى أن الفتح الأول يكون في السنة الحاية عشر من نزولها ، وذلك في عمرة

الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة عند نزول سورة الفتح ، ورمز له بعدد مسمى الهاء إلى أن مبدأ النصرة بالهجرة في السنة الخامسة من نزولها ، وبعدد اسمها إلى أن نصرة بالفعل يقع في السنة السابعة من نزولها ، وذلك في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة ، وبعدد حرفي اسمها لا بعدد اسميها إلى أنه في السنة الثالثة عشر من نزولها يكون بفتح الأكبر بالاستعلاء على مكة المشرفة التي كان سبباً قريباً للاستعلاء على جميع الأرض ، وذلك في أواخرها في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وكان تمتمه بفتح الطائف بإرسال وفدهم وإسلامهم وهدم طاغيتهم في سنة تسع ، وهي السنة الرابعة عشرة ، وبعدد اسميهما إلى أن تطبيق أكثر الأرض بالإسلام يكون في السنة الثامنة عشرة من نزولها ، وذلك بخلافة عمر رضي الله عنه في السنة الثالثة عشر من الهجرة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 3 . 4 ﴾

(8/493)

فصل

قال القرطبى :

سورة طه مكية في قول الجميع نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه روى الدارقطني في

سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال خرج عمر متقلدا بسيف فقيل له إن ختنك]وأختك[قد صبوا فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب وكانوا يقرؤون ﴿ طه ﴾ فقال : أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه وكان عمر رضي الله عنه يقرأ الكتب فقالت له أخته إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ فقام عمر رضي الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ ﴿ طه ﴾ وذكره ابن إسحاق مطولا فإن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله فلقيه نعيم بن عبد الله فقال أين تريد يا عمر ؟ فقال أريد محمدا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فاقتله فقال له نعيم والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ !أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم ؟ فقال وأي أهل بيتي ؟ قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما قال فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها

(9/493)

﴿ طه ﴾ يقرئهما إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أوفي بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما فلما دخل قال ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له ما سمعت شيئا قال بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا إلى دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا وأمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد وكان كاتبا فلما قال ذلك قالت له أخته إنا نخشاك عليها قال لها لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر فقام عمر واغتسل فأعطته الصحيفة وفيها ﴿ طه ﴾ فلما قرأ منها صدرا قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول : "اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو الخطاب" فالله الله يا عمر فقال له عند ذلك فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم وذكر الحديث .

مسألة أسند الدارمي أبو محمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم : "إن الله تبارك وتعالى قرأ ﴿ طه ﴾ و ﴿ يس ﴾ قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا" قال ابن فورك قوله : "إن الله تبارك وتعالى قرأ ﴿ طه ﴾ و ﴿ يس ﴾ "أي أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه الملائكة في ذلك الوقت والعرب تقول قرأت الشيء إذا تتبعته وتقول ما قرأت هذه

(10/493)

الناقة في رحمها سلا قط أي ما ظهر فيها ولد فعلى هذا يكون الكلام سائغا وقرأته أسماعه وأفهامه قرأته يخلقها وكتابة يحدثها وهي معنى قولنا قرأنا كلام الله ومعنى قوله ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ومن أصحابنا من قال معنى قوله قرأ" أي تكلم به وذلك مجاز كقولهم ذقت هذا القول ذواقا بمعنى اختبرته ومنه قوله : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي ابتلاهم الله تعالى به فسمي ذلك ذوقا والخوف لا يذاق على الحقيقة لأن الذوق في الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح قال ابن فورك وما قلناه أولا أصح في تأويل هذا الخبر لأن كلام الله تعالى أزلي قديم سابق لجملة

الحوادث وإنما أسمع وأفهم من أراد من خلقه على ما أراد في الأوقات والأزمنة لا أن عين كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ 163 165. ﴾

(11/493)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . طه)

السّورة مكّيّة إجماعاً .

وعدد آياتها مائة وأَربعون عند الشاميّين ، وخمس وثلاثون ، عند الكوفيّين ، وأَربع عند الحجازيّين ، وثنتان عند البصريّين .

وكلماتها أَلف وثلاثمائة وإحدى وأَربعون .

وحروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأَربعون حرفاً .

والآيات المختلف فيها إحدى وعشرون آية : طه ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ﴿ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ درثه موضع ﴿ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ ﴿ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ فتونا ، لنفسى

﴿ وَلاَ تَحْزَنَ ﴾ ﴿ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ﴿ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ولقد ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ﴾ أسفا ﴿ اله مُوسَى ﴾ ﴿ وَعْداً حَسَناً ﴾ ﴿ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ ﴿ السَّامِرِيُّ ﴾ فنسى ، صفصفا ﴿ مِّنِّي هُدًى ﴾ ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

فواصل آياتها (يوماً) وعلى الميم ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ وعلى الواو ﴿ ضَلُّواْ ﴾ .

وللسّورة اسمان : طه لافتتاح السّورة ، وسورة موسى ؛ لاشتمالها على قصّته مفصّلة .

(12/493)

مقصود السّورة ومعظم ما اشتملت عليه : تيسير الأَمر على الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، وذكر الاستواء ، وعلم الله تعالى بالقريب والبعيد ، وذكر حضور موسى عليه السّلام بالوادى المقدّس ، وإظهار عجائب عصاه واليد البيضاء ، وسؤال شرح الصدر وتيسير الأَمر ، وإلقاء التابوت فى البحر ، وإثبات محبّة موسى فى القلوب ، واصطفاء الله تعالى موسى ، واختصاصه بالرّسالة إلى فرعون ، وما جرى بينهما من المكالمة ، والموعد يوم الزّينة ، وحِيَل فرعون وسَحَرته بالحِبَال والعِصِىّ ، (وإيمان السَّحَرة) وتعذيب فرعون بهم ، والمِنّة على بنى إسرائيل بنجاتهم من الغرق ، وتعجيل موسى ، والمجىء إلى الطُّور ، ومكر السّامرىّ فى صنعة العِجل ، وإضلال القوم ، وتعيير موسى على هارون بسبب ضلالتهم ،

وحديث القيامة ، وحال الكفَّار فى عقوبتهم ، ونَسْف الجبال ، وانقياد المتكبّرين فى رِبْقة طاعة الله الحىّ القيّوم ، وآداب قراءَة القرآن .

وسؤال زيادة العلم والبيان ،

وتعيير آدم بسبب النسيان ، وتنبيهه على الوسوسة ومكر الشَّيطان ، وبيان عقوبة نسيان القرآن ، ونهى النبىّ عن النَّظر إلى أَحوال الكفَّار ، وأَهل الطغيان ، والالتفاتِ إلى ما خُوّلوا : من الأَموال ، والولدان ، وإلزام الحجّة على المنكرين بإرسال الرّسل البرهان ، وتنبيهه الكفَّار على انتظار أَمر الله فى قوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ﴾ إلى آخر السّورة .

الناسخ والمنسوخ :

المنسوخ فيها ثلاث آيات م ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ ن ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ م ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ن آية السّيف م ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ ن آية السّيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 310.312 ﴾

(13/493)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ ، وفى النَّمل : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ وفى القَصص ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ هذه الآيات تشتمل على ذكر رؤية موسى النَّار ، وأَمرِه أَهلَه بالمكث ، وإخباره إِيَّاهم أَنه آنس ناراً ، وإطماعهم أَن يأتيهم بنار يَصطلون بها ، أَو خبر يهتدون به إلى الطريق التى ضَلُّوا عنها ، لكنَّه نقص فى النَّمل ذكر رؤية النَّار ، وأَمره بالمكث ؛ اكتفاءً بما تقدّم .

وزاد فى القصص قضاءَ موسى الأَجل المضروب ، وسيرَه بأَهله إلى مصر ؛ لأَنَّ الشَّىء قد يُجْمَل ثمَّ يفصَّل ، وقد يفصّل ثم يجمل .

وفى طه فصّل ، وأَجمل فى النَّمل ، ثم فصَّل فى القصص ، وبالغ فيه .

وقوله فى طه : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ أَى مَن يخبرنى بالطَّريق فيهدينى إليها .

وإنَّما أَخَّر ذكر الخَبَرِ فيها (وقدَّمه فيهما) مراعاة لفواصل الآى فى السّور جميعا .

(14/493)

وكرّر (لعلّى) فى القصص لفظاً ، وفيهما معنًى ؛ لأَن (أَو) فى قوله ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ نائب عن (لعلّى) و(سآتيكم) يتضمَّن معنى (لعلّى) وفى القصص ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ وفى النَّمل ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ وفى طه ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ ؛ لأَن الجذوة من النَّار [خشبة] فى رأها قبس به شِهاب ، فهى فى السور الثلاث عبارة عن معنى واحد .

قوله : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ هنا ، وفى النَّمل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ ، وفى القصص ﴿ أَتَاهَا ﴾ لأَنَّ أَتى وجاءَ بمعنى واحد ، لكن لكثرةِ دَوْر الإِتيان هنا نَحو (فأتياه) ، (فلنأتينَّك) (ثمّ أَتى) (ثمَّ ائتوا) [جاءَ (أَتاها)] ، ولفظ (جاءَ) فى النَّمل أَكثر ؛ نحو ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ﴿ وجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ ﴾ وأَلحق القصص بطه ، لقرب ما بينهما .

قوله : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ وفى القصص ﴿ فَرَدَدْنَاهُ ﴾ لأَنَّ الرَّجْع إلى الشىءِ والرَّدَّ إليه بمعنى ، والرَّدُّ عن الشىء يقتضى كراهة المردود ، وكان لفظ الرّجع أَلطف ، فخصَّ طه به ، وخُصّ القَصَص بقوله : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ ﴾ ؛ تصديقاً لقوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ ، وفى الزّخرف : ﴿ وَجَعَلَ ﴾ لأَنَّ لفظ السّلوك مع السّبيل أَكثر استعمالاً ، فخصّ به طه ، وخُصّ الزخف بجَعَل ازدواجاً للكلام ، وموافقة لما قبلها وما بعدها .

قوله : ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ وفى الشعراءِ : ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا ﴾ ، وفى القصص : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ لأَنَّ طه هى السّابقة ،

وفرعونُ هو الأَصل ، والمبعوثُ إليه ، وقومه تَبَع له ، وهم كالمذكورين معه ، وفى الشّعراءِ ﴿ قَوْمُ فِرْعَوْنَ ﴾ أَى قوم

فرعون وفرعون ، فاكتفى بذكره فى الإِضافة عن ذكره مفرداً .

(15/493)

ومثله ﴿ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَى آل فرعون وفرعون ، وفى القصص ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ ﴾ فجَمع بين الاثنين ، فصار كذكر الجملة بعد التفصِيل .

قوله : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ صرّح بالعُقْدَة هنا ؛ لأَنَّها السّابقة ، وفى الشعراءِ : ﴿ وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ فكَنى عن العقدة بما يقرب من الصّريح ، وفى القصص ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾ فكنى عن العقدة كناية مبهمة ؛ لأَنَّ الأَوّل يدلّ على ذلك .

قوله فى الشعراءِ : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ وليس له فى طه ذِكر ؛ لأَنَّ قوله : ﴿ وَيَسِّرْ لِيْ أَمْرِيْ ﴾ مشتمل على ذلك وغيره ؛ لأَنَّ الله عزَّ وجلّ إذا يَسّر له أَمرَه لم يخف القتل .

قوله : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾ صَرَّحَ بالوزير ؛ لأَنَّه الأَوّل فى الذكر ، وكَنى عنه فى الشعراءِ حيث قال : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أَى لِيأتينى ، فيكونَ لى

وزيراً .

وفى القصص : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ أَى اجعله لى وزيراً ، فكنى عنه بقوله ﴿ رِدْءاً ﴾ لبيان الأَوّل .

قوله : ﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ وبعده ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ لأَنَّ الرّسول سُمّى به ، فحيث وحّده حُمل على المصدر ، وحيث ثنى حمل على الاسم .

ويجوز أَن يقال : حيث وحّد حُمل على الرّسالة ؛ لأَنَّهما أَرسلا لشىء واحد ، وحيث ثنى حمل على الشّخصين .

وأَكثر ما فيه من المتشابه سبق .

قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ بالفاءِ من غير (مِن) ، وفى السّجدة بالواو ، وبعده (مِن) ؛ لأَنَّ الفاءَ للتعقيب والاتصال بالأَوّل ، فطال الكلام ، فحسن حذف (مِن) ، والواوُ يدلّ على الاستئناف وإِتيان (من) غيى مستثقل وقد سبق الفرق بين إِثباته وحذفه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 312.316 ﴾

(16/493)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة طه

267 - مسألة :

قوله تعالى : (تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4)) وفى غيره من المواضع : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) ؟ .

فبدأ بِالسَّمَاوَاتِ

جوابه :

أما أولا : فلموافقة رؤوس الآى ، ولأنه الواقع لأن خلق

الأرض قبل السماء ، وأيضا : لما ذكر أن إنزال القرآن تذكرة لمن يخشى وهم سكان الأرض

ناسب ذلك البداءة بالأرض التي أنزل القرآن تذكرة لأهلها .

وأما البداءة بالسموات : فلشرفها وعظمها .

268 - مسألة :

قوله تعالى : " أَكَادُ أُخْفِيهَا " ، وقال تعالى : (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) فظاهر قوله تعالى : (آتِيَةٌ أَكَادُ)

أنه أظهرها ، وقوله تعالى : (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) إخفاء

لها ؟ .

جوابه : .

أن معناه : أكاد لشدة الاعتناء بإخفاء وقتها أن أخفى علمها

ووقوعها عن الخلق ، وهذا قد أظهره للخلق بقوله : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ) دليل على أن المراد :

أكاد أخفى إتيانها .

وقوله : (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) أي حقيقة وقتها بعينه لأن

ذلك مما اختص الله تعالى به .

269 - مسألة :

قوله تعالى : (وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا) .

والسحر حرام فكيف أمرهم . به مع عصمته ؟ .

جوابه :

أنه لما كان إلقاؤهم سببا لظهور معجزته ، وصدق دعوى نبوته صار حسنا بهذا الاعتبار

، وخرج عن كونه قبيحا .

270 - مسألة :

قوله تعالى : (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)) ما فائدة قوله : (وَمَا هَدَى) وهو معلوم

((وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ) ؟ .

جوابه :

التصريح بكذبه في قوله (وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)) والتهكم به .

271 - مسألة :

قوله تعالى : (لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)

(17/493)

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)) فالاهتداء هنا مؤخر عن الإيمان والعمل الصالح وفى الآية الأخرى مقدم عليها ؟ .

جوابه :

أن المراد بقوله : (ثُمَّ اهْتَدَى) أي دام على هدايته ،

كقوله تعالى : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) أي ثبتنا عليه

وأدمنا .

272 - مسألة :

قوله تعالى : (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)) وقال تعالى : (اقْرَأْ كِتَابَكَ) وقال :

(وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ) .

فظاهره يدل على الإنكار ؟ .

جوابه :

أن القيامة مواطن : ففى بعضها يكون عمى ، وفى بعضها

إبصارا ، ويختلف ذلك باختلاف أهل الحشر فيه - والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿كشف المعاني صـ 252 . 253 ﴾

(18/493)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

سورة طه

295 - قوله تبارك وتعالى وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى 109 وفي النمل إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون 7 وفي القصص فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون 29 هذه الآيات تشتمل على ذكر رؤية موسى النار وأمره أهله بالمكث وإخباره إياهم أنه آنس نارا

وإطماعهم أن يأتيهم بنار يصطلون بها أو بخبر يهتدون به إلى الطريق التي ضلوا عنها لكنه نقص في النمل ذكر رؤيته النار وأمر أهله بالمكث اكتفاء بما تقدم وزاد في القصص قضاء موسى الأجل المضروب وسيره بأهله إلى مصر لأن الشيء قد يجمل ثم يفصل وقد يفصل ثم يجمل وفي طه فصل وأجمل في النمل ثم فصل في القصص وبالغ فيه

وقوله في طه أو أجد على النار هدى 10 أي من يخبرني بالطريق فيهديني إليه وإنما أخر ذكر المخبر فيهما وقدمه فيهما مرات لفواصل الآي وكرر لعلي في القصص لفظا وفيهما معنى لأن أو في قوله أو أجد على النار هدى 10 نائب عن لعلي وسآتيكم تتضمن معنى لعلي وفي القصص أو جذوة من النار 29 وفي النمل بشهاب قبس 7 وفي طه بقبس 10 لأن الجذوة من النار خشية في رأسها قبس لها شهاب فهي في السور الثلاث عبارة عن معبر واحد

296 - قوله فلما أتاها 12 هنا وفي النمل فلما جاءها 8 وفي القصص أتاها 30 لأن أتى وجاء بمعنى واحد لكن كثر دور الإتيان في طه نحو فأتياه 47 فلنأتينك 58 ثم أتى 60 ثم أتوا 64 حيث أتى 69 ولفظ جاء في النمل أكثر نحو فلما جاءتهم 13 وجئتك 22 فلما جاء سليمان 36 وألحق القصص بطه لقرب ما بينهما

297 – قوله فرجعناك إلى أمك 40 وفي القصص فرددناه 13 لأن الرجع إلى الشيء والرد إليه بمعنى والرد على الشيء يقتضي كراهة المردود ولفظ الرجع ألطف فخص بطه وخص القصص بقوله فرددناه تصديقا لقوله إنا رادوه إليك 7

298 – قوله وسلك لكم فيها سبلا 53 وفي الزخرف وجعل 10 لأن لفظ السلوك مع السبيل أكثر استعمالا به فخص به طه وخص الزخرف بجعل ازدواجا للكلام وموافقة لما قبلها وما بعدها

299 – قوله إلى فرعون 43 وفي الشعراء أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون 10 11 وفي القصص فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه 32 لأن طه هي السابقة وفرعون هو الأصل المبعوث إليه وقومه تبع له وهو كالمذكورين معه وفي الشعراء قوم فرعون أي قوم فرعون وفرعون فاكتفى بذكره في الإضافة عن ذكره مفردا ومثله أغرقنا آل فرعون أي آل فرعون وفرعون وفي القصص إلى فرعون وملئه 32 فجمع بين الآيتين فصار كذكر الجملة بعد التفصيل

300 – قوله وأحلل عقدة من لساني 27 صرح بالعقدة في هذه السورة لأنها السابقة وفي الشعراء لا ينطلق لساني 13 كناية عن العقدة بما يقرب من التصريح وفي القصص وأخي هارون هو أفصح مني لسانا 34 فكنى عن العقدة كناية مبهمة لأن الأول يدل على ذلك

301 - قوله في الشعراء ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون 14 وفي القصص إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون 33 وليس له في طه ذكره لأن قوله ويسر لي أمري 26 مشتمل على ذلك وغيره لأن الله عز وجل إذا يسر له أمره فلن يخاف القتل

302 - قوله واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي 29 30 صرح بالوزير لأنها الأولى في الذكر وكنى عنه في الشعراء حيث قال فأرسل إلى هارون 13 ليأتيني فيكون لي وزيرا وفي القصص فأرسله معي ردءا يصدقني 34 أي اجعله لي وزيرا فكنى عنه بقوله ردءا لبيان الأول

303 - قوله فقولا إنا رسولا ربك 47 وبعده إنا رسول رب العالمين 26 16 لأن الرسول مصدر يسمى به فحيث وحده حمله على المصدر وحيث ثنى حمل على الاسم

(20/493)

ويجوز أن يقال حيث وحد حمل على الرسالة لأنهما رسلا لشيء واحد وحيث ثنى حمل على الشخصين

وأكثر ما فيه من المتشابه سبق

304 - قوله أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون 128 بالفاء من غير من وفي

السجدة 26 بالواو وبعده من لأن الفاء للتعقيب والاتصال بالأول فطال الكلام فحسن حذف من والواو تدل على الاستئناف وإثبات من مستثقل وقد سبق الفرق بين إثباته وحذفه. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 137. 140﴾

(21/493)

فصل

قال الآلوسى :

سورة طه

أيضا سورة الكليم كما ذكر السخاوى في جمال القراء وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم مكية واستثنى بعضهم منها قوله تعالى : واصبر على ما يقولون الآية

وقال الجلال السيوطي : ينبغى أن يستثنى آية أخرى فقد أخرج البزار وأبو يعلى عن أبى رافع قال : أضاف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ضيفا فارسلنى إلى رجل من اليهود أن اسلفنى دقيقا إلى هلال رجب فقال : لا إلا برهن فاتيت النبى عليه الصلاة والسلام

فاخبرته فقال : أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية " لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم " الآية . انتهى .

(22/493)

ولعل ما روى عن الحبرين على القول باستثناء ما ذكر باعتبار الأكثر منها واياتها كما قال الداني مائة واربعون آية شامي وجمس وثلاثون كوفي واربع حجازي وايتان بصري ووجه الترتيب على ما ذكره الجلال أنه سبحانه لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء عليهم السلام وبعضها مبسوط كقصة زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وبعضها بين البسط والايجاز كقصة ابراهيم عليه السلام وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام وإشارة إلى بقية النبيين عليهم السلام إجمالا ذكر جل وعلا في هذه السورة شرح قصة موسى عليه السلام التي أجملها تعالى هناك فاستوعبها سبحانه غاية الاستيعاب وبسطها تبارك وتعالى أبلغ بسط ثم أشار عز شأنه إلى تفصيل قصة آدم عليه السلام الذي وقع في مريم مجرد ذكر اسمه ثم أورد جل جلاله في سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر قصته في مريم كنوح ولوط وداود وسليمان وأيوب واليسع وذى الكفل وذى النون عليهم السلام واشير فيها إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة كموسى وهارون وإسماعيل

وذكرت تلو مريم أن لتكون السورتان كالمتقابلتين وبسطت فيها قصة إبراهيم عليه السلام البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ولم يذكر حاله مع ابيه إلا اشاره كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ومع أبيه مبسوطا وينضم إلى ما ذكر اشتراك هذه السورة وسورة مريم في الافتتاح بالحروف المقطعة

وقد روى عن أبى عباس وجابر بن زيد رضى الله تعالى عنه أن طه نزلت بعد سورة مريم ووجه رابط أول هذه بآخر تلك أنه سبحانه ذكر هناك تيسير القرآن بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام معللا بتبشير المتقين وانذار المعاندين وذكر تعالى هنا ما فيه نوع من تاكيد ذلك وجاءت آثار تدل على مزيد فضلها

(23/493)

أخرج الدارمى وابن خزيمة في التوحيد والطبرانى في الأوسط والبيهقي في الشعب وغيرهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بالفى عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليها هذا وطوبى لاجواف تحمل هذا وطوبى لالسنة تتكلم بهذا

وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعا نحوه وأخرج ابن مردويه عن أبى امامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرؤن منه شيئا إلا سورة طه ويس فإنهم يقرؤن بهما في الجنة إلى غير ذلك من الآثار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ 147 ﴾

(24/493)

فصل

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

" سُورَةُ طَه " مَضْمُونُهَا تَخْفِيفُ أَمْرِ الْقُرْآنِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كُتُبِهِ فَهِيَ " سُورَةُ كُتُبِهِ " - كَمَا أَنَّ مَرْيَمَ " سُورَةُ عِبَادِهِ وَرُسُلِهِ " - افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ . . إلَى قَوْلِهِ : ﴿ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى وَنِدَاءَ اللَّهِ لَهُ وَمُنَاجَاتَهُ إيَّاهُ وَتَكْلِيمَهُ لَهُ وَقِصَّتُهُ مِنْ أَبْلَغِ أَمْرِ الرُّسُلِ فَلِهَذَا ثُنِّيَتْ فِي الْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّهُ حَصَلَ لَهُ الْخِطَابُ وَالْكِتَابُ وَأُرْسِلَ إلَى فِرْعَوْنَ الْجَاحِدِ الْمُرْتَابِ الْمُكَذِّبِ لِلرُّبُوبِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَهَذَا أَعْظَمُ الْكَافِرِينَ عِنَادًا وَاسْتَوْفَى الْقِصَّةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ رَبِّ

زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ آدَمَ ؛ لِأَنَّهَا أَوَّلُ النُّبُوَّاتِ . وَتَضَمَّنَتْ السُّورَةُ ذِكْرَ مُوسَى وَآدَمَ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْمُنَاسَبَةِ مِمَّا يَقْتَضِي

(25/493)

ذِكْرَهُمَا وَلِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ مُوسَى نَظِيرَ آدَمَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي صَارَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ نَظِيرُ آدَمَ فِي الْخَلْقِ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ الْآيَاتُ وَهَذَا يُشَابِهُ مَا فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ ذِكْرِ نُبُوَّةِ آدَمَ ثُمَّ نُبُوَّةِ مُوسَى بَعْدَهُ وَأَمْرِ بَنِي إسْرَائِيلَ ثُمَّ أَمْرِ نَبِيِّهِ بِالصَّلَاةِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ بِالْقِرَاءَةِ وَالسُّجُودِ فِي أَوَّلِ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ وَخَتَمَهَا بِالرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ لِكُلِّ مَا أُمِرَ بِهِ كَمَا افْتَتَحَهَا بِذِكْرِ التَّنْزِيلِ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجموع الفتاوى جـ 15 صـ 237 . 238 ﴾

(26/493)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة طه

هذه السورة مكية وعدد آياتها 135 ، وكلها نزلت بمكة ، وقيل إلا اية 12 ، 13 ، وقد ابتدأت بخطاب النبى (صلى الله عليه وسلم) بأن الله تعالى ما أنزل عليه القرآن ليشقى بتحمل أعباء الكافرين فى كفرهم ، وليس هو إلا مذكر ، والقران تنزيل من قوى قاهر خلق السموات العلا ، وهو المسيطر على هذا الوجود . (الرحمن على العرش استوى)

وهو يعلم كل شىء ، (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى .

وقد تحدث سبحانه بحديث موسى عليه السلام فى بعثه وخطاب الله تعالى له ، وقد رأى نارا (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15)

وبذلك أخبره باختياره نبيا ونبهه إلى معجزته الأولى وهى العصا ، قال : (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)

وأمره أن يأخذها ولا يخاف ، وأعقبها بمعجزة أخرى فقال : (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) .

كلفه بعد أن رأى هاتين الآيتين أن يدعو فرعون إلى الهدى فقال سبحانه :

(27/493)

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) ولكن موسى الكليم يحس بضعفه ، وأنه لا يحسن القول فيقول : (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37)

ولقد أشار سبحانه إلى منته الأولى عند ولادته إذ ألهم أمه (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . . . ، ويذكر سبحانه بعض قصصه قبل الرسالة وقتله المصرى

وفتنته ببنى إسرائيل ، ويشير سبحانه إلى قصته فى أهل مدين (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

وقد أمره سبحانه أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون ، وأن يترفقا معه فى القول (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ، ولكنهما يخشيانه لسطوته وجبروته واستهانته بكل إنسان ، وهكذا يبرر سكوت الناس عن الطغاة واستنكار أعمالهم بالقلوب ، ولقد قال الله تعالى لهما : (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)

(28/493)

أمرهما بأن يخبراه بوحى الله تعالى : (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) ، أخذ فرعون يجادلهما ، وسألهما من ربكما ؟ قالا : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وسألهما : فما بال القرون الأولى ؟ قالا : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، وأخذا يعرفان فرعون بكمال الله تعالى فى خلقه وببيان قدرة الله تعالى فى الخلق والإعادة (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) .

ولقد أراه الله تعالى على يد موسى وهارون الآيات الكبرى ، وكانت كلها حسية ولكنه لم

يؤمن ، وحسب أن موسى جاء لينزع ملك فرعون ، لا ليهديه ، وكذلك كان يستعين الفراعنة الذين حكموا مصر فى عصور النور : (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله . . . ، وجعلوا بينه وبينهم موعدا ، وقد وافق موسى على أن يكون الموعد هو يوم الزينة يوم يحشر الناس ضحى .

التقى موسى بالسحرة فتبين للسحرة أن موسى ليس ساحرا ، وأن معجزة موسى أعجزت السحرة فآمنوا ، ولكن فرعون بدل أن يؤمن قال للسحرة : (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) ،

(29/493)

وهنا تبدو قوة إيمان المصرى إذا امن : (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ

تَزَكَّى (76) .

ذلك إيمان المؤمن ، ولقد أخذ موسى يأتى بالآيات حتى بلغت تسع آيات ، ولكن لم يؤمن فرعون وملؤه ، فأمره بأن يسرى ببنى إسرائيل ليلا فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى .

أخرج الله بنى إسرائيل من فرعون وطغيانه ، ومكنهم من أرض سيناء ، وقال لهم تعالت حكمته وكلماته : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) .

عالج موسى أمر فرعون الطاغية وأعانه الله تعالى عليه ، ثم أخذ بعد ذلك يعالج بنى إسرائيل وكان علاجهم أشد من علاج فرعون ؟ لأن علاج النفوس التى تطغى وتضعف ، ومردت على النفاق والضعف ، ومعاشرة الكافرين ، وتأثر نفوسهم بالكفر والشرك ، ولذا صعب أمرهم .

ذهب موسى إلى ربه ففتن بنو إسرائيل بالعجل من بعده فقال الله تعالى :

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)

بأن صنع لهم تمثال عجل من ذهب ، ووضعه لهم فى مهب الريح فإذا هبت صوت بصوت يشبه الخوار (فأخرج دهم عجلا جسدا له خوار . . . ، ولتأثرهم بعبادة العجل التى كان المصريون يمارسونها قالوا : (. . . هذا إلهكم وإله موسى . . . ، ولكن إذا كان له صوت خوار فليس بحى ، ولا فيه حياة (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

فعلوا ذلك فى غيبة موسى عليه السلام ، وأخذ هارون يرشدهم ويقول : (. . . يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . ولكنهم أصروا على عبادته وقالوا : (. . . لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى .

جاء موسى فوتجه اللوم إلى أخيه هارون عليهما السلام ، ولكن اعتذر نبى الله هارون بأنه خشى أن تكون فرقة بين بنى إسرائيل ، وقال : (. . . يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) ،

(31/493)

وعلى أى حال فهارون عليه السلام لم يشاركم فى عبادة العجل ، كما قالت التوراة المحرفة غير الصادقة ، وكان هذا من أعظم الأدلة على تحريفها ، بعد أن عاتب أخاه وحسبه مقصرا اتجه إلى السامرى الذى أضلهم فقال : (قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به . . . من الصناعة ، صناعة التماثيل ، (فقبضت قبضة من أثر الرسول) ، أى من تعاليمه ودعوته إلى التوحيد . . . فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) ، كان هذا دليلا عمليا على أن ذلك الصنم لا يملك من أمره شيئا ، ولذلك قرر ألوهية الله وحده (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) .

هذه أطراف من قصة موسى عليه السلام ، وقال تعالى فى ذلك : (ذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا) .

وبين سبحانه عاقبة من أعرض عن ذكر الله تعالى ، وأشار سبحانه إلى يوم القيامة (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) ، مبينا سبحانه حال الناس يوم القيامة وحال الأرض ، وما فيها (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ

أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110)

(32/493)

بعد هذا بين سبحانه أن الوجوه كلها تكون عانية خاضعة ، وقد خاب من حمل ظلما ، بين سبحانه منزلة القرآن وأنه نزل عربيا ، وصرف فيه من الوعيد ما تهلع له القلوب ، فتعالى الله الملك الحق (. . . وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) .

ويقول سبحانه تذكيرا لابن آدم ، وبيان عرضته للخطأ والنسيان ، فيقول سبحانه : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ، فذكر سبحانه أبانا بأنه حذره من الشيطان وقال له : (. . . إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ولكن وسوس إليه الشيطان : (. . . قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120)

فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى وهبط آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض بعضهم لبعض عدو ، وقال لهم رب البرية : (

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) ،

وإن العذاب عذابان : عذاب الدنيا بالضلال والعمى عن الحق ، وهذا عذاب لأهل العقول ، وعذاب فى الآخرة وهو أشق وأبقى .

(33/493)

يذكر الله سبحانه بعد ذلك العبر فى الماضين الذين أهلكوا وكان يمكن أن ينزل مثل ذلك بالمشركين الذين كفروا بمحمد ، وفتنوا المؤمنين ، وضلوا ، ولكن سبقت الكلمة ببقائهم ليكون من ذريتهم من يعبدون الله تعالى ، وقال تعالى فى ذلك : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) ، واتجه سبحانه إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) يأمره بالصبر على ما يقولون ، وأن يسبح الله تعالى (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) .

ولقد نهى النبى (صلى الله عليه وسلم) عن أن يمد عينيه ، ويتطلع إلى ما هم متمتعون به

من متع هى زهرة الحياة الدنيا ، وذلك أمر لأمته ، فلا تتطلع إلى ما هم فيه من متع فهى فتنة ، . . . وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) .

لقد تعللوا فى كفرهم بتعللات ظاهرة البطلان طلبوا آيات حسية ، وقالوا : . . . لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) .

لقد جاءهم الرسول مبشرا ونذيرا ، ولكنهم كفروا وعاندوا (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 4697.4702 ﴾

(34/493)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة طه

سميت سورة " طاها " باسم الحرفين المنطوق بهما في أولها .

ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من اسميهما تبعا لرسم المصحف كما تقدم في سورة الأعراف .

وكذلك وردت تسميتها في كتب السنة في حديث إسلام عمر بن الخطاب كما سيأتي قريبا .

وفي تفسير القرطبي عن مسند الدرامي عن هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن الله تبارك وتعالى قرأ " طاها " باسمين قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا : طوبى لأمة ينزل هذا عليها " الحديث .

قال ابن فورك : معناه أن الله أظهر كلامه وأسمعه من أراد أن يسمعه من الملائكة ، فتكون هذه التسمية مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وذكر في الإتقان عن السخاوي أنها تسمى أيضا " سورة الكليم " ، وفيه عن الهذلي في كامله أنها تسمى " سورة موسى " .

وهي مكية كلها على قول الجمهور .

واقتصر عليه ابن عطية وكثير من المفسرين .

وفي الإتقان أنه استثني منها آية ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : من الآية 130] واستظهر في الإتقان أن يستثنى منها قوله

تعالى ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [طه : من الآية131] .

لما أخرج أبو يعلى والزار عن أبي رافع قال : " أضاف النبي صلى الله عليه وسلم ضيفا فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقا إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن ، فأتيت النبي فأخبرته فقال : أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض .

فلم أخرج من عنده حتى نزلت ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [طه : 131] الآية اهـ .

(35/493)

وعندي أنه إن صح حديث أبي رافع فهو من اشتباه التلاوة بالنزول .

فالعل النبي صلى الله عليه وسلم قرأها متذكرا فظنها أبو رافع نازلة ساعتئذ ولم يكن سمعها قبل ، أو أطلق النزول على التلاوة .

ولهذا نظائر كثيرة في المرويات في أسباب النزول كما علمته غير مرة .

وهذه السورة هي الخامسة والأربعون في ترتيب النزول نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة .

ونزلت قبل إسلام عمر بن الخطاب لما روى الدارقطني عن أنس بن مالك ، وابن إسحاق في سيرته عنه قال : خرج عمر متقلدا بسيف .

فقيل له : إن ختنك وأختك قد صبوا ، فأتاهما عمر وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة " طاها " ، فقال : " أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه؟ فقالت له أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ .

فقام عمر وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ طه .

فلما قرأ صدرا منها قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه " إلى آخر القصة .

وذكر الفخر عن بعض المفسرين أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة .

وكان إسلام عمر في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشة فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة .

وعدت آيها في عدد أهل المدينة ومكة مائة وأربعا وثلاثين وفي عدد أهل الشام مائة وأربعين ، وفي عدد أهل البصرة مائة واثنتين وثلاثين .

وفي عدد أهل الكوفة مائة وخمسا وثلاثين .

أغراضها

احتوت من الأغراض على :

- التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتتحها

- والتنويه بأنه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية ؛ فأكثرها في هذا الشأن .

- والتنويه بعظمة الله تعالى .

وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس .

فضرب المثل لنزول القران على محمد صلى الله عليه وسلم بكلام الله موسى عليه السلام

- وبسط نشأة موسى وتأييد الله إياه ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه .

(36/493)

- وإنجاء الله موسى وقومه ، وغرق فرعون ، وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط .

وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى عليه السلام .

وكل ذلك تعويض بأن مآل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه .

فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد من أعرضوا عن القرآن ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه .

- وتذكير الناس بعدواة الشيطان الإنسان بما تضمنه قصة خلق آدم .

- ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا .

- وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يقولونه وتثبيته على الدين .

وتخلل ذلك إثبات البعث .

وتهويل يوم القيامة وما يتقدمه من الحوادث والأهوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ 91.93 ﴾

(37/493)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بالسورة تبدأ هذه السورة وتختم خطابا للرسول (صلى الله عليه وسلم) ببيان وظيفته وحدود تكاليفه . . إنها ليست شقوة كتبت عليه , وليست عناء يعذب به . إنما هي الدعوة والتذكرة , وهي التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره . المهيمن على ظاهر الكون وباطنه , الخبير بظواهر القلوب وخوافيها . الذي تعنو له الجباه , ويرجع إليه الناس: طائعهم وعاصيهم . . فلا على الرسول ممن يكذب

ويكفر ; ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر , مفصلة مطولة ; وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى – وموقف الجدل بين موسى وفرعون . وموقف المباراة بين موسى والسحرة . . . وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه , وقال له ولأخيه: (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) . .

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة , تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته , وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملأ الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائعون إلى الجنة , ويذهب العصاة إلى النار . تصديقا لما قيل لأبيهم آدم , وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان !

ومن ثم يمضي السياق في هذه السورة في شوطين اثنين: الشوط الأول يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . .) تتبعه قصة موسى نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته .

والشوط الثاني يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله . . ظل علوي جليل , تخشع له القلوب , وتسكن له النفوس , وتعنو له الجباه . . إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى , في تلك المناجاة الطويلة ; والليل ساكن وموسى وحيد , والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل . . وهو الظل الذي يخلعه تجلي القيوم في موقف الحشر العظيم: (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) . . (وعنت الوجوه للحي القيوم) . .

والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2326 . 2327 ﴾

(39/493)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة طه

مكية وآياتها خمس وثلاثون ومائة آية

بين يدي السورة

سورة طه مكية ، وهي تبحث عن نفس الاهداف للسور المكية ، وغرضها الاساسى التركيز على اصول الدين من (التوحيد ، والنبوة ، والبعث والنشور) في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) في شد أزره ، وتقوية روحه ، حتى لا يتأثر بما يلقى اليه من السفاهة والعناد ، والاستهزاء والتكذيب ، ولارشاده الى وظيفته الاساسية ، وهي التبليغ والتذكير ، والانذار والتبشير ، وليس عليه ان يجبر الناس على الايمان . عرضت السورة لقصص الانبياء ، تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتطمينا لقلبه الشريف ، فذكرت بالتفصيل قصة (موسى) و(هارون) مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها ، وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربه ، وموقف تكليفه بالرسالة ، وموقف الجدال بين موسى وفرعون ، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة ، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعايةُ الله لموسى ، نبيه وكليمه ، لإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين . وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف ، برزت فيه رحمة الله لآدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم ترك

الخيار لهم لإختيار طريق الخير او الشر . وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة ، في عبارات يرتجف لها الكون ، وتهتز لها القلوب هلعا وجزعا ، وما يصيب الناس من الذهول والسكون [وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا] . وعرضت السورة ليوم (الحشر الأكبر) ، حيث يتم الحساب العادل ، ويعود الطائعون الى الجنة ، ويذهب العصاة الى النار ، تصديقا لوعد الله الذي لا يتخلف ، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين . وختمت السورة ببعض التوجيهات الربانية للرسول (صلى الله عليه وسلم) في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التسمية :

(40/493)

سميت " سورة طه " وهو اسم من اسمائه الشريفة (صلى الله عليه وسلم) تطييبا لقلبه ، وتسلية لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد ، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء [طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 229 . 230 ﴾

(41/493)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة طه

لتشقى : أي لتتعب وتنصب ، تذكرة : أي تذكيرا وعظة ، يخشى : أي يخاف اللّه ، العلى : واحدها العليا مؤنثة الأعلى كالكبرى مؤنثة الأكبر ، والعرش : فى اللغة سرير الملك ، ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم ، واستوى : استولى عليه قال شاعرهم :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والثرى : التراب الندىّ والمراد هنا مطلق التراب ، وأخفى : أي من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوّه به بحال ، والأسماء : أي الصفات كما جاء فى قوله :

" وجعلوا لله شركاء قل سموهم " أي صفوهم ، والحسنى : مؤنثة الأحسن .

الحديث : كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو فى منامه ، والمكث : الإقامة ، آنست : أي أبصرت ، آتيكم : أجيئكم ، بقبس : أي بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه ، هدى : أي هاديا يدلنى على الطريق ، طوى : (بالضم) منونا :

اسم لذلك الوادي ، اخترتك : أي اصطفيتك ، لذكرى : أي لتكون ذاكرا لى ، أكاد أخفيها : أي أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية ، هواه : أي ما تهواه نفسه ، فتردى : أي

فتهلك .

أتوكأ عليها : أعتمد عليها فى المشي والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ، وأهش بها : أي أخبط بها ورق الشجر ، مآرب : أي منافع واحدها مأربة (مثلثة الراء) والحية : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع ، والثعبان : العظيم من الحيات ، والجانّ : الصغير منها ، سيرتها الأولى : أي حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان سيرته الأولى .

(42/493)

الضم : الجمع ، وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجنب وهو المراد هنا ، والسوء : القبح فى كل شىء ، ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه ، وآية أخرى : أي معجزة ثانية غير العصا ، طغى : أي تجاوز الحد فى عتوّه وتجبره ، اشرح لى صدرى : أي وسّعه لتحمّل أعباء الرسالة ، ويسر لى أمرى : أي سهّل لى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة . واحلل عقدة من لسانى : أي أزل ذلك التعقد والحبسة التي فى لسانى ، لئلا يستخف بي الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى ، يفقهوا قولى :

أي يفهموه ، وزيرا : أي معينا ، والأزر : القوة ، يقال آزره أي قوّاه وأعانه ، وأشركه فى أمرى

: أي اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة ، إنك كنت بنا بصيرا : أي عالما بأحوالنا ، لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

السؤل : بمعنى المسئول : أي المطلوب كالخبز بمعنى المخبوز ، منّنا : أي أنعمنا ، مرة أخرى : أي فى وقت آخر غير هذا الوقت ، أوحينا : أي ألهمنا كما جاء فى قوله " وأوحى ربك إلى النحل " وقوله : " وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى " اقذفيه : أي ألقيه واطرحيه ، واليمّ : البحر . والمراد به هنا نهر النيل ، والساحل : الشاطئ ، ولتصنع على عينى : أي ولتربّى وتغذّى بمرأى منى وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشيء بعينيه دلالة على عنايته به ، يكفله : أي يضمه إلى نفسه ، تقر عينها : أي تسر ، والغم : الكدر الناشئ من خوف شيء أو فوات مقصود ، والفتون :

الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها ، لبثت : أي أقمت ، مدين : بلد بالشام .

الآيات : هى المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له :

فأت بآية ، ألقى العصا ونزع اليد وقال فذانك برهانان من ربك ، ولا تنيا : أي لا تفترا ولا تقصّرا ، فى ذكرى : أي فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها ، طغى : أي تجاوز الحد ، قولا لينا : أي لا عنف فيه ولا غلظة : يتذكر : أي يتأمل فيذعن للحق ويؤمن ، يخشى : أي يخاف من بطش اللّه وعذابه ، يفرط : أي يعجّل بالعقوبة ، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل ،

يطغى : أي يزداد طغيانا ، أس مع وأرى : أي أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل ، فأتياه : أي فقابلاه وجها لوجه ، فأرسل معنا بنى إسرائيل : أي فأطلقهم من الأسر ، ولا تعذبهم : أي ولا تبقهم على ما هم عليه من العذاب والتسخير فى شاقّ الأعمال ، والسلام على من اتبع الهدى : أي والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدّق بآيات اللّه الهادية إلى الحق ، تولى : أي أعرض .

أعطى كل شىء خلقه : أي أعطى كل نوع صورته وشكله الذي يشاكل ما نيط به من الخواص والمنافع ، ثم هدى : أي ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطى له ، البال : الفكر يقال خطر ببالي كذا ، ثم أطلق على الحال التي يعتنى بها وهو المراد هنا

فى كتاب : أي دفتر مقيّد فيه والمراد بذلك كمال علمه الذي لا يضيع منه شىء ، ضل الشيء : أخطأه ولم يهتد إليه ، ونسيه : ذهب عنه ولم يخطر بباله ، والمهد . ما يمهّد للصبى ويفرش له : أي جعل الأرض كالمهد ، وسلك : أي سهّل ، والسبل : واحد ها سبيل :

أي طريق ، أزواجا : أي أصنافا ، شتى : واحدها شتيت كمريض ومرضى : أي مختلفة النفع والطعم واللون والشكل ، لآيات : أي لدلالات ، والنهى : واحدها نهية (بالضم) وهى العقل سمى بها لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .

أبى : امتنع ، موعد : أي ميعادا معيّنا ، سوى : مستويا لا جبال فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة ، يوم الزينة : يوم عيد كان لهم ، يحشر الناس : أي يجمعون ، والضحى : وقت ارتفاع النهار .

(44/493)

فتولى فرعون : أي انصرف عن المجلس ، كيده : أي ما يكيد به من السحرة وأدواتهم ، أتى : أي أتى الموعد ومعه ما جمعه من الأعوان والسحرة ، ويلكم : أي هلاك لكم ، والافتراء : الاختلاق والكذب ، فيسحتكم بعذاب : أي يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد ، فتنازعوا : أي فتفاوضوا وتشاوروا ، وأسروا النجوى : أي بالغوا فى إخفاء كلامهم ، بطريقتكم المثلى : أي بمذهبكم الذي أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها ، فأجمعوا كيدكم : أي اجعلوا كيدكم مجمعا عليه ، صفا : أي مصطفين ، لأنه أهيب للصدور ، أفلح : أي فاز بالمطلوب ، استعلى : أي غلب .

إيجاس الخوف : الإحساس بشيء منه ، ما فى يمينك : هى العصا وأبهمها تفخيما لشأنها ، وتلقف : تبتلع بقوة وسرعة ، صنعوا : أي زوّروا وافتعلوا ، كيد ساحر : أي كيد سحريّ لا حقيقة له ولا ثبات ، حيث أتى : أي أينما كان ، كبيركم : أي زعيمكم ومعلمكم . قال الكسائي : الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال جئت من عند كبيرى ، من خلاف : أي من حال مختلفة ، فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى ، أشد عذابا : أي أدوم ، نؤثرك : أي نفضّلك ونختارك ، فطرنا : أي ابتدعنا وأوجدنا من العدم ، فاقض : أي فاحكم ، جنات عدن : أي جنات أعدت للإقامة ، من تحتها : أي من تحت غرفها ، تزكى : أي تطهّر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصي .

السرى والإسراء : السير ليلا ، اضرب لهم : أي اجعل لهم ، يبسا : أي طريقا يابسا لا ماء فيه ، والدرك (بالفتح والسكون) : الإدراك واللحوق ، تخشى : أي تخاف غرقا ، وأتبع وتبع : بمعنى ، فغشيهم من اليمّ ما غشيهم : أي فغمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم من الأمر الهائل الذي لا يعلم كنهه إلا اللّه ، وأضل فرعون قومه : أي سلك بهم مسلكا أدّاهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم ، إذ أغرقوا فأدخلوا نارا ، وما هدى :

أي وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة ، الأيمن : أي الذي عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام ، المنّ : نوع من الحلوى يسمى الترنجبين ، والسلوى : طائر شبيه بالسّمانى ، ولا تطغوا فيه : أي فلا تأخذوه من غير حاجة إليه ، فيحل عليكم غضبى : أي ينزل بكم ، هوى : سقط وهلك ، غفار : كثير المغفرة والستر للذنوب ، اهتدى : أي لزم الهداية واستقام .

يقال جاء على أثره (بفتحتين وبكسر فسكون) : إذا جاء لاحقا به بلا تأخير ، فتنا قومك : أي اختبرناهم ، وأضلهم : أي أوقعهم فى الضلال والخسران ، والسامري : من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى ، والأسف : الحزين ، والوعد الحسن : إعطاء التوراة التي فيها هدى ونور ، والعهد : زمان الإنجاز ، موعدى : أي وعدكم إياى بالثبات على الإيمان ، وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف ، بملكنا : أي بقدرتنا واختيارنا ، والأوزار : الأثقال والأحمال والمراد بالقوم هنا القبط ، فقذفناها : أي طرحناها فى النار ، جسدا : أي جثة لا روح فيها ، والخوار : صوت العجل ، فنسى : أي فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور ، أن لا يرجع إليهم قولا : أي لا يردّ عليهم جوابا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا : أي لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا .

فتنتم به : أي وقعتم فى الفتنة والضلال ، فاتبعونى : أي فى الثبات على الحق ، لن نبرح : أي

لا نزال ، عاكفين : أي مقيمين ، بلحيتي ولا برأسى : أي بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى ، خشيت : أي خفت ، ولم ترقب قولى : أي ولم تراع ، فما خطبك :

(46/493)

أي ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذي صدر منك ، بصرت بما لم يبصروا به (بضم الصاد فيهما) : أي علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له يقال بصر بالشيء إذا علمه ، وأبصره إذا نظر إليه ، والرسول موسى عليه السلام ، وأثره : سنته ، فنبذتها : أي طرحتها وسوّلت لى نفسى : أي زينت وحسنت ، لا مساس : أي لا مخالطة فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحدا ، فعاش وحيدا طريدا ، لن تخلفه : أي سيأتيك به اللّه حتما ، ظلت (أصله ظللت دخله حذف) : أي أقمت ، لنحرقنه : أي لنبردنّه بالمبرد ، لننسفنه : أي لنذرينه ، فى اليمّ : أي فى البحر ، وسع كل شىء علما : أي وسع علمه كل شىء وأحاط به .

ذكرا : أي قرآنا كما قال : " يا أيها الذى نزل عليه الذكر " وسمى بذلك ، لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ، والوزر : الحمل الثقيل

والمراد به العقوبة التي تثقل على حاملها ، والصور : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر كما ينفخ فيه فى الدنيا حين الأسفار وفى المعسكرات ، زرقا :

أي زرق الأبدان سود الوجوه ، لما هم فيه من الشدائد والأهوال ، يتخافتون بينهم : أي يخفضون أصواتهم ويخفونها ، لشدة ما يرون من الهول ، إلا عشرا : أي عشرة أيام ، أمثلهم طريقة : أي أعدلهم رأيا ، وأرجحهم عقلا .

ينسفها : أي يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا ، يذرها : أي يتركها ، القاع : الأرض التي لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى ، والصفصف :

الأرض الملساء ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : النتوء اليسير يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعي : هو داعى اللّه إلى المحشر لا عوج له : أي لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع ، خشعت : ذلت ، والهمس : الصوت الخفىّ ، وعنت : خضعت وانقادت ، ومن ذلك العاني : وهو الأسير ، والقيوم : القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت ، خاب : أي خسر ، والظلم الأول : الشرك .

(47/493)

والظلم الثاني : منع الثواب عن المستحق ، والهضم : النقص .

صرّفنا : كررنا وفصلنا ، ذكرا : أي عظة وعبرة ، فتعالى اللّه : أي تنزه وتقدس الحق : أي الثابت فى ذاته وصفاته ، يقضى إليك وحيه : أي يتم جبريل تبليغه لك .

العهد : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا : إذا أمره وأوصاه به ، من قبل :

أي من قبل وجود هؤلاء المخالفين ، فنسى : أي فترك ، ولم نجد له : أي ولم نعلم ، والعزم على

الشيء : تصميم الرأى والثبات عليه ، أبى أي امتنع ، فتشقى :

أي تتعب بمتاعب الدنيا وهى لا تكاد تحصى ، تظمأ : تعطش ، تضحى ، أي تصيبك

الشمس يقال ضحا كسعى وضحى كرضى : إذا أصابته الشمس بحرها اللافح ، شجرة

الخلد : أي الشجرة التي إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت ، لا يبلى : أي لا يفنى ، طفقا

يخصفان أي شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها ، غوى : أي ضل عن الرشد

حيث اغترّ بقول عدوه ، اصطفاه وقربه إليه ، وهدى : أي إلى الثبات على التوبة ، عن

ذكرى : أي عن الهداية بكتبي السماوية ، والضنك : الضيق الشديد ، أعمى :

أي عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية ، عن آياتنا : أي عن أدلتنا ، فنسيتها : أي

فتركتها ، وتنسى : أي تترك ، أسرف : أي انهمك فى الشهوات واسترسل فيها .

أفلم يهد لهم : أي أفلم يبيّن لهم العبر ، لأولى النهى : أي لذوى العقول الراجحة لزاما : أي

لازما لهم لا يتأخر عنهم ، فسبح بحمد ربك : أي اشتغل بتنزيه اللّه وتعظيمه آناء الليل :

ساعاته واحدها إنى وإنو (بكسر الهمزة وسكون النون) ولا تمدن عينيك :

أي لا تطيلن النظر رغبة واستحسانا ، متعنا : أي جعلناهم يتلذذون بما يدركون من

المناظر الحسنة ، ويسمعون من الأصوات المطربة ، ويشمّون من الروائح الطيبة ، أزواجا :

أي أشكالا وأشباها ، زهرة الحياة الدنيا : أي زينتها وبهجتها ، لنفتنهم : أي لنبتليهم ونختبرهم ، ورزق ربك : أي ما ادّخره لك ، واصطبر عليها : أي دم عليها .

(48/493)

لولا : أي هلا وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها ، آية : أي معجزة تدل على صدقه ، البينة : القرآن ، والصحف الأولى : التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ، نذل : أي نهان ، ونخزى : أي نفتضح ، متربص : أي منتظر ، الصراط : الطريق ، والسوىّ : أي المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 16 صـ 94. 168 ﴾ . باختصار

(49/493)

وقال الفراء :

من سورة طه

قوله طه [11] حرف «1» هجاء . وقد جاء فى التفسير طه : يا رجل ، يا إنسان

حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى قيس بن الربيع قال حدّثنى عاصم عن زرّ بن حبيش قال :

قرأ رجل على ابن مسعود طه بالفتح «2» قال فقال له عبد اللّه طه «3» بالكسر قال فقال له الرجل يا با عبد الرحمن أليس أنما أمر أن يطأ قدمه . قال : فقال له طه . هكذا أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم . وكان بعض القراء يقطّعها طاه قرأها أبو عمرو بن العلاء طاهى «4» هكذا .

وقوله : إِلَّا تَذْكِرَةً [3] نصبها على قوله : وما أَنْزَلْنا إِلَّا تَذْكِرَةً .

وقوله : تَنْزِيلًا [4] ولو كانت (تنزيل) (على الاستئناف) «5» كان صوابا .

وقوله : يَعْلَمُ السِّرَّ [7] : ما أسررته (وَأَخْفى) : ما حدّثت به نفسك .

وقوله : إِنِّي آنَسْتُ ناراً [10] : وجدت نارا . والعرب تقول : اخرج فاستأنس هل ترى شيئا .

ومن أمثال العرب بعد اطّلاع إيناس «6» . وبعضهم يقول بعد طلوع إيناس .

---

(1) المراد الجنس فهما حرفان وفى الطبري : «حروف هجاء» .

(2) سقط فى ا . والمراد عدم الإمالة .

(3) سقط فى ش . والمراد بالكسر الإمالة . [. . . . .]

(4) أي بفتح الطاء وإمالة الهاء للكسر .

(5) ما بين القوسين مؤخر فى ش عن قوله : «كان صوابا» .

(6) الاطلاع هنا : النظر . والإيناس الوجود واليقين .

(50/493)

وقوله : (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ) القبس مثل النار فى طرف العود أو فى القصبة . وقوله : (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً) يعنى هاديا . فأجزأ المصدر من الهادي . وكان موسى قد أخطأ الطريق .

وقوله «1» : يا مُوسى [11] إنى [12] إن جعلت النداء واقعا على (موسى) كسرت «2» (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) وإن شئت أوقعت النداء على (أنّى) وعلى (موسى) وقد قرىء «3» بذلك .

وقوله : (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ) ذكر أنهما كانتا من جلد حمار ميّت فأمر بخلعهما 111 ا لذلك . وقوله (طوى) قد تكسر طاؤه فيجرى . ووجه الكلام (الإجراء إذا كسرت «4» الطاء) وإن جعلته اسما لما حول الوادي جاز «5» ألّا يصرف كما قيل «6» (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ «7» إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ) فأجرو حنينا لأنه اسم للوادى . وقال الشاعر «8» فى ترك إجرائه :

نصروا نبيّهم وشدّوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

نوى أن يجعل (حنين) اسما للبلدة فلم يجره . وقال الآخر «9» :

ألسنا أكرم الثقلين رحلا وأعظمه ببطن حراء نارا

فلم يجر حراء وهو جبل لأنه جعله اسما للبلدة التي هو بها .

---

(1) فى ش مكان «وقوله» : «نودى» وسقط فيها «إنى» .

(2) الفتح قراءة ابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر وافقهم ابن محيصن واليزيدي ، والكسر قراءة الباقين .

(3) الكسر مع الإجراء أي التنوين عن الحسن والأعمش .

(4) ا : «إذا كسر إجراؤه» .

(5) هى قراءة أبى زيد عن أبى عمرو كما فى البحر 6/ 231 .

(6) ا : «قالوا» .

(7) الآية 25 سورة التوبة .

(8) هو حسان بن ثابت كما فى اللسان .

(9) نسبه فى معجم البلدان (حراء) إلى جرير . وفيه : «وأعظمهم» . وما هنا : وأعظمه» أي أعظم من ذكر وهو جائز فى كلامهم .

وأمّا من ضمّ «1» (طوى) فالغالب عليه الانصراف. وقد يجوز ألا يجرى يجعل على جهة فعل مثل زفر وعمر ومضر قال الفراء «2»: يقرأ (طوى) مجراة.

وقوله: وَأَنَا اخْتَرْتُكَ [13] وتقرأ [وأنّا اخترناك] مردودة على [نودى] نودى أنّا اخترناك، «3» وإنّا اخترناك فإذا كسرها استأنفها «4».

وقوله: وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي [14] ويقرأ: (لذكرا) بالألف فمن قال (ذكرا) فجعلها بالألف كان على جهة «5» الذكرى. وإن شئت جعلتها ياء إضافة حوّلت ألفا لرءوس الآيات كما قال الشاعر:

أطوّف ما أطوّف ثم آوى إلى امّا ويروينى النقيع «6»

والعرب تقول بأبا وأمّا يريدون: بأبى وأمّي. ومثله (يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ «7») وإن شئت جعلتها ياء»

إضافة وإن شئت ياء»

ندبة و(يا «10» حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) [قوله: أَكادُ أُخْفِيها [15]

قرأت القراء (أَكادُ أُخْفِيها) بالضمّ. وفى قراءة أبيّ (إن السّاعة آتية أكاد أخفيها من نفسى

فكيف أظهركم عليها) وقرأ سعيد بن جبير (أخفيها) بفتح الألف حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدّثنا الفراء قال حدثنى الكسائي عن محمد بن سهل عن وقاء عن سعيد بن جبير أنه قرأ (أخفيها) بفتح الألف من خفيت . وخفيت : أظهرت وخفيت : سترت .

قال الفراء قال الكسائي والفقهاء يقولون «11» . قال الشاعر «12» :

---

(1) الضم مع التنوين لابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف . وقرأ الباقون بالضم بلا تنوين . وهذا غير من سبق لهم الكسر .

(2) ش : «وأبو زكريا» وهو الفراء . [. . . . .]

(3) هذه قراءة حمزة بفتح الهمزة .

(4) ا : «إذا» والكسر قراءة السلمى وابن هرمز كما فى البحر 6/ . 231

(5) ا : «وجه» .

(6) النقيع : المحض من اللبن يبرد .

(7) الآية 31 سورة المائدة .

(8 و9) أي الياء فى الأصل قبل قلبها ألفا . وقبله «ياء ندبة» الأولى : ألف ندبة .

(10) الآية 56 سورة الزمر .

(11) ما بعده فى ا مطموس لم أتمكن من قراءته.

(12) هو امرؤ القيس بن عابس الكندي. كما فى اللسان.

(52/493)

فإن تدفنوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

يريد لا نظهره.

وقوله: فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها [16] يريد الإيمان ويقال عن السّاعة: عن إتيانها. وجاز أن تقول:

عنها وأنت تريد الإيمان كما قال (ثُمَّ «1» إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا) ثم قال (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) يذهب إلى الفعلة.

وقوله: وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى [17] يعنى عصاه. ومعنى (تِلْكَ) هذه.

وقوله: (بِيَمِينِكَ) فى مذهب صلة لتلك لأن تلك وهذه توصلان كما توصل الذي قال الشاعر «2».

عدش ما لعبّاد عليك إمارة أمنت وهذا تحملين طليق

وعدس «3» زجر للبغل يريد الذي تحملين طليق.

وقوله : وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي [18] أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه «4» (وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى) يعنى حوائج «5» جعل أخرى نعتا للمآرب وهى جمع . ولو قال : أخر ، جاز كما قال اللّه (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) ومثله (وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) .

وقوله . سِيرَتَهَا الْأُولى [21] أي طريقتها الأولى . يقول : يردّها عصا كما كانت .

---

(1) الآية 110 سورة النحل .

(2) هو يزيد بن مفرغ الحميرى . وكان هجا عباد بن زياد والى سجستان فسجنه فى العذاب فأمر الخليفة معاوية رضي اللّه عنه فأطلق ، وقدمت إليه بغلة ليركبها فقال قصيدة فيها هذا البيت . وقوله «أمنت» كتب فوقها فى ا :

«نجوت» وهى رواية أخرى . وانظر اللسان (عدس) .

(3) والمراد هنا البغلة إذ هو يخاطبها ويناديها .

(4) كذا . والأولى . غنمى .

(5) سقط فى ا . [. . . . .]

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾

وقوله: ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ . . . ﴾

الجَنَاح فى هذا الموضع من أسفل العَضد إلى الإبط .

وقوله: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أى بَرَص .

وقوله: ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ ، المعنى هى آية أخرى وهذه آية أخرى ، فلمَّا لم يأت بهى ولا بهذه قبل الآية اتَّصلت بالفعل فنُصبت .

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾

وقوله: ﴿ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى . . . ﴾

ولو قيل: الكُبَر كان صَوَاباً ، هى بمنزلة (الأسماء الحسنى) و (مآرب أخرى) .

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾

وقوله: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . . . ﴾

كانت فى لسانه رُتَّة .

﴿ هَارُونَ أَخِي ﴾

وقوله: ﴿ هَارُونَ أَخِي . . . ﴾

إن شئت أوقعت (اجعل) على (هارون أخى) وجعلت الوزير فعلا له . وإن شئت جعلت (هارون أخى) مترجماً عن الوزير ، فيكون نصباً بالتكرير . وقد يجوز فى (هارون) الرفع على الائتناف لأنه مَعْرفة مفِسر لنكرة ؛ كما قال الشاعر :

فإن لها جَارين لن يَغدِرا بها * رَبيبُ النبىّ وابنُ خير الخَلائِق

﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾

وقوله: ﴿ اشْدُدْ بِهِ . . . ﴾

دعاء : (اشدُدْ به) ياربّ (أَزْرى وأشركه) يارب (فى أمرى) . دعاء من موسَى وهى فى إحدى القراءتين ﴿ أَشْدُدْ بِهِ أزْرِى وأُشْرِكْه فى أَمرى ﴾ بضم الألف . وذكر عن الحسن ﴿ أَشْدُدْ به ﴾ جزاء للدعاء لقوله ﴿ اجعل لى ﴾ ﴿ وأُشْرِكه ﴾ بضم الألف فى (أشركه) لأنها فعل لموسى .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى . . . ﴾

قبل هذه . وهو ما لطف له إذْ وقع إلى فرعون فحببَّه إليهم حتَّى غَذَوه . فتلكَ المنَّة الأخرى (مع هذه الآية) .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ

بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾

وقد فسّره إذ قال: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى . . . ﴾

(55/493)

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ثم قال: ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ هو جزاء أخرج مُخرج الأمر كأن البحر أُمر . وهو مثل قوله: ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ ﴾ المعنى . وَالله أعلَم: اتبعُوا سبيلنا نحمل عنكم خطاياكم . وكذلك وعدها الله: ألقيه فى البحر يُلْقِه اليمّ بالسّاحل . فذكر أن البحر ألقاه إلى مَشْرَعة آل فرعون ، فاحتمله جواريه إلى مرأته .

وقوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ حُبّب إلَى (كلّ من رآه) .

وقوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . . . ﴾

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ . . . ﴾

ذكر المشى وحده ، ولم يذكر أنها مشت حتّى دخلت عَلى آل فرعون فدلّتهم على الظِّئر

وهذا فى التنزيل كثير مثله قوله: ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ ﴾ ولم يقل فأُرسل فدَخَل فقال يوسف . وهو من كلام العرب: أن تجتزئ (بحذف كثير) من الكلام وبقليله إذا كان المعنى معروفاً .

وقوله: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ ابتليناك بالغم: غمّ القتل ابتلاء .

وقوله: ﴿ عَلَى قَدَرٍ يامُوسَى ﴾ يريد على ما أراد الله من تكليمه .

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾

وقوله: ﴿ وَلاَ تَنِيَا . . . ﴾

يريد : ولا تضعُفا ولا تفترُا عن ذكرى وفى ذكرى سواء .

﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

وقوله: ﴿ قَوْلاً لَّيِّناً . . . ﴾

حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى محمد بن أبان القرشىّ قال: كَنَّياهُ . قال محمد بن أبان قال يكنى: أبا مُرّة ، قال الفراء . ويقال: أبو الوليد .

﴿ قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَى ﴾

وقوله: ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ . . . ﴾

و (يُفْرِط) يريد فى العجلة إلى عقوبتنا . والعرب تقول: فَرَطَ منه أمر . وأفرط: أسْرف ، وفَرَّط: توانى ونسى .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ . . . ﴾

ويجوز رَسُول ربك لأن الرسول قد يَكون للجمع وللاثنين والواحد . قال الشاعر:

أَلِكْنِى إليها وخير الرسو * ل أعلمهم بنواحى الخَبَرْ

أرَاد: الرُّسْلَ .

وقوله: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . . . ﴾

يريد: والسلامة على من اتّبَع الهدى ، ولِمن اتّبع الهدى سواء (قال أمر موسى أن يقول لفرعون والسلام على من اتَّبع الهدَى .)

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى . . . ﴾

دليل على معنى قوله: يَسْلم مَنِ اتَّبع الهدى .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾

وقوله: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى . . . ﴾

يكلِّم الاثنين ثم يجعل الخطاب لواحد ؛ لأن لكلام إنما يكون من الواحد لا من الجميع . ومثله مما جُعِل الفعل على اثنين وهو لواحدٍ .

قوله: ﴿ نسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وإنما نسيه واحد ألا ترى أنه قال لموسَى ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ ومثله ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ وإنما يخرج من المِلح .

وقوله: ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ [يقال: أعطى الذَكَر من الناس امرأة مثله من صِنفه ، والشاة شاة ، والثور بقرة .]

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾

وقوله: ﴿ ثُمَّ هَدَى . . . ﴾

ألهم الذكر المَأْتَى .

(57/493)

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

وقوله: ﴿ فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي . . . ﴾

رَبِّى أى لا ينساه و (رَبِّى) فى موضع رفع تضمر الهاء فى يَضِلّه (وَلَا يَنسَى) وتقول: أضللت

الشيء إذا ضاع؛ مثل الناقة والفرس وما انفلت منكَ. وإذا أخطأت الشيء الثابت موضعه مثل الدار والمكان قلت: ضلَلته وضلِلته لغتان ولاَ تقل أضللت ولا أضللته.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾

وقوله: ﴿ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى . . . ﴾

مختلفِ الألوان والطعوم.

﴿ كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَالِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَالِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى . . . ﴾

يقول: فى اختلاف ألوانه وطَعْمه آيات لذوى العقول. وتقول للرجل. إنه لذو نُهْيَة إذا كانَ ذا عقل.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

وقوله: ﴿ تَارَةً أُخْرَى . . . ﴾

مردودة على قوله ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ لا مردودة على (نُعِيدُكُمْ) لأن الأخرى والآخَر إنما يردّان على أمثالهما. تقول فى الكلام: اشتريت ناقةً وداراً وناقة أخرى فتكون (أخرى) مردودة على الناقة التى هى مثلها ولا يجوز أن (تكون مردودةً) على الدار. وكذلك قوله ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ كقوله ﴿ مِنْهَا أخْرجناكم، ونخرجكم بعد الموت (مرة أخرى) ﴾.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوًى ﴾

وقوله: ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً . . . ﴾

(58/493)

يَقول: اضرب بينَنا أجلا فضَرَب . وقوله: ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ و (سِوَى) وأكثر كلام العرب سَواء بالفتح والمدّ إذا كان فى معنى نَصْفٍ وعَدْلٍ فتحوه ومدّوه كقول الله ﴿ تعالوا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ والكسر والضمّ بالقصر عربيّان ولا يكونان إلا مقصورين وقد قرىء بهمَا :

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾

وقوله: ﴿ يَوْمُ الزِّينَةِ . . . ﴾

ذكر أنه جعل موعدهم يوم عيد ، ويقال: يوم سوق كانت تكون لهم يتزيَّنون فيها .

وقوله: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ يقول: إذا رأيت الناس يُحشرون من كل ناحيةٍ ضحىً فذلك الموعد . وموضع (أن) رفع تردّ على اليوم ، وخفضٌ ترد على الزينة أى يوم يحشر الناس .

﴿ قَالَ لَهُمْ مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾

وقوله: ﴿ فَيُسْحِتَكُم . . . ﴾

وسحت أكثر وهو الاسْتئصال: يستأصلكم بعذاب . وقال الفرزدق:

وعَض زمان يا بنَ مروانَ لم يَدعْ * من المال إلاّ مُسْحَتاً أو مُجَلَّف

والعرب تقول سَحَتَ وأسْحَت بمعنى واحد . قال: قيل للفراء: إن بعض الرواة يقول: ما به من المال إلا مُسْحَت أو مجلّف:

قال ليس هذا بشيء حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى . أبو جعفر الرؤاسىّ عن أبى عمرو بن العلاء قال: مرّ الفرزدق بعبد الله بن أبى إسحاق الحضرمىّ النحوىّ فأنشده هذه القصيدة .

عَزَفتَ بأعشاش وما كدت تعزِف * حتى انتهى على هذا البيت . . .

وعَضُّ زمان يا بن مروان لَم يَدَعْ * من المال إلاّ مُسْحَت أو مُجَلَّف

فقال عبد الله للفرزدق: علام رفعت ؟ فقال له الفرزدق: على ما يسوءك .

﴿ فَتَنَازَعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى ﴾

وقوله: ﴿ فَتَنَازَعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ . . . ﴾

يعنى السَحَرة قال بعضهم لبعض: إن غلَبَنا موسَى اتَّبعناه وأسرُّوها من فرعون وأصحابه .

﴿ قَالُواْ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾

وقوله: ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ . . . ﴾

قد اختلف فيه القراء فقال بعضهم: هو لحن ولكنا نمضى عليه لئلاّ نخالف الكتاب.

حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى أبو معاوية الضرير عَنْ هاشم بن عُروة بن الزُبَير عن أَبيه عن عَائِشة أَنها سُئِلت عن قوله فى النساء ﴿ لَكِنِ الراسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهمْ . . . . والمُقِيمِينَ الصلاةَ ﴾ وعن قوله فى المائدة ﴿ إِنَ الذِينَ آمَنوا والّذِين هَادُوا والصَّابِئُونَ ﴾ وعن قوله ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ فقالت: يا بن أَخى هذا كان خطأ من الكاتب. وقرأ أَبو عمرو ﴿ إِنَّ هَذَيْنِ لَساحِرَانِ ﴾ واحتجّ أَنه بلغه عن بعض أَصحاب محمد صَلى الله عَليه وسَلم أنه قال: إن فى المصحف لَحْناً وستقيمه العرب.

قال الفراء: ولست أشتهى على (أن أخالف الكتاب وقرأ بعضهم (إِنْ هَذَانِ لساحران)

خفيفة «1» وفى قراءة عبد اللّه : (وأسروا النجوى أن هذان ساحران) وفى قراءة أبىّ (إن ذان إلّا ساحران) فقراءتنا «2» بتشديد (إنّ) وبالألف على جهتين .

إحداهما على لغة بنى الحارث بن كعب : يجعلون الاثنين فى رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف .

وأنشدنى رجل من الأسد عنهم . يريد بنى الحارث :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساغا لناباه الشجاع لصمّما «3»

قال : وما رأيت أفصح من هذا الأسدىّ وحكى هذا الرجل عنهم : هذا خطّ يدا أخى بعينه .

وذلك - وإن كان قليلا - أقيس لأنّ العرب قالوا : مسلمون فجعلوا الواو تابعة للضمّة (لأن الواو «4» لا تعرب) ثم قالوا : رأيت المسلمين فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم . فلمّا رأوا أن «5» الياء من الاثنين لا يمكنهم كسر ما قبلها ، وثبت مفتوحا : تركوا الألف تتبعه ، فقالوا : رجلان فى كل حال .

وقد اجتمعت العرب على إثبات الألف فى كلا الرجلين فى الرفع والنصب والخفض وهما اثنان ، إلّا بنى كنانة فإنهم يقولون : رأيت كلى الرجلين ومررت بكلى الرجلين . وهى قبيحة قليلة ، مضوا على القياس .

والوجه الآخر أن تقول : وجدت الألف (من «6» هذا دعامة وليست بلام فعل ، فلمّا

ثنّيت زدت عليها نونا ثم تركت الألف) ثابتة على حالها لا تزول على «7» كلّ حال كما قالت العرب (الذي) ثم زادوا نونا تدلّ على الجماع، فقالوا: الذين فى رفعهم ونصبهم وخفضهم كما تركوا (هذان) فى رفعه ونصبه وخفضه. وكنانة يقولون (اللّذون).

---

(1) سقط فى ا.

(2) هى قراءة نافع وابن عامر وأبى بكر وحمزة والكسائي وأبى جعفر ويعقوب وخلف.

(3) هو للمتلمس كما فى اللسان (صمم) والشجاع: الذكر من الحيات. وصمم: عض فى العظم.

(4) هى قراءة نافع وابن عامر وأبى بكر وحمزة والكسائي وأبى جعفر ويعقوب وخلف.

(5) سقط فى ا. [.....]

(6) سقط ما بين القوسين فى ا.

(7) ا: «فى».

(60/493)

وقوله: وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى [63] الطريقة: الرجال الأشراف وقوله (المثلى) يريد الأمثل «1» يذهبون بأشرافكم فقال المثلى ولم يقل المثل مثل (الْأَسْماءُ الْحُسْنى) وإن

شئت جعلت (المثلى) مؤنّثة لتأنيث الطريقة . والعرب تقول للقوم : هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم : أشرافهم ، وقوله (كُنَّا طَرَائِقَ «2» قِدَداً) من ذلك . ويقولون للواحد أيضا : هذا طريقة قومه ونظورة قومه وبعضهم : ونظيرة قومه ، ويقولون للجمع بالتوحيد والجمع : هؤلاء نظورة قومهم ونظائر قومهم .

وقوله : فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ [64] الإجماع : الإحكام والعزيمة على 113 ا الشيء . تقول أجمعت الخروج وعلى الخروج مثل أزمعت قال الشاعر :

يا ليت شعرى والمنى لا تنفع هل أغدون يوما وأمرى مجمع

يريد قد أحكم وعزم عليه . ومن «3» قرأ (فاجمعوا) يقول : لا تتركوا من كيدكم شيئا إلّا جئتم به .

وقوله (مَنِ اسْتَعْلى) من غلب .

وقوله : إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى [65] و(أن) فى موضع نصب .

والمعنى اختر إحدى هاتين . ولو رفع إذ لم يظهر الفعل كان صوابا ، كأنه خبر ، كقول الشاعر :

فسيرا فإمّا حاجة تقضيانها وإمّا مقيل صالح وصديق

ولو رفع قوله (فإمّا منّ «4» بعد وإمّا فداء) كان أيضا صوابا . ومذهبه كمذهب قوله (فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ «5» أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ) والنصب فى قوله (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ) وفى قوله

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً)

---

(1) فى الطبري : «تأنيث الأمثل» .

(2) الآية 11 سورة الجن .

(3) ا : «تدعوا» .

(4) التلاوة «فإما منا بعد وإما فداء» فى الآية 4 سورة محمد .

(5) الآية 229 سورة البقرة .

(61/493)

أجود من الرفع لأنه شىء ليس بعامّ مثل ما ترى من معنى قوله (فَإِمْساكٌ) و(فَصِيامُ «1» ثَلاثَةِ أَيَّامٍ) لمّا كان المعنى يعمّ الناس فى الإمساك بالمعروف وفى صيام الثلاثة الأيام فى كفّارة اليمين كان كالجزاء فرفع لذلك . والاختيار إنما هى فعلة واحدة ، ومعنى (أفلح) عاش ونجا .

وقوله : يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى [66] (أنّها) فى موضع رفع . ومن قرأ (تخيّل) أو (تخيّل) فإنها فى موضع نصب لأن المعنى تتخيل بالسعي لهم وتخيّل كذلك ، فإذا ألقيت الباء نصبت كما تقول : أردت بأن أقوم ومعناه : أردت القيام ، فإذا ألقيت الباء نصبت .

قال اللّه (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ «2») ولو ألقيت الباء نصبت فقلت : ومن يرد فيه إلحادا بظلم .

وقوله : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى [67] أحسّ ووجد .

وقوله : إِنَّما صَنَعُوا كيد سحر [69] جعلت (ما) فى مذهب الذي : إن الذي صنعوا كيد سحر ، وقد قرأه «3» بعضهم (كَيْدُ ساحِرٍ) وكلّ صواب ، ولو نصبت (كيد سحر) كان صوابا ، وجعلت (إنما) حرفا واحدا كقوله (إِنَّما تَعْبُدُونَ «4» مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً) .

وقوله : (وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى) جاء فى التفسير أنه يقتل حيثما وجد .

وقوله : فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ [71] ويصلح فى مثله من الكلام عن وعلى والباء .

وقوله (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) يصلح (على) فى موضع (فى) وإنما صلحت (فى) لأنّه يرفع فى الخشبة فى طولها فصلحت (فى) وصلحت (على) لأنه يرفع فيها فيصير عليها ، وقد

---

(1) الآية 196 سورة البقرة والآية 89 سورة المائدة .

(2) الآية 25 سورة الحج .

(3) القراءة الأولى لحمزة والكسائي وخلف . والأخيرة للباقين .

(4) الآية 17 سورة العنكبوت .

قال اللّه (وَاتَّبَعُوا «1» ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ) ومعناه فى ملك سليمان .

وقوله (أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى) يقول : وأدوم .

وقوله : لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا [72] فالذى «2» فى موضع خفض :

وعلى الذي . ولو أرادوا بقولهم (وَالَّذِي فَطَرَنا) القسم بها كانت خفضا وكان صوابا ، كأنهم قالوا :

لن نؤثرك واللّه .

وقوله (فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ) : افعل ما شئت . وقوله (إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا) إنما حرف واحد ، لذلك نصبت (الحياة) ولو قرأ قارئ برفع (الحياة) لجاز ، يجعل (ما) فى مذهب الذي كأنه قال : إن الذي تقضيه هذه الدنيا .

وقوله : وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ [73] ما فى موضع نصب مردودة «3» على معنى الخطايا . وذكر فى التفسير أن فرعون كان أكره السّحرة 113 ب على تعلّم السّحر «4» .

وقوله: لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى [77] رفع على الاستئناف بلا كما قال (وَأْمُرْ أَهْلَكَ «5» بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً) وأكثر ما جاء فى جواب الأمر بالرفع مع لا. وقد قرأ حمزة (لا تخف دركا) فجزم على الجزاء ورفع (ولا تخشى) على الاستئناف، كما قال (يُوَلُّوكُمُ «6» الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ) فاستأنف «7» بثمّ، فهذا مثله. ولو نوى حمزة بقوله (وَلا تَخْشى) الجزم وإن كانت فيه الياء كان صوابا كما قال الشاعر:

هزّى إليك الجذع يجنيك الجنى «8»

---

(1) الآية 102 سورة البقرة.

(2) ا: «والذي».

(3) ا: «مردود»: [. . . . .]

(4) ا: «تعليم».

(5) الآية 132 سورة طه.

(6) الآية 111 سورة آل عمران.

(7) ا: «استأنف».

(8) انظر ص 161 من الجزء الأول.

ولم يقل : يجنك الجنى . وقال الآخر «1» :

هجوت زبّان ثمّ جئت معتذرا من سبّ زبّان لم تهجو ولم تدع «2»

وقال الآخر «3» :

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد «4»

فأثبت فى (يأتيك) الياء وهى فى موضع جزم لسكونها فجاز «5» ذلك .

وقوله : فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي [81] الكسر فيه أحبّ إلىّ «6» من الضم لأن الحلول ما وقع من يحلّ ، ويحلّ : يجب ، وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع . وكلّ صواب إن شاء اللّه . والكسائىّ جعله على الوقوع وهى فى قراءة الفرّاء بالضمّ مثل الكسائىّ سئل عنه فقاله ، وفى قراءة «7» عبد اللّه أو أبيّ (إن شاء اللّه) (ولا يحلّنّ عليكم غضبى ومن يحلل عليه) مضمومة . وأمّا قوله (أَمْ أَرَدْتُمْ «8» أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ) فهى مكسورة . وهى مثل الماضيتين ، ولو ضمّت كان صوابا فإذا قلت حلّ بهم العذاب كانت يحلّ بالضم لا غير ، فإذا قلت : على أو قلت يحلّ لك كذا وكذا فهو بالكسر .

وقوله : ثُمَّ اهْتَدى [82] : علم أن لذلك ثوابا وعقابا .

وقوله : قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي [84] وقد قرأ بعض القراء (أولاى على أثرى) بترك

(1) ا : «آخر» .

(2) الشعر لأبى عمرو بن العلاء وهو زبان . يخاطب الفرزدق وكان هجاه ثم اعتذر إليه . وانظر معجم الأدباء 11/ 158 . وانظر ص 162 من الجزء الأول .

(3) ا : «آخر» .

(4) هو لقيس بن زهير العبسي . وانظر ص 161 من الجزء الأول .

(5) ا : «جاز» .

(6) سقط فى ا .

(7) ا : «حرف» .

(8) الآية 86 سورة طه .

(64/493)

الهمز ، وشبّهت بالإضافة إذا ترك الهمز ، كما قرأ يحيى بن وثاب (ملّة آباى «1» إبراهيم) (وتقبّل «2» دعاى ربّنا) .

وقوله : ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا [87] برفع الميم . (هذا قراءة القراء) ولو قرئت بِمَلْكِنا (وملكنا «3») كان صوابا . ومعنى (ملكنا) فى التفسير أنا لم نملك الصّواب إنما أخطأنا .

وقوله (وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ) يعنى ما أخذوا من قوم فرعون حين قذفهم البحر من الذهب والفضّة والحديد ، فألقيناه فى النار . فكذلك فعل السّامرىّ فاتّبعناه . فلما خلصت فضّة ما ألقوا وذهبه صوّره السّامرىّ عجلا وكان قد أخذ قبضة من أثر فرس كانت تحت جبريل (قال «4» السّامرىّ لموسى «5» : قذف فى نفسى أنى إن ألقيت تلك القبضة على ميّت حيى ، فألقى تلك القبضة فى أنف الثور وفى دبره فحيى وخار) قال الفراء : وفى تفسير الكلبىّ أن الفرس كانت الحياة فذاك قوله (وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) يقول زيّنته لى نفسى .

ومن قرأ بملكنا بكسر الميم فهو الملك يملكه الرجل تقول لكل شىء ملكته : هذا ملك يمينى للمملوك وغيره مما ملك والملك مصدر ملكته ملكا وملكة : مثل غلبته غلبا وغلبة . والملك السّلطان وبعض بنى أسد يقول مالى ملك ، يقول : مالى شىء أملكه وملك الطريق وملكه : وجهه «6» .

قال الشاعر :

أقامت على ملك الطريق فملكه لها ولمنكوب المطايا جوانبه «7»

---

(1) الآية 38 سورة يوسف . [. . . . .]

(2) الآية 40 سورة ابراهيم .

(3) ا : «بكسر الميم وفتح الميم» .

(4) ما بين القوسين جاء فى ا بعد قوله . «كانت الحياة» .

(5) سقط فى ا .

(6) فى اللسان : «وسطه» .

(7) يصف ناقة أنها تمشى فى وسط الطريق ، وأن غيرها من المطايا يمشى فى جانبه لما أصابها من الحجارة والحصى فى أخفافها . والمنكوب ما أصاب الحجر رجله وظفره .

(65/493)

ويقال «1» مع ملك الطريق : فملكه . أقامت على عظم الطريق وعلى سجح الطريق وعلى سننه وسننه :

وقوله : فَنَسِيَ [88] يعنى أن موسى نسى : أخطأ الطريق فأبطأ عنهم فاتّخذوا العجل فعيّرهم اللّه فقال . أفلا يرون أن العجل لا يتكلّم ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

وقوله : فَقَبَضْتُ قَبْضَةً [96] القبضة بالكف «2» كلّها . والقبضة بأطراف الأصابع .

وقرأ الحسن قبصة بالصاد والقبصة والقبضة جميعا «3» : اسم التراب بعينه فلو قرئتا كان وجها : ومثله ممّا قد قرئ به (إلّا من «4» اغترف غرفة بيده) و(غرفة) . والغرفة : المغروف ، والغرفة : الفعلة . وكذلك الحسوة والحسوة والخطوة والخطوة والأكلة والأكلة .

والأكلة المأكول «5» والأكلة المرّة. والخطوة ما بين القدمين فى المشي، والخطوة: المرّة. وما كان مكسورا فهو مصدر مثل إنه لحسن المشية والجلسة والقعدة.

وقوله: فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ [97] أي لا أمسّ ولا أمس، أوّل ذلك أن موسى أمرهم ألّا يؤاكلوه ولا يخالطوه ولا يبايعوه. وتقرأ (لا مساس) وهى لغة فاشية: لا مساس لا مساس مثل نزال ونظار من الانتظار. وقوله (الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً) و(ظَلْتَ) «6» و(فَظَلْتُمْ «7» تَفَكَّهُونَ) و(فَظَلْتُمْ) إنما جاز الفتح والكسر لأن معناهما ظللتم، فحذفت اللام الأولى: فمن كسر الظاء جعل كسرة اللام الساقطة فى الظاء. ومن فتح الظاء قال: كانت مفتوحة فتركتها على فتحها.

---

(1) الظاهر أنه يريد أن فى البيت رواية أخرى بكسر الميم. وفى ش: وملكه».

(2) ش: «فى الكف».

(3) سقط فى: ا

(4) الآية 249 سورة البقرة. وقراءة فتح (غرفة) لنافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر. والضم للباقين.

(5) ا: «الطعام».

(6) الكسر رواية المطوعى عن الأعمش.

(7) الآية 65 سورة الوقعة. وقد قرأ، بالكسر أبو حيوة، وجاء فى رواية عن أبى بكر كما فى البحر 8/ 211

(66/493)

ومثله مسست ومسست تقول العرب قد مست ذلك ومسته، وهممت بذلك وهمت، ووددت ووددت «1» كذا فى ب أنك فعلت ذاك، وهل أحسست صاحبك وهل أحست.

وقوله (لَنُحَرِّقَنَّهُ) بالنار و(لَنُحَرِّقَنَّهُ) «2» لنبردنّه بالحديد بردا من حرقت أحرقه وأحرقه لغتان. وأنشدنى المفضل:

بذي فرقين يوم بنو حبيب نيوبهم علينا يحرقونا «3»

حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى حبّان بن علىّ عن الكلبىّ عن أبى صالح أن علىّ بن أبى طالب قال (لَنُحَرِّقَنَّهُ) لنبردنّه.

وقوله: يَوْمَئِذٍ زُرْقاً [102] يقال نحشرهم عطاشا ويقال نحشرهم عميا.

وقوله: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ [102] التخافت: الكلام المخفي.

وقوله أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً [104] أجودهم قولا فى نفسه وعندهم (إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً) وكذب.

وقوله : يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً [105] يقلعها .

وقوله : قاعاً صَفْصَفاً [106] القاع مستنقع الماء والصفصف الأملس الذي لا نبات فيه .

وقوله : وَلا أَمْتاً [107] الأمت : موضع النبك من الأرض : ما ارتفع «4» منها ويقال : مسايل الأودية (غير «5» مهموز) ما نسّفل وقد سمعت العرب يقولون : ملأ القربة ملأ لا أمت فيها إذا لم يكن فيها استرخاء . ويقال سرنا سيرا لا أمت فيه ولا وهن «6» فيه ولا ضعف .

---

(1) لم يذكر الصيغة بعد الحذف . وهى : ودت ، ودت . [. . . . .]

(2) هى رواية عن أبى جعفر وقراءة الأعمش .

(3) هو لعامر بن شقيق الضبي كما فى اللسان (حرق) . فى ا : «بنى حبيب» . وذو فرقين : موضع . وفى ياقوت أنه علم بشمالى قطر .

(4) هذا تفسير للنبك .

(5) سقط فى ا . وهو يريد أن مسايل غير مهموز وليس مسائل .

(6) ب . «ونى» .

وقوله : يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ [108] يتّبعون صوت الداعي للحشر (لا عِوَجَ لَهُ) يقول لا عوج لهم عن الداعي فجاز أن يقول (لَهُ) لأن المذهب إلى الداعي وصوته . وهو كما تقول فى الكلام :

دعوتنى دعوة لا عوج لك عنها أي إنّى لا أعوج لك ولا عنك .

وقوله : (إِلَّا هَمْساً) يقال : نقل الأقدام إلى المحشر . ويقال : إنه الصّوت الخفىّ . وذكر عن 114 ب ابن عباس أنّه تمثّل :

وهنّ يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير ننك لميسا

فهذا «1» صوت أخفاف الإبل فى سيرها .

وقوله : يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ [109] (من) فى موضع نصب لا تنفع إلا من أذن له أن يشفع فيه .

وقوله : (وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) كقولك «2» : ورضى منه عمله وقد يقول الرجل . قد رضيت لك عملك ورضيته منك .

وقوله : يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ [110] يعنى ملائكته الذين عبدهم من عبدهم . فقال :

هم «3» لا يعلمون ما بين أيديهم وما خلفهم ، هو الذي يعلمه . فذلك قوله : (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) .

وقوله : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ [111] .

يقال نصبت له وعملت له وذكر أيضا أنه وضع المسلم يديه وجبهته وركبتيه إذا سجد وركع وهو فى معنى العربيّة أن يقول الرجل عنوت لك : خضعت لك وأطعتك . ويقال الأرض لم تعن بشىء أي لم تنبت شيئا ، ويقال : لم تعن بشىء والمعنى واحد كما قيل : حثوت عليه «4» التراب وحثيت

---

(1) ا : «وهو» .

(2) ا : «كذلك» .

(3) ا : «فهم» .

(4) ا : «عليك» .

التراب . والعنوة فى قول العرب : أخذت هذا الشيء عنوة يكون غلبة ويكون عن تسليم وطاعة ممّن يؤخذ منه الشيء قال الشاعر «1» .

فما أخذوها عنوة عن مودّة ولكن بضرب المشرفىّ استقالها

فهذا على معنى الطاعة والتسليم بلا قتال .

وقوله : فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً [112] تقول العرب : هضمت لك من حقّى أي حططته ، وجاء عن على بن أبى طالب فى يوم الجمل أنه قيل له «2» أهضم أم قصاص قال : ما عمل به فهو تحت قدىّ هاتين فجعله هدرا وهو النقص .

وقوله : أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً [113] . شرفا وهو مثل قول اللّه (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) أي شرف ويقال (أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) عذابا أي يتذكرون حلول العذاب الذي وعدوه .

وقوله : وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ [114] كان صلّى اللّه عليه وسلم إذا أتاه جبريل بالوحى عجل بقراءته قبل أن يستتمّ جبريل تلاوته ، فأمر ألّا يعجل حتى يستتمّ جبريل تلاوته ، وقوله (فَنَسِيَ) ترك ما أمر به .

وقوله : وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [115] صريمة ولا حزما فيما فعل .

وقوله : فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى [87] ولم يقل : فتشقيا لأنّ آدم هو المخاطب ، وفى فعله اكتفاء من فعل المرأة . ومثله قوله فى ق (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ «3») اكتفى «4» بالقعيد من صاحبه لأن المعنى معروف . ومعنى (فَتَشْقى) تأكل من كدّ يدك وعملك .

---

(1) هو كثير كما فى اللسان . وفيه : «ولكن ضرب المشرفي» .

(2) سقط فى ا .

(3) الآية 17 سورة ق .

(4) والأصل : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف أحدهما . والمنقول عن الفراء فى البحر 8/ 123 أن لفظ (قعيد) يدل على الاثنين والجمع . فلا حذف .

(69/493)

وقوله : إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها [118] أن فيها فى موضع نصب لأنّ إن وليت ولعلّ إذا ولين صفة نصبت «1» ما بعدها فأنّ من ذلك .

وقوله : وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها [119] . نصب أيضا . ومن «2» قرأ (وإنّك لا تظمأ) جعله مردودا على قوله (إنّ) التي قبل (لك) ويجوز أن تستأنفها فتكسرها بغير عطف على شىء ولو جعلت (وأنّك لا تظمأ) بالفتح مستأنفة تنوى بها الرفع على قولك ولك أنك لا تظمأ فيها ولا تضحى كان صوابا .

وقوله : (وَلا تَضْحى) : لا تصيبك شمس مؤذية وذكر فى بعض التفسير (وَلا تَضْحى) : لا تعرق والأول أشبه بالصواب «3» قال الشاعر :

رأت رجلا أمّا إذا الشمس أعرضت فيضحى وأمّا بالعشي فيخصر

فقد بيّن . ويقال : ضحيت .

وقوله : وَطَفِقا يَخْصِفانِ [121] هو فى العربية : أقبلا يخصفان وجعلا يخصفان .

وكذلك قوله (فَطَفِقَ «4» مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ) (وقيل «5» ههنا) : جعلا يلصقان عليهما ورق التين وهو يتهافت عنهما .

وقوله : ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ «6» [122] ، اختاره (فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى) أي هداه للتوبة .

وقوله : (مَعِيشَةً ضَنْكاً) [124] والضّنك : الضّيّقة الشديدة .

وقوله : (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى) أعمى عن الحجّة ، ويقال : إنه يخرج من قبره بصيرا فيعمى فى حشره .

---

(1) ا : «نصب» . [. . . . .]

(2) هما نافع وأبو بكر .

(3) هو عمر بن أبى ربيعة . وانظر ديوانه (شرح الشيخ محيى الدين) 94 .

(4) الآية 33 سورة ص .

(5) سقط فى ا .

(6) الآية 193 سورة الأعراف .

وقوله : (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ [128] يبيّن لهم إذا نظروا (كَمْ أَهْلَكْنا) و(كم) فى موضع نصب لا يكون غيره . ومثله فى الكلام : أو لم يبيّن لك من يعمل خيرا يجز به ، فجملة الكلام فيها معنى رفع . ومثله أن تقول : قد تبيّن لى أقام عبد اللّه أم زيد ، فى الاستفهام معنى رفع . وكذلك قوله :

(سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ) فيه شىء برفع (سَواءٌ عَلَيْكُمْ) ، لا يظهر مع الاستفهام .

ولو قلت : سواء عليكم صمتكم ودعاؤكم تبيّن الرّفع الذي فى الجملة .

وقوله : يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ) يعنى أهل مكّة . وكانوا يتّجرون ويسيرن فى مساكن عاد وثمود ، فيمرون فيها . فالمشى لكفّار أهل مكّة (والمساكن «1») للمهلكين . فقال : أفلم يخافوا أن يقع بهم ما وقع بالذين رأوا مساكنهم وآثار عذابهم .

وقوله : (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى [129] يريد : ولولا كلمة وأجل مسمّى لكان لزاما (مقدّم «2» ومؤخّر) وهو - فيما ذكروا - ما نزل «3» بهم فى وقعة بدر من القتل .

وقوله : وَأَطْرافَ النَّهارِ [130] وإنما للنهار طرفان فقال المفسّرون : (وَأَطْرافَ النَّهارِ) صلاة الفجر والظهر والعصر (وهو) «4» وجه : أن تجعل الظهر والعصر من طرف النهار الآخر ، ثم يضمّ إليهما الفجر فتكون أطرافا . ويكون لصلاتين فيجوز «5» ذلك : أن يكونا

طرفين فيخرجا مخرج الجماع، كما قال (إِنْ تَتُوبا «6» إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما) وهو أحبّ الوجهين إلىّ، لأنه قال (وَأَقِمِ الصَّلاةَ «7» طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ) وتنصب لأطراف بالردّ على قبل طلوع الشمس وقبل

---

(1) ا: «لا».

(2) سقط فى ا.

(3) ش: «وقعة بدر ما نزل بهم فى وقعة بدر» وهو جمع بين نسخين.

(4) ا: «فهو».

(5) ا: «ويجوز».

(6) الآية 5 سورة التحريم.

(7) الآية 114 سورة هود.

(71/493)

الغروب. وإن شئت خفضت أطراف تريد وسبّحه من الليل ومن أطراف النهار، ولم أسمعها «1» فى القراءة، ولكنها مثل قوله (وَمِنَ اللَّيْلِ «2» فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ) (وإدبار السجود) وقرأ حمزة «3» وإدبار السجود. ويجوز فى الألف الفتح والكسر ولا

يحسن كسر الألف إلّا فى القراءة .

وقوله (لَعَلَّكَ تَرْضى) و(ترضى) ومعناهما واحد لأنك إذا رضيت فقد أرضيت . وكان حمزة وأصحاب عبد اللّه يقرءونها ترضى . حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى أبو بكر وأخوه الحسن بن عيّاش عن عاصم عن أبى عبد الرحمن أنه قرأ لعلك (ترضى بضم التاء) .

وقوله : وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ [131] يريد : رجالا منهم .

وقوله (زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا) نصبت الزهرة على الفعل «4» متعناهم به زهرة فى/ 115 ب الحياة وزينة فيها . و(زهرة) وإن كان معرفة فإن العرب تقول : مررت به الشريف الكريم . وأنشدنى بعض بنى فقعس :

أبعد الذي بالسّفح سفح كواكب رهينة رمس من تراب وجندل «5»

فنصب الرهينة بالفعل ، وإنما وقع على الاسم الذي هو الرهينة خافض فهذا أضعف من (متّعنا) وأشباهه .

وقوله : لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً [132] . أجرا على ذلك . وكذلك قوله (وَرِزْقُ «6» رَبِّكَ) يريد :

وثواب ربك .

---

(1) رويت عن الحسن كما فى الإتحاف .

(2) الآية 40 سورة ق. قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو جعفر وخلف بكسر الهمزة وافقهم ابن محيصن والأعمش. وقرأ الباقون بفتح الهمزة. وظاهر كلام المؤلف أن بعضهم قرأ بخفض الراء عطفا على (الليل) ولم أقف عليه. [. . . . .]

(3) سقط ما بين القوسين فى ا.

(4) يريد أنها نصبت على الحال.

(5) كواكب: جبل. والرمس: القبر.

(6) فى الآية 131 سورة طه.

(72/493)

وقوله: أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ [134] من قبل الرسول (لَقالُوا) كيف أهلكنا من قبل أن أرسل إلينا رسول. فالهاء لمحمّد صلّى اللّه عليه وسلم. ويقال إن الهاء للتنزيل. وكلّ صواب وقوله: فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى [135] من ومن فى موضع رفع.

وكلّ ما كان فى القرآن مثله فهو مرفوع إذا كان بعده رافع مثل قوله (فَسَتَعْلَمُونَ «1» مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) ومثله «2» «لِنَعْلَمَ «3» أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى» ومثله (أَعْلَمُ مَنْ «4»

جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) ولو نصب كان صوابا ، يكون بمنزلة قول اللّه (اللَّهُ يَعْلَمُ «5» الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) .

وقوله : (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ) الذين لم يضلّوا (وَمَنِ اهْتَدى) ممّن كان ضالا فهدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 174. 197 ﴾

---

(1) الآية 29 سورة الملك .

(2) سقط ما بين القوسين فى ا .

(3) الآية 12 سورة الكهف .

(4) الآية 85 سورة القصص .

(5) الآية 220 سورة البقرة .

(73/493)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة طه

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) [2] لتتعب بقيام جميع الليل . وقيل: لتحزن على قومك بأن لا يؤمنوا . (يعلم السر) [7] السر ما يسره العبد عن غيره . (وأخفى) ما يخطر بالبال ،

ويهجس في الصدر . (ءانست ناراً) [10] أبصرتها ، قال الفرزدق: 755- وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة في جذبها بالعصائب

756- إذا آنسوا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم نار غالب/ (طوى) [12] لم ينصرف للعجمة والتعريف ، [فإنه] اسم أعجمي [لواد] معروف ، (أكاد أخفيها) [15] أريد أخفيها . والمعنى: مقاربة كونها مع تبعيد العلم بوقتها . وقيل: في الكلام إضمار ، أي: أكاد أظهرها ، ثم قال: (أخفيها لتجزى كل نفس) ، وذلك لأن من الحكمة والمصلحة في التكليف إخفاء أمر الساعة ،

ليتوهم العبد صباح مساء فلا يفرط في التوبة ، قال البرجمي: 757- هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله . أي: وكدت أقتله . وعلى قول أبي عبيدة وقطرب: إن أخفيها : أظهرها ، لا يكون للتعليل ، وإن جاء أخفي بمعنى أظهر . قال عبدة بن الطبيب: 58- يخفي التراب بأظلاف ثمانية في أربه مسهن الأرض تحليل

أي: يظهر التراب ، ويستخرجه [بأظلافه] لشدة عدوه . ومنه الحديث: "لا قطع على المختفي" . والصحيح أن البيت يخفي التراب بفتح الياء ، كما في شعر امرئ القيس:

759- خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن [ودق] من عشي [مجلب] . (أتوكوا) [18] كاء عليه اعتمد .

(وأهش) أخبط الورق [للغنم] . (ولي فيها مآرب أخرى) قال ابن الأعرابي: العصا يكون مع [الراعي] ، [فيذود] بها غنمه ، ويطرد بها الذئب ، ويقابل بها الخارب ، ويهش بها على غنمه إذا [قل] المرعى ، ويأتي بها [البغيبغ] الذي لا تناله يده . –والبغيبغ: ماء قريب من اليد – فيشد صفنه بطرف العصا ، فيستقي ، ويتعب الراعي فيتكئ عليها ، فيزيل تعبه ، فيجعلها على كتده بين وايلتي كتفيه ، فيجعل بدنه/عليها ، ويمشي ، فكأنه محمول ، ثم يأتي منزله ، فيجعلها كالوتد ، فيعلق عليها ثيابه ، ثم ينكسر العصا ، فيجعل منه أوتاداً ، ثم يكسر الأوتاد فيجعل منها أخشة ، ثم تبلى الأخشة وتتكسر ، فيأخذ دقاقها فيجعل أخلة ، ثم يأخذ البواقي ، فيجعله توادي ، ثم تتفتت التوادي فتصير فتاتاً ، فيسمون ذلك الفتات أوقاصاً ، فإذا تعسرت النار واشتعالها ، قيل له: وقص على نارك ، فيلقي عليها من تلك الأوقاص ، فتشتعل حتى ترى لها [كالحية أي: لساناً] ، وأنشد على هذا:

760– أقسم بالبيت العتيق والصفا 761– أنك خير من تفاريق العصا . (ءاياتنا الكبرى) [23]

أراد الكبر ، كقوله في نعت مآرب ، (أخرى) ، والمراد أخر ، ولكن جرياً على نظام الآي .

وقيل: من آياتنا الآية الكبرى . (ولتصنع على عيني) [39] أي: بإرادتي ورعايتي .

(وفتناك فتوناً) [40] بلوناك بلاء ، بعد بلاء . وقيل: خلصناك تخليصاً . وأصله من فتنت

الذهب بالنار ، وذلك أن الله ابتلاه عند الولادة وبعدها ،

وحين البعثة بأنواع من البلاء ، فخلص منها خلوص الذهب من اللهب . (ثم جئت على قدر) [40] أي: موعد ومقدار للرسالة ، وهو أربعون سنة ، فبعدها يوحى إلى الأنبياء . (لعله يتذكر أو يخشى) [44] على رجاء الرسول ، لا المرسل ، إذ لو يئس الرسول من ذلك لم يصح الإرسال . وقيل: إن الكلام معدول عن [المرسل إليه] كأن القول: لعله يتذكر

(75/493)

متذكر عنه ، وما [حل] به ، ويكون لعله حينئذ للإيجاب . كما في قول الشاعر: 762- وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق/763- فلما كففناها وجدنا عهودكم كضاحي سراب بالملا متزقرق . (نخاف أن يفرط علينا) [45] يعجل بقتلنا . (أعطى كل شيء خلقه) [50] أي: صورته التي لا يشبهه فيها غيره . وقيل: إن المراد صورة الأنواع المحفوظة بعضها عن بعض ، فلا يكون على صورة نوع من حيوان نوع آخر . وقيل: أعطى كل شيء من الأعضاء خلقه ، فأدرك كل حاسة بإدراك ، وأنطق اللسان ، ومكن اليد من البطش ، والأعمال العجيبة ، والرجل من المشي . (خلق كل شيء فقدره تقديراً) . (ثم هدى) [50] للمعيشة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة . (قال فما بال القرون

الأولى) [51] وذلك أنه حذره البعث ، فقال: ما بال الأمم الخالية كيف يبعثون ؟ ومتى يبعثون وهم رمم بالية ؟ . (مكاناً سوى) [58] -بكسر السين ، وضمها- هو المكان النصف بين الفريقين ، تستوي مسافته عليهما . و(يوم الزينة) [59]

ارتفع [يوم لأنه خبر (موعدكم) . على أن الموعد اسم زمان الوعد أو مكانه ، ومن نصب] ، نصبه على الظرف للموعد ، وجعل الموعد حدثاً كالوعد ، أي: وعدكم في يوم الزينة ، لئلا يؤدي إلى إدخال الزمان في الزمان . (فيسحتكم) [61] يستأصلكم ، [سحت] وأسحت . (إن هذان لساحران) [63] قال أبو عمرو: إني لأستحي من الله أن أقرأ: "إن هذان" ، والقرآن أنزله بأفصح اللغات ، وكان يقرأ: إن هذين .

وأما خط المصحف: فقد روى عيسى بن عمر أن عثمان قال: أرى فيه لحناً ستقيمه العرب بألسنتها . وقرأ ابن كثير: "إن هذان" بجزم النون ، فيكون ارتفاع هذان على وجهين: أحدهما: أنها خفيفة من الثقيلة ، /فضعفت في نفسها فلم تعمل فيما بعدها ، فارتفع ما بعدها على الابتداء والخبر ، ودخل اللام الخبر للفرق بينها ، وبين "إن" التي هي نافية ، بمعنى [ما] .

(76/493)

والثاني: أنها بمعنى "ما" ، واللام في خبرها بمعنى "إلا" أي: "ما هذان إلا ساحران" كقوله: (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) أي: إلا فاسقين ، وقوله: (وإن نظنك لمن الكاذبين) . وأما القراءة المعروفة ، فيقال: إنها جاءت على لغة كنانة وبلحارث بن كعب ، وخثعم ، وزبيد ، ومراد ، وبني عذرة ، وجماعة من قبائل اليمن ،

فإن في لغاتها أن الثنية في الأحوال بالألف ، ولا يختلف إعرابها ، وأنشد : 764- إن أباها وأبا أباها 765- قد بلغا في المجد غايتاها . ويقال أيضاً "إن" بمعنى ["نعم" . وقيل: هو على حذف الهاء ، بمعنى "إنه"] كما قال عبد الله بن قيس: 766- بكرت علي عواذلي يلحينني وألومهنه 767- ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنه

إلا أن التعسف في القولين ظاهر ، لأن لام التوكيد يختص بخبر إن . والأوجه: ما قاله أبو علي -رحمه الله-: إن [هذان] ليس بتثنية "هذا" ، لأن هذا من أسماء الإشارة ، فلا يكون أبداً إلا معرفة ، والتثنية من خصائص النكرات كالجمع ، لأن واحداً أعرف من اثنين ، فلما [لم] يصح تنكير "هذا" لم يصح تثنية "هذا" من لفظه ، ألا ترى أن: أنت ، وهو ، وهي -لما كانت معارف- لم يثن على لفظها ، فلا يقال: أنتان ، وهوان ، وهيان . وإذا [مست] الحاجة إلى تثنيتها ، يصاغ لها أسماء مبنية لا [تختلف] أبداً على صورة الأسماء المثناة ، وهي: أنتما ، وهما . [فكذلك] صيغ لـ"هذا" عند التثنية [لفظ مخترع مبني] ، لا يعمل فيها عامل/ألا ترى أنهم كيف فعلوا في "الذين" هكذا . (فأجمعوا أمركم) يكون إجماع الأمر

بمعنى جمعه ، وبمعنى اجتماع الرأي والتدبير . قال: 768- يا ليت شعري والمنى لا تنفع هل أغدون يوماً وأمري [مجمع] . (ثم ائتوا صفاً) [64] أي [مصطفين] جميعاً .

(77/493)

وقال أبو عبيدة: الصف: مجتمع القوم ، وحكى عن [أبي] العرب: ما [ا] استطعت أن آتي الصف ، يعني المصلى . (فأوجس) [67] أسر وأخفى . (تلقف ما صنعوا) [69] تأخذ [ه] بفيها وتبتلعها . (لا تخاف دركاً) [77] منصوب على [معنى] الحال ، اي: اضرب لهم طريقاً غير خائف . ويجوز كونه منصوباً على نعت الطريق ، أي: طريقاً يبساً مأموناً غير مخشي فيه الدرك .

(ما أخلفنا موعدك بملكنا) [87] بطاقتنا . وقيل: لم نملك أنفسنا . (ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم) وذلك أن السامري قال لهم: إنها أوزار الذنوب ، و[ال]ـمال الحرام ، فاجمعوه وانبذوه في النار ، وكان صائغاً . (فنسي) [88] ترك السامري إيمانه . وقيل: هو قول السامري: إن موسى نسي إلاهه عندكم ، فلذلك أبطأ . (فقبضت قبضة من أثر الرسول) [96]

أي: من تراب حافر فرس الرسول ، فحذف المضافات . (فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول

لا مساس) [97] وذلك أن موسى أمر بني إسرائيل: أن لا تقاربوه، ولا تخالطوه. وقيل: إن السامري هرب من الناس، وتوحش في البراري خوفاً على نفسه، لا يماس أحداً، أي لا يدنو منه. قال: 769- حتى تقول الأزد [لا مساسا] أي: لا خلاط. (ظلت) [97] ظللت، فخفف كقولهم: مست في مسست وأحست/في أحسست. قال الراجز:

770- ظلوا يحجون وظللنا نحجبه 771- وظل يرمى بالحصى [مبوبه]. (لننسفنه) [97] نذرينه، نسف الطعام بالمنسف: إذا ذراه لتطير قشوره. (زرقاً) [102] عمياً. وقال الأزهري: تزرق عيونهم لشدة العطش، وهو كما تزرق لشدة الغضب. قال ضرار بن الخطاب: 772- إني لأنمى إذا انتميت إلى عز رفيع ومعشر صدق

774- بيض جعاد كأن أعينهم تكحل عند [الهياج] بالزرق. (يتخافتون) [103] يتناجون. (عوجاً) [107] غوراً. و(أمتاً) نجداً. وقيل: الأمت: الأخاديد في الأرض. (همساً) [108] صوتاً خفياً. (وعنت الوجوه) [111] ذلت وخشعت، ومنه العاني للأسير.

(78/493)

(ولا تعجل بالقرآن) [114] لا تسأل إنزاله قبل أن يوحى إليك . وقيل: إنه كان يعاجل جبريل عليهما السلام في التلقن حرصاً . (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) [117] أي: فتشقى أنت وزوجك . وقيل: لأن الرجل هو الذي يكدح في المعيشة ، ويشقى بالكسب ، والمرأة: تنعم بالهاء مكفية ، كما قال المخزومي: 774- وأعجبها في عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحدائق أخضر 775- ووال كفاها كل شيء يهمها فليست لشيء آخر الدهر تسهر .

(ولا تضحى) [119] لا تظهر لحر الشمس . قال المخزومي أيضاً: 776- رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر 777- أخا سفر جواب [قفر] تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر . (فغوى) [121] فضل عن الرأي . (ولولا كلمة سبقت) [129] تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً ، أي: عذاباً لازماً عاجلاً فقدم وأخر/ ، كما قال جرير:

778- طاف الخيال وأين منك لماما فارجع لزورك بالسلام سلاما . أي: طاف الخيال لماماً ، وأين منك . وقال الأخطل: 779- إن الفرزدق صخرة [ملمومة] طالت فليس تنالها [الأوعالا] ، أي: طالت الأوعال .

[تمت سورة طه] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 898. 921 ﴾

وقال الأخفش :

سورة ﴿ طه ﴾

قال: ﴿ طه ﴾ منهم من يزعم أنها حرفان مثل ﴿ حمّ] ومنهم من يقول ﴿ طه ﴾ يعني: يا رجل في بعض لغات العرب .

﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ بدلاً من قوله ﴿ لِتَشْقَى ﴾ [2] فجعله "ما أَنْزَلْنا القُرآنَ عَلَيْكَ إِلاَّ تَذْكِرَةً" .

﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾

وقال ﴿ تَنزِيلاً ﴾ أي: أَنْزَلَ اللهُ ذِلكَ تنزيلا .

﴿ الرحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

وقال ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ أي: هُوَ الرَّحْمن . وقال بعضهم ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ أي: تنزيلا من الرحمن .

وقال ﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ يقول "عَلاَ" ومعنى "عَلاَ": قَدَر . ولم يزل قادرا ولكن أخبر بقدرته .

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾

وقال ﴿ مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ وواحدتها: "مَأْرُبَةٌ".

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾

وقال ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ أي: أَخْرَجَ آيَةً أُخْرى وجعله بدلا من قوله ﴿ بَيْضَآءَ ﴾.

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾

وقال ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ وهي من "وَنَى" و"يَنِي" وَنْياً" و"وُنِيّاً".

﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

وقال ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ نحو قول الرجل لصاحبه: "اِفْرَعْ لَعَلَّنَا نَتَغَدّى" والمعنى: "لِنَتَغَدّى" و"حتّى نَتَغَدّىَ". وتقول للرجل: "اِعْمَلْ عَمَلَكَ لَعَلَّكَ تَأْخُذُ أَجْرَكَ" أي: لِتَأْخُذَه.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾

(80/493)

وقال ﴿ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ يريد: "أَزْواجاً شَتَّى من نَبَاتٍ" أَوْ يكونُ النباتُ هو شتى. كلٌّ ذلك مستقيم.

﴿ قَالُواْ إِنْ هَاذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾

وقال ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ خفيفة في معنى ثقيلة . وهي لغة لقوم يرفعون ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى "ما" ونقرؤها ثقيلة وهي لغة لبني الحارث بن كعب .

[151] وقال ﴿ الْمُثْلَى ﴾ تأنيث "الأَمْثَل" مِثْل: "القُصْوَى" و"الأَقْصَى" .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾

وقال ﴿ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ وفي حرف ابن مسعود ﴿ أَيْنَ أَتَى ﴾ وتقول العرب: "جِئْتُكَ من أَيْنَ لا تَعْلَم" و"مِنْ حَيْثُ لا تَعْلَم" .

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَاذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ ﴾

وقال ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ يقول: "لَنْ نُؤْثِرَكَ على الَّذِي فَطَرَنا" .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى ﴾

وقال ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ [151 ب] أي ﴿ اِضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقا ﴾ ﴿ لاَّ تَخَافُ ﴾ فيه

﴿ دَرَكاً ﴾ وحذف "فيه" كما تقول: "زيدٌ أَكْرَمْتُ" تريد: "أَكْرَمْتُهُ" وكما قال ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ أيْ لا تجزى فيه.

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾

(81/493)

وقال ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ وفسره على "يَجِب" وقال بعضهم ﴿ يَحُلَّ ﴾ على "النُزُول" فضم.

وقال ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ على "يَضِجُّونَ" ولا أراها الا لغة مثل "يَعْكِفُ" "ويَعْكُفُ" في معنى "يَصدّ".

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾

وقال ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ ﴾ يقول: "عَنَتْ" "تَعْنُو" "عُنُوّاً".

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾

وقال ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ يريد: ولولا ﴿ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لَكانَ لِزاما.

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

وقال ﴿لِلتَّقْوَى﴾ لأَهْلِ التقوى وفي حرف ابن مسعود ﴿وإِنْ العاقِبَةِ لِلتَّقْوى﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 442.446﴾

(82/493)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة طه

مكية كلها

5 - عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى . قال ابو عبيدة : علا . قال : وتقول استويت فوق الدابة ، واستويت فوق البيت .

وقال غيره : استوي : استقر . واحتج بقول اللّه عز وجل : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ [سورة المؤمنون] ، أي استقررت في الفلك .

وقوله : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى [سورة القصص آية : 14] أي انتهي شبابه واستقر ، فلم يكن في نباته مزيد .

7 - يَعْلَمُ السِّرَّ : ما أسررته ولم تظهره .

وَأَخْفى : ما حدّثت به نفسك .

10 - آنَسْتُ نَاراً : أبصرت . وتكون في موضع آخر : علمت كقوله : فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً [سورة النساء آية : 6] ، أي علمتم .

14 - وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي أي لتذكرني فيها .

15 - أَكَادُ أُخْفِيها أي أسترها من نفسي . وكذلك هي في قراءة أبي : «أكاد أخفيها من نفسي» .

(83/493)

فَتَرْدى أي تهلك . والرّدي : الموت والهلاك .

18 - وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي : أخبط بها الورق .

وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى أي حوائج اخرى . واحدها : مأربة ومأربة .

21 - سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى أي : نردّها عصا كما كانت .

22 - وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ أي الى جيبك .

مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أي من غير برص .

27 - وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي أي رتّة كانت في لسانه .

31 - اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي أي : ظهري . ومنه يقال : آزرت فلانا على الأمر ، أي قويته عليه ،

وكنت له فيه ظهيرا . فأما وازرته : فصرت له وزيرا .

وأصل الوزارة من الوزر – وهو الحمل – كأن الوزير يحمل عن السلطان [الثّقل] .

36 – قال قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى أي طلبتك . وهو فعل من سألت . أي أعطيت [ما] سألت .

38 – إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ أي قذفنا في قلبها . ومثله : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ [سورة المائدة آية : 111] .

39 – و(اليمّ) : البحر .

وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي أي لتربي بمرأى مني ، على محبّتي فيك .

40 – عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ أي يضمه . ومثله : وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا [سورة آل عمران آية : 37] .

41 – وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً أي اختبرناك .

(84/493)

---

42 – وَلا تَنِيا أي لا تضعفا ولا تفترا . يقال : ونى في الأمر يني .

وفيه لغة اخرى : وني يوني .

45 – نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أي يعجل ويقدم . والفرط : التقدم والسّبق .

50 - رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ أي اعطي كل ذكر خلقا مثله من الإناث .

ثُمَّ هَدى أي هدى الذكر لإتيان الأنثى .

51 - فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى أي فما حالها ؟ يقال : أصلح اللّه بالك ، أي حالك .

53 - أَزْواجاً أي ألوانا كل لون زوج .

54 - لِأُولِي النُّهى أي أولي العقول . والنّهية : العقل . قال ذو الرّمة :

[لعرفانها والعهد ناء] وقد بدا لذي نهية إلا إلى أمّ سالم

58 - مَكاناً سُوىً أي وسطا بين قريتين .

59 - قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ يعني يوم العيد .

وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى للجمع في العيد .

60 - فَجَمَعَ كَيْدَهُ أي حيله .

61 - فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ أي يهلككم ويستأصلكم . يقال : سحته اللّه وأسحته .

وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى أي كذب .

62 - فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أي تناظروا .

وَأَسَرُّوا النَّجْوى أي تراجعوا الكلام .

63 – بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى يعني الأشراف . يقال : هؤلاء طريقة قومهم ، أي أشرافهم . ويقال : أراد سنتكم ودينكم . والمثلي مؤنث أمثل ، مثل كبري وأكبر .

64 – فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ أي حيلكم .

ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا أي جميعا . وقال ابو عبيدة : الصفّ : المصلي .

وحكي عن بعضهم انه قال : ما استطعت أن آتي الصفّ اليوم ، أي المصلّي .

67 – فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى أي أضمر خوفا .

69 – وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى أي حيث كان .

72 – إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا أي إنما يجوز أمرك فيها .

77 – يَبَساً : يابسا . يقال لليابس : يبس ويبس .

لا تَخافُ دَرَكاً أي لحاقا .

78 – فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ أي لحقهم .

80 – و(الطّور) : الجبل .

81 – فَقَدْ هَوى أي هلك . يقال : هوت أمّه . أي هلكت .

86 – أَسِفاً أي شديد الغضب .

87 – ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا أي بقدر طاقتنا .

وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ أي أحمالا من حليّهم .

فَقَذَفْناها يعنون في النّار .

95 - قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ أي ما أمرك وما شأنك ؟

(86/493)

---

96 - فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ يقال : إنها قبضة من تراب موطيء فرس جبريل ، صلى اللّه عليه .

فَنَبَذْتُها أي قذفتها في العجل .

وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أي زيّنت لي .

97 - أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ أي لا تخالط أحدا .

وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً أي يوم القيامة .

ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً أي مقيما .

لَنُحَرِّقَنَّهُ بالنار . ومن قرأ : (لنحرقنّه) ، أراد لنبردنّه .

ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ أي لنطيّرنّ تلك البرادة او ذلك الرّماد في البحر .

98 - وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أي وسع علمه كل شيء .

100 - يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً أي إثما .

101 - خالِدِينَ فِيهِ أي في عذاب ذلك الإثم .

102 - وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً أي بيض العيون من العمى :

قد ذهب السّواد والنّاظر .

103 - يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ أي يسار بعضهم بعضا . يقال : خفت الدعاء وخفت الكلام :

إذا سكن .

104 - إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أي رأيا .

106 - فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً والقاع من الأرض : المستوي الذي يعلوه الماء ،

والصّفصف : المستوي . يريد لا نبت فيها .

(87/493)

و(الأمت) : النّبك «1» .

108 - يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ أي لا يعدلون عنه ولا يعرجون في اتباعهم .

وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ أي خفيت .

فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً أي إلا صوتا خفيا . يقال : هو صوت الأقدام .

111 - وَعَنَتِ الْوُجُوهُ أي ذلّت . وأصله من عنيته : أي حبسته .

ومنه قيل للأسير : عان .

112 - وَلا هَضْماً أي نقصة . يقال : تهضّمني حقّي وهضمني .

ومنه هضيم الكشحين : أي ضامر الجنين ، كأنهما هضما . وقوله : وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ [سورة الشعراء آية : 148] أي منهضم .

114 - وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ أي لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ من وحيه إليك . وكان رسول اللّه - صلى اللّه عليه وعلى آله - يبادر بقراءته قبل أن يتمم جبريل ، خوفا من النسيان «2» .

115 - وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ أي ترك العهد .

وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً أي رأيا معزوما عليه .

119 - وَلا تَضْحى أي لا يصيبك الضّحي وهو الشمس .

---

(1) أكمة محدودة الرأس وربما كانت حمراء أو أرض فيها صعود وهبوط أو التل الصغير .

(انظر القاموس المحيط ج 4 ص 316) .

(2) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا نزل جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظه

فأنزل اللّه :

وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ الآية .

(88/493)

---

24 - مَعِيشَةً ضَنْكاً أي ضيّقة .

128 - أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ أي يبيّن لهم .

129 - وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى أي لولا ان اللّه جعل الجزاء يوم القيامة ، وسبقت بذلك كلمته لكان العذاب لزاما ، أي ملازما لا يفارق . مصدر لازمته . وفيه تقديم وتأخير . أراد : لولا كلمة سبقت وأجل مسمى - لكان العذاب لزاما . وفي تفسير أبي صالح :

لزاما : أخذا .

130 - آناءِ اللَّيْلِ ساعاته . واحدها إني .

131 - وزَهْرَةَ الْحَياةِ أي زينتها . وهو من زهرة النبات وحسنة .

لِنَفْتِنَهُمْ أي لنختبرهم .

132 - لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً أي لا نسألك رزقا لخلقنا ، ولا رزقا لنفسك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 235. 241 ﴾

(89/493)

وقال الغزنوى :

ومن سورة طه

2 لِتَشْقى : تتعب بقيام جميع اللّيل «1» . وقيل «2» : لتحزن على قومك بأن لا يؤمنوا .

7 يَعْلَمُ السِّرَّ : ما يسرّه العبد عن غيره ، وَأَخْفى : ما يخطر بالبال .

ويهجس في الصّدر ، أو هو ما يكون من الغيب الذي لا يعلمه ولا يسرّه أحد «3» .

12 فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ : ليباشر بقدمه بركة الوادي «4» ، أو هو أمر تأديب وخضوع عند مناجاة الرّب «5» .

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 8 عن مجاهد .

وانظر تفسير الفخر الرازي : 22/ 4 ، وتفسير القرطبي : 11/ 168 . [. . . . .]

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 8 عن ابن بحر ، وذكره الفخر الرازي في تفسيره : 22/ 4 ، وقال : «و هو كقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ الآية ، وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ .

(3) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 16/ 140 عن ابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 9 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 271 عن ابن زيد أيضا .

قال الطبري – رحمه اللّه – في تفسيره : 16/ 141 : «والصواب من القول في ذلك قول من قال : معناه : يعلم السر وأخفى اللّه سره ، لأن «أخفى» فعل واقع متعد ، إذ كان بمعنى «فعل» على ما تأوله ابن زيد ، وفي انفراد «أخفى» من مفعوله ، والذي يعمل فيه لو كان بمعنى «فعل» الدليل الواضح على أنه بمعنى «أفعل» . وأن تأويل الكلام : فإنه يعلم السر وأخفى منه . . . » اه .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : (16/ 143 ، 144) عن مجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 9 عن علي بن أبي طالب ، والحسن ، وابن جريج .

وذكره الفخر الرازي في تفسيره : 22/ 17 عن الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد .

(5) نص هذا القول في تفسير القرطبي : 11/ 173 دون عزو .

وأورد نحوه الماوردي في تفسيره : 3/ 9 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 10 .

وذكر الفخر الرازي وجها آخر فقال : «أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من أن يطأها إلّا حافيا ليكون معظما لها وخاضعا عند سماع كلام ربه ، والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبة : إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً وهذا يفيد التعليل ، فكأنه قال تعالى : اخلع نعليك لأنك بالوادي

المقدس طوى» اه.

ينظر تفسيره: 22/ 17.

(90/493)

طُوىً: اسم عجميّ لواد معروف، فلم ينصرف للعجمة والتعريف، أو للعدل عن «طاو» معرفة «1».

15 أَكادُ أُخْفِيها: أريد أخفيها «2».

لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ: لأنّ من شرط التكليف إخفاء أمر السّاعة والموت.

17 وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ: السؤال للتنبيه «3» ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها.

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 351، وقد ورد هذا التوجيه لقراءة من لم ينوّن «طوى»، وهذه القراءة لابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، كما في السبعة لابن مجاهد: 417، والتبصرة لمكي: 259، والتيسير للداني: 150.

وانظر توجيه هذه القراءة أيضا في إعراب القرآن للنحاس: 3/ 34، والكشف لمكي: 2/ 96، والتبيان للعكبري: 2/ 886.

(2) ذكر الطبري هذا الوجه في تفسيره: 16/ 151، وقال: «و ذلك معروف في اللّغة،

ثم أورد الأدلة والشواهد على ذلك» .

وانظر هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 11 ، وتفسير البغوي : 3/ 214 ، والمحرر الوجيز : 10/ 15 .

(3) تفسير الطبري : 16/ 154 ، وتفسير البغوي : 3/ 214 ، والمحرر الوجيز : 10/ 17 .

قال الزجاج في معانيه : 3/ 354 : «و هذا الكلام لفظه لفظ الاستفهام ومجراه في الكلام مجرى ما يسأل عنه ، ويجيب المخاطب بالإقرار له لتثبت عليه الحجة بعد ما قد اعترف مستغنى بإقراره عن أن يجحد بعد وقوع الحجة ، ومثله من الكلام أن تري المخاطب ماء فتقول له : ما هذا ؟ فيقول : ماء ، ثم تحيله بشيء من الصبغ فإن قال إنه لم يزل هكذا قلت له : ألست قد اعترفت بأنه ماء ؟ !» اه .

(91/493)

---

18 أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها : أعتمد ، وَأَهُشُّ : أخبط الورق للغنم «1» .

23 آياتِنَا الْكُبْرى : الكبر ، فجرى على نظم الآي . / أو هو من آياتنا [61/أ] الآية الكبرى .

39 مَحَبَّةً مِنِّي : من رآك أحبّك «2» .

وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي : تغذّى وتربّى بإرادتي ورعايتي .

صنعت الجارية : تعهّدتها حتى سمنت «3» ، وهو صنيعه : تخريجه وتربيته .

40 وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً : بلوناك بلاء «4» بعد بلاء ، أو خلّصناك تخليصا «5» ،

---

(1) في غريب القرآن لليزيدي : 244 : «خبطت وهششت واحد» .

وانظر المعنى الذي ذكره المؤلف في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 17 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 278 ، وتفسير الطبري : 16/ 154 ، والمفردات للراغب : 543 .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 14 عن ابن زيد .

وأورد نحوه السيوطي في الدر المنثور : 5/ 567 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 179 ، وتفسير الطبري : 16/ 161 ، وزاد المسير : 5/ 284 .

(3) تهذيب اللغة : 2/ 38 ، واللسان : 8/ 210 (صنع) .

(4) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 19 ، والطبري في تفسيره : 16/ 164 ، والزجاج في معانيه : 3/ 357 .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 14 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 569 ، وعزا إخراجه إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهم .

(5) عن تفسير الماوردي : 3/ 14 ، ونص كلامه : «خلصناك تخليصا ، من محنة بعد محنة ، أولها أنها حملته في السنة التي كان يذبح فيها فرعون الأطفال ثم إلقاؤه في اليم ، ومنعه الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم جره بلحية فرعون حتى همّ بقتله ، ثم تناوله الجمرة بدل التمرة فدرأ ذلك عنه قتل فرعون ، ثم مجيء رجل من شيعته يسعى بما عزموا عليه من قتله» .

وأورد ابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 31 القول الذي ذكره المؤلف ، ثم قال : «هذا قول جمهور المفسرين» .

(92/493)

من فتنت الذهب بالنار «1» .

عَلى قَدَرٍ : موعد ومقدار الرسالة وهو أربعون سنة «2» .

44 لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ : على رجاء الرسل لا المرسل ، إذ لو يئس الرسول من ذلك لم يحسن الإرسال ، أو الكلام معدول إلى المرسل إليه ، كأنه : لعلّه يتذكّر متذكر عنه وما حل به .

45 نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا : يعجل بقتلنا «3» .

47 وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى : أي : سلم من العذاب من اتبع الهدى .

50 أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ : صورته التي لا يشبهها فيها غيره «4» ، أو المراد صورة الأنواع المحفوظة بعضها عن بعض ، أو أعطى كل شيء من الأعضاء خلقه ، فأدرك كلّ حاسة بإدراك ، وأنطق اللسان ، ومكّن اليد من البطش والأعمال العجيبة ، والرّجل من المشي ، خلق كلّ شيء فقدّره تقديرا «5» .

---

(1) في تهذيب اللغة للأزهري : 14/ 296 : «فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد . . .» .

وانظر الصحاح : 6/ 2175 ، واللسان : 13/ 317 (فتن) .

(2) ينظر تفسير الطبري : (16/ 167 ، 168) ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 357 ، وتفسير الماوردي : 3/ 15 . [. . . . .]

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 180 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 19 ، وغريب القرآن لليزيدي : 246 .

وقال الطبري في تفسيره : 16/ 170 : «و هو من قولهم : فرط مني إلى فلان أمر : إذا سبق منه ذلك إليه ، ومنه : فارط القوم وهو المتعجل المتقدم أمامهم إلى الماء أو المنزل . . .» .

(4) نقل البغوي نحو هذا القول في تفسيره : 3/ 220 عن مجاهد .

وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 291 ، وقال : «رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 582 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن مجاهد .

(5) تفسير القرطبي : 11/ 205 .

(93/493)

ثُمَّ هَدى : للمعيشة في الدنيا والسعادة في الآخرة .

51 فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى : حين حذّره البعث ، فقال : ما بال الأمم الخالية كيف يبعثون ومتى وهم رمم بالية ؟ .

58 مَكاناً سُوىً : المكان النّصف بين الفريقين يستوي مسافته عليهما «1» .

59 يَوْمُ الزِّينَةِ : ارتفع يَوْمُ لأنّه خبر مَوْعِدُكُمْ ، على أنّ الموعد اسم زمان الوعد أو مكانه ، ومن نصب «2» نصبه على الظرف للموعد ، وجعل الموعد حدثا كالوعد لئلا يتكرر الزمان .

61 فَيُسْحِتَكُمْ : يستأصلكم «3» . سحت وأسحت ، وسمّي السّحت لأنّه مهلك «4» ، ودم سحت : هدر «5» .

63 إِنْ هذانِ لَساحِرانِ : قال أبو عمرو «6» ، إني لأستحي أن أقرأ : إِنْ هذانِ والقرآن أفصح اللّغات .

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 181 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 20 ، وغريب القرآن لليزيدي : 247 ، ومعاني الزجاج : (3/ 360 ، واللسان : (14/ 413 ، 414) (سوا) .

(2) تنسب قراءة النصب إلى الحسن رحمه اللّه تعالى ، كما في إعراب القرآن للنحاس : 3/ 42 ، والبحر المحيط : 6/ 252 ، وإتحاف فضلاء البشر : 2/ 248 .

وانظر توجيه هذه القراءة في معاني الزجاج : 3/ 360 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 2/ 464 ، والتبيان للعكبري : 2/ 892 ، والبحر المحيط : 6/ 252 .

وقال ابن الأنباري في البيان : 2/ 144 : «ولا يجوز أن يكون يَوْمُ ظرفا لأن العرب لم تستعمله مع الظرف استعمال سائر المصادر ، ولهذا قال تعالى : إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ اه .

(3) معاني القرآن للفراء : 2/ 182 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 280 ، ومعاني الزجاج :

3/ 361 ، والمفردات للراغب : 225 .

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 21 .

(5) اللسان : 2/ 41 (سحت) .

(6) قراءته في هذا الموضع : «إنّ هذين» .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 419 ، وحجة القراءات : 454 ، والتبصرة لمكي : 260 .

(94/493)

وأمّا خط المصحف فروى عيسى «1» بن عمر أنّ عثمان - رضي اللّه عنه - قال : أرى فيه لحنا ستقيمه العرب بألسنتها «2» .

[60/ ب] وقرأ ابن كثير «3» : إِنْ هذانِ فهي ضعيفة في نفسها خفيفة/ من المثقلة ، فلم تعمل فيما بعدها ، فارتفع ما بعدها على الابتداء والخبر ، ودخل اللام الخبر فرقا بينها وبين إن النافية ، أو هي بمعنى «ما» نافية واللّام في

---

(1) هو عيسى بن عمر الثقفي البصري ، كان صديقا ملازما لأبي عمرو بن العلاء .

وصفه الذهبي بقوله : «العلّامة ، إمام النحو . . .» ، توفي عيسى بن عمر سنة 149 ه .

أخباره في طبقات النحويين للزبيدي : 40 ، وسير أعلام النبلاء : 7/ 200 ، وتقريب التهذيب : 440 .

(2) ذكر الفراء الرواية المنسوبة إلى أبي عمرو بن العلاء عن عثمان رضي اللّه عنه ، لكنه لم يصرح بذكر عثمان ، وإنما قال : «عن بعض أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم . . . » .

معاني القرآن : 2/ . 183

وأورد الفخر الرازي في تفسيره : 22/ 74 ، والقرطبي في تفسيره : 11/ 216 ، نص الرواية التي وردت عند المؤلف هنا .

ودافع الفخر الرازي عن قراءة الجمهور ، ونقد الرواية المذكورة عن عثمان رضي اللّه عنه ، فقال : «إنه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله في جميع القرآن ، وذلك يفضي إلى القدح في التواتر وإلى القدح في كل القرآن وأنه باطل ، وإذا ثبت ذلك وامتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة .

وثانيها : أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام اللّه تعالى ، وكلام اللّه تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا ، فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضي اللّه عنهما أن فيها لحنا وغلطا .

وثالثها : قال ابن الأنباري : إن الصحابة هم الأئمة والقدوة ، فلو وجدوا في المصحف لحنا لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم في الاتباع . . . » .

وينظر نقد هذه الرواية عن عثمان رضي اللّه عنه في مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه اللّه (15/ 250 - 254).

(3) هو عبد اللّه بن كثير الداري، أحد القراء السبعة، توفي سنة 120 ه.

ترجمته في: معرفة القراء الكبار: 1/ 86، وغاية النهاية: 1/ 443.

وانظر قراءته في السبعة لابن مجاهد: 419، وحجة القراءات: 456، والتبصرة لمكي:

260.

(95/493)

خبرها بمعنى «إلا»، أي: ما هذان إلّا ساحران «1»، كقوله «2»: وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ.

وأما القراءة المعروفة «3» فهي على لغة كنانة، وبلحارث بن كعب، وخثعم، وزبيد، ومراد، وبني عذرة، فالتثنية في لغاتها بالألف أبدا «4».

وقيل «5»: معنى إِنْ نعم، وقيل «6»: هو على حذف الهاء بمعنى «إنه». وزبدة كلام أبي عليّ «7» أنّ هذانِ ليس بتثنية «هذا» «8» لأنّ «هذا» من أسماء الإشارة،

فيكون معرفة أبدا ، والتثنية والجمع من خصائص النكرات لأنّ واحدا أعرف ، فلما لم يصح تنكير هذا لم يصح [تثنية] «9» «هذا» [وجمعه] «10» من لفظه .

---

(1) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 23 ، ومشكل إعراب القرآن : 2/ 467 ، والبحر المحيط :

6/ 255 .

(2) سورة الشعراء : آية : 186 . [. . . . .]

(3) يريد قراءة الجمهور بتشديد «إنّ» و«هذان» مرفوعا .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 419 ، وتفسير الطبري : 16/ 180 ، وإعراب القرآن للنحاس :

3/ 43 ، والبحر المحيط : 6/ . 255

(4) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 184 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 362 ، والكشف لمكي :

2/ 99 ، والمحرر الوجيز : (10/ 49 ، 50) ، والبحر المحيط : 6/ 255 .

(5) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 22 ، والزجاج في معانيه : 3/ 363 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 48 ، وأبو حيان في البحر : 6/ 255 .

(6) في معاني الزجاج : 3/ 362 عن النحويين القدماء .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : 3/ 46 ، وحجة القراءات : 455 ، والمحرر الوجيز : 10/ 50 .

(7) يريد أبا علي الفارسي .

(8) هذا معنى قول الفراء في معانيه : 2/ 184 ، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 50 عن الفراء أيضا .

(9) في الأصل : «تثنيته» ، والمثبت في النص عن «ك» .

(10) ما بين معقوفين ساقط من الأصل ، والمثبت عن «ك» .

(96/493)

ألا ترى أنّ «أنت» و«هو» و«هي» لما كانت معارف لم تثنّ على لفظها ، فلا يقال : «أنتان» و«هوان» ، بل يصاغ لها أسماء مبنيّة في التثنية لا يختلف أبدا على صورة الأسماء المثناة ، وهي «أنتما» و«هما» ، فكذا صيغ ل «هذا» عند التثنية لفظ مبنيّ ، ألا ترى كيف فعلوا في «الذين» هكذا .

وقيل «1» : إنّ الألف لما حذفت عوّضت منها ألف التثنية فلم تزل على حالها .

64 فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ : إجماع الأمر بمعنى جمعه ، وبمعنى اجتماع الرأي والتدبير «2» .

ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا : مصطفين جميعا ، والصفّ مجتمع القوم «3» .

67 فَأَوْجَسَ : أسرّ وأخفى «4» .

69 تَلْقَفْ ما صَنَعُوا : تأخذه بفيها وتبتلعها «5» .

77 لا تَخافُ دَرَكاً : منصوب على الحال ، أي : اضرب لهم طريقا غير خائف «6» .

أو على نعت الطريق ، أي : طريقا مأمونا غير مخشيّ فيه الدرك .

87 ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا : بطاقتنا «7» ، أو بملكنا

---

(1) يريد أنه حذف ألف «هاذا» الأخيرة ثم عوض عنها بألف التثنية فقامت مقامها وسدت مسدها ولزمت حالها وأخذت حكمها فلم تتغير ألف البناء .

(2) اللسان : 8/ 57 (جمع) .

(3) ينظر تفسير البغوي : 3/ 223 ، واللسان : 9/ 194 (صفف) .

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 23 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 280 .

(5) تفسير الطبري : 16/ 186 ، وتفسير الماوردي : 3/ 21 ، وتفسير البغوي : 3/ 224 .

(6) إعراب القرآن للنحاس : 3/ 50 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 3/ 470 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 150 ، والتبيان للعكبري : 2/ 899 . [. . . . .]

(7) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 281 ، وأخرجه الطبري في تفسيره :

16/ 198 عن قتادة والسدي.

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 314 عن قتادة والسدي أيضا.

(97/493)

الصّواب «1».

أو لم نملك اختيارنا، أو لم نملك أنفسنا «2».

وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ: إذ السّامريّ قال لهم: إنّها أوزار الذنوب والمال الحرام فانبذوه في النّار، وكان صائغا «3».

88 فَنَسِيَ: ترك السّامريّ إيمانه «4»، أو هو قول السّامريّ: /نسي [62/أ] موسى إلهه عندكم فلذلك أبطأ «5».

96 فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ: من تراب حافر فرس الرسول، فحذف المضافات.

97 فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ: أمر موسى بني إسرائيل أن لا يقاربوه ولا يخالطوه «6». وقيل: هرب السّامريّ وتوحش في البراري خوفا، لا يماسّ أحدا «7».

لَنَنْسِفَنَّهُ: نذرّينّه، نسف الطعام بالمنسف ذرّاه ليطير قشوره «8».

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن: 2/ 189، والزجاج في معانيه: 3/ 371.

(2) ينظر تفسير البغوي : 3/ 228 ، وزاد المسير : 5/ 314 ، وتفسير القرطبي : 11/ 234 .

(3) نقله القرطبي في تفسيره : 11/ 235 عن قتادة .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 201 عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 372 ، وتفسير الماوردي : 3/ 25 ، والمحرر الوجيز : 10/ 78 .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 16/ 201 عن قتادة ، ورجح هذا القول .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 25 عن قتادة ، والضحاك .

(6) ذكره الطبري في تفسيره : 16/ 206 دون عزو ، وكذا الماوردي في تفسيره : 3/ 28 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 230 ، والقرطبي في تفسيره : 11/ 240 .

(7) تفسير الماوردي : 3/ 28 ، وتفسير البغوي : 3/ 230 .

(8) تهذيب اللغة : 13/ 6 ، والصحاح : 4/ 1431 ، واللسان : 9/ 328 (نسف) .

قال الجوهري : «والمنسف» : ما ينسف به الطعام ، وهو شيء طويل منصوب الصدر أعلاه مرتفع» .

102 زُرْقاً : عميا «1» . وقيل «2» : عطاشا لأنّ سواد العين من شدّة العطش يتغيّر حتى يزرق .

103 يَتَخافَتُونَ : يتناجون «3» .

106 صَفْصَفاً : مستويا «4» .

107 عِوَجاً : غورا ، أَمْتاً : نجدا «5» .

108 هَمْساً : صوتا خفيّا ، وهو هاهنا صوت وطئ الأقدام «6» .

111 وَعَنَتِ الْوُجُوهُ : ذلّت وخشعت ، والعاني : الأسير «7» .

114 وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ : لا تسأل إنزاله قبل الوحي إليك ، وقيل «8» : كان يعاجل جبريل في التلقن حرصا عليه .

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 191 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 282 ، والزجاج في معانيه : 3/ 376 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 29 عن الفراء .

(2) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 376 .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 191 ، وتفسير الطبري : 16/ 210 ، وتهذيب اللغة

للأزهري : 8/ 428 .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 29 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 282 ، والمفردات للراغب : 152 .

(4) في المفردات : 282 : «والصفصف المستوي من الأرض كأنه على صف واحد» . وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 29 ، وغريب القرآن لليزيدي : 250 ، وتفسير القرطبي : 11/ 246 .

(5) أي مرتفعا ، والأمت ما ارتفع من الأرض .

معاني القرآن للفراء : 2/ 191 ، واللسان : 2/ 5 (أمت) . [. . . . .]

(6) معاني القرآن للفراء : 2/ 192 ، وغريب القرآن لليزيدي : 251 ، والمفردات للراغب :

350 .

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 30 ، وغريب القرآن لليزيدي : 251 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 282 ، واللسان : 15/ 101 (عنا) .

(8) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 32 عن الكلبي .

وذكره البغوي في تفسيره : 3/ 232 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 98 دون عزو .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 602 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن السدي .

(99/493)

121

فَغَوى : ضلّ عن الرأي .

124 وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى : لا حجة له يهتدي إليها «1» .

128 أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ : فاعل يَهْدِ مضمر يفسره كَمْ أَهْلَكْنا : ولا يجوز رفعها ب يَهْدِ ، لأنه على طريق الاستفهام بمنزلة : قد تبيّن لي أقام زيد أم عمرو .

129 وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ : تقديره : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمّى لكان لزاما ، أي : عذابا لازما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 545.

555 ﴾

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (16/ 228 ، 229) عن مجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 33 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 235 عن مجاهد .

وقال ملاحويش :

تفسير سورة طه

20 - 45

نزلت بمكة بعد سورة مريم عدا الآيتين 130 و131 فإنهما نزلتا بالمدينة ، وهي مائة وخمس وثلاثون آية ، والف وستماية واحدي وأربعون كلمة ، وخمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة أو مختومة بما بدأت وختمت به (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى "طه" اسم من أسمائه صلى اللّه عليه وسلم كما مرّ في سورة يس ، واسم للسورة ، ومفتاح أسماء اللّه تعالى الهادي ، هو الباسط المعطي ، وقال بعض المفسرين ان معناه طأها أي الأرض ، لأنه صلى اللّه عليه وسلم كان يقوم إلى ربه على رجل واحدة في تهجده ، وقيل أصله يا رجل بلغة عكّ ، أو أصلها يا هذا ، فتصرفوا فيها بالقلب والاختصار ، مستدلين بقول القائل :

إن السفاهة طاها في خلائقكم لا قدس اللّه أخلاق الملاعين

أقول غير جدير بالقبول لعدم الاستناد فيها إلى شيء صحيح ، وما ذكرناه هو الأولى والأنسب ، لاستناده للحديث الذي أوردناه أول سورة يس ، يؤيده الخطاب في قوله تعالى "ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى " في المبالغة في مكابدة العبادة قد يعتريك فيه التعب الشديد ، أو في هلاك نفسك في محاورة العتاة ومجادلة الطغاة من قومك من فرط الأسى والتحسر على عدم إيمانهم "إِلَّا" أي ما أنزلناه عليك يا أكرم الرسل لشقائك به ، ولكن "تَذْكِرَةً" تذكرهم به وعفة "لِمَنْ يَخْشى " 3 اللّه ويتأثر بالإنذار به لرفة قلبه ولين عريكته لينتفع به ، لا كما زعم المشركون ، وذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يجتهد في عبادة ربه في مكة حتى تورمت قدماه ، فلما رأى ذلك منه المشركون قالوا ما أنزل اللّه عليه الوحي الذي يزعم إلا لشقائه ، وكان صلى اللّه عليه وسلم يجهد نفسه بالعبادة من جهة ومن أخرى بدعوة قومه إلى ربه ويلح على نفسه في هذين الأمرين ، لأنهما غاية مطلبه ونهاية قصده في الدنيا ، فأنزل اللّه عليه هذه الآية ليخفف عن نفسه الشريفة ما حملها من الأعباء ، ويقتصد بالعبادة والدعوة

"تَنْزِيلًا" مفعول مطلق أي أن هذا القرآن نزل عليك يا محمد "مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ

الْعُلى " 4 كما يقوله كفرة قومك من كونه سحر أو كهانة أو من خرافات الأولين أو من تعليم الغير ، بل هو من اللّه الخالق لهذين الحرمين العظيمين وهو "الرَّحْمنُ" الذي وسعت رحمته كل شيء عزت قدرته وجلت عظمته "عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى " 5 استواء يليق بذاته ويراد ممنه الظهور والاستيلاء والتمكن .

مطلب العرش ومعنى الاستيلاء عليه :

(102/493)

والعرش لغة السرير ذو القوائم ، أما عرش الرحمن فهو شيء يليق بذاته لا يعلم حقيقته على الحقيقة إلا اللّه ، إلا أنه شيء يحمل لقوله تعالى (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ) الآية 15 من سورة الحاقة – في ج 2 وهذه الآية تدل على عظمته ، لأن الملك الواحد يقوى على حمل الأرض بما فيها ، فكيف إذا كانوا ثمانيه أملاك ، ومن ها هنا تعلم عظمته ، قالوا هو كالقبة فوق السموات له قوائم ، بدليل ما رواه البخاري عن أبي سعيد ، قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم قد لطم وجهه ، فقال يا محمد رجل من أصحابك قد لطم وجهي ! فقال صلى اللّه عليه وسلم : أدعوه فقال لم لطمت وجهه ؟ فقال يا رسول اللّه إني مررت بالسوق وهو يقول والذي اصطفى موسى على البشر ، فقلت يا خبيث

وعلى محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فأخذتني غضبة فلطمته .

فقال صلى اللّه عليه وسلم لا تميزوا بين الأنبياء ، فان الناس يصعقون وأكون أول من يفيق ، فإذا بموسى عليه السلام أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور .

أي لم يصعق وهو فوق السموات بدليل ما رواه أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعرابي فقال : يا رسول اللّه جهدت الأنفس ، ونهكت الأموال ، فاستق لنا ، فإنا نستشفع بك إلى اللّه ونستشفع باللّه تعالى عليك فقال صلى اللّه عليه وسلم ويحك أتدري ما تقول ؟ وسبّح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجهه أصحابه ، ثم قال ويحك انه لا يستشفع باللّه تعالى على أحد من خلقه ، شأن اللّه تعالى أعظم من ذلك ، ويحك أتدري ما اللّه ؟ إن اللّه تعالى فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته

(103/493)

هكذا وقال بأصابعه مثل القبة ، وانه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب ، أي من عظمة الرّب جل وعلا وهيبته ، وهو منزه عن الثقل والخفة وسائر أوصاف خلقه ، وهذا مما يدل

على عظمته ايضا .

وقد روى أبو ذر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم انه سمعه يقول ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض .

وجاء في خبر آخر : إن أرضكم هذه بالنسبة لعرش الرحمن كحلقة ملقاة في فلاة ، هذا وقد وصفه اللّه تعالى في قوله جل قوله (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) الآية 256 من البقرة في ج 3 ، ووصفه بالمعظم في آيات ، وناهيك بذلك .

هذا ، وقد روى عن أبي شيبة في كتاب صفة العرش ، والحاكم في مستدركه ، وقال على شرط الشيخين ، عن سعد بن جبير عن ابن عباس قال : الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره الا اللّه ، وبما أن من هذه من آيات الصفات التي جرى السلف على ظاهرها دون تأويل أو تفسير ، ومشى الخلف على خلافه ، فقال بعضهم إن العرش كناية عن ملك اللّه وسلطانه ، وهو غير سديد لمنافاته ظاهر القرآن والحديث ، لأنه إذا كان كما قيل فكيف نقنع بقول اللّه (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ) إلخ الآية المذكورة آنفا ، وقوله تعالى (يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ) الآية 18 من سورة المؤمن في ج 2 ، أيقال يحملون ملكه وسلطانه ؟

(104/493)

كلا ، وهل كان موسى آخذا بقوائم الملك والسلطان في الحديث المار ؟ كلا وما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والبخاري عن جابر قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ رضي اللّه عنه ، فهل يقال اهتز ملكه وسلطانه ؟ كلا لا يقال شيء من ذلك أصلا لأن ذلك أمر معنوي لا يحمل ولا يمسك ولا يهتز لذلك فلا يقوله من له أدنى مسكة من علم أو ذوق ، فإن صاحب هذا القول على فرض صحته أراد به تنزيه اللّه تعالى على طريقة الخلف من كل ما يدل على المكان ، لأنه جل ذكره لا يحويه مكان ، ولكنه لم يصب الهدف ، وإن ما قاله أهل الكلام من أنه مستدير محيط بالعالم ، وأنه فلك من الأفلاك أو الفلك الأطلس أو الفلك التاسع ، فليس بصحيح ، لأن قولهم مبني على

الحدس والظن ، كيف وقد ثبت أنه له قوائم وأنه محمول وممسوك ، والفلك التاسع عندهم متحرك بحركة متشابهة وهو لا ثقيل ولا خفيف كما يزعمون ، وقد جاء في صحيح مسلم في حديث جويرية بنت الحارث ما يدل على أن له زنة هي أثقل الأوزان ، ولأن القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب لا تفهم منه الفلك وما جاء في خبر أبي ذر عن جبير بن مطعم المتقدم ذكره من أنه مثل القبة ، لا يستلزم أن يكون مستديرا محيطا كما قالوا ، وهؤلاء القوم ما زالوا قبلا والى اليوم والى أن ينفخ في الصور لا يقدرون على حصر الأفلاك بأنها تسعة ، وان التاسع أطلس ولا كوكب فيه ، وانه غير الكرسي علمت قال امية بن الصلت :

مجّدوا اللّه فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء العالي الذي بهر النا س وسوى فوق السماء سريرا

شرجعا لايناله طرف عين وترى حوله الملائك صورا

(105/493)

جمع اصور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو ، والشرجع العالي المفرط بعلوه ، واستوى بمعنى استولى على اكثر أقوال المفسرين أوضحناه في الآية 54 من الأعراف المارة ، ودللنا عليه بشواهد كثيرة اتباعا لغيرنا ، الا أنه مع شواهده لا يطمئن له الضمير ، كما أن ما جاء أنه بمعنى العلو والارتفاع في رواية البخاري ، أو أنه بمعنى الاستقرار كما في قوله تعالى : (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) الآية 44 من سورة هود ، وبقوله تعالى (لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ) الآية 13 من الزخرف في ج 2 ، ممنوع ، لأنه مستحيل على اللّه تعالى ، وذلك لأن الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وهو محال في حقه تعالى ، ولأنه لا يقال استولى على كذا إلا إذا كان له منازع فيه : وهذا في حقّه تعالى محال أيضا ، وإنما يقال استولى إذا كان المستولى عليه موجودا قبل ، والعرش إنما حدث بتخليقه تعالى وتكوينه له ، وأيضا الاستيلاء واحد بالنسبة إلى كل المخلوقات ، فلا يبقى إلى تخصيص العرش بالذكر فائدة ، لذلك فالأولى أن

يفسر بما فسرناه هنا من أنه استواء يليق بذاته كما هو الحال في آيات الصفات ، من المجيء ، واليد ، والقبضة ، وغيرها ، لأن

القانون الصحيح وجوب حمل كل لفظ ورد في القرآن العظيم على ظاهره ، إلا إذا قامت الأدلة القطعية على وجوب الانصراف عن الظاهر ، ولا داعي للتأويل بما قد يوجب الوقوع في الخطأ وزلة القدم .

وانظر ما قاله السلف الصالح في هذا الباب .

(106/493)

روى البيهقي بسنده عن عبد اللّه بن وهب أنه قال كنا عند مالك بن أنس ، فدخل رجل فقال يا أبا عبد اللّه قال تعالى : (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى) فكيف استواؤه ؟ قال فأطرق مالك وأخذته الرّحصاء (العرق الذي يحصل من أثر الحمى) ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعه ، أخرجوه ، فأخرج الرجل ، وفي رواية سمي بن يحيى قال : كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال : يا أبا عبد اللّه ، الرحمن على العرش استوى ، فكيف استواؤه فأطرق مالك رأسه حتى علته الرحصاء ثم قال الاستواء غير مجهول ، والكيف

غير معقول والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعا فأمر به أن يخرج.

وروي عن علي عليه السلام أنه قال : الاستواء غير مجهول (لم يقل معلوما تأدبا ، وكان مالك أخذ هذه الجملة عنه رضي اللّه عنه إن لم نقل أنها من توارد الخاطر) والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وأخرج اللالكائي في كتاب السنة عن طريق الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي اللّه تعالى عنها أنها قالت الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به ايمان ، والجحود به كفر .

وجاء من طريق ربيعة بن عبد الرحمن أنه سئل كيف استوى ربنا على العرش ؟ فقال الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، وعلى اللّه تعالى إرساله ، وعلى رسوله البلاغ ، وعلينا التسليم ، وروى البيهقي بسنده عن أبي عينية قال كل ما وصف اللّه تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه .

قال البيهقي والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة واليه ذهب أبو حنيفة وأحمد بن حنبل والحسن بن الفضل الجبلي ، ويدل عليه مذهب الشافعي ومشى عليه من المتأخرين أبو سليمان الخطابي ، وأهل السنة يقولون في الاستواء على

العرش صفة لحمله بلا كيف ، يجب على الرجل الايمان به ويكل العلم به إلى اللّه ، وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيفية وعبد اللّه بن المبارك وغيرهم من علماء أهل السنة أن هذه الآيات التي فيها الصفات المتشابهة تقرأ كما جاءت بلا كيف ، هذا والذي ذهب اليه الإمام الرازي أن الاستواء بمعنى الاستيلاء ، والاستيلاء بمعنى الاقتدار ، وهو كما ترى وأقوال السنة وبعض العلماء في هذا الباب لا تحصى ، وقد قدمنا غير مرة بأن طريقتنا في هذا التفسير الجليل حمل كل لفظ ورد في القرآن العظيم على ظاهره ، إلّا إذا لم نتوصل لفهمه وورود الدليل القاطع النقلي والعقلي يصرفه عن ظاهره ، فإنما نعدل عنه ضرورة ونرجع إلى التأويل بما نقتبسه أولا من القرآن لأن في بعضه تفسيرا لبعض ، ثم في الحديث لأن قول الرسول شرح له ، ثم إلى أقوال الأصحاب الكرام الخزامى الذين قال بحقهم صلى اللّه عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم .

(108/493)

لأنهم يغرفون من مشكاة النبوة ثم لأقوال أتباعهم من السلف الصالح ولأقوال العلماء المفسرين له الأمناء عليه الأتقياء الذين نور اللّه قلوبهم بمعرفته قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَيُعَلِّمُكُمُ) الآية 284 من سورة البقرة في ج 3 ، وقال تعالى (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً) الآية 19 من سورة الأنفال في ج 3 أيضا وقال تعالى (وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) الآية 64 من سورة الكهف في ج 2 وقال جل قوله (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) الآية 74 الآتية وهذا ما عليه السلف الصالح والخلف الناجح والاقتداء بهم أسلم ، والأخذ بقولهم أحكم ، والله أعلم الذي "لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى " 6 التراب الرطب الذي يظهر بعد حفر وجه الأرض ، فإن الله تعالى مالك لجميع ذلك وما فوق السموات أيضا ، ومتصرف فيه كيف يشاء ، ولم يبق غير ذلك الا المالك "وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ" يا سيد الرسل أو تسر به على حد سواء "فَإِنَّهُ" مولاك ومالك أمرك "يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى " 7 منه مما يخطر ببالك أو تتصوره في قلبك فيما بعد قبل تخطره وتصوره لأن السر موجود في صدرك أو لأن السر ما تسره للغير حالا ، وهذا

مما لا يعلمه غيرك ، لأنه لم تتفوه به أو ما أسررته لنفسك ، والأخص ما ستسره فيما بعد ، ولا تعلمه الا بعد أن يحوك في صدرك ، لأن الله يعلم أنه سيحدث في سرك قبل أن تحس به ، والأول أولى .

(109/493)

تشير هذه الآية بأن الجهر ليس لإسماعه تعالى بل لفرض آخر من تصوير النفس بالذكر ، ومنعها من الاشتغال بغيره قطعا للوسوسة ، وهذا أولى من قول من قال إنه نهى عن الجهر كقوله تعالى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ) الآية 204 من الأعراف المارة لان غايته الإرشاد وهضم النفس بالتضرع إلى خالقها ، وهذا المالك الجليل والعالم العظيم هو "اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى " 8 الدالة على معنى التقديس والتحميد والتبجيل لتعظيم الربوبية والأفعال التي هي نهاية في الحسن من الأسماء التي فضلت على سائر الأسماء ، والله تعالى واحد في ذاته وان افترقت عبارات صفاته ، وفيها رد على قول الكفرة القائلين حينما سمعوا حضرة الرسول يقول يا رحمن .

إنك تنهانا عن تعدد الآلهة وتدعو آلهة متعددة .

فأجابهم بأن الإله واحد وهو المعني بقوله لا إله إلا هو وإن له أسماء أخر ، هنّ صفاته جل شأنه وعظمت صفاته ، قال صلى الله عليه وسلم :

إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها وفي رواية من حفظها دخل الجنة وكلها موجودة في القرآن صراحة ، ويوجد اسم آخر له مكنون في غيبه وعلمه يعلمه الراسخون في العلم وهو اسمه الأعظم الذي لا يرد من دعاه به ، وهي هو الله لا إله إلا هو 1 الرحمن 2 الرحيم 3 الملك 4 القدّوس 5 السلام 6 المؤمن 7 المهيمن 8 العزيز 9 الجبار 10 المتكبر 11 الخالق 12 البارئ 13 المصور 14 الغفار 15 القهار 16 الوهاب 17 الرزاق 18 الفتاح 19

العليم 20 القابض 21 الباسط 22 الخافض 23 الرافع 24 المعز 25 المذل 26 السميع 27 البصير 28 الحكم 29 العدل 30 اللطيف 31 الخبير 32 الحليم 33 العظيم 34 الغفور 35 الشكور 36 العلي 37 الكبير 38 الحفيظ 39 المغيث 40 الحسيب 41 الجليل 42 الكريم 43 الرقيب 44 المجيب 45 الواسع 46 الحكيم 47 الودود 48 المجيد 49 الباعث 50 الشهيد 51 الحق 52 الوكيل 53 القوي 54 المتين 55 الوليّ 56

(110/493)

المجيد 57 المحيي 58 المميت 59 المحصي 60 المبدي 61 الباقي 62 المعيد 63 الحي 64 القيوم 65 الواجد 66 الماجد 67 الواحد 68 الأحد 69 الصمد 70 المقتدر 71 القادر 72 المقدم 73 المؤخر 74 الأول 75 الآخر 76 الظاهر 77 الباطن 78 الوالي 79 المتعالي 80 البر 81 التواب 82 المنتقم 83 العفو 84 الرؤوف 85 مالك الملك 86 ذو الجلال والإكرام 87 المقسط 88 الجامع 89 الغني 90 المغني 91 المعطي 92 المانع 93 الضار 94 النافع 95 النور 96 الهادي 97 البديع 98 الوارث 99 الصبور 100 المرشد واعلم أن بعضهم لم يعد المعطى من الأسماء الحسنى ،

لذلك بلغت هنا 100 وبحذفه تبقى 99 وسنأتي على معانيها في محالها كل في موضعه إن شاء اللّه من آيات الذكر الحكيم ، فمن هذه الأسماء الدالة على المعاني الحسنة ما يستحقه اللّه تعالى بحقائقه كالقديم قبل كل شيء والباقي بعد كل شيء ، والقادر على كل شيء ، والعالم بكل شيء ، والواحد الذي ليس كمثله شيء ، ومنها ما تستحسنه الأنفس لآثارها ، كالغفور والرحيم والشكور والحليم ، ومنها ما يوجب التخلق به كالكرم والعفو والصبر والستر ، ومنها ما يوجب مراقبة الأحوال كالسميع والبصير والمقتدر والرقيب ، ومنها ما يوجب الإجلال كالعظيم والجبار والمتكبر والجليل .

واللّه جل شأنه له أسماء غير هذه لا تعد ولا تحصى لأنه له في كل شيء اسم كما أن له في كل شيء آية على وحدانيته وعلى كل أحد حجة في معانيها ، وقد سبق أن بينا في الآية 179 من سورة الأعراف المارة شيئا من هذا فراجعه .

قال تعالى "وَهَلْ أَتَاكَ" يا سيد الخلق "حَدِيثُ مُوسى " 9 في بداية نبوته وما لاقاه من قومه عند إرساله إليهم .

مطلب فوائد تكرار القصص :

والقصد من تكرار هذه القصص ونحوها طورا باختصار ، وتارة بإسهاب ، ومرة بتوسط ، أمور : (1) التفنن بالبلاغة لأن إفادة المعنى بالموجز منها بوجه أبلغ كإفادته بصورة مطنبة من نوع الإعجاز والتحدّي (2) تسلية حضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم بإطلاعه على ما قاسته الأنبياء قبله من أقوامهم ليهون عليه ما يلاقيه من قومه (3) أن تكون العاقبة بالنصر والظفر لحضرته كما كانت للأنبياء الذين يعلم بقصصهم على طريق البشارة (4) إعلام قومه بأن ما يوحى اليه هو من الإخبار (بالغيب) وانه من اللّه حق لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يفارقهم ليظن به أنه تعلم أو سمعه من الغير (5) أن يعلم حضرة الرسول أن الصبر على الشدائد وتحمل الأذى هو من شأن الأنبياء كلهم لا من خصائصه وحده .

هذا ، وقد سبق أن بيّنا فوائد التكرار وأسبابه في الآية 17 من الأعراف المارة فراجعها ، واعلم أن قصة السيدين موسى وهرون مع قومهما وقصة آدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة تكررت في المكي والمدني من القرآن العظيم ، أما قصص سائر الأنبياء فلم تكرر إلا بالمكي منه على التفصيل وقد يأتي ذكرها في المدني في بعض السور إشارة وإلماعا بسائق تعداد ما وقع للأنبياء مع قومهم وسياق تعداد فضائلهم وما منحهم اللّه من الكرامات ، وسنأتي على بيان هذا ان شاء اللّه عند ذكر كل قصة "إِذْ رَأَى نَاراً" حال مجيئه وأهله من مدين بلدة شعيب عليه السلام وذهابه إلى مصر لزيارة أمه وأخيه "فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا"

مكانكم هذا لا تبرحوه ، وكان الوقت ليلا وشتاء باردا "إِنِّي آنَسْتُ" أبصرت ما يؤنس به ورأيت هناك "نارا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ" شعلة تستدنؤن بها ، وقد جمع الضمير لأنه كان مع أهله ولد وخادم أو على طريق التفخيم كقوله :

(112/493)

وإن شئت حرمت النساء سواكم "أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً" 10 نهتدي به إلى الطريق لأنهم ضلّوه بسبب ظلمة الليل ، وكأن اللّه تعالى أنطقه بهذا اللفظ إلى التوصل للهدى الحقيقي الذي هو سبب تشريفه بالنبوة العظمى والرسالة الكبرى ، وكان كذلك لأنه عليه السلام لما قضى الأجل إلى عمه السيد شعيب كما سيأتي ذكره في الآية 49 من سورة القصص الآتية فما بعدها ، وتزوج ابنته وبقي مدة بعد زواجه بها ، استأذنه بالرجوع إلى مصر بلده ومسقط رأسه فخرج بأهله ونعمه ، وأخذ يمشي بهم على غير الطريق المسلوكة ليلا لئلا يتعرضه أحد لعدم أمن الطريق ، وكانت امرأته في شهرها

لا يدري أتضع ليلا أم نهارا ، فألجأه السير إلى جانب الطور الغربي الأيمن بالنسبة له ، لأن الجبل لا يمين له ولا شمال ، فأخذ امرأته الطلق وولدت ، فجمع حطبا وصار يقدح زنده (وتسميه العامة زنادا ويقال أورى إذا قدح ، وصلد إذا لم يقدح) فلم يور فنظر إلى جهة

الطور ، فإذا هو بنور ظنه نارا ، وما أحسن هذا الضلال إذ كان فيه الهدى ، وكان ابن الفارض رحمه اللّه ألمع إلى هذا بقوله :

ما بين ظال المنحنى وظلاله ضل الميتم واهتدى بضلاله

وما أحسن هذا الجناس والمقابلة بين ظال وضل وظلاله وضلاله

(113/493)

"فَلَمَّا أَتاها" أي النار التي رآها عن بعد ليقتبس منها فنأت عنه ، فنأى عنها ، فدنت إليه ، فوقف متحيرا ، إن أقدم إليها تأخرت وإن تأخر عنها دنت منه ، فعند ذلك "نُودِيَ" من قبل حضرة القدس "يا مُوسى 11 إِنِّي أَنَا رَبُّكَ" وهذا هو الإرهاص بعينه ، راجع معناه في بحث الوحي في المقدمة ، وذلك لأنه لم يتنبأ بعد حتى تظهر له الخوارق على طريق التحدي الذي هو من شأن النبوّة ، فوقف ولم يعلم ما يفعل ، فأمره ربه بقوله "فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ" لتباشر رجلاك الأرض المقدسة فتصيبها بركة الوادي الذي هو فيه إذ انتشر فيه نور الإله ، وإجلالا لنور تلك الحضرة المقدسة ، إذ لا يليق أن يخوض ذلك النور وهو متنعّل .

وما قيل إنها كانتا من جلد حمار ميت فغير ثابت ، وما استدل به على هذا في الحديث الذي أخرجه الترمذي بسنده عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : كان على موسى عليه

السلام يوم كلمه ربه كساء صوف وجبّة صوف وكمة صوف (أي قلنصوة صغيرة)

وسراويل صوف وكانت نعلاه من جلد حمار .

ولم يذكر فيه أنه ميت والرواية التي فيها لفظة ميت غريبة لم تثبت ، وأنه عليه السلام خلعهما حالا وطرحهما وراء الوادي ، يدل على هذا قوله عز قوله "إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً" 12 فإن هذه الآية جاءت تعليلا لذلك الأمر ، إذ لا ينبغي أن يداس هذا الوادي المقدس بنور الإله من قبل أحد ما وهو متنعل "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ" من قومك ومن الناس أجمعين ، لأن أشرفك بنبوتي ورسالتي وأرسلك لهداية خلقي "فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى " 13

(114/493)

إليك فيما يتعلق بأمرها ، قال وهب بن منبه : قال موسى عليه السلام بعد أن وطنه ربه بما تقدم من النداء والأمر والاصطفاء رب إني اسمع كلامك ولا أراك ولا أعلم مكانك ، فأين أنت رب ؟ فقال يا موسى أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك منك "إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي" وحدي فأنا المستحق للعبادة وأرفض ما سواي ، فإنهم خلقي وصنع خلقي .

مطلب جواب إمام الحرمين عن المكان ورفع الأيدي إلى السماء :

يروى أن إمام الحرمين – رفع اللّه درجته في الدارين – نزل ضيفا عند بعض الأكابر ، فاجتمع عنده العلماء فقام واحد من المجلس وقال له : ما الدليل على تنزيه اللّه تعالى عن المكان وقد قال (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى) ؟ فقال : الدليل عليه قول يونس عليه السلام في بطن الحوت فتعجب الحاضرون ، والتمس صاحب البيت بيان ذلك ، فقال الإمام إن في الباب فقيرا عليه ألف درهم أدّها عنه وأنا أبيّن لك ذلك ، فقبل ، فقال إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما عرج به إلى ما شاء اللّه من العلى قال لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

(115/493)

ولما ابتلى يونس بالظلمات في قعر البحر ببطن الحوت قال (لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) الآية 87 من سورة الأنبياء في ج 2 ، فكل منهما خاطب الإله بقوله أنت خطاب الحضور ، فلو كان هو في مكان لما صح ذلك ، فدل هذا على أنه جلت قدرته ليس في مكان بل هو في كل مكان بآثاره وصفاته وأنواره ، لا بذاته ، كما أن الشمس في كل مكان بنورها وظهورها لا بوجودها وعينها ، ولو كان في كل مكان بالمعنى الذي أراده بعض الجهلة لقيل أين هو ، كان قبل خلق هذه العوالم ، ألم يكن له وجود متحقق ؟ فان قالوا لا ،

فقد كفروا ، وإن قالوا بالحلول والانتقال فكذلك ، لأن الواجب لا يقارن الحادث إلا بالتأثير والفيض وظهور الكمالات فيه ، لكن لا من حيث أنه حادث مطلقا ، بل من حيث أن وجوده مستفاض منه ، ولعلك تقول أيها المعترض لما ذا ترفع له الأيدي نحو السماء إذا لم يكن فيها ، فاعلم أيها العاقل هداك اللّه لتوفيقه وأرشدك لسلوك طريقه ، أن معنى رفع الأيدي إلى السماء هو طلب الاستعطاء من الخزانة التي نوه بها في قوله عز قوله (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) الآية 23 من الذاريات في ج 2 ، وقوله جل قوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) الآية 21 من سورة الحجر في ج 2 أيضا ، وإن الذي استوى على العرش هو مظهر الصفة الرحمانية ، ومن أثبت له مكانا بالمعنى المعلوم فهو من المجسمة ، واللّه منزه عن الجسم اه بتصرف عن روح البيان .

(116/493)

هذا ولما سمع موسى عليه السلام هذا النداء المتكرر والأمر بالاستماع عقبه الأمر بالعبادة ، علم بإلهام اللّه إياه أن ذلك لا يكون ولا ينبغي أن يكون إلا من اللّه ، وأيقن به ، وتأهب لمقام الهيبة والجلال لاستماع الأمر العظيم الذي أمره به ، واعترف له بالعبودية وأصغى لما يكون بعدها من الأمر ، قال تعالى "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" 14 خاصة لأني ذكرتها في الكتب

القديمة وأمرت اخوانك الأنبياء بإقامتها فأقمها مثلهم .

هذا ، ومن قال إن المراد بهذا الأمر ، إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها ، أي اقضها ، لا وجه له ، لأن الصلاة لم تفرض عليه بعد حتى يعلمه ما يتعلق بها .

مطلب فضل الصلاة الفائتة :

ان ما احتج به هذا القائل في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من نسي صلاة فليصلّ إذا ذكرها لا كفارة له إلا ذلك .

وتلا قتادة (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) وفي رواية عن أبي هريرة أنه صلى اللّه عليه وسلم نام عن صلاة الصبح فلما قضاها قال : من نسي صلاة فليقضها إذا ذكرها .

وفي رواية إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلّها إذا ذكرها ، فإن اللّه عز وجل قال (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) لا يصح دليلا على ما نحن فيه لما قدمناه ، وإنما يصح دليلا لنا إذا قدر مضافا محذوفا أي لذكر صلاتي ، وقد ظن هذا القائل أن الحديث لو لم يحمل على هذا لم يصح التعليل به ، وهو من بعض الظن ، لأن التعليل صحيح من غير أن يحمل الحديث على الآية ، وأنه عليه السلام أراد بهذا الحديث أنه إذا

ذكر الصلاة انتقل من ذكرها إلى ذكر ما شرعت له ، وهو ذكر اللّه تعالى المأمور به في هذه الآية ، فيحمله على إقامتها لاشتمالها على الذكر ، وقد صادف هذا البحث حادثة غريبة عن التفسير المبارك مناسبة للمقام فأحببت ذكرها ، وهي اني كنت في المحكمة في الساعة الرابعة من يوم الخميس 1 جمادى الآخرة سنة 1357 واشتغلت كعادتي في هذا التفسير وأجهدت نفسي في مطالعة التفاسير في آية الاستواء المارّة ولم أحس بأني لم أصل الظهر إلا عند كتابة هذه الأحاديث ، وكان العصر يؤذن فتفاءلت بها بأن اللّه تعالى لم يؤاخذني وتسليت بما وقع لحضرة الرسول يوم الخندق ويوم الأحزاب ، وإلى سليمان في حادثة الخيل وقد ألمعنا إليها في الآية 33 من سورة ص المارة ، لأنه لم يفتني والحمد للّه وقت قط ، فمقت وصليت الظهر ثم العصر واستغفرت اللّه تعالى من هذه الغفوة ، ثم عدت لما أنا فيه قال تعالى "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ" لا محالة لأن خراب الكون متوقف عليها ، وجاء بذكر الساعة هنا لأن قوم موسى الذي أمره اللّه في هذه الآية بدعوتهم للايمان ينكرونها ، لأن فرعون وقومه القبط يعبدون الأوثان ، ولأن الاعتقاد بوجودها من أصول الدين ومتعلق آمال الموحدين ، جعلها اللّه في الدرجة الثالثة إذ ذكرها بعد توحيده وإقامة الصلاة لذكره ، وأكدها بحرف التوكيد ، وكأن موسى عليه السلام تشوف ليعلم وقت مجيء الساعة لأن من أرسله إليهم ينكرونها أسوة بمن تقدم من الكفرة أمثالهم فقال تعالى "أَكَادُ أُخْفِيها" حتى عن نفسي فكيف أظهرها لك أو أظهرك عليها وكيف يعلمها مخلوق وهي من خصائص

الخالق ، وهذا جري على عادة العرب المنزل عليهم هذا القرآن بلغتهم ، إن أحدهم إذا أراد المبالغة في كتمان السر قال كدت أخفيه عن نفسي ، ويؤيد هذا التفسير الذي اخترته على غيره قوله صلى اللّه عليه وسلم في حديث الذين يظلهم اللّه تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها (عن نفسه) حتى

(118/493)

لا تعلم شماله ما تنفق يمينه – مبالغة في الإخفاء – وبه قال ابن عباس وجعفر الصادق ، أما ما جاء في مصحف أبيّ ومصحف ابن خالويه وعبد اللّه بزيادة (فكيف أظهرها) فليس من القرآن وإنما هو من تفسيرهم لهذه الآية إذ كانوا يكتبون بهامش مصاحفهم أو بين سطوره ما يقفون عليه من بعض الكلمات التي يتلقونها من حضرة الرسول أو مما اجتهادهم لمعناها ، ومن شواهد قوله :

أيام تصحبني هند وأخبرها ما كدت أكتمه عني من الخبر

وقبل إن خبر كاد محذوف تقديره آتي بها على حد قول صائبي الرجمي :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

أي وكدت أفعل ثم استأنف وقال وليتني وليس بشيء ، وما جرينا عليه أو هذا ، وقد

ذكرت غير مرة أن كل قراءة فيها زيادة حرف أو نقصه على القرآن الذي بأيدينا لا عبرة بها ، ولا تجوز قراءتها لأن هذا القرآن هو بعيد أنزله اللّه لا زيادة ولا نقص فيه .

واعلم يقينا أن كل ما نقل عن بعض العلم القراء زيادة كلمة أو حرف على ما في القرآن هي شروح وتفاسير كتبها القائلون بها على هوامش مصحفهم ليس إلا ، إذ لا يجوز أن يقال في بعض المصاحف زيادة أو نقص على بعضها قطعا ، والقول به حرام راجع تفسير الآية 19 من سورة الحجر في ج 2 .

وبحث القراءات في مطلب الناسخ والمنسوخ في المقدمة المارة .

قال تعالى "لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعى " 15 تعمل في هذه الدنيا إن خيرا فخير وإن فشر "فَلا يَصُدَّنَّكَ" يا رسول "عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها" من قوم فرعون وغيرهم الجاحدين وجودها المتوغلين في الغفلة المعنيين بقوله "وَاتَّبَعَ هَواهُ" بما تسول له نفسه من النزغات الشيطانية واللذات البهيمية والشهوات الخسيسة فتصده عن الإيمان بها "فَتَرْدى " توقع نفسك في الردى والهلاك ، لأن إغفالها إغفال تحصيل ما ينجي من هولها .

(119/493)

ثم أراد جل شأنه أن يريه آية على رسالته فقال "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى " 17 وهذا سؤال لتقرير الحكم منه أن يوقفه أولا على ماهية ما بيده وينبهه على ما يريد بها وما سيظهره له بها من العجائب ، حتى إذا صيّرها لا يهوله أمرها ، ويوطن نفسه عليها ، وليعلم أنها معجزة له وبرهان على نبي "قالَ هِيَ عَصايَ" أضافها لنفسه لأنها بيده .

مطلب عصا موسى وإعطاء محمد من نوع ما حدث للرسل وأعظم :

قيل كان للعصا شعبتان وفي أسفلها سنان واسمها نبعة ، أخذها من بيت شعيب عليه السلام ، وقيل إنها من آس الجنة وقد هبط بها آدم عليه السلام .

واعلم أن زيادة التاء قبل الياء لحن ، قالوا أول لحن وقع في العرب (هذه عصاتي) ثم بيّن ما يروم بها عفوا فقال "أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها" أي أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقه "عَلى غَنَمِي" فترعاه ، وهذا معنى الهش "وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى " 18 كحمل الزاد وشد الحبل عند استقاء الماء من البئر وقتل الهوام ومحاربة السباع وتعليق الثوب بها للاستظلال تحتها وغيرها ، ولكنه عليه السلام لم يعلم المأرب الأعظم الذي يريده اللّه تعالى بها وهو معجزته العظيمة التي يرفع اللّه بها شأنه ، ويهدي بها قومه "قالَ أَلْقِها يا مُوسى " 19 لأريك ماذا أريد بها مما لا يقع ببالك بما يؤول إليه عزّك وسلطانك وإنقاذ قومك وإرشادهم "فَأَلْقاها" ليرى الذي يريده ربه منها "فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى " 20 تمشي بسرعة وقد سماها اللّه ثعبانا في الآية 107 من الأعراف المارة ، وجانّا في الآية 10 من سورة

النحل الآتية ، والحية تطلق على الصغيرة والكبيرة ، لأنه أول ما ألقاها رآها بنظره صغيرة ، ثم انتفخت حتى صارت كأعظم ثعبان ، تلقف الحجر وتبلع الشجر وتلقم ما تراه ، فترعب من لا يعرف الرعب ، فخاف منها وتباعد عنها موليا إذ رأى ما لم يكن بالحسبان ، فأراد ربه أن يوطنه ويؤمنه

(120/493)

"قالَ" يا موسى إرجع إليها وادن منها "خُذْها وَلا تَخَفْ" منها ، لأنها حجة لك على صحة دعوتك عند ما يطلب منك برهانا لتقوية دعوتك على عدوك ، أما وقد أطلعناك على ما ينجم من إلقائها فاعلم يا رسولي أننا بمطلق مناداتك لها (سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى) 21 التي كانت عليها قبل الإلقاء ، فأخذها ، فعادت كما هي عصا ، ثم نبهه على آية أخرى برهانا على نبوته أيضا بقوله "وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ" اجعلها تحت إبطك ، والجناح لغة اليد والعضد والإبط والجانب ، وهو حقيقة في الطير ثم توسع فيه فأطلق على اليد ، وسمي جناحا لأنه يجنح بالطائر فيميله إذا طار ، ثم أخرجها "تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" برص

(121/493)

و السوء يطلق على العيب ، والبرص لا اعيب منه ، وهو بياض شديد يضرب إلى الحمرة أعيا الأطباء زواله ، فأدخل يده اليمنى تحت إبطه الأيسر وأخرجها فإذا هي تبرق بياضا ناصعا مع أنها سمراء ، فقال له انظر هذه "آيَةً أُخْرَى " 22 على صدق دعوتك إلى القبط وقومك ، وهاتان الآيتان توطئة "لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى " 23 الدالة على عظمتنا ، راجع الآية 129 من الأعراف المارة وما بعدها ، تقوية لجنانك وتكريما لجنابك ، فتقابلهم بالجزم والعزم لأنك مستند إلينا في دعوتك ، فلا تخش تهويلهم فإنهم مغلوبون ، ولا يخفى أن كل آية آتاها اللّه رسله ، فقد أعطى من نوعها رسوله محمدا صلى اللّه عليه وسلم وأعظم ، وقد قال في حقه (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) الآية 18 من سورة النجم المارة ، ووجه أفضليتها ، أن معجزاته عليه السلام هذه كانت في الأرض ومعجزة محمد صلى اللّه عليه وسلم في السماء ، والفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء ، ويقابل معجزة اليد في الأرض نبع الماء من إصبعه في غزوة تبوك فقد شرب الجيش منه ، ورمي التراب في وجوه القوم في غزوة أحد فانهزموا ، وتسبيح الحصى في يده ، وذر التراب على رؤوس شبان المشركين يوم أحاطوا به ليقتلوه فخرج من بينهم ولم يروه ، وسنأتي على تفصيل هذا كله وغيره في موضعه إن شاء اللّه في القسم المدني .

هذا ، وبعد أن شرفه اللّه بالنبوة وقوى عزمه بما منّ عليه من تلك المعجزات ، وشحه بالرسالة العظمى وقال له "اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى " 24 وبغى وتجاوز الحد في التّمرد وحتى ادعى الإلهية بطرا ، ودعته نفسه الخبيثة إلى هذا التجبّر والتكبر الذي لم يسبقه به إلا أخوه نمرود ، الآتية قصّته في الآية 71 من سورة الأنبياء في ج 2 ، وفرعون علم لملك مصر واسمه الوليد بن الريان ، ولما رأى موسى فضل ربه عليه وعطفه ولطفه به استمطر خيره ، وطلب من فيضه ما ألهمه به "قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي" 25 وسّعه لتحمل مشاق سيئي الأخلاق وإملائه معرفة بك وعرفانا منك لأجابهه بقوة سلطانك وعظمة قهرك "وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي" 26 بالوصول إليه وسهل لي كل صعب ألاقيه في طريقي إليه وفي مقابلتي له "وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي 27 يَفْقَهُوا قَوْلِي" 28 لأعبّر عما في جناني بطلاقة وفصاحة لمن أرسلتني إليهم

ولأبلغ رسالتك على الوجه الأتم الأكمل ، وسبب حصول هذه العقدة على ما قيل ان موسى عليه السلام لما كان في حجر فرعون حال صغره لطمه ، وأخذ بلحيته فتطيّر منه وهم بقتله فمنعته زوجته آسيا رحمها اللّه قالت له أتركه فإنه لا يعقل ، وجربه إن شئت ،

فقال كيف وقد فعل ما فعل ؟ فقالت على رسلك وانظر ، فوضعت في طست جمرا وتمرا وياقوتا وقدمته له ثم أشارت إليه أن يأخذ أحدها فأراد أن يأخذ الياقوت ومد يده إليها فحرفها جبريل عليه السلام إلى الجمر فأخذ جمرة ووضعها في فمه فحرقت لسانه وسببت هذه العقدة فيه ، فلما رأى فرعون ذلك تركه إذ ظهر له ما قالت آسيا رحمها اللّه .

(123/493)

واعلم أن هذه ليست من العيوب المستحيل وجودها في الأنبياء لأن ثقل اللسان قد لا ينقص قدر الإنسان ولا يخل في أمر التبليغ وليس فيه ثغرة ، بل قد تكون مما يستعذب في بعض الاشخاص ولا سيما في حضرة السيد موسى عليه السلام ، وما قيل إن هرون أفصح منه ، فمن هذه الجهة ، وإلا فهو على غاية من الفصاحة والبلاغة ، وقول فرعون (وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) الآية 53 من سورة الزخرف في ج 2 تمويه على قومه ليصرفهم عنه ليس إلا ، وقد ذكروا أنه كان في لسان المهدي المنتظر

مجيئه حبسة ، وقد جاء في فضله ما لم يحصره القلم ، لأن فصاحة الذات لا يقاومها إعراب الكلمات ، وفي هذا قال :

سر الفصاحة كامن في المعدن لخصائص الأرواح لا في الألسن

وقال الآخر :

لسان فصيح معرب في كلامه فياليته في موقف الحشر يسلم

وما ينفع الإعراب ما لم يكن تقى وما ضرّ ذا التقوى لسان معجم

والمراد باللسان الآلة الجارحة نفسها ، وفسره بعضهم بالقوة الناطقة القائمة فيه ، والفقه العلم بالشيء والفهم له ، وقال الراغب هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص من العلمقال تعالى (وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي" 29 يعاونني في أعباء ما كلفتني به ، فالوزر بكسر فسكون ، بمعنى الحمل الثقيل .

مطلب الوزير والوزر دائرة بلطف اللّه بموسى واجابة مطالبه : ؟ ؟

وسمي القائم ببعض الأمور الملكية وزيرا لأنه يحمل عن الملك بعض ثقلها ، أما الوزر بفتحتين فراجع معناه في الآية 11 من سورة القيمة المارة ، ثم بيّن الوزير الذي يريده بقوله "هارُونَ أَخِي 30 اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي" 31 قوّ به ظهري وأحكم به قوتي ليساعدني على مهمتي "وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي" 32 الذي شرفتني به ، وهو الرسالة ليقوم مقامي عند غيابي في إرشاد من أرسلتني إليهم ، ويعاضدني في حضوري عند دعوتي إليهم ، هذا وإن موسى عليه السلام أول من طلب هذا الطلب من ربه فأجابه :

وإذا سخر الإله سعيدا لأناس فإنهم سعداء

"كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً" 33 أنا وإياه ليل نهار "وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً" 34 وهذه غاية للأدعية الثلاثة في هذه الآية ، لأن انضمام فعل هرون لعمل موسى مكثر له ومؤيد "إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً" 35 عالما بأحوالنا مشاهدا لها وإن ما دعوتك به مما يصلحنا ويقوينا ، لإنفاذ أمرك ويسهل علينا تبليغ رسالتك ، فأجابه جلت إجابته بقوله "قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى " 36 كله فقد أزلنا العقدة من لسانك ونبأنا أخاك هرون وجعلناه معاونا لك تتقوى به كما طلبت ، وهذا دليل كاف على رسالة هرون عليه السلام ، فلا وجه لمن نفاها لأن السؤال معاد بالجواب قال تعالى "وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى " 37 قبل هذه المنن الثلاث بلا سؤال منك ، إذ لم تكن إذ ذاك مميزا إذ كنت في بدء رضاعك ، وقد خافت أمك من اطلاع قوم فرعون عليك فيأخذونك ويقتلونك ، ثم بين تلك المنة بقوله عز قوله "إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى " 38 بأن ألهمناها وأنت جنين حينما كانت خائفة من وضعك أن يكون نصيبك نصيب أمثالك من القتل ، حين ولادتك ، لأن فرعون كان يقتل المولودين أمثالك ، ما يحفظك به منه ، فأشرنا لها "أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ" بعد أن ولدته وقد حفظناك من شرطة فرعون ، لعلمنا بأن أمك لا تزال قلقة من أجلك ، والتابوت

هو الصندوق ، واليم البحر بالسريانية والعبرية والعربية ، وكل نهر كبير يسمى يمّا كالنيل ودجلة والفرات وغيرها ، وقد أعلمناها بأنا حافظوه مما تخاف عليه ، ونتيجة هذا الإلقاء وهو "فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ" لأنا أمرنا البحر أن لا يأخذه بل يطرحه على الشاطئ قريبا من فرعون "يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ" وهو فرعون إذ يمر قسم من النيل في داره ، وكان ذلك ، ولما رأى فرعون ذلك التابوت رسا في ساحله ، أمر الجواري بإخراجه ، فأخرجوه ففتحه فإذا فيه غلام ألقى اللّه محبته في قلبه ، بحيث لم يتمالك نفسه وعقله من فرط محبته له ، وذلك قوله تعالى "وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي" وأنساه اللّه في تلك الساعة أمره بقتل الأولاد ليتم مراد اللّه فيه ، وأمر بتربيته في حجره ، قال تعالى "وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي" 39 تربّى بمرأى مني عند عدوك وعدوّي ، وإني مراقبك ومراعيك كما يراقب ويرعى الرجل الحريص شيئا بعينه ، ولكن شتان بين مراعاتي ومراعاة عبدي ، واذكر يا موسى ترادف منني عليك "إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ" مريم بنت عمران وهذه التي شبهت بها مريم أم عيسى عليه السلام في الآية 28 من سورة مريم المارة ، لما بين الاثنتين من الشبه في العفة والطهارة والكرامة والمحتد وعلو النّسب والحسب ، وذلك أن أمك بعد أن طرحتك في اليم ضاق

ذرعها ، فأرسلتها لتعرف خبرك لشدة ما حل بها من الخوف عليك ، فوجدتك في بيت فرعون يتحرون لك ظئرا ، فألهمناها أن تتطفل بالكلام "فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ" يقوم بإرضاعه وتربيته كما تريدون ، وذلك لأنه أبى قبول ثدي المرضعات اللاتي أحضرنهن له ، كما سيأتي في الآية 12 من سورة القصص ، فقالوا لها نعم ، فأحضرت لهم أمك ، فأخذت ثديها وأعماهم اللّه ربك عن التحقيق عنها فلم يعلموا أنها أمك وهذه أعظم منة عليك وعليها "فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ

(126/493)

عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ" على فراقك ولتربيك في حنوها ، إذ لا شفقة أعظم من شفقة الأم ، إلا رأفة ربك على عباده ، ورأفة الرسول على أمته ، "وَ" من جملة ألطافي عليك ، أنك بعد أن كبرت "قَتَلْتَ نَفْساً" من قوم فرعون سنأتي قصته في الآية 69 من سورة القصص الآتية "فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ" الذي لحقك بسبب قتله ، وآمنّاك من القصاص "وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً" في الوقوع من محنة إلى أخرى ، لأنك ولدت في السنة التي يذبح بها فرعون المواليد ، ثم ألقيت في البحر تخلصا من القتل ، ثم التقطك عدوك الذي قتل الألوف ليحظى بقتلك ، ثم حرمنا عليك المراضع حتى أحضرنا لك أمك فربتك في بيت عدوك ، ثم لطمت فرعون وأخذت

بلحيته حتى هم بقتلك ، فنجيناك بما ألهمنا آسية زوجته ، ثم قتلت القبطي انتصارا لرجل من قومك ، ثم هاجرت إلى مدين خوفا من فرعون وآله "فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ" اسم لجد القبيلة ، سميت باسمه وهي واقعة على بحر القلزم محاذية لمدينة تبوك الواقعة بين الشام والمدينة على بعد ست مراحل منها ، وقيل هي في كورة مصر أو بين دمشق وفلسطين ، وقد شدّدنا هذا التشديد ، وامتحناك

هذا الامتحان ، وغفرنا لك ما وقع منك في الدنيا ، وسنثيبك الثواب العظيم في الآخرة ولتعلم بأنا منجوك وناصروك من جميع محن الدنيا ، وهذا من نعمتنا الجزيلة عليك تمهيدا للنعمة الكبرى التي هي الرسالة المؤيدة بالآيات العظام والتي يؤول أمرها إلى دار السلام ، فنزلت عند نبيّنا شعيب ، فزوجك ابنته وأكرم مثواك "ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسى " 40 وهو بلوغك رشدك وأشدك وهو سن الأربعين المقدر في علمنا تتويجك فيه بالرسالة ، وكان مكثك عنده ورعيك لأغنامه وتزويج ابنته انتظارا لهذا الوقت والموعد والمكان الذي خصّصته لك لتلقّيها

"وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي" 41 خاصة فقد اخترتك لتنفيذ أمرى ، وأهلتك لتلقي وحيي ، وجعلتك قائما بحجتي .

مطلب لا صحة لما ورد من أن اللّه لم ينبىء نبيا إلا بعد الأربعين :

قالوا كان عمره عليه السلام حين هاجر اثنتي عشرة سنة ، وبقي راعيا عند شعيب عشر سنين ثم تزوج بنته في هذه السن ، وبقي بعد زواجه ثماني عشرة سنة ، ثم أخذها وسافر إلى مصر بعد إكمال الأربعين ، وهي السن التي يتمكن معها أمثاله من تحمل خطاب اللّه تعالى ، عدا يوسف عليه السلام فإنه نبىء في البير لثماني عشرة سنة من عمره ، كما جاء في الآية 22 من سورته في ج 2 ويحيى في السابعة من عمره سمي نبيّا

(128/493)

في الآية 12 من سورة مريم المارة ، وعيسى نبيّء في المهد كما تشير إليه الآية 30 من سورة مريم أيضا ، فيكون عمره واللّه أعلم إذ ذاك أربعين يوما ، أي حين مغادرتها بيت لحم محل ولادته ، ولهذا فإن ما ورد في الحديث بأن اللّه تعالى لم ينبىء نبيا أو يرسل رسولا إلا بعد الأربعين سنة من عمره لا صحة له لمخالفته نص القرآن كما هو مبين في الآيات المشار إليها ، قال تعالى بعد أن أجاب طلبه وعدد نعمه عليه "اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ" إلى فرعون وقومه (بآياتي) التي أظهرتها لك والتي سنظهرها بعد علامة على رسالتك "وَلا تَنِيا" تقصّرا أو

تفترا أو تتأخرا "فِي ذِكْرِي" 42 بل داوما عليه حال دعوتكما له ومجداني بما يليق بجلالي واذكرا عظمتي" وعزتي وكبريائي وصفاتي الجليلة واسمائي الحسنى وأفعالي الجميلة عند تبليغ الرسالة فرعون لكما عليها وهذا ملاك ذكر اللّه "اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى " 43 على عبادي وتجبر عليّ ولكن عند ما تكلمانه تقدما اليه بالنصح وتلطفا به وتعطفا عليه "فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنا" من غير تعسف ولا عنف وقد أجدر بالقبول من جهة ، ومن اخرى جزاء حق تربيته لأحدكما وإكراما لمقامه بين قومه ، وفائدة أخرى وهي "لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ" في وعظكما ويتأمل معناه عله يذعن للحق الذي أمرتماه به "أَوْ يَخْشى " 44 عاقبة الأمر فيسلم لكما على رغبة فيما يراه ورهبة مما يتوقعه ، وإنما ذكر اللّه رسوله بهذا وأمرهما بالتراخي وعدم الغلظة دفعا للحجة وتقديما للمعذرة ، وإلا فهو عالم أنه لا تنفعه الذكرى لأن إرسال الرسل إلى من يعلم أنهم لا يؤمنون لالزام الحجة عليهم ، وقطع طرق المعذرة لهم راجع الآية 144 من الأعراف المارة ولمعناها صلة في الآية 134 من هذه السورة ، هذا ، وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ (فَقُولا لَهُ) إلخ فبكى وقال إلهي هذا رفقك بمن قال أنا الإله ، فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله "قالا

رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا " فلا يقبل منا ويعجل عقوبتنا قبل إتمام الدعوة إليه لأن الفرط هو ما يتقدم الشيء "أَوْ أَنْ يَطْغى " 45 علينا فيتجاوز الحد ويقول في شأنك ما لا ينبغي أن يقال وهو أعظم من التفريط بحقنا والافراط بما يقع منه علينا

"قالَ لا تَخافا " من هذين الأمرين ولا من غيرهما "إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ" دعاء كما فأجبيه "وَأَرى " 46 ما يراد بكما إن كان خير فأمضيه وان كان شرا فأمنعه "فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ" إليك أمرنا أن نقول لك "فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ" بالأشغال الشاقة كحفر الآبار وقطع الأشجار ونقل الأحجار والخدمة الشاقة وغيرها "قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ" عظيمة "مِنْ رَبِّكَ" تثبت صدقنا ، وهذا إيذان بأن دعواه الربوبية زور ، إذ لا ربّ إلا اللّه ، وتنويه بكذب دعواه إياها أمام قومه ، لذلك سكت عن هذه الجهة ، لأنه يعرفها ، وقال لها ما هي الآية ، فأخرج له موسى يده لها شعاع كالشمس ، فأعرض عنهما ولم يلق لهما بالا ولم يلتفت لتلك الآية ، فقالا له "وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى " 47 الذي يأتيه من ربه وليس المراد سلام التحية ، إذ لا محل له هنا بل سلام المتاركة المار ذكره في الآية 42 من سورة مريم أي الأمن من العذاب في الدارين لمن يهتدي بالهدى ثم قالا له "إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا " من قبل اللّه الذي أرسلنا إليك "أَنَّ الْعَذابَ" في الآخرة "عَلى مَنْ كَذَّبَ" باللّه ورسوله وكتبه "وَتَوَلَّى " 48 أعرض عن ذلك "قالَ" فرعون بعد أن رآهما جاهرا بذلك وعلم أن قومه أصغوا لقولهما "فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى " 49 إضافة إليهما لغاية عتوه ونهاية طغيانه .

وخص موسى لأنه علم أنه الأصل وهرون تابع له "قالَ رَبُّنَا" ربي ورب أخي وربك ورب الناس أجمع "الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ" أي أعطى خلقه كل شيء يحتاجونه من أمر دينهم ودنياهم "ثُمَّ هَدى " 50 كلا

إلى ما يحتاج إليه وما خلق له ، وألهم كل واحد كيفية نفعه وقيل أن خلقه بمعنى صلاحه ، أي أعطى اليد البطش ، والرجل المشي ، والعين النظر ، والأذن السمع ، واللسان النطق ، ثم هدى كلا إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح والأخذ والعطاء .

وقيل أعطى كل شيء خلقه أي اعطى الرجل زوجة من جنسه ، وهكذا كل حيوان ، وألهم كلا كيف يأتي زوجته ، والأول أولى .

"قالَ فَما بالُ" حال وأصل البال الفكر ،

يقال خطر ببالي كذا .

أي فكرت به ، ثم أطلق على الحال التي يعتريها وهو مفرد لا يثّنى ولا يجمع ، وشذّ قولهم بالآت ومن هذا قول بعض الناس عند خروجه من مجلسهم ، خاطركم أي أبقوني في بالكم لا تذكروني الّا بخير ، أي إذا كنت رسولا وتدعي وجود إله غيري أخبرني عن أحوال

"الْقُرُونِ الْأُولى " 51 التي كانت تعبد الأصنام وتنكر البعث ، لأنا على طريقتهم ، وهذا على طريق المحاجّة معهما "قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي" لأنه عليه السلام لم يعلم شيئا عن أحوالهم ولم يعلمه ربه أخبارهم والتوراة لم تنزل بعد عليه لذلك رد العلم إلى اللّه وأكده بقوله إن أخبارهم كلها مدوّنة "فِي كِتابٍ" عند ربي "لا يَضِلُّ رَبِّي" شيئا منها "وَلا يَنْسى " 52 ما يستحقونه من ثواب وعقاب ، ونظير هذه الآية في المعنى الآية 45 من سورة الكهف في ج 2 ، فهو "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً" فراشا ومنه المهد السرير للطفل ، فهي مهد الأحياء والأموات "وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا" طرقا بين الأودية والجبال كما في السهل ليتيسر لكم المشي فيها "وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" فيه حياة كل شيء لكمال المنافع .

(131/493)

ثم التفت من الخطاب إلى التكلم فقال "فَأَخْرَجْنا بِهِ" بذلك الماء "أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى" 53 مختلف اللون والطعم والرائحة والشكل والمنفعة "كُلُوا" أيها الناس ما تشهون منها "وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ" مما يصلح لها منه "إِنَّ فِي ذلِكَ" الذي ذكرته لكم "لَآياتٍ" عظيمات "لِأُولِي النُّهى " 54 العقول تنهاهم عن عبادة غير الإله الواحد ، وعن جحود البعث والنبوة ، وتأمرهم بالإيمان بذلك .

وسمى العقل نهى لأنه ينهى صاحبه عما يضره مادة ومعنى ، وعقلا لأن يعقل صاحبه عما نهى اللّه ورسوله ، وحجى لأن يحاجج به ويدعم حجته لإلزام الخصم ، وإدراكا لأن يدرك به الحسن من القبيح والضار من النافع ، وحجرا لأنه يحجر صاحبه عن الوقوع في المهالك ، والحجر بمعنى المنع .

مطلب لكل نفس حظ من نشأة آدم ، وقبر الإنسان من محل الذرة التي خلق منها :

واعلموا أن هذه الأرض التي فيها منافعكم في الدين "مِنْها خَلَقْناكُمْ" أي خلقنا أصلكم آدم ، لأنه من ترابها ، أو لأن النطفة من الأغذية والأغذية من الأرض ، فيشمل خلقكم منها أيضا أو من ضمن خلق آدم ، لأن كل فرد من البشر له حظ من خلقه ، لأن فطرته لم تقتصر عليه فهو أنموذج منطو على فطرة سائر البشر انطواء الجنس على أفراده انطواء إجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل ، فكان خلقه منها خلقا للكل ، يشهد عليه قوله تعالى "فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ" الآية 98 من ج 2 ، راجع تفسير الآية 9 من سورة مريم المارة في هذا البحث .

وقيل إن اللّه تعالى إذا أراد تكوين النطفة من الرحم أمر الملك الموكل بذلك أن يأخذ ذرة من التراب الذي تدفن فيه فيذرها في النطفة فتخلق منها ومن التراب قال تعالى (وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) الآية الأخيرة من سورة لقمان في ج 2 ، لأنها لا تدري من أي ذرة من ذرات الأرض تكونت ، وقيل في هذا المعنى :

إذا ما حمام المرء كان ببلدة دعته إليها حاجة فيطير

وقال الآخر :

مشيناها خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها

وأرزاق لنا متفرقات فمن لم تأته منّا أتاها

ومن كانت منيّته بأرض فليس يموت في أرض سواها

ومن علم أن اللّه قادر على كل شيء لا يستبعد هذا لأن العقائد لم تقتصر على المحسوسات وليس كل ما يقوله العقل جائزا على اللّه ، تدبر قول ابن الفارض رحمه اللّه :

واني وان كنت ابن آدم صورة فلي منه معنى شاهدا بأبوتي

"وَفِيها نُعِيدُكُمْ" نقبركم إذا متم كما أن من تأكله الطيور والوحوش والحيتان ومن يموت حرقا وغرقا تضمه الأرض ايضا لا يفلت منها أحد ، لان مصير الكلّ التراب وهو من الأرض حيث تنظم تلك الذرات الطائرة والمأكولة إليها ، ثم

يعيدها اللّه إلى جسمها يوم البعث المذكور بقوله تعالى "وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى " 55 بعد الموت والاندراس نحييكم للحساب والجزاء ، قال تعالى "وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها" المبينة في الآية 106 فما بعدها من الأعراف المارة التي أظهرها اللّه على يد موسى عليه السلام ، وما قص عليه من آيات الأنبياء قبله التي أهلك بها أقوامهم بإلهام من اللّه تعالى بعد ما وقع

منه في الآية 52 المارة لأنه لم يكن يعلم شيئا عنها ولم يخبره بها ربه ، ودام يدعو فرعون وقومه عشرين سنة ولم ينجع به ، حتى أراه آية انفلاق البحر ، ولما لم يرتدع أغرقه ومن معه فيه .

مطلب معجزات موسى وأدب الرسل مع أقوامهم :

(133/493)

ولسيدنا موسى آيات أخر مع قومه بني إسرائيل أولها انفلاق البحر الذي نجاهم اللّه من الغرق فيه وأغرق أعداءهم ، ثم ضربه الحجر وانفجاره اثنتي عشرة عينا من الماء ورفع الجبل فوقهم لما أبوا الأخذ بأحكام التوراة والمن والسلوى والغمام في أرض التيه ، وإحياء الميت في قضية البقرة ، وخسف الأرض بقارون ، وآيات أخرى كثيرة نأتي على ذكرها في تفسير الآية 101 من سورة الإسراء الآتية إن شاء اللّه قال تعالى "فَكَذَّبَ" فرعون ما أريناه من الآيات "وَأَبى " 56 عن الايمان برسولنا وأصر على كفره "قالَ" محاججا لموسى ومنددا به "أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى " 57 وتتغلّب على مصر وما فيها ، ويكون لك ملكها ؟ كلا لا نتابعك "فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ" ندفع به الذي جئتنا به من اليد والعصا لأن هذا كان بعد إراءته هاتين الآيتين ، ولهذا قال "فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً" أجلا وميقاتا نتقابل به ونتبارى "لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً" 58 غير

هذا المكان عدلا سويا كبيرا لا يحجب الناظرين عما يقع فيه ليشهدوا بما يروا فيظهر الأمر للناس كلهم وإذ ذاك يعلم الغالب أنحن أم أنتم فضرب موسى طلبه ورضي بحكمه و"قالَ مَوْعِدُكُمْ" على جهة التعظيم أو لأن الخطاب له ولملأه ، والأول أولى بأدب الرسل لأنهم لا يقابلون

(134/493)

إلا بالأحسن ولأن الخبيث يعظم نفسه بكلامه فيقول نحن ولم يقل لموسى أنتم مع أنه أولى منه بالتعظيم من جهة ولأن الخطاب له ولهرون بل قال أنت راجع خطاب سيدنا إبراهيم مع أبيه في الآية 45 فما بعدها من سورة مريم ومخاطبة الأنبياء مع أقوامهم في الآية 58 فما بعدها من سورة الأعراف المارتين "يَوْمُ الزِّينَةِ" العيد حيث يجتمع فيه القريب والبعيد من الحاضرة والبادية ولقب بالزينة لأن الناس يتزينون فيه عادة كل بحسبه وقدرته "وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى" 59 أي والوقت الذي يجتمعون فيه من ذلك اليوم ضمان لانه أبعد عن الريبة وأبين للحق حتى لا يقول الناس كان الوقت ليلا فلم نر الغالب أو الوقت حرا فلم نتمكن فيه من الحضور ، فرضي فرعون بما ذكره موسى "فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ" بعد الموافقة على الموعد والمباراة "فَجَمَعَ كَيْدَهُ" سحرته الذين يريد بهم كيد موسى "ثُمَّ أَتَى " 60 بهم ممتّعين بأدواتهم في

الموعد والمكان صباحا واجتمع الناس وجاء موسى وأخوه وتداول مع السحرة وباشر بنصحهم

"قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ" ما هي هذه العصي والأخشاب والحبال التي جئتم بها لتقابلوا عظمة اللّه تعالى ارجعوا "لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً" بهذه الأشياء وإنّ شعوذتكم وأخذكم أبصار الناس بدمدمتكم لا تغنيكم شيئا من أمر اللّه الذي هو معي ، وإن لم تنتهوا "فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ" عظيم لا تقدرون أن تتخلّصوا منه يعدمكم فيه ويهلككم ، لأن سحركم بمقابلة آياته بهت وافتراء "وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى " 61 على اللّه الكذب وخسر ، فانظروا ما أقول لكم وتداولوه بينكم لئلا يحلّ عليكم عذاب اللّه إن أصررتم على ذلك ، وقد أعذر من أنذر .

(135/493)

ولما سمعوا منه ما سمعوا تداولوا بينهم وتذاكروا بشأنه وماهيّته ولم يتفقوا "فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ" قال بعضهم ما هذا بساحر ولا قوله قول ساحر ولا هو معتمد على السحر ، وقال آخر كلا إنه ساحر ومن عادة السحرة التمويه بالكلام وادعاء ما ليس عندهم تهويلا ، ثم كثر اللغط بينهم "وَأَسَرُّوا النَّجْوى " 62 أخفوها بينهم وهي عبارة عن الإقدام لمباراته أو

الإحجام عنها ، ثم اتفقوا على مناظرته على أنه إذا كان ساحرا غلبناه بكثرتنا ، وإن كان ما معه من السماء فلنا أمر آخر ننظر به ، وكلمة أسرّ ، من الأضداد ، بمعنى أخفى وأظهر ومثلها أودعت بمعنى دفعت الوديعة وقبلتها ، وأطلبت بمعنى أحوجته إلى الطلب وأسعفته بما طلب ، وأفزعت بمعنى أحللت فيهم الفزع وأخرجتهم إلى الفزع ، وأشكيت بمعنى أحوجتهم للشكاية ، ونزعت عن الأمر الذي شكوني به وهكذا كثير ، وبأثناء المناجاة "قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى " 63 أي شريعتكم الحسنة الفضلى التي لا أمثل منها ، تبعا لقول فرعون الآنف الذكر وإظهارا لطاعته في أمرهم به ، وإن هنا مخفّفة من الثقيلة وأسمها ضمير الشان ، وعلى هذا المصاحف ، وقرىء (إن هذين) إلخ بأعمال إنّ و(إِنْ هذانِ) إلخ على أن إن بمعنى نعم كقوله :

ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنّه

(136/493)

و قرىء إن بمعنى ما النافية ، وعليه فتكون اللام في (لساحران) بمعنى إلا ، كالتي في الآية 104 من الأعراف المارة ، أي ما هذان إلا ساحران ، قراءات أربع أرجحها الأولى على

قراءة عاصم ورواية حفص وابن كثير والخليل ، ثم قال بعضهم لبعض بعد انتهاء النجوى ومراجعة فرعون "فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا" واحدا على قلب واحد ومقصد واحد ، لأنه أهيب لكم بأنظار المجتمعين ، ولا تتفرقوا بالرأي والإقدام "وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى " 64 على خصمه فإنه يربح ويفوز بالمرتبة العظمى من الملك ويكسب حمد الناس أجمع ، وهذا من جملة ما تشاوروا به ، ولما أجمع أمرهم على المقابلة "قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ" ما لديك أولا لنلقي عليه ما يبطله "وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى " 65 ما لدينا ثم تلقي أنت ما تراه مبطلا لعملنا ، وقد استعملوا مع موسى الأدب بتفويض الأمر إليه ، لأنه حين المداولة شكّوا في كونه ساحرا مثلهم ، وظنّوا أن ما عنده من اللّه فاختاروا تقديمه احتراما له ، ولكن اللّه تعالى ألهمه بأن يتقدّموا بما عندهم أولا ليظهر اللّه سلطانه بقذف الحق على الباطل ليمحق إفكهم ويزهق باطلهم ويعلي شأن رسوله على الناس ، ولو ألقى هو أولا ثم ألقوا بعده لما ظهر للناظرين شيء

(137/493)

له شأن ، بل لبقيت عصاه حية كما هي عليه ، وبقيت عصيهم وأخشابهم وحبالهم على ما هي عليه أيضا ، لأنها لا تؤثر في عصا موسى ، ولقال الناس إن كلا من الطرفين أتى

بشيء عجيب ولكن لم يغلب أحد الآخر ، وإذا أراد اللّه أمرا هيأ أسبابه ووفق إليه أحبابه "قالَ بَلْ أَلْقُوا" ما عندكم فألقوه "فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ" وإلى الناس أجمع "مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى " 66 فرأوا الأرض امتلأت حيات وروابي ، وأخذوا أعين الناس بما صاروا يدمدمون ، حتى بهت الكل مما رأوا وتطاولت أعناق فرعون وملئه "فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى " 67 من أن يلتبس على الناس الأمر فيصدقوا بعمل السحرة ويشكوا في أمره ، لأن ما جاءوا به من جنس معجزة موسى من جهة العصا وزيادة عليها الأخشاب والحبال التي صارت كالجبال ، فأوحى اليه ربه بأمره "قُلْنا لا تَخَفْ" مما تصورته ورآه الناس من عمل السحرة "إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى " 68 القائمة بالعلو عليهم ، الظافر الغالب حسبما هو مقدر في أزلنا "وَ" لأجل أن يعلم الناس والملك واتباعه غلبك عليهم وصدقك ويؤمنوا أن ما جاء به السحرة شعوذة لا قيمة لها ، لأنها زائلة ، وان ما جئت به هو من عند اللّه لا سرية فيه ، وليذهب من قلوب الناس ما تصوروه وما القى من الخوف في قلبك خشية ميل الناس إليهم وتصديقهم ، ولاظهار إخفاقهم "أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ" عصاك لم يسمها تعظيما لها وليعلمه أنها أعظم مما جاءوا به كله ثم بشره ليزداد طمأنينة بقوله "تَلْقَفْ ما صَنَعُوا" من الإفك الذي سحروا به أعين الناس ، فتلتقم الزئبق الذي دسوه فيها حتى أروهم الحبال والعصي حيات ، والأخشاب جبالا وتبتلعه ، وأكّد له هذا على طريق

الحصر بقوله عز قوله "إِنَّما صَنَعُوا" من إراءة الجبال حيات والأخشاب جبالا هو "كَيْدُ ساحِرٍ" حيله ومكره لا حقيقة لها ، وكل عمل يقوم به الساحر غير دائم "وَلا

(138/493)

يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى " 69 أينما أقبل وحل فتكون عاقبته الخسران والخيبة ، فألقاها فكان ما كان كما أخبر اللّه ، فعجب الناس وذهب بهم العجب أقصاه إلى حد لم يخطر ببال ، ولم يتصوره أحد ، ورأى السحرة ما هالهم أمره ،

وتيقنوا أن هذا من قبل اللّه ، وأن موسى ليس بساحر ، فلم يسعهم إلا أن وقعوا على الأرض خاضعين للّه مخبتين كما أخبر عنهم بقوله عز قوله "فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً" على الأرض وبلسان واحد "قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى " 70 وانقدنا لأمرهما ، وأخر موسى رعاية لسجع الآي ، على أن الواو لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا أي برب موسى وهرون ، كما مر في سورة الأعراف في الآية 122 التي ذكرنا فيها هذه القصة إلا انها كررت هنا بأوسع مما هناك .

مطلب قوة الإيمان وثمرته :

قال جار اللّه الزمخشري سبحان اللّه ما أعجب أمرهم .

قد القوا حبالهم وعصيهم والجحود ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة بالشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ! فذهب الغيظ بفرعون أقصاه "قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ" بالايمان به ولهذا أقول "إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ" وأنتم تلاميذه فيه "فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ" اليد اليمنى مع الرجل اليسرى وبالعكس مبالغة في الضرر "وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ" جزاء عملكم هذا ، وفي هنا دالة على الاستعلاء لأن حروف الجر تخلف بعضها كما قدمناه في تفسير الآية 104 من سورة الأعراف المارة "وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً" نحن فرعون ملك مصر أم موسى وهرون الذين آمنتم بهما "وَأَبْقى " 71 أدوم هددهم بهذا لأنهم خذلوه خذله اللّه وعلى أمل أنهم يرجعون عن إيمانهم "قالُوا" بلا خوف ولا جزع "لَنْ نُؤْثِرَكَ" مهما كنت وملكك فلا نفضلك ولا نختارك أبدا "عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ" الواضحات على صدق موسى وأخيه "وَالَّذِي فَطَرَنا" لا نفعل ذلك ولا نرجع عن إيماننا حيث تبين لنا أنك مبطل بدعواك الربوبية وأن إله موسى هو الإله الحق الذي لا رب غيره لهذا الكون وقد اقسموا على أحقية موسى لأنهم رأوا الحق معه وقد حلت بهم الهداية ومن يهد اللّه فلا مضل له ، وجواب

القسم مقدم عليه وهو لن نؤثرك ويجوز العطف على ما جاءنا وعليه يكون المعنى لن نختارك على ما جاءنا ولا نختار عبادتك على عبادة الذي خلقنا والاول اولى قيل انهم لما سجدوا كشف اللّه عن بصيرتهم قرأوا منازلهم في الجنة لذلك صارحوه بقولهم "فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ" به من تعذيبنا لنلحق بربنا ، فإنك "إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا" 72 الفانية التي لم يبق لنا بها رغبة ولم تعد تخالج قلوبنا رهبة مما فيها من العذاب بعد أن رأينا من إله موسى ما رأينا "إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا" السابقة "وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ" أيضا لعله يغفره لنا لأنا عرفنا موسى ليس بساحر حين المناظرة معه قبل المباراة ، وذلك أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى قائما ، فأراهموه ، فرأوا عصاه تحرسه ، فقالوا لفرعون إن الساحر إذا نام بطل سحره فهذا ليس بساحر ، وأرادوا الامتناع عن مناظرته ، فأكرههم عليها ، ولقد تناجوا فيما بينهم وتنازعوا ولم يلقوا له بالا ولم يؤثر فيهم تهديده ، فقالوا "وَاللَّهُ خَيْرٌ" ثوابا وأعظم عقابا منك "وَ" خيره "أَبْقى " 73 وأدوم من خيرك لأنه باق ، وخيرك وشرك زائل ، والخير الباقي خير من الفاني ، والشر الفاني أهون من الباقي وهذه الجملة بمقابلة "أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى " قال الحسن رض اللّه عنه سبحان اللّه لقوم كفارهم أشد

الكافرين كفرا ثبت في قلوبهم الإيمان بطرفة عين ، ولم يتعاظم عندهم أن قالوا لفرعون في أبهته "فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ" في ذات اللّه ، واللّه ان أحدهم (يريد أهل زمانه) اليوم ليصحب القرآن ستين عاما ثم يبيع دينه بشيء حقير .

(141/493)

هذا قوله رضي اللّه عنه في زمنه قبل الف ومئتى سنة وكسور ، فكيف بأهل زماننا هذا الذي عمّت فيه البلايا وكسرت به الرزايا ، وقل فيه الحياء ، وازداد فيه العناء وكثر فيه الشقاء ، فالتّقي يعاب ، والشقي يهاب ، وصاحب الحق مقصور ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم ، ثم أنظر رعاك اللّه كيف تنورت بصائرهم إذ قالوا له "إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً" بما اكتسبه من أعمال قبيحة في هذه الدنيا "فَإِنَّ لَهُ" في الآخرة جزاء إجرامه "جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها" فيستريح من عذابها "وَلا يَحْيى"

74 حياة طيبة تركن نفسه إليها ، تقدم نظيرتها من الآية 13 من سورة الأعلى المارة "وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً" في الآخرة "قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ" في دنياه علاوة على إيمانه "فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى" 75 ثم بين هذه الدرجات بقوله "جَنَّاتُ عَدْنٍ" خلود دائمة كثيرة "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها" أبدا لا تحول لهم عنها وذلك الجزاء الحسن عند اللّه

"جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى " 76 في دنياه وتطهر من الشرك والمعاصي .

عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء .

وفي رواية : كما ترون الكوكب الدريّ ، وان أبا بكر وعمر منهم وأنعما .

يقال فلان أحسن من فلان وأنعم أي أفضل ، يعنى أن أبا بكر وعمر منهم وازداد تناهيا

(142/493)

الى الغاية فهما أهل لهذا ، انتهى ما حكى اللّه عن هؤلاء السحرة البررة أهل التقوى وأهل المغفرة الذين أصبحوا كفارا وأمسوا أبرارا ، قال تعالى "وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى " بعد أن حصل له اليأس من إيمان فرعون لعدم تأثير تلك الآيات العظام فيه وهي المار ذكرها في الآية 129 فما بعدها من سورة الأعراف بعد آيتي العصا واليد المارتين قلبها ، ثم بين ذلك الإيحاء بقوله عز قوله "أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي" بني إسرائيل واترك فرعون وقومه لأنه مصر على الكفر "فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً" لا ماء فيه ولا طين بمجرد ضربك يكون كذلك ، ثم سر أنت وإياهم فيه (لا تَخافُ دَرَكاً) من فرعون وقومه إن يلحقوكم "وَلا تَخْشى " 77 غرقا فيه أنت ولا قومك ، فامتثل أمر ربه وامر بني إسرائيل فتهيأوا وسار بهم إلى جهة

البحر (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) حين بلغه أمرهم ولكنه لم يلحقهم حتى دخلوا البحر كلهم ، فدخله على أثرهم هو وجنوده فصار بنو إسرائيل يخرجون من الطرف الآخر والقبط يدخلون من طرفه الأول ، لذلك بقي منفرجا حتى لم يبق من بني إسرائيل نسمة فيه ، ولم يبق أحد من قوم فرعون خارجه ، لأن بني إسرائيل لما لحقهم القبط بقوا سائرين في البحر وتعقبهم القبط حتى توسطوه ليتم

مراد اللّه ، فأطبقه عليهم دفعة واحدة ، وذلك قوله تعالى ، "فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ" 78 كلمة تهويل لكيفية الفرق الذي أصابهم فعلاهم وغمرهم بأمواجه وزبده الناشئ من شدة تلاطم أمواجه بسبب انهيار المياه بعضها على بعض التي كان اللّه أوقفها كالجبال الشامخة ، حيث شق منها اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق كما سيأتي بيانه في الآية 60 فما بعدها من سورة الشعراء الآتية ، لذلك ، بقي منفرجا على حاله ولم ينطبق شيئا فشيئا .

(143/493)

قال تعالى "وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى " 79 نفسه ولا قومه الصواب وأكذب اللّه قوله "وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ" كما سيأتي في الآية 29 من سورة المؤمن من ج 2 ، ونجى

اللّه موسى وقومه وصدق له وعده بإهلاك عدوه وإعلاء كلمته ، ثم شرع يعدد نعمه على بني إسرائيل فقال "يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ" فرعون وقومه الذين استرقوكم وأذلوكم "وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ" حيث وعد اللّه موسى أنه يأتيه في ذلك المكان المبارك والبقعة المقدسة لينزل عليه التوراة ، وإنما نسب المواعدة إليهم لأن منافعها لهم إذ فيها عزهم وفوزهم وشريعتهم ومعالم دينهم "وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى " 80 راجع ماهيتها في الآية 160 من سورة الأعراف المارة ،

وقلنا لهم حينما طلبوا منا في التيه أكلا وشربا "كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ" من لذاته وحلاله واشربوا من الماء الذي انبعته لكم من الصخرة وتظللوا بالغمام الذي سخرناه لكم من دون كسب ولا تعب ، ولذلك سماه اللّه طيبا إذ لم تتطرق اليه الشبهة "وَلا تَطْغَوْا فِيهِ" فتتجاوزوا الحد الذي سننّاه لكم فتبطروا بسبب هذا الرزق الطيب المبارك فتكفروا بنعمته بعدم الشكر والرضاء أو تتقووا فيه على المعاصي فيزول عنكم "فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي" عقوبتي لعدم تقديركم فضلي "وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى " 81 في النار وهلك هلاكا لا نجاة بعده "وَإِنِّي لَغَفَّارٌ" كثير المغفرة كما إني شديد العقوبة على الكافر عظيم العفو "لِمَنْ تابَ" من الشرك والمعاصي "وَآمَنَ" بي وبرسولي وكتابي "وَعَمِلَ صالِحاً" بأداء ما فرضته عليه

والشكر بما أنعمت به عليه "ثُمَّ اهْتَدَى " 82 بقي مستقيما على الحق شاكرا للنعم حتى الوفاة ، ثم ان موسى عليه السلام أمر قومه بالدوام على عبادة اللّه وأوصى أخاه هرون بمراقبتهم على النحو المبين في الآية 143 من سورة الأعراف المارة واختار جماعة من أشراف قومه ليذهب بهم إلى مناجاة ربه وتلقي التوراة الشريفة حسبما أمره بذلك وتقدمهم على أن يأتوا بعده على أثره ، ولما وصل وناجاه ربه بقوله "وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى " 83 وقد اخترتهم بأمرى ، وأمرتك أن تأتي بهم معك لأشرفك بكتابي "قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي" مقبلين إليك يا رب "وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ" فقد مر عليهم يا "رَبِّ لِتَرْضى " 84 عليّ زيادة على رضاك وكان تقدمه عليهم بسائق شدة شوقه إلى مناجاة ربه ، وأمرهم أن يتبعوه دون توان ، وهذا هو الميقات الأول الذي ذكره في الآية 143 من سورة الأعراف المارة ، ولا ميقات غير هذين ، وقال بعض العلماء إن المواقيت أكثر من اثنين وأوصلها بعضهم إلى ستة ، ولكن لم أقف على ما يثبت ذلك ، لأن المواقيت التي عينها اللّه لموسى هي عبارة عن ميقات تلقي التوراة وميقات طلب المغفرة عن الذين عبدوا العجل فقط ، أما المواقيت التي ناجى بها ربه عفوا فقد تزيد على ذلك ، وسيأتي لهذا البحث صلة عند ذكر الآيات التي فيها ذكر الميقات إن شاء اللّه ، وبينما سيدنا موسى ينتظر تشريفه بكلام ربه من أجل التوراة ، وقد مضت ايام ولم تأت جماعته الذين اختارهم

للحضور معه ، إذ باغته ربه بقوله جل قوله "قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ" بسبب استعجالك ذلك "وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ" 85 موسى بن ظفر وكان منافقا مظهرا للإسلام ، وهو من عظماء بني إسرائيل من قبيلة السامرة الموجود بقاياهم الآن في جبل نابلس ، قيل إنهم أربعون بيتا لم يزيدوا ولم ينقصوا حتى الآن حيث صاغ لهم عجلا وزعم أنه آلهتهم وأمرهم بعبادته راجع

(145/493)

كيفية صياغته وإضلالهم به في الآية 148 من سورة الأعراف المارة ، وإضافة الإضلال إلى السامري من قبيل اضافة الأشياء إلى مسبب في الظاهر ، أما في الحقيقة فإن الموجد لها في الأصل هو اللّه تعالى وحده .

ثم أمره اللّه أن يعود إليهم وينقذهم مما هم فيه ،

لأنهم عكفوا على عبادته ولم يصغوا ، لقول هرون ونقبائهم ، قال تعالى حكاية عن حال موسى عليه السلام بعد أن أنزل عليه التوراة الشريفة وأسمعه ما أسمعه من أمر قومه "فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً" شديد الغضب على ما فاته من كلام ربه وعلى ما وقع من قومه ، وكان حاملا صحف التوراة كما تفيده الآية 151 من سورة الأعراف المارة ، ولما

وصل "قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً" بإنزال الكتاب عليكم ، قيل كانت ألف سورة وكل سورة ألف آية ، يحمل أسفارها سبعون جملا إلا أن ظاهر القرآن يخالفه ويفيد أن موسى حملها ، بدليل قوله (وَأَلْقَى الْأَلْواحَ) في الآية المارة وقوله (أَخَذَ الْأَلْواحَ) في الآية 152 من الأعراف أيضا .

ثم قال موبخا صنيعهم "أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ" بمفارقتي حتى فعلتم ما فعلتم ، ألم أترك عندكم من تسترشدون به ، أعصيتم أمره ، واشتد غضبه حتى ألقى الألواح على الأرض ، وزاد في تقريعهم فقال "أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي" 86 الذي أعطيتموني به بأنكم تبقون على ديني حتى أرجع من ميقات ربي "قالُوا" الذين عبدوا العجل "ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا" باختيارنا لأن السامري غلب على أمرنا بكيده ولو أنا ملكنا أمرنا لما خالفناك ، وان الذي يفتن لا يملك نفسه "وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً" أثقالا هو الحلي الذي استعرناه "مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ" القبط

(146/493)

حين خرجنا من مصر فعدها السامري علينا أوزارا وجمعه منا ، وأوقد نارا وألقاه فيها ، وبقينا ننتظرك حتى تحضر فنرى رأيك فيه ، ولم نعلم ما يكنّه لنا ولا ما يؤول إليه أمر الحلي

"فَقَذَفْناها" في تلك النار تبعا لأمره "فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ" 87 ما معه في النار أيضا على زعمنا أن ما ألقاه من الحلي ، ولم نعلم أنه من تراب وطء فرس جبريل عليه السلام الذي كان احتفظ به قبلا لهذه الغاية "فَأَخْرَجَ لَهُمْ" للقائلين المذكورين "عِجْلًا جَسَدا لَهُ خُوارٌ" صراخ وذلك بعد أن صاغ العجل من الحلي وضع فيه ذلك التراب "فَقالُوا" للسامري وجماعة من بني إسرائيل الذين انقادوا إليه "هذا" العجل الذي ظهر لكم من من حلي القبط "إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى"

الذي ذهب إليه "فَنَسِيَ" 88 غفل موسى عنه هنا ، وذهب إلى الطور بطلبه ، قال تعالى مبكتا قلة عقولهم "أَ فَلا يَرَوْنَ" يا موسى هؤلاء الجهلة العتاة "أَلَّا يَرْجِعُ" أن العجل الذي صاغه لهم السامري لا يرجع "إِلَيْهِمْ قَوْلًا" إذا كلموه ، ولا يجيبهم إذا دعوه "وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا" بدفعه عنهم "وَلا نَفْعاً" 89 بجلبه إليهم فكيف يعتقدون إلهيته "وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ" عبادتهم له عند ما أرادوا العكوف عليه حال وجودك في المناجاة "يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ" بإضلال السامري لكم بأنه إله فأعرضوا عنه فإنه ليس بشيء بعد "وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ" الذي هو أهل لأن يعبد وخص الرحمن من أسمائه تعالى ليستميلهم عنه ويعلمهم انهم إذا رجعوا يغفر لهم ما فرط منهم (فَاتَّبِعُونِي" على دين الحق دين موسى ، واتركوه فإنه ليس بإله ولا يليق أن يكون إلها "وَأَطِيعُوا أَمْرِي" 90 فيما نهيتكم عنه ، تأمل أيها القارئ

هل ترى أحسن من هذا الوعظ ؟ بدا بزجرهم ، ثم دعاهم إلى معرفة اللّه ، ثم إلى معرفة النبوة ، ثم إلى اتباع الشرع .

(147/493)

وانظر كيف قابلوه

"قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى " 91 فاعتزلهم هرون ، والذين لم يشتركوا معهم في العبادة وقد سبب هذا الحادث تخلف الوفد الذي انتقاه موسى بحضور إنزال التوراة ، بعد أن أخبر اللّه موسى بهذا الحادث رجع إلى قومه حاملا التوراة ، فسمع صراخهم ، فقال هذا صوت الفتنة التي أخبرني بها ربي ، ورأى أخاه هرون واقفا مع جماعته بعيدا عنهم ، فألقى التوراة وبادر فأخذ شعر رأسه بيمينه وشعر لحيته بشماله "قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ" من المجيء إليّ واخباري بما فعلوا "إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا" 92 عن الهدى وعبدوا العجل ولم يصغوا لنهيك "أَلَّا تَتَّبِعَنِ" حالا فتعلمني بفعلهم "أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي" 93 بوجوب القيام بما يعلمهم ؟ وهذا أمر عظيم كان يجب عليك أن تتداركه قبل كل شيء "قالَ يَا بْنَ أُمَّ"

يستعطفه ويسترحمه ليكف عنه ، ولم يقل يا بن أبي لما قاست أمه من الهم والغم والخوف

بسببه ، فيحمله على العطف عليه فقال تلطف بي تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي"

لأني لم آل جهدا بنصحهم وصدهم ، فقد أمرتهم

وزجرتهم فلم يقبلوا مني نِّي خَشِيتُ"

إن تركتهم على ما هم عليه وأتيتكَ نْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ"

لأنهم صاروا حزبين حزبا معي وحزبا مع السامري وبقيت معهم خوفا من أن تقول لي

تركتهمَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي"

94 تراعيه وتعمل بوصيّتي فيهم ، لأني رأيت من المصلحة بقائي بينهم حتى لا يتقاتلوا من

من أجل عبادته ، وأن لا يلحق من لم يعبده إلى من عبده .

(148/493)

فلما رأى موافقة قوله للواقع وانه لم يقصر في مهمته ، تركه ، وأقبل على السامري "قالَ فَما

خَطْبُكَ" الخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر التخاطب فيه وهو مقلوب الخبط ففيه اشارة

لعظم خبط السامري في الأمر ، أي ما حملك على ما فعلت "يا سامِرِيُّ" 95 أصدقني

"قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ" علمت شيئا لم يعلمه بنو إسرائيل "فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ"

فرس "الرَّسُولِ" جبريل لأني رأيت المحل الذي يدوسه يخضر حالا ، فعلت أن لذلك شأنا ،

وهذا هو الذي أشار اليه عن بني إسرائيل في قوله ما لم يبصروا به أي لم يفقهوه ولم يلقوا له بالا "فَنَبَذْتُهَا" أي تلك القبضة في جوف العجل الذي صنعته من حليّ القبط التي كانت مع بني إسرائيل جمعتها وألقيتها في حفرة لحضورك ، كي ترى رأيك فيها ثم عنّ لي أن أصوغها عجلا ، ففعلت ثم طرحت فيها ذلك التراب فدبت فيها الحياة وصرخ فقلت لهم هذا هو إله موسى الذي ذهب اليه فعكفوا عليه وصاروا يسجدون له كلما صاح ، وكان ما كان على النحو الذي تقدّم في القصة في تفسير الآية 48 من الأعراف "وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي" 96 وزينته ولم يسبقني على ذلك أحد بل من اختراعي هذا ما أخبر به عدو اللّه السامري من صياغة العجل فمن أين جاز اليهود تحريفه ونسبته إلى هرون ، وحاشاه ، كما جاء في الإصحاح 22 من التوراة في فصل الخروج ، لأن اللّه أخبرنا بأن هرون براء من ذلك ، وان السامري معترف به ، واللّه أصدق القائلين .

وهذا من جملة التحريف الذي أوقعه اليهود وأخبرنا اللّه عنه في القرآن "قالَ" موسى بعد أن سمع قوله "فَاذْهَبْ" من بيننا "فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ" ما عشت "أَنْ تَقُولَ" لمن يريد أن يقربك

و لم يعرفك "لا مِساسَ" لا تمسني ، وذلك أن موسى عليه السلام حرم على الناس ملاقاته ، ومكالمته ، ومبايعته ، ومخالطته ومقاربته ، فصار يهيم بالبرية مثل الهوام ورماه الله بداء عضال عقام ، فكان إذا لمسه أحد أو لمس أحدا صمّا جميعا ، ولذلك نهى عن مقاربته ولمسه وهذه عقوبته في الدنيا وهي عقوبة وحشة جدا لا أعظم منها ، لأن الناس تحاموا عنه بالكلية وتقذروه قال "وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ" في الآخرة فستوافيه حتما وتذوق العذاب الأكبر على فعلتك هذه "وَانْظُرْ" أيها الخبيث المضل "إِلى إِلهِكَ" الذي صنعته "الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً" أنت ومن تبعك وداومتم على عبادته ، وأصل ظلت بلامين حذفت الثانية تخفيفا وقرأت بكسر الظاء بنقل حركة ما بعدها إليها أي أقسمت على عبادته "لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ" نذريه أمامك وأمامهم "فِي الْيَمِّ نَسْفاً" 97 لتعلموا أنه ليس بشيء ويظهر لكم ضلالكم فيه ثم شرع يوضح لهم الدين الحق فقال "إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ" وحده الذي يجيب دعاءكم ، ويدفع ضركم ، ويجلب لكم الخير "الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" خالق الكون وما فيه ، ومالك أمر الخلق

، المحي المميت المستحق العبادة والتعظيم ، لا معبود سواه ، ولا رب الا إياه ، الذي أنجاكم من الغرق وأغرق أعدائكم بآن واحد ، الذي "وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً" 98 أي وسع علمه كل شيء ، لأن علما تمييز محول عن الفاعل والى هنا ما يتعلق بالميقات الاول .

مطلب من اين عرف جبريل السامري :

وهنا فائدة وهي أن لك أن تقول من أين عرف السامري جبريل حتى وقع منه ما وقع ؟

فأذكر لك ما قاله السيد إسماعيل حقي في تفسيره الكبير روح البيان وهو أن أم السامري حملته سنة قتل الأولاد من قبل فرعون كسيدنا موسى عليه السلام ، ولما وضعته خافت عليه الذبح فوضعته في غار وأطبقت عليه ، وتركته فيه ، فأمر اللّه جبريل عليه السلام أن يغذيه بأصابعه لبنا وعسلا وسمنا حتى نشأ

وصار من قوم موسى ، واسمه موسى بن ظفر السامري وصار يظهر الإيمان بموسى ويبطن الكفر به حسدا له ، ويرى جبريل حينما يأتي اليه لأنه يعرفه حق المعرفة لتوليه تربيته ، فانظر رعاك اللّه إلى هذا الذي رباه جبريل أقرب المقربين إلى اللّه من الملائكة ، والى موسى الذي رباه فرعون اكفر الكافرين باللّه ، تقنع قناعة تامة أن لا حول للعبد عما قدره اللّه له أزلا ، وقيل في هذين :

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيّرت عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر وموسى الذي رباه فرعون مرسل

والحكمة من تربيته إظهار ما وقع منه مما هو مقدر في الأزل الذي هو غيب عما سوى عالم

الغيب ، ليعلم الناس أن لا مضل لمن هداه اللّه ، ولا هادي لمن أضلّه ، وان ما يختص به بعض البشر من الأمور الدنيوية لا قيمة لها ولا تأثير لها في محو ما هو مكتوب ، ولا إثبات ما هو ممحو ، جفت الأقلام ورفعت الصحف بما هو كائن إلى يوم القيامة – راجع تفسير أول سورة نون المارة – قال تعالى "كَذلِكَ" مثل ما قصصنا عليك عجبا من أمر موسى وقومه والسامري مع قومه في غيابه "نَقُصُّ عَلَيْكَ" يا أكرم الرسل "مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ" من أحوال الأمم الخالية وأنبيائهم والحوادث التي جرت بينهم "وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً" 99 كتابا فيه ذكر ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، فهو جدير أن تتذكر به وتذكر به قومك ، وحقيق بأن يتفكر في معانيه من يتفكر ، ويعتبر فيها من يعتبر .

(151/493)

واعلم يا حبيبي أن "مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ" ولم يتعظ بما فيه فيأتمر بما أمر وينتهي عما نهى "فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً" 100 عظيما وإثما كبيرا

"خالِدِينَ فِيهِ" الذين أعرضوا عما فيه دائمين في عذابه "وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا" 101 ما حملوا به أنفسهم وأثقلوا به ظهورهم من جزاء الإعراض عن هذا القرآن حتى استحقوا الخلود بالنار عقوبة لهم ذلك العذاب العظيم والتوبيخ الأليم يكون لهؤلاء المعرضين عن ذكر

اللّه "يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ" النفخة الثانية بدليل قوله تعالى "وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ" أمثال هؤلاء "يَوْمَئِذٍ زُرْقاً

(152/493)

---

102 عيونهم وأبدانهم من هول وخوف ما يلاقونه من الشدائد ، لأن النفخة الأولى تكون للموت لا للحشر ، فلا وجه لقول من قال إن المراد بها الأولى ، وكلمة زرقا لم تكرر في القرآن "يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ" يتشاورون سرا عن مدة مكثهم في الدنيا ، فيقول بعضهم لبعض "إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً" 103 من الليالي في برزخكم ما لبثتم غيرها ، استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو البرزخ أي القبر بعد الموت إلى البعث بالنسبة لما عاينوه من هول البعث ، قال تعالى "نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ" في مشاورتهم عن مدة لبثهم وما يسرونه وما هو أخفى منه ومن غيره من جميع أحوالهم ، راجع الآية 7 المارة من هذه السورة "إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً" أحسنهم قولا وأوفاهم عقلا ، وأوفرهم حسّا ، وأكبرهم رأيا ، وأكثرهم إدراكا "إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً" 104 ما لبثتم غيره ، قصر في عينه ما مضى في جنب ونسبة ما استقبل ، لأن ما دهمهم من الأهوال أنساهم مدة لبثهم فيها وإن ذلك ما بين النفختين إذ يرفع العذاب عنهم ، قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الجبال كيف يكون حالها

في الآخرة ، فأنزل اللّه "وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ" بعد هذه النفخة العظيمة التي تميت الخلق أجمع قبلها عدا ما استثنى اللّه ويراد بها النفخة الأولى ، "فَقُلْ" يا حبيبي لهذا السائل "يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً" 105 يقلعها ويذريها بالهواء "فَيَذَرُها" يجعل أمكنتها "قاعاً صَفْصَفاً" 106 مستوية ملساء لا نبات فيها ولا غيره "لا تَرى فِيها عِوَجاً" انخفاضا وأودية وحفرا ومغاور "وَلا أَمْتاً" 107 ارتفاعا ولا صخورا ولا روابي ، والعوج بكسر العين هو ما لا يرى بالبصر بل بالبصيرة ، لأنه عبارة عما خفي من الاعوجاج حتى احتاج إثباته إلى المسافة الهندسية المدركة بالعقل ، فألحق بما هو عقلي صرف فأطلق عليه ذلك لذلك ، وبالفتح هو ما يدرك

(153/493)

بالبصر كعوج الجدار والعود ، وقيل لا فرق بينهما ويطلق كل منهما على الآخر حسيا كان أو معنويا .

والأمت هو التنور والشقوق في الأرض ومطلق الميل ، وله معان كثيرة غير هذه في اللغة ، وأطلقه بعضهم على الرابية وأسنده لابن عباس رضي اللّه عنهما "يَوْمَئِذٍ" يوم يكون النفخ والخسف

يخرج الناس من أجداثهم مهرولين "يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ" الملك الذي يدعو الناس إلى موقف الحشر فيسلكون وراءه طريقا "لا عِوَجَ لَهُ" فلا يزيغون عنه قيد شعرة يمينا ولا شمالا ولا يلوون على شيء أبدا تراهم كلهم سراعا مستوين "وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ" هناك وذلت الأنفس وخضعت الجوارح "لِلرَّحْمنِ" الذي وسعت رحمته من في السموات والأرض "فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً" 108 أصواتا دقيقة رقيقة في غاية الخفاء ، وتراهم من شدة الفزع وهيبة الموقف قد سكنت أصواتهم وضعفت قوتهم "يَوْمَئِذٍ" في ذلك اليوم المهيب يلتمسون من يلوذون به ليشفع لهم ولكن "لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ" لأحد ما ، من أحد ما "إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا" 109 بذلك فهذا الصنف الجليل يشفع بإذن الله لمن يأذن له بشفاعته فالذي يأذن هو الله الذي "يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ" ما تقدم من أعمالهم الشافعين والمشفوع لهم وما تأخر وما استهلكوه في حياتهم وما خلفوه لاولادهم فانه جل وعلا يحاسبهم على ذلك كله لأنه محيط بهم كمحاسبة رجل واحد مثل طرف العين وهو عالم بما وقع منهم على الانفراد "وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً" 110 أي لا يحيط علم الشافعين والمشفوع لهم بمعلومات الله الشاملة كما في الآية 98 المارة

"وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ" خضعت وذلت الخلق أجمع ، وهذا من إطلاق الجزء وارادة الكل ، ويسمى الأسير عانيا لذلته ، ومعنى القيوم القائم على كل نفس بما كسبت في دنياها لأنه حيّ حياة أبدية لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه وهم سائرون تحت مراقبته في هذه الدنيا ، ويوم القيامة يختص بالملك والقهر فتظهر إذ ذاك على الوجوه علائم السرور وإمارات الشرور "وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً" 111 في ذلك اليوم الذي يقول اللّه فيه على ملأ الأشهاد لمن الملك اليوم ؟ فيسكت جميع الخلق ويحجبون حتى من التنفس فلا يستطيع أحد أن يحرك شفتيه ، ثم يقول ملك الملوك عزّت قدرته وتعالت عظمته : للّه الواحد القهار الآية 16 من سورة المؤمن في ج 2 ويقول جل قوله "وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ" باللّه

(155/493)

و ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر في دار دنياه "فَلا يَخافُ ظُلْماً" من أحد ولا نقصا من ثوابه على عمله الصالح ولا زيادة في عقابه على عمله السيء "وَلا هَضْماً" 112 لشيء مما يستحقه من الخير أو الحسن ، بل يأخذه وافيا مضاعفا "وَكَذلِكَ" عطف على كذلك نقصّ أي كما أنزلنا على الرسل قبلك كتبا مقدسة "أَنْزَلْناهُ" هذا القرآن عليك وجعلناه "قُرْآناً

عَرَبِيًّا" بلغتك ولغة قومك ليفهموه ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر منزلا من ربهم "وَصَرَّفْنا" كررنا "فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ" بالأمور المخوفة كما كررنا فيه من الوعد بالأشياء المفرحة "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" الشرك ويجتنبون المحارم "أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً" 113 يجدوا لهم ما يوقظهم من غفلتهم ويزيد في اعتبارهم عند سماع أسباب إهلاك من قبلهم اعتبارا يؤدي إلى التقوى ويرغب في الطاعة والاقتصار على التمسك بما أحل لهم والسلوك إلى توحيد اللّه "فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ" عما يقول الجاحدون علوا كبيرا ، ثم التفت إلى رسوله صلى اللّه عليه وسلم إذ علم وهو عالم من قبل أنه يبادر جبريل عليه السلام حين يلقي اليه الوحي فيقرأه معه قبل أن يفرغ من قراءته عليه لشدة حرصه على حفظه ، وقال "وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ" حين انزاله عليك فتقرأه "مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ" من قبل أميننا جبريل بل اصطبر حتى يفرغ من تلاوته عليك ، ثم أقرأ أنت "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً" 114 به وفهما بمعانيه وحفظا بمبانيه ، وذلك أن اللّه تعالى تكفل له بحفظه راجع الآية 67 من سورة القيامة المارة والآية 10 من سورة الحجر من ج 2 وإنما فعل حضرة الرسول هذا مع علمه بتكفيل اللّه تعالى له بحفظه وقراءته زيادة في حرصه عليه خشية النسيان عند الحاجة لبعض الآيات ، ولهذه المناسبة ذكره اللّه تعالى ما وقع لآدم عليه

السلام بقوله "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ" عهدنا لقومك في عالم الذّر الذي نقضوه ولم يحافظوا عليه بأن لا يأكل من الشجرة التي عيّناها له فأكل منها إنه نسى العهد الذي أخذناه وغفل عنه بتقديرنا عليه من الأزل ، وأما

أنت يا حبيبي فلا تخش النسيان لما نوحيه إليك لأنك محفوظ منه في هذا الشأن كما هو ثابت لك في الأزل ، وفي هذه الآية إشارة إلى قوله تعالى "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ" الآية 113 المارة ، أي أنا كررنا الوعيد لهؤلاء الجاحدين ذلك العهد لعلهم يرجعون اليه ، فلم يفعلوا ولم يلتفوا اليه ونسوه .

هذا وما قيل إن في هذا غضاضة في مقام آدم عليه السلام إذ جعلت قصته مثلا للجاحدين ، قيل لا مبرر له ، إذ لا يشترط أن يكون المشبه كالمشبه به من كل وجه ، ألا ترى أن الأصحاب لما قالوا لحضرة الرسول كيف نصلي عليك يا رسول اللّه قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل إبراهيم إلخ . . .

، فهل يتصور أن إبراهيم أفضل من محمد وأن آل إبراهيم أفضل من آل محمد ؟ كلا ، لهذا فلا معنى لهذا القيل وقائله ، والتفسير على هذا الوجه هو الموافق لنفس الأمر لمناسبة السياق والسباق واللّه أعلم "فَنَسِيَ" آدم ذلك العهد وأكل من الشجرة ، وقيل في المعنى .

يا أكثر الناس إحسانا إلى الناس يا أحسن الخلق إعراضا عن الناس

نسيت وعدك والنسيان مغتفر فاغفر فأول ناس أول الناس

هذا وأن النسيان لا يوأخذ عليه بشريعتنا قال صلى اللّه عليه وسلم : رفع عن أمتي ثلاث الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

(157/493)

ولعله هو من خصائص هذه الأمّة بدليل قوله رفع بما يدل على أن الأمم قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم يؤاخذون على ذلك كله ، وأن هذه الآية خصت بالعفو عنها ، إذ ما عموم إلّا وخصص ، وقد خص الأنبياء بالمؤاخذة على أشياء لم تؤاخذ بها أممهم ، ورحم اللّه القائل حسنات الأبرار سيئات المقربين "وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً" 115 ثباتا وحزما على ما عهدنا به اليه ، ولو صبر عما نهى عنه لكان من أولي العزم ولكن لم يرد اللّه منه ذلك ، بل أراد ما وقع كما وقع "وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى " 116 عن السجود راجع قصّته في الآية 11 من الأعراف المارة (فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) حسدا منه على ما أنعمنا به عليك فتحذر منه "فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى " 117 أنت وزوجك وذريتك إذ يكون عيشك من كد يمينك وعرق جبينك ، فتزرع وتحصد وتطحن وتعجن وتخبز بعد أن كنت في غنى عن هذه الأتعاب ، ومن ضمن

شقائك شقاء ذريتك من بعدك وزوجتك معك ، لأن شقاء الرجل شقاء لأهله وسعادته سعادتهم ، أسند جل شأنه الخروج إلى اللعين بسبب وسوسته لهما وقبولهما منه وإلا ففي الحقيقة هو الفاعل وحده ، وانما يؤاخذ الفاعل على ما نهي عنه بقصده ورغبته وبما أوتي من عقله بلزوم اجتناب القبيح وعمل المليح ، كما بيّنه في الآية 122 الآتية ، ثم بين فوائد بقائه في الجنة بقوله عز قوله "إِنَّ لَكَ" يا آدم مادمت في الجنة "أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى " 118 بل تأكل ما تشتهي وتلبس ما تريد بلا تعب ولا مشقة "وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى " 119 بل تشرب أنواع الأشربة اللذيذة وتستظل بظل دائم لا ترى وهج الشمس ولا حرها ، يقال ضحى الرجل إذا برز في الضحى فأصابته الشمس ، قال عمرو بن ربيعة في هذا :

(158/493)

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر

يخصر أي يبرد ، فهذه الأمور التي يدور عليها كفاف الإنسان مؤمنة لكما ، فلما ذا أخرجتما أنفسكما إلى مباشرتها بالتعب والمشقة بسبب عدم صبركما عما نهيتما عنه ! "فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ" ثم بين صفة هذه الوسوسة بقوله "قالَ" إبليس يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ" التي من يأكل منها لا يموت بل يخلد في الجنة "وَمُلْكٍ لا يَبْلى " 120 ولا يفنى زيادة

على التخليد فيها أبدا فراق لهما ذلك وقالا بلى فما هو ؟ قال تأكلان من هذه الشجرة ولم يزل يحسّن لهما أكلها حتى أغراهما وغرهما

"فَأَكَلا مِنْها" مع كون علمهما بعداوة إبليس لهما بإخبار اللّه تعالى لهما نسيانا وغرورا من إبليس الذي القي الوسوسة لهما وأقسم بأنه ناصح لهما ولم يريدا بعملهما ذلك مخالفة أمر اللّه حقيقة ، لأن الحقيقة هي طبق مراد اللّه أزلا ومن تأمل هذا عرف أن لا دافع لقضاء اللّه .

فعجل اللّه عقوبتهما على هذه المخالفة الظاهرة لما أمرهما اللّه به "فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما" حال أكلهما بدليل العطف بالفاء

فأزيل عنهما لباسهما الساتر لهما فظهرت عورتهما فاستوحشا منظرهما "وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ" بقصد سترهما إذ استبشعا ما رأياه من عورتهما ، ولم يكن لهما ما يسترانها إلا أوراق الجنة .

مطلب معصية آدم والحكم الشرعي فيها ومعنى القضاء والقدر .

(159/493)

"وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ" على هذه الصورة "فَغَوى " 121 ضل عن طريق الحق وأخطأ الصواب بمخالفته هذه فخسر الجنة والخلد فيها في الدنيا ، أمّا الآخرة فمضمونة له ، وكذلك خسر الملك الذي غرّرهما به إبليس مدة حياتهما وصار حالهما من الراحة إلى التعب ، ومن الصفاء إلى الكدر ومن الرفاه إلى الهم ، ومن الفراغ إلى الشغل ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن الصحة إلى المرض ، واعتراهما ما يعتري أهل الدنيا وفارقهما ما يعترى أهل الجنة .

الحكم الشرعي : قال ابن قتيبة : يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال عاص لمن اعتاد المعصية لا لمن لم يعتدها ، كالرجل يخيط ثوبه فيقال خاط ثوبه ولا يقال له خياط .

وقد أجمع العلماء على أن ما وقع من آدم قبل النبوة بدليل قوله تعالى (ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ) تجاوز عما وقع منه "وَهَدى " وفقه للهداية بأن علمه كلمات كما يأتي ذكرها في الآية 27 من البقرة في ج 3 وهي من حيث المعنى مثل هذه الآية ، إلا أن العطف جاء هنا بثم الدالة على التراخي ، أي اصطفاه نبيا بعد ما وقع منه ذلك ، وهناك بالفاء الدالة على الفور أي أنه تاب عليه حالا ، وعلى كل فالتوبة بعد وقوع المخالفة والنبوة بعدها ، وما جاء على غير هذا لا قيمة له ولا عبرة به روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم احتج آدم وموسى "أي جادل وخاصم يقال حاججته جادلته فغلبته" فقال موسى يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة ! فقال آدم أنت اصطفاك اللّه بكلامه وخطّ لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدره اللّه علي قبل أن يخلقني

بأربعين عاما ، فحج آدم موسى .

وفي رواية لمسلم : قال آدم بكم وجدت اللّه كتب التوراة قبل أن أخلق ، قال موسى بأربعين سنة ، قال وهل وجدته

(160/493)

فيها وعصى آدم ربه ؟ قال له نعم ، قال فهل تلومني على أني عملت عملا كتبه اللّه عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ قال رسول اللّه فحج آدم موسى عليهما السلام .

قال أبو سليمان الخطابي : يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر من اللّه على معنى الأجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدّره ، ويتوهم بعضهم أنه حجّ آدم موسى من هذه الوجهة ، وليس كذلك ، وانما معناه الإخبار عن تقدم علم اللّه بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم وصدورها على تقدير منه وخلقه لها خيرها وشرها .

والقدر أسم لما صدر مقدارا عن فعل القادر ، والقضاء في هذا معناه الخلق ، وإذا كان الأمر كذلك فقد بقي عليهم من وراء علم اللّه فيهم لهم وأكسابهم ومباشرتهم الأمور ومما رستهم إياها عن قصد وتعمد وتقدم ارادة واختيار ، لأن الزاني لا يزني إلا وهو راغب للزنا مختار فيه ، والشارب لا يشرب إلا وهو راغب فيه ، وهكذا ، فكيف يكون ذلك

جبرا .

أخزى اللّه المعاندين إذا فالحجة انما تلزمهم من هذا الوجه والملامة تلحقهم عليها منه ، وجماع القول في هذا أن القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمثابة البناء ، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ، وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن اللّه تعالى قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها ، فكيف يمكنه أن يرد علم اللّه فيه وأن يبطله بعلّة ذلك ، وإنما كان تناوله الثمر من الشجرة سببا لنزوله إلى الأرض التي خلق إليها ، وأنما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى وأوقع لائمة موسى على نفسه ، ولذلك قال أتلومني على أمر قدره اللّه علي قبل أن أخلق بأربعين عاما ومن هنا حصل الاختلاف في عصمة الأنبياء .

مطلب في عصمة الأنبياء ووقتها فيهم :

(161/493)

واعلم أن خبط القول فيها على ما قاله الإمام فخر الدين الرازي يرجع إلى أربعة أقسام :

الأول ما يقع في باب الاعتقاد وهو اعتقاد الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز في حقهم البتة .

الثاني ما يقع بالتبليغ فكذلك ممتنع في حقهم

حتى الخطأ والنسيان فضلا عن التعمد على الصحيح ، لأن الآية أجمعت على عصمتهم من الكذب ومواظبتهم على التبليغ والتحريض ، والا لارتفع الوثوق بالأداء واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمدا ولا سهوا ولا خطأ ولا نسيانا ، ومن الناس من جوز سهوا لأن الاحتراز منه غير ممكن وليس بشيء ولا عبرة ولا قيمة له .

الثالث ما يقع بالفتيا فقد أجمعوا أيضا على أنه لا يجوز قطعا خطاهم فيها ونسيانهم وسهوهم سواء ، فعدم جواز العمد من باب اولى ، وما أجازه بعضهم على طريق السهو لا صحة له ، لأن الفتيا من قسم التبليغ بالنسبة إليهم ، إذ لا فرق في وجوب اتباعهم في أفعالهم وأقوالهم .

الرابع ما يقع من أفعالهم .

(162/493)

قال الإمام الفخر والمختار عندنا أهل السنة والجماعة أنه لم يصدر منهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة من حين تنبأهم ، لأن الذنب لو صدر عنهم لكانوا أقل درجة من أحد الأمة ، إذ قد يجوز حفظ البعض منها من اقتراف الذنب واسناد هذا إليهم غير جائز ، لأن درجتهم غاية

في الرفعة والشرف ، ولو جاز صدوره منهم لأدى إلى عدم قبول شهادتهم ، ولوجب الاقتداء بهم فيما صدر منهم وهو محال ، فيكونون وحاشاهم أقل حالا من عدول الأمة ، وهذا أيضا غير جائز ، لأن معنى النبوة والرسالة أن يشهد على اللّه أنه شرع هذا الحكم مثلا ، وهو يوم القيامة شاهد على الكل ، راجع الآية 40 من سورة النساء في ج 3 والآية 89 من سورة النحل في ج 2 تجد ما يتعلق في هذا البحث مفصلا ، وهذا ما عليه اجماع أهل السنة والجماعة ، أما ما قاله بعض المعتزلة بجواز صدور الكبائر منهم ، وما قاله بعضهم بمنع الكبائر وجواز صدور الصغائر منهم فقط على جهة العمد فلا عبرة به إذ لا مستند لهم به من الكتاب والسنة ، فضلا عن أنه مخالف لهما فضلا عن عدم اتفاقهم عليه ، لأن منهم الجبائي قال بعدم جواز صدور الكبيرة والصغيرة منهم موافقا لقول أهل السنة والجماعة ، الا أنه زاد إلا على جهة التأويل كما وقع لآدم عليه السلام من أكل الشجرة على أنها غير المنهي عنها إما لمظنّة الخلد وإما لملك ، ومنهم من جوز وقوعها سهوا وخطأ لا فرق عنده بين الكبيرة والصغيرة ، ومنهم

من منع وقوع الكل سهوا وخطأ وتأويلا ، وهو قال الشيعة ، فاذا علمت هذا فاعلم أنه قد ثبت ببديهة العقل ان لا شيء أقبح بمن رفع اللّه درجته وأعلى مقامه وائتمنه على وحيه ، وجعله خليفة في عباده وبلاده ، يسمع ربه يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحا لغرضه .

واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة اللّه ، فلو لم يطيعوه هم لدخلوا تحت قوله تعالى "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ" الآية 44 من سورة البقرة ، وقد قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام "وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ" الآية 88 من سورة هود في ج 2 ، وقال تعالى "إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ" الآية 90 من سورة الأنبياء في ج 2 واللفظ للعموم فيتناول الكل ويدل على ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه ، فثبت لك من هذا ومما سيأتي في تفسير الآيات الآنفة الذكر أن الأنبياء كلهم فاعلون لكل خير تاركون كل شر ، وهذا ينافي صدور الذنب منهم ، كيف وقد قال تعالى (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) الآية 55 من سورة الحج في ج 3 ، وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ) الآية 33 من آل عمران ج 3 وقال في حق موسى (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي) الآية 143 من الأعراف المارة وقال تعالى "وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ ، إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ) الآيات 46 فما بعدها من سورة ص المارة) وهذه الأدلة القاطعة تدل على وصفهم بالاصطفاء

والأخيرية صراحة وذلك كله ينافي اقتراف الذنب مهما كان بعد النبوة لا عمدا و

لا سهوا ولا نسيانا ولا خطأ قال في بدء الأمالي :

وان الأنبياء لفي أمان عن العصيان عمدا وانعزال

(164/493)

و أن من خالف هذا الإجماع وتمسك بظاهر بعض الآيات كالآية المفسرة وقال بصدور

الذنب منهم على طريق التأويل أو غيره فإن كلامه إنما يتم إذا أثبت بالدلائل أن ما وقع من

آدم عليه السلام كان حال النبوة أو بعدها ، وذلك

محال قطعا لا دليل فيه ولا حجة له البتة حتى لا يوجد نقل صحيح يستند إلى دليل

والقاعدة إذا كنت ناقلا فصحة النقل ، وإلا فكلامك مردود عليك .

(165/493)

وإذا كان كذلك وهو كذلك فلم لا تقول إن ما وقع من آدم كان قبل النبوة ، وأن اللّه تعالى قبل

توبته وشرّفه بالنبوة والرسالة ، فتطمئن وتنفي الشك من النفوس الخبيثة وتروضها على

الطهارة والفضيلة وتنزه الأنبياء العظام عما لا يليق بمكانتهم ، فتحصل رضاء اللّه تعالى ، لأن رضاء الأنبياء في رضائه ، ولا توقع نفسك بسبب الوهم والشك بالهلاك بسبب ما تصمهم به مما ليس فيهم ، فتستوجب سخط اللّه باختيارك ورضاك ؟ قال القاضي عياض قد أخبر اللّه بعذره فقال "وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً" أي نسي عداوة إبليس له فقبل نصحه ونسي ما عهد اليه بشأنها وشأن الشجرة ولم ينو المخالفة ولم يستعملها ، ولكنه اغتر بحلف إبليس وظن أن أحدا لا يحلف باللّه كذبا وتأول أن المأكول منها غير المنهي عنها وإذا قلت حينئذ (وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى) وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وإشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم ، فلو لم يكن لهم ذنوب فكيف يتوبون ويستغفرون ، فأقول بما أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلوّ والمعرفة باللّه وسنة عباده وعظيم سلطانه وقوة بطشه مما يحملهم على شدة الخوف منه جل جلاله أو الإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم ، وأن تصرفهم بأمورهم ما لم ينهوا عنه ولم يؤمروا به وقد أتوه على وجه التأويل والسهو ، وقد تزودوا من الدنيا وأمورها المباحة ، فأوخذوا عليها وعوتبوا بسببها أو حذروا من المؤاخذة بها ، فهم خائفون وجلون على أنها تسمى ذنوبا بالإضافة إلى سمو منصبهم وعلو مكانتهم ، ومعاص بالنسبة لكمال طاعتهم وتمام انقيادهم إلى ربهم ، لأنها ذنوب كذنوب غيرهم التي يأتونها رغبة بلا تأويل ، وحاشاهم من ذلك ، وحاشاهم مما هنا لك .

هذا ، وقد اختلف في وقت العصمة : قالت الشيعة انهم معصومون من وقت الولادة ، وقالت المعتزلة من وقت البلوغ ، وقال أهل السنة والجماعة من وقت النبوة ، وقال بهذا القول الهزيل واليافعي من المعتزلة ، وهذا هو قول الحق الوسط وخير الأمور أوساطها "قالَ" لآدم وزوجته حواء بعد أن انتهى أمد مكثهما في الجنة وحان أمر إقامتهما في الدنيا على أثر ما وقع منهما "اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً" انحدروا إلى الأرض لأن الهبوط معناه الانحدار من العلو إلى السفل على طريق القهر كهبوط الحجر ، وإذا استعمل في الإنسان فعلى طريق الاستخفاف به "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" بالتحاسد في الدنيا والاختلاف بالدين وفي أمر المعاش وإنما جمع ضمير بعضكم مع أن الخطاب لآدم وحواء فقط لأن العداوة نشأت في ذريتهما لا فيهما ، وما قيل أن الخطاب لهما ولإبليس ينافيه قوله تعالى "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً" من كتاب ورسول وهذا الهدى إلى ذريتهما لأن إبليس مقطوع بعدم هدايته وعدم إتيان الهدى اليه بكتاب او رسول ، لأن اللّه تعالى حذر رسله منه وأمرهم أن يحذروا أممهم منه "فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ" من كافة خلقي "فَلا يَضِلُّ" في دنياه "وَلا يَشْقى " 123

بآخرته وإبليس محروم ومقطوع له بالشقاء بالدنيا ومجزوم بعذابه في الآخرة ، قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

(167/493)

ولهذا البحث صلة في الآية 34 فما بعدها من سورة البقرة في ج 3 ، قال تعالى "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي" أي الكتاب المعبر عنه بالهدى الذي فيه ذكره ، وأعرض عن الرسول المذكر به "فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً" في هذه الدنيا "ضَنْكاً" ضيّقة وضنك وصف يستوي فيه المذكر والمؤنث ، قال ابن عباس كل ما أعطي لعبد في هذه الدنيا قل أو كثر ولم يتق فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة ، وإن قوما أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة في الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم ضنكا لأنهم

يرون أن اللّه ليس بمخلف عليهم ما ينفقونه ، وينسون ما أنعمه عليهم ابتداء وقد ولدتهم أمهاتهم مجرّدين فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم باللّه .

وقال ابن جبير : يسلبه القناعة حتى لا يشبع فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياتهم طيبة ، ومع الاعراض الحرص والشح فعيشته ضنك ، وحالته مظلمة ، كما قال

بعض الصوفية لا يعرض أحدكم عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته ، وتشوش عليه رزقه ولهذا قال تعالى "وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى "

(168/493)

---

124 فاقد البصر لأنه يحشر على وجهه فلا يرى ببصره ما يراه غيره ، لأنه منكوس ، وإلا فإن اللّه تعالى يعيد للأعمى بصره يوم القيامة ، وكذلك مقطوع اليد والرجل وغيرها من القلعة بحيث يحشر كاملا كما ولد ، ونظير هذه الآية الآية 32 من سورة الفرقان المارة والآية 97 من سورة الإسراء الآتية ، قال بعض المفسرين فاقد الحجة جاهل بوجود الحق كما كان في الدنيا إذ يطلق على الجاهل في الأمر أعمى لأنه لا يعرف المخلص مما يقع فيه ، كما أن الأعمى لا يعرف الطريق إلى مبتغاه ، قال عليه الصلاة والسلام من لا يعرف اللّه في الدنيا لا يعرفه في الآخرة ، الا أن سياق الآية يؤيد التفسير الأول لموافقته لظاهرها وعليه المعول إذ لا يعدل عن الظاهر إلا عند إمكان التفسير به "قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى " اليوم في الآخرة "وَقَدْ كُنْتُ" في الدنيا "بَصِيراً" "قالَ كَذلِكَ" مثل ما فعلت بنا في الدنيا فعلنا بك في الآخرة حيث "أَتَتْكَ آياتُنا" فيها "فَنَسِيتَها" ولم تعمل بها ولم تتبع من أتاك بها "وَكَذلِكَ" مثل نسيانك هذا لآياتنا في الدنيا "الْيَوْمَ تُنْسى " 126 في الآخرة من خيرنا ، ولهذا حرمناك

الآن نعمة النظر فيها جزاء وفاقا ، فتركك الآن على عماك الذي كنت عليه في الدنيا لأنك لم تستعمل نعمة النظر فيها بآياتنا ومكوناتنا ، فتعتبر وتؤمن بل حرفتها لغير ذلك "وَكَذَلِكَ" مثل هذا الجزاء الواقع بالمقابلة "نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ" في دنياه ولم يستعمل جوارحه فيما خلقت لها بل صرفها إلى المعاصي ولم ينتفع بالنعم التي خلقت لها "وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ" أما من آمن بها واستعمل جوارحه وحواسّه فيما خلقت لها ، فأولئك لم ننسهم من الرحمة ولم نحرمهم من الخير ، بل نرفعهم إلى الدرجات العلى مثل السحرة المار ذكرهم في الآية "70" من الأعراف والآية 73 من هذه السورة "وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى " 127 من عذاب الدنيا و

(169/493)

أعظم مهما رأيتموه شديدا ، وأدوم لأن عذاب الدنيا له نهاية ولا نهاية لعذاب الآخرة فضلا عن فظاعته التي لا تكيف ، فان قلت قد ورد وان اللّه تعالى يري الكافر مقعده في الجنة ثم يدخله النار ليزداد عذابا على عذابه وحسرة على حسرته ، فمن يحشر أعمى لا يرى ذلك فيكون بحقه

(170/493)

أقل عذابا وحسرة ، قلت لأن اللّه تعالى يرد عليه بصره حتى يريه مقعده ذلك ، ثم يسلبه منه ، وكذلك الأصم والأبكم ، قال تعالى "أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ" أي لا أسمع ولا أبصر منهم يوم يأتونه ، راجع الآية 38 من سورة مريم المارة والآية 3 ، من سورة الكهف في ج 2 ، وقال ابن عباس إن الكافر يحشر أولا بصيرا ثم يعمى ، فيكون الإخبار بأنه كان بصيرا إخبارا مما كان عليه أول حشره ، لانه لو لم يردّ عليه بصره كيف يقرأ كتابه ؟ كما يأتي في الآية 14 من الإسراء الآتية ، ولا يخفى أن ذلك اليوم يوم طويل تختلف فيه أحوال الكفار فمرة يجادلون وأخرى يشكون ، وطورا يعمون ، وتارة يبصرون أجارنا اللّه من ذلك ، قال تعالى ملتفتا إلى كفار مكة "أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ" وقرىء بالنون أي ألم يبين لهم هذا القرآن "كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ" الماضية وهم الآن "يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ" إذا سافروا للشام إذ يمرون بالحجر ديار ثمود وقريات قوم لوط ولا يتفكرون فيما كان عليهم أهلها ، وكيف صار تدميرهم ، وسببه "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ" واضحات موجبة للاعتبار "لِأُولِي النُّهى " 128 العقول السليمة يتعظون بها حيث كانوا أكثر منهم أموالا وأولادا وقوة ، فلما عصوا رسلهم أهلكهم اللّه "وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ" وهي الوعد بتأخير العذاب ليؤمن من يؤمن منهم ويصر من يصر على كفره وفق ما هو مقدر في الأزل بالتقدير المبرم الذي لا يبدل ولا يقدم ولا يؤخر "لَكانَ

لِزاماً" حتما نزوله بهم حالا لا ينفك عنهم أبدا ، وكلمة لزام لم تكرر في القرآن إلا هنا وآخر سورة الفرقان ، وهي بمعنى

(171/493)

لازم وصف به للمبالغة ، وهكذا يؤتى بالمصادر بدل اسم الفاعل بقصد المبالغة "وَأَجَلٌ مُسَمًّى" 129 بالرفع عطف على كلمة في (ولولا كلمة) أي لولا كلمة سبقت بتأخير عقوبتهم وضرب أجل لوقوعها اما بانقضاء أعمارهم أو بحلول يوم القيامة لما تأخر عنهم العذاب ، بل لنزل بهم حالا ، ولكن حال دون ذلك تلك الكلمة والأجل اللذان لا يتبدلان ، وهنا فيه المقدم والمؤخر وفيه مظنة الغلط لمن لا يعلم ذلك ، وهو من أنواع البديع المستحسن وجوده في الكلام البليغ الفصيح ، قال تعالى مخاطبا رسوله

صلى اللّه عليه وسلم "فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ" فيك وفي كتابك وربك ، إلى أن يأتي ذلك الوقت المقدر لإيقاع العذاب فيهم في الدنيا ، وسترى عذابهم الأكبر يوم القيامة "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى " 130 هذه الآية والتي بعدها نزلتا في المدينة ، ولهذا فسرت بالصلوات الخمس ، فصلاة الصبح قبل طلوع الشمس ، والعصر قبل غروبها ، وآناء الليل أول ساعاته المغرب

والعشاء ، وأطراف النهار صلاة الظهر ، لأنها تدخل أول الزوال وهو انتهاء طرف النصف الأول وابتداء طرف النصف الثاني وهي بينهما ، لذلك قال وأطراف النهار ، وقرىء ترضى بضم التاء أي تعطى الثواب الذي يرضيك به ربك ، وبالفتح ترضى ما يعطيكه من الثواب وترضي نفسك بالشفاعة بالآخرة وبالظفر وانتشار دعوتك بالدنيا ، والآناء جمع أني وهو الوقت ، ولذلك فسر بالساعات في قوله تعالى (غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ) الآية 54 من سورة الأحزاب في ج 3 ، أي وقته

(172/493)

قال تعالى "وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ" فتطيل النظر بها إعجابا واستحسانا وتمنّيا يا حبيبي إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ" من قومك وغيرهم بالأموال والرياش والأثاث والأنعام والأولاد وغيره ، لأن ذلك لا قيمة له عندنا ولذلك لم نزودك منه لكونه "زَهْرَةَ" أي بهجة وزينة وزخرف "الْحَياةِ الدُّنْيا" الفانية بما فيها لأنه من جملة الغرور الذي حذرناك منه ، ولذلك لم نجعل لك ميلا إليها لانها ليست بشيء يركن اليه ، وإنا إنما أعطيناهم ذلك "لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ" لا لغير ذلك ، بل نريد أن نمتحنهم ونختبرهم ابتلاء من عندنا ليزدادوا إثما بكفرانها فيستوجبوا العذاب الشديد "وَرِزْقُ رَبِّكَ" الذي رزقه في الدنيا بالنسبة لما يترتب عليه من الثواب في

الآخرة وما أنعم به عليك من النبوة والرسالة وما وعدك به من فتح البلاد وارشاد العباد ، وانقياد الأمم للايمان بك ، وما أدخره لك من الأجر لقاء دعوتك لهم وصبرك على أذاهم ، وقناعتك بالقناعة من الرزق ، وتجملك بحسن الخلق ولين الجانب "خَيْرٌ" لك مما أعطيناهم من النعم الدنيوية التي لا قيمة لها مهما كانت كثيرة "وَأَبْقى " 131 أدوم لأن ما أعطاكه باق لا يزول في الدنيا والآخرة ، وما

أعطيناهم فان معذبون عليه فيهما ، هذا ، والدليل على نزول هاتين الآيتين في المدينة ما قاله أبو رافع نزلت هذه الآية حينما نزل ضيف برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبعثني إلى يهودي استلف منه له دقيقا فلم يفعل إلا برهن ، فأرسل معي درعه الحديدي فرهنته عنده ، وقال صلى اللّه عليه وسلم : واللّه لئن باعني أو أسلفني لقضيته واني لأمين في السماء وأمين في الأرض لأن مكة لا يهود فيها .

(173/493)

فثبت أنهما مدنيتان قال أبيّ بن كعب : من لم يعتزّ باللّه تقطعت نفسه حسرات ، ومن اتبع بصره ما في أيدي النّاس بطل حزنه ، ومن ظن أن نعمة اللّه عليه في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم انظروا إلى من هو دونكم في

أمور دنياكم وفي رواية : انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر أن لا تزدروا نعم اللّه ، وفي رواية نعمة ربكم .

أما في أمور الآخرة فينبغي للعاقل أن ينظر إلى من هو فوقه ويقتفي أثره ، فهو أجدر لأن يكون من أولياء اللّه ، وقد نظم هذا في بيتين قال :

من شاء عيشا رغيدا يستفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالا

فلينظرن إلى ما فوقه أدبا ولينظرن إلى من دونه مالا

ولهذا فان المتقين تردّدوا في وجوب غض النظر عن ابنية الظلمة ، وعدد الفسقة ، في ملابسهم ومراكبهم قال الحسن لا تنظروا إلى دقدقة (جلبة الناس وأصوات حوافر دوابهم) هماليج (الذين لا مخ لهم أو المذللين المنقادين) الفسقة ، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية في تلك الرقاب لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالنظر إليها محصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها .

ومعنى هذا الخطاب هو أن اللّه تعالى يقول لحبيبه محمد صلى اللّه عليه وسلم استمر يا حبيبي على ترك ذلك كله ، واعلق بالك بما هو عند اللّه ، واترك ما سواه ، ويراد به غيره صلى اللّه عليه وسلم ، لأنه أبعد من أن تمتد عينه لشيء من تلك الزخارف ، وجاء الخطاب له لأنه أكثر تأثيرا لانقياد أمته إليه ، وأعظم إلهابا في الصدور لمتابعته ، كيف وهو القائل : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أريد به وجه اللّه .

وكان صلى اللّه عليه وسلم شديد النهي عن الاغترار بالدنيا والنظر إلى زهرتها ، لهذا يكون المراد به أمته ، مثل قوله تعالى "لَئِنْ أَشْرَكْتَ" الآية 65 وما بعدها من سورة الزخرف

(174/493)

في ج 2 قال تعالى "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ" الركعتين المفروضتين عليه خاصة ليمرن أعمامه وأولادهم وأصهاره وبناته عليها ، إذ نفث في روعه أنها ستفرض صلاة على الكل أشد منها ، ولهذا خصّ الأمر بأهله بما يشمل زوجاته ، ولو كان المراد بها الصلاة المفروضة لما خصّ أهله بها ، بل لأمره بأمر العامة بها لأن التكليف بها عام ، لهذا لم يرد بها الصلاة المكتوبة لأنها لم تفرض بعد ، ولا ينافي هذا المعنى ما أخرجه ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري قال لما نزلت "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ" كان صلى اللّه عليه وسلم يجيء إلى باب علي كرم اللّه وجهه صلاة الغد ثمانية أشهر يقول الصلاة رحمكم اللّه تعالى "إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً" الآية 22 من الأحزاب في ج 3 لأنه من أصهاره والمراد بأهل البيت هم أعمامه وأولاد عمه وبناته ، وزوجاته تبع لهم ، لأن الزوجات غيرهن لا يعدون من أهل الرجل لابتعادهن عنه بالطلاق ، أما زوجات النبيّ فلا طلاق عليهن راجع الآية 51 من سورة الأحزاب في ج 3 أيضا ، ولا

ما جاء عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية ، لانه لا يبعد أن ذلك كان قبل فرض الصلاة مطلوب منه عند كل حادثة ومأمور بها .

(175/493)

انظر ما بعد هذه الآية "وَاصْطَبِرْ عَلَيْها" داوم أنت عليها وتحمل مشاقها لان الصبر مجاز مرسل عن الداومة والتحمل ، لأنهما ملازمان معنى الصبر ، وفيه اشارة إلى أن من رعاية الصلاة والمحافظة عليها بصورة جدية حقيقة مشقة على النفس ، ولذلك أمر بالصبر عليها "لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً" لنفسك وأهلك بل نسألك عملا لأنا "نَحْنُ نَرْزُقُكَ" وإياهم ونكفيك مؤنة الرزق في الدنيا ، لأن من كان في عمل اللّه كان اللّه في عمله ، ففرغ بالك لعمل الآخرة وما تحتاجه من الدنيا فهو مضمون لك قال تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون الآية 23 من الذاريات في ج 2 "وَالْعاقِبَةُ" المحدودة "لِلتَّقْوى" 132 لأهلها قال تعالى "وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" الآية 83 من سورة القصص الآتية ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، والمتقون هم أولياء اللّه وهو وليهم ، راجع الآية 18 من سورة الجاثية في ج 2 ، كان عروة

ابن الزبير إذا رأى ما عند السلاطين قرأ هذه الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة يرحمكم اللّه .

وكان بكر بن عبد اللّه المزني إذا أصاب أهله شيء من خصاصة قال قوموا فصلوا ، بهذا

أمرنا اللّه ورسوله .

وعن مالك بن دينار مثله ، وهذا كله لا يؤيد أن هذا الأمر في هذه الآية في الصلوات الخمس ولا مانع من أن يستدل بها بعد نزول فرض الصلاة .

(176/493)

على الصلاة عند كل حادثة ، ثم طفق يندد في أهل مكة بعد سماعهم هذه الآيات وعدم اتعاظهم بها بقوله جل قوله "وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ" مثل موسى وعيسى لأن أممهما كلها اقترحوا آية عليهما أجابوهما ، وكذلك من قبلها مثل صلح وهود عليهما السلام حتى إذا أجاب طلبهم هذا وأظهر اللّه لهم على يده ما اقترحوه استدلوا على صحة نبوته وصدق رسالته قال تعالى مجيبا لهم على لسان رسوله "أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى " 133 وهو القرآن المنوه به فيها المحتوى على ما في التوراة والإنجيل والزبور وعلى كل ما في الصحف الأولى المنزلة على إدريس وابراهيم من قبلهم وبعدهم من الآيات البينات فضلا عن فصاحته وبلاغته وما فيه من أخبار الأمم السالفة وما اقترحه عليهم من الآيات وسبب إهلاكهم ، فآية القرآن هذه فيها كل آية وهو نفسه آية كافية لمن أراد أن يعتبر لانه أم الآيات وأسس المعجزات وقيل المراد بالبينة هو محمد صلى اللّه عليه وسلم إذ جاء ذكره

في الصحف الاولى والكتب أيضا قال تعالى "وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ" هؤلاء المقترحين طلب نزول الآيات "بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ" أي أرسال محمد إليهم أو إنزال القرآن عليه الدال على صدقه المغني عن أي آية "لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا" يدعونا لعبادتك وتوحيدك لنهتدي بهذه "فَنَتَّبِعَ آياتِكَ" المنزلة معه أو على يده "مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ" بعذاب الدنيا بالأسر والقتل والجلاء "وَنَخْزى" 131 في عذاب الآخرة من هوان وافتضاح، فيا أكمل الرسل "قُلْ كُلٌّ" منا ومنكم "مُتَرَبِّصٌ" ينتظر العاقبة التي يؤول إليها أمره "فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ" غدا إذا جاء أمر اللّه بانقضاء الاجل المضروب لعذابكم في الدنيا والأخرى "مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ" العدل المستقيم "وَمَنِ اهْتَدى" 135

(177/493)

أنحن أم أنتم ولا شك أن محمدا وأصحابه وأتباعه هم أهل الطريق العدل المهتدون بهدى اللّه وستقول لهم قول القائل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

مطلب الاحتجاج على اللّه ورده:

واعلم أن اللّه تعالى قطع المعذرة بالإمهال والإرشاد فله الحجة البالغة روى سعيد الخدري

عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال يحتج على اللّه ثلاثة الهالك في الفترة يقول لم يأتني رسول ، وتلا هذه الآية والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لي عقلا انتفع به ، ويقول الصغير كنت صغيرا لا أعقل ، فترفع لهم نار ويقال أدخلوها فيدخلها من كان في علم اللّه أنه سعيد وينكل عنها من كان في علم اللّه أنه شقي ، فيقول اللّه إياي عصيتم فكيف برسلي لو أتوكم . فقد أراهم اللّه من هذا أنهم لو أرسل إليهم الرسول ، ولو أمهلوا للبلوغ ، لما دخلوا في طاعة اللّه لأن النفس الخبيثة أزلا تبقى على خبثها ولهذا البحث صلة في الآية 15 من سورة الإسراء الآتية فراجعه .

وهناك ثلاثة آخرون (1) الملك يقول يا رب شغلتني بمصالح عبادك ففاتني ما كنت تريده من عمل صالح .

فيؤتى له بسليمان عليه السلام إذ لم يشغله ملكه وهو أوسع ملكا في الأرض عن عبادة اللّه .

(2) المريض يقول يا رب لو عافيتني ما سبقني أحد بما يرضيك فيؤتى له بسيدنا أيوب عليه السلام إذ لم يمنعه مرضه وهو أشد مرضا عن عبادة اللّه .

(3) الفقير يقول يا رب شغلني الكدّ في المعيشة عن عبادتك ، ولو أغنيتني ما فاتني أحد بما تريده فيؤتى له بسيدنا عيسى عليه السلام إذ لم يشغله فقره عن عبادة اللّه والدعوة اليه ، وهو أفقر الناس ، فلا عذر إذن لأحد أبدا .

وروي عنه أيضا أنه لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا سورة طه ويس ، وانظر أيها القارئ ما أشد مناسبة خاتمة هذه السورة لفاتحتها ، لأنها بدأت بخطاب الرسول صلى اللّه عليه وسلم بأنه لم ينزل عليك هذا القرآن لتحمل تعب الإبلاغ وأنهاك نفسك ، وحيث بلغت فلا عليك الا أن يقبلوا منك ، وعليك الإقبال على طاعة اللّه وختمت بما هو في معناه بأمره بالتقوى وعدم الاكتراث بالدنيا والصبر على الذين لا ينجع بهم الإنذار ، وأن المخالف سيندم من حيث لا ينفعه الندم .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 236.181 ﴾

(179/493)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

﴿ طه ﴾ تقدم الكلام عليه في سورة البقرة لمن يخشى كاف وكذا العلي استوى تام وكذا

الثري وأخفى إلا هو حسن وقال أبو عمرو تام طوى حسن وقال أبو عمرو كاف فاعبدوني
جائز لذكري تام بما تسعى كاف وقيل الوقف على أكاد أخفيها افتردى تام يا موسى كاف
مآرب أخرى حسن صالح وقال أبو عمرو كاف تسعى كاف وكذا الاولى الكبرى تام طغى
حسن وقال أبو عمرو كاف يفقهوا قولي صالح أخي جائز إن جعلت همزة أشدد همزة وصل
وإلا فلا لان اشدد حينئذ للمتكلم جوابا للامر كثيرا جائز بصير تام يا موسى صالح وكذا
وعدو له ومن يكفله ولا تحزن فتونا كاف وكذا قدر يا موسى وقيل الوقف على قدر في
ذكرى صالح وكذا طغى اة يخشى كاف يطغى حسن أسمع وأرى مفهوم من ربك حسن
وكذا الهدى وتولى احسن يا موسى كاف وكذا ثم هدى والاولى من السماء ماء صالح من
نبات شتى حسن أنعامكم صالح لاولي النهي حسن تارة أخرى تام فكذب وأبي كاف
بسحر مثله صالح وكذا موعدا موعدا سوى كاف وكذا ضحى ثم أتى حسن وكذا
بعذاب من افترى كاف وكذا النجوى وصفا ومن استعلى ومن ألقى بل ألقوا صالح تسعى
كاف وكذا خفية موسى لا تخف جائز إلا على كاف ما صنعوا حسن وكذا كيد ساحر
حيث أتى جائز وكذا هرون وموسى أن آذن لكم صالح عملكم السحر مفهوم عذابا وأبقى
حسن وكذا والذي فطرنا وما أنت قاض وهذه الحياة الدنيا من السحر تام وكذا خير
وأبقى ولا يحى كاف الدرجات العلى صالح وإنما جاز ذلك مع إن جنات بدل من
الدرجنات لأنه راس آية خالدين فيها تام وكذا من تزكى في البحر يبسا صالح ولا تخشى تام

ومن قرا لا تخف بالجزء جواب الأمر وهو فاضرب لم يقف على يبسا والتقدير إن تضرب لهم طريقا في البحر لا تخف دركا وأنت لا تخشى غرقا والوقف في هذه القراءة على تخف دركا كاف ما غشيهم كاف وما هذى تام والسلوى حسن عليكم غضبي كاف فقد هوى تام وكذا ثم اهتدى يا موسى كاف على أثري مفهوم لترضى كاف السامري حسن أسفا كاف وعدا حسنا حسن وكذا موعدى بملكنا مفهوم وكذا

(180/493)

فقذفناها فنسي تام وكذا ولا نفعا فتنتم به حسن وأطيعوا أمري كاف وكذا موسى تتبعن جائز أفعصيت أمري حسن وكذا قولي يا سامرس كاف وكذا لنفسي لا مساس حسن لن تخلفه صالح نسفا تام إلا هو جائز علما تام ما قد سبق حسن وكذت ذكروا وزرا خالدين فيه كاف حملا تام إن نصب ما بعده بالاعزاء وجائز إن نصب بدلا من يوم القيامة لأنه راس آية إلا عشرا كاف إلا يوما تام وكذا ولا أمتا لا عوج له صالح إلا هما كاف ورضي له قولا تام وكذا به علما للحي القيوم حسن من حمل ظلما تام وكذا اولا هضما ولهم ذكروا الملك الحق ووحيه وعلما وعزما ابليس أبي كاف فتشقي صالح ولا تعرى كاف لمن قرا وانك بكسر الهمزة ولا تضحى تام لا يبلى كاف وكذا من ورق الجنة فغوي صالح وان وصل بما بعده

فأحسن وهدى حسن منها جميعا كاف وكذا البعض عدو ولايشقى حسن ونحشره يوم القيامة أعمى كاف وكذا بصيرا وتنسى بآيات ربه تام وكذا أشد وأبقى في مساكنهم حسن لوبى النهي تلم وكذا وأجل مسمى وقيل غروبها كاف ترضى حسن لنفتنهم فيه تام وكذا وأبقى لا نسألك رزقا صالح نحن نرزقك تام وكذا للتقوى من ربه كاف وكذا الاولي ونخزى حسن فتربصوا آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 485 . 497 ﴾

(181/493)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة طه عليه الصلاة والسلام

مكية مائة وثلاثون واثنتان في البصري وأربع في المدنيين والمكي وخمس في الكوفي وأربعون في الشامي وكلمها ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعون كلمة وحروفها خمسة آلاف ومائتان وحرفان وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع خمسة مواضع فاعبدني ولا برأسي منها جميعاً معيشة ضنكاً لكان لزاماً

طه (كاف) لمن جعلها اسماً أو افتتاحاً للسورة فتكون في موضع نصب بفعل مضمر تقديره اتل أو اقرأ وليس بوقف لمن فسر طه بيا إنسان لاتصاله بما بعده أو سكن الهاء بمعنى طأ

الأرض بقدميك فهو فعل أمر والهاء مفعول أو للسكت أو مبدلة من الهمزة أي قلبوا الهمزة هاء فصار طه وليس طه بوقف إن جعل طه قسماً جوابه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى فلا يفصل بين القسم وجوابه وأمال الطاء والهاء حمزة وورش والكسائي وأمال أبو عمرو والهاء فقط والباقون بفتحها

لتشقى ليس بوقف للاستثناء بعده

لمن يخشى (كاف) إن نصب ما بعده بفعل مقدر أي نزله تنزيلاً وليس بوقف إن نصب تنزيلاً بدل اشتمال من تذكرة أو جعل تنزيلاً حالاً لا مفعولاً له لأنَّ الشيء لا يعلل بنفسه إذ يصير التقدير ما أنزلنا القرآن إلا للتنزيل

العلا (كاف) ومثله استوى ومنهم من يجعل له ما في السماوات من صلة استوى وفاعل استوى ما الموصولة بعده أي استوى الذي له ما في السموات فعلى هذا يكون الوقف على العرش تاماً كذا يروى عن ابن عباس وأنَّه كان يقف على العرش وهو بعيد إذ يبقى قوله الرحمن على العرش كلاماً تاماً ولا يصح ذلك أنظر السمين

الثرى (تام) ومثله وأخفى

إلاَّ هو (حسن)

الحسنى (تام)

حديث موسى ليس بوقف لأنَّ إذ ظرف منصوب بما قبله وهو الإتيان ومن وقف جعل إذ

ظرفاً منصوباً بمحذوف مقدماً أي اذكر إذ أو بعده أي إذ رأى ناراً كان كيت وكيت

إذ رأى ناراً (جائز) ومثله امكثوا

هدى (كاف)

(182/493)

نودي يا موسى (حسن) لمن قرأ إنّي بكسر الهمزة بمعنى القول وهي تكسر بعده وليس بوقف لمن فتحها وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وموضعها رفع لأنّه قام مقام الفاعل في نودي وحذف تعظيماً

نعليك (جائز) للابتداء بإن

طوى (كاف) ومثله وأنا اخترتك لمن قرأ وأنا اخترتك بالتخفيف فأنا مبتدأ وليس بوقف على قراءة حمزة وأنا اخترتك بفتح الهمزة وأنا بالتشديد عطفاً على أن بفتح الهمزة لما يوحى ليس بوقف لأنَّ قوله إنَّني أنا الله لا إله إلاَّ أنا بيان وتفسير للإبهام في لما يوحى فلا يفصل بين المفسر والمفسر

فاعبدني (جائز) وقيل لا يجوز للعطف

لذكري (تام) واستحسن أبو جعفر أنَّ خبراً كاد محذوف تقديره أكاد أظهرها وآتي بها

لقربها إلاَّ إن كان أخفى من الأضداد بمعنى الإظهار فالوقف على أكاد والأكثر على الوصل وحاصل معنى الآية أنّه يحتمل الظهور والستر فإذا كان معناها الظهور اتصلت بما بعدها في المعنى تقديره أظهرها لتجزى وإذا كان معناها الستر تعلقت اللام بما قبلها أي هي آتية لتجزى وهو تفصيل حسن

بما تسعى (كاف) ومثله فتردى

يا موسى (كاف)

على غنمي (جائز)

أخرى (كاف)

يا موسى (جائز)

تسعى (كاف)

سيرتها الأولى كذلك على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على خذها وعليه فلا يوقف على لا تخف ولا على الأولى

آية أخرى (جائز) إن أضمر فعل بعدها أي فعلنا ذلك لنريك من آياتنا مفعول لنريك والثاني الكبرى أو من آياتنا المفعول الثاني والكبرى صفة لآياتنا وهو المختار

الكبرى (تام) لاستئناف الأمر

طغى (كاف)

من لساني ليس بوقف لأنَّ قوله يفقهوا قولي جواب قوله واحلل عقده

(183/493)

يفقهوا قولي (جائز) ومثله من أهلي إن نصب هرون بفعل مقدر أي أخص هرون وكذا يوقف على أهلي إن جعل أخي مبتدأ واشدد خبره وليس من أهلي بوقف إن جعل هرون بدلاً من وزيراً ويوقف على أهلي إن جعلت همزة اشدد همزة وصل وليس أهلي وكذا أخي بوقف على قراءة ابن عامر أشدد بفتح همزة المتكلم وجزم الفعل جواباً للأمر في قوله واجعل لي وزيراً فكأَّنه قال اجعل لي وزيراً أشدد به أزري وأشركه بضم الهمزة وجزم الفعل لأَّنه يجزم أشدد جواباً لقوله واجعل وأشركه عطف عليه وعلى قراءته لا يوقف على أزري لعطف ما بعده على ما قبله وعلى قراءة غيره فالوقف على أزري حسن وذلك أن وأشركه دعاء ثان فالوقف فاصل بين الدعوتين ولا يوقف من قوله واجعل لي وزيراً إلى كثيراً الثاني لأنَّ العطف صيرها كالشيء الواحد وإن جعلت همزة اشدد همزة وصل جاز

كثيرا الثاني (كاف)

بصيرا (تام)

سؤلك يا موسى (جائز) عند قوم ثم لا وقف من قوله ولقد مننا إليم فلا يوقف على أخرى للتعليل بعده ولا على يوحى لأنَّ أن اقذفيه تفسير ما يوحى فلا يفصل بين المفسر والمفسر أو أنَّ مصدرية ومحلها نصب بدل من ما فيما يوحى

في اليم (حسن)

الساحل ليس بوقف لأنَّ قوله يأخذه جواب الأمر وهو قوله فليلقه

وعدوّ له (جائز)

محبةً مني ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله على قراءة الجمهور ولتصنع بكسر لام كي ونصب الفعل ومن قرأ ولتصنع بسكون اللام والجزم وقف على عيني ولو وصله لصار إذ ظرفاً لتصنع وليس بظرف له ومن قرأ ولتصنع بفتح التاء والنصب أي لتعمل أنت يا موسى بمرأى مني فلا يوقف على عيني

من يكفله (جائز)

ولا تحزن (كاف) لأنَّه آخر الكلام ورأس آية

فتونا (حسن) ومثله على قدر يا موسى ولنفسي وبآياتي وذكري

طغى (جائز)

أو يخشى (كاف)

قولاً ليناً ليس بوقف لحرف الترجي بعده وهو في التعلق كلام كي وقرأ أبو معاذ قولاً ليناً فخفف لين كميت وميت قال السدي أوحى الله إلى موسى أن يذهب إلى فرعون هو وهرون وأن يقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى فقال له موسى هل لك إلى أن يردّ الله عليك شبابك ويرد مناكحك ومشاربك وإذا مت دخلت الجنة وتؤمن فكان هذا القول اللين فركن إليه وقال مكانك حتى يأتي هامان فلما جاء قال له أَتَعبُد بعد أن كنت تُعبد أنا أردك شاباً فخضبه بالسواد فكان أول من خضب وفي الرواية ليس في القرآن من الله لفظ لعل وعسى إلاَّ وقد كان فلما قال تعالى لعله يتذكر أو يخشى تذكر وخشي حيث لم ينفعه بعد أن أدركه الغرق

أو أن يطغى (حسن)

لا تخافا (جائز) ومثله وأرى

رسولاً ربك ليس بوقف لمكان الفاء

ولا تعذبهم (حسن) لأنَّ قد لتوكيد الابتداء ومثله بآية من ربك

الهدى (كاف) ومثله وتولى وكذا يا موسى وثم هدى والأولى وفي كتاب كلها وقوف كافية

ولا ينسى (تام) لأنَّه آخر كلام موسى وما بعده من كلام الله مستأنف فالذي خبر مبتدأ محذوف أو منصوب بإضمار أو مدح وليس بوقف إن جعل بدلاً أو صفة لربي وعليهما فلا

يوقف على في كتاب

سبلاً ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

ماءً (حسن) لأنَّه آخر كلام موسى على القول الثاني ثم قال تعالى فأخرجنا به إلى قوله

أنعامكم

شتى (كاف) ومثله أنعامكم

لأولي النهى (تام) ومثله تارة أخرى وكذب وأبى وبسحرك يا موسى كلها وقوف تقرب من

التام

بسحر مثله (جائز) ومثله موعداً

مكاناً سوى (كاف)

يوم الزينة ليس بوقف سواء رفع يوم أو نصب لأنَّ قوله وأن يحشر الناس ضحى موضع أن

رفع لمن رفع يوم أو نصب لمن نصبها وقريء شاذاً وأن تحشر بناء الخطاب وأن يحشر بياء

الغيبية ونصب الناس في القراءتين والضمير فيهما لفرعون أي وأن تحشر يا فرعون أو أن

يحشر فرعون الناس

ثم أتى (كاف)

بعذاب (حسن) لاختلاف الجملتين

من افترى (كاف)

بينهم (جائز)

(185/493)

النجوى (كاف) على قراءة من قرأ إنَّ هذان لساحران على أنَّ إنَّ حرف جواب كنعم وهذان مبتدأ ولساحران خبره واللام زائدة كذا أوّله بعضهم بجعل إنَّ بمعنى نعم وحكي أنَّ رجلاً قال لابن الزبير لعن الله ناقة حملتني إليك فقال إنَّ وراكبها أي نعم ولعن راكبها وفيه دخول اللام على خبر المبتدأ غير المؤكد بإنَّ المكسورة ومثله لا يقع إلاَّ ضرورة كقوله

أم الحليس لعجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبة

المثلى (كاف) ومثله صفا وكذا من استعلى وأول من ألقى

بل ألقوا (جائز)

تسعى (كاف) ومثله خيفة موسى

لا تخف (جائز)

الأعلى (كاف)

ما صنعوا (حسن) ومثله كيد ساحر

حيث أتى (كاف) وقريء كيد سحر بغير ألف وعليها يكون الوقف كافياً

سجدا (جائز)

برب هرون وموسى (كاف)

قبل أن آذن لكم (حسن) على استئناف ما بعده

علمكم السحر (جائز) لتضمن اللام والنون معنى القسم كذا قيل وفيه نظر لأنَّ الكلام صادر من واحد فلا وقف إلى وأبقى ولو كان صادراً من اثنين لكان الوقف عليه وعلى جذوع النخل كذلك

في جذوع النخل (حسن) للابتداء بلام القسم

عذاباً وأبقى (كاف)

والذي فطرنا (حسن) الواو للقسم ودليل جوابه ما قبله وهو لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات كما تقول لن أقوم والله فما قبل القسم قد كفي عن جوابه والجواب محذوف أي وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق والأصح أنَّ الواو للعطف على ما جاءنا أي وعلى الذي فطرنا لما لاحت لهم حجة الله في المعجز

ما أنت قاض (حسن) ومثله الحياة الدنيا

خطايانا ليس بوقف لأنَّ موضع ما نصب بالعطف على خطايانا أي ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر فما اسم ناقص ومن جعل ما نافية وقف على خطايانا

من السحر (تام)

وأبقى (تام) على أنَّ ما بعده من كلام الله وليس بوقف إن جعل من كلام السحرة

مجرما ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد

جهنم (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن كان صفة لها

ولا يحيى (كاف)

(186/493)

الدرجات العلا (كاف) إن رفعت جنات على الاستئناف خبر مبتدأ محذوف وجائز إن رفعتها بدلاً من الدرجات وإنَّما جاز الوقف لأنَّه رأس آية

خالدين فيها (حسن)

من تزكى (تام)

يبسا (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل صفةً لطريقاً بمعنى لا تخاف فيه

وكذا ليس بوقف على قراءة حمزة لا تخف بالجزم جواب الأمر وهو فاضرب أي أن تضرب

لهم طريقاً في البحر لا تخف دركاً ثم تبتديء ولا تخشى فلا نافية أي وأنت

لا تخشى غرقاً وإن جعلته مجزوماً بالعطف على لا تخف لم يوقف على دركاً ويجوز جعل لا

تخاف جواب الأمر وأثبتوا الألف فيه قياساً على قول الشاعر

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بني زياد

ولا تخشى (تام)

ما غشيهم (كاف)

وأضل فرعون قومه (جائز)

وما هدى (تام) للابتداء بالنداء

من عدوكم (جائز) ومثله الأيمن

والسلوى (كاف)

ولا تطغوا فيه ليس بوقف لأنَّ فيحل منصوب بإضمار أن بعد الفاء في جواب النهي

غضبي (كاف) للابتداء بالشرط

فقد هوى (كاف) ومثله ثم اهتدى وكذا يا موسى

على أثري (جائز)

لترضى (كاف)

من بعدك (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف ما بعده على ما قبله

السامري (كاف) ومثله أسفاً وكذا وعداً حسناً

العهد (حسن) لأنَّ أم بمعنى ألف الاستفهام كأنَّه قال أأردتم أن يحل عليكم

موعدي (حسن)

بملكنا ليس بوقف لحرف الاستدراك وقريء بتثليث الميم بفتحها وضمها وكسرها تقول ملك الله كل شيء ملكاً بضم الميم وملك غيره الشيء ملكاً وملكاً بفتحها وكسرها وبهما قريء هنا

فقذفناها (جائز) ومثله السامري

فنسي (تام) للابتداء بالاستفهام

ولا نفعاً (كاف) على أنَّ معطوف لا الثانية داخل وإن جعل في معنى النفي المستأنف حسن الوقف على قولاً والأول أقوى في المعنى لأنَّه أراد أن ينفي القول مع ترك الضرّ والنفع

فتنتم به (حسن)

وأطيعوا أمري (كاف)

عاكفين ليس بوقف لأنَّ ما بعده علة في زوال ما قبل حتى لأنّهم غيوا عبادتهم إلى رجوع موسى

وموسى (كاف)

(187/493)

ألاَّ تتبعني (جائز) أن هي الناصبة للمضارع ويسبك مصدراً أي ما منعك من اتباعي أي أيّ شيء منعك فموضع أن نصب مفعول ثان لمنع ولا زائدة أي ما منعك أن تتبعني

أفعصيت أمري (كاف)

ولا برأسي (جائز) للابتداء بإن

قولي (كاف) ومثله يا سامري اسمه موسى بن ظفر من أهل مصر كان من القوم الذين يعبدون البقر ولما همّ موسى عليه السلام بقتله أوحى الله إليه لا تقتله إنَّه كان سخياً وقيل فيه

إذا المرء لم يخلق سعيداً من الأزل فخاب مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر وموسى الذي رباه فرعون مرسل

لم يبصروا به (جائز) ولم يبلغ درجة التمام لأنَّ ما بعده كالجواب

نفسي (كاف)

لا مساس (حسن) يعني لا تخالط الناس إلى أن تموت

لن تخلفه (جائز) ومثله ظلت عليه عاكفاً لأنَّ اللام التي بعده معها قسم محذوف فكأنَّه قال والله لنحرقنه

نسفا (تام)

إلاَّ هو (حسن)

علما (تام)

ما قد سبق (حسن) ومثله ذكرا وكذا وزرا

خالدين فيه (كاف) خالدين حال من فاعل يحمل

حملا (تام) إن نصب يوم بالإغراء وجائز إن نصب بدلاً من يوم القيامة لأنَّه رأس آية

رزقا (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل جملة في موضع الحال

عشرا (كاف)

يوما (تام)

نسفا (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل معطوفاً على ما قبله

أمتي (كاف) إن جعل يومئذ متعلقاً بيتبعون وجائز إن جعل متعلقاً بما قبله قال مجاهد لا ترى

فيها عوجاً ولا أمتاً أي لا ارتفاعاً ولا انخفاضاً

لا عوج له (جائز) ومثله للرحمن

إلاَّ همسا (كاف)

الشفاعة ليس بوقف لأنَّ ما بعد إلاَّ منصوب بما قبلها أي لا تنفع الشفاعة إلاَّ الرجل المأذون

له في شفاعته

قولا (تام)

وما خلفهم (جائز)

علما (تام)

للحي القيوم (كاف)

ظلما (تام) للابتداء بالشرط

وهو مؤمن ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب الشرط فلا يفصل بينهما

ولا هضما (تام) ومثله ذكراً

الملك الحق (حسن) ومثله وحيه وكذا علما ومثله عزما

إلاَّ إبليس أبى (كاف)

ولزوجك (جائز)

(188/493)

فتشقى (كاف) ومثله تعرى لمن قرأ وإنك بكسر الهمزة على الاستئناف وبها قرأ نافع

وعاصم وليس بوقف لمن قرأها بالفتح لأنَّها محمولة على ما قبلها من اسم إن أي إن لك

انتفاء الجوع والعري وانتفاء الظمأ والضحى فيها

ولا تضحى (كاف)

الشيطان (جائز) ومثله لا يبلى

فأكلا منها ليس بوقف لأنَّ ما بعد الفاء أوجبه ما قبلها

من ورق الجنة (حسن)

فغوى (جائز) ووصله بما بعده أجود

وهدى (تام)

منها جميعاً (كاف) على استئناف ما بعده مبتدأ وخبره عدّو وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة في موضع نصب حالاً من الضمير في اهبطا أي اهبطا في هذا الحالة بعضكم لبعض عدو

وعدو (كاف) ولا وقف من قوله فإما إلى يشقى فلا يوقف على هدى ولا على هداي لأنَّ فلا جواب أما وأما هذه كلمتان إن التي للشرط ودخلت عليها ما وهذه خلاف أما التي للعطف فإنها كلمة واحدة

ولا يشقى (حسن)

ضنكا (جائز) لمن قرأ ونحشره بالنون ورفع الفعل على الاستئناف وليس بوقف على قراءة أبان بن ثعلبة في آخرين بسكون الراء بالجزم عطفاً على محل جزاء الشرط وهو الجملة من قوله فإنَّ له معيشة ضنكا فإن محلها الجزم قال في الخلاصة

والفعل من بعد الجزا إن يقترن بالفا أو الواو بتثليث قمن

وجزم أو نصب لفعل إثر فا أو واو إن بالجملتين اكتنفا

وقريء أيضاً بياء الغيبية قال بعضهم والمعيشة الضنك أن يسلب العبد القناعة حتى لا يشبع

أعمى الأولى (كاف)

والثاني ليس بوقف لأنَّ بعده واو الحال كأَّنه قال لم حشرتني أعمى وقد كانت هذه حالتي بصيرا (كاف) ومثله تنسى

من أسرف ليس بوقف لأنَّ ما بعده من تمام شرطه

بآيات ربه (كاف) لأنَّ بعده لام الابتداء

وأبقى (تام)

في مساكنهم (حسن)

لأولي النهى (تام)

من ربك ليس بوقف لأنَّ جواب لولا لم يأت بعد وهو لكان لزاماً

(189/493)

ولزاما (جائز) عند بعضهم أي وله أجل مسمى وليس بوقف إن عطف وأجل مسمى على كلمة أي ولولا أجل مسمى لكان العذاب لازماً لهم وأصل اللزام الأخذ باليد أو عطف على

الضمير المستتر والضمير عائد على الأخذ العاجل المدلول عليه بالسياق وقد قام الفصل بالخبر مقام التوكيد والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل انظر السمين

وقبل غروبها (حسن) ومثله ترضى

أزواجاً منهم ليس بوقف إن نصب زهرة بدلاً من موضع الموصول أو بدلاً من محل به أو نصب على الحال من الهاء في به ويجوز أن تنصب بفعل مقدر أي جعلنا هم زهرة أو نصبت على الذم أو نصبت على المفعول به أي متعنا هم زهرة الحياة الدنيا أي من زهرة كقوله تعالى واختار موسى قومه أي من قومه وقول الراعي

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم

أي من الناس فلما حذف من وصل الفعل فنصب

لنفتنهم فيه (تام) ومثله وأبقى

عليها (حسن) ومثله رزقاً

ونرزقك (أحسن منه)

للتقوى (تام)

من ربه (كاف) ومثله الأولى

بعذاب من قبله ليس بوقف لأنَّ قوله لقالوا جواب لو وكذا لولا أرسلت إلينا رسولاً ليس بوقف لأنَّ قوله فنتبع منصوب بإضمار أن بعد الفاء لأنه في تأويل هلا أرسلت إلينا رسولاً وهذا معناه التحضيض والأمر وهو يكون لمن فوق المخاطب سؤالاً وطلباً ونحزى (كاف) فتربصوا (حسن) لأنَّ ما بعده في تأويل الجواب لما قبله وهو وعيد من الله تعالى فلا يفصل جوابه عنه لأنَّه لتأكيد الواقع والوقف على متربص أحسن لأنَّ جملة التهديد داخلة في الأمر آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 485.496 ﴾

(190/493)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة طه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الضحاك وعمرو بن فائد : "طاوى" مُبَيَّضٌ 1 .

ومن ذلك قراءة سعيد بن جبير ، ورويت عن الحسن ومجاهد : "أَخْفِيهَا" 2 ، بفتح الألف .

قال أبو الفتح : أَخْفَيْت الشيءَ : كتمْته ، وأظهرته جميعا وخَفَيْتُه بلا ألف : أظهرتُه البتة .

فمن ذلك قراءة من قرأ : "أُخْفِيهَا" . قالوا : معناه أُظْهِرُها . قال أبو علي : الغرض فيه أزيل عنها خفاءها 3 ، وهو ما تلف فيه القربة ونحوها : من كساء ، وما يجري مجراه ، قال : وعليه قول الشاعر :

لَقَدْ عَلِمَ الأَيقَاظُ أَخْفِيَةَ الْكَرَى تَزَجُّجَهَا مِنْ حَالِكٍ واكْتِحَالِهَا 4

قال : أراد الأيقاظ عيونا 5 ، فجعل العين كالخِفاء للنومِ ؛ لأنها تستره ، قال : مِن ألفاظ السلب : فأخفيتُه : سَلَبْتُ عنه خِفاءه ، وإذا زال عنه ساتره ظهر لا محالة ، ومثله من السلب : أشكيْتُ الرجل : إذا أزلتَ عنه ما يشكُوه ، وقد سيق نحو هذا وحديثُ السلب في اللغة .

فأما "أَخْفِيهَا" بفتح الألف فإنه [98ظ] أُظهرها . قال امرؤ القيس :

---

1 سورة طه : 1 ، وفي هامش نسختي الأصل : لم يقل شيئًا . وذكر في البحر "6 : 224" هذه القراءة معزوة إلى صاحبيها ، ولم يقل عنها شيئًا . ويرد بلفظ "مبيض" أنه لم يكتب عنها شيئ .

2 سورة طه : 15 .

3 سقط في ك : أزيل عنها خفاءها .

4 زججت حاجبها : جعلته أزج ، أي : دقيقا مقوسا . وانظر سر الصناعة : 1 : 43 ،

واللسان "خفي" .

5 يعرب ابن جني "أخفية الكرى" في سر الصناعة "1 : 43" تمييزا ، وإنما يكون ذلك على رأي من لا يشترط تنكير التمييز ، فالأولى أن ينصب على التشبيه بالمفعول .

(191/493)

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ كأَنَّما خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّب1

فهذا إذاً أكاد أُظهرها ، وقيل : أكادُ أخفيها من نفسي . وفي هذا ضرب من التصوف وقيل : أكاد أخفيها : أريد أخفيها ، وأنشد أبو الحسن شاهدا له :

كَادَتْ وَكِدْتُ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِن لَهْوِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى2

فكأنه قال : أرادت وأردت : لقوله : وتلك خير إرادة . وقيل : أكاد هنا زائدة . أي : أخفيها وأنشدوا فيه لحسان :

وتَكَادُ تَكْسَلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا فِي جِسْمِ خَرْعَبَةٍ وَحُسْنِ قَوَامِ3

فإذا كان "أَخْفِيها" بالفتح أو "أُخْفِيها" بمعنى أظهرها فاللام في قوله : "لِتُجْزَى" معلَّقةٌ بنفس "أخفيها" ، ولا يحسن الوقف دونها .

وإذا كان من معنى الإخفاء والستر فاللام متعلقة بنفس "آتية" . أي : إن الساعة آتية

لِتُجْزَى كل نفس بما تسعى ، أكاد أخفيها . فالوجه أن تقف بعد "أخفيها" وقفة قصيرة . أما الوقفة فلئلا يظن أن اللام معلَّقةٌ بنفس "أخفيها" ، وهذا ضِد المعنى ، لأنها إذا لم تظهر لم يكن هناك جزاء ، إنما الجزاء مع ظهورها . فأما قصر الوقفة فلأن اللام متعلقة بنفس "آتية" ، فلا يحسن إتمام الوقف دونها ؛ لاتصال العامل بالمعمول فيه . وهذه الوقفة القصيرة ذكرها أبو الحسن ، وما أحسنَها وألطفَ الصنعةَ فيها !

ومن ذلك قراءة الحسن وعمرو – بخلاف عنهما : "هِيَ عَصَايِ"4 بكسر الياء ، مثل غلامي5 .

---

1 روي محلب مكان مجلب ، وضمير خفاهن للفئران . والأنفاق : الأسراب تحت الأرض ، وأحدها نفق . والودق : المطر ، وخص مطر العشي لأنه أغزر . والمجلب : الذي تسمع له جلبة لشدة وقعه . والمحلب ، بالحاء : الذي يتحلب المطر . وصف العشي به على معنى فخرجت الفئرة من أحجارها تظنه مطرا خشية أن يغرقها . وانظر الديوان : 51 .

2 انظر الصفحة 31 من هذا الجزء .

3 الخرعبة الشابة الحسنة الجسيمة في قوام كأنه الخرعوبة ، وهي القضيب السامق الغض . وانظر الديوان : 94 .

4 سورة طه : 18 ، وفي ك : هذه عصاي ، والصواب ما هنا .

5 سيبين ابن جني بعد قليل أن لا وجه لتشبيه ياء "عصاي" بياء غلامي .

وقرأ : "عَصَايْ" ابن أبي إسحاق أيضا .

قال أبو الفتح : كسر الياء في نحو هذا ضعيف ؛ استثقالا للكسرة فيها وهربا إلى الفتحة ، "كَهُدَايَ" 1 و"يابُشْرَايَ" 2 ، إلا أن للكسرة وجها ما .

وذلك أنه قد قرأ حمزة : "مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ 3" ، فكسر الياء لالتقاء الساكنين مع أن قبلها كسرة وياء ، والفتحة والألف في "عصايِ" أخف من الكسرة والياء في "مصرخِيّ" . وروينا عن قطرب وجماعة من أصحابنا :

قال لَهَا هَلْ لَكِ يَا تَافِيّى 4

أراد "فِيّ" ، ثم أشبع الكسرة للإطلاق ، وأنشأ عنها ياء نحو منزلي وحوملي 5 ، وروينا عنه أيضا :

عَلَيّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لِوَالِدِهِ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبِ 6

وروينا عنه أيضا :

إِنَّ بَنِيّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُّونْ 7

وقول ابن مجاهد : مثل غلامي لا وجه له ؛ لأن الكسرة في ياء "عصايِ" لالتقاء الساكنين ،

والكسرة في ميم "غلامي" هي التي تحدثها ياء المتكلم. أفترى أن في "عصايِ" بعد ياء المتكلم

---

1 من قوله تعالى في الآية 38 : سورة البقرة : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

2 من قوله تعالى : ﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ . . ﴾ سورة يوسف : 19 ، وهي قراءة من عدا حمزة وعاصم والكسائي وخلف, وانظر الإتحاف : 159 .

3 سورة إبراهيم : 22 .

4 يريد : يا هذه في

5 من قول امرئ القيس في مطلع معلقته :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

6 للنابغة يمدح عمرو بن الحارث . المعروف بالأعرج ، يقولها حين هرب إلى دمشق لما بلغه أن مرة بن قريع وشى به إلى النعمان في أمر المتجردة والعقارب : المنن على التشبيه . انظر الديوان : 5 ، واللسان "عقرب" .

7 لأكثم بن صيفي ، وقيل : لسعد بن مالك بن ضبيعة . وأصاف الرجل فهو مصيف : إذا لم يتزوج شابا ، ثم تزوج بعد ما أسن . ويقال لولده : صيفيون . أما الربعيون فهم الذين ولدوا وآباؤهم شباب . فهم رجال . وانظر النوادر : 87 ، واللسان "صيف" .

ياء له أخرى حتى يكون للمتكلم ياءان؟ وهذا محال، وإنما غرضه أن الياء في "عصايِ" مكسور كما أن ميم غلامي مكسورة، وأساء التمثيل على ما ترى.

ومن ذلك قراءة عكرمة، "وَأَهُسُّ"1 بالسين.

وقرأ إبراهيم: "وَأَهِشُّ"، بكسر الهاء، وبالشين.

قال أبو الفتح: أما "أَهِشُّ"، بكسر الهاء، وبالشين معجمة فيحتمل2 أمرين:

أحدهما [99و]: أن يكون: أَمِيل بها على غنمي، إما لسوقها. وإما لتكسير الكلأ لها بها، كقراءة من قرأ: "أَهُشُّ" بضم، الشين معجمة، يقال: هشَّ الخبزُ يهشُّ: إذا كان جافا يتكسر لهشاشته.

والآخر أن يكون أراد "أَهُشُّ" بضم الهاء، أي أكسر بها الكلأ لها؛ فجاء به على "فَعَلَ يفْعِل" وإن كان مضاعفا ومتعديا. فقد مر بنا نحو ذلك3، منه: هَرَّ الشيءَ يَهِرُّه: إذا كرهه، ومنه قول عنترة:

حَتَّى تَهِرُّوا الْعَوَالِيَا4

أي: تكرهوها، وهو من قول قيس بن ذَرِيح5:

نَهَارِي نَهَارُ النَاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا لِيَ اللَّيلُ هَرَّتْنِي إِلَيْك الْمَضَاجِعُ6

أي : كرهْتني ، فنبَتْ بِي ، وهزَّتْنِي بالزاي تصحيفٌ عندهم ، ومثله : حَبَّ الشَّيءَ يَحِبُّه

---

1 سورة طه : 18 .

2 في ك : فتحتمل .

3 انظر الصفحة 136 من الجزء الأول .

4 البيت بتمامه :

حَلَفْنَا لَهُم وَالْخَيْلُ تَرْدِي بِنَا مَعًا نُزَايِلُكُم حَتَّى تَهِرُّوا الْعَوَالِيَا

تَردِي : تسرع ، نزايلكم : لا نزايلكم ، وانظر الديوان : 165 ، واللسان "هو" .

5 في ك : قيس ذريح ، سقط .

6 رواية الأغاني "8 : 125" ، طبعة الساسي :

نَهَارِي نَهَارُ الْوَالِهِينَ صَبَابَةً وَلَيْلِي تَنْبُو فِيهِ عَنِّي الْمَضَاجِعُ

(194/493)

بكسر الحاء ألبتة . ولم يضموها ، وغذّ 1 العرقُ الدمَ يغِذُّه ويغُذُّه ، وتمَّ الحديث يتِمُّه ويتُمُّه ، وشَدَّ الحبل يشِدُّه ويشُدُّه . في أحرف سوى هذه . وكذلك يكون "أهش" كقراءة من قرأ :

"أهُشُّ" ، بضم الهاء ، والشين معجمة .

وأما "أهُسُّ" بالسين غير معجمة فمعناه أسوق : رجل هساس . أي : سواق .

فإن قلت : فكيف قال : "أهسُّ بها على غنمي ؟" ، وهلا قال : أهسُّ بها غنمي . كقولك : أسوق بها غنمي ؟

قيل : لما دَخَلَ السَّوقَ معنى الانتحاءِ لها والميل بها عليها استعمل معها "على" ، حملا على المعنى ، وقد ذكرنا من هذا فيما مضى صدرا صالحا2 . ومن ذلك قولهم : كفى بالله أي كفى الله . إلا أنهم زادو الباء حملا على معناه ؛ إذ كان في معنى اكتف بالله . ولذلك قالوا حسبك به لما دخله معنى اكتف به . ولذلك أيضا حذفوا خبره في قولهم : حسبك لما دخله معنى اكتف ، والفعل لا يخبر عنه, ونظائره كثيرة جدا .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر يزيد : "وَلْتُصْنَعَ عَلَى"3 بجزم اللام والعين .

وقرأ : "وِلَتَصْنَعَ" . بفتح التاء والعين . وكسر اللام – أبو نهيك .

قال أبو الفتح : ليس دخول لام الأمر هنا كدخولها في قراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" وغيره ممن قرأها معه : "فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا"4 بالتاء . وفرق بينهما أن المأمور في "فلتفرحوا" مخاطب ، وعرف ذلك وعادته أن يحذف حرف المضارعة فيه . كقولنا : قُمْ ، وقعد ، وخُذْ

، وسِرّ ، وبع ، وأما "ولتصنع فإن المأمور غائب غير مخاطب . فإنما هو كقولنا : ولتعن

بحاجتي . ولتوضع5 في تجارتك ؛ لأن العاني بها والواضع فيها غيرهما . وهما المخاطبان6 . فهذا كقولك : ليضرب زيد ولتضرب هند .

---

1 الذي في كتب اللغة التي بين أيدينا : غذ الجرح يغذ ويغذ بالضم والكسر : سال بما فيه .

2 انظر الصفحتين : 53 ، 136 من الجزء الأول .

3 سورة طه : 39 .

4 سورة يونس : 58 . والقراءة بالتاء قراءة أبي وأنس رضي الله عنهما . انظر الإتحاف : 152 .

5 وضع في تجارته وأوضع : خسر .

6 لأن الفعلين مبنيان للمجهول .

(195/493)

وأما قول الرجل لصاحبه : خذ طرفك ولآخذ طرفي ، وقولهم : لنمش كلنا ، ولنقم إلى فلان ، ونحو ذلك فإنما جاء باللام لأنه لم يكد ر أمر الإنسان نفسه ، فلما قل استعماله لم يخفف بحذف اللام كما أمر المأمور الحاضر ، فخفف نحو قم ، سر ، وبع ، وخف ، ونم .

وأما : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ففسره أحمد بن يحيى ، أي : لتكون حركتك وتصرفك

على عين مني ، قال : ومعنى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ، بضم التاء : لتربَّ[1] وتغذى بمرأى مني .

ومن ذلك قراءة ابن محيص : "أَنْ يُفْرَطَ"[2] بفتح الراء :

قال أبو الفتح : هذا منقول من قراءة من قرأ : "أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا" ، أي : يسبق ويسرع ، فكأنه أن يفرطه مفرِط ، أي : يحمله حامل على السرعة علينا وترك التأني بنا ، فكأنه قال : أن يُحمل على العجلة في بابنا [99ظ] .

ومن ذلك قراءة الحسن : "مَكَانًا سُوَى" ، غير منون .

قال أبو الفتح : ترك صرف "سوى" ههنا مشكل ، وذلك أنه وصف على فُعَل ، وذلك مصروف عندهم : كمالٍ لُبَد[4] ، ورجلٍ حُطَم[5] ، ودليلٍ خُثَع[6] ، وسُكَع[7] ، إلا أنه ينبغي أن يحمل عليه أنه محمول على الوقف عليه ، فجاء بترك التنوين . فإن وصل على ذلك فعلى نحو من قولهم : سبسبا وكلكلا[8] ، فجرى في الوصل مجراه في الوقف .

---

1 ربه : رباه .

2 سورة طه : 45 .

3 سورة طه : 58 .

4 مال لبد : كثير ، كأنه التبد بعضه على بعض .

5 الحطم : الظلوم ، من قولهم : راعٍ حُطَم ، أي : ظلوم للماشية ، كأنه يحطمها لعنقه في

السوق .

6 دليل ختع : حاذق في الدلالة .

7 السكع : المحير .

8 انظر الصفحتين : 148 ، 149 من الجزء الأول .

(196/493)

ومن ذلك قراءة الحسن والأعمش والثقفي ، ورويت عن أبي عمرو : "يَوْمَ الزِّينَةِ" 1 ، بالنصب .

قال أبو الفتح : أما نصب "يَوْمَ الزِّينَةِ" فعلى الظرف ، كقولنا : قيامك يومَ الجمعة ، فالموعد إذاً 2 ههنا مصدر ، والظرف بعده خبرٌ عنه . وهو عندي على حذف المضاف ، أي : إنجاز موعدنا إياكم في ذلك 3 اليوم .

ألا ترى أنه لا يراد في ذلك اليوم نعدكم ؟ كيف ذا والوعد قد وقع الآن ؟ إنما يتوقع إنجازه في ذلك اليوم ، لكن في قوله : ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ النظر ، فظاهر حاله أن يكون مجرور الموضع حتى كأنه قال : موعدكم يوم الزينة وحشر الناس ضحى ، أي : يوم هذا وهذا ؛ فيكون "أن يحشر" معطوفا عل الزينة .

وقد يجوز أن يكون مرفوع الموضع عطفا على الموعد ، فكأنه قال : إنجاز موعدكم وحشر الناس ضحى في يوم الزينة ، أي : هذان الفعلان في يوم الزينة ، فكأنه جعل الموعد عبارة عن جميع ما يتحدد ذلك اليوم : من الثواب ، والعقاب ، وغيرهما سوى الحشر . ألا تراه عطفه عليه . وأنت لا تقول : جاء القوم وزيد ، وقد جاء زيد معهم ؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه وكذلك قول الله "تعالى" : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ 4 لا يكون 5 "جبريل" و"ميكائيل" داخلين في جملة الملائكة ؛ لأنهما معطوفان عليهم ، فلابد أن يكونا خارجين منهم ، فأما قوله :

أَكُرُّ عَلَيْهِمْ دَعْلَجًا وَلَبَانَهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وقعَ الرماحِ تَحَمْحَمَا 6

فيروى "لبانه" رفعا ونصبا ، فمن رفعه فلا نظر فيه ؛ لأنه مبتدأ وما بعده خبر عنه . وأما النصب فعلى أنه أخرج عن الجملة "لبانه" ، ثم عطفه عليه ، وساغ له ذلك لأنه مازه من جملته إكبارا له وتفخيما منه ، كما ماز "جبريل" و"ميكائيل" من جملة الملائكة تشريفا

---

1 سورة طه : 59 .

2 في ك : فالموعد ههنا .

3 في ك : في هذا .

4 سورة البقرة : 98 ، وممن قرأ "ميكائيل" ابن عامر وحمزة والكسائي . وانظر الإتحاف : 88 .

5 في ك : ألا ، وهو تحريف .

6 لعامر بن الطفيل ، دعلج : اسم فرسه . واللبان : صدر ذي الحافز . وتحمحم : صهل وقصر في الصهيل ، فاستعان بنفسه "بفتح الفاء" الديوان : 134 ، واللسان : دعلج .

(197/493)

لهما ، وكذلك قوله : ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ ليس في جملة ما دل عليه الموعد لما قدمناه ، كأنه مميز من الزينة في اعتقادك إياه مجرورا ؛ لأنه معطوف عليها .

وأما من رفع فقال : "يَوْمُ الزِّينَةِ" فإن الموعد عنده ينبغي أن يكون زمانا ، فكأنه قال : وقت وعدي يوم الزينة ، كقولنا : مبعث 1 الجيوش شهر كذا ، أي : وقت بعثها حينئذ .

والعطف عليه بقوله : ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ يؤكد الرفع ؛ لأن "أن" لا تكون ظرفا . ألا ترى أن من قال : زيارتك إياي مقدم الحاج لا يقول : زيارتك إياي أن يقدم الحاج ؟ وذلك أن 2 لفظ المصدر الصريح أشبه بالظرف من "أن" وصلتها التي بمعنى المصدر ، إذا كان اسما لحدث ، والظرف [100 و] اسم للوقت ، والوقت يكاد يكون حدثا . وعلى كل حال فلست تحصل من ظرف الزمان على أكثر من الحدث الذي هو حركات الفلك ، فلما تدانيا هذا التداني ساغ وقوع أحدهما موقع صاحبه .

وأما "أن" فحرف موصول ، جعل بدل لفظه على أنه في معنى المصدر . وما أبعد هذا عن الظرفية ! وقد استقصينا القول على ذلك في كتابنا الخصائص[3] وغيره من مصنفاتنا وينبغي أيضا أن يكون على حذف المضاف ، أي : وقت وعدكم يوم الزينة ووقت حشر الناس ؛ لأن الحشر في الحقيقة ليس وقتا ، كما أن : قولك : ورودك مقدم الحاج إنما هو على حذف المضاف ، أي : وقت مقدم الحاج وكذلك ، خفوق النجم وخلافة فلان . فاعرف ذلك .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود والجحدري وأبي عمران الجوني وأبي نهيك وأبي بكرة وعمرو بن فائد : "وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحًى"[4] .

قال أبو الفتح : الفاعل هنا مضمر ، أي : وأن يحشر الله الناس ، فهذا كقوله "سبحانه" : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا[5] ﴾ ، وجميع هذا يراد به العموم ، أي : يحشرهم قاطبة وطرًّا

---

1 في ك : بعث وهو تحريف .

2 في ك : لأن .

3 لعله يريد كلامه في الخصائص "3 : 98" عن دلالة الفعل على المصدر والزمن .

4 سورة طه : 59 .

5 سورة الأنعام : 22 ، وسورة يونس : 28 .

ولا يكون1 حالا كقوله "سبحانه" : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ 2

ويدل عليه أيضا قوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ 3 .

ومن ذلك قراءة الحسن والثقفي : "تُخَيَّلُ"4 ، بالتاء .

قال أبو الفتح : هذا يدل على أن قوله "تعالى" : ﴿ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ بدل من الضمير في "تُخَيَّلُ" وهو عائد على الحبال والعصي ، كقولك : إخوتك يعجبونني أحوالهم . فأحوالهم بدل من الضمير العائد عليهم بدل الاشتمال .

ومنه قوله "تعالى" : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ 5 فيمن جعل "الأبواب" بدلا من الضمير في "مفتحة" ، وهذا أمثل من أن يعتقد خلو "تُخَيَّلُ" من ضمير يكون ما بعده بدلا منه ، لكن يؤنث الفعل لتضمن ما بعد أن لفظ التأنيث ، كقراءة من قرأ : "لا تَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا"6 لأنه أسهل وأسرح7 من إتعاب الإعراب والتعسف به من باب إلى باب .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود وأُبي بن كعب وعبد الله بن الزبير ونصر بن عاصم والحسن وقتادة وابن سيرين – بخلاف ، وأبي رجاء : "فَقَبَصْتُ قَبْصَةً8" ، بالصاد فيهما .

وقرأ : "قُبْصَةً" ، بالصاد وضم القاف الحسن ، بخلاف .

قال أبو الفتح : القبض بالضاد معجمة باليد كلها ، وبالصاد غير معجمة بأطراف الأصابع .

وهذا مما قدمت إليك في نحوه تقارب الألفاظ لتقارب المعاني ، وذلك أن الضاد لتفشيها واستطالة مخرجها ما9 جعلت عبارة عن الأكثر ، والصاد لصفائها وانحصار مخرجها وضيق محلها ما9 جعلت عبارة عن الأقل . ولعلنا لو جمعنا من هذا الضرب ما مر بنا منه لكان أكثر من ألف موضع

---

1 يريد "جميعا" في الآية .

2 سورة الزلزلة : 6 .

3 سورة الكهف : 47 .

4 سورة طه : 66 .

5 سورة ص : 50 .

6 سورة الأنعام : 158 ، و"تنفع" بالتاء قراءة ابن سيرين . وانظر البحر : 4 : 259 .

7 أسلس ، من سرح السيل ، أي جرى جريا سهلا .

8 سورة طه : 69 .

9 ما زائدة .

هذا مع أننا لا نتطلبه ولا نتقرى مواضعه ، فكيف لو قصدنا وانتحينا وجهه وحراه1 ؟

نسأل الله أن يجعل ما علمنا منه لوجهه مدنيا من رضاه ، ومبعدا من غضبه بقدرته وماضي مشيئته .

وأما "القبصة" بالضم فالقدر المقبوص ، كالحسوة للمحسوّ2 ، والحسوة [100ظ] فعلك أنت ، والقبضة والقبصة جميعا على ذلك إنما هما حدثان موضوعان موضع الجثة ، كالخلق في معنى المخلوق ، وضرب الأمير ، ونسج اليمن ، في معنى مضروبه ومنسوجه .

ومن ذلك قراءة أبي حيوة : "لا مَسَاسِ"3 .

قال أبو الفتح : أما قراءة الجماعة : ﴿لا مِسَاسَ﴾ فواضحة ؛ لأنه المماسَّة : مَاسَسْتُهُ مِسَاسًا كضَارَبْتُه ضِرَابًا ، لكن في قراءة من قرأ : "لا مَسَاسِ" نظرا ؛ وذلك أن "مساسِ" هذه كنَزَالِ ودَرَاكِ وحَذَارِ ، وليس هذا الضرب من الكلام – أعني ما سمي به الفعل – مما تدخل "لا" النافية للنكرة عليه ، نحو لا رجل عندك ولا غلام لك فـ"لا" إذاً في قوله : "لا مَسَاسِ" نفي للفعل ، كقولك : لا أمسّك ولا أقرب منك ، فكأنه حكاية قول القائل : مَساسِ كدَراكِ ونَزالِ ، فقال : لا مَساسِ ، أي : لا أقول : مساس ، وكان أبو علي ينعم التأمل لهذا الموضع لما ذكرته لك ، وقال الكميت :

لا هَمَامِ لي لا هَمَامِ4

أي : لا أقولُ : هَمَامِ ، فكأنه من بَعدُ لا أهمّ بذلك ، ولا بد من الحكاية أن تكون مقدرة . ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول : لا أضربُ ، فتنفي "بلا" لفظ الأمر 5 ؛ لتنافي اجتماع الأمر والنهي . فالحكاية إذا مُقدَّرة مُعتقَدة .

---

1 حراه : ناحيته ، كما في اللسان . وهي كذلك في ك ، وفي الأصل جراه ، وهو تحريف .

2 حسا المرقة : شربها قليلا قليلا .

3 سورة طه : 97 .

4 قبله :

إنْ أمُتْ لا أمُتْ ونفسِي نفْسا نِ مِن الشك في عمًى أو تَعَامِي

والبيت بتمامه :

عادِلًا غيرَهُم مِن الناسِ طُرًّا بِهِمْ ، لا هَمَامِ لي لا هَمَامِ

يمدح الشاعر آل البيت . وانظر اللسان والأساس "هم" .

5 ساقطة في ك .

فإن قال قائل : فأنت لا تقول : مساسِ في معنى امسس . فياليت شعري ما الذي بنيت ؟

قيل : ليس هذا أول معتقد معتزم تقديرا . وإن لم يخرج إلى اللفظ استعمالا . ألا ترى إلى ملامحَ وليالٍ في قول سيبويه ومذاكير ومشابِه : لا آحاد لها مستعملة . وإنما هي مرادة متصورة معتقدة ، فكأن الواحد ملمحة ومشبَهْ وليلاة ومِذكار أو مِذكير أو نحو ذلك ، فكذلك "لا مساسِ" ، جاء على أنه قد استعمل منه في الأمر مساسِ فنفى على تصور الحكايةِ والقولِ وإن لم يأت به مسموع ، ونظائرُه كثيرةٌ ، وكذلك القول في "همامِ" من بيت الكميت .

ومن ذلك قراءة الحسن بخلاف : "لَنْ نُخْلَفَهُ1" بالنون .

وقرأ : "لَنْ يَخْلُفَهُ" أبو نهيك .

قال أبو الفتح : أما قراءة الجماعة : ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ فمعناه : لن تصادفه مُخلَفًا ، كقول الأعشى :

فَمَضَى وأخلفَ من قُتَيْلَةَ مَوْعِدًا2

وقد مضى هذا مستقصى3 .

وأما "نُخْلِفَهُ" بالنون فتقديره : لن نُخْلِفَكَ إياه ، أي : لن ننقض منه ما عقدناه لك . وأما "يَخْلُفَهُ" أي4 لا يخلُف الموعد الذي لك عندنا ما أنت عليه5 من محنتك في الدنيا بأن يكون نقيضه ومزيلا لحكمه ، بل تكون في الآخرة كحالك في الدنيا . كما قال "سبحانه" :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ﴾ 6 ، وكقوله "تعالى" : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ 7 ، ومنه قوله "سبحانه" : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ 8 ، أي : يحضر أحدهما فيخلُف الآخر ، بأن ينقض حاله ويستأثر بالأمر دونه . والهاء في "يخلفه" عائدة على "أن تقول لا مَسَاسِ" ، أو "لا مِسَاسَ" .

---

1 سورة طه : 97 .

2 انظر الصفحة 140 من الجزء الأول .

3 انظر الصفحة 139 من الجزء الأول .

4 ساقطة في ك .

5 في ك : علينا ، وهو تحريف .

6 سورة الأعراف : 18 .

7 سورة الإسراء : 72 .

8 سورة الفرقان : 62 .

ومن ذلك قراءة علي 1 وابن عباس "عليهما السلام" وعمرو بن فائد : "لَنَحرُقَنَّهُ" 2 ، بفتح النون . وضم الراء .

قال أبو الفتح : حرقْتُ الحديدَ : إذا بردتَه ، [101و] فتحاتَّ وتساقَطَ . ومنه قولهم : أنه لَيَحْرُق عليَّ الأرَّم ، أي : يحك أسنانه بعضها ببعض غيظًا عليَّ . قال :

نُيُوبَهم علينا يحرُقُونا 3

وقال زهير :

أَبى الضيمَ والنعمانُ يحْرُق نابَه عليه فأفضَى والسيوفُ معاقِلُهْ 4

وأنشد أبو زيد ، ورويناه عنه :

نُبِّئتُ أحماءَ سُلَيْمَى أنما باتُوا غِضَابًا يحرُقون الأرَّما

إن قلتُ أسقَى عاقِلا فأظْلَما جَوْنًا وأسقَى الحرتيْنِ الدِّيَما 5

فكأن "لَنحْرُقَنَّه" على هذا : لَنبْرُدَنَّه ولَنحُتَّنَّه حتًّا ، ثُمَّ ، لَننسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا .

ومن ذلك عندي تسميتهم هذا الزورق حراقة ، وهو كقولهم لها : سفينة ؛ لأنها تَسْفِنُ وجه الماء ، فكذلك تَحْرُقُه أيضًا .

ومن ذلك قراءة مجاهد وقتادة : "وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" 6 .

---

1 ساقطة في ك .

2 سورة طه : 97 .

3 لعامر بن شقيق الضبي ، وصدره :

بِذِي فِرْقَيْنِ يومَ بنو حبيب

انظر اللسان "فرق" ، وذو فرقين – فيما يقول الأصمعي – : علم بشمالي قطن ، وانظر معجم البلدان : "فرق" .

4 في مدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري وانظر ديوان الشاعر : 143 . والكامل للمبرد : 2 : 102 .

5 روي "خبرت" مكان "نبئت" ، و"ظلوا" مكان "باتوا" ، و"يعلكون" مكان "يحرقون" ، و"جودا" مكان "جونا" . وعاقل : وادلبني أبان بن دارم من دون بطن الرمة ، وأظلم : موضع من بطن الرمة ، والجون : الأسود ، هنا . يريد سحابا أسود لكثرة مائة ، والجود : المطر الغزير . وانظر النوادر : 89 ، وكامل المبرد : 2 : 102 ، وروى الأساس "حرق" البيت الأول . والشاهد في كل هذه المراجع غير منسوب .

6 سورة طه : 98 .

قال أبو الفتح : معناه – والله أعلم : خَرَّقَ كلَّ مصمتٍ بعلمِه ؛ لأنه بَطَن كل مُخْفًى ومستبهم ، فصار لعلمه فضاء متسعًا ، بعد ما كان متلاقيا مجتمعا . ومنه قوله "تعالى" : ﴿ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ 1 . فهذا العمل . وذلك في العلم .

ومن ذلك قراءة عياض : "فِي الصُّوَرِ2" . بفتح الواو .

قال أبو الفتح : هذا جمع صورة ، وقد يقال : فيها صير وأصلها صور . فقلبت الواو ياء للكسرة قبلها استحسانا . وقد أفردنا في الخصائص بابا للاستحسان3 . قال ذو الرمة :

أشبهْنَ من بقرِ الخلصاءِ أعيُنَهَا وهنَّ أحسنُ من صِيرَانِه صِيرَا4

وصِوَرا : قال أبو عبيدة : الصُّوَر جمع صورة . كصوَف جمع صوفة . ويقال : الصوَر : القرن ، ويقال : فيه ثقب5 بعدد أنفس البشر ، فإذا نفخ فيه قال الناس بالأَرْمَاسِ6 .

ومن ذلك قراءة الحسن : "أَوْ يُحْدِثْ لَهُمْ ذِكْرًا7" ، ساكنة الثاء .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون هذا مما يسكن استثقالا للضمة ، كقول جرير ، أنشدَناه أبو علي"

سِيرُوا بَنِي الْعَمِّ فالأَهْوَازُ منزِلُكُمْ ونهرُ تِيرَى ولا تعرِفْكُمُ العربُ8

أي : ولا تعرفُكم ، وقد مضى ذكر نحوه .

ومن ذلك قراءة الأعمش : "فَنَسِيْ وَلَمْ9" ، ولا ينصب الياء .

---

1 سورة الأنبياء : 30 .

2 سورة طه : 102 .

3 انظر الخصائص : 1 : 133 وما بعدها .

4 الخلصاء : موضع بالدهناء . ورواية الديوان : "187" ، واللسان "صور" : صيرانها مكان صيرانه ، وصورا مكان صيرا .

5 كذا في نسختي الأصل ، كأنها أراد بالثقب هنا الجنس أو هي الثُّقَب - بضم ففتح - جمع ثُقْبة ، بضم فسكون .

6 الأرماس : جمع رمس ، كسهل . وهو تراب القبر .

7 سورة طه : 113 .

8 انظر الصفحة 110 من الجزء الأول .

9 سورة طه : 115 .

(203/493)

قال أبو الفتح : قد قدمنا القول على سكون هذه الياء 1 في موضع النصب والفتح وأنه عند أبي العباس من أحسن الضرورات ، حتى إنه لو جاء به جاء في النثر لكان قياسا .

ومن ذلك ما يروى عن أبان بن تغلب : "وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى" 2 ، بالجزم .

قال أبو الفتح : هو معطوف على موضع قوله عز وجل : "فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا" ، وموضع ذلك جزم لكونه جواب الشرط الذي هو قوله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ ، فكأنه قال : ومن أعرض عن ذكري يَعِشْ عيشة ضنكا ونحشرْهُ ، كما تقول : من يزرْني فله درهمٌ وأزده على ذلك ، أي : من يزرْني يجبْ له درهم علي وأزده عليه . وعليه قراءة أبي عمرو بن العلاء : "فَأَصَّدَّقَ وَأَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ"3 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 46 ﴿ 59.

---

1 انظر الصفحة 126 من الجزء الأول .

2 سورة طه : 124 ، وقبل هذا الجزء منها : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ .

3 سورة المنافقون : 10 ، ولا يخفى أن العطف في الآية السابقة على المحل ، وأنه هنا على ظاهر اللفظ ، كأنه يريد أن هذا مثل ذاك في موافقة المعطوف عليه في الإعراب موافقة مطلقة .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة طه

مكية وآيها مائة وثلاثون وآيتان بصري وأربع حجازي وخمس كوفي وثمان حمصي وأربعون دمشقي اختلافها أربع وعشرون آية طه كوفي ومثلها ما غشيهم وإذ رأتيهم ضلوا وترك مني هدى وزهرة الحياة الدنيا غيره والحمصي في اليم ضنكا نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا غيره بصري محبة مني حجازي ودمشقي ولا تحزن شامي ومثلها في أهل مدين ومعنى بني إسرائيل ولقد أوحينا إلى موسى فتونا بصري وشامي واصطنعتك لنفسي كوفي وشامي وغضبان أسفا مكي ومدني أول ومثلها وإله موسى فنسي غيرهما وعدا حسنا إليهم قولا مدني آخير قيل رشامي ألقى السامري غيره قاعا صفصفا عراقي وشامي مشبه الفاصلة تسعة فاعبدوني بآياتي ما أنت قاض عليكم غضبي ثم ائتوا صفا وبينك موعدا ولا برأسي لا مساس منها جميعا الممال منها أعني رؤس الآي من أولها إلى طغى قال رب إلا وأقم الصلاة لذكرى ثم من يا موسى إلى لنرضى إلا عيني وذكري وما غشيهم ثم موسى من حتى يرجع إلينا موسى ثم من إلا إبليس أبى إلى آخرها إلا بصيرا فائدة شتى غير منون ويمال وأمتا منون ولا يمال كهمسا وضحى منون ويمال وعلة ذلك ان شتى وضحى ألفهما للتأنيث بخلاف أمتا وهمسا فالفهما بدل عن التنوين القراآت أمال الطاء والهاء من طه أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وأمال الهاء فقط محضة أيضا أبو عمرو وللأزرق فيها وجهان

الأول تمحيضها كأبي عمرو وعليه الجمهور وهو الذي في الشاطبية كأصلها ولم يمل محضة من هذه الطرق إلا هذه والثاني التقليل وفتحهما الباقون لكن في كامل الهذلي تقليل الطاء عن قالون والأزرق ولم يعول عليه في الطيبة وسكت أبو جعفر على الطاء والهاء وعن الحسن سكون الهاء من غير ألف بعد الطاء على أن الأصل طأ بالهمز أمر من وطىء يطأ ثم أبدل الهمزة هاء كإبدالهم لها في هرقت ونحوه ونقل القران ابن كثير

(205/493)

وأمال ﴿ لتشقي ﴾ حمزة والكسائي وخلف وكذا جميع فواصل هذه السورة على ما تقدم كالنجم وغيرها من السور المتقدم ذكرها وقرأ الأزرق بالتقليل سواء كان من ذوات الواو أو الياء إلا ما سيجيء من نحو ضحيها وتلاها وسواها مما فيه هاء فله فيه الفتح مع التقليل وبه يصرح قول الطيبة

وقلل الرا ورؤس الآي خلف

وما به ها غير ذي الرا يختلف

وأما أبو عمرو فله فيها التقليل والفتح واويا كان أو يائيا إلا ذوات الراء فالإمالة المحضة وجها واحدا كما مر لكن تقدم في باب الإمالة أن التقليل عن أبي عمرو في رؤوس الآي أكثر

منه في فعلى والفتح عنه في فعلى أكثر منه في رؤوس الآي

تنبيه

طه ليست فاصلة عند المدني والبصري وقد أمالها الأزرق وأبو عمرو باعتبار كونها حرف هجاء ولذا محضاها وزهرة الحيوة الدنيا ومني هدى ليستا فاصلتين عند الكوفي وقد أمالهما حمزة والكسائي ومن معهما باعتبار فعلى والياء وأما إمالة رأى فتقدم الكلام عليها في بابها والأنعام وغيرها مفصلا وقرأ لأهله امكثوا هنا والقصص بضم هاء الضمير حمزة وكسر الباقون وفتح ياء الإضافة من إني آنست نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر وفتحها من (لعلي آتيكم) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر

واختلف في (إني أنا ربك) الآية 12 فابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر بفتح الهمزة من ﴿ أني ﴾ على تقدير الباء أي بأني وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بالكسر على إضمار القول أو تأويل نودي بقيل وفتح ياء الإضافة من إني أنا نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ووقف يعقوب على بالواد بالياء

(206/493)

واختلف في (طوى) الآية 12 هنا والنازعات الآية 16 فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الطاء مع التنوين فيهما مصروفا لأنه أول بالمكان وافقهم ابن محيصن وعن الحسن والأعمش كسر الطاء مع التنوين وهو رأس آية إمالة وقفا حمزة والكسائي وخلف وقرأ الباقون بالضم بلا تنوين على عدم صرفه للتأنيث باعتبار البقعة والتعريف أو للعجمة والعلمية وقلله الأزرق وبالصغرى مع الفتح أبو عمرو واختلف في وأنا اخترتك فحمزة وأنا بفتح الهمزة وتشديد النون اخترناك بنون مفتوحة وبعدها ألف ضمير المتكلم المعظم نفسه وافقه الأعمش والباقون بتخفف نون أنا مع فتح الهمزة أيضا أخترتك بالتاء مضمومة من غير ألف على لفظ الواحد حملا على ما قبله وفتح ياء الإضافة من إنني أنا نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر وفتحها من لذكري إن نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على ﴿ (أتوكؤ) ﴾ بإبدال الهمزة ألفا على القياسي وبتخفيفها بحركة نفسها فتبدل واو مضمومة ثم تسكن للوقف ويتحد معه اتباع الرسم وتجوز الإشارة بالروم والإشمام فهذه أربعة والخامس التسهيل كالواو مع الروم كما مر في تفتؤ بيوسف وفتح ياء الإضافة من (لي فيها) الأزرق وحفص وأمال (الكبرى اذهب وصلا السوسي بخلفه وأماله وقفا أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وتقدم عن الحسن فتح ياء لي صدري وفتح ياء الإضافة من لي أمري نافع وأبو عمرو وأبو جعفر

واختلف في (أخي أشدد) الآية 31 وفي (وأشركه) الآية 32 فابن عامر وابن وردان فيما رواه النهرواني عن أصحابه عن شبيب عن الفضل وكذا الهذلي عن الفضل من جميع طرقه عن ابن وردان بقطع همزة أشدد مع فتحها لأنه من فعل ثلاثي وهمزة المضارع قطع وحكمها أن تثبت في الحالين مفتوحة وجزم الفعل جوابا للدعاء وأشركه بضم الهمزة مع القطع لأنه فعل مضارع من رباعي وجزم بالعطف على ما قبله وافقهما الحسن والباقون بوصل همزة أشدد وضمها في الابتداء وفتح همزة أشركه على جعلهما أمرين بمعنى الدعاء من موسى عليه السلام بشد الأزر وتشريك هارون عليه السلام في النبوة أو تدبير الأمر وهمزة الأمر من شد وصل تضم في الابتداء لضم العين من الفعل وهو الذي رواه باقي أصحاب ابن وردان عنه وفتح الياء من أخي ابن كثير وأبو عمرو قال في النشر ومقتضى أصل أبي جعفر فتحها لمن قطع الهمزة عنه ولكني لم أجده منصوصا انتهى وأبدل همزة (سؤلك) الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه وأبو جعفر وتقدم عن رويس إدغام) نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت ( ) الآية 33 34 35 وفي المصباح عن يعقوب بكماله كأبي عمرو

واختلف في (ولتصنع على) الآية 39 فأبو جعفر بسكون اللام وجزم العين على أن اللام للأمر والفعل مجزوم بها فيجب عنده الإدغام وقول الأصل فعل أمر فيه تجوز وسبق لرويس وليعقوب بكماله عن بعضهم كأبي عمرو إدغام العين والباقون بكسر اللام ونصب الفعل بأن مضمرة بعد لام كي أي لتربي ويحسن إليك قال النخاس عطف على علة محذوفة أي ليتلطف بك ولتصنع الخ وفتح ياء الإضافة من عيني إذ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وأدغم تاء لبثت أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وأثبت في الأصل هنا لابن ذكوان وفيه نظر ولعله اشتباه بأورثتموها وفتح يائى الإضافة من لنفسي اذهب ومن ذكرى اذهبا نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر وعن ابن محيصن أن يفرط بضم حرف المضارعة وفتح الراء وأدغم دال قد جئناك أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأمال أعطى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا موضع النجم والليل وعن المطوعي ( ) كل شيء خلقه ( ) بفتح اللام فعلا ماضيا وعن ابن محيصن (لا يضل ربي) بضم الياء أي لا يضل ربي الكتاب أي لا يضيعه فربي فاعل والجمهور بالفتح أي لا يضل عن معرفته الأشياء

واختلف في ﴿ الأرض مهادا ﴾ الآية 53 هنا والزخرف الآية 10 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الميم وإسكان الهاء بلا ألف فيهما وافقهم الأعمش والباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها فيهما وهما مصدران بمعنى يقال مهدته مهدا ومهادا أو الأول الفعل والثاني الاسم أو مهادا جمع مهد نحو كعب وكعاب

واتفقوا على موضع النبأ أنه بالكسر مع ألف مناسبة لرؤوس الآي بعده

واختلف في (لا نخلفه) الآية 58 فأبو جعفر بإسكان الفاء جزما على جواب الأمر ويلزم من ذلك منع الصلة له والباقون بالرفع على الصفة لموعد أو يلزم منه الصلة له منهم

(209/493)

واختلف في (سوى) الآية 58 فابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب وخلف بضم السين والتنوين وافقهم الأعمش وأماله في الوقف أبو بكر من طرق المصريين والمغاربة قاطبة وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وبالتقليل والفتح أبو عمرو وأكثر النقلة عن أبي بكر على الفتح وصحح الوجهين عنه في النشر وعن الحسن ضم السين بلا تنوين أجرى الوصل مجرى الوقف ولا يقال منع صرفه للعدل كعمر لأن ذلك في الأعلام أما الصفات كحطم ولبد فمصروفة قاله في الدر كالبحر والباقون بكسر السين مع التنوين وهما لغتان بمعنى واحد

وعن الحسن والمطوعي يوم الزينة بنصب يوم أي كائن يوم الزينة نحو السفر غدا والجمهور على الرفع خبرا لموعدكم فإن جعل موعدكم زمانا لم يحتج إلى تقدير مضاف أي زمان الوعد يوم الزينة وإن جعل مصدرا فعلى حذف مضاف أي وعدكم وعد يوم الزينة

واختلف في (فيسحتكم) الآية 61 فحفص وحمزة والكسائي ورويس وخلف بضم الياء وكسر الحاء من أسحت رباعيا لغة نجد وتميم وافقهم الأعمش والباقون بفتح الياء والحاء من سحته ثلاثيا لغة الحجاز

وأمال خاب حمزة وهشام من طريق الداجوني فيما رواه عنه في الروضة والتجريد وغيرهما وابن ذكوان من طريق الصوري

(210/493)

واختلف في ﴿ إن هذين لساحران ﴾ الآية 63 فنافع وابن عامر وابو بكر وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بتشديد إن وهذان بالألف وتخفيف النون وافقهم الشنبوذي والحسن وفيها أوجه أحدها أن إن بمعنى نعم وهذان مبتدأ ولساحران خبره الثاني اسمها ضمير الشأن محذوف وجملة هذان لساحران خبرها الثالث أن هذان اسمها على لغة من أجرى المثنى بالألف دائما واختاره أبو حيان وهو مذهب سيبويه وقرأ ابن

كثير وحده بتخفيف إن وهذان بالألف مع تشديد النون وقرأ حفص كذلك إلا أنه خفف نون هذان وافقه ابن محيصن وهاتان القراءتان أوضح القراآت في هذه الآية معنى ولفظا وخطا وذلك أن إن المخففة من الثقيلة أهملت وهذان مبتدأ ولساحران الخبر واللام للفرق بين النافية والمخففة على رأي البصريين وقرأ أبو عمرو إن بتشديد النون وهذين بالياء مع تخفيف النون وهذه القراءة واضحة من حيث الإعراب والمعنى لأن هذين اسم أن نصب بالياء ولساحران خبرها ودخلت اللام للتأكيد لكن استشكلت من حيث خط المصحف وذلك أن هذين رسم بغير ألف ولا ياء ولا يرد بهذا على أبي عمرو وكم جاء في الرسم مما هو خارج عن القياس مع صحة القراءة به وتواترها وحيث ثبت تواتر القراءة فلا يلتفت لطعن الطاعن فيها وافقه اليزيدي والمطوعي

واختلف في (فأجمعوا كيدكم) الآية 64 فأبو عمرو يوصل الهمزة وفتح الميم من جمع ضد فرق وافقه اليزيدي والباقون بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الميم من أجمع رباعيا أي أعزموا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه

(211/493)

تنبيه تقدم أن التقليل عن أبي عمرو في رؤوس الآي أكثر منه في فعلى فيتفرع على ذلك ما لو قرىء له نحو ( ) قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ( ) الآية 65 فالفتح في يا موسى مع الفتح والتقليل في ألقى لكونه رأس آية التقليل في موسى مع التقليل في ألقى وجها واحدا بناء على ما ذكر وعن الحسن وعصيهم حيث جاء بضم العين وهو الأصل والجمهور على كسرها اتباعا للصاد وكسر الصاد للياء والأصل عضو وفاعل كما ترى بقلب الواوين يائين وكسرت الصاد لتصح الياء وكسرت العين اتباعا

واختلف في ﴿ تخيل ﴾ الآية 66 فابن ذكوان وروح بالتاء من فوق على التأنيث على إسناده لضمير العصى والحبال وأنها تسعى بدل اشتمال من ذلك الضمير وافقهما الحسن والباقون بالياء من تحت على التذكير لإسناده إلى أنها تسعة أي يخيل سعيها ولم يذكر ابن مجاهد كصاحبه ابن أبي هاشم هذا الحرف فتوهم بعضهم الخلاف لابن ذكوان فيه وليس فيه خلاف كما نبه عليه صاحب النشر رحمه الله تعالى

واختلف في (تلقف) الآية 69 فابن ذكوان بفتح اللام وتشديد القاف ورفع الفاء على الاستئناف أي فإنها تلقف أو حال مقدرة من المفعول وقرأ حفص بإسكان اللام والفاء مع تخفيف القاف من لقف يلقف كعلم يعلم والباقون وبالتشديد والجزم على جواب الأمر وشدد تاءها وصلا البزي بخلف عنه

واختلف في ﴿ (كيد سحر ﴾ الآية 69 فحمزة والكسائي وخلف بكسر السين

وإسكان الحاء بلا ألف أي كيد ذي سحر أوهم نفس السحر على المبالغة وافقهم الأعمش والباقون بفتح السين وبالألف وكسر الحاء فاعل من سحر وافرد من حيث أن فعلهم نوع واحد من السحر

وقرأ ﴿ أمنتم ﴾ الآية 71 بهمزة واحدة على الخبر الأصبهاني وقنبل من طريق ابن مجاهد وحفص ورويس وقرأ قالون والأزرق والبزي وقنبل من طريق ابن شنبوذ وأبو عمرو وابن ذكوان وهشام من طريق الحلواني والداجوني من طريق زيد وأبو جعفر بهمزتين الأولى

(212/493)

محققة والثانية مسهلة ثم ألف ولم تبدل الثانية ألفا عن الأزرق وأما الثالثة فاتفقوا على إبدالها ألفا وقرأ هشام فيما رواه الداجوني من طريق الشذائي وأبو بكر وحمزة والكسائي وروح وخلف بهمزتين محققتين وعن ابن محيصن والحسن (فلأقطعن ولأصلبن) بفتح الهمزة فيهما وسكون القاف والصاد وفتح الطاء وتخفيفها مع قطع وصلب الثلاثي واتفقوا على نصب (الحياة الدنيا) على الظرفية لتقضي ومفعوله محذوف أي تقضي غرضك أو أمرك أو على أنه مفعوله به اتباعا ويدل له قراءة أبي حيوة تقضي بالبناء للمفعول الحياة بالرفع اتسع في الظرف فأجري مجرى المفعول به كما تقول صيم يوم الجمعة

وقرأ (يأته مؤمنا) الآية 75 بإسكان الهاء السوسي فيما رواه الداني من جميع طرقه وكذا صاحب الكافي والشاطبية وسائر المغاربة وروى عنه الصلة ابن مهران وابن سوار وغيرهما وفاقا لسائر العراقيين

(213/493)

واختلف عن قالون وابن وردان ورويس في الاحتلاس والصلة فأما قالون فروى الاختلاس عنه صاحب التجريد والتذكرة وغيرهما وهي طريق صالح عن أبي نشيط وابن أبي مهران عن الحلواني وروى عنه الإشباع صاحب الهداية والكامل من جميع طرقهما وهي طريق الطبري وغلام الهراس عن ابن بويان وطريق جعفر عن الحلواني وأطلق الخلاف عنه في الشاطبية كأصلها وأما ابن وردان فروى الاختلاس عنه هبة الله بن جعفر والعلاف والوراق وابن مهران عن أصحابهم عن الفضل وروى عنه الإشباع النهرواني من جميع طرقه والرازي وأما رويس فروى الاختلاس عنه العراقيون قاطبة وروى عنه الصلة طاهر بن غلبون والداني من طريقه وسائر المغاربة وبذلك قرأ الباقون وعم ابن كثير وورش والدوري عن أبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وابن جماز وروح فيكون لكل من قالون وابن وردان ورويس الاختلاس والإشباع وللسوسي وجهان فقط

الإسكان والإشباع فما في الأصل هنا من ذكر الاختلاس للسوسي لعله سبق قلم ويوقف لحمزة وهشام على جزؤا من المرسوم بواو وألف بعدها في الكوفي والبصري باثني عشر وجها مر بيانها بالأنعام في انبؤا ما كانوا

وقرأ (أن أسر) الآية 77 بهمزة وصل ساقطة درجا ثابتة مكسورة ابتداء نافع وابن كثير وأبو جعفر والباقون بهمزة قطع مفتوحة في الحالين كما مر بهود وعن الحسن يبسا بسكون الباء والجمهور بفتحها مصدران أو بالإسكان المصدر وبالتحريك الاسم

واختلف في (لا تخاف) الآية 77 فحمزة بالقصر والجزم على أنه جواب الأمر أو مجزوم بلا الناهية ولا تخشى رفع على الاستئناف أو جزم بحذف الحركة تقديرا إجراء له مجرى الصحيح أو بحذف حرف العلة وهذه الألف إشباع لمناسبة

(214/493)

الفواصل وافقه الأعمش والباقون بالمد والرفع على الاستئناف فلا محل له أو محله نصب على الحال من فاعل اضرب أي اضرب غير خائف ولا تخش عطف عليه وعن المطوعي ﴿ فغشاهم من اليم ما غشاهم ﴾ الآية 78 بفتح الشين مشددة وألف بعدها في الكلمتين أي غطاهم وسهل أبو جعفر همز إسرائيل مع المد والقصر ومر خلاف الأزرق فيها

مع وقف حمزة عليها أوائل البقرة

واختلف في ﴿ أنجيتكم ﴾ ﴿ ووعدتكم ﴾ و﴿ رزقتكم ﴾ الآية 80 81 فحمزة والكسائي وخلف بتاء المتكلم من غير ألف في الثلاثة مناسبة لقوله تعالى ( ) فيحل عليكم غضبي ( ) وافقهم الأعمش والباقون بنون العظمة مفتوحة وألف بعدها فيهن وقرأ (ووعدناكم) بغير ألف أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ومر بالبقرة

واختلف في ( ) فيحل عليكم ( ) ومن يحلل ( ) الآية 81 فالكسائي بضم الحاء من فيحل واللام من يحلل من حل يحل إذا نزل ومنه أو تحل قريبا من دارهم وافقه الشنبوذي والباقون بكسرهما من حل عليه كذا أي وجب من حل الدين يحل بالكسر وجب قضاؤه ومنه يبلغ الهدى محله واتفقوا على كسر حاء أم أردتم أن يحل لأن المراد به الوجوب لا النزول وعن الحسن أولاء على أثرى بتسهيل همزة أولاء قال ابن الفاصح بكسرة مليئة من غير همز ولا مد ولا ياء وقال في الدر كالبحر بياء مكسورة

واختلف في (على أثري) الآية 84 فرويس بكسر الهمزة وسكون المثلثة والباقون بفتحها وغلظ الأزرق لام أفطال بخلف عنه للفصل بالألف والوجهان في الشاطبية وغيرها وصححهما ورجح التغليظ

واختلف في (بملكنا) الآية 87 فنافع وعاصم وأبو جعفر بفتح الميم وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمها وافقهم الحسن والأعمش والباقون بكسرها فقيل لغات بمعنى وقيل المضموم معناه لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك لسلطانه وإنما أخلفناه بنظر أدى إليه فعل السامري وفتح الميم مصدر من ملك أمره أي ما فعلناه بأنا ملكنا الصواب بل غلبتنا أنفسنا وكسر الميم أكثر استعماله فيما تحوزه اليد ولكنه يستعمل فيما يبرمه الإنسان من الأمور ومعناه كالذي قبله

واختلف في (حملنا) الآية 87 فنافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس بضم الحاء وكسر الميم مشددة عدي بالتضعيف إلى آخر وبني للمفعول والضمير المتصل نائب الفاعل وافقهم ابن محيصن والباقون بفتح الحاء والميم مخففة مبنيا للفاعل متعديا لواحد والأوزار الأثقال أطلق على ما استعاروا من القبط برسم التزيين أوزارا لثقلها وعن الحسن ﴿ وأن ربكم ﴾ بفتح الهمزة وأثبت الياء في تتبعن وصلا نافع

وأبو عمرو وفي الحالين ابن كثير وابو جعفر ويعقوب قال في النشر إلا أن أبا جعفر فتحها وصلا وأثبتها في الوقف وقدرهم ابن مجاهد حيث ذكر ذلك عن الحلواني عن قالون كما وهم في جامعه حيث جعلها ثابتة لابن كثير في الوصل دون الوقف

وقرأ ( ) يا ابن أم ( ) الآية 94 بكسر الميم ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف

ويوقف عليه لحمزة بوجهين التحقيق والتسهيل كالواو إذ هو متوسط بغيره وفتح ياء الإضافة من برأسي إني نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وعن المطوعي بصرت بكسر الصاد بما لم يبصروا بفتحها

(216/493)

واختلف في ﴿ تبصروا به ﴾ الآية 96 فحمزة والكسائي وكذا خلف بالتاء من فوق خطابا لموسى وقومه وافقهم الأعمش والباقون بالياء على الغيبة مسندا للغائبين بالنسبة إليه بما لم ير بنو إسرائيل وعن الحسن ﴿ فقبصت قبصة ﴾ بالصاد المهملة فيهما وهي القبض بأطراف الأصابع وبضم القاف من الكلمة الثانية كالغرفة والجمهور على المعجمة فيهما وفتح القاف وهو القبض بجميع الكف وأدغم الضاد المعجمة في تاء المتكلم مع إبقاء صفة الإطباق والتشديد ابن محيصن كما مر وأدغم ذال فنبذتها أبو عمرو وهشام فيما رواه جمهور المشارقة عنه وحمزة والكسائي وخلف والإظهار عن هشام رواية المغاربة قاطبة وهو الذي في الشاطبية وغيرها وأدغم باء فاذهب في فاء فإن أبو عمرو والكسائي وهشام وخلاد بخلف عنهما تقدم تفصيله في محله واختلف في لن تخلفه فابن كثير وابو عمرو ويعقوب بضم التاء وكسر اللام مبنيا للفاعل متعديا لمفعولين أحدهما الهاء ضمير

الوعد والثاني محذوف أي لن تخلفه الله وافقه ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بفتح اللام على البناء للمفعول متعديا لاثنين أيضا أحدهما الضمير المستتر المرفوع على النيابة والثاني الهاء أي لن يخلفك الله إياه وعن المطوعي ظلت بكسر الظاء

واختلف في (لنحرقنه) الآية 97 فأبو جعفر بإسكان الحاء وتخفيف الراء واختلف راوياه فابن وردان بفتح النون وافقه الأعمش من باب خرج يخرج وابن جماز بضم النون وكسر الراء وافقه الحسن من باب أخرج يخرج والباقون بضم النون وفتح الحاء وكسر الراء مشددة من حرقة بالتشديد وأدغم دال قد سبق أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

(217/493)

واختلف في ﴿ ننفخ في الصور ﴾ الآية 102 فأبو عمرو بنون العظمة مفتوحة مبنيا للفاعل مسندا إلى الآمر به والنافخ إسرافيل والباقون بالياء من تحت مضمومة وفتح الفاء بالبناء للمفعول ونائب الفاعل الجار والمجرور بعده وقد خالف فيه اليزيدي أبا عمرو ووافق الباقين وعن الحسن ويحشر بالياء من تحت مبنيا للمفعول المجرور نائبه وأدغم ثاء لبثتم أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر ومر عدم إمالة أمتا للكل كهمسا

وأمال (خاب) الآية 111 حمزة وابن عامر بخلف عنه من روايتيه تقدم تفصيله قريبا

واختلف في (فلا يخاف) الآية 112 فابن كثير بالقصر والجزم على النهي وافقه ابن محيصن والباقون بالمد والرفع خبر المحذوف أي فهو لا يخاف والموضع عليهما جزم جواب الشرط

واختلف في ( ) يقضى إليك وحيه ( ) الآية 114 فيعقوب بنون العظمة مفتوحة وكسر الضاد مبنيا للفاعل وفتح الياء نصبا بأن وحيه بالنصب مفعول به وافقه الحسن والأعمش لكن في الدر كالبحر تسكين الياء عن الأعمش وقال استثقل الحركة على حرف العلة وإن كانت خفيفة والباقون بالياء من تحت مضمومة وفتح الضاد مبنيا للمفعول ووحيه بالرفع نائب الفاعل

وقرأ (للملائكة اسجدوا) الآية 116 بضم التاء أبو جعفر بخلف عن ابن وردان والوجه الثاني له إشمام كسرتها الضم كما مر بالبقرة

واختلف في ﴿ وإنك لا تظمؤا ﴾ الآية 119 فنافع وابو بكر بكسر الهمزة عطفا على إن لك أو على الاستئناف والباقون بفتحها على المصدر المنسبك من لا تجوع أي انتفاء جوعك وانتفاء ظمئك أو التقدير وبأنك وتقدم خلاف الأزرق في مد واو سوآتهما بالأعراف وغيرها وأنه لا يسوغ فيها إلا أربعة أوجه توسط الواو مع توسط الهمزة وقصر

الواو مع ثلاثة الهمز ويوقف لحمزة عليها بالنقل على القياس وبالإدغام إلحاقا للواو الأصلية بالزائدة وعن الحسن (يخصفان) بكسر الخاء وتشديد الصاد

(218/493)

وأمال (اتبع هداي) الآية 123 الدوري عن الكسائي وقلله الأزرق بخلفه وعن الحسن (ضنكا) بألف بغير تنوين مع الإمالة المحضة وفتح ياء الإضافة من حشرتني أعمى نافع وابن كثير وأبو جعفر وسبق إمالة أعمى في بابها لحمزة والكسائي وخلف وتقليل الأزرق بخلفه لكونه ليس برأس آية أما ( ) ونحشره يوم القيامة أعمى (الآية 124 فهو رأس آية فمال لحمزة ومن معه مقلل فقط للأزرق ومقلل مع الفتح لأبي عمرو وذكر في الأصل هنا التقليل لأبي عمرو وفي حشرتني أعمى وفيه نظر ولعله سبق قلم ومر التنبيه عليه في باب الإمالة ويوقف على ومن أناء الليل ونحوه مما كتب بياء بعد الألف لحمزة وهشام بخلفه بالبدل ألفا في الهمزة الثانية مع المد والتوسط والقصر وبالتسهيل بين بين مع المد والقصر فهذه خمسة وإذا أبدلت ياء على الرسم فالمد والتوسط والقصر مع سكون الياء والقصر مع روم حركتها فتصير تسعة ولحمزة في الأولى

السكت وعدمه والنقل تصير سبعة وعشرين من ضرب الثلاثة الأولى في التسعة الثانية

وعن الحسن وأطراف النهار بالجر عطفا على آناء الليل والجمهور على نصبه عطفا على محل ومن آناء

واختلف في (ترضى) الآية 130 فأبو بكر والكسائي بضم التاء مبنيا للمفعول وحذف الفاعل للعلم به أي لعل الله يعطيك ما يرضيك أو لعله يرضاك والباقون بفتحها مبنيا للفاعل أي لعلك ترضى بها

واختلف في (زهرة الحياة) الآية 131 فيعقوب بفتح الهاء وافقه الحسن والباقون بسكونها وهما بمعنى واحد كنهر ونهر ما يروق من النور وسراج زاهر لبريقه

واختلف في (أولم تأتهم) الآية 133 فقرأ نافع وابو عمرو وحفص ويعقوب وابن جماز وابن وردان فيما رواه العلاف وابن مهران من طريق ابن شبيب عن الفضل عنه بالتاء من فوق على التأنيث وافقهم اليزيدي والحسن والباقون بالباء على التذكير لأن التأنيث مجازي وهي رواية النهرواني عن ابن شبيب وابن هارون كلاهما عن الفضل والحنبلي عن هبة الله كلاهما عنه

(219/493)

وقرأ (الصراط) الآية 135 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام حمزة بخلف عن خلاد لكونه باللام

المرسوم أتوكوا بواو وألف بعد الكاف اخترتك بغير ألف مهدا حيث وقع بعد الأرض بحذف الألف فيما رواه نافع وكتبوا في الكوفي والبصري جزوا من بواو وألف بعد الزاي أنجيتكم بحذف الألف وكتبوا بالياء أن أسر بعبادي فاتبعوني وأطيعوا أمري والناس ضحى واتفقوا على كتابه أناء الليل بالياء وفي بعض المصاحف ولاوصلبنكم بواو بين الألف والصاد وكذا في الشعراء واتفقوا على رسم همز أم من يبنوم واوا موصولة بالنون وسبق موضع الأعراف وفي بعضها لا تخاف دركا بألف وفي بعضها بلا ألف ولا تظموا بواو وألف بعد الميم في الكل ياآت الإضافة ثلاث عشرة (إني آنست) الآية 10 (إني أنا ربك) الآية 12 (إنني أنا) الآية 14 (لنفسي اذهب) الآية 41 42 (ذكرى اذهبا) الآية 42 43 (لعلي آتيكم) الآية 10 (ولي فيها) الآية 18 (لذكري إن) الآية 14 15 ( ) ويسر لي أمري ( ) الآية 26 (على عيني إذ) الآية 39 40 (برأسي إني) الآية 94 (أخي أشدد) الآية 30 31 (حشرتني أعمى) الآية 125 عن الحسن وحده فتح لي صدري وفيها زائدة واحدة (تتبعن أفعصيت) الآية 93 وحكم كل في محله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 381 . 390 ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة طه عليه السلام "

" طه " سكت أبو جعفر على طا وها والباقون بلا سكت .

" تذكرة "ممن خلق ، السر ، وزيرا ، كثيرا ، بصيرا ، اقذفيه . فاقذفيه ، جئناك ، إسرائيل . كله جلي .

" لأهله امكثوا " قرأ حمزة وصلا بضم الهاء والباقون بكسرها .

" إني آنست " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" لعلي آتيكم " فتحها المدنيان والمكي والبصري والشامي وأسكنها سواهم .

" إني أنا ربك " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح همزة إني والباقون بكسرها وفتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" بالواد " وقف عليه يعقوب بالياء والباقون بحذفها .

" طوى " قرأ الشامي والكوفيون بتنوين الواو والباقون بلا تنوين .

" وأنا اخترتك " قرأ حمزة بتشديد نون أنا واخترناك بنون بعد الراء وبعد النون ألف والباقون بتخفيف نون وأنا واخترتك بتاء مضمومة في مكان النون من غير ألف .

" إنني أنا " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" لذكري إن الساعة " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنا غيرهم .

" أتوكوا " رسمت الهمزة على واو فلحمزة وهشام خمسة أوجه: إبدالها ألفا وتسهيلها مع الروم ، وإبدالها واوا خالصة مع الوقف عليها بالسكون المحض والإشمام والروم .

" ولي فيها " فتح الياء حفص وورش وأسكنها سواهما .

" سيرتها الأولى " رقق الراء ورش وله في البدل الثلاثة مع التقليل في ذات الياء لكونها رأس آية كما ستقف عليه .

" ويسر لي أمري " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" أخي اشدد " فتح الياء المكي والبصري وأسكنها سواهما مع حذفها وصلا للساكنين بعدها .

" أشدد ، وأشركه " قرأ الشامي بقطع همزة أشدد مع فتحها وصلا ووقفا والباقون بهمزة وصل تحذف في الدرج وتثبت في الابتداء مضمومة . وقرأ بضم همزة وأشركه والباقون بفتحها .

" ولتصنع " قرأ أبو جعفر بسكون اللام وجزم العين وغيره بكسر اللام ونصب العين .

(221/493)

" عيني إذ " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها سواهم .

" لنفسي اذهب " وذكري اذهبا . فتح الياء فيهما المدنيان والمكي والبصري وصلا وأسكنها غيرهم كذلك مع حذفها للساكن بعدها .

" أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " لورش في أعطى الفتح والتقليل وعلى كل توسط شيء ومده فتكون الأوجه أربعة وهذه الأربعة مع التقليل في هدى لأنه رأس آية ولا يخفى إخفاء أبي جعفر في شيء خلقه . كما لا يخفى ما لهشام وحمزة في الوقف عليه .

" مهدا " قرأ الكوفيون بفتح الميم وإسكان الهاء والباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها .

" النهى " آخر الربع .

الممال

اعلم أن هذه السورة إحدى السور الإحدى عشرة التي خرج فيها ورش وأبو عمرو عن قاعدتهما المطردة في التقليل ، فأما ورش فقاعدته العامة أن له الفتح والتقليل في كل ما أماله الأخوان أو أحدهما أو الدوري عن الكسائي من ذوات الياء إلا ما استثنى . وأن له التقليل فقط في الألفات الواقعة بعد الراء نحو اشترى إلا في أراكهم فله فيها الفتح والتقليل كما سبق في الأنفال وخروجه عن هذه القاعدة في هذه السور لأنه يقلل ألفات رءوس آيها قولا واحدا إلا الألفات المبدلة من التنوين مثل أمتا وهمسا وضنكا فلا تقليل له ولا لغيره فيها كما لا إمالة

فيها لأحد . واستثنى له من الألفات الممالة في هذه السور من رءوس الآي ما فيه ها مثل ضحاها وسواها فله فيها الفتح والتقليل على قاعدته في ذوات الياء إلا ذكراها فله فيها التقليل فقط لأنها من ذوات الراء .

(222/493)

وأما أبو عمرو فقاعدته المطردة أنه يقلل من ذوات الياء وألفات التأنيث في فعلى مثلث الفاء وقد سبقت له أمثلة كثيرة . وأنه يميل من ذوات الياء الألفات الواقعة بعد راء نحو اشترى وخروجه عن قاعدته في هذه السور لأنه يقلل ألفات رءوس آياتها مطلقا سواء أكانت على وزن فعلى أم لا وسواء أكانت اسما أم فعلا إلا إذا وقعت هذه الألفات بعد راء مثل الثرى فله فيها الإمالة على قاعدته . ومما ينبغي أن تعلمه أن ورشا يعتمد في عد رءوس الآي على المدني الأخير فما يعده المدني الأخير رأس آية يعده ورش كذلك وما لا فلا ، وأما أبو عمرو فيعتمد في عد رءوس الآي على العدد البصري ، وذهب الجعبري تبعا للداني إلى أن ورشا وأبا عمرو يعتمدان المدني الأول . والقول الأول أرجح وعليه العمل وقد ذهب إليه إمام الفن وابن الجزري . هذا وسأقتفي أثر صاحب غيث النفع في هذه السور المذكورة فبعد أن أقول: الممال ، أقول: رءوس الآي الممالة فأذكرها واحداة واحدة ثم أبين ما اتفق على

عده منها وما اختلف في عده ثم أذكر من يميلها ومن يقللها . وبعد هذا أقول: " ما ليس برأس آية " فأعد جميع الكلمات التي ليست من رءوس الآي مع بيان مذاهب القراء فيها من الإمالة والتقليل ، وتنفيذا لهذه الخطة أقول:

الممال

" رءوس الآى الممالة " طه ، لتشقى ، يخشى ، العلى ، استوى ، الثرى وأخفى ، الحسنى موسى ، هدى ، يا موسى ، طوى .

(223/493)

" لما يوحى " بما تسعى ، فتردى ، يا موسى ، أخرى ، يا موسى ، تسعى ، الأولى ، أخرى ، الكبرى ، طغى ، يا موسى ، أخرى ، ما يوحى يا موسى ، طغى ، يخشى ، يطغى ، وأرى ، الهدى ، وتولى ، يا موسى ، ثم هدى ، الأولى ، ولا ينسى ، شتى ، النهى ولا خلاف بين علماء العدد في عدها جميعها ما عدا طه فعدها الكوفي وتركها غيره . وقد قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بإمالة طا وها معا وقرأ ورش وأبو عمرو بفتح طا وإمالة ها والباقون بفتحهما معا . ولم يمل أحد طا مع فتح ها وأما ما عدا طه من رءوس الآي فأمالها كلها الأخوان وخلف سواء أكانت من ذوات الراء أم لا . وأما البصري فأمال منها ما كان

من ذوات الراء وقلل ما عدا ذلك . وأما ورش فقللها جميعها يستوى في ذلك ذوات الراء وغيرها ، وينبغي أن تعلم أن ورشا وأبا عمرو أمالا: ها من طه باعتبار كونه حرفا كها من كهيعص أول مريم فإن ورشا قللها وأبا عمرو أمالها لا باعتبار كون طه رأس فإنهما لا يعدانه كذلك لأنه معدود عند الكوفي فقط وورش إنما يعتبر المدني الأخير والبصري يعتبر العدد البصري كما سبق والدليل على أن إمالتهما لها من طه باعتبار كونه حرفا لا باعتبار كونه رأس آية أنهما أمالاه إمالة كبرى . فلو كانت إمالتهما له باعتبار كونه رأس آية لقللاه كما هو مذهبهما في رءوس الآي فتنبه وينبغي أن تعلم كذلك أن ما قبل همزة الوصل نحو العلى الرحمن والمنون نحو هدى لا إمالة فيه ولا تقليل إلا عند الوقف فقط ولهذا كان طوى مقللا للبصري وورش في الحالين لأنهما يقرآنه بحذف التنوين . وكان ممالا للأخوين وخلف عند الوقف فقط لأنهم يقرءونه منونا .

واعلم أن قوله تعالى: " لنريك من آياتنا الكبرى إذا وصلته باذهب يكون للسوسي حينئذ فيه الفتح والإمالة على أصله وأما إذا وقفت عليه فيكون فيه الإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش كما هو معلوم .

(224/493)

" ما ليس برأس آية " أتاك وأتاها ، لتجزى وهواه وفآتاها وأعطى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . رآى بإمالة الراء والهمزة لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف وبتقليلهما لورش وبإمالة الهمزة فقط للبصري وتقدم أن إمالة السوسي للراء بخلف عنه . ليست من طرق للشاطبي فلا يقرأ للسوسي بها ، النار للبصري والدوري بالإمالة ، ولورش بالتقليل ولا إمالة ولا تقليل لأحد في عصاي .

المدغم

" الصغير " " ويسر لي " للبصري بخلف عن الدوري . إذ تمشي وقد جئناك للبصري وهشام والأخوين وخلف . فلبثت للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر .

" الكبير " " فقال لأهله " نودي يا موسى ، قال رب ، نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت . وقد أدغم رويس هذه الثلاثة بلا خلف عنه ولتصنع على ، أمك كي ، قال لا .

قال: ربنا ، جعل لكم .

لا نخلفه " قرأ أبو جعفر بإسكان الفاء ويلزم منه حذف الصلة والباقون برفعها مع الصلة .

" سوى " قرأ الشامي وعاصم وخلف ويعقوب وحمزة بضم السين وغيرهم بكسرها .

" فيسحتكم " قرأ حفص والأخوان ورويس وخلف بضم الياء التحتية وكسر الحاء والباقون بفتح الياء والحاء .

" قالوا إن هذان " قرأ ابن كثير بإسكان نون إن وهذان بالألف مع تشديد النون والمد المشبع

للساكنين وصلا ووقفا وقرأ أبو عمرو بتشديد نون إن وفتحها وهذين بالياء مع تخفيف النون وحفص بإسكان نون إن وهذان بالألف مع تخفيف النون والباقون بتشديد نون إن وفتحها وهذان بالألف مع تخفيف النون .

" لساحران " الساحر لكبيركم والسحر ، ولن نؤثرك . وليغفر لنا . ثم ائتوا ، من خلاف إسرائيل ، جلي .

" فأجمعوا " قرأ أبو عمرو بهمزة وصل بعد الفاء وفتح الميم وغيره بهمزة قطع مفتوحة مع كسر الميم .

" يخيل " قرأ ابن ذكوان وروح بتاء التأنيث وغيرهما بياء التذكير .

(225/493)

" تلقف " قرأ ابن ذكوان بفتح اللام وتشديد القاف ورفع الفاء وقرأ حفص بإسكان اللام وتخفيف القاف وجزم الفاء والباقون بفتح اللام وتشديد القاف وجزم الفاء ، وشدد البزي التاء وصلا .

" كيد ساحر " قرأ الأخوان وخلف بكسر السين وإسكان الحاء من غير ألف والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء .

" قال آمنتم " تقدم أن قلنا في الأعراف إن هذه الكلمة قد اجتمع فيها ثلاث همزات الأولى والثانية مفتوحتان والثالثة ساكنة وقد أجمعوا على إبدال الثالثة ألفا واختلفوا في الأولى والثانية أما الأولى فقد قرأ بحذفها هنا حفص وقنبل ورويس . وبإثباتها الباقون ، وأما الثانية فقد سهلها بين بين المدنيان والمكي والبصري والشامي وحققها شعبة والأخوان وخلف وروح .

ولا إدخال بين الهمزتين هنا لأحد وثلاثة البدل لورش لا تخفى وليس له إبدال كما تقدم توضيح ذلك في سورة الأعراف .

" ومن يأته " قرأ السوسي بإسكان الهاء وقرأ رويس وقالون بخلف عنه بكسر الهاء من غير صلة والباقون بكسرها مع الصلة وهو الوجه الثاني لقالون ، وليس لهشام إلا الصلة فما يؤخذ من كلام الشاطبي من جواز القصر له غير مقروء به من طرقه .

" جزاؤا " وقف عليه هشام وحمزة باثني عشر وجها على القول بتصوير الهمزة واوا وبخمسة فقط على القول الآخر .

" أن أسر " قرأ المدنيان والمكي بوصل الهمزة وكسر النون من أن في الوصل للساكنين فإذا وقفوا على أن ابتدءوا بهمزة مكسورة والباقون بقطع الهمزة مفتوحة وصلا ووقفا مع إسكان النون كذلك ومن قرأ بوصل الهمزة رقق الراء وقفا ومن قرأ بقطعها كان له التفخيم

والترقيق .

" لا تخاف " قرأ حمزة بحذف الألف وجزم الفاء وغيره بإثبات الألف ورفع الفاء .

(226/493)

" أنجيناكم . وواعدناكم ، ما رزقناكم ، قرأ الأخوان وخلف بتاء مضمومة بعد الياء في الأول والدال في الثاني والقاف في الثالث وبلا ألف فيها والباقون بالنون بعد الياء والدال والقاف وإثبات الألف بعد النون في الجميع وقرأ أبو جعفر والبصريان الألف التي بعد واو وواعدناكم والباقون بإثباتها .

" فيحل ، ومن يحلل " قرأ الكسائي بضم الحاء في الأول وضم اللام الأولى في الثاني والباقون بكسر الجاء في الأول واللام في الثاني .

" اهتدى " آخر الربع .

الممال

" رءوس " الآي الممالة " أخرى ؛ وأبى ؛ يا موسى ، سوى ، ضحى ، أتى ، افترى ، النجوى ، المثلى استعلى ألقى ، تسعى ، موسى ، الأعلى ، أتى ، وموسى ، وأبقى الدنيا ، وأبقى ، ولا يحيى ، العلى ، تزكى ، ولا تخشى ، وما هدى ، والسلوى ، فقد هوى ثم

اهتدى ، وهي معدودة بالإجماع وأما لها كلها الأخوان وخلف وقللها كلها ورش وأما البصري فأمال ما بعد راء وقلل غيرها ، ووافق شعبة في إمالة سوى عند الوقف عليه .

" ما ليس برأس آية " فتولى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . موسى ويلكم . ويا موسى إما أن تلقى ، وموسى أن أسر بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، خاب لحمزة وحده ، جاء له ولابن ذكوان وخلف ، خطايانا – بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلف عنه . والإمالة والتقليل في الألف التي بعد الياء .

المدغم

" الكبير " قال لهم ، اليوم من استعلى ، كيد ساحر ، السحرة سجدا . آذن لكم ، ليغفر لنا .

" على أثري " قرأ رويس بكسر الهمزة وسكون الثاء وغيره بفتحهما .

" أفطال " فيه لورش تفخيم اللام وترقيقها .

" أن يحل عليكم غضب " أجمعوا على كسر حاء يحل .

" بملكنا " قرأ المدنيان وعاصم بفتح الميم والأخوان وخلف بضمها والباقون بكسرها .

" حملنا " قرأ المدنيان والمكي والشامي وحفص ورويس بضم الحاء وكسر الميم مشددة والباقون بفتح الحاء والميم مخففة .

" إليهم " عنه . فيه ، أيديهم جلي .

" تتبعن " قرأ نافع والبصري بإثبات الياء وصلا وحذفها وقفا والمكي ويعقوب بإثباتها في الحالين وأبو جعفر بإثباتها مفتوحة في الوصل ساكنة في الوقف والباقون بحذفها في الحالين .

" يبنؤم " قرأ الشامي وشعبة والأخوان وخلف بكسر الميم والباقون بفتحها ، ولحمزة فيه التسهيل لا غير لكونه موصولا .

" ولا برأسي إني " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم وأبدل الهمز مطلقا أبو جعفر والسوسي وفي الوقف حمزة .

" يبصروا به " قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة .

" لن تخلفه " قرأ المكي والبصريان بكسر اللام والباقون بفتحها .

" لنحرقنه " قرأ ابن وردان بفتح النون وإسكان الحاء وضم الراء مخففة وابن جماز بضم النون وإسكان الحاء وكسر الراء مخففة والباقون بضم النون وفتح الحاء وكسر الراء مشددة .

" وقد آتيناك من لدنا ذكرا " . لورش خمسة أوجه . قصر البدل وعليه التفخيم والترقيق في ذكرا ، وعلى المد الوجهان وعلى التوسط التفخيم لا غير . وزرا خالدين . فيه . التفخيم

والترقيق لورش والإخفاء لأبي جعفر .

" ينفخ " قرأ أبو عمرو بنون مفتوحة مع ضم الفاء والباقون بياء مضمومة في مكان النون مع فتح الفاء .

" علما " آخر الربع .

الممال

" رءوس الآي الممالة ، يا موسى ، لترضى ، وإله موسى ، إلينا موسى " وهذه الفواصل معدودة إجماعا ما عدا وإله موسى فعده المكي والمدني الأول وتركه الباقون ، وقد أمال الفواصل الأربعة الأخوان وخلف وأما ورش فقلل ما عدا وإله موسى قولا واحدا ، وأما وإله موسى فإن قلنا إن ورشا يعتبر المدني الأول في العدد فيكون له فيه التقليل قولا واحدا وأما إذا جرينا على الراجح وهو أن ورشا يعتمد في العدد على المدني الأخير فيكون له حينئذ الفتح والتقليل . وأما البصري فيقلله قولا واحدا إما لأنه رأس آية عنده على القول المرجوح وهو أن البصري يعتبر في العدد المدني الأول ، وإما لأنه يقلل ما كان على وزن فعلى مثلث الفاء وما ألحق به وهذا ملحق به .

" ما ليس برأس آية " " فرجع موسى إلى " بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، لا ترى ، بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش .

" ألقى " لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " فنبذتها ، للبصري والأخوين وخلف ، فاذهب فإن للبصري والكسائي وخلاد قد سبق للبصري وهشام والأخوين وخلف .

لبثتم: معا للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر .

" الكبير " قال لهم ، تقول لا مساس ، هو وسع ، أعلم بما ، أذن له ، يعلم ما . ولا إدغام في نبرح عليه . لتخصيص ذلك بزحزح عن النار .

وهو مؤمن أنزلناه ، قرآنا ، فيه ، عليهما ، اجتباه ، بصيرا ، خير ، وأمر ، بالصلاة ، الصراط كله واضح .

" فلا يخاف " قرأ المكي بحذف الألف بعد الخاء وجزم الفاء ، وغيره بإثبات الألف ورفع الفاء .

" أن يقضى إليك وحيه " قرأ يعقوب نقضي بنون مفتوحة وضاد مكسورة وياء مفتوحة بعدها مع نصب ياء وحيه وغيره بياء مضمومة في مكان النون وضاد مفتوحة وبعدها ألف ورفع ياء وحيه .

" للملائكة اسجدوا " قرأ أبو جعفر بضم تاء الملائكة والباقون بكسرها .

" وإنك لا تظمؤا " قرأ نافع وشعبة بكسر الهمزة والباقون بفتحها ، ووقف حمزة وهشام على تظمؤا بخمسة أوجه لأن الهمزة فيه رسمت على واو . وهي الإبدال ألفا والتسهيل مع الروم والإبدال واوا مع السكون المحض والإشمام والروم .

" سوآتهما " لورش فيه أربعة أوجه: قصر الواو مع تثليث البدل ثم توسطهما ، ولحمزة فيه وقفا النقل والإدغام .

" وعصى آدم ربه فغوى " لورش فيه أربعة أوجه فتح وعصى وعليه قصر البدل ومده ثم التقليل وعليه التوسط والمد وهذه الأوجه الأربعة مع تقليل فغوى لأنه رأس آية .

" لم حشرتني أعمى " فتح الياء المدنيان والمكي وأسكنها غيرهم .

(229/493)

" ومن آناء " نقل ورش حركة الهمزة إلى ما قبلها وحذف الهمزة وله في هذا البدل المغير بالنقل ثلاثة أوجه ، ولخلف عن حمزة في الوقف عليه سبعة وعشرون وجها وبيان ذلك أن له في الأولى النقل والتحقيق بالسكت وتركه ، وله في الثانية تسعة أوجه لأن الهمزة مرسومة على ياء وهي الإبدال مع القصر والتوسط والمد ثم التسهيل بالروم مع المد والقصر وهي

خمسة القياس . ثم إبدال الهمزة ياء خالصة مع القصر والتوسط والمد بالسكون المحض ثم القصر مع الروم وهذه أربعة الرسم فإذا ضربت هذه التسعة في ثلاثة الأولى تكون الأوجه سبعة وعشرين وكلها قوية مقروء بها ولخلاد ثمانية عشر وجها بإسقاط السكت في الأولى مع التسعة في الثانية ولهشام تسعة الثانية إذ لا شيء له في الأولى .

" لعلك ترضى " قرأ شعبة والكسائي بضم التاء والباقون بفتحها .

" زهرة " فتح يعقوب الهاء وأسكنها سواه .

" أو لم تأتهم " قرأ نافع والبصريان وحفص وابن جماز بتاء التأنيث والباقون بياء التذكير ، وضم رويس الهاء في الحالين وكسرها غيره .

" اهتدى " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" رءوس الآي الممالة " " أبى " فتشقى ، ولا تعرى ، ولا تضحى ، لايبلى ، فغوى ، وهدى ، مني هدى ، يشقى ، يوم القيامة أعمى ، تنسى ، وأبقى ؛ النهى ، مسمى ، ترضى ، الدنيا ، وأبقى ، للتقوى ، الأولى ، ونخزى ، ومن اهتدى . وكلها معدودة بالإجماع إلا منى هدى وزهرة الحياة الدنيا فعدهما المدنيان والمكي والبصري والشامي وتركهما الكوفي ، وقد أمال الجميع الأخوان وخلف لا فرق في ذلك بين متفق عليه ومختلف فيه وإمالتهم مني هدى والدنيا باعتبار كونهما من ذوات الياء لا باعتبار كونهما رأسي آية لأنهما غير معدودين

عند الكوفي كما علمت . وقلل الجميع ورش قولا واحدا لا فرق في ذلك بين ذوات الراء وغيرها وأما البصري فأمال منها ما كان من ذوات الراء وقلل غيرها .

(230/493)

" ما ليس برأس آية " خاب لحمزة وحده فتعالى إن وقف عليه ويقضى وعصى واجتباه ولم حشرتني أعمى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، هداي بالإمالة لدوري الكسائي والتقليل لورش بخلف عنه . النهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " آدم من ، قال رب ، ربك قبل ، النهار لعلك ، نحن نرزقك ، ولا إدغام في نرزقك لعدم وجود الميم بعد الكاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 205 . 213 ﴾

(231/493)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة طه

قوله تعالى ﴿ طه ﴾ يقرأ بفتح الحرفين وكسرهما وبين ذلك وهو إلى الفتح اقرب وبفتح الطاء وكسر الهاء وقد تقدم في كهيعص من الاحتجاج ما فيه بلاغ

قوله تعالى ﴿ إني أنا ربك ﴾ يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتحها أنه أوقع عليها نودي فموضعها على هذه القراءة نصب والحجة لمن كسر أنه استأنفها مبتدئا فكسرها وليس لها على هذه القراءة موضع من الإعراب لأنها حرف ناصب

قوله تعالى ﴿ لأهله امكثوا ﴾ يقرأ بضم الهاء وكسرها وقد ذكرت علته في البقرة

قوله تعالى ﴿ طوى ﴾ يقرأ بإسكان الياء من غير صرف وبالتنوين والصرف فالحجة لمن أسكن ولم يصرف أنه جعله اسم بقعة فاجتمع فيه التعريف والتأنيث وهما فرعان لأن التنكير أصل والتعريف فرع عليه والتذكير أصل والتأنيث فرع عليه فلما اجتمع فيه علتان شبه بالفعل فمنع ما لا يكون إعرابا في الفعل

وقال بعض النحويين هو معدول عن طا وكما عدل عمر عن عامر فإن صح ذلك فليس في ذوات الواو اسم عدل عن لفظه سواه والاختيار ترك صرفه ليوافق الآي التي قبله والحجة لمن أجراه ونونه أنه اسم واد مذكرا فصرفه لأنه لم تجتمع فيه علتان تمنعانه الصرف

قوله تعالى ﴿ وأنا اخترتك ﴾ يقرأ بتخفيف أنا وفتح الهمزة وبالتاء في اخترتك وبكسر الهمزة وفتحها وتشديد النون وبنون مكان التاء والف بعدها في اخترتك فالحجة لمن فتح

الهمزة وخفف وأتى بالتاء أنه جعل أنا اسما لله تعالى مقدما على الفعل

سورة طه مرفوعا بالإبتداء واخترت الخبر والتاء اسم للفاعل والكاف اسم المفعول به

والحجة لمن كسر الهمزة وشدد النون أنه جعلها حرفا ناصبا مبتدأ وشدد النون لأنها في

الأصل نونان أدغمت إحداهما في الأخرى تخفيفا والحجة لمن فتحها أنه رد الكلام على

قوله ﴿ إني أنا ربك ﴾ وأنا اخترناك كما تخبر الملوك عن أنفسها بنون الملكوت

(232/493)

قوله تعالى ﴿ أخي اشدد به أزري وأشركه ﴾ يقرآن بوصل الألف الأولى وقطع الثانية

وفتحها وبقطع الأولى وفتحها وبقطع الثانية وضمها والفعل في القراءتين مجزوم لأنه جواب

الطلب فالحجة لمن وصل الأولى وفتح الثانية أنه أتى بالكلام على طريق الدعاء بلفظ الأمر

فوصل الأولى لأنها من فعل ثلاثي وقطع الثانية لأنها من فعل رباعي والحجة لمن قطعهما أنه

أخبر بذلك عن نفسه وقياس ألف المخبر عن نفسه قياس النون والتاء والياء الزوائد مع

الألف في أول الفعل المضارع فمتى انضممن حكم على الألف بالضم ومتى انفتحن حكم

على الألف بالفتح لأن الألف إحداهن عند الأمر بالفعل والطلب والدعاء والمسألة

قوله تعالى ﴿ الأرض مهادا ﴾ يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن أثبت الألف ها هنا

وفي الزخرف أنه جعله اسما للأرض أي جعلها لهم فراشا والحجة لمن حذف الألف أنه جعله مصدرا من قولك مهدتها مهدا كما تقول فرشتها فرشا فأما التي في ﴿ عم يتساءلون ﴾ فبالألف إجماع لموافقة رؤوس الآي

قوله تعالى ﴿ مكانا سوى ﴾ يقرأ بضم السين وكسرها فالحجة لمن ضم أنه أراد مكانا مساويا بيننا وبينك والحجة لمن كسر أنه أراد مكانا مستويا أي لا مانع فيه من النظر وقيل هما لغتان فصيحتان إلا أنه اسم مقصور لا يبين فيه إعراب لأنه قصر

سورة طه عنه أو لأنه مأخوذ من قوله ﴿ مقصورات في الخيام ﴾ أي محبوسات فكأنه حبس عن الإعراب

قوله تعالى ﴿ فيسحتكم ﴾ يقرأ بفتح الياء والحاء وبضم الياء وكسر الحاء وهما لغتان فالفتح من سحت والضم من أسحت ومعناهما استأصل

(233/493)

قوله تعالى ﴿ إن هذان لساحران ﴾ أجمع القراء على تشديد نون إن إلا ابن كثير وحفصا عن عاصم فإنهما خففاها وأجمعوا على لفظ الألف في قوله هذان إلا أبا عمرو فإنه قرأها بالياء وأجمعوا على تخفيف النون في التثنية إلا ابن كثير فإنه شددها فالحجة لمن شدد النون

في إن واتى بألف في هذان أنه احتج بخبر الضحاك عن ابن عباس أن الله تعالى أنزل هذا القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب وهذه اللفظة بلغة بلحارث بن كعب خاصة لأنهم يجعلون التثنية بالألف في كل وجه لا يقلبونها لنصب ولا خفض قال شاعرهم % إن أباها وأبا أباها % قد بلغا في المجد غايتاها % فلما ثبتت هذه اللفظة في السواد بالألف وافقت هذه اللغة فقرؤوا بها ولم يغيروا

سورة طه ما ثبت في المصحف والحجة لمن خفف النون أنه جعلها خفيفة من الشديدة فأزال عملها ورد ما كان بعدها منصوبا إلى أصله وهو المبتدأ وخبره فلم يغير اللفظ ولا لحن في موافقة الخط

فإن قيل إن اللام لا تدخل على خبر المبتدأ لا يقال زيد لقائم فقل من العرب من يفعل ذلك تأكيدا للخبر وأنشد شاهدا لذلك % خالى لأنت ومن جرير خاله % ينل العلاء ويكرم الأخوالا % والوجه الآخر أن يكون إن ها هنا بمعنى ما واللام بمعنى إلا كقوله تعالى ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ معناه والله أعلم ما كل نفس إلا عليها حافظ

وقال أبو العباس المبرد أولى الأمور بإن المشددة أن تكون ها هنا بمعنى نعم كما قال ابن الزبير للأعرابي لما قال له لعن الله ناقة حملتني إليك فقال له إن وراكها أراد نعم وراكبها وأنشد % بكر العواذل بالضحى % يلحينني وألومهنه % % ويقلن شيب قد علا % ك وقد كبرت فقلت إنه % أراد فقلت نعم فوصلها بهاء السكت فقيل له إن اللام لا تدخل على خبرها إذا كانت

بمعنى نعم فقال إنما دخلت اللام على اللفظ لا على المعنى والحجة لمن قرأها بالياء ما روي عن عائشة ويحيى بن يعمر أنه لما رفع المصحف إلى

(234/493)

سورة طه عثمان قال أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنها

فإن قيل فعثمان كان أولى بتغيير اللحن فقل ليس اللحن ها هنا أخطاء الصواب وإنما هو خروج من لغة قريش إلى لغة غيرهم والحجة لمن شدد النون في التثنية مذكورة في النساء

قوله تعالى ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ يقرأ بوصل الألف وقطعها فالحجة لمن وصل أنه جعله بمعنى اعزموا والحجة لمن قطع أنه أراد فأجمعوا الكيد والسحر ودليل الوصل قوله تعالى ﴿ فجمع كيده ﴾ ولم يقل فأجمع

قوله تعالى ﴿ يخيل إليه ﴾ يقرأ بالتاء والياء والحجة لمن قرأ بالتاء أنه رده على الحبال والعصي لأنه جمع ما لا يعقل والحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على السحر

قوله تعالى ﴿ تلقف ﴾ يقرأ بفتح اللام وتشديد القاف والرفع والجزم وبإسكان اللام وتخفيف القاف والجزم فالحجة لمن شدد ورفع أنه أراد تتلقف فأسقط إحدى التاءين تخفيفا وجزم بجواب الأمر فقد روى عن ابن كثير بتشديد هذه التاء وما شاكلها في نيف

وثلاثين موضعا والحجة لمن خفف وجزم أنه أخذه من لقف يلقف وجزمه بالجواب أيضا والحجة لمن شدد ورفع أنه أضمر الفاء فكأنه قال الق ما في يمينك فإنها بلقف أو يجعله حالا من ما كما قال ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾

قوله تعالى ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن سورة طه أثبتها أنه جعله اسما لفاعل مشتقا من فعله والحجة لمن حذفها أنه أراد اسم الفعل وهو المصدر

قوله تعالى ﴿ لا تخاف دركا ﴾ أجمع القراء على الرفع إلا حمزة فإنه قرأه بالجزم على طريق النهي فالحجة لمن رفع أنه جعله خبرا وجعل لا فيه بمعنى ليس

فإن قيل فما حجة حمزة في إثبات الياء في ﴿ تخشى ﴾ وحذفها علم الجزم فقل له في ذلك وجهان أحدهما أنه استأنف ولا تخشى ولم يعطفه على أول الكلام فكانت لا فيه بمعنى ليس كما قال تعالى ﴿ فلا تنسى ﴾ والوجه الآخر أنه لما طرح الياء أشبع فتحة السين فصارت ألفا ليوافق رؤوس الآي التي قبلها بالألف

(235/493)

قوله تعالى ﴿ فأتبعهم فرعون ﴾ يقرأ بقطع الألف وإسكان التاء وبوصلها وتشديد التاء فالحجة لمن قطع أنه أراد فألحقهم وهما لغتان لحق والحق والحجة لمن وصل أنه أراد سار في أثرهم

قوله تعالى ﴿ قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم ﴾ يقرآن بالتاء وبالألف والنون إلا ما قرأه أبو عمرو من طرح الألف في ووعدناكم فمن قرأه بالتاء فالحجة له أنه جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه لأن التاء اسم الفاعل المنفرد بفعله والحجة لمن قرأه بالنون والألف أنه جعله من إخبار الله عز وجل عن نفسه بنون الملكوت لأنه ملك الأملاك وعلى هذه اللغة يتوجه قوله ﴿ قال رب ارجعون ﴾ لأنه خاطبه بلفظ ما أخبر به عن نفسه فأما قوله وعدناكم وأوعدناكم فالفرق بينهما مذكور في البقرة

قوله تعالى ﴿ آمنتم له ﴾ يقرأ بالاستفهام والإخبار وقد ذكرت علله في الأعراف

قوله تعالى ﴿ فيحل عليكم غضبي ومن يحلل ﴾ يقرآن بالكسر معا وبالضم فالحجة لمن كسر أنه أراد نزل ووقع والحجة لمن ضم أنه أراد وجب والوجه الكسر لإجماعهم على قوله تعالى ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾

سورة طه فإن قيل ما وجه الإدغام في قوله فيحل والإظهار في قوله ومن يحلل فقل إنما يكون الإدغام في متحركين فسكن الأول لاجتماعهما ثم يدغم فإن كان الأول متحركا والثاني ساكنا بطل الإدغام فالأصل المدغم فيمن ضم فيحلل وفيمن كسر فيحلل فنقلت الحركة

من اللام إلى الحاء وأسكنت اللام ثم أدغمت فهذا فرقان ما بين المدغم والمظهر

قوله تعالى ﴿ بملكنا ﴾ يقرأ بكسر الميم وضمها وفتحها فالحجة لمن كسر أنه أراد اسم الشيء المملوك كقولك هذا الغلام ملكي وهذه الجارية ملك يميني والحجة لمن ضم أنه أراد بسلطاننا ودليله قوله تعالى ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ يريد السلطان والحجة لمن فتح أنه أراد المصدر من قولهم ملك يملك ملكا

(236/493)

قوله تعالى ﴿ ولكنا حملنا ﴾ يقرأ بالتخفيف والتشديد فالحجة لمن خفف أنه أراد هم بالفعل وجعل النون والألف المتصلين به في موضع رفع والحجة لمن شدد أنه جعل الفعل لما لم يسم فاعله ودل عليه بضم أوله وكان أصله ولكنا حملنا السامري فلما خذل الفاعل أقيم المفعول مقامه فرفع لأن الفعل الذي كان حديثا عن الفاعل صار عن المفعول فارتفع به

قوله تعالى ﴿ ألا تتبعن ﴾ يقرا بإثبات الياء وصلا ووقفا على الأصل وبإثباتها وصلا وحذفها درجا اتباعا للخط في الوصل والأصل في الدرج وبحذفها وصلا ووقفا اجتزاء بالكسرة منها

قوله تعالى ﴿ يا ابن أم ﴾ يقرأ بكسر الميم وفتحها فالحجة لمن كسر أنه أراد يا بن أمي

فحذف الياء اجتزاء بالكسرة منها والوجه إثباتها لأن هذه الياء إنما تحذف في النداء المضاف إليك إذا قلت يا غلامي لأنها وقعت موقع التنوين والتنوين لا يثبت في النداء سورة طه فأما الياء ها هنا فالتنوين ثبت في موضعها إذا قلت يا بن أم زيد وإنما حذفت الياء لما كثر به الكلام فصار المضاف والمضاف اليه كالشيء الواحد فحذفت الياء كذلك والحجة لمن فتح أنه أراد يا بن أماه فرخم فبقيت الميم على فتحها أو بنى ابنا مع الأم بناء خمسة عشر أو قلب من الياء ألفا وقد ذكرت وجوهه في الأعراف مستقصاة بما يغني عن إعادته ها هنا

قوله تعالى ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ يقرا بالياء والتاء فالياء لمعنى الغيبة والتاء لمعنى الحضرة

قوله تعالى ﴿ لن تخلفه ﴾ يقرأ بكسر اللام وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعل الفعل للسامري والهاء كناية عن الموعد والحجة لمن فتح أنه أراد الدلالة على أنه مستقبل ما لم يسم فاعله والهاء على أصلها في الكناية وهي في موضع نصب في الوجهين

(237/493)

قوله تعالى ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ إجماع القراء فيه على الياء وضمها على ما لم يسم فاعله إلا ما اختاره أبو عمرو من النون وفتحها وله في ذلك وجهان أحدهما أنه أتى بالنون في ننفخ ليوافق به لفظ ﴿ نحشر ﴾ فيكون الكلام من وجه واحد والثاني أن النافخ في الصور وإن كان إسرافيل فإن الله عز وجل هو الآمر له بذلك والمقدر والخالق له فنسب الفعل إليه لهذه المعاني ودليله قوله تعالى ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ والمتوفي لها ملك الموت عليه السلام

قوله تعالى ﴿ وأنك لا تظمأ فيها ﴾ يقرأ بفتح أن وكسرها فالحجة لمن فتحها أنه رده على قوله ﴿ ألا تجوع ﴾ يريد وأنك لا تظمأ فرده على المعنى لا على اللفظ والحجة لمن كسر أنه استأنف ولم يعطف ومعنى لا تظمأ أي لا تعطش ولا تضحي أي لا تبرز للشمس

قوله تعالى ﴿ فلا يخاف ظلما ﴾ يقرأ بالياء وإثبات الألف والرفع وبالتاء وحذف سورة الأنبياء الألف والجزم فالحجة لمن قرأ بالياء والرفع أنه جعله خبرا والحجة لن قرأ بالتاء والجزم أنه جعله نهيا ومعنى الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه والهضم النقصان

قوله تعالى ﴿ أعمى ﴾ في الموضعين يقرآن بالتفخيم والإمالة فالحجة لمن فخم أنه أتى به على الأصل والحجة لمن أمال أنه دل بذلك على الياء وقيل في معناه أعمى عن حجته وقيل عن طريق الجنة

قوله تعالى ﴿ لعلك ترضى ﴾ يقرأ بفتح التاء وضمها فالحجة لمن فتحها أنه قصده بكون

الفعل له ففتح لأنه من فعل ثلاثي والحجة لمن ضم أنه دل بذلك على بناء الفعل لما لم يسم فاعله والأمر فيهما قريب لأن من أرضي فقد رضي ودليله قوله تعالى ﴿ راضية مرضية ﴾

قوله تعالى ﴿ أو لم تأتهم ﴾ يقرأ بالياء والتاء والحجة فيه ما قدمناه في أمثاله والاختيار التاء لإجماعهم على قوله ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 240.248 ﴾

(238/493)

وقال ابن زنجلة :

سورة طه

قرأ أبو عمرو طه بفتح الطاء وكسر الهاء قيل لأبي عمرو لم كسرت الهاء قال لئلا تلتبس بالهاء التي للتنبيه وإنما فتح الطاء لاستعلائها ولأنها من الحروف المناعة

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر طه بكسر الطاء والهاء وحجتهم صحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أمال الطاء والهاء عن زر قال قرأ رجل على ابن مسعود طه فقال عبد الله طه فقال له الرجل يا أبا عبد الرحمن أليس إنما أمر أن يطأ قدمه فقال له عبد الله

طه هكذا أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم

قرأ نافع وابن عامر وابن كثير وحفص طه بفتح الطاء والهاء وهو الأصل العرب تقول طاء وهاء ومن العرب من يكسر

إذ قال لأهله امكثوا 10

قرأ حمزة لأهله امكثوا بضم الهاء وكذلك في القصص على أصل الكلمة وعلى لغة من يقول مررت به يا فتى

وقرأ الباقون بكسر الهاء وإنما كسروا لمجاورة الكسرة وقد بينا في سورة البقرة

فلا أتها نودي يموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك 11 13

قرأ ابن كثير وأبو عمرو نودي يا موسى أني أنا ربك بفتح الألف المعنى نودي بأني أنا ربك وموضع أني نصب

وقرأ الباقون إني بكسر الألف أوقعوا النداء على موسى فسلمت إني من وقوع النداء عليها فاستأنفوا بها الكلام وكسروا كذا ذكر الفراء وقال المبرد الكسر أقرب لأنها حكاية كلام الله بعد النداء فالتقدير والله أعلم فناديناه بأن قلنا يا موسى إني أنا ربك

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو طوى بغير تنوين وقرأ الباقون بالتنوين

قال الزجاج فمن لم ينون ترك صرفه من وجهين أحدهما أن يكون معدولا عن طاو فيصير

مثل عمر المعدول عن عامر فلا يصرف كما لا ينصرف عمر والوجه الآخر أن يكون اسما للبقعة كما قال جل وعز في البقعة المباركة من الشجرة ومن ينونه فهو اسم الوادي وهو مذكر سمي بمذكر على فعل مثل حطم

(239/493)

قرأ حمزة وأنا اخترناك على معنى نودي أنا اخترناك من خطاب الملوك والعظماء ومن حجته قوله قبله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى 2 والأصل أننا كما قال إنني معكما 46 ولكن النون حذفت لكثرة النونات والمحذوف النون الثانية في أن

الأولى الساكنة والثانية المتحركة ف نا في موضع نصب ب أن أن وما بعدها في موضع نصب المعنى نودي موسى أنا اخترناك

وقرأ الباقون وأنا خفيفة اخترتك على لفظ التوحيد ف أنا موضعه رفع بالابتداء وخبره اخترتك فالمعنى في القراءتين واحد غير أن هذه القراءة أشد موافقة للخط وأشبه بنسق اللفظ لقوله إني أنا ربك 12 فكذلك وأنا اخترتك

هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري 30 32

قرأ ابن عامر أخي أشدد به بفتح الألف وأشركه في أمري بضم الألف على الإخبا كأن

موسى أخبر عن نفسه كما تقول زرني أكرمك وإنما انجزم الفعلان لأن جواب الأمر جواب شرط وجزاء المعنى إن فعلت ذلك أشدد به أزري فإن قيل لم فتح الألف في أشدد وضم في أشركه فقل إذا كان الفعل ثلاثيا كان ألف المخبر عن نفسه مفتوحا وإذا كان الفعل رباعيا كان الألف مضموما ألا تراك أنك تقول شد يشد وأشرك يشرك

وقرأ الباقون أخي اشدد بوصل الألف وأشركه بفتح الألف على الأمر ومعناه الدعاء أي اللهم اشدد به أزري وأشركه في أمري أي في نبوتي

الذي جعل لكم الأرض مهدا 53

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر الذي جعل لكم الأرض مهادا بكسر الميم وفتح الهاء وكذلك في الزخرف وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال إنما المهد الفعل يقال مهدت الأرض مهدا وهي نفسها مهاد كما تقول فرشتها فرشا وهي نفسها فراش وفي التنزيل الذي جعل لكم الأرض فراشا وقال ألم نجعل الأرض مهادا ولم يقرأ أحد مهدا

(240/493)

قرأ أهل الكوفة مهدا ذهبوا إلى المصدر فيكون تقدير الكلام الذي جعل لكم الأرض ممهودة مهدا فكيتفي بقوله مهدا من ممهودة والعرب تضع المصادر في مواضع الموصوف فتقول رجل

رضى أي مرضي ورجل صوم ويمكن أن يكون مهدا اسما يوصف به الأرض لأن الناس يتمهدونها ويسكنونها فهي لهم كالمهد الذي يعرف فسميت به وقال قوم هما لغتان مثل الريش والرياش

فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى 58

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر مكانا سوى بضم السين وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان أي مكانا عدلا وقيل وسطا بين قريتين

لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب 61

قرأ حمزة والكسائي وحفص فيسحتكم بضم الياء وكسر الحاء وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء

قال الفراء هما لغتان يقال سحته وأسحته إذا استأصله وأهلكه

قالوا إن هذان لسحران 63

قرأ أبو عمرو إن هذين بالياء لأن تثنية المنصوب والمجرور بالياء في لغة فصحاء العرب وأبو عمرو مستغن عن إقامة دليل على صحتها كما أن القارئ في قول الله جل وعز قال رجلان من الذين يخافون مستغن عن الاحتجاج على منازعه إن نازعه في صحة قراءته

وقرأ الباقون إن هذان لساحران بالألف وحجتهم أنها مكتوبة هكذا في الإمام مصحف عثمان وهذا الحرف في كتاب الله مشكل على أهل اللغة وقد كثر اختلافهم في تفسيره

ونحن نذكر جميع ما قال النحويون فحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب وهو رأس رؤساء الرواة أنها لغة كنانة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد يقولون أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان قال الشاعر . . . تزود منا بين أذناه ضربة . . . دعته إلى هابي التراب عقيم

(241/493)

قال الزجاج وقال النحويون القدماء ها هنا هاء مضمرة والمعنى إنه هذان لساحران كما تقول إنه زيد منطلق ثم تقول إن زيد منطلق وقال المبرد أحسن ما قيل في هذا أن يجعل إن بمعنى نعم المعنى نعم هذان لساحران فيكون ابتداء وخبرا قال الشاعر . . . ويقلن شيب قد علا . . . ك وقد كبرت فقلت إنه . . .

أي نعم فإن قيل اللام لا تدخل بين المبتدأ وخبره لا يقال زيد لقائم فما وجه هذان لساحران الجواب في ذلك أن من العرب من يدخل لام التوكيد في خبر المبتدأ فيقول زيد لأخوك قال الشاعر . . . خالي لأنت ومن جرير خاله . . . ينل العلاء ويكرم الأخوالا . . .

وقال الزجاج المعنى نعم هذان لساحران وقال قطرب يجوز أن يكون المعنى أجل فيكون المعنى والله أعلم فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى 62 قالوا أجل تصديقا من بعضهم

لبعض ثم قالوا هذان لساحران ويجوز أن يكون اللام داخلة في الخبر على التوكيد

وقال الفراء في هذان إنهم زادوا فيها النون في التثنية وتركوها على حالها في الرفع والنصب والجر كما فعلوا في الذي فقالوا الذين في الرفع والنصب والجر

وقرأ حفص إن هذان بتخفف إن جعل إن بمعنى ما واللام بمعنى إلا التقدير ما هذان إلا ساحران

وقرأ ابن كثير إن بالتخفيف هذان بالتشديد وإن تكون أيضا بمعنى ما والأ في هذان هذا ان فحذف الألف وجعل التشديد عوضا من الألف المحذوفة التي كانت في هذا ومن العرب من إذا حذف عوض ومنهم من إذا حذف لم يعوض فمن عوض آثر تمام الكلمة ومن لم يعوض آثر التخفيف ومثل ذلك في تصغير مغتسل منهم من يقول مغيسل فلم يعوض ومنهم من يقول مغيسيل فعوض من التاء ياء

فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى 64

قرأ أبو عمرو فاجمعوا كيدكم بوصل الألف وفتح الميم أي جيئوا بكل كيد تقدرون عليه أي لا تدعوا منه شيئا إلا جئتم به وهو من جمعت الشيء أجمعه وحجته قوله تعالى قبلها فجمع كيده 60

وقرأ الباقون فأجمعوا بقطع الألف وكسر الميم أي أحكموا أمركم واعزموا عليه قال الشاعر

يا ليت شعري والمنى لا تنفع . . . هل أغدون يوما وأمري مجمع . . .

يريد قد أحكم وعزم عليه

فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى 66

قرأ ابن عامر تخيل إليه بالتاء رده على الحبال والعصي وقرأ الباقون يخيل إليه بالياء المعنى

يخيل إليه سعيها ويجوز أن ترده على السحر

وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى 69

قرأ ابن عامر تلقف برفع الفاء جعله فعلا مستقبلا فأضمر فاء يكون جواب الأمر كأنه

التقدير ألق عصاك فإنها تلقف قال الزجاج ويجوز الرفع على معنى الحال كأنه قال ألقها

ملقفة على حال متوقعة كما قال ولا تمنن تستكثر أي مستكثرا

وقرأ حفص تلقف ساكنة اللام جعله من لقف يلقف وجزم الفاء لأنه جواب الأمر والأمر مع

جوابه كالشرط والجزاء

وقرأ الباقون تلقف بالتشديد من تلقف يتلقف والأصل

تتلقف فحذفوا إحدى التاءين وابن كثير أدغم التاء في التاء في رواية البزي

قرأ حمزة والكسائي كيد سحر بغير ألف وقرأ الباقون كيد ساحر وحجتهم ذكرها اليزيدي

فقال السحر ليس له كيد إنما الكيد للساحر يقوي هذا قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى

وحجة من قرأ بغير ألف هي أن الكيد إذا كان بالسحر جاز أن يضاف إليه لأنه به ومنه

ومن سببه قال الله جل وعز والنهار مبصرا لأنه يبصر فيه ومثله كثير

قال ءامنتم له 71

وقرأ القواس عن ابن كثير وورش وحفص قال آمنتم على الخبر قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر

أآمنتم له بهمزتين

وقرأ الباقون بهمزة واحدة مطولة وقد بينت في الأعراف

فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخف دركا ولا تخشى 77

قرأ حمزة لا تخف دركا بجزم الفاء على النهي وسقطت الألف لسكونها وسكون الفاء

المعنى لا تخف أن يدركك فرعون ولا تخشى الغرق قال محمد بن يزيد المبرد من قرأ لا تخف

فهو على المجازاة التي هي جواب الأمر كأنه قال اضرب فإنك إن تضرب لا تخف كقوله

ادعوني أستجب لكم وقوله ولا تخشى رفع على الاستئناف كما قال سبحانه يولوكم

الإدبار ثم لا ينصرون فاستأنف

وقرأ الباقون لا تخاف دركا بالرفع على الخبر المعنى لست تخاف دركا قال المبرد ومن قرأ لا تخاف دركا ولا تخشى فعلى ضربين كما قال سيبويه أي اضرب لهم طريقا غير خائف ولا خاش فيكونان في موضع الحال كقولك انطلق تتكلم يا فتى أي متكلما فامض لا تخاف يا فتى أي غير خائف والضرب الثاني أن يكون على القطع مما قبله فيكون تقديره واضرب لهم طريقا ثم أخبر فقال أنت غير خائف ولا خاش أي لست تخاف

يبني إسراءيل قد أنجينكم من عدوكم ووعدنكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبت ما رزقنكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى 80 و81

قرأ حمزة والكسائي قد أنجيتكم من عدوكم وواعدتكم بالتاء على التوحيد وحجتهما أن الخبر أخرج فيما ختم به الكلام على التوحيد في قوله تعالى فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فكان إلحاقه ما تقدمه بلفظه أولى من صرفه عنه ليكون الكلام خارجا عن نظام واحد

وقرأ الباقون بألف ونون وحجتهم إجماع الجميع على قوله فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وقوله ونزلنا عليكم المن والسلوى وهن في سياقه وهن أقرب إليه من قوله غضبي فإلحاقه بما قرب منه أولى

قرأ الكسائي فيحل عليكم غضبي ومن يحلل بضم الحاء الحرف الأول وبضم اللام في الحرف

الثاني المعنى فينزل عليكم غضبي يقال حل يحل إذا نزل

وقرأ الباقون فيحل ومن يحلل بكسر الحاء واللام

أي يجب عليكم غضبي وحجتهم إجماع الجميع على قوله بعدها أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم 86

قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفنها 87

(244/493)

قرأ نافع وعاصم بملكنا بفتح الميم على المصدر تقول ملكت أملك ملكا وملكا أيضا كما تقول ضربت أضرب ضربا قال حمد بن يزيد المبرد المصدر الحيح هو الفتح والكسر كأنه اسم المصدر وكلاهما حسن وكأن المعنى والله أعلم ما أخلفناه بأن ملكنا ذلك ملكا وملكا

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بملكنا بكسر الميم أي ما أخلفنا بقوتنا أي بما ملكناه والملك اسم لكل مملوك يملكه الرجل تقول هذه الدار ملكي وهذا الغلام ملكي قال الزجاج الملك ما حوته اليد وقد يجوز أن يكون مصدر ملكت الشيء ملكا

وقرأ حمزة والكسائي بملكنا بضم الميم أي سلطاننا أي لم يكن لنا سلطان وقدرة على

أخلافك الوعد

قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر والكسائي ولكنا حملنا بالتخفيف وذلك أن القوم حملوا ما كان معهم من حلي آل فرعون وحجتهم قوله فقذفناها وكذلك حملنا فيكون الفعل مسندا إليهم كما أن قذفنا مسند إليهم

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص حملنا على ما لم يسم فاعله أي أمرنا بحملها وحملنا السامري تقول حملني فلان كذا أي كلفك حمله فلما لم يسم السامري رفعت المفعول وضممت أولا الفعل

قال يا بنؤم قال بصرت بما لم يبصروا به 94 و96

قرأ حمزة والكسائي بما لم تبصروا به بالتاء أي بصرت بما لم تبصر به أنت يا موسى ولا قومك فأخرجا الكلام على ما جرى به الخطاب قبل ذلك وهو قوله قال فما خطبك يا سامري 95

وقرأ الباقون بما لم يبصروا به بالياء أي علمت ما لم يعلم بنو إسرائيل وحجتهم في ذلك أن الخبر إنما جرى من السامري لموسى ما كان في غيبته من الحدث عما فعله ببني إسرائيل فخاطب موسى بخبر عن غيب فعله قال يا بن أم وقد ذكرت في سورة الأعراف

وإن لك موعدا لن تخلفه 97

قرأ ابن كثير وأبو عمرو إن لك موعدا لن تخلفه بكسر اللام أي أنت يا سامري قال اليزيدي

قوله لن تخلفه

أي لن تغيب عنه على وجه التهدد أي ستصير إليه مريدا أو كارها فلا يكون لك سبيل إلى أن تخلفه فو خبر في معنى وعيد

(245/493)

وقرأ الباقون لن تخلفه بفتح اللام وحجتهم في ذلك أن المعنى في ذلك أن لك من الله موعدا بعذابك على إضلالك بني إسرائيل حين عبدوا العجل لن يخلفكه الله ولكن ينزله فلما كان الموعد مسندا إلى الله جل وعز لم يحسن إسناد الخلف إلى السامري إذ كان الخلف إنما يجري في الكلام ممن وعد لا من الموعود كما قال الله جل وع وعد الله لا يخلف الله وعده وكذلك معنى ذلك لن يخلفكه الله ثم رد إلى ما لم يسم فاعله

يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا 102

قرأ أبو عمرو ننفخ في الصور بالنون الله أخبر عن نفسه على أن يكون آمرا بذلك كما يقول السلطان نحن نكتب إلى فلان ومعناه نأمر لا أنه يتولى الكتاب بيده وحجته أن الكلام أتى عقيبه بلفظ الجمع بإجماع وهو قوله تعالى ونحشر المجرمين فجعل ما قبله بلفظه لينسق الكلام على نظام واحد

وقرأ الباقون ينفخ بالياء على ما لم يسم فاعله المعنى ينفخ ملك الصور في الصور وحجتهم قوله ونفخ في الصور جاء بلفظ ما لم يسم فاعله

ومن يعمل من الصلحت وهو مؤمن فلا يخف ظلما ولا هضما 112

قرأ ابن كثير فلا يخف ظلما جزما على النهي وعلامة الجزم سكون الفاء وسقطت الألف لسكونها وسكون الفاء

وقرأ الباقون فلا يخاف رفعا على الخبر

وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى 119

قرأ نافع وأبو بكر وإنك لا تظمأ بكسر الألف على الاستئناف قال الفراء من قرأ وإن عطفا على قوله إن لك ألا تجوع وإنك لا تظمأ جعله مردودا على قوله إن لك ألا تجوع فيها 118

وقرأ الباقون وأنك لا تظمأ

لعلك ترضى 130

قرأ الكسائي وأبو بكر لعلك ترضى بضم التاء قال أبو عبيد فيه وجهان أحدهما أن يراد تعطى الرضى ويرضيك الله والوجه الآخر أن يكون المعنى يرضاك الله بدلالة قوله وكان عند ربه مرضيا

وقرأ الباقون لعلك ترضى بالفتح أي لعلك ترضى عطاء الله وحجتهم إجماع الجميع على

قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى فأسند الفعل إليه فرد ما اختلفوا فيه إلى ما هم مجمعون عليه أولى

(246/493)

أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى 133

قرأ نافع وأبو عمرو وحفص أو لم تأتهم بينة بالتاء لتأنيث البينة وحجتهم إجماع الجميع على التاء في قوله حتى تأتيهم البينة

وقرأ الباقون أولم يأتهم بينة بالياء لأن تأنيث البينة غير حقيقي والبينة في معنى البيان وحجتهم قوله قد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة وقوله قل إني على بينة من ربي وكذبتم به أي بالبينة ولم يقل بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 449 . 465 ﴾

(247/493)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة طه

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها ألف وثلاث مئة وإحدى وأربعون كلمة

وحروفها خمسة آلاف ومئتان واثنان وأربعون حرفا

وهي مئة وثلاثون وآيتان بصري وأربع مدنيان ومكي وخمس كوفي وأربعون شامي

اختلافها إحدى وعشرون آية (﴿ طه ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ نسبحك كثيرا ﴾) و(﴿ ونذكرك كثيرا ﴾) لم يعدهما البصري وعدهما الباقون (﴿ محبة مني ﴾) لم يعدها الكوفي والبصري وعدها الباقون (﴿ كي تقر عينها ولا تحزن ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ وفتناك فتونا ﴾) عدها البصري والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ في أهل مدين ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾) عدها الكوفي والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ﴾) عدها والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ ولقد أوحينا إلى موسى ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ ما غشيهم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ غضبان أسفا ﴾) عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ وعدا حسنا

﴿) عدها المدني الأخير ولم يعدها الباقون (﴿ ألقى السامري ﴾) لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون وكلهم عد (﴿ وأضلهم السامري ﴾) و(﴿ يا سامري ﴾) و(﴿ إله موسى ﴾) عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ فنسي ﴾) لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون (﴿ إليهم قولا ﴾) عدها المدني الأخير ولم يعدها الباقون (﴿ إذ رأيتهم ضلوا ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ صفصفا ﴾) عدها الكوفي والبصري والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ مني هدى ﴾) و(﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾) لم يعدهما الكوفي وعدهما الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ستة مواضع (﴿ فاعبدني ﴾ بآياتي) (﴿ ولا برأسي ﴾ منها جميعا) (﴿ معيشة ضنكا ﴾ لكان لزاما)

(248/493)

ورؤوس الآي

لتشقى

2 يخشى

3 العلى

4 استوى

5 الثرى

6 وأخفى

7 الحسنى

8 موسى

9 هدى

10 يا موسى

11 طوى

12 يوحى

13 لذكري

14 تسعى

15 فتردى

16 يا موسى

17 أخرى

18 يا موسى

19 تسعى

20 الأولى

21 أخرى

22 الكبرى

23 طغى

24 صدري

25 أمري

26 لساني

27 قولي

28 أهلي

29 أخي

30 أزري

31 أمري

32 كثيرا

33 كثيرا

34 بصيرا

35 يا موسى

36 أخرى

37 ما يوحى

38 محبة مني

موعدي

86 فنسي

88 قولا

* ولا نفعا

89 أمري

90 موسى

91 أمري

93 قولي

94 يا سامري

95 نفسي

96 نسفا

97 علما

98 ذكرا

99 وزرا

100 حملا

101 زرقا

102 عشرا

103 يوما

104 نسفا

105 أمتا

107 همسا

108 قولا

109 علما

110 ظلما

111 هضما

112 ذكرا

113 علما

114 عزما

115 أبى

116 فتشقى

117 ولا تعرى

118 ولا تضحى

119 لا يبلى

120 فغوى

121 وهدى

122 هدى

وأبقى

131 للتقوى

132 الأولى

133 ونخزى

134 اهتدى. انتهى انتهى. اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 183.186﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(طه) قد ذكر الكلام عليها في القول الذى جعلت فيه حروفا مقطعة ، وقيل معناه يا رجل ، فيكون منادى ، وقيل " طا " فعل أمر وأصله بالهمز ، ولكن أبدل من الهمزة ألفا ، وها ضمير الأرض ، ويقرأ طه ، وفي الهاء وجهان: أحدهما أنها بدل من الهمزة كما أبدلت في أرقت فقيل هرقت .

والثانى أنه أبدل من الهمزة ألفا ثم حذفها للبناء وألحقها هاء السكت .

قوله تعالى (إلا تذكرة) هو استثناء منقطع: أي لكن أنزلناه تذكرة: أي للتذكرة ، وقيل هو مصدر: أي لكن ذكرنا به تذكرة ، ولايجوز أن يكون مفعولا له لانزلنا المذكورة ، لأنها قد تعدت إلى مفعول له: وهو " لتشقى " فلا يتعدى إلى آخر من جنسه ، ولا يصح أن يعمل فيها لتشقى لفساد المعنى ، وقيل تذكرة مصدر في موضع الحال .

قوله تعالى (تنزيلا) هو مصدر: أي أنزلناه تنزيلا ، وقيل هو مفعول يخشى ، ومن متعلقة به و(العلى) جمع العليا .

قوله تعالى (له ما في السموات) مبتدأ وخبر ، أو تكون " ما " مرفوعة بالظرف

وقال بعض الغلاة " ما " فاعل استوى وهو بعيد ، ثم هو غير نافع له في التأويل ، إذ يبقى قوله " الرحمن على العرش " كلاما تاما ، ومنه هرب ، وفي الآية تأويلات أخر لا يدفعها الإعراب .

قوله تعالى (وأخفى) يجوز أن يكون فعلا ومفعوله محذوف: أي وأخفى السر عن الخلق ، ويجوز أن يكون اسما : أي وأخفى منه .

قوله تعالى (إذ رأى) " إذ " ظرف للحديث أو مفعول به ، أي اذكر (لأهله) بكسر الهاء وضمها وقد ذكر ، ومن ضم أتبعه ما بعده ، و(منها) يجوز أن يتعلق بآتيكم أو حالا من (قبس) والجيد في (هذا) هنا أن يكتب بألف ، ولا يمال لأن الألف بدل من التنوين في القول المحقق ، وقد أمالها قوم وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون شبه ألف التنوين بلام الكلمة: إذ اللفظ بهما في المقصور واحد .

(251/493)

والثاني أن تكون لام الكلمة ولم يبدل من التنوين شيئا في النصب كما جاء: * وآخذ من كل حي عصم * والثالث أن تكون على رأي من وقف في الأحوال الثلاثة من غير إبدال .

قوله تعالى (نودى) المفعول القائم مقام الفاعل مضمر: أي نودى موسى ، وقيل هو المصدر: أي نودى النداء وما بعده مفسر له و(يا موسى) لا يقوم مقام الفاعل لأنه جملة (إنى) يقرأ بالكسر: أي فقال إنى أو لأن النداء قول ، وبالفتح أي نودى بأنى كما تقول: ناديته باسمه ، و(أنا) مبتدأ أو توكيد أو فصل .

قوله تعالى (طوى) يقرأ بالضم والتنوين ، وهو اسم علم للوادي ، وهو بدل منه ، ويجوز أن يكون رفعا ، أي هو طوى ، ويقرأ بغير تنوين على أنه معرفة مؤنث اسم للبقعة ، وقيل هو معدول ، وإن لم يعرف لفظ المعدول عنه ، فكأن أصله طاوى فهو في ذلك كجمع وكتع ، ويقرأ بالكسر على أنه مثل عنب في الأسماء ، وعدا وسوى في الصفات .

قوله تعالى (وأنا اخترتك) على لفظ الإفراد ، وهو أشبه بما قبله: ويقرأ وإنا اخترناك ، على الجمع ، والتقدير: لأنا اخترناك فاستمع ، فاللام تتعلق باستمع ، ويجوز أن يكون معطوفا على أنى أي بأنى أنا ربك ، وبأنا اخترناك .

قوله تعالى (لذكرى) اللام تتعلق بأقم ، والتقدير عند ذكرك إياى ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ، وقيل هو إلى الفاعل: أي لذكرى إياك أو إياها .

قوله تعالى (أخفيها) بضم الهمزة وفيه وجهان: أحدهما أسترها (1) أي من نفسي لأنه لم يطلع عليها مخلوقا .

والثانى أظهرها ، قيل هو من الأضداد ، وقيل الهمزة للسلب: أي أزيل خفاءها ، ويقرأ

بفتح الهمزة ومعناه أظهرها ، يقال: خفيت الشئ: أي أظهرته (لتجزى) اللام تتعلق بأخفيها ، وقيل بآتية ، ولذلك وقف عليه بعضهم وقفة يسيرة إيذانا بانفصالها عن أخفيها ، وقيل لفظه لفظ كي ، وتقديره: القسم: أي لتجزين ، وما مصدرية ، وقيل بمعنى الذى: أي تسعى فيه .

قوله تعالى (فتردى) يجوز أن يكون نصبا على جواب النهى ، ورفعا أي فإذا أنت تردى .

(252/493)

قوله تعالى (وما تلك) " ما " مبتدأ ، وتلك خبره ، وهو بمعنى هذه ، و(بيمينك) حال يعمل فيها معنى الإشارة ، وقيل هو بمعنى الذى ، فيكون بيمينك صفة لها .

قوله تعالى (عصاي) الوجه فتح الياء لالتقاء الساكنين ، ويقرأ بالكسر وهو ضعيف لاستثقاله على الياء ، ويقرأ عصى ، وقد ذكر نظيره في البقرة ، و(أتوكأ) وما بعده مستأنف ، وقيل موضعه حال من الياء أو من العصا ، وقيل هو خبر هي ، وعصاى مفعول بفعل محذوف ، وقيل هي خبر ، وأتوكأ خبر آخر ، وأهش بالشين المعجمة: أي أقوم بها على الغنم أو أهول ونحو ذلك ، ويقرأ بكسر الهاء : أي أكسر بها على غنمي عاديتها من قولك: هششت الخبز إذا كسرته بعد يبسه ، ويقرأ بضم الهاء وسين غير معجمة من قولك: هس

الغنم يهسها إذا ساقها ، وعدى بعلى لأن معناه أقوم بها أو أهول ، و(أخرى) على تأنيث الجمع ، ولو قال أخر لكان على اللفظ ، (تسعى) يجوز أن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا ، وإذا للمفاجأة ظرف مكان ، فالعامل فيها تسعى أو محذوف ، وقد ذكر ذلك .

قوله تعالى (سيرتها الأولى) هو بدل من ضمير المفعول بدل الاشتمال ، لأن معنى سيرتها صفتها أو طريقتها ، ويجوز أن يكون ظرفا : أي في طريقتها ، وقيل التقدير إلى سيرتها ، و(بيضاء) حال ، و(من غير سوء) يجوز أن يتعلق بتخرج ، وأن يكون صفة لبيضاء أو حالا من الضمير في بيضاء ، و(آية) حال أخرى بدل من الأول أو حال من الضمير في بيضاء : أي تبيض آية أو حال من الضمير في الجار وقيل منصوبة بفعل محذوف: أي وجعلناها آية أو أتيناك آية ، و(لنريك) متعلق بهذا المحذوف ، ويجوز أن يتعلق بما دل عليه آية أي دللنا بها

---

(1) قوله (أسترها) أي من نفسي .

قال السفاقسي: هذا المعنى مروى عن ابن عباس ويؤول على معنى من تلقاء ومن عندي اه .

(*)

لنريك ، ولا يتعلق بنفس آية لأنها قد وصفت ، و(الكبرى) صفة لآيات ، وحكمها حكم مآرب .

ولو قال الكبر لجاز ، ويجوز أن تكون الكبرى نصبا بنريك .

ومن آياتنا حال منها : أي لنريك الآية الكبرى من آياتنا .

قوله تعالى (ويسر لى) يقال يسرت له كذا ، ومنه هذه الآية ، ويسرته لكذا ومنه قوله تعالى " فسنيسره لليسرى " و(من لساني) يجوز أن يتعلق باحلل ، وأن يكون وصفا لعقدة .

قوله تعالى (وزيرا) الواو أصل لأنه من الوزر والموازرة ، وقيل هي بدل من الهمزة لأن الوزير يشد أزر الموازر ، وهو قليل وفعيل هنا بمعنى المفاعل ، كالعشير والخليط ، وفى مفعولي أجعل ثلاثة أوجه: أحدها أنهما وزير وهارون ، ولكن قدم المفعول الثاني ، فعلى هذا يجوز أن يتعلق " لى " باجعل ، وأن يكون حالا من وزير .

والثانى أن يكون وزيرا مفعولا أول ، و" لى " الثاني ، وهارون بدل أو عطف بيان ، وأخى كذلك .

والثالث أن يكون المفعول الثاني من أهلى ، ولى تبيين مثل قوله " ولم يكن له كفوا أحد " وهارون أخى على ما تقدم ، ويجوز أن ينتصب هارون بفعل محذوف: أي اضمم إلى هارون .

قوله تعالى (اشدد) يقرأ بقطع الهمزة (وأشركه) بضم الهمزة وجزمها على جواب الدعاء ،

والفعل مسند إلى موسى ، ويقرآن على لفظ الأمر .

قوله تعالى (كثيرا) أي تسبيحا كثيرا أو وقتا كثيرا ، والسؤال والسؤلة بمعنى المفعول مثل الأكل بمعنى المأكول .

قوله تعالى (إذ أوحينا) هو ظرف لمننا (اقذفيه) يجوز أن تكون " أن " مصدرية بدلا من ما يوحى ، أو على تقدير هو أن اقذفيه: ويجوز أن تكون بمعنى: أي (فليلقه) أمر للغائب ، و(منى) تتعلق بألقيت ، ويجوز أن تكون نعتا لمحبة (ولتصنع) أي لتحب ولتصنع ، ويقرأ على لفظ الأمر: أي ليصنعك غيرك بأمرى ويقرأ بكسر اللام وفتح التاء والعين: أي لتفعل ما أمرك بمرأى منى (إذ تمشى) يجوز أن يتعلق بأحد الفعلين: وأن يكون بدلا من إذ الأولى لأن مشى أخته كان منة عليه ، وأن يكون التقدير: اذكر إذ تمشى ، و(فتونا) مصدر مثل القعود ، ويجوز أن يكون جمعا تقديره: بفتون كثيرة: أي بأمور تختبر بها ، و(على قدر) حال: أي موافقا لما قدر لك .

(254/493)

قوله تعالى (أن يفرط) الجمهور على فتح الياء وضم الراء فيجوز أن يكون

التقدير: أن يفرط علينا منه قول فأضمر القول لدلالة الحال عليه كما تقول: فرط منى قول ،

وأن يكون الفاعل ضمير فرعون كما كان في (يطغى) .

قوله تعالى (فمن ربكما يا موسى) أي وهارون ، فحذف للعلم به ، ويجوز أن يكون طلب الإخبار من موسى وحده إذ كان هو الأصل ، ولذلك قال (قال ربنا الذى) و(خلقه) مفعول أول ، وكل شئ ثان: أي أعطى مخلوقه كل شئ ،

وقيل هو على وجهه ، والمعنى أعطى كل شئ مخلوق خلقه: أي هو الذى ابتدعه ، ويقرأ خلقه على الفعل ، والمفعول الثاني محذوف للعلم به .

قوله تعالى (علمها) مبتدأ ، وفى الخبر عدة أوجه: أحدها (عند ربى) و(في كتاب) على هذا معمول الخبر ، أو خبر ثان ، أو حال من الضمير في عند .

والثانى أن يكون الخبر في كتاب ، وعند حال العامل فيها الظرف الذى بعدها على قول الأخفش ، وقيل يكون حالا من المضاف إليه في علمها .

وقيل يكون ظرفا للظرف الثاني ، وقيل هو ظرف للعلم .

والثالث أن يكون الظرفان خبرا واحدا ، مثل هذا حلو حامض ، ولايجوز أن يكون في كتاب متعلقا بعلمها ، وعند الخبر لأن المصدر لا يعمل فيما بعد خبره (لايضل) في موضع جر صفة لكتاب ، وفى التقدير وجهان: أحدهما لا يضل ربى عن حفظه .

والثانى لا يضل الكتاب ربى: أي عنه فيكون ربى مفعولا ، ويقرأ بضم الياء: أي يضل أحد ربى عن علمه ، ويجوز أن يكون ربى فاعلا: أي لا يجد الكتاب ضالا: أي ضائعا كقوله

تعالى " ضل من تدعون " ومفعول (ينسى) محذوف: أي ولاينساه ، ويقرأ بضم الياء : أي لا ينسى أحد ربى أو لا ينسى الكتاب .

قوله تعالى (مهدا) هو مصدر وصف به ، ويجوز أن يكون التقدير : ذات مهد ، ويقرأ مهادا مثل فراش ، ويجوز أن يكون جمع مهد (شتى) جمع شتيت مثل مريض ومرضى ، وهو صفة لأزواج أو لبنات (والنهى) جمع نهية ، وقيل هو مفرد .

(255/493)

قوله تعالى (بسحر مثله) يجوز أن يتعلق بلنأتينك ، وأن يكون حالا من الفاعلين (فاجعل بيننا وبينك موعدا) هو ها هنا مصدر لقوله تعالى (لانخلفه نحن ولا أنت مكانا) أي في مكان ، (سوى) بالكسر صفة شاذة مثله قوم عدى ، ويقرأ بالضم وهو أكثر في الصفات ، ومعناه وسط ، ويجوز أن

يكون مكانا مفعولا ثانيا لاجعل وموعدا على هذا مكان أيضا ، ولاينتصب بموعد لأنه مصدر قد وصف ، وقد قرئ سوى بغير تنوين على إجراء الوصل مجرى الوقف .

قوله تعالى (قال موعدكم) هو مبتدأ .

و(يوم الزينة) بالرفع الخبر فإن جعلت موعدا زمانا كان الثاني هو الأول ، وإن جعلت موعدا

مصدرا كان التقدير: وقت موعدكم يوم الزينة ، ويقرأ يوم بالنصب على أن يكون موعدا مصدرا ، والظرف خبر عنه: أي موعدكم واقع يوم الزينة ، وهو مصدر في معنى المفعول (وأن يحشر الناس) معطوف ، والتقدير: ويوم أن يحشر الناس فيكون في موضع جر ، ويجوز أن يكون في موضع رفع: أي موعدكم أن يحشر الناس ، ويقرأ نحشر على تسمية الفاعل: أي فرعون ، والناس نصب .

قوله تعالى (فيسحتكم) يقرأ بفتح الياء وضمها ، والماضي سحت وأسحت لغتان ، وانتصب على جواب النهى .

قوله تعالى (إن هذين) يقرأ بتشديد إن وبالياء في هذين وهى علامة النصب ، ويقرأ " إن " بالتشديد وهذان بالألف وفيه أوجه: أحدها أنها بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر . والثانى إن فيها ضمير الشأن محذوف وما بعدها مبتدأ وخبر أيضا ، وكلا الوجهين ضعيف من أجل اللام التى في الخبر ، وإنما يجئ مثل ذلك في ضرورة الشعر .

وقال الزجاج التقدير لهما ساحران ، فحذف المبتدأ ، والثالث أن الألف هنا علامة التثنية في كل حال ، وهى لغة لبنى الحرث ، وقيل لكنانة ، ويقرأ إن بالتخفيف ، وقيل هي مخففة من الثقيلة وهو ضعيف أيضا ، وقيل هي بمعنى ما واللام بمعنى إلا ، وقد تقدم نظائره .

قوله تعالى (ويذهبا بطريقتكم) أي يذهبا طريقكم فالباء معدية كما أن الهمزة معدية .

قوله تعالى (فأجمعوا) يقرأ بوصل الهمزة وفتح الميم ، وهو من الجمع الذى هو ضد التفريق ، ويدل عليه قوله تعالى " فجمع كيده " والكيد بمعنى ما يكاد به ، ويقرأ بقطع الهمزة وكسر الميم ، وهو لغة في جمع قاله الأخفش ، وقيل التقدير : على كيدكم ، و(صفا) حال: أي مصطفين ، وقيل مفعول به: أي اقصدوا صف أعدائكم .

قوله تعالى (إما أن تلقى) قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (فإذا) هي للمفاجأة ، و(حبالهم) مبتدأ والخبر إذا فعلى هذا (يخيل) حال ، وإن شئت كان يخيل الخبر ، ويخيل بالياء على أنه مسند إلى السعي:

أي يخيل إليهم سعيها ، ويجوز أن يكون مسندا إلى ضمير الحبال ، وذكر لأن التأنيث غير حقيقي أو يكون على تقدير يخيل الملقى ، و(أنها تسعى) بدل منه بدل الاشتمال ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال: أي تخيل الحبال ذات سعى .

ومن قرأ بالتاء ففيه ضمير الحبال ، وأنها تسعى بدل منه ، وقيل هو في موضع نصب: أي يخيل إليهم بأنها ذات سعى ، ويقرأ بفتح التاء وكسر الياء ، أي تخيل الحبال إليهم سعيها .

قوله تعالى (تلقف) يقرأ بالجزم على الجواب ، والفاعل ضمير ما ، وأنث لأنه أراد العصا ، ويجوز أن يكون ضمير موسى عليه السلام ونسب ذلك إليه لأنه يكون بتسببه ، ويقرأ بضم الفاء على أنه حال من العصا أو من موسى ، وهى حال مقدرة ، وتشديد القاف وتخفيفها

قراءتان بمعنى ، وأما تشديد التاء فعلى تقدير : تتلقف ، وقد ذكر مثله في مواضع (إن ما صنعوا) من قرأ (كيد) بالرفع ففى " ما " وجهان أحدهما هي بمعنى الذى ، والعائد محذوف .

والثانى مصدرية ، ويقرأ بالنصب على أن تكون ما كافة ، وإضافة كيد إلى ساحر إضافة المصدر إلى الفاعل ، وقرئ كيد سحر

وهو إضافة الجنس إلى النوع .

قوله تعالى (في جذوع النخل) في هنا على بابها ، لأن الجذع مكان للمصلوب ومحتو عليه: وقيل هي بمعنى على .

(257/493)

قوله تعالى (والذى فطرنا) في موضع جر : أي وعلى الذى ، وقيل هو قسم (ما أنت قاض) في " ما " وجهان: أحدهما هي بمعنى الذى: أي افعل الذى أنت عازم عليه .

والثانى هي زمانية: أي اقض أمرك مدة ما أنت قاض (هذه الحياة الدنيا) هو منصوب بتقضى ، و" ما " كافة: أي تقضى أمور الحياة الدنيا ، ويجوز أن يكون ظرفا ، والمفعول محذوف ، فإن كان قد قرئ بالرفع فهو خبر إن .

قوله تعالى (وما أكرهتنا) في " ما " وجهان: أحدهما هي بمعنى الذى معطوفة على الخطايا ، وقيل في موضع رفع على الابتداء ، والخبر محذوف: أي وما أكرهتنا عليه مسقط أو محطوط ، و(من السحر) حال من " ما " أو من الهاء .

والثانى هي نافية ، وفى الكلام تقديم تقديره .

ليغفر لنا خطايانا من السحر ولم تكرهنا عليه .

قوله تعالى (إنه من يأت) الضمير هو الشأن والقصة .

قوله تعالى (جنات عدن) هي بدل من الدرجات ، ولايجوز أن يكون التقدير

هي جنات لأن (خالدين فيها) حال ، وعلى هذا التقدير لا يكون في الكلام ما يعمل في الحال ، وعلى الأول يكون العامل في الحال الاستقرار أو معنى الإشارة .

قوله تعالى (فاضرب لهم طريقا) التقدير: موضع طريق ، فهو مفعول به على الظاهر ، ونظيره قوله تعالى " أن اضرب بعصاك البحر " وهو مثل ضربت زيدا وقيل ضرب هنا بمعنى جعل ، وشرع مثل قولهم ضربت له بسهم ، و(يبسا) بفتح الباء مصدر: أي ذات يبس ، أو أنه وصفها بالمصدر مبالغة ، وأما اليبس بسكون الباء فصفة بمعنى اليابس (لا تخاف) في الرفع ثلاثة أوجه: أحدها هو مستأنف .

والثانى هو حال من الضمير في اضرب .

والثالث هو صفة للطريق ، والعائد محذوف أي ولا تخاف فيه ، ويقرأ بالجزم على النهى أو على جواب الأمر وأما (لا تخشى) فعلى القراءة الأولى هو مرفوع مثل المعطوف عليه ، ويجوز أن يكون التقدير : وأنت لا تخشى ، وعلى قراءة الجزم هو حال: أي وأنت لا تخشى ، ويجوز أن يكون التقدير فاضرب لهم غير خاش ، وقيل الألف في تقدير الجزم شبهت بالحروف الصحاح ، وقيل نشأت لإشباع الفتحة ليتوافق رءوس الآى .

قوله تعالى (بجنوده) هو في موضع الحال: والمفعول الثاني محذوف: أي فأتبعهم فرعون عقابه ومعه جنوده ، وقيل أتبع بمعنى اتبع ، فتكون الباء معدية .

قوله تعالى (جانب الطور) هو مفعول به: أي إتيان جانب الطور ولايكون ظرفا لأنه مخصوص (فيحل) هو جواب النهى ، وقيل هو معطوف فيكون نهيا أيضا كقولهم: لاتمددها فتشقها (ومن يحلل) بضم اللام: أي ينزل كقوله تعالى " أو تحل قريبا من دارهم " وبالكسر بمعنى يجب كقوله " ويحل عليه عذاب مقيم " .

قوله تعالى (وما أعجلك) " ما " استفهام مبتدأ وأعجلك الخبر .

قوله تعالى (هم) مبتدأ ، و(أولاء) بمعنى الذى (على أثرى) صلته ، وقد ذكر ذلك مستقصى في قوله " ثم أنتم هؤلاء تقتلون " .

قوله تعالى (وعدا حسنا) يجوز أن يكون مصدرا مؤكدا أو أن يكون مفعولا به بمعنى

الموعود .

قوله تعالى (بملكنا) يقرأ بكسر الميم وفتحها وضمها ، وفيه وجهان: أحدهما أنها لغات ، والجميع مصدر بمعنى القدرة .

والثاني أن الضم مصدر ملك بين الملك والفتح بمعنى المملوك: أي بإصلاح ما يملك والكسر مصدر مالك ، وقد يكون بمعنى

المملوك أيضا ، وإذا جعل مصدرا كان مضافا إلى الفاعل ، والمفعول محذوف: أي بملكنا أمرنا أو الصواب أو الخطأ (حملنا) بالتخفيف ، ويقرأ بالتشديد على ما لم يسم فاعله: أي حملنا قومنا (فكذلك) صفة لمصدر محذوف: أي إلقاء مثل ذلك ، وفاعل (نسي) موسى عليه السلام ، وهو حكاية عن قومه ، وقيل الفاعل ضمير السامري .

(259/493)

قوله تعالى (أن لا يرجع) أن مخففة من الثقيلة ، ولا كالعوض من اسمها المحذوف وقد قرئ يرجع بالنصب على أن تكون أن الناصبة وهو ضعيف لأن يرجع من أفعال اليقين ، وقد ذكرنا ذلك في قوله " وحسبوا أن لا تكون " .

قوله تعالى (أن لا تتبعن) لا زائدة مثل قوله " ما منعك أن لا تسجد " وقد ذكر ، و(يا ابن أم)

قد ذكر في الأعراف (لا تأخذ بلحيتي) المعنى لاتأخذنى بلحيتي ، فلذلك دخلت الباء ، وفتح اللام لغة ، وقد قرئ بهما .

قوله تعالى (بصرت بما لم يبصروا) يتعدى بحرف جر ، فإن جئت بالهمز تعدى بنفسه كفرح وأفرحته ، ويبصروا بالياء على الغيبة يعنى قوم موسى ، وبالتاء على الخطاب ، والمخاطب موسى وحده ، ولكن جمع الضمير لأن قومه تبع له ، وقرئ بصرت بكسر الصاد ، وتبصروا بفتحها ، وهى لغة (قبضت) بالضاد بملء الكف وبالصاد بأطراف الأصابع وقد قرئ به ، و(قبضة) مصدر بالضاد والصاد ، ويجوز أن تكون بمعنى المقبوض فتكون مفعولا به ، ويقرأ قبضة بضم القاف وهى بمعنى المقبوض .

قوله تعالى (لامساس) يقرأ بكسر الميم وفتح السين وهو مصدر ماسه: أي لاأمسك ولاتمسنى ، ويقرأ بفتح الميم وكسر السين وهو اسم للفعل: أي لا تمسني وقيل هو اسم للخبر: أي لا يكون بيننا مماسة (لن تخلفه) بضم التاء وكسر اللام أي لا تجده مخلفا مثل أحمدته وأحببته ، وقيل المعنى سيصل إليك ، فكأنه يفى به ، ويقرأ بضم التاء وفتح اللام على ما لم يسم فاعله ، ويقرأ بالنون وكسر اللام: أي لن تخلفه فحذف المفعول الأول .

قوله تعالى (ظلت) يقرأ بفتح الظاء وكسرها وهما لغتان ، والأصل ظللت بكسر اللام الأولى فحذفت ونقلت كسرتها إلى الظاء ومن فتح لم ينقل ، (لنحرقنه) بالتشديد من تحريق

النار ، وقيل هو من حرق ناب البعير إذا وقع بعضه على بعض ،

والمعنى لنبردنه وشدد للتكثير ، ويقرأ بضم الراء والتخفيف وهى لغة في حرف ناب البعير

(لننسفنه) بكسر السين وضمها وهما لغتان قد قرئ بهما .

(260/493)

قوله تعالى (وسع) يقرأ بكسر السين والتخفيف ، و(علما) تمييز ، أي وسع علمه كل شئ ، ويقرأ بالتشديد والفتح وهو يتعدى إلى مفعولين ، والمعنى أعطى كل شئ علما ، وفيه وجه آخر وهو أن يكون بمعنى عظم خلق كل شئ عظيم كالأرض والسماء ، وهو بمعنى بسط ، فيكون علما تمييز (كذلك) صفة لمصدر محذوف: أي قصصا كذلك: أي نقص نبأ من أنباء .

قوله تعالى (خالدين) حال من الضمير في يحمل وحمل الضمير الأول على لفظ من فوحد ، وخالدين على المعنى فجمع ، و(حملا) تمييز لاسم ساء وساء مثل بئس والتقدير: وساء الحمل حملا ولا ينبغى أن يكون التقدير: وساء الوزر ، لأن المميز ينبغى أن يكون من لفظ اسم بئس .

قوله تعالى (ينفخ) بالياء على ما لم يسم فاعله ، وبالنون والياء على تسمية الفاعل ،

و(زرقا) حال ، و(يتخافتون) حال أخرى بدل من الأولى ، أو حال من الضمير في زرقا .

قوله تعالى (فيذرها) الضمير للأرض ، ولم يجز لها ذكر ، ولكن الجبال تدل عليها .

و(قاعا) حال ، و(لا ترى) مستأنف ، ويجوز أن يكون حالا أيضا أو صفة للحال (لاعوج له) يجوز أن يكون حالا من الداعي ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (إلا من أذن) " من " في موضع نصب بتنفع ، وقيل في موضع رفع: أي إلا شفاعة من أذن فهو بدل .

قوله تعالى (وقد خاب) يجوز أن يكون حالا ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (فلا يخاف) هو جواب الشرط ، فمن رفع استأنف ، ومن جزم فعل النهى .

قوله تعالى (وكذلك) الكاف نعت لمصدر محذوف: أي إنزالا مثل ذلك (وصرفنا فيه من الوعيد) أي وعيدا من الوعيد وهو جنس ، وعلى قول الأخفش " من " زائدة .

قوله تعالى (يقضى) على ما لم يسم فاعله ، و(وحيه) مرفوع به ، وبالنون وفتح الياء ووحيه نصب .

قوله تعالى (له عزما) يجوز أن يكون مفعول نجد بمعنى نعلم ، وأن يكون عزما مفعول نجد ، ويكون بمعنى نصب ، وله إما حال من عزم أو متعلق بنجد .

قوله تعالى (أبى) قد ذكر في البقرة .

قوله تعالى (فتشقى) أفرد بعد التثنية لتوافق رؤوس الآى مع أن المعنى صحيح لأن آدم عليه السلام هو المكتسب ، وكان أكثر بكاء على الخطيئة منها .

قوله تعالى (وأنك) يقرأ بفتح الهمزة عطفا على موضع ألا تجوع ، وجاز أن تقع " أن " المفتوحة معمولة لأن لما فصل بينهما ، والتقدير أن لك الشبع والرى والكن ويقرأ بالكسر على الاستئناف أو العطف على " أن " الأولى .

قوله تعالى (فوسوس إليه) عدى وسوس بإلى لانه بمعنى أسر ، وعداه في موضع آخر باللام لأنه بمعنى ذكر له ، أو يكون بمعنى لأجله .

قوله تعالى (فغوى) الجمهور على الألف ، وهو بمعنى فسد وهلك ، وقرئ شاذا بالياء وكسر الواو ، وهو من غوى الفصيل إذا أبشم على اللبن وليست بشئ .

قوله تعالى (ضنكا) الجمهور على التنوين ، وأن الألف في الوقف مبدلة منه ، والضنك الضيق ، ويقرأ ضنكى على مثال سكرى .

قوله تعالى (ونحشره) يقرأ بضم الراء على الاستئناف ، وبسكونها إما لتوالى الحركات ، أو أنه مجزوم حملا على موضع جواب الشرط وهو قوله " فإن له " .

و(أعمى) حال .

قوله تعالى (كذلك) في موضع نصب: أي حشرنا مثل ذلك ، أو فعلنا مثل ذلك ، وإتيانا مثل

ذلك ، أو جزاء مثل إعراضك ، أو نسيانا .

قوله تعالى (يهد لهم) في فاعله وجهان: أحدهما ضمير اسم الله تعالى: أي ألم يبين الله لهم ، وعلق بين هنا إذ كانت بمعنى أعلم كما علقه في قوله تعالى " وتبين لكم كيف فعلنا بهم " .

والثاني أن يكون الفاعل ما دل عليه أهلكنا : أي إهلاكنا ، والجملة مفسرة له ، ويقرأ بالنون و(كم) في موضع نصب ب (أهلكنا) أي كم قرنا أهلكنا ، وقد استوفينا ذلك في " سل بني إسرائيل " (يمشون) حال من الضمير المجرور في لهم: أي ألم يبن للمشركين في حال مشيهم في مساكن من أهلك من الكفار ، وقيل هو حال من المفعول في أهلكنا : أي أهلكناهم في حال غفلتهم .

قوله تعالى (وأجل مسمى) هو معطوف على كلمة: أي ولولا أجل مسمى

لكان العذاب لازما ، واللزام مصدر في موضع اسم الفاعل ، ويجوز أن يكون جمع لازم مثل قائم وقيام .

قوله تعالى (ومن آناء الليل) هو في موضع نصب بسبح الثانية (وأطراف) محمول على الموضع أو معطوف على قبل ، ووضع الجمع موضع التثنية لأن النهار له طرفان ، وقد جاء

في قوله " أقم الصلاة طرفي النهار " وقيل لما كان النهار جنسا جمع الأطراف ، وقيل أراد بالأطراف الساعات ، كما قال تعالى " ومن آناء الليل " (لعلك ترضى) وترضى وهما ظاهران .

قوله تعالى (زهرة) في نصبه أوجه: أحدها أن يكون منصوبا بفعل محذوف دل عليه متعنا : أي جعلنا لهم زهرة .

والثانى أن يكون بدلا من موضع به .

والثالث أن يكون بدلا من أزواج ، والتقدير : ذوى زهرة ، فحذف المضاف ، ويجوز أن يكون جعل الأزواج زهرة على المبالغة ولايجوز أن يكون صفة لأنه معرفة .

وأزواجا نكرة .

والرابع أن يكون على الذم أي أذم أو أعنى .

والخامس أن يكون بدلا من ما اختاره بعضهم ، وقال آخرون: لا يجوز لأن قوله تعالى " لنفتنهم " من صلة متعنا فيلزم منه الفصل بين الصلة والموصول بالأجنبى .

والسادس أن يكون حالا من الهاء أو من " ما " وحذف التنوين لالتقاء الساكنين وجر الحياة على البدل من " ما " اختاره مكى ، وفيه نظر .

والسابع أنه تمييز لما أو للهاء في به ، حكى عن الفراء ، وهو غلط لأنه معرفة .

قوله تعالى (والعاقبة للتقوى) أي لذوى التقوى ، وقد دل على ذلك قوله " والعاقبة للمتقين

" .

قوله تعالى (أو لم تأتهم) يقرأ بالتاء على لفظ التثنية ، وبالياء على معنى البيان وقرئ (بينة) بالتنوين ، و(ما) بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف ، وحكى عن بعضهم بالنصب والتنوين على أن يكون الفاعل " ما " وبينة حال مقدمة ، و(الصحف) بالتحريك والإسكان (فنتبع) جواب الاستفهام و(نذل ونخزى) على تسمية الفاعل وترك تسميته .

(263/493)

قوله تعالى (من أصحاب) من مبتدأ وخبر ، والجملة في موضع نصب ، ولا تكون " من " بمعنى الذى إذ لاعائد عليها ، وقد حكى ذلك عن الفراء (الصراط السوى) فيه خمس قراءات: الأولى على فعيل أي المستوى .

والثانية السواء أي الوسط والثالثة السوء

بفتح السين بمعنى النشر والرابعة السوءى ، وهو تأنيث الأسوأ وأنث على معنى الصراط أي الطريقة كقوله تعالى " استقاموا على الطريقة " .

والخامس السوى على تصغير السوء .

(ومن اهتدى) بمعنى الذى ، وفيه عطف الخبر على الاستفهام ، وفيه تقوية قول الفراء :

ويجوز أن يكون في موضع جر: أي وأصحاب من اهتدى، يعنى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يكون استفهاما كالأول. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 130.118 ﴾

(264/493)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة طه

[سورة طه (20): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (1) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (3) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (4)

"طه" من حروف القرآن المقطعة لا محل لها من الإعراب "ما" نافية "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله وقرىء نزلنا "عَلَيْكَ" متعلقان بأنزلنا "الْقُرْآنَ" مفعول به والجملة ابتدائية "لِتَشْقى" اللام لام التعليل وتشقى مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر والشقاء هنا بمعنى التعب وأن المضمرة وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر باللام متعلقان بأنزلنا "إِلَّا"

أداة حصر "تَذْكِرَةً" مفعول لأجله والاستثناء هنا منقطع "لِمَنْ" اللام حرف جر ومن اسم موصول متعلقان بتذكرة "يَخْشى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة صلة "تَنْزِيلًا" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نزلنا "مِمَّنْ" من حرف جر ومن اسم موصول متعلقان بتنزيلا "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "الْأَرْضَ" مفعول به "وَالسَّماواتِ" معطوف على الأرض وهو منصوب مثله وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "الْعُلى" صفة السموات وهي منصوبة مثله بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر.

[سورة طه (20) : الآيات 5 الى 8]

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (5) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (7) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (8)

"الرَّحْمنُ" مبتدأ "عَلَى الْعَرْشِ" متعلقان باستوى "اسْتَوى" ماض والجملة خبر المبتدأ "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "ما" اسم موصول مبتدأ "فِي السَّماواتِ" متعلقان بصلة محذوفة "وَما

فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما في السموات "وَما بَيْنَهُما" معطوف على ما قبله "وَما تَحْتَ" الظرف متعلق بمحذوف صلة ما "الثَّرى" مضاف إليه مجرور "وَإِنْ" الواو استئنافية إن شرطية "تَجْهَرْ" فعل الشرط "بِالْقَوْلِ" متعلقان بتجهر والجملة ابتدائية "فَإِنَّهُ" الفاء رابطة للجواب وإن واسمها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن "السِّرَّ" مفعول به "وَأَخْفى" معطوف على السر بالفتحة المقدرة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها وخبرها محذوف تقديره موجود "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ" ضمير منفصل في محل رفع بدل من الضمير المستكن المقدّر في الخبر المحذوف وجملة لا إله في محل رفع خبر المبتدأ "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "الْأَسْماءُ" مبتدأ مؤخر "الْحُسْنى" صفة مرفوعة بالضمة المقدرة وجملة له الأسماء خبر ثان للمبتدأ .

[سورة طه (20) : الآيات 9 الى 13]

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (9) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (10) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (13)

"وَهَلْ" الواو استئنافية وهل حرف استفهام "أَتاكَ" ماض ومفعول به "حَدِيثُ" فاعل "مُوسى" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها "إِذْ" ظرف متعلق بحديث "رَأى ناراً"

ماض ومفعول به والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "فَقَالَ" الفاء عاطفة والجملة معطوفة على جملة رأى "لِأَهْلِهِ" الجار والمجرور متعلقان بقال والهاء مضاف إليه "امْكُثُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والألف للتفريق والجملة في محل نصب مقول القول "إِنِّي" إن واسمها "آنَسْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل للأمر "نارًا" مفعول به "لَعَلِّي" لعل واسمها "آتِيكُمْ" مضارع فاعله ضمير مستتر والكاف مفعول به والجملة خبر لعل في محل رفع "مِنْها" متعلقان بمحذوف حال من قبس "بِقَبَسٍ" متعلقان بالفعل "أَوْ" حرف عطف "أَجِدُ" مضارع فاعله مستتر "عَلَى النَّارِ" متعلقان بأجد "هُدىً" مفعول به "فَلَمَّا" الفاء عاطفة "لما" ظرف بمعنى حين "أَتاها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "نُودِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "يا مُوسى" يا أداة نداء وموسى منادى "إِنِّي" إن واسمها "أَنَا" مبتدأ "رَبُّكَ" خبر أنا والجملة خبر إني "فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله والفاعل ضمير مستتر والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم "إِنَّكَ" إن واسمها "بِالْوادِ" متعلقان بالخبر "الْمُقَدَّسِ" صفة مجرورة "طُوىً" بدل أو عطف بيان وطوى اسم الوادي "وَأَنَا" الواو عاطفة وأنا مبتدأ "اخْتَرْتُكَ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة خبر "فَاسْتَمِعْ" الفاء عاطفة استمع أمر فاعله ضمير مستتر "لِما" متعلقان باستمع "يُوحى

" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول .

[سورة طه (20) : الآيات 14 الى 16]

(267/493)

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (15) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (16)

"إِنَّنِي" إن واسمها "أَنَا" مبتدأ "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر والجملة خبر إن "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها مبني على الفتح والخبر محذوف تقديره موجود "إِلَّا" أداة حصر "أَنَا" بدل من الضمير المستكن المقدّر في الخبر "فَاعْبُدْنِي" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والياء مفعول به والجملة لا محل لها وجملة لا إله إلا أنا خبر ثان وجملة "وَأَقِمِ الصَّلاةَ" معطوفة على فاعبدني "لِذِكْرِي" متعلقان بأقم "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ" إن واسمها وخبرها والجملة ابتدائية "أَكادُ" فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة واسمها مستتر تقديره أنا والجملة خبر ثان "أُخْفِيها" الجملة خبر أكاد "لِتُجْزى" اللام للتعليل وتجزى مضارع مبني للمجهول "كُلُّ" نائب

فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه والجملة في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل "بِما" متعلقان بفعل تجزى "تَسْعى" فعل مضارع فاعله مستتر والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة "فَلا" الفاء الفصيحة لا ناهية "يَصُدَّنَّكَ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية ونون التوكيد حرف لا محل له من الإعراب والكاف مفعول به "عَنْها" متعلقان بيصدنك "مَنْ" اسم موصول فاعل "لا يُؤْمِنُ" لا نافية يؤمن مضارع فاعله مستتر "بِها" متعلقان بالفعل والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة موصول "وَاتَّبَعَ هَواهُ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر وهواه مفعول به والهاء مضاف إليه "فَتَرْدى" الفاء فاء السببية وتردى مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية وفاعله ضمير مستتر

(268/493)

[سورة طه (20) : الآيات 17 الى 18]

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (17) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (18)

"وَما" الواو حرف استئناف "ما" اسم استفهام مبتدأ "تِلْكَ" اسم إشارة واللام للبعد

والكاف للخطاب في محل رفع خبر "بِيَمِينِكَ" متعلقان بمحذوف حال من اسم الإشارة والجملة ابتدائية "يا مُوسى" يا للنداء وموسى منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة وجملة النداء استئنافية وكذلك الجملة التي سبقتها ، "قالَ" فعل ماض فاعله مستتر "هِيَ عَصايَ" مبتدأ وخبر والياء في عصاي مضاف إليه والجملة مقول القول "أَتَوَكَّؤُا" و "أَهُشُّ" مضارعان فاعل كل منهما مستتر فيه وجملة أتوكأ حالية وجملة "أَهُشُّ" معطوفة عليها "عَلَيْها" متعلقان بأتوكأ "بِها" متعلقان بأهش وكذلك "عَلى غَنَمِي" . "وَلِيَ" الواو عاطفة لي متعلقان بخبر مقدم للمبتدأ المؤخر "مَآرِبُ" و "فِيها" متعلقان بحال محذوف "أُخْرى" صفة لمآرب والجملة معطوفة على الجملة السابقة .

[سورة طه (20) : الآيات 19 الى 23]

قالَ أَلْقِها يا مُوسى (19) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (20) قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (23)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَلْقِها" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول "يا مُوسى" جملة النداء مقول القول أيضا "فَأَلْقاها" الفاء عاطفة وماض ومفعوله وفاعله هو والجملة معطوفة "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية ظرف زمان "هِيَ حَيَّةٌ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "تَسْعى" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة لحية "قالَ" الجملة مستأنفة "خُذْها" أمر ومفعوله وفاعله ضمير مستتر والجملة في محل نصب مفعول به لقال "وَلا تَخَفْ" الواو عاطفة ولا ناهية وتخف مضارع مجزوم بلا الناهية والجملة معطوفة "سَنُعِيدُها" مضارع ومفعوله وفاعله ضمير مستتر والجملة مقول القول "سِيرَتَهَا" منصوب بنزع الخافض التقدير إلى سيرتها والهاء مضاف إليه "الْأُولى" صفة لسيرتها مجرور بالكسرة المقدرة على الألف المقصورة

"وَاضْمُمْ يَدَكَ" الجملة من الفعل وفاعله المستتر ومفعوله معطوفة "إِلى جَناحِكَ" متعلقان باضمم "تَخْرُجْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "بَيْضاءَ" حال "مِنْ غَيْرِ" متعلقان ببيضاء "سُوءٍ" مضاف إليه "آيَةً" حال من فاعل تخرج المستتر "أُخْرى" صفة لآية "لِنُرِيَكَ" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر والكاف مفعول به وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر باللام "مِنْ آياتِنَا" متعلقان بمحذوف حال من الكبرى "الْكُبْرى" مفعول به ثان ومعنى جناحك جانبك ومعنى "مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" أي من غير قبح وفيه كناية عن البرص المرض المعروف أي أن اللّه أعطى لسيدنا

موسى معجزة اليد فإذا أخرجها من تحت جناحه خرجت شديدة البياض من غير برص آية من الآيات التسع التي أعطاها اللّه لسيدنا موسى معجزات شاهدات على صدق رسالته.

[سورة طه (20) : الآيات 24 الى 32]

(270/493)

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (24) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)
وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29) هارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32)

"اذْهَبْ" أمر فاعله مستتر "إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان باذهب والجملة مقول القول "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب "طَغى" الجملة خبر إن "قالَ رَبِّ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة رب منادى بأداة نداء محذوفة ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "اشْرَحْ" فعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان باشرح "صَدْرِي" مفعول به والياء مضاف إليه والجملة وما قبلها مقول القول "وَيَسِّرْ" الواو عاطفة ويسر فعل دعاء

فاعله مستتر "لِي" متعلقان بيسر "أَمْرِي" مفعول به والياء مضاف إليه والجملة معطوفة على جملة اشرح لي صدري "وَاحْلُلْ" الواو عاطفة احلل فعل دعاء فاعله مستتر "عُقْدَةً" مفعول به "مِنْ لِسانِي" متعلقان بمحذوف صفة لعقدة والجملة معطوفة على ما قبلها "يَفْقَهُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب بحذف النون والواو فاعل "قَوْلِي" مفعول به والياء مضاف إليه "وَاجْعَلْ" الواو عاطفة واجعل فعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان بمفعول به ثان "وَزِيراً" مفعول به أول "مِنْ أَهْلِي" متعلقان بصفة لوزيرا ، "هارُونَ" بدل من وزيرا "أَخِي" بدل من هارون "اشْدُدْ" فعل دعاء فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان باشدد "أَزْرِي" مفعول به والياء مضاف إليه "وَأَشْرِكْهُ" الواو عاطفة وجملة أشركه معطوفة على اشدد "فِي أَمْرِي" متعلقان بأشركه.

[سورة طه (20) : الآيات 33 الى 36]

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (35) قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (36)

"كَيْ" حرف مصدري ونصب "نُسَبِّحَكَ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به والفعل منصوب بكي "كَثِيراً" صفة لمفعول مطلق تقديره تسبيحا كثيرا والجملة معطوفة "وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً" الجملة معطوفة على

ما قبلها "إِنَّكَ" إن واسمها "كُنْتَ" كان واسمها "بِنا" متعلقان ببصيرا "بَصِيراً" خبر كان والجملة في محل رفع خبر إن "قالَ" الجملة ابتدائية "قَدْ" حرف تحقيق "أُوتِيتَ" مضارع مبني للمجهول والتاء نائب الفاعل وهو المفعول الأول "سُؤْلَكَ" مفعول به ثان والكاف في محل جر مضاف إليه "يا مُوسى" يا أداة نداء موسى منادى مبني على الضم في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة

[سورة طه (20) : الآيات 37 الى 40]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (37) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (40)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "مَنَنَّا" ماض وفاعله "عَلَيْكَ" متعلقان بفعل مننا "مَرَّةً" مفعول مطلق "أُخْرى" صفة لمرة منصوبة بالفتحة المقدرة والجملة استئنافية "إِذْ" ظرف متعلق بمننا "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "إِلى أُمِّكَ" متعلقان بأوحينا والكاف مضاف إليه "ما" اسم موصول مفعول به "يُوحى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول "أَنِ" حرف تفسير لأن الوحي بمعنى القول "اقْذِفِيهِ" فعل أمر وفاعله ومفعوله "فِي التَّابُوتِ" متعلقان باقذفيه والجملة تفسيرية لا محل لها "فَاقْذِفِيهِ" الفاء عاطفة واقذفيه أمر وفاعله ومفعوله "فِي الْيَمِّ" متعلقان باقذفيه والجملة معطوفة "فَلْيُلْقِهِ" الفاء عاطفة واللام لام الأمر ويلقه مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والهاء مفعول به "الْيَمِّ" فاعل "بِالسَّاحِلِ" متعلقان بيلقه والجملة معطوفة "يَأْخُذْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والهاء مفعول به "عَدُوٌّ" فاعل "لِي" متعلقان بعدو "وَعَدُوٌّ" الواو عاطفة وعدو معطوف على ما قبله والجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب "لَهُ" متعلقان بعدو. "وَأَلْقَيْتُ" الواو استئنافية "أَلْقَيْتُ" ماض وفاعله "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "مَحَبَّةً" مفعول به "مِنِّي" متعلقان بمحذوف صفة لمحبة والجملة مستأنفة "لِتُصْنَعَ" الواو عاطفة واللام لام التعليل ومضارع مبني للمجهول منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل "عَلى عَيْنِي" متعلقان بتصنع

والياء مضاف إليه والجملة معطوفة "إِذْ" ظرف متعلق بألقيت "تَمْشِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء "أُخْتُكَ" فاعل والكاف مضاف إليه والجملة مضاف إليه "فَتَقُولُ" الفاء عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها "هَلْ" حرف استفهام "أَدُلُّكُمْ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به "عَلى مَنْ" على

(273/493)

حرف جر ومن اسم موصول وهما متعلقان بأدلكم "يَكْفُلُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول "فَرَجَعْناكَ" الفاء حرف عطف ورجعناك ماض وفاعله ومفعوله "إِلى أُمِّكَ" متعلقان برجعناك والجملة معطوفة "كَيْ" حرف ناصب "تَقَرَّ" مضارع منصوب بكي "عَيْنُها" فاعله والهاء مضاف إليه "وَلا تَحْزَنَ" الواو عاطفة ولا ناهية ومضارع منصوب والجملة معطوفة على كي تقر . "وَقَتَلْتَ" الواو عاطفة وماض وفاعله "نَفْساً" مفعول به والجملة معطوفة "فَنَجَّيْناكَ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "مِنَ الْغَمِّ" متعلقان بنجيناك "وَفَتَنَّاكَ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فُتُوناً" مفعول مطلق "فَلَبِثْتَ" الفاء عاطفة وماض وفاعله "سِنِينَ" ظرف زمان متعلق بلبثت "فِي أَهْلِ" متعلقان بلبثت "مَدْيَنَ" مضاف إليه

ممنوع من الصرف مانعه العلمية والتأنيث. "ثُمَّ" حرف عطف "جِئْتَ" ماض وفاعله "عَلى قَدَرٍ" متعلقان بمحذوف حال من تاء الفاعل "يا" أداة نداء "مُوسى" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة.

[سورة طه (20) : الآيات 41 الى 42]

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (42)

"وَاصْطَنَعْتُكَ" ماض وفاعله ومفعوله "لِنَفْسِي" متعلقان باصطنعتك والجملة معطوفة "اذْهَبْ" فعل أمر فاعله مستتر "أَنْتَ" توكيد للفاعل المستتر والجملة استئنافية "وَ" حرف عطف "أَخُوكَ" عطف على الفاعل المستتر أنت والكاف مضاف إليه "بِآياتِي" الباء للمصاحبة متعلقان بمحذوف حال والياء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَلا" الواو عاطفة "لا" ناهية "تَنِيا" مضارع مجزوم بلا بحذف النون والألف فاعل "فِي ذِكْرِي" متعلقان بتنيا والياء مضاف إليه والجملة معطوفة.

[سورة طه (20) : الآيات 43 الى 45]

اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (45)

"اذْهَبا" أمر مبني على حذف النون والألف فاعل "إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان باذهبا والجملة ابتدائية "إِنَّهُ" إن واسمها "طَغى" ماض مبني على الفتح المقدر وفاعله مستتر والجملة خبر إن وجملة "إِنَّهُ طَغى" تعليلية "فَقُولا" الفاء عاطفة و"قَوْلًا" أمر مبني على حذف النون والألف فاعله "لَهُ" متعلقان بقولا "قَوْلًا" مفعول مطلق "لَيِّناً" صفة والجملة معطوفة "لَعَلَّهُ" لعل واسمها "يَتَذَكَّرُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر لعل "أَوْ" حرف عطف "يَخْشى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة وفاعله مستتر والجملة معطوفة "قالا" ماض وفاعله "رَبَّنا" منادى مضاف ونا في محل جر مضاف إليه وجملة النداء في محل نصب مقول القول "إِنَّنا" إن واسمها والجملة مقول القول "نَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل رفع خبر إن "أَنْ" حرف ناصب "يَفْرُطَ" مضارع منصوب بأن "عَلَيْنا" متعلقان بيفرط "أَوْ" حرف عطف "أَنْ" ناصبة "يَطْغى" مضارع منصوب والجملة معطوفة.

[سورة طه (20) : الآيات 46 الى 47]

قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (46) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (47)

"قالَ" الجملة ابتدائية "لا" ناهية "تَخافا" مضارع مجزوم بحذف النون والألف فاعل والجملة في محل نصب

(275/493)

مقول القول "إِنَّنِي" إن واسمها "مَعَكُما" ظرف مكان متعلق بالخبر والكاف مضاف إليه وما للتثنية والجملة تعليلية "أَسْمَعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل نصب حال "وَأَرى" الجملة معطوفة "فَأْتِياهُ" الفاء هي الفصيحة ائتياه أمر وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "فَقُولا" الفاء عاطفة وقولا أمر وفاعله والجملة معطوفة "إِنَّا" إن واسمها "رَسُولا" خبر إن مرفوع بالألف لأنه مثنى والجملة في محل نصب مقول القول "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "فَأَرْسِلْ" الفاء هي الفصيحة أرسل أمر فاعله مستتر "مَعَنا" ظرف مكان متعلق بأرسل "بَنِي" مفعول به منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُعَذِّبْهُمْ" مضارع مجزوم فاعله مستتر والهاء في محل نصب مفعول به والجملة معطوفة "قَدْ" حرف تحقيق "جِئْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله "بِآيَةٍ" متعلقان بالفعل "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان

بصفة آية وجملة قد جئناك حالية "وَ" الواو استئنافية "السَّلامُ" مبتدأ "عَلى مَنِ" الجار واسم الموصول متعلقان بالخبر والجملة استئنافية "اتَّبَعَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "الْهُدى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر.

[سورة طه (20) : الآيات 48 الى 49]

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (49)

"إِنَّا" إن واسمها "قَدْ" حرف تحقيق "أُوحِيَ" مضارع مبني للمجهول والجملة خبر إن "إِلَيْنا" متعلقان بأوحي "أَنَّ الْعَذابَ" أن واسمها "عَلى مَنْ" حرف الجر واسم الموصول متعلقان بالخبر المحذوف "كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول "وَتَوَلَّى" الواو عاطفة وتولى مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "قالَ" الجملة استئنافية "فَمَنْ" الفاء العاطفة ومن اسم استفهام مبتدأ والجملة معطوفة "رَبُّكُما" خبر والكاف مضاف إليه والميم والألف للتثنية والجملة في محل نصب مقول القول "يا" أداة نداء "مُوسى" منادى والجملة في محل نصب مقول القول

[سورة طه (20) : الآيات 50 الى 52]

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (50) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (51) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (52)

"قالَ" الجملة ابتدائية "رَبُّنَا" مبتدأ ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "الَّذِي" اسم موصول في محل رفع خبر "أَعْطى" الجملة لا محل لها لأنها صلة "كُلَّ" مفعول به أول "شَيْءٍ" مضاف إليه "خَلْقَهُ" مفعول به ثان "ثُمَّ هَدى" الجملة معطوفة على أعطى "قالَ" الجملة مستأنفة "فَما" الفاء عاطفة "ما" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "بالُ" خبر "الْقُرُونِ" مضاف إليه "الْأُولى" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة وجملة فما بال إلخ في محل نصب مفعول به "قالَ" الجملة مستأنفة "عِلْمُها" مبتدأ والهاء مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بالخبر "رَبِّي" مضاف إليه والياء مضاف إليه والجملة في محل نصب مقول القول "فِي كِتابٍ" متعلقان بالخبر

(277/493)

أيضا "لا يَضِلُّ" لا نافية يضل مضارع "رَبِّي" فاعل والياء مضاف إليه "وَ" عاطفة "لا" نافية "يَنْسى" مضارع مرفوع بضمة مقدرة وفي الآية تنزيه الله تعالى عن الخطأ والنسيان وجملة "لا يَضِلُّ" إلخ . . مستأنفة وجملة "لا يَنْسى" معطوفة على لا يضل ومفعول ينسى

محذوف.

[سورة طه (20) : الآيات 53 الى 55]

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (54) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (55)

"الَّذِي" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة استئنافية "جَعَلَ" الجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول "لَكُمُ" متعلقان بجعل "الْأَرْضَ" مفعول به أول "مَهْداً" مفعول به ثان "وَ" الواو عاطفة "سَلَكَ" الجملة معطوفة "لَكُمُ" متعلقان بالفعل قبله "فِيها" متعلقان بسلك "سُبُلًا" مفعول به "وَ" الواو عاطفة "أَنْزَلَ" الجملة معطوفة "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزل "ماءً" مفعول به "فَأَخْرَجْنا" الفاء عاطفة وأخرجنا ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بأخرجنا "أَزْواجاً" مفعول به "مِنْ نَباتٍ" متعلقان بصفة لأزواجا "شَتَّى" صفة لأزواجا وجملة أخرجنا إلخ معطوفة. "كُلُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة ابتدائية "وَ" الواو عاطفة "ارْعَوْا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل "أَنْعامَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" متعلقان بالخبر المقدم واللام للبعد والكاف للخطاب "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن المؤخر منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "لِأُولِي" متعلقان بمحذوف صفة لآيات "النُّهى" مضاف إليه وجملة "إِنَّ"

إلخ . . مستأنفة "مِنْها" متعلقان بخلقناكم "خَلَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "وَ" عاطفة "فِيها" متعلقان بنعيدكم "نُعِيدُكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر "وَمِنْها" متعلقان بنخرجكم "نُخْرِجُكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله نحن "تارَةً" ظرف زمان متعلق بنخرجكم "أُخْرى" صفة والجملة معطوفة .

[سورة طه (20) : الآيات 56 الى 59]

وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (56) قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (58) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

"وَلَقَدْ" الواو حرف جر وقسم وهي والمقسم به متعلقان بفعل القسم المحذوف ولقد اللام واقعة في جواب قسم محذوف "قد" حرف تحقيق "أَرَيْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "آياتِنا" مفعول به ثان ونا في محل جر مضاف إليه "كُلَّها" توكيد آيات منصوبة بالفتحة والهاء مضاف إليه "فَكَذَّبَ" الفاء عاطفة وكذب الجملة معطوفة على أريناه "وَأَبى" الجملة معطوفة والآيات التي أعطاها اللّه لسيدنا موسى تسع آيات هي : اليد والعصا والطوفان

والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص الثمرات راجع

تفسير الآية 101 من الإسراء في تفسير ابن كثير أو غيره من التفاسير . "قالَ" الجملة مستأنفة "أَجِئْتَنا" ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل نصب مفعول به لقال والهمزة للاستفهام الإنكاري "لِتُخْرِجَنا" اللام للتعليل وتخرجنا مضارع منصوب فاعله ضمير مستتر ونا في محل نصب مفعول به .

(279/493)

"مِنْ أَرْضِنا" متعلقان بتخرجنا ونا مضاف إليه والجملة المؤلفة من أن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر باللام وهما متعلقان بالفعل قبلهما "بِسِحْرِكَ" متعلقان بتخرجنا والكاف مضاف إليه "يا" أداة نداء "مُوسى" منادى "فَلَنَأْتِيَنَّكَ" الفاء الفصيحة واللام واقعة في جواب قسم مقدر نأتينك مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل ضمير مستتر والكاف في محل نصب مفعول به "بِسِحْرٍ" متعلقان بنأتينك "مِثْلِهِ" صفة والهاء مضاف إليه والجملة جواب القسم المحذوف "فَاجْعَلْ" الفاء عاطفة "اجعل" أمر فاعله مستتر "بَيْنَنا" ظرف زمان ونا مضاف إليه "وَبَيْنَكَ" معطوف على بيننا "مَوْعِداً" مفعول به أول لاجعل والجملة معطوفة "لا" نافية "نُخْلِفُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء

مفعول به والجملة صفة لموعدا "نَحْنُ" توكيد للضمير المستتر في نخلفه "وَ" الواو عاطفة "لا" نافية "أَنْتَ" معطوف على الضمير المستتر في نخلفه "مَكاناً" مفعول به ثان "سُوىً" صفة مكانا منصوبة بالفتحة المقدرة أي وسطا "قالَ" الجملة مستأنفة "مَوْعِدُكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "يَوْمُ" خبر "الزِّينَةِ" مضاف إليه والجملة في محل نصب مقول القول "وَأَنْ" الواو عاطفة وأن حرف ناصب "يُحْشَرَ" مضارع مبني للمجهول منصوب "النَّاسُ" نائب فاعل "ضُحًى" ظرف زمان متعلق بيحشر والجملة معطوفة

[سورة طه (20) : الآيات 60 الى 61]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (60) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (61)

(280/493)

"فَتَوَلَّى" الفاء حرف عطف وماض "فِرْعَوْنُ" فاعل "فَجَمَعَ" ماض معطوف والفاعل مستتر "كَيْدَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "ثُمَّ" حرف عطف للتراخي "أَتى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة. "قالَ" الجملة استئنافية "لَهُمْ" متعلقان بقال "مُوسى" فاعل "وَيْلَكُمْ" مفعول مطلق لفعل محذوف أماته العرب وأبقوا مصدره والكاف مضاف

إليه "لا" ناهية "تَفْتَرُوا" مضارع مجزوم بلا بحذف النون والواو فاعل "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بتفتروا "كَذِباً" مفعول به والجملة مقول القول "فَيُسْحِتَكُمْ" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية والفاعل مستتر والكاف مفعول به "بِعَذابٍ" متعلقان بيسحتكم "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق وجملة "خابَ" في محل نصب على الحال "مَنِ" موصول فاعل خاب "افْتَرى" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها صلة.

[سورة طه (20) : الآيات 62 الى 64]

فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (62) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (64)

(281/493)

"فَتَنازَعُوا" الفاء عاطفة وماض مبني على الضم والواو فاعل "أَمْرَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بَيْنَهُمْ" ظرف متعلق بمحذوف حال والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَأَسَرُّوا" الواو عاطفة والجملة معطوفة "النَّجْوى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة

"قالُوا" الجملة مستأنفة "إِنْ" مخففة من إن الثقيلة لا عمل لها "هذانِ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "لَساحِرانِ" اللام الفارقة وساحران خبر المبتدأ مرفوع بالألف والجملة في محل نصب مقول القول "يُرِيدانِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة في محل رفع صفة لساحران "إِنْ" ناصبة "يُخْرِجاكُمْ" مضارع منصوب بحذف النون والألف فاعل والكاف مفعول به والجملة في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به ليريدان "مِنْ أَرْضِكُمْ" متعلقان بيخرجاكم والكاف مضاف إليه "بِسِحْرِهِما" متعلقان بالفعل قبلهما "وَيَذْهَبا" الواو عاطفة والجملة معطوفة على جملة يخرجاكم منصوبة مثلها "بِطَرِيقَتِكُمُ" متعلقان بيذهبا والكاف في محل جر مضاف إليه والميم للجمع "الْمُثْلى" صفة لطريقتكم مجرورة بالكسرة المقدرة "فَأَجْمِعُوا" الفاء الفصيحة أمر مبني على حذف النون والواو فاعل "كَيْدَكُمْ" مفعول به منصوب والكاف مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها وقعت في جواب شرط غير جازم التقدير إذا كان الأمر إلخ فأجمعوا "ثُمَّ" عاطفة "ائْتُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "صَفًّا" حال منصوبة أي مصطفين "وَقَدْ" الواو حالية قد حرف تحقيق "أَفْلَحَ" ماض "الْيَوْمَ" ظرف زمان "مَنِ" اسم موصول في محل رفع فاعل والجملة حالية "اسْتَعْلى" ماض مبني على الفتح المقدر فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها صلة.

[سورة طه (20) : الآيات 65 الى 67]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (65) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (67)

"قالُوا" الجملة ابتدائية "يا" أداة نداء "مُوسى" منادى والجملة في محل نصب مقول القول "إِمَّا" حرف شرط وتفصيل ومعناها هنا التخيير بتقدير فعل محذوف اختر "أَنْ" ناصبة "تُلْقِيَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لفعل اختر المحذوف والتقدير اختر أحد الأمرين "وَ" عاطفة "إِمَّا" حرف شرط وتفصيل "أَنْ" ناصبة "نَكُونَ" مضارع ناقص والواو اسمها "أَوَّلَ" خبر نكون المنصوب والجملة معطوفة على ما قبلها "مَنْ" موصول في محل جر مضاف إليه "أَلْقى" الجملة لا محل لها لأنها صلة وأن وما بعدها في محل نصب مفعول به لفعل اختر المحذوف "قالَ" الجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب "أَلْقُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية "حِبالُهُمْ" مبتدأ مرفوع والهاء مضاف إليه "وَ" عاطفة "عِصِيُّهُمْ" معطوفة على حبالهم والهاء مضاف إليه والجملة ابتدائية "يُخَيَّلُ"

مضارع مبني للمجهول مرفوع بضم آخره والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية جر بالإضافة "إِلَيْهِ" متعلقان بيخيل "مِنْ سِحْرِهِمْ" متعلقان بيخيل والهاء مضاف إليه "أَنَّها" أن واسمها وأن وما بعدها في تأويل مصدر نائب فاعل "تَسْعى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة وفاعله مستتر والجملة خبر أن "فَأَوْجَسَ" الفاء عاطفة والجملة من الفعل أوجس وفاعله معطوفة "فِي نَفْسِهِ" متعلقان بأوجس والهاء مضاف إليه "خِيفَةً" مفعول به "مُوسى" فاعل مؤخر.

[سورة طه (20) : الآيات 68 الى 70]

(283/493)

قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (68) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (70)

"قُلْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لا" ناهية "تَخَفْ" مضارع مجزوم فاعله مستتر والجملة في محل نصب مفعول به لقلنا "إِنَّكَ" إن واسمها "أَنْتَ" توكيد للضمير "الْأَعْلى" خبر إن والجملة مستأنفة "وَ" عاطفة "أَلْقِ" أمر مبني على حذف حرف العلة فاعله مستتر

والجملة مستأنفة "ما" اسم موصول محله النصب مفعول به "فِي يَمِينِكَ" متعلقان بمحذوف صلة ما والكاف مضاف إليه "تَلْقَفْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب فاعله مستتر "ما" اسم موصول مفعول به والجملة مستأنفة "صَنَعُوا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها صلة "إن" حرف مشبه بالفعل "ما" الموصولية اسمها والجملة مستأنفة لا محل لها "صَنَعُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "كَيْدُ" خبر إن "ساحِرٍ" مضاف إليه "وَلا" الواو حالية ولا نافية "يُفْلِحُ" مضارع "السَّاحِرُ" فاعل "حَيْثُ" ظرف مكان مبني على الضم متعلق بيفلح والجملة في محل نصب على الحال أو الواو عاطفة والجملة معطوفة "أَتى" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر مضاف إليه "فَأُلْقِيَ" الفاء عاطفة وألقي ماض مبني للمجهول "السَّحَرَةُ" نائب فاعل "سُجَّداً" حال والجملة معطوفة على جملة مقدرة هي ألقى موسى عصاه فألقي السحرة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة في محل نصب حال أخرى من السحرة "آمَنَّا" ماض وفاعله والجملة في محل نصب مقول القول "بِرَبِّ" متعلقان بآمنا "هارُونَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَمُوسى" معطوف بالواو مجرور مثله بالكسرة المقدرة على الألف المقصورة للتعذر

[سورة طه (20) : آية 71]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (71)

"قالَ" الجملة مستأنفة "آمَنْتُمْ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "لَهُ" متعلقان بآمنتم "قَبْلَ" ظرف زمان متعلق بآمنتم "أَنْ" ناصبة "آذَنَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بآذن وجملة أن آذن في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها "لَكَبِيرُكُمُ" اللام هي المزحلقة وكبيركم خبر إن والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "الَّذِي" موصول صفة في محل رفع "عَلَّمَكُمُ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعول به أول "السِّحْرَ" مفعول به ثان والجملة صلة لا محل لها "فَلَأُقَطِّعَنَّ" الفاء الفصيحة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وأقطعن مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد

(285/493)

الثقيلة والنون حرف لا محل له من الإعراب وفاعله مستتر "أَيْدِيَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَأَرْجُلَكُمْ" معطوف على ما قبله "مِنْ خِلافٍ" متعلقان بحال محذوفة والمعنى مختلفة والجملة لا محل لها "وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ" الواو عاطفة اللام واقعة في جواب القسم والمضارع

مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر والكاف في محل نصب مفعول به والجملة معطوفة "فِي جُذُوعِ" متعلقان بأصلبنكم "النَّخْلِ" مضاف إليه "وَلَتَعْلَمُنَّ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب القسم والفعل المضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال لأنه من الأفعال الخمسة والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون نون التوكيد لا محل لها . "أَيُّنا" أي استفهامية في محل رفع مبتدأ ونا مضاف إليه "أَشَدُّ" خبر والجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي تعلمن لأن الفعل علق بأي الاستفهامية. "عَذاباً" تمييز "وَأَبْقى" معطوف على أشد .

[سورة طه (20) : الآيات 72 الى 74]

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (74)

(286/493)

"قالُوا" الجملة استئنافية "لَنْ" ناصبة "نُؤْثِرَكَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به والجملة في محل نصب مقول القول "عَلى" حرف جر "ما" اسم موصول

متعلقان بنؤثرك "جاءَنا" فعل ماض فاعله مستتر ونا مفعول به والجملة لا محل لها لأنها صلة "مِنَ الْبَيِّناتِ" متعلقان بمحذوف حال "وَالَّذِي" الواو حرف جر وقسم واسم الموصول في محل جر متعلقان بفعل اقسم المحذوف "فَطَرَنا" فعل ماض فاعله مستتر ونا مفعول به والجملة لا محل لها لأنها صلة موصول "فَاقْضِ" الفاء هي الفصيحة واقض أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر "ما" اسم موصول مفعول به "أَنْتَ" مبتدأ "قاضٍ" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة لأنه اسم منقوص والجملة صلة لا محل لها "إِنَّما" كافة ومكفوفة "تَقْضِي" مضارع فاعله مستتر "هذِهِ" اسم إشارة مفعول به "الْحَياةَ" بدل من اسم الإشارة "الدُّنْيا" صفة والجملة لا محل لها لأنها تعليلية "إِنَّا" إن واسمها "آمَنَّا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "بِرَبِّنا" متعلقان بآمنا ونا مضاف إليه "لِيَغْفِرَ" اللام للتعليل والفعل المضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر وأن وما بعدها في محل جر باللام وهما متعلقان بآمنا "لَنا" متعلقان بيغفر "خَطايانا" مفعول به منصوب ونا في محل جر مضاف إليه "وَ" الواو عاطفة "ما" اسم موصول في محل نصب معطوف على خطايانا "أَكْرَهْتَنا" ماض وفاعله ومفعوله "عَلَيْهِ" متعلقان بأكرهتنا والجملة لا محل لها لأنها صلة "مِنَ السِّحْرِ" متعلقان بمحذوف حال "وَاللَّهُ خَيْرٌ" الواو عاطفة والمبتدأ والخبر جملة معطوفة "وَأَبْقى" معطوف على خير بالرفع. "إِنَّهُ" إن واسمها "مَنْ" اسم شرط

جازم في محل رفع مبتدأ "يَأْتِ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وفاعله مستتر وهو فعل الشرط "رَبَّهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "مُجْرِماً" حال وجملة من خبر إن وجملتا الشرط والجواب خبر من "فَإِنَّ" الفاء رابطة للجواب "إن" حرف مشبه بالفعل "لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "جَهَنَّمَ" اسمها المؤخر والجملة في محل جزم جواب الشرط واقترن الجواب بالفاء الرابطة للجواب لأن جملة الجواب جملة اسمية "لا يَمُوتُ" لا نافية والمضارع فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بيموت والجملة حالية "وَلا يَحْيى" الواو عاطفة ولا نافية ويحيا مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على آخره والفاعل مستتر والجملة معطوفة

[سورة طه (20) : الآيات 75 الى 76]

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

"وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "يَأْتِهِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط بحذف حرف العلة والفاعل مستتر والهاء في محل نصب مفعول به وجملتا الشرط

والجواب خبر "مُؤْمِناً" حال "قَدْ" حرف تحقيق "عَمِلَ" ماض فاعله مستتر "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة صفة لمؤمنا "فَأُولئِكَ" الفاء رابطة للجواب أولئك مبتدأ "لَهُمُ" متعلقان بالخبر المقدم "الدَّرَجاتُ" مبتدأ مؤخر والجملة في محل رفع خبر أولئك وجملة أولئك في محل جزم جواب الشرط "الْعُلى" صفة الدرجات "جَنَّاتُ" بدل من الدرجات "عَدْنٍ" مضاف إليه "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بتجري والهاء مضاف إليه "الْأَنْهارُ" فاعل "خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء "فِيها" متعلقان بخالدين وجملة تجري صفة لجنات "وَ" عاطفة "ذلِكَ" اسم إشارة مبتدأ "جَزاءُ" خبر "مِنْ" اسم موصول مضاف إليه "تَزَكَّى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها وجملة المبتدأ والخبر معطوفة.

[سورة طه (20) : الآيات 77 الى 79]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (79)

"وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله "إِلى مُوسى" متعلقان بأوحينا والجملة معطوفة "أَنْ" مفسرة "أَسْرِ" أمر مبني على حذف حرف العلة فاعله مستتر "بِعِبادِي" متعلقان بأسر والياء مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها مفسرة "فَاضْرِبْ" الفاء عاطفة والجملة معطوفة والمعنى اجعل "لَهُمْ" متعلقان باضرب وقاما مقام المفعول الثاني "طَرِيقاً" مفعول به أول "فِي الْبَحْرِ" صفة لطريقا "يَبَساً" صفة ثانية "لا تَخافُ" لا نافية والفعل المضارع فاعله مستتر "دَرَكاً" مفعول به والجملة استئنافية "وَلا تَخْشى" الجملة معطوفة "فَأَتْبَعَهُمْ" الفاء استئنافية وأتبعهم ماض والهاء مفعول به مقدم "فِرْعَوْنُ" فاعل مؤخر "بِجُنُودِهِ" متعلقان بحال محذوفة والجملة استئنافية "فَغَشِيَهُمْ" الفاء عاطفة غشيهم ماض والهاء مفعول به "مِنَ الْيَمِّ" متعلقان بالفعل "ما" اسم موصول محله رفع فاعل والجملة معطوفة "غَشِيَهُمْ" الجملة صلة لا محل لها "وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ" الواو عاطفة وماض وفاعله "قَوْمَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "هَدى" ماض مبني على الفتح المقدر فاعله مستتر والجملة معطوفة

[سورة طه (20) : الآيات 80 الى 81]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ

وَالسَّلْوى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (81)

(290/493)

"يا" أداة نداء "بَنِي" منادى منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "قَدْ" حرف تحقيق "أَنْجَيْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "مِنْ عَدُوِّكُمْ" متعلقان بأنجيناكم والجملة ابتدائية "وَواعَدْناكُمْ" الواو عاطفة وماض وفاعل ومفعول به أول "جانِبَ" مفعول به ثان "الطُّورِ" مضاف إليه "الْأَيْمَنَ" صفة جانب والجملة معطوفة "وَنَزَّلْنا" الواو عاطفة ونزلنا ماض وفاعله "عَلَيْكُمُ" متعلقان بنزلنا "الْمَنَّ" مفعول به "وَالسَّلْوى" معطوف على المن والجملة معطوفة "كُلُوا" أمر وفاعله والألف للتفريق "مِنْ طَيِّباتِ" متعلقان بكلوا "ما" موصول في محل نصب مفعول به والجملة في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره قال . . إلخ "رَزَقْناكُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَطْغَوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "فِيهِ" متعلقان بتطغوا والجملة معطوفة "فَيَحِلَّ" الفاء فاء السببية ويحل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية

"عَلَيْكُمْ" متعلقان بيحل "غَضَبِي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن شرطية في محل رفع مبتدأ "يَحْلِلْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "عَلَيْهِ" متعلقان بيحلل "غَضَبِي" فاعل والياء مضاف إليه والجملة معطوفة "فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق "هَوى" ماض مبني على الفتح المقدر فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ .

[سورة طه (20) : الآيات 82 الى 84]

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (82) وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (83) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (84)

"وَإِنِّي" الواو عاطفة وإن واسمها "لَغَفَّارٌ" اللام لام المزحلقة غفار خبر "لِمَنْ" اللام حرف جر "من" اسم موصول "تابَ" الجملة لا محل لها لأنها صلة وجملة إني معطوفة "وَآمَنَ" الجملة معطوفة "وَعَمِلَ" ماض فاعله مستتر "صالِحاً" مفعول به والجملة معطوفة "ثُمَّ" حرف عطف "اهْتَدى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "وَما" الواو استئنافية ما

اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "أَعْجَلَكَ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة خبر "عَنْ قَوْمِكَ" متعلقان بأعجلك والكاف مضاف إليه "يا مُوسى " يا أداة نداء ومنادى "قالَ" الجملة مستأنفة "هُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "أُولاءِ" اسم إشارة خبر والجملة في محل نصب مقول القول "عَلى أَثَرِي" متعلقان بخبر ثان "وَعَجِلْتُ" الواو حالية عجلت ماض وفاعله والجملة معطوفة "إِلَيْكَ" متعلقان بعجلت "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب والياء مضاف إليه والجملة حالية "لِتَرْضى " اللام للتعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة واللام وما بعدها متعلقان بترضى .

[سورة طه (20) : الآيات 85 الى 87]

قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)

"قالَ" الجملة استئنافية "فَإِنَّا" الفاء زائدة إنا إن ونا واسمها والجملة مقول القول "قَدْ" حرف تحقيق "فَتَنَّا" ماض وفاعله "قَوْمَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة خبر إن "مِنْ بَعْدِكَ" متعلقان بمحذوف حال من قومك "وَأَضَلَّهُمُ" الواو عاطفة وأضلهم ماض والهاء مفعول به "السَّامِرِيُّ" فاعل والجملة معطوفة. "فَرَجَعَ" الفاء استئنافية "رجع" ماض "مُوسى" فاعل "إِلى قَوْمِهِ" متعلقان برجع والهاء مضاف إليه "غَضْبانَ" حال "أَسِفاً" حال ثانية والجملة استئنافية "قالَ" الجملة مستأنفة "يا قَوْمِ" يا أداة نداء قوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "أَلَمْ" الهمزة حرف استفهام للإنكار ولم جازمة "يَعِدْكُمْ" مضارع مجزوم والكاف مفعول به "رَبُّكُمْ" فاعل والكاف مضاف إليه "وَعْداً" مفعول مطلق "حَسَناً" صفة وجملة النداء والتي بعدها مقول القول "أَفَطالَ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة وطال ماض "عَلَيْكُمُ" متعلقان بطال "الْعَهْدُ" فاعل والجملة معطوفة "أَمْ" عاطفة "أَرَدْتُمْ" ماض وفاعل والجملة معطوفة "أَنْ" ناصبة "يَحِلَّ" مضارع منصوب "عَلَيْكُمُ" متعلقان بيحل "غَضَبٌ" فاعل "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بصفة من غضب وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لأردتم "فَأَخْلَفْتُمْ" الفاء عاطفة أخلفتم ماض وفاعله "مَوْعِدِي" مفعول به والياء مضاف إليه والجملة معطوفة. "قالُوا" الجملة مستأنفة "ما" نافية "أَخْلَفْنا" ماض وفاعله "مَوْعِدَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه "بِمَلْكِنا" متعلقان بأخلفنا وبملكنا أي بقدرتنا والجملة مقول القول "وَلكِنَّا" الواو عاطفة لكن واسمها والجملة معطوفة

"حُمِّلْنا" ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل والجملة خبر لكن "أَوْزاراً" مفعول به ثان لحملنا "مِنْ زِينَةِ" متعلقان بصفة من أوزارا "الْقَوْمِ" مضاف إليه "فَقَذَفْناها" الفاء عاطفة وفعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة

(293/493)

"فَكَذلِكَ" الفاء عاطفة والكاف حرف جر "ذا" اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب واسم الإشارة في محل جر بالكاف وهما متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف تقديره ألقى إلقاء كائنا إلخ "أَلْقَى السَّامِرِيُّ" ماض وفاعله والجملة معطوفة.

[سورة طه (20) : الآيات 88 الى 90]

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (88) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً (89) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)

(294/493)

"فَأَخْرَجَ" الفاء عاطفة وأخرج ماض فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بأخرج "عِجْلًا" مفعول به "جَسَدًا" بدل من عجلا والجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "خُوارٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صفة "فَقَالُوا" الفاء عاطفة "قالوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "هذا" مبتدأ "إِلَهُكُمْ" خبر والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "وَإِلَهُ" معطوف على إلهكم "مُوسَى" مضاف إليه "فَنَسِيَ" الفاء عاطفة وجملة نسي معطوفة "أَفَلَا" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ولا نافية "يَرَوْنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "أَن" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان تقديره أنه "لا" نافية "يَرْجِعُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَيْهِمْ" متعلقان بيرجع "قَوْلًا" مفعول به وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به وجملة يرجع خبر أن "وَلَا" الواو عاطفة ولا نافية "يَمْلِكُ" مضارع فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بيملك "ضَرًّا وَلَا نَفْعًا" ضرا مفعول به ونفعا معطوف عليه والجملة معطوفة "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام للقسم وقد حرف تحقيق "قَالَ لَهُمْ هَارُونُ" ماض وفاعل "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بقال والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم "يَا قَوْمِ" يا حرف نداء قوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والجملة مقول القول "إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "فُتِنْتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والميم علامة جمع الذكور "بِهِ" متعلقان بفتنتم والجملة مقول القول "وَإِنَّ رَبَّكُمُ" الواو عاطفة وإن واسمها والكاف مضاف إليه "الرَّحْمَنُ" خبر والجملة معطوفة "فَاتَّبِعُونِي" الفاء هي الفصيحة اتبعوني أمر مبني على حذف النون والنون للوقاية

والياء مفعول به "وَأَطِيعُوا" الجملة معطوفة "أَمْرِي" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والجملة معطوفة.

[سورة طه (20) : الآيات 91 الى 94]

(295/493)

قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (91) قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

"قالُوا" الجملة ابتدائية "لَنْ" ناصبة "نَبْرَحَ" مضارع ناقص منصوب بلن واسمه ضمير مستتر تقديره نحن "عَلَيْهِ" متعلقان بعاكفين "عاكِفِينَ" خبر نبرح والجملة مقول القول "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَرْجِعَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى "إِلَيْنا" متعلقان بيرجع "مُوسى" فاعل ويرجع وأن المضمرة قبلها في تأويل مصدر في محل جر بحتى ومتعلقان بعاكفين "قالَ" الجملة مستأنفة "يا هارُونُ" يا أداة نداء

ومنادى والجملة في محل نصب مفعول به لقال "ما" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "مَنَعَكَ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة خبر ما "إِذْ" ظرف متعلق بمنعك "رَأَيْتَهُمْ"

ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "ضَلُّوا" ماض وفاعل والجملة في محل نصب مفعول به ثان لرأيتهم على أنها قلبية "أن" حرف مصدري ونصب "لا" زائدة "تَتَّبِعَنِ" مضارع منصوب والنون للوقاية والفاعل مستتر والياء المحذوفة مفعول به وقرىء بإثبات الياء وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر من ومتعلقان بالفعل "أَفَعَصَيْتَ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة وعصيت ماض وفاعله "أَمْرِي" مفعول به والياء مضاف إليه والجملة معطوفة على جملة محذوفة مقدرة . الَ"

الجملة مستأنفة "يا" حرف نداء "بن أم" اسمان مركبان مبنيان على الفتح في محل نصب منادى "

ناهيةتَأْخُذْ"

مضارع مجزوم فاعله مستترِلِحْيَتِي"

متعلقان بتأخذَ لا"

(296/493)

الواو عاطفة ولا ناهية دخلت على فعل محذوفِ رَأْسِي"

متعلقان بتأخذ وهو معطوف وجملة النداء وما بعدها مقول القولِ نِّي"

إن واسمها والجملة تعليليةَشِيتُ"

ماض وفاعله والجملة خبر إنَ نْ"

ناصبةَقُولَ"

مضارع منصوب فاعله مستتر والجملة خبرَرَّقْتَ"

ماض وفاعلهَيْنَ"

ظرف مكانَنِي"

مضاف إليه مجرور بالياءِسْرائِيلَ"

مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف والجملة مقول القول لَمْ"

الواو عاطفة ولم جازمةَرْقُبْ"

مضارع مجزوم بها وفاعله مستترَوْلِي"

مفعول به والياء مضاف إليه والجملة معطوفة .

[سورة طه (20) : الآيات 95 الى 96]

قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (95) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)

"قالَ" الجملة مستأنفة "فَما" الفاء زائدة ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "خَطْبُكَ" خبر والكاف مضاف إليه "يا سامِرِيُّ" يا أداة نداء وسامري منادى مبني على الضم في محل

نصب والجملة الاسمية والنداء في محل نصب مقول القول "قالَ" الجملة مستأنفة "بَصُرْتُ" ماض وفاعله "بِما" حرف الجر وما الموصولية متعلقان ببصرت والجملة مقول القول "لَمْ" جازمة "يَبْصُرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها "بِهِ" متعلقان ببصروا "فَقَبَضْتُ" الفاء عاطفة وقبضت ماض وفاعله "قَبْضَةً" مفعول مطلق "مِنْ أَثَرِ" متعلقان بقبضت "الرَّسُولِ" مضاف إليه وأثر الرسول اثر حافر فرس سيدنا جبريل عليه السلام والجملة معطوفة "فَنَبَذْتُها" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَكَذلِكَ" الواو استئنافية والجار واسم الإشارة المجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره سولت لي نفسي تسويلا كذلك التسويل إلخ "سَوَّلَتْ" فعل ماض والتاء للتأنيث "لِي" متعلقان بسولت "نَفْسِي" فاعل والياء مضاف إليه والجملة مستأنفة

(297/493)

[سورة طه (20) : آية 97]

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (97)

"قالَ" الجملة مستأنفة "فَاذْهَبْ" الفاء عاطفة وفعل الأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "فَإِنَّ" الفاء عاطفة وإن حرف مشبه بالفعل "لَكَ" متعلقان بالخبر "فِي الْحَياةِ" متعلقان بمحذوف حال "أَنْ" ناصبة "تَقُولَ" مضارع فاعله مستتر والمصدر المؤول في محل نصب اسم إن "لا" نافية للجنس "مِساسَ" اسم لا والخبر محذوف والجملة في محل نصب مقول القول ويقال إن السامري أصابه مرض يشبه النقرس يؤذيه كل شيء مسه وذلك عقوبة له في الدنيا "وَإِنَّ" الواو عاطفة وإن حرف مشبه بالفعل "لَكَ" متعلقان بالخبر المقدم "مَوْعِداً" اسمها المؤخر "لَنْ" ناصبة "تُخْلَفَهُ" مضارع مبني للمجهول منصوب ونائب الفاعل مستتر والهاء مفعول به والجملة في محل نصب صفة لموعدا "وَانْظُرْ" الواو عاطفة وانظر أمر فاعله مستتر "إِلى إِلهِكَ" متعلقان بانظر "الَّذِي" موصول في محل جر صفة والجملة معطوفة "ظَلْتَ" ماض ناقص أصله ظللت حذفت اللام للتخفيف والتاء اسمها "عَلَيْهِ" متعلقان بعاكفا "عاكِفاً" خبر والجملة صلة الموصول لا محل لها "لَنُحَرِّقَنَّهُ" اللام موطئة للقسم ونحرقنه مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم "ثُمَّ" حرف عطف "لَنَنْسِفَنَّهُ" الجملة معطوفة "فِي الْيَمِّ" متعلقان بالفعل قبلهما "نَسْفاً" مفعول مطلق.

[سورة طه (20) : الآيات 98 الى 100]

إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (98) كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (100)

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "إِلهُكُمُ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر والجملة استئنافية "الَّذِي" موصول في محل رفع صفة "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها والخبر محذوف تقديره موجود "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ" بدل من الضمير المقدر في الخبر والجملة صلة لا محل لها "وَسِعَ" ماض فاعله مستتر "كُلَّ" مفعول به "شَيْءٍ" مضاف إليه "عِلْماً" تمييز والجملة مستأنفة "كَذلِكَ" حرف الجر واسم الإشارة متعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف تقديره نقص عليك قصصا كائنا مثل الذي قصصناه عليك "نَقُصُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة ابتدائية "عَلَيْكَ" متعلقان بنقص "مِنْ أَنْباءِ" متعلقان بالفعل نقص "ما" موصولية مضاف إليه "قَدْ سَبَقَ" الجملة صلة لا محل لها "وَقَدْ" الواو حالية قد حرف تحقيق "آتَيْناكَ" ماض وفاعل ومفعول به أول والجملة حالية "مِنْ لَدُنَّا" متعلقان بمحذوف حال من ذكرا "ذِكْراً" مفعول به ثان "مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "أَعْرَضَ" ماض فاعله مستتر في محل جزم فعل الشرط "عَنْهُ" متعلقان بأعرض والجملة معطوفة "فَإِنَّهُ" الفاء رابطة وإن واسمها وجملة "يَحْمِلُ" خبرها وجملة فإنه في محل جزم جواب الشرط "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ"

مضاف إليه "وِزْراً" مفعول به وجملتا الشرط خبر من .

[سورة طه (20) : الآيات 101 الى 104]

(299/493)

خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (102) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (104)

"خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء "فِيهِ" متعلقان بخالدين "وَساءَ" الواو عاطفة ساء ماض فاعله مستتر وساء من أفعال الذم "لَهُمْ" متعلقان بساء "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بحملا "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "حِمْلًا" تمييز والجملة معطوفة "يَوْمَ" بدل من يوم القيامة "يُنْفَخُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "فِي الصُّورِ" متعلقان بينفخ "وَنَحْشُرُ" الواو عاطفة والفعل مضارع فاعله مستتر تقديره نحن "الْمُجْرِمِينَ" مفعول به والجملة معطوفة "يَوْمَئِذٍ" ظرف أضيف إلى ظرف متعلق بنحشر "زُرْقاً" حال أي من أثر العذاب "يَتَخافَتُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حال "بَيْنَهُمْ" ظرف متعلق بالفعل قبله "إِنْ" نافية "لَبِثْتُمْ" ماض وفاعله "إِلَّا" أداة حصر "عَشْراً" ظرف زمان

متعلق بلبثتم والجملة في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لقول محذوف تقديره قائلين "نَحْنُ" مبتدأ "أَعْلَمُ" خبر "بِما" الجار واسم الموصول متعلقان بأعلم والجملة مستأنفة "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها "إِذْ" ظرف متعلق بأعلم "يَقُولُ" الجملة مضاف إليه "أَمْثَلُهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه "طَرِيقَةً" تمييز "إِنْ" نافية "لَبِثْتُمْ" ماض وفاعله "إِلَّا" أداة حصر "يَوْماً" ظرف متعلق بلبثتم

[سورة طه (20) : الآيات 105 الى 108]

(300/493)

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (105) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (106) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (108)

"وَيَسْئَلُونَكَ" الواو استئنافية يسألون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة استئنافية "عَنِ الْجِبالِ" متعلقان بالفعل "فَقُلْ" الفاء عاطفة وقل أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "يَنْسِفُها" مضارع مرفوع والها في محل نصب مفعول به "رَبِّي" فاعل مؤخر والياء مضاف إليه "نَسْفاً" مفعول مطلق والجملة في محل نصب مقول القول

"فَيَذَرُها" الفاء عاطفة والمضارع فاعله مستتر والها في محل نصب مفعول به والجملة معطوفة "قاعاً" حال "صَفْصَفاً" حال ثانية "لا" نافية "تَرى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بتري "عِوَجاً" مفعول به "وَلا" الواو عاطفة "لا" نافية "أَمْتاً" معطوف على عوجا "يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف متعلق بيتبعون وإذ ظرف مضاف إليه "يَتَّبِعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "الدَّاعِيَ" مفعول به منصوب بالفتحة والجملة مضاف إليه "لا" نافية للجنس "عِوَجَ" اسم لا "لَهُ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة في محل نصب حال من الداعي "وَخَشَعَتِ" الواو استئنافية وفعل ماض والتاء للتأنيث "الْأَصْواتُ" فاعل "لِلرَّحْمنِ" متعلقان بخشعت والجملة استئنافية "فَلا" الفاء عاطفة "لا" نافية

"تَسْمَعُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَّا" أداة حصر "هَمْساً" مفعول به لتسمع والجملة معطوفة.

[سورة طه (20) : الآيات 109 الى 111]

(301/493)

يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (109) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (110) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً

"يوم" ظرف متعلق بتنفع "إذ" ظرف مضاف إليه "لا" نافية "تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ" مضارع وفاعله "إِلَّا" أداة حصر "مَنْ" اسم موصول مفعول به والجملة مضاف إليه "أَذِنَ" ماض "لَهُ" متعلقان بالفعل "الرَّحْمنُ" فاعل والجملة صلة لا محل لها "وَرَضِيَ" الجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان برضي "قَوْلًا" مفعول به "يَعْلَمُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "ما" اسم موصول مفعول به "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بصلة محذوفة "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَما خَلْفَهُمْ" الجملة معطوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يُحِيطُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "بِهِ" متعلقان بيحيطون "عِلْماً" مفعول به "وَعَنَتِ" الواو استئنافية وعنت ماض والتاء للتأنيث "الْوُجُوهُ" فاعل والجملة مستأنفة "لِلْحَيِّ" متعلقان بعنت "الْقَيُّومِ" صفة "وَقَدْ خابَ" الجملة حالية "مَنْ" اسم موصول فاعل "حَمَلَ" الجملة صلة لا محل لها "ظُلْماً" مفعول به.

[سورة طه (20) : الآيات 112 الى 113]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (112) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113)

"وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ والجملة مستأنفة "يَعْمَلْ" مضارع فاعله مستتر ويعمل فعل الشرط "مِنَ الصَّالِحاتِ" متعلقان بيعمل "وَهُوَ مُؤْمِنٌ" الواو واو الحال ومبتدأ وخبر والجملة حالية "فَلا" الفاء رابطة للجواب لا نافية "يَخافُ" مضارع فاعله مستتر "ظُلْماً" مفعول به "وَلا هَضْماً" الواو عاطفة وهضما معطوف على ظلما والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط خبر المبتدأ من "وَكَذلِكَ" الواو عاطفة والكاف حرف جر وذا اسم إشارة في محل جر واللام للبعد والكاف للخطاب متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق تقديره أنزلناه إنزالا كائنا مثل إلخ. "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله "قُرْآناً" حال "عَرَبِيًّا" صفة والجملة معطوفة "وَصَرَّفْنا" الواو عاطفة صرفنا ماض وفاعله "فِيهِ" متعلقان بصرفنا "مِنَ الْوَعِيدِ" الجار والمجرور صفة لمفعول به محذوف تقديره صرفنا وعيدا من الوعيد وجملة "صَرَّفْنا" معطوفة "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "أَوْ" عاطفة "يُحْدِثُ" مضارع فاعله مستتر يعود على القرآن "لَهُمْ" متعلقان بيحدث "ذِكْراً" مفعول به والجملة معطوفة

[سورة طه (20) : الآيات 114 الى 115]

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115)

(303/493)

"فَتَعَالَى" الفاء استئنافية تعالى ماض مبني على الفتح المقدر "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "الْمَلِكُ الْحَقُّ" صفتان مرفوعتان والجملة استئنافية "وَلَا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَعْجَلْ" مضارع مجزوم بلا الناهية فاعله مستتر "بِالْقُرْآنِ" متعلقان بتعجل "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بتعجل "أَنْ" ناصبة "يُقْضَى" مضارع مبني للمجهول "إِلَيْكَ" متعلقان بيقضى "وَحْيُهُ" نائب فاعل والهاء مضاف إليه "وَقُلْ" الجملة معطوفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب على النداء ومضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "زِدْنِي" فعل دعاء والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به أول "عِلْماً" مفعول به ثان وجملة النداء والتي بعدها مقول القول.

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "عَهِدْنَا" ماض وفاعله "إِلَى آدَمَ" متعلقان بعهدنا "مِنْ" حرف جر قبل ظرف مبني على الضمة في محل جر متعلقان بعهدنا أو بمحذوف حال والجملة مستأنفة "فَنَسِيَ" الجملة معطوفة بالفاء "وَلَمْ نَجِدْ" الواو عاطفة ولم حرف جازم نجد مضارع مجزوم فاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بنجد

"عَزْماً" مفعول به والجملة معطوفة.

[سورة طه (20) : الآيات 116 الى 117]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (116) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (117)

(304/493)

"وَإِذْ" الواو استئنافية إذ ظرف متعلق باذكر "قُلْنا" الجملة في محل جر مضاف إليه "لِلْمَلائِكَةِ" متعلقان بقلنا "اسْجُدُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل "لِآدَمَ" اللام حرف جر آدم مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف والجملة مقول القول "فَسَجَدُوا" الفاء عاطفة والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة استثناء "إِبْلِيسَ" مستثنى بإلا منصوب بالفتحة "أَبى" ماض مبني على الفتح المقدر فاعله مستتر والجملة في محل نصب حال. "فَقُلْنا" الفاء استئنافية وقلنا ماض وفاعل والجملة مستأنفة "يا آدَمُ" يا أداة نداء آدم منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب مفعول به لأدعو "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل نصب اسم إن "عَدُوٌّ" خبر "لَكَ" متعلقان بعدو "وَلِزَوْجِكَ" معطوف على ما قبله والكاف في محل جر بالإضافة والجملتان مقول القول

"فَلا" الفاء عاطفة ولا ناهية "يُخْرِجَنَّكُما" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا وفاعله مستتر والكاف في محل نصب مفعول به "مِنَ الْجَنَّةِ" متعلقان بيخرجنكما والجملة معطوفة "فَتَشْقى" الفاء فاء السببية وتشقى مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية وفاعله مستتر أن المضمرة والفعل في تأويل مصدر معطوف على ما قبله.

[سورة طه (20) : الآيات 118 الى 120]

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (118) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (120)

(305/493)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَكَ" متعلقان بالخبر المقدم "إِنَّ" حرف ناصب "لا" نافية "تَجُوعَ" مضارع منصوب بأن "فِيها" متعلقان بتجوع والجملة من أن وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب اسم أن المؤخر "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "تَعْرى" معطوف على تجوع منصوب الفتحة المقدرة والجملة معطوفة

"وَأَنَّكَ" الواو عاطفة وأن واسمها "لا تَظْمَؤُا" لا نافية تظمأ مضارع فاعله مستتر والجملة

خبر أن وأن واسمها وخبرها في تأويل مصدر معطوف على ما قبله "فَوَسْوَسَ" الفاء عاطفة وسوس ماض "إِلَيْهِ" متعلقان بوسوس "الشَّيْطانُ" فاعل والجملة معطوفة "قالَ" الجملة تفسيرية لا محل لها "يا آدَمُ" يا أداة نداء وآدم منادى مبني على الضم والجملة مقول القول "هَلْ" حرف استفهام "أَدُلُّكَ" مضارع فاعله مستتر والكاف في محل نصب مفعول به "عَلى شَجَرَةِ" متعلقان بأدلك "الْخُلْدِ" مضاف إليه والجملة مقول القول "وَمُلْكٍ" الواو عاطفة ملك معطوف على شجرة الخلد "لا يَبْلى" لا نافية يبلى مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على آخره فاعله مستتر والجملة في محل جر صفة لملك.

[سورة طه (20) : الآيات 121 الى 123]

فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (121) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (122) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (123)

(306/493)

"فَأَكَلا" الفاء استئنافية وأكلا ماض مبني على الفتح والألف فاعل "مِنْها" متعلقان بأكلا والجملة استئنافية "فَبَدَتْ" الفاء عاطفة وبدت ماض والتاء تاء التأنيث "لَهُما" متعلقان

ببدت "سَوْآتُهُما" فاعل والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَطَفِقا" الواو حرف عطف طفق ماض ناقص والألف اسمه "يَخْصِفانِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والألف فاعل والجملة خبر طفقا وجملة طفقا معطوفة "عَلَيْهِما" متعلقان بيخصفان "مِنْ وَرَقِ" متعلقان بيخصفان "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "وَعَصى" الواو عاطفة عصى ماض مبني على الفتح المقدر "آدَمُ" فاعل "رَبَّهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "فَغَوى" الجملة معطوفة "ثُمَّ" عاطفة "اجْتَباهُ" ماض ومفعول به "رَبُّهُ" فاعل والهاء مضاف إليه "فَتابَ" الجملة معطوفة "عَلَيْهِ" متعلقان بتاب "وَهَدى" الجملة معطوفة بالواو "قالَ" الجملة مستأنفة "اهْبِطا" أمر مبني على حذف النون والألف فاعل "مِنْها" متعلقان باهبطا "جَمِيعاً" حال "بَعْضُكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "لِبَعْضٍ" متعلقان بعدو "عَدُوٌّ" خبر بعضكم والجملة في محل نصب على الحال "فَإِمَّا" الفاء عاطفة إما إن الشرطية وما زائدة "يَأْتِيَنَّكُمْ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعول به "مِنِّي" متعلقان بيأتينكم "هُدىً" فاعل "فَمَنِ" الفاء رابطة للجواب "من" شرطية مبتدأ "اتَّبَعَ" فعل الشرط ماض في محل جزم فاعله مستتر "هُدايَ" مفعول به والياء مضاف إليه والجملة خبر المبتدأ "فَلا" الفاء رابطة للجواب ولا نافية "يَضِلُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَلا يَشْقى" الواو عاطفة ولا نافية والجملة معطوفة وجملة "فَمَنِ اتَّبَعَ" في محل جزم جواب إما .

[سورة طه (20) : الآيات 124 الى 125]

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (124) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125)

"وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ "أَعْرَضَ" ماض في محل جزم فعل الشرط فاعله مستتر "عَنْ ذِكْرِي" متعلقان بأعرض "فَإِنَّ" الفاء رابطة للجواب إن حرف مشبه بالفعل "لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "مَعِيشَةً" اسمها المؤخر "ضَنْكًا" صفة والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ وجملة من . . إلخ معطوفة على جملة جواب الشرط المتقدم ومحلها الجزم مثلها "وَنَحْشُرُهُ" الواو استئنافية ونحشر مضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة مستأنفة "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه والظرف متعلق بنحشره "أَعْمى" حال "قالَ" الجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة ورب منادى منصوب لأنه مضاف لياء المتكلم المحذوفة "لِمَ" اللام حرف جر وما اسم استفهام حذفت ألفها للفرق بين الخبر والاستفهام في محل جر باللام متعلقان بحشرتني "حَشَرْتَنِي" ماض وفاعل ومفعول به والنون للوقاية وجملة النداء والتي بعدها مقول القول "أَعْمى" حال "وَقَدْ" الواو واو الحال وقد حرف تحقيق "كُنْتُ بَصِيراً" كان واسمها

وخبرها والجملة في محل نصب على الحال .

[سورة طه (20) : الآيات 126 الى 127]

قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (126) وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (127)

(308/493)

"قالَ" الجملة استئنافية "كَذلِكَ" الكاف حرف تشبيه وجر وذا اسم إشارة في محل جر بالكاف واللام للبعد والكاف للخطاب متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك "أَتَتْكَ" ماض والكاف مفعول به "آياتُنا" فاعل ونا مضاف إليه "فَنَسِيتَها" الفاء عاطفة وماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "وَكَذلِكَ" الواو عاطفة والكاف حرف تشبيه وجر وذا اسم إشارة مجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق "الْيَوْمَ" ظرف زمان "تُنْسى" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله مستتر والجملة في محل جر مضاف إليه "وَكَذلِكَ" الواو عاطفة كذلك متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق "نَجْزِي" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" اسم موصول مفعول به والجملة معطوفة "أَسْرَفَ" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها صلة موصول "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم جازمة "يُؤْمِنْ" الجملة معطوفة

على ما قبلها "بِآياتِ" متعلقان بيؤمن "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَلَعَذابُ" الواو حالية واللام لام الابتداء "عذاب" مبتدأ "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "أَشَدُّ" خبر المبتدأ "وَأَبْقى" عطف على أشد وجملة المبتدأ والخبر حالية.

[سورة طه (20) : الآيات 128 الى 129]

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (128) وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129)

"أَفَلَمْ" الهمزة للاستفهام التوبيخي والفاء حرف عطف ولم حرف جازم "يَهْدِ" مضارع مجزوم بلم وفاعله المصدر المفهوم من أهلكنا "لَهُمْ" متعلقان بيهد "كَمْ" هي الخبرية في محل نصب مفعول به مقدم لأهلكنا "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان والهاء مضاف إليه وجملة "أَهْلَكْنا" يجوز إعرابها فاعلا ليهد

(309/493)

"مِنَ الْقُرُونِ" متعلقان بصفة لتمييز محذوف لكم الخبرية "يَمْشُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حال من القرون "فِي مَساكِنِهِمْ" متعلقان بيمشون والهاء مضاف إليه "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" حرف الجر واسم الإشارة متعلقان بمحذوف

خبر مقدم "لَآياتٍ" اللام لام المزحلقة آيات اسم إن المؤخر منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "لِأُولِي" متعلقان بصفة لآيات "النُّهى" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة والنهى العقول "وَلَوْلا" الواو استئنافية لولا شرطية غير جازمة "كَلِمَةٌ" مبتدأ خبره محذوف وجوبا تقديره موجودة "سَبَقَتْ" الجملة صفة لكلمة "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بسبقت "لَكانَ" اللام واقعة في جواب لولا وكان الناقصة واسمها ضمير مستتر "لِزاماً" خبر كان "وَأَجَلٌ" الواو عاطفة وأجل معطوف على كلمة "مُسَمًّى" صفة أجل مرفوع بالضمة المقدرة وجملة لكان جواب لولا لا محل لها وجملة "لَوْلا" . . إلخ مستأنفة.

[سورة طه (20) : الآيات 130 الى 131]

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (130) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (131)

(310/493)

"فَاصْبِرْ" الفاء حرف استئناف واصبر أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية "عَلى" حرف جر "ما" موصول وهما متعلقان باصبر "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو

فاعل والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "وَسَبِّحْ" الواو عاطفة وسبح أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على اصبر "بِحَمْدِ" متعلقان بمحذوف حال أي وأنت حامد "رَبِّكَ" مضاف إليه "قَبْلَ" ظرف زمان "طُلُوعِ" مضاف إليه "الشَّمْسِ" مضاف إليه "وَقَبْلَ" معطوف على قبل "غُرُوبِها" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَمِنْ" الواو عاطفة ومن حرف جر "آنَاءِ" اسم مجرور متعلقان بسبح "اللَّيْلِ" مضاف إليه "فَسَبِّحْ" الفاء زائدة وسبح أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "وَأَطْرافَ" الواو عاطفة أطراف معطوف على ما قبل "النَّهارِ" مضاف إليه "لَعَلَّكَ" لعل واسمها "تَرْضى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة فاعله مستتر والجملة خبر لعل وجملة "لَعَلَّكَ تَرْضى . ." في محل نصب على الحال من فاعل سبح . "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَمُدَّنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا الناهية والفاعل ضمير مستتر "عَيْنَيْكَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى والكاف مضاف إليه "إِلى" حرف جر "ما" موصول وهما متعلقان بتمدن والجملة معطوفة "مَتَّعْنا" ماض وفاعل "بِهِ" متعلقان بمتعنا "أَزْواجاً" مفعول به أول وأزواجا أي أصنافا "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة "زَهْرَةَ" مفعول به ثان لمتع وقد جاز ذلك لأن معنى متع أعطى . "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة والجملة صلة "لِنَفْتِنَهُمْ" اللام لام التعليل نفتنهم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والهاء مفعول به واللام ومجرورها متعلقان بمتعنا "فِيهِ" متعلقان بنفتنهم "وَرِزْقُ"

الواو واو الحال ورزق مبتدأ "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر "وَأَبْقى

"

(311/493)

الواو حرف عطف وأبقى معطوف على خير وهو مرفوع مثله بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر وجملة المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال.

[سورة طه (20) : الآيات 132 الى 133]

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (132)

وَقالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (133)

"وَأْمُرْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر "أَهْلَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة بالصلاة متعلقان بفعل وأمر "وَاصْطَبِرْ" الجملة معطوفة على وأمر "عَلَيْها" متعلقان باصطبر "لا نَسْئَلُكَ" لا نافية نسألك مضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به أول "رِزْقاً" مفعول به ثان والجملة استئنافية "نَحْنُ" مبتدأ "نَرْزُقُكَ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة خبر "وَالْعاقِبَةُ" الواو استئنافية والعاقبة مبتدأ "لِلتَّقْوى" متعلقان بخبر محذوف والجملة مستأنفة والجملة السابقة كذلك "وَقالُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله

والجملة مستأنفة "لَوْلا" حرف تحضيض "يَأْتِينا" مضارع فاعله مستتر ونا مفعول به "بِآيَةٍ" متعلقان بيأتينا "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بمحذوف صفة لآية والهاء مضاف إليه والجملة مقول القول "أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو عاطفة على مقدر محذوف تقديره ألم تأتهم البينات تترى وألم تأتهم بصورة خاصة ما في الصحف الأولى "لَمْ" حرف جازم "تَأْتِهِمْ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والهاء مفعول به "بَيِّنَةُ" فاعل "ما" موصول بدل أو مضاف إليه "فِي الصُّحُفِ" متعلقان بصلة محذوفة لاسم الموصول "الْأُولى" صفة للصحف مجرورة مثلها بالكسرة المقدرة على آخره.

[سورة طه (20) : الآيات 134 الى 135]

(312/493)

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى (135)

"وَلَوْ" الواو حرف استئناف ولو حرف شرط غير جازم "أَنَّا" أن ونا اسمها "أَهْلَكْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة خبر أن وجملة "أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ" استئنافية لا محل لها من

الإعراب "بِعَذابٍ" متعلقان بأهلكناهم "مِنْ قَبْلِهِ" صفة لعذاب والهاء مضاف إليه "لَقالُوا" اللام واقعة في جواب لو وقالوا ماض وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "لَوْلا" حرف تحضيض "أَرْسَلْتَ" ماض وفاعل "إِلَيْنا" متعلقان بأرسلت "رَسُولًا" مفعول به "فَنَتَّبِعَ" الفاء فاء السببية والمضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية فاعله مستتر "آياتِكَ" مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والكاف مضاف إليه "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بنتبع "أَنْ" حرف ناصب "نَذِلَّ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه "وَنَخْزى" معطوف على نذل.

"قُلْ" الجملة من فعل الأمر وفاعله مستأنفة "كُلٌّ" مبتدأ "مُتَرَبِّصٌ" خبر والجملة مقول القول "فَتَرَبَّصُوا" الفاء هي فاء الفصيحة تربصوا أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم تقديره إذا كان الأمر كذلك فتربصوا

(313/493)

"فَسَتَعْلَمُونَ" الفاء استئنافية والمضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "مَنْ" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "أَصْحابُ" خبر من والجملة سدت مسد مفعولي

فستعلمون "الصِّراطِ" مضاف إليه "السَّوِيِّ" صفة للصراط "وَمَنِ" الواو عاطفة ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "اهْتَدى" ماض فاعله مستتر والجملة في محل رفع خبر من وجملة "مَنِ اهْتَدى" معطوفة على من أصحاب. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ2 صـ254. 279﴾

(314/493)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة طه

ذكر فِيهَا تِسْعَة أَحَادِيث

782 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ يقوم فِي تَهَجُّده عَلَى إِحْدَى رجلَيْهِ فَأمره أَن يطَأ الأَرْض بقدميه مَعًا فَقيل طه وَأَصله طَأْهَا

قلت رَوَى الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا مُحَمَّد بن إِسْحَاق الْبَغْدَادِيّ حَدثنَا عبيد الله ابْن مُوسَى حَدثنَا كيسَان أَبُو عمر عَن يزِيد بن بِلَال عَن عَلّي قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم يرواح بَين قَدَمَيْهِ يقوم عَلَى كل رجل حَتَّى نزلت طه مَا أنزلنَا عَلَيْك الْقُرْآن لتَشْقَى

انْتَهَى

وَقَال أَحَادِيث يزِيد بن بِلَال عَن عَلّي لَا نعلم لَهُ طَرِيقا إِلَّا من حَدِيث كيسَان

انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الرَّابِع عشر مِنْهُ أخبرنَا أَبُو عَلّي الرُّوذبَارِي أَنا الْحُسَيْن بن الْحسن بن أَيُّوب الطوسي حَدثنَا أَبُو يَحْيَى بن أبي مَسَرَّة حَدثنَا خَلاد بن يَحْيَى حَدثنَا مُحَمَّد بن زِيَاد الْيَشْكُرِي حَدثنَا مَيْمُون بن مهْرَان عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أول مَا أنزل عَلَيْهِ الْوَحْي كَانَ يقوم عَلَى صُدُور قَدَمَيْهِ إِذا صَلَّى فَأَنْزل الله تَعَالَى طه مَا أنزلنَا عَلَيْك الْقُرْآن لتَشْقَى

انْتَهَى

وَرَوَى القَاضِي عِيَاض فِي الْبَاب الأول من الشّفَاء من حَدِيث عبد بن حميد حَدثنَا هَاشم بن الْقَاسِم عَن أبي جَعْفَر عَن الرّبيع بن أنس قَال كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا صَلَّى قَامَ عَلَى رجل وَرفع الْأُخْرَى فَأَنْزل الله تَعَالَى طه يَعْنِي طأ

الْأَرْض يَا مُحَمَّد مَا أنزلنَا عَلَيْك الْقُرْآن لتَشْقَى)

انْتَهَى

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد وَهُوَ الطَّبَرَانِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن زَكَرِيَّا الْغلابِي حَدثنَا شُعَيْب بن وَاقد الصفار حَدثنَا قيس بن الرّبيع عَن فطر بن خَليفَة عَن مُنْذر الثَّوْرِيّ عَن مُحَمَّد بن الْحَنَفِيَّة عَن عَلّي قَالَ لما نزل عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَيهَا المزمل قُم اللَّيْل إِلَّا قَلِيلا فَقَامَ اللَّيْل كُله حَتَّى تورمت قدماه فَجعل يرفع رجلا وَيَضَع أُخْرَى فهبط عَلَيْهِ جِبْرِيل فَقَالَ طه طأ الأَرْض بقدميك يَا مُحَمَّد مَا أنزلنَا عَلَيْك الْقُرْآن لتَشْقَى

انْتَهَى

حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد حَدثنَا مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن عَامر حَدثنَا أبي عَن جدي قَالَ سَمِعت نَهْشَلَا عَن الضَّحَّاك عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى طه قَالَ إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رُبمَا قَرَأَ الْقُرْآن إِذا صَلَّى فَقَامَ عَلَى رجل وَاحِدَة فَأَنْزل الله تَعَالَى طه بِرِجْلَيْك مَا أنزلنَا عَلَيْك الْقُرْآن لتَشْقَى

انْتَهَى

783 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه صَلَّى بِاللَّيْلِ حَتَّى اسمغدت قدماه فَقَالَ لَهُ جِبْرِيل أبق عَلَى نَفسك فَإِن لَهَا عَلَيْك حَقًا

قلت رَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الدَّعْوَات الْكَبِير أخبرنَا أَبو عبد الله الْحَافِظ أَخْبرنِي أَبو صَالح خلف بن مُحَمَّد حَدثنِي صَالح بن مُحَمَّد الْحَافِظ حَدثنَا مُحَمَّد بن عباد حَدثنِي حَاتِم بن إِسْمَاعِيل الْمدنِي عَن نصر بن كثير عَن يَحْيَى بن سعيد عَن عُرْوَة ابْن الزُّبَيْر عَن عَائِشَة قَالَت لما كَانَت لَيْلَة النّصْف من شعْبَان انْسَلَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من مِرْطِي ثمَّ قَالَت وَالله مَا كَانَ مِرْطنَا من خَز وَلَا قز وَلَا كُرْسُف وَلَا كتَّان وَلَا صوف قُلْنَا سُبْحَانَ الله فَمن أَي شَيْء كَانَ قَالَت إِن كَانَ سداه لشعرا وَإِن كَانَت لحْمَته لمن وبر الْإِبِل قَالَت فَخَشِيت أَن يكون أَتَى بعض

نِسَائِهِ فَقُمْت أَلْتَمِسهُ فِي الْبَيْت فَتَقَع قدمه عَلَى قدمي وَهُوَ ساجد فَحفِظت من قَوْله (سجد لَك سوَادِي وَآمن لَك فُؤَادِي أَبُوء لَك بالنعم وَاعْتَرَفت لَك بالذنُوب ظلمت نَفسِي فَاغْفِر لي ذنُوبِي إِنَّه لَا يغفر الذنُوب إِلَّا أَنْت) قَالَت فَمَا زَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُصَلِّي قَائِما وَقَاعِدا حَتَّى أصبح وَحَتَّى اسمغدت قدماه فَقُمْت أغمزها وَأَقُول بأبي أَنْت وَأمي يَا رَسُول الله أَتعبت نَفسك أَلَيْسَ قد غفر الله لَك مَا تقدم من ذنْبك وَمَا تَأَخّر فَقَالَ يَا عَائِشَة (أَفلا أَكون عبدا شكُورًا)

انْتَهَى

وَلَيْسَ فِيهِ كَلَام جِبْرِيل

784 - قَوْله أَمر مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام فَخلع نَعْلَيْهِ لِأَنَّهُمَا كَانَا من جلد حمَار ميت غير ذكي

(317/493)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث حَفْص بن غياث عَن حميد بن قيس عَن عبد الله بن الْحَارِث عَن ابْن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يَوْم كلم الله مُوسَى كَانَ عَلَيْهِ جُبَّة صوف وَسَرَاويل صوف وَكسَاء صوف وَنَعْلَان من جلد حمَار غير ذكي)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط البُخَارِيّ وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي اللبَاس وَقَالَ حَدِيث غَرِيب لَا يعرف إِلَّا من حَدِيث حميد بن عَلّي الْأَعْرَج وَهُوَ مُنكر الحَدِيث وَحميد بن قيس الْأَعْرَج الْمَكِّيّ صَاحب مُجَاهِد ثِقَة

انْتَهَى

وَكَانَ الْحَاكِم وهم فِي قَوْله حميد بن قيس فَلْيُرَاجع

785 - الحَدِيث الثَّالِث

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من نَام عَن صَلَاة أَو نَسِيَهَا فليصلها إِذا ذكرهَا)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث قَتَادَة عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من نسي صَلَاة أَو نَام عَنْهَا فكفارتها أَن يُصليهَا إِذا ذكرهَا)

انْتَهَى

وَرَوَى الْأَئِمَّة السِّتَّة بِهَذَا السَّنَد من نسي فليصلها إِذا ذكرهَا لَا كَفَّارَة لَهَا إِلَّا ذَلِك

انْتَهَى

786 - قَوْله وَقَرَأَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقِم الصَّلَاة لذكرى

(318/493)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه من حَدِيث عبد الله بن وهب أَخْبرنِي يُونُس عَن ابْن شهَاب عَن ابْن الْمسيب عَن أبي هُرَيْرَة فِي قصَّة التَّعْرِيس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِين قفل من غَزْوَة خَيْبَر فَسَار لَيْلَة حَتَّى إِذا أدْركهُ الْكرَى عرس . . . إِلَى أَن قَالَ ثمَّ توَضَّأ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأمر بِلَالًا فَأَقَامَ الصَّلَاة وَصلى لَهُم الصُّبْح فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاة قَالَ من نسي صَلَاة فليصلها إِذا ذكرهَا فَإِن الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ أَقِم الصَّلَاة للذِّكْرَى

قَالَ يُونُس وَكَانَ ابْن شهَاب يقْرؤهَا كَذَلِك

مُخْتَصرا

قَالَ الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره وَأخرجه مُسلم وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة وَينظر

وَرَوَاهُ مُسلم لم يذكر فِيهِ إِلَّا قَول يُونُس وَلَفظه فَلَمَّا قَضَى صلَاته قَالَ من نسي الصَّلَاة فليصلها

إِذا ذكرهَا فَإِن الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ أَقِم الصَّلَاة لذكرى قَالَ يُونُس وَكَانَ ابْن شهَاب يقْرؤهَا

للذِّكْرَى وَهِي عِنْد البُخَارِيّ معلقَة من حَدِيث أنس فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَن مُوسَى بن إِسْمَاعِيل

حَدثنَا همام عَن قَتَادَة عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من نسي صَلَاة

فليصلها إِذا ذكرهَا لَا كَفَّارَة لَهَا إِلَّا ذَلِك أَقِم الصَّلَاة لذكري ثمَّ قَالَ قَالَ مُوسَى قَالَ همام سمعته

يَقُول بعد أَقِم الصَّلَاة للذِّكْرَى وَقَالَ حبَان حَدثنَا همام حَدثنَا قَتَادَة عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . نَحوه

انْتَهَى

(319/493)

وَرَوَى عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن ابْن الْمسيب قَالَ لما قفل رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من خَيْبَر فَذكر قصَّة التَّعْرِيس . . . إِلَى أَن قَالَ فَلَمَّا فرغ قَالَ (من

نسي صَلَاة فليصلها إِذا ذكرهَا فَإِن الله يَقُول أَقِم الصَّلَاة لذكري قَالَ معمر فَقلت للزهْرِيّ

أبلغك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَقْرَأها للذِّكْرَى قَالَ نعم مُخْتَصر 787 قَوْله

وَعَن ابْن عَبَّاس كَانَ فِي لِسَان مُوسَى رثَّة لما رُوِيَ من حَدِيث الْجَمْرَة

قلت غَرِيب عَن ابْن عَبَّاس

وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك قصَّة مُوسَى وَفرْعَوْن عَن وهب بن مُنَبّه . . . فَذكرهَا إِلَى أَن قَالَ فَمَكث مُوسَى عِنْد أمه حَتَّى فطمته ثمَّ ردته إِلَيْهِ فَنشَأَ مُوسَى فِي حجر فِرْعَوْن وَامْرَأَته فاتخذاه ولدا فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا يلْعَب بَين يَدي فِرْعَوْن وَبِيَدِهِ قضيب خَفِيف إِذْ رفع الْقَضِيب فَضرب بِهِ رَأس فِرْعَوْن فَغَضب فِرْعَوْن وَتطير مِنْهُ حَتَّى هم بقتْله فَقَالَت لَهُ آسِيَة أَيهَا الْملك لَا تغْضب فَإِنَّهُ صَغِير لَا يعقل وَجَربه إِن شِئْت اجْعَل فِي هَذَا جَمْرَة وذهبا فَانْظُر أَيهمَا يقبض فَأمر فِرْعَوْن بذلك فَلَمَّا مد مُوسَى يَده ليقْبض عَلَى الذَّهَب قبض الْملك الْمُوكل بِهِ عَلَى يَده فردهَا إِلَى الْجَمْرَة فَأَخذهَا وَأَلْقَاهَا فِي فِيهِ ثمَّ قذفهَا حِين وجد حَرَارَتهَا فَقَالَت آسِيَة أَلم أقل لَك فَكف عَنهُ فِرْعَوْن . . . وَيُقَال إِن الْعقْدَة الَّتِي فِي لِسَان مُوسَى أثر تِلْكَ الْجَمْرَة الَّتِي التقمها وَسكت عَنهُ

(320/493)

وَحَدِيث الْجَمْرَة رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث ابْن عَبَّاس فَقَال أخبرنَا عبد الله بن مُحَمَّد حَدثنَا يزِيد بن هَارُون أَنا أصبغ بن زيد حَدثنَا الْقسم بن أبي أَيُّوب أَخْبرنِي سعيد بن جُبَير قَال سَأَلت عبد الله بن عَبَّاس عَن قَول الله تَعَالَى لمُوسَى وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَذكر حَدِيث الْفُتُون بطُولِهِ إِلَى أَن قَال فَلَمَّا دخلت امْرَأَة فِرْعَوْن

بمُوسَى عَلَى فِرْعَوْن فَجعله فِي حجره فَتَنَاول مُوسَى لحية فِرْعَوْن فَمدَّهَا إِلَى الأَرْض فَقَال لَهَا مَا بدا لَك فِي هَذَا الْغُلَام أَلا ترين مَا يصنع قَالَت اجْعَل بيني وَبَيْنك أمرا تعرف فِيهِ الْحق ائْتِ بجَمْرَتَيْن ولؤلؤتين فَقَربهُنَّ إِلَيْهِ فَإِن بَطش باللُّؤْلُؤ واجتنب الْجَمْرَتَيْن عرفت أَنه يعقل وَإِن تنَاول الْجَمْرَتَيْن وَلم يرد اللُّؤْلُؤَتَيْن علمت أَن أحدا لَا يُؤثر الْجَمْرَتَيْن عَلَى اللُّؤْلُؤَتَيْن وَهُوَ يعقل فَقرب ذَلِك إِلَيْهِ فَتَنَاول الْجَمْرَتَيْن فانتزعوها مِنْهُ مَخَافَة أَن تحرقا يَده فَقَالَت الْمَرْأَة أَلا ترَى فَصَرفهُ الله عَنهُ بَعْدمَا كَانَ قد هم بِهِ

مُخْتَصر

788 - الْحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَنه كَانَ فِي لسَان الْحسن بن عَلّي رثَّة فَقَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ورثها من عَمه مُوسَى)

قلت غَرِيب جدا

789 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تَمسحُوا بِالْأَرْضِ فَإِنَّهَا بكم برة)

(321/493)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الصَّغِير حَدثنَا حَملَة بن مُحَمَّد الْغَزِّي بِمَدِينَة غَزَّة حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد بن عَمْرو الْغَزِّي أَنا مُحَمَّد بن يُوسُف الْفريَابِيّ حَدثنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن عَوْف عَن أبي عُثْمَان النَّهْدِيّ عَن سلمَان الْفَارِسِي قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تَمسحُوا بِالْأَرْضِ فَإِنَّهَا بكم برة)

انْتَهَى

ثمَّ قَالَ لم يروه عَن الثَّوْرِيّ إِلَّا الْفريَابِيّ

انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي بَاب التَّيَمُّم حَدثنَا ابْن علية عَن عَوْف عَن أبي عُثْمَان النَّهْدِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره مُرْسلا

قَالَ ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب تفرد بِهِ الْفريَابِيّ عَن الثَّوْرِيّ وَالْفريَابِي ثِقَة

والمرسل أشبه بِالصَّوَابِ

انْتَهَى

790 - قَوْله وَفِي حَدِيث عمر إِنِّي لأكْره أَن أرَى أحدكُم فَارغًا سَبَهْلَلا) لَا فِي أَمر دنيا وَلَا فِي أَمر آخِرَة

قلت لم أَجِدهُ إِلَّا من قَول ابْن مَسْعُود هَكَذَا رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية وَابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد

وَذكره الْمُصَنّف أتم من هَذَا فِي سُورَة أَلم نشرح وَسَيَأْتِي هُنَاك إِن شَاءَ الله

791 - الْحَدِيث السَّادِس قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي موت الْفجأَة (رَحْمَة للْمُؤْمنين وَأَخْذَة أَسف للْكَافِر)

(322/493)

قلت رَوَى أَحْمد فِي مُسْنده حَدثنَا وَكِيع حَدثنَا عبيد الله بن الْوَلِيد عَن عبيد الله ابْن عبيد بن عُمَيْر عَن عَائِشَة قَالَت سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن موت الْفجأَة فَقَالَ (رَاحَة لِلْمُؤمنِ وَأَخْذَة أَسف لِلْفَاجِرِ)

انْتَهَى

وَرَوَى عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الْجَنَائِز أَنا يَحْيَى بن الْعَلَاء عَن ابْن سابط عَن حَفْصَة بنت عبد الرَّحْمَن عَن عَائِشَة قَالَت سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (موت الْفجأَة تَخْفيف عَلَى الْمُؤمن وَأَخْذَة أَسف عَلَى الْكَافِر)

انْتَهَى

ثمَّ رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق مَوْقُوفا عَلَى عَائِشَة

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه مَوْقُوفا أَيْضا

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْجَنَائِز مَوْقُوفا عَلَى عَائِشَة وَعَلَى ابْن مَسْعُود من طرق

وَكَذَلِكَ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد رَوَاهُ مَوْقُوفا عَلَى عَائِشَة وَابْن مَسْعُود

وَقَالَ الْأَزْدِيّ فِي كِتَابه لهَذَا الحَدِيث طرق لَا يَصح فِيهَا شَيْء عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

انْتَهَى

وَأَعَادَهُ فِي الزخرف

وَرَوَى أَبُو حَفْص عمر بن شاهين فِي كتاب الْجَنَائِز حَدثنَا عبيد الله بن عمر ابْن سعيد الطَّالقَانِي حَدثنَا عمار بن عبد الْمجِيد حَدثنَا مُحَمَّد بن مقَاتل الرَّازِيّ عَن حَفْص بن هَارُون عَن سمْعَان بن الْمهْدي عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (موت الْفجأَة رَحْمَة للْمُؤْمنين وَعَذَاب للْكَافِرين)

انْتَهَى

وَأخرج أَبُو دَاوُود عَن عبيد بن خَالِد مَرْفُوعا وموقوفا موت الْفجأَة أَخْذَة أَسف

قَالَ النَّوَوِيّ فِي الْخُلَاصَة وَسَنَده صَحِيح والإسف بِالْكَسْرِ الْغَضَب

انْتَهَى

792 - الحَدِيث السَّابِع

(323/493)

عَن عبد الله بن قسيط عَن رَافع قَالَ بَعَثَنِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى يَهُودِيّ وَقَالَ قل لَهُ يَقُول لَك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَقْرضنِي إِلَى رَجَب) فَقَالَ وَالله لَا أَقْرَضته إِلَّا برهن فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنِّي لأمين فِي السَّمَاء وَأمين فِي الأَرْض) زَاد فِي بعض النّسخ احْمِلْ إِلَيْهِ دِرْعِي الْحَدِيد)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة الربذي عَن يزِيد ابْن عبد الله بن قسيط عَن أبي رَافع مولَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أضَاف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَنِيفا فَلم يكن عِنْد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا يصلح فَأَرْسل

إِلَى رجل من الْيَهُود يَقُول لَك مُحَمَّد رَسُول الله (أَسْلفنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَال رَجَب) قَالَ لَا إِلَّا برهن فَأتيت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبَرته فَقَالَ (أما وَالله إِنِّي لأمين فِي السَّمَاء أَمِين فِي الأَرْض وَلَو أَسْلفنِي أَو بَاعَنِي لَأَدَّيْت إِلَيْهِ)

فَلَمَّا خرجت من عِنْده نزلت هَذِه الْآيَة وَلَا تَمُدَّن عَيْنَيْك إِلَى مَا متعنا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُم . . . إِلَى آخر الْآيَة تَعْزِيَة عَن الدُّنْيَا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعنهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم كَذَلِك سندا ومتنا وَزَادُوا فِيهِ اذْهَبْ بِدِرْعِي الْحَدِيد إِلَيْهِ وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول وَسكت الْبَزَّار عَنهُ

(324/493)

وَذكر الطِّيبِيّ هُنَا إِشْكَالًا فَقَالَ وَفِيه نظر لأَن هَذِه السُّورَة مَكِّيَّة وَرهن الدرْع عِنْد الْيَهُودِيّ مدنِي كَمَا ورد فِي الْبُخَارِيّ فِي الْبيُوع عَن قَتَادَة عَن أنس وَلَقَد رهن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم درعا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْد يَهُودِيّ وَأخذ مِنْهُ شَعِيرًا لأَهله وسمعته يَقُول مَا أَمْسَى عِنْد آل مُحَمَّد صَاع بر وَلَا حب وَإِن عِنْده لتسع نسْوَة وَرَوَى فِي الْجِهَاد أَيْضا عَن الْأَسود

عَن عَائِشَة قَالَت توفّي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَدِرْعه مَرْهُونَة عِنْد يَهُودِيّ

سَلَفهُنَّ صَاعَانِ من شعير

انْتَهَى

وَقد يُجَاب عَن هَذَا بِأَنَّهُمَا وَاقِعَتَانِ بدَلِيل أَن الْمَطْلُوب فِي الحَدِيث الأول دَقِيق وَفِي الثَّانِي شعير وَالْمَطْلُوب لَهُ فِي الأول الضَّيْف وَفِي الثَّانِي أَهله

وَفِي مُسْند إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه أَنا عِيسَى بن يُونُس حَدثنَا مجَالد عَن الشّعبيّ قَالَ مَاتَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَدِرْعه مَرْهُونَة فَافْتَكَّهَا أَبُو بكر وَسلمهَا إِلَى عَلّي

انْتَهَى هَكَذَا رَوَاهُ مُرْسلا ذكره فِي مُسْند جَابر عَن الشّعبيّ عَنهُ

وَرُوِيَ أَيْضا أخبرنَا مُحَمَّد بن الفضيل حَدثنَا الْأَعْمَش عَن أنس قَالَ كَانَت لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم درع مَرْهُونَة عَن يَهُودِيّ فَمَا وجد مَا يَفْتكهَا بِهِ حَتَّى مَاتَ

انْتَهَى

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجة من حَدِيث عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قبض النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَإِن درعه مَرْهُونَة عِنْد رجل يَهُودِيّ عَلَى ثَلَاثِينَ صَاعا من شعير أَخذهَا رزقا لِعِيَالِهِ قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح

793 - الحَدِيث الثَّامِن عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة طه أعطي يَوْم الْقِيَامَة ثَوَاب الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار)

قلت ذكره ابْن غَنَائِم التنيسِي فِي كتاب الْفَائِق فِي اللَّفْظ الرايق

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

794 - الحَدِيث التَّاسِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَا يقْرَأ أهل الْجنَّة من الْقُرْآن إِلَّا طه وَيس)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو عَمْرو . . . حَدثنَا أَبُو نصر مَنْصُور بن مُحَمَّد السَّرخسِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن الْفضل حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن يُوسُف حَدثنَا الْمسيب عَن زِيَاد عَن الْحسن أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ . . . الحَدِيث . انتهى انتهى . اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 347.356﴾

(326/493)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة طه

قوله تعالى : (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) ، الآية/ 12 .

يحتمل أن يكون الأمر به تعبدا تبركا بالموضع ليمسه قدمه حافيا .

وقد قيل : كان ذلك من جلد حمار ميت غير مدبوغ ، فأمره بخلعه ، لأنه لم يكن مدبوغا ، أو كان نجسا مدبوغا مع الدبغ في شريعة موسى ، ونسخ في شرعنا «1» .

قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) ، الآية/ 14 .

صح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نام عن صلاة الصبح فصلاها بعد طلوع الشمس وقال : «إن اللّه تعالى يقول : أقم الصلاة لذكري» «2» .

---

(1) والمعنى : أنت الآن في واد مقدس ، يجب فيه رعاية الأدب ، بتعظيمه واحتراما لتجلى الحق فيه ، كما يراعى أدب القيام عند الملوك ، وطوى : اسم للوادي .

(2) أخرجه الحسن ومجاهد والزهري عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه .

وقال عليه الصلاة والسلام : «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة له إلا ذلك» .

وفي السلف من خالف ذلك وقال : يصبر إلى مثل وقته ويصلي ، وإذا فاتت الصبح يصليها من الغد ، وهذا قول شاذ بعيد «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 273.274﴾

---

(1) انظر أحكام القرآن للجصاص .

(328/493)

وقال العلامة القنوجى :

سورة طه

آياتها مائة وخمس وثلاثون آية

وهي مكّية ، قال القرطبي «1» : في قول الجميع .

وكان ذلك سبب إسلام عمر رضي اللّه عنه ، والقصة مشهورة في كتب السير «2» .

[الآية الأولى]

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (131) .

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ : مدّ النظر تطويله ، وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به .

وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه ، وذلك بأن يبادر الشيء بالنظر ثم يغض الطرف .

إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ : أي لا تطمح بنظرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها ، ولا تطل نظر عينيك إلى ذلك .

وأَزْواجاً مِنْهُمْ : مفعول متعنا .

والأزواج : الأصناف . قاله ابن قتيبة .

وقال الجوهري : الأزواج : القرناء «3» .

---

(1) في «تفسيره» (11/ 163) .

وانظر أيضا : الفراء (2/ 174) ، الأخفش (406) ، والمجاز (2/ 15) ، والطبري (16/ 102) ، والنكت (3/ 7) ، والزاد (5/ 269) ، والمشكل لمكي (ص 151) .

(2) انظر : سيرة ابن هشام (1/ 270 ، 276) .

(3) انظر : الصحاح (زوج) .

قال الواحدي : إنما يكون مادا عينيه إلى الشيء إذا داوم النظر نحوه ، وإدامته النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه .

وقال بعضهم : معنى الآية ولا تحسدن أحدا على ما أوتي من الدنيا ، وردّ بأن الحسد منهي عنه مطلقا .

زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا أي زينتها وبهجتها ، بالنبات وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 377.376 ﴾

(330/493)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة طه» (20)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«طه» ساكن لأنه جرى مجرى فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجي ومجاز موضعه فى المعنى كمجاز ابتداء فواتح سائر السور ، قال أبو طفيلة الحرمازي ،

فزعم أن طه «يا رجل» ، ولا ينبغى أن يكون اسما لأنه ساكن ولو كان اسما لدخله الإعراب .

«ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى » مجازه مجاز المقدّم والمؤخّر وفيه ضمير ، وله موضع آخر من المختصر الذي فيه ضمير : ما أنزلنا عليك القرآن إلّا تذكرة لمن يخشى لا لتشقى والموضع الآخر : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وما أنزلناه إلّا تذكرة لمن يخشى .

«الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى » أي علا ، يقال : استويت فوق الدابة وعلى البعير وعلى الجبل وفوق البيت ، أي علوت عليه وفوقه ، ورفع الرحمن فى مكانين : أحدهما على القطع من الأول المجرور والابتداء وعلى إعمال الفعل ، مجازه : استوى الرحمن على العرش .

(331/493)

«فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى » (7) يعنى والخفىّ الذي حدّثت به نفسك ولم تسرّه إلى أحد ، وقد بوضع «افعل» فى موضع الفاعل ونحوه ، قال :

تمنّى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

«1» [531] وله موضع آخر من المختصر الذي فيه ضمير يعلم السّرّ وأخفى من السّر .

«بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» (12) يكسر أوله قوم ويضمه قوم كمجاز قوله :

ألا يا سلمى يا هند هند بنى بدر وإن كان حيانا عدى آخر الدّهر

«2» [532] وعدى ومن جعل طوى اسم أرض لم ينوّن فيه لأنه مؤنث لا ينصرف ومن جعله اسم الوادي صرفه لأنه مذكر ، ومن جعله مصدرا بمعنى «نودى مرّتين» صرفه كقولك : ناديته ثنى وطوى ، قال عدىّ بن زيد :

أعازل أن اللّوم فى غير كنهه علىّ ثنى من غيّك المتردد

«3» [533] ويقول قوم : علىّ ثنى أي مرة :

«أَكادُ أُخْفِيها» (15) له موضعان موضع كتمان وموضع إظهار كسائر حروف الأضداد أنشدنى أبو الخطّاب قول امرئ القيس بن عابس الكندي عن أهله فى بلده .

---

(1) . - 531 : أنشده أبو عبيدة فى مواضع ونسبه مرة إلى طرفة ولم أجده فى ديوانه وهو فى الطبري 16/ 93 ، 21/ 22 وفى القرطبي ، 1/ 21 والتاج (وحد) .

(2) . - 532 : مطلع قصيدة طويلة فى ديوان الأخطل ص 128 وهو فى الطبري 19/ 84 واللسان (عدا) . [. . . . .]

(3) . - 533 : فى الطبري 16/ 96 والتاج (ثنى) .

وإن تدفنوا الدّاء لا نخفيه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

«1» [534] أي لا نظهره. ومن يلغى الألف منها فى هذا المعنى أكثر، وقال علقمة ابن عبدة وقال بعضهم امرؤ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشىّ مجلّب

«2» [535] أي أظهرهن، ويقال: خفيت ملّتى من النار، أي أخرجتها منها وكذلك خفايا الركايا، تقول خفيت ركّية، أي استخرجتها.

«فَتَرْدى» (16) فتهلك، يقال: رديت، تقديرها، شقيت، وقال دريد، حيث تنادوا:

تنادوا فقالوا أردت الخيل فارسا فقلت أعبد اللّه ذلكم الرّدى

«3» [536]

«وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي» (18) أي أختبط بها فأضرب بها الأغصان ليسقط ورقها على غنمى فتأكله، قال:

أهشّ بالعصا على أغنامى من ناعم الأراك والبشام

«4» «5» [537] «مَآرِبُ أُخْرى» (18) واحدتها مأربة ومأربة، الراء مفتوحة ويضمها قوم، ومعناها حوائج وهى من قولهم: لا أرب لى فيها، أي لا حاجة لى.

(1) . - 534 : ديوانه من الستة ص 123 وفى الطبري 16/ 101 والقرطبي 11/ 183 واللسان والتاج (خفى) (ص 16) 13 - 1 «أنشدنى . . . لا نقعد» : روى الطبري هذا الكلام عن أبى عبيدة (16/ 101) .

(2) . - 535 : وجدته فى ديوان امرئ القيس من السته ص 118 وهو فى السمط ص 550 واللسان والتاج (خفى) .

(3) . - 536 : «دريد» هو دريد بن الصمة . والبيت فى الجمهرة 3/ 241 .

(4) . - 537 : فى الطبري 16/ 102 والقرطبي 11/ 187 .

(5) . - 538 : من قصيدة مفصلية (شرحها ص 568) وفى جمهرة الأشعار ص 126 والبيت فى اللسان (سعى) .

(333/493)

«سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى» (21) أي خلقتها التي كانت عليها قبل ذلك وقد يجعلون أيضا بينها وبين الذي قبلها «إلى» ، كقولهم لمن كان على شىء فتركه ثم عاد إليه وتحوّل عن هذا : عاد فلان إلى سيرته الأولى ، قال : سمعت أبا زيد يقول : إلى إدرونه «1» الأولى .

«وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ» (22) مجازه : إلى ناحية جنبك ، والجناحان هما الناحيتان

، قال :

أضمّه للصدر والجناح

«2» [539] «تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» (22) أي تخرج نقيّة شديدة البياض من غير برص ، والسوء كل داء معضل من جذام أو برص ، أو غير ذلك .

«لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى » (23) مجازها مقدّم ومؤخر ، أي لنريك الكبرى من آياتنا ، أي من عجائبنا . ومجاز الكبرى : الكبيرة من آياتنا ، وقع المعنى على واحدة .

«وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي» (27) مجاز العقدة «3» فى اللسان كل ما لم ينطلق بحرف أو كانت منه مسكة من تمتمة أو فأفأة .

«اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي» «4» (31) أي ظهرى ، معناه صار مثلى ، وعاوننى على من يكفله ، ويقال : قد أزرنى ، أي كان لى ظهرا ، وآزرنى أي صار لى وزيرا .

---

(1) . - 4 «إدرون» : يقال رجع إلى إدرونه أي وطنه (اللسان) .

54 هـ : ديوانه ص 220 .

(2) . - 539 : فى الطبري 16/ 104 والقرطبي 11/ 191 .

(3) . - 13 «عقدة» : وقد أورد البخاري (4/ 152) تفسير هذه الكلمة بقوله : «و قال غيره كلما لم ينطلق . . إلخ» : وقال ابن حجر فى فتح الباري (6/ 304) هو قول أبى

عبيدة.

(4) . - 15 «أَزْرِي» : روى تفسير هذه الكلمة فى فتح الباري 6/ 304 .

(334/493)

«فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ» (39) أي ارمى به فى البحر ، واليمّ معظّم البحر ، قال العجّاج :

كباذخ اليمّ سقاه اليمّ

(256) «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» (39) مجازه : جعلت لك محبة منى فى صدور الناس ، ويقول الرجل إذا أحبّ أخاه : ألقيت عليك رحمتى ، ى محبتى «1» .

«وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي» (39) مجازه ولتغذى «2» ولتربّى على ما أريد وأحب ، يقال : اتخذه لى على عينى ، أي على ما أردت وهويت .

«عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ» (40) أي يضمه ، وقال اللّه «وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا» (3/ 37) أي ضمها .

«وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً» (40) مجازه : وابتليناك .

«أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا» (45) مجازه أن يقدم علينا ببسط وعقوبة ويعجل علينا ، وكل متقدّم أو متعجّل فارط ، قال :

---

(1) . - 5 - 6 «ألقيت . . . محبتى» : كما فى الطبري 16/ 106 .

(2) . - 7 «ولتغذى ولتربى» : كما فى غريب القرآن لليزيدى 22 ب والقرطبي 11/ 197 .

(335/493)

قد فرط العلج علينا وعجل

«1» [541] وإذا أدخلوا فى أوله الألف فقالوا أفرط علينا فان معناه اشتطّ وتعدّى .

«إِنِّني مَعَكُما» (46) مجازه أعينكما . .

«فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى» (51) أي ما خبر الأمم الأولى وما حديثهم . .

«لِأُولِي النُّهى» (54) مجازه لذوى الحجى واحدتها نهية ، أي أحلام وعقول وانتهى إلى عقول أمرهم ورأيهم ومجاز قولهم لذى حجى «2» أي لذى عقل ولبّ . .

«مَكاناً سُوىً» (58) يضم أوله ويكسر وهو منقوص يجرى مجرى عدى وعدى ، والمعنى النّصف ، والوسط فيما بين القريتين «3» . وقال موسى ابن جابر الحنفىّ :

وإنّ أبانا كان حلّ ببلدة سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

«4» [542] والفزر سعد بن زيد مناة «5» . .

«مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ» (59) مجازه يوم العيد . .

«وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى» (59) أي يساق الناس فيجتمعون من كل فجّ . .

«فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ» (61) مجازه : فيهلكم ، وفيه لغتان سحت

---

(1) . - 541 : فى الطبري 16/ 113 والقرطبي 11/ 201 .

(2) . «لذى حجى» : أي لذى حجر كما سيأتى فى تفسير سورة الفجر (89/ 5) .

[. . . . .]

(3) . - 9 - 12 «القريتين . . . مناة» : روى القرطبي (11/ 212) هذا الكلام عن أبى عبيدة .

(4) . - 542 : «موسى» : هو موسى بن جابر بن أرقم بن سبلة بن عبيد الحنفي شاعر مخضرم نصرانى أنظر ترجمته فى الأغانى 10/ 107 وذيل السمط ص 35 والخزانة 1/ 146 . -

والبيت فى الطبري 16/ 118 والجمهرة 2/ 323 والأغانى 10/ 107 والقرطبي 11/ 212 والخزانة 1/ 146 .

(5) . - 12 «والفزر . . . مناة» : كما فى الخزانة .

الدهر والجدب بنى فلان ، وقوم يقولون : أسحته بالألف وقال الفرزدق :

ومضّ زمان يا ابن مروان لم يدع «1» من المال إلّا مسحت أو مجلّف

«2» [543] والمسحت المهلك ، والمجلّف : الذي قد بقي منه بقية ، ولم يدع ، أي لم يبق

وقال سويد بن أبى كاهل :

أرّق العين خيال لم يدع من سليمى ففوادى منتذع

«3» [544] لم يدع أي لم يستقر . .

«إِنْ هذانِ لَساحِرانِ» (63) قال أبو عمرو وعيسى ويونس «إنّ هذين لساحران» فى اللفظ وكتب «هذان» كما يزيدون وينقصون فى الكتاب واللفظ صواب . وزعم أبو الخطّاب أنه سمع قوما من بنى كنانة وغيرهم يرفعون الاثنين فى موضع الجر والنصب ، قال بشر بن هلال «إِنْ» بمعنى الابتداء والإيجاب ، ألا ترى أنها تعمل فيما يليها ولا تعمل فيما بعد الذي بعدها فترفع الخبر ولا تنصبه كما تنصب الاسم فكان مجاز

---

(1) . - 6 «لم يدع» : يفتح الدال كما ذكروا فى المعاجم ونص عليه الأنبارى بأنه بكسر الدال أي لم يسكن ولم يستقر (اللسان) .

(2) . - 543 : ديوانه ص 556 والطبري 16/ 119 وشرح المفضليات ص 396 والجمهرة 2/ 107 واللسان والتاج (جلف ، سحت) والقرطبي 11/ 215 والخزانة 2/ 347 .

(3) . - 544 : سويد بن أبى كاهل : شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية دهرا وعمر فى الإسلام عمرا طويلا ، وانظر ترجمته فى طبقات الشعراء للجمحى ص 45 والشعراء ص 250 والأغانى 11/ 165 . - والبيت من قصيدة مفضلية (ص 381 - 409) قد كانت تسمى اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال والبيت أيضا فى النقائض ص 557 واللسان والتاج (ودع) .

(337/493)

«إِنْ هذانِ لَساحِرانِ» «1» مجاز كلامين ، مخرجه : إنه أي نعم ، ثم قلت : هذان ساحران ، ألا ترى أنهم يرفعون المشرك كقوله :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنّى وقيّار بها لغريب

(207) وقوله :

إنَّ شَرخ الشَّباب والشّعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

(291) وقوله :

إنّ السيوف غدوّها ورواحها تركت هوازن مثل قرن الأعضب

«2» «3» [545] ويقول بعضهم «إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» (33/ 56)

فيرفعون ملائكته على شركة الابتداء ولا يعملون فيها «إن» ، وقال سمعت الفصحاء من المحرمين يقولون : إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وقرأها قوم على تخفيف نون «إن» وإسكانها وهو يجوز لأنهم قد أدخلوا اللام فى الابتداء وهى فضل ، قال :

«أم الحليس لعجوز شهربه»

(255) _____

(1) . - 7 (من ص 21) - «قال . . . ساحران» : قال الطبري (16/ 121) وحدثت عن أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وروى الكلام سوى البيت رقم (291) .

(2) . - 545 : هو للأخطل ، فى ديوانه ص 28 والكامل ص 439 والجمهرة 1/ 303 واللسان والتاج (عضب) .

(3) . - 546 : لم أجده فى شعر كعب ولكننى وجدته فى ديوان أبيه زهير من كلمة 26 بيتا ص 354 - 365 .

وزعم قوم أنه لا يجوز لأنه إذا خفّف نون «إن» فلا بد له من أن يدخل إلّا فيقول : إن هذان إلّا ساحران .

«بِطَرِيقَتِكُمُ» (63) مجازه بسنتكم ودينكم وما أنتم عليه ، ويقال فلان حسن الطريقة . .

«الْمُثْلى » (63) تأنيث الأمثل ، يقال : خذ المثلى منهما ، للأنثى ، وخذ الأمثل منهما ، إذا كان ذكرا «1» . .

«ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا» (64) أي صفوفا وله موضع آخر من قولهم : هل أتيت الصفّ اليوم يعنى المصلّى الذي يصلى فيه «2» . قال أبو عبيدة قال أبو العرب الكليبى ما استطعت أن آتى الصف أمس يعنى المصلّى . . «3»

«فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً» (67) أي أضمر وأحسّ منهم خيفة ، أي خوفا فذهبت الواو فصارت ياء من أجل كسرة الخاء . .

«وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى » (69) أي حيث كان . .

«لَكَبِيرُكُمُ» (71) أي معلمكم قال أبو عبيدة سمعت بعض المكّيين (قال) يقول : الغلام لمستأجره كبيرى . .

«فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» (71) أي على جذوع النخل ، قال : «4»

---

(1) . - 5 «المثلى . . . ذكرا» : هذا الكلام فى الطبري 16/ 121 وأورد البخاري تفسير الآية مرة فى أحاديث الأنبياء ومرة فى كتاب التفسير وأشار ابن حجر (فتح الباري

6/ 304 ، 8/ 328) إلى أنه كلام أبى عبيدة.

(2) . - 7 - 8 «صفوفا . . . فيه» : وفى الطبري (16/ 121 : ومعناه : ثم ائتوا صفوفا وللصف فى كلام العرب موضع آخر وهو فى قول العرب «أتيت الصف اليوم» يعنى به المصلى.

(3) . - 8 - 9 «قال . . . المصلى» : وفى القرطبي (11/ 221 : قال أبو عبيدة : يقال أتيت الصف يعنى المصلى فالمعنى عنده ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه يوم العيد وحكى عن بعض فصحاء العرب «ما قدرت . . . إلخ».

(4) . - 14 «قال» يقتضيه السياق.

(339/493)

هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة فلا عطست شيبان إلّا بأجدعا

«1» [547].

«فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ» (72) مجازه : اصنع ما أنت صانع وأنفذ ما أنت منفذ فقد قضى قضاؤك، وقال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبّع

(62) أي صنعهما وأحكمهما . .

«إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا» (72) وله موضع آخر فى معنى إنما تخلّف هذه الحياة الدنيا ، كقولك قضيت سفرى . .

«أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي» (77) وقوم يجعلونه بغير ألف فيقولون : سريت وهو سرى الليل أي سير الليل . .

«طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً» (77) متحرك الحروف بالفتحة والمعنى يابسا ، ويقال : شاة يبس بفتح الباء أي يابسة ليس لها لبن ، وبعضهم يسكّن الباء قال علقمة بن عبدة :

تخشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

«2» [548] .

«فَنَسِيَ أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا» (88 - 89) مجازه أنه لا يرجع إليهم قولا ومن لم يضمر الهاء نصب «أَلَّا يَرْجِعُ» .

---

(1) . - 547 : لسويد بن أبى كاهل اليشكري وهو فى الكامل ص 488 والطبري 16/ 127 والاقتضاب ص 431 والقرطبي 11/ 224 وفتح الباري 6/ 304 وشواهد المغني ص 164 . [. . . . .]

(2) . - 548 : ديوانه من الستة ص 107 والاقتضاب ص 460 واللسان والتاج (يبس) .

«لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ» (91) مجازه لن نزال ، قال أوس بن حجر :

فما برحت خيل تثوب وتدّعى ويلحق منها لاحق وتقطّع

(363) أي فما زالت . .

اَ بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي»

(94) فتح بعضهم الميم لأنهم جعلوه اسمين بمنزلة خمسة عشر لأنهما اسمان فأجروهما مجرى اسم واحد كقولهم : هو جارى بيت بيت ولقيته كفّة كفّة ، وكسر بعضهم الميم فقال يا ابن أمّ بغير ياء ولا تنوين كما فعلوا ذلك بقولهم : يا زيد ، بغير تنوين ، وقال زهير :

تبصّر خليلى هل ترى من ظعائن تحمّلن بالعلياء من فوق جرثم

«1» [550] وأطلق بعضهم ياء الاضافة لأنه جعل النداء فى ابن فقال يا ابن أمي ، لأنه يجعل النداء فى ابن كما جعله فى زيد ثم أظهر فى الاسم الثاني ياء الاضافة كما قال :

يا ابن أمي ويا شقيّق نفسى أنت خلّيتنى لدهر شديد

«2» [551] وكذلك قال :

يا بنت عمى لاحنى الهواجر

«3» [552]

---

(1) . - 550 : ديوانة ص 9 .

(2) . - 551 : من كلمة طويلة فى جمهرة الأشعار ص 139 وهو فى الكتاب 1/ 296 والشنتمرى 1/ 318 والعيني 4/ 224 .

(3) . - 552 : فى شواهد الكشاف (147) مع شطر قبله .

(341/493)

فأطلق الياء وقال :

رجال ونسوان يودّون أننى وإياك نخزى يا ابن عمّ ونفضح

«1» [553] فلم يطلق ياء الإضافة وجرها بعضهم وفتحها آخرون . .

«لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي»

(94) مجازه لم تسمع قولى ولم تنتظر . وفى آية أخرى «لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» (9/ 10) أي لا يراقبون . .

«فَما خَطْبُكَ» (95) أي ما بالك وشأنك «2» وأمرك واحد . قال رؤبة :

والعبد حيّان بن ذات القنب يا عجبا ما خطبه وخطبى

«3» [554]

«قال بصرت بما لم تبصروا به» (96) أي علمت ما لم تعلموه وبصرت فعلت من البصيرة فصرت بها عالما بصيرا ولها موضع آخر قوم يقولون بصرت وأبصرت سواء بمنزلة سرعت وأسرعت ماشيت «4» . .

«فَقَبَضْتُ قَبْضَةً» (96) أي أخذت ملء جمع كفّى وقبضت قبضة أي .

تناولت بأطراف أصابعى . «سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» (96) أي زينت له وأغوته ، يقال : إنك لتسوّل لفلان سوء عمله ، أي تزيّن له . .

«لا مِساسَ» (97) إذا كسرت الميم دخلها النصب والجرّ والرفع بالتنوين فى مواضعهن وهى هاهنا منفية فلذلك نصبتها بغير تنوين قال الجعدىّ «5» «6» :

---

(1) . - 553 : ولم أجده فيما رجعت إليه .

(2) . - 6 «فما . . . وشأنك» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 6/ 304) .

(3) . - 554 : ديوانه ص 16 والشطر الثاني فى فتح الباري 6/ 304]

(4) . - 10 «سرعت . . . ماشيت» : هذا الكلام فى الطبري 16/ . 136

(5) . - 14 - 15 «إذا . . . الجعدي» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 6/ . 304

(6) . - 555 : عمران بن عصام : من بنى تميم ، شاعر إسلامي ، أنظر تاريخ الطبري ص 449 ، 1166 - 1167 من الدورة الثانية .

(342/493)

فأصبح من ذاك كالسامريّ إذ قال موسى له لا مساسا

«1» [556] وقال القلاخ بن حزن المنقريّ :

ووتّر الأساور القياسا صغديّة تنتزع الأنفاسا

»

[557] حتى يقول الأزد لا مساسا وهو المماسة والمخالطة ، ومن فتح الميم جعله اسما منه فلم يدخلها نصب ولا رفع وكسر آخرها بغير تنوين ، كقوله :

تميم كرهط السامريّ وقوله ألا لا يريد السامري مساس

«3» [558] جرّ بغير تنوين وهو فى موضع نصب لأنه أجرى مجرى «قطام» وحذام «4» .

ونزال» إذا فتحوا أوله وقال زهير :

ولنعم حشر الدّرع أنت إذا دعيت نزال ولجّ فى الذّعر

«5» [559] وإن كسروا أوله دخله الرفع والنصب والجر والتنوين فى مواضعها وهو المنازلة

---

(1) . - 556 : فتح الباري 6/ 305 .

(2) . - 557 : القلاح بن حزن : من بنى منقر بن عبيد يترجم له فى الشعراء ص 444 والمؤتلف ص 168 . - والشطران الأولان فى اللسان (قوس) والثالث فى القرطبي 11/ . 241

(3) . - 558 : فى القرطبي 11/ . 240

(4) . - 8 «قطام وحذام» : من أسماء النساء . [. . . . .]

(5) . - 559 : ديوانه ص 89 والكتاب 2/ 34 والكامل ص 68 والشنتمرى 2/ 37 واللسان (نزل) والخزانة 3/ 61 .

(343/493)

«الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً» (97) يفتح أوله قوم إذا ألقوا منه إحدى اللامين ويجزمون اللام الباقية لأنهم يدعونها على حالها فى التضعيف قبل التخفيف كقولك :

ظلت ، وقوم يكسرون الظاء إذا حذفوا اللام المكسورة فيحولون عليها كسرة اللام فيقولون

: ظلت عليه ، وقد تحذف العرب التضعيف قال :

خلا أنّ العتاق من المطايا أحسن به فهن إليه شوس

«1» [560] أراد أحسن به . .

«لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً» (97) مجازه : لنقذفنّه ولنذرينّه وكل شيء وضعته في منسف ثم طيّرت عنه غباره بيديك أو قشوره فقد نسفته أيضا ، وما زلنا ننسف منذ اليوم أي نمشي ، وفي آية أخرى «فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً» (20/ 105) . .

«وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً» (98) مجازه : أحاط به علما وعلمه ، ويقال :

لا أسع لهذا الذي تدعوني إليه ، أي لا أقوم به ولا أقوى له ، قال أبو زبيد :

حمّال أثقال أهل الودّ آونة أعطيهم الجهد مني بله ما أسع

«2» «3» [561] يقول : أعطيهم على الجهد مني بله ، يقول : فدع ما أسع له وأحيط به وأقدر عليه فأناله حينئذ أعطى . .

«كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ» (99) مجازه نأثره .

---

(1) . - 560 : البيت لأبي زبيد الطائي في الطبري 16/ 137 والسمط ص 438 والاقتضاب ص 299 والقرطبي 11/ 242 .

(2) . - 561 : عجزه فقط في اللسان (وسع) وتمامه في التاج (وسع) .

(3) . - 562 : ديوانه ص 2 .

«فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً» (100) أي ثقلا وحملا وإثما . .

«خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ» (101) ذلك الوزر «يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا» (101) . .

«يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ» (103) يتسارّون «1» ويهمس بعضهم إلى بعض بالكلام وفى آية أخرى: «وَلا تُخافِتْ بِها» (17/ 110) . .

«وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً» (105) مجازها: يطيّرها فيستأصلها. «فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً» (106) أي مستويا أملس . .

«عِوَجاً» «2» (107) مجازه مصدر ما اعوجّ من المحانى والمسايل والأودية والارتفاع يمينا وشمالا إذا كسرت أوله، وإن فتحته فهو فى كل رمح وسنّ وحائط . .

«وَلا أَمْتاً» (107) مجازه لا ربى ولا وطئا أي لا ارتفاع ولا هبوط، يقال: مدّ حبله حتى ما ترك فيه أمتا «3»، أي استرخاء وملأ سقاءه حتى ما ترك فيه أمتا، أي انثناء

---

(1) . - 3 «يتسارون» كما فى الطبري 16/ 139 والقرطبي 11/ 245 .

(2) . - 7 «عوجا . . والأودية»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/

329) .

(3) . - 11 «مد . . . فيه أمتا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 9/ 329) .

(345/493)

وقال يزيد بن ضبّة :

منعمّة بيضاء ليس بها أمت

«1» [563] وقال الراجز :

ما فى انجذاب سيره من أمت

«2» [564] .

«فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً» (108) أي صوتا خفيا «3» وهو مثل الرّكز ، ويقال : همس إلىّ بحديث ، أي أخفاه .

«وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ» (111) فهى تعنو عنوّا أي استأسرت فهى عوان لربّها ، واحدها عان بمنزلة الأسير العاني لأسره ، أي ذليل ، ومنه قولهم : النساء عوان عند أزواجهن «4» «5» «6» .

---

(1) . - 563 : لم أجده فيما رجعت إليه .

(2) . - 564 : «فى الطبري 16/ 141 ونسبه صاحب اللسان للعجاج (أمت) ولم أجده فى ديوانه .

(3) . - 5 «صوتا خفيا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 18/ 329 .

(4) . - 565 : ولم أجده فيما رجعت إليه .

(5) . - 566 : ديوانه ص 38 .

(6) . - 567 : لم أجده فيما رجعت إليه .

(346/493)

«وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ» (112) مجازه ومن يعمل الصالحات ، و«من» من حروف الزوائد ، وفى آية أخرى : «فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ ، وقال الشاعر «1» :

جزيتك ضعف الحبّ لما استثبته وما إن جزاك الضّعف من أحد قبلى

(58) زاد «من» لمكان النفي ولا تزاد «من» فى أمر واجب ، يقال : ما عندى من شىء وما عندك من خير وهل عندك من طعام ، فإذا كان واجبا لم يجز شىء من هذا فلا تقول :

عندى من خير ولا عندى من درهم وأنت تريد : عندى درهم . .

«وَلا هَضْماً» (112) أي ولا نقيصة ، قال لبيد :

ومقسّم يعطى العشيرة حقّها ومغذمر لحقوقها هضّامها

«2» [568] يقال : هضمنى فلان حقّى ومنه هضيم الكشح أي ضامر البطن ومنه :

طلعها هضيم قد لزق بعضه ببعض وضم بعضه بعضا ، ويقال : هضمنى طعامى ، ألا ترى

أنه قد ذهب «3» وهو فى قول أحسن : أكيل هضوم مطعّم قد أمكن أن يؤكل .

---

(1) . - 3 «الشاعر» هو أبو ذوءيب الهذلي [. . . . .]

(2) . - 568 : من معلقته فى شرح العشر ص 87 .

(3) . - 11 - 13 «يقال . . . ذهب» : وفى الطبري (16 - 144) . يقال

هضمنى فلان حقى ومنه امرأة هضيم أي ضامرة البطن ومنه قولهم : قد هضم الطعام إذا

ذهب وهضمت لك حقك أي حططته .

(347/493)

«وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ» (113) مجازه بيّنا . .

«لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى» (119) أي لا تعطش ولا تضحى للشمس فتجد الحرّ ، قال

عمر بن أبى ربيعة .

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأمّا بالعشي فيحضر

«1» [569] .

«فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» (124) مجازه معيشة ضيقة ، والضّنك توصف به الأنثى ، والمذكّر بغير الهاء وكل عيش أو منزل أو مكان ضيّق فهو ضنك ، قال عنترة .

إن المنيّة لو تمثّل مثّلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

«2» [570] وقال :

وإن نزلوا بضنك أنزل

«3» [571]

«أ فلم نهد لهم» (128) أي نبين لهم ونوضّح لهم . .

«لَكانَ لِزاماً» (129) أي فيصلا «4» يلزم كل إنسان طائره إن خيرا فخير وإن شرّا فشر فلازمه .

---

(1) . - 569 : البيت هو الرابع عشر من القصيدة الأولى فى ديوانه وهو فى الكامل ص 571 والعيني 1/ 316 والخزانة 2/ 421 والبيت أيضا فى الطبري 16/ 146 والقرطبي 11/ 254 وشواهد المغني ص 10 ، 63 .

(2) . - 570 : ديوانه من الستة ص 42 والقرطبي 11/ 258 .

(3) . - 571 : لعنترة (ديوانه من الستة ص 42 والطبري 14/ 147) تمامه :

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا اشدد وإن نزلوا بضنك أنزل

(4) . - 12 «فيصلا» : رواه صاحب اللسان عن أبى عبيدة (لزم) .

(348/493)

قال حجل بن نضلة الباهلىّ :

لازلت محتملا علىّ ضغينة حتى الممات يكون منك لزاما

«1» [572] فأخرجه مخرج قطام ورقاش «2» . .

«وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ» (130) أي ساعات الليل واحدها إنى تقديره حسى والجميع أحساء

، وقال المتنخّل الهذلىّ وهو أبو أثيلة :

حلو ومرّ كعطف القدح مرّته فى كل إنى قضاه الليل ينتعل

(124) .

«زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا» (131) أي زينة الدنيا وجمالها . .

«لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» (131) أي لنبلوهم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 15 .

33 ﴾

---

(1) . - 572 : «حجل . . . الباهلي» : ذكره ابن قتيبة فى الشعراء ص 30 والبغدادي فى الخزانة 2/ 158 - والبيت فى الجمهرة 3/ 18 واللسان والتاج (لزم) .

(2) . - 3 «قطاع ورقاش» : قال ابن دريد : أهل الحجاز يقولون «رقاش» على الكسر فى كل حال وكذلك كل اسم على فعال بفتح الفاء معدول عن فاعله لا يدخله الألف واللام ولا يجمع مثل خدام وقطام وغلاب وأهل نجد يجرونه مجرى ما لا ينصرف نحو عمر يقولون : هذه رقاش بالرفع وهو القياس لأنه اسم علم . . . (اللسان ، مادة رقش) .

(349/493)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها موسى عليه السلام وهى «طه»

[سورة طه (20) : آية 15]

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (15)

قوله سبحانه : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها [15] وهذه استعارة على أحد التأويلين .

وهو مما سمعته من شيخنا أبى الفتح النحوي «1» ، عفا اللّه عنه . قال : الذي عليه

حذّاق أصحابنا : أنّ كاد هاهنا على بابها من معنى المقاربة . إلا أن قوله تعالى : أخفيها يؤول إلى معنى الإظهار . لأن المراد به : أكاد أسلبها خفاءها . والخفاء : الغشاء والغطاء . مأخوذ من خفاء «2» القربة ، وهو الغشاء الذي يكون عليها .

فإذا سلب عن الساعة غطاؤها المانع من تجليها ظهرت للناس فرأوها . فكأنه تعالى قال : أكاد أظهرها . قال لى : وأنشدنى أبو على «3» منذ أيام بيتا هو من أنطق الشواهد على الغرض الذي رمينا . وكان سماعى ذلك من أبى الفتح رحمه اللّه ، وأبو على حينئذ باق لم يمت . وهو قول الشاعر «4» .

لقد علم الأيقاظ أخفية الكرى تزجّجها من حالك واكتحالها

---

(1) هو أبو الفتح عثمان بن جنى إمام النحو المشهور وأستاذ المؤلف ، وقد سبق تعريفنا به فى هوامش مجازات سورة التوبة .

(2) الخفاء : الغطاء : وجمعه أخفية .

(3) أبو على هو أبو على الفارسي ، واسمه الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ، كان إماما فى العربية . وكان يسأل فى كل بلد يحل فيه عن مسائل من اللغة والنحو والصرف فيجيب إجابات سديدة . وصنف فى أسئلة كل بلد كتابا . وقد تعاصر المؤلف وابن جنى وأبو على الفارسي . وكان المؤلف شابا ناشئا حين تقدمت السن بأبى على الفارسي الذي توفى سنة 377 ه على حين أن الشريف الرضى ولد سنة 359 ه .

(4) هذا البيت لم يذكر له قائل . وهو من أبيات الشواهد فى «لسان العرب» ولم ينسب لقائله .

وأخفية النور : أكمته . وأخفية الكرى : الأعين .

(350/493)

ومعناه : لقد علم الأيقاظ عيونا . فجعل العين للنوم فى أنها مشتملة عليه ، كالخفاء للقربة فى أنه مشتمل عليها .

وقول الشاعر : أخفية الكرى من الاستعارات العجيبة ، والبدائع الغريبة . وقوله :

تزجّجها من حالك واكتحالها . يعود على العيون . كأنه قال : تزجّج العيون واكتحالها من سواد الليل . وهذا لا يكون إلا مع السهر وامتناع النوم ، لأن العيون حينئذ بانفتاحها تكون كالمباشرة لسواد الظلماء ، فيكون كالكحل لها .

والتزجّج : اسوداد العينين من الكحل . يقال : زجّجت «1» المرأة عينها وحاجبها . إذا سودتهما بالإثمد .

وعلى التأويل الآخر يبعد الكلام عن طريق الاستعارة . وهو أن يكون أكاد هاهنا بمعنى أريد ، كما قلنا فيما مضى «2» . ومن الشواهد على ذلك قول الشاعر :

أمنخرم شعبان لم تقض حاجة من الحاج كنا فى الأصم «3» نكيدها

أي كنا نريدها فى رجب . ويكون «أخفيها» على موضوعه من غير أن يعكس عن

وجهه . ويكون المعنى : إن الساعة آتية أريد أستر وقت مجيئها ، لما فى ذلك من

المصلحة . لأنه إذا كان المراد بإقامتها المجازاة على الأفعال ، والمؤاخذة بالأعمال ، كانت

---

(1) ومنه قول الشاعر الراعي النميري :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا وهذا البيت من شواهد النحو فى

باب المفعول معه . انظر «أوضح المسالك ، إلى ألفية ابن مالك» الشاهد 259 .

(2) فى الآية رقم 77 من سورة الكهف .

(3) الأصم : شهر رجب . وسمى بذلك لأنه كان لا يسمع فيه صوت السلاح لكونه شهرا

حراما .

انظر لسان العرب . وقال الخليل : إنما سمى بذلك لأنه كان لا يسمع فيه صوت مستغيث ،

ولا حركة قتال ، ولا قعقعة سلاح ، لأنه من الأشهر الحرم . [. . . . .]

الحكمة فى إخفاء وقتها ، ليكون الخلق فى كل حين وزمان على حذر من مجيئها ، ووجل من بغتتها «1» ، فيستعدوا قبل حلولها ، ويمهدوا قبل نزولها .

ويقوى ذلك قوله سبحانه : لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى [15] .

[سورة طه (20) : الآيات 21 الى 22]

قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (22)

وقوله سبحانه : قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ ، سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى [21] وهذه استعارة . لأن المراد بالسيرة ها هنا الطريقة والعادة . وأصل السيرة مضىّ الإنسان فى تدبير بعض الأمور على طريقة حسنة أو قبيحة . يقال : سار فلان الأمير فينا سيرة جميلة . وسار بنا سيرة قبيحة . ولكن موسى عليه السلام لما كان يصرف عصاه- قبل أن تنقلب «2» حية- فى أشياء من مصالحه ، كما حكى سبحانه عنه بقوله : هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها ، وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي «3» وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (18) ثم قلبت حية ، جاز أن يقول تعالى : سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى أي إلى الحال التي كنت تصرفها معها فى المصالح المذكورة ، لأن تصرفها فى تلك الوجوه كالسيرة لها ، والطريقة المعروفة منها .

والمراد : سنعيدها إلى سيرتها الأولى . فانتصبت السيرة بإسقاط الجار «4» .

وقوله سبحانه : وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ [22] وهذه

استعارة. والمراد بها - والله أعلم - وأدخل يدك فى قميصك مما يلى إحدى جهتى يديك. وسميت تلك الجهتان جناحين، لأنهما فى موضع الجناحين من الطائر. ويوضح عما ذكرنا قوله سبحانه فى مكان آخر: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ «5» والجيب فى جهة إحدى اليدين.

---

(1) فى الأصل: بعثتها، وهو تحريف من الناسخ.

(2) فى الأصل: (تعلب) وهى تحريف.

(3) سورة طه. الآية رقم 18.

(4) إذا نزع الخافض، أو سقط الجار انتصب الاسم بعده بدلا من جره.

(5) سورة النمل. الآية رقم 12.

(352/493)

[سورة طه (20): الآيات 27 الى 28]

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)

وقوله سبحانه: وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي [27]، [28] وهذه استعارة. والمراد بها إزالة لفف «1» كان فى لسانه، فعبر عنه بالعقدة. وعبر عن مسألة إزالته بحل

العقدة ، ملاءمة بين النظام ، ومناسبة بين الكلام .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك إزالة التقية عن لسانه وكفايته سطوة فرعون وغواته ، حتى يؤدى عن اللّه سبحانه آمنا ، ويقول متمكنا ، فلا يكون معقود اللسان بالتقية ، ومعكوم الفم بالخوف والمراقبة . وذلك كقول القائل : لسان فلان معقود : إذا كان خائفا من الكلام . ولسان فلان منطلق : إذا كان مقداما على المقال .

[سورة طه (20) : آية 39]

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (39)

وقوله سبحانه : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي [39] . وفى هذه الآية استعارتان . إحداهما قوله سبحانه : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وليس المراد أن هناك شيئا يلقى عليه فى الحقيقة ، ولكن المعنى أننى جعلتك بحيث لا يراك أحد إلا أحبك ، ومال قلبه نحوك ، حتى أحبك فرعون وامرأته ، فتبنّياك وربّياك ، واسترضعا لك ، وكفلاك . وهذا كقول القائل : على وجه فلان قبول . وليس هناك على الحقيقة شىء يوما إليه . إلا أن كل ناظر ينظر إليه يقبله ، قلبه وتسر به نفسه .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي والمراد بذلك- واللّه أعلم- أن تتربى بحيث أرعاك وأراك . وليس أن ها هنا شيئا يغيب عن رؤية اللّه سبحانه ، ولكن

هذا الكلام يفيد الاختصاص بشدة الرعاية، وفرط الحفظ والكلاءة «2». ولما كان الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته بعينه، جاء تعالى باسم العين بدلا من ذكر الحفظ والحراسة، على طريق المجاز والاستعارة.

---

(1) اللفف: التواء عصب في اللسان يعطله عن الكلام.

(2) في الأصل «والكلاية» والصواب همزها.

(353/493)

ويقول العربي لغيره: أنت مني بمرأى ومسمع. يريد بذلك أنه متوفر عليه برعايته، ومنصرف إليه بمراعاته.

[سورة طه (20): آية 41]

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

وقوله سبحانه: وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [41] وهذه استعارة. والمراد بها: واصطنعتك لتبلغ رسالتي، وتنصرف على إرادتي ومحبتي، وقال بعضهم: معنى لنفسي ها هنا: أي لمحبتي.

وإنما جاز أن يوقع النفس موقع المحبة لأن المحبة أخص شيء بالنفس، فحسن أن تسمى

بالنفس . وقد «1» يجوز أن يكون ذلك على معنى قول القائل : اتخذت هذا الغلام لنفسى ، أي جعلته خاصا لخدمتى ، لا يشاركنى فى استخدامه أحد غيرى . وسواء قال : اتخذته أو اتخذته لنفسى ، فى فائدة الاختصاص ، ليس أن هناك شيئا يتعلق بالنفس على الحقيقة .

[سورة طه (20) : آية 50]

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (50)

وقوله سبحانه : قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [50] وهذه استعارة على أحد التأويلين . والمراد بها - والله أعلم - أنه أكمل لكل شىء صورته ، وأتقن خلقته ، وهذا يعم كلّ مصوّر من حيوان وجماد وغير ذلك . فلا معنى لحمل من حمله على الحيوان فقط .

وعندى فى ذلك وجه آخر ، وإن كان الكلام يخرج به من باب الاستعارة .

وهو أن يكون فى الكلام تقدير وتأخير . فكأنه سبحانه قال : ربّنا الذي أعطى خلقه كل شىء ، ثم هداهم إلى مطاعمهم ومشاربهم ، ومناكحهم ، ومساكنهم وغير ذلك من مصالحهم . ويكون ذلك نظير قوله تعالى : وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ «2» . ويكون المراد أنه سبحانه أعطى خلقه فى أول خلقهم

(1) فى الأصل «فقد» ولا معنى للعطف بالفاء هنا .

(2) سورة إبراهيم . الآية رقم 34 .

(354/493)

كلّ «1» ما تزاح به عللهم ، ويتكامل معه خلقهم ، من سلامة الأعضاء ، واعتدال الأجزاء ، وترتيب المشاعر والحواس ، ومواقع الأسماع والأبصار ، ثم هداهم من بعد لمصالحهم ، ودلهم على مناكحهم ، وأجراهم فى مضمار التكليف إلى غاياتهم .

[سورة طه (20) : آية 53]

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (53)

وقوله سبحانه : الّذى جعل لكم الأرض مهادا «2» [53] وقد قرىء مهدا . وهذه استعارة . والمراد بها تشبيه الأرض بالمهاد المفترش ، ليمكن الاستقرار عليها ، والتقلب فيها . وقد مضى نظير هذه الاستعارة فيما تقدم . ومعنى المهاد والمهد واحد . وهو مثل الفرش والفراش . إلا أن المهد ربما استعمل فى رسم الآلة التي يجعل فيها الصبى الصغير ليحفظه ، وهو يؤول إلى معنى الفراش . والمهد أيضا : مصدر مهد ، يمهد ، مهدا . إذا مكّن

موضعا لقدمه ، ومضجعا لجنبه .

[سورة طه (20) : آية 111]

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (111)

وقوله سبحانه : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً [111] وهذه استعارة . والمراد بها ما يظهر فى الوجوه يوم القيامة من آثار الضرع ، وأعلام الجزع . وذلك مأخوذ من تسميتهم الأسير «العاني» . ومنه ما جاء فى بعض الكلام : النساء عوان عند أزواجهن . أي أسراء فى أيدى الأزواج . وعلى ذلك قول القائل : هذه المرأة فى حبال فلان . لأنه بما عقده من نكاحها كالآسر «3» لها ، والمالك «4» لرقها . فكأن الوجوه خضعت من خشية اللّه تعالى خضوع الأسير الذليل ، فى يد الآسر العزيز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 221.226 ﴾

---

(1) كتبها الناسخ «كلما» موصولة ، ولا محل للوصول هنا . فإن كل مضافة إلى ما التي بمعنى الذي .

(2) قرأ الكوفيون هنا وفى سورة الزخرف : مهدا ، أي كالمهد . وقرأ الباقون : مهادا وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد . انظر «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوى ج 4 ص 24 .

(3) فى الأصل : (كالأسر) وهو تحريف من الناسخ .

(4) فى الأصل : (والملك) وهو تحريف أيضا .

(355/493)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة طه

طه: حرفان من حروف الهجاء ، وليسا اسما للنبى – عليه الصلاة والسلام – ولم يرد ذلك فى حديث صحيح ! وهما من الحروف المفردة التى بدأت بها سور شتى ، والله أعلم بمراده منها ! . وقيل المراد إشعار العرب بأن القرآن كلام مكون من هذه الحروف التى تألفونها ، ومع ذلك تعجزون عن الإتيان بمثله . . . وقد نزل القرآن الكريم وحيا من السماء ، والصبغة السماوية ظاهرة فى نظمه وهدفه . ولا يوجد له نظير فى إثبات الوجود الأعلى والوحدانية المطلقة ، والقارئ النزيه يشعر بأن القرآن يسوق الناس سوقا إلى ربهم ، ويشرب قلوبهم خشيته ، ويغمر عقولهم بنوره ، ويريهم الآخرة رأى عين . والإنسان الذى استقبل القرآن زاكى البصيرة ، نقى الفطرة ، مشهور فى الجاهلية الأولى بالصدق والأمانة ، فما

جرؤ ألد أعدائه أن يغمر شرفه ، أو يقدح فى سيرته . وقد ظن النبى – عليه الصلاة والسلام – أن قومه مصدقوه حين يتلوه ، لأنه ما كذب قط ! بيد أن تعصبهم لمواريثهم حملهم على رفض ماجاء به ، ونسبوه إلى الافتراء والجنون ! . والرجل الشريف عندما يتهم بما هو منه براء يحزن ويأسف ، وقد يؤثر الضيق فى صحته وينغص حياته . وذلك ماجعل رب العالمين يرحمه ويواسيه: لماذا تشقى بتكذيبهم ؟ إنما أنت مذكر ! ! من تبعك نجا ، ومن رفضك هلك . . " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا * الرحمن على العرش استوى . . . " . وهذه الأوصاف المتتابعة فى إجلال الله وإعظامه ترتد إلى القرآن النازل من لدنه فترفع قدره ، وإلى الرسول المبلغ له فتعلى شأنه . . . والتبليغ وظيفة شاقة ، ومواجهة المكذبين الجفاة أمر معنت ، وتصبيرا للنبى على لأوائه قيل له: لست وحدك الذى كلف بالتبليغ ومكابدة الخصوم المستكبرين ، فقبلك موسى تحمل العنت فى ملاقاة الفراعنة ، وقيادة بنى إسرائيل ، وهم شعب غليظ الرقبة ، قاسى الطباع

(356/493)

" وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى " . وقصة موسى تملأ أكثر السورة ، وهى تسرد أولا كيف حاول هداية فرعون ، ثم لقاءه مع السحرة ، وكيف انتصر عليهم . . وتسرد ثانيا كيف ساس بنى إسرائيل ، والمتاعب التى تحملها من قومه . ومع أن قصة موسى تكررت بضع عشرة مرة فى الكتاب الكريم إلا أن سياقها يختلف اختلافا كبيرا فى شتى مواضعه ، وأنت واجد فى كل موضع مالا تجده فى الموضع الآخر . فهنا يصف موسى عصاه وصفا فيه إطناب السعيد بالحديث مع الله سبحانه: " قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى " ولا يوجد هذا الوصف فى سورة أخرى . . وانظر إلى وصف موسى لربه هنا ، وهو يحدث عنه فرعون " قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . . . " إن هذا الوصف فريد هنا . . . لم تشتمله قصة أخرى . وكذلك اطرد هنا حديث السحرة عن إيمانهم بالله وكيف تشبثوا به ، وصبروا على آلامه: " إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا " . . . وأعقب قصة

موسى حديث عن الآخرة يقص له شعر الرأس ، ويقذف بالرعب فى الأفئدة: "ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا * يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا * يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما * وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما . . . " . إن

(357/493)

هذا الوصف يزلزل كبرياء الكفر ، ويحمل الناس حملا على الإيمان بالله والاستعداد للقائه ، وقد لفت نظر العلماء أن مادة الذكر والنسيان وردت فى هذه السورة فى عشرة مواضع:

(358/493)

---

1 – فى قوله تعالى: " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى " فالوحى تذكرة وتبصرة ، ومحو للغفلة والذهول . . . 2 – " إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري " وإقام الصلاة: أداؤها فى جماعة تصطف لها ، وتستعد بدنيا ونفسيا

لتسبيح الله وتحيته ، ففى الحديث "تسوية الصفوف من إقامة الصلاة" . 3 – ويقول موسى بعد ما طلب هارون شريكا له فى أعباء الرسالة: "وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا" . 4 – ويقول الله لموسى بعدئذ : "اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري" . 5 – ثم يجعل الغاية من الإرسال أن يفيق فرعون من غشيته ، ويتوب إلى ربه "فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى" . 6 – ويصف موسى علم الله بالكائنات فى الأزل والأبد : "قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى" . 7 – والطريف أن السامرى يصف العجل الذى صنعه ، ويقول معه المخدوعون به: "... هذا إلهكم وإله موسى فنسي" ! ! 8 – وفى التعقيب على قصة موسى مع قومه يقول الله لنبيه: "كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا" . (9) ويقول الله تعالى فى صفة القرآن الكريم وسر نزوله: "وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا" . 10 – ثم يقول فى إخراج آدم من الجنة بعد ما كان مكرما فيها "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما" . ثم يجىء هذا الإنذار العام للأفراد والجماعات "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى" . فسورة طه فى سياقها

كله تعرض لخطورة الغفلة عن الله ، والبعد عن توجيهه . إن النسيان العارض لا يخاف على صاحبه ، فسرعان ما يتذكر ، إن المخوف أن ينسج النسيان غشاوة طامسة تعمى معها البصيرة ، ويطيش بها الهوى ، ويصير المرء بها حطبا لجهنم .

والقصة الثانية فى سورة طه هى قصة آدم . وقد بدأت بإظهار العلة فى انهياره أمام إبليس ثم طرده من الجنة ، لقد غامت رؤيته وضعفت إرادته ، أو بتعبير القرآن الكريم " فنسي ولم نجد له عزما " . إنه كان صاحيا واعيا عندما نهى عن الأكل من الشجرة ، لكنه على مر الأيام أخذ ينسى ، وتنفك إرادته ، وتشتد رغبته ، ويستمع إلى الوساوس الكاذبة التى بثها إبليس فى نفسه ، خلود طويل ، وملك عريض إذا أكل من هذه الشجرة: " هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى " . وأقبل آدم على الشجرة المحرمة يأكل منها ، وأغرى امرأته فتبعته وطردا جميعا ، والسياق القرآنى جازم فى أن آدم هو المسئول ، وذنب امرأته أنها لم تقاومه وتنصحه . وقد فقد آدم النعيم وفقدته معه امرأته ، ونزلا معا إلى الأرض ليبدءا حياة مليئة بالمعاناة والشدائد . . والقصة الأولى تتكرر كل يوم فى حيوات الأبناء ! إن النسيان يغلبهم يجىء بعده السقوط ، والجنة لا يرشح لها إلا ذاكر واضح الرقابة لله ، عازم

لا تنحل عقدته أمام المغريات ! . ومن فضل الله أنه فتح أبواب التوبة أمام العاثرين حتى لا يحرموا رضاه إلى الأبد إذا زلت منهم الأقدام ! فأما الذاهلون عن الله الصادون عن سبيله فلهم جزاء آخر "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى" . ومع أن الدنيا ليست دار الجزاء إلا أن الله سبحانه قد يعجل للأشرار بعض العقاب ، كما يعجل للأخيار بعض الرضا ، عدلا منه وفضلا . . وننظر إلى آخر السورة فنراه متصلا بأولها اتصالا وثيقا ، هؤلاء الذين آذوا رسول الله وملأوا بالحزن قلبه ، ألا يخشون المصير الذى انتهى إليه أسلافهم ؟ " أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك

(360/493)

لآيات لأولي النهى " ! ! . إن المعركة محتدمة بين الحق والباطل من بدء الخليقة . ومع أن حضارات بادت بما اقترفت من آثام ، ومع أن الحق لم تخف معالمه مع ضراوة الحملات التى شنت عليه ، فإن الأعقاب لم يرعووا عن غوايتهم ، ولم يتركوا ألوية الهدى تسير ! . ومع قصر حياتى بالنسبة إلى الزمان الطويل فقد رأيت مصارع لشهداء ماتوا كى تبقى الحقيقة ، ورأيت دولا لطواغيت نسوا الله والمرسلين ، بيد أن الحياة كر وفر ، ومهما طالت الخصومة

فالبقاء للأصلح " فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" . وقد وضع الله سننا لهذا الصراع الدائم ، لا تلين مع عجلة المعجلين ، ولا تطيش مع غرور المعتدين ، وهذا معنى قوله : " ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى " إن هناك نظاما مضت به السنن العليا لا يلين ولا يزيغ ثم اتجه الحديث بعد ذلك إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – يواسيه ويسليه ، بم ؟ بالصبر وبتسبيح الله وتحميده ، وهذا يشبه ختام سورة الحجر "ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين " والاستغراق فى الحق يضيق المكان أمام الباطل فلا يبقى له متسع يستقر فيه ، ولذلك قال الله لرسوله هنا : "فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى " . أى حتى لا تشقى من آلام التكذيب الذى يلقاك به الكافرون . والمرسلون – وحملة الدعوات – لا مسلاة لهم إلا فى توكيد علاقتهم بالله واستمداد الأنس منها . . "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . . . " . ربما كان الكافرون والعصاة أوفر حظوظا فى الدنيا وأكثر استمتاعا بها ! فلا قيمة لهذا ولا اعتداد به ، فمصيره الهلاك ،

وقد سبق قول الكافرين مفتخرين بما أوتوا : " أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا " وقد حكت السنة الشريفة أن عمر – رضى الله عنه – تألم حين رأى عيدان الحصير مطبوعة على جلد رسول الله وهو نائم فى فراشه الخشن ، وتذكر متعة كسرى وقيصر فى الأثاث الفاخر والدنيا العريضة . ولكن النبى – عليه الصلاة والسلام – أفهمه أن هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم فلا نأسى عليها " ورزق ربك خير وأبقى " . والأفضل والأشرف أن تنار البيوت بأضواء العبادة وطهرها . وأن يسودها جو التقوى والإقبال على الله ، فيخرج أهلها منها وهم يحملون للناس الأدب والعفاف ، لذلك قال الله

(362/493)

لنبيه :

" وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى " .

ورجالات الإسلام لا ينافسون إلا فى المكارم ، ولا تصدر بيوتهم للناس إلا الأسوة الحسنة . والدهماء تشغل نفسها بما ضمن لها من رزق تكاد تموت وراءه من الهم ، ولا تكترث بما كلفت به من واجبات ، وهذا – كما قال ابن عطاء – من انطماس البصيرة . . .

وعاد الكلام مرة أخرى إلى مشركى مكة فذكر تطلعهم إلى معجزة تقنعهم بصدق الرسول !

ماذا يريدون ؟ أن ينقلب الصفا ذهبا مثلا ؟ ولو انقلب ما آمنوا ، سيتخطفون سبائكه

وينفقونها فى الملذات ! ! . لقد جاءتهم المعجزة الدامغة المجدية فما أحسنوا النظر فيها "

وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى " ؟ إن الله خصهم بكتاب

جمع فيه كل الحكم التى تناثرت على ألسنة الأنبياء الأولين ، فهلا انتفعوا بها ؟ أليست لهم

عقول ؟ . وإذا أخذهم الله بضلالهم وأنزل بهم العذاب ، صاحوا : ماجاءنا من نذير ! !

هلا جاءنا من يوقظنا من سباتنا ؟ لقد جاءكم نذير مبين فتصاممتم عن سماعه ، فانتظروا

العقبى " قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 247 . 252 ﴾

(363/493)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

25